تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء السادس

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 091/220493 - موبيل: 0300/5902280 - باكستان

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 7957/11 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 - 544440 فاكس: 850717

سورة مريم عليها السلام

مكية وهي ثمان وتسعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا (٣)
قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا (٤)
وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا (٥) يَرِثُنِي
وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا (٦) يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ
لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا
وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ
مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ
ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا
(١١) يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا (١٢) وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ
تَقِيّٗا (١٣) وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا (١٤) وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ
يُبۡعَثُ حَيّٗا (١٥)﴾

﴿كٓهيعٓصٓ (١)﴾ قرأ أبو بكر والكسائي بإمالة فتحة الهاء والياء وابن كثير وحفص بفتحهما وابن عامر وحمزة بفتح الهاء وإمالة الياء ونافع بإمالة الفاء والياء بين بين ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ يظهر قال لفظة صاد عند الذال من ذِكر نافع وعاصم والباقون يدغمونها. ذكر خبر لما قبله إن كان المراد به السورة أو القرآن فإنه مشتمل عليه أو خبر مبتدأ محذوف أي هذا المتلو ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ أو مبتدأ حذف خبره أي فيما يتلى عليك ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ مفعول للرحمة أو الذكر على أن الرحمة فاعله على الاتساع كقولك ذكرني جود زيد ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه أو عطف بيان، قرأ حمزة والكسائي وحفص بالقصر والباقون بالمد ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ الظرف متعلق بالرحمة أو بالذكر يعني دعا ﴿رَبَّهُۥ﴾ في محرابه ﴿نِدَآءً

﴿خَفِيًّا﴾ أي سراً في جوف الليل لأن الذكر والدعاء سراً أكثر إخلاصاً والإخفاء سنة الدعاء ثم فسر النداء بقوله ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي يا ربي حذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾ أي ضعف ورق ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أسند الوهن إلى العظم لأنه دعامة البدن وأصل بنائه أو لأنه أصلب أعضاء البدن فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، وتوحيده بإرادة الجنس ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبه الشيب بالنار لبياضه وانتشاره في الشعر باشتعالها وأسند الاشتعال إلى الرأس وجعل الشيب تمييزاً مبالغة وإشارة إلى استيعاب الشيب جميع الرأس واكتفى باللام عن الإضافة لأن ظهور والمراد يغني عن التقييد فإنه يحكم عن رأسه لا عن رأس غيره، والمعنى رب إني شبت. واختلفوا في سنه حينئذ؟ فقيل: ستون أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن المبارك، وقيل: سبعون أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن الثوري، وقال المحلي مائة وعشرون سنة وبلغت امرأته ثمان وتسعين سنة ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ﴾ أي يا ربي ﴿شَقِيًّا﴾ أي خيباً يعني كلما دعوتك في الماضي استجبت لي ولم تخيبني قط، فالإجابة منك لدعائي جرى منك عادة وسنةً وإني أطمع الإجابة منك الآن لما دعوتني به والكريم لا يخيب من أطمعه فالمصدر مضاف إلى المفعول أي بدعائي إياك، وجاز أن يكون مضافاً إلى الفاعل ويكون المعنى أنك لما دعوتني للإيمان آمنت بك ولم أشق بترك الإيمان، فاستجب دعائي ببركة الإيمان بك وإجابة دعائك، وجملة لم أكن معطوف على ما سبق أو حال من ضمير المتكلم فإنه في المعنى فاعل إذ معناه شبت.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ أي أبناء عمي ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي بعد موتي متعلق بمحذوف أي خفت فعل الموالي بعد موتي أوالذين يلون الأمر من بعدي أي أن لا يحسنوا خلافتي في أمتي بعد موتي ويبدلواعليهم دينهم، والجملة إما معطوفة أو حال من فاعل أكن ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ فإن مثله لا يرجى إلا بفضلك وكمال قدرتك فإني وامرأتي لا نصلح للولادة عادة ﴿وَلِيًّا﴾ يعني ابناً يلي أمري بعد موتي ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي الفعلين بالجزم على أنهما جواب الدعاء والباقون بالرفع على أنهما صفتان (لولياً) والمراد ميراث العلم والنبوة دون المال لأن الأنبياء لا يورثون المال قال رسول الله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١) رواه أحمد وأبو

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٧٥٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

داود وابن ماجه والدارمي من حديث كثير بن قيس ورواه الترمذي وسماه قيس بن كثير، ولهذا منع أبو بكر فاطمة رضي الله عنها عن ميراث أبيها ﷺ حين طلبته وعليه انعقد الإجماع، روى البخاري في الصحيح عن عائشة أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر رضي الله عنه يلتمسان ميراثهما من النبي ﷺ فقال لهما أبو بكر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركناه صدقة»[1] وروى البخاري أيضاً في الصحيح أن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن، فقالت عائشة أليس قد قال رسول الله ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة» وروى البخاري أيضاً عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: انطلقت حتى أدخل على عمر فأتاه حاجبه فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد قال: نعم فأذن لهم ثم قال: فهل لك في علي وعباس؟ قال: نعم فقال عباس يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا، قال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» يريد رسول الله ﷺ نفسه قال: اللهم قد قال ذلك فأقبل على علي وعباس فقال: هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال ذلك الحديث، وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسم ورثتي ديناراً ما تركت بعد نفقه نسائي ومؤنة عامي فهو صدقة» وفي الباب حديث حذيفة بن اليمان وزبير بن العوام وأبي الدرداء والروافض ينكرون حديث لا نورث وبه ينكرون على أبي بكر رضي الله عنه مع أن مقتداهم محمد بن يعقوب الكليني روى في جامعه عن أبي عبد الله جعفر الصادق بلفظ «إن إلا أنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم» الحديث، وأيضاً سياق الآية لا يقتضي ميراث المال حيث قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ مع أنه لا يمكن أن يرث من آل يعقوب بأجمعهم ميراث المال، وأيضاً يبعد أن يشفق زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يرثه بنوا عمه ماله والله أعلم.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ﴾ يا ربي ﴿رَضِيًّا﴾ أي مرضياً ترضاه قولاً وعملاً، أو راضياً عنك في السراء والضراء ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ فيه اختصار تقديره فاستجاب الله دعاءه فقال يا زكريا، ولقد مر الخلاف في مد زكريا وقصره في آل عمران ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ قد مر الخلاف في التشديد والتخفيف فيه في آل عمران ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ ولد ذكر يرثك كما سألت ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ صفة لغلام تولى الله سبحانه تسميته تشريفاً له ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ حال أو صفة بعد صفة لغلام، وقال قتادة والكلبي لم يسمّ أحد بحيي قبله وفيه دليل على أن التسمية بالأسامي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: قول النبي ﷺ «لا نورث ما تركنا صدقة» (٦٧٢٦).

الغريبة تعظيم للمسمى وقال سعيد بن جبير وعطاء أي لم نجعل له شبيهاً ومثلاً كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[1] قال البغوي: ومعنى إنه لم يكن له مثل أنه لم يعص الله ولم يهم بمعصيته، قلت: لعل المراد منه اجتماع أكثر الفضائل وإن كان بعضها موجباً للفضل الجزئي ككونه حصوراً وليس المراد كونه أفضل ممن قبله فضلاً علياً لأن الخليل والكليم كانا قبله وكانا أفضل منه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي لم يلد العواقر مثله، قال البيضاوي الأظهر أنه اسم أعجمي وإن كان عربياً فمنقول من الفعل كيعيش ويعمر، وقيل: سمي به لأنه حيي به رحم أمه أو لأن دين الله حيي بدعوته.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي يا ربي ﴿أَنَّىٰ﴾ أي كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حال ثانية أو معطوف على ما سبق وهذا سؤال استكشاف أي بأي طريق يكون الولد نحول شابين أو نلد هرمين وفيه استعجاب من الولادة نظراً إلى ملاحظة الأسباب لا بالنظر إلى كمال قدرته تعالى ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أصله عتو كعقود فاستثقلوا توال ألفتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواو الأولى ياء ثم قلبت الثانية وأدغمت، فقرأ الجمهور عتياً بضم الفاء أي العين وكسر ما بعدها وحفص وحمزة والكسائي بكسرها اتباعاً لما بعده، ومعنى العتو الإباء من الطاعة والمراد ههنا كمال الهرم فإن الضعيف لا يطيع أعضاء نفسه ولا يستطيع أن يأتي بما يريد، وقال قتادة يريد تحول العظم يقال عتا الشيخ يعتو عتياً وعسياً إذا انتهى سنه وكبره فهو عات وعاس إذا صار إلى اليبس والجفاف.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقاً له ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك أي كما قلت أنه مستبعد بملاحظة الأسباب مستعجب لكن ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أو المعنى الأمر كما وعدت وقال ربك هو علي هين لا أحتاج فيما أريد أن أفعل إلى الأسباب وجاز أن يكون المعنى قال زكريا كذلك يعني كما سبق فهو تكرير على التأكيد، وجاز أن يكون كذلك منصوباً يقال في قال ربك وتنازع الفعلان أعني قال وقال في للفاعلية فأعمل الثاني وأضمر في الأول وجاز عكس ذلك يعني قال ربك كذلك وهو إشارة إلى ما سبق يعني يبشرك بغلام الخ هو علي هين بأن أرد عليك قوة الجماع وأفتق رحم امرأتك للعلوق أو إشارة إلى مبهم يفسره قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي خلقناك بالنون والألف على التعظيم والباقون بصيغة الإفراد، حال من الضمير المجرور في علي متعلق بهين ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذا ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ بل كنت معدوماً

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٥.

حال من كاف خلقتك، وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي ربي ﴿ٱجْعَل لِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وبفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَايَةً﴾ علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ وأيامها كما يدل عليه آية آل عمران في القصة أنه لم يقدم في تلك الأيام والليالي على الكلام من الناس فإذا ذكر الله أنطق لسانه وتجرد للذكر والشكر ﴿سَوِيًّا﴾ حال من فاعل لا تكلم يعني صحيحاً سليماً من غير خرس ولا بكم، وقال مجاهد لا يمنع من الكلام مرض، وقيل: سوياً أي متتابعات والأول أصح ﴿فَخَرَجَ﴾ عطف على مقدر يعني فظهرت الآية ومنع من التكلم فخرج ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي من المسجد فإنها موضع الحرب مع الشيطان، وفي القاموس الغرفة وصدر البيت وأكرم مواضعه ومقام الأمام من المسجد والموضع الذي ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس، قال البغوي كان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون إذ خرج عليهم زكريا متغير اللون فقالوا مالك يا زكريا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ فأومأ إليهم لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾[1] وقال مجاهد كتب لهم في الأرض ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ أن مفسرة لأوحى فإن فيه معنى القول أو مصدرية أي صلوا ونزهوا ربكم ﴿بُكْرَةً﴾ غدوة ﴿وَعَشِيًّا﴾.

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ تقديره فحملت أم يحيى بيحيى ثم ولدته، ثم قلنا له حين صار أهلاً للخطاب، قال المحلي بعد ولادته بسنتين يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بحمد واستظهار بالتوفيق ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ أي الحكمة وفهم الكتاب عطف على قلنا يا يحيى ﴿صَبِيًّا﴾ وهو ابن ثلاث سنين فقرأ التوراة فهو صغير، ومن ها هنا قيل: إنه من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فقد أوتي الحكم صبيا قيل: دعاه الصبيان إلى اللعب فقال: ما للعب خلقنا، وقيل: المراد بالحكم النبوة استنبأه الله صغيراً ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطف على الحكم يعني أعطيناه رحمة عليه من عندنا، أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما، أو هيبة ووقاراً ورزقاً أو بركةً، في القاموس حنان كسحاب الرحمة والرزق والهيبة والوقار ورقة القلب ومنه الحنان اسم الله تعالى بمعنى الرحيم ﴿وَزَكَوٰةً﴾ طهارة من الذنوب، وقيل عنى بالزكاة الطاعة والإخلاص، وقال قتادة هي العمل الصالح وهو قول الضحاك، وقال الكلبي صدقة تصدق الله بها على أبويه ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مسلماً مخلصاً مطيعاً لم يعمل خطيئةً ولا هم بها عطف على آتيناه ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي باراً لطيفاً محسناً إليهما ﴿وَلَمْ يَكُن

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

جَبَّارًا﴾ أي متكبراً، وقيل: الجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب ﴿عَصِيًّا﴾ أي عاصياً ربه ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ جملة معترضة أي سلام من الله مما يؤذيه ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ سلم من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من عذاب النار وحول يوم القيامة، قال سفيان بن عيينة يهم الإنسان في هذه الأحوال يوم ولد فيخرج مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ويوم يبعث حيا فيرى نفسه في محشر لم ير مثله قط، فخص يحيى بالسلامة في هذه المواطن.

والظرف يعني ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ مع ما عطف عليه متعلق بالظرف المستقر أعني عليه في سلام عليه. فإن قيل الظرف المستقر إما مقدر بحصل واستقر كما هو مذهب البصريين أو بحاصل ومستقر كما هو مذهب الكوفيين وعلى التقديرين لا دلالة إلا على زمان واحد إما الماضي وأما الحال فكيف يتصور ظرفية يوم ولد على التقدير الثاني والأخيرين على التقدير الأول؟ قلنا: المحققون على أن العامل في الظرف عامل معنوي وهو معنى الحصول والاستقرار من غير ملاحظة زمان ولهذا قالوا العامل في الحال في قوله زيد في الدار قائماً عامل معنوي وإنما يعبرونه بلفظ حصل وحاصل تجوزاً كما يقال هذا زيد قائماً تقديره أشير زيداً قائماً فلا دلالة ها هنا على الزمان أصلاً، فيجوز تعلق الظروف الزمانية الثلاثة من الماضي والحال والاستقبال به لاستشمام معنى الفعل منه، ولو سلمنا أنه في الأصل متعلق بحصل أو حاصل فبعد ما سد الظرف مسده وانتقل الضمير من المحذوف إليه فخلع الظرف عن معنى الزمان فجاز تعلق الظروف الثلاثة به.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ عطف على مضمون الكلام السابق لأن ما يذكر يذكر ليعلمه المخاطب ويحفظه فكأنه متضمن لقوله أعد هذه القصة وأحفظه فالتقدير اعلم ذكر رحمة ربك زكريا واذكر ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي في القرآن ﴿مَرۡيَمَ﴾ أي قصتها ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ الظرف إما بدل من مريم بدل الاشتمال لأن الوقت مشتمل على ما فيها، أو بدل الكل لأن المراد بمريم قصتها وبالظرف الأمر الواقع فيه وهما واحد أو ظرف لمضاف مقدر، وقيل: إذ بمعنى أن المصدرية كقولك أكرمتك إذ لم تكرمني فيكون بدلاً لا محالة، أي اعتزلت وتباعدت منهم والنبذ إلقاء الشيء وهو يستلزم البعد ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي مكاناً في الدار مما يلي المشرق وكان يوماً شاتياً فجلست في مشرقة تفلي رأسها، وقيل: كانت طهرت من الحيض فذهبت لتغسل، وقيل: تخلّت للعبادة من البيت جانب المشرق، قال الحسن ومن ثم اتخذ النصارى المشرق قبلة، ومكاناً ظرف أو مفعول به لأن في انتبذت معنى أتت ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ قال ابن عباس ستراً، وقيل: جلست من وراء جدار، وقال مقاتل: وراء جبل، وقال عكرمة إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت في المسجد فبينما هي تغتسل من الحيض قد تجردت إذ عرض لها جبرائيل في صورة رجل شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق قال الله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ يعني جبرائيل عليه السلام أضاف إلى نفسه للتشريف سمي روحاً لأن الدين يحيى به وبوحيه ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ رجلاً شابا أمرد سوي الخلق، وقيل المراد بالروح عيسى جاء في صورة بشر فحملت به والأول أصح، فلما رأت مريم جبرائيل يقصد نحوها نادته من بعيد و﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ قالت ذلك من غاية عفتها ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ وجواب الشرط محذوف أي فلا تتعرضني أو فتنتهي عني بتعوذي وهذا كقول القائل إن كنت مؤمناً فلا تظلمني أي ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً لك من الظلم فالمعنى ينبغي أن تتقي الله ويكون تقواك مانعاً لك من الفجور، وقيل: مبنى هذا الكلام على المبالغة وتقديره إن كنت تقيا فإني أعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك، وجاز أن يكون أن نافية ﴿قَالَ﴾ جبرائيل ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يعني لست بشراً تخافينه وتتعوذين منه لكني ﴿رَسُولُ رَبِّكِ﴾ من الملائكة أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ أسند الفعل إلى نفسه مجازاً لكونه سبباً ظاهرياً بالنفخ في الدرع، ويجوز أن يكون حكاية لقوله تعالى تقديره أرسلني ربك إليك يقول أرسلت رسولي إليك لأهب لك بتوسط كسبه النفخ في درعك وقرأ ورش وأبو عمرو ليهب لك وكذلك روى الحلواني عن قالون يعني ليهب ربك لك ﴿غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾

طاهراً من الذنوب معصوماً أو نامياً على الخير لا يزال مرتقياً على مساعد الخير والصلاح، قال الصوفية العلية من استوى يوماه فهو مغبون ﴿قَالَتْ﴾ مريم متعجبة من قوله لكونه على خلاف العادة ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ حال يعني أنى يكون لي غلام في حال لم يمسسني بشر أي بنكاح فإن هذه الكنايات إنما يطلق فيه، وأما في السفاح فيقال خبث بها وفجر ونحو ذلك ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة، عطف على ما سبق وهو فعول عند المبرد أصله بغُو قلبت واوه ياءً وأدغمت ثم كسرت الغين اتباعاً ولذلك لم يلحقه التاء، وعند غيره فعيلٌ بمعنى فاعل ولم يلحقه التاء لأنه للمبالغة، أرادت مريم أن الولد من نكاح أو سفاح ولم يتحقق شيء منهما.

﴿قَالَ﴾ جبرائيل الأمر ﴿كَذَٰلِكِ﴾ يعني يهب الله لك غلاماً وإن لم يمسسك بشر ولم تك بغياً يعني بلا أب ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ﴾ أي خلق الولد من غير أب ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ جملة قال ربك إما علة كجملة محذوفة دل عليه كذلك أو حال منه بتقدير قد، وجاز أن يكون كذلك مقولة لقال ربك تقديره قال جبرائيل قال ربك كذلك يعني أهب لك غلاماً من غير أب، وقوله هو علي هين في معنى العلة ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ إما عطف على قوله هو علي هين لكونه في معنى العلة يعني نفعل ذلك لكونه هيناً ولنجعله، أو على علة مقدرة لجملة محذوفة تقديره أهب لك غلاماً لنجتبيه بوحينا ولنجعله ﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي علامة وبرهاناً على كمال قدرتنا، وقيل: لنجعله عطف على نهب على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ عطف على موضع لنجعل أي لنجعله آيةً منا على العباد يهتدون بإرشاده أو على آية أي لنجعله رحمة منا ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ تعلق به قضاؤنا في الأزل أو قُدِّر وسُطِر في اللوح أو أمراً حقيقاً بأن يقضي ويفعل لكونه آية ورحمة ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ عطف على محذوف تقديره فاطمأنَّت بقول الملك فنفخ الملك في جيب درعها فحملت حين لبست كذا قيل، وقيل: مد جبرائيل جيب درعها بأصبعيه ونفخ في الجيب، وقيل: نفخ في كم قميصها، وقيل في فيها، وقيل: نفخ جبرائيل نفخة من بعيد فوصل الريح إليها فحملت بعيسى عليه السلام في الحال ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي تنحت متلبساً بالحمل ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي في مكان بعيد من أهلها قال ابن عباس أقصى الوادي وهو وادي بيت المقدس فراراً من قومها أن يعيروها بالحمل من غير زوج. قال البغوي: اختلفوا في مدة حملها ووقت وضعها؟ فقال ابن عباس كان الحمل والولادة في ساعة واحدة، وقيل: كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء، وقيل: ولدت لثمانية أشهر، وقيل: لستة أشهر، وقال مقاتل بن سليمان حملته مريم في ساعة وصوّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت

الشمس من يومها وهي بنت عشر سنين وكانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى.

﴿فَأَجَآءَهَا﴾ فألجأها وهوفي الأصل مشتق من جاء عدي بهمزة الأفعال لكنه خص بالإلجاء في الاستعمال كما استعمل أتى في أعطي ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ أي وجع الولادة مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج، أسند الفعل إليه مجازاً يعني أجاءها الله عند المخاض، أو المعنى جاءت بسبب المخاض فالمخاض سبب داع للمجيء فكأنه أجاءها ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتر به ولتعمد عليه وتتمسك به على وجع الولادة، والجذع هي العرق والغصن وكان نخلة يابسة في الصحراء في شدة الشتاء ولم يكن لها سعف، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي روق بلفظ انتهت مريم إلى جذع ليس له رأس فهزتها فجعل بها رأساً وحوصاً ورطباً والتعريف للجنس، قال البيضاوي لعله تعالى ألهمها ذلك ليدريها من الآيات ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب فإنها خير مطاعم النساء ﴿قَالَتْ﴾ استحياءً من الناس ومخافة لومهم على الولادة من غير زوج ﴿يَـٰلَيْتَنِى﴾ المنادي محذوف تقديره يا أيها المخاطب ليتني ولعل المخاطب ها هنا نفسها أو جبرائيل عليه السلام، وقيل: يا للتنبيه والجملة الندائية لاستبعاد المتمنى ﴿مِتُّ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بكسر الميم من مات يمات بكسر العين في الماضي وفتحها في مثل خاف يخاف والباقون بفتحها من مات يموت بفتح العين في الماضي مثل قال يقول: ﴿قَبْلَ هَـٰذَا﴾ الأمر ﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ قرأ حفص وحمزة بفتح النون والآخرون بكسرها، والنسيان هو ضد الحفظ وترك الإنسان ضبط ما المستودع إما لضعف قلبه أو عن غفلة أو عن قصد حتى يمحو من القلب ذكره، وكل نسيان ذمه الله فهو ما كان أصله عن تعمد قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ﴾[(١)] وكلما عذر فيه فذا ليس عن تعمد ومنه قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»[(٢)] وقد يطلق النسيان على ترك الشيء على طريق الإهانة وهو المراد إذا نسب النسيان إلى الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[(٣)] والنسي بالكسر أصله ما نُسِيَ كالنقص لما ينقص وصار في المتعارف اسماً لما يقل لاعتداد به، تقول العرب

(١) سورة السجدة، الآية: ١٤.

(٢) قال في اللآلئ: لا يوجد بهذا اللفظ، وأخرج ابن ماجه بلفظ: «إن الله وضع عن أمتي» وقال في المقاصد: وقع بهذا اللفظ في كتب كثير من الفقهاء والأصوليين.
انظر: كشف الخفاء (١٣٩٣).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

احفظوا أنساكم أي ما من شأنه أن ينسى، وبالفتح، قيل لغة فيه مثل الوتر والوتر والحبس والحبس، وقيل: هو مصدر ميمي وضع المفعول والمراد بالنسي إما نسي كما هو الأصل ولهذا أعقبه بقوله: ﴿مَنسِيًّا﴾ دفعاً لتوهم أنه أريد به ما يقل الاعتداد به وإن لم ينس، وقال البغوي أنسي ما ألقي ونسي ولم يذكر لحقارته ومنسياً أي متروكاً، قال قتادة أي شيئاً لا يذكر ولا يعرف، وقال عكرمة والضحاك ومجاهد جيفةً ملقاةً، وقيل: معناه لم أخلق. فإن قيل: لا يجوز التمني بالموت لضر نزل به كما ذكر في سورة البقرة في تفسر قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]؟ قلنا: لعل ذلك قبل ورود النهي في شريعتهم أو بغلبة الحال بلا قصد منها أو لأجل خوف الفتنة كالدين فإن الإنسان عند خوف الفضيحة قد يكذب وقد يهلك نفسه والله أعلم، وقد ذكرنا في سورة البقرة أن تمني الموت لأجل خوف الفتنة جائز لا بأس به.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفص بكسر الميم على أنها جارة وجر ما بعدها وعلى هذا فاعل نادى محذوف يعني ناداها مناد وهو جبرائيل عليه السلام كذا قال ابن عباس والسدي وقتادة والضحاك وجماعة قالوا: كانت مريم على أكمة وجبرائيل من وراء الأكمة تحتها فناداها لما سمع جزعها، وقال مجاهد والحسن هو عيسى عليه السلام لما خرج من بطنها ناداها، فإن كان المراد به عيسى فالجملة معطوفة على جملة محذوفة معطوفة على ما سبق تقديره فوضعت حملها فناداها، وقرأ الباقون بفتح الميم والتاء على أنها موصولة وهي مع صلتها فاعل لنادى يعني ناداها للذي كان تحتها وهو جبرائيل عليه السلام أو عيسى عليه السلام وضمير تحتها راجعة إلى مريم وقيل إلى النخلة ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ أن مضمرة لنادى أي لا تحزني بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جملة في مقام التعليل للنهي والتبرىء إليهم، الصغير أخرجه الطبراني في معجم الصغير من حديث البراء بن عازب مرفوعاً. لكن قال لم يرفعه عن أبي إسحاق إلا أبو ستان وأعله ابن عدي في الكامل عن أبي سفيان وهو معاوية بن يحيى، وحكي تضعيف عن ابن معين والنسائي وابن المديني، وذكر البخاري تعليقاً عن البراء وأسند عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم عن البراء موقوفاً عليه، وكذا رواه الحاكم في المستدرك فقال إنه صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمران السري أخرجه الله لتشرب أمه أي أم عيسى منه وفيه

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٤.

أيوب بن نهيك ضعفه أبو زرعة وأبو حاتم، قيل: معنى تحتك تحت أمرك أن أمرتيه يجري جرى وإن أمرتيه بالإمساك أمسك، قال ابن عباس ضرب جبرائيل وقيل: عيسى برجليه الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى، وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله فيه الماء وحييت النخلة اليابسة فأورقت وأثمرت وأرطبت، وقيل: السري السيد من أسر والمراد به عيسى عليه السلام قال الحسن كان عيسى والله عبداً سرياً أو رفيعاً سيداً ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ أي حركي بجذب ودفع وأميلي إليك ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ والباء زائدة لتأكيد، قال البغوي تقول العرب هزَّه وهزّ به ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والقاف وتشديد السين وحمزة بفتحها مع التخفيف أصله يتساقط من التفاعل حذف حمزة إحدى التاءين وأدغمها غيره في السين، وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف من المفاعلة بمعنى أسقط والتأنيث لكون الضميرعائد إلى النخلة، وقرأ يعقوب بالياء والتحتانية والضمير حينئذ يعود إلى الجذع ﴿عَلَيۡكِ رُطَبٗا﴾ تميز من نسبة تتساقط، وفيه مبالغة على قراءة الجمهور ومفعولاً به على قراءة حفص ويعقوب ﴿جَنِيّٗا﴾ يعني الذي بلغ الغاية وجاء أوان اجتنانه، قال الربيع بن هيثم ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل ﴿فَكُلِي﴾ يا مريم من الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من السراء ومن الرطب وعصيره ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ أي طيبي نفساً وارفضي عنك ما أحزنك، عيناً تميز من نسبة قري يعني لتقر عينك، وقيل: يعني يلذّك واشتقاقه من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه عن النظر إلى غيره، ويقال قرى الله عينك أي صادف فؤداك ما يرضيك فيقرك بالنظر إليه من النظر إلى غيره، وقيل أقر الله عينه أي أنامها يقال أقر يقر إذا سكن أو من القرّ ضد الحر فإن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة، ولذلك يقال قرة العين للمحبوب وسخنتها للمكروه ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ ما زائدة أدغمت نون أن الشرطية فيها والنون للتأكيد يعني فكلما ترين يا مريم رمياً فيسألك عن شأن ولدك ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي صمتاً كذلك كان ابن مسعود يقرأ يعني نذرت للرحمن أن أمسك عن الكلام في شأنه وغيره مع الأناسي، وقال السدي كان في بني إسرائيل من يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسي، فقيل: إن الله أمرها أن تقول هذا إشارة لكونه المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فإنه قاطع الطعن، وقيل: أمرها أن تقول هذا القدر نطقاً ثم تمسك من الكلام بعده ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ بعد أن أخبركم بنذري يقال: كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الإنس.

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا

كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ أي بعيسى ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي حاملةً إياه قيل: إنها ولدت ثم حملته في الحال إلى قومها، وقال الكلبي حمل يوسف النجار مريم وابنها عيسى إلى غار مكثت فيه أربعين يوماً حتى طهرت من نفاسها، ثم حملته مريم إلى قومها فكلمها عيسى في الطريق فقال يا أماه أبشرى إني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها صبي رأوا وبكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين و﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ جواب قسم محذوف أي منكراً من فرث الجلد بمعنى الشق، ومنه قول الحسان لأفرينَّهم فري الأديم، أي أشقهم بالهجاء كما يشق الأديم، ومنه يستعمل في القرآن كثيراً بمعنى تصنع الكذب والشرك والظلم قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[1] وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[2] فإن المنكر من الشرك والمعاصي يشق عصمة الرجل وصلاحه، وقيل معناه عظيماً عجيباً كأنه يفري العادة أي يقطعها ويشقها، قال أبو عبيدة كل أمر فائق من عجب أو عمل فهو فري، قال النبي ﷺ في عمر «فلم أر عبقرياً يفري فريه»[3] أي يعمل عمله عجيباً فألقا في العجب ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنهم عنوا به هارون النبي أخا موسى عليه السلام لأنها كانت من نسله كما يقال للتيمي يا

(١) سورة الصف، الآية: ٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٦٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٣٩٣).

أخا تميم، وقيل: لأنها كانت من أعقاب من كان مع هارون النبي في طبقة الأخوة أخرجه ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة، وقال الكلبي كان هارون أخا مريم من أبيها وكان أمثل رجل في بني إسرائيل، روى البغوي عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى كان قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين من قبلهم»[(١)] رواه مسلم في الصحيح، وقال البغوي قال قتادة وغيره كان هارون رجلاً صالحاً عابداً في بني إسرائيل روي أنه تتبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون بني إسرائيل سوى سائر الناس، شبهوها به على معنى أنك مثله في الصلاح وليس المراد منه الأخوة في النسب كما قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾[(٢)] أي أشباههم، كذا أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة وإنما شبهوها به تهكماً أو بما رأوا قبل ذلك من صلاحها، وقيل: كان هارون رجلاً فاسقاً من بني إسرائيل عظيم الفسق فشبهوها به شتماً كذا أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ﴾ عنه ﴿بَغِيّٗا﴾زانيةً فيه تقرير لكون ذلك منها أمراً فرياً فإن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش وأعجب ﴿فَأَشَارَتۡ﴾ مريم ﴿إِلَيۡهِۖ﴾ أي إلى عيسى أن كلموه قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجةً أشارت إليه ليكون كلامه حجةً لها، وفي القصة أنها لما أشارت إليه غضب القوم وقالوا: بئسما فعلت تسخرين منا ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ﴾ كان زائدةً كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾[(٣)] وصلة من قوله ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ أي الظرف المستقر ﴿صَبِيّٗا﴾ حال من المستكن في الظرف، وجاز أن يكون كان تامةً أو للدوام كما مر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[(٤)] أو بمعنى صار، والمراد بالمهد حجر أمه وقيل هو المهد بعينه، يعنون أنه لم نعهد عاقلاً كلم صبياً أي في المهد أي صبياً لم يعقل على متكلم بعد، قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم وقيل: لما أشارت إليه ترك الثدي واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه و﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة نفسه إلى الله أنه عبد مكرَّم ولما كان القوم منكرين لذلك

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الآداب، باب: النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء (٢١٣٥).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧.

أورده بالتأكيد، قال وهب أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فعال لعيسى انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى وهو ابن أربعين يوماً، وقال مقاتل: قال يوم ولد إني عبد الله على نفسه بالعبودية لله عزَّ وجل أول ما تكلم لئلا يتخذه الناس إلهاً ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال الحسن ألهم التوراة وهو في بطن أمه، وقال الأكثرون الإنجيل وهو صغير طفل وكان يعقل عقل الرجال، وقيل: معناه سيؤتيني الكتاب أي الإنجيل وكذا قوله: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ يعني سيجعلني نبياً والتعبير بلفظ الماضي بجعل المحقق وقوعه كالواقع، وقيل: هذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي ﷺ: «متى كنت نبياً؟ قال كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» رواه ابن سعد وأبو نعيم في الحلية عن ميسرة الفجر بن سعد عن أبي الجدعاء والطبراني عن ابن عباس.

﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ البركة إما بمعنى ثبات الخير وقراره مأخوذ من برك البعير، وإما بمعنى الزيادة في العطاء يقال اللهم بارك في عطائك، أو بمعنى العظمة والكرم يقال هذا من بركة فلان، قيل: معناه ههنا أي نفّاعاً، وقال مجاهد معلماً للخير، قال عطاء أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته، وقيل: مباركاً على من تبعني ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ حيث كنت وفي الأرض أو في السماء وحيث توجهت، ويستفاد منه أنه نفاع في السماء يستفيد منه الملائكة ﴿وَأَوْصَٰنِى﴾ أمرني ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي تطهير المال بأداء ما وجب فيه وتطهير النفس عن الرذائل، قال البغوي: فإن قيل: لم يكن لعيسى مال فكيف يؤمر بالزكاة؟ قيل: معناه أمرني بالزكاة لو كان لي مال وقيل: باستكثار الخير وقيل: معناه أوصاني بأن آمركم بالصلاة والزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ظرف للصلاة والزكاة يعني أوصاني بأن أصلي وأزكي مدة حياتي ﴿وَبَرًّا﴾ أي بارًّا ﴿بِوَٰلِدَتِى﴾ عطف على مباركاً أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني أي وكلفني براً، وبراً حينئذ مصدر ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا﴾ أي عاتياً متكبراً ﴿شَقِيًّا﴾ عاصياً بربه، قيل الشقي الذي يذنب ولا يتوب ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ إلى السلامة ﴿عَلَىَّ﴾ جملة فعلية في الأصل ولذلك عطف على فعلية سابقة جعلت اسمية لدلالته على الاستمرار ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ من طعن الشيطان ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ من عذاب القبر ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾من الأهوال وعذاب النار أو التحية من الله عند كل تغير، واللام للعهد أو للجنس، وفيه تعريض بالمعنى على أعدائه فإنه لما جعل جنس السلام على نفسه وعلى من هو في معناه بالإيمان، عرض بأن ضده على من يضاده كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[1] فإنه تعريض بأن العذاب

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٧.

على من كذب وتولى قال البغوي فلما كلمهم عيسى بهذا علموا ببراءة مريم ثم سكت عيسى فلم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره بكونه معترفاً بالعبودية وغير ذلك ﴿عِيسَى﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نعت أو خبر ثان يعني ليس عيسى من يصفه النصارى بالألوهية فإنه منحوت خيالهم، فيه تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني حيث جعله الموصوف بأضداد ما يصفونه، ثم عكس الحكم ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بالنصب على أنه مصدر مؤكد تقديره أقول قول الحق أو على المدح، والباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الكلام السابق قول الحق لا ريب فيه وإضافة القول إلى الحق للبيان وقيل هذا صفة لعيسى وبدل منه أو خبر ثان لذلك والحق هو الله ومعناه وكلمة الله ﴿ٱلَّذِى فِيهِ﴾ أي في هذه ﴿يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون ويتنازعون فقالت اليهود ساحر كذاب وقالت النصارى ابن الله أو هو الله، ثم نفي عن نفسه الولد فقال ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ جيء بمن لتأكيد النفي ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ مصدر أقيم مقام الفعل أي أسبحه سبحاناً، فهو جملة معترضة للدلالة على تنزه ذاته عن اتخاذ الولد ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ إن أراد أن يحدث شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ومن ذلك أحداث عيسى بلا أب ومن كان كذلك كان منزهاً من مشابهة الخلق برياً من الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإناث والتجزي بالعلوق، فالجملة الشرطية في مقام التعليل بنفي اتخاذ الولد، قرأ ابن عامر فيكون بالنصب على الجواب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر ويعقوب بكسر الألف على الاستئناف عطفاً على ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وأهل الحجاز وأبو عمرو بفتح الألف عطفاً على الصلاة والزكاة يعني وأوصاني بأن الله ربي، أو مبتدأ حذف خبره تقديره وثابت إن الله ربي وربكم والجملة معطوفة على أني عبد الله مقولنا للقول، فيه إشارة إلى استكمال القوة النظرية باعتقاد التوحيد، وفي قوله ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية بإتيان المأمورات والانتهاء عن المناهي والفاء للسببية، وفي قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ تعليل لقوله ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وتأكيد لما سبق يعني الجمع بين الأمرين هو الصديق المشهود له بالخير.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ يعني اليهود والنصارى أو فرق النصارى تحزبوا أي تفرقوا ثلاث فرق في أمر عيسى قالت النسطورية أنه ابن الله، وقالت اليعقوبية أنه هو الله هبط إلى

الأرض ثم صعد إلى السماء وقالت الملكائية هو عبد الله ورسوله، وجملة فاختلف معطوفة على قال عيسى ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ كلمة من زائدة والظرف متعلق باختلف، والمعنى من بين أصحابه أو من بين قومه أو من بين الناس ﴿فَوَيۡلٞ﴾ الفاء للسببية وويل في الأصل مصدر منصوب معناه هلكوا إهلاكاً، ثم نقلت الجملة من الفعلية إلى الاسمية ورفع على الابتداء للدلالة على الاستمرار نحو إسلام سلام عليكم ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كان في الأصل متعلقاً بالمصدر ثم جعل ظرفاً مستقراً خبراً للمبتدأ ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ متعلق بويل أي من شهود يوم عظيم وحسابه وجزاؤه وهو يوم القيامة أو من وقت الشهود أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء وأمة محمد ﷺ وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالفسوق والكفر، أو من وقت الشهادة عليهم أو من مكانها، وقيل هو ما شهدوا به في عيسى ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ﴾ يعني يوم القيامة صيغة التعجب والله تعالى لا يوصف بالتعجب فالجمهور على أن المراد أن أسماعهم وأبصارهم يوم القيامة جدير بأن يتعجب منها لأجل شدة استماعهم وأبصارهم الحق حين لا ينفعهم الاستماع والإبصار بعدما كانوا صماً وعمياً في الدنيا منه حين كان ينفعهم لو سمعوا وأبصروا، أو تهديداً بما سيسمعون ويبصرون يومئذ مما أوعدوا به ولم يسمعوا الإنذار في الدنيا والجار والمجرور في محل الرفع بصيغة التعجب، وقيل: هو صيغة أمر أمر الله نبيه ﷺ أن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم والجار والمجرور على هذا في محل النصب ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي في الدنيا ظرف متعلق بالظرف المستقر أعني قوله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وضع الظالمين موضع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا، حيث لم يستعملوا الإسماع والإبصار حين كان ينفعهم وأغفلوا أنفسهم، وسجل على إغفالهم بأنهم في ضلال مبين.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ يا محمد ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ مفعول ثان لأنذرهم وجملة أنذرهم معترضة أو معطوفة على فاختلف بتقدير قلنا أي وقلنا لك أنذرهم يوم الحسرة ﴿إذ قضي الأمر﴾ أو بدل من اليوم أو ظرف للحسرة وذلك إذا فرغ من الحساب دخل أهل الجنة الجنة وأهل الناس النار وذبح الموت عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ يا أهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ قالوا: هذا الموت وكلهم قد رأوه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله ﷺ (وأنذرهم يوم الحسرة إذ

قضي الأمر)[١] الآية رواه البغوي، وروى الشيخان في الصحيحن عنه نحوه، وروى الشيخان ذبح الموت من حديث ابن عمر نحوه، ولكن ليس فيه قراءة الآية، وكذا روى أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أنس والحاكم وابن حبان عن أبي هريرة من غير ذكر قراءة الآية، وقال البيضاوي أي يوم يتحسر الناس المسيء على إساءته والمحسن على قلة إحسانه، وروى الطبراني وأبو يعلى عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله تعالى فيها» وروى البغوي عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يموت إلا ندم» قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: إن كان محسناً أن لا يكون ازداد وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع»[٢] ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما هم عليه من الضلال وعما يعمل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون المخبر الصادق، والجملتان حالان من الضمير المستكن في الظرف أي في ضلال مبين وما بينهما اعتراض، أو من الضمير المنصوب في أنذرهم يعني أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالاً متضمناً للتعليل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ يعني يفنى الأرض ومن عليها ويبقى الرب وحده كما يبقى الوارث بعد موت المورث، وذكر كلمة من تغليباً للعقلاء أو المعنى يسلب الله تعالى مالكية غيره تعالى عن الأرض وعمن عليها بإهلاك الملاك فيكون الملك لله وحده ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بعدما يبعثون فنجازيهم على حسب أعمالهم وجملة إلينا يرجعون مرفوع المحل عل أنه خبر أنا عطفاً على نرث.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ (٤٧٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٣٠٢٤) وفيه من تكلم فيه.

أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي خبره ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ قيل: معناه كثير الصدق، وقيل: بل من لم يكذب قط، وقيل بل من لم يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: بل من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه وتصديقه بفعله، وقيل: كثير التصديق لله تعالى فيما غاب عنه من وحدانيته وصفاته وأنبيائه ورسوله بالبعث بعد الموت ويحسن ما أمر به ويقبح ما نهى عنه وحقق تصديقه بفعله فقام على إتيان الأوامر والانتهاء عن المناهي، قلت: ليس المراد بكثرة التصديق كثرته باعتبار متعلقه كما يدل عليه ظاهر عبارة البغوي، فإن التصديق جميع ما جاء به النبي ﷺ توجد في كل مؤمن حتى أنه من لم يؤمن بشيء منها كان كافراً والقيام على إتيان الاوامر وترك المناهي حظ الصالحين منهم وليس كل صالح صديقاً، بل المراد بكثرة التصديق قوته وشدته وذلك بالنبوة أصالة أو وراثة أي بكمال متابعة الأنبياء ظاهراً وباطناً والاستغراق في كمالات النبوة والتجليات الذاتية الصرفة الداعية بلا حجاب بالوارثة والتبعية ألا ترى أنه تعالى ذكر أربعة أصناف الذين أنعم الله عليهم، فقال: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وبشر غيرهم من المؤمنين بمعيتهم فالصديقون على درجة من الشهداء والصالحين وقدذكرنا ذلك في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) فالصديقون هم الذين قال الله منهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾(٢) وتفسيرها في سورة الواقعة وأكبر الصديقين بعد الأنبياء أصحاب رسول الله ﷺ لاسيما الخواص منهم، قال رضي الله عنه. أنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كاذب يعني بعدي من حيث الرتبة دون الزمان وأكبرهم جميعاً أبو بكر سماه رسول الله ﷺ صديقاً وعليه انعقد الإجماع ﴿نَّبِيًّا﴾ من النبوة وهي ما ارتفع من الأرض وهو العالي في الرتبة بإرسال الله تعالى إياه أو من النبأ بمعنى الخبر يعني المخبر من الله على اختلاف القراءتين كما مر ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إبراهيم ما بينهما اعتراض أو متعلق بكان أو صديقاً نبياً ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر وقد مر ذكره في سورة الأنعام ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ذكر الأبوة للاستعطاف ولذلك كررها ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ المفعول للفعلين مبني غير منوي أي ما لا سمع له ولا بصر وجاز أن يكون

(١) سورة النساء، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ١٣ ـ ١٤.

تقديره ما لا يسمع شيئاً ولا يبصره فيعرف حالك ويسمع ذكرك ويرى خضوعك ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ من الإغناء في جلب نفع أو دفع ضر فشيئاً منصوب على المصدرية، أو المعنى لا يدفع عنك شيئاً من المضار فهو منصوب على المفعولية، بين إبراهيم عليه السلام أباه ضلالته برفق وشفقة ودعاه إلى الهدى واحتج عليه بأوضح حجة وبرهان قاطع مع رعاية الأدب، حيث لم يصرح بضلالته بل طلب منه بيان ما يقتضي عبادة الأوثان وأشار إلى أنهن أدنى رتبة من أن يركن إليهن عاقل فإن العاقل لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح والعبادة التي هي غاية التعظيم لايستحقه إلا من له الاستغناء التام والإنعام إنعام القادر على الإثابة والأيلام قدرة تامة لا يستطيع أحد مدافعته ولهو الخالق الرازق المحيي والمميت المقتدر المعاقب المثيب، فأما من كان ممكناً مثله محتاجاً في الوجود وتوابعه إلى غيره وإن كان مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على الإنعام والإيلام بل وإن كان أشرف الخلائق كالنبيين والملائكة، فإن العقل السليم يستنكف عن عبادته معرضاً عن عبادة خالصة وجاعله كذلك فإنه استعارة من المستعير وطلب حاجة من المحتاج الفقير فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئاً ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق القويم فقال ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا﴾ بالله وأحكامه ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ﴾ على ديني ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ مستقيماً يوصلك إلى فلاح الدارين، ومن كمال وخلقه أنه لم يسم إياه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق منه ثم أظهر مضار ما كان عليه أبوه بعد ذكر خلوه عن النفع بأن ما هو عليه في الحقيقة عبادة للشيطان لكونه آمراً به فقال ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي لا تطعه فيما يزين لك من الكفر وعبادة الأوثان وبين وجه المضرة فيه بأن الشيطان مستعص على ربك المولى للنعم كلها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾كثير العصيان ومعلوم أن المطاوع للعاصي وكل عاص حقيق بأن يسترد منه النعم وينتقم منه ولذلك عقبه بتخويفه وسوء عاقبته وما يجر إليه فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانهما ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ﴾ أي يصيبك ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾إن أقمت على الكفر وإطاعة الشيطان، وفي ذكر الرحمن مع ذكر العذاب إشارة إلى أن العصيان يقتضي العذاب ممن هو موصوف بالرحمة الكاملة، فإن كمال الرحمة على المطيعين لا ينافي كمال الغضب على العاصين المتمردين ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ قريباً في اللعن في الدنيا وعذاب النار في الآخرة تليه ويليك، قال البيضاوي: لعل اقتصاره على عصيان الشيطان من جناياته لارتفاع همته في الربانية ولأنه ملاكها أو لأنه من حيث أنه نتيجة معاداته لآدم وذريته ﴿قَالَ﴾ أبو إبراهيم ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

﴿ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ فتعيبها، قابل استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت يا بني وأخره وقدم الخبر على المبتدأ، صدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب كأنها مما لا يرغب عنها عاقل ثم هدده بقوله ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾عن مقالك فيها أو عن الرغبة عنها لأرجمنك، قال الكلبي ومقاتل والضحاك لأشتمنك ولأبعدنك بالقول القبيح، وقال ابن عباس لأضربنك، وقال الحسن لأقتلنك بالحجارة ﴿وَٱهۡجُرۡنِي﴾ عطف على ما دل عليه لأرجمنك أي فاحذرني واهجرني ﴿مَلِيّٗا﴾ قال الكلبي اجتنبني طويلاً، وقال مجاهد وعكرمة حيناً، وقال سعد بن جبير دهراً وأصل الملي المكث يقال تمليت حيناً والملوان الليل والنهار، وقال قتادة وعطاء سالماً، وقال ابن عباس اعتزلني سالماً لا يصيبك مني معرة يقال يلي بأمر كذا إذا كان كافياً ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ سلام توديع ومتاركة مقابلة للسيئة بالحسنة كما هو دأب الحليم في مقابلة السفيه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1] أي سلمت مني لا أصيبك بمكروه ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها، قال أكثر المفسرين: معناه أسأل الله تعالى لك أن يرزقك التوحيد والإسلام ويوفقك للتوبة فيغفر لك، فإن السؤال بالمغفرة للكافر لا يجوز إلا استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرته وعندي ليس كذلك لما قال الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾[2] فإنه صريح في أنه لا يجوز اقتداء إبراهيم في الاستغفار للشرك مع أنه يجوز الدعاء للمشرك بالتوفيق، فالأولى أن يقال إن ذلك كان قبل النهي عن الاستغفار للمشرك وقد قال رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب: «والله لأستغفرن لك ما ألم أنه عنه» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3] الآية وقد مر في سورة التوبة، وأيضاً لو كان إبراهيم سأل الله تعالى أن يرزق أباه الإيمان لرزقه الله الإيمان فإن كل نبي يجاب لكنه لما لم يكن إيمانه مقدراً لم يسأل إبراهيم ذلك والله أعلم ﴿كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ أي بليغاً في البر والألطاف، قال الكلبي عالماً يستجيب لي إذا دعوته، قال مجاهد عودني الإجابة لدعائي ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ بالمهاجرة بديني، عطف على سأستغفر ﴿وَمَا تَدۡعُونَ﴾ عطف على الضمير المنصوب يعني وأعتزل ما

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

تدعونه أي تعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال مقاتل كان اعتزاله إياهم إنه فارقهم من كوثى فهاجر منها إلى الأرض المقدسة ﴿وَأَدْعُواْ﴾ أي أعبد ﴿رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي لا أشقى ولا أخيب بدعائه وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام، أو رد كلمة عسى تواضعاً وهضماً للنفس وتنبيهاً على أن الإجابة والإثابة تفضل من الله غير واجب عليه وأن ملاك الأمر الخاتمة وهي لا تدري ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مهاجرا إلى الشام ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بدلاً ممن فارقهم من الكفرة ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أقر الله عينيه بأولاد كرام على الله لما ظرف متعلق لوهبنا، وجملة وهبنا معطوف على محذوف تقديره قال سلام عليك إلى آخره فاعتزلهم فوهبنا له إسحاق ويعقوب ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ أي للثلاثة ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ وكلمة من للتبعيض أي بعض رحمتنا، قال الكلبي هو المال والأولاد الكرام، وقيل: الكتاب والنبوة، قال البيضاوي لعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء أو لأنه أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ المراد باللسان ما يصدر منه يقال لسان العرب أي لغتهم يعني كلام صدق وهو ما يثنون عليهم أهل الملل كلهم ويفتخرون بهم استجابة لدعوته ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾[1] وإضافة اللسان إلى الصدق وتوصيفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم، لا تخفى على تباعد الأعصار وتبدل الملل، لهم ظرف مستقر مفعول ثان لجعلنا وعلياً حال من الضمير المرفوع المستكن في الظرف.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ الكوفيون بفتح اللام يعني أخلصه الله واختاره لنفسه ونزهه عن التدلس بالتوجه إلى غيره، والباقون بكسر اللام يعني أسلمه وجهه وأخلص نفسه لله ونزه عبادته عن الشرك الجلي والخفي ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ يعني أرسله

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

الله إلى الخلق فصار رفيعاً الدرجة مخبراً من الله بأحكامه ولذلك قدم رسولاً مع كون الرسالة أخص وأعلى من النبوة ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ وهو جبل بين مصر ومدين ويقال اسمه الزبير، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودي يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي جانب الذي يلي يمين موسى عليه السلام إذ لا يمين للجبل وإنما أضيف إلى الطور لأدنى ملابسة وكان موسى سائراً من مدين إلى مصر، فلما وصل إلى الطور كان الطور على يمين موسى أو المراد من جانبه الميمون، فإنه تمثل له الكلام من تلك الجهة ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ بذاته تعالى قرباً غير متكيف من لم يذقه لم يدر ﴿نَجِيّٗا﴾ حال من هذا لمضيرين في قربناه أي مناجياً ربه بأن أسمعه كلامه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي لموسى حين دعا وقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي﴾[1] ﴿مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾ أي من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول لوهبنا أن كان من للسببية وبدل منه إن كان للتبعيض ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان لأخاه ﴿نَبِيّٗا﴾ حال من مفعول وهبنا يعني وهبنا له نبوة أخيه وإلا فكان هارون أكبر سناً منه، قال البغوي ولذلك سمي هارون هبة الله ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ ابن إبراهيم جد النبي ﷺ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ قال مجاهد لم يعد شيئاً إلا وفى به، وقال مقاتل وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل، وقال الكلبي انتظره حتى حال عليه الحول وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2] فوفى به ﴿وَكَانَ رَسُولٗا﴾ إلى جرهم ﴿نَّبِيّٗا﴾ قال البيضاوي هذا يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب الشريعة فإن أولاد إبراهيم عليه السلام كانوا على شريعته ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ اشتغالاً بالأهم وهو أن يقبل الرجل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾[3] ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[4] ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[5] وقيل: المراد به أمته فإن الأنبياء آباء الأمم ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ قال ابن عباس يريد التي افترض الله عليهم وهي الحنفية التي افترضت علينا وخص العبادتين بالذكر لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ رضي الله لنبوته ورسالته

(١) سورة طه، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٥) سورة التحريم، الآية: ٦.

ورضي عنه لأجل قيامه على طاعته واستقامة أعماله وأفعاله ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ هو سبط شيث جد أبي نوح عليه السلام اسمه أخنوخ، قيل سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، وقال البيضاوي اشتقاقه من الدرس يرده منع الصرف نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة درسه حيث أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة، قال البغوي هو أول من خط بالعالم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكان من قبله يلبسون الجلود وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وأول من نظرفي علم النجوم والحساب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا وَرَفَعۡنَٰهُ﴾ عطف على كان صديقاً ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قيل: يعني درجة رفيعة بشرف النبوة والزلفى عند الله، وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة. روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ: «أنه رأى إدريس ليلة المعراج في السماء الرابعة»[١] وقد مر الحديث في سورة بني إسرائيل وسورة النجم. وكان سبب رفع إدريس على ما قاله كعب وغيره أنه سار يوماً في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال: يا رب أنا مشيت يوماً فأصابني من حر الشمس ما أصابني فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد؟ اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال: يا رب ما الذي قضيت فيه؟ قال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حمأها وحرها فأجبته، فقال رب اجعل بيني وبينه خلة، فأذن له حتى إذا جاء إلى إدريس فكان يسأله إدريس فقال إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي فازداد شكراً وعبادة، فقال الملك لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: حاجتي إليك قال: صديق لي من بني آدم يشفع بي إليك لتؤخر أجله فقال: ليس ذلك إلي ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه، قال: نعم، فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه أن يموت أبداً، قال: وكيف؟ قال: لا أجده أن يموت إلا عند مطلع الشمس، قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء فرجع الملك فوجده ميتاً. قال وهب واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت؟ فقال قوم هو حي، وقالوا: أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في الأرض الخضر وإلياس واثنان في السماء إدريس وعيسى، وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان إدريس يصوم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٧).

الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل منه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس فقال له الليلة الثالثة إني أريد أن أعلم من أنت؟ قال: أنا ملك الموت استأذنت ربي أني أصحبك، قال: فلي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تقبض روحي فأوحى الله إليه أن اقبض روحه فقبض روحه وردها الله تعالى بعد ساعة، قال له ملك الموت ما في سؤالك قبض الروح، قال لأذوق كرب الموت وعمقه فأكون أشد استعداداً له، ثم قال: إدريس إن لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار فأذن الله له في رفعه فلما قرب من النار قال: لي حاجة، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكاً حتى يفتح لي أبوابها فأوردها ففعل، ثم قال فكما أريتني النار فأرني الجنة فذهب إليها فاستفتح له أبوابها فأدخله الجنة، ثم قال ملك الموت أخرج لتعود إلى مقرك فتعلق بشجرة وقال: لا أخرج منها فبعث الله ملكاً حكماً بينهما، فقال له الملك مالك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[١] فقد ذقته وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾[٢] وقد وردتها وقال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ﴾[٣] فلست أخرج فأوحى الله تعالى إلى الملك الموت بإذني دخل الجنة وبأمري يخرج فهو حي هناك فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النعم الدنيوية والدينية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول حال من الضمير في عليهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ وهو إدريس عليه السلام وغيره أجمعون بدل من من النبيين بإعادة الجار أو صفة أو حال من النبيين، ويجوز أن يكون من فيه للتبعيض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية ﴿وَمِمَّنْ﴾ أي من ذرية من ﴿حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة خصوصاً وهم ما عدا إدريس فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح عليه السلام ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم إسماعيل وإسحاق وغيرهم ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطف على إبراهيم يعني ومن ذرية إسرائيل ومنهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، فيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أي جملة من هديناه إلى الحق يحتمل العطف على من الأولى البيانية وعلى من الثانية على تقدير كونها للتبعيض، فإن كان

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

معطوفاً على الأولى فهو يشتمل مريم وأهل إسماعيل الذين ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ﴾[١] ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ أي اجتبيناه من الأنام للنبوة والكرامة والهداية ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ جمع ساجد يعني ساجدين رغبة فيها ﴿وَبُكِيًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الباء والجمهور بالضم ومعهم حفص ههنا جمع باك يعني باكين رهبة، الظرف متعلق بحزوا وجملة خروا خبر لأولئك إن جعلت الموصول صفة واستئناف إن جعلته خبره لبيان خشيتهم من الله تعالى مع مالهم من علوا لرتبة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز وجل، روى ابن ماجه وإسحاق بن راهويه والبزار في مسنديهما من حديث ابن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»[٢].

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني فعقبهم وجاء بعدهم ﴿بَعْدِهِمْ﴾ يعني عقب سوء يقال خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها ﴿أَضَاعُوا۟﴾ أي تركوا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة وقال ابن مسعود وإبراهيم أخروها عن وقتها، وقال سعيد بن المسيب هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تغرب الشمس، قلت: ومن إضاعة الصلاة أن يأتوها على وجه مكروه أو يتركوا سننها وآدابها ونحو ذلك ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني آثروا شهوات النفس على طاعة الله تعالى وأتوا بالمعاصي ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي يقذفون فيه والغي على ما قال البغوي قول وهب، فهو في جهنم بعيد قعره خبيث طبعه، وقال: قال ابن عباس

(١) سورة مريم، الآية: ٥٥.
(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في حسن الصوت بالقرآن (١٣٣٧).
وفي إسناده أبو رافع ضعيف متروك.

هو واد في جهنم وإن أودية جنهم لتستعيذ من حرها أعد للزاني المصر عليه ولشارب الخمر المدمن عليها ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ولأهل العقوق ولشاهد الزور، وكذا أخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس مرفوعاً، وقال البغوي قال عطاء: واد في جهنم يسيل قيحاً ودماً، وقال قال كعب هو واد في جهنم أبعدها قعراً وأشدها حراً فيه بئر يسمى الهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فيسفر بها في جهنم، وروى البغوي عن زكريا بن أبي مريم الخزاعي قال سمعت أبا أمامة الباهلي يقول إن ما بين شفير جهنم إلى قعرها مسيرة سبعين خريفاً من تحت يهوي أو قال صخرة تهوي عظمها كعشر عشراوات عظام سمان، فقال له مولى لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد هل تحت ذلك شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم غي وآثام، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم سعيد بن منصور وهناد والفريابي والحاكم وصححه والبيهقي من طريق عن ابن مسعود في هذه الآية أنه قال: الغي واد في جهنم، وفي لفظ نهر في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم، وفي لفظ نهر حميم في النار يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات. وأخرج البيهقي في الآية عن البراء بن عازب قال الغي واد في جهنم بعيد القعر منتن الريح، وأخرج الطبراني والبيهقي عنه مرفوعاً قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم مابلغت قعرها سبعين خريفاً ثم تنتهي إلى غيّ وآثام وقلت: ماغيّ وآثام؟ قال: نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهم اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، من يفعل ذلك يلق آثاماً وقيل: الغيُّ هو الضلال ضد الهداية فالمعنى يلقون غياً عن طريق الجنة، وقيل كل شر عند العرب غي وكل خير رشاد، ومن ههنا قال الضحاك معناه يلقون خسراناً وقيل: هلاكاً، وقيل: عذاباً فإن كل ذلك تفسير للشر، وقيل: حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه يعني سوف يلقون جزاء غي وضلال كان عليه في الدنيا من العقائد والأعمال الفاسدة.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عما ارتكبه من اتباع الشهوات وترك الصلاة ﴿وَءَامَنَ﴾ بعد ما كان كافراً ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ على ما يقتضيه الإيمان، قال البيضاوي هذه الآية تدل على أن الآية في الكفرة يعني الوعيد المذكور مختص بالكفرة يعني بدل الآية لأجل هذه الاستثناء، قلت: من آمن وعمل صالحاً لا من آمن ولم يعمل صالحاً فالفاسق أيضاً داخل في الوعيد المذكور كما يدل عليه ما مر من حديث ابن عباس في الغي أن الزاني والشارب وغير ذلك أي المصرين على الكبائر والله أعلم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عمرو ويعقوب وأبو بكر على الباء للمفعول من أدخل،

والباقون على الياء للفاعل من دخل ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾منصوب على المفعولية أي لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم أو على المصدرية أي ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من الظلم والتنقيص، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضر قال رسول الله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله»[1] رواه مسلم في حديث عمرو بن العاص، وجملة أولئك في مقام التعليل على مضمون الاستثناء ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها أو منصوب على المدح أو مفعول لفعل محذوف وهو أعني، وعدن إن كان بمعنى الإقامة فما أضيف إليه نكرة وقيل: هو علم لجنة معينة والإضافة إضافة إلى الاسم، وقيل هو علم لأرض الجنة فعلى هذين التقديرين جنات عدن معرفة وصفت بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ وعلى تقدير كونه نكرة الموصول صفة للجنة أو بدل من جنات عدن والضمير العائد في الصلة محذوف تقديره التي وعد الرحمن بها عباده ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من عباده أي متلبسين بالغيبة عن الجنة أي غائبين عنها، أو حال من الجنة أي متلبسة بالغيبة أي غائبة عنهم أو متعلق بوعد بحذف المضاف يعني وعد الرحمن بسبب تصديق الغيب والإيمان ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي ما وعد به وهوالجنة ﴿مَأْتِيًّا﴾ يأتيها أهلها لا محالة، وقيل هو مفعول بمعنى فاعل يعني آتياً لأن كل ما آتاك فقد أتيته، والعرب لا يفرق بين قول القائل إني علي خمسون سنة وقوله أتيت على خمسين سنة ووصل إليّ الخبر ووصلت إلى الخبر ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي فضولاً من الكلام، جملة مستأنفة أو حال مقدرة من عباده أو من الجنة أو من الضمير المحذوف في الصلة العائد إلى الموصوف بالموصول ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليماً من الله تعالى ومن الملائكة أو من بعضهم على بعض، أو المعنى لكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قيل المراد به رفاهية العيش وسعة الرزق، قال الحسن البصري كانت العرب لا يعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي فوصف الله جنته بذلك، وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال يؤتون به في الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا، وأخرج ابن المبارك عن الضحاك في هذه الآية قال على مقادير الليل والنهار، وأخرج ابن المنذر عن الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: ليس في الجنة ليل هم في نور أبداً يعرف لهم مقدار النهار يرفع الحجب ومقدار الليل بإرخاء الحجب، وأخرج الحكيم الترمذي في النوادر عن الحسن وأبي قلابة رضي الله عنهما قالا: قال رجل: يا رسول الله هل في

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

الجنة من ليل فإن الله يقول في كتابه ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: ليس هناك ليل إنما هو ضوء نور يرد الغدوّ على الرواح والرواح على الغدو، ويأتيهم ظرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها وتسلم عليهم الملائكة» ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ أي نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه، ذكر لفظ الوراثة لكونها أقوى الأسباب في التمليك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا يبطل برد وإسقاط، وقيل: يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوه زيادةً في كرامتهم والله أعلم، أخرج ابن ماجه والبيهقي بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾»[1] وأخرج ابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فر من ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة»[2] والله تعالى أعلم.

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا؟ فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾[3] تقدير قل يا جبرائيل لمحمد ﷺ وما نتنزل، والمتنزل هو النزول على سهلة لأنه مطاوع نزَّلَ من التنزيل، وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ منصوب المحل على الظرفية أو المصدرية تقدير فيما نتنزل إلا وقتاً متلبساً بأمر ربك على ما يقتضيه حكمته، أو تنزلاً إلا تنزلاً متلبساً بأمره، وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال أبطأ جبرائيل في النزول أربعين يوماً فذكر نحوه، وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: «سئل النبي ﷺ أي البقاع أحب إلى الله وأيها أبغض إلى الله؟ قال: ما أدري حتى أسأل، فنزل جبرائيل وكان قد أبطأ عليه فقال: «لقد أبطأت عليّ حتى ظننت إن ترى وحده فقال: وما نتنزل إلا بأمر ربك» وأخرج أبو نعيم في الدلائل وابن إسحاق عن ابن عباس أن قريشاً لما سألوا عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، ولم يدر ما يجيب ورجا أن يوحى إليه، فمكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، فلما نزل جبرائيل قال له أبطأت فذكره، وذكر البغوي قول الضحاك

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٤١) في الزوائد: إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفرائض، باب: الحيف في الوصية (٢٧٠٣) وفي إسناده زيد العمي.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٨).

وعكرمة ومقاتل والكلبي أنه احتبس جبرائيل عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فقال: أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله حتى شق على النبي ﷺ ثم نزل جبرائيل بعد أيام فقال له رسول الله ﷺ أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك، فقال له جبرائيل إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا أحبست احتبست، فأنزل الله هذه الآية وأنزل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[1] ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ جملة في محل النصب على العلية للمكث في النزول أو على الحال ومعنى له ما بين أيدينا بعد هذا الوقت إلى قيام الساعة وإلى ما لا نهاية له من أمر الدنيا والآخرة والثواب والعقاب وَمَا خَلْفَنَا أي قبل هذا الوقت فيما مضى من الأشياء والأحوال وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ أي الوقت الموجود وما فيه وقيل: مَا بَيْنَ أَيْدِينَا أي الأرض إذا أردنا النزول ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾أي السماء إذا نزلنا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي الهواء، يعني لا فتنزل في زمان دون زمان إلا بأمر الله أو لا ننتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي تاركاً لك أي ما كان عدم النزول لترك الله لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة بل كان لعدم الأمر به لحكمة رآها فيه.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه وهو خبر مبتدأ محذوف أي هو أو بدل من ربك ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ مرتب على ما سبق يعني لما عرفت رحمت ربك عليك وفضله وأنه لا ينبغي له أن ينساك، فأقبل على عبادته شكراً لهذه النعمة واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي واستهزاء الكفار، عدى الاصطبار باللام وكان حق الكلام على عبادته للإشعار بما في العبارة من الالتذاذ، قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[2] أو المعنى اصطبر على المشاق والشدائد وإيذاء الكفار لأجل عبادته تعالى أي لتتمكن من عبادته ولتكون عابداً لله تعالى ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس يعني مثلاً يستحق أن يعبد ويسمى إلهاً، وقال الكلبي هل تعلم أحداً يسمى بالله غيره فإن المشركين وإن سموا الأصنام آلهة لم يسموا أحداً منها بالله قط، وذلك لظهور أحديته تعالى ذاته عن المماثلة بحيث لم يقبل اللبس والمكابرة، وهو تقدير للأمر بالعبادة فإنه إذا ثبت أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٣.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد به الجنس فإن قول بعضهم يسند إلى الجنس أو بعضهم المعهود، قال البغوي المراد به أبي ابن خلف الجمحي كان منكراً للبعث، روى أنه أخذ عظماً بالياً ففتتها وقال: يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت، فحكى الله تعالى قوله حيث قال: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من الأرض أو من حالة الموت ﴿حَيًّا﴾ تقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار لكون المنكر كون ما بعد الموت الحياة، والظرف متعلق بفعل دل عليه أخرج لا به لأن ما بعد اللام لا يعمل فيها قبله، واللام ههنا لمجرد التأكيد من غير إرادة معنى الحال، قرأ ابن ذكوان بهمزة واحدة مكسورة على صورة الخبر بحذف همزة الاستفهام في اللفظ والمراد معنى الإنكار والباقون بهمزتين ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قرأ نافع وعاصم وابن عامر بإسكان الذال وضم الكاف مخففاً على وزن ينصر والباقون بفتح الكاف والذال مشدداً أصله يتذكر أدغمت التاء في الذال ومعناه يتفكر عطف على يقول، أورد همزة الاستفهام بين المعطوف والمعطوف عليه لإنكار الجمع بينهما وكان الأصل إدخالها على المعطوف عليه لكن أريد الدلالة على أن المنكر بالذات هو المعطوف وإنكار المعطوف عليه إنما نشأ منه ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أصلاً مع أن إيجاد المعدوم الصرف أعجب من جمع المواد بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيه من الأعراض ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسم بنفسه مضافاً إلى نبيه تفخيماً لشأن النبي ﷺ والفاء للسببية فإن إنكارهم البعث سبب لحشرهم مع الشياطين إلى جهنم ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ مفعول معه وجاز كونه معطوفاً، قال البغوي يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ حال من الضمير المنصوب، قال ابن عباس يعني جماعات جمع جثوة، وقال الحسن

والضحاك جمع جاث أي جاثين على الركب، وقال السدي قائمين على الركب بضيق المقام، قلت: يحضر الله حول جهنم جميع الناس السعداء والأشقياء ليزداد السعداء غبطةً وسروراً حين يرون ما نجاهم الله منه ويزداد الأشقياء حسرةً وغيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب، أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي عن عبد الله بن قال: قال رسول الله ﷺ «كأني أراكم بالكرم دون جهنم جاثين» ثم قرأ سفيان راوي الحديث ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الآية، قال ابن حجر المراد بالكرم المكان العالي الذي يكون عليه أمة محمد ﷺ، وكلمة ثم تدل على تراخي حضورهم حول جهنم من الحشر وذلك لاحتباسهم دهراً طويلاً في الموقف قبل أن يفصل بينهم.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي من كل أمة وأهل دين، وأصله من شاع يشيع شيعاً وشيوعاً ومشاعاً وشيوعة كديمومة وشيعاناً محركة ذاع وفشا وشيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره والفرقة على حدة، ويقع على الواحد والإثنين والجمع والمذكر والمؤنث كذا في القاموس، قلت: وإنما يطلق الشيعة على أتباع الرجل وأنصاره لأن الشيوع والانتشار يستلزم التقوية والاتباع والأنصار ينتشرون ويتقوى بهم أمر المتبوع، قال الجوهري الشياع الانتشار والتقوية يقال شاع الحديث أي كثر وقوي وشاع القوم انتشروا وكثروا وشيعت النار بالحطب قوت بها والشيعة من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه، ولما كان كل أمة أهل دين ينتشرون بدينهم ويتقوى أمرهم أطلق ههنا عليه ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ أي هو أشد ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي استكباراً أو تجاوزاً عن الحد في العصيان كذا في القاموس، أو نبواً عن الطاعة، قال البغوي: قال ابن عباس يعني جرأة، وقال مجاهد فجوراً، وكلمة عتياً تمييز من نسبة أمثل يعني أيهم أشد عتوة على الرحمن وكلمة أي ههنا في محل النصب على المفعولية لننزعن عند سيبويه، قال البيضاوي كان حقه أن يبني كسائر الموصولات لشبهها بالحروف كسائر الموصولات لكنه أعرب حملاً على كل وبعض للزوم الإضافة وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى أصله، وعند الخليل مرفوع إما بالابتداء على أنه استفهامي وخبره أشد والجملة محكية وتقديره لننزعن من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التميز اللازم للعلم أو مستأنفة وكلمة من للتبعيض أي لننزعن بعض كل شيعة أو زائدة والفعل واقع على كل شيعة وإما لشيعته لأنها بمعنى يشيع وعلى للبيان.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾ أي لنحن أعلم بالذين هم أولى بالصلي أوصلهم بالنار أولي، وكلمة ثم ههنا للتراخي في الرتبة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(١)] أويقال هذا الكلام كناية عن قولهم ثم لنعذبنهم فلا إشكال إذ التعذيب متأخر من الإحضار قيل: أعلم ههنا بمعنى العليم لاختصاص هذا العلم به تعالى، وجاز أن يقال أن الكرام الكاتبين وغيرهم من الملائكة أيضاً يعلمون الفاجر من التقي والسعيد من الشقي والله تعالى أعلم بذلك، قرأ حمزة والكسائي وحفص جثياً وعتياً وصلياً بكسر أوائلها كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[(٢)] والجمهور بضمها وهي على وزن فعول كما ذكرنا وقوله من كل شيعة إن كان يعم الكفار والعصاء من المؤمنين ففي ذكر أشد تنبيه على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان، ولو خص ذلك بالكفار على ما يقتضيه السياق كما اختاره البغوي وأكثر المفسرين فالمراد أنه يميّز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يدخل كُلاً طبقتها التي أعدت لهم، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن مسعود ﵁ في الآية قال: يحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة آثارهم ثم يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً ثم قرأ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿عِتِيًّا﴾ وأخرج هناد عن أبي الأحوص في الآية قال: يبدأ الأكابر فالأكابر جرماً.

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ إن نافية ومنكم صفة لمحذوف أي إن أحد منكم ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي جهنم قيل: القسم مضمر أي والله ما منكم إلا واردها بدليل ما ورد في الأحاديث إلا تحلة القسم وسنذكرها ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا﴾ الحتم مصدر حتم الأمر إذا وجب يعني واجباً أوجبه الله على نفسه ﴿مَّقْضِيًّا﴾ قضاه الله عليكم بأن وعده وعداً لا يمكن خلفه... ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ عطف على مضمون ما سبق تقديره نوردكم جميعاً في جهنم ثم ننجي قرأ الكسائي بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الشرك فيساقون إلى الجنة بلا تعذيب أو بعد التعذيب ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿فِيهَا﴾ أي في النار ﴿جِثِيًّا﴾ جميعاً وقيل جاثين على الركب، والمراد بالورود والدخول وإن كان بطريق المرور على الصراط الذين هو على متن جهنم، وقال قوم من أهل الأهواء ليس المراد بالورود الدخول فإنه من يدخلها لا يخرج منها أبداً وقالوا النار لا يدخلها مؤمن أبداً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[(٣)] بل المراد به الحضور والرؤية فإنهم يحضرون جميعاً موضع الحساب وهو

(١) سورة البلد، الآية: ١٧. (٢) سورة مريم، الآية: ٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.

بقرب جهنم، ثم ينجي الله المتقين يأمرهم إلى الجنة ويذر الظالمين فيها جثياً يأمرهم إلى النار، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾(١) وقد كان موسى أشرف عليه ولم يدخله ويؤيده ما رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند لا بأس به عن معاذ بن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من حرس وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا بأخذ السلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم وإن الله تعالى يقول ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾»(٢).

قلنا: إطلاق الورود على الإشراف والحضور والرؤية تجوّز لا يجوز ارتكابه إلا لضرورة ولا ضرورة ههنا ويأبى عن هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ الإنجاء والترك فيها لا يتصور إلا بعد الدخول ولا دليل في الحديث على عدم الدخول فإنه يثبت الروية تحلة القسم ولا ينفي الدخول ومعنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾(٣) بعد ورودهم ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾(٤) إذ أبعدوا، وقيل: لا يسمعون حسيسها عند ورودهم النار لأن الله تعالى يجعلها عليهم بردا وسلاماً أخرج هناد والطبراني والبيهقي عن خالد بن معدان قال إذا أدخل أهل الجنة الجنة قالوا: ربنا ألم تعدنا أنا نرد النار؟ قال: بلى ولكنكم مررتم عليها وهي خامدة، وأخرجه ابن عدي والطبراني عن يعلى بن أمية عن النبي ﷺ قال: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُزيا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» ولنا على كون الورود بمعنى الدخول ولو على سبيل المرور ما أخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سُمية قال: اختلفنا في الورود؟ فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا يدخلونها جميعاً ثم ننجي الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فذكرتُ له فقال: وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه صمتاً إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فيكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا».

وذكر البغوي أنه روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرق مارى ابن عباس رضي الله عنه في معنى المورود، فقال ابن عباس هو الدخول وقال نافع ليس الورود

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٣.

(٢) في أحد إسنادي أحمد ابن لهيعة.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجهاد، باب: الحرس في سبيل الله (٩٤٨٧).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.

الدخول فتلا ابن عباس: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال: يا نافع أما أنت وأنا سنردها وأنا أرجو أن يخرجني الله وما أرى الله يخرجك بتكذيبك. وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق فذكر نحو ذلك وقال قرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال: وردوا أم لا؟ وقرأ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[١] وردها أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل تخرج منها أم لا؟ وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: إن منكم إلا واردها يعني البر والفاجر ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾[٢] وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها، وأخرج البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال لا يبقى أحد إلا دخله فهذه الآيات مضمرة للورود بالدخول، وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه البيهقي عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم فأوّلهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحفن الفرس ثم كالراكب في رحله ثم كشد الرجل ثم كمشيه»[٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: يرد الناس جميعاً ورودهم قيامهم حول النارثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم فمنهم مثل البرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ومنهم من يمر كأجود الخيل ومنهم من يمر كأجود الإبل ومن يمر كعدو الرجل حتى أن آخرهم سيراً نوره على موضع إبهام قدميه يمر يتكفأ بيديه الصراط، وأخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم» ثم قرأ سفيان ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٤] وأخرج الطبراني عن عبد بن بشير الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم يرد إلا عابر سبيل يعني الجواز على الصراط» وأخرج ابن جرير عن غنيم بن قيس قال ذكروا ورود النار فقال كعب تمسك النار الناس كأنها بين إهالة حتى يستوي عليها أقدام

---

(١) سورة هود، الآية: ٩٨. (٢) سورة مريم، الآية: ٨٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة مريم (٣١٥٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: فضل من مات له ولد فاحتسب (١٢٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه (٢٦٣٢).

الخلائق برهم وفاجرهم، ثم ينادي مناد أن أمسكى أصحابك ودعي أصحابي، قال: فيخسف بكل ولي لها هي أعلم بهم من الرجل بولده ويخرج المؤمنين ندية ثيابهم.

قال السيوطي: فسر بعض علماء أهل السنة الورود بالدخول وهو أحد القولين في الآية ورجّحه القرطبي واستشهد بحديث جابر ونحوه وفسر بعضهم بالمرور على الصراط ورجحه النووي واستشهد بما روى عن ابن مسعود وفيه ذكر المرور على الصراط وحديث أبي هريرة ونحوهما. قلت: إذا كان الصراط على متن جهنم فالمرور يستلزم الدخول ولا يقضي الدخول بالوقوع في النار البتة، ولذلك قلت فالمراد بالورود الدخول وإن كان على طريق المرور على الصراط جميعاً بين الأحاديث. فإن قيل قول الحسن الورود الممر عليها من غير أن يدخلها وكذا أخرج البيهقي عنه على أن المرور غير الدخول؟ قلت: المراد بالدخول في قول الحسن الوقوع والاستقرار في النار لا مطلق الدخول هكذا فيما أخرج هناد عن حفصة أنها قالت قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخلها أحد شهد بدراً والحديبية، قالت: يا رسول الله أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ قال: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ المراد فيه بعدم الدخول عدم الوقوع والاستقرار بدليل قوله ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ فإن هذا الجواب صريح في أن المراد بعدم الدخول عدم الاستقرار الذي مفاد الإنجاء، وقال السيوطي قد أشفق كثير من السلف من تحقيق الورود واحتمال الصدور، أخرج هناد وأحمد في الزهد وسعيد بن منصور والحاكم والبيهقي عن حازم بن أبي حازم ﷺ قال بكى عبد الله بن رواحة ﷺ فقالت امرأته ما يبكيك؟ قال: إني أنبئت أني وارد النار ولم أنبأ أني صادر، وأخرجه هناد والبيهقي عن أبي إسحاق قال قام أبو ميسرة وعمرو بن شرحبيل إلى فراشه فقال ليت أمي لم تلدني فقالت: امرأته لمَ؟ فقال: لأن الله أخبرنا أنا واردوا النار ولم يبين أنا صادرون عنها، وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن قال: قال رجل لأخيه هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، فقال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك إذاً؟ فمارئي ضاحكاً حتى مات.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكفار معطوف على قول: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[1] أو على قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ﴾[2] ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على معانيها إما بنفسها أو ببيان من الرسول ﷺ أو واضحات الدلالة على صدق الرسول بإعجازها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) سورة مريم، الآية: ٥٩. (٢) سورة مريم، الآية: ٦٦.

يعني النضر بن حارث وأمثاله من القريش ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني الفقراء أصحاب النبي ﷺ وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة، والمشركون كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون خير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ من المؤمنين والكافرين ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ قرأ ابن كثير بضم الميم على أنه ظرف أو مصدر من الإفعال يعني خير وإقامة أو خير موضع للإقامة، والباقون بفتح الميم عل أنه ظرف من القيام أي خير موضعاً للقيام ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلساً ومجتمعاً يعني أنهم لما سمعوا الآيات البينات وعجزوا عن معارضتها أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ لدينا واستدلوا بها على فضلهم وحسن حالهم عند الله، فرد الله عليهم ذلك مع التهدين على سبيل النقض فقال: ﴿وَكَمْ﴾ خبرية منصوب بما بعده ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تميز لكم سمى أهل كل عصر قرناً لاقترانهم في الزمان ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ قال البغوي متاعاً وأموالاً، وقال مقاتل ثياباً ولباساً، وفي القاموس الأثاث متاع البيت بلا واحد والمال أجمع والواحدة أثاثة وهو مع ما عطف عليه تميز عن نسبة أحسن إلى الضمير الراجع إلى القرن يعني أثاثهم أحسن ﴿وَرِءْيًا﴾ قرأ قالون وابن ذكوان بتشديد الياء من غير همزة على قلب الهمزة ياء وإدغامها، أو على أنه من الري الذي هو ضد العطش ومعناه الارتواء من النعمة، وقرأ الجمهور بالهمزة ومعناه منظراً من الرؤية ووقف حمزة بإبدال الهمزة فوافق قالون، جملة هم أحسن صفة لقرن.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أم بمعنى الخبر أي يمده ويدعه في طغيانه وبمهله استدراجاً، في إيراد لفظ الأمر إيذان بأن أمهاله مما ينبغي أن يفعله الرحمن حتى ينقطع معاذيره، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾(١) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ إما مع ما عطف عليه بدل من ما يوعدون تفصيل لما أجمل والمراد بالعذاب الأسر والقتل في الدنيا ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ وماينالهم فيه من الخزي والعذاب في الآخرة غاية للمد أو يقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ﴾ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي أعواناهم أم المؤمنون فإن جندهم الشياطين وجند المؤمنين الملائكة، وجملة فسيعلمون جواب الشرط وهذا ردّ على قولهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قابل شر مكانا بخير مقاماً وأضعف جنداً، بأحسن ندياً، لأن حسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكهم استظهارهم ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ أي إيماناً وإيصالاً إلى مقاصدهم وهو مراتب القرب من

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

الله، عطف على مضمون الشرطية الواقعة بعد قل يعني من كان في الضلالة يمده الرحمن والذين اهتدوا زادهم هدى بالإيمان بما ينزل عليهم من الآيات، يعني إمهال الكافرين وتمتيعهم في الدنيا ليس لفضلهم عند الله، وقصور حظ المؤمنين من الدنيا ليس لنقصهم بل لأن الله تعالى جعل قلة حظهم من الدنيا سبباً لمزيد ثوابهم ورفع درجاتهم عند الله وإيصالهم إلى مقاصدهم من مراتب القرب، وقيل: هو عطف على فليمدد لأنه في معنى الخبر كأن قيل من كان في الضلالة يزيد الله في ضلالته ومن يعانده يزيد في هدايته ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى عائدتها لصاحبها أبد الآبدين ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عائدة مما متع به الكفار في الدنيا من النعم الفانية التي يفتخرون بها ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي عاقبة ومرجعاً والخير ههنا إما لمجرد الزيادة أو على طريقة قولهم الصيف أحر من الشتاء أي أبلغ في حره منه في برده والله أعلم.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

أخرج الشيخان عن خباب بن الأرت قال: «كنت رجلاً قيناً فعملت للعاص بن وائل واجتمع لي عنده فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله لا أكفر حتى تموت ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: فإنه سيكون لي ثمة مال وولد فأقضيك فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾[1] لما كانت الرؤية أقوى سنداً للإخبار، استعمل أرأيت بمعنى أخبرني، والخطاب للنبي ﷺ والمخاطب غير معين، وكلمة رأيت بالفاء معطوفة على محذوف تقديره أوقع نظرك فرأيت ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني العاص بن وائل ﴿وَقَالَ﴾ عطف على كفر ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي ولداً بضم الواو وسكون اللام والباقون بفتحهما، قال البغوي هما لغتان مثل العَرب

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ (٤٧٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: القيامة والجنة والنار، باب: سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (٢٧٩٥).

والعُرب والعَجم والعُجم، وقيل: بالضم والسكون جمع وبالفتحتين مفرد مثل أسد وأُسد ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ الجملة بتأويل المفرد مفعول ثان أرأيت واطلع ههنا من قبيل أطلع الجبل أي ارتقى إلى أعلاه واستغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل، قال ابن عباس انظر في اللوح المحفوظ، وقال مجاهد: علم علم الغيب حتى أدعى أن يؤتى في الآخرة مَالًا وَوَلَدًا ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يعني قال لا إله إلا الله، وقال قتادة يعني عمل عملاً صالحاً، وقال الكلبي عهد الله إليه أن يدخله الجنة ﴿كَلَّآ﴾ رد عليه يعني ليس الأمركذلك ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سنحفظ عليه أو سنظهر له أنا كتبنا قوله، أو سننتقم منه ما كتبنا من قوله ووجه هذه التأويلات أن نفس الكتابة لا يتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾(١) وإسناد الكتابة إلى نفسه مع كون الملائكة الكرام كاتبين لأن كتابتهم بأمره تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي نزيد عذابه لأجل استهزائه بهذا القول فوق ما استحقه قبل ذلك بالكفر ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بإهلاكنا إياه وإبطال ملكه ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المال والولد ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلاً أن يأتي ثمة زائداً، وجملة سنكتب مع عطف عليه في محل العلة للردع المستفاد من كلا ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ أي كفار قريش ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ يعني الأصنام ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي ليعتزوا بهم عند الله بأن يكونوا وصلة أو شفعاء ﴿كَلَّآ﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي سيجحد الآلهة عبادتهم ويتبرؤون منهم ويقولون: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾(٢) وسيجحد الكفار عبادتهم إياها ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٣) ﴿وَيَكُونُونَ﴾ أي الأصنام ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكفار ﴿ضِدًّا﴾ أي ذلاً وهواناً فإنه ضد العزو هذا التأويل يؤيد التأويل الأول فيما سبق، أو يضدهم ويخالفهم على معنى أنها تكون أعداء لهم يكذبونهم ويلعنونهم أو معونة على الكفار في تعذيبهم بأن توقد بها نيرانهم، وجاز أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للآلهة والمعنى ويكون الكفار على الآلهة منكرين كافرين بها بعد أن كانوا يعبدونها، وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذي به مضادتهم فإنهم بذلك كالشيء الواحد نظيره قوله ﷺ: «وهم يد على من سواهم»(٤)

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨. (٢) سورة القصص، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في السرية ترد على أهل العسكر (٢٧٤٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: القسامة، باب: القود بين الأحرار والمماليك في النفس (٤٧٣١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم (٢٦٨٣).

أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وأبو داود والنسائي من حديث علي وابن حبان من حديث ابن عمر، وفي القاموس أن الضد يكون جمعاً أيضاً ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم يا محمد ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات أي سلطناهم عليهم ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾[1] قال البغوي وذلك حين قال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[2] أو المعنى خليناهم وإياهم من أرسلتُ البعير أي أطلقته ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تهزهم وتعزنهم على المعاصي بالتسويلات واتباع الشهوات، والأز والهز التحريك وجملة تؤزهم أزاً حال من الشياطين وفي الكلام تعجيب لرسول الله ﷺ من أقاويل الكفار وتماديهم في الغي وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بدعائك عليهم بنزول العذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أيام آجالهم التي قضيناها مدة أعمارهم ﴿عَدًّا﴾ يعني أعمارهم أيام محصورة معدودة والفاء في فلا تعجل للسببية وجملة ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ معللة أو مستأنفة وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ تأييد وتقرير لقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مع ما عطف عليه ظرف لفعل محذوف أي نفعل بالفريقين ما نفعل أو منصوب باذكر أو متعلق بلا يملكون ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي إلى موضع كرامته وتجلياته ﴿وَفْدًا﴾ حال من المتقين جمع وافد أي وافدين عليه كما يفد الوفاد الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم، أخرج الحاكم والبيهقي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قرأهذه الآية فقال: والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ولا يساقون مسوقاً ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها عليها برحال الذهب وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يقرعوا باب الجنة، وذكر البغوي قول علي رضي الله عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوق رحالهم الذهب ونجائب سرجها اليواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا طارت، وأخرج البيهقي من طريق طلحة بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ قال ركباناً: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ قال: عطاشاً، وأخرجه ابن جرير عن أبي طلحة عن أبي هريرة قال: وفداً أي على الإبل. وأخرجه ابن أبي حاتم عن عمر بن قيس الملائي أن المؤمن إذا خرج من قبره

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح فيقول هل تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قد طيب ريحك وأحسن صورتك، فيقول: كذلك كنت في الدنيا أنا عملك الصالح طال ما ركبتك في الدنيا اركبني اليوم وتلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ وإن الكافر استقبله عمله في أقبحه صورة وأنتنه ريحاً فيقول: أولا تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قبّح صورتك ونتن ريحك فقال: كذلك كنت في الدنيا أنا عملك السيىء طال ما ركبتني في الدنيا وأنا أركبك اليوم وتلا: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾[1] ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بكفرهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ قال البغوي مشاة وقيل عطاشاً وقد تقطعت أعناقهم من العطش والورد جماعة يردون الماء ولا يرد أحد الماء بعد العطش، وقد قال ابن عباس في تفسيره يعني عطاشاً، قلت: ذكر الله سبحانه حال الفريقين أحدهما المتقين الكاملين في التقوى الأنبياء وغيرهم، وثانيهما المجرمين أي الكافرين ولم يذكر حال عامة المؤمنين من الصالحين والمذنبين، وقد ذكر في الحديث إن من الناس من يحشر مشاة وهم عامة المؤمنين وقد ذكرنا في سورة بني إسرائيل في تفسير قوله تعالى: يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً حديث أبي هريرة وحديث معاوية بن جند وحديث أبي ذر «أن الناس يحشرون على ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم» وأخرج الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وعشرة على بعير نحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا»[2] قال ابن حجر في قوله ﷺ: «راغبين وراهبين» قال: هم الطريقة الأولى هم عوام المؤمنين، واثنان على بعير إلى آخره الطريقة الثانية، ولم يذكر واحداً على بعير إشارة على أنه يكون لمن فوقهم كالأبرار وقال البيهقي قوله راغبين إشارة إلى الأبرار وراهبين إلى المخلطين الذين هم بين الخوف والرجاء والذين يحشرهم النار الكفار، وذكر الحليمي مثله وزاد أن الأبرار هم المتقون يؤتون بنجائب من الجنة وأما البعير الذي يحمل عليه المخلطون فيحتمل أن تكون الإبل التي تُحيى وتحشر يوم القيامة، قال السيوطي والثاني أشبه لأنهم بين الخوف والرجاء فلا يليق أن يردوا على نجائب الجنة، قال: ويشبه أيضاً تخصيص هؤلاء بمن يغفر لهم ذنوب عند الحساب ولا يعذبون، وأما الذين يعذبون

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦١).

بذنوبهم فإنهم يكونون مشاة على أقدامهم ويحتمل أن يمشوا وما لم يركبوا أو يكونوا ركباناً فإذا قاربوا المحشر نزلوا فمشوا، قال: أما الكفار فإنهم مشاة على وجوههم، وأخرج الطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الأنبياء يوم القيامة على الدواب ليوافوا المحشر، ويبعث صالح على ناقته وأبعث على البراق ويبعث أبناء الحسن والحسين على ناقتين من نوق الجنة، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة فينادي بالأذان محضاً بالشهادة حقاً حتى إذا قال أشهد أن محمد رسول الله شهد له المؤمنون من الأولين والآخرين فقبلت ممن قبلت وردت لمن ردت».

تنبيه: جزم الحليمي والغزالي بأن الذين يحشرون ركباناً يركبون من قبورهم ومال الأسماعيلي إلى أنهم يمشون إلى المواقف ويركبون من ثمة جميعاً بينه وبين حديث الصحيحين والترمذي عن ابن عباس أنه قال: قام رسول الله ﷺ وقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة مشاة غراة غرلاً ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الآية، وأول من يكسى من الخلائق إبراهيم عليه السلام»[١] وكذا أخرج الشيخان عن عائشة والطبراني عن سودة بنت زمعة وأم سلمة، وسهل بن سعد والحسن بن علي والبزار عن ابن مسعود وليس في تلك الأحاديث قراءة الآية ولا قوله «أول من يكسى إبراهيم» وزاد في تلك الأحاديث أنه قالت بعض نسائه وأسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض قال: شغل الناس عن ذلك لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ونحو ذلك والله أعلم.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير فيه للعباد المدلول عليها بذكر القسمين وجملة لا يملكون إما حال من المتقين والمجرمين وإما مستأنفة ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يعني إلا من تحلى بما يستعد به ويستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان والعمل الصالح على ما وعد الله حيث قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢] وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[٣] قال ابن صالح عن ابن عباس يشفعهم في إخوانهم ويزيدهم من فضله في إخوان إخوانهم، أو المعنى إلا من اتخذ من الله إذناً في الشفاعة نظيره قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٤] يقال: عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به ومحل

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحشر (٢٤٢٣).
(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

الموصول الرفع على البدل من الضمير أو النصب على الاستثناء وجاز أن يكون المستثنى مفرغاً ويكون الواو في يملكون علامة الجمع لا الضمير مثل أكلوني البراغيث أي لا يملك الشفاعة أحد إلا من اتخذ، قيل: المراد بمن ﴿ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ من قال لا إله إلا الله، فإن الله وعد المؤمنين بالمغفرة حيث قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾[١] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٢] وقال ﷺ: «حق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به»[٣] متفق عليه من حديث معاذ ومحل الموصول حينئذ النصب على تقدير المضاف تقديره: لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا على أن الشفاعة مضاف إلى المفعول، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[٤] وقيل: الضمير للمجرمين ويكون الشفاعة مصدراً مبنياً للمفعول والاستثناء وحينئذ منقطع والمعنى لا يملك المجرمون أن يشفع لهم لكن المؤمنين يشفع لهم.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ۝٩٨﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي اليهود والنصارى وبعض العرب القائلون بأن الملائكة بنات الله، والضمير عائد إلى غير مذكور لشهرة هذا القول منهم كأنهم معلومون معهودون ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام في جميع المواضع من هذه السورة وفي الزخرف وسورة نوح، ووافقهما ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في سورة نوح

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٧.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠).
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

والباقون بفتحهما ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ﴾ أيها القائلون بهذا القول، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب تهديداً لكمال شناعة القول ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عباس يعني مكراً، وقال قتادة ومجاهد عظيماً في الإنكار، يقال أدنى الأمر وأدنى أثقلني وعظم علي، وقال البغوي الإد في كلام العرب أعظم الدواهي ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قرأ نافع والكسائي ها هنا وفي ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ بالياء التحتانية لتقدم الفعل وكون التأنيث غير حقيقي، والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحفص والكسائي وأبو جعفر بالياء التحتانية والتاء الفوقانية وفتح الطاء المشددة من التفعل، والباقون بالنون وكسر الطاء مخففة من الأفعال، يقال انفطر الشيء وتفطر أي تشقق والتفعل أبلغ لأنه مطاوع للتفعيل بخلاف الانفعال فإنه مطاوع للمجرد لأن أصل التفعل التكلف ﴿مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تنكسر كسراً في القاموس الهد الهدم الشديد والكسر قيل معنى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يسقطن عليهم وتنشق الأرض أي تخسف بهم وتخر الجبال هدا أي تنطبق عليهم بضم الواو وسكون اللام وبفتحهما على ما مر من الخلاف، وأن مع صلتها في محل النصب على العلة على حذف المضاف وإيصال الفعل إليه تقديره كراهة أن دعوا، أو على الظرفية متعلقاً بيتفطرن وتنشق وتخر على سبيل التنازع، أو في محل الجر بإضمار اللام أو بإبدال من الضمير في منه، أو الرفع على أنه خبر محذوف تقديره الموجب لذلك: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أو فاعل هدا أي هدها ادعاء الولد وهو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين وإنما اقتصر على الثاني ليحيط بكل ما ادعي له، أو من دعا بمعنى نسب الذات مطاوعه ادعى إلى فلان إذا انتسب إليه، قال ابن عباس وكعب فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة وأسعرت جهنم حين قالوا ولد الله، وقيل: معناه إن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لولا حلم الله لخرب العالم وبدد قوائمه غضباً على من تفوه بها ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ انبغي ينبغي مطاوع البغي إذا طلب ومعناه ما يتأتى ﴿لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي ما يتطلب لوطلب فرضاً يعني ليس هذا إذا خلا تحت القدرة لكونه مستحيلاً غير ممكن، أو المعنى لا يليق ذلك لعلو شأنه فإنه نقض بالإضافة إليه وهو منزه عن المناقص وعما لا يليق به، قال البيضاوي لعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عده نعمة ومنعم عليه فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها ومولى أصولها وفروعها، فكيف يمكن له أن يتخذ ولداً ثم صرح به في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من نكرة موصوفة بالظرف وكل مبتدأ المستثنى والمفرغ خبره يعني ما منهم أحد ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ أي إلا وهو مملوك

مخلوق له ويأوى إليه بالعبور والانقياد ويأتيه يوم القيامة ذليلاً، والعبودية المجازية ينافي البنوة ولذلك من ملك ابنه عتق عليه فكيف العبودية الحقيقية المساوية للمخلوقية، وإفراد آتي وعبداً حملاً على لفظة كل ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون من علمه وقدرته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يعني عدَّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأحوالهم وأرزاقهم فإن ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[١] ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ منفرداً عن الأتباع والأنصار وليس معه شيء مما في الدنيا.

أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف أنه لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ يعني محبة في قلوب المؤمنين أو محباً يحبهم، قال في القاموس الود والواد الحب ويثلثان يعني يقرآن بكسر الواو وفتحها وضمها، والود أيضاً المحب ويثلث كالوديد الكثير الحب وفيه تسلية لعبد الرحمن بن عوف ووعد له بأن يجعل الله له محبين من المؤمنين بدلاً من الكافرين، وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعني يجعل الله تعالى محبته في قلوب المؤمنين وسائر الخلائق غير الكافرين قال رسول الله ﷺ: «من كنت ولاه فعلي مولاه»[٢] رواه أحمد وابن ماجه عن البراء وأحمد عن بريدة والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم، وقال عليه السلام: «ذكر علي عبادة» رواه صاحب مسند الفردوس عن عائشة وفي لفظ «حب علي عبادة» قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله العبد قال لجبرائيل قد أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبرائيل ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»[٣] رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، قلت: ويمكن تأويل هذه الآية أن الله تعالى يتخذه محباً لنفسه قال الله تعالى: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[٤] الحديث ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ الباء بمعنى على أو هي على أصله وعدى يسرناه

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٨.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٧٢٢)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٢١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده (٢٦٣٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

لتضمنه معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك وهو على هذا حال أي متلبساً بلغتك، قلت: ويمكن أن يقال تقديره يسرناه على أنك متلبساً بإذنك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الضمير المنصوب في يسرناه والمجرور في به راجع إلى القرآن ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ أشداء الخصومة الذين يختارون النار مع وضوح الحق تعصباً وخصومة وعناداً، وقال الحسن معناه صم عن الحق، وقال مجاهد الألد الظالم الذي لا يستقيم، وقال أبو عبيدة الألد الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل، الحصر إضافي يعني ما أنزلنا القرآن لتتعب نفسك وتنجها إن لم يؤمنوا إنما أنزلناه لتبشر وتنظر ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي كفار قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تخويف للكافرين وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ بإحدى الحواس الخمس، وقيل: معناه هل ترى وقيل: هل تجد وقيل: هل تشعر ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ الركز الصوت الخفي وأصل التركيب للخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض والركاز المال المدفون والله أعلم. تمت تفسير سورة المريم ويتلوه سورة طه إن شاء الله تعالى يوم الأثنين خامس صفر من السنة الثالثة بعد الألف والمائتين سنة ١٢٠٣.

سورة طه

مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

﴿طه ﴿١﴾﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بإمالة فتح الطاء والهاء وورش وأبو عمرو بإمالة الهاء خاصة والباقون بفتحهما، وهما من أسماء الحروف وقد مرَّ الكلام عليها في أوائل سورة البقرة وقيل هو اسم من أسماء الله تعالى وهو قسم كقوله ﷺ: «حم لا ينصرون»[١] أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال ليلة الخندق: «حم لا ينصرون» وقال مقاتل بن حبان: معناه في الأرض بقدميك ويريد في التهجد، أخرج ابن مردويه في تفسيره عن علي رضي الله عنه وأخرج البزار عنه أنه قال: لما نزل على النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ قام الليل كله

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الشعار (١٦٨٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في الرجل ينادي بالشعار (٢٥٩٥).

حتى تورمت قدماه فجعل يرفع رجلاً ويضع أخرى فهبط عليه جبرائيل فقال: طه على الأرض بقدميك يا محمد كذا قرىء، فعلى هذا أصله طأ من وطايطأ فقلبت الهمزة هاء وقلبت الهمزة في يطأ ألف ثم بني عليه الأمر وضم إليه هاء السكت ويحتمل أن يكون ألف طأ مبدلةً من الهمزة والهاء ضمير راجع إلى الأرض لكن يرد على هذا كتابتها على صورة الحروف وقال مجاهد وعطاء والضحاك معناه يا رجل، وقال قتادة هو يا رجل بالسريانية، وقال الكلبي هو يا إنسان بلغة عك، فعلى هذا خطاب النبي ﷺ ولهذا عدوا طه من أسماء النبي ﷺ لكونه كناية عنه، قال البغوي قال الكلبي لما نزل على رسول الله ﷺ الوحي بمكة اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه فيراوح بين قدميه إذا قام على أحدهما مرة قام على الأخرى مرة وكان يصلي الليل كله فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره أن يخفف على نفسه فقال:

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ أي لتتعب، في القاموس الشقاء الشدة والعسر ولبد، وقال الجوهري الشقاوة خلاف السعادة، وكما أن الشقاوة ضربان دنيوية وأخروية كذلك السعادة ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب نفسية وبدنية وخارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب، والمراد في هذه الآية الشقاوة الدنيوية البدنية وهو التعب، وقال بعضهم قد يوضع الشقاء موضع التعب، وقال البيضاوي الشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقى من ربض المهر وسيد القوم أشقاهم ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أنزل عليه أي سعد، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى، فأنزل الله ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع أخرى فأنزل الله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ وقيل هذه الآية رد لقول الكفار وتكذيب لهم حين رأوا اجتهاد رسول الله ﷺ في العبادة فقالوا ما أنزل القرآن عليك يا محمد إلا لشقائك فنزلت هذه الآية. وجاز أن يكون مراد الكفار ونسبة الشقاوة إلى أسعد الناس نظراً منهم أنه ترك دين الآباء فشقى فرد الله عليهم قولهم وبين سعادته بما أنزل عليه تذكرة ممن اتصف بصفات الكمال، يدل عليه ما أخرج ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس قال: قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه فنزلت: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ وجاز أن يكون معنى الآية: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لتتعب وتبخع نفسك لفرطة أسفك على كفر قومك إذ ليس عليك إلا تبليغهم، وجملة ما أنزلنا خبر طه إن جعلته مبتدأ على أنه ما دل بالسورة أو القرآن ولفظ القرآن فيها واقع موقع العارض، وجواب إن جعلته

مقسماً به، ومنادٍ له إن جعلته منادى واستئناف إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدأ أو طائفة من الحروف محكية.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ استثناء منقطع يعني لكن تذكيراً، ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل لتشقى لاختلاف الجنسين ولا مفعولاً له لأنزلناه لأن الفعل الواحد لا يتعدى إلى العلتين، وجاز أن يكون مستثنى مفرغاً منصوباً على العلية لفعل محذوف من جملة مستأنفة تقديره ما أنزلناه إلا تذكرة وقيل هي مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن أو مفعولاً له على أن لتشقى متعلق بمحذوف هو صفة للقرآن تقديره ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه لغرض إلا تذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي لمن كان في قلبه خشية ورقة تلين بالإنذار، أو لمن علم الله منه أن يخشى بالتخريف فإنه هو المنتفع به ﴿تَنزِيلًا﴾ منصوب بإضمار فعله أو يخشى أو على المدح أو على البدل من تذكرة أن جعل حالاً لا إن جعل مفعولاً له لفظاً أو معنى لأن الشيء يعلل نفسه ولا بنونه ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ متعلق بتنزيلاً أو صفة له، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناداً وإنزاله إلى ضمير الواحد العظيم شأنه ونسبته إلى المختص بالصفات والأفعال العظيمة فذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلى وهي جمع العليا تأنيث الأعلى.

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ مر تفسيره في سورة يونس ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة والكواكب والجبال والأنهار ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الجبال والأنهار والأشجار والمعادن والحيوانات والجن والإنس والشياطين والملائكة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الهواء والرياح والسحاب والرعد والبرق وغير ذلك ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ وهو التراب الندي في الحديث «فإذا كلب يأكل الثرى من العطش» يقال ثرى التراب إذا رش عليه الماء، قال البغوي قال الضحاك: يعني ما وراء الثرى من شيء، قال ابن عباس أن الأرضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منهما وهي الصخرة التي ذكر الله في قصة لقمان ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾[1] والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم تحتها إلا الله عز وجل وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله البحار بحراً واحداً سالت في جوف ذلك الثور فإذا وقعت في جوفه

(١) سورة لقمان، الآية: ١٦.

يبست. الرحمن مبتدأ ما بعده خبره أو مرفوع على المدح وما بعده خبر محذوف أو الرحمن خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن وجملة ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وجملة ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أخبار مترادفة بغير عاطف نحو زيد عالم عاقل، وجملة هو الرحمن على آخره بعد ذكر خلق الأرض والسموات العلى إما مستأنفة في جواب بين لنا صفته وإما مؤكدة لمضمون جملة فخلق.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ قال البيضاوي تقديره إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غنى عن جهرك فإنه يعلم السر وأخفى وعندي تقديره إن تجهر بالقول أي بذكر الله ودعائه أو تخافت به فالله يعلمه ويجيبه ويثيب عليه فإنه أي لأنه يعلم والسر وأخفى فضلاً من الجهر، حذف أو تخافت به لدلالة سياق الكلام عليه كما حذف من قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[1] قوله والبرد، قال البغوي قال الحسن السر ما أسر الرجل إلى غيره وأخفى من ذلك ما أسر في نفسه، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير السر ما يسر في نفسه وأخفى من السر ما يلقى الله في قلبك من بعد ولا تعلم أنه سيحدث به لأنك تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر به غداً، والله عليم ما أسررت اليوم وما تسر غداً، وقال علي بن طلحة عن ابن عباس: السر ما أسر ابن آدم في نفسه وأخفى ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعمله، وقال مجاهد السر العمل الذي تسرون من الناس وأخفى الوسوسة، وقيل: السر العزيمة وأخفى ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه، وقال زيد بن أسلم يعلم السر أخفى سره من عباده فلا يعلمه أحد، وقالت الصوفية العلية السر وأخفى من المجردات الخمسة ترى بنظر الكشف فوق العرش وتتجلى برزاتها في بدن الإنسان وهي القلب والروح والسر والخفي والأخفى، فالقلب مهبط التجليات الولاية الآدمية والروح لولاية النوحية والإبراهيمية والسر لولاية الموسوية، والخفي لولاية العيسوية، والأخفى لولاية المحمدية عليه وعليهم الصلوات والتسليمات الله لا إله هو مبتدأ وخبر ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ خبر ثان والجملة الكبرى مؤكدة مقررة لمضمون له ما في السموات إلى آخره، لأن من له ملك السموات والأرض لا يجوز إلا أن يكون متوحداً بالألوحية متصفاً بجميع صفات الكمال التي يدل عليها الأسماء الحسنى التي لا يمكن الاتصاف بها لغيره، والحسنى تأنيث الأحسن، وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالتها على معان هي أشرف المعانى وأفضلها، وقد ذكرنا بحث أسماء الله

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨١.

الحسنى في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1].

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ استفهام تقرير أي قد أتاك والجملة معطوفة على مضمون ما سبق من الكلام أعني قوله: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ فإنه مضمونه لكن أنزلناه تذكرة أو قوله تنزيلاً يعني نزل تنزيلاً يعني أتاك القرآن وأصبت تعب العبادة ونلت أصناف السعادة، وقد أتاك حديث موسى متضمناً ما أصابه من التعب وما ناله من الدرجات، فالله سبحانه بعد تمهيد نبوته ﷺ ذكر قصة موسى، ليأتم به في تحملأحياء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاسات الشدائد فإن هذه السورة من أوائل ما نزل ﴿إِذْ رَءَا﴾ ظرف لحديث موسى يعني هل أتاك ما وقع من حادثة موسى وقت رؤيته ناراً، أو الفعل مضمر أي حين رأى ناراً كان كيت وكيت، أو مفعول لا ذكر مقدر. قال البغوي وذلك أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً عليه السلام في الرجوع إلى مصر لزيارة والدته وأخيه فأذن له، فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته في شهرها لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق فقدح زبنذة فلميوره، وقيل إن موسى كان رجلاً غيوراً فكان يصحب الرفقة بالليل ويفارقهم بالنهار لئلا ترى امرأته، فأخطأ مرة الطريق في ليلة مظلمة لما أراد الله عز وجل كرامته، فجعل يقدح الزند ولا يورى فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أقيموا مكانكم خطاب لامرأته والرفقة، وقيل خطاب لامرأته بتأويل الأهل على سبيل التعظيم لكونها ابنة شعيب، قرأ حمزة لأهله امكثوا هُنا وفي القصص بضم الهاء في الوصل والباقون بكسرها فيه ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها إبصاراً لا شبهة فيه وقيل الإيناس إبصار مايونس به ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ قرأ الكوفيون بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي شعلة نار تقتبس أي تطلب من معظم النار كذا في القاموس جملة مستأنفة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين فإن أفكار الأبرار مائلة إليها في ما يعن لهم، ولما كان حصولها مترقباً غير مقطوع به أورد كلمة الترجي بخلاف الإيناس فإنه كان محققاً ولذلك حققه ومعنى الاستعلاء في على النار أن أهلها مشرفون أو مستعلون المكان القريب منها، كما أن قوله مررت بزيد الباء للصوق مروره بمكان يقرب منه زيد.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ ظرف لنودي. قال البغوي: رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها أطافت ناراً بيضاء تتقدكأ ضوء ما يكون، فلا ضوء يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار. قال ابن مسعود كانت الشجرة سمرة خضراء، وقال قتادة ومقاتل والكلبي كانت من العوسج، وقال وهب كانت من العليق، وقيل: كانت شجرة العناب، روي ذلك عن ابن عباس. قال أهل التفسير لم يكن الذي رآه موسى ناراً بل كان نوراً ذكر بلفظ النار لأنه موسى عليه السلام حسبه ناراً وقال أكثر المفسرين أنه نور الرب وهو قول ابن عباس وعكرمة وغيرهما، قال سعيد بن جبير هي النار بعينها وهي أحد حجب الله عز وجل، يدل عليه ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» كذا قال البغوي لكن في صحيح مسلم وسنن ابن ماجه «حجابه النور»[1] قلت: النور هو ما لطف من النار بحيث لا يحرق فالمآل واحد، وفي القصة أن موسى أخذ شيئاً من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا ناءت منه النار، وإذا نأى دنت، فوقف متحيراً وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح همزة أني أي بأني وكسر الباقون بإضمار القول أو بإجراء النداء مجراه وتكرير الضمير للتأكيد والتحقيق، قال البغوي قال وهب نودي من الشجرة فقيل يا موسى فأجاب سريعاً ما يدري من دعا فقال إني أسمع صوتك ولا أدري مكانك فأين أنت، قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لله عز وجل فأيقن به، قال البيضاوي قيل: إنه لما نودي قال من المتكلم؟ قال: إني أنا الله فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع الجهات وجميع الأعضاء وهو إشارة إلى أنه عليه السلام تلقى من ربه كلاماً تلقياً روحانياً ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ قيل أمر بذلك لكون الحفوة تواضعاً لله تعالى، وقال البغوي كان السبب فيه ما روي عن ابن مسعود مرفوعاً قال: كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ، وقال عكرمة ومجاهد أمر بخلع النعلين ليباشر بقدميه تراب

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» (١٧٩)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٩٦).

الأرض المقدسة فتناله بركتها لأنه قد سمت مرتين فخلعهما موسى وألقاهما وراء الواد ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ أي المطهر ﴿طُوًى﴾ قرأ أهل الكوفة والشام بالتنوين ها هنا وفي سورة النازعات بتأويل المكان، وقيل: هو مثنى من الطي مصدر لنودي أو لمقدس أي نودي ندائين أو قدس مرتين، قلت أصل الطي الدرج وجعل الشيء بعضه على بعض فلأجل هذه المشابهة استعمل بمعنى التثنية وقرأ الباقون بلا تنوين للعلمية والعدل لأنه علم للوادي معدول عن طاو، أو التأنيث مع العلمية بتأويل البقعة عطف بيان للوادي، قال الضحاك وادي طوى مستدير عميق مثل الطور في استدارته، وقيل: طوىً بالتنوين مصدر قائم مقام فعله حال من الضمير المرفوع المستكن في التطرف الراجع إلى المخاطب وهو موسى، وهو إلى حالة حصلت له على طريق الاجتباء فكأنه طوى عليه أي قطع عليه مسافة لو اجتهد في قعطها لبعد عليه غاية البعد.

قالت الصوفية العلية: عروج القلب إلى أصله أي إلى فوق العرش لو حصل بالاجتهاد فرضاً لحصل في مدة خمسين ألف سنة بل أكثر فإن المسافة بين الأرض إلى العرش خمسين ألف سنة وهي المكنية بقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] لكن ذلك العروج إنما يحصل بجذب الشيخ على سبيل الاجتباء قال العارف الرومي قدس سره.

سير وابدبرث يكب روزه راه سير عارف بروت ناتخت شاه

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ للنبوة والرسالة واصطفيتك قرأ حمزة وإنا مشددة النون واخترناك على التعظيم ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك اللام متعلق بكل من الفعلين على سبيل التنازع ﴿إِنَّنِىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ ولا تعبد غيري، الجملة بدل من ما يوحى دال على أنه مقصور على تقدير التوحيد الذي هو كمال العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تخصيص بعد تعميم لكمال الاهتمام بها وعلو منزلتها في سائر العبادات قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين»[2] رواه أبو نعيم والبيهقي عن عمرو صاحب مسند الفردوس عن علي رضي الله عنه بلفظ

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وقال الحافظ العراقي: فيه ضعف وانقطاع، وقال ابن الصلاح غير معروف.

انظر فيض القدير (٥١٨٥).

«الصلاة عماد الإيمان» وابن عساكر عن أنس بلفظ «الصلاة نور الإيمان»، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت النبي ﷺ: «أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال الصلاة»[(١)] روى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»[(٢)] وروى أحمد وأصحاب السنن عن بريدة نحوه وروى أحمد والدارمي والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: «أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي ابن خلف» وروى الترمذي عن عبد الله بن شقيق قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة[(٣)]، وبناءً على ظاهر هذه الأحاديث قال أحمد بن حنبل من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر، وأيضاً وجه كونها أفضل العبادات أنها حسنة لذاتها بخلاف أكثر العبادات فإن الصوم لأجل قهر النفس الأمارة بالسوء والزكاة لدفع حاجة الفقير والحج لتعظيم البيت ونحو ذلك، وللدلالة على كونها حسنة لذاتها ذكر الله علة للأمر بإقامتها فقال ﴿لِذِكْرِيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها، أي لتذكرني فيها فإن الصلاة بجميع أجزائه ذكر له تعالى واشتغال به بالقلب واللسان والجوارح، وقيل معنى لذكري لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها فيها، وقيل: معناه لأن أذكرك بالرحمة والثناء قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[(٤)] متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقيل: هذا تقييد وليس بتعليل للأمر بالإقامة ومعناه أقم الصلاة لذكري خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري، وقيل معناه لأوقات ذكري والآية على هذا مجمل ورد بيانه في موضع آخر بما قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[(٥)] ونحو ذلك، وبحديث إمامة جبرائيل المشهور، وقيل: معناه أقم

(١) لفظ الحديث «الصلاة على وقتها».
أخرجه البخاري في كتاب «مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها (٥٠٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٢).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢٢).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحض على التوبة والفرح بها (٢٦٧٥).
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

الصلاة لذكر صلاتي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاةً أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها»[١] وفي رواية «لا كفارة لها إلا ذلك» قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ متفق عليه، وعن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾»[٢] رواه مسلم.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ الجملة في مقام التعليل للأمر بالعبادة أو مستأنفة لبيان فائدتها أو معترضة للترتيب، وقال البغوي قيل معناه إن الساعة آتية أي بتقدير حرف العطف ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ قال الأخفش معناه أريد أخفيها أي أخفي وقتها، وقال البغوي لفظة كاد زائدة والمعنى أخفي وقتها، وقيل معناه: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ فلا أقول أنها آتية ولولا ما في الأخبار من اللطف بالعباد قطع الأعذار لما أخبرت بإتيانها، نظيره قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾[٣] يعني لولا حلم الله لتفطرت السموات على القائلين باتخاذ الولد، قلت لعل فيه إشارة إلى أن الإيمان بالله وعبادته في مرتبة من الفضل والحسن والشرف كان حقيقاً بين يكونان مقصودين للناس بذاتهما لا لغرض وغاية وإتيان الساعة المشتملة على الجنة والنار وإن كان من لوازم إتيانهما وعدم إتيانهما وثمراتهما المترتبة عليهما، لكن الإيمان في نفسه عز وشرف لا بد من إتيانه، والكفر في نفسه ذل وخسران لا بد من التحرز عنه فلولا أخبر الله تعالى بإتيان الساعة لم يكن إيمان من آمن بالله طمعاً في الجنة أو خوفاً من النار بل خالصاً لوجه الله، ومن ها هنا قال رسول الله ﷺ: «نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»[٤] رواه، يعني لم يعصه لو لم يخف عذاب الله ولم تكن النار، وقالت الرابعة البصرية أريد أن أحرق الجنة وأطفىء النار حتى يعبد الناس الله خالصاً لوجهه من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من نسي الصلاة فليصل إذا ذكرها ولا يعيد إلا تلك الصلاة (٥٧٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاءالصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨٤).

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٠.

(٤) اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب المعاني من حديث عمر وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ.
قال السبكي: لم أظفر به بعد، وقال في المقاصد نقلاً عن ابن حجر أنه ظفر به في مشكل الحديث لابن قتيبة من غير إسناد.
انظر: كشف الخفاء (٢٨٣١).

غير خوف وطمع لكن الله سبحانه أخبر بإتيانها لطفاً بالعباد وقطعاً لأعذار الكفار وأكثر المفسرين قالوا معناه أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها أي يعلم وقتها غيري، ويؤيد هذا التأويل أن في بعض القراءات فكيف أظهرها لكم، وهذا الكلام على عادة العرب أنهم إذا بالغوا في كتمان الشيء قالوا كتمت سرك من نفسي أي أخفيه غاية الإخفاء، والحكمة في الإخفاء التهويل والتخويف لا لهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت، وقيل: معناه أكاد أظهرها من أخفاه إذا سلب خفاه، قال البيضاوي يؤيد هذا المعنى القراءة بفتح الهمزة، قال البغوي قرأ بفتح الألف ومعناه أظهرها يقال خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا سترته كذا في النهاية للجزري. فإن قيل إذا كان الخفاء المجرد بمعنى الإظهار وهمزة الإخفاء للسلب فكيف يكون معنى الإخفاء على القراءة المتواترة الإظهار وكيف يؤيدها قراءة الحسن؟ قلت: المجرد قد يكون بمعنى الإظهار وقد يكون بمعنى الستر، قال في القاموس خفي يخفى يعني مثل رمى يرمي خَفياً وخُفياً ظهره واستخرجه كاختفاه وخفي يخفى كرضي يرضي خفاء فهو خاف وخفي لم يظهر، فعلى هذا إذا زيد همزة الأفعال على المجرد المفتوح العين في الماضي ومكسوره في الغابر كان معناه الستر وسلب الإظهار كما هو المشهور وإذا زيد على مكسور العين في الماضي كان معناه الإظهار وسلب الستر ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلق بآتية أو بأخفيها على معنى أظهرها وكذا على معنى أكاد أخفي إتيانها فلا أقول آتية يعني لا أخبر بإتيانها حتى تجزي كل نفس عملت حباًلله من غير طمع في الجنة وخوف من النار بجزاء ما تسعى وذلك الجزاء هو لقاء الله ومراتب قربه.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي لا يصرفنك عن لقاء الله أو عن الإيمان بإتيان الساعة أو عن إقامة الصلاة أو عن العمل للساعة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ نهى الكافر من أن يصد موسى عنها والمراد منه نهيه عليه السلام من أن ينصد عنها بصده، كقوله لا أرينك ههنا تنبيهاً على أن الفطرة السليمة يأبى عن الإعراض عنها ويقتضي الرسوخ في الدين وإن زيادة (صد) الكافر إنما هو لاعوجاج فيه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فمال إلى اللذات المحسوسة الفانية، وكف نظره عن درك ما فيها من الشر وعن اعتقاد العقاب عليها عطف على ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ أو حال بتقدير قد من فاعله ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك بالانصداد منصوب بتقدير أن بعد الفاء في جواب النهي.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهام تقرير استيقاظاً وتنبيهاً على أنها عصا حتى يظهر كونها معجزةً عظيمةً إذا رأى منها عجائب كلمة ما مبتدأ وتلك خبره وهي بمعنى هذه وقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال منها والعامل فيه معنى الإشارة أي قارة أو مأخوذة بيمينك أو تلك موصول صلة بيمينك ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ قال البغوي وكانت له شعبتان وفي أسفلها أسنان ولها محجن، قال مقاتل اسمها تبعة ﴿أتوكأ﴾ أعتمد ﴿عَلَيْهَا﴾ إذا أعييت وعند الوثبة وإذا وقفت على رأس القطيع ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ أي أضرب بها الشجرة ليسقط ورقها ﴿عَلَىٰ﴾ رؤوس ﴿غَنَمِى﴾ كي تأكلها، في القاموس هش الورق يهش خبطه إذا ضر به ضرباً شديداً ﴿وَلِيَ﴾ قرأ ورش وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ حاجات أي قضاؤها ﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لمآرب والقياس آخر وإنما قال أخرى رد إلى الجماعة لرعاية رؤوس الآي وكذا الكبرى، وذلك المآرب أن يلقيها على عاتقه فيعلق بها أداواته وزاده وأن يعرض الزندين على شعبيتها ويلقي عليها السكاء ويستظل به وإذا قصر الرشاء يصل به، وإذا تعرضت السباع لغنمه يقاتل به، قال البيضاوي كأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال أن يتذكر حقيقتها وما يرى من منافعها حتى إذا رأى بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى استيقن كونها خارقة للعادة ولأجل ذلك ذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجملاً، ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه، ومعنى الكلام أنها من جنس العصا ينتفع عنها منافع أمثالها، وقال بعض أهل العشق أن موسى عليه السلام زاد على قدر الجواب بقوله عصاي وبسط في الكلام التذاذاً بمكالمة المحبوب ثم أجمل ولم يفصل جميعها أدباً وخوفاً من تطويل الكلام.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ يعني اطرح عصاك نتفرغ مما تتكىء ولا تتكىء الأنبياء، وترى كنه ما فيها من المآرب، قال وهب ظن موسى أنه تعالى يقول ارفضها ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ موسى على وجه الرفض ثم حانت منه نظره ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تمشي بسرعة

على بطنها، وقال الله سبحانه في موضع آخر ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[١] وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم، وقال في موضع آخر ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾[٢] وهو أكبر ما يكون من الحيات، وأما الحية فإنها تطلق على الصغيرة والكبيرة والذكر والأنثى، فقيل في تطبيق الآيات أن الجان عبارة عن ابتداء حالها فإنها صارت أولاً على قدر العصا ثم تورمت وتنفخت حتى صارت ثعباناً في انتهاء حالها، وقيل: إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان قال كأنها جان ولم يقل فإذا هي جان كما قال فإذا هي ثعبان مبين، قال محمد بن إسحاق نظر موسى فإذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات صارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقاً وعرفاً تهتز كالنيازك، وعيناها تتقدان كالنار، تمر بالصخرة العظيمة مثل الحلقة من الإبل فتلقمها، وتقصف الشجرة العظيمة بإتيانها، وسمع لأسنانها صريفاً عظيماً فلما عاين ذلك موسى ولي مدبرا وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياءً منه، ثم نودي ﴿قَالَ﴾ الله تعالى يا موسى أقبل و﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ أي هيئاتها وحالاتها ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ كما كانت والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وقوله: سِيرَتَهَا بدل اشتمال من الضمير المنصوب في سنعيدها أي سنعيد سيرتها، وقيل لنفعها بها بنزع الخافض تقديره إلى سيرتها أو يقال على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سَنُعِيدُهَا في سيرتها، أو على المصدرة بتقدير فعلها أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى، أو على طريقة ضربته سوطاً، أي سنعيدها بسيرتها الأولى، أو مفعول ثان لنعيدها بتضمين معنى الجعل، أي سنعيدها ونجعلها ذات سيرتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع بها.

قال البغوي: كانت على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيدان، فلما قال الله خذها لف طرف المدرعة على يده، فأمر الله أن يكشف يده فكشف، وذكر بعضهم أنه لما لف المدرعة على يده قال له ملك أرأيت لو أذن الله بما تحاذره، أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا لكني ضعيف من ضعف خلقت، فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت، ويده في شعبيتها في الموضع الذي كان يعضها إذا توكأ،

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٣٢.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٠ ـ ١١.

قال المفسرون أراد الله أن يرى موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون، قال البغوي روي عن ابن عباس أن موسى كان يحمل على عصاه زاده وسقاه فكانت تماشيه وتحدثه، وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومه ويركزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء ولو اشتهى ثمرة ركزها فتعصف غصن تلك الشجرة وأورقت وأثمرت، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو حتى يستقي وكانت تضيء بالليل بمنزلة السارج، وإذا ظهر عدو كانت تحارب وتناضل عنه.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ﴾ أي كفك اليمنى ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ قال البغوي يعني إبطك اليسرى وقال قال مجاهد: تحت وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطيه، قال البيضاوي هو استعارة من جناح الطائر سمّيا بذلك لأنه يجنحهما أي يميلهما وفي القاموس الجوانح الضلوع تحت الترائب عما يلي الصدر واحدتها جانحة والجناح اليد والعضد والإبط ﴿تَخْرُجْ﴾ تقديره اضمم يدك إلى جناحك وأخرج تخرج فهو مجزوم على جواب الأمر ﴿بَيْضَآءَ﴾ منيرة مشرقة حال من الضمير المستكن في تخرج ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير عيب وقبح كنى به عن البرص لأن الطباع تعافه متعلق ببيضاء يعني ابيضت من غير سوء، قال البغوي قال ابن عباس كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر ﴿ءَايَةً﴾ أي معجزة دالة على صدقك في دعوى النبوة حال ثان من الضمير المستكن في تخرج أو من الضمير في بيضاء أو مفعول بإضمار خذ أو دونك ﴿أُخْرَىٰ﴾ سوى العصا ﴿لِنُرِيَكَ﴾ متعلق بالمضمر أعني خذ أو دونك أو بما دل عليه الآية أو القصة، أي بها وفعلنا ذلك لنريك ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ صفة لآياتنا ولم يقل الكبر لرؤوس الآي أو مفعول ثان لنريك ومن آياتنا حال منها، وقيل فيه إضمار تقديره لنريك الآية الكبرى من آياتنا قال ابن عباس كانت يد موسى أكبر آياته ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بهاتين الآيتين فادعه إلى عبادتي ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحد في العصيان والتمرد حتى ادعى الألوهية جملة معللة لقوله: اذهب.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ﴾ أي يا رب ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ حتى يسع فيه المعارف الحقة التي لا يكفي في دركها عقول العقلاء ومنها درك أنه لا يقدر أحد غير الله سبحانه على شيء من الإنفاع والإضرار، فيذهب من قلبه مخافة فرعون وجنوده، ونظراً إلى ذلك قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف من فرعون خوفاً شديداً لشدة شوكته وكثرة جنوده ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَمْرِى﴾ يعني سهل علي إتيان ما وجب علي من تبليغ الرسالة وغير ذلك من التكاليف،

حتى يذهب عني كلفة التكاليف ومشاقها ويحصل للنفس لذة في تحمل شدائدها وفي إبهام المشروح والميَّسر أولاً ودفعه بذكر الصدور والأمر ثانياً تأكيد ومبالغة ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ الظرف إما صفة لعقدة أو صلة لاحلل، قال البغوي وذلك أن موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمةً وأخذ بلحيته فقال فرعون لآسية امرأته هذا عدوي وأراد أن يقتله، فقالت آسية إنه صبي لا يعقل ولا يميز وفي رواية أن أم موسى لما فطمته ردته فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته يربيانه واتخذاه ولداً، فبينما هو يلعب يوماً بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به، إذ رفع قضيباً فضرب به رأس فرعون، حتى هم فرعون بقتله، فقالت آسية أيها الملك إنه صبي لا يعقل جربه إن شئت، وجاءت بطشتين في أحدهما الجمروفي الآخر الجواهر فوضعهما بين يدي موسى، فأراد أن يأخذ الجواهر فأخذ جبرائيل يد موسى عليهما السلام فوضعها على النار فأخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن فرعون حمل موسى يوماً فأخذ بلحيته فنتفها فغضب وأمر بقتله فقالت آسية إنه صبي لا يفرق بين الجمرو الياقوت فأحضر بين يديه فأراد أخذ الجواهر فأخذ جبرائيل يده ووضعها على الجمرة ووضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ فإنما يحسن التبليغ من البليغ، واختلف في زوال العقدة بكمالها، فمن قال به تمسك بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ ومن لم يقل به احتج بقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[1] وبقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[2] وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة يمنع الإفهام ولذلك نكرها وجعل يفقهوا مجزوماً في جواب الأمر.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ معيناً وظهيراً مشتقاً من الوزر بمعنى الثقل لأنه يحمل الثقل عن الأمير، أو من الوزر بمعنى الملجأ من الجبل لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجىء إليه في أموره ومنه المؤازرة، وقيل: أصله أزير من الأزر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير بمعنى المعاشر والجليس بمعنى المجالس قلبت همزتها واواً لقلبها في موازر ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ إما صفة لوزيراً أوصلة لأجعل ﴿هَٰرُونَ﴾ مفعول أول لأجعل ووزيراً ثانيهما قدم للعناية به، ولي صلة أو حال وجاز أن يكون لي مفعولاً وزيراً ومن أهلي ولي تبيين كقوله: ﴿وَلَمْ

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٢.

يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴿أَخِى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها على الوجوه بدل من هارون أو مبتدأ خبره ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ قال في القاموس الأزر الإحاطة والقوة والضعف ضد التقوية والظهر فالمعنى قوية ظهري أو أشدد به قوتي أو قوّبه ضعفي ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ أي في أمر النبوة وتبليغ الرسالة، قرأ ابن عامر اشدد بفتح الألف القطعي واشركه بضم همزة القطع على صيغة المضارع المجزوم على أنه جواب الأمر، والجمهور بهمزة الوصل المضمومة في الابتداء، وفتح همزة القطع في الثاني على صيغة الأمر على أنه بدل اشتمال من قوله اجعل ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ﴾ تسبيحاً ﴿كَثِيرًا﴾ قال الكلبي أي نصلي لك كثيراً ﴿وَنَذْكُرَكَ﴾ زكراً ﴿كَثِيرًا﴾ فإن التعاون نهج الرغبات وتؤدي إلى تكاثر الخيرات ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ عالماً بأحوالنا وأن التعاون مما يصلحنا وأن هارون نعم المعين لي فيما أمرتني به.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي جميع مسؤلاتك فُعُلٌ بمعنى المفعول كالخبز بمعنى المخبوز والأكل بمعنى المأكول ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ جواب قسم محذوف أي والله لقد أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي في وقت آخر قيل ذلك وقيل هي هذه المرة ﴿إِذْ﴾ للتعليل وجاز أن يكون ظرفاً لمننا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ بإلهام أو في المنام أو على لسان نبي في وقتها أو ملكٍ لا على وجه النبوة كما أوحى إلى مريم.

فائدة: الوحي والنبوة التي التشريع مختص بالأنبياء وهم الرجال فحسب وهي التي انقطعت وختمت بخاتم النبيين محمد ﷺ، وأما الوحي الذي ليس للتشريع سواء كان بطريق الإلهام أو بكلام الملائكة كما كان لمريم فغير مختص بالأنبياء، بل يكون للأولياء أيضاً ولم ينقطع بعد النبي ﷺ، وكذا حصول كمالات النبوة بالتبعية قد يكون لغير الأنبياء أيضاً، قال الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي قدس سره في الفتوحات في الباب المائتين والسبعين إن النبوة وإن انقطعت في هذه الأمة بحكم التشريع فما انقطع الميراث منها فمنهم من يرث النبوة ومنهم من يرث رسالة ومنهم يرث النبوة والرسالة معاً، وما قال العلماء النبوة اختصاص النبي فالمراد منه نبوة التشريع بنصب الأحكام بوحي النبي، وهي التي عناها رسول الله ﷺ حيث قال: «إن النبوة والرسالة قد انقطعت فلا نبوة بعدي»(١) وقال الشيخ في آخر باب الصلاة من الفتوحات نحو ذلك وقال هناك وهؤلاء هم المقربون الذين قال الله فيهم ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾(٢) وقد ذكرت في تفسير سورة النساء وسورة الواقعة أن المراد بالمقربين هم الذين حصل لهم كمالات النبوة بالوراثة، فالوحي الذي ليس للتشريع وليس مختص بالأنبياء هو الذي عبر عنه رسول الله ﷺ بالتحديث حيث قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يكن من أمتي منهم أحد فإنه عمر»(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وأبو نعيم الموصلي في مسنده عن أبي هريرة، وعن عائشة وفي الصحيحين عن أبي هريرة بلفظ «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي أحد فعمر» ولأجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب»(٤) رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن حبان والحاكم وصححاه عن عقبة بن عامر والطبراني عن عصمة بن مالك وعن أبي سعيد الخدري وابن عساكر عن ابن عمر.

قال الشيخ الشعراوي في اليواقيت والجواهر: هل يكون الإلهام بلا واسطة فالجواب نعم قد يلهم العبد من الوجه الخاص الذي بين كل إنسان وبين ربه عز وجل،

---

(١) رواه الطبراني ورجاله ثقات.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة (١٧٢١).

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: (٣٤٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر (٢٣٩٨).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣٦٩٥).

فلا يعلم به الملك لكن هذه الوجهة يتسارع الناس إلى إنكاره ومنه إنكار موسى على خضر، فعلم أن الرسول والنبي يشهد أن الملك رؤية بصر، وغير الرسول يحس بأثره ولا يراه، فيلهم الله بواسطته ما يشاء أو يعطيه من الوجه الخاس بارتفاع الوسائط وهذا أجل الإلقاء وأشرفه ويجتمع في هذا الرسول والولي، ونقل الشيخ عبد الوهاب الشعراوي عن الشيخ أبي المواهب الشاذلي قدس الله سرهما أنه كان يقول في إنكار بعضهم على من قال حدثني قلبي عن ربي لا إنكار عليه لأن المراد أخبرني قلبي عن ربي بطريق الإلهام الذي هو وحي الأولياء، وهو دون وحي الأنبياء ﷺ ولا إنكار إلا على من قال كلمني ربي كما كلم موسى ﷺ انتهى كلامه، قلت: الولي أيضاً قد يشهد الملك رؤية بصر كما رأت مريم جبرائيل ﷺ حين تمثل لها بشراً سويا والله أعلم.

﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ أي ما لا يعلم إلا بالوحي أو مما ينبغي أن يوحي لعظم شأنه وشدة اهتمامه ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ إن مفسره لما يوحى لأن الوحي بمعنى القول، أو مصدرية بتقدير الباء أي أن اقذفي موسى أي ألقيه ﴿فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يعني نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أي الجانب سمي ساحلاً لأن الماء يسحله أي يقسره، أورد صيغة الأمر لتناسب ما تقدم ومعناه الإخباري يلقيه اليم بالساحل وإنما عطف نظراً إلى التناسب اللفظي، وقيل: هو أمر بمعناه هو أمر للبحر معطوف على أمر لأم موسى كما يقال أحسن إلى زيد وليحسن زيد إليك، وقيل: هو معطوف على أوحينا بتقدير قلنا تقديره أوحينا إلى أم موسى كذا، فقلنا ليلقه اليم بالساحل، قلت: إن كان الأمر بمعنى الخبر فهو داخل في الوحي وإن كان بمعنى الأمر للبحر فلا حاجة إلى تقدير قلنا وجاز حينئذ عطفه على فأقذفيه في اليم. فإن قيل: كيف يتصور الأمر للبحر والبحر مما لا يعقل؟ قيل: هو أمر تكوين لا يشترط له التعقل، وقال البيضاوي لما كان إلقاء البحر إياه إلى الساحل أمراً واجباً لتعلق إرادة الله به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطلع على أمره بذلك، وأخرج الجواب مخرج جواب الأمر فقال ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني فرعون، وقال المحققون من الصوفية: إن الجمادات وإن كانت لا تعقل ولا تفهم بالنسبة إلينا ولا يجوز إلينا مخاطبتها، لكنها عاقلة مطيعة لأمر الله سبحانه كما يدل عليه النصوص، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2] وقال رسول الله ﷺ: «إن الجبل ينادي

(١) سورة الإنشقاق، الآية: ٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

الجبل أي فلان هل مر بك أحد يذكر الله»[1] وقال الفاضل الرومي:

خـــاك وبـــاد وآب وآتـــس بـــنـــده انـــد پـيـش تـو مـرده وبـرحـق زنـده انـد

وإطلاق العدو على فرعون بالنسبة إلى الله كان على الحقيقة لكونه مشركاً وبالنسبة إلى موسى كان على المجاز باعتبار مايؤل، فإنه لم يكن عدواً له وقت الأخذ ولأجل ذلك كرر لفظ العدو ولامتناع الجمع بين الحقيقة والمجاز، وجاز أن يكون التكرير للمبالغة ويكون المراد في اللفظين باعتبار ما يؤول أو باعتبار الوقت الموجود حيث كان في صدد قتل موسى بإخبار الكهنة إياه أنه يولد في بني إسرائيل غلام يكون زوال ملكك على يديه، ولأجل ذلك قتل كثيراً من أبناء بني إسرائيل ولم يعرف موسى أنه ذلك الغلام وإلا لقتله، والضمائر كلها راجعة إلى موسى عليه السلام ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يفضي إلى تنافر النظم، والمقذوف في البحر الملقى إلى الساحل وإن كان هو التابوت ما الذات، لكن كان موسى أيضاً بالعرض لكونه في جوف التابوت.

قال البغوي: اتخذت أم موسى تابوتاً وجعلت فيه قطناً محلوجاًووضعت فيه موسى وقرت رأسه وخصاصه يعني شقوقه ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما فرعون جالس على رأس النهر مع امرأته آسية إذ هو بتابوت يجيء بالماء، فأمر الجواري والغلمان بإخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا فيه صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك نفسه فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ ظرف مستقر صفة لمحبة أو لغو متعلق بألقيت أي ألقيت عليك محبة كائنة مني قد ذرعتها في القلوب، أو ألقيت مني محبة عليك يعني أحببتك ومتى أحبه الله أحبته القلوب، قال ابن عباس أحببته وحببته إلى خلقي، قال عكرمة ما رآه أحد إلا أحبه، قال قتادة ملاحة كانت في عيني موسى ما رآه أحد إلا عشقه، وجاز أن يكون المعنى ألقيت محبة كائنة مني عليك أي في قلبك بحيث تستولي تلك المحبة عليك فأجيتني وأخصلت قلبك لمحبتي بحيث لم يلتفت إلى غيري فصرت رأس المحبين، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه كان مبدأ تعين الكليم صلوات الله عليه المحبية الصرفة ومبدأ تعين الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم المحبوبية الصرفة فلأجل ذلك كان الكليم عليه السلام رأس المحبين والحبيب صلى الله عليه وسلم رأس المحبوبين، والصوفي بنظر الكشف يرى في دائرة الحب محيطاً وهي الخلَّة مبدأ

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: في البقاع التي يذكر الله تعالى عليها (١٦٧٨٣).

التعين الخليل عليه السلام ومركزاًوهو المحبة الصرفة مبدأ التعين الكليم عليه السلام والمركز أعلى وأفضل وأوسع من المحيط كالقمر بالنسبة إلى الهالة ثم المركز عند الصعود وإليه يرى دائرة محيطها مبدأ التعين الكليم عليه السلام ومركزها لتعين الحبيب ﷺ وعلى إخوانه، ولما كان الحبيب ﷺ في غاية المرتبة من المحبوبية صارمبدأ تعينه مركزاً لدائرة المحبوبية الصرفة وترك محيطها وهو المحبوبية الممتزجة لبعض أفراد أمته، وذلك الفرد هو المجدد للألف الثاني رضي الله عنه والله أعلم وظاهر اللفظ يقتضي أن اليم ألقاها بالساحل ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾[1] فإن صح أن آل فرعون أخرجوه من اليم فيؤل الساحل بحيث فهو خره والله أعلم وقوله: ألقيت معطوفة على قوله ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾ أي تربي ويحسن إليك من صنعت فرسي إذا أحسنت القيام عليه، قرأ أبو جعفر بالجزم على أنها أمر ﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها حال من ضمير المخاطب المرفوع يعني لتصنع كائناً على حفظي، وقوله لتصنع على قراءة الجمهور معطوف على علة مضمرة تقديره ليعطف عليك ولتصنع أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلل تقديره وفعلت ذلك لتصنع، وعلى قراءة أبو جعفر معطوف على يأخذه.

﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾ مريم لتعرف خبرك وأحضروا مراضع وأنت لا تقبل ثدي واحد منها، ظرف لألقيت أو لتصنع أو بدل من إذ أوحينا على أن المراد بها وقت متسع، وقيل: إذ للتعليل ﴿فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ أي على امرأة ترضعه ويضم إليها، فلما قالت ذلك قالوا نعم، فجاءت بأمه فقبل ثديها فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ لما وعدناها بقولنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾[2] ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ هي بفراقك أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾ أي رجلاً قبطياً كافراً ظالماً، استغاثه عليه السلام عليه الإسرائيلي كذا قال ابن عباس، وكان إذا ذاك ابن اثني عشر سنة كذا قال كعب الأخبار ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ أي غم قتله خوفاً من عقاب الله بالمغفرة ومن اختصاص فرعون بالأمن منه بالهجرة إلى مدين ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ مصدر كالقعود أو جمع، قال البغوي قال ابن عباس اختبرناك اختباراً وقال الضحاك ابتليناك ابتلاء على أنه مصدر، أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجور وبُدُر في حجرة وبدرة، وقال مجاهد أخلصناك إخلاصاً، وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس أن

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧.

الفتون وقوعه في محن خلصه الله منها أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، ثم قتله القبطي، ثم خروجه إلى مدين، قلت ثم ما ناله في سفره إلى مدين من الهجرة عن الوطن ومفارقة الأُلاف والمشي راجلاً على حذر وفقد الزاد وإيجار نفسه إلى غير ذلك فالمعنى خلصناك من تلك المحن مرة بعد أخرى كما يفتن الذهب بالنار فيتخلص من كل خبث فيه.

﴿فَلَبِثْتَ﴾ عشر ﴿سِنِينَ﴾ لرعي الأغنام قضاءً لأوفى الأجلين في صداق ابنة شعيب عليه السلام ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ وهي على ثمان مراحل من مصر، وقال وهب لبث موسى عند شعيب ثمان وعشرين سنة، عشرة سنين منها مهر ابنته وثماني عشرة بعد ذلك حتى ولد له ﴿ثُمَّ جِئۡتَ﴾ إلى الوادي المقدس ﴿عَلَىٰ قَدَرٖ﴾ أي على القدر الذي قدرت بأنك تجيء كذا قال محمد ابن كعب، أو على القدر الذي يوحي فيه إلى الأنبياء، يعني إذا بلغ عمرك أربعين كذا قال عبد الرحمن بن كيسان، وهو معنى قول أكثر المفسرين أي على المواعد الذي وعده الله وقدره أن يوحي إليه بالرسالة وهو أربعين سنة ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ كرر الله سبحانه ذكره استئناساً له وحباً، قال رسول الله ﷺ: «من أحب شيئاً أكثر ذكره» رواه صاحب مسند الفردس من حديث عائشة ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾ أي ربيتك وأحسنت تربيتك ﴿لِنَفۡسِي﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بسكون الياء فيسقط وصلاً في اللفظ لالتقاء الساكنين والباقون يفتحون الياء، يعني ربيتك واخترت لنفسي حتى لا تشتغل ظاهراً وباطناً بغيري، قلت: ويمكن أن يكون معناه جعلتك لمكارم الأخلاق وصنعتك بحيث صلحت لمناجاتي واقترابي وأداء رسالتي ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ أي بمعجزاتي، قال ابن عباس يعني الآيات التسع التي بعث بها ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ قال السدي لا تفترا، وقال محمد بن كعب لا تقصرا، قال في القاموس الوَنى كفتى التعب والفترة ضد ﴿فِي ذِكۡرِي﴾ قرأ ابن عامر والكوفيون بسكون الياء فيسقط وصلاً في اللفظ والباقون بالفتح، كان هذا الوحي لموسى وقد كان هارون حينئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هارون، وأوحي إلى هارون وهو بمصرأن يتلقى موسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحي إليه، وقيل: سمع هارون بمقبل موسى فاستقبله فأوحي الله سبحانه إليهما.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ بادعائه الألوهية، أمر الله موسى أولاً وحده بالذهاب ثم أمره وأخاه ثانياً فلا تكرار، وقيل: الذهاب الأول مطلقاً والثاني مقيد فلا تكرار ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ قال ابن عباس لا تعنفا في قولكما، وقال عكرمة والسدي كنياه

فقولا يا أبا العباس وقيل: يا أبا الوليد، وقال مقاتل يعني بالقول اللين ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[1] فإنه دعوة في صورة عرض ومشورة حذراً من أن يحمله حمية الجاهلية على أن يسطو عليكما، وقيل: أمرهما باللطافة في القول لما كان له على موسى حق التربية، وقال السدي القول اللين أن موسى أتاه ووعده على قبول الإيمان شباباً لا يهرم وملكاً لا ينزع عنه إلا بالموت، ويبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وإذا مات دخل الجنة فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى وقال: أردت أن أقبل منه، فقال له هامان كنت أرى أن لك عقلاً ورأياً وأنت رب تريد أن تكون مربوباً وأنت تُعبد تريد أن تعبد فقلبه عن رأيه ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ إن تحقق عنده صدقكما ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يعن إن لم يتحقق عنده صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهم فيخشى، والترجي بالنسبة إلى علمهما وإلا فالله تعالى كان عالماً بأنه لايرجع، والجملة في محل النصب على الحالية من فاعل قولاً، يعني قولاً حين التذكر من فرعون أو خشيته، أو على العلية لقوله قولاً يعني، وقال الحسن بن الفضل هذا ينصرف إلى غير فرعون مجازه لعله يتذكر متذكر أو يخشى خاش.

﴿قَالَا﴾ أي موسى وهارون ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ قال ابن عباس أن يعجل علينا بالقتل والعقوبة قبل إتمام الدعوة وإظهار المعجزات، يقال فرط عليه فلان إذا عجل بمكروه من فرط إذا تقدم ومنه الفارط ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي يزداد طغياناً فيقول فيك ما ينبغي لجرأته وقساوته ويزداد في الإساءة إلى عبادك ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ تعليل لقوله لا تخافا يعني لا تخافا لأنني معكما بالحفظ والنصر ﴿أَسْمَعُ﴾ دعاء كما ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما يراد بكما فاصنع لستُ بغافل عنكما فلا تهتما أو أسمع وأرى ما يجري بينكما وبين فرعون من قول وفعل فأفعل في كل حال بكما ماينبغي من النصر ودفع المكروه، ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني حافظكما سامعاً مبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تم الحفظ.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك وإلى بني إسرائيل ﴿فَأَرْسِلْ﴾ الفاء للسببية ﴿مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى الشام أو أطلقهم عن أعمالك وخل عنهم لعبادة الله تعالى ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالتكاليف الصعبة والأعمال الشاقة التي كان فرعون يستعملهم فيها قد جئناك بآية أي حجة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على صدقنا في دعوى الرسالة جملة مقرونة لما تضمنه الكلام السابق

---

(١) سورة النازعات، الآية: ١٨ ـ ١٩.

من دعوى الرسالة وإنما وحد الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات بالبرهان لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددها وكذلك قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾[١] وقوله: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾[٢] ونحو ذلك ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ جملة معترضة أي سلامي وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين أو السلامة في الدارين لهم من النقمة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ أي عذاب الله في الدنيا والآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ الرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان بالله وعبادته، قيل: الجملة تذييل أو تعليل لكونه رسولاً، قلت أو بدل من قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ فأتيا وقال له ما أمرا به يدل على ذلك سياق الآية، وفائدة الحذف الاختصار والدلالة على أن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ فرعون لهما في جواب ما قال ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الذي أرسلكما ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ إنما خاطب اثنين وخص موسى بالنداء لأنه أصل وهارون وزيره وتابعه، أو لإدلاله عليه بالتربية، أو لأنه عرف أن له رتبة ولأخيه فصاحة ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال الحسن وقتادة أعطى كل شيء صلاحه وهداه لما يصلحه، وقال مجاهد أعطى كل شيء صورته التي هو عليها ولم يجعل لخلق الإنسان كخلق البهائم ولا خلق البهائم كخلق الإنسان ثم هداه إلى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح، وقال سعيد بن جبير أعطى كل شيء خلقه يعني زوجه من جنسه المرأة للرجل والناقة للبعير والأتان للحمار والرمكة للفرس ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي ألهمه كيف يأتي الذكر الأنثى، وقيل معناه: أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود بيانه، ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطى وكيف يصل به إلى بقائه وكماله اختياراً أو طبعاً، قال البيضاوي هذا جواب في غاية البلاغة فإنه إخبار عن الموجودات بأسرها على

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٤.

مراتبها، وبيان لكون الغني القادر المنعم على الإطلاق هو الله تعالى، وأن جميع ما عداه مفتقر إليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولهذا بُهت الذي كفر وأقحم عن الدخل عليه وصرف الكلام عنه ﴿قَالَ فَمَا بَالُ﴾ يعني ما حال ﴿ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم الذين عبدوا الأصنام وأنكروا البعث فماذا يفعل بهم بعد موتهم ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي أعمالهم محفوظة عند ربي ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ جملة مستأنفة أو صفة لكتاب يعني الكتاب الذي لا يضله الله ولا ينساه، والضلال أن تخطىء الشيء في مكانه فلم تهتد إليه والنسيان أن يذهب منك الشيء بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات، وقيل: معنى لا يضل ربي أي لا يغيب عنه شيء ولا يغيب هو عن شيء، ولا ينسى ما كان من أمرهم، والمعنى أن الله مجازيهم على ما عملوا من خير أو شر.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ الموصول مرفوع صفة لربي أو خبر لمحذوف أو منصوب على المدح، قرأ الكوفيون مهداً ها هنا وفي الزخرف ولم يختلفوا في الذي في سورة النبأ وهو مصدر سمي به، والباقون مهاد أو هو اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد يعني جعلها كالمهد لكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ السلوك النفاذ في الطريق قال الله تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾[(١)] ويجيء لازماً ومتعدياً، وفي القاموس سلك المكان سلوكاً وسلكه غيره فالأول لازم والمكان ظرف والثاني متعد، واستعمل في الآية متعدياً وجعل السبل مفعولاً به مجازاً أو هو ظرف كما أسند الجري إلى النهر مجازاً في جري النهر فمعنى حصل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها أي تلك السبل من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها وهذا معنى قول ابن عباس سهل لكم فيها طرقاً قال البغوي السلك إدخال الشيء في الشيء والمعنى دخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢﴾[(٢)] أي ما أدخلكم فيها ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ بذلك الماء، قيل تم كلام موسى عليه السلام عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ثم أخبر الله عن نفسه تتميماً لما وصفه به موسى خطاباً لأهل مكة والظاهر أنه من كلام موسى عليه السلام حكاية من الله تعالى تقديره أنزل من السماء ماء، وقال منة عليكم أخرجنا به الخ يعني لتشكروه، أو هو كلام موسى والمعنى أخرج أبناء جنسنا من الآدميين

(١) سورة نوح، الآية: ٢٠.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٤٢.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ يعني أعناقاً سميت بذلك لازدواجها واقتراب بعضها ببعض ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيان وصفة لأزواج وكذلك ﴿شَتَّىٰ﴾ صفة لأزواج، ويحتمل أن يكون صفة للنبات فإنه من حيث إنه في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، وهي جمع شتيت كمريض ومرضى من شتَّ الأمر إذا تفرق، أي متفرقاً في الصور والأغراض والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم ولذلك قال ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ﴾ رعى جاء لازماً ومتعدياً يقول العرب رعيت القوم فرعت، والمعنى ها هنا أسيموا ﴿أَنْعَٰمَكُمْ﴾ ترعى الأمر للإباحة وتذكر النعمة، والجملة حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول أي أخرجنا أصنافاً قائلين كلوا وارعوا يعني معدنيهما لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من جعل الأرض مهداً وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات من الأرض للانتفاع ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دالة على وجود الخالق ووجوبه وإحاطة علمه وقدرته وتكوينه واتصافه بالكمالات وتنزهه عن المناقص ﴿لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لذوي العقول جمع نهية، سميت بها لكونها ناهيةً صاحبها عن القبائح والمضار ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ يعني خلقنا من تراب الأرض آبائكم آدم ومواد أبدانكم فإن النطفة يتولد من الأغذية وهي يخلق من الأرض، وقال البغوي قال عطاء الخراساني: إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة، ودليل قول عطاء ما قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا وفي سرته من تربته التي يولد منها، فإذا رد إلى أرذل عمره رد إلى تربته التي خلق منها يدفن فيها، وإني وأبا بكرو عمر خلقنا من تربة واحدة وفيها ندفن» رواه الخطيب عن ابن مسعود وقال: غريب وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، قال الشيخ المحدث ميرزامحمد الحارثي البدخشي رحمه الله: إن لهذا الحديث شواهد عن ابن عمرو ابن عباس وأبي سعيد وأبي هريرة يتقوى بعضها ببعض فهو حديث حسن، وما ذكر العيني في شرح الصحيح البخاري في كتاب الجنائز عن محمد بن سيرين أنه قال لو حلفتُ حلفتُ صادقاً غير شاك ولا مستثنى أن الله تعالى خلق نبيه ﷺ ولا أبا بكر ولا عمر إلا من طينة واحدة، وما أخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر أن رسول الله ﷺ قال: «يا عبد الله هنيئاً لك مرياً، خلقت من طينتي وأبوك يطير مع الملائكة في السماء» وما روى الديلمي في مسند الفردوس وابن النجار عن النبي ﷺ أنه قال: «طينة المعتق طينته» لعله قال ذلك رسول الله ﷺ لبعض من أعتقه.

ومن هذه الأحاديث وتأويل عطاء في الآية يظهر أنه يكون بعض الناس مخلوق من طينة نبي من الأنبياء ويسمى ذلك في اصطلاح الصوفية أصالة الطينة، بل من طينة

محمد ﷺ وهي أصالة الكبرى في الاصطلاح، قلت: فالله سبحانه يوم خلق السموات والأرض قدر بعض أجزاء الأرض معدة لخلق بعض أفراد الإنسان وبعضها لبعض آخر، فما أعدت منها لخلق نبي من الأنبياء عليهم السلام لعل التجليات الذاتية المختصة بذلك النبي والبركات الإلهية الأصلية ما زالت نازلة فائضة على تلك الجزء من أجزاء الأرض حتى استعدت لأن يتخمر منها بدنه الشريف، ثم ما أعدت منها لخلق نبي من الأنبياء جاز أن يبقى منها شيء فتكون مادة لغيره فيتشرف بها ذلك الغير، كما ورد به الخبر في النخلة قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نساءكم والولد الرطب فإن لك يكن رطب فتمر» رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده والبخاري في تاريخه وابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدي وابن السني وأبو نعيم في الطلب وابن مردويه عن علي عليه السلام، وأخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «خلقت النخلة والرمانة والعنب من فضلة طينة آدم» وكذا ادعى الأصالة الكبرى الشيخ أحمد مجدد للألف الثاني رضي الله عنه بمكشوفة في المكتوب التاسع والتسعين من المجلد الثالث، واعترض بذلك الدعوى عليه عليه السلام بعض الناس إما جهلاً أو عناداً فويل لمن عاند أولياء الله لم يذهب على حسن الظن في شأنهم والله أعلم.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بتفكيك الأجزاء بعد الموت ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة بالبعث بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصورة السابقة ورد الأرواح إليها ﴿تَارَةً﴾ أي حيناً أو مرة كذا في القاموس ﴿أُخْرَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ
كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي بصرناه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ أو عرفناه صحتها ﴿كُلَّهَا﴾ تأكيد لشمول الأنواع ولشمول الإفراد عل أن الإضافة للعهد يعني آياتنا التسع التي أعطيناها موسى، وإن موسى عليه السلام أراه تلك الآيات وعد عليه ما أوتي غيره من المعجزات ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى من فرط عناده وقال إنه ساحر ﴿وَأَبَىٰ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿قَالَ﴾ أي فرعون بدل اشتمال من قوله: كذب وأبى أو تأكيد وتقرير له ﴿أَجِئْتَنَا﴾ استفهام تقرير ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي أرض مصر يعني تريد أن تغلب على ديارنا فيكون فيها الملك لك ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي مثل سحرك يعارضه ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ لذلك أي وعداً لقوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ قرأ أبو جعفر بالجزم على أنه جواب اللام ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ فإن الإخلاف يكون في الوعد دون الزمان والمكان، والمضاف محذوف تقديره مكان موعد أي وعد ﴿مَكَانًا﴾ بدل من المكان المحذوف، وجاز أن لا يقدرالمضاف ويكون مكاناً منصوباً بالمصدر أو بفعل دل عليه المصدر ﴿سُوًى﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل عِدىً وعُدىً وطُوىً ومعناه منتصفاً يستوي منه المسافة إلينا وإليكم كذا قال قتادة ومجاهد وروى عن ابن عباس، وقال الكلبي يعني سوى هذا المكان، وقف أبو بكر وحمزة والكسائي بالإمالة وورش وأبو عمرو على أصلهما بين بين والباقون بالفتح على أصولهم ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ فيه الضمير أي مكان موعدكم مكان يوم الزينة أو موعدكم موعد يوم الزينة، أو هو جواب من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي كان عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس وسعيد بن جبير يوم عاشوراء عني ذلك اليوم، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الأنظار ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي يجمعون ﴿ضُحًى﴾ في وقت الضحوة نهاراً جهاراً ليكون أبعد من الريبة، عطف على اليوم أو على الزينة.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي أدبر ﴿فِرْعَوْنُ﴾ عن موسى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي ذو كيده وحيلته يعني السحرة وآلاتهم ليغلب على موسى ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ بالموعدة ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي لفرعون ومن معه من السحرة وقال البغوي الضمير للسحرة الذين جمعهم فرعون وكانوا اثني

وسبعين ساحراً مع كل واحد حبل وعصى، وقال كعب كانوا أربع مائة، وقيل: كانوا اثنا عشر ألفاً وقيل: أكثر من ذلك ﴿وَيْلَكُمْ﴾ مفعول به أي ألزمكم الله الويل أي الهلاك، أو مصدر لفعله المحذوف أي هلكتم هلاكاً، أو منادى بحذف حرف النداء، أي ويلكم فهي جملة دعائية أو ندائية مقدمة للنهي لإظهار تقبيح الحال بارتكاب المنهي قبل الشروع في المقال ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مفعول مطلق بقوله لا تفتروا لأنه بمعنى لا تكذبوا على الله كذباً بإشراك أحد معه ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وكسر الحاء من الأفعال والباقون بفتح الياء والحاء من المجرد معناهما واحد، والإسحات لغة نجد وتميم والسحت لغة الحجاز، قال مقاتل والكلبي معناه فيهلككم، وقال قتادة فيستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيم من عنده ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي خسر خسراناً ولم ينل ما طلب ﴿مَنِ افْتَرَىٰ﴾ وكان كذلك حيث افترى فرعون وكذب على الله واحتال ليبقى ملكه وألوهيته الباطلة فلم ينفعه ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ يعني السحرة أو فرعون وقومه ﴿أَمْرَهُم﴾ أي في أمرهم يعني في أمر مجادلة موسى ومعارضته هل ينبغي أم لا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قال محمد بن إسحاق لما قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ وهو اسم أو مصدر ناجتيه أي ساررته، أصله أن تخلوا به في نجوة من الأرض وهي المرتفعة المنفصلة بارتفاعها، وقيل: أصله النجاة بمعنى الخلاص، فهي المشاورة والمعاونة بمافيه خلاصه، يعني أسروا تنازعهم فيما بينهم، وقال الكلبي أسروا إن غلبنا موسى اتبعناه.

﴿قَالُوا﴾ بعدما تنازعوا وتناجوا بينهم يعني استقر أمر مشاورتهم على هذا القول وكان هذا قول فرعون ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ إلى آخره كما مر فيما قبل حيث ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ واستقر قولهم جميعاً بعد المشاورة على هذا القول طوعاً أو كرهاً، كما ذكر الله سبحانه ومنازعة فرعون وقومه في سورة المؤمن حيث قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ إلى قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾[1] قرأ ابن كثير وحفص بتخفيف النون في إن على أنها هي المخففة من المثقلة واللام هي الفارقة، أو هي نافية واللام بمعنى إلا يعني ما هذان إلا ساحران، ويشدد ابن كثير النون من هذان، وقرأ الباقون أن مشددة فقرأ وأبو عمرو هذين على الأصل والباقون هذان بالألف واختلفوا في توجيهه؟ فروى هشام بن

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨ ـ ٢٩.

عروة عن أبيه عن عائشة أنه خطأ من الكاتب وهذا القول خطأ خارق للإجماع، وقيل: هذا بلغة أبو الحارث بن كعب وخثعم وكنانة فإنهم يجعلون المثنى في الرفع والنصب والجر بالألف يجعلونها علامة التثنية وأعربوا المثنى تقديراً ويقولون أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان، وكذلك يجعلون كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها في التثنية يقولون كسرت يداه وركبت علاه موضع يديه وعليه، وكذا في الأسماء الستة المضافة إلى غير ياء المتكلم قال الشاعر:

إن أبـاهـا وأبـا أبـاهـا قـد بـلـغـا فـي الـمـجـد غـايـتـاهـا

وقيل: اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان الساحران خبران تقديره إنه هذان لساحران وقيل: إن بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر، روي أن أعرابياً سأل ابن الزبير فحرمه فقال لعن الله ناقةً حملتني إليك فقال ابن الزبير إن وصاحبها أي نعم، قال البيضاوي وفيها أن اللام لا تدخل على خبر المبتدأ وقيل: أصله إن هذان لهما ساحران، أو أن يعني نعم هذان لهما ساحران فحذف ضمير الشأن وضميرها، وفيه أن المؤكد باللام لا يليق الحذف.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ مصر بالاستيلاء عليه ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ تأنيث للأمثل بمعنى الأفضل، قال ابن عباس يعني بسراة قومكم وأشرافهم، يقال هؤلاء طريقة قومهم أي أشرافهم، حدث الشعبي عن علي قال يصرفا وجوه الناس إليهما، وقال قتادة طريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل كانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهم كأنه قال فرعون هذا القول لما قال له موسى أرسل معي بني إسرائيل، وقيل أراد بطريقتكم المثلى بسنتكم ودينكم الذي أنتم عليه فمعنى هذا القول قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[1] وجملة يريدان إما خبر بعد خبر لهذان وإما حال من ضمير ساحران، وإما مستأنفة ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو بوصل الألف وفتح الميم من المجرد، يعني لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلا جئتم به وجمعتموه وهذه القراءة يطابق قول فجمع كيده والباقون بقطع الألف وكسر الميم فقد قيل: معناه الجمع أيضاً يقول العرب أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد، والصحيح أن معناه العزم أي إعزموا عليه واجعلوا مجمعاً عليه ولا تختلفوا فيختل أمركم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ الصف مصدر بمعنى جعل الأشياء على خط مستو كالناس والأشجار، وهو ها هنا بمعنى الفاعل يعني ائتوا

(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

مصطفين مجتمعين لأنه أهيب في صدور الرائين كذا قال مقاتل والكلبي، نظيره ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾[1] وصفاً على هذا حال من فاعل ائتوا، وقال ابن عبيدة الصف المجمع ويسمى المصلى صفا فالمعنى ثم أتوا المكان الموعود ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي فاز بالمطلوب من غلب وهو اعتراض.

﴿قَالُوا۟﴾ أي السحرة بعد ما أتووا الموعد مراعاةً للأدب، أو استعظاماً لكيدهم ووثوقهم بالغلبة في كلا التقديرين ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك أولاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ أن مع ما بعدها في الموضعين منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره اختر إما إلقاءك أولاً وإما كوننا أول من ألقى، أو الأمر الذي حان حينه إما إلقاؤك أولاً وإما كوننا أول الملقين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أولاًمقابلة للأدب الأدب وعدم مبالاة بسحرهم وإسعافاً إلى ما أوهموا من الميل إلى الله بذكر الأول صريحاً في شقهم، وتغير النظم إلى وجد أبلغ، ولأن يبرزوا ما معهم أو يستنفذوا أقصى وسعهم، ثم يظهر سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ أصله عصوو قلبت الواوان يائين وكسرت العين والصاد، وفي الكلام حذف تقديره فألقوا حبالهم وعصيهم فإذا حبالهم الخ وإذا ظرف زمان للمفاجأة منصوب بفعل المفاجأة مضاف إلى جملة اسمية وحبالهم مع ما عطف عليه مبتدأ وما بعده خبره، والعائد إما ضمير يخيّل أو ضمير أنها، والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى وقتاً حبالهم وعصيهم فيها ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾ قرأ ابن ذكوان ليخيل بالتاء على أن الضمير المرفوع راجع إلى الحبال والعصي وقوله ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدل اشتمال من الضمير المرفوع المستكن فيه وقرأ الباقون يخيل بالياء وعلى هذا إنها تسعى مفعول قائم مقام الفاعل يخيل، وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس فرأى موسى والقوم بسحرهم كأن الأرض امتلأت حيات تسعى، وكانت أخذت ميلاً من كل جانب ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أي أحسّ وأضمر ﴿فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾ التنكير للتقليل أي خوفاً قليلاً ﴿مُّوسَىٰ﴾ الوجس في الأصل الصوت الخفي، وفي القاموس الوجس الفرغ يقع في القلب أو السمع من صوت أو غيره، يعني خاف موسى حينئذٍ خوفاً مضمراً، قيل: خاف من طبع البشرية ظناً منه أنها تقصده، وقال مقاتل خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعوه، والجملة معطوفة على

(١) سورة الصف، الآية: ٤.

فإذا حبالهم ﴿قُلْنَا﴾ حينئذ لموسى ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الغالب، الجملة في موضع العلة للنهي عن الخوف وتقرير لغلبته مؤكداً بالاستئناف وحرف التحقيق وضمير الفصل وتعريف الخبر ولفظ العلو الدالة على الغلبة الظاهرة وصيغة اسم التفضيل ﴿وَأَلْقِ﴾ عطف على لا تخف ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أبهمه ولم يقل عصاك إما تحقيراً للحبال والعصي يعني لا تبال بكثرة الحبال والعصي وألق العويدة التي في يدك، أو تعظيماً للعصي أي لاتبال بكثرة هذه الأجرام وعظمها فإن ما في عينك أعظم منها أثراً فألقه ﴿تَلْقَفْ﴾ قرأ حفص بإسكان اللام مخففاً من لقفته بمعنى تلقفته والباقون بفتح اللام مشدداً أصله تتلقف من الفعل حذفت إحدى التاءين وتاء المضارعة تحتمل التأنيث بناءً على أن الضمير ترجع إلى عصا وتحتمل الخطاب على إسناد الفعل إلى المسبب وقرأ ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف والباقون بالجزم على أنه جواب للأمر يعني أن الذي زوروا وافتعلوا، أو مصدرية يعني أن صنيعهم ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ بوزن فاعل أي هيلة ساحرٍ كذا قرأ الجمهور، وقرأ حمزة والكسائي سحر بكسر السين بلا ألف بمعنى المصدر يعني حيلة سحر والإضافة بيانية أو التقدير كيد ذي سحر بحذف المضاف أو بتسمية الساحر سحراً على المبالغة وإنما وجد الساحر لأن المراد به الجنس ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ جنس ﴿ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال ابن عباس لا يسعد حيث كان من الأرض وأين أقبل وقيل: معناه حيث احتال، أخرج ابن أبي حاتم والترمذي عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وجدتم الساحر فاقتلوه» ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1] قال لا يؤمن من حيث وجد، جملة إنما صنعوا في محل التعليل للتلقف.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ

---

(١) اللفظ عند الترمذي «حد الساحر ضربة بالسيف».
وقد تكلم في هذا الحديث وضعّف.

﴿ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ ها هنا حذف اختصار تقديره فألقى موسى عصاه فصارت ثعباناً فتلقف ما صفت السحرة فعرفت السحرة أنه ليس بسحر إنما هو آية من آيات الله فألقى السحرة أي ألقاهم ذلك المعرفة على وجوههم سجداً لله تعالى توبة عما صنعوا أو تعظيماً لما رأوا من آيات الله يعني سجدوا مسرعين كأنهم ألقوا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ الواو لمطلق الجمع يعني آمنا بربهما وليس في الآية دليل على أنهم قدموا ذكر هارون على موسى وإلا لزم التعارض بين هذه الآية وبين آية الأعراف والشعراء فإن هناك ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾(١) وتقديم هارون ها هنا لرعاية رؤوس الآي، جملة قالوا مع ما في حيزها بدل اشتمال من قوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ وتأكيد له ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ قرأ حفص على الخبر والباقون على الاستفهام للإنكار، واللام في ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي لموسى لتضمين الفعل معنى الإتباع فيه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي عظيمكم في السحر وأعلمكم به ولأجل ذلك غلب عليكم لا لنبوته، أو أنه لأستاذكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وأنتم تواطئتم على ما فعلتم، والجملة معترضة ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي يد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية متعلقة بلأقطعن كأن القطع ابتداء في مخالفة العضو العضو، أو ظرف مستقر صفة لمصدر ومحذوف أي قطعاً مبتدأ من عضو مخالف للآخر اختلافهما يداً أو رجلاً يمنة ويسرةً، أو حال من ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ يعني مبتدئاً قطعها من مخالف للآخر ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي عليها، أورد كلمة في في محل على تشبيهاً لتمكن المصلوب على الصليب تمكن المظروف في الظرف وخص النخل لطولها حتى يرى من بعيد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أنا على إيمانكم برب موسى أو رب موسى على ترك الإيمان به ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي أدوم عذاباً.

﴿قَالُواْ﴾ يعني السحرة ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أي لن نختارك يا فرعون ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ به موسى ويجوز أن يكون الضمير فيه لما ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات الواضحات يعني اليد والعصا، وقيل معناه من الدلالات وكان من دلالاتهم أنهم قالوا: لو كان هذا سحراً فأين حبالنا وعصينا؟ وقيل: من البينات أي من التبيين والعلم، قال البغوي حكي عن القاسم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢١ ـ ١٢٢.
وسورة الشعراء، الآية: ٤٧ ـ ٤٨.

عن أبي بردة أنه قال أنهم لما ألقوا سجداً ما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها ورأوا منازلهم في الجنة فعند ذلك قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطف على ما جاءنا أي لن نؤثرك على الذي فطرنا أو قسم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ ما أنت قاضيه أي صانعه فالمفعول مع الصلة مفعول به لاقضى بمعنى أصنع أو المعنى أحكم ما أنت حاكمه فالموصول مفعول مطلق أي أحكم حكماً أنت حاكمه، ولا يجوز حينئذ أن يكون مفعولاً به لأن القضاء بمعنى الحكم يتعدى بالباء ولا يجوز حذف الباء هناك ﴿إِنَّمَا تَقْضِى﴾ أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم ما تراه ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ منصوب على أنه ظرف زمان بحذف المضاف يعني إنما تصنع أو تحكم زمان هذه الحياة الدنيا ويزول أمرك وسلطانك عن قريب، قيل: إن فرعون صنع بهم ما أوعدهم وكان هو أول من سن ذلك أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وقيل: إنه لم يقدر على ذلك لما قال الله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ من الكفر والمعاصي جملة مقررة لجملة لن نؤثرك ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ عطف على خطايانا ﴿مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ بيان لما منصوب على أنه حال من الضمير المجرور. فإن قيل: كيف قالوا هذا وقد جاؤوا مختارين يحلفون لعزة فرعون أن لهم الغلبة؟ قال البغوي روي عن الحسن أنه كان يكره قوماً على تعلم السحر كيلا يذهب أصله، فقد كان أكرههم في الابتداء، وقال مقاتل كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل وكان فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل فذلك قولهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ وقال عبد العزيز ابن أبان قالت السحرة لفرعون أرنا موسى إذا نام فأراهم موسى نائماً وعصاه تحرسه فقالوا: إن هذا ليس بسحر إن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى عليهم أن يعارضوه فذلك قولهم وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ منك ومن جميع ما خلق ثواباً لمن جاءه مؤمناً قد عمل الصالحات ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أدوم منك ومن جميع ما خلق عقاباً لمن يأته مجرماً بالكفر والمعاصي كذا قال محمد بن إسحاق ومحمد بن كعب فهذا جواب لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (إنه) أي الشأن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ مات على كفره وعصيانه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة مهناة ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾ قرأ قالون بخلاف عنه وأبو جعفر ويعقوب باختلاس كسرة الهمزة في الوصل، وأبو شعيب بإسكانها والباقون بإشباعها يعني من مات ﴿مُؤْمِنًا قَدْ

(١) سورة القصص، الآية: ٣٥.

عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا حال من الضمير مؤمناً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ جمع العليا مؤنث أعلى أي المنازل الرفيعة ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة بدل من الدرجات أو عطف بيان ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير المجرور في لهم والعامل فيها معنى الإشارة أو الاستقرار ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر من أدناس الكفر والمعاصي قال الكلبي أعطي زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله، روى أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري والطبراني عن جابر بن سمرة وابن عساكر عن ابن عمرو وعن أبي مريم كلهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل درجات العلى ليراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم أنعما»(١) وروى أحمد والشيخان في الصحيحين عن أبي سعيد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما ترون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال رسول الله ﷺ: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا الرسل»(٢) والآيات الثلاث يحتمل أن يكون من كلام السحرة في مقام التعليل لقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وأن يكون ابتداء الكلام من الله تعالى تصديقاً لقولهم.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ حين أراد الله إهلاك فرعون وقومه وإنجاء بني إسرائيل منه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي سر بهم ليلاً من أرض مصر، هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٣٦٦٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾[١] وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي فاجعل لهم من قولهم ضرب له من ماله سهماً أو فاتخذ من ضرب البن إذا عمله، قلت ويمكن تقدير الكلام فاضرب بعصاك البحر يكن طريقاً ﴿فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ صفة لطريق مصدر وصف به ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ قرأ الجمهور بالرفع والجملة في محل النصب على أنه حال من فاعل اضرب أو صفة ثانية لطريق أي آمنا من درك العدو أو طريقاً مأموناً من الدرك، وقرأ حمزة لا تخف بالجزم عل النهي أو على أنه جواب للأمر ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ الغرق، استئناف وعطف على لا تخاف والألف فيه على قراءة حمزة للإطلاق كقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[٢] أو حال من فاعل لا تخف، ففعل موسى ما أمر به وضرب البحر بعصاه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٣] وأيبس الله الأرض فمروا فيها ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ معطوف على محذوف يعني فأسرى موسى بقومه: فأتبعهم ﴿فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ الباء بمعنى مع والمعنى فأتبعهم فرعون نفسه مع جنوده حين أخبر أن موسى خرج ليلاً مع بني إسرائيل، وقيل صيغة الإفعال بمعنى الافتعال والباء للتعدية وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم جنوده، وهذا التأويل لا يدل على خروج فرعون بنفسه وكان قد خرج ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أي من ماء اليم أي البحر وكلمة من للبيان أو للتبعيض أي بعض ماء اليم لآكله حال من قوله: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ وفيه مبالغة والمعنى غطقهم ما لا يعرف كنهه إلا الله، والضمير المنصوب في الموضعين لفرعون وجنوده، وقيل الضمير الأول لفرعون وجنوده والثاني لموسى وقومه يعني غشي فرعون وجنوده فغرقوا ما غشى موسى وقومه فنجوا ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ في الدين ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وهو تحكم به وتكذيب لقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٤] أو أضلهم في البحر وما نجا.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إما خطاب للذين كانوا في عهد النبي ﷺ بما فعل بآبائهم لكن السورة مكية ولم يكن بمكة المخاطبة مع بني إسرائيل بل مع القريش، وأما خطاب لمن أنجاهم من البحر بعد إهلاك فرعون بتقدير قلنا استئنافاً في جواب من قال فماذا فعل بهم بعد الإنجاء، يعني قلنا يا بني إسرائيل ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ وعلى التقدير الأول المضاف

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.

(٤) سورة غافر، الآية: ٢٩.

محذوف تقديره قد أنجينا آباءكم ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون بإغراقه ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ منصوب على الظرفية ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ صفة لجانب الطور بأدنى ملابسة لكونه على يمين موسى إذ لا يمين للجبل واعد الله سبحانه موسى بالمناجاة وإنزال التوراة عليه وأن يختار سبعين رجلاً يحضرون معه وإنما نسب المواعدة إليه للملابسة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ في التيه ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟﴾ حال من فاعل نزلنا بتقدير القول أي قائلين كلوا أو مستأنفة ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ أي لذائذ أو حلالات ومن للبيان أو للتعبيض ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي أنجيتكم وواعدكم، وما رزقتكم بالتاء المتوحد، والباقون بالنون والألف على التعظيم، ولم يختلفوا في نزلنا لأنه مكتوب بالألف ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما أحل الله لكم فيه كالسرف والبطر والمنع عن المستحق ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى﴾ قرأ الكسائي والأعمش فيحل بضم الحاد ومن يحلل بضم اللام من باب نصر ينصر من الحلول بمعنى النزول والباقون بكسرهما من باب ضرب يضرب من حل الدين إذا وجب أداؤه ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي هلك وتردى في النار ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وبما جاء به رسله من عنده ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يعني أتى بما أمر الله به ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ قال عطاء عن ابن عباس يعني علم أن ذلك بتوفيق من الله تعالى، وقال قتادة وسفيان الثوري يعني لزم الإسلام حتى مات عليه، وقال الشعبي ومقاتل والكلبي يعني علم أن لك ثواباً، وقال زيد بن أسلم تعلم العلم لتهتدي كيف يعمل، وقال الضحاك استقام أي على الهدى المذكور، وقال سعيد بن جبير أقام على السنة والجماعة، قلت: وعندي أن معناه ثم اهتدى إلى الوصول إلى الله بلا كيف وعروج مدارج القرب.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ
قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ
أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا
وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا
جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا
وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾﴾

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ خطاب لموسى معطوف على الخطاب لبني إسرائيل ﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم﴾ الخ ويا موسى أعجلك، قال البغوي أي ما حملك على العجلة عن قومك وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلاً حتى يذهبوا معه إلى الطور ليأخذوا التوراة فساء بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه وخلف السبعين وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل، فقال الله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ قلت: وهذا سؤال تقرير كما يسأل المحبوب من المحب حين يراه في غاية المحبة والشوق كي يذكر شوقه، لكن فيه مظنة إنكار بما فيه من ترك موافقة الرفقة، فأجاب موسى عن الأمرين وقدم جواب الإنكار لكونه أهم ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ يعني ما قدمتم إلا بخطى يسيرة لا يعتد بها عادةً وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم بعضاً ﴿وَعَجِلۡتُ﴾ معطوف على قوله هم أولاء أو حال بتقدير قد ﴿إِلَيۡكَ﴾ أي إلى مقام كرامتك والمكان الذي وعدتني لتجلياتك علي وكلامك مني ﴿رَبِّ﴾ أي يا ربي ﴿لِتَرۡضَىٰ﴾ قيل: يعني لأن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك أوجب لازدياد مرضاتك قلت: بل معنى لترضى أي لغاية محبتك واشتعال الشوق إلى لقائك واستماع كلامك كما هو مقتضى اقتراب وقت لقاء المحبوب وذلك الشوق والمحبة يقتضي مرضاتك.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾ والمراد بالفتن إما الابتلاء أو الإضلال، يعني ابتليناهم بإظهار العجل هل يعبدونه أم لا، أو أضللناهم بعبادة العجل. فإن قيل: فإنا قد فتنا مرتب على قوله عجلت إليك والتقدير إذا عجلت إلي فأنا قد فتنا قومك وهذا الكلام يقتضي كون العجلة سبباً للفتنة إلى الفاء للسببية فما وجه هذه السببية؟ قلت: لعل وجه ذلك أن الأنبياء ﷺ أرسلوا لهداية الخلق بوجهين ظاهراً بدعوتهم إلى الإسلام وتعليمهم الأحكام، وباطناً بجذبهم إلى الله عما سواه وفاضة نور الإيمان والمعرفة في قلوبهم حتى ينشرح صدورهم للإيمان ويروا الحق حقاً والباطل باطلاً ولا يتم ذلك إلا عند كمال توجههم إلى الخلق بشرا شرهم، ولما كان عجلة موسى عليه السلام إلى الله تعالى مبنياً على غلبة المحبة والشوق وسكر ذلك انقطع عند ذلك توجه باطنه من الأمة فحينئذ وقع أمة في الفتنة والضلال، ومن ها هنا قال بعض الصوفية الولاية أفضل من النبوة وفسر بعضهم هذا القول بأن ولاية النبي أفضل من نبوته قالوا مقتضى الولاية الاستغراق والتوجه إلى الله سبحانه ومقتضى النبوة التوجه إلى الخلق والتحقيق ما حقق المجدد للألف الثاني رضي الله عنه أن النبوة هي الأفضل من الولاية مطلقاً إذ الولاية عبارة عن التجليات الصفاتية والنبوة عن التجليات الذاتية فأين لهذا من ذلك وقال المجدد رضي الله عنه إن لكل واحد من النبوة والولاية

وجهاً ونزولاً، والصوفي في مرتبة العروج في كلا النسبتين متوجه إلى الله لتحصيل الكمال، وفي مرتبة النزول في كليهما متوجه إلى الخلق للتكميل غير أنه في نسبة الولاية لما كان عروجه إلى الصفات دون الذات فله عند نزوله التفات ما إلى المبدأ فائض البركات غير متوجه إلى الخلق بالكلية وفي نسبة النبوة له عند نزوله توجه بالكلية إلى الخلق وفي بادي النظر يرى نفسه معرضاً عن الله فيكون ذلك عليه شاقاً ورياضةً وعسراً لكنه في الحقيقة ليس بمعرض عنه تعالى بل مقبل عليه أيضاً واتسع صدره للتوجهين جميعاً بل التوجه إلى الخلق لما كان بإذن الله وعلى حسب أمره ومرضاته فهو أيضاً في المعنى توجه إلى الله سبحانه ومن ثم سمي هذا السير سيراً من الله بالله:

فإني في الوصال عبيد نفسي وفي الهجر أن مولى للموالي

وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة ألم نشرح في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[(١)] والله أعلم.

وجاز أن يكون الكلام في الآية أنه قال الله تعالى بعدما أنجز وعده وأعطاه التوراة أرجع إلى قومه ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ بعد انطلاقك إلى الجبل عند خوهم عنك ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ نسب الله سبحانه الفتنة والإضلال إلى نفسه لخلقه الضلالة فيهم والإضلال في السامري وإلى السامري لكسبه الإضلال والدعاء إلى عبادة العجل، قال البغوي كانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألف، والسامري قال في القاموس كان علجاً من كرمان أو عظيماً من بني إسرائيل منصوب إلى موضع لهم، وقال البيضاوي منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لهم السامرة واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًاۚ﴾ حزيناً شديد الحزن بما فعلوا ﴿قَالَ﴾ موسى لقومه حين رآهم عبدوا العجل ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا﴾ منصوب على المصدرية أو على المفعولية على أن الوعد بمعنى الموعود ﴿حَسَنًاۚ﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ الاستهفام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أتأثرهم بمصاحبتي إياكم فآمنتم بالله وحده ووعدتموني أن تكونوا بعدي على ذلك فطال عليكم العهد أي زمان مفارقتي إياكم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾ بكسر الحاء من باب ضرب يضرب بإجماع القراء أي يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادة ما دونكم وما هو مثل في الغباوة أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يوجب

---

(١) سورة الشرح، الآية: ٥ ـ ٦.

الغضب عليكم ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ أي وعدكم إياي بالثبات على الإيمان والقيام على ما أمرتكم به.

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ﴾ بالثبات على الإيمان ﴿بِمَلۡكِنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بفتح الميم وحمزة والكسائي بضمها والباقون بكسرها وكلها لغات في مصدر ملكت الشيء كذا في القاموس يعني ما أخلفنا متلبساً بملكنا أي قدرتنا واختيارنا على أمرنا، يعني المرء إذا وقع في البلية والفتنة من الله لم يملك نفسه ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحفص بضم الحاء وكسر الميم مشدداً على البناء للمفعول من التحميل أي كلفنا حملها، وأبو عمرو حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر بفتح الحاء وتخفيف الميم من الحمل ﴿أَوۡزَارٗا﴾ أي أثقالاً ﴿مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ صفة للأوزار كان ذلك من حلية قوم فرعون استعادها بنو إسرائيل حين أرادوا الخروج من مصر باسم العرس كذا أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال البغوي سماها أو زاراً لأنهم أخذوها على وجه العارية فلم يردوه، وقيل إن الله تعالى لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذوها وكانت غنيمة ولم تكن الغنيمة حلالاً في ذلك الزمان فسماها أو زاراً لذلك ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي طرحناها في الحفيرة، قال البغوي قيل: إن السامري قال لهم احفروا حفيرة فلقوها فيها حتى يرجع موسى، وقال السدي قال لهم هارون إن تلك الغنيمة لا يحل فاحفروا حفيرة وألقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه، ففطنوا ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما كان معه فيها، وقال سعيد بن جبيرعن ابن عباس أوقد هارون ناراً وقال اقذفوا ما معكم فيها فألقوا فيها، ثم ألقى السامري ما كان من تربة حافر فرس جبرائيل، قال قتادة كان قد قبضه من ذلك بالتراب في عمامته ﴿فَأَخۡرَجَ﴾ أي السامري ﴿لَهُمۡ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ بدل من عجلاً يعني أخرج من تلك الحلي عجلاً ﴿لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ صفة لعجلاً يعني صوت بقر ﴿فَقَالُواْ﴾ أي السامري ومن اقتربه أول ما رأوه ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي ترك موسى ها هنا وذهب يطلبه عند الطور أو فنسي السامري أي ترك ما كان عليه من الإيمان وكفر بالله ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ استفهام إنكار والجملة معطوفة على محذوف تقديره ألا ينظرون فلا يرون أي لا يعلمون أو التقدير أقروا بألوهيتها فلا يعلمون هذه الحمقاء ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ﴾ أن مخففة من الثقلية واسمه ضمير الشأن محذوف يعني أنه لا يرجع ذلك العجل ﴿إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ أي لا يكلمهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً فهو دون حالاً منهم فكيف اتخذوا إلهاً ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أي لا يقدر على إضرارهم ولا إنفاعهم ولا منع من الضر أو النفع فكيف استحق لعبادتهم، قال البغوي قيل إن هارون مر على السامري وهو يصوغ

العجل فقال له ما هذا قال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي، فقال هارون اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، فألقى التراب في فم العجل فقال كن عجلاً تخور فكان كذلك بدعوة هارون، والحقيقة أن ذلك فتنة ابتلى الله بها بني إسرائيل.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ اللام في جواب قسم محذوف والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾[1] ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي ابتليتم بالعجل هل تستقيمون على التوحيد أو تضلون ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي وجودكم وتوابعه أثر لرحمته ولا يصلح هذا العجل للرحمة ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ في الثبات والاستقامة على عبادة الرحمن وحده ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ في ترك عبادة العجل الفاء للسببية فإن ما قبلها سبب لما بعدها ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي لن نزال على العجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل.

فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل، قال السبعون الذين معه هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون أخذ رأسه بيمينه ولحيته بشماله.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾﴾ بعبادة العجل ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ قيل وضع منع موضع دعا مجازاً لوجود التعلق بين الصارف عن الشيء والداعي إلى تركه، وقال الجمهور لا مزيدة والمعنى ما منعك من أن تتبعني أي تتبع أمري ووصيتي في القيام على دعوة الخلق إلى التوحيد ومنعهم عن الشرك باللسان والسنان، وقيل: معناه ما منعك من أن تأتي عقبي وتخبرني بما فعلوا، فيكون مفاوقتك إياهم زجراً لهم عما فعلوا، أثبت ابن

(١) سورة طه، الآية: ٧٧.

كثير الياء ساكنة في لا تتبعني في الحالين ونافع وأبو عمرو أثبتاها وصلاً فقط والباقون يحذفونها في الحالين ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ الاستفهام للإنكار والجملة معطوفة على محذوف تقديره أرضيت بما فعلوا أو أقمت فيهم فعصيت أي خالفت أمري ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خص ذكر الأم استعطافاً وترقيقاً، وقيل: لأنه كان أخاه من الأم والجمهور على أنهما كان عن أب وأم ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها، أي بشعور رأسي وكان يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضب الله ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ علة النهي يعني لو أنكرت عليهم بالقتال صاروا أحزاباً يتقاتلون ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي لم تحفظ وصيتي التي قلت لك: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾[1] فإنه يدل على المرفق إذ الإصلاح ينافي إراقة الدماء.

ثم أقبل موسى على السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ قال البيضاوي مصدر من خطب الشيء يخطبه إذا طلبه يعني ما طلبك أي مطلوبك بهذا الفعل يعني غرضك الذي حملك عليه وفي النهاية ما خطبك أي ما شأنك وحالك والخطب الأمر الذي يقع فيه المخاطبة والشأن والحال، وفي القاموس الخطب الشأن والأمر عظم أو صغر ﴿يَٰسَٰمِرِىُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ وهو المرة من القبض أطلق على المقبوض أي من تراب قبضت ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من أثر فرس جبرائيل عليه السلام ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي ألقيتها في فم العجل، قال بعضهم إنما خار لكون التراب مأخوذ من حافر فرس جبرائيل وإنما عرفه لأن أمه لما ولدته في السنة التي كان فرعون يقتل فيها البنين من بني إسرائيل، وضعته في الكهف حذراً عليه فبعث الله جبرائيل ليربيه لما قضي على يديه من الفتنة، فكان جبرائيل يغدوه حتى استقل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى﴾ أي زينت وحسنت لي ﴿نَفْسِى﴾ إن أفعله ففعلته ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي أن فعلت ذلك فاذهب من عندي ﴿فَإِنَّ لَكَ﴾ الفاء للسببية يعني اذهب لأن لك ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ الدنيا ما دمت حياً عقوبة من الله على ما فعلت ﴿أَن تَقُولَ﴾ لكل من رأيته ﴿لَا مِسَاسَ﴾ علم للمسة كفجار يعني لا تمسني ولا تقربني، قلت: لعل ذلك لأجل وحشة ألقى الله تعالى في قلبه فكان لا يستأنس من أحد، وقيل كان إذا مس أحداً أو مسه أحد حمّاً جميعاً ولذلك كان يقول ذلك، فكان في البرية طريداً وحيداً كالوحشي النافرحتى مات، وقال البغوي أمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

فقال ابن عباس لا مساس لك ولولدك ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا سامري ﴿مَوْعِدًا﴾ من الله بعذاب الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللام على البناء للفاعل أي لن تغيب ولا مذهب لك عنه بل توافيه يوم القيامة وجاز أن يكون من أخلقت الموعد إذا وجدته خلفاً، وقرأ الآخرون بفتح اللام أي لن يخلفك الله إياه ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ﴾ أي ما زعمته إلهاً بالباطل ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي ظللت ودمت عليه مقيماً فحذفت اللام الأولى تخففاً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار أو بالمبرد على أنه مبالغة في حرقه إذا برد بالمبرد وقرأ أبو جعفر بالتخفيف من الإحراق ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي لنذرينه رماداً أو مبروداً ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي البحر ﴿نَسْفًا﴾ فلا يصادف منه شيء ففعل موسى ذلك الإظهار غباوة المفتتنين به لمزيد أدنى نظر ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ﴾ المستحق لعبادتكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ تميز عن النسبة يعني وسع علمه كل شيء لا العجل الذي يصاغ ويحرق وإن كان حياً في نفسه كان مثلاً في الغباوة.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف لقوله ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يعني نقص عليك اقتصاصاً مثل اقتصاصنا قصة موسى ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي من أخبار الأمور السابقة والأمم الماضية تبصرة لك وزيادةً في علمك وتكثيراً المعجزاتك وتنبيهاً للمستبصرين من أمتك ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ﴾ حال من فاعل نقص ﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي قرآناً مشتملاً على هذه الأقاصيص

والأخبار حقيقاً بالتفكر والاعتبار والتنكير فيه للتعظيم، وقيل: معناه قد أعطيناك من لدنا ذكراً جميلاً وصيتاً عظيماً بين الناس، أو المعنى جعلنا ذكرك مقروناً بذكرى في الأذان والإقامة والتشهد وغير ذلك ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ صفة لذكر أو مستأنفة يعني من أعرض عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه أو عن ذكرك وقيل عن الله ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي حملاً ثقيلاً من الذنوب وقد مر في سورة مريم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾[١] ما أخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس الملائي وفيه أن الكافر استقبله عمله القبيح في أقبح صورة وأنتن ريح فيقول: ألا تعرفني؟ قال: لا ألا إن الله قبح صورتك وأنتن ريحك فيقول: كذلك كنت في الدنيا أنا عملك السيء طال ما ركبتني وأنا أركبك اليوم وتلا ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[٢] أو المعنى يحمل عقوبة ثقيلة سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يقدح الحامل وينقض ظهره ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي جزاء الوزر أو في حمله حال من فاعل يحمل، والجمع فيه والتوحيد في يحمل نظراً إلى معنى من ولفظها ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ تميز عن ضمير مبهم في ساء والمخصوص بالضم محذوف أي ساء حملاً وزرهم واللام في لهم للبيان.

وجاز أن يكون معنى الآية أنه يحمل على عاتقه ما أخذ من عرض الدنيا بغير حق قال رسول الله ﷺ: «لا يأخذ أحدكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء وبقرة له خوار وشاة تيعر»[٣] رواه الشيخان في الصحيحين في حديث عن أبي حميد الساعدي في أخذ العامل شيئاً من الصدقات، وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: زمن ظلم قدر شبر من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين»[٤] وأخرج الطبراني عن الحكم بن الحارث السلمي قال قال رسول الله ﷺ: «من أخذ من طريق المسلمين شبراً جاء به يحمله من سبع أرضين» وأخرج أحمد والطبراني عن يعلى بن مرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما رجل ظلم شبراً من

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: محاسبة الإمام عماله (٧١٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٢٤٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٢).

الأرض كلف الله أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين ثم يطوقه يوم القيامة حتى يقضي بين الناس» وأخرج الطبراني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ظلم شبراً من الأرض جاء يوم القيامة مطوقاً من سبع أرضين»، وكذا أخرج أحمد والطبراني عن أبي مالك الأشعري، وأخرج أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ فعظم الغلول وأمره ثم قال: «ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول يا رسول الله أقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك»[(١)] فذكر الحديث نحوه، وفيه على رقبته فرس لها حمحمة على رقبته شاةٌ لها شفاء على رقبته وأخرج أبو يعلى والبزار عن عمر بن الخطاب نحوه، وكذا ورد في سعاة الصدقة إذا غلوا منها حديث سعد بن عبادة وهلب عند أحمد وحديث ابن عمرو عائشة عند البزار وابن عباس وعبادة بن الصامت وابن مسعود عند الطبراني وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية بسند ضعيف عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من بنى بناءً فوق ما يكفيه كلف أن يحمله على عاتقه» وأخرج أبو داود وابن ماجه والطبراني بسند جيد عن أنس أن النبي ﷺ: «مر بقبة لرجل من الأنصار فقال: «كل بناء أكثر من هذا (وأشار بيده على رأسه) فهو وبال على صاحبه يوم القيامة» فبلغ صاحب القبة فهدمها»[(٢)] وأخرج الطبراني نحوه من حديث واثلة بن الأسقع قال المنذري وله شواهد وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود أن النبي ﷺ مر على بئر يسقي عليها فقال: إن صاحب هذا البئر يحملها يوم القيامة إن لم يؤد حقها.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ قرأ أبو عمرو بالنون المفتوحة وضم الفاء على صيغة المتكلم المعروف، والباقون بالياء المضمومة وفتح الفاء على صيغة الغائب المجهول ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ عن ابن عمر أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه»[(٣)] رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وابن المبارك وكذا أخرج مسدد عن ابن مسعود ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ حال من المجرمين أي زرق العيون والزرقة هي الخضرة في سواد العين وصفهم بذلك لأنه أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الغلول (٣٠٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: غلظ تحريم الغلول (١٨٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: في البناء والخراب (٤١٦١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: ذكر البعث والصور (٤٧٢٦).

العرب، لأن الروم كانوا أعداء أعدائهم وهم كانوا زرق العيون فيحشر الكفارزرق العيون سود الوجوه، وقيل: المراد بقوله: زرقاً عمياً لأن حدقة الأعمى تزرق، وهذا التأويل يوافق قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(١) وقيل: المراد عطاشاً ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ حال من المجرمين أو مستأنفة يتكلمون بينهم خفية لما ملأ صدورهم من الرعب والهول ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ مفعول ليتخافتون يعني يتكلمون سراً ما لبثتم في الدنيا زماناً إلا عشر ليال يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة ولتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتباع الشهوات، وقيل ما لبثتم في القبور إلا عشراً، وقيل: بين النفختين وهو أربعون سنة لأن العذاب يرفع عنهم بين النفختين وجاز أن تكون جملة إن لبثتم بتقدير يقولون عطف بيان أو بدلاً من يتخافتون أو حالاً من فاعله ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيه جملة معترضة يعني ليس الأمر كما قالوا: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي أوفاهم عقلاً وأعد لهم قولاً أو عملاً ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ رجح الله تعالى قول هذا القائل لكون مدة عمر الدنيا بالنسبة إلى طول الآخرة أو لوجوه أخر أقل من نسبة عشر ليال إلى عمر الدنيا والله أعلم.

قال البغوي قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ فقال: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال قالت قريش كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله تعالى ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ وقيل لم يسأل والتقدير وإن سألوك فقل ولذلك جيء بالفاء وبخلاف سائر الأجوبة حيث قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(٢) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾(٣) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾(٤) وغير ذلك، والنسف القلع أي يقلعها من أصلها ويفتتها ويجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي يذر مقارّها أو الأرض وإضمارها من غير ذكرها لدلالة الجبال عليها ﴿قَاعًا﴾ في القاموس أي أرضاً سهلاً مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ﴿صَفْصَفًا﴾ في القاموس أي مستوياً يعني كان أجزاؤها على صف واحد ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ أي اعوجاجاً ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي لا نتوّاً إن تأملت فيها بالمقياس الهندي ثلاثتها أحوال مرتبة فالأولان باعتبار الإحساس والثالث

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ١.

باعتبار المقياس، قيل: لا ترى استئناف مبين للحالين، قال مجاهد أي لا ترى انخفاضاً ولا ارتفاعاً، قال الحسن العوج ما انخفض من الأرض والأمت ما نشر من الروابي ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذاً نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النسف ظرف لقوله ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ جملة مستأنفة أو بدل ثانٍ من يوم القيامة أي يتبعون صوت الداعي الذي يدعوهم إلى الحشر وهو إسرافيل عليه السلام يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس فيقول: يا أيها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المنقطعة إن الله يأمرك أن تجمعي لفصل الخطاب كذا أخرج ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه أي لا عوج لدعائه وهو من المقلوب أي لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه يميناً وشمالاً أي لا يقدرون على العدول عنه بل يتبعونه سراعاً ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي خضعت يعني تخضع لمهابة الرحمن حال من فاعل يتبعون بتقدير قد أو عطف على يتبعون يعني وتخشع الأصوات للرحمن ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ الفاء للسببية والخطاب لمخاطب غير معين ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي صوتاً خفياً كصوت أخفاف الإبل في المشي، قال البغوي قال مجاهد هو تخافت الكلام وخفض الصوت، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تحريك الشفاه من غير منطق، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قاعاً مستوياً صفصفاً لا نبات فيه عوجاً وادياً أمتاً رابية وخشعت الأصوات سكنت همساً الصوت الخفي، وأخرج من وجه آخر عنه قال أرضاً ملساء لا ترى فيها أبنية مرتفعة ولا انخفاضاً، وأخرج من وجه آخر عنه قال همساً صوت وطء الأقدام يعني صوت أقدام الناس إذا نقلوا إلى المحشر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا كان كذلك ﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ جملة مستأنفة أي لا تنفع شفاعة أحد أحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ الاستثناء من الشافعة أي إلا شفاعة من أذن له الرحمن أو من أعم المفاعيل أي إلا من أذن الرحمن في أن يشفع له فإن الشفاعة تنفعه له فمن على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على أنه المفعول له ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ورضي المكانة عند الله قوله في الشفاعة أو رضي له قول الشافع في شأنه أو قوله لأجله وفي شأنه، قال ابن عباس يعني قال لا إله إلا الله، قلت: هذا تفسير لمن تنفع شفاعة الشافعين له ﴿يَعْلَمُ﴾ أي الرحمن ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ما بين أيدي الشافعين ومشفوعين لهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني ما تقدم من أحوالهم في الدنيا وفي القبور وما يستقبلونه في الآخرة والجملة حال من الرحمن ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ تميز من النسبة أي لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته، وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعهما فإنهم لم يعلموا جميع علومه تعالى.

﴿وَعَنَتِ﴾ أي ذلت وخضعت خضوع العناة، وهم الأسارى في يد الملك القهار عني يعني عناءً نصب وتعناه تحشمها، قال البغوي ومنه العاني للأسر ﴿ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ﴾ الذي لا يموت ويصلح له فإن كلما كان حياته جائز الزوال فهو ميت في حد ذاته ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾ القائم على كل نفس بما كسبت والقائم بتدبير الخلق، والمراد بالوجوه أصحابها وظاهرها العموم ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فيكون اللام بدل الإضافة ويؤيد قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي شركاً قال ابن عباس خسر من أشرك بالله، والجملة معترضة أو مستأنفة لبيان ما لأجله عنت وجوههم، ويحتمل أن يكون حالاً من الوجوه، وقال طلق بن حبيب المراد بالعناء السجود للحي القيوم، قلت: وعلى هذا معنى الآية سجدت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من أشرك ولم يسجد له، وجملة عنت الوجوه معطوفة على خشعت أو حال من فاعله بتقدير قد ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شرط وكلمة من للتبعيض أي بعض الصالحات يعني الفرائض منها وجاز أن يكون من للابتداء والتقدير ومن يعمل عملاً كائناً من النيات الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال من الضمير المرفوع في يعمل يعني أن الإيمان شرط لصحة الطاعات وقبول الخيرات ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ جزاء للشرط قرأ ابن كثير فلا يخف بالجزم والظاهر أنه مجزوم على أنه جزاء للشرط، وقال البيضاوي وغيره مجزوم على النهي، وقرأ الجمهور ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالرفع إما بناءً على أنه تعليل لجزاء محذوف والفاء للسببية تقديره وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ يفلح لأنه لا يخاف، وأما خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية جزاء للشرط تقديره فهو لا يخاف ﴿ظُلْمًا﴾ أي لا يخاف أن يزاد على سيآته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ أن ينقص من ثواب حسناته كذا قال ابن عباس، وقال الحسن لا ينقص من ثواب حسناته ولا تحمل عليه ذنب مسيء، وقال الضحاك لا يؤخذ بذنب من لم يعمله أو لا يبطل حسنة عملها، وأصل الهضم النقص والكسر ومنه هضم الطعام، والجملة الشرطية معطوفة على عنت الوجوه.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ صفة لمصدر محذوف منصوب بقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ الضمير المنصوب راجع إلى القرآن يعني كما قصصنا عليك أنباء السلف من الأمم الماضية أنزلنا عليك القرآن إنزالاً مثل ذلك الإنزال في كونه ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ وفي كونه متضمناً للوعد والوعيد حال كونه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مقروءاً بلسان العرب كله على وتيرة واحدة وأسلوب بديع معجز ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ أي كررنا ﴿فِيهِ مِنَ﴾ آيات ﴿ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يجتنبوا للشرك والمعاصي فيصيرا التقوى ملكة لهم ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ ذلك القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً إما حين يسمعونه فيمنعهم عن المعاصي ولو

في الجملة، ولهذه النكتة أسند التقوى إليهم لكون التقوى ملكة لهم والأحداث إلى القرآن، ونسبة الإحداث إلى القرآن مجاز من قبيل الإسناد إلى السبب والمعنى يحدث الله لهم بسبب القرآن ذكراً، وقيل: كلمة أو بمعنى الواو ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ فيه التفات من التكلم إلى الغيبة والفاء للسببية يعني جل الله وعلا من أن تماثل كلامه كلام غيره كما لا يماثل هو في ذاته وفي شيء من صفاته أحداً من خلقه فهو متعال عما يقول فيه المشركون، قلت: بل هو متعال أيضاً عما يصفه الواصفون الكاملون، اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك على ما أردت ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه القديم سلطانه العظيم العميم قهرمانه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت وجوده وصفاته وملكوته باقتضاء ذاته لا يحتمل الفساد والزوال ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بقراءته ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ قرأ يعقوب نقضي بالنون المفتوحة وكسر الضاد وفتح الضاد على صيغة الغائب المبني للمفعول ووحيه بالرفع مسنداً إليه، نهي عن الاستعجال بقراءة القرآن قبل أن يفرغ جبرائيل من الإبلاغ، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾[1] وقال مجاهد وقتادة معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتي يتبين لك معانيه، فهي نهي عن تبلغ ما أجمل قبل أن يأتي بيانه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ يعني إلى ما علمتني سل زيادة العلم بدل الاستعجال، فإن ما أوحي إليك تناله لا محالة.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

(١) سورة القيامة، الآية: ١٦.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ واللام جواب قسم مقدر يعني والله لقد أمرنا آدم ووصينا إليه أن لا يأكل من الشجرة، يقال عهد إليه أي أوصاه كذا في القاموس ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل هذا ﴿فَنَسِيَ﴾ العهد أو المعنى فترك ما أمر به من الاحتراز عن الشجرة ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ أي جداً على حفظها أمر به أو صبراً عما نهي عنه والعزم في اللغة عقد القلب على إمضاء الأمر، ومنه ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1] ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾[2] ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾[3] وفي القاموس عزم عليه ويعزم أراد فعله وقطع عليه أوجد في الأمر، وفي النهاية العزم الجد والصبر، قلت: عقد القلب على إمضاء الأمر يستلزم الجد في إتيانه والصبر على مشاقه، وقيل: معنى الآية لم نجد له عزماً أي قصداً على أكل الشجرة بل أكل ناسياً، يعني لم يكن له عقد قلب على إمضاء المعصية، ولم نجد إن كان من أفعال القلوب بمعنى العلم فله عزماً مفعولاه، وإن كان من الوجود ضد العدم فعزماً مفعول وله حال فيه، أو ظرف لغو متعلق بلم نجد، وجملة لقد عهدنا قال صاحب الكشاف والبيضاوي وغيرهما إنها معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ يعني نقض العهد بعد تصريف الوعيد لهؤلاء ليس أمراً مبدعاً منهم بل أساس بناء آدم على العصيان وعرقهم راسخ فيه النسيان حيث عهدنا إلى آدم من قبل فنسي روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيضاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه. وبيض ما بين عينيه قال: أي رب من هذا؟ قال: داود، فقال: أي رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال رب زده من عمري أربعن سنة، قال: رسول الله ﷺ: «فلما انقضى عمر آدم إلا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمري أربعين سنة؟ قال أولم تعطها ابنك داود؟ فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطأ فخطأ ذريته»[4] وقال بعض المحققين هذا ليس بسديد لأن قوله تعالى: ﴿صَرَّفۡنَا﴾[5] يتعلق به كذلك وهو معطوف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ وذلك إشارة إلى حديث موسى، وقصة آدم ﵇ في النسيان ومخالفة الأمر ليس مشابهاً بحديث موسى ﵇ بل هو

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٧.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣٠٧٦).

(٥) سورة طه، الآية: ٩.

معطوف على قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾[١] لأنه بمعنى قد أتاك وقصة آدم من القصص الماضية والله أعلم.

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قلنا﴾ أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي، وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ لكنه يشكل بأن هذه الجملة بتقدير أذكر إنشائية وجملة لقد عهدنا خبرية فلا يصلح العطف إلا أن يقال هذا مقدر بنقول يعني ونقول أذكر إذ قلنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ سبق القول فيه ﴿أَبَىٰ﴾ أن يسجد جملة مؤكدة لما سبق من الكلام، وجاز أن تكون هذه الجملة تعليلاً للاستثناء وحينئذ لا يجوز أن يقدر له مفعول وإلا لزم تعليل الشيء بنفسه بل يجري الإباء مجرى الفعل اللازم ويكون معناه أظهر الإباء عن المطاوعة ﴿فَقُلْنَا﴾ لآدم وهذه الجملة ومعطوفة على جملة مقدرة يعني فأدخلنا آدم الجنة فقلنا له ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني إبليس ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ نهى في اللفظ لإبليس وفي المعنى نهي لهما أن يتبعاه أي لا تتبعاه فيتسبب إبليس لإخراجكما من الجنة حيث يخرجكما الله تعالى منها بسبب اتباعه وعصيان ربكم، والفاء للسببية إذ العداوة سبب لعدم الاتباع المنهي عنه معنى ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ منصوب بعد الفاء في جواب النهي أي فتتعب وتنصب ويكون عيشك في كد يمينك وعرق جبينك يعني الحرث والزرع والحصد والطحن والخبز قال البغوي روى عن سعيد ابن جبير أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبيه فذلك شقاؤه، وإفراد الضمير بعد إشراكها في الخروج محافظة للرؤوس الآي واكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قيم فيها أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال ويؤكد قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟﴾ أي لا تعطش ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي لا تبرز للشمس فيؤذيك، قال عكرمة لا يصيبك الشمس وأذاها لأنه ليس في الجنة شمس وأهلها في ظل ممدود، فإنه بيان وتذكر لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والري والكسوة والسكن مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أعراضها. قرأ نافع وأبو عمرو أنك بكسر الهمزة عطفاً على أن لك والباقون بفتح الهمزة عطفاً على أن لا تجوع والعاطف إن ناب من إنّ لكنه ناب من حيث إنه حرف عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق فلا يمتنع دخوله على أن كما امتنع دخول أن عليه، أو يقال لا يجوز دخول إن على أن من غير فصل وإما مع الفصل كما في

(١) سورة طه، الآية: ٩.

هذه الآية فيجوز يقال إن في ظني أنك قائم وإن إعظامك علي واجب.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فأنهى إليه وسوسة ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾ بيان للوسوسة ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي الشجرة التي من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً، أضافها إلى الخلد وهو الخلود لكونه سببه يزعمه ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي لا يزول ولا يضعف ﴿فَأَكَلَا﴾ يعني آدم وحواء منها ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أي أخذ يلزقان على سوءاتهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ للتستر وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ يعني ضل عن المطلوب وأخطأ طريق الحق وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة التي هي سبب لضده أو عن المأموربه أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو، وقال ابن الأعرابي أي فسد عليه عيشه فصار من العز إلى الذل ومن الراحة إلى التعب، قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لأنه يقال عاص لمن اعتاد فعل العصيان ألا ترى أنه من خاط يقال خاط فلان ولا يقال فلان خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم موسى عند ربهما فحج آدم موسى، قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله سبحانه برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجياً فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى بأربعين عاماً قال آدم هل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نعم قال: أفتلومني على إني عملتُ عملاً كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»[1] ورواه البغوي بلفظ «قال موسى يا آدم أنت أبونا فأخرجتنا من الجنة، فقال آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده تلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن خلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى فحج آدم موسى فحج آدم موسى».

فإن قيل: إنكار المراد بقوله نسي أنه نسي العهد وفعل ما فعل فكيف ورد في حقه عصى فإن الإنسان رفع عنه النسيان؟ قلنا: إما أن يكون رفع النسيان مختصاً بهذه الأمة كما يدل عليه قوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» رواه الطبراني عن ثوبان وعن ابن عمر حيث لم يقل رفع مطلقاً قال في المجنون وشبهه «رفع القلم عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ وعن النائم حتى يستقيظ وعن الصبي حتى يحتلم»

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٢).

كما ذكرنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾(١) إن الآية تدل على المؤاخذة على الخطأ والنسيان لم تكن ممتنعاً عقلاً فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناول السموم عمداً كان أو خطأً يفضي إلى الهلاك كذلك الذنوب يفضي إلى العقاب لو لم يغفرها الله وإن كان بغير عزم، وقال الكلبي كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به أو أخطؤوا عجلت عليهم العقوبة فحرم عليهم من مطعوم أو مشروب على حسب ذلك الذنب، قلت فلذلك حرم على آدم ﷺ مطاعم الجنة ومشاربها، وأما أن يقال أن حسنات الأبرار سيئات المقربين بالخطأ والنسيان إن كان مرفوعاً عن الإنسان لا يؤاخذ بهما في الآخرة بالنار لكن الخواص من الناس لعلو درجتهم مؤاخذون بهما وبما هو ترك الأولى والأفضل لا بالنار في الآخرة بل بالغين على القلوب في الدنيا والهجران من المعاملات قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»(٢) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي عن حديث الأغر المزني، قال صاحب المدارك الأنبياء مأخوذة بالنسيان الذي لو تكلفوا حفظوا.

فائدة: ومن ههنا قال بعض العلماء: يجوز صدور الصغيرة من الأنبياء قبل النبوة.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه وقربه بالحمل على التوبة وأصل الكلمة للجمع يقال جبى الخراج جباية والاجتباء افتعال منه فمعناه الاقتراب ويلزمه الاصطفاء ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي رجع عليه بالرحمة والعفو ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي هداه إلى التوبة حق قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾(٣) الآية، وإلى مراتب القرب ﴿قَالَ﴾ الله جملة مستأنفة ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ أي من الجنة خطاب لآدم وحواء، ولما كان هبوطهما مستلزم لهبوط ذريتهما فهو خطاب لذريتهما تبعاً ولذلك أكد بقوله ﴿جَمِيعًۢا﴾ وأورد ضمير الجمع في قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي لبعضكم ﴿عَدُوٌّ﴾ عداوة دنيوية ودينية ﴿فَإِمَّا﴾ زائدة للتأكيد أدغمت فيه نون أن الشرطية ﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي كتاب ورسول ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال البغوي روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والإكثار منه (٢٧٠٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار (١٥١٤).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ وقال الشعبي عن ابن عباس أجار الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة وقرأ هل الآية.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ يعني عن الهدى الذاكر لي والداعي إلى عبادتي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ضيقاً مصدر وصف به للمبالغة ولذلك يستوي فيه المذكرو المؤنث، قال البغوي عن ابن مسعود وأب هريرة وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا هو عذاب القبر، وأخرج البزار وبسند جيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «فإنه له معيشة ضنكاً قال عذاب القبر» قال أبو سعيد يضغط حتى يختلف أضلاعه، وفي بعض المسانيد مرفوعاً «يلتأم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذب حتى يبعث»[1] وهو في سنن الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال الحسن هو الزقوم والضريع والغسلين في النار، وقال عكرمة هو الحرام وقال الضحاك الكسب الخبيث، وعن ابن عباس قال: الشقاء، قلت: وإنما أطلق الضنك على الحرام والكسب الخبيث والشقاء لكونها مفضية إلى ضيق المقام في القبر أو النار قال الله تعالى في أهل النار: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾[2] وروى عن ابن عباس أنه قال: كل مال أعطى العبد قل أو كثر فلم يتق فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة وإن قوماً أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم ضنكاً وذلك أنهم يرون الله ليس بمخلف عليهم معائشهم من سوء ظنهم بالله عز وجل، وقال سعيد بن جبير معناه نسلبه القناعة حتى لا يشبع، وحاصل هذين القولين أن من أعرض عن ذكر الله كان مجامعاً همه ومطامح نظره إلى أعراض الدنيا متهالكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة فإنه قانع على ما أعطاه الله شاكر عليه متوكل على الله فتكون حياته في الدنيا طيبة، قلت: وعلى هذا التأويل ليس المراد بمن أعرض عن ذكر الله الكافر المعرض عن الإيمان بل المعرض عن الإكثار ذكر الله فإن عامة المؤمنين منهمكون في طلب الدنيا خائفون على انتقاصها فمن أعرض عن إكثار ذكر الله وجعل همته في إعراض الدنيا أظلم عليه وقته وتشويش عليه رزقه.

فإن قيل: إن كان تعب الرجل في دار الدنيا معيشة ضنكاً، فذلك غير مختص بالكفار والفساق بل موجود في الأنبياء والصلحاء أشد البلاء، قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٠٦٥).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٣.

صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دنيه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئته»[١] رواه أحمد والبخاري في الصحيح والترمذي وابن ماجه عن سعد والطبراني عن أخت حذيفة نحوه، والبخاري في التاريخ عن أزواج النبي ﷺ بسند حسن بلفظ «أشد الناس بلاءً في الدنيا نبي أو صفي» قلت: الجواب عندي بوجهين أحدهما أنه ليس المراد بالآية أن ضيق المعيشة مختص بالكفار بل هذه الآية نظيرة لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾[٢] فالمعنى أنه من أعرض عن ذكري نعطيه في الدنيا معيشة قليلة فإن متاع الدنيا قليل كله نعطيه أياماً معدودة في نوع من الضيق ثم نحشره يوم القيامة أعمى، ثانيهما أن معيشة الدنيا لا يخلو لأحد من المؤمن والكافر عن تعب وبلاء، قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[٣] أي إلى لقائه غير أن ذلك التعب للمؤمن موجب لمحو الخطيآت أو رفع الدرجات كما يدل عليه الحديث المذكور فهو وإن كان ضيق صورةً لكنه فرج معنى وسبب لانشراح صدره باطناً بخلاف الكافر فإن ضيقه وتعبه أنموذج لعذابه المعد له في الآخرة، ثم إذا صح للعبد المؤمن حب مع الله سبحانه فكل ما أصابه ووصله من الله تعالى يلتذّ به ويفرح فإن ضرب الحبيب زبيب، روى الحديث المذكور ابن ماجه وعبد الرزاق والحاكم عن أبي سعيد الخدري ﷺ بلفظ قال رسول الله ﷺ: «أشد البلاء الأنبياء ثم الصالحون لقد كان أحدهم يبتلي الفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحويها ويلبسها ويبتلي بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء» والله أعلم.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ قال ابن عباس أعمى البصر، وقال مجاهد أعمى عن الحجة، ويؤيد قول ابن عباس قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ في الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾ فإنه لم يكن له في الدنيا حجة قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾[٤] وقال: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء (٤٠٢٣).

(٢) في القرآن ﴿قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾.
سورة البقرة، الآية: ١٢٦.
﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ سورة لقمان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الإنشقاق، الآية: ٦.   (٤) سورة المؤمنون، الآية: ١١٧.

﴿أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾[١] أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً سأله فقال: أرأيت قوله تعالى: ونحشر المجرمين زرقاً وأخرى ﴿عُمْيًا﴾ قال: إن يوم القيامة يكونون في حال زرقاً وفي حال عمياً ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ متعلق بفعل محذوف أي فعلت أنت كذلك إشارة إلى مبهم يفسر قوله ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على الوحدانية أو آياتنا المنزلة على الأنبياء ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فأعرضت عنها وتركتها غير منظور إليها كما يترك الأعمى ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ يعني اليوم تترك في النار تركاً مثل تركك إياها، وقيل: التقدير الأمر كذلك وجملة أتتك في مقام التعليل ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ أي نجزي جزاءً مثل ذلك الجزاء ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ يعني أضاع عمره بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات ولم يؤمن بآيات ربه بل كذبها وخالفها ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ في نار جهنم ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من ضنك العيش والعمى وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٢] الخ.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الضمير المرفوع إلى الهدى والمراد منه الكتاب أو الرسول، أو إلى الله تعالى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾[٣] وعلى

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢٧.

هذا في الكلام التفات من التكلم إلى الغيبة، ويؤيد هذا التأويل ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ بالنون على صيغة المتكلم، والمعنى أو لم يهد لهم الله أو القرآن أو الرسول يعني لكفار مكة، الاستفهام للإنكار يعني هداهم إلى صراط مستقيم فاستحبوا العمى على الهدى، والفاء للتعقيب معطوف على محذوف تقديره ألم يبين لهم فلم يهد لهم إنكار لعدم الهداية بعد البيان لفظاً وفي المعنى إنكار لعدم اهتدائهم بعد الهداية، وقيل: أفلم يهد لهم معطوف على مضمون إنكارهم السابق فإنه تعالى ذكر حال المؤمنين بقوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1] وحال الكفار بقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ فقال بين الله لهم فيما تلونا حال الفريقين ألم يتبين لهم ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، وقيل لم يهد مسند إلى ما دل قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كم خبرية أي أهلكنا كثيراً ﴿قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي أهلكنا القرون السابقة أو مسند إلى الجملة بمضمونها يعني ألم يهد لهم إهلاكنا القرون ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ حال من القرون يعني أهلكناهم ماشين في مساكنهم، أو حال من الضمير المجرور في لهم على تقدير إسناد الفعل إلى مضمون جملة كم أهلكنا يعني أفلم يهد لكفار مكة حال كونهم ماشين في مساكن القرون الماضية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العدة بتأخير عذاب كفار هذه الأمة إلى يوم القيامة، وعدم استئصالهم في الدنيا لكون النبي ﷺ رحمة للعالمين، وجملة سبقت صفة لكلمة وخبر المبتدأ محذوف يعني لولا كلمة سبقت حاصلة ﴿لَكَانَ﴾ إهلاكنا هؤلاء الكفار وبمثل ما نزل بالقرون الخالية ثم من عاد وثمود وإشباههم ﴿لِزَامًا﴾ أي ملازماً لهؤلاء الكفار غير منفك عنهم، مصدر من باب المفاعلة وصف به مبالغة أو على أنه بمعنى الفاعل أو اسم آلة سمي به اللازم لفرط لزومهم ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على كلمة أي ولولا أجل مسمى لمدة بقائهم في الدنيا أو لقيام القيامة أو لعذابهم ففي الكلام تقديم وتأخير تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى وجاز أن يكون أجل مسمى عطف على الضمير المستكن في كان ولا بأس به بوجود الفصل، والتقدير على هذا ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب لكان العذاب العاجل والعذاب المؤجل بأجل مسمى كلاهما لازمين لم، والجملة الشرطية أعني لولا كلمة إلى آخره معطوفة على جملة محذوفة مفهومة من قوله وكم أهكلنا، تقديره كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.

مساكنهم وهؤلاء الكفار مثلهم في استحقاق نزول العذاب، ولولا كلمة لكان لزاماً وأجل مسمى.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد يعني إذا علمت أن عذاب هؤلاء الكفار مؤجل إلى أجل مسمى فاصبر ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك ﴿وَسَبِّحْ﴾ يعني صل متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني حامداً على ما وقفك للصلاة والتسبيح وأعانك عليه، كأن فيه إشارة إلى أن العبد إن صدر منه العبادة لا يغتر به بل يشكر الله على إتيانه وإعانته كما يشير إليه قوله تعالى: (إياك نستعين) بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني نستعين بك على عبادتك ويمكن أن يستنبط من هذه الآية وجوب قراءة الفاتحة في كل صلاة على ما صرح به النبي ﷺ حيث قال: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» وفي لفظ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[(١)] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد فإن الآية اقتضت بإتيان الصلاة متلبساً بالحمد، لكن التلبس مجمل فالتحق قول رسول الله ﷺ بياناً له وظهر أن المراد بالتلبس بالحمد قراءة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ إلى آخر السورة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر، وقيل المراد بقبل الغروب بعد نصف النهار يعني الظهر والعصر جميعاً ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ أي من ساعاته جمع إنَى بالكسر والقصر يعني المغرب والعشاء، قال ابن عباس يريد أول الليل قلت ويمكن أن يراد به التهجد أيضاً فإنها كانت واجبة على النبي ﷺ والظرف متعلق بقوله ﴿فَسَبِّحْ﴾ والفاء زائدة أو على تقدير أما يعني وأما من آناء الليل فسبح على الخصوص لكون الليل وقت خلو القلب عن الإشغال، والنفس فيها أميل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيها أحسن وأفضل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾[(٢)] ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ عطف على قبل طلوع الشمس وعلى محل من آناء الليل، ولعل هذا تكرير لصلواتي الفجر والعصر لإرادة الاختصاص ومزيد التأكيد، لأن الفجر وقت نوم والعصر وقت اشتغال بالدنيا، فالآية نظيرة لقوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[(٣)] ومجيئه بلفظ الجمع للأمن من الالتباس، أو المراد بأطراف النهار صلاة الظهر فقط لأن وقته نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الآخر،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الأذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٢) سورة المزمل، الآية: ٦ ـ ٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

وجمعه باعتبار النصفين، وقيل المراد من إناء الليل صلاة العشاء ومن أطراف النهار صلاة الظهر والمغرب، لأن الظهر في آخر الطرف الأول من النهار وفي أول الطرف الآخر فهو طرفين منه والطرف الثالث غروب الشمس وعند ذلك يصلي المغرب، أو المراد منه التطوع في أجزاء النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي لكي ترضى يعني سبح في هذه الأوقات لأن تنال من عند الله ما به ترضى، وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء مفعول أي لكي يرضيك ربك، وقيل: معنى ترضى أي يرضاك الله كما قال: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾(١) وقيل: معنى الآية لعلك ترضى بالشفاعة كما قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾(٢) روى الشيخان في الصحيحين وأحمد وأصحاب السنن الأربعة عن جرير بن عبد الله أنه قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر» فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(٣) والله أعلم.

أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والبزار وأبو يعلى عن أبي رافع قال: نزل عند رسول الله ﷺ ضيف فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً وفي رواية يعني كذا وكذا من الدقيق أو أسلفني إلى هلال رجب فقال لا إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال والله لئن باعني أو أسلفني لقضيتُ وإن الأمين في السماء أمين في الأرض، اذهب بدرعي الحديد إليه فلم أخرج من عنده حتى نزلت ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي نظر عينك، عطف على فاصبر ولما كان قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ الخ دالاً على انتفاء العذاب العاجل عن الكفار وثبوت العذاب الآجل رتب عليه بالفاء الدالة على السببية جملتين تفيد إحداهما الأمر بالصبر بناء على انتفاء العذاب العاجل، وثانيتهما النهي عن مد النظر تمنياً بناء على تحقق العذاب الأجل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله ﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول لقوله: ﴿مَتَّعْنَا﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة له يعني ما متعنا به أصنافاً من الكفرة، وجاز أن يكون حالاً من الضمير المحبوس والمفعول به قوله منهم، وكلمة

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر (٥٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الرؤية (٤٧١٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى (٢٥٥١).

من للتبعيض يعني ما متعناه به بعضهم وناساً منهم حال كون المتمتع به أصنافاً من المال ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منصوب بفعل محذوف، دلّ عليه متعنا، تقديره أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا، يعني زينتها وبهجتها، أو منصوب بمتعنا تضمينه معنى أعطينا أو على البدلية من محل به، أو على البدلية من أزواجاً بتقدير مضاف إن كان المراد أصناف الكفرة وبدون التقدير إن كان المراد أصناف المال، قرأ يعقوب زهرة بفتح الهاء وهي لغة كالجهرة في الجهر أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا أي ازدهروها أي احتفظوا بها وفرحوا بها لتنعمهم، في القاموس الازدهار بالشيء الاحتفاظ به والفرح به ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبلوهم ونختبرهم، أو لنتركهم في الكفر والضلال بأن يطغوا في دنياهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسبب متعلق بمتعنا ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما رزقك ربك في الدنيا من الهدى والنبوة أو الكفاف من الحلال أو في الآخرة من الجنة ومراتب القرب ﴿خَيْرٌ﴾ مما أعطوا في الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ منه فإنه لا ينقطع أبداً، والجملة حال من فاعل لا تمدن، قال البغوي قال أبي بن كعب ﷺ من لم يعتز بعزّ الله تقطعت نفسه خسرات، ومن يتبع بصره في أيدي الناس يظل حزنه ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أي قومك وأهل دينك عطف على لا تمدن ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمره بأن يأمر اتباعه بعد ما أمره به ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم، ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا إلى أرباب الثروة ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أي داوم ﴿عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ لا نكلفك أن ترزق أحداً من خلقنا ولا أن ترزق نفسك وإنما نكلفك العمل، هذه الجملة في مقام التعليل للاصطبار على الصلاة ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم ففرغ بالك لأمر الآخرة هذا تعليل لعدم سؤال الرزق ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ يراد ما يعقب العمل الصالح من الثواب كما يراد بالعقاب ما يعقب العمل السوء من العذاب ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي لأهل التقوى، قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك واتقوني، أخرج سعيد بن منصور في سننه والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان أن النبي ﷺ كان إذا أصاب أهله ضرٌ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية.

﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني المشركين ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ محمد ﷺ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ دالة على صدقه في ادعاء النبوة ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ قيل هذه جملة معطوفة على يقولون يعني واصبر على ما يقولون وعلى ما قالوا، وهذا كلام مستأنف أنكروا إتيان الآيات ولم يعتدوا بما جاء به من الآيات الكثيرة تعنتاً وعناداً، وطلبوا آيات مقترحةً فألزمهم الله تعالى بإتيانه بالقرآن الذي هو رأس المعجزات وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم والعمل

على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى منه أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل ونبههم أيضاً على وجه أثنى من وجوه إعجاز المختصة بهذا الباب فقال ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف، تقديره ألم يعرفوا صدقك في ادعاء النبوة ولم تأتهم بيان ما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية فإن اشتمال القرآن على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية مع أن الآتي بها أمي لم يرها ولم يتعلم ممن علمها آية واضحة على صدقه، وفيه إشعار بأن القرآن كما هو برهان على نبوته ﷺ شاهد لصحته ما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وليست هي كذلك بل هي مفتقرة إلى ما يشهد عليها، قرأ نافع وأبو عمرو وحفص تأتهم بالتاء لتأنيث الفاعل والباقون بالياء التحتية تقدم الفعل وكون التأنيث غير حقيقي، وقيل: معناه أو لم تأتهم بيان ما في الصحف الأولى من أنباء الأمم أنهم اقترحوا الآيات فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها كيف عجلنا بهم العذاب وأهلكناهم فما يؤمنوا أنهم إن أتتهم الآيات المقترحة أن يكون حالهم كحال أولئك.

﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾ يعني كفار قريش لأجل إشراكهم بالله ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق بأهلكنا ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يعني بعذاب نازل من قبل بعثة محمد ﷺ أو من قبل البينة والتذكير لأنها في معنى البرهان ﴿لَقَالُواْ﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا ﴿لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا إلى التوحيد ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب بتقدير أن بعد الفاء في جواب التحضيض فإنه بمعنى الاستفهام ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ المنزلة على الرسول ﴿مِن قَبْلُ﴾ ظرف لنتبع ﴿أَن نَّذِلَّ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار يوم القيامة أو بأن نذل يوم القيامة ونخزى في جهنم.

مسألة: هذه الآية تدل على أن الإيمان بالله والتوحيد واجب على العقلاء قبل بعثة الرسل والكفر حينئذ كان سبباً لاستحقاق العذاب وإنما بعث الرسل لإتمام الحجة وقطع المعذرة ولمزيد الفضل وبه قال أبو حنيفة ح خلافاً للشافعي ح.

﴿قُلْ﴾ يا محمد كلام مستأنف ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤل إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وذلك أن المشركين قالوا نتربص بمحمد حوادث الدهر وإذا مات تخلصاً يعني انتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ إلى الطريق الموصل إلى الجنة ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة أو اهتدى إلى النعيم المقيم، ومن في الموضعين للاستفهام ومحلها الرفع بالابتداء ويجوز أن تكون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل، على

أن العلم بمعنى المعرفة، أو على أصحاب الصراط وعلى الصراط على أن المراد به النبي ﷺ، حمزة والكسائي يميلان أواخر هذه السورة من قوله تعالى: لتشقى إلى آخرها قوله: ومن اهتدى وأبو عمرو يميل من ذلك ما فيه راء نحو قوله تعالى: الثرى ومن افترى ولا تعرى شبهه وما عدا ذلك بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بإخلاص الفتح. روى الحاكم في المستدرك والبيهقي بسند صحيح عن معقل بن يسار والبغوي نحوه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه والطوسين والحراميم من ألواح موسى وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والمفصل نافلة» وروى الحاكم في المستدرك والطبراني وابن ماجه عن أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور البقرة وآل عمران وطه» تمت تفسير سورة طه بفضل الله تعالى وحسن توفيقه ثامن الشهر الربيع الثاني من السنة الثالثة بعد المائتين وألف ويتلوه تفسير سورة الأنبياء إن شاء الله تعالى الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

سورة الأنبياء عليهم السلام

مائة واثنا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ بالإضافة إلى ما مضى من أيام الدنيا واللام قيل: بمعنى من فهو صلة لاقترب، وقيل: تأكيد للإضافة وأصله اقترب حساب الناس ثم اقترب الحساب للناس ثم اقترب للناس حسابهم، ولام التعريف للجنس وقيل: للعهد والمراد به الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن الحساب وعما يفعل بهم لاستغراقهم في دنياهم وشهواتهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التفكر في الحساب والتأهب له، وصفهم بالإعراض بعد الغفلة احترازاً عمن كان غفلته باستغراقه في ذكر الله تعالى عن غيره، واللام في للناس إن كان للاستغراق فالضمير المنفصل عائد. إلى بعض أفراد العام كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[1] يعني بعولة الرجعيات منهم، ومعرضون خبر للضمير وفي غفلة حال من المستكن في الخبر أو هما خبران

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

للضمير والجملة حال من الناس أو من حسابهم بحذف الرابط، والحساب عبارة عن إظهار ما فعله العباد وما استحقوا عليه، واقترابه عبارة عن اقتراب الساعة.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ ينبههم عن نوم الغفلة والجهالة من زائدة وذكر في محل الرفع على الفاعلية ليأتيهم ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ صفة لذكر أو صلة ليأتيهم ﴿مُّحْدَثٍ﴾ صفة لذكر أي محدث تنزيله ليكون على أسماعهم في التنبيه كي يتعظوا وذا لا ينافي كونه قديماً ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي يستهزؤون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفرط الإعراض عن التفكر في العواقب، حال من فاعل استمعوه ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال من فاعل يلعبون أو من فاعل استمعوه، والمستثنى حال من الضمير المنصوب في ما يأتيهم، أو صفة لمصدر محذوف ما يأتيهم من ذكر في حال من الأحوال إلا حال استماعهم جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكر فيه، وفي العواقب من الأمور أو ما يأتيهم من ذكر إتياناً إلا إتياناً استمعوه بعده جامعين بما ذكر قال أبو بكر الوراق القلب اللاهي المشغول بزينة الدنيا وزهرتها الغافل عن الآخرة وأهوالها وجملة ما تأتيهم في مقام التعليل لقوله هم في غفلة ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ أي بالغوا في إخفائها أو جعلوها بحيث خفي تناجيهم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فاعل لأسروا والواو في أسروا زائدة ليدل من أول الأمر أن فاعله جمع وليست بضمير، أو فاعله ضمير والموصول بدل منه جيء للإيمان بأنهم ظالمون فيما أسروا به، أو الموصول مبتدأ والجملة المتقدمة خبره، وأصله وهؤلاء أسروا النجوى فوضع الموصول موضع هؤلاء تسجيلاً على فعلهم بأنهم ظلم، أو الموصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم الذين ظلموا أو منصوب بتقدير أعني أو ذم وجملة أسروا والنجوى معطوفة على يلعبون أو حال من فاعله بتقدير قد أو معطوفة على استمعوه أو على ما يأتيهم أو معترضة ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ صفة مؤكدة لبشر أبدعوا حجةً على تكذيبهم الرسول ﷺ في ادعائه الرسالة بكونه بشراً زعماً منهم بأن الرسول لا بد أن يكون ملكاً كأنهم زعموا أن الرسول لا بد أن يكون من جنس المرسل وزعموا أن الملائكة من جنس الملك القهار ولذلك سموها بنات الله وكل ذلك باطل قطعاً، والحق أن الرسول لا بد أن يكون من جنس من أرسل إليهم حتى يقتبسوا أنواره، والملك القهار ولا يجوز أن يكون له كفواً أحد، ثم أوردوا لدفع المعجزات الدالة على الرسالة بقولهم ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ يعني ليس هو رسولاً لأنه بشر وما يأتي به من الخارق كالقرآن وغيره سحر، أفتأتون السحر الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف والسحر منصوب على المفعولية أو العلية والمفعول محذوف تقديره أتصدقونه في دعوى الرسالة فتأتون السحر أي تتبعونه، أو

فتأتون محمداً لأجل سحره الذي يأتي به، ولما لم يجدوا دليلاً على كون الخوارق سحراً فإن القول الباطل لا يمكن إثباته أدعوا بداهته تعنتاً فقالوا ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ بالبداهة أنه سحر، والجملة حال من فاعل تأتون وجملة، أفتأتون السحر بدل اشتمال لجملة هل هذا إلا بشر وجملة هل هذا إلا بشر منصوب بدلاً من النجوى أو مفعولاً لقالوا، وجملة قالوا بيان لجملة أسروا النجوى أو بدل منه أو مستأنفة في جواب ماذا قالوا، والغرض من إسرار هذا القول مشاورتهم في ما بينهم حتى يحصل لهم كلام يهدم أمر النبوة ويظهر فساده ولا يبطله السامع في أول الأمر ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

﴿قُل﴾ يا محمد قرأ حمزة والكسائي وحفص قال على الإخبار عن الرسول ﷺ والباقون بصيغة الأمر المستلزم لقوله منه ﷺ ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ حال من القول يعني يعلم القول كائناً ذلك القول في السماء والأرض من أي قائل كان، جهراً كان أو سراً فلا يخفي عليه ما أسروا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وأحوالهم ما ظهر منها وما بطن ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ إضراب من الله تعالى في حكاية قولهم في شأن الرسول ﷺ أنه بشر لا يصلح أن يكون رسولاً من الله، إلى حكاية قولهم في شأن القرآن أن أضغاث أحلام يعني تخاليط أحلام رآها في المنام يعني ليس بوحي من الله منزل، وقيل هذا إضراب من الكفار عن مضمون قولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ والمعنى قالوا هو سحر بل هو أضغاث أحلام وكلمة قالوا على هذا تأكيد لفظي لقالوا مقدر مفهوم ما سبق ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ إضراب من الكفار عن كونه أباطل خيلت إليه في المنام خلطت عليه إلى كونه مفتريات اختلعها من تلقاء نفسه لم يرها في المنام أيضاً ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضراب ثان منهم عن كونه كلام مفترى إلى كونه كلاماً شعرياً، قال البغوي أريد أن المشركين قال بعضهم أضغاث أحلام وبعضهم فرية وبعضهم أن محمداً شاعر وما جاء به شعر والفرق بين المفترى والشعر أن المفترى كلام كاذب أراد المتكلم منه حصول التصديق للسامع بنسبة غير مطابقة للواقع والشعر كلام مركب من مقدمات تأثر في ذهن المسامع من الرغبة أو الرهبة أو الشوق أو السرور أو الخوف أو التعظيم أو التحقير أو غير ذلك والغرض منه ذلك التأثير في النفوس دون حصول تصديق أصلاً فكأنه من قبيل الإنشاء، وقد يجتمع

---

(١) في القرآن ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ سورة التوبة، الآية: ٣٢.
و﴿يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره﴾ سورة الصف، الآية: ٨.

الأخبار صادقاً أو كاذباً مع مقدمات شعرية مؤثرة في النفوس وذلك في المثنويات والأول في الغزليات، وهذه الأقوال من الكفار دليل ظاهر على فساد أقوالهم وأنها تفوهات منهم عناداً من غير جزم ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ محمد ﷺ إن كان صادقاً في دعوى الرسالة ﴿ بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ صفة لآية وصحة التشبيه من حيث أن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية وما موصولة أو موصوفة وهي صفة لموصوف محذوف والتقدير فليأتنا بآية كائنة كالآية التي أرسل بها الأولون من الرسل، وكآية أرسل بها الأولون فأتوا بها، كالناقة لصالح والعصا واليد البيضاء ولموسى والإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى.

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبي ﷺ إن كان ما تقوله حقاً فحول لنا الصفا ذهباً فأتاه جبرائيل فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت لقومك قال بل أستأني لقومي فأنزل الله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية من زائدة وقرية في محل الرفع على الفاعلية ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ صفة لقرية أي أهلكنا أهلها حين جاءتهم الآيات المقترحة ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء للعطف على ﴿مَآ ءَامَنَتْ﴾ والاستفهام للإنكار تعقب إيمان أهل مكة عدم إيمان السابقين مع كون أهل مكة أعني منهم يعني لم يؤمن من كان قبلهم فكيف يؤمن هؤلاء وهم أشد كفراً منهم، وفيه تنبيه على أن عدم إتيانه بالمقترحات كان لإبقائهم، إذ لو أتى بها ولم يؤمنوا لاستوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ﴾ قرأ حفص بالنون على صيغة المتكلم المعلوم على التعظيم والباقون بالياء التحتانية على الغيبة والبناء للمفعول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ جملة معترضة رد لقولهم ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فسألوا أهل الذكر يعني علماً أهل الكتاب من حال الأولين من الرسل هل كانوا بشراً أم ملائكة حتى يزول عنكم شبهتكم ﴿إِن كُنتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ شرط استغنى عن الجزاء بما مضى والإحالة إلى أهل الكتاب إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي ﷺ ويثقون بقولهم، وإما لأن إخبار أهل التواتر يوجب العلم وإن كانوا كفاراً ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي الأولين من الرسل ﴿جَسَدًا﴾ لم يقل أجساداً لأنه اسم جنس أو لأنه في الأصل مصدر أو على حذف المضاف أي ذوي جسد أو بتأويل الضمير بكل واحد، والجسد جسم ذي لون ولذلك لا يطلق على الماء والهواء، وقيل: هو جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتداده ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة لجسد وجملة ما جعلنا مستأنفة جواب لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا تأكيد وتقرير لماسبق فإن التعيش

بالطعام عن لوازم التحليل المؤدي إلى الفناء ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي في الوعد بالنصر على أعدائهم، الجملة معطوف على جملة محذوفة معطوفة على قوله: وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ولا يموتون، ولكن طعن فيهم المشركون بمطاعن غير صحيحة ومعايب غير ثابتة كما طعن هؤلاء فيك فوعدناهم بالنصر عليهم ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ يعني المرسلين من عذاب الله وإيذاء الكفار ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومن في إبقائه حكمته كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته ولذلك حميت العرب من عذاب الاستئصال ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ متجاوزين الحد في الكفر والمعاصي.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ أي القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي شرفكم إن علمتم به أو لأنه بلسانكم أو المعنى ذكركم ربكم وذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، وقال البيضاوي صيتكم والصيت أي الذكر أي الحسن أو موعظتكم أو ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق، وقال مجاهد فيه حديثكم، وفي القاموس من الذكر بالكسر الحفظ للشيء كالتذكار والشيء يجري على اللسان والصيت والثناء والشرف والصلاة لله تعالى والدعاء وكتاب فيه تفصيل الدين ووضع المال، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عطف على أنزلنا والفاء للتعقيب والهمزة للإنكار عدم تعقل ما فيه صلاحكم وشرفكم.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ يعني كسرنا أي أهلكنا كثيراً ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ يعني أهل قرية كانوا ظالمين على أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أورثنا ﴿بَعْدَهَا﴾ أي بعد هلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ مكانهم ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟﴾ يعني لما أدركوا بحاسة البصر والضمير الأهل المحذوف المضاف إلى قرية ﴿بَأْسَنَآ﴾ شدة عذابنا ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي يهربون مسرعين راكضي دوابهم أو مشبهين بهم من فرط إسراعهم. لمّا ظرف بمعنى المفاجأة في

إذا يعني فاجأ هربهم مسرعين حين رؤيتهم عذابنا هذه الجملة معطوفة على جملة مقدرة وهما بيان لكيفية إهلاكهم تقديره ولما أردنا أن نقصهم أنزلنا عليهم بأسنا فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ محمول على تقدير قيل والجملة مستأنفة في جواب ما قيل لهم عند هربهم يعني قيل لهم استهزاءاً إما بلسان الحال أو المقال، والقائل ملك أو من ثم من المؤمنين لا تركضوا ولا تهربوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي ما أنعمتهم من التنعم والتلذذ والإتراف إبطار النعمة، قال الخليل المترف الموسع عليه عيشه القليل فيه همه ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبون السائل عن علم ومشاهدة أو أرجعوا واجلسوا في مجالسكم وعبيدكم فيقولون لكم بم تأمرون، أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في النوازل والخطوب، أو تسألون غداً عن أعمالكم وتعذبون فإن السؤال من مقدمات العذاب، وقال ابن عباس تسألون عن قتل نبيكم، قال البغوي نزلت هذه الآية في أهل حضوراً وهي قرية باليمن وكان أهلها العرب فبعث الله إليهم نبياً فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وقتلوه فسلط الله عليهم بخت نصر حتى قتلهم وسباهم فلما استمر فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا فقالت الملائكة لهم استهزاء لا تركضوا أو ارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ قالت قتادة لعلكم تسألون شيئاً من دنياكم فتعطون من شئتم وتمتعون من شئتم فإنكم أهل ثروة ونعمة فأتبعهم بخت نصر وأخذتهم السيوف ونادى مناد من جو السماء يا ثارات الأنبياء فلما رأوا ذلك أقروا على أنفسهم بالذنوب حين لم ينفعهم، وجاز أن يكون بعضهم قال لبعض لا تركضوا وارجعوا إلى منازلكم وأموالكم لعلكم تسألون مالاً وخراجاً فتعطون مالاً تمتعون من القتل فنودي من السماء يا ثارات الأنبياء وأخذتهم السيوف فأقروا على أنفسهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ جملة مستأنفة ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي ما زالوا يرددون ذلك وإنما سماه دعوى لأن المولول كأنه يدعو الويل ويقول يا ويل تعال فهذا أو أنك وكل من تلك ودعواهم يحتمل الاسمية والخبرية لما زال ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي مثل زرع الحصيد المحصود ولذلك لم يجمع ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين من خدمت النار وهو مع حصيد بمنزلة اسم واحد مفعول لجعلنا كقوله جعلته حلواً حامضاً فإن المعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو صفة لحصيد أو حال من ضميره.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ يعني عابثين فاعلين فعلاً عبثاً باطلاً بل خلقناها مشحونةً بضروب البدائع تبصرة للناظرين وتذكرةً للمعتبرين وتسبيباً لما ينتظر به

أمور المخلوقين في المعاش والمعاد فينبغي أن يتوصلوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يفتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء اللهو المرأة وهو قول الحسن وقتادة وذلك أن الوطء سمي لهواً في اللغة والمرأة محل اللهو، وفي رواية الكلبي عن ابن عباس اللهو الولد وهو قول السدي فإن المرء يلهو بالصغار اللاهين من أولاده ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات وما يناسب ذاتنا كما هو المعلوم أن الزوج والولد يكون لكل شيء من جنسه ولما كان ذاته تعالى بحيث لم يماثله شيء ولا يجانسه ولا يكافئه أحد، فاستحال أن يكون له زوج أو ولد، وتعلق الإرادة التي لا ينفك المراد منها بالمستحيل مستحيل، فامتنع تعلق الإرادة به فامتنع اتخاذ الزوج والولد، وهذا ردٌ لقول النصارى في المسيح وأمه ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ شرط مستغني عن الجزاء بما مضى يعني إن كنا فاعلين اتخاذ اللهو لاتخذناه من لدنا لكنا لسنا فاعلين لكونه مستحيلاً مناف للألوهية، وقال قتادة وابن جريج ومقاتل إن لنفي أي ما كنا فاعلين والجملة كالنتيجة لشرط.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ عطف على مضمون الكلام السابق يعني لا نفعل اللهو والباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نرمي بالحق بالآيات الدالة على تنزيه الله تعالى من اتخاذ الصاحبة والوالد وكونه كفواً لأحد رمياً بعيداً ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ أي الكفر والكذب وذلك قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي يدمغه ويفنيه والدمغ كسر الرأس والدماغ المؤدي إلى زهوق الروح، استعار الله سبحانه لإعدام الباطل بالحق وإحقاق الحق وإبطال الباطل فإن القذف هو الرمي البعيد المستلزم لصلابة المرمي، والدمغ تصوير لإبطال الباطل مبالغة بحيث لا يبقى من الباطل شيء ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ أي الباطل ﴿زَاهِقٌ﴾ أي هالك ذاهب لا أثر له، في القاموس زهق الباطل أي اضمحل والشيء بطل وهلك فهو ناهق، وقيل الزهوق ذهاب الروح ذكره لترشيح المجاز ﴿وَلَكُمُ﴾ يا معشر الكفار ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ الهلاك ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله بما يليق به وما مصدرية أو موصولة أو موصوفة والجملة معطوفة على ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أو حال أو معترضة.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ

وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن
رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ
عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن
يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ خلقاً وملكاً فلا يصلح شيء منها أن يكون له أهلاً أو ولداً أو كفواً ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ قرباً وعنديته بلا كيف وهم الملائكة والأنبياء ومن في معناهم معطوف على من في السماوات والأرض وإفراده للتعظيم ولأنه أعم منه من وجه فإن بعض الملائكة كحملة العرش وغيرهم وحقائق الأنبياء والملائكة ودائرة الظلال متعال عن التبوء في السماء والأرض أو مبتدأ خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لا يتعظّمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يعيون يقال حسر واستحسر إذا تعب وأعيا والاستحسار أبلغ من الحسور وفيه إشارة إلى أن عبادتهم لأجل ثقلها ودوامها كانت حقيقة بأن يستحر منها وهم لا يستحسرون بل يلتذّذون به ويديمون فيه بحيث يرون تركها هلاكاً ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي ينزهونه ويعظمونه دائماً، قال كعب الأحبار التسبيح لهم كالنفس لبني آدم ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يضعفون ولا يسئمون حال من الضمير المرفوع في يسبحون وهو استئناف، أو حال من ضمير لا يستكبرون ولا يستحسرون، وجملة لا يستكبرون مع ما عطف عليه حال من عنده على تقدير كونه معطوفاً على من في السموات والمراد بالعبادة التي لا تتقطع من المقربين دوام الحضور والذكر الخفي الذي لا يمكن انقطاعه من المقربين بشراً كان أو ملكاً كما لا يمكن انقطاع التنفس بالهواء للحيوان البري وبالماء للحيوان البحري، وأيضاً إذا حصل دوام الحضور فكلما يفعل المرء من فعل يفعله الله تعالى يأكل ويشرب وينام ليتقوى على طاعة الله وينكح أداء لسنة رسوله وتكاثراً لأمته وامتثالاً لأمره «تناكحوا فإني مباهي بكم الأمم» ولا يصدر عنه معصية، فإن المعصية مبني صدورها غالباً على الغفلة وإن صدر عنه معصية بتقدير الله يندم ويتوب بحيث يبدل الله سيئاتهم حسنات ومن أجل ذلك قالوا: نوم العالم عبادة، ومن كان هذا شأنه يصدق عليهم أنهم لا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ بل ءاتّخذوا ﴿ءَالِهَةً﴾ أم منقطقة بمعنى بل والهمزة فمعنى بل للإضراب عن مضمون الكلام البائن فإن مضمون قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن

رَبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾(١) وقولـه: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾(٣) إنهم طعنوا في النبوة فالمعنى أنهم طعنوا في النبوة والقرآن بل اتخذوا آلهة ومعنى الاستفهام الإنكار والتوبيخ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ صفة للآلهة أو متعلقة بالفعل على معنى التبعيض أو الابتداء يعني اتخذوا وصنعوا من جواهر الأرض من حجر أو ذهب أو فضة أو غير ذلك وفائدتها التحقير دون التخصيص ﴿وهُمْ يُنشِرُونَ﴾ صفة لآلهة أي يحيون الأموات وفيه تجهيل للكفار وتهكم بهم فإنه لا يستحق العبادة إلا من يقدر على الإحياء والإماتة والإنعام بأبلغ وجوه النعمة وهم لما أشركوا الأصنام في الألوهية فكأنهم ادعوا لها الإحياء ونحوه وذلك ظاهر البطلان، وللمبالغة في التهكم زيد الضمير الموهم لاختصاص الإنشار لهم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ﴾ كما زعم المشركون ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ها هنا بمعنى غير صفة لآلهة وليست للاستثناء لتعذر الاستثناء المتصل والمنفصل لعدم القطع في شمول المستثنى منه المستثنى وعدم شموله فهي محمولة على غير وأعرب ما بعده إعرابه كما يحمل لفظة غير على إلا فيستعمل للاستثناء ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتا ولم يوجدا فإنها إن توافقت الآلهة في المراد تطاردت عليها القدرة، وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه وهذه الجملة تعليل للتوبيخ المفهوم من أم المنقطعة ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يعني اسبح لله سبحاناً ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ المحيط بجميع الأجسام الذي هو محل التدابير ومنشأ المقادير بمنزلة الدماغ للإنسان في العالم الكبير، وأنزهه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ الله تعالى ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفرده بالألوهية والسلطنة الذاتية، ولأن كلما يفعل من فعل فهو تصرفٌ في ملكه والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء لا اعتراض عليه عقلاً ولا نقلاً ﴿وَهُمْ﴾ يعني من في السموات والأرض ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عما يفعلون لكون أفعالهم تصرفاً في ملك الله سبحانه فلا يجوز إلا بإذنه وإباحته فيسألون عن ذلك وجملة هم يسألون حال أو معطوفة على ما سبق وجملة لا يسأل مع ما عطف عليه تعليل المضمون الكلام السابق فإن من كان مسؤولاً لا يصلح أن يكون شريكاً لمن لا يكون مسؤولاً.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ كرر الإنكار والتوبيخ استعظاماً لكفرهم واستفظاعاً وتبكيتاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضماً لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى ما يكون لهم دليلاً من العقل، والمعنى أوجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة لما رأوا فيها من خصائص الألوهية، أو وجدوا في الكتب الإلهية السماوية الأمر بإشراكهم فاتخذوها آلهةً متابعةً للأمر، ويعضد ذلك التأويل أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلاً وعلى الثاني ما يدل على فساده نقلاً ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ﴾ على الإشراك إما من العقل أو من النقل فإنه لايصح القول بما لا دليل عليه، كيف وتطابقت الحجج على بطلانه عقلاً كما مر ونقلاً فإن ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني لهذا القرآن والتوراة والإنجيل الموجود بين أيديكم ذكر أمتي أي عظتهم إلى يوم القيامة ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾ أي عظة الأمم الماضية، روى عطاء عن ابن عباس ذكر من معي القرآن وذكر من قبلي التوراة والإنجيل، يعني راجعوا إلى الكتب السماوية من القرآن والتوراة والإنجيل وغيرها هل تجدون فيها أن الله تعالى اتخذ شريكاً أو ولداً أو أمر لعبادة غيره، والتوحيد لم يتوقف عليه صحة بعثة الرسل وإنزال الكتب فصح الاستدلال فيه بالنقل فإن قيل مشركوا مكة لم يكونوا مسلمين لكتب السماوية لاسيما للقرآن، فكيف يصح عليهم الاحتجاج بها، قلنا: لما كان صحة الكتب السماوية لاسيما القرآن بإعجازه واضحاً بيناً وإنكارهم إنما كان عناداً لم يعتد بإنكارهم وجعلها كالمسلمة لكونها مسلمةً عند الإنصاف والله أعلم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل مع سطوع برهانه إضراب من الاتعاظ المفهوم من إضافة الذكر إلى من معي ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ من الحق أي التوحيد واتباع الرسول لأجل ذلك.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي بالنون وكسر الحاء على التعظيم وضمير المتكلم والباقون بالياء التحتانية وفتح الحاء على البناء للمفعول ﴿إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي فاعبدوني وحدث لا تشركوا بي شيئاً، وهذا تعميم بعد تخصيص يعني ليس الأمر بالتوحيد منحصراً في القرآن والتوراة والإنجيل الموجودة بين أظهرهم مشار إليها بهذا في قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾[1] بل كل رسول أرسلناه كنا نوحي إليهم التوحيد ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ومضمون أم اتخذوا من دونه آلهة يعني جعلوا لله شركاء وقالوا اتخذ الرحمن ولداً

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.

قال البغوي نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له تعالى عن ذلك ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ يعني بل هم أي الملائكة عباد مخلوقون ليسوا بأولاد ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ مقربون ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا يقولون شيئاً إلا بإذنه، وأصله لا يسبق قولهم وإذنه فنسب السبق إليهم وإليه وجعل القول محله وأداته تنبيهاً على استهجان أسبق المعترض به للقائلين على الله ما لا يرضاه، وأنيب اللام عن الإضافة اقتصاراً وتجافياً عن تكرير الضمير ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بما يأمرهم به ﴿يَعْمَلُونَ﴾ يتمثلونه ولا يعصونه أصلاً ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما عملوا وما هم عاملين، وهو كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده فإنهم لإحاطة علمه تعالى بأحوالهم يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مهابة منه ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أن يشفع له، قال ابن عباس إلا لمن قال لا إله إلا الله، وقال مجاهد إلا لمن رضي الله عنه ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ الخشية خوف مع التعظيم ولذلك خص به العلماء، والإشفاق خوف مع اعتناء فإن عدي بمن كما في هذه الآية فمعنى الخوف فيه أظهر وإن عدى بعلى فالعكس، فالمعنى وهم من خوفه لأجل عظمته ومهابته خائفون لا يأمنون مكره ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي من الخلائق أو من الملائكة على سبيل الفرض ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ﴾ الشخص ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ والغرض من الآية نفي الربوبية ونفي ادعاء ذلك من الملائكة، وتهديد المشركين بتهديد مدعي الألوهية فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾[1] وقال قتادة عني بذلك إبليس حيث دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعة نفسه وقد كان من الملائكة إما حقيقة أو حكماً لأجل إلحاقه بهم وإما غيره من الملائكة فلم يقبل به أحد ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قرأ ابن كثير ألم ير بغير واو العطف والباقون بالواو يعني ألم يعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا﴾ لم يقل كانت لأن المراد جماعة السماوات وجماعة الأرض ﴿رَتْقًا﴾ قال ابن عباس والضحاك وعطاء وقتادة كانتا شيئاً واحداً ملتزقين ﴿فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾ فصلناهما بالهواء والرتق في اللغة السد والضم والفتق الشق والفتح، قال كعب خلق الله السماوات مرتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين، وقال عكرمة وعطية كانت السماء رتقاً لا تمطرو الأرض رتقاً لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، والمراد حينئذٍ بالسموات السماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو السموات بأسرها على أن لها مدخلاً في الأمطار وهذا القول أظهر فإن الكفرة وكل من له عقل ينظر ويعلم أن المطر ينزل من السماء بعد ما لم يمطر والنبات يخرج من الأرض بعد ما لم يخرج وهو أمر حادث لا بد له من محدث واجب الوجود فالرتق والفتق بهذا المعنى ظاهر وإما كونها في بدء الخلق ملتزقة وفتقت بالرياح فغير ظاهر على الكفار لكنهم متمكنون من تحصيل العلم بها بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب السماوية وتناسب تأويل عكرمة وعطية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ عطف على فتقناهما يعني فتقنا السماء وأنزلنا فيها ماء وفتقنا الأرض وأخرجنا منها نباتاً وجعلنا من الماء الذي أنزلناه من السماء كل شيء حي، وهو معطوف على كانتا، وذلك محمول على السماوات والأرض وعلى هذا يقال الرابط محذوف تقديره وجعلنا من الماء كل شيء حي كائن بينهما أو الجملة عطف على مضمون ما سبق لأن الاستفهام لإنكار نفي الرؤية وهو يستلزم ثبوت الرؤية وذلك يستلزم حصول الرتق والفتق، فالتقدير حصل منها فتق السموات والأرض بعد رتقهما وجعلنا من الماء كل شيء حي والجعل إن كان بمعنى الخلق وهو الجعل البسيط فالظرف متعلق به وإن كان بمعنى التصيير وهو الجعل المركب فالظرف مستقر مفعول ثان. فإن قيل خلق النبات الذي له نوع من الحياة من الماء وتصييره كائناً من الماء ظاهر فإنه بمنزلة النطف للحيوان وكذا بعض الحيوانات كالحشرات فإن خلقها من الرطوبات وأما أكثر الحيوانات فخلقها من النطفة فما معنى قول وجعلنا من الماء كل شيء؟ قلنا: لما كان الماء أعظم مواد بقاء

الحيوان وأفرط احتياجه وانتفاعه بعينه فكأنه خلق منه فصح أن يقال على سبيل التجويز خلقنا من الماء كل شيء حي وصيرناه منه كما قيل خلق الإنسان من عجل وخلق أيد من الكرم، وجاز أن يقدر المضاف ويقال المعنى وجعلنا من الماء بقاء كل شيء حي، وقال أبو العالية وأكثر المفسرين معني الآية كل شيء حي فهو مخلوق من الماء. أخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء خلق من الماء»[١] قلت يعني من النطفة نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[٢] فالمراد بالشيء على هذا التأويل الحيوان وبالكل الأكثر كما في قوله تعالى: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٣] وجاز أن يراد بالماء مطلق الرطوبة الشاملة لنطفة الحيوان وما يتولد منه النباتات والحشرات والله أعلم ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للتعقيب يعني بعد رؤية هذه الأدلة القاطعة على وجود الصانع الواجب وجوده المتصف بصفات الكمال المتوحد في الذات والصفات لا يؤمنون به ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جبالاً ﴿رَوَٰسِيَ﴾ ثوابت من رسا إذا ثبت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ في الأرض أو في الرواسي ﴿فِجَاجًا﴾ الفج الطريق الواسع بين الجبلين كذا في القاموس ﴿سُبُلًا﴾ جمع سبيل وهو الطريق وما وضح منه كذا في القاموس، قدم فجاجاً وهو وصف للسبيل لأن فيه معنى الوسعة ليصير حالاً من سبلاً فيدل على أنه حين خلقها كان كذلك أو ليبدل منها سبلاً فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدهم ومصالحهم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن السقوط لقدرته من غير عمد أو عن الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو عن استراق السمع بالشهب ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ أي عن أحوالها وما خلق فيها من الشمس والقمر والكواكب الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وتناهي حكمته ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين فيه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد ﴿فِي فَلَكٍ﴾ وهو مدار النجوم الذي يضمها كذا في القاموس

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح خلا أبي ميمونة وهو ثقة. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأطعمة، باب: إطعام الطعام (٧٨٦٥).

(٢) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٣) هذا نص حديث وليس آية.

أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (٧١٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩).

وهو في كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك ومنه فلك المغزل، قال الحسن الفلك طاحونة كهيئة فلك المغزل يريد أن الذي تجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة، وقال بعضهم الفلك السماء الذي فيه ركز الكواكب وكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه وهو قول قتادة، وقال الكلبي الفلك استدارة السماء وقال الآخرون الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، قلت: والصحيح أن المراد بالفلك السماء والتنوين للدلالة على أن كل واحد منها في فلك واحد من الأفلاك وهو السماء الدنيا وإن كان مدار الكواكب على أفلاك شتى فالمراد بالفلك الجنس كقولهم كساهم الأمير حلة والله أعلم ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء والضمير راجع إلى الشمس والقمر وإنما جمع باعتبار المطالع وجعل واو العقلاء لأن السباحة فعلهم والله أعلم أخرج ابن المنذر عن أبي جرع، قال: لما نعى للنبي ﷺ نفسه قال يا رب من لأمتي فنزلت ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ أي الخلود ودوام البقاء في الدنيا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ قال البغوي نزلت هذه الآية حين قالت الكفار نتربص بمحمد ريب المنون والفاء لتعلق الشرط بما قبله والهمزة للإنكار بعد ما تقرر ذلك والجملة معطوفة على مضمون ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد يعني ثبت أنك لست بخالد، فإن مت أفهم الخالدون ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أي ذائقة مرارة مفارقتها جسدها هذه الجملة مقررة لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ نعاملكم معاملة المحشر ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾ وبالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وكل ما يحبون وما يكرهون ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ أي ابتلاء فهو مصدر من غير لفظه يعني نبلوكم ابتلاءً حتى يظهر منكم بعد ما تحبونه الشكر أو الكفران وبعد ما تكرهونه الصبر أو الجزع والشكوى ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم الصبر والشكر وضدهما وفيه إيماء بأن المقصود من هذه النشأة إنما هو الابتلاء والتعريض للثواب أو العقاب تقرير لما سبق.

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال مر النبي ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان وهما يتحدثان فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان هذا نبي من بني عبد مناف فغضب أبو سفيان وقال: ما تنكرون أن يكون من بني عبد مناف نبي فسمع النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه، وقال ما رآك متهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك فنزلت ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ سخرياً أي مهزواً به ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ بيان لقوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ تقديره يقولون أهذا الذي يذكر آلهتكم بسوء وإنما أطلقه لدلالة الحال فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء وذكر الحبيب لا يكون

إلا بخير، يقال فلان يذكر فلاناً يعني يعيبها وفلان يذكر الله أي يعظمه ويجله ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالتوحيد والتعظيم أو بإرشاد الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم أو بالقرآن ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ منكرون يقولون لا رحمن إلا رحمن اليمامة يعني مسيلمة الكذاب فهم أحق بأن يهزو بهم، وتكرير الضمير للتأكيد أو التحصيص أو لحيلولة بينه وبين الخبر ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يعني خلق الإنسان مجبولاً على الاستعجال كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة تأنيه يقول العرب للذي يكثر منه الشيء خلق منه يقال خلقت من تعب وخلقت من غضب وخلق فلان من الكرم جعل ما طبع هو بمنزلة المطبوع هو منه مبالغة في لزومه له، قال سعيد بن جبير والسدي لما دخل الروح في رأس آدم وعينه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح في رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الإنسان من عجل والمراد بالإنسان آدم عليه السلام وأورث أولاده العجلة من عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد، قلت: ويمكن أن يقال على ما قالت الصوفية أن العالم بأسرها ظلال لأسماء الله تعالى وصفاته ومباد لتعينات الخلائق والله سبحانه متصف بالصفات المتضادة فكما أن الصبور من الأسماء الحسنى كذلك سريع الحساب منها فالاستعجال الذي هو من صفات الله تعالى له دخل في مبدأ تعين نوع الإنسان، ومن ها هنا قال قوم معناه أن بنيته وخلقته من العجلة، فإن قيل إذا كان الاستعجال من صفات الله تعالى كان محموداً وسياق هذه الآية تدل على كونه مذموماً وأيضاً إذا كان الإنسان مجبولاً على الاستعجال فالنهي عنه لا يجوز لأن الطبيعيات لا يكون مقدورة الترك؟ قلنا: نفس الاستعجال غير مذموم وإنما المذموم الإفراط فيه أو وضعه في غير موضعه ألا ترى أن الله تعالى يمدح الأنبياء بأنهم يسارعون في الخيرات فالممنوع هو الإفراط ووضعه في غير موضعه وذلك مقدور تركه، وقال قوم معناه خلق الإنسان يعني آدم من تعجيل في خلق الله إياه لأن خلقه كان بعد كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس، قال مجاهد فلما أحيا الروح رأسه قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس، وقيل: معناه خلق آدم سرعة وتعجيل لا على ترتيب خلق سائر الآدمين من النطفة والعلقة والمضغة وغيرها، وقال قوم من عجل أي من طين قال الشاعر:

والنبع في الصخرة الصماء منبتة ... والنخل تنبت من الماء والعجل

قال في القاموس العجل محركة الطين أو الحمأة وهذه جملة معترضة تمهيد للتشنيع على قولهم ويقولون متى هذا الوعد ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ نعماتي في الدنيا لوقعة بدر وفي

الآخرة عذاب النار ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها قبل وقتها المقدر لها الفاء للسببية معطوف على قوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ وهي معترضة ثانية رد الاستبعاد المشركين وعيد العذاب واستعجالهم استهزاء حيث كانوا يقولون أمطر علينا حجارة من السماء وقيل: نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل العذاب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي وقت وعد العذاب أو القيامة، الاستفهام للاستبطاء المبني على الاستعجال، والجملة عطف على الشرطية السابقة أعني وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أو عطف على يقولون المقدر في قوله أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بالوعيد بالعذاب أو بإتيان القيامة، خطاب للنبي ﷺ وأصحابه شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني فبينوا وقت إتيانها، فقال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ جواب لو محذوف وحين قيل: مفعول به ليعلم والمعنى لو يعلمون الوقت الذي يحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يستطيعون رفعها عن أنفسهم بأنفسهم ولا يجدون أحداً ينصرهم يدفعها عنهم لما أقاموا على كفرهم، وقيل: مفعول يعلم متروك وحين ظرف بفعل مقدر والتقدير لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون بطلان ما هم عليه حين لا يكفون فهما جملتان، قلت وجاز أن يكون مفعول يعلم مقدر أو يكون حين ظرفا لفعل مقدر والتقدير لو يعلم الذين كفروا ما ينزل بهم حين لا يكفون عن وجوههم النار يعني حين يحيط بهم النار لما استعجلوا العذاب ولما قالوا: متى هذا الوعد ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الضمير للنار أو للوعد أو الحين، والتأنيث باعتبار أن الوعد بمعنى العدة

والحين بمعنى الساعة، والجملة إضراب عما تضمنه متى هذا الوعد من الاستبعاد أو عما تضمنه لو يعلم الذين كفروا يعني لا يعلمون وقت مجيء الساعة أو العدة أو النار التي يحيط بهم في جميع الجوانب ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة منصوب على المصدرية وعلى الحال ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تلك العدة أو النار أو الساعة يعني تغلبهم، أو تحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون فيه تذكير بإمهالهم في الدنيا، وتقديم المسند إليه في قوله تعالى: ولا هم ينصرون ولا هم ينظرون على المسند وهو فعل لدلالة الحصر بالكفار إشعار بأن عصاة المؤمنين ينصرهم الشفعاء من الأنبياء والملائكة والصلحاء وهم ينظرون ويغفرون ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ واللام لكونه جواب قسم محذوف وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد لمن يستهزأ ﴿فَحَاقَ﴾ أي نزل بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون أي جزاء استهزائهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد المستهزئين بك ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي يحفظكم ﴿بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ قال ابن عباس إن من عذاب الله أن أراد بكم أو إن نزل بكم يعني لا كالىء من عذابه إلا رحمته العامة في الدنيا وإن اندفاعه بأمرنا ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ إضراب عن الأمر بالسؤال فإن معناه ذكرهم الرحمن وحذرهم عن عذابه فقال بل هم معرضون عن ذكره يعني عن القرآن ومواعظ الله فلا ينفعهم التذكير أو المعنى أنهم لا يخطرون الرحمن ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا كلؤوا منه عرفوا الكالىء وصلحوا للسؤال عنه ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يعني بل ألهم آلهة ﴿تَمْنَعُهُم﴾ من عذابنا صفة لإلهة ﴿مِّن دُونِنَا﴾ صفة ثانية لآلهة أو حال عنه يعني كائنة من دوننا إضراب ثان عن الأمر بالسؤال فإن السؤال عن المعرض بعيد وعن المعتقد لنقيضه أبعد والاستفهام لإنكار معتقدهم يعني ليس الأمر كما اعتقدوه أن آلهتهم من العذاب ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني ما اعتقدوه آلهة لا تستطيع شيء منها ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أصلاً أن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه جملة مستأنفة في مقام التعليل للإنكار ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ عطف على لا يستطيعون يعني ولا يصحبهم منا نصر كما يصحب لمن يشفع عصاة المؤمنين من النبيين والملائكة والصالحين، وقال ابن عباس معناه ولا هم منا يمنعون فالمعنى أن العذاب يشتمل الآلهة أيضاً نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(١) وقال عطية عنه معناه تجارون يقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان، وقال مجاهد معناه ينصرون، وقال قتادة لا يصحبون من الله يعني بالإذن في الشفاعة والنصر فهذا يؤل إلى الأول والثالث والرابع إلى

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

الثاني ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾، يعني أعطينا النعمة وأمهلنا ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ الكفار في الدنيا ﴿وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي متدبر من الزمان، إضراب عما توهموا من نصر الآلهة إياهم ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم وهو الاستدراج والتمتيع بما قدر لهم من الأعمار أو عن الدلالة على بطلان ما توهموه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى أمهلهم استدراجاً فاغتروا وحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه سبب ما هم عليه ولذلك عقبه بما يدل على أنه أمل كاذب قال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا ينظرون فلا يرون بالأبصار أو التقدير ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي يأتي أمرنا أرض الكفار أن ينقص ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي نسلط المسلمين على أطرافها بيان لقوله نأتي الأرض وتصوير لما يجريه الله على أيدي المسلمين فتح ديار المشركين أرضاً فارضاً ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ رسول الله والمؤمنين الهمزة للإنكار والفاء للعطف على نأتي الأرض يعني ليس الأمر أنهم، يغلبون رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ أي أخوفكم ﴿بِٱلْوَحْيِ﴾ أي بما يوحي إلي من القرآن هذه الجملة تقدير للنهي عن استعجال لحوق العذاب ونفي استبعاده، والمعنى أن إنذاري بالعذاب ليس من تلقاء نفسي إنما هو بإخبار الله العليم القدير الذي لا يحتمل التخلف في أخباره ولا وجه لاستبعادكم واستعجالكم ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ قرأ ابن عامر لا تسمع بالتاء الفوقانية المضمومة وكسر الميم من الافعال خطاباً للنبي ﷺ ونصب الصم، والباقون بالياء المفتوحة وفتح الميم من المجرد ورفع الضم على الفاعلية، والجملة حال من فاعل قل أو من المحذوف يعني قل للكافرين المستهزئين المستعجلين للعذاب فاللام للعهد سماهم الصم ووضعه موضع ضميرهم ولم يقل ولا يسمعون الدعاء أو لا يسمعهم للتصريح على تصامهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ظرف ليسمع أو

للدعاء والتقييد به لأن الكلام في الإنذار أو للمبالغة في تصامهم وتجاسرهم ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ جواب قسم محذوف ﴿نَفْحَةٌ﴾، قال ابن عباس ظرف وقيل: قليل، وقال ابن جريج: نصيب من قولهم نفح فلان لفلان من ماله أي أعطاه حظاً منه، وقيل: ضربة من قولهم نفحت الدابة برجلها وأصل النفح هبوب رائحة الطيب وفيه مبالغات ذكر المس وما في النفحة من معنى القلة والبناء الدال على المرة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الذي ينذرون به ويستعجلون ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ﴾ يا هلاكنا أحضر فهذا أوانك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ على أنفسنا بالإشراك بالله وعدم التحرز عن عذابه يعني لدعوا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي ذوات القسط أو وصفت به للمبالغة أفرد القسط لأنه مصدر ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي الجزاء يوم القيامة أو لأجل أهلها أو فيه كقولك جئت لخمس خلون من الشهر قيل وضع الميزان تمثيل لإرصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال وهذا التأويل غير مقبول عند أهل السنة لعله من كلام أهل الهواء والصحيح أن الميزان على حقيقته. أخرج ابن المبارك في الزهد والأجرى في الشريعة عن سلمان موقوفاً وأبو الشيخ ابن حبان في تفسيره من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكفتان، وأخرج ابن مردويه، في تفسيره عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله عز وجل كفتي الميزان مثل السماء والأرض» الحديث وأخرج البيهقي في البعث عن ابن عمر عن عمر ابن الخطاب في حديث سؤال جبرائيل عن الإيمان «قال يا محمد ما الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره، قال: فإذا فعلت فأنا مؤمن؟ قال: نعم، قال: صدقت» وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه على شرط مسلم عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لو سعت» الحديث، وأخرج الترمذي وحسنه والبيهقي عن أنس قال: «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، قال: أنا فاعل، قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: اطلبني عند الحوض فإني لا أخطيء هذه المواطن الثلاثة»[١] وأخرج الحاكم والبيهقي والآجري عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحداً حيث يوضع الميزان حتى يعلم يثقل ميزانه أو يخف وحيث تطاير الكتب

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصراط (٢٤٣٣).

حتى يعلم أين يقع كتابه في يمنيه أو في شماله أو من وراء ظهره وحيث يوضع الصراط حتى يعلم أن ينجوا أولاً» وقد ورد في الميزان أحاديث كثيرة ذكرنا بعضها في السورة القارعة في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[1] الآية، وذكر البغوي أنه روي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فغشي عليه ثم أفاق فقال يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفة حسناته، فقال يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة. أورد لفظ الجمع فقال ونضع الموازين قال النسفي في بحر الكلام، إما لأن يكون لكل إنسان ميزان على حدة أو لأن الجمع يذكر ويراد به الواحد تفخماً وتعظيماً كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2] وهو جبرائيل وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[3] والمراد به محمد ﷺ، وجاز أن يعتبر كل جزء منه ميزاناً ويطلق الجمع على المجموع كالسراويل يعتبر جمع سروالة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ يسيراً من حقه أو من الظلم أي لا ينقص من حسناته بلا سبب ولا يزاد على سيئاته ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ مصدر ميمي أي زلة ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع مثقال بالرفع على إن كان تامة وهو فاعلها والباقون بالنصب على أنها ناقصة واسمها ضمير راجع إلى العمل المفهوم من الموازين يعني إن كان العمل مثقال حبة من خردل ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي أحضرناها في الميزان قوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ شرط والمعطوف محذوف وأتينا بها جزاء والتقدير وإن كان العمل مثقال حبة من خردل يعني أصغر صغيراً أو كبيراً آتينا بها أي أحضرناها في الميزان وجاز أن يكون أن متصلة يعني فلا تظلم شيئاً من حقه وإن كان حقه مثقال حبة من خردل وعلى هذا قول أتينا بها جملة مستأنفة بيان لنفي الظلم والضمير عائد إلى المثقال وتأنيثه لأجل إضافته إلى حبة يعني أتينا مثقال الحبة من حقه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار قال وإن الميزان يخفف بمثقال حبة ويرجح ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾ الباء زائدة وضمير المتكلم فاعل لكفى وجاز ذلك لأجل الفصل ﴿حَٰسِبِينَ﴾ منصوب على التميز أو الحال، قال: السدي

(١) سورة القارعة، الآية: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

محصين والحسب معناه القدر، وقال ابن عباس عالمين حافظين لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه وكفى بالله حسيباً إذ لا مزيد على علمه وعدله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي الكتاب الفارق بين الحق والباطل يعني التوراة ﴿وَضِيَآءً﴾ يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهل والتنكير للتعظيم ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي يتعظ به المتقون أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع يعني كتاباً جامعاً بين هذه الصفات، وقال ابن زيد الفرقان النصر على الأعداء قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[١] ليوم بدر، وقيل: الفرقان فلق البحر وعلى هذا الضياء والذكر يراد بهما التوراة أو الذكر الوحي الغير المتلو النازل على موسى عليه السلام وعظ به بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ صفة للمتقين أو مدح لهم منصوب أو مرفوع ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وفي تصدير الضمير والحكم عليه مبالغة وتعريض والجملة عطف على الصلة أو حال ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن مبتدأ خبره ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ صفة لذكر والتنكير فيها للتعظيم أي ذكر عظيم كثير خيره ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمد ﷺ وصفة ثانية لذكر ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ على إنكارهم بعد ثبوت كونه كثير الخير منزلاً من الله.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ
كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل
رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ
لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟
ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ جواب قسم محذوف ﴿إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي صلاحه يعني التوحيد والاجتناب عن عبادة الأوثان وإضافته ليدل على أن له شأناً عظيماً في الرشد ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني قبل موسى وهارون ومحمد ﷺ ويعني ما أوحينا إلى محمد ﷺ ليس أمراً مبدعاً بل جري به السنّة الإلهية لإصلاح الخلق، وقيل معناه من قبل البلوغ حين خرج من السرب وهو صغير حين قال إني وجهت يعني أعطيناه النبوة صغيراً كما قال ليحيى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1] والمعنى قبل استنبائه ﴿وَكُنَّا بِهِۦ﴾ أي بإبراهيم ﴿عَٰلِمِينَ﴾ أنه أهل للهداية والنبوة حيث كان مبدأ تعينه صفة العلم والهداية من صفات الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ الظرف متعلق بآيتنا أو برشده أو بمحذوف أي اذكر من أوقات رشده قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها فإن التمثال صورة لا روح فيها فلا يضر ولا ينفع، واللام لاختصاص دون التعدية فإن العكوف يتعدى بعلى يعني أنتم فاعلون العكوف لها أو يأول بعلى يعني أنتم عليها أي على عبادتها تعلمون أو تضمن العكوف معنى العبادة يعني أنتم لها عابدون ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ جواب عما لزم الاستفهام من السؤال عن المقتضى لعبادتها يعني حملنا على عبادتها تقليدنا بآئنا ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ في خطأ بين حيث تعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع، وتقليد من هو خطأ بيّن خطأ بيّن ﴿قَالُوٓا۟﴾ استبعاد التضليل آبائهم وظناً أنه يقولذلك ملاعبة ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بعلم مستند على دليل قطعي فتجدد بهذا القول ﴿أَمْ أَنتَ﴾ في هذا القول ﴿مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ استفهام لإنكار الإنكار عليهم واستبعاد أن يكون ما هو عليه ضلالاً ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن على غير مثال سبق، وصف رب السماوات والأرض بهذا دفعاً لقول الجهلة في إطلاق الرب على السلطان وقول نمرود أنا أحيي وأميت، وهذا إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان بأن السماوات والأرض تشهدان لهما خالق لإمكانهما وكونهما محلاً للحوادث والخالق للممكنات لا بد أن يكون واجباً وجوده متصفاً بصفات الكمال واحداً غير متمانع وهو يستحق العبادة لا

(١) سورة مريم، الآية: ١٢٠.

غير﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ المذكور من التوحيد ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ المعترفين المحققين المبرهنين باللسان والجنان كما أن السماوات والأرض وسائر الممكنات شاهد عليه بلسان الحال ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ والكيد المكر والحيلة، والمراد ههنا لأفعلن بها سوءاً أو لأجتهدن في كسر هلبنوع من الاحتيال، قال البيضاوي والتاء في القسم بدل من الواو المبدلة من الباء وفيها تعجب، ولفظ الكيد وما في التاء من التعجب لعصوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل لكونه على رغم نمرود وخلق كثير مع قوة سلطنته، عطف على قوله قال بتأويل هذا القول يعني قال هنا القول وهذا القول ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ لها منطلقين إلى عيدكم، قال البغوي قال مجاهد وقتادة إنما قال إبراهيم هذا سراً من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد فأفشاه عليه وقال: إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، قال السدي كان لهم في سنة مجمع وعيد وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال لإبراهيم أبوه يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم فلما كان بعض الطريق ألقى نفسه وقال ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ يقول اشتكى رجلي فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهن في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوا بين أيدي الآلهة قالوا إذا رجعنا وقد بركت الآلهة في طعامناأكلنا فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم على طريق الاستهزاء: ألا تأكلون؟ فلما لم يجبه أحد قال: ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين يعني مال على الأصنام بضربهم ضرباً باليمين لكونها أقوى من اليسار أو بسبب اليمين الذي قال تالله لأكيدن أصنامكم ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ يعني الأصنام ﴿جُذَٰذًا﴾ قرأ الجمهوربضم الجيم فعال بمعنى المفعول كالحطام من الجذّ بمعنى القطع، وقيل جمع لا واحد له من لفظه، وقرأ الكسائي بكسر الجيم وهو لغة بمعنى المفعول أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف يعني كسر إبراهيم كلهن ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعني إلا الصنم الأكبر حيث لم يكسرها وعلق الفاس في عنقه ذكر الله سبحانه ضمير جمع المذكر على زعمهم آلهة ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يعني إلى إبراهيم يرجعون إليه لتفرده وإشهاره بعداوة الآلهة، فيحاجهم بكونها عجزة عن مقاومة رجل على إبطال ألوهيتهم أو إلى الكبير يرجعون إليه فيسألونه عن كاسره إذ من شأن المعبود العلم والإجابة فيكبتهم بذلك أو إلى الله يرجعون عند ثبوت عجز الآلهة ﴿قَالُوٓا۟﴾ حين رجعوا من العيد ﴿ءَأَنتَ

فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ من استفهامية وجاز أن يكون موصولة مع صلتها مبتدأ خبره ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ بجرأته على الآلهة أو بإفراطه على حطمها أو على نفسه بتعريضه للإهلاك، وهذه جملة مستأنفة على تقدير كون ما قبلها استفهامية ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بالعيب والسوء، صفة لفتى تصححه أن يتعلق به السمع، وهو أبلغ في نسبة الذكر إليه كان الذكر صار حقيقة له ﷺ وجاز أن يكون ثاني مفعولي سمعنا بتضمنه معنى علمنا بحاسة السمع ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ﴾ صفة ثانية لفتى ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي هو إبراهيم ويجوز رفعه بالفعل لأن المراد به الاسم، فبلغ ذلك الخبر نمرود الجبار وإشراف قومه ﴿قَالُواْ﴾ يعني نمرود وأشراف قومه ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ﴾ يعني إن فعل هو ذلك بآلهتنا فأتوا به ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ حال أي كائناً بمرأى منهم بحيث يتمكن صورته في أعينهم تمكن الراكب على المركب، وقيل: المراد بأعين الناس رؤساؤهم وعلى متعلق بفاتوا على طريقة أتيت على القاضي ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بفعله وقوله حتى لا نعذبه بلا بينة كذا قال الحسن وقتادة والسدي وقال محمد بن إسحاق أي لكي يشهدوا أي يحضروا عقابه وما يصنع به فلما أتوا به ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ أسند الفعل إلى كبير الأصنام مجازاً لما كان غيظه لما رأي من زيادة تعظيمهم إياه تسبب لمباشرته إياه، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي كما قال له من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط أنيق أأنت كتبت فقلت بل أنت كتبت، أو حكاية لما يلزم من اعتقادهم وجوازه كان كبيرهم غاظ أن يعبد معه غيره، وقال القتيبي إنه في المعنى متعلق بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ جعل النطق شرطاً للفعل يعني إن قدروا على النطق قدروا على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفي ضمنه أنا فعلته ذلك، وروي عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله بل فعله يعني فعله إبراهيم المذكور في كلام السائل فالفعل مسند إلى الضمير، وقيل معناه فعله من فعله وفيه حذف الفاعل وهو غير جائز، قلت: ما روي عن الكسائي يأبى عنه كلمة بل فإن إضرابه عن إسناد الفعل إلى نفسه يشعر نفيه عنه وإلا لزم ما فعلته بل فعلته، وأيضاً يمنع الوقف على قوله بل فعله حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها من هذه، قال أختي، فأتي سارة فقال لها هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها فأتي بها

وقام إبراهيم يصلي فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ويروى فغط حتى ركض برجله، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق فدعا بعض حجبته، فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجرة فأتته وهوقائم يصلي فأومىء بيده ريَم قالت رد الله كيد الكافر في نحره وأحزم هاجر، قال أبو هريرة تلك أمكم يا بني ماء السماء»[1] متفق عليه، وإنما سماها رسول الله ﷺ كذبات مجازاً تسمية للمعاريض كذباً لما شابهت صورتها صورته كما، قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[2] ألا ترى أن قول إبراهيم فإنك أختي في الأسلام صريح في أن قول إبراهيم كان من المعاريض لا بإرادة الكذب حاشاه على ذلك، وإنما أضاف إبراهيم السؤال إلى سائرهم مع أنه كان عرض بالكبير نفسه لاشتراك سائرهم في الحضور ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يعني رجعوا إلى عقولهم وتفكروا وفهموا أن ما يقول إبراهيم من نفي ألوهية هؤلاء حق وما نحن عليه باطل ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ في أنفسهم أو بعضهم لبعض ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادتكم من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع، أو أنتم الظالمون بسؤال هذا الرجل أو بقولكم إياه أنه لمن الظالمين ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ يعني ردوا إلى الكفر وانقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة إلى العقول، شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه والأعلى الأسفل ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تأمر بسؤالهم والتقدير وقالوا والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴿قَالَ﴾ إبراهيم لما تم الحجة عليهم ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ﴾ عطف على محذوف تقديره أتعترفون بأن هؤلاء لا ينطقون ولا تنفعكم شيئاً ولا يضرون وأنكم أنتم الظالمون في عبادتها أفتعبدون بعد ذلك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من النفع إن عبدتموها ﴿وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ إن تركتم عبادتها، إنكار لعبادتها وتوبيخ بعد ما اعترفوا بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر فإنه ينافي الألوهية ﴿أُفّٖ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء، نافع وحفص منهم بالتنوين، والباقون بغير تنوين كما في مر الإسراء محله الرفع فإنه مبتدأ نكرة علي طريقة ويل له وما بعده خبره أو اسم فعل بمعنى أتضجر ﴿لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي غيره، تضجر استعذار لكم على إصرار الباطل مع وضوح

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ (٣٣٥٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٢٣٧١).

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

بطلانه ولهؤلاء على معبوديتهم مع عدم الاستحقاق وأف صوت المتضجر المستكره، وقيل: معناه الاحتقار والاستقذار، وفي الحديث «ألقى رسول الله طرفه ثوبه على أنفه وقال أف أف مستقذراً لما شمّ الرائحة الكريهة» وقيل معناه الاحتقار، قال البيضاوي معناه قبحاً ونتناً واللام لبيان المتأفف له ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام توبيخ، وعطف على محذوف تقديره أتنظرون فلا تعقلون أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة ولا تصلح لها وإنما يستحقها الله تعالى، فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب أخذوا في المضارة ﴿وقَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ نصرها شرط مستغن عن الجزاء بما مضى، قال هذا رجل من الأكراد قيل اسمه هنون فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وقيل: قاله نمرود فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام وحبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة، وقيل: بنوا أتونا بقرية يقال لها كوثي ثم جمعوا له أصلاب الحطب من أصناف الخشب مدة حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عافاني الله لأجمع حطباً لإبراهيم وكانت المرأة تطلب في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبن في نار إبراهيم وكان الرجل يوصى بشراء الحطب وإلقائه فيه، وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها فتلقيه فيه احتساناً قال ابن إسحاق كانوا يجمعون الحطب شهراً فلما جمعوا ما أرادوا وأشعلوا في كل ناحية من الحطب، فاشتعلت النار واشتدت حتى إن كان الطائر لتمر بها فتحرق من شدة وهجها فأوقدوا عليها سبعة أيام، روي أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها فجاء إبليس فعلمهم علم المنجنيق فعلموا ثم عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه إلى رأس البنيان وقدوه ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً، فصاحت السماوات والأرض ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة أي ربنا إبراهيم خليلك يلقي في النار وليس في الأرض أحد يعبدك غيره فأذن لها في نصرته، فقال الله عز وجل إنه خليلي ليس لي خليل غيره وأنا إله ليس له إله غيري فإن استعان بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنتُ له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقائه في النار أتاه خازن المياه فقال إن أردت أخمدت النار وأتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل، وروي عن أبي بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك له ثم رموا به في المنجنيق إليها واستقبله جبرائيل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، قال جبرائيل قال ربك فقال إبراهيم حسبي من سؤالي علمه بحالي. قال كعب الأحبار جعل كل شيء

يطفىء عنه النار إلا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار، وروى البغوي عن سعيد بن المسيب عن أمر شريك «أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال كان ينفخ على إبراهيم» وأورد الشيخان في الصحيحين والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً «اقتلوا الوزغ ولو في جوف الكعبة»[١] وعن سعد بن أبي وقاص «أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وسماه فويسقاً»[٢] رواه مسلم، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل وزغاً في أول ضربة كتب له مائة حسنة وفي الثانية دون ذلك وفي الثالثة دون ذلك»[٣] رواه مسلم ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ أي ذات برد وسلام أي أبردي برداً غير ضار، قال ابن عباس لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها، قال البيضاوي فيه مبالغات جعل النار المسخرة بقدرته مأمورة مطيعة وإقامة كوني ذات برد مقام أبردي ثم حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وقيل: نصب سلاماً بفعله أي وسلمنا سلاماًعليه، قال البغوي ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذٍ نار في الأرض إلا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ولو لم يقل على إبراهيم بقيت ذات برد أبداً، قلت: والظاهر أن النار كانت بحالها محرقة لكنه تعالى جعلها غير مؤذية لإبراهيم خاصة كما يدل عليه قوله تعالى على إبراهيم، قال السدي أخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ذي حسن، قال كعب ما أحرقت النار إبراهيم إلا وثاقه قالوا وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام، وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم ما كنت أياماً أنعم مني من الأيام التي كنت في النار، وقال ابن يسار فبعث الله عز وجل ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد فيها في جنب إبراهيم يؤنسه، وقال وبعث الله عز وجل جبرائيل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه، وقال جبرائيل يا إبراهيم إن ربك يقول أما علمت أن النار لا يضر أحبابي ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له فرآه جالساً في روضة والملك قاعدإلى جنبه وما حوله نار يحرق الحطب فناداه إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته إن حال بينك وبين ما أرى يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها، قال: نعم، قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا قال: فقم فأخرج منها فقام إبراهيم يمشي فيها حتى

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وفيه عمر بن قيس المكي وهو ضعيف.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الحج، باب: فيما يقتله المحرم (٥٤٠٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: استحباب قتل الوزغ (٢٢٣٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: استحباب قتل الوزغ (٢٢٤٠).

خرج منها، فلما خرج إليه قال له يا إبراهيم من الرجل الذي رأيته معك في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذلك ملك الظل أرسله ربي إلي ليؤنسني فيها فقال نمرود يا إبراهيم إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما يصنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده إني ذابح له أربعة آلاف بقرة، قال له إبراهيم إذاً لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه على ديني فقال: لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له فذبحها له نمرود ثم كف عن إبراهيم ومنعه الله عز وجل منه قال شعيب الجبائي ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ قيل: معناه أنهم خسروا السعر والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم، وقيل إن الله أرسل على نمرود البعوض فأكلت لحومه وشربت دمائه ودخلت واحدة في دماءه فأهلكته، قال محمد بن إسحاق استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأو أما صنع الله به من جعل النار عليه برداً وسلاماً مع خوف من نمرود وملأهم وآمن له لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ، وكان إبراهيم بن تارخ وكان لتارخ ابن ثالث يقال له ناخور وآمنت به أيضاً سارة وهي بنت عمه وهي سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم فخرج من كوثى من أرض العراق مهاجراً إلى ربه ومعه لوط وسارة كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾[1] فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر ثم خرج من مصر إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين وهو بريد الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهو من السبع على مسيرة يوم وليلة أو أقرب فبعثه الله نبياً فذلك قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ﴾ بتضمنه معنى سيرناه ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ بالخصب وكثرة الأشجار والأنهار والثمار ومن بركاتها العامة بعث أكثر الأنبياء فيها قال أبي بن كعب سماها مباركة لأنه من ماء عذب وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس، روى البغوي عن قتادة أن عمر بن الخطاب، قال لكعب ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول الله ﷺ وقبره؟ فقال كعب إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين إن الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم» وفي رواية «فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرارها تلفظهم أرضوهم تقذرهم نفس الله تحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.

إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا»[١] رواه أبو داود، عن زيد بن ثابت، قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للشام، قلنا: لأي ذلك؟ قال: لأن ملائكة الرحمة باسط أجنحتها عليها»[٢] رواه أحمد والترمذي، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «سيخرج نار من نحو حضرموت أو من حضرموت تحشر الناس، قلنا يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام» رواه الترمذي، وعن أبي جوالة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيصير أن تكونوا جنوداً مجندة جند بالشام وجند باليمين وجند بالعراق فقال ابن جوالة خِرْلي يا رسول الله إن أدركت ذلك، قال: عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه تجتبي إليها خيرته من عباده فأما إن أبيتم فعليكم بيمينكم واسقوا من غذاكم فإن الله توكل لي بالشام وأهله»[٣] رواه أحمد وأبو داود، وعن شريح بن عبيد قال: ذكر أهل الشام عند علي ﷺ وقيل العنهم يا أمير المؤمنين قال لا إني سمعت رسول الله ﷺ: «الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب»[٤] رواه أحمد، وعن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «رأيت عموداً من نور خرج من تحت رأسي ساطعاً حتى استقر بالشام» رواه البيهقي في الدلائل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قيل: هي مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق أي وهبنا له هبة، وقال مجاهد وعطاء معنى النافلة العطية فهي حال منهما إذ هما جميعاً من عطاء الله، وقال الحسن والضحاك معناه فضلاً يعني وهبنا له إياهما تفضلاً فهو منصوب على العلية، وروى ابن عباس وأبي بن كعب وابن زيد وقتادة النافلة هو يعقوب لأن الله تعالى أعطاه إسحاق بدعائه حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[٥] وزاده يعقوب ولد الولد والنافلة الزائدة فهو حال من يعقوب ولا بأس به للقرينة ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد من الأربعة أي إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي صافية قلوبهم عن الاشتغال بغير الله زاكية أنفسهم عن الرذائل بتحلية بأوصاف الكمال طاهرة أبدانهم عن التلوث

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في سكنى الشام (٢٤٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل الشام واليمن (٣٩٦٣).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في سكنى الشام (٢٤٨١).

(٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير شريح بن عبير وهو ثقة وقد سمع من المقداد.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في الأبدال وأنهم بالشام (١٦٦٨١).

(٥) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

بالمعصية مشغولة بالطاعات فإن الصلاح ضد الفساد سواء كان في القلب أو القالب أو النفس ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ديننا ﴿بِأَمْرِنَا﴾ بذلك حيث أرسلناهم لتكميل الخلائق ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي ما هو حسن الذات وبتحسين الشرع ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ حذف تاء الإقامة المعوضة من أحد الألفين لقيام المضاف إليه مقامها ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ عطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات عطف الخاص على العام لزيادة الاهتمام، وأصل الكلام أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ويقيموا الصلاة إقامة ويؤتوا الزكاة إيتاءً بذكر المصادر المؤكدة حذف الأفعال وأضيف المصادر إلى المفاعيل ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ موحدين مخلصين في العبادة.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿آتَيْنَاهُ﴾ وقيل هو منصوب باذكر وجملة آتيناه بدل اشتمال يعني أذكر إيتائنا إياه ﴿حُكْمًا﴾ حكمة أو نبوة أو فصلاً بين الخصوم ﴿وَعِلْمًا﴾ بالله وما ينبغي للأنبياء ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ قرية سدوم ﴿الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ أي كان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويرمون بالبنادق ويلعبون بالطيور وغير ذلك وصفها بصفة أهلها، وأسند إليها على حذف المضاف وإقامتها مقامها يدل عليه قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله هذه الجملة في مقام التعليل لقوله كانت تعمل الخبائث ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي في أهل رحمتنا أو في جنتنا، قلت: ويمكن أن يقال أن صفات الله تعالى يرى في عالم المثال بنظر الكشف على هيئته الدائرة والصوفي يرى داخلاً فيها فانياً حقيقته باقياً بها فهذه الظرفية كناية عنه ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين

سبقت لهم منا الحسنى ﴿وَنُوحًا﴾ عطف على لوطاً يعني آتينا لوطاً ونوحاً حكماً وعلماً وعلى هذا ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ منصوب باذكر أي اذكر وقت ندائه وهي جملة معترضة أو التقدير اذكر لوطاً ونوحاً وعلى هذا الظرف بدل اشتمال منه يعني أذكر وقت نداء نوح أي دعاءه على قومه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾ ظرف لنادى أي نادى قبل المذكورين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعائه ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ الذين كانوا في السفينة ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي الغم الشديد، قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه، وكان نوح أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاء، روى الضحاك عن ابن عباس أن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلقونه في لبد ويلقونه في بيت يزعمون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني فيدعوهم إلى الله سبحانه، وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون نوحاً فيختلفونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ فانتصر ونجى من القوم الذين كذبوا بآياتنا الدالة على رسالته ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال البيضاوي ولاجتماع الأمرين تكذيب الحق والانهماك في الشر ولعلهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ هذا نحو قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ في التركيب ﴿فِى ٱلْحَرْثِ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين كان الحرث ما قد بدت عناقيدها وقال قتادة زرعاً ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ظرف ليحكمان أي رعته ليلاً بلا راع كذا في القاموس، وفي النهاية نفشت السائمة إذا رعت ليلاً بلا راع وهلمت أرعت إذا رعت نهاراً إذ أصل معناه الانتشار، قال الله تعالى: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(١) ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ يعني الحاكمين داود وسليمان والمتحاكمين، وقال الفراء أراد بالجمع اثنين سليمان وداود إذ قد يطلق الجمع على الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾(٢) والمراد الأخوين بالإجماع ﴿شَٰهِدِينَ﴾ عالمين ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ الضمير للحكومة أو الفتوى ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ أي ألهمنا ما كان مرضياً لنا في الحكومة حذف ها هنا جملاً وهو فحكم سليمان كما فهمنا ونقض داود حكم نفسه وأمضى حكمه. روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خفف على داود القرآن وكان يأمر بدواً به فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يديه»(٣) قلت: المراد بالقرآن الزبور قال البغوي قاله ابن عباس وقتادة ومن ها هنا يظهر أن الحاكم إذا كان مجتهداً وتبدل رأيه قبل إمضاء حكمه جاز له نقض حكمه كما فعل داود، قال البغوي قال

---

(١) سورة القارعة، الآية: ٥. (٢) سورة النساء، الآية: ١١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ (٢٤١٧).

ابن عباس وقتادة والزهري أن رجلين دخلا على داود ﷺ أحدهما صاحب الزرع والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن هذا انفلتت غنم ليلاً فوقعت في حرثي فأفسدته فلم تبق منه شيئاً فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرأ على سليمان فقال كيف قضى بينكما؟ فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا. وروى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال: تقضي، ويروى أنه قال بحق النبوة والأبوة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق الفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال: تقضي، ويروى أنه قال بحق النبوة والأبوة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ما هي؟ قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فإذا صار الحرث كهيئة يوم أكل دفع إلى أهله حرثه وإلى صاحب الغنم غنمه، فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك. وقيل: إن سليمان يوم حكم كان ابن أحد عشر سنة وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس نحو ما ذكر البغوي في القصة، قال البيضاوي والأول يعني فتوى داود نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني والثاني مثل قول الشافعي بفرم الحيلولة للعبد المغضوب إذ أبق، قلت: غير أن أبا حنيفة يقول في العبد الجاني أن مالكه بالخيار إن شاء دفع العبد وإن شاء فدى للجناية، قال الجصاص إنما ضمنوها لأنهم أرسلوها، وقيل هذا الحكم نسخ في الإسلام، والحكم في الإسلام عند مالك والشافعي وأحمد إن أتلفته المواشي المنفلتة ليلاً فعلى صاحب الماشية ضمانه يعني قيمة ما أتلفته، قلت: لعل قيمة الزرع التي أفسدتها الغنم في عهد داود بلغت قيمة الزرع حتى أمر داود بدفعها والله أعلم، وأما ما أفسدته الماشية المنفلتة بالنهار فلا ضمان على ربها لأن في عرف الناس إن أصحاب الزرع يحفظونها بالنهار والمواشي تسرح في النهار وترد بالليل إلى المراح، وعند أبي حنيفة لا ضمان فيما أتلفته المواشي المنفلتة ليلاً كان أو نهاراً لقوله ﷺ: «العجماء جرحها جبار»[1] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة، قال صاحب الهداية قال محمد المراد بالعجماء هي المنفلتة واحتج الأئمة الثلاثة بحديث حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدته فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وأن ما أفسدته المواشي بالليل فهو ضامن على أهلها» رواه مالك في الموطأ والشافعي عنه وأصحاب السنن الأربعة والدارقطني وابن حبان والحاكم والبيهقي، قال الشافعي أخذنا به لثبوته واتصاله ومعرفة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ (٢٤١٧).

رجاله، قال الحافظ بن حجر مداره على الزهري. واختلف عليه فقيل هكذا وهذه رواية الموطأ وكذلك رواه الليث عن الزهري عن أبي محيصة ولم يسم أن ناقة، ورواه معن بن عيسى عن مالك فزاد فيه عن جده محيصة ورواه عن الزهري عن حرام عن أبيه ولم يتابع عليه أخرجه أبو داود وابن حبان، ورواه الأوزاعي وإسماعيل بن أمية وعبد الله بن عيسى كلهم عن الزهري عن حرام عن البراء، قلت: كذا ذكر بن الجوزي في تحقيق التعليق من طريق أحمد، قال الحافظ لم يسمع حرام من البراء قاله عبد الحق تبعاً لابن حزم، ورواه النسائي من طريق محمد بن أبي حفصة عن الزهري أخبرني أبو أسامة بن سهل أن ناقة البراء، ورواه ابن أبي ذئب عن الزهري أنه قال بلغني أن ناقة البراء الحديث. فالأئمة الثلاثة خصصوا حديث العجماء جبار بحديث ناقة البراء وقالوا كونه جباراً مختص بالنهار، قلنا: العام مثل الخاص في كونه قطعياً فلا يحكم بالتخصيص، ما لم يظهر اقترانهما ولا بالنسخ ما لم يظهر تأخر أحدهما عن الآخر فبقي التعارض فلا يلزم الضمان بالشك، وأيضاً عند تعارض الحديثين يجب المصير إلى القياس والقياس يقتضي عدم الضمان لأن فعلها غير مضاف إلى صاحبها لعدم ما يوجب النسبة إليه من الإرسال والسوق والقود ونحو ذلك ومن أجل ذلك قلنا فيمن أرسل الدابة في طريق المسلمين فأصابت في فورها أنه يضمن لأن سيرها مضاف ما دام تسير على سننها وأما إن انعطفت يمنة أو يسرة أو وقفت ثم سارت انقطع حكم الإرسال.

مسألة: وإن كان مع الدابة صاحبها راكباً أو قائداً أو سائقاً فوطئت الدابة أو أصابت بيدها أو رجلها أو رأسها أو كدمت أو خبطت أو صدمت واقفة أو سائرة والموضع مملوك لها رقبة أو تصرفاً بالإجارة أو الإعارة فلا ضمان على صاحبها، إلا إذا كان راكباً عليها ووطئت الدابة لأن صاحبها حنيئذ مباشر للإتلاف لأن ثقله وثقل الدابة اتصل بالمتلف فكأنما وطأه جميعاً وفي غير هذه الصورة لم يوجد المباشرة بل التسبيب والمسبب إنما يضمن إذا كان متعدياً وهو غير متعد في التسيير ولا في الإيقاف، وإن كان الموضع غير مملوك له لكنه مأذون فيه كالطريق للسير دون الإيقاف والصحراء وسوق الدواب للسير والإيقاف جميعاً فحينئذ يضمن الراكب والسائق والقائد فيما ذكرنا من الوجوه لكن لا يضمن بما نفحت برجلها أو ذنبها لأن المرور في طريق المسلمين مباح معتد بشرط السلامة لأنه يتصرف في حقه من وجه وفي حق غيره من وجه لكونه مشتركاً في العامة فقلنا بالإباحة مقيداً بما ذكرنا ليعتدل النظر من الجانبين، ثم إنما يتقيد بشرط السلامة عما يمكن الاحتراز عنه ولا يتقيد بها فيما لا يمكن الاحتراز عنه لما فيه من المنع من التصرف والاحتراز عن

الإيطاء ونحوه ممكن فإنه ليس من ضرورات التسيير وعن النفحة بالرجل والذنب ليس بممكن مع السير على الدابة فلا يتقيد بالسلامة عنه فإن أوقف في الطريق ضمن النفحة أيضاً، وقال مالك لا ضمان في شيء من ذلك إذا لم يكن من جهة راكبها أو قائدها أو سائقها سبب من همز أو ضرب لقوله ﷺ: «العجماء جبار» وقال الشافعي لا يضمن ما جنت البهيمة بفمها أو يدها أو رجلها أو ذنبها سواء كانت من راكبها أو سائقها سبب ذلك أولاً، وقال أحمد ما جنته بفمها أو يدها وصاحبها عليها يجب عليها الضمان وما تلفته برجلها فلا ضمان عليه لقوله ﷺ: «الرجل جبار» رواه الدارقطني عن سعيد بن المسيب مرسلاً والله أعلم.

فائدة: قال مجاهد كان قول سليمان صلحاً وما فعله داود حكماً والصلح خير، وقيل إن داود وسليمان حكماً بالوحي وكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود وهذا قول من قال لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عن الاجتهاد بالوحي وقال: لا يجوز الخطأ عن الأنبياء، والأظهر أن حكمهما كليهما كان بالاجتهاد إلا أن داود أخطأ. وأصاب سليمان فأثنى الله عليه وجاز الخطأ في اجتهاد الأنبياء إلا أنهم لا يقرون عليه، قال الحسن لولا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله تعالى حمد هذا بالاجتهاد، واحتج من قال: كل مجتهد مصيب بظاهر هذه الآية حيث قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولا دليل لهم فيه بل قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ دليل على أن الصواب ما فهم، سليمان دون داود عليه السلام، وأما حديث عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فأخطأ فله أجر واحد»[1] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة، والمذكور من غير الترمذي عن عمرو بن العاص فهو حجة لنا لا علينا إذ هو صريح في أن المجتهد يخطىء ويصيب وكونه مأجوراً حين أخطأ لا يدل على كونه مصيباً لكون الخطأ والصواب متضادان وليس المراد أنه يؤجرعلى الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة والخطأ عنده موضوع إذ لم ينل جهده وعند الإصابة له أجران أجر الاجتهاد وأجر النيل إلى الصواب والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد وأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأقضية، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٧١٦).

حديث: روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود ج وقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان فأخبرتاه، فقال أئتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى»[1] ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ معه لأمره إذ وجد فترة عنه لينشط له، مع متعلق بسخرنا أو يسبحن، والأول أقوى لفظاً والثاني معناً، وجملة يسبحن حال من الجبال واستئناف لبيان وجه التسخير ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه قدمت الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب، قال وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقال قتادة تسبحن أي تصلين معه إذا صلى، وقال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر، وقيل كان داود إذ افتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه، وقال بعض الناس يسبحن من السباحة أي كانت الجبال تسير معه إذا سار ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ما ذكرنا من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ وهو في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها، والمراد ها هنا الدروع من الحديد، قال قتادة أول من صنع الدرع وسردها وحلقها داود عليه السلام وكانت من قبل صفاع، وقد مر في الحديث الصحيح أن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يديه ﴿لَكُمْ﴾ يا معشر قريش في جملة الناس ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء الفوقانية والضمير للصنعة أو للبوس على تأويل الدروع وقرأ أبو بكر بالنون على التكلم والتعظيم، والباقون بالياء التحتانية والضمير لداود أو لله تعالى على سبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة أي ليحرزكم ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي حرب عدوكم، قال السدي يعني من وقع السلاح فيكم لكم صنعة للبؤس أو متعلق بعلمناه، وقوله لتحصنكم بدل اشتمال منه بإعادة الجار ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ يا أهل مكة وجميع الناس ﴿شَاكِرُونَ﴾ لنا على ما يسرنا لكم ما يحصنكم أمربالشكر، أخرجه بلفظ الاستفهام مبالغة وتقريعاً ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ عطف لسليمان على مع داود والريح على الجبال بعاطف واحد لكونهما مفعولي عامل واحد، قال البيضاوي ولعل اللام فيه دون الأول لأن الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له وفي الأول أمر يظهر في الجبال والطير مع داود بالإضافة إليه، قال بعض المحققين لما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ (٣٤٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأقضية، باب: بيان اختلاف المجتهدين (١٧٢٠).

كان تسبيح الجبال والطير مع داود بغير أمره أورد هناك كلمة مع وجريان الريح كان بأمر سليمان أورد هناك اللام ﴿عَاصِفَةً﴾ حال من الريح يعني شديدة الهبوب من حيث إنها تذهب بعسكره مسافة بعيدة في مدة يسيرة كما قال الله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[1] وكانت رخاء في نفسها طيبة، وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حال ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قيل إلى ها هنا بمعنى من فإن منزل سليمان كان بالشام موطن الأنبياء، وقيل هي بمعناها والمعنى يروح به إلى منزله بعد ما سار منه بكرة ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ في الأزل فنفعل ما نفعل على ما يقتضيه الحكمة فكان ما أعطينا سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه، قال وهب بن منبه كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلس عكفت عليه الطير فقام له الجن حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قل ما يقعد عن الغزو لا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلا أتاه يذله، وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فإذا حمل معد ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشبة فاحتملت حتى إذا استعلت به أمر الرخاء يمر به شهراً في روحته وشهراً في غدوته إلى حيث أراد، وكان تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة فلا تحركه ولا تثير تراباً ولا تؤذي طائراً، قال وهب ذكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوب فيه كتبته بعض صحابة سليمان إما من الجن وإما من الإنس نحن نزلناه وما بيتناه وقنبيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه إن شاء الله فبايتون بالشام، وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم وكان يوضع له منبر من ذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة يقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح، وعن سعيد بن جبير كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي يجلس الإنس فيما يليه ثم يليهم الجن ثم يظلهم الطير ثم تحملهم الريح، قال الحسن لما شغلت الخيل نبي الله سليمان عليه السلام حين فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيراً منها وأسرع الريح تجري بأمره كيف يشاء فكان يغدو من إيليا فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحها ببابل، وقال ابن زيد كان له مركب من

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٢.

خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الإنس والجن تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب وإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر ولا يدري القوم إلا وقد أظلهم معه الجيوش، وروي أن سليمان ﷺ سار من أهل العراق غادياً فقال بمرو وصلى العصر بمدينة بلخ تحمله وجنوده الريح ويظلهم الطير ثم سار من مدينة بلخ متخللاً بلاد الترك ثم جاء إلى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عطف جيشه على مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض قندهار وأخرج منها إلى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياماً وغدا منها فقال بكسكر ثم راح إلى الشام وكان مستقره بمدينة تدمر وكان أمر الشياطين، قبل شخوصه من الشام إلى العراق فبنوا لها بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأصفر وفي ذلك يقول النابغة:

الاسليمان إذ قال المليك له ... قم في البرية فاجددها عن العند

وحيش الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي سخرنا الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار ويخرجون الجواهر، من نكرة موصوفة أو موصولة معطوف على الريح من الشياطين حال منهم مقدم عليه يعني سخرنا نفوساً يغوصون له كائنين من الشياطين أو مبتدأ والظرف خبره ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ عطف على يغوصون ﴿عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون الغوص ما شاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ حتى لا يخرجوا من أمره، قال الزجاج يعني حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا، قال البغوي في القصة أن سليمان ﷺ كان إذ بعث شيطاناً مع إنسان، ليعمل له عملاً قال له إذا فرغ من عمله أشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل وكان من عادة الشياطين أنهم، إذا فرغوا من عمل ولم يشتغلوا بعمل آخر خربوا ما عملوا وأفسدوه.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ﴾ أي دعا ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ على طريقة ونوحاً إذ نجيناه في وجوه الإعراب، قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم وهو أيوب بن أحرص بن رازخ بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام وكانت أمه من ولد لوط بن هاران، وكان الله قد اصطفاه ونبّأه وبسط عليه الدنيا وكانت له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمر ما لا يكون لرجل أفضل منها في العدة والكثرة، وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل آلة كل فدان أتان ولد كل أتان اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك، وكان الله عز وجل أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين يطعم المساكين ويكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ أبناء السبيل وكان شاكراً لأنعم الله مؤدياً لحق الله قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى والعزة والغفلة والشاغل عن أمر الله بما فيه من الدنيا. وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من أهل اليمين يقال له اليقن ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما يلد وللآخر صافر وكانوا كهولاً فكان إبليس لا يحجب عن شيء من السماوات وكان يقف فيهن حيث ما أراد حتى رفع الله عيسى عليه السلام فحجب عن أربع، فلما بعث محمد ﷺ حجب من الثلاث الباقيات فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكر الله وإثني عليه فأدركه البغي والحسد، وصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه فقال إلهي نصرت من أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتلته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك، قال الله انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله إبليس حتى وقع إلى الأرض ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين، قال لهم فماذا عندكم من القوة فإني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة القادحة التي لا يصبر عليها الرجال، فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من النار واحترقت كل شيء

أتى عليها قال له إبليس فأت الإبل حين وضعت وثبتت في مراعيها فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصاراً من نار لا يدنوا من شيء إلا قد احترقت فأحرقها ورعاها حتى أتى على آخرها، ثم جاء عدو الله إبليس في صورة قيم عليها على قعود إلى أيوب فوجده قائماً يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك فاحترقتها ومن فيها غيرك فقال أيوب الحمد لله الذي هو أعطاها وهو أخذها وقد عاما وطنت مالي نفسي على الغنى، قال إبليس فإن ربك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت فنزلت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم، من يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور منهم من يقول لو كان إله أيوب يقدر على أن لا يضيع شيئاً وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه، قال أيوب الحمد لله حين أتاني وحين نزع مني عرياناً خرجت من بطن أمي عرياناً وأحشر إلى الله عز وجل ليس لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً ولكنه علم منك شراً فأخرجك فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً ذليلاً فقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلبه؟ قال عفريت عندي من القوة ما إذا شئت صحت صيحة لا سمعه ذو روح خرجت مهجة نفسه قال إبليس فأت الغنم ورعاها فانطلق حتى توسطها صاح صيحة فحتمت أمواتاً عند آخرها وما رعاها ثم جاء متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيوب وهو يصلي فقال له مثل القول الأولى فرد أيوب عليه مثل الرد الأول، ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال: ما عندكم من القوة فإني لم أكلم قلب أيوب؟ فقال عفريت عندي من القوة ماإذا شئت تحولت ريحاً عاصفاً ينشف كل شيء يأتي عليه، قال: فأت الفدادين والحرث فانطلق فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن، ثم جاء إبليس متمثلاً بقهر مان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلي فقال له مثل القول الأول فرد عليه مثل رد الأول. كلما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضي منه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال. فلما إبليس أنه قد أفنى ماله صعد، فقال: إلهي إن أيوب يرى منك أنك ما منحته بولده فأنت معطيه المال فهل أنت تسلطني على ولده فإنها المصيبة التي لا يقوم لها قلوب الرجال، قال الله تعالى: وقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم من قواعدها ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل حتى إذا مثل بهم كل مثلة رفع القصر فقلبه فصاروا منكوسين، وانطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم

الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه فأخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكسين على رؤوسهم يسيل دمائهم ودماغهم ولو رأيت كيف سقطت بطونهم، فتناثرت أمعاؤهم تقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال: ليت أمي لم تلدني، فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به ثم لم يلبث أيوب إن فاء وأبصر واستغفر وصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله عز وجل وهو أعلم، فوقف إبليس ذليلاً فقال يا إلهي إنما هون على أيوب المال والولد إنه يرى. منك ما متعته بنفسه فأنت تعيد المال والولد فهل أنت تسلطني على جسده، فقال الله تعالى انطلق سلطتك على جسده ولكن ليس سلطان على لسان ولا على قلبه وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلط عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب وجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليأنسوا به في الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله سريعاً فوجد أيوب ساجداً فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جميع جسده فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أكباد الغنم وقعت فيه حكة فحك بأظفار حتى سقطت كلها ثم حك بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة ثم لا يزال يحكها حتى نَفِل لحمه وتقطع وتغيروا نتن فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشاً فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت أفرأ ثيم بن يوسف بن يعقوب وقيل هي بنت يوسف كما ذكرنا في سورة يوسف كأنت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه فلما رأى الثلاثة أصحابه وهو أيقن ويلدد وصافر ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به، وقال الراوي حضر معهم فتى حديث السن قد آمن بده وصدقه لهم إنكم يكلمهم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق والزمام من الذي وصفتم فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذي عتبتم واتهمتم، ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئاً من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا ولا على أنه نزع شيئاً من الكرامة التي أكرمه بها ولا إن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا فإن كان هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلي النبيين والصديقين

والشهداء والصالحين وليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلا أنه أخ أخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يحل بالحليم أن يعتزل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفرله بحزن يحزنه ويدله على مراشد أمره وليس بحكيم ورشيد من جهل هذا، فالله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتهم خشيته من غير عي ولا بكم وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاماًلله وإجلالاً فإذا استقاموا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وأنهم الأبرار البراء ومع المقصرين المفرطين وأنهم لأكياس أقوياء، فقال أيوب الله سبحانه يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فمتى تنبت بالقلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولأطول التجربة وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم يسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله نور الكرامة، ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثاً به متضرعاً إليه فقال رب لأي شيء خلقتني ليتني كرهتني لم تخلقني يا ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت إذا أذنبت ذنباً أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً وللأرملة قيماً إلهي أنا عبدك إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء عرضاً وللفتنة نصباً وقد وقع علي بلاء لو سلطته على جبل ضعف من حمله فكيف يحمل ضعفي وإن قضائك هو الذي أذلني وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ولو أن ربي نزع الهيبة في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملأ فمي، ثم كان ينبغي للعبد أن يحاج على نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه أتعاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه لانظر إلي ورحمني ولا دنى مني ولا أدناني فأدلى بعذري وأتكلم ببرأتي وأخاصم عن نفسي، فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب ثم نودي يا أيوب أن الله يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريباً قم، فأدل بعذرتك وتكلم ببرأتك وخاصم عن نفسك وأشدد إزارك وقم مقام جبار يخاصم جباراً إن استطعت فإنه لا ينبغي أن يخاصمني الإجبار مثلي لقد منتك نفسك يا أيوب أمراً تبلغ بمثل قوتك أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل

كنت معي تمد بأطرافها هل علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفاً في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو تختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ أين أنت مني يوم نبعت الأنهار وسكرت البحار أسلطانك حبس أمواج البحر على حدودها، أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها؟ أين أنت مني يوم حبست الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال هل تدري على أي شيء أرسيتها أم بأي مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع يطيق حملها أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء أم هل تدري من أي شيء أنشىء السحاب أم هل تدري أين خزانة الثلج أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل وأين خزان الريح وبأي لغة تتكلم الأشجار؟ من جعل العقول في أجواف الرجال ومن شق الأسماع والأبصار ومن ذلت الملائكة لملكه وقهرالجبارين لجبروته وقسم الأرزاق بحكمته في كلام كثير من آثار قدرته ذكرها لأيوب.

فقال أيوب صغر شأني وكل لساني وعقلي ورائي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي تعرض لي، يا إلهي قد علمتُ أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت لا يعجزك شيء ولا يخفى عليك خافية، إذ لقيني البلاء يا إلهي فتكلمت ولم أملك وكان البلاء هو الذي أنطقني فليت الأرض انشقت لي فذهبت فيها ولم أتكلم لشيء يسخط ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك إنما تكلمت حين تكلمتُ لتعذرني وسكت حين سكت لترحمني، كلمة زلت مني فلن أعود قد وضعتُ يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي أعوذ بك اليوم منك، أستجيرك من جهد البلاء فأجرني وأستغيث بك من عقابك فأغثني وأستعين بك فأعني وأتوكل عليك فاكفف واعتصم بك فاعصمني وأستغفرك فاغفرلي فلن أعود بشيء تكرهه مني.

قال الله تعالى نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك ووردت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آيةً وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاً للصابرين ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ فيه شفاؤك وقرب عن أصحابك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة مترددة، ثم قالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا،

قال نعم ومالي لا أعرفه فتبسم فقال أنا هو فعرفته بمضحكه فاعتنقته، قال ابن عباس فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مر بهما كل مال لهما وولد فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ ﴿أَنِّي﴾ أي بأني ﴿مَسَّنِيَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلضُّرُّ﴾ وهو سوء الحال في النفس أو البدن أو المال أو الجاه وفي القاموس الضر بالفتح ويضم ضد النفع أو بالفتح مصدر وبالضم اسم قال البيضاوي بالفتح شائع في كل ضرر وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهزال، واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله أني مسني الضر وفي مدة بلائه؟ قال البغوي روى ابن شهاب عن أنس يرفعه «أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة» وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً، وقال كعب كان أيوب في بلائه سبع سنين، وقيل كان في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، قال الحسن مكث أيوب مطروحاً على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً يختلف فيه الدواب لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه بصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمد وأيوب على ذلك من ذكر الله تعالى والصبر على ما ابتلاه.

فصرخ إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض فلما اجتمعوا إليه قالوا ما جزعك؟ قال: أعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالاً ولا ولداً فلم يزد إلا صبراً، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا يقربه إلا امرأته فاستغثت بكم لتعينوني عليه، فقالوا: أين مكرك والذي أهلكت به من مضى، قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي، قالوا نشير عليك ومن أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال: من قبل امرأته، قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها، قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هو ذاك يحك قروحه ويتردد الدواب في جسده فلما سمعها طمع أن يكون كلمة جزع فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هوفيه من الضر وإن ذلك لا ينقطع عنه أبداً، قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح هذا إلى أيوب ويبرأ، فجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك أين المال، أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الحسن إذبح هذه السخلة واسترح، قال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه، قالت: الله، قال: فكم متعنا به؟ قالت ثمانين سنة، قال: فمنذكم ابتلائي؟ قالت: منذ سبع سنين

وأشهر، قال: ويلك ما أنصفت إلا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة، والله لئن شافاني الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتني أن أذبح بغير الله طعامك وشرابك الذي أتيتني به علي حرام وحرام علي أن أذوق شيئاً مما تأتيني به بعد إذ قلت لي هذا فاعزلي عني فلا أراك فطردها فذهبت، فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرَّ ساجداً وقال: رب إني مسني الضر ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ عطف على الجملة السابقة وصف ربه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه استجاب الله دعاءه، وقال له ارفع رأسك فقد أستجيب لك ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ قيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[1] فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره أن يغسل فاغتسل منها فذهب كل داء كان لظاهره وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان، ثم مشى أربعين خُطْوةً فأمره أن يضرب برجله مرة أخرى فضرب برجله فنبعت عين أخرى ماء بارد فأمره فشرب منها فذهب كل داءٍ كان بباطنه، فصار كأصح ما يكون من الرجال وأحملهم، وكسي حلة قال فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من أهل ومال إلا قد ضاعفه الله، حتى والله ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب فجعل يضربه بيده، فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك؟ قال: بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها. وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أيوب يغتسل عرياناً فخر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك ولكن لا غنى بي عن بركتك» قال الحسن فخرج أيوب حتى جلس على مكان مشرف[2].

ثم إن امرأته قالت: أرأيتك إن كان طردني إلى من أكله، أأدعه يموت جزعاً ويضيع فتأكله السباع لأرجعن إليه فرجعت، فلا كناسة ترى ولا تلك الحالة التي كانت وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأل عنه، فدعاها أيوب فقال ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل؟ فقال: ما

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٢.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الغسل، باب: من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة ومن تستر فالتستر أفضل (٢٧٥).

كان منك؟ فبكت وقالت: بعلي، قال: فهل تعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت: وهل يخفى على أحد رآه، ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه، ثم قالت: أما أنه أشبه خلق بك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا أيوب الذي أمرتني أن أذبح لإبليس وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله سبحانه فرد علي ما ترين، وقال وهب لبث أيوب في البلاء سنين فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئاً اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس في مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال، فقال لها أما أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى؟ قالت نعم، قال: فهل تعرفينني؟ قالت: لا، قال: أنا إله الأرض وأنا الذي صنعتُ بصاحبك ما صنعتُ لأنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد فإنه عندي ثم أراهم أباهم في بطن الوادي الذي تصيبها فيه قال وهب وقد سمعت أنه قال لها لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يسم الله ليوفي مما به البلاء والله أعلم.

وفي بعض الكتب أن إبليس قال لها أسجدي لي سجدةً حتى أرد عليك المال والأولاد وأعافي زوجك فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها قال قد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم أن الله عافاه ليضربنَّها مائة جلدة، وقال عند ذلك مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمي له ومائة إياه وإياي إلى الكفر ثم أن الله رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها مع أيوب على البلاء وخفف عنها، وأراد أن يبرّ يمين أيوب فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾(١) فأخذ أيوب ضغثاً يشتمل على مائة عود صفاراً فضربها ضربةً واحدة وروي أن إبليس اتخذ تابوتاً وجعل فيه أدوية وجعل على طريق امرأته يداوي الناس فمرت به امرأة أيوب فقالت إن لي مريضاً أفتداويه، قال: نعم والله لا أريد شيئاً إلا أن يقول إن شفيته أنت شفيتني، فذكرت ذلك لأيوب فقال: هو إبليس قد خدعك وحلف إن شفاه الله يضربها مائة جلدة، وقال وهب وغيره كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل الناس وتجيئه بقوته فلما طال عليه البلاء وشتمها الناس فلم يستعملها أحد ثم التمست يوماً من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئاً فجزت من رأسها قرناً فباعته برغيف فأتته به، فقال لها أين قرنك فأخبرته فحينئذ قال مسني الضر، وقال قوم إنما قال ذلك حين قصده الدود إلى قلبه ولسانه فخشي أن يبقى عن الذكر والفكر، وقال حبيب بن ثابت لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء: أحدها قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاء إليه ولم

(١) سورة ص، الآية: ٤٤.

يبق له عيناه ورأيا أمراً فقالا لو كان لك عند الله منزلةً ما أصابك هذا، والثاني أن امرأته طلبت طعاماً فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت إليه طعاماً، والثالث قول إبليس أن أداويه على أن يقول أنت شفيتني، وقيل: إن إبليس وسوس أن امرأتك زنت فقطعت زؤابتها فحينئذ عيل صبره فدعى وحلف ليضربنها مائة جلدة، وقيل معناه مسني الضرب من شماتة الأعداء حتى روي أنه قيل له بعدما عوفي ما كان أشد عليك في بلائك قال شماتة الأعداء، وقيل قال ذلك حين وقع دودة من فخذه فردها إلى موضعها وقال كلي قد جعلني الله طعامك، فعضنته عضةً زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان. فإن قيل: إن الله سماه صابراً وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ و﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[1]؟ قيل: ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ علا أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق وأما الشكوى إلى الله فلا يكون جزعاً ولا ترك صبركما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله لا يكون ذلك جزعاً، كما روي أن جبرائيل دخل على النبي ﷺ في مرضه فقال كيف تجدك قال أجدني مغموماً، أجدني مكروباً، قلت كذا في حديث أبي هريرة عند ابن الجوزي بلفظ قال: «جبرائيل إن الله عز وجل يقرأك السلام ويقول كيف تجدك» الحديث، وقال رسول الله ﷺ لعائشة حين قالت وارأساه قال: «أنا وارأساه» قلت: كذا روى ابن إسحاق وأحمد عنها أنه ﷺ رجع من البقيع «فدخل علي وهو يصدع وأنا أشتكي رأسي فقلت: وارأساه فقال: «بل أنا والله وارأساه»[3] الحديث ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ اختلفوا في ذلك؟ فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والحسن وأكثر المفسرين رد الله عليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياهم الله له وأعطاه مثلهم وهو ظاهر القرآن، وقال الحسن أتى المثل من نسل ماله الذي رد إليه وأهله يدل عليه ما روى الضحاك وعن ابن عباس أن الله تعالى رد إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً، قال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين وقال ابن يسار وكان له سبعة بنين وسبع بنات وروى عن أنس رضي الله عنه يرفعه أنه كان أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى

(١) سورة ص، الآية: ٤١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.
(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز، باب ما جاء في غسل الرجل امرأته وغسل المرأة زوجها (١٤٦٥)، وإسناده رجاله ثقات. وانظر مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة (١٤٢٥٤).

على أندر الشعير الورق حتى فاض وروي أن الله تعالى بعث إليه ملكاً وقال إن ربك يقرأك السلام بصبرك فأخرج إلى أندرك، فخرج إليه فأرسل عليه جراداً من ذهب فطارت واحدة فأتبعها وردها إلى أندره، فقال له الملك أما يكفيك ما في أندرك؟ فقال: هذه بركة من بركات ربي ولا أشبع من بركته. وقال قوم إني الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه في الدنيا، وقال عكرمة قيل لأيوب إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال يكونون لي في الآخرة وأوتي مثلهم في الدنيا، فعلى هذا يكون معنى الآية وأتيناه أهله في الآخرة ومثلهم في الدنيا وأراد بالأهل الأولاد ﴿رَحْمَةً﴾ إما مفعول به بفعل محذوف أي وهبنا رحمة أي نعمة ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ أو مفعول مطلق لآتينا من قبيل ضربته سوطاً وآتيناه إيتاءً برحمة كائنة من عندنا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي عظةً عطف على رحمة ﴿لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي عظمة وتذكرة لغيره من العابدين ليتصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب، وجاز أن يكون رحمة وذكرى مفعولاً له يعني آتيناه أهله ومثلهم معهم لرحمتنا وذكرنا للعابدين فإنا نرحمهم ونذكرهم بالإحسان ولا ننساهم.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ هو أخنوخ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ إعراب هذه الأسماء على قياس نوحاً، اختلفوا في ذي الكفل؟ قال عطاء إن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله إليه إني أريد قبض روحك فأعرض ملكك على بني إسرائيل فمن يكفل لك أنه يصلي بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفتر ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه، ففعل ذلك فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى به فشكر الله ونبأه فسمي ذا الكفل، وقال مجاهد لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلاً يعمل على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس فقال من يتقبل لي بثلاث أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، فقام رجل تزدريه العين فقال: أنا فرده ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك فقال: أنا فاستخلفه، فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النومة، فدق الباب فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال: إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا فجعل يطول حتى ظهر الرواج وذهبت القائلة فقال إذا رحت فإني آخذ حقك، فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه، فلما كان الغد يقضي بين الناس ينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ المظلوم ففتح له فقال: ألم

أقل لك إذا قعدت فأتني؟ قال: إنهم أحب قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك فإذا قمت جحدوني، قال فانطلق فإذا رحت فأتني ففاتته القائلة فراح فجعل ينظر ولا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لا تدعوا أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنه قد شقّ عليَّ النوم، فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوةً في البيت فتسوّر منها فإذا هو في البيت يدق الباب من داخل، فاستيقظ فقال: يا فلان ألم آمرك؟ وقال أما من قبلي فلم يأت فانظر من أين أتى فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فقال أتنام والخصوم ببابك؟ فعرفه فقال: يا عدو الله قال: نعم أعييتني وفعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله فسميّ ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به، وقيل إن إبليس جاءه وقال: إن لي غريماً يمطلني فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه فانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب وروي أنه اعتذر إليه وقال إن صاحبي هرب مني، وقيل: إن ذا الكفل رجل كفل أن يصلي كل ليلة مائة ركعة إلى أن يقبضه الله فوفى به. واختلفوا في أنه هل كان نبياً؟ قال بعضهم كان نبياً كما يدل عليه نسق كتاب الله فقيل هو زكريا وقال أبو موسى لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منهم كان ﴿مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على المصائب ومشقة الطاعات كابحين عنه أنفسهم عن الشهوات والمعاصي ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ يعني النبوة ودرجات القرب والجنة عطف على جملة ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أو حال من الضمير في الصابرين بتقدير قد ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ معصومين عن كدر الفساد بالكلية.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي صاحب الحوت وهو يونس بن متى عليه السلام ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ وإعرابه على حسب ما ذكرنا في نوحاً إذ نادى اختلفوا في معناه؟ فقال الضحاك مغاضباً لقومه وهورواية العوفي وغيره عن ابن عباس قال: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فعزاهم ثم ملك فسبى منهم تسعة أسباط نصفاً وبقي سبطان ونصف فأوحى الله إلى شعياء النبي أن سِرْ إلى حزقيا الملك وقل له حتى يوجه نبياً قوياً فإني ألقي في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك فمن ترى وكان في مملكته خمسة من الأنبياء؟ فقال يونس إنه قوي أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج، فقال له يونس هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، فقال هل سماني لك؟ قال: لا، قال: فها هنا غيري أنبياء أقوياء، فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضباً للنبي وللملك ولقومه فأتى بحر الروم فركبها، وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضباً لربه إذا كشف عن قومه العذاب بعدما وعدهم وكره أن يكون بين قوم جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا

منهم ولم يعلم السبب الذي به رفع العذاب عنهم، وكان غضب من ظهور خلف وعده وأن يسمى كذاباً لا كراهية لحكم الله عز وجل، وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد فغضب، والمغاضبة ها هنا من المفاعلة التي تكون من واحدة كالمسافرة والمعاقبة فمعنى قوله: ﴿مُغَٰضِبًا﴾ أي غضبان، وقال الحسن إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمصير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخوص إليهم فقيل له إن الأمر أسرع من ذلك حتى سأل ربه أن ينظره إلى أن يأخذ نعلاً يلبسها فلم ينظر وكان في خلقه ضيق فذهب مغاضباً، عن ابن عباس قال أتى جبرائيل عليه السلام يونس عليه السلام فقال انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم، قال: التمس دابةً قال الأمر أعجل من ذلك، فغضب فانطلق إلى السفينة، وقال وهب إن يونس بن متى كان عبداً صالحاً وكان في خلقه ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسح تحتها تفسير الربع تحت الحمل الثقيل يقذفها بين يديه وخرج هارباً منها، فلذلك أخرجه الله من أولي العزم فقال لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١] وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾[٢].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ قرأ يعقوب بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول والباقون بفتح الياء وكسر الدال على البناء للفاعل ومعنى الآية ظن يونس أن لن نضيق عليه الحبس نظيره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾[٣] أي يضيق كذا قال عطاء وكثير من العلماء، أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر بمعنى القضاء كذا قال مجاهد والضحاك والكلبي وهو رواية العوفي عن ابن عباس يقال قدر الله تقديراً وقدر قدراً بمعنى واحد قال الله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾[٤] قرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بالتشديد ومعناهما واحد، ويؤيد هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري بالتشديد وقيل معناه ظن أن لن نعمل فيه قدرتنا، وقيل: هذا تمثيل الحالة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمة قومه من غير انتظار لأمرنا، وقال ابن زيد هو استفهام للإنكار والتوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه وقيل كان ذلك خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٦٠.

فسمي ظناً للمبالغة، قال الحسن بلغني أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضباً لربه فاستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه، وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان فقذفه في بطن الحوت ومكث فيه أربعين من بين يوم وليلة، وقال عطاء سبعة أيام وقيل ثلاثة أيام، وقيل إن الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة، وقيل: بلغ به تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه في بطن الحوت وراجع نفسه.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، هذه الجملة معطوفة على جمل محذوفة معطوفة بعضها على بعض تقديره إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فبلغ البحر فركب في السفينة فاحتبست السفينة ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١﴾[1] فألقى نفسه في البحر فالتقمه الحوت ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ﴿أَن﴾ أي بأن ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عل نفسي بالمبادرة إلى المهاجرة بلا إذن من الله تعالى، قال البغوي روى عن أبي هريرة مرفوعاً «أنه أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس تسبيحاً فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه أن هذا تسبيح دواب البحر فسبح يونس وهو في بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة» وفي رواية: «صوت معروف في مكان مجهول قال: ذاك عبدنا يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد منه إليك في كل يوم عمل صالح قال: نعم فتشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل» كما قال الله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥﴾[2].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي أجبنا دعوته ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي غم الخطيئة وغم التقام الحوت أو غم الظلمات بتلك الكلمات ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الغموم إذا يدعوننا بالإخلاص ويستغيثوا بنا، قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب له»[3] رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه من حديث سعد بن أبي وقاص،

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٥.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٠٥).

وفي لفظ الحاكم «ألا أخبركم بشيء إذا نزل بأحد منكم كرب أو بلاء فدعا به إلا فرج الله عنه؟ قيل بلى يا رسول الله، قال: دعوة ذي النون لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» ورواه ابن جرير بلفظ «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وقد ذكرنا في مفتتح سورة آل عمران أن اسم الله الأعظم هو التهليل يعني النفي والإثبات، وأن لا إله إلا هو ولا إله إلا أنت ارفع درجة من لا إله إلا الله لأن الضمائر وضعت للذات البحت، قلت: ثم لا إله إلا أنت أرفع درجة من لا إله إلا هو لدلالة ضمير الخطاب على كمال الحضور والله أعلم. قرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم وتليين الياء على أن أصله ننجي مضارع باب التفعيل حذفت منه النون الثانية لاجتماع المثلين كما تحدث الماء في تتظاهرون فيقال تظاهرون وهي وإن كانت فاءً فحذفهاأولى من حذف علامة المضارع التي لمعنى، ولا يقدح اختلاف حركتي النونين فإن الداعي إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الإدغام، وامتنع الحذف في تتجافى لخوف اللبس وقيل: أصله نُجِيَّ على أنه ماض مبني للمفعول أسند إلى المصدر، وقال البيضاوي وهذا الوجه مردود بأن الفعل لا يسند إلى المصدر إذا كان المفعول مذكوراً والماضي لا يسكن آخره، وأجيب بأنه إسناد الفعل إلى المصدر مع وجود المفعول شاذ والشاذ لا يمتنع وقوعه في القرآن لفصاحته، وقد تسكن الياء المفتوحة كماسكنوا في بقي فقالوا بقي ونحوها، وقرأ الجمهور بنونين من الأفعال وفي الخط الرسم بنون واحدة لأن النون الثانية ساكنة والساكن غير ظاهر على اللسان فحذفت في الخط كما حذفوا النون في إلاَّ وأصله إن لا لخفائها قال البغوي اختلفوا في أن رسالة يونس متى كانت؟ روى سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن الله تعالى أرسله بعد أن أخرجه من بطن الحوت بدليل ما ورد في سورة الصافات ﴿۞ فَنَبَذْنَهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾[1] ثم ذكر بعده ﴿وَأَرْسَلْنَهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[2] وقال الآخرون: إنه أرسل قبل ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾[3] قلت والاستدلال بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَهُ﴾ بعد قوله: ﴿فَنَبَذْنَهُ﴾ ضعيف الواو لمطلق الجمع لا دلالة لها على الترتيب.

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٧.
(٣) سورة الصافات، الآية: ١٣٩ ـ ١٤٠.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ﴾ وإعرابه كإعراب نوحاً إذ نادى يعني حين دعا ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وحيداً بلا ولد يخلفني بيان للنداء ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ حال من فاعل لا تذرني ثناء على الله تعالى بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه خير من يخلف ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ولداً ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي جعلناها ولوداً بعد ما كانت عقيمة ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء المذكورين ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ مفعول له أو حال أي لأجل الرغبة أو ذوي رغبة أو راغبين في لقائنا والتقرب إلينا أو في الثواب راجين الإجابة أو في الطاعة قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[(١)] رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي في حديث عن أنس ﴿وَرَهَبًا﴾ أي لأجل الخوف أو ذوي خوف أو خائفين الهجران أو المعصية أو العقاب ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي داعين يوجل، قال مجاهد الخشوع هو الخوف اللازم في القلب وذلك لكمال المعرفة بعظمة الله وقال قتادة ذللاً لأمر الله وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ﴾ مدح لهم وتعليل لما سبق أي آتينا لوطاً ونوحاً وداود وسليمان وغيرهم حكماً يعني نبوةً وعلماً لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات، أو أذكر هؤلاء الكرام لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات حتى يقتدي بهم الناس فإنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بهذه الخصال.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام يعني مريم بنت عمران منصوب بتقدير اذكر ﴿فَنَفَخْنَا﴾ يعني نفخ جبرائيل بأمرنا ﴿فِيهَا﴾ أي في مريم نفخ في جيب درعها فوصل النفخة في جوفها فأحدث الله تعالى بذلك النفخة المسيح عيسى بن مريم ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي من الروح الذي هو بأمرنا وحدنا والإضافة للتشريف أو المراد بالروح عيسى ومن زائدة، أو من جهة روحنا يعني جبرائيل عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي جعلنا قصتهما أو حالهما ولذلك وحد قوله: ﴿ءَايَةً﴾ أي دلالة على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي ملة التوحيد والإيمان بجميع الأنبياء قائلاً: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾[١] والسمع والطاعة لله ولرسله في كل وقت على حسب أمره ونهيه فهو إشارة إلى جميع الملل الحقة أو المراد ملة الإسلام ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم التي يجب عليكم أيها الناس كافة أن تكونوا عليها ﴿أُمَّةً﴾ منصوب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة ﴿وَٰحِدَةً﴾ غير مختلفة فيما بعد الأنبياء ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٢] والأمة مشتق من أم يأم بمعنى قصد يقصد فاطلق على الجماعة التي هي مقصد واحد وعلى الدين والسنة كذا في القاموس لكون الدين والسنة مقصودين ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ لا رب لكم غيري ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ دون غيري ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، والتفعل بمعنى التفعيل يعني قطعوا وفرقوا ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي أمر دينهم فصاروا فرقاً يلعن بعضهم بعضاً وما كان ينبغي لهم ذلك ﴿كُلٌّ﴾ أي كل فرقة منهم ﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ فنجازيهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ شيئاً من الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وإن كان مثقال ذرة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله وما جاؤوا به، قيد بهذا لأن الإيمان شرط للإثابة على الأعمال ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا بطلان والمنع عن الثواب بعمله أستعير الكفر للمنع عن الثواب كما أستعير الشكر لإعطائه ونفي الجنس للمبالغة ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي لسعيه وعمله ﴿كَٰتِبُونَ﴾ مثبتون في صحف الأعمال التي تكتبها الملائكة الكرام.

﴿وَحَرَٰمٌ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء بلا ألف بينهما والباقون بفتح الحاء والراء وألف بينهما وهما لغتان مثل رحلٍ وحلال والمعنى ممتنع غير متصور الوجود على أهل ﴿قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي حكمنا بإهلاكها أو وجدناها هالكاً يعني كافراً، خبر مبتدأ محذوف تقديره حرام وممتنع عليهم ذاك أي المذكور في الآية المتقدمة

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

من عدم تضيع الحسنات يعني نحبط أعمالهم، أو حرام أي ممتنع توبتهم أو حياتهم ثانياً في الدنيا أو عدم بعثهم للجزاء وعلى هذا قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ﴾ إلينا ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ معناه لأنهم لا يرجعون بالتوبة والإخلاص إلينا أو لأنهم لا يرجعون إلى الدنيا حتى يتداركوا ما فات عنهم من الإيمان، وجاز أن يكون أن مع جملتها مبتدأ وحرام خبره يعني عدم رجوعهم إلى موقف الحساب والجزاء ممتنع وقال ابن عباس معنى الآية وحرام على أهل قرية أنهم راجعون إلى الدنيا فعلى هذا مبتدأ وخبر ولا زائدة، وعلى التأويلات كلها هذه الآية وعيد الكفار كما أن السابقة وعد للمؤمنين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالتشديد على التكثير والباقون بالتخفيف ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ إسمان لقبيلتين والمضاف محذوف يعني فتح سدهما عنهما ﴿وَهُم﴾ يعني يأجوج ومأجوج ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي نشزٍ وتل ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يسرعون من نسلان الذئب وقد ذكرنا حديث النواس بن سمعان في سورة الكهف في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾[1] وفيه ويبعث الله يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قلت: خصّ نسلانهم من الأحداب لأن مقرهم ما وراء الجبال فيأتون من فوق الجبال، وقيل: ضميرهم في وهم في كل حدب راجع إلى الناس أجمعين، وقرأ مجاهد وهم من كل جدث يفعلون بالجيم والثاء المثلثة من فوق يعني القبر والضمير على هذا راجع إلى الناس أجمعين نظيره قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[2] وعن حذيفة ابن أسد الغفاري قال: اطلع النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[3] وفي رواية «تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر» وفي رواية في العاشرة وريح يلقى الناس في البحر» رواه مسلم، وحتى ابتدائية تدل على سببية ما قبلها لما بعدها كما في قولهم مرض فلان حتى لا يرجونه، متعلق بحرام أو بمحذوف دل عليه الكلام أو ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي يستمر امتناع

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٨.

(٢) سورة يس، الآية: ٥١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١).

عدم تضيع حسناتهم، يعني يستمر حبط أعمالهم أو امتناع قبول توبتهم أو امتناع رجوعهم إلى الدنيا أو امتناع عدم بعثهم للجزاء حتى تكون أبصارهم شاخصة أو يهلكون بالكفر حتى يكون كذلك، أو لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الدنيا حتى يكون كذلك مترتباً عليه وما بعد حتى جملة شرطية إذا فتحت يأجوج ومأجوج شرط وهم من كل حدب ينسلون حال من يأجوج ومأجوج، وإن كان الضمير راجعاً إلى الناس فهو عطف على الشرط.

وقوله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني يوم القيامة عطف على فتحت، وقال الفراء وجماعة الواو زائدة والجملة جزاء للشرط كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾[1] والمعنى لما أسلما ناديناه، واستدلوا عليه بما روى عن حذيفة قال: لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خورج يأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة، ورّد هذا القول بأن الواو ولا تكون زائدة وجزاء الشرط ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أجفانهم إذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾[2] فإذا جاءت معها تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار، وشاخصة مبتدأ من قبيل الصفة المسندة إلى فاعلها والأبصار فاعل لها أو مبتدأ وشاخصة خبره يقال شخص بصره يعني فتح عينه وجعل لا يطرف من شدة الهول والتحير، وقيل هي مبتدأ محذوف الخبر تقديره فإذا هي أي الساعة بارزة يعني من قربها كأنها حاضرة، وقوله: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جملة مستأنفة ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ مقدر بيقولون وهي واقع موقع الحال من الموصول وجاز أن تكون فإذا هي شاخصة معطوفة على الشرط والجزاء يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ اليوم لم نعلم أنه حق هذه الجملة في المقام التعليل لقوله: يا ويلنا ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر أو واضعين العبادة في غير موضعها.

﴿إِنَّكُمۡ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني ما لا يعقل من الأصنام وعجل السامري ونحو ذلك تفضيحاً للكفار في عبادتها وما يعقل ويرضى بكونه معبوداً من الشياطين مدعي الألوهية بالباطل ومن الإنس كفرعون ونمرود وأشباهم، وأما ما يعقل ولا يرضى به فغير مراد بدليل العقل والنقل فإنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾[3] هذا على تقدير

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

كون ما عامة لذوي العقول وغيرهم كما هو المختار عند أكثر المحققين ويؤيده ما روى أن ابن الزبعري قال لرسول الله ﷺ هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله؟ فقال ﷺ: بل لكل من عبد من دون الله، ذكره البيضاوي وأخرجه أبو داود وابن المنذر وابن مردويه والطبراني من وجه آخر عن ابن عباس وأما على تقدير كونها مختصة بما لا يعقل فظاهر أن من لا يرضى من العقلاء بكونه معبوداً غير داخل فيه ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي ما يرمي به إليها ويهيج به من حصبه يحصبه إذا رماه بالحصباء كذا قال الضحاك، وقال مجاهد وقتادة الحصب في لغة أهل اليمن الحطب، وقال عكرمة وهو الحطب بلغة الحبشة، وقال البغوي قرأ علي بن أبي طالب ﷺ حطب جهنم يعني وقودها ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المشركون مع ما عبدتموه ﴿لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ استئناف أول من ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أن ورودهم لأجلها، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخره التفات كان الكلام عن المشركين فيما سبق على الغيبة وفي هذه الآية على الخطاب ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ التي تعبدونها أيها الكفار ﴿ءَالِهَةً﴾ في الواقع ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ هذه جملة معترضة مقدرة بالقول يعني يقال لهم بعد دخولهم في النار تفضيحاً وتوبيخاً هذا الكلام ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل واحد من العابدين والمعبودين ﴿فِيهَا﴾ أي في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لإخلاص لهم عنها أبداًعطف على ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي أنين وتنفس شديد وهو من باب إضافة فعل البعض إلى الكل تغليباً والجملة الظرفية حال من الضمير المستتر في خالدون ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ عطف على الجملة الظرفية أو حال، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره ثم قرأ ابن مسعود ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وذكر البغوي نحوه بلفظ جعلوا في توابيت نار ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى ثم تلك التوابيت في توابيت عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار يعذب غيره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ

﴿ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

أخرج الحاكم عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزيريعبدون من دون الله فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ المنزلة الحسنى منزلة القرب أو الخصلة حسنى وهي السعادة والتوفيق للطاعة أو البشرى بالجنة، قال الجنيد رحمه الله سبقت لهم منا العناية في الهداية فظهرت لهم الولاية في النهاية، أخرج ابن مردويه والضياء في المختار عن ابن عباس قال جاء عبد الله بن الزبعري إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إنك تزعم أن الله قد أنزل عليك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، قال نعم، قال: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إلى قوله: ﴿خَصِمُونَ﴾ نحوه، وذكر البغوي أن رسول الله ﷺ وصناديد قريش كانوا في الحطيم (وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً) فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآيات الثلاث ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعري إليهم فأخبره الوليد بن مغيرة بما قال لهم رسول الله ﷺ فقال له: أنت قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؟ قال: نعم، قال: أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة، فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشياطين» فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وأنزل الله في ابن الزبعري ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ وأخرج الواحدي عن ابن عباس نحو ما ذكر البغوي وذكر في بعض كتب أصول الفقه أن رسول الله ﷺ قال لابن الزبعري «ما أجهلك بلغة قومك ألم تعلم أن ما لغير ذوي العقول» ولم يذكر هذا الجواب في كتب الحديث، وقال بعض أهل العلم: إن

كلمة أن في هذه الآية بمعنى إلا أي إلاَّ الذين، وهذا القول غير مرضي بوجهين أحدهما أن كلمة إن لم يستعمل بمعنى إلا وثانيهما أنه لابد للاستثناء من الاتصال لا عند من قال بجوازه منفصلاً وما ذكرنا في سبب نزول الآية تدل على الانفصال، فعند أكثر العلماء هذه الآية مخصص لما سبق فإنه يجوز عندهم التخصيص بكلام مستقل متراخ، وعند أبي حنيفة رحمه الله المتراخي يكون ناسخاً لا مخصصاً والنسخ غير متصور ها هنا إذ الأخبار لا يحتمل النسخ فهو كلام أجنبي دليل على إرادة التحرزفيما سبق والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا﴾ يعني عن جهنم ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ أخرج أبو داود عن علي رضي الله عنه وكذا أخرج ابن أبي حاتم والثعلبي وابن مردويه في تفاسيرهم أنه خطب وقرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة ابن الجراح ثم أقيمت الصلاة فقام يجر ردائه ويقول: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ وهو بدل من مبعدون أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها والحسيس صوت يحس به ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ دائمون وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام وفيه دليل على أن الصوفية العلية الذين لا ترغب أنفسهم إلى ما سوى الله تعالى دائمون في الوصل بلا كيف وفي الرؤية فارغون عن غيره تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ هذه الجملة مع ما عطف عليه خبر بعد خبر لأن في إن الذين سبقت، قال البغوي قال ابن عباس الفزع الأكبر النفخة الأخيرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1] قلت: المراد بالنفخة الأخيرة النفخة التي هي الأخيرة من أمور الدنيا وإلا فنخفة الفزع إنما هي النفخة الأولى وقيل: وهي النفخة الصعق أيضاً والأمران متلازمان فإنهم يفزعون بالنفخة، الأولى فزعاً وماتوا منه، وهذا ما صححه القرطبي إذ لم يذكر في أكثر الأحاديث إلا نفختان نفخة الصعق ونفخة البعث، واختار ابن عربي أن النفخات ثلاث الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث وهو المختار عندي. أخرج ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وأبو موسى المديني في المطولات وعلي بن معيد في كتاب الطاعة والعصيان وعبد بن حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة حديثاً طويلاً مرفوعاً وفيه «فينفخ فيه أي في الصور ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية النخفة المصعق والثالثة النفخة القيام إلى رب العالمين» وسنذكر ما ورد في الحديث من تفصيل الفزع في سورة

(١) في القرآن: (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات) سورة النمل، الآية: ٨٧.

النمل في تفسير الآية المذكورة، وقال الحسن الفزع الأكبر حين يؤمر بالعبد إلى النار، وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود ولا موت، وقال سعيد بن جبير والضحاك هي أن تطبق جهنم وذلك بعد أن يخرج الله تعالى منها من يريد أن يخرجه ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تستقبلهم الملائكة عند خروجهم من القبور على أبواب الجنة مهنين قائلين ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ أي يوم ثوابكم ﴿ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الكتب السماوية على ألسنة الرسل فالجملة حال من الملائكة بتقدير القول ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ قرأ أبو جعفر تطوي بالتاء المثناة الفوقانية على البناء للمفعول ورفع السماء للإسناد إليه والجمهور بالنون على صيغة المتكلم المعروف ونصب السماء مقدر باذكر أو ظرف لقوله تعالى: لا يحزنهم أو تتلقاهم أو حال مقدرة ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ الطي ضد النشر والسجل الصحيفة مشتق من المساجلة وهي المكاتبة ﴿لِلْكُتُبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص هكذا على صيغة الجمع، والباقون للكتاب على الإفراد والمعنى طياً كطي الطومار لأجل الكتابة أو لما يكتب أو كتب فيه، ويدل عليه القراءة على صيغة الجمع أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه كذا، قال ابن عباس ومجاهد والأكثرون، وقال السدي أن السجل ملك يكتب أعمال العباد واللام زائدة يعني كطي السجل الكتب كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[(١)] أي أردفكم، وقيل السجل كاتب كان لرسول الله ﷺ قال في القاموس كتب السجل لكتاب العهد وغيره جمعه سجلات وهو أيضاً الكاتب والرجل بالحبشة واسم كاتب للنبي ﷺ واسم ملك والسجل بالكسر الكتاب، وقيل: السجل حجر كان يكتب فيه ثم سمى كلما يكتب فيه سجلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ ما كافة أو مصدرية وكلمة أول مفعول لبدأنا أي نعيد ما خلقناه مبدأ إعادة مثل إبدائنا إياه في كونها إيجاداً عن العدم أو جمعاً من الأجزاء المتبددة، وجاز أن يكون أول مفعولاً بفعل مضمون يفسره نعيده، والمعنى على الوجهين واحد والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على الإبداء لشمول الإمكان الذاتي المصحح للمقدورية وتناول القدرة الكاملة القديمة لهما على السواء، وقيل: ما موصولة وبدأنا صلة والعائد محذوف وإن كان متعلق بمحذوف يفسره نعيده وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من العائد المحذوف يعني نعيد مثل الذي بدأناه في وقت أول الخلق أو كائناً أول الخلق، لكن يلزم على هذا التأويل أن لا يكون المعاد عين الأول بل مثله والحق أنه عينه، وإنما التمثيل في كلا الخلقين أو في الأحوال والأوصاف. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي عن ابن عباس، قال: قام رسول الله ﷺ وقال: «يا أيها

(١) سورة النمل، الآية: ٧٢.

الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة مشاة عراة غرلاً ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ وأول من يكس من الخلائق إبراهيم عليه السلام»[(١)] ﴿وَعْدًا﴾ مقدر بفعله أي وعدنا وعداً تأكيد لنعيده أو منصوب بنعيده لأنه وعد بالإعادة علينا صفة لوعد أي وعداً كائناً علينا إنجازه كاللازم ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ الإعادة والبعث تأكيد بعد تأكيد (ولقد كتبنا) جواب قسم محذوف ﴿فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع الكتب المنزلة والذكر أم الكتاب الذي عنده يعني من بعد ما كتبنا ذلك في اللوح المحفوظ، وقال الشعبي الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر التوراة وقال ابن عباس والضحاك الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة بعد التوراة، وقيل: الزبور كتاب داود عليه السلام والذكر القرآن وبعد على هذين التأويلين بمعنى قبل ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ فهذه الآية نظيرة لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)] والفساق إنما يدخلون إما بعد العذاب والتطهير وإما بعد المغفرة فحينئذ يلتحقون بالصالحين، وقال مجاهد يعني أمة محمد ﷺ دليلاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[(٣)] وقيل: أراد بالأرض الأرض المقدسة وبعبادي الصالحين الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، وقال ابن عباس أراد بالأرض أرض الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله بإظهار الدين وإعزاز المسلمين، قلت: فالمراد بالأرض جميع الأرض. روى أحمد عن المقداد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل إما يعزهم فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها» قال مقداد قلت: فيكون الدين كله لله ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ أي فيما ذكرنا في القرآن من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي لكفاية لأجل دخول الجنة فإنها زاد الجنة كبلاغ المسافر، وسبب بلوغ إلى المطلوب يعني من اتعظ بها بلغ ما يرجوا من الثوب ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ صفة لبلاغاً أو متعلق به أي للمؤمنين الذين يعبدون الله عز وجل عبادة مقبولة، وقال ابن عباس عالمين، وقال كعب الأحبار: أمة محمد ﷺ أهل الصلوات الخمس

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٧).

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

وشهر رمضان ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ منصوب على العلية أو على الحال من كاف الخطاب ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني لرحمتنا على الإنس والجن أرسلناك ليهتدوا بك أو أرسلناك حال كونك رحمة يعني سبباً للرحمة، روى الحاكم عن أبي هريرة وابن سعد والحكيم عن أبي صالح مرسلاً أنه قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» وروى البخاري في التاريخ عن أبي هريرة بلفظ «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً» وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا﴾ وتأكيد له في المعنى فإن القرآن لما كان بلاغاً وزاداً إلى الجنة كان إرسال الرسول الذي أنزل عليه القرآن رحمة، والمعنى أن ما بعثت به سبب لإسعادهم وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم فمن لم يستعد به وأبى من أن يصير مرحوماً فهو ظالم على نفسه وذا لا ينافي كونه رحمة، وقال ابن عباس هو رحمة للكافر في الدنيا بتأخير العذاب عليهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ جملة مستأنفة في جواب ما أقول لهم حين بعثت رحمة وما في إنما يوحى كافة والحصر المستفاد منه مبني على المبالغة، والحاصل أن المقصود الأصلي من الوحي التوحيد فكأنه هو الموحى إليّ لا غير أو المعنى إنما يوحى إلي في أمر عبادة الله إلا التوحيد، وجاز أن يكون ما موصولة في محل النصب على الاسمية وإنما إلهكم في محل الرفع على الخبرية والتوحيد يصح إثباته بالسمع لأن الرسالة إنما تتوقف على المرسل فلا دَور ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ يعني أسلموا وأخلصوا العبادة لله على مقتضى الوحي المصدق بالحجة واستعدوا برحمة الله ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإسلام بعد تمام الحجة علهيم أبوا عن رحمة الله ﴿فَقُلۡ﴾ يا محمد ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أي أعلمتكم ما أرسلت به إليكم أو أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ أي حال كونكم مستوين في الإعلام يعني ما أخفيت من أحد منكم، فيه دليل على بطلان مذهب الباطنية والروافض المعتقدين للتقية القائلين بأن الأئمة كانوا يعلمون أصحابهم أحكام الشرع على وجه الأحق ويقولون أن للجدران أذان، أو المعنى مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم أو بالحرب والمعاداة يعني لإخداع فتأهبوا للحرب أو أذنتكم إيذاناً على سواء يعني على الإعلان دون الكتمان، وقيل معناه أعلمتكم إني على سواء أي على عدل واستقامة رأي بالبرهان ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين، أو الحشر لكنه كائن لا محالة إنه تعالى ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ من الحقد للمسلمين فيجازيكم عليه وهذه الجملة معترضة للتوبيخ على النفاق والتحريض على الإخلاص ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي﴾

مفعول أدري محذوف يعني ما أدري أي سبب لتأخير العذاب عنكم مع ما علم الله تعالى جهركم وسركم بالسوء، ولما كان في هذه الجملة نفي علمه ﷺ عن سبب تأخير العذاب عن الكفار وذلك يوهم نفي الظن قد وقع ذلك الوهم بقوله ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ الضمير راجع إلى المحذوف المفهوم مما سبق يعني لعل ذلك التأخير ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي استدراج لكم وزيادة في افتتانكم أو امتحانكم لينظر هل ترجعون مما أنتم عليه إلى الاتعاظ أم لا ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ التنوين للتحقير وكذا تنوين حين أي تمتيع قليل من الله تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي زمان يسير سبق في القضاء إبقائكم إليه قال جلال الدين المحلي هذا مقابل للفتنة المترجي بلعل وليس هذا محل للترجي قال قرأ حفص قال على صيغة الماضي حكاية عن حال النبي ﷺ على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وقرأ الجمهور بصيغة الأمر ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يعني أقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعذيب الكفار وإنجاء المسلمين ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي كثير الرحمة على خلقه مبتدأ وخبره ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ صفة للرحمن أو خبر بعد خبر أي المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بالكذب والباطل بأن الشوكة تكون لهم، وأن راية الإسلام ترفع أياماً ثم تخفض وأن الموعد به لو كان حقاً لنزل بهم، فأجاب اللهسبحانه دعاء الله تعالى باتخاذ الولد وتصفون محمد ﷺ بالسحر والقرآن بكونه شعراً والله أعلم الحمد لله رب العالمين ﷺ على خير خلقه محمد ﷺ تم تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة الحج يوم الإثنين الخامس والعشرين من شهر الجمادي الثاني من السنة الثالثة من المائة الثالثة بعد الألف من هجرة النبي ﷺ.

سورة الحج

ثمان وسبعون آية بعضها مدينة وأكثرها مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي عقابه بأن تطيعوه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ أي تحريكها الأشياء على الإسناد المجازي، أو تحركها فيها فأضيف إليها إضافة معنوية بتقدير في أو إضافة المصدر إلى الظرف على إجرائه مجرى المفعول به ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي هائل أن مع صلتها في مقام التعليل، علل أمرهم بالتقوى بفظاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يؤمنهم منهاسوى التدرع بلباس التقوى. اختلفوا في هذه الزلزلة؟ فقال علقمة والشعبي هذا من أشراط الساعة تكون قبل قيام الساعة، قال جلال الدين المحلي قبل طلوع الشمس من مغربها، واختار هذا القول ابن العربي والقرطبي بقرينة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي الساعة أو الزلزلة ظرف لقوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ بسببها ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ أي امرأة ألقمت الرضيع ثديها، يقال امرأة مرضع بلا هاء إذا أريد بها الصفة مثل حائض وحامل يعني من شأنها أن ترضع وإذا أريد به الفعل حالاً يقال مرضعة ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ ما موصولة أو مصدرية يعني تدهش من هول تلك الزلزلة فتذهل عمن ترضعها وتنزع ثديها من فيه أو تذهل عن إرضاعها، هذه الجملة خبر ثان لإن والرابط ضمير ترونها، أو تعليل بعظم شأنها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي تسقط جنينها من هول تلك الزلزلة عطف على تذهل، قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها يعني فطام وتضع

الحامل ما في بطنها من غير تمام ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ قال الحسن ترى الناس سكارى من الخوف ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ من الشراب قرأ حمزة والكسائي سكرى وما هم بسكرى، قال البغوي هما لغتان لجمع السكران، قال البيضاوي وقرأ سكرى كعطشى إجراء للسكر مجرى العلل أفرد الضمير في ترى الناس بعد جمعه في ترونها لأن الساعة يراها الجميع وأثر السكر إنما يراه كل واحد على غيره ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فأرهقهم هو له بحيث طير عقولهم وأذهب تميزهم، استدراك لدفع توهم خفة الأمر الناشيء عن نفي السكر قالوا هذه الآية تدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل ولا رضاع، ويرد عليه أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾ إما خطاب للناس عام وإما للموجودين عند نزول الآية خاصة، وعلى كلا التقديرين كون زلزلة الساعة التي هي من شرائطها شديدة هائلة لا يصلح تعليلاً للأمر بالتقوى في حق المخاطبين لأن شدتها وهولها لا تلحق إلا بالموجدين عندها لا بجميع الناس ولا بالموجودين في زمن النبي ﷺ، وقال ابن عباس ﷺ زلزلة الساعة قيامها وذلك بعد نفخة البعث وقيام الناس من قبورهم واختاره الحليمي وغيره، قالوا: أخرج هذه الآية مخرج المجاز والتمثيل لشدة الهول والفزع لا على الحقيقة نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[١] ولا شيب فيه إنما هو مجاز لشدة الهول واستدلوا على ذلك بما أخرجه أحمد والترمذي وصححه عن عمران بن حصين قال كنا مع رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال أتدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار»[٢] الحديث، وقال البغوي روي عن عمران بن حصين وأبي سعيد الخدري وغيرهما «أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً فنادى رسول الله ﷺ فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدراً والناس من بين باك أو جالس حزين متفكر فقال رسول الله ﷺ أتدرون يوم ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله عز وجل لآدم قم فابعث بعث النار من ولدك، فيقول آدم من كل كم كم؟ فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد إلى الجنة» فكبر ذلك على المسلمين وبكوا وقالوا: فمن ينجوا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ أبشروا وسددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلا كثرتاه

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٧.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج (٣١٦٨).

يأجوج ومأجوج، ثم قال إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وإن أهل الجنة مائة وعشرين صفاً ثمانون منها أمتي وما المسلمون في الكفار إلا كالشامة في جنب البعير وكالرقمة في ذراع الدابة بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض وكالشعرة البيضاء في الثور الأسود، ثم قال: تدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغيرحساب، فقال عمر سبعون ألفاً، قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله أن يجعلني الله منهم فقال ﷺ أنت منهم، فقام رجل من الأنصار فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة» وأجاب أصحاب القول الأول أن هذا الحديث لايدل على أن الزلزلة تكون حين الأمر ببعث النار بل يكون ذلك اليوم والأمر متأخر عنها فكأنه ﷺ لما أخبر عن الزلزلة التي كانت متقدمة عن النفخة الأولى ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام وهو قوله لآدم ابعث بعث النار فيكون ذلك في أثناء ذلك اليوم، ولا يقتضي أن يكون ذلك متصلاً بالنفخة الأولى. قلت: وهذا الجواب ضعيف لأن حديث أبي سعيد الذي أخرجه الشيخان في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ ورد بلفظ «يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف، ثم قال: والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا، قال ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض وكشعرة بيضاء في جلد ثور أسود» فإن هذا الحديث في اقتران مشيب الصغير ووضع ذات حمل حملها بالأمر ببعث النار بل تقدم البعث على الزلزلة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في ذات الله وصفاته وأحكامه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضر بن الحارث كان كثير الجدل وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً كذا أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلة في عامة أحواله ﴿كُلَّ شَيْطَـٰنٍ﴾ اعترضه من الجن والإنس ﴿مَّرِيدٍ﴾ المرد المتجرد العري ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر والمريد والمارد بمعنى العاري من الخير المسقر في الشر، وفي القاموس مرد كنصر وكرم مرود أو مرادة فهو مارد ومريد ومتمرد أقدم أوعتا أو هو أن يبلغ الغاية التي تخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف ومرده قطعه

ومرق عرضه وعلى الشيء مرن واستمر ﴿كُتِبَ﴾ أي قضي ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الشيطان ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي تبعه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ أن المفتوحة مع جملتها خبر لمبتدأ محذوف والجملة بعد الفاء جزاء لمن إن كانت شرطية وجوابه إن كانت موصولة، والمعنى أن من تبع الشيطان فالأمر أن الشيطان يضل تابعه عن سواء السبيل فلم يجبل عليه ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ أي يريه طريق النار أو يوصله ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بالحمل إلى ما يوصله، وقيل ضمير أنه راجع إلى الشيطان ومن موصولة أو موصوفة مع صلتها أو صيغتها خبر لأن والضمير المنصوب في تولاه راجع إلى التابع، والفاء في فإنه يضله للعطف على أنه من تولاه، والمعنى قضي على الشيطان أنه نفس تولى تابعه أو الذي تولى تابعه أي أحبه أو استولى عليه فقضى أن الشيطان يضله كذا قال الزجاج، وجملة ومن الناس من يجادل في الله حال من فاعل اتقوا تقديره يا أيها الناس اتقوا ومنكم من يجادل ولم يتق ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة أو معترضة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ أي من إمكانه وكونه مقدوراً لنا ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾ يعني خلقنا جنسكم وهو شامل لمن يولد ومن يسقط لكونه مستعداً لأن يصير إنساناً، يعني فانظروا في بدء خلقكم فإنه يزيل ريبكم فإنا خلقناكم، من الأغذية التي تنبت من التراب التي يتولد منها المني ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي مني مشتق من النطف بمعنى الصب ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال ابن عباس أي تامة الخلق وغير تامة الخلق، وقال مجاهد مصورة وغير مصورة، وقيل: المخلقة الولد يأتي به المرأة لوقته غير مخلقة السقط، فالمراد بغير المخلقة على هذا لأقوال السقط، وقيل: المخلقة المسواة

التي لا نقص فيها ولا عيب وغير المخلقة ما فيه نقص وعيب كان الله عز وجل يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلق أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقتهم وصورهم وطولهم وقصرهم وكما لهم ونقصانهم، فعلى هذا ليس المراد بغير المخلقة السقط فحينئذ لا حاجة إلى ما قلنا أن السقط من جنس الإنسان من حيث الاستعداد لكن الصحيح هو الأول والمراد بغير المخلقة السقط، قال البغوي روى علقمة عن ابن مسعود قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه فقال: أي رب مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة قذفها الرحم دماً ولم يكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك أذكر أو أنثى أشقي أم سعيد؟ ما الأجل ما العمل ما الرزق؟ فيقال له اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ تتعلق بخلقناكم مقيداً بما ذكر يعني لنبين وتظهر لكم بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا حتى تستدلوا به على البعث بأن ما قبل التغير والفساد والتكون مرة في بدء الخلق يقبلها ثانياً عند الإعادة ومن قدر على تغييره وتصويره أولاً قدر على ذلك ثانياً وحذف المفعول إيماء إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذكر، وقيل: معناه لنبين لكم ما تأتونه وما تذرونه وما تحتاجون إليه في العبادة يعني خلقناكم لأجل التكليف ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ حال بتقدير ونحن نقر أو عطف على إنا خلقناكم يعني نثبت و نسكن في الأرحام فلا تمجه ولا تسقطه ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي مدة نشاء أن نقرفيه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي معلوم عند الله تعالى وهو وقت الخروج من الرحم مولود ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي أطفالاً حال من الضمير المنصوب في نخرجكم أجريت عليه بتأويل كل واحد، أو الدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟﴾ متعلق بمحذوف تقديره ثم نربيكم لتبلغوا ﴿أَشُدَّكُمْ﴾ شدة كالنّعم جمع نعمة يعني ليبلغوا كل شدة وكمال قدر لكم في القوة والعقل وغير ذلك قالوا وبلوغ الأشد ما بين ثلاثين إلى أربعين سنة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله جملة معترضة، أو حال أو معطوفة على ما سبق ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ الهرم والحزن ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ متعلق بيرد واللام للعاقبة يعني حتى يعود إلى الهيئة الأولى التي كانت في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر ما عرفه، قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصير بهذه الحالة، والآية استدلال ثان على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رماداً ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي زادت وانتفخت. قرأ أبو جعفر ربأت بالهمزة وكذلك في حم السجدة أي علت وارتفعت، قال المبرد أراد اهتز وربا نباتها فحذف المضاف، لأن الاهتزاز في النبات أظهر ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ من زائدة أي أنبتت كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ أي حسن، في القاموس البهيجة السرور بهيج ككرم فهو بهج وهو مبهاج وكخجل فرح فهو بهيج وبهج وكمنع أفرح وسر كأبهج والابتهاج السرور، وجملة ترى الأرض عطف على أنا خلقناكم أو رد جملة فعلية ليدل على حدوث هذه الصفة مرة بعد أخرى فهذه دليل ثالث كررها الله تعالى في كتابه لظهوره وكونه مشاهداً ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة ومن إحياء الأرض بعد موتها وهو مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي بسبب أن الله هو الثابت المتحقق في نفسه الواجب وجوده الذي به يتحقق الأشياء لولاه لاستحال خروج الممكن من مخدع العدم ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ منه النطفة والأرض الموات ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على كلها وإن كان عظماً رميماً ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ يعني ساعة انقراض الدنيا ﴿ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يحتمل الخلف. الجمل الثلاث الأول منها لبيان العلة الفاعلية لخلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة وإحياء الأرض بعد موتها، والجملتين الأخيرتين لبيان العلة الغائية أي ما هو بمنزلة العلة الغائية، فإن خلق الإنسان ونحوه لمعرفة الله سبحانه وحسن عبادته وإلا لكان إيجاده عبثاً وخلق سائر الكائنات لتكون برهاناً لمعرفة الديان، ويترتب على وجوب المعرفة وجوب العبادة وعليه يترتب الجزاء إذ لولا البعث والجزاء لزم التسوية بين المسلمين والمنكرين المجرمين فيختل أمر العدل قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ

---

(١) سورة القلم، الآية: ٣٥ ـ ٣٦.

أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضروري ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي استدلال يهدي إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ مظهر للحق منزل من الله تعالى على أحد من الناس فإن أسباب العلم للإنسان إنما هو أحد هذه الأمور الثلاثة ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ العطف الجانب والعطفان الجانبان يميناً وشمالاً وهو الموضع الذي يعطف الإنسان أي يلوي ويميله عند الإعراض، قال مجاهد أي لاوي عنقه، حاصل المعنى معرضاً عما يدعي إليه من الحق تكبراً أو تبختراً، كذا قال ابن عطية وابن زيد وابن جريج ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بيجادل، قرأ ابن كثير وأبو عمر وبفتح الياء من المجرد والباقون بضم الياء من الأفعال يعني يجادل حتى يضل غيره ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو القتل والأسر، فقتل نضر بن الحارث وعقبه بن أبي معيط يوم بدر صبراً، وقتل معهما سبعون وأسر سبعون، وقال جلال الدين المحلي نزلت الآية في أبي جهل فقتل يوم بدر ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي المحرق وهو النار ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب أو التقدير ويقال لهم يوم القيامة إذا عذبوا ذلك العذاب بسبب ما فعلته من الكفرو المعاصي ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أورد صيغة المبالغة نظراً إلى كثرة العبيد والجملة معطوفة على ما قدمت يداك، ونفي الظلم كناية عن العدل كما أن عدم الحب في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾(١)، كناية عن البغض والعدل سبب لمجازاة الكفر والمعاصي بالتعذيب، أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال كان الرجل يقدم المدينة فيسلم فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء فأنزل الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال المفسرون: معناه على شك من حرف الشيء وهو طرفه فالشاك والمنافق كأنه على طرف من الفريقين المؤمنين والكافرين قد يميل إلى هؤلاء وقد يميل إلى هؤلاء أو هو

---

(١) في القرآن ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ سورة النساء، الآية: ١٤٨.

كالذي على طرف الجيش فإن أحسَّ الظفر قرَّ وإلا فرَّ، وأخرج ابن أبي حاتم وكذا قال البغوي أنها نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة والمهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله، قال: هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيراً واطمأن إليه وهو المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي بتعبد الله والإسلام وإن صابه مرض وولدت امرأته جارية وأجهضت رهاكه وقل ماله قال: ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلا شراً فينقلب عن دينه، وهو المعنى لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ بلاء وشدة ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي ارتد عن دينه ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد قال أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام فأتي النبي ﷺ فقال أقلني فقال النبي ﷺ إن الإسلام لايقال، فقال لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي فنزلت الآية فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال كما يسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة» ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ يعني هذا الذي ارتد من الدين لأجل بلاء في الدنيا خسر الدنيا لفوات ماله وولده وما كان يؤمل ولذهاب عصمته وخسر الآخرة بالخلود في النار وحبط عمله» ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ لا خسران مثله ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق مستعار من ضل في التيه إذا أبعد عن الطريق المستقيم ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللام زائدة، والمعنى يدعو أمن ضره أي ضر عبادته هكذا قرأ ابن مسعود رضي الله عنه ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ الموهوم الذي يتوقعه الكافر بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى، وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون لما لا يكون موجوداً أصلاً هذا شيء بعيد، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[1] أي لارجع أصلاً، ولما كان النفع من الصنم بعيداً بمعنى أنه لا نفع فيه أصلاً، قيل ضره أقرب من نفعه لأنه كائن لا محالة، قيل يدعوا من تتمة الكلام السابق تكرير لقوله يدعوا في قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ تأكيد لفظي له وما بعده كلام مستأنف واللام في لمن ضره جواب لقسم محذوف والموصول مع صلته مبتدأ خبره ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي الناصر، وقيل: المعبود ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي الصاحب والمخالط يعني الوثن والعرب يسمي الزوج عشير الأجل المخالطة والجملتان إلزامتان مستأنفتان على قراءة ابن مسعود وما في معناه، وقيل اللام متعلقة

---

(١) سورة ق، الآية: ٣.

ليدعوا من حيث إنه بمعنى يزعم والزعم قول مع اعتقاد أو يقال يدعو داخلة على الجملة الواقعة مقولاً إجراء له مجرى القول، وعلى هذين التقديرين اللام جواب قسم محذوف ومن مع صلته مبتدأ خبره لبئس المولى ولبئس العشير والمعنى يقول الكافر ذلك يوم القيامة حين يرى استضرار به، وقيل تقدير الكلام يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه يدعوا فحذف يدعو الأخير احتزاء بالأول والمفعول ليدعوا الأول محذوف والموصول منصوب بيدعوا الثاني واللام في لمن ضره جواب قسم محذوف، وقيل اللام بمعنى أن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ يعني أنه تعالى يريد إثابة المؤمن الصالح وعقاب المشرك ولا دافع لمراده ولا مانع لقضائه.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي محمداً ﷺ بمعنى الوهم يقتضي مفعولاً واحداً وهو أن مع جملتها وإمكان الظن بمعناه فالجملة قائمة مقام المفعولين ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هذا كلام فيه اختصار تقديره إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه لأجل غيظه الرسول ﷺ ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أ سماء بيته يعني ليشدد حبلاً في سقف بيته ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ أي ليختنق من قطع إذا اختنق فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه يعني يستعض في إزالة غيظه وليفعل كل ما يفعل الممتلىء غيظاً حتى يموت، وهذا أمر للتعجيز يقال للحاسد إن لم ترض بهذا فاختنق ومت غيظاً، وقال ابن زيد المراد بالسماء السماء الدنيا، والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيده في أمره ليقطعه من أصله حتى يبلغ عنان السماء فيجتهد في دفع نصر الله إياه أو ليمدد بحبل إلى السماء الدنيا وليذهب السماء وليقطع الوحي الذي يأتيه من السماء، قال البغوي

روي أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود حلف فقالوا: لا يمكننا أن نسلم لأنا نخاف أن لا ينصر الله محمداً ولا يظهر أمره فينقطع الحلف بيننا وبين اليهود فلا يميروننا ولا يؤووننا فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد النصر بمعنى الرزق يقول العرب من نصرني نصره الله يعني من أعطاني أعطاه الله، وقال أبو عبيدة يقول العرب أرض منصورة أي ممطورة مرزوقة بالمطر، والضمير المنصوب في ينصره راجع إلى الموصول والآية نزلت في من أساء الظن بالله وخاف أن لا يرزقه والمعنى من كان ليظن أن لن يرزقه الله فليمدد بحبل إلى سماء بيته ثم ليختنق ويمت غيظاً على عدم ترزيقه أو ليمدد حبلاً إلى السماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عناناً وليأت من هناك رزقه، قرأ ورش وأبو عمرو ابن عامر ثم ليقطع بكسر لام الأمر والباقون بجزمها ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ فليتصور في نفسه بعد إرادة مد السبب وقطع المسافة أو الاختناق ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ يعني هل يدفع فعله ذلك غيظه أو الذي يغيظه من نصر الله سماه كيداً لأنه منتهى سعيه، والاستفهام للإنكار وجملة من كان يظن إلى آخرها تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني كما أن غيظ الحاسد لا يدفع ما أراد الله تعالى من نصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة لا يدفع أحد شيئاً مما أراد الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي إنزالاً مثل ذلك الإنزال أي مثل إنزالنا الآيات الدالة على إمكان البعث والتوحيد وصدق الرسول والوعد بنصره ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن كله حال كونه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على صدق الرسول ﷺ وما جاء به فلا منافاة بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[١] لاختفاء المراد منها مع ظهور إعجازها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، الجملة في محل الجر بلام التعليل معطوفة على محذوف متعلق بقوله أنزلناه، يعني أنزلناه لمصالح ولأن يهدي به أو يثبت على الهدى من يريد الله هدايته أو ثباته على الهداية، وجاز أن يكون في محل النصب عطفاً على الضمير المنصوب في أنزلناه يعني وأنزلنا أن الله يهدي من يريد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالحكومة بينهم وإظهار المحق منهم من المبطل وبالجزاء فيجاري كلا ما يليق به ويدخل فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير أدخلت كلمة أن على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد ثم أكده بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به بمراقب لأحواله فلا يجوز أن يجعل المسلمين كالمجرمين ولا بمنزلة المحقق من المبطل مع كمال علمه بظواهر

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

أحوال كل وبواطنها ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى﴾ من الإنس والجن يعني المؤمنين منهم وكلمة من وإن كان يعم المؤمن والكافر لكن خص منه الكافر بكلام مستقل وهو قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾(١) فبقي المؤمنون مراداً وإنما فسرت هكذا لأن كلمة من لذوي العقول ولما عطف عليه قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ فإن حقيقة العطف للمغايرة وحمل البيضاوي كلمة من على العموم، وقال: من يجوز أن تعم أولي العقل وغيرهم أو على التغلب، وقال أكثر المحققين إن من لا يعبر به عن غير الناطقين إلا إذا جمع بينهم وبين غيرهم فعلى تقدير إرادة العموم قوله والشمس الخ من قبيل عطف الخاص على العام أفردها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها، والمراد بالسجود عند المحدثين والعلماء المتقدمين الطاعة الاختيارية فإن الجمادات وإن كانت أمواتاً عندنا لكن لها حياة ما وهي مطيعة طاعةً اختيارية لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٢) وقال في وصف الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(٣) وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٤) وقال رسول الله ﷺ: «إن الجبل ينادي الجبل يا فلان هل مر بك أحد يذكر الله» رواه الطبراني من حديث ابن مسعود، قال البغوي هذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ تكرير للأول تأكيداً ومبالغة في الكثرة وخبره ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لعدم انخراطهم في الساجدين فهذا الجملة مخصصة بكلمة من مخرجة للكافرين من أن يرادوا بها، وقيل كلمة من في قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى ما للعموم والمراد بالسجود كون الممكنات كلها متسخرة لقدرته غير آبية عند تدبيره دالة بذواتها على عظمة تدبرها وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ خبره محذوف دل عليه خبر قسيمه يعني حق لهم الثواب، أو فاعل لفعل محذوف تقديره ويسجد له سجود طاعة أي بوضع الجبهة على الأرض كثير من الناس، وعلى التقديرين قوله كثير من الناس جملة مستأنفة وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ مستأنفة أخرى، ومن قال بجواز عموم المشترك يعني استعمال لفظ واحد مشترك في المعنيين في كل واحد من مفهوميه معاً وإسناده باعتبار أحد المعنيين إلى أمر وباعتبار المعنى الآخر إلى أمر آخر، قالوا قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مقرر

(١) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

معطوف على ما سبق والمعنى يسجد له سجود التسخر جميع الكائنات وسجود الطاعة كثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب لأجل إبائهم عن سجود الطاعة جملة مستأنفة، وجاز أن يكون مفرداً معطوفاً على الساجدين بالمعنى الأعم موصوفاً بقوله حق عليهم العذاب ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ مبتدأ فيه معنى الشرط وخبره المتضمن بمعنى الجزاء قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يعني من يهينه الله بالشقاوة لا يكرمه أحد بالسعادة، هذه الجملة معطوفة على الاسمية السابقة أو حال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإكرام والإهانة، والسعادة والشقاوة مختصان بمشيئة الله تعالى.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ فوجان متخاصمان، يعني المؤمنون خصم والكافرون من الأنواع الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ أو رد صيغة الجمع حملاً على المعنى ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ أي في دينه أو في ذاته وصفاته وأمره. روي الشيخان في الصحيحين عن أبي ذر قال: نزلت قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ في حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة»[(١)] وأخرج البخاري والحاكم عن علي قال: فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر، وأخرج الحاكم عنه بوجه آخر قال نزلت في الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وروى البغوي عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يحثوا بين يدي الرحمة للخصومة يوم القيامة، قال قيس وفيهم نزلت هذه الآية، وقال قيس هم الذين بارزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، قال محمد بن إسحاق خرج يعني يوم بدر عتبة بن ربيعة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٩٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ (٣٠٣٣).

بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا وصلوا إلى الصف دعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة عوف ومعاذ ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا من أنتم فقالوا: رهط من الأنصار حين انتسبوا أكفاء كرام، ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج إلينا أكفائنا من قومنا فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب» فلما دنوا قال: من أنتم؟ فذكروا قالوا: نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز على الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعليّ الوليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فدفعا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها ليسيل فلما أتو بعبيدة إلى رسول الله ﷺ قال: ألست شهيداً؟ قال: بلى، فقال عبيدة لو كان أبو طالب حياً لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول:

كذبتم وبيت الله يبرىء محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... نذهل عن أبنائنا والحلائل

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة إن الآية نزلت في المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد ﷺ ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم به حسداً فهذا خصومتهم في ربهم، وقال مجاهد وعطاء بن رباح الكلبي هم المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا، وقال بعضهم جعل الأديان ستة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية فجعل خمسة للنار وواحد للجنة فقوله هذان خصمان ينصرف إليهم فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم لأن الكفر ملة واحدة ومبنى هذين القولين عموم اللفظ وسياق القصة ولا شك أن العبرة لعموم اللفظ دون خصوص السبب، وقال عكرمة هما الجنة والنار اختصما روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتبخترين وقالت الجنة فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعرّتهم، قال الله تعالى للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحد منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله رجله تقول قط قط فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله

تعالى يُنشأ لها خلقاً»(١) ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فصل لخصومتهم وهو المعنى لقوله تعالى: إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي قدرت لهم على مقادير حيثيتهم، قال سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمي أشد حراً منه وتسمى باسم الثياب لأنها تحيط بأبدانهم كإحاطة الثياب وقال بعضهم يلبس أهل النار مقطعات من النار، روى أحمد بسند حسن عن جويرية قالت: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا ألبسه الله يوم القيامة ثوباً من نار»(٢) وأخرج والبزار وابن أبي حاتم والبيهقي بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ؛ «أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من بعده وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقال لهم لا تدعوا ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً» وأخرج أبو نعيم عن وهب بن منبه قال: كسي أهل النار والعري كان خيراً لهم وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم، وأخرج عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» رواه ابن ماجه بلفظ «إن النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع لها ثياباً من قطران ودرعاً من لهب النار»(٣) ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ حال من الضمير في لهم أو خبر ثان والحميم الماء الحار الذي انتهى حرارته ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ أي يذاب بذلك الحميم المنصب من فوقهم رؤوسهم ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم والأحشاء والجلود ويصهر به الجلود يعني يؤثر حرارته في بواطنهم كما يؤثر في ظواهرهم والجملة حال من الحميم أو من ضميرهم. أخرج الترمذي وحسنه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى تخلص إلى جوفه فيسيل ما في جوفه ثم يهراق من بين قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان»(٤) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ جمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف، قال الليث المقمعة شبه الجزر وهو بالفارسية گرز بالكاف

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (٤٨٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦).

(٢) رواه أحمد والطبراني وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف وقد وثق. انظر مجمع الزوائد في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الحرير والذهب (٨٦٤٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز، باب: في النهي عن النياحة (١٥٨١)، وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٢).

الفارسي، قال البغوي هو من قولهم قمعت رأسه إذا ضربته ضرباً عنيفاً والجملة حال من الضمير المجرور في بطونهم، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال يضربون بها أي بالمقامع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور، وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن مقمعاً من حديد وضع على الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لعتثت ثم عاد كما كان» ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي من النار من غم وكرب يلحقهم بأنفاسهم بسبب النار، بدل اشتمال من الضمير المجرور بإعادة الجار ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ تقديره كمال أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا منها أعيدوا فيها لأن الإعادة لا يكون إلا بعد الخروج، والجملة الشرطية أعني كلما أرادوا إلى آخرها صفة لمقامع والرابط محذوف أي أعيدوا بها فيها، وأخرج ابن أبي حاتم عن الفضيل بن عياض في الآية أنه قال والله ما طمعوا في الخروج لأن الأرجل مقيدة موبقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها، قلت: لعل المراد بقوله: ﴿أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أنهم يزعمون حين يرفعهم لهبها أن يقعوا خارج النار ولا يكون كذلك بل يردهم مقامعها، وأخرج البيهقي عن أبي صالح قال إذا ألقى الرجل في النار لم يكن له منتهى حتى يبلغ قعرها ثم تحيش به جهنم فترفعه إلى أعلى جهنم وما على عظامه مضغة لحم فتضرب الملائكة بالمقامع فيهوى بهم إلى قعرها فلا يزال كذلك، وذكر البغوي أن في التفسير أن جهنم لتحيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريد من الخروج منها فيضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون وفيها سبعون خريفاً ﴿وَذُوقُواْ﴾ هذه الجملة معطوفة على أعيدوا بتقدير وقيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي النار المحرقة البالغة في الإحراق فعيل بمعنى الفاعل كالأليم بمعنى المؤلم والوجيع بمعنى الوجع، قال الزجاج هؤلاء يعني الذين مر ذكرهم في تلك الآيات أحدالخصمين وقال في الآخر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ غير الأسلوب فيه وأسند الإدخال إلى الله تعالى وأكده بإن إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ من حليت المرأة إذا ألبست الحلي حال من الموصول ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة وهو جمع سوارصفة لمفعول محذوف يعني يحلون حلياً كائناً من أساور ﴿مِن ذَهَبٖ﴾ بيان له ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ معطوف على أساور على قراءة نافع وعاصم بالنصب ها هنا وفي سورة فاطر حملاً على محل أساور أو بإضمار الناصب يعني ويؤتون لؤلؤاً والباقون بالجر حملاً على لفظة أساور أو عطفاً على ذهب، قال القرطبي قال المفسرون ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاث

أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ، قلت: والألف المكتوب في الرسم بعد الواو يؤيد النصب، وقال أبو عمروا ثبتوا الألف كما أثبتوا في قالوا وكانوا، وقال الكسائي ألف صورة الهمزة وترك أبو بكر وأبو عمرو إذا خفف الهمزة الأولى من لؤلؤ واللؤلؤ في جميع القرآن، وحمزة إذا وقف سهل الهمزتين على أصله وهشام يسهل الثانية في غير النصب على أصله والباقون يحققونهما، أخرج الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري «أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ فقال: عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤ ليضيء ما بين المشرق والمغرب» وأخرج الطبراني الأوسط والبيهقي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أدنى أهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله تعالى به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعاً» وأخرج أبو شيخ في العظمة عن كعب الأحبار قال: إن لله تعالى ملكاً يصوغ حلي أهل الجنة من يوم خلقه إلى أن تقوم الساعة ولو أن حلياً أخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس، وأخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[(١)] وأخرج في الزهد من طريق عمران بن خالد عمن أدرك أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا من ترك لبس الذهب وهو يقدر عليه ألبسه الله إياه في حظيرة القدس ومن ترك الخمر وهو يقدرعليه سقاه الله إياه من حظير القدس، وأخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهل الحلية والحرير ويقول: «إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا» وعن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[(٢)] ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ حال من فاعل يحلون أو عطف عليه وغير أسلوب الكلام للدلالة على أن الحرير لباسهم المعتاد أو للمحافظة على رؤوس الآي، أخرج البزار وأبو يعلى والطبراني من حديث جابر بسند صحيح عن أبي الخير مرثد بن عبد اللهقال: «في الجنة شجرة تنبت السندس يكون ثياب أهل الجنة» روى النسائي والطيالسي والبزار والبيهقي بسند جيد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «تنشق عنها يعني ثياب أهل الجنة ثمر الجنة مرتين»

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه (٥٨٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال، وخاتم الذهب والحرير على الرجل (٢٠٦٩).

وأخرج ابن المبارك عن أبي هريرة، قال: إن دار المؤمن درة مجوفة فيها أربعين بيتاً في وسطها شجرة تنبت الحُلل فيذهب فيأخذ بأصبعه سبعين حلة منظم باللؤلؤ والزبرجد والمرجان.

فصل: وأخرج الشيخان عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[(١)] وأخرج الشيخان عن عمر $ح قال: قال النبي ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» وأخرج مثله من حديث أمس والزبير، وأخرج النسائي والحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة». وأخرج الطيالسي بسند صحيح والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لم يلبسه» وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا انطلق به إلى طوبى فيفتح له أكمامها فيأخذ من أي ذلك شاء إن شاء أبيض وإن شاء أحمر وإن شاء أخضر وإن شاء أصفر وإن شاء أسود مثل شقاق النعمان وأرق وأحسن» وأخرج أيضاً عن كعب قال لو أن ثوباً من ثياب الجنة لبس في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم، وأخرج الصابوني في المائتين عن عكرمة، قال: إن الرجل من أهل الجنة ليلبس الحلة فتكون من ساعته سبعون لوناً، وأخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة فنعم فيها لا يبأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»[(٢)] ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ حال بتقدير قد من الموصول المفعول ليدخل يعني والحال أنهم قد هدوا في الدنيا إلى الطيب من القول يعني شهادة أن لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله كذا قال ابن عباس وقال السدي يعني هدوا إلى القرآن، وقيل الماضي ها هنا بمعنى المستقبل يعني ويهدون في الجنة إلى الطيب من القول وهو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أي قد هدوا في الدنيا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المستحق للحمد لذاته أو المعنى ويهدون إلى صراط الجنة التي هي الحميد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأطعمة، باب: الأكل في إناء مفضض (٥٤٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب والفضة (٢٠٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ
سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ
بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ
وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ
مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ
مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس من أن يدخلوا في دين الإسلام لا يريد بالمضارع حالاً ولا استقبالاً وإنما يريد استمراراً لصد كقولهم فلان يعطي ويمنع ولذلك حسن عطف على الماضي، وقيل: هو حال من فاعل كفروا وخبر إن محذوف دل عليه آخر الآية إن نذقه من عذاب أليم ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله أو على اسم الله، والمراد بالمسجد الحرام خاصة عندالشافعي وعند أبي حنيفة رحمه الله الحرم كله كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1] على ما قيل أن الإسراء من بيت أم هانيء أطلق المسجد على الحرم كله لأن الغرض الأصلي من عمران مكة إقام الصلاة، قال الله تعالى حكاية لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2] وقد فسر الشافعي رحمه الله المسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[3] بالحرم حيث قال: يمنع الكفار مطلقاً عن دخول الحرم بهذه الآية وقد ذكرنا الكلام عليه في سورة التوبة ويؤيد إرادة الحرم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ قرأ ابن كثير بإثبات الياء في الحالين وورش وأبو بكر في الوصل فقط، وقرأ حفص سواء بالنصب على أنه مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغو أو حال من الضمير المستكن في للناس وللناس مفعول ثان والعاكف مرفوع به، وقرأ الباقون سواء بالرفع على أن العاكف مبتدأ وسواء خبره مقدم عليه أو سواء مبتدأ من قبيل الصفة والعاكف فاعله والجملة مفعول ثان لجعلناه وللناس حال من الهاء أو ظرف لغو، وجاز

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

أن يكون للناس مفعولاً ثانياً والجملة بيان لما سبق يعني جعلناه للناس بحيث مستو فيه المقيم والبادي أي المسافر المنسوب إلى البدو، وقال في القاموس البدو والبادية والبداوة والبداة خلاف الحضر يعني ليس أحد أحق بالمنزل فيه من غيره فمن سبق إلى مكان منه لا يجوز لغيره أن يزعجه، كذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل، وقال عبد الرحمن بن سابط كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم، كذا قال البغوي، قلت: روي أثر عمر عبد الرحمن بن عبد بن حميد بن نافع عن ابن عمر عنه وعن عمر بن الخطاب أن رجلاً قال له عند المروة يا أمير المؤمنين اقطع مكاناًلي فاعقب وأعرض عنه وقال: هو حرم اللهسواء العاكف فيه والباد إزالة الخفاء، وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر قال: يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث شاء، وقال عبد الرزاق عن ابن جريج كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم وأخبرني أن عمر نهى أن يبوب دور مكة لأن الحاج في عرصاتها فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو واعتذر لذلك لعمر فإن قيل صح عن عمر أنه اشترى داراً بمكة للسجن بأربعة آلاف درهم رواه البيهقي وكذا روى البيهقي عن ابن الزبير أنه اشترى حجرة سودة، وعن حكيم بن حزام أنه باع دار الندوة، وعن عمر أنه اشترى الدور من أهلها حتى وسع المسجد وكذلك عن عثمان، قال وكان الصحابة في رباط متوافرين ولم ينقل إنكار ذلك؟ قلت: يحمل تلك الآثار على بيع بنائها فإن البناء ملك المباني لا محالة وإنما المنهي بيع الأرض، ومن ها هنا، قال أبو حنيفة وأحمد في أصح الروايتين عنه لا يجوز بيع رباع مكة ولا إجارة دورها فإن أرض الحرم عتيق غير مملوك لأحد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾(١) ولا شك أن المراد بالبيت العتيق أرض الحرم كله لاختصاص أرض الحرم بذبح الهدايا والقول بأن المعنى ثم محلها إلى مكان يقرب منه البيت العتيق تكلف وتقديره بلا ضرورة، وكذا قال مالك لكن مبنى قوله أن مكة فتحت عنوة وكل بلدة فتحت عنوة فهي وقف لا يجوز بيع أراضيها، وقال الشافعي بيع دور مكة وإجارتها جائزة وهي مملوكة لأهلها وبه، قال الحسن وطاووس وعمر وبن دينار وجماعة والمراد بالمسجد الحرام في الآية نفسه ومعنى الآية جعلناه للناس قبلة لصلاتهم ومنسكاً متعبداً بحيث مستوفيه العاكف والبادي في تعظيم الكعبة، وفضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت. قلنا: سياق الآية يقتضي اختصاص

(١) سورة الحج، الآية: ٣٣.

تسويته العاكف والبادي بالمسجد الحرام مع أن المساجد كلها بهذه المثابة العاكف والبادي في جميع المساجد سواء يجب على كل أحد تعظيم كل مسجد وكل مسجد يستوي فيه ثواب الصلاة والطاعة لجميع الناس لا يختلف باختلاف الحضر والسفر، قال البغوي قال مجاهد وجماعة مثل ما قال الشافعي، قلت: بل المروي عن مجاهد مثل قول أبي حنيفة رحمه الله روى الطحاوي من طريق إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد أنه قال مكة مباح لا يحل بيع رباعها ولا أجارة بيونها وروى عبد الرزاق من طريق إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر لا يحل بيع بيوت مكة ولا أجارتها، ومن الحجة لقولنا هذا ما رواه محمد في كتاب الآثار أخبرنا أبو حنيفة عن عبد الله بن أبي زياد عن أبي نجيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إن الله حرم مكة فحرام بيع رباعها وأكل ثمنها» ولذا روى ابن الجوزي في التحقيق بسنده عن أبي حنيفة بذلك السند مرفوعاً بلفظ «مكة حرام وحرام رباعها حرام أجر بيوتها» قال الدارقطني وهم فيه أبو حنيفة رحمه الله والصحيح أنه موقوف دعوى الوهم على أبي حنيفة شهادة على النفي فلا يقبل وهو ثقة والرفع من الثقة مقبولة وروى محمد بذلك السند مرفوعاً «من أكل من أجود بيوت مكة شيئاً فإنما يأكل ناراً» ورواه الدارقطني بسنده عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه عن عبد الله بن باباه عن عبد بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مكة مباح لايباع رباعها ولا يؤجر بيوتها» قلت إسماعيل بن إبراهيم ضعفه يحيى والنسائي وأبوه إبراهيم بن مهاجر بن جابر النحلي ضعفه البخاري، وقال أبو حاتم منكر الحديث وقال ابن المديني والنسائي ليس بالقوي، لكن قال سفيان وأحمد ويحيى بن معين وابن مهدي لا بأس به، وقال أبو بكر البيهقي الصحيح أن هذا الحديث موقوف وروى ابن الجوزي بسنده عن سعيد بن منصور قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مكة حرام حرمها الله عز وجل لا يحل بيع رباعها ولا أجر بيوتها» وهذا مرسل والمرسل عندنا حجة. احتج الخصم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾[1] وقوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[2] قاله يوم فتح مكة وجه الاحتجاج أن الإضافة تدل على الملك قالوا ولو كانت الدور غير مملوكة لهم لما كانوا مظلومين في الإخراج عنها، والجواب أن الإضافة للسكنى أو للبناء يقال مسجد النبي ﷺ ومسجد بني فلان وكون الإخراج ظلماً لا يدل على

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: فتح مكة (١٧٨٠).

أنهم، أخرجوا عن ديار مملوكة لهم لتحقق الظلم بإخراجهم عن المسجد الحرام الذي جعل الله للناس كلهم فيه سواء ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾(١) وأقوى حججهم في الباب حديث أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله أين تنزل غداً في حجته؟ فقال: هل ترك عقيل منزلاً؟ قال: نحن نازلون غداً إن شاء الله بحنيف بني كنانة، ثم قال: لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»(٢) متفق عليه، وروى ابن الجوزي هذا الحديث، قال أسامة: يا رسول الله أتنزل دارك بمكة، قال: «وهل ترك عقيل من رباع أو دور؟ قال الزهري وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ولم يرثه جعفر ولا علي شيئاً كانا مسلمين وكان عقيل وطالب كافرين يعني حتى مات أبو طالب، قال الحافظ وفي رواية محمد بن أبي حفصة قال في آخره ويقال إن الدار التي أشار إليها النبي ﷺ كانت دار هاشم بن عبد مناف ثم صارت لعبد المطلب ابنه فقسمها بين ولده حين عمر ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبد الله وفيها ولد النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ لما هاجر استولى عقيل وطالب على الدار كلها باعتبار ما ورثاه من أبيهما لكونهما كانا لم يسلما وباعتبار ترك النبي ﷺ حقه منها بالهجرة وقتل طالب ببدر فباع عقيل الدار كلها، وروى الفاكهاني أن عقيل لم يبع الدار وقال: إن الدار لم يزل بيد أولاد عقيل إلى أن باعوا لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بمائة ألف دينار، والجواب أن بيع عقيل الدار كافراً لا يكون حجة على جواز البيع، وتأويل الحديث عندي أن الدار لعلها كانت مشغولة بحوائج عقيل إن لم يبع وبحوائج المشتري إذ باع فالنبي ﷺ يجدها خالية يسكن فيها ولداً، قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً أي منزلاً خالياً، فحينئذ قول الراوي كان عقيل ورث أبا طالب وشبهه مبني على زعمه وقوله ﷺ: لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر» لعله واقعة حال آخر فضم الراوي الحديثين زعماً منه أن قوله ﷺ: «لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر» هو الباعث على قوله ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟» فحينئذ قوله ﷺ: «لا يرث الكافرالمؤمن ولا المؤمن الكافر» كلام مستأنف فلا حجة في الحديث على كون رباع مكة مملوكة، ولو سلمنا أن الحديث تدل على كون رباع مكة جائز البيع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: توريث دور مكة وبيعها وشرائها وأن الناس في المسجد الحرام سواء خاصة (١٥٨٨)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: النزول بمكة للحاج وتوريث دورها (١٣٥١).

فنقول أن ما ذكرنا من الأحاديث التي تدل على حرمة بيعها نص في الحرمة يدل بالعبارة وهذا الحديث يدل على إباحة البيع بالإشارة فدلالة ما روينا أولى أقوى، ثم لو سلمنا التعارض فعند التعارض يجب تقديم المحرم على المبيح ولذلك قال أبو حنيفة بالكراهة تحريماً على أصله ولو كان حصة عبد الله للنبي ﷺ فلا يتصور أن يصل تلك الحصة إلى عقيل إلا بالاستيلاء كما هو مذهب أبي حنيفة أن الكافر يملك مال المسلم بالاستيلاء ولم يقل به الشافعي، ولو ملك بالاستيلاء فلا معنى لقول رسول الله ﷺ في هذا الحديث «لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر» ولو كانت كلها لأبي طالب فلا يتصور كونها للنبي ﷺ ولو فرضنا كون أبي طالب مسلماً لأنه ﷺ لم يكن من ورثة أبي طالب فعلى كل من التقادير يجب صرف قوله ﷺ: «هل ترك لنا عقيل منزلاً» عن ظاهره فما ذكرت من التأويل أولى وكيف لا يكون التأويل ما ذكرت فإنا لو سلمنا أن علياً وجعفراً لم يرثا أبا طالب وإنما ورثه عقيل فالنبي ﷺ كان له أن ينزل في علي وجعفر عارية كما كان له أن ينزل في ملك عقيل عارية ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ أي في المسجد الحرام سواء كان المراد منه المسجد أو الحرم كله على القولين ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ وقيل: إلحاد في محل النصب على المفعولية والباء زائدة كما قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[1] وقول الأعمش ضمنت برزق عيالنا أرماحنا، وبظلم ظرف لغو متعلق بيرد أو ظرف مستقر صفة لإلحاد أو حال من فاعل يرد، وقيل مفعول يرد محذوف يتناول كل متناول تقديره من يرد قولاً أو فعلا، فعلى هذا قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له أي يلحد بسبب الظلم أي بأن ارتكب منهياً ولو شتم الخادم ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جواب لمن روى البخاري في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرىء بغير حق ليهريق دمه»[2] وروى الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل ورزين في كتابه عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «ستة لعنتهم لعنهم الله وكل نبي مجاب الزائد في كتاب والمكذب بقدر الله المتسلط بالجبروت فيعز بذلك من أذل الله ويذل بذلك من أعز الله والمستحل لحرم الله والمستحل من عترتي ما حرم الله والتارك لسنتي» وروى الحاكم عن علي مرفوعاً نحوه، وهذا الحديثان يشعران بأن المراد بالمسجد الحرام الحرم

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الديات، باب: من طلب دم امرئ بغير حق (٦٨٨٢).

فإن استحلال الحرم والإلحاد فيه حرام مسجداً كان أو غيره، والإلحاد في اللغة الميل والعدول عن قصد السبيل والمراد ها هنا على قول مجاهد وقتادة هو الشرك وعبادة غير الله، وقال قوم هم كل شيء كان منهياً عنه منقول أو فعل حتى شتم الخادم، وقال عطاء هو دخول الحرم غير محرم أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد أو قطع شجر، وقال ابن عباس هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك، وهذا معنى قول الضحاك، وعن مجاهد تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقال حبيب بن أبي ثابت احتكار الطعام بمكة، وقال عبد الله بن مسعود في قوله من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم قالوا إن رجلاً هم بخطيئة لم يكتب عليه ما لم يعملها ولو أن رجلاً هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم، قال السدي إلا أن يتوب، وروي عن عبد الله بن عمرو أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الآخر فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله وبلى والله ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي عينا وجعلنا له ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ مبوّءاً أي منزلاً كذا قال الزجاج، وقيل اللام زائدة ومكان ظرف والمعنى وإذ أنزلناه فيه، قال في القاموس بوأه منزلاً وفيه أنزله والمباءة المنزل وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء من الطوفان ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر أين يبني فبعث الله ريحاً خجوجاً فنكست ما حول البيت عن الأساس كذا قال البغوي، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن السدي بعث الله ريحاً يقال لها ريح الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فنكست لها ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وقال البغوي قال الكلبي بعث الله سبحانه بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن علي قدري فبنى عليه ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ أن مصدرية متعلق بفعل محذوف أي عهدنا إلى إبراهيم أن لا تشرك أو المعنى فعلنا ذلك لأن لا تشرك أو مفسرة لبوأنا لأجل تضمنه معنى تعبد إذ التبوية لأجل التعبد والتعبد تشتمل الأمر والنهي فهو بمعنى القول بي أي بعبادتي ﴿شَيْئًا وَطَهِّرْ﴾ من الأوثان والأقذار ﴿بَيْتِيَ﴾ قرأ نافع وحفص وهشام بفتح الياء والباقون بإسكانها أضاف البيت إلى نفسه تشريفاً ولكونه مهبطاً التجليات مخصوصة به، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه أن الكعبة بيت الله مع كونها متجسداً مرئياً لها شبه بما لا كيف له لأن جدرانها وتراب أرضه إلى الثرى ليست قبلة، ألا ترى أنه لو أزيل عن ذلك المكان جدرانها وترابها ونقلت إلى مكان آخر فالقبلة ذلك المكان لا المكان الذي نقلت إليه

جدرانها وترابها ولو بني ذلك المكان بجدران آخر ونقل إلى ذلك ونقل إلى ذلك المكان تراب آخر فهو كذلك قبلة فعلم أن القبلة أمر لا كيف لها وينهبط هناك تجليات غير متكيفة يدركها من يدركها ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي الذين يطوفون حوله ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد ذكرهما بغير العاطف، فإن المراد به المصلين ولأن الركوع بلا سجود لم يعرف في الشرع عبادة، وعبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء الطهارة، وقالت الروافض إن الطهارة في الصلاة إنما يشترط في السجود لموضع الجبهة لا غير ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي أعلمهم وناد فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ الظاهر أنه عطف على طهر ذكر البغوي وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه أن إبراهيم عليه السلام حين أمر به قال وما يبلغ صوتي؟ قال الله تعالى عليك الأذان وعلينا الإبلاغ، فقام إبراهيم على المقام فارتفع المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد بنى بيتاً كتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من يحج من أصل الإماء وأرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك، قال ابن عباس فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجاً، وروي أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى وقال ابن عباس عنى بالناس في هذه الآية أهل القبلة، قال البغوي وزعم الحسن أن قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ كلام مستأنف والمخاطب النبي ﷺ أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا»[1] رواه مسلم وروى أحمد والنسائي والدارمي عن ابن عباس نحوه ﴿يَأْتُوكَ﴾ يعني يأتون حاجين لندائك بالحج مجزوم في جواب الأمر والمعنى أن تؤذن يأتوك ﴿رِجَالًا﴾ أي مشاة على أرجلهم جمع راجل كقائم وقيام ونائم ونيام وهذا إخبار عن الواقع وليس فيه إيجاب الحج على من لم يجد الراحلة، فليس فيه حجة لداود ولا لمالك وقد ذكرنا خلافهما في اشتراط الزاد والراحلة في مسألة كون الحج فريضة وما يشترط للفرضية في سورة آل عمران في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2].

مسألة: الأفضل عند أبي حنيفة ح لمن يقدر على المشي أن يحج ماشياً لأن الله سبحانه قد ذكر الإتيان راجلاً على الإتيان راكباً، ولأن المشقة في المشي أشد والخضوع

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

والتواضع فيه أكثر لأنه ﷺ أوجب على من نذر الحج ماشياً والهدي بفواته فعلم أن المشي في الحج طاعة وأدناها الندب، وقال بعض العلماء الحج راكباً أفضل لأن بالمشي في الحج يختل كثير من العبادات ولا رهبانية في الدين ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل ضامر أي بعير مهزول أتعبه بعد السفر فصار مهزولاً، أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كانوا لا يركبون فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فأمرهم بالزاد ورخص لهم في الركوب والمتجر ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر محمولة على معناه حيث أضيف إليه لفظ كل أو صفة لكل والتأنيث حينئذ أيضاً بالنظر إلى المعنى، يعني يأتوك على كل ضامر يأتين إلى مكة مركوب أن يحج ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ أي بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ متعلق بأذن أو بيأتوك أي ليحضروا ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ دينية أو دنيوية وتنكيرها لأن المراد بها نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة، قال محمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر عليه السلام وسعيد بن المسيب المراد بها العفو والمغفرة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»(١) متفق عليه، وقال سعيد بن جبير والمراد بها التجارة وهي رواية عن زيد عن ابن عباس حيث قال الأسواق وقال مجاهد التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ كنى بالذكر عن الذبح والنحر لاشتراطه في حل الذبائح وتنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ يعني عشر ذي الحجة وهو قول أكثر المفسرين، قيل لها معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل كون وقت الحج في آخرها، وروي عن علي رضي الله عنه أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق، وقال مقاتل المعلومات التشريق ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني الهدايا والضحايا واجبة كانت أو مستحبة لإطلاق النص، علق الفعل بالمرزوق بينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر، احتج الشافعي بهذه الآية على أنه لا يجوز ذبح شيء من الهدايا غير دم الإحصار إلا يوم النحروثلاثة أيام بعده، قلنا: هذا القيد خرجت مخرج العادة ونحن لا نقول بالمفهول وفي تفسير الآية اختلاف كما ذكرنا، والحجة لنا على عدم اشتراط يوم النحر وأيام التشريق في هدى التطوع والنذر والكفارة ما صح أنه ﷺ ساق عام الحديبية سبعين بدنة يريد العمرة وكان ذلك في ذي القعدة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد المقام بمكة إلى يوم النحر، وهذا صريح في جواز نحر هدي التطوع في ذي القعدة وإذا ثبت كون النحر فيما عدا يوم النحر طاعة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور (١٥٢١).

وكل طاعة مقصورة يكون واجباً بالنذر فثبت جواز نحر الهدي المنذور وأيضاً في غير أيام النحر وكذا دم جزاء الصيد والكفارات لا يختص عندنا بيوم النحر لأن الكفارة، لا يكون إلا عبادة فإذا ثبت كونه عبادة جاز جعله كفارة، وقد قال الله تعالى في جزاء الصيد ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾[١] من غير تقييد بيوم النحر ولا يجوز قيد في كتاب الله إذ هو في معنى النسخ، لكن دم القرآن والتمتع مختصان بيوم النحر وكذا دم الإحصار عند أبي حنيفة خلافاً لأبي يوسف ومحمد وقد مرت المسألتين في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[٢] ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمر استحباب وليس للوجوب إجماعاً، وقال الشافعي أمر بالإباحة وإنما قال الله تعالى ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم.

مسألة: اتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعاً لا يجوز للمهدي أن يأكل منه لحديث طويل لجابر بن عبد الله في قصة الوداع ويه «وقدم علي ببدن من اليمن وساق رسول الله ﷺ مائة بدنة فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بدنة بيده ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها»[٣] رواه مسلم، وهذا الحديث دليل على استحباب الأكل من الهدي إذ لو لم يكن الأكل من هديه مستحباً لما أمر أن يجعل من كل بدنة بضعة بل يكفيه لحم من واحدة.

مسألة: واتفقوا على عدم جواز الأكل من جزاء الصيد ولعله لأجل أن جزاء الصيد بدل من الصيد قال الله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[٤] وقد ذكرنا بيان المماثلة من حيث الصورة أو من حيث القيمة في تفسير سورة المائدة، ولما كان الصيد عليه حراماً كان بدله حراماً مثله قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم الشحوم جمعلوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه»[٥] متفق عليه من حديث جابر، وكذا لا يجوز الأكل من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٥. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه (٢٢٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام (١٥٨٢).

الدم المنذور عند الجمهور خلافاً لمالك، وكذا لا يجوز عند الجمهور الأكل من الدماء الواجبة بالجنايات والواجب بإفساد الحج، وفي رواية عن أحمد وإليه ذهب إسحاق أنه لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك كذا ذكر البخاري عن ابن عمر معلقاً، والحجة لتحريم الأكل من دماء النذر وكفارات الجنايات القياس على حرمة الأكل من جزاء الصيد وهي مجمع عليها والجامع أنها دماء كفارات فلا بد من تسليمها بجميع أجزائها إلى مستحقها لكن قياس المنذور على جزاء الصيد غير صحيح إلا أن يقال أن النذر يقتضي تسليم المنذور بجميع أجزائه.

مسألة: واتفقوا على جواز الأكل من الأضاحي، أما على قول أبي حنيفة فلأنه دم نسك وقد صح قوله ﷺ في الضحايا «كلوا وأطعموا وادخروا»[١] متفق عليه من حديث سلمة ابن الأكوع، وأما عند الشافعي وغيره فلأنه دم تطوع مسنون وقد ذكرنا الإجماع على جواز الأكل من دماء التطوع.

مسألة: واختلفوا في دم التمتع والقران؟ فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يجوز الأكل منه لأنه دم نسك وقد ذكرنا حديث جابر أنه ﷺ أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربها من مرقها، واستدل ابن الجوزي لما روى عبد الرحمن بن أبي حاتم في سننه من حديث علي، قال أمرني رسول الله ﷺ بهدي التمتع أن أتصدق بلحومها سوى ما نأكل وهذا صريح في الدلالة، وقال الشافعي لا يجوز الأكل من دم التمتع والقران ومن شيء من دماء الواجبة سواء أوجبه على نفسه بالنذر أو وجب بسبب غير ذلك محتجاً بحديث ناحية الخزاعي وكان صاحب بدن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية وحديث ابن عباس وحديث ذؤيب بن حلمه، وقد ذكرنا الأحاديث الثلاثة والجواب عنها في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾[٢] قلت: والظاهر أن الآية في جواز الأكل من الهدايا واجبة كانت الهدايا كالتمتع والقران أو نافلة كما أشرنا إليه نظراً إلى إطلاق اللفظ وخص منها المنذور بالإجماع أو يقال الكلام في الحج والمنذور ليس من باب الحج في شيء، وأما جزاء الصيد ودماء الكفارات فإنها وإن كانت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الضحايا، باب: ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها (٥٥٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأضاحي، باب: بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء (١٩٧١).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

من باب الحج لكن الظاهر من حال المسلم الاجتناب من المحرمات فهي غير مرادة بهذه الآية إذ المأمور به الحج المرور والله أعلم.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ أي الذي اشتد بؤسه والبؤس شدة الفقر ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ بدل من الأول أو عطف بيان له.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟﴾ قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر وقنبل بكسر اللام والباقون بإسكانها ﴿تَفَثَهُمْ﴾ أي يزيلوا وسخهم بحلق الرأس وقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال الأول وذلك قبل طواف الزيارة ويحل على المحرم بعد الحلق كل شيء إلا النساء وتحل النساء بعد الطواف كذا قال المفسرون، والقضاء في الأصل بمعنى الفعل والأداء يقال قضي دينه، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾[1] و﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[2] ويستلزمه الفراغ منه كما أيد بقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾[3] في إزالة الوسخ الفراغ منه، وقال البغوي قال ابن عمر وابن عباس قضاء التفث مناسك الحج كلها يعني أداء مناسك الحج، وقال مجاهد هو يعني التفث مناسك الحج وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقلم الأظفار، وقيل: التفث رمي الجمار فالمعنى فعل هذه الأمور وأداها، قال الزجاج لا نعرف التفث ومعناه إلا من القرآن يعني هذا اللفظ غير مستعمل في كلام العرب غالباً ولفظه ثم يوجب تأخير الحلق والطواف من الذبح فهو حجة لأبي حنيفة رحمه الله حيث قال: الترتيب بين الرمي ونحر القارن والحلق واجب به قال سعيد بن جبير وقتادة والحسن والنخعي، فمن ترك الترتيب عمداً أو خطأ يجب عليه الدم لحديث ابن عباس من «قدم شيئاً من نسكه أو أخره فليهرق دماً» رواه ابن أبي شيبة موقوفاً والموقوف له حكم المرفوع لأن القضاء بمثل غير معقول لا يدرك بالرأي. فإن قيل: في سنده إبراهيم بن مهاجر قال أبو حاتم منكر الحديث، وقال ابن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٨.

المديني والنسائي ليس بالقوي وقال ابن عدي يكتب حديثه في الضعفاء؟ قلنا: إنه صدوق من كبار التابعين أخرج له مسلم متابعه وقال سفيان وأحمد وابن مهدي لا بأس به ثم الحديث ليس منحصراً عليه بل أخرجه الطحاوي من غير طريقه أيضاً، قال: ثنا وهيب عن أيوب عن سعيد بن جبير عنه مثله. وقال أحمد الترتيب واجب يجب عليه الدم بتركه عمداً لكن يسقط وجوب الترتيب بالجهل والنسيان كذا روى الأثرم عنه وكذا يشعر كلام البخاري وهو المختار عندي للفتوى. وقال الشافعي وكثير من السلف الترتيب سنة وليس بواجب، وقال مالك تقديم الحلق على الرمي والذبح لا يجوز للشافعي قول مثله. احتج الشافعي بحديث ابن عباس أن النبي ﷺ قيل له في الذبح والرمي والحلق والتقديم والتأخير فقال: «لا حرج»[1] متفق عليه، وفي رواية للبخاري قال كان النبي ﷺ يسأل يوم النحر بمنى فيقول: «لا حرج» فسأل رجل فقال: حلقت قبل أن أذبح؟» قال: «اذبح ولا حرج» قال رميت بعد ما أمسيت؟ فقال: لا حرج» في رواية للبخاري أتى رجل إلى النبي ﷺ قال: زرت قبل أن أرمي قال: «لا حرج» قال: ذبحت قبل أن أرمي؟ قال: «لا حرج» وروى الطبراني بلفظ أن رجلاً قال: يا رسول الله طفت بالبيت قبل أن أرمي؟ قال: «لا حرج» وروى الطبراني بلفظ أن رجلاً قال: يا رسول الله طفت بالبيت قبلأن أرمي؟ قال: «ارم ولا حرج» وقد ثبت بحديث علي رضي الله عنه التصريح بالسؤال بالطواف قبل الذبح أيضاً رواه أحمد. وجه الاحتجاج للشافعي أنه لو كان الترتيب واجباً لأمر النبي ﷺ بإعادة ما قدم من المناسك لكون الوقت وقت أداء المناسك يوم النحر أو أمرهم النبي ﷺ بإراقة الدم ولو أمرهم بشيء من ذلك لنقل إلينا لاشتراك خلق كثير في الواقعة وحرص كل منهم على حفظه مناسك وتبليغها فلما لم ينقل علم أنه لم يأمر ولما لم يأمر علم أنه لم يجب لأنه وقت الحاجة وترك تبليغ الواجب مع الحاجة محال فظهر أنه ليس بواجب وما ليس بواجب لا بأس تركه عمداً، قال أبو حنيفة من رواة هذه القصة ابن عباس رضي الله عنه وقد قال ابن عباس من قدم شيئاً من نسكه أو أخره فليهرق لذلك دماً وقول الراوي على خلاف روايته جرح في الحديث لدلالته على أن الراوي اطلع على الناسخ، لكن هذا القول لا ينتهض دفعاً لقول الشافعي إذ عنده قول الراوي على خلاف روايته ليس بحرج في الحديث بل على أصل أبي حنيفة أيضاً لا ينتهض دفعاً لأن قول الراوي على خلاف روايته إنما يكون جرحاً إذا كان الموقوف في قوة المرفوع حتى يكون بمنزلة الناسخ والأمر ليس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الذبح قبل الحلق (١٧٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي (١٣٠٧).

كذلك. قلت: لكن الجمع بين الأحاديث متى أمكن أولى من ترك العمل على بعضها فنحمل أثر ابن عباس وهو في حكم المرفوع وقد بلغ بالاعتصام درجة الحسن على ترك الترتيب عمداً، وما احتج به الشافعي على الجهل والنسيان فقلنا الترتيب واجب لكن يسقط بالجهل والنسيان كالترتيب في الفوائت من الصلوات واجب عند أبي حنيفة ويسقط بالنسيان والإمساك في الصوم واجب ويسقط بالنسيان وتكبيرات التشريق واجبة تسقط بالنسيان.

مسألة: الحلق من واجبات الإحرام ليس بركن عند أبي حنيفة ح، وقال الشافعي ح وبعض العلماء أنه ركن من أركان الحج وفي رواية ضعيفة عن الشافعي وهي رواية عن أبي يوسف وعن أحمد وبه قال بعض المالكية أنه ليس بنسك بل أمر مباح، وحجتنا وحجة الشافعي هذه الآية فإنه أمر بقضاء التفث والمراد به الحلق والأمر للوجوب فكان ركناً عنده، قلنا: ثبوته وإن كان بالآية القطعية لكن دلالة الآية عليه إنما هي بتأويل ظني لاختلاف في تفسير الآية فلا يوجب القطع، وأيضاً قال الشافعي الحلق تحلل من الإحرام والإحرام ركن للحج فكذا التحلل عنه كالسلام في الصلاة فإنه ركن عند الشافعي، قلنا: كون الإحرام شرطاً وركناً للحج لا يستلزم كون التحلل عنه كذلك وكون السلام ركناً ممنوع عندنا وأيضاً هذا قياس مع الفارق لأن النبي ﷺ جعل السلام انتهاء لتحريمة الصلاة حيث قال: «تحليلها التسليم» فلو لم يوجد التسليم ويتأتى على التحريم ما ينافيها بطلت التحريمة وقد كانت التحريمة شرطاً للصلاة وركناً لها على اختلاف الأقوال فبطلت الصلاة ببطلان التحريمة وأما إحرام الحج فلا يبطل... بالمحظورات كما يبطل إحرام الصلاة، ألا ترى أن الجماع قبل الوقوف بعرفة يوجب الفساد حتى يجب عليه القضاء ولا يوجب البطلان حتى يجب المضي في الفاسد.

مسألة: أول وقت الحلق الرمي من طلوع الفجر الثاني يوم النحر وعند الأكثر بعد نصف الليل من ليلة النحر، لنا حديث عروة بن مضرس فيه قال رسول الله ﷺ: «من شهد معنا هذا الصلاة صلاة الفجر بمزدلفة وقد كان وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه»[1] رواه أصحاب السنن الأربع والحاكم وقال صحيح على شرط كافة أهل

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: من لم يدرك عرفه (١٩٥٠)، وأخرجه النسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٣٠٣٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الحج، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٦).

الحديث ولم يخرجاه على أصلهما لأن عروة بن مضرس لم ير وعنه إلا الشعبي وقد وجدنا عروة ابن الزبير قد حدث عنه، واختلفوا في آخر وقته؟ فقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأكثر العلماء لا آخر لوقته، واختلفوا أيضاً في أن الحرم هل هو شرط للحلق؟ فقال أبو يوسف وزفر وأكثر العلماء ليس بشرط، وقال أبو حنيفة للحلق اعتباران أحدهما أنه محلل للإحرام وثانيهما أنه نسك من مناسك الحج فباعتبار أنه محلل لا آخر لوقته ولا يختص أيضاً بمكان وباعتبار أنه نسك يختص بيوم النحر وبالحرم لأنه كونه عبارة لا يدرك بالرأي فيراعى خصوصياته الواردة من الشارع وهو الزمان والمكان، وأما كونه محللاً فأمر يدرك بالرأي لأن المحلل إنما يكون ما يكون جناية في غير أوانه وهو كذلك، فإن وجد الحلق بعد وقته أو في غير الحرم يكون محللاً من إحرامه ولا يكون عبادة فيلزم الدم لترك نسك واجب. واحتج أبو يوسف بأن النبي ﷺ قال: «اذبح ولا حرج» لمن قال حلقت قبل أن أذبح وأنه ﷺ حلق عام الحديبية بالحديبية وهي من الحل، قلنا قوله ﷺ: «اذبح ولا حرج» لمن قال حلقت قبل أن أذبح لبيان سقوط الترتيب لعلة الجهل والنسيان لا لتعميم الزمان لأن يوم النحر كان موجوداً عند السؤال لأنه كان بعد الظهر يوم النحر، وحلق النبي ﷺ بالحديبية لم يكن عند أبي حنيفة نسكاً بل ليعرف استحكام الانصراف حيث لا يجب الحلق على المحصر عند أبي حنيفة، والجواب عندي أن المحصر معذور لا يقاس عليه غيره ألا ترى أن الحلق قبل دخول وقته جائز للمحصر لا لغيره إجماعاً فكذا الحلق في غير مكان. والحجة لنا في اشتراط الحرم للمحلق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾(١) وسيجيء تفسيره وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾(٢) حيث جعل الحلق والتقصير من خواص دخول المسجد، والتوارث فإن النبي ﷺ ومن بعده توارثوا على الحلق في الحج بمنى والعمرة عند مروة وهما من الحرم.

مسألة: واختلفوا في القدر الواجب من الحلق والتقصير؟ فقال مالك وأحمد لا يتحلل ما لم يحلق أو يقصر كل الرأس، وقال أبو حنيفة حلق ربع الرأس أو تقصيره يكفيه، وقال الشافعي يكفيه إزالة شعرة أو ثلاث شعرات، قال الشافعي هذه الآية لإيجاب قضاء التفث وليس الواجب منه الاستقصاء إجماعاً حيث يجوز التقصير وفي التقصير قضاء بعض التفث ولا شك أن قضاء بعض التفث يحصل بإزالة شعرة أو ثلاث شعرات، وقال أبو حنيفة لا يقال في العرب من أزال شعرة أو ثلاثاً أنه حلق رأسه أو قضى تفثه فلا بد من قدر معتد به

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٣. (٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

شرعاً وقد أقام ربع الرأس في الوضوء مقام الكل حيث أوجب مسح ربع الرأس وأوجب في سائر الأعضاء غسلها بتمامها كما ذكرنا تحقيقه في سورة المائدة في آية الوضوء فقلنا ها هنا بحلق ربع الرأس، وقال مالك وأحمد لا نسلم ما قال أبو حنيفة من إقامة ربع الرأس مقام الكل فإن الفريضة في الوضوء عندهم مسح كل الرأس ولم يرو عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة أنه اقتصر على حلق بعض الرأس أو تقصيره.

مسألة: الحلق أفضل من التقصير إجماعاً لحديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: اللهم ارحم المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله قال: «والمقصرين»[١] في رواية قال في الرابعة والمقصرين، وحديث أبي هرير نحوه والحديثان في الصحيحين ﴿وَلْيُوفُوا﴾ قرأ ابن ذكوان بكسر اللام والباقون بإسكانها، وقرأ أبو بكر عن عاصم ليوفوا بتشديد الفاء من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿نُذُورَهُمْ﴾ قيل: أراد به الخروج عما وجب عليه نذراً ولم ينذر فإن العرب يقول لمن خرج عن الواجب عليه وفي بنذره، والجمهور على أن المراد بالنذر ما أوجب إنسان على نفسه مما ليس بواجب عليه وهو على نوعين منجز كأن يقول لله عليَّ أن أصلي ركعتين ومعلق بشرط، ثم المعلق بالشرط إن كان الشرط مرضياً كأن قال إن شفى الله مريضي أو قدم غائبي فعلي أن أصوم يسمى نذر تردد وإن كان الشرط مكروهاً كأن قال إن كلمت زيداً فعليَّ أن أحج يسمى نذر لجاج، وإذ علمت أن النذر إيجاب ما ليس بواجب عليه فإيجاب ما هو واجب من الله تعالى إخبار محض كمن قال لله عليَّ أن أصوم رمضان أو أصلي الظهر فلا يترتب عليه شيء أصلاً ولا يتغير وصف الواجب وقدره بتغير العبد. فلو قال لله عليّ أن أؤدي زكاة كل مائتي درهم عشرة لا يلزمه إلا خمسة كمن قال لله عليَّ أن أصلي الظهر ست ركعات، وكذا لو قال لله على أن أصلي كل فريضة بوضوء جديد أو بجماعة لأن الله سبحانه أجزى الصلاة بغير هذه القيود فلو قلنا بعدم الإجزاء لعزم نسخ حكم من أحكام الله تعالى ولو قلنا بإجزاء الصلاة بدونها فلا فائدة في القول بإيجاب هذه الأمور إذ لا يمكن قضائها بمثلها لعدم استقلالها وقضائها بمثل غير معقول يتوقف على ثبوتها من الشرع ولم يثبت، وهذا معنى قولهم يشترط للوجوب بالنذر كونه طاعة مقصودة مستقلة بنفسها وهذا خلاف من نذر أن يحج ماشياً، فإن قضاء المشي بإراقة الدم عرف من الشرع لكن ما ذكرنا يشكل فيمن نذر أن يؤدي زكاة كل مائتي درهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الحلق والتقصير عند الإحلال (١٧٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير (١٣٠٤).

عشرة حيث يمكن إيجاب خمسة زائدة على الخمسة التي وجبت بإيجاب الله تعالى من غير لزوم نسخ حكم من الأحكام والله اعلم. ثم أعلم أن ما ليس بواجب فهو على ثلاثة أقسام إما طاعة وإما معصية وإما أمر مباح ليس فيه معنى الطاعة ولا العصيان فالقسم الأول أي النذر بالطاعة يجب الوفاء به إجماعاً وهو المأمور به بهذه الآية فقيل هو ليس بفرض على أصل أبي حنيفة بثبوت بهذه الآية وهي عامة خص منها البعض فصارت ظنية الدلالة، وقيل هو فرض على أصله لما انعقد عليه الإجماع فصار قطعياً في مقدار ما انعقد عليه الإجماع، ثم النذر بالطاعة إن كان منجزاً لا يجوز العدول عنه إلى الكفارة إجماعاً إلا أن يكون بما لا يطيقه حيث، قيل فيه كفارة يمين، وإن كان معلقاً بشرط فوجد الشرط فكذا عند أبي حنيفة ومالك وأكثر العلماء لأن المعلق بالشرط كالمنجز عنده فصار كأنه قال عند وجود الشرط لله عليّ كذا، وروي عن أبي حنيفة أنه رجع عنه قبل موته بسبعة أيام فقال إذا كان معلقاً بالشرط فهو مخير بين فعله بعينه وبين كفارة يمين وهو قول محمد. فإذا قال إن فعلت كذا فعليّ حجة أو صوم سنة إن شاء وفى بنذره وإن شاء كفرّ فإن كان فقيراً صار مخيراً بين صوم سنة وصوم ثلاثة أيام والأول ظاهر المذهب والتخيير عن أبي حنيفة في النوادر، وجه الظاهر هذه الآية والأحاديث الواردة، ووجه رواية النوادر ما في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر عنه ﷺ قال: «كفارة النذر كفارة اليمين»[1] وهو يقتضي أن يسقط النذر بالكفارة» مطلقاً فيتعارض النصوص فيحمل مقتضى الإيفاء بعينه على المنجز ومقتضى سقوطه بالكفارة على المعلق، ووجه الفرق أن المعلق منتف في الحال فالنذر فيه معدوم فيصير كاليمين في أن سبب الإيجاب وهو الحنث منتف حال التكلم فيلحق به بخلاف النذر المنجز لأنه نذر ثابت في وقته فيعمل فيه حديث الإيفاء والمختار عند صاحب الهداية والمحققين من العلماء الحنفية أن المراد بالمعلق الذي يتخير فيه الناذر نذر اللجاج، فإنه لا يريد وجود الشرط فلا يريد وجوب النذر بل جعله مانعاً من فعل الشرط فإن الإنسان لا يريد إيجاب العبادات دائماً وإن كانت مجلبة للثواب مخافة أن يثقل عليه فيتعرض للعقاب، ولهذا صح عنه أنه ﷺ نهى عن النذر وقال: «إنه لايأتي بخير»[2] لاسيما إذا كان المنذور عبادة شاقة كالحج وصوم سنة، وأما نذر التردد فلا يجزئه إلا فعل

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٥).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً (١٦٣٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النهي عن النذر (٣٨٠٠).

عين المنذور به لأنه إذا أراد وجود الشرط أراد وجود النذر فكان المعلق في معنى المنجز فيندرج في حكمه وهو وجوب الإيفاء وعدم جواز العدول عنه إلى الكفارة، فصار مجمل ما يقتضي الإيفاء المنجز ونذر التردد ومجمل ما يقتضي إجزاء الكفار نذر اللجاج ومذهب أحمد فيه هكذا التفصيل الذي اختاره صاحب الهداية، وهو أظهر أقوال الشافعي كذا في المنهاج، وفي رواية عنها نذر اللجاج يوجب الكفارة لا غير وفي قول الشافعي فيه إيفاء لا غير.

مسألة: يشترط للوجوب بالنذر عند أبي حنيفة أن يكون من جنسه واجب بإيجاب الله تعالى، وفي المنهاج للشافعي أن الصحيح عند الشافعي انعقاد بكل طاعة وإن لم يكن من جنسه واجب بإيجاب الله كعيادة المريض وتشييع الجنازة والسلام، قلت: ويرد على قول أبي حنيفة أن الاعتكاف يجب بالنذر إجماعاً وليس من جنسه واجب بإيجاب الله وكون الصوم شرطاً للاعتكاف ممنوع ولو سلمنا فكون بعض شرائطه من جنس ما وجب بإيجاب الله سبباً للزومه بالنذر يقتضي لزوم كل قربة مقصودة وغير مقصودة بالنذر إذ كل قربة مشروطة بالإسلام والإخلاص وهما فريضتان واجبتان بإيجاب الله تعالى، ولو كان وجوب الاعتكاف بالنذر تبعاً لوجوب الصوم بالنذر فمع كونه قلب الموضوع لزم أن لا يجب الاعتكاف لو نذر أن يعتكف في رمضان والله أعلم.

مسألة: وإذا فات الوفاء بنذر الطاعة يجب عليه القضاء عند الجمهور وهل يجب عليه كفارة يمين أيضاً أو لا؟ فقال سفيان الثوري يجب عليه القضاء والكفارة جميعاً، وقال أبو حنيفة إن لم ينو اليمين وتكلم بصيغة النذر سواء نوى النذر أو لا يجب عليه القضاء دون الكفارة وإن نوى اليمين مع نفي النذر يجب عليه الكفارة دون القضاء وإن نوى يميناً ولم يخطر بباله النذر أصلاً أو نوى نذراً ويميناً يجب عليه القضاء والكفارة جميعاً، وقال أبو يوسف أنه يمين في الأول حتى يجب عليه الكفارة فقط دون القضاء حيث نوى المجاز ونذر في الثاني فيجب عليه القضاء فقط دون الكفارة لترجح الحقيقة على المجاز عند إرادتهما وامتناع الجمع بين الحقيقة والمجاز، وجه قول سفيان أنه نذر بصيغة لا يحتاج إلى النية ولا ينتفي بالنفي لكونه إنشاء كالنكاح والطلاق والرجعة والإعتاق، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة»[1] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في الجد والهزل في الطلاق (١١٨٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل (٢١٩٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: من طلق أو نكح أو راجع لاعباً (٢٠٣٩).

وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وفي مصنف عبد الرزاق من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلق وهو لاعب فطلاقه جائز ومن أعتق وهو لاعب فعتقه جائز» وروى ابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة مرفوعاً قال: «ثلاث ليس منهن لعب من تكلم بشيء منهن لاعباً فقد وجب عليه الطلاق والعتاق والنكاح» أخرج عبد الرزاق عن عمر وعلي موقوفاً أنهما قالا: ثلاث لا لعب فيهن النكاح والطلاق والعتاق، وفي رواية عنهما أربع وزاد والنذر ويمين بموجبه لأن إيجاب ما ليس بواجب يستلزم تحريم ما ليس بحرام يمين حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[1] فلا يحتاج كونه يميناً أيضاً إلى النية ولا ينتفي بالنفي كشراء القريب عتق بموجبه لا يحتاج إلى النية ولا ينتفي بالنفي، ووجه قول أبي حنيفة أن تحريم ما ليس بحرام ليس بيمين على الإطلاق ألا ترى أن الطلاق والعتاق والبيع ونحو ذلك يستلزم تحريم ما ليس بحرام وهي الزوجة والأمة وليس شيء منها يميناً بل إذا كان التحريم قصدياً منوياً باليمين كتحريم مارية أو العسل ولا يكون التزاماً فحينئذ يكون يميناً وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إنما هو في التحريم القصدي دون الالتزامي فما لم ينو يميناً يكون نذراً نواه أو لم ينوه حملاً على الحقيقة وإذا نوى اليمين ونفي النذر يكون يميناً فقط حملاً على المجاز وإذا لم ينف النذر سواء نواه أو لم ينوه ونوى اليمين يكون نذراً بصيغته يميناً بموجبه والله أعلم.

فصل

وأما القسم الثاني وهو النذر بالمعصية فهو على نوعين: منها ما لا ينفك شيء من أفراد جنسه عنها كالنذر بالشرب والزنا ونحو ذلك فقال أبو حنيفة إذا قصد به اليمين ينعقد للكفارة وإلا يلغو ضرورة أنه لا فائدة في انعقاده وليس هو مراد بهذه الآية ومأموراً بالإيفاء إجماعاً فإن الله لا يأمر بالفحشاء وبه قال مالك والشافعي، وقال أحمد ينعقد النذر لأجل الكفارة سواء نوى به اليمين أولاً، قال ابن همام وعليه مشي أكثر مشايخ الحنفية وبه قال الطحاوي أنه لو أضاف النذر إلى سائر المعاصي كقوله لله عليَّ أن أقتل فلاناً كان يميناً ولزمته الكفارة بالحنث، قلت: وذلك لأنه لما تعذر حمل اللفظ على معناه الحقيقي وجب حمله على المعنى المجازي وهو مقتضى قوله ﷺ: «لا نذر في معصية

(١) سورة التحريم، الآية: ١ ـ ٢.

وكفارته كفارة اليمين»[١] ومحمل الحديث عند أبي حنيفة إذا نوى به اليمين، ومنها ما كان من جنسه طاعة خالصة عن العصيان كالنذر بصوم يوم العيد والصلاة عند طلوع الشمس وهذا القسم من النذر ينعقد عند أبي حنيفة رحمه الله وعليه أن يفطر ويقضي ولا كفارة عليه وإن صام أجزأه وإن نوى يميناً مع نفي النذر فعليه كفارة يمين وإلا فعليه القضاء والكفارة جميعاً كما ذكرنا في النذر بالطاعة، وقال أحمد عليه أن يفطر ويقضي ويكفر وإن صام لا يجزئه وعنه إن صام أجزأه، وقال مالك والشافعي لا ينعقد هذا النذر كالنذر بالنوع الأول من المعصية المحضة إذ لا فرق بين معصية ومعصية وما نهى الله عنه لا يجب بإيجاب العبد، وجه الفرق لأبي حنيفة أنه نذر الصوم وهو مشروع بأصله وإنما النهي فيه لغيره وهو ترك إجابة دعوة الله فينعقد نذره ويجب عليه أن يفطر احترازاً عن المعصية المجاورة ويقضي لإسقاط ما وجب عليه فإن صام في يوم العيد يخرج عن العهدة لأنه أداه كما التزمه وهذا الخلاف مبني على خلافية أصولية وهي أن النهي عن الأفعال الشرعية توجب القبح لغيره ومشروعيته عند أبي حنيفة رحمه الله وعند الشافعي توجب القبح لعينه وعدم مشروعية، وقال أحمد إنما ينعقد من حيث كونه طاعة لا من حيث كونه معصية فيجب به الصوم كاملاً ولا يتأدى إن صام يوم العيد وكثيراً ما يجب الفعل ليظهر أثره في القضاء مع حرمة الأداء نظيره صوم رمضان في حق الحائض يجب ليظهر أثره في القضاء مع أدائه في الوقت حرام ولا يتأدى عنها الفريضة إن أدت.

فصل

وأما القسم الثالث وهو النذر بأمر مباح فيلغو ولا ينعقد عند أبي حنيفة إلا أن ينوِ به اليمين فيكفر إن لم يأت به، وقال الشافعي لا يجب عليه إتيان ولكنه ينعقد يميناً نوى أو لم ينو فإن حنث لزمه كفارة يمين على المرجح كذا في المنهاج، والوجه ما ذكرنا أنه إذا تعذر الحمل على الحقيقة وهو الإيجاب لعدم صلاته لكونه طاعة يحمل على المجاز لتعينه وهو تحريم المباح، قلت: وهذا الدليل لا ينتهض حجة إلا عند من قال تحريم المباح يمين والله أعلم. ولنذكر ها هنا من الأحاديث الشاهدة لما ذكرنا من الأقوال حتى يظهر الراجح منها من المرجوح عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: النذور والأيمان، باب: ما جاء عن رسول الله ﷺ أن لا نذر في معصية (١٥٢٧).

ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»[١] رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله ﷺ: «إنما النذر ما ابتغي به وجه الله»[٢] رواه أحمد في قصة الرجل الذي نذر أن يقوم في الشمس ورواه البيهقي في قصة أخرى وروى نحوه أبو داود، وهذه الأحاديث بعمومها تدل على أن النذر بالطاعة ينعقد سواء كان من جنسها واجب بإيجاب الله أولا، وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما نذر لا يملك العبد»[٣] رواه مسلم وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً «لانذر لابن آدم فيما لا يملك»[٤] ولأجل هذا الحديث قال ابن همام.

مسألة: لو قال أحد إن فعلت كذا فألف درهم من مالي صدقة ففعله وهو لا يملك إلا مائة مثلاً، الصحيح من مذهب أبي حنيفة أنه لا يلزمه التصدق إلا بما ملك لأن فيما لم يملك لم يكن النذر مضافاً إلى الملك ولا إلى سبب الملك.

مسألة: ولو قال مالي صدقة في المساكين ولا مال له لا يلزمه شيء.

مسألة: ولو قال لله عليّ أن أهدي هذه الشاة إلى بيت الله وأشار إلى شاة مملوكة لغيره لا يلزمه شيء وعن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: «كفارة النذر كفارة اليمين»[٥] رواه مسلم، ورواه الطبراني بلفظ «النذر يمين وكفارته كفارة يمين» وهذا الحديث لعمومه يدل عليه.

مسألة: من نذر نذراً فلم يف به إما لكونه معصية ممنوعة شرعاً أو لكونه ممنوعاً طبعاً بأن كان النذر مما لايطيقه كصوم الأبد أو كان مما يطيقه لكن فات وقته ولا يمكن التدارك أو لكونه مباح الترك ولعدم تسمية المنذور به بأن قيل لله على نذر يجب عليه كفارة اليمين سواء نوى اليمين أولاً، وحمل أبو حنيفة هذا الحديث على ما نوى اليمين، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً في معصية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في الطاعة (٦٦٩٦).

(٢) رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأيمان والنذور، باب: لا نذر في معصية إنما النذر ما ابتغي به وجه الله (٦٩٥٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما يملك العبد (١٦٤١).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: فيما يؤمر به من وفاء النذر (٣٣٠٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٥).

فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً أطاقه فليف به»[١] رواه أبو داود وابن ماجه ووقفه بعضهم على ابن عباس وهذا الحديث كالبيان لما سبق من الحديث وهذا الحديث يدل عليه.

مسألة: من نذر نذر طاعة وهو مطلق به لا يجوز له العدول عنه إلى الكفارة ولا يجزء عنه الكفارة، وعن عمران بن حصين قوله ﷺ: «لا نذر في معصيته وكفارته كفارة يمين»[٢] رواه النسائي والحاكم والبيهقي وهذا الحديث بإطلاقه حجة لأحمد في انعقاد نذر المعصية ووجوب الكفارة، ومداره على محمد بن الزبير الحنظلي عن أبيه عن عمران بن حصين ومحمد ليس بالقوي وقد اختلف عليه فيه رواه ابن المبارك عن عبد الرزاق عن أبيه، قال الحافظ وله طريق آخر إسناده صحيح إلا أنه معلول، ورواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهو منقطع لم يسمع الزهري من أبي سلمة وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن حديث سليمان بن بلال عن موسى بن عقبة ومحمد بن عتيق عن الزهري عن سليمان بن أرقم عن يحيى بن كثير عن أبي سلمة بن عائشة، قال النسائي سليمان بن أرقم متروك وقد خالفه غير واحد من أصحاب يحيى بن كثير فرووا عن يحيى بن كثير عن محمد بن الزبير الحنظلي عن أبيه عن عمران فرجع إلى الرواية الأولى، قال الحافظ وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن يحيى بن كثير عن رجل من بني حنيفة وأبي سلمة كلاهما عن النبي ﷺ والحنفي هو محمد بن الزبير قاله الحاكم وقال أن قوله من بني حنيفة تصحيف إنما هو من بني حنظلة، وله طريق آخر عن عائشة مرفوعاً رواه الدارقطني وأبو داود والترمذي والنسائي من رواية غالب بن عبد الله الجوزي عن عطاء عن عائشة مرفوعاً «من جعل عليه نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين» وغالب متروك الحديث وللحديث طريق آخر رواه أبو داود عن كريب عن ابن عباس وإسناده حسن فيه طلح بن يحيى وهو مختلف فيه قال النووي حديث «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين» ضعيف باتفاق المحدثين، وقال الحافظ قد صححه الطحاوي وأبو علي بن السكن فأين الاتفاق، قلت: وقد كتب السيوطي في الجامع الصغير على هذا الحديث علامة الصحة. واحتج أبو حنيفة بقوله بعدم وجوب الكفارة في النذر بالمعصية بحديث عمران بن حصين،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر نذراً لا يطيقه (٣٣٢٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من نذر نذراً ولم يسمه (٢١٢٨).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: كفارة النذر (٣٨٣٣).

قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «النذر نذران فمن كان نذر في طاعة فذلك لله وفيه الوفاء ومن كان نذر في معصية فذلك للشيطان ولا وفاء فيه»[١] وجه الاحتجاج أن وجوب الكفارة يعتمد على وجوب الوفاء فإنه ليكفر الإثم فإذا لم يجب الوفاء لم يجب الكفارة، وهذا احتجاج في مقابل النص بالمعقول ومنقوض بأنه من حلف بالله على إتيان المعصية وجبت عليه الحنث والكفارة ليكفر هتك حرمة اسم الله تعالى هذه في هذا المقام فكذا ها هنا، وعن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانه فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال رسول الله ﷺ هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية تعبده؟ قالوا لا، قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم»[٢] رواه أبو داود بسند صحيح، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك الدف، قال: «أوفي بنذرك»[٣] رواه أبو داود وزاد أنها قالت يا رسول الله ونذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا مكان يذبح فيه أهل الجاهلية، قال: هل كان بذلك المكان وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالت: لا، قال: هل كان فيه عيد من أعيادهم؟ قالت: لا، قال: أوفي بنذرك. قلت الأمر بالإيفاء ها هنا ليس للوجوب إجماعاً جمعاً بين هذه الأحاديث وقوله ﷺ: «إنما النذر ما ابتغي به وجه الله» ونظراً إلى أن ما ليس بطاعة لا يصلح للوجوب ولا لكونه تحية بوجه الله تعالى فالأمر ها هنا للإباحة وإذا كان ترك المعصية فيما كان النذر بالمعصية موجباً للتكفير نظراً إلى المعنى فها هنا أولى.

مسألة: من نذر بطاعة مقيدة بقيود وأوصاف فإن كانت تلك القيود والأوصاف مرغوبة عند الله موجبة للمزية وكثرة الثواب يجب الإيفاء مع تلك القيود والأوصاف وإن كانت عما لا مزية له عند الله لا يلزمه الشرط، وهل يجب الكفارة عند فقد تلك القيود والصفات فالخلاف فيه كالخلاف في ترك كل منذور مباح فمن نذر أن يصلي في السوق أو في يوم السبت أو نذر أن يصوم ولا يقعد ولا يتكلم ولا يستظل أو نذر أن يتصدق بهذا الدرهم على هذا الفقير في هذا البلد وجب عليه الصوم والصلاة وجاز له أن يصلي في أي مكان أي وقت شاء ويصوم مع التكلم والقعود والاستظلال ويتصدق بدرهم أي درهم شاء على أي

---

(١) أخرجه النسائي، في كتاب: الأيمان والنذور، باب: كفارة النذر (٣٨٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من وفاء النذر (٣٣٠٣).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من وفاء النذر (٣٣٠٢).

فقير في أي بلد، لحديث ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»[1] رواه البخاري وليس فيه الأمر بالكفارة ومن نذر أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات أو نذر أن يصلي قائماً يجب عليه أن يفي بنذره، فإن صام متفرقاً أو صلى قاعداً لا يجزئه ويجب عليه الإعادة لأن «صلاة القاعد نصف صلاة القائم»[2] كذا قال رسول الله ﷺ رواه أحمد والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن أنس وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو والطبراني عن ابن عمر وعن عبد الله بن السائب، وعن المطلب بن أبي وديعة وأحمد وأبو داود عن عمران بن حصين نحوه، ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عمرو نحوه، والتتابع في الصيام مرغوب ولذا وجب في الكفارات.

مسألة: ولو نذر بالصلاة مطلقاً يجب الصلاة قائماً لأن الأصل هو القيام ولو نذر بالصلاة قاعداً أجزأته قاعداً وقائماً.

مسألة: ولو نذر بالصلاة على جنبه أو مستلقياً يجب عليه الصلاة قاعداً أو قائماً لأن الرقود في الصلاة لم يعرف في حالة الاختيار بخلاف القعود غير أن المريض الذي لا يقدر على القعود لو نذر أن يصلي راقداً أجزاه أن يصلي راقداً فإن صح قبل أدائه لا يجزئه إلا قائماً.

مسألة: من نذر أن يصلي في المسجد الحرام جاز له أن يصلي في أي مكان شاء عند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله، وقال زفر وبه قال أبو يوسف في إملائه أنه من نذر أن يصلي في مسجد بيت المقدس فصلى في مسجد رسول الله ﷺ أو في المسجد الحرام أجزأته، ومن نذر أن يصلي في مسجد رسول الله ﷺ فإن صلى في المسجد الحرام أجزأته وإن صلى في غيره لم يجزه، ومن نذر أن يصلي في المسجد الحرام لم يجزه إن صلى في غيره احتج أبو حنيفة بحديث جابر بن عبد الله أن رجلاً، قال يوم الفتح يا رسول الله إني نذرت لله عز وجل أن فتح الله عليك أن أصلي في بيت المقدس ركعتين فقال: صل ها هنا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصية (٦٧٠٤).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: فضل صلاة القائم على صلاة القاعد (١٦٥٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم (١٢٢٩).

ثم أعاد عليه، فقال صل ها هنا، ثم أعاد عليه فقال: «شأنك إذاً»[١] رواه أبو داود والدارمي والطحاوي، قال أبو يوسف وزفر نحن نقول بهذا الحديث أنه من نذر أن يصلي ببيت المقدس جاز له أن يصلي بالمسجد الحرام وقد كان رسول الله ﷺ يوم الفتح بالمسجد الحرام وأما من نذر أن يصلي في المسجد الحرام فصلى في غير ذلك كيف يجوز وقد قال رسول الله ﷺ: «وصلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مائة صلاة وصلاته في الأقصى بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام مائة ألف صلاة»[٢] رواه ابن ماجه من حديث أنس وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[٣] رواه الطحاوي، وعنه وعن سعد بن أبي وقاص وعن عائشة وعن ميمونة وعن أبي سعيد الخدري كلهم عن النبي ﷺ مثل حديث الصحيحين عن أبي هريرة، وروى الطحاوي عن عطاء ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في ذلك أفضل من مائة ألف صلاة في هذا» وعن عمر بن الخطاب موقوفاً وعن جابر بن عبد الله مرفوعاً مثله. فأجاب أبو حنيفة أن هذه الأحاديث مختصة بالمكتوبات فإن فصل المكتوبات في المساجد على الترتيب المنكور حق وليس ذلك في النوافل حيث قال رسول الله ﷺ: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة»[٤] رواه الشيخان في الصحيحين من حديث زيد بن ثابت، وروى أبو داود والترمذي عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»[٥] وذكر الطحاوي حديث عبد الله بن سعد مرفوعاً «لأن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في المسجد».

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر أن يصلي في بيت المقدس (٣٢٩٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في المسجد الجامع (١٤١٣)، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة (١٣٩٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان والإمامة، باب: صلاة الليل (٧٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٨١).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الرجل التطوع في بيته (١٠٤٣).

مسألة: من قال: إذا قدم غائبي أو شفي مريض فلله علي صوم شهر يجب عليه صيام شهر بعد وجود الشرط فلو صام عنه، قبل وجود الشرط لم يجز ويجب عليه الإعادة خلافاً للشافعي لأن الشرط عندنا مانع من انعقاد السبب والأداء قبل وجود السبب لا يجوز، وعنده مانع من الحكم دون السبب فيجوز الأداء كما يجوز الزكاة بعد النصاب قبل الحول.

مسألة: لو أضاف الوجوب إلى الوقت جاز تقديمه على ذلك عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله خلافاً لمحمد هويقول الإضافة إلى الوقت كالتعليق بالشرط وهما يقولان ليس كذلك بل هو إيجاب منجز مقيداً بقيد والقيود ملغاة، كمن قال لله عليّ أن أصلي في السوق جاز أينما صلى فكذا من قال لله عليّ أن أصوم رجب أو أحج في السنة الثالثة من هذه السنة جاز له أن يصوم ويحج قبله أو بعده، قال زفر إن كان الوقت الذي أضاف إليه فاضلاً شرعاً فصام قبل ذلك الوقت في وقت أقل منه فضيلة لم يجزه بل يجب عليه الإعادة حتى يدرك فضيلة الوقت وإن لم يكن كذلك أجزأه وهذا عندي أظهر فمن نذر بصوم يوم عرفة أو يوم عاشوراء أو تسع من ذي الحجة إلى عرفة أو شهر المحرم لايجزئه إن صام قبل ذلك، وكذا من نذر أن يصلي في جوف الليل لا يجزئه إن صلى في النهار قبله ولا بعده لأن الحياة إلى الليلة المقبلة غالب عادة قال رسول الله ﷺ: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده وصيام عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[1] رواه مسلم وابن حبان والترمذي وابن ماجه من حديث أبي قتادة، وروى ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري عن قتادة بن نعمان نحوه، وفي الباب الحديث زيد بن أرقم وسهل بن سعد وابن عمر رواه الطبراني وحديث عائشة رواه أحمد وقال الحافظ وفيه عن أنس وغيره وقال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام يعني أيام التشريق من ذي الحجة، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»[2] رواه أبو داود من حديث ابن عباس وقال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من أيام العشر وإن صيام منها ليعدل سنة وليلة منها بليلة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: استحباب ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس (١١٦٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب الصوم، باب: ما جاء في فضل صوم عرفة (٧٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصيام، باب: في صيام العشر (٢٤٣٦).

القدر»[١] رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وهذا الحديث ضعيف، وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[٢] رواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة والروياني في مسنده والطبراني عن جندب.

مسألة: من نذر أن يحج ماشياً؟ ذكر في المبسوط من مذهب أبي حنيفة أنه مخير بين الركوب والمشي يعني لا يجب عليه المشي وبه قال قوم وهذا القول مبني على ما سبق أنه من نذر بطاعة وشرط فيه ما ليس بطاعة لا يلزمه الشرط، وفي القدوري وأكثر المتون أن يمشي ولا يركب حتى يطوف طواف الزيارة واختلفوا في محل ابتداء المشي؟ فقيل من الميقات لأن شروع الحج من هناك والأصح أنه من بيته لأنه المراد عرفاً إلا أن ينوي حذف ذلك فعليه ما نوى، قال صاحب الهداية هذا يعني ما ذكر في القدوري إشارة إلى وجوب المشي بالنذر، قال الطحاوي وبه قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، والحجة لأهل المقالة الأولى أما على من يقول الحج راكباً أفضل من الحج ماشياً فظاهر أن المنذور لا بد أن يكون عبادة وفي المشي ترك الأولى وأما على قول أبي حنيفة فالمشي مع القدرة وإن كان أفضل لكن من شرط المنذور عنده أن يكون من جنسه واجب بإيجاب الله تعالى من الواجبات المقصودة وليس المشي كذلك، ولهم من السنة حديث أنس بن مالك «أن النبي ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه، قال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي، قال: إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه وأمره أن يركب»[٣] متفق عليه. وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة قال «اركب أيها الشيخ فإن الله غني عنك وعن نذرك» وحديث عقبة بن عامر الجهني قال: نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله فأمرتني أن أستفتي لها النبي ﷺ، فقال: «لتمش ولتركب»[٤] متفق عليه. والحجة لأهل المقالة الثانية أن المشي عبادة ومقصودة واجبة في طواف الزيارة عند أبي حنيفة كما سنذكر فيجب بالنذر، والجواب عن استدلالهم بالسنة أن النبي ﷺ إنما أمر بالركوب إذا رأى أنه لا يطيق المشي كما هو صريح في حديث أنس أنه

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الصوم، باب: صيام العشر (١٧٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم (١١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: جزاء العيد، باب: من نذر المشي إلى الكعبة (١٨٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: جزاء العيد، باب: من نذر المشي إلى الكعبة (١٨٦٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (٨١٦٤٤

رأى شيخاً يهادى بين بنيه وكذا في قصة أخت عقبة مذكور في رواية أبي داود أنها لا تطيق فثبت بهذين الحديثين أنه جاز له الركوب إذا لم يطق المشي وذا لا يدل على عدم الوجوب بل على جواز الركوب بعذر.

مسألة: فإن ركب بعذر أو بغير عذر لا يجب عليه إعادة الحج ماشياً إجماعاً وكان مقتضى القياس على أصل أبي حنيفة أن لا يخرج عن عهدة مندوب إذا ركب كما لو نذر بصيام أيام متتابعات وبالصلاة قائماً لكنا تركنا القياس لثبوت الرخصة في الركوب بالنص فإن قيل الأحاديث المذكورة إنما توجب الرخصة لمن لا يطيق على المشي والمطيق على المشي ليس في معناه فلا بد أن لا يخرج المطيق على المشي من العهدة إذا ركب بغير عذر؟ قلنا: جوابه بوجهين: أحدهما أن أحكام الشرع عامة غالباً والغالب في الحج أن لا يطيق على المشي ولذلك قالت العلماء إن الزاد والراحلة في الحج من القدرة الممكنة دون الميسرة فقلنا بالرخصة يؤيد ما قلنا حديث عمران ابن حصين قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة وقال: «إن من المثلة أن ينذر الرجل أن يحج ماشياً فمن نذر أن يحج ماشياً فليهد هدياً وليركب» رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ثانيهما إن ترك الواجب بعذر أو بغير عذر شأنهما في اقتضاء القضاء واحد فإن كان عبادة مستقلة يقضي ما ترك وإن كان جزاء أو شرطاً أو وصفاً للعبادة لا يتصور قضاؤه بمتاع معقول لعدم استقلاله ويتصور قضاؤه غير معقول كسجدة السهو قضاء لواجبات الصلاة لكن لقضاء بمثل غير معقول لا يدرك بالرأي بل يتوقف على الشرع، فإن ظهر له من الشرع مثل غير معقول تقضي بتلك المثل ولا يعاد العبادة والإيعاد تلك العبادة ولما لم يدرك للتابع في الصيام والقيام في الصلاة مثل غير معقول حكمنا بإعادة الصوم والصلاة وإذا عرف للمشي مثل غير معقول وهي الهدي لم يحكم بإعادة الحج بل بالهدي، والفرق بين المغدور وغير المعذور لا يظهر إلا في الإثم ونظير ترك الوقوف بمزدلفة بلا عذر لا يجوز وبعذر يجوز على كلا التقديرين يجب عليه الهدي والله أعلم.

مسألة: من نذر أن يحج ماشياً فحج وترك المشي بعذر أو بلا عذر يجب عليه بدنة، وقال أبو حنيفة وصاحبيه لزم دم وأدناه شاة وإذا أراد بقوله لله عليّ أن أحج ماشياً اليمين لزمه كفارة اليمين أيضاً كذا ذكر الطحاوي قول أبي حنيفة وصاحبيه، وقيل: لا يجب عليه إلا كفارة يمين والحجة لوجوب الهدي بالركوب حديث عقبة بن عامر أن أخته نذرت أن يمشي إلى البيت فأمرها النبي ﷺ أن تركب وتهدي هدياً رواه أبو داود وسنده حجة، وبهذا يظهر أن ما في الصحيحين من حديث عقبة بن عامر فيه اختصار على ذكر بعض المروي

والزيادة من الثقة مقبولة، وهذا الحديث حجة لأبي حنيفة في إيجاب مطلق الهدي ولو بشاة. ولنا على تخصيص الهدى بالبدنة ما رواه أبو داود من حديث ابن عباس بلفظ أن أخت عقبة بن عامر نذرت أن تحج ماشية وإنها لا تطيق ذلك فقال النبي ﷺ: «وإن الله لغني عن مشي أختك فلتركب ولتهد بدنة» قلت: وهذا حديث حسن لأنه من رواية ابن أبي داود ثنا عيسى بن إبراهيم ثنا عبد العزيز بن مسلم ثنا مطر الوراق عن عكرمة عنه، فإن قيل عبد العزيز بن مسلم استجهل ومطر الوراق قال ابن سعد فيه ضعف في الحديث، قلنا: قال الذهبي عبد العزيز معروف فلا يضر جهل من استجهل ومطر الوراق من رجال مسلم قال الذهبي ثقة وقال أحمد وابن معين ضعيف في عطاء خاصة وهذا من رواية عكرمة، قال ابن همام عمل أبو حنيفة بإطلاق الهدي من غير تعين بدنة لقوة رواتها، قلنا: قوة رواة الإطلاق ممنوع ولو سلمنا فالترجيح بالقوة إنما يطلب عند التعارض ولا تعارض ها هنا بل مطلق ومقيد في حكم واحد في قضية واحدة فيحمل المطلق على المقيد البتة، وما اخترت مروي عن علي وغيره من الصحابة رضي الله عنهم والموقوف في الباب له حكم الرفع، روى الشافعي إيراد عليه عن سعد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن علي في الرجل يحلف على المشي قال يمشي وإن عجز ركب وأهدي بدنة، وروى عبد الرزاق بسند صحيح عن علي فيمن نذر أن يمشي إلى البيت قال يمشي فإن أعيى ركب وأهدى جزوراً وأخرج نحوه عن ابن عمر وابن عباس وقتادة والحسن.

مسألة: من قال عليّ المشي إلى بيت الله أو الكعبة ولم يذكر حجاً ولا عمرة فعليه أن يحج أو يعتمر ماشياً استحساناً وفي القياس شيء عليه، وجه الاستحسان تعورف النسك بهذا اللفظ، ولو قال على المشي إلى الحرم لا شيء عليه عند أبي حنيفة لعدم العرف في التزام النسك به وعند صاحبيه يلزمه النسك احتياطاً واتفقوا على أنه لو قال إلى الصفا أو المروة أو عرفة أو مزدلفة أو منى أو مقام إبراهيم لا يجب شيء وكذا لو قال مكان المشي غيره كقوله الذهاب إلى بيت الله أو الخروج أو السفر لا يجب شيء والمدار على تعارف إيجاب النسك بلفظ دون لفظ ولو نوى بقوله عليّ المشي إلى بيت الله المشي إلى مسجد المدينة أو مسجد بيت المقدس أو مسجد آخر لم يلزمه شيء لصحة إطلاق بيت الله على كل مسجد.

مسألة: من نذر بطاعة لزمه ذلك الطاعة وما يتوقف عليه ذلك فمن نذر أن يصلي ركعتين بلا وضوء أو بلا قراءة أو نذر أن يصلي ركعة واحدة أو ثلاث ركعات لزمه الركعتان بالوضوء والقراءة وفي ثلاث أربع ركعات، وقال محمد لايصح النذر لو نذر الركعتين بلا

وضوء لأن الصلاة بلا وضوء ليست بطاعة بخلاف الصلاة بغير قراءة فإنها قد تكون طاعة كصلاة الأمي وفي غير ذلك قوله كقولنا، وقال زفر يلزمه الركعتان إن نذر ثلاثاً ولا يلزمه شيء فيما سوى ذلك لأن الصلاة بلا وضوء أو بلا قراءة أو ركعة منفردة أو مع شفع يقدمها لست بقربة فلا يجوز به النذر، قلنا الالتزام بالشيء يسلتزم استلزام ما لا صحة إلا به والله أعلم.

مسألة: من نذر أن يحج ماشياً فحج راكباً بعذر أو بلا عذر وأهدى بدنه هل يجب عليه الكفارة أم لا؟ قال أبو حنيفة لا يجب عليه الكفارة إلا إذا نوى به اليمين والخلاف في هذه المسألة مثل الخلاف في فوات أصل المنذور وقد مر من قبل.

مسألة: من نذر أن يعتكف؟ قال أبو حنيفة ومالك يجب عليه أن يصوم ويعتكف، وقال الشافعي وأحمد لا يجب عليه الصوم، مبنى الخلاف على اختلافهم في أنه هل يشترط الصوم للاعتكاف أم لا؟ فقال الشافعي وأحمد لا يشترط ويصح الاعتكاف بغير صوم وبالليل وأقله ساعة، وقال مالك يشترط وهو رواية عن أحمد ورواية الحسن عن أبي حنيفة وفي الأصل مذهب أبي حنيفة أن الصوم شرط لصحة الواجب من الاعتكاف دون التطوع منه وبه قال محمد، والحجة على اشتراط الصوم للاعتكاف ما رواه الدارقطني والبيهقي عن سويد بن عبد العزيز عن سفيان بن حسين عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لا اعتكاف إلا بصوم» قال الدارقطني تفرد به سويد عن سفيان وقال أحمد سويد متروك الحديث وقال البخاري في حديثه نظر وقال يحيى ليس بشيء وسفيان قال: يحيى لم يكن بالقوي وقال ابن حبان يروى عن الزهري المقلوبات، قلت: قال الذهبي صدوق مشهور وقال بعضهم ليس به بأس إلا في الزهري أخرج له مسلم وذكر ابن همام قال في الكمال قال ابن حجر سألت عنه هشيماً فأثنى عليه خيراً، فالحديث لم يصح لأجل سويد وسفيان إذ هو من رواية الزهري وهو في الزهري ضعيف، وما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت السنة على المعتكف أن لا يعود مريضاً ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منها ولا اعتكاف إلا بصوم ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع، فإن قيل قال أبو داود غير عبد الرحمن بن إسحاق لا يقول فيه السنة فالحديث موقوف فقال الدارقطني عبد الرحمن ضعيف؟ وأجيب بأن الرفع زيادة عبد الرحمن ثقة إلا أنه قدري كذا قال أبو داود ووثقه ابن معين وقال أحمد صالح الحديث وأخرج له مسلم، قلت: هذا الحديث لا يصلح للاحتجاج لأن كلمة لا اعتكاف الظاهر أنه ليس تحت قوله السنة على المعتكف أن لا يعود لتغير نسق

الكلام ولو سلمنا فكون الصوم سنة في الاعتكاف لا نزاع فيه، إنما الخلاف في كونه شرطاً وهذا أمر لا بد له من دليل وروى هذا الحديث ابن الجوزي في التحقيق من طريق الدارقطني عن الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ: «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان» وأن السنة للمعتكف أن لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يتبع الجنازة ولا يعود مريضاً ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا اعتكاف إلا في مسجد جماعة ويأمر من اعتكف أن يصوم، واعترض عليه ابن الجوزي بأن فيه إبراهيم بن محسر قال ابن عدي له أحاديث مناكير وقال الدارقطني يقال إن قوله أن السنة للمعتكف الخ ليس عن قول رسول الله ﷺ بل هو من كلام الزهري ومن أدرجه في الحديث فقد وهم.

ومن الحجة في الباب ما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن بديل عن عمرو بن دينار أن عمر جعل عليه أن يعتكف في الجاهلية ليلةً أو يوماً عند الكعبة فسأل النبي ﷺ فقال: «اعتكف وصم»[(١)] وفي لفظ للنسائي أمره أن يعتكف ويصوم، قال الدارقطني تفرد به ابن بديل وهو ضعيف ورواه نافع عن ابن عمر ولم يذكر فيه الصوم وهو أصح، وقال: سمعت أبا بكر النيسابوري يقول هذا حديث منكر لأن الثقات من أصحاب عمرو بن دينار لم يذكروه منهم ابن جريج وابن عيينة وحماد بن سلمة وغيرهم وما قال ابن همام أن ابن بديل ثقة قال فيه ابن معين صالح وذكره ابن حبان في الثقات، قلت: لم يذكر الذهبي في توثيقه شيئاً بل قال فيه ضعيف ثم لو ثبت الأمر بالصوم تحمله على أن عمر كان قد نذر بالاعتكاف والصوم جميعاً وسأل عنها فبسقط ذكر الصوم من الراوي في رواية السؤال كما سقط ذكر الصوم عن الجواب في أكثر الطرق وأصحها، وما رواه الدارقطني بسنده عن سعيد بن بشير عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر نذر أن يعتكف في الشرك ويصوم فسأل رسول الله ﷺ بعد إسلامه فقال: «أوف بنذرك»، قال: قيل قال عبد الحق تفرد به سعيد بن بشير قال ابن الجوزي قال يحيى وابن نمير ليس بشيء، قلنا: قال الحافظ هو مختلف فيه وقال الذهبي سعيد بن بشير صاحب قتادة وثقه شعبة وقال البخاري يتكلم في حفظه وقيل: كان قدرياً، قلت: ولا شك أن سعيد بن بشير ليس أضعف من ابن بديل، واحتج الشافعي وأحمد بحديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ليس على المعتكف صيام إلا أن يجعله على نفسه» رواه الحاكم وصححه ولم يطعن فيه ابن الجوزي احتجاج البخاري بحديث ابن عمر أن عمر سأل رسول الله ﷺ قال: كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال: «فأوف بنذرك» متفق عليه، وجه الاستدلال أن الليل

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصيام، باب: المعتكف يعود المريض (٢٤٧٢).

ليس وقتاً للصوم واعترض عليه بين في رواية شعبة عن عبيد الله عند مسلم يوماً بدل ليلة، فجمع ابن حبان وغيره بين الروايتين بأنه نذر اعتكاف يوم وليلة فمن أطلق يوماً أراد بليتها ومن أطلق ليلة أراد بيومها، وأجيب بأن رواية من روى يوماً شاذ أو نقول لما نذر اعتكاف يوم ولم يأمره النبي ﷺ بالصوم دل على أن الصوم ليس بشرط، ومن الحجة في الباب حديث عبد الله بن أنيس قال: قلت: يا رسول الله: إن لي بادية أكون فيها وأنا أصلي فيها بحمد الله فمرني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد فقال: «انزل ليلة ثلاث وعشرين» فقيل لابنه كيف كان أبوك يصنع؟ قال: كان يدخل المسجد ويصلي العصر فلا يخرج منه لحاجة حتى يصلي الصبح فإذا صلى الصبح وجد دابته على باب المسجد فجلس عليها ولحق بباديته»[١] رواه أبو داود وهذا صريح في جواز الاعتكاف ليلاً، لا يقال لانسميه اعتكافاً فالقول لا مشاحة لنا في الاصطلاح بعد ما ثبت أن اللبث في المسجد بنية التقرب طاعة والطاعة تجب بالنذر.

مسألة: من نذر أن يعتكف رمضان لزمه ولا يلغوا اشتراط رمضان لما ثبت أن الطاعة في رمضان أكثر ثواباً من الطاعة في غيره قال رسول الله ﷺ: «من تقرب فيه ـ أي في رمضان ـ خصلةً من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه» رواه البيهقي في شعب الإيمان في حديث طويل عن سلمان الفارسي فإن أطلقه فعليه أن يعتكف في أي رمضان شاء وإن عليه لزمه فيه، كذا قال ابن همام لكن هذا لا يوافق ما مر أن كل شرط لا مزية فيه من حيث الطاعة لايلزمه ولا مزية لرمضان على رمضان آخر فأولى أيقال أن عين أول رمضان أدركه لزمه ذلك لأن الاستعجال في الطاعة طاعة قال الله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٢] وإن عين رمضان آخر فأدى في أول رمضان أدركه ينبغي أن يجزيه بل الظاهر أنه يلزمه الأداء في أول رمضان أدركه لأن الحياة إلى رمضان ثان غير غالب الوقوع عادة.

مسألة: فإن صام رمضان عينه للاعتكاف ولم يعتكف يلزمه قضاؤه بصوم مقصود للنذر عند أبي حنيفة ومحمد وهو إحدى الروايتين عن أبي يوسف وعن أبي يوسف أنه لا يقضي أصلاً وهو قول زفر لأن الاعتكاف في رمضان أفضل من الاعتكاف في غيره فلا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: الاعتكاف ليلاً (٢٠٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: نذر الكافر وما يفعل فيه إذا أسلم (١٦٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في ليلة القدر (١٣٧٩).

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦١.

يتأدى بالاعتكاف في غيره كمن نذر أن يصلي قائماً أو يصوم متتابعاً فصلى قاعداً أو صام متفرقاً لا يجزيه فتعذر للقضاء فسقط، قلنا: كان عليه أن يعتكف في رمضان فلما فات ذلك بقي عليه مطلق الاعتكاف لإمكان التدارك وسقط عنه فضل الوقت لعدم إمكان التدارك، والحياة إلى رمضان آخر غير متيقن بل غير مظنون لطول الزمان، فصار المسألة كمن فاته صلاة الوقت أو صوم رمضان وجب عليه قضاء أصل الصلاة والصوم لإمكان التدارك وسقط عنه فضل الوقت لعدم إمكان التدارك، بخلاف من صلى قاعداً وكان قد نذر الصلاة قائماً حيث يحكم بالإعادة لإمكان التدارك. فإن قيل: لما فات الاعتكاف في رمضان كان ينبغي أن يحكم بوجوب قضائه في رمضان آخر وإذا لم يحكم بذلك لاحتمال الموت قبل ذلك وحكمتم بوجوب القضاء بعد رمضان بصوم مقصود فإذا اعتكف قضاء بعد رمضان بصوم مقصود ثم أدرك رمضان آخر ينبغي أن يحكم بوجوب الإعادة، كمن وجب عليه الحج ولم يحج وعجز عن الحج فأحج عنه غيره ثم قدر على الحج بنفسه بطل حينئذ إحجاج الغير ولزمه أن يحج بنفسه؟ قلنا: قال أبو حنيفة إن اشتراط الصوم للاعتكاف ثبت بالنص كما ذكرنا فكان القياس أن لا يتأدى الاعتكاف المنذور في رمضان أصلاً لأنه إذا وجب الاعتكاف بالنذر وجب الصوم مقصوداً أيضاً شرطاً له والصوم المنذور مقصوداً لا يتأدى في رمضان لكون الوقت مشغولاً بحق الله تعالى فلا يتأدى الاعتكاف أيضاً، لكنا جوزنا الاعتكاف في رمضان ضرورة إدراك فضل الوقت، فإذا فات عنه فضل الوقت عاد الحكم إلى الأصل ووجب الصوم للاعتكاف مقصوداً، ثم إذا أدرك رمضان من قابل لا يسقط ما وجب مقصوداً فلا يتأدى ذلك الاعتكاف في رمضان آخر أصلاً للزوم الصوم المقصود والله أعلم. ولأجل ذلك لا يجوز عند أبي حنيفة وصاحبيه أن يقضي اعتكاف رمضان في رمضان آخر لكن لو لم يصم في رمضان ولم يعتكف جاز أن يعتكف في صيام القضاء وكان مقتضى القياس على ما ذكرنا أن لا يتأدى بعد رمضان إلا بصوم مقصود لفوات فضل الوقت والله أعلم.

وما ذكرنا من قول أبي حنيفة مبني على اشتراط الصوم للاعتكاف عنده فمن لم يقل باشتراط الصوم جاز عنده أن يقضي بعد رمضان بلا صوم، أو في رمضان آخر إن أدرك أو في صيام القضاء أو الكفارة أو غير ذلك ثم إذا قضى بعد رمضان بلا صوم أو بصوم ثم أدرك رمضان آخر لا تجب عليه الإعادة كمن فاته صلاة وقتية وهو واجد للماء فقضاه بعد الوقت بالتيمم ثم وجد الماء أو صلى عارياً ثم وجد الثوب.

مسألة: من نذر بطاعة في حالة الكفر ثم أسلم؟ قال مالك وأحمد يجب عليه الوفاء

لما مر من أن عمر بن الخطاب نذر في الجاهلية بالاعتكاف فسأل رسول الله ﷺ فقال: أوف بنذرك، وقال أبو حنيفة والشافعي لا يجب عليه الوفاء لأن الكافر ليس أهلاً للطاعة وطاعته معصية لعدم الإخلاص والنذر بالمعصية لا يجب الوفاء به، وإذا علمنا من ضرورات الدين أن الكافر ليس أهلاً للعبادة نحمل حديث عمر على أن إيفاء النذر وإن لم يكن واجباً عليه لكنه لما رغب في اعتكاف بعد الإسلام أمره النبي ﷺ بذلك ابتداء لا قضاء لما كان واجباً عليه.

مسألة: من نذر بطاعة ثم ارتد والعياذ بالله منه ثم أسلم لا يلزمه موجب النذر عند أبي حنيفة رحمه الله لأن نفس النذر بالقربة قربة فيبطل بالردة كسائر القرب فلا يترتب عليه موجبه.

مسألة: من نذر صوم الأبد فضعف عن الصوم لاشتغاله بالمعيشة له أن يفطر ويطعم لكل يوم نصف صاع من بر كذا في الفتاوى الكبرى وكذا قال ابن همام، وقال: فإن لم يقدر على الإطعام لعسرته يستنفر الله ويستقيله، والفتوى على أنه من نذر بصوم الأبد إن شاء صام وإن شاء كفر كذا في فتاوى الحجة، وكذا الخلاف فيمن نذر أي نذر يشق عليه ولم يطق والحجية على إجزاء الكفارة قوله ﷺ: «من نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين» وقد مر فيما سبق من حديث ابن عباس.

مسألة من نذر عشر حجج أو مائة حجة، اختلف فيه هل يلزمه كلها فيلزمه الإيصاء بها أو يلزمه قدر ما عاش؟ ففي الخلاصة نص على لزوم الكل وذكر غيره عن أبي يوسف ومحمد الثاني واختاره السرخسي، ولو قال عشر حجج في هذه السنة لزمه عشر في عشر سنين على رواية اختارها السرخسي ولزمه الكل في الحال على رواية الخلاصة، فإن أحج عنه عشرة رجال أجزأه إن مات قبل إدراك السنين وإن بقي حيًا فكلّما أدرك وقت الحج من كل سنة يجب عليه أن يحج بنفسه ويبطل حينئذ إحجاج غيره عنه لأنه قدر نفسه فظهر عدم صحة إحجاجهم فإن لم يطق أن يحج كل سنة فالخلاف في إجزاء الكفارة ما سبق والله أعلم.

مسألة: من قال: أنا أحج لا حج عليه لأنه وعد وليس بنذر لكن يندب الوفاء بالوعد.

مسألة: إن قال: إن عافاني الله من مرضي فعليّ أن أحج لزمه حج غير حجة الإسلام فإذا حج ولم ينو شيئاً وقع عن حجة الإسلام ثم إذا حج في السنة الثانية ولا نية له فقيل: هي تطوع ولا بد للمنذر من تعيين النية.

مسألة: من قال: عليّ حجة إن شاء فلان لزمه إن شاء فلان ولا يقتصر مشيئته على

مجلس بلوغه الخبر، بخلاف تعليق الطلاق بمشيئته لأن الطلاق يقبل التمليك والتمليك يستدعي جواباً في المجلس وهذا شرط محض.

مسألة: من نذر أن يتصدق بجميع ماله لزمه التصدق بجميع ما يجب فيه الزكاة استحساناً لأن إيجاب العبد معتبر بإيجاب الله تعالى، فيصرف إيجابه إلى إيجاب ما أوجب الشرع فيه الصدقة من المال، ولأن الظاهر التزام الصدقة من فاضل ماله وهو مال الزكاة بخلاف الوصية فإنها تقع في حالة الاستغناء، ومن نذر أن يتصدق بملكه لزمه أن يتصدق بالجميع عند أبي حنيفة وصاحبيه كذا في الهداية، وقال أحمد وزفر والشافعي يجب التصدق بالجميع في الصورتين، وقال مالك يلزمه في الصورتين أن يتصدق بثلث ما يملكه لحديث أبي لبابه أنه قال للنبي ﷺ: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله صدقة فقال رسول الله ﷺ: «يجزىء عنك الثلث» رواه رزين، قلنا: هذا الحديث لا دلالة له على أنه كان نذر يتصدق جميع ماله بل أراد الصدقة فأشار إليه النبي ﷺ أن يتصدق بالثلث كيلا يفوت حقوق الناس التي عليه ألا ترى أن النبي ﷺ لم يذكر الثلث في حديث كعب بن مالك الشيخان في الصحيحين أنه قال: قلت يا رسول الله من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: رسول الله ﷺ: «أمسك بعض مالك فهو خير لك» قال: قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر»[1].

مسألة: لو قال: مالي صدقة في المساكين لا يدخل ماله ديون على الناس.

مسألة: من نذر أن يتصدق بجميع ما هو ملكه في الحال وما يملكه في الاستقبال يمسك نفقة نفسه وزوجته ومن وجب عليه نفقته كما أن من نذر بصوم الأبد لا يجب عليه الفدية بدلاً من صوم رمضان لأنه مشغول بحق الغير، فمن شق عليه ذلك كفرّ على ما ذكرنا فيمن شق عليه المنذور.

مسألة: من قال: لله عليّ أن أذبح شاةً أو بقرةً أو بعيراً وقال إن شفي مريضي فعليّ أن أذبح يجب عليه ذلك حالاً في التنجيز وعند وجود الشرط في التعليق وجاز له أن يذبح حيث شاء ويتصدق بلحمه على الفقراء، وفي نوادر ابن سماعة لا شيء عليه إن قال لله عليّ أن أذبح ولم يقل صدقة، قلنا: إنه التزم بمال من جنسه واجب إلا أن يقصد نفس الذبح،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوصايا، باب: إذا تصدق أو أوقف بعض ماله أو بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز (٢٧٥٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: حديث كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩).

ولو قال لله عليّ هدي يجب عليه ما يجزىء في الأضحية من الضأن والمعز أو الإبل أو البقر إلا أن ينوي بعيراً أو بقرةً فليزمه ذلك وأن لا يذبح إلا في الحرم، فإن كان في أيام النحر فالسنة أن يذبح بمنى وإلا ففي مكة، وجاز له أن يذبح حيث شاء من أرض الحرم، ولو قال: علي أن أهدي جزوراً تعيّن الإبل والحرم، ولو قال: علي جزوراً ولم يذكر الهدي جاز في غير الحرم، ولو قال بدنة ولم يذكر الهدي فعن أبي يوسف أنه يتعين الحرم لأن اسم البدن لا يذكر في مشهور الاستعمال إلا في معنى المهداة ولو صرح بالهدي يتعين بالحرم فكذا البدنة، وعند أبي حنيفة في البدنة لا يشترط الحرم إلا أن يزيد فيقول بدنة من شعائر الله، فإذا ذبح الهدي في الحرم يتصدق بلحمه على مساكين الحرم وإن تصدق على غيرهم جاز أيضاً وهل يجوز التصدق بالقيمة في الحرم في نذر الهدي؟ ففي رواية أبي سليمان يجوز أن يهدي قيمتها اعتباراً بالزكاة، وفي رواية أبي حفص لا يجوز لأن في اسم الهدي زيادة على مجرد اسم الشاة وهو الذبح فالقربة فيه يتعلق بالذبح، ثم التصدق بعد ذلك تبع بخلاف الزكاة فإن القربة فيه التصدق بالشاة وهو ثابت في القيمة.

مسألة: من نذر شاة وأهدى مكانها جزوراً فقد أحسن، وليس هذا من القيمة لثبوت الإراقة في البدل الأعلى كالأصل، ولو قال: لله عليَّ أن أهدي شاتين فأهدي شاة تساوي أربع شياه في القيمة لم يجزئه إلا من شاة واحدة.

مسألة: لو قال: لله عليَّ أن أهدي هذه الشاة لزمته فإن سُرِقَتْ أو ماتت لا يلزم غيرها، وكذا لو قال لله عليَّ أن أتصدق بهذه الدراهم فهلكت قبل أن يتصدق بها لم يلزمه شيء غيرها ولو لم تهلك وتصدق بمثلها جاز، ولو نذر أن يتصدق بخبز كذا أفتصدق بقيمته جاز.

مسألة: ولو قال لله عليَّ أن أهدي ثوباً فأعطاه لحجبة البيت جاز إن كانوا فقراء وإلا فلا، ولو جعل الثوب لباساً للبيت لم يجزئه.

مسألة: قوله هذه الشاة هدي إلى البيت أو إلى مكة أو إلى الكعبة فوجب وإلى الحرم أو إلى المسجد الحرام غير موجب عنده وموجب عندهما وإلى الصفا غير موجب اتفاقاً، فإن قيل: مجرد ذكر الهدي موجب فزيادة ذكر الحرم أو الصفا لا يرفع الوجوب بعد الثبوت؟ قلنا: إذا ذكر الهدي مطلقاً يعتبر هناك ذكر البيت أو مكة مقدراً فيوجب وإذا نص على المسجد أو الحرم تعذر الإضمار فلا يوجب.

مسألة: لو قال ثوبي هذا ستر للبيت أو أضرب به حطيم البيت يلزمه استحساناً لأنه يراد بهذا اللفظ هدية عرفاً.

مسألة: من قال: إن اشتريت هذه الشاة (وأشار إلى شاة مملوكة لغيره) فعليَّ أن أهدي إلى الكعبة؟ قال الشافعي لا يلزمه الوفاء لأن التعليق عنده يمنع الحكم دون السبب عن الانقعاد، فعند انعقاد السبب الشاة مملوكة لغيره فيلغوا النذر بها لقوله ﷺ: «لا نذر فيما لا يملكه ابن آدم»(١) وعند أبي حنيفة يلزم لأن التعليق عنده يمنع السبب عن الانعقاد وإنما ينعقد بعد وجود الشرط يعني بعد الشراء فلا يلغوا.

مسألة: من قال: لله عليَّ أن أذبح نفسي أو ولدي أو عبدي يلزمه شاة استحساناً عند أبي حنيفة ح ولو كان له أولاً ولزمه زمان مكان كل واحد شاة وعند محمد يلزمه الشاة في الولد دون العبد والنفس وعند أبي يوسف لا لزمه شيء في واحد منها وهو القياس لأنه نذر بالمعصية وجه الاستحسان أن الله سبحانه أوجب شاةً بدلاً من إسماعيل ج حين وجب على إبراهيم ذبحه، ولما كان قتل النفس أو الولد حقيقة مهجوراً شرعاً لكونه معصية جعلنا إيجابه عل نفسه مجازاً عن إيجاب بدله عليه، كذا روى عن محمد بن المنتشر أنه قال: إن رجلاً نذر أن ينحر نفسه إن نجاه الله من عدوه فسأل ابن عباس فقال سل مسروقاً فسأله فقال له: لا تنحر نفسك فإنك إن كنت مؤمناً قتلتَ نفساً مؤمنة وإن كنت كافراً تعجلت إلى النار فاشترى كبشاً فاذبحه للمساكين فإن إسحاق خير منك فدي بكبش، فأخبر ابن عباس فقال: هكذا كنتُ أردتُ أن أفتيك رواه ابن رزين.

مسألة: من قال كل منفعة تصل إلى من مالك فعليَّ أن أتصدق بها لزمه أن يتصدق بكل ما ملكه، لا بما أباحه له كطعام أذن أن يأكله.

مسألة: لو قال: إن فعلتُ كذا فكل ما أكلتُ فعليَّ أن أتصدق فعليه عند وجود الشرط بكل لقمة درهم لأن كل لقمة أكلة ولو قال كلما شربت فإنما يلزمه بكل نفس لا بكل مصة.

مسألة: من قال: لله عليَّ أن أصوم اليوم الذي يقدم فيه زيد شكراً لله وأراد به اليمين فقدم فلان في يوم رمضان، كان عليه كفارة يمين ولا قضاء عليه لأنه لم يوجد شرط البر وهو الصوم بنية الشكر، ولو قدم قبل أن ينوي الصوم فنوى به الشكر لا عن رمضان برَّ بالنية وأجزأه عن رمضان ولا قضاء عليه، وإن لم يرد به اليمين لا شيء عليه لأن رمضان مشغول بحق الله تعالى فلا يجب فيه صوم النذر.

مسألة: إذا نذر المريض صوم شهر ومات قبل الصحة لا شيء عليه.

---

(١) في الصحيحين «وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك».

مسألة: من نذر صوم هذا اليوم أو يوم كذا من شهر أو سنة لزمه ما تكرر في الشهر والسنة.

مسألة: ولو نذر صوم يوم الإثنين والخميس فصام ذالك مرةً كفاه إلا أن ينوي الأبد.

مسألة: النذر إذا جرى على لسانه بغير قصد لزمه الوفاء لأنه إنشاء قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد» وقد مرَّ.

مسألة: من قال: لله علي صوم هذه السنة قيل لزمه أن يصوم اثني عشر شهراً من وقت النذر، وفي فتاوي قاضي خان والخلاصة أن السنة مبدَأها المحرم وآخرها ذو الحجة فإذا أشار إلى السنة التي هو فيها لزمه صوم ما بقي من السنة إلى آخر ذي الحجة ويلغو في حق ما مضى كما يلغو قوله لله عليَّ أن أصوم أمس، وكذا من قال لله عليَّ صوم هذا الشهر لزمه صوم ما بقي من الشهر الذي هو فيه.

مسألة: من قال لله عليَّ صوم أمس اليوم أو اليوم أمس لزمه صوم اليوم ولا يلزمه قضاء أمس.

مسألة: من نذر صوم السنة يجب عليه أن يفطر الأيام المنهية، وكذا المرأة تفطر أيام حيضها وتقضى، وقال زفر لا قضاء عليه وعليها، فإن صامها أثم وسقط عنه القضاء.

مسألة: من قالت: لله عليَّ أن أصوم أيام حيضتي لا يصح النذر ولا يجب عليها القضاء لأنها أضاقت إلى وقت غير صالح للصوم كمن قال عليَّ أن أصوم ليلة كذا.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ قال البغوي: قال ابن عباس والزبير ومجاهد وقتادة سمي عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من أيدي الجبابرة إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط، أخرج الترمذي وحسنه عن ابن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار»(١) لكن يردّ هذا القول حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»(٢) متفق عليه وحديث ابن عباس عن النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: ، باب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج (٣١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: هدم الكعبة (١٥٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من اللاء (٢٩٠٩).

«كأني به أسود أفحج يقلعها حجراً حجراً»[١] رواه البخاري، وحديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة»[٢] رواه أبو داود والحاكم وصححه، فإن هذه الأحاديث تدل على تسلط جبار عليه في المستقبل، وذلك ينافي كونه عتيقاً بهذا المعنى، وقيل: سمي عتيقاً لأن الله أعتقه من الغرق فإنه رفع أيام الطوفان، وقال ابن زيد والحسن سمي عتيقاً لأنه قديم وهو: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[٣] يقال دينار عتيق أي قديم، وقيل العتيق بمعنى الكريم يقال عتاق الخيل لكرامها، وعتق الرقيق خروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية، والمختار عندي قول سفيان بن عيينة أنه سمي عتيقاً لأنه غير مملوك لبشر ولم يملك قط بل لم يملك ما حوله من الحرم ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾[٤].

اعلم أن الطواف بالبيت عبادة معقولة مقصودة كالصلاة، منها ما هو فريضة ركن للحج والعمرة ومنها ما هو واجب كطواف القدوم والصدر على ما نذكر فيه من الاختلاف وما سوى ذلك تطوع غير مؤقت بوقت، قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد مناف من ولي منكم في أمور الناس شيئاً فلا يمنعن أحداً طاف بالبيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار»[٥] رواه الشافعي وأحمد وأصحاب السنن وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم من حديث أبي الزبير عن عبد الله بن باباه عن جبير بن مطعم وصححه الترمذي، ورواه الدارقطني من وجهين آخرين عن نافع بن جبير عن أبيه ومن طريقين آخرين عن جابر وهو معلول، ورواه الدارقطني أيضاً عن ابن عباس ورواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان والخطيب في التلخيص من طريق عامر بن عبيدة عن أبي الزبير عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه وهو معلول ورواه ابن عدي من طريق سعيد بن راشد عن عطاء عن أبي هريرة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: هدم الكعبة (١٥٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب: ذكر الحبشة (٤٣٠٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٦. (٤) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الصلاة بعد العصر وبعد الصبح لمن يطوف (٨٦٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب: الطواف بعد العصر(١٨٩٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: المواقيت، باب: إباحة لصلاة في الساعات كلها بمكة (٥٨٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الرخصة في الصلاة بمكة في كل وقت (١٢٥٤)، وأخرجه الشافعي في الجزء الأول باب مواقيت الصلاة (١٧٠).

مسألة: وطواف التطوع يكون واجباً بالنذر كالصلاة، المراد بهذه الآية طواف الزيارة في الحج إجماعاً وهو ركن من أركان الحج إجماعاً، وليس شيء من الأطوفة ركناً من الحج سوى طواف الزيارة.

مسألة: وأما طواف القدوم فهو سنة عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد، وعند مالك واجب وبه قال أبو الثور من الشافعية يجب الدم بتركه ولا يفوت بفواته الحج إجماعاً، عن عروة بن الزبير قال: «قد حج النبي ﷺ فأخبرتني عائشة أن النبي ﷺ أول شيء بدأ به حين قدم مكة أن توضأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة ثم حج أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة ثم عمر ثم عثمان مثل ذلك»(١) متفق عليه، وعن ابن عمر قال كان رسول الله ﷺ: «إذا طاف في الحج والعمرة أول ما يقدم سعى ثلاثة أطوف ومشى أربعة ثم سجد سجدتين ثم يطوف بين الصفا والمروة»(٢) متفق عليه، احتج مالك بحديث عروة بنالزبير على أن النبي ﷺ مفرداً بالحج لقوله ثم لم يكن عمرة وعلى وجوب طواف القدوم بالحديثين المذكورين لأنه ﷺ أول ما قدم طاف طواف القدوم، وقد صح عنه: «إنه قال ﷺ: «خذوا عني مناسككم»(٣) فصار واجباً بأن السعي بين الصفا والمروة جائز بعد طواف القدوم إجماعاً مع أن السعي بين الصفا والمروة واجب إجماعاً، وتقدم الطواف على السعي شرطاً لجواز السعي إجماعاً والواجب لا يتبع التطوع و لهذا لا يجوز للمكي أن يسعى بين الصفا والمروة إلا بعد طواف الزيارة، إذ ليس عليه طواف القدوم ولا يجوز له السعي بعد طواف نافلة فإن قلت: قد دل كثير من الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ كان قارناً بحديث أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ: يلبي بالحج والعمرة يقول: «لبيك عمرةً وحجاً»(٤) متفق عليه وحديث عمران بن حصين أنه ﷺ جمع بين حجته وعمرته، وحديث ابن عمر قال: «تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الطواف على وضوء (١٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما يلزم من طاف بالبيت وسعى من البقاء على الإحرام وترك التحلل (١٢٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: من طاف بالبيت إذا قدم مكة قبل أن يرجع إلى بيته ثم صلى ركعتين ثم خرج إلى الصفا (١٦١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: وجوب الدم على المتمتع (١٢٢٧).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم (٣٠٥٣).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: في الإفراد والقران بالحج والعمرة (١٢٣٢).

الهدي»[١] الحديث متفق عليه، وبهذا الحديث ونحوه قال أحمد بن حنبل إنه ﷺ كان متمتعاً، قلنا: المراد بالتمتع في هذا الحديث هو القرآن، فإن التمتع بالعمرة إلى الحج يشتمل لغةً من أتى بهما جميعاً في عام واحد في أشهر الحج سواء أتى بهمابإحرام واحد أو بإحرامين كما أريد بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[٢] وإطلاق التمتع على ما يقابل القرآن اصطلاح جديد للفقهاء، وما ذكرنا من الحديثين وغيرهما صريحة في أنه ﷺ أهل بهما جميعاً.

ثم اختلف الناس أنه ﷺ حين دخل المكة هل طاف طوافاً واحداً، أم طاف طوافين أحدهما للقدوم وثانيهما للعمرة، فالجمهور على أنه ﷺ أنه طاف حين قدومه طوافاً واحداً وقال أبو حنيفة طاف طوافين احتج الجمهوربما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «قدم النبي ﷺ وطاف وسعى بين الصفا والمروة ولم يقرب الكعبة لطوافه بها حتى رجع من عرفة»[٣] وحديث ابن عمر أنه أراد الحج عام نزل الحجاج بابن الزبير فقيل إن الناس كائن بينهم وإنا نخاف أن يصدون، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ إذن أصنع كما صنع رسول الله ﷺ أني أشهدكم إني قد أوجبت عمرة، ثم خرج حتى إذا كان بظاهر البيداء فقال: ما شأن الحج والعمرة إلا واحداً أشهدكم أني أوجبت حجاً مع عمرتي وأهدي هدياً اشتراه بقديد، فلم ينحر ولم يحل من شيء يحرم منه ولم يحلق ولم يقصر حتى كان يوم النحر فنحر وحلق ورأى أنه قد قضى الحج والعمرة بطوافه الأول قال ابن عمر وكذلك فعل رسول الله ﷺ[٤] متفق عليه، وفي رواية قال الراوي في آخر الحديث كان يقول ابن عمر من جمع بين الحج والعمرة كفاه طواف واحد لم يحل حتى يحل منهما جميعاً، وفي رواية لمسلم حتى إذا جاء البيت فطاف سبعاً وسعى بين الصفا والمروة سبعاً لم يزد عليه ورأى أنه مجزىء عنه. واحتجت الحنفية بحديث علي أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين وسعى لهما سعيين وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ فعل، رواه الدارقطني والنسائي بطرق ورواه محمد في كتاب الآثار عن أبي حنيفة بسنده

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: من ساق البدن معه (١٦٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: وجوب الدم على المتمتع (١٢٢٧).
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: ما يلبس المحرم من الثياب والأردية والأزر (١٥٤٥).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: طواف القارن (١٦٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: جواز التحلل بالإحصار وجواز القران (١٢٣٠).

عن علي موقوفاً أنه قال إذا أهللتَ بالحج والعمرة فطف لهما طوافين واسع لهما سعيين بين الصفا والمروة، وروى الطحاوي بسنده عن علي وابن مسعود قال: القارن يطوف طوافين ويسعى سعيين قال الحافظ ما روى عن علي وابن مسعود طرقه ضعيفة مرفوعاً، لكن روى الطحاوي وغيره موقوفاً عن علي وابن مسعود بأسانيد لا بأس بها إذا اجتمعت، قلت: هذا الحديث لو ثبت لا يدل على أنه ﷺ طاف حين قدومه بمكة قبل رواحه إلى منى طوافين طوافاً للعمرة وطوافاً للقدوم بل معنى هذا الحديث أنه ﷺ طاف لعمرته وسعى لها وذلك قبل رواحه إلى منى وطاف للحج يوم النحروسعى له وكذا معنى حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ طاف طوافين وسعى سعيين، رواه الدارقطني، ولم يرد عنه ﷺ في شيء من الأحاديث الصحيحة ولا الضعيفة أنه طاف للقدوم بعد طواف عمرته إلا في ما مسند أبي حنيفة عن الضبي بن معبد قال أقبلت من الجزيرة حاجاً قارناً فمررت بسليمان بن ربيعة وزيد بن صوحان فسمعاني أقول لبيك بحجة وعمرة معاً فقال أحدهما هذا أضلُّ من بعيره وقال الآخر هذا أضل من كذا وكذا، فمضيتُ حتى قضيتُ نسكي ومررتُ بأمير المؤمنين عمر فساقه إلى أن قال فيه، قال يعني عمر له فصنعت ماذا قال مضيتُ فطفت طوافاً لعمرتي وسعيتُ لعمرتي ثم عدتُ ففعلت مثل ذلك لحجي ثم بقيت حراماً ما أقمنا أصنع كما يصنع الحاج حتى قضيتُ آخر نسكي، قال هديت لسنة نبيك ﷺ، ومسند الإمام أبي حنيفة بين جامعه وبين الإمام رجال لا يعرف حالهم فأحاديث المسند لا يصلح أن يعارض ما في صحيح البخاري من حديث ابن عباس أنه لم يقرب بطوافه بها حتى رجع من عرفة والله أعلم ولما ثبت أن النبي ﷺ كان قارناً ولميطف حين قدومه سوى طواف العمرة، ظهر أن طواف القدوم ليس ركناً من أركان الحج ولا واجباً مستقلاً برأسه بل هو سنة مثل ركعتي تحية المسجد يتأدى في ضمن واجب أو سنة أخر، ألا ترى أنه من أتى المسجد وصلى فريضة أو سنة مؤكدةً حين دخول المسجد أجزأته عن تحية المسجد فالنبي ﷺ قدم مكة وطاف للعمرة أجزأته عن طواف القدوم.

مسألة: وأما طواف الصدر فهو أيضاً ليس بركن إجماعاً بل هو واجب عند أبي حنيفة وأحمد وهي رواية عن الشافعي لكن عند أبي حنيفة ح هو من واجبات الحج، فمن طاف للوداع ثم اتفق له المقام بمكة ثم خرج بعد زمان لا يجب عليه الإعادة، وقال محمد هو واجب برأسه على من يريد أن يخرج من مكة مسافراً ففي الصورة المذكورة يجب عليه إعادة الطواف عنده وسنة عند مالك وهو أحد قولي الشافعي ويسقط بعذر الحيض والإحصار إجماعاً، لنا حديث ابن عباس قال: كان الناس ينصرفون في كل وجه فقال

النبي ﷺ: «لا ينفر أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت» رواه أحمد ورواه الدارقطني بلفظ كان الناس ينفرون من منى إلى وجوههم فأمرهم رسول الله ﷺ أن يكون آخر عهدهم بالبيت ورخص الحائض ورواه مسلم بلفظ «لا ينفر أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت» وفي المتفق عليه بلفظ أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خفف عن الحائض وحديث ابن عمر قال: «من حج البيت فليكن آخر عهده بالبيت الطواف إلا الحيض رخص لهّن رسول الله ﷺ»، رواه الترمذي وقال هذا الحديث حسن صحيح وحديث عبد الله بن أوس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من حج هذا البيت أو اعتمر فليكن آخر عهده بالبيت»[1] رواه الترمذي احتج أبو حنيفة بهذا الحديث أنه من واجبات الحج لقوله ﷺ من حج البيت الخ حيث جعل الطواف من واجبات الحج، قلت فعلى هذا يلزم أن يكون من واجبات العمرة أيضاً ولم يقل به أحد، ولأحمد عموم قوله ﷺ: «لا ينفر أحد حتى يكون آخر عهده» ولا يلزم على أصل أبي حنيفة حمل المطلق على المقيد لكون النقييد داخلاً على السبب كما في قوله ﷺ: «أدوا عن كل حر وعبد» وقوله ج أدوا عن كل حر وعبد من المسلمين» بل يقال النفور مطلقاً سبب للطواف والنفور عن الحج أيضاً سبب ولا منافاة بينهما والله أعلم.

فصل

وللطواف بالبيت شرائط وأركان وواجبات وسنن وآداب. أما الشرائط فمنها النية فإنها شرط لكل عبادة مقصودة بالنصوص والإجماع لكن يكفي لطواف الزيادة نية مطلق الطواف ولا يشترط تعين نية الفرض، فإن قيل طواف الزيارة ركن من أركان الحج كالوقوف بعرفة وليست النية شرطاً للوقوف حتى من وقف بعرفة نائماً أو مغمى عليه أو وقف على جبال ولم يعرف أي منها العرفة يجزئه، قال عروة بن مضرس جئت يا رسول الله من جبل طي أكللتُ مطيتي وأتبعتُ نفسي والله ما تركت من جبل إلا وقفتُ عليه فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أدرك معنا لهذه الصلاة يعني صلاة الصبح بجمع وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه» رواه أبو داود وغيره فما وجه الفرق بين الطواف والوقوف، ثم إن كانت شرطاً فما وجه قولكم يكفيه نية مطلق الطواف ولا يشترط نية تعين الفرض مع أن تعين النية شرط لكل فريضة وقتها طرف لها وليس بمعيار كالصلاة، قلنا: تحقيق المقام أن النية بجميع المناسك قد اقترن بالإحرام في ضمن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: في المرأة تحيض بعد الإفاضة (٩٣٩).

نية الحج، فما لم يعترض نية أخرى منافية لنية النسك يعتبر ذلك النية السابقة موجودة عند كل ركن ولا يشترط تجديدها كما في أفعال الصلاة، إلا أنه ما كان من المناسك عبادة مستقلة كالطواف وركعتي الطواف ويشترط تجديد مطلق النية عند شروعه لأن الصلاة والطواف لكل منهما جهتان عبادة في نفسه وجزء عبادة، فمن حيث إنه عبادة في نفسه لا بد فيه من اقتران النية بأول جزء من أجزائه، ومن حيث إنه جزء عبادة يكفيه النية السابقة المقترنة للإحرام، فعملنا بالشبهين وقلنا لا بد فيه مطلق النية عند الشروع لأنه عبادة ولا يشترط تعيين النية لأنه جزء من عبادة، وما ليس بعبادة إلا من حيث كونه جزءً للحج كالوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة فقلنا إنه لا يشترط اقتران النية به بل يكفيه اقتران النية بالإحرام.

مسألة: من طاف حاملاً غيره فإن كان الحامل حلالاً والمحمول محرماً ونوى طواف المحمول ونوى المحمول طوافه أو كان على العكس ونوى الحامل طواف نفسه أجزأه إجماعاً، وإن كان محرمين فإن قصد للمحمول فقط فله وإن طاف لنفسه فلنفسه وإن طاف لهما فللحامل فقط عند الشافعي وعند أبي حنيفة إن طاف لنفسه أولهما ونوى المحمول طواف نفسه يتأدى طوافهما لوجود النية منهما ولا منافاة بينهما.

مسألة: ومنها الطهارة عن الحدث الأكبر والأصغر، ومنها طهارة البدن والثوب والمكان عن الأحداث، ومنها ستر العورة عند الجمهور لما مر من حديث عائشة قالت أول شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنه توضأ ثم طاف مع قوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم»[١] وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قدمتُ مكة وأنا حائض، إلى قوله ﷺ: «افعلي كما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري»[٢] وفي رواية لمسلم «حتى تغتسلي» وعن عائشة قالت: «حاضت صفية ليلة النفر وفيه قال النبي ﷺ أطافت يوم النحر؟ قيل: نعم قال: «فانفري»[٣] متفق عليه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس

(١) أخرجه النسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم (٣٠٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحيض، باب: تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت (٢٩٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان وجوه الإحرام (١٢١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الإدلاج من المحصب (١٧٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان وجوه الإحرام (١٢١١).

أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[١]، وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[٢] الآية فإنه أمر بتطهير المكان عبادةً وبتطهير الثوب والبدن دلالة بالطريق الأولى وكذا بالتطهير عن الأحداث بالطريق الأولى إذ الأخباث أخف من الأحداث شرعاً حيث يجوز الصلاة مع النجاسة عند الضرورة بخلاف الحدث، قال ابن عباس قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣] فالطواف قيل قبل الصلاة وقد قال رسول الله ﷺ: «الطواف بمنزلة الصلاة إلا أن الله قد أحلَّ فيه النطق فمن نطق فلا ينطق إلا بخير» رواه الحاكم في المستدرك وصححه والطبراني والبيهقي وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع فقط، وروى الترمذي والحاكم والدارقطني وابن خزيمة وابن حبان والبيهقي وصححه ابن السكن قوله ﷺ: «الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام» وعند أبي حنيفة ﷺ الطهارة عن الأخباث سنة وستر العورة والطهارة عن الأحداث واجب يأثم بتركه ويجب بدنة إن طاف الفرض جنباً أو عرياناً ودم مطلقاً، فإن طاف للفرض محدثاً أو غيره جنباً أو عرياناً، وصدقته بنصف صاع من بر على مسكين إن طاف غير الفرض محدثاً ليس شيء من ذلك شرطاً عنده لأن ثابت بالكتاب مطلق الطواف والزيادة على الكتاب في حكم النسخ عنده ولا يحوز نسخ الكتاب بأحاديث الآحاد فقال بالوجوب عملاً بالأحاديث ولم يقل بالاشتراط لئلا يلزم نسخ الكتاب.

مسألة: ومن شرائط طواف الزيارة الوقت لا يتأدى قبله ويقضى بعده إجماعاً فإن أخر عن الوقت بتقصيره يجب عليه الدم عند أبي حنيفة رحمه الله خلافاً للجمهور، وإن أخَّرَ بعذر كالإحصار والحيض ونحو مما لا يجب الدم، ووقته من طلوع الفجر يوم النحر عند أبي حنيفة رحمه الله وعند الأئمة الثلاثة بعد نصف الليل من الليل النحر لحديث عائشة قالت: «أرسل رسول الله ﷺ ليلة النحر فرمت الجمرة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت» رواه الدارقطني والحديث ضعيف لأن في سنده ضحاك بن عثمان لينه القطان ومعارض بحديث ابن عباس «أن رسول الله ﷺ قدم ضعفة أهله وقال: لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[٤] رواه الترمذي وقال هذا الحديث صحيح وأخرجه أبو داود والنسائي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: ما يستر العورة (٣٦٢).

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٦. (٣) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في تقديم الضعفة من جمع بليل (٨٨٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: التعجيل من جمع (١٩٤٠)، وأخرجه النسائي في كتاب: ناسك الحج، باب: النهي عن رمي جمرة العبة قبل طلوع الشمس (٣٠٥٥).

والطحاوي وابن حبان من طريق الحسن الغربي وهو حديث حسن وأخرجه الترمذي والطحاوي وله طرق آخر عند أبي داود والنسائي والطحاوي ابن حبان يقوي بعضها بعضاً وأيضاً الإضافة معطوفة في حديث عائشة على الرمي بكلمة ثم والفاء فلا يدل تقدم الإفاضة على طلوع الفجر، وآخر وقته عند أبي حنيفة إلى غروب الشمس من ثاني أيام التشريق وقيل: وقته يوم النحر خاصة، وقد ذكرنا في سورة البراءة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾[1] أن عند الجمهور هو يوم النحر رواه أبو داود والحاكم وصححه من حديث ابن عمر مرفوعاً وهو المروي عن علي عليه السلام، وروى ابن جريج عن مجاهد يوم الحج الأكبر أيام منى كلها وكان الثوري يقول يوم الحج الأكبر أيام منى كلها مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث يرادبه الحين من الزمان.

مسألة: ومن شرائط الطواف الترتيب عند مالك والشافعي وأحمد وبه قال محمد وهو أن يبتدىء الطواف من الحجر الأسود يقوم مستقبلاً بحيث يكون جميع الحجر عن يمينه فيطوف جاعلاً للبيت عن يساره فلو طاف جاعلاً للبيت عن يمينه لا يجوز ولو بدأ بغير الحجر لم يحتسب فإذا انتهى إليه ابتدأ منه، وقال أبو حنيفة الترتيب ليس بشرط فعند أكثر الحنفية سنة يكره تركه والصحيح أنه واجب عند أبي حنيفة ح يلزم بتركه دم لمواظبة النبي ﷺ على ذلك وقوله: «خذوا عني مناسككم» ولم يقل بالاشتراط لئلا يلزم الزيادة على الكتاب.

مسألة: ويشترط أن يطوف في المسجد لا حول المسجد إجماعاً للنقل المستفيض المتواتر كذلك قالوا من طاف حول المسجد لا يقال إنه طاف بالبيت بل يقال إنه طاف بالمسجد فكان هذا القصر قصراً بدلالة العرف.

فصل

وركن الطواف سبعة أشواط فإن قيل الأمر لا يقتضي التكرار؟ قلنا كما لا يقتضي التكرار لا ينفيه وقد نقل إلينا بالنقل المستفيض عدد الطواف كعدد الركعات.

مسألة: من طاف أربعة أشواط وترك ثلاثة أجزأه عند أبي حنيفة ويلزمه الدم في طواف الزيارة والصدقة في غيره لأن للأكثر حكم الكل ويجبر النقصان بالدم والصدقة ولا يجزئه

(١) سورة التوبة، الآية: ٣.

عند غيره كما لا يجزىء من ترك ركعة من الظهر، فإن عدد الأشواط كعدد الركعات والله أعلم.

مسألة: الحطيم قطعة من البيت يجب الطواف وراءه لحديث عائشة قالت: «سألت النبي ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: نعم، قلتُ: فما لهم لم يدخلوه في البيت قال: إن قومَكِ قصرت لهم النفقة، قلتُ: فما أن بابه مرتفعاً؟ قال: «فعل ذلك قومك يدخلها من شاؤوا ويُمنع من شاؤوا، لولاأن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن ينكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض»[1] متفق عليه، وروى الترمذي والنسائي عنها قالت كنت أحب أن أصلي في البيت فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني الحجر وقال: «صلى فيه فإنما هو قطعة من البيت»[2] الحديث، وروى أبو داود نحوه، واختار المحققون أن بعض الحطيم من البيت وهو ستة أذرع وشيء لما ورى مسلم عن عائشة قوله ﷺ: «لولا قومك حديث عهد بالشرك لهدمت الكعبة وألزقتُها بالأرض وجعلتُ لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً ورددتُ فيها ستة أذرع من الحجر، وفي رواية لمسلم «علمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريباً من سبعة أذرع» وروى البخاري بسنده عن جرير بن حازم قال قال يزيد بن رومان شهدتُ ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم حجارةً كأسنحة الإبل فأشار إلى مكان، قال جرير فخرزت من الحجر ستة أذرع أو نحوها، وروى عن مجاهد أن ابن الزبير زاد فيه ستة أذرع مما يلي الحجر، وفي رواية ستة أذرع وشبر.

مسألة: من طاف داخل الحطيم يجزئه عند أبي حنيفة ويلزمه دم لأن كونه من البيت ثبت بحديث الآحاد فلا يجوز به الزيادة على الكتاب، وقال الجمهور لا يجزئه لأن الزيادة على الكتاب بخبر الآحاد عندهم جائز، قلت: ليس هذا زيادة على الكتاب لأن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت العتيق واللام للعهد، والمراد البيت الذي بناه إبراهيم كما يقتضيه سياق الآية من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[3] وإذا ثبت بدليل ظني أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنيانها (١٥٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: حدد الكعبة وبابها (١٣٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الحج، باب: ما جاء في الصلاة في الحجر (٨٧١)، وأخرجه النسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: الصلاة في الحجرات (٢٩٠٢).

(٣) سورة الحج، الآية: ٢٦.

الحطيم قطعة من البيت فمن طاف داخل الحطيم وقع الشك في كونه مجزئاً وقد وجب عليه طواف البيت قطعاً فلا يخرج من العهدة بالشك، أو يقال البيت الذي بناه إبراهيم مجمل في حق المقدار والتحق الحديث به بياناً.

مسألة: جاز الطواف للزيارة راكباً بعذر إجماعاً، وإما لغير عذر فالمشي في الطواف واجب عند أبي حنيفة، فمن طاف راكباً بلا عذر يجب عليه أن يعيد ما دام بمكة فإن لم يعد يجب عليه الدم، وقال الجمهور المشي سنة وليس بواجب الحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ: طاف بالبيت وهو على بعيره كلما أتى الركن أشار إليه بشيء في يده وكبر»(١) متفق عليه، وحديث جابر «طاف النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليراه الناس وليشرف وليسألوه»(٢) رواه مسلم، وفي حديث عائشة طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره يستلم الركن كراهة أن يضرب عنه الناس قالت الحنفية كان ذلك لأجل المرض لما روى أبو داود عن ابن عباس أنه ﷺ قدم مكة وهو يشتكي فطاف على دابته كلما أتى الركن استلم الركن بمحجنه فلما فرغ من طوافه أناخ فصلى ركعتين(٣)، وأجيب بأن مجرد الاحتمال لا يكفي وما رواه أبو داود ضعيف لأنه من رواية يزيد بن أبي زياد وهو ليس بالقوى لا يحتج بحديثه وقد أنكره الشافعي وقال: لا أعلمه اشتكى في هذه الحبة، قلت: ولو كان قدوم النبي ﷺ بمكة مشتكياً لكان شكواه مانعاً من المشي في طواف القدوم أيضاً، وقد صح عنه ﷺ من حديث جابر وغيره أنه ﷺ طاف طواف القدوم فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، وصح عنه ﷺ أنه سعى بين الصفا والمروة وكان يدور إزاره من شدة السعي، فثبت أنه ﷺ إنما طاف للزيارة راكباً لبيان الجواز وتعليم الناس مناسكهم وأما طواف النافلة فيجوز عند الجمهور بلا كراهة ولعله مكروه على أصل أبي حنيفة، لنا أنه ﷺ لما فتح مكة وطاف عند قدومه طاف على راحلته كماذكرنا رواية البخاري في سورة الفتح.

مسألة: والموالاة ليس بشرط في الطواف إجماعاً بل هو سنة، روى سعيد بن منصور عن ابن عمر أنه طاف بالبيت فأقيمت الصلاة فصلى مع القوم ثم قام فبنى على ما مضى من طوافه، وكذا روى عبد الرزاق عن عبد الرحمن بن أبي بكر وروى سعيد بن منصور عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: التكبير عند الركن (١٦١٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: جواز الطواف على بعير وغيره واستلام الحجر بمحجن ونحوه للراكب (١٢٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الطواف الواجب (١٨٨٠).

عطاء أنه كان يقول في الرجل يطوف بعض طوافه ثم يحضر الجنازة فيخرج فيصلي عليها ثم يرجع فيقضي ما بقي من طوافه، وقال نافع طول القيام في الطواف بدعة، وروي عن الحسن أنه قال: من أقيمت عليه الصلاة وهو في الطواف فقطعه أن يستأنفه.

مسألة: ويكره قطع طواف فريضة وإن أقيمت الصلاة المكتوبة، ألا ترى إلى حديث أم سلمة أنها طافت للصدر والنبي ﷺ يصلي الصبح.

مسألة: يقطع الطواف النافلة لو أقيمت للفريضة أو خاف فوت صلاة الجنازة أو نحوها لا لعبادة نافلة والأولى أن يقطع على الوتر لما ذكرنا من أثر عبد الرحمن بن أبي بكر.

مسألة: يجب بعد كل أسبوع ركعتان عند أبي حنيفة وهو رواية عن مالك وأحد قولي الشافعي فيلزم بتركه دم، وقد ذكرنا المسألة وما يتعلق بها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1] في سورة البقرة.

مسألة: وآداب الطواف أنه إذا رأى البيت كبر وهلل ودعا روى الطبراني أن الدعاء مستجاب عند رؤية الكعبة، ثم استقبل الحجر وكبر وهلل وقبّله بشفتيه إن قدر غير مؤذٍ، روى البخاري عن ابن عمر أنه ﷺ يستلمه ويقبله، وروى الشافعي مرفوعاً وضع شفتيه عليه طويلاً، وعند ابن ماجه وضع عليه شفتيه يبكي طويلاً، وعند الحاكم قبّله وسجد عليه، وإن لم يقدر يمس شيئاً وقبله لما مرَّ أنه ﷺ طاف على بعيره يستلم الركن بمحجنه وإن عجز استقبله عن سعيد بن المسيب عن عمر أنه ﷺ قال له: إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وكبر وهلل، رواه أحمد.

مسألة: وإذا أتى الركن اليماني استلم عند الجمهور وعند أبي حنيفة استلام الركن اليماني مستحب ليس بسنة، وفي الصحيحين عن ابن عمر رأيت رسول الله ﷺ يستلمهما يعني الحجر الأسود والركن اليماني»[2] وروى الدارقطني مرفوعاً «كان يقبّل الركن اليماني ويضع عليه خده» وروى ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً «وكل يعني بالركن اليماني سبعون ملكاً فمن قال: اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: الرمل في الحج والعمرة (١٦٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: استحباب استلام الركنين اليمانيين في الطواف (١٢٦٨).

حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ قالوا: آمين[١].

مسألة: ويرمل في الثلاثة الأول من أشواط طواف القدوم مضطبعاً وهو سنة من الحجر إلى الحجر صح عنه ﷺ أنه رمل من الحجر إلى الحجر ثلاثاً ومشى أربعاً وكلما مر بالحجر والركن فعل كما فعل أول مرة وختم الطواف باستلام الحجر، كذا صح عنه ﷺ ثم يصلي شفعاً عند المقام ويقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ والإخلاص ثم يرجع فيستلم الحجر ويكبّر ويهلّل، روى مسلم في حديث جابر «أنه ﷺ جعل المقام بينه وبين البيت وصلى ركعتين قرأ فيهما: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثم رجع إلى الركن الأسود فاستلمه ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، أو فاعل لفعل محذوف أو منصوب بفعل محذوف يعني الأمر ذلك أو ذلك ثابت واجب الامتثال ووجب ذلك أو عرفت ذلك أو احفظ ذلك، وذلك إشارة إلى ما سبق من الأحكام وهو وأمثاله يطلق للفصل بين كلامين ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني معاصي الله ومنهي عنه وتعظيمها أن يشق عليه اقترابها، فإن المؤمن يرى خطيئته صدرت منه كمثل جبل على رأسه يخاف أن يقع عليه، وإن المنافق يرى خطيئة كمثل ذباب على أنفه فعل بيده هكذا فطارت كذا وقع في الحديث، وقال الليث حرمات الله ما لا يحل انتهاكها يعني أو أمر الله ونواهيه، وقال الزجاج الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وذهب قوم إلى أن معنى حرمات الله المناسك، وقال ابن زيد الحرمات ها هنا البلد الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام ﴿فَهُوَ﴾ يعني تعظيم الحرمات ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه حيث قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[٢] الآية يعني فلم تحرمون منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وهذه جملة معترضة ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي الرجس الذي هو الأوثان سماه رجساً أي قذراً لأن العقول والطباع السليمة يتنفر عنها كما يتنفر المرء عن القاذورات، فهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها، وقيل: هو بمعنى الرجز وهو العذاب سماه رجساً لأنه سبب للتعذيب ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ يعني الكذب مشتق من الزَّور بفتح الزاء بمعنى الانحراف كما أن الإفك من الإفك بمعنى الصرف، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع، والمراد ها هنا قولهم الملائكة بنات الله والأوثان شفعاؤنا عند الله وقولهم في

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: فضل الطواف (٢٩٥٧).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٠.

تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملكه، واللفظ عام يعم جميع أنواع الكذب في الحكايات والمعاملات روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والطبراني وابن المنذر وغيرهم عن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف قام قائداً فقال: «عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ثلاث مرات» ثم قرأ: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾[1] قال قتادة كانوا في الشرك يحجون ويمنعون البنات والأمهات والأخوات وكانوا يسمون أنفسهم حنفاء والحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم عليه السلام.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي مخلصين له الدين من الحنف محركة وهو الاستقامة كذا في القاموس والاستقامة على الحق هو الإخلاص لله والإعراض عما سواه ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ في العبادة ولا في إثبات وجوب الوجود والألوهية، يعني من أشرك لا يكون حنيفاً ولا على إبراهيم فإنه لم يك من المشركين، قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ مع ما عطف عليه معطوف على قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾ متفرع عليه وهو خبر لفظاً لكنه أمر معنى فإن معناه عظموا حرمات واجتنبوا الأوثان لأن عبادة الأوثان من أعظم المحرمات وأشدها فعلاً، والقول بما كان المشركون يقولونها ندباً أعظمها وأشدها قولاً

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: القضاء، باب: في شهادة الزور (٣٥٩٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأحكام، باب: شهادة الزور (٢٣٧٢).

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ غيره ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني أن عبادة الله تعالى كمال ورفعة لا رفعة فوقه، فيفوق كل شيء كمن هو مستو على السماء فهو فوق كل شيء في الحس ولا يعدله غيره في الارتفاع، ثم إذا عبد مع الله غيره من الممكنات فكأنما سقط من السماء إلى الحضيض، إذ لا مذلة فوق من أذلّ نفسه حتى بعد ممكناً مثله بل دونه من الحجارة وأمثالها ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ قرأ نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء من التفعيل للمبالغة والباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء من المجرد ﴿ٱلطَّيْرُ﴾ استعارة بالكناية أراد بالطير الأهوية المردية فإنها تخطفه أي تسلبه وتوزع أفكاره ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ استعارة مثله أراد بالريح الشيطان فإنه يهوي ويطرح به في مكان من الضلالة ﴿سَحِيقٍ﴾ بعيد من الحق يعني من أشرك استولى عليه النفس أو الشيطان وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع، وقال البيضاوي أو للتنويع فإن من المشركين من لا خلاص له أصلاً فكأنما اختطفه الطير فلم يبق من جسده شيء، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة كمن أوقعه الريح في مكان بعيد يمكن أن يأتي من هناك إلى مأواه، والظاهر أنه من التشبيهات المركبة والمعنى أنه من يشرك بالله فهو كمن سقط من السماء فإنه لا يملك لنفسه حيلة ويهلك لا محالة إما باستلاب الطيران وإما بسقوطه في مكان سحيق، قال الحسن شبه أعمال الكفار بهذا الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شيء منها وعن البراء بن عازب في حديث طويل ذكرنا بعضه في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] قوله ﷺ في ذكر موت العبد الكافر «أن الملائكة يصعدون بروحه حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلي فيطرح روحه طرحاً ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ الآية ﴿ذَٰلِكَ﴾ تفسيره مثل ما سبق ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس شعائر الله البدن والهدي وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليعرف أنها هدى وتعظيمها استسمانها، وقد صح أنه ﷺ أهدى مائة بُدنة[2]، وروى أبو داود أن عمر رضي الله عنه أهدى بختية طُلِبت منه بثلاث مائة دينار ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذف هذه المضافات وذكر القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور والآمرة بهما ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يعني لكم في تلك الشعائر أي البُدن والهدي منافع يعني جاز لكم الانتفاع بها بركوبها والحمل عليها وشرب لبنها غير مضربها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معلوم يعني إلى أن تنحروها كذا قال عطاء بن رباح وبه قال

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: يتصدق بجلال البدن (١٧١٨).

مالك والشافعي وأحمد وإسحاق أنه جاز ركوب الهدي والحمل عليها وشرب لبنها غير مضر بها، ويؤيده حديث أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال أركبها فقال: إنها بدنة قال: اركبها قال: إنها بدنة قال: اركبها ويلك في الثانية أو الثالثة»(١) متفق عليه وحديث أنس نحوه رواه البخاري وحديث ابن عمر رأى رجلاً يسوق بدنة فقال: اركبها، وما أنت بمستن سنة أهدى من سنة محمد ﷺ رواه الطحاوي، وقال أبو حنيفة لا يجوز ركوبها ولا الحمل عليها ولا شرب لبنها إلا لضرورة لأنه لمَّا جعلها كلها لله تعالى فلا ينبغي أن يصرف منها شيئاً لمنفعة نفسه وهذا المعنى يقتضي المنع مطلقاً سواء كان به ضرورة أو لا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾(٢) ولا شك أن الركوب والحمل ينافي التعظيم والاستسمان لكن لما ثبت بالآحاديث جواز الركوب قلنا بالجواز في حالة الضرورة حملاً للأحاديث المذكورة على تلك الحالة كيلا يلزم ترك العمل بالسنة، ويدل على اشتراط الضرورة ما روى الطحاوي بسندين عن حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدعة وقد جهد قال: اركبها قال: يا رسول الله إنها بدنة قال: اركبها وفي رواية قال اركبها وإن كانت، وروي أيضاً عن ابن عمر أنه كان يقول في الرجل إذا ساق بدنة فأعيى ركبها وما أنتم بمستن سنة هي أهدى من سنة محمد ﷺ، وروى مسلم عن أبي الزبير قال: «سمعتُ جابر بن عبد الله يُسأل عن ركوب البدن قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا ألجأت إليها حتى تجد ظهراً»(٣) والمراد بالمنافع في الآية عندنا دفع الضرورة عند الإلجاء وقال مجاهد وقتادة والضحاك معنى الآية: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى أن تسميها وتوجبها هدياً فإذا فعل ذلك لم يكن شيء من منافعها ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي موضع حلول أجلها يعني منحرها، وقيل معناه وقت نحرها وحلول أجلها ومحلها معطوف على منافعها وكلمة ثم يحتمل التراخي في الوقت فإن وقت الانتفاع قبل وقت النحر، أو التراخي في الرتبة لأن المراد بالمنافع المنافع الدنيوية ونحوها للثواب وهو من المنافع الأخروية يعني لكم فيها منافع دنيوية ثم لكم فيها محلها يعني نحرها وهما مما ينتفع به في الآخرة ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ حال من محلها وهو فاعل للظرف المستقر بواسطة حرف العطف يعني لكم محلها كائناً إلى البيت العتيق، وجاز أن يكون محلها مبتدأ محذوف

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: ركوب البدن (١٦٨٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها (١٣٢٢).

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: جواز ركوب البدنة المهداة لم احتاج إليها (١٣٢٤).

الخبر والظرف حال منه علي طريقة ضربي زيداً قائماً يعني محلها كائن منتهياً إلى البيت العتيق، وجاز أن يكون مَحِلُّها مبتدأ والظرف خبره والجملة معطوفة على جملة سابقة، والمراد بالبيت العتيق الحرم كله إذ هو في حكم البيت في كونه عتيقاً غير مملوك لأحد وهو حريم البيت ويقال في العرف بلغت البلد إذا بلغت فناءه وجاز أن يكون التقدير ثم محلها الحرم من أقصى أطرافه إلى البيت العتيق وهذه الآية حجة على جواز النحر في أي موضع شاء من الحرم، وقال مالك لا ينحر الحاج إلا بمنى ولا المعتمر إلا بمروة لأن النبي ﷺ فعل هكذا، قلنا: نحر النبي ﷺ في الحج بمنى لا ينفي جواز النحر في غيره إذا ثبت بالكتاب والسنة وقال رسول الله ﷺ: «منى كلها منحر وكل فجاج مكة طريق ومنحر وكل عرفة وكل المزدلفة موقف»[(١)] رواه أبو داود وابن ماجه من حديث جابر، وقيل: شعائر الله أعلام دينه ولا شك أن تعظيمها من أفعال أهل التقوى، وعلى هذا التأويل قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[(٢)] أي في الأنعام منافع دنيوية تنتفعون بها إلى أجل مسمى وهو الموت ثم محلها منتهية إلى البيت الذي يرفع إليه الأعمال أو يكون فيه ثوابها، وقيل: شعائر الله فرائض الحج ومشاهد مكة لكم فيها منافع دنيوية بالتجارة في الأسواق إلى أجل مسى إلى وقت المراجعة والخروج من مكة ومنافع أخروية بالأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى أي إلى انقضاء أيام الحج ثم محلها أي محل الناس فيها من إحرامهم منتهى إلى البيت العتيق أن يطوفوا فيه طواف الزيادة يوم النحر، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي جماعة مؤمنة سلفت منكم ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر السين ها هنا وفي آخر السورة يعني موضع نسك أي متعبد والباقون بفتح السين بمعنى الموضع أو المصدر أي إراقة الدماء وذبح القرابين أو قرباناً يتقربون به إلى الله ﴿لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نسيكهم لوجهه علَّل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من جعل المناسك تذكر المعبود وفيه دليل على كون الذكر شرطاً للذبح ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند نحرها وذبحها سماها بهيمة لأنها لا تتكلم وقيدها بالأنعام لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير ولا يجوز ذبح شيء منها في القرابين إلا الأنعام بل الأهلية منها إجماعاً، وهذه الجملة معترضة لتحريض أمة محمد ﷺ على التأسي بمن سبق ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يعني سموا على الذبائح اسم الله وحده إذ لا إله لكم غيره، جملة معللة يعني

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب: الصلاة بجمع (١٩٣٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: الذبح (٣٠٤٨).

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٠.

جعلنا لكل أمة متعبداً ليذكروا الله وحده لأن إله كلهم واحد وإن كانوا أمماً شتى ﴿فَلَهُۥٓ﴾ دون غيره ﴿أَسْلِمُواْ﴾ انقادوا وأطيعوا يعني أخلصوا القترب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ عطف على قوله وأذن في الناس بالحج إن كان خطاباً لنبينا ﷺ وإلا فعلى وإذ بوأنا يعني اذكر وقت تبوئتنا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ الخبيت الشيء الحقير يعني من خشع وعدَّ نفسه حقيراً يقال أخبت إذا خشع وتواضع كذا في القاموس، ومن ها هنا قال ابن عباس وقتادة معناه المتواضعين وقال الأخفش الخاشعين وقيل: الخبت المكان المطمئن من الأرض ومن ها هنا قال مجاهد المطمئنين إلى الله وقال النخعي الملخلصين فإن الاطمئنان هو الإخلاص وقال الكلبي هم الرقيقة قلوبهم، وقال عمرو بن أوس هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبة منه لإشراق أشعة جلاله عليها وعرفان عظمته ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من المصائب ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عطف على صلة اللام الموصول يعني بشر الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جمع بدنة كخشب وخشبة، قال الجزري في النهاية البدنة يقع على الجمل والناقة والبقرة وهي بالإبل أشبه وسميت بدنة لعظمها وسمنها، وقال في القاموس البدنة محركة من الإبل والبقر وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، وقال عطاء والسدي البدن الإبل والبقر وأما الغنم لا يسمى بدنة، وقال الشافعي هو من الإبل خاصة، قال البيضاوي إنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة، وقال البغوي سميت بدنة لعظمها وضخامتها يريد الإبل العظام الضخام الأجسام يقال بدن الرجل بدناً وبدانة إذا ضخم، وأما إذا أسنَّ واسترخي يقال بدّن تبديناً واحتج القائلون بأنها من الإبل خاصة بحديث جابر قال: «نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البقر عن سبعة والبدنة عن سبعة»[١] رواه الترمذي وقال هذا حديث صحيح، قلنا: روى مسلم عن جابر بلفظ قدمنا مكة فقال لنا رسول الله ﷺ «من لم يكن معه هدي فليحلل وأمرنا أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منافي بدنة»[٢] قوله والبدن مفعول أول منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾ مفعول ثانٍ ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي كائناً من أعلام دينه التي شرعها الله حال من المفعول الأول قيل: سميت شعائر لأنها تشعر أي يطعن بحديدة في سنانها ليعلم أنها هدي ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافع دينية ودنيوية ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ روى الحاكم المستدرك عن ابن عباس موقوفاً أنه قال: إن كانت بدنة فليقمها ثم ليقل الله أكبر الله أكبر اللهم منك ولك ثم ليسمّ الله ثم لينحر، وروى أبو داود وابن ماجه والحاكم في المستدرك عن جابر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في الاشتراك في البدنة والبقرة (٨٩٩).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان وجوه الإحرام (١٢١٣).

مرفوعاً «أنه ﷺ كان يقول: «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض على ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين اللهم منك ولك بسم الله والله أكبر[(١)]» ﴿صَوَآفَّ﴾ أي مصفوفة، قال في القاموس فواعل بمعنى مفاعل أي قياماً على ثلاثة قوائم فلصقت رجليها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك، روى البخاري عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها فقال ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ[(٢)]، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأضاحي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي ظبيان قال سألت ابن عباس عن قوله ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ﴾ قال إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ثم قل بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك، وعلق البخاري قول ابن عباس صواف أي قياماً وذكره سفيان بن عيينة في تفسيره عن عبيد الله بن يزيد وأخرجه سعيد بن منصور وقال مجاهد الصواف إذا عقلت رجله اليسرى وقامت على ثلاث قوائم، وقرأ أبي والحسن ومجاهد صوافي بالياء أي خوالص لوجه الله ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ﴾ أي سقطت على الأرض ﴿جُنُوبُهَا﴾ أي ماتت ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أمر إباحة وقد مر مسألة جواز الأكل من الهدايا فيما سبق، الجملة الشرطية معطوفة على فاذكروا يعني فاذكروا اسم الله عليها فكلوا منها إذا وجبت جنوبها ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ قال عكرمة وإبراهيم وقتادة القانع الجالس في بيته والمتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل والمعتر الذي يسأل، وروى العوفي عن ابن عباس القانع الذي لا يتعرض ولا يسأل والمعتر الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل، فعلى هذين التأويلين يكون القانع من القناعة يقال قنع قناعةً إذا رضي بما قسم له، وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي القانع الذي يسأل والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل فيكون القانع من قنع يقنع قنوعاً إذا سأل، وقرأ الحسن والمعتري وهو مثل المعتر يقال عرَّه واعترّه وعَرَاه واعتراه إذا أتاه يطلب معروفه إما سؤالاً وإما تعرضاً، وقال ابن زيد القانع المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم كذلك أي تسخيراً مثل تسخير وصفناه من نحرها قياماً ﴿سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ مع عظمها وقوتها منقادةً وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون في لبّاتها ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الضحايا، باب: ما يستحب من الضحايا (٢٧٩٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأضاحي، باب: أضاحي رسول الله ﷺ (٣١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: نحر الإبل مقيدة (١٧١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: نحر البدن قياماً مقيدة (١٣٢٠).

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن ابن جرير قال كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها فقال أصحاب النبي ﷺ فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ الآية، وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينتضحون بها نحو الكعبة، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قال مقاتل أي لن يرفع الله لحومها ولا دماؤها ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ قرأ يعقوب لن تَنال وتناله بالتاء المثناة من فوق فيهما والباقون بالياء المثناة من تحت أي ولكن يرفع الله ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ يعني الأعمال الصالحة المترتبة على التقوى والإخلاص المراد بها وجه الله ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر غيره فتوحدوه بالكبرياء شكراً ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجه وإلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها، وما مصدرية أو موصولة وعلى متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر، وقيل المراد التكبير عند الإحلال والذبح على إنعام هداكم الله إلى تسخيرها ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس يعني الموحدين عطف على بشر المخبتين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو يدفع بفتح الياء والفاء وإسكان الدال والمفعول محذوف، أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم من المؤمنين والباقون يدافع من المفاعلة أي يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ أي يبغض ﴿كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، قال ابن عباس خانوا الله يعني كفار مكة فجعلوا معه شريكاً وكفروا نعمته، وقال الزجاج من تقرب إلى الأصنام بذبيحة وذكر عليه اسم غير الله فهو خوان كفور ولهذه الجملة في مقام التعليل للدفع.

أخرج أحمد والترمذي والسدي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم ليهلكنَّ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ﴾[١] قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو على البناء للمفعول والباقون على البناء للفاعل أي أذن الله ورخص في القتال ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء على البناء للمفعول يعني للمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون والباقون بكسر التاء على البناء للفاعل يعني للمؤمنين الذين أذن لهم في الجهاد وأن يقاتلوا الكفار، قال البغوي قال المفسرون كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون بين مضروب ومشجوج ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال فنزلت هذه الآية بالمدينة، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية، وأخرجه ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير، وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري وقال البغوي قال مجاهد نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فكانوا يمنعون فأذن الله لهم في قتال الكفار والذين يمنعونهم من الهجرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي أذنوا في القتال بسبب أنهم ﴿ظُلِمُوا۟﴾ أي اعتدوا عليهم بالإيذاء ومن ها هنا لا يجوز قتل نساء أهل الحرب بالإجماع إلا أن يكون ذوات رأي أو مالٍ تُعِنَّ الكفار بأموالهنَّ على قتال المسلمين، ولا يجوز قتل الشيخ الغاني ولا الرهبان ولا العميان ولا الزمني خلافاً لأحد قولي الشافعي إلا أن يكون لهم رأي وتدبير فيجوز قتلهم اتفاقاً، ولا يجوز عند أبي حنيفة رحمه الله قتل المرتدة بل تحبس أبداً حتى تموت أو تتوب وقال مالك والشافعي وأحمد الرجل والمرأة في حكم الردة سواء لنا حديث عبد الله بن عمر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[٢] متفق عليه، وحديث رباح بن الربيع قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء فبعث رجلاً فقال انظروا على ما اجتمع هؤلاء فجاء فقال على امرأة قتيل فقال: «ما كانت هذه تقاتل» وعلى المقدمة خالد بن الوليد فبعث رجلاً فقال: قل لخالد لا تقتل امرأة ولا عسيفاً»[٣] رواه أبو داود، وعن أنس أن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج (٣١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: قتل النساء في الحرب (٢٠١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (١٧٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في قتل النساء (٢٦٦٧).

رسول الله ﷺ قال: «انطلقوا بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة»[١] الحديث رواه أبو داود، والمرأة في تلك الأحاديث مطلقة تحت النفي تعم الكافرة الأصلية والمرتدة وعلل في النص عدم قتلها بعدم حرابها، قالت الحنفية الأصل في الأجزية أن تتأخر إلى دار الجزاء وهي الدار الآخرة، وأما دار الدنيا فهي دار التكليف والابتلاء قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[٢] فكل ما شرع جزاءاً في هذه الدار إنما هو لمصالح تعود إلينا في هذه الدار كالقصاص وحد الشرب والقذف والزنى والسرقة فإنها شرعت لحفظ النفوس والأعراض والعقول والأنساب والأموال، فالقتل بالردة لا يجب إلا لدفع شر حرابه لا جزاءً على كفره لأن جزاء الكفر أعظم من ذلك عند الله فيختص القتل بمن يتأتى منه الحراب وهو الرجل، ولو كان جزاءً للكفر لما نهى رسول الله ﷺ عن قتل نساء أهل الحرب ولو كان جزاءً للكفر لزم تطهيره بالقتل كما في القصاص والحدود احتجوا على وجوب قتل المرتدة بعموم قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»[٣] رواه البخاري من حديث ابن عباس، وفي الباب عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده في معجم الكبير للطبراني وعن عائشة في الأوسط، وأجاب الحنفية بأنا خصصنا النساء عن عموم كلمة من لما ذكرنا من أحاديث النهي عن قتل النساء بعد أن عمومه مخصص بمن بدل دينه من الكفر إلى الإسلام أو من اليهودية إلى النصرانية، قلت: لكن حديث ابن عباس رواه الحاكم وصححه بلفظ «من بدل دينه من المسلمين فاقتلوه» قال الحافظ هو من طريق حفص بن عمر العدني وهو مختلف فيه واحتجوا أيضاً بحديث جابر أن امرأة يقال لها أم مروان ارتدت فأمر النبي ﷺ أن يعرض عليها الإسلام فإن تابت وإلا قتلت، رواه الدارقطني من طريقين ولا في أحدهما فأبت أن تسلم فقتلت، قال الحافظ إسناداهما ضعيفان قال ابن همام الأول مضعف بعمر بن رواحة والثاني بعبد الله بن أدينة قال ابن حبان لا يجوز الاحتجاج به، وروى حديث آخر عن عائشة ارتدت امرأة يوم أحد فأمر النبي ﷺ أن تستتاب وإلا قتلت وفي سنده محمد بن عبد الملك قالوا فيه يضع الحديث، ثم هذه الأحاديث معارضة بأحاديث أخر مثلها منها ما أخرجه الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ؛ «لا تقتل المرأة إذا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في دعاء المشركين (٢٦١٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم (٦٩٢٢).
وهو عند أصحاب السنن.

ارتدت» وفيه عبد الله بن عليس الجزري قال الدارقطني كذاب يضع الحديث وعن أبي هريرة أخرج ابن عدي في الكامل أن امرأة على عهد رسول الله ﷺ ارتدت فلم يقتلها وضعفه بحفص بن سليمان وأخرج الطبراني في معجمه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن قال: أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن تابت فاقبل منها وإن أبت فاستتبها، وروى أبو يوسف عن أبي حنيفة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي رزين عن ابن عباس لا تقتل النساء إذا هن ارتددن عن الإسلام ولكن يحبسن ويدعين إلى الإسلام ويجبرن عليه، وفي بلاغات محمد عن ابن عباس نحوه وروى عبد الرزاق أثر عمر أن امرأة تنصرت فأمر أن تباع في أرض ذات مؤنة عليها ولا تباع في أهل دينها فبيعت في دومة الجندل وروى الدارقطني أثر على المرأة تستتاب ولا تقتل وضُعِّفَ بجلاس.

مسألة: لو أمر الإمام بقتل بعض من نساء أهل الحرب مرتدة كانت أو غيرها لمصلحة فلا بأس به وقد ذكرنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ عهد إلى أمرائه من المسلمين يوم الفتح حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا تقتلوا أحداً إلا من قاتلهم إلا نفراً سماهم فأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وذكرنا هُناك أسماءهم منهم نساء منهن قينتان لعبد الله بن خطل قرنة وورينة فقتلت قرينة وأسلمت قرنة وكانتا مرتدتين ومنهم سارة مولاة عمر بن هاشم وهند امرأة أبي سفيان كانتا كافرتين أصليتين أسلمتا يوم الفتح والله أعلم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ التي كانت لهم بمكة الموصول مجرور بدل من الموصول في ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أو منصوب بتقدير أعني أو أمدح أو مرفوع بتقدير المبتدأ أي هم الذين أخرجوا أو على جميع التقادير المال واحد ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ استحقوا به الجلاء ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أن مع صلته في محل الجر بدل من الحق استثناء منه وإطلاق الحق عليه مبني على زعمهم الباطل، الغرض منه التنبيه على وضوح ظلمهم وكونهم على الباطل حيث زعموا ما هو بديهي البطلان وهو استحقاق الإخراج بالتوحيد حقاً، وهذا نظير قوله فلان لا خير فيه إلا أنه يسيء بمن يحسن إليه يعني أنه يزعم الإساءة إلى من أحسن إليه خيراً فكيف يكون فيه خير فهو بمنزلة الدعوى مع البرهان ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا﴾[1] ونظيره قول الشاعر:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٦.

وبلـــدة لـــيس بـــهـــا أنـــيـــس إلا الـــيـــعـــافـــيـــر وإلا الـــعـــيـــس

وقيل هذا استثناء منقطع بمعنى لكنهم أخرجوا بسبب قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا القول حق فالإخراج به إخراج بغير حق، وجاز أن يكون استثناء من كلام محذوف تقديره ما أخرجوا الشيء إلا بأن قالوا ربنا الله وهذا القول حق فهو في مقام التعليل لما سبق ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ بدل من الناس ﴿بِبَعْضٍ﴾ أي ببعضهم بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين، قرأ نافع لولا دفاع الله بكسر الدال وألف بعد الفاء بمعنى المدافعة للمبالغة والباقون بفتح الدال وإسكان الفاء من غير ألف ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ قرأ نافع وابن كثير بتخفيف الدال والباقون بتشديدها ﴿صَوَٰمِعُ﴾ أدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وابن ذكوان تاء هدمت في الصاد ولم يدغم غيرهم قال مجاهد والضحاك يعني صوامع الرهبان وقال قتادة صوامع الصابئين ﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ وهي كنائس اليهود يسمونها بالعبرانية صلوات ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ المسلمين من أمة محمد ﷺ ومعنى الآية لولا دفع الله الناس لهدمت في كل شريعة نبي مكان عبادتهم فهدمت في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى البيع والصوامع وفي زمن محمد ﷺ المساجد ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أي في المساجد أو في جميع الأربعة ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفة لمصدر محذوف أي ذكراً كثيراً ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي ينصر دينه، جواب قسم محذوف والجملة معترضة للوعد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمكن ممانعته تأكيد للوعد ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ أن ها هنا بمعنى إذا بدليل ما سبق من الوعد بالدفع والنصر فهو إخبار ووعد بالتمكين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء وهو برهان على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يحصل المكنة في الأرض لغيرهم من المهاجرين، وأما معاوية رضي الله عنه فلم يكن من الذين أخرجوا، وقيل: الموصول بدل ممن ينصره والمعنى لينصرن الله من يكون هذا صفته ولا شك أن الله تعالى نصر الخلفاء الراشدين وأنجز وعده، حتى سلَّطهم على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورث المسلمين على عهدهم أرض الكفار وديارهم وأموالهم ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وفيه تأكيد لما وعده.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ

وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ
بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن
يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ
أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ
مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد يعني كفار مكة ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ﴾ تعليل لجزاء محذوف لشرط مذكور تقديره فإن كذبوك فلا تحزن لأنه ليس بأمر مبدع فقد كذَّبت ﴿قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ﴾ جملة معترضة لتسلية النبي ﷺ ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غير فيه النظم وبنى للمفعول لأن قومه بني إسرائيل لم يكذبوه وإنما كذبه القبط ولأن تكذيبه كان أشنع لكون آياته أعظم وأشيع ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي أمهلتهم وأخرت عقوبتهم عطف على كذبت ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بالعذاب عاقبة أمرهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أثبت الياء ورش في الوصل حيث وقعت والباقون حذفوها، يعني كيف كان إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنةً والحياة هلاكاً والعمارة خراباً استفهام للتعجيب أو التهويل أو التقرير أي هو واقع موقعه ﴿فَكَأَيِّن﴾ فكم ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ كلمة كأين مرفوع بالابتداء أو منصوب بإضمار فعل يفسره ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب أهلكتها بتاء مضمومة على صيغة المتكلم المتوحد والباقون بنون مفتوحة وألف بعدها على التعظيم، يعني أهلكنا أهلها حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وكذا في قوله: ﴿وَهِيَ﴾ يعني وأهلها ﴿ظَالِمَةٞ﴾ أي واضعة للعبادة في غير موضعها كافرة بالله مؤمنة بالطواغيت ﴿فَهِيَ﴾ أي حيطانها ﴿خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي سقوفها يعني تهدمت عمرانها فسقطت السقوف أولاً ثم وقعت عليها الجدران فالظرف لغو متعلق بخاوية، أو المعنى خاوية أي خالية على عروشها يعني كائنة على عروشها أي مع بقاء عروشها وسلامتها وعلى هذا التأويل الظرف المستقر أما منصوب على الحال أو مرفوع خبر بعد خبر أي هي خالية وهي معطلة على عروشها بأن سقطت وبقيت الحيطان مائلة مشرفة عليها، والجملة معطوفة على أهلكناها لا على وهي ظالمة فإنها حال والإهلاك ليس حال خوائها، وعلى تقدير نصب كأين لا محل لهذه الجملة من الإعراب ﴿وَبِئۡرٖ﴾ كانت في القرى أهلكمنا أهل تلك الآبار فصارت كبئرٍ ﴿مُّعَطَّلَةٖ﴾ متروكة لا تسقى عطف على قرية أي وكم من بئر معطلة

﴿و﴾ كم من ﴿قصر مشيد﴾ أهلكنا أهلها يعني كم من قرية ساقطة عمر أن بعضها بعد خرابها ومرفوعة مشيدةً عمران بعضها أهلكنا أهلها، قال قتادة والضحاك ومقاتل معنى مشيدٌ رفيع طويل من قولهم شاد بناه إذا رفعه، وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد أي مجصص من الشيد وهو الجص، وجملة كأين من قرية بدل من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ومن ثم عطف بالفاء، قال البغوي قيل: إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن أما القصر فعلى قُلة جبل والبئر في صفحه ولكل واحد منهما قوم في نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقي القصر والبئر خاليين، وروى أبو روق عن الضحاك أنه كان هذه البئر بحضرموت في بلدة يقال لها حاصورا وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام فسمي حضرموت لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حاصورا قَعَدوا على هذه البئر وأمَّروا عليهم رجلاً فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، ثم إن أخلافهم عبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان وكان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على محذوف وتقديره ألم يخرجوا من بيوتهم أفلم يسيروا في الأرض ﴿فَتَكُونَ﴾ منصوب بتقدير أن معطوف على مصدر مدلول تضمناً لقوله: أَفَلَمْ يَسِيرُوا يعني ألم يحصل منهم خروجهم من بيوتهم وسير في الأرض لأن تكون لَهُمْ قُلُوبٌ وتكون إما تامة ولهم حال من فاعله، وأما بمعنى تصير والظرف خبره وبعده اسمه ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ صفة لقلوب والمفعول محذوف والمعنى يعقلون بها مايجب تعقله من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال ﴿أَوْ ءَاذَانٌ﴾ عطف على قلوب ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الاستفهام للإنكار والإنكار راجع إلى كون قلوبهم عاقلة بعد السير وآذانهم سامعة للحق وفيه حثٌ على التعقل والاستماع ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الإبصار في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ وفي تعمى ضمير راجع إلى الأبصارالمقدم رتبة أو الظاهر أقيم مقامه، والفاء للتعليل أي تعليل استعقاب السير كون قلوبهم عاقلة وآذانهم سامعة يعني ليست أبصارهم عامية حتى لا يروا مشاهد الآثار الخالية بعد السير ولمّا كان حال الكفار من عدم الاعتبار بعد ظهور الآيات ومشاهدة الآثار شاهداً على كونهم عمياناً وموجباً لإنكار السامع لأبصارهم أكد هذه الجملة بأن وضمير القصة أو الضمير المبهم المفسر بما بعده إنزالاً للسامع منزلة المنكر لنفي العمى، ثم قال استدراكاً لدفع توهم نفي العمى عنهم مطلقاً وإزاحة لشبهة حارت عقول العقلاء في أنهم يرون آيات التوحيد ولا يعتقدون به ويسمعون براهين التحقيق ولا يصغون إليها ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ذكر الصدور للتأكيد ونفي احتمال التجوّز

كما في قوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾[1] وفيه تنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص المبصر، قال قتادة البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلب هو البصر النافع قال رسول الله ﷺ: «شر العمى عمى القلب» رواه البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عقبة بن عامر الجهني وأبو نصر السنجري في الإبانة عن أبي الدرداء ورواه الشافعي عن ابن مسعود موقوفاً، وذكر في الآية عمى القلب وأراد سلب المشاعر كلها عن قلوبهم كأنه قال ولكن تعمى وتصم القلوب التي في الصدور، قال البيضاوي قيل لما نزلت: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾[2] قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلن هذه الآية، قلتُ: وهذا ما أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قول ذكر لنا أنها نزلت في عبد الله بن زائدة يعني ابن أم مكتوم ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ المتوعد به هذه الآية في مقام الاستشهاد على عمى قلوبهم بهم فإن استعجال العذاب دليل على العمى قال البغوي نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[3] ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ لامتناع الخلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به البتة ولو بعد حين لكونه صبوراً لا يعجل بالعقوبة وأنجز الله الوعد يوم بدر والجملة حال أو معترضة وكذا قوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ حال أو معترضة كأنه قال لم تستعجلونه وهو لا يجوز فواته وهذه الآية تدل على أنه كما لا يجوز الخلف في وعده لا يجوز التخلف في وعيده أيضاً، وذا لا ينافي المغفرة فإن آيات الوعيد مخصوصة بالنصوص والإجماع بمن لا يتداركه المغفرة ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي يعدون بالياء التحتانية ها هنا لقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ وقرأ الباقون بالتاء الفوقانية لأنه أعم لأنه خطاب للمستعجلين والمؤمنين جميعاً، قال ابن عباس في رواية عطاء معنى الآية أن يوماً عنده تعالى وألف سنة في الإمهال سواء، لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخيره وقيل: معناه أن يوماً من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدة كألف سنة مما تعدون فكيف يستعجلونه، وهذا كما يقال أيام الهموم طوال وأيام السرور قصار، وقيل: إنه بيان لتناهي صبره يعني أن الله لا يخلف وعده لكنه قد يؤخر العذاب إلى يوم هو عند ربك كألف سنة، قال

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

مجاهد وعكرمة يعني يوماً من أيام الآخرة والدليل عليهما روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وإن يوماً عند ربك كألف سنة» رواه أحمد والترمذي وحسنه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام نصف يوم»[1] رواه الترمذي ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي وكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب وإرجاع الضمائر والأحكما مبالغة في التعميم، وأورد هذه الجملة معطوفة بالواو على قوله: يستعجلونك ولن يخلف لأنه في مقام الاستشهاد لعدم التخلف وبيان أن المتوعد به واقع لا محالة، والتأخير مبني على عادة الله سبحانه، فإن كثيراً من القرى ﴿أَمْلَيْتُ﴾ أي أمهلت ﴿لَهَا﴾ كما أمهلتكم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلكم حال من القرية ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ يعني إلى حكمي مرجع الجميع، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني لستُ بقادر على إتيان العذاب مبين أوضح لكم ما أنذركم به ولما كان الخطاب مع المشركين المستعجلين بالعذاب وإنما كان ذكر المؤمنين وثوابهم زيادةً في غيظهم اقتصر على ذكر الإنذار، ويمكن أن يقال: إن الإنذار مقدم على الإبشار وعام للفريقين والإبشار يخص بمن أطاعه بعد ما أطاعه ولذلك اقتصر عليه. روى الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إني رأيتُ الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان فالنجاء النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئتُ به ومثل من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق»[2] ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما جئت به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على حسب ما أمرتهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما سلف منهم قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يهدم ما كان قبله»[3] رواه مسلم عن عمرو بن العاص ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي الجنة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والإبطال ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ حال من فاعل

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

سعَوا قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين بالتشديد من التفعيل ها هنا وفي سورة سبأ أي مثبطين الناس عن الإيمان ينسبونهم إلى العجز والباقون بالألف من المفاعلة أي معاندين مشاقين، قال قتادة معنى معجزين ظانين مقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لا بعث ولا نشر ولا جنة، ولا نار، أو معنى يعجزوننا أي يفوتوننا فلا نقدر عليهم، وقيل معنى معاجزين مغالبين يريدون أن يظهروا عجزنا عن إدراكهم، قلتُ يمكن أن يكون معناه معاجزين الرسول فإنه يمنعهم عن دخول النار وهم يقتحمون فيها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»[١] واللفظ للبخاري ولمسلم نحوه.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾﴾

قال البغوي: قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين إنه لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاء به من الله عز

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٤).

وجل تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم فكان يوماً في مجلس لقريش فأنزل الله سورة النجم فقرأ رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ألقى الشيطان على لسانه لِمَا كان يحدث به في نفسه ويتمنى تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فلمَّا سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وسعيد بن العاص فإنهما أخنا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جهتهما وسجدا عليه لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهة يقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فإذا جعل لها محمد نصيباً فنحن معه، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبرائيل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوتَ على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كثيراً فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية يعزيه وكان به رحيماً، وسمع من كان بحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ وبلغهم سجود قريش، وقيل أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفياً ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ من زائدة للتعميم، قال البغوي الرسول هو الذي يأتيه جبرائيل عياناً ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ هو الذي يكون نبوته إلهاماً أو مناماً، وقيل الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعوا الناس إليها والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله: «أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم نبي مكلَّم. قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيراً» وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيراً»(١) رواه أحمد وابن راهويه في مسنديهما وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأسوط بنحوه، وفيه المسعودي وهو ثقة لكنه اختلط.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: العلم، باب السؤال للانتفاع وإن كثر (٧٢٦).

صحيح رواية أبي أمامة ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال بعض المفسرين معناه إذا أحب شيئاً واشتهاه وحدث به نفسه ما لم يؤمر به، استثناء مفزع من رسول ونبي على الحال تقديره: وما أرسلنا من رسول ولا نبي في حال من الأحوال إلا مقداراً في شأنه أنه إذا تمنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي وسوس إليه ووجد إليه سبيلاً وألقى في مراده، وما من نبي إلا إذا تمنى أن يؤمن قومه، ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ عليه ما يرضى قومه، وقال البيضاوي إذا زور نفسه ما يهويه ألقى الشيطان فيما يشتهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا فينسخ الله ما يلقى الشيطان أي يبطله ويُذهبه بعصمته عن الركون ويرشده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة، وقال أكثر المفسرين معنى قوله إلا إذا تمنى أي قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في أمنيته أي في قراءته قال الشاعر في عثمان ﷺ حين قتل شعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

فإن قيل: كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ معصوماً من الغلط في أصل الدين وقال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[1] يعني إبليس، ومن ها هنا قال البيضاوي هو يعني ما ذُكر في شأن نزول الآية وإلقاء الشيطان في قراءة سورة النجم مردود عند المحققين، لكن قال الشيخ جلال الدين السيوطي هذه القصة رواها البزار وابن مرديه والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس، قلتُ: يعني عن سعيد بن جبير عنه قلتُ: قال البزار لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور، وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر بسند صحيح عن سعيد بن جبير مرسلاً قال: «قرأ رسول الله ﷺ بمكة والنجم فلمّا بلغ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى أن شفاعتهن لترتجى فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا فنزلت: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية، وأخرجه النحاس عن ابن عباس متصلاً بسند فيه الواقدي وأخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس وأورد ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس وابن أبي حاتم عن السدي كلهم بمعنى واحد وكلها إما ضعيفة أو منطقة سوى طريق سعيد بن جبير الأول الذي ذكره

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

البزار وابن مردويه والطبراني، وقال الحافظ ابن حجر لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين صحيحين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين أحدهما ما أخرجه الطبراني من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب الزهري حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وثانيهما ما أخرجه أيضاً من طريق المقيم بن سليمان وحماد بن سلمة عن داود عن أبي هند عن أبي العالية.

قلنا: اختلف العلماء في الجواب عن الإشكال فقال بعضهم أن الرسول لم يقرأه ولا سمع منه أصحابه ولكن الشيطان ألقى ذلك بين قراءته في أسماع المشركين فظن المشركون أن الرسول ﷺ قرأه، وقال قتادة أغفى النبي ﷺ إغفاء فجرى على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان فلم يلبث حتى نبهه الله عليه، قيل: إن شيطاناً يقال له أبيض عمل هذا العمل وكان ذلك فتنة ومحنة والله يمتحن عباده بما يشاء. فإن قيل: كلا التقديران سواء قرأ الشيطان وحسب الناس أن النبي ﷺ قرأه أو جرى على لسانه في حالة إغفائه يخل بالوثوق بالقرآن؟ قلنا قد تكفل الله تعالى الوثوق بقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يبطل ويذهبه ويظهر على الناس أنه من إلقاء الشيطان ثم يحكم الله آيته المنزلة أي يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان. فإن قيل: هذه الآية حينئذ أيضاً يحتمله؟ قلنا: إذا ضمت هذه الآية بالبرهان العقلي المستدعى صحة رسالة الرس وعصمتهم عن الخطأ والزلل في أصول الذين يفيد يقيناً في قوة البداهة أن هذه الآية وكلما أثبته الله وأحكمه من الآيات والشرائع والأحكام إنما أثبته وأحكمه الله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١) ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس واستعداداتهم فيفعل بكل ما يستحقه من الهداية أو الإضلال ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله لا يسع لأحد الاعتراف عليه، أو عليم بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان حكيم لا يدعه حتى يكشفه ويزيله ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى﴾ عليه بتمكين الشيطان منه ﴿فِتْنَةً﴾ أي محنةً وبلاءً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي المشركين ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني أهل النفاق والشرك وضع الظاهر موضع ضميرهم قضاءً عليهم بالظلم ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ خلاف عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين ﴿بَعِيدٍ﴾ قال

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

البغوي لما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان في أمنيَّته ﷺ قد وقع في فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه وشدةً على من أسلم ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ عطف على ليجعل واللام متعلق بمقدر يعني فعلنا تمكين الشيطان على الإلقاء ونسخ ما يلقي الشيطان لأمرين لنجعل ما يلقي الشيطان إلى آخره وليعلم، وجاز أن يكون اللام متعلقاً بقوله: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وحينئذٍ يكون اللام في ليجعل وليعلم للعاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بالله وأحكامه وقال السدي أي التصديق بنسخ الله ﴿أَنَّهُ﴾ أي الذي أحكمه الله من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ النازل من عنده أو إنه، أي تمكين الشطان حق لأنه جرت به عادة الله في جنس الإنسان من لدن آدم عليه السلام ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ويعتقدوا أنه من الله أو بالله تعالى وعطف يؤمنوا على يعلم بالفاء دليل على أن مجرد العلم ليس بإيمان بل هو أمر وهبي مترتب على العلم غالباً بجري العادة ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي تخشع ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية وتطمئن عنده ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيما أشكل عليهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي اعتقاد صحيح وطريق قويم وهو الإسلام ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك ﴿مِّنْهُ﴾ أي ناشئة من القرآن أو الرسول أو الذين آمنوا أو مما ألقى الشيطان في أمنيته ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي وقت الموت ﴿بَغْتَةً﴾ أي إتياناً فجاءة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال عكرمة والضحاك عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة، وقيل: المراد بالساعة يوم القيامة وبيوم عقيم يوم بدر إذ لم يكن للكافرين في ذلك اليوم خير والعقيم في اللغة المنع ومنه الريح العقيم، وجاز أن يكون المراد بالساعة وبيوم عقيم واحداً وهو يوم القيامة فيكون الثاني وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم تزول مريتهم ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده ظرف مستقر ﴿يَحْكُمُ﴾ الله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاة جملة مستأنفة أو في محل النصب على الحال والضمير يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين إدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى وعقاب الكافرين مسبب بأعمالهم ولذلك قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل هم في عذاب، قال رسول الله ﷺ: «لن ينجي أحداً

(١) سورة القصص، الآية: ٨.

عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[١] رواه الشيخان في الصحيحين، ورويا فيهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدخل الجنة أحداً عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني بمغفرة ورحمة» ولمسلم من حديث جابر نحوه، وقد ورد نحوه من حديث أبي سعيد عند أحمد وابن أبي موسى وشريك بن طارق وأسامة بن شريك والسد بن كرز عند الطبراني وأما قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] فمحمول على أن للجنة منازل تنال بالأعمال وأما أصل دخولها والخلود فيها فبفضل الله المتعال أخرج هناد في الزهد عن ابن مسعود قال: تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقسمون المنازل بأعمالكم، وأخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله مثله ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ فارقوا الأوطان والعشائر ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طلب مرضاته ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ في الجهاد قرأ ابن عامر قُتِلوا بالتشديد من التفعيل للتكثير والمبالغة والبقاون بالتخفيف ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ حتف أنوفهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي والله ليرزقنهم الله في الجنة ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي نعيمها التي لا تنقطع فلا مثل لها ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال البشر وإن الله لعليم بأحوالهم وأحوال معانيدهم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أو ذلك حق أو تحقق ذلك أو عرفت ذلك الذي قصصنا عليك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي جازي الظالم بمثل ما ظلم به عليه أطلق لفظ العقاب الذي هو الجزاء على ابتداء الظلم للازدواج أو للمشاكلة ثم بغي عليه بالمعاودة على الظلم ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ لا محالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمنتصر حيث أتبع هواه في الانتقام وأعرض عماندب الله إليه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾[٣] وفيه تعريض بالحث على المغفرة فإنه تعالى مع كمال قدرته وعلو شأنه لما كان يعفو ويغفر فغيره بذلك أولى وتنبيه على أنه قادر على القعوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على العقوبة، قال البغوي قال الحسن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ معناه قاتل المشركين كما قاتلوه ثم بغى عليه أي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله (٢٨١٦).

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٣.

ظلم بإخراجه من منزله وقيل نزلت الآية في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا من القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون فنصروا عليهم، قلتُ فعلى هذا قوله: وإن الله لعفو عن المؤمنين غفور لهم في قتالهم في الشهر الحرام وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل نحوه ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قادر على كل شيء وقد جرى عادته على المداولة بين الإياء المتعاندة ومن ذلك أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ يعني يزيد في أحد الملوين ما ينقص من الآخر أو يحصل ظلمة الليل مكان ضوء النهاء بمغيب الشمس وعكس ذلك بطلوعها وإن الله سميع يسمع أقوال المعاقب والمعاقب أو سميع دعاء المؤمنين فيجيبهم ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما ﴿ذَٰلِكَ﴾ الاتصاف بكمال العلم والقدرة والسمع والبصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الثابت في نفسه الواجب لذاته وحده لأن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواه عالمٌ بذاته وبما عداه متصف بجميع صفات الكمال، إذ من ثبت ألوهيته لا يمكن إلا أن يكون قادراً عالماً سميعاً بصيراً ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر هنا وفي لقمان في الموضعين بالتاء الفوقانية خطاباً للمشركين والباقون بالياء التحتانية أي ما يدعونه أي المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي المعدوم الممتنع وجوده في حد ذاته أو باطل الألوهية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ المتعالي من أن يكون له شريك ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ العظيم الذي ليس كمثله شيء ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي ألم تبصرو أو ألم تعلم والاستهفام للإنكار يعني تعلم وتبصر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ يعني أصبحت مخضرة، بالنبات أورد لفظ المضارع للماضي لاستحضار صورة ما مضى وللدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، والجملة دليل آخر على كمال علمه وقدرته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه أو لطفه إلى كل ما دقَّ وجل ﴿خَبِيرٞ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة وبأحوال عباده وما احتاجوا إليه من الأرزاق ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كل شيء ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله أو المحمود في ذاته وإن لم يوجد حامد غيره ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي جعلها مذلّلة لكم معدة لمنافعكم ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾ بالنصب عطف على ما أو على اسم أن ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ حال منها أو استئناف وقيل: معناه سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ من الدواب لتركبوها في البر وسخر لكم الفلك لتركبوه في البحر ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني من أن تقع على الأرض

ومن هذا يظهر أن الأجسام الفلكية مثل الأجسام الأرضية في الميل إلى ما تحته وإنما أمسكها الله تعالى بقدرته، وقال البيضاوي أمسكها بأن خلقها على صور متداعية إلى الاستمساك ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ استثناء من مضمون قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني لا تقع على الأرض في حال من الأحوال إلا متلبساً بإذنه أي بمشيئته، قال البيضاوي وذلك يوم القيامة، قلتُ: ولم نعلم وقوع السماء على الأرض يوم القيامة بل الانشقاق والانفطار وكونه كالمهل ووردة كالدهان وطيُّه كطي السجل، فالأولى أن يقال الاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا وذلك لا يقتضي وجود المستثنى، فمعنى الآية لا يقع السماء على الأرض بغير إذنه ولا يقتضي ذلك الإذن بالوقوع في وقت من الأوقات ولا وقوعها والله أعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث جعل لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم، أنواع المصائب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بنفخ الأرواح في أجسادكم بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً وعلقاً ومضغاً وأجساداً لا روح فيها ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم بنزع الأرواح من أجسادكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة بإعادة الأجسام ونفخ الأرواح فيها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ المشرك لكفور لجحود للنعم بعد ظهورها لا يعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ولا الإحياء الموصل إلى المقصود أو المعنى كفور بربه مع قيام البراهين القاطعة على وجوده ووحدته وصفاته الكاملة.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا﴾ لم يذكر ها هنا بالواو للعطف كما ذكر فيما سبق لأن هُناك وقعت الآية مع ما يناسبها من الآي الواردة في النسائك فعطفت على أخواتها وهذه وقعت

مع التباعد عن معناها فلم يعطف ﴿مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ قال ابن عباس يعني شريعةً عاملون بها وروى أنه قال عيداً، وقال مجاهد وقتادة قربان يذبحون فيه، وقيل: موضع عبادة، وقيل مألفاً يألفونه والمنسك في كلام العرب الموضع المعتاد لعمل خير أو شر ومنه مناسك الحج لتردد الناس إلى أماكن الحج، وفي القاموس النسك العبادة ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[1] متعبداتنا ونفس النسك وموضع يذبح فيه والنسيكة أي الذبيحة والنسك المكان المألوف والمنسك المقعد ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ سائر أرباب الملل ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي في أمر الدين أو النسائك لأنهم إما جهال أو أهل عناد ولو لم يعاند أهل العلم منهم فلاسبيل لهم إلى منازعتك لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع، قال البغوي نزلت في بدبل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب محمد ﷺ ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله، قال الزجاج معنى قوله: لا ينازعنك لا تنازعهم أنت كما يقال لا يخاصمَنَّك فلان أي لا تخاصمه وهذا جائز فيما يكون بين اثنين فلا يجوز لا يضربنك زيد تريد لا تضربه وجاز لا يضاربنك زيد بمعنى لا تضربه، وذلك لأن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين فإذا ترك أحدهما ذهبت المخاصمة ﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته، قلت: بل إلى ذاته والوصول إليه بلا كيف ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق سوي إلى الحق ومدارج القرب ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بعد ظهور الحق ولزوم الحجة ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فمجازيكم عليها الجملة الشرطية معطوفة على قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ وفي هذه الجملة وعيد مع رفق وكان ذلك قبل الأمر بالقتال ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يقضي بين المؤمنين منكم والكافرين فيظهر الحق من الباطل بإثابة المؤمنين وعقاب الكافرين يوم القيامة كما فصل بينهم في الدنيا بالحجج والآيات ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين الاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ استفهام تقرير ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الإحاطة به أو إثباته في اللوح أو المحكم بينكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته ونسبة المعلومات كلها إلى علمه سواء ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ عطف على مضمون ما سبق من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى وكمال قدرته يعني أتعلمون تلك الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة في التوحيد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

والألوهية وهو مع ذلك يعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الله ﴿بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة تدل على جواز عبادته ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلالته أو بالنقل الصحيح المفيد للعلم من المخبر الصادق الذي دل على صدقه برهان أو المتواتر المنتهي إلى إحدى الحواس الخمس ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يمنهم من عذاب الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الشرط مع الجزاء معطوف على يعبدون ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات إتياناً من الله تعالى أو واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الإلهية ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي الإنكار يعني يظهر في وجوههم آثار الإنكار من العبوس والغيظ وضع المظهر موضع الضمير للدلالة على أن الباعث على الإنكار إنما هو شدة كفرهم لا غير ذلك، أو المراد بالمنكر ما يقصدونه بالمؤمنين من الشر ﴿يَكَادُونَ﴾ حال من الذين كفروا ﴿يَسْطُونَ﴾ أي يبطشون أو يبسطون إليهم أيديهم بالسوء وأصله من سطا الفرس يسطو إذا قام على رجليه رافعاً يديه إما مرحاً أي أشراً وإما نزواً على الأنثى، وفي القاموس سَطَا عليه وبه سطواً وسطوةً صال أو قهر بالبطش ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني بمحمد ﷺ وأصحابه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ﴾ لكم وأكره إليكم ﴿مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي من هذا القرآن أو من غيظكم على التالين ومن سطوكم عليهم أو مماأصابكم من الضجر بسبب ما تلوا عليكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النار كأنه جواب سائل ما هو ويجوز أن يكون مبتدأ خبره ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ أي وعدها الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأن مصيرهم إليها وعلى الأول هذه الجملة مستأنفة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي بين لكم حال مستغرب أو قصة عجيبة ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي للمثل استماع تدبر وتفكر، وقيل: معنى الآية جعل لي مثل يعني جعل الكفار لله سبحانه مثلاً مماثلاً في استحقاق العبادة وهي الأصنام فاستمعوا حالها ثم احكموا هل يجوز به التمثيل له تعالى ثم بين ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ قرأ يعقوب بالياء التحتانية والضمير راجع إلى الكفار والباقون بالتاء على الخطاب للكفار والراجع إلى الموصول محذوف يعني إن الذين تدعونها أيها الكفار آلهة كائنة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ أي لا يقدرون على خلق ذباب واحد مع صغره وقلته وخسته، لأن لن بما فيها من تأكيد النفي دالَّة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه، والذباب مشتق من الذب لأنه يذب وجمعه أذبة للقلة وذِبَّانٌ للكثرة كغُرابٍ وأغربة وغربان ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ﴾ أي الأصنام ﴿لَهُۥ﴾ أي لخلق الذباب وهو بجوابه المقدر في موضع الحال جيء بها للمبالغة أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين قالوا حينئذ للحال، وقيل للعطف على معطوف محذوف تقديره مستوٍ حالهم في عدم القدرة على الخلق لو لم يجتمعوا لخلقه ولو اجتمعوا له أي لا يقدرون عليه في شيء من الأحوال ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ويضعون بين يديها الطعام وكانت الذباب تقع عليه وتسلب منه فقال الله سبحانه إن يسلب الذباب شيئاً منهم لا يقدرون على استنقاذه ولا يقوون على مقاومته فضلاً من أن يخلقوه، جهَّل الله سبحانه الكفار غاية التجهيل حيث أشركوا بالله القادر على الممكنات كلها المتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها أعجز الأشياء الذي لا يقدر على خلق أقل الإحياء وأذلها ولو اجتمعوا له بل لا يقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل، ويعجز عن دفعه عن نفسها واستنقاذ ما يتخطفه منها ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب عن الصنم والمطلوب الصنم يطلب الذباب منه السلب ولا شك أن الطالب ضعيف والمطلوب أضعف منه، وقيل: على العكس الطالب طالب الاستنقاذ تقديراً والمطلوب الذباب وقال الضحاك الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عظَّموه حتى تعظيمه وما عرفوه حق معرفته وما وصفوه حق توصيفه حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء وآلهتهم عجزة عن أقلها مقهورة من أذلها، ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ أي يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء

بالوحي وبين الناس بقبض الأرواح وإيصال الأرزاق وغير ذلك، قال البغوي هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ويختار من الناس رسلاً يدعون سائرهم إلى الحق ويبلِّغونهم ما نزل عليهم من الله تعالى أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ، قال البغوي نزلت حين قال المشركون ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾[(١)] فأخبر أن الاختيار إلى الله تعالى يختار من يشاء من خلقه، وقال البيضاوي لمَّا قرَّر وحدانيته ونفي أن يشاركه غيره في الألوهية وصفاتها بين أن له عباداً مصطفين للرسالة يتوصل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته سبحانه وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن عداه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفاً لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[(٢)] والملائكة بنات الله ونحو ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ مدرك للأشياء كلها ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ قال ابن عباس يعني ما قدموا وما خلفوا، وقال الحسن ما عملوا وما هم عاملون بعد، وقيل: الضمير راجع إلى الرسل أي يعلم ما بين أيديهم أي الرسل أي ما قبل خلقهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي ما هو كان بعد فنائهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إليه مرجع الأمور كلها لأنه مالكها بالذات لا يسأل عما يفعل من الإصطفاء وغيره وهم يسألون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي صلوا عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما ركنان لها لا زمان لا تنفك عنهما بخلاف غيرهما من الأركان فإن القراءة تسقط عن الأخرس والقيام عمن لا يستطيعه، وأما الركوع والسجود فلا يسقطان أبداً عند أبي حنيفة رحمه الله حيث قال من لم يقدر على الإيماء برأسه للركوع والسجود يتأخر عنه الصلاة ولا يتأدى بالإيماء بالحاجب أو القلب ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بكل ما يصلح كونه عبادةً له تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس هو صلة الرحم ومكارم الأخلاق والظاهر أنه يعم الأفعال كلها يعني اختاروا ما هو خير وأصلح فيما تأتون به وما تذرونه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الجملة في محل النصب على الحال أي افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له ولا واثقين بأعمالكم، قال رسول الله ﷺ: «أوحي إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبداً لحساب يوم القيامة أشاء إن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» رواه أبو نعيم عن علي عليه السلام، وأخرج البزار عن أنس عن النبي ﷺ: «يخرج لابن آدم ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى، يقول الله لأصغر نعمه

(١) سورة ص، الآية: ٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

في ديوان النعم خذي منك من العمل الصالح فتستوعب العمل الصالح فيقول: وعزتك استوعبت ويبقى الذنوب وقد ذهب العمل الصالح كله، فإذا أراد الله أن يرحم عبداً قال: يا عبدي قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزتُ عن سيئاتك ووهبتُ لك نعمتي».

مسألة: اختلف أهل العلم في سجود التلاوة عند هذه الآية؟ فقال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثوري وغيرهم أنه لا سجود ها هنا لأن المراد بالسجود ها هنا السجود الصلاتي بدليل كونه مقروناً بالركوع والمعهود في مثله من القرآن ما هو ركن الصلاة بالاستقراء نحو: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1] وقال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم لا بد ها هنا أن يسجد للتلاوة لحديث عقبة بن عامر قال قلتُ يا رسول الله: «أُفُضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين قال: «نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[2] رواه أحمد وأبو داود والترمذي (واللفظ له) والدارقطني والبيهقي والحاكم وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، قال الترمذي إسناده ليس بالقوي وقال ابن الجوزي قال ابن وهب ابن لهيعة صدوق يعني إنما ضعفه لأجل حفظه وقال الحاكم عبد الله بن لهيعة أحد الأئمة وإنما تم اختلاطه في آخر عمره وقد تفرد به، وروى أبو داود في المراسيل عنه ﷺ، قال: «فضلت سورة الحج بسجدتين» قال: وقد أسند هذا ولا يصح وحديث عمرو بن العاص أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة آية سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي الحج سجدتان[3]، رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم وحسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وابن القطان وفيه عبد الله بن منين الكلالي وهو مجهول والراوي عنه الحارث بن سعيد الثقفي المصري وهو لا يعرف أيضاً، وقال ابن ماكولا ليس له غيره هذا الحديث وأكد الحاكم حديث عقبه بن عامر بأن الرواية صحت فيه من قول عمر وابنه وبن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى وعمار ثم ساقها موقوفة عليهم وأكده البيهقي بما رواه في المعرفة من طريق خالد بن معدان مرسلاً وقال البغوي وهو قول عمرو علي وابن مسعود وابن عمر، قلتُ: الموقوف في الباب له حكم المرفوع وقد ذكرنا مسائل سجود التلاوة في سورة الانشقاق ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ الجهد بالضم الوسع والطاقة وبالفتح المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة وأما في المشقة والغاية فالفتح لا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السجدة في الحج (٥٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: عدد سجود القرآن (١٠٥٧).

غير والجهاد والمجاهدة مفاعلة منه، ولما كان بناؤه للاشتراك بين اثنين استعمل في المحاربة مع الأعداء فإن فيه تحمل المشقة من الجانبين واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل والمبالغة فيه إلى غاية ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي في سبيله وإعلان دينه وقضاء أحكامه وقيل معناه لله ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ منصوب على المصدرية ومعناه جهاداً فيه حقاً خالصاً، أي حق ذلك الجهاد حقاً وخلص خلوصاً لوجهه الكريم، فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله، ومن أجله قال ابن عباس هو استفراغ الطاقة فيه وأن لا يخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد، وقال الضحاك ومقاتل اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته، وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون نيته خالصة لله عز وجل، وقال السدي أن يطاع فلا يعصى، وقال عبد الله بن المبارك هو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر وهو حق الجهاد، قال البغوي وقد روي أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قال البغوي أراد بالجهاد الأصغر لجهاد مع الكفار وبالجهاد الأكبر الجهاد مع النفس، وأخرج البيهقي في الزهد عن جابر ﷺ قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة فقال قد متم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد لهواه» قال البيهقي هذا إسناد فيه ضعف.

قلت: ليس المراد بالجهاد في هذه الآية المحاربة مع الكفار خاصة لأنه يأبى عنه سياق الآية لأن في نسق الآية ارتقاء من الأخص إلى الأعم في كل عطف حيث ذكر الصلاة أولاً بقوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ لكونها أهم العبادات ثم عطف عليه ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ وهو يشتمل العبادات كلها الصلاة وغيرها ثم قال: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ وهو يشتمل أداء حقوق الله تعالى كلها من العبادات والعقوبات وغيرها ومحاربة الكفار وأداء حقوق الناس ومكارم الأخلاق وغير ذلك وإتيان السنن والمستحبات كله، ثم قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ فلا وجه لحمله على محاربة الكفار خاصة بل المراد منه الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال كلها ويحصل ذلك بالجهاد مع النفس ومخالفة الهوى، فإن الإخلاص إنما يحصل بصفاء القلب وفناء النفس، وهما بالجهاد مع النفس الأمارة بالسوء ومخالفة الهوى مع اقتباس أنوار النبوة وذلك في اصطلاح القوم يعبّر بالسلوك والجذب، وذلك الإخلاص هو المعنى من أقوال أوائل المفسرين المذكورة فإن الصوفي إذا صار من المخلصين بعد فناة النفس وصفاء القلب لا يخاف في الله لومة لائم ويبعد الله حق عبادته بلا

رياء وسمعة بنيةٍ خالصة لله عز وجل ويطيع الله ولا يعصيه ولا شك أن ذلك هو الجهاد الأكبر، وأما الجهاد الأصغر يعني المحاربة مع الكفار فهو صورة الجهاد ولا يعتد به ولا بشيء من العبادات ما لم يكن خالصاً لوجه الله، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله وروسله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء هو للذي عمله»(٢) رواه مسلم.

فائدة: قوله ﷺ «قد متم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» يفيد أن الجهاد الأكبر يعين المجاهدة مع النفس إنما يتأتى للمريد بمصاحبة الشيخ الكامل المكمل، فإنهم لما قدموا على النبي ﷺ بعد المحاربة مع الكفار اكتسبوا ببركة صحبته وانعكاس أشعة أنواره صفاءً في القلب وفناءً في النفس، وقوله رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر الضمير للمتكلم مع الغير والمراد منه إسناد الرجوع إلى من معه من الصحابة فإنهم كانوا في حالة الجهاد مشغولين بمحاربة الكفار وإن كانوا مع النبي ﷺ في مصاحبته لكن كان غالب هممهم مدافعة الكفار ثم إذا صاروا في المدينة مقيمين مع النبي ﷺ لم يكن حينئذ هممهم إلا الاقتباس لأنواره، والاقتفاء بمعالم آثاره وأخذ العلوم الظاهرة والباطنة من جنابه ﷺ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي اختاركم من بين الخلائق لمصاحبة نبيه وحبيبه ﷺ: «إن الله اختارني واختار لي أصحاباً واختار لي منهم أصهاراً وأنصارً»(٣) وعن واثلة بن أسقع قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»(٤) رواه مسلم وفي رواية للترمذي «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ﴿وَمَا جَعَلَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٣) رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أصحاب رسول الله ﷺ وأصهاره (١٦٣٩١).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل النبي ﷺ (٣٦١٥).

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق وتكليف يشتد القيام به عليكم، قيل معناه أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجاً بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب وكان فيما سبق من الأمم من الذنوب ما لا توبة لها، وقيل معناه ليس عليكم من ضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذ التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا، وقال مقاتل يعني الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة في السفر والتيمم والإفطار في السفر والمرض، وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعداً أو مستلقياً عند العجز وهو قول الكلبي وذلك معنى قوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» وروي عن ابن عباس أنه قال: الحرج ما كان على بني إسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله عزَّ وجلَّ عن هذه الأمة، قلت: ويمكن أن يقال معنى قوله تعالى: ما جعل الله عليكم في الدين من حرج أنه تعالى رفع عنكم كلفة التكاليف الشرعية حتى صارت التكاليف الشرعية أرغب إليكم من المرغوبات الطبعية، وذلك من لوازم الاجتباء قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[1] رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن أنس ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ منصوب على الإغراء أي عليكم ملة أبيكم أو على الاختصاص أي أعني بالدين ملة أبيكم، أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبلها بحذف المضاف أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف بيان والظاهر أنه خطاب للمؤمنين من قريش إذا السورة مكية ثم الناس تبع لهم قال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم»[2] متفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي رواية لمسلم عن جابر أنه ﷺ قال: «الناس تبع لقريش في الخير والشر» وقيل: خطاب للعرب وكانوا من نسل إبراهيم وقيل خطاب لجميع المسلمين وإبراهيم كان أباً لرسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته فإنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[3] وقال النبي ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (٣٤٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨١٨).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه»[١] رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة ولما كان ملة إبراهيم ودينه مرغوباً لأهل مكة مؤمنهم وكافرهم، وكانت الكافرون منهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام لا غير ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢] ﴿هُوَ﴾ يعني الله سبحانه ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ نزول القرآن في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ القرآن سماكم مسلمين، وقال ابن زيد هو يعني إبراهيم سماكم المسلمين من قبل هذا الوقت في أيامه حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٣] يعني أهل مكة، وتسميتهم مسلمين في القرآن وإن لم يكن من إبراهيم لكن كان بسبب تسميته من قبل، وقيل: تقدير الكلام وفي هذا القرآن بيان تسميته إياكم مسلمين هذه الجملة بيان لقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ فإن الهداية إلى الإسلام الحقيقي والتسمية بالمسلمين مبنيٌّ على الاجتباء ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ متعلق بمضمون ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أعطاكم الإسلام وجعلكم مسلمين ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ القيامة أن قد بلَّغكم، قلتُ: وجاز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ مع ما عطف عليه ﴿وَتَكُونُوا﴾ أنتم ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أن رسلهم قد بلَّغتهم، أخرج ابن جرير وابن المنذر عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ: «أنا وأمتي يوم القيامة على كئوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحدٌ إلا ودَّ أنه منا وما من نبي إلا كذَّبه قومه ونحن نشهد أنه قد بلَّغ رسالة ربه» وأخرج ابن المبارك في الزهد أنبأنا رشد بن سعد حدثني ابن العم عن أبي حبلة بسنده قال: أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل فيقول الله هل بلَّغتَ عهدي؟ فيقول: نعم قد بلَّغتُه جبرائيل فيدعى جبرائيل فيقال: هل بلَّغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم فيخلى إسرافيل، فيقول لجبرائيل ما صنعتَ في عهدي؟ فيقول: يا رب بلّغتُ الرسل، فيدعو الرسل فيقال للرسل هل بلّغكم جبرائيل عهدي فيقولون نعم فيقال لهم ما صنعتم في عهدي فيقولون بلَّغنا الأمم، فيدعى الأمم فيقال لهم هل بلَّغكم الرسل؟ فمكذِّب ومصدِّق فيقول الرسل لنا عليهم شهداء فيقول من؟ فيقولون: أمة محمد ﷺ فيدعى أمة محمد فيقال لهم أتشهدون أن الرسل قد بلَّغتِ الأمم؟ فيقولون: نعم، فيقول الأمم يا ربنا كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله تعالى كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلتَ إلينا رسولاً وأنزلتَ علينا كتاباً

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨).
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

وقصصت علينا فيه أن قد بلّغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1] وقد ذكرنا ما رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ داوموا عليها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات لما خصّكم بهذا الفضل والشرف ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ يعني ثقوا به في جميع أموركم ولا تستعينوا في شيء إلا منه، وقال الحسن. معناه تمسكوا بدين الله، وروي عن ابن عباس سلوا ربكم يعصمكم من كل ما يكره، وقيل: معناه أدعوه ليثبتكم على دينه، وقيل الاعتصام بالله هو التمسك بالكتاب والسنة قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله» رواه مالك في الموطأ مرسلاً، وعن عصيف بن الحارث اليماني قال قال رسول الله ﷺ: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السن فتمسك سنة خير من إحداث بدعة»[2] رواه أحمد ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم وحافظكم ومتولي أموركم هذه الجملة في مقام التعليل للاعتصام ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الفاء للسببية يعني إذا ثبت أن الله مولاكم ونصيركم فنعم المولى مولاكم ونعم النصير نصيركم إذ لا مثل له في الولاية والنصر بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة والله أعلم. تم تفسير سورة الحج من تفسير المظهري ثامن ذي الحجة من السنة الثالثة بعد المائتين وألف، ويتلوه إن شاء الله تعالى سورة المؤمنين وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٠٣.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) رواه أحمد والبزار وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو منكر الحديث.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: العلم، باب: في البدع والأهواء (٨٩٢).

سورة المؤمنين

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

أخرج الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ فطأطأ رأسه، وأخرج ابن مردويه بلفظ كان يلتفت في السماء فنزلت، وذكره البغوي أنه قال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل الذين هم في صلاتهم خاشعون رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين مرسلاً كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فنزلت. قرأ ورش بإلقاء حركة همزة أفلح على دال قد وحذف الهمزة، وكلمة قد تثبت ما كان متوقعاً، كما أن لما ينفيه، وتدل على ثباته إذا دخل على الماضي ولذلك تُقربه من الحال، ولما كان المؤمنون متوقعين الفلاح بفضل الله صُدِّرت بها بشارةً لهم، والفلاح قال في القاموس هو الفوز (يعني بالمقصود) والنجاة (يعني من المرهوب) والبقاء في الخير، وهو دنيوي وأخروي والمراد ها هنا الفلاح الأخروي الكامل، وكماله أن لا يعذب أصلاً لا في القبر ولا بالمناقشة في الحساب وشدائد يوم القيامة ولا بدخول النار ولا بصعوبة المرور على الصراط، ويفوز إلى أعلى المقاصد في الجنان ومراتب القرب والرؤية والرضوان من الملك الديان.

وأما الفلاح في الجملة فغير مختصر بالمتصفين بهذه الصفات المذكورة في تلك الآيات، بل هو لكل من قال لا إله إلا الله قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾[1] والإيمان والتوحيد نفسه رأسه الخيرات، ومن ها هنا قال ابن عباس قد

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة، وروي عن ابن عباس مرفوعاً: «خلق الله جنة عدن ودلّى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال تكلمي فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل» رواه الطبراني. قلتُ: لعل المراد بالبخيل ها هنا هو الكافر فإنه يبخل عن أداء حق الله تعالى في التوحيد وأخرج أيضاً الطبراني بسند آخر جيد عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال: تكلمي فقالت ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾» وأخرج البزار والطبراني والبيهقي نحوه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً والبيهقي عن مجاهد وعن كعب نحوه والحاكم عن أنس نحوه، وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «خلق الله تبارك وتعالى جنة عدن من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجد خضراء وملاطها المسك وحشيشها الزعفران وحصاها اللؤلؤ وترابها العنبر، ثم قال لها انطقي قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، قال: وعزتي لا يجاورني فيك بخيل».

قلتُ: ويمكن أن يقال أن المراد بالفلاح دخول الجنة مطلقاً لو بعد التعذيب وذلك لجميع المؤمنين كما تدل عليه الأحاديث المذكورة، والتقييد في القرآن بالصفات المذكورة ليس للاحتراز بل للمدح، فإن شأن المؤمن يقتضي الاتصاف بتلك الصفات وعلى تقدير كون المراد بالفلاح الفلاح الكامل وكون التقييد بالصفات للاحتراز لا يدل تلك الآيات إلا على الوعد بالفلاح الكامل للمؤمنين الكاملين المتصفين بتلك الصفات ولا تدل على نفي الفلاح عن غيرهم من المؤمنين، لأنا لا نقول بمفهوم الصفة كما قرر في الأصول أن التقييد بالشرط أو الصفة يجعل ما لا يوجد فيه الشرط أو الصفة في حكم المسكوت عنه وهو المراد بالاحتراز أنه يجعله في حكم المنطوق بنفي الحكم، وقد انعقد الإجماع على أن أهل الكبائر من المؤمنين وإن ماتوا بغير توبة مآلهم إلى الجنة وهم في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبهم ثم يدخلهم الجنة وإن شاء غفر لهم بلا تعذيب.

والخاشعون قال ابن عباس هم المخبتون أذلاء، وقال الحسن خائفون، وقال مقاتل متواضعون، وقال مجاهد هو غض البصر وخفض الصوت، وعن علي كرم الله وجهه هو أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وقال سعيد بن جبير لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله ولا يلتفت من الخشوع لله تعالى وقال عمرو بن دينار هو السكون وحسن الهيئة، وقال جماعة هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك، وقال عطاء هو أن لا تعبث بشيء

من جسدك في الصلاة، وقيل: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة لها والإعراض عما سواه والتدبر فيما يجرى على لسانه من القراء والذكر، وأن لا يجاوز مصلاه ولا يلتفت ولا يغيب ولا يميل ولا يفرقع أصابعه ولا يقلّب الحصى ولا يفعل شيئاً مما يكره في الصلاة، وعن أبي الدرداء هو إخلاص المقال وإعظام المقام واليقين التام وجمع الاهتمام، وفي القاموس الخشوع هو الخضوعُ أي التواضع أو هو قريب من الخضوع أو هو في البدن والخشوعُ في الصوت والبصر والسكونُ والتذلل، وفي النهاية الخشوع في الصوت والبصر كالخضوع في البدن، عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الله عز وجلّ مقبلاً على العبد ما كان في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت أعرض عنه»[١] رواه أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي، وعن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة قال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[٢] متفق عليه، وعن أنس بن مالك قال قال النبي ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: «لينتهين عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم رواه البغوي، وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء أو لتخطفن أبصارهم»[٣] عن جابر بن سمرة بلفظ: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لايرجع إليهم أبصارهم» رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ: رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول بسند ضعيف، وعن أبي الأحوص عن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه»[٤] رواه البغوي ورواه أحمد وابن عدي والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي ذر.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة (٩٠٨)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: التشديد في الالتفات في الصلاة (١١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الالتفات في الصلاة (٧٥١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة (٤٢٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: النهي عن رفع البصر إلى السماء عند الدعاء في الصلاة (١٢٦٩).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة (٣٧٦)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: النهي عن مسح الحصى في الصلاة (١١٨٥).

فصل

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «يا أنس اجعل بصرك حيث تسجد» رواه البيهقي في سننه الكبير، وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني إياك والالتفات في الصلاة فإن الالتفات في الصلاة هلكة فإن كان لا بد ففي التطوع لا في الفريضة»[(١)].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ قال عطاء عن ابن عباس عن الشرك، وقال الحسن عن المعاصي، قلت: والأولى أن يقال عما لا يفيدهم في الآخرة كلاماً كان أو غيره ولا يحمد عليه من قول أو فعل ﴿مُعْرِضُونَ﴾ فضلاً عن ارتكابهم ما يضرهم من الشرك والمعاصي، وقيل: هو معارضة الكفار بالشتم والسب قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[(٢)] أي إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه، قال البيضاوي هو أبلغ من الذين لا يلهون بوجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرةً وتسبيباً وميلاً وحضوراً فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ الزكاة يطلق على القدر الواجب الذي يخرجه المزكي من النصاب وعلى ما فعل المزكي والمراد ها هنا هو الفعل لأن الفاعل إنما يفعل الفعل دون العين وجاز أن يراد العين بتقدير المضاف يعني لأداء الزكاة فاعلون، وفي لفظ فاعلون دلالة على المداومة ودخول اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل عن العمل يقال هذا ضارب لزيد ولا يقال ضرب لزيد، وقيل: الزكاة ها هنا هو العمل الصالح أي والذين هم للعمل الصالح فاعلون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ الفرج اسم لجميع سوءة الرجل والمرأة وحفظ الفرج التعفف عن الحرام ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ صلة لحافظون من قولك احفظ علي عنان فرسي يعني لا تطلقه، واستقام المعنى لتضمن الحفظ معنى نفي البزل أو صلة لمقدر وهو لا يبذلونها لدلالة قوله غير مومين عليه، وجاز أن يكون المستثني المفرغ منصوباً على الحال والتقدير حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا قادرين على أزواجهم أي زوجاتهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي سرياتهم يعني ناكحين أو مالكين، قال البيضاوي إنما قال ما إجراء للمماليك مجرى غير ذوي العقول إذ الملك أصل شائع فيه،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما ذكر في الالتفات في الصلاة (٥٨٥) وقال: حسن غريب.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

قلتُ: بل المراد منه الإماء فإن النساء لقلة عقلهن ملحقات بغير ذوي المعقول ولذلك يستعمل ضمائر التأنيث لغير ذوي العقول، فإيراد كلمة ما للدلالة على أن المراد به الإماء دون العبيد من المماليك فلا يجوز للنساء الاستمتاع بفروج عبيدهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانها والضمير المنصوب لحافظون ولمن دل عليه الاستثناء أي فإن بذلوها على أزواجهم وإمائهم فإنهم غير ملومين ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى أي طلب سوى الأزواج والإماء المملوكة لبذل الفرج ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي الكاملون في الظلم والعدوان المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام وهذه الآية ناسخة لمتعة النساء، عن ابن عباس قال إنما كانت المتعة في أول الإسلام كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج بقدر ما يرى أنه مقيم فتحفظ متاعه وتصلح له شيئه حتى إذا نزلت: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال ابن عباس: «فكل فرج سواهما فهو حرام»[(١)] رواه الترمذي، ولا شك أن النساء اللائي يتمتع بهن لسن من الأزواج للإجماع على عدم التوارث بينهم حتى لا تقول الروافض أيضاً بالتوارث، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾[(٢)] وقد ذكرنا مسألة متعة النساء في تفسير سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[(٣)] وأيضاً في هذه الآية دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول العلماء قال ابن جريج سألت عطاء عنه فقال: مكروه سمعتُ أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظن أنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير قال: عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير ها هنا وفي المعارج لأماناتهم على التوحيد والباقون بالجمع ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق كالصلاة والصوم وغيرهما من العبادات التي أوجبها الله تعالى، أو من جهة الخلق كالودائع والبضائع وما واعد الناس وعاقدهم فعلى العبد الوفاء بجميعها، عن أبي هريرة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وقد خسر فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب تبارك وتعالى انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك، وفي رواية ثم الزكاة مثل ذلك

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في تحريم نكاح المتعة (١١١٨).
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٤.

ثم يؤخذ الأعمال على حسب ذلك»[١] رواه أبو داود ورواه أحمد عن رجل ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي صلاتهم على التوحيد والباقون على الجمع ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، ولفظ الحفظ لما في الصلاة من التجدد والتكرار، وليس تكريراً لما وصفهم به أولاً لأن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها، وفي تصدير ذكر الصلاة والختم بأمرها تعظيم لشأنها ووحدت الصلاة في الأمر بالخشوع لإفادة أنه لا بد من الخشوع في جنس الصلاة أية صلاة كانت وجمعت في المحافظة عند أكثر القراء آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الجامعون لهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الأحقاء بأن يسموا وارثاً دون غيرهم جملة معترضة للمدح ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ صفة للوارثين بيان لما يرثونه والتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً يعني يرثون منازل الكفار التي أعدت لهم إن آمنوا، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾»[٢] رواه ابن ماجه وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن أبي هريرة بلفظ «يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله»، وأخرج ابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فر من ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة»[٣] وقال بعضهم معنى الوراثة هو أنه يؤل أمرهم إلى الجنة وينالونها كما يؤل أمر الوارث إلى الميراث، والفردوس أعلى الجنة وقد مر ذكره مشروحاً في سورة الكهف ﴿هُمْ فِيهَا﴾ الضمير راجع إلى فردوس وتأنيث الضمير لكونه اسماً للجنة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون منها جملة مستأنفة، روى أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن عمر بن الخطاب قال كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويّ كدوي النحل فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنّا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٤١٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه (٨٦٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٤١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: الحيف في الوصية (٢٧٠٢) وفي إسناده زيد العمي.

وأرضنا وارض عنا ثم قال: «أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم عشر آيات[1]، قال النسائي: منكر وصححه الحاكم، وهذه الآية جامعة لأبواب الخير كلها فإن الله تعالى وصف المؤمنين بالخشوع في الصلاة والمواظبة على الزكاة والإعراض عن اللغو والتجنب عن المحرمات وسائر ما يوجب المروءة اجتنابه، فظهر أنهم بلغوا الغاية على الطاعات البدنية والمالية والتطهر والتنزه للتجليات الذاتية والصفاتية والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ جنس ﴿الْإِنسَانَ﴾ أو آدم عليه السلام وهذا جواب قسم محذوف والجملة معطوفة على قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فإنه كان في ذكر الإيمان وأصناف العبادات والطاعات وهذه الجملة لبيان استحقاقه تعالى العبادة والطاعة وسبب وجوبها، فكأنه قال وقد حق لهم أن يعبدونا ويوحدونا لأن والله لقد خلقناهم ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ أي خلاصة سلّت من بين الكدر ومن للابتداء ﴿مِّن طِينٍ﴾ من للبيان أي سلالة هو طين صفة لسلالة.

أي سلالة كائنة من طين سلت من وجه الأرض، وكان آدم من طين سلت من الأرض وسائر الناس من النطف التي هي من الأغذية التي هي من الأرض، وجاز أن يكون ظرفاً لغواً متعلقاً بمعنى سلالة لأنها بمعنى مسلولة فيكون من ابتدائية وقال الكلبي المراد بالطين آدم عليه السلام والمعنى خلقنا جنس الإنسان من نطفة سلت من طين هو

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون (٣١٧٣).

آدم عليه السلام، أخرج عبد الرزاق وابن جرير وعبد بن حميد وابنأبي حاتم عن قتادة أن المراد بالطين آدم عليه السلام وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال من مني بني آدم، قال البغوي وروي عن ابن عباس أنه قال: السلالة صفوة الماء، وقال عكرمة هو الماء سل من الظهر والعرب تسمي النطفة سلالة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي السلالة وتذكير الضمير على تأويل المسلول ﴿نُطْفَةً﴾ وجاز أن يكون الضمير راجعاً إلى الإنسان ونطفة منصوباً بنزع الخافض فإن كان المراد بالإنسان آدم فمضاف الضمير محذوف أقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى ثم خلقنا ذلك الجنس من نطفة أو خلقنا بنيه من نطفة كائنة ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي مقر حريز وهو الرحم والمكين في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل مبالغة كما عبر عنه بالقرار وهو مصدر ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا﴾ أي صيرنا ﴿ٱلنُّطْفَةَ﴾ البيضاء ﴿فَخَلَقْنَا﴾ صيرنا ﴿ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ قطعة لحم قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا﴾ صيرنا ﴿ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ بأن صلبناها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ مما بقي من المضغة أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها، ولحماً منصوب بنزع الخافض أي كسونا العظام بلحم أو هو مفعول ثان لكسونا لتضمنه معنى أعطينا يقال كسوت زيداً حلة أي أعطيته إياها قرأ الجمهور عظاماً والعظام في الموضعين بلفظ الجمع لاختلافها في الهيئة والصلابة، وقرأ أبو بكر وابن عامر عظماً والعظم على التوحيد اكتفاءً باسم الجنس عن الجمع ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ﴾ الضمير عائد إلى السلالة أو إلى الإنسان سواء كان المراد به الجنس أو آدم عليه السلام ولا حاجة ها هنا إلى تقدير المضاف ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ مصدر لأنشأنا من غير لفظه يعني خلقناه خلقاً آخر أو مفعول ثانٍ له بتضمينه معنى صيرنا، وجاز أن يكون بدل اشتمال للمضير المنصوب والمعنى أنشأناه أي السلالة أو الإنسان خلقاً آخر أي أنشأنا خلقاً آخر، قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وعكرمة والضحاك وأبو العالية هو نفخ الروح فيه، قلتُ: لعل المراد بالروح في قولهم هو الروح السفلي المسمى بالروح الحيواني وبالنفس التي هي مركب للروح العلوي الذي هو من عالم الأرواح ومقره فوق العرش في النظر الكشفي وليس هو بمكاني، والنفس هي البخار المنبعث من العناصر المصور عن هيئة الجسم وهو جسم لطيف سار في الجسم الكثيف وعلى هذا يصح إرجاع ضمير أنشأناه إلى السلالة، بخلاف ما إذا كان المراد به الروح العلوي فإنه غير مأخوذ من السلالة، وأيضاً كلمة ثم تدل على ذلك فإن خلق الأرواح العلوية قبل خلق الأبدان فإن الأبدان لم تكن موجودةً حين أخذ الله الميثاق من الأرواح، وأما نفخ الروح فهو صفة من صفاته تعالى قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

رُّوحِي﴾(١) وإن كان تأخره من تكسية العظام صادق باعتبار تأخر تعلق الصفة القديمة، اللهم إلا أن يقال المراد بالإنشاء نفخ الروح لا خلق الروح والله أعلم.

عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغةً مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزق وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»(٢) متفق عليه.
فإن قيل: ورد في الحديث تحويلات خلق الإنسان بكلمة ثم وهي تدل على التراخي وفي كتاب الله بكلمة الفاء وهي للتعقيب فما وجه التطبيق بينهما؟ قلت: ذكر رسول الله ﷺ ما بين كل تحويل أربعين يوماً وذلك زمان طويل يقتضي العطف بكلمة ثم لكن الله سبحانه أورد كلمة الفاء للدلالة على أن تلك المدة الطويلة وهي أربعون يوماً قصيرة جداً نظراً إلى ما يقتضي تفاوت كل طور منها إلى طور آخر، وأما إيراد كلمة ثم في بعض المواضع وكلمة الفاء في بعضها فلتفاوت الاستحالات، ألا ترى أن استحالة السلالة إلى النطفة في غاية البعد، واستحالة النطفة التي استقرت في صلب الرجل وترائب المرأة زماناً طويلاً، ثم وصلت في رحم المرأة وامتزجت هناك وبقيت في الرحم نطفة أربعين يوماً، ثم تحولت إلى العلقة أيضاً لطول زمانه وتراخيه يقتضي العطف بكلمة ثم بخلاف التحويلات الآخر من العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظام وإلى تكسية العظام لحماً فكل ذلك ليس بتلك المثابة من البعد، ولأجل ذلك أوردها بلفظة الفاء وأورد كلمة ثم في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ للتراخي في الرتبة وكمال التفاوت بين الخلقتين والله أعلم.

مسألة: هذه الآية تدل على أنه من غصب بيضةً فأفرخت عنده ثم مات الفرخ، أو أخذ من الحرم بيضة فأخرجها إلى الحل ثم أفرخت لزمه ضمان البيضة دون الفرخ لأنه خلق آخر وفيه الروح السفلي وهو الروح الحيواني والله أعلم، وقال قتادة معنى قوله: ثم أنشأناه خلقاً آخر نبات الأسنان والشعر، وروى ابن جرير عن مجاهد أنه استواء الشباب، وعن

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

الحسن قال: ذكر أو أنثى، وروى العوفي عن ابن عباس إن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الارتضاع إلى القعود إلى القيام إلى المشي إلى الفطام إلى أن يأكل ويشرب إلى أن يبلغ الحلم وينقلب في البلاد إلى ما بعدها، قلتُ ويمكن أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ الولادة الثانية التي يكون للفقراء بالفناء والانخلاع من الصفات البهيمية والسبعية والبشرية إلى الصفات الملكية والارتقاء منها إلى الصفات الرحمانية والبقاء بذات الله تعالى أو بصفاته القدسية وهذا التأويل أليق بالعطف بكلمة ثم...............

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي تعالى وتعظَّم من أن يتخذ له شريكاً أو يتهاون في امتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه، والفاء للسببيَّة فإن اتصافه تعالى بما ذكر من الخلق دليل على كمال قدرته وحكمته يقتضي الحكم بكبريائه وعظمته وعلو منزلته واستحالة شريكه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بدل من الله أو خبر مبتدأ محذوف وليس بصفة لأنه نكرة وإن أضيف لأن المضاف إليه عوض من من التفضيليّة والتميز لهما محذوف تقديره أحسن الخالقين خلقاً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه، واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن العباد خالقون لأفعالهم الاختياريَّة حتى يتحقق التفضيل، وقد دلت البراهين العقليَّة والأدلة الشرعية على أن الأفعال الاختيارية للعباد مخلوقة لله تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] ولأن الممكن الذي لا يقتضي ذاته وجوده لا يتصور أن يقتضي ذاته وجود غيره وعليه انعقد إجماع الصحابة ومن بعدهم من علماء النصيحة، فالجواب عن استدلال المعتزلة إنا لا ننكر أن للعباد في أفعالهم الاختيارية نوعاً من الإرادة والاختيار وذلك الإرادة والاختيار مناط التكليف ومنشأ الثواب والعقاب وموجب لإسناد الأفعال إليهم ونسمِّيه بالكسب، لكن ذلك الإرادة والاختيار غير كافية لإيجاد معدوم أصلاً جوهراً كان أو عرضاً وإنما الإيجاد بقدرة الله الكاملة وإرادته واختياره، وتعلق قدرته وإراداته واختياره بمخلوق نسمِّيه خلقاً وذلك كاف لإيجاد كل معدوم، غير أن الله سبحانه اقتضت حكمته (وإن خفيت علينا) أن يجعل لكسب العبد أيضاً مدخلاً في بعض أفعالهم، فنزاعنا مع المعتزلة في المعنى فإنهم يقولون إن قدرة العبد وإرادته كاف لإيجاد المعدوم ونحن لا نقول به ولا نزاع لنا في جواز إطلاق لفظ الخلق على كسب العبد فإنه نزاع لفظي، وكلمة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ إنما تدل على صحة إطلاق لفظ الخلق لغة على معنى الكسب والخلق

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

المصطلحين ومن ها هنا قال مجاهد معناه يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين، يقال رجل خالق أي صانعٌ وقال الله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾(١) وقال الله تعالى حكاية عن عيسى ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾(٢) وقيل معنى الخالقين ها هنا المصورين أو المقدرين، والخلق في اللغة التقدير وقيل: هذا على سبيل الفرض وفرض المحال ليس بمحال يعني لو فرضنا تعدد الخالقين، وكما هو رأي المعتزلة مجوس هذه الأمة فالله تعالى أحسنهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال: «وافقتُ ربي في أربع نزلت: ولقد خلقنا الإنسان من سلاسة من طين الآيات فلمَّا نزلت قلتُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الحديث، وهذه القصة تدل على أن ما دون الآية ليس بمعجز يقدر عليه البشر حيث نطق به عمر رضي الله عنه، وقيل: إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ فنطلق بذلك قبل إملائه فقال: رسول الله ﷺ اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليَّ فارتد ولحق بمكة، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء فجاء عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله فصمتَ طويلاً ثم قال نعم فلما انصرف عثمان قال النبي ﷺ ما صمتُّ إلا لتقتلوه، فقال رجل هَلاَّ أومأت إلينا يا رسول الله، فقال: ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين ثم أسلم ذلك اليوم وحسن إسلامه قلتُ: ذكر في سبيل الرشاد ارتداده وإهدار النبي ﷺ دمه وشفاعة عثمان وغير ذلك لكن لم يذكر أن سبب ارتداده كان نطقه بهذه الآية قبل إملائه ولا يتصور أن يكون لهذا سبباً لارتداده لأن ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية والله أعلم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكرنا من أمركم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عند انقضاء آجالكم أي لصائرون إلى الموت لا محالة ولذلك ذكر صيغة النعت الذي هو للثبوت دون اسم الفاعل وهذه الجملة مع ما عطف عليه معطوف على ولقد خلقناالإنسان إلى آخر الآيات، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب وإنما أكد الجملة بأن واللام لكون الناس مصرين على ارتكاب المعاصي وذلك دليل على إنكارهم الموت والبعث فنزلوا منزلة المنكرين لهما، قال البغوي إن الميت بالتشديد والمائت الذي لم يمت بعد وسيموت، والميت بالتخفيف

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

من مات ولذلك لم يجز التخفيف ها هنا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[1] وفي القاموس مات يموت ويمات ويميت فهو ميت بالتخفيف وميت بالتشديد ضد حي، ومات سكن ونام أو الميت مخففة الذي مات والميت بالتشديد والمائت الذي لم يمت بعد ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ من القبور للمحاسبة والمجازاة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ جواب قسم محذوف معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي سبع سماوات لأنها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل، وكل ما فوقه مثله فهو طريقه أو لأنها طراق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ عن جنس المخلوق ﴿غَافِلِينَ﴾ أي مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها حتى يبلغ منتهى ما قدرنا لها من الكمال على ما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة فتمسك السماء أن تقع على الأرض، وهذه الجملة إما حال من فاعل خلقنا أو معطوف على قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وهو واقع في مقام التعليل، يعني خلقنا فوقكم سبع طرائق لنفتح عليكم الأرزاق والبركات منها وتطلع عليكم الشمس والقمر والكواكب لأنا ما كنا عنكم وعما يصلح شأنكم غافلين ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً عطف على خلقنا ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار ما علمنا صلاحهم ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ عطف على ما سبق أي جعلناه ثابتاً مستقراً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فقيل: المراد به ما يبقى في الحياض والغدر أن ينتفع به الناس عن انقطاع المطر، وقيل: المراد به ما تتشربه الأرض ويدخل في مساماتها فيخرج منها في الأرض ينابيع فماء الأرض على هذا كله من السماء ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ﴾ عطف على فأسكناه يعني على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر عليكم استنباطه، وفي تنكير ذهاب إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإيعاد ﴿لَقَادِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله يعني لو فعلنا ذلك لهلكتم عطشاناً وهلكت مواشيكم ويخرب أراضيكم، قال البغوي وفي الخبر أن الله تعالى أنزل أربعة أنهار من الجنة سيحان وجيحان ودجلة والفرات. وقال: روى الإمام الحسن بن سفيان عن عثمان بن سعيد بالإجازة عن سعيد بن سابق الاسكندراني عن سلمة بن علي عن مقاتل بن حبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبرائيل عليه السلام استودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل منافع للناس فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وإذا كان عند يأجوج ومأجوج أرسل الله جبرائيل فرفع من الأرض

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾، فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا، قلتُ ولعل جميع أنهار الدنيا من عيون الجنة» وإنما ذكر الخمسة في الحديث على سبيل التمثيل والله أعلم.

﴿فَأَنشَأْنَا﴾ عطف على أنزلنا ﴿لَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي في جنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها سوى النخيل والأعناب ﴿وَمِنْهَا﴾ أي من الجنات يعني من ثمارها وزروعها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب أي لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنهما أكثر فواكه العرب، وجملة: (منها تأكلون) حال من فاعل الظرف أعني لكم فيها فواكه أو معطوف عليه ولجنات أو نخيل ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهي الزيتون قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو سيناء بكسر السين، وابن عامر ويعقوب والكوفيون بفتحها، اختلفوا في معناه وفي سينين: قال معناه البركة أي من جبل مبارك وقال قتادة والضحاك وعكرمة معناه الحسن أي جبل حسن قال الضحاك هو بالنبطية وقال عكرمة بالحبشية، وقال الكلبي معناه ذو شجر قيل هو بالسريانية الملتف بالأشجار وقال مقاتل: كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سيناء وسينين بلغة النبط، وقال مجاهد سيناء اسم حجارة بعينها أضيف إليها الجبل لوجودها عنده، وقال عكرمة هو اسم المكان الذي به هذا الجبل، وقيل: المركب منهما اسم لجبل بين مصر وإيلة نودي منه موسى كامرىء القيس كذا قال ابن زيد، ومنع صرفه للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة والعجم لا للألف لأنه فِيعال كدِيماس من السناء بمعنى الرفعة أو بالقصر بمعنى النور أو ملحق بفعِلال إذ لا فعلاء بألف التأنيث هذا على قراءة أهل الحجاز، وأما على قراءة الكوفيين فهو فَيعال ككيسان أو فَعلاء كصَحراء فالألف للتأنيث لا فعلال إذ ليس في كلامهم ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بضم التاء وكسر الباء من الأفعال يعني زيتونها متلبّساً بالدهن، قال الزجاج الباء للحال أي ومعها الدهن وقيل الباء على هذا زائدة أي تنبت الدهن، وقيل: أنبت بمعنى نبت والمعنى على حسب قراءة الباقين بفتح التاء وضم الباء من المجرد أي تنبت متلبّساً بالدهن مستصحباً له، ويجوز أن يكون للتعدية فيكون معناه تنبت الدهن ﴿وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ معطوف على الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفي الشيء على الآخر تنبت بالشيء

الجامع بين كونه دهناً يدهن به ويسرج منه وكونه آدماً يصبغ به الخبز أي يغمس فيه للائتدام، قال البغوي الصبغ والصباغ والإدام الذي يغمس فيه الخبز فينصبغ والإدام كلما يؤكل مع الخبز سواء ينصبغ به الخبز أولاً، قال مقاتل: جعل الله في هذا السجر أدماً ودهناً فالأدم الزيتون والدهن الزيت، وقال خص الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها، ويقال إن الزيتون أول شجرة نبت في الدنيا بعد الطوفان ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ آية بحالها وتستدلون بها على كمال القدرة والحكمة لصانعها عطف على ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم﴾ ولما كان الناس غافلون عن الاعتبار نزلوا منزلة أهل الإنكار وأكد الجملة ﴿نُّسْقِيكُم﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب بفتح النون على صيغة المتكلم من المجرد والباقون بضم النون على صيغة المتكلم من الأفعال كما ذكرنا في سورة النحل، وأبو جعفر ها هنا بالتاء وفتحها على صيغة المؤنث الغائب من المجرد والضمير حينئذ راجع إلى الأنعام ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو من العلف فإن اللبن يستلون منه فمن للتبعيض أو للابتداء ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها وأشعارها وأصوافها وأوبارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي على الأنعام فإن منها ما يحمل عليه كالإبل والبقر وقيل المراد الإبل لأنها هي المحمول عليها عند العرب والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة سفينة بر تحت خدي زمامها، والضمير فيه كالضمير في ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[1] ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ في البر والبحر وجملة نسقيكم إلى آخرها بيان للعبرة فإن ما أخرج الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[2] آية للاعتبار على كمال قدرته، وانقياد الأنام للحلب وجز الصوف والشعر والحمل والذبح وغير ذلك مع كمال قوتها وضعف الإنسان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٦

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ذكر في صدر السورة حال المؤمنين المطيعين، ثم عقبه بالآيات المقتضية للإيمان والطاعة ثم عقبه بذكر الكافرين الطاغين وما آل إليه أمرهم ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أطيعوه ووحدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استؤناف لتعليل الأمر بالعبادة، قرأ الكسائي غيره بالجر حملاً على لفظة إله والباقون بالرفع حملاً على محله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عطف على محذوف يعني أتشركون به فلا تتقون أن يزيل ما بكم من نعمائه ويعذبكم بإشراككم إياه غيره في العبادة وكفرانكم آلاءه ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ الأشراف ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يأكل ويشرب وينام فكيف يكون رسولاً من الله، وهذا القصر أقصر قلب فإن من يدعي الرسالة كأنه منكر لكونه بشراً ومدع لكونه ملكاً على زعمهم الفاسد فقالوا على قلب دعواه ليس هذا ملكاً وليس هذا شيئاً إلا بشراً، ومبنى هذا القصر على أنهم أنكروا أن يكون البشر لله رسولاً مع ما أدعوا أن يكون الحجر له تعالى شريكاً قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿يُرِيدُ﴾ بادعائه الرسالة ﴿أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلب أن يكون له الفضل عليكم ويسودكم جملة يريد صفة بعد صفة لبشر أو مستأنفة كأنه قيل ما يريد بادعائه الرسالة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يعبد غيره أو أن يرسل رسولاً، ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلاً ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعيه نوح من التوحيد والمسألة والبعث بعد الموت ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذلك إما لفرط عنادهم أو لكونهم في فترة متطاولة، جملة ما سمعنا حال من فاعل يريد والجملة الشرطية معترضة بين الحال وعامله ﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي جنون حيث يدعي الرسالة من الله لنفسه استيناف أو تأكيد لنفي الرسالة فإن المجنون لا يكون رسولاً ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ فاحتملوه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يفيق من الجنون أو يموت والفاء في فتربصوا للسببيَّة فإن كونه مجنوناً يوجب التربص وترك العجلة في الانتقام ولما أوحى إلى نوح من الله تعالى إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما أوعدتهم من العذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يدل تكذيبهم إيايَ أو بسببه جملة مستأنفة ﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾ عطف على مقدر تقديره فاستجبنا دعاءه ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحفظنا أن لا يخطىء فيه أو يفسد عليك أحد، أن مفسرة لأوحينا فإنه بمعنى القول ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي أمرنا وتعليمنا كيف تصنع ﴿فَإِذَا

جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول الغذاب عطف على اصنع ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي فار الماء من التنور للخباز اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماء منه وكان ذلك علامة لنوح أخبرته امرأته فركب ومحله في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وقيل في ذروة من الشام ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي أدخل فيها جاء سلك لازماً ومتعدياً يقال سلكتُ في كذا أي دخلت وقال الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾(١) ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأ الجمهور بإضافة كل إلى زوجين فاثنين حينئذ منصوب على المفعولية يعني ادخل فيها اثنين من كل صنفين من الحيوانات يعني الذكر والأنثى وقرأ حفص كل بالتنوين عوض المضاف إليه يعني أدخل فيها زوجين كانتا من كل نوع فاثنين على هذا تأكيد للزوجين، وفي القصة أن الله تعالى حشر لنوح السباع والطيور وغير ذلك فجعل نوح يضرب بيديه في كل نوع فيقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى فيحملها في السفينة ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني أهل بيتك أو من آمن معك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ في الأزل ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالإهلاك لكفره ﴿مِنْهُمْ﴾ أي حال كون من سبق عليه القول بالإهلاك من أهلك وهي امرأته وولده كنعان، وإنما جيء بعلى لأن السابق ضار وإنما يجيء باللام إذا كان نافعاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾(٢) ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ عطف على اصنع أو على فاسلك يعني لا تخاطبني بالدعاء بالإنجاء ﴿فِى﴾ حق ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على أنفسهم بالكفر ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك جملة معللة لقوله: لا تخاطبني ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ اعتدلت ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ ونجوت من مصاحبة الجار السوء ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة بعد الركوب أو في الأرض بعد الخروج من السفينة ﴿مُنزَلًا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وكسر الزاء على معنى موضع النزول والباقون بضم الميم وفتح الزاء بمعنى الإنزال ﴿مُّبَارَكًا﴾ يتسبَّب لمزيد الخير في الدارين فالبركة في السفينة النجاة من مصاحبة أعداء الله والفراغ للاشتغال بعبادته، والبركة في الأرض بعد الخروج كثرة النسل والرزق والاشتغال بعبادة الله تعالى، الجملة الشرطية معطوفة على فاسلك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ حال من فاعل أنزلني وفيه ثناء مطابق لدعائه، أمر نوحاً وحده بالدعاء وعلق الدعاء بأن يستوي هو ومن معه إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه كفاية عن دعائهم.

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا
فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾
أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ
﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي فعلنا بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى ورأفته بالمسلمين وغضبه على الظالمين يعتبر بها أولوا الأبصار ﴿وَإِنَّ﴾ مخففة من الثقيلة تقديره وإنا ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ اللام فارقة يعني كنا المصيبين قوم نوح ببلاء عظيم أو ممتحنين عبادنا، وقيل أن نافية واللام بمعنى إلا يعني وما كنا بإرسال نوح ووعظه وتذكيره إلا مبتلين قومه ومختبرين إياهم لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ عطف على كلام محذوف تقديره فأغرقناهم ثم أنشأنا ﴿مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ المراد بهم عاد أو ثمود، قال البغوي والأول أظهر ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ يعني أوحينا بين أظهرهم ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعرفونه بالصدق والعدالة وهو هود أو صالح عليه السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أن مفسرة لأرسلنا لكونه بمعنى القول يعني قلنا لهم على لسان الرسول ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مر تفسيره ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ العلة ذكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول بخلاف كلام قوم نوح وحيث استأنف الله به ذكر مقال قوم هود في الأعراف وهو بغير واو بالاستئناف كأنه جواب سؤال مقدر كأنه قيل فما قال قومه في جوابه، وذكر ها هنا بالواو عطفاً لما قالوه على ما قال الرسول، على معنى أنه اجتمع في الحصول وهذا الحق مع هذا الباطل وليس متصلاً بكلام النبي جواباً له وذكر في قصة نوح بالفاء لأنه جواب لقوله واقع عقيبه ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب أو بمصيرهم إلى الحياة الآخرة ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ أي أنعمنا هم بكثرة الأموال والأولاد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا﴾ الذي يدعي النبوة ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصفات والأحوال ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ما موصولة والعائد إلى الثانية منصوب

محذوف أو مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ اللام في جواب قسم محذوف أي والله لئن أطعتم ﴿بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ حيث أذللتم أنفسكم بالانقياد لمثلكم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم ما أحمقهم وما أجهلهم ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار أو التقرير أي قد يعدكم ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بكسر الميم من مات يمات، والباقون بضم الميم من مات يموت ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ مجردة عن اللحوم والأعصاب ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياءً أنكم تكرير للأول أكد به لطول الفصل بينه وبين خبره تقدير الكلام أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً تخرجون كذلك قرأ ابن مسعود رضي الله عنه وجاز أن يكون ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبتدأ خبره الظرف المقدم، أو فاعل للفعل المقدر وجواباً للشرط والجملة خبر الأول أي أنكم إخراجكم واقع إذا متم أو أنكم إذا متم وقع إخراجكم ويجوز أن يكون خبر الأول محذوفاً لدلالة خبر الثاني عليه، وجملة أيعدكم تقرير للطعن السابق في النبوة أو تعليل لقوله لئن أطعتم بشراً أنكم لخاسرون ﴿هَيْهَاتَ﴾ اسم فعل وفاعله ضمير مستكن فيه أي بعد وقوع هذا الوعد عن العقل والتصور، أو بعد التصديق والإيمان به ﴿هَيْهَاتَ﴾ تأكيد للأول ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا الاستبعاد لما توعدون كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لهم فماله هذا الاستبعاد قالوا لما توعدون، وجاز أن يكون اللام زائدة للبيان والموصول فاعل لهيهات كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1] وقيل هيهات مصدر بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء على أنه مبني عليه وقرأ أبو جعفر بكسر التاء من غير تنوين، وقرىء بالكسر منوناً وقرأ نصر بن عاصم بضم التاء، وقرىء بالفتح منوناً للتنكير وبالضم منوناً على أنه جمع هيهة وغير منون تشبيهاً بقبل وبعد، وقرىء بالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاءً ووقف عليها أكثر القراء بالتاء وجملة هيهات لما توعدون معترضة ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي الحياة جنسها شيء ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ودنت منا أقيم الضمير مقام الحياة الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعيينها مغن عن التصريح بها، فإن نافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس مثل لا التي لنفي الجنس ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني يموت بعضنا ويحيى بعضنا، قال البغوي فيه تقديم وتأخير أي نحيي ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت وهذا القول مبني على كون ضمير المتكلم مع الغير لجميع الناس، قلتُ وعلى تقدير كون الضمير لجميع الناس أيضاً لا حاجة إلى القول بالتقديم والتأخير إذ الواو لمطلق الجمع

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

دون الترتيب فالمعنى يثبت لجميع الناس في الدنيا موت وحياة ولا حياة غير لهذه الحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت حال أو عطف ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما الذي يدعي الرسالة ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ فيما يدعيه من الرسالة أو فيما بعدها من البعث ﴿كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين وهذه الجملة تأكيد لقولهم ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ الرسول ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي ﴿قَالَ﴾ الله ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ ما زائدة لتأكيد معنى القلة أو نكرة موصوفة بمعنى شيء والمراد به الزمان يعني عن زمان قلبل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على تكذيبهم إذا عاينوا العذاب، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ قيل: أراد بالصيحة الهلاك وفي القاموس الصيحة والصياح الصوت بأقصى الطاقة وصيح بهم نزعوا وفيهم هلكوا والصيحة العذاب فإن كان القصة لعاد فالمراد بالصيحة ها هنا العذاب وإن كان لثمود فالمراد بها الصوت وقد ذكرنا قصتهم في سورة الأعراف أنه أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتصدعت قلوبهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالوجه الثابت الذي لا دافع له أو بالعدل كقولك فلان يقضي بالحق أو بالوعد الصدق ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي هلكي شبههم في دمارهم بغثاء الليل وهو حميله، يقول العرب لمن هلك سأل به الوادي ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل الإخبار والدعاء وبُعُداً مصدرا لبعد بمعنى هلك وهو من المصادر التي وجب إضمار فعلها في الاستعمال وسدها مسد الأفعال، والقوم الظالمون فاعل للمصدر الذي سد مسد الفعل واللام زائدة أو هي لتقوية عمل المصدر كما في قوله أعجبني جلوس لزيد وقيام قيام لعمرو ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ عطف على جعلناهم غثاء ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد عاد ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من زائدة للاستغراق وأمة في محل الرفع على الفاعلية ﴿أَجَلَهَا﴾ أي الوقت الذي لهلاكها يعني لا يهلك أمة قبل الوقت الذي قدر هلاكها فيه ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ولا يتأخر أمة عن وقت هلاكها أي لا يبقى بعد الأجل،

ذكَّر الضمير بعد تأنيثه للمعنى وهذه جملة معترضة ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أصله وترى من الوتر ضد الشفع قلبت الواو بالتاء كما في التراث والتقوى منصوب على الحال من مفعول أرسلنا، قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين وصلاً وبالألف عوض التنوين وقفاً ولذا لا يميله أبو عمرو لأن ألفه عنده كألف زيداً في النصب فهو مصدر بمعنى التواتر والمواترة وهو تتابع الأشياء وتراً وتراً يعني فرادي من غير اجتماع، قال في القاموس التواتر التتابع أو مع فترات وواتر مواترة ووتاراً تابع إذ لا يكون المواترة بين الأشياء إلا إذا وقعت بينها فترة يعني اعتبر بعض الناس في التواتر إن يكون بينها فترة، ومنه حديث أبو هريرة، لا بأس بقضاء رمضان تترى أي متفرقاً غير متتابع كذا في النهاية، قال الأصمعي يقال واترت الخبر أي أتبعت بعضها بعضاً وبين الخبرين مهلة، قلتُ: ولذلك اشترط في الخبر المتواتر أن يروى من جهات شتى ورجال غير مجتمعين بحيث لا يحتمل تواطئهم على الكذب، وقرأ أكثر القراء بالألف المقصورة للتأنيث على وزن سَكْرى من غير تنوين لعدم انصرافه للزوم التأنيث ذكر صيغة التأنيث لأن الرسل جماعة وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾ معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ وفيه مقابلة الجمع بالجمع بإرادة انقسام الآحاد عى الآحاد فاستقام التراخي كأنه، قال: ثم أنشأنا قرناً ثم أرسلنا فيه رسولاً ثم أنشأنا قرناً آخر ثم أرسلنا رسولاً آخر وهكذا، إذ لا يستقيم أن يقال أرسلنا قروناً كثيرة وبعد جميع القرون أرسلنا رسلاً ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً﴾ أضاف السرول مع الإرسال إلى المرسل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه والمجيء الذي هو منتها إليه ﴿كَذَّبُوهُ﴾ أسند التكذيب إليهم لأجل صدوره من أكثرهم فإن للأكثر حكم الكل جملة مستأنفة ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك كما أتبعنا بعضهم بعضاً في الإنشاء وبعث الرسل إليهم عطف على كذبوه ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يعني لم يبق منهم، أثر إلا حكايات يسمونها ويعتبر بها المعتبرون جمع أحدوثة وهو ما يتحدثه الناس تلهياً وتعجباً، قال الأخفش إنما هذا أي استعمال كلمة أحدوثة وأحاديث في الشر وأما يفي الخير فلا يقال جعلتُهم أحاديث وأحدوثة وإنما يقال صار فلان حديثاً وقيل هو اسم جمع للحديث يقال أحاديث النبي ﷺ ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالرسل ولا يصدقونهم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ عطف على ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بدل من أخاه بآياتنا التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة واضحة ملزمة للخصم ويجوز أن يراد به العصا وإفرادها بالذكر لأنها أول المعجزات وتعلقت بها معجزات شتى كانقلابه حيَّةً وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر وحراستها ومصيرها شمعةً وشجرةً مثمرةً ورشاءً ودلواً، ويجوز أن يراد به

المعجزات وبالآيات الحجج وأنيراد بهما المعجزات فإنها آيات للنبوة وحجة للنبي على ما يدعيه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان ومتابعة الرسول ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي كانوا يرتفعون على الناس تكبراً ويقهرونهم ظلماً ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾ الاستفهام للإنكار أي لا نعترف ولا نصدق بالفضل والنبوة ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ فإنه يطلق على الواحد كقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(١) كما يطلق على الجمع كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾(٢) ﴿مِثْلِنَا﴾ لم يثن المثل لأنه في حكم المصدر فإن مثل وغير يوصف به الواحد والإثنان والجماعة من المذكر والمؤنث ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ مطيعون متذللون والعرب تسمي كل من أطاع وتذلل لأحد أنه عابد له، والجملة حال لفاعل نؤمن أو لبشرين أولهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ عطف على أرسلنا ﴿فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ الضمير عائد إلى قومهما ولا يجوز عود الضمير إلى فرعون لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم أي لكي ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بولادتها إياه من غير مسيس فالآية أمر واحد وهو الولادة مضاف إليهما أو تقديره وجعلنا ابن مريم آية بأن تكلم في المهد وظهر منه معجزات أخر وأمه آية بأن ولدت من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي مكان مرتفع من الأرض، قال عبد الله بن سلام هي دمشق وهو قول سعيد بن المسيب ومقاتل، وقال الضحاك غوطة دمشق، وقال أبو هريرة هي الرملة، وقال عطاء عن ابن عباس هي بيت المقدس وهو قول قتادة وكعب، وقال كعب هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، وقال ابن زيد هي مصر والسدي هي أرض فلسطين ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستوية منبسطة يستقر عليها ساكنوها، وقيل ذات ثمار وزروع يستقر فيها الناس لأجلها ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي ماء ظاهر جار فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الإبعاد في الشيء أو من الماعون وهو المنفعة لأن الماء نفاع أو مفعول من عانه إذا أدر له بعينه لأنه لظهوره يدرك بالعيون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥

(١) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٢) سورة مريم، الآية: ٢٧.

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الحلالات دون المحرمات فالأمر للتكليف لأنه في معنى النبي عن تناول المحرمات أو المستلذات من المباحات فالأمر للترفيه وللرد على الرهبانية في رفض الطيبيات، وقيل: هي الحلال الصافي القوام فالحلال ما لا يعصي الله فيه وضده الحرام، والصافي ما لا ينسى الله فيه وضده ما يلهيه ويوقعه في انهماك الشهوات والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل والقوي وضده القدر الزائد على الشبع ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي عملاً يراد به وجه الله على وفق ما أمر به خالصاً له تعالى من غير شرك جلي ولا خفي وضده الفاسد وهو ما يكرهه الله تعالى من قول أفعل وتقدير الكلام وقلنا لهم يا أيها الرسل كلوا إلى آخره فهو حكاية عما خوطب به الأنبياء كل نبي في زمانه لا على أنهم خوطبوا به دفعة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبي وجماعة خوطب به محمد ﷺ وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع، قلتُ: ومبنى ذلك على التعظيم وفيه إشارة إلى فضله أو لقيامه مقام جماعة فإنه أرسل إلى الناس كافة، وجاز أن يكون المراد به النبي ﷺ وعلماء أمته فإنهم برازخ بين الرسول وأمته كما أن الرسول برزخ بينهم وبين الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[1] قيل خوطب به عيسى عليه السلام عند إيوائه وأمه إلى الربوة فذكر لهما ما خوطب به الأنبياء كل نبي في زمانه ليقتديا بالرسل في تناول ما رزقا ويقتضيه سياق القصة ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم على حسب أعمالكم فالجملة في مقام التعليل ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي أكل الطيبات والعمل بالصالحات، قرأ الكوفيون بكسر الهمزة على أنه جملة في محل النصب حال من فاعل كلوا أو هي معطوفة على جملة سابقة فيكون في مقولة قلنا على تقديره، والباقون بفتحها عطفاً على ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ أو بتقدير اللام يعني ولأن هذه أمتكم أو منصوب بتقدير اعلموا أن هذه ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم بأجمعكم عليها ﴿أُمَّةً﴾ أي ملة ﴿وَٰحِدَةً﴾ وهي الإسلام متحداً في العقائد وأصول الشرائع والعمل في الفروع على حسب ما أمر الله به في كل زمان وعلى الناسخ بعد ترك المنسوخ، وقوله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢).

مؤكدة لقوله: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ على طريقة زيد أبوك عطوفاً والعامل فيه معنى الإشارة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ الفاء للسببية يعني اتقوني لأجل أني ربكم ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ يعني تقطع وتفرق الذين أرسل إليهم بعد الإرسال أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة في أصول الدين، فآمن بعضهم بجميع الرسل وبجميع ما أرسل إليهم وهم أهل الحق في كل قرن، وبعضهم آمن ببعض دون بعض كاليهود والنصارى والصابئين وبعضهم كفروا بأجمعهم كالمجوس وأهل الأوثان فالتفعل بمعنى التفعيل وأجاز أن يكون معناه فتفرقوا وتحزبوا في أمر دينهم وجعلوه أياناً مختلفة، فعلى هذا أمرهم منصوب بنزع الخافض أو على التميز من نسبة التفرق إليهم، والضمير في تفرقوا راجع إلى المرسل إليهم المذكورين في القصص المذكورة حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وأنشأنا قروناً فأرسلنا فيهم رسلنا تترى وغير ذلك، والجملة معطوفة على أرسلنا ﴿زُبُرًا﴾ أي فرقاً وطوائف وقطعاف جمع زبورٍ بمعنى الفرقة ومنه زبر الحديد، فهو إما منصوب على المصدرية من غير لفظ الفعل نحو: أنبته الله نباتاً أو حال من أمرهم أو من فاعل تقطعوا أو مفعول ثانٍ لتقطعوا لتضمنه معنى الجمل يعني قطعوا أمرهم وجعلوه زبراً فرقاً، وقيل معناه كتباً من زبرتُ الكتاب إذا كتبته كتابة غليظة وكل كتاب غليظ الكتابة يقال زبور، يعني جعلوا دينهم كتباً محرفة بعد ما كان كتاباً واحداً من الله منزلاً. فيكون مفعولاً ثانياً لتقطعوا أو حالمن أمرهم، والمعنى فرقوا أمرهم أي دينهم حال كون دينهم كتباً منزلةً من السماء متفقةً في أصول الدين مصدقاً بعضها بعضاً فقالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وعن الحسن قطعوا كتاب الله قطعاف وحرَّفوه ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين أو الهوى ﴿فَرِحُونَ﴾ معجبون معتقدون أنهم على الحق جملة مستأنفة ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ قال ابن عباس في كفرهم وضلالتهم وقيل في غفلتهم وجهالتهم جهلاً مركباً شبَّهها بالماء الذي يغمر القامة أي يسترها ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى زمان موتهم أو إلى أن نأمرك بالقتال يعني لا تحزن على تفرقهم وكفرهم فإنا نأخذهم إما بالعذاب من عندنا أو بأيديكم ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ أي الذين يفرحون بما ليديهم من الضلال ولا يتبعون الرسل ويكذبونهم ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي ما نعطيهم ونجعلها مدداً لهم ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لما ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ خبر لأن والعائد محذوف، وأن مع اسمها وخبرها قائم مقام مفعولي يحسبون والاستفهام للتوبيخ والرد على حسبانهم والمعنى أيزعمون أن الذي نعطيهم في الدنيا وندهم بها من الأموال والأولاد نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم ثواباً لأعمالهم وعقائدهم لأجل مرضاتنا عنهم وهذا الحسبان سبب لفرحهم بما لديهم ليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعني بل

هم كالأنعام لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتأملوا فيعلموا أن لهذه الأعمال والعقائد غير مستوجبة للثواب والمرضاة وإنما ذلك الإمداد استدراج لا مسارعة في الخيرات، هذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم الأصلح للعباد في الدين على الله واجب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ أي من خوف عذابه ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ حذرون من موجبات العذاب أو المعنى أنهم بسبب اصتافهم بخشية الله تعالى خائفون من عقابه، وجاز أن يكون المراد بالخشية ما به الخشية والمعنى أنهم من عذاب ربهم مشفقون، قال الحسن البصري المؤمن جمع إحساناف وخشيةً والمنافق جمع إساءةً وأمناً ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا﴾ المنزلة أو بآياته المنصوبة الدالة على التوحيد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بمدلولاتها ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ في العبادة أحداً غيره شركاً جلياً ولا خفياً فلا تكرار فإن الإيمان بالله وحده لا ينفي الإشراك في العبادة غيره ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أي يعطون من الصدقات ما أعطوه، قال البغوي وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ يأتون ما أتوا أي يعملون ما عملوا من أعمال البر ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة... أن لا يقبل منهم أو أن لا يقع على الوجه الذي يليق بجناب كبريائه فيؤاخذوا به أولا ينجيهم من عذاب الله لكثرة الخطايا وقلة الطاعات ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي لأن مرجعهم إلى الله أو قلوبهم خائفة من أن مرجعهم إلى الله وهو يعلم ما يخفي، قال الحسن عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، عن عائشة قالت: «سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الذين يشربون الخمر ويسرقون قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وروى البيهقي أنها قالت قلت يا رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يربي ويشرب الخمر ويسرق، قال: «لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يقوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»، الموصولات المعطوفة بعضها على بعض اسم لأن وإنما كرر الموصول ولم يعطف الصلات بعضها على بعض للدلالة على أن كل واحد من الصفات المذكورة مستقل لثبوت الخير وخبرها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيسارعون في إتيانها كيلا يفوت منهم إتيانها، أو المعنى يسارعون في نيل الخيرات الأخروية الموعودة على الطاعات بالمبادرة إليها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها، حيث قال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوقي على العمل (٩٨ب٤).

رسول الله ﷺ: «لا يرد البلاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»[١] فيكون إثباتاً لهم ما نفي عن أضدادهم، قلتُ لعل المراد بالخيرات التي يسارع إليها المؤمنون في الدنيا هو الاطمئنان بذكر الله والالتذاذ به والشبع بالكفاف وعدم الخوف من زوال نعماء الدنيا وعدم الخوف والرجاء عن أحد سوى الله تعالى، والمبشرات التي يدرك بالإلهام أو المنام ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي لأجل الخيرات سابقون الناس إلى الجنات أو فاعلون السبق إلى الطاعات أو الثواب أو الجنة أو سابقون إلى خيرات ينالونها في الدنيا قبل الآخرة حيث عجلت لهم، وقيل: اللام ها هنا بمعنى إلى يعني وهم إلى الخيرات سابقون كقوله تعالى: ﴿لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[٢] أي إلى ما نهوا عنه ومن ها هنا قال الكلبي سبقوا الأمم إلى الخيرات، وقال ابن عباس معنى الآية سبقت لهم من الله السعادة.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ
فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ
إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ
جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ
بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ
تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾ جملة في محل النصب على الحال من فاعل يسارعون في الخيرات يعني ما مسارعتهم إلى الاجتهاد إلا بطيب أنفسهم التذاذاً، وما كلفناهم إلا قدر طاقتهم ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يعني اللوح المحفوظ أو صحائف الأعمال ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما هو الثابت المتحقق في الواقع يعني أعمالهم ثابتة لدينا لا نضيع منها شيئاً بل نثيب عليها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم شيء، قوله ولدينا

(١) عند الترمذي «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»، في كتاب: القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩).

(٢) سورة الأنعام عمران، الآية: ١٣١.

كتاب حال ثان مرادف للأول وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى آخره جملة معترضة لبيان أحوال المؤمنين في أثناء ذكر الكافرين، فقوله ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ الخ متصل بقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعني بل قلوب الكفرة الذين لا شعور لهم ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ أي في غفلة غامرة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني من عدم شعورهم فهم كما لا يشعرون لا يشعرون أنهم لا يشعرون، أو المعنى هم في غمرة من نفس الشعور فهم كما لا يشعرون حالاً لا يشعرون في الاستقبال لانتفاء صلاحية الشعور فيهم لأجل الغمرة، أو أنهم في غمرة من أنهم تفرقوا دينهم وتركوا دين الله المرضي إلى ما اقتضته أهواؤهم، وقيل: في غمرة من هذا القرآن أو مما اتصف به المؤمنون وذكر فيما سبق أو من كتاب الحفظة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ خبيثة كائنة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الأعمال التي اتصف بها المؤمنون أو المعنى لهم أعمال خبيثة متزايدة على ما هم عليه من الشرك ﴿هُمْ لَهَا﴾ لتلك الأعمال الخبيثة ﴿عَٰمِلُونَ﴾ معتادون بها هذه الجملة صفة للأعمال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ يعني متنعميهم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ أخرج ابن جرير عن ابن جريج عن ابن عباس أنه قال هو السيف يوم بدر، وقال الضحاك هو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[١] فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحترقة» والدعاء عليهم مروي في الصحيحين من حديث ابن مسعود ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ الجئر رفع الصوت بالاستغاثة جواب شرط وإذا للمفاجاة ينوب على الجملة الاسمية مناب الفاء الجزائية، وحتى ابتدائية يدل على سببيّة ما قبلها لما بعدها كما في قولك مرض فلان حتى لا يرجونه فإن غفلتهم سبب لهلاكهم واستغاثهم، وجاز أن يكون ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ بدلاً من إذا أخذنا وجواب الشرط قوله: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فإنه مقدر بالقول يعني قيل لهم: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟﴾ وعلى التأويل الأول هذا استئناف ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تعليل للنهي يعني لا تجئروا فإنه لا ينفعكم الجئر ولا يلحقكم نصر ومعونة من جهتنا ولا يمكن دفع عذاب الله إلا من نصر من جهته ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ المنزلة في القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ النكوص الرجوع قهقري يعني كنتم تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقها والعمل بها والجملة تعليل لقوله: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن اتباع النبي ﷺ والإيمان به مستعلين أنفسكم على سائر الناس ﴿بِهِۦ﴾ الضمير راجع إلى غير مذكور وهو الحرم، يعني مستكبرين بالحرم قائلين نحن أهل الحرم وجيران بيت الله لا يظهر علينا أحد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: يهوي بالتكبر حين يسجد (٧٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة (٦٧٥).

لا نخاف أحداً، كذا قال ابن عباس ومجاهد وجماعة ولما كان افتخارهم واستكبارهم بالبيت مشهوراً أغنى ذلك عن ذكر المرجع، وقيل: الضمير راجع إلى آياتي فإنها بمعنى كتابي والباء متعلق بمستكبرين لتضمينه معنى مكذبين أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعهم القرآن، وقوله مستكبرين حال من فاعل تنكصون وكذا قوله ﴿سَٰمِرًا﴾ حال منه أو من فاعل مستكبرين يعني حال كونهم تسمرون أي تتحدثون بالليل في مجالسكم حول البيت، والسمر الحديث بالليل والسامر اسم جمع كالباقر للبقر والجامل للجمل، يقال سمر القوم يسمرون فهم سمار وسامر كذا في النهاية ومنه حديث قيلة إذ جاء زوجها من السامر أي من قوم يسمرون، وفي القاموس سمر سمراً لم ينم وهم السمار والسامرة والسامر اسم الجمع والسَّمَرُ محركة الليل وحديثه وظل القمر والدهر والظلمة، قال البيضاوي السامر في الأصل مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعافية، وقيل هو مفرد في محل الجمع كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[1] أي أطفالاً، وقيل السامر الليل المظلم فعلى هذا يكون سامراً منصوباً على الظرفية يعني تنكصون وتستكبرون في الليل في أحاديثكم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم من الأهجار وهو الأفحاش أي تفحشون وتسبُّون النبي ﷺ وأصحابه، والباقون بفتح التاء وضم الجيم من هجرَ يهجر هُجراً بضم الهاء بمعنى الفحش والقول القبيح فيكون معنى القرائتين واحداً، أو هجراً بفتح الهاء بمعنى القطيعة والإعراض أو بمعنى الهذيان أي تعرضون عن القرآن أو تهذون في شأن النبي ﷺ أو القرآن وتقولون ما لا تعلمون، أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال كانت قريش تسمر حول البيت ولا تطوف به ويفتخرون فأنزل الله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يسمعوا فلم يدبروا القول أي القرآن فإن اللام للعهد يعني القول الذي جاء به محمد ﷺ، يعني قد سمعوا القرآن وتدبروا فيه حين أرادوا معارضته فلم يقدروا على إتيان مثل قصر سورة منه فظهر عليهم بإعجازه وأخباره وقصصه أنه ليس من كلام البشر ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة التي للإنكار والمعنى بل لم يجئهم ما لم يأت آباءهم الأولين يعني بل قد جاءهم ما أتى آباءهم إسماعيل عليه السلام وأعقابه من الرسول والكتاب وقد كانت القريش يعترفون بنبوة إبراهيم وإسماعيل وفضلهما فمحمد ﷺ مثلهما ولا استحالة في ذلك ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ محمد ﷺ، يعني قد عرفوه صغيراً وكبيراً وعرفوا نسبه وأمانته وصدقه وحسن

(١) سورة غافر، الآية: ٦٧.

أخلاقه ووفاء عهوده وكمال علمه وأدبه من غير تعلم من البشر إلى غير ذلك كذا قال ابن عباس ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ الفاء للسببية معطوف على لم يعرِفُوا وما عطف هو عليه، يعني لا يجوز الإنكار إلا بسبب أحد هذه الوجوه المذكورة ولو يوجد شيء منها بل قد تحقق أضدادها ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أم ها هنا أيضاً منقطعة والهمزة التي في ضمنها للردع والتوبيخ يعني بل أيقولون أنه مجنون وهم يعلمون أنه أرجحهم عقلاً وأتقنهم نظراً لا ينسب الجنون إلى مثله إلا معاندٌ أو مجنون، وجاز أن يكون أم في هذه المواضع متصلة معطوفة على ما دخل عليه همزة الاستفهام لنفي المفهوم المردد، وجملة أفلم يدبروا مستأنفة كأنَّ السامع لمَّا سمع قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قال ما سبب هذا النكوص والاستكبار والهجر أكان شيئاً من هذه الأمور المذكورة وهي عدم تدبرهم في القرآن أو عدم علمهم بإتيان النبي قبلهم أو عدم معرفتهم أمانة الرسول وصدقه وغير ذلك أو زعمهم كونه مجنوناً، فقال الله في جوابه ليس شيء من هذه الأمور ﴿بَلْ﴾ سبب ذلك المكابرة والعناد حيث ﴿جَآءَهُم﴾ محمد ﷺ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي القول الثابت المتحقق الظاهر صدقه عقلاف ونقلاً لا يخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ الجملة حال من مفعول جاءهم يعني جاءهم الحق وهم له كارهون عناداً أو ظلماً لحب الرياسة واتباع الشهوات وتقليد الجهال والتمسك بالعادات لا لحكم الكياسة، وإنما قيد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان خوفاً من توبيخ قومه أو لقلة فطنته أو عدم فكرته لا لكراهة الحق، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهة متعددة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي لبطلت ولم يخرج شيء منها من كتم العدم لما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] في سورة الحج، وقال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة الحق هو الله وقال الفراء والزجاج المراد بالحق القرآن، والمعنى لو اتبع الله مراده وجعل لنفسه شركاء أو اتخذ ولداً وأنزل القرآن على حسب شهواتهم ونطق القرآن بالشرك والقبائح، لم يكن الله إلهاً فإن الألوهية لا يحتمل الشركة والله لا يأمر بالفحشاء فإن الأمر بالفحشاء رذيلة والألوهية يقتضي التنزه عن الرذائل ولو لم يكن الله إلهاً لبطل وجود الممكنات بأسرها، وقيل معناه لو اتبع الحق أهواءهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالم فلا يبقى له قوام، أو المعنى لو اتبع الحق الذي جاء به محمد ﷺ من الدين أهواءهم وانقلب شركاً لأنزل الله عليهم العذاب وأهلك العالم من فرط غضبه ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم﴾ عطف على قوله:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الخ وجملة ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لبيان بطلان أهوائهم ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بالكتاب الذي يذكرهم الله أو هو ذكرهم أي وعظهم أو الذكر الذي تمنوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾[1] وقال ابن عباس يعني بما هو ذكرهم أي بما فيه فخرهم وشرفهم يعني القرآن نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[2] أي شرفكم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾[3] فإن القرآن نزل بلغة قريش وجعل الله الناس تبعاً لقريش وانحصر الإمامة فيهم ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه ولا يريدون الشرف، ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ يعني أجراً على هدايتهم والرسالة إليهم عطف على قوله: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب فالاستفهام ها هنا أيضاً للإنكار يعني لا تسألهم أجراً حتى لا يؤمنوا بك مخافة الغرامة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ أي أجره وثوابه الذي يعطيك في الآخرة قرأ حمزة والكسائي خراجاً فخراج ربك بالألف في الموضعين وقرأ ابن عامر بغير ألف فيهما ومعناهما واحد وهو الأتاوة أي الجعل والأجر على العمل قال في القاموس الخرج الأتاوة كالخراج وقرأ الباقون أم تسألهم خرجاً بغير ألف ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ بالألف، قال البيضاوي والخرج بإزاء الدخل يقال لكم ما تخرجه إلى غيرك والخراج غالب في الضريبة التي يأخذها السلطان على الأرض ففي هذه القراءة في إضافة الخراج إلى الله إشعار بالكثرة واللزوم ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم هذه الجملة تعليل لنفي السؤال ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ عطف على خراج ربك خير أو حال من ربك ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة على استقامته وعدم الاعوجاج فيه، بيَّن الله سبحانه عدم الأسباب الموجبة لإنكار دعوة النبي ﷺ سوى كراهة الحق وقلة الفطنة، وذكر الداعي إلى الإيمان وهو كون المدعو إليه صراطاً مستقيماً مرغوباً بجميع العقلاء عامة وكونه شرفاً لهم، داعياً إلى إسلام قريش خاصة فظهر أن إنكارهم لم يكن ءلا لكراهة الحق عندهم عناداً أو قلة تفطنهم ومبنى ذلك الشقاوة الأزلية المكتوبة عليهم، فإنهم كانوا عقلاء كانوا يدركون منافع الدنيا على ما ينبغي فعدم إدراكهم المنافع العاجلة والآجلة المؤبدة الخاصلة عن شوب الكدر لم يكن إلالشقاوتهم ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي لمائلون لسوء استعدادهم فإنهم خلقوا من

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

ظلال الاسم المضل فلا يمكنهم الاهتداء إلى الصراط المستقيم ويكرهون الحق بعد ظهوره.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي من عذاب أخذنا مترفيهم به سواء أريد به السيف يوم بدر كما قال به ابن عباس أو الجوع كما قال به الضحاك وقد ذكرنا القولين فيما سبق ﴿لَّلَجُّوا﴾ اللجاج التمادي في العناد وتعاطي الفعل المزجور عنه ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي في استبكارهم عن الحق وإفراطهم في الكفر وعداوة الرسول ﷺ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ من الهدى حال من فاعل لجوا وهذه الجملة الشرطية معطوفة على مضمون ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فإن معناه قيل لهم لا تجرؤوا الخ ومضمونه أنا لم نرحمهم ولو رحمناهم لتمادوا في الطغيان ولم يتوبوا فكان هذا تعليل لعدم الترحم عليهم، أخرج النسائي والحاكم عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال يا محمد أنشدك الله والرحم قد أكلنا العلهز والدم فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾(١) يعني القتل يوم بدر أو الجوع ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يعني لم يرجعوا إلى ربهم بالتوبة بل أقاموا على عتوهم ومضوا على تمردهم، وما استكانوا إما معناه ما استفعلوا السكون فإن المفتقر ينتقل من كون إلى كون وإما معناه أفتعلوا السكون وعلى هذا الألف من إشباع الفتحة ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ يعني ليس من عادتهم التضرع والخشوع وأخرج البيهقي في الدلائل بلفظ أن ابن أثال الحنفي لما أتى النبي ﷺ وهو أسير خلى سبيله، فأسلم فلحق بمكة ثم رجع فحال بين مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العهن فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ

---

(١) رواه الطبراني وفيه علي بن الحين بن واقد. وثقه النسائي وغيره وضعفه أبو حاتم.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: التفسير، باب: سورة المؤمنون (١١١٩١).

فقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت هذه الآية. وفي هذه الآية استشهاد على ما سبق فإنهم لما لم يتضرعوا بالأخذ بالعذاب فلو رحمناهم وكشفنا عنهم العذاب لم يتضرعوا بالطريق الأولى فإن قيل: ما ذكرت في تفسير الآية يدل على أنه تعالى لم يكشف عنهم العذاب الذي أخذ به مترفيهم وقد قال البغوي دعا النبي ﷺ على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف فأصابهم القحط فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فادع الله يكشف عنا هذا القطح فدعى فكشف عنهم فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذه القصة تدل على أن الله تعالى كشف عنهم عذاب الجوع بدعاء النبي ﷺ فما وجه التوفيق؟ قلت: الآية إنما دلت على نفي المرحمة وكشف العذاب في الزمان الماضي لعلمه تعالى بلجاجهم عند الكشف أيضاً ولا تدل على أنه لا يكشف عنهم في المستقبل لأمر حادث فالله سبحانه كشف عنهم العذاب لأمر معترض وهو دعاء النبي ﷺ لكنهم لم يتضرعوا ولجوافي طغيانهم يعمهون ولم يستكنيوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كلمة حتى ابتدائية والمراد بالعذاب ها هنا عذاب الجوع إن كان المراد بالعذاب في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾[(١)] القتل والأسر ويوم بدر كما قاله ابن عباس فإن الجوع أشد من الأسر والقتل يعني إذا فتحنا عليهم باباً من عذاب الجوع ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون آيسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك وإن كان المراد بالعذاب فيما سبق عذاب الجوع كما قاله الضحاك فالمراد بالعذاب ها هنا الموت وعذاب القبر وقيل: قيام الساعة وعذاب النار، فقوله فتحنا بمعنى المستقبل أورد صيغة الماضي لتيقن وقوعه كما في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾[(٢)] والمعنى إنا محنّاهم كل محنة من القتل والجوع فما استكانوا ولم يتضرعوا حتى ءذا عذبوا بنار جهنم، ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾[(٣)] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتحسوا بها الآيات المنصوبة ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا في الآيات وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما زائدة للتأكيد منصوب على المصدرية أو الظرفية يعني لشاكرون شكراً قليلاً أو

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٤.
(٢) سورة التكوير، الآية: ١.
(٣) سورة الروم، الآية: ١٢.

في زمان قليل لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجلها والأذعان لما نحها من غير إشراك، وقيل: معنى هذه العبارة في العرف لا تشكرون أصلاً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ﴾ أي لأمره وقضائه ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في السواد والبياض والمنافع أو اختلاف الليالي الشتائية والصيفية في الطول والقصر والأيام كذلك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنظر والتأمل أن كل ذلك منا وإن قدرتنا تعم الممكنات كلها ومن جملتها البعث بعد الموت وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ إلى هُنا جملة معترضة لتعديد النعم وشكاياتهم على كفرهم بعد تلك النعم الجسام وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ عطف على قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ يعني بل قال كفار مكة مثل ما قال الأولون من كفار الأمم السابقة ﴿قَالُوٓا۟﴾ بدل من قالوا المذكور سابقاً ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكارأنكروا واستبعدوا ذلك ولم يتأملوا في بدء خلقهم أنهم كانوا قبل ذلك تراباً ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً أصلاً فخلقوا من غير سبق مادة، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ يعني البعث بعد الموت وعدها قوم ذكروا أنهم رسل الله ﴿مِن قَبْلُ﴾ ظرف لفعل دل عليه حرف العطف يعني وعد بهذا آباؤنا من قبل هذا الزمان ولم يقع إلى الآن مع تطاول الزمان ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الوعد ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السطر هو الصف من الكتاب ومن الشجر المغروس والقوم الوقوف والمراد ها هنا الأول يقال يقال سطر فلان كذا أي كتب سطراً وجمعه أسطر وسطور وأسطار والأساطير والمعنى أن هذا ليس منزلاً من الله بل شيء كتبه الأولون كذباً، وقال المبرد الأساطير جمع أسطورة نحو أرجوحة وأراجيج وأحدوثة وأحاديث وأعجوبة وأعاجيب وأضحوكة وأضاحيك واستعماله فيما يكتب كذباً يتلهى به ولهذا فسروه بالأكاذيب، وقوله لقد وعدنا إلى آخره تعليل وتقرير للإنكار المذكور.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل

﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ جملة مستأنفة كأنه في جواب قول الرسول ماذا أقول لهم حين أنكروا البعث، والاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة الكلام عليه تقديره إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك فأجيبوا، وفيه استهانة بهم وتقرير لفرط جهلهم فإن حالهم ومقالهم يشهد على جهلهم بمثل هذا الجلي الواضح الذي يعرفه الصبيان والمجانين وإلزام بما لا يمكن إنكاره لمن له أدنى تميز، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريح والنقل من كل ناطق واعتراف الناس أجمعين بذلك يضطرهم إلى هذا الجواب ﴿قُلْ﴾ بعد اعترافهم بذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة وعلي وحفص بالتخفيف بحذف إحدى التائين من تتذكرون والباقون بالتشديد والإدغام، والاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أتعترفون فلا تتذكرون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداءً قادر على إيجادها ثانياً فما الوجه لإنكاره ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾ فإنها أعظم من ذلك استئناف آخر لتلقين الإلزام بعد اللا لزام ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ باللام والجر أي هم لله كذا قرأ العامة ها هنا وفيما بعده فهو جواب على المعنى كقول القائل في جواب من مولاك لفلان أي أنا لفلان فهو مولاي، وقرأ أهل البصرة فيهما الله الله بالرفع على ما يقتضيه السؤال وكذلك في مصحف أهل البصرة وفي سائر المصاحف مكتوب بلا ألف كالأول ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أتعترفون بأن خالق السماوات والعرش هو الله لا غير فلا تتقون عقابه حيث تشركون به بعض مخلوقاته وتنكرون قدرته على بعض مقدورات ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملكوت هو الملك أي العز والسلطان والوا والتاء فيه للمبالغة فهو غاية ما يتصور من السلطان ولهذا يختص استعمانه بملك الله تعالى، وقيل المراد به خزائنه ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي يحرس ويمنع من السوء ويؤمن من يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ عطف على ما سبق أو حال من فاعله أي لا يؤمن من أخاف الله ولا يمنع من السوء من أراد والله به سوءاً أو لا يقدر أحد على أن يضره حتى يجار عليه، وتعديته لعلى لتضمنه معنى النصرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وشرحه قد مر ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ يعني إذا اعترفتم بذلك فمن أين تحذعون فتصرفون عن الرشد أو المعنى إذا اعترفتم فكيف يخيل إليكم الحق باطلاً ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعد بالنشور عطف على قوله: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ إضراب عنه وبينهما معترضات ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في إنكارهم ذلك عطف على ما سبق أو حال من الضمير المنصوب

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتقدسه عن المماثلة والمجانسة بأحدٍ من زائدة لتأكيد النفي والجملة في مقام التعليل على قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في الألوهية ﴿إِذًا﴾ جواب لمن أشرك وجزاء الشرط محذوف يدل عليه قوله: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ تقديره لو كان معه آلهة إذن ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ واستبد به ومنع غيره من التصرف فيه وامتاز ملكه عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَا﴾ أي غلب ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي على بعضهم إذا وقع بينهم التحارب كما يقع بين ملوك الدنيا لا مكان ذلك عند تعدد الآلهة فلا يكون المغلوب إلهاً لأنه إمارة العجز والحديث ويظهر منه أنه لو لم يغلب أحدهما على الآخر لزم عجزهما وذلك مناف للألوهية ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والباقون بالرج على أنه صفة لله، وهذا دليل آخر على نفي الشرك بناءً على اتفاقهم على أنه متفرد به ولهذا رتب عليه بالفاء قوله: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني عن إشراكهم يعني أن أعظم من أن يوصف بالولد أو الشريك ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أصل (إن ما تريننّي) فأدغمت النون في الميم وحذفت نون الوقاية كراهة اجتماع النونات، وهذا شرط أكدت بما المزيدة والنون فالمعنى إن كان لابد من أن تريني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أي ما يوعد به الكفار من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ قريناً لهم في العذاب جملة معترضة لتلقين الدعاء وتكرير النداء وتصدير كل واحد من الشرط والجزاء به لزيادة التضرع والجوار، وفي تلقين الدعاء إشارة إلى وجوب الخوف وهضم النفس، وإلى أن شوم الظلوم قد يحيق بمن ورائهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(١) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ لكنا لم نعذبهم عذاب استئصال لأنك بينأظهرهم ولعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، جملة معترضة ثانية لرد إنكارهم الموعود أو استعجالهم استهزاءً، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى﴾ أي بالخصلة ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ الخصال وهي الصفح والإعراض والصبر والإحسان ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مفعول لا دفع يعني ادفع شرهم بإحسان منك فعلى هذا أمر بالصبر على الأذى والكف عن القتال نسختها آية السيف، وقيل الحسنة كلمة التوحيد والسيئة كلمة الشرك وقيل: السيئة المنكر والحسنة النهي عنه وهذا أبلغ من أدفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل، معترضة أخرى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالك وأقدر على جزائهم فكل

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

إلينا أمرهم ولا تتصد على الانتقام منهم، وهذه الجملة في مقام التعليل لقوله ادفع ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي امتنع واعتصم به ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ الهمز شدة الدفع يعني من دفع الشياطين بالإغواء والوساوس إلى المعاصي ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي يحضروني في شيء من أموري في الصلاة وغيرها فإنه إذا حضر وسوس، قرأ يعقوب يحضروني بالياء وصلاً ووقفاً والباقون بلا ياء في الحالين، وجملة ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ عطف على قوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ حتى ابتدائية متعلق بقوله: يَصِفُونَ أو بقوله: كَذِبُون ﴿قَالَ﴾ يعني إذا رأى مقعده من الجنة لو آمن ثم مقعده من النار ويقال له قد أبدل الله لك هذا بذلك لأجل كفرك قال ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ قرأ يقعوب بالياء وصلاًووقفاً والباقون بلا ياء في الحالين يعني ارجعني إلى الدنيا، أورد ضمير الجمع للتعظيم وقيل: لتكرير الفعل أصله أرجعني أرجعني كما قيل في قفار وأطرقا، وقيل هذا خطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه، ابتدأ بخطاب الله تعالى لأنهم استغاثوا أولاً بالله تعالى ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا ﴿لَعَلِّي﴾ قرأ الكوفيون ويعقوب بسكون الياء والباقون بفتحها ﴿أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ أي عملاً صالحاً منصوب على المعفولية أو على المصدرية ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي في الإيمان الذي تركته أي لعلي آتي بالإيمان وأعمل فيه صالحاً، وقيل: فِيمَا تَرَكْتُ أي في المال أو في الدنيا فعلى هذا فيما تركت ظرف كما هو الظاهر، وقيل: ما تركت مفعول به وفي زائدة أي أعمل ما تركت حال كونه صالحاً من الإيمان وغيره أو عملاً صالحاً بلا فساد، أخرج ابن جرير من حديث ابن جريج أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك إلى الدنيا فيقول إلى دار الهموم و الأحزان بل قدوماً إلى الله، وأما الكافر فيقول رب ارجعون» وفي الصحيحن عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فقالت عائشة أو بعض أزواجه إنا لنكره الموت، قال: ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت

بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مِمَّا أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وأما الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مماأمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه»(١) ﴿كَلَّآ﴾ ردع من طلب الرجعة واستبعاد أي لا رجعة إليها ﴿إِنَّهَا﴾ يعني قوله: رب ارجعون إلى آخره أنث الضمير لمجانسة الخبر ﴿كَلِمَةٌ﴾ وهو طائفة من الكلام المنتظر بعضها مع بعض فهو لا يقع إلا على الجملة المركبة المفيدة، وإطلاق الكلمة على اللفظ المفرد إنما هو اصطلاح النحاة ﴿هُوَ﴾ أي الكافر ﴿قَآئِلُهَا﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه ومخافة العذاب ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي إمامهم والضمير للجماعة ﴿بَرْزَخٌ﴾ قال مجاهد يعني حجاب بينهم وبين الرجعة، وجملة من ورائهم برزخ معطوف على مضمون كلا يعني لا يكون ما يطلبون وَمِنْ وَرَائِهِم بَرزَخٌ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وقال قتادة البرزخ بقية عمر الدنيا فإنه لا رجوع إلى الحياة ما لم ينته عمر الدنيا، وقال الضحاك البرزخ ما بين الموت إلى البعث وقيل البرزخ القبر وهم فيه إلى يوم يبعثون ﴿فَإِذَا﴾ كان يوم القيامة ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن المراد به النفخة الأولى نفخة الصعق ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾(٢) فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾(٣) لكن الصحيح أنها النفخة الثانية نفخة البعث كذا قال ابن مسعود قال يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ثم ينادي منادٍ هذا فلان بن فلان، فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه فيفرح المرآن قد وجب له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه، ثم قرأ ابن مسعود ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وكذا روى عطاء عن ابن عباس أنها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم أي لا ينفاخرون بينهم بالأنساب كما كانوا يتفاخرون بها في الدنيا أو المعنى لا ينفعهم الأسباب يومئذ لعدم التعاطف والتراحم منهم لفرط الدهشة واستبلاء الحيرة بحيث: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾(٤) وضمير بينهم عائد إلى الكفار لذكرهم فيما سبق دون المؤمنين وقوله تعالى في المؤمنين: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٥) وقوله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة خرج ولدان المسلمين

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦١٤٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٢٦٨٣).
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٢٧.
(٤) سورة عبس، الآية: ٣٤ ـ ٣٦.
(٥) سورة الطور، الآية: ٢١.

بأيديهم الشراب فيقول الناس لهم إسقونا فيقولون أبوينا أبوينا حتى السقط بباب الجنة يقول: لا أدخل الجنة حتى يدخل أبوي» رواه ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر اللبثي وعن أبي ذرارة بمعناه فإن قيل قد ورد في الحديث «كان نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري، رواه ابن عساكر عن ابن عمر بسند صحيح. قلتُ: نسب المؤمنين داخل في النبي ﷺ فإنه أبو المؤمنين وأزواجه أمهاتهم، وقال البغوي معنى الحديث لا ينفع يوم القيامة سبب ونسب إلا نسبه وسببه وهو القرآن والإيمان، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا من أنت ومن أي قبيلة أنت، فإن قيل قد قال الله تعالى في موضع آخر ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾[1] قلنا: قال ابن عباس أن للقيامة أحوالاف ومواطن ففي موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التسائل فلا يتساءلون وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون يعني عقائده وأعماله الموزونة والمراد به الصالحات منها يعني كثرت وترجحت حسناته على سيئاته، أو هو جمع ميزان والمراد به ترجحت كفة حسناته من الميزان وإيراد صيغة الجمع إما مبني على أن يكون لكل إنسان ميزان على حدةٍ، وإما على أن يعتبر تعدد الميزان بتعدد الوزن والموصول مع صلته مبتدأ خبره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات والجملة معطوفة على محذوف فوضع الميزان ﴿فَمَن ثَقُلَتْ﴾ الخ، أجمع علماء أهل السنة على أن وضع ميزان ووزن الأعمال حق وأنكره المعتزلة والروافض والخوارج وأكثر أهل الأهواء أخرج البيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب في حديث سؤال جبرائيل عن الإيمان قال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: فإذا فعلتُ هذا فأنا مؤمن، قال: نعم، قال: صدقت» وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه على شرط مسلم عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «بوضع الميزان يوم القيامة فلو وضع فيه السماوات والأرض لوسعت» الحديث، وأخرج ابن المبارك في الزهد والأجري في الشريعة عن سلمان موقوفاً وأبو الشيخ بن حبان في تفسيره عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكفتان، وأخرج ابن جرير في تفسيره وابن أبي الدنيا عن حذيفة قال صاحب الميزان يوم القيامة جبرائيل عليه السلام وأحاديث الميزان قد تواترت بالمعنى.

(١) سورة الصافات، الآية: ٢٧.

فصل

اختلف العلماء في كيفية الوزن؟ قال بعضهم يوزن العبد مع عمله فيكون للمؤمن ثقل بقدر حسناته ولا يكون للكافرين، قال رسول الله ﷺ: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ثم قرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾»(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة فالمراد بمن خفت موازينه هم الكفار لا غير وقيل يوزن صحائف الحسنات وصحائف السيئات، روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «يجاء برجل من أمتي على رؤوس الأشهاد يوم اليامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فيقول: أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء»(٢) وأخرج أحمد بسند حسن صحيح عن ابن عمر نحوه، وقيل يجسد العمل ويوزن قال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض وما فيهن وما بينهن وما تحتهن ووضعت في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن» رواه الطبراني وأخرج ابن عبد الرزاق في فصل العلم بسنده عن إبراهيم النخعي قال يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فيخف فيجاء بشيء أمثال الغمام فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فيثقل فيقال ما تدري ما هذا فيقول لا فيقال هذا فضل العلم الذي كنت تعلم الناس، وأخرج الذهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤذن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيترجح مداد العلماء على دماء الشهداء».

قلتُ: وعندي أنه يوضع العبد مع حسناته المتجسدة أو مع صحائف الحسنات في كفة وما لهما واحد فإن ثقل الصحائف بثقل الحسنات ويوضع سيئاته متجسدة أو صحائفها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾ (٤٧٢٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ما يرجىٰ من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠).

الثقيلة بثقل السيئات في كفة أخرى فالكافر لا تزن جناح بعوضة وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي لا يكون لميزانه ثقل أصلاً، وأما المؤمن فلا يخلو ميزانه من ثقل ولو بشهادة أن لا إله إلا الله وهو المكنى بقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ غير أن لثقله مراتب فمنهم من اجتنبوا الكبائر وكفر الله عنهم سيئاتهم فهوازينهم أثقل الموازين طاشت كفة سيئاتهم خالياً فارغاً ومنهم من ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[1] وهم الذين قال ابن عباس فيهم أنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحد دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته دخل النار يعني ليصهر ويخلص من الذنوب كما أن الحديد يخلص في النار من الخبث فيصلح لدخول الجنة، قال ابن عباس وإن الميزان يخف بمثال حبة ويرجح ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف يعني حتى يحكم الله تعالى فيهم بدخول الجنة، روى قول ابن عباس هذا ابن أبي حاتم وليس المذكور في هذا الأثر حال الكفار إذ لا حسنة لهم أصلاً والمذكور في القرآن إنما هو حال صالحي المؤمنين وحال الكفار وأما حال عصاة المؤمنين فمسكوت عنه في القرآن غالباً، ولعل ذلك لأن المؤمنين في زمن نزول القرآن وهم الصحابة ﷺ كانوا عدولاً كلهم مجتنبين من الكبائر أو التائبين والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فالمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ خفت أعماله الحسنة أو كفة حسناته بحيث لا يكون لها ثقل أصلاً، وذلك هو الكافر لا محالة، أخرج البزار والبيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يؤتى ابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ويؤكل به ملك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان لا يشقى بعده أبداً وإن خفت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوةً لا يسعد بعده أبداً» والمراد بالخفة في هذا الحديث أيضاً ما لا يكون له ثقل أصلاً، قلتُ لعل عصاة المؤمنين يوزن أعمالهم مرتين فإن كان في حسناته بعض خفة يدخل في النار حتى يخلص ثم يوزن ثانياً بعد التطهير فيثقل موازينه وحينئذ ينادى الملك سعد فلان سعادة لا يشقى بعده أبداً وقد ذكرنا بعض تحقيقات المقام في سورة القارعة، والدليل على أن المراد بهذه اللآية هم الكفار خاصة دون عصاة المؤمنين قوله تعالى خبراً للموصول ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها وضيعوا زمان استكمالها ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من الصلة أو خبر ثانٍ لأولئك أو خبر مبتدأ محذوف تقديره وهو ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

تحرقها كذا في القاموس، وأما المؤمن فلا يحرق وجوههم النار لما أخرج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل قوم النار من هذه الأمة فتحرقهم إلا دارات وجوههم ثم يخرجون منها»[1] وأخرج ابن مردويه والضياء عن أبي الدرداء قال: «سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم» وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلفتهم يعني فلفحتهم لفحة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته على أعقابهم» ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ الجملة حال من الضمير المجرور المضاف إليه والكلوح تقلص الشفتين عن أسنان. أخرج الترمذي وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته»[2] وأخرج هناد عن أبي مسعود في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ قال مثل الرأس النضيج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ تقديره يقال لهم توبيخاً وتذكيراً عما استحقوا العذاب لأجله ألم تكن ﴿ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ في جواب ذلك ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين وسكون القاف وقرأ حمزة والكسائي شَقَاوَتُنا بفتح الشين والقاف وألف بعدها وهما لغتان يعني ملكتنا شقاوتنا حتى صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحق ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب ﴿فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا فحينئذ لا تخلصنا من العذاب بعد ذلك.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٧).

﴿ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه في جوابهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ أي اسكتوا سكوت هوان فإنها ليست مقام السؤال وأبعدوا، في القاموس خَسَا الكلب بالنصب كمنع أي رده خساءً وخسوءاً أو خسا الكلبُ بالرفع أي بعد كانخسا فهو لازم ومتعد ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قرأ يعقوب بالياء وصلاً ووقفاً والباقون بلا ياء، يعني لا تكلموني في رفع العذاب فإني لا أرفعه منكم فحينئذ يئسوا عن الفرج، أو لا تكلموني مطلقاً، قال الحسن هذا آخر كلام يتكلم به أهل النر ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير ويكون لهم عواء كعواء الكلب لا يفهمون ولا يفهمون، وقال القرطبي، إذا قيل لهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم. أخرج هناد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وعبد الله بن أحمد في روائد الزهد عن عبد الله بن عمرو قال إن أهل النار ينادون مالكاً ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيذرهم أربعين عاماً لا يجيبهم ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾[1] ثم ينادون ربهم ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فيذرهم مثل الدنيا مرتين لا يجيبهم ثم يجيبهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[2] قال فييأس القوم فلا يتكلمون بعدها بكلمة ومن هو إلا الزفير والشهيق، وأخرج سعيد بن منصور والبيقهي عن محمد بن كعب أنه قال لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربع فإذا كانت الخامسة لا يتكلمون بعدها أبداً ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ فيجيبهم ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾[3] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[5] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ١١ ـ ١٢.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٢ ـ ١٤.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾[1] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[2] عادت وجوههم قطعة لحم لسي فيها أفواه ولا مناخر يتردد النفس في أجوافهم، وإنها ليسقط عليهم حيات من نار وعقارب من نار فلو أن حية منه نفحت بالمشرق احترق من بالمغرب ولو أن عقرباً منها ضربت أهل الدنيا احترقوا من آخرهم، وإنها لتسقط عليهم فتكون بين لحومهم وجلودهم، وإن ليسمع لها هناك جلبة كجلبة الوحش في الفيافي. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ يعني المؤمنين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي بضم السين ها هنا وفي سورة صاد والباقون بكسرها واتفقوا على الضم في سورة الزخرف، قال الكسائي والفراء السخر بكسر السين بمعنى الاستهزاء بالقول وبالضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل ولذلك اتفقوا في سورة الزخرف لأنه بمعنى التسخير لا يحتمل غيره، وقال الخليل هما لغتان مترادفان نحو لجى بضم اللام وكسرها وكوكب دري بضم الدال وكسرها وفي القاموس نحو ذلك حيث، قال سخروا منه وبه هزي كاستسخروا الاسم والسخرية والسخري بالضم ويكسر مسخره كمنعه سخرياً بالكسر والضم كلفه ما لا يريد وقهره وكذا في النهاية وغير، وعلى كل تقدير مصدر زيدت فيه ياء النسبة للمبالغة والمراد ها هنا الاستهزاء بقرينة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ فإن الضحك يترتب على الاستهزاء دون التسخير وحتى ابتدائية كما في مرض فلان حتى لا يرجونه يعني حتى أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم والضحك ذكرى أسند الإنساء إلى المؤمنين مجازاً، قال مقاتل: نزلت الآية في عمار وصهيب وسلمان وغيرهم من فقراء الصحابة كان كفار قريش يستهزون بهم ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ﴾ أي المؤمنين ﴿ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي بسبب صبرهم على أذاكم واستهزاءكم إياهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ دونكم قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بفتحها على أنه ثاني مفعولي جزيتهم، ﴿قَالَ﴾ قرأ البعض قال على أنه أمر من الله تعالى للملك أو لبعض رؤساء أهل النار يوم البعث أن يسألوا جماعة أهل النار، وقيل هو خطاب لكل واحد من أهل النار قل جواب هذا، وقرأ الباقون بالألف يعني قال الله تعال للكفار يوم البعث ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أحياء وأمواتاً في القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تميز لكم ﴿قَالُواْ﴾ يعني الكفرة في الجواب

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٧ ـ ١٠٨.

استقصار المدة لبثهم فيها إما لأن المعذب يستطيل أيام شدته ويستقصر بأمر قبل ذلك وإما لكونها منقضية والمنقضي في حكم المعدول وإما لكون مدة حياة الدنيا وأيام القبور في غاية الاقتصار بالنسبة إى مدة الحياة الآخرة لعدم انتهائها وأما لكونها أيام سرورهم وأيام السرور قصار، وهذا على تقدير كون السؤال مقتصراً على مدة حياتهم في الدنيا دون مدة لبثهم في القبور لأنها ليست أيام السرور لثبوت عذاب القبر فيها بالقطعيات والإجماع ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ من الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونهاعليهم فإنهم أحفظ لمدة لبثنا أو من البشر الذين يتمكنون من عد أيامها إن أردت تحقيقها فإنا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها ﴿قَالَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بغير ألف على صيغة الأمر من الله تعالى والباقون بالألف على صيغة الحكاية يعني قال الله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ يعني ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا﴾ زماناً أو لبثاً ﴿قَلِيلًا﴾ بالنسبة إلى ما تستقبلونه من مدة العذاب، قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه اليم فلينظر بم يرجع»[1] رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن المستورد ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ﴾ يعني لو ثبت أنكم ﴿كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك وكلمة لو للتمني والتوبيخ يعني ليتكم تعلمون أن لبثكم في الدنيا قليل فلم تضيعوها في الملاهي والشهوات وما نسيتم لقاء يومكم هذا، قال رسول الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غرب أو عابر سبيل»[2] رواه البخاري عن ابن عمرو وزاد أحمد والترمذي وابن ماجه «وعد نفسك من أهل القبور» ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ الفاء للعطف على محذوف والهمزة للإنكار والتوبيخ تقديره أتوهمتم فحسبتم أي ظننتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ ما كافة لعمل إن فدخلت على الجملة الفعلية وهي مع جملتها قائم مقام المفعولين لحسبتم وعبثاً إما مفعول مطلق من قبيل ضربته سوطاً أو مفعول له أو حال من الفاعل أو المفعول أو منصوب بنزع الخافض، يعني لم نخلقكم خلقاً عبثاً لا لحكمة أو للتلهي بكم أو عابثين أي غير مريدين من خقلكم حكمة أو حال كونكم مبعوثين غير مراد منكم حكمة التكليف بالطاعة والمعرفة والجزاء أو لتلعبو أو تعبثوا بل خلقناكم لتعرفوا وتعبدوا ربكم وتطيعوه ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ قرأ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٦٤١٦).

حمزة والكسائي بفتح التاء وكسر الجيم على أنه مبني للفاعل من المجرد والباقون بضم التاء وفتح الجيم على أنه مبني للمفعول من الإرجاع، وإن مع جملتها عطف على إنما خلقناكم والمعنى أحسبتم عدم رجوعكم إلينا للجزاء وهو معطوف على عبثاً يعني ما خلقناكم غير راجعين إلينا ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك، فإن من عداه مملوك بالذات مالك بالعرض من وجه وفي حال دون حال، والفاء للتعليل والجملة في مقام التعليل للإنكار تعالى الله وتنزه من أن يكون فعله عبثاً ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ وصفه بالكرم لاختصاصه بتجليات كريمة من أكرم الأكرمين ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعني يعبد غير الله ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة أخرى لإله لا زمة له، فإن الباطل لا برهان به جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلاً عما دل الدليل على بطلانه أو اعتراض بين الشرط والجزاء لذلك ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ جزاء لمن الشرطية يعني أنه تعالى مجازيه مقدار ما يستحقه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ بيان لجزائهم يعني ليس لهم نجاة من النار وفوز إلى الجنة، بدأ الله السورة بتقرير الفلاح للمؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين ثم أمر رسوله بأن يستغفر واسترحمه حتى يتأسى به المؤمنون من أمته فيفوزوا على مدارح الفلاح فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ جملة أنت خير الراحمين حال من فاعل أرحم وحذف المفعول من أغفر وأرحم لتعميم الدعاء بالمغفرة متكفل لسلب جميع المضرات وبالرحمة لجلب جميع المنافع روى البغوي في التفسير عن حنش أن رجلاً مصاباً مر به على ابن مسعود فرقى في أذنيه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله ﷺ بماذا رقيت في أذنه؟ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال» تمت تفسر سورة المؤمنين خامس عشر شهر صفر سنة أربع وألف ومائتين ويتلوه سورة النور إنشاء الله تعالى وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

سورة النور

مدنية وهي أربع وستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾

﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾ صفة لسورة ﴿وَفَرَضۡنَٰهَا﴾ يعني أوحينا ما فيها من الأحكام وألزمناكم العمل بها وقيل: معناه قدّرنا ما فيها من الحدود، قرأ الجمهور بالتخفيف وابن كثير وأبو عمر بالتشديد من التفعيل للتكثير لثكرة فرائضها أو كثرة المفروض عليهم يعني ألزمناكم أجمعين ومن بعدكم إلى قيام الساعة، وقيل: معناه فصلنا وبينا ﴿وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات الدلالة على المراد ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتعظوا وتتقوا محارم الله ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه تقديره سنذكر حكمهما وقوله ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ بيان لحكمه الموعود تقديره إذا ثبت زناهما فاجلدوا، وقال المبرد: خبره جملة فاجلدوا أورد الفاء في الخبر تتضمن المبتدأ معنى الشرط، فإن اللام بمعنى الذي تقديره الذي زنى والتي زنت فيقال في شأنهما اجلدوا ﴿كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ منصوب على المفعولية يقال جلده إذا ضرب جلده كما يقال رأسه وبطنه إذ ضرب رأسه وبطنه ذكر بلفظ الجلد كيلا يبرح ويضرب بحيث يبلغ اللحم ومن ها هنا قال الفقهاء.

مسألة: يضربه بسوط لا ثمرة له ضرباً متوسطاً. روى ابن أبي شيبة ثنا عيسى بن يونس عن حنظلة السدوسي عن أنس بن مالك قال كان يؤمر بالسوط فيقطع ثمرته ثم يدق بين حجرين ثم يضرب به، قلنا: له في زمن من كان هذا قال في زمن عمر بن الخطاب، وروى عبد الرزاق عن يحيى بن أبي كثير أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني

أصبت حداً فأقمه علي فدعا ﷺ بسوط، فأتي بسوط شديد له ثمرة، فقال: سوط دون هذا فأتي بسوط مكسور لين فقال: سوط فوق هذا، فأتي بسوط بين سوطين، فقال: هذا فأمر به فجلد» وروى ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم نحوه وذكره مالك في الموطأ ﴿مِأْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ منصوب على المصدرية قدّم الزانية في هذه الآية على الزاني لأن الزنى في الأغلب يكون بتعريضها للرجل وعرض نفسها عليه بخلاف السرقة فإنها تقع غالباً من الرجال ولذلك قدم السارق على السارقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[١].

مسألة: أجمع علماء الأمة على أن الزانية والزاني إذا كانا حرين عاقلين بالغين غير محصنين فحدهما أن يجلد كل واحد منهما مائة جلدة بحكم هذه الآية ولا يزاد على ذلك عند أبي حنيفة ح، وقال الشافعي وأحمد يجب عليهما أيضاً تغريب عام إلى مسافة قصر فما فوقها ولو كان الطريق آمناً ففي تغريب المرأة بلا محرم قولان وفي المنهاج أنه لا تغرب المرأة وحدها في الأصح بل مع زوج أو محرم ولو بأجر وأجرته عليها في قول وفي بيت المال في قول فإن امتنع بأجرة ففي قول يجبره الإمام، وفي المنهاج أنه لا يجبر في الأصح وقال مالك: يجب تغريب الزاني دون الزانية. احتج الشافعي بحديث عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»[٢] وقد مر الحديث في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[٣] وحديث زيد بن خالد قال: «سمعت النبي ﷺ يأمر فيمن زنى ولم يحصن جلد مائة وتعزيب عام»[٤] رواه البخاري، وفي الصحيحين حديث زيد بن خالد وأبي هريرة أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ قال أحدهما اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي أن أتكلم، قال: تكلم، قال: إن ابني كان عسيفاً على هذا فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم فافتديت بمائة شاة وبجارية لي ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وإنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: حد الزنى (١٦٩٠).

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: شهادة القاذف والسارق والزاني (٢٦٤٩).

لأقضين بينكما بكتاب الله أما غنمك وجاريتك فرد عليك وأما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام وأما أنت يا أنيس فأغد على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فاعترفت فرجمها»[١] قال مالك البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام غير شامل للنساء فلا يثبت التغريب في النساء وهذا لسي بشيء فإن سياق الحديث في النساء حيث قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً» الحديث، وعدم شمول البكر المرأة ممنوع كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «البكر تستأذن»[٢] وكلمة من زنى في حديث زيد عام في الذكر والأنثى لكن الوجه الصحيح لقول مالك أن النبي ﷺ قال: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم»[٣] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد وأبو داود عن ابن عمر وفي الصحيحين وعند أحمد عن ابن عباس نحوه وروى أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة نحوه ولأجل ذلك خص مالك حكم التعريب بالرجال دون النساء، وجعل الشافعي المحرم شرطاً للتغريب.

وقال الطحاوي إن تغريب النساء لما بطل لأجل نهيهن عن المسافرة بغير محرم انتفى ذلك عن الرجال أيضاً، واستدل الطحاوي على عدم التغريب في الحد بحديث أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إذا زنت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إذا زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر»[٤]. متفق عليه، قال إن النبي ﷺ أمر ببيع الأمة إذا زنت ومحال أن يأمر ببيع من لا يقدر مبتاعه على قبضه من بائعه، فثبت بطلان تغريب الأمة إذا زنت وإذا بطل تغريب الإماء بطل تغريب الجرائز لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[٥] وإذا بطل تغريب الحرائر بطل تغريب الأحرار، وهذا لقول غير سديد لأن نفي التغريب في النساء مطلقاً أو في الإماء لأجل التعارض في النصوص لا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (٦٥٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: حج النساء (١٧٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: بيع العبد الزاني (٢٠٤٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (١٧٠٣).

(٥) سورة النساء، الآية: ٢٥.

يقتضي السقوط في حق الرجال مع عدم التعارض هناك، وقال بعض الحنفية لا يجوز العمل بحديث التغريب لأنه زيادة على الكتاب وهي في حكم النسخ فلا يجوز بخبر الآحاد، وهذا القول مردود لأن الزيادة التي هي في حكم النسخ زيادة ركن أو شرط أو وصف في المأمور به حتى يجعل المجزئ غير مجز كزيادة تعين الفاتحة في أركان الصلاة وصفة الإيمان في رقبة الكفارة والتتابع في الصيام والطهارة في الطواف وهي ممنوعة، وأما مطلق الزيادة فغير ممنوعة وإلا لبطلت أكثر السنن ألا ترى أن عدة الوفاة ثبتت بنص القرآن والإحداد فيها ثبت بالسنة وليس الإحداد شرطاً في العدة حتى لو تربصت أربعة أشهر وعشراً ولم تحد عصت بترك الواجب وانقضت عدتها وجاز لها التزوج، ومن هذا القبيل القول بأن تعين الفاتحة وضم السورة وغيرهما من واجبات الصلاة على رأي أبي حنيفة حيث قال بوجوبها ولم يقل بركنيتها، وزيادة التغريب في الحد لا تجعل جلد مائة غير مجز فلا محذور فيه، فقال أصحاب الشافعي إن الآية ساكتة عن التغريب وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدهما الآخر نسخاً مقبولاً أو مردوداً.

فقال المحققون من الحنفية إن قوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ بيان للحكم الموعود في قوله ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ على قول سيبويه فكان المذكور تمام حكمه وإلا كان تجهيلاً إذ يفهم منه أنه تمام الحكم وليس تمامه في الواقع فكان مع الشروع في البيان أبعد من ترك البيان لأنه يوقع في الجهل المركب وذاك في البسيط، وجزاء للشرط على قول المبرد فيفيد أن الواقع هذا فقط فلو ثبت معه شيء آخر كان مثبته معارضاً لا مثبتاً لما سكت عنه وهو الزيادة الممنوعة، وأورد عليه بأن الحديث مشهور تلقته الأمة بالقبول فيجوز به نسخ الكتاب وأجيب بأنه إن كان المراد بالتلقي بالقبول إجماعهم على العمل به فممنوع لظهور الخلاف، وإن كان المراد إجماعهم على صحته بمعنى صحة سنده فكثير من أخبار الآحاد كذلك ولا تخرج بذلك عن كونها آحاداً فإن قيل: الآية قطعي السند لكنه ظني الدلالة لكونه عاماً.. خص منه البعث إجماعاً فإن الحكم بالجلد مائة مختص بالأحرار والحرائر دون العبيد والإماء، وبغير المحصن عند أكثر الأمة، وأيضاً دلالتها على كون الحكم الجلد فقط لا غير ظنية مستنبطة بالرأي حتى لم يدرك كثير من الفقهاء وأهل العربية، والحديث ظني السند قطعي الدلالة فتساويا فجاز أن يكون حديث الآحاد ناسخاً لحكم الكتاب فلأن يجوز به الزيادة على الكتاب أولى؟ قلنا: على تقدير تسليم المساواة سياق حديث عبادة يدل أنه أول حكم ورد في الزانيات والزواني حيث قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب

بالثيب جلد مائة والرجم» فالآية عند التعارض ناسخ ليس بمنسوخ، وقد قال الشافعي الجلد المذكور في الحديث في حق الثيب منسوخ فلا مانع من كون التغريب في حق البكر منسوخاً بهذه الآية، قال ابن همام ليس في الباب من الأحاديث ما يدل على أن الواجب من التغريب واجب بطريق الحد، فإن أقصى ما فيه دلالة قوله: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام». وهو عطف واجب على واجب وهو لا يقتضي ذلك بل ما في البخاري من قول أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي وإقامة الحد»[1] ظاهر في أن النفي ليس من الحد لعطفه عليه وكونه مستعملاً في جزء مسماه وعطفه على جزء آخر بعيد لا يوجبه دليل وما ذكر من الألفاظ لا تفيد فجاز كون التغريب لمصلحته.

فائدة: وقد يرجح أصحاب الشافعي حديث التغريب بالمعقول حيث قالوا إن في التغريب حسم باب الزنى لقلة المعارف، وعارضه الحنفية بأن فيه فتح باب الفتنة لانفرادها عن العشيرة وعمن تستحيي منهم إن كان بها شهوة قوية وقد تفعله لحامل آخر وهو حاجتها إلى معيشتها، ويؤيده ما روى عليه الرزاق ومحمد بن الحسن في كتاب الآثار أخبرنا أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي قال: قال عبد الله بن مسعود في البكر يزين بالبكر يجلدان مائة وينفيان سنة قال وقال علي بن أبي طالب حَسْبُهما من الفتنة أن ينفيا، وروى محمد عن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم قال: كفى بالنفي فتنة، وروى عبد الرزاق عن الزهري عن ابن المسيب قال: غرَّب عمر ربيعة بن أمية بن خلف في الشراب إلى خيبر فلحق بهرقل فتنصر فقال عمر لا أغرِّب بعده مسلماً.

مسألة: وإذا رأى الإمام مصلحةً في التغريب مع الجلد جاز له النفي عند أبي حنيفة ح أيضاً وهو محل التغريب المروي عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، روى النسائي والترمذي والحاكم وصححه على شرط الشيخين والدارقطني من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ ضرب وغرَّب وأن أبا بكر ضرب وغرَّب وأن عمر ضرب وغرَّب[2]، وصححه ابن القطان ورجح الدارقطني وقفه وروى ابن أبي شيبة بإسناد فيه مجهول أن عثمان جلد امرأةً في زنى ثم أرسل بها إلى خيبر فنفاها، وليس التغريب مقتصراً على الزنى بل يجوز للإمام تغريب كل واع إذا رأى مصلحة، روى الطحاوي بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين من أهل الردة والكفر، باب: البكران يجلدان وينفيان (٦٨٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في النفي (١٤٣٩).

عن جده أن رجلاً قتل عبده عمد فجلده النبي ﷺ مائة ونفاه سنة ومحا أراه سهمه من المسلمي وأمره أن يعتق رقبة، وروى سعيد بن منصور أن عمر بن الخطاب أتى برجل شرب الخمر في رمضان فضرب مائتي سوط ثم سيره إلى الشام، وعلق البخاري طرفاً عنه ورواه البغوي في الجعديات وزاد وكان إذا غضب على رجل يسيره إلى الشام وروى البيهقي عن عمر أنه كان ينفي إلى البصرة، وروى عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع أن عمر نفي إلى فدك، ومن ها هنا أخذ مشايخ السلوك ﷺ وعنا أنهم يغربون المريد إذا بدا عنه قوة نفس ولجاج لتنكسر نفسه وتلين.

قلتُ: إذا رأى القاضي مسلماً يقع في المعاصي لغلبة الشهوة مع الندم والاستحياء يأمره بالغربة والسفر وأما من لا يستحيي ولا يندم فنفيه عن الأرض حبسه حتى يتوب والله أعلم.

مسألة: وإذا كان الزني والزانية محصنين يرجمان بإجماع الصحابة ومن بعدهم من علماء النصيحة، وأنكره الخوارج لإنكارهم إجماع الصحابة وحجية خبر الآحاد وادعائهم أن الرجم لم يثبت من القرآن ولا من النبي ﷺ بأخبار متواترة بالمعنى كفضل علي وشجاعته وجود حاتم وإن كانت من الآحاد في تفاصيله صورةً وخصوصياته، عن عمر بن الخطاب قال: «إن الله بعث محمد ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب وكان مما أنزل الله عليه آية الرجم رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال أو النساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف»[1] متفق عليه، وروى البيهقي أنه خطب وقال إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل فيه آية الرجم فقرأناها ووعيناها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا من بعده الحديث وفي آخره ولولا أخشى أن يقول الناس زاد في كتاب الله لأثبته في حاشية المصحف، وروى أبو داود خطبة عمر وفيه إني خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله، وفي رواية للترمذي بلفظ «لولا أني أكره أن أزيد في كتاب الله لكتبتُه في المصحف فإني خشيتُ أن يجيء قوم فلا يجد منه في كتاب الله فيكفرون به»[2] وكان هذا يعني خطبة عمر بمحضر من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين، باب: الاعتراف بالزنا (٦٨٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم الثيب في الزنى (١٦٩١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في تحقيق الرجم (١٤٣٢).

الصحابة ولم ينكر عليه أحد، وفي الباب حديث أبي أمامة بن سهل عن خالته بلفظ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما بما قضيا من اللذة، رواه الحاكم والطبراني وفي صحيح ابن حبان من حديث كان سورة الأحزاب توازي سورة البقرة وكان فيها آية الرجم الشيخ والشيخة الحديث، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والمارق لدينه التارك للجمَاعة»[١] متفق عليه، وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن عثمان بن عفان أشرف يوم الدار فقال أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث زنى بعد إحصان أو ارتداد بعد إسلام أو قتل نفس بغير حق فقتل به» فوالله ما زنيتُ في جاهلية ولا في إسلام ولا ارتددت منذ بايعتُ رسول الله ﷺ ولا قتلتُ النفس التي حرم الله فبم تقتلوني[٢]. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي ورواه الشافعي في مسنده ورواه البزار والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين والبيهقي وأبو داود، وأخرجه البخاري عن فعله ﷺ من قول أبي قلابة حيث قال: والله ما قتل رسول الله ﷺ أحداً قط إلا في ثلاث خصال رجل قَتَلَ فَقُتِلَ أو رجل زنى بعد إحصان أو رجل حارب الله ورسوله وارتد عن الإسلام وقد صح «أنه ﷺ رجم ماعز بن مالك حين اعترف بالزنى»[٣] رواه مسلم والبخاري من حديث ابن عباس ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث أبي هريرة، وفي الصحيحن من حديث أبي هريرة وابن عباس وجابر ومن لم يسم ورواه مسلم من بريدة قال «جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني الحديث «ورجم رسول الله ﷺ امرأة من غامد من الأزد قالت: يا رسول الله واعترفت أنها حبلى من الزنى رجمها بعد وضع الحمل» وفي رواية رجمها حين أكل ولدها الطعام رواه مسلم من حديث بريدة «ورجم رسول الله ﷺ امرأة من جهينة حين اعترفت بالزنى»[٤] رواه مسلم من حديث عمران بن حصين، قال علماء الفقه والحديث وقد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ (٦٨٧٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء لا يحل دمل امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث (٢١٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين، باب: هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت (٦٨٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٦).

جرى عمل الخلفاء الراشدين بالرجم مبلغ حد التواتر والله أعلم.

مسألة: وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن يرجم المحصن ويجلد الآخر كما قضى رسول الله ﷺ في رجل كان عسيفاً لآخر فزنى بامرأته وقد مر الحديث.

مسألة: هل يجلد المحصن قبل الرجم أم لا؟ فقال أحمد يجلد أولاً بحكم هذه الآية ثم يرجم فالآية عنده غير مخصوص بغير المحصن ولا منسوخ، وهو يقول ليس الجلد المذكور في الآية تمام الحد بل بعضه فيضم بالسنة مع الجلد في غير المحصن التغريب سنة وفي المحصن الرجم وكما لا يزاحم الآية حديث التغريب كذلك لا يزاحمه حديث الرجم وإن كان متواتراً فوجب العمل بهما ويؤيده، ما ذكرنا من حديث عبادة بن الصامت قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»، وروى عن سلمة بن المحبق نحوه قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» ويؤيده أثر علي بن أبي طالب رواه أحمد والحاكم والنسائي عن الشعبي أن علياً جلد سراحة الهمدانية بالكوفة ثم رجمها ضربها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة وقال: أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنة رسول الله ﷺ، وأصله في صحيح البخاري ولم يسم المرأة، وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي هذه الآية مخصوص بغير المحصن أو منصوخ في حق المحصن وكذا حديث عبادة بن الصامت وسلمة بن المحبق، والدليل على كونه منسوخاً أن النبي ﷺ رجم ماعزاً والمرأة الغامدية والجهينية ونقل تلك القصص بوجوهٍ وطرقٍ كثيرةٍ ولم يرو في شيء من طرقها أنه جلد ثم رجم، وقد مر في حديث زيد وخالد في قصة رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ وكان ابن أحدهما عسيفاً على الآخر فزنى بامرأته قضى رسول الله ﷺ على ابنه بالجلد والتغريب وقال: «يا أنيس اغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» ولم يقل اجلدها ثم ارجمها والناسخ إما أن يكون وحياً غير متلوٍ أو وحياً منسوخ التلاوة أعني الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما وهذه الآية المنسوخ تلاوتها لا يتصور كونها ناسخاً إلا على ما قرره المحققون من الحنفية في هذه الآية أن المذكور كل الواجب فقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟﴾ يدل على كون الجلد كل الواجب، والشيخ والشيخة إذا زنيا الآية تدل على أن الرجم كل الواجب فتعارضا، فكان أحدهما ناسخاً للآخر، ولو لم يفهم من الآيتين أن المذكور كل الواجب فلا تعارض ولا نسخ بل يجب حينئذ الجمع بين الرجم والجلد كما قال أحمد والله أعلم.

وأما أثر عليّ فيعارضه أثر عمر فهو أمر اجتهادي كقول أحمد روى الطحاوي بسنده

عن أبي واقد الليثي ثم الأشجعي وكان من أصحاب النبي ﷺ أنه قال: بينما نحن عند عمر بالجابية أتاه رجل فقال يا أمير المؤمنين إن امرأت زنت فهي هذه تعترف بذلك، فأرسلني عمر في رهط إليها نسألها فأخبرتها بالذي قال زوجها فقالت: صدق، فبلَّغنا ذلك عمر فأمر برجمها فهذا عمر بحضرة أصحاب رسول الله ﷺ لم يجلدها قبل رجمها.

قلت: ولعل علياً رضي الله عنه سراحة الهمدانية قبل ثبوت إحصانها ثم رجمها بعد ثبوت إحصانها، ومعنى قوله أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنة رسول الله ﷺ إن الجلد في حق غير المحصن ثابت بالقرآن والرجم في حق المحصن ثابت بسنة رسول الله ﷺ فمتى ثبت إحصانها رجمتها، وقد روي عن النبي ﷺ مثل ذلك روى الطحاوي بسنده عن جابر أن رجلاً زنى فأمر به النبي ﷺ فجلد ثم أخبر أنه كان قد أحصن فأمر به فرجم.

فائدة: اعلم أن الإحصان استعمل في القرآن لمعان منها الحرية ومنها التزويج قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[1] أراد به المزوجات وقال: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[2] أراد بقوله: أحصن إذا زوجن وبالمحصنات الحرائر، ومنها العفة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾[4] والمراد بالإحصان الذي هو شرط للرجم في الزاني والزانية الدخول بنكاح صحيح فإنه ثمرة التزويج يدل على ذلك تعبير النبي ﷺ المحصن بالثيب وغير المحصن بالبكر.

وذكر العلماء من شرائط إحصان الرجم الحرية والعقل والبلوغ وإن يكون قد تزوج تزويجاً صحيحاً ودخل بالزوجة وهذه الشروط الخمسة مجمع عليها لرجم، لكن العقل والبلوغ شرطان لأهلية العقوبة بل لأهلية الخطاب مطلقاً فلا وجه لذكرهما في إحصان الرجم، والحرية شرط لتكامل الحد مطلقاً لا للرجم خاصةً حتى لا يجلد العبد مائة، بقي الدخول بنكاح صحيح معتبراً، وزاد أبو حنيفة ومالك ومحمد في شرائط إحصان الرجم الإسلام خلافاً للشافعي وأبي يوسف وأحمد احتجت الحنفية على اشتراط الإسلام

(١) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٤) سورة النور، الآية: ٢٣.

بقوله ﷺ: «من أشرك بالله فليس بمحصن» رواه إسحاق بن راهويه في مسنده ثنا عبد العزيز بن محمد ثنا عبد عن نافع عن ابن عمر قال إسحاق رفعه ابن عمر مرةً فقال عن رسول الله ﷺ ووقفه مرةً، قال ابن الجوزي لم يرفعه غير إسحاق ويقال إنه رجع عنه والصواب أنه موقوف، قال ابن همام لا شك أن مثله بعد صحة الطريق محكوم برفعه فإن الراوي يفتي على حسب ما رفع.

قلتُ: إذا رجع إسحاق عن الرفع واعترف بخطأه ولم يرفعه غيره فكيف يحكم برفعه، ولو سلمنا كونه مرفوعاً فالحديث لا يدل على إحصان الرجم خاصةً وقد ذكرنا أن الإحصان استعمل في القرآن لمعان منها العفة فلعل معنى الحديث من أشرك فليس بعفيف فلا يحد قاذفه، فلا يثبت بهذا الحديث اشتراط الإسلام للرجم مع عموم لفظ الثيب بالثيب وشموله للمؤمن والكافر، وقد روى الشيخان في الحصيحين عن ابن عمر: «أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأةً زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ قالوا: نفضحم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع فإذا فيها آية الرجم فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما النبي ﷺفرجما»[1] فهذا الحديث حجة للشافعي وأحمد وأجاب عنه صاحب الهداية بأنه كان ذلك بحكم التوراة ثم نسخ.

قلتُ: شرائع من قبلنا واجب العمل على أصل أبي حنيفة ما لم يظهر نسخه في شريعتنا لاسيما إذا عمل به النبي ﷺ فإن عمله ﷺ دليل صريح في كون ذلك الحكم باق في شريعتنا لأنه محال أن يحكم النبي ﷺ بحكم منسوخ في شريعتنا على خلاف ما أنزل الله عليه وليس شيء من الآيات والآحاديث دالاً على نسخه، فإن لفظ الزاني والزانية والشيخ والشيخة والثيب والبكر يعم المؤمن والكافر جميعاً وحديث «من أشرك فليس بمحصن» لا يدل على اشتراط الإسلام في الرجم بل هو محمول على إحصان القذف.

مسألة: وزاد أبو حنيفة رحمه الله في شرائط إحصان الرجم كون كلا الزوجين عند الدخول بنكاح صحيح حرين مسلمين عاقلين بالغين وكذا قال أحمد سوى الإسلام حتى لو تزوج الحر المسلم العاقل البالغ أمةً أو صبية أو مجنونةً أو كتابيةً ودخل بها لا يصير

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين، باب: الرجم في البلاط (٦٨١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (١٦٩٩).

محصناً بهذا الدخول، فلو زنى بعده لا يرجم وكذا لو تزوجت الحرة البالغة العاقلة عبداً أو مجنوناً أو صبيّاً ودخل بها لا تصير محصنة فلا ترجم لو زنت بعده، ولو تزوج مسلم ذمية فأسلمت بعدما دخل بها ولم يدخل بها بعد إسلامها ثم زنت لا ترجم، وكذا لو أعتقت الأمة التي تحت حر مسلم عاق بالغ بعدما دخل بها ولم يدخل بها بعد إعتاقها ثم زنت لا ترجم، احتجت الحنفية بما رواه الدارقطني وابن عديٍّ عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن علي بن أبي طلحة عن كعب بن مالك أنه أراد تزوج يهودية أو نصرانية فسأل النبي ﷺ عن ذلك فنهاه وقال: «إنها لا تحصنك» قال الدارقطني: أبو بكر بن أبي مريم ضعيف جداً وعلي بن أبي طلحة لم يدرك كعباً، وقال ابن همام ورواه بقية بن الوليد عن عتبة بن تميم عن علي بن أبي طلحة عن كعب وهو منقطع.

قلتُ: بقية بن الوليد أيضاً ضعيف مدلس قال ابن همام الانقطاع عندنا داخل في الإرسال والمرسل عندنا حجة بعد عدالة الرجال، قلتُ: ولا شك أن هذا ليس في قوة حديث الصحيحين أن النبي ﷺ رجم اليهودي واليهوذية فلا يجوز العمل به، وهذا الحديث لا يصلح حجةً لأحمد لأن الإسلام ليس بشرط للإحصان عنده، وقد روى البيهقي من طريق أبي وهب عن يونس عن ابن شهاب أن سمع عبد الملك يسأل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن الأمة هل تحصن الحرَّ، قال: نعم، قيل: عمن، قال: أدركنا أصحاب رسول الله ﷺ يقولون ذلك وروى البيهقي من طريق عبد الرزاق عن عمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة مثله.

مسألة: وإذا كان أحد الزانيين محصناً والآخر غير محصن رجم المحصن وجلد الآخر إجماعاً لحديث زيد بن خالد وأبي هريرة في قصة عسيف حيث قال رسول الله ﷺ: «أما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام وأما أنت يا أنيس فاغد على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فاعترفت فرجمها[١]، متفق عليه.

مسألة: وإن كان أحدهما مجنوناً والآخر عاقلاً؟ فقال مالك والشافعي وأحمد يجب الحد على العاقل منهما وقال أبو حنيفة يجب الحد على العاقل دون العاقلة مع المجنون، قال أبو حنيفة فعل الزنى إنما يتحقق من الرجال وإنما المرأة محل وإنما سميت زانية مجازاً فتعلق الحد في حقها بالتمكين من قبيح الزنى وهو فعل من هو مخاطب بالكف عنه، وقال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوكالة، باب: الوكالة في الحدود (٢٣١٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٧).

الجمهور إن العذر من جانبها لا يسقط الحد من جانبه إجماعاً فكذا العذر من جانبه ولا نسلم أن الزانية أطلق عليها بالمجاز ولو سلمنا فمعناه المجازي وهو التمكين من الزنى موجب للحد في حقها والقول بأن فعل الصبي والمجنون ليس بزنى ممنوع بل هو زنى لغة وشرعاً وعدم المأثم لأجل عدم التكليف والله أعلم.

فصل

مسألة: الزنى في الشرع واللغة وطيء الرجل المرأة في القبل من غير الملك وأما الوطيء في الدبر رجلاً كان المفعول به أو امرأةً فليس بزنى لغة ولا شرعاً وقد ذكرنا اختلاف العلماء في حد اللواطة في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما)[١] فمن وطيء زوجته الحائض أو الصائمة أو المحرمة أو أمته قبل الاستبراء أو الأمة المشتركة بينه وبين غيره أو الأمة المشركة أو المنكوحة لغيره أو الأمة المحرمة برضاع لا يكون زنى ولا يوجب الحد لوجود الملك لكنه يأثم، وشبه الملك ملحق بالملك شرعاً يسقط به الحد عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، خلافاً للظاهرية لقوله ﷺ: «ادرؤوا الحدود بالشبهات» وهو في مسند أبي حنيفة عن مقسم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ادرؤوا الحدود بالشبهات» وروى الترمذي والحاكم والبيهقي من طريق الزهري عن عروة عن عائشة بلفظ «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإذا كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة»[٢] وفي إسناده يزيد بن زياد الدمشقي وهو ضعيف وقد قال فيه البخاري منكر الحديث وقال النسائي: متروك ورواه وكيع عنه موقوفاً وهوأصح قاله الترمذي قال وقد روى عن غير واحد من الصحابة أنهم قالوا ذلك وقال البيهقي في السنن رواية وكيع أقرب للصواب، قال: ورواه رشدين عن عقيل عن الزهري ورشدين ضعيف أيضاً وروينا عن علي مرفوعاً «ادرؤوا الحدود بالشبهات ولا ينبغي.... للإمام أن يعطل الحدود» وفيه المختار بن نافع وهو منكر الحديث قاله البخاري وأصح ما فيه حديث سفيان الثوري عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال: «ادرؤوا الحدود بالشبهات ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم» رواه ابن أبي شيبة وروي عن عقبة بن عامر ومعاذ أيضاً موقوفاً رواه ابن أبي شيبة وروى منقطعاً وموقوفاً على عمر ورواه ابن حزم في كتاب الإيصال من حديث عمر موقوفاً عليه

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في درء الحدود (١٤٢٥).

بإسناد صحيح وأسند ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي عن عمر لأن أخطىء الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات. وقالت الظاهرية إن الحد بعد ثبوته لا يجوز أن يدرأ بشبهة إذ ليس في درء الحد عن رسول الله ﷺ شيء بل عن بعض الصحابة من طرق لا خير فيها وأعلوا حديث ابن مسعود الموقوف بالإرسال وما رواه عبد الرزاق عنه وهو غير رواية ابن أبي شيبة فإنها معلولة بإسحاق بن أبي فروة، قال ابن همام الحديث تلقته الأمة بالقبول وفي تتبع المروي عن النبي ﷺ والصحابة ما يوجب القطع في المسألة ألا ترى أن النبي ﷺ قال لماعز: «لعلك قبلتَ؟ لعلك لمستَ؟ لعلك غمزت؟» ليلقنه الرجوع بعد الإقرار وإنما فائدته أنه إذا قال نعم ترك وكذا قال للسارق الذي جيء به لا أخاله سرق وللغامدية مثل ذلك، وكذا قال علي لسراحة لعله وقع عليك وأنت نائمة؟ لعله استكرهك؟ لعل مولاك زوجك وأنت تكتمنيه؟ وتتبع مثله عن كل واحد يوجب طولاً في الكلام، فالحاصل من هذا كله كون الحد يحتال في درئه بلا شك فمعنى الحديث والآثار مقطوع به والله أعلم.

مسألة: الشبهة إما شبهة اشتباه أي شبهة في حق من اشتبه عليه دون من لم يشتبه عليه، وذلك فيما لم يكن هُناك دليل حل أصلاً لكن الفاعل ظن غير الدليل دليلاً كجارية أبيه وأمه وزوجته والمعتدة بعد ثلاث تطليقات أو طلاق على مال وأم ولد أعتقها مولاها وهي في العدة وجارية المولى في حق العبد والجارية المرهونة، حيث لا دليل هناك تدل على الحل لكن الفاعل لو ظن حلها لأجل اتصال الأملاك لأجل الولاد والزوجية باعتبار عدم قبول الشهادة لهم أو لأجل بقاء حقوق النكاح من وجوب النفقة ومنع الغير من النكاح في العدة والملك يداً في الرهن لا يجد ولو علم الحرمة يحد لعدم الحل بدليل أصلاً، وإما شبهة للملك وذلك حيث وجد دليل يوجب الحل في ذاته كجارية ابنه نظراً إلى قوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»[1] رواه ابن ماجه من حديث جابر في جواب من قال يا رسول الله إن لي مالاً وولداً أو أبي يريد أن يجتاح مالي، قال ابن القطان والمنذري سنده صحيح ورواه الطبراني في الأصغر والبيهقي في الدلائل في قصة والمعتدة بالكنايات لاختلاف الصحابة في كونها رواجع والجارية المبيعة والممهورة في حق البائع والزوج لكونها في ضمانه وكذا كل جهة أباحها عالم كنكاح بلا شهود، ففي هذه الصور لا يحد وإن كان الواطىء يعتقد الحرمة وكذا من زفت إليه غير امرأته في أول وهلة وقالت النساء إنها زوجتك لا حد عليه إجماعاً

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما للرجل من مال ولده (٢٢٩١).

وعليه المهر قضى بذلك عليٌّ ﷺ وبالعدة لأنه اعتمد دليلاً وهو الإخبار في موضع الاشتباه إذ الإنسان لا يتميز بين امرأته وغيرها في أول وهلة، بخلاف من وجد على فراشه امرأة فوطئها فإنه يجب عليه الحد عند أبي حنيفة خلافاً لما لك والشافعي وأحمد فعندهم لا يحد قياساً على المزفوفة بجامع ظن الحل، لنا أنه لا اشتباه بعد طول الصحبة فلم يكن الظن مستنداً إلى دليل، وكذا إذا كان أعمى لأنه يمكنه التمييز بالسؤال وغيره إلا إذا دعاها فأجابته أجنبية قالت أنا زوجتك فواقعها لأن الإخبار دليل وجاز تشابه النغمة خصوصاً لو لم يطل الصحبة والله أعلم.

مسألة: ومن الشبهة عند أبي حنيفة وزفر وسفيان الثوري شبهة عقد فمن نكح امرأة لا يحل نكاحها لا يجب عليه حد الزنى عند أبي حنيفة لكن يجب عليه العقوبة البليغة الشديدة، قلتُ: والأولى أن يقال فيه القتل حداً اتباعاً بالحديث، وعند مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد يجب عليه حد الزنى إن كان عالماً بذلك لأنه وطيء في فرج مجمع على تحريمه من غير ملك ولا شبهة ملك والواطيء أهل للحد عالم بالتحريم فيجب الحد كما لو لم يوجد العقد إذ العقد ليس لشبهة لأنه لم يصارف محله لأنه في نفسه خيانة يوجب عقوبة انضمت إلى زنى فلم يكن شبهة كما لو أكرهها وعاقبها وزنى بها، ولو سلمنا أن العقد شبهة والوطيء بالشبهة لم يكن زنى فهو أغلظ من الزنى فأحرى أن يجب فيه ما يجب في الزنى، ولأبي حنيفة أنه عقد صادف محلاً لمطلق النكاح لكونها أنثى من بني آدم وإن لم يكن محلاً لهذا النكاح المخصوص حتى صار باطلاً فأورث شبهة فإن الشبهة ما يشابه الثابت ولا شك أن مشابه الثابت ليس بثابت فالشبهة لا يقتضي ثبوت الحد بوجه من الوجوه وإذا ثبت فيه شبهة الملك لم يكن زنى وكونه أغلظ من الزنى لا يقتضي كونه موجباً للحد، لأن أمر الحدود توقيفي ألا ترى أنه من قذف محصناً بالزنى وجب عليه حد القذف ثمانون سوطاً ومن قذف بالكفر لا يجب عليه حد القذف مع أن الكفر أغلظ من الزنى وقد قال رسول الله ﷺ: «الغيبة أشد من الزنى» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد وجابر والمراد بما لا يحل نكاحها ما لا يحل نكاحها على التأبيد باتفاق العلماء كالمحرمات بنسب أو رضاع أو صهرية، وأما إن كان النكاح مختلفاً فيه كالنكاح بلا ولي وبلا شهود فهو مسقط للحد اتفاقاً لتمكن الشبهة عند الجميع وإن كان الناح متفقاًعلى تحريمه لكن حرمتها غير مؤبدة كما إذا تزوج أمة على حرة أو تزوج منكوحة الغير أو معتدته أو المطلقة ثلاثاً أو خامسة أو أخت زوجته أو في عدتها فعند أبي حنيفة لا يحد وعند صاحبيه في رواية عنهما يحد وفي أخرى لا يحد ويؤيد قول أبي حنيفة

ما رواه الطحاوي أن رجلاً تزوج امرأة في عدتها فرفع إلى عمر فضربها دون الحد وجعل لها الصداق وفرق بينهما وقال لا يجتمعان أبداً، قال: وقال عليّ إن تابا وأصلحا جعلهما مع الخطاب. وفي مسألة المحارم روى عن جابر أنه يضرب عنقه وكذا نقل عن أحمد وإسحاق وأهل الظاهر وقصر ابن حزم قتله على ما إذا كانت المرأة امرأة أبيه قصراً للحد على مورده وفي رواية أخرى لأحمد يضرب عنقه ويؤخذ ماله لبيت المال لحديث البراء بن عازب قال: «لقيتُ خالي ومعه راية فقلتُ له أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه أن أضرب عنقه وآخذ ماله»[١] رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن ورواه الطحاوي بطرق ولم يذكر فيه أخذ المال وفي بعض طرقه أخذ المال أيضاً، وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقع على ذات محرم منه فاقتلوه»[٢] وعن معاوية بن قرة عن أبيه أن النبي ﷺ بعث جده معاوية إلى رجل عرش بامرأة أبيه أن يضرب عنقه وبخمس ماله، قالت الحنفية هذه الأحاديث لا حجة فيها لمن قال بوجوب الحد من الجلد والرحم لعدم ذكر الجلد والرجم في الحديث وأيضاً ليس في الحديث ذكر الدخول بالمرأة المحرمة بل ذكر النكاح بالمحرمة ونفس النكاح ليس بموجب للحد إجماعاً، فوجب أن يقال إن النبي ﷺ إنما أمر بالقتل وأخذ المال إما سياسةً وإما لأن المتزوج بامرأة أبيه فعل ما فعل مستحلاً كما كانوا يفعلون في الجاهلية فصار بذلك مرتداً ولعله صار محارباً ولذلك أمر بقتله وأخذ ماله وتخميسه.

مسألة: ومن شبهة العقد ما إذا استأجر امرأة ليزني بها ففعل لاحد عليه عند أبي حنيفة رحمه الله ويعزر وقال أبو يوسف ومحمد ومالك والشافعي وأحمد يحدُّ لأن عقد الإجارة لا يستباح به البضع كما لو استأجرها للطبخ ونحوه من الأعمال ثم زنى بها يحد اتفاقاً له أن المستوفى بالزنى المنفعة وهي المعقود عليه في الإجارة لكنه في حكم العين بالنظر إلى الحقيقة بكونه محلاً لعقد الإجارة فأورث شبهة، بخلاف الاستئجار للطبخ لأن العقد لم يضف إلى المستوفي بالوطىء والعقد المضاف إلى محل يورث شبهة فيه لا في محل آخر والله أعلم.

مسألة: اتفق العلماء على أن الزنى يثبت بشهادة أربعة من الرجال ولا يثبت بشهادة ما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأحكام، باب: فيمن تزوج امرأة أبيه (١٣٦٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: في الرجل يزني بحريمه (٤٤٤٦)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: نكاح ما نكح الآباء (٣٣٢٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: من أتى ذات محرم ومن أتى بهيمة (٢٥٦٤).

دونها، ولا بشهادة النساء لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾(٢).

مسألة: لو شهد أربعة متفرقين يثبت الزنى ويحد عند الشافعي لوجود النصاب، وعند الثلاثة هم قذفوه لعدم النصاب في أول الوهلة فيرد شهادتهم ثم لا تصير شهادتهم مقبولة بعد كونها مردودة ولو جاؤوا متفرقين فاجتمعوا وشهدوا معاً قبلت شهادتهم عند أحمد وعند مالك وأبي حنيفة يشترط مجيء الشهود الأربعة مجتمعين وأداؤهم الشهادة معاً.

مسألة: هل يشترط العدد في الإقرار؟ فقال أبو حنيفة وأحمد وأكثر العلماء إنه لا يثبت الزنى بالإقرار إلا إذا أقر العاقل البالغ على نفسه بذلك أربع مرات واختلفوا في اشتراط كونها في أربعة مجالس؟ فقال أبو حنيفة لا بد من أربعة مجالس لأن المجلس جامع للمتفرقات وباب الزنى باب الاحتياط، وقال أحمد وأبو ليلى يكتفي أن يقر أربعاً في مجلس واحد لحديث رواه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «أتى النبي ﷺ رجل وهو في المسجد فناداه يا رسول الله إني زنيتُ فأعرض عنه النبي ﷺ لشق وجهه الذي أعرض قبله فقال: إني زنيتُ، فأعرض عنه النبي ﷺ فلما شهد أربع شهادات دعاه النبي ﷺ فقال أبك جنون؟ قال: لا، فقال أحصنت؟ قال: نعم يا رسول الله فقال: «اذهبوا به فارجموه»(٣) الحديث واحتج أبو حنيفة بما رواه مسلم عن بريدة أن ماعزاً أتى النبي ﷺ فرده ثم أتاه الثانية من الغد فرده ثم أرسل إلى قومه هل تعلمون بعقله بأساً فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسألهم فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلمّا كان الرابعة حفر له حفيرة فرجم، وأخرج أحمد وإسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة في المصنف عن أبي بكر قال: أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ فاعترف وأنا عنده مرةً فرده ثم جاء فاعترف عنده الثانية فرده، ثم جاء فاعترف عنده الثالثة فرده، فقلتُ له إن اعترفت الرابعة رجمك قال: فاعترف الرابعة فجلسه ثم سأل عنه فقال: لا نعلم إلا خيراً فرجم، هذا الحديث أيضاً صريح في تعدد المجيء وهو يستلزم غيبته كل مرة ومن ها هنا قالت الحنفية إذا تغيب ثم عاد فهو مجلس آخر، وروى ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة قال جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: إن الأبعد زنى فقال له: ويلك ولا يدريك ما الزنى فأمر به فطرد وأخرج، ثم أتاه الثانية فقال مثل ذلك فأمر به فطرد وأخرج، ثم أتاه الثالثة

(١) سورة النساء، الآية: ١٥. (٢) سورة النور، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين، باب: لا يرجم المجنون والمجنونة (٦٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩١).

فقال مثل ذلك فأمر به فطرد وأخرج، ثم أتاه الرابعة فقال مثل ذلك فقال: أدخلتَ وأخرجتَ؟ فقال: نعم فأمر به أن يرجم، فهذه وغيرها مما يطول ذكره ظاهر في تعدد المجالس فوجب أن يحمل الحديث الأول عليها وإن قوله فتنحى تلقاء وجهه معددو مع قوله الأول إقراراً واحداً لأنه في مجلس واحد، وقوله حين بين ذلك أربع مرات أي في أربعة مجالس لأنه لا ينافي ذلك وقال مالك والشافعي وأبو ثور والحسن وحماد بن أبي سليمان أنه يثبت الزنى بإقراره مرة لقوله ﷺ: في حديث زيد بن خالد وأبي هريرة في قصة العسيف «أغدُيا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها قالوا: وليس في قصة المرأة الغامدية إلا ذكر الإقرار مرة، قلنا: قوله إن اعترفت فارجمها معناه إن اعترفت اعترافاً مقبولاً في حد الزنى، وإنما اقتصر النبي ﷺ على قوله إن اعترفت لعلمه بأن الصحابة كانوا يعلمون لقصة ماعز وغيره أن الإقرار المعتبر في الزنى إنما هو أربع إقرارات في أربعة مجالس، وقولهم ليس في قصة الغامدية إلا ذكر الإقرار فممنوع بل قد روى أبو داود والنسائي أنه كان أصحاب النبي ﷺ تتحدث أن الغامدية وماعز بن مالك لو رجعا بعد اعترافهما لم يطلبهما وإنما رجمهما بعد الرابعة، فهذا نص في إقرارها أربعاً غاية ما في الباب أنه لم ينقل تفاصيلها والله أعلم، وقد روى البزار في مسنده عن زكريا بن سليم ثنا شيخ من قريش عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه فذكره وفيه أنها أقرت أربع مرات وهو يردها ثم قال لها «إذهبي حتى تلدي» غير أن فيه مجهولاً ينجبر جهالته بما يشهد له من حديث أبي داود والنسائي.

مسألة: يستحب للإمام أن يلقنه الرجوع عن الإقرار كما قال رسول الله ﷺ لماعز «لعلك قبلت أو لمست».

مسألة: لو أقر أربعاً بالزنى ثم رجع قبل أن يحد أو في أثنائه يقبل رجوعه وسقط عنه الحد عند الأئمة الثلاثة وعن مالك فيه روايتان. لنا: أن الرجوع خبر يحتمل الصدق كالإقرار وليس أحد يكذبه فيه فيتحقق الشبهة في الإقرار والحدود تندرىء بالشبهات، بخلاف ما فيه حق العبد وهو القصاص وحد القذف لوجود من يكذبه، ويؤيده قصة ماعز روى أبو داود عن يزيد بن نعيم قصته فذكر أنه لما رجم فوجد مس الحجرة فجزع فخرج يشتد فلقيه عبد الله بن أنيس وقد عجز أصحابه فنزع له بوظيف بعير فرماه به فقتله، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عنه»[1] وروى الترمذي وابن ماجه في حديث أبي هريرة نحوه.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الحدود، باب: رجم ماعز بن مالك (٤٤٠٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء في درء الحدود عن المعترف إذا رجع (١٤٢٩).

فصل

مسألة: إذا زنى المريض وحده الرجم رجم لأن الإتلاف مستحق فلا يمتنع بسبب المرض، وإن كان حدّه الجلد لا يجلد حتى يبرأ كيلا يفضي إلى الهلاك، وإن كان مرضاً لا يرجى البرء منه كالسل أو كان خديجاً أي ضعيف الخلقة فعند أبي حنيفة والشافعي يضرب بعثكال فيه مائة شمراخ فيضرب به دفعةً ولا بد من وصول كل شمراخ إلى بدنه كما روى البغوي في شرح السنة وابن ماجه نحوه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: كان بين إمائنا رجل مخدج ضعيف فلم يرع إلا وهو على أمة من إماء الدار يحنث بها فرفع شأنه سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال: «اجلدوه مائة سوط» قال يا نبي الله هو أضعف من ذلك لو ضربنا مائة سوط لمات قال: «فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه واحدة وخلوا سبيله»[١] ورواه أبو داود عن أبي أمامة بن سهل عن رجل من الأنصار ورواه النسائي عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه ورواه الطبراني عن أبي أمامة بن سهل. . . . . عن أبي سعيد الخدري، قال الحافظ إن كان الطرق كلها محفوظة فيكون أبو أمامة قد حمله عن جماعة من الصحابة ورواه البيهقي عن أبي أمامة مرسلاً.

مسألة: إن زنت الحامل لا تحدّ حتى تضع حملها كيلا يؤدي إلى هلاك الجنين وهو نفس محترمة، وإن كان حدّها الجلد لا تجلد حتى تطهر من النفاس عن علي رضي الله عنه قال: «يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن منهم ومن لم يحصن فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها فإذا هي حديث عهد بنفاس. . . فخشيتُ إن أنا جلدتها أن أقتلها فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال: أحسنت»[٢] رواه مسلم وفي رواية أبي داود قال: دعها حتى ينقطع دمها ثم أقم عليها الحد وأقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم وإن كان حد النفساء الرجم رجمت لانفصال الولد عنها واستحقاقها الهلاك وعن أبي حنيفة أنه يؤخر حتى يستغنى عنها ولدها إذا لم يكن أحد يقوم بتربيته لصيانة الولد من الضياع، روى مسلم عن بريدة في قصة الغامدية أن النبي ﷺ أخر رجمها حتى تضع فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت فقال قد وضعت الغامدية قال إذاً لا ترجمها وتدع ولدها صغيراً ليس له من ترضعه، فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعها يا نبي الله قال: فرجمها، وفي رواية أنه قال لها: «اذهبي حتى تلدي فلما ولدت قال: «اذهبي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: الكبير والمريض يجب عليه الحد (٢٥٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: تأخير الحد عن النفساء (١٧٠٥).

فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمتُه وأكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين فحفر لها إلى صدرها وأمرالناس فرجموها[1].

مسألة: قوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ خطاب للأئمة فلا يجوز عند أبي حنيفة إقامة الحدود للمولى إلا أن يأذن له الإمام وقال مالك والشافعي وأحمد يقيم المولى بلا إذن الإمام وفي رواية عن مالك أنه يقيم المولى إلا في الأمة المزوجة واستثنى الشافعي من المولى ذمياً ومكاتباً وامرأة، وهل يجري ذلك على العموم حتى لو كان قتلاً بسبب الردة أو قطع الطريق أو قطعاً للسرقة ففيه خلاف عند الشافعي قال النووي الأصح المنصوص أنه يعم لإطلاق الخبر، وفي التهذيب الأصح أن القتل والقطع إلى الإمام، لهم ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال: «إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فبيعوها ولو بضفير»[2] وقال النبي ﷺ: «أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم» رواه النسائي والبيهقي من حديث علي وأصله في مسلم موقوفاً على علي وغفل الحاكم فاستدركه، وروى الشافعي أن فاطمة رضي الله عنها جلدت أمة لها زنت، وروى ابن وهب عن ابن جريج عن عمرو بن دينار أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت تجلد وليدتها خمسين إذا زنت، وروى الشافعي عن مالك عن نافع أن عبداً لعبد الله بن عمر سرق فأرسل به عبد الله إلى سعيد بن العاص وهو أمير المدينة ليقطع يده فأبى سعيد أن يقطع يده وقال لا يقطع يد العبد إذا سرق فقال له ابن عمر في أي كتاب وجدت هذا فأمر به ابن عمر فقطعت يده، ورواه عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن أيوب عن نافع أن ابن عمر قطع يد غلام له سرق وجلد عبد الله زنى من غير أن يدفعهما إلى الوالي، ورواه ابن ماجه وفيه قصة لعائشة ورواه سعيد بن منصور عن هشيم عن ابن أبي ليلى عن نافع نحوه، وروى مالك في الموطأ والشافعي عنه قال خرجت عائشة إلى مكة ومعها غلام لبني عبد الله بن أبي بكر الصديق فذكر قصة فيها أنه سرق واعترف فأمرت به عائشة فقطعت يده وروى مالك في الموطأ أن حفصة قتلت أمة لها سحرت ورواه عبد الرزاق وزاد فأنكر ذلك عثمان بن عفان فقال ابن عمر ما تنكر على

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: بيع العبد الزاني (٢١٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٧٠٣).

أم المؤمنين امرأة سحرت فاعترفت، ولأبي حنيفة ما رواه أصحاب السنن في كتبهم عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير موقوفاً ومرفوعاً «أربع إلى الولاة الحدود والصدقات والجمعات والفيء».

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ أي رحمة قرأ ابن كثير رآفة بفتح الهمزة ولم يختلفوا في سورة الحديد أنها ساكنة لمجاورة ورحمة ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي في طاعته يعني لا تعطلوا الحدود بأن لا تقيموها رحمة على الناس كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي، روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة «أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها»[(١)] وقال جماعة معناها لا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضرباً وهذا قول سعيد بن المسيب والحسن قال أبو حنيفة يجتهد في حد الزنى ثم في حد الشرب ويخفف في حد القذف لأن سببه محتمل لاحتمال كونه صادقاً بخلاف حد الشرب فإن سببه متيقن وجناية الزنى أعظم منه، وقال قتادة يخفف في حد الشرب والفرية ويجتهد في الزنى، وقال الزهري يجتهد في حد الزنى والقذف لثبوتهما بكتاب الله ويخفف في حد الشرب لثبوتها بالسنة، قال البغوي روي أن عبد الله بن عمر جلد جاريةً له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فقال: يا بني إن الله لم يأمرني بقتلها وقد ضربتُ وأوجعتُ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني إن كنتم تؤمنون بالله فسارعوا إلى امتثال أمره واجتهدوا في إقامة حدوده فإن الإيمان يقتضي ذلك ﴿وَلْيَشْهَدْ﴾ أي ليحضر ﴿عَذَابَهُمَا﴾ أي حدهما ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادة في التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر ما ينكل التعذيب والطائفة فرقة يمكن أن يكون حافة حول من الطوف وأقلها قيل: أربعة للجوانب الأربع، وقيل: ثلاثة لأنها أدنى فهو جمع طائف، وقيل: جاز إطلاقها عل واحد أو اثنين

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحدود، باب: إقامة الحدود على الشريف والوضيع (٦٧٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨).

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾[1] قال في القاموس الطائفة من الشيء القطعة منه أو الواحد فصاعداً أو إلى الألف أوأقلها رجلان أو رجل فيكون بمعنى النفس، قلت: فيصح أن يكون جمعاً يكنى به عن الواحد ويصح أن يجعل كزاوية أو علامة، قال النخعي ومجاهد أقله رجل فما فوقه وهو المروي عن ابن عباس وبه قال أحمد، وقال عطاء وعكرمة وإسحاق رجلان فصاعداً وقال الزهري وقتادة ثلاثة فصاعداً وقال مالك وابن زيد أربعة بعدد الشهداء في الزنى، وقال الحسن البصري عشرة فصاعداً، قلتُ: وهذا القول أولى بالصواب إذ المقصود بالآية التشهير ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ أخرج أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكانت امرأة بمكة صديقة له يقال لها عناق، فاستأذن النبي ﷺ أن ينكحها فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ فلا تنكحها»[2] وأخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب النبي ﷺ أن يتزوجها فنزلت، وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد قال: لمّا حرم الله الزنى فكان زواني عندهن جمال فقال الناس لننطلقنَّ فلنتزوجهنَّ فنزلت، وقال البغوي قال قوم قدم المهاجرون المدينة ومنهم فقراء لا ما لهم ولا عشائر وفي المدينة نساء بنيا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المهاجرين في نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهن كن مشركات، وهذا قول عطاء بن أبي رباح ومجاهد وقتادة والزهري والشعبي وفي رواية العوفي عن ابن عباس قلتُ: أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه من مراسل سعيد بن جبير، وقال البغوي قال عكرمة نزلت في نساء بمكة والمدينة منهن تسع لهن رايات كرايات يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مأكلة فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة فاستأذن رجل من المسلمين نبي

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة النور (٣١٨٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ (٢٠٥٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: تزويج الزانية (٣٢١٩).

الله ﷺ في نكاح أم مهزول اشترطت له أن تنفق عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية. ولهذه الآية والأحاديث المذكورة احتج أحمد على أنه لا يجوز نكاح الزاني ولا الزانية حتى يتوبا فإذا تابا فلا يسميان زانيين، وعند الأئمة الثلاثة نكاح الزاني والزانية صحيح ففي تفسير هذه الآية قال بعضهم معناه الإخبار كما هو ظاهر الصيغة، والمعنى أن الزاني لأجل فسقه لا يرغب غالباً في نكاح الصالحات والزانية لا يرغب فيها الصلحاء فإن المشاكلة علة الألفة والتضام والمخالفة سبب للنفرة والافتراق، وكان حق المقابلة أن يقال والزانية لا تنكح إلا من زانٍ أو مشرك لكن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة فيهن لما ذكرنا أنها نزلت في استئذان الرجال من المؤمنين، وعلى هذا التأويل المراد بالتحريم في قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التنزيه عند أكثر العلماء عبَّر عنه بالتحريم مبالغة يعني أن المؤمنين لا يفعلون ذلك ويتزهون عنه تحافياً عن التشبه بالفساق وسوء المقابلة والمعاشرة والطعن في النسب وغير ذلك من الفاسد وقال مالك يكره كراهة تحريم، وقال البغوي قال قوم المراد بالنكاح الجماع ومعنى الآية الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة والزانية لا تزني إلا بزانٍ أو مشرك وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم ورواية الوالبي عن ابن عباس، وقال زيد بن هارون يعني الزاني إن كان مستحلاً فهو مشرك وإن جامعها وهو محرم فهو زان وعلى هذا أيضاً مبنى الكلام على الأخبار، وقال جماعة النفي ها هنا بمعنى النهي وقد قرىء به والحرمة على ظاهرها لكن التحريم كان خاصاً في حق أولئك الرجال من المهاجرين الذين أرادوا نكاح الزانيات دون سائر الناس، وهذا القول بعيد جداً لأن الممنوع في الآية ابتداءً الزاني عن نكاح الصالحات غير الزانيات وكان حق الكلام حينئذ المؤمن لا ينكح إلا مؤمنة صالحة وأيضاً عموم قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينافي تخصيص الحكم برجال مخصوصين، وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول: إذا تزوج الزاني بالزانية فهما زانيان أبداً، وقال الحسن الزاني المجلود لا ينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها إلا زان مجلود، وروى أبو داود بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»[1] مبنى هذين القولين أن التحريم عام والآية غير منسوخة، وقال سعيد بن المسيب وجماعة إن حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراماً بهذه الآية فنسخها قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[2] فدخلت الزانية في

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ (٢٠٥٤).
(٢) سورة النور، الآية: ٣٢.

أيامى المسلمين، ويدل على جواز نكاح الزانية ما روى البغوي عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن امرأتي لا تدفع يد لامس قال: «طلقها» قال؛ إني أحبها وهي جميلة قال: «استمتع بها»[1] وفي رواية «فأمسكها إذاً» كذا روى الطبراني والبيهقي عن عبيد الله بن عمر عن عبد الكريم بن مالك عن أبي الزبير عن جابر وقال ابن أبي جابر سألت أبي عن هذا الحديث فقال: حدثنا محمد بن كثير عن معتمر عن عبد الكريم حدثني أبو الزبير عن مولى لبني هاشم فقال: جاء رجل فذكره ورواه الثوري فسمى الرجل هشاماً مولى لبني هاشم، ورواه أبو داود والنسائي من طريق عبد الله بن عبيد الله بن عمير عن ابن عباس وقال النسائي رفعه أحد الرواة إلى ابن عباس وأحدهم لم يرفعه قال: وهذا الحديث أي الموصول ليس بثابت والمرسل أولى بالصواب، ورواه الشافعي مرسلاً ورواه النسائي وأبو داود من رواية عكرمة عن ابن عباس نحوه قال الحافظ إسناده أصح وأطلق النووي عليه الصحة وأورد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات مع أنه أورده بإسناد صحيح وذكر عن أحمد بن حنبل أنه لا يثبت في الباب شيء وليس له أصل.

فائدة: قال الحافظ اختلف العلماء في معنى قوله لا تدفع يد لامس؟ فقيل: معناه لا تمنع ممن يطلب منها الفاحشة وبهذا قال أبو عبيدة والنسائي وابن الأعرابي والخطابي والفريابي والنووي وهو مقتضى استدلال البغوي والرافعي وغيرهما في هذه المسألة، وقيل: معناه التبذير يعني لا تمنع أحداً طلب منها شيئاً من مال زوجها وبهذا قال أحمد والأصمعي ومحمد بن نصر وعلى هذا التأويل لا استدلال بالحديث في هذه المسألة، قال البغوي وروي أن عمر بن الخطاب ضرب رجلاً وامرأة في زنى وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام، وأخرج الطبراني والدارقطني من حديث عائشة قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها فقال: «الحرام لا يحرم الحلال» وفي مصنفي عبد الرزاق وابن أبي شيبة سئل ابن عباس عن الرجل يصيب من المرأة حراماً ثم يبدو له أن يتزوج بها؟ قال: أوله سفاح وآخره نكاح».

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥٠)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: تزويج الزانية (٣٢٢٠).

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي يقذفون بصريح الزنى بنحو زنيت أو يا زاني أجمع على هذا التقييد علماء التفسير والفقه بقرينة اشتراط الأربعة في الشهادة فمن قذف بغير الزنى من المعاصي لا يجب عليه حد القذف إجماعاً ولكن يعزره الحاكم على ما يرى وكذا الورمي بالزنى تعريضاً كما إذا قال لستُ أنا بزانٍ فإنه لا يحد وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان وابن سيرين والحسن بن صالح، وقال مالك وهو رواية عن أحمد أنه يحد بالتعريض لما روى الزهري عن سالم عن ابن عمر أن عمر كان يضرب الحد بالتعريض، وعن علي أنه جلد رجلاً بالتعريض ولأنه إذا عرف مراده كان كالتصريح، قلنا التعريض ليس كالتصريح ولذا جا زخطبة النساء في العدة تعريضاً ولا يجوز تصريحاً قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾[1] ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ أو المحصنين بدلالة هذا النص للقطع بالفاء الفارق وهو صفة الأنوثة واستقلال دفع عار ما نسب إليه بالتأثير بحيث لا يتوقف فهمه على أهلية الاجتهاد وعليه انعقد إجماع الأمة، وتخصيص المحصنات بالذكر لخصوص الواقعة أو لأن قذف النساء أغلب وأشنع، والمراد بالإحصان ها هنا بإجماع العلماء أن يكون حراً عاقلاً بالغاً مسلماً عفيفاً غير متهم بالزنى وهذا محمد قوله ﷺ: «من أشرك بالله فليس بمحصن» عند الجمهور كما ذكرنا فيما سبق، فمن زنى في عمره مرة ثم تاب وحسن حاله وامتد عمره فقذفه قاذف بالزنى لا يحد لكون القاذف صادقاً فيما رمى به لكنه يعزر لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وكذا لا يحد قاذف رقيق أو صبي أو مجنون وحكي عن داود أن قاذف الرقيق يحد ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ بعد إنكار المقذوف فلو أقر المقذوف على نفسه بالزنى أو أقام القاذف أربعة من الشهور على الزنى سقط الحد عن القاذف، ولو شهد أربعة على الزنى متفرقين غير مجتمعين لا يجب حد الزنى على المقذوف عند أبي حنيفة كما ذكرنا فيما سبق لكن يسقط حد القذف عن القاذف لوجود النصاب والاجتماع إنما شرط احتياطاً لدرء حد الزنى لا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

لإيجاب حد القذف وكذا لو أقر المقذوف مرةً لا يجب عليه الحد ولا على قاذفه. والمراد بالشهداء في هذه الآية الذين كانوا أهلاً للشهادة فلو شهد أربعة على رجل بالزنى وهم عميان أو محدودون في قذف أو أحدهم عبد أو محدود في قذف فإنهم يحدون ولا يحد المشهود عليه لأنهم ليسوا من أهل أداء الشهادة فوجودهم كعدمهم، والعبد ليس بأهل للتحمل والأداء لعدم الولاية فلم يثبت شبهة الزنى لأن الزنى يثبت بالأداء، ولو شهدوا وهم فساق لم يحدوا ولا يحد المقذوف لأنهم من أهل الأداء والتحمل لكن في أدائهم نوع صور لأجل الفسق فيثبت بشهادتهم، شبهة الزنى فلا يحدُّ واحد القذف ولا المقذوف حد الزنى عند الشافعي يحدّ الفسقة حد القذف لأنهم كالعبيد ليسوا من أهل الشهادة ومن هذه الآية يثبت أنه لو نقص عدد الشهود عن الأربعة حدوا لأنهم. قذفوه لأنه لا حسبة عند نقصان العدد وخروج الشهادة عن القذف إنما هو باعتبار الحسبة، روى الحاكم في المستدرك والبيهقي وأبو نعيم في المعرفة وأبو موسى في الدلائل من طرق أنه شهد عند عمر على المغيرة بن شعبة بالزنى أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد (ولم يصرح به زياد وكان رابعهم) فجلد عمر الثلاثة وكان بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه أحمد، وعلق البخاري طرفاً منه ورواه عبد الرزاق عن الثوري عن سليمان التيمي عن أبي النهدي نحوه وفيه لما نكل زياد قال عمر هذا رجل لا يشهد إلا بحق ثم جلدهم الحد ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ بعد مطالبة المقذوف إجماعاً لأن فيه حق العبد وإن كان مغلوباً ﴿ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ إن كان القذفة أحراراً وأما إن كانوا أرقاء جلد كل واحد منهم أربعين سوطاً بإجماع الفقهاء، وسند الإجماع القياس على حد الزنى الثابت تنصيفه بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾(١) روى البيهقي بسنده عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أنه قال أدركتُ أبا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء فلم أرهم يضربون المملوك إذا قذف إلا أربعين سوطاً وروى مالك بهذا في الموطأ إلا أنه ليس فيه ذكر أبي بكر، وقال الأوزاعي حد العبد مثل حد الحر ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ عطف على الأمر بالجلد جزاء لما تضمن المبتدأ معنى الشرط فهو من تتمة الحد عندنا لأنهما أخرجا بلفظ الطلب مفوضين إلى الأئمة بخلاف قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فإنه كلام مستأنف جملة اسمية أخرجت بطريق الإخبار لا مناسبة لها بالطلب بل هي دفع توهم استبعاد صيرورة القذف سبباً لوجوب الحد الذي يندرىء بالشبهات فإن القذف خبر يحتمل الصدق والكذب

(١) سورة النساء، الآية: ٢٥.

وربما يحتمل أن يكون حسبة، وجه الدفع بيان فهم فاسقون عاصون بهتك ستر العفة من غير فائدة حين عجزوا عن إقامة أربعة شهداء فلهذا استحقوا العقوبة، وقال الشافعي رحمه الله جملة لا تقبلوا كلام مستأنف غير داخل في الحد لأنه لا يناسب الحد لأن الحد فعل يلزم الإمام إقامته لا حرمة فعل وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في مقام التعليل لرد الشهادة، قلنا بل هو مناسب للحد فإن الحد للزجر والزجر في رد الشهادة أبداً أكثر من الضرب ويدل على ذلك قوله؛ ﴿أَبَدًا﴾ فإن الفسق لا يصلح سبباً لرد الشهادة أبداً بل لرد الشهادة ما دام فاسقاً، لا يقال قول: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ المراد منه ما دام هو مصر على القذف فإذا تاب قبل شهادته كما يقال لا تقبل شهادة الكافر أبداً أو يراد به ما دام كافراً، لأنا نقول عدم قبول الشهادة للكافر ما دام كافراً يفهم من قوله لا تقبل شهادة الكافر ولا حاجة فيه إلى قوله أبداً لا ترى أن إضافة الحكم إلى المشتق يدل عل علية المأخذ وعلية الكفر لعدم قبول الشهادة يقتضي دوامه ما دام الكفر، فقوله أبداً في هذا المثال لغو لا يحتمل أن يكون كلام الله تعالى نظيراً له ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد القذف ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أحوالهم وأعمالهم بالتدارك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو حنيفة رحمه الله هذا الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة ومحله النصب لما تقرر في الأصول من مذهبه أن الاستثناء إذا تعقب جملاً معطوفة بعضها على بعض يرجع إلى الأخيرة ما لم يكن هناك قرينة صارفة عنها إلى الكل لكونها قيبة من الاستثناء متصلة به، ولأن الجملة الأخيرة ها هنا منقطعة عما سبقها من الجمل نظراً إلى حكمه لاختلاف نسقها وإن اتصلت بما سبق باعتبار ضمير أو اسم إشارة، ولأن الجملة الأخيرة بسبب انقطاعها عما سبق حائل بين المستثنى وبين ما سبق من الجملتين الأوليين فلا يتحقق الاتصال الذي هو شرط الاستثناء، ولأن الاستثناء يعود إلى ما قبله لضرورة عدم استقلاله وقد اندفعت الضرورة بالعود إلى جملة واحدة وقد عاد إلى الأخيرة بالاتفاق فلا ضرورة في العود إلى ما قبلها ولأنه لما ورد الاستثناء في الكلام لزم توقف صدر الكلام عليه ضرورة أنه لا بدل له من مغير والضرورة تندفع بتوقف جملة واحدة فلا يتجاوز إلى الأكثر، لا يقال أن الواو للعطف والتشريك فيفيد اشتراك الجمل في الاستثناء لأنا نقول العطف لا يفيد شركة الجملة التامة في الحكم مع أن وضع العاطف للتشريك في الإعراب والحكم فلان لا يفيد التشريك في الاستثناء وهو يغير الكلام وليس بحكم له أولى ولأن التوبة تصلح منهياً للفسق ولا تصلح منهياً للحدود فإن الحدود لا تندفع بالتوبة والله أعلم وقال الشعبي إن الاستثناء يرجع إلى الكل ومحله النصب فيسقط عنده حد القذف بالتوبة، وجمهور العلماء

على أنه لا يسقط بالتوبة، وقال مالك والشافعي الاستثناء راجع إلى الجملتين الآخرين دون الأولى ومحله الجر، ومبنى هذين القولين ما ذكر في الأصول من مذهب الشافعي وغيره أن الاستثناء عند عدم القرينة يرجع إلى الجمل المتعاطفة كلها، غير أن الشافعي يقول إن جملة لا تقبلوا منقطع عما سبق غير داخلة في الحد فلا يرجع الاستثناء إلى الجملة الأولى لأجل الانقطاع ويرجع إلى الآخرين، وقال البيضاوي ما حاصله أن الاستثناء راجع إلى الكل ولا يلزم منه سقوط الحد بالتوبة كما قيل لأن من تمام التوبة الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقذوف، قلتُ التوبة هو الندم والاستغفار فلو فرض سقوط الحد به لا يجب عليه الاستسلام فبناءً على هذا قال الشافعي أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف وإن لم يطالب المقذوف حده لأجل فسقه، وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت حاله قبلت شهادته سواء تاب بعد إقامة الحد عليه أو قبله وبعد التوبة يقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق، قال البغوي يروى ذلك عن عمرو ابن عباس وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري قال البغوي قال الشافعي وهو يعني القاذف قبل أن يحد شر منه حين يحد لأن الحدود كفارات فكيف ترد شهادت في أحسن حاليه وتقبل في شر حاليه، قلنا نحن أيضاً نقول أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف لأجل فسقه فإن لم يطالب المقذوف الحدَّ لا يحدّ ولا يقبل شهادته ما لم يتب، روى عن عمر عن النبي ﷺ: «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ قال: توبتهم إكذابهم أنفسهم فإن كذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم» ولهذا الحديث إن صح كان حجةً للشافعي، لكن قلتُ: أحاديث الآحاد لا تصلح معارضاً لنص الكتاب أي لا تقبلوا لهم شهادة أبداً فإن تاب قبلت شهادته لزوال فسقه وإن طالب المقذوف يحد فيجلد ثمانين سوطاً ولا يقبل شهادته أبداً سواء تاب أو لم يتب لأن رد الشهادة حينئذ لحق العبد وحق العبد لا يسقط بالتوبة فلا يلزمنا ما قال الشافعي أنه ترد شهادته في أحسن حاليه وتقبل في شر حاليه.

فائدة لا خلاف في أن حد القذف اجتمع فيه الحقان حق الله تعالى وحق العبد فإنه شرع لدفع العار عن المقذوف وهو الذي ينتفع به على الخصوص فمن هذا الوجه هو حق العبد ثم إنه شرع زاجراً ولذا سمي حداً، والمقصود من شرع الزواجر إخلاء العالم عن الفساد وهذا آية حق الله تعالى فمن أجل كونه حقاً للعبد يشترط فيه مطالبة المقذوف ولا يبطل الشهادة بالتقادم ويجب على المستأمن، ويقيمه القاضي بعلمه إذا علمه في أيام قضائه لا إذا علم قبل ولايته حتى يشهد به عنده، ويقدم استيفاؤه على حد الزنى والسرقة إذا

اجتمعا ولا يصح الرجوع عنه بعد الإقرار به، ومن أجل كونه حقاً لله تعالى لا يجوز للمقذوف استيفاؤها بنفسه بل الاستيفاء للإمام ويندرىء بالشبهات ولا ينقلب مالاً عند سقوطه ولا يستخلف عليه القاذف وينتصف بالرق كسائر العقوبات الواجبة حقاً لله تعالى، بخلاف حق العبد فإنه يتقدر بقدر التألف ولا يختلف باختلاف المتلف ولهذه الفروع كلها متفقة عليها. واختلفوا في تغليب أحد الحقين على الآخر فمال الشافعي إلى تغليب حق العبد باعتبار حاجته وغنى الله تعالى، ومال أبو حنيفة إلى تغليب حق الله تعالى لأن ما للعبد يتولاه مولاه فيصير حق العبد مرعياً به ولا كذلك عكسه إذ لا ولاية للعبد في استيفاء حقوق الله تعالى إلا بنيابته، ويتفرع على هذا الاختلاف فروع آخر مختلف فيها، منها الإرث فعند الشافعي حدُّ القذف يورث وعند أبي حنيفة لا يورث إذ الإرث لا يجري في حقوق الله ويجري في حقوق العباد بشرط كونه مالاً أو ما يتصل بالمال كالكفالة أو ما ينقلب إلى المال كالقصاص والحد ليس شيئاً منها فيبطل بموت المقذوف. إذ لم يثبت بدليل شرعي استخلاف الشرع وارثاً جعل له حق المطالبة التي جعل شرطاً لظهور حقه، فمن قذف أحداً فمات المقذوف قبل إقامة الحد أو بعد ما أقيم بعضه بطل الباق عندنا خلافاً للشافعي، ومنها العفو فلو عفا المقذوف بعد ثبوت الحد لا يسقط عندنا وعند الشافعي وهو رواية عن أبي يوسف يسقط، لكن لو قال المقذوف لم يقذفني وكذب شهودي فحينئذ يسقط اتفاقاً لما ظهر أن القذف لم يوجد فلم يجب الحد لا أنه وجب فسقط بخلاف القصاص فإنه يسقط بالعفو بعد وجوبه لأن الغالب فيه حق العبد، ومنها أنه لا يجوز الاعتياض عن حد القذف عند أبي حنيفة وبه قال مالك وعند الشافعي وأحمد يجوز، ومنها أنه يجري فيه التداخل عند أبي حنيفة ت وبه قال مالك حتى لو قذف شخصاً واحداً مرات أو قذف جماعة كان فيه حداً واحداً إذ لم يتخلل الحد بين القذفين، ولو ادعى بعضهم فحد ففي أثناء الحد ادعى آخر كمل ذلك الحد وعند الشافعي لا يجري فيه التداخل، قلتُ لما ثبت أن حد القذف اجتمع فيه حق الله وحق العبد كما يشهد به المسائل المتفقة عليها وثبت أيضاً أن الحدود تندرىء بالشبهات، فالأولى أن يقال إنه إذا اقتضى أحد الحقين وجوب الحد والآخر سقوطه فلا بد أن يفتى بالسقوط فإنه إن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة، فلا يقال بجريان الإرث فيه كما قال أبو حنيفة ويقال بسقوطه بعفو المقذوف لسقوط المطالبة التي هي شرط لاستيفائه كما قال الشافعي ويجري فيه التداخل كما قال أبو حنيفة، ولو صالحا على الاعتياض يعني بسقوط الحد فحصول الرضاء من المقذوف ولا يجب المال على القاذف لاحتمال كونه حقاً لله تعالى والله أعلم.

روى البخاري في الصحيح عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته.. عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي ﷺ: «البينة أوحد في ظهرك فقال يا رسول الله إذا وجد أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فقال النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك» فقال هلال والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرء ظهريَ من الحد فنزل جبرائيل وأنزل الله عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فجاء هلال فشهد يعني لا عن والنبي ﷺ يقول إن الله يعلم أن أحد كما كاذب فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت يعني لاعنت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، وقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء» فجاءت به كذلك فقال النبي ﷺ؛ «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[(١)] وفي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي قال إن عويمر العجلاني «قال يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً يقتله فيقتلونه أم كيف يفعل قال رسول الله ﷺ: «قد أنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأت بها» قال سهل فتلاعنا في المسجد وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ إن أمسكتها فطلقها ثلاثاً، ثم قال رسول الله ﷺ: «انظروا فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الإليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمراً إلا قد صدق عليها وإن جاءت به أحمر كأنه وحرة فلا أحسب عويمراً إلا قد كذب عليها» فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ من تصديق عويمر فكان بعد ينسب إلى أمه»[(٢)].

وأخرج أحمد عن عكرمة عن ابن عباس أنه لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار هكذا أنزلت يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ قالوا يا رسو الله لا تلمه فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ولا طلق امرأةً له فاجترأ رجل منَّا أن يتزوجها من شدة غيرته، قال سعد يا رسول الله بأبي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ويدرأ عنها العذاب أن نشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ (٤٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: اللعان (٥٣٠٨) وأخرجه مسلم في أول كتاب اللعان (١٤٩٢).

أنت وأمي والله إني لأعرف أنها حق وإنها من الله ولكني تعجبتُ أني لو وجدتُ لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، قال فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية (وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم) فجاء من أرضه عشاءً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني جئت أهلي عشاءً فوجدتُ عندها رجلاً فرأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، واجتمعت الأنصار فقالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منهما مخرجاً فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه أنزل الله عليه الوحي فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية، وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس وذكر البغوي هذا الحديث وقال في آخره: «أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فرجاً» قال قد كنتُ أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها» فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ قيل لها فكذبت فقال رسول الله ﷺ إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟ فقال هلال يا رسول الله بأبي أنت وأمي قد صدقت وما قلت إلا حقاً فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما فقيل لهلال أشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس وإن لهذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال والله لا يعذبني الله عليها لا يجلدني عليها رسول الله ﷺ فشهد الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم قال للمرأة إشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها اتقي الله فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمي ولدها، ثم قال رسول الله ﷺ: إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل منه فجاءت به غلاماً كأنه جمل أورق على الشبه المكروه، وكان بعد أميراً بمصر لا يدري من أبوه.

قال البغوي: إنه قال ابن عباس في سائر الروايات ومقاتل أنه لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية قرأها النبي ﷺ على المنبر فقام، عاصم بن عدي الأنصاري فقال جعلني الله فداك إن رأى رجل منا مع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جلد ثمانين سوطاً وسماه

المسلمون فاسقاً ولا يقبل شهادته أبداً فكيف لنا بالشهداء ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل فرغ من حاجته ومرَّ، وكان لعاصم هذا ابن عمر يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس بن محصن فأتى عويمرُ عاصماً وقال لقد رأيتُ شريك بن السمحا على بطن امرأتي خولة، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله ﷺ في الجمعة الأخرى، فقال يا رسول الله ما ابتليتُ بالسؤال الذي سألت في الجمعة الماضية في أهل بيتي وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عم لعاصم فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعاً، وقال لعويمر اتق الله في زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان فقال يا رسول الله ﷺ أنني رأيتُ شريكاً على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنها حبلى من غيري، فقال رسول الله ﷺ للمرأة اتقي الله ولا تخبريني إلا بما صنعتِ، فقالت يا رسول الله إن عويمراً رجل غيور وإنه رآني وشريكاً نستطيل السهر ونتحدث فحملته الغيرة على ما قال فقال رسول الله ﷺ لشريك ما تقول فقال ما تقوله المرأة، فأنزل الله عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية فأمر رسول الله ﷺ حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم فقام فقال أشهد بالله أن خولة زانية وإني لمن الصادقين ثم قال في الثانية أشهد بالله أني رأيت شريكاً على بطنها وإني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة أشهد أنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة أشهد بالله ما قربتُها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعني نفسه، إن كان من الكاذبين فيما قال، ثم أمره بالقعود وقال لخولة قومي فقامت أشهد بالله ما أنا بزانية وأن عويمراً لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية أشهد بالله ما رأى شريكاً على بطني وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الثالثة أشهد بالله أنا حبلى منه وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة إنه ما رآني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة (تعني نفسها) إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال لولا هذه الأيمان لكان في أمرها رأى ثم قال تحينوا بها الولادة فإن جاءت بأصيهب أبيلج يضرب إلى السواد فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت بأورق جعداً جمالياً فهو لغير الذي رميت به، قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق لشريك.

قال الحافظ ابن حجر اختلف الأئمة في هذا الموضع فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر ومنهم من رجح أنها في شأن هلال، واحتج القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين ومنهم من جمع بينهما بأن أول من وقع ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً وإلى هذا جنح النووي وسبقه الخطيب، وقال الحافظ ابن حجر يحتمل أن النزول سبق بسبب هلال فلما جاء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال علمه

النبي ﷺ بالحكم ولهذا قال في قصة هلال فنزل جبرائيل، وفي قصة عويمر قد أنزل الله فيك أي فيمن وقع له مثل ما وقع لك وبهذا أجاب ابن الصباغ في الشامل.

مسألة: وبناءً على عموم قوله تعالى: ﴿الذين يرمون أزواجهم﴾ قال مالك والشافعي وأحمد كل زوج صح طلاقه صح لعانه سواء كانا حرين أو عبدين عدلين أو فاسقين أو أحدهما حراً عدلاً والآخر عبداً أو فاسقاً، وكذا سواء كانا مسلمين أو كافرين أو أحدهما خلافاً لما لك فإن عنده أنكحة الكفار فاسدة لا يصح طلاقه فلا يصح لعانه، وقال أبو حنيفة لا يجوز اللعان ما لم يكن الزوج أهلاً للشهادة، يعني حراً عاقلاً بالغاً مسلماً وتكون الزوجة ممن يحد قاذفها يعني حرةً عاقلةً بالغةً مسلمةً غير متهمة بالزنى، فلا يجري اللعان عنده إذا كان الزوج عبداً أو كافراً أو محدوداً في قذف بل يحد حد القذف إن كانت المرأة ممن يحد قاذفها وإلا يعزَّر إن رأى الإمام، لكن إن كان الزوج أعمى أو فاسقاً يجوز لعانه لأن الفاسق يجوز للقاضي قبول شهادته وإن لم يجب قبوله، والأعمى إنما لا تقبل شهادته لعدم تميزه بين المشهود له والمشهود عليه وها هنا هو يميز بين نفسه وبين امرأته فكان أهلاً لهذه الشهادة دون غيرها، وروى ابن المبارك عن أبي حنيفة أن الأعمى لا يلاعن، وكذا لا يجري اللعان عند أبي حنيفة إذا كان الزوجة أمة أو كافرةً أو صبيةً أو مجنونةً أو تزوجة بنكاح فاسد ودخل بها فيه أو كان لها ولد ليس له أبٌ معروفٌ أو زنت في عمرها ولو مرة ثم تابت أو وطئت وطأً حراماً بشبهةٍ ولو مرةً فحينئذ لا حد ولا لعان بل تعزران رأى الإمام، ووجه قول أبي حنيفة في اشتراط كون المرأة ممن يحد قاذفها أن اللعان إنما شرع لدفع حد القذف من الزوج كما يدل عليه الأحاديث في سبب نزول الآية حيث قال رسول الله ﷺ: «أبشر يا هلال فإن الله قد جعل لك فرجاً» فهو بدل عن حد القذف في حق الزوج، ولذلك قال له رسول الله ﷺ؛ «اتق الله فإن عذاب الدنيا يعني الحد أهون من عذاب الآخرة»[1] فإذا لم يتصور المبدل منه لا يتصور البدل.

وفي اشتراط كون الرجل من أهل الشهادة قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ حيث جعل الأزواج أنفسهم شهداء لأن الاستثناء من النفي إثبات ولو جعل الشهداء مجازاً

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: اللعان (١٤٩٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: عظة الإمام الرجل والمرأة عند اللعان (٣٤٦٤) وأخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق باب: ما جاء في اللعان (١١٩٩).

من الحالفين كما قالوا كان المعنى ولم يكن لهم حالفون إلا أنفسهم وهو غير مستقيم لأنه يفيد أنه إذا لم يكن للذين يرمون أزواجهم من يحلف لهم يحلفون هم لأنفسهم وهذا فرع تصور الحلف لغيره وهو لا وجود له أصلاً فلو كان اليمين معنى حقيقياً للفظ الشهادة كان هذا صارفاً عنه إلى مجازه فكيف وهو معنى مجازي لها، ولو لم يكن هذا كان إمكان العمل بالحقيقة موجباً لعدم الحمل على اليمين فكيف وهذا صارف عن المجاز. ويدل على اشتراط أهلية الشهادة في الرجل وكون المرأة ممن يحد قاذفها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رواه ابن ماجه والدارقطني بوجوه الأول ما رواه الدارقطني بسنده عن عثمان بن عبد الرحمن الزهري عنه قال: قال رسول الله ﷺ؛ «أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين العبد والحرة لعان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان» قال يحيى والبخاري وأبو حاتم الرازي وأبو داود عثمان بن عبد الرحمن الزهري ليس بشيء وقال يحيى مرة كان يكذب وقال ابن حبان كان يروي عن الثقات الموضوعات لا يجوز الاحتجاج به وقال النسائي والدارقطني متروك الحديث. والثاني ما رواه الدارقطني وابن ماجه بسندهما عن عثمان بن عطاء الخراساني عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من النساء لا ملاعنة بينهن النصرانية تحت المسلم واليهودية تحت المسلم والمملوكة تحت الحر والحرة تحت المملوك»[1] وعثمان بن عطاء ضعفه يحيى والدارقطني وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان لا يجوز الاحتجاج به وقال علي بن الجنيد متروك قال الدارقطني وقد تابعه يزيد بن زريع عن عطاء وهو ضعيف أيضاً، وقد روى الدارقطني من طريق آخر عن عماد بن مطر قال: حدثنا حماد بن عمر عن زيد بن رفيع عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ بعث عتاب بن أسيد ثم ذكر نحوه قال أبو حاتم الرازي عماد بن مطر كان يكذب وقال ابن عدي أحاديثه بواطيل وهو متروك الحديث وقال أحمد حماد بن عمرو كان يكذب ويضع الحديث وقال الساجي أجمعوا على أنه متروك الحديث وقد ضعف النسائي والدارقطني زيد بن رفيع، قال ابن الجوزي وقد روى هذا الحديث الأوزاعي وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله ولم يرفعه إلى النبي ﷺ قال ابن همام وأنت علمت أن الضعيف إذا تعدد طرقه كان حجةً وهذا كذلك وقد اعتضد برواية الإمامين إياه موقوفاً على جد عمرو بن شعيب.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب: اللعان (٢٠٧١).

وقال الشافعي قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يدل على أنها أيمان وليس بشهادات لأن كلمة بالله محكم في اليمين وكلمة الشهادة يحتمل اليمين ألا ترى أنه لو قال: أشهد ينوي اليمين كان يميناً فحملنا المحتمل على المحكم وحمل الشهادة على الحقيقة متعذر لأن المعلوم في الشرع عدم قبول شهادة الإنسان لنفسه بخلاف يمينه وكذا المعهود شرعاً عدم تكرر الشهادة في موضع بخلاف اليمين فإنه معهود في القسامة، ولأن الشهادة محلها الإثبات واليمين للنفي فلا يتصور تعلق حقيقتها بأمر واحد فوجب العمل بحقيقة أحدهما ومجاز الآخر فليكن المجاز لفظ الشهادة لما قلنا من الوجهين المذكورين، وإذا كان الشهادة بمعنى اليمين لم يكن أهلية الشهادة شرطاً للعان، قلنا كما أن الشهادة لنفسه وتكرار أداء الشهادة غير معهود في الشرع كذلك الحلف لغيره والحلف لإيجاب الحكم أيضاً غير معهود في الشرع بل اليمين لدفع الحكم فكما أن جاز لمن له ولاية الإيجاد والإعدام والحكم كيف ما أراده شرعية هذين الأمرين في محل بعينه ابتداءً جاز له شرعية ذلك ابتداءً والشهادة لنفسه قد ورد في محكم التنزيل حيث قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ حين سمع المؤذن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وأنا أشهد وأنا أشهد فشهادته بالرسالة شهادة لنفسه، وتكرار الشهادة في هذا المحل إنما شرع بدلاً عما عجز عنه من إقامة شهود الزنى وهم أربعة وعدم قبول الشهادة لنفسه عند التهمة، ولهذا يثبت عند عدمها أعظم ثبوت كما ذكرنا من شهادة الله وشهادة رسوله فلا يبعد أن يشرع الشهادة لنفسه في موضع بواسطة تأكيدها باليمين وإلزام اللعنة والغضب إن كان كاذباً والله أعلم.

جملة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ إما عطف على الصلة أو حال من فاعل يرمون ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بدل من الشهداء أو صفة إن كان إلا بمعنى غير والموصول مع الصلة مبتدأ خبره ما بعده، قرأ حفص وحمزة والكسائي أربع شهادات بالرفع على أنه خبر شهادة أحدهم وقرأ الباقون على المصدر لبيان عدد المصدر، والتقدير فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم أربع شهادات، وقيل شهادة أحدهم مبتدأ خبره محذوف تقديره فشهادة أحدهم أربع شهادات تدفع عنه حد القذف وبالله متعلق بشهادات لكونها أقرب وقيل بشهادة لتقدمها، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أصله على أنه من الصادقين فيما رماها من الزنى أو نفي الولد أو منهما فحذفت الجار وكسرت إن وعلق اللام عنه باللام تأكيداً،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

وقيل: هو جواب قسم محذوف والجميلة القسيمة بيان للشهادة ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ اتفق القراء على رفعه فهو على قراءة حفص وحمزة والكسائي عطف على أربع شهادات، وعلى قراءة الباقين عطف على قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ يعني فالواجب شهادة أحدهم أربع شهادات والواجب الشهادة الخامسة وجاز أن يكون الخامسة مبتدأ وما بعده خبره والجملة والاسمية حال ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قرأ نافع ويعقوب أن مخففة من الثقيلة واسمه ضمير الشأن ورفع اللعنة على الابتداء والباقون أن مشددة ونصب اللعنة على أنها اسم إن وأن مع ما في حيزه بتقديره حرف الجر متعلق بالشهادة يعني والشهادة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى.

مسألة: إذا قذف الرجل امرأته بالزنى أو بنفي الولد وهما من أهل اللعان على ما ذكرنا من الخلاف وطالبته بموجب القذف وجب عليه اللعان فإن امتنع منه حبسه الحاكم عند أبي حنيفة رحمه الله حتى يلاعن أو يكذب نفسه فيحد حد القذف، وعند مالك والشافعي وأحمد إذا امتنع من اللعان يحدّ حد القذف ولا يحبس لأن موجب القذف الحد واللعان حجة صدقة والقاذف إذا قعد عن إقامة الحجة حد ولا يحبس، إلا أن الشافعي يقول إذا نكل فسق وقال مالك لا يفسق. وجه قول أبي حنيفة أن النكول دليل على الإقرار لكن فيه شبهة والحد لا يثبت مع الشبهة فيحبس حتى يلاعن أو يكذب نفسه لأنه حق مستحق عليه وهو قادر على إيفائه فيجلس به حتى يأتي بما هو عليه، وإذا لاعن الزوج وجب على المرأة اللعان عند أبي حنيفة فإن امتنعت حبسها الحاكم حتى تلاعن أو تصدقه لأن حق مستحق عليها وقي قادرة على إيفائه فتحبس فيه وعند الشافعي إذا لاعن الزوج وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحرمت عليه على التأييد وانتفى عنه النسب لقوله ﷺ: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً»[1] قلنا: إنما يصدق التلاعن إلا بعد لعان المرأة أيضاً، فلا يقع الفرقة ولا يجوز التفريق إلا بعد تلاعنهما، ويجب على المرأة بلعان الرجل حد الزنى عند مالك والشافعي وأحمد ويسقط عنها حد الزنى عندهم إذا لاعنت لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ يعني حد الزنى كما في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[2] ولقوله ﷺ لامرأة هلال بن أمية «اتقي الله فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس» ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ﴾ منصوب بالإجماع على المصدرية. . . . ﴿شَهَٰدَٰتٍۭ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: باب: في اللعان (٢٢٤٨).

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ أي الزوج ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى أو من نفي الولد أو منهما ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الابتداء وما بعده خبره أو على العطف على أن تشهد وقرأ حفص بالنصب عطفاً على ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ ﴿أَنَّ﴾ قرأ نافع ويعقوب مخففة على أنها مصدرية والباقون مشددة ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ قرأ نافع ويعقوب بكسر الضاد على أنه فعل ماضٍ من باب علم يعلم والله مرفوع على أنه فاعل للفعل والباقون بفتح الضاد بالنصب على أنه اسم إن والله بالجر على أنه مضاف إليه ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنى أو نفي الولد أو منهما، قال الشافعي لا يتعلق بلعانها إلا حكم واحد وهو سقوط حد الزنى، ولو أقام الزوج بينة على زناها لا يسقط عنها الحد باللعان فإن امتنعت من اللعان حدت عندهم، خلافاً لأبي حنيفة ح فإنه يقول: بل تحبس دائماً ما لم تلاعن أو تصدقه فإن صدقته ارتفع سبب وجوب لعانها فلا لعان ولا حد لأن التصديق ليس بإقرار قصداً بالذات فلا يعتبر في وجوب الحد بل في درئه فيندفع به اللعان ولا يجب به الحد ولو كان إقراراً. . . فالإقرار مرةً لا يوجب حد الزنى عند أبي حنيفة ح كما مرَّ فيما سبق ولم يتعين أن المراد بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ الحد لجواز أن يكون المراد به الحبس والحدود تندرىء بالشبهات.

مسألة: ولو صدقت المرأة الزوج في نفي الولد فلا حد ولا لعان عند أبي حنيفة رحمه الله وهو ولدهما لأن النسب إنما ينقطع حكماً للعان ولم يوجد وهو حق الولد فلا يصدقان في إبطاله والله أعلم.

قلت: والعجب من الشافعي ومن معه أن اللعان عندهم يمين ولذا لا يشترطون في الرجل أهلية الشهادة ويجوزون اللعان من العبد والكافر والمحدود في القذف واليمين هو لا يصلح لإيجاب المال فكيف يوجب لعان الرجل عند امتناع المرأة عنه عليها الرجم وهو أغلظ الحدود، والعجب من أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: اللعان شهادات ولذا اشترط في الرجل أهلية الشهادة وقال تكرار الشهادة في هذا المحل إنما شرع بدلاً عما عجز عنه من إقامة شهود الزنى وهم أربعة وقد جعل الشارع شهادات الأربع مقام شهادة أربع من الرجال بواسطة تأكد بالمين وإلزام اللعنة، وإنه قال: إن اللعان قائم مقام حد القذف في حقه ومقام حد الزنى في حقها فلم لم يقل بإيجاب حد الزنى عليها بشهاداته الأربع وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ والدرء لفظ خاص صريح في معنى السقوط والسقوط يقتضي الوجوب عند عدم موجبه وقال رسول الله ﷺ: «عذاب الله أشد من عذاب

الناس»[1] يعني الحد، ولا معنى لكون اللعان في حقها قائماً مقام حد الزنى إلا أنه إذا لاعنت سقط عنها الحدّ وإن امتنعت من اللعان وجب عليها الحد، لا يقال أن شهاداته وحده وإن كانت قائمة مقام شهادة أربعة من الرجال لكن لا يحصل به القطع بتحقق الزنى، وفي قيام شهادته مقام شهاداتهم شبهة فيندرىء بها القذف ولا يثبت بها حد الزنى لأنها يندرىء بالشبهات لأنا نقول لا شبهة في قيام شهاداته مقام شهاداتهم لثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع والقطع بتحقق الزنى كما لا يحصل بشهاداته الأربع كذلك لا يحصل بشهادة أربعة من الرجال بجواز تواطئهم على الكذب والخبر لا يوجب القطع ما لم يبلغ درجة التواتر ويكون المخبر معصوماً، والحكم بعد شهادة رجلين أو أربعة أمر تعبدي ليس مبناه على القطع بل على غلبة الظن، وغلبة الظن ها هنا فوق غلبة الظن في شهادة أربعة من الرجال بواسطة تأكد شهاداته باليمين والتزام اللعنة مع كونه عدلاً جائز الشهادة وبامتناع المرأة من اللعان، ألا ترى أن توافق الأربعة على الكذب أقرب عند العقل من امتناع المرأة عن اللعان على تقدير كذب الزوج مع اعتقادها بسقوط الرجم عنها ودفع العذاب باللعان، والمراد بالشبهة التي تندرىء به الحد شبهة سوى هذه الشبهة التي لم يعتبرها الشرع من احتمال كذب الشهود الأربعة وكذب الزوج مع لعانه وامتناعها من اللعان، فالراجح عندي في اشتراط أهلية الشهادة في الزوج وكون المرأة ممن يحد قاذفها قول أبي حنيفة ح، وفي وجوب حد الزنى بعد امتناع المرأة من اللعان قول الشافعي ومن معه والله أعلم.

مسألة: قد مر فيما سبق أنه بلعان الرجل وحده يقع الفرقة بين الزوجين عند الشافعي وهذا أمر لا دليل عليه، وقال زفر وبه قال مالك وهو رواية عن أحمد أنه يقع الفرقة بتلاعنهما من غير قضاء القاضي وعند أبي حنيفة وصاحبيه وأحمد لا تقع بعد تلاعنهما حتى يفرق الحاكم بينهما ويجب على الحاكم تفريقهما، والفرقة تطليقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد وعند أبي يوسف وزفر ومالك والشافعي وأحمد فرقه فسخ وجه قولهم جميعاً أن بالتلاعن يثبت الحرمة المؤبدة كحرمة الرضاع، كما في الصحيحين عن ابن عمر أنه ﷺ قال للمتلاعنين «حسابكما على الله أحدكما كاذب لا سبيل لك عليها، قال: يا رسول الله مالي؟ قال: «لا مال لك إن كنت صدقتَ عليها فهو بما استحللتَ من فرجها وإن كنت كذبتَ عليها فذلك أبعد فأبعد لك منها»[2] وما رواه أبو داود في حديث سهل بن سعد

(١) الحديث هو «عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» أخرجه مسلم في أول كتاب اللعان (١٤٩٣).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: قوله الإمام للمتلاعنين «إن أحدكما كاذب فهل منكما من تائب» (٥٠٠٦)، وأخرجه مسلم في أول كتاب اللعان (١٤٩٣).

مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان أبداً، وكذا روى الدارقطني عن علي وابن مسعود، قال الحافظ ابن حجر وفي الباب عن علي وعمر وابن مسعود في مصنف عبد الرزاق وابن أبي شيبة وروى أبو داود في حديث ابن عباس في آخر قصة هلال بن أمية أنه ﷺ فرق بينهما وقضى بأن لا ترمي ولا ولدها، وفي الصحيحين عن ابن عمر «أن رجلاً لاعن امرأته على عهد رسول الله ﷺ ففرق ﷺ بينهما وألحق الولد بأمه»[(١)] وأصرح دليل على قول الجمهور أن الفرقة ليست فرقة طلاق ما أخرجه أبو داود في سننه عن ابن عباس في قصة هلال بن أمية أنه قال قضى رسول الله ﷺ: أن ليس لها عليه قوت ولا سكنى من أجل أنهما يفترقان بغير طلاق ولا متوفى عنها، قالوا: إذا ثبت بعد التلاعن الحرمة المؤبدة فلا حاجة إلى تفريق القاضي وأيضاً الحرمة المؤبدة تنافي النكاح كحرمة الرضاع فتنفسخ، وقال أبو حنيفة إن ثبوت الحرمة لا يقتضي فسخ النكاح ألا ترى أنه بالظهار يثبت الحرمة ولا ينفسخ النكاح غير أنه إذا ثبت الحرمة عجز الزوج عن الإمساك بالمعروف فيلزمه التسريح بالإحسان فإذا امتنع منه ناب القاضي منا به دفعاً للظلم دل عليه ما رواه الشيخان في حديث سهل بن سعد أنه قال عويمر بعد ما تلاعنا كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها فطلقها ثلاثاً ولم ينكر عليه النبي ﷺ في التطليق، وروى الدارقطني بسنده من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبداً». وقد طعن الشيخ أبو بكر الرازي في ثبوته عن رسول الله ﷺ لكن قال صاحب التنقيح إسناده جيد ومفهوم شرطه يستلزم أنهما لا يفترقان بمجرد اللعان وهو حجة على الشافعي على مقتضى رأيه وما قال ابن عباس قضى رسول الله ﷺ أن ليس لها قوت ولا سكنى من أجل أنهما يفترقان بغير طلاق فهذا زعم من ابن عباس وإنما المرفوع القضاء بعدم النفقة والسكنى.

قلتُ: الحرمة بعد التلاعن ثبتت بالإجماع أما عند الشافعي وزفر ومن معهما فظاهر وأما عند أبي حنيفة فلأنه لولا الحرمة فلا وجه لتفريق النبي ﷺ ولا موجب لقول أبي حنيفة ثم يفرق القاضي وهذه الحرمة ليست كحرمة الظهار، لكونها منتهية بالكفارة بل هي حرمة مؤبدة كحرمة الرضاع ولا شك أن الحرمة المؤبدة تنافي النكاح بخلاف المؤقتة فينفسخ ولا يحتاج إلى قضاء القاضي بل عليه ما قال ابن همام أنه يلزم على قول أبي يوسف أنه لا يتوقف على تفريق القاضي لأن الحرمة ثابتة قبله اتفاقاً، وقوله امتنع عن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: اللعان (١٤٩٤).

الإمساك بالمعروف فينوب القاضي منابه في التسريح يقتضي أن يأمر القاضي الزوج بعدا للعان أن يطلقها فإن امتنع من التطليق بفرق القاضي بينهما ولم يقل به أحدولم يرو عن النبي ﷺ أمره بالتطليق وقول ابن عباس في حكم الرفع لكونه عالماً بكيفية قضاء رسول الله ﷺ وأما قول عويمر فمحمول على عدم علمه بوقوع الفرقة باللعان ومفهوم الشرط وإن كان حجة عند الشافعي لكن يترك العمل به للقطع على ثبوت الحرمة المؤبدة، أو يقال معنى قوله «المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبداً» إذا افترقا من التلاعن أي فرغا كما قال أبو حنيفة في تأويل قوله ﷺ «المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا» حيث قال المراد بالتفرق تفرق الأقوال.

مسألة: إذا أكذب الزوج نفسه بعد التلاعن هل يجوز له أن يتزوجها؟ قال الشافعي ومالك وأحمد إذا أكذب نفسه يقبل ذلك فيما عليه لا فيما له فيلزمه حد القذف ويلحقه الولد ولا يرتفع التحريم المؤبد فلا يجوز له التزوج، وقال أبو حنيفة وهو رواية عن أحمد أنه جلد وجاز له أن يتزوجها لأنه لمَّا حد لم يبق أهلاً للعان فارتفع حكمه المنوط به وكلك أن قذف غيرها فحدَّ به وكذا إذا زنت فحدت لانتفاء أهلية اللعان من جهتها، قلنا: زوال أهلية اللعان لا يقتضي نفي اللعان من أصله ألا ترى أنه من قذف غيره فحدَّ حدَّ القذف ثم زنى المقذوف وحد حدَّ الزنى لا يقبل شهادة القاذف بعد ذلك مع زوال أهلية المقذوف لأن يحد قاذفه، قالت الحنفية معنى قوله ﷺ «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً» لا يجتمعان ما داما متلاعنين كما هو مفهوم العرفية، قلنا: معنى العرفية لا يتصور إلا إذا كان العنوان وصفاً قارّاً والتلاعن وصف غير قار فلا يمكن الحكم بشرط الوصف بل المراد الذان صدر منهما اللعان في وقت من الأوقات لا يجتمعان بعد ذلك أبداً، والقول بأن معنى الحديث لا يجتمعان ما داما هما على تكاذبهما مصاورة على المطلوب والله أعلم.

مسألة: ولو كان القذف بنفي الولد نفى القاضي نسبه عنه وألحق بأمه ويتضمنه القضاء بالتفريق عند من يشترط له القضاء ويقول في اللعان أشهد بالله أني لمن الصادقين فيما رميتك به من نفي الولد وكذا في جانب المرأة، ولو قذفها بالزنى ونفي الولد ذكر في اللعان أمرين ثم ينفي القاضي نسب الولد ويلحقه بأمه لحديث ابن عمر أن النبي ﷺ لاعن بين الرجل وامرأته فانتفى من ولدها ففرق بينهما وألحق الولد بالمرأة[1] متفق عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: يلحق الولد بالملاعنة (٥٣١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللعان (١٤٩٤).

مسألة: وإذا قال الزوج ليس حملكِ مني فلا لعان عند أبي حنيفة وزفر وأحمد لعدم تيقن الحمل عند نفيه فلم يصر قاذفاً وقال مالك والشافعي يلاعن لنفي الحمل وقال أبو يوسف ومحمد إذا جاءت بالولد لأقل من ستة أشهر وجب اللعان، ومقتضى هذا القول أنه يؤخر الأمر إلى أن تلد فإن ولدت لأقل من ستة أشهر وجب اللعان وإلا فلا وقد ورد في بعض طرق قصة هلال ما يدل على أن اللعان كأن بعد الولادة روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عباس في قصة هلال فقال ﷺ اللهم بين ووضعت شبيهاً بالذي ذكر زوجها أنه وجد عند أهله فلا عن رسول الله ﷺ، وجه قول مالك والشافعي أن النبي ﷺ فرق بين هلال وزوجته وقضى أن لا يدعي ولدها لأب ولا ترمى ولا يرمى ولدها ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، قال عكرمة وكان ولدها بعد ذلك أميراً على مصر وما يدعى لأب، وهذا لفظ أبي داود وفي أكثر الطرق أن امرأة هلال كانت حاملاً حين لاعنت، وروى النسائي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لاعن بين العجلاني وامرأته وكانت حبلى، وأخرج عبد الرزاق هكذا أيضاً وقال زوجها ما قربتُها منذ عفار النخل وعفار النخل أنها لا تسقى بعد الآبار شهرين فقال ﷺ «اللهم بين» فجاءت بولد على الوجه المكروه وبهذا يظهر جواز اللعان بنفي الحمل، وأجيب بأن اللعان إنما ثبت لأن هلالاً رماها بالزنى لا بنفي الحمل وما رود في رواية وكيع عند أحمد أنه لاعن هلال بالحمل فقد أنكره أحمد وقال: إنما وكيع أخطأ فقال لاعن بالحمل وإنما لاعن رسول الله ﷺ لما جاء فشهد بالزنى ولم يلاعن بالحمل، قلتُ: والظاهر أنه رماها بكلا الأمرين كما يدل عليه ما ذكر البغوي عن ابن عباس وقتادة، ولو كان رماها بالزنى فحسب لم ينف رسول الله ﷺ عنه الولد مع احتمال كون العلوق بوطيء آخر من هلال غير وطيء الزاني فبحديث هلال لا يثبت جواز اللعان بنفي الحمل فقط، وكذا قول ابن عباس لا عن بين العجلاني وامرأته وكانت حبلى لا يدل على أن الرمي كان بنفي الحمل فقط، بل ما روى ابن سعد في الطبقات في ترجمة عويمر عن عبد الله بن جعفر قال شهدت عويمر بن الحارث العجلاني وقد رمى امرأته بشريك بن سحماء وأنكر حملها فلاعن بينهما رسول الله ﷺ وهي حامل فرأيتُهما يتلاعنان قائمين عند المنبر ثم ولدت فألحق الولد بالمرأة وجاءت به أشبه الناس بشريك بن سمحا، وكان عويمر قد لامه قومه وقالوا امرأةً لا نعلم عليها إلا خيراً فلما جاءت بشبه بشريك عذر الناس، وعاش المولود سنتين ثم مات وعاشت أمه بعده يسيراً وصار شريك بعد ذلك عند الناس بحال سوء يدل على أنه رمى امرأته بالزنى وأنكر حملها مع ذلك، ووجه قول أبي يوسف ومحمد أنه إذا نفى

الحمل وجاءت بالولد لأقل من ستة أشهر ظهر وجود الحمل عند الرمي فتحقق القذف عنده فيلاعن عليه، قال أبو حنيفة إذا لم يكن قذفاً في الحال صار كالمعلق بالشرط كأنه قال إن كنت حاملاً فليس حملك مني والقذف لا يصح تعليقه بالشرط.

مسألة: ولو قال زنيتِ وحملكِ من الزنى تلاعنا إجماعاً لوجود القذف حيث ذكر الزنى صريحاً ولا ينفي القاضي الحمل عند أبي حنيفة رحمه الله، وقال الشافعي ينفيه لأن النبي ﷺ نفي الولد عن هلال وقد قذفها حاملاً، قال أبو حنيفة الأحكام لا يترتب عليه إلا بعد الولادة فتمكن الاحتمال قبله والحديث محمول على أن النبي ﷺ عرف وجود الحمل بطريق الوحي، قلتُ: وهذا القول بعيد جداً لأن النبي ﷺ إنما كان يحكم على ظاهر الأمر حتى يقتدي به ولم يكن يحكم بالحكم الحاصل بالوحي وإلا لم يقل أحدكما كاذب ويحكم بكذب واحد معين بالوحي.

مسألة: إذا نفى الرجل ولد امرأته عقيب الولادة فعند الشافعي إن نفى حين سمع الولادة فوراً صح نفيه ولاعن به وإن سكت ثم نفى لاعن وثبت النسب، وقال أبو حنيفة صح نفيه حالة التهنئة ولم يعين لهامدة في ظاهر الرواية وذكر أبو الليث عن أبي حنيفة تقديرها بثلاثة أيام، وروى الحسن عنه سبعة أيام وقال أبو يوسف ومحمد صح نفيه في مدة النفاس، وكان القياس أن لا يجوز النفي إلافوراً لأن السكوت دليل الرضا إلا أنا استحسنا جواز تأخيره مدة يقع فيها التأمل لئلا يقع في نفي ولده عن نفسه أو استلحاق ولد غيره بنفسه وكلاهما حرام، عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول لما نزلت آية الملاعنة «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته، وأيّما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»[(١)] رواه أبو داود والنسائي والشافعي وابن حبان والحاكم وصححه الدارقطني، وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام»[(٢)].

مسألة: لو كان الزوج غائباً يعتبر المدة التي ذكرناها على الأصلين بعد قدومه فعندهما

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: التغليظ في الانتفاء (٢٢٦١)، وأخرجه النسائي في كتاب الطلاق، باب: التغليظ في الانتفاء من الولد (٣٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: من ادعى إلى غير أبيه (٦٧٦٦)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٦٣).

قدر مدة النفاس وعنده قدر مدة قبول التهنئة.

مسألة: جاز للزوج قذف زوجته علم زناها أو ظنه ظناً مؤكداً كشياع زناها بزيد مع قرينة بأن رآهما في خلوة لو أتت بولد علم أنه ليس منه بأنه لم يطأها، أو ولدت لدون ستة أشهر من وقت وطئها أو فوق سنتين، ولو ولدت لما بينهما ولم تستبرئ بحيضة حرم النفي، ولو ولدت لفوق ستة أشهر من الاستبراء حل النفي.

مسألة: ولو وطىء وعزل أو علم زناها واحتمل كون الولد منه ومن الزنى حرم النفي والله أعلم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يعود بالرحمة على من يرجع من المعاصي بالندم والاستغفار ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما فرض عليكم من الحدود وفي غيرها، جواب لولا محذوف لتعظيمه أي لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

أخرج الشيخان وغيرهما عن الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فَبَرَّأها الله مما قالوا وكلٌّ حدثني طائفةً من الحديث وبعض حديثهم يصدق بعضاً وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه

فأيَّتهن خرج سهمها خرج بها فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجتُ وذلك بعدما نزل الحجاب فكنتُ أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة قافلين أذن ليلةً بالرحيل فقمتُ فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلمَّا قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي فلمستُ صدري فإذا عقد من جزع أظفار قد انقطع فرجعتُ فالتمستُ عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي أركب عليه وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رحلوه ودفعوه وكنتُ جاريةً حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب فتيممتُ منزلي الذي كنت فيه فظننتُ أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني فخمرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمةً ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه وقد أناخ راحلته فوطىء على يدها فقمتُ إليها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موعرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأن وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول فقدمتُ المدينة فاشتكيتُ حين قدمنا شهراً، والناس يفيضون في قول هل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أن لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم ثم ينصرف فذلك يريبني ولا أشعر بالسر، حتى خرجتُ حين نقهت فخرجتُ مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً وذلك قبل أن يتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، قالت فانطلقتُ أنا وأم مسطح (وهي ابنة أبي دهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة) فأقبلتُ أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها قبل المناصع، فقالت تعس مسطح، فقلتُ: لها بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي بنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلتُ ماذا قال فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعتُ إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: كيف تيكم؟ قلتُ: أتأذن لي أن آتي أبويَّ، وأنا أريد أن

أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي فجئتُ أبوي وقلتُ لأمي يا أماه ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عندرجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قلتُ سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا فبكيت تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحتُ أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأمّا أسامة فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله وفي رواية بالذي يعلم بهم في نفسه من الود فقال أسامة يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما عليٌّ فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة وإن تسأل الجارية تصدقك، فدعا بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ قالت له بريرة والذي بعثك بالحق ما رأيتُ عليها أمراً قط أغمض عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه (أخو بني عبد الأشهل) يا رسول الله أنا أعذرك فإن كان من الأوس اضرب عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت وقام رجلٌ من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من أهلك ما أحسب أن تقتله، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فبكيتُ يومي ذلك لا يرقألي دمع ثم بكيتُ تلك الليلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنتُ لها فجلستُ تبكي معي، ثم دخل رسول الله ﷺ ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريَّةً فسيبرئك الله وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه» فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما

أحس منه قطرة، فقلتُ لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال فقال والله ما أدري ما أقول، فقلت لأمي أجيبي رسول الله ﷺ فقالت والله ما أدري ما أقول، فقلتُ (وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن) والله لقد عرفتُ لقد سمعتُم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ولئن قلتُ لكم إني بريَّة والله يعلم إني برية لا تصدقوني ولئن اعترفتُ لكم بأمر والله يعلم إني منه بريَّة لتصدقوني والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم تحولت فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريَّة وإن الله مبرئني ببراءتي ولكن ما كنت أظن إن الله منزل في شأني وحياً يُتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يُتلى ولكن أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء.

حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه، فلما سري عنه سري عنه وهو يضحك وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك، فقالت لي أمي قومي إليه فقلتُ: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله وهو الذي أنزل براءتي[1].

وأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ عشر آيات، والإفك أبلغ ما يكون من الكذب وهوفي الأصل الصرف والقلب وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء والدعاء لما كانت عليه من الحصانة والشرف ولما كانت بنتاً للصديق زوجاً للرسول ﷺ للمؤمنين واجبة الإكرام والاحترام فمن رماها بسوء قلب الأمر عن وجهه غاية القلب ﴿عُصۡبَةٞ﴾ وهي جماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين لا واحد لهامن لفظها كذا في النهاية ﴿مِّنكُمۡ﴾ يعني من المؤمنين، روى البخاري وغيره عن عائشة كانت تقول: أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها لم تقل إلا خيراً وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك، وكان الذي يتكلم مسطح وحسان بن ثابت وعبد الله بن أبي المنافق وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وقال البغوي قال عروة لم يسم من أهل الإفك إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (٤٧٥٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى، قال عروة وكانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول إنه الذي قال:

فــإنَّ أبــي وأمــي وأولادي وعــرضــي لــعــرض مــحــمــد مــنــكــم وفــاء

﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين غير العصبة فإن شتم عائشة كان راجعاً إلى النبي ﷺ فيسوءه ويسوء جميع المؤمنين فإن كان أبوهم ﷺ يعني لا تزعموه ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ حيث يأمركم على ذلك ويظهر كرامتكم على الله وينزل على رسوله في براءتها وتعظيم شأنها وتهويل الوعيد لمن تكلم بالإفك ما يتلى في المحاريب إلى يوم القيامة، وجملة لَا تَحْسَبُوهُ مستأنفة كأنه في جواب ما شأن هذا الإفك، أو معترضة للتسلية ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي من العصبة الكاذبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه كان بعضهم افترى وأحب أن يشيع وبعضهم تكلم به بعد ما سمع من غيره وبعضهم ضحك ولم يتكلم وبعضهم سكت من غير رد، الموصول فاعل للظرف أو مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه والجملة صفة لعصبة وخبر ثان لإن.

قال البغوي: روي أن النبي ﷺ أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحدود جميعاً ثمانين ثمانين، قلتُ بالحد والفضيحة جزاؤهم في الدنيا وجزاؤهم في الآخرة على ما أراد الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قرأ يعقوب بضم الكاف والعامة بكسرها قال الكسائي هما لغتان أي تحمّل معظمه يعني بدأه وأذاعه عداوةً لرسول الله ﷺ وتعييراً للمؤمنين، قال البغوي روى الزهري عن عائشة ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قالت هو عبد الله بن أبي بن سلول والعذاب العظيم هو النار في الآخرة، وروى ابن أبي مليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت: ثم ركبتُ وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس فقال عبد الله بن أبي رئيسهم من هذه؟ قالوا عائشة قال: والله ما نجت منه وما نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها، وقيل: المراد بالذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول وحسان ومسطح وحمنة وهذا القول ضعيف ولو كان كذلك لقال الله تعالى: والذين تولوا كبره وأيضاً كان مسطح وحسان ممن شعد بدراً وقد غفر الله لأهل بدر ما تقدم من ذنبهم وما تأخر وقد قال رسول الله ﷺ لأهل بدر «اعملوا ما شئتم فإن الله قد غفر لكم» وقد قال الله تعالى في حق جميع الصحابة ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1] يعني الجنة، وهذه الآية لا

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.

ينافي العذاب لأن دخول الجنة قد يكون بعد التعذيب، وقال قوم هو حسان بن ثابت. روى البخاري عن مسروق قال دخلتُ على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشرها شعراً يشبب بأبيات له:

حصان رزان ما تُزَنُّ بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة لكنك لست كذلك قال مسروق فقلت لها لمَ تأذني له أن يدخل عليك وقد قال الله: ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأيُّ عذاب أشد من العمى وقد كان يرد عن رسول الله ﷺ يعني كان يهجو المشركين إذا كانوا يهجون رسول الله ﷺ، وعلى هذا المراد بالعذاب العظيم عذاب الدنيا ولكن الصواب هو الأول.

﴿لَّوْلَآ﴾ هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي حديث الإفك من المنافقين أيها العصبة المؤمنة ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي بأهل دينهم من المؤمنين والمؤمنات يعبر من أهل الدين بالأنفس كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[(٤)] لأن المؤمنين وأهل كل دين من الأديان كنفس واحدة ﴿خَيْرًا﴾ كان حق الكلام لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً فعدل من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي حسن الظن بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبون عن أنفسهم، وإنما جاز الفصل بين لولا وفعله بالظرف لأنه نازل منزلته من حيث إنه لا ينفك عنه ولذلك يتسع فيه ما لا يتسع فيغيره، وإنما قدم الظرف لأن ذكر الظرف أهم فإن التخصيص على أن لا يخلو بأوله ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقن المطلع على الحال لأن الإيمان سبب للمدح والتعظيم، فمن أتى بالسب والطعن فقد أفك الأمر وقلبه وصار عاصياً فاسقاً بالافتراء أو الغيبة وشهادة الفاسق غير مقبولة.

مسألة: من ها هنا يظهر أن حسن الظن بالمؤمنين واجب لا يجوز تركه ما لم يظهر بدليل شرعي خلاف ذلك.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٤.

(٣) سورة النور، الآية: ٦١.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أي على ما زعموا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ حتى يجب الحد على المقذوف ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟﴾ الأربعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ في ادعائهم الحسبة فإن من رمى أحداً بالفاحشة فإن أتى بالشهداء (حتى حد المقذوف) يحتمل كون إرادته بالرمي الزجر عن المعاصي وإن لم يأت بالشهداء فلا وجه لقذفه إلا إشاعة الفاحشة على المسلم دون إقامة حد شرعي فهو كاذب في دعواه الحسبة، وقيل: معنى الآية: فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ أي في حكمه وشريعته كاذبون حتى أوجب عليهم حد القذف فعلى هذا الظرف متعلق بمضمون قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ والمعنى فإذا لم يأتوا بأربعة شهداء يقام عليهم الحد لكونهم من الكاذبين حكماً، قال البغوي روي عن عائشة أنه لما نزلت هذه الآيات حدَّ النبي ﷺ أربعة نفر عبد الله بن أبي وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون بالنبي ﷺ ﴿وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بأنواع النعم التي من جملتها التوفيق للإسلام وإدراك صحبة النبي ﷺ التي هي مانعة من نزول العذاب والإمهال والتوبة ولولا فضله ورحمته في ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ حتى وعدكم فيها بالعفو والمغفرة والحسنى إلى الجنة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أيها العصبة في الدنيا والآخرة ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ أي لأجل ما خضتم ﴿فِيهِ﴾ من الإفك، قيل الإفاضة بمعنى الإشاعة يقال خبر مستفيض أي شائع ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كما مس عاداً وثمود وقوم لوط والمؤتفكات في الدنيا ما أوجب الاستئصال وفي الآخرة ما لا انقطاع له ولا عذاب فوقه، هذه الآية في شأن المؤمنين من أهل الإفك وبهذا يظهر أن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بأهل النفاق منهم وهو عبد الله بن أبي ومن كان معه من المنافقين كزيد بن رفاعة فإن لولا لامتناع الشيء لوجود غيره، فهذه الآية تدل على امتناع العذاب لوجود الفضل والرحمة وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ يدل على ثبوت العذاب لهم ﴿إِذْ﴾ ظرف لمسكم أو أفضتم ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ حذفت إحدى التاءين من تتلقونه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، قال الكلبي وذلك أنا لرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا يعني فماذا شأنه فيتلقونه تلقياً، وقال مجاهد يرويه بعضهم من بعض، وقال الزجاج تلقاه بعضكم من بعض وقرأت عائشة إذ تلقونه بكسر اللام وتخفيف القاف من وَلَقَ يَلِقُ ولقاً بمعنى الكذب ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي تقولون كلاماً مختصاً بالأفواه لا مصداق لها في الخارج وليس لكم به علم لأن العلم فرع الوجود في الخارج ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾

أي خوضكم في الإفك ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعة له ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يعني والحال أنه عند الله عظيم في الوزر واستجرار العذاب فإن قذف المحصنات من كبائر الذنوب وعامة العذاب بما صدر من الألسن لاسيما ما فيه هتك حرمة الرسول، عن معاذ بن جبل قال: قلتُ: يا رسول الله: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسر الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: ألا دلك برأس الأمور وعموده وذروة سنامه؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا، قلتُ: يا نبيَّ الله وإنَّا مؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[(١)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه ﴿وَلَوْلَآ﴾ هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أيها المؤمنون هذا الإفك والكلام الباطل من المنافقين ﴿قُلْتُم﴾ رداً عليهم فصل بين لولا ولا وفعله بالظرف لأن يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وفائدة تقديم الظرف بيان أن الواجب هذا القول على فور الإسماع بالإفك فلما كان ذكر الوقت أهم قدم به ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أي ما يصح ولا ينبغي لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوز أن يكون الإشارة بهذا إلى المخصوص وأن يكون إلى نوعه، فإن تعرض الصديقة بن الصديق حرم رسول الله ﷺ أشد على النفوس السليمة مع أن قذف أحد من المحصنين محرم شرعاً يوجب الفسق والجلد ورد الشهادة أبداً ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ اللهم يعني تنزه لله تعالى من أن يكون حرم نبيه فاجرة فإن فجورها يرجع بالسوء والسباب إلى الزوج، والنبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه فجاز أن يكون امرأة النبي كافرة كما كانت امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام ولا يجوز أن يكون فاجرة فهذا تقرير لما قبله وتمهيد لقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ أي زور يبهت من يسمع ﴿عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الجنايات وعظمها باعتبار المجني عليه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣).

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ الوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب يعني يذكركم الله عقابه ويخوفكم في أن ﴿فَإِنَّهُ تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ لمثل هذا القول القبيح واستماعه ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء أو المعنى يزجركم ويخوفكم من مثل هذا القول كراهة أن ﴿تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ أبداً وقال مجاهد ينهاكم الله ن تعودوا لمثله أبداً وجملة يعظكم صفة لبهتان عظيم أو معترضة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني إن كنتم مؤمنين فاتعظوا ولا تعودوا لمثله أبداً فإن الإيمان يمنع عنه فمن سب عائشة وهم الروافض ليسوا مؤمنين ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالة على الشرائع من الأوامر والنواهي ومحاسن الآداب والأخلاق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمحاسن والمقابح فيأمر بالمحاسن وينهى عن المقابح أو عليم بالأحوال كلها بأمرع ائشة وبراءتها وأمر القاذفين وكذبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيره لا يجوز نسبة السوء إلى نبيه ولا يقرره عليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ وهي ما قبح جداً ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ في الضمائر من الحسبة أو إشاعة الفاحشة فيعذب من يريد إشاعة الفاحشة ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فعليكم اتباع ظاهر الأمر فمن قذف وكان له شهود أربعة فأحسنوا الظن به واعلموا أنه إنما أظهر أمر الزنى حسبة لإقامة حد من حدود الله وإخلاء العالم عن الشر، ومن لم يجد الشهود فاعلموا أنه يحب إشاعة الفاحشة حيث لا يمكنه إقامة الحد فعذبوه بحد القذف وهو في حكم الله من الكاذبين حتى أوجب عليه حد المفترين وإن كان صادقاً في الواقع ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أيها المؤمنون الخائضون في أمر عائشة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم لعذبكم في الدنيا بالاستئصال وفي الآخرة بالنار المؤبدة لكن الله غفر لكم ببركة صحبة نبيه ﷺ مع الإيمان حذف جواب لولا استغناءً بذكره مرة، وكرر التخويف والامتنان للدلالة على عظم الجريمة، قال ابن عباس أراد الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الآية عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا الحد وفي الآخرة النار المؤبدة وأراد بقوله: لولا فضل الله عليكم مسطحاً وحسان.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ

وَالْمَسَٰكِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ الْغَٰفِلَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ
دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ
وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي آثاره بإشاعة الفاحشة، قرأ نافع والبزي وأبو عمرو وأبو بكر وحمزة خطوات بسكون الطاء والباقون بضمها وقرىء بفتح الطاء ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي ما أفرط قبحه عقلاً ونقلاً ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ أي ما أنكره الشرع، بيان لعلة النهي عن اتباعه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أيها المؤمنون من العصبة بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طهر من معصية الإفك ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من زائدة ومحله الرفع ﴿أَبَدًا﴾ آخرالدهر ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ بحمله على التوبة وقبولها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

روى الشيخان وغيرهما في حديث الإفك قال أبو بكر الصديق (وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره) والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾[1] أي لا يحلف افتعال من الألية بمعنى القسم أو المعنى لايقصر من الألو بمعنى التقصير، والأولى ها هنا معنى القسم لما ذكرنا أن أبا بكر كان قد أقسم ويؤيده قراءة أبي جعفر ولا يتألّ بتقديم التاء وتأخير الهمزة من التفعيل من الألية أولوا الفضل في الدين وهو الظاهر كيلا يلزم التكرار بقوله والسعة ولأن النهي إنما هو لأهل الفضل في الدين نظراً إلى منزلتهم وفضلهم وإلا فترك بذل ماله في مقابلة الإيذاء ليس بمحرم مؤثم ﴿مِنكُمْ﴾ يعني أبا بكروأمثاله وفيه دليل على فضل أبي بكر وشرفه، أو المعنى ولا يترك أولوا الفضل منكم ﴿وَالسَّعَةِ﴾ يعني الغنا في الدنيا فإن النفقة عن ظهر غني ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أي على أن يؤتوا أو في أن يؤتوا ﴿أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني مسطحاً وأمثاله فهي صفات لموصوف واحد أي ناساً جامعين لهذه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب: اليمين فيما لا يملك وفي المعصية وفي الغضب (٦٦٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

الصفات أو الموصوفين أقيمت الصفات مقام موصوفيها فيكون أبلغ في تعليل المقصود لأن مسطحاً كان مسكيناً مهاجراً بدرياً ابن خالة أبي بكر ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يا أولي الفضل والسعة ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ما فرطتم في جنب الله لأجل عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كثرة آلائه وحقوقه وكمال قدرته على الانتقام فتخلقوا بأخلاقه، روى الشيخان وغيرهما في ذلك القصة أنه لما نزل هذه الآية، قال أبو بكر والله إني أحب أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه قال والله لا أنزعها منه أبداً، عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل المكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[1] رواه البخاري قال ابن عباس والضحاك أقسم ناس من الصحابة منهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا ينفعوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفيفات ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عن الفاحشة اللائي لا تقع الفاحشة في قلوبهم ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله ورسوله ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لما طعنوا فيهن كذباً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في نار جهنم ولهذا حكم كل قاذف قذف محصنة مؤمنة غافلة وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ الآية حكم كل قاذف محصنة غافلة كانت أولا، فالجلد وعدم قبول الشهادة حكم كل قاذف سواء كان في قذفه صادقاً لم يجد الشهود أو كان كاذباً واللعن يختص بمن قذف كاذباً فإن المقذوفة غافلة عما افترى عليها فإن جريمته أعظم وأكبر لكنه لا يستلزم الكفر إذ اللعن منها ما يستحقه بعض من ارتكب الكبائر دون الكفر كقاتل النفس عمداً، وقال مقاتل: هذا الحكم خاص في عبد الله بن أبي ومطمح نظره أن اللعن يختص بالكفار، أخرج الطبراني عن خصيف قال: قلتُ لسعيد بن جبير أيهما أشد الزنى أو القذف؟ قال: الزنى، قلت: إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال ذلك لعائشة خاصةً، وفي إسناده يحيى الحماني ضعيف وكذا ذكر البغوي عن خصيف، وروي عن العوام بن حوشب عن شيخ من بني كاهل عن ابن عباس قال هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصةً ليس فيها توبة، ومن قذف امرأةً مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة، وكذا أخرج الطبراني عن الضحاك بن مزاحم أن الآية في نساء النبي ﷺ خاصةً وقال الآخرون نزلت هذه الآية في أزواج النبي ﷺ وكان ذلك كذلك حتى نزلت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ليس الواصل بالمكافئ (٥٩٩١).

الآية التي في أول السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة، قلتُ: ومبنى هذه الأقوال أمران:

أحدهما: أن سبب نزول الآية كان قصة الإفك.

وثانيهما: أن اللعن لم يرد في شيء من المعاصي غير الكفر لكن خصوص السبب لا يقتضي تخصيص عموم الآية والعبرة لعموم اللفظ، واللعن قد ورد على بعض الكبائر كقتل النفس عمداً وعدم ذكر التوبة والمغفرة في هذه الآية لا يقتضي عدم قبول التوبة وعدم المغفرة مطلقاً وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١] فلا وجه لتخصيص عموم الآية والله أعلم.

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية لتقدم الفعل والفصل والباقون بالتاء الفوقانية والظرف متعلق بما في لهم من معنى الاستقرار لا للعذاب لأنه موصوف ﴿عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: «يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربُّه عمَله فيما بينه وبينه فيعترف ويقول: أي رب عملتُ عملتُ فيغفر الله ذنوبه ويستره منها، قال فما على الأرض خليقة يرى من تلك الذنوب شيئاً وتبدوا حسناته فرؤوا الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربُّه عملَه فيجحده فيقول: أي رب وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل فيقول الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال أبو موسى فإني أحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ثم تلا ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآية، وأخرج أبو يعلى والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ نحوه، وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني عن عقبة بن عامر سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال» وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال: «يجيئون يوم القيامة على أفواههم فأول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه» وروى مسلم عن أبي هريرة حديثاً طويلاً في رؤية الله سبحانه وفيه: «فينطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله وذلك المنافق الذي يسخط الله عليه»[٢] فإن قيل قال الله

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) أخرجه مسلم في أول كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

سبحانه ها هنا ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾[1] فما وجه التطبيق؟ قلنا: المراد بقوله نختم على أفواههم أنهم لا ينطقون بإرادتهم وذلك لا ينافي شهادة الألسنة عليهم من غير اختيارهم والله أعلم، قال القرطبي وإنما يشهد الأعضاء على من قرأ كتابه ولم يعترف بما فيه وجحد وخاصم فيشهد عليه جوارحه بسيئاته، قلت: فهذه الآية تدل على أن ما سبق من الآية في عبد الله بن أبي كما قال قتادة والله أعلم.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي جزاءهم الواجب، وقيل: حسابهم العدل ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الثابت الموجود بذاته موجد الأشياء كلها جواهرها وأعراضها قيوم الحقائق بأسرها وجودات ما سواه كأنها ظلال لوجوده المتأصل الظاهر ألوهيته لا يشاركه في ذلك غيره ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه أو ذو الحق البين أي الظاهر عدله أو المبين ما كان يعدهم في الدنيا، قال ابن عباس وذلك أن عبد الله بن أبي كان يشك في الدين فيعلم يوم القيامة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ قلتُ: لعل معنى قول ابن عباس ﷺ أن الناس لاسيما الكفارمنهم يزعمون لله وجوداً موهوماً حتى ليسندون الحوادث إلى الدهر أو الكواكب أو نحو ذلك ويحسبون النفع والضر من العباد لا يخافون الله كما يخافون سلاطين الدنيا، فإذا كان يوم القيامة يبدأ لهم: ما لم يكونوا يحتسبون ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ قال أكثر المفسرين معناه الخبيثات من الكلمات يعني كلمات الذم والتحقير والشتم ونحو ذلك يستحقها الخبيثونمن الناس والخبيث من الناس يستحقون الذم ونحو ذلك والطيبات من الكلمات من المدح والثناء والدعاء يستحقها الطيبون والطيبون يستحقون الطيبات فعائشة تستحق الثناء والصلاة والسلام والدعاء دون ما قيل فيه من الإفك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني عائشة وأمثالها ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ﴾ فيهم أهل الإفك من الكلمة الخبيثة، وقال الزجاج الخبيثات من الكلمات ككلمة الكفرو الكذب وسب الصحابة وأهل البيت وقذف المحصنات وأمثال ذلك للخبيثين من الناس نحو عبد الله بن أبي لا يتكلم بها الطيبون والخبيثون خلقوا وجبلوا لتلك الكلمات الخبيثة والطيبات من الكلمات كذكر الله وتلاوة

(١) سورة يس، الآية: ٦٥.

القرآن والصلاة والسلام على النبي وأهل بيته والدعاء بالمغفرة للمؤمنين والمؤمنات ميسر للطيبين من الناس والطيبون من الناس خلقوا مستعدين للطيبات من الكلمات، (أولئك يعني الطيبين من الناس مبرؤون) من ارتكاب ما قاله أهل الإفك ونحو ذلك فهو ذم للقاذفين ومدح للذين برأهم الله، وقال ابن زيد الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال يعني غالباً والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء يعني في الأغلب. . . فعائشة طيبة ولذلك اختارها الله تعالى لازدواج رسوله الطيب الطاهر ﷺ: أولئك يعني عائشة وأمثالها مبرؤون مما يقول فيهم أهل الإفك ولو لم تكن عائشة طيبة لما صلحت لمصاحبة النبي ﷺ فكأنَّ هذه الآية بمنزلة البرهان على كذب أهل الإفك، عن هند بن أبي هالة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أبى أن أتزوج أو أزوج إلا أهل الجنة» رواه ابن عساكر ﴿لَهُم﴾ يعني لعائشة وأمثالها من المؤمنين الطيبين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، قال البغوي روي أن عائشة رضي الله عنها كانت تفتخر بأشياء أعطيتها ولم تعط امرأة غيرها منها أن جبرائيل أتى بصورتها في خرقة من حرير وقال: هذه زوجتك»[١] قلتُ: رواه الترمذي عن عائشة وروي أنه أتى بصورتها في راحته وأن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها ودفن في بيتها وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه ونزلت براءتها من السماء وإنها ابنة خليفة رسول الله ﷺ وصديقة طيبة ووعدت مغفرةً ورزقاً كريماً، وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال حدثتني الصديقة ابنة الصديق حبيبة رسول الله ﷺ المرأة من السماء، قال البيضاوي ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله عنها في الصحيحين عن عائشة قالت: «قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام ثلاث ليال يجيءبك الملك في سَرَقةٍ من حرير فقال لي هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنتِ هي فقلتُ إن يكن هذا من عند الله يمضيه»[٢] وفي الصحيحين عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة هذا جبرائيل يقرؤك السلام قلتُ: وعليه السلام ورحمة الله قالت: وهو يرى ما لا أرى» وعنها قالت: إن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٣٨٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها (٣٨٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٣٨).

الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ، وقالت إن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ فكلمه حزب أم سلمة فقلن لها كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ فليهد إليه حيث كان، فكلمته فقال: «لا تؤذيني في عائشة فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة» قالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله، ثم إنهن دعون فاطمة رضي الله عنها وعنهن فأرسلن إلى رسول الله ﷺ فكلمته فقال: يا بنيه ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى، قال: «فأحبي هذه» متفق عليه، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»[1] وعن أبي موسى قال ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً[2]، رواه الترمذي، وعن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة، رواه الترمذي. قال البيضاوي برَّأ الله أربعةً بأربعةٍ برَّأ يوسف بشاهد من أهل زليخا وموسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ومريم بإنطاق ولدها وعائشة بهذه الآيات مع تلك المبالغات وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته، قلتُ وإظهار منزلتها من الله ورسوله ﷺ والله أعلم.

أخرج الفريابي وابن جرير عن عدي بن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد وإنه لا يزال يدخل عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٣٧٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٣٨٩٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ التي تسكنونها وليست الإضافة للملك فإن المؤجر والمعير أيضاً لا يدخلان إلا بإذن الساكن حتى تستأنسوا يعني حتى تستأذنوا يدل عليه ما روى أنه كان ابن عباس يقرأ ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ وكذلك كان يقرأ أبي بن كعب والأنس في اللغة ضد الوحشة والإبصار والإحساس والعلم، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سورة ابن أخي أبي أيوب قال: قلتُ: يا رسول الله هذا السلام فما الاستئناس؟ قال: يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت، قال في القاموس أنسه ضد وحشه وأنس الشيء أبصره وعلمه وأحسه والصوت سمعه، وقال الخليل الاستئناس الاستبصار من قوله: ﴿ءَانَسۡتُ نَارًا﴾[1] أي أبصرتُ وإنما عبر الاستئذان بالاستئناس لأن المستأذن متوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أذن استأنس لأن المستأذن مستعلم للحال مستكشفٌ أنه هل يراد دخوله أولاً، أو استفعال من الأنس يعني متعرف هل ثمة إنسان ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ أي على ساكنيها يعني أن يقولوا السلام عليكم، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «يا بني إذا دخلتَ على أهلك فسلم تكون بركة عليك وعلى أهل بيتك»[2]. رواه الترمذي. واختلفوا في أنه هل يقدم الاستئذان أو السلام؟ فقال قوم يقدم الاستئذان لتقدمها في الآية ولا دليل فيه لأن الواو لمطلق الجمع دون الترتيب وفي مصحف ابن مسعود، حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا والأكثرون على أنه يقدم السلام لحديث كلدة بن حنبل قال: دخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم استأذن فقال النبي ﷺ؛ «ارجع فقل السلام عليكم أأدخل»[3] رواه أبو داود والترمذي، وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «لا تأذنوا لمن لم يبدأ بالسلام» رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال البغوي عن ابن عمر أن رجلاً استأذن عليه فقال: أأدخل؟ فقال ابن عمر لا فأمر بعضهم الرجل أن يسلّم فَسلَّمَ فأذن له، وقال بعضهم إن وقع بصره على إنسان قدم السلام وإلا قدم الاستئذان ثم سلَّم، وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة يستأذن على ذوات المحارم، ومثله عن الحسن عن عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أستأذن على أمي؟ فقال: نعم، فقال الرجل إني معها في البيت، فقال رسول الله ﷺ استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانةً؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها، رواه مالك مرسلاً.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في التسليم إذا دخل بيته (٢٦٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في التسليم قبل الاستئذان؛ (٢٧١٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الآدب، باب: كيف الاستئذان (٥١٦٧).

مسألة: إذا دعي أحد فجاء مع الرسول فلا حاجة إلى الاستئذان لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن» رواه أبو داود وفي رواية له رسول الرجل إلى الرجل إذنه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغتةً أو من تحية الجاهلية عن عمران بن حصين قال: كنا في الجاهلية نقول: أنعم الله بك عيناً وأنعم صباحاً فلما كان الإسلام نهينا عن ذلك، رواه أبو داود ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ أي في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ يأذن لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يعني حتى يأتي ساكنها ويأذن لكم في الدخول فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط بل وعلى ما يخفيه الناس من الناس، مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تلحوا في الدخول ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي الرجوع أزكى لكم من الإلحاح في الدخول والوقوف على الباب لما فيه من الكراهة وترك المروءة، وفي حكم الأمر بالرجوع أن لا يأذن له صاحب البيت بعد الاستئذان ثلاث مرات لحديث أبي سعيد الخدري قال: أتانا أبو موسى فقال إن عمر أرسل إليَّ أن آتيه فأتيتُ بابه فسلمتُ ثلاثاً فلم يرد على فرجعتُ فقال: ما منعك أن تأتينا؟ فقلتُ: إني أتيتُ فسلمتُ على بابك ثلاثاً فلم ترد عليَّ فرجعت وقد قال لي رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع، فقال: عمر أقم عليه البينة، قال أبو سعيد فقمتُ معه فذهبتُ إلى عمر فشهدت متفق عليه. وعن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً التسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فإن أذن له دخل وإلا رجع، رواه ابن ماجه، قال البغوي ورواه بشر بن سعيد عن أبي سعيد الخدري وفيه قال: قال أبو موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» قال الحسن الأول إعلام والثاني مؤامرة والثالث استئذان بالرجوع، وعن أنس أن رسول الله ﷺ: استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فقال سعد وعليكم السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمتَ تسليمةً إلا هي بإذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك أحببتُ أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم دخلوا البيت فقرب له زبيباً فأكل النبي ﷺ، فلمّا فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون» رواه البغوي في شرح السنة.

مسألة: إذا حضر أحد على باب أحد فلم يستأذن وقعد على الباب منتظراً حتى يخرج جاز، كان ابن عباس يأتي باب الأنصاري لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج ولا يستأذن فيخرج الرجل ويقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ لو أخبرتني فيقول هكذا أمرنا أن

نطلب العلم، قلتُ: ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

مسألة: إذا وقف أحد على باب أحد للاستئذان لا يستقبل الباب من تلقاء وجهه إذا لم يكن هُناك ستر ولا ينظر من شق الباب إذا كان مردوداً لحديث عبد الله بن بسر قال: كان رسول الله ﷺ: «إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السلام عليكم السلام عليكم وذلك أن الدور لم يكن يومئذ عليها ستور»[١]، رواه أبو داود وعن سهل بن سعد الساعدي أن رجلاً اطلع على النبي ﷺ من ستر الحجرة وفي يد النبي ﷺ مدرى فقال: «لو أعلم أن هذا ينظرني لطعنتُ بالمدرى في عينه وهل جعل الاستئذان إلا من أجل البصر» رواه البغوي، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أمرأً اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح»[٢] رواه أحمد والشيخان في الصحيحين ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتونه وما تذرونه مما خوطبتم به.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال: لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطريق؟ فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان؟ فأنزل الله عز وجل ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟﴾ أي في أن تدخلوا متعلق بجناح لتضمنه معنى المؤاخذة أو بعليكم ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ من غير استئذان ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ﴾ أي منفعة ﴿لَّكُمْ﴾ حال من بيوتاً، قال البغوي اختلف في هذه البيوت؟ قال قتادة هي الخانات والبيوت والمنازل المبنية للسائلة ليأووا إليها ويأووا إليها أمتعتهم جاز دخولها بغير استئذان فالمنفعة فيها النزول وإيواء المتاع والاتقاء من الحر والبرد، وقال ابن زيد هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلها الناس للبيع والشراء وهو المنفعة، وقال إبراهيم النخعي ليس على حوانيت السوق أذن، وكان ابن سيرين إذا جاء إلى الحانوت التي في السوق يقول السلام عليكم أأدخل ثم يلج، وقال عطاء هي البيوت الخربة والمتاع هي قضاء الحاجة فيها من البول والغائط، وقيل: هي جميع البيوت التي لا ساكن لها لأن الاستئذان إنما شرع لئلا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان (٥١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الديات، باب: من أخذ حقه أو اقتص دون السلطان (٦٨٨٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الآداب، باب: تحريم النظر في بيت غيره (٢١٥٨).

يطلع على عورة أحد فإذا لم يخف ذلك فله الدخول من غير استئذان ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن دخل لفساد أو اطلاع على عورات الناس.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، عن الحسن مرسلاً قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الناظر والمنظور لها» رواه البيهقي في شعب الإيمان، يغضوا صيغة أمر بحذف اللام ومن زائدة على قول الأخفش فإنه يجوز زيادة من كلام الموجب عنده وعند سيبويه من للتبعيض لأن المؤمنين غير مأمورين بغض الأبصار مطلقاً بل بالغض عما لا يحل النظر إليه بل المنهي عنه النظرة الثانية التي يكون بالإرادة دون الأولى التي لا تكون بالإرادة لحديث بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»[١]. رواه أحمد والترمذي وأبو داود والدارمي، وعن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف»[٢] رواه مسلم، وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادةً يجد حلاوتها»[٣] رواه أحمد ﴿وَيَحْفَظُوا۟﴾ أي ليحفظوا ﴿فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ ولما كان الاستثناء معلوماً بالضرورة عقلاً ونقلاً حذف من اللفظ، قال: أبو

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء في نظر المفاجأة (٢٧٧٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب باب: في ما يؤمر به من غض البصر (٢١٥٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الآداب، باب: نظر الفجأة (٢١٥٩).

(٣) وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأدب، باب: غض البصر (١٢٩٤٣).

العالية كل ما وقع في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنى والحرام إلا في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع البصر عليه، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قلتُ: يا رسول الله أفرأيت إذا كان الرجل خالياً؟ قال فالله أحق أن يستحيى منه»(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم»(٢) رواه الترمذي ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي غض البصر وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أنفع لهم أو أطهر لما فيه من التباعد عن الزنى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجالة أبصارهم واستعمال سائر حواسهموتحريك جوارحهم وما يقصدون بها فليكونوا على حذر منه.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا أن جابر بن عبد الله حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن يعني الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله في ذلك ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ أي ليغضضن عما لا يحل النظر إليه، وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجل الأجنبي مطلقاً وبه قال الشافعي، وقال أبو حنيفة جاز لها أن ينظر من الرجل إلى ما ينظر الرجل إليه إذا أمنت الشهوة، احتج الشافعي بحديث أم سلمة أنها كنت عند رسول الله ﷺ وميمونة رضي الله عنهما: «إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه (وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب) فقال رسول الله ﷺ: احتجبا منه فقلتُ يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال رسول الله ﷺ: أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه»(٣). رواه أحمد وأبو داود والترمذي، واحتج أبو حنيفة بحديث ابن عباس قال: جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع قالت يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: نعم، قال ابن عباس كان الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء في حفظ العورة (٢٧٩٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الحمام، باب: في التعري (٤٠١١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب التستر عند الجماع (١٩٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء في الاستتار عند الجماع (٢٨٠٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء في احتجاب النساء من الرجال (٢٧٧٨).

الشق الآخر[١] الحديث رواه البخاري ورواه الترمذي من حديث علي نحوه وزاد فقال العباس: لويت عنق ابن عمك، فقال: «رأيت شاباً وشابة فلم آمن عليهما الشيطان»[٢] صححه الترمذي واستنبط ابن القطان من هذا الحديث جواز النظر عند الأمن من الفتنة من حيث أنه لم يأمرها بتغطية وجهها ولو لم يفهم العباس أن النظر جائز ما سأل ولو لم يكن ما فهم لما أقرَّه عليه وبحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها فبتَّ طلاقها فأمرها النبي ﷺ أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم وهذا يدل على جواز نظر المرأة إلى الأعمى ونحوه يعني عند الأمن من الشهوة.

مسألة: ولا يجوز للمرأة النظر إلى عورة المرأة يعني تحت السرة إلى الركبة ولا للرجل النظر إلى عورة الرجل لحديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا يفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد»[٣] رواه مسلم.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سترها حرجاً، وقيل المراد بالزينة مواضع الزينة على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزينية، والمستثنى هو الوجه والكفان عند أبي حنيفة ومالك وأحمد والشافعي لما روى الترمذي من طريق عبد الله بن مسلم بن هرمز عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الوجه والكفان ومن طريق عطاء عن عائشة نحوه، وفي رواية المستثنى الوجه والكفان والقدمان والمشهور عن الشافعي الوجه فقط، لما روى الطبراني من طريق مسلم الأعور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هي الكحل وتابعه خصيف عن عكرمة عن ابن عباس عند البيهقي، فالوجه مستثنى باتفاق العلماء الأربعة والكفان عند أبي حنيفة ومالك وفي رواية للشافعي وأحمد، لكن في مختلفات قاضي خان أن ظاهر الكف وباطنه ليسا عورتين إلى الرسغ وفي ظاهر الرواية ظاهره عورة كذا قال ابن همام، والقدمان عورة إلا في رواية عن أبي حنيفة والحجة على كون القدمين عورة حديث أم سلمة أنها سألت النبي ﷺ أتصلي المرأة في درع وخمار وليس لها إزار فقال: «لا بأس إذا كان الدرع سابغاً يغطي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: وجوب الحج وفضله (١٥١٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الحج، باب: ما جاء أن عرفة كلها موقف (٨٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تحريم النظر إلى العورات (٣٣٨).

ظهور قدميها»[١] رواه أبو داود والحاكم، وأعله عبد الحق بأن مالكاً وغيره رووه موقوفاً وهو الصواب، وقال ابن الجوزي في رفعه مقال لأنه من رواية عبد الرحمن بن عبد الله وقد ضعفه يحيى وقال أبو حاتم الرازي لا يحتج به، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[٢] يدل على أن الخلخال من الزينة الباطنة فموضعه يعني القدم عورة، قال البيضاوي الأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة، وفي كتب الحنفية كون وجه الحرة خارجاً عن العورة غير مختص بالصلاة، قال في الهداية لا يجوز أن ينظر الرجل إلى الأجنبية إلا وجهها وكفيها لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لأن في إبداء الكف والوجه ضرورة لحاجتها إلى المعاملة مع الرجال أخذاً أو إعطاءً وغير ذلك، فإن كان الرجل لا يأمن من الشهوة لا ينظم إلى وجهها إلا لحاجة كتحمل الشهادة وأدائهاوالقضاء، ولا يباح إذا شك في الاشتهاء كما إذا علم أو كان أكبر رأيه ذلك، قلتُ: ومذهب أبي حنيفة يؤيده ما رواه أبو داود مرسلاً الجارية إذا حاضت لم يصلح يرى منها إلا وجهها إلى المفصل، قلتُ إبداء المرأة زينتها الخفية لغير أولي الإربة من الرجال جائز إجماعاً ثابت بنص الكتاب لعدم خوف الفتنة فإبداء زينتها الظاهرة لهم أولى بالجواز ونظر الرجل إلى وجه امرأة أجنبية إذا شك في الاشتهاء لا يجوز على ما قال صاحب الهداية أيضاً، وقال ابن همام حرم النظر إلى وجهها ووجه الأمرد إذا شك في الشهوة ويلزم هذا الحكم الحكم بأن لا تبدو المرأة وجهها لرجل أجنبي إذا شك منه الشهوة وإلا لكان تعرضاً للفساد وزوال احتمال الشهوة من الرجل الأجنبي ذي الإربة للمرأة الأجنبية غير متصور فيلزمنا القول بأنه لا يجوز للمرأة إبداء وجهها لرجل ذي إربة غير الزوج والمحرم فإن عامة محاسنها في وجهها فخوف الفتنة في النظر إلى وجهها أكثر منه في النظر إلى سائر أعضائها وقد قال رسول الله ﷺ: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»[٣] رواه الترمذي عن ابن مسعود فإن هذا الحديث يدل على أنها كلها عورة غير أن الضرورات مستثناة إجماعاً، والضرورة قد تكون بأن لا تجد المرأة من يأتي بحوائجها من السوق ونحو ذلك فتخرج متقنعة كاشفةً إحدى عينيها لتبصر الطريق، فإن لم تجد ثوباً سابغاً تخرج فيما تجد من

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في كم تصلي المرأة (٦٣٩).
(٢) سورة النور، الآية: ٣١.
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الرضاع (١١٦٩).

الثياب ساترةً ما استطاعت وقد تكون إذا احتاجت إلى الطبيب أو الشهود أو القاضي، فالمراد بالزينة في الآية إن كان نفس الزينة كما فسرناه تبعاً لما قال البيضاوي بالحلي والثياب والأصباغ، ويكون حينئذ تحريم إبداء مواضع الزينة بدلالة النص بالطريق الأولى فلا خفاء على هذا في تأويل الاستثناء، حيث يقال معنى: إلا ما ظهر منها إلا ثيابها الظاهرة، قال البغوي قال ابن مسعود هي الثياب بدليل قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1] وأراد به الثياب، وإن كان المراد بها مواضع الزينة فمعنى الاستثناء إلا ما ظهر منها عند الضرورات ضرورة الخروج لقضاء الحوائج أو ضرورة الاستشهاد ونحو ذلك يعني من غير قصد إلى إبدائها فاستثناء الوجه والكفين من عورة الحرة ليس إلا لأجل الصلاة، ويدل على عدم جواز إبداء المرأة وجهها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[2] الآية، قال ابن عباس وأبو عبيدة أُمرت نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحداً يعلم أنهن حرائر، وما ذكرنا من حديث جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع سائلة مسألة قضاء الحج عن أبيها محمول على جواز خروجها لضرورة السئال عن المسألة وما ذكر من أن الفضل كان ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر صريح في المنع عن النظر إلى وجه المرأة الأجنبية لعدم الأمن عليهما من الشيطان.

مسألة: هذه الآية مختص حكمها بالحرائر من النساء إجماعاً، وأما الإماء سواء كن قنات أو مكاتباتٍ أو مدبرات أو أمهات أولاد فيجوز لهن إبداء الرأس والوجه والساقين والساعدين فإن عورة الأمة عند مالك والشافعي وأحمد كعورة الرجل من السرة إلى الركبة وناد أبو حنيفة بطنها وظهرها، وقال أصحاب الشافعي كلها عورة إلا مواضع التقليب منها وهي الرأس والساعدان والساق روى الشيخان في الصحيحين في قصة صفية «إن حجبها فهي زوجة وإن لم يحجبها فهي أم ولد»[3] وهذا الحديث يدل على أن الأمة تخالف الحرة فيما تبديه، وقال أنس مرت بعمر بن الخطاب $ح جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع أتشتبهين بالحرائر ألقي القناع، وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: البناء في السفر (٥١٥٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها (١٣٦٥).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾(١) أيضاً بمفهومه يدل على أن حكم الأمة غير حكم الحرة، قلتُ: وجاز أن يكون حكم هذه الآية شاملة للإماء أيضاً وإنما جاز لها إبداء الرأس والساعدين والساق للاستثناء، فإن خروجها لخدمة المولى كثيرو ثياب مهنتها قصيرة فهذه الأعضاء تظهر منها غالباً لضرورة والله أعلم. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ أي يضعن خمرهن من ضرب يده على الحائط أي وضعها ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ستراً لشعورهن وصدورهن وأعناقهن وقرطهن، قال البغوي قالت عائشة ﷺ رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها، قرأ نافع وعاصم وهشام بضم الجيم والباقون بكسرها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الإضافة للعهد يعني زينتهن المستثناة منها ما ظهر منها كرره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم هم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع أبدانهن حتى فروجهن لكنه يكره النظر إلى الفرج لقوله ﷺ: «إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ولا يتجردان تجرد العيرين»(٢) رواه الشافعي والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود عن عتبة بن عنبرو النسائي عن عبد الله بن سرجس والطبراني أيضاً عن أبي أمامة، وروى ابن ماجه عن عائشة قالت: ما نظرتُ أو ما رأيتُ فرج رسول الله ﷺ قط ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وكذا آباء الآباء وآباء الأمهات وإن علوا بدلالة النص والإجماع ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ وأبناء الأبناء وأبناء البنات وإن سفلوا بدلالة النص والإجماع ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ كذلك ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وبني أبنائهم وبني أبناء بناتهم وإن سفلوا ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ أو أبناء أبنائهن أو أبناء بناتهن وإن سفلوا أباح الله تعالى للنساء إبداء محاسنهن لهؤلاء لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وعدم توقع الفتنة من قبلهم إلا نادراً لما في الطباع من النفرة عن حماسة القرابة والغيرة في انتسابهن إلى الفاحشة وأباح لهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المحنة والخدمة وهو الوجه والرأس والصدر والساقان والعضدان ولا يجوز لهم النظر إلى ظهورهن ولا إلى بطونهن ولا إلى ما بين السرة إلى الركبة لأنها لا تنكشف عادةً فلا ضرورة في النظر إليها، وهذا حكم جميع من لا يجوز المناكحة بينه وبينها على التأبيد بنسب كان أو برضاع أو مصاهرة، وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال في الآية لأنهم في معنى بني الأخوان وبني الأخوات بدلالة النص والإجماع

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٢) قال الهيثمي: فيه مندل ضعيف وقد وثق، وقال البزار: أخطأ مندل في رفعه والصواب أنه مرسل.
انظر: فيض القدير (٣٤٠).

فإنه لما جاز للعمة إبداء زينتها لابن أخيها جاز لبنت الأخ إبداء زينتها لعمها بطريق المساواة ولما جاز للخالة إبداء زينتها لابن أختها جاز لبنت الأخت إبداء زينتها لخالها، ويحتمل أن يكون ترك ذكر الأعمام والأخوال في الآية للإشارة إلى أن الأحوط أن يتسترن عنهم حذراً أن يصفوهن لأبنائهم.

مسألة: لا بأس للرجل أن يمس ما جاز إليه النظر من ذوات محارمه لتحقق الحاجة إلى ذلك في المسافرة، وقلة الشهوة للحرم المؤبدة إلا إذا كان يخاف عليها أو على نفسه الشهوة فحينئذ لا ينظر ولا يمس لقوله ﷺ؛ «العينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش»[(١)] وفي رواية «العينان واليدان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزني» رواه أحمد والطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً وحرمة الزنى بذوات المحارم أغلظ فيجتنب ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني جاز للمرأة أن تنكشف للمرأة مؤمنةً كانت أو كافرةً حرةً كانت أو أمةً إلا ما بين سرتها وركبتها وجاز لها النظر إليها بوجود المجانسة وانعدام الشهوة غالباً، وعن أبي حنيفة إن نظر المرأة إلى المرأة كنظر الرجل إلى محارمه، وقيل المراد بنسائهن النساء المؤمنات فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تنكشف للمرأة الكافرة لأنها ليست من نسائنا لكونها أجنبية في الدين وذلك لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها كأنه ينظر إليها»[(٢)] متفق عليه قال البغوي كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ عن ابن جريج أنه قال المراد بنسائهن المؤمنات الحرائر منهن وبما ملكت أيمانهن الإماء دون العبيد فلا يحل لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدي امرأة مشركة إلا إذا كانت المشركة أمة مملوكةً لها، فعلى هذا التأويل لا يجوز لها الانكشاف بين يدي عبدها، ولا يجوز للعبد أن ينظر إلى سيدته إلا إلى ما يجوز للأجنبي النظر إليه منها وبه قال أبو حنيفة رحمه الله وبه قال بعض أصحاب الشافعي، قال الشيخ أبو حامد من الشافعية الصحيح عند أصحابنا إن العبد لا يكون محرماً لسيدته، قال النووي هذا هو الصواب بل لا ينبغي أن يجري فيه خلاف بل يقطع

(١) إسنادهما جيد عند أحمد والطبراني.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الحدود والديات، باب: زنا الجوارح (١٠٥٤٣).
وهو في الصحيحين بلفظ «فزنا العين النظر وزنا المنطق اللسان والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: لا تباشر المرأة المرأة فتفتها زوجها (٥٢٤٠).

بتحريمه، والقول بأنه محرم لها ليس له دليل ظاهر فإن الصواب في الآية أنها في الإماء قال صاحب الهداية لنا أنه فحل غير محرم ولا زوج والشهوة متحققة لجواز النكاح في الجملة يعني بعد زوال ملكها والحاجة قاصرة لأنه يعمل خارج البيت والمراد بالنص يعني بهذه الآية الإماء قال سعيد بن المسيب والحسن وغيرهما لا تغرنكم سورة النور فإنها في الإناث دون الذكور، وهذا التأويل لا يصح إلا على تقدير كون المراد بنسائهن المسلمات الحرائر دون عامتهن وإلا لزم التكرار والخلو من الفائدة، فيلزم على مذهب أبي حنيفة عدم جواز الانكشاف للمرأة المسلمة عند الكافرة، وقال مالك ما ملكت إيمانهن يعم العبيد والإماء فيجوز للسيدة الانكشاف عند عبده كسائر المحارم ويجوز له النظر إليها ما يجوز من النظر إلى محارمه، والشافعي أيضاً نص على ذلك وهو الأصح عند جمهور أصحابه لأن الحاجة متحققة لدخوله عليها من غير استئذان قال البغوي وروي ذلك عن عائشة وأم سلمة ويؤيده حديث أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فلَّما رأى رسول الله ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك»[1] رواه أبو داود، لكن يمكن أن يكون العبد صغيراً كما يدل عليه إطلاق لفظ الغلام، ويؤيده أيضاً حديث أم سلمة قالت: قال: رسول الله ﷺ: «إذا كانت عند مكاتب إحداكن وفاء فلتحتجب منه»[2] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه لكن الاستدلال به بمفهوم المخالفة ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الهرم سماهم بالتابعين لأنهم لا يقدرون على الاكتساب فيتبعون القوم ليصيبوا فضل طعامهم، قال الحسن هو الذي لا ينتشر ذكره ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن، وعن ابن عباس أنه العنين، وقال سعيد بن جبير المعتوه، وقال عكرمة المجبوب، وقيل: هو المخنث، وقال مقاتل: هو الشيخ الهرم والعنين والخصي والمجبوب، والصحيح أن الخصي والمجبوب في النظر إلى الأجنبية كالفحل، قال في الهداية لأن الخصي فحل يجامع يعني يحتمل المجامعة وكذا المجبوب لأنه يسحق وينزل وكذا المخنث في الرديء

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: في العبد ينظر إلى شعر مولاته (٤١٠١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في المكاتب إذا كان عنده ما يؤدي (١٢٥٨) وأخرجه أبو داود في كتاب: الفتن، باب: في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت (٣٩٢٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: العتق، باب: المكاتب (٢٥٢٠).

من الأفعال لأنه فحل فاسق يؤخذ فيه بمحكم كتاب الله يعني: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فإنه محكم يشتمل المجبوب والخصي والمخنث وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ غير قطعي الشمول لهؤلاء فلا بد فيهن الحكم بغض البصر، قال في الكفاية قيد في الهداية المخنث بالرديء من الأفعال وهو أن يمكن غيره من نفسه احترازاً عن المخنث الذي في أعضائه لين وفي لسانه انكسار بأهل الخلقة لا يشتهي النساء، ولا يكون مخنثاً في الرديء من الأفعال فإنه قد رخص بعض مشايخنا في ترك مثله في النساء لأنه من غير أولي الإربة من الرجال، قلتُ: وأما الخنثى الأصلي يعني الذي له ذكر وفرج فإن ظهر له علامات النساء وهو أن يكون له ثدي كثدي المرأة أو نزل له لبن في ثديه أو حاض أو حبلى وأمكن الوصول إليه من الفرج فحكمه حكم الأنثى وإلا فله حكم الذكر لا يجوز للنساء الانكشاف عنده ولا يجوز له النظر إليهن، وإن كان مشكلاً يؤخذ فيه بالأحوط فلا ينكشف هو عند الرجال ولا تنكشف النساء عنده والله أعلم.

روى الشيخان في الصحيحين عن أم سلمة: «أن النبي ﷺ كان عندها وفي البيت مخنث فقال لعبد الله بن أبي أمية (أخي أم سلمة): يا عبد الله إن فتح الله لكم غداً الطائف فإني أدلكم على ابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال النبي ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكم»[(١)] احتج بعض العلماء بهذا الحديث على منع المخنثين من الدخول على النساء، وفي الاحتجاج به نظر بل يمكن الاحتجاج بهذا الحديث على جواز دخول المخنثين على النساء لأن النبي ﷺ أقره في البيت ولم يمنعه من الدخول إلا بعد ما وصف ابنة غيلان بأنها تقبل بأربع وتدبر بثمان وهذا أمر آخر منع النبي ﷺ لأجله عن دخول المرأة على المرأة كما مر في حديث ابن مسعود والله أعلم. قرأ أبو بكر وابن عامر وأبو جعفر غير أولي الإربة بالنصب على الحال أو على أنه بمعنى إلا للاستثناء معناه يبدين زينتهن للتابعين إلا ذا الإربة منهم فإنهن لا يبدين زينتهن لم كان منهم ذا إربة، وقرأ الباقون بالجر على أنه صفة للتابعين.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاءً بدلالة الوصف يعني لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان إذا قوي وقدر عليه، أو المعنى لم يظهروا أي لم يكشفوا عن عورات النساء بالجماع من الظهور

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٣٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: منع المخنث من الدخول على النساء والأجانب (٢١٨٠).

بمعنى الغلبة ولذلك عدّي بعلى أو من الظهور بمعنى الاطلاع فإن الكشف يستلزم الاطلاع والمراد بعدم الظهور وعدم الكشف أيضاً عدم صلاحية ذلك فالحاصل أنهم لم يبلغوا حد الشهوة، وقال مجاهد معناه لم يعرفوا العورة من غيرها لإجل الصغر وعدم التميز، والأولى هو الأول فإن الطفل إن كان مميزاً لكنه لم يبلغ حد الشهوة جاز للنساء الانكشاف عنده إلا من السرة إلى الركبة، ولا يجوز لها بحضرته كشف ما تحت السرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾[1] وإن كان طفلاً غير مميز بالكلية فهو كالجمادات والبهائم لا بأس لو كشفت عنده ما تحت الإزار أيضاً، وإن كان مراهقاً يشتهي فحكمه حكم الرجال لأنه استعد للظهور على عوراتهن.

أخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت صرتين من فضة واتخذت جذعاً فمرت على قوم وضربت برجليها فوقع الخلخال على الجذع فصوتت فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قال البغوي كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها لتسمع صوت خلخالها فنهيت عن ذلك لأنه يورث في الرجال ميلاً إليها، قال البيضاوي وهو أبلغ من النهي عن إبداء الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت لها ولذا صرح في النوازل بأن نغمة المرأة عورة وبني عليها أن تعلمها القرآن من المرأة أحب إليَّ لأن نغمتها عورة ولذا قال ﷺ: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء»[2] متفق عليه من حديث سهل بن سعد، فلا يحسن أن يسمعها الرجل، قال ابن همام وعلى هذا لو قيل إذا جهرت المرأة بالقراءة في الصلاة فسدت كان متجهاً، ولذا منعها ﷺ من التسبيح بالصوت لإعلام الإمام بسهوه إلى التصفيق وهذه الآية تدل على أن القدم عورة ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه لا يكاد يخلو أحد منكم في إتيان أوامره والانتهاء عن مناهيه من التفريط قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[3] رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي، قيل: معناه راجعوا إلى طاعة الله فيما أمركم ونهاكم من الآداب المذكورة في هذه السورة، وقيل: معناه توبوا عما كنتم تفعلونه في الجاهلية وإن جب الإسلام لكن يجب الندم عليه والعزم

(١) سورة النور، الآية: ٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: التصفيق للنساء (١٢٠٣)، وأرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تسبيح الرجل وتصفيق المرأة إذا زنا بهما شيء في الصلاة (٤٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥١).

على الكف عنه كلما تتذكروا قرأ ابن عامر: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ها هنا وفي الزخرف: (يا أيها الساحر) وفي الرحمن: (أيها الثقلان) بضم الهاء في الثلاثة وصلاً ويقف بلا ألف، والباقون بفتح الحاءات على الأصل، ووقف أبو عمرو والكسائي أيها بالألف والباقون بغير ألف ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن سعادة الدارين بالتوبة قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»[١] وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى ربي كل يوم مائة مرة»[٢] وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[٣] رواه البخاري، وعن الأعرابي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»[٤] رواه مسلم، وعن ابن عمر قال: «إنا كنا نعد رسول الله ﷺ في المجلس يقول: «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور مائة مرة»[٥] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ لما نهى الله تعالى عما يفضي إلى السفاح غالباً أمر بالنكاح فإنه أغض للبصر وأمنع من السفاح فقال وانكحوا أيها الأولياء والسادة الأيامى منكم، والأيامى جمع آيّم مقلوب أيايم كيتامى أصله يتايم وهو من لا زوج له رجلاً كان أو امرأة

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: الاستغفار (٣٨١٨) في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا قام من المجلس (٣٤٣٤).

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ وهذا أمر استحباب وتخصيص الصالحين بالذكر ليس للاحتراز بل لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم، وقيل: المراد به الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه.

مسألة: النكاح واجب عند غلبة الشهوة إذا خاف الوقوع في الحرام، وفي النهاية إن كان له خوف وقوع الزنى بحيث لا يتمكن من التحرز عنه كان فرضاً، قال ابن همام ليس الخوف مطلقاً يستلزم بلوغه إلى عدم التمكن فليكن عند ذلك فرضاً وإلا فواجب ما لم يعارضه خوف الجور فإن عارضه خوف الجور كره، وأيضاً قال ابن همام أنه ينبغي تفصيل خوف الجور كتفصيل خوف الزنى فإن بلغ ما افترض فيه النكاح حرم وإلا كره كراهة تحريم، وفي البدائع قيد الافتراض في التوقان بملك المهر والنفقة فإن من تاقت نفسه بحيث لا يمكنه الصبر عنهن وهو قادر على المهر يعني على ما لا بد من تعجيله وعلى النفقة ولم يتزوج يأثم، وأما في حالة الاعتدال فقال داود وأمثاله من أهل الظواهر أنه فرض عين على الرجل والمرأة في العمر مرةً إن كان قادراً على الوطيء والإنفاق لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾(١) ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ وحديث سمرة «أن النبي ﷺ نهى عن التبتل»(٢) رواه الترمذي وابن ماجه، وقوله ﷺ لعكاف: هل لك زوجة؟ قال: لا، قال ولا جاريةٌ؟ قال: لا، قال: وأنتَ موسر بخير؟ قال: وأنا موسر، قال: «أنت إذن من إخوان الشياطين»(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «إن سنتنا النكاح شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم أبالشياطين يحرسون» رواه أحمد، وقد مرّ هذا الحديث وحديث أنس كان النبي ﷺ يأمر بالباءة وينهى عن التبتل نهياً شديداً ويقول: «تزوجوا الودود الولود إني مكاثر بكم الأتقياء يوم القيامة»(٤)، رواه أحمد وأبو داود والنسائي ونحوه في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾(٥) وقال بعض الحنفية

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النهي عن التبتل (١٠٧٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النهي عن التبتل (١٨٤٩).

(٣) رواه أحمد وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: النكاح، باب: الحث على النكاح وما جاء في ذلك (٧٢٩٧).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥١)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: كرهية تزويج العقي (٣٢١٨).

(٥) سورة النساء، الآية: ٣.

واجب على الكفاية وأدلة الوجوب على الكل لا ينفي كونه على الكفاية والمعرف لكونه يسقط بفعل البعض عن الباقين أن سبب شرعيته إبقاء المسلمين وعدم انقطاعهم وذلك يحصل بفعل البعض والإجماع على عدم كونه فرضاً على الأعيان، ولا عبرة بقول داود وأمثاله، وقيل واجب على الكفاية لأن قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾ مسوق لبيان العدد، وهذه الآية خطاب للأولياء موجب لعدم مما نعتهم إذا أراد الأيامى النكاح وأحاديث الآحاد لا توجب الفرضية، وقيل: سنة مؤكدة، وقيل: مستحب إذا كان قادراً على الوطىء والإنفاق ولا يخاف الجور وإلا فهو حرام أو مكروه، وجه كونه سنة فعله ﷺ وقوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود، وما روى ابن ماجه من حديث عائشة «النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصوم»(٢) في إسناده عيسى بن ميمون ضعيف، وفي الصحيحين من حديث أنس «لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٣) وروى الترمذي عن أبي أيوب «أربع من سنن المرسلين الحياء والتعطر والسواك والنكاح»(٤) وروى ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر»(٥) ما ذكرنا كله بمذهب علماء الحنفية رحمهم الله تعالى وبه قال أحمد.

وقال الشافعي: النكاح مستحب على كل حال إن كان قادراً على الوطىء والإنفاق ولا يخاف الجور لكن تركه لأجل الانقطاع للعبادة أفضل وإن خاف الجوار أولم يكن قادراً على الإنفاق أو الوطىء فعليه حرام أو مكروه، وفي حالة التوقان وخوف الوقوع في الحرام يتأكد في حقه ويكون أفضل من نوافل الصلاة والصوم والجهاد والحج وبه قال مالك، فحاصل كلام الفريقين أنه من خاف أن لا يقدر على أداء حقوق النكاح أو وقع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: من لم يستطع الباءة فليصم (٥٠٦٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤمن بالصوم (١٤٠٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في فضل النكاح (١٨٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (١٤٠١).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في فضل التزويج والحث عليه (١٠٧٤).

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: تزويج الحرائر والولود (١٨٦٢)، وإسناده ضعيف.

بالنكاح في أمر حرام فالنكاح في حقه مكروه أو حرام، ومن كان تائقاً يخاف على نفسه الزنى إن لم ينكح وهو قادر على أداء حقوق النكاح فالنكاح في حقه واجب على ما قال أبو حنيفة ومتأكد على ما قال الشافعي، قلتُ: لا أشك في أن ضد الحرام يعني الزنى واجب فلا بد من القول بالوجوب عند خوف الزنى، بقي الكلام في أنه من كان في حالة الاعتدال لا يخاف على نفسه إن لم ينكح ولا يخاف الجور وهو قادر على أداء حقوق النكاح فالنكاح في حقه وإن كان مستحباً سنة لكن ترك النكاح لأجل التخلّي للعبادة في حقه أفضل أم النكاح أفضل؟ قال أبو حنيفة النكاح أفضل من التبتل والتخلي للعبادة وقال الشافعي التخلي والتبتل أفضل وجه قول الشافعي إن الله سبحانه مدح يحيى بن زكريا عليهما السلام بعدم إتيان النساء مع القدرة عليه حيث قال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[1] أيضاً وهذا معنى الحصور، وقال ابن همام في جوابه إن حال يحيى ذلك كان أفضل في شريعتهم وقد نسخت الرهبانية في شريعتنا وإذا تعارض حال يحيى بحال نبينا ﷺ وجب تقديم حال النبي ﷺ، ألا ترى أن حال النبي ﷺ إلى الوفاة كان النكاح ومحال أن يقرر الله تعالى أفضل أنبيائه على ترك الأفضل مدة حياته، روى الشيخان في الصحيحين أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواجه عن عمله في السر فقال بعضهم: لا أتزوج النساء وقال بعضهم: لا آكل اللحم وقال بعضهم: لا أنام على فراش فبلغ ذلك النبي ﷺ وأثنى عليه وقال: ما بال أقوام قالوا كذا ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: «تزوجوا فإن خير هذه الأمة كان أكثرهم نساءً» يعني النبي ﷺ، وقد مر نهيه ﷺ عن التبتل نهياً شديداً.

وتحقيق المقام عندي أن من رأى من نفسه أن النكاح واشتغاله بأمر الأهل والعيال لا يمنعه عن الإكثار في الذكر والانقطاع إلى الله من غيره وتعمير الأوقات بالطاعات فالنكاح في حقه أفضل من تركه، وكان هذا شأن رسول الله ﷺ والصحابة وكثير من الأنبياء والصالحين من عباد الله وكيف لا يكون أفضل فإن مجاهدته أشد وأكثر من مجاهدة العزب فإن القيام على العبادة مع الموانع أكثر ثواباً منه مع عدم الموانع ومن أجل ذلك كان خواص البشر أفضل من خواص الملائكة وعوامهم أفضل من عوامهم ومن رأى من نفسه ضعفاً ورأى أن النكاح واشتغاله بأمور الأهل والعيال يمنعه من الإكثار في الذكر والانقطاع إلى الله وتعمير الأوقات ولا يخاف من نفسه الوقوع في الزنى فترك النكاح في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

حقه أفضل قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[٢] وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٣] وكيف يكون النكاح أفضل من الاشتغال بعبادات الله النافلة مع أن النكاح في نفسه أمر مباح ليس بعبادةٍ وضعاً واستحبابه إنما هو بالنظر إلى ما يترتب عليه من المصالح ولو كان النكاح في نفسه عبادة لكان الإسلام شرطاً لإتيانها كما هو شرط لسائر العبادات، وقد قال رسول الله ﷺ: «ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٤] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب، ولو كان النكاح في نفسه عبادة لكانت الهجرة لأجل النكاح هجرة لله تعالى، وقد قال رسول الله ﷺ: «حبب إليَّ من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة»[٥] رواه النسائي وكذا روى الطبراني وإسناده حسن وهو صريح في أن النكاح من الأمور الدنيوية المباحة كالطيب وتسميته سنة في قوله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين النكاح والتعطر» الحديث بمعنى كونه سنة زائدة من السنن العادية لا أنه من سنن الهدى فإن سنة الهدى ما واظب عليه النبي ﷺ على سبيل العبادة لا يقال أن قوله ﷺ «من رغب عن سنتي فليس مني» يدل على كونه من سنن الهدى لأنا نقول لا يدل هذا على ذلك لأن الرغبة عما فعله النبي ﷺ واستحسنه قبيح يوجب الإنكار والعتاب لكن تركه لا يوجب العتاب كما يوجب ترك سنة الهدى. فإن قيل: ورد في الحديث: «حبب إلي من الدنيا ثلاثة الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» فهذا اللفظ يدل على كون الصلاة أيضاً من الأمور الدنيوية؟ قلنا: قال الحافظ ابن حجر لم نجد لفظة ثلاث في شيء من الطرق المسندة وحديث «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى (٥٠٧٠).

وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قول النبي ﷺ «إنما الأعمال بالنية».

(٥) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

الصالحة»[١] رواه مسلم عن عمرو بن العاص مرفوعاً وهذا أيضاً يدل على كون النكاح من الأمور الدنيوية المباحة فكل أمر وقع في باب النكاح في الكتاب أو السنة محمول على الإباحة أو الاستحباب وأما حديث عكاف: «أنت إذن من إخوان الشياطين» واقعة حال محمول على حالة شدة التوقان وخوف الفتنة، ثم النكاح يكون عبادة باقتران النية بأن يريد كثرة أهل الإسلام وغض البصر ونحو ذلك، وهذا شيء غير مختص بالنكاح بل الأكل والشرب والبيع والشراء والإجارة وسائر المعاملات المباحة كلها مع اقتران حسن النية تصير عبادات قال رسول الله ﷺ: «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة» رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود ورواه الطبراني عن أنس بن مالك بلفظ «طلب الحلال واجب على كل مسلم» وكما أن النكاح فرض على الكفاية لبقاء النسل كذلك الأكل والشرب بقدر ما يسد الرمق فرض عين والتجارة وسائر أنواع الحرف فرض على الكفاية أيضاً لو تركها الناس أجمعون أختل أمر معاشهم ومعادهم قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[٢] رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري وحسنه ورواه ابن ماجه من حديث ابن عمر نحوه والبغوي في شرح السنة عن أنس نحوه، لكن حسن تلك الأشياء إنما هو بالغير وأما حسن الذكر والانقطاع إلى الله فإنما هو بذواتهما فأين هذا من ذاك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه: «لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه»[٣] الحديث رواه البخاري، ولم يقل الله سبحانه لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنكاح أو بالأكل والشرب، وقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليَّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين» رواه البغوي في تفسير سورة الحجر.

وما قيل في جواب حال يحيى أنه كان أفضل في شريعتهم وقد نسخت الرهبانية في شريعتنا فليس بشيء بل النكاح كان أفضل من العزوبة في كل دين كما يدل عليه قوله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين وعد منها النكاح» وقد كان آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وأيوب وداود وسليمان وزكريا كلهم كانوا متزوجين وكانواأفضل من يحيى عليه السلام فلعل يحيى عليه السلام رأى التزوج في حقه مخلاً ببعض

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الرضاع، باب: خير متاع الدنيا المرأة الصالحة (١٤٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم (١٢٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

أمور أفضل منه، وأيضاً كون الرهبانية مشروعةً في دين عيسى ويحيى ومنسوخةً في ديننا ممنوع بل الرهبانية التي كانت النصارى تفعلها كانت مبتدعة حيث قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾(١) وما ورد في الأحاديث أن النبي ﷺ نهى عن التبتل وعن الرهبانية فليس المراد منه أنه ﷺ نهى عن التخلي للذكر والانقطاع عن الخلق إلى الله تعالى كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾(٢) وقال رسول الله ﷺ: «خير مال المسلم الغنم يتبعها شغف الجبال يفر بدينه عن الفتن»(٣) رواه البخاري بل المراد أنه ﷺ نهى عن ترك الأمور المباحة التي لا مثوبة عند الله في تركها كالنكاح والنوم على الفراش وأكل اللحم والكلام مع الناس كما كانت الرهبان من النصارى تفعلها قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(٤) فالممنوع هو الرهبانية المبتدعة دون الرهبانية المشروعة وقد ووقع في الحديث في مدح أصحاب رسول الله ﷺ أنهم رهبان بالليل ليوث بالنهار والله أعلم.

فائدة: قال البغوي تأييداً لمذهب الشافعي إن في الآية دليلاً على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء، لأن الله تعالى خاطبهم به كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادة لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أراد البغوي أن الآية تدل على أن لا يجوز نكاح الحرة العاقلة البالغة بعبارتها من غير ولي وقد ذكرنا لهذه المسألة واختلاف العلماء فيها وأدلتهم في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾(٥) والاستدلال بهذه الآية في هذه المسألة لا يصح لأن الأيم يعم الرجل والمرأة الصغيرين والكبيرين والبكر والثيب وقد أجمعوا على أن نكاح الرجال البالغين ليس إلى الأولياء وعلى أن النكاح الباكرة الصغيرة إلى الأولياء فتخصيص هذه الآية بالنساء ليس أولى من تخصيصها بالصغار والصغائر، وأيضاً يحتمل التجوز في لفظ الإنكاح ولعله أراد بالإنكاح عدم منعهم من النكاح وتأييدهم فيه وفي الآية دليل على أن المملوك إذا طلب من المولى أن يزوجه وجب عليه تزويجه وكذلك المرأة البالغة إذا طلبت من الولي تزويجها وجب

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٢) سورة المزمل، الآية: ٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: من الدين الفرار من الفتن (١٩).

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

على الولي إنكاحها، هذا على أصل الشافعي ومن يقول بعدم جواز النكاح بعبارة النساء وأما على أصل أبي حنيفة فمعنى الوجوب على الولي أنه يحرم عليه منعها من النكاح فهذه الآية في هذه المسألة نظيرة لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[١] رواه الترمذي، وعن عمر بن الخطاب وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «في التوراة مكتوب من بلغت ابنته اثنتي عشرة سنة ولم يزوجها فأصابت إثماً فإثم ذلك عليه» وعن أبي سعيد وابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ: «من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه فإذا بلغ فليزوجه فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً فإنما إثمه على أبيه» روى الحديثين البيهقي في شعب الإيمان.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ رد لما عسى أن يمنع من النكاح يعني لا يمنعنكم من النكاح الفقر فإن الله متكفل لأرزاق العباد كلهم والمال غاد ورائح، وقيل المراد بالغنى ها هنا القناعة، وقيل اجتماع الرزقين رزق الزوج ورزق الزوجة والأول أصح فهو وعد من الله بالإغناء للناكح، قال البغوي قال عمر عجب لمن يبتغي الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[٢] وروى البزار والخطيب والدارقطني من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «تزوجوا النساء فإنهن يأتين بالمال» رواه أبو داود في مراسيله عن عروة مرسلاً، وروى الثعلبي والدايلمي صاحب مسند الفردوس من حديث ابن عباس «التمسوا الرزق بالنكاح» قلتُ: ولعل لهذا الوعد لمن أراد التعفف بالنكاح وتوكل على الله في الرزق يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ يعني من لا يجد أسباب النكاح وما لا بد منه للناكح من المهر المعجل والنفقة ومنعه فقره من أن ينكح خوفاً من الجور وفوات حقوق النكاح فعليه أن يجتهد في العفة ودفع الشهوة بالصوم وقلة الطعام ونحو ذلك حيث قال رسول الله ﷺ: «ومن لم يستطع - يعني النكاح - فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[٣] ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي يوسع عليهم من رزقه والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه (١٠٧٨).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: من لم يستطع الباءة فليصم (٥٠٦٦).

أخرج ابن السكن في معرفة الصحابة عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة فأبى فنزلت ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أي يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمة، الموصول مع صلته مبتدأ خبره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ جيء بالفاء لكون المبتدأ متضمناً لمعنى الشرط أو الموصول منصوب بفعل مضمر يفسره قوله فكاتبوهم والفاء زائدة، قال البغوي لما نزلت هذه الآية كاتب حويطب عبده على مائة دينار ووهب له عشرين فأدّاها فقتل يوم حنين في الحرب، وهذا أمر استحباب عند جمهور العلماء حتى قال صاحب الهداية وهذا ليس بأمر إيجاب بإجماع بين الفقهاء وإنما هو أمر ندب وهو الصحيح يعني القول بأنه أمر إباحة كما قال بعض مشايخنا. . . . غير صحيح إذ في الحمل على الإباحة إلغاء الشرط إذ هو مباح بدونه وأما الندبية فمعلق به، وأجيب بأن الشرط خرج مخرج العادة لأن المولى لا يكاتب عبده عادةً إلا إذا علم فيه خيراً، وورث عن بعض المتقدمين بأنه للوجوب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار وقال أحمد في رواية عنه بوجوبها إذا طلب العبد من سيده مكاتبة على قدر قيمته أو أكثر لما روى ابن سيرين سأل أنس بن مالك أن يكاتبه فتلكأ عنه فشكى إلى عمر فعلاه بالدرة فأمره بالكتابة فكاتبه كذا ذكر البغوي في تفسيره، والكتابة عقد معاوضة يدل عليه صيغة المفاعلة يبتاع العبد من سيده نفسه بما يؤديه من كسبه واشتقاقه من الكتابة بمعنى الإيجاب فيشترط فيه الإيجاب والقبول من الجانبين وليس هو إعتاقاً معلقاً بأداء المال فيجوز كتابة العبد الصغير إذا كان يعقل البيع والشراء لتحقق الإيجاب والقبول إذ العاقل من أهل القبول والتصرف نافع في حقه، ولا يجوز كتابة مجنون وصبي لا يقعل لعدم تحقق القبول منه فلو أدى عنه غيره لا يعتق ويستردّ ما دفع، وصفته عند أبي حنيفة أن يقول المولى لعبده كاتبتُك على مال كذا ويقول العبد قبلتُ فيعتق بأدائه وإن لم يقل المولى إذا أديتها فأنت حر لأنه موجب العقد فيثبت من غير تصريح كما في البيع وبه قال مالك وأحمد وقال الشافعي يشترط أن يقول المولى كاتبتُك على كذا من المال منجماً إذا أديته فأنت حر فإن ترك لفظ التعليق ونواه جاز، ولا يكفي لفظ الكتابة بلا تعليق ولا نية ويقول قبلتُ كذا في المنهاج.

مسألة: ويجوز في الكتابة أن يشترط المال حالاً ويجوز مؤجلاً ومنجماً وقال الشافعي وأحمد لا يصح حالاً ولا بد من نجمين لأنه عاجز عن التسليم في زمان قليل لعدم الأهلية قبله للرق، ولنا: الإطلاق في الآية من غير شرط التنجيم وقد ذكرنا أنه عقد معاوضة والبدل معقود به فأشبه الثمن في البيع في عدم اشتراط القدرة على التسليم، حتى جاز للمفلس

اشتراء أموال عظيمة ومن الجائز أن يرزق العبد على فور الكتابة أموالاً عظيمةً بطريق الهبة أو الزكاة فإن كانت الكتابة حالاً وامتنع من الأداء جاز للمولى رده إلى الرق.

مسألة: وإذا صحت الكتابة خرج المكاتب عن يد المولى ليتحقق مقصود الكتابة وهو أداء البدل فيملك البيع والشراء والخروج إلى السفر وإن نهاه المولى ولا يخرج عن ملكه إجماعاً، لأنه عقد معاوضة فلا يخرج عن ملك المولى ما لم يدخل البدل في ملكه.

مسألة: والكتابة عقد لازم من جهة المولى اتفاقاً فلا يجوز للمولى فسخه إلا برضاء العبد لأنها موجب للعبد استحقاق العتق والعتق لا يحتمل الفسخ فكذا استحقاقه، ولأنه عبادة كالعتق ففسخه يوجب إبطال العمل وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[1] لكنه غير لازم من جهة العبد فلا يجبر العبد على الاكتساب بل تفسخ الكتابة برضائه عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد، غير أنه إن كان بيد المكاتب مال يفي بما عليه يجبر على الأداء عند أبي حنيفة وليس له حينئذ فسخ الكتابة لأنه حينئذ متعنِّت، وقال مالك ليس للعبد تعجيز نفسه مع القدرة على الاكتساب فيجبر على الاكتساب حينئذ.

مسألة: وإذا لم يخرج المكاتب عن ملك المولى جاز للمولى أن يعتقه فيعتق مجاناً ويسقط بدل الكتابة عن ذمته لأنه ما التزم إلا مقابلاً بالعتق وقد حصل له دونه فلا يلزمه، والكتابة وإن كانت لازمةً من جانب المولى لكنها يفسخ برضاء العبد والظاهر رضاؤه توسلاً إلى عتقه بغير بدل.

مسألة: وإذا لم يخرج من ملكه جاز للمولى بيع رقبة المكاتب عند أحمد ولا يكون البيع فسخاً للكتابة بل يقوم المشتري فيه مقام البائع وهو القول القديم للشافعي، وقال أبو حنيفة ومالك لا يجوز بيع رقبة المكاتب إلا برضاه فهو فسخ للكتابة وهو القول الجديد للشافعي، لكن عند مالك جاز بيع المكاتبة والدين المؤجل بثمن حال إن كان عيناً فيعرض أو عرضاً فتعين. وجه قول أبي حنيفة ومن معه أن المكاتب استحق يداً على نفسه لا زمةً في حق المولى ولو ثبت الملك بالبيع للمشتري لبطل ذلك وقد علمت أن ثبوت الملك للمشتري لا يقتضي فسخ الكتابة عند أحمد، ولا يبطل استحقاق المكاتب يداً على نفسه بل يقوم المشتري فيه مقام البائع وقد رضي المشتري بذلك إن علم كونه مكاتباً وإن لم يعلم كان للمشتري حق فسخ البيع، احتج أحمد بحديث عائشة أن بريرة

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٣.

جاءت عائشة تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً فقال رسول الله ﷺ: «ابتاعي فاعتقي فإنما الولاء لمن أعتق» رواه أحمد وأصله في الصحيحين أنها قالت: جاءت بريرة عائشة فقالت إني كاتبت على تسع أواق في كل عام أوقية فأعينيني فقالت عائشة إن أحب أهلكِ أن أعدها لهم عدة واحدة وأعتقكِ فعلتُ ويكون الولاء لي، فذهبت إلى أهلها فأبوا ذلك عليها فقالت إني قد عرضتُ ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم فسمع بذلك رسول الله ﷺ فسألني فأخبرته فقال: «خذيها فأعتقيها واشترطي لهم الولاء فإن الولاء لمن أعتق»[١] الحديث، وروى النسائي هذه القصة عن بريرة نفسها وفي هذا الحديث ليس حجة لأحمد فإن النزاع فيما إذا كان بيع المكاتب بغير رضاه وأما إن كان برضاه فأظهر الروايتين عن أبي حنيفة جواز البيع حينئذ وقد كان بيع بريرة برضاها، ولذلك عقد البخاري باب بيع المكاتب إذا رضي.

مسألة: لا يعتق المكاتب إلا بأداء كل البدل لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال؛ «المكاتب عبد ما بقي من مكاتبة درهم»[٢] رواه أبو داود والنسائي والحاكم من طرق، ورواه النسائي وابن ماجه من وجه آخر من حديث عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث طويل ولفظه «ومن كان مكاتباً على مائة أوقية وقضاها إلا أوقية فهو عبد» قال النسائي هذا حديث منكر وقال ابن حزم عطاء هذا هو الخراساني لم يسمع من عبد الله بن عمرو، ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من كاتب عبده على مائة أوقية فأداها إلا عشر أواق أو قال عشرة دنانير ثم عجز فهو رقيق» وروى مالك في الموطأ عن نافع عن ابن عمر موقوفاً: المكاتب عبد ما بقي عليهم درهم ورواه ابن قانع من طريق آخر عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً وأعله، قال صاحب الهداية في هذه المسألة اختلاف الصحابة، قال في الكفاية قال زيد بن ثابت مثل قولنا وقال علي يعتق بقدر ما أدى، وقال ابن مسعود إذا أدى قد رقيمته يعتق وفيما زاد ذلك يكون المولى غريماً من غرمائه، وقال ابن عباس يعتق بنفس الكتابة ويكون المولى غريماً من غرمائه، وإنما اخترنا قول زيد للحديث المرفوع قلتُ: وقد روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أصاب المكاتب حداً أو ميراثاً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: إذا اشترط شروطاً في البيع لا تحل (٢١٦٨).

وأخرجه مسلم في كتاب: العتق، باب: إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: العتق، باب: في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت (٣٩٢٠).

ورث بحساب ما عتق منه»[١] وفي رواية له قال: «يؤدي المكاتب بحصة ما أدى دية حر وما بقي دية عبد» وضعفه، وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان عند مكاتب إحداكن وفاء فليحتجب منه»[٢] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

مسألة: وإذا عجز المكاتب عن نجم نظر الحاكم في حاله فإن كان له دين يقتضيه أو مال يقدم عليه لم يعجل بتعجيزه وانتظر ثلاثة أيام ولا يزاد عليه وإن لم يكن له وجه وطلب المولى تعجيزه عجزه وفسخ الكتابة عند أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف لا يعجزه حتى يتوالى عليه نجمان، ولا يجوز للمولى تعجيزه إلا بالقضاء أو برضاء العبد.

مسألة: ما أدى المكاتب من الصدقات إلى مولاه ثم عجز فهو طيب للمولى وإن كان غنياً أو هاشمياً لتبدل الملك فإن العبد يتملك صدقةً والمولى عوضاً عن العتق وإليه وقعت الإشارة النبوية في حديث عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: دخل رسول الله ﷺ والبرمة تفور بلحم فقرب إليه خبز وأدم من أدم البيت، فقال ألم أر برمة فيها لحم؟ قالوا: بلى ولكن ذلك لحم تصدق على بريرة وأنت لا تأكل الصدقة قال: «هو عليها صدقة ولنا هدية»[٣] متفق عليه، بخلاف ما إذا أباح للغني أو الهاشمي لأن المباح له يتناوله على ملك المبيح فلم يتبدل الملك فلم يتطيب ونظيره المشتري شراءً فاسداً إذا أباح لغيره لا يطيب له ولو ملّله يطيب له.

مسألة: إذا مات المكاتب قبل أداء بدل الكتابة مات رقيقاً عند الشافعي وأحمد ويرتفع الكتابة سواء ترك مالاً أو لم يترك كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع، قال البغوي وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وعمر بن عبد العزيز وقتادة، وقال أبو حنيفة ومالك والثوري وعطاء وطاووس والحسن البصري والنخعي إن ترك ما يفي ببدل الكتابة فهو حرٌّ وبدل الكتابة للمولى والزيادة لورثته الأحرار.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال ابن عمريعني قوةً على الكسب وهو قول مالك والثوري،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في المكاتب إذا كان عنده ما يؤدي (١٢٥٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الديات، باب: في دية المكاتب (٤٥٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في المكاتب إذا كان عنده ما يؤدي (١٢٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الهبة وفضلها، باب: قبول الهدية (٢٥٧٧ وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إباحة الهدية للنبي ﷺ (١٠٧٤).

وقال الحسن والضحاك ومجاهد يعني مالاً لقوله تعالى في الوصية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[1] أي مالاً، روي أن عبداً... لسلمان قال له كاتبني قال: لك مال؟ قال: لا، قال: تريد أن تطعمني من أوساخ الناس ولم يكاتبه، وهذا القول ضعيف لأن العبد وما في يده من المال ملك المولى إذ هو ليس أهلاً لمالكية المال... للمنافاة بين المالكية والمملوكية والواجب عليه الأداء مما يملكه بعدما صار أهلاً لمالكية المال يداً، وقال الزجاج لو أراد المال لقال إن علمتم لهم خيراً، وقال إبراهيم بن زيد وعبيد صدقاً وأمانةً، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: أمانةً ووفاءً وقال الشافعي أظهر معاني الخير في العبد الاكتساب مع الأمانة فأحب أن لا يمتنع من كتابته إذا كان كذا، وقال صاحب الهداية المراد بالخير أن لا يضرُّ بالمسلمين وإن كان يضرُّ بهم بأن كان كافراً يعين الكفار أو نحو ذلك يكره كتابته ولكن تصح لو فعله، وحكى عن عبيدة في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي أقاموا الصلاة وقيل وهو أن يكون العبد عاقلاً بالغاً فأما الصبي والمجنون فلا يصح كتابتها لأن الابتغاء منهما لا يصح، قلتُ رتب الله سبحانه الأمر بالكتابة على قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ فاشتراط العقل فهم منه فيكون هذا الشرط على هذا التقدير لغواً واشتراط البلوغ لا وجه له لأن الصبي العاقل يتحقق منه الابتغاء.

مسألة: العبد الذي لا كسب له لا يكره كتابته عند أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في رواية عنه وفي رواية عن أحمد يكره بناءً على إرادة قدرة الاكتساب من الخير، قلتُ: لو سلمنا كون قدرة الاكتساب شرطاً لاستحباب الكتابة فانعدام شرط الاستحباب لا يقتضي الكراهة، كيف ويمكنه الوصول إلى المال بقبول الصدقات.

مسألة يكره كتابة الأمة الغير المكتسبة اتفاقاً لأنها عسى أن تكتسب المال بالزنى والله أعلم.

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ حث لجميع الناس على إعانتهم بالتصدق عليهم فريضةً كانت أو نافلةً، وقيل: المراد سهمهم الذي جعل الله لهم من الصدقات المفروضات بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾[2] وهو قول الحسن وزيد بن أسلم، ولفظ الآية لا يقتضي تخصيص الصدقات بالمفروضة فإن هذا الأمر أيضاً للاستحباب كالأمر بالكتابة، وقيل: هذا خطاب للسادة فقيل يستحب للمولى أن يحط من بدل الكتابة شيئاً وقيل يجب

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٣.

عليه ذلك، قال البغوي وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة وبه قال الشافعي ثم اختلفوا في قدره؟ فقال قوم حط عنه ربع الكتابة وهو قول علي أخرجه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن عبد الرحمن السلمي ورواه بعضهم عن علي مرفوعاً، وعن ابن عباس يحط عنه الثلث وقيل: يحط عنه ما شاء وهو قول الشافعي قال نافع كاتب عبد الله بن عمر غلاماً له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع في آخر كتابته خمسة آلاف درهم، وقال سعيد بن جبير كان ابن عمر إذا كاتب لم يضع عن مكاتبه من أول نجومه مخافة أن يعجز فيرجع إليه صدقته ووضع في آخر كتابته ما أحب، قلت: تفسير الإيتاء بالحط غير صحيح لأن الإيتاء يدل على التمليك ولا تمليك في الحط ومن ها هنا قال أبو حنيفة لا يجب على المولى قط شيء من البدل اعتباراً بالبيع فإنه عقد معاوضة ولا يجب الحط في سائر المعاوضات فكذا فيها وهذا لأن الكتابة سبب لوجوب مال الكتابة على العبد فلا يجوز أن يكون بعينه سبباً لاستحقاق الحط الذي هو ضد الوجوب كالبيع، قلتُ: بدل الكتابة غير مقدر إجماعاً فلو كان حط شيء من بدل الكتابة واجباً على المولى لكان للمولى أن يكاتبه على الألف إذا أراد كتابته على سبعمائة فيحط عنه ثلاثمائة ويخرج عن العهدة ولا فائدة في ذلك.

أخرج مسلم من طريق أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال: كان عبد الله بن أبي سلول يقول لجارية له إذهبي فأبغينا شيئاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ يعني إمائكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ يعني على الزنى عطف على قوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ عطف النهي على الأمر وما بينهما معترضات، وأخرج مسلم من هذا الطريق أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة فكان يريدهما على الزنى فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، وأخرج الحاكم من طريق أبي الزبير عن جابر قال كانت مسيكة لبعض الأنصارفقالت إن سيدي يكرهني على البغاء فنزلت، وأخرج البزار والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كانت لعبد الله بن أبي جارية تزني في الجاهلية فلما حرم الزنى قالت: والله لا أزني فنزلت، وأخرج البزار بسند ضعيف عن أنس نحوه وسمى الجارية معاذة، وأخرج سعيد بن منصور عن سفيان عن عمور بن دينار عن عكرمة أن عبد الله بن أبي كانت له أمتان مسيكة ومعاذة فكان يكرههما على الزنى فقالت إحداهما إن كان خيراً فقد استكثرتُ منه وإن كان غير ذلك فإنه ينبغي أن أدعه فأنزل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ (٣٠٢٩).

الله، قال البغوي وروي أنه جاءت إحدى الجاريتين يوماً ببرد وجاءت الأخرى بدينار فقال لهما فارجعا فازنيا قالتا والله لا نفعل قد جاء الإسلام وحُرم الزنى فأتتا رسول الله ﷺ وشكتا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الثعلبي من حديث مقاتل أنه كان لعبد الله بن أبي ست جواري الحديث فنزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي تعففاً، قال البيضاوي: ليس هذا شرطاً قيداً للإكراه فإنه لا يوجد بدونه وإن جعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي بارتفاع المنهي عنه يعني عند عدم إرادة التحصن يمتنع الإكراه بل يتحقق الزنى طوعاً، قلتُ: إن ها هنا بمعنى إذا وهو ظرف ليس بشرط والكلام خرج كذلك لمطابقة سبب النزول واختير أن موضع إذا للدلالة على أن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر وفي هذا التقييد توبيخ للمولى وتشنيع لهم على إكراههم وتنبيه على أنهن مع قصور عقلهن واشتهاء أنفسهن لما أردن تحصناً فأنتم أيها السادة مع أنكم رجال غيور أحق بذلك، وقال الحسين وفضيل في الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنكحوا الأيامى منكم إن أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴿لِّتَبْتَغُوا﴾ لتطلبوا أيها السادة بإكراههن ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني كسبهن وبيع أولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني للمكرهات والوزر على المكرِه لما كان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله ولما في مصحف ابن مسعود من بعد إكراههن لهن غفور رحيم أخرج هذه القراءة عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود وعلى هذا التأويل قوله: من يكرههن مبتدأ خبره محذوف لأن الجملة التالية لا تصلح أن تكون خبراً له لعدم العائد إلى المبتدأ تقديره ومن يكرههن فعليه وزرهن فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم ولو قيل: تأويل الآية فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم له أي لمن أكره إن تاب جاز كونه خبراً للمبتدأ لكنه بعيد لأن سياق الكلام للتوبيخ لمن أكره وذا لا يناسب الوعد بالمغفرة والرحمة كيف والآية نزلت في عبد الله بن أبي المنافق وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

فإن قيل: المكرَهة غير آثمة فلا حاجة إلى المغفرة؟ قلنا: الإكراه بجملته لا ينافي أهلية الأداء لوجود الذمة والعقل ولا يوجب وضع الخطاب بحال لأن المكره مبتلى والابتلاء يحقق الخطاب ولذلك حرم على المكره بالقتل ونحوه الزنى إن كان رجلاً

(١) سورة المنافقون، الآية: ٦.

اتفاقاً، وكذا حرم قتل النفس على المكره بالفتح مطلقاً اتفاقاً ووجب عليه القصاص عند زفر خلافاً لأبي حنيفة على ما حقق في موضعه غير أنه تعالى رفع الإثم ورخص في مواضع كإجراء الكفر على اللسان إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان، وإفساد الصلاة والصوم والإحرام وإتلاف مال الغير إذا كان الإكراه كاملاً، ورفع الإثم والرخصة إنما هو أثر الرحمة والمغفرة ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] حيث ذكر المغفرة والحرمة مع رفع الإثم، ويمكن أن يقال إن رفع الإثم إنما هو في الإكراه الملجىء وهو ما يخاف منه المكره تلف نفس أو عضو ممن يقدر على إيقاعه والكلام ها هنا في إكراه عبد الله بن أبي علي أمتيه والظاهر أن ذلك لم يكن ملجئاً فلم يرتفع الإثم والله علم.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا محمد في هذه السورة جواب قسم محذوف ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ قرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بالكسر على صيغة اسم الفاعل يعني آيات بينات الأحكام والحدود أو من بين بمعنى تبين يعني واضحات تصدقها الكتب المقدمة والعقول السليمة، وقرأ الباقون بالفتح على صيغة اسم المفعول يعني آيات بينات في هذه السورة وأوضحت فيها الأحكام والحدود ﴿وَمَثَلًا مِّنَ﴾ جنس أمثال ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني قصةً عجيبةً مثل قصصهم وهي قصة عائشة فإنها كقصة يوسف ومريم، أو المعنى شبيهاً من حالهم بحالكم أيها القاذفون أن يلحقكم مثل ما لحق من قبلكم من المفترين ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وعظ بها في تلك الآيات ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها وقيل المراد بالآيات القرآن وهو موصوف بالصفات المذكورة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور في الأصل كيفية يدركها الباصرة أولاً ويدرك بها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجسام الكثيفة المحاذية لهما وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى فهو ليس

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

على ظاهره ويدل عليه إضافته إلى ضميره تعالى في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فالمعنى إما بتقدير المضاف أو على المبالغة كقولك زيد كرم أي ذو كرم أو كريم غاية الكرم كأنه نفس الكرم مبالغة أو هو مصدر بمعنى الفاعل يعني منور السموات والأرض بالشمس والقمر والكواكب وبالأنبياء والملائكة والمؤمنين كذا قال الضحاك ويقال منور الأرض بالنبات والأشجار، وقيل معناه الأنوار كلها منه يقال فلان رحمة أي منه الرحمة، وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح يقول القائل إذا سار عبد الله من مرو ليلةً، فقد سار منها نورها وجمالها، وقيل: المعنى مدبرها من قولهم للرئيس الفائق في التدبير نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، وقيل: معناه موجدها فإن النور ظاهر لذاته مظهر لغيره وأصل الظهور الوجود كما أن أصل الخفاء العدم والله سبحانه موجود بذاته موجد لكل ما عداه، أو الذي به يدرك أو يدرك أهلها من حيث أنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه، ثم على البصرية لأنها أفوق إدراكاً فإنها يدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودة والمعدومة وتغوص في بواطنها ويتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكات لبست لأهلها لذواتها ولا لما فارقتها فهي إذن من سبب يفيضها عليه، وهو الله سبحانه ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سموا أنواراً ويقرب من هذا القول ما ذكر البغوي من قول ابن عباس أن معناه هادي أهل السماوات والأرض فهم بنوره يعني بهدايته إلى الحق يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون فإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه، أو لاشتمالها على الأنوارا لحسية والعقلية وقصور الإدراكات البشرية عليها وعلى المتعلق والمدلول بهما.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي صفة نور الله في قلب المؤمن الذي يهتدي به إلى ذاته تعالى وصفاته وتصديق ما قال مما لا يستبد في إدراكه عقول الفحول ويرى به الحق حقاً والباطل باطلاً قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(١) قال البغوي كان ابن مسعود يقرأ: مثل نوره في قلب المؤمن، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل نوره الذي أعطى المؤمن، وقال بعضهم الضمير عائد إلى المؤمن وكان أبي يقرأ مثل نور قلب من آمن وهو عبد جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، وقال الحسن وزيد بن أسلم أراد بالنور القرآن، وقال سعيد بن جبير والضحاك هو محمد ﷺ، وقيل: أراد بالنور الطاعة سمى طاعة الله نوراً وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي الكوة التي لا منفذ لها فإن كان لها منفذ فهي الكوة، قيل: هي حبشية وقال مجاهد هي القنديل والمضاف مقدر

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

والمعنى مثل نوره كمثل نور مشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي سراج مفعال من الصبح بمعنى الضوء ومنه الصبح بمعنى الفجر ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي في قنديل من الزجاج، قال الزجاج إنما ذكر الزجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء وضوؤه يزيد في الزجاج وهذه الجملة صفة للمصباح والعائد المظهر الموضوع موضع المضمر ثم وصف الزجاجة بقوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ الجملة صفة لزجاجة والعائد فيها أيضاً المظهر الواقع موضع الضمير، قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال والمد والهمزة وهذا الوزن شاذ، قال أكثر النحاة ليس في كلام العرب فُعِيل بضم الفاء وكسر العين، وقال أبو عبيدة أصله فعول من دراأت مثل سبوح، ثم استثقلوا كثرة الضمات فردوا بعضها إلى الكسرة كما قالوا عُتِيًّا بضم العين من العتو، وعلى هذين القرائتين هو مشتق من الدرء بمعنى الدفع فإنه يدفع الظلام بضوئه أو يدفع بعض ضوئه بعضاً من لمعانه أو يدفع الشياطين من السماء وشبَّهَه بحالة دفعة الشياطين لأنه يكون في تلك الحالة أضوء وأنور ويقال هو من درأ الكوكب إذا اندفع فيتضاعف ضوؤه في ذلك الوقت، وقيل: درأ بمعنى طلع يقال درأ النجم إذا طلع وارتفع ويقال درأ علينا فلان أي طلع وظهر والمعنى كأنها كوكب طالع، وقرأ الآخرون بضم الدال وتشديد الراء والياء منسوب إلى الدُّر في صفائه وحسنه. فإن قيل: الكوكب أكثر ضوءاً من الدر فما وجه نسبته إليه؟ قلنا: معناه أنه أضوء وأحسن من سائر الكواكب كما أن الدر أضوء وأحسن من سائر الحبوب، وقيل: الكوكب الدري واحد من الكواكب الخمسة العظام وهي الزحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد قلت لعل ذلك الكوكب هي الزهرة لكونها أضوء من غيرها، قيل: شبه بالكوكب ولم يشبه بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب، قلتُ: بل وجه ذلك أن المصباح يُشَبَّه بالشمس حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1] فشبه الزجاجة بالكوكب ليدل على انحطاط رتبة الزجاجة من رتبة المصباح ولو قال كأنها شمس لزم فضل الزجاجة على المصباح وهو مخل بالمقصود، ﴿يُوقَدُ﴾ خبر ثان للمصباح أو حال من الضمير المستكن في الظرف المستقرب أعني في زجاجة العائد إلى المصباح، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح التاء الفوقانية وفتح الواو والقاف المشددة والدال على صيغة الماضي من التفعل بمعنى توقد المصباح أي اتقدت يقال توقدت النار أي اتقدت، والباقون على صيغة المضارع المجهول من الأفعال فأبو بكر وحمزة والكسائي بالتاء الفوقانية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة بحذف المضاف

---

(١) سورة نوح، الآية: ١٦.

والتقدير توقد نار الزجاجة لأن الزجاجة لا توقد، والباقون بالياء التحتانية على أن الضمير للمصباح أي يوقد المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ من للابتداء يعني ابتداءً يوقد المصباح من شجرة أو للسببيَّة على حذف المضاف أي من دهن شجرة، أبهم الشجرة ثم وصفها بقوله ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ ثم أبدلها وبينها بقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ تعظيماً لشأنها وتفخيماً لأمرها لأنها كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة فإن الزيت يسرح به وهو أصفى وأضوء الأدهان وهو إدام وفاكهة ولا يحتاج في استخراجه إلى عصّار بل كل واحد يستخرجه، قال البغوي جاء في الحديث أنه مصحح من الناسور وهي شجرة توقد من أعلاها إلى أسفلها، ذكر البغوي عن أسيد بن ثابت أو أسيد الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه شجرة مباركة»[(١)] ورواه الترمذي عن عمر مرفوعاً وأحمد والترمذي والحاكم عن أبي سيد مرفوعاً ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه طيب مبارك»[(٢)] ورواه أبو نعيم في الطلب عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه شفاء من سبعين داء منها الجذام» ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ صفة لزيتونةٍ وحرف النفي جزء من المحمول، قيل معناه ليس بمضحى تشرق عليها الشمس دائماً فتحرقها ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ولا في مقناة تغرب وتغيب عنها الشمس دائماً فتتركها نياً وهو قول السدي وجماعة، وقيل معناه لا شرقية عليها الشمس عند طلوعها فقط ولا غربية تقع عليها الشمس عند غروبها دون طلوعها بل هي نابتة على قلة أو في صحراء واسعة تقع عليها الشمس دائماً فيكون ثمرها أنضج وزيتها أصفى، قال البغوي وهذا كما يقولون فلان لا بأبيض ولا بأسود يريدون ليس بأبيض خالص ولا بأسود خالص بل اجتمع فيه الأمران يقال هذا الرُّمَّان ليس بحامض ولا حلو أي بل اجتمع فيه الحموضة والحلاوة وهو قول ابن عباس في رواية عكرمة والكلبي والأكثرين، وقيل: معناه غير نابتة في مشرق الأرض ولا في مغربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيتون الشام يكون أجود، وقال الحسن ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا كانت شرقية أو غربية وإنه مثل ضربه الله لنوره، قلتُ وعلى هذا القول لعل الله سبحانه أراد شجرة من أشجار الجنة ومثل نوره بنور زيتون الجنة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ أي دهنها ﴿يُضِيٓءُ﴾ بنفسه لتؤلؤه وفرط وبيصه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأطعمة، باب: ما جاء في أكل الزيت (١٨٥٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: الزيت (٣٣٢٠).

(٢) رمز السيوطي لحسنه وقال النووي: إسناده حسن، وروى بمعناه أحمد والدارمي والطبراني، انظر: فيض القدير (٩٩١).

نَارٌ﴾ يعني قبل أن يصيبه النار، هذه الجملة صفة أخرى لزيتونة وفيه مبالغة في بيان صفاء... زيت الزيتون وبياضه، وكلمة يكاد موجب لتصحيح المقال ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ به ﴿نُّورٌ﴾ بالنار فهو نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إناراته وصفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط مشكاة لا منفذ فيه، قال البغوي اختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل؟ قال بعضهم وقع التمثيل لنور محمد ﷺ، قال ابن عباس لكعب الأحبار أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه ﷺ فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيها النبوة يكاد نور محمد ﷺ وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما كان يكاد ذلك الزيت أن ﴿يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ولنعم ما قال كعب فها أنا أذكر فصلاً في ظهور أمر نبوته قبل أن يبعث وقبل أن يتكلم أنه نبي.

فصل

وفي معجزاته التي ظهرت قبل بعثته ﷺ ذكر في خلاصة السير أنه قالت أم النبي ﷺ رأيت في المنام حين حملتُ به أنه خرج مني نور أضاء له قصور بصرى من الشام ثم وقع حين ولدته أنه لواضع... بالأرض رافع رأسه إلى السماء، وقال الحافظ ابن حجر: إن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت لها قصور الشام وقال صححه ابن حبان والحاكم، وعند أبي نعيم في الدلائل أنه ﷺ لما ولد ذكرت أمه أن الملك غمسه في ماء أنبعه ثلاث مرات ثم أخرج صرة من حرير أبيض فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه كالبيضة المكنونة تضيء كالزهرة، وروى البيهقي وابن أبي الدنيا وابن السكن أن ليلة ميلاده ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة وأفزع كسرى وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغارت بحيرة سلوة، وفي حديث عائشة: كان يهودي سكن مكة يتجر فيها قال ليلة مولد رسول الله ﷺ يا معشر قريش ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف الفرس فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه فقالوا أخرجي المولود ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشياً عليه قالوا: مالك مالك؟ قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل» رواه الحاكم وفي المواهب اللدنية قصة عميصا الراهب كان يقول لأهل مكة يوشك أن يولد منكم يا أهل مكة مولوديدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه، فلما ولد قال لعبد المطلب قد ولد لك المولود الذي كنتُ أحدثكم عنه، وعن العباس بن عبد المطلب قال قلتُ: يا رسول الله دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوتك رأيتُك في المهن تناغى القمر وتشير إليه بأصبعك فحيث أشرتَ إليه مال، قال: كنتُ أحدثه ويحدثني ويلهيني عن

البكاء وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش وعد من الخصائص أن مهده ﷺ كان يتحرك بتحريك الملائكة، وروي أنه ﷺ تكلم أوائل ما ولد، وروى أبو يعلى وابن حبان عن عبد الله بن جعفر عن حليمة مرضعة النبي ﷺ قالت: لما وضعتُه في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه تعنى ضمرة وناما، وما كان ينام قبل ذلك وما كان في ثديي من يرويه ولا في شارفنا ما يغذيه، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنها لحافل فحلب منها ما شرب وشربتُ حتى أنهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة، ولما رجعنا ركبتُ أتاني وحملتهُ عليها فوالله لقد قطعت ما لا يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى أن صواحبي ليقلن لي ويحك يا بنت أبي ذويب إربعي علينا أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها، فأقول: بلى وكانت قبل ذلك قد أذمت بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعجفاً، وعن ابن عباس قال: كانت حليمة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله ﷺ تكلم فقال الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً. . . فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم الحديث.

وعنه قال: كانت حليمة لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً فغفلت عنه فخرج مع أخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم فخرجت حليمة تطلبه فوجدته مع أخته فقالت: في هذا الحر فقالت أخته يا أمه ما وجد أخي حراً رأيتُ غمامة تظله إذا وقف وقفت وإذا سار سارت معه. وفي الشمائل المحمدية قالت حليمة ما كنا نحتاج إلى السراج من يوم أخذناه لأن نور وجهه كان أنور من السراج فإذا احتجنا إلى السراج في مكان جئنا به فتنورت الأمكنة ببركته ﷺ، وروي أن حليمة لما أخذته دخلت على الأصنام فنكس الهبل رأسه وكذا جميع الأصنام من أماكنها تعظيماً له، وجاءت به إلى الحجر الأسود ليقبله فخرج الحجر الأسود من مكانه حتى التصق بوجهه الكريم ﷺ، وروي أنه لما أرضعته حليمة در لبنها وانهمر فكانت ترضع معه عشرةً أو أكثر، وكانت حليمة إذا مشت به على واد يابس أخضر في الوقت، وكانت تسمع الأحجار تنطق بسلامها عليه والأشجارت تحن بأغصانها إليه، وكان النبي ﷺ يخرج. . هو وأخوه يرعيان الغنم فقال أخوه إن أخي الحجازي إذا وقف بقدميه على الوادي يخضر لوقته، وإذا جاء إلى البئر ونحن نسقي الأغنام يعلو الماء إلى فم البئر وإذا أقام في الشمس ظلته الغمامة، وتأتي الوحوش إليه وهو قائم فتقبّله.

وفي خلاصة السير أن مرضعة النبي ﷺ قالت: بينما هو في بهم لنا إذ جاء أخوه يشتد فقال أخي القرشي قدأخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه، قالت: فخرجنا نحوه فوجدناه قائماً متقنعاً وجهه فالتزمناه وقلنا مالك، قال جاءني رجلان عليهما

ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، وفي رواية من حديث شداد بن أوس عند أبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر فإذا أنا برهط ثلاث معهم طست من ذهب مليء ثلجاً فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني وأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى به، ثم قال بيده يمنةً ويسرةً كأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي فامتلأ نوراً وذلك نور النبوة والحكمة ثم أعاد مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهراً، ثم قال الثالث لصاحبه تنح فأمر يده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق، وفي حديث أنس قال: لقد كنت أرى أثر المخيط في صدره ﷺ، وأخرج ابن عساكر أن أبا طالب حين أقحط الوادي استسقى ومعه النبي ﷺ وهو غلام فأخذ أبو طالب النبي ﷺ وألصق ظهره بالكعبة ولاذ النبي ﷺ بأصبعه وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق وأغدق وانفجر له الوادي، وفي ذلك قال أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وفي خلاصة السير أنه لمَّا بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشر سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام فلما بلغ بصري رآه بحيرا الراهب فعرفه بصفته فجاء فأخذ بيده وقال: هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقيل: وما علمك بذلك؟ قال: إنكم أقبلتم من العقبة فلم يبق حجرولا شجر إلا خرَّ ساجداً ولا يسجدان إلا للنبي وإنا نجده في كتبنا، وقال لأبي طالب لئن قدمت به الشام ليقتلنه اليهود فرده خوفاً عليه، ثم خرج النبي ﷺ مرةً ثانيةً إلى الشام وهو ابن خمسة وعشرين سنة مع ميسرة غلام خديجة في تجارة لها قبل أن يتزوجها، فلما قدم الشام نزل تحت ظل شجرة قريباً من صومعة راهب فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل؟ قال: ميسرة رجل من قريش من أهل الحرم فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، وفي بعض الروايات أن الراهب دنا إلى النبي ﷺ وقال: آمنت وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة فلما رأى الخاتم قبَّله وقال: أشهد أنك رسول الله النبي الأمي الهاشمي العربي المكي صاحب الحوض والشفاعة ولواء الحمد، وقيل: إن ميسرة قال: كان إذا كانت الهاجرة واشتد الحر نزل ملكان يظلانه من حر الشمس وهو يسير على بعيره، ولما سمعت خديجة ذلك من ميسرة اشتقات إل أن يتزوجها ﷺ.

فائدة: قال السهيلي في توجيه قول الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي أنه

يريد ما نزل تحتها هذه الساعة ومبني قوله هذا بعد العهد بالأنبياء واستبعاد بقاء الشجرة تلك المدة الطويلة واستبعاد وجود شجرة على الطريق تخلو من أن ينزل تحتها أحد قط لكن لفظة قط في الخبر يمنع هذا التوجيه، ولا شك أن المعجزات إنما تكون بخرق العادات فلا وجه للاستبعاد فإن اللهقادر على إبقاء الشجرة وصرف الناس عن النزول تحتها زماناً طويلاً على خلاف العادة والله أعلم.

رجعنا إلى التفسير روى سالم عن ابن عمر في هذه الآية قال: المشكاة جوف محمد ﷺ والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعل الله فيه لا شرقية ولا غربية أي لا نصرانية ولا يهودي توقد من شجرة مباركة يعني إبراهيم عليه السلام نور على نور نور قلب إبراهيم على نور قلب محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل والمصباح محمد ﷺ سماه الله مصباحاً كما سماه سراجاً حيث قال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1] توقد من شجرة مباركة وهي إبراهيم عليه السلام سماه مباركاً لأن أكثر الأنبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعني إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً لأن اليهود يُصَلُّون قبل المغرب والنصارى قبل المشرق ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ يكاد محاسن محمد ﷺ تظهر للناس قبل أن يوحى إليه نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وقال بعضهم وقع هذا التمثيل لما نور به قلب المؤمن من العلوم والمعارف بنور المشكاة المثبت فيها من مصباحها ويؤيده قراءة أبي وابن مسعود، روى أبو عالية عن أبي بن كعب قال: هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعله الله من الإيمان والقرآن في قلبه ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي الإخلاص لله وحده فمثله كمثل الشجرة التي التفت بها الشجر وهي خضراء ناعمة لا يصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت، وكذلك المؤمن قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا حكم عدل وإذا قال صدق، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه نورٌ على نورٌ قال أبي وهو ينقلب بين خمسة أنوار قوله نور وعلمه نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة، وقال ابن عباس هذا مثل نور الله وهذا في قلب المؤمن يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى فإذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدىً ونوراً على نورٍ قلتُ يعني قلب

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

الصوفي ينشرح بالحق قولاً وفعلا واعتقاداً فيقبله وينقبض بالباطل فلا يقبله، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون» رواه البخاري في التاريخ عن وابصة بسند حسن، فإذا جاءه العلم بالكتاب والسنة ازداد هدىً ويقيناً، وقال الكلبي يعني إيمان المؤمن وعمله، وقال السدي نور الإيمان ونور القرآن، وقال الحسن وابن زيد هذا مثل للقرآن فالمصباح هو القرآن فإنه كما يستضاء بالمصباح يهتدي بالقرآن والزجاج قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي يكاد زيتها يضيء أي يكاد حجة القرآن يتضح وإن لم يقرأ، يعني القرآن نور من الله عزَّ وجل لخلقه مع ما أقام لهم من الدلالات والإعلام قبل نزول القرآن فازدادوا بذلك نوراً على نورٍ.

وقيل: هو تمثيل للهدى الذي دل عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنه من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيه للهدى من حيث أنه محفوف بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح وإنما دخل الكاف على المشكاة لاشتمالها عليه، أو تمثيل لما منح الله على عباده من القوى الدراكة الخمس المترتبة التي ينط بها المعاش والمعاد وهي الحساسة التي يدرك المحسوسات بالحواس الخمس والخيالة التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائق الكلية والمتفكرة التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم يعلم والقوة القدسية التي يتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[1] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت، فإن الحساسة كالمشكاة لأن لها محلها كالكوى ووجهها إلى الظاهر لا يدرك ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية وإنارتها بمايشتمل عليها من العاقلة، والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية، والمتفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها الزيتونة المثمرة للزيت الذي هو مادة المصباح التي لا تكون شرقية ولا غربية لتجردها عن اللواحق الجسمية أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفةً في القبيلتين منتفعة من الجانبين، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفائها وذكائهايكاد يضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيل للقوة العقلية فإنها في بدء أمرها خالية عن العلوم مستعدة لقبولها

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

كالمشكاة ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث يتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلالية في نفسها.......... فإذا حصل له العلم فإن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدث فكالزيت وإن كان لقوة قدسية فكالذي ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لأنها تكاد تعلم ولو لم يتصل بملك الوحي والإلهام الذي مثله النار من حيث إن العقول تشتغل عنها، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث يتمكن من إحضارها متى شاءت كان كالمصباح فإذا استحضر ما كان نوا على نور ولي في هذه الآية تأويلان آخران مبتنيان على كشف المجدد للألف الثاني رضي الله عنه أحدهما ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾يعني موجدها ومظهرها من كتم العدم في الخارج الظلي مثل نوره أي وجوده الذي انبسط على ماهيات الممكنات، والإضافة للتشريف كما في بيت الله وناقة الله أو لأنه صادر منه كما يقال نور الشمس والقمر لما انبسط على الأرض من النور لأجل مقابلتهما كمشكاة أي كنور مشكاة على حذف المضاف فيها مصباح تنورت المشكاة بذلك المصباح فكما أن المشكاة استفادت النور وتنورت بالمصباح كذلك ماهيات الممكنات استفادت نور الوجود ووجدت بمصباح صفات الله سبحانه وأسمائه ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ نعت الله سبحانه المصباح بكونها في الزجاجة لكمال التصوير، فإن المجدد رضي الله عنه قال: إن مبادي تعينات عامة الممكنات سوى الأنبياء والملائكة، ظلال الأسماء والصفات وذلك أن الله سبحانه كما يعلم صفات كماله كذلك يعلم نقائضها التي هي مسلوبة عنه تعالى كالموت نقيض الحياة والجهل نقيض العلم والعجز نقيض القدرة والصمم نقيض السمع والعمى نقيض البصر وإليكم نقيض الكلام والجبر نقيض الإرادة والتعطل نقيض التكوين، وإذا اجتمعت في مرتبة العلم صفاته تعالى مع نقائضها انتقشت وتلونت صور تلك النقائض بعكوس الصفات مخلوطات حقائقها الإعدام وعوارضها عكوس الصفات، فتلك المخلوطات تسمى في اصطلاح الصوفية بظلال الصفات والأعيان الثابتة في مرتبة العلم ومبادي تعينات الممكنات وحقائقها ومربيات لها وهي كالزجاجة التي تنورت بنور المصباح والظرفية من حيث التجلي فإن الصفات تجلّت في الظلال... فتنوَّرت الظلال بأنوارها كما أن الزجاجة تنوَّرت بنور المضباح الكائن فيها والظلال تجلَّت وأعطت نورها المقتبس من الصفات على ماهيات الممكنات، فتنوَّرت ووجدت وظهرت الماهيات بنور الظلال كما أن المشكاة تنورت بنور الزجاجة المقتبس من المصباح، قال رسول الله ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما

انتهى إليه بصره من خلقه»[1] رواه مسلم في حديث أبي موسى، لعل المراد بالنور في هذا الحديث هي مرتبة الظلال وسبحات الوجه صفات الله سبحانه، فإن ماهيات الممكنات لدنو رتبتها وضعف استعداداتها غير صالح للاقتباس عن الصفات من غير توسط الظلال فلولاها لانعدم الممكنات بأسرها، لكن الأنبياء والملائكة لقوة استعداداتهم اقتبسوا من الصفات كما أن الظلال اقتبسوا منها ولأجل ذلك خلقوا معصومين لانعدام الشر في أصولهم، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ يعني أنها لامعة بأنوار المصباح بحيث تشتبه بالمصباح على الناظرين حتى لا يكادون يميزون بينها وبين المصباح قال الشاعر:

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا زجاج وكأنما زجاج ولا خمر

ومن أجل هذا التشابه والتشاكل بين الظلال والصفات زعم كثير من العرفاء (وهم الصوفية الوجودية) الظلال صفاتٍ لله تعالى ولم تتميز عندهم المرتبتان وقالوا الصفات عين الذات، وزعموا ماهيات الممكنات عين ما يتجلى فيها من مربياتها، فقالوا ليس في الكون إلا الله وليس في حبتي سوى الله وقال شاعرهم:

لا ملك سليمان ولا بلقيس ولا آدم في الكون ولا إبليس
والكل صور وأنت المعنى يا من هو للقلوب مقناطيس

وما هي إلا هفوات نشأت من السكر وغلبة العشق فلم يتميزوا بين المتجلي وبين ما تجلى فيه رحمهم الله.

يوقد ذلك المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يعني من ﴿زَيْتُهَا﴾ أعلم أن الصفات تنوَّرت أي وجدت وظهرت في الخارج الحقيقي بذات الله سبحانه فهي ممكنة في نفسها واجبة بذات الله تعالى وهي من جهة إمكانها مربيات لتعينات الأنبياء والملائكة وهي موجودة بوجود قديم مستفاد من الذات فالذات شُبهت بشجرة مباركة زيتونة، ولأجل ذلك نعتت الشجرة بكونها لا شرقية ولا غربية لمتنزه الذات عن جميع الجهات، وهذه الصفات التي شبهت بالمصباح زائدة على الذات على ما هو مستفاد من الكتاب والسنة وعليه انعقد إجماع أهل الحق من الأمة، وأما قول الأشعري أنها لا عين الذات ولا غيرها معناه أنها

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

زائدة على الذات فليست عينها غير منفكة عنها وهو المعنى بلا غيرها وأنكر الفلاسفة والمعتزلة الصفات الزائدة وقالوا: لو كانت الصفات غير الذات زائدةً عليها لزم احتياج الذات إليها في ترتب الآثار، فقال المتكلمون الممتنع الاحتياج إلى شيء أجنبي وأما الاحتياج إلى الصفات فغير ممتنع، وقال المجدد رضي الله عنه إن صفات الله تعالى الزائدة على الذات موجودة في الخارج على ما اقتضته الحكمة الخفية ودلت عليه النصوص والإجماع لكن ذاته تعالى في حد ذاته مستغن عن الصفات غير محتاجة إليها في ترتب الآثار حتى لو فرضنا عدم الصفات لكفي الذات في ترتب الآثار، فالذات كاف في الاستماع ولو فرضنا عدم زيادة وصف السمع وكذلك كاف في الأبصار ونحو ذلك فالذات باعتبار أنها صالحة لترتب آثار الاستماع تسمى شأن السمع واعتباره وباعتبار أنها صالحة للأبصار تسمى شأن البصر وهكذا فالشيون أصول للصفات كما أن الصفات أصول للظلال، وهذه الاعتبارات والشيون الكائنة في الذات شبهة بالزيت في الشجرة المباركة الزيتونة فتم التشبيه بقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ حيث جاز ترتب الآثار على اعتبارات الذات ولو لم تكن هنا صفات شبيهة بنار المصباح ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني نور المصباح المنور للزجاج والمشكاة زائدة على زيت الشجرة كما أن نور الصفات في ترتب الآثار عليها وإضاءة الماهيات وإيجاد الممكنات زائد على نور اعتبارات في الذات ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني لا يعلم هذه المعارف الخاصة إلا من يشاء الله من خواص العرفاء والله أعلم.

وعلى هذا التأويل في هذه الآية إشارة إلى الإيجاد والولادة الأولى من كتم العدم إلى الوجود الخارجي الظلي المستلزم لأقربية الذات بسائر الموجودات عامة المكنى بقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾(١) وقد ذكرنا تحقيق الأقربية في تفسير تلك الآية في سورة قاف.

والتأويل الثاني: على ما قاله السلف ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره يهتدون إلى معرفة الذات والصفات ويرتقون إلى مدارح القرب الخاص المكني عنه بقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٣) وقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه: «لا

(١) سورة ق، الآية: ١٦. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به»[١] الحديث، وهذا القرب هو المسمى بالولاية الخاصة ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في قلب المؤمن كمشكاة أي كنور مشكاة فيها مصباح فالمشكاة حينئذ مثال لقلب المؤمن والمصباح الموقد من ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ بما يتجلى في قلب المؤمن من صفات الله سبحانه المنشعبة من الذات المندمج فيها الشيون والاعتبارات الذاتية على ما مرَّ تقريره، وقوله: ﴿مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ إشارة إلى أن عامة الناس من الأولياء ليس حظهم من تجليات الصفات إلا من وراء حجب الظلال فإن مبادىء تعينات غير الأنبياء إنما هي ظلال الصفات فغاية ارتقائهم بالأصالة إلى أصولهم وهي الظلال التي يقتبسون بتوسطها أنوار الصفات فيحصل لهم فيها الفناء والبقاء ويتقربون إلى الله بقرب يسمى ولاية الأولياء وهي الولاية الصغرى، لكن بعض الأكابر منهم قد يحصل لهم الترقي من هذا المقام بتبعية صاحب الشريعة إلى مقام الصفات من حيث الظهور يعني من حيث قيامها بالذات يسمى الولاية الكبرى ولاية الأنبياء ومن حيث البطون يسمى الولاية العليا ولاية الملائكة، ثم الصديقون منهم وهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾[٢] يعني أصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾[٣] يرتقون من مقام الصفات والشيون إلى مرتبة الذات المتعالي من الشيون والاعتبارات حتى يتجلى الذات بلا حجب الصفات والاعتبارت فتبارك الله رفيع الدرجات، وليس في هذه الآية إشارة إلى الفريقين الأخيرين غير أن قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ جاز أن يكون إشارة إلى تفاوت درجات الأولياء في مراتب وصولهم إلى الله تعالى، يعني أن هناك نور على بعضها فوق بعض ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ على حسب ما شاء عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلَّ فلذلك أقول جف القلم على علم الله»[٤] رواه أحمد والترمذي يعني خلق الله خلقه في ظلمة أي جهل وضلال ناشيء من العدم الذاتي الكائن في مبادي تعيناتهم فألقى عليهم من نوره أي من النور الذي اقتبس الظلال من الصفات فمنأصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل وطريق الإصابة أن يقتبس ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٢) سورة الواقعة، الآية: ١٣.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ١٤.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٢).

النور ممن بعثه الله رحمة للعالمين وشرح صدره وملأ قلبه نوراً وحكمةً وإيماناً ويجعل قلبه مرآةً لقلبه ﷺ فيتنور قلبه بقدر الاقتباس والاقتفاء فمنهم من اكتسب صورة الإيمان ونجا من الكفر في الدنيا والنيران في الآخرة ومنهم من اكتسب حقيقة الإيمان على تفاوت الدرجات ومنهم من لم يقتبس أصلاً فأخطأه النور وضل، عن أبي عنبسة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباد الله الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها» رواه الطبراني ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يعني يبين في القرآن للأمور التي لا سبيل للحواس إليها بالأمثال المحسوسة ليحصل للناس بها علم ويزداد وضوحاً، وجاز أن يكون معنى الآية أن الله يُرِى أولياءه في عالم المثال أمثالاً لما لا مثل له حتى يتبين لهم الحق، وذلك أن القرب إلى الله سبحانه ثابت بالكتاب والسنة لا يزال العبد يتقرب إليه بالنوافل لكن ذلك القرب أمر غير متكيف لا يمكن دركه بالحواس ولا بالعقل ولا يتعلق به علم حصولي ولا حضوري ولكن يدرك بعلم مفاض من الله تعالى سوى ما ذكر وهو المكنى بقوله «حتى كنتُ سمعه الذي يسمع به» وجعل الله تعالى لدركه وجهاً آخر وهو أن الأمور التي لا مثل لها يتمثل في عالم المثال بصورة الأجسام فيرى الصوفي في عالم المثال دائرة للظلال ودائرة للصفات ونحو ذلك، وكلَّما يتقرب العبد إلى الله بالنوافل والإنابة والاجتباء يرى الصوفي نفسه سائراً إلى دائرة الظلال حتى يصلها ويضمحل فيها ويتلون بلونها، ثم يرى نفسه سائراً إلى الصفات حتى صلها ويضمحل فيها ويتلون بلونها، وذكر التلون إنما هو لقصور العبارة وإلاَّ فلا لون هناك قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(١) ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة حال من فاعل يضرب.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ صفة لبيوت وأن بتقدير الباء متعلق بإذن أي إذن الله بأن ترفع تلك البيوت والمراد بها المساجد، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس المساجد بيوت

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء لأهل الأرض النجوم، ومعنى أن ترفع قال مجاهد أن تبني نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[١] قال رسول الله ﷺ: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة»[٢] متفق عليه من حديث عثمان، وقال الحسن معناه أن تعظم يعني لا يذكر فيها القبيح من القول قال الله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣] قال البغوي روى صالح..... بن حبان عن بريدة في هذه الآية قال إنما هي أربع مساجد لم يبنها إلا نبيٌّ الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل وبيت المقدس بناها داود وسليمان ومسجد المدينة ومسجد قباء أُسِّسَ على التقوى من أول يوم بناهما رسول الله ﷺ، قلتُ: ولا وجه لتخصيص هذه المساجد وإن كن هي أفضل المساجد البتة، قوله في بيوت متعلق بما قبله أي مشكاة في بعض بيوت كذلك أو توقد في بيوت كذلك فيكون تقييداً للممثل به، وهذا التأويل عندي ضعيف لأن الله سبحانه شبَّه نوره بنور المشكاة وقيدها بقيود تدل على قوة النور وشدة لمعانه ولا مدخل في ذلك لهذا القيد أصلاً، والقول بأن قناديل المساجد تكون أعظم ممنوع بل قناديل مجالس الأغنياء يكون أقوى نوراً وأشد لمعاناً من قناديل المساجد، فالأولى أن يقال أنه متعلق بقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فإن الهداية غالباً يكون للعاكفين في المساجد والمصلين حيث قال رسول الله ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن» وقال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[٤] رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة وجاز أن يكون متعلقاً بمحذوف يعني سبحوا أمر بالتسبيح لجلب هداية الله المذكور فيها سبق ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ في الصلاة وخارجها قال ابن عباس يتلى فيها كتابه ﴿يُسَبِّحُ﴾ صفة أخرى لبيوت أو جملة مستأنفة أو خبر آخر لله يعني الله نور السماوات والأرض والله يسبح له، قرأ أبو بكر وابن عامر بفتح الباء على البناء للمفعول مسنداً إلى إحدى الظروف الثلاثة المذكورة بعدها والوقف على هذا على الآصال والباقون بكسر الباء على البناء للفاعل ﴿لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ قال أهل التفسير أراد به الصلوات المكتوبات فإن المساجد بنيت لأجلها فصلاة الفجر تؤدى بالغدو والأربعة الباقية

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: من بنى مسجداً (٤٥٠)، وأخرجه مُسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل بناء المساجد والحث عليها (٥٣٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما قال في الركوع والسجود (٤٨٢).

بالآصال، والغدو في الأصل مصدر أطلق للوقت ولذلك حسن اقترانه بالآصال وهو جمع أصل أي العشي وقيل: أراد صلاة الصبح والعصر لكمال الاهتمام فإن الصبح وقت النوم والعصر وقت الاشتغال بالسوق ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[١] رواه مسلم من حديث أبي موسى وقال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ﴾[٢] قال البغوي روي عن ابن عباس قال: التسبيح بالغدو صلاة الصبح قال رسول الله ﷺ: «من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى إلى صلاة الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على إثر صلاة كتاب في عليين[٣]»، ذكره البغوي من حديث أبي أمامة، وروى الطبراني عنه بلفظ: «من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة ومن مشى إلى صلاة تطوع فهي كعمرة نافلة».

﴿رِجَالٌ﴾ فاعل يسبح على قراءة الجمهور وفاعل لفعل محذوف دل عليه يسبح على قراءة ابن عامر وأبي بكر في جواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبح له فقال يسبح له رجال خص الرجال بالذكر لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد أو لأن الغالب في النساء الجهل والغفلة ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ أي لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ أفرد البيع بالذكر مع شمول الفظ التجارة إياه لأنه أهم من قسمي التجارة فإن الربح يتوقع بالاشتراء ويتحقق بالبيع، وقيل أراد بالتجارة الاشتراء (وإن كأن اسم التجارة يقع على البيع والاشتراء) يدل عطف البيع عليه، وإنما ذكر لفظ التجارة موضع الاشتراء لأن الاشتراء مبدأ التجارة، وقيل: أراد بالتجارة المعاملة الرابحة ثم ذكر البيع مبالغةً بالتعميم بعد التخصيص، وقال الفراء التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني عن حضور المساجد لإقام الصلاة، قال البغوي روى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس فأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد فقال إن فيهم نزلت ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أو المراد لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله دوام الحضور وهذا يعم من ترك المعاملات واستغرق أوقاته بالطاعات واعتزل الناس ومن لم يترك المعاملات وهو مع اشتغاله بالتجارات لا يشغل التجارة قلبه عن ذكر الله فهو في الناس كائن بائن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضلة صلاة الفجر (٥٧٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة (٥٥٧).

ظاهره مع الخلق وباطنه مع الله غافل عما سواه ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عوض فيه الإضافة من التاء المعوضة من العين الساقط بالإعلال، قال البغوي أراد الله سبحانه أداءها في أوقاتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها ليس هو مقيماً للصلاة ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ المفروضة، قال ابن عباس إذا حضر وقت الزكاة لم يحبسوها، وقيل هي الأعمال الصالحة كلها ﴿يَخَافُونَ﴾ حال من فاعل يسبح أو من مفعول لا تلهيهم يعني أنهم مع ما هم عليه من الذكر والطاعة يخافون ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ﴾ صفة ليوماً والعائد ضمير فيه يعني تضطرب وتتغير من الهول ﴿ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقيل: معناه تتقلب قلوب الكفار عما كانت عليه في الدنيا من الكفر والشك وتنفتح أبصارهم من الأغطية فتبصر ما لم تكن تبصر ولم تحتسب وتتقلب قلوب المؤمنين وأبصارهم عما كانوا عليه من القناعة بمشاهدة المثال فيرون الله سبحانه كالقمر ليلة البدر وكالشمس في رابعة النهار، وقيل: معناه تتقلب القلوب يوم القيامة من الخوف والرجاء يخشى الهلاك ويطمع النجاة وتتقلب الأبصار حولهم من أي ناحية يؤخذ أمن ذات اليمين أم من ذات الشمال ومن أين يؤتون كتبهم أمن قبل اليمين أو من قبل الشمال، وقيل: تتقلب القلوب من الخوف فترجع إلى الحنجرة فلا تنزل ولا تخرج وتتقلب الأبصار أي تشخص من هول الأمر وشدته ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلق بيسَبِّحُ أو بلا تلهيهم وجاز أن يكون متعلقاً بيخافون ويكون اللام حينئذ للعاقبة إذ الخوف ليس من الأفعال الاختيارية، والعلة الغائية يختص بالأفعال الاختيارية ﴿أَحْسَنَ﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ الموعود لهم من الجنة فهو منصوب على المصدر أو المعنى يجزيهم أعمالهم الحسنة فأحسن بمعنى حسن وهو منصوب على المفعولية ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ على الجزاء الموعود أو على جزاء أعمالهم ما لم يخطر ببالهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان يعني يرزق الله ما لا نهاية له يقال فلان ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ
شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ
يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ
يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ

يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴿٤٣﴾ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴿٤٤﴾ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ وهو اللامع في المفازة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة يظن أنه ماء يسرب أي يجي، الجملة معطوفة على مضمون الكلام السابق تقديره المهتدون بنور الله يجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم والذين كفروا لا ينفعهم أعمالهم فإنها كسراب ﴿بِقِيعَةٍ﴾ القيعة والقاع المسنوب من الأرض وجمعه قيعان وتصغيره قويع وقيل هي جمع قاع كحيرة وحار ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾ أي يتوهمه العطشان ماءً، تخصيص الظمآن بالذكر لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ أي جاء ما توهمه ماءً أو موضعه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما ظنه ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ﴾ أي وجد عذاب الله ﴿عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أي أعطاه جزاء أعماله وافياً كاملاً على حسب عمله، فإن قيل وجد الله معطوف على ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ وعلى ﴿جَاءَهُ﴾ والضمير المرفوع في كل منهما راجع إلى الظمآن فما معنى وجد الظمآن عذاب الله عند السراب؟ قلتُ: هذا الكلام عندي يحتمل التأويلين أحدهما أن الكافر إذا كان يوم القيامة اشتد عطشه فيرى النار سراباً يحسبه ماءً فيسرع إليه حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً مما توهمه ووجد عذاب الله يعني النار عنده، وثانيهما أن المراد بعذاب الله ما يلحق الظمآن في الدنيا من الشدة واليأس ومبناه سيآت أعماله حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1] والأولى أن يقال: إن حتى ابتدائية يتصل بقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ والمعنى حتى إذا جاء الكافر عمله في الآخرة ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ فالضمير المرفوع في جاءه راجع إلى أحد من الكفار لا إلى الظمأن والمصوب إلى عمله لا إلى السراب ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب يحاسب عباده في قدر نصف يوم من أيام الدنيا ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على كسراب وأو للتخيير كأنه يخير المخاطب في التشبيه فإن أعمالهم لكونها غير نافعة موجبة لليأس والتحسر كائنة كالسراب ولكونها خالية عن نور

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الحق كائنة كالظلمات المتراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالهم إن كن حسنات كالصدقة وصلة الرحم ونحوها فهي كالسراب وإن كن قبيحات فكالظلمات، أو التقسيم باعتبار الوقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ عميق كثير الماء منسوب إلى اللج، قال البيضاوي هو معظم الماء كذا في النهاية والقاموس وقيل: هو تردد أمواجه ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ أي البحر موج يغشاه صفة أخرى للبحر والموج ما يعلو من الماء باضطراب الرياح ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ يعني أمواج مترادفة متراكمة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ أي من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ يحجب أنوار النجوم، قرأ البزي بغير تنوين مضافاً إلى ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ بالجر وبرواية القواس سحابٌ بالرفع والتنوين والظلمات بالجر على البدل من قوله كظلمات وقرأ الباقون سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين فيكون تمام الكلام عند قوله: ﴿سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هي ظلماتٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ لينظر إليها وهي أقرب ما يرى ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها، الضمائر للواقع في البحر وإن لم يجر ذكره لدلالة الكلام عليه كذلك أعمال الكفار ظلمات على قلبه بعضها فوق بعض مانعة لهم من الاهتداء وإدراك الحق فالكفر الذي هو من أعمال القلوب كالبحر اللجي المظلم يغشاه ظلمات المعاصي بعضها فوق بعض كالأمواج التي بعضها فوق بعض والختم الطبع على قلبه كالسحاب على الأمواج، فإذا أراد الكافر التفكر في أمور الدين وأن يدرك ما هو أجلى البديهيات لم يكد يراها ألا ترى أنه ينكر الأنبياء مع تواتر معجزاتهم الباهرة ويعتقد ألوهية الحجارة مع انحطاط رتبتها عن سائر المخلوقات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ يعني أن الهداية أمر وهبي بل حصول العلم بالنتيجة بعد العلم بالمقدمتين أمر عادي وهبي ليس على سبيل الوجوب عند أهل الحق فكم من بله في أمور الدنيا أكياس في أمور الآخرة وكم من كيس جهبذ في الدنيا هم عن الآخرة غافلون وهم في أمور الدين كالأنعام، وهو المعنى من قوله ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله»[1]، وقد مر فيما سبق قال البغوي قال مقاتل نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة الحاصل بالوحي والاستدلال والكشف الصريح

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٢).

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي يشهد على تقدسه وتنزهه عن المناقص ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وما في علم الله من جنوده ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الإنس والجن وغيرهم والمراد جميع المخلوقات وإنما أورد كلمة من تغليباً لذوي العقول، والدليل على إرادة العموم قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الهواء قيد الطير بالصافات لئلا يلزم التكرار فإن الطير الكائنة على وجه الأرض دخلت في من في الأرض ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من المسبحة ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ الله (صلاته) أي دعاءه ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ وقيل معناه علم كل من المسبحة صلاة نفسه وتسبيحه بتعليم الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه مالكهما وخالقهما ولما فيهما من الذوات والصفات والأفعال ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجع الجميع فيجازي كلهم على حسب عمله حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي يسوق من التزجية وهو دفع الشيء، ومنه البضاعة المزجاة فإنها يدفعها كل أحد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي يجمع بين قطع متفرقة بعضها إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي بعضها فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي من فتوقه ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ بدل اشتمال من السماء ومن في الموضعين لابتداء الغاية وجاز أن تكون الثانية للتبعيض واقعاً موقع المفعول ﴿مِن﴾ بيانية ﴿بَرَدٍ﴾ بيان للجبال فالمعنى على الأول ينزل من جبال كائنة في السماء كائنة في السماء كائنة تلك الجبال من برد، وعلى هذا قال ابن عباس أخبر الله تعالى أن في السماء جبالاً من برد وعلى الثاني ينزل من السماء بعض جبال يعني قطعاً عظاماً تشبه بالجبال في عظمها وجمودها كائنة تلك الجبال من برد وجاز أن تكون من هذه للتبعيض واقعاً موقع المفعول ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بذلك البرد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيهلك زرعه وأمواله ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فلا يضره ﴿يَكَادُ سَنَا﴾ أي ضوء ﴿بَرْقِهِۦ﴾ أي برق السحاب ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قرأ أبو جعفر يُذهِبُ بضم الياء وكسر الهاء من الأفعال فالباء على هذا زائدة ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي يأتي بالليل بعد النهار وبالنهار بعد الليل أو يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر أو بتغير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور أو ما يعم ذلك عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم بسبب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[1] متفق عليه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المكذور ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي دلالة على وجود الصانع الواجب وجوده وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئة وتنزهه عن الاحتياج إلى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (٤٨٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

غيره ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي لمن أعطاه الله بصيرة وعقلاً سليماً ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي خالق كل دابة بإضافة اسم الفاعل إلى مفعوله حاملاً الضمير الفاعل والباقون خلق على صيغة الماضي ونصب كل على المفعولية يعني خلق كل من يدب على الأرض من الحيوانات ﴿مِن مَّآءٍ﴾ هو جزء مادية أو ماء مخصوص يعني النطفة فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل إذ من الحيوانات ما لا يتولد من النطفة، وقيل: من ماء صفة الدابة وليس صلة لخلق ولا يدخل في الدابة الملائكة والجن، وقيل: الماء أصل لجميع الخلائق قال البغوي وذلك أن الله خلق الماء ثم جعل بعضه ريحاً فخلق منها الملائكة وبعضه ناراً فخلق منها الجن وبعضه طيناً فخلق منه آدم وسائر الحيوانات ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والديدان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والسباع ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع كالعناكب وبعض الحشرات لأنها في صورة من يمشي على أربع وتذكير الضمير لتغليب العقلاء التعبير عن الأصناف ليوافق التفصيل الإجمال ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر من البسائط والمركبات على اختلاف الصور والهيئات والحركات والطبائع والأفعال مع اتحاد المادة على مقتضى مشيته وحكمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ في القرآن ﴿ءَايَٰتٍ﴾ أو أنزلنا في عالم الوجود الظلي دلائل ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مظهرات للحق شواهد على وجود الصانع العليم الحكيم القدير بأنواع الدلالات ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني دين الإسلام الموصل إلى مراتب القرب والفوز إلى الجنة والنجاة من النار يعني أن الإيمان أمر وهبي لا يحصل بالنظر في الدلائل إلا بتوفيق من الله وهدايته والله أعلم.

ذكر البغوي أن بشر المنافق كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض فقال اليهودي نتحاكم إلى محمد وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن أشرف إن محمداً يحيف علينا فنزلت ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني بشراً وأمثاله من المنافقين ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي إياهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان وعن طاتهما بالامتناع عن قبول حكمه إذا كان حكمه على خلاف هواه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ الذين لم يكونوا في الخصومة على الحق ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد قولهم هذا ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المنافقين كلهم وفيه إعلام بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم يؤمن قلوبهم أو إلى الفريق المتولى منهم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التعريف للدلالة على أنهم ليسوا من المؤمنين الذين عرفتهم ويعلم الله صدقهم وإخلاصهم، أخرج ابن أبي حاتم من مرسل الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي ﷺ أعرض وقال انطلقوا إلى فلان فأنزل الله ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إلى حكم الله ورسوله وقيل: معنى قوله: ﴿إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دعوا إلى رسوله فقوله ورسوله منزلة التفسير لما سبق كما في قوله أعجبني زيد وكرمه، وجملة إذا دعوا إلى آخره عطف على ما أولئك بالمؤمين أو على يقولون ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول بحكم الله ﴿بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يعني فاجأ فريق منهم الإعراض عن الحكم أو عن الإيمان يعني من كان منهم يعلم أنه على الباطل ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ على من يخاصمهم ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ صلى الله عليه وسلم مذعنين منقادين لحمه ليقينهم أنه يحكم بالحق ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي كفر وميل إلى الظلم ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ بأن رأوا منك تهمة فزال ثقتهم ويقينهم بك ﴿أَمْ يَخَافُونَ﴾ يقيناً ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الحكومة ﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على أنفسهم بالكفر وعدم الانقياد لله ورسوله وعلى الناس يريدون أن يأكلوا أموالهم بالباطل إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأول، وجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل أو في الحاكم والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل لأن منصب نبوته وفرط أمانته يمنعه فتعين الأول، ويشهد على ذلك إتيانهم للحكم إليه مذعنين إذا كان لهم الحق، أو رد ضمير الفصل ليدل على نفي ذلك عن غيرهم لاسيما المدعو إلى حكمه.

ثم عقب الله تعالى ذكر المؤمنين المخلصين وما ينبغي لهم عل ما هو عادته في المثاني والقرآن العظيم فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قول منصوب على أنه خبر لكان واسمه ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ يعني قولهم ﴿سَمِعْنَا﴾ الدعاء ﴿وَأَطَعْنَا﴾ بالإجابة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني من كان هذا قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ دون

غيرهم ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قال ابن عباس فيما ساءه وسره ويخشى الله على ما عمل من الذنوب وفي مخالفة أحكامه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ أي يتقي عذابه بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه ومحافظة أحكامه وحدوده، قرأ حفص بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء لسكون ما قبلها وهذا لغة إذا سقط الياء، للجزم يسكنون ما قبلها يقولون لم أشتر طعاماً بسكون الراء والجمهور بكسر القاف على الأصل ويسكن الهاء وصلاً ووقفاً أبو بكر وأبو عمرو وخلاد في رواية عنه عن حمزة والباقون يكسرون الهاء فيختلسها أبو جعفر وقالون ويعقوب ويشبعها الباقون لأجل تحرك ما قبلها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم ورضوان الله تعالى.

﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ يعني المنافقين ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جهد منصوب على أنه مصدر يعني مضاف إلى مصدر أقسموا من غير لفظه أو حال من فاعل (اقسموا بالله) جاهدين بإيمانهم يعني بالغين غايتها، وجهد اليمين مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها أو ظرف يعني وقت جهدهم إيمانهم أي المبالغة فيه إنكار للامتناع ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا محمد بالخروج عن ديارهم وأموالهم أو بالخروج للجهاد ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية وجزاء للشرط معنى، قال البغوي ذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وإن أقمتَ أقمنا وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا قال الله تعالى: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ على الكذب ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قال مجاهد أي هذه طاعة بالقول باللسان دون الاعتقاد وهي معروفة أي أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، وقيل معناه طاعة معروفة بينة خالصة أفضل وأمثل من الخلف بالقول وقال

مقاتل بن سليمان ليكن منكم طاعة معروفة وقيل: معناه المطلوب منكم طاعة معروفة لا اليمين بالطاعة نفاقاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه سرائركم ﴿قُلْ﴾ كرر الأمر تأكيداً ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله تعالى على الحكاية مبالغة في تبكيتهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ صيغة مضارع حذفت إحدى التائين بقرينة إن تطيعوه يعني إن تتولوا أيها المنافقون عن الطاعة فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال جزاء الشرط محذوف أقيم علته مقامه والتقدير فإن تتولوا تخسروا أنفسكم ولا تضرون الرسول شيئاً لأنه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ عليه وقد أدى ما كان عليه ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وأنتم تتولون عنه فتخسرون ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ عطف على إن تولوا أي أن تطيعوا محمداً في حكمه ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ إلى الحق وإلى سبيل الجنة ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي التبليغ الموضح لما كلفتم به بيان لما حمل.

أخرج الحاكم وصححه والطبراني عن أبيّ بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار متهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ يا أهل المدينة الذين هم مع رسول الله ﷺ حين نزول الآية وليس المراد من المؤمنين عامة لأنه يلزم حينئذ الاستدراك فإن كلمة الذين آمنوا مغن عنه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جواب قسم محذوف تقديره ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ وأقسم أي قال: والله ليستخلفنهم والوعد في تحققه نزّل منزلة القسم أي لنورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم فنجعلهم يعني نجعلن منهم خلفاء ملوكاً واجب الطاعة سياسة، أو المعنى لنجعلهم بأجمعهم متصرفين في الأرض تصرف الملوك في مماليكهم ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ صفة لمصدر محذوف أي استخلافاً كاستخلاف الذين من قبلهم من الأنبياء داود وسليمان وغيرهما كذا قال قتادة أو كاستخلاف بني إسرائيل حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم يعني كما كان الله تعالى وعد موسى عليه السلام في التوراة بفتح بلاد الشام ولم يتحقق إنجاز الوعد في حياته عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١) فاستخلف الله بعده يوشع بن نون وأنجز ذلك الوعد على يديه حتى فتح الشام وقسم البلاد في بني

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٦.

إسرائيل بوصية موسى، كذلك وعد الله محمداً ﷺ ليظهره على الدين كله ووعد بفتح الشام على ما قرىء ﴿غَلَبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ على البناء للفاعل ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي بعدما غلبوا على الفارس ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ على البناء للمفعول أي سيغلبهم المسلمون ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ ولم يتيسير ذلك في حياة النبي ﷺ، فاستخلف الله أبا بكر وعمر وأنجز وعده حين قاتل أبو بكر بني حنيفة ومن ارتد من العرب وفتح الشام في خلافة عمر حين غزاهم في السنة التاسعة من غلبة الروم الذي كان يوم الحديبية في سنة ست من الهجرة، وكون الوعد منجزاً في خلافة عمر مروى عن علي حين استشار عمر أصحاب النبي في المسير إلى العراق للجهاد فأشار علي بالجهاد متمسكاً بهذه الآية، روى هذا القول عن علي بطرق متعددة في كتبنا وفي النهج البلاغة من كتب الروافض قول عليٍّ أن هذا الأمر لم يكن نصرته ولا خذلانه بكثرة ولا قلة وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعزه وأيده حتى بلغ ما بلغ وطلع من حيث طلع ونحن على موعود من الله حيث قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ الآية، فالله منجز وعده وناصر جنده إلى آخر ما قال. قرأ أبو بكر استُخلف بضم الهمزة والتاء وكسر اللام على البناء للمفعول والباقون بكسر الهمزة وفتح التاء واللام على البناء للفاعل لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ﴾ أي اختار ﴿لَهُمۡ﴾ قال ابن عباس يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم الإسلام على سائر الأديان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب بالتخفيف وسكون الباء من الإبدال والباقون بالتشديد وفتح الباء من التبديل ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ جملة يعبدونني حال من الذين آمنوا منكم لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف لبيان المقتضى للاستخلاف وقوله ﴿لَا يُشۡرِكُونَ﴾ حال من فاعل يعبدونني أو حال مرادف ليعبدونني من الموصول، قال أبو العالية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ثم إن الله قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين في زمان أبو بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة، قال أبو العالية مكث النبي ﷺ بمكة بعد الوحي عشر سنين مع أصحابه وأمروا بالصبر على أذى الكفار ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه، فقال رجل منهم ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت هذه الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن البراء قال: فينا نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد فأنجز الله وعده وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسط لهم في الأرض، وفيه دليل على صحة النبوة لكونه إخباراً عن الغيب على ما صار الأمر إليه وصحة خلافة الخلفاء

الراشدين إذ لو لم يكن المراد خلافة الخلفاء الراشدين لزم الخلف في وعد الله إذ لم يجتمع الموعود والموعود لهم إلا في زمنهم وصحة مذهب أهل السنة وكونه ديناً ارتضاه الله، وبطلان مذهب الروافض حيث قالوا: الأئمة خائفون إلى اليوم حتى لم يظهر المهدي وهو مختف لخوف الأعداء، وقولهم إنه سينجز الله وعده حين يظهر المهدي باطل يأباه كلمة منكم في الآية وأي ظهور للدين إن ظهر بضع سنين بعد ألف ومائة ما أجهلهم عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون ثم يكون ملكاً ثم قال ـ يعني سفينة ـ أمسك خلافة أبي بكر سنين وخلافة عمر عشر أو خلافة عثمان اثنتي عشر وخلافة علي ستة»[1] وعن عدي بن حاتم قال: «بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذا أتاه رجل فشكى إليه الفاقة وأتى إليه آخر فشكى إليه قطع السبيل فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلتُ لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك الحياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحداً إلا الله (قلت فيما بيني وبين نفسي فأين قد سعروا البلاد) ولئن طالت بك الحياة لتفتحن كنوز كسرى، قلتُ كسرى بن هرمز، قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك الحياة ترين الرجل يخرج ملأكفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبل منه، ويلقين أحدكم ربه يوم يلقاه وليس بينه وبين ترجمان يترجم له فيقول ألم أبعث إليك رسولاً ليبلّغك فيقول: بلى فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اتق النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة، قال عدي فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بك الحياة لترين ما قال النبي ﷺ يخرج الرجل ملء كفه فلا يجد أحداً يقبله»[2].

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي ارتد أو كفر النعمة ولم يشكر بعد تمكين المؤمنين واستخلافهم وتأييد دينهم الذي ارتضى لهم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الإيمان أو عن حد الطاعة، قال البغوي قال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة وجحد بها الذين قتلوا عثمان فلمّا قتلوه غير الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعدما كانوا إخواناً، روى البغوي بسنده عن حميد بن هلال قال: قال عبد الله بن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الخلافة (٢٢٢٦).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٥).

سلام في عثمان إن الملائكة لم تزل ميحطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله ﷺ حتى اليوم فوالله لئن قتلتموه ليذهبون ثم لا يعودون أبداً فوالله لا يقتله رجل منهم إلا لقي الله أجذم لا يدله وإن سيف الله لم يزل مغموداً والله لئن يسأله الله لا يغمده عنكم (إما قال أبداً أو إما قال إلى يوم القيامة) فما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفاً ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفاً، قلتُ ثم كفر. . . باستخلاف الخلفاء طوائف الروافض والخوارج ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يزيد بن معاوية حيث قتل ابن بنت رسول الله ﷺ ومن معه من أهل بيته النبوة وأهان عترته وافتخر به وقال: هذا يوم بيوم بدر، وبعث جيشاً على مدينة رسول الله ﷺ وفعل ما فعل في وقعة الحرة بالمدينة وبالمسجد الذي ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وهو روضة من رياض الجنة ونصب المجانيق على بيت الله تعالى وقتل ابن الزبير ابن بنت خليفة رسول الله ﷺ وفعل ما فعل حتى كفر بدين الله وأباح الخمر قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أي لكي ﴿تُرْحَمُونَ﴾ جملة أقيموا مع ما عطف عليه معطوف على قوله وأطيعوا الله فإن الفاصل وعد على المأمور به وتكرير الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وتعليق الرحمة بها ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي معجزين الله عن إدراكهم في الأرض وإهلاكهم، قرأ ابن عامر وحمزة لا يحسبن بالياء على الغيبة والموصول فاعل له أي لا يحسبن الكافرون أنفسهم معجزين والباقون بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ والموصول مفعول الأول يعني لا تحسبهم معجزين ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ حال من الموصول أو عطف على لا تحسبن من حيث المعنى كأنه قيل الذين كفروا لا يفوتون الله ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار جملة لا تحسبن وعيد متصل بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان أنه كان لأسماء بنت مرثد غلاماً وكثيراً ما يدخل عليها في وقت تكره دخوله عليها فيه فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في وقت نكرهها فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلى تتمة الأحكام السابقة بعد ذكر ما يوجب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعد عليها، والوعيد على الإعراض عنها والمراد بالخطاب الرجال والنساء جميعاً غلّب فيه الرجال، وقال البغوي قال ابن عباس وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فدخل ورأى عمر بحالة كره عمر رؤية ذلك الحال فأنزل الله هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ يعني الذين لم يقربوا الحلم من الأحرار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[1] يعني قاربن البلوغ فدخل في حكم المنع عن الدخول المراهق فإنه في حكم البالغ ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي ليستأذنوا في ثلاثة أوقات ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ التي كانت لليقظة عند القيلولة ﴿مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحف ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ثلاث بالنصب بدلاً من قوله: ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ والباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ وجاز أن يكون مبتدأ خبره ما بعده، وقيل تقديره ثلاث ساعات انكشاف عورات لكم على حذف المضافين فالعورة على هذا بمعنى السوءة، وقال البيضاوي تقديره هي ثلاث أوقات تخيّل فيها تسترُّكم وأصل العورة الخلل، وقيل أصل العورة من العار فتكنى بالعورة عن سوءة الإنسانء لما يلحق من ظهوره العار أي المذمّة ولذلك سمى النساء عورة ولذلك يقال العورة للكلمة القبيحة ويقال للشق من الثوب ويقال للخلل في البيت عورة للحوق العار به قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾[2] أي منخرقة، فعلى هذا سميت الأوقات الثلاث عورات للحوق العار برؤية الإنسان فيهن غير مستتر، وفي القاموس العورة الخلل في الثغر وغيره وكل مكمن للستر والسوءة والساعة التي هي قمن من ظهور العورة فيها وهي ثلاث ساعات قبل صلاة الفجر وعند نصف النهار وبعد العشاء الأخيرة وكل أمر يستحى منه ومن الجبال شعوفها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

مسألة: مقتضى هذه الآية أنه لا يجوز لعبد وإن كان صغيراً عاقلاً أن يدخل على سيده ولا لأمة أن تدخل على سيدتها وأما دخول العبد البالغ أوا لمراهق على سيدته فممنوع في جميع الأوقات لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾(١) ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾(٢) الآية، والمماليك المستشهاة منها قد ذكرنا أن المراد به الإناث دون الذكور وأما دخول الأمة على سيدها التي يجوز له وبها فجائز في كل وقت كالزوجة، ولا يجوز لصغير عاقل أن يدخل في أحد هذه الأوقات بغير استئذان، ويجوز لهم أن يدخلوا بغير الاستئذان في غير هذه الأوقات كما قال الله تعالى.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الذين تسكنون البيوت ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي المملوكين والأطفال الداخلين عليكم للخدمة ونحو ذلك ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ بعد هذه الأوقات الثلاث في ترك الاستئذان لدفع الحرج لمخالطتهم وكثرة دخولهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي هم أي الأطفال والعبيد طوافون عليكم يدخلون ويخرجون كثيراً استئناف لبيان المرخص في الدخول بلا استئذان ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني بعضكم طائف على بعض أو يطوف بعضكم على بعض بدل من الجملة السابقة وبيان له جعل الله سبحانه العبيد والأطفال من جنس أنفسهم لكثرة مخالطتهم فجعلهم بعض المخاطبين ﴿كَذَٰلِكَ﴾أي تبيُّناً مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي آيات الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لكم، قال البغوي: اختلف العلماء في حكم هذه الآية؟ فقال قوم هو منسوخ قال ابن عباس لم يكن للقوم ستور ولا حجاب وكان الولائد والخدم يدخلون فربما يرون ما لا يحبون فأمروا بالاستئذان ثم بسط الله الرزق واتخذوا الستور فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان، وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة روى سفيان عن موسى بن عائشة قال: سألت الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي قال: لا والله قلتُ: إن الناس لا يعملون بها قال: الله المستعان. وقال سعيد بن جبير في هذه الآية إن ناساً يقولون نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس قلت: والصحيح أنها غير منسوخة لكن الحكم بالاستئذان معلول باختلال التستر في تلك الأوقات كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ وهو الفارق بين تلك الأوقات وغيرها وعدم الحكم عند عدم العلة لا يكون نسخاً، فما وقع في كلام ابن عباس أنها منسوخة مبني على التجوز فعلم أنه إذا كان من

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

شأن الناس عدم اختلال التستر في تلك الأوقات لا يستلزمهم الاستئذان والله أعلم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ﴾ أي قارب البلوغ ﴿ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الأوقات كلها الزوال المبيح للدخول بغير استئذان وهو المخالطة وكثرة الدخول، وحكم هذه الآية يعم كل من يريد الدخول على الرجال أو النساء محرمات كن أو أجنبيات ويؤيده ما روى عن أبي سعيد الخدري قال: «أتانا أبو موسى فقال إن عمر ﷺ أرسل إليَّ أن آتيه فأتيت بابه فسلمت ثلاثاً فلم يرد عليَّ فرجعتُ وقد قال لي رسول الله ﷺ إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فيرجع، قال عمر أقم عليه البينة قال أبو سعيد فقمت معه فذهبت إلى عمر فشهدت»[1] متفق عليه، وعن عطاء بن يسار «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أستأذن على أمي؟ فقال رسول الله ﷺ: «استأذن عليها» فقال الرجل: إني خادمها فقال رسول الله ﷺ استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة؟ قال: لا قال: فاستأذن عليها» رواه مالك مرسلاً، قال البغوي قال: سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فإنما أنزلت هذه الآية في ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته قال: نعم إن لم يفعل رأى منها ما يكره، قلتُ: لعل الأمر بالاستئذان في هذه الآية للاستحباب دون الوجوب فمن أراد الدخول في بيت نفسه وفيه محرماته يكره له الدخول فيه من غير استئذان تنزيهاً لاحتمال رؤيته واحدة منهن عريانة وهو احتمال ضعيف ومقتضاه التنزه عنه، وأما الدخول في بيت غيره من غير استئذان فمحرم لا يجوز لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾[2] وكذا في بيت فيه نساء أجنبيات لا يجوز للرجل الدخول عليهن من غير استئذان لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[3] والله أعلم.

وقال البيضاوي استدل بهذه الآية من أوجب استئذان العبد البالغ على سيدته وجوابه أن المراد بهم المعهودون الذين جعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم، وكلام البيضاوي هذا يشعر باختلاف العلماء في وجوب استئذان العبد البالغ على سيدته بناءً على اختلافهم في أن العبد هل هو محرم لسيدته، كما قال به مالك والشافعي أو لا كما قال به

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: التسليم والاستئذان ثلاثاً (٦٢٤٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الآداب، باب: الاستئذان (٢١٥٣).

(٢) سورة النور، الآية: ٢٧.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٠.

أبو حنيفة فمن قال بكونه محرماً فالاستئذان عنده مستحب كالاستئذان على غيرها من المحرمات، ومن لم يقل بكونه محرماً قال بوجوبه والله أعلم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ مبتدأ ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حال من ضمير الفاعل جمع قاعد وهي المرأة التي يئست عن الحيض والحمل ولأجل اختصاصها بالنساء جاء قاعد بغيرها كالحائض والحامل ﴿ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ صفة للقواعد أي لا يطمعن فيه لكبرهن قال ربيعة يعني العجائز اللاتي إذا رآهن الرجال استقذروهن فأما من كانت فيها بقية جمال وهي محل للشهوة فلا تدخل في هذه الآية ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ خبر للمبتدأ جيء بالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي في أن يضعن بعض ثيابهم يدل عليه قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب أن يضعن من ثيابهن فلا يجوز لها كشف ظهرها وبطنها وما تحت سرتها لكن جاز لها كشف رأسها ووجهها وذراعيها ونحو ذلك ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ﴾ وأصل البرج الظهور ومنه يقال البرج للركن والحصن وكواكب السماء والتبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لا غطاء عليها، والبرج سعة العين بحيث يُرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء إلا أنه خص في الاستعمال بتكشف المرأة زينتها وجمالها للرجال وقع في الحديث كان رسول الله ﷺ يكرهُ عشر خلال منها التبرج بالزينة لغير محلها، قال صاحب الهداية التبرج إظهار الزينة للناس الأجانب وهو المذموم وأما للزوج فلا وهو معنى قوله عليه السلام لغير محلها، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍ﴾ حال من فاعل يضعن يفيد تقييد عدم الجناح في وضع ثياب العجائز إن يكون ذلك من غير إرادة إظهار الزينة للرجال فمن كانت منهن أرادت بها التبرج فذلك عليها حرام ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي يطلبن من أنفسهن العفة وهي كف النفس عما لا يحل كذا في القاموس، والمراد وأن يكففن أنفسهن عن وضع الثياب عند الرجال ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ﴾ من وضعها لأنه قد يفضي إلى الفتنة والتستر البعد عن التهمة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن للرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقصودهن في وضع الثياب.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال البغوي قال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم فيقول الأعمى ربما أكل أكثر ويقول الأعرج ربما آخذ مكان اثنين فنزلت هذه الآية يعني ليس عليهم حرج في مؤاكلة الأصحاء، قال البغوي وكذا أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه لما أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والأعمى والأعرج وقالوا: الطعام أفضل الأموال وقد نهانا الله تعالى عن أكل المال بالباطل والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والأعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وعلى هذا التأويل يكون على بمعنى في يعني ليس عليكم حرج في الأعمى أي في مؤاكلته، وقال سعيد بن المسيب كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح بيوتهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا ممَّا في بيوتنا فكانوا يتحرجون ويقولون لا ندخلها وهم غيبٌ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية رخصةً لهم، وقال الحسن نزلت هذه الآية رخصةً لهؤلاء في التخلف عن الجهاد، وقد تم الكلام ههنا وما بعده كلام منقطع عنه وهو قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ودخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته حيث قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك[1]» أخرجه الستة وابن حبان والحاكم عن عائشة وقال رسول الله ﷺ: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»[2] رواه أبو داود والدارمي من حديث عائشة وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه نحوه، والمعنى ليس عليكم حرج أن تأكلوا من أموال أزواجكم وأولادكم كذا قال ابن قتيبة ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر، وقال الضحاك يعني بيوت عبيدكم ومماليككم وذلك أن السيد يملك منزل

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما للرجل من مال ولده (٢٢٩١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الإجارة، باب: الرجل يأكل من مال ولده (٣٥٢٥).

عبده والمفاتح الخزائن لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[١] ويجوز أن يراد به ما يفتح به قال عركمة إذ ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، وقال السدي الرجل الذي يولي طعامه غيره ليقوم فلا بأس أن يأكل منه، وأخرج البزار بسند صحيح عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى زمناهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مماأحببتم فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أنهم أذنوا من غير طيب أنفسهم فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير عن الزهري أن سئل عن قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا ها هنا؟ قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله قال إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون مفاتيح أبوابهم ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غيب فأنزلت هذه الآية رخصةً لهم، وقال قوم: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ ما خزنتموه عندكم، وقال مجاهد وقتادة من بيوت أنفسكم مما خزنتموه وملكتم ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعني بيوت صديقكم الذي صدقكم في المودة فإنه أرضى بالتبسط في أموالهم وأسر وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، قال البغوي قال ابن عباس نزلت في الحارث بن عمرو خرج غازياً مع رسول الله ﷺ وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال تحرجتُ أن آكل من طعامك بغير إذنك فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس نحوه وذكر خالد بن زيد بدل مالك بن زيد، قال البغوي وكان الحسن وقتادة يريان دخول بيت الصديق والتمتع بطعامه من غير استئذان منه في الأكل بهذه الآية، والمعنى فليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذا خلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تتزودوا أو تتحملوا، قيل: هذا الحكم كان في أول الإسلام فنسخ والصحيح أنه ليس بمنسوخ لكنه محمول على أن هذا الحكم مختص بما إذا علم رضاء صاحب البيت بإذن صريح أو قرينة ولذلك خصص هؤلاء بالذكر فإنه يعتاد التبسط بينهم، فالتخصيص بهؤلاء خارج مخرج العادة وإلا فمن دخل بيت أجنبي وعلم رضاء صاحب البيت يأكل طعامه بإذن صريح أو دلالة جاز له، ذلك.

مسألة: وبهذه الآية الدالة على جريان العادة بالانبساط بين المحارم احتجت الحنفية على أنه لا قطع على من سرق من بيت ذي رحم محرم منه سواء كانت المسروق ماله أو

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

مال غيره ويجب القطع على من سرق من بيت أجنبي مال ذي رحم محرم منه اعتباراً للتحرز وعدم، فإن قيل: فعلى هذا لزم عدم القطع على من سرق من بيت صديقه أيضاً بهذه الآية بعينها؟ قلنا: الصدقة أمر عارض يوجد ويزول وقد عاداه بالسرقة فلم يبق الصداقة بخلاف القرية فإنها لا تزول والله أعلم.

وقال البغوي كانت العميان والعرجان والمرضى يدخلون على الرجل لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله في هذه الآية، فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك الطعام ويقولون ذهب بنا إلى بيت غيره فأنزل الله هذه الآية، فعلى هذا معنى الآية ليس على الأعمى وأمثاله حرج ولا عليكم أن تأكلوا أنتم مع الأعمى وأمثالهم من بيوت أنفسكم وأولادكم وأزواجكم أو بيوت آبائكم إلى قوله أو صديقكم، وقال البغوي قال عطاء الخراساني عن ابن عباس قال كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابة أو صداقة يدعوه إلى طعامه فيقول والله إني لأجنح أي أتحرج أن آكل معك وأنا غني وأنت فقير فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي مجتمعين أو متفرقين، قال البغوي نزلت في بني ليث بن بكر وهم حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفاً يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشار به فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل هذا قول قتادة والضحاك وابن جريح، وأخرج ابن جرير عن عكرمة وأبي صالح وذكر البغوي عنهما أيضاً أنهما قالا: كانت الأنصار إذ نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلن رخصةً لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا جميعاً أو أشتاتاً ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت أو من غيرها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي ليسلم بعضكم على بعض فإنه يطلق الأنفس على جماعةٍ متحدةٍ ديناً وقرابةً قد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾[1] ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾[2] ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[3] وقيل معناه: إذا دخلتم بيوتاً لكم لا أهل بها: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإن الملائكة ترد عليهم تحيةً مصدر من غير لفظة تسلموا فإن التحية هو التسليم، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلمَّا خلقه قال اذهب فسَلِّم على أولئك النفر من الملائكة

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٤. (٢) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٣) سورة النور، الآية: ١٢.

جلوسٍ فاستمع ما يحيوك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله»[١] الحديث ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي كائنةً من عنده مشروعةً من لدنه وجاز أن يكون صلة للتحية فإنه طلب الحياة وهي من عند الله ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ يعني مقرونة بذكر البركة وهي الزيادة في الخيرات فيقول السلام عليكم والبركة، وقيل وصف تحية السلام بالبركة لأنه يرجى بها زيادة الخير والثواب ﴿طَيِّبَةً﴾ أي لا رياء فيها ولا نفاق صادرةً من طيب النفس وقيل معناه تطيب بها نفس المستمع قال ابن عباس معنى مباركةً طيبةً حسنةً جميلةً، عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك فإذا دخلتَ بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والثعلبي وحمزة بن يوسف الجرجاني في تاريخ جرجان وسنده ضعيف، قال البغوي هذه الآية في دخول الرجل في بيت نفسه فإنه يسلم على أهله ومن في بيته وهو قول جابر وطاووس والزهري والضحاك وقتادة وعمرو بن دينار قال قتادة إذا دخلتَ بيتك فسلم على أهلك فهم أحق ممن سلمتَ عليهم، وإذا دخلتَ بيتاً لا أحد فيها فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين حدثنا. . . أن الملائكة يرد عليهم، وروى البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً: «إذا دخلتم بيتاً فسلموا على أهلها وإذا خرجتم فأودعوا أهله بسلام» وروى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يا بني إذا دخلتَ على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك»[٢] وعن ابن عباس قال: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله.

وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس في هذه الآية قال: إذا دخلتَ المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وعن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «أيُّ الإسلام خير؟» قال: «تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للمؤمن على المؤمن ست خصال يعوده إذا مرض ويشهده إذا مات ويجيبه إذا دعاه ويسلمه إذا لقيه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم (٣٣٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٢٨٤١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في التسليم إذا دخل بيته (٢٦٩٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: إطعام الطعام من الإسلام (١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٣٩).

ويشمته إذا عطس وينصح له إذا غاب أو شهد»[١] رواه النسائي وروى الترمذي والبزار نحوه، وعنه قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابّوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٢] رواه مسلم، وعن أبي هريرة مرفوعاً: «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير»[٣] متفق عليه، وعنه عند البخاري «يسلم الصغير على الكبير» الحديث، وعن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم فرد عليه ثم جلس، فقال النبي ﷺ «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام علكيم ورحمة الله فرد عليه فجلس، فقال «عشرون» ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس، فقال: ثلاثون»[٤] رواه الترمذي وأبو داود، وروى أبو داود عن معاذ بن أنس مرفوعاً بمعناه وزاد ثم أتى آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته فقال: «أربعون» قال: «وهكذا تكون الفضائل» وعن أبي أمامة مرفوعاً «إن أولى الناس بالله من بدأ بالسلام»[٥] وعن أبي هريرة مرفوعاً «إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من من الآخرة»[٦] رواه الترمذي وأبو داود، وعن علي بن أبي طالب تجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم وتجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم ذكره البغوي في المصابيح موقوفاً ورواه البيهقي في شعب الإيمان مرفوعاً ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كرره ثالثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به وفصل الأولين، بما هو المقتضى لذلك وهو علم الله وحكمته وهذا بما هو المقصود منه فقال ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الحق والخير في الأمور.

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: النهي عن سب الأموات (١٩٢٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء في تشميت العاطس (٢٧٣٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها (٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: يسلم الراكب على الماشي (٥٨٧٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير (٢١٦٠).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: كيف السلام (٥١٨٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما ذكر في فضل السلام (٢٦٨٩).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في فضل من بدأ بالسلام (٥١٨٨).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود (٢٧٠٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في السلام إذا قام من المجلس (٥١٩٩).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قالوا: لمَّا أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة قائدها أبو سفيان وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنقبين إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه وعمل المسلمون فيه وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يزورون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ يستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له فإذا قضى به بشر فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات إلى آخر السورة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم دون من ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[1] ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وصف الأمر بالجامع مجازاً للمبالغة والمراد على أمر يقتضي أن يجمع الناس لذلك الأمر كحفر الخندق والمشاورة والجهاد ونحو ذلك كالجمعة والأعياد ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي لم يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾أي الرسول الله ﷺ فيأذن لهم ولا حاجة ها هنا إلى القول بأن المراد بالمؤمنين الكاملون لأنه حكاية وأخبار عن حال المؤمنين الموجودين في ذلك الوقت وما به كانوا يمتازون عن المنافقين، وقد كانوا كلهم كاملين في الإيمان وكان شأنهم ذلك دون المنافقين، ولما كان عدم التخلف عن رسول الله ﷺ في مواضع الشدة دليلاً واضحاً على صدق إيمانهم إعادة مؤكداً على أسلوب أبلغ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ لأجل ضرورة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بصميم قلوبهم يعني أن المستأذن مؤمن لا محالة دون الذاهب بغير إذن ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ الذي نابهم ودعاهم إلى

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٠.

الانصراف فيه مبالغة وتضييق للأمر يعني لا ينبغي للمؤمنين أن يستأذنوا لكل ما نابهم من النوائب بل لبعض ضروري منها لا بد له من الانصراف ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ قيد الأمر بالإذن بالمشيئة للدلالة على أن هذا أمر للإباحة وليس للوجوب ولو كان الإذن بعد الاستئذان واجباً على النبي ﷺ بطل فائدة الاستئذان لأنه لا يعجز أحد عن الاستئذان، وفيه دليل على أن بعض الأحكام كان مفوضاً إلى رأيه ﷺ وكذا إلى رأي الإمام ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن يكون تابعةً لعلمه بصدقه فكان المعنى: فأذن لمن علمت أن له عذراً أو يكون الأمر الجامع قاصراً في اقتضاء الاجتماع أو كان المستأذن مستغنى عنه ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ يعني بعد الإذن فإن الاستئذان ولو بعذر قصور لأن فيه تقديماً لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرطان العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم، وقال البغوي قال المفسرون في سبب نزول هذه الآية كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد أحد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فأذن لمن شاء منهم قال مجاد وأذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده، قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذنه وإذا استأذنوا الإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن هذا إذا لم يكن سبب يمنعه من المقام، فإن حدث سبب يمنعه من المقام مثل أن يكون امرأة في المسجد فتحيض فيه أو يجنب رجل أو عرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يعني إذا دعاكم الرسول إلى أمر جامع أو غير ذلك فأجيبوا دعوته وامتثلوا أمره ولا تجعلوا دعوته إياكم كدعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة والمراجعة بغير إذنه حرام بخلاف غير ذلك، فهذه بهذا التأويل نظيرة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] والإضافة في دعاء الرسول إضافة المصدر إلى فاعله والمفعول محذوف، وقال مجاهد والقتادة معنى الآية لا تجعلوا دعاءكم الرسول كدعاء بعضكم بعضاً يعني لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً ولكن فخموه وشرفوه، أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فأنزل الله تعالى هذه الآية فقالوا: يا نبي الله يا رسول الله، لكن هذا التأويل لا يناسب ما سبق وما يتلوه فإن الكلام في

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

الخروج باستئذان وبغير استئذان وأيضاً لا يناسبه نفس هذا الكلام لأن المشبه به هو الدعاء المضاف إلى الفاعل لكون المفعول به بعده منصوباً فلا بد أن يكون في المشبه أيضاً الرسول فاعلاً للدعاء لا مفعولاً، وقال البغوي قال ابن عباس معنى الآية احذروا عن دعاء الرسول عليكم إذا أستخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره، روى البخاري في الصحيح عن عائشة قالت: إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليك قال وعليكم فقالت عائشة: السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة عليكِ بالرفق وإياك العنف والفحش» قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أولم تسمعي ما قلتُ؟ رددتُ عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ»، قلت: على هذا كان حق الكلام لا تجعلوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض لكن يمكن على هذا معنى الآية: لا تجعلوا دعاء الرسول ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجبيه مرةً ويرده أخرى، فإن دعاءه مستجاب لا يرد لا محالة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ السل انتزاع الشيء من الشيء وإخراجه في اختفاء ولذلك يطلق على السرقة الخفية يقال: سُلَّ البعيرُ في جوف الليل وانسل واستل أي انطلق وخرج في اختفاء كذا في القاموس والمعنى الذين يخرجون ﴿مِنكُمْ﴾ أي من بينكم مختفياً ﴿لِوَاذًا﴾ مصدر لاوذ يلاوذ مولاوذة ولواذاً وليس من لاذ يَلُوذُ فإن مصدره لياذ واللياذ الالتجاء بغيره والانضمام إليه ورد في الدعاء المأثور اللهم ألوذ بك، واللواذ أن يلوذ كل واحد منهم بالآخر والمعنى أنهم يخرجون مستترين يلوذ يستتر بعضهم ببعض يخرج أو يلوذ بمن يؤذن في الخروج فيخرج معه كأنه تابعه في القاموس اللوذ بالشيء الاختفاء والاحتصان به كاللواذ مثلثة وكان هذا حال المنافقين في حفر الخندق على ما قال ابن إسحاق والبيهق عن عروة ومحمد بن كعب القرظي كانوا.. ينصرفون عن رسول الله ﷺ مختفين، وقال ابن عباس كان المنافقون يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي ﷺ فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار، ولواذاً منصوب على الحال ومعنى قوله: قد يعلمُ أنه يجازيهم فإن الجزاء فرع العلم.

﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ تفريع على قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ قيل عن زائدة والمعنى يذهبون سمتاً خلاف سمته وقيل أورد عن لتضمن يخالفون معنى الإعراض، أو المعنى يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه، وجاز أن يكون عن أمره في محل النصب على الحال والمفعول محذوف تقديره الذين يخالفون الرسول ويخالفون المؤمنين

عن أمره وضمير أمره إما راجع إلى الله أو إلى الرسول ﷺ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة وبلاء في الدنيا كذا قال مجاهد ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة أن مع صلته في محل النصب على أنه مفعول ليحذروا يعني ليحذروا إصابة الفتنة أو إصابة العذاب الأليم وذلك بسبب المخالفة عن أمره، وجاز أن يكون المفعول محذوفاً تقديره: فليحذر الذين يخالفون عن أمره عن المخالفة لئلا يصيبهم فتنة أو عذاب أليم وهذه الآية حجة للقائلين بأن مطلق الأمر يعني ما لا قرينة على كونه للوجوب أو للندب أو غير ذلك يكون للوجوب فحسب وليس مشتركاً بين الوجوب والندب على ما تقل عن الشافعي أو بينهما وبين الإباحة أو بين الثلاثة وبين التهديد على ما ذهب إليه الشيعة ونقل عن ابن شريح، فإن خوف الفتنة والعذاب لا يتصور إلا في ترك الواجب أو ارتكاب المحرم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الإيمان والنفاق والموافقة والمخالفة فهو خطاب لجميع المكلفين وجاز أن يكون خطاباً للمنافقين خاصةً على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وجملة قد يعلم تقرير لما سبق لأن الذي هو خالق ومالك لكل شيء لا بد أن يعلم أحوال مخلوقاته ومملوكاته ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يوم يرجع الناس للجزاء إلى الله تعالى فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الخير والشر بإيفاء الجزاء والظرف يعني يوم يرجعون متعلق بقوله: ينبئهم والفاء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟﴾[1] وجاز أن يكون الظرف معطوفاً على ظرف محذوف متعلق بقوله قد يعلم ما أنتم عليه تقديره: قد يعلم ما أنتم عليه اليوم ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه منكم خافية، روى البغوي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن بالمغزل وسورة النور»[2] صدق الله وصدق رسول الله ﷺ وصدق أصحاب رسول الله ﷺ عنهم أجمعين.

تمت سورة النور سادس والعشرين من رمضان من السنة الرابعة بعد ألف ومائتين ويتلوه سورة الفرقان إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة قريش، الآية: ١ ـ ٣.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن إبراهيم الشامي، قال الدارقطني: كذاب.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: البيوع، باب: صناعة النساء (٦٤٣٠)

المحتويات

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء السابع

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

1425 هـ ـ 2004 م

دار إحياء التراث العربي ـ بيروت لبنان

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 091/220493 ـ موبيل: 0300/5902280 ـ باكستان

بيروت ـ لبنان ـ بناية كليوبترا ـ شارع دكاش

ص.ب: 11/7957 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 ـ 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

سورة الفرقان

آياتها سبع وسبعون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ
تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى
ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وهي كثرة الخير يعني تكاثر خيره وهذه الصيغة لا يتصرف فيه ولا يستعمل إلا لله تعالى، قال ابن عباس معناه جاء كل بركة من قبله كذا قال الحسن، وقيل معناه تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله فإن البركة تتضمن معنى الزيادة ومن هاهنا قال الضحاك معناه تعظم ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ مصدر فرَّق بين الشيئين إذا فصل بينهما سمِّي به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره والمحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصولاً بعضه عن بعض في الإنزال، رتب الله سبحانه قوله تبارك على إنزال القرآن لما فيه من كثرة الخير ولدلالته على تعظمه سبحانه وتعاليه ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ أي العبد أو الفرقان ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للإنس والجن عامة وعموم الرسالة من خصائصه ﷺ ﴿نَذِيرًا﴾ أي منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار وهذه

الجملة وإن كانت في حيز الإنكار لأهل مكة المخاطبين بها ولا بد من أن تكون الصلة معلومة لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي سلطانه والموصول بدل من الأول، وجاز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ليكون لأن المبدل منه أي الموصول مع الصلة وقوله ﴿لِيَكُونَ﴾ من متعلقات الصلة تعليل له فكان المبدل منه لم يتم إلا به وجاز أن يكون الموصول مرفوعاً بتقدير المبتدأ أي هو أو منصوباً بتقدير أعني أو أمدح ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم النصارى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما يقول المجوس والثنوية أثبت له الملك مطلقاً ونفى ما يقاومه فيه ثم نبّه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يعني أحدث كل شيء مراعى فيه التقدير كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة على صور وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فسواه وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة، أو المعنى فقدره للبقاء إلى أجل مسمى وقد يطلق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الإستقامة فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً، وقيل قدر لكل شيء تقديراً من الأجل والعمل والرزق فجرت المقادير على ما خلق، ولمّا تضمّن الكلام إثبات التوحيد والنّبوة أخذ في الرد على من أنكرهما في بيان نقص آلهتهم الباطلة فقال ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ أي المنذرون يدل عليه قوله ﴿نَذِيرًا﴾ والمراد كفار مكة والجملة معطوفة على قوله تبارك ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي غير الله، من زائدة وهو في محل النصب على الحال من قوله آلهة ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ من الجواهر والأعراض والأعمال والأحوال صفة الآلهة ﴿وهم يخلقون﴾ حيث خلق الله كل شيء، وهذا المعنى يعم الآلهة الباطلة كلها وإن كان المراد بالآلهة الأصنام فجاز أن يكون المعنى وهم ينحتون ويصورون أي حصلت لهم صورهم بكسب عبدتهم والجملة معطوفة على ما سبق أو حال، أو رد صيغة المضارع والمعنى على الماضي للاستحضار ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي لا يقدرون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي دفع ضر أريد بهم ﴿إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾[1] ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ولا جلب نفع وهذا حال الأصنام بل حال كل شيء سوى الله تعالى فإن عيسى وعزيراً والملائكة مع علو مرتبتهم ﴿لا يملكون لأنفسهما نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

ٱلسُّوٓءُ﴾[١] ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ يعني لا يملكون إماتة أحد ولا إحياءه أولاً ولا بعثه ثانياً، وهذه الأمور من لوازم الألوهية فكل من ليس كذلك فليس بإله وفيه إشارة إلى أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عطف على اتخذوا، وضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بأن إنكار النبوّة كفر كإنكار التوحيد وذلك لأن التوحيد على ما ينبغي لا يتأتى بمجرد العقل بل حقيقة التوحيد ما ورد به الشرع ألا ترى إلى الفلاسفة وأمثالهم كيف خبطوا في الإلهيَّات حتى ضلوا وأضلوا، في الصحيحين عن ابن عباسٌ في قصة وفد عبد القيس قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[٢] الحديث ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ أي كذب مصروف عن وجهه، يعني ليس هذا من كلام الله كما يقول محمد ﷺ بل ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ ويعني اختلقه محمد ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على اختلاق القرآن ﴿قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قال مجاهد يعنون اليهود وقال الحسن عبيد بن الحصر الحبشي الكاهن وقيل جبر ويسار وعداس عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب، زعم المشركون أن محمداً ﷺ يأخذ منهم ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ يعني قائلي هذه المقالة ﴿ظُلۡمٗا﴾ حيث حكموا على الكلام المعجز بكونه إفكًا مختلقاً متلفقاً من اليهود ﴿وَزُورٗا﴾ حيث نسبوا الإفتراء إلى من هو بريء منه، قال البيضاوي أتى وجاء يطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته، وقيل هذان منصوبان بنزع الخافض تقديره فقد جاءو بظلم وزور ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي قال بعضهم يعني النضر بن الحارث فإنه كان يقول القرآن ليس من الله إنما هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يعني ممّا سطره أي كتبه الأولون أي المتقدمون مثل قصة رستم واسفنديار ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾أي استكتبها محمد ﷺ من جير ويسار وعداس وأمثالهم ﴿فَهِيَ﴾ أي تلك الأساطير ﴿تُمۡلَىٰ﴾ أي تقرأ ﴿عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ ليحفظها فإنه أميّ لا يقدر أن يكتب ولا أن يكرر من الكتاب ﴿قُلۡ﴾ استئناف فإنَّه في جواب ماذا أقول لهم يعني له لهم ردّاً عليهم ليس الأمر كما قلتم بل ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ كما يدل على ذلك إعجازه البلغاء عن آخرهم عن معارضته وكونه مشتملاً على علوم لا يعلمها إلا عالم السر والخفيان فكيف تحكمون عليه بكونه

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان (٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (١٧).

من كلام البشر من المتأخرين أو المتقدمين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك لا يعجلكم بالعقوبة على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم إياها ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني وقالوا في مقام الاستدلال على إنكارهم النبوة ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ أي ما لهذا الذي يدعي الرسالة وفيه إستهانة وتهكم ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما يأكل أحدنا، حال من المشار إليه والعامل فيه معنى الإشارة ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كما يمشي أحدنا يعني لو كان نبياً لامتاز عن غيره من الناس وليس فليس، قال البغوي كانوا يقولون لست أنت بملك لأنك تأكل والملك لا يأكل ولست أنتَ بمِلك لأن المِلك لا يتسوق وأنت تتسوق وتتبدل، قلتُ كلامهم هذا فاسد لأنه ﷺ لم يدع الملكية ولا السلطان بل قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[1] فادعاؤه النبوة غير مناف لأكل الطعام والمشي في الأسواق الذي هو مقتضى البشرية التي هي من لوازم النبوة لأن النبي لا يكون إلا بشراً لأن المجانسة شرط للإفاضة والإستفاضة قال الله تعالى: ﴿لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾[2] ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ نراه ﴿فَيَكُونَ﴾ جواب لولا معنى هلا منصوب بتقدير أن بعد الفاء ﴿مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ فنعلم صدقه بتصديق المَلَك، جملة لولا مع جوابه بدل إشتمال من الجملة السابقة، يعني ما لهذا الرسول بشراً ليس ملكاً قوياً بذاته ولا مؤيداً بأحد الأمور الثلاثة المذكورة أنزل إليه ملك ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ من السماء ﴿كَنزٌ﴾ ينفقه فلا يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ صفة لجنة قرأ حمزة والكسائي نأكل بالنون على صيغة المتكلم مع الغير، ذكروا كلاً من الثلاثة على سبيل التنزل يعنون أنه إن كان رسولاً كان ملكاً وإن لم يكن ملكاً كان معه ملك يصدقه وإن لم يكن كذلك كان يلقى إليه من السماء كنز وإن لم يكن كذلك فلا أقل أن يكون له بستان كما يكون المدهاقين والمياسير فيعيش بربحه ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أيها المسلمون أحداً حين تتبعون محمداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ يعني سحر فغلب على عقله، وقيل أي مخدوعاً، وقيل مصروفاً عن الحق، وقيل مسحوراً أي ذا سحر وهو الرئة أي بشراً، وقيل هو مفعول بمعنى الفاعل ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ كيف ظرف متعلق بضربوا قدم عليه لتضمنه مصدر الكلام والجملة بتأويل المفرد مفعول لا نظر أي

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.

انظر إلى كيفية ضربهم الأمثال أي الأشباه، يعني جعلوك مثل المفترين والقاصين حتى حكموا عليه بالإفتراء وإستكتاب القصص ومثل المسحورين ومثل من يدعي الملكية والسلطنة حتى حكموا عليك باستحالته الأكل والتسوُّق واستلزام لوازم الأغنياء والسلاطين من الكنز والجنة (فَضَلوا) عطف على ضربوا أي كيف ضربوا وكيف ضلوا عن الطريق الموصل إلى الحق ومعرفة نبوتك بمعرفة خواص الأنبياء من كونه بشراً معصوماً يوحى إليه من ربه ومعرفة ما يميّز بينه وبين المتنبيّ من المعجزات الدالة على نبوته ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الرشد والهدى عطف على ضلوا أو المعنى ضربوا لك أمثالاً متناقضة فلا يستطيعون سبيلاً إلى القدح في نبوتك لأن الكلام المتناقض ساقط والله أعلم.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا
رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا
هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ
أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا
يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ
وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم
مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم عن خيثمة قال قيل للنبي ﷺ إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقص ذلك عندنا شيئاً في الآخرة وإن شئتَ جمعتها لك في الآخرة قال لا اجمعهما لي في الآخرة، فنزلت ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي قالوا من الكنز والبستان، ولكن أخّره للآخرة لأنه خير وأبقى، خيراً مفعول أول لجعل ولك مفعول ثان له، قال البغوي وروي

عن عكرمة عن ابن عباس قال يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير بقوله ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فهو بدل من خيراً ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ عطف على جعل، قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم برواية أبي بكر بالرفع والباقون بالجزم لأن الشرط إن كان ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع ويجوز أن يكون الرفع على الاستئناف على أنه وعد بما يكون له في الآخرة ﴿قُصُورًا﴾ أي بيوتاً مشيدةً والعرب تسمي كل بيت مشيد قصراً، روى أحمد والترمذي وحسنه عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلتُ لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يومًا»[١] وفي رواية عند البغوي أو قال ثلاثاً ونحو هذا «فإذا جعتُ تضرعت إليك وإذا شبعت حمدتُك وشكرتك» وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «لو شئت لسارت معي جبال الذهب جاءني ملك إن حجزته لتساوى الكعبة فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول إن شئت نبيّاً عبداً وإن شئت نبيّاً ملكاً فنظرتُ إلى جبرئيل فأشار إليَّ أن ضَع نفسك، فقلتُ نبيّاً عبداً، قالت فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً ويقول آكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد»[٢] ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ عطف على قالوا، يعني قالوا ذلك بل قالوا أعجب من ذلك أو متصل بما يليه يعني بل قصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فكذبوك وطعنوا فيك بالفقر وبما تحّلوا من المطاعن الفاسدة، أو المعنى بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة أو فلا تعجب تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ عطف على كذبوا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديد الإسعار، وقيل اسم لجهنم فيكون صرفه باعتبار المكان ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي إذا رأت النار الكفار، حمل بعض المحققين إسناد الرؤية إلى النار على الحقيقة لما قال البغوي إنه روي عن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده بين عيني النار، قالوا وهل لها من عينين؟ قال ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وقيل الإسناد مجازي فقيل والتقدير إذا رأتهم زبانيتها على حذف المضاف، وقيل يعني إذا كانت بمرأى من الأخرى ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال الكلبي من مسيرة مائة عام، وقيل من مسيرة خمس مائة سنة ﴿سَمِعُوا۟﴾ أي الكفار ﴿لَهَا﴾ أي للنار ﴿تغيظا﴾، أي صوت تغيظ، هي صوت غليانها شبيها بصوت

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٧).

(٢) رواه أبو يعلى وإسناده حسن، انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: في تواضعه ﷺ (١٤٢١).

المتغيظ ﴿وَزَفِيرًا﴾ وهو صوت يسمع من جوفه والجملة الشرطية صفة لسعير وتأنيث ضمير رأتهم لأنه بمعنى النار أو جهنم ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟﴾ يعني الكفار عطف على الشرطية الأولى ﴿مِنْهَا﴾ أي من جهنم حال مما بعده ﴿مَكَانًا﴾ ظرف لألقوا ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والرَّوح مع السعة، قرأ ابن كثير بسكون الياء والباقون بتشديدها. أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية قال: «والّذي نفسي بيده ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط» وأخرج عن ابن عمر في الآية قال مثل الزُّج في الرمح، وقال ابن المبارك من طريق قتادة قال ذكر لنا أن عبد الله كان يقول: إن جهنم لتضيق على الكافرين كضيق الزج على الرمح، فأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال إذا ألقي في النار من يخلد في النار جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل جهنم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره، وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن غفلة نحوه ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حال من الضمير المرفوع في ألقوا يعني وقد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل وقيل مقرنين مع الشياطين ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ جزاء للشرط، قال ابن عباس يعني ويلاً، وقال الضحاك هلاكًا، أخرج أحمد والبزار وابن أبي حاتم والبيهقي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من بعده وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار» فيقال لهم ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ استئناف كأنه في جواب ماذا يقال لهم حين يدعون ثبوراً يعني هلاككم أكثر من أن تدعوا مرةً واحدةً فادعوا أدعية كثيرةً وذلك لأن عذابكم أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدته أو لأنه يتجدد كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[1] أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبوراً قال الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد استئناف ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لك من صفة النار وأهلها، أو أذلك الكنز والجنة التي في الدنيا ﴿خَيْرٌ﴾ من جنة الخلد ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ خير من ذلك إستفهام تقرير للتقريع مع التهكم والتوبيخ للكفار وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح أو للدلالة على خلودها أو للتميز عن جنات الدنيا ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ العائد إلى الموصول محذوف والمراد بالمتقين من يتقي الشرك والتكذيب بدلالة مقابلة الكفار، وأن الجنة يكون جزاء لكل مؤمن ﴿كانت

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

لهم﴾ في علم الله أو اللوح المحفوظ أو لأن ما وعد الله في تحققه كالواقع ﴿جَزَآءً﴾ ثواباً على أعمالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ مرجعاً ينقلبون إليه، التنكير فيها للتعظيم وجزاء ومصيراً حالان من الضمير المرفوع في كانت أو خبر ثان له وجملة كانت لهم حال من المفعول المقدر لوعد أي (جنة الخلد التي وعد المتقون إياها وقد كانت لهم جزاء ومصيراً) أو حال من المتقون، والرابط ضمير لهم ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ العائد محذوف أي ﴿ما يشاؤونه﴾ العائد محذوف أي ما يشاؤونه من النَّعيم يعني على ما يليق برتبته إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك ما يدركه الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن جميع المرادات لا يحصل إلا في الجنة ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرهم ﴿كَانَ﴾ الضمير الراجع إلى ما يشاءون ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ أي موعوداً من الله وكلمة على للوجوب استعمل لاستحالة الخلف في الموعود ولا يلزم منه الإلجاء لأن تعلق الإرادة بالموعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز، وهو تحقق الاختيار ﴿مسؤولاً﴾ أي حقيقيًا بأن يسأل ويطلب أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾[١] قال محمد بن كعب القرظي كان مسؤولاً من الملائكة بقولهم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾[٢] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلق بقالوا سبحانك، وجملة قالوا سبحانك مع متعلقاتها عطف على ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص بالياء على الغيبة والباقون بالنون على التكلم والتعظيم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي كل معبود سواه عبد بالباطل عاقلاً كان أو غير عاقل لأن كلمة ما يعمهما على الأصح، وقال مجاهد يعني من الملائكة والجن وعيسى وعزير خص لهؤلاء بقرينة السؤال والجواب، وقال عكرمة والضحاك والكلبي يعني الأصنام لأن ما لغير ذوي العقول وهذا القول محمول على أن الله سبحانه يجعلها في الآخرة ذات حياة ونطق فتنطق كما تنطق الجوارح والأمكنة ونحو ذلك ﴿فَيَقُولُ﴾ للمعبودين بالباطل عطف على يحشر، قرأ ابن عامر بالنون على التكلم والتغظيم والباقون بالياء على الغيبة أي يقول الله سبحانه لهم ﴿ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾ بدل من عبادي يعني أضللتم إياهم بدعوتكم إياهم إلى عبادة أنفسكم ﴿أم هم ضلوا السبيل﴾ أي معرفة الحق لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح الفصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبيد وأصله أضللتم أم ضلوا فغير النظم ليلي حرف الاستفهام

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٨.

المقصود بالسؤال وهو المتولى للفعل دون نفس الفعل لأنه قطعي لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب ﴿قَالُوا﴾ أورد صيغة الماضي للمستقبل لتحقق الوقوع ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تعجباً لما قيل لهم لعصمتهم إن كانوا ملائكة أو أنبياء أو لعدم قدرتهم على الإضلال إن كانوا جمادات أو غير ذلك، أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتحميده حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١] فكيف يليق بهم إضلال عبيده أو تنزيهاً لله تعالى من أن يكون له شريك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ جملة ينبغي خبر كان واسمه ضمير الشأن ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي أي ما يصح لنا أن نوالي أحداً غيرك للعصمة وعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا إلى أن يتخذ ولياً دونك ولهذا جواب صحيح للأنبياء والملائكة وكذا للجمادات، وأما من ادعى في الدنيا ألوهيَّةً باطلة من شياطين الجن والإنس فهذا الجواب منهم كقولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٢] وكقول الشيطان ﴿لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان﴾[٣] الآية ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ بطول العمر والصحة وأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ عطف على متعتهم يعني حتى غفلوا عن ذكرك وتذكر آلائك والتدبر في آياتك المنصوبة الدالَّة على ذلك وعن احتياجهم إليك، أو تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن فهو نسبة للضلال إليهم من حيث أنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه فهذه الآية حجة لنا على المعتزلة لا لهم علينا ﴿وَكَانُوا﴾ في قضائك عطف على نسوا ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى، مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع وقيل جمع بائر كعائذ وعوذ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ خطاب مع المشركين في الدنيا يعني فسيكذبكم في الآخرة آلهتكم التي تعبدونها، أو رد صيغة الماضي للقطع بوقوعها كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾[٤] وجاز أن يكون بتقدير القول يعني فنقول حينئذ للمشركين فقد كذبكم المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ الباء بمعنى في أي في قولكم أنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا وجاز أن يكون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بدل اشتمال من الضمير المنصوب في ﴿كَذَّبُوكُم﴾ يعني كذبوا قولكم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على فقد كذبوكم قرأ حفص بالتاء على الخطاب للعابدين والباقون بالياء على أن الضمير راجع إلى المعبودين ﴿صَرْفًا﴾ أي لا يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم ﴿وَلَا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الإنشقاق، الآية: ١.

نَصۡرٗاۚ﴾ لكم أو لا تستطيعون أنتم صرف العذاب عن أنفسكم ولا نصر أنفسكم، وقيل الصرف الحيلة ومنه قول العرب أنه يتصرف أي يحتال ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ إن كان المراد بالظلم الشرك فالجزاء لازم إجماعاً وإن كان يعم الكفر والفسق فاقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقاً وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا، أخرج الواحدي من طريق جويبر والبغوي عن الضحاك عن ابن عباس وابن جرير نحوه من طريق سعيد أو عكرمة عنه أنه لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاتحة ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ حزن رسول الله ﷺ فنزل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ يعني إلا رسلاً أنهم ليأكلون فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه والمعنى إلا رسلاً آكلين الطعام والماشين في الأسواق كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾[1] أي ما منا من أحد إلا من له مقام معلوم وجاز أن يكون حالاً إكتفى منها بالضمير يعني ﴿ما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين﴾ في حال من الأحوال إلاّ والحال إنهم ليأكلون، وجملة ما أرسلنا معترضة لتسلية النبيّ ﷺ ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ أي بلية فالغني فتنة للفقير يقول الفقير مالي لم أكن مثله والصحيح فتنة للمريض والشريفُ للوضيع، وقال ابن عباس أي جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا على ما تسمعون فيهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى، وقيل نزلت في إبتلاء الشريف بالوضيع وذلك أن الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقد أسلم بعده، فيكون له على الشريف السابقة والفضل فيقيم على الكفر ويمتنع عن الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل نزلت في أبي جهل والوليد بن عتبة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث وذلك أنهم إذا رأوا أبا ذر وابن مسعود وعماراً وبلالاً وصهيباً وعامر بن فهيرة قالوا نسلم ونكون مثل هؤلاء، وقال قتادة نزلت في ابتلاء المؤمنين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون أنظروا الذين اتبعوا محمداً من موالينا ورذالتنا فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى فتؤجروا أم لا تصبرون فتزدادوا غمّاً إلى غمكم وحاصل المعنى اصبروا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ بمن صبر وجزع، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في**

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

المال والجسم فلينظر إلى من هو أسفل منه»[١] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد.

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يأملون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير لإنكارهم البعث ولا لقاءنا بالشر إما مجاز أو إما على لغة تهامة، قال الفراء إن الرجاء بمعنى الخوف على لغتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾[٢] أي لا يخافون لله عظمة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنه وصول إلى المرئي والمراد به الوصول إلى جزائه ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيخبروننا بصدق محمد أو يكونون رسلاً من الله إلينا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمرنا باتباعه ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ جواب قسم محذوف ﴿فِىٓ﴾ شأن ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ حيث طلبوا لأنفسهم ما ينفق لأفراد من الأنبياء الّذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك ﴿وَعَتَوْ﴾ تجاوزوا الحد في الظلم، وقال مجاهد طغوا، وقال مقاتل علوا في القول، وقال البغوي العتو أشد الكفر وأفحش الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبه حيث طلبوا رؤية الله ولا شيء فوق ذلك، وقيل عتوهم أنهم عاينوا المعجزات الباهرة فأعرضوا عنها وطلبوا لأنفسهم الخبيثة ما تقطعت دونه أعناق الطالبين الكاملين ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ أي الكفار ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يعني حين

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه (٦٤٩٠)، وأخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٣).

(٢) سورة نوح، الآية: ١٣.

الموت أو يوم القيامة جملة معترضة والظرف إما متعلق باذكر ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطف على يرون وجملة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ معترضة أخرى وإما متعلق بقوله تعالى: لا بشرى بتقرير القول يعني يوم يرون الملائكةي يقولون أي الملائكة ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ للمجرمين، قال عطية أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة ويقولون للكافرين لا بشرى لكم، وقيل معناه يوم يرون الملائكة لا يبشرون كما يبشرون المؤمنين بالجنة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكرير أو خبر للا، أو ظرف لما تعلق به اللام في للمجرمين ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إما متعلق بالظرف المستقر أعني يومئذ أو خبر للا أو متعلق بالبشرى إن قدرت منونة غيرمبنية مع لا فإنها لا تعمل وللمجرمين إما عام يتناول حكمه حكمهم وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم وإشعاراً بما هو المانع للبشرى والموجب لما يقابله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الملائكة عطف على يقولون لا بشرى ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كذا قال البغوي عن عطاء عن ابن عباس أنه تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله الا الله محمد رسول الله، وعن مقاتل أنه إذا خرج الكفار من قبورهم قالت الملائكة لهم حراماً محرما عليكم أن تكون لكم الجنة، وقال بعضهم معنى الآية يقولون أي المجرمون حين يخرجون من قبورهم ويرون الملائكة حجراً محجوراً، قال البغوي قال ابن جريج كانت العرب إذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون قالوا حجراً محجوراً فهم يقولون ذلك إذا عاينوا الملائكة ومعناه عوذاً معوذاً، قال مجاهد يستعيذون من الملائكة يعني يوم يرون الملائكة وتقول الملائكة لا بشرى ويقول المجرمون حجراً محجوراً أي يطلبون من الله أن يمنع لقاءهم ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي عمدنا ذلك اليوم عطف على ويقولون ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي الكفار ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ صالح كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف ونحوها ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائد إلى ما عملوا ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي باطلاً لا ثواب له لفوات شرط الثواب عليه من الإيمان والإخلاص لله تعالى قال علي الهباء ما يرى في الكوى إذا وقع الشمس فيها كالغبار ولا يمس منها بالأيدي ولا يرى في الظل وسعيد بن جبير هو ما تسفه الريح وتذريه من التراب وحطام الشجر، وقال مقاتل هو ما يطير من حوافر الدّواب عند السير، وقيل الهباء المنثور ما يرى في الكوة والهباء المنبتّ ما يطيره الريح من سنابك الخيل شبه عملهم المحبط في حقارته وعدم نفعه بالهباء ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمه أو في تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون نحوها أو مفعول ثالث من حيث أنه كالخبر كقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[1] ﴿أَصْحَٰبُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

﴿ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يرون الملائكة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي مكاناً يستقر في أكثر الأوقات ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج وهو التمتع بهن ويجوز أن يراد به مكان القيلولة على التشبيه إذ لا نوم في الجنة، وقال الأزهري القيلولة والمقيل الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والجنة لا نوم فيها وفي أحسن رمز إلى ما يتزين به مقيلهم من حسن الصور وغيره من المحاسن ويحتمل أن يراد بالمستقر المقيل المصدر أو الزمان وإشارة إلى أن مكانها وزمانها أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة والتفضيل إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا، أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء وذكر البغوي عن ابن مسعود ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقرأ ﴿ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾[1] هكذا كان يقرأه، وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية عن إبراهيم النخعي قال كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، وقال البغوي كان ابن عباس رضي الله عنه يقول في هذه الآية الحساب ذلك اليوم في أوله وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة، قال البغوي ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ عطف على يوم يرون، قرأ أهل الكوفة وأبو عمر وبتخفيف الشين هاهنا وفي سورة ق بحذف إحدى التائين والباقون بالتشديد بإدغام التاء في الشين ﴿ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي بسبب طلوع الغمام وهو الغمام المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2] وقد مر في سورة البقرة، وهو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم وقال البغوي الباء بمعنى عن يتعاقبان يقال رميت السهم بالقوس، وعن القوس فالمعنى تشقق السماء عن الغمام ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قرأ العامة بنون واحدة وتشديد الزاء وفتح اللام على صيغة الماضي المبني للمفعول ورفع الملائكة على أنه مسند إليه، وقرأ ابن كثير بنونين وتخفيف الزاء وضم اللام على صيغة المضارع المبني للفاعل المتكلم على التعظيم من الإنزال ونصب الملائكة على المفعولية ﴿تَنزِيلًا﴾ أخرج الحاكم وابن أبي حاتم وابن جرير

(١) الآية هي: ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ سورة الصافات، الآية: ٦٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

وابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال عن ابن عباس أنه قرأ ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ قال يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممَّن في الأرض من الجن والإنس وجميع الخلق فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق فيقول أهل الأرض أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الثانية وهم أكثر من أهل السماء الدنيا وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلائق، ثم ينزل أهل السماء الثالثة وهم أكثر من أهل السماء الثانية والأولى وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الرابعة وهم أكثر من أهل السماء الثالثة والثانية والأولى وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل أهل السماء الخامسة وهم أكثر ممن تقدم ثم أهل أهل السماء السادسة كذلك ثم أهل السماء السابعة وهم أكثر من أهل السماوات وأهل الأرض فيقولون أفيكم ربنا؟ فيقولون لا، ثم ينزل ربُّنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السماوات السبع والأرضين وحملة العرش لهم قرون ككعوب القناما بين قدم أحدهم كذا وكذا ومن أخمص قدمه إلى كعبه خمس مائة عام ومن كعبه إلى ركبته خمس مائة عام ومن أرنبة إلى ترقوته مسيرة خمس مائة عام. ومن ترقوته إلى موضع القوط خمس مائة عام وقد مر هذا الحديث وأقوال العلماء في تأويل نزوله تعالى في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(١) وأخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء فتشقق بأهلها فيكون الملائكة على حافتها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفُّوا صفاً دون صف ثم ينزل ملك على مجنته اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض ندوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين﴾(٢) وقوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾(٤) وقوله تعالى ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

واهية والملك على أرجائها﴾[١] يعني ما تشقق منهما فبينما كذلك إذ سمعوا الصوت وأقبلوا إلى الحساب ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تشقق السماء متعلق بالملك ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة للملك ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبر للمبتدأ يعني الملك الثابت المتحقق الذي لا زوال له يومئذ ثابت للرحمن دون غيره وجاز أن يكون يومئذٍ خبراً للمبتدأ وللرحمن متعلق به ﴿وَكَانَ يَوْمًا﴾ خبر كان واسمه ضمير مستتر ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ صفة ليوم وعلى الكافرين متعلق به يعني كان ذلك اليوم يوماً شديداً على الكافرين، وجاء في الحديث عن أبي سعيد قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقدره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال «والَّذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[٢] والله أعلم، قال البغوي كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً يدعوا إليه إشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبيّ ﷺ فقدم ذات يوم من سفر فصنع الطعام فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ فلمَّا قرب الطعام، قال رسول الله ﷺ «ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فقال عقبة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأكل رسول الله ﷺ من طعامه، وكان عقبة صديقاً لأبي بن خلف فلمَّا أخبر أبي بن خلف قال له يا عقبة صبأت، قال لا والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال ما أنا بآلذي أرضى منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه ففعل ذلك عقبة.

فقال النبيّ ﷺ لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبراً وأما أبي بن خلف فقتله النبيّ ﷺ يوم أحد بيده» وكذا أخرج ابن جرير مرسلاً، وفيه وقال أبي لعقبة أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه السلام ولا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر علياً بقتله وطعن أبيّاً بأحد في المبارزة فرجع إلى مكة فمات، ففي شأن عقبة وأبي نزلت ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ عطف على يوم تشقق ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فرط الحسرة. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال كان أبي بن خلف يحضر النبيّ ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط فنزلت هذه الآية إلى قوله خذولاً وأخرج

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه. انظر مجمع الزوائد في كتاب: البعث، باب: خفة يوم القيامة على المؤمنين (١٨٣٤٧).

مثله عن الشعبي ومقسم، قال البيضاوي عض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة، قال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه في خده فاحترق خداه وكان أثر ذلك فيه حتى الموت، وقال الشعبي كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة فقال أمية وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً فكفر وارتد فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ يعني عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد الشمس بن عبد مناف ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله وأويق نفسه بالمعصية والكفر لطاعة خليله الّذي صده عن سبيل ربه، قال عطاء يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم تنبتان ثم يأكل هكذا كلمّا نبتت يده أكلها تحسراً على ما فعل ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى﴾ تقديره يا قوم ليتني، قرأ أبو عمرو بفتح الياء والآخرون بإسكانها قال من فاعل يعض ﴿ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يا ليتني اتبعتُ محمداً أو اتخذتُ معه سبيلاً إلى الهدى والنجاة طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم ينشعب بي طريق الضلالة ﴿يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا﴾ يعني أبي بن خلف وفلان كناية عن الإعلام ﴿خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِى﴾ فلان ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي عن ذكر الله أو كتابه أو موعظة الرسول أو كلمة الشهادة جواب قسم محذوف ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي الذكر مع الرسول ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني الخليل المضلّ فإن كل متمرد عاتٍ من الإنس والجن وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ فعول من الخذلان وهو ترك الإعانة والنصر يعني لا يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه، وهذه الآيات وإن كان موردها خاصاً لكنها عامة من حيث العبارة يشتمل حكمه كل متحابين اجتمعا على معصية. عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه أو تجد ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة»[1] رواه البخاري، وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[2].

رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم، وعن أبي هريرة قال قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، باب: المسك (٥٥٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (٢٦٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس (٤٨٢٤).

رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر من يخالل»[(١)] رواه البغوي، وفي الصحيحين وعند أحمد وأصحاب السنن عن أنس وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «المرء مع من أحب»[(٢)] ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ يومئذٍ عطف على يَعَضّ الظالم ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني قريشاً ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي متروكاً فأعرضوا عنه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه، وقيل معناه جعلوه بمنزلة الهجر والهذيان والقول السيء فزعموا أنه شعر أو سحر أو كهانة وهو قول النخعي ومجاهد، وقيل معناه قال الرسول الله ﷺ في الدنيا يشكوا قومه إلى ربه ﴿إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وعلى هذا قال الرسول عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولما شكى رسول الله ﷺ قومه إلى ربه عزاه الله تعالى بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي جعل مثل ما جعلنا لك أعداء من مشركي قريش ﴿جَعَلْنَا﴾ عطف على قال الرسول ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ لفظ العدو يحتمل الواحد والجمع ﴿مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي من المشركين فأصبر كما صبروا فإني ناصرك وهاديك ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيرًا﴾ عليهم هادياً ونصيراً حال من فاعل كفى أو تمييز من النسبة مثل قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[(٣)] ولله دره فارساً، جملة كفى بربك عطف على كذلك جعلنا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس (٤٨٢٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب (٢٦٤٠).

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.

إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا (٤١) إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا (٤٢)﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والضياء في المختار عن ابن عباس أنه قال المشركون إن كان محمد (كما يزعم) نبياً فلم يعذبه ربه ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على قال الذي لا يرجون ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أنزل عليه كخبر معنى أخبر كيلا يناقض قوله ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ دفعة واحدة حال من القرآن كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود عليهم الصلاة والسلام، قال البيضاوي هذا إعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن التفريق فوائد منها ما أشار إليه بقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلق بمحذوف أي أنزلناه كذلك مفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي لنقوي بتفريقه قلبك على حفظه وفهمه ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب بصيرة في المعنى ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى كل نجم فيعجزون عن معارضة ذلك زاد ذلك في قوة قلبه ولأنه إذا نزل به جبرئيل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده، ومن فوائد التفريق في النزول معرفة الناسخ من المنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فإنه يعين على البلاغة ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ عطف على أنزلناه المقدر الذي تعلق به لنثبت، قال ابن عباس بينّه بياناً والترتيل القراءة في ترسل وتثبت، وقال السدي فصلناه تفصيلا، وقال مجاهد بعضه في أثر بعض، وقال النخعي والحسن فرقناه تفريقاً وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفليجها ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي سؤال عجيب كأنه مثل يريدون به القدح في نبوتك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني إلا جئنا لك في جواب سؤالهم بما يحق لرد ما جاءوك ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ عطف على الجار والمجرور أي بما هو أحسن بياناً يزيل إشكالها أو المعنى لا يأتونك بحال عجيب يقولون هذا كان حاله إلا أعطيتك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفاً لما بعثت له، والفسر الإبانة وكشف المغطى كذا في القاموس ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبره ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمفضل عليه هو الرسول على طريقة قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه﴾[1] كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم هم شر مكاناً وأضل سبيلاً وقيل إنه متصل بقوله

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ فالمفضل عليه عام كما كان هناك يعني أولئك شر مكاناً من كل مكين وأضل سبيلاً من كل سالك ضالٌ فكلمتا مكاناً وسبيلاً تمييزان من النسبة ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ركباناً ومشاةً وعلى وجوههم، فقال رجل يا رسول الله أو يمشون على وجوههم؟ قال الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»(١) رواه أبو داود والبيهقي، وعن أنس سئل رسول الله ﷺ كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»(٢) متفق عليه، وعن معاوية بن حيدة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتجرون على وجوهكم»(٣) رواه الترمذي وحسنه، وعن أبي ذر قال: حدثني الصادق المصدوق صلّى الله عليه وسلّم: «إن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج يسحبهم الملائكة على وجوههم»(٤) رواه النسائي والحاكم والبيهقي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ يوادده يعينه في الدعوة وإعلاء كلمة الله ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة لأن المتشاركين في الأمر متوازران عليه ﴿فقلنا﴾ لهما ﴿اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ فادعواهم إلى الإيمان بالله وآياته الدالة على وجوده ووحدته وصفاته الكاملة فإنهم كانوا ينكرون الصانع أو يشركون به غيره ويعبدون الأصنام، وجاز أن يكون المراد بالآيات معجزات موسى عليه السلام وعلى هذا قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ صادق بالنسبة إلى زمان الحكاية يعني حين نزول القرآن ولا يجوز أن يكون المراد بالآيات التوراة لأنها ما نزلت إلا بعد هلاك فرعون وقومه ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ في الكلام حذف للإيجاز تقديره فذهبا إليهم فدعواهم إلى الإيمان بالله وآياته فكذبوهما فدمرناهم تدميراً، اقتصر على ما هو المقصود من القصة وهو الكلام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٢).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحشر (٢٤٢٤).
(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: البعث (٢٠٧٧).

منصوب باذكر أو بفعل مضمر يفسره قوله ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ يعني أغرقنا قوم نوح ولا يجوز أن يكون معطوفاً على هم في دمرناهم إذ لو كان كذلك لزم تعقيب تدمير قوم نوح بإتيان موسى وقد كان قبل ذلك ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ ظرف بفعل مضمر ناصب لقوم نوح أو ظرف لما بعده، والمراد بتكذيب الرسل تكذيب نوح ومن قبله من الرسل عليهم السلام أو تكذيب نوح وحده وأورد صيغة الجمع لأن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل أو المعنى كذبوا بعثة الرسل ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي جعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وعادا وثمودا عطف على هم في جعلناهم وجاز أن يكون منصوباً بفعل محذوف دلّ عليه سياق الكلام، يعني أهلكنا عاداً وثموداً وبأذكر وقد مر قصتهما فيما سبق من سورة الأعراف وغيرها ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ في القاموس الرسُّ إبتداء الشيء ومنه رس الحمى ورسيسها والبئر المطوية بالحجارة والإصلاح والإفساد ضد وواد بأذربيجان عليه ألف مدينة والحفر ودفن الميت، ولعل إطلاق أصحاب الرس على قوم معهودين لكونهم بادين بالشر والكفر مفسدين في الأرض أو لكونهم أهل بئر أو ساكني تلك الوادي أو لأنهم قتلوا نبيهم ودفنوه، والمراد هاهنا قوم كانوا أهل بئر قعود عليها أصحاب مواش يعبدون الأصنام فوجه الله عليهم شعيباً عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب عليه السلام فبينما هم حول البئر في منازلهم إنهارت البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعاً كذا، قال وهب بن منبه وأخرجه ابن جرير وابن عساكر عن قتادة قال البغوي قال قتادة والكلبي الرس بئر بفلح اليمامة قتلوا نبيهم فقتلهم الله عزَّ وجلَّ، وقال بعضهم هم بقية ثمود قوم صالح وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾(١) وكذا أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال البغوي قال سعيد بن جبير كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله، قيل إبتلاهم الله بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاً لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح ادمخ وتنقض على صبيانهم فتخطفهم فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه وأهلكوا، وقال البغوي قال كعب ومقاتل والسدي الرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس وقيل هم أصحاب الأخدود الذي حفروه، وقال عكرمة هم رسُّوا لنبيهم في البئر

(١) سورة الحج، الآية: ٤٥.

أي دفنوه، وقيل الرس المعدن وجمعه رساس ﴿وَقُرُونًا﴾ عطف على أصحاب الرس يعني وأهلكنا قروناً وهو جمع الكثرة لقرن وهو قوم مقترنون من زمن واحد، القرن إذا كان مضافاً إلى شخص معين أو جمع معلوم يراد به من يقترن ويلاقي ذلك الشخص أو تلك الجماعة يعني أكثرهم أو واحداً منهم ومنه ما يقال القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير بقوله ﷺ «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(١) فقرن النبيّ ﷺ هم الصحابة الذين رأوا النبيّ ﷺ والقرن الثاني الذين رأوا واحداً من الصحابة أو أكثر والثالث الذين رأوا واحداً منهم أو أكثر وإن كان غير مضاف يراد به قوم مقترنون في زمن واحد ولا شك في أنه إذا إقترن جماعة في زمان فكبارهم تقترن في صغرهم بكبار سبقوا أو صغارهم تقترن في كبرهم بصغار تلحقهم، فوضعوا لإطلاق القرن مدة فقيل أربعون أو عشرة أو عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو ستون أو سبعون أو تسعون أو مائة أو مائة وعشرون والأصح أنها مائة سنة بقوله ﷺ لغلام «عش قرناً» فعاش مائة سنة، والعنى على هذا أو أهلكنا أهل أعصار كثيرة كافرة ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين عاد وثمود وأصحاب الرس وقوم موسى ﴿كَثِيرًا﴾ صفة لقرون ﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ والتنوين عوض من المضاف إليه تقديره وأنذرنا كل واحد من تلك القرون ضربنا له الأمثال أي بيَّنا له القصص العجيبة من القصص الأولين ليعتبروا بها ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكنا إهلاكاً لما لم يعتبروا بالأمثال وكذبوا المنذرين، قال الأخفش معناه كسرناه تكسيراً، قال الزجاج كل شيء كسرته وفتّته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ جواب لقسم محذوف معطوف على ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ والضمير راجع إلى أهل مكة أسند فعل البعض إلى الكل كما في قوله ﴿فكذبوه فعقروها﴾(٢).

يعني والله لقد مر أهل مكة يعني أكثرهم مروا مراراً في أسفارهم إلى الشام ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني سدوم عظمى قريات قوم لوط لما أمطرت عليها الحجارة لما كانوا يعملون الخبائث إتيان الرجال في أدبارهم، قال البغوي: قريات قوم لوط كانت خمساً فأهلك الله تعالى منها أربعاً ونجت واحدة وهي صغيرة وكان أهلها لا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

(٢) سورة الشمس، الآية: ١٤.

يعملون الخبيث وكانت تلك القرى على طريق أهل مكة عند ممرهم إلى الشام ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وتقرير يعني لقد كانوا يرونها فما لهم لم يعتبروا بها ولم يتذكروا ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني ليس عدم اتعاظهم لأجل عدم رؤيتهم بل لعمه في قلوبهم لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون علماً في الثواب أو لا يخافونه على لغة تهامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يعني كفار قريش عطف على لا يرجون ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ إستثناء مفرغ منصوب على أنه مفعول ثان ليتخذونك مصدر بمعنى المفعول أي مهزوّاً إستثناء نزلت في أبي جهل وأصحابه مروا على رسول الله ﷺ فقالوا إستهزاء ﴿أَهَٰذَا﴾ يعنون محمداً ﷺ مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ أي بعثه الله ﴿رَسُولًا﴾ جملة أهذا معمول لفعل محذوف تقديره يقولون ﴿أهذا الذي بعثه الله رسولا﴾ والاستفهام للتعجب والإنكار وكلمة هذا للتحقير وجملة يقولون بيان لما سبق يعني يتخذونك مهزأواً به يقولون فيك كذا ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة إتيانه بما يسبق إلى الذهن أنها حجج ومعجزات، أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة، وفيه دليل على فرط اجتهاده صلّى الله عليه وسلّم وفي دعوتهم وعرض المعجزات المتكاثرة المتوافرة عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم المعوج إلى دينه القويم لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ومن هذا شأنه أن لا يتذكر بمشاهدة المعجزات المتوافرة الباهرة فكيف يعتبر برؤية حجارة القرى الخالية ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا﴾ أي ثبتنا ﴿عَلَيْهَا﴾ واستمسكنا بعبادتها وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله تقديره لولا صبرنا ثابت أو لولا ثبت صبرنا لأضلّنا، ولولا في مثله تفيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ، ولمّا كان كلامهم هذا مشعراً بنسبة الضلال إلى رسول الله ﷺ وأصحابه قال الله سبحانه رداً عليهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أهم أضل سبيلاً أم المؤمنون، وفيه وعيد ولادلة على أنه لا يهملهم الله ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ بأن أطاع هواه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يتبصر دليلاً قدم المفعول الثاني للعناية به، قال البغوي قال ابن عباس أرأيت من ترك عبادة الله خالقه وهوى حجراً فعبده، من شرطية جزاءه أفأنت تكون عليه وكيلاً حفيظاً يمنعه عن ذلك والجملة الشرطية قائم مقام المفعولين لرأيت والإستفهام الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار يعني لست عليهم حفيظاً قال الكلبي نسختها آية القتال ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أم منقطعة يعني بل أتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ كلام الله منك ﴿أَوْ

﴿يَعْقِلُونَ﴾ ما يستفاد منه والإستفهام للإنكار يعني أنهم لا يسمعون ولا يعقلون حيث (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) والمراد بالسمع هاهنا سمع قلوبهم فهم لا ينتفعون المواعظ والحجج وفيه دليل على أن إفادة البرهان العلم بالنتيجة أمر عادي منوط بمشيئة الله تعالى وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من تعقل الحق وكابر استكباراً أو خوفاً على الرياسة (إنْ هم) أي ما هم الضمير راجع إلى أكثرهم ﴿إلا كالأنعام﴾ حيث يسمعون بآذانهم كالأنعام ولا يسمعون بقلوبهم فلا ينتفعون بها ولا يتدبرون فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأنعام فإن الأنعام إن لم يدركوا الحق حقاً والباطل باطلاً فهم لا يزعمون الحق باطلاً والباطل حقاً فالأنعام في جهل بسيط والكفار في جهل مركب ولا شك أن الجاهل بالجهل المركب أضل وأبعد من الحق من الجاهل بالجهل البسيط فالأنعام لا يميزون بين الحق والباطل والكفار يحكمون بحقيقة الشرك ويعبدون الحجارة بلا دليل بل مع ظهور بطلانها وينكرون الرسل مع شواهد الحجج والمعجزات وسطوع برهانها، وقيل لأن البهائم تنقاد من يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتهرب مما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لديهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ويمكن إن يقال أن الأنعام تعرف خالقها وتسجد له وتسبح له بحمده وتعقل وإن كان تعقلهم غير مدرك للعوام.

وقد روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يسوق بقرة إذ عيي فركبها فقالت لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض، فقال الناس: سبحان الله بقرة تكلم، فقال رسول الله ﷺ فإني أومن به وأبو بكر وعمر وما هما ثم، وقال بينما رجل في غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأخذها فأدركها صاحبها فاستنقذها فقال له الذئب فمن له يوم السبع إذ لا راعي لها غيري، فقال سبحان الله ذئب يتكلم فقال رسول الله ﷺ أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم»[(١)].

فائدة:

للملائكة روح وعقل وللبهائم نفس وهوى والآدمي مجمع للجميع فإن غلب نفسه وهواه على الروح والعقل كان أضل من البهائم وإن غلب عقله وروحه على النفس والهوى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٧١) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٨).

كان أفضل من الملائكة، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنعه ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كيف بسطه أو المعنى ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك فغير النظم إشعاراً بأن المعقول من هذا الكلام بوضوح برهانه هو دلالة حدوث الظل وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل للصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس، أو المعنى ألم ينته علمك إلى ربك كيف مد الظل وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس جعله ممدوداً لأنه ظل لا شمس معه كما قال في ظل الجنة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾[1] أو المراد بالظل ما يقع للجدران والأشجار بعد طلوع الشمس، قال أبو عبيدة الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس فقبل الزوال يسمى ظلاً وبعد الزوال فيئاً لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، ويمكن أن يقال أن الظل هو ظلمة الليل تنسخه الشمس بطلوعها ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ ربك ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي ثابتاً مستقراً من سكن بمعنى قر بأن جعل الليل سرمد إلى يوم القيامة أو غير متقلص من السكون أن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد وجملة ولو شاء إما حال من ربك أو معترضه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ يعني لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ظلاً ولولا النور لما عرف الظلمة ظلمة فإن الأشياء تعرف بأضدادها وأيضاً لا يوجد الظل ولا يتفاوت إلا بسبب حركات الشمس وفيه إلتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي أزلناه بطلوع الشمس وارتفاعها ووقوع شعاعها موقع الظل لما عبر أحداثه بالمد عبر عن إزالته بالقبض ﴿إِلَيْنَا﴾ أي إلى حيث ما أردناه.

قيل القبض إلى نفسه كناية عن الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً غير عسير أو قليلاً قليلاً حيثما ترتفع الشمس تنقص الظل وإن كان المراد بالظل ظلمة الليل، فقبضه اليسير وإزالة الظلمة قليلاً قليلاً حين طلوع الفجر تقل الظلمة آنا نآنا حتى تسفر جداً ثم إذا طلعت الشمس تزول الظلمة عن مواضع تقع فيها شعاع الشمس وتقل الظلمة عن مواضع تقع فيها أنوارها مع الحجب على حسب تفاوت الحجب، وثُمَّ في الموضعين لتفاضل أوقات ظهورها شبَّه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت، ولي ههنا تأويل آخر وهو أن يراد بالظل عالم الإمكان فإنه ظلٌّ لمرتبة الوجوب موجود بوجود ظلّي في خارج ظلي ويراد بالشمس مراتب صفات الله سبحانه وأسمائه، والمعنى ألم تر إلى صنع ربك كيف أوجد عالم الإمكان ومدَّ الوجود المنبسط على هياكل الماهيات الممكنة

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٠.

الذي هو ظل للوجود الحق ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ مستقراً على حالة واحدة ولكن لم يشأ ذلك بل جعله محلاً للحوادث مستعداً للتغير والفناء حتى يتضح إمكانه وافتقاره إلى ماهية متأصلة الوجود ذات الوجوب والبقاء قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ وذلك حين يتجلى على الصوفي أسماء الله تعالى وصفاته وشاهد ببصيرة القلب لوجود الحق فحينئذٍ ظهر له كون عالم الإمكان ظلاً من ظلاله وكان يزعم قبل تلك التجلّيات والمشاهدات أن عالم الإمكان هو الموجود على الحقيقة دون غيره ثم يعني بعد تلك التجليات والمشاهدات قبضناه إلينا يعني اجتبيناه وقربناه قرباً غير متكيف إلينا أي إلى مرتبة الصفات والذات قبضاً يسيراً، قال رسول الله ﷺ حكايةً عن ربه عز وجل: «لا يزال عبدي يتقرب إلّي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنت سمعه الّذي يسمع به»(١) الحديث، وقالت الصوفية من استوى يوماه فهو مغبون.

﴿وَهُوَ﴾ يعني ربك ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبه ظلمة الليل باللباس في ستره ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي راحة للأبد أن يقطع المشاغل، وأصل السبت القطع أو موتاً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾(٢) ومنه المسبوت للميت ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي ذا نشور وانتشار ينتشر فيه الناس لاكتساب المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن كثير الريح على التوحيد إرادةً للجنس والباقون على الجمع ملاحظة للإفراد ﴿بُشْرًا﴾ قرأ الجمهور بضم النون والشين من النشور وابن عامر بضم النون وسكون الشين على التخفيف وأصله ضم الشين جمع ناشرة يعني ناشرات للسحاب، وقرأ حمزة والكسائي بفتح النون على أنه مصدر وصف به، وقرأ عاصم بضم الباء التحتانية وتخفيف الشين تخفيف بشر جمع بشير بمعنى مبشرين ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدام المطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطف على أرسل على سبيل الالتفات من الغيبة إلى التكلم، والطهور إما اسم لما يتطهر به كالسحور لما يتسحر به والفطور لما يفطر به كما في قوله صلّى الله عليه وسلم: «إن الصعيد الطيب طهورُ المسلم ما لم يجد الماء ولو إلى عشر حجج»(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي ذر وصححه، وقوله ﷺ: «جعلت لنا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في التيمم للجنب إذا لم يجد الماء (١٢٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الجنب يتيمم (٣٣١٨

الأرض كلها مسجداً وترابها طهوراً»[١] وإما مصدر كالقبول ومنه قوله ﷺ: «**طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات أُوْلاهن بالتراب**»[٢] رواه مسلم، وأبو داود عن أبي هريرة، وإنما وصف الماء به مبالغة وما صفة للمبالغة كالصبور والشكور والقطوع بمعنى الكامل في الطاهرية، قال البغوي ذهب قوم إلى أن الطهور ما يتكرر به التطهير كالصبور اسم لما يتكرر منه الصبر والشكور اسم لما يتكرر منه الشكر وهو قول مالك حتى جوزوا الوضوء بالماء الذي استعمل في الوضوء مرة، قلتُ وهذا ليس بشيء لأن الفعول ليس من التفعيل في شيء وأيضاً لا دلالة فيه على التكرار بل على المبالغة إلا أن يقال الكمال في الطاهرية إما بأن يكون طاهراً في نفسه مطهراً لغيره وقد ثبت كون الماء على هذه الصفة بالنصوص والإجماع والنقل المتواتر وإما بأن كان طاهراً بحيث لا ينجسه شيء وبه قال مالك محتجاً بقوله ﷺ: «**الماء لا ينجسه شيء**»[٣] رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان عن ابن عباس، وروى أصحاب السنن الأربعة بلفظ «إن الماء لا يخبث» ورواه الدارقطني عن عائشة والطبراني في الأوسط وأبو يعلى والبزار وأبو علي بن السكن في صحاحه من حديث شريك، وروى أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»، وروى ابن ماجه عن أبي سعيد قوله ﷺ في الحياض تردها السباع والكلاب والحمر «لها ما حملت في بطونها ولنا ماء غير طهور»، فإن قيل هذه الأحاديث متروكة بالإجماع حتى أن مالكاً يقول إن الماء إذا تغير أحد أوصافه يتنجس بوقوع النجاسة فيه، قلنا: إذا تغير أحد أوصاف الماء فهو ليس بماء مطلق وكلامنا في الماء المطلق.

والجواب عن هذا الاحتجاج أن المراد بالماء هاهنا الماء المعهود يعني الماء الكثير المستقر في الحياض وفي بئر بضاعة ونحو ذلك حتى يندفع التعارض بين هذه الأحاديث وأحاديث أُخر تدل على تنجس الماء بوقوع النجاسة فيه وإن لم يتغير أحد أوصافه منها قوله ﷺ: «طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبع مرات أولهن بالتراب» رواه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة (٥٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: حكم ولوغ الكلب (٢٧٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الوضوء بسؤر الكلب (٧١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء (٦٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في بئر بضاعة (٦٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: المياه (٣٢٠).

مسلم وأبو دواد، ومنها قوله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الّذي لا يجري ثم يتوضأ منه»[١] متفق عليه، وهذا لفظ البخاري ومنها قوله ﷺ «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده»[٢] رواه مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة، وقد روى نحوهذا الحديث عن رسول الله ﷺ ابن عمر وجابر وعائشة، فحملنا أحاديث تنجس الماء على القليل وأحاديث عدم التنجس على الكثير فاختلف العلماء في حد الكثير؟ فقال الشافعي وأحمد الماء إذا بلغ القلتين (وهي خمسمائة رطل بالبغدادي وبالمساحة ذراع وربع ذراع طولاً وعرضاً وعمقاً) فهو كثير لا يتنجس إلا إذا تغير بالنجاسة طعمه أو لونه أو ريحه وما دونه قليل يتنجس، وقال أبو حنيفة ما لا يصل فيه النجاسة من جانب إلى جانب آخر على أكبر رأي المبتلي به فكثير وإلا فقليل، وقدّره بعض المتأخرين بعشر في عشر وقيل خمسة عشر، في خمسة عشر وقيل إثني عشر في اثني عشر وقيل ثمان في ثمان وقيل سبع في سبع بذراع الكرباس وهي سبع قبضات كل قبضة أربع أصابع، والتقدير غير منقول عن أبي حنيفة ولا عن صاحبه، وجه قول أبي حنيفة أن التقدير لم يرد من جهة الشارع وحديث القلتين ضعيف فيجب تفويضه إلى رأي المبتلي به، واحتج الشافعي وأحمد بحديث القلتين والحق أنه حديث صحيح رواه الشافعي وأحمد والأربعة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه ولفظ أبي داود «سئل رسول الله ﷺ عن الماء وما ينوبه من السباع والدواب؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث»[٣] ولفظ الحاكم «إذا كان الماء قلتين لم ينجسه شيء» وفي رواية لأبي داود وابن ماجه «فإنه لا ينجس» قال الحاكم صحيح على شرطهما وقد احتجا بجميع رواته، وقال ابن مندة إسناده على شرط مسلم وقد اعترف الطحاوي بصحة الحديث أيضاً. فإن قيل مدار هذا الحديث على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: البول في الماء الدائم (٢٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: النهي عن البول في الماء الدائم (٢٨٢).

(٢) أخرجه مالك في أبواب: الصلاة، باب: غسل اليدين في الوضوء (٩)، وأخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: الاستجمار وتراً (١٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: كراهة غسل المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإناء قبل غسلها (٢٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة (٦٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما ينجس الماء (٦٣).

الوليد بن كثير فقيل عنه عن محمد بن جعفر بن الزبير، وقيل عنه عن محمد بن عباد بن جعفر تارة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر وتارة عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، قلنا: قال الحافظ هذا الإضطراب ليس بقادح فإنه على تقدير كون الجميع محفوظاً إنتقال من ثقة إلى ثقة وعند التحقيق الصواب عن الوليد بن كثير عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن عبد الله بن عمر المكبر وعن محمد بن جعفر بن الزبير عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر المصغر ومن رواه على غير هذا الوجه فقد وهم وقد رواه جماعة عن الوليد بن كثير على الوجهين، قال الدارقطني القولان صحيحان عن الأسامة عن الوليد وله طريق ثالث رواه الحاكم وغيره من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن المنذر عن عبدالله بن عبد الله بن عمر سأل ابن معين عن هذا الطريق فقال إسناده جيد، فإن قيل قد روي لم يحمل خبثاً وقد روي لم ينجسه شيء وقد روي لا يتنجس؟ قلنا هذا مبني على الرواية بالمعنى وهي صحيحة والاضطراب في المتن لا يقال إلا عند التعارض. فإن قيل قد روى بالشك قلتين أو ثلاثاً، روى أحمد عن وكيع والدارقطني عن يزيد بن هارون كلاهما عن حماد بن سلمة عن عاصم بن المنذر عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر عن أبيه مرفوعاً «إذا بلغ الماء قلتين أو ثلاثاً لم ينجسه شيء» قلنا: قال ابن الجوزي قد اختلف عن حماد فروى عنه إبراهيم بن الحجاج وهذبه وكامل بن طلحة فقالوا قلتين أو ثلاثاً وروى عنه عقان ويعقوب بن إسحاق الحضرمي وبشر بن السري والعلاء بن عبد الجبار وموسى بن إسماعيل وعبيد الله بن موسى العبسي «إذا كان الماء قلتين» ولم يقولوا ثلاثاً واختلف عن يزيد بن هارون فروى عنه ابن السباح بالشك وروى عنه ابن مسعود بغير شك فوجب العمل على قول من لم يشك، قلت ويمكن أن يقال أن كلمة أوليس للشك بل للترديد والتخيير والمعنى أي المبلغين بلغ الماء لا يتنجس فلا يتنجس إذا بلغ القلتين كما لا يتنجس إذا بلغ ثلاثاً. فان قيل قد روي أربعين قلة رواه الدارقطني وابن عدي والعقيلي عن القاسم بن عبد الله العمري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «إذا بلغ الماء أربعين قلة فإنه لا يحمل الخبث» قلنا: قال أحمد المقاسم كان يكذب ويضع الحديث وكذا قال يحيى بن معين وأبو حاتم الرازي وابو زرعة فلا يضطرب بروايته الحديث الصحيح. فإن قيل روى الدارقطني بإسناد صحيح من طريق روح بن القاسم عن محمد بن المنكدر عن ابن عمر موقوفاً إذا بلغ الماء أربعين قلة لم يتنجس، ومن طريق وكيع عن سفيان الثوري عن ابن المنكدر عنه نحوه ومن طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن المنكدر عنه نحوه وقول الراوي على خلاف ما رواه طعن

الحديث، قلنا: أولاً أن مفهوم الشرط ليس بحجة عند أبي حنيفة مطلقاً وكذا عند الشافعي وغيره إذا خرج على طبق السؤال وثانياً بأن القلة لفظ مشترك يطلق على الكوز والجرة أيضاً صغرت أو كبرت فيحمل حديث الأربعين على الصغيرة التي تساوي عشرون منها قلة واحدة كبيرة لدفع التعارض، فإن قيل إذا كان القلة لفظاً مشتركاً بين الجرة والقربة والدلو ورأس الجبل وغير ذلك قال في القاموس القُلَّةُ بالضم أعلى الرأس والسنام والجبل أو كل شيء والجب العظيم والجرة العظيمة أو عامة أو من الفخار والكوز الصغير ضد، والتقييد بقلال هجر لم يثبت في الحديث الصحيح المرفوع وما رواه ابن عدي من حديث ابن عمر رضي الله عنه «إذا بلغ الماء قلتين من قلال هجر لم ينجسه شيء» ففي إسناده صغيرة بن صقلان وهو منكر الحديث فلا بد أن يترك العمل بالحديث ما لم يتبين المراد منه كما هو الحكم في المجمل ومن ثم قال الطحاوي هذا حديث صحيح لكنا تركنا العمل به لعدم علمنا بالقلتين، قلنا: قد ترجح أحد معانيه وهي قلال هجر بوجوه فوجب العمل به لأن رأس الجبل وكذا أعلى الرأس والسنام غير مراد بالإجماع لأن وصول الماء إلى رأس الجبلين في الإرتفاع لا يتصور إلا في البحر المحيط أو عند الطوفان وأعلى الرأس والسنام أيضاً غير مراد للإجماع على أن الماء أقل من ذلك القدر يصير كثيراً فوجب الإنصراف إلى الأواني وبعد الإنصراف إلى الأواني ترجح قلال هجر بوجوه أحدها كثرة إستعمال العرب لفظ القلة لهذا المعنى في أشعارهم كذا قال أبو عبيدة في كتاب الطهور، قال البيهقي قلال هجر كانت مشهورة عندهم ولهذا شبّه رسول الله ﷺ ما رأى ليلة المعراج من سدرة المنتهى فإذا أوراقها مثل إذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر، ثانيها أن قلال هجر أكبرها كذا قال الأزهري فجعل الشارع الحد مقدراً بالعدد يدل على أن المراد بها أكبرها لأنه لا فائدة في تقديرها لقلتين صغيرتين مع القدرة على تقديره بواحدة كبيرة، ثالثها أن الكبيرة إن كانت مرادة مذاك وإن كانت الصغيرة مرادة فعدم تنجس الماء عند البلوغ قدر القلتين الكبيرتين أولى للقطع لوجود الصغيرة في الكبيرة فحملنا القلتين على الكبيرتين إحتياطاً وبه يحصل التيقن والله أعلم، فإن قيل قد ضعَّفَ حديث القلتين الحافظ ابن عبد البر والعاصي إسماعيل بن إسحاق وأبو بكر بن الولي المالكيون، قال ابن عبد البر ما ذهب إليه الشافعي مذهب ضعيف من جهة النظر غير ثابت من جهة الأثر لأنه حديث تكلم فيه جماعة من أهل العلم ولأن القلتين لم يوقف على مبلغهما في أثر ثابت ولا إجماع، قلنا أقوالهم إجمالات للأسئلة المتقدمة ولم يقل أحد بتضعيف واحد من رواته فإنهم رجال الصحيحين فإذا ظهر لك أجوبة الأسئلة اندفع ما قالوا والله أعلم.

مسألة:

لا يجوز الوضوء والغسل بغير الماء من المائعات الطاهرة إجماعاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1] وهل يجوز التطهير من النجاسة الحقيقية بغير الماء من المائعات الطاهرة أم لا؟ قال الجمهور لا يجوز وقال أبو حنيفة يجوز، احتج البغوي للجمهور بهذه الآية وقال الطهور في الآية بمعنى المطهر لما قال في آية أخرى ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم﴾[2] فثبت أن التطهير مختص بالماء ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها، وهذا الإستدلال غير صحيح لأن كون الماء مطهراً لا يدل على حصر التطهير فيه كما أن كونه طاهراً لا يدل على حصر الطهارة فيه، والفرق لأبي حنيفة في الأحداث والأنجاس أن الحدث نجاسة حكمية غير مرئية لا يدركه وجوده ولا زواله إلا عن الشرع وزواله باستعمال الماء ثابت بالنص والإجماع وأما باستعمال غير الماء فلم يثبت بنص ولا إجماع ولا يجوز إثباته بالقياس لأن الأصل معدول عن سنن القياس، والنجاسة الحقيقية أمر مرئي وإزالته بالماء معقول لكونه طاهراً مزيلاً فيقاس عليه سائر المائعات لأجل هذا المعنى، قلت لكن يرد عليه إن الماء إذا صب على النجس تنجس بأول الملاقاة فحصول الطهارة بالغسل ثلاثا أو سبعاً أمر تعبدي وبالعصر لا يخرج الماء بجميع أجزائه فكان القياس أن لا يتطهر الثوب ونحوه بالغسل ومن ثم كان في شرائع من قبلنا قطع موضع النجاسة من الثوب ولما كان حصول الطهارة بالغسل ثابتاً بالشرع على خلاف القياس فلا يجوز قياس المائعات على الماء.

مسألة:

الماء كما يتنجس بورود النجاسة عليه يتنجس بوروده على النجاسة عندنا لأن المنجس إنما هو اختلاط النجاسة بالماء ولا فرق في الوجهين، وذكر ابن الجوزي مذهب أحمد أن غسالة النجاسة إذا انفصلت غير متغيره بعد طهارة المحل فهي طاهرة وكذلك البول على الأرض ونحوه إذا كوثر بالماء ولم يتغير الماء يحكم بطهارة الماء والمكان قال وهو قول مالك والشافعي واحتج على ذلك بحديث أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد إذ جاء أعرابي فبال في المسجد فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١١.

«قم فأتنا بدلو من الماء فصبه عليه»[١] رواه أحمد والبخاري ومسلم في الصحيحين، وروى البخاري عن أبي هريرة نحوه، قلنا: هذا الحديث مخالف للقياس الصحيح فهو محمول على أنه ﷺ أمر بصب الماء بعد نقل التراب من ذلك المكان ورواية بعض الحديث شائع من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقد روي ذلك بوجوه منها ما روى الدارقطني من طريق عبد الجبار عن ابن عيينة عن يحيى بن سعيد عن أنس، أن أعرابياً بال في المسجد فقال النبيّ ﷺ «أحفروا مكانه ثم صبوا عليه ذنوباً من ماء» قال الحافظ رجاله ثقات فإن قيل قال الدارقطني وهم عبد الجبار على بن عيينة لأن أصحاب ابن عيينة الحفاظ رووه عنه عن يحيى بن سعيد ولم يذكر والحفر؟ قلنا: عبد الجبار ثقة والزيادة من الثقة مقبولة ومنها ما رواه الدارقطني عن ابن مسعود نحوه وسنده ضعيف لكن أحد من رواته لم يتهم بالكذب، ومنها ما رواه الدارقطني وأبو داود عن عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني قال الدارقطني عبد الله بن مغفل تابعي ورواته ثقات غير أن من رواته جرير بن حازم قال الذهبي ثقة إمام تغير قبل موته فحجبه ابنه وهب فما حدث حتى مات قال ابن معين هو في قتادة ضعيف، قُلت: وهذا الحديث ليس من قتادة بل هو عن عبد الملك بن عمير وعبد الملك ثقة مخرج في الصحيحين. فإن قيل قال أحمد هذا حديث منكر قلتُ هذا جرح إجمالي وهو غير مقبول وإنما قال ذلك أحمد لعدم وقوع الحفر في الرواية المشهورة وذا ليس بجرح لأن الزيادة من الثقة مقبولة، ومنها ما أخرج الطحاوي من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دنيا عن طاووس وكذا روى سعيد بن منصور عن ابن عيينة أن النبيّ ﷺ قال «احفروا مكانه» وهذا أيضاً مرسل والمرسل عند أبي حنيفة أقوى من المرسل وعند مالك وأحمد دونه لكنه حجة مطلقاً وعند الشافعي لا يقبل المرسل إلا بأحد أمور خمسة أن يسند غيره أو يرسله غيره وعلم أن شيوخهما مختلفة أو يعضده صحابي أو قول أكثر أهل العلم أو يعلم من حاله أنه لا يرسل إلا برواية عن عدل وهاهنا مرسل طاووس صحيح أيده مرسل عبد الله بن مغفل وهو حسن ومسند أنس صحيح أو حسن ومسند ابن مسعود ضعيف. فإن قيل رواية أنس التي في الصحيحين أقوى وأرجح من تلك الروايات؟ قلنا: أولاً أن حديث الصحيحين صحيح من حيث السند ضعيف من حيث المعنى لتعارضه بالأحاديث التي تكاد أن تكون متواترة الدلالة على نجاسة الماء باختلاط النجاسة وثانياً أن الترجيح إنما يعتبر عند التعارض ولا تعارض هاهنا بل ما ذكرنا من

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الرفق في الأمر كله (٦٠٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد (٢٨٤).

الأحاديث ناطق بحفر التراب وحديث أنس ساكت عنه فلا يترك العمل بشيء منها.

مسألة:

الماء المستعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة طاهر عند الجمهور، وروى الحسن عن أبي حنيفة أنه نجس نجاسةً غليظةً وروى أبو يوسف عنه أنه نجس نجاسة خفيفة لمكان الإختلاف وروى محمد عن أبي حنيفة مثل قول الجمهور وبه قال محمد، احتج الحنفية على نجاسة الماء بالنص والقياس أما النص فما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب**»(١) وروى أبو داود بلفظ «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه من الجنابة» والنهي للتحريم يدل على تنجس الماء قلنا لا بل النهي للتنزيه لاحتمال تلوث بدن المجنب من المنى غالباً فهو كالنهي للمستيقظ عن إدخال يده في الإناء لاحتمال كون اليد نجساً بالنجاسة الحقيقية كما يدل عليه قوله ﷺ «فإنه لا يدري أين باتت يده» وأما القياس فقياسهم على ما يزيل النجاسة الحقيقية بجامع الإستعمال في النجاسة، قلنا هذا قياس مع الفارق فإن استعمال الماء في إزالة النجاسة الحقيقية يوجب اختلاط الماء بأجزاء النجاسة وذلك سبب لتنجس الماء ولا اختلاط في إزالة النجاسة الحكمية لأن الحدث أمر حكمي لا يتجزى زوالها فكل ماء وإستعمل في عضو من الأعضاء لا يرفع به الحدث بل استعمال الماء في جميع البدن للمجنب وفي الأعضاء الأربعة كلها للمحدث شرط لزوال الحدث يزول الحدث بعد ذلك فكل جزء من أجزاء ماء الوضوء طاهر فكذا جميعه لأن انضمام ما ليس بنجس إلى ما ليس بنجس لا يوجب التنجس إجماعاً، وأستدلوا على تنجس الماء بإقامة القربة بقوله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»(٢) متفق عليه عن عثمان، وعن أبي هريرة نحوه رواه مسلم، قالوا هذا الحديث يدل على أن الخطايا تخرج من بدنه مع الماء ولا شك أن الخطايا قاذورات فيتنجس الماء باختلاطها كما يتنجس باختلاط سائر القاذورات وهذا ليس بشيء فإن الخطايا ليست بأجسام ولا أعراض تقوم بالماء وليست مثل النجاسة الحقيقية من كل وجهٍ وليس خروجها من البدن كخروج النجاسة الحقيقية حتى يلزم به تنجس الماء بل هو عبارة عن العفو والمغفرة ولو كانت الخطايا قاذورات لماجازت صلاة العصاة من المؤمنين وهي جائزة إجماعاً بل هي مكفرة للخطايا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: النهي عن اغتسال الجنب في الماء الدائم (٢١٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٥).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١] وقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر»[٢] رواه مسلم عن أبي هريرة وحديث ابن مسعود في رجل أصاب من امرأة قبلة فأخبر النبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[٣] الآية متفق عليه، ولنا على طهارة الماء المستعمل أحاديث منها حديث جابر قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصبَّ وضوءه عليَّ فعقلتُ وقلتُ يا رسول الله إنما يرثني كلالة فنزلت آية الفرائض»[٤] متفق عليه، ومنها حديث السائب بن يزيد قال: ذهبتُ بي خالتي إلى النبيّ ﷺ فقالت يا رسول الله إن ابن أختي وجع فدعا بالبركة ثم توضأ فشربت عن وضوئه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل ذي الحجلة»[٥] متفق عليه، ومنها حديث المسور بن مخرمة ذكر في صلح الحديبية قال: «فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ بنخامة إلا وقع في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وصدره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه»[٦] رواه البخاري.

مسألة:

إزالة النجاسة الحقيقية بالماء المستعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة جائز اتفاقاً إلا عند من يقول بكونه نجساً وهل يجوز به الغسل أو الوضوء؟ إختلفوا فيه فقال محمد الماء المستعمل في إقامة القربة لا يجوز به التوضأ والغسل فهو طاهر غير مطهر، وقال زفر والشافعي المستعمل في إزالة الحدث طاهر غير مطهر، وقال أبو حنيفة كل ماء استعمل في إزالة الحدث أو إقامة القربة لا يجوز به التوضأ والاغتسال فهو طاهر غير

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة (٥٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ (٢٧٦٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: صب النبي ﷺ وضوءه على المغمى عليه (١٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفرائض، باب: ميراث الكلالة (١٦١٦).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: استعمال فضل وضوء الناس (١٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: إثبات خاتم النبوة وصفاته ومحله (٢٣٤٥).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١).

مطهر، استدلوا على كونه غير مطهر بالنص والقياس أما النص فقوله ﷺ «لا يغتسل أحدكم في الماء الراكد» قالوا هذا نهيء مقتضاه أحد الأمرين إما نجاسة الماء بالإستعمال وإما سلب طهوريته لكن الأول لا يتصور فتعين الثاني قلنا ليس الأمر كذلك بل النهي للتنزيه يقتضي احتمال النجاسة بالنجاسة الحقيقية واحتمال النجس لا يوجب التنجس فإن الطهارة اليقينية لا يزول بالشك وأيضاً كون الماء مطهراً وصف لازم للماء المطلق، وأما القياس فالقياس على مال الزكاة بجامع إقامة القربة وإسقاط الفرض تقريره أن من المعلوم أن إسقاط الفرض وإقامة القربة يوجب في الآلة تدنساً لا يصل إلى التنجس كما في مال الزكاة حيث حرم على الهاشمي ولم يتنجس فكذا يوجب الإستعمال للقربة إسقاط الفرض تدنساً يسلب عنه وصف التطهير ولا يصل إلى التنجس، والجواب أنا لا نسلم أن إقامة القربة أو إسقاط الفرض موجب للتدنس مطلقاً وحرمة مال الزكاة على الهاشمي أمر تعبدي ألا ترى أن الجسد والثوب يتأدى بهما الصلاة ويسقط الفرض ويقام القربة ولا يتدنس منها شيء وكذا الأضحية يسقط بها الواجب ولا يتدنس لحمها حيث أكلها رسول الله ﷺ، وأيضاً كون الماء مطهراً وصف لازم للماء المطلق الطاهر لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا﴾[1] علّق التيمم بفقد الماء المطلق ولا شك أن الماء المستعمل ماء مطلق فلا يجوز التيمّم مع وجوده فيجب به الوضوء لا محالة، فإن قيل هو ليس بماء مطلق لأن الماء المطلق ما لم يقوم به خبث ولا معنى يمنع جواز التوضيء به للصلاة فخرج الماء المقيد والماء المتنجس والماء المستعمل؟ قلنا: أولاً إنا لا نسلم أن الماء المستعمل قام به معنىً يمنع جواز التوضيء به فهو مصادرة على المطلوب وثانياً أن الماء المطلق ما يطلق عليه اللغوي لفظ الماء بلا تقييد ولا شك أن اللغوي لا يفرق عند إطلاق لفظ الماء بين الماء الطاهر والمتنجس الذي لم يتغير أحد أوصافه والمستعمل في قربة والمستعمل في تبرد ومن ثم قال الزهري إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم وليس له وضوء غيره يتوضأ به، وقال سفيان هذا الفقه بعينه يقول الله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا) وهذا ما ذكره البخاري تعليقاً، لكنَّا نقول لمَّا منع الشارع عن استعمال النجاسات وأمرنا الإجتناب عنها حيث قال: ﴿وثيابك فطهر والرجز فاهجر﴾[2] وقال في آية الوضوء: ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾[3] وقال عليه السلام «وإذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع

---

(١) سورة الماغئدة، الآية: ٦.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٤ ـ ٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦.

مرات»[١] رواه مسلم عن أبي هريرة، وقال عليه السلام «من «ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»[٢] وقال الله تعالى: ﴿يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث﴾[٣] فمن كان قادراً على الماء المتنجس فهو غير واجد للماء حكماً لكونه ممنوعاً عن استعماله شرعاً كالقاعد على شفير البئر من غير دلو ونحوه ممنوع عن استعمال الماء طبعاً فإن الطبع يمنعه عن السقوط في البئر وكذا المريض الواجد للماء ممنوع عن استعماله طبعاً وشرعاً فإن الممنوع شرعاً كالممنوع طبعاً، وأما الماء المستعمل فليس بواجب الاجتناب عنه شرعاً لكونه طاهراً فواجده واجد للماء حقيقةً وحكماً فلا يجوز له التيمم ويجب عليه الوضوء فثبت أن كون الماء مطهراً لازم لكونه طاهراً.

مسألة:

إذا وقع في الماء شيء طاهر فإن لم يتغير به أحد أوصافه ولم يزد على الماء أجزاءً جاز به الوضوء إجماعاً، وإن تغير به أحد أوصافه أو اكثر فإن كان الاحتراز عنه متعذراً كالطين والأوراق في الخريف جاز به الوضوء إجماعاً ما لم يخرجه عن طبع الماء أي رقته كما إذا تغير الماء بطول المكث وإن لم يكن الإحتراز عنه متعذراً كالخل والزعفران والأشنان، فإن تغير به أحد أوصاف الماء لا يجوز به الوضوء عند الشافعي لأنه ماء مقيد والوظيفة عند فقد الماء المطلق التيمم، وعند أبي حنيفة رحمه الله يجوز به الوضوء إلا إذا اختلط الماء جامدٌ أزال رقته أو غيّر أكثر أوصافه من الطعم أو اللون أو الريح كالأنبذة أو مائع غلب عليه بالأجزاء أو غيّر أكثر أوصافه أو طبخ في الماء غيره فغيّره كالمرق وماء الباقلاء إلا ما يقصد به النظافة والسدر والأشنان ولا بأس لو تغير الماء باختلاط الطاهر تغيراً يسيراً لما دوي ابن خزيمة والنسائي من حديث أم هانىء أن رسول الله ﷺ اغتسل هو وميمونة في قصعة فيها أثر العجين[٤].

وما روى البخاري عن أم عطية الأنصارية قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: حكم ولوغ الكلب (٢٧٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: المياه، باب: سؤر الكلب (٣٣٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن ورمز السيوطي لصحته. انظر الجامع الصغير (١٧٥).

(٣) الآية هي: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الطهارة، باب: ذكر الاغتسال في القصعة التي يعجن فيها (٢٣٧).

توفيت ابنته فقال «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور»[١]. وما رواه البزار من حديث أبي هريرة أن ثمامة بن أثال أسلم فأمره النبيّ ﷺ أن يغتسل بماء وسدر، وحديث قيس بن عاصم أنه أسلم فأمره النبيّ ﷺ أن يغتسل بماء وسدر ﴿لنحيى به﴾ أي بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذكر ميتاً لأن البلدة بمعنى البلد، أو بتأويل المكان أو لأن تأنيثه غير حقيقي أو لأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجري مجرى الجامد ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ سقى وأسقى لغتان بمعنى واحد ﴿مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالمطر ولذلك نكر الأنعام والأناسيّ وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار والآبار والمنابع فيستغنون لأنفسهم ولأنعامهم عن سقي السماء، ولأن سياق الآية لتعداد النعم على الإنسان وعامة منافعهم وغالب معايشهم منوط بالأنعام ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها، وأناسيّ جمع إنسي أو جمع إنسان كظرابي جمع ظربان على أن أصله أناسين كبساتين جمع بستان فقلبت النون ياء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعني المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مرةً ببلد ومرةً ببلد آخر، قال البغوي قال ابن عباس ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض وقرأ هذه الآية، وروي مرفوعاً «ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا السماء يمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء»، وذكر ابن إسحاق وابن جرع ومقاتل وبلغوا ابن مسعود يرفعه قال «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله قسم هذه الأرزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف ذلك إلى الفيافي والبحار»، وقيل المراد بتصريف المطر تصريفه وابلاً وطلاً ورذاذاً ونحوها وقيل المراد تصريفه في الأنهار أو في المنابع وقيل التصريف راجع إلى القول يعني صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي إلا كفران النعمة إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صلّى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية في أثرة سماء كانت بالليل فلمّا انصرف أقبل على النّاس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: غسل الميت ووضوءه بالماء والسدر (١٢٥٣).

ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب»(١) متفق عليه.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ بعث الرسول في كل قرية ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ نبياً ينذر أهلها فيخف عليك أعياء التبليغ ولكن بعثناك إلى الناس كافةً إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم ولكن اشكر إنعامنا عليك بالرسالة العامة فاثبت على ما أنت عليه من الدعوة وإظهار الحق ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالله يعني بعونه وتوفيقه أو بالقرآن أو بترك طاعتهم الّذي يدل عليه فلا تطع، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال الحق فقابلهم بالإجتهاد في مخالفتهم وإحقاق الحق ﴿جهاداً كبيراً﴾ شديداً بالقلب واللسان والسيف والسنان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلاهما متجاورين متلاصقين يقال هرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخلّيتها تذهب حيث تشاء عطف على قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وما بينهما معترضات ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي حر شديد الملوحة من تأجج النار إذا تلهب فإنه يريد في العطش هذان الجملتان بتقدير القول حال من البحرين أو صفة له على طريقة ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني، أو بحذف الموصول مع الصلة والتقدير مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ اللذين يقال في شأنهما هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ عطف على مرج يعني جعل بينهما بقدرته ﴿بَرْزَخًا﴾ حاجزاً مانعاً لاختلاط بعضها ببعض ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي ستراً ممنوعاً فلا يبغيان ولا يفسد الملح العذب، قال البيضاوي وذلك كدخيلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل وبالبحر الملح البحر الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فيكون القدرة في الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كل عنصر أن تضامت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي من النطفة ﴿بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم وذوات مهر أي إناثاً يصاهر بهن فهو كقوله تعالى: ﴿وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾(٢) وقيل ﴿جعله نسبا وصهراً﴾ أي ذا نسب منسوب إلى الآباء ذكراً كان أو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) سورة القيامة، الآية: ٣٩.

أنثى وذا مهر بأن يتزوج ذكراً أو أنثى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على ما يشاء حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ ان عبدوه عطف على الجملة السابقة أو حال بتقدير المبتدأ يعني وهم يعبدون ما لا ينفعهم ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أن هجروه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً للشيطان على ربه بالمعاصي، وقيل معناه كان الكافر على ربه هيّناً ذليلاً يقال جعلني ظهيراً أي ذليلاً من ظهرت الشيء إذا جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار جملة معترضة ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغ الرسالة يدل عليه قوله ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ حتى يشق عليكم اتباعي خوف الغرامة جملة مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ فعل ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ليتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده جعل طاعة الرسول في امتثال أوامر الله والإنتهاء عن مناهيه أجراً على الرسالة من حيث أنه مقصود منه واستثناه من الأجر المنفي سؤاله قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفعة حيث جعل ما ينفعهم أجراً لنفسه وافياً مرضيّاً به مقصوداً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم يعود عليه بالثواب من حيث أنها بدلالته قال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»[1] رواه البزار عن ابن مسعود والطبراني عن سهل بن سعد، وعن أبي مسعود ورواه أحمد وأصحاب الكتب الستة والضياء بزيادة «والله يحب إغاثة اللهفان» عن بريدة وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن أنس نحوه، وقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[2] رواه مسلم في حديث طويل عن جرير، وقيل هذا إستثناء منقطع ولكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بالإنفاق من ماله في سبيله فليتخذ يعني لا أسألكم لنفسي أجراً ولكن لا منع من إنفاق المال في سبيل الله وطلب مرضاته واتخاذ السبيل إلى جنته، ولعل الله سبحانه دفعاً لتهمة سؤال الأجر في الأمر بأداء الزكاة وغيرها من الصدقات حرَّم الصدقات على نبيه وأهل بيته.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء الدال على الخير كفاعله (٢٦٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: التحريض على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

مسألة:

يستنبط من هذه الآية أنه لا يجوز الاستئجار للطاعة كتعليم القرآن والأذان والإمامة ونحو ذلك وقوله إلى ربه أي إلى ثواب ربه حال من سبيلاً وهو مفعول ليتخذ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في دفع شرهم أو الاستغناء عن أجورهم فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكّل عليهم عطف على قل لا أسألكم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزّهه عن صفات النقصان مثنياً عليه بصفات الكمال طالباً لمزيد الإنعام فقل سبحان الله وبحمده.

وقيل معناه صل لله شكراً على نعمه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي عالماً فيجازيهم بها جملة كفى به حال من الحي ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث أنه الخالق للكل والمتصرف، وفيه إشارة إلى الثبات والتأني في الأمور، فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تؤدة وتدرج، الموصول مبتدأ وخبره ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أو الموصول صفة للحي أو منصوب على المدح بتقدير أعني أو أمدح والرحمن خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن أو بدل من فاعل استوى ﴿فاسأل به﴾ أي بما ذكر من الخلق والإستواء ﴿خَبِيرًا﴾ أي عالماً يخبرك بحقيقته كذا قال الكلبي والخبير هو الله أو جبرئيل أو من قرأ في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه.

وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله فسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون مبتدأ والخبر ما بعده والسؤال كما يعدى بعن يعدى بالباء وقيل معناه فسأل إليها الإنسان بالرحمان خبيراً يخبرك بصفاته ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ عطف على قوله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمٰن أو على جملة هو الرحمٰن ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا الرحمن﴾ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله وكانوا يقولون لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب يسمونه رحمن لليمامة ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أنت يا محمد كذا قرأ الجمهور بصيغة المخاطب خطاباً للنبي ﷺ وقرأ حمزة والكسائي ﴿لما يأمرنا﴾ بصيغة الغائب يعنون لما يأمرنا محمد ﷺ ﴿وزادهم﴾ عطف على قالوا يعني وزادهم الأمر بالسجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ
ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ
لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا
كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ
وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ
ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ
يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ
مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ
لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة البروج هي النجوم الكبار سميت بروجاً لظهورها، وقال عطية العوفي بروجاً قصوراً فيها الحرس ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا﴾ يعني الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾[1] قرأ حمزة والكسائي سُرُجاً على الجمع وهي الشمس وسائر الكواكب سوى القمر فإنه ليس بسراج لأن السراج ما يضيء بنفسه والقمر نوره مستفاد من نور الشمس كما يدل عليه كماله ونقصانه على حسب مقابلة الشمس ويدل عليه العطف بقوله ﴿وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ مضيئاً بالليل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ أي ذوي خلفة يخلف كل واحد منهما الآخر بأن يقوم **أحدهما** مقام صاحبه فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر قال البغوي جاء رجل إلى عمر بن الخطاب قال فاتتني صلاة الليلة قال أدرك ما فاتك من ليلك في نهارك قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ وقال مجاهد يعني كل واحد منهما مخالف للآخر هذا

(١) سورة نوح، الآية: ١٦.

أسود وهذا أبيض ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ متعلق بجعل ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بتخفيف الذال والكاف وضمها مع سكون الذال من المجرد أي يذّكر الله سبحانه والباقون بتشديد الذال والكاف وفتحهما من التفعل بإدغام التاء في الذال يعني لمن أراد أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أنه لا بد له من صانع حكيم واجب لذاته رحيم على العباد، أو المعنى أراد أن يذكر ما فاته في أحد الملوين من خير يفعله في الآخرة ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي شكر نعمة ربه عليه يعني أن خلق الليل والنهار وما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار وما فيها من المنافع لأجل أن يتذكر فيهما المتذكرون ويشكر على نعمائه الشاكرون فمن خلا وقته عن الذكر والشكر والتذكر والتفكر فقد ضاع وقته وهلك رأس ماله، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ خبره ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أضاف إلى نفسه تشريفاً لهم وإظهاراً لفضلهم أو لأنهم موصوفون بكمال الرحمة على الخلق وموعودون بكمال رحمة الله عليهم ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هينين أو مشياً هيّناً مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون على الأرض بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا متكبرين.

والهون في اللغة الرفق واللين وفي القاموس الهون الوقار ومنه قوله ﷺ «المؤمن هين لين حتى تخاله من اللين أحمق» رواه البيهقي بسند ضعيف عن أبي هريرة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ عطف على يمشون يعني إذا خاطبهم السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ قال مجاهد يعني سداداً من القول ما يسلمون فيه من الإيذاء والإثم كذا قال مقاتل بن حبان، قال الحسن لو جهل عليهم جاهل حملوا ولم يجهلوا وروى عن الحسن معناه سلموا عليهم دليله قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[(١)] قال الكلبي وأبو العالية هذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسختها آية القتال والحق أن الآية محكمة غير منسوخة فإنما الأمر بالقتال إنما هو لإعلاء كلمة الله حقا لله سبحانه وهو منتهٍ بقول لا إله إلا الله أو إعطاء الجزية قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[(٢)] الحديث متفق عليه عن ابن عمر، قال الله سبحانه ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[(٣)]، وهذا بيان لحال المؤمنين في مقابلة السفهاء وإعراضهم عن انتقامهم

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة (١٣٩٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

وعدم مؤاخذتهم لأجل أنفسهم، عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله: «إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير ما دمتَ على ذلك»(١) رواه مسلم، روى عن الحسن البصري أنه إذا قرأ هذه الآية قال هذا وصف نهارهم ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ فقال هذا وصف ليلهم وخص البيتوتة لأن العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء وأوفق للقلب باللسان ولأن النهار خص لنوع آخر من العبادة وهو أنهم يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم ويصاحبون خيار الناس للتعليم والتعلم والإرشاد والإسترشاد، قوله لربهم متعلق بسجّداً وهو جمع ساجد وقياماً جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه وتأخير القيام المروي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصلاة بعد المفروضة صلاة في جوف الليل» رواه أحمد، وعن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم»(٢) رواه الترمذي، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم الرجل إذا قام بالليل يصلي والقوم إذا صفوا في الصلاة والقوم إذا صفوا في قتال العدو»(٣) رواه البغوي في شرح السنة، قال البغوي قال ابن عباس من صلّى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً أو قائماً، وعن عثمان بن عفان قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلّى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة»(٤) رواه أحمد ومسلم في الصحيح. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يعني أنهم مع حسن معاشرتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق خائفون من عذاب الله مبتهلون إلى الله في صرفه عنهم لعدم إعتذارهم بأعمالهم وعدم وثوقهم على استمرار حالهم، عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في دعاء النبي ﷺ (٣٥٤٩).

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى بسند صحيح.
انظر: الجامع الصغير (٣٥٥).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في فضل صلاة الجماعة (٥٥٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة (٢٢٠).

أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عند الحساب يوم القيامة أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» رواه أبو نعيم ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازماً ومنه الغريم للملازمة، وقال البغوي الغرام أشد اللازم، وقيل غراماً يعني هلاكا، وقيل الغرام ما يصيب الإنسان من شدة ومصيبة، قال محمد بن كعب القرظي سأل الله الكفار عن شكر نعمه فلم يؤدوا فأغرمهم الله فبقوا في النار، قال الحسن كل غريم يفارق غريمه إلا جهنم ﴿إِنَّهَا﴾ يعني جهنم ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ساءت فعل ذم بمعنى بئست وفيها ضمير مبهم يفسره الضمير والمخصوص بالذم ضمير محذوف أي هي به يرتبط باسم إن ومستقراً حال أو تمييز والجملة تعليل للجملة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والإبتداء من الله، وجاز أن يكون ساءت من الأفعال المتصرفة من ساء يسوء سوءاً ومساءة بمعنى مضاد لحسنت ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في وصف الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(١) وعلى هذا في ساءت وضمير مستتر راجع إلى اسم إن مستقراً حال أو تمييز عن النسبة بمعنى ساء الإستقرار والإقامة فيها ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة يقتروا بفتح الياء وكسر التاء وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم التاء وكلها لغات يقال اقتر يقتر وقتّر بالتشديد وقتر يقتر ويقتر على وزن ينصر ويضرِب، والإسراف الإنفاق في معصية الله وإن قلَّت والإقتار منع حق الله تعالى وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج وبه قال الحسن في هذه الآية أن معناه لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله، وقال قوم الإسراف مجاوزة الحد في الإنفاق حتى يدخل في حد التبذير، والإقتار التقتير عما لا بد منه هذا معنى قول إبراهيم لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف، قلتُ وهذا القول راجع إلى القول الأول بل هو أخص منه فإنه مجاوزة الحد المشروع في الإنفاق المباح حتى دخل في حد التبذير وذلك حرام معصية حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾(٢) وإنفاق من وجب نفقته عليه بحيث لا يجيعهم ولا يعريهم فريضة والإمساك عنه إمساك عن فريضة الله ﴿وَكَانَ﴾ أي الإنفاق ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين الإسراف والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ قصداً وسطاً حسنة بين السيئتين سمى الوسط قواماً لاستقامة الطرفين كما سمى سواء لاستوائهما

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

وهو خبر ثان أو حال مؤكدة وجاز أن يكون خبراً لكان وبين ذلك ظرفاً لغوا، وقيل إنه اسم كان مبني لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه، أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت ثم أي؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قلت ثم أي؟ قال أن تزاني حليلة جارك»[1] فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق بمحذوف أي لا يقتلون قتلاً إلا قتلاً بالحق أو متعلق بلا يقتلون أي لا يقتلون بسبب إلا بالحق يعني بقود أو رجم أو نحو ذلك ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصي بعدما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر موعود للجامع بين ذلك وتعريضاً للكفرة من الإتصاف بأضدادها كأنه قال والذين ظهرهم الله عما أنتم عليه من الشرور والسيئات ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي أشياء من هذه الأمور ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ يعني جزاء إثم كذا قال ابن عباس، وقال أبو عبيدة الآثام العقوبة، وقال مجاهد الآثام واد في جهنم، قال البغوي يروى ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص ويروى في الحديث الغيُّ والآثامُ بئران يسيل فيهما صديد أهل النار، قلت: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في هذه الآية قال واد في جهنم وأخرج هناد عن سفيان مثله وأخرج ابن جرير والطبراني والبيهقي قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت سبعين خريفاً ثم تنتهي إلى غي وأثام قلتُ وما غي وأثام قال نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار» وهما اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر يضعف من التفعيل والباقون من المفاعلة ﴿لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لانضمام المعصية إلى الكفر ﴿وَيَخْلُدْ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر يضاعف ويخلد بالرفع على الاستئناف أو الحال والباقون بجزمهما بدلاً من يلق ﴿فِيهِ﴾ قرأ ابن كثير على أصله وحفص هاهنا خاصة بصلة الضمير المجرور مبالغة في الوعيد والباقون على ما هو الأصل في الضمير المجرور إذا سكن ما قبله باختلاس كسرتها ﴿مُهَانًا﴾ أي ذليلاً حال، أخرج الشيخان عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: قتل الولد خشية أن يأكل معه (٦٠٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦).

محمداً ﷺ فقالوا إن الّذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لعملنا كفارة فنزلت ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ونزلت ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾(١) الآية، قال ابن عباس إلاَّ من تاب من ذنبه ﴿وآمن بربه وعمل عملاً صالحاً﴾ فيما بينه وبين ربه، وأخرج البخاري وغيره، عن ابن عباس قال لما أنزل في الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي﴾ الآية قال مشركو مكة قد قتلنا النفس بغير الحق ودعونا مع الله إلهاً آخر وأتينا الفواحش فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾(٢) وقال البغوي أخبرنا عن ابن عباس قال قرأنا على عهد رسول الله ﷺ سنتين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية ثم نزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ فما رأيت النبيّ ﷺ فرح بشيء وفرحه بها فرحه ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فإن قيل: لا يجوز الاستثناء مفصولاً فكيف يقال بنزوله بعد سنتين؟ قلنا: نزلت هذه الآية أول مرة بغير الاستثناء ثم نزلت تلك الآيات مع الاستثناء فهذه الآية ناسخة الأولى في المقدار المستثنى. فإن قيل تقرر في الأصول أن محل النسخ الأحكام دون الاخبار وهذه الآية إخبار فكيف يمكن نسخه؟ قلنا: عدم جواز النسخ في الاخبار لعدم إحتمال التخلف فيها كيلا يلزم الكذب وآية الوعيد يجوز نسخه لأنه أنشيء للوعيد يحتمل التخلف فيه تفضلاً ومغفرة، هذه الآية تدل على أن الاستثناء من الإثبات نفي وبالعكس كما يدل على ذلك الاستثناء المفرغ وليس كما قالوا إن المستثنى في حكم المسكوت عنه والاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا إذ لو كان كذلك لما جاز نسخ المنطوق بالمسكوت، وقوله عملاً صالحاً منصوب على المفعولية أو المصدر به ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ فذهب جماعة إلى أن المراد أن يمحو الله سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل الله في الدنيا ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة ويوفقه لأضداد ما سلف منهم من المعاصي وهذا معنى، قال ابن عباس والحسن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢٢)، وأخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (٤٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ (٤٧٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: التفسير (٣٠٢٣).

وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك والسدي يبدل الله بقبائح ما عملوا في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام فيبدل الله لهم بالشرك التوحيد وبقتل المؤمنين قتل المشركين المحاربين وبالزنى عفة وإحصاناً، وذهب جماعة إلى أن المراد أن الله تعالى يبدل سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة تفضلاً وهو قول سعيد بن المسيب ومكحول وعائشة وأبي هريرة وسلمان رضي الله عنهم أجمعين، ويؤيده حديث أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا صغائر ذنوبه فتعرض عليه صغائرها وتخبأ كبائرها، فيقال أعملت كذا وكذا وهو يقرُّ ليس ينكر وهو مشفق من الكبائر، فيقال أعطوه مكان كل سيئة حسنةً فيقول إن لي ذنوباً لا أراها هاهنا فلقد رأيتُ رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه»[١] رواه مسلم، وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمان قال يعطى رجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فإذا يكاد ليسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدِّلَت حسنات، وأخرج أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ليأتين الله بناس يوم القيامة ودوا أنهم أكثروا من السيئات، قيل من هم؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات. فإن قيل كيف يتصور تبديل السيئة على هذا المعنى بالحسنة وكيف يثاب على السيئة فإن السيئة أمر مكروه غير مرضي لله تعالى فكيف يتصور كونه مرضياً له تعالى فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والعصيان؟ قلت: توجيه ذلك عندي بوجهين، أحدهما: أن عباد الله الصالحين كلما صدر عنهم ما كتب الله عليهم من العصيان ندموا غاية الندم واستحقروا أنفسهم غاية الاستحقار والتجئوا إلى الله تعالى كمال الالتجاء وخافوا عذاب الله مع رجاء المغفرة فاستغفروه حتى صاروا مهبطاً لكمال الرحمة بحيث لو لم يذنبوا لم يصيروا بهذه المثابة فعلى هذا صار عصيانهم الذي كان سبباً للعقاب سبباً للثواب ولو بتوسط الندم والتوبة، ومن هاهنا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ويغفر لهم»[٢] رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «استغفروا لماعز بن مالك لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم»[٣] وقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد حين سبَّ المرأة الغامدية «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٠).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (٢٧٤٩).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٥).

لغفر له»[1] رواه مسلم في قصة ماعز والغامدية عن بريدة، وهذا ما قيل معصية أولها غفلة وآخرها ندامة خير من طاعة أولها عجب وآخرها رؤية. **ثانيهما** أن الغائصين في بحار المحبة قد يصدر منهم أمور لا يتزن بميزان الشرع ككلمات الشيخ والسماع والوجد ورهبانية ابتدعوها يجعل الله تعالى هذه الأمور الصادرة منهم كلها حسنات لصدورها عن محبة صرفة، ومن هاهنا قال العارف الرومي مثنوى:

فرجه گيرد علتي علت شرد   كفر گيرد كاملي ملت شرد

كاريا كان راقياس ازخودمگير   گرجه ماندو نوشتن شيرشير

أو بدل گشت وبدل شدكاراو   لطف گشت ونورشد هرناراو

ولعل ما ورد في حديث أبي ذرأنه يقال «أعرضوا صغائر ذنوبه فيعرض عليه صغائرها ويخبأ عنه كبائرها» إشارة إلى هذا فإن هذه الأمور التي تصدر من الكاملين لغلبة المحبة إنما هي بميزان الشرع صغار الذنوب دون كبائرها يجعلها الله تعالى لهم حسنات، لكونها ناشئة من منابع المحبة وأما كبار الذنوب التي صدرت عنهم على سبيل الندرة لما كتب الله تعالى صدورها عنهم فيخبأ عنهم ويغفر ويسترو لا يذكركما أشير إليه بقوله تعالى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب جميعاً صغائرها وكبائرها بالتوبة وبلا توبة قلت لعل قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إشارة إلى فناء القلب فإن المرء بعد فناء قلبه لا يقصد شيئاً غير الله ولا يرجوا شيئاً إلا منه ولا يخاف غيره وكل ما هو مقصودٌ لك فهو معبود لك بل لا يرى غيره موجود الموجود متأصل والإله هو الوجود بوجود متأصل يقتضي ذاته وجوده، فإن قيل أليس المؤمنون عامة قبل الفناء يعتقدون بأن الله موجود بوجود يقتضيه ذاته وغيره ليس كذلك؟ قلت: بلى يعتقدون ذلك لكن بالاستدلال دون الرؤية والشهود ويشهد على ذلك بداهة الوجدان وخوفهم وطمعهم من الخلق، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ إشارة إلى فناء النفس وأن النفس الأمارة بالسوء إذا فنيت واطمأنت بمرضاة الله تعالى إنسلخ عن دواعي العصيان والدليل على هذه الإشارة وصفهم بهذه الصفات بعد وصفهم بصفات الكمال بقوله ﴿عباد الرحمن الذين يمشون﴾ إلى آخره ولو كان المراد به التوحيد المجازي والتقوى الظاهري

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٥).

لقدم ذلك على الصفات المذكورات فيما سبق ﴿وَمَن تَابَ﴾ عن الشرك والمعاصي بتركها والندم عليها والاستغفار ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بتلافي ما فرط أو خرج عن الشرك والمعاصي ودخل في الطاعة ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ﴾ أي يرجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لا إلى غيره فحقٌ عليه تعالى أن يثيبه ويبدل سيئاته بالحسنات، وهذه الجملة معترضة معطوفة على معترضة سابقة وهي قوله تعالى ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ والجملتان وقعتا بين الموصولات التي هي صفات مادحة لعباد الرحمن الأولى منهما لبيان عقاب المسيئين المفهومين من قوله تعالى ﴿والذين لا يدعون﴾ إلى آخره والثانية منهما لبيان عاقبة التوابين المذكورين في الاستثناء، قيل التنكير في متاباً للتعظيم والترغيب إلى التوبة لئلا يتحد الشرط يعني أنه يتوب إلى الله متاباً فرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، وقيل معناه فإنه يرجع إلى الله أي ثوابه مرجعاً حسناً وهذه تعميم بعد تخصيص، وقال البغوي قال بعض أهل العلم هذه الآية في التوبة عن غير ما ذكر في الآية الأولى من القتل والزنى يعني من تاب ورجع عن الشرك وأدى الفرائض فمن لم يقتل ولم يزن فإنه يتوب إلى الله أي يعود إليه بعد الموت متاباً حسناً يفضل على غيره ممن قتل وزنى ثم تاب، فالتوبة الأولى أي الشرط أعني قوله ومن تاب معناها رجع عن الشرك والثانية أي الجزاء أعني فإنه يتوب إلى الله متاباً معناها رجع إلى الله للجزاء والمكافآت فافترقا، وقال بعضهم هذه الآية في التوبة عن جميع المعاصي ومعناه ومن أراد التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله فقوله يَتُوبُ إلى الله متاباً خبر بمعنى الأمر أي ليتب إلى الله وقيل معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله، قلتُ وعلى تقدير كون المراد بقوله تعالى يُبدّل الله سيئاتهم التائبين الذين صدر عنهم بعض الأمور التي لم يتزن بميزان الشرع لغلبة السكر والمحبة فبدل الله سيئاتهم حسنات لأجل محبتهم جاز أن يكون المراد بالتائبين في هذه الآية عباد الله الصالحين الذين لم يصدر عنهم شيء من تلك الأمور يعني من رجع عن جميع ما كره الله ولم يعملوا شيئاً منها ولو بغلبة المحبة والسكر فإنه يتوب إلى الله متاباً أحسن من الأولين وهم أصحاب الصحو من الأولياء كالنقشبندية الذين هم على هيئة أصحاب رسول الله ﷺ في إتباع السنة والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال البغوي قال الضحاك وأكثر المفسرين يعني الشرك فإنه شهادة بالزور قلت ويلزم على ذلك التكرار لما مر من قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر وقال علي بن طلحة يعني لا يشهدون على الناس شهادة الزور.

مسألة:

قال البغوي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخّم وجهه ويطاف به في السوق، وروى ابن أبي شيبة ثنا أبو خالد عن حجاج عن مكحول عن الوليد عن عمر أنه كتب إلى عماله بالشام في شاهد الزور يضرب أربعين سوطاً ويسخم وجهه ويحلق رأسه ويطال حبسه وروى عبد الرزاق في مصنفه عن مكحول أن عمر ضرب شاهد الزور أربعين سوطا وقال أخبرنا يحيى بن العلاء أخبرني الأحوص بن الحكيم عن أبيه أن عمر أمر بشاهد الزور أن يسخم وجهه ويلقى عمامته في عنقه ويطاف به في القبائل، ومن هاهنا قال مالك والشافعي وأبو يوسف ومحمد أنه يعزر شاهد الزور بالضرب ويوقف في قومه حتى يعرفوا أنه شاهد الزور وزاد مالك فقال ويشهد في الجوامع والأسواق، قالوا إنه كبيرة من الكبائر على ما صرح به النبيّ ﷺ في حديث أنس رواه الشيخان في الصحيحين وفيها رواه البخاري أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين (وكان متكئاً فجلس فقال): ألا وقول الزور وشهادة الزور» «فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[١] وقرن الله تعالى بينها وبين الشرك حيث قال: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾[٢] فإذا كان كبيرة وليس فيها تقدير شرعي في الحد ففيها التعزير، وقال أبو حنيفة يكتفى في تغريره بالتشهير ولا يضرب ولا يحبس فإن المقصود الإنزجار ويحصل ذلك بالتشهير وأما الضرب وغير ذلك فمبالغة في الزجر لكنه يقع مانعه من الرجوع وشهادة الزور لا يظهر إلا بالإقرار والرجوع فوجب التخفيف نظراً إلى هذا الوجه وأثر عمر محمول على السياسة ومثل مذهب أبي حنيفة روي عن شريح، روى محمد بن الحسن في كتاب الآثار من طريق أبي حنيفة عن أبي الهيثم عمن حدثه عن شريح أنه كان إذا أخذ شاهد الزور فإن كان من السوق قال للرسول قل لهم أي لأهل السوق إن شريحاً يقرئكم السلام ويقول لكم إنا وجدنا هذا شاهد زور فاحذروه فإن كان من العرب أرسل إلى مسجد قومه أجمع ما كانوا فقال للرسول مثل ما قال في المرة الأولى وكذا روى ابن أبي شيبة عن شريح، وقال ابن جريج المراد بشهادة الزور الكذب مطلقاً، وقيل معنى الآية لا يحضرون مجالس الكذب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها (٨٧).

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٠.

فإن مشاهدة الباطل شركة فيه فلا يجوز أن يسمع قصة فيها أباطيل أو يقرأ شعراً كذلك، قال مجاهد يعني لا يحضر أعياد المشركين، وقيل المراد به النوح، وقال قتادة لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، وقال محمد بن الحنفية لا يشهدون اللغو والغناء، قال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، قال البغوي وأصل الزور تحسين الشيء ووضعه على خلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق قلت الزور في اللغة الميل قال الله تعالى: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾(١) وفي الكذب ميل من الحق إلى الباطل وكذا في كل لغو، وفي القاموس الزور بالضم الكذب والشرك بالله وأعياد اليهود والنصارى والرئيس ومجلس الغناء وما يعبد من دون الله والقوة، قلتُ: وهذه الآية يصلح كل ما ذكر من المعاصي إلا الرئيس والقوة ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ عطف على ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ فهما صلتان لموصول واحد والأظهر في وجه إشتراكهما أن يراد بالزور المعاصي كلها بالشهود الحضور وباللغو أيضاً المعاصي كلها كما قال الحسن والكلبي والمعنى الذين لا يحضرون مجالس المعاصي باختيارهم وإذا مروا هناك اتفاقاً واكراماً مسرعين معرضين غير مقبلين عليه يقال كرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه، وقال مقاتل معنى الآية وإذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا وهو رواية ابن جريج عن مجاهد نظيره ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾(٢) قال السدي هي منسوخة بآية القتال قلت بل هي غير منسوخة إذا القتال منته بإعطاء الجزية ولا يجوز القتال بالشتم والأذى.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ بالوعظ والقراءة أو بالدلالة على دلائل التوحيد والتنزية ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يقيموا غير واعين لها وغير متبصرين بعيون متغافلين عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها بل يسمعون ما يذكرون به سماع قبول فيفهمونه ويرون الحق فيتبعونه، والمراد نفي الحال دون الفعل كقولك لا يلقاني زيد راكباً ويقول الهاء للمعاصي المدلول عليها باللغو ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وذريتنا بغير ألف والباقون بالألف على الجمع ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تنكير الأعين لإرادة تنكير القرة تعظيماً وأورد الأعين بصيغة جمع القلة لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ومن إبتدائية يعني هب

(١) سورة الكهف، الآية: ١٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٥.

لنا قرة أعين كائنة من أزواجنا وذرياتنا يعني اجعلهم صالحين تقربهم أعيننا، قال القرطبي ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عزَّ وجلَّ، قال الحسن وحد القرة لأنها مصدر وأصلها من البرد لأن العرب تتأذى من الحر وتستريح من البرد وتذكر قرة العين عند السرور وسخنة الأعين عند الحزن ويقال دمع العين عند السرور بارد وعند الحزن حار، وقال الأزهري معنى قرة الأعين أن يصادف قلبه من يرضاه وتقر عينه عن النظر إلى غيره ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ تأكيد للجملة السابقة فإن أزواجهم وذرياتهم إذا كانوا متقين وهم أئمة لأزواجهم وذرياتهم صاروا للمتقين إماماً واحداً إماماً للدلالة على الجنس وعدم اللبس كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[١] ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾[٢] وقيل لأنه مصدر كالقيام والصيام يقال أمَّ إماماً كما يقال قام قياماً وصام صياماً أو لأن المراد أجعل كل واحد منا للمتقين إماماً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] أو لكون كلهم كنفس واحدة لا تحاد طريقتهم وإتفاق كلمتهم، وقيل هي جمع أم كصائم وصيام والمعنى قاصدين للمتقين سالكين سبيلهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي عباد الله الصالحين الموصوفين بتلك الصفات ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي يثابون أعلى مواضع الجنة روى الشيخان في الصحيحين وأحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والترمذي عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف فوقهم كما ترون الكوكب الدري الغابر من أفق المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال رسول الله ﷺ بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[٤] وروي عن سهل بن سعد مثله، وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عمرو الترمذي والبيهقي عن علي وأحمد عن أبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة غرف يرى ظاهرها من باطنها من ظاهرها، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قانتاً والناس نيام**»[٥] كذا في حديث ابن عمر وفي حديث عليّ «لمن أطاب الكلام وأفشى السلام ويطعم الطعام وصلّى بالليل

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٦.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في قول المعروف (١٩٩٠).

والناس نيام» وفي حديث أبي مالك «لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلّى بالليل والناس نيام» وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال لنا النبيّ ﷺ: «ألا أخبركم بغرف الجنة؟ قلنا بلى يا رسول الله، قال إن في الجنة غرفاً من أصناف الجواهر يرى ظاهرها من باطنها من ظاهرها فيها من النعيم واللذات والشرف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قلنا يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلّى بالليل والناس نيام، قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: أمتي يطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه وسلم عليه ورد عليه فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعمهم الطعام ومن صام رمضان ومن كل شهر ثلاثة فقد أدام الصيام ومن صلّى العشاء الأخيرة وصلّى الغداة في جماعة فقد صلّى بالليل والناس نيام اليهود والنصارى والمجوس» وإسناده غير قوي، وأخرج ابن عدي والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً فإذا كان ساكنها فيها لم يخف عليه ما خلفها وإذا كان خلفها لم يخف عليه ما فيها، فقيل لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام وواصل الصيام وأطعم الطعام وأفشى السلام وصلّى بالليل والناس نيام، قيل وما طيب الكلام؟ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنه يأتي يوم القيامة وهن مقدمات ومنجّيات ومعقّبات، قيل وما وصال الصوم؟ قال من صام شهر رمضان فصامه، قيل فما إطعام الطعام؟ قال من قات عياله، قيل فما إفشاء السلام؟ قال مصاحبة أخيك وتحيته، قيل وما الصلاة والناس نيام؟ قال صلاة العشاء الآخرة» وأخرج الحكيم الترمذي عن سهل بن سعد مرفوعاً في هذه الآية قال: الغرفة من ياقوتة حمراء وزبرجد خضراء ودرة بيضاء ليس فيها قصم ولا وصم» ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وعلى تحمل المجاهدات وعلى أذى المشركين، وأخرج أبو نعيم عن أبي جعفر قال بما صبروا على الفقر في دار الدنيا ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الغرفة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم أي يدعون الله لهم أو يبشرهم بالبقاء والسلامة من كل آفة، وقال الكلبي يحياء بعضهم على بعض بالسلام ويرسل الرب إليهم السلام، وأخرج أحمد والبزار وابن حبان عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة

ائتوهم فحيوهم، فيقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم، قال إنهم كانوا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[1] وقيل معناه يلقون فها تحية أي بقاء دائماً وسلاماً من الآفات ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ أي موضع في قرار وإقامة، وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»[2].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ما يعبؤا بكم ربي﴾ جملة مستأنفة من عبأت الجيش عبواً أي رتبتهم وهيئتهم كذا في النهاية يعني ما يهيئكم لدخول الجنة ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ إياه بالاستغفار وقيل لولا عبادتكم وقيل لولا إيمانكم وقيل لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام فإذا آمنتم هيأكم لدخول الجنة، وقيل ما يعبؤا من العبا بمعنى الثقل يعني ما يرى ربكم لكم وزناً وقدراً ولا يعتد بكم لولا دعاؤكم أي عبادتكم وطاعتكم إياه فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو كالأنعام بل هو أضل سبيلا أو لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام فإذا آمنتم ظهر لكم قدر، وقيل معناه ما يعبؤكم ولا يعتدبكم أي يخلقكم لولا عبادتكم وطاعتكم يعني أنه خلقكم لعبادته كما قال: ﴿ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[3].

وقال البغوي هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقيل معناه ما يبالى بكم وهذا المعنى مأخوذ من الثقل والوزن والقدر فإن الشيء الثقيل ذا القدر والوزن يبالي به فقيل معناه ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وما يفعل بعذابكم لولا شرككم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ﴾[4] وقيل معناه ما يبالي بعذابكم

(١) رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فضل الفقراء (١٧٨٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٧).

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٧.

لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾[١] وقيل معناه ما خلقكم ربكم وله إليكم حاجة وليس لكم في جنبه تعالى قدر إلا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم فما على هذه الوجه نافية وإن جعلتها استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنَّه قيل أي عبأ يعبؤا بكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ خطاب لكفار مكة يعني أن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول فلم تجيبوا فكيف يهيئكم لدخول الجنة أو فكيف يكون لكم عنده وزن وقدر أو فكيف يبالي بعذابكم أو فكيف لا يبالي بمغفرتكم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾ أي لازماً لكم فلا ترزقون التوبة حتى تجازى أعمالكم، أو المعنى يكون جزاء تكذيبكم لازماً لكم يحيق بكم لا محالة أو أثره لازماً بكم حتى يكبكم في النار، وقال ابن عباس لزاماً يعني موتاً، وقال أبو عبيدة هلاكاً، وقال ابن زيد قتالاً، وقال ابن جرير عذاباً دائماً لازماً وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض، قال البغوي اختلفوا فيه فقال قوم هو يوم بدر قتل منهم سبعون وهو قول ابن مسعود وأبي بن كعب ومجاهد يعني أنهم قتلوا يوم بدر وأتصل به عذاب الآخرة لازماً، روى البخاري في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد مضين الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام»[٢] وقيل اللزام هو عذاب الآخرة والله أعلم.

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين قد تم تفسير سورة الفرقان بعون الله تعالى وحسن توفيقه سادس عشر صفر من السنة الخامسة سنة ١٢٠٥ بعد ألف ومائتين ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير سورة الشعراء.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير؛ باب: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (٤٧٦٧).

سورة الشعراء

إلا أربع آيات من آخر السورة مكيَّة «والشعراء يتبعهم الغاوون»

وهي مائتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روى الحاكم في المستدرك عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى**».

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر هاهنا وفي القصص والنمل بإمالة الطاء وأهل المدينة بين بين والباقون بالفتح وأظهر النون عند الميم هاهنا وفي القصص أبو جعفر وحمزة وأدغمها الباقون، قال البغوي روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ عجزت العلماء عن تفسيرها، وروى علي بن طلحة الوالبي عن ابن عباس أنه قسم وهو اسم من أسماء الله عز وجل وقال قتادة إسم من أسماء القرآن، وقال مجاهد اسم للسورة، وقال محمد بن كعب القرظي أقسم الله بطوله وسنانه ومجده والحق أنه رمز بين الله وبين رسوله ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى السورة أو القرآن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه وصحته أو المظهر للأحكام وسبيل الهدى ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي قاتل نفسك عمّا يقال بخع نفسه كمنع قتلها غمّاً وأصل البخع أن يبلغ الذبح بالفتح وهو عرق في الصلب ويجري في أعظم الرقبة وذلك حد الذبح وهو غير النخاع بالنون فيما زعم الزمخشري ثم استعمل في كل مبالغة ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لئلا يؤمنوا أو كراهة ألا يكونوا مؤمنين

نزلت هذه الآية حين كذّبه أهل مكة وشق ذلك عليه لما كان يحرص على إيمانهم، وجاز أن يكون شدة غمه ﷺ إيمانهم خوفاً من الله تعالى أن يعاقب لأجل إنكار قومه فهذه الآية تسلية للنبي ﷺ، وكلمة لعل للترجي وهاهنا للإشفاق يعني أشفق على نفسك ولا تغتمّ فإنك إن تغنم فلعلك تقتل نفسك غمّاً فإنا لم نشأ إيمانهم فإنه ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إيمانهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي دالة ملجئة إلى الإيمان أو بلية قاصرة عليه ﴿فَظَلَّتْ﴾ عطف على ننزل ومعناه فتظل ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي منقادين، قال قتادة لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم بعده معصية لا تزول عليهم، وقال ابن جريج معناه لو شاء الله لأنزل بهم أمراً من أموره لا يعمل أحد منهم بعده معصية، أو رد خاضعين موضع خاضعة لوفاق رؤوس الآي، وقيل أصله فظلوا لهذا خاضعين فزيدت الأعناق مقحماً لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله، وقيل أصله ظلت أصحاب الأعناق لها خاضعين فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون فجعل الفعل أولاً للأعناق ثم جعل خاضعين للرجال، وقال الأخفش رد الخضوع على المضمر الّذي أضاف الأعناق إليه، وقيل لما وصفت الأعناق بالخضوع وهو من صفات العقلاء أجريت مجراهم، وقال قوم ذكر الصفة لمجاورتها المذكر وهو قوله هم على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى المذكر وتأنيث المذكر إذا أضافوه إلى المؤنث، وقيل أراد بالعنق جميع البدن كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[1] و﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[2] والمعنى فظلوا خاضعين، وقال مجاهد أراد بالأعناق الرؤساء الكبراء والمعنى فظلت كبراؤهم لها خاضعين، وقيل أراد بالأعناق الجماعات يقال جاء القوم عنقاً عنقاً أي جماعات وطوائف.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ أي كفار مكة عطف على مضمون جملة سابقة أو حال ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ موعظة أو طائفة من القرآن يذكر الله سبحانه، من زائدة في محل الرفع ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من الابتداء صفة للذكر أي منزل منه على نبيه ﴿مُحْدَثٍ﴾ إنزاله وإن كان قديماً في الوجود ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إستثناء مفرغ حال من الضمير المنصوب في يأتيهم أو المرفوع يعني ما يأتيهم في حال إلا في حال إعراضهم عن الإيمان به ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء المخبر به عنهم ضمناً في قوله تعالى:

(١) سورة الحج، الآية: ١٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٣.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ إذا نزل بهم العذاب يوم بدر أو يوم القيامة ﴿أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ من أنه كان حقاً أو باطلاً كان حقيقاً بأن يصدّق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره ويستهزأ به ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف والتقدير يطلبون آية على ما يدعيه محمد ﷺ من التوحيد والبعث بعد الموت ولم ينظروا إلى الأرض يعني لا ينبغي لهم طلب الآية وقد نظروا إلى الأرض وهي آية فإن إنكار النفي إثبات ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بدل اشتمال من الأرض وكم خبرية يعني ألم ينظروا إلى كثرة إنباتنا فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن محمود كثير المنفعة غذاء للناس أو الدواب ودواءً مفيدة فائدة ما إما وحده أو مع غيره وأيضاً كرم كل زوج من نبات الأرض دلالته على قدرة الخالق على إيجاده وإعادته بعد الإعدام وتوحده وصفات كماله كل لإحاطة الأفراد وكم لكثرتها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في أنبات تلك الأصناف أو في واحد منها ﴿لَءَايَةً﴾ حوالة على فاعل واجب لذاته تام القدرة والحكمة سابغ النعمة والرحمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لم ينفعهم تلك الآيات العظام، وقال سيبويه كان هاهنا زائدة والمعنى وما كان أكثرهم مؤمنين بعد مشاهدة الآيات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على إنتقام من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في إنتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ
ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ
فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ
رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ

﴿٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ٣٣﴾.

أذكر ﴿إذ نادى ربك موسى﴾ حين رأى الشجرة والنار معطوف على مضمون قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾[1] فإن التقدير لا تحزن على كفر قومك ولا تبخع نفسك واذكر وقت نداء ربك موسى وفيه تسلية للنبي ﷺ، جاز أن يكون كلاماً مستأنفاً والظرف متعلق بقوله قال رب ﴿أَنِ ائْتِ﴾ أن مفسرة لنادى أو مصدرية أي ائت أو بأن ائت ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وسومهم سوء العذاب من ذبح الأبناء وغير ذلك ﴿قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ بدل أو عطف بيان لما سبق ولعل الاقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ ومعناه الأمر أي ليتقوا أنفسهم عن عذاب الله بطاعته، ويحتمل أن يكون التقدير ألا يا قوم اتقون فهو بتقدير القول حال من فاعل ائت يعني ائت قائلاً لهم من الله ألا يا قوم اتقون نظيره ألا يسجدوا بتقدير ألا يا قوم اسجدوا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر وبفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أخاف ويعقوب بالنصب عطفاً على تكذبون وكذا الخلاف في قوله ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ لأجل عقدة كانت فيه ويضيق صدري لأجل عدم مساعدة اللسان ببيان المرام في إقامة الحجة الدافعة للتكذيب، وقال البغوي أي يضيق صدري من تكذيبهم ﴿فَأَرْسِلْ﴾ الوحي أو أرسل جبرئيل بالوحي ﴿إِلَىٰ هَارُونَ﴾ الفاء للسببيّة، قال البيضاوي رتَّب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة خوف التكذيب وضيق القلب انفعالاً عنه أي عن التكذيب وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لأنها إذا اجتمعت الأمور مست الحاجة إلى مُعِين يقوي قلبه وينوب منابه متى يعتريه الحبسة حتى لا يحمل دعوته وليس ذلك تعللا منه وتوقفاً في امتثال الأمر بل طلباً لما يكون معونةً على امتثاله ﴿ولهم على ذنب﴾ على حذف المضاف أي تبعة ذنب أو دعوى ذنب والمراد قتل القبطي سماه ذنباً على زعمهم وإلا فهو كان مباح الدم غير معصوم لأجل كفره وهذا اختصار قصة مبسوطة في غير هذا الموضع ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي أخاف أن يقتلوني قبل أداء الرسالة وهذا أيضاً ليس تعللاً وعدم امتثال الأمر بالتبليغ لخوف القتل بل استدفاعاً للبلية المتوقعة المانعة من التبليغ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا﴾ إجابة إلى الطلبين بوعده للدفع اللازم لروعه وضم أخيه إليه في الإرسال والخطاب في ﴿فَاذْهَبَا﴾ على تغليب

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

الحاضر وهو معطوف على الفعل الذي دل عليه كلا كأنه قال ارتدع يا موسى عن توهم قتلك فاذهب أنت ومن طلبت ضمه إليك ﴿بآياتنا إنا معكم﴾ يعني مع موسى وهارون ومن تبعهما بالنصر أو معكما ومن عاداكما بالعلم ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما جرى بينكم من الكلام فأظهركما عليهم خبر ثان أو هو الخبر وحده ومعكم ظرف لغو ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أفرد الرسول لأنه هاهنا بمعنى الرسالة وهو مشترك بين المرسل والرسالة، في القاموس الاسم الرسالة بالكسر والفتح وكصبور وأمير والرسول أيضاً المرسل.

قال البيضاوي لذلك ثنى تارة وأفرد أخرى يعني إذا أريد به المرسل مثنى وإذا أريد به الرسالة أفرد والمعنى هاهنا إنا ذو رسالة رب العالمين أو لأن الفعول يطلق على الواحد والجمع، قال في القاموس لم يقل ﴿إنا رسل رب العالمين﴾ لأن مفعولا وفعيلاً تستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون الرسول بمعنى إثنين والجمع يقول العرب هذا رسولي ووكيلي وهذان رسولي ووكيلي كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾[1] وقيل أفرد لاتحادهما للأخوة أو الوحدة المرسل به أو أراد أن كل واحد منا رسول رب العالمين ﴿أن﴾ مفسرة لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معنى القول ﴿أَرْسِلْ﴾ أي خلّ ﴿مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تذهب إلى الشام ولا تستعبدهم، قال البغوي كان فرعون استعبدهم أربع مائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستة مائة وثمانين ألفاً، فأنطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره وفي القصة أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصاه والمكتل معلق في رأس العصا وفيه زاده فدخل وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون وأرسل إليك حتى ندعو فرعون فخرجت أمهما وصاحت وقالت إن فرعون يطلبك ليقتلك ولو ذهبتما إليه لقصا.

فلم يمتنع لقولها وذهبا إلى باب فرعون ليلاً ودق الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب وروي أنه إطلع البواب عليهما فقال من أنتما فقال موسى (إنّا رسول رب العالمين) فذهب البواب إلى فرعون، وقال أن مجنوناً بالباب ويقول إنه رسول رب العالمين فترك حتى أصبح ثم دعاهما. وروي أنهما أنطلقا جميعاً إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول إليه فدخل البواب، وقال لفرعون هاهنا إنسان يزعم إنه رسول رب العالمين فقال فرعون أائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا عليه وأديا رسالة الله عزَّ وجلَّ فعرف فرعون

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

موسى لأنه نشأ في بيته و﴿وقال ألم نر بك فينا﴾ في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ طفلاً سمي به لقربه من الولادة ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم ودعاهم إلى الله ثلاثين سنة ثم بقي بعد الغرق خمسين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي من الجاحدين بنعمتي وحق تربيتي حتى عمدت إلى قتل خواصي كذا روى العوفي عن ابن عباس وهو قول أكثر المفسرين، وقال إن فرعون لم يكن يعلم بالكفر بالله، وقال الحسن والسدي أراد وأنت كنت من الكافرين بإلهك الذي تدعو إليه الآن وتعبده حيث كنت معنا على ديننا والجملة حال من إجدى التاءين ويجوز أن يكون حكماً مبتدءاً عليه بأنه من الكافرين بألوهيته أو بنعمته لما عاد إليه من المخالفة أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ يعني إذاً فعلتها ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجملة حال من التاء في فعلت يعني فعلت ما فعلت ﴿وأنا من الضالين إذا فعلت من الجاهلين﴾ لم يأتني من الله شيء أو الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله لأنه أراد به التأديب دون القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب من غير تعمد يعني من المخطئين، وقيل من الفاعلين فعل أولياء الجهل والسفه وقيل من الناسين من قوله: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾[1] ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي حكمة وعلماً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ﴾ مبتدأ إشارة إلى تربيته وليداً ﴿نِعْمَةٌ﴾ بدل من اسم الإشارة أو خبر منه ﴿تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ صفة لنعمة و﴿أن عبدت بني إسرائيل﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي أو على أنه بدل من نعمة أو مجرور بإضمار الباء وهو خبر المبتدأ يعني بمقابلة جفائك أو بسبب جفائك والتي هي أن عبدت أو النصب بحذف الباء أو على الظرف بتقدير الوقت أو على الحال، وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء صهمة ﴿وأن عبدت﴾ عطف بيان لها ومعنى عبدت اتخذتهم عبيداً لك يقال عبدت فلانا وأعبدته استعبدته وتعبدنه اتخذته عبداً، اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية.

قال بعضهم هو إقرار وعدّها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل فكأنه قال بلى وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبدت بني إسرائيل وتركتني ولم تستعبدني، وقال بعضهم هو إقرار ظاهراً أو إنكار معنى رد موسى أولاً ما وبخّه به قدحاً في أبوته ثم كر على ما عدّه من النعمة ولم يصرح بإنكاره لأنه كان صادقاً في دعواه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

بل نبه على أنه كان في الحقيقة نعمة لكونه في مقابلة الجفاء أو مسبباً عنه فقال وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل فتلك النعمة مقابلة بالجفاء أو بسبب الجفاء فإنه بسبب إستعبادك بني إسرائيل وقتلك أبناءهم رُفِعتُ إليك حتى ربّيتني وكفلتني ولو لم تستعبدهم كان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم فتضمن هذا الإقرار الإنكار، وقيل هو إنكار وهمزة الإستفهام للإنكار مقدرة تقديره أتلك التربية نعمة لك عليّ أن عبدت بني إسرائيل يعني أتربيتك إياي نعمة وقت تعبدك بني إسرائيل أو الحال إنك عبدت بني إسرائيل فتعبيدك قومي بني إسرائيل أحبط إحسانك إلي، وإنما وحد الخطاب في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده والخوف والفرار منه ومن قومه ولما سمع فرعون جواب ما طعن في موسى ورأى أنه لم يرعو بذلك شرع في الإعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل و﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ولما كان بيان حقيقة الواجب تعالى مستحيلاً بما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته والإمتناع تعريف الإفراد إلا بذكر الخواص والأفعال ذكر موسى أظهر خواصه وآثاره و ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي يعني ﴿رب العالمين رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ من الكائنات ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بثبوت حقائق الأشياء فاستدلوا بها على خالقها فإنها أجرام محسوسة ممكنة لتركها وتعددها وتغير أحوالها فلا بد لها من مبدأ واجب لذاته وذلك المبدأ لا بد أن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محالان أما التعدد فلاستلزامه تركبهما مما فيه اشتراكهما وما به امتياز كل منهما عن الآخر والتراكب دليل الحدوث مناف للوجوب وأما الإستغناء فهو مناف للإمكان، ثم ذلك لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته هذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ولما كان فرعون غبيّاً لم يدرك حسن الجواب ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ تعجباً ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابه يعني إني سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله أو يزعم أن للسموات ربا وهي قديمة واجبة لذواتها كما هو مذهب الدهرية أو غير معلوم إفتقارها إلى مؤثر، فحينئذ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن توهم القدم والوجوب ولا يشك في افتقارها إلى مصور حكيم ويكون أقرب للناظر وأوضح عند التأمل ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسئلة عن شيء يعني عن حقيقته ويجيبني عن آخر وسماه رسولاً على السخرية ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير المدار اليوم الذي

قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الكائنات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني إن كان لكم عقل أدركتم أنه لا جواب لكم فوق ذلك لا ينهم أولاً ثم لما رأى شكيمتهم أي شدتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم ﴿قَالَ﴾ فرعون عدولاً عن المحاجة بعد الانقطاع إلى التهديد كما هو دأب الجاهل المحجوج ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ جواب قسم محذوف ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أي من المحبوسين واللام للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجني، قال الكلبي كان سجنه أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه شيئاً يهوي به في الأرض، إستدل فرعون بقدرته على التعذيب على ألوهيته وإنكاره للصانع وكان قوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ صادراً منه تعجباً من نسبة الربوبية إلى غيره ولعله كان دهرياً يعتقد أن من الملك قطراً من الأرض وتولى أمره بقوة طالعة استحق العبادة من أهله.

﴿قَالَ﴾ موسى في جواب تهديده ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ الهمزة للاستفهام للتوبيخ والإنكار والواو للحال بعد حذف الفعل تقديره أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيء مبين توبيخ على الإساءة حال فجيئة بالحجة الواضحة على صدقه، وقيل الواو للعطف على شرطية محذوفة والشرطيتان حال من فاعل فعل محذوف تقديره أتجعلني من المسجونين لو لم أجبك على دعواي بحجة ولو جئتك بشيء مبين حجة والمآل واحد ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ أي بشيء مبين ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أن ذلك بينة أو في دعواك فإن مدعي النبوة لا بد له من حجة ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته أو مبين أي مظهر لصدق دعواه عطف على قال ﴿وَنَزَعَ﴾ موسى ﴿يَدَهُ﴾ إذا قال فرعون وهل غيرها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي يده ﴿بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ لها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق فتحير فرعون وعجز.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا
نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾
فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ

وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قال للملأ حوله﴾ أي مستقرين حوله ظرف وقع موقع الحال ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لما غلب عليه سلطان المعجزة حطّه عن دعوى الربوبية إلى الإستظهار من القوم وجعلهم أمراء على نفسه وتنفيرهم عن موسى وإظهار الخوف عن ظهوره وإستيلائه على ملكه ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني أخر أمرهما ﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ ناساً يحشرون أي يجمعون السحرة ﴿يَأْتُوكَ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضلون عليه في السحر، أمال سحار ابن عامر وأبو عمرو والكسائي ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة.

قال البغوي روى عن ابن عباس قال وافق ذلك يوم السبت في أول يوم السنة وهو النيروز ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ استفهام بمعنى الأمر وفيه استبطاء لهم في الإجتماع حثاً على عدم الاستبطاء والمبادرة إليه ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ يعنون موسى وهارون وقومهما أي نتبعهم في دينهم.

قلتُ: وجاز أنهم يعنون به السحرة الذين طلبهم أي لعلنا نتبع السحرة في إبطال أمر موسى ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ والترجي يناسب التأويل الثاني وأما على التأويل الأول فالترجي بأعتبار الغلبة المقتضية للإتباع ومقصودهم الأصلي أن لا يتبعوا أمر موسى ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ إستفهام للتقرير ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾ عطف على مضمون نعم يعني أن لكم أجراً وأنكم ﴿إِذًا﴾ أي إذا كان لكم الغلبة متعلق بما بعده ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلتزم لهم القربة زيادة على ما طلبوا من الأجر عند الغلبة.

فقال السحرة لموسى (إما أن تلقي وأما أن تكون نحن الملقين)[1] كما مرّ في الأعراف فحينئذ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لم يرد به الأمر بالسحر بل أراد به الإذن في تقديم ما هم فاعلون لا محالة توسلاً إلى إظهار أمره فلا يرد عليه أن الأمر

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٥.

بالمعصية حرام أو يقال هذا الأمر للتحقير أي لتحقير سحرهم في مقابلة المعجزة فليس من باب الطلب في شيء ﴿فَأَلْقَوْا﴾ أي السحرة ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ تبركوا بعزة فرعون لفرط إعتقادهم أنه من السعداء، أو أقسموا بعزته على إتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي تبتلع قرأ حفص بالتخفيف والباقون بالتشديد ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما موصولة يعني ما يقلبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيَّل حبالهم وعصيهم أنهما حيات تسعى أو مصدرية أي تبتلع إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة ﴿فألقى السحرة ساجدين﴾ يعني أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر فطرحوا على وجوههم وأنه تعالى ألقاهم بما وفقهم للتوبة وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزوير يخيَّل شيئاً لا حقيقة له ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ بدل من ألقى بدل إشتمال أو حال بإضمار قد ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم، ما أجرى على أيديهما من المعجزة ﴿قَالَ﴾ فرعون تعنتاً ليلبس على قومه كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح ءأمنتم بالهمزتين والباقون بهمزة واحدة وحذف همزة الإستفهام الانكاري ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فعلّمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم أو المعنى أنه وادعكم ذلك وتواطئتم عليه ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد إجمالاً ثم فصله بقوله ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا في ذلك لاستلزامه الشهادة والأجر الجزيل الذي يتلاشى في مقابلته المصائب الدنيوية ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أتوعدنا به أو بسبب آخر من أسباب الموت وقتلك أنفعها وأرجاها تعليل لنفى الضير ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا﴾ أي لأن كنا ﴿أول المؤمنين﴾ من إتباع فرعون أو من أهل المشهد، قلتُ: والظاهر أن معناه أن كنا من أول المؤمنين وأول المؤمنين هم الذين يقتدى بهم غيرهم والجملة تعليل ثان لنفي الضمير أو تعليل للعلة المتقدمة أو بدل اشتمال لها.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بعدما أقام بين أظهرهم سنين يدعوهم إلى الحق ويريهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوّاً وفساداً ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر تعطيل للإسراء، قال البغوي روى عن ابن عباس قال أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن جمع بني إسرائيل أهل كل أربعة أبيات في بيت ثم أذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً على بابه دم وسآمرها فيقتل ابكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري ففعل ذلك فلمّا أصبحوا قالوا لفرعون هذا عمل موسى وأتباعه قتلوا بكارنا من أنفسنا وأموالنا فأرسل في أثره ألف ألف وخمس مائة ألف ملك سود مع كل ملك ألف وخرج فرعون في الكرسي العظيم لكن قلت عدد جنوده بهذه المثابة مما يستبعده العقل ولم يرو من النقل ما يوجب العلم به ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ معطوف على محذوف تقديره فأسرى موسى قومه فبلغ الخبر فرعون وأراد أن يتبعهم فارسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يعني الشرط ليحشروا أي ليجمعوا الجيش.

قلت: لعله بعث ناساً ليجمعوا أهل المدائن المتصلة بمصر بحيث يمكن إجتماعهم في تلك الليلة إلى الصباح قائلاً لهم ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ بالكسر القليل من الناس كذا في القاموس ثم أكده بقوله ﴿قَلِيلُونَ﴾ لإشعاره غاية القلة فهذه الآية تدل على بطلان ما روى أنهم كانوا ست مائة وسبعين ألفاً وإنما استقلهم بالإضافة إلى جنوده على ما قيل في مدد جنوده أنه كانت مقدمته سبع مائة ألف والساقة والجناحين والقلب على قياس ذلك فإنه لا يجوزه العقل نظراً إلى أجياد ملوك الأرض لاسيما ملك مصر، قلت لعل ايراد الشرذمة لبيان قلتهم بالنسبة إلى جنود فرعون وايراد قليلون لبيان قلتهم في نفس الأمر ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ لنا متعلق بغائظون والمعنى: أنهم أصحاب غيظ وعداوة لنا يعني مبغضون لنا أو المعنى إنهم لفاعلون بنا ما يغيظنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة حذرون وفرهين بغير ألف ووافقهم هشام في حذرون والباقون حاذرون وفارهين بالألف فيهما والأول للثبات والثاني للتجدد وهذا معنى ما قال

الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن والحذر المخاوف، وقيل حاذرون مؤدون مفرُّون أي ذووا إذاءة وقوة أي مستعدون السلاح كذا قال الزجاج ومعنى حذرون خائفون مستيقظون أي غير غافلين ﴿فأخرجناهم﴾ تقديره فاجتمعوا واتفقوا على الإتباع فأخرجناهم يعني أنهم خرجوا بتقديرنا ومشيئتنا ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي أموال من الذهب والفضة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي منازل حسنة ومجالس بهية يعني مجالس الأمراء والرؤساء تحفها الاتباع ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يعني تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذلك بأن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس ﴿فلما تراء﴾ قرأ حمزة بإمالة فتحة الراء فإذا وقف أتبعها الهمزة فأمالها مع جعلها بين بين على أصله فيصير بين ألفين ممالتين الأولى أميلت لإمالة فتحة الراء والثانية أميلت لإمالة فتحة الهمزة وهذا بحكم المشابهة غير أن هذا حقيقته على مذهبه والباقون يخلصون فتحة الراء والهمزة في حال الوصل فأما الوقف فالكسائي يقف بإمالة فتحة الهمزة فيميل الألف التي بعدها المنقلبة من الباء لإمالتها وورش يجعلها فيه بين بين على أصله في ذوات الياء والباقون يقفون بالفتح ﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا بحيث يرى كل فريق من قوم موسى وقوم فرعون آخرين ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يعني سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بوعد الله ﴿كَلَّآ﴾ لن يدركونا ﴿إن معي﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ربى﴾ بالعون والحفظ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي يدلني على طريق النجاة ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ﴾ مفسرة لأوحينا لما فيه معنى القول ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ عطف على محذوف تقديره فضرب موسى عصاه على البحر فانفلق البحر إلى النيل ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ من الماء ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم الثابت في مقره فدخل كل سبق في شعب من شعابها ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي قربنا ﴿ثَمَّ﴾ في ذلك المكان ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ يعني قوم فرعون ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بحبس البحر عن الجريان إلى أن عبروا ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ يعني قوم فرعون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي أنجاء موسى ومن معه وإهلاك فرعون وقومه ﴿لَآيَةً﴾ حجة واضحة على صدق موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر أتباع فرعون ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل لم يكن آمن لموسى من آل فرعون إلا آسية إمرأة فرعون وحزئيل مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه وإمرأته ومريم بنت ناموسيا التي دلت على قبر يوسف عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في الإنتقام من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا
بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ
الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي
أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)
وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ
نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
(١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل مكة عطف قوله ﴿إذ نادى ربك موسى﴾[1] لكونه مقدراً باذكر ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم متعلق بمحذوف أي أذكر إذ قال بدل من قوله واتل عليهم ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر سماه الله أباً لكونه عماً ومربياً له ﴿وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾ أطالوا في الجواب تبجحاً وافتخاراً ونظل هاهنا بمعنى ندوم، وقال البغوي كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم، وقال ابن عباس معناه هل يسمعون لكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ أورد صيغة المضارع مع إذ على حكاية الحال لماضية ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ على عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أعرض عنها ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ يعنون أنها لا تسمع قولاً ولا تنفع نفعاً ولا تدفع ضرّاً بل اقتدينا بآبائنا يفعلون مفعول ثان لوجدنا وكذلك صفة لمصدر محذوف ليفعلون يعني بل ﴿وجدنا آباءنا يفعلون﴾

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٠.

فعلاً كذلك الفعل أي كفعلنا ذلك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أنتم وأباؤكم الأقدمون﴾ همزة الإستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار والفاء للعطف على محذوف وما إستفهامية والجملة الإستفهامية قائمة مقام مفعولي رأيتم أو موصولة وهي مع صلتها أول مفعولي رأيتم والثاني مقدر وتقدير الكلام أتأملتم فرأيتم الذي تعبدونه شيء لا ينفعكم لا يضركم ووصف الآباء بالتقدم للإشعار بأن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقاً ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وورش بفتح الياء والباقون بإسكانها، يعني إن عبدتهم فإنهم عدولي أسند عداوتهم إلى نفسه تعريضاً وإشعاراً بأنهم أعداء لكم حيث يتضررون بعبادتها فوق ما يتضرر الرجل من عدوه، وهذا دأب الناصح الكريم يبدأ بنفسه والتعريض أنفع من التصريح ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[(١)] يعني مالكم لا تعبدونه وإطلاق العدو على الجمادات مبني على التجوز إما لوصول الضرر من جهتها أو بأعتبار ما يؤل الأمر إليه يوم القيامة قال الله ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[(٢)] وإفراد العدو لأنه في الأصل مصدر على وزن فعول كالقبول أو على معنى أن كل معبود لكم فهو عدولي، وقيل يجوز إطلاق العدو والصديق على الواحد والجمع لأن كلَّ صفةٍ على وزن فعول أو فعيل يستعمل كذلك يقال رجل عدو وقوم عدو قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[(٣)] وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[(٤)] ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع كأنه قال فأنهم عدو لي لكن رب العالمين وليي، وقيل إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله تعالى فقال إبراهيم كل من تعبدونه عدو لي إلا ربَّ العالمين أو يقال كان من آبائهم من يعبد الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ فإنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد قال الله ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾[(٥)] هداية مدرجة من مبدأ الإيجاد إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضارّ مبدأها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من السرة ومنتهاها إلى طريق الجنة ولذائذها، الموصول مع صلتها صفة لرب العالمين أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الّذي خلقني أو منصوب على

---

(١) سورة يس، الآية: ٢٢.
(٢) سورة مريم، الآية: ٨٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٥) سورة الأعلى، الآية: ٣٠.

المدح والفاء للعطف واختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية والموصولات الثلاثة معطوفات عليه أو الموصول مبتدأ خبره ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ والفاء للسببية وقوله ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ على هذا مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده وتكرير للموصول على الوجوه كلها للدلالة على أن كل واحد من الصلات مستقلة لاقتضاء الحكم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ عطفه على ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ لكونهما من روادفها فإن الصحة والمرض في الغالب يتبعان المأكول والمشروب، ولم ينسب المرض إلى الله تعالى مع أن المرض والشفاء كلاً منهما بخلقه سبحانه رعاية لحسن الأدب كما قال خضر ﴿فأردت أن اعيبها﴾[1] وقال ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[2] وأسند إلى نفسه هضماً ونظراً إلى أن ما أصاب الإنسان من مصيبة فبما كسبت يداه ولأن المقصود تعديد النعم، وأسند الموت إلى الله سبحانه لأن الموت من حيث أنه لا يحس به لا ضرر فيه وإنما الضرر في مقدماته وهي المرض ولأن الموت لأهل الكمال خلاص من أنواع المحن ووصلة إلى نيل النعم التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية كما قيل الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب.

وفي الحديث «موت الفجاءة راحة للمؤمن وأخذة الأسف للفاجر» رواه أحمد والبيهقي بسند حسن عن عائشة مرفوعاً وفي الحديث «الموت كفارة لكل مسلم» رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي بسند ضعيف عن أنس ولأن المريض في الغالب يحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه ولما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر والصحة إنما يحصل باستحفاظ اجتماعهما والاعتدال المحفوظ عليها قهراً بقدرة العزيز الحكيم ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ في الآخرة ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه أو تعليماً لأمته أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر منها ويطلبوا المغفرة لما صدر عنهم أو استغفاراً لما فات منه العزيمة وعمل بالرخصة شفقةً على أمته كيلا يضيق عليهم نطاق الأمر وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[3] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾[4] وقوله لسارة هذه أختي كما قال به

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

مجاهد، وقوله للكوكب هذا ربي كما قال الحسن زائداً على الثلاث ضعيف لأنها معاريض وليست بخطايا والله أعلم. روى البغوي عن مسروق عن عائشة أنها قالت يا رسول الله ابن جدعان في الجاهلية كان يصل الرحم ويطعم المساكين فهل كان نافعه؟ قال لا ينفعه إنه لم يقل يوماً ﴿رب أغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾. وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه وإشعار بأنه من لا يستطيع أن يفعل هذا لا يصلح للألوهية ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي كمالاً في العلم والعمل بحيث يستعد خلافة الحق ورياسة الخلق ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ووفقني الكمال في العمل حتى أنتظم في سلك الصالحين الذين لا يشوبهم فساد أصلاً وهم الأنبياء المعصومون ﴿وأجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ يعني ثناءً حسناً وذكراً جميلاً مطابقاً للواقع وقبولاً عامّاً في الأمم اللآتي يأتين من بعدي والمعنى يكون لسان الآخرين في ثنائي صادقاً ﴿وأجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ في الآخرين ﴿واغفر لأبي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وورش بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني إغفره بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن طريق الحق، وكان هذا الدعاء قبل أن يتبين له أنه عدو لله ولم يقدر له الهداية والإيمان قال الله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾(١) أو لأنه لم يمنع بعد الإستغفار للكفار ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ أي لا تفضحني بمعاتبتي على ما فرطت أو ينقص مرتبتي عن مرتبة الصالحين من الخزي بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لكونهم معلومين أو للضالين، أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر أنه سئل كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافر والمنافق فينادى به على رؤوس الأشهاد هؤلاء الَّذين كذَّبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»(٢) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، قال البغوي هذا قول أكثر المفسرين، قال سعيد بن جبير القلب السليم قلب المؤمن وقلب الكافر والمنافق مريض، قال أبو عثمان النيشافوري

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: قول الله تعالى ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة يعني أهل السنة والجماعة يعني لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا مؤمناً فالمستثنى مفرغ في محل النصب أولا ينفع مال ولا بنون إلا مال مؤمن وبنوه فالمستثنى في محل الرفع على البدلية، والحاصل أن الكافر وإن بذل ماله في صلة الرحم وإطعام المساكين لا ينفعه لعدم إسلامه وكذا بنوه وإن كانوا صلحاء أو أنبياء لا ينفعون أبائهم بالشفاعة أو الاستغفار ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي﴾(١) روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزو يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال يا إبراهيم أنظر ما تحت رجليك فينظر فإذا بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار فيتبرأ منه يومئذٍ»(٢) إنتهى. وأما المؤمن فينفعه ماله الذي أنفقه في الطاعة وولده بالشفاعة والإستغفار، وقيل الإستثناء منقطع والمعنى ولكن سلامة من أتى الله بقلب سليم ينفعه ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠﴾ بحيث يرونها من الموقف بأنهم للمحشورون ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾ فيرونها مكشوفة ويرون أنهم يساقون إليها، قال البيضاوي وفي اختلاف القولين ترجيح لجانب الوعد ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ يعني أين الذين كنتم تعبدونها وترجون شفاعتها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حال من الضمير المنصوب ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي هل يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي يدفعون العذاب عن أنفسهم بل هم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾، قال البغوي قال ابن عباس أي جمعوا وقال مجاهد دهوروا قال مقاتل قذفوا وقال الزجاج طرح بعضهم على بعض، وقال القتيبي ألقوا على رؤوسهم وفي القاموس كبه أي قَلَّبه وصرعه كأكبّه وكبكبه فأكب وهو لازم يعني كبّ وكبكب بمعنى واحد، وقال البيضاوي كبكب تكرير الكب لتكرير معناه كأنّ من ألقى في النار ينكب مرّة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها ﴿هُمْ﴾ يعني الآلهة الباطلة ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي عابدوها ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أي متبعوه من عصاة الثقلين ويقال ذريته ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير المرفوع في كبكبوا مع ما عطف عليه ﴿قَالُوا۟﴾ يعني الغاوون للشياطين والمعبودين ﴿وَهُمْ

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٠).

﴿فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ حال من فاعل قالوا والضمير المرفوع المنفصل يعود إلى العابدين والمعبودين جميعاً، ينطق الله الأصنام فيخاصمون العبدة ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة والجملة مقولة قالوا ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ أيها المعبودون في استحقاق العبادة ﴿برب العالمين﴾ إذ نسويكم متعلق بقوله كنا ويجوز أن يكون الضمير المنفصل وما يعود إليه راجعاً إلى العبدة فحسب كما في قالوا بناءً على عدم صلاحية الإختصاص في الأصنام والخطاب إلى الأصنام وفائدة الخطاب المبالغة في التحسر والندامة والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ إضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة فيتحسرون عليها ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ قال مقاتل يعنون الشياطين، وقال الكلبي الأولين الذين اقتدوا بهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما أن للمؤمنين شفعاء من النبيين والملائكة وإخوانهم الصالحين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ أي صادق في المودة جمع الشافع ووحّدَ الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ولإطلاق الصديق على الجمع كالعدو كما ذكرنا أن وزن فعول وفعيل يجيىء في الجمع والواحد ولأنه في الأصل مصدر كالجنين والصهيل ﴿حَمِيمٍ﴾ أي قريب، في القاموس حميم كأمير القريب جمعه أحماء وقد يكون الحميم للجمع والمؤنث يعنون أنه ليس لنا صديق ولا ريب يشفع لنا فإن ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[(١)] روى البغوي عن جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي فَمَا لَنَا من شَافعين وَلاَ صديقُ حميم» قال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا تمنى للرجعة أقيم فيه لو مقام ليت لاشتراكهما في معنى التقدير أو شرط حذف جوابه يعني لكان خيراً ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب للتمني أو عطف على كرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَءَايَةً﴾ أي لحجة واضحة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر فإنها جاءت على نظم ترتيب وأحسن تقرير يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفته معهم وكمال إشفاقه عليهم وتصوير الأمر في نفسه وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول وأيضاً فيه حجة

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

واضحة على صدق دعوى محمد ﷺ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر قومه ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على الانتقام ﴿الرَّحِيمُ﴾ بإهمال الكفار لكي يؤمنوا به هم أو واحد من ذريتهم. وإنعام المؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ القوم مؤنث ولذلك تصغر على قويمة، أورد المرسلين بصيغة الجمع والمراد به الجنس يقال يركب فلان الخيل وإن لم يكن له إلا فرس واحد أو لأنهم كانوا ينكرون بعث الرسل، وروي عن الحسن البصري أنه قيل له يا أبا سعيد أرأيت قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ كذبت عادٌ المرسلين وكذبت ثمود المرسلين.

وإنما أرسل إليهم رسول واحد قال إن الآخر جاء بما جاء الأول فإذا كذّبوا واحداً كذّبوا الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين ﴿نُوحٌ﴾ عطف بيان للأخ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتتركون عبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ لهدايتكم إلى ما هو خير لكم ﴿رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أمين﴾ على وحيه مشهور فيكم بالصدق والأمانة ﴿فاتقوا الله﴾ اجتنبوا من عذابه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمركم به من التوحيد والعبادة لله وحده ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على دعائكم إلى الله والنصح ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ حتى تتهموني في النصح بالطبع ﴿إن أجري﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إلا على رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرره للتأكيد والنسبية على أن دلالة كل واحد من أمانته وعدم طمعه مستقلة على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا ﴿قَالُوا﴾ يعني قومه إنكاراً عليه ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ﴾ حال بتقدير قد قرأ يعقوب أتباعك جمع تابع كشاهد وإشهاد أو تبع كبطل وإبطال ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ جمع أرذل على وزن أعوس على السلامة في القاموس وهو

الدون الخسيس، قال البيضاوي الأقل جاهاً ومالاً، قال البغوي السفالة وعن ابن عباس الصاغة، قال عكرمة الحاكة والأساكفة وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على حطام الدنيوية حتى جعلوا الاتباع فيها مانعاً عن إتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه وأشاروا بذلك إلى أن إتّباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني أني لا أعلم أنهم عملوا ذلك الإتباع إخلاصاً لله أو طمعاً في رفعة في الدنيا وما عليَّ إلا اعتبار الظاهر ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ يعني ما حسابهم على بواطنهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فإنه المطلع عليها ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ يعني لو كان لكم شعور لأدركتم ذلك ولكن الله عطل مشاعركم عن درك الحق وأعمى بصائركم، قال البغوي يعني لو علمتم ذلك عبدتم لصنائعهم، قال الزجاج الصناعات لا يضر في الديانات ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ جواب لما أوهم قولهم من إستدعاء طردهم ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ كالعلة لعدم الطرد يعني سواء كانوا أعزاء وأذلاء فكيف يسوغ لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء إذ ما عليَّ إلا إنذاركم.

قال الضحاك: إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطردهم لاسترضائكم ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ﴾ عما نقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين كذا، قال الضحاك أو من المقتولين بالحجارة كذا قال مقاتل والكلبي ﴿يا رب إن قومي كذبون﴾ إظهار لما يدعو إلى دعائه عليهم وهو تكذيب الحق لا تخويفهم إياه واستخفافهم به ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ من الفتاحة ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ﴾ قرأ ورش وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ المملوء ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائه والمؤمنين ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه وهم الكافرون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ شاعت وتواترت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ أنثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم أبيهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب في الدين ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله بالتوحيد وترك الإشراك ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أمين على الرسالة، قال الكلبي أمين فيكم قبل الرسالة يعني ما كنتم تتهموني قبل ذلك فكيف تتهموني اليوم ﴿فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من اجر إن أجرى﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن أداء الرسالة طاعة لله تعالى فأجره عليه.

مسألة:

لا يجوز أخذ الأجرة على الطاعة وإلا لا تكون الطاعة طاعة لله تعالى ولا يستحق الأجر من الله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ الإستفهام للتوبيخ أو التقرير والإستغراق في كل ريع غير حقيقي بل المراد به الكثير بالكثرة في نفسها دون الكثرة بالإضافة، قال الوالبي عن ابن عباس أي بكل شرف يعني بكل مكان مرتفع وريع الأرض لنمائها.

وقال الضحاك ومقاتل بكل طريق وهو رواية العوفي عن ابن عباس وعن مجاهد هو الفج بين الجبلين وعنه أيضاً المنظر، وفي القاموس الريع بالكسر والفتح المرتفع من الأرض والطريق المنفرج في الجبل أو الجبل المرتفع أو مسيل الوادي من كل مكان مرتفع وبالكسر الصومعة وبرج الحمام ﴿ءَايَةً﴾ أي علامة مذكرة للباني ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي تفعلون فعلاً لا يفيدكم في الآخرة بل في الدنيا أيضاً أو معنى الآية علامة للمارّة تعبثون ببنائها إذ كانت المارة والسابلة فيسخرون منهم ويعبثون بهم، وعن سعيد بن جبير هذا في بروج الحمام أنكر عليهم هود اتخاذها بدليل قوله تعبثون أي تلعبون وهم كانوا يلعبون بالحمام، قلت: والظاهر أنهم كانوا يبنون قصوراً أو بروجاً وقلاعاً تبقى على وجه الأرض بمر الدهور تكون ذلك علامة مذكرة لمن بناه كما هو دأب أهل الدنيا يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾[1] وكل ذلك عبث فأنكر عليهم هود عليه السلام كما أنكر النبيّ ﷺ حيث قال: «إذا أراد الله بعبد شرّاً حصر له في اللبن والطين حتى يبنى» رواه الطبراني بسند جيد من

(١) سورة الفجر، الآية: ٦ ـ ٨.

حديث جابر ورواه في الأوسط من حديث أبي البشر الأنصاري بلفظ «إذا أراد الله بعبد هواناً أنفق ماله في البنيان» وقال ﷺ: «كل بنيان وبال على صاحبه إلا ما كان هكذا، وأشار بكفه» رواه الطبراني بسند حسن عن واثلة بن الأسقع، وعن أنس أن رسول الله ﷺ «خرج يوماً ونحن معه فرأى قبة مشرفة فقال ما هذه؟ قال أصحابه هذه لفلان رجل من الأنصار فسكت وحملها في نفسه حتى إذا جاء صاحبها رسول الله ﷺ سلَّم عليه في الناس فأعرض عنه صنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب منه والإعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه، فقال والله إني لأنكر رسول الله ﷺ قالوا خرج فرأى قبتك فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يرها، قال ما فعلت القبة؟ قالوا شكى إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها، فقال أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا إلا مالا»[١] رواه أبو داود واللفظ له يعني إلا ما لا بد منه، وروى أحمد وابن ماجه عن أنس عنه ﷺ «أما إن كل بناء فهو وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما كان في مسجد أو دارٍ» ويدل على ما ذكرت قوله تعالى ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مأخذ الماء وقصوراً مشيدة وحصوناً عطف على تبنون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كأنكم تبقون فيها أبداً فتحكمون بنائها.

مسألة:

يكره طول الأمل ويستحب قصره، عن ابن عمر قال «أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أصحاب القبور»[٢] رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمرو قال: «مرَّ بنا رسول الله ﷺ وأنا وأمي نطين شيئاً، فقال ما هذا يا عبد الله؟ قلت شيء نصلحه، قال الأمر أسرع من ذلك»[٣] رواه أحمد والترمذي، وقال هذا حديث غريب، وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يهريق الماء فيتيمم بالتراب فأقول يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه» رواه البغوي في شرح السنة وابن الجوزي في كتاب الوفاء ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في البناء (٥٢٢٨).

(٢) أخرج البخاري فقط «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب» (٦٤١٦).
أما الحديث بكامله فهو عند الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٥).

أخذتم أخذاً بالعنف تعذيباً، الظرف متعلق بقوله ﴿بَطَشْتُم﴾ معطوف على تبنون ﴿جَبَّارِينَ﴾ قتالين في غير حق بلا رأفة في القاموس الجبار المتكبر وقلب لا يدخله رحمة والقتال في غير حق ﴿فأتقوا الله﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ كرر الأمر بالتقوى مرتباً على إمداد الله إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً له وتنبيهاً على الواعد بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالانقطاع ثم فصّل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساوئهم المدلول عليها آجلاً بالإنكار في ألا تتّقون مبالغة في الاتعاظ والحث على التقوى فقال ﴿أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون﴾ بدل من أمدكم السابق ثم أوعدهم فقال ﴿إِنِّي﴾ فتح الياء حرميان وأبو عمرو والباقون يسكنونها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عصيتموني كذا قال ابن عباس ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا أو الآخرة فإن القادر على الإنعام قادر على الإنتقام والجملة في مقام التعليل.

﴿قَالُوا﴾ يعني قوم هود في جوابه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ مصدر بمعنى المفعول غير مقدم لقوله ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ مبتدأ بتأويل المصدر، يعني مستوٍ عندنا وعظك إيانا وعدمه لا نترك ما نحن عليه بوعظك والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد غَيَّر شق النفي عما يقتضيه المقابلة حيث لم يقل أوعظت أم لم تعِظ للمبالغة في عدم اعتدادهم لوعظه ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بفتح الخاء وسكون اللام يعني ما هذا الذي جئتنا به من الوعظ إلا كذب الأولين.

واختلاقهم كما في قوله تعالى: ﴿وتخلقون إفكا﴾[1] أو المعنى ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيى ونموت، مثلهم لابعث ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وابن كثير بضمتين أي ما هذا الّذي جئتنا به إلاعادة أولين كانوا يكذبون مثله وما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على ما نحن عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تأكيد وتقرير لما سبق من قوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ على بعض التأويلات ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ السبب التكذيب بريح صرصرٍ كما ذكر في غير هذا الموضع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ فيه إشارة إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وأن قريشاً إنما عصموا عن مثله ببركة من آمن منهم

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ﴾ إنكار لتركهم فيما أنعموا في الدنيا أو تذكير بالنعمة في تخلية الله إياهم في أسباب التنعم ﴿ءَامِنِينَ﴾ غير خائفين من العذاب، ثم فسر ما هاهنا بقوله ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ مع ما عطف عليه بدل من قوله فيما هاهنا ﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ أي ثمرتها ﴿هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس أي لطيف ومنه هضيم الكشح إذا كان لطيفاً، وروى عطية عنه نافعٌ نضيح، وقال عكرمة هو اللين، وقال الحسن هو الرخو وقال مجاهد منهشهم متفتت إذا يبس وذلك أنه أما دام رطباً فهو هضيم فإذا يبس فهو هشيم، وقال الضحاك ومقاتل قد رَكِبَ بعضها بعضاً أي كثير، وقال أهل اللغة هو المنضم بعضه إلى بعض في دعائه قبل أن يظهر، قال الأزهري هو الداخل بعضه في بعض، وقيل هضيم أي هاضم يهضم الطعام وكل هذا للطافة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ عطف على قوله آمنين لتضمنه معنى الفعل على طريقة ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[2] والتقدير تأمنون وتنحتون أو حال من ضمير آمنين بتقدير وأنتم

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

تنحتون ﴿فارهين﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فرهين وهو أبلغ لأنه صفة مشبهة يدل على الدوام والباقون فارهين، يعني حاذقين بنحتها من قولهم فره الرجل فراهة فهو فاره، وقال عكرمة معناه ناعمين، وقال قتادة معجبين بصنيعكم وقال السديُّ متحيرين، وقال الاخفش فرحين والعرب يعاقب بين الحاء والهاء مثل مدحته ومدهته وقال أي شرهين يعني حريصين والشره غلبة الحرص، وقال أبو عبيدة مرحين أشرين بطرين وهو الطغيان بالنعمة وعدم قبول الحق تكبراً ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ قال ابن عباس أي المشركين وقال مقاتل هم التسعة الذي عقرو الناقة ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالمعاصي ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ ولا تطيعون الله فيما أمرهم به.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني ثمود ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المسحورين المخدوعين كذا قال مجاهد وقتادة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب يقال سحره أي علله بالطعام والشراب يعني أنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك بل ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ فلا أنت بنبي أو المعنى إنك ذو سحر وهي الرية أي إنسان فحينئذ ما أنت إلا بشرٌ مثلنا تأكيد له ﴿فأت بآية﴾ دليل على صحة قولك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فأخرج الله سبحانه ناقة من الصخرة بدعائه على ما اقترحوا آية على صدقه حتى ﴿قَالَ﴾ صالح ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ آية صدقي ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ أي حظ ونصيب من الماء صفة لناقة ﴿وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ فأقتصروا على شربكم ولا تزاحموها في شربها والجملة حال عن الضمير المستكن في لها شرب، فكانت الناقة تشرب الماء كله في يوم نوبتها ولا تشرب أصلاً في يوم نوبتهم وهذا دليل على جواز المهايأة ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ أي بضرب وعقر عطف على هذه ناقة ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي يوم عظيم عذابه وهو أبلغ من تعظيم العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كان وقعه من العظمة أشد ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عطف على قال نسب العقر إلى الكل مع صدوره من بعضهم لأمرهم ورضائهم به وكذلك أخذوا في العذاب كلهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب لا توبة أو عند معاينة العذاب حين لا ينفعهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الموعود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ

أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ جملة أتأتون بيان أو بدل، لقوله ألا تتقون يعني أتأتون من دون من عداكم من العالمين الذكران تجامعونهم لا يشارككم فيه غيركم أو أتأتون الذكران بالجماع دون النساء من العالمين من أولاد آدم عليه السلام مع كثرتهم وغلبة النساء فيهم، فالمراد بالعالمين على الأول كل من ينكح وعلى الثاني الناس ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ لأجل إستمتاعكم ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ من للبيان إن أريد بما جنس الإناث وللتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فإنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضاً كما تفعله الرافضة. وفيه دليل على حرمة إدبار الزوجات والمملوكات ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مجاوزون من حد الحلال إلى الحرام في قضاء الشهوة زدتم في قضائها على سائر الناس بل على الحيوانات أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذلك أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لأرتكاب هذه اللائمة.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ جواب قسم محذوف ﴿يَا لُوطُ﴾ عما تدعيه أو عن نهينا بقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ من المبغضين، فآية البغض لا أبالي من الإخراج وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال لدلالته على أنه معدود في زمرتهم مشهور بأنه من جملتهم وكذلك قوله ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مكان تعدون ثم لما ظهر عند لوط عدم تأثير دعوته فيهم دعا ربه أن ينجوه من مصاحبتهم ويعافيهم عما يلحقهم من العذاب فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي من شؤمه وعذابه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ عطف على قال المقدر قبل قوله ﴿رَبِّ نَجِّنِي﴾ ﴿وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهل بيته ومتبعيه في دينه إخراجهم من بينهم وحلول العذاب بهم دونه ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ مقدرة في الباقين في العذاب والهلاك أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم وقيل كانت فيمن بقي في القرية و لم يخرج مع لوط عليه السلام ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أي أهلكنا ﴿الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ قال وهب بن منبه الكبريت والنار ﴿فساء مطر المنذرين﴾اللام فيه

للجنس حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو ممطرهم

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾
كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ
﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾
وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ
بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة وبفتح اللام والتاء غير مهموز وهو إسم بلد غير منصرف ولم يختلفوا في سورة الحجر وق فإنهما مهموزتان مكسورتان مع سكون اللام غير أن ورشاً يلقي حركة الهمزة على اللام على أصله والأيكة الغيضة من الشجر الملتف كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة فبعث الله تعالى إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدين وكان شعيب من أهل مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب كما قال في ذكر مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1] لأنه كان منهم نسباً ﴿أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة، والإمتناع من طلب الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة ومن ثم قال الله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

بعده﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢] ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ يعني أتموه الجملة مع ما عطف عليه بيان للتقوى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين لحقوق الناس بالتطفيف ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر القاف والباقون بضمها وهو الميزان وهو إن كان عربياً فإن كان من القسط بمعنى العدل ففعلاع بتكرير العين وإلا فهو فعلال رباعي ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ المستوي الذي لا تطفيف فيه ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوا شيئاً من حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ أي لا تفسدوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق والنهب وغير ذلك ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يعني قاصدين الفساد فمن وقع منه نوع فساد بنية الإصلاح كمن رمىٰ كافراً (تترس بأسير مسلم) يليه الكافر وأصاب الأسير المسلم فلا غرم عليه ومن وقع منه فساد خطأ من غير قصد فهو غير مفسد ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ أي ذوي الجبلة الأولين يعني من تقدمهم من الخلائق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ الواو للعطف على ما سبق للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للوسلة مبالغةً في تكذيبه وجاز أن يكون حالاً مما سبق ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ يعني وإنا نظنك ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواك ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ حفص هاهنا وفي سبأ بفتح السين والباقون بسكونها أي قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من بخس الكيل والوزن وغير ذلك وهو يجازيكم عليه إن شاء وليس العذاب إليّ وما علي إلا الدعوة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وذلك أنه أخذهم حر شديد وكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فأظلهم سحابة وهي الظلة فاجتمعوا إليها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا قد ذكر القصة في سورة هود ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ هذا آخر القصص السبع المذكورة على الاختصار تسلية لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣. (٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مصدر بمعنى المفعول يعني منزل من رب العالمين عطف على قوله ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ حال بتقدير قد أو تأكيد لما سبق أو علة لكونه تنزيلاً من الله، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وحفص نزل بالتخفيف ﴿الروح الأمين﴾ بالرفع على الفاعلية يعني نزل بالقرآن الروح الأمين يعني جبرائيل عليه السلام وهو أمين الله على الوحي إلى الأنبياء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد التاء ونصب الروح الأمني على المفعولية يعني نزّل الله جبرئيل بالقرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد حتى وعيته والمراد بالقلب هو القلب الصنوبري دون اللطيفة الربانية اللامكانية التي أصلها فوق العرش وبرزتها في القلب الصنوبري لأنه من عالم الأمر وهو لا يحتمل إعياء الوحي والنبوة بل الحامل لها هو القلب الصنوبري الجامع للعناصر والنقش وبرزات عالم الأمر ومن ثم لم يوجد الإيحاء إلا بعد كمال، البدن أو بلوغه أشُدَّه عند أربعين سنة ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي المخوفين عمّا يؤدي إلى العذاب من فعل أو ترك ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ واضح المعنى، قال ابن عباس يعني بلسان قريش لئلا يكون لهم عذر بأنا لم نفهم ما أوحي إلينا متعلق بنزل أو بالمنذرين، قيل معناه نزل به على قلبك بلسان عربي ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك حينئذ تسمع صوتاً لا تفهم معناه وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلمه أحد بلغة نشأ عليها أحاط قلبه أولاً بمعاني الكلام وإن كلمه بغيرها كان قلبه أولاً متوجهاً إلى ألفاظها ثم في معانيها فيقول بلسانٍ عربي تقرير لقوله نزل على قلبك ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي ذكر إنزال القرآن كذا قال أكثر المفسرين، وقال مقاتل أي ذكر محمد ﷺ، وقيل معناه أي القرآن ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي كتبهم وهذه الجملة معطوفة على ما سبق أو حال وعلى التأويل الأخير قال بعض الحنفية القرآن اسم للمعنى فقط لأنه لم يكن في الزبر السابقة بهذا اللفظ العربي

قطعاً ومن أجل ذلك أجاز أبو حنيفة القراءة في الصلاة بالفارسي وهذا القول مردود بل القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً حيث قال الله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾(١) فإن العربي صفة للنظم ولأن القرآن معجز والإعجاز من خواص النتظم ومن أجل ذلك جاز للجنب أن يقرأ ترجمة القرآن بالفارسي، وإنما أجاز أبو حنيفة القرآن بالفارسي في حق جواز الصلاة خاصة لجعله النظم ركناً غير لازم في الصلاة خاصة رعاية للخضوع وقد رجع أبو حنيفة عن هذا القول وقال بعدم جواز القراءة بالفارسي كما قال صاحباه وأكثر الأئمة وبه يفتى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يعرفوا رسولهم ولم يكن لهم آية على رسالته، قرأ ابن عامر تكُن بالتاء الفوقانية وآية بالرفع على أنه اسم كان وخبره لهم وأن يعلمه بدل من آية أو خبر مبتدأ محذوف وجاز أن يكون لم تكن تامة فاعله آية لهم حال منه وأن يعلمه بدل من الفاعل، أو خبر مبتدأ محذوف أو يكون في لم تكن ضمير القصة وأن يعلمه مبتدأ وآية خبره مقدم عليه ولهم حال من آية والعامل معنى الثبوت المستفاد من الحمل والجملة خبر كان وقرأ الباقون بالياء التحتانية وآية منصوب على الخبرية واسمه ان يعلمه ولهم حال من آية (أن يعلمه) يعني محمداً ﷺ بنعته المذكورة في التوراة كما يعرفون أبناءهم، أو يعلمون القرآن أنه منزل من الله ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال عطية كانوا خمسة عبد الله بن سلام وابن عامين وثعلبة وأسد وأسيد وقال ابن عباس بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ فقالوا إن هذا لزمانه وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ هو جمع أعجم، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربياً في النسب والعجمي هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً بالعربية ومعنى الآية ولو نزلناه على رجل غير فصيح اللسان بالعربية، وقال البيضاوي هو جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة يعني لو كان جمع أعجم لما جاز جمعه للسلامة لأن مؤنثه عجماء فإن أفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامة ونظيره شعر من جمع أشعري على التخفيف أصله أشعريون والمعنى ولو نزّلنا القرآن عربيّاً كما هو على بعض الأعجمين زيادة في الإعجاز أو بلغة العجم ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ أي الأعجمي ﴿عَلَيْهِم﴾ أي على أهل مكة ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم واستنكافهم من اتباع الأعجمي أو لعدم فهمهم يقولون ما نفقه ما تقول نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل النصب

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.

بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ الضمير عائد إلى الشرك التكذيب المدلول عليه بقوله ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ كذا قال ابن عباس والحسن ومجاهد يعني أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين فتدل الآية على أنه بخلق الله تعالى، وقيل الضمير للقرآن أي أدخلنا القرآن في قلوبهم فعرفوا معانيه وإعجازه ومع ذلك لم يؤمنوا به عناداً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن بيان لقوله ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾[١] أو حال أو دليل على ما سبق وفي الآية إخبار بحال من علم الله موته على الشرك ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الملجيء إلى الإيمان وذلك بعد الموت في القبور ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿فَيَقُولُواْ﴾ حينئذ تحسراً وتأسفاً ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ الإستفهام للتمني يتمنون الرجعة والنظرة، قال مقاتل لما أوعدهم الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ بالعذاب قالوا إلى متى ما توعدنا به ومتى هذا العذاب قال الله تعالى ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أبو عيدنا لا يستيقنون فبعذابنا يستعجلون وحالهم عند نزول العذاب طلب النظرة وقيل هذا كناية عن قولهم ﴿أنزل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[٢] وقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[٣] ولمّا كان استعجالهم العذاب بناء على اعتقادهم أنه غير كائن وأنهم يتمتعون أعماراً طوالاً في سلامة وأمن، أنكر الله تعالى على استعجالهم ثم قال على تقدير التسليم ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الإستفهام للتقرير والفاء للعطف على المحذوف تقديره أتفكرت فرأيتَ يعني فعلمت ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ كثيرة ولو مدة حياة الدنيا ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ والمعنى أنهم إذا رأوا العذاب الأليم حين يأتيهم بغتة يقولون هل نحن منظرون ولكنهم لا ينظرون أي لا يمهلون ولو سلمنا إهمالهم فلو تفكرت علمت أنا إن متعناهم سنين كثيرة ثم جاءهم ما كانوا يوعدون به من العذاب ما أغنى عنهم تمتيعهم وإهمالهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه بل صار التمتع نسياً منسيّاً كأنهم لم يكونوا في نعيم قط ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا﴾ قرية ﴿لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي رسل أنذروا أهلها فلم ير تدعوا ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدرية لأنها في معنى الإنذار أو الرفع لأنّها صفة منذرون بإضمار ذووا أو يجعلهم ذكرى مبالغةً لإمعانهم في التذكرة أو خبر مبتدأ محذوف والجملة إعتراضية ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ عطف على نزل به الروح الأمين ويعني ليس كما

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) الآية هي: **﴿فأمطر علينا حجارة﴾** سورة الأنفال: الآية: ٣٢.

(٣) سورة الأعرفا، الآية: ٧٠.

زعمت المشركون أن الشياطين يلقون القرآن على محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أي للشياطين أن يلقوا القرآن على محمد فإن القرآن هداية والشياطين إنما هم دعاة إلى الضلال ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يلقوا الأخبار بالمغيبات المذكورة في القرآن ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة من السماء ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ أي محجوبون مرجومون بالشهب ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ تهيج لازدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين، قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق عليّ ولو أتخذت إلهاً غيري لعذبتك ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإنهم أولى باهتمام شأنهم أو لنفي التهمة فإن الإنسان يأهل قرابته أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن النجاة في اتباعه، قال البغوي روى محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ دعاني رسول الله ﷺ فقال يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقتُ بذلك ذرعاً وعرفتُ أني متى أنذرهم وأناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمتُّ عليها حتى جاءني جبرئيل فقال يا محمد إن لم تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا صاعاً من طعام وأجعل عليه رجل شاة واملأ لناعساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلتُ ما أمرني به ثم دعوتُهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فلمّا اجتمعوا له دعا بالطعام الذي صنعت فجئتُ به فلَمَّا وضعته تناول رسول الله ﷺ حذية، من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال خذوا بسم الله فأكل القوم حتى ما بهم حاجة وايم الله وإن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العش فشربوا حتى رووا جميعاً وايم الله الرجل أو أحد يشرب مثله، فلما رأى رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فقال لغد يا علي إن هذا الرجل قد سبق إلى ما علمت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فعدلنا بمثل ما صنعت ثم جمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا، ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيُّكم يؤازرني على أمري ويكون أخي ووصيي وخليفتي فأحجم القوم عنها جميعاً فقلت وأنا أحدثهم سنّاً انا يا نبي الله أنا وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون أمرنا أن نسمع لعلي ونطيع وفي الصحيحين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ صعد النبيّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً فينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي يريد أن يغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما اغنى عنه ماله وما كسب﴾ «إلى آخر السورة»[1] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» وذكر البغوي حديث ابن عباس بلفظ لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد على الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا إليه فقال أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً يخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذباً، قال إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب تبّاً لك ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام فنزلت تبت يدا ابي لهب قد تب هكذا قرأ الأعمش يومئذ، وروى البغوي عن عبد الله بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا وإنه قال كل مال نحلته عبادي فهو لهم حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وإن الله أمرني أن أخوف قريشاً فقلت يا رب إذاً يتلفوا رأسي حتى يدعوه خبزة، فقال بعثتُ لأبتليك وأبتلي بك قد أنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه في المنام واليقظة فاغزهم تغزك وأنفق تنفق عليك وأبعث جيشاً فممددك بخمسة أمثاله وقاتل بمن أطاعك من عصاك، ثم قال: أهل الجنة ثلاثة إمام مقسط ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ورجل غنى عفيف متعفف متصدق، وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (٤٧٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (٢٠٤).

زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون بذلك أهلاً ولا مالاً ورجل إن أصبح أصبح يخادمك عن أهلك ومالك ورجل لا يخفى له طمع وإن دق إلا ذهب به والشنظير وذكر البخل والكذب» والله أعلم، أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ بدأ بأهل بيته فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى: ﴿واخفض جناحك﴾ أي لين جانبك ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان لمن اتبعك لأن من اتبع أعم ممن اتبع الدين أو غيره أو للتبعيض على أن المراد بمن اتبعك كمال الاتباع وبالمؤمنين أعم منهم ومن عصاة المؤمنين كما يدل عليه قوله ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في بعض الأمور ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾ يعني بريء مما تعملون من المعاصي والسيئات وليس فيه براءة من أنفسهم ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ قرأ أهل المدينة والشام فَتَوَكَّلَ بالفاء وكذا في مصاحفهم على أنه بدل من قوله: ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾ والباقون بالواو عطفاً على قوله ﴿وأخفض جناحك﴾ والتوكل تفويض أمره إلى غيره وذالا يجوز عقلاً وشرعاً إلا على من كان قادراً على نفعه ودفع الضرر عنه سميعاً بأقواله بصيراً بأحواله عليماً بعاقبة أمره رقيباً عليه ولذلك قال ﴿عَلَى الْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي يرحم عليك وعلى أتباعك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ داعياً للناس إلى التوحيد ومجاهداً في سبيل الله والمراد حين تقوم إلى الصلاة كذا قال المفسرون ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ عطف على الضمير المنصوب في يراك يعني ويرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك أومن محل تقوم يعني يراك حين تقوم وحين تقلبك، وقال عطية وعكرمة عن ابن عباس في الساجدين أي في المصلين، وقال مقاتل ومع المصلّين في الجماعة يعني يراك حين تصلّي وحدك وحين تصلّي مع المصلّين في الجماعة، وقال مجاهد يرى تقلب بصرك في المصلّين فإنه كان يبصر من خلفه كما كان يبصر من أمامه، روى البغوي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي هاهنا فوالله لا يخفى عليّ خضوعكم إني لأراكم من وراء ظهري»(١) وقال الحسن تقلبك في الساجدين أي تصرفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين، وقال سعيد بن جبير يعني وتصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك والساجدون هم الأنبياء، وقيل معناه تزودك في تصفح أحوال المتهجدين، قال البيضاوي روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع لها من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الخشوع في الصلاة (٧٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها (٤٢٤).

دندنتهم بذكر الله والتلاوة وإنما ذكر تقلبه في الساجدين من أحواله لكونه من أسباب الرحمة المقتضية للتوكل على من يتصف به.

وقال عطاء عن ابن عباس أراد تقلبك في أصلاب الآباء من نبي إلى نبي، لكن في هذا التأويل ليس كمال المدح لاشتراك قريش بل جميع الناس فيه بل الأولى أن يقال المراد منه تقلبك من أصلاب الطاهرين الساجدين لله إلى أرحام الطاهرات الساجدات ومن أرحام الساجدات إلى أصلاب الطاهرين أي الموحدين والموحدات حتى يدل على أن أباء النبيّ ﷺ كلهم كانوا مؤمنين كذا قال السيوطي وقال الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي شعر:

وينقل أحمدُ نوراً عظيماً تلألأ في وجوه الساجدين
تقلب فيهم قرناً فقرناً إلى أن جاء خير المرسلين

وممّا يؤيد هذا التأويل ما رواه البخاري في الصحيح عنه ﷺ قال: «بعثتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثتُ من القرن الذي كنتُ فيه»(١) وروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع قوله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»(٢) وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله من خيرهما فأخرجتُ من بين أبويّ ولم يصبني شيء من عهد الجاهلية خرجت من نكاح لم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً» وقد صنف السيوطي رحمه الله في إثبات إيمان آباء النبيّ ﷺ إجمالاً وتفصيلاً كتاباً وذكر فيه ما له وما عليه ولخصت منه رسالة فليرجع إليها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بأقواله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعاله ونيّاته وعواقب أموره فهو الحقيق بالتوكل.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦).

وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ متصل بقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ جواباً عن قولهم تنزل عليه شيطان ثم بين فقال ﴿تُنَزَّلُ﴾ في الموضعين مضارع من التفعل بإسقاط إحدى التائين ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الإفك أي الكذب ﴿أثيم﴾ كثير الإثم غير مطيع لله تعالى، ففيه بيان أن محمداً لا يصح أن يكون من يتنزل عليه شيطان بوجهين أحدهما أنه إنما يتنزل على شرير كذاب كثير الإثم لاشتراط التناسب بين المفيض والمستفيض ومحمد ﷺ ليس كذلك، وثانيهما قوله ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ إلى الشياطين فيتلقون منهم أشياء فيضمون إليها أشياء على حسب تخيلاتهم لا يطابق أكثرها مواقع وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ ومحمد ﷺ ليس كذلك فإنه يخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وكلما يخبر بشيء يطابق الواقع لا محالة، والجملة صفة لأثيم أو استئناف عن عائشة قالت «سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: إنهم ليسوا بشيء، قالوا يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة»[(١)] متفق عليه، وعنها قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فيذكر الأمر الذي قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فيسمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(٢)] رواه البخاري، وعن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فسمعها مسترقوا السمع ومسترقاً لسمع هكذا بعضه فوق بعض (ووصفه سفيان بكفه فحرفها وبدر بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما يلقيها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذا فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا كذا ويوم كذا كذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[(٣)] رواه البخاري، وعن ابن عباس عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: الكهانة (٥٧٦٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾﴾ (٤٧٠١).

رجل من الأنصار «أنهم بيناهم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله ﷺ ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمى مثل هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ فإنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم عما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذه السماء الدنيا فيخطف الجنُّ السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون»(١) رواه مسلم والله أعلم.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال تهاجا رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ كذا ذكر البغوي عن الضحاك قال وهي رواية عطية عن ابن عباس وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه، وقال أكثر المفسرين أراد به شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، وذكر مقاتل أسماءهم فقال عبد الله بن زبير السهمي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي وشافع بن عبد مناف وأبو غرة عبد الله بن عمر الجمحي وأمية بن أبي الصَّلت الثقفي فتكلموا بالكذب والباطل.

وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد ويقولون أشعاراً ويجمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون نبي ﷺ وأصحابه فيروون عنهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ هم الرواة الذين يروون هجاء رسول الله ﷺ المسلمين وقال قتادة ومجاهد الغاوون هم الشياطين وهذ الجملة مستأنفة لإبطال كون النبيّ ﷺ شاعراً ويقرره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشعر ﴿فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام كالمدح والذم والافتخار وبيان الحب والبغض وغيره ذلك. والوادي نوع من أنواع الكلام يقال أنا في وادٍ آخر ﴿يَهِيمُونَ﴾ جملة ألم تر تعليل لما سبق والهائم الذاهب على وجهه بحيث لا يقف على حد يعني يبالغون في الكلام كل المبالغة لا يبالون الكذب وأكثر مقدمتهم خيالية لا حقيقة لها، قال قتادة يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل، وقيل في كل واد يهيمون أي على كل حرف من حروف الهجاء يصوغون القوافي.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي يكذبون كثيراً في أشعارهم ولمّا كان إعجاز القرآن من جهة النظم والمعنى وكانوا يقدحون في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين وفي اللفظ بأنه من جنس الشعر رد الله سبحانه قولهم ببيان المباينة والمضادة بين حال رسول الله ﷺ وحال الكهنة والشعراء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ «لأن يمتلىء جوف قيحاً حتى يفسده خيراً له من أن يمتلىء شعراً»[1] رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وروي عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: «خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً» عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون[2] قالها ثلاثاً» رواه مسلم يعني الغالون في الكلام، وعن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقاً الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال في النهاية الثرثارون الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق والمتشدقون المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، قلت: وهذا صفة الشعراء. وروى الترمذي عن جابر نحوه وفي رواية قالوا يا رسول الله ﷺ علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[3] وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلة ما أسري بي بقوم يقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبرئيل من هؤلاء؟ قال خطباء أمتك الّذي يقولون ما لا يفعلون»[4] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب والله أعلم، أخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال لما نزلت والشعراء يُتبعهم الغاوون إلى قوله ما لا يفعلون قال عبد الله بن رواحة قد علم الله إني منهم فأنزل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر السورة، وأخرج هو وابن جرير والحاكم عن أبي الحسن البراد قال لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون، الآية جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فقالوا يا رسول الله ﷺ لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء هلكنا فأنزل الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية فدعاهم رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن (٦١٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الشعر (٢٢٥٧).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون (٢٦٧٠).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨).
(٤) أخرجه أحمد في المسند المجلد الثالث/ مسند أنس بن مالك رضي الله عنه.

وتلا عليهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن الإكثار في الذكر ويكون أكثر أشعارهم في الذكر والتوحيد والثناء على الله والحث على طاعته، قال أبو يزيد الذكر الكثير ليس بالعدد لكنه الحضور ﴿وأنتصروا من بعد ما ظلموا﴾ ولو كان في كلامهم هجو لأحد أرادوا به الانتصار مما هجاهم ومكافحة هجاء المسلمين، روى البغوي في شرح السنة والمعالم عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل قال النبيّ ﷺ «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والّذي نفسي بيده لكأنَّما ترمونهم به نضح النبل»، وفي الإستيعاب لابن عبد البر أنه قال يا رسول الله ماذا ترى في الشعر؟ قال «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه».

وروى البغوي عن أنس أن النبيّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله يقول الشعر فقال النبيّ ﷺ: «خل عنه يا عمر فهي أسرع فيهم من نضح النبل» وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال قال النبيّ ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت «اهج المشركين فإن جبرئيل معك» وكان رسول الله ﷺ يقول: لحسان: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس»[(١)] وروى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل» وروي عنها أيضاً قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» وقالت كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح ويقول رسول الله ﷺ إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ»[(٢)] وروى البغوي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «أهجوا قريشاً فإنها أشد عليهم من رشق النبل» فأرسل إلى ابن رواحة فقال اهجهم وهاجهم فلم يرض فأرسل إلى كعب ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلمَّا دخل عليه حسان قال قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثمّ أدلع لسانه يحركه، فقال والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم فقال رسول الله ﷺ لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك فيهم نسبي فأتاه حسان، ثم رجع فقال يا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: الشعر في المسجد (٤٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٨٥).

(٢) ذكره البخاري تعليقاً، وأما روايته متصلاً أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر (٥٠٠٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: والآداب، باب: ما جاء في إنشاد الشعر (٢٨٤٦).

رسول الله قد لخص لي نسبك فالّذي بعثك بالحق لأسلنك كما يسلى الشعر من العجين قال حسان شعر:

هجوت محمّداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمّداً براً حنيفاً	رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعِرضي	لِعرض محمد منكم وفاء
أمن يهجو رسول الله منكم	ويمدحه وينصره سواء
وجبريلُ رسولُ الله فينا	وروح القدس ليس له كفاء

وعن ابن سيرين مرسلاً قال رسول الله ﷺ لكعب بن مالك هيه فأنشده فقال لهو أشد عليهم من وقع النبل.

فائدة:

ثبت من هذه الأحاديث أن الشعر لا بأس به ما اجتنب الكذب وأشباهه من المحرمات، روى الدارقطني عن عائشة قالت: ذكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال رسول الله ﷺ: «هو كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح» ورواه الشافعي عن عروة مرسلاً، وذكر البغوي أنه قالت عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[(١)] متفق عليه، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال هل معك من شعر أمية بن الصلت شيء؟ قال نعم قال هيه فأنشدته بيتاً فقال هيه ثم أنشدته بيتاً فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت»[(٢)] رواه مسلم، وعن جندب أن النبيّ ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت أصبعه فقال: «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت»[(٣)] متفق عليه، وعن الشعبي قال كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة، وروي عن ابن عباس أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٦١٤٧)، وأخرجه مسلم في كتاب الشعر (٢٢٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الشعر (٢٢٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٦).

فروى أنه دعا عمرو بن ربيعة فاستنشده القصيدة أولها شعر:

أمن آل نعمى أنت غاد ومبكر غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشد ابن ربيعة القصيدة إلى آخرها وهي قريب من سبعين بيتاً ثم أن ابن عباس أعاد القصيدة جميعاً وكان يحفظها بمرة واحدة.

فائدة:

الشعر طاعة إن كان فيه ذكر الله أو علماً من علوم الدين أو نصحاً ووعظاً للمسلمين عن أبي بن كعب قال قال: رسول الله ﷺ «إن من الشعر حكمة»[١] رواه البخاري، وعن الصخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن جده قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن من البيان سحراً وإن من العلم جهلاً وإن من الشعر حكماً وإن من القول عيالاً»[٢] رواه أبو داود، وعن ابن عباس «إنَّ مِنَ البيان سحراً وإن من الشعر حكما» رواه أبو داود وأحمد وقد مرَّ فيما سبق «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه» وروى أبو داود والنسائي والدارمي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[٣] وبعدما ذكر الله سبحانه شعراء المشركين والمسلمين أوعد شعراء المشركين» فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ مصدر أو ظرف منصوب بما بعده قدمه لاقتضاء الاستفهام صدر الكلام والجملة الاستفهامية قائمة المفعولين ليعلم والإستفهام للتهديد.

﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يعني أي رجوع أي مرجع يرجعون بعد الموت، قال ابن عباس إلى جهنم والسعير قال البيضاوي تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم وفي أي منقلب من الإيهام والتهويل والمعنى أن الظالمين يطمعون أن ينقلبوا من عذاب وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الإنقلاب، أخرج ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت كتب أبي في وصية سطرين بسم الله الرحمن الرحيم هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٦١٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر (٥٠٠٤).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو (٢٥٠٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: وجوب الجهاد (٣٠٨٧).

ما أوصى أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ويتقي الفاجر ويصدق الكاذب إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وإن يجر ويبدّل فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله أصحابه أجمعين قد وقع الفراغ من تفسير سورة الشعراء من التفسير المظهري يوم الخميس رابع رجب من السنة الخامسة بعد الألف ومائتين من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ويتلوه سورة النمل إن شاء الله تعالى.

سورة النمل

آياتها ثلاث وتسعون وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

﴿طسٓ تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو تنبيه للناظرين فيه وتأخيره هاهنا باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر باعتبار سبقه على القرآن في الكتابة، أو المراد به القرآن المبين للأحكام من الحلال والحرام وغير ذلك ومبين لصحته بإعجازه وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى وتنكيره للتعظيم، نكر الكتاب هاهنا وعرفه في الحجر ونكر القرآن هناك وعرف هاهنا لأن القرآن والكتاب اسمان علمان لما نزل على محمد ﷺ ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف أريد به العلم وحيث جاء بالتنكير أريد به الوصف ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ منصوبان حالان من القرآن والعامل فيهما معنى الإشارة أو مجرور بدلان منه أو مرفوعان خبران آخران لتلك أو خبران لمحذوف أي هي هدىً وبشرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بهدىً وبشرىٰ على سبيل التنازع أو ببشرى فقط يعني هُدًى لجميع الخلق فمن لم يهتد فبسوء إختياره وبشرىٰ للمؤمنين خاصة ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يحافظون على فرائضها وسننها وآدابها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف وتغير النظم بتقديم المسند إليه على الفعل للدلالة على قوة يقينهم وثباته وقصد الحصر يعني ما يوقنون بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعين بين الإيمان والأعمال الصالحة فإن الجد في الأعمال دليل على إيقانهم، وجاز

أن يكون خارجاً عن الصلة استئنافاً كما يدل عليه تغير النظم يعني الذين كذلك هم الموقنون لا غير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة بتسليط النفس وجعلها مشتهاة لها ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ لا يدركون عواقب أمرها جملة زيّنا خبر لإن وقوله فهم يعمهون معطوف عليها أو هذا خبر لإن والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط وزينا حال من فاعل لا يؤمنون بتقدير قد وجملة إن الذين لا يؤمنون معترضة لبيان حال من يخالف المذكورين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ في الدنيا إخبار بما يلحقهم يوم بدر من قتل وأسرٍ وذلٍ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ من غيرهم حيث أكرمهم الله من بين الناس حيث بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يريد أن يطهرهم ويزكيهم ويوصلهم إلى أكرم الكرامات في الدنيا والآخرة فاختاروا على هذا في الدنيا القتل والأسر وفي الآخرة النار المؤبدة المؤصدة، جملة أولئك إلى آخرها وما عطف عليها استئناف لبيان عاقبة أمرهم ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عطف على آيات القرآن وتنكير الحكيم والعليم للتعظيم يعني من عند أيّ حكيم وأيّ عليم لا يذكرك كنه علمه ولا حكمته أحد والجمع بين الوصفين مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علوماً منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار بالمغيبات وهذا تمهيد لما يذكر فيه من القصص منها ما قال ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ في مسيره من مدين إلى مصر الظرف متعلق باذكر وجاز أن يكون متعلقاً بعليم ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿آنست﴾ أي أبصرت ﴿ناراً سآتيكم﴾ أي آمكثوا مكانكم سآتيكم ذكر هاهنا سآتيكم على التيقن وفي القصص ﴿لعليّ آتيكم﴾ على الترجي لأن الراجي على تقدير حصول رجائه يَعِدُ بالإتيان قطعاً إشعاراً على عزمه وجزمه بما يعدُ به، وفيه دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج مما يؤدي معناه ﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق لأنه قد ضل الطريق والسين للدلالة على بُعد المسافة الوعد بالإتيان ولن أبطأ ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ﴾ قرأ الكوفيون بالتنوين على أن ﴿قَبَسٍ﴾ بدل منه أوصف له فإن الشهاب شعلة من نار ساطعة والقبس شعلة يقتبس من معظم النار كذا في القاموس، والباقون بلا تنوين بإضافة الشهاب إلى القبس والإضافة بيانية لجواز إطلاق القبس على الشهاب، وقال البغوي الشهاب والقبس متقاربان في المعنى فإن القبس هو العود الذي أحد طرفيه نار وليس في طرفه الآخر نار ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ افتعال من الصلي وهو الإيقاد بالنار أي راجياً أن تستدفئوا بها من البرد وكان

في شدة الشتاء ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ يعني لما قرب موسى من النار التي رآها يقال بلغ فلان المنزل إذا قرب منه وإن لم يبلغه بعد ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ﴾ أن مفسرة لما في النداء معنى القول أو التقدير بأن بورك على أنها مصدرية أو مخففة من الثقيلة والتخفيف وإن إقتضى التعويض بلا أوقد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن معناه قدس من في النار وهو الله سبحانه على معنى أنه تعالى نادى موسى وأسمعه، قيل كان ذلك نوره عزّ وجلّ حِسبه موسى ناراً فلذلك ذكر موسى بلفظ النار، روى مسلم عن أبي موسى «قال قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١] وقال سعيد بن جبير كانت النار بعينها وهي إحدى حجب الله تعالى كما ورد في بعض الروايات حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وعلى هذا التأويل هذه الآية من المتشابهات كقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظل من الغمام﴾[٢] ولما كان في هذا الكلام إيهام التحيز والتشبيه نزه الله سبحانه نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال بوركت النار وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال سمعت أبيّاً يقول أن بوركت النار ومن حولها، وكلمة من على هذا زائدة وبورك النار وبورك في النار معناهما واحد فإن العرب يقول بارك الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد والمعنى بورك في النار وفيمن حولها وهم الملائكة وموسى عليه السلام ويسمى النار مباركة كما يسمى البقعة مباركة قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾[٣] وقيل معناه بورك من في طلب النار أو من في مكان النار بحذف المضاف وهو موسى عليه السلام ومن حولها وهم الملائكة الذين حول النار حاضرين هناك فهذه تحية من الله لموسى بالبركة كما حيًّا إبرهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا على إبراهيم فقالوا ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[٤] وقيل من في النار هم الملائكة وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم رجل بالتسبيح والتحميد

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» (١٧٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٠.

(٤) سورة هود، الآية: ٧٣.

والتقديس ومن حولها موسى لأنه كان بالقرب منها وقيل من حولها عام شامل لكل من في ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم ينتشر بركته في أقطار الشام وعلى هذه التأويلات قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لدفع توهم التشبيه الناشىء من سماع كلامه وللتعجيب من عظم ذلك الأمر يا موسى ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الضمير الشأن اسم إن وأنا الله خبرها أو الضمير للمنادى اسمها وأنا خبرها والله عطف بيان له والعزيز الحكيم صفتان له ممهدتان لما أراد أن يظهره يعني أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كتقليب العصا حيّة الفاعل لكل ما يفعله بحكمة وتدبير ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على بورك داخل في حيز أن المفسرة يدل عليه قوله تعالى في غير هذه السورة (وأن الق عصاك) بعد قوله ﴿أن يا موسى إني أنا الله﴾[1] بتكرير أن والتقدير فنودي هذا المقول وهذا القول فهو من قبيل عطف للمفرد على المفرد وليس من عطف الإنشاء على الخبر ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ أي رأى موسى عصاه ﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك بالإضطراب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي حية خفيفة في سرعة سيره وكثرة اضطرابه ﴿وَلَّىٰ﴾ أي هرب موسى من الخوف ﴿مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع من عقب المقاتل إذا كرَّ بعد الفرار ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ جملة النداء ومابعده في محل النصب على تقدير القول يعني قلنا يا موسى لا تخف من هذه الحية ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ يعني لأجل قربهم بي وإستقرارهم بحضرتي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الجملة في مقام التعليل لعدم الخوف يعني الذين يبلغون رسالاتي فإنهم يخشونني وحدي ولا يخشون أحداً غيري، فلا منافاة بين هذه الآية وبين قوله عليه السلام «أنا أخشاكم بالله» أو المعنى لا يخافون مطلقاً عند نزول الوحي لفرط الإستغراق أو المعنى أنهم لا يكون لهم سوء عاقبة فيخافون ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ قيل هذا استثناء متصل وفيه إشارة إلى موسى حيث قتل القبطي والمعنى لا يخيف الله أنبياءه من أحد غيره إلا بذنب أصابه أحدهم والمراد بالظلم الذنب الصغيرة أو ترك الأفضل وعلى هذا قوله ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ يعني توبة بعد ذنب عطف على ظلم داخل في الصلة وإنما قيد بهذا إيذاناً بأنه لا يجوز صدور ذنب من الأنبياء وإن كانت صغيرة أو قبل النبوة إلا مستعقباً للتوبة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معطوف على بدل تقديره فإني أغفر له وأرحمه وقيل قوله ثم بدل إلى آخره كلام مبتدأ معطوف على محذوف بيان لحال من ظلم من الناس كافة تقديره فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وقيل

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣١.

الإستثناء منقطع لأن المرسلين لا يجوز منهم الظلم وعلى انقطاعه تقديره لكن من ظلم من الناس وهم غير المرسلين فإنهم يخافون غير الله تعالى، وقيل هو استدراك لما يختلج في الصدور من نفي الخوف عن كلهم مع أن فيهم مَن فرطَتْ منه صغيرة فالتقدير لكن من صدر منه صغيرة منهم فإنه وإن فعلها فقد أتبعها ما يبطلها واستحق به من الله مغفرة ورحمة فهو أيضاً لا يخاف غير الله، لكن هذين التأويلين يقتضيان أن موسى لم يخف من الحية وذلك غير واقع لقوله: (فلما رآها ولى مدبراً ولم يعقب) وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾[١] إلا أن يراد بنفي الخوف من الأنبياء ففي مطلق الخوف منهم لانتقاء سوء العاقبة نظيره قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢] لكن سوق الكلام يأبى عنه الموجود المنهي عنه إنما هو الخوف من الحية وقال بعض العلماء إلا هاهنا بمعنى ولا يعني لا يخاف لدي المرسلون ولا المذنبون التائبون أي هم صلحاء المؤمنين فإن غير المعصوم لا يخلو عن ذنب لكن من إستدرك ذنبه بالتوبة صار كمن لا ذنب له وهذا التأويل أيضاً يناسب نفي مطلق الخوف لا خوف غير الله فقط كالتأويلين السابقين ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ عطف على ألق عصاك ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ أي جيب قميصك وهو طرفه كذا في القاموس، وقيل الجيب هو القميص لأنه يجاب أي يقطع، قال البغوي قال أهل التفسير كان عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزر ﴿تَخْرُجْ﴾ أي يدك مجزوم في جواب الأمر بتقدير أن تدخل يدك تخرج ﴿بَيْضَآءَ﴾ نيرة تغلب نور الشمس حال من الضمير المستتر في تخرج ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي كائناً من غير برص صفة لبيضاء أو حال مرادف له أو حال من الضمير في بيضاء ﴿في تسع إيات﴾ يعني هاتان آيتان لك في تسع آيات أي في جملتها أو معها على التسع هي فلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مضارعهم ومن عد العصا واليد مع التسع عدّ الأخيرين واحداً ولم يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون أو التقدير إذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به قوله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وعلى الأولين تقدير هاهنا مبعوثاً أو مرسلاً على أنه حال من فاعل ألق فأدخل على سبيل التنازع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني جاءهم موسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بينة واضحةً اسم فاعل

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٢.

بمعنى اسم المفعول إشعاراً بأنها لفرط وضوحها للأبصار صارت بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات بصر يبصر بها قالوا يعني فرعون وقومه ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح سحريته وجملة ﴿لما جاءتهم﴾ معطوفة على جملة محذوفة معطوفة على نودي تقديره نودي أن ألق عصاك وأدخل يدك في جيبك اذهب في تسع آيات إلى فرعون وقومه أو مبعوثاً إليهم إذهب إليهم فألقى موسى عصاه وأدخل يده في جيبه ثم ذهب إلى فرعون قومه عطف فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي أنكروا بآياتنا أنها من عند الله عطف على قالوا ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي وقد استيقنتها لأن الواو الحال والإستيقان أبلغ من الإيقان ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ منصوبان على العلة أو حالان من فاعل جحدوا يعني لأجل الظلم والتكبر أو ظالمين أنفسهم باستيجارهم النار المؤبدة متكبرين عن الإيمان بما جاء به موسى ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها المخاطب نظر استبصار ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كيف خبر لكان قدم عليه لاقتضائه الصدارة والجملة مفعول لا نظر يعني انظر كيفية عاقبتهم حيث أغرقوا في الدنيا فأدخلوا ناراً بعد الموت.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ
إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
(١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ
ٱلصَّـٰلِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠)
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ بذات الله سبحانه على حسب الطاقة البشرية وبصفاته

وأحكامه وبأحوال المبدأ والمعاد ومنطق الطير والدواب وتسبيح الجبال وإلان الحديد ﴿وَقَالَا﴾ شكراً للنعمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة والكتاب وغير ذلك ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالا بعض ما أتيا به في مقابلة النعمة فهو معطوف على محذوف تقديره فعلا على حسب ما علما وعرفا حق النعمة وقالا هذا القول، ولولا تقدير المحذوف لكان المناسب الفاء موضع الواو كما في قولك أعطيته فشكر وفي الآية دليل على شرف العلم وكونه موجباً للفضل وتقدم العلماء على من سواهم قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[١] رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه من حديث كثيرين قيس وسماه الترمذي قيس بن كثير، وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» الحديث رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي، وفيها تحريض على الشكر على نعمة العلم وعلى أن يتواضع ويعتقد بأنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ نبوته وملكه وعلمه كذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، واحتجت الروافض بهذه الآية على أن الأنبياء يورثون كغيرهم وهي حجة عليهم لا لهم لدلالتها على أنه ورث سليمان دون سائر الأولاد وقد كان لداود تسعة عشر إبناً. والإرث عبارة عن أن ينقل شيء إلى أحد بعدما كان لغيره من غير عقد جرى بينهم ولا يجري مجرى العقد سواء كان بينهما قرابة أو لا قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٣] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾[٤] ومعنى قوله ﷺ «لا نورث» أنه لا يملك أحد من الناس مال نبي بعد موته بل يكون ماله موقوفاً محبوساً على ملك الله تعالى، قال البغوي أعطى سليمان ما أعطي داود وزيد له تسخير الريح والشياطين، وقال وقال مقاتل كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبداً من سليمان وكان سليمان

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧.

شاكراً لنعم الله، قلتُ وكذا داود ﴿وَقَالَ﴾ سليمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ فيه شكر لنعمة الله عليه ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة والنطق، والمنطقُ عبارة عما يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً، في القاموس نطق ينطق نطقاً ومنطقاً ونطوقاً تكلم بصوت وحروف يعرف بها المعاني ولما كان فهم المعاني للناس منحصراً فيما يتلفظ به الإنسان زعموه من خواص الإنسان، ولمّا كان سليمان عليه السلام يفهم من صوت الطير ما في ضميرها كما كان يفهم من كلام الإنسان سماه منطقاً. قال البغوي روى عن كعب قال صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا قال إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب، وصاحت فاختة فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال إنها تقول ليت هذا الخلق لم يخلق، وصاح طاووس فقال أتدرون ما يقول: قالوا لا، قال إنه يقول كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول من لا يرحم لا يرحم، وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول استغفروا الله يا مذنبون، قال وصاحت طيطوى فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال فإنها تقول كل حي ميت وكل جديد بال، وصاح خطاف فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال إنه يقول قدموا خيراً تجدوه، وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول؟ قالوا لا، قال تقول سبحان ربي الأعلى ملأ سماواته وأرضه، وصاح قمري فقال أتدرون ما يقول؟ قالوا لا، قال فإنه يقول سبحان ربي الأعلى، قال والغراب يدعوا على العشاء والحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقسطاة تقول من سكت سلم والببغاء يقول ويلٌ لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول سبحان ربي وبحمده والضفدعة سبحان المذكور بكل لسان. وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فإنه يقول الرحمن على العرش إستوى، وعن فرقد السبحي قال مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا الله ونبيه أعلم، قال إنه يقول أكلت ونصف تمرة فعلى الدنيا العفا.

وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس إنا سائلون عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا آمناو صدَّقنا، قال سلوا تفقهاً ولا تسألوا تعنتاً، قالوا أخِبرنا ما يقول القنبري في صفيره والديك في صقيعه والضفدع في نقيقه والحمار فن نهيقه والفرس في صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج، قال: نعم أما القنبر فيقول اللّهم العن مبغضي محمد ومبغضي آل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلون والضفدع يقول سبحان المعبود في لجج البحار وأما الحمار فيقول اللّهم العن الغشار وأما الفرس يقول إذا ألتقى الصفان سبوح قدوس رب

الملائكة والروح وأما الزرزور يقول اللّهم إني أسألك قوت يوم بيوم وأما الدراج يقول الرحمن على العرش إستوى فأسلم اليهود وحسن إسلامهم. وروي عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي عليهم السلام قال إذا صاح النسر قال ابن آدم عشت ما شئت آخره الموت وإذا صاح العقاب قال السلامة في البعد من الناس وإذا صاح القنبر قال إلهي العن مبغضي آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ويمد الضالين كما يمد القارىء. قلت ما روي عن كعبٍ شرح أصوات الطيور عن سليمان عليه السلام وكذا ما روي عن مكحول وعن فرقد عنه عليه السلام يحتمل حمله على أن كل واحد منها واقعة ولا يدل على انحصار نطقهم في الكلمات المذكورة وما قص الله تعالى في هذه السورة قصة النمل والهدهد صريح في أنها تتكلم بكل ما سنح لها لكن ماروي من سؤال اليهود وعن ابن عباس رضي الله عنه وجوابه إياهم يدل على انحصار مقالهم فيما ذكر فإن صح هذه الرواية لزم تأويلها والله أعلم ﴿وأوتينا من كل شيء﴾ المراد به كثرة ما أوتي كما يقال فلان يقصد كل أحد ويعلم كل شيء ومثله ﴿وأوتيت من كل شيء﴾[1] والضمير في علمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما السلام أوله ولأتباعه فإن أتباعه يأخذون منه ما علمه الله وأعطاه أوله وحده تعظيماً على عادة المدلول لمراعاة قواعد السياسة. وقال ابن عباس المراد كل شيء من أمر الدنيا والآخرة، وقال مقاتل يعني النبوة والملك وتسخير الشياطين والرياح ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العطاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني ليس هذا باستحقاق منا أو جزاء لأعمالنا بل تفضل من الله تعالى أو المعنى زيادة ظاهرة على من عدانا. وهذا القول وارد على الشكر كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»[2] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[3] قال البغوي روي أن سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبع مائة سنة وستة أشهر جميع أهل الدنيا الجن والإنس والطير والدواب والسباع وأعطى مع ذلك العلم بمنطق كل شيء وفي زمنه صنعت الصنائع العجيبة ﴿وَحُشِرَ﴾ أي جمع ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ في مسيرله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يكفون ويحبسون أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، فيه إشارة إلى أنهم مع كثرتهم لم يكونوا مبعدين، في القاموس وزعته أي كفته ومنه الوزعة جمع وازع وهم

(١) سورة النمل، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ (٣٦٢٤).

(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

المانعون من المحارم والكلب والزاجر والتوزيع القسمة والتفريق كالإيزاع والتوزع وقال مقاتل يوزعون أي يساقون، وقال السدي يوقضون، قال محمد بن كعب كان معسكر سليمان عليه السلام مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للجن وخمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون منها للطير وخمسة وعشرون منها للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاث مائة منكوحة وسبع مائة سرية يأمر الريح العاصف فترفعه ويأمر الرخاء فتسيره فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض إني قد زدتُ في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق إلا جاءت به الريح وأخبرتك ﴿حتى إذا أتوا على واد﴾ وقف الكسائي بالياء فقال وادي والباقون بغير ياء ﴿ٱلنَّمۡلِ﴾ تعدية الإتيان بعلى إما لأن إتيانهم كان من عالٍ وإما لأن المراد قطعه من قولهم أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره، روي عن وهب بن منبه عن كعب كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه وقد أخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد وقدور عظام تسع في قدر منها عشر جزائر وقد اتخذ ميادين الدواب له أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون ويجري الدواب من بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى فسار من إصطخر إلى اليمن، فسلك مدينة رسول الله ﷺ فقال هذه دار هجرة نبي آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ورأى حول البيت أصناماً تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله إلى البيت ما يبكيك؟ فقال يا رب أبكاني إن هذا نبيٌّ من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا بي ولم يصلّوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه أن لا تبك فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً أبعث منك نبياً في آخر الرمان أحب أنبيائي وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني وأفرض على عبادي فريضةً يدفون إليك دفيف النسور إلى وكرها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبده الشياطين ثم مضى حتى مرّ بواد السدير واد من الطائف فأتى على واد النمل هكذا قال كعب إنه واد بالطائف، وقال مقاتل وقتادة هو أرض بالشام، وقيل هو واد كان يسكنه الجن وأولئك النمل مراكبهم، قال فرق الحميري كان نمل ذلك الوادي أمثال الذباب، وقيل كالبخاتي والمشهور أنه النمل الصغير ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ قال الشعبي كانت تلك النملة ذات جناحين، وقيل كانت نملة عرجاء، وقال الضحاك كان اسمها طاحية، وقال مقاتل كان اسمها حذمى ﴿ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ لم يقل أدخلن لأن الإنسان إذا تكلم وهو يرى غيره من الحيوانات غير عاقلة فيجعل لها ضمائر الجمادات كما يجعل للنساء ضمائرها إلحاقاً إياهن بغير ذوي العقول لضعف عقولهن وأما الحيوانات إذا تكلم بعضها

بعضاً ترى أنفسها من ذوي العقول فتخاطب العقلاء فحكى الله سبحانه قول النملة كما قالت ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهى لهم عن الحطم والمراد نهيهن عن التوقف والبروز كيلا يؤدي إلى حطمهم إياهن كقولهم لا أرينك هاهنا أي لا تقف هاهنا فهو استئناف أو بدل عن الأمر لا جواب له فإن النون لا تدخله في السعة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يحطمونكم ولو شعروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمة سليمان وأصحابه من الإيذاء عمداً فويل للروافض لم يشعروا شعور النملة حتى نسبوا الظلم إلى أصحاب سيد الأنبياء. فإن قيل كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده على بساط بين السماء والأرض؟ قيل كان بعض جنوده ركباناً ومنهم مشاة على الأرض تطوى لهم وقيل يحتمل أن يكون هذا قبل تسخير الريح لسليمان، وقال بعض أهل العرفان معناه لا يحطمنكم اشتغالكم برؤية جنود سليمان وملكه وما أعطاه الله من زهرة الحياة الدنيا فيشغلكم عن ذكر الله ويهلككم فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال كذا قال مقاتل وذلك لما أنه كلما كان يتكلم خلق إلا حملت الريح فألقته في مسامع سليمان ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان عطف على محذوف تقديره فسمع سليمان مقالها وأدرك معناها ففرح مما سمع وأدرك ما لا يسمع ولا يدرك غيره وبوصفها إياه وجنوده بالعدل أو تعجب من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها فتبسم سروراً أو تعجباً ﴿ضَاحِكًا﴾ حال من فاعل تبسم يعني تبسم مبالغاً في التبسم واصلاً إلى الضحك وجاز أن يكون مصدراً أي تبسم تبسماً شديداً أنه ضحك على طريقة قمت قائماً، قال الزجاج أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقيل كان أوله التبسم وآخره الضحك. عن عائشة قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ قط ضاحكاً مستجمعاً حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم»(١) رواه البخاري، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»(٢) رواه الترمذي ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أي لأجل قول النملة فحبس جنوده حتى دخل النمل مساكنهم ﴿وَقَالَ﴾ شكراً لله وهضماً لنفسه من أداء الشكر واستعانة من الله على شكره ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ قرأ ورش والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها والمعنى ألهمني، قيل هذا أيضاً بمعناه الحقيقي كما أن معناه الحبس والمنع كذا في القاموس، وقال البيضاوي معناه إجعلني أزع شكر نعمتك عندي أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقال بعض المحققين معناه إجعلني بحيث أزع أي أحبس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك (٦٠٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في بشاشة النبي ﷺ (٣٦٥٠).

نفسي عن الكفر وقيل معناه أحبس نفسي عن كل شيء غيرك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ فإن الإنعام على الوالدين وجعل أحب ولداً الخيار الناس نعمة عليه قال الله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾(١) ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ في بقية عمري ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس يريد مع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من الأنبياء.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أي طلبها وبحث عنها والتفقد طلب ما فقد فلم يجد فيها الهدهد وكان سبب تفقده أن سليمان كان إذا نزل منزلاً تظله جنده الطير من الشمس فأصابته من موضع الماء تحت الأرض كما يرى في الزجاجة ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض فتجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء، كذا أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عنه قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن أزرق يا وصاف أنظر ما تقول إن الصبي يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه فقال له ابن عباس ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر، وفي رواية إذا جاء القضاء والقدر ذهب وعمي البصر، فنزل سليمان منزلاً فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا فتفقد الهدهد ليدل على الماء فلم ير الهدهد وظن أنه حاضر ولم يره لساتر أو غير ذلك ﴿فَقَالَ﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿تفقد الطير﴾ وهي معطوفة على محذوف معطوف على ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ تقديره وأمر الطيور بالإظلال فوقع الشمس على سريره فنظر وتفقد الطير ويقال حشر لسليمان جنوده فنزل منزلاً فلم يجد الماء فطلب الهدهد وتفقد الطير فقال ﴿مَا لِيَ﴾ قرأ عاصم وابن كثير والكسائي وهشام بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ الإستفهام للتعجب وجملة لا أرى حال من الضمير للمتكلم والعامل فيه معنى التعجب فلما لم يره بعد التفقد ولاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وسأل عن صحة ما لاح له فقال ﴿أَمْ كَانَ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة يعني بل أكان الهدهد ﴿مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ولما ثبت أنه غائب قال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ليعتبر به أبناء جنسه قيل العذاب الشديد أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض، وقال مقاتل لأطلينّه بالقطران ولأشمسنّه، وقيل لأود عنه القفص وقيل لأفرقنّ بينه وبين إلفه، وقيل لأحبسنه مع ضده، وقيل أو لألزمنه خدمة أقرانه وكان التعذيب جائزاً له عليه السلام ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ قرأ ابن كثير بنونين الأولى مشددة مفتوحة والثانية نون الوقاية والباقون بنون واحدة مشددة مكسورة ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة بينة في غيبته وعذر ظاهر والحلف في الحقيقة على أحد الأمرين بتقدير عدم الثالث لكن لما اقتضى ذلك وقوع أحد الثلاثة ثلّث المحلوف عليه بعطفه عليهما وجاز أن يكون أوفي أو ليأتيني معنى إلاّ أن كما في قولك لألزمنك أو تعطيني حقي يعني إلا أن تعطيني حقي. ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد قرأ عاصم ويعقوب بفتح الكاف والباقون بضمها وهما لغتان ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي مكثاً غير طويل أو زماناً غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً من سليمان على نفسه وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لمّا فرغ من بناء البيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم وأقام هناك ما شاء الله أن يقيم وكان ينحر كل يوم طول مقامه بمكة خمسة الآف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف كبش، وقال لمن حضره من أشراف قومه إن هذا مكان يخرج منه نبيّ عربيٌّ صفته كذا يعطى النصر على جميع من عاداه ويبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء لا تأخذه في الله لومة لائم، قالوا بأيّ دين يدين يا نبي الله؟ قال بدين الحنيفة فطوبى لمن أدركه وآمن به. فقالوا كم بيننا وبين خروجه؟ قال مقدار ألف عام فليبلّغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل، قال فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة وسار صباحاً نحو ألفين ووافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسناً تزهر خضرتها فأحب النزول بها ويصلي ويتغدّى، فلمّا نزل قال الهدهد إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر إلى طول الدنيا وعرضها ففعل ذلك فنظر يميناً وشمالاً فرأى بستاناً لبلقيس فسال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط إليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور وإسم هدهد اليمن عنفير، فقال عنفير اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت وأين تريد؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود، فقال من سليمان؟ قال ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح فمن أين أنت؟ قال من هذه البلاد. قال ومن ملكها؟ قال امرأة يقال لها بلقيس وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه ملكة اليمن كلها وتحت يدها إثني عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل فهل منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها، قال أخاف إن تفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال الهدهد اليماني إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلا وقت العصر، قال فلمّا نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة، وكان نزل على غير الماء فسأل الجن والإنس والشياطين عن الماء فلم

يعلموا فتفقد الطير ففقد الهدهد فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك أنا لا أدري أين هو وما أرسلته فغضب عند ذلك ثم قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ ثم دعا العقاب سيد الطير فقال عليَّ بالهدهد الساعة فرفع العقاب دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ثم التفت يميناً وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده الله الذي قواك وأقدرك عليَّ إلا رحمتني ولم تتعرض لي بسوء قال فولى عنه العقاب، فقال له ويلك ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلمّا انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك أين غبت في يومك هذا لقد توعدك نبي الله وأخبره بما قال فقال الهدهد ما استثنى رسول الله قالوا بلى قال أوليأتيني بسلطان مبين، قال فنجوت إذاً ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه فقال العقاب قد أتيتُك به يا نبي الله فلما رآه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان فلما دنى منه أخذ برأسه فمده إليه فقال له أين كنت لأعذبنك عذاباً شديداً، فقال الهدهد اذكر وقوفك بين يدي الله عزَّ وجلَّ فلَمَّا سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم سأله فقال ما الّذي أبطأك عني ﴿فَقَالَ﴾ الهُدهُد عطف على محذوف تقديره فإني فقال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته واستعماله في غير علم الله سبحانه إما بطريق المجاز أو المبالغة والمعنى علمت مستيقناً ما لم تعلم، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً ما لم يحط به سليمان ليتحاقر إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه وفيه دليل على بطلان قول الروافض أن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أعلم منه ﴿وجئتك من سبإ﴾ اسم بلد باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام قرأ أبو عمرو والبزي من سبأ وبسبأ في سورة سبأ مفتوحة الهمزة بلا تنوين غير منصرف على تأويل البلدة أو المدينة وقرأ قنبل ساكنة الهمزة على نية الوقف والباقون بكسر الهمزة والتنوين منصرفاً لما كان في الأصل إسم رجل. قال البغوي جاء في الحديث أن النبيّ ﷺ سئل عن سبأ فقال: «كان رجلاً له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشام أربعة»[١]

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه ضعف. انظر مجمع الزوائد في كتاب: العلم، باب: في علم النسب (٩٣٦).

يعني ستة منهم أخذوا اليمن وطناً والباقون أخذوا الشام وطناً ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي بخبر متيقن قال سليمان وما ذاك قال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ﴾ أي أصبتُ ﴿ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ صفة لامرأة كان إسمها بلقيس بنت شرحبيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملك عظيم، الشأن قد ولد له أربعون ملكاً وهو في آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفواً لي وأبى أن يتزوج فيهم فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن فولدت له بلقيس ولم يكن له ولد غيرها. وورد في الحديث أن إحدى أبوي بلقيس كان جنيّاً فلمّا مات أبو بلقيس طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون فملكوا عليهم رجلاً وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من اليمن، ثم إن الرجل الّذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويعجز بهن فأراد قومُه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه وأجابها الملك وقال ما منعني أن أبتدأك بالخطبة إلا الإياس منك، فقالت لا أرغب عنك كفو كريم فاجمع رجال قومي فاخطبني إليهم فجمعهم وخطبها إليهم فقالوا لا نراها تفعل ذلك، فقال لهم إنما ابتدأتُ وأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاءوها فذكر لها فقالت نعم أحببتُ الولد فزوجوها فلمّا زفت إليه خرجت في أناس كثير من جيشها فلما رأته سقته الخمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها، فلمّا أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب داره فعلموا أن تلك المناكحة كانت مكراً وخديعةً منها فاجتمعوا إليها وقالوا أنت بهذا الملك أحق من غيرك.

حديث:

روى أحمد والبخاري في الصحيح والترمذي والنسائي عن أبي بكرة رضي الله عنه قال لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس تملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوّا أمرهم امرأة»[1] قوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾ حال بتقدير قدمن فاعل تملكهم ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدة أو المراد به الكثرة كما سبق ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ حال بعد حال أي سرير ضخم كان مضروباً من الذهب مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد عليه سبعة أبيات على كل بيت باب يغلق،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤٤٢٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: آداب القضاة، باب: النهي عن استعمال النساء في الحكم (٥٣٨٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن (٢٢٦٢).

روى ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال سرير من ذهب وصفحتاه موصول بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً، وقال ابن عباس كان عرش بلقيس ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً وقال مقاتل كان طوله ثمانين ذراعاً وارتفاعه ثلاثين ذراعاً ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلق بيسجدون ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة من عبادة الشمس وغيرها جملة وزين مع ما عطف عليه حال من فاعل يسجدون بتقدير قد ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستقيم ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه عطف على يسجدون ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي ألا بالتخفيف على أنه حرف تنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف تقديره ألا يا لهؤلاء اسجدوا، قال أبو عبيدة أمر مستأنف من الله تعالى وجاز كونه أمراً من سليمان لمن حضره وعلى هذا حذفت همزة الوصل في الدرج والألف من حرف النداء لالتقاء الساكنين في اللفظ وفي خط مثبتان واذا وقف على إلا أو على يا وابتدأ بقوله اسجدوا وقرأ الباقون ألا يسجدوا بالتشديد لأجل إدغام نون أن المصدرية في اللام من حرف النفي الداخلة على المضارع وإن مع صلته بتقدير حرف الجر متعلق بزين لهم أو يصدهم، والمعنى ﴿زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم لئلا يسجدوا لله﴾ ويقال أن لا يسجدوا بدل من أعمالهم يعني زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا وجاز أن يكون لا زائدة وأن مع صلتها متعلق بلا يهتدون تقديره فهم لا يهتدون أن يسجدوا ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخبء بمعنى المخبوء وهو ما خفي غيره وإخراجه إظهاره قال أكثر المفسرين خبء السماوات المطر وخبء الأرض النبات، وقيل يريد علم غيب السماوات والأرض واللفظ يعم إشراق الكواكب وإنزال المطر وإنبات النبات وإخراج ما في الشيء من القوة إلى الفعل وإخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته فهو يستحق بالاستحقاق للسجود دون غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في سرائركم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فيجب الحذر من إشراكه غيره في العبادة سرّاً وعلانية، قرأ الكسائي وحفص بالتاء فيهما على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾ بدل من الضمير أو خبر ثان الله، والجملة تعليل لاسجدوا يعني فهو المستحق للسجود لا غير.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟

أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد ﴿سَنَنظُرُ﴾ أي سنستعرف مشتق من النظر بمعنى التأمل ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ غير النظر ولم يقل أم كذبت للمبالغة (حيث جعلها منسلكاً في الكاذبين معدوداً فيهم ويلزمه كونها كاذباً البتة) ورعاية الفواصل. فدلهم الهدهد على الماء فاحتفروا الركايا وروى الناس والدواب، ثم كتب كتاباً من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين قال ابن جريج لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه، وقال قتادة كذلك الانبياء يكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب الكتاب وطبقه بالمسك وختمه بخاتمه قال للهدهد ﴿إذهب بكتابي هذا فألقه﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بإسكان الهاء وأبو جعفر ويعقوب باختلاسها كسراً والباقون بإشباع الكسرة ﴿إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ﴾ أي تنح ﴿عَنْهُمْ﴾ مكان قريب ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وأخذ الهدهد الكتاب وأتى به بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء إلى ثلاثة أيام فوافاه في قصرها وقد غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية قفاها فألقى الكتاب على نحرها كذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال مقاتل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها، وقال ابن منبه وابن زيد كانت كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحيه فأرتفعت الشمس فلم تعلمها فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرما الصحيفة إليها، فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الّذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد فجاءت فقعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل، وقال ابن عباس كان مع بلقيس مائة ألف

قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل الملك دون الملك الأعظم، وقال قتادة ومقاتل كان أهل مشورتها ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة الآف قال فجاءوا فأخذوا مجالسهم ﴿قَالَتِ﴾ لهم بلقيس ﴿ياأيها الملؤا﴾ وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو محمد بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال عطاء والضحاك سمته كريماً لأنه كان مختوماً قال رسول الله ﷺ: «كرامة الكتاب ختمه» رواه الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس، وأخرج ابن مردويه في ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال مختوم، وروي عن ابن جريج: كريم أي حسن وهو اختيار الزجاج، وروي عن ابن عباس كريم أي شريف لشرف صاحبه، قيل سمته كريماً لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به، وقيل سمته كريماً لكونه مصدراً ببسم الله الرحمن الرحيم ثم بينت عمن الكتاب فقالت ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الكتاب أو العنوان ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ثم بينت ما فيها فقالت ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي المكتوب أو المضمون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على﴾ أن مفسرة أو مصدرية وهو لصلته خبر محذوف أي هو أو المقصود أن لا تعلوا أو بدل من كتاب والمعنى لا تتكبروا ولا تمتنعوا من الإجابة فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدلالة على ذات الصانع وصفاته صريحاً والتزاماً والنهي عن الترفع الذي هي أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل وليس فيه الأمر بالإنقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلائل.

﴿قالت ياأيها الملؤا أفتوني في أمري﴾ أي أشيروا إليَّ فيما عرض لي وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، والفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي حاكمة بأمر حكماً قطعياً يقطع اختيار المحكوم عليه ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي حتى تحضروني وتشيروني أو تشهدوا على كونه صواباً، جملة قالت مع ما في حيزها بدل اشتمال من قالت السابقة ﴿قَالُوا۟﴾ مجيبين لها ﴿نحن أولوا قوة﴾ في القتال ﴿وأولوا بأس شديد﴾ عند الحرب، قال مقاتل أرادوا بالقوة كثرة العدد وبالبأس شدة الشجاعة. لما أن الاستشار منها دائراً بين الصلح والقتال وكان القتال أصعب الأمرين أجابوا بامتثال أمرها في القتال على خلاف ما قالت اليهود: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾[1]

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

وهذا يدل على إجابة أمرها في الصلح بالطريق الأولى ولذلك خيروها في الأمرين حيث قالوا ﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾ في الصلح والقتال وفي كل شيء موكول ﴿إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ من المقاتلة والصلح، ما استفهامية والجملة بتأويل المفرد مفعول لأنظري يعني فانظري وتأملي حتى يتعين لك أمرك الذي ينفعك نطيعك ونتبع رأيك ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً﴾ قهراً وعنوة ﴿أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم حتى يستقيم لهم أمرهما، حذرتهم من دخول سليمان عليهم قهراً ثم صرحت التحذير وقالت ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ يعني سليمان وجنوده، وقيل هذا تأكيد لما وصف من حال الملوك وتقرير بأن ذلك من عادتهم الثابتة المستمرة وتصديق من الله لقولها، وفي هذا الكلام إشعار بأنها ترى الصلح أصلح ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ بيان لما يرى تقديمه في المصالحة والمعنى أني مرسله إليهم رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي، والهدية اسم لما يهدى به كالعطية اسم لما يعطى، قال البغوي أرادت بلقيس بإرسال الهدية اختبار سليمان أملك هو أم نبي تعني إن كان ملكاً قبل الهدية وانصرف وإن كان نبياً لم يرض إلا بأتباعه على دينه ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فأهدت إليه وصفاً ووصائف، قال ابن عباس ألبستهم لباساً واحداً لئلا يعرف ذكر من أنثى، وقال مجاهد ومقاتل ألبس الغلمان لباس الجواري وألبس الجواري لباس الغلمان. واختلفوا في عددهم قال ابن عباس مائة وصف ومائة وصيفة، وقال مجاهد مائتي غلام ومائتي جارية، وقال سعيد بن جبير أرسلت إليه بلبنة في حرير وديباج، وقال ثابت البناني أهدت له صعاع الذهب في أوعية الديباج، وقيل كانت أربعة لبنات من ذهب، وقال وهب وغيره عمدت بلقيس إلى خمس مائة غلام وخمس مائة جارية فألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجمال وحملت الجواري على خمس مائة رمكة والغلمان على خمس مائة برذون على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملونة وبعثت إليه خمس مائة لبنة من فضة وتاجاً مكَلّلاً بالدُّر والياقوت المرتفع وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود الإلنجوج وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخوزة جزعية مثقوبة معوّجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف وقومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل وكتبت معه كتاباً بنسخة الهدية وقالت إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها واثقب الدرة ثقباً مستوياً وأدخل خيط الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس

ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان إذا تكلم لكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجواري أن تكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرسول أنظر إلى الرجل فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فأعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب، فأنطلق الرسل بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره كله فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب والفضة ففعلوا ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسع فراسخ ميداناً واحداً لبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً مشرفهاً من الذهب والفضة ففعلوا، ثم قال أي الدواب أحسن ممّا رأيتم في البحر والبر؟ قالوا يا نبي الله إنا رأينا دواباً في بحر كذا منقطعة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، قال عليّ بها الساعة فأتوا بها، قال شددوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا علوفها، ثم قال للجن عليَّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقام على يمين الميدان ويساره ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثله عن يساره فأمر الشياطين أن يصفوا صفوفاً فراسخ عن يمينه ويساره، فلما دنا القوم ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها قط تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت أنفسهم ورموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش لبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدير اللبنات التي معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً وكل الأرض معروضة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلمَّا رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا فقال لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم فكانوا يمرُّون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير السباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان فنظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق قال ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه فقال أين الحقة؟ فأتي بها فحركها وجاءه جبرئيل فأخبره بما في الحقة، فقال إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجة الثقب، فقال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخوزة، فقال سليمان من لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجن فلم يكن عندهم علم بذلك، ثم سأل الشياطين فقالوا ترسل إلى الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلته فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها ما حاجتك؟ فقالت تصير رزقي في الشجرة فقال لك ذلك. وروي أنها جاءت دودة في الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف فجعل لها ذلك

فأخذت الخيط في فيها ودخلت في الثقب وخرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان ما حاجتك قالت أن يجعل رزقي في الفواكه، قال لك ذلك ثم ميزّه بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعل على اليد الأخرى ثم تضرب بها الوجه والغلام كما يأخذ من الآنية يضرب به وجهه وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد وكانت الجارية تصب صبّاً وكان الغلام يحدر الماء على يده حدراً فميَّز بينهن، ثم رد سليمان الهدية كما قال الله عزّو جل هذا ما ذكره البغوي وهو مأخوذ من روايات مختلفة أخرج بعضها ابن أبي حاتم عن السديّ وبعضها ابن المنذر وابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ الرسول أو ما أهدت إليه ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ﴾ قرأ حمزة ويعقوب ﴿تمدوني﴾ بنون واحدة مشددة وإثبات ياء المتكلم في الحالين والباقون بنونين خفيفتين وأثبت ابن كثير الياء في الحالين وأثبتها في الوصل فقط نافع وأبو عمرو والباقون يحذفونها في الحالين ﴿بِمَالٍ﴾ تنوين مال للتحقير والخطاب للرسول ومن معه أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب والاستفهام للإنكار يعني لا حاجة لي إلى إمدادكم إيّاي بالهدية ولا وقع لها عندي ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من الدين والنبوة والحكمة والملك لا مزيد عليه، قرأ قالون وحفص وأبو عمرو بخلاف عنهم بإثبات الباء مفتوحة في الوصل ساكنةً في الوقف وورش بالياء المفتوحة وصلاً وحذفها وقفاً والباقون بحذف الياء في الحالين خيرٌ أي أفضل ﴿مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ تطيل الإنكار المذكور ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما أهديتم حبّاً لزيادة أموالكم أو بما تهدونه إلى غيركم افتخاراً على أمثالكم إضراب عن مفهوم ما سبق من الإنكار يعني لا أفرح بل أنتم تفرحون وبيان لما حملهم عليه وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهِّمة بالدنيا والزيادة فيها ثم قال للمنذر بن عمرو ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ ويعني إلى بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ جواب قسم محذوف والفاء للسببية ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقة ﴿لَهُم بِهَا﴾ أي مقاومتها الجملة صفة لجنود ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي من أرضهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي ذليلون تأكيد لقوله ﴿أذلة﴾ وقيل أذلة ضد أعزة وذلك بذهاب عزهم وملكهم والصغار وقوعهم في الأسر يعني لنخرجنهم منها إن لم يأتوني مسلمين.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠

﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قال وهب وغيره أنه لما رجع رُسُل بلقيس إليها من عند سليمان، قالت قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت إلى سليمان أني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر إليك وما تدعوننا إليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعضها أو في قصر من سبع قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه ثم قالت لمن خلفتْ على سلطانها احتفظ بما في قبلك وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد ولا يرينه حتى آتيك، ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها يؤذّنهم بالرحيل وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف، قيل من مملوك اليمن تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة، قال ابن عباس كان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدا بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فخرج يومه فجلس على سرير مملكته فرأى رهجاً قريباً منه فقال ما هذا؟ قالوا بلقيس قد نزلت منها بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، قال ابن عباس وكان بين الحيرة والكوفة قدر فرسخ فأقبل سليمان حينئذ على جنوده ﴿وقال يا أيها الملؤا أيكم يأتيني بعرشها﴾ أراد ذلك أن يريها قدرة الله وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفة أم تنكره ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذه إلا برضاها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ قال الضحاك هو الخبيث، وقال الفراء هو القويُّ الشديد، قال ابن قتيبة العفريت الموثق الخلق وأصله من العفر أي التراب، يقال عافره إذا صارعه فألقاه على العافر أي التراب ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال وهب إسمه لوذي وقيل ذكمان وقيل صخر الجني وكان بمنزلة الجبل يضع قدمه عند منتهى طرف ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي مجلسك الذي تقضي فيه، قال ابن عباس له كل غداة مجلس يقضي فيه إلى نصف النهار ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لقوي أمين﴾ على ما فيه من الجواهر، هذه الجملة حال من فاعل آتيك، قال سليمان أنا أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أخرج ابن

أبي حاتم عن ابن لهيعة أنه خضر وقال بعضهم هو جبرئيل عليه السلام وقيل هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عليه السلام وقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا وكان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطي، روى جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أن آصف قال لسليمان حين صلّى مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك فمدّ سليمان عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض تخد خدّاً حتى تخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان، وقال الكلبي خرَّ آصف ساجداً فدعا باسم الله الأعظم فمال عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان، قيل كانت مقدار شهرين واختلفوا في الدعاء الذي دعا به آصف فقال مجاهد ومقاتل يا ذا الجلال والإكرام، وقال الكلبي يا حي يا قيوم وروي ذلك عن عائشة رضي الله عنها وروي عن الزهري قال دعاء الذي عنده علم الكتاب يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، وقد بحثنا عن اسم الله الأعظم في صدر سورة آل عمران وقول الزهري يوافق ما اخترتُ، وقال محمد بن المنكدر الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام نفسه آتاه الله علماً وفهماً فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وإن هذه الكرامة كانت بسببه والخطاب في ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ للعفريت كأنه أراد إظهار معجزة فتحداهم أولاً فلما قال عفريت ما قال استبطأه فقال له ذلك وأراد به أنه يتأتى له ما لا يتهيأ لعفاريت من الجن فضلاً عن غيرهم، والمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة أو اللوح وآتيك في الموضعين صالح للفعلية والاسمية، والطرف تحريك الأجفان للنظر ولما كان الناظر يوصف بإرسال الطرف وصف بردّ الطرف والطرف بالارتداد والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها وهذا غاية الإسراع ومُثّل فيه.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ سليمان معطوف على محذوف تقديره فأمره سليمان بالإتيان بالسرير فدعا باسم الله الأعظم فمال عرشها تحت الأرض فنبع عند سرير سليمان فلما رآه ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ﴾ شكراً للنعمة كما هو دأب المخلصين من عباد الله ﴿هَٰذَا﴾ أي التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي بعض أفضاله على ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها أي فضل علي لأجل ابتلائي ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ نعمة فأراه فضلاً من الله من غير حولٍ ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد نفسي أهلاً لها أو أقصر في أداء موجبه ومحلهما النصب على البدل من الضمير المنصوب في ليبلوني ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه به يستحب دوام النعمة ومزيدها

فإن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة وبه يفرغ ذمته عن الواجب ويرتفع درجته عند الله تعالى ويستحق أجراً في دار الجزاء، قال رسول الله ﷺ «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[١] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ورواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن سنان بن سنة بلفظ «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر».

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ ينعم على الشاكر والكافر جواب الشرط محذوف أقيم دليله مقامه تقديره ومن كفر فلا يضر ربي لأنه غني كريم ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿نَكِّرُوا لَهَا﴾ أي لبلقيس ﴿عَرْشَهَا﴾ يعني اجعلوه بحيث لا تعرفها إذا رأت، روى أنه جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله وجعل مكان الجوهر الأحمر الأخضر ومكان الأخضر الأحمر ﴿نَنظُرْ﴾ مجذوم على جواب الأمر ﴿أتهتدي﴾ إلى معرفته أو للجواب الصواب ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وإنما حمل سلميان على ذلك (على ما ذكره كعب ووهب وغيرهما) أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن لأن أمها كانت جنيَّة وإذا ولدتْ ولداً لا ينفكون من تسخير ولده وذريته من بعده فأساءوا الثناء عليها ليزهدوه فيها وقالوا إن في عقلها شيئاً وإن رجليها كحافر الحمار وإنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدمها ببناء الصرح.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ عطف على قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾[٢] وما بينهما معترضات ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ شبَّه الأمر عليها زيادة في امتحان عقلها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قال مقاتل عرفته ولكنها شبَّهت عليهم كما شبَّهوا عليها وقيل اشتبه الأمر عليها فلم تقل نعم ولا لا خوفاً من الكذب فعرف سليمان عقلها حيث لم تقر ولم تنكر، وقيل لها فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب والحرس فقالت ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بكمال قدرة الملك وصحة نبوة سليمان ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي قبل آية العرش بآيات أخر من إلقاء هدهد الكتاب وأمر الهدية والرسل، وقيل إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه عطفه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله تعالى ورسله، جوَّزت أن يكون ذلك عرشها تجويزاً غالباً وإحضاره ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله ولا يظهر إلا على

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٨٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الصيام، باب: فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر (١٧٦٤).

(٢) سورة النمل، الآية: ٣٦.

أيدي الأنبياء عليهم السلام والمعنى وأوتينا العلم بالله تعالى وقدرته وصحة ما جاء من عنده قبلها ﴿وكنا مسلمين﴾ منقادين لحكمه لم نزل على دينه ويكون غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً له، وقيل معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله عزّ وجلّ ﴿وَصَدَّهَا﴾ أي منعها سليمان عليه السلام ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني عن عبادة الشمس فما في محل النصب بحذف حرف الجر وإيصال الفعل إليه، وقيل ما في محل الرفع والمعنى وصدَّها عن التوحيد ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا نقصان عقلها كما قالت الجن أن في عقلها شيئاً ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ إستئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم تعبد الشمس فنشأت فيهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس.

ثم أراد سليمان أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفها لما قالت الشياطين أن رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين، فأمر الشياطين أن يبنوا له صرحاً أي قصراً من زجاج وقيل بيتاً من زجاج كأنه الماء بياضاً، وقيل الصرح صحن الدار والحضري تحته الماء وألقي فيه كل شيء من دوابّ البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره على صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والإنس والجن، وقيل اتخذ صحناً من قوارير وجعل تحتها تماثيل الحيطان والضفادع فكان إذا رآه أحد ظنّه الماء فلما جلس على السرير دعا بلقيس فلما جاءت ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ عطف على محذوف تقديره فدخلته يعني من الباب ورأته أي الصرح بلا حجاب قبل ورودها فلما رأته ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ من ماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، قرأ قنبل عن ساقيها هاهنا وفي صّ بالسؤق وفي الفتح على سؤقه بالهمزة في الثلاثة. والباقون بغير همزة. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي ما تم في حديث طويل عن ابن عباس أن سليمان أمر قبل قدومها ببناء قصر صحنه من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها لتخوضه وتخلص إلى سليمان فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها شعراء الساقين فلمّا رأى سليمان ذلك صر بصره عنها ومن هاهنا يظهر أن النظر إلى الأجنبية على إرادة خطبة النكاح جائز، قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»[1] رواه أبو داود عن جابر، وروى

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها (٢٠٨٣).

أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي عن مغيرة بن شعبة قال خطبت امرأة فقال لي رسول الله ﷺ هل نظرت إليها؟ قلت لا قال: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[(١)] ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي مملس ومنه الأمرد ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زجاج ﴿قَالَتْ﴾ حين رأت المعجزة من سليمان ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر وعبادة الشمس فتبت عنه الآن ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أخلصت له التوحيد، وقيل أنها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت في نفسها أن سليمان يريد أن يغرقها وكان القتل أهون من هذا فقالت إني ظلمت نفسي بذلك الظن لسليمان عليه السلام فتبتُ عنه وأسلمتُ.

واختلفوا في أمرها بعد إسلامها؟ فقال عون بن عبد الله سأل رجل عبد الله بن عيينة هل تزوجها سليمان قال إنتهى أمرها إلى قولها: «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» يعني لا علم لنا وراء ذلك، وقال بعضهم تزوجها أخرجه ابن عساكر عن عكرمة، ولما أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الإنس ما يذهب هذا؟ قالوا الموسى، فقالت المرأة لم تمسني حديدة قط، فكره سليمان الموسى وقال إنه يقطع فسأل الجن فقالوا لا ندري ثم سأل الشياطين فقالوا إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ، فلمّا تزوجها سليمان أحبها حبّاً شديداً فأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً وهي سلحون وسنون وعمدان، ثم كان سليمان يزورها كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها يقيم عندها ثلاثة أيام يبتكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام وولد له منها ذكر. وروى عن وهب قال زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختاري رجلاً من قومك أزوجكه قالت ومثلي يا نبي الله تنكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان، قال نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لكِ فقالت زوجني إن كان لا بد ذلك من ذي تبع ملك همدان فزوجها إياه، ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا رديعه أمير جن اليمن فقال إعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم تزل ملكاً يعمل له فيه ما أراد حتى مات سليمان فلما أن حال الحول وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامةً، حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجن إن ملك سليمان قد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المحطوبة (١٠٨١)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: إباحة النظر قبل التزويج (٣٢٢٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا إراد أن يتزوجها (١٨٦٥).

مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان. قلت: نظر سليمان إلى ساق بلقيس يؤيد قول من قال أنه نكحها ويأبى قول من قال أنه أنكحها ذا تبع والله أعلم، قيل إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشر سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة سبحان الله من لا زوال لملكه. شعر:

لا ملك سليمان ولا بلقيس ... لا آدم في الكون ولا إبليس

والكل فصورة وأنت المعنى ... يامن هو للقلوب مغناطيس

والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ جواب قسم محذوف وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[١] وقوله صالحاً بدل من أخاهم ﴿أَن﴾ مفسرة لأرسلنا أو مصدرية بتقدير الباء أي بأن ﴿أعبدوا الله﴾ وحده ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة لفريقين أي ففاجرا التفرق والإختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو في يختصمون لمجموع الفريقين قال اختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف ﴿قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا﴾ إلى قوله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢] ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي بالعقوبة حيث تقولون ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قبل التوبة حيث تؤخرونها إلى نزول

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٥ ـ ٧٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

العذاب الإستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة من كفركم قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي ترحموا بقبولها فإنها لا تقبل بعدما ترون العذاب ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بكم إذ وقع بيننا الإفتراق حين إخترعتم ديناً أو تتابع علينا الشدائد وأمسك عنا المطر قالوا هذه الضراء والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي شؤمكم يعني سبب شؤمكم الذي جاء منه شر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو قضاؤه أو عملكم المكتوب عنده، سمى القضاء طائراً لسرعة نزوله بالإنسان فإنه لا شيء أسرع من قضاء مختوم وسمى العمل طائراً لسرعة صعوده إلى السماء، وقال ابن عباس طائركم عبد الله يعني شؤمكم أتاكم من عند الله لكفركم، وقيل سمى الشؤم طائراً لأن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بصوت الطائر ومروره على نهج معين معروف عندهم إذا سافروا المستعير لفظ الطائر للشؤم لذلك العرف ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ إضراب عن مفهوم الكلام السابق يعني ليس طائركم مني ومن أصحابي ﴿بل أنتم تفتنون﴾ أي تعذبون بكفركم كذا قال محمد بن كعب وقال ابن عباس تختبرون بالخير والشر نظيره قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة ثمود وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة أنفس وقع الرهط تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى فإن معناه الجماعة من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة كما أن النفر من الثلاثة إلى التسعة يفسدون في الأرض خبر لكان واسمه ﴿تسعة رهط وفي المدينة﴾ حال منه أو ظرف ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني كان شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح وهم أبناء أشرافهم الذين اتفقوا على عقر الناقة وهم غواة قوم صالح وأشقياؤهم وأشقاهم قدار بن سالف وهو الذي تولى عقرها ﴿قَالُوا۟﴾ استئناف أوحال بتقدير قد يعني قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ يعني تحالفوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ هو أمر مقولة قالوا أو فعل ماضي وقع بدلاً من قالوا أو حال بإضمار قدمن فاعل قالوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي لنقتلن صالحاً بياتاً أي ليلاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي قومه الذين أسلموا به ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي ﴿لتبيته ولتقولن﴾ بالتاء للخطاب فيما بينهم فيهما وضم التاء الثانية في الأولى وضم اللام في الثانية لدلالتها على الواو المحذوفة للجمع والباقون بالنون للتكلم وفتح التاء واللام ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ أي ما حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ قرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللام من الإهلاك يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا على قراءة حفص بفتح

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

الميم وكسر اللام من الهلاك فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يعني ونحلف أو والحال إنا لصادقون فيما ذكر لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً أو لأنا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثم رجلاً بل رجلين.

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ أي غدروا غدراً حيث قصدوا تبييت صالح ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حال من فاعل مكرنا ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ عاقبة اسم كان وكيف خبره مقدم عليه لصدارته والإستفهام للتعجب، والجملة الإستفهامية بتأويل المفرد مفعول لأنظر ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ قرأ الكوفيون ويعقوب أنا بفتح الهمزة على أنه خبر بمبتدأ محذوف أو بدل من اسم كان خبر له وكيف حال أو التقدير لأنا دمرناهم والباقون بكسر الهمزة على الاستئناف وعلى هذا إن كان ناقصة فخبرها كيف وإن كان تامة فكيف حال ولا يجوز أن يكون انا دمرناهم خبر كان لعدم العائد. اختلفوا في كيفية إهلاكهم؟ قال ابن عباس أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلهم، وقال مقاتل حبسوا في سفح الجبل ينتظرون بعضهم ليأتوا دار صالح فجثم عليهم الجبل فأهلكهم الله تعالى، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال مكر الله بهم رماهم بصخرة فأخذتهم ﴿وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أهلكهم الله بالصيحة ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ أي خالية من خوى البطن إذا خلا أو ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط منصوب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ أي خاوية بسبب كفرهم وظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما فعل بثمود ﴿لَأٓيَةٗ﴾ على كمال قدرتنا وصدق الأنبياء ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فيتعطون به ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾ الكفر والمعاصي وهم صالح ومن معه وكانوا أربعة آلاف ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه قوله ﴿لقد أرسلنا إلى ثمود﴾ تقديره وأرسلنا لوطاً وجاز أن يكون منصوباً باذكر ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ ظرف لفعل مقدر وهو أذكر أو متعلق بأرسلنا على تقدير كونه عاملاً في لوطاً أو بدل من لوط على تقدير كونه منصوباً باذكر ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أي الفعلة البالغة في القبح الاستفهام للإنكار والتوبيخ وكذا الاستفهام الثاني ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ أي تعلمون فحشها من بصر القبائح مع أن اقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، وقيل معناه ويبصر بعضكم بعضاً فإنهم كانوا يعلنون بها ويفعلونها بمشهد القوم فيكون أفحش، أو المعنى وأنتم تبصرون آثار من قبلكم

يعلنون بها ويفعلونها بمشهد القوم فيكون أفحش، أو المعنى وأنتم تبصرون آثار من قبلكم من العصاة وما نزل بهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللائي خلقن لذلك بيان لإتيانهم الفاحشة وشهوة منصوب على العلية للدلالة على قبحه والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لاقتضاء الشهوة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل من يجهل بقبحها أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبح أو تجهلون العاقبة والتاء في تجهلون كلون الموصوف به في معنى المخاطب قيل اجتمع هاهنا الخطاب بقوله أنتم والغيبة بقوله قومٌ فغلب الخطاب على الغيبة. وهذه الآيات تدل على أن حسن الأفعال وقبحها ثابتة لها في أنفسها قبل ورود الشرع وإن كانت معرفة بعضها متوقفة على الشرع ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا أو عن الأقذار وجملة إنهم أناس في مقام التعليل للإخراج ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾ أي قدرنا كونها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً افساء مطر المنذرين﴾.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بعدما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظمة شأنه وما خص به رسله من الآيات والتشريفات أن يحمد الله على إهلاك الكفار من الأمم الخالية وعلى جميع نعمه وعلى إعلامه ما جهل من أحوالهم وأن يسلم على من اصطفاه من عباده عرفاناً بفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين وقوله ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال مقاتل هم الأنبياء والمرسلون

بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾[١] وقال ابن عباس في رواية مالك هم أصحاب محمد ﷺ، عن سفيان الثوري أنها نزلت في أصحاب محمد ﷺ وقال الكلبي هم أمة محمد ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[٢] الآية، وقيل هم المؤمنون كلهم السابقون واللاحقون. وقيل هذا من تمام قصة لوط عليه السلام وخطاب للوط عليه السلام بتقدير القول، يعني وقلنا له قل الحمد لله الخ أمره بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلّمُ على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة من الهلاك أو على محمد وأمته فإن ما وصل بالأنبياء والأمم من الكرامات ودفع البليّات كان ببركة نوره ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» رواه أبو سعد عن قتادة مرسلاً، وقال رسول الله ﷺ: «كنتُ نبيّاً وآدم بين الروح والجسد» رواه ابن سعد بسند صحيح عن ميسرة بن سعد عن أبي الجدعاء والطبراني عن ابن عباس ﴿آلله خير أما يشركون﴾ متصل بما سبق في صدر السورة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ إلى قوله ﴿هم الأخسرون﴾ وهذا إلزام وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم بعدما ذكر من القصص الدالة على قدرته تعالى على إكرام عباده الصالحين وكبت أعدائه يعني من هذا شأنه هو مستحق للعبادة والخوف والرجاء خَيْرٌ من غيره أمّا يُشركون من الأصنام وغيرها مما لا يضر ولا ينفع ضره أقرب من نفعه خير من الله القادر القاهر لمن يعبد. قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب يشركون بالياء التحتانية على الغيبة والباقون بالتاء الفوقانية خطاباً بالأهل مكة.

﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ أم متصلة وما عطف عليه بأم محذوف تقديره آلهتكم التي لم يخلقوا شيئاً وهم يخلقون خير أم من خلق، وقيل منقطعة بمعنى بل والهمزة قيل للإضراب عن الاستفهام السابق لبداهة كون الله تعالى مبدأً لكل خير وعدم الخيرية رأساً فيما أشركوه فكيف يمكن الموازنة والإستفهام عنه والهمزة للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بخيرية من خلق السماوات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي لأجل انتفاعكم ﴿من السماء ماء فانبتنا به حدائق﴾ أي بساتين جمع حديقة، قال الفراء الحديقة البستان المحاط عليها فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة، قال البيضاوي من الإحداق وهو الإحاطة ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي حسن المنظر يبتهج به صفة لحدائق وإفراد بهجة لتأويل حدائق بجماعة حدائق، وفي الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم لتأكيد إختصاص الفعل

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٨١.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

بذاته تعالى والتنبيه على أن إثبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطبائع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما صرح بقوله ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما يمكن ﴿لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي شجرة من أشجارها والإضافة للجنس والجملة ما كان لكم الخ صفة لحدائق ﴿ءإله مع الله﴾ أعانه على ذلك الإستفهام للإنكار يعني ليس أحد أعانه على ذلك فلا مستحق للعبادة غيره معه لانفراده بالخلق ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ من لا يخلق بمن يخلق فيشركون به أو المعنى بل هم قوم يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ بدل من ﴿أمن خلق السماوات﴾ الخ والكلام في أم في هذا وفي ما بعدها مثل ما سبق وجعلها قراراً إبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يمكن الاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ وسطها ظرف مستقر وقع ثاني مفعول جعل وكذا في الجملة التاليتين ﴿أنهاراً﴾ جارية ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي للأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثابتة منعها من الحركة وأنبع منها الأنهار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والملح ﴿حَاجِزًا﴾ مانعاً من الإختلاط ﴿ءإله مع الله﴾ ليس كذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا إله إلا هو لإهمالهم النظر الصحيح مع الأدلة القاطعة فيشركون به جهلاً وبعضهم يعلمون ذلك ولكن يمكرونه تعنتاً وعناداً.

﴿أمن يجيب المضطر﴾ اسم فاعل من الاضطرار وهو افتعال من الضر يعني من إبتلى بضر أحوجه شدته إلى إلجاء إلى الله تعالى يجيبه ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ بفضله إن شاء فإن اللام في المضطر للجنس دون الاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر ﴿وَيَكْشِفُ﴾ أي يدفع ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ الذي ألجأه إلى الدعاء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ﴾ عطف على يجيب ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلفاء من قبلكم في الأرض بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها أو سلطانها، وقيل يعني جعلكم خلفاء الجن في الأرض قلت ويمكن أن يقال معناه جعل منكم خلفاء الله تعالى في أرضه بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١) ﴿ءإله مع الله﴾ الذي خلقكم بهذه النعم العامة والخاصة يعني ليس كذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ إلا الله ما مزيدة وقليلاً منصوب بتذكرون على المصدرية أو على الظرفية والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المربحة للفائدة قرأ أبو عمرو وهشام يذكرون بالياء للغيبة والباقون بالتاء للخطاب وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتخفيف الذال والباقون بتشديدها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

﴿أمن يهديكم﴾ بالنجوم وعلامات الأرض ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم في الليالي أضاف الظلمات إلى البحر والبر للملابسة ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ يعني المطر ﴿ءإله مع الله﴾ يقدر مثل ذلك ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ القادر الخالق ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراك العاجز المخلوق.

﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ بعد الإماتة والكفار وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها من النقل المشهود عليه بالمعجزات مع إمكانها عقلاً ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من أسباب سماوية وأسباب أرضية ﴿ءإله مع الله﴾ يقدر على ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على أن مع الله إلهاً آخر يقدر على شيء من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الإشراك فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قال البغوي ولمّا سأل المشركون النبيّ ﷺ عن وقت قيام الساعة نزلت ﴿قُل﴾ يا محمد في جوابهم ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ومنهم الأنبياء عليهم السلام من موصول أو موصوف ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ يعني ما غاب عن مشاعرهم ولم يقم عليه دليل عقلي ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكن الله يعلم ما غاب عنهم وغيره تعالى لا يعلم إلا بإعلامه فالاستثناء منقطع لأنه تعالى منزه عن الإستقرار في السماوات والأرض ورفعه على لغة بني تميم فإنهم يجيزون النصب والمبدل في المنقطع كما في المتصل وعليه قول الشاعر. شعر:

وبلدة ليس بها أنيس   إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل الإستثناء متصل ودخول المستثنى في المستثنى منه على سبيل فرض المحال وفرض المحال ليس بمحال، وقال في البحر المواج المستثنى منه محذوف وفي الكلام حذف تقديره لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب لا يعلمه أحد إلا الله فهذه الجملة تعليل لنفي العلم، قلت ويمكن أن يكون التقدير لا يعلم من في السماوات والأرض

الغيب بشيء إلا بالله أي بتعليمه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى يحشرون يعني وقت حشرهم مما لا يدرك بالمشاعر فهو من الغيب الذي لا يمكن العلم به والاطلاع عليه إلا بتعليم من الله تعالى وأنه تعالى لم يطلع على ذلك أحداً بل استأثر علمه لنفسه فلا يتصور لهم العلم به، وهذا تخصيص بعد تعميم وفائدته التأكيد ومطابقة الجواب السؤال وحتم إحتمال التخصيص فإن قوله تعالى لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب يفيد نفي علمهم بالغيب وذلك مخصوص بما حصل لهم بتعليم من الله تعالى بتوسط الرسل.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ كذا قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بهمزة القطع على وزن أكرم من الأفعال أي بلغ ولحق ﴿عِلْمُهُمْ﴾ فاعل لادارك ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ ظرف لادارك والمفعول محذوف دل عليه ما سبق والمعنى أنهم لا يدركون وقت قيام الساعة في الدنيا قط بل يدرك علمهم ذلك في الآخرة إذا عاينوه، أو المعنى بل أدرك علمهم اليوم بتعليم الرسل ﷺ إياهم في شأن الآخرة ﴿أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾[1] لكنهم لا يعلمون وقت مجيئها، وقرأ الباقون بل ادَّرك أصله تدارك يعني تدارك وتكامل علمهم وحصل لهم اليوم بتعليم الرسول ﷺ في شأن الآخرة أو يحصل لهم العل بذلك إذا عاينوه يقال تدارك الفاكهة إذا تكاملت نضجاً وحصول العلم القطعي للمؤمنين في الدنيا ظاهر وللكافرين باعتبار قيام الأدلة الموجبة للقطع مقامه ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي من قيام الساعة بعد وجود ما يوجب القطع من إخبار الرسول الله ﷺ المؤيد بالمعجزات، وقيل قوله بل ادارك على طريقة الإستفهام معناه هل تدارك وتتابع علمهم في الآخرة يعني لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه لأن في الإستفهام ضرباً من الجحد، يدل هذا التأويل قراءة ابن عباس بلى بإثبات الألف المكتوب بصورة الياء أدارك بفتح الهمزة للاستفهام وسقوط همزة الوصل أي لم يدرك وفي قراءة أبي أم تدارك علمهم والعرب يضع بل موضع أم وأم موضع بل، وذكر علي بن عيسى وإسحاق أن بل في بل ادارك بمعنى لو والمعنى لو أدركوا في الدنيا ما ادركوه في الآخرة لم يشكوا بل هم اليوم في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ أي من الساعة ﴿عَمُونَ﴾ جمع عمى وهو عمى القلب نفى الله عنهم علم الغيب أولاً ثم أكَّد ذلك بنفي شعورهم بما هو مالهم لا محالة ثم بالغ فيه بأن أضرب عنه وبيَّن أن منتهى علمهم وما تكامل فيه أسباب العلم من الحجج والآيات مقصور على أن القيامة كائنة لا محالة وهم لا يعلمونها كما

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧.

ينبغي ثم أضرب عنه وقال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بعد تكامل الأدلة كمن يتحير في أمر لا يجد عليه دليلاً فهم لا يستطيعون إزالة الشك ثم أضرب عنه وقال بل هم في أمره حال منه فإنهم عمون لا يدركون دليلهم لاختلال بصيرتهم وهذا إن اختص بالمشركين فمن في السماوات والأرض نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل، وقيل الإضراب الأول عن نفي الشعوب بوقت القيامة عنهم بوضعهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً، وقيل أدرك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدرك الثمرة لأنها تلك غايتها التي عندها يعدم وما بعدها إضراب عن علمهم بأمر الآخرة مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها ثم أضرب عنه وقال ﴿هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ليس لهم صلاحية العلم أصلاً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على مضمون قوله تعالى بل هم منها عمون وكالبيان له، وضع المظهر هاهنا موضع الضمير ولم يقل وقالوا لكون ذكر الكافرين مجملاً فيما سبق إذا قرأ نافع إذا بغير همزة الإستفهام على صيغة الخبر وهمزة الإستفهام على هذا مقدرة والباقون بهمزتين على الاستفهام ﴿كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بنونين أحدهما للوقاية وبهمزة واحدة على صيغة الخبر وتقدير همزة الإستفهام والباقون بنون واحدة وهمزتين على الإستفهام وضمير ائنا راجع إليهم وإلى آبائهم غلبت الحكاية على الغائب ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور أحياءاً ومن حال الموت إلى الحياة وهذا كالبيان لعمههم والعامل في إذا محذوف دل عليه مخرجون تقديره أنخرج إذا كنا تراباً أنحن مخرجون حينئذ والإستفهام الإنكار، والجملة الإستفهامية الثانية تأكيد للأولى تكرير للإنكار مبالغة له ولا يجوز أن يكون مخرجون عاملاً في إذا لأن كلام من الهمزة وأنَّ واللام مانعة من عمله فيما قبله ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ أي البعث جواب قسم محذوف ﴿نَحْنُ﴾ على لسان محمد ﷺ ﴿وَآبَاؤُنَا﴾ على لسان غيره من الأنبياء ﴿مِن قَبْلُ﴾ وعد محمد ﷺ وتقديم هذا على نحن هاهنا لأن المقصود بالذكر هاهنا هو البعث وحيث أخَّر فالمقصود هو المبعوث ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها كالأسمار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم والتعبير عنهم بالمجرمين ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على تكذيبهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ قرأ ابن كثير بكسر الضاد والباقون بالفتح وهما لغتان يعني لا تكن في ضيق صدر وغم ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من للسببية وما مصدرية أي بسبب مكرهم

قال البغوي نزلت في المستهزئين الّذين عقاب مكة يعني أن الله بالغ أمرك إلى الكمال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على قال الذين كفروا وما بينهما معترضات ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي الموعود من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي ردفكم واللام مزيدة للتأكيد يعني عسى أن يتبعكم ويلحقكم بلا مهلة بعض تنازع فيه الفعلان يكون وترون أعمل أحدهما وأضمر في الآخر ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلوله وهو عذاب يوم بدر، قال البيضاوي عسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يطلقونه إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمزة منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله ووعيده، وهذا المعنى قول من قال أن عسى ولعل في كلام الله واجبة الوقوع يعني وأما في الوعيد فيجوز العفو بشرط الإيمان وأما الكافر فلا يستحق العفو وقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1] ليس من هذا الباب ومن ثم لم يوجد من فرعون تذكر ولا خشية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فيغفر للمؤمن إن شاءو لا يستعجل الكافر بالعذاب وكذلك لم يعجل على أهل مكة بالعذاب كذا قال مقاتل هذه الجملة إما حال أو معترضة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولا يعرفون حق النعمة فيستعجلون العذاب مجملهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفي صدور الناس ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي الناس من عداوتك فيجازيهم عليه وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، وهذه الجملة معطوفة على عسى فإن عسى في كلام الله كالتحقق ﴿وَمَا مِنْ

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

﴿غَآئِبَةٍ﴾ إسم ما ومن زائدة أي ما من شيء غائب عن أبصار الناس وهي من الصفات الغالبة كالخافية والتاء فيهما للمبالغة كما في الرواية أو إسمان لما يغيب ويختفي فالتاء فيه كالتاء في عافية وعاقبة، وقال البغوي هي صفة لمحذوف أي جملة غائبة من مكتوم سر وخفي أمر وشيء غائب كائنة ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لغو متعلق بغائبة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مستثنى مفرغ خبر ما أي بين أو مبين ما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي يبيّن لهم ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين قال الكلبي إن أهل الكتاب اختلفوا بينهم وصاروا أحزاباً يطعن بعضهم فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، هذه الجملة مع ما عطف عليه متصل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[1] واقعة عنها مقام التعليل وما بينهما معترضات ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون به دون الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ أي يحكم ﴿بَيْنَهُم﴾ أي بين المختلفين في أمر الدين يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ متعلق بيقضي. فإن قيل قوله يقضى معناه يحكم فيكيف يتعلق به بحكمه فإنه نظير ينصره بنصره وذا لا يجوز؟ قلنا المراد الحكم هذا بمعنى المحكوم والمعنى يحكم بما حكم به في القرآن أو المراد بحكمته ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لارادَّ لقضائه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضى فيه وحكمته ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تبال بمن عاداك متصل بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ البين حقيقة علل التوكل بأنه على الحق الظاهر الذي لا مساغ فيه، إشارة إلى أن صاحب الحق حقيق بالوثوق على الله ونصره ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الكفار شبههم بالموتى لعدم الإنتفاع لهم بتسامع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالأصم في قوله تعالى ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ والدعاء مفعول للفعلين على التنازع قرأ ابن كثير ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ بالياء وفتحها وفتح الميم على صيغة الغائب من المجرد والصُّمُّ بالرفع على الفاعلية وكذلك في سورة الروم والباقون بالتاء وضمها وكسر الميم على صيغة المخاطب من الإستماع ونصب الصُّمَّ على المفعولية ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإن قيل ما معنى لهذا القيد فإن الأصم الذي لا يسمع سواء عليه أن يولى أولا قيل ذكره على التأكيد والمبالغة وقيل الأصم إذا كان حاضراً قد يسمع برفع الصوت أو يفهم بالإشارة أو الكتابة فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم رأساً يعني أن الكفار لفرط إعراضهم عما يدعون إليه

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦.

كالميت الّذي لا سبيل إلى استماعه وكالأصم المدبر الذي لا سبيل إلى إفهامه، قيل الظرف متعلق بالفعلين على سبيل التنازع ويرد عليه أن نسبة التولي إلى الأصم جائز وإلى الموتى لا يجوز فكيف يتصدى التنازع والجواب أن الموتى والأصم كلاً منهما مستعار للكافر وهو من أهل التولي، ويسمى هذا الاستعارة استعارة مجرورة وهي أن يوصف المستعار بوصف ملائم للمستعار له والله أعلم.

﴿وما أنت بهادي العمى﴾ قرأ الأعمش وحمزة هاهنا وفي الروم تهدي بالتاء المفتوحة وإسكان الهاء بغير ألف على صيغة المضارع والعمى بالنصب وإذا وقف أثبت ياء تهدى في السورتين والباقون بالياء المكسورة وصيغة اسم الفاعل مضافاً والعمى بالياء وقفوا هاهنا بالياء وفي الروم بغير ياء إتباعاً للمصحف ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ يعني ما أنت بمرشد من أعمى الله قلبه عن الإيمان ﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ يعني لا تسمع ولا ينفع إسماعك القرآن أحداً ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ يعني من قدّرنا إيمانه ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مخلصون من أسلم وجهه لله.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني إذا دنا وقوع معنى ما قيل عليهم أي ما وعدوا به من البعث والعذاب ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ﴾ قال البغوي روي عن علي رضي الله عنه ليس بداية لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير إلى أنه رجل والأكثر على أنها دابة ذات أربع قوائم، أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال الدابة ذات وبرو وريش مؤلفة فيها من كل لون لها أربع قوائم ثم يخرج بعقب من الحاج، وروى عن جريح عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير وأذنها أذن الفيل قرنها قرن إبل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين إثني عشر ذراعاً معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء يضيء بها وجهه ولا يبقى كافر إلا نكتت وجهه بخاتم

سليمان نكتة سوداء فيسود بها وجهه حتى أن الناس يتبايعون في الأسواق بكم باَمؤمن بكم يا كافر ثم تقول لهم الدابة يا فلان أنت من أهل الجنة يا فلان أنت من أهل النار وذلك قول عزّ وجلّ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بأخرجنا، روى البغوي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال تخرج من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام ثلاثاً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إن الدابة تسمع قرع عصاي، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال تخرج الدابة من شعب فيمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض ما خرجتا فتمرّ بالإنسان يصلي فتقول ما الصلاة من حاجتك فتخطمه.

وذكر البغوي حديث أبي شريحة الأنصاري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «تكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً باليمن فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عزَّو جل يعني المسجد الحرام لم تر عنهم إلا هو في ناحية المسجد يدنو ويدنو كذا قال عمرو ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم في وسط من ذلك ـ فارفض الناس عنها وثبت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرّت بهم فجلّت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم دكت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى أن الرجل ليقوم فيعود منها بالصلاة فيأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلّي فتقبل بوجهه وتسمه في وجهه فتجاوز الناس في ديارهم وتصطحبون في أسفارهم وتشتركون في الأموال ويعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال ذكر رسول الله ﷺ الدابة قلت يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: «من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى بينا عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وتنشق الصفا مما يلي المشرق وتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدو منها رأسها بلمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب وتسم الناس مومناً وكافراً أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري ونكتت بين عينيه مؤمن وأما الكافر فنكتت بين عينيه نكتة سوداء ونكتت بين عينيه كافر» رواه البغوي وكذا أخرج ابن جرير، وروى البغوي عن سهل بن صالح عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: «بئس الشعب شعب حناد مرتين أو ثلاثاً، قيل ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها بين الخافقين قال وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من

رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون».

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ صفة لدابة يعني تكلم الدابة الناس، قال السديُّ تكلم ببطلان سائر الأديان سوى دين الإسلام، وقال بعضهم كلامها أن تقول لواحد هذا مؤمن ولآخر هذا كافر كما مرَّ في الأحاديث، وقيل كلامها ما قال الله تعالى ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ قال مقاتل تكلمهم بالعربية فتقول عن الله تعالى: ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث. قرأ الكوفيون أن بالفتح وهو حكاية عن قول الدابة أو على تقدير الجار تقديره بأن أو حكاية قول الله الذي قيل عليه ودنا وقوعه أو علة خروجها على حذف اللام على قول غيره، وقرأ الآخرون إن بالكسر على الإستئناف أي إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها، قيل أراد بآياتنا خروجها أي خروج دابة الأرض وسائر أشراط الساعة وأحوالها فإنها من آيات الله تعالى، قال البغوي قرأ ابن جبير وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي تكلم بفتح التاء تخفيف اللام من الكلم بمعنى الجرح، وقال ابن الحوراء سألتُ ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم أو تكلمهم فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر قال ابن عمر رضي الله عنهما وذلك يعني خروج الدابة حين لا يؤمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يؤمن كافر بعد ذلك كما أوحى الله إلى نوح ﴿إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾[١] قلت وهذا يستنبط من الأحاديث والآثار.

فصل:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستّاً الدخان والدَّجال ودابّة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم»[٢] رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابّة على النّاس ضحًى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً»[٣] رواه مسلم، وعن حذيفة بن أسد الغفار قال: «إطلع النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون؟ قالوا نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٧).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١).

فذكر الدخان والدجال والدَّابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، وفي روايةٍ نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى الحشر، وفي رواية «في العاشرة وريح يلقى الناس في البحر» رواه مسلم، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدّابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا... يا كافر»[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه، عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «تخرج الدابَّة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابَّة فيقال ممَّن اشتريت فيقول من الرجل المختم» رواه أحمد، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال تخرج الدابَّة ليلة جمع والناس يشيرون إلى منى، وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه الدّابة فخرجت ثلاث أيام ولياليهن يذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها قال فرأى منظراً فظيعاً فقال رب ردها فردها. قلت: والأحاديث المذكورة تدل على أن الدابَّة تميّز بين المؤمنين الصادقين في إيمانهم وبين المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر والمراد بالكفر إما ضد الإسلام المجازي الذي قلوب أهاليهم غير مصدقة بما جاء به النبيّ ﷺ وإما ضد الإسلام الحقيقي الّذي قلوب أهاليهم وافقت ألسنتهم في التصديق لكن لم تؤمن نفوسهم ولم تطمئن، فإن كان المراد بالكافر هذا المعنى فقول الدَّابة يا فلان أنت من أهل النار يراد به دخولها لا خلودها ولا يجوز أن يكون المراد بالكفر المجاهر بالكفر لأن المجاهر بالكفر لم يبق بمكة بعد الفتح، وأيضاً المجاهر بالكفر ممتاز عن المسلمين قبل خروج الدابَّة لا حاجة في إمتيازهم إلى الدابَّة والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ يعني يوم القيامة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي من كل قرن جماعة كلمة من هاهنا للتبعيض وفوجاً مفعول لنحشر ومن كل أمة حال منه، قلتُ وذلك حين يقول الله تعالى: لأدم أبعث بعث النار من ذريتك وقد مرّ الحديث في صدر سورة الحج، ﴿ممن يكذب بآياتنا﴾ صفة الفوج ومن هاهنا للبيان أي فوجاً مكذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، قال البيضاوي هو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النمل (٣١٨٧).

أطرافهم ﴿حَتَّىٰٓ﴾ إبتدائية داخلة على الشرطية ﴿إذا جاؤوا﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿أكذبتم بآياتي﴾ والاستفهام للتوبيخ ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال يعني أكذبتم بها بادىء الرأي غير ناظرين فيها نظراً يحيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب أو للعطف يعني أجمعتم بين التكذيب بها وعدم النظر والتأمل في حقيقتها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقديره أم لم تكذبوا فإن لم تكذبوا فماذا كنتم، يعني أيّ شيء كنتم تعملون غير التكذيب وهذا أيضاً توبيخ وتبكيت إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا ذلك ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ عطف على قال في حيز جزاء الشرط أي وجب عليهم العذاب الموعود لهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي بسبب ظلمهم أي تكذيبهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذار إذ ليس لهم عذر في نفس الأمر أو لما لا يؤذن لهم فيعتذرون، وقيل لا ينطقون لأن أفواههم مختومة.

وقيل لا ينطقون لشغلهم بالعذاب والظاهر هو الأول يدل عليه قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني كيف يعتذرون على الكفر بعد رؤية الأدلة الموجبة للإيمان والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات يعني قد رأوا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي خلقنا ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ بالنوم والقرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ كان أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجعول عليه بحيث لا ينفك عنه وجملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ قائم مقام المفعولين لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فإن الرؤية بمعنى العلم يعني ألم يعلموا بتعاقب النور والظلمة على وجه مخصوصٍ نافعٍ مناطٍ لمصالح معاشهم ومعادهم إنَّ لها خالقاً حليماً قادراً قاهراً.

وإن من كان قادراً على ذلك قادر على بعثة الرسل ليدعوا الخلق إلى عبادته وقادر على الإنعام والانتقام على إطاعته وعصيانه وقادر على إبدال الموت بالحياة كما هو قادر على إبدال الظلمة بالنور واليقظة بالنوم وقد دلت المعجزات على صدق الرسل وما جاءوا به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأمور ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ دالة على التوحيد وصدق الرسول فأيّ عذر للمكذب بعده وقيد ثبوت الآيات بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها، قيل جملة ألم يروا إلى آخرها دليل للحشر فإن تعاقب اليقظة النوم يدل على جواز تعاقب الحياة الموت.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ

﴿٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٠
إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٣﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ معطوف على قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ وعن ابن عمر أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الصور قال: «**قرن ينفخ فيه**»[١] رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه والنسائي وابن حبان والحاكم وعن ابن مسعود نحوه رواه مسدد بسند صحيح، وعن زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وأحنى جبهته وأصغىٰ بالسمع متى يؤمر فسمع بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فشق عليهم فقال رسول الله ﷺ، «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»[٢].

وروى أحمد والحاكم والبيهقي والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه نحوه والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد نحوه وأبو نعيم عن جابر نحوه، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره وهو صاحب الصور يعني إسرافيل» قال القرطبي علماء الأمة مجمعون على أن ينفخ في الصور إسرافيل ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة وأرواح المؤمنين ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الإنس إختلف العلماء في هذه النفخة هل هي الصعق أو غير ذلك فقيل النفخات ثلاث أولها نفخة الفزع تفزع منها الخلائق ثانيها نفخة الصعق تصعق أي تموت بها الخلائق ثالثتها نفخة البعث، فهذه الآية تدل على نفخة الفزع.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ٦٨﴾[٣] تدل على نفخة الصعق ونفخة البعث وهذا اختيار ابن العربي، وقد صُرِّحَ بالنفخات الثلاث في حديث طويل لأبي هريرة وسنذكره من قريب، وقيل هما نفختان فقط ونفخة الفزع هي نفخة الصعق قالوا الأمران متلازمان أي

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: ذكر البعث والصور (٤٧٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣١).

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

فزعوا فزعاً ماتوا منه وهذا ما صححه القرطبي وأستدل بأنه استثنى من نفخة الفزع كما استثنى من نفخة الصعق حيث قال الله تعالى فيهما: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فدلّ على أنهما واحد، وهذا الاستدلال غير صحيح لأن الاستثناء منهما بقوله إلا ما شاء الله لا يدل على اتحاد النفختين ولا على إتحاد المستثنى فيهما وإن كان المستثنى منه في الكلامين واحد.

قال البغوي واختلفوا في هذا الاستثناء، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ «سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: «هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم».

ثم ذكر البغوي قول الكلبي ومقاتل وذكر الحديث كما سنذكر من بعد لكن قول البغوي بالاختلاف في هذه الآية مبني على اتحاد نفخة الفزع ونفخة الصعق والظاهر أنهما متغايران. فلنذكر الأحاديث والآثار الواردة في الاستثناء.

روى أبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سألتُ جبرئيل عن هذه الآية ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من الّذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه» قالوا وإنما صح استثناء الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم، قال البغوي: وفي بعض الآثار الشهداء ثنية الله عزّ وجل أي الذين استثناهم الله تعالى كذا روى هناد بن السري والبيهقي والنحاس في معاني القرآن عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال هم الشهداء مقلدون السيوف حول العرش، وقال الكلبي ومقاتل يعني جبرئيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام وذلك لما أخرج الفريابي في تفسيره عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله»، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله؟ قال جبرئيل ومكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش فإذا قبض الله أرواح الخلائق قال لملك الموت من بقي؟ قال سبحانك ربي تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فيقول خذ نفس إسرافيل فيأخذ نفس إسرافيل، فيقول يا ملك الموت من بقي؟ فيقول سبحانك تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وميكائيل وملك الموت، فيقول خذ نفس ميكائيل فيأخذ نفس ميكائيل فيقع كالطود العظيم، فيقول يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي جبرائيل وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت، فيقول يا جبرائيل من بقي فيقول وجهك الكريم الباقي الدائم وجبرائيل الميت الفاني قال فلا بد من موتة فيقع ساجداً يخفق جناحيه، قال رسول الله ﷺ:

«إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على ظرب من الظراب» وأخرج البيهقي عن أنس رفعه في قوله: «فنفخ في الصور» الآية قال فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبرائيل وميكائيل وملك الموت فيقول الله وهو أعلم يا ملك الموت من بقي؟ فيقول وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرائيل وميكائيل وملك الموت فيقول: توف نفس ميكائيل فيقول وهو أعلم من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرائيل وملك الموت، فيقول توف نفس جبرائيل ثم يقول: وهو أعلم يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك ملك الموت وهو ميت، فيقول: مت ثم يقول أنا بدأت والخلق ثم أعيده فأين الجبارون المتكبرون فلا يجيبه أحد ثم ينادي لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول هو الله الواحد القهار ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام تنظرون.

وأخرج البيهقي عن زيد بن أسلم قال الذي استثنى اثنا عشر جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش ثمانية، وقال البغوي يروى أنه يقبض روح جبرائيل وميكائيل ثم روح حملة العرش ثم روح إسرافيل ثم روح ملك الموت، وأخرج البيهقي عن مقاتل بن سليمان يقبض روح ميكائيل ثم روح جبرائيل ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت.

وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن وهب قال هؤلاء الأربعة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت أول من خلقهم الله وآخر من يميتهم وأول من يحييهم هُم المدبرات أمراً والمقسمات أمراً قال السيوطي لا تنافي بين هذه الروايات يعني روايات الاستثناء لإمكان الجمع بأن الجميع من المستثنى.

قلت: الأحاديث والآثار المذكورة كلها واردة في بيان الاستثناء الواقع في نفخة الصعق لا ما وقع في نفخة الفزع، وعندي المستثنى في نفخة الفزع ما دل عليه قوله تعالى فيما بعد: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[1] فإنه نص في أن المؤمنين الذين لا يدخلون النار ويدخلون الجنة لا يلحقهم الفزع لكن عند نفخة الفزع لا يكون من الناس إلا الكفار لقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على الأشرار» رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود، وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والقرآن» رواه السنجري عن ابن

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١ ـ ١٠٣.

عمرو يدل على ذلك غيرها من الأحاديث ولهذا حمل رسول الله ﷺ المستثنى على أرواح الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم وأما الملائكة وأرواح الأنبياء عليهم السلام فهم أيضاً داخلون في المستثنى ولا يفزعون البتة والله أعلم.

روى ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وأبو موسى المديني في المطولات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والعصيان وعبد بن حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة حديثاً طويلاً عن أبي هريرة ذكر فيه: «فينفخ ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول الله انفخ نفخة الفزع فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله، إلى أن قال فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي أقطار الأرض فتتلقاهم الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وتولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً والذي يقول الله يوم التّناد إلى أن قال قال رسول الله ﷺ: «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك قلت يا رسول الله فمن استثنى الله في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قال: أولئك الشهداء وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ وقاهم الله من فزع ذلك اليوم وأمنهم منه وهو عذاب يبعثه على أشرار خلقه يقول الله يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ انَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شيءٌ عَظِيمٌ الآية فيمكثون في ذلك ما شاء الله فيقول ملك الموت قد مات أهل السماوات والأرض إلا من شئت فيقول وهو أعلم فمن بقي ثم ذكر موت جبرائيل وميكائيل وحملة العرش وموت ملك الموت نحو ما تقدم من حديث أنس ثم ذكر الحديث بطوله إلى دخول أهل الجنة الجنة وبقاء أهل الخلود في النار.

فإن قيل هذا الفزع لا يكون إلا على شرار خلق الله من شياطين الإنس والجن وليس أحد منهم في السماء فما معنى قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ قلت: لعل ذلك على سبيل الفرض أو يقال إن الشياطين قد يذهبون إلى السماء لإستراق السمع أو يقال المراد بالسماء السحاب ونحو ذلك فإنه قد يطلق السماء على كل ما بفوقك قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾(١) يعني سقف بيتك، أو يقال المراد بمن يفزع من أهل السماء أرواح بعض المؤمنين ويكون المراد بمن سبقت لهم الحسنى الأنبياء والمقربون الصديقون.

(١) سورة الحج، الآية: ١٥.

وأما المستثنى من نفخة الصعق فالقول فيه ما قال صاحب المفهم التحقيق أن المراد الضعف ما هو أعم من الموت فلمن لم يمت الموت ولمن مات الغشية وهذا من قبيل عموم المجاز وهذه الغشية يعم الأنبياء عليهم السلام إلا موسى عليه السلام فإنه حصل فيه تردد. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه واللفظة عن أبي هريرة قال: قال رجل من اليهود بسوق المدينة والذي اصطفى موسى على البشر، فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه وقال أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ «فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائم من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله»[1] ولمّا كان الصعق بمعنى الموت أو الغشية يعم الأنبياء فيعم الشهداء بالطريق الأولى والملائكة أيضاً والمستثنى منهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش فإنهم لا يموتون بالنفخة ويموتون بعد ذلك» كما مرَّ في الأحاديث والله أعلم.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل واحد من أهل السماوات والأرض ﴿أتوه﴾ أي حاضرون الموقف بعد نفخة البعث أو راجعون إلى أمره كذا قرأ الجمهور بالمد وضم التاء على صيغة إسم الفاعل وقرأ حفص وحمزة مقصوراً وفتح التاء على صيغة الماضي ومعناه الإستقبال لتحقيق وقوعه عطف على فزع ﴿داخرين﴾ صاغرين ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ أي تبصرها أيها الناظر وقت نفخة الفزع عطف على يوم ينفخ أو على يوم نحشر أن يقدر هنا ترى ما ترى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي واقفة مكانها الجملة حال من فاعل ترى مفعوله أي تظنها قائمة غير متحركة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ حال من الضمير المنصوب في تحسبها يعني تسير الجبال كسير السحاب في السرعة حتى تقع على الأرض فتستوي بها وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد يتبين حركتها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة متقدمة لا محتمل لها غيره ويسمى تأكيداً لنفسه معنى صنع الله صنعاً ﴿الذي اتقن كل شيء﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب أي يجازي كلاً من العاصي والمطيع على حسب فعله ثم بينه فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ قال: أبو معشر كان إبراهيم يحلف ولا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعد (٣٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام (٣٢٢٧)

يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله، وقال قتادة بالإخلاص، وقيل: هي كل طاعة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قيل من للسببية وليس للتفضيل إذ لا شيء خير من قول لا إله إلا الله فالمعنى يحصل له خير وهو الثواب وإلا من العذاب من جهة تلك الحسنة وبسببها، وقال محمد بن كعب وعبد الرحمان ابن زيد من تفضيلية والمعنى فله عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله نظيره قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم ينفخ في الصور ﴿ءَامِنُونَ﴾ قرأ الكوفيون فزع بالتنوين للتنكير ويؤمئذ بالنصب على الظرفية والتنكير يفيد الاستغراق لأن الجملة في قوة النفي لأن قوله آمنون بمعنى لا يخافون ولا يفزعون والنكرة في حيز النفي يفيد الاستغراق، وقرأ الآخرون بلا تنوين بإضافة فزع إلى يومئذ والإضافة أولُ على الاستغراق أو هي للعهد، لتقدم ذكر الفزع فقرأ أكثرهم يومئذ بالجر للإضافة ونافع بفتح الميم على أنه مبني إكتسب البناء ممّا أضيف إليه ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي الشركة ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الفاء للعطف على محذوف لا للجزاء لا تدخل على الماضي بغير قد تقديره من جاء بالسيئة فله جزاء السّيئة أو استحق العذاب ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي فكبوا على وجوههم ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ أو المراد بالوجوه أنفسهم ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يعني ما تجزون ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا جزاؤه وفاقاً لما عملوا فإن الشرك أعظم الجرائم لا شيء فوقه في السوء وجهنم أشد الأجزية، فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب والتقدير ويقول لهم خزنة جهنم ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني مكة أضاف الرّب إلى البلدة تشريفاً لها وإشعاراً بما في الكعبة الحسناء من التجليات المختصة ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ صفة للرب أي جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا ينفر صيدها ولا يختلا خلاها، ذكر هذا الوصف منه على قريش حيث جعل مسكنهم آمناً من الفتن الشائعة في العرب ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خلقاً وملكاً مع تلك البلدة عطف على حرمها أو حال من الضمير المرفوع المستكن فيها ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بتقدير الباء أي أمرت بأن أكون من المنقادين لله تعالى أو ثابتين على ملة الإسلام عطف على ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ ﴿وأن أتلوا﴾ تلاوة الدعوة إلى الإيمان أو هو من التلو بمعنى الاتباع والمعنى أن أتبع ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ عطف على أن أكون وجملة إنما أُمرت متصلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ وقال البيضاوي أمر الله سبحانه لرسوله أن يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وأدى ما كان عليه فلم يبق عليه إلا الاشتغال بشأنه والإستغراق في عبادة ربه والتقدير قل إنما

أمرت بكذا ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بدعوتك وعبد ربه وحده كما أمرت ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ فإن منافعه تعود إليه فليس له أن يمن عليك ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي أخطأ طريق الحق يتبعك بعد تمام الدعوة منك ﴿فَقُلْ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يعني لست عليكم بوكيل ولا عليَّ من وبال ضلالك أصلاً إذ ليس عليّ إلا البلاغ.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة وعلى ما وفقك من تمام التبليغ والدعوة الواجبة عليك ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ الله أيها الضالون ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرة على حقيقة ما دعوتكم إليه في الدنيا كما وقع يوم بدر من قتل وسبي وضرب الملائكة وجوههم فإدبارهم وكما رأوا من إنشقاق القمر وتسبيح الحصا ونحو ذلك وكما يجيء من خروج الدابَّة وغير ذلك نظيره قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[١] أو المعنى سيريكم آياته في الآخرة وقال ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في السماء وفي الأرض وفي أنفسكم كما ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾[٢] ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله ولكن لا ينفعكم حينئذ المعرفة ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿بغافل عما تعملون﴾ فيجازي كلاً على حسب عمله بوقتهم.

تم تفسير سورة النمل من التفسير المظهري في التاريخ الثاني والعشرون من شعبان سنة الخامسة بعد ألف ومائتين (سنة ١٢٠٥هـ) ويتلوه: تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

سورة القصص

آياتها ثمان وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أبان لازم ومتعد يعني ظاهر في كونه من عند الله لإعجازه أو مظهر لأحكامه ومواعيده وما فيها من القصص ﴿نتلو﴾ أي نقرأه بقراءة جبرئيل ﴿عَلَيْكَ﴾ ويجوز أن يكون نتلوا بمعنى ننزل مجازاً ﴿مِن نَّبَإِ﴾ أي بعض نبأ ﴿مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ ظرف مستقر حال من نبأ أي مقروناً بالصدق أو من فاعل نتلوا أي محقين أو ظرف لغو متعلق بنتلوا ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ أي استكبر وتجبر وتعظم إستئناف بيان لذلك البعض ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أي أهل تلك الأرض ﴿شِيَعًا﴾ أي فرقاً يشيعونه فيما يريد من الخدمة أو يشيع بعضهم بعضاً أو فرقاً أكرم منهم طائفة وهم القبط وأهان آخرين وهم بنوا إسرائيل أو

أصنافاً في الخدمة استعمل كل صنف في عمل أو أحزاباً أغرى بينهم العداوة كيلا يتفقوا عليه، وفي القاموس شيعة الرجل أتباعه وأنصاره والفرقة على حدة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنوا إسرائيل الجملة حال من فاعل جعل أو استئناف ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ لأن كاهناً قال يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه كذا أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ويستحيي نسائهم﴾ أي يترك بناتهم أحياء بدل من قوله يستضعف سمى ذلك إستضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد إذ لا ينفعه القتل سواء صدق الكاهن أو كذب.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ أي نفضل ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بإنقاذهم من بأسه جملة نريد حكاية حال ماضية معطوفة على إن فرعون علا من حيث أنهما واقعان تفسيراً للنبأ، أو حال من فاعل يَسْتَضْعِفُ بتقدير ونحن نريد أو عطف على يَسْتَضْعِفُ والرابط بالموصوف وضع المظهر أي الذين استضعفوا موضع الضمير ولا يلزم من مقاربة الإرادة للإستضعاف مقارنة المراد له لكون تعلق الإرادة حينئذ تعلقاً استقبالياً مع أن منة الله بخلاصهم لمّا كانت قرينة الوقوع منه جاز أن يجري مجرى المقارن ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في أمر الدين دعاة الخير كذا قال مجاهد، وقال قتادة ولاة وملوكاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[1] ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لما كان في ملك فرعون وقومه ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر والشام وأصل التمكن أن يجعل للشيء مكاناً يستقر فيه ثمّ أستغير للتسليط ونفاذ الأمر ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأ الأعمش والحمزة والكسائي يرى بالياء مفتوحة فتح الراء وإمالة فتحها ورفع الأسماء الثلاثة على المفعولية ﴿مِنْهُم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ والحذر هو التوقى عن الضرر وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل وكانوا على وجل منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وهي يوخابذ بنت لاوى بن يعقوب عليه السلام كذا ذكر البغوي أجمعوا على أنه ليس بوحي نبوة وأن النبي لا يكون إلا رجلاً، قال قتادة قذف في قلبها وهو الإلهام في اصطلاح الصوفية ومن جنسه المنام الصادق الموجب لليقين واطمئنان القلب وهو أيضاً من قبيل الإلهام، وهذه الآية تدل على أن الإلهام أيضاً من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٠.

أسباب العلم وإن كان علماً ظنّيا والمعتبر إلهام القلوب الزاكية والنفوس المطمئنة والفرق بين الوسوسة الإلهام بحصول اليقين واطمئنان القلب ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أن مفسرة لأوحينا لأن فيه معنى القول أو مصدرية يعني أرضعي موسى ما أمكنك إخفاؤه، قال البغوي إختلفوا في مدة إرضاع موسى عليه السلام أمه؟ قيل هي ثمانية أشهر وقيل أربعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حجرها وهو لا يبكي ولا يتحرك ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحس به ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ في البحر يريد النيل ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه الضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ لفراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ من قريب بحيث تأمنين عليه ﴿وجاعلوه من المرسلين﴾.

روى عطاء والضحاك عن ابن عباس: أن بني إسرائيل لما كث٤روا بمصر واستطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن ناهم الله على يدي نبيه موسى عليه السلام، قال ابن عباس رضي ا عنهما: إن أم موسى لما دنى ولادتها وكانت قابلة من القوابل اللاتي وكّلمهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافيه لأم مولى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها وقالت: قد نزل بي ما نزل فلينفعني حبك إياي اليوم، قال: فعالجت فلما أن وقع موسى عليه السلام بالأرض هالها نور بين عيني موسى عليه السلام فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام في قلبها ثم قالت: يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلا ومن ورائي قتل مولودك ولكن وجدتُ لابنك حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه فاحفظي ابنك فإني أراه مناونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصر بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته: يا أماه هذا الحرس بالباب، فلفّت موسى في خرقة فوضعته في التنور وهو مسجور فطاش عقلها فلم تعقل فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن، فقالوا لها: ما أدخل عليك القابلة؟ قالت: هي مصافية لي فدخلت عليّ زائرة فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها، فقالت لأخت مولى عليه السلام: فأين الصبي؟ قالت: لا أدري، فسمعت بكاء الصبي من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه برداً وسلاماً فاحتملته.

قال ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في نفسها أن تتخذ له تابوتاً ثم تقذف التابوت في اليم وهو النيل فانطلقت إلى رجل من قوم فرعون نجار فاشترت منه تابوتاً صغيراً فقال لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت، قالت ابن لي أخبأه في التابوت وكرهت الكذب، قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته فانطلقت إنطلق النجار إلى الذبّاحين ليخبرهم بأمر أم

موسى فلمّا هم بالكلام أمسك الله تعالى فلم يطق الكلام وجعل يشير بيده فلم يدر الأمناء ما يقول فلما أعياهم أمره، قال كبيرهم إضربوه وأخرجوه فلمّا انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضاً يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه ووقع في واد يهوي فيه حيران فجعل عليه أن رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه ويحفظه حيث ما كان فعرف الله منه الصدق فرد الله عليه بصره ولسانه فخر لله ساجداً فقال يا رب دلّني على هذا.

وقال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها من جميع الناس فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمن على بني إسرائيل، فلمّا كانت السنة التي يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن ففتشن النساء تفتيشاً لم يفتش قبل ذلك وحملت أم موسى بموسى فلم ينت بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها وكانت القوابل لا تتعرض لها فلمّا كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم وأوحى الله إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[1] الآية فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك فلمّا خافت عليه عملت له تابوتاً مطبقاً، قيل وضعته في تابوت مطلى بالقار من داخل ممهداً له فيه وأغلقته ثم ألقته في البحر ليلاً.

قال ابن عباس وغيره: فكان لفرعون يومئذ بنت ليس له ولد غيرها وكانت أحب الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا في أمرها فقالوا لها أيتها الملكة لا تبرئي إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيطلح به برصها فتبرأ من ذلك وذا يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان يوم الإثنين غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه إمرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت ابنة فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل مع جواريها حتى تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن إذ أقبل النيل بالتابوت يضربه الأمواج فقال فرعون إن هذا الشيء في النيل قد تعلق بالشجرة ائتوني به، فابتدروا بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجت ففتحت الباب فإذا هي بصبيّ صغير في مهده وإذا نورٌ بين عينيه وقد

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

جعل الله رزقه في إبهاميه يمصهما لبناً فألقى الله تعالى المحبة لموسى في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت ابنة فرعون فلمّا أخرجوا الصبيّ من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان من ريقه فلطخت ببرصها فبرأت فقبّلته وضمته إلى صدرها، فقالت الغواة لفرعون أيها الملك إنا نظنُّ أن ذلك المولود الّذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا رمُي به في البحر خوفاً منك أن نقتله فهمَّ فرعون بقتله قالت آسية (قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)[١] وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لي فيه، قال رسول الله ﷺ: «لو قال يومئذ هو قرة عين لي كما هو لكِ لهداه الله كما هداها»[٢]، فقيل لآسية سميّه فقالت سميته موسى لأنا وجدناه بين الماء والشجر «فمو» هو الماءُ ـ «سا» هو الشجر.

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ﴾ اللام للعاقبة تشبهاً لعاقبة الأمر ومراده بالغرض الباعث على الفعل لتحقق وقوعها ﴿لَهُمۡ عَدُوّٗا﴾ يقتل رجالهم ﴿وَحَزَنًاۗ﴾ يستعبده نساءهم، قرأ حمزة والكسائي بضم الحاء وسكون الزاء والباقون بفتحهما وهما لغتان في المصدر وهو هاهنا بمعنى الفاعل ﴿إن فرعون و﴾ وزيره ﴿هامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ في كل شيء فليس منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون أو المعنى كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربّى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراض لتأكيد خطاءهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ لفرعون عطف على ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ قال وهب بن منبه لما وضع التابوت بين يديه وفتحوه وجدوا فيه موسى فلما نظر إليه قال عبراني من أهل الأعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا الغلام، وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء وكانت من بنات الأنبياء وكانت أمّاً للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم قالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرتَ بذبح الولد لهذه السنة فدعه يكن قرت عين لي ولك خبر ومبتدأه محذوف ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ خطاب بلفظ الجمع على التعظيم، وروي أَنها قالت أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ علة لقوله تعالى: لا تقتلوه فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك بما رأت من نور بين عينيه وارتضاعه إبهامه لبناً وبرء البرصاء بريقه

---

(١) سورة القصص، الآية: ٩.

(٢) رواه إسحاق بن بشر في المبتدأ وابن عساكر انظر كنز العمال (٣٠٢٢).

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو نتبناه فإنه أهل له فأطاعوها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حال من الملتقطين يعني هم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه فاستحياه فرعون فألقى الله عليه محبته، أخرج بن جرير عن محمد بن قيس مرفوعاً أنه قال فرعون قرة عين لك لا لي ولو قال قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها، وقال ابن وهب قال ابن عباس لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعَهُ الله ولكن أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ يعني صار عطف على قالت امرأة فرعون ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أي خالياً من العقل لشدة الخوف والحزن حين سمعت وقوعه في يد فرعون كقوله تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[1] أي خلاء لا عقول فيها، وقال أكثر المفسرين أي خالياً من كل شيء سوى ذكر موسى وهمّه، وقال الحسن فارغاً أي ناسياً للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2] فجاءه الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيته في البحر وأغرقته. فلمّا جاءها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت أنه وقع في يد عدوه فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها، قلتُ: لعل حزنها لمّا كان إلهام الأولياء دليلاً ظنياً فأفزعته احتمال الخطأ في الإلهام، وقال أبو عبيدة معناه فارغاً من الحزن لعلمها بصدق وعد الله تعالى، وأنكر القتيبي هذا وقال كيف يكون هذا والله يقول ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن واللام فارقة أي إنها كادت ليظهر به أي بموسى يعني بأمره أنه ابنها من شدة جزعها كما قال عكرمة عن ابن عباس أنها كادت تقول وإبناه، وقال مقاتل لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها، وقال الكلبي كادت تظهر أنه إبنها وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شبَّ موسى بن فرعون فشق عليها فكادت تقول هو إبني فقيل معنى الآية وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الحزن حين سمعت أن فرعون تبناه فكادت لتبدى به أي بأنه ابنها حيث لم تملك نفسها من شدة الفرح، وروى ابن جرير وابن أبي نعيم عن السديّ أنه قالت أخت موسى هل أدلكم إلى آخره وجاءت بأمها فأخذ موسى ثديها فكادت تقول هو ابني فعصمها الله، وقال أبو عبيدة معنى الآية أصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الخوف والحزن لقوله تعالى: ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾ وإن كادت لتبدي

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧.

به يعني أنها لشدة وثوقها بوعد الله كادت أن تظهر أنه ابنها أو تظهر بالوحي إليها بأن الله وعدني برده إليّ وجعله من المرسلين ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ظرف لغو متعلق بقوله ربطنا وهي بتأويل المصدر لولا ربطنا ثابت على قلبها يعني لولا ربطنا بالصبر على الجزع أو على كتمان الفرح على التأويل الأول والثاني أو الصبر على كتم أسرار الله تعالى على تأويل أبي عبيدة، وجواب لولا محذوف أيضاً دلّ عليه ما قبله يعني لأبدت به ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بربطنا يعني ربطنا على قلبها بالصبر على الجزع أو على كتم الفرح لتكون من المصدقين بوعد الله أو متعلق بأصبح، والمعنى اصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الخوف والحزن لتكون من المؤمنين الموقنين بوعد الله وعلى ما ذكرنامن التأويل إندفع إنكار القتيبي على تأويل أبي عبيدة وجملة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ معترضة حينئذ، قال يوسف بن حسين أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حفظها فربط على قلبها وسكن قلقها الذي وجدت من شدة الحزن أو الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون.

﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى عطف على أصبح ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ مريم بنت عمران ﴿قُصِّيهِ﴾ أي إتبعي أثره وتبتغي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ عطف على محذوف معطوف على قالت تقديره فبصرت له ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي عن بُعد حال من أحد الضميرين المرفوع أو المجرور وفي القصة أنها تمشي جانباً وتنظر إختلاساً ترى أنها لا تنظر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته وأنها ترقبه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ عطف على بصرت والمراد بالتحريم المنع التكويني دون

التكليفي والمراضع إما جمع مُرضع بالضم يعني منعنا عنه لبن كل مرضعة فلم يرتضع من إحداهن وإما جمع مراضع بالفتح على أنه مصدر ميمي بمعنى الرضاع أو ظرف وهو الثدي ﴿مِن قَبْلُ﴾ قصصها، قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة وكانوا كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ موسى ثديها حتى رأته أخت موسى في ذلك الحال وفي القصة أن موسى مكث ثماني ليال لا يقبل ثدياً ويصيح ﴿فَقَالَتْ﴾ عطف على حرمنا ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم صفة لأهل بيت ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته والنصح ضد الغش وهو تصفية العمل عن شوب الفساد حال من فاعل يكفلونه، قال ابن جريج والسديُّ لمّا قالت أخت موسى (وهم له ناصحون) اخذوها وقالوا إنّك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله قالت ما أعرفه وقلت وهم للملك ناصحون كذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، وقيل إنها قالت إنما قلت هذا رغبةً في سرور الملك وإتصالنا به وقيل إنها لمَّا قالت هل أدلكم على أهل بيت قالوا لها من قالت لأمي قالوا لأمك ابن قالت نعم هارون (وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها الولدان) قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلمَّا وجد موسى ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه، قال السديُّ كانوا يعطونها أجرة كل يوم ديناراً، قيل إنما أخذتها لأنها كانت مال حربي وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ عطف على جمل محذوفة معطوفة بعضها على بعض معطوفة على فَقَالَتْ هل أدلكم تقديره فقالوا دلني فدلت على أمها فقالوا ائتي بها فانطلقت فأتت بها فوضعوه في حجرها فأرضعته فرضعه فسلموه إليها للإرضاع فرددناه إلى أمه ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برد موسى إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه عطف على تقر ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾أم موسى عطف على لا تحزن ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ برده إليها ﴿حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعد الله حق ولو علموا ذلك لما ارتكبوا منهيات الله خوفاً من وعيده وما تركوا أوامره طمعاً في وعده وفيه تعريض على أم موسى لما فرط منها حين جزعت على تأويل اصبح فؤاد أم موسى فارغاً بمعنى خالياً من الصبر، وقيل يعني لا يعلمون بهذا الوعد ولا بأن هذه أخته وهذه أمه فمكث عندها إلى أن فطمته فأتت به إلى فرعون فتربى عنده كما قال الله تعالى حكايةً عنه في سورة الشعراء: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[1].

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ موسى ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ جمع شدة بمعنى القوة كالنعم جمع نعمة يعني مبلغه الذي لا يزيد إليه نشؤه قال الكلبي الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، وقال مجاهد وغيره ثلاث وثلاثون سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ عقله أي بلغ اربعين سنة كذا روى سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل استوى أي انتهى شبابه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي النبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي معرفة بالله وبأحكامه قيل ليس المراد به الإستنباء لأنه يكون بعد الهجرة في المراجعة من هذين بل المراد به الفقه والعلم بالشرائع، قلت: العطف بالواو للجمع المطلق لا دليل فيه على الترتيب فالاستنباء وإن كان بعد الهجرة لكن ذكره بالشرائع، قلت: العطف بالواو للجمع المطلق لا دليل فيه على الترتيب فالاستنباء وإن كان بعد الهجرة لكن ذكره هاهنا لبيان إنجاز الوعد بتمامه حيث قال إنا رادده إليك وجاعلوه من المرسلين ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ صفة المصدر محذوف تقديره ﴿نجزي المحسنين﴾ جزاء كذلك أي مثل ذلك الذي جزينا موسى وأمه على إحسانهما.

﴿وَدَخَلَ﴾ موسى ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ عطف على ﴿لما بلغ أشده﴾ قال السديُّ هي مدينة مدين من أرض مصر وقال مقاتل كان قرية تدعى خانين على رأس فرسخين من مصر، وقيل مدينة عين الشمس وقال المحلي مدينة منف دخلها بعد أن غاب عنها مدة ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة، وقال محمد بن كعب القرظي دخلها فيما بين المغرب والعشاء، قال السدي وذلك أن موسى يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس ملابسه فركب فرعون يوماً وليس عنده موسى فلمَّا جاء موسى قيل له إن فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس في طرقها أحد، وقال ابن إسحاق كان لموسى شيعة من بين إسرائيل يستمعون منه ويقتدون به فلمَّا عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينه حتى ذكر ذلك منه وأخافوه وخافوه وكان لا يدخل قرية إلا خائفاً مستخفياً فدخلها حين غفلة من أهلها، وقال ابن زيد لما عدا موسى فرعون بالعصا في صغره وأراد فرعون قتله فقالت إمرأة فرعون هو صغير فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته فلم يدخل إلا بعد أن كبر وبلغ أشده (فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها) يعني حين غفلة عن ذكر موسى من بعد نسائهم خبره وأمره لبعد عهدهم به، قال البغوي وروي عن علي رضي الله تعالى في قوله تعالى حين غفلة من أهلها يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ صفة لرجلين أي يختصمان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ يعني من بني إسرائيل هذه الجملة مع ما عطف عليها حال من رجلين بترك الواو على طريقة كلمته فوه إلى فيّ

بتقدير تقديره فوجد رجلين يقال فيهما هذا من شيعته ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي من القبط وجاز أن يكون هذا وهذا بدلاً من رجلين، وقوله من شيعته ومن عدوه حال من المشار إليه والعامل فيه معنى الإشارة ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ عطف على وجد ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ والإستغاثة طلب الغوث إستغاث الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى واشتد غضبه لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعوني خل سبيله فقال إنما نأخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فتنازعه فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة القوة والبطش ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قرأ ابن مسعود فلكزه موسى ومعناهما واحد وهو الضرب يجمع الكف، وقيل الوكز الضرب في الصدر واللكز في الظهر، وقال الفراء معناهما الدفع وقال أبو عبيدة الوكز الدفع بأطراف الأصابع وفي بعض التفاسير عقد موسى ثلاثاً وثمانين فضربه في صدره ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله ودفنه في الرمل كذا قال المحلي ومعناه فرغ من أمره فكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه ولم يكن لموسى قتله فندم عليه موسى و﴿قال﴾ الخ الجملة مستأنفة ﴿هَٰذَا﴾ أي القتل ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إنما قال ذلك لأنه لم يكن مأموراً حينئذ بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له إغتيالهم وهذا لم يكن مناف لعصمه لكونه خطأ وإنما عد ذلك الأمر من عمل الشيطان وسماه ظلماً واستغفر عنه على عادة المقربين في إستعظام محقرات صدرت منهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿قَالَ﴾ جملة مستأنفة ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل نفس من غير أمرك ﴿فاغفر لي﴾ خطيئتي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ عطف على قال أي غفر الله لموسى حقه ولم يكن القبطي معصوم الدم حتى لا يتصور المغفرة من غير قصاص أو عفو من المقتول أو ورثته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿قَالَ﴾ مستأنفة أخرى ﴿رب بما أنعمت عليّ فلن أكون﴾ الباء في (بما أنعمت) للقسم وجوابه ما بعده وقوله: (فلن أكون) معطوف على محذوف تقديره أقسم بإنعامك عليَّ بالنبوة والمغفرة غير ذلك تُبتُ فلن أكون، أو الباء متعلق بمحذوف تقديره رب اعصمني من الزلات بحق إنعامك عليَّ وعلى هذا قوله فلن أكون جوابٌ للدعاء أي ليكن منك إعصامي فعدم كوني ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس أي للكافرين وهذا لو صحّ لدلَّ على أن الإسرائيلي كان كافراً وهو قول مقاتل، وقال قتادة معناه لن أعين بعد هذا على خطيئة وقيل معناه لن أكون معيناً لمن أدت معاونته إلى جرم.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي قتل فيها القبطي عطف على (فقضى عليه) ﴿خَائِفًا﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الإنتقام من ورثة المقتول أو يترقب النصر من ربه حالان من فاعل أصبح ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثه مشتق من الصراخ قال ابن عباس أتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا منّا رجلاً فخذلته بحقنا فقال انجوا إلى قاتله ومن يشهد عليه فلا يستقيم أن يقضى بغير بينة فبيناهم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونيّاً فاستغاثه على الفرعوني فصادف موسى وقد ندم ما كان منه بالأمس من قتل القبطي ﴿قَالَ لَهُ﴾ أي للإسرائيلي ﴿مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ بين الغواية حيث تسبّبت قتل رجل بالأمس وتقاتل اليوم رجلاً آخر وتستغيثني وقيل إنما قال للفرعوني (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) بِظُلِمك ثم أدرك موسى الرقة بالإسرائيلي لما رأى ظلم الفرعوني عليه فمد يده لبطش الفرعوني ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ظن الإسرائيلي أنه يريد بطشه لما رأى من غضبه وسمع قوله إنك لغوي مبينٌ ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلي ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ أو قال ذلك القبطي لما توهم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي والأول أظهر ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ أي ما تريد ﴿ألا أن تكون جبارا﴾ قتالاً بالغضب ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر حيث تطاول على الناس ولا تنظر العواقب ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن فلما سمع القبطي قول الإسرائيلي (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) علم أن قاتل القبطي بالأمس كان موسى إنطلق إلى فرعون وأخبره بذلك فأمر فرعون بقتل موسى أو سمع الناس مقالاتهم واشتهر أن موسى قتل القبطي وأرتفع إلى فرعون وملئه فهموا بقتله ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ عطف على (قال يا موسى) قال أكثر أهل التأويل هو حزئيل مؤمن آل فرعون وقيل اسمه شمعون وقيل

سمعاً ﴿من أقصا المدينة﴾ ظرف مستقر صفة لرجل وليس متعلقاً بجاء لأن تخصيصها ألحقه بالمعارف فصح أن يكون قوله ﴿يَسْعَىٰ﴾ حالاً منه يعني جاء ذلك الرجل يسرع في مشيه فأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره و﴿قال يا موسى إن الملأ يأتمرون﴾ أي يأمر بعضهم بعضاً متلبساً ذلك الأمر ﴿بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي لكي يقتلوك أو يأمر بعضهم بعضاً بقتلك واللام زائدة، وقيل معناه يتشاورون بك سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر لكي يقتلوا ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّي لَكَ﴾ متعلق بمحذوف خبر لإن يعني أني نافع لك ﴿من الناصحين﴾ خبر ثان ولا يجوز أن يكون لك متعلقاً بناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول، وقيل متعلق بناصحين والكلام محمول على التقديم والتأخير وقيل لك بيان لمبهم كأنه قال (إني من الناصحين) ثم أن يبيّن فقال لك أي أنصح لك واللام فيه لتقوية عمل فعل محذوف ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من تلك القرية ﴿خَآئِفًا﴾ على نفسه ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينتظر الطالب من خلفه وقيل يترقب النصر من ربه فإن قيل هذه الآية تدل على جواز الخوف للأنبياء من غير الله سبحانه وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فما التوفيق؟ قلنا: الخوف على نفسه من مقتضيات الطبيعة لا ينافي النبوة والمراد بقوله تعالى: ﴿لا يخشون أحداً إلا الله﴾[1] إنهم لا يبالون في إتيان أوامره تعالى والإنتهاء عن مناهيه لحوق مضرة بهم من أحد سوى الله تعالى بخلاف سائر الناس فإنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴿فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾[2] ﴿قَالَ﴾ موسى استئناف أو حال بتقدير قد من فاعل خرج ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين يعني خلصني منهم واحفظني من لحوقهم وفي القصة أن فرعون بعث في طلبه حين أخبره ربه فقال إركبوا بينات الطريق فإنه لا يعرف كيف الطريق.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قال الزجاج أي سلك الطريق التي يلقى فيها مدين وهي قرية سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، وكان موسى قد خرج بلا ظهر وبلا زاد وكان مدين على مسافة ثمانية أيام من مصر ولم يكن في سلطنة فرعون، ولمّا ظرف فيه معنى الشرط متعلق بقوله: ﴿قَالَ﴾ يعني موسى توكلاً على الله وحسن ظن به ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالفتح والباقون بالإسكان ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ والجملة معطوفة على ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي﴾ وإضافة سواء إلى السبيل إضافة صفة إلى موصوفه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩. (٢) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.

والمعنى أن يهديني السبيل السوي الذي لا زحمة فيه ولم يكن موسى يعرف الطريق إليها فلما قال هذا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به قال المفسرون خرج موسى من مصر ولم يكن معه إلا ورق الأشجار والبقل حتى يرى خضرته في بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه، قال ابن عباس هو أول إبتلاء من الله لموسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي على الماء يعني جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾ أي جماعة كثيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي في مكان أسفل من مكانهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ﴾ حال من إمرأتين أو صفة لهما أنهما تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم ﴿قَالَ﴾ موسى للمرأتين.

﴿مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ أي ما شأنكما حيث تمنعان مواشيكما عن الماء والخطب بمعنى الشأن كذا في القاموس قيل هو مصدر بمعنى المفعول يعني ما مخطوبكما يعني ما مطلوبكما من هذا المنع ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى﴾ أغنامنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر يصدر بفتح الياء وضم الدال على أنه فعل لازم بمعنى يرجع، والباقون بضم الياء وكسر الدال من الأفعال يعني حتى يصرف الدعاء مواشيهم عن الماء حذف المفعول من يسقون وتذودان ولا تسقى لأن الغرض هو الفعل دون المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذود مع الحاجة إلى السقي لأجل ضعفهما والناس على السقي ولم يرحمهما لأن مزودهما غنم وسقيهم إبل وأيضاً الغرض بيان ما يدل على عفتهما واحترازهما عن مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ السن لا يقدر أن

يسقي مواشيه ولذلك احتجنا إلى سقي المواشي، والجملة حال من فاعل لا نسقي ووجه مطابقة جوابهما سؤاله أنه سألهما عن سبب الذود فقالتا السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحي من اختلاطهم فلا بد لنا من الذود وتأخير السقي كيلا يختلط الغنم، قال البغوي إختلفوا في اسم أبيهما؟ فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن هو شعيب عليه السلام، وقال وهب وسعيد بن جبير هو ثيرون بن أخي شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كف بصره فدفن بين المقام والزمزم، وقيل رجل ممن آمن بشعيب عليه السلام.

فلما سمع موسى قولهما رحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غنمهما قال ابن عباس زاحم القوم ونجاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين، وقيل اقتلع موسى صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربها لا يطيق رفعها إلا الجماعة من الناس قيل عشرة أنفس ويقال أنه نزع دلواً واحداً ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل شجرة فجلس في ظلها من شدة الحرّ ولمّا طال البلاء بموسى آنس بالشكوى إلى مولاه ولا بأس في الشكوى إذا كان إلى المولى دون غيره ﴿فَقَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ قال أهل العلم اللام بمعنى إلى يقال فقير له وفقير إليه والمراد بالإنزال الإعطاء، يقال أنزل الله تعالى نعمه أو نعمته على الخلق أي أعطاهم إياه وذلك قد يكون بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن وإنزال المطر وقد يكون بإنزال أسبابه والهداية إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾[(١)] و﴿أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[(٢)] و ﴿أنزلنا عليكم لباساً﴾[(٣)] وأنزلت هاهنا صيغة ماض أريد به المستقبل أو بمعنى قدرت إنزاله إليَّ والمعنى أن ما تعطيني أو قدرت إعطاءه إيّاي ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي طعام قليل أو كثير ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج سائل يعني أعطني ما شئت قليلاً أو كثيراً ولتضمنه معنى السؤال عدي باللام موضع إلى قال ابن عباس سأل الله لقمة يقيم بها صلبه، قال الباقر عليه السلام لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى عليه السلام (رب إني لما انزلت إلي من خيرٍ فقيرٌ) وهو أكرم على الله وقد افتقر إلى شق تمرة، قال مجاهد ما سأله إلا الخير، وقيل معناه إني لما إنزلت أي بسبب ما أنزلت إليّ من خير أي الدين والحكمة فقير أي صرت فقيراً في الدنيا لأجل مخالفة فرعون في الدين فإنه كان في سعة عند فرعون والغرض منه

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥. (٢) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

إظهار التبهج والشكر على ذلك، قلتُ: وجاز أن يكون المعنى وإني إلى ما أنزلت إليّ من خير أي الدين والحكمة فقير سائل منك المزيد فيه كأنه قال رب زدني علماً، قلتُ: وجاز أن يكون أنزلت مشتقاً من النُزُل بضم النون والزاء وهو ما يُعَدُّ للنازل من الزاد يقال أنزلتُ فلاناً أي أضفته والمعنى إلى فقير محتاج سائل لما تعد لي من الطعام.

﴿فَجَآءَتْهُ﴾ عطف على محذوف تقديره فرجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغناهما حنك لطان فقال لهما أبوهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى أغنامنا فقال لأحدهما إذهبي فادعيه لي (فجاءته) ﴿إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الظرف حال من فاعل تمشي وجملة تمشي حال من فاعل جاءت، قال البغوي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليست بسلفع من النساء خرَّاجةٌ دلأَّجةٌ ولكن جاءت مستترة وضعت كمّ درعها على وجهها إستحياءً ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أخرج ابن عساكر وكذا ذكر البغوي أنه قال أبو حازم سلمة بن دينار لما سمع موسى ذلك أراد أن لا يذهب ولكن كان جائعاً فلم يجد بدّاً من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها امشي خلفي ودليّني على الطريق إن أخطأت ففعلت ذلك، فلمّا دخل على شعيب إذا هو قد تهيّأ للعشاء فقال إجلس يا شابٌّ فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذلك ألستَ بجائع قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيتُ لهما وأنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا فقال شعيب لا والله يا شابٌّ ولكن عادتي وعادة آبائي نقرىء الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل، قلتُ: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صريح في أنها دعت موسى إلى إعطاء الأجر وموسى أجاب دعوتها ومشى معها ولم يكن ذلك بعدما أراد أن لا يذهب على ما قال أبو حازم فالآية تدل على بطلان هذه القصة فإنها تدل على الإنكار بعد الدعوة وأيضاً هذه القصة يعارض قول موسى في قصة الخضر ﴿لو شئت لاتخذت عليهِ أجراً﴾[(١)] وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال كنت أرعى على قراريط لأهل مكة»[(٢)] رواه البخاري، وسنذكر قوله ﷺ: «إن موسى أجر نفسه ثمان سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه» والحق أن المكروه إنما هو

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: رعي الغنم على قراريط (٢٢٦٢).

أخذ الأجر واشتراطه على عملٍ هو عبادة مقصودة بنفسها أو شرط لعبادة مقصودة كالأذان والإمامة وتعليم القرآن لا على ما هو مباح في نفسه يصير طاعة بنية صالحة وقد أجاز الشافعي أخذ الأجرة على الأذان ونحو ذلك وأجاز المتأخرون من الحنفية أخذ الأجرة على تعليم القرآن والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ معطوف على جمل محذوفة تقديره فلما جاءته وقالت ما ذكر جاء موسى شعيباً عليه السلام (فلما جاءه) أي جاء موسى عنده أي عند شعيب وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿وَقَصَّ﴾ موسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ معنى الآية أخبر موسى خبره أجمع من قتله القبطي وقصد فرعون قتله ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني من فرعون وقومه وإنما قال ذلك لأن فرعون لم يكن سلطانه على مدين وجملة نجوت تعليل لقوله لا تخف ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني التي استدعته ﴿يأبت استأجره﴾ أي إتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي خير من استعملت من قويٌّ على العمل وأدى الأمانة تعليلٍ سائغ تجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فيه جعل خبر اسم إنَّ وذكر الفعل بلفظ الماضي وإن كان المعنى على الاستقبال للدلالة على أنه مجرب معروف، أخبر الخطيب في تاريخه عن أبي ذر يرفعه أنه قال لها أبوها وما أعلمك بقوته وأمانته قالت أما قوته فإنه رفع حجراً من رأس البئر لا يرفعها إلا عشرة وقيل أربعون رجلاً وأما أمانته فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك، روي عن ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف حيث قال (عسى أن ينفعنا) وأبو بكر في عمر حيث جعله خليفةً في حياته ﴿قَالَ﴾ شعيب عند ذلك ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ إسمهما صفورة وليّا في قول شعيب الجبائي وقال ابن إسحاق صفورة وشرقا وقال غيرهما الكبرى صفرا والصغرى أصفيرا، قال وهب بن منبه زوجه الكبرى وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى واسمها صفورة وهي التي ذهبت لطلب موسى كذا روى البزار والطبراني من حديث أبي ذر مرفوعاً وكذا أخرج البخاري عن أنس، قال البغوي روى أبو ذر مرفوعاً «إذا سُئِلتُ أيُّ الامرأتين أنكحها إياه فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما» ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ أي تأجر نفسك منى وتكون لي أجيراً وقال الفراء أن تجعل ثوابها من تزويجها بقول العرب أجرك يأجرك أي أثابك والمعنى على أن تثيبني من تزويجها أن ترعى غنمي ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرف على التأويلين الأولين ومفعول به على تأويل الفراء بإضمار مضاف والحجج السنوات واحده

حجة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أي عشر سنين في رعي الغنم ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فذلك تفضل من عندك وتبرع وليس بواجب عليك، وهذا استدعاء لعقد النكاح لانفسه إذ لو كان عقداً لقال قد أنكحتُك هذه بتعين إحداهما فالظاهر أنه جرى بعد ذلك العقد على واحدة معينة منهما لكن هذه الآية تدل على أن رعي الغنم ثمان سنين جعل تمام المهر أو بعضه بانضمام مال آخر معه، ويدل عليه ما رواه أحمد وابن ماجه عن عتبة بن المنذر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طَسمّ حتى بلغ قصة موسى فقال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثمان سنين على عفة فرجه وطعام بطنه»[1].

مسألة:

بهذه الآية والحديث استدل الفقهاء على أنه من نكح إمرأة على أن يرعى الزوج غنمها جاز حيث ذكر رسول الله ﷺ قصة موسى من غير بيان نفيه في شريعتنا وبه قال أبو حنيفة رحمه الله في رواية ابن سماعة عنه ولا يجوز ذلك عند أبي حنيفة في رواية الأصل والجامع، وجه قول أبي حنيفة أن الاستدلال بهذه الآية والحديث المذكور في هذه المسألة لا يجوز إلا إذا ثبت كون الغنم ملكاً للبنت للإجماع على أن المهر في شريعتنا يكون للزوجة لا لوليها والغنم كانت لشعيب عليه السلام فالإجماع دل على أن هذا الحكم كان في شريعتهم لا في شريعتنا وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾[2] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام تمام العشرة أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال المشقة مشتقة من الشق بمعنى الفرق فإن ما يصعب عليك يشق أي يفرق عليك اعتقادك في إطاقته ورأيك في مزاولته ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ قال عمر في حفظ الصحبة والوفاء بما قلتُ، وهذه الجملة تأكيد لقوله: ﴿ما أريد أن اشق عليك﴾ والمراد بالاشتراط بمشيئة الله فيما وعد من الصلاح الإتكال على توفيقه فيه ومعونته وعدم الاتكال على نفسه لا التردد في الوعد.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الشرط ثابت ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ مما شرطت على ذلك وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي منصوب بقضيت وما زائدة مؤكدة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الإجارة، باب: إجارة الأجير على طعام بطنه (٢٤٤٤)، وإسناده ضعيف لأن فيه بقية وهو مدلس.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٤.

للإبهام والمعنى أي الأجلين أطولهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ أي وفيتك ﴿فلا عدوان عليّ﴾ جزاء لما تضمن أيما معنى الشرط والجملة الشرطية بدل من قوله: (ذلك بيني وبينك) يعني لا تعتدي عليّ بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة عند قضاء عشر سنين كذلك لا أطالب بالزيادة عند قضاء ثمان أو فلا أكون معتدياً بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم عليَّ وهو أبلغ في إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يقال إن قضيتُ الأقصر فلا عدوان عليّ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطة ﴿وكيل﴾ قال ابن عباس فيما بيني وبينك والجملة حال مما سبق والوكيل هو من وكل إليه الأمر واستعمل هاهنا موضع الشاهد والرقيب ولذلك عدي بعلى، وروى شداد بن أوس مرفوعاً «بكى شعيب النبيّ ﷺ حتى عمي فرد الله بصره فقال الله ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال لا يا رب ولكن شوقاً إلى لقائك فأوحى الله إليه إن يكن ذلك فهنيئاً لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك موسى»(١).

ولمَّا تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه. واختلفوا في تلك العصا؟ قال عكرمة خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبرئيل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه، وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبي إلا كلمته فصار من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم وصلت إلى شعيب وكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى، وقال السدي كانت تلك العصا أودعها ملك في صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فلما رآها شعيب قال لها ردي هذه العصا وأتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها ولا تقع في يدها إلا هي حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطاها موسى فأخرجها موسى معه ثم إن الشيخ ندم وقال كانت وديعة فذهب في أثره وطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما، فأتاهما ملك في صورة رجل فحكم أن يطرح العصا فمن حملها فهي له فطرح فعالجها ليأخذها فلم يطقها فأخذها موسى فرفعها فتركها له الشيخ، ثم إن موسى لما أتم الأجل وسلَّم شعيب ابنته قال موسى للمرأة أطلبي من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها فقال شعيب لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها، قيل أراد شعيب أن

(١) رواه الخطيب وابن عساكر، قال الخطيب الحديث منكر، وقال الذهبي في الميزان حديث باطل لا أصل له.

يجازي موسى على حسن رعيته إكراماً له ووصلةً لابنته فقال إني قد وهبتُ لك من الجدايا التي تضع هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مسقى الأغنام فضرب بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحد منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله عز وجلّ إلى موسى فأمره فوفى له بشرطه وسلم الأغنام إليه.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي أتمه وفرغ منه، روى البغوي عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلتُ لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسئله فقدمتُ فسألتُ ابن عباس فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل، قال البغوي روى أبو ذر إذا سألتَ أيُّ الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما رواه البزار، وقال مجاهد لما قضى موسى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشراً أخر فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه في العود إلى مصر فأذن له فخرج إلى مصر ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ حتى إذا بلغ بريةً قريباً من طور سيناء في ليلة مظلمة شديدة الشتاء وأخذ إمرأته الطلق ﴿ءَانَسَ﴾ أي أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي من جهة التي تلي الطور ﴿نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ مكانكم وجمع الضمير وإن صح أن لم يكن معه غير إمرأته لماكنى عنها بالأهل ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانه ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ الجملة في مقام التعليل لامكثوا ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ قرأ الكوفيون بإسكان الياء في الباقون بفتحها

﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي من النار لأجل إضاءتها الطريق ﴿بِخَبَرٍ﴾ الطريق وكان قد أخطأ الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ قرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة بضمها والباقون بكسرتها ثلاث لغات، قال البغوي قال قتادة ومقاتل هي العود الذي قد احترق بعضها وجمعها جذى وفي القاموس الجذوة مثلثة القبسة من النار والجمرة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي نتخذه من النار ومن للإبتداء أو للتبعيض، وقال البيضاوي هي عود غليظ سواء كان في رأسه نار أو لم يكن ولذلك بينه بقوله من النار فمن للبيان ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها.

﴿فلما أتاها نودي من شاطىء﴾ أي جانب ﴿الواد الأيمن﴾ أي الوادي الذي عن يمين موسى ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متعلق بنودي يعني مباركة لموسى حيث كلمه الله تعالى هناك وبعثه نبيّاً، وقال عطاء يريد المقدسة ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل إشتمال من الشاطىء، لأنها كانت نابتة على الشاطىء قال ابن مسعود كانت شجرة خضراء تبرق، وقال قتادة ومقاتل والكلبي كانت عوجة، وقال وهب من العليق وعن ابن عباس أنها العذب ﴿أن﴾ مفسرة لنودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال في طه ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[1] وفي النمل ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] والمقصود واحد، فهو إما رواية بالمعنى أو ذكر الله سبحانه في المحكي بالصفات المذكورة كلها واقتصر في الحكاية على بعضها كما اقتصر على بعض ما تكلم به في كل موضع فإنه ذكر في طه ﴿إخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾[3] الخ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾[4] وقال في النمل ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ﴾[5] الخ ﴿وأن ألق عصاك فلما رآها﴾ عطف على محذوف تقديره فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت فلما رآها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ يعني كأنها حية صغيرة في سرعة حركتها وشدة اضطرابها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هارباً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع فنودي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ عن المخاوف فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ﴾ أي أدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي جيب قميصك ﴿تَخْرُجْ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال من المفعول المحذوف لتخرج أي تخرجها بيضاء ذات شعاع ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ متعلق ببيضاء ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قرأ الكوفيون غير حفص

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ٩.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢.
(٤) سورة طه، الآية: ١٧.
(٥) سورة النمل، الآية: ٨.

وأهل الشام بضم الراء وسكون الهاء وحفص بفتح الراء وسكون الهاء والباقون بفتحهما وكلها لغات بمعنى الخوف، قال عطاء عن ابن عباس أمره الله أن يضم يده إليه ليذهب عنه الخوف وقال ما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه، وقال مجاهد كل من فزع فضم جناحيه إليه ذهب عنه الفزع والجناح اليد كلها وقيل العضد، وقيل المراد من ضم الجناح السكون والتجلد والثبات عند انقلاب العصا حيةً إستعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه، قال البغوي أي أسكن روعك وأخفض عليك جانبك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه ومثله قوله تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[1] وقوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾[2] يريد الرفق بهم، وقال الفراء أراد بالجناح عصا معناه أضمم إليك عصاك، وقيل الرهب الكم بلغة حمير، قال الأصمعي سمعتُ بعض العرب يقول أعطني ما في رهبك أي ما في كمك معناه اضمم إليك يدك مخرجاً من الكم لأنه تناول العصا ويده في كمه حين قال له الله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾[3] والظاهر عندي أن هذا عطف تفسيري لقوله: ﴿أسلك يدك في جيبك﴾ ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي أدخلها في جيبك والغرض من التكرير ترتب الأمرين عليه أحدهما التجلد وضبط النفس ودفع الخوف وإظهار الجراءة وهو المراد بقوله أضمم إليك جناحك أي يديك المبسوطتين اللتين تتقي بهماالحية في جيبك من الرهب أي من أجل دفع الرهب وثانيهما ظهور معجزة أخرى وهو المراد بقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ ويدل على هذا قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾[4] ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد قرأ ابن كثير وابن عمرو بتشديد النون والباقون بتخفيفها ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ أي حجتان قال في القاموس البرهان بالضم الحجة وبرهن عليه أقام البرهان فهو فعلالٌ وقيل هو فعلان من البره يقال بره الرجل إذا ابيض ويقال برهاء وبرهرهة للمرأة البيضاء وفي القاموس أبره أتى بالبرهان أو بالعجائب وغلب الناس ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي كائنان من ربك صفة لبرهانان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بمحذوف أي مرسلاً بهما إلى فرعون ﴿وملائه﴾ فهو صفة بعد صفة لبرهانان أو استئناف متعلق بمحذوف أي اذهب بهما إلى فرعون وملائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ في مقام التعليل أي لأنهم كانوا أحقاء بأن يرسل إليهم.

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.
(٣) سورة طه، الآية: ٢١.
(٤) سورة طه، الآية: ٢٢.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ ضمير المفعول محذوف أي يقتلوني ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وإنما قال لعقدة كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾ يعني هارون ﴿مَعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿رِدْءًا﴾ أي معيناً يقال أرادأتهُ أي أعنتهُ حال من الضمير المنصوب، وهو في الأصل اسم ما يعان به كالدفء، قرأ نافع بفتح الدال من غير همزة والباقون بإسكان الدال والهمزة وحمزة على مذهبه في الوقف ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالرفع صفة لرداً أي رداءاً مصدقاً لي وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الدعاء والضمير المرفوع عائد يعني إن أرسلته معي يصدقني بتقرير الحجة وإزاحة الشبهة وفصاحة اللسان وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه الفعل إسناده إلى المسبب، وقال مقاتل الضمير المرفوع عائد إلى فرعون والمعنى إن أرسلت مع هارون يصدقني فرعون بحسن تقرير هارون ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ قرأ الجمهور بحذف الياء وأثبتها ورش في الوصل فقط يكذبوني يعني فرعون وقومه حيث لا يطاوعني لساني عند المحاجة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي سنقويك فإن شدة العضد مستعار للتقوية فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأقوى ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد ﴿بِأَخِيكَ﴾ أي بإرسال أخيك هارون معك وكان هارون يومئذ بمصر ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي غلبة أو حجة ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾ أي فرعون وقومه ﴿إِلَيْكُمَا﴾ بمكروه ﴿بآياتنا﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا أو بنجعل أي نجعل لكما بآياتنا أي بالمعجزات التي سلطاناً على الأعداء أو بمعنى لا يصلون والمعنى تمتنعون أي فرعون وقومه بآياتنا أي بسبب المعجزات أو قسم جوابه لا يصلون أو بيان للغالبون في قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلة لما بينه أو صلة له على أن اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي به.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا
بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن
تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ
إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ معطوف على محذوف تقديره فجاء موسى إلى فرعون وقومه بالآيات البينات وهي العصا واليد فلما جاءهم ﴿موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا﴾ أي العصا ونحوه ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي مختلق لم يفعل قبله مثله أو سحر يعمله موسى ثم يفتريه على الله أو سحر موصوف بالإفتراء كسائر أنواع السحر ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ السحر أو ادعاء النبوة ﴿في آبائنا الأولين﴾ كائناً في أيامهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ فيعلم أني محق وأنتم مبطلون تجحدون بالحق بعد وضوح الآيات وبعدما استيقنت به أنفسكم ظلماً وعلوّاً معطوف على قالوا، والمراد حكاية القولين حتى ينظر فيهما فيميز الصحيح من الفاسد، وقرأ ابن كثير قال موسى بغير واو والعطف كذلك هو في مصاحفهم لأنه في جواب كلامهم فهو استئناف في جواب ما قال موسى في جواب قولهم ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لكون المسند إليه مؤنثاً غير حقيقي يجوز فيه الأمران ﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ﴾ عطف على من جاء بالهدى يعني أعلم بمن تكون له عاقبة محمودة في الدار الآخرة، وقال البيضاوي المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأن الدنيا خلقت مزرعة للآخرة مجازاً إليها والمقصود منها الثواب والعقاب إنما قصد بالعرض، وقال المحققون العقبى والعاقبة يطلقان على ما يعقب الحسنات من الثواب، والعقاب والعقوبة والمعاقبة يختص بما يعقب السيّئات ويترتب عليها من العذاب قال الله تعالى: ﴿خير ثواباً وخير عقبى﴾[(١)] وقال ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[(٢)] و ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[(٣)] و ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٤)] وقال الله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾[(٥)] وقال ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقال ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[(٦)] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٥) سورة ص، الآية: ١٤.
(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ نفى علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه ولذلك قال ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ﴾ وهو كان وزير فرعون قال له فاطبخ لي الآجر، وقيل هو أول من إتخذ الآجر وبنى به ﴿على الطين فأجعل لي صرحا﴾ قصراً عالياً فإن التنكير للتعظيم ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ قرأ الكوفيون بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ توهم أنه لو كان لكان في السماء ويمكن الترقي إليه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿من الكاذبين﴾ فيما يقولون أن للأرض والسماء خالقاً كان فرعون دهرياً لم يعتقد وجوب إستناد الممكنات إلى الواجب ويزعم أنه من كان سلطاناً متغلباً كان إلهاً مستحقاً للعبادة، قال البغوي قال أهل التفسير جمع هامان العملة والفعلة حتى إجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ومن يطبخ الآجر والجص ومن ينجر الخشب ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع إرتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق أراد الله عزَّ وجلَّ أن يفتنهم فيه، فلمَّا فرغوا منه ارتقى فرعون وقومه فأمر بشأنه فرمى بها في السماء فردت إليه وهي متلطخة دماً فقال قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعده على البرازين، فبعث الله جبرئيل حين غروب الشمس فضربه بجناحه وقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق من عمل بشيء إلا هلك.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بغير الإستحقاق فإن الإستكبار بالحق لمن لا يكون فوقه كبير ولا مثله ولا دونه وما هو إلا الله سبحانه خالق كل ما سواه فهو المتكبر على الحقيقة المبالغ في الكبرياء ومن ثم قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار»[(١)].

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة وابن ماجه عن ابن عباس ورواه الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة بلفظ «الكبرياء دائي فمن نازعني في ردائي قصمته» ورواه سمويه عن أبي سعيد وأبي هريرة بلفظ «الكبرياء ردائي والعزُّ إزاري فمن نازعني في شيء منهما عذبته» ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ قرأ نافع ويعقوب وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم على البناء للفاعل من المجرد والباقون بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول من الإرجاع ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾ أي ألقيناهم

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٨٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤).

﴿فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إحذر قومك عن مثلها ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوة لأهل الضلال بالحمل على الإضلال أو قدوة ورؤساء في الدنيا بإعطاء المال والجاه ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي جملة يدعون صفة لأئمة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ يعني لا يدفع أحد عنهم عذاب الله تعالى عطف على يدعون ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ طرداً عن الرحمة أو لعن اللاعنين يلعنهم الله والملائكة والمؤمنون عطف على جعلنا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ متعلق بمقبوحين ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي المبعدين الملعونين، قال أبو عبيدة من المهلكين، وعن ابن عباس من المشبوهين لسواد الوجه وزرقة العين يقال قبحه الله وكذا يقال شوهه الله إذا جعله قبيحاً ويقال قبحه قبحاً وقبوحاً إذا أبعده من كل خير.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوارة جواب قسم محذوف ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا﴾ ما مصدرية ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب أي حال كونه موجباً للبصائر جمع بصيرة وهي نور في القلوب يبصر به قلوبهم حقائق الأشياء من الواجب والممكن على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية ويميز الحق من الباطل والرشد من الغي.

﴿وَهُدًى﴾ يهتدوا به إلى طريق النجاة وما فيه صلاح المعاش والمعاد ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي

حال كون الكتاب سبيلاً لنيل رحمة الله إن جعلوا بها أو حال كونه مقتضًى لرحمة الله الأزلية عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا أو يكونوا على حال يرجى منهم التذكر فإن التذكر والخشية من ثمرات العلم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١).

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ من مقام موسى وهو الطور، قال قتادة والسدي أي بجانب الجبل الغربي، وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي عنوا أنه ليس من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بل الموصوف محذوف، قال ابن عباس يريد حيث ناجى موسى ربه والخطاب لرسول الله ﷺ يعني ما كنت يا محمد حاضراً ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أي أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه وهم السبعون الذين اختارهم من قومه لميقات ربه، يعني إخبارك بقصة موسى إخبار بالغيب لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي فهو معجزة لك وبرهان على دعواك النبوة ولذلك استدرك بقوله ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي رجالاً مقارنين في كل عصر أو أهل قرون بحذف المضاف إن كان القرن بمعنى الزمان ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ يعني ولكنا أوحينا إليك لبعد الفترة واندراس العلوم وتغير الشرائع والإضطراب والتعارض في الإخبار لما أنا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدد ووقع التكاذب والتخالف فيما بينهم فحذف المستدرك وأقيم سببه مقامه، وقال البغوي إن الله قد عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد ﷺ والإيمان به فلما طال عليهم العمر وخلقت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها، فمعنى الآية ما كنت حاضراً عهدنا إلى موسى في أمرك ولم يكن ذلك باستدعائك ولكنا فعلنا ذلك تفضلاً إبتدائياً حسماً لاعتذار من خالفك إذا نشأنا قروناً فتطاول عليهم نظيره قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم﴾ إلى قوله: ﴿أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين﴾(٢) ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾، أي مقيماً ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾ تذكرهم بالوعد والوعيد خبر ثان لكنت أو حال من الضمير في ثاوياً قال مقاتل يعني لم تشهد في أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك إلى أهل مكة وسائر الناس بالمعجزات وإخبار المغيبات ولولا ذلك لما تلوت قصص على هؤلاء ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي بناحية الجبل الذي علم الله عليه موسى ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن خذ الكتاب بقوة فالمراد بهذا وقت إعطائه التوراة وبالأول وقت استنبائه، وقال وهب قال موسى يا رب أرني محمداً ﷺ قال

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

إنك لن تصل إلى ذلك وإن شئتَ ناديتُ أمته وأسمعتُك صوتهم قال نعم يا رب قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب آبائهم. وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير نادى يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وروى عن ابن عباس قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لبيك اللّهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لك لا شريك لك قال الله تعالى يا أمة أحمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي عقابي قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتُكم من قبل أن تدعوني وقد غفرتُ لكم من قبل أن تعصوني من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة وإن كان ذنوبه أكثر من زبد البحر ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكن رحمناك رحمةً من ربك بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك على المغيبات أو أرسلناك أو علمناك رحمة من ربك (لتنذر) متعلق بمحذوف وهو الفعل الناصب لقوله تعالى رحمة يعني رحمناك وأرسلناك وعلمناك لتنذر (قوماً ما أتاهم) صفة لقوم ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ فاعل أتاهم بزيادة من ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ والمراد بالقوم أهل مكة لم يبعث نبي بمكة بعد إسماعيل عليه السلام وكانت دعوة موسى وعيسى وغيرهما في بني إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا ويتعظوا متعلق بقوله لِتنذر ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما أتوا به من الكفر والمعاصي ولما كان أكثر الأعمال بتزاول الأيدي نسبت الأعمال إلى الأيدي تغليباً وإن كان بعضها من أفعال القلوب ﴿فَيَقُولُوا﴾ منصوب لكونه معطوفاً على تُصيبهم والعطف بالفاء للسببية المنبهة بأن يكون سبباً لانتفاء ما يجاب به لولا الامتناعية وإنه لا يصدر عنهم هذا القول إلا بعدما أصابهم العقوبة ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب في جواب لولا التحضيضية تشبيهاً له بالأمر تقديره هلا كان منك إرسال رسول إلينا فاتباعاً منا ﴿ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ﴾ عطف على نتبع ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب لولا الإمتناعية محذوفة والمعنى لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين لما بعثناك إليهم رسولاً وعاقبناهم بكفرهم من غير إنذار سابق على العقاب ولكن بعثناك إليهم قطعاً لاعتذارهم وإلزاماً للحجة عليهم نظير قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن أو محمداً ﷺ رسولاً مصدقاً بالكتاب المعجز ﴿مِّنْ عِندِنَا قَالُوا﴾ يعني كفار مكة تعنتاً وإقتراحاً ﴿لَوْلَا﴾

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

هلا ﴿أُوتِيَ﴾ محمد ﷺ ﴿مثل ما أوتي موسى﴾ من الآيات كالعصا واليد البيضاء أو الكتاب جملة واحدة، وهذه الجملة معطوفة على مضمون جملة سابقة ولكن بعثناك إليهم قطعاً لاعتذارهم وإلزاماً للحجة فلما جاءهم الحق إلخ ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ القرآن الإستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يكذبوا موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى يعني قد كذبوا موسى وكفروا بما أوتي موسى من قبل هذا فكيف يطلبون منك مثل ما أوتي موسى يعني أن أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفرة زمان موسى كفروا بما أوتي موسى، وقال الكلبي لما دعا النبيّ ﷺ أهل مكة إلى الإسلام بعثوا رجالاً إلى أحبار اليهود بالمدينة فسألوهم عن أمر محمد ﷺ فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فكفروا يعني أهل مكة بموسى وبما أوتي به ﴿قَالُوا۟﴾ كذا قرأ أهل الحجاز والبصرة والشام على وزن اسم الفاعل يعنون محمداً وموسى صلّى الله عليهما وسلم، وقرأ الكوفيون سِحْران بكسر السين وإسكان الحاء على المصدر على حذف المضاف أو جعلهما سحرين مبالغةً أو عنوا بالسحرين التوراة والفرقان وعلى قول غير الكلبي قالوا يعني كفرة زمان موسى ساحران يعنون موسى وهارون ﴿تَظَـٰهَرَا﴾ أي تعاوناً يعني محمد أو موسى بتوافق الكتابين أو موسى وهارون ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي كفار مكة أوكفار من موسى ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ أي بكل منهما أو بكل واحد من الأنبياء ﴿كَـٰفِرُونَ﴾ والظاهر قول الكلبي على ما يقتضيه السياق وبدليل قوله تعالى.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُوا۟﴾ يا أهل مكة والفاء في جواب شرط مقدر يعني إن كفرتم بالكتابين القرآن والتوراة وقلتم أنهما سحران فأتوا ﴿بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي مما أوتي محمد وموسى من القرآن والتوراة وإضمارهما لدلالة المعنى ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ مجزوم في جواب الأمر يعني إن تأتوا بأهدى منهما أتبعه ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم إنهما ساحران ومن جاءا بهما ساحران وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أعني فأتوا وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيت ومجيىء حرف الشك للتهكم بهم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى حذف المفعول للعلم به ولأن فعل الإستجابة يعدى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي فإذا عدى إليه حذف الدعاء غالباً والمعنى أنه إن لم يأتوا بكتاب أهدى ﴿فَٱعْلَمْ﴾ أنهم ألزموا ولم يبق لهم حجة و ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ إذ لو اتبعوا حجةً لأتوا بها عند الحاجة إليها ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني لا أحد أضل ﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في موضع حال للتوكيد أو التقييد فإن هوى

النفس قد يوافق الحق إذا كمل إيمان المرء قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[١] رواه البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو وقال النووي حديث صحيح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى.

﴿۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِى ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٠﴾.

﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ قال الفراء يعني أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً، قال البيضاوي يعني في الإنزال ليتصل التذكير أو في النظم ليتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر، قال في المدارك التوصيل تكثير الوصل وتكريره، وقال ابن عباس معناه بيّنا، قلتُ: يعني بيّن بعض الكتاب ببعض، وقال قتادة وصّل لهم القول في هذا القرآن كيف صنع بمن مضى، وقال ابن زيد وصّلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي لكي يتذكروا متعلق بوصلنا.

أخرج ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال نزلت ﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ في عشرة أنا أحدهم، وأخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال خرج عشرة رهط من أهل

(١) أخرجه الحكيم وأبو نصر السجري في الإبانة وقال: حسن غريب، ورواه الخطيب عن ابن عمرو.
انظر كنز العمال (١٠٨٤).

الكتاب منهم رفاعة يعني أباه إلى النبيّ ﷺ فآمنوا فأوذوا فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل محمد ﷺ وقيل من قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال كنا نحدث أنهانزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على الحق حتى بعث الله محمداً ﷺ فآمنوا به منهم عثمان وعبد الله بن سلام وكذا ذكر البغوي وكذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا فشهدوا وقعة خيبر فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم فلمَّا رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا يا رسول الله إنَّا أهل ميسرة فأئذن لنانجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله فيهم ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما أتى جعفر وأصحابه والنجاشي أنزلهم وأحسن إليهم فلما أرادوا أن يرجعوا قال من آمن من أهل مملكته ائذن لنا فلنخدم هؤلاء في البحر ونأتي هذا النبي فنحدث به عهداً فانطلقوا وقدموا على رسول الله ﷺ فشهدوا معه أحداً وحنيناً وخيبر ولم يصب أحد منهم، فقالوا للنبي ﷺ ائذن لنا فلنأت أرضنا فإن لنا أموالاً فنجيء بها فننفقها على المهاجرين فإنَّا نرى بهم جهداً فأذن لهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم وأنفقوها على المهاجرين فأنزل الله فيهم الآية، وذكر البغوي عن سعيد بن جبير نحوه قال فأنزل الله فيهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذكر البغوي عن ابن عباس إن الآية نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران وإثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام. ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ يعني القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الظرف متعلق بقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي بأنه كلام الله عطف على يؤمنون ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استئناف لما أوجب إيمانه ﴿إنا كنا من قبله﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين لله في التوحيد مؤمنين بمحمد ﷺ أنه نبي وذلك لما بشر به عيسى عليه السلام حيث قال ﴿مبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1] وكان ذكره في التوراة والإنجيل. وهذا استئناف آخر للدلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ وإنما هو أمر تقادم عهده وجاز أن يكون هذه الجملة بيان لقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ فإنه يحتمل البعيد والقريب وبهذه الآية حمل على البعيد وأندفع احتمال القريب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم وبالقرآن قبل نزوله بشهادة نبيهم وكتابهم ومرةً على إيمانهم بالقرآن بعد نزوله ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي بصبرهم وبقائهم على

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

الإيمان بالقرآن بعد نزوله كما كان قبل نزوله بخلاف غيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون به قبل نزوله ويستفتحون به على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً ولم يصبروا على الإيمان.

روى الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدَّبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»[1] ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ قال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك، وقال مقاتل يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين بالصفح والعفو، قلت: وجاز أن يقال يدفعون عداوة من عاداهم بالإحسان إليهم ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[2] وقيل معناه يدفعون بالطاعة المعصية قال الله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيآت﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «أتبع الحسنة السيئة تمحها»[4] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ أي القبيح من القول ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ قال البغوي كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون تباً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا ديننا ولكم دينكم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ليس المراد التحيّة ولكنه سلام المتاركة معناه سلمتم منا لا نردكم بالشتم والقبيح ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نطلب دين الجاهلين ولا نحب دينكم الذي أنتم عليه قيل معناه لا نطلب صحبة الجاهلين، وقيل معناه لا نريد أن نكون من الجاهلين يعنون أنه إن صدر منا شتمكم وسبّكم في مقابلة ما صدر منكم شتمنا فنكون حينئذ مثلكم ونحن لا نريد ذلك نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين والجملة الشرطية أعني ﴿إذا سمعوا اللغو﴾ إلى آخره معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قال البغوي وهذا كان قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال، قلتُ: وهذا القول من البغوي لا يطابق ما ذكر من سبب نزول الآية فإن الآية نزلت إمّا في عبد الله بن سلام وأصحابه وكان إسلامهم بعد الهجرة، وإما في أصحاب النجاشي حين قدموا مع جعفر بن أبي طالب

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جمع الناس (١٥٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس (١٩٩٣).

وذلك في غزوة خيبر سنة ست من الهجرة، وإما في أربعين من أهل نجران وثمانية من أهل الشام وكل ذلك كان بعد الهجرة بعدما أمرنا بالقتال والله أعلم.

أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب «قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة، قال لولا تعيرني نساء قريش يقلن أنه حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] هدايته أو من أحببته لقرابته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال مجاهد ومقاتل بمن قدر له الهدى وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال سألتُ ابن عمر عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي جهل وأبي طالب قال نعم. وأخرج الشيخان والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله قال رسول الله ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية وأنزل الله في أبي طالب ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾[2].

أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أن أناساً من قريش قالوا للنبي ﷺ إن نتبعك يتخطفنا الناس فأنزل الله ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ يعني أهل مكة عطف على ﴿قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى﴾ وما بينها اعتراضات ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قال البغوي نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف أنه قال للنبي ﷺ إنا لنعلم أن الّذي تقول حق والكنا إن اتبعناك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة وهو معنى قوله: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ كذا أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس وأخرج النسائي عن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع (٢٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة القصص (٣١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (٤٧٧٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: النهي عن الاستغفار للمشركين (٢٠٢٦).

ابن عباس أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال ذلك، والاختطاف الانتزاع بسرعة فرد الله عليهم ذلك وقال ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم نسكنهم بمكة ولم نمكن لهم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وذلك أن العرب في الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وكان أهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ قرأ نافع ويعقوب بالتاء الفوقانية لأجل الثمرات والباقون بالياء التحتانية للحائل بين الاسم المؤنث والفعل ولأن التأنيث غير حقيقي أي يجلب ويجمع إليه ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من كل جانب ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأوثان فكيف يعرضهم للتخويف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حمة التوحيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ جهلة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا وقيل إنه متعلق بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله إذ لو علموا لما خافوا غيره، وانتصاب رزقاً على المصدر من معنى يجبى فإن معناه يرزق رزقاً أو على الحال من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ثم بيَّن أن الأمر بالعكس فإن الواجب أن يخافوا من بأس الله على ما هو عليه من الكفر والمعاصي بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية كانت حالهم كحالكم ﴿بَطِرَتْ﴾ أي أشرت وطغت وصفت القرية بوصف أهلها يعني طغى بنعم الله ولم يشكروها، قال عطاء عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعصوه وعبدوا الأصنام ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ منصوب على الظرفية يعني طغت مدة معيشتها فدمَّر الله وخرَّب ديارهم ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خربة وهي حجر وقرى قوم لوط تعليل لما سبق من إهلاك القرى ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ حال من مساكنهم والعامل فيه معنى الإشارة ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعدما أهلكوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية أو الظرفية يعني إلا سكونا قليلاً أو زماناً قليلاً، قال ابن عباس لم يسكنها إلا مسافر أو مار طريقاً يوماً أو ساعةً، وقيل معناه لم يبق من يسكنها إلا قليلاً من شؤم معاصيهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ إذ لم يخلفهم أحد يتصرف بصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ﴾ أي لم يكن عادته إهلاك ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ الكافر ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ يعني أكبرها وأعظمها ﴿رَسُولًا﴾ ينذرهم خص الأعاظم ببعثة الرسل فيها لأن الرسل يبعث إلى الأشراف فإن الأتباع يتبعهم في الإيمان والكفر، ومن أجل ذلك كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل: «أسلم تسلم وإلا فعليك إثم الأريسيين» والأشراف يسكنون المدائن والمواضع التي هي أم ما حولها ﴿يتلوا عليهم آياتنا﴾ قال مقاتل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى

﴿ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتو بالكفر ﴿وما أوتيتم من شيء﴾ من زخارف الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتعون وتتزينون بها مدة حياتكم المنقضية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الجنة ومراتب قربه تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبدي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف والتعقيب على محذوف تقديره ألا تتفكرون فلا تعقلون ﴿أفمن وعدناه﴾ عطف على قوله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ والهمزة لإنكار تعقيب المعطوف للمعطوف عليه يعني أبعد هذا التفاوت الجلي جعلتم ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي مدركه لا محالة لامتناع الخلف في وعد الله سبحانه ولذلك عطف بالفاء المفيدة للسببية ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المشوب بالآلام المكدر بالمتاعب المستعقب للتحسر على الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذاب وثم للتراخي في الزمان أو الرتبة قرأ نافع وابن عامر في رواية والكسائي ثم هو بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل قال قتادة يعني المؤمن والكافر لا يستويان بل المؤمن أحسن حالاً، قال البغوي وكذا أخرج ابن جرير أنه قال مجاهد نزلت في النبيّ ﷺ وأبي جهل. وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت في حمزة وأبي جهل، وقال البغوي قال مقاتل ومحمد بن كعب نزلت في حمزة أو عليّ وفي أبي جهل، وقيل نزلت في عمار ووليد بن المغيرة ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على يوم القيامة أو منصوب باذكر ﴿فَيَقُولُ﴾ الله سبحانه للمشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم في الدنيا شركائي حذف مفعولي تزعمون لدلالة الكلام عليه قلت لعل المراد بالشركاء رؤساء الكفرة الذين ترك الأتباع عبادة الله واختاروا عبادتهم واتباعهم وتسميتهم شركاء على سبيل الإستهزاء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ أي وجب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾

لوجوب مقتضاه والمراد بالقول: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين﴾[١] وغيره من آيات الوعيد يعني قال رؤساء الكفار ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ﴾ أي الاتباع مبتدأ خبره ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ الضمير المنصوب العائد إلى الموصول محذوف ويعني أغويناهم ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ فغووا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ الكاف صفة لمصدر فعل محذوف دل عليه أغويناهم تقديره فغووا غياً كما غوينا أي مثل ما غوينا وهو استئناف للدلالة على أنهم غووا باختيارهم مثل ما غوينا باختيارنا وإنا لم نفعل بهم إلا وسوسةً وتسويلاً وتسويلنا وإن كان داعياً لهم إلى الكفر فقد كان دعاء الله تعالى لهم بإقامة الحجج وبعث الرسل وإنزال الكتب أولي بالإتباع من تسويلنا وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ﴾[٢] الآية ويجوز أن يكون الموصول صفة وأغويناهم الخبر لأجل ما أتصل به من المقدر والملفوظ أعني فغووا كما غوينا فأفاد زيادة على الصفة وهو وإن كان فضلة لكنه صار من اللوازم ﴿تَبَرَّأْنَا﴾ منهم ومما اختاروا من الكفر هوًى منهم ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بتبرأنا بتضمين معنى التوجه يعني تبرأنا منهم متوجهين إليك ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون أهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم إيانا ﴿وَقِيلَ﴾ يعني للكفار عطف على ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ لتخلصكم من العذاب والمراد بالشركاء هاهنا الأصنام ونحوها المعبودون بالباطل ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ من فرط الحيرة أو لأجل ما كانوا يزعمون أنهم يشفعون عند الله ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لعجزهم عن الإجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُا﴾ يعني الكفار ﴿الْعَذَابَ﴾ لأنفسهم ولآلهتهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ جواب لو محذوف تقديره لو أنهم يهتدون في الدنيا لم يروا العذاب والأظهر أن لو للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ عطف على الأول فإنه تعالى يسألهم أولاً سؤال توبيخ عن إشراكهم وثانياً عن تكذيبهم الرسل ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ﴾ أي فصارت الأنباء عليهم كالعميان لا يهتدي إليهم وأصله فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغةً ودلالةً على أن ما يحضر الذهر إنما يغيض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن حيلة إلى استحضاره والمراد بالأنباء الأعذار في تكذيب الرسل، وقال مجاهد الحجج والمعنى أنهم لا يحييون بشيء ولا يأتون بحجة أم لم يكن عندهم حجة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد لقوله ﴿يوم يناديهم﴾ قال البيضاوي وإذا كانت الرسل في الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالكفار، وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء ﴿فَهُمْ لَا

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأنه مثله ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام أو ترجي من التائب والمعنى فليتوقع الفلاح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ من يشاء لما يشاء فاختار محمداً ﷺ للنبوة من بين سائر الناس، قال البغوي نزلت جواباً للمشركين حين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١] يعنون الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الخيرة إسم من الاختيار قائم مقام المصدر ويطلق بمعنى المفعول أيضاً يقال محمد خيرة الله من خلقه، ومعنى الآية ليس للعباد الاختيار في ذلك حتى يقولوا لولا أرسل إلينا فلان فهذا بمنزلة التأكيد فما سبق ولذلك خلا من العاطف ويؤيده سياق القصة أنها نزلت جواباً لما قال المشركون ويناسبه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزيهاً له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار غيره ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه به، وقيل ما في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصولة في محل النصب على المفعولية ليختاروا العائد محذوف والمعنى ربك يختار ما كان لهم أي للعباد فيه الخيرة أي الخير والصلاح يعني كان إرسال محمد ﷺ لهم خيراً دون إرسال غيره، وعلى هذا التأويل مع ما فيه من التكلف لا حجة للمعتزلة على وجوب الأصلح على الله تعالى بل المراد أنه يفعل مفضلاً ما هو خير لهم غالباً وقيل ما كان لهم الخيرة نفي لاختيار العباد رأساً ودليل على كون العباد مجبورين في أفعالهم وهذا أيضاً باطل إذ لو كان المراد ذلك لنكر الخيرة ولم يورد بلام العهد المشير إلى اختيار معين وهو اختيار الرسل كما يدل عليه سبب النزول ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوة الرسول وحقده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعن فيه ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحق للعبادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحقها غيره تقرير لما سبق ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنه الجميل على الإطلاق وجمال غيره مستعار منه هو المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا يقولون ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾[٢] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[٣] إبتهاجاً بفضله والتذاذاً بحمده لأجل التكليف ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

كل شيء، قال ابن عباس حكمه لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي إلى حكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور بعد الموت ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾أخبروني يا أهل مكة ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي دائماً من السرود وهو المبالغة والميم زائدة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا تطلع عليكم الشمس ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ تطلبون فيه المعيشة ومن الاستفهام للإنكار والمعنى لا إله غير الله يأتيكم به، قال البيضاوي كان حقه هل إله فذكر بمن على زعمهم أن غيره آلهة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ موعظتي سماع تدبر واستبصار ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ بإسكان الشمس في وسط السماء ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ إستراحة عن تعب الأشغال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ آياتنا ولعله لم يصف الضياء بما يقابل السكون لأن الضوء نعمة بذاته مقصودة بنفسه ولا كذلك الليل ولأن منافع اليوم وأكثر من أن يذكروا، لذلك قرن به أفلا تسمعون وبالليل أفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ من للسببية متعلق بجعل لكم قدم عليه للحصر ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي من منافع الدنيا والآخرة في النهار فهو لف ونشر مرتب، وقال الزجاج يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضله فيهما قلتُ وعلى هذا إنما ذكر بالليل والنهار ولم يقل وجعل لكم الزمان لتغاير أنحاء السكون والابتغاء فيهما ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا على نعماء الله تعالى ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أنهم يشفعون لكم وينجوكم من عذاب الله تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به وكان الأول توبيخ على ابتاعهم رؤساهم وترك عبادة الله بإتباعهم وهذا بيان لفساد رأيهم ورجائهم الشفاعة من الحجارة ونحوها ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي أخرجنا عطف على يقول على سبيل الإلتفات أو إعتراض ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه وهو نبيهم ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حجتكم على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ حينئذ ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب عنهم غيبة الضائع ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الباطل.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ

إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قال البغوي كان ابن عمه لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليهما السلام كذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. وقال ابن إسحاق كان قارون عم موسى كان أخا عمران وهما ابنا يصهر بن قاهت ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامري، وقال جلال الدين المحلي كان ابن عمه وابن خالته ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فكان يبغي عليهم أي يظلمهم، وقال الضحاك بغى عليهم بالشرك، وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو وقيل معناه حسدهم وطلب الفضل عليهم، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان قارون ابن عم موسى أخي أبيه وكان قطع البحر مع بني إسرائيل وكان يسمى بمن حسن صوته بالتوراة لكن عدو الله نافق كما نافق السامريّ فأهلكه الله لغيّه إنما بغى الكثرة ماله ولده لكن قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[١] يدل على أن قارون لم يؤمن بموسى قط لا ظاهراً ولا باطناً، قال شهر بن حوشب زاد قارون في طول ثيابه شبراً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله إلى من جرثوبه خيلاء» رواه البغوي، وروى مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى من يجر رداءه بطراً»[٢] وروى أحمد

(١) سورة غافر، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم جر الثوب خيلاء وبيان ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحب (٢٠٨٧).

والنسائي بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً قال: «إن الله لا ينظر إلى مسبل بإزاره»[(١)] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي مفاتح صناديقه جمع مفتح بكسر الميم وهي التي يفتح بها وهذا قول قتادة ومجاهد وجماعة، وقيل مفاتحه أي خزائنه كما قال الله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[(٢)] أي خزائنه، وقياس واحدها الفتح، لكن على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ لا يدل على كثرة خزائنه غاية الكثرة فإن ما يحمله أربعون من الرجال لا يبلغ غالباً أربع مائة ألف درهم، وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال وجدت في الإنجيل مفاتح خزائن قارون وقرستين بغلاً ما يزيد مفتاح منها على أصبع لكل مفتاح كنز، ويقال إن قارون أين ما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلمّا ثقلت عليه جعل من خشب فثقلت عليه فجعلت من جلود البقر على طول أصبع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً وهذه الروايات لا يساعدها القرآن إذ العصبة لا يطلق إلا على الرجال دون البغال، قال البغوي واختلفوا في العصبة قال مجاهد ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال الضحاك عن ابن عباس ما بين الثلاثة إلى العشرة وقال قتادة ما بين العشرة إلى الأربعين وكذا في القاموس وقيل سبعون، وروي عن ابن عباس أنه قال كان يحمل مفاتحه أربعون رجلاً أقوى ما يكون من الرجال. ومعنى قوله ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي تنتقلهم وتميل بهم إذا حملوها لثقلها، وقال أبو عبيدة هذا من المقلوب تقديره ما أن العصبة لتنوء بها يقال ناء فلان بكذا إذا نهض به مثقلاً والجملة خبر إن وهي مع جملتها صلة ما وهي ثاني مفعولي آتيناه ومن الكنوز حال مقدم عليه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ظرف لتنوء ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ الفرح السرور وانكشاف الصدر بوجدان المرغوب والفرح المنهي عنه هو البطر بمعنى الطغيان والتكبر عن قبول الحق عندما يرى نفسه غنياً قال الله تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾[(٣)] في القاموس الفرح السرور والنظر وفسر البغوي لا تفرح بقوله لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح وإنما ذلك لأن الفرح بمعنى السرور عند وجدان المرغوب أمر طبعي لا اختيار للعبد فيه فلا يتصور عنه النهي، وقال البيضاوي والفرح بالدنيا مذموم مطلقاً لأنه يحبسه حبها والرضاء بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذات مفارقة لا محالة توجب التبرج وذلك قال الله تعالى: ﴿لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾[(٤)] وعلل النهي هاهنا بكونه

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الزينة، باب: إسبال الإزار (٥٣٣١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٣) سورة العلق، الآية: ٦ ـ ٧.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

مانعاً من محبة الله إيانا فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ بزخارف الدنيا المتكبرين بها غير شاكرين عليها، قال بعض المحققين قد ورد ذم الفرح في مواضع عديدة من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ولما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾(١) وقال ﴿وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢) وقال ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(٣) وقال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا﴾(٤) ولم يرخص في الفرح إلا في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾(٥) وقوله: ﴿ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾(٦) وعندي أن الفرح في الدنيا بما يفيد في الآخرة محمود مطلقاً ومأمور به في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ والفرح بلذّات الدنيا إن كان مقروناً بالشكر فمحمود أيضاً حيث قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر كالصائم الصابر»(٧) والفرح إن كان مقروناً بالطغيان والكفران فمذموم حقاً فالمدح والذم إنما يتوجه إلى ما يتعلق به الفرح أوما معه من الشكر أو الكفران وأما نفس الفرح والسرور بدرك المرغوب فأمر طبعي لا اختيار للعبد فيه فلا يتوجه إليه التكليف غير أنه إذا أحب العبد الله صادقاً لا يفرح إلا بما يرضى به ربه فلا يتوجه إليه من يحبه فلا يحب الله من يفرح بمرغوبه من حيث و مرغوبه لا من حيث هو مرغوب ربه والله أعلم.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من نعماء الدنيا ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني الجنة بأن تقوم بشكرها وتنفقها في مرضاة الله ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي لا تترك ترك المنسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ما تحصل بها آخرتك فإن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة فإن الدنيا مزرعة الآخرة كذا قال مجاهد وابن زيد، وقال السدي نصيبك من الدنيا الصدقة وصلة الرحم، وقال علي رضي الله عنه لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب الآخرة، قال قال رسول الله ﷺ: «أغتنم خمساً قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك» رواه الحاكم والبيهقي بسند صحيح وأحمد في الزهد وروى البغوي وابن حبان وأبو نعيم في الحلية عن عمر بن ميمون الأودي مرسلاً نحوه، وقال الحسن أمر أن يقدم الفضل ويمسك ما يغنيه يعني ما يكفيه وقال منصور بن ناذان ﴿لا تنس نصيبك من الدنيا قوتك وقوة أهلك وأحسن

(١) سورة غافر، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٦) سورة الروم، الآية: ٤ ـ ٥.
(٧) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقاق والورع (٢٤٨٦).

إلى عباد الله كما أحسن الله إليك﴾ أو أحسن عبادة الله بدوام الذكر والشكر والطاعة ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ بإنعام متواتر غير منقطع بحيث لا تعد ولا تحصى ﴿وَلَا تَبۡغِ﴾ أي لا تطلب ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ قال البيضاوي نهي له مما كان عليه من الظلم والبغي، وقال البغوي كل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بسور أعمالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ الظرف منصوب على الحال من الضمير المرفوع ﴿عِندِيٓۚ﴾ قرأ نافع وابن كثير بخلاف عنه وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ظرف مستقر صفة لعلم أو لغو متعلق بأوتيتُه كقولك هذا عندي أي في ظني واعتقادي ويه رد لقولهم ﴿أحسن كما أحسن الله إليك﴾ يعني لم يحسن إليَّ الله من غير استحقاق مني تفضلاً محضاً حتى يجب عليَّ شكره والإحسان إلى عباده بل أوتيتُ الجاه والمال والتفوق على الناس حال كوني على علم كائن عندي أو في اعتقادي، قيل المراد به علم الكيميا، قال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيميا فعلَّم يوشع بن نون ثُلث ذلك العلم وعلّم كالب بن يوقنَّا ثلثه وعلّم قارون ثُلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه وكان ذلك سبب أمواله. وقيل ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ بالصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب، قال سهل ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله في جميع الأفعال والأقوال والشقي من زين في عينيه أقواله وأفعاله وأحواله فافتخر بها وادعاها لنفسه فسوف يهلك يوماً كما خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلاً ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ جملة معترضة والاستفهام للتعجب والتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكر قارون ولم يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ ولوعلم ذلك لما اغتر بماله ولم يتكبر ولو علم أن الله هو المهلك فهو المعطي وهو المانع لا إله غيره ولا استحقاق لأحد عليه وفيه رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفي هذا العلم الجلي فإن الله قد أهلك عاداً الأولى وكان أشد منه قوة وأكثر جمعًا فإن شداد بن عاد ملك الأرض كلها ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فإنه تعالى مطلع عليها لا يحتاج إلى السؤال والإستعلام فيعاقبهم في الدنيا بإهلاك وفي الآخرة بإدخال النار، لما هدد الله قارون بذكر إهلاك من كان قبله ممن كانوا أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأنه لم يكن ذلك ما يخصهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم متقدميهم ومتأخريهم معاقبهم عليها لا محالة، قال قتادة يدخلون النار بغير سؤال ولا حساب، وقال مجاهد يعني لا يسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، وقال الحسن لا يسألون

سؤال إستعلام بل يسألون تقريع وتوبيخ ﴿فَخَرَجَ﴾ قارون يوماً عطف على قال ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ﴾ قال إبراهيم النخعي خرج هو وقومه في ثياب خضر وحمر وقال ابن زيد خرج في سبعين ألف عليهم المعصفرات، وقال مجاهد خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان عليهم المعصفرات، وقال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سروج من ذهب عليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاث مائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادة الناس في الرغبة في الدنيا ﴿يَٰلَيْتَ﴾ يعني يا قوم ليت ﴿لنا مثل ما أوتي قارون﴾ تمنوا مثله لا عينه حذراً من الحسد وذلك لما كان بنوا إسرائيل مؤمنين إنه ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا تعليل للتمني ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بما وعد الله للمؤمنين في الآخرة للذين تمنوا كذا قال مقاتل، وقال ابن عباس هم الأحبار من بني إسرائيل ﴿وَيْلَكُمْ﴾ الويل مصدر بمعنى الهلاك منصوب على المصدرية يعني هلكتم هلاكاً أو على المفعولية تقديره ألزمكم الله هلاكاً فهو في الأصل دعاء استعمل للزجر عما لا يرتضى ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما أوتي قارون بل من الدنيا وما فيها ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ متعلق خير أو بثواب الله يعني ثواب الله لمن آمن خير أو متعلق بقال الذين اوتوا العلم يعني قالوا ذلك لمن آمن ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ كلام مستأنف أو حال من من الضمير في خير والضمير للكلمة التي تكلم بها الأحبار أو للثواب فإنه بمعنى المثوبة وللجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة يعني لا يتأتى تلك الكلمة أو الثواب أو الجنة أو السيرة إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي الزاهدون في الدنيا ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي أعوان يفيء إليهم الرجل عند المصيبة الفاء للتعليل ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ فيدفعون عنه عذاب الله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي الممتنعين مما نزل به من الخسف يقال نصره من عدوه فانتصر إذا منعه فامتنع عطف على فما كان، قال أهل العلم بالأخبار كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله أوحى إلى موسى أن يأمر قومه يعلّقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرون به السماء إذا نظروا إليها ويعلمون أنه منزل منها كلامي فقال موسى يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم خضراً كلها فإن بني إسرائيل تحقر هذه الخيوط فقال له ربه يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فإذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير، فدعاهم موسى وقال إن الله

يأمركم أن تعلقوا على أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعلت بنوا إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال يفعل هذه الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم وهذا بدء عصيانه وبغيه فلمَّا قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعل الحبورة لهارون وهي رئاسة الذبح فكان بنوا إسرائيل يأتون بهديهم إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه وأتى موسى فقال يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولستُ في شيء من ذلك وأنا أقرأ للتوراة لا صبر لي على هذا، فقال موسى ما أنا جعلتُها في هارون بل الله جعلها له فقال قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل، فقال هاتوا عصيكم فخرجها وألقاها في القبة التي كان يعبد الله فيها فجعل يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اعتراها ورق أخضر فقال قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر، واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً ومعاداةً حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه.

قال ابن عباس: فلمّا نزلت الزكاة على موسى أباه قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وكل ألف درهم على درهم وعن كل ألف شاة على شاة وعن كل ألف شيء على شيء ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيراً فلم يسمح بذلك نفسه فجمع بني إسرائيل، فقال لهم يا بني إسرائيل إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعمتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم قالوا أنت كبيرنا فأمرنا بما شئت فقال آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جُعلاً حتى تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج بنوا إسرائيل فرفضوه، فدعوها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل ألف دينار وقيل طستاً من ذهب، وقيل قال أمولك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنوا إسرائيل فلمّا كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك فتأمرهم وتنهاهم، فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض فقام فيهم فقال يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت، فقال له قارون وإن كنت أنت؟ قال وإن كنت أنا، فقال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، قال ادعوها فإن قالت فهو كما قالت فلما أن جاءت قال لها موسى يا فلانة أنا فعلتُ بك ما يقول هؤلاء؟ وعظم عليها

وسأل بالّذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله تعالى فقالت في نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذي رسول الله، فقالت لا كذبوا ولكن جعل لي قارون جُعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخر موسى ساجداً يبكي ويقول اللّهم إن كنتُ رسولك فاغضب لي فأوحى الله إلى موسى إني أمرتُ الأرض أن تطيعك فمرها بما شئتَ، فقال موسى يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن معه فليلبث ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذت الأرض بأقدامهم، وفي رواية كان سريره وفرشه فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرعون يناشده قارون الله تعالى والرحم حتى أنه ناشده سبعين مرة وموسى في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فانطبت عليهم الأرض. وأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك له إستغاث بك سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته، وفي بعض الآثار قال لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد، قال قتادة خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة وأصبحت بنوا إسرائيل يتناقلون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وبكنوزه وبأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وبكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ ﴿وَأَصْبَحَ﴾ أي صار ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ أي منزله، ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ أي منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ﴾ هذه اللفظة عند البصريين من ذي للتعجب وكأن للتشبيه ومعناه ما أشبه الأمران ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يعني الأمران سيئان مرتبطان بمشيئة الله لا لكرامة يقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض. وقال الخليل وي اسم فعل للتعجب والتندم فإن القوم تندموا فقالوا متندمين على ما سلف وكان معناه أظن ذلك وأقدره كما يقول كان الفرح قد أتاك أي أظن ذلك وأقدره ـ وقال قطرب ويك بمعنى ويلك حذف منه اللام وأن منصوب بفعل مقدر تقديره ويلك اعلم أن الله يبسط ويقدره أي يوسع ويضيق، وقيل ويكأن حرف تنبيه بمنزلة ألا، وعن الحسن أنه قال كلمة إبتداء تقديره وأن الله وقال مجاهد معناه ألم تعلم، وقال قتادة ألم تر، وقال الفراء هي كلمة تقرير كقول الرجل أما ترى إلى صنع الله وإحسانه وذكر أنه سمع أعرابية تقول لزوجها أين ابنك فقال ويكانّه وراء البيت يعني أما ترينه وراء البيت ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعطنا ما عنينا ﴿لَخَسَفَ﴾ قرأ حفص ويعقوب بفتح الخاء والسين على البناء للفاعل والعامة بضم

الخاء وكسر السين على البناء للمفعول ﴿بِنَا﴾ كما خسف بقارون ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم من ثواب الآخرة لا يصلح هاهنا معنى ما أشبه في ويكأنه ويصلح غير ذلك من المعاني.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ صفة بعد صفة لتلك إشارة تعظيم كأنه قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خبر لتلك ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الكلبي ومقاتل أي استكباراً عن الإيمان وقال عطاء غلبة وقهراً على الناس وتهاوناً بهم، وقال الحسن يطلبون الشرف والعز عند ذي السلطان، وعن عليّ كرم الله وجهه أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل القدرة يعني من كان من الولاة وأهل القدرة متواضعاً فهو لا يريد علوّاً في الأرض ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ قال الكلبي هو الدعاء إلى عبادة غير الله، وقال عكرمة هو أخذ أموال الناس بغير حق، وقال ابن جريج ومقاتل العمل بالمعاصي ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال قتادة أي الجنة، قلتُ العاقبة يستعمل فيما يعقب الحسنات وبتاب عليها كما أن العقاب يستعمل فيما يعقب السيئات وتنقم بها ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي عشر أضعافها إلى سبع مائة ضعف وإلى ما شاء الله ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجرى الذين عملوا السيئات﴾ وضع المظهر موضع المضمر تهجيناً لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إلاَّ مثل ما كانوا يعلمون حذف المثل وأقام ما كانوا يعلمون مقامه مبالغةً في المماثلة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به كذا قال عطاء، وقال البغوي قال أكثر المفسرين يعني أنزل عليك القرآن ﴿لرادك إلى معاد﴾ يعني إلى مكة وقد رده يوم الفتح وإنما نكّره لأنه في ذلك اليوم له شأن ومرجعا له إعتداد

لغلبة رسول الله وقهره أعداء الله وظهور الإسلام وذل الشرك وهي رواية العوفي عن ابن عباس وهو قول مجاهد قال القتيبي معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده.

ذكر البغوي أن النبيّ ﷺ لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلمّا أمِّن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها فقال له جبرئيل عليه السلام أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال نعم، قال فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ فرده الله يوم الفتح كذا أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك والآية نزلت بجحفة بين مكة والمدينة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس المعاد الموت، قلت لأنه عود إلى الحالة الأصلية قال الله تعالى: ﴿كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم﴾[1] وقال الزهري وعكرمة يعني إلى القيامة وقيل إلى الجنة كأنه لما حكم بأن العاقبة للمتقين أكد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين ووعده بالعاقبة الحسنى في الدارين.

ولمّا قال كفار مكة للنبي ﷺ «إنك لفي ضلال مبين» أنزل الله سبحانه ﴿قُل رَّبِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها وروى أبو ربيعة عن قنبل وعن البزي أيضاً بالإسكان ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر يعني محمداً ﷺ من منصوب بفعل يدل عليها أعلم تقديره ربي أعلم الكائنات يعلم من جاء بالهدى ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال يعني به المشركين وفي هذه الآية تقريراً لوعد السابق ولذا عقبه وكذا قوله ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي يوحى إليك ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ﴾ قال الفراء الاستثناء منقطع معناه لكن ألقاه ربك رحمة منه ويجوز أن يكون الاستثناء منفصلاً مفرغاً محمولاً على المعنى كأنه قال ما ألقى إليك ربك الكتاب لشيء إلا رحمةً أي لأجل الرحمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبهم، قال مقاتل وذلك حين دُعي إلى دين آبائه فذكّر إلى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه ﴿ولا يصدنك﴾ يعني كفار مكة ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي إلى معرفته وتوحيده وعبادته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمظاهرتهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ هذا وما قبله يقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعليل للنهي ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ يعني إلا ذاته فإن ما عداه ممكن هالك معدوم في حد

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

ذاته لا شيء إلا ووجوده مستفاد مستعار منه تعالى، قيل معناه كل عمل لغو باطل إلا ما أريد به وجهه وجملة كل شيء تعليل ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

تمت سورة القصص ويتلوه سورة العنكبوت إن شاء الله تعالى ـ ٢٨ ربيع الأول ـ سنة ١٢٠٦ هجري.

سورة العنكبوت

آياتها تسع وستون وقال الشعبي عشر آيات من أولها وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أن ناساً كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلنا فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ الآية وأخرج أيضاً عن قتادة قال نزلت في ناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبيّ ﷺ فعرض لهم المشركون فرجعوا فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم فخرجوا فقتل من قتل وخلص من خلص فنزل فيهم ﴿والذين هاجروا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ الآية. وذكر البغوي عن ابن عباس قال أراد بالناس الّذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم، وأخرج ابن سعيد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عمير قال نزلت في

عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية وكذا ذكر البغوي قول ابن جريج، وقال قال مقاتل نزلت في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة. قلتُ: وهو أول من خرج من المسلمين مبارزاً يوم بدر فقتله عامر بن الحضرمي بسهم وكان أول من قتل كذا في سبيل الرشاد ولَمَّا جزع عليه أبواه وامرأته أنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وقوع الاستفهام بعد ﴿الٓمٓ ۝﴾ دليل على اسقلاله والمراد بالحسبان الظنُّ وهو متعلق بمضمون جملة للدلالة على جهة ثبوتها ولذلك يقتضي مفعولين أو ما يسدُّ مسدهما كقوله أن يتركوا والإستفهام للإنكار والتوبيخ وأن يقولوا تقديره لأن يقولوا ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ حال من فاعل يقولوا والمعنى أظنوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنَّا فالترك أوّل مفعوليه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم هو الثاني كقولك حسبتُ ضربه للتأديب، أو المعنى أحسبوا أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا يعني لا يحسبوا ذلك بل يمتحنهم الله بالمشاق كالمهاجرة والمجاهدة وأنواع المصائب في الأنفس والأموال والأولاد ليتميز المخلص من المنافق والثابت في الدين من المضطر فيه ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات، وذكر البغوي أن الله تعالى أمرهم في الابتداء مجرد الإيمان ثم فرض عليهم الصلاة والزكاة وسائر الشرائع فشق على بعضهم فأنزل الله هذه الآية فالمعنى أحسبوا أن يتركوا على مجرد الإيمان وهم لا يفتنون بالأوامر والنواهي فإن مجرد الإيمان وإن كان مانعاً عن الخلود في العذاب لكن نيل الدرجات يترتب على وظائف الطاعات ورفض الشهوات ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأنبياء والمؤمنين فمنهم من نشر بالمناشير ومنهم من قتل وابتلي بنوا إسرائيل بفرعون يسومهم سوء العذاب، الجملة متصل بقوله أحسَبَ أو بقوله لا يفتنون يعني ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه أو معترضة لتسلية المؤمنين ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في قولهم أمنا معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الله عالم أزلاً ومعنى الآية ليتعلقن علمه حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان من الذين كذبوا فيه وينوط به ثوابهم وعقابهم، وقيل معناه ليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه وقال مقاتل ليرين الله وقيل ليميز الله الخبيث من الطيب.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتنا فلا نقدر على الإنتقام منهم، وأن مع صلتها ساد مساد مفعولي حَسِبَ معطوف على أَحَسِبَ وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة والإضراب لأن هذا

الحسبان إبطال من الحسبان الأول لأن في الحسبان الأول يقدر أن لا يمتحن لإيمانه وفي هذا أن لا يجازي بمساويه وقالوا الأول في المؤمنين وهذا في الكافرين، قلتُ: وجاز أن يكون أم متصلة والإنكار ورد على أحد الحسبانين المتردد فيهما بالهمزة وأم والنكرة في حيز النفي المستفاد من الإنكار يعم فالمعنى كلا الحسبانين باطلان فلا تحسبوا أيها المؤمنون أن لا تمتحنوا بل تمتحنون بالمصائب لتنالوا الدرجات الرفيعة ولا يحسب أعداؤكم أن لا يعذبهم الله في الدنيا والآخرة بل يعذبهم الله في الدنيا بأيدي المؤمنين وفي الآخرة بعذاب من عنده والحاصل أن المؤمنين بمتحنون بالمصائب ثم يكون الغلبة لهم في آخر الأمر ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ما موصولة مرفوعة على الفاعلية أو موصوفة منصوبة على التميز من الضمير المبهم المرفوع والمخصوص محذوف أي بئس الذي يحكمونه حكمهم هذه أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم هذا.

﴿من كان يرجوا لقاء الله﴾ قال ابن عباس الرجاء بمعنى الخوف أي من يخشى البعث والحساب وعذاب الله، وقال سعيد بن جبير من كان يطمع في ثواب الله، قلتُ: وجاز أن يكون المعنى من كان يرجوا رؤية الله فيستدل بهذه الآية أن رؤية الله في الدنيا غير واقع إلا ما قيل أن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة المعراج وكان ذلك خارجاً من الدنيا فمن ادعى رؤية الله في الدنيا برأى العين فقد كذب ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يعني أجل لقائه يحذف المضاف ووقته الموعود له ﴿لَأٓتٖ﴾ لا محالة، قال مقاتل يعني يوم القيامة لكائن فليبادر إلى ما يحقق رجاءه وينجوه عما يخاف عنه وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[1] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بعقائدهم وأفعالهم ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ أعداء الله يعني الكفار في الحرب أو نفسه في الكف عن الشهوات المنهية والترفع والصبر على الطاعات والشيطان في دفع وساوسه عطف على الشرطية السابقة ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ لأن منفعته راجعة إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لا حاجة له إلى طاعتهم وإنما كلف عبادة رحمةً عليهم ومراعاةً لمصالحهم الجملة تعليل لما سبق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ يعني نذهب سيئاتهم بحسناتهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر»[2] رواه مسلم، وقد مر في

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣).

تفسير قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[(١)] ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعة يعني لا نضيعها وقيل معناه نعطهم أكثر مما عملوا عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى ما شاء الله وقيل أحسن بمعنى حسن.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أمرناه بإتيان فعل ذا حسن أو كان في ذاته حسن تفرط حسنه متلبساً ذلك الفعل بوالديه أي يبرهما ويعطف عليهما، وقيل معناه ووصينا الإنسان ذا حسن بأن يبرهما. أخرج مسلم والترمذي والبغوي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص وهو سعد بن مالك أبو إسحاق الزهري أحد العشرة المبشرة رضي الله عنه كان من السابقين الأولين وكان باراً بأمه أنه لما أسلم قالت أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد الشمس (قد أمر الله بالبر وفي رواية)، قالت ما هذا الّذي أحدثت والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفرَ، وفي رواية حتى ترجع إلى ما كنتَ عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر قاتل أمه فنزلت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[(٢)] ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ بإضمار القول أي وقلنا له وإن جاهداك لتشرك بي ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بألوهيته عبر عن نفيها بنفي علم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز إتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بالأدلة لقطعية بطلانه ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» رواه أحمد والحاكم، صححه عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري، وفي الصحيحين وسنن أبي داود النسائي عن علي رضي الله عنه «لا طاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف»[(٣)] قال البغوي ثم إنها أي أم سعد مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب، وقيل لبثت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد وقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة العنكبوت (٣١٨٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (١٧٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أخبار الأحاد، باب: ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام (٧٢٥٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٨٤٠)، وأخرجه النسائي في كتاب: البيعة، باب: جزاء من أمر بمعصية فأطاع (٤٢٠٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الطاعة (٢٦٢٣).

فخرجت نفساً نفساً ما تركتُ ديني إن شئت كلي وإن وإن شئتِ فلا تأكلي فلمّا أيست منه أكلت وشربت ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه ونزلت أيضاً في قصة أم سعد التي في لقمان والتي في الأحقاف ﴿والذين آمنوا وعملوا الصلحات لندخلنهم في الصالحين﴾ من الأنبياء والشهداء والأولياء أي نجعلهم في جملتهم ونحشر معهم أو في مدخلهم وهي الجنة والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى أنبياء الله المرسلين فإن كمال الصلاح عبادة عن عدم شيء الفساد في الإعتقاد والأعمال والأخلاق والأشغال عطف على ﴿والذين آمنوا وعملوا الصلحات لنكفرن عنهم﴾ وما بينهما اعتراض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان قوم من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم فقال المسلمون هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفر لهم فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية في سورة النساء فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فردوهم فنزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على ما سبق ذكر المؤمنين أولاً ثم ذكر المنافقين ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ بأن عذبهم الكفار على الإسلام ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ الأذى الذي لحقهم من الكفار ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة أي جزع من عذاب الناس ولم يصبر فأطاع الناس وترك الإسلام كما يترك المسلمون الكفر والمعاصي بخوف عذاب الله في الآخرة والجملة الشرطية عطف على صلة من، قال ابن عباس فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزّبوا فقالوا نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فنزلت ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ الآية فكتبوا بذلك فخرجوا فلحقهم فنجا من نجا وقتل من قتل، وأخرج عن قتادة أنها نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ في الدين جواب قسم محذوف في اللفظ وفي المعنى جزاء للشرط وهذه الشرطية معطوفة على شرطية سابقة أعني فإذا أوذي، وقيل الآية نزلت في المنافقين ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الهمزة للإنكار والواو للحال والإنكار راجع إلى الحال والمعنى ليس الحال أنهم يقولون ذلك وليس الله بعالم بما في صدورهم بل الحال أن الله عالم بما ﴿فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من الإخلاص والنفاق فيجازي المنافقين على نفاقهم أو للعطف على مضمون ما سبق يعني نافقوا ولا يخفى ذلك على الله ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب قسم محذوف والجملة معترضة وعداً للمؤمنين ووعيداً للمنافقين أو معطوف على مضمون إنكار نفي علمه تعالى تأكيد له ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مخلصين ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيجازي كلاً على حسب ما أضمر، قال الشعبي هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هنا مدنية وما بعدها مكية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كفار مكة كذا قال مجاهد ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ قال الكلبي ومقاتل قاله أبو سفيان لمن آمن من قريش إتبعوا ديتنا وملة آبائنا عطف على ما سبق من ذكر المنافقين ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أي إن كان ذاك خطيئة أو إن كان ذاك خطيئة إن كان بعث ومؤاخذة أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالإتباع مبالغة في تعليق الحمل بالإتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم تشجيعاً لهم، وقال الفراء لفظه أمر ومعناه جزاء مجازه إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم كقوله تعالى: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾[1] ولمّا كان في كلامهم تشجيعاً على الكفر والمعاصي ردَّ الله عليهم قولهم وكذبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ الجملة حال من فاعل قال ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في الإخبار بالحمل عنهم المستفاد من قولهم ولنحمل خطاياكم من الأولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ أي أوزار أعمالهم التي عملوا بأنفسهم جواب القسم المقدر وهو حكاية قسم لا إنشائية فهو خبرية معطوفة على ما هم بحاملين ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ لما تسببوا له بالإضلال وهو الحمل على المعاصي من غير أن ينقص من أوزار أتباعهم ﴿وليسئلن يوم القيامة﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾
وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وفيه إلتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿فَلَبِثَ﴾ عطف على أرسلنا فدل على أنه بعد الإرسال لبث ﴿فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفان الماء يقال لما طاف بكثرة من سيل ظلام أو نحوها طوفان يعني فغرقوا ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر حال من مفعول أخذهم، قال ابن عباس بعث نوح لأربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وكان عمره ألفاً وخمسين سنة، أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه وذكره البغوي، وعن وهب أنه عاش الفاً وأربع مائة سنة فقال له ملك الموت يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا قال كدار لها بابان دخلت وخرجتُ ولم يقل تسع مائة وخمسين عاماً لأن اللفظ أخصر ولأن المقصود بيان طول مصابرته على مكائد أمته فكان ذكر الألف أفخم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني نوحاً ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الذين ركبوها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين، وقيل عشرة نصفهم ذكور ونصفهم إناث

وقد مر في سورة هود وسورة الأعراف تمام القصة ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا﴾ أي السفينة أو الحادثة ﴿آية للعالمين﴾ يتعظون ويستدلون بما ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف على نوح يعني وأرسلنا إبراهيم أو منصوب بإضمار اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ظرف لأرسلنا أي أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به أو بدل اشتمال منه إن قُدّر اذكر ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي خافوا واحذروا عذابه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه تعليل للأمر بالعبادة والتقوى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جزاؤه محذوف والتقدير إن كنتم تعملون الخير والشر وتتميزون بينهما أو كنتم تنظرون بنظر العلم دون نظر التعصب والجدال أو كنتم من أولي العلم والتميز لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم مما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ منصوب على المصدر أي تكذبون كذباً أو تقولون قولاً ذا إفك، في تسميتها آلهة وإدعاء شفاعتها عند الله أو على العلية أي تخلقونها وتنحتونها للإفك أو على المفعولية على أن المعنى تخلقون شيئاً ذا إفك والجملة معترضة لبيان شناعة حالهم وكذا ما بعده أو إستدلال على شرارة ما هم عليه من حيث أنه زور وباطل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأوثان وغيرها ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليل آخر على شرارة ذلك من حيث أنه لا يجدي نفعاً ورزقاً يحتمل المصدر أي لا يستطيعون أن يرزقوكم، ويحتمل أن يراد به المرزوق وتنكيره للتعميم والتحقير أي لا يملكون شيئاً من الرزق ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كله فإنه المالك لا غير ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ متوسلين إلى مطالبكم مقيدين لما أعطاكم من النعم بشكره مستعدين للقائه بهما فإنه ﴿إليه ترجعون﴾ حال مقدرة من فاعل أشكروا.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي تكذبوني ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رسلاً من قبلي فلم يضرهم تكذيبهم إياهم وإنما أضر أنفسهم حيث تسبب لمَّا حلَّ بهم من العذاب فكذا تكذيبكم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي يزيل الشك يعني لا يضره تكذيب من كذبه وليس الواجب عليه هداية الخلق إذ ليس ذلك في وسعه هذه الآية وما بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ جاز أن يكون من كلام إبراهيم من جملة قصته وجاز أن يكون اعتراضاً بذكر شأن النبيّ ﷺ وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفي القصة من حيث أن ساقها تسلية لرسول الله ﷺ بأن أباه خليل الله كان في مثل حالك من مخالفة القوم وتكذيبهم إياه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بالتاء الفوقانية خطاباً والباقون بالياء التحتانية غيبةً الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم ينظروا ولم يروا، الواو للحال والإنكار إنكار لحال عدم الرؤية عند التكذيب

تقديره فقد كذب أمم من قبلكم والحال أنهم قد رأوا ﴿كيف يبدىء الله الخلق﴾ أي كيفية بدء خلقهم فلم يعتبروا به خلقهم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يخرج طفلاً ثم يتحول أحوالاً حتى يموت ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ إلى الحياة بعد الموت معطوف على أولم يروا لا على يُبدىء فإن الرؤية غير واقعة عليه ويجوز أن يأوّل الإعادة بأن ينشىء في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوها فحينئذ يعطف على يبدىء ويجوز أن يعطف على يبدىء ويجعل وقوع الرؤية على ما يدل على إمكان الإعادة رؤية عليها مجازاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإعادة أو ما ذكر من الأمرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء ولا يتعب فيه ﴿قُلْ سِيرُوا۟﴾ حكاية خطاب من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بتقدير القول يعني قلنا لإبراهيم قل سيروا أو خطاب لرسول الله ﷺ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على إختلاف الأجناس والأحوال ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ كان القياس أن يقول ﴿فانظروا كيف بدأ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة﴾ فغيره على هذا النمط لأن المقصود إثبات جواز الإعادة. فلمّا قررهم في الإبداء بأنه من الله إحتج بأن الإعادة مثل الإبداء فمن كان قادراً على الإبداء لا يعجزه الإعادة فكأنه قال ثم الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى المعنى أبرز الله إسمه وأوقعه مبتدأ، قال بعض المحققين ثم ينشى النشأة الآخرة معطوف على محذوف مفهوم ممّا سبق تقديره قل: سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق فقد أنشأ الله النشأة الأولى ثم الله الذي أنشأ النشأة الأولى ينشى النشأة الآخرة. قرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بفتح الشين ممدوداً هاهنا وفي النجم والواقعة والباقعون بإسكان الشين من غير ألف، ووقف حمزة على وجهين في ذلك أحدهما أن يلقى الحركة على الشين ثم يسقطها طرداً للقياس والثاني أن يفتح الشين ويبدّل الهمزة ألفاً إتباعاً للخط قال الداني ومثله قد يسمع من العرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته مقتضى ونسبة ذاته إلى الممكنات بأسرها سواء فيقدر على النشأة الأخرى كقدرته على الأولى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه في الآخرة بالنار وفي الدنيا بالخذلان وبالحرص أو بسوء الخلق في الآخرة وفي الدنيا بالتائيد والقناعة وحسن الخلق والإقبال على الله وإتباع السنة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إن فررتم من قضائه بالتواري في الأرض أو الهبوط في مهاربها أو بالتحصن في السماء أو القلاع الذاهبة فيها وجاز أن يكون ولا في السماء تقديره ولا من في السماء عطفاً على اسم ما كقول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر في الأرض أن ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ بدلائل وحدانيته أو بآياته المنزلة في كتبه ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي بالبعث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييئسون منها يوم القيامة أو المراد بالرحمة الجنة وهم آيسون في الدنيا منها لإنكارهم البعث ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه إن كان من كلام إبراهيم فالتقدير قال الله: ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي﴾ وإن كان معترضاً من الله تعالى فمعطوف على قوله قل سيروا لا على مقولة قل ثم رجع إلى قصة إبراهيم فقال ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ عطف على أرسلنا إبراهيم ﴿إلا أن قالوا أقتلوه أو حرقوه﴾ قال ذلك بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وأسند الفعل إلى كلهم لرضائهم به ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ معطوف على محذوف تقديره فاتفقوا على تحريقه فقذفوه في النار فأنجاه الله منها بأن جعله برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنجاء ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ هي حفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها في زمان يسير وإنشاء روض في مكانها ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه عطف على ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ﴾ مصدر بمعنى المفعول يعني مودوداً أو على تقدير المضاف أي سبب مودة قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالرفع مضافاً إلى ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالجر على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة بينكم يعني يود بعضكم بعضاً ويتواصلون بسبب اجتماعكم على عبادتها، والجملة صفة أوثاناً أو خبر أن على أن ما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهو المفعول الأول أي إنما اتخذتوه من دون الله أوثاناً سبب للمودة منكم وقرأ حفص وحمزة مَوَدَّة مضافاً إلى بينكم منصوباً على العلمية أي لتتودوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادة الأوثان واوثاناً المفعول الأول لا تخدتم ومفعوله الثاني بتقدير مضاف أو بتأويلها بالمودودة أي اتخذتم أوثاناً سبب المودة بينكم أو مودودةً، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر مودَّة منونةً ناصبةً بينكم منصوباً على ما ذكرنا في قراءة حفص ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بمودة يعني مودة بينكم تنحصر في الدنيا وتنقطع بعده ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يكون الأخلاء بعضهم لبعض عدواً ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقع التناكر والتلاعن بين الكفار أو بينهم وبين الأوثان والجملة معطوفة على مقولة قال: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ﴾ جميعاً أيها العابدون والمعبودون ﴿النار وما لكم من ناصرين﴾ يخلصونكم منها.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ
إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا
مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى
نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ
رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ
﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد
تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فآمن﴾ عطف على قال ﴿لَهُۥ﴾ أي لإبراهيم ﴿لُوطٌ﴾ لكونه معصوماً عن تكذيب الأنبياء وهو أول من صدق إبراهيم وكان ابن أخيه هاران ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ من قومي ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي إلى حيث أمرني ربي أو إلى حيث يتيسَّر لي هناك عبادة ربي، أو المعنى إني مهاجر من قومي معرض عنهم متوجهاً إلى ربي وهي السفر في الوطن على اصطلاح الصوفية، قال المفسرون هاجر إبراهيم من كوثى (وهو من سواد كوفة) إلى حران ثم أتى الشام ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر فنزل إبراهيم فلسطين ولوط السدوم، قالوا كان إبراهيم حين هاجر ابن خمس وسبعين سنة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ بعد إسماعيل ﴿إِسْحَٰقَ﴾ بعدما أيس من الولادة لكبر سنه وكبر إمرأته وكونها عاقراً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولد الولد نافلةً ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي إبراهيم ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هجرته إلينا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾، بإعطاء الولد في غير أوانه والذرية الطيّبة كذا قال السديُّ واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر كذا قالوا، قلتُ لعل أجره في الدنيا اللذة في الذكر والفكر والعبادة لله فوق ما يستلذون بها أهل الدنيا من المستلذات الحسنة نظيره قوله تعالى:

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾(١) ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في عداد الكاملين في الصلاح عطف على ﴿آتيناه أجره في الدنيا﴾ وغير الأسلوب من الفعلية إلى الإسمية للدلالة على استمرار الآخرة دون الدنيا ﴿وَلُوطًا﴾ عطف على إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالهمزتين على الإستفهام للإنكار والتوبيخ والباقون بهمزة واحدة على الخير ﴿لَتَأْتُونَ﴾ جواب قسم محذوف ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الجملة صفة للفاحشة على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني، أو حال أو مستأنفة لكونه فاحشة ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ بيان للفاحشة ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن مرَّ بهم من المسافرين فترك الناس الممرَّ بهم، وقيل معناه تقطعون سبيل النساء بايثار الرجال على النساء ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، أي في مجالسكم ولا يقال النادي، إلا لما فيه أهله، روى البغوي عن أبي صالح مولى أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قلت ما المنكر الذي كانوا يأتون؟ قال كانوا يحذفون أهل الطرق ويسخرون بهم»(٢) رواه أحمد والترمذي وغيرهما، قوله يحذفون أهل الطريق أي يرمونهم بالبنادق، قال البغوي ويروى أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم عند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر بهم عابر سبيل قيل خذوهم فأيُّهم أصابه فهو أولى به، وقيل كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرنه ثلاثة دراهم ولهم قاض بذلك، وقال القاسم بن محمد كانوا يتضارطون في مجالسهم، وقال مجاهد كان يجاهد بعضهم بعضاً في مجالسهم، وعن عبد الله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض، وعن مكحول قال كان من أخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار والصفير والحذف واللوطية ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ عطف على قال ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ استهزاء ﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ فيما أوعدتنا به من نزول العذاب أو في إستقباح تلك الأفعال أو في دعوى النبوة المفهوم من التوبيخ ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة واستبانها لما بعدهم، وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد والنافلة أعني إسحاق ويعقوب

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة العنكبوت (٣١٩٠).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن معناه الإستقبال ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر والمعاصي ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ إعتراض علمهم بأن فيها من لم يظلم أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبي بين أظهرهم ﴿قَالُواْ﴾ أي الرسل وهم الملائكة ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ تسليم لقوله مع إدعاء مزيد العلم وجواب عنه بتخصيص أهل القرية بمن عداه وعدى أهله أو تأقيت الإهلاك بإخراجهم عنها وفيه تأخير البيان عن الخطاب وذلك جائز وإنما لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب أو في القرية تعليل للإستثناء.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ﴾ أي ألحقه المساءة والغم ﴿بِهِمۡ﴾ أي بسبب الرسل مخافة أن يقصدهم قومه بسوء وأن صلة لتأكيد الفعلين واتصالهم ﴿وَضَاقَ﴾ لوط ﴿بِهِمۡ﴾ بسبب الرسل ﴿ذَرۡعٗا﴾ تميز من النسبة والذرع الطاقة يقال فلان طويل الذراع أي شديد القوة لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيرها، والمعنى ضاق طاقته بشأنهم وتدبير أمرهم في الحفظ عن قومه ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الرسل لما رأوا فيه أثر الغم والمساءة ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ﴾ على تمكّنهم منّا أو لا تخف تمكّنهم منا ولا تحزن بإهلاكنا إياهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ تعليل للنهي، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعيل وموضع الكاف نصب عند الكوفيين ويؤيده عطف ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ بالنصب وعندالبصريين محل الكاف جر ونصب أَهْلَكَ بإضمار فعل أي وننجي أهلك أو بالعطف على المحل البعيد للكاف فإن الإضافة اللفظية في حكم الإنفصال وهو في الأصل منصوب ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾ أي عذاباً سمى بذلك لأنه يقلق المعذب من قولهم ارتجز إذا إرتجس أي إضطرب ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال مقاتل الخسف والحصب ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ﴾ أي من قريات لوط ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ﴾ قال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة، وقال قتادة هي الحجارة الممطورة التي أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وقال مجاهد هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض، وقيل هي حكايتها الشائعة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يتدبرون في الآيات تدبر ذوي العقول.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره وأرسلنا إلى مدين معطوفاً على ﴿ولقد ارسلنا نوحا﴾ ﴿أخاهم شعيباً فقال يا قوم أعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ قيل الرجاء هاهنا بمعنى الخوف يعني خافوا عذاب اليوم الآخر والمعنى افعلوا فعلاً ترجون به ثواب الآخرة فأقيم المسبب مقام السبب ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها وجاز أن يكون الحال منتقلة والمعنى لا تفسدوا في الأرض على قصد الإفساد إحتراز عما إذا أفسدوا على قصد الإصلاح كالقتل والجرح وتخريب الديار وقطع الأشجار في حرب الكفار من أهل الحرب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في دعوى النبوة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبرئيل لأن القلوب ترجف ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين والمراد من دارهم بلدهم أو دورهم ولم يجمع للأمن من اللبس ﴿وعاداً وثمودا﴾ منصوبان بإضمار اذكروا فعل دل عليه ما قبله مثل أهلكنا معطوف على قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قرأ حمزة وحفص ويعقوب ثمود غير منصرف على تأويل القبيلة ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ﴾ مع ما عطف عليه جملة معترضة ﴿لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي بعض مساكنهم أو المعنى قد تبين لكم إهلاكهم من مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ الشيطان ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الّذي بيَّن لهم الرسل الموصل إلى الجنة ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قال مقاتل وقتادة والكلبي كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على الهدى، والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين، وقال الفراء كانوا عقلاء ذوي البصائر متمكنين من النظر والاستبصار لكنهم لم يفعلوا وقيل معناه كانوا مبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل لكنهم ألحوا حتى هلكوا ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوفون على عاد قيل قدم قارون لشرف نسبه وفيه إشعار بأن الكفر والعصيان من شريف النسب أقبح ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟

فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي فائتين بل أدركهم أمر الله بالتعذيب من سبق طالبه إذا فاته ﴿فَكُلًّا﴾ أي كل واحدٍ منهم منصوب بقوله ﴿أَخَذْنَا﴾ أي عاقبناه ﴿بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي الريح التي تحمل الحصباء وهي الحصى الضعيف وهم قوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ويعني ثمود ومدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ يعني قوم نوح وفرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي يعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعريض للعذاب.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني مثل الكفار فيما إتخذوه معتمداً أو متكلاً من الأصنام ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ فيما ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ﴾ في الوهن والخوار بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقةً وانتفاعاً ما يعني مثل دينهم كمثل بيت العنكبوت، أوالمعنى مثل الكفار الذين إتخذوا من دون الله أولياء بالنسبة إلى الموحد كمثل العنكبوت بالنسبة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجصّ والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والتاء فيه كتاء الطاغوت ويجمع على عناكيب وعكاب وأعكب ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه، هذه الجملة حال أو مستأنفة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعلم ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بالياء على الغيبة حملاً على ما قبله من ذكر الأمم والباقون بالتاء للخطاب إلى كفار مكة، وما استفهامية منصوبة بيدعون فيعلم معلقة منها ومن للتبيين أو نافية ومن مزيدة وشيء مفعول يدعون والكلام تجهيل لهم وتأكيد للمثل أو مصدرية وشيء مصدر أو موصولة مفعولٌ ليعلم ومفعول يعلم عائده المحذوف والكلام وعيد لهم

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليل لما سبق فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعدل شيئاً مبمن هذا شأنه وأن الجما بالإضافة إلى القادر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل كالمعدوم وإن من هذا صفته قادر على مجازاتهم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي ما يعقل حسن تلك الأمثال وفائدتها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبرون في الأشياء على ما ينبغي فيعقلون عن الله سبحانه، روى البغوي عن عطاء وأبي الزبير عن جابر رضي الله عنه أنه تلى هذه الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب معصيته وكذا روى الثعلبي والواحدي، وروى أبو داود بن الحر في كتاب العقل من طريق الحارث بن أسامة وأورده ابن الجوزي في الموضوعات ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإن المقصود بالذات من خلقها إفاضة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الخلق ﴿لَأٓيَةً﴾ دالة على وجود الله تعالى وعلمة وقدرته وإرادته ووحدته وتنزهه عن المناقص ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم هم المنتفعون بها.

﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب﴾ أي القرآن تقرباً إلى الله بتلاوته وتحفظاً لاتعاظه وأحكامه واعتباراً بأمثاله واستكشافاً لمعانيه فإن القارىء المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لا ينكشف له أول مرة حتى يتمثل لأوامره وينتهي عن مناهيه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ﴾ هذه الجملة تعليل للأمر بإقامة الصلاة ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي ما ظهر قبحه شرعاً وعقلاً ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ للانتهاء عن المعاصي من حيث أنها تذكر الله وتورث للنفس خشية، قال البغوي روي عن أنس رضي الله عنه قال كان فتًى من الأنصار يصلي الصلوات الخمس مع رسول الله ﷺ ثم لم يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف لرسول الله ﷺ حاله فقال رسول الله ﷺ: «إن صلاته تنهاه يوماً، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله» وفي مسند إسحاق والبزار وأبي يعلى عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ قال: إن فلاناً يصلّي بالليل فإذا أصبح سرق قال «إن صلاته تنهاه» قال البغوي قال ابن عباس وابن مسعود في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد صلاته من الله إلا بعداً، وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه، وقيل المراد بالصلاة القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾[١] يعني بالقرآن في الصلاة ولا شك أن القرآن ينهي عن الفحشاء والمنكر، روى البغوي عن

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

جابر قال قال رجل للنبي ﷺ: إنَّ رجلا يقرأ القرآن بالليل كله فإذا أصبح سرق قال: «ستنهى قراءته» وفي رواية قيل يا رسول الله إن فلاناً يصلّي بالنهار ويسرق بالليل قال: «إن صلاته سترده» ولذكر الله أكبر قال ابن عطاء ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من أن يبقى معصية والمراد بذكر الله الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر، وإنما عبّر عنها بالذكر للتعليل بأن اشتمالها للذكر هو السبب لكونها مفضية إلى الحسنات ناهية عن السيئات.

وقد ورد في فضل الذكر أحاديث منها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى، قال: ذكر الله»[١] رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه إلا أن مالكاً وقفه على أبي الدرداء، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله؟ قال «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات، قيل يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ فقال لو ضرب بسيفه الكفار حتى تنكسر وتخضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة»[٢] رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي حديث غريب، وعن عبد الله بن بسر قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال أي الناس خير؟ قال «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله، قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[٣] رواه أحمد والترمذي، وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له حمدان فقال «سيروا هذا حمدان سبق المفردون، قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[٤] رواه مسلم، وعن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»[٥] متفق عليه،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل الذكر (٣٧٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٦).

(٣) رواه الطبراني بأسانيد، ورواه البزار من غير طريقه وإسناده حسن.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: فضل ذكر الله فقال والإكثار منه (١٦٧٤٧).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٦).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب النازلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٧٩).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، قال فيسألهم ربهم (وهو أعلم بهم)، ما يقولون عبادي، قال يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجّدونك، قال فيقول هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك، قال فيقول كيف لو رأوني؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، قال فيقول فما يسألون؟ قالوا يسألونك الجنة، قال يقول هل رأوها؟ فيقولون لا والله ما رأوها، قال يقول كيف لو رأوها؟ قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد طلباً وأعظم فيها رغبةً، قال فممّ يتعوذون؟ قال يقولون من النار، قال يقول فهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها، قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو رأوها كانوا أشد لها فراراً وأشد لها مخافةً، قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرتُ لهم، قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال هم الجلساء لا يشقى جليسهم»[١] رواه البخاري وروى مسلم نحوه وفيه، «قال يقولون رب فيهم عبد خطأ إنما مرَّ فجلس معهم قال فيقول وله غفرتُ هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[٢] عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة؟ قال حلق الذكر»[٣] رواه الترمذي، وروى مسلم من حديث معاوية أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال وما أجلسكم هاهنا؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال إن الله عزَّ وجلَّ يباهي بكم الملائكة» وعن مالك قال بلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلفه الفارين وذاكر الله في الغافلين كغصن أخضر في شجر يابس وذاكر الله في الغافلين مثل مصباح في بيت مظلم وذاكر الله في الغافلين يريه مقعده من الجنة وهو حي وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأعجم من بني آدم والبهائم» رواه رزين، وعن معاذ بن جبل قال: «ما عمل آدمي عملاً أنجاله من عذاب الله من ذكر الله»[٤] رواه مالك والترمذي وابن ماجه، وعن أبي سعيد شهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥١٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٧).

قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[١] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[٢] متفق عليه، وقال قوم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، قال البغوي ويروى ذلك مرفوعاً عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ والمعنى أنه لا تقصروا في ذكر الله فإن ذكركم إياه يفضي إلى ذكره إياكم ولذكره إياكم أفضل من ذكركم إياه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء كذا قال عطاء.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ يعني لا تخاصموا عطف على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي ولا تجادل أنت والمؤمنون ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ أي بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ الخصال يعني بالقرآن والدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه فالمستثنى مفرغ أو المعنى إلا بالتي هي أحسن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

مما يفعله الكافرون يعني معارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح فالمستثنى منقطع لأن النصح ليس بمجادلة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بنبذ العهد أو عدم قبول الجزية فقاتلوهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كذا قال سعيد بن جبير أن المستثنى أهل الحرب والباقي بعد الثنيا أهل الذمة، والظاهر أنه كان الحكم بحسن المجادلة قبل الأمر بالقتال لأن الآية مكية فالمراد حينئذ بالذين ظلموا المفرطون في الإعتداء والعناد والقائلون بإثبات الولد وبأن يد الله مغلولة وبأنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء فحينئذ جاز مجادلتهم بالعنف، وعلى هذا قال قتادة ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية السيف وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم بيان لحسن المجادلة ويحتمل أن يكون المعنى ولا تجادلوا أهل الكتاب إذا أخبروا مما ذكر في كتبهم يعني لا تكذبوهم إلا الذين ظلموا منهم يعني إلا من أخبر بشيء معلوم قطعاً أنه كاذب فيه كقولهم بتأبيد دين موسى أو قتل عيسى أو كون عيسى ابن الله ونحو ذلك فحينئذ يجب تكذيبه والمباهلة عليه ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾[1] ﴿وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا أمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»[2] الآية، رواه البخاري، وعن أبي نملة الأنصاري أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود ومر بجنازة فقال يا محمد هل يتكلم هذا الميت؟ فقال رسول الله ﷺ لا أعلم، فقال اليهودي إنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «ما حدثكم أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه وسله فإن كان باطلاً لم تصدقوهم وإن كان حقاً لم تكذبوهم» ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما أنزلنا على من قبلك ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وحياً مصدقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأمثاله أو المعنى الذين آتيناهم الكتاب كانوا يؤمنون به قبل مبعث النبيّ ﷺ ﴿وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من أهل مكة أو من العرب أو ممن في عهد النبيّ ﷺ من الكتابيءن ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ الإضافة للعهد يعني بآيات القرآن ﴿إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يعني الكافرون بالله وبالكتب كلها يعني من كذب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها (٧٥٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: رواية حديث أهل الكتاب (٣٦٤٠).

بالقرآن فقد كذب بالتوراة والإنجيل أيضاً لأنهما مصدقان للقرآن فتكذيبه تكذيب بهما فمن أنكر ألقرآن وأدعى الإيمان بالتوراة فدعواه باطل، قال قتادة الجحود إنما يكون بعد المعرفة عرفوا أن محمداً حق والقرآن حق فجحدوا ﴿وما كنت تتلوا﴾ يا محمد عطف على ﴿كذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل ما أنزل إليك الكتاب ﴿مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ولا تكتبه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ ذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي ونفي للتجوز في الإسناد ﴿إِذًا﴾ يعني إذا كنت قارئاً للكتب المتقدمة كاتباً لها ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون يعني أهل مكة وقالوا لعله التقطه من كتب الأقدمين كذا قال قتادة وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد مع وجود المعجزات المتكاثرة، وقيل معناه لا إرتياب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك في كتبهم بالأمي كذا قال مقاتل فيكون على هذا إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحة الدلالة على صدقها إضراب عما فهم فيما سبق يعني ما هذا القرآن مختلقاً من عندك ولا مخطوطاً بيمينك بل هو آيات بينات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني المؤمنين الذين حملوا القرآن يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه وهي من خصائص القرآن كونه آيات بينات الإعجاز وكونه محفوظاً عن التحريف والإسقاط لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزة فكانوا يحرفون الكلم منها عن مواضعها وما كانت تقرأ إلا من مصحف، وقال ابن عباس بل هو يعني محمداً ﷺ ذو آيات ﴿بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب﴾ لأنهم يجدون نعته ووصفه في كتبهم ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ الظلم وضع الشيء في غير موضعه يعني آياتنا معجزة واضحة الدلالة على صدقها نظماً ومعنىً فمن جحد بها بعد وضوح إعجازها فهو الظالم المكابر للحق ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾ وما بينهما معترضات ﴿لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ﴾ من ربه كما أنزل على الأنبياء من قبل مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى قرأ نافع وابن عامر والبصريان وحفص آياتٌ على الجمع والباقون آية على التوحيد ﴿قل﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في قدرته مربوطاً بإرادته لستُ أملكها فاتيكم بما تقترحون ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانة بما أعطيت من الآيات ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والواو للحال من فاعل فعل مقدر تقديره أتطلبون منك آية والحال أنه لم يكفهم آية قوية

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

مغنية عما اقترحوه ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ وأنت اميٌّ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾المعجز الجامع لأنواع العلوم الشريفة مطابقاً لما قبله من الكتب ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يدوم تلاوته عليهم متحدين به:

لـم يـقـتـرن بـزمـان وهـي تـخـبـرنـا عـن الـمـعـاد وعـن عـاد وعـن إرم

دامـت لـدنـيـا فـفـاقـت كـل مـعـجـزة مـن الـنـبـيّـيـن إذ جـاءت ولـم تـدم

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هواية مستمرة مبينة ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي تذكرة لمن همه الإيمان دون التعنت هذه الآية تعليل للتوبيخ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده وأبو داود في في المراسيل من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة مرسلاً قال جاء ناس من المسلمين بكتف كتب فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبيّ ﷺ «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ روي أن كعبَ بن الأشرف قال يا محمد من يشهد بأنك رسول الله فنزلت ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض﴾ لا يخفى عليه شيء الجملة صفة لشهيداً أو تعليل لكفى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال ابن عباس يعني بغير الله، وقال مقاتل يعني الذين عبدوا الشيطان ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تجارتهم حيث اختاروا الباطل على الحق واشتروا النار بالجنة هذه الجملة معطوفة على كفى.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ
وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ
فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ
﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا
وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ عطف على ﴿قالوا لولا أنزل عليه﴾ نزلت الآية حين قال

النضر بن الحارث أمطر علينا حجارة من السماء ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس يعني ما وعدتك أن لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة كما قال ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وامر﴾[١] وقال الضحاك مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب وقيل يوم بدر ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً (وليأتينهم) العذاب وقيل الأجل ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً في الدنيا كوقعة بدر أو في الآخرة عند نزول الموت بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ إعادة تأكيداً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عطف على ﴿ليأتينهم بغتة﴾ يعني سيحيط بهم يوم يأتيهم العذاب، أو هي الآن كالمحيطة لإحاطة الكفر والمعاصي التي يوجبها لهم واللام للعهد على وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على موجب الإحاطة أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لمحيطة أو لقدر مثل كان كيت وكيت ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالياء يعني ويقول الله أو بعض ملائكته بأمره والباقون بالنون على التكلم ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ﴾ أي جزاء ما كنتم ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بحذف الياء في الوصل وفتحها الباقون في الوصل أو أثبتوها ساكنه في الوقف ﴿الذين آمنوا إن أرضي﴾ قرأ ابن عامر بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿واسعة فإياي فاعبدون﴾ إيَّاي منصوب بفعل مضمر يفسره الشرطية الواقعة بعدها والفاء جزاء شرط محذوف تقديره إن لم تستطيعوا أن تعبدوني في الأرض التي كنتم فيها فأعبدوني في أرض غيرها فحذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول حتى صار الضمير المتصل منفصلاً وأفاد تقديمه معنى الإختصاص وصار فإياي اعبدوا ثم أضمر الفعل الناصب، وفسره بقوله فاعبروني ليفيد التأكيد كأنَّه قال فاعبدوني فاعبدوني. قال مقاتل والكلبي نزلت في ضعفاء والمسلمين بمكة يقول إن كنتم بمكة في ضيق من إظهار الإيمان فاخرجوا إلى أرض غيرها يمكن لكم فيها إظهار الإيمان كالمدينة فإن ارضي واسعة وقال مجاهد إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها، وقال سعيد بن جبير إذا عمل في أرض بالمعاصي فأخرجوا منها فإن أرضي واسعة، وقال عطاء إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة وكذلك يجب على كل من كان في بلدة يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة، وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة وقالوا نخشى من الجوع إن هاجرنا فأنزل الله هذه الآية لم

(١) سورة القمر، الآية: ٤٦.

يعذرهم بترك الخروج قال مطرف بن عبد الله إنَّ ارضي واسعة أي رزقي لكم واسع فأخرجوا قال رسول الله ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض ولو شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد ﷺ» رواه الثعلبي من حديث الحسن مرسلاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي واجد حرارته وكربه لا محالة كما يجد الذائق طعم المذوق فلا تقيموا دار الشر بأمن خوفاً من الموت بل لا بد لكم من الإستعداد لها بعبادة الله ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم فهاجروا في سبيل الله نجازيكم عليه قرأ أبو بكر بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ففيه الإلتفات من الغليبة إلى الخطاب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ قرأ حمزة والكسائي لنثوبينهم بالتاء المثلثة ساكنةً وتخفيف الواو وبالياء من غير همزة يقال ثوى الرجل وأثويته إذا أنزلته منزلاً والباقون بالباء الموحدة وفتحها وتشديد الواو وهمزة بعدها أي لننزلهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أعالي، قال صاحب البحر المواج لنبوئنهم بالباء الموحدة فعل متعدٍ إلى مفعول واحد ومجرده لازم وغرفاً منصوب بنزع الخافض ليس مفعولاً ثانياً له إلا على تضمين معنى لننزلن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله تقديره غرف الجنة أو أجرهم ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والشاق لأجل مرضاة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون على أن يرزقهم من حيث لم يحتسبوا.

قال البغوي عن النبيّ ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة أذاهم المشركون: «هاجروا إلى المدينة فقالوا كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مالٌ فمن يطعمنا ويسقينا فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ محتاجة إلى الغذاء من البهائم والطيور ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها ولا تدخر لغد، قال سفيان بن علي بن أرقم ليس شيء من خلق الله يدخر إلا الإنسان والفأرة والنمل ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ حيثما كنتم يعني إنها مع ضعفها وعدم إدخار أرزاقها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعيشون كما تعيشون وتموتون كما تموتون فاجتهادكم عبث فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم سمع قولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم من ضعف اليقين، أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف وكذا ذكر البغوي عن ابن عمر قال دخلتُ مع رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط الأنصار فجعل رسول الله ﷺ يلتقط الرطب بيده ويأكل فقال يا ابن عمر كل فقلت لا أشتهيها يا رسول الله، قال لكني أشتهيها وهذه صبح رابعة منذ لم أطعم طعاماً ولم أجده فقلت إنا لله المستعان قال يا ابن عمر لو سألتُ ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافاً مضاعفة

ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فكيف بك يا ابن عمر إذا عسرتَ وبقيتَ في قوم يجيئون رزق سنة ويضعف اليقين، قال فوالله ما برحنا ولازمنا حتى نزلت ﴿وكأين من دابة﴾ الآية. عن أنس قال: «إن النبيّ ﷺ كان لا يدخر شيئاً لغد»(١) رواه الترمذي وصححه، وعن عمر بن الخطاب قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغذو خماصاً وتروح بطاناً»(٢) رواه الترمذي وابن ماجه، وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «ليس من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به وليس من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيُتكم عنه وإن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ألا فآتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم إستبطاء الرزق أن تطلبوا بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»(٣) رواه البغوي في شرح السنة وذكره في المعالم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني أهل مكة شرط في جواب قسم محذوف ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ جملة استفهامية واقعة بتأويل المفرد في محل النصب على المصدرية لقوله سألتهم تقديره سألتهم هذا السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ فاعل لفعل محذوف

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٤٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٨٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٣) رواه البزار وفيه قدامة بن زائدة ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد في كتاب: البيوع باب: الاقتصاد في طلب الرزق والإجمال فيه (٦٢٨٧).

تقديره ليقولن خلقهن الله، وقوله ليقولن جواب للقسم لفظاً وجزاء للشرط بمعنى يعني والله لا يقولن إلا هذا الجواب لما تقدر في العقول من انتهاء الممكنات إلى واحد واجب لذاته ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني فكيف يصرفون عن توحيدهم بعد إقرارهم بذلك ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على التعاقب في الزمان وأن يكون على وضع الضمير موضع من يشاء أي ويقدر لمن يشاء منهم لأن من يشاء منهم غير معين وكان الضمير مبهماً مثله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح كل شيء ومفاسده قال الله تعالى: «إن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه لا يدخله عجب فيفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته ولأفسده ذلك إني أدبر أمر عبادي لعلمي في قلوبهم إني عليم خبير» رواه البغوي في حيديث طويل عن أنس وسنذكره في سورة الشورى إن شاء الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني أهل مكة عطف على ﴿لئن سألتهم﴾ والكلام فيه مثل ما مر ﴿من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾ يعني أهل مكة معترفون بأن موجد الأشياء كلها بسائطها ومركباتها أصولها وفروعها هو الله لا غير ومع ذلك يشركون به في العبادة بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك عن مثل هذه الضلالة أو على تصديقك وإظهار حجتك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعهم وتناقض أقوالهم حيث يقرون بأنه المبدأ لكل ما عداه ومع ذلك يشركون به أخس الموجودات وأعجزها ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارة تحقير ﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ وهو ما يشغله عما يغنيه فإن إشتغال المرء بالدنيا يشغله عما يفيده في الحياة المؤبدة ﴿وَلَعِبٌ﴾ أي عبث سميت بها لأنها فانية وما يفعل المرء في الحياة الدنيا من الطاعات فهي ليست من الدنيا بل هي من أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحيوان يعني ليس فيها إلا الحياة لامتناع طريان الموت عليها أو جعلت ذاتها حياة للمبالغة، والحيوان مصدر بمعنى الحياة أصله حييان قلبت الياء الثانية واواً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الدلالة من الحركة والإضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عنها هاهنا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فناء الدنيا وبقاء الآخرة لم يؤثروا الدنيا على الآخرة ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وخافوا الغرق متصل بما دل عليه شرح حالهم أي هم على ما وضعوا من الشرك والعناد إذا ركبوا في الفلك

﴿دَعَوُا ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي يدعون كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الضر إلا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾ الله ﴿إلى البر إذا هم يشركون﴾ أي فاجئوا المعاودة إلى الشرك عطف على الشرطية السابقة، قال عكرمة كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام فإذا أشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب وعلى قوله مخلصين له الدين على الحقيقة، يعني كانوا عند الشدائد يخلصون الدين لله ويتركون الشرك وعند النجاة يعودون إلى الشرك ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ هذا لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إني بما تعملون بصير﴾[1] أي ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم وقيل هي لا كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة الإنجاء، أو المعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يستمتعون به في العاجلة من غير نصيب في الآخرة على خلاف عادة المؤمنين المخلصين فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع بسكون اللام فهو لام الأمر على قراءتهم والباقون بكسر اللام نسقاً على قوله ليكفروا وحينئذ يحتمل لام الأمر ولام كي ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك حين يعاقبون ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديراً لم ينظروا ولم يروا أهل مكة ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ مكة ﴿حَرَمًا﴾ مصوناً عن النهيب والتعدي ﴿آمناً﴾ أهله عن القتل والسبي ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ عطف على جملة محذوفة مفهومة عما سبق تقديره أنّا جعلنا مكة حرماً آمناً لا يغار ولا يتعرض أهلها ويتخطف الناس من حولهم، وقد كان العرب يختلسون الناس قتلاً وسبياً ولا يتعرضون أهل مكة ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للتفريع على مضمون ما سبق يعني أنعم الله على أهل مكة هذه النعمة وهم بعد هذه النعمة الظاهرة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه بالباطل يعني بالأصنام أو بالشيطان، وجاز أن يكون المراد بالباطل كل شيء سوى الله لقوله ﷺ: «ألا إن أحسن القول قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا باطل» ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ حيث أشركوا به غيره وتقديمه للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة، وقيل المراد بنعمة الله محمد ﷺ والقرآن ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ يعني لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي الرسول والقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾ في لما تشبيه لهم بأنهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين مجيىء الرسول بل

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوا ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ استفهام تقرير للثواء يعني ألا يستوجبون الثواء أي القرار في جهنم وقد افتروا على الله وكذَّبوا بالحق مثل هذا التكذيب، أو تقرير لاجترائهم يعني ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجراءة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ الجهاد بذل الوسع والطاقة والمراد الذين بذلوا وسعهم بطاقتهم في محاربة الكفار ومخالفة النفس والهوى ﴿فِينَا﴾ أي في ابتغاء مرضاتنا ونصرة ديننا وإمتثال أوامرنا والإنتهاء عن مناهينا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا وصولاً بلا كيف أو لنرينهم سبل الخير ونوفّقهم سلوكها قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] وعن أبي الدرداء أنه قال معناه والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا، وعن عطاء والّذين جاهدوا في رضائنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وعن الجنيد الَّذين جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، وقال سفيان بن عيينة إذا اختلف الناس فانظروا إلى ما عليه أهل الثغور فإن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وقال الحسن أفضل الجهاد مخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والَّذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به، وقال سهيل بن عبد الله والَّذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة، وقال ابن عباس والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وفي الحديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[2] قوله لنهدينهم سبلنا جواب قسم محذوف والجملة القسمية خبر للموصول والموصول المبتدأ مع خبره عطف على الذين آمنوا وعملوا الصلحات ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والإعانة في الدنيا والثواب والمغفرة في العقبى وقالت الصوفية إن الله لمع المحسنين معية غير متكيفة يدركها بصائر أهل البصائر. هذه الجملة عطف على والَّذِيْنَ جاهدُوا وَجَاز أن يكون حالاً من فاعل لَنَهْدِيَنَّهُمْ والعائد وضع الظاهر موضع الضمير تقديره وإنَّا لَمَعَ المُحْسِنِيْنَ وَالتصريح باسمه تعالى لمزيد التأكيد والله أعلم.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه. انظر: تخريج أحاديث الإحياء المجلد الأول/ كتاب العلم/ الباب السادس.

سورة الروم

آياتها ستون وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب وأخرج ابن جرير نحوه عن عكرمة ويحيى بن يعمر وقتادة قال ابن شهاب بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج رسول الله ﷺ فيقولون تشهدون أنهم أهل الكتاب وقد غلبتهم المجوس وأنكم تزعمون ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم فكيف غلبت المجوس الروم وهم أهل الكتاب فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ ﴿فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم أو في أدنى أرضهم من العرب واللام بدل من الإضافة، قال عكرمة هي أذرعات وكسكر، وقال مجاهد أرض الجزيرة وقال مجاهد الأردن وفلسطين ﴿وَهُم﴾ أي الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ مصدر مبني للمفعول أي من بعد أن غلبوا على صيغة المجهول ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ على فارس ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى السبع، وقيل ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل ما دون العشرة، وقال الجوهري تقول بضع وبضعة عشر رجلاً فإذا جاوزت العشرين لا تقول بضع وعشرون وهذا يخالف ما جاء في الحديث قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[١].

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان عد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (٣٥).

قال البغوي: كان بين فارس والروم قتال فكان المشركون يودّون غلبة فارس على الروم لأن أهل فارس كانوا مجوساً أميين والمسلمون يودُّون غلبة الروم على فارس لأنهم كانوا أهل كتاب فبعث كسرى يعني برويز بن هرمز بن نوشيروان، جيشاً إلى الروم وأستعمل عليهم رجلاً يقال له شهر يزاد وبعث قيصر جيشاً وامّر عليهم رجلاً يقال له يحيس فالتقتا بأذرعان الشام وبصرى (وهو أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم) فَغَلَبَ فارسُ الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق ذلك عليهم وفرح به كفار مكة وقالوا للمسلمين أنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا أهل فارس على إخوانكم من الروم فإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى هذه الآية، فخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الكفار فقال فرحتم بظهور إخوانكم فوالله ليظهرن الروم على فارس على ما أخبرنا بذلك نبينا، فقال أبيُّ بن خلف الجُمحي كذبت، فقال أنتَ أكذب يا عدو الله فقال إجعل بيننا وبينك أجلاً أناجئك (والمناجئة المراهنة) على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فإن ظهر الروم على فارس غرمتُ وإن ظهر فارس على الروم غرمتَ ففعلوا وجعل الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك (وذلك قبل تحريم القمار) فقال رسول الله ﷺ: «ما هكذا ذكرتُ إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزائده في الخطر وماده في الأجل»، فخرج أبو بكر فرأى أبيّاً فقال لعلك ندمتَ، قال لا أزائدك في الخطر وأمادك في الأجل فجعل مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل إلى سبع سنين قال قد فعلتُ، فلمَّا خشي أبيُّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال إني أخاف أن تخرج من مكة فأقسم لي كفيلاً فكفل له عبد الله بن أبي بكر ابنه فقال لا والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه، ثم خرج إلى أحد فرجع أبيُّ بن خلف إلى مكة فمات بمكة من جراحته التي جرحه النبي حين بارزه، فظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين من مناجئتهم وقيل كان يوم بدر، قال الشعبي لم يمض تلك المدة مدة عقد المناجئة بين أهل مكة وصاحب قمارهم أبيّ بن خلف والمسلمين وصاحب قمارهم أبي بكر الصديق (وكان ذلك قبل تحريم القمار) حتى غلبت الروم وفارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا للرمية فقمر أبو بكر أبيّاً وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به وحمله إلى النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «تصدق به» وأخرج الترمذي من حديث أبي بكر نحوه.

مسألة:

قال أبو حنيفة: العقود الفاسدة كعقد الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين

المسلمين والكفار مستدلاً بقصة أبي بكر ولأن أموال الكفار غير معصوم يجوز أخذها ما لم يكن غدراً بعد الاستئمان.

قال البغوي: وكان سبب غلبة الروم على فارس على ما قال عكرمة أن شهر يزاد بعدما غلب الروم لم يزل يطيئهم ويخرّب مدائنهم حتى بلغ الخليج، فبينا أخوه فرخان جالس على سريره يشرب فقال لأصحابه لقد رأيتُ أني جالس على سرير كسرى فبلغت حكمته كسرى فكتب إلى شهريزاد إذا أتاك كتابي فابعث إليَّ رأس فرخان فكتب إليه أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان وإن له نكاية وصوتاً في العدو فلا تغفل، فكتب إليه أن في رجال فارس خلقاً منه فعجل إليَّ برأسه فكتب فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريداً إلى أهل الجيش إني قد نزعت منكم شهريزاد واستعملت عليكم فرخان ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة أمر فيها بقتل شهريزاد فقال إذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه الصحيفة، فلمّا قرأ شهريزاد الكتاب قال سمعاً وطاعةً ونزل عن سريره وجلس فرخان ودفع الصحيفة، فقال أتوني بشهريزاد فقدمه ليضرب عنقه فقال لا تعجل عليَّ حتى أكتب وصيتي قال نعم، فدعى بالسقط وأعطاه ثلاث صحائف وقال كل هذا راجعتُ فيك كسرى وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد فرد الملك إلى أخيه، فكتب شهريزاد إلى قيصر ملك الروم أن لي إليك حاجة لا يحملها البريد ولا يبلغها الصحف فالقني ولا تلقني إلا في خمسين رومياً فإني ألقاك في خمسين فارسيّاً، فأقبل قيصر في خمسين روميا وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق وخاف أن يكون قد مكر حتى أتاه عيون له أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً ثم سقط لهما وألقيا في قبة ديباج ثم ضربت لهما ومع كل واحد منهما سكين فدعوا بترجمان بينهما فقال شهريزاد إن الذين خربوا مدائنات أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخي فأبيت ثم أمر أخي أن يقتلني فقد خلقنا جميعاً فنحن نقاتله معك، فقال قد أصبتما ثم استأثر أحدهما على صاحبه أن السر بين إثنين فإذا جاوزهما فشا فقتلا الترجمان معاً بسكينهما فأدليت الروم على فارس عند ذلك فابتغوهم فقتلوهم ومات كسرى وجاء الخبر إلى النبيّ ﷺ يوم الحديبية ففرح هو ومن معه فذلك قوله ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ الآية.

وقرىء غلبت بالفتح على صيغة المعروف وسيغلبون بالضم ومعناه أن الروم غلبوا على أرض فارس والمسلمون سيغلبونهم، وفي السنة التاسعة من غلبة الروم غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم وعلى هذا يكون الغلب مصدراً مبنيّاً للفاعل مضافاً إلى الفاعل، ويؤيد هذه القراءة ما أخرج الترمذي عن أبي سعيد قال لما كان يوم بدر ظهرت

الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿ألم غلبت الروم﴾ بنصر الله بفتح الغين، وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه وهذه قراءة شاذة، والأولى هي المتواترة ولعل النبيّ ﷺ لما غَلَبَ الروم على فارس علم بالوحي الغير المتلو أنه غلبت اليوم الروم على فارس في أدنى الأرض وهم أي الروم من بعد أن غلبوا على الفارس سيغلبهم المؤمنون فقرأ على ما رواه الترمذي عن أبي سعيد بفتح الغين من غَلَبَتْ على البناء وسيغلبون على البناء للمفعول والله أعلم ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل غلبة الروم على فارس حين كونهم مغلوبين ﴿وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي بعد غلبهم عليهم حين كونهم غالبين ليس شيء منهما إلا بقضائه وقدره هذه الجملة تعليل لقوله سيغْلبُونَ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا كان الغلبة للروم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ من له كتاب على من ليس له كتاب وظهور صدقهم فيما أخبروا به المشركين وغلبتهم في رهانهم وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم، قال السدي فرح النبيّ ﷺ بظهورهم على المشركين يوم بدر وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك. قال جلال الدين المحلي فرح المسلمون بذلك وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر بنزول جبرئيل بذلك فيه مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه، هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فينصر هؤلاء تارةً وهؤلاء أخرى ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ينتقم من عباده بتسليط غيرهم عليهم تارةً ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ويرحمهم ويتفضل عليهم بنصرهم أخرى ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعد الله وعداً مصدر مؤكد لنفسه لا ما قبله وهو قوله وهم مِّنْ بعد غلبهم سيغلبون في معنى الوعد ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناع الكذب عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني أمور معاشهم كيف يكتسبون وكيف يتجرون وكيف يزرعون ونحو ذلك ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ التي هي المستقر أبداً ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطر ببالهم، هم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر الأولى والرابطة إعادة لفظ المبتدأ نحو ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة، وهذه الجملة محققةٌ لمضمون الجملة السابقة بدل من قوله لا يعلمون تقريراً وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها دون العلم بجميعها، فإن من العلم بظاهر معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً وأما باطنها أنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ الهمزة للتوبيخ والواو للعطف على محذوف تقديره

أقصروا نظرهم على ظاهر من الحياة الدنيا ولم يتفكروا ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۖ﴾ أي لم يحدثوا التفكر فيها حتى يظهر لهم بعض بواطنها أو المعنى أولم يتفكروا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها والمرآة يجتلي فيها للمستبصر ما يجتلي له في الممكنات بأسرها فإن الإنسان عالم صغير حتى يعلموا ويقولوا ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ما خلقها باطلاً عبثاً بغير حكمة بالغة بل خلقها مقرونةً مصحوبةً بالحكمة ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ يعني ما خلقها للخلود بل لأجل معين ينتهي عنده وبعده قيام الساعة وقت الحساب والثواب والعقاب قال الله ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[1] يدل على أن تركهم غير راجعين عبث فمن تفكر في نظام السماوات والأرض وما بينهما يحكم أن خالقه حكيم والحكيم لا يفعل العبث والحكمة في خلقها معرفة الخالق وصفاتها ولولا البعث والنشور والثواب والعقاب يستوي العارف والكافر فمن تفكر فيها يكتسب العلم بالآخرة فلا يكون من الغافلين ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة لأجل غباوتهم وعدم تفكرهم ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ﴾ أي بجزائه عند انقراض الدنيا ﴿لكافرون﴾ أي لجاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية ولا بعث ولا حساب.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾.

﴿أولم يسيروا﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ وإنكار النفي إثبات وتقرير والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يخرج أهل مكة من ديارهم ولم يسيروا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ منصوب في جواب النفي ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم كيف في محل

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

النصب على أنه خبر كان قدم عليه لما له صدر الكلام، والجملة في محل النصب على أنه مفعول لينظروا يعني أنهم قد ساروا في أسفارهم ونظروا إلى آثار الذين كذبوا الرسل من قبلهم فدمروا على تكذيبهم ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود وغيرهم فإن القرون الماضية كانوا أشد قوة وأطول أعماراً وأكثر آثاراً من القرون التالية، هذه الجملة مع ما عطف عليه مستأنفة في جواب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ مع ما عطف عليه عطف على كانوا أي قلَّبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وكربوها للزرع وغير ذلك ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي الأرض عمارة ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ منصوب على أنه صفة مصدر محذوف يعني عمروها عمارةً أكثر من عمارة أهل مكة إياها فإنهم في واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيرها، وفيه تهكم بهم حيث كانوا مفترين بالدنيا مفتخرين بها وهم أضعف حالاً في الدنيا فإن مدارها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ويلجؤون إلى واد لا نفع لها ولولا رحلتي الشتاء والصيف لهم إلى اليمن والشام لماتوا جوعاً ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ عطف على ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ معطوف على جملتين محذوفتين معطوفتين على جاءتهم، تقديره جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم فدمرهم الله في الدنيا فما كان الله ليظلمهم أي ما كان صفة الله ظلمهم فإن اللام لام الجحود وأن بعدها مقدرة يعني ما كان صفة الله أن يفعل بهم ما يفعل الظلمة من التعذيب بغير جرم ولا تذكير ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما أدى إلى تدميرهم ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد التدمير في الدنيا عطف على جملة مقدرة وهي فدمرهم الله ثم ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ قرأ أهل الحجاز والبصرة بالرفع على أنه اسم كان وخبره ما بعده أو محذوف كما سنذكر وأهل الكوفة والشام بالنصب على أنه خبر كان والاسم أن كذبوا ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ من الأعمال تقديره ثم كان عاقبتهم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على بعض ما يقتضي تلك العاقبة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث أسوأ كالحسنى تأنيث أحسن يعني الخصلة التي تسوءهم أو عقوبة هي أسوأ العقوبات أو هو مصدر كالبشرى نعت به مبالغة قبل السواء اسم نم أسماء جهنم كما أن الحسنى إسم من أسماء الجنة ﴿أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون﴾ عطف على كذّبُوا وأن كذبوا مع ما عطف عليه منصوب على العلية لقوله: ﴿فكان عاقبة الذين أساؤوا السوأى﴾ تقديره لأن كذبوا وجاز أن يكون بدلاً أو عطف بيان السوأى يعني ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب يعني حملهم تلك السيئات على أن كذبوا بآيات الله.

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ذلكم الران الّذي ذكر الله في كتابه: (كلاً بلْ ران على قُلُوبِهِمُ مَّا كانوا يكسبُون)[١] رواه أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم، وجاز أن يكون أن كذبوا مع ما عطف عليه خبر كان والسوأى مصدر أساءوا أو مفعوله والمعنى ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله، ويجوز أن يكون السوأى مصدراً ومفعولاً للفعل وإن كذّبوا تابعاً لها بدلاً أو عطف بيان والخبر محذوف للإبهام والتهويل تقديره ثم كان عاقبة الذين فعلوا السيئات أي التكذيب جهنم وما لا يعرف ما أعد لهم من العذاب فيها، وجاز أن يكون مفسرة للإساءة فإن الإساءة إذا كانت مفسرة بالتكذيب والاستهزاء كانت متضمنة لمعنى القول.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أي يخلقهم ابتداءً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي الخلق يبعثهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم، قرأ أبو بكر بالياء للغيبة لأن الضمير عائد إلى الخلق والباقون بالتاء التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المقصود ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظرف متعلق بقوله ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ والجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قال قتادة والكلبي أي ييئسون من كل خير، وقال مجاهد يفتضحون، وقال الفراء ينقطع كلامهم وحجتهم في القاموس البَلَس محركة من لا خير عنده والمبلس الساكت على ما فيه نفسه وأبلس يئس وتحيرو منه إبليس أو هو أعجمي، وقال الجزري في النهاية المبلس الساكت من الحزن أو الخوف والإبلاس الحيرة ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ أي من الذين أشركوهم بالله سبحانه في العبادة على زعم أنهم يشفعون لنا عند الله فهم لا يكونون لهم ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يجيرونهم من عذاب الله أورد بصيغة الماضي لتحقق وقوعه ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي يجحدون بآلهتهم حين يئسوا منهم. وقيل معناه كانوا في الدنيا بسبب شركائهم كافرين بالله تعالى ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظرف متعلق بيتفرقون ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدل من يوم تقوم الساعة أو تأكيد له أي يوم إذا كانوا مبلسين وكانوا بشركائهم كافرين ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ قال مقاتل يتفرقون بعد الحساب سيق المؤمنون إلى الجنة والكافرون إلى النار ثم لا يجتمعون أبداً ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ويل للمطففين (٣٣٣٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٤).

رَوْضَةٍ﴾ أي أرض ذات أزهار وأنهار من رياض الجنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قال ابن عباس يكرمون، وقال مجاهد وقتادة ينعمون، وقال أبو عبيدة يسرون والحبرة السرور وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتخبير التحسين، وفي النهاية للجزري الحبرة بالفتح النعمة وسعة العيش والحبرة بالكسر وقد يفتح الجمال والهيئة الحسنة وفي القاموس نحوه، وفي حديث أبي موسى لو علمتُ أنك يا رسول تسمع لقراءتي لحبرتُها لك تحبيراً أي حسنتُ صوتي بها، قال البغوي وقال الأوزاعي عن يحيى بن كثير يحبرون هو السماء في الجنة وكذا أخرج هناد والبيهقي عن يحيى بن كثير في هذه الآية، وقال الأوزاعي إذا أخذ في السماع لم تبق شجرة في الجنة إلا ورقت وقال ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم، وأخرج ابن عساكر عن الأوزاعي في هذه الآية قال هو السماع إذا أراد أهل الجنة أن يطربوا أوحى الله تعالى إلى رياح يقال لها العفافة فدخلت في أجام قضيب اللؤلؤ الرطب فحركته فضرب بعضه بعضاً فتطرب الجنة فإذا طربت لم يبق شجرة في الجنة إلا ورقت، وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «ما من عبد يدخل إلا أن تجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيان بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه» وأخرج البيهقي عن ابن عباس أنه سئل في الجنة غناء قال من مسك عليها يمجدون الله تعالى بصوت لم يسمع الأذن مثله قط، قلت: الطرب بالشعر والغناء في الدنيا لا يحصل إلا بذكر المحبوب بكلام موزون في صوت حسن موزون، ولا شك أن الناس إذا فازوا برؤية جمال الله سبحانه ولا جمال فوق جماله فلا محبوب لهم غيره فيطربون بسماع ذكره بصوت حسن موزون وفي بعض الأحاديث أن الحور العين يغنّين لأزواجهن بأصوات ما سمعها أحد قط فيكون ممّا يغنّين:

نحن الخيرات الحسان   أزواج قوم كرام

ومما يغنّين:

نحن الخالدات فلا نموتن   نحن الآمنات فلا نخافن

نحن المقيمات فلا نطحن

كذا أخرج الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً وأخرج الطبراني والبيهقي وابن أبي الدنيا عن أنس نحوه، وعن مالك بن دينار عند أحمد في الزهد يقول الله لداود عليه السلام مجدّني بذلك الصوت الحسن فيندفع داود بصوت ستقرع نعيم أهل الجنة، وعن أبي هريرة

عند الأصبهاني مرفوعاً أن الله تعالى ليوصي إلى شجرة الجنة أن اسمعي عبادي الذين شغلوا أنفسهم عن المعازف والمزامير بذكري فيسمعهم بأصوات ما سمع الخلائق مثلها قط بالتسبيح والتقديس، وفي الباب أحاديث كثيرة وأخرج الحكيم في نوادر الأصول عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين، قال يا رسول الله ما الروحانيون؟ قال قراء أهل الجنة» وأخرج دينودي عن مجاهد قال ينادي مناد يوم القيامة إن الذين كانوا ينزهون أصواتهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان قال فيحلهم الله في رياض من مسك فيقول للملائكة أسمعوا عبادي تحميدي وتمجيدي وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وروى الديلمي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً مثله ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أي البعث والقيامة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف تقديره فسبحوا الله سبحاناً حذف الفعل وأضيف المصدر إلى المفعول والفاء للسببية والتفريغ على ما سبق من صفاته تعالى من الإبداء والإعادة وغيرها والمراد بالتسبيح الصلاة يعني صلوا لله ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ أي حين تدخلون في المساء صلاة المغرب شكراً لما أنعم الله من تمام النهار بالسلامة والنعمة والدخول في الليل للسكون والراحة، بدأ بذكر صلاة المغرب لتقدم الليل على النهار في اعتبار الشهور والأيام ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ شكراً لما أنعم الله عليه من تمام الليل بالسلامة والراحة والدخول

في النهار لكسب المعاش والمعاد ذكر صلاة الصبح بعد المغرب لمقابلة الصباح بالمساء ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس أي يحمدون أهل السماوات والأرض ويصلون له الجملة حال من الله أو معترضة ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي آخر النهار عن عشى العين إذا نقص نورها عطف على يصبحون يعني صلوا صلاة العصر صلاة الوسط، ولما كان ذلك وقت اشتغال الناس بأمور الأسواق قدم ذكرها على ذكر الظهر اهتماماً يعني لا بد لكم من الإشتغال بالصلاة حين اشتغال الناس بأمور الدنيا كيلا تكونوا من الذين لا يلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي تدخلون في الظهيرة يظهر عليكم صولة الشمس ويذكركم حر نار جهنم وحر ذكائها يوم القيامة. خص هذه الأوقات لما تظهر فيها قدرته وتتجدد نعمته ولما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزيهه واستحقاقه الحمد والشكر ممن له تميز من أهل السماوات والأرض. ذكر في هذه الآية أربعاً من الصلوات الخمس، وقيل: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إشارة إلى المغرب والعشاء جميعاً، أخرج ابن جرير والطبراني والحاكم قول ابن عباس أن الآية جامعة للصلوات الخمس حين تمسون كناية عن المغرب والعشاء جميعاً. وقال البغوي قال نافع بن الأزرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال ابن عباس نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعتُ هذه الآية الصلوات الخمس ومواقيتها.

عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض عشياً وحين تظهرون﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في يومه ذلك ومن قالهن حين يمسي أدركه ما فاته في الليلة»[١] رواه أبو داود، وعنه عليه السَّلام: «من سره أن يكتال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون» الآية، رواه الثعلبي من حديث أنس بسند ضعيف جداً، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[٢] متفق عليه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عنه» متفق عليه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التسبيح والتهليل والدعاء (٢٦٩١).

«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[١] متفق عليه، وعن جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ خرج ذات غداة من عندها (وكان اسمها برة) فخرج وهي في المسجد فرجع بعدما تعالى النهار وقال ما زلت في مجلسك هذا منذ خرجتُ بعد؟ قالت نعم، فقال لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بكلماتكِ لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»[٢] رواه مسلم، وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل الكلام أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وفي رواية «أحب الكلام إلى الله أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيتهن بدأت» رواه مسلم وعن أبي ذر قال: «سئل رسول الله ﷺ أيُّ الكلام أفضل؟ قال ما أصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده»[٣] رواه مسلم، وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»[٤] رواه الترمذي.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ النطفة والبيضة من الحيوان أو يعقب الحياة بالموت وبالعكس ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء بعد الموت فلم تنكرونه بعد ماتشاهدون نظيره فهي تعليل للبعث، قرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي من آيات قدرته تعالى على البعث ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي خلق أدم ﴿من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ إذا للمفاجأة مضاف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة والمعنى ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض بعدما كنتم جماداً بلا حس وحركة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من للإبتداء لأن حواء خلقت من ضلع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (٢٧٢٦).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل سبحان الله وبحمده (٢٧٣١).
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٤).

أدم وسائر النساء من نطف الرجال أو للبيان لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر ﴿أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوا لها فإن الجنسية علة الضم والإختلاف سبب التنافر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بين الرجال والنساء أو بين أفراد الجنس ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها بخلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش أو بأن تعيش الإنسان موقوف على التعاون المحوج إلى التواد والتراحم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته فيعلمون ما في ذلك من الحكم ومن التناسل ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وإختلاف ألسنتكم﴾ أي لغاتكم بأن علَّم كل صنف لغة وألهمه وأقدره عليها أو أجناس نطقكم وأشكاله وكيفيات أصواتكم بحيث لا يكاد يلتبس صوت أحد بغيره ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أي ألوان الجلد من السواد والبياض وغيرها أو مشخصات الأعضاء وهيآتها وألوانها وجلاها بحيث لا يلتبس أحد بغيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لا يكاد يخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن، وقرأ حفص بكسر اللام خصهم بالذكر لأنهم أحقاء بالمعرفة قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منامكم في زمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ المعاش والمعاد ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ في كلا الزمانين، أو المعنى منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف وضم بالزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلاً من الزمانين وإن خص بأحدهما فهو صالح للآخر عندالحاجة ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مقدر بأن أو الفعل فيه نزل منزلة المصدر كقوله تسمع للمعيدي خير من أن تراه أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة وفي حالة السفر ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث إذا كنتم في منازلكم ونصبهما على العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم يستلزم رؤيتهم إلى البرق الخوف أو الطمع أو الفعل مذكور بحذف المضاف أي لإراءة خوف وطمع أو بتأويل الخوف والطمع بالإخافة والأطماع كقولك فعلتُه رغماً للشيطان أو على الحال مثل كلمتُه شفاهاً ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً ﴿فيحيي به الأرض﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعلمون عقولهم فيدركون كمال قدرة الصانع وحكمته ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي يبقيان في حيزيهما ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإقامته لهما وأرادته ببقائهم ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ الجملة معطوفة على أن تقوم بتأويل المفرد كأنه قال ومن آياته قيام السماء واورض ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوةً واحدةً وثم لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه قوله من الأرض، قال البغوي أكثر العلماء على أنه متعلق بتخرجون وقال البيضاوي هذا لا يجوز لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبله بل متعلق بقوله دعاكم كقوله دعوتُه من أسفل الوادي. أخرج ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ قال يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فيقول يا أيها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمع لفصل الحساب، وإذا الثانية للمفاجأة ولذلك ناب مناب الفاء في جواب الأولى ظرف مضاف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة تقديره ففاجأتم وقت خروجكم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منها ﴿لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون، قال الكلبي هذا خاص بمن كان منهم مطيعاً والصحيح أنه عام لبيان قهرمانه والمراد الانقياد في الأوامر التكوينية، قال ابن عباس كل مطيع له في الحياة والموت والبعث ونحو ذلك وإن عصوا في العبادة، أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال تعجب الكفار من إحياء الموتى فنزلت ﴿وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ بعد الإهلاك ﴿وَهُوَ﴾ الإعادة وتذكير الضمير لتنكير الخبر أو الإعادة بمعنى أن يعيد ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الجملة حال من فاعل يعيد أو معطوفة على ما سبق، قال الربيع بن خيثم والحسن وقتادة والكلبي أهون بمعنى هين ولا شيء على الله بعزيز ويجيىء إفعل بمعنى الفعيل وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد وعكرمة وهو أهون على طريق ضرب المثل أي هو أيسر عليه على ما يقع في عقولكم فإن في عقول الناس الإعادة أهون من الإنشاء وقيل هو أهون عليه

عندكم وقيل هو يعني العود أهون على الخلق فإنهم في العود يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً إلى أن يصيروا رجالاً ونساءً وهذا معنى رواية حبان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه كالقدرة العامَّة والحكمة التامَّة، قال ابن عباس هي أنه ليس كمثله شيء، وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم أنه قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال شهادة أن لا إله إلا الله، قلتُ: أراد به الوصف بالوحدانية ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يصف به ما فيهما نطقاً ودلالة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب في ملكه وخلقه القادر على كل شيء لا يعجزه شيء من الإبداء والإعادة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال على ما يقتضيه الحكمة.

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال كان أهل الشرك يلبّون اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملكت فنزلت ﴿ضَرَبَ﴾ الله أي بيّن ﴿لَكُم﴾ أيها المشركون ﴿مَّثَلًا﴾ كائناً ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ أي شبهاً منتزعاً من أحوالكم فإنها من أقرب الأمور إليكم وهو ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي من مماليككم ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ لله (في ما رزقناكم) من الأموال وغيرها ﴿فأنتم﴾ وهم ﴿فيه سواء﴾ في التملك والتصرف يتصرفون فيه كتصرفكم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن تتصرفوا فيها دونهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ أي أمثالكم في الحرية، والإستفهام للإنكار يعني ليس الأمر كذلك وإنها معادة لكم مع أنهم بشر مثلكم فكيف تجوزون كون الحجارة التي هي أعجز المخلوقات شركاء لخالق الأرض والسماوات ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي تفصيلاً مثل ذلك التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ نبيّنها فإن التمثيل ما يكشف المعاني ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، وأخرج جويبر مثل ما أخرج الطبراني في سبب نزول الآية عن داود بن أبي هند عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه عليهم السَّلام ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ إضراب من مضمون الكلام السابق يعني ليس الله شريك بل اتبع ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بتعريضها للعذاب بالإشراك بالله ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ في الشرك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ حال من فاعل اتبعوا يعني جاهلين بما يجب عليهم ﴿فمن يهدى﴾ أي إياه الفاء للسببية والإستفهام للإنكار إذا اتبعوا أهواءهم ولم يقبلوا هدى الله فلا أحد يهديهم وضع المظهر يعني قوله ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ موضع الضمير إشعاراً بأن الله أضلهم فمن يقدر على هدايته ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم عن آفاتها ﴿فَأَقِمْ﴾ الفاء للسببية يعني لما ثبت وحدانيته تعالى وظهر أن المشركين إنما إتبعوا أهواءهم جاهلين فأقم أنت ﴿وَجْهَكَ﴾ أي أخلص بوجهك ﴿لِلدِّينِ﴾ أي للإسلام ﴿حَنِيفًاۚ﴾ مائلاً إليه مستقيماً

عليه غير ملتفت عنه إلى غيره ﴿فطرت الله﴾ منصوب على الإغراء أي إلزموا فطرة الله أي خلقته والمراد به دينه يعني الإسلام كذا قال ابن عباس وجماعة من المفسرين، فالآية خطاب للنبي ﷺ ولأمته بتبعيته فالآية بمنزلة التأكيد أو التفسير لما قبله سماه فطرةً لكونه لازماً لكل مخلوق كما يدل عليه قوله: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خلقهم مستعدين لها متمكنين على إدراكها وقيل المراد به العهد المأخوذ من آدم وذريته بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[1] قالوا كل مولود في العالم مولود على ذلك الإقرار وهو الحنيفة التي وقعت الخلقة عليها وقد مرَّ ما ورد في هذا الباب في تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم قرأ (فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)[2] متفق عليه، يعني كل مولود يولد في مبدأ الخلقة على الجبلة السليمة والطبع المهيأ لقبول الحق فلو ترك عليها لاستمر على لزومها لأن هذا الدين مركوز في العقول السليمة حسنه وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من الآفات كتقليد الآباء قوله تعالى ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الظرف المستقر خبر الله والجملة الخبرية معناه النهي يعني لا تبدلوا دين الله، قال مجاهد وإبراهيم النخعي إلزموا فطرة الله واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك، وقيل فطرة الله منصوب على المصدرية لفعل دل عليه ما بعده يعني فطر الله الناس فطرة التي فطرهم عليها. حكي عن عبد الله بن مبارك قال معنى الحديث «كل مولود يولد على الفطرة» أي على خلقته التي جبل عليها في علم الله من السعادة أو الشقاوة وكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر الله عليها وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها، وعلى هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ يعني ما جبل عليه الإنسان من السعادة والشقاوة لا يتبدل فلا يكون الشقي سعيداً ولا السعيد شقيّاً. عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الإذراع فيسبق عليه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٣٥٩)، وأخرجه مسلم، في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١) متفق عليه، وعن أبي الدرداء قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ فتذاكر ما يكون إذ قال رسول الله ﷺ إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوه وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوه فإنه يصير إلى ما جبل عليه» رواه أحمد، والمعنى على هذا التأويل أن الله فطر كلاً على فطرة لا يتبدل وقد فطرك ومن معك سعداء فأقم وجهك للدين كأنه تعليل وتشجيع على الإخلاص وجاز أن يكون فِطرة الله على هذا التأويل منصوباً بتقدير ملتزمين فطرة الله التي فطركم عليها، فوضع الظاهر يعني لفظ الناس موضع الضمير إشعاراً بأن الناس كلهم مفطورون على فطرة غير تاركوها فأنتم أقيموا وجوهكم للدين، قال عكرمة ومجاهد يعني لا تبدلوا خلق الله والمراد منه تحريم إخصاء البهائم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بالإقامة والفطرة على التأويل الأول ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الذي لا إعوجاج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إستقامة لعدم تدبرهم.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه من أناب إذا رجع مرةً بعد أخرى، وقيل معناه منقطعين إليه من غيره من الناب منصوب بفعل مقدر وهو كونوا بدليل عطف لا تكونوا عليه أو حال من الضمير في الزموا أو ملتزمين الناصب المقدر لفطرت الله أو في أقم لأن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨).

الآية خطاب للرسول الله ﷺ وأمته صدرت بخطاب الرسول لتعظيمه كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[١] يدل عليه قوله ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدل من المشركين يعني تفرقوا واختلفوا فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، قرأ حمزة والكسائي فارقوا يعني تركوا دينهم الذي أمروا به ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فرقاً تشايع كل إمامها الذي اخترع لهم ديناً، قيل المراد به أهل البدع من هذه الأمة حيث تركوا دين الحق وأتبعوا أهواءهم وأطلق عليهم لفظ المشركين لكونهم ممن اتخذ إلهه هواه، عن عبد الله بن عمر وقال قال رسول الله ﷺ: «تفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة، قيل من هي يا رسول الله؟ قال ما أنا عليه وأصحابي»[٢] رواه الترمذي ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الإعتقاد ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظناً بأنهم على الحق، روى الدارمي عن إبراهيم بن إسحاق عن ابن المبارك عن الأوزاعي قال قال إبليس لأوليائه من أي شيء تأتون بني آدم؟ فقالوا من كل شيء، فقال فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ فقالوا هيهات ذاك شيء قرن بالتوحيد، قال لأبثن فيهم شيئاً لا يستغفرون منه قال فبث فيهم الأهواء ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ يعني كفار مكة ﴿ضُرٌّ﴾ قحط وشدة ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعون إليه من دعاء غيره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من الشدة أو خصباً ورحمة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجاء فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم ونسبوا معافاتهم إلى غيره، عن زيد بن خالد الجهني قال: صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال أصبح من عبادي مؤمن وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله من السماء بركةً إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقول بكوكب كذا وكذا»[٤] رواه مسلم ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعنى التهديد لقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ غير أن فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَسَوْفَ

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧٢).

﴿تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة تمتيعكم ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والإستفهام للإنكار عطف على ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ وجاز أن يكون متصلة معطوفة على مقدر تقديره أيشركون بلا حجة ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ قال ابن عباس يعني حجة وعذراً وقال قتادة كتاباً، وقيل ذو سلطان يعني ملكاً معه برهان أو رسولاً مؤيداً بالمعجزة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ نطقاً أو دلالة كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾(١) ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ أي بإشراكهم وصحته أو بالأمر الذي بسببه يشركون به وبألوهيته والاستفهام في أم أنزلنا للتقرير يعني حمل المخاطب على الإقرار بأنهم يشركون بلا حجة ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ نعمة من صحة وسعة ﴿فَرِحُواْ﴾ بطروا بها بسببها ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ شدة ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي بشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ فأجاءوا القنوط من رحمته وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة ويصبر ويحتسب ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي يضيق فمالهم بطروا في السراء ولم يشكروا وقنطوا في الضراء ولم يرجعوا إلى الله راجين مغفرته بالندم والتوبة وترك المعصية ولم يصبروا ولم يحتسبوا كالمؤمنين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القبض والبسط ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يستدلون بهما على كمال القدرة والحكمة ﴿فَـَٔاتِ﴾ الفاء للسببية يعني إذا عرفت أن قبض الرزق والبسط من الله تعالى فآت: ﴿ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مصدر بمعنى القرابة ﴿حَقَّهُۥ﴾ من البر والصلة والنفقة الواجبة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾(٢) وقد مرَّ بحث نفقة المحارم في تفسير تلك الآية في سورة البقرة ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر الذي ليس معه ماله وكان له مال في وطنه آتهم حقوقهم من مال الزكاة ابتغاء مرضات الله ورجاء من فضله في الدنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيتاء ﴿خَيۡرٞ﴾ من إيثار اللذات لأنفسهم ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ أي ذاته أو جهته يعني يقصدون به رضاءه ويرجون ثوابه دون من يؤتى رياءً وسمعة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ عطف على الموصول أو على ذلك ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دون غيرهم فإنهم إشتروا بالدنيا الفانية العقبى الباقية ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم﴾ بالمد عند الجمهور يعني ما أعطيتم أكلة الربا ﴿مِّن رِّبٗا﴾ زيادة محرمةً في المعاملة أو عطيةً مباحةً من هدية أو هبة يتوقع بها مزيد مكافأة، وعلى هذا التأويل سمى العطية بالربا باسم المطلوب وهو الزيادة، وقرأ ابن كثير ما آتيتم في

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الموضعين مقصوراً أي ما جئتم به من إعطاء زيادة محرمة أو عطية مباحة يتوقعون بها مزيد مكافأة ﴿ليربوا﴾ قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء للخطاب مضمومةً والباء المضمومة وإسكان الواو أي لتربوا أنتم وتصيرون ذا زيادة ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي أموال المعطين أو المعطى لهم وقرأ الباقون ليربوا بالياء التحتانية المفتوحة وفتح الواو أي ليزيدوا في أموالهم ﴿فلا يربوا عند الله﴾ فلا يزيدوا عنده ولا يبارك فيه. قال البغوي إختلفوا في معنى الآية فقال سعيد بن جبير ومجاهد وطاووس وقتادة وأكثر المفسرين هو الرجل يعطي غيره العطية ليثبت أكثر منها وهذا جائز حلال ولكن لا يثاب عليه يوم القيامة وهو معنى قوله لا يربوا عند الله وكان هذا حراماً على النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾[1] وقال الضحاك هو الرجل يعطي قريبه أو صديقه لتكثير ماله ولا يريد به وجه الله، وقال الشعبي هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله التماس عونه لا لوجه الله فلا يربوا عند الله لأنه لا يريد به وجهه قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىءٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى ما الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى هاجر إليه»[2] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ أي ما أعطيتم من صدقتا أو فعلتم أداء الزكاة ﴿تُرِيدُونَ﴾ به ﴿وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ ذاته أو ثوابه ورضاءه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني الذين يؤتون الزكاة ﴿هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي الذين يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى ما لا نهاية له ويضاعف لهم أموالهم ببركة الزكاة أو المعنى هم ذووا الإضعاف من الثواب نظيره المقوي والموسر لذي القوة واليسار. وتغييره عن سنن المقابلة عبارةً ونظماً للمبالغة، والإلتفات فيه للتغظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم أو للتعميم كأنه قال من فعل ذلك فأولئك هم المضعفون والراجع منه محذوف إن جعلت ما موصولة تقديره المضعفون به وقال الزجاج تقديره فأهلها هم المضعفون.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٠ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ

(١) سورة المدثر، الآية: ٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (١٩٠٧).

بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ وما بعده خبره ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ أي ممن أشركتموها بالله من الأصنام وغيرها والإستفهام للانكار أي ليس شيء منها ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ ذكر الله سبحانه لوازم الألوهية وأثبتها لنفسه ونفاها عن غيره مؤكداً بالإنكار على ما دلّ عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شريكاً فقال ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية وجاز أن يكون الذي خلقكم صفة لله وهل من شركائكم خبره من الرابط من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله تقديره الله الذي خلقكم هل من شركائكم من يفعل شيئاً من أفعاله من الأولى والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم النفي وكل منها مستقلة لتعجيز الشركاء ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق والقتال والجدال ومحق البركات والظلم وكثرة المضار والأمراض والضلال والرياح المفسدة في البحار ومصادمة الداوب في البحار، وقال البغوي أراد بالبر البوادي والمفاوز وبالبحر المدائن والقرى التي على المياه الجارية، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة

أنه قال العرب يسمي المصر بحراً يقول أجدبت البر وانقطعت مادة البحر، وقال عطية وغيره البر ظهر الأرض من الأمصار وغيرها و البحر هو البحر المعروف وقلة المطر كما تؤثر في البر تؤثر في البحر فتخلوا جواف الأصداف لأن الصدف إذا جاع المطر ترتفع إلى وجه البحر وتفتح فاه فما يقع في فيه من المطر صار لؤلؤاً، وقال ابن عباس ومجاهد الفساد في البر قتل ابن آدم أخاه وفي البحر غصب الملك الجابر السفينة، أخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ بقتل قابيل أخاه وفي البحر بأن ملك عمان جلندي كان يأخذ كل سفينة غصباً وقال الضحاك كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرةً إلا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذباً وكان لا يقصد الأسد البقر والغنم فلمَّا قتل قابيل وهابيل أقشرت الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً أجاجاً وقصد الحيوان بعضه بعضاً ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه يعني وقع القحط والجدب بمكة بشؤم معاصي أهلها حتى أكلوا العظام والجيف ليذيقهم قرأ قنبل بالنون على التكلم والباقون بالياء ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي بعض جزائه فإن تمام الجزاء في الآخرة واللام للعلة أو العاقبة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا من أعمالهم الخبيثة متعلق بقوله ليذيقهم، قال قتادة امتلأت الأرض ظلماً وضلالة قبل مبعث النبيّ ﷺ فلمَّا بعث رجع راجعون من الناس.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلكم لتروا منازل الذين ظلموا خاوية ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الجملة حال بتقدير قد أو استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لظهور الشرك وغلبته فيهم أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليلهم فأهلكوا جميعاً بشؤم الجار السوء أو بتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جملة قُلْ سيروا تأكيد من حيث المعنى ليذيقهم لدلالته على إذاقة العذاب ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ حذراً عما لحق بمن قبلك فالفاء للسببية ﴿لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغ في الإستقامة وهو دين الإسلام ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرده ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بياتي أو بمرد لأنه مصدر على معنى لا يرده الله لتعلق إرادته بمجيئه يمكن أن يكون المراد بذلك اليوم يوم يأتيهم العذاب في الدنيا والظاهر أن المراد به يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدعون أي يتصرفون فريق في الجنة وفريق في السعير أو فريق يعذب في الدنيا وفريق لا يعذب كيوم بدر ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي وباله في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يسوون منازل حسنة في القبور وفي الجنة ﴿لِيَجْزِىَ﴾ الله متعلق بيمهدون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ظاهر موضع الضمير لبيان

مناط جزائهم ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ متعلق بيجزي، قال ابن عباس ليثيبهم الله أكثر من ثواب أعمالهم اقتصر على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات وأن الله إنما يريد الإثابة إلا من أبى وظلم على نفسه وأختار النار لأجل كفرهم كما يدل عليه قوله ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فهم بكفرهم لم يستحقوا تفضله، وقال الشيخ جلال الدين قوله ليجزي متعلق بيصَّدَّعُونَ وقد ذكر جزاء الفريقين فإن قوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ معناه أنه يعاقبهم والله أعلم.

وقوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ دالٌّ على أن الإثابة تفضل محض وتأويله بالعطاء أو الزيادة على الثواب عدول عن الظاهر، قلتُ: ويؤيده ما أخرج أحمد في الزهد عن أبي الحارث قال أوحى الله تعالى إلى داود أنذر عبادي الصالحين فلا يعجبوا بأنفسهم ولا يتكلوا على أعمالهم فإنه ليس عبد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عذبته، وأخرج أبو نعيم عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبداً لحساب يوم القيامة أشاء أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيته من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» وأخرج الطبراني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول الله تبارك وتعالى بأي الأمرين أحب إليك أن أجزي بعملك أو بنعمتي عليك، قال أي رب أنت أعلم أني لم أعصك قال خذوا عبدي بنعمة من نعمتي فما يبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة فيقول بنعمتك ورحمتك، وأخرج البزار عن أنس عن النبيّ ﷺ «يخرج لابن أدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى، يقول الله تعالى لأصغر نعمة من ديوان النعم خذي منك من العمل الصالح فتستوعب العمل الصالح فيقول وعزتك ما استوعبت ويبقى الذنوب وقد ذهب العمل الصالح كله فإذا أراد الله تعالى أن يرحم عبداً قال يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزتُ عن سيآتك ووهبتُ لك نعمتي» وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله كان له بها عهداً عند الله ومن قال سبحان الله كتب له بها مائة ألف حسنة، فقال رجل يا رسول الله كيف نهلك بعد هذا؟ قال والذي نفسي بيده إن الرجل ليجيء يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم نعمة من نعم الله تعالى فكان كله يستنفد ذلك كله يوماً يتفضل الله به من رحمته» وأخرج الشيخان عن عائشة وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدخل الجنة أحداً عمله، قالوا ولا

أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرته ورحمته»[١] وعند مسلم عن جابر نحوه، وقد ورد هذا أيضاً من حديث أبي سعيد أخرجه أحمد ومن حديث ابن أبي موسى وشريك بن طارق أخرجهما البزار ومن حديث شريك بن طريف وأسامة بن شريك وأسد بن كرز أخرجها الطبراني.

وهاهنا إشكالان **أحدهما** أنه لا يبقى حينئذ فائدة في الطاعة وترك المعصية فإن الله تعالى لو لم يتفضل عذّب أهل الطاعة ولو تفضل غفر أهل المعصية وأدخل الجنة **وثانيهما** أنه معارض لقوله تعالى: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعلمون﴾[٢] فإنه يدل على أن دخول الجنة مسبب بالأعمال. والجواب عن الأول أن الطاعة يقتضي محبة الله عبده حيث قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٣] وقال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه: «ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[٤] رواه البخاري عن أبي هريرة في حديث طويل، والمحبة تقتضي التفضل والتفضل سبب لجلب كل خير ودفع كل ضرر، وعن الثاني بأن للجنة منازل تنال فيها بالأعمال فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأما أصل دخولها والخلود فيها فبفضل الله ورحمته، يؤيده ما أخرجه هناد في الزهد عن ابن مسعود قال تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقسمون المنازل بأعمالكم وأخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله مثله والله أعلم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ دلائل قدرته ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ومن المشرق إلى المغرب وبالعكس على حسب إرادته من غير محرك كما يشهد به الحس، قرأ حمزة والكسائي الريح على إرادة الجنس ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر حال من الرياح ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ المذوقات من الحبوب والثمار وغيرها معطوف على معنى مبشرات كأنه قال ليبشركم وليذيقكم أو على محذوف تقديره يرسل الرياح ليذهب عنكم الحر والسموم وليذيقكم ﴿مِّن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦١٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

رَحْمَتِهِۦ﴾ من للإبتداء ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ بالرياح ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ﴾ الأرباح بالتجارة في البحر ﴿مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعم الله فيها فتجلبوا ثمراته في الدنيا والآخرة جملة من آياته متصل بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ الآية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات على صدقهم فآمن بهم قوم وكفربهم آخرون يدل عليه قوله ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ أي عذبنا الذين كفروا بهم ﴿وكأن حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ معطوف على جملة محذوفة تقديره ونصرنا الذين آمنوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وفيه إشعار بأن الإنتقام من الكفار كان لأجل نصر المؤمنين وإظهار كرامتهم. فإن قيل هذه الآية تدل على وجوب نصر المؤمنين تفضلاً فيلزم منه أن لا يغلب الكفار عليهم قط وقد يرى خلاف ذلك؟ قلنا: اللام والإضافة في نصر المؤمنين للعهد والمراد أن المؤمنين الذين جاهدوا الكفار خالصاً لإعلاء كلمة الله والموعود من الله أن ينصرهم ولو بعد حين وعن أبي الدرداء قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله................. أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»[(١)] أخرجه الترمذي وحسنه وأخرجه إسحاق بن راهويه والطبراني وغيرهما من حديث أسماء بنت يزيد، وقد يوقف على حقاً على أنه متعلق بالإنتقام ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متصلاً تارة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في سمتها كقوله تعالى ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[(٢)] ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ حال من مفعول يبسط أي سائراً أو واقعاً مطبقاً أو غير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعاً تارةً أخرى، قرأ ابن عامر بسكون السين على أنه مخففاً أو جمع كسفة أو مصدر وصف به ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارتين ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني بلدهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بمجيء الخصب ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ مخففة من الثقيلة يعني وأنهم كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر خفف المكي والبصري ينزل ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم ليس في قراءة ابن مسعود كلمة من قبله لمبلسين اللام فارقة وقيل إن نافية واللام بمعنى إلا والمعنى وما كانوا من قبله إلا آيسين ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله﴾ يعني آثار الغيث من النبات

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الذب عن عرض المسلم (١٢٨٧).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.

والأشجار والحبوب والثمار ولذلك جمعه ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وقرأ الجمهور أثر رحمت الله مفرداً أي على إرادة الجنس ﴿كيف يحيي الأرض﴾ بالإنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها ﴿لمحيي الموتى﴾ يحييهم بعدما يميتهم فما وجه إنكاركم أيها الكفار بعدما تشاهدون ما يماثله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على السواء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ موجباً ليبس الأرض ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي رأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلول عليه بما تقدم ﴿مُصْفَرًّا﴾ واللام جواب قسم مقدر ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ بنعمة الله جواب للقسم سدَّ مسد الجزاء مبنية حال الكفار لقلة تثبتهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكرهم وسوء رأيهم، والنظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله ويلتجؤوا إليه بالإستغفار إذا احتبس المطر عنهم ولا ييئسوا من حرمة الله، وأن يبادروا إلى الشكر والإستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته و يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا عى بلائه إذا ضرب بزرعهم أفة ولا يكفروا نعمه ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهم مثلهم لسدهم عن الحق مشاعرهم ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ قرأ ابن كثير لا يسمع بالياء على الغيب على البناء للفاعل من المجرد ورفع الصم والجمهور على صيغة الخطاب من الأفعال ونصب ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالةً فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يفطن منه بواسطة الحركات شيئاً ﴿وما أنت بهاد العمى﴾ أي الكفار قرأ حمزة تهدي بصيغة المضارع سماهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الابصار أو لعمى قلوبهم ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ﴾ سماع إفهام وقبول ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارف للإيمان أو من قدر الله له الإيمان ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهم به.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى
ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي إبتداؤكم ضعف أي ضعف الطفولية أو جعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[١] أو المعنى خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة أي ذي ضعف كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[٢] ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ أي ضعف الطفولية ﴿قُوَّةً﴾ أي شباباً ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ قرأ أبو بكر وحمزة من ضعف في المواضع الثلاثة بفتح الضاد وكذلك روى حفص عن عاصم فيهن غير أنه ترك ذلك وأختار الضم إتباعاً منه لرواية حدثه بها الفضل بن مرزوق عن عطية العوفي عن عبد الله بن عمر أنه ﷺ أقرأ ذلك بالضم وردَّ عليه الفتح، كذا أخرج أبو داود والترمذي عن ابن عمر وهذه الرواية ضعيفة كذا قال الداني وما رواه حفص عن عاصم عن أئمته أصح والباقون بضم الضاد فيهن كذا قال الداني، وقال البغوي في التفسير قرأ حفص بضم الضاد وفتحها والآخرون بفتحها وهما لغتان فالضمة لغة قريش والفتح لغة تميم، وفي القاموس الضعف بالفتح في الرأي وبالضم في البدن ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيب ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿الْقَدِيرُ﴾ على كل ما يشاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها يقع بغتة وصارت علماً لها بالغلبة كالكواكب للزهرة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ٢٠.

يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ في الدنيا والقبور بدليل قوله تعالى: ﴿لقد لبثتم إلى يوم البعث﴾[١] ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ من الزمان إستقلوا مدة لبثهم إضافةً إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً أو لأن ما مضى صار كأن لم يكن قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق حيث كانوا يشركون بالله ويقولون أن لا بعث ﴿وَقَالَ﴾ عطف على يقسم المجرمون ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي الملائكة والأنبياء والمؤمنون ردّاً لقولهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ زماناً كتب الله لكم لبثه ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أو زماناً كائناً في كتاب الله أي مكتوباً فيه مدة لبثكم أو لبثتم لبثاً كائناً في كتاب الله أي اللوح المحفوظ أو صحف الملائكة الموكلين بالأرحام حيث قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله» الحديث، أو القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ متعلق بقوله لبثتم ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، جملة معترضة أو جواب شرط محذوف تقديره إن كنتم تنكرون البعث فهذا يومالبعث أي فأنتم مبطلون وقد تبين بطلان إنكاركم ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم في النظر ﴿فيؤمئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ قرأ الكوفيون لا ينفع بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل لكنه غير حقيقي ومفصول ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى أي الرضاء كذا في القاموس يعني لا يطلب منهم موجبات رضاء الله منهم من التوبة والطاعة كما طلب منهم في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبتهُ أي استرضاني فأرضيتُه أو المعنى لا يطلب رضاؤهم بالله كما يطلب من المؤمنين رضاؤهم، عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تعط أحداً من الخلق فيقول أما أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا وما أفضل من ذلك؟ فيقول أحلُّ لكم رضواني فلا أسخط بعده»[٣] متفق عليه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾[٤].

(١) الآية هي: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ سورة الروم، الآية: ٥٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٤) سورة الليل، الآية: ٢١.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ أي بيّناً ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي أنواع الحكايات التي هي في الغرابة كالأمثال مثل صفة المبعوثين من الكفار يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون لهم من الإنتفاع بالمعذرة وعدم استغنائهم، أو بينّا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ جواب قسم محذوف ﴿بآية﴾ من آيات القرآن لو معجزة كعصا موسى ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من فرط غباوتهم وقساوة قلوبهم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي قائلون بالأباطيل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي طبعاً مثل ذلك الطبع الذي طبعنا على قلوب كفار مكة الذين قالوا إن أنتم إلا مبطلون ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله أو لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع عن إدراك الحق ويوجب تكذيب للحق ﴿فأصبر﴾ على أذاهم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على سائر الأديان ﴿حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق أو لا يحملنك على الجهل وأتباعهم في الغي ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم ـ تم تفسير سورة الروم خامس عشر رجب سنة ألف ومائتين وست والحمد لله رب العالمين ويتلوه إن شاء الله تعالى سورة لقمان والحمد لله.

سورة لقمان

آياتها أربع وثلاثون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ
بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي حكمة أو وصف الكتاب بصفة الله عز وجلَّ على الإسناد المجازي والإضافة بمعنى من هدى ورحمة قرأ حمزة بالرفع على أنه خبر بعد خبر لتلك أو خبر لمحذوف أي هي ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ والحمل على المبالغة كزيد عدل أو بحذف المضاف أي ذات هدًى والباقون بالنصب على الحال من الآيات والعامل فيه معنى الإشارة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ بيان لإحسانهم أو تخصيص بهذه الثلاثة من شعبه لفضل إعتداد بها وتكرير الضمير للتوكيد ولما جعل بينه وبين خبره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ فائزون مقاصد هم لاستجماعهم العقيدة والعمل الصالح.

أخرج جويبر عن ابن عباس قال اشترى النضر بن الحارث قينة فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول أطعميه وأسقيه وغنيه هذا خير مما يدعوك إليه

محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي ما تلهي وتشتغل عما يفيد من الأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار فيها والمضاحيك وفضول الكلام، والإضافة بيانية بمعنى من إن أراد بالحديث المنكر أو تبعيضية أيضاً بمعنى من إن أراد به الأعم منه، وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من قريش إشترى جارية مغنيةً، وروى البغوي عن أبي سلمة قال قال رسول الله ﷺ: «لا يحل تعليم المغنيات وأثمانهن حرام وفي مثل هذا نزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب ولا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»، أخرج الترمذي وغيره عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام» في مثل هذا أنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾[(١)] وقال البغوي قال مقاتل والكلبي نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة كان يتّجر فيأتي الحيرة ويشتري بها أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله هذه الآية، وكذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وقال مجاهد يعني القينات والمغنين، ومعنى الآية على هذا من يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث أو المعنى من يشتري لهو الحديث أي يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن، قال مكحول من اشترى جارية ضرابةً لتمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أصلّ عليه لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ الآية، وعن ابن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث الغناء والآية نزلت فيه، وقال أبو الصهباء البكري سألتُ ابن مسعود عن هذه الآية قال هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يردّدها ثلاث مرات، وقال ابن جريج هو الطبل قلتُ مورد النص وإن كان خاصّاً وهو الغناء أو قصص الأعاجم لكن اللفظ عام والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ومن هنا قال قتادة هو كل لهو ولعب وقال الضحاك هو الشرك.

مسألة:

إتخاذ المعازف والمزامير حرام باتفاق فقهاء الأمصار عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع المغنيات (١٢٧٩).

«نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة» رواه البغوي، وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يشربون الناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ويضرب على رؤوسهم المعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»(١) رواه ابن ماجه وصححه ابن حبان وأصله في صحيح البخاري، وعن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء، قيل وما هي يا رسول الله؟ قال: «إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وأطاع الرجل زوجته وعقَّ أمه وبرّ صديقه وجفا أباه وارتفعت الأصوات في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شرّه وشربت الخمر ولبست الحرير واتخذت القينات والمعازف ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مسخاً»(٢) رواه الترمذي وقال غريب.

مسألة:

قالت الفقهاء الغناء حرام بهذه الآية لكونه لهو الحديث وبما ذكرنا من الأحاديث، وقالت الصوفية كان من الرجال ذي قلب مطمئن بذكر الله فارغاً عن غيره لا يلتفت إلى ما سوى الله ولا يكون المغنّى محلاً للشهوة وكان المجلس خالياً عن الأغيار ولا يكون وقت صلاة أو نحوها جاز له السماع بل يستحب، لأن في السماع خاصية أنه يستعمل به نار المحبة الجامدة المستورة في القلب وذلك هو السبب لحرمته فيحق العامة فإن العوام قلوبهم مشغولة بحب النساء أو الغلمان فعند السماع يشتعل ذلك المحبّة ويشغلهم عن ذكر الله فكان في حقهم لهو الحديث، ومن كان قلبه مشغولاً بمحبة الله وذكره فارغاً عن غيره يكون السماع في حقه موجباً لاشتغال محبة الله فيكون في حقه مستحباً، والجواب عن النصوص أن الآية ناطقة بالحرمة لما هو لهو الحديث وسماع الصوفية ليس منه والأحاديث الموجبة لحرمة الغناء مخصوصه بالبعض لورود أحاديث آخر دالة على الإباحة فحملنا أحاديث حرمة الغناء على ما كان منه على قصد اللهو لا لغرض مشروع داعياً إلى الفسوق، فلنذكر الأحاديث الدالة على إباحة الغناء بل على إباحة ضرب الدف أيضاً منها حديث الربيع بنت معوّذ بن عفراء قالت: «جاء النبيّ ﷺ فدخل حين بنى عليَّ فجلس على

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: العقوبات (٤٠٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف (٢٢١٠)، وفيه من ضعّف من قبل حفظه.

فراشي كمجلسك مني فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من أبائي يوم بدر إذ قالت إحداهن:

وفينا نبي يعلم ما في غد

فقال: دعي هذه وقولي ما كنت تقولين»[١]

رواه البخاري وروى ابن ماجه نحوه وفيه «أما هذا فلا تقولوه لا يعلم ما في غد إلا الله»[٢] وعن عائشة قالت «زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله ﷺ» «ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[٣] رواه البخاري، وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «أعلنوا هذا النكاح وأجعلوه في المساجد وأضربوا عليه بالدُّفوف»[٤] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن عائشة قالت: كانت عندي جارية من الأنصار زوجتها فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ألا تغنين فإن هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء» رواه ابن حبان في صحيحه، وعن ابن عباس قال أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول الله ﷺ فقال: أهديتم الفتاة، قالوا نعم قالوا أرسلتم معها من تغنّي؟ قالت لا، فقال رسول الله ﷺ: «إن الانصار قوم فيه غزل فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم»[٥] رواه ابن ماجه، وعن عامر ابن سعد قال دخلتُ على قرظ بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار تغنين فقلتُ أي صاحب رسول الله ﷺ وأهل بدر يفعل هذا عندكم؟ فقالا اجلس إن شئتم فاستمع معنا وإن شئت فاذهب فإنه قد رخص لنا في اللهو عند العرس، وعن عائشة أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان والنبيّ ﷺ متفس بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبيّ ﷺ عن وجهه فقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد تلك أيام منى»[٦] رواه البخاري وعند ابن ماجه «إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا» وعن عمرو بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدراً (٤٠٠١).
(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الغناء والدف (١٨٩٧).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها (٤٨٦٧).
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في إعلان النكاح (٥١٦٢).
(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الغناء والدف (١٩٠٠).
(٦) أخرجه البخاري في كتاب: العيدين، باب: إذا فاته العيد يصلي ركعتين وكذلك النساء ومن كان في البيوت والقرى (٩٨٧).

شعيب عن أبيه عن جده أن امرأةً قالت يا رسول الله إني نذرتُ أن أضرب على رأسك بالدف قال: «أوفي بنذرك»[١] رواه أبو داود، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله»[٢] رواه مسلم، وروي أن النبيّ ﷺ لمّا قدم المدينة ونزل في بني نجار صرن جوار من بني النجار يتغنين ويقلن:

نــحــن جــوار مــن بــنــي نــجــار يــا حــبــذا مــحــمــداً مــن جــار[٣]

رواه ابن ماجه عن أنس، وفيه فقال النبيّ ﷺ: «الله يعلم إني لأحبكن» وروى البيهقي عن عائشة أن النبيّ ﷺ حين قدم المدينة جعل النساء والولائد والصبيان يقلن شعر:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى الله داع

أيها المبعوث فينا جئتَ بالأمر المطاع

وروى أحمد عن أنس لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحاً برسول الله ﷺ، وعن محمد بن حاطب الجمحي عن النبيّ ﷺ قال: «فصل ما بين الحلال والحرام الصوت والدّف في النكاح»[٤] رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، فظهر أن المحرم من الغناء ما يدعوا إلى الفسق ويشغل عن ذكر الله وما ليس كذلك فليس بحرام غير أنه لم يثبت عن النبيّ ﷺ ولا عن الصحابة رضي الله عنهم استماع الغناء تقرباً إلى الله تعالى، ولأجل ذلك ما اختار الكرام من النقشبندية وغيرهم إرتكابه وإن لم يرتكبوا الإنكار عليه والله أعلم، ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دينه أو ذكره وقراءة كتابه قرأ ابن كثير وأبو عمر وليضل بفتح الياء على صيغة المجرد بمعنى يلبث على ضلاله ويزيد فيه ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن، وقال قتادة بحسب المؤمن الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أي آيات الله قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالمنصب عطفاً على قوله ليضل والباقون بالعطف على قوله يشتري بالرفع ﴿هُزُوًاۚ﴾ مهزوّاً به سخرية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يأمر به من وفاء النذر (٣٣٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: لا فاء لنذر في معية الله ولا فيما لا يملك العبد (١٦٤١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: الغناء والدف (١٨٩٩).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في إعلان النكاح (١٠٨٢)، وأخرجه النسائي في كتاب النكاح، باب: إعلان النكاح بالصوت وضرب الدف (٣٣٦٠).

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ﴾ لا يتوجه إليه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً الجملة الشرطية عطف على يشتري ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال من المستكن في ولي أو مستكبراً أو إستئناف ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ﴾ قرأ نافع في أذنه بلفظ المفرد على إرادة الجنس ﴿وَقْرًا﴾ ثقلاً مانعاً من السماع بدل من كأن لم يسمعها أو حال من المستكن في لم يسمعها أو إستئناف ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي أخبره وذكر البشارة على التهكم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يحيق به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أي نعيم الجنات عكس للمبالغة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدر من الضمير في لهم أو من جنات والعامل ما تعلق به اللام أي مقدراً خلودهم فيها إذا دخلوها ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعد الله وعداً مصدر مؤكد لنفسه لكون ما قبله وعد ﴿حَقًّا﴾ أي حق ذلك الوعد حقاً مصدر مؤكد لغيره لأن كون الوعد حقاً أمر مغاير لنفس الوعد ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء لا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما يقتضيه الحكمة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صفة للحكيم بحذف الموصول تقديره الذي خلق أو حال من الضمير المستتر فيه بتقدير قد أو استئناف في محل التعليل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ جملة ترونها صفة لعمل والضمير راجع إليه وهو صادق بأن لا عمد لها أصلاً أو الضمير راجع إلى السماوات والجملة لا محل لها من الإعراب وقد سبق في الوعد ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً راسخات كراهة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أو لأن لا تميد بكم ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل صنف حسن كثير المنفعة فيه إلتفات من الغيبة إلى التكلم كأنه استدل به على عزته التي هي كمال قدرته وحكمته التي هي كمال العلم ومَهَّدَ به قاعدة التوحيد وقررها بقوله ﴿هَٰذَا﴾ أي ما ذكرت مما تعاينون ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الفاء للسببية يعني كل ما ترونه مخلوق لله تعالى فماذا خلق آلهتكم حتى استحقوا مشاركته في العبادة ماذا منصوب بخلق أو ما استفهام إنكار مبتدأ وإذا بمعنى الذي مع صلته خبره فأروني معلق عن العمل وما بعده سد مسدّ المفعولين ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتكم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على من له أدنى تأمل ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم ظالمون.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى

عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ﴾ بن باعور بن ناخور بن تارخ وهو آزر كذا قال البغوي، وقال قال وهب كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقال مقاتل ذكر أنه كان ابن خالة أيوب عليه السَّلام. وذكر البيضاوي وغيره أنه عاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه ثم ترك الفتيا بعد مبعثه وقال ألا أكتفي إذا كفيتُ، وقال الواقدي كان قاضياً في بني إسرائيل، وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس كان لقمان عبدا حبشياً نجاراً وكذا ذكر البغوي عن خالد الربعي، وقال قال مجاهد كان عبداً أسود عظيم الشفتين متشقق القدمين، وقال قال سعيد بن المسيب كان خياطاً وقيل كان راعي غنم والله أعلم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ في القاموس وهي العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل والمراد بالحكمة في قوله ﷺ «إن من الشعر لحكمة»[1] هو العلم وما ورد في قوله ﷺ: «إلا وفي رأسه حكمة» المراد به العقل وكل من المعاني المذكورة يحتمل المقام، قال البغوي اتفق العلماء على أنه كان حكيماً أي فقيهاً عليماً ولم يكن نبيّاً إلا عكرمة فإنه قال كان نبيّاً وتفرد بهذا القول، وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه سئل أكان لقمان نبيّاً قال لا لم يوح إليه وكان رجلاً حكيماً وكذا أخرج ابن جرير عن مجاهد، وقال بعضهم خُيّر لقمان بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، قال البغوي وروي أنه كان نائماً في نصف النهار فنودي يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض فتحكم بين الناس بالحق فأجاب الصوت فقال إن خيرني ربي قبلتُ العافية وإن عزم علي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٥٧٩٣).

فسمعاً وطاعةً فإني أعلم إن فعل ذلك إعانني وعصمني فقالت الملائكة بصوت (لا يراهم) لم يا لقمان؟ قال لأن الحكم بأشد المنازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب لقمان فبالحريّ أن ينجو وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ومن يختار الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن نطقه فنام نومه فأعطى الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ـ ونودي داود عليه السَّلام بعدها فقبلها ولم يشترط ما شرط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه وكان يوازره لقمان لحكمته وهذه الرواية تدل على أنه ليس المراد بالحكمة العدل في الحكم بين الناس، ولنعم ما قال الجزري في النهاية في تفسير الحكمة أنها عبارة عن معرفة الأشياء بأفضل العلوم، قلتُ أفضل الأشياء ذات الله تعالى قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] وقال عزَّ وجلَّ ﴿أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾[2] وأفضل علم لا يعتريه الغفلة وهو العلم الحضوري فإن العلم الحصولي لا ينفك عن غفلة وأيضاً لا يمكن درك الله سبحانه بالعلم الحصولي فإنه حصول صورة الشيء في الذهن وهو سبحانه منزه عن الصورة والتحيز بل العلم الذي يتعلق بذات الله سبحانه هو فوق العلم الحضوري والعلم الحضوري الذي يتعلق بذات العالم بالنسبة إلى ذلك العلم كالحصولي بالنسبة إلى الحضوري وهو من خصائص قلب الإنسان ومن ثم وقع في الحديث القدسي «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[3] ويحصل ذلك لأخص الخواص من أولياء الله والله أعلم.

أخرج الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس أن لقمان كان عبداً لداود وهو يسرد الدروع فلم يسأله عنها فلمَّا أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمة حكمة وقليل فاعله، وروي أنه سئل أيّ الناس شر قال الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئاً، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعي قال كان عبداً حبشيّاً نجاراً فقال له سيده إذبح شاةً وأتني بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمر بأن يأتي بأخبث مضغتين منهما فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ الظاهر أن تقديره وقلنا له أن اشكر لله على ما

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٣) ذكره في الإحياء وقال العراقي في تخريجه لم أر له أصلاً، وقال في المقاصد ليس له إسناد معروف. انظر كشف الخفاء (٢٢٥٦).

أعطاك من الحكمة، وقال أكثر المفسرين أن مفسرة فإن في إيتاء الحكمة معنى القول، قلتُ: وتوجيه ذلك أن إيتاء الحكمة عبارة عن تعليمها والتعليم يكون بالقول غالباً فالمعنى آتيناه الحكمة أي أمرناه بالشكر وهذا يدل على أن الحكمة هو الشكر وإيتاء الحكمة الأمر بالشكر والمراد بالأمر الأمر التكويني دون التكليفي فإن أمر التكليفي يعم لقمان وغيره وهو لا يستلزم حصول الشكر بخلاف التكويني فإنه يستلزمه كما يستلزم إيتاء الحكمة حصولها، وتفسير الحكمة بالشكر مبني على المجاز فإن الشكر لازم للحكمة فيجوز إطلاق أحدهما على الآخر مبالغة مجازاً والشكر عبارة عن إظهار النعمة وضده الكفران وهو ستر النعمة، وفي القاموس الشكر بالضم عرفان الإحسان قيل هو مقلوب عن الشكر أي الكشف فإنه إظهار النعمة وهو ثلاثة أضرب شكر القلب تصور النعمة وشكر اللسان الثناء على النعمة وشكر الجوارح مكافآت النعمة بالطاعات، قيل أصله من عين شكر أي ممتلئة فالشكر على هذا الامتلاء من ذكر النعم ونعمته ومن أجل هذا قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] ووصف الله تعالى في القرآن رجلين من عباده بالشكر أحدهما إبراهيم قال فيه ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[2] وثانيهما نوح حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[3] قال في النهاية الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية فيثني من المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعة ويعتقد أنه مولاها وهو من شكرت الإبل شكراً إذا أصاب مرعى فسمنت عليه وجاز أن يكون تقديره وقلنا له أن اشكر لله على ما آتيناك من الحكمة وغيرها (ومن يشكر) الله (فإنما يشكر) ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾ أي لنفع نفسه فإن الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود وموجب تقرب إلى الرب المعبود وثواب في دار الخلود قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[4] الآية ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله ﴿فَإِنَّ﴾ وباله عليه و ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكره لا يحتاج إليه ﴿حميد﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ اسمه أنعم أو أشكم أو ما ثان ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حال من لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تصغير إشفاق قرأ ابن كثير بإسكان الياء وحفص بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ متعلق بلا تشرك وجاز أن يكون قسماً جوابه ما بعده قيل كان ابنه كافراً فلم يزل به حتى أسلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهي، الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويقال على التجاوز عن الحق قليلاً كان التجاوز أو كثيراً ولهذا يستعمل في الذنب الصغير

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

والكبير ولا شك إن الشرك لظلم عظيم فإنه وضع العبادة في موضع لا يحتمل صلاحيتها أصلاً وتسوية من لا نعمة إلا منه بمن لا يصلح الإنعام مطلقاً ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي أمرناه أن يبرَّهما ويشكرهما جملة معترضة بين قصة لقمان ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ معترضة في معترضة مؤكدة للتوصية في حق الأم خاصة، عن أبي هريرة قال قال رجل يا رسول الله: «من أحق بحسن صحابتي؟ قال أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك»[١] متفق عليه، وقال عليه السَّلام «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات»[٢] متفق عليه في حديث للمغيرة ﴿وَهْنًا﴾ كائناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة لوهن وهو حال من فاعل حملته تقديره ذات وهن أو يوهن وهناً، قال ابن عباس معناه شدةً على شدةٍ، وقال الضحاك ضعفاً على صعف، وقال مجاهد مشقة على مشقة فإن المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة الحملُ ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاع ضعف ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ أي في انقضاء عامين وكانت ترضع في تلك المدة، وأحتج بهذه الآية الشافعي وأبو يوسف ومحمد أن أقصى مدة الرضاع حولان وقد ذكرنا مسألة الرضاع في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[٣] الآية، وفي سورة النساء في تفسير قوله: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾[٤] ﴿أن اشكر لي﴾ تفسير لوصينا أو بدل من والديه بدل إشتمال ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا لوالديه في إدبار الصلوات الخمس فقد شكر لوالديه ﴿إلي المصير﴾ والمرجع فيه وعد ووعيد يعني أجازيك على شكرك وكفرك ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ عطف على قوله أن أشكر ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاق الإشراك يعني فكيف وأنت تعلم بطلان الإشراك بالأدلة القاطعة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك فإن حق الله غالب على حق كل ذي حق قال رسول الله ﷺ: «لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق» رواه أحمد والحاكم وصححه عن عمران والحكيم ابن عمر والغفاري وفي الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي عن عليّ نحوه ﴿وصاحبهما في الدنيا﴾ صحاباً ﴿مَعْرُوفًا﴾ يرتضيه الشرع والعقل.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة (٥٩٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر (٥٩٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٥٩٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٣.

مسألة

يجب بهذه الآية الإنفاق على الأبوين الفقيرين وصلتهما وإن كانا كافرين عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عقد قريش فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال «نعم صليها»[1] متفق عليه ـ وقد مرّ في سورة العنكبوت أن هاتين الآيتين نزلتا في سعد بن أبي وقاص وأمه.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ دين ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أي أقبل ﴿إِلَيَّ﴾ وأطاعني وهو النبيّ ﷺ، قال عطاء عن ابن عباس يريد الله سبحانه به أبا بكر وذلك حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا قد صَدَّقْتَ هذا الرجل وآمنتَ به؟ قال نعم هو صادق فآمِنوا به ثم حملهم إلى النبيّ ﷺ حتى أسلموا فهؤلاء سالفة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني أبا بكر.

مسألة:

لا يجوز إطاعة الوالدين إذا أمرا بترك فريضة أو مكروه تحريماً لأن ترك الامتثال لأمر الله والامتثال لأمر غيره إشراك معنى ولما روينا من قوله عليه السَّلام «لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق» ويجب إطاعتهما إذا أمرا بشيء مباح لا يمنعه العقل والشرع، وهل يجب إطاعتهما إن أمرا بترك إكثار الذكر والنوافل وكسب الأموال فوق الحاجة ونحو ذلك والظاهر عندي أنه لا يجب ذلك لأن الله سبحانه أمر باتباع سبيل من أناب إليه وإكثار النوافل وترك النوافل وترك ما لا يعنيه وترك الدنيا والتبتل إلى الله سبيل المنيبين لا محالة ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم تركوا الأوطان وهاجروا وبذلوا أنفسهم وأموالهم على خلاف مرضاة آبائهم وأمهاتهم وقد قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾[2] فكيف يجوز ترك المجاهدة في سبيل الله مع النفس والشيطان لابتغاء مرضاة الآباء والأمهات، أخرج الحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال قال أبو قحافة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر (٣١٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج الوالدين ولو كانوا مشركين (١٠٠٣).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

لأبي بكر أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك أعتقت رجالاً أجلد يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال يا أبت إنما أريد ما عند الله فنزلت ﴿وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ حين أعتق بلالاً وعامر بن فهير وأم عميس وزبيرة ونحوهم، وهاجر أبو بكر مع أربعة آلاف درهم مع رسول الله ﷺ ولم يترك لأهله شيئاً على خلاف مرضاة أبيه كما ذكرنا في قصة هجرة النبيّ ﷺ في سورة التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾(١) ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إسلامك وأجازيهما على كفرهما، هذان الآيتان معترضتان في أثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال ووصينا بمثل ما وصى لقمان وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع كونهما تلوا الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقا الطاعة في الاشراك فما ظنك بغيرهما ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿إِنَّهَآ﴾ أي الخصلة من الإساءة أو الإحسان وقال قتادة الضمير راجع إلى الخطيئة وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملتُ الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله فقال إنها ﴿إِن تَكُ﴾ في الصغر مثلا ﴿مِثْقَالَ﴾ وزن ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ اسم تك ضمير مستتر وخبره مثقال على قراءة الجمهور بالنصب وقرأ نافع مثقال بالرفع على أنه اسم تكُ وهي تامة وتأنيث الفعل لإضافة المثقال إلى الحبة وضمير إنها للقصة على هذه القراءة ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحدب السماوات أو أسفله كمقعر الأرض، وقال قتادة في صخرة في جبل، وقال ابن عباس هي صخرة تحت الأرضين السبع وهي التي يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها، وقال السديُّ خلق الله الأرض على حوت وهو النون الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في القرآن ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ والحوت في الماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة (وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء ولا في الأرض) والصخرة على الريح ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يحضرها فيحاسب عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ودقيق ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بكنه كل شيء، قال الحسن معنى الآية هو الإحاطة بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها، قال البغوي وفي بعض الكتب أن هذه الكلمة آخر ما تكلم بها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ حفص والبزي بفتح الياء والباقون بكسرها ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

---

(١) سورة الليل، الآية: ١٧ ـ ١٨. (٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

تكميلاً لنفسك ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والأذى بسبب الأمر والنهي أو غير ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر أو كل ما أمره ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من الأمور التي عزمه الله أي قطعه قطع إيجاب قال رسول الله ﷺ: «خير الأمور عوازمها» أي فرائضها التي عزم الله عليك بفعلها، والعزم في الأصل عقد القلب على إمضاء أمر بالعزم على هذا مصدر بمعنى المفعول أو المعنى من الأمور التي يعزم عليها بجد لوجوبها ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ولا تصاعر من المفاعلة وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بتشديد العين من غير ألف ﴿خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل عنهم ولا تولهم صفحة وجهك تكبراً، قال ابن عباس تقول لا تتكبر فتحقر وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرحاً وبطراً مصدر وقع موقع الحال أي يمرح مرحاً أو العلة أي لأجل المرح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متبختر في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس علة للنهي نشر على غير ترتيب اللف لرعاية القافية ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي توسط فيه فوق الدبيب لأنه دليل الخيلاء ومشي المتكبرين ودون الإسراع لأنه مشى السفهاء ويذهب البهاء قال رسول الله ﷺ: «سرعة المشي يذهب بهاء المؤمن» أخرجه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة وأخرجه ابن عدي أيضاً من حديث أبي سعيد وابن عمر، والمراد بالإسراع المنهي ما يكون بجد فوق مشيه الطبعي وأما الإسراع على عادته دون الخبب فمحمود، روى ابن سعد عن يزيد بن مرثد أنه ﷺ كان إذا مشى أسرع حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه، وروى الطبراني والبيهقي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسكينة عليكم...... بالقصد في المشي بجنائزكم»[1] وأخرج الستة قوله ﷺ: «أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحةً يتقدمونها وإن يكن غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»[2] فهذه الأحاديث تدل على أن المراد بالإسراع ما ذكرت والمراد بالقصد هو الإسراع دون الخبب ﴿وَٱغْضُضْ﴾ قال مقاتل أي أخفض ﴿مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ يعني أوحشها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ تعليل لغضّ الصوت يعني أن صوت الحمير منكر جداً لكونه جهيراً جداً افلا يكن صوتك مثل صوتها أول صوتها زفير وآخرها شهيق وهما صوت أهل النار، قال موسى بن أعين سمعتُ سفيان الثوري يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ هي

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر في تاريخه. انظر فيض القدير (١٦٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: السرعة بالجنازة (١٣١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: الإسراع في الجنازة (٩٤٤).

العطسة القبيحة المنكرة، قال وهب تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة وأدخلها الناس في كلامهم وقضاياهم.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً
وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ
لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ
ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(٢٥) لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن
شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (٢٨)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ لأجل نفعكم ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال من الأرض ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المعادن والنباتات والحيوانات بأن مكّنكم من الإنتفاع بها بوسط أو بغير وسط ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أي أتم وأكمل ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحفص بفتح العين وضم الهاء على الجمع والإضافة والباقون بسكون العين وبالتاء منونةً على صيغة الواحد بإرادة الجنس ﴿ظَٰهِرَةً﴾ مع ما عطف عليه حال من نعمه والنعمة الظاهرة هي المحسوسة من حسن الصورة وتسوية الأعضاء والرزق والعافية وغيرها من نعماء الدنيا والإسلام والرسول والقرآن وتخفيف الشرائع وتوفيق اتباع الرسول وظهر الإسلام والنصر على الأعداء ﴿وَبَاطِنَةً﴾ من القلب والعقل والحواس الباطنة وحسن الأخلاق والأمداد بالملائكة والإلهام بالإعتقاد الحق وستر الذنوب وعدم التعجيل في العقوبة ونور معرفة الله ونار عشقه ورسوله وشفاعة رسوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ النبيّ ﷺ عطف على ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾(١) وما بينهما معترضات ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من الدليل، قال البغوي نزلت في النضر بن

(١) سورة لقمان، الآية: ٦.

الحارث وأبي بن خلف وأشباههما ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجع إلى الرسول ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ منزل من الله بل بالتقليد كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟﴾ لا نتبع ما أنزل الله ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فيه منع من التقليد في أصول الدين قال الله تعالى: أتبعون تقدير يعني قل أيتبعون آباءهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ الواو للحال أو للعطف على مقدم يعني لو لم يكن ولو كان ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ الضمير إمالهم أو لآبائهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بإلقاء حسن التقليد أو حسن الإشراك في قلوبهم والإستفهام للإنكار والتعجب ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ أي توجهه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبل بشراشره عليه يعني لا يفعل فعلاً ولا يترك شيئاً إلا ابتغاء مرضاته ويفوض أمره إليه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله قال رسول الله ﷺ «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه»[(١)] يعني بالحضور التام ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يعني تمسك بأوثق ما يتمسك به وأعتصم بأقوى ذريعة لا يحتمل إنقطاعه تمثيل لطيف للمتوكل على المتشبث بالعروة الوثقى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إذ الكل صائر إليه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يسلم وجهه إلى الله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ تقديره فقد أضرَّ نفسه وأوبقه ولا يضرك شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولمَّا كان عدم الضرر موجباً لعدم الحزن أورده في مورده، قرأ نافع لا يحزنك بضم الياء وكسر الزاء من الإحزان ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الدارين ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ بالتعذيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من الاعتقادات والخطرات فضلاً عما في الظاهر فيجازي كلاً على حسب إعتقاده وعمله ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ أي نمهلهم ليتمتعوا ﴿قَلِيلًا﴾ أي تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً في الدنيا إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي نلجئهم ونردهم في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي عذاباً يثقلهم ثقل الأجرام الغلاظ وهو عذاب النار ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث أضطروا إلى الإقرار به ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما ألزمهم وألجئهم إلى الأعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم يتنبهوا ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمد.

أخرج ابن إسحاق عن عطاء بن يسار وكذا ذكر البغوي أنه قال نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا ألم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠).

يبلغنا عنك أنك تقول وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً إيانا تريد أم قومك؟ فقال كلاً عنيتُ، قالوا ألستَ تتلو فيما جاءك إنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ هي في علم الله قليل فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ يعني لو ثبت كون الاشجار كلها أقلاماً وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الآحاد ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ المحيط ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ أي يزيده وينصب فيه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من خلفه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فاعل يمده، قرأ أبو عمر ويعقوب البحر بالنصب عطفاً على اسم إن أو بإضمار فعل يفسره يمده والباقون بالرفع عطفاً على أن ومعمولها وعلى هذا يمده حال، وجاز أن يكون البحر مبتدأ وما بعده خبره والجملة مستأنفة أو في محل النصب على أنه حال، فإن قيل ليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال؟ قلتُ هو كقولك جئتُ والجيش قادم ونحو ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظرف وكان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الأشجار أقلام والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر لكن أغنى عن ذكر المداد قوله يمُدُّه لأنه من مد الدواة وأمدها، وقال البغوي في الآية إضمار تقديره.

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) يكتب بها كلمات الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المعبر بها عن معلومات الله بتلك الأقلام وبذلك المداد ولا بأكثر من ذلك بالغاً ما بلغ لأن معلوماته تعالى غير متناهية لا يمكن نفادها ولذلك اختار صيغة جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ فقالوا أتزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فنزلت هذه الآية، فعلى ما ذكرنا من الروايات في سبب النزول الآية مدنية وقيل الآية مكية وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يسألوا رسول الله ﷺ ويقولوا له ذلك وهو بعد بمكة، وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال قال المشركون إنما هذا الكلام يوشك أن ينفد فنزل ولو أن ما في الأرض من شجرة الآية ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ أجمعين ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ﴾ أي إلا كخلق نفس ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن ويكفي لوجود الكل تعلق إرادته مع قدرته الذاتية فلا يتعذر عليه خلق الكل كما لا يتعذر عليه خلق نفس واحدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل شيء لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض آخر فكذلك الخلق أو المعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال المشركين أن لا بعث بصير بأعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي
ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا
يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِي
وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا
فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ﴾ عطف على يولج أو حال بتقدير قد ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ واحد من النيرين ﴿يَجْرِيٓ﴾ في السماء ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معين وهو يوم القيامة الفرق بينه وبين قوله لأجل مسمى أن الأجل منتهى الجري وثمة غرضه حقيقةً أو مجازاً وكلا المعنيين حاصل في الغايات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ وجملة ألم تر متصل بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مقرر له ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من سعة علمه وشمول قدرته وعجائب صنعه ﴿بِأَنَّ﴾ أي بسبب أنَّ الله ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت أي الواجب وجوده وجميع كمالاته أو الثابت ألوهيته ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿مِن دُونِهِ﴾ من الآلهة ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته أو الباطل دعوى الألوهية فيه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ المترفع على كل شيء والتسلط عليه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الظاهر الباهر كبرياؤه ومن كان هذا شأنه يجب أن يكون علمه وقدرته شاملاً لجميع الأشياء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ متصل بقوله ألم تر أن الله يولج ﴿بنعمت الله﴾ أي بإحسانه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وشمول إنعامه والباء للصلة أو للحال ﴿لِيُرِيَكُم﴾ الله ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بعض دلائل قدرته من عجائب البحر الذي أدركتموه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يعني صبار على المشاق فيتعب

نفسه بالتفكر في الآفاق والأنفس ويعرف النعم ويشكر عليها مانحها ـ أو المراد لآيات للمؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس يعني يشكر فس السراء ويصبر في الضراء ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي علاهم وغطاهم الظرف متعلق يدعوا الله فيه معنى الشرط والجزاء والجملة معطوفة على تجري في البحر خبر لأنَّ وضمير عشيهم راجع إلى أهل الفلك رابط بين الاسم والخبر ﴿مَّوْجٌ﴾ في البحر ﴿كَالظُّلَلِ﴾ جمع الظلة شبَّه بها الموج يأتي منه شيء بعد شيء قال مقاتل كالجبال وقال الكلبي كالسحاب ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بأن ينجيهم ولا يدعون غيره لما تقرر في الأذهان أنه لا كاشف لضر إلا الله سبحانه ويزول بما غلبهم من الخوف الشديد ما ينازع الفطرة السليمة من الهوى والتقليد ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ متعلق بنجاهم بتضمين معنى أوصلهم وجملة فلما نجاهم معطوفة على ﴿إذا غشيهم﴾ ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قيل هو جواب لمَّا والظاهر أن جواب لما محذوف وهذا دليل عليه تقديره فلمَّا نجاهم إلى البرّ اختلفوا فمنهم شاكر لنعمة الله ومنهم كافر ومنهم مقتصد، يعني متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار وكان بعض الكفار أشد افتراءً وأشد قولاً من بعض فذكر المقتصد لدلالته على جانبه كذا قال الكلبي معنى المقتصد، وقال أكثرهم معنى المقتصد المقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد لما قيل أن الآية نزلت في عكرمة بن أبي جهل هرب عام الفتح إلى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن أنجانا الله من هذه لأرجعن إلى محمد ولأضعن يدي في يده فسكنت الرياح فرجع إلى مكة والنبيّ ﷺ ثمه وأسلم وحسن إسلامه، والتقدير على هذا فمنهم مقتصد ومنهم كافر يدل عليه قوله ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ المنزلة أي بحقيقتها أو بدلائل قدرتنا ومنها الإنجاء من الموج ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدار فإنه نقض العهد الفطري أو العهد الذي عاهد في الشدة والخترُ اسوء الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي إحذروا عذابه ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي﴾ أي لا يغني ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ الراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه والد مؤمن عن ولده الكافر ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ مؤمن عطف على والد ﴿هُوَ جَازٍ﴾ صفة لمولود يعني ولا يجزي مولود مؤمن من شأنه أن يكون هو جاز ﴿عَن وَالِدِهِ﴾ الكافر متعلق بلا يجزي، وإنما قيدنا بالكافر لأن المؤمن يشفع للمؤمن قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1] وقـــال الله ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[١] ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب على المصدرية أي لا يجزي شيئاً من الأجزاء وجاز أن يكون مولودٌ مبتدأ خبره هو جاز عن والده وتغير النظم للتأكيد فإن هذه الجملة واردة على نهج من التأكيد لم يرد عليه المعطوف عليه لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية وقد أنضم إلى ذلك لفظ المولود وفيه تأكيد آخر لأن المولود إنما يطلق على من ولد بلا واسطة والولد يطلق عليه وعلى ولد الولد كما في قوله تعالى: ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾[٢] فإذا كان المولود لا ينفع أباه فلا ينفع أجداده بالطريق الأولى، ووجه إيراده على التأكيد أن الخطاب كان للمؤمنين في ذلك الزمان وغالباً مات آباؤهم على الكفر فأريد حسم أطماعهم من أن ينفعوا آباءهم بالشافعة في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن تخلفه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ الفاء للسببية ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها فإنها فانية ولذّاتها ضعيفة مشوبة بالمكاره ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان بأن يرجيكم المغفرة فيجسركم على الذنوب.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد مرسلاً قال جاء رجل من أهل البادية وسماه البغوي الحارث بن عمرو بن الحارث بن محارب بن حفصة فسأل النبيّ ﷺ عن الساعة أي وقتها، وقال امرأتي حبلى فأخبر ما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ بأيّ أرض ولدتُّ فأخبرني أين أموت فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها جملة مستأنفة في جواب متى يكون ذلك اليوم ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ متى شاء لا يعلم نزولها إلا هو ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى لا يعلمها غيره ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يدري أحد متى يجيء المطر إلا الله»[٣] رواه أحمد والبخاري، وروى البغوي في تفسير هذه الآية عن ابن عمر بهذا اللفظ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس إنَّ الله عنده علم الساعة وينزّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا في الأرحام ومات دري نفسٌ ماذا تكسبُ غَداً وما تدْري نفسٌ بأي أرض تموت» وفي

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاستقاء، باب: لا يدري متى يجيء المطر إلا الله (١٠٣٩).

الصحيحين في قصة سؤال جبرئيل في حديث أبي هريرة في خمس يعني ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن خيثمة أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا؟ قال ملك الموت، فقال كأنَّه يريدني فمُرِ الريح أن يحملني ويلقيني بالهند ففعل فقال الملك كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرتُ أن أقبض روحه بالهند وهو عندك والله أعلم.

وإنما جعل العلم لله والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العلمين في القاموس دريتُه علمتُه أو لضرب من حيلة فعنه إشارة إلى أن العبد أن عمل حيلة وبذل فيها وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره ما لم يحصل له علم بتعليم من الله تعالى بتوسط الرسل أو بنصب دليل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها حكى أن منصوراً رأى في منامه ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار إليه بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنين أو بخمسة أشهر أو بخمسة أيام، فقال أبو حنيفة هو إشارة إلى هذه الآية فإن هذه العلوم الخمسة مختصة بالله تعالى والله أعلم.

تم تفسير سورة لقمان من التفسير المظهري ليلة الثانية والعشرين من رجب سنة ألف ومائتين وست ويتلوه تفسير سورة السجدة إن شاء الله تعالى.

سورة السجدة

آياتها ثلاثون وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ
بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ
فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ
(٦) ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن
سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم
بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ (١٠) ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ (١١)﴾.

﴿الٓمٓ (١)﴾ إن جعل إسماً للسورة أو القرآن فهو مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على أنه بمعنى المنزل والإضافة من قبيل إخلاق ثياب وإلا فهو خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل أو مبتدأ خبره ﴿لا ريب فيه﴾ فيكون ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في فيه لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر ويجوز أن يكون خبراً ثانياً أو خبراً أولاً ولا ريب فيه اعتراضاً لا محل له والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنَّه قيل لا ريب في كونه منزلاً من رب العالمين والخبر ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ولا ريب فيه حال من الكتاب أو إعتراض ومن رب العالمين متعلق بتنزيل والضمير في فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه تقرير له، ونظم الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه بقوله الٓمٓ ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين وقرر ذلك بنفي الريب عنه ثم

أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجباً منه فإن أم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وبيَّن المقصود من تنزيله فقال ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد إذ كانوا أهل الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ وجملة ما أتاهم صفة لقوم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الله مبتدأ والموصول مع صلته خبره ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها الجمعة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عطف على خلق وقد بسطنا الكلام في الاستواء على العرش في سورة يونس وذكرنا في سورة الأعراف أيضاً ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يعني إذا جاوزتم مرضاته لا ينصركم في مواطن النصر والشفيع متجوز به للناصر فإذا أخذ لكم لم يبق لكم ولي ولا ناصر إستئناف أو حال من فاعل إستوى ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا تتفكرون فلا تتذكرون ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ إستئناف أو حال من فاعل استوى أو خبر بعد خبر لله أو خبر أول والموصول مع صلته صفة لله وما لكم حال يعني يدبر أمر الدنيا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي بأسباب سماوية نازلة أثارها ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي يصعد ﴿إِلَيْهِ﴾ ويثبت في علمه موجوداً أو المعنى يدبر الأمر أي يحكم بالأمر وينزل الوحي مع جبرئيل أو ينزل القضاء والقدر مع الملك الموكل به من السماء وإلى الأرض ثم يعرج أي يصعد جبرئيل أو غيره من الملائكة إليه أي إلى الله يعني إلى حيث يرضاه ﴿فِى يَوْمٍ﴾ من أيام الدنيا، والمراد باليوم هاهنا مطلق الوقت لا بياض النهار لأن نزول الملائكة وصعودها غير مختص بالنهار ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ حال بتقدير قد أي وقد كان مقدار عروجه ونزوله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يعني لو سار أحد من بني أدم لم يقطعه إلا في ألف سنة لكن الله بكمال قدرته جعل نزوله وعروجه في طرفة عين، قال البغوي هذا وصف عروج الملائكة ونزولها من السماء إلى الأرض وأما قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾[1] مدة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبرئيل يقول يسير جبرئيل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم من أيام الدنيا أي برهة من الزمان هذا كله معنى قول مجاهد والضحاك، قلتُ: وجاز أن يكون المراد في الآيتين المسافة التي بين الأرض والسدرة المنتهى على اختلاف سير

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

السائرين فإنه ورد في حديث العباس بن عبد المطلب عند الترمذي بعد ما بين المساء والأرض إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة وفي حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي «مسافة ما بينهما وبين كل سمائين خمس مائة سنة»(١) ولا وجه لتطبيقهما إلا باعتبار اختلاف سير السائرين والله أعلم.

وقيل معنى الآية يدبر الأمر أي أمر الدنيا من السماء أي بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلى الأرض ثم يرجع الأمر والتدبير إليه وحده بعد فناء الدنيا وانقطاع الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة، لما روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام نصف يوم»(٢) وأما قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾(٣) أراد به أيضاً يوم القيامة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاة كنزه إلا أحمي عليه في نار جهنّم فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(٤) الحديث. ووجه التطبيق بين الحديثين أن يوم القيامة يختلف طوله بالنسبة إلى الأشخاص يكون ذلك اليوم على بعض الناس مقدار خمسين ألف سنة وعلى بعضهم مقدار ألف سنة وعلى بعضهم أخف من أيام الدنيا، أخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً «طول ذلك اليوم على المؤمنين كمقدار بين الظهر والعصر» وكذا ذكر البغوي قول إبراهيم التيمي وأخرج أبو يعلى وابن حبان والبيهقي بسند حسن عن أبي سعيد قال: «سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا» وقال البغوي قال ابن أبي مليكة دخلتُ أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان على ابن عباس فسأله عن هذه الآية وعن قوله تعالى: ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ فقال له ابن عباس أيام سماه الله

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٥١).

(٣) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (٩٨٧).

تعالى لا أدري ما هي وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم، وأخرج البيهقي من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال هذا في الدنيا وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله على الكافر مقدار خمسين ألف سنة، واختار جلال الدين المحلي هذه الرواية في تفسيره وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر، وقيل يدبر الأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلصين في الأعمال ﴿ذَٰلِكَ﴾ المدبر الخالق للسماوات والأرض وما بينهما مبتدأ خبره ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما حضر عندهم فيدبر الأمور على وفق الحكمة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره وفيه إيماء بأنه يراعى المصالح تفضلاً وإحساناً صفتان لعالم الغيب والشهادة أو خبر ثان وثالث لذلك ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ الموصول مع الصلة صفة بعد الصفتين المذكورتين أو خبر رابع لذلك ﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بسكون اللام فهو بدل إشتمال من كل شيء يعني أحسن خلق كل شيء موافراً عليه ما يستعده ويليق به على وفق الحكمة كذا قال قتادة وقال ابن عباس أتقنه وأحكمه، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال أما إن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها، وقال مقاتل أي علم كيف يخلق كل شيء من قولك فلان يحسن كذا إذا كان يعلم، وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على صيغة الماضي على أنه صفة لشيء ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿مِن طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ سميت به لأنها تنسل منه أي تنفصل ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي نطفة سميت سلالة لأنها تسل من الإنسان ﴿من ماء مهين﴾ ضعيف بدل من سلالة أو بيان له ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي الإنسان قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ أي في الإنسان ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ الضمير إما راجع إلى الإنسان أو إلى الذي أحسن خلق كل شيء تشريفاً وإظهاراً بأنه خلق عجيب له شأن عظيم ممكن له نسبة بما لا مثل له ولا كيف ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا بعد ما كنتم نطفاً بغير سمع وبصر وتعقّل ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما زائدة مؤكدة للقلة أي شكراً قليلاً أو في زمان قليل تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه وتعبدونه ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي منكري البعث عطف على ﴿جعل لكم السمع﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ءإذا ضللنا في الأرض﴾ أي غبنا فيها يعني صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض بحيث لا يتميز

بينهما وأصله من قولهم ضل الماء في اللبن إذا اختلط به وغاب فيه، قرأ ابن عامر إذا بهمزة واحدة على الخبر والعامل فيه ما دل عليه ﴿ءإنا لفي خلق جديد﴾ وهو نبعث ونجدد خلقاً، قرأ نافع والكسائي ويعقوب إنا بهمزة واحدة على الخبر والقائل أبي بن خلف والإسناد إلى جميعهم لرضائهم به والإستفهام لإنكار البعث استبعاداً ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي بما بعد البعث من الجزاء ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ منه وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في الآخرة ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً أو لا يبقي منكم أحداً والتفعل والاستفعال يستعمل أحدهما مقام الآخر يقال تقصَّيتُه واستقصيتُه وتعجلتُه واستعجلتُه ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ وهو عزرائيل عليه السلام، روى البغوي عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «الأمراض والأوجاع كلها بريد الموت ورسول الموت فإذا حان الأجل أتى ملك الموت فقال أيها العبد كم خبر بعد خبر وكم رسول بعد رسول وكم بريد بعد بريد أنا الخبر ليس بعدي خبر وأنا الرسول ليس بعدي رسول أجب ربك طائعاً أو مكرهاً، ولمَّا قبض روحه وتصارخوا عليه قال على من تصرخون وعلى من تبكون والله ما ظلمتُ له أجلاً ولا أكلتُ له رزقاً بل دعاه ربه فليبك الباكي على نفسه فوالله إن لي عودات وعودات حتى لا أبقي فيكم أحداً» ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي وكل بقبض أرواحكم وله أعوان من الملائكة وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ملك الموت وأعوانه في تفسير سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(١).

مسألة:

ملك الموت لا يعلم بوقت أحد ما لم يأمر به، أخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن معمر قال بلغنا أن ملك الموت لا يعلم متى يحضر أجل الإنسان حتى يؤمر بقبضه وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن جريج قال بلغنا أنه يقال لملك الموت إقبض فلاناً في وقت كذا في يوم كذا.

مسألة:

ملك الموت يظهر للمؤمن بأحسن صورة وللكافر بأقبحها، أخرج ابن أبي الدنيا عنابن مسعود وابن عباس قالا لمّا اتخذ الله إبراهيم خليلاً سأل ملك الموت أن يأذن له أن

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

يبشر له بذلك فأذن له فجاء إبراهيم فبشره فقال الحمد لله ثم قال يا ملك الموت أرني كيف تقبض أنفاس الكفار قال يا إبراهيم لا تطيق ذلك قال بلى قال فأعرض فأعرضَ ثم نظر فإذا برجل أسود ينال رأسه السماء يخرج من فيه لهب النار وليس من شعرة في جسده إلا في صورة رجل يخرج من فيه ومسامه لهب النار فغشي على إبراهيم ثم أفاق وقد تحول ملك الموت في الصورة الأولى، فقال يا ملك الموت لو لم يبق الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك لكفاه فأرني كيف تقبض أرواح المؤمنين قال فأعرض فأعرضَ ثم التفت فإذا هو برجل شاب أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً في ثياب بيض فقال يا ملك الموت لو لم ير المؤمن عند الموت من قرة عين والكرامة إلا صورتك هذه يكفيه، وأخرج عن كعب أن إبراهيم أراه ملك الموت الصورة التي يقبض بها المؤمن قال فرآه من النور والبهاء شيئاً لا يعلمه إلا الله والتي يقبض بها الكفار الفجار فرعب إبراهيم رعباً حتى أرعدت فرائصه وألصق بطنه بالأرض وكادت نفسه تخرج.

مسألة:

كيف يكون الموت سوى الآدميين، أخرج أبو الشيخ والعقيلي في الضعفاء والديلمي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «آجال البهائم وحشاش الأرض كلها في التسبيح فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها وليس إلى ملك الموت من ذلك شيء» وله طريق آخر أخرجه الخطيب من حديث ابن عمر مثله، قال ابن عطية والقرطي معنى ذلك أن الله تعالى يعدم حياتها بلا مباشرة ملك الموت، قلتُ جعل ملك الموت وأعوانه للإنسان إكراماً للمؤمنين وإهانةً وتعذيباً للكافرين، وأخرج الخطيب في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال وكل ملك الموت بقبض أرواح الآدميين فهو الذي يقبض أرواحهم وملك في الجن وملك في الشياطين وملك في الوحش والطير والسباع والحيتان والنمل فهو أربعة أملك والملائكة يموتون في الصعقة الأولى وأن ملك الموت يلي قبض أرواحهم ثم يموت، فأمّا الشهداء في البحر فإن الله يلي قبض أرواحهم لا يكل ذلك إلى ملك الموت لكرامتهم عليه حيث ركبوا سيح البحر في سبيله، وفيه جويبر ضعيف جدّاً والضحاك عن ابن عباس منقطع ولآخره شاهد مرفوع أخرجه ابن ماجه عن أبي أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله وكل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهداء البحر فإن الله يتولى قبض أرواحهم»[1] قلتُ فشهداء بحر العشق والمعرفة أولى بذلك الكرامة والله أعلم.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: فضل غزو البحر (٢٧٧٨).

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعد الموت يصعد بروح المؤمن ملائكة الرحمة إلى السماوات حتى ينتهي بها إلى السماء السبعة وبروح الكافر ملائكة العذاب حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له فيطرح روحه طرحاً وقد مر الحديث في سورة الأنعام، أو المعنى ترجعون بعد الحشر أحياءً إلى موقف الحساب فيجزي كل نفس بما عملت وقد مرَّ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا
نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ
إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ
ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم
مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ
﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكر الله سبحانه حالهم بعد الحشر فقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمّد ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركين الذين ﴿قالوا إذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق﴾ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ حال من الضمير في المجرمون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ندامةً وحزناً يقولون حال من فاعل ناكسُوا أو حال مرادف له أو إستئناف في جواب ما يقولون حينئذ ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا وكنا مكذّبيه ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك فيما كذّبناهم، وقيل معناه أبصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فينا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدني ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ مجزوم في جواب الدعاء ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن بما كنا شاكّين فيه قبل وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً، ويجوز أن يكون لو للتمني والمضي في لو وإذ لكون الثابت في علم الله بمنزلة الواقع ولا يقدر لترى مفعول لأن المعنى لو يكون منك رؤية في هذا الوقت أو يقدر ما دل عليه صلة إذ يعني لو ترى نكوس رؤوسهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أن نؤتي كل نفس هُدَاها أي ما يهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح وخلق الإنقياد للرسول باختياره قلباً وقالباً أو المعنى لو شئنا

هداية كل نفس ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾ عاقلة من الجن والإنس ﴿هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي ثبت قضائي بعدم هدايتهم وعدم اهتدائهم وكون مصيرهم إلى النار أو سبق وعيدي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ اللام فيهما للعهد والمراد المجرمون من الفريقين الذين مّر ذكرهم بدليل قوله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[١] رواه مسلم، وعن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ الآية[٢] متفق عليه، وعن عبد الله ابن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال اتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا لا يا رسول الله ألا تخبرنا، فقال للذي في يمينه هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال للذي في شماله هذا كتاب من رب العالين فيه أسماء لأهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيّ عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيّ عملٍ ثم قال رسول الله ﷺ بيديه فنبذهما ثم قال فرغ ربُّكم من العباد فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السعيرُ»[٣] رواه الترمذي.

وجملة ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف وبيان للقول المذكور بتقدير هو أو بدل عنه وجاز أن يكون حق القول في حكم القسم يقا حقّاً لأفعلن كذا فعلى هذا يكون لأملأنَّ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: الصلاة على الصبيان (١٩٣٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة باب في ذراري المشركين (٤٧٠١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: باب: ﴿فسنيسره للعسرى﴾ (٤٩٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (٢١٤١).

جواباً له، وقال مقاتل المراد بالقول هو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1] وفي هذه تصريح بأن عدم إيمانهم مسبب بعدم المشيئة - وحق القول إما تقرير لعدم المشيئة والمعنى ولكن شئتُ كفرهم ومصيرهم إلى النار أو تعليل لعدم المشيئة بسبق القضاء ولا يدفعه جعل ذوق العذاب مُسبباً عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكرهم فيها بقوله ﴿فَذُوقُوا﴾ الفاء للسببية يعني لما حق القول مني كذلك فيقول لهم خزنة جهنم إذا دخلوها ذوقوا عذاب جهنم ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ أي بسبب نسيانكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ يعني البعث والرجوع إلى الله أي إلى موقف حسابه ﴿هَٰذَا﴾ صفة ليومكم حتى عملتم موجبات العذاب ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي تركناكم من الرحمة أو في العذاب ترك المنسى وفي استئنافه وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الإنتقام منهم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كرر الأمر للتوكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وتعليله بأعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة والتفكر فيها دلالةً على أن كل منهما يقتضي ذلك وهذه الآية حجة لنا على الجبرية والقدرية، أما على الجبرية فلقوله ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ حيث جعل سبب ذوق العذاب نسيانهم وتركهم الإيمان والأعمال الصالحة باختيارهم، وأما على القدرية فإنهم يقولون أن الله يشاء من عباده كلهم الإيمان والأعمال الصالحة وهم تركوا الإيمان بمشيئتهم وإختيارهم فالآية تدل على أنه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا ﴿خَرُّوا﴾ وقعوا على وجوههم خوفاً من عذاب الله ﴿سُجَّدًا﴾ أي ساجدين ﴿وَسَبَّحُوا﴾ أي نزهوا عما لا يليق به كالعجز عن البعث ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ متلبسين بحمده يعني حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهداية قائلين سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ حال من فاعل سجوا أي ترتفع وتتنحى ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي الفرش التي ينامون عليها ﴿يَدْعُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في جنوبهم وهو فاعل تتجافى على طريقة ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[2] ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من سخطه وعذابه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته وثوابه، أخرج هناد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قال قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي أين الذين كانوا يحمدون الله تعالى في السراء والضراء؟ فيقومون وهم قليل

(١) سورة ص، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٦٦.

فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يقوم سائر الخلق فيحاسبون» وأخرج ابن راهويه وأبو يعلى في مسنديهما من حديثها نحوه وفيه ينادي أولاً بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع مَن أهل الكرم، قال الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعي وجماعة العلماء هم المتهجدون الذين يقومون لصلاة الليل، روى أحمد والترمذي وابن ماجه وابن أبي شيبة وابن راهويه في مسنديهما والحاكم عن معاذ قال قلتُ يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال لقد سألتَ من عظيم وإنه يسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت، ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ يعملون، ثم قال ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلتُ بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا، فقلتُ يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[١].

وعن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلَّى بالليل والناس نيام» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى الترمذي عن علي نحوه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[٢] رواه مسلم وروى أحمد الفصل الأخير بلفظ «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة في جوف الليل» وروى البغوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا عن رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله رغبة فيما عندي وشفقة ممّا عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه في انهزامه وماله في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي حتى أهريق دمه»

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم (١١٦٣).

وروى البغوي عن أبي هريرة ما قال ابن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أنّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وقد ذكرنا ما ورد من الأحاديث في فضائل صلاة الليل في تفسير سورة المزّمّل، وأخرج الترمذي وصححه عن أنس أن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن الضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة[١]، وقال البغوي قال أنس نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار كنا نصلّي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع رسول الله ﷺ، وقال عن أنس أيضاً قال نزلت في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، أخرجه ابن مردويه عن أنس وأصله في سنن أبي داود وهو قول أبي حاتم ومحمد بن المنكدر وقالا هي صلاة الأوابين، روى ابن نصر عن محمد بن المنكدر مرسلاً من صلّى ما بين المغرب والعشاء فإنها صلاة الأوابين، وأخرج البزار بسند ضعيف عن بلال قال كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب النبيّ ﷺ يصلّون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ وقال البغوي عن أبي الدرداء وأبي ذر وعبادة بن الصامت هم الذين يصلون العشاء الآخرة والفجر في جماعة، وروى مسلم وأحمد عن عثمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلّى الصبح في جماعة فكأنما صلّى الليل كله»[٢] وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمون ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً»[٣] رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد والنسائي.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قيل أريد به الصدقة المفروضة وقيل عام في وجوه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة السجدة (٣١٩٦).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (٦٥٦).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الاستهام في الأذان (٦١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها.

الخير ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾ لا ملك مقرَّب ولا نبي مرسل ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ قرأ حمزة ويعقوب بياء ساكنة على أنه مضارع أخفيت ويؤيده قراءة ابن مسعود نخفي بالنون والباقون بفتحها على أنه ماضٍ مبني للمفعول ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ من زائدة وقرة أعين في محل النصب على قراءة حمزة وفي محل الرفع على قراءة الجمهور أي مما تقربه أعينهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفسٌ أخفى لهم من قرة أعين)»(١) متفق عليه، قال هذا ما لا تفسير له ﴿جَزَآءَۢ﴾ منصوب على المصدرية أو على العلية يعني يجزون جزاءً وأخفى للجزاء ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ذكر البغوي وأخرج الواحدي وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه أنه كان بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط تنازع وكلام في شيء فقال الوليد لعلي عليه السلام اسكت فإنَّك صبي وأنا والله أبسط منك لساناً وأشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال علي اسكت فإنك فاسق فأنزل الله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار مثله وأخرج الخطيب في تاريخه وابن عدي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله وأخرج الخطيب وابن عساكر من طريق بن لهيعة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط وذلك بسباب كان بينهما، والاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوى عليٌّ ولي الله المرتضى ووليد عدو الله فمن كان مؤمناً كان كمن كان فاسقاً يعني خارجاً عن أهل الإيمان لا يكون ذلك ﴿لا يستون﴾ في الشرف والمثوبة أورد صيغة الجمع لأن المراد جنس المؤمن والكافر والجملة تقرير لإنكار الاستواء ولمَّا كان الإستواء مجملا فصَّله بقوله ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة يأوى إليها المؤمنون ويأبى عن دخلوها الكافرون باختيارهم الشرك بالله ﴿نُزُلَۢا﴾ وهو ما يعد للضيف حال من جنات وهو فاعل للظرف ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أي كفروا ﴿فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ استبدلوها بجنات المأوى ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ عبارة عن خلودهم فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادةً في غيظهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ عطف على ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني عذاب الدنيا، قال أبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم يعني مصائب الدنيا وأسقامها وهو رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال عكرمة أراد بها الحدود، وقال مقاتل الجوع سبع سنين بمكة حين أكلوا الجيف والعظام والكلاب وقال ابن مسعود هو القتل بالسيف يوم بدر وهو قول قتادة والسديّ ﴿دُونَ﴾ أي قبل ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يعني العذاب الآخرة ﴿لعلهم يرهبون﴾ إلى الإيمان يعني من بقي منهم بعد القحط وبعد البدر ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾ ولم يتدبر فيها وثم لاستبعاد الإعراض عن مثل هذه الآيات مع فرط وضوحها وإرشادها إلى السعادة في الدارين ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف بمن كان هو أظلم من كل ظالم ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ جواب قسم محذوف وهو مع ما عطف عليه معترضة بين قوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني كما آتيناك القرآن آتينا قبل ذلك موسى الكتاب يعني التوراة ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمد ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي الكتاب مصدر مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف يعني من أن لقيت الكتاب إلى القرآن فإنه غير مبتدع مِمَّا لم يكن قبل حتى ترتاب فيه، أو من أن لقي الموسى الكتاب بالرضاء والقبول كذا قال السدي، وأخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قال لقاء موسى ربه، وقيل معناه لا تكن في شك من لقائك موسى أي ليلة المعراج قاله ابن عباس وغيره. روى الشيخان عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «رأيتُ ليلة أسري بي موسى رجلاً أدماً طوالاً جعداً كأنَّه من رجال شنوأة ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى

الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيتُ مالكاً خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه فلا تكن في مرية من لقائه»(١) وعن ابن عباس قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فمررنا بواد فقال أيّ واد هذا؟ فقالوا وادي الأزرق، قال كأني أنظر إلى موسى فذكر من لونه وشعره واضعاً أصبعيه في أذنيه له جؤار إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادي، قال ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال أيُّ ثنية هذه؟ فقالوا فقال كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف خطام ناقته حلبته ماراً بهذا الوادي ملبياً»(٢) رواه مسلم، وقد ذكر في سورة بني إسرائيل في حديث المعراج أن النبيّ ﷺ رأى موسى في السماء السادسة ومراجعته في أمر الصلاة، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لمّا أسري بي إلى السماء رأيتُ موسى يصلي في قبره» ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ يعني الكتاب الذي أنزل على موسى، وقال قتادة يعني موسى كذا أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «جعل موسى هدى لبني إسرائيل» ﴿هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾ قادة في الخير يقتدى بهم يعني الأنبياء الذين كانوا فيهم وقال قتادة إتباع الأنبياء ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الأحكام ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ قرأ حمزة والكسائي لما بكسر اللام وتخفيف الميم أي لصبرهم والباقون بفتح اللام وتشديد الميم أي حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر وفيه دليل على أن الصبر يورث إمامة الناس ﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ لإمعانهم فيها بالنظر ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيميز المحق من المبطل متصل بقوله إنّا من المجرمين منتقمون وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف والفاعل ضمير راجع إلى ربك أو ما دل عليه قوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ تقديره ألم يعتبروا بمن سبقهم ولم يهد لهم ربك أو كثرة إهلاكه ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية بسبب كفرهم ﴿يَمْشُونَ﴾ أهل مكة في أسفارهم ﴿فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي مساكن المهلكين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ دلالات على قبح ما فعلوا من الكفر والمعاصي وعلى قدرتنا على الإنتقام ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداها الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٦).

أيعرضون عن آياتنا فلا يسمعون سماع تدبرو اتعاظ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يتفكروا ولم يروا أي لم يعلموا بل قد علموا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جرز نباتها أي قطع وأزيل ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتين والورق ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا يلقون أنظارهم فلا يبصرون ما ذكرنا فيستدلون به على كمال قدرتنا وفضلنا وعلى أنا قادرون على بعثهم بعد الموت، أخرج ابن جرير وذكره البغوي عن قتادة قال قال الصحابة للمشركين إن لنا يوماً أوشك أن نستريح فيه ونتنعم ويحكم الله بيننا وبينكم، قلتُ: لعلهم يعنون يوم القيامة الذي يحكم الله فيه بين العباد وقال الكلبي يعنون فتح مكة، وقال السديُّ يوم بدر لأن أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يقولون إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فقال المشركون استهزاءً متى هذا الفتح فنزلت ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة عطف على مضمون ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فإن نفي إبصار آيات القدرة إنكار للقدرة يعني أينكرون القدرة ويقولون استهزاءً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون فبينوا لنا وقته ﴿قُلْ﴾ يا محمد جملة مستأنفة في جواب ماذا أقول لهم حين قالوا ذلك ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ المتبادر منه أن المراد بيوم الفتح يوم القيامة لأن إيمان ذلك اليوم لا ينفع البتة ومن حمل الفتح على فتح مكة أو يوم بدر قال معناه لا ينفع الذين كفروا وقتلوا وماتوا على الكفر إيمانهم حين رأوا العذاب بعد موتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون ووجه تطبيق هذا الجواب بسؤالهم عن يوم الفتح أن سؤالهم ذلك كان إستعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من عرضهم في سؤالهم، فكأن التقدير لا تستعجلوا به ولا تستهزءوا فكأنّي بكم وأنتم في ذلك اليوم وآمنتم به فلم ينفعكم إيمانكم واستنظرتم في درك العذاب فلم تنظروا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني إذا عرفتَ حالهم وما لهم فأعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم، قال ابن عباس نسختها آية السيف ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ موعدي لك بالفتح ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان وقيل انتظر عذابنا فيهم فإنهم ينتظرون ذلك.

عن أبي هريرة قال: «كان النبيّ ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة آلَمَّ تَنْزِيلُ وهل أتى على الإنسان» وعن جابر قال: «كان النبيّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ آلَمّ تنزيل وتبارك الذي بيده المُلْكُ»[1] رواه أحمد والترمذي والدارمي وقال الترمذي هذا حديث صحيح، وعن خالد بن معدان قال: «بلغني في آلَمّ تنزيل ومثله في تَبَارَكَ الَّذِيُ بِيَدِهِ المُلْكُ أن رجلاً كان

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك (٢٨٩٢).

يقرأهما ما يقرأ شيئاً غيرهما وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت رب اغفر له فإنه يكثر قراءتي فشفعها الرب تعالى فيه وقال أكتبوا له بكل خطيئةٍ حسنةً وأرفعوا له درجة» وقال أيضاً إنها تجادل عن صاحبها في القبر تقول إن كنتُ من كتابك فشفعني فيه وإن لم أكن من كتابك فامنحني عنه وإنها تكون كالطير تجعل جناحها عليه فتشفع له فتمنعه من عذاب القبر وقال على كل سورة في القرآن بستين حسنة» رواه الدارمي وعن ابن عباس قوله ﷺ: «من قرأ آلمّ تنزيل وتبارك الملك أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر» رواه الثعلبي وابن مردويه وروى ابن مردويه عن ابن عمر نحوه. قال السيوطي هذا حديث موضوع والله أعلم.

تم تفسير سورة ألم تنزيل يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب من السنة السادسة بعد الألف ومئتين سنة ويتلوه إن شاء الله تعالى سورة الأحزاب.

سورة الأحزاب

آياتها ثلاث وسبعون وهي مدنيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى
تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ
فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ
وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن
تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

قال أبي بن كعب لزرِّكم تعدون سورة الأحزاب؟ قال ثلاثاً وسبعين آية، قال فوالذي يحلف به أبيٌّ إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا نَكَالاً مِّنَ الله والله عزيزٌ حكِيمٌ.

أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة ابن ربيعة دعووا النبيّ ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً من أموالهم وخوَّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية ناداه بالنبيّ ولم يقل يا محمد وأمره بالتقوى تعظيماً وتفخيماً لشأن التقوى، وقال البغوي نزلت الآية في أبي سفيان بن الحرب وعكرمة ابن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان السلمي وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على

عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد أعطاهم النبيّ ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن أبي سعد وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي ﷺ (وعنده عمر بن الخطاب) ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق على النبيّ ﷺ قولهم فقال عمر يا رسول الله أئذن لي في قتلهم، فقال إني قد أعطيتُهم الأمان فقال أخرجوا في لعنة الله وغضبه فأمر النبيّ ﷺ أن يخرجوهم من المدينة فأنزل الله تعالى هذه الآية. قيل الخطاب مع رسول الله ﷺ والمراد به الأمة، وقال الضحاك معناه إتق ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم، وقيل الخطاب للنبي ﷺ للأمر بالثبات عليه ليكون مانعاً عمَّا نهى عنه بقوله ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة يعني أبا سفيان وعكرمة وأبا الأعور ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة عبد الله ابن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة بن أبيرق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ومصالحم ومفاسدهم ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم إلا على وفق الحكمة ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من التوحيد والإخلاص لله، هذه الجملة بمنزلة التأكيد للتقوى وعدم إطاعة الكفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قرأ أبو عمرو بالياء في يعملون خبيراً يعملون بصيراً للغيبة والضمير عائد للكافرين والمنافقين يعني أن الله خبير بمكائدهم يجازيهم عليها، وقرأ الباقون بالتاء خطاباً للنبي ﷺ وأصحابه فإن الأمر بالتقوى وإن كان بصيغة الواحد لكن المراد هو وأمته، وعلى هذا الجملة تأكيد لإمتثال الأمر طمعاً في حسن الجزاء وخوفاً عن قبحه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ثق به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمور كلها تذييل، وقال الزجاج عطف على توكل لفظه خبر ومعناه أمر أي إكتف بالله وكيلاً تميز من النسبة أي أكتف بالله وكيلاً يعني أكتف بوكالته وفي صيغة الأمر إشعار على التعليل للأمر بالتوكل والإكتفاء يعني من كان الله مع كمال علمه وقدرته ورحمته موكولاً إليه أموره لا يحتاج إلى توكيل غيره فتوكيل أموره إلى غيره سفه والله أعلم ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ من زائدة وهو في محل النصب على أنه مفعول أول لجعل ولرجل مفعوله الثاني ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾ ظرف لغواً وصفة لقلبين أعلم أن القلب معدن للروح الحيواني ومنبع للقوى بأسرها وذلك يمنع التعدد، إذ لو كان لرجل قلبان فإما أن يفعل بكل واحد منهما شيئاً واحداً من أفعال القلوب فالثاني فضلة لا حاجة إليه وإما أن يفعل بكل واحد غير ما يفعل به الآخر وحينئذ يفضي إلى التناقض، ذكر البغوي وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ وابن نجيح عن مجاهد إنها نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري كان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش ما حفظ أبو معمر هذه إلا وله قلبان وكان يقول إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل مما عقل

محمد، فلما انهزم قريش يوم بدر وانهزم فيهم أبو معمر لقيه أبو سفيان وإحدي نعليه في يده والأخرى برجله فقال له يا أبا معمر ما حال الناس، قال انهزموا، قال مالك إحدى نعليك بيدك والأخرى برجلك، قال أبو معمر ما شعرتُ إلا أنهما في رجلي فعلموا يومئذٍ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خصيف عن سعيد بن جبير مجاهد وعكرمة قالوا كان رجل يدعى ذا القلبين فنزلت فيه، وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس مثله ومن طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول نفسي يأمرني ونفسي ينهاني. وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال قام النبيّ ﷺ فخطر خطرة فقال المنافقون الذين معه ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً مع أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، وقال الزهري ومقاتل هذا مثل ضربه الله عز وجل للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره يقول فكما لا يكون لرجل قلبان لامتناع اجتماعهما لا تكون امرأة المظاهر أمّاً له لامتناع اجتماع النسبتين ولا يكون ولد غيره ولداً له لامتناع اجتماع النسبتين.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي﴾ قرأ قالون وقنبل آلآء هنا وفي المجادلة والطلاق بالهمزة من غير ياء وورش بياء مختلسة الكسرة خلفاً من الهمزة وإذا أوقف صيرها ياءً ساكنةً والبزي وأبو عمرو بياء ساكنة بدلاً من الهمزة في الحالين، والباقون بالهمزة بعدها ياء في الحالين وحمزة إذا وقف جعل الهمزة بين بين على أصله ومن همز منهم ومن لم يهمز أشبع التمكين للألف في الحالين إلا ورشاً فإن المد والقصر جائزان عنه ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ قرأ عاصم بضم التاء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء من المفاعلة وحمزة والكسائي بفتح التاء والهاء وبالألف مخففاً من التفاعل بحذف إحدى التائين وقرأ ابن عامر بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء وبالألف أيضاً من التفاعل لكن بإدغام التاء بعد القلب بالظاء والإسكان في الظاء والباقون بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء بغير ألف من التفعل بإدغام التاء في الظاء على ما بيّنّا ﴿مِنْهُنَّ﴾ عدى التظاهر بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقاً في الجاهلية فعدل في الشرع إلى الحرمة المنتهية بالكفارة ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ صورة المظاهرة أن يقول الرجل لزوجته أنتِ عليّ كظهر أمي وقد ذكرنا مسائل الظهار في سورة المجادلة، قال البيضاوي ذكر الظهر في الظهار للكناية عن البطن الذي هو عموده فإن ذكرته تقارب ذكر الفرج أو للتغليظ في التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان المرأة وظهرها

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣١٩٩).

إلى السماء ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ الله ﴿أدعياءكم﴾ أي الذين تبنيتهم جمع دعي على الشذوذ وكان قياسه دعوى كجرحى جمع جريح لأنه فعيل بمعنى مفعول كأنّه شبه بفعيل بمعنى فاعل فجمع جمعه كتقيّ وأتقياء وسخي وأسخياء وشقي وأشقياء ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ فلا يثبت بالتبني شيء من أحكام البنوة من الإرث وحرمة النكاح وغير ذلك، وفي الآية ردّ لما كانت العرب تقول من أن اللبيب لا ريب له قلبان والزوجة المظاهر منها تبين من زوجها وتحرم عليه كالأمر ودعي الرجل ابنه يرثه ويحرّم بالتبني ما يحرم بالنسب وقد كان النبيّ ﷺ أعتق زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي وتبنَّاه قبل الوحي وآخابينه وبين حمزة بن عبد المطلب، فلما تزوَّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بعدما طلقه زيد وكان امرأته وقال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عن ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى كل ما ذكر ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يعني لا حقيقة لها في الأعيان كقول الهاذيّ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ يعني ما له حقيقة في الأعيان تطابق قوله ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي يرشد إلى سبيل الحق، روى الدارمي عن عائشة قالت جاءت سهلة بنت سهل بن عمرو (وكانت تحت أبي حذيفة بن عتبة ابن ربيعة) عند رسول الله ﷺ فقالت إن سالماً مولى أبي حذيفة يدخل علينا وإنا فضل وإنما نراه ولداً وكان أبو حذيفة تبنّاه كما تبنى النبيّ ﷺ زيداً فأنزل الله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ يعني أنسبوهم إلى آبائهم الذين خلقوا من نطفهم إفراد للمقصود من أقواله الحقة ﴿هُوَ﴾ الدعاء لآبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليل لقوله ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ وأقسط اسم تفضيل أريد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل ومعناه البالغ في الصدق، وأخرج البخاري عن ابن عمر قال ما كنا نقول زيد بن الحارثة إلا زيد بن محمد ﷺ حتى نزل القرآن ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ حتى تنسبوا إليه ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فقولوا هذا أخي في الدين ومولاي ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي إثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي فيما نسبتم المتبنى إلى المتبنىّ مخطئين قبل النهي أو بعده على النسيان أو سبق اللسان ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي لكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم أو لكن ما تعمدت قلوبكم ففيه الجناح عن سعيد بن أبي وقاص وأبي بكرة قالا قال رسول الله ﷺ: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام»[1]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٣٢٦). أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب: بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٦٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: من ادعى إلى غير يه أو تولى غير مواليه (٢٦١٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الرجل ينتمي إلى غير مواليه (٥١٠٤).

رواه الشيخان في الصحيحين وأحمد وأبو داود وابن ماجه، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «من إدعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة» رواه أبو داود، وقال السيوطي صحيح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعفوا عن المخطىء، قال البيضاوي أعلم أن التبنّي لا عبرة له عندنا (يعني عند الشافعي رحمه الله) وعند أبي حنيفة رحمه الله يوجب عتق مملوكه ويثبت النسب لمجهوله الذي يمكن إلحاقه به، وهذا سهو منه، فإن عند أبي حنيفة رحمه الله لا يعتق المملوك بقوله تبنيتُك وجعلتُك ابني وكذا لا يثبت النسب إذا قال لمجهول النسب تبنيتُك وجعلتُك ابني بل عنده إن السيد إذا قال لعبده هذا ابني يعتق عليه سواء كان يولد مثله لمثله أولا تصحيحاً لكلامه وحملاً له على المجاز كأنَّه قال هذا حر إطلاقاً للسبب على المسبّب إذ البنوة سبب للحرية لقوله ﷺ: «من ملك ذا رحم محرم منه عتق عليه»[1].

رواه أحمد وأصحاب السنن، وقد خالف أبا حنيفة صاحباه فيما إذا قال لعبده هو أكبر سناً منه هذا ابني فإنهما قالا لا يعتق بناءً على خلافية في الأصول إن المجاز عنده خلف عن الحقيقة في التكلم دون الحكم فإذا صح التكلم بالحقيقة لم يصح التجوز خلفاً ولم يعتق عليه، ومن قال لمجهول النسب هذا ابني وهو بحيث يمكن ثبوت النسب منه يثبت نسبه لكونه مأخوذاً بإقراره وإلتزام النسب خالص حقه ولأجل ذلك من قال لمجهول النسب هذا أخي لا يثبت نسبه من أبيه، غير أنه إذا مات المقر بالنسب على الغير مُصرّاً على إقراره ولم يكن له وارث آخر يرث المقر له منه لعدم المزاحم وهو مقدم على بيت المال عندنا لا على أحد من الورثة وإن كانوا من ذوي الأرحام ولا علم الموصي له بجميع المال والله أعلم. قال البغوي قيل كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا فنزلت ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ يعني من بعضهم لبعض في نفوذ الحكم عليهم ووجوب طاعته عليهم فلا يجوز إطاعة الآباء والأمهات في مخالفة أمر النبي ﷺ وهو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه، قال ابن عباس وعطاءٌ يعني إذا دعاهم النبي إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعتهم للنبي أولى بهم من طاعتهم لأنفسهم وذلك لأنه عالم بمصالحهم ومفاسدهم

(١) عند أصحاب السنن بلفظ «من ملك ذا رحم محرم فهو حر» أخرجه الترمذي في كتاب: الأحكام، باب: ما جاء فيمن ملك ذا رحم محرم (١٣٦٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الفتن، باب: فيمن ملك ذا رحم محرم (٣٩٤٣).

بتعليم الله تعالى ولا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا ما فيه صلاحهم ونجاحهم قال الله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١] بخلاف أنفسهم فإنّها أمّارة بالسوء إلا من رحم الله وهي ظلوم جهول فيجب عليهم أن يكون الله أحب إليهم من أنفسهم فأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفقته أوفر من شفقتها عليها، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢] متفق عليه من حديث أنس، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة إقرأوا إن شئتم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»[٣] رواه البخاري ﴿وأزواجه امهاتهم﴾ تعظيم حقهن وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر إليهن والخلوة بهن فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجنبيات قال الله تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب﴾[٤] ولا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين ولا لإخوتهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم، قال الشافعي تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت أم المؤمنين عائشة ولم يقل هي خالة المؤمنين، قلت وزوج رسول الله ﷺ بناته بعلي وعثمان، قال البغوي روى الشعبي عن مسروق أن امرأةً قالت لعائشة يا أمه فقالت لستُ لك بأم إنما أنا أم رجالكم، وكذا أخرج البيهقي في سننه فَبَانَ بهذا أنه تعالى أراد تحريم النكاح وفي قراءة أبي بن كعب وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم يعني في الدين فإن كل نبي أب لأمته من حيث أنه أصل فيما بها لحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوة ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي في حكم الله أو في اللوح المحفوظ أو في القرآن وهو هذه الآية أو آية المواريث يعني في التوارث ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا» ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ صلة لأولي ومن تفصيلية والآية ناسخة لما كان في ابتداء الإسلام التوارث بالهجرة والموالاة في الدين، قال البغوي...... قال قتادة كان السلمون يتوارثون بالهجرة، وقال الكلبي آخا رسول الله ﷺ بين الناس وكان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر عصبةً

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاستقراض، باب: الصلاة على من ترك ديناً (٢٣٩٩).

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

حتى نزلت ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وهذه الآية بعمومه حجة لنا على الشافعي في توريث أولي الأرحام ممن ليس بذي فرض ولا عصبة عنه عدم ذوي الفروض والعصبات وعند عدم أحد من أولي الأرحام يوضع المال في بيت المال ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ أي أصدقائكم من المؤمنين والمهاجرين ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي وصية فالموصي له من الأصدقاء اولى من الورثة وهذا عام خص منه البعض بالسنة والإجماع فهو أولى من الورثة في ثلث المال دون كله، وهذا استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع أو منقطع وذلك أن الله لمَّا نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصى بمن يتولاه بما أحب من الثلث، وقيل من في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانية والمعنى وأولوا الأرحام من المؤمنين بعضهم أولى ببعض يعني لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ أي أقربائكم وصية وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة، قال البغوي هذا قول قتادة وعكرمة وعطاء، قلتُ وعلى هذا يخلو فُعَلُ من اللام والإضافة ومن التفضيلية ثم كون أولى الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض لا يقتضي نفي التوارث بين المسلم والكافر لا بالمنطوق وهو ظاهر ولا بالمفهوم لأن كون المؤمن أولى لا يدل على نفي ميراث كافر من مؤمن عند عدم وارث مؤمن والله أعلم ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي في اللوح المحفوظ أو القرآن وقيل في التوراة ﴿مَسۡطُورٗا﴾ ثابتاً مرقوماً.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ

ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿و﴾ أذكر ﴿إذ أخذنا من النبيين﴾ أجمعين ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ عهودهم حين أخرجوا من صلب آدم، قال أخذ الله ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وينصر بعضهم بعضاً وينصحوا لقومهم ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خصهم بالذكر بعد التعميم لفضلهم لكونهم أصحاب الشرائع والكتب وأولي العزم من الرسل وقدم النبيّ ﷺ في الذكر تعظيماً له وإشعاراً بما أخبر عنه ﷺ، حيث قال: «كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث» رواه سعد عن قتادة مرسلاً ورواه البغوي متصلاً عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة وقال قال قتادة وذلك قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ الآية فبدأ به ﷺ قبلهم، وروى ابن سعد وأبو نعيم في الحلية عن ميسرة الفجر بن سعد عن أبي الجدعاء والطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ «كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد» ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا﴾ عهداً على الوفاء بما عهدوا ﴿غليظا﴾ شديداً عظيم الشأن أو مؤكداً بالأيمان والتكرير لبيان هذا الوصف ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهودهم قالوه لقومهم أو عن تصديقهم إياهم تبكيتاً لهم، أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادقٌ أو المؤمنين الذين صدقوا عهودهم حتى أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على أخذنا من جهة أن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين أو على ما دل عليه قوله ليسأل كأنَّه قال فأثاب للمؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ ظرف لنعمة ﴿جُنُودٌ﴾ أي كفار قريش وغطفان ويهود قريظة كانوا زهاء إثنى عشر ألف حتى حاصروا المسلمين مع رسول الله ﷺ وحفر رسول الله ﷺ خندقاً حولهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ يعني الصبا، روى البخاري عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «نصرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[(١)] أرسل الله عليهم ريحاً باردةً في ليلة شاتية فقطعت الأوتاد وأطناب الفساطيط وأطفأت النيران وأكفأت القدور وجالت الخيل بعضها في بعض» ﴿وَجُنُودًا﴾ من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ حتى كثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم وألقى الرعب في قلوبهم حتى كان سيد كل قوم يقول يا بني فلان هلموا إليَّ فإذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء أبيتم فأنهزموا من غير قتال ولم تقاتل

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٥).

الملائكة يومئذ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أيها المؤمنون من حفر الخندق والتهيىء للقتال هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة البصريين فالمعنى وكان الله بما يعمل المشركون من التحزب والمحاربة ﴿بَصِيرًا﴾ رائياً وكان ذلك الوقعة في شوال سنة أربع من الهجرة كذا في مواهب اللدنية من قول موسى بن عقبة بعد ثمانية أشهر من إجلاء بني النضير وكان إجلاؤهم وتفرقهم في البلاد ولحوق سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحيي بن أخطب وغيرهم بخيبر في ربيع الأول سنة أربع والمشهور أنه في شوال سنة خمس من الهجرة كذا قال محمد بن إسحاق.

قال البغوي قال محمد بن إسحاق حدثني يزيد بن رومان مولى آل الزبير عن عروة بن الزبير وعن عبد الله بن كعب بن مالك وعن الزهري وعاصم بن عمرو بن قتادة وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن محمد بن كعب القرظي وغيرهم من علمائنا دخل حديث بعضهم بعضاً أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن وائل (وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ) خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقال لهم قريش يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه (قال فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ألم تر إلى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ إلى قوله ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا إلى ما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فأجمعوا لذلك، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس بن غيلان فدعوهم إلى ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد بايعوهم فأجابوهم.

قلتُ: روي أنه كان رجال بني نضير وبني وائل نحواً من عشرين رجلاً فقال لهم أبو سفيان بن حرب مرحباً بكم أحب الرجال عندنا من عاهدنا على عداوة محمد، فقالوا لأبي سفيان إختر لنا خمسين رجلاً من بطون قريش وتكون منهم حتى ندخل نحن وأنتم في أستار الكعبة ونلزق صدورنا بجدران الكعبة ثم نحلف على أن نتفق على عداوة محمد وتكون كلمتنا واحدة ونتعاهد على أن نحارب محمداً ما بقي منا رجل واحد ففعلوا ذلك، ولما قدم اليهود على غطفان بعد المعاهدة مع قريش حرضوهم على القتال مع النبيّ ﷺ ووعدوهم على ذلك بتمر سنة ما كان على نخيل خيبر وقيل بنصف ذلك فأجاب عيينة بن حصين الفزاري رئيس غطفان قولهم بذلك الشرط أي بشرط إعطاء تمرسنة وكتب عيينة إلى

حلفائه من بني أسد فجاءوا عنده، قال البغوي فخرجت قريش قائدهم أبو سفيان بن حرب وغطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في بني فزارة والحارث بن عوف بن أبي حارثة المزي في بني مرة ومسعر بن رحيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع، قلتُ روي أن أبا سفيان جمع العسكر أربعة آلاف رجل وأعطى رايته عثمان بن أبي طلحة وكان في عسكرهم ثلاث مائة فرس وألف بعير حين خرجوا من مكة ونزلوا من الظهران واجتمع هناك أسلم وأشجع وبنو مُرّة وبنو كنانة وفزارة وغطفان حتى صاروا عشرة آلاف وساروا باجمعهم إلى المدينة ولذلك سمى غزوة الأحزاب.

قال البغوي فلمّا سمع رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ حر فقال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله ﷺ حتى أحكموه، قلتُ: روي أنه رسول الله ﷺ لما سمع الخبر قال حسبنا الله ونعم الوكيل، وجمع أسراء المهاجرين والأنصار واستشارهم في ذلك وأشار سلمان بضرب الخندق فاستحسنه رسول الله ﷺ واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وخرج غازياً وأعطى لواء المهاجرين زيد بن حارثة ولواء الأنصار سعد بن عبادة وخرج معه ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، قلتُ: روي أن معهم ستة وثلاثون فرساً وخرج معه صبيان لم يبلغوا الحلم فردهم إلى المدينة من كان منهم لم يبلغ خمسة عشر سنة وأجاز منهم للقتال من كان منهم ابن خمسة عشر سنة منهم عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري وبراء بن عازب، فطلب رسول الله ﷺ موضعاً لأجل الخندق في بعض أطراف المدينة فاختار موضعاً بقرب جبل سلع جعل جبل سلع على ظهر العسكر وخط خطّاً للخندق بينه وبين الكفار، قال البغوي أخبرنا عن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه قال خط رسول الله ﷺ عام الأحزاب ثم قطع لكل عشر أربعين ذراعاً، قال احتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون سلمان منا وقال الأنصار سلمان منا فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

قال عمر بن عوف كنتُ أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا كنا بجنب ذي باب أخرج الله من بطن الخندق صخرةً مروةً كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلتُ يا سلمان أرق إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر هذه الصخرة فإن رأى أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا بأمره فإنا لا

نحب أن نجاوز خطه فرقى سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، قال فخرجت صخرة بيضاء من مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يجيبك فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فأنا لا نحب أن نجاوز خطك فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق والتسعة التي في الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأنَّ مصباحاً في بيت جوف مظلم فكبّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبّر المسلمون ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأنَّ مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون ثم ضربها، فأخذ بيد سلمان ورقى فقال سلمان بأبي أنتَ يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيتُ مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال رأيتم ما يقول سلمان قالوا نعم، قال «ضربتُ ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبرئيل عليه السَّلام أن أمتي ظاهرة عليها ثم ضربتُ ضربة الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمرة من الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله الذي موعده صدق وعدنا النصر بعد الحصر، فقال المنافقون ألا تعجبون من محمد يمنّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الغرق لا تستطيعون أن تبرزوا قال فنزل القرآن ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[1] وأنزل في هذه القصة ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية.

روى البخاري في الصحيح عن أنس قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

إن العيش عيش الآخرة — فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمّداً — على الجهاد ما بقينا ابداً»[2]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٧٣).

وروى أيضاً في الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب وخَنْدَقَ رسول الله ﷺ رأيتُه ينقل تراب الخندق حتى وارى على الغبار جلد بطنه وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ثم يمدّ صوته بآخرها، وفي رواية والله لولا الله ما اهتدينا إلى آخره، قلت: وروي أن سلمان كان رجلاً قوياً يعمل في الخندق عمل عشرة من الرجال ويروى أنه كان يحفر الخندق كل يوم خمسة أذرع في عمق خمسة أذرع، فأصابه عين من قيس بن أبي صعصعة فصرع فأمر رسول الله ﷺ قيساً أن يتوضأ لسلمان ويجعل وضوءه في إناء ويغسل به سلمان ويلقى الإناء خلفه منكوساً ففعلوا ذلك فبرىء سلمان.

وروى أحمد والبخاري في الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: «كنا يوم الخندق مع رسول الله ﷺ فعرضت لنا كُدية شديدة فجاءوا النبيّ ﷺ فقالوا هذه كُدية من الجبل عرضت فقال أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ رسول الله ﷺ المعول فعادت كثيبًا أهيل أو أهيم، فقلتُ يا رسول الله ائذن لي البيت، فقلتُ لامرأتي إني رأيت من رسول الله ﷺ خمصاً شديداً أما في ذلك صبرٌ فعندك شيء فأخرجت لي جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن فذبحتُها وطحنت ففرغَتُ إلى فراغي وقطعتها في برمتها والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي في قدر كادت أن تنضج، ثم وَلَّيتُ إلى رسول الله ﷺ فقالت لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئتُه فساررته فقلتُ طعيم لي يا رسول الله فقم أنتَ ورجل أو رجلان قال كم هو فذكرتُ له، قال كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة والخبز من التنور حتى آتيكم واستقر صحافاً، ثم صاح رسول الله ﷺ فقال يا أهل الخندق إن جابراً صنع لكم فحي هلا بكم، فقلت ويحك جاء النبيّ ﷺ بالمهاجرين والانصار ومن معهم فقالت بك وبك هل سألك فقلت نعم فقالت الله ورسوله أعلم، فدخل رسول الله ﷺ فقال أدخلوا ولا تضاغطوا فأخرجتُ له عجيناً فبسق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبسق فيها وبارك ثم قال يا جابر ادع خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتك ولا تنزلوها، وجعل رسول الله ﷺ يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم يخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر

الخبز ويغرف اللحم حتى شبعوا وهم ألف، قال جابر فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبزكما هو ثم قال رسول الله ﷺ كلي وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة فلم نزل نأكل ونهدي يومنا»[1] قلت وقد صح أنهم قد فرغوا من أمر الخندق في ستة أيام.

قال البغوي رجعنا إلى حديث ابن إسحاق فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش بمجتمع الأخبال من دومة الجرف والغابة في عشر آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من أهل التهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا إلى الآطام.

وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده ذلك فلما سمع كعب بحيى بن أخطب غلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيي يا كعب افتح لي فقال ويحك يا حيي أمر شؤم إني قد عهدتُ محمداً فلستُ بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا الوفاء والصدق، قال ويحك افتح أكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله إن غلقتَ دوني إلا لخشيتك أن آكل معك منها فأحفظ الرجل ففتح له الباب، فقال يا كعب جئتك بعز الدهر ببحر طام جئتُك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتُهم بمجتمع الأسبال من دومة وغطفان على قادتها وسادتها حتى أمسى بذنب نقمى إلى جانب أحد فتعاهدوني وتعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، فقال كعب بن أسد جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد أهرق ماؤه برعد وبرق ليس فيه شيء فدعني ومحمداً وما أنا عليه فإني لم أر من محمّد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على أن أعطاه من الله عهداً وميثاقًا لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء ممَّا كان عليه فيما بينه وبين محمّد رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى رسول الله الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أحد بني الأشهلُ وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة أحد بني ساعدة وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤٠٩٩).

ابن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخوَّات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغني عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حَقّاً الحنوا إليَّ لحناً أعرفه لا تفتوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به الناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوا على أخبث ما بلغهم منهم ومالوا من رسول الله ﷺ وقالوا لا عقد بيننا وبين محمد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلاً فيه فقال سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وقالوا عضل والقارة لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين وعظم عند ذلك البلاء وأشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وحتى قال أوس بن قبطي أحد بني حارثة يا رسول الله إن بيوتنا عورة وذلك على ملأٍ من رجال قومه فأذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة، قلتُ روي أنه لما نقض كعب عهده الذي كان بينه وبين رسول الله ﷺ وعزم على ذلك جمع أشراف قومه منهم زبير بن بلطا ونباش بن قيس وعقبة بن زيد وغيرهم وأخبرهم بذلك لاموه أشد ملامة وكرهوا ذلك حتى ندم كعب على ذلك ولكن لم ينفعه لِمَا كان ذهب عنان الأمر من يده وكان ذلك ما أراد الله إهلاك قريظة، وروى الشيخان في الصحيحين عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم فانطلقتُ فلما رجعتُ جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال فداك أبي وأمي»(١) قلتُ وكان إرسال الزبير إلى بني قريظة قبل إرسال سعد وسعد إليهم، روي أنه لما جاء الزبير من بني قريظة إلى رسول الله ﷺ أخبره بأنهم يصلحون حصونهم ويسدون الطرق والثغور ويجمعون دوابهم ومواشيهم فقال النبيّ ﷺ: «لكل نبي حوارياً وحواريي الزبير»(٢).

قال البغوي فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعاً وعشرين ليلةً قريباً من شهر ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى، فلمّا أشتد البلاء على رسول الله ﷺ أرسل إلى عيينة بن حصين وأبي الحارث ابن عمرو وهما قائدا غطفان

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والمغازي، باب: (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) (٤٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الطليعة (٢٨٤٦).

فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ﷺ بأصحابه فجرى بينه وبنيهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم يصنع الشهادة، وذكر رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشيء أمرك الله به لا بد لنا من عمل به أم أمر تحبه فتصنعه أم شيء تصنعه لنا؟ قال بل لكم والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيتُ العرب قدرمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردتُّ أن أكسر عنكم شوكتهم، فقال لهم سعد بن معاذ قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا تمرةً إلا قرىً أو بيعاً فحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ومالنا بهذا حاجة والله لا نعطهم إلا السيف حتى يحكم الله يننا وبينهم فقال رسول الله ﷺ فأنت وذلك فتناول سعد الصحيفة فمحى ما في الكتاب ثم قال ليجتهدوا علينا. قلتُ: وروي أن أسيد ابن حضير قال ذلك لرسول الله ﷺ أولاً ثم قال مثله سعد وسعد وكان عيينة بن حصين أطال رجله في ذلك المجلس فقال له أسيد يا عين الهجرس اطوِ رجلك ولولا مهابة مجلس رسول الله ﷺ لوضعت رمحي في خاصرتك فانقلب عيينة والحارث خائبين وعلموا أن لا يكون لهم سلطان على المدينة وحيث رأوا قوة الأنصار وشدتهم تزلزلوا.

قال البغوي: فأقام رسول الله ﷺ وعدوهم فحاصروهم ولم يكن بينهم قتال إلا فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود أخو بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس بن لؤي أخو بني محارب بن فهر قد تلبسوا القتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة وقالوا تهيئوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيولهم فاقتحمت فجالت بهم في المسبحة بين الخندق والسلع، وخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعيق نحوهم وكان عمرو بن عبد ود قاتلَ يوم بدر حتى أثبت الجراحة فلم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه فلمّا وقف هو وخيله قال له عليٌّ يا عمرو إنك كنتَ تعاهد الله لا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما، قال أجل، قال له علي بن أبي طالب فإني أدعوك إلى الله وإلى سوله وإلى الإسلام، قال لا حاجة لي بذلك، قال فإني أدعوك إلى النزال، قال لِمَ يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي لكن والله أحب أن

أقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على عليّ فتناولا وتجادلا فقتله عليٌّ وخرجتُ خيله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة، وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد السياق بن عبد الدار أصابه سهم فمات عنه بمكة ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وكان قد اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يا معشر العرب قتله أحسن من هذه فنزل له عليٌّ فقتله فغلب المسلمون، فسألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسده فقال رسول الله ﷺ لا حاجة لنا في جسده وثمنه فشأنكم فخلى بينهم وبينه.

قالت عائشة أم المؤمنين كنا يوم الخندق في حصن بني حارثة وكان أحرز حصون المدينة وكان سعد بن معاذ معنا في الحصن وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فخرج سعد ابن معاذ وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وبيده حربقة وهو يقول:

يا ليت قلام لا يدرك الهيجاء جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت أمه الحق يا بني فقد والله أخرتَ، فقلت لها يا أم سعد والله لوددتُ أن درع سعد كانت أسبغ مما هي وخفت عليه حيث أصاب السهم قالت أمه يقضي الله ما هو قاض، فرمى يومئذ بسهم قطع منه الأكحل رماه حيان بن قيس الغرفة أحد بني عامر بن لؤي فلما أصاب السهم قال خذها وأما ابن الغرفة فقال سعد وجعك الله في النار ثم قال سعد اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش فأبقني له فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم أذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه وإن كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فأجعله لي شهادةً ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قال مجاهد ومحمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال كانت صفية بنت عبد المطلب في رقاع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة ما بينها وبين رسول الله ﷺ وما بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذ أتانا آت فقلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدخل عورتنا من ورائنا من اليهود وقد شغل عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفتِ وما أنا بصاحب هذا، فلمّا قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزتُ ثم أخذتُ عموداً ثم نزلتُ عن الحصن إليه فضربتُ عنقه بالعمود حتى قتلتُه فلمّا فرغتُ منه رجعتُ إلى الحصن فقلتُ يا حسان أنزل عليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه

إلا أنه رجل قال ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب. قلتُ: روي أن بني قريظة أرادوا أن يبيتوا على المدينة وطلبوا في ذلك مدداً من قريش فبلغ ذلك رسول الله ﷺ سلمة بن أسلم مع مائتي رجل وزيد بن حارثة مع ثلاث مائة رجل حتى يحرسوا بقاع المدينة وحصونها، وروي أن عباد بن بشر مع أصحابه كانوا يحرسون كل ليلة خيمة رسول الله ﷺ وكان المشركون يريدون أن يجاوزوا الخندق والصحابة يمنعونهم برمي السهام والحجارة وكان رسول الله ﷺ يحرس بنفسه الكريمة.

روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمة المدينة ليلة فقال ليت لي رجلاً صالحاً يحرسني إذ سمعنا صوت سلاح فقال من هذا؟ قال سعد، قال ما جاء بك؟ قال وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام»[١] وفي رواية قالت عائشة أحب سعداً من يوم كان يحرس رسول الله ﷺ في أيام الخندق كان من الخندق موضعاً يخاف عبور الكفار من ذلك الموضع كان رسول الله ﷺ يحرس ذلك الموضع وإذا اشتد عليه البرد يأتيني ويستدفأ بي ثم يذهب ويحرس ويقول لا أخاف على العسكر إلا من هذا الموضع فجاءني رسول الله ﷺ مرة ليستدفأ بي وقال ليتَ لي رجلاً صالحاً يحرسني الليلة حتى أنام إذ سمعنا صوت سلاح فقال من هذا؟ قال سعد، قال أحرسنا ذلك الموضع ففعل فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ صوت نفسه.

وروي عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يحرس بنفسه الكريمة وكان البرد شديداً فكان رسول الله ﷺ في ليلة من الليالي صلّى في خيمته ثم ذهب يحرس فقال هؤلاء فرسان المشركين حول الخندق فنادى عباد بن بشير فقال لبيك يا رسول الله فقال هل معك أحد؟ فقال نعم رجال من قومي يحرسونك، فقال إذهب برجال قومك فإن رجالاً من المشركين حول الخندق يريدون أن يبيتوا وقال رسول الله ﷺ: «اللّهم ادفع عنا شرهم وأنصرنا عليهم» فذهب عباد بن بشير بأصحابه إلى الخندق فإذا أبو سفيان ورجال من المشركين دخلوا في مضيق الخندق والمسلمون يرمونهم بالسهام والحجارة فلحقهم عباد بن بشير، قال عباد فرميتهم مع المؤمنين حتى انهزم المشركون فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يصلّي فلمّا فرغ من الصلاة أخبرته الخبر، فقالت أم سلمة فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ صوته ولم ينتبه حتى أذن بلال للصبح فخرج فصلّى بالناس وكانت أم سلمة تقول

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٥).

اللهم إرحم عباد بن بشير. وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ نائماً في خيمته فإذا انتصفت الليل إرتفعت الأصوات وسمعتُ يقولون يا خيل الله إركبوا وكان هذا في تلك الغزوة شعار المهاجرين (وفي رواية كان رسول الله ﷺ قال إذا بيتوا أي الكفار فشعاركم ﴿حمٓ ۝﴾ لا ينصرون ووجه الجمع أن هذا كان شعار الأنصار وذلك شعار المهاجرين) فأنتبه رسول الله ﷺ من النوم وخرج من خيمته على رجال كانوا يحرسون خيمته منهم عباد بن بشير فسأله ما تلك الأصوات وأمر عباداً أن يأتي بالخبر، فذهب عباد وانتظر رسول الله ﷺ حتى أتى وقال يا رسول الله هذا عمرو بن عبد ود مع جمع من المشركين يحاربون مع المؤمنين يترامون بالسهام والحجارة فدخل رسول الله ﷺ خيمته ورفع سلاحه فخرج وركب الفرس وسار إلى المعركة بجمع من الصحابة ثم رجع بعد ساعة فرحان وقال قد ذهب الله بشرهم وأنهزم بجراحات كثيرة، فاضطجع رسول الله ﷺ ونام حتى سمعتُ صوت نفسه ثم ارتفعت الأصوات مرةً ثانيةً فانتبه رسول الله ﷺ وقال يا عباد انظر ما تلك الأصوات فذهب عباد ثم رجع وقال يا رسول الله هذا ضرار بن الخطاب بجمع من المشركين يحارب المسلمين بالنبال والحجارة فخرج رسول الله ﷺ سلاح وذهب هناك وحاربهم حتى اصبحوا، ثم رجع، وقال انهزموا بجراحات كثيرة. قالت أم سلمة كنتُ مع رسول الله ﷺ في غزوة مريسع وخيبر وحديبية وفتح مكة وحنينو ما كان شيء منها أشد وأشق على عهد رسول الله ﷺ من غزوة الخندق وأصاب المسلمون في تلك الغزوة جراحات كثيرة وكان برداً شديداً وعسرة.

وروي أن يوماً من الأيام اجتمعت الكفار وأخذوا حوالي الخندق وحاربوا حرباً شديداً حتى غابت الشمس ولم يجد النبيّ ﷺ فرصةً للصلاة حتى فات عنه صلاة الظهر والعصر والمغرب فصلاّها في وقت العشاء، روى الترمذي والنسائي عن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود أنه قال إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء الله فأمر بلالاً فأذّن ثم أقام فصلّى الظهر ثم أقام فصلّى العصر ثم أقام فصلّى المغرب ثم أقام فصلّى العشاء[١] قال الترمذي ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه فهو منقطع، وروى النسائي في سننه عن أبي سعيد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الرجل تفوته الصلوات بأيتهن يبدأ (١٧٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: الأذان، باب: الاجتزاء لذلك كله بأذان واحد والإقامة لكل واحدة منهما (٦٥٧).

الخدري قال: «حبسنا يوم الخندق عن الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى كُفينا ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿كفى الله المؤمنين القتال﴾ فقام رسول الله ﷺ فأقام فصلّى الظهر كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى العصر كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى المغرب كما كان يصليها قبل ذلك ثم أقام فصلّى العشاء كما كان يصليها قبل ذلك وذلك قبل ان ينزل فرجالاً أو ركباناً» رواه ابن حبان في صحيحه ولم يذكر فيه العشاء لأنها كانت في وقتها وذكرها في الرواية الأخرى باعتبار أنها تأخرت عن وقتها المعتاد. وأخرج البزار عن جابر بن عبد الله أنه صلّى عليه وسلم شغل يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهب ساعة من الليل فأمر بلالاً فأذّن وأقام فصلّى الظهر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العصر ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى المغرب ثم أمره فأذّن وأقام فصلّى العشاء ثم قال: «ما على ظهر الأرض قوم يذكرون الله في هذه الساعة غيركم» وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق مضعف. وفي الصحيحين عن جابر ابن عبد الله «أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس جعل يسبُّ كفار قريش وقال يا رسول الله ما كدتُ أن أصلي حتى كادت الشمس تغرب، قال النبيّ ﷺ: «والله ما صليتُها» فنزلنا مع النبيّ ﷺ بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلّى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلّى بعدها المغرب»[1] وفي الصحيحين عن عليّ عن النبيّ ﷺ: أنه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[2] وفي رواية لمسلم ثم صلاّها بين المغرب والعشاء، وهذه الأحاديث جاز أن يكون وقائع مختلفة لأن أيام وقعة الخندق كانت كثيرة وجاز أن يكون واقعة حال واحد ويمكن الجمع بينها كما لا يخفى.

مسألة:

إذا فاتت صلوات يؤَذَّن للأولى ثم يقيم لكل صلاة والأولىٰ أن يؤذَّن ويقيم لكل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من صلى بالناس جماعة بعد ذهاب الوقت (٥٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٨٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٧).

صلاة كما يدل عليه حديث البزار والله أعلم.

ولمّا اشتد البلاء على المؤمنين دعا رسول الله ﷺ على الكفار فاستجاب الله دعاءه، روى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب قال: «اللّهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللّهم اهزمهم وزلزلهم»[1] قلتُ وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أنه صلّى الله عليه وسلّم دعا على الأحزاب ثلاثة أيام متتابعات في مسجد الفتح قيل هو يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فاستجاب الله دعاءه يوم الأربعاء بين الظهر والعصر فرأينا الفرح في وجهه، قال فما ناب لنا نائبة ودعانا الله تعالى في تلك الساعة إلا استجاب الله دُعاءنا.

قال البغوي: ثم نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني قد أسلمتُ وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرنا بما شئت فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعتَ فإن الحرب خدعة» قلتُ: وفي رواية قال نعيم يا رسول الله ائذن لي أن أقول ما شئتُ فأذن له، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديم في الجاهلية فقال لهم يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم خاصةً، قالوا: صدقتَ لستَ عندنا بمتهم، فقال لهم أن قريشاً وغطفان جاءوا للحرب قد ظاهرتموهم عليه وأن قريشاً وغطفان ليسوا كهيئتكم البُلَدُ بلدكم به أموالكم وأولادكم ونساؤكم ولا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة إن رأوا نهزةً وغنيمةً أصابوها وإن رأوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلُّوا بينكم وبين الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكون بأيديكم ثقة على أن تقاتلوا معكم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا لقد أشرتَ بنصح، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي إياكم وبرائي من محمد وقد بلغني أمر رأيتُ حقّاً أن أبلغكم نصحاً لكم فاكتموا عليَّ قالوا نفعل، قال لتعلمن أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا ندمنا على ما صنعنا فهل يرضيكم عنا من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكم فيضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأرسل إليهم أن نعم فإذا بعثتْ إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣٣).

أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهموني قالوا صدقتَ قال فاكتموا عليَّ قالوا نفعَل ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فلمَّا كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان ممَّا صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورقة بن غطفان وعكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة وقالوا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرتكم الحرب واشتد عليكم القتال ترجعون إلى بلادكم وتتركونا والرجال في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلمَّا رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان لتعلمن والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بني قريظة والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن وجدوا فرصةً انتهزوها وإن كان غير ذلك اشمأزوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان أما والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم فخذل الله بينهم وبعث عليهم الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

فلمَّا بلغ إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً، روى محمد بن إسحاق عن زيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي وروى غيره عن إبراهيم التيمي عن أبيه قالا قال فتخامن أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه قال نعم يا ابن أخي قال كيف تصنعون قال والله لقد كنا نجهر، قال الفتى والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا، فقال حذيفة يا ابن أخي والله لقد رأيتني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ فقال من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا خبرهم أدخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلّى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل، ثم صلّى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال من رجل فيقوم فينظر لنا ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلمَّا لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فقال يا

حذيفة فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقلت لبيك يا رسول الله وقمتُ حتى أتيتهُ وإن جنبيَّ لتضطربان فمسح رأسي ووجهي ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتي بخبرهم فلا تحدثن شيئاً حتى ترجع إليَّ، ثم قال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته» فأخذتُ سهمي وشددتُ عليّ أسلابي ثم انطلقتُ أمشي نحوهم كأني أمشي في حمام فذهبتُ فدخلت في القوم قد أرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً وأبو سفيان قاعد يصطلي، فأخذتُ سهمي فوضعتُ في كبد قوسي فأردتُ أن أرميه فلو رميتُه أصبتُه فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لاتحدثن شيئاً حتى ترجع إليَّ» فرددتُ سهمي فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقرُّبهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً فقام وقال يا معشر قريش ليأخذ كل رجل منكم جليسه فلينظر من هو فأخذتُ بيد جليسي فقلتُ من أنتَ؟ فقال سبحان الله أما تعرفني أنا فلان بن فلان فإذا برجل من هوازن، فقال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام قد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنوا قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم وسمعتُ غطفان فعلت ما فعلت قريش فاستمروا راجعين إلى بلادهم، قال فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ كأنّي أمشي في حمام فأتيتُه وهو قائم يصلّي فلمّا سلم أخبرتُه بخبر القوم فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، قال فلمَّا أخبرتُه وفرغتُ وزرت وذهب عني الدفاء أدناني النبيّ ﷺ فأتاني عند رجليه وألقى عليّ طرف ثوبه وألزق صدري ببطن قدميه فلم أزل نائماً حتى أصبحتُ فلما أصبحتُ قال قم يا نومان.

قلتُ وعند ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة لما بعث الله على عسكر المشركين ريحاً وكبَّرت الملائكة في جوانب العسكر قال طليحة بن خويلد الأسدي أمَّا محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجا النجا فأنهزموا من غير قتال.

قلتُ: قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره إنه لولا كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ما تركت الريح أحداً من الكفار إلا جعلته كالرميم كما جعلت عاد الريح العقيم، وفي رواية في حديث حذيفة أنه قال لما رجعتُ عن عسكر الكفار إلى رسول الله ﷺ رأيتُ في أثناء الطريق عشرين فارساً بيضاء عمائمهم قالوا لي قل لصاحبك إن الله سبحانه كفاك ودفع عنك شر أعدائك، وروى الشيخان في الصحيحين عن جابر يقول قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم، فقال الزبير أنا، ثم قال من يأتينا

بخبر القوم؟ قال الزبير أنا، ثم قال من يأتينا بخبر القوم؟ قال الزبير أنا، فقال النبيّ ﷺ: «إن لكل نبي حواري وحواري الزبير»[١] وروى البخاري في الصحيح عن سليمان بن صرد يقول سمعتُ رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الاحزاب عنه «الآن نغزوهم لا يغزوننا نحن نسير إليهم»[٢] وروي أيضاً في الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ «كان إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة ببلدة يكبر ثلاث مرات ثم يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[٣] قال محمد بن عمر إستشهد في غزوة الخندق ستة رجال من المسلمين وقتل من المشركين أيضاً ستة.

﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدل من ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ﴾ ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي من قبل المشرق وهم أسد وغطفان عليهم مالك بن عوف النظري وعيينة بن حصين الفزاري في ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب وهم كنانة وقريش عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعهم وأبو أعور عمرو بن سفيان السلمي من قبل الخندق ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي مالت عن مستوى نظرها حيرةً وشخوصاً من العدو ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ رعباً فإن الرئة تنتفخ من شدة الروع فترتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهي طرف الحلقوم وهذا مثل يعبر عنه عن شدة الخوف ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنواعاً من الظن فظن المنافقون استئصال محمد ﷺ وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لما سبقهم من الوعد في إعلاء دينه ولحق ضعفاف القلوب التزلزل، قرأ أبو بكر وأهل المدينة وابن عامر الظُّنُوْنَا الرَّسُوْلا السَّبِيْلاَ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً لأنها مثبتة في المصاحف وقرأ أهل البصرة وحمزة بغير ألف في الحالين على الأصل والباقون بالألف في الوقف لموافقة رؤوس الآى وأتباع الخط وبغير ألف في الوصل على الأصل ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ابتلي المؤمنون﴾ أي إمتحنوا ليمتاز المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ وهم معقب بن قشير

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الطليعة (٢٨٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢٤١٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١١٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: العمرة، باب: ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو (١٧٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره (١٣٤٤).

وعبد الله بن أبيّ وأصحابه وإذ بدل من هُنَالِكَ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد وجبن ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال البغوي هذا قول أهل النفاق يعدُنا محمد فتح قصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله هذا والله الغرور، وأخرجه ابن أبي حاتم عن السديّ قال فقال رجل يعني منافق من الأنصار يدعى بشير بن معتب فذكر نحوه ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من المنافقين وهو أوس بن قبطي وأصحابه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني المدينة، وقال أبو عبيدة اسم أرضٍ مدينةَ رسول الله ﷺ في ناحية منها، قال البغوي ورد في بعض الأخبار أن النبيّ ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال هي طابة كأنّه كره هذا اللفظ لأنه مشتق من ثربه يثربه وثرّبه وعليه وأثرَبه لامه وعَيّره بذنبه والمُثرب القليل العطاء كذا في القاموس ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرأ الجمهور بفتح الميم أي لا موضع قيام لكم هاهنا وقرأ حفص بالضم على أنه مكان أو مصدر من أقام ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم عن القتال ورفاقة محمد ﷺ أولاَ مُقَامَ لَكُم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا أو لا مُقَامَ لَكُم يثرب فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من فاعل يستأذنون ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة يجيء عليها العدو والسارق فكذّبهم الله وقال ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون بذلك القول الكاذب ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة أي دخل هؤلاء الأحزاب ﴿عَلَيْهِم﴾ في المدينة أو في بيوتهم وحذف الفاعل إيماءً بأن دخول هؤلاء الأحزاب وغيرهم في اقتضاء الحكم المترتب عليه سواء ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الشرك أو مقاتلة المسلمين ﴿لَءَاتَوْهَا﴾ قرأ أهل الحجاز بالقصر أي لجاءوها وفعلوها والباقون بالمد أي لأعطوا ما سألوا من الفتنة ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ أي بالفتنة يعني بإتيانها وإعطائها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي زماناً يسيراً يعني زمان السؤال والجواب كذا قال أكثر المفسّرين وقيل معناه ما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا زماناً قليلاً ثم يهلكون أو يجلون، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ غزوة الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ عدوهم ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي لا ينهزمون قال يزيد بن رومان وهم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يقتلوا بني سلمة فلمّا نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها، وقال قتادة هم أناس قد غابوا عن وقعة بدر ولمّا رأوا ما أعطاه الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن اشهدنا الله قتالا فلنقاتلنّ فسلق الله إليهم ذلك ﴿وكان عهد الله مسؤولاً﴾ عن الوفاء به يجازى عليه ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ لأنه من حضر أجله لا بد له من أن يموت سواء بالقتل أو حتف أنفة ومتى لا يحضر أجله لا يموت قطعاً ﴿وَإِذًا﴾

أي إذا فررتم ﴿لَا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا حياً ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً وقيل معناه إن نفعكم الفرار فرضاً فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع إلا قليلاً لكون الدنيا فانية لا محالة ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إن أراد بكم سوءاً﴾ أي عذاباً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ يعني ومن ذا الذي يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فأختصر الكلام كما في قوله متقلداً سيفاً ورمحاً وجاز أن يكون حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ قريباً ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضر.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ من التعويق بمعنى التصريف والعوق الصرف والعائق الصارف عن الخير والمراد الذين يصرفون الناس عن ملازمة النبيّ ﷺ وهم المنافقون ﴿والقائلين لإخوانهم﴾ من ساكني المدينة ﴿هَلُمَّ﴾ أي قربوا أنفسكم ﴿إِلَيْنَا﴾ ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك، قال قتادة هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يثبّطون أنصار النبيّ ﷺ ويقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس وكانوا لحماً لالتقمه أبو سفيان وأبو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فإنه هالك، وقال مقاتل إن اليهود أرسلت إلى المنافقين وقالوا ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه فإنهم إن قدروا في هذه المرة لم يستبقوا منكم أحداً وأنا مشفق عليكم أنتم إخواننا وجيراننا هلم إلينا فأقبل عبد الله بن أبيّ وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبي سفيان ومن معه وقالوا لئن قدروا عليكم لم يستبقوا منكم أحداً ما ترجون من محمد ما عنده خير ما هو إلا أن يقتلنا هاهنا إنطلقوا بنا إلى إخواننا يعنون اليهود فلم

يزدادوا المؤمنون بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً فنزلت تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾ أي المنافقون ﴿ٱلْبَأْسَ﴾ أي الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إتياناً ﴿قَلِيلًا﴾ أو زماناً أو بأساً قليلاً فإنهم كانوا يعتذرون ويثبّطون المؤمنين ما أمكن لهم أو يخرجون مع المؤمنين ولكن لا يقاتلون إلا قليلاً رياءً وسمعةً من غير إحتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً، وقيل أنه تتمة كلامهم ومعناه ولا يأتي محمد وأصحابه حرب الأحزاب ولا يقادمونهم إلا قليلاً ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح ونصبها على الحال من فاعل يأتون أو المعوقين أو على الذم يعني بخلاً ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله أو الظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم من الخوف ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كنظر المغشي عليه أو كدوران عينيه أو مشبهين وشبهة بعينيو ذلك أن من قرب موته وغشيه أسبابه يذهب عقله ويشخص أبصارهم لشدة الخوف ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ قال ابن عباس يعني نقصوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة، وقيل آذوكم ورموكم في حالة الأمن وقال قتادة بسطوا ألسنتهم منكم وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا قد شهدنا معكم القتال فلستم أحق منا بالغنيمة ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ نصب على الحال أو الذم وليس بتكرير لأن كلا منهما مقيد من وجه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بقلوبهم ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني أبطل الله أعمالهم يعني لم يعتد بها لعدم الإخلاص وحسن النية وإنما الأعمال بالنيات كذا قال مجاهد ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيّناً لأن تعلق الإرادة يكفي لوجود كل ممكن لأراد لفلعه ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم يذهبوا ففروا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّة ثانيةً ﴿يَوَدُّوا﴾ تمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ يعني لو ثبت أنهم خارجون إلى البدو يقال بدا يبدا بدواً وبداوةً إذا خرج إلى البادية ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ حال من الضمير في بادون أو خبر بعد خبر لأن أي كائنون في الإعراب ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من المدينة ﴿عَنْ أَنبَآئِكُمْ﴾ أي عما جرى عليكم جملة يسألون خبر بعد خبر أو حال مترادف أو متداخل وجواب لو محذوف يعني لكان خيراً ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿فِيكُم﴾ ولم يفروا من عندكم في هذه الكرة وكان قتال ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفاً من التعيير كذا، قال مقاتل ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأسوة معناه القدوة وهو ما يقتدى به والمراد هاهنا أن لكم في شأن رسول الله خصلة حسنة من حقها أن يؤسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، أو هو يعني رسول الله ﷺ لكم قدوة يحسن التأسي به كقولك في البيضة عشرون مناً حديد أي من في البيضة هذا القدر من

الحديد، وقيل هو فعلة من الايتساء كالقدوة من الاقتداء اسم وضع موضع المصدر أي لكم برسول الله اقتداء حسن أي تنصرون دين الله كما هو ينصر وتصبرون على ما يصيبكم كما هو يصبر كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه وقُتِل عمه وأوذي بضروب الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه فأفعلوا أنتم أيضاً كذلك واستنوا بسنته ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾ أي يرجوا ثواب الله ولقائه ونعيم الآخرة كذا قال ابن عباس أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً وهذا كقولك أرجو زيداً وفضله، وقال مقاتل أي يخشى الله ويخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال وقوله ﴿لِّمَن كَانَ﴾ صلة لحسنة أو صفة لها، وقيل بدل من لكم والأكثر على أن الضمير المخاطب لا يبدل منه ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في السراء والضراء قرن بالرجاء كثرة الذكر المؤدي إلى دوام الطاعة فإن المؤسى بالرسول من كان كذلك.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1] فإن الآية يتضمن أن المؤمنين يلحقهم مثل ذلك البلاء ولعل رسول الله ﷺ أخبرهم بوقعة الأحزاب قبل وقوعه ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فيما أخبر به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ تحزب الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ أي تصديقاً بما جاء به الرسول عليه السلام ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأمره وقدره

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي قاموا بما عاهدوا رسول الله من

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

الثبات معه في القتال مع أعداء الدين من صدقني إذا قال لك الصدق فإن العاهد إذا وفى بعهده فقد صدق فيه ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي فرغ من نذره ووفى بعهده فلم يبق في ذمته شيء ما عاهده يعني صبر على الجهاد والطاعة حتى استهدا ومات والنحب النذر والنحب أيضاً الموت يقال قضى نحبه أي أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأشباهه، وقيل قضى نحبه أي بذل جهده في الوفاء بالعهد من قول العرب نَحِبَ فلان في مسيرة يومه وليلته أجمع ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ والفراغ من نذره يرجو أن يموت على الوفاء ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهد ولا غيره ﴿تَبْدِيلًا﴾شيئاً من التبديل، روى الشيخان والترمذي وابن أبي شيبة والطيالسي وابن سعد والبغوي عن أنس بن مالك أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك غاب عن بدر فشق عليه وقال أو مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال أنس بن النضر اللهم إني اعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ أليك مما فعل هؤلاء يعني المشركين فانتهى إلى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم فقال ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ثم استقبل القوم، فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال سعد إنا معك قال سعد فاستقبل أنس القوم فلم أستطع أن أصنع ما صنع أنس فقال يا سعد (وفي لفظ يا أبا عمرو) هالريح الجنة ورب النضر إني لأجد ريحها دون أحد، ثم تقدم فقاتل حتى قتل فوجدوا في جسده بضعاً وثمانين ضربة من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قال أنس ووجدنا قد مثل به المشركون فما عرفه أحدٌ منَّا إلا أخته بشامَّة ببنانه فكنا نرى أو نظنُّ أن هذه نزلت فيه وفي أشباهه ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾(١). وروى البغوي عن خباب بن الأرت قال هاجرنا مع رسول الله ﷺ فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم نجد شيئاً نكفن فيه إلا نمرة فكنا إذا وضعنا على رأسه خرجت رجلاه وإذا وضعنا على رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ: «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه الأذخر» ومنا من انبعث له ثمرته فهو يهديها، وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله قال نظر رسول الله ﷺ إلى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (٢٨٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢٠٠).

طلحة بن عبيد الله فقال: «من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى هذا»[١]، وروى البخاري عن قيس بن حازم قال رأيتُ يد طلحة شلاء وقى بها النبيّ ﷺ يوم أحد[٢]، وروى الترمذي وابن حبان والحاكم وغيرهم من حديث الزبير مرفوعاً أوجب طلحة ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في العهود ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي جزاء صدقهم أو بسبب صدقهم وهو الوفاء بالعهد ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ أن يموتوا على الكفر والنفاق فيعذبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا وأخلصوا دينهم لله قوله: ﴿ليجزي﴾ متعلق بقوله صدقوا ما عاهدوا الله تعليل للمنطوق والمعرض به كأنَّ المنافقين قصدوا بالتبديل التعذيب كما قصد المخلصون بالوفاء الثواب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي الأحزاب من قريش وغطفان ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي كائنين بغيظهم متغيظين لعدم نيلهم بما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي ظفراً ولا مالاً حال بعد حال يتداخل أو يعاقب ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ في ملكه على إحداث ما يريده ﴿عَزِيزًا﴾ في انتقامه ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنوا قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم جمع صيصة وهي ما يحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك والحائك صئصة ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي الخوف ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال فعند ابن إسحاق أنهم كانوا ست مائة وبه جزم أبو عمرو في ترجمة سعد بن معاذ وعند ابن عائذ من مرسل قتادة كانوا سبع مائة، وقال السهيلي المكثر يقول أنهم ما بين ثمان مائة إلى تسع مائة وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح إنهم كانوا أربع مائة مقاتل فيحتمل في طريق الجمع أن يقال أن الباقين كانوا إتباعاً وقد حكى ابن إسحاق أنه، قيل إنهم كانوا تسع مائة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذراري وكانوا سبع مائة وخمسين، وقيل تسع مائة وذكر في سبيل الرشاد أن السبي كان ألفاً من النساء والصبيان ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ حصونهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ من النقود والأجناس والمواشي ﴿وأرضاً لم تطؤها﴾ بعد.

قال مقاتل وابن زيد يعني خيبر، وقال قتادة كنا نحدث أنها مكة، وقال الحسن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ (٤٠٦٣).

فارس والروم، وقال عكرمة كل أرض يفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدر على ذلك.

قصة غزوة بني قريظة قال محمد بن عمر عن شيوخه لما انصرف المشركون عن الخندق خاف بنوا قريظة خوفاً شديداً وروى أحمد والشيخان مختصراً والبيهقي والحاكم وصححه مطولاً عن عائشة وأبو نعيم والبيهقي من وجه آخر عنها وابن عابد عن حميد بن هلال وابن جرير عن ابن أبي أوفى والبيهقي عن عروة وابن سعد عن الماجشون وعن يزيد بن الأصم ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ والمسلمين لمّا رجعوا عن الخندق مجهودين وضعوا السلاح ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة ودعا بماء فأخذ يغسل رأسه، وذكر البغوي أنه ﷺ كان عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه، وقد غسلت شقه، قالت عائشة فسلّم علينا رجل ونحن في البيت، قال محمد بن عمر وقف موضع الجنائز فنادى عذيرك من محارب فقام رسول الله ﷺ فزعاً فوثب وثبةً شديدةً فخرج إليه فقمت في أثره أنظر من خلل الباب فإذا هو دحية الكلبي فيما كنت أرى وهو ينفض الغبار عن رأسه (فقال ابن إسحاق معتجراً بعمامة) فقال يا رسول الله ما أسرع ما حللتم عذيرك من محارب عفا الله عنك قد وضعتم السلاح ما وضعت الملائكة منذ نزل بك العدوُّ وفي لفظ منذ أربعين ليلة وما رجعنا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد، يعني الأحزاب وقد هزمهم أن الله يأمرك بقتال بني قريظة وأنا عامد إليهم بمن معي من الملائكة لأزلزل بهم الحصون فأخرج بالناس، قال حميد بن هلال فقال رسول الله ﷺ إن في أصحابي جهداً فلو أنظرتهم أياماً فقال انتهض إليهم فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا ثم لأضغضغنّها، قالت عائشة فلمّا دخل رسول الله ﷺ قلت من ذاك الرجل الذي كنت تكلمه قال ورأيته قلتُ نعم قال بمن تشبهيه؟ قلتُ بدحية الكلبي قال ذاك جبرئيل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة، قال حميد فأدبر جبرئيل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار، قال أنس فيما رواه البخاري كأنّي أنظر إلى الغبار ساطعاً، وقال قتادة فيما رواه ابن عابد أن رسول الله ﷺ بعث يومئذٍ منادياً ينادي يا خيل الله إركبي وأمر بلالاً فأذّن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة، وروى الشيخان عن ابن عمر والبيهقي عن عائشة وابن عقبة والطبراني عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «عزمتُ عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر» ووقع في مسلم في حديث ابن عمر «صلاة الظهر إلا ببني قريظة» فأدرك بعضهم صلاة العصر وفي لفظ صلاة الظهر في الطريق فقال بعضهم لا نصليها حتى نأتي بني قريظة إنا لفي عزيمة رسول الله ﷺ وما علينا من أثم

فصلوا العصر ببني قريظة حين وصلوها بعد غروب الشمس، وقال بعضهم بل نصلّي لم يرد منا أن ندع الصلاة فصلوا فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فلم يعنف واحداً من الفريقين[1].

فائدة:

وجه الجمع بين حديث صلاة الظهر وصلاة العصر أن طائفة منهم راحت بعد طائفة قيل للطائفة الأولى لا يصلين الظهر إلا ببني قريظة وقيل للطائفة الأخرى لا يصلين العصر، وقيل في وجه الجمع أنه ﷺ قال لأهل القوة أولمن كان منزله قريباً لا يصلين أحد الظهر وقال لغيرهم أحد العصر.

مسألة:

هذا الحديث يدل على أن المجتهد لا إثم عليه إن اخطأ حيث لم يَعُنف رسول الله ﷺ على أحد من الفريقين من صلّى في الطريق ومن لم يصل، قال في زاد المعاد ما حاصله إن كُلاًّ من الفريقين مأجور بقصده إلا إن صلّى في الطريق جاز الفضيلتين فضيلة إمتثال الأمر في الإسراع في المشي إلى بني قريظة لأن المراد بأمره ﷺ أن لا يصلوا إلا في بني قريظة المبالغة في الإسراع مجازاً وفضيلة امتثال الأمر في المحافظة على الوقت والله أعلم.

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فدفع إليه لواءه وكان اللواء على حاله لم يحل عن مرجعه من الخندق فابتدره الناس، قال محمد بن عمرو بن سعد وابن هشام والبلاذري استعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، قال محمد بن عمرو خرج رسول الله ﷺ لسبع بقين من ذي القعدة، قال البغوي سنة خمس من الهجرة ولبس السلاح والدرع والمغفر والبيضة وأخذ قناه بيده وتقلد الترس وركب فرسه اللحيف وحق به أصحابه قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وكانت ستة وثلاثين فرساً فسار في أصحابه والخيل والرحال حوله قال ابن سعد وكان معه ثلاثة آلاف.

مسألة:

هذه القصة تدل على جواز البداية بالقتال في الشهر الحرام لكن خطبته ﷺ في حجة الوداع وفيها المنع من القتال في الأشهر الحرام متأخر عنه ولعل الله سبحانه أحل لرسوله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الخوف، باب: صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماء (٩٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والغزو، باب: المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين (١٧٧٠).

ذلك القتال في أشهر الحرم كما أباح له القتال في حرم مكة من النهار عام الفتح، ويمكن أن يقال أن هذا ليس بداية بالقتال بل كانت البداية من بني قريظة حيث ظاهروا قريشاً ومن معهم والله أعلم.

روى الطبراني عن أبي رافع وابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أتى بني قريظة ركب على حمار عري يقال له يعفور والناس حوله، وروى الحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن عائشة ومحمد بن عمرو عن شيوخه وابن إسحاق أن رسول الله ﷺ مرَّ بنفر من بني النجار بالصَّوْرَيْن فيهم حارثة بن النعمان قد صفوا عليهم السلاح فقال هل مرّ بكم أحد؟ قالوا نعم دحية الكلبي مرَّ على بغلة عليها رحاله عليها من استبرق وأمرنا بحمل السلاح فأخذنا سلاحنا فصففنا وقال هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن، قال حارثة بن النعمان وكنا صفين فقال رسول الله ﷺ ذاك جبرئيل بعث إلى بني قريظة لتزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم وسبق علي بن أبي طالب في نفر من المهاجرين والأنصار وفيهم أبو قتادة. روى محمد بن عمر عن أبي قتادة قال إنتهينا إلى بني قريظة فلمَّا رأينا أيقنوا بالشر وغرز عليٌّ الراية عند أصل الحصن فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه قال أبو قتادة وسكتنا وقلنا السيف بيننا وبينكم، وانتهى رسول الله ﷺ ونزل قريباً من حصنهم على بئر أُنا بأسفل حرَّة بنى قريظة فلمَّا رآه علي رضي الله عنه رجع إليه وأمرني أن ألزم اللواء فلزمته وكره أن يسمع رسول الله ﷺ إذاهم وشتمهم فقال يا رسول الله لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابيث فقال أتأمرني بالرجوع فقال أظنك سمعت منهم أذًى قال نعم فقال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فسار رسول الله ﷺ وتقدَّمه أسيد بن حضير فقال يا أعداء الله لا نبرح عن حصونكم حتى تموتوا جوعاً إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر، فقالوا يا ابن الحضير نحن مواليك دون الخزرج فقال لا عهد بيني وبينكم ولا إلَّ، ودنا رسول الله ﷺ وترسنا عنه ونادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم، فقال أجيبوا يا أخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت هل أخزاكم الله أنزل بكم نقمته أتشتموني فجعلوا يحلفون ما فعلنا ويقولون يا أبا القاسم ما كنتَ جهولاً وفي لفظ ما كنت فاحشاً، وإجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاءً وبعث سعد بن عبادة بأحمال تمر لرسول الله ﷺ فكان طعامهم قال رسول الله ﷺ: «نعم الطعام التمر» وغدا رسول الله ﷺ سحراً وقدَّم الرماة فأحاطوا بحصون يهود وراموهم بالنبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا فباتوا حول الحصون وجعل المسلمون يعتقبون يعقب بعضهم بعضاً فما برح رسول الله ﷺ براميهم حتى أيقنوا الهلكة وتركوا رمي المسلمين،

فقالوا دعونا نكلمكم فقال رسول الله ﷺ: نعم، فأنزلوا نباش بن قيس فكّلم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على مانزلت عليه بنوا النضير من الأموال والحلقة ونخرج من بلادك بالنساء والذراري ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة فأبى رسول الله ﷺ، فقالوا تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه، وعاد نباش إليهم بذلك فلمّا عاد نباش إلى قومه وأخبرهم الخبر قال كعب بن أسد يا معشر بني قريظة والله قد نزل بكم ما ترون وإني أعرض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا ما شئتم منها قالوا وما هي؟ قال نبايع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم والله إنكم لتعلمون أن محمداً نبي وما منعنا معه من الدخول إلا الحسد للعرب حيث لم يكن نبيّاً من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله تعالى، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد والعقد ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس يعني حيي بن أخطب (وكان حيي دخل معهم في حصنهم حين رجعت منهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه) أتذكرون ما قال لكم ابن جَوَّاس حين عليكم تركت الخمُر والحمير والتأمير وحنت إلى الشفاء والتمر والشعير قالوا وما ذاك؟ قال أنه يخرج بهذا القرية نبي فإن يخرج وأنا حي أتبعه وأنصره وإن خرج بعدي فإياكم أن تخدعوا عنه فاتبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه وقد آمنتم بالكتابين كلاهما الأول والآخر وأقرءوه مني السّلام وأخبروه أني مصدق به، قال فتعالوا فلنبايعه ولنصدقه فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال فإذا أبيتم على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مُصَلِتيُن بالسيوف لم نترك ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك ورائنا فصلاً نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء قالوا لا نقتل هؤلاء المساكين فما خير في العيش بعدهم، قال فإن أبيتم عن هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرةً قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان من قبلنا إلا من قد علمت فاصابه ما لم يخف عليك من المسخ، فقال ما بات منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر جازماً، فقال ثعلبة وأسيد ابنا سَعُيَة وأسد بن عبيد ابن عمهم وهو نفر من هذيل ليسوا من بني قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك وهو بنوا عم القوم يا معشر بنوا قريظة والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله وإن صفته عندنا حدثنا بها علماؤنا وعلماء بني النضير هذا أولهم يعني حيي بن أخطب مع خبر بن الهَيَّانِ أصدق الناس عندنا هو أخبر بصفته عند موته قالوا لا نفارق التوراة فلما رأى هؤلاء النفر آباءهم

نزلوا تلك الليلة في صبحها فأسلموا وآمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وقال عمرو بن سعد يا معشر يهود إنكم خالفتم محمداً على ما خلفتموه عليه فنقضتم عهده الذي كان بينكم وبينه ولم أدخل فيه ولم أشرككم في غدركم فإن أبيتم فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية فوالله ما أدري يقبلها أم لا، قالوا فنحن لا نقر للعرب بخرج في رقابنا يأخذونه القتل خير من ذلك قال فإني بريء منكم وخرج تلك الليلة مع ابني سعية فمرَّ بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة فقال محمد من هذا قال عمرو بن سعد، قال محمد اللَّهم لا تحرمني عشرة الكرام وخلّى سبيله فخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات حتى أصبح فلمّا أصبح غداً فلم يدر أين هو حتى الساعة فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

قال أهل المغازي: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبالبابة (أحد بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس) نستشير في أمورنا فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوا أقام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم، فقالوا يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي حتى عرفتُ أني خنتُ الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد على عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني حتى أموت أو يتوب الله على ما صنعتُ وعاهدتُ الله أن لا أطأ أرض بني قريظة أبداً أو لا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً وبلغ رسول الله ﷺ ذهابي وما صنعتُ، فقال دعوه حتى يحدث الله فيه ما شاء لو كان جاءني استغفرتُ فإذا لم يأتني وذهب فدعوه وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾[١] قال أبو لبابة ثم إن الله أنزل توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، قالت أم سلمة فسمعتُ رسول الله ﷺ يضحك فقلتُ بم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال تيب على أبي لبابة فقلتُ ألا أبشره بذلك؟ قال بلى إن شئتِ قالت فقمت إلى باب حجرتي (وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب) فقلت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس ليطلقوه قال لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده فلمّا مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى الصبح أطلقه، روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين عليهما السلام أن فاطمة عليها

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

السلام جاءت تحله فقال إني حلفتُ أن لا تحلني إلا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني» علي بن جدعان ضعيف ورواية علي بن الحسين مرسلة، قال أبو لبابة وأذكر رؤيا رأيتُها في النوم ونحن محاصرون بني قريظة كأني في حماة إسنة فلم أخرج منها حتى كدتُّ أموت من ريحها ثم أرى نهراً جارياً فأراني إغتسلتُ فيه حتى استقيتُ أراني أجد ريحاً طيباً فاستعبرتُها أبا بكر فقال لتدخلن في أمر تغتم له ثم يفرج عنك فكنتُ أذكر قول أبي بكر وأنا مرتبط فأرجوا أن ينزل الله توبتي، قال فلم أزل كذلك حتى ما أسمع الصوت من الجهد ورسول الله ﷺ ينظر، قال ابن هشام أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه إمرأته وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلّي ثم ترتبط، (قال ابن عقبة زعموا أنه ارتبط قريباً من عشرين ليلة قال في البداية وهذا أشبه الأقاويل وقال ابن إسحاق أقام مرتبطاً خمساً وعشرين ليلة وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجته فإذا فرغ أعادت الرباط والظاهر أن زوجته تحله مرة وابنته أخرى وأنزل الله في توبة أبي لبابة ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

قال البغوي: وحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فلما جهدهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ فكتفوا رباطاً وجعل على كتافهم محمد بن سلمة ونحوا ناحية وأخرج النساء والذرية من الحصون وأستعمل عليهم عبد الله بن سلام، وجمعت أمتعتهم ووجدوا فيها ألفاً وخمس مائة سيف وثلاث دروع وألفي رمح وألفاً وخمس مائة ترس وجحفةً وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة وخمراً وسكراً فهريق ذلك كله ولم يخمسه ووجد من الجمال النواضح عدة ومن الماشية شيئاً كثيراً فجمع هذا كله وتنحى رسول الله ﷺ وجلس، ودنت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله حلفاؤنا دون الخزرج وقد رأيتَ ما صنعت ببني قينقاع بالأمس حلفاء ابن أبيّ وهبتَ لهم ثلاث مائة حاسرو أربع مائة دارع وقد ندم حلفاءنا على ما كان من نقضهم العهد فهبهم لنا ورسول الله ﷺ ساكت لم يتكلم حتى أكثروا عليه وألحوُّ فقال رسول الله ﷺ أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم قالوا بلى قال فذلك إلى سعد بن معاذ وقال ابن عقبة قال رسول الله ﷺ اختاروا من شئتم من أصحابي فاختاروا سعد بن معاذ، وكان سعد بن معاذ، قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده ﷺ وكانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

كانت به ضيعة الذي ليس له من يقوم بأمره وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب، فلمّا جعل رسول الله ﷺ الحكم إلى سعد خرجت الأوس حتى جاءوه فحملوه على حمار عربي بشنذة من ليف وعلى الحمار قطيفة فوق الشَنَذَة وخطامه من ليف وكان رجلاً جسيماً فخرجوا حوله يقولون يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبيّ وما صنع في حلفائه وأكثروا وهو ساكت لا يتكلم حتّى إذا اكثروا عليه قال قد آن لسعد أن لا يأخذه في الله لومة لائم، فقال الضحاك بن خليفة بن ثعلبة الأنصاري واقوماه وقال غيره نحو ذلك ثم رجع الضحاك إلى الأوس فنعى بهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد كلمته التي سمع منه.

وفي الصحيحين فلما دنا سعد من المسجد أي الذي كان رسول الله ﷺ أعده في بني قريظة أيام حصارهم للصلاة قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» وفي لفظ «إلى خيركم» فأما المهاجرون من قريش فيقولون إنما أراد الأنصار وأما الأنصار فيقولون عم بها رسول الله ﷺ المسلمين وعند أحمد «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» وكان رجال من بني عبد الأشهل يقولون قمنا له على أرجلنا صفين وفي حديث جابر عند ابن عائذ قال رسول الله ﷺ: «أُحْكُمْ فيهم يا سعد» فقال الله ورسوله أحق بالحكم، قال عليه السلام أمَرَكَ الله أن تحكم فيهم، وقالت الأوس الذين بقوا عنده يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك الحكم في أمر مواليك فأحسن فيهم فقال سعد أترضون حكمي لبني قريظة، قالوا نعم قد رضينا بحكمك وأنت غائب إختياراً منا لك ورجاءَ أن تمنَّ علينا كما فعل غيرك بحلفائه بني قينقاع وآثرنا عندك أثرنا وأحوج ما كان اليوم إلى مجازاتك فقال سعد ما أتوكم جهداً فقالوا ما يعني بقوله هذا، ثم قال سعد عليكم عهد الله وميثاقه أن أحكم فيهم ما حكمتُ قالوا نعم قال سعد وعلى من هاهنا للناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ نعم، قال سعد فإني أحكم فيهم أن يقتل كل من جرين عليه الموسى وتسبى النساء والذرية وتقسم أموالهم ويكون الديار للمهاجرين والأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[1] وفي رواية قال عليه السلام: «بذلك طرقني الملك سَحَراً» وكان سعد بن معاذ

(١) في الصحيحين «لقد حكمت فيهم بحكم الملك».
أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل (٣٠٤٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٨).

في الليلة التي في صبحتها نزلت بنوا قريظة على حكم رسول الله ﷺ قد دعا اللَّهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش فأبقني لها فإني لا قوم أحبّ إليَّ أن أقاتلهم من قوم كذبوا رسولك وأذوه وأخرجوه وإن كانت الحرب قد وضعت أوزاها عنّا وعنهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة فأقر الله سبحانه عينيه منهم.

فانصرف رسول الله ﷺ يوم الخميس لتسع ليال وقيل لخمس خلون من ذي الحجة وأمر بهم رسول الله ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث من بني النجار، فلمَّا أصبح رسول الله ﷺ غدا إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم فأمر بأخدود فخذت في السوق ما بين موضع دار أبي الجهم العدوى إلى أحجار الزيت بالسوق فكان أصحابه يحضرون وجلس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه يحضرون وجلس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه ودعا برجال بني قريظة فكانوا يخرجون يضرب أعناقهم في تلك الخنادق، فقالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً يا كعب ما ترى محمداً يصنع بنا؟ قال ما يسوءكم ويلكم على كل حال لا تعقلون ألا ترون الداعي لا ينزع وإنه من ذهب منكم لا يرجع هو والله السيف قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم قالوا ليس هذا بحين عتاب لولا أنا كرهنا أن نرمي برأيك ما دخلنا في نقض العهد الذي كان بيننا وبين محمد، قال حيي بن أخطب اتركوا التلاوم فإنه لا يرد عنكم شيئاً وأصبوا للسيف وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي عنهما ثم أتى حيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه عليه حلة فقاحية قد لبسها للقتل، ثم عمد إليها فشقها أنملة أنملة لئلا يسلبه إياها أحد فقال رسول الله ﷺ حين اطلع ألم يمكنني الله منك يا عدو الله؟ قال بلى والله أنا ما لمتُ نفسي في عداوتك وقد التمستُ العز في مظانه فأبى الله إلا أن يمكنك مني ولقد قلقلتُ كل مقلقل ولكنه من يخذل الله يُخذَل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره ملجمة على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ أحسنوا أساراهم وأقيلوهم واسقوهم حتى يبردوا فاقتلوا من بقي لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السيف وكان يوماً صائفاً فقيلوهم وسقوهم فلمَّا أبردوا راح رسول الله ﷺ فقتل من بقي وأتى رسول الله ﷺ بكعب بن أسد فقال رسول الله ﷺ ما تنفعتم بنصح ابن جَوَّاس لكم وكان مصدقاً بي أما أمركم باتباعي وإن رأيتموني أن تقرءوني.منه السلام قال بلى والتوراة يا أبا القاسم ولولا أن يعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتّبعتك ولكنه على دين يهود قال رسول الله ﷺ قدمه فاضرب عنقه وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم.

روى أحمد وأصحاب السنن، عن عطية القرظي قال كنتُ غلاماً فوجدوني لم أنبت فخلّوا سبيلي، وروى الطبراني عن أسلم الأنصاري قال جعلني رسول الله ﷺ على أسارى بني قريظة فكنتُ أنظر إلى فرج الغلام فإن رأيته أنبت ضربتُ عنقه وإن لم أره جعلته في مغانم المسلمين وكان رفاعة بن شمول القرظي رجلاً قد بلغ فلاذ بسلمى بنت قيس أم المنذر أخت سليط بن قيس وكانت إحدى خالات النبي ﷺ يعني خالة جده عبد المطلب فإن أمه كانت من بني النجار وكانت سلمى قد صلّت للقبلتين، فقالت يا نبي الله بأبي أنت وأمي هب لي رفاعة فإنه زعم سيصلّي ويأكل لحم الجمل فوهبه لها فاستحيته فأسلم بعد، ولم تزل ذلك الدأب حتى قتلوا إلى أن غاب الشفق ثم رد عليهم التراب في الخندق كل ذلك بعين سعد بن معاذ فاستجاب الله دعوته رضي الله عنه، ولم يقتل من نسائهم إلا إمرأة واحدة من بني النضير يقال لها بنانة كانت تحت رجل من بني قريظة يقال له الحكم وكان يحبها وتحبه فلما أشتد عليهم الحصار بكت إليه وقالت إنك لمفارق فقال هو والتوراة ما ترين وأنت امرأة فدلّي عليهم هذه الرحى فإنا لم نقتل منهم أحداً بعد وأنتِ امرأة وإن يظهر محمد علينا فإنه لا يقتل النساء وإنما أكره أن تُسَبى فأحِبُّ أن تقتل، وكانت في حصن الزبير بن باطا فَدَلَّت الرحى من فوق الحصن وكان المسلمون ربما جلسوا تحت الحصن يستظلون في فيئه فلمّا رآها القوم انفضوا وتدرك خلاد بن سويد فتشدخ رأسه ومات، روى عروة عن عائشة أنها قالت والله إنها لعندي تحدث وتضحك ظهراً لبطن ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف وفي رواية وهي تقول سراة بني قريظة يقتلون إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت أنا والله قلتُ ويلك مالكِ قالت اقْتَلُ، قلتُ لِمَ؟ قالت حدث أحدثتُه، قالت فانطلقت فضرب عنقها بخلاد بن سويد وكانت عائشة تقول لا أنسى طيب نفس بنانة كثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل.

مسألة:

هذا الحديث حجة لمن حكم بالقصاص على القتل بالمثقل وعليه الجمهور، وقال أبو حنيفة لاقصاص بالمثقل ولو رماه بأبي قبيس لقوله ﷺ «لا قود في النفس وغيره إلا بحديدة» وقد مرَّ الخلاف في هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾[١].

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري أن الزبير بن باطا القرظي وكان يكنى أبا عبد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

الرحمن قدم على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعاث لأخذه فجر ناصيته ثم خلّى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال ثابت يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال وهل يجهل مثلي لمثلك قال إني أريد أن أجزيك بيدك عندي، قال إن الكريم يجزي، قال ثم أتى ثابتٌ رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله قد كان للزبير عندي يد وله عليّ منة فأحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله ﷺ هو لك، فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أهله وولده قال فهم لك، فأتاه فقال له إن رسول الله ﷺ أعطاني امرأتك وولدك فهم لك، قال أهل بيت في الحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله ﷺ، فقال: ما له يا رسول الله قال: هو لك، فقال إن رسول الله ﷺ أعطاني مالك فهو لك، فقال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية حسنة يتراءى فيه عذار الحي كعب بن أسد، قال قتل، قال فما فعل سيد الحاضر والبادي سيد الحيَّيْن كليهما يحملهم في الحرب ويطعمهم في المحل حيي بن أخطب؟ قال قتل، قال فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاشيتنا إذا كررنا عزّالة بن شمول؟ قال قتل، قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة؟ وبني عمرو ابن قريظة قال ذهبوا فقتلوا، قال فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلا ما ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير ارجع إلى دار قد كانوا حلولاً فيها فاخلد فيها بعدهم لا حاجة لي في ذلك ولكني يا ثابت أنظر إلى امرأتي وولدي فاطلب إلى صاحبك فيهم أن يطلقوا وأن يردوا أموالهم فطلب ثابت من النبيّ ﷺ أهل الزبير وماله وولده فرد رسول الله ﷺ أهله وماله إلا السلاح، قال الزبير يا ثابت أسألك بيدك عندي إلا ألحقتني بالقوم فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة، قال ابن إسحاق فقدمه ثابت فضرب عنقه وقال محمد بن عمر قال ثابت ما كنت لأقتلك قال الزبير لا أبالي من قتلني فقتله الزبير بن العوام رضي الله عنه، ولمّا بلغ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قوله «ألقى الأحبة» قال يلقاهم في نار جهنم خالداً مخلدا.

ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأموالهم على المسلمين وكان أول فيء وقع فيه السهمان وكان المسلمون ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثين وكان سهمان الخيل والرجال على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً للفرس سهمان ولصاحبه سهم، وقاد رسول الله ﷺ ثلاثة أفرس فلم يضرب السهم إلا لفرس واحد، وهذا حجة لأبي حنيفة ومالك والشافعي حيث قالوا لاسهم إلا لفرس واحد وقال أبو يوسف ومحمد وأحمد يسهم لفرسين ولا

يسهم لأكثر من ذلك إجماعاً وقد مرَّ المسألة في سورة الأنفال، وأسهم رسول الله ﷺ لخلاد بن سويد وقد قتل تحت الحصن وأسهم لسنان بن محصن ومات ورسول الله ﷺ محاصرهم وكان يقاتل مع المسلمين، وهذا حجة للأئمة الثلاثة حيث قالوا الغنيمة لمن شهد الوقعة وإن مات قبل هزيمة الكفار وإحراز الغنيمة بدار الإسلام وقد روى ابن أبي شيبة بسند صحيح الغنيمة لمن شهد الوقعة موقوفاً على عمر وأخرجه الطبراني مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أصح وروى الشافعي موقوفاً على أبي بكر وفيه إنقطاع وقال أبو حنيفة لا يتأكد الحق في الغنيمة إلا بالإحراز بدار الإسلام فمن مات أو قتل قبل الإحراز لا سهم له ولا يورث منه، والمدد إذا لحق بدار الحرب بعد الوقعة قبل الإحراز بدار الإسلام يسهم لهم وقد مر مسألة المدد في سورة الأنفال.

مسألة:

وفي هذه القصة حجة للجمهور على أبي حنيفة حيث قالوا للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه، وقال أبو حنيفة سهم له وسهم لفرسه وقد مرَّ المسألة في سورة الأنفال والله أعلم.

فائدة:

أخذ رسول الله ﷺ من السبي خمساً فكان يعتق ويهب منه من أراد وكذلك النخل عزل خمسه وكل ذلك يسهم عليه خمسة أجزاء وصار الخمس إلى محمية بن جز الزبيدي، ثم قسم أربعة أخماس على الناس وأعطى رسول الله ﷺ النساء اللتي حضرن القتال ولم يسهم لهن وهن صفية بنت عبد المطلب وأم عمارة نسية وأم سليط وأم العلاء الأنصارية والسميري بنت قيس وأم سعد بن معاذ وكبشة بنت رافع، وبعث رسول الله ﷺ طائفة مع السبايا مع سعد بن عبادة يشتري بهم سلاحاً وخيلاً كذا قال محمد بن عمر. وقال ابن إسحاق بعث سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي بسبايا من بني قريظة فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً، واشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف طائفة فاقتسما يقال لما قسم جعل الشوابّ على حدة والعجائز على حدة ثم خير عبد الرحمن عثمان فأخذ العجائز فربح عثمان مالاً كثيراً وذلك لأنه كان يوجد عند العجائز من المال ولم يوجد عند الشواب، قال ابن سيرة وإنما يؤخذ ما جاءت به العجائز فيكون في الغنيمة لأنه لم يوجد معهن إلا بعد شهر أو شهرين، وجعل عثمان على كل من اشتراه من سبيهم شيئاً موقتاً فمن جاء منهن بالذي وقت لهن عتق فلم يتعرض لهن، ونهى رسول الله ﷺ أن يفرق في

القسم والبيع بين النساء والذرية وقال لا يفرق بين الأم وولدها حتى يبلغ قيل يا رسول الله ما بلوغه قال: «تحيض الجارية، ويحتلم الغلام» رواه الحاكم وصححه، عن عبادة بن الصامت عنه ﷺ قال «لا تفرقوا بين الأم وولدها، فقيل إلى متى؟ قال إلى أن يبلغ الغلام وتحيض الجارية» وقال ابن الجوزي قال الدارقطني في سنده عبد الله بن عمر بن حسان ضعيف الحديث رواه علي بن المديني بالكذب، وروى الترمذي عن أبي أيوب الأنصاري قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[١] وقال الترمذي حديث حسن غريب وصححه الحاكم على شرط مسلم، وفيه نظر لأن في سنده حيي بن عبد الله ولم يخرجه في الصحيح وأختلف فيه ولذا لم يصححه الترمذي، وروى الحاكم في المستدرك عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ «ملعون من فرق بين والدة وولدها» وقال إسناده صحيح وفيه طليق بن محمد يرويه تارة عنه عن عمران بن حصين وتارة عنه عن أبي بردة وتارة عن طليق عن النبيّ ﷺ مرسلاً، قلتُ: ويمكن الجمع بأن طليقاً لعله سمعه عمران وعن أبي بردة كليهما فيرويه تارةً عنه وتارةً عنه وتارةً مرسلاً، وقال ابن القطان لا يصح الحديث لأن طليقاً لا يعرف حاله، قال ابن همام يريد خصوص ذلك وإلا فللحديث طرق كثيرة وشهرة وألفاظه توجب صحة المعنى المشترك وهو منع التفريق، وروى الدارقطني بسنده عن ميمون بن أبي شعيب عن علي عليه السلام أنه فرق بين جارية وولدها فنهاه النبيّ ﷺ عن ذلك فرد البيع، ورواه أبو داود ورده بالإنقطاع بين ميمون ابن أبي شعيب وعلي، قال ابن الهمام إن الإرسال عندنا لا يضر ورواه الحاكم وصحح إسناده ورجحه البيهقي.

مسألة:

ومن ههنا قال أبو حنيفة لا يجوز أن يفرق بالبيع أو الهبة أو نحوهما بين مملوكين صغيرين وكذا بين صغير وكبير يكون بينهما رحم ومحرمية وكذا بين كبيرين كذلك عند أحمد، وقال مالك لا يفرق بين الأم وولدها خاصة، وقال الشافعي لا يفرق بين صغير وبين أبويه وإن عليا، وجه قول مالك أن الحديث المذكور ورد في المنع من التفريق بين الأمر وولدها خاصةً وألحق الشافعي بالأم الأصول مطلقاً، وجه قول أبي حنيفة وأحمد في المنع من التفريق بين اثنين بينهما رحم ومحرمية أن في بعض الأحاديث ورد المنع في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية الفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدهافي البيع (١٢٨٠).

غير الأصول والفروع أيضاً عن علي عليه السَّلام قال وهب لي رسول الله ﷺ غلامين أخوين فبعتُ أحدهما فقال رسول الله ﷺ يا علي ما فعل غلامك فأخبرته، قال: «رده رده»[1] قال الترمذي حديث حسن غريب وتعقبه أبو داود، فإنه من رواية ميمون بن أبي شعيب عن علي وهو لم يدرك علياً قلنا فهو مرسل والمرسل عندنا حجة، وأخرجه الحاكم والدارقطني من طريق آخر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي قال قدم على النبيّ ﷺ سبيٌ فأمرني ببيع أخوين فبعتهما وفرقتُ بينهما ثم أتيتُ النبيّ ﷺ فأخبرته فقال: «أدركهما فارتجعهما ولا تبعهما إلا جميعاً ولا تفرق بينهما» وصححه الحاكم على شرط الشيخين ونفى ابن القطان العيب عنه، وقال هو أولى ما اعتمد عليه في هذا الباب ومن طريق آخر عند أحمد والبزار قال ابن همام فيه انقطاع لكن لا يضر على أصلنا على ما عرف، وروى الدارقطني عن طليق بن عمران عن أبي بردة عن أبي موسى قال لعن رسول الله ﷺ من فرق بين الوالدة وولدها وبين الأخ وأخيه، وإذا ثبت المنع من التفريق بين أخوين أيضاً ظهر أن علة المنع الرحم مع المحرمية ولا يمنع من التفريق المحرمية بالرضاع ونحو ذلك ولا رحم بلا محرمية كابن العم لأنه ليس في معناه.

مسألة:

من فرق بين والدة وولدها يأثم لكن ينعقد البيع وينفذ عند أبي حنيفة ومحمد وعند مالك والشافعي وأحمد لا ينعقد بل هو باطل وكذا لا ينعقد البيع في غير قرابة الولاد أيضاً عند أحمد، وقال أبو يوسف يفسد البيع في قرابة الولاد خاصة وعنه أنه يفسد مطلقاً سواء كان قرابة ولاد أو غيرها ومبنى الخلاف على خلافية أصولية فإن النهي عن الشرعيات بلا قرينة يوجب البطلان عندهم ويوجب الفساد عند أبي حنيفة وصاحبيه، لكن أبا حنيفة ومحمداً قالا إن النهي في هذا البيع إنما هو لمعنًى مجاور كالبيع وقت أذان الجمعة فلا يوجب الفساد بخلاف ما كان لوصف لازم، وجه قول أبي يوسف أنه ﷺ أمر علياً برد البيع والإرتجاع وإذا لا يمكن إلا عند فساد العقد وحمل أبو حنيفة الإرتجاع على طلب الإقالة.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية الفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدها في البيع (١٢٨١).

مسألة:

يجوز التفريق إن كانا بالغين كما يدل عليه حديث عبادة بن الصامت، وقال أحمد لا يجوز عملاً بإطلاق الأخبار المذكورة، وردَّ ابن الجوزي حديث عبادة كما ذكرنا، ولنا أيضاً حديث سلمة بن الأكوع قال خرجنا مع أبي بكر فغزونا فزارة إلى إن قال فجئتُ بهم إلى أبي بكر وفيهم امرأة معها ابنة لها من أحسن العرب فنفلني أبو بكر ابنتها فقدمتُ المدينة فقال النبيّ ﷺ: «يا سلمة هب لي المرأة» قلتُ هي لك، ففدى بها أسارى ثلاثة[1]، وما روي أنه ﷺ فرق بين مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ وسيرين أختها أهداهما المقوقس ملك الإسكندرية إلى رسول الله ﷺ فوهب رسول الله ﷺ سيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان، ذكر الحديث ابن عبد البر في الاستيعاب وذكر البزار أن هذا الحديث في صحيح ابن خزيمة والله أعلم.

مسألة:

إذا كان مع الصغير أبواه لا يبيع واحداً منهم ولو كان أم وأخ أو أم وعمة أو خالة أو أخ جاز البيع سوى الأمر في ظاهر الرواية لأن شفقة الأم تغني عمن سواه، ولو كان له ستة إخوة ثلاثة كبار وثلاثة صغار فباع مع كل صغير كبيراً جاز، ولو كان مع الصغير جدة وعمة وخالة جاز بيع التمة والخالة ولو كان معه عمة وخالة بدون جدة لا يباع إلا معاً، والأصل أنه إذا كان معه عدد بعضهم أبعد من بعض جاز البيع سوى الأقرب وإن كانوا في درجة واحدة فإن كانوا من جنسين مختلفين كالأب والأم والخالة والعمة لا يفرق بل يباع الكل أو يمسك الكل وإن كانوا من جنس واحد كالأخوين والعمين جاز أن يمسك مع الصغير واحداً عنهم ويبيع ما سواه والله أعلم.

سألة:

ذكر في سبيل الرشاد أنه كان يباع الأمر وولدها الصغار من سبي بني قريظة من اليهود ومن المشركين من العرب وإذا كان الولد صغيراً ليس معه أو لم يبع من المشركين ولا من اليهود إلا من المسلمين وذا لأن الصغير إذا سبى مع أحد أبويه يعتبر كافراً فيجوز بيعه من الكافر مشركاً كان أو يهودياً فإن الكفر ملة واحدة، وإن سبى (لامع أحد أبويه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: التشغيل وفداء المسلمين بالأسارى (١٧٥٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: الرخصة في المدركين يفرق بينهم (٢٦٩٥).

يعتبر مسلماً بتبعية الدار والله أعلم واستشهد يوم بني قريظة خلاد بن سويد ومنذر بن محمد.

فائدة:

إصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ريحانة بنت زيد بن عمرو بن حذافة من بني النضير المتزوجة في بني عمرو بن قريظة وكانت جميلة فعرض عليها الإسلام فأبت فعزلها ووجد في نفسه فأرسل إلى ابن سعية، فذكر له ذلك فقال ابن سعية فداك أبي وأمي هي تسلم فخرج حتى جاءها فجعل يقول لها لا تبتغي قومِك فقد رأيتِ ما أدخل عليهم حيي بن أخطب فأسلمي يصطفيك رسول الله ﷺ فأجابت إلى ذلك، فبينا رسول الله ﷺ في أصحابه إذ سمع وقع نعلين فقال إن هاتين لنعلا ابن سعية يبشرني بإسلام ريحانة فجاءه فقال يا رسول الله ﷺ لقد أسلمتْ ريحانة، فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك وكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله ﷺ يحرص عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركني في مِلكك فهو أخف عليَّ وعليك فتركها والله أعلم.

فائدة:

ولمَّا انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ، قالت عائشة فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فوالذي نفس محمد بيده إني الأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمرو إني لفي حجرتي وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[١].

مناقب سعد بن معاذ

عن أنس قال لمَّا حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون ما أخف جنازته وذلك لحكمه في بني قريظة فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: «إن الملائكة كانت تحمله»[٢] رواه الترمذي، وعن جابر قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[٣] متفق عليه، وعن البراء ابن عازب قال أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ماقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (٣٨٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (٣٨٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٦).

أصحابه يمسونها ويتعجبون من لينها فقال: «أتعجبون من لين هذا لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»(١) متفق عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

ذكر البغوي وغيره أن أزواج النبيّ ﷺ سألنه من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهم على بعض فهجرهن رسول الله ﷺ وآلى أن لا يقربهن شهراً ولم يخرج إلى أصحابه، فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلّق رسول الله ﷺ نساءه، فقال عمر لأعلمكم ما شأنه فدخلت على رسول الله ﷺ فقلتُ يا رسول الله أطلّقتَ نساءك؟ قال لا، قلتُ يا رسول الله إني دخلتُ المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله ﷺ فأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال نعم إن شئتَ، فقمتُ على باب المسجد فناديتُ بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه﴾(٢) فكنتُ أنا استنبطتُ ذلك الأمر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي السعة والتنعم فيها وزخارفها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أصل تعال أن يقوله من كان في مكان مرتفع لمن كان في مكان دونه ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة كلها بمعنى أقبِل إليّ والمعنى هاهنا أقبلن بإرادتكن واختياركن لطلب الطلاق ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي أعطكن المتعة ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي أطلقن ﴿سراحاً﴾ طلاقاً ﴿جَمِيلًا﴾ من غير ضرار ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ﴾ أي مراتب القرب إلى الله ومرضاته قرب ﴿ورسوله﴾ نعماء ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ يعني لمن أرادت رضوان الله ورسوله والدار الآخرة فإنها هي المحسنة إذ الإحسان أن تعبد ربك بالحضور كأنك تراه ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال البغوي وكانت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٨).
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمرو أم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أمية وسودة بنت زمعة، وأربع من غير قريش زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وجويرية بنت الحارث المصطلقية، ولمَّا نزلت آية التخيير بدأ رسول الله ﷺ بعائشة وكانت أحبهن إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ورأت الفرح في وجه رسول الله ﷺ وتابعنها على ذلك، قال قتادة: فلمَّا اخترن الله ورسوله شكرهن على ذلك وقصره عليهن فقال: (لا يحل لك النساء من بعد).

أخرج مسلم وأحمد والنسائي من طريق أبي الزبير عن جابر قال أقبل أبو بكر ليستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال فقال عمر لأقولن شيئاً أضحك النبيّ ﷺ، فقال لو رأيتَ بنت خارجة سألني النفقة فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال هن حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقولان لا تسألنَّ رسول الله ﷺ أبداً ما ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً وتسعاً وعشرين ثم نزلت هذه الآية، قال فبدأ بعائشة قال يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، فقال وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآيات، فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أبويَّ بل أختارُ الله ورسوله والدار الآخرة أسألك أن لا تخبر امرأةً من نسائك، قال لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتُها أن الله لم يبعثني جحوداً ولا مفتناً ولكنه بعثني مبشراً معلماً[1]. وفي الصحيح عن الزهري أن النبيّ ﷺ أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً قال الزهري فأخبرني عُروة عن عائشة قالت، فبدأني فقلت يا رسول الله إنك أقسمت أن لاتدخل علينا شهراً فإنك بتسع وعشرين أعدهن قال: «إن الشهر تسع وعشرون».

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية (١٤٧٨).

فائدة:

قال البغوي اختلف العلماء في هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق حتى يقع الطلاق بنفس اختيارها نفسها أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم أنه لم يكن تفويض الطلاق بل خيرهن في طلب الطلاق فإن اخترن الدنيا فارقهن بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق لو اخترن أنفسهن كان طلاقاً.

مسألة:

إذا قال الزوج لامرأته اختاري ونوى بذلك أن تطلق نفسها إن شاءت فلها أن تطلق نفسها ما دامت في المجلس فإن قامت منه أو أخذت في عمل آخر خرج الأمر من يدها لأنه تمليك الفعل منهيّاً والتمليكات يقتضي جواباً في المجلس كما في البيع، قال صاحب الهداية لها خيار المجلس بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وقال ابن همام قال ابن المنذر اختلفوا في الرجل يخير زوجته؟ فقالت طائفة أمرها بيدها في المجلس فإن قامت من مجلسها فلا خيار لها روينا هذا القول عن عمر بن الخطاب وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم وفي أسانيدها مقال وبه قال جابر بن عبد الله وبه قال عطاء ومجاهد والشعبي والنخعي ومالك وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرازي، وقالت طائفة أمرها بيدها في المجلس وبعدها وهو قول الزهري وقتادة وأبي عبيدة وابن نصر قال ابن المنذر وبه نقول لقوله ﷺ لعائشة «لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» وحكى صاحب المغني هذا القول من الصحابة عن علي رضي الله عنه وأجاب ابن الهمام عن قول ابن المنذر أن الرواية عن علي لم يستقر فقد روى عنه قول الجماعة كذا نص محمد في بلاغاته حيث قال بلغنا عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وجابر رضي الله عنهم في الرجل يخير امرأته أن لها الخيار ما دامت في مجلسها ذلك فإذا قامت من مجلسها فلا خيار لها ولم يرو عن غيره من الصحابة ما يخالف ذلك فكان إجماعاً سكوتياً، وقوله في أسانيدها مقال لا يضر بعد تلقي الأمة بالقبول مع أن رواية عبد الرزاق عن جابر وابن مسعود جيدة، وأما التمسك بقوله ﷺ «لا تعجلي» فضعيف لأنه ليس في الآية تخيير الطلاق وتفويضه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

مسألة

لا بد من النية في قوله اختاري لأنه يحتمل تخيرها في نفسها ويحتمل تخيرها في تصرف آخر غيره.

مسألة

إذا قال الزوج اختاري فقالت اخترتُ نفسي فالمروي عن عمر وابن مسعود وابن عباس أنها تقع واحدة رجعية وبه أخذ الشافعي وأحمد لأن قوله اختاري بمنزلة قوله طلقي نفسك، وقولها اخترتُ نفسي بمنزلة قوله طلقتُ نفسي والواقع بها رجعي إجماعاً ويأتي الكتاب دل على أن الطلاق يعقب الرجعة إلا الثالث، وروي عن زيد بن ثابت أنه يقع الطلقات الثلاث وبه أخذ مالك في المدخول بها وفي غيرها يقبل منه دعوى الواحدة. وجه قول زيد أن اختيارها يقتضي ثبوت اختصاصها بها بحيث لا يكون لزوجها إليها سبيل من غير رضاءها وإلا لا يحصل فائدة التخيير إذا كان له أن يراجعها في الحال شاءت أو أبت وذلك الاختصاص لا يتصور إلا في البائن والطلاق يعقب الرجعة بالكتاب إلا أن يكون ثلاثاً فيقع الثلاث، وثبت عن علي رضي الله عنه أن الواقع به واحدة بائنة وبه قال أبو حنيفة رحمه الله لما ذكرنا أن اختصاصها بنفسها لا يتصور إلا بالبنيونة والبينونة قد يكون بواحدة إجماعاً كالطلاق بمال والطلاق قبل الدخول فيحمل عليه لحصول المقصود ولا وجه لجعله ثلاثاً بعد حصول المقصود بواحدة، وقد روى الترمذي عن ابن مسعود وعمر أن الواقع بها بائنة كما روى عنهما الرجعية فاختلف الرواية عنهما، قلتُ البينونة يتنوع إلى غليظة وخفيفة فإن نوى بها الزوج الغليظة لا بد أن يقع به ثلاثاً، لكن أبا حنيفة رحمه الله يقول إن قوله اختاري لا يدل على البينونة بل يفيد الخلوص والصفاء والبينونة يثبت فيه إقتضاءً فلا يعم بل يقدر بقدر الضرورة بخلاف أنتِ بائن ونحوه فلا يقع الثلاث بقوله اختاري وإن نوى الثلاث لأن النية إنما تعمل فيما يحتمله اللفظ ويقع بقوله أنتِ بائن ثلاثاً إن نوى الثلاث وبخلاف قوله اختاري اختاري اختاري لأن تعدد اللفظ يدل على تعدد المقصود.

مسألة

لو قالت اخترتُ زوجي بعدما قال لها إختاري لا يقع شيء عند الجمهور لأن الزوج لم يطلقها بل جعل أمرها باختيارها وهي لم تختر الطلاق بل بل اختارت إبقاء النكاح، وعن علي رضي الله عنه أنه يقع رجعية كأنه جعل نفس اللفظ إيقاعاً، قال ابن همام لكن

قول عائشة «خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعُدَّه علينا شيئاً»[1] رواه الستة، وفي لفظ الصحيحين «فلم يعدد» يفيد عدم وقوع شيء كما قاله الجمهور، قلتُ لما ذكرنا فيما سبق أن تخيير أزواج النبيّ ﷺ لم يكن تخييراً للطلاق بل كان تخييراً في طلب الطلاق فلا يكون قول عائشة حجت على ما قاله الجمهور والله أعلم.

مسألة:

ولا بد من ذكر النفس في كلامه أو كلامها حتى لو قال إختاري فقالت اخترتُ لا يقع الطلاق لأن هذا اللفظ للطلاق فكان القياس أن لا يقع بها شيء لأن التمليك فرع ملك المملك والزوج لا يملك إيقاع الطلاق بهذا اللفظ لكنا تركنا القياس وقلنا بوقوع الطلاق باختيارها بإجماع الصحابة والإجماع إنما هو في المفسّر من أحد الجانبين بالنفس، ولأن قوله اختاري مبهم يحتمل تخيرها في نفسها وتخيرها في تصرف آخر غيره، والمبهم لا يصلح تفسيراً للمبهم ولا تعيين مع الإبهام، ولمَّا كان وقوع الطلاق بقوله اختاري معدولاً عن سنن القياس مقتصراً على مورد الإجماع لا يكتفي بالنية وإن كان مع القرينة الحالية دون المقالية لعدم الإجماع هُناك، وقال الشافعي وأحمد يكتفى بالنية مع القرينة الحالية بعد أن نوى الزوج وقوع الطلاق به وتصادقاً عليه وقال أبو حنيفة النية بدون إحتمال اللفظ يلغو وإلا لوقع بمجرد النية مع لفظ لا يصلح له أصلاً كاسقني وإنما تركنا القياس بموضع الإجماع، قلتُ لكن قوله النية بدون احتمال اللفظ يلغوا ليس في محله فإن لفظ اختاري واخترتُ بدون ذكر النفس يحتمل تخيرها الطلاق واختارها إياه وغير ذلك وإن لم تكن نصّاً فيه ولذلك لو قال اختاري فقالت اخترتُ نفسي يقع الطلاق إن نوى الزوج لأن كلامها مفسرة ومانواه الزوج من محتملات كلامه، وكذا لو قال اختاري اختياره فقالت قد اخترتُ طلقت أيضاً لأن الهاء في اختياره ينبىء عن الإتحاد والإنفراد واختيارها نفسها يتحد مرة ويتعدد أخرى فصار مفسراً من جانبه.

مسألة:

ولو قال الزوج اختاري فقالت أنا أختار نفسي فهي طالق والقياس أن لا يطلق لأن هذا مجرد وعد أو يحتمله فصار كما إذا قال طلقي نفسك فقالت أنا أطلق نفسي، قال

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الخيار (٢٢٠٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: ما افترض الله على رسوله عليه السلام، وحرمه على خلقه ليزيده إن شاء الله قربة إليه (٣١٩٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب: الرجل يخير امرأته (٢٠٥٢).

صاحب الهداية وجه الإستحسان قول عائشة لا بل أختار الله ورسوله واعتباره ﷺ جواباً منها، لا يقال ذكر فيما سبق أن قصة عائشة لم يكن تخيراً في التطليق بل في طلب الطلاق لأنا نقول مقصودنا يحصل باعتباره ﷺ جواباً للإختيار سواء كان الاختيار متعلقاً بالتطليق أو طلب التطليق، ولأن قولها أنا أختار نفسي حكاية عن حالة قائمة وهو اختيار نفسها بخلاف قولها أطلق نفسي لأن حمله على الحال متعذر لأنه ليس حكاية عن حالة قائمة والله أعلم ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قال ابن عباس أراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر نضعف بالنون على التكلم وكسر العين وتشديدها بغير ألف من التفعيل والعَذَابَ بالنصب على المفعولية، والباقون بالياء التحتانية على الغيبة وفتح العين على صيغة المجهول وَالعَذَابُ بالرفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله فيقرأ أبو جعفر وأبو عمرو بتشديد العين بلا ألف من التفعيل والباقون بالتخفيف والألف من الأفعال ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي ضعفي عذاب غيرهن والضعف من الألفاظ المتضايفة التي يتوقف فهمه على شيء آخر كالنصف والزوج وهو تركب قدرين متساويين ومعنى أضْعَفْتُ الشيء وضَعَّفْتُه واحد وهو ضممتُ إليه مثله وكذا ضاعفتُه، والضعفين المثلين الذين يضم أحدهما إلى صاحبه كالزوجين فإن أحدهما يضاعف الآخر ويزاوجه، وقد يطلق الضعف على مجموع المثلين كما في قوله تعالى حكاية عن الاتباع من الكفار (فآتهم عذاباً ضعفاً)[1] من النار أي مثلي ما نحن فيه من العذاب لأنهم ضلوا وأضلونا، وإذا أضيف الضعف إلى عدد يراد به ذلك العدد مع مثله فضعف عشرة عشرون وضعف مائة مائتان وضعف الواحد اثنان وإذا أضيف الضعفين إلى واحدٍ يثلثه، وفي القاموس ضعف الشيء مثله وضعفاه مثلاه أو الضعف المثل إلى ما زاد يقال لك ضعفه يريدون مثليه وثلاثة أمثال لأنه زيادة غير محصورة، وفسّر الجزري في النهاية الضعف الواقع في حديث أبي الدحداح بأنه مثلي الآخر وقال يقال إن أعطيتني درهماً فلك ضعفه أي درهمان وربما قالوا فلك ضعفاه وقيل ضعف الشيء مثله وضعفاه مثلاه، وقال الزهري الضعف في كلام العرب المثل فما زاد وليس بمقصود على مثلين فأقل الضعف محصور في الواحد وأكثره غير محصور ومنه الحديث: «تضعف صلاة الجماعة على صلاة الفذ خمساً وعشرين درجة»[2] وقال الله

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: وجوب صلاة الجماعة (٦٤٥).

تعالى: ﴿يضاعف له أضعافاً كثيرة﴾[1] أي يزاد عليها يقال ضعَّفتُ الشيء واضعفتُه وضاعفتُه إذا زدتَه، قال البغوي ضَعَّفَ وضَاعَفَ لغتان مثل بعَّدَ وباعد، قال أبو عمرو وأبو عبيد ضعَّفتُه إذا جعلتَه مثليه وضاعفتُه إذا جعلتَه أمثاله، وشدد أبو عمر وهاهنا لقوله تعالى: ضعفين وقوله تعالى ضعفين منصوب على المفعولية لأن التضعيف والمضاعفة يتضمنان معنى التصيير أو على المصدرية من قبيل ضربته ضربتين أو ضربتُه سوطين أو على الحال من العذاب ووجه تضعيف العذاب أن الذنب منهن مع توافر النعمة أقبح ولذلك جعل حد الحر ضعف حد العبد ولأن في صدور الذنب منهن هتك حرمة مصاحبة سيّد البشر ﷺ وذلك أشد وأقبح ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ جملة معترضة ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ القنوت الطاعة قرأ يعقوبُ مَن تَأتِ وتَقْنُتْ بالتاء الفوقانية فيهما نظراً إلى المعنى والباقون بالياء التحتانية نظراً إلى كلمة مَنْ يعني من يدم على الطاعة ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية حملاً على لفظة من والباقون بالتاء الفوقانية، نظراً إلى المعنى ﴿صَٰلِحًا﴾ منصوب على المصدرية أو المفعولية ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي مثلي أجر غيرها مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضاء النبيّ ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة قال مقاتل مكان كل حسنة عشر حسنات، قرأ حمزة والكسائي يُؤْتِهَا بالياء التحتانية على أن فيه ضمير اسم الله تعالى والباقون بالنون على التكلم ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي جليل القدر وهو الجنة زيادةً على أجرها قلتُ وذلك لأنهن يرزقن بمتابعة النبيّ ﷺ ما يرزق النبيّ ﷺ.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ﴾ أي ليست كل واحدة منكن أو المعنى لم توجد جماعة واحدة من جماعات النساء مثلكن في الفضل ﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وجملة لستن تعليل لمضمون

(١) الآية هي ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ سورة البقرة: الآية: ٢٤٥.

ما ذكروا أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير قال ابن عباس أي ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم عليَّ وثوابكن أعظم لَدَيَّ، هذه الآية تدل على فضلهن على سائر النساء ويعارضها قوله تعالى في حق مريم ابنة عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١) والقول بأن المراد من نساء العالمين نساء زمانه يأباه ما رواه الترمذي عن أنس أن النبيّ ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وآسية امرأة فرعون»(٢) فالواجب أن يقال إن النساء في قوله تعالى: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ من حيث أنكن أزواج سيد البشر ﷺ يعني ليست أحد من النساء شريكة لَكُنَّ في هذا الفضل، والجمهور على أن أفضل نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ وخديجة بنت خويلد خير نساء الرسول الله ﷺ ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وعائشة الصديقة بنت الصديق الأكبر حبيبة رسول الله ﷺ، روى الشيخان في الصحيحين وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية إمرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(٣) وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»(٤) وفي رواية كريب وأشار وكيع إلى السماء والأرض، وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة قالت قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين»(٥) وعن حذيفة عن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل خديجة رضي الله عنها (٣٨٨٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٣٧٦٩)، وأخرجه مسلم في كتابه: فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣٠).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: من ناجى بين يدي الناس ومن لم يخبر بسر صاحبه فإذا فات أخبر به (٥٢٨٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل فاطمة رضي الله عنها (٢٤٥٠).

رسول الله ﷺ أنه قال: «إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قط قبل هذه ا لليلة استأذن ربه أن يسلم عليَّ ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»(١) رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله ورضاء رسوله شرط استغنى عن الجزاء بما مضى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ الفاء للسببية يعني إذا ثبت فضلكن على سائر النساء بشرط التقوى فلا بد أن لا يظهر منكن ما ينافي التقوى من الخضوع بالقول للرجال يعني أن تكلم المرأة مع الرجل الأجنبي كلاماً ليناً بما تطمعه منها، وذكر الجزري في النهاية نهى رسول الله ﷺ أن يخضع الرجل لغير امرأته أن يلين لها بالقول بما يطمعها منه والخضوع الإنقياد والمطاوعة وذكر أيضاً في النهاية أن رجلاً مرّ في زمان عمر رضي الله عنه برجل وامرأة قد خضعا بينهما حديثاً فضربه حتى شجه فأهدره عمر رضي الله عنه أي ليّنا بينهما الحديث وتكلما بما يطمع كُلاً منهما من الآخر، وروى الطبراني بسند حسن عن عمر وبن العاص أن النبيّ ﷺ «نهى أن يكلم النساء إلا بإذن أزواجهن» وروى الدارقطني في الإفراد عن أبي هريرة أنه ﷺ «نهى أن يتمطى الرجل في الصلاة أو عند النساء إلا عند امرأته وجواريه» ﴿فَيَطْمَعَ﴾ في الفجور منصوب في جواب النهي بأن المقدرة بعد الفاء ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي شائبة من النفاق فإن المؤمن الكامل الذي مطمئن بالإيمان ويرى برهان ربه لا يطمع فيما حرمه الله تعالى والذي إيمانه ضعيفٌ كان فيه شائبة النفاق يشتهي إلى ما حرم الله عليه، وفي غير المتواتر من القراءة فيطمع مجزوم عطفاً على محل النهي فهو نهي لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول.

مسألة:

المرأة مندوبة إلى الغلظة في المقال إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني ما يعرفه حسناً بعيداً من الريبة ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع وعاصم بفتح القاف من قَرَّيَقَرُّ بكسر العين في الماضي وفتحها في الغابر أصله اقْرَرْنَ حذفت الراء الأولى ونقلت حركتها إلى القاف واستغنى عن همزة الوصل والباقون بكسر القاف من قَرَّيَقِرُّ قَرَاراً بفتح العين في الماضي وكسرها في الغابر وهما لغتان فيه ومعناهما واحد وكذا تعليلهما واحدة، أمر بالقرار في البيوت وعدم الخروج بقصد المعصية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ فإنه عطفٌ تفسيري وتأكيد معنًى وليس في الآية نهي عن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب باب: مناقب الحسن والحسين عليهما السلام (٣٧٩٠).

الخروج من البيت مطلقاً وإن كان للصلاة أو الحج أو لحاجة الإنسان كما زعمه الذين في قلوبهم مرض من الروافض حتى طعنوا في الصديقة الكبرى بنت الصديق الأكبر حبيبة رسول الله ﷺ أنها خرجت من بيتها إلى مكة وذهبت منها إلى البصرة في وقعة الجمل وكان خروجها إلى مكة للحج وبعد خروجها استشهد عثمان رضي الله عنه وأظهر أهل المصر فتنة في المدينة حتى هرب منها طلحة وزبير رضي الله عنهما ولحقا بعائشة وأشارا بالخروج للإصلاح ذات البين ولَمّا أبت إحتجا بقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] فخرجت إلى البصرة ووقع الصلح بين من كان معها ومن كان مع علي رضي الله عنهما ثم أثار نار الفتنة عبد الله بن سبأ اليهودي المنافق الذي تزيَّ بزي شيعة عليّ رضي الله عنه حتى وقع القتال بين المسلمين في وقعة الجمل وقد ذكرنا القصة في كتابنا السيف المسلول، والتبرج من البروج بمعنى الظهور والمراد بها إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال وقال ابن نجيح التبرج التبختر قال البيضاوي في تفسيره لا تبخترن في مشيتكن ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ منصوب على المصدرية أي تبرجاً مثل تبرج الجاهلية الأولى والمراد بالجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسق بعد الإسلام، قال الشعبي هي ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقال أبو العالية هي زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصاً من الدر غير مخيط للجانبين فيرى خلقها فيه، وقال الكلبي كان ذلك في زمن نمرود الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال، وروى عكرمة عن ابن عباس الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس وكان ألف سنة وكان سبطين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامة، وكان النساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل وأجر نفسه منه فكان يخدمه واتخذ شيئاً مثل الذي يدموا الرعاء فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فانتابوهم يسمعون إليه واتخذوا عبداً يجتمعون إليه فتبرج النساء للرجال وتزين الرجال لهن وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى الرجال والنساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهم فنزلوا معهم فظهرت الفاحشة فيهن فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وقد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.

تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى كقوله تعالى: ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[١] ولم يكن لها أخرى أو المعنى الجاهلية التي كانت قبل زمانكم ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما أمرتن به ونهيتن عنه فإن ذلك هو التقوى الذي هو شرط أفضليتكن على سائر نساء النبيّ ﷺ وغيرهن من أولاده ﷺ، ولقصد التعميم أورد ضمير المذكر وقد أورد الله سبحانه هذا الكلام في مقام التعليل لما سبق يعني إنما يريد الله سبحانه فيما أمركن به ونهاكن عنه لإذهاب الرجس يعني عمل الشيطان من الإثم والقبائح الشرعية والطبيعة الذي ليس فيه مرضاة الله تعالى عنكن وعن غيركن من أهل البيت ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيت النبيّ ﷺ منصوب على النداء أو المدح، قال عكرمة ومقاتل أراد بأهل البيت نساء النبيّ ﷺ ورضي عنهن لأنهنّ في بيته وهو رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ رواه ابن أبي حاتم وروى ابن جرير عن عكرمة نحوه وهم استدلوا بسياق الآية وسباقها لكن القول بتخصيص الحكم بهن يأباه ضمير المذكرين وذهب أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهما إلى أنهم علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم لحديث عائشة قالت: «خرج رسول الله ﷺ مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن ابن علي فأدخله ثم جاء الحسين بن علي فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلهما ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)[٢] رواه مسلم، وحديث سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي» رواه مسلم وحديث واثلة بن الأسقع أنه ﷺ تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الآية وقال لعلي وفاطمة وإبنيهما «اللّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» وأخرج الترمذي وغيره عن عمر بن أبي سلمة وابن جرير وغيره عن أم سلمة أن النبيّ ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ فحللهم بكساء فقال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم وطهرهم تطهيراً»[٣]، وهذه الأحاديث ونحوها لا تدل على

(١) سورة النجم، الآية: ٥٠.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أهل بيت النبي ﷺ (٢٤٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٣٧٩٦).

تخصيص الحكم بهؤلاء الأربعة رضي الله عنهم ويأباه ما قبل الآية وما بعدها ويأباه العرف واللغة لأن الأصل في إستعمال أهل البيت لغة النساء وأما الأولاد وغيرهم فإنها يطلق عليهم تبعاً لأن لهم بيوتاً متغايرةً غالباً وقد قال الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[1] والحق ما ذكرنا أن الآية يعم جميع أهل البيت وإن كان سوق الكلام للنساء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «في بيتي أنزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قالت فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال: «هؤلاء أهل بيتي» فقلتُ: يا رسول الله أما إنا من أهل البيت قال: «بلى إن شاء الله» رواه البغوي وغيره، هذا الحديث يدل على أن أهل البيت يعم كلهم وكلمة إن شاء الله للتبرك وقال زيد بن أرقم أهل بيته من حرم عليه الصدقة آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس وآل الحارث بن عبد المطلب ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من نجاسة الآثام بالحفظ في الدنيا والمغفرة في الآخرة.

بين الله سبحانه أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسوله المأثم وليتصفوا بالتقوى، استعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهارة لأن عرض المقترف بالمعاصي ملوثٌ كما يتلوث بدنه بالنجاسة والمتقي نقي كالثوب الطاهر النقي، ولكمال المناسبة بين الآثام والأرجاس قال أبو حنيفة يتنجس الماء المستعمل للقربة أو لرفع الحدث ولما ثبت أنه ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»[2] متفق عليه من حديث عثمان، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء» الحديث رواه مسلم، احتجت الروافض بهذه الآية على أن علياً وفاطمة والحسن والحسين معصومون وهم الخلفاء بعد رسول الله ﷺ دون غيرهم. وعلى أن إجماعهم ومن دونهم من الأئمة حجة قالوا إذا أراد الله تطهيرهم فهم معصومون لأن مراد الله تعالى لا ينفك عن الإرادة والأثيم غير طاهر والعصمة شرط للإمامة وأبو بكر وعمر وعثمان غير معصومين بالإجماع فهم الأئمة لا غيرهم. وهذا الإستدلال باطل بوجوه: الأول أن الآية غير مختص حكمها بعلي وفاطمة وابنيهما كما ذكرت بل هي نازلة

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٥).

في أمهات المؤمنين لكن هؤلاء الكرام داخلون في حكمهن، والثاني أن الآية لا تدل على العصمة وقد ورد مثل ذلك في آية الوضوء لجميع الأمة حيث قال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١] لا يقال مقتضى آية الوضوء إن الله يريد أن يطهر أبدانكم من الأنجاس والأحداث إن توضأتم ومقتضى هذه الآية يريد الله أن يطهركم من الآثام فأين هذا من ذلك لأنا نقول إنها من واد واحد فإن الله كما يريد أن يطهر أبدان المؤمنين إذا توضؤا واستعملوا الماء في مواضعه كذلك يريد أن يطهر أهل بيت النبي ﷺ من الآثام إن اتقوا ولذلك بين لهم طريقة استعمال الماء لطهارة الظاهر وبين لهم التقوى بقوله فلا تخضعن لطهارة الباطن فكما أن طهارة طاهر البدن يتوقف على اختيار العبد في إستعمال الماء كذلك الطهارة من الآثام يتوقف على اختياره التقوى والله أعلم، والثالث أن العصمة ليست بشرط الإمامة بل يجوز أن يكون الإمام غير معصوم مع وجود المعصوم فيهم ألم تر أن الله تعالى جعل الملك والإمامة لطالوت مع وجود النبي المعصوم فيهم وهو اشموئيل وداود عليهما السلام ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[٣] والله أعلم.

﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ عطف على أطعن الله ورسوله وما بينهما إعتراض للتعليل ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ يعني الوحي الغير المتلو وهو السنة، وقال مقاتل يعني أحكام القرآن ومواعظه، وقال البيضاوي يعني اذكرن الكتاب الجامع بين الأمرين، وهو تذكير لما أنعم الله عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الائتمار والانتهاء فيما كلفن به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بكم يعظكم ويعلمكم ما يصلح في الدين ﴿خَبِيرًا﴾ بكل شيء يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته وفي صحبته قال الله تعالى: ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾[٤] والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٤) سورة النور، الآية: ٢٦.

﴿فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

ذكر البغوي أن أزواج النبيّ ﷺ قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا يقبل منا طاعة الله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية، وروى الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن سعد عن قتادة نحوه، وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس قال قال النساء يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت، ورواه ابن جرير من حديث قتادة مرسلاً وأخرج الترمذي وحسنه عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبيّ ﷺ فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال ومانرى النساء يذكرن بشيء فنزلت، وذكر البغوي أنه قال مقاتل قالت أم سلمة بنت أبي أمية وآيسة بنت الكعب الأنصارية للنبيّ ﷺ ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه نخشى أن لا يكون فيهن خيراً فنزلت هذه الآية، ورزي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فخلت على نساء النبيّ ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن قلن لا فأتت النبيّ ﷺ فقالت يا رسول الله إن النساء في خيبة وخسارة قال ومم ذلك قالت إنهن لا يذكرن بخيركما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ أي المنقادين لحكم الله ورسوله المفوضين أمورهم إلى الله المتوكلين عليه من الرجال والنساء ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بما جاء به رسول الله ﷺ الذين أمن الناس من يوابقهم من الرجال والنساء ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ المداومين على الطاعة من الفريقين ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في القول والعمل أعني عاملين أعمالاً يصدق من يثني عليها ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ في المصائب وعلى الطاعات وعن المعاصي واتباع الشهوات ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ المتواضعين غير متكبرين من الرجال والنساء ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ مما رزقهم الله إبتغاء مرضاة الله ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ فروجهن عما لا يحل ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ الله تعالى بقلوبهم وألسنتهم.

قال البغوي قال مجاهد لا يكون العبد من الذّاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً يعني لا يفتر ذكرهم في حين من الأحيان، قلتُ وذلك لا يتصور إلا بعد فناء القلب واستغراق القلب في الذكر وحصول الحضور الدائم قال رسول الله ﷺ: «سبق المفردون، قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[١] رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله، قالوا ولا الجهاد في سبيل الله، قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع» رواه البيهقي في الدعوات الكبير من حديث عبد الله بن عمر، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل وأرفع درجةً عند الله يوم القيامة؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات، قيل يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً فإن الذاكر لله أفضل منه درجة»[٢] رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن مالك قال بلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلف الفارّين وذاكر الله في الغافلين كغصن شجر أخضر في شجر يابس وذاكر الله في الغافلين مثل مصباح في بيت مظلم وذاكر الله في الغافلين يريه الله مقعده من الجنة وهو حيٌّ وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأعجم والفصيح بنوا آدم والأعجم بهائم» رواه رزين.

قال البغوي: قال عطاء بن أبي رباح من فوض أمره إلى الله فهو داخل في قوله: إن المسلمين والمسلمات ومن أقر بأن الله ربه ومحمداً رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل في قوله والمؤمنين والمؤمنات ومن أطاع الله في الفرائض والرسول في السنة فهو داخل في قوله ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل في قوله ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ ومن صبر على الطاعة وخاف من المعصية وصبر على الرزية فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ ومن صلّى ولم يعرف من عن يمينه وعن يساره فهو داخل في قوله: ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ ومن صام في كل شهر أيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ ومن حفظ فرجه عما لا يحل له فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ ومن صلى الصلوات الخمس

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات باب: في العفو والعافية (٣٥٩٦).

فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قال البيضاوي عطف الإناث على الذكور ضروري لاختلاف الجنسين وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين ليس بضروري ولذلك ترك في قوله تعالى: مسلمات مؤمنات قانتات الخ، وفائدتُه الدلالة على أن الأعداد والموعود لهم للجمع بين هذه الصفات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ﴾ لما صدر منهم من الذنوب ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ على طاعتهم والله أعلم.

أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال خطب النبيّ ﷺ زينب بنت جحش وهو يريد لزيد بن الحارثة فظنت أنه يريدها لنفسه فلمَّا علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ الآية فرضيت وسلمت، قال البغوي كان رسول الله ﷺ إشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه فلمَّا خطب رسول الله ﷺ رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وكرهت وكذلك أخوها عبد الله بن جحش كره ذلك (وكانت أم زينب وأخيها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ) وأخرج ابن جرير من طريق عكرمة ومثله من طريق العوفي عن ابن عباس، قال خطب رسول الله ﷺ زينبَ بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسباً فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ﴾ يعني عبد الله بن جحش ﴿وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾ يعني زينب بنت جحش يعني لا يجوز لأحد ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾ يعني آمراً أمراً على وجه التحتم ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ يعني أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل يجب عليهم ما أمرهم الله به وأن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيار الله ورسوله، وجمع الضمير الأول لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما نكرتين في حيز النفي وجمع الثاني للتعظيم قرأ الكوفيون وهشام يكُونَ بالياء التحانية لأجل الفصل بين الفعل وفاعله والباقون بالتاء الفوقانية لأجل التأنيث، والخيرة والخيار بمعنى واحد وهذه الآية دليل على أن مطلق الأمر للوجوب ويستفاد من هاهنا أن العالم ومن له فضل من حيث الدين كفؤ للعلوي وغيره من الشرفاء، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال نزلت الآية في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول من هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوّجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوَّجنا غيره فنزلت ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ بين الإنحراف عن الصواب فإن كان عصيان رَدّ وإنكار فهو ضَلالٌ كفرو إن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فضلالٌ فسقٍ جملة فَقَدْ ضَلَّ تعليل لجزاء الشرط المحذوف تقديره يهلك فَقَدْ ضَلَّ.

قال البغوي: فلما نزلت هذه الآية وسمعت زينب بنت جحش وأخوها رضيا بذلك

وسلما وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ وكذلك أخوها فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً فدخل بها وساق رسول الله ﷺ عليها عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً ودرعاً وإزاراً وملحفة وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر، ومكثت عنده حيناً ثم أن رسول الله ﷺ أتى ذات يوم كحاجة فأبصر زينب قائمة في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب فانصرف فلمّا جاء زيد ذكرت له ذلك ففطن زيد فألقى في نفسه كراهتها في الوقت وأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرأيت منها شيئاً قال لا والله يا رسول الله ما رأيتُ منها إلا خيراً ولكنّها تتعظّم عليّ لشرفها وتؤذيني بلسانها فقال النبيّ ﷺ: «أمسك عليك زوجك وأتق الله» في أمرها كذلك روى ابن جرير عن أبي زيد فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذۡ﴾ إذ تقول يا محمد الآية، وأخرج الحاكم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكوا إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش فقال النبيّ ﷺ «أمسك عليك أهلك» فنزلت وإذ تقول ﴿لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي هداه للإسلام ورزقه مصاحبتك وألقى في قلبك محبته والرحمة عليه ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ بالإنفاق والإعتاق وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ يعني زينب بنت جحش ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها فلا تطلقها فإن الطلاق من أبغض المباحات ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ قوله أمسك مقولة تقول وجملة تخفي معطوف على قوله تقول يعني وكنت تسرُّ في نفسك ما الله مظهره، أخرج البخاري عن انس أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، قال الحسن أعجبه قول زيد وأخفى رسول الله ﷺ ذلك في نفسه حياء وكرماً وقيل وقع في قلبه أنه لو فارقها زيد تزوجها، وقال ابن عباس حبها، وقال قتادة ودَّ أنه طلقها.

وقال البغوي: روى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني علي ابن الحسين زين العابدين عليهما السلام ما يقول الحسن في قوله عزّ وجلّ ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ قلتُ يقول لما جاء زيد إلى النبيّ ﷺ فقال يا نبي الله إني أريد أن أفارق زينب أعجبه ذلك فقال: «أمسك عليك زوجك واتق الله» قال علي بن الحسين ليس كذلك كان الله تعالى قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال إني أريد أن أطلقها قال أمسك عليك زوجك فعاتبه الله وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمناك أنها ستكون من أزواجك، وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أن يبديء ويظهر ما أخفاه ولم يظهر الله غير تزويجها منه فقال: (زَوَّجۡنَٰكَهَا) فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ

محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك وإنما أخفى رسول الله ﷺ إستحياء أن يقول لزيد التي تحتك وفي نكاحك ستكون امرأتي، قال البغوي وهذا قول مرضي حسن وإن كان القول الآخر وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها زيد لا يقدح في حال الأنبياء لأن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه فإن مثل هذه الأشياء ما لم يقصد لا إثم فيه لأن الود وميل النفس من طبع البشر، وقوله أمسك عليك زوجك واتق الله أمر بالمعروف وهو حسنة لا إثم فيه، قلتُ بل هو أعظم أجراً فإنه أمر بالمعروف على خلاف طبعه قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١) وما قال الحسن يؤيده قوله لله حين رأى زينب سبحان الله مقلب القلوب فإنها تدل على أنه تعالى قلّب قلب النبيّ ﷺ إلى أن يتزوجها بعدما كان في قلبه أن يتزوجها زيداً ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ عطف علي تُخْفُى يعني تخاف لائمة الناس أن يقولوا أمر رجلاً أن يطلق إمرأته ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ الجملة حال من فاعل تخشى، قال عمر وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهم ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد من هذه الآية، وروي عن مسروق قال قالت عائشة لو كتم النبيّ ﷺ شيئاً مما أوحى إليه لكتم (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) قال البغوي لم يرد الله بهذه الآية، أنه ﷺ لم يكن يخشى الله فإنه ﷺ قال: «إني أخشاكم وأتقاكم» قلتُ وقد قال الله تعالى في شأن الأنبياء كلهم ﴿يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾(٢) ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر أن الله أحق بالخشية في عموم الأحوال وفي جميع الأشياء قلتُ فمعنى الآية أنك تخشى لائمة الناس وتخشى الله أشد خشية من خشية الناس فإن الله أحق أن تخشاه فمن أجل خشية الناس والحياء منهم أخفيتَ ما أضمرتَ ومن أجل خشية الله أمرتَ بالمعروف ولم تترك شيئاً مما أمرك الله به ولا منافاة بينهما ومعنى قوله تعالى: ﴿لا يخشون أحداً إلا الله﴾ أنهم لا يخشون أحداً فيما يفضي خشيتهم ترك امتثال أمر الله تعالى وأما خشية الناس حياءً فيما عدا ذلك فحسن «فإن الحياء من الإيمان» متفق عليه مرفوعاً من حديث ابن عمر، وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قوله ﷺ «الحياء خير كله»(٣) وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ «إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» وفي

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان أفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (٣٧).

رواية ابن عباس «فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وروى مالك عن زيد بن طلحة مرسلاً وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وابن عباس أنه قال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خُلقاً وخُلق الإسلام الحياء»[١] والله أعلم.

وأخرج مسلم وأحمد والنسائي وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وذكره البغوي وهذا لفظ البغوي عن أنس أنه قال لمَّا انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد «إذهب فاذكرها عليَّ» فأنطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّر عجينها، قال زيد فلمَّا رأيتُها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن انظر إليها حين علمتُ أن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتُها ظهري ونكصتُ على عقبى، فقلتُ يا زينب أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك قالت ما أنا بصانعة حتى أُوامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الآية وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن فقال لقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي رجلان يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ فاتبعته فجعل يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويسلمن عليه ويقلن يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك؟ فقال ما أدري أنا أخبرتُ أن القوم قد خرجوا أو أخبروني فانطلق حتى دخل البيت قال أنس فذهبتُ أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي من أهله وهي زينب بنت جحش ﴿وطراً﴾ أي حاجة بحيث ملَّهَا ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها، قيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي جعلناها زوجتك روى البخاري وأحمد والترمذي والحاكم وابن مردويه وعبد بن حميد والبيهقي في سننه عن أنس أنه قال: «كانت زينب تفخر على أزواج النبيّ ﷺ وتقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات»[٢] وفي لفظ إن الله تولّى نكاحي وأنتُنَّ زوجكن أولياؤكن، قال البغوي قال الشعبي كانت زينب تقول للنبي ﷺ إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن جدي وجدك واحد وإني أنكحنيك الله في السماء وإن السفير لجبرئيل عليه السّلام، وعن أنس قال: «ما أولم النبي ما أولم بزينب أولم بشاة»[٣] وعن أنس قال: أولم رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحياء (٤١٨١) وفيه ضعف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (٧٤٢٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢١٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الوليمة ولو بشاة (٥١٦٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأطعمة، باب: في استحباب الوليمة للنكاح (٣٧٣٨).

حين ابتنى بزينب بنت جحش فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق بالتحريم ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ جمع دعيّ وهو المتبني يعني زوجناك زينب امرأة زيد الذي تبنيته ليعلم أن زوجة المتبنى حلال، وإن كان قد دخل بها المتبني بخلاف امرأة ابن الصلب فإنها لا تحل للأب، وفيه دليل على أن حكم الرسول وحكم الأمة واحد ما لم يقم دليل على تخصيص الحكم بالنبي ﷺ ﴿إِذَا قَضَوْا﴾ أي الأدعياء ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي من أزواجهم ﴿وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي قضاؤه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوناً لا محالة كما كان تزويج زينب.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ متعلق بمضمون من حرج لا من لفظه لأن معمول المجرور لا يتقدم على الجار ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق من زائدة وحرج اسم كان ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي فيما قسم له وقدر له من عدد النساء من قولهم فرض له في الديوان ومنه فروض العسكر لأرزاقهم، وقيل معنا فيما أحل له ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ مصدر لفعل محذوف أي سن الله سنَّة، أو منصوب بنزع الخافض أي كسنَّة الله أو على الإغراء أي التزموا سنة الله ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ من الأنبياء الماضين قال الكلبي أراد داود عليه السَّلام حيث جمع بينه وبين المرأة التي هواها فكذلك جمع بين محمد ﷺ وزينب، وقيل أشار بالسنّة إلى النكاح فإنه سنَّة الأنبياء وقيل أشار إلى كثرة الأزواج مثل داود وسليمان عليه السّلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي قضاءً ماضياً لا محالة ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا من قبل أو مدح لهم منصوب أو مرفوع ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ كما أنت تخشى الله ولا

تخشى غيره فيما أمرك الله به ونهاك عنه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يخشى إلا منه.

أخرج الترمذي عن عائشة أنها قالت لما تزوج النبيّ ﷺ زينب قال الناس تزوج حليلة إبنه فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[1] يعني ليس محمد ﷺ أباً لزيد ابن حارثة فيحرم عليه نكاح زوجته، فإن قيل كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذلك الحسن والحسين فإن رسول الله ﷺ قال للحسن إن ابني هذا سيد؟ قلنا إن أبناء الرسول ﷺ ماتوا صغاراً لم يبلغوا مبلغ الرجال وإطلاق الابن على الحسنين عليهما السلام على التجوز ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكل رسول أب لأمته لكن لا من حيث النسب حتى يحرم عليه ما يحرم بالنسب بل من حيث الشفقة والنصيحة ﴿وَخَاتَمَ﴾ قرأ عاصم بفتح التاء على الاسم بمعنى الآخر والباقون بكسر التاء على وزن فاعل، يعني الذي ختم ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ حتى لا يكون بعده نبي، قال ابن عباس يريد الله سبحانه أنه لو لم يكن أختم له النبين لجعلتُ ابنه بعده نبيّاً، وروى عطاء عن ابن عباس أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولداً ذكراً يعني رجلاً، أخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال في إبراهيم حين توفي لو عاش لكان نبيّاً، ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده لأنه إذا ينزل يكون على شريعته مع أن عيسى عليه السَّلام صار نبيّاً قبل محمد ﷺ وقد ختم الله سبحانه الاستنباء بمحمد ﷺ وبقاء نبي سابق لا ينافي ختم النبوة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من يليق به ختم النبوة وكيف ينبغي شأنه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة فكنت أنا سددتُ موضع اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل» وفي رواية «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[2] متفق عليه، وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[3] متفق عليه، وعن أبي موسى الأشعري قال:

---

(١) أخرجه الترمذي، في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب: (٣٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٥٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ (٢٣٥٤).

«كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة»[١] رواه مسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ قال ابن عباس لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله فأمر به في الأحوال كلها فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[٢] وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بالليل والنهار في البر والبحر والصحة والسقم في السر والعلانية، وقال مجاهد الذكر الكثير أن لا ينساه أبداً، قلتُ وهذا لا يتصور إلا بعد فناء القلب ودوام الحضور ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي صلوا له ﴿بُكْرَةً﴾ يعني صلاة الصبح ﴿وَأَصِيلًا﴾ قال الكلبي يعني صلاة الظهر والعصر والعشائين، وقال مجاهد يعني قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته، وقيل المراد بالذكر الكثير هذه الكلمات يقولها الطاهر والمحدث والجنب، قلتُ أمر الله سبحانه أولاً بتعميم الذكر أبداً بحيث لا ينساه، ثم خصه بأوقات مخصوصة فالمراد بالأول هو الذكر الخفي والحضور الدائم وبالثاني الذكر الجلي والعبادات الراتبة من الفرائض والسنن، وقيل خص أوّل النهار وآخره بالذكر لأن ملائكة الليل والنهار يجتمعون فيها، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم (وهو أعلم بهم) كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»[٣] متفق عليه وقيل: بكره وأصيلاً يعني أدوا الصلوات وسائر العبادات ذاكر الله حاضرين غير غافلين، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله عزّ وجلّ مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت وإذا التفت انصرف عنه»[٤] رواه أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي، قال البغوي قال أنس لما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ (٢٣٥٥).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العسر (٥٥٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٢).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة (٩٠٨)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: التشديد في الالتفات في الصلاة (١١٨٩).

نزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ قال أبو بكر ما خصّك الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزل الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه، قال البغوي الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة إستغفار وقيل الصلاة من الله على العبد إشاعة الذكر الجميل له في العباد وقيل الثناء عليه، وفي القاموس الصلاة الدّعاءُ والرحمة والإستِغفار وحسنُ الثناء من الله تعالى على رسوله وعبادةٌ فيها ركوعٌ وسجودٌ، وهذه العبارة تقتضي كونها لفظاً مشتركاً فمن أجاز إستعمال اللفظ المشترك في الأكثر من معنى واحد أجاز أن يكون معناه أن الله يرحم عليكم وملائكته يستغفرونه لكم، وأما عند الجمهور فلا يجوز عموم المشترك فيقال المراد بالصلاة هاهنا المعنى المجازي المشترك بين المعنيين الحقيقيين وهو العناية لصلاح أمركم وظهور تشرفكم ويسمى عموم المجاز، وقال كثير من أهل اللغة الصلاة هو الدعاء يقال صليتُ عليه أي دعوتُ له قال عليه السَّلام «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب إن كان صائماً فليصل»[١] أي ليدع لأهله وقال الله تعالى: ﴿صل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾[٢] وإنما سميت الأركان المخصوصة صلاة لاشتمالها على الدعاء وهو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ تسمية الكل باسم الجزء والصلاة من الله تعالى على عباده أن يطلب من نفسه لأجل عباده الرحمة والمغفرة ويناسب الطلب من نفسه الإيجاب من نفسه على نفسه المستفاد من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٣] فإن الإيجاب والطلب بمعنى واحد فإن الطلب حتماً هو الإيجاب والمراد بالإيجاب الإلتزام تفضلاً وإذا أريد بالصلاة هاهنا الدعاء لا يلزم عموم المشترك، قال البغوي قال النبيّ ﷺ قالت بنوا إسرائيل لموسى أيصلي ربنا فكبر هذا الكلام على موسى فأوحى الله إليه أن قل لهم إني أصلي وإن صلاتي رحمتي وسعت كل شيء ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ يعني أنه برحمته ودعاء الملائكة يديم إخراجكم ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمات الكفر والمعاصي ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي نور الإيمان والطاعة ويمكن أن يقال ليخرجكم ساعة بعد ساعة أبداً من ظلمات البعد إلى نور القرب ومن استوى يوماه فهو مغبون ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم وإعلاء قدرهم واستعمل في دعائهم الملائكة المقربين الجملة معطوفة على الصلة أي الَّذي يصلي عليكم والذي كان بالمؤمنين رحيماً ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية المؤمنين منه تعالى أضيف المصدر إلى المفعول، أي يحيون

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٣١).
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

منه تعالى ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ يعني يوم لقائهم إياه سبحانه يعني عند الموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة أو عند رؤية الله سبحانه ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي يسلم الله عليهم تحية ويسلمهم الله من جميع المكاره، قال البغوي روي عن البراء بن عازب قال: «تحيتهم يوم يلقونه يعني يوم يلقون ملك الموت سلامٌ أي لا يقبض روح مسلم إلا سلم عليه» وعن ابن مسعود قال إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرتك السلام وقيل يسلم عليهم الملائكة ويبشرهم حين أخرجوا من قبورهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ يعني الجنة ورؤية الله ورضوانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ على أمتك، أخرج ابن المبارك عن سعيد ابن المسيب قال ليس من يوم إلا ويعرض على النبي ﷺ أمته غدوةً وعشيةً فيعرفهم بسيماهم ولذلك يشهد عليهم أو شاهداً لأمتك مصدقاً لهم حين يشهدون للرسل على الأمم بالتبليغ أخرج البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلَّغت فيقول نعم فيدعى أمته فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ما أتانا أحد فيقال من يشهد لك فيقول محمد وأمته الحديث»[١] وفي الباب أحاديث كثيرة فهو حال مقدرة كقولك مررتُ برجل معه صقر صائداً به غداً ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ بالجنة من آمن بالرسل ﴿وَنَذِيرٗا﴾ بالنار لمن كذب الرسل ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى توحيده وطاعته أو إلى جنته أو لقائه الغير المتكيفة ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي بأمره وتيسيره قيد به الدعوة إيذاناً بأنه أمر صعب لا يتاتى إلا بمعونة من جناب قدسه خصوصاً الدعوة إلى لقائه، فإن إيصال العبد إليه تعالى أمر لا يمكن إلا بفضله قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[٢] إلى صراط مستقيم، عن ربيعة الجرشي قال: «أتى النبيّ ﷺ فقيل له لتنم عيناك ولتسمع أذنك ولتعقل قلبك قال فنامت عيني وسمعت أذناي وعقل قلبي، قال فقيل لي سيد بني داراً وصنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعيدخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد قال فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة»[٣] رواه الدارمي، ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ سماه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ (٤٤٨٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٦١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٤).

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٣) أخرجه الدارمي في المقدمة، باب: صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه (٧).

سراجاً لأنه يستضاء به ويهتدى به كالسراج يستضاء به ويهتدي به في ظلمة الليل يعني أنه ﷺ كان بلسانه داعياً إلى الله وبقلبه وقالبه كان مثل السراج يتلون المؤمنون بألوانه ويتنورون بأنواره كالعالم يتنور بنور الشمس والبيت بالسراج، ولأجل ذلك إختصت الصحابة رضي الله عنهم بمزيد الفضل على الناس فإن علومه التي تلقتها الأمة من لسانه لم يتفاوت فيه الناس من الصحابة وغيرهم بل رب مبلغ أوعى من سامع، وأما التنوُّرُ بأنواره فإنه وإن كان حاصلاً للناس بتوسط أصحابه وأصحاب أصحابه إلى يوم القيامة لكن ليس النائب فيه كالشاهد بل مَثَلُه كمثل بيت تنوَّرَ بنور الساحة التي تنوَّرت بنور الشمس لأجل مقابلتها وأين هذا من ذلك والله أعلم، عن عطاء بن يسار قال لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص قلتُ أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتُك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياء وآذاناً صماء وقلوباً غلفاً»[(١)] رواه البخاري وكذا الدارمي عن عطاء بن سلام نحوه والله أعلم.

أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس أنه قال لما نزلت ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ ثم نزل بعدها ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال رجال من المؤمنين هنيئاً لك يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾ وكذا أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن وقال أنس الفضل الكبير الجنة والجملة معطوفة على إنّا ارسلناك ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك تحريض له على ما هو عليه من مخالفتهم ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ قال ابن عباس وقتادة، يعني اصبر على إيذائهم إياك فالمصدر مضاف إلى الفاعل والمعنى إجعل إيذائهم إياك في جانب ولا تبال به ولا تخف منه وقال الزجاج يعني لا تجادلهم ولا تتصد على أذاهم يعني لا تؤذهم فالمصدر مضاف إلى المفعول وعلى هذا قيل أنه منسوخ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ يعني إذا جعلت الله موكولاً إليه أمورك فهو يكفيك لا يدع حاجة لك إلى غيره، قال البيضاوي، وصف الله نبيه ﷺ بخمس صفات وقابل كلاً منها بخطاب يناسبه فحذف مقابل الشاهد وهو الأمر بالمراقبة لأن ما بعده

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: كراهية السخب في السوق (٢١٢٥).

كالتفصيل له وقابل المبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهي عن مراقبة الكفار والمبالاة بأذاهم والداعي إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه والسراج المنير بالإكتفاء به فإنه من أناره برهاناً على جميع خلقه كان حقيقاً أن يكتفى به عن غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خص المؤمنات بالذكر مع أن نكاح المؤمنين بالكتابيات أيضاً جائز وحكمهن في الطلاق قبل الدخول مثل حكم المؤمنات إيماءً إلى أن اللائق بالمؤمنين أن ينكح المؤمنة دون الكتابية، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ قال البغوي فيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع لأن الله رتب الطلاق على النكاح حتى لو قال لامرأة أجنبية إذا انكحتُكِ فأنتِ طالق أو قال كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكحها لا يقع الطلاق، وهو قول علي وابن عباس ومعاذ وجابر وعائشة رضي الله عنهم وبه قال سعيد بن المسيبَ وسعيد ابن جبير وعروة والقاسم وطاووس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم، وبه قال الشافعي وكذا قولهم في الإعتاق المعلق بالملك، وروي عن ابن مسعود أنه يقع الطلاق وهو قول إبراهيم النخعي وأصحاب الرأي أعني أبا حنيفة وأصحابه وقال ربيعة والأوزاعي ومالك إن عين امرأة يقع وإن عمم امرأة لا يقع، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال كذبوا على ابن مسعود، وإن كان قالها فزلة من عالم وإن قال في الرجل إن تزوجتُ فلانة فهي طالق يقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن، واستدل البغوي بحديث جابر قال قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح».

قلتُ: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه وقال أنا متعجب من الشيخين كيف

أهملاه وهو على شرطهما، وقال أحمد إن علق طلاق الأجنبية بالنكاح ينعقد وإنعلق العتاق بالملك فعن أحمد فيه روايتان، وقال مالك إن خص بلداً أو قبيلة أو صنفاً أو امرأةً وعلق طلاقها بالنكاح ينعقد وأحتج ابن الجوزي لمذهب أحمد بستة أحاديث.

أحدها: حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ «ليس على رجل طلاق فيما لا يملك ولا عتاق فيما لا يملك ولا بيع فيما لا يملك»[١] رواه ابن الجوزي من طريق أحمد ورواه أصحاب السنن وقال الترمذي هو أحسن شيء روي في هذا الباب ورواه البزار بلفظ «لا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك» قال البيهقي في الخلافيات قال البخاري هذا أصح شيء في الباب.

ثانيها: حديث عمرو بن شعيب عن طاووس عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجوز طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا وفاء نذر فيما لا يملك» رواه الدارقطني، وروى الدارقطني من طريق آخر عن إبراهيم أبي إسحاق الضرير عن يزيد بن عياض عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق إلا بعد نكاح وإن سميت المرأة بعينها» قال الحافظ ابن حجر منقطع ويزيد بن عياض متروك وذكر الذهبي في استيعاب أسماء الرجال، قال مالك يزيد بن عياض كذاب وقال يحيى بن معين ضعيف ليس بشيء، وقال أحمد بن صالح كان يضع للناس يعني الحديث وقال البخاري ومسلم منكر الحديث، وقال أبو داود ترك حديثه وقال النسائي متروك وقال في موضع آخر كذاب.

ثالثها: ما رواه الدارقطني قال حدثنا بقية بن الوليد عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن أبي ثعلبة الخشني قال قال لي عم لي أعمل بي عملاً حتى أزوجك ابنتي فقلتُ إن تزوجتها فهي طالق ثلاثاً، ثم بدا لي أن أتزوجها فأتيتُ النبيّ ﷺ فسألتُه فقال لي: «تزوجها فإنه لا طلاق إلا بعد نكاح» فتزوجتُها فوَلدت لي أسعد وسعيداً، قال الذهبي في الميزان قال النسائي وغيره بقية بن الوليد إذا قال حدثنا وأخبرنا فهو ثقة قال غير واحد كان مدلساً فإذا قال عن فليس بحجة وثور بن يزيد ثقة صحيح الحديث مشهور بالقدر وهذا رواية بقية بلفظ عن وطعن ابن همام على هذا وقال فيه علي بن قرين كذبه أحمد، قلتُ: ما رواه ابن الجوزي ليس من طريق الدارقطني وليس فيه علي بن قرين والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء لاطلاق قبل النكاح (١١٧٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: لاطلاق قبل النكاح (٢٠٤٧).

رابعها: حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن رجل أنه قال يوم أتزوج فلانة فهي طالق قال: «طلق ما لا يملك» رواه الدارقطني وفيه أبو خالد الواسطي وهو عمرو بن خالد قال الذهبي ضعفه أبو حاتم وقال ابن همام قال أحمد وابن معين كذاب، ورواه ابن عدي عن نافع عنه بلفظ «لا طلاق إلا بعد نكاح» قال ابن حجر إسناده ثقات.

خامسها: حديث طاووس عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «لا نذر إلا فيما أطيع الله فيه ولا يمين في قطعة رحم ولا طلاق ولا عتاق فيما لا يملك» رواه الدارقطني ورواه الحاكم من طريق آخر وفيه من لا يعرف كذا قال ابن حجر، وروى الحاكم عن ابن عباس ما قالها ابن مسعود وإن كان قالها فزلة من عالم في الرجل يقول إن تزوجتُ فلانة فهي طالق وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ ولم يقل إذا طلقتموهن ثم نكحتموهن، وقيل لا يصح عن النبيّ ﷺ «لا طلاق قبل نكاح» وأصح شيء فيه حديث المنكدر عن طاووس عن النبيّ ﷺ مرسلاً.

سادسها: حديث عائشة قالت: «بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان ابن حرب على نجران اليمن فكان فيما عهد إليه أن لا يطلق الرجل ما لا يتزوج ولا يعتق ما لا يملك» قال ابن حجر قال ابن أبي حاتم في العلل حديث منكر، ورواه الحاكم من طريق الحجاج ابن منهال عن هشام الدستوائي عن عروة عن عائشة مرفوعاً، قال ابن الجوزي وقد روي نحو هذا من حديث علي وجابر ولكنها طرق مجتنبة بمرة، قلتُ أما حديث علي فرواه ابن ماجه عنه يرفعه لا طلاق قبل النكاح وفيه جويبر وهو ضعيف وأما حديث جابر فقد ذكرنا من قبل وفي الباب حديث المسور بن مخرمة أنه قال رسول الله ﷺ «لا طلاق قبل النكاح ولا عتق قبل الملك».

وجه قول أبي حنيفة أن المعلق بالشرط ليس بطلاق فإن التعليق بالشرط مانع من أن يكون السبب سبباً دون الحكم فقوله إن دخلتِ الدار فأنتِ طالق وكذا قوله إن نكحتكِ فأنتِ طالق يمين مانع من دخول الدار ومن النكاح الذين هما شرطان لوجود الطلاق فهو مانع من الطلاق فلا يصلح أن يكون سبباً موجباً للطلاق لتمانع الوصفين، أعني كونه مانعاً وكونه سبباً لكن له عرضة أن يصير طلاقاً عندالحنث وهو وجود الشرط، وإذا لم يكن طلاقاً فلا يجوز الاحتجاج بالآية والأحاديث الناطقة بنفي الطلاق قبل النكاح، وأما حديث ابن عمر وحديث أبي ثعلبة الخشني فلا يصح شيء منهما وقد ذكرنا وجه القدح فيهما. فإن قيل إذا لم يكن المعلق بالشرط طلاقاً فما وجه الفرق بين قوله للأجنبية إن دخلتِ الدار فأنت طالق وإن نكحتكِ فأنتِ طالق حيث ينعقد الثاني دون الأول؟ قلنا:

وجه الفرق أن اليمين ما يكون مانعاً من الفعل لها بخوف الإثم كما في اليمين بالله تعالى: وإما بخوف الوقوع فيما لا يريد من الطلاق والعتاق أو نحو ذلك ولا شك أن تعليق الطلاق والعتاق بالملك يصلح مانعاً من التملك بخلاف تعليق الطلاق والعتاق للأجنبية بدخول الدار حيث لا يصلح أن يكون مانعاً لها من دخول الدار فلا يصلح أن يكون يميناً كما لا يصلح أن يكون طلاقاً فيلغو، قال ابن همام ومذهبنا مروى عن عمرو ابن مسعود وابن عمرو، أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن سالم والقاسم ابن محمد وعمر بن عبد العزيز والشعبي والنخعي والزهري والأسود وأبي بكر بن عبد الرحمان ومكحول الشامي في رجل قال إن تزوجتُ فلانةً فهي طالق أو لو أتزوجها فهي طالق أو كل امرأة أتزوجها فهي طالق قالوا هو كما قال وفي لفظ يجوز عليه ذلك وقد نقل مذهبنا أيضاً عن سعيد بن المسيب وعطاء وحماد بن أبي سليمان وشريح رحمهم الله، وقال الشافعي المعلق بالشرط تطليق والتعليق ليس مانعاً من سببية السبب بل هو مانع من الحكم كالبيع بشرط الخيار وحديث أبي ثعلبة الخشني نص فيه مفسر وقد ذكره ابن الجوزي بسنده ولم يتعرض بالطعن عليه وهو غير متهم في إظهار الحق وقوله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح» وما في معناه الظاهر أنه منع أو نفي لتعليق الطلاق بالنكاح، وأما تنجيز الطلاق قبل النكاح فلا يتصور من عاقل وبطلانه ظاهر فلا يحمل عليه كلام الحكيم الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم فإنه حينئذ في قوة قول من يقول لا يجب الصلاة على من لم يولد بعد ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ أيام يتربصن فيها ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تستوفون عددها هذا حكم أجمع عليه الأمة وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ دلالة على أن العدة حق الرجال لأنها لصيانة الماء وعدم وقوع الشك في النسب والنسب إلى الرجال، ومن هاهنا قال أبو حنيفة أنه إذا طلق ذمي ذمية وكان معتقدهم أنه لا عدة فلا عدة عليها وأما إذا كان معتقدهم وجوب العدة يجب عليها العدة والحربية إذا خرجت إلينا مسلمة فلا عدة عليها وإن تزوجت على الفور جاز نكاحها لأن الحربي يلحق بالجمادات حتى كان محلاً للتملك فلا حق له إلا أن تكون حاملاً لأن في بطنها ولد ثابت النسب، وعن أبي حنيفة أنه يجوز النكاح ولا يطأها كالحبلى من الزنى والأول أصح ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهن ما يستمتعن به قال ابن عباس هذا إذا لم يسم لها صداقاً فلها المتعة فإن كان قد فرض لها صداق فلها نصف الصداق ولا متعة لها، فالآية على قول ابن عباس مخصوصة وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[1] ومرجع القولين واحد يعني لا متعة وجوباً

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

ولا استحباباً لمن طلَّقت قبل المسيس وقد سمى لها مهراً، وقيل هذا أمر ندب فالمتعة لها مستحب مع نصف المهر وروي عن الحسن وسعيد بن جبير أن المتعة لها واجب بهذه الآية ونصف المسمّى بما في البقرة وقد ذكرنا الخلاف في وجوب المتعة واستحبابها ومقدارها في سورة البقرة فلا نعيده ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي أخرجوهن من بيوتكم وخلوا سبيلهن إذ ليس لكم عليهن من عدة ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني مهورهن لأن المهر أجر على البضع وتقييد الإحلال له بإعطائها إنما هو خرج على حسب الواقع ومخرج عادة النبيّ ﷺ فإنه كان يعطهن مهورهن معجلة أو لايثار الأفضل ولا مفهوم له إجماعاً ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يعني رد الله عليك من الكفار بأن تسبى فتملك مثل صفية وجويرية وهذا القيد ليس للاحتراز أيضاً ولا مفهوم لها عند القائلين بالمفهوم، لأن مارية أم إبراهيم لم تكن مسبية بل كانت مما أهدى إليه مقوقس ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ يعني نساء قريش ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ يعني نساء بني زهرة ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وكلمة مع للموافقة في نفس الفعل لا بحسب الزمان كما في قوله تعالى: ﴿اسلمت مع سليمان﴾[1] والمراد المهاجرات مطلقاً، قال البغوي فمن لم يهاجر منهن لم يجز نكاحها، أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خطبني فاعتذرتُ إليه فعذرني فأنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم أكن من المهاجرات وكنتُ من الطلقاء[2]، وروى ابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هاني قالت نزلت في هذه الآية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أراد النبيّ ﷺ أن يتزوجني فنهي عني إذ لم أهاجر، قال البغوي ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل وقيل المراد بالهجرة الإسلام أي أسلمن معك قال رسول الله ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[3] رواه البخاري، وبتأويلهم ذلك يدل على أنه لم يكن نكاح غيرالمسلمة من اليهودية والنصرانية حلالاً له عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ قال البغوي فأما غير المؤمنة فلا تحل له إذا وهبت نفسها له واختلفوا في أنه هل كان حلالاً له نكاح اليهودية والنصرانية بالمهر فذهب جماعة

(١) سورة النمل، الآية: ٤٤.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢١٣).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠).

إلى أنه لا يحلُّ له ذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ وقد ذكرنا تأويل بعضهم قوله تعالى اللاتي هاجرن معك بالإسلام شرط مستغن عن الجزاء بما مضى وقوله وامرأة منصوب بفعل فسره ما قبله يعني ونحل لك امرأة مؤمنة أو عطف على ما سبق ولا يدفعه التقييد بأن التي للاستقبال فإن معنى الإحلال إن إتفق ولذلك نكرها ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ شرط للشرط الأول معنى تقديره إن أراد النبيُّ أن يستنكح الواهبة نفسها أحللنا له إن وهبت نفسها فإن هبتها نفسها شرط للنكاح فإنها بمنزلة الإيجاب منها لا توجب له حلها ما لم يرد النبي نكاحها فإنها جارية مجرى القبول بها يتم النكاح فالحل موقوف على كلا الشرطين، وهما شطر العلة أي النكاح والعدول من الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكرراً ثم الرجوع إليه بقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ حيث يجب عليهم المهر بالوطء أو الموت وإن لم يذكر إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله وخالصة مصدر مؤكد على وزن عافية أي خلص إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك، وهذا التأويل إنما يتصور إذا كانت القيود احترازية والظاهر أنه حال من الضمير في وهبت والمعنى أنه وهبت حال كونها خالصة لك بلا مهر أو صفة لمصدر محذوف أي هبة خالصةً، أخرج ابن سعد عن عكرمة في قوله تعالى وامرأةً مؤمنة الآية قال نزلت في أم شريك الدوسية، وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدوسي أن أم شريك عزية بنت جابر بن حكيم الدوسي عرضت نفسها على النبيّ ﷺ وكانت جميلة فقبلها فقالت عائشة ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير قالت أم شريك فأنا تلك فسماها الله مؤمنة، فقال: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فلمَّا نزلت هذه الآية قالت عائشة إن الله يسرع لك في هواك.

أخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه فلمَّا رأين ذلك جعلنه في حل من أنفسهن يؤثر من يشاء على من يشاء منهن فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى قوله ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ يدل على أنه كان من خصائص النبيّ ﷺ أن ينعقد النكاح في حقه بغير مهر وذلك هو المراد بقوله تعالى: **إن** وهبت نفسها للنبي، يعني إن زوجت نفسها بغير مهر كما أن الزيادة على أربع من النساء كان من خصائصه ﷺ، وقيل هذه الآية تدل على أن إنعقاد النكاح بلفظ الهبة كان من خصائص النبيّ ﷺ ولا يجوز ذلك لغيره، قال البغوي وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي قالوا لا ينعقد النكاح لغير النبيّ ﷺ إلا بلفظ النكاح والتزويج، قلتُ وبه قال أحمد وذكر في ترجمة

الآية في اختلاف الائمة قول أحمد أنه ينعقد النكاح بلفظ الهبة مع ذكر المهر، وقال أبو حنيفة إنعقاد النكاح بلفظ الهبة ليس من خصائص النبيّ ﷺ بل يجوز نكاح كل أحد بلفظ الهبة والبيع والصدقة والتمليك وكل لفظ وضع لتمليك العين مؤبداً ولا يجوز بلفظ الإجارة والإعارة وقال الكرخي يجوز بلفظ الإجارة والإعارة أيضاً لأن الثابت بهما تمليك المنفعة وذلك في النكاح أيضاً وقد أطلق الله سبحانه لفظ الأجرة على المهر حيث قال ﴿أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ قلنا الإجارة والإعارة ليسا سببين لملك المتعة فلا طريق للاستعارة هُناك ولا بلفظ الوصية لأنها توجب الملك مضافاً إلى ما بعد الموت، وعن الطحاوي أنه ينعقد به النكاح لأنه يثبت به ملك الرقبة في الجملة وعن الكرخي أنه قيد الوصية بالحال فإن قال أوصيتُ لك بنتي هذه الآن ينعقد لأنه صار به مجازاً عن التمليك، قلنا: الإضافة مأخوذ في مفهوم الوصية وعدمه في النكاح فيتضادان، وقال قوم لا ينعقد النكاح إلا بلفظ النكاح أو التزويج في حق النبيّ ﷺ أيضاً كما لا يصح في حق الأمة لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ وإنما أطلق لفظ الهبة في الآية على النكاح مجازاً.

قال البيضاوي محتجاً بهذه الآية على مذهب الشافعي أن اللفظ تابع للمعنى وقد خص النبيّ ﷺ بالمعنى إجماعاً، وهذا القول غير سديد فإن جواز إطلاق لفظ الهبة في النكاح إنما هو بطريق المجاز ولا وجه لتخصيص التكلم بالمجاز بحضرة الرسالة ﷺ والنكاح يصلح أن يكون معنى مجازياً للفظ الهبة ولا اختصاص بالنبي ﷺ لمعناه المجازي، فإن قيل معناه الحقيقي غير مراد في الآية البتة لأن المعنى الحقيقي للهبة تمليك العين وهو غير مراد بل المراد تمليك البضع بغير عوض فإذا اختص به معناه المجازي واللفظ تابع للمعنى فلا يجوز لغيره ﷺ النكاح بلفظ الهبة مجازاً، قلنا المعنى المجازي للهبة غير منحصر في تمليك البضع بغير عوض بل يجوز أن يطلق لفظ الهبة وأريد به تمليك البضع مطلقاً سواء كان بعوض أو بغير عوض وقال ابن همام إنما الكلام في تحقق طريق المجاز فنفاه الشافعي بناءً على انتفاء ما يجوز به التجوز إما إجمالاً فلأنه لو وجد لصح أن يتجوز بلفظ كل منهما عن الآخر بأن يقال نكحتُك هذا الثوب مراداً به وهبتُك أو ملكتُك وليس فليس وإما تفصيلاً فلأن التزويج هو التلفيق وضعاً والنكاح الضم ولا ضم ولا ازدواج في المالك والمملوك ولذا يفسد النكاح عند ورود ملك أحد الزوجين على الآخر ولو كان لم ينافه تأكد به، ولنا على الشافعي أولاً النقض الإجمالي وهو أنه لولا العلاقة المصححة للمجاز بين الهبة والنكاح لما جاز نكاح النبيّ ﷺ بلفظ الهبة وذلك

جائز ولمّا ثبت العلاقة المصححة للمجاز بينهما وبين النكاح بلا عوض ثبت بينها وبين مطلق النكاح أيضاً لوجود الأعم في ضمن الأخص، وثانياً أن معنى الحقيقي للهبة تمليك العين وتمليك العين سبب لملك المتعة في محلها بواسطة ملك الرقبة وملك المتعة في محلها هو الثابت بالنكاح والسببية طريق المجاز، وأما عدم جواز إستعارة النكاح لتمليك العين فلما ذكر في الأصول أنه لا يجوز استعارة اسم المسبب للسبب عندنا إلا إذا كان المقصود من السبب شرعيته كالبيع لملك الرقبة وليس ملك المتعة الذي هو موجب النكاح هو المقصود من التمليك بل ملك الرقبة، وقوله لا ضم ولا ازدواج بين المالك والمملوك ممنوع والله أعلم.

قال البغوي اختلفوا في أنه هل كانت عند النبيّ ﷺ امرأة وهبت نفسها له قال ابن عباس ومجاهد لم تكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين وقوله ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ على طريق الشرط والجزاء وقال آخرون كانت عنده منهن، قال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الأنصارية يقال لها أم المساكين وقال قتادة ميمونة بنت الحارث، وقال علي بن الحسين عليهما السلام والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر من بني أسد، أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن علي بن الحسين وابن سعد عن عكرمة أنها أم شريك بنت جابر وقال عروة بن الزبير هي خولة بنت حكيم من بني سليم.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا﴾ أي ما أوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من شرائط النكاح ووجوب القسم والمهر بالوطىء حيث لم يسم وأن لا يتزوجوا أكثر من أربع ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بالشراء وغيره بأن يكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية وأن يستبرأ قبل الوطىء وما وسع اللهالأمر فيهن في العدد، وعدم وجوب القسم والجملة معترضة ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ متعلقة بقوله خالصة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسّر التحرز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة في مضانّ الحرج.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن عائشة «أنها كانت تقول أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها» فأنزل الله ﴿ترجى من تشاء﴾ الآية فقالت عائشة أرى ربك ليسارع لك في هواك[١]، وفي لفظ قالت عائشة كنتُ أغار على اللآتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول أتهب المرأة نفسها فلما أنزل الله تعالى: ﴿لا ترجي من تشاء منهن﴾ الآية قلتُ ما أرى ربك إلا يسارع في هواك، قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص تُرْجِئُ بإسكان الياء بغير همز والباقون بهمزة مضمومة أي تؤخر من تشاء ﴿منهن وتؤي إليك من تشاء منهن﴾ قال البغوي إختلف المفسرون في معنى الآية فأشهر الأقاويل أنها في القسم بينهن وذلك أن التسوية في القسم بينهن كان واجباً عليه فلمّا نزلت هذه الآية سقط عنه فصار الإختيار إليه فيهن، قال أبو زيد وابن زيد نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبيّ ﷺ وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن النبيّ ﷺ شهراً حتى نزلت آية التخيير فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يخيرهن بين الدنيا والآخرة وإن يخلي سبيل من اختارت الدنيا ويمسك من اختارت الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين فلا ينكحن أبداً وعلى أنه يؤوى إليه من يشاء منهن ويرجى من يشاء منهن فيرضين به قسم لهنَّ أو لم يقسم أو قسم لبعض دون بعض أو فضَّل بعضهن في النفقة والقسم، فيكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء وكان ذلك من خصائصه ﷺ فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط، قلتُ وليس هذا من خصائص النبيّ ﷺ بل الحكم كذلك في الأمة أيضاً فمن كان تحته نساء وقال لهن من تشاء منكن حقوق النكاح من النفقة والتسوية في القسم فَتَعَالَيْنَ امَتِّعْكُنَ وأسَرِحْكُنَ سَرَاحاً جَمِيْلاً ومن رضي منكنَّ أن تبقى في نكاحي بلا مطالبة في النفقة على أن آوي إليَّ من أشاء منكن وأرجى منكن من أشاء سواء أقسم لكن أولم أقسم أو أقسم لبعض دون بعض أو أفضل بعضكن على بعض في النفقة والكسوة والقسم فقلن له نحن نختارك وتركنا حقنا في النفقة والقسم يكون الأمر في ذلك إليه يفعل كيف يشاء والله أعلم.

قال البغوي: واختلفوا في أنه هل أخرج أحداً منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحداً بل كان رسول الله ﷺ مع ما جعل الله له من ذلك يسوى بينهن في القسمة إلا سودة، فإنها رضيت بترك حقها من القسم وجعل يومها لعائشة، وقيل أخرج بعضهن. روى ابن جرير عن منصور عن أبي رزين قال لما نزل التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد (٥١١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرضاع، باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها (١٤٦٤).

رسول الله أجعل لنا من مالك ونفسك ما شئتَ ودعنا على حالنا فنزلت هذه الآية ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ فأرجى رسول الله ﷺ بعضهن وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة فكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمساً أم حبيبة وسودة وصفية وميمونة وجويرية وكان يقسم لهن ما يشاء. روى البخاري عن معاذة عن عائشةؓ أن رسول الله ﷺ «كان يستأذن في يوم المرأة منَّا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء﴾ الآية، فقلتُ لها ما كنتِ تقولين، قالت كنتُ أقول له إن كان ذاك إليَّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً»[1] وقال مجاهد معناه ترجي من تشاء منهن يعني تعزل منهن من تشاء بغير طلاق وتردّ إليك من تشاء بعد العزل بلا تجديد عقد، وقيل معناه تطلّق منهن من تشاء وتمسك منهن من تشاء، وقال الحسن معناه تترك نكاح من شئتَ وتنكح من تشاء من نساء أمتك وقال كان النبيّ ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره أن يخطبها حتى يتركها رسول الله ﷺ، وقيل معناه تقبل من تشاء من المؤمنات اللآتي وهبن أنفسهن لك فتؤويها إليها وتترك من تشاء فلا تقبل.

روى البغوي عن هشام عن أبيه قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة أما تستحي امرأة أن تهب نفسها للرجل فلمَّا نزلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ فقلت: يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك، ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي طلبت واردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن عن أنفسهن ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا إثم ﴿عَلَيْكَ﴾ في شيء من ذلك ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أي أقرب إلى قرة أعينهن وعدم حزنهن ورضائهن جميعهن لأن حكم كلهن فيه سواء ثم من أويتَ منهن إليك وجدت ذلك تفضلاً ومن عزلتَ منهن علمتُ أنه بحكم الله وعلمتُ منك تفضلاً أيضاً حيث أبقيتَ في نكاحك من غير حاجة منك إليها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتهدوا في إحسانه وفيه وعيد لمن لم ترض منهن بمشيئة رسوله ﷺ، وقيل معناه الله يعلم ما في قلوبكم من أمر النساء والميل إلى بعضهن وإنما خيرناك فيهن تيسيراً لك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقي. أخرج ابن سعد عن عكرمة قال لما خَيَّرَ رسول الله ﷺ أزواجه واخترن الله ورسوله أنزل الله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية لأن تأنيث الجمع غير حقيقي ﴿لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ (٤٧٨٩).

بعد هذا اليوم حتى لو ماتت واحدة منهن لم يحل له نكاح أخرى ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أصله تتبدل حذفت إحدى التائين من مضارع التفعل ﴿بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ من مزيدة، لتأكيد النفي، يعني لا يجوز لك أن تطلق منهن واحدة وتنكح مكانها أخرى، قال البغوي وذلك أن النبيّ ﷺ لما خيرهن واخترن الله ورسوه شكرهن الله وحرم على نبيه من النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن والإستبدال بهن وهذا قول ابن عباس وقتادة، واختلفوا في أنه هل أبيح له من بعد، أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي من طريق عطاء عن عائشة قالت لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم بقوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤى إليك من تشاء﴾ فإن تلك الآية وإن تقدمها قراءة مسبوق بها نزولاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة مثله وأخرج ابن سعد عن ابن عباس مثله وذكر البغوي قول أنس مات رسول الله على التحريم، وقال البغوي قال عكرمة والضحاك معنى الآية لا يحل لك النساء بعد اللآتي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها وقيل لأبي بن كعب لو مات نساء النبيّ ﷺ كان له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال إنما أحل الله له ضرباً من النساء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ الآية ثم قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال أبو صالح أمرأن لا يتزوج أعرابية ولا عربية ويتزوج من نساء قومه من بنات العمّ وبنات العمَّة وبنات الخال وبنات الخالة إن شاء ثلاث مائة، وقال مجاهد لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن بقول لا يكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ما ملكت يمينك أُحل له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهن، وروى عن الضحاك معنى أن تبدَّل بهن أي ولا أن تبدل بأزواجك اللاتي في حبالتك أزواجاً غيرهن بأن تطلقهن وتنكح غيرهن فحرم عليه طلاق النساء اللاتي كن عنده إذ جعلهن أمهات المؤمنين وحرمهن على غيره حين اخترنه فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه وقال ابن زيد في قوله ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ إنهم كانوا يتبادلون في الجاهلية بأزواجهم يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي بأن تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله تعالى ولا أن تبدَّل بهِنَّ من أزواج يعني لا تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته إلا ما ملكت يمينك فلا بأس بأن تبدل بجاريتك ما شئت وأما الحلائل فلا. عن أبي هريرة قال دخل عيينة بن حصين على النبيّ ﷺ بغير إذن وعائشة

رضي الله عنها عنده فقال رسول الله ﷺ فأين الإستئذان؟ قال يا رسول الله ما استأذنتُ على رجل من مصر منذ أدركتُ، ثم قال من هذه الحميرى إلى جنبك قال هذه عائشة أم المؤمنين، قال عيينة أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قد حرَّم ذلك، فلمَّا خرج قالت عائشة من هذا يا رسول الله؟ قال هذا أحمق مطاع وإنه على ما ترين لسيد قومه[1] ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل دون مفعوله وهو قوله من أزواج لتوغله في التنكير وتقديره مفروضاً إعجابك بهن، قال البغوي يعني ليس لك أن تطلق أحداً من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها قال ابن عباس إنها بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فلمَّا استشهد جعفر أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها فنهى عن ذلك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ محل ما الرفع استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء وقيل الإستثناء منقطع قال ابن عباس ملك رسول الله ﷺ بعد ذلك مارية يعني أم إبراهيم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ فتحفظوا أمركم ولا تتجاوزوا عمَّا حد لكم.

---

(١) رواه البزار وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: التفسير، باب: سورة الأحزاب (١١٢٧٩).

مسألة:

قال البغوي في الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم امرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوا إلى نكاحها فليفعل»(١) رواه أبو داود وعن المغيرة بن شعبة قال خطبتُ امرأة فقال النبيّ ﷺ هل نظرتَ إليها؟ قلتُ لا، قال: «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وعن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال النبيّ ﷺ: «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيء»(٣) رواه مسلم، قال الحميدي فإن في أعينهن صفرة والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن أنس قال: «لَمَّا تزوج النبيّ ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فإذا كأنه يتهيؤ للقيام فلم يقوموا، فلمّا رأى ذلك قام فلمَّا قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبيّ ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ثم

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها (٢٠٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المخطوبة (١٠٨١)، وأخرجه النسائي في كتاب: النكاح، باب: إباحة النظر قبل التزويج (٣٢٢٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها (١٨٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها (١٤٢٤).

إنهم قاموا فانطلقتُ بجئتُ فأخبرتُ النبيّ ﷺ أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبتُ أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه» فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية[1]، وذكر البغوي حديث ابن شهاب عن أنس أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة قال أمهاتي يواطئنني على خدمة النبي ﷺ فخدمتُه عشر سنين وتوفي النبيّ ﷺ وأنا ابن عشرين سنة وكنتُ أعلم الناس بشأن الحجاب حين نزل كان أول ما نزل في مبنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أصبح النبيّ ﷺ بها عروساً فدعي القوم فأصابوا من الطعام الحديث، فذكر مثل رواية البخاري وفي رواية للبخاري قال أنس كنتُ أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب لما اهديت زينت إلى النبيّ ﷺ كانت معه في البيت صنع طعاماً ودعا القوم فقعدوا يتحدثون فجعل النبيّ ﷺ يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون فأنزل الله تعالى تلك الآية وضرب الحجاب وقام القوم، وفي رواية له قال أنس أولم حين بنى النبيّ ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلتُ على الطعام داعياً فيجيء القوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه فقلت يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه فقال إرفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبيّ ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله فقالتْ عليك السَّلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك فذهب إلى حجر نسائه كِلّهن يقول لهن كما قال لعائشة ويقلن له كما قالت ثم رجع النبيّ ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبيّ ﷺ شديد الحياء فخرج منعطفاً نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرتُه أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في إسكفة الباب داخلةً الأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه ونزلت آية الحجاب، وفي رواية للبخاري قال أنس أولم رسول الله ﷺ حين بنى بزينب فأشبع الناس خبزاً ولحماً ثم خرج إلى حجرات أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بنائه فيسلم عليهن ويدعو لهن ويسلمن عليه ويدعون له، فلمَّا رجع هو إلى بيته رأى رجلين جرى بينهما الحديث فلمَّا رآهما رجعَ عن بيته فلمَّا رأى الرجلان نبي الله ﷺ قاموا فرجع حتى دخل البيت وأرخى الستر بيني وبينه، وأخرج الترمذي وحسنه عن أنس قال كنتُ مع رسول الله ﷺ فأتى باب امرأة عرس بها فإذا عندها قوم فانطلق ثم رجع وقد خرجوا فدخل وأرخى بيني وبينه ستراً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ (٤٧٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (١٤٢٨).

فذكرتُه لأبي طلحة فقال لئن كان كما تقول لينزلن في هذا شيء فنزلت آية الحجاب[١].

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: «كنتُ آكل مع النبيّ ﷺ في قعب فمرَّ عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه إصبعي فقال أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزلت آية الحجاب» وكذا أخرج البخاري في الأدب المفرد والنسائي وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال دخل رجل على النبيّ ﷺ فأطال الجلوس فخرج النبيّ ﷺ ثلاث مرات ليخرج فلم يفعل فدخل عمر فرأى الكراهية في وجهه فقال للرجل لعلّك آذيتَ النبي ﷺ؟ فقال النبيّ ﷺ لقد قمتُ ثلاثاً لكن يتبعني فلم يفعل، فقال له عمر يا رسول الله لو اتخذتَ حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء وذلك أطهر لقلوبهم فنزلت آية الحجاب، وقد مرّ في سورة البقرة ما رواه البخاري وغيره عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث فقلتُ لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت ﴿وأتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقلت يا رسول الله إن نسائك يدخل عليهن البر والفاجر فلو امرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب وأجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه من الغيرة فقلت لهن عَسَىٰ رَبُّه إن طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَه أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنْكُنَّ فنزلت كذلك، وكذا أخرج النسائي من رواية أنس. وذكر البغوي نحوه عن ابن عباس وقال البغوي وقد صح في سبب نزول آية الحجاب أن أزواج النبيّ ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المصانع وهو صعيد أفيح وكان عمر يقول للنبي ﷺ أحجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل فخرجت سودة بنت زمعة ذات ليلة من الليالي عشاءً وكانتامرأة طويلة فناداها عمر أن قد عرفناك حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله تعالى الحجاب، قال الحافظ ابن حجر يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبيل قصة زينب فلقربه منها أطلق نزول الآية بهذا السبب ولا مانع من تعدد السبب ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إستثناء مفرغ منصوب على الظرف أو على المصدر أو على الحال يعني لا تدخلوا في وقت إلا وقت أن يؤذن لكم أو لا تدخلوا دخولاً إلا دخولاً مأذوناً لكم أو لا تدخلوا في حال إلا حال أن يؤذن لكم ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بيؤذن لتضمنه معنى يدعى وفيه إشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن كما هو إشعار في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نضجه حال من فاعل لا تدخلوا أو المجرور في لكم داخل في الإستثناء أي لا تدخلوا إلا بإذن وإلا غير ناظرين وهذا الإستثناء مختص بمن أراد الدخول لأجل الطعام لا مطلقاً، أمال حمزة والكسائي إناه فهو حينئذ مصدر أني الطعام إذا أدرك يقال

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢١٨).

إني الحميم إذا انتهى حره وإني أن يفعل كذا أي حان وقال البغوي إني بكسر الهمزة مقصورة فإذا فتحتها مددت وقلت الآناء وفيه لغتان آنى يأنى مثل رمى يرمى وأن يأبنُ مثل بَاعَ يَبِيْعُ، وفي القاموس إِنَى الشيء يأني أيناً وإناء وإناً بالكسر فهو إني كغِنًى حان وأدرك وإنى الحميم انتهى حره، فهو آن وبلغ هذا أناه يعني بالفتح وبكسر يعني بلغ غايته أو نضجه أو إدركه ﴿ولكن إذا دعيتم فأدخلوا فإذا طعمتم﴾ ويعني اكلتم الطعام ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ يعني تفرقوا وأخرجوا من منزله ولا تمكثوا بعد الأكل ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ مجرور معطوف على ناظرين أو منصوب أي لا تدخلوها مستأنسين وقيل تقديره ولا تمكثوا مستأنسين فهو عطف جملة على جملة نهوا أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض، لأجل حديث يحدثه به ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ اللبث ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ لتضيق المنزل عليه وعلى أهله واشتغاله بما لا يعنيه تعليل لما سبق ﴿فيستحي منكم﴾ ولا يخرجكم عطف على الجملة الإسمية السابقة ﴿والله لا يستحي من الحق﴾ عطف أو حال أو معترضة أي لا يترك الله تأديبكم حياءً فإن التأديب حق، وقال البيضاوي يعني إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياءً كما لا يترك الله الحق فيأمركم بالخروج ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي نساء النبيّ ﷺ لدلالة بيوت النبي عليهن لأن فيها نساؤه ﴿مَتَـٰعًا﴾ أي شيئاً ينتفع به إستعارةً أو إستهاباً أو ردًّ للعارية ﴿فسألوهن﴾ المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ أي الستر الجملة الشرطية معطوفة على قوله ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ قال البغوي فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله ﷺ منتقبة كانت أو غير منتقبة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي السؤال من وراء الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ من الخواطر الشيطانية الجملة تعليل لما سبق.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال بلغ النبيّ ﷺ أن رجلاً يقول لو توفي النبيّ ﷺ تزوجتُ فلانة من بعده فنزلت ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي ما صح ﴿لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي تفعلوا ما يكرهه ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد وفاته أو فراقه ﴿أَبَدًاۚ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال نزلت في رجل هَمَّ أن يتزوج بعض نساء النبيّ ﷺ بعده، قال سفيان ذكر أنها عائشة وأخرج عن السديّ قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حَدَثَ حَدُثٌ لنتزوجن نساءه من بعده فأنزلت هذه الآية، وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال نزلت في طلحة بن عبيد الله لأنه قال إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجتُ عائشة، وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلاً أتي بعض أزواج النبيّ ﷺ فكلمها وهو ابن عمها فقال النبيّ ﷺ لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا فقال يا رسول الله إنها ابنة عمي والله قلتُ

لها منكراً ولا قالت لي، قال النبيّ ﷺ قد عرفتُ ذلك إنّه ليس أحدٌ أغيرُ من الله وإنَّه ليس أحد أغير مني فمضى فقال يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجها من بعده فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبة من كلمته، قال البغوي روى معمر عن الزهري أن العالية بنت ظبيان التي طلقها النبيّ ﷺ تزوجت رجلاً وولدت له وذلك قبل تحريم أزواج النبيّ ﷺ، روي أن الأشعث بن قيس تزوج المستعيذة في أيام عمر رضي الله عنه فهمّ عمر برجمها فأخبر أنه ﷺ فارقها قبل أن يمسها فتركه من غير نكير ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي ذنباً عظيماً قلتُ وجاز أن يكون ذلك لأجل أن النبيّ ﷺ حيٌّ في قبره ولذلك لم يورث ولم يتئم أزواجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليَّ عند قبري سمعتُه ومن صلّى عليَّ نائياً أبلغتُه» رواه البيهقي في شعب الإيمان ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ من أذى النبيّ ﷺ أو من نكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم قال البغوي نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة رضي الله عنها بعد رسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ تعليل لجزاء محذوف أقيم مقامه تقديره يعلمه الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه وفي هذا التعميم والبرهان على المقصود بعد التصريح بالنهي عن نكاحهن مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد ولذلك أعتق ذلك الرجل الذي هم بنكاح بعض أزواج النبيّ ﷺ رقبة وحمل عشر أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبةً من كلمته كما مر في حديث ابن عباس قال البغوي ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي، في ترك الاحتجاب من آبائهن ﴿ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن﴾ وإنما لم يذكر العم والخال لأنه لما ذكر أبناء أخوانهن وإبناء أخواتهن يظهر بدلالة النص حكم الأعمام والأخوال لأنهن عمات بالنسبة إلى أبناء الأخوة وخالات بالنسبة إلى أبناء الأخوات والعم والعمة من جنس واحد كالخال والخالة.

روى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة قالت: «إستأذن أفلح أخ أبي القعيس بعدما أنزل الحجاب فقلت لا آذن حتى أستأذن فيه رسول الله ﷺ فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس، فدخل عليَّ النبيّ ﷺ فقلتُ يا رسول الله إن أفلح أخا أبي القعيس استأذن فأبيتُ أن آذن له حتى أستأذنك، فقال النبيّ ﷺ: «تأذنين عمك؟ قلتُ يا رسول الله إن الرجل ليس هو أرضعني ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس فقال ائذني له فإنه عمكِ تربت يمينكِ» قال عروة فلذلك كانت عائشة

تقول حرموا من الرضاع ما تحرموا من النسب[١] ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني مؤمنات حرائر ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ﴾ من العبيد والإماء وقيل من الإماء خاصة كما ذكرنا في سورة النور ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ هذه الجملة معطوفة على مضمون ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ﴾ يعني واتقين الله في البروز للأجانب وفي كل ما أمرتن به وفيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لمزيد التأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أفعال العباد ﴿شَهِيدًا﴾ فيجازي عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ قال ابن عباس إن الله يرحم النبيّ ﷺ والملائكة يدعون له، وعن ابن عباس أيضاً يصلون أي يبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الإستغفار، قال أبو العالية صلاة الله عليه ثناؤه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء وقد ذكرنا الكلام في الصلاة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أدعوا له واسألوا الله تعالى أن يرحمه ﴿وَسَلِّمُواْ﴾ عليه ﴿تَسۡلِيمًا﴾ يعني حياة بتحية السّلام وقولوا السّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والآية تدل على وجوب الصلاة والسّلام في الجملة ولو في العمر مرة وبه قال أبو حنيفة ومالك رحمهما الله واختاره الطحاوي، قال ابن همام موجب الأمر القاطع الافتراض في العمر مرة لأنه لا يقتضي التكرار وقلنا به، وقيل يجب في كل صلاة بعد التشهد في القعدة الأخيرة وبه قال الشافعي وأحمد قال في رحمة الأمة في اختلاف الأئمة الصلاة على النبيّ ﷺ في التشهد الأخير عند أبي حنيفة ومالك سنة وفرض عند الشافعي وقال أحمد في أشهر روايتيه يبطل صلاته بتركها، وقال ابن الجوزي فرض عند أحمد وعنه أنها سنة، وقيل يجب الصلاة كلما جرى ذكره ﷺ وبه قال الكرخي. استدل من يقول بوجوبها في الصلاة بحديث سهل بن سعد أن النبيّ ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يصل على النبيّ ﷺ»

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾﴾ (٤٧٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرضاع، باب: تحريم الرضاعة من ماء الفحل (١٤٤٥).

رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وفيه عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده، قال الدارقطني عبد المهيمن ليس بالقوي وقال ابن حبان لا يحتج به ورواه ابن الجوزي بلفظ «لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ولا صلاة لمن لم يصل على النبيّ ﷺ ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار» وفيه عبد المهيمن ضعيف لا يحتج به وأخرج الطبراني عن أبيّ بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده مرفوعاً نحوه قالوا حديث عبد المهيمن أشبه بالصواب مع أن جماعة قد تكلموا في أبيّ بن عباس وبحديث أبي مسعود الأنصاري قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاةً لم يصل فيها عليَّ ولا على أهل بيتي لم يقبل منه» رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني قال ابن الجوزي وفيه جابر الجعفي ضعيف، وقد اختلف فيه فوقفه على ابن مسعود تارة ورفعه أخرى وذكره ابن همام عن ابن مسعود قال قال ابن الجوزي فيه جابر ضعيف وقد اختلف فيه فوقفه تارةً ورفعه أخرى، وروى الحاكم والبيهقي عن يحيى بن السباق عن رجل من بني الحارث عن ابن مسعود عنه عليه الصلاة والسَّلام: «إذا تشهد أحدكم فليقل اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد وأرحم محمداً وآل محمد كما صليتَ وباركتَ وترحمتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، قال الحافظ ابن حجر رجاله ثقات إلا هذا الرجل الحارثي فينظر فيه قال ابن همام حديث لا صلاة لمن لم يصل عليَّ ضعفه أهل الحديث كلهم ولو صح فمعناه كاملةً أو لمن لم يصل عليّ في العمر مرةً.

وقال الحافظ ابن حجر أقوى من هذا الحديث حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبيّ ﷺ فقال: «عجَّلَ هذا» ثم دعاه ثم قال له ولغيره «إذا صلّى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبيّ ﷺ ثم ليدع بما شاء» رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم، قال ولفظ الترمذي «بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل رجل فصلّى فقال اللّهم إغفر لي وأرحمني فقال رسول الله ﷺ: «عجلت أيها المصلي إذا صليت فقعدتَّ فاحمد الله بما هو أهله وصل عليَّ ثم ادعه» قال ثم صلّى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلّى على النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «أيها المصلّي أدع تجب»[1] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، قلتُ: ويمكن الإستدلال على وجوب الصلاة على النبيّ ﷺ في الصلاة بعد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٧٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة (١٢٧٧).

التشهد بأن المراد بالأمر في هذه الآية أن يصلي عليه ﷺ في الصلاة كما إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾[١] تكبير التحريمة وبقوله تعالى: ﴿وقوموا للَّه قانتين﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿واركعوا وأسجدوا﴾ والقيام والركوع والسجود في الصلاة وبقوله تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾[٣] القراءة في الصلاة يدل على هذا ما رواه البخاري عن كعب بن عجُرة وكذا في حديث أبي سعيد الخدري: قيل يا رسول الله أما السّلام عليك فقد عرفنا فكيف الصلاة؟ قال قولوا اللَّهم صل على محمد إلى آخره»[٤] يعني قد عرفنا السَّلام في التشهد وهو قوله السَّلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فكيف نصلّي حينئذ فعلَّم رسول الله ﷺ بقوله: «اللَّهم صلّ على محمد» إلى آخره، وقد تلقته الأمة بالقبول وأجمعوا على جعلها بعد التشهد وإن اختلفوا في كونها فريضة فعلم بهذا الحديث أن مراد الله سبحانه بالأمر في هذه الآية جعلها بعد التشهد والله أعلم.

واستدل من يقول بوجوب الصلاة كلَّمَا جرى ذكره ﷺ بحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرتُ عنده فلم يصل عليَّ ورغم أنف رجل دخل علي رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة»[٥] رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه، وحديث جابر بن سمرة عنه ﷺ «من ذكرتُ عنده فلم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله عزّ وجلّ» وحديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «أتاني جبرئيل من ذكرتَ عنده فلم يصل عليك فدخل النار فأبعده الله عز وجل» روى الحديثين الطبراني وروى ابن السني عن جابر مرفوعاً بلفظ من ذكرتُ عنده فلم يصل على فقد شقي» وعن عليّ قال قال رسول الله ﷺ: «البخيل من ذكرتُ عنده فلم يصل عليَّ» رواه الترمذي ورواه أحمد عن الحسين ابن علي رضي الله عنهما وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب، وروى الطبراني بسند حسن عن الحسين بن علي رضي الله عنهما مرفوعاً «من ذكرتُ عنده فخطى الصلاة عليَّ خطى طريق الجنة» وروى النسائي بسند صحيح عن أنس «من ذكرت عنده فليصل عليّ فإنه من صلى عليَّ صلّى الله عليه وسلَّم عشراً».

(١) سورة المدثر، الآية: ٣. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٧. (٤) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ﴿يزفون﴾ (٣٣٦٩).
(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ رغم أنف رجل (٣٥٤٥).

فصل

في فضل الصلاة والسَّلام على النبيّ ﷺ وكيفيتها: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبيّ ﷺ فقلتُ بلى فأهدها لي، فقال: «سألنا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت فإن الله قد علّمنا كيف نسلّم عليك؟ قال: «قولوا اللَّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمد كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[(١)] متفق عليه إلا أن مسلماً لم يذكر على إبراهيم في الموضعين، وعن أبي حميد الساعدي قال قالوا يا رسول الله كيف نصلّي عليك فقال رسول الله ﷺ «قولوا اللَّهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صلَّيت على آل إبراهيم وبارك على محمَّد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً» رواه مسلم، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ صلاة واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات»[(٢)] رواه أحمد والبخاري في الأدب والنسائي والحاكم وصححه، وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة»[(٣)] رواه الترمذي، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السَّلام»[(٤)] رواه النسائي والدارمي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردّ الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السَّلام»[(٥)] رواه أبو داود والبيهقي في الدعوات الكبير، وعنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم يبلغني حيث كنتم»[(٦)] وعن أبي طلحة «أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر في وجهه فقال: «إنه جاءني جبرئيل فقال إن ربك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الصلاة على النبي ﷺ (٦٣٥٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٤٠٥).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: الفضل في الصلاة على النبي ﷺ (١٢٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الوتر، باب: ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ (٤٨٠).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: السلام على النبي ﷺ (١٢٧٥).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب: زيارة القبور (٢٠٤١).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: زيارة القبور (٢٠٤٢).

يقول أما يرضيك يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليتُ عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمتُ عليه عشراً»[١] رواه النسائي والدارمي.

وعن أبي بن كعب قال قلتُ يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال ما شئتَ، قال الربع؟ قال ما شئت وإن زدتَّ فهو خير لك، قلتُ النصف؟ قال ما شئتَ وإن زدت فهو خير لك، قلتُ فالثلثين؟ قال ما شئتَ فإن زدتَّ فهو خير لك، قلتُ أجعل لك صلاتي كلها قال: «إذاً تكفى همك ويكفر لك ذنبك»[٢] رواه الترمذي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلَّى علينا أهل البيت فليقل اللَّهم صلِّ على محمد النبيّ ﷺ الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليتَ على إبراهيم إنك حميد مجيد»[٣] رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: «من صلَّى على النبيّ ﷺ واحدة صلّى الله عليه وملائكته سبعين صلاةً» رواه أحمد، وعن رويفع أن رسول الله ﷺ قال: «من صلّى على محمّد وقال: «اللَّهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي» رواه أحمد، وعن عبد الرحمن ابن عوف قال خرج رسول الله ﷺ حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خشيتُ أن يكون الله توفاه قال فجئتُ أنظر فرفع رأسه فقال مالك؟ فذكرتُ ذلك له قال فقال: «إن جبرئيل عليه السلام قال لي ألا أبشرك أن الله عزَّ وجلَّ يقول لك من صلّى عليك صليتُ عليه ومن سلّم عليك سلمتُ عليه» رواه أحمد، وعن عمر بن الخطاب قال إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيك» رواه الترمذي، وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «من صلّى عليّ صلاةً صلت عليه الملائكة ما صلّى عليَّ فليقلل العبد من ذلك أو ليكثر» رواه البغوي وعن عليّ قال قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ صلاةً كتب له قيراط والقيراط مثل أحد» رواه عبد الرزاق في الجامع بسند حسن، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة» رواه الطبراني في الكبير بسند حسن.

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: السهو، باب: فضل التسليم على النبي ﷺ (١٢٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد (٩٨١).

مسألة:

هل يجوز الصلاة والسَّلام على غير الأنبياء والصحيح أنه يجوز تبعاً ويكره إستقلالاً كما يكره أن يقال محمد عزّ وجلّ مع كونه عزيزاً جليلاً لاختصاصه بالأنبياء عرفاً كاختصاص ذلك بالله تعالى وقد ذكرنا هذه المسألة مبسوطاً في سورة التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ قال البغوي قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير ابن الله ويد الله مغلولة، وقالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء، وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله. وثالثُ ثَلاَثَة. وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدا إني وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[2] وفي رواية ابن عباس «وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً» رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر يبدي الأمر

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ (٤٩٧٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٦٩).

أقلب الليل والنهار»[١] متفق عليه، وقيل معنى يؤذيني يلحدون في أسمائه وصفاته وقال عكرمة هم أصحاب التصاوير، عن أبي زرعة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرةً وليخلقوا حبة أو شعيرة»[٢] متفق عليه، وروى البخاري عن ابن عباس «من صور صورةً فإن الله معذبه حتى ينفخ فيه الروح فليس بنافخ فيها أبداً»[٣] وقيل معنى الأذى مخالفة أمر الله وإرتكاب معاصيه وإنما ذكر على ما يتعارف الناس بينهم والله منزه من أن يلحقه اذىً من أحد ويؤذون ﴿رَسُولَهُۥ﴾ قال ابن عباس هو أنه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر معلم مجنون، وهذا الذي ذكرنا إنما يستقيم على قول من جوز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين وعند الجمهور معناه أن الذين يرتكبون ما يكرهه الله ورسوله وجاز أن يكون معنى الآية الذين يؤذون رسول الله وذكر الله لتعظيم الرسول كانً من آذى الرسول فقد آذى الله. أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس أن الآية نزلت في الذين طعنوا على النبيّ ﷺ حين إتخذ صفية بنت حيي، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عبد الله ابن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة الصديقة الطيبة فخطب النبيّ ﷺ وقال من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني فنزلت، عن أنس وأبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال قال الله تعالى: «من أهان - ويروى - من عادى وليّاً فقد بارزني بالمحاربة وما رددتُّ في شيء أنا فاعله ما رددت في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه وما تقرب بي عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا ولا يعبدني بمثل ما افترضتُه عليه»[٤] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول: «يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني قال يا ربّ كيف أعُودك وأنت رب العالمين قال أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمتَ أنك لو عدتَّه لوجدتني عنده يا ابن آدم ستطعمتُك فلم تطعمني»[٥] الحديث نحوه. رواه مسلم، قلتُ ولا شك أن معاداة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ (٤٨٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: نقض الصور (٥٩٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك (٢٢٢٥).

(٤) أخرج البخاري بنحوه في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض (٢٥٦٩).

الأولياء لمَّا كان معاداة ومحاربة مع الله تعالى وأسند الله سبحانه مرض أوليائه إلى نفسه تعالى عن ذلك علواً كبيراً لأجل وصل غير متكيف فإسناد إيذاء الرسول ﷺ إلى الله تعالى أولى وقيل نظر إلى ما ذكرنا من الأحاديث معنى الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ أولياء الله على حذف المضاف كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[1] يعني أهل القرية وهذا القول عندي غير سديد لأن ذلك يفضي إلى تقديم ذكر الأولياء على ذكر الرسول الله ﷺ فإن قيل هو تخصيص بعد تعميم فإن الرسول داخل في أولياء الله؟ قلنا لو كان كذلك لزم التكرار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾، جملة إن الذين يؤذون الله ورسوله مستأنفة كانه في جواب من سأل أنا أمرنا بالصلاة والسَّلام على النبيّ ﷺ فما شأن من آذاه فقال الله تعالى لعنهم الله الخ.

مسألة

من آذى رسول الله ﷺ بطعن في شخصه أو دينه أو نسبه أو صفة من صفاته أو بوجه من وجوه الشين فيه صراحة أو كناية أو تعريضاً أو إشارة كفر ولعنة الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ له عذاب جهنم، وهل يقبل توبته؟ قال ابن همام كل من أبغض رسول الله ﷺ بقلبه كان مرتداً فالسبَّابُ بالطريق الأولىٰ ويقتل عندنا حدّاً فلا تقبل توبته في إسقاط القتل قالوا هذا مذهب أهل الكوفة ومالك، ونقل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولا فرق بين أن يجيء تائباً بنفسه أو شهدوا عليه بذلك بخلاف غيره من موجبات الكفر فإن الإنكار فيها توبة ولا تعمل الشهادة معه حتى قالوا بقتل أن سبَّ سكران ولا يعفى عنه، ولا بد من تقييده بما إذا كان سكره بسبب محظور باشره باختياره بلا إكراه وإلا فهو كالمجنون، وقال الخطابي لا أعلم أحداً خالف في وجوب قتله وأما قتله في حق من حقوق الله تعالى فتعمل توبته في إسقاط قتله ولا يحكم بارتداد من أتى بكلمة الكفر سكران في غير سباب النبيّ ﷺ وإن كان السكر بسبب محظور باشره باختياره بلا إكراه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي من غير أن يعملوا ما يوجب أذا هم وقال يقعون فيهم ويرمون بغير جرم ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تنكير البهتان والإثم للتفخيم، قال مقاتل نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل نزلت في شأن عائشة رضي الله عنها، قلتُ اللفظ عام في كل من يؤذي مؤمناً أو مؤمنة

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

بأيِّ وجه كان وإن كان المورد خاصاً عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(١) رواه الترمذي والنسائي، وسب عائشة هو سب النبيّ ﷺ «من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني» يعني عبد الله ابن أبيّ حين قذف عائشة فقول من قال هاهنا أنها نزلت في شأن عائشة معناه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ نزلت في شأن عائشة لا الجملة الأخيرة وحدها، وكذا من سبّ علياً فقد آذى رسول الله ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ: «أنت مني وأنا منك»(٢) رواه الشيخان في الصحيحين عن البراء بن عازب بل سب الصحابة عامتهم يفضى إلى إيذاء النبيّ ﷺ عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»(٣) رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب والله أعلم.

وقال الضحاك والكلبي نزلت الآية في شأن الزناة الذين يمشون في طُرق المدينة وهم المنافقون يتبعون النساء إذا برزن في الليل لقضاء حوائجهن فيغمزون المرأة فإن سكتت اتبعوها وإن زجرتهم إنتهوا عنها، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة لأن زي الكل كان واحداً يخرجن في درع وخمار الحرة والأمة فشكون ذلك إلى أزواجهن فذكروها لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ثم نهين الحرائران يتشبهن بالإماء في الآية اللاحقة والله أعلم.

أخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك وأخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي قال كان نساء النبيّ ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فشكون ذلك فقيل ذلك للمنافقين فقالوا إنما نفعله بالإماء فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ﴾ أمر بتقدير اللام أي ليدنين ﴿عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جمع جلباب وهي الملحفة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار، روى

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب، الإيمان، باب: ما جاء أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢٦٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: عمرة القضاء (٤٢٥١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في من سب أصحاب النبي ﷺ (٣٨٧١).

البخاري عن عائشة قالت: «خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت، فقالت يا رسول الله إني خرجتُ لبعض حاجتي فقال عمر كذا وكذا قالت فأوحى الله تعالى إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن[1]، قلتُ يعني أذن لكن أن تخرجن متجلببات، قال ابن عباس وأبو عبيدة أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحداً ليعلم أنهن الحرائر ومن للتبعيض لأن المرأة ترخي بعض جلبابها ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بإضمار إلى متعلق بأدنى أي أقرب إلى أن يعرفن أو بتقدير المضاف أي أدنى أسباب معرفتهن أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ عطف على يعرفن أي فلا يتعرضهن أهل النفاق والفسق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعى مصالحهم حتى الجزئيات منها، قال أنس مرّت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع أتشبهين بالحرائر ألقي القناع ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم وعما يتعرضون للنساء ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ضعف إيمان وقلة ثبات عليه أو فجور عن تزلزلهم في الدين أو فجورهم ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين يوقعون في المدينة الرجفة وهو الزلزلة والإضطراب الشديد، وذلك أن أناساً من المنافقين كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس الأخبار الكاذبة يقولون أنهم قتلوا وانهزموا ويقولون قد أتاكم العدو ونحوها وقال الكلبي (يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) ويفشون الأخبار يعني الكاذبة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾جواب لقسم محذوف لفظاً وللقسم والشر طمعاً معنى أي لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء أو لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطف على لنغرينك لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك لأن لم ينتهو إلا يجاورونك ولمّا كان الجلاء عن الوطن من أعظم المصائب عطف بثم لبعد حاله عن حال المعطوف عليه أي لا يساكنونك ﴿فِيهَآ﴾ أي في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً أو جوازاً قليلاً حتى يخرجوا منها أو يقتلوا ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ منصوب على الذم والشتم أو الحال والإستثناء شامل له أيضاً أي لا يجاورنك إلا ملعونين ولا يجوز أن ينتصب بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ (٤٧٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان (٢١٧٠).

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي وجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبله والتشديد في قتلوا يدل على التكثير ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ مصدر مؤكد أي سنَّ الله ذلك في الأمم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا بالأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أين ما ثقفوا أو منصوب بنزع الخافض أي كسنة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأن الله تعالى لا يبدل سنته وغيره لا يقدر على أن يبدلها.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عن وقت قيامها إستهزاءً أو تعنتاً أو امتحاناً فالمشركون كانوا يستهزؤن ويسألون عن الساعة إنكاراً واستهزاءً واليهود كانوا يسألون إما تعنتاً وإما امتحاناً لأن الله عمى وقتها في التوراة وفي سائر الكتب ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لم يطلع الله عليه أحداً من الأنبياء والملائكة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيء يعلمك وقت قيامها إذا لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي شيئاً قريباً أو يكون الساعة عن قريب أو إنتصابه على الظرف ويجوز أن يكون تذكير قريب لأن الساعة في معنى اليوم، وكونه قريباً مبنى على أن كل ما هو آت قريب ولعل لوجوب الوقوع وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعنتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ ناراً شديد الإيقاد ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير في لهم أي مقدرين خلودهم ﴿فِيهَآ﴾ أي في السعير ﴿أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب عنهم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ ظرف لقوله لا يجدون أو منصوب باذكر أي يوم تصرف ﴿وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ من جهة إلى جهة كاللحم يشوى بالنار أو من حال إلى حال خصت الوجوه بالذكر لأنها أكرم مواضع من الجسد أو الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في وجوههم والمضاف جزء من المضاف إليه وهو مسند إليه فيصح وقوع الحال عنه ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ أي يا قومنا ليتنا وقيل يا للتنبيه ﴿أطعنا الله﴾ في الدنيا ﴿وأطعنا﴾ في الدنيا ﴿الرسولا﴾ فلم نبتل بهذا العذاب في الآخرة زيدت الألف، في الرسولا والسبيلا لرعاية الفواصل

والدلالة على إنقطاع واستئناف ما بعده ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعنون قادتهم الذين سنوالهم الكفر قرأ ابن عامر ويعقوب ساداتنا بكسر التاء وألف قبلها على جمع الجمع للدلالة عى الكثرة والباقون بفتح التاء بلا ألف قبلها ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ﴾ بما زيّنوه لنا ﴿ربنا﴾، أي يا ربنا ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي مثلي ما آتيتنا منه لأنهم ضلوا وأضلونا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ عاصم بالباء الموحدة أي أشد اللعنُ وأعظمه والباقون الثاء المثلثة أي كثير العدد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ يعني قالوا فيه ما يشينه ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ فأظهر براءته قيل ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً كريماً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقال ما يستر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة فأراد الله أن يبرئه مما قالوا، فخلا وحده وخلع ثيابه ووضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلمَّا فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها فإذا الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله فأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ موسى ثوبه ولبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لبقيا من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا»[1] رواه البخاري والترمذي وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وعبد الرزاق وعبد بن حميد. وقال أبو العالية هو أن قارون استأجر امرأة لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ فعصمه الله فبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون وقد مر القصة في سورة القصص، وقال قوم أذاهم موسى أنه لما مات هراون في التيه إدَّعوا على موسى إنه قتله فأمر الله الملائكة حتى مروا به على بني إسرائيل فعرفوا أنه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا، أخرجه ابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم والله أعلم.

روى البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: «قسّم النبي ﷺ قسماً فقال رجل إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبيّ ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٠٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢٢١).

وجهه فقال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1] ﴿وَكَانَ﴾ موسى ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي كريماً ذا جاه يقال وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه إذا كان ذو جاه وقدر، قال ابن عباس كان عند الله بحيث لا يسأل شيءاً إلا اعطاه وكذا قال الحسن وقيل كان مجيباً مقبولاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ﴾ في إرتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤذى رسوله ﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قال ابن عباس صواباً، وقال قتادة عدلاً وقال الحسن صدقاً وقيل مستقيماً وقيل قاصداً إلى الحق والمآل واحد يعني صدقاً غير كذب ولا مجازفة فأن الكذب يمحق والصدق يبقى، قيل المراد منه نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل وما خاضوا فيه من حديث إفك عائشة، قال عكرمة هو قول لا إله إلا الله ﴿يُصْلِحْ﴾ مجزوم في جواب الأمر وكذا ما عطف عليه ﴿لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ قال ابن عباس يقبل حسناتكم، وقال مقاتل يزكي أعمالكم يعني يصلحها للقبول والإثابة عليها وقيل معناه يوفقكم للأعمال الصالحة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يجعلها مكفرة باستقامتكم على القول والعمل ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ظفر بالخير كله يعيش في الدنيا حميداً أو يبعث في الآخرة سعيداً ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهاهنا أبحاث الأول في أن الأمانة ما هي الثاني في أن المراد بالسماوات والأرض والجبال ما هي أعيانها أو أهلها كما في قوله تعالى: ﴿وأسأل القرية﴾[2] يعني أهلها والثالث إن المراد بالعرض الخطاب اللفظي التي فرض الله تعالى على عباده عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال يعني على أعيانها بالخطاب اللفظي على أن أدتها أثابهن وإن ضيعتها عذبهن، وقال ابن مسعود الأمانة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث والعدل في الكيل والوزن وأشد من هذا كله الودائع، وقال مجاهد الأمانة أداء الفرائض وحفظ الدين وقال أبو العالية ما أمروا به ونهوا عنه وقال زيد بن أسلم هي الصوم والغسل من الجنابة وما يخفى من الشرائع يعني ما لا مدخل للرياء فيه وقال عبد الله بن العاص أول ما خلق الله من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعكها فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له، وقال بعضهم هي أمانات الناس والوفاء بالعهود

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٣١٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦٢).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء قليل ولا كثير وهي رواية الضحاك عن ابن عباس، ومرجع هذه الأقوال أن الأمانة هي التكليفات الشرعية والمراد بالسماوات والأرض أعيانها قال البغوي هذا قول ابن عباس وجماعة وأكثر السلف والعرض بالخطاب اللفظي، قال البغوي، قال الله تعالى لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها قلن وما فيها؟ قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن فقلن لا يا رب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً، قلن ذلك خوفاً وخشيةً وتعظيماً لدين الله أن لا يتأدى منهن حقه لا معصيةً ومخالفةً وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، وقيل المراد بالعرض الخطاب اللفظي وبالسماوات والأرض والجبال أعيانها وبالعرض اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهنُ بأبائهن الآباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والإستعداد وبحمل الإنسان قابليته وإستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً ما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا يحسن أن يكون هذان الصفتان باعثتين للجمل عليه.

قال البيضاوي لعل المراد بالأمانة العقل أو التكليف ومن فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما عن التعدّي ومجاوزة الحدود الشرعية ومعظم مقصود التكليف تعديلها وكسر شوكتها، وأيضاً قال البيضاوي هذه الآية تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة وسماها أمانة من حيث أنها واجبة الأداء والمعنى أنها لعظم شأنها بحيث لو عرضت على الأجرام العظام، وكانت ذات شعور وإدراك لأبت أن تحملها وأشفقت منها وحملها الإنسان مع ضعف بُنيته ورخاوة قوته لا جرم فاز الراعي بها والقائم بحقوقها بخير الدارين، قلتُ ونظيره قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] فهذه الآية على هذا التأويل كأنه مثل ضرب وهذان القولان يعني قول من ارتكب التجوز في لفظ السماوات ونحوها وقول من إرتكب التجوز في العرض والخطاب مبنيان على إستبعاد الخطاب مع الجمادات، فقال بعضهم في دفع هذا الإستبعاد أنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال إني فرضتُ فريضةً وخلقتُ جنةً لمن أطاعني وناراً لمن عصاني فقلن نحن مسخرات على ماخلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثواباً، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فتحمله وكان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشق عليه جهولاً لو خامة عاقبته، أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه وفيه فكان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة قدر ما بين الظهر والعصر.

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

وقيل في دفع الاستبعاد: إن الجمادات كلها وإن كانت غير عاقلةٍ بالنسبة إلينا لكنها بالنسبة إلى الله تعالى عاقلةً خاضعةً مطيعةً ساجدةً له قال الله تعالى: للسماوات والأرض ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾(٢) وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾(٣) قيل المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ آدم عليه السَّلام، قال الله تعالى لآدم إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها قال وأنت آخذ بما فيها قال يا رب وما فيها قال إن أحسنت جوزيتَ وإن أسأت عوقبتَ فحملها آدم فقال بين أذني وعاتقي فقال الله تعالى إذا قبلتَ فسأعينك وأجعل لبصرك حجاباً فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فضع عليه حجابه وأجعل للسانك كحيين وغالقاً فإذا خشيتَ فأغلق وأجعل لفرجك لباساً فلا تكشف على ما حرمتُ عليك، قال مجاهد فما كان بين أن حملها وبين ما خرج من الجنة إلا مقدار ما بين الظهر والعصر، قلتُ: لعل الحكمة في إخراجه من الجنة بعد حمل الأمانة أن الجنة ليست محلاً لأداء الأمانة بل هي محل للثواب على أدائها فأُخرج إلى الدنيا التي هي مزرعة الآخرة لأداء الأمانة، قال البغوي حكى النقاش بإسناده عن ابن مسعود أنه مُثِّلت الأمانة كصخرة ملقاة ودعيت السماوات والأرض والجبال إليها فلم يقربن منها وقلن لا نطيق حملها وجاء آدم من غير أن دعي وحرك الصخر وقال لو إمرتُ بحملها لحملتُها فقال له إحملها فحملها إلى ركبتيه ثم وضعها وقال والله إن أردت أن أزداد لزدتُّ فقلن له أحمل فحملها حتى وضعها عى عاتقه فأراد أن يضعها فقال الله تعالى مكانك فإنما هي في عنقك وعنق ذريتك إلى يوم القيامة، وذكر الزجاج وغيره من أهل المعاني المراد بالأمانة الطاعة التي يعم الطبيعية والإختيارية وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من الإختيار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والإمتناع عن أدائها ومنه قولهم حامل لأمانة ومحتملها لمن لا يؤديها فيبرأ ذمته فيكون الإباء عنه إتيانها بما يمكن أن يتأتى والظلم والجهالة للخيانة والتقصير قال الله تعالى: ﴿ويحملون أثقالهم﴾(٤) وحكي عن الحسن على هذا التأويل أنه قال وَحَمَلَهَا

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٨.

(٤) الآية هي: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ سورة العنكبوت: الآية: ١٣.

الإنسان ويعني الكافر والمنافق حملا الأمانة أي خانا قال البغوي قال السلف هو الأول قلتُ ولمَّا كان مقتضى سياق الآية اختصاص الإنسان بحمل الأمانة دون غيره من المخلوقات فالقول بأن الأمانة هي التكليفات الشرعية غير مناسب لاشتراك الجن والملائكة فيها، ويلزم منه فضل الملائكة على الإنسان لأدائهم الأمانة بكمالها لعصمتهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1] بخلاف الإنسان لأن منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ومن ثم قالت الصوفية العلية المراد بالأمانة نور العقل ونار العشق فنور العقل يحصل به معرفة الله سبحانه بالإستدلال ونار العشق يحصل بها معرفة الله سبحانه بحرق الحجب والملائكة وإن كانوا عباد الله المقربين لكنهم مخلوقين في مقام معلوم من القرب والعرفان قال الله تعالى حكاية عنهم ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[2] فالترقي إلى المراتب الغير المتناهية بنار العشق إنما هو من خصائص الإنسان، وعندي على ما استفدتُ من كلام المجدد للألف الثاني رضي الله عنه أن الأمانة ما أودع الله سبحانه في ماهية الإنسان من الإستعداد للتجليات الذاتية الدائمة فإن الجن وإن كان بعد الإيمان والإتيان بالأعمال الصالحة يلحق بالملائكة وتستعد للتجليات الصفاتية لكن التجلي الذاتي لا يتحملها من لا مزاج له من الأرض وهذا الإستعداد هو المستوجب للخلافة وهذا العلم هو المعنى بقوله تعالى للملائة في حق آدم عليه السَّلام ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾[3] يعني اعلموا أن التجلي الذاتي لا يتحملها من لا مزاج له من الأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ يعني مركباً للقوى السبعية الداعية إلى التفوق والتعلي المقتضية للترقيات إلى أعلى الشواهق ﴿جَهُولًا﴾ مَرُكَباً للقوى البهيمية التي يطيق بها صاحبها تحمل رياضات ومشاق لا بد منها للعاشق في طلب وصل المحبوب فهو تعليل ومنقبة له، وتلك القوتين جميعاً ناشئتان من الأرض فإن مادة الأرض لكمال كثافة يتحمل التجلي الذاتي كما أن الأجرام الأرضية لكثافتها تتنور بنور الشمس دون الأجرام اللطيفة والملائكة المقربون منحصرون في مقاماتهم وولاياتهم وإن كانت ولا يتهم فوق ولاية الأنبياء لكونها مستفادة من الصفات من حيث البطون أعني من حيث قيامها بذات الله سبحانه وولاية الأنبياء من الصفات من حيث الظهور أعني من حيث هي، هي لا من حيث قيامها بالذات، ومن هذه الاعتبارات هي مبادي لمبادي تعينات العالم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

لكن لاحظ للملائكة من التجلي الذاتي الذي هي كمالات النبوة، ولأجل ذلك إختص النبوة بنوع البشر دون غيرهم وصار خواص البشر أي الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وصارت الجنة للشر والملائكة تدخلون عليهم من كل باب ومن قال إن المراد بالأمانة التكليفات الشرعية وبتحملها قبولها بالإختيار فمعنى هذه الجملة عندهم أنه كان ظلوماً لنفسه بتحمله ما يشق عليه جهولاً بوخامة عاقبته وما يلحقه العذاب بترك اداثه وليس فيه مذمة للإنسان بل هي بيان للواقع، وقال البيضاوي حين قال هذه الآية تقرير للوعد السابق ما معناه أن الأمانة مع عظم شأنها بحيث لا يطيق حملها الأجرام العظام لو فرضت ذات شعور وحملها الإنسان مع ضعف بنيته فاز الراعي لها بخير الدارين أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يف بها ولم يراع حقها جهولاً بكنه عاقبتها وصف للجنس باعتبار الأعم الأغلب، وقال صاحب بحر المواج معناه أن الإنسان كان ظلوماً حيث زعم نفسه قادراً على أداء ما اشفقت عنه السماوات وأمثالها ثم لم يؤدّها جهوُلاً لعجزه عن أدائها، وهذا التأويل ليس عندي بمرض لأن تحمل الأمانة كان من آدم عليه السلام وهو المراد بالإنسان وهو كان نبيّاً معصوماً قد أدى ما حمل عليه وضمير أنَّه راجع إلى من حمل، وقالت الصوفية معنى الآية أنه أي الإنسان باعتبار أكثر أفراده كان ظلوماً على نفسه حيث ضيع استعداده للمعرفة والتجليات الإلهية الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها جهولاً يحسن ما فات عنه وقبح ما اكتسبه قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه»[١] الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة، قلتُ: لما سمعتَ أن الظلم كناية عن القوة السبعية والجهل عن القوة البهيمية وحسن القوتين وقبحهما ليس إلا بحسب متعلقهما ومصرفهما ألا ترى أن القوة السبعية إن صرفت لدفع أعداء الدين من الشيطان وأمثاله وكسب التفوق والتعلي إلى مدارج القرب كانت حسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾[٢] وأن الله يحب معالي الهمم، وإن صرفت في قهر المعصومين والتكبر والتعلي في مقابله رب العالمين كانت قبيحة ﴿إلا لعنة الله على الظالمين﴾[٣] ﴿وإن الله لا يحب كل مختالٍ فخورٍ﴾[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٢) سورة الصف، الآية: ٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٨.

وكذا القوة البهيمية إن صرفت في كسب السعادة كانت حسنة وإن صرفت في كسب اللذات كانت قبيحة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[١] ولا شك أن حسن تعلقهما موقوف على تزكية النفس والقلب والعناصر قال رسول الله ﷺ: «إن في جسد بني آدم لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[٢] رواه البخاري. ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[٣] وامتثال التكليفات الشرعية سبب لتزكيتها فإن كان المراد بالأمانة التكليفات الشرعية فقوله إنَّه كان ظلوماً جهولاً إشارة إلى علة تحميل الإنسان وتحمله تلك الأمانة فالمعنى إنَّه كان ظلوماً جهُوُلاً ولأجل ذلك عرضنا عليه الأمانة وتحمله آدم عليه السَّلام حتى يتزكى بها عن الرذائل ويستعد للفضائل ويكون محموداً في الدارين وإن كان المراد بالأمانة التجليات الذاتية فهو إشارة إلى أنه كان أهلاً لتلك الأمانة دون غيره لأن تلك الأمانة لا يتصور حملها إلا من كان جامعاً لتلك الصفتين كما ذكرنا وغيرهما من الحواس والقوى.

وعلى كلا التقديرين لَمَّا كانت الصفتان المذكورتان على تقدير عدم التزكية والخذلان من الله تعالى وكونهما مصر وفتين في الباطل موجبتين للعذاب وعلى تقدير التزكية والتأييد من الله وكونهما مصروفتين في الحق موجبتين للرحمة والثواب حسن تعليل حمل الأمانة وعرضها الذي هو مقتضى تلك الصفتين المركبتين في الطبيعة الإنسانية بقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ اللام للعاقبة كما في قوله: لدوا للموت وابنو للخراب ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ امضيعين للأمانة والمنهمكين في الظلم واللذات ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ أي يرجع بالرحمة والمغفرة والجذب والاجتباء وإعطاء مراتب القرب ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المؤدين للأمانات المستغرقين في التجليات، قال ابن قتيبة أي عرضنا الأمانة يعني التكليفات الشرعية أو الإستعداد المودع ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهم الله ويظهر إيمان المؤمن (قلتُ وعرفان العارف) فيتوب عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات قلتُ وبالتجليات الذاتية الدائمة والوصل بلا كيف من غير حجاب وذكر التوبة في الوعد إشعار بأن كونهم ظلوماً جهُوُلاً في جبلتهم فلا يخلوا عن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢) وأخرجه مسلم في كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٣) سورة الشمس، الآية: ٩ ـ ١.

فرطات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للمؤمنين حيث تاب على فرطاتهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث أثابهم على طاعاتهم تفضلا وأفاض عليهم تجلياته وبركاته.

تم تفسير سورة الأحزاب (ويتلوه سورة سبأ إن شاء الله تعالى) غرة شهر المحرم من السنة السابعة بعد الألف ومائتين سنة وصلّى الله على محمَّد وآله وأصحابه.

سورة سبأ

آياتها أربع وخمسون وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ② وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ
لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ③ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ
⑤ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑥ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ
إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي
الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ⑧ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ
عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑨﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وقهراً فهو الحقيق بالحمد سرّاً وجهراً دون غيره وإنما يُحمد غيره لأجل إضافة بعض النعم إلى غيره ظاهراً وبالمجاز ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن نعماء الآخرة أيضاً له تعالى، وليس هٰذا من قبيل عطف المقيد على المطلق بل المعطوف عليه مقيداً بكونه في الدنيا لما يدل الوصف بالموصول والصلة على أنه المنعم بالنعم الدنيوية فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وتمام نعمته وكذا في الآخرة لأن نعماء الآخرة أيضاً له تعالى، وتقديم الظرف في الجملة الثانية للإشعار بأن الحمد في الدنيا قد يكون الله تعالىٰ بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا

كذلك نعم الآخرة بل هي مختصة بالله تعالى، قيل الحمد في الآخرة هو حمد أهل الجنة كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1] ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[2] و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[3] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء وظواهرها ﴿يَعْلَمُ﴾ حال أو استئناف في مقام التعليل ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المطر الذي ينفذ في مسام الأرض والأموات والكنوز ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والفلذات والأموات إذا حشروا والماء من الآبار والعيون ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والصواعق والملائكة والكتب والمقادير والأرزاق وأنواع البركات وأصناف البليات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمال العباد والدعوات ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ فينزّلُ ما يحتاجون إليه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرطين في شكر نعمته مع كثرتها هذه الجملة معطوفة على والله يعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكار لمجيئها معطوف على جملة مقدرة مفهومة من قوله تعالى: ﴿وله الحمد في الآخرة وهو الرحيم الغفور﴾ فإنه يفهم منه وعد الله بالرحمة والمغفرة للحامدين يوم تأتي الساعة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تكريره لإيجابه مؤكداً بالقسم وبتوصيف المقسم به بقوله عالم الغيب فإن عظم المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم وفيه إشارة إلى أن الساعة من الغيب وعلمه مختص بالله تعالى يكفي لإثباته شهادة تعالى ولا يجوز لأحد إثبات شيء من الغيب ولا نفيه إلا بتعليم من الله تعالى، قرأ حمزة والكسائي ﴿علام الغيب﴾ على وزن فَعَّالٍ للمبالغة والباقون على وزن فاعل، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ما بعده والباقون بالجر على أنه صفة للرب ففيه تأكيد للرّدِ على إنكارهم فإن إنكارهم ليس إلا مبنيّاً على جهلهم واستبعادهم ممكناً مثل سائر الممكنات ثابتاً ومعناهما واحد أي لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ﴾ أي مقدار ثقل ﴿ذَرَّةٍ﴾ أي نملة صغيرة كائنة ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موجهة في شيء من الأزمنة الماضية أو المستقبلة أو الحال والقول بأن المعنى لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ موجودة في الزمان الحال كائنة في السماوات أو الأرض يأباه المقام لأن الجملة واقعة تأكيداً لقوله.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

عَالِمِ الغَيْبِ بياناً لشمول علمه جميع الكائنات ماضياً كان أو مستقبلاً حتى يكون مؤكداً للإخبار بإتيان الساعة، وأيضاً حضور جميع الأشياء الموجودة في الحال بكسر لبعض من الخلائق كما طكرنا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[١] إنه قيل يا رسول الله ملك الموت واحد والزحفان يلتقيان من المشرق والمغرب وما بين ذلك من السقط والهلاك أنه حوى الدنيا الملك الموت حتى جعلها كالطست بين يدي فهل يفوته منها شيء، فالظاهر من هذه الآية أن الأزمنة كلها وما فيها من الزمانيات الماضية والمستقبلة حاضرة عند الله سبحانه وهو خارج عن الزمان كما أن الأمكنة والمكانيات حاضرة عنده تعالى وهو خارج عن المكان لا يجري عليه زمان كما لا يحويه مكان فالزمان مخلوق له تعالى حدوثاً ذاتياً كما أن المكان مخلوق له فالماضي والمستقبل بالنسبة إليه سواء كما أن الأمكنة كلها بالإضافة إليه سواء. وقد نبه على ذلك بعض الأكابر من علماء الظاهر. قال الجلال الدواني رحمة الله عليه في رسالته الزوداء إذا اعتبرتَ الامتداد الزماني الذي هو محل التغيير والتبديل وعرض الحوادث الكونية بما يقارنه من الحوادث جملة واحدة وجدتَّه شأناً من شؤون العلة الأولى محيطاً لجميع الشؤون المتعاقبة، ثم إن أمعنتَ النظر وجدتَ التعاقب باعتبار حضور حدود ذلك الإمتداد وغيبوبتها بالنسبة إلى الزمانيات الواقعة تحت حيطته، وأما المراتب العالية عليها فلا تعاقب بالنسبة إليها بل الجميع متساوية بالنسبة إليها متحاذية في الحضور لذاتها فما ظنك ما على شواهق العوالي ليس عند ربك صباح ولامساء. تنبيه إذا أخذت امتداد مختلف الأجزاء في اللون كخشب اختلف اللون في أجزائه ثم أمررته في محاذاة ذرة أو غيرها ممَّا يضيق حدقته عن الإحاطة بجميع ذلك الامتدادات ليس تلك الألوان المختلفة متعاقبة في الحضور لديها لضيق حدقتها متقاربة في الحضور لديك لقوة إحاطتك. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[٢] وانتهى كلامه.

فائدة:

وقد يأتي على بعض الأكابر حالة يخرج فيه من حيز الزمان فيرى الماضي أو المستقبل موجوداً عنده ويشهد عليه ما رواه الشيخان في الصحيحين عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلّى رسول الله ﷺ والناس فقام قياماً

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

طويلاً فذكر الحديث بطوله حتى قال قالوا يا رسول الله رأيناك تناولْتَ شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعتَ؟ فقال: «إني رأيتُ الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذتُه لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيتُ النار فلم أر كاليوم منظراً قط أفظع ورأيتُ أكثر أهلها النساء»[١] الحديث، ولا شك أن دخول النساء في النار لا يكون إلا بعد القيامة وقد رآه النبيّ ﷺ موجوداً لا يقال لعل النبيّ ﷺ رأى صورة النار والجنة في عالم المثال مثل ما يرى النائم في المنام لأن قوله: «لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» صريح في أنه ﷺ رأى حقيقة الجنة والنار دون مثالهما، وروى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيتُ الجنة فرأيت امرأة أبي طلحة وسمعتُ خشخشة أمامي فإذا بلال**»[٢] وما روى أحمد وأبو داوود والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**لما عرج بي ربي عزَّ وجلَّ مررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلتُ من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»[٣] وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليَّ النار فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً ورأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار وكان أول من سيب السوائب»[٤] رواه مسلم.

وقال أكثر المفسرين معنى قوله تعالى: لا يَعْزُبُ عَنْهُ أي علمه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي من الذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جمله مؤكدة لنفي العزوب إن كان المراد بالعزوب العزوب عن علمه أو المراد بالكتاب المبين علمه تعالى أو اللوح المحفوظ الذي حاك عن بعض من علومه، وإن كان المراد عدم عزوب شيء من ذاته سبحانه فهذا تأسيس لا تأكيد وأصغر وأكبر مرفوعان بالإبتداء ويؤيده القراءة بالفتح على إعمال لا التي لنفي الجنس، ولا يجوز العطف مرفوعاً على مِثْقَالُ ومفتوحاً على ذرة في محل الجر لامتناعها من الصرف لأن الاستثناء عنه هو ولا يجوز أن يكون الإستثناء

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: كفران العشير وهو الزوج وهو الخليط من المعاشرة (٥١٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أم سليم أم أنس بن مالك وبلال رضي الله عنهما (٢٤٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الغيبة (٤٨٧٠).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الكسوف، باب: صلاة الكسوف (٩٠١).

منقطعاً بمعنى لكن لأن الإستدراك والإستثناء المنقطع بعد النفي يكون إثباتاً فيكون المعنى لا يعزب مثقال ذرة ولا أصغر منه ولا أكبر ولكن يعزب في كتاب مبين وهذا فاسد، قال البيضاوي اللّهم إذا جعل الضمير يعزب للغيهب وجعل المثبت في اللوح خارجاً عنه لظهوره على المطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب إلا مسطوراً في اللوح، وهذا التوجيه ضعيف كما يشعر به كلام البيضاوي لأن كونه في اللوح لا يخرجه عن الغيب والكلام في شمول علمه تعالى، ولا مساس لهذا التوجيه بالمدعى على أنه ورد في سورة يونس بلفظ ﴿وما يَعْزُبُ عَنْ رَّبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السماء وَلا اصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إلاَّ في كتابٍ مُبِينٍ﴾[1] وَلاَ يتأتى هٰذا التوجيه هناك، وقيل هذا على طريقة المدح بما يشبه الذم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾[2] بالله كقولك في زيد لا عيب فيه إلاَّ أنه عالم يعني لا عيب فيه أصلاً والمعنى لا يعزب عنه مثقال ذرة إلا في كتاب مبين حكمه فكيف يغب عنه ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علة لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا في أداء حقوق العبودية التي لا يمكن استيفاؤها ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة لا تعب فيه ولا من عليه لما أتوا بها من الحسنات وتفضلاً.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ عطف على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مفعول ليجزي أي ليجزي الذين سعوا ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالإبطال وتزهيد الناس فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين من التفعيل أي مثبطين عن الإيمان من أراده والباقون من المفاعلة أي مقدرين عجزنا أو سابقين لنا فيفوتنا لظنهم بأن لا بعث ولا عقاب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ قال قتادة الرجز سوء العذاب، فمن بيانية ﴿أَلِيمٌ﴾ أي ذو ألم يعني مؤلم، قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب بالرفع هُنا وفي الجاثية على أنه نعت للعذاب والباقون بالجر على أنه نعت للرجز ﴿وَيَرَى﴾ بمعنى يعلم مرفوع عطفاً على مضمون بلى لتأتينكم وقيل منصوب معطوف على يجزي أي ليجزي الذين آمنوا وليعلم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال قتادة هم أصحاب النبيّ ﷺ ومن تبعهم بإحسان أي يعلم عند مجيء الساعة أنه الحق عياناً كما علموه الآن برهاناً ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن مفعول أول ليرى ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بالرفع مبتدأ وخبر والجملة ثاني مفعولي

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٢) سورة البروج، الآية: ٨.

يرى وقُرِأ بالنصب على أنه ثاني مفعول يرى والضمير للفصل، وجملة يرى مستأنفة للإستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات ﴿وَيَهْدِى﴾ الله أو الذي أنزل إليك عطف على الحق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي الإسلام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وبينهما معترضات ومنع المظهر موضع الضمير للتصريح على مناط الحكم يعني قال منكروا البعث بعضهم لبعض متعجبين منه ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ صفة لرجل أي يخبركم بأعجب الأعاجيب وهو أنه ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ كل منصوب على المصدرية لإضافته إلى المصدر الميمي يعني إذا متم وتمزق أجسادكم كل تمزق بحيث يصير تراباً أو على الظرفية بمعنى إذا مزقتم وذهبت بكم السيول كل مذهب وطرحته كل طرح ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ منصوب بقوله ينبئكم بتضمين معنى القول يعني يقول: إنكم لفي خلقٍ جديدٍ وتقديم الظرف يعني (إِذَا مُزِّقْتُمْ) للدلالة على البعد والمبالغة، وعامله محذوف دل عليه ما بعده يعني ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ يقول إِنَّكُم لَفِي خُلُقٍ جَدِيْدٍ وذلك لأن ما قبله لم يقارنه وما بعد إنَّ لا يعمل فيما قبله، وذكروا النبيّ ﷺ بالتنكير مع كونه مشهوراً في قريش شائعاً أنباؤه بالبعث تجاهلاً به وبأمره بناءً على استبعاده وقصداً إلى التحقير ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ همزة إستفهام دخلت على همزة الوصل فسقطت من اللفظ للاستغناء عنها ولعدم اللبس بالخبر فإن همزة الوصل ههنا مكسورة بخلاف ما إذا كان همزة الوصل مفتوحةً نحو الله وآلذكر وآلآن فإن هناك لا تحذف بل تسهل أو تبدل ألفاً ويمد وسقطت من الخط أيضاً على خلاف القياس ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ منصوب على المصدرية بافترى إذ الإفتراء نوع من الكذب وهو التعمد به ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه وزعم بعضهم بجعل الجنون قسيماً للإفتراء أن بين الصدق والكذب واسطة وهي كل خبر لا يكون على بصيرة بالمخبر عنه وضعفه بَيّنٌ فإن الإفتراء ليس مساوٍ للكذب بل هو أخص منه فإن الكذب خبر لا يطابق الواقع سواء كان عمداً أو خطأً بل الذين لا يؤمنون إضراب من جملة مقدرة أي لم يفتر وليس به جنة ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ فيها ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا، رد الله سبحانه عليهم ترديد هم وأثبت لهم ما هو أقبح من القسمين وهو البعيد من الضلال بحيث لا يرجى الخلاص منه وما هو مراده أي العذاب، وجعل العذاب مقارناً للضلال في الحكم مقدماً عليه في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له والبعد في الأصل صفة إتصال وصف به الضلال مجازاً كقوله شعر شاعر.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ الإستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أعموا فلم يروا أي لم ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ يعني إلى ما أحاط بجوانبهم ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أن المشاهدات كلها تدل على كمال قدرة الصانع المختار وكمال قدرة الصانع المختار وكمال قدرته يقتضي جواز البعث فكيف يحكمون باستحالته وكونه مكذباً فيه مفترى والمخبر على كمال صفات الكمال من العقل والصدق المعروف بينهم فكيف يحكمون عليه بالجنون والهزاء فما هو إلا ضلال بعيد، فهذه الجملة تعليل لقوله بل الذين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ في الْعَذَاب وَالضَّلاَلِ الْبَعِيْد ثم بعد شُرح ضلالهم يخوفهم الله تعالى على ما هم عليه بقوله ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ قرأ الكسائي بإدغام الفاء في الباء والباقون بالإظهار ﴿الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾.

قرأ حمزة والكسائي يشأ يخسف يُسقط بالياء فيهن على الغيبة لذكر الله فيما قبل والباقون بالنون على التكلم ﴿عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات قرأ حفص كسفاً بتحريك السين والباقون بإسكانها قيل قوله: ﴿ألم يروا إلى ما بين أيديهم﴾ تمهيد للإنذار والتخويف والمعنى أعموا فلم يروا ما أحاط بهم من السماء والأرض حيثما كانوا وأين ما ساروا مقهورين لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما ويخرجوا من ملكوتنا يعني قد رأوا ذلك فليخافوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون أو يسقط عليهم كسفاً من السماء كما أرسلنا حجارة من السماء على قوم لوط لتكذيبهم رسولنا وكفرهم بآياتنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي يرونه من السماوات والأرض ﴿لَآيَةً﴾ دلالةً واضحة على كمال القدرة وجواز البعث بعد الموت وجواز تعذيب من كفر بالله ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله بقلبه لكونه كثير التفكر والتأمل.

﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ولقد آتينا داوود منا فضلا﴾ على كثير من عباده المؤمنين يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن سليمان ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[1] ويندرج فيه النبوة والكتاب والملك وحسن الصوت وتلين الحديد وغير ذلك، وفضلاً منصوب على المفعولية ومنّا حال منه ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ بدل من فضلاً أو من آتينا بتضمين القول أي قلنا يا جبال أوبى معه أي سبح معه، والإياب الرجوع أي إرجعي في التسبيح كلما رجع داوود فيه، أو الإياب هو التسبيح يقال أَوَّبَ إذا سبح فإن المسبح يرجع إلى الله معرضاً عن غيره، وقال القتيبي أصله من التأويب في السير وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلاً كأنه قال إذا أتى النهار سيري بالتسبيح معه، وقال وهب نَوحى معه ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال قرأ يعقوب بالرفع حملاً على لفظه والباقون بالنصب حملاً على محله وجاز أن يكون النصب عطفاً على فضلاً أو على أنه مفعول معه لأوبي وجاز أن يكون بالعطف على ضميره، قال البيضاوي كان أصل النظم ولقد آتينا داوود منا فضلاً وهي تأويب الجبال والطير فبدل به هذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه حيث جعل الجبال والطيور كالعقلاء المنقادين لأمره في نفاذ مشيئته فيها، قال البغوي كان داوود إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير عليه من فوقه، وقيل كان داوود إذا تخلل الجبال فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح، وقيل كان داوود إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطاً له ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ حتى كان الحديد في يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشأ من غير نار ولا ضرب مطرقة.

قال البغوي: كان سبب ذلك على ما روي في الأخبار أن داوود لما ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج للناس متنكراً فإذا رأى من لا يعرفه يقدم إليه ويسأله عن داوود ويقول ما تقول في داوود واليكم هذا أي رجل هو فيثنون عليه ويقولون خيراً، فقيض الله له ملكاً في صورة آدمي فلما رآه داوود تقدم إليه على عادته فسأله فقال الملك نعم الرجل هو ولا خصلة فيه فراغ داوود ذلك، وقال ما هي يا عبد الله؟ قال إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله يسبب له سبباً يستغني به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلّمه صنعة الدرع وإنه أول من اتخذها، ويقال إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف على الفقراء والمساكين، عن المقدام بن

(١) سورة النمل، الآية: ١٥.

معديكرب قال قال رسول الله ﷺ «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(١) رواه البخاري وأحمد وذكر البغوي هذا الحديث بلفظ «كان داوود لا يأكل إلا من عمل يده» ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أي أمرنا أن اعمل أن مصدرية أو مفسرة ﴿سَابِغَاتٍ﴾ أي دروعاً كوامل واسعات طوال يجرها لابسها على الأرض ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ السرد خرز الجلد واستعير لنسج الدرع يعني قدر في نسجها بحيث تناسب حلقها ومساميرها فلا تجعلها رقاقاً فتغلق ولا غلاظاً فتكسر الحلق ﴿واعملوا﴾ يا داوود وآله ﴿صَالِحًا﴾ خالصاً لله صالحاً لقبوله منصوب على المفعولية والمصدرية ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً أمر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾»(٢) الحديث رواه مسلم.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره ولسليمان الريح مسخرة أورد الجملة اسمية للدلالة على أن كونها مسخرةٌ لسليمان أمر ثابت عند العامة مذكور على الألسنة أو على تقدير فعل مجهول يعني سخر لسليمان الريح والباقون بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره وسخرنا لسليمان الريح والجملة معطوفة على مفهوم كلام سابق فإنه يفهم من قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أنه سخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وقد ورد بهذا اللفظ في سورة الأنبياء ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جملة مستأنفة أي جريها بالغدو يعني من الصباح إلى الزوال كان مسيرة شهر وبالعشي أي من الزوال إلى الغروب كان كذلك، قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر ثم يروح من اصطخر فيبيت ببابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وقيل إنه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ النحاس عطف على سخرنا لسليمان الريح أسال الله تعالى له النحاس المذاب من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سماه عيناً، قال البغوي قال أهل التفسير أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام إلى اليمن كجري الماء وكان بأرض اليمن وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان عليه السلام ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ على تقدير كون الريح مرفوعاً الموصول مع الصلة مبتدأ خبره محذوف أي مسخرة ومن الجن حال من الضمير

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

المستكن في يعمل عَطفُ جملة اسميةٍ على جملة اسمية، وعلى تقدير كونه منصوباً الموصول معطوف على الريح ومن الجن حال منه مقدم عليه تقديره وسخرنا له من يعمل بين يديه من الجن ﴿بإذن ربه﴾ أي بأمره وحكمه أو بإرادته وتسخيره متعلق بيعمل ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أي من يعدل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي عما أمرنا به من طاعة سليمان وأردنا ذلك ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قيل المراد به عذاب الآخرة وقيل المراد به الإحراق بالنار في الدنيا، قلتُ إن كان المراد بالإذن والأمر الأمر التكليفي فالمناسب أن يفسر العذاب بالعذاب في الآخرة لأنها هي دار الجزاء على التكليفات وإن كان المراد بالإذن الإرادة والتسخير كما هو الظاهر فالظاهر أن المراد به عذاب الدنيا، قال البغوي وذلك أن الله عزَّوجلَّ وكل بهم ملَكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منه عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته، لا يقال إن كان الله أراد من الجن العمل فكيف يتصور من الجن العدول عنه لأنه يلزم منه تخلف المراد عن الإرادة وهو محال لأن من في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ للتبعيض فالمعنى أن الله تعالى أراد أن يعمل لسليمان بعض الجن أي أكثرهم ولذلك وكل ملكاً يعذب من عدل من أمر سليمان وذلك في الظاهر سبب لأن يعمل لسليمان أكثر الجن، أو يقال معنى قوله من يزغ من أراد الزيغ منهم يضربه الملك حتى لا يزيغ.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ﴾ حال من فاعل يعمل أو مستأنفة ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصوراً حصينة ومساجد رفيعة ومساكن شريفة سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها، قال البغوي فكان مما عملوا له بيت المقدس إبتداه داوود ورفعه قامة رجل فأوحى الله إليه إني لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسّم عليهم الأعمال فخصَّ كل طائفة منهم بعمل يستصلحها له، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرخام الأبيض من معادنه، فأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعل اثني عشر ربضاً وأنزل بكل ربض منها سبطاً من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطاً فلما فرغ من بناء المدينة إبتدأ في بناء المسجد وفرق الشياطين فرقاً فرقاً يستخرجون الذهب والفصة والياقوت من معادنها والدر الصافي من البحر وفرقاً يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها وفرقاً يأتونه بالمسك والعنبر وسائر الطيب من أماكنها فأتى بذلك التي لا يحصيها إلا الله عزَّ وجلَّ، ثم أحضر الصناعين وأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحاً وإصلاح تلك الجواهر وثقب اللآلىء واليواقيت، وبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده بأساطين المينا الصافي وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وجصص سقوفه وحيطانه

باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضها بألواح الفيروزج، فلم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى وأنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كأنه القمر ليلة البدر، فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه الله تعالى وأن كل شيء فيه خالص الله واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنين وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة سأل حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأل ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده فأعطاه إياه وسأل أن لا يأتي هذا البيت أحد يصلي فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»(١) رواه البغوي.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مئة صلاة وصلاته في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة»(٢) رواه ابن ماجه، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»(٣) متفق عليه.

مسألة:

هل يجوز تزيين المساجد بالذهب والفضة ونحوهما؟ قال بعضهم يكره ذلك لأن فيه إضاعة المال وقد قال رسول الله ﷺ «ما أمرت بتشييد المساجد»(٤) رواه أبو داوود عن ابن عباس، وقال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى، وقال عليه السلام:

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في بيت المقدس (١٤٠٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في المسجد الجامع (١٤١٣)، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (٨٢٧)ج
أما الرواية عند البخاري وهو أيضاً عند مسلم وأصحاب السنن «لا تشد الرحال»، أخرجه البخاري في كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٨٩).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في بناء المساجد (٤٤٧).

«إن من أشراط الساعة أن تزين المساجد» الحديث، وقال بعضهم هو قربة لما فيه من تعظيم المسجد وقصة سليمان عليه السلام في تزيين مسجد بيت المقدس يؤيد هذا القول، قال صاحب البداية وهذا إذا فعل من مال نفسه وأما المتولي فيفعل من مال الوقف ما يرجع إلى أحكام البناء دون ما يرجع إلى النقش حتى لو فعل يضمن.

وقال ابن همام ولا شك أن الدفع إلى الفقير أولى من تزيين المسجد وعند أكثر علمائنا لا بأس بأن ينقش المسجد بالجص والساج وماء الذهب وقوله لا بأس يشير إلى أنه لا يؤجر عليه لكن يأثم به كذا في الهداية، قال ابن همام ومحل الكراهة التكلف فيه بدقائق النقوش ونحوه خصوصاً في المحراب أو التزين مع ترك الصلاة أو عدم إعطائه حقه من اللفَظ فيه والجلوس لحديث الدنيا ورفع الأصوات بدليل آخر الحديث وهو قوله وقلوبهم خاوية من الإيمان، قلت وحديث النبيّ ﷺ أولى بالإتباع من قصة سليمان لأن شرائع من قبلنا لا يجوز إتباعه إلا إذا لم يثبت في شريعتنا ما يخالفه، وأيضاً كان فيما فعل سليمان حكمة وهي أن تشتغل الشياطين عن إضلال الناس في أعمال شاقة والله أعلم، قال البغوي قالوا يعني أهل الأخبار فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بخت نصر فخرَّب المدينة وهدمها ونقض المسجد وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة لسليمان باليمن حصوناً كغيرةً عجيبة من الصخرة.

(وتماثيل):

أي صوراً من نحاس وصفر وشبهٍ وزجاج ورخام، قيل كانوا يصورون السباع والطيور، وقيل كانوا يتخذون صور الملائكة والأنبياء والصالحين في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة وكانت مباحة في شريعتهم، قلتُ ولعل المراد به تماثيل غير ذي الروح لأن تماثيل الإنسان كانت تعبد قبل ذلك حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[(١)] وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً فيعذبه في جهنم» قال ابن عباس فإن كنت لا بد فاعلاً فأصنع الشجر وما لا روح فيه»[(٢)] متفق عليه، وهذا الحديث عام في كل مصور غير مختص بمصوري هذه الأمة وهو خبر لا يحتمل

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: اللباس الزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه سورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه (٢١١٠).

النسخ والتبديل، وعنه مرفوعاً «من صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ»(١) رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان يسمعان ولسان ينطق يقول إني وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين»(٢) رواه الترمذي، وعنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقي فليخلقوا ذرةً وليخلقوا حبةً أو شعيرة»(٣) متفق عليه، وسياق هذه الأحاديث يدل على أن حرمة التصوير غير مختص بهذه الأمة، لا يقال أن عيسى كان يتخذ صورة من الطين، قلنا: كان ذلك بإذن الله كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وإنما المحرم على من يتخذ صورة فلا يستطيع أن ينفخ فيه الروح فيكلف أن ينفخ فيها وهو ليس بنافخ أبداً ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة بمعنى القصعة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ قرأ ابن كثير كالجوابي بإثبات الياء وصلاً ووقفاً وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، جمع جابية وهو حوض ضخم كذا في القاموس مشتق من جبى الخراج يقال للحوض الكبير لما يجيء فيه الماء فهي من الصفات الغالبة، قال البغوي كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثابتات لها قوائم لا يحركن عن أماكنها لعظمهن لا ينزلن ولا يعطلن وكان يصعد إليها بالسلاليم وكانت باليمن ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾ أي قلنا له ولأتباعه اعملوا جملة مستأنفة يا ﴿آل داوود شكراً﴾ تنكيره للتقليل فإن الشكر الكثير بالنسبة إلى نعماء الله سبحانه خارج عن طوق البشر بل عن طوق كل مخلوق وهو منصوب على العِلّية، أي اعملوا بطاعتي لشكر نعمتي، أو على المصدرية لأن العمل بالطاعة شكر أو على أنه وصف للمصدر أي اعملوا عملاً شكراً أو على الحال أي حال كونكم شاكرين أو على المفعولية أي إعملوا شكراً، قال جعفر بن سليمان سمعتُ ثابتاً يقول كان داوود نبي الله قد جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا والإنسان من آل داوود قائم يصلي ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر لسانه وجوارحه في أكثر أوقاته وتقلبه دائماً بلا فتور وذلك بعد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: بيع التصاوير التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك (٢٢٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة النار (٢٥٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: نقض الصورة (٥٩٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١١).

فناء القلب ودوام الحضور، ومع ذلك لا يوفي حقه لأن توفيقه للشكر نعمة ليستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى نفسه عاجزاً عن الشكر ﴿فلما قضينا﴾ أي حكمنا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على سليمان ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ قال البغوي قال أهل العلم كان سليمان عليه السلام يتحرز في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقلّ من ذلك وأكثر يدخل فيه طعامه وشرابه، فأدخل في المرة التي مات فيها وكان بدء ذلك أنه كان لا يصبح يوماً إلا نبتت في محراب بيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك، فتقول اسمي كذا فيقول لأيّ شيء أنت؟ فتقول لكذا وكذا، فيأمر بها فتقطع فإن كانت نبتت لغرس غرسها وإن كانت لدواء كتب حتى نبتت الخروبة فقال لها ما أنت؟ قالت الخروبة، قال لأيّ شيء نبت؟ قالت لخراب مسجدك، فقال سليمان ما كان الله ليخرّبه وأنا حيٌّ أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط كريم، وقال اللّهم أعم موتي على الجن ليعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب ما شاؤوا ويعلمون ما في الغد، ثم دخل المحراب فقام يصلّي متكئاً على عصاه فمات قائماً وكان للمحراب كوى بين يديه ومن خلفه وكانت الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها في حياته وينظرون إليه يحسبون أنه حيٌّ ولا ينكرون إحتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأرض عصا سليمان فخر ميتاً فعلموا بموته، قال ابن عباس فشكرت الجن الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشبة، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن يزيد قال قال سليمان لملك الموت إذا أمرتَ لي فأعلمني فأتاه فقال يا سليمان قد أمرتُ بك قد بقيت سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلّي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها فبقي كذلك حتى أكلها الأرضة فخر ثم فتحوا عليه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت يوماً وليلاً فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة.

﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن أو آله ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأرضة التي يقال لها بالفارسية ديوك وهي دابة صغيرة تأكل الخشب والمراد بالأرض الثرى أضيف إليها الدابّة، وقيل الأرض مصدر أرضت الخشبة بالبناء للمفعول أي أكلتها أرضة فهو من قبيل إضافة الشيء إلى فعله كما في بقرة الحرث ورجل الحرب (تأكل) حال من دابة الأرض ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي عصاه من نسأوتُ الغنم أي زجرتها وسقتُها ومنه نسأ الله في أجله أي أخره، قرأ نافع وأبو عمرو بألف ساكنة بدل الهمزة وابن ذكوان بهمزة ساكنة والباقون

بهمزة مفتوحة على الأصل فإنه مفعول تأكل وحمزة إذا وقف جعلها بين بين ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ أي ظهرت ﴿ٱلْجِنُّ أَن﴾ مخففة من الثقيلة اسمه ضمير الشأن محذوف ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ ما غاب عنهم كموت سلميان ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي في التعب والمشقة مسخرين لسليمان وهو ميت يظنونه حيّاً، أن مع صلته بدل إشتمال من الجن يعني ظهر عدم علمهم بالغيب على الناس لأنهم كانوا يشبهون ذلك على الإنس ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن مسعود وابن عباس تَبَيَّنَت الإنس أي علمت ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟﴾ أي الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، وقيل معنى الآية علمت الجِنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وهذا التأويل مستبعد جدّاً فإن الجن كانوا يعلمون جهلهم وإنما كانوا يدَّعون علمهم بالغيب عند الإنس، قال البغوي ذكر أهل التاريخ أن سليمان كان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ومدة ملكه أربعون سنة ومَلَكَ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين في ملكه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطفاني قدم على رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عزو إني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم؟ فقال ما أمرتُ فيهم بشيء بعد فنزلت ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ آية أي دلالة على كمال قدرتنا ووجوب شكرنا، قرأ البزي وأبو عمرو لسبأ بفتح الهمزة من غير تنوين لأنه صار اسم قبيلة فمنع عن الصرف للتأنيث مع العلمية وقنبل

بإسكانها على نية الوقف والباقون بخفضها مع التنوين لأنه كان اسم رجل، قرأ حفص وحمزة والكسائي مسكنهم بإسكان السين بغير ألف على الإفراد غير أن حمزة وحفص يفتحان الكاف على القياس والكسائي بكسرها حملاً على ما شذَّ من القياس كالمسجد والمطلِع والباقون بفتح السين وكسر الكاف وألف بينهما على الجمع، قال البغوي روى أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك الغطيفي قال قال رجل يا رسول الله أخبرني عن سبأ كان رجلاً أو امرأة أو أرضاً؟ قال: كان رجلاً من العرب ولد له عشرة من الولد تَيا مَنَ منهم ستة وتَشَاءَمَ منهم أربعة فأما الذين يتأمنوا فكندة والأشعريون وأزد ومذحج وأنمار وحمير، فقال رجل وما أنمار قال الذين منهم خثعم وبحيلة، وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان، وكذا أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس مرفوعاً، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية أو خير محذوف تقديره الآية جنتان والمراد جماعتان من البساطين جماعة ﴿عَن يَمِينٍ﴾ البلد ﴿وَ﴾ جماعة عن ﴿شمال﴾ البلد أو يكون بستان لكلِ رجل عن يمين مسكنه وشماله ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني من ثمار الجنتين ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ على ما رزقكم من النعمة والمعنى إعملوا بالطاعة، يعني قال لهم نبيهم ذلك أو لسانُ الحال يعني دل الحالُ على أنهم كانوا أحقاء أن يقال لهم ذلك ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ استئناف للدلالة على موجب الشكر يعني بلدكم هذا بلدة طيبة كثيرة الثمر ليست بسبخة، قال السديُّ ومقاتل كانت المرأة تحمل على رأسها المكتل وتمرُّ بالجنتين فيمتلىء المكتل بأنواع الفواكه من غير أن تمس شيئاً بيدها، وقال ابن زيد لم تكن تُرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وكان الرجل يمر ببلدهم وفي ثيابه القمل كلها من طيب الهواء فذلك قوله تعالى بلدة طيبة أي طيبة الهواء ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ قال مقاتل رب غفور للذنوب إن شكرتم فيما رزقكم.

قال وهب أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً دعوهم إلى الله وذكّروهم نعمه عليهم وأنذرهم عقابه ﴿فاعرضوا﴾ عنهم وكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة قولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا إن إستطاع قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي سيل الأمر العرم أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم إذا ساء خلقه وصعب أو سيل المطر الشديد قيل كان ماء أحمر أرسل الله عليهم من حيث شاء، وقيل العرم الوادي وأصله من العرامة وهي الشدة والقوة، وقيل العرم المسناة، وقيل العرم الجُرَاذُ الذكر أضاف إليه السبيل لأنه نقب عليهم سكراً ضربت لهم بلقيس، وفي القاموس عرمَةَ كفرحة سد يعترض به الوادي جمعه عَرِمٌ أو هو جمع بلا واحد أو هو الإحباس تبني في الأودية والجُرذُ الذكر

والمطر الشديد وواد ولكل فسر قوله تعالى: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ قال البغوي قال ابن عباس وابن وهب وغيرهما كان ذلك يعني العرم السد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم أفسد بالعرم وهو المسناة بلغة حمير فسدت بين الجبلين بالصخرة والقار وجعلت لها أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة ضخيمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهارها يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء فإذا استغنوا سدوها فإذا جاء المطر اجتمع ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث...... الأسفل فلا ينفذ الماء حتى يثوب من السنة المقبلة فكان يقسم على ذلك فبقوا على ذلك بعد ذلك مدة فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جُرَاذاً يسمى الخلد فنقب السدَّ من أسفله فغرق الماء جناتهم وخرَّب أرضهم، قال وهب وكانوا فيما يزعمون ويَجدون في علمهم كهانتهم أنه يخرّب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجةً بين حجرين إلا ربطو عندها هرة فلمَّا جاء زمانه وما أراد الله عزَّ وجلَّ بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فأرةٌ حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت منها الهرة فدخلت في الفرجة التي كانت عندهما فتغلغلت في السد فثقبت وحفرت حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون بذلك، فلمَّا جاء السيل وجد خللاً فدخل فيه حتى قطع السد وفاض على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا وتمزّقوا حتى صاروا مثلاً عند العرب يقولون صار بنو فلان أيدي سبأ وأيادي سبأ أي تفرقوا وتبددوا فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾.

﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل﴾ قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف والباقون بضمها وهما لغتان، قال في القاموس الأكل بالضم وبالضمتين الثمر والرزق قرأ الجمهور أكلِ وأبو عمرو بالإضافة إلى ﴿خَمْطٍ﴾ فعلى قراءة الجمهور خمط صفة له ومعناه حامض أو مرٌّ أو عطف بيان أو بدل ومعناه ثمر الأراك وعلى قراءة أبي عمرو الخمط كل نبت أخذ طعماً مرّاً أو شجرة الأراك أو نحو ذلك فهو لفظ مشترك، قال في القاموس الخمط الحامض أو المرُّ من كل شيء وكخل نبت أخذ طعماً من مرارته وشجر رائحته كالسدر وشجر قاتل وكل شجرة شوك له وثمر الأراك وقيل شجرة الأراك، وقال البيضاوي التقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في كونه بدلاً أو عطف بيان يعني على قراءة الجمهور وكون الخمط بمعنى الشجر، وقال البغوي الأكل الثمر والخمط الأراك وثمرة يقال له البرير هذا قول أكثر المفسرين، وقال المبرد كل نبت قد أخذ طعماً

من المرارة، وقال ابن الأعرابي ثمر شجر يقال له نسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به ﴿وَأَثْلٍ﴾ أي الطرفا معطوف على أكل لا على خمط إذ لا ثمر له، وقيل هو شجر يشبه بالطرفا إلا أنه أعظم ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وصف السدر بالقلة فإن جناه وهو النبق ممَّا يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين، وقال البغوي لم يكن السدر ذلك بل كان سدراً برّياً لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشيء وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم ﴿ذلك﴾ منصوب المحل على المصدرية يعني جزيناهم ذلك الجزاء أو مرفوع على أنه مبتدأ ما بعده خبره يعني ذلك العقاب والتبديل ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ أي بكفرانهم النعمة أو بكفرهم الرسل ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي نجازي بالنون وكسر الزاء على التكلم والبناء للفاعل والكفور بالنصب على المفعولية والباقون بالياء التحتانية وفتح الزاء على الغيبة والبناء للمفعول والكفور بالرفع على أنه قائم مقام الفاعل يعني ما يناقش إلا هو وما نناقش إلا إياه.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على بدلنا يقال كان هذا سابقاً على التبديل فكيف ذكر بعده لأن الواو لمطلق الجمع دون الترتيب فلا ينافي كونه سابقاً عليه ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالأنهار والأشجار والتوسعة على أهلها وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي متظاهرة تظاهر الثانية من الأولى لقربها منها ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي وقدَّرنا سيرهم فيها يعني كانوا يسيرون فيها وإذا ساروا كانوا يبيتون في قرية ويقيلون في أخرى وكانوا لا يحتاجون من حمل زاد من سبأ إلى الشام، قيل كانت أربعة آلاف وسبع مائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام، قال قتادة كانت المرأة تخرج ومعها مغزلها وعلى رأسها مكتلها فتمتهن بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى تمتلىء مكتلها من الثمار وكان ما بين اليمن والشام كذلك ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادة القول يعني قلنا بلسان المقال أو الحال فإنهم لما مكنوا من السير كذلك كانوا كأنهم أمروا به ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ يعني متى شئتم ليلاً أو نهاراً ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي حال كونكم لا ولا سبعاً ولا جوعاً ولا عطشاً فبطروا وطغوا ولم يشكروا وقالوا لو كان بين جناتنا أبعد مما هي لكان أجدر أن تشتهيه ﴿فَقَالُواْ﴾ عطف على جعلنا يا ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بَعِّدْ بتشديد العين من التفعيل والباقون بالألف من المفاعلة ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي إجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوزات لنركب فيها الرواحل ونتزود الازواد ونربح في التجارات ونتفاخر على الناس فعجل الله لهم الإجابة، قرأ يعقوب ربُّنَا بالرفع على الإبتداء وبعد بفتح العين والدال على صيغة الماضي كأنهم استبعدوا أسفارهم القريبة أشراً وبطراً ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالبطر والطغيان

عطف على قالوا ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجباً وضرب مثل فيقولون تفرقوا أيدي سبأ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقناهم في كل وجه من البلاد كل تفريق، قال الشعبي لمَّا غرقت قراهم تفرقوا في البلاد، أما غسان فلحقوا بالشام ومرَّ الأزد إلى عمان وخزاعة إلى تهامة ومر آل خزيمة إلى العراق والأوس والخزرج إلى يثرب وهم آل أنمار وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الأوس والخزرج ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر (لآيات) لعبر ودلالات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي وعلى البلاء والطاعة ﴿شكور﴾ على النعم، قال مقاتل يعنيَ مؤمني هذه الأمة صبور على البلاء شكور للنعماء وكذا قال مطرف، قلت بل هو صبور وشكور دائماً فإن الدنيا دار البلاء حتى أن النعمة أيضاً بلاء يبتلى به العبد هل يشكر عليه أم لا موته بلاء وحياته بلاء قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] فهو صبور دائماً عن المعاصي وعلى المصائب والطاعات وكل بلاء ومصيبة مكفرة للذنوب فهي كما يوجب الصبر يوجب الشكر ثم توفيق الصبر أيضاً نعمة من الله يوجب الشكر، وقال المجدد رضي الله عنه إيلام المحبوب ألذ من إنعامه فهو أولى بالشكر، قال الشاعر فإني في الوصال عبيد نفسي وفي الهجران مولى للموالي، قال رسول الله ﷺ «الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر» رواه البيهقي في شعب الإيمان، قلت: فالمؤمن تامُّ الإيمان جامع للنصفين دائماً غير مقتصر على النصف دون النصف.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الناس كلهم كذا قال مجاهد وقيل المراد على أهل سبأ أي على الكفار منهم ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ قرأ أهل الكوفة صَدَّقَ بالتشديد يعني ظنَّ فيهم ظَنّاً حيث قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[3] فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك بهم واتباعهم إياه أو وجده صادقاً وقرأ الآخرون بالتخفيف أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه مثل فعلتهُ جمدك، ويجوزأن يعدى الفعل إليه بنفسه كما في صدق وعده لأنه نوع من القول، قال ابن قتيبة لما سأل إبليس النظرة ﴿فأنظره الله فقال لأضلنهم ولأغوينهم﴾ ولم يكن مستيقناً وقت هذه المقالة أن ما قاله فيهم يتم وإنما قاله ظنّاً فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من أهل سبأ

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

أو من الناس كلهم، قال السديُّ عن ابن عباس يعني أن المؤمنين كلهم لم يتبعوه في أصل الدين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١) يعني المؤمنين فمن للبيان، وقيل من للتبعيض يعني بعض المؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾ أي لإبليس ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ اسم كان ومن زائدة والظرف المستقر أعني لَهُ خبره وعليهم متعلق بالظرف يعني لم يكن له قدرة على أن يوسوسهم ويعدهم ويمنيهم إلا بتسليطنا إياه عليهم حيث قلنا ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم﴾(٢) لشيء ﴿إلا لنعلم﴾ أي لنميز ﴿من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ فنجازي كلاً منها على حسب ما عمل، قال الحسن: إن إبليس لم يسل عليهم سيفاً ولا ضربهم بسوط وإنما وعدهم ومنَّاهم فاغتروا، فإن قيل هذه الآية تدل على كون علمه تعالى حادثاً وهو يقتضي الجهل سابقاً تعالى الله عن ذلك؟ أجيب بأن علمه تعالى قديم لكن تعلق العلم بالمعلوم حادث والمراد هاهنا بحصول العلم حصول متعلقه مبالغةً، ويرد عليه أن العلم ما لم يتعلق بالمعلوم لا ينكشف المعلوم عند العالم فإن العلم قبل التعلق بالمعلوم إنما هو العلم بالقوة لا بالفعل فكون تعلق العلم حادثاً يقتضي سبق الجهل فبقي المحذور، فأجيب بأن علمه تعالى قبل وجود الحادث كان متعلقاً به كاشفاً عنده تعالى كونه موجوداً وهذا لا يقتضي سبق الجهل بل سبق علمه تعالى بكونه معدوماً كما هو في الواقع فلا محذور، ومعنى الآية ليتعلق علمنا بذلك موجوداً كما تعلق به معدوماً لكن يلزم حينئذ كونه تعالى محلاً للتغير فالأولى أن يقال أن الزمان بجميع أجزائه وما فيها حاضر عند الله سبحانه متعلق علمه تعالى بها قديماً سرمداً وإنما التعاقب فيها بنسبة بعضها إلى بعض فزيد الذي هو موجود في وقت ومعدوم في وقت حاضر عند الله بكلا الحالتين كما أن كونه في مكان دون مكان حاضر عنده بلا تغير في ذاته تعالى فمعنى الآية لنعلم قديماً سرمداً من يؤمن ممن هو في شك وهذا لا يتقضي مسبوقية علمه تعالى، كيف وأن السابقية والمسبوقية إنما يتصور فيما يجري عليه الزمان كما أن الفوقية والتحتية لا يتصور إلا فيما يحويه المكان ومن هو خالق للزمان والمكان منزه عنها كلها، لكن هذه الآية تدل على أن العلم تابع للمعلوم وكون المعلوم حادثاً لا يقتضي كون العلم به حادثاً فإن المعلوم محفوف بالزمان والعلم محيط به شتان ما بينهما، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الزمان والزمانيات ومن المؤمن والكافر ﴿حَفِيظٌ﴾ رقيب محافظ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

غير غافل عن شيء فيجازي كلاً على حسب عمله.

﴿قُلِ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ادْعُوا﴾ أيها الكفار ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ وأي زعمتموهم آلهة هما مفعولان لزعمتم حذف الأول لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته مقامه أعني ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ولا يجوز أن يكون هذا مفعوله الثاني لأنه لا يحصل به كلاماً مفيداً ولا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه، والمعنى أدعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع خير يستجيبون لكم إن صح دعواكم كأنَّ هذا الكلام يدل على الشرطية من القياس الاستثنائي تقديره إن صح دعواكم بأنهم آلهة من دون الله يستجيبون لكم إذا دعوتموهم لكنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ فهذا جملة مستأنفة يدل على الاستثناء ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر كائنة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يستجيبون لكم فلا يصح دعواكم وذكرهما للعموم العرفي أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام أو لأن الأسباب الظاهرية للشر والخير سماوية وأرضية ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي شركة زائدة والجملة معطوفة على لا يملكون ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي لله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ أي من شركائهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه على خلقها وتدبيرها.

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن يشفع أو أذن أن يشفع له، واللام على الأول كما في قولك الكرم له وعلى الثاني كما في قولك جئتك لزيد، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي أذن بضم الهمزة على صيغة المجهول والباقون بفتحها على صيغة المعروف، وهذا ردٌّ لما قالت الكفار على سبيل التنزل أنه سلمنا أن الملائكة والأصنام لا يملكون شيئاً وليسوا شركاء الله لكنهم يشفعون لنا عند الله فقال الله تعالى لا تنفع شفاعة

أحد لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ والأصنام ليسوا أهلاً لأن يؤذن الشفاعة لانحطاط رتبتها عنها والكفار لا يستحقون لأن يؤذن لأحد في شفاعتهم لطغيانهم وكفرهم ولا يؤذن للأنبياء والملائكة إلا لشفاعة المؤمنين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب فَزَّعَ بفتح الفاء والزاء على البناء للفاعل والضمير المستكن عائد إلى الله، والباقون بضم الفاء وكسر الزاء على البناء للمفعول والجار مع المجرور قائم مقام الفاعل والتفزيع إزالة الفزع كالتمريض إزالة المرض، والضمير في قلوبهم راجع إلى الشافعين والمشفوع لهم المفهومين مما سبق وحتى غاية للجملة المقدرة المفهومة مما سبق أعني قوله تعالى: ﴿لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ فإنه يفهم منه أن الشفعاءُ المشفوع لهم ينتظرون الإذن للشفاعة فزعين خائفين احتمال عدم الإذن أو فزعين من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عز وجل هيبةً وجلالاً حين يأذن لهم في الشفاعة قلتُ وكذلك يأخذ هو الغشية كلما قضى الله أمراً. روى البخاري عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ فسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض (ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدر بين أصابعه) فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معه مئة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»[1]، وروى مسلم عن ابن عباس عن رجل من الأنصار أنه قال رسول الله ﷺ في حديث «ربُّنَا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذا السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قَالَ رَبُّكُمُ فيخبر ونهم ما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذه السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم فَيُرْمَوْن فما جاؤا به على وجهه فهو حق لكنهَّم يقذفون ويزيدون»[2] وروى البغوى عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ (٤٧٠١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

رسول الله ﷺ «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرئيل فيكلم الله وحيه بما أراد ثم يمر جبرئيل على الملائكة كلما مرَّ بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرئيل فيقول جبرئيل قال الحق وهو العلي الكبير، قال فيقولون كلهم مثل ما قال جبرئيل فينتهي جبرئيل باوحي حيث أمر الله» والظرف يعني ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقوله ﴿قَالُوا﴾ يعني قال بعضهم لبعض حين ينكشف عنهم الفزع اللاحق بهم بالإذن في الشفاعة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿الْحَقَّ﴾ مقول لقال المقدر يعني قال ربنا الحقَّ وهو الإذن في الشفاعة التي هو الحق يعني لمن هو أهلها وهم المؤمنون ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي ذو العلو والكبيرياء لا يستطيع ملك مقرب ولا نبي مرسل أن يتكلم فيه إلا بإذنه.

قال البغوي قال بعضهم إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة، قال مقاتل والكلبي والسدي كانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ خمس مائة وخمسين سنة، وقيل ست مئة سنة لم يسمع الملائكة فيها وحياً فلمَّا بُعِثَ محمد ﷺ بالرسالة وسمع الملائكة ظنوا أنها الساعة لأن محمداً ﷺ عند أهل السماوات من أشراط الساعة فيصعقوا ممَّا سمعوا خوفاً من قيام الساعة فلما أنحدر جبرئيل يعني في بدء الوحي جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرتفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعنون الوحي ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فإن قيل على ما قال مقاتل وأمثاله كيف يرتبط قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بما سبق من الكلام؟ قلتُ لعل وجه ارتباطه أنه متصل بقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي انزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ والمراد بالذين أوتوا العلم الملائكة وما بينهما اعتراض والمعنى ويرى اللائكة ما أنزل إليك من ربك من القرآن هو الحق ولذلك افزعوا عند نزوله خوفاً من قيام الساعة حيث كان نزوله عندهم من أشراط الساعة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وقال جماعة الموصوفون بذلك المشركون، قال الحسن وابن زيد حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند نزول الموت بهم إقامة للحجة عليهم قالت لهم الملائكة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ على لسان رسله في الدنيا قالوا الحق فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، قلت: وعلى هذا التأويل هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يعني هم في شك إلى الموت حتى إذا فزع عن قلوبهم بعد الموت أقروا حين لا ينفعهم الإقرار.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ المطر ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و النبات من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بأن الله يرزق لا غيره وفيه تأكيد لقوله لا يملكون وهذه الجملة متصلة بقوله قل ادعوا ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فاعل لفعل محذوف أي يرزقكم الله إذ لا جواب سواه وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا وتوقفوا في الجواب مخافة الإلزام فهم مُقِرُّوْنَ بقلوبهم ذلك ﴿وَإِنَّآ﴾ أي الموحدين ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي المشركين بالله ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إذ التَّوحيد نفى الإشتراك فهو نقيضه والضلال نفي الهداية فهو نقيضه وارتفاع النقيضين وكذا اجتماعهما محال فهذه قضية منفصلة حقيقية عنادية والمفهوم مما سبق أن الله يرزق لا غير وهو يستلزم أن الموحد على هُدًى والمشرك ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فأنعقد القياس الإستثنائي بأن الموحدين إما على الهدى أو في ضلال مبين لعدم الواسطة لكنهم على الهدى إذ لا يرزق إلا الله فليسوا في ضلال أو لكنهم ليسوا على ضلال فهم على الهدى.

أو يقال المشركون إما على الهدى أو في ضلال مُبين لعدم الواسطة لكنهم ليسوا على هدى فهم في ضلالٍ أو لكنهم في ضلال إذ لا يرزق إلا الله فليسوا على هدى فليس هذا الكلام مبنياً على الشك بل على حصر الإحتمالات وإبطال إحدى النقيضين لإثبات الآخر وإثبات أحدهما لإبطال الآخر كما هو دأب المناظرة وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنَّه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث شاء وصاحب الضلال كأنه منغمس في ظلام لا يدري أين يتوجه.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني ما أمركم به من التوحيد وترك الإشراك إنه إنما هو نصيحة لكم وإلا فلا مضرة لأحد بعمل غيره ففي هذا الكلام حث وترغيب على ما أمر به من التوحيد وفي إسناده الإجرام إلى نفسه والعمل إلى المخاطب رعاية لحسن الأدب وإظهار النصح دون التعصب والتعنت ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي بيني وبينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ثم ﴿يَفْتَحُ﴾ أي يحكم ويفصل ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما يستحقه كل منا بإن يُدخل المحق الجنة والمبطل الدار ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ أي الحاكم الفاصل في القضايا المغلقة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يقضي به في الآية السابقة إلزام للكفار على سبيل المناظرة وفيما بعدها على سبيل النصيحة، وفي هذه الآية على طريقة التوبيخ يذكر حكم الله فيهم يوم القيامة.

﴿قُلْ أَرُونِىَ﴾ أي أعلموني ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ الموصول مع صلته مفعول

ثان لأروني وشركاء مفعوله الثالث يعني الذين ألحقتموهم بالله في إستحقاق العبادة أعلموني كونهم شركاء يعني بأيّ صفة جعلتموهم شركاء هل يخلقون شيئاً ويرزقون أو ينفعون أحداً أو يضرون يعني لا سبيل إلى القول بأنهم شركاء الله، في هذه الآية استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم وإقامة البرهان زيادة في تبكيتهم ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن الإلحاق بعد ظهور عدم المشاركة في شيء من الصفات ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني المستحق للعبادة ليس إلا ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صاحب العزة القاهرة والحكمة البالغة لا شريك له شيء في شيء من الصفات فكيف تلحقون به الجمادات النازلة في أدنى مراتب الممكنات المتسمة بالزلة الآبية عن قبول العلم والقدرة رأساً فالضمير عائد إلى المستحق للعبادة والله خبره، والحصر مستفاد من هذا التركيب والعزيز والحكيم صفتان لله أو خبران آخران وجاز أن يكون هُوَ للشأن والله مبتدأ والعزيز والحكيم صفتان له والخبر محذوف أي متوحد لاستحقاق العبادة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ صفة لمصدر محذوف أي إلا رسالة كافةً يعني عامةً شاملة ﴿لِلنَّاسِ﴾ فإنها إذا عمتهم وقد كفتهم أن يخرجوا منها أحد منهم فعلى هذا قوله للناس متعلق بكافةً، وجاز أن يكون كافة حال من كاف الخطاب والتاء للمبالغة يعني ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلا جامعاً لهم في الإبلاغ، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض كلها مسجد وطهوراً فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحِلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيتُ الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثتُ إلى النّاس عامة»(١) متفق عليه.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونُصِّرت بالرعب وأحِلّت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وخُتم بي النبيون»(٢) وجاز أن يكون المعنى أرسلناك كافة أي كالتي تكفهم عن الكفر في الدنيا وعن الوقوع في النار في الآخرة، عن أبي هريرة قال قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» (٤٣٨)، وأخرجه مسلم في أوائل كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

(٢) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في الغنيمة (١٥٥٦).

رسول الله ﷺ: «مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذا الدواب التي يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»[1] متفق عليه واللفظ للبخاري، وقيل للناس متعلق بأرسلناك وكافة حال من الناس قدّم عليه للإهتمام يعني أرسلناك لأجل إرشاد الناس كافة عامة أحمرهم وأسودهم وأكثر النحويين لا يجوّزون ذلك لأن ما في حيز المجرور لا يتقدم على الجار، وجملة ما أرسلناك حال من فاعل قُلُ أَرُونِيَ غير ذلك على سبيل التنازع يعني قل هذه المقالات لإلزام الكفار وإرشادهم وإلى كونك مرسلاً إليهم كافتهم أو كافاً إياهم ﴿بشيراً﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار حالان من كاف الخطاب مترادفان لكافة على تقدير كونه حالان داخلان تحت الإستثناء بحرف واحد على طريقة ما ضربتُك إلا ضرباً شديداً قائماً وما حسبك إلا راكباً مسرعاً وجاز أن يكونان حالان من الضمير في كافةً على تقدير كونه حالاً من الكاف ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعتقدون ذلك بل يحملون إرشادك إياهم على العناد والمخالفة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار لفرط جهلهم إستهزاءً واستبعاداً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي المبشر به والمنذر عن أو متى هذا الموعود لقولك يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به الرسول الله ﷺ للمؤمنين والجزاء محذوف دلَّ عليه ما قبله يعني ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد فأنبؤني عن وقته ﴿قُل﴾ لهم في الجواب ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي وعْد يوم أو زمانُ وعدٍ والإضافة إلى اليوم حينئذ للتبين ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه والمراد بذلك اليوم يوم القيامة وقال الضحاك يعني الموت لا تتقدمون ولا تتأخرون بأن يزاد في آجالكم أو ينقص وهذا جواب تهديد مطابق لما قصدوه بسؤالهم من الإستهزاء والإنكار.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٤).

ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي بما تقدمه وهو التوراة والإنجيل قالوا ذلك حين سألوا أهل الكتاب عن الرسول الله ﷺ فأخبروهم إنا نجد نعته في كتبنا فغضبوا وقالوا ذلك وجاز أن يكون المراد ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ محمد ﷺ، وقيل المراد بالَّذِيُ بَيْنَ يَدَيْهِ القيامة والجنة والنار وهٰذه الجملة معطوفة على ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ أو لكل مخاطب والمفعول محذوف يعني وَلَوْ ترى الظالمين ﴿إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ للحساب الظرف متعلق بترى وجاز أن يكون الظرف مفعولاً لترى والمعنى ولو ترى موضع محاسبتهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني يتراجعون بينهم القول ويتحاورون والجملة حال من الضمير في موقوفون أو خبر بعد خبر للظالمون ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي الرؤساء ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ يعني لولا صدكم إيانا عن الإيمان بالله وبرسوله ودعاؤكم إيانا إلى الكفر ﴿لكنا مؤمنين﴾ بالنبيّ فأنتم أوقعتمونا في العذاب ﴿وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ في جوابهم ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ﴾ إستفهام إنكار يعني نحن لم نصدكم ﴿عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ الهدى ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أثبتهم أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أثروا التقليد ومتابعة الكفار بلا دليل وتركوا متابعة الرسول المؤيد بالمعجزات ولذلك أورد همزة الاستفهام على الاسم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ لم نصد أنفسنا ﴿بَلْ﴾ صدنا عن الهدى ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي مكركم إيانا في الليل والنهار وإضافة المكر إلى الظرف للإتساع، وقيل عنوا بمكر الليل والنهار طول السلامة وطول الأمل فهما صدنا ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ الظرف بدل من الليل والنهار ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أن مفسرة للأمر أو مصدرية بتقدير الباء ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

﴿ٱلۡعَذَابَۖ﴾ أي أضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال وأخفاها كل عن صاحبه مخافة التعيير أو المعني أظهروها والهمزة يصلح للإثبات والسلب كما في أشكيتُه ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ عطف على ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ في النار، أورد المظهر موضع الضمير تنويهاً للذم وإشعاراً بموجب الأغلال ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾ أي لا يجزون جزاءً إلا جزاء ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا تعدية يجزى إما لتضمين فعل متعد نحو تؤتون أو لنزع الخافض.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكين خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه فكتب صاحبه يسأله ما عمل فكتب إليه أنه لم يتبعه من قريش أحد إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلني عليه كذا وكذا فقال أشهد أنك رسول الله فقال وما علمك بذلك؟ قال إنه لم يبعث نبي إلا أتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ الآية فأرسل إليه النبيّ ﷺ أن الله قد أنزل تصديق ما قلتَ، من زائدة ونذيُر في محل النصب على المفعولية ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ حال بتقدير قدمن نَذِير يعني إلاّ وقد قَالَ مُتْرفُوا تلك القرية أي متنعميها خص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي إلى التكذيب والإنكار غالباً التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والإنهماك في الشهوات والإستهانة بالفقراء ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مقابلة الجمع بالجمع ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ منكم فنحن أولي منكم، ما تدعون إن أمكن لأنا أحباء الله حيث أعطانا ذلك ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ إما لأن العذاب لا يكون أو لأن الله اكرمنا فلا يهيننا ﴿قُلۡ﴾ يا محمد رداً لحسبانهم ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ في الدنيا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ إمتحاناً ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي يضيق الرزق لمن يشاء إبتلاءً وليس القبض والبسط في الدنيا مبنياً على التوهين والتكريم لأن الدنيا دار الإبتلاء لا دار الجزاء ولذلك يختلف فيها أحوال الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الكفار ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للكرامة.

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي﴾ أي متلبسة بالخصلة ﴿التي تقربكم عندنا زلفى﴾ قال الأخفش زلفى إسم مصدر كانَّه قال يقربكم عندنا تقريباً وجاز أن يكون الباء زائدة والتي محمولاً على أموالكم بإرادة جماعة أموالكم ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ الإستثناء منقطع يعني لكن ﴿مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فإيمانه وعمله يقربه عني كذا قال ابن عباس، وجاز أن يكون الإستثناء متصلاً من مفعول يقربكم يعني أن الأموال والأولاد لا يقرب إلى الله أحداً

إلاّ المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويُعَلّمُ ولده الخير ويربّيه على الصلاح، أو من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف يعني إلا أموال من آمن وأولاده فإنها تقربه ﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ قرأ يعقوب جزآءً منصوباً منوناً على التميز أو على أنه مصدر لفعله الذي دل عليه والضعف مرفوعاً على أنه مبتدأ ولهم خبره والجملة خبر أولئك تقديره فأولئك لهم الضعف يجزون جزاء وعن يعقوب رفعهما على أن الجزاء مبتدأ والضعف بدل منه ولهم خبره، وقرأ الجمهور جزاء بالرفع على أنه مبتدأ والضعف بالجر على أنه مضاف إليه إضافة المصدر إلى المفعول والمراد أن الله يضعف جزاء حسناتهم فيجزون بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة إلى ما لا نهاية له ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قرأ حمزة الغرفة على إرادة الجنس والباقون على الجمع، والغرف رفع الشيء وهي المنازل الرفيعة من الجنة، وقد ذكرنا ما ورد في الفرقان من الأحاديث في تفسير سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[1] ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي في إبطال آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مقدرين عجزنا أو ظانين أنهم يفوتوننا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ يعني يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخرى فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرار، وقال صاحب البحر المواج الأولى لرد فخرهم بالعباد وهذا لرد بخلهم حيث قال ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾ في سبيل الله ما شرطية في محل النصب وقوله ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ بيانه وجواب الشرط ﴿فَهُوَ﴾ الرب ﴿يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ أي يعطيه ما يخلفه إما في الدنيا وإما بدخوله للآخرة فمالكم لا تنفقون أموالكم في سبيل الله وتبخلون بها وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للتخصيص والتأكيد ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه وإطلاق الرازق على غيره إنما هو بالمجاز والرازق الحقيقي ليس إلا الله، فإن قلت يلزم حينئذ الجمع بين الحقيقة والمجاز في قوله: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قلنا المراد هاهنا عموم المجاز.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ
﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ
﴿٤٥﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي الكفار ﴿جَمِيعًا﴾ المستكبرين والمستضعفين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ عطف على يحشر، قرأ يعقوب وأبو جعفر وحفص يَحْشُرُهم ويَقُوْلُ بالياء والباقون بالنون فيهما ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار الذين كانوا يعبدون الملائكة ويقولون هم بنات الله ﴿إياكم كانوا يعبدون﴾ في الدنيا يقول ذلك تبكيتاً للمشركين وتقريعاً لهم وإقناطاً لهم من الشفاعة وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف لشركائهم والصالحون للخطاب منهم ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله والظرف متعلق بقوله ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي ننزهك تنزيهاً عن الشريك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ﴾ يعني أنت الذي خص موالاتنا به دونهم يعني لا موالاة بيننا وبينهم كأنَّهُمُ بينوا بذلك براءتهم عن الرضاء بعبادتهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الشياطين الذين زيّنوا لهم عبادة الملائكة.

وقيل كانت الشياطين يتمثلون لهم ويجهلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ﴿أَكْثَرُهُم﴾ يعني أكثر الناس وهم المشركون أو المراد بالأكثر الكل والضمير للمشركين ﴿بِهِم﴾ أي بالجن ﴿مُّؤْمِنُونَ فَٱلْيَوْمَ﴾ أي فذلك اليوم ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يعني لا يملك بعض الخلائق من الجن والإنس والملائكة لبعضهم نفعاً إثابةً أو شفاعة ولا تعذيباً إذ الأمر كله لله ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بوضع العبادة في غير موضعه ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا عطف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل مكة ﴿ءَايَـٰتُنَا﴾ من القرآن﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات على لسان محمّد ﷺ ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ﴾ يعنون القرآن ﴿إلاَّ إفْكٌ﴾ أي خبر غيره مطابق للواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ يعنون أنه افترى محمد على الله أنه كلامه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ يعني أمر النبوة أو الإسلام والقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني بمجرد مجيئه عندهم من غير تدبر وتفكر ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي ظاهر سحريته فالأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه وإعجازه وفي تكرير الفعلين والتصريح بذكر الكفرة وما في اللازم من الإشادة إلى القائلين والمقول فيه إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم﴾ يعني كفار مكة ﴿مِّن كُتُبٍ﴾ فيها دليل على

صحة الإشراك هذه الجملة مع ما عطف عليه حال من فاعل ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ﴿يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه فمن أين يدَّعون بالشرك ويحكمون على القرآن بالإفك والسحر وعلى النبيّ بالكذب، وفيه تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم فقال ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم رسلنا وهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وأصحاب الأيكة هذا أيضاً حال بتقدير قد أو معطوف على قال الذين كفروا ﴿وما بلغوا﴾ يعني هؤلاء الكفار أي كفار مكة ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي عشر ما أعطينا الأمم الخالية من العدة والنعمة وطول العمر ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِى﴾ فحين كذبوا رسلي جاءهم نكيري حيث دمرناهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ لهم أي كيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك يعني هو واقع موقعه إستفهام توبيخ فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كَذَّبَ لأن الأول للتكثير وللثاني للتكذيب أو الأول مطلق غير مقيد بالمفعول فإنه نزل منزلة اللازم والثاني مقيد تفصيل بعد الإجمال ولذلك عطف عليه بالفاء، وقال صاحب البحر المواج ضمير فكذبوا رسلي عائد إلى كفار مكة عطف على ما بلغُوا فلا تكرار، قرأ ورش نَكِيْري بإثبات الياء وصولاً والجمهور بحذفها في الحالين.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إنما أعظم﴾ أي أرشدكم وأنصح لكم ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة وهي ما دل عليه قوله ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ ليس المراد بالقيام ضد الجلوس والرقود بل المراد به الانتصاب في الأمر والتصدي له كما في قوله تعالى: ﴿أن تقوموا لليتامى

بالقسط﴾[١] والمعنى أن تنتصبوا في التفكر خالصاً لوجه الله معرضاً عن التعصب والتقليد ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ يعني اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن الازدحام يشوش الخاطر حالان من فاعل تقوموا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به، عطف على تقوموا يعني قوموا أما اثنين اثنين فيتفكران ويعرض كل واحد منهما فكره على صاحبه وينظران بنظر الإنصاف أو يتفكر فرد فرد في نفسه بعدل ونصفة حتى يتضح له الحق.

وأن مع صلته أما في محل الجر بدلاً من واحدة أو بياناً له وإمّا في محل الرفع بإضمار هو وإما في محل النصب بإضمار أعني ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ متعلق بتفكروا بتضمين يعلموا إرشاد إلى مواد التفكر والمراد أن هذا أمر بديهي وهو أن صاحبكم محمداً ﷺ ليس به جنون فإنه ذو عقلٍ سليم وقلب عظيم وفهم مستقيم لا ينكره إلا معاندٌ أو مجنونٌ، وبديهي أن من له عقل سليم لا يتصدى لأمر عظيمٍ عبثٍ يُعادي بسببه الخلائق مع كونه متوحداً أصفر اليد من غير تحقيق ووثوق ببرهان من غير فائدة معتدة به من جلب نفع أو دفع ضرر، وجلب نفع أو دفع ضرر دنيوي غير موجود أما جلب النفع فمنفي حيث يقول ما سألتكم من أجر فهو لكم وكذا دفع الضرر لأن ضرر معاداة الخلائق موجود فما هذا الدعوى من محمد ﷺ إلا لجلب نفع متوقع في غير هذا الدار ودفع ضرر كذلك فيثبت بهذه المقدمات قوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يلحق بكم في غير هذا الدار فهذه المقدمات يرشد إلى وجوب إتباعه لاسيما قد أنضم ذلك إلى معجزات كثيرة.

قال ابن عباس لمّا نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ «صعد النبيّ ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا ما جرّبنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم الهذا جمعتنا فنزلت تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ»[٢] متفق عليه.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْۖ﴾ يعني لا أسألكم شيئاً وقيل معناه ما سألتكم من أجرٍ بقولي: ﴿ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المسد (٤٩٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (٢٠٨).

سبيلا﴾[١] وقولي: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[٢] ﴿فهو لكم﴾ أي لفائدتكم لأن اتخاذ السبيل إلى الله ينفعكم وقربائي قرباكم، قلتُ بل قربى النبيّ ﷺ علماء الظاهر والباطن من أهل بيته وغيرهم ومودتهم يورث التقرب إلى الله سبحانه ﴿إن أجري﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بإسكان الياء والباقون بفتحها ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ في غير هذا الدار الدنيا ولولا ذلك لم أرتكب تحمل تلك المشقة عبثاً فلا بد لكم أن تتبعوني وتعملوا ما يوجب لكم الأجر على الله عزَّ وجلَّ تفضلاً منه بناءً على وعده، قال رسول الله ﷺ «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلتُ الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»[٣] متفق عليه عن معاذ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ فيجازي كل امرى على حسب عمله وأعتقاده (قُلْ) يا محمد ﴿إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يلقيه وينزله على من يشاء أن يجتبيه من عباده، أو المعنى يرمي به الباطل فيدمغه أو المعنى يرمي به إلى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام، روى أحمد عن المقداد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدرولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذكّ ذليل إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها»[٤] ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ بالرفع صفة محمولة على محل إسم إنَّ أو بدل من المستكن في يقذف أو خبر ثان لأن أو خبر محذوف أي هو علام الغيوب يعلم من هو أهل للإجتباء بالوحي ويعلم عاقبة أمر الإسلام حيث يدفع به الكفر ويظهره في الأقطار ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي القرآن والإسلام والتوحيد ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ أي ذهب الباطل يعني الشرك وزهق فلم يبق منه بقية تبدي شيئاً أو تعيده كما قال: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾[٥] وقال قتادة الباطل إبليس أي ما يخلق إبليس أحداً ولا يبعثه وهو قول الكلبي

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى؛ (٧٣٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣٠).

(٤) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: المغازي والسير، باب: علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه (٩٨٠٧).

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

أيضاً وقيل الباطل الأصنام.

قال البغوي إن كفار مكة كانوا يقولون للنبيّ ﷺ إنك قد ظللت حتى تركت دين آبائك فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ يعني ما تدينتُ به من الدين إن كان ضلالاً كما تقولون ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىٓ﴾ يعني وبال ضلال إنما يعود إلى نفسي فكيف أختار الوبال على نفسي مع أنه لا جنون بي ولا منفعة دنيوية يعود إلى ﴿وإن اهتديت فبمايوحي إليّ ربي﴾ يعني إن كان هذا هداية فليس من قبل نفسي ولا من عند أحد من أهل هذا البلد لظهور أني أمي ما كتبتُ ولا قرأتُ على أحد فليس هو إلا مستفاداً من الله وحياً فيجب عليكم أن تتبعوني فتهتدوا كما اهتديتُ، فهذا استدلال على النبوة وهذا الوجه المقابلة بين الشرطين وقال البيضاوي في وجه المقابلة إن معنى قوله ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىٓ﴾ فإن وبال ضلالي عليها فإنه بسببها فإنها هي الضالة بالذات والأمارة بالسوء وإن اهديت فبهدايته تعالى فعلى هذا أوزان هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1] ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضالٍ ومهتدٍ وفعله وإن أخفاه.

(وَلَوْ ترى) أيها المخاطب ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ وقت فزع الكفار عند الموت، وقال قتادة عند البعث وجواب لو محذوف يعني لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم يعني فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو بإعطاء فداء عن نفسه ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني من ظهر الأرض إلى بطنها كما قيل أو من الموقف إلى النار، وقال الضحاك هو يوم بدر فزعوا وأخذوا من مكان قريب بعذاب الدنيا لكن لا يناسب هذا التأويل قوله ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بمحمد ﷺ وقد مر ذكره في قوله ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ فإنهم لم يقولوا يوم بدراً منّا به بل قال أبو جهل حين قتل وكان به رمق وأخذ ابن مسعود لحيته، وقال الحمد للّه الذي أخزاك يا عدو الله قال بماذا أخزاني هل زاد على رجل قتله قومه وهل كان إلاّ هذا، وإنما يقولون آمنَّا به عند البأس إذا أخذه سكرات الموت وعند البعث من القبور إذا عاينوا العذاب وعند البعث إلى النار ﴿وأنى لهم التناوش﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بضم الواو بغير مد ومعناه التناول يعني من أين لهم أن يتناولوا الإيمان والتوبة، والباقون التناؤش بالمد والهمزة، وإذا وقف حمزة جعلها بين بين لأن ذلك من النئش بالهمزة وهو الحركة في الإبطاء يعني إني لهم أن يتحركوا ويطلبوا الإيمان والتوبة،

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.

وجاز أن يكون من النوش بمعنى التناوش فيكون أصله الواو ثم يهمز للزوم ختمها، فعلى هذا يقف حمزة بضم الواو ورد ذلك إلى أصله كذا قا الداني في التيسير، قال في القاموس النأش يعني بالهمز التناول كالتناوش والأخذ والبطش والنهوض والتأخير ولا يستقيم التأخير هاهنا ويستقيم غير ذلك والنوش يعني بالواو التناول والطلبُ المشي والإسراع في النهوض ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإن تناول الإيمان إنما هو في حين التكليف أنه بعد عنهم حين التكليف وهذا تمثيل حالهم في الإستخلاص بعدما فات عنهم وبعد عنهم مجال من يريد تناول الشيء من غلوة مثل تناوله على ذراع في الإستحالة، وعن ابن عباس أنه قال إنهم يسألون الرد إلى الدنيا فيقال وإني لهم الرد من مكان بعيد أي من الآخرة إلى الدنيا.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي بالله وقد مر ذكره أو بمحمد وقد ذكر بقوله ما بصاحبكم أو بالقرآن المذكور بقوله ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أو بالعذاب المفهوم من قوله ﴿اخذوا﴾ والجملة حال من فاعل قالوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ ذلك الوقت في أوان التكليف ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي من جانب بعيد من أمر النبيّ ﷺ وهو الشبه الذي تمحلوها في أمر الرسول ﷺ وحال الآخرة كما حكاه من قبل ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا محال الظن في لحوقه، قال مجاهد يرمون محمداً ﷺ بما لا يعلمون يقولون شاعر ساحر كذّاب بلا تحقيق هذا تكلم بالغيب، وقال قتادة يرمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار وهذا معطوف على قوله وقد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلاً لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيعوه من الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان والنجاة من النار أو الرجوع إلى الدنيا أو كل ما يشتهيه الطبع من المأكولات والمشروبات وغيرها التي كانت لهم ميسرة في الدنيا والظرف قائم مقام فاعل حيل أو ما مسند إلى مصدره أي حيل الحيلولة، قرأ ابن عامر والكسائي حيل بإشمام الضم للحاء والباقون بإخلاس الكسر ﴿كما فعل بأشياعهم﴾ أي بأشباههم من كفار الأمم الخالية ﴿مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ موقع للريبة أو ذي الريبة منقول من المشكك أو الشاك نعت به الشك للمبالغة.

تم تفسير سورة السبأ من التفسير المظهري في العشرين من المحرم من السنة السابعة بعد ألف ومائتين سنة/ ١٣٠٢ من الهجرة ويتلوه تفسير سورة الملائكة ان شاء الله تعالى وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

المحتويات

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري النقشبندي

١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء الثامن

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

1425 هـ ـ 2004 م

دار إحياء التراث العربي ـ بيروت لبنان

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 091/220493 ـ موبيل: 0300/5902280 ـ باكستان

بيروت ـ لبنان ـ بناية كليوبترا ـ شارع دكاش
ص.ب: 11/7957 الرمز البريدي: 2250 1107
هاتف: 540000 ـ 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache
P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250
Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

سورة الملائكة

آياتها خمس وأربعون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ
يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ
لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ
(٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ
فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ
حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ
بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما من غير مثال سبق من الفطرة بمعنى الشق العدم بإخراجها منه والإضافة محضة لأن فاطراً بمعنى الماضي فهو صفة لله ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بين الله وأنبيائه والصالحين من عبادة ﴿يُبَلِّغُونَ﴾ إليهم رسالاته بالوحي أو الإلهام أو الرؤيا الصالحة أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه، وإضافة جاعل إلى الملائكة لفظية لأن جاعلاً قد عمل في رسلاً ولا يجوز إعماله في المفعول الثاني إلا أن يكون عاملاً في الأول لأنه من ملحقات أفعال القلوب لا يجوز اقتصارها على أحد المفعولين والمعنى يجعل الملائكة رسلاً في الحال أو الاستقبال إلى محمد ﷺ وخواص أمته فقوله جاعل بدل من الله وليس بصفة ﴿أولي أجنحة﴾ بدل من رسلاً ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لأجنحة قال قتادة ومقاتل بعضهم له جناحان وبعضهم له

ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة أجنحة وليس هذا اللحصر ولدفع توهم الحصر قال الله تعالى ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ في الملائكة وغيرها ﴿مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ روى مسلم في الصحيح عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ قال رأى جبرئيل في صورته له ست مائة جناح»[١] ورواه ابن حبان بلفظ «رأيتُ جبرئيل عند سدرة المنتهى له سبع مائة جناح ينشر من ريشه الدر والياقوت» والجملة مستأنفة للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك إنما هو مقتضى مشيئته تعالى ومؤدى حكمته لا أمر يستدعيه ذواتهم والآية متناولة لزيادات الصور والمعاني كملاحة الوجه وحسن الصوت وسماحة النفس والعقل والفهم وغير ذلك فما قال ابن شهاب أن المراد به حسن الصوت، وقال قتادة الملاحة في العينين، وقيل هو العقل والتميز كل ذلك على سبيل التمثيل.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أي ما يعطي أطلق الفتح وهو الإطلاق وأراد به الإعطاء تجوزاً إطلاقاً للسبب على المسبب ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ نعمة دينية كالإيمان والعلم والنبوة وتوفيق الحسنات أو دنيوية كالمطر والرزق والأمن والصحة والجاه والمال والولد ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول فسر بالرحمة فروعي معناه والثاني مطلق يتناولها والغضب فروعي لفظه وفيه إشعار بأن رحمته سبقت غضبه ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يشاء لا يقدر أحد أن ينازعه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان روى الشيخان في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا مانع أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[٢] ولما بيَّن الله سبحانه أنه خالق لجميع الأشياء متصرف فيها على ما يشاء أمر الناس بشكر إنعامه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهل مكة ودخل في العموم غيرهم ﴿اذكروا نعمت الله عليكم﴾ حيث أسكنكم الحرم ومنع منكم الغارات وجعل الأرض كمهد ورفع السماء بلا عمد وخلقكم وزاد في الخلق ما شاء وفتح أبواب الرزق ولا ممسك له، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل حتى يستحق الإشراك به فقال ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء﴾ المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النبات، من الأولى زائدة فإن الإستفهام للإنكار بمعنى النفي وخالقٌ مبتدأ وغير الله فاعله على قراءة الرفع أو خالق مبتدأ محذوف الخبر تقديره هل لكم من خالق غير الله

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في ذكر سدرة المنتهى (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة (٨٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٣).

أو خبره غير الله أيضاً على قراءة الرفع أو خبره يرزقكم وغير الله وصف له أو بدل منه، قرأه حمزة والكسائي بالجر حملاً على لفظه والباقون بالرفع حملاً على محله أو خالق فاعل لفعل محذوف تقديره هل يرزقكم من خالق غير الله ويرزقكم في محل الجر أو الرفع صفة لخالق أو في محل النصب حال منه أو تفسير لما أضمر أو استئناف لا محل له من الإعراب ﴿لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ فمن أي وجه تصرفون من التوحيد إلى الإشراك مع اعترافكم بأنه الخالق والرازق لا غير.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في البعث والتوحيد والعقاب فقاس بمن قبلك من الرسل يعني اصبر ولا تحزن حذف الجزاء وأقيم مقامه ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ إقامة للسبب مقام المسبب وتنكير الرسل للتعظيم لزيادة التسلية والحث على الصبر يعني كذبت رسل ذو عدد كثيرة وآيات واضحات وأعمار طوال وأصحاب حزم وعزم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازيك على الصبر بالنصر والثواب وإياهم على التكذيب في الدارين بالعذاب، قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم على البناء للفاعل والباقون بضم التاء وفتح الجيم على البناء للمفعول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء حق كائن لا يحتمل الخلف ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا يلهيكم الاشتغال بزخارف الدنيا من طلب الآخرة والسعي لها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان بأن ينسيكم عذاب الآخرة أو يمنّيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية فإنها وإن أمكنت لكن إرتكاب الذنب بهذا الإحتمال يشبه تناول السم على إحتمال الترياق أو رفعه الطبيعة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة حيث قال وعزتك لأغوينهم أجمعين ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يعني استيقنوا بعداوته وكونوا على حذر من إتباع وسوسته في مجامع أحوالكم ولا تطيعوه وأطيعوا الله على رغم أنفه فإن مقتضى المحبة أن يفعل ما يرضاه المحبوب ويرضيه منه ومقتضى العداوة أن يفعل ما لا يرضاه ويغيظه والجملة تعليل للنهي السابق ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ أي أتباعه من الإنس إلى المعاصي وإتباع الهوى والركون إلى الدنيا ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ متعلق بيدعو تقرير لعداوته، وبيان لغرضه، ثم بين حال موافقيه ومخالفيه فقال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وأتبعوا الشيطان لهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وخالفوا الشيطان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ﴾ أي رأى عمله السيء حسناً معطوف على زين تقرير له يعني من زين له قبح عمله يعني خذله الله حتى غلب همه وهواه على عقله واختل رأيه

ووسوس له الشيطان فرأى السيىء حسناً والباطل حقاً كمن لم يزين له وهداه الله إلى الحق، ولم يجد الشيطان إليه سبيلاً حتى عرف الحق من الباطل واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه فحذف الجواب لدلالة قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ الهمزة في أفمن زين للإنكار والفاء للعطف على المحذوف تقديره أتطمع أن تهتدي كل رجل فيكون المخذول من الله والمهدي سواء لا تطمع ذلك فأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ يعني لا تهلك نفسك ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على ضلالهم ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ منصوب على العلية أي للحسرات على غيهم وضلالهم والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف إغتمامه على أحواله أو كثرة مساوىء أفعالهم المقتضية للتأسف، وعليهم ليس صلة لها لأن صلة المصدر لا تتقدمه بل صلة تذهب أو بيان للمتحسر عليه وقيل تقدير الكلام أتغتم بكفرهم فمن زين له سوء عمله فأضله الله تذهب نفسك عليهم حسرة يعني لا تغتم فلا تذهب عليهم حسرات فقوله تعالى فلا تذهب تدل على الجواب المحذوف وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ معترضة في مقام التعليل، قال الحسين بن الفضل فيه تقديم وتأخير مجازه أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، قال البغوي قال ابن عباس نزلت الآية في أبي جهل ومشركي مكة وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال نزلت الآية حين قال النبيّ ﷺ: «اللّهم أعزّ دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» فهدى الله عمر وأضل أبا جهل ففيهما نزلت، وقال سعيد بن جبير نزلت في أصحاب الأهواء والبدع، قال قتادة منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وأما أهل الكبائر فليسوا منهم فإنهم لا يستحلون الكبائر بل يعتقدون الباطل باطلاً وإن كانوا مرتكبين به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا

طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ عطف على ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني وعد الله بالبعث حق والله أرسل الرياح وأحيا الأرض بعد موتها كذلك نشوركم بالبعث قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على إرادة الجنس والباقون بصيغة الجمع ﴿فتثير سحاباً﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة ولأن المراد بيان إحداثها بهذه الخاصة ولذلك أسند إليها ويجوز أن يكون إختلاف الأفعال للدلالة على استمرار الأمر ﴿فسقناه﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل في الاختصاص لما فيها من مزيد الصنع إلى ﴿بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بتشديد الياء والباقون بالتخفيف ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره أو بالسحاب فإنه سبب السبب ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أي جعلناها مخضرة ذات نبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد أغبرارها ويبس نباتها أسند موت نباتها وحياتها إليها مجازاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إحياء النبات بعد اليبس ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ للأموات من القبور لاستوائهما في المقدورية إذ ليس بينهما إلا إختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا ندخل له فيها، وقيل التمثيل في كيفية الإحياء لما ورد في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم في كيفية البعث حيث قال: «ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس»[1] الحديث، وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن وهب قال البحر المسجور أوله في علم الله وآخره في إرادة الله فيه ماء ثخين شبه ماء الرجل يمطر الله منه على الخلق أربعين يوماً بين الراجفة والرادفة فينبتون نبات الجنّة في حميل السيل ويجمع أرواح المؤمنين من الجنات وأرواح الكافرين من النار فيجعل في الصور يأمر الله إسرافيل فينفخ فيه فيدخل كل روح في جسده الحديث، وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون؟ قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيت، قالوا أربعون عاماً؟ قال: أبيتُ ثم يُنزّلُ الله من

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في خروج الدجال ومكثه في الأرض والنفخ في الصور وبعث من في القبور (٩٤٠).

السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة»(١) وأخرج ابن المبارك عن سليمان قال يمطر الناس قبل البعث أربعين يوماً ماءً خاثراً، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعين عاماً ينبت منه كل خلق بلي من إنسان أو طير أو دابة ولو مرَّ عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض فينبتون ثم يرسل الأرواح فتزوج بالأجساد.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي في الدنيا والآخرة قال الفراء من كان يريد أن يعلم لمن العزة فلله العزة جميعاً والظاهر أن معناه من كان يطلب لنفسه العزة فليطلبها من عند الله وليتعزز بطاعة الله فإن العزة كلها له ملكاً وخلقاً يؤتيها من يشاء وفيه رد على الكفار حيث طلبوا العزة بعبادة الأصنام قال الله تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلام﴾(٢) وعلى المنافقين حيث طلبوا العزة من الكفار وقال الله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٣) .... ثم بين أن ما يطلب به العزة إنما هوالتوحيد والعمل الصالح فقال ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهي سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله وتبارك الله ونحو ذلك وصعودها مجاز عن قبوله إياها كذا روي عن قتادة، أو المراد بها صعود الكتبة بصحيفتها إلى عرشه كما يدل عليه حديث ابن مسعود قال: «ما من عبد يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ إليه يصعد الكلم الطيب» رواه البغوي والحاكم وغيره، وروى الثعلبي وابن مردويه حديث أبي هريرة نحوه مرفوعاً ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ قال الكلبي ومقاتل الضمير المستكن في يرفعه راجع إلى الكلم والمنصوب إلى العمل المعنى أن العمل لا يقبل إلا أن يكون صادراً عن التوحيد، وقال سفيان بن عيينة إن المستكن راجع إلى الله عزَّ وجلَّ يعني أن العمل الصالح أي ما كان خالصاً لوجه الله لا يكون مشوباً برياء وسمعة يرفعه الله أي يقبله فإن الإخلاص سبب لقبول الأقوال والأعمال، والظاهر أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

(٢) سورة مريم، الآية: ٨١ ـ ٨٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

الضمير المستكن راجع إلى العمل الصالح لقربه والمنصوب إلى الكلم.

وهو مفرد ليس بجمع أريد به الجنس ولذا وصفه بالطيب أو يقال تقديره إليه يصعد بعض الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وذلك البعض ما كان منهن بالإخلاص وإرجاع الضمير هكذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسرين.

قال الحسن وقتادة الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله ولم يؤد الفريضة رد كلامه على علمه وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقه الأعمال فمن قال حسناً وعمل غير صالح، رد الله عليه قوله ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه القول ذلك بأن الله يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ وجاء في الحديث «لا يقبل قولاً إلا بعمل ولا قولاً ولا عملاً إلا بنية» قلت: ليس المراد بهذه الآية إن الأيمان بغير عمل لا يعتد به كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حقٌّ والنار حقٌّ أدخله الله الجنة على ما كان من عمل»(١).

رواه الشيخان في الصحيحين عن عبادة بن الصامت، بل المراد أن الكلم الطيب يصعد إلى الله فإن كان معه عمل يرفع شأن تلك الكلمة ويزيد في ثوابها ومعنى قوله ﷺ «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل» يعني قول المنافق بلا عمل من القلب والجوارح لا يعتد به وكذا القول المقرون بالعمل لا يعتد بهما الابنية أي باعتقاد وإخلاص من القلب، وقيل معنى الآية والعمل الصالح يرفع القائل أي درجته.

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صفة لمصدر محذوف لأن الفعل لازم ليس بمتعد إلى مفعول به، أي يمكرون المكرات السيئات، قال أبو العالية يعني مكرات قريش للنبيّ ﷺ في دار الندوة كما مر في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾(٢) وقال الكلبي معنى الآية الذين يعملون السيئات وقال مجاهد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ (٣٢٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

وشهر بن حوشب هم أصحاب الرياء ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو﴾ أي الله سبحانه ﴿يَبُورُ﴾ أي يبطل حيث قال الله تعالى: ﴿يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[١] والمعنى الله يبطل أعمال المرائين.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ معطوف على والله أرسل وهذا أيضاً دليل على القدرة على البعث فإن بدء الخلق ليس بأهون من إعادته ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني أصلكم البعيد تراب حيث خلق آدم منه وأصلكم القريب نطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ما ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ إلا متلبساً ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ حال يعني إلا معلوماً له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ يعني ما يقدر عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي لا ينقضي من عمر أحد شيء (إلا في كتاب) يعني كل ذلك مكتوب في اللوح أو في الصحائف الكرام الكاتبين.

قال سعيد بن مكتوب في أم الكتاب عمر فلان كذا سنة ثم يكتب أسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاث أيام حتى ينقطع عمره، وقيل معناه لا يزاد في عمر أحد ولا ينقص إلا في كتاب يعني كتب في اللوح المحفوظ أن عمر فلان كذا سنة ثم يزاد عمره بعض الحسنات أو ينقص ببعض السيئات كل ذلك مكتوب في اللوح يؤيده قول ﷺ «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»[٢] ورواه الترمذي عن سلمان الفارسي، وقيل: معناه لا يمد في عمر من هو طويل العمر ولا ينقص عمر غيره من عمره أي عمر طويل العمر بأن يعطى له عمر ناقص من عمره أو لا ينقص عمر المنقوص عمره بجعله ناقصاً، والضمير له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه وللمعمر على التسامح إعتماداً على السامع كقولهم لا يثبت الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق ﴿إن ذلك﴾ أي كتابة الآجال والأعمال ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ يعني أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة وقيل هو ما يكسر العطش ﴿سَآئِغٌ﴾ سهل الإنحدار ﴿شَرَابُهُۥ﴾ جملة ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ مع ما عطف عليه صفة للبحرين على طريقة، ولقد أمر على اللئيم يسبني ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة وقيل هو ما يحرق بملوحته، ضرب مثل المؤمن والكافر وبيان لكمال قدرته تعالى حيث خلق من جنس وآخر شيئان مختلفان في الخواص ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي من كل واحد من

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩).

البحرين ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ إستطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم أولا على سبيل الإستطراد بل لتمام التمثيل والمعنى أنه كما أنهما وإن إشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء كذلك المؤمن والكافر إن اشتركا في بعض خواص الإنسانية لا يتساويان فيما هو المقصود من خلق الإنسان، وهو معرفة الله وعبادته حيث قال الله تعالى: ﴿ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(١) أو لتفضيل الأجاج على الكافر بما يشارك العذب في المنافع ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ أي من الملح دون العذب ﴿حِلْيَةً﴾ يعني اللؤلؤ والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ قيل نسب اللؤلؤ إلى البحرين لأنه يكون في بحر الأجاج عيون عذبة يمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ من بين ذلك ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ عطف على ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ ﴿فِيهِ﴾ أي في كل منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع ماخرة على وزن فاعلة من المخر وهو الشق يعني شاقات للماء تجريها مقبلات ومدبرات ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي من فضل الله بالتجارة فيهما واللام متعلق بمواخر ويجوز أن يكون متعلقاً بفعل دل عليه الأفعال المذكورة يعني جعل الله البحر هكذا لتبتغوا من فضله ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ أي ولكي ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الله على ذلك عطف على لتبتغوا لأن حرف الترجي استعير لمعنى اللام وإيراد حرف الترجي بأعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ صيفاً متصل بقوله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾(٢) وبما في سياقه وجملة ما يستوى معترضة ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ شتاء، حيث يقصر النهار ويمد الليل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ﴾ أي كل واحد منهما ﴿يَجْرِي﴾ في السماء ﴿لأجل مسمى﴾ هي مدة دوره أو منتهاه أو يوم القيامة حين ينقطع جريها وجملة ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ بيان للتسخير ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ أي الذي فعل هذه الأشياء ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة وكونه تعالى فاعلاً لما ذكر موجب لثبوت تلك الأخبار ويحتمل أن يكون له الملك كلاماً مبتدءاً ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي الذين تعبدونها من الأصنام وغيرها كائنة ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ من زائدة على المفعول به فضلاً أن يملك شيئاً آخر وهو لفافة دقيقة على النواة فمن لم يملك كيف يستحق العبادة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ لقضاء حاجتكم ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنها جمادات، الجملة الشرطية مع ما عطف عليه، خبر ثان للموصول ولم يعطف للدلالة على استبداده لنفي الألوهية ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض أو على تقدير

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١١.

كون بعضهم ذا شعور كإبليس ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم على الإنفاع أو لبترئهم منكم ومما تدَّعون لهم من الألوهية كعيسى وعزير والملائكة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي ينكرون إشراككم إياهم يقولون ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[1] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أي لا يخبرك بحقيقة الأمر مخبر ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي عالم وهو الله سبحانه فإنه هو الخبير بكل شيء على ما هو عليه، أو المعنى ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بحقائق الأشياء.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ دائماً في الوجود وتوابعه وفي البقاء وفي النجاة من النار والإثابة بالجنة وغير ذلك وتعريف الفقراء نظراً إلى افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به فإنه حَمَلَ الأمانة مع كونه ضعيفاً ظلوماً جهولاً، فهو أجوع من غيره ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ اللام للعهد أي المعروف بالاستغناء على الإطلاق والإنعام العام على الموجودات ﴿الحَمِيدُ﴾ في نفسه مستحق الحمد من جميع خلقه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إلى العدم دليل على كونه غنيّاً عنكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوم آخرين بدلكم أطوع منكم أو بعالم آخر غير ما تعرفونه ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بمتعذر ولا متعسر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿وِزْرَ﴾ أي ثقل يعني إثم نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٨.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾(١) ففي الضالين المضلين فإنهم حملوا أثقال ضلالهم مع أثقال ضلاَل أنفسهم لأنهم أضلّوهم فكل ذلك أوزارهم وليس شيء منها من أوزار غيرهم، وأما ما رواه مسلم عن أبي موسى يرفعه «أنه يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها لهم ويضعها على اليهود والنصارى»(٢) وما روي أيضاً من وجه آخر بلفظ «إذا كان يوم القيامة رفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداك من النار».

وروى الطبراني والحاكم وصححه أيضاً عن أبي موسى نحو الرواية الأولى وابن ماجه والطبراني أيضاً نحو الرواية الثانية، وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن أنس «إذا كان يوم القيامة رفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين فيقال هذا فداك من النار» فتأويل هذه الأحاديث عندي أن المراد بالذنوب التي توضع على الكفار أنهم ارتكبوا بتلك السيئات قبل أمة محمد ﷺ وسنوا سنة سيئة واقتفى المتأخرون آثارهم في إرتكاب السيئات فلما غُفرت سيئات المؤمنين تفضلاً من الله تعالى بقيت سيئات الذين سنوا تلك السنة عليهم مضاعفة لأجل الإرتكاب ولأجل إبداع السنة السيئة فالوضع كناية عن إبقاء ما لحق الكافر بما سنه من عمله السيىء الذي عمل بها فاقتفاه مسلم والله أعلم.

﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ أثقلها أوزارها أحداً غيرها ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي ليتحمل بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي لم تجب تحمل شيء منه نفي الله سبحانه أن يحمل عنها غيرها ذنبه كمانفى أن يحمل عليها ذنب غيرها ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي المدعو دلَّ عليه قوله إن تَدْع ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي ذا قرابتها، قال البغوي قال ابن عباس يلقى الأب والأم ابنهما فيقول يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول لا أستطيع حسبي عملي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ قال الأخفش معناه إنما تنفع بإنذارك ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم أو غائباً عنهم عذابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الذين اجتنبوا المعاصي وأتوا بالواجبات خشية من عذاب الله هم المنتفعون بإنذارك وإختلاف الفعلين للدلالة على إستمرارهم على ذلك في جميع الأزمنة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر من دنس المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعه لها، جملة معترضة مؤكدة لخشيتهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازيهم على تزكيته ﴿وما يستوي الأعمى﴾ عن الهدى أي الكافر أو الجاهل ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ أي

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٧).

المؤمن والعالم ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ أي الكفر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي الإيمان ولا الظل أي الجنة والثواب ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ أي النار والعقاب ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وقيل مثل للجهال والعلماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه فيوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ومبالغة في الإقناط عنهم ﴿إِنْ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ تخوفهم بالنار ولا تقدر على هدايتهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ حال من الضمير المرفوع والمنصوب أو صفة لمصدر محذوف أي محقين أو محقاً إرسالاً متلبساً بالحق ويجوز أن يكون صلة لقوله ﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالوعد الحق ﴿ونذيراً﴾ أي نبيّ أو من ينوبه من العلماء والإكتفاء بالنذير للعلم بأن النذارة قرينة للبشارة قد قرن به من قبل أو لأن الإنذار لهم فإن دفع الضرر أهم من جلب النفع ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد فلا تغتم واصبر على أذاهم كما صبر قبلك من الأنبياء ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كفار الأمم الخالية قبل كفار مكة ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال من فاعل كذب بتقدير قد ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات الشاهدات على نبوتهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل دون الجمع أو المراد بها واحد والعطف لتغاير الوصفين يعني فصبروا على تكذيبهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي إنكاري بالعقوبة أي هو واقع موقعه، قرأ ورش بإثبات الياء في الوصل فقط والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسها أو أصنافها على أن كلاً منها أصناف مختلفة أو مختلفاً هيئتها

من الصفرة والخضرة والحمرة ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي ذو جدد أي خطط وطرائق، جملة اسمية هي مع ما عطف عليه حال من فاعل أخرجنا على طريقة أتيتُك والشمس طالعة ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وصفر ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدة والضعف ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي صخور شديدة السواد عطف على بيض أي أي جدد بيض وحمر وسود غرابيب فغرابيب تأكيد لسود مضمر يفسره ما بعده لأنه تأكيد وحق التأكيد باعتبار الإضمار والإظهار كذا قال البيضاوي، وقال الجلال المحلي يقال كثيراً سود غربيب وقليلاً غربيب وسود، قلت: لعل ذلك القليل عند إرادة مزيد التأكيد وجاز أن يكون عطفاً على جدد كأنَّه قيل من الجبال ذو جدد مختلف ألوانها ومنها غرابيب متحدة اللون ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على مِنَ الجبال ﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ ذكرَّ الضمير لأجل من وقيل تقديره وَمِنَ الناسِ وَالدواب والأنعَام ما هو مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف أي اختلافاً مثل إختلاف الثمار والجبال.

ولمَّا قال: **ألم تر أنَّ الله أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ** إلى آخره ذكر أنواع المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع الدالَّة على صانعها وصفاته أتبعه بقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ يعني الذين تفكروا في خلق الله وأستدلوا به على ذاته وصفاته وأفعاله وآلائه بخلاف الجهال ككفار مكة والذين تجاهلوا ولم يخلص علومهم إلى قلوبهم وأنفسهم كأحبار اليهود والنصارى، قال الشيخ العارف الأجل شهاب الدين السهروردي في هذه الآية تعريض إلى أنه من لا خشية له فهو ليس بعالم.

قلتُ: فإن معرفة المخشي بعظمته وجلاله والعلم بصفات كماله يستلزم الخشية وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، قال البغوي قال ابن عباس يريد إنما يخافني من خَلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني فكل من كان أعلم بالله وصفاته كان أخشى منه، روى الشيخان في الصحيحين عن عائشة قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»(١) وروى الدارمي عن مكحول مرسلاً قال قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾» وروى البخاري في الصحيح عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل باب: علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦).

أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً**»(١) فكمال الخشية للأنبياء ثم للأولياء وهم علماء الحقيقة ثم الأمثل فالأمثل قال مسروق: كفي بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً، قال الشعبي العالم من يخشى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالة على أنه عزيز في ملكه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب من عصيانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي يداومون على قراءته وإتباع ما فيه حتى صارت عنواناً لهم والمراد بكتاب الله القرآن أو جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم والقراء العلماء منهم بعد إقتصاص حال المكذبين ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أداموها مع رعاية حقوقها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني كيف ما أتفق من غير قصد إليهما، وقيل السر في النافلة والعلانية في المفروضة ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ أي يرجون تحصيل الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي لن تكسر ولن تهلك بالخسران صفة للتجارة ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ الله متعلق بمعنى لن تبور يعني يرجون تجارة نافعة ليوفيهم بإنفاقها ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي أعمالهم أو متعلق بفعل محذوف دل عليه ما عد من أعمالهم يعني فعلوا ذلك ليوفيهم أو بيرجون، واللام للعاقبة يعني يرجون تجارةً لن تبور حتَّى يُوَفِّيَهَمُ الله أُجُورَهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ما يقابل أعمالهم، أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «يُوَفِّيَهُمُ أجورهم يدخلهم الجنة وَيَزِيُدَهُمُ من فَضلِهِ الشفاعة لمن وجب له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا» ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ هذه الجملة في مقام التعيل لما سبق ويرجون خبر إن وجاز أن يكون لهذا خبران بتقدير الرابط يعني أنه غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم، قال ابن عباس يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر القليل من أعمالهم أي يجازيهم عليه وعلى هذا يرجون حال من فاعل أنفقوا، أخرج عبد الغني أن هذه الآية نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن ومن للبيان أو الجنس أو للتبعيض ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتُب السماوية حال مؤكدة لأن حقيقته يستلزم موافقته إياها في العقائد وأصول الأحكام والأخبار ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ عالم بظواهر الأشياء وبواطنها فهو عالم بأنك حقيق لأن يوحى إليك هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٦٤٨٥).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ منك ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ والإرث انتقال الشيء من أحد إلى غيره، وقيل معنى أورثنا أخرنا ومنه الميراث لأنه آخر من سالف، ومعنى الآية أخرنا القرآن من الأمم الماضية وأعطينا ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ من للتبعيض متعلق باصطفينا أو بيان للموصول ظرف مستقر حال من الضمير المنصوب المحذوف الراجع إلى الموصول يعني اصطفيناهم من عبادنا وإضافة العباد إلى نفسه للتشريف والمراد بالموصول علماء أمة محمد ﷺ من الصحابة ومن بعدهم أو الأمة بأسرها كذا قال ابن عباس، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بكرامة الإنتماء إلى سيد الأنبياء:

طوبى لنا معشر الإسلام إن لنا من العناية ركناً غير منهدم
لمَّا دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

وقيل الجملة معطوفة على إن الذين يتلون والذي أوحينا اعتراض وعندي أن الجملة معطوفة على مضمون والذي أوحينا إليك هو الحق يعني أنزلنا إليك الكتاب الحق ثم أورثناه منك الذين أصطفينا هم من عبادنا ﴿فَمِنْهُمْ﴾ من هو ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مقصد في العمل قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[١] ﴿وَمِنْهُم﴾ من هو ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ يعمل على ظاهر الكتاب ولا يفوز إلى حقيقته قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٢] ﴿وَمِنْهُم﴾ من هو ﴿سَابِقٌ بالخَيْرَاتِ بإذْنِ الله﴾ أي بإرادته فائز إلى حقائق القرآن قال الله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[٣] وقال الله تعالى: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾[٤] والصنفان الأولان هم أصحاب الميمنة، وقيل المقتصد من يعمل بالقرآن في غالب الأوقات والسابق من ضم إلى العمل التعليم والإرشاد.

روى البغوي بسنده عن أبي عثمان النهدي قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقرأ هذا فقال: قال رسول الله ﷺ: **«سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له»** قال أبو قلابة (من رواة الحديث): فحدثتُ به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه، ورواه البغوي أيضاً مرفوعاً، وأخرجه سعيد ابن منصور والبيهقي موقوفاً على عمر. وروى البغوي بسنده عن أبي ثابت أن رجلاً دخل المسجد فقال اللّهم إرحم غربتي وآنس وحشتي وسُق إليّ جليساً صالحاً، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لئن كنت صادقاً لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله ﷺ وسلم قرأ هذه الآية فقال «أما السابق فيدخل الجنة فيدخل الجنة بغير حسابُ أما المقتصد فيحاسبه حساباً يسيراً وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخله الجنة ثم قرأ هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾» ورواه أحمد وابن جرير والطبراني والحاكم والبيهقي وفيه «فأما الذين ظلموا فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته لهم الذين يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكورٌ»، قال البيهقي له طرق عن أبي الدرداء قال وإذا كثرت طرق الحديث ظهر أن للحديث أصلاً، قال البغوي وروي عن أسامة بن زيد في هذه الآية قال قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة» وكذا أخرج البيهقي عن أسامة وأخرج مثل ذلك عن كعب وعطاء أن الأصناف الثلاثة في الجنة،

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ١٠ ـ ١١.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله فظالمهم مغفور له ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب، وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «**هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة**»[١] وأخرج الفريابي عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ الآية قال أشهد على الله أنه يدخلهم الجنة جميعاً.

وأخرج ابن أبي عاصم والأصبهاني عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميّز العلماء فيقول يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم إنطلقوا قد غفرت لكم» وأخرج الطبراني بسند رجاله ثقات عن ثعلبة بن الحكم قال قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: للعلماء إذا قعد على كرسيه لفصل عباده: «إني لم أجعل علمي وحكمي إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» وأخرج ابن عساكر عن أبي عمر الصنعاني (اسمه حفص بن ميسرة) قال إذا كان يوم القيامة عزلت العلماء فإذا فرغ الله تعالى من الحساب قال لم أجعل حكمتي فيكم إلا بخير أريدكم، أريدكم أدخلوا الجنة بما منكم، وقال عقبة بن صهبان سألتُ عن عائشة عن قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فقالت يا بني كلهم في الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وأما المقتصد فمن اتبع أثره حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا، قلتُ: ويمكن حمل هذه الأصناف الثلاثة على المصطفين الأخيار من هذه الأمة أي الأولياء فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وهو من يمنع نفسه عن حقوقه كما يمنعه عن حظوظه كأهل الرياضات والمجاهدات الشاقة رهبانية ابتدعوها ومِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ يمنع نفسه عن حظوظه ويعطيه حقوقه فيصوم ويفطر ويصلي ويرقد وينكح ويأكل ويشرب ما أبيح له على ما هو السنة هم الذين قال عائشة فيهم من إتبع أثره حتى لحق به، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ (بالخيرات) المستغرق في كمالات النبوة وهم الصحابة رضي الله عنهم والصديقون كما قالت عائشة وزعمت عائشة نفسها من الظالمين هضماً وزعمت المخاطبين منهم لأجل رياضاتهم، وبالجملة فالأحاديث كلها تدل على أن الأصناف الثلاثة من المؤمنين أو من العلماء فمن قال أريد بالظالم الكافر أو المنافق فقوله مردود. سئل أبو يوسف عن هذه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الملائكة (٣٢٢٥).

الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وأما الطبقات الثلاث فمن الذين اصطفى من عباده لأنه قال فَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ والكل راجع إلى الذين اصطفى من عباده وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور، وقدم الظالم في الذكر لكثرة الظالمين وقلة السابقين وتوسط المقتصدين أو لأن الظلم بمعنى الميل إلى الهوى مقتضى الجملة والإقتصاد والسبق عارضان لكن الإقتصاد متوسط بين المنزلتين (ذلك) التوريث أو الإصطفاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أو مبتدأ خبره محذوف تقديره لهم جنات عدن وقوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ صفة لجنات أو جناتٌ مبتدأ ويدْخُلُونَهَا خبره قرأ أبو عمر وبضم الياء وفتح الخاء على البناء للمفعول من ا لأفعال، والباقون بفتح الياء وضم الخاء من المجرد والضمير المرفوع في يَدْخُلُونَهَا راجع إلى الأصناف الثلاثة لما مرَّ من الأحاديث ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حال مقدرة من فاعل يدخلونها أو بدل إشتمال من يدخلون أو مستأنفة أو خبر بعد خبر لجنات عدن أو صفة بعد صفة له ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محل أساور ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ عطف على يحلون أو على جنات عدن أو حال من فاعل يحلون أو معترضة، عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ «تلا قوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، الآية فقال «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤ منها ليضيء ما بين المشرق والمغرب»(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي، قال القرطبي قال المفسرون ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»**(٢) متفق عليه، وعن حذيفة قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»**(٣) متفق عليه، وعن عمر رضي الله عنه قال قال: رسول الله ﷺ **«من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»**(٤) متفق عليه،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأطعمة، باب: الأكل في إناء مفضض (٥٤٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب والفضة (٢٠٦٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه (٥٨٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء (٢٠٦٩).

وروى الطيالسي بسند صحيح وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري نحوه وفي آخره «وإن دخل الجنة لم يلبسه» في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أي يقولون ذلك كما دل عليه ما تقدم من الأحاديث ودل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ ويقولون ذلك أيضاً عند البعث من القبور لحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمدُ لله الذي أذهب عنا الحزن**» رواه الطبراني، قال ابن عباس حزن النار وقال قتادة حزن الموت، وقال مقاتل لأنهم كانوا لا يدرون ما يفعل بهم، وقال عكرمة خوف الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات، وقال الكلبي ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة، وقال سعيد بن جبير هم الخبز في الدنيا وقيل هم المعاش والمعاد، والحق أن المراد به جنس الحزن مطلقاً ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذين ظلموا على أنفسهم ﴿شكور﴾ للمقتصدين والسابقين ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ مصدر ميمي أي دار الإقامة من فضله أي من إنعامه وتفضّله إذ لا واجب عليه شيء، أخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبد الله بن أبي أوفى قال قال رجل يا رسول الله إن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم؟ قال لا إن النوم شريك الموت وليس في الجنة موت، قال فما راحتهم؟ فأعظم ذلك ﷺ وقال ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة فنزلت ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلال وأعياء من التعب، ذكر الثاني التابع للأول للتصريح بنفيه ومزيد التأكيد وجملة لا يمسنا حال من مفعول أحلّنا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على ثم أورثنا ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ أو يستريحوا منصوب بأن مقدرة في جواب النفي تقديره لا يكون عليهم قضاء بالموت فيموتوا، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى يا أهل الجنة لاموت ويا أهل النار لاموت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم**»(١) وأخرج الشيخان عن أبي سعيد نحوه وفيه «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح» الحديث ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

عَذَابِهَا﴾ طرفة عين بل ﴿كلما نضجت جلودهم بدلوا بجلود غيرها ليذوقوا العذاب﴾(١) وكلما خبت زيدوا سعيراً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي جزاءً مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي كافر بالله تعالى فإنه أشد كفراً من كفر نعمة منعم غير الله تعالى، قرأ أبو عمرو يجزي بضم الياء المثناة من تحت وفتح الزاء ورفع كل على غير تسمية الفاعل والباقون بالنون وفتحها وكسر الزاء ونصب كُلَّ المفعولية ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي في النار عطف على (لهم نار جهنم) أو حال من الضمير المجرور في لهم يعني يستغيثون بشدة وعويل يفتعلون من الصراخ وهو الصياح استعمل في الإستغاثة لجهد المغيث صوته يا ﴿ربنا أخرجنا﴾ من النار ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ﴾ بدل من صالحاً ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جملة ربنا إلى آخره مقول ليقولون محذوف بيان ليصطرخون وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير صالح أو الاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبونه صالحاً والآن ظهر خلاف ذلك، يقول الله تعالى في جوابهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم نترككم في دار التكليف ولم نعمركم ما يتذكر أي عمراً يتذكر فيه من تذكر من المؤمنين.

وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن علي وهو العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم لحديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: **«أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة»**(٢) رواه البخاري، وكذا أخرج البزار وأحمد وعبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرج الطبراني وابن جرير عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة قيل أين أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله أوَلَمْ نُعَمركم ما يتذكر فيه من تذكر»** قلتُ: الظاهر أن ما يتذكر فيه من تذكر متناول لكل عمر يمكن للمكلف التفكر والتذكر فيه، ولعل معنى الحديث سلب كل عذر لكل امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنةً فإنه لم يبق من عمره الطبيعي الأكثر في شيء لما رواه الترمذي عن أبي هريرة وأبو يعلى في مسنده عن أنس كلاهما عن النبيّ ﷺ قال: **«أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»**(٣) وإلا فبعد البلوغ ليس له عذر معقول في ترك الصلاة وغيرها من الفرائض لاسيما الإيمان بالله ولولا كان ما يتذكر متناولاً لكل عمر يمكن فيه التفكر لما كان هذا القول جواباً

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٤١٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات باب: في دعاء النبي ﷺ (٣٥٥٠).

لكل كافر بل لمن أدرك ستين سنة فما زاد والله أعلم.

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ فما أجبتموه والنذير محمد ﷺ كذا أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي وابن أبي حاتم وابن جرير عن زيد وهو قول أكثر المفسرين، وقيل القرآن، والمراد من تفسيرهم أن النذير محمد ﷺ والقرآن لهذه الأمة وغيرهما من الأنبياء والكتب لغيرهم، وقيل العقل وهذا على رأي من قال أن مجرد العقل كاف لوجوب الإيمان بالله حتى يحكمون بكفر شاهق الجبل إذا بلغ عاقلاً ولم يبلغه دعوة نبي وهذه الجملة معطوفة على مضمون ما سبق يعني عمرنا كم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير وهذا العطف يقتضي أن النذير ليس المراد به العقل لأن العطف يقتضي المغايرة ولا مغايره بين مجيء العقل وعمر يصلح للتفكر إلا في المفهوم فإن المعقل مأخوذ في ذلك العمر وعديم العقل لم يعمر ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ، وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع المراد بالنذير الشيب أخرجه عن عكرمة عبد بن حميد وابن المنذر وأخرجه ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس يقال الشيب بريد الموت، قال البغوي وفي الأثر ما من شعرة تبيضّ إلا قالت لأختها استعدي فقد قرب الموت، وقيل النذير موت الأقارب والأقران ﴿فذوقوا﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع عنهم العذاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه أحوالهم جملة مستأنفة ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل له لأنه إذا كان عالماً بمضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيره.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ
بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً وعلى هذا خطاب لجميع الناس، وقيل معناه لجعلكم أمة خلفت من قبلها ورأت فيمن قبلها ما ينبغي أن يعتبر به، وقيل الخليفة بمعنى المستخلف يعني جعلكم خلفاء في أرض خليفة بعد خليفة وقد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وخلائف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم فعليه وبال كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي أشد غضباً وبغضاً ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ في الآخرة والتكرير للدلالة على أن إقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنام أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله أو لأنفسهم فيما يملكونه ﴿أَرُونِى﴾ تأكيد أو بدل اشتمال من أرأيتم لأنه بمعنى أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ مفعول ثان لرأيتم محمول على شركائهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي من أجزاء الأرض بيان لما كأنه قال أخبروني عن هؤلاء الشركاء أخبروني أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي شركة مع الله ﴿فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فاستحقوا بذلك شركة في ألوهية ذاتية أم منقطعة بمعنى بل، والهمزة إضراب عن خلق بعض الأرض بالاستقلال واستفهام عن الشركة في السماوات ثم أضرب عنه واستفهم فقال ﴿أم﴾ يعني بل ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال مقاتل أعطينا كفار مكة ﴿كتاباً﴾ ينطق على ما اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ﴾ الفاء في جواب شرط محذوف تقديره إن كان الأمر كذلك فهم يعني كفار مكة كائنون ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة على التوحيد والباقون بينات على الجمع يعني على حجج واضحات ﴿مِّنْهُ﴾ أي من ذلك الكتاب ﴿بَلْ﴾ إضراب عن التهديد السابق وإثبات لما عدا ذلك كلها بقوله ﴿إِن يَعِدُ﴾ أي ما يعد ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني ليس عندهم علم على شركهم وكتاب ليستدل عليه به بل ما يعد الأسلاف الأخلاف إلا غروراً باطلاً ما يغرُّهم إلا بلا سند يشهد عليه ﴿يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[١].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أي لئلا تزولا أو كراهة أن تزولا أو يمنعهما أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من علة تحفظه كما لا بد له في إيجاده من علة ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ بمقتضاء إمكانها إن لم يوجد من الله سبحانه إفاضة الوجود اللام للقسم ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ يعني ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ أي من بعد الله أي سواه أو بعد الزوال وجملة إن الله يمسك إلى آخره سدَّ مسدَّ الجوابين يعني لم يخلق شيئاً أحد غيره وليس لأحد شركة معد من الأولى زائدة والثانية للإبتداء ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فبحلمه أمهل الكفار ولم يستعجل في عقوبتهم وبغفرانه غفر المسلمين ولولا إمهاله وغفرانه لم يمسك السماوات والأرض فيسقط السماء عليهم وينخسف بهم الأرض بذنوبهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول لو أن الله بعث منا نبيًّا ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكاً بكتابها منا فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ منصوب على المصدرية من أقسموا لأن الأيمان بمعنى الإقسام يعني أقسموا إقساماً بليغة أو من المحذوف تقديره أقسموا بالله جهدوا جهد أيمانهم أو حال من فاعل أقسموا يعني جاهدين في إيمانهم على طريقة مررتُ به وحده، قال البغوي بلغ قريشاً قبل مبعث النبي ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوهم فأقسموا ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول من الله ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ جواب قسم في اللفظ وجواب شرط أيضاً في المعنى ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ﴾ السالفة يعني من كان من الأمم السالفة على هدى فنحن نكون أهدى منهم قالوا ذلك لما رأوا تكذيب اليهود والنصارى بعضهم بعضاً ﴿قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾[1] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من الله يعني محمداً ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي تباعداً من الحق وهذا إسناد مجازي ﴿استكباراً في الأرض﴾ عن الإيمان بدل من نفور أو مفعول له أو حال ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾ أي العمل القبيح.

قال الكلبي هو اجتماعهم على الشرك، قلتُ: هو إرادتهم بالنبي ﷺ أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، أصله وإن مكروا المكر السيىء فحذف الموصوف إستغناء بوصفه ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر ثم أضيف، قرأ حمزة السيىء ساكنة الهمزة في الوصل لتو إلى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

الحركات تخفيفاً كما سكن أبو عمرو والهمزة في بارئكم وإذا وقف أبدلها ياءً ساكنة أيضاً وهي قراءة الأعمش والباقون بخفض الهمزة ويجوز رومها وإسكانها في الوقف ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي لا يحل ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ يعني بمن مكرو قد حاق بهم يوم بدر فقتلوا، قال ابن عباس لا يحيق عاقبة الشرك إلا بمن أشرك يعني وبال شركهم راجع إليهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إلا سنت الأولين﴾ أي سنة الله فيهم يعني استبصارهم إن أصرو على الكفر ﴿فلن تجد لسنت الله تبديلاً﴾ يعني سنة الله لا يتبدل ولا يتغير فلم يبق من أهل مكة إلا من أمن منهم ﴿ولن تجد لسنت الله تحويلاً﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ الإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره ألم يشاهدوا آثار الماضين ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ مجزوم عطفاً على يسيروا أو منصوب بتقدير أن بعد النفي ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني قد شاهدوا في مسيرهم إلى الشام واليمن والعراق آثار الماضين ﴿وَكَانُوٓا۟﴾ حال بتقدير قد يعني والحال أنه قد كان الذين قبلهم ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ ومع ذلك قد أهلكوا ولم يغني عنهم قولهم شيئاً فما لهم أي لأهل مكة لا يعتبرون بهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ أي ليسبقه ويفوته ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من زائدة وشيء في محل الرفع فاعل ليعجزه ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف مستقر صفة لشيء أو ظرف لغو متعلق بيعجزه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها وبما يستحقها ﴿قديراً﴾ على كل شيء بما يشاء.

ولمَّا سبق من أن كفرهم يقتضي استئصالهم كما هو سنة الله في الذين من قبلهم وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً ذكر سبب إمهالهم فقال ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ في الدنيا عاجلاً ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدب عليها بشؤم معاصيهم أو من دابة عاصية وهو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر مؤاخذتهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو ما بعد الموت أو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس يريد به جميع العباد أهل طاعته وأهل معصيته ﴿بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم على حسب أعمالهم.

تمت تفسير سورة الملائكة من تفسير المظهري، (ويتلوه سورة يس إن شاء الله تعالى) وصلّى الله على خير خلقه محمّد وآله وأصحابه أجمعين حادي عشر شهر صفر من السنة السابعة بعد ألف/ سنة ١٣٠٢هـ/ ومائتين من الهجرة.

سورة يس

آياتها ثلاث وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس وتسمى معمة أخرج ابن مردويه والخطيب والبيهقي عن أبي بكر الصديق عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «يس تدعى معمة تعم صاحبها خير الدين» وتسمَّى الدافعة لأنها تدفع عن صاحبها كل سوء وتسمَّى القاضية لأنها تقضي كل حاجة مكية وهي ثلاث وثمانون آية.

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾.

﴿يسٓ ۝١﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم عمي لا يبصرون فجاءوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا ننشدك بالله والرحم يا محمد، ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبيّ ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت يس إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، قرأ حمزة وأبو بكر بإمالة فتح الياء والباقون باخلاصها وورش وأبو بكر وابن عامر والكسائي يدغمون نون الهجاء في الواو ويبقون الغنة وكذلك في ن ق القلم غير أن عامة أهل الأداء من البصريين يأخذون في مذهب ورش هناك بالبيان والباقون بإظهار النون في السورتين. ويس كسائر المقطعات في المعنى والإعراب وقيل معناه يا إنسان بلغة طي

يعني به محمداً ﷺ على أن أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء كما قيل من الله في أيمّن الله كذا روى عن ابن عباس وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وجماعة، وقال أبو العالية يا رجل وقال أبو بكر الوراق يا سيد البشر وروي عن ابن عباس أنه قسم ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ أي المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني الواو للقسم أو العطف إن جعل يس مقسماً به ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ جواب قسم. فإن قيل الغرض من الإخبار أما إفادة الحكم للمخاطب أو إفادة لازم الحكم يعني إفادة أن المتكلم عالم به وهاهنا لا يتصور شيء منهما فأيُّ فائدة في الأخبار؟ قلنا الغرض هاهنا إعلام الكفار ورد إنكارهم وإصرارهم حيث قالوا (لَسْتَ مُرْسَلاً) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ متعلق بالمرسلين أي لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم وهو التوحيد والإستقامة في الأمور، أو ظرف مستقر خبر ثان لأن أو حال من المستكن في الجار والمجرور وفائدته المدح ووصف الشرع بالإستقامة صريحاً وإن دلّ عليه ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إلتزاماً.

﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأ حفص وابن عامر وحمزة والكسائي بنصب تنزيل بإضمار أعني بين للصراط أو بإضمار فعله تقديره نَزَّلَ يعني القرآن تَنْزِيل العُزَيْزِ في ملكه الرَّحِيُم بخلقه حيث نزل الكتاب وأرسل الرسول فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي القرآن ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ متعلق بتنزيل أو بمعنى قوله لَمِنَ الْمُرُسَلِيْنَ ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ ما نافية والجملة صفة لقوم أي لتنذر قوماً لم ينذر أباؤهم حيث لم يبعث بمكة نبي بعد إسماعيل عليه السلام فهم أشد إحتياجاً إلى الرسالة من غيرهم ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي لم ينذروا فبقوا غافلين، وقيل ما موصولة أو موصوفة والمعنى لِتُنْذِرَ قَوْماً بالذي أو بشيء أنذِرَ به أباؤُهُمُ الابعدون فيكون مفعولاً ثانياً لتنذر أو مصدرية يعني لِتُنْذرَ قوماً إنذار آبائهم أي مثل إنذارهم وعلى هذه الوجوه قوله: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ متعلق بقوله إنك لَمِنَ الْمُرُسَلِيْنَ أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ يعني قوله تعالى: لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعين ﴿فَهُمۡ﴾ أي ذلك الآكثر ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال أبو جهل لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ إلى قوله ﴿لَا يُبۡصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو أين هو لا يبصره، وقال البغوي نزلت في أبي جهل وصاحبه المخروميين وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخن رأسه فرآه وهو يصلّي ومعه حجر ليدمغه فلمَّا رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، فلمَّا عاد إلى أصحابه وأخبرهم

بما رأى سقط قال رجل من بني مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلّي ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت؟ فقال ما رأيتُهُ ولقد سمعتُ صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل يخطر بذنبه ولو دنوتُ منه لأكلني فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي الأغلال وأصله إلى أذقانهم فلا يخليهم يطأطئون، وقال البغوي هي كناية عن الأيدي وإن لم يجر لها ذكر لأن الغل بجمع اليد إلى العنق معناه إنَّا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ الفاء للسببية فإن الأغلال سبب للإقحام يعني هم رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم لا يستطيعون النظر إلى شيء، وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق السدّي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن ناساً من بني مخزوم تواصوا بالنبي ﷺ ليقتلوه منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة فبينا النبيّ ﷺ قائم يصلّي يسمعون قراءته أرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلّي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانصرف إليهم فأعلمهم فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي هو يصلي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إلى الصوت فإذا الصوت من خلفهم فيذهبون إليه فيسمعونه أيضاً من خلفهم فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلا فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بفتح السين والباقون بفتحها وهما لغتان ﴿فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ﴾ أي فأعميناهم من التغشية وهي التغطية ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية، قال أهل المعاني هذا على طريق التمثيل ولم يكن هناك غلٌ ولا سدٌ، أراد الله سبحانه أنا منعناهم عن الإيمان بموانع فجعل الأغلال والسد مثلاً لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا يغني عنهم الآيات والنذر مثلهم بالذين غلّت أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وبالذين جعل بينهم السد وبين ما يريدون رؤيته في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له ولو طأطئوا رؤوسهم فرضاً يمنعهم السد عن الأبصار فهم لا يبصرون سبيل الهدى أراد أنا منعناهم عن إيذاء الرسول بحفظنا إياه، وجاز أن يكون جعلنا بمعنى نجعل أورد صيغة الماضي لتحقق الوقوع يعني نجعل في جهنم في أعناقهم أغلالاً ونجعل بين أيديهم سداً وذلك بجعلهم الله تعالى في توابيت من نار ﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتب عليه الفائدة ﴿من اتبع الذكر﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ أي خاف عقابه أو المعنى إنما ينفع إنذارك لمن كان صالحاً

لاتباع الذكر والخشية مستعداً لذلك لم يقل وخشي القهار المنتقم للدلالة على أن الخشية مع ملاحظة صفة الرحمة كمال الخشية وعين الإيمان وأن الإيمان بين الخوف والرجاء ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من فاعل خشي يعني غائباً عن عذابه قبل أن يعاينه أو غائباً عن الناس في خلوته ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حسن وهو الجنة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عند البعث أو المراد إنا نعطي العلم والهداية بعد الجهل والضلال ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحسنة كعلم علموه وحبس وقفوه وسنة حسنة سنوه والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم وتأييد كفر وبدعة إبتدعوها، قال النبيّ ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة يعمل بها من بعده فله أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة يعمل بها من بعده فإن له وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(١) رواه مسلم عن حديث جرير، وقال قوم معنى آثارهم في قوله نكتب ما قدموا وآثارهم خطوهم إلى المساجد، عن أبي موسى الأشعري قال قال: رسول الله ﷺ «**أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى والذي ينتظر الصلوات حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام**»(٢) متفق عليه، وعن جابر رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنوا سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال لهم: «إنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم»(٣) رواه مسلم، وروى البغوي عن أنس نحوه وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري نحوه ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يعني كتبناه ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: فضل صلاة الفجر في جماعة (٦٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (٦٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (٦٦٥).

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾.

﴿واضرب لهم﴾ أي مثل لكفار مكة من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنه معنى الجعل كأنه قيل وأجعل لهم ﴿مَثَلًا﴾ مفعول أول ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفعول ثان بحذف المضاف تقديره اجعل مثلهم أصحاب القرية وهي أنطاكية أخرجه الفريابي عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن بريدة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة يعني قل حال أهل مكة مثل حال أهل إنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي تلك القرية بدل إشتمال من أصحاب القرية ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يعني رسل عيسى عليه السلام، قال البغوي قال العلماء بأخبار القدماء بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية فلما قربا من المدينة فأتيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب صاحب عيسى عليه السلام فلمّا سلما عليه قال الشيخ لهما من أنتما؟ فقالا رسول الله يدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادة الرحمن، فقال معكما آيةٌ قال نعم نشفي المريض ونُبرِىء الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ إن لي ابناً مريضاً منذ سنتين قالا فانطلق بنا نطلع حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً ففشى الخبر في لمدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى وكان لهم ملك، قال وهب إسمه انطفس وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام قالوا فانتهى الخبر إليه فدعاهما فقال من أنتما؟ قالا رسولا عيسى، قال وفيم جئتما؟ قالا ندعوك من عبادة من لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، قال ولكما إله دون آلهتنا، قالا نعم من أوجدك وآلهتك قال قُوْما حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق.

قال وهبٌ: بعث عيسى هذين الرجلين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها رطال مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبر أو ذكر الله فغضب الملك فأمر بهما فحبسهما وجلد كل واحد منهما مائتي جلدة، قالوا فلمّا كُذّب الرسولان وضُرِبا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتَهما وسمعتَ قولهما، فقال الملك حال الغضب بيني وبين ذلك، قال فإن رأى الملك، دعاهما حتى نطلع ما عندهما فدعاهما

الملك فقال لهما شمعون من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون صفاه وأوجزا، فقالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال شمعون وما آيتكما؟ قالا ما تتمنّاه فأمر الملك حتى جيء بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زال يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب المِلك فقال شمعون للمَلِك إن أنت سألت إلهك حتى يصنع صنعاً مثل هذا فيكون لك الشرف فقال الملك ليس لي عنك من سر إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الأصنام يدخل ويصلي كثيراً ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم فقال الملك للرسولين إن قدر إلهكم الذي تعبدانه على إحياء ميت أمنا به قالا إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك إن هاهنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرتُه فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاءوا بالميت وقد تغير واروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه سراً فقام الميت وقال إني قدمّتُ منذ سبعة أيام ووجدت مشركاً فأدخلتُ في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم مما أنتم فيه فآمنوا بالله، ثم قال فتحت أبواب السماء فنظرت فرأيتُ شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة؟ قال شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك فلمّا علم شمعون أن قوله أثر بالملك أخبره بالحال فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون، وقيل: إن ابنة الملك كانت توفيت ودفنت فقال شمعون للملك أطلب هذين الرجلين أن يحييا ابنتك فطلب منهما الملك ذلك فقاما وصليا ودعوا وشمعون معهما قرأ بسر فأحيا الله المرأة وأنشق القبر عنها فخرجت وقالت أعلموا أنهما صادقان ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها إلى مكانها فذرا تراباً على رأسها وعادت إلى قبرها كما كانت.

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ بدل من إذ السابقة ﴿إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ قال وهب إسمهما يحيى ويونس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ قرأ أبو بكر بالتخفيف، والباقون بالتشديد ومعناهما واحد أي فقوينا ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي برسول ثالث وهو شمعون كذا أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ترك ذكر المفعول به لأن المقصود ذكر المعزز به وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وزهق الباطل وإذا كان الكلام لغرض يجعل سياقه له ويرفض ما سواه، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة

قال بلغني أن عيسى بعث إلى أهل القرية رجلين من الحواريين، وقال كعب الرسولان صادق وصدوق والثالث شاوم وإنما أضاف الله الإرسال إلى نفسه لأن عيسى بعثهم بأمره عزَّ وجلَّ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ كلهم لأهل أنطاكية ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ قَالُواْ﴾ أي أهل إنطاكية ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ لا مزية لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة من الله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ من وحي ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة ﴿قالوا﴾ أي الرسل ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ إستشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم ولذلك من قال الله يعلم إني فعلتُ كذا وهو كاذب كان غموساً وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم دون الأول ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى يعنون أن إنكاركم لا يضرنا بعدما كان علينا من أداء التبليغ وإنما هو يعود عليكم بالمضرة.

ولمَّا حبس الله عنهم المطر بتكذيبهم الرسل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ يعنون أن ما نزل بنا إنما هو بشؤمكم وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له وتنفرهم عنه فإن عادة الجهال أن يتمنوا كل شيء مالت إليه طباعهم ويتشاءموا ما كرهوه ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ عما تقولون ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة ونقتلنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمۡ﴾ وهو كفركم، وقال ابن عباس حظكم من الخير والشر معكم لا ينفك عنكم ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ وعظتم به وجواب الشرط محذوف والإستفهام للإنكار يعني أن وعظتم تطيرتم بنا وتوعدتمونا بالرجم لا ينبغي ذلك بل كان ينبغي الإتعاظ والإمتنان، قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية وذُكرتم بالتخفيف تقديره اتطيرتم وتوعدتم لأن ذكرتم ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي قوم عادتكم الإسراف في العصيان ومنها التشاؤم برسل الله والواجب التبرك بهم.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا
يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ
إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ
قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾.

﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ وهو حبيب النجار أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة وقال السديُّ كان قصاراً وقال وهب كان حبيب رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً وقد اسرع فيه الجذام وكان منزله عند اقصي باب من أبواب المدينة وكان مؤمناً ذا صدق يجمع كسبه إذا أمسى فقسم نصفين على عياله ويتصدق نصفه فلمّا بلغه أن قومه قصدوا قتل الرسل جاءهم و﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبلغ الرسالة الجملة تأكيد للأول أو بدل يشتمل فائدة زائدة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارين.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ما إستفهامية مبتدأ والظرف خبر له ولا أعبد حال من ضمير المتكلم والجملة معطوفة على قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم وفيه تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإنما في النصح حيث أراد لهم ما أراد لنفسه والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد ثم عاد إلى السياق الأولى فقال ﴿ءأتخذ﴾ الآية وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان حبيب في الغار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم يعني قومه فأظهر دينه وقال: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ فلما قال ذلك قالوا له وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خلقني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب مالي بسكون الياء والباقون بفتحها، قيل أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكان عليه إظهاره وفي الرجوع معنى الزجر فكان أليق بهم، قيل إنه لمّا قال إتَّبعوُا المرسلين أخذوه فرفعوه إلى الملك فقال له الملك أفأنت تتبعهم فقال ومالي لا أعبد الذي فطرني يعني أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عند البعث فيجازيكم أتخذ إستفهام إنكار أي لا اتخذ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي دون الذي فطرني ﴿ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾ أي لا تنفعني ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ والتي تزعمونها ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ قرأ ورش بإثبات الياء في الوصل والباقون بالحذف في الحالين أي لا ينقذوني من عذاب الله أن عذبني وفي نفي الإغناء عن الشفاعة في دفع الضرر والإنقاذ من العذاب مبالغة في نفي النفع عن شفاعتهم مطلقاً فإن قبول الشفاعة لدفع الضرّ أقرب

من قبولها لنيل الرحمة والجملة الشرطية صفة لآلهة ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِذًا﴾ أي إذا اتخذ مالا ينفع ولا يضر بوجه ما آلهة من دون من فطرني وهو يقدر على النفع والضر ﴿لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا يخفى على من له أدنى تميز كونه ضلالاً، والجملة تعليل للإنكار على اتخاذ الآلهة ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم أيها القوم أو أيها الملك ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا إيماني فعلى هذا هذه الآية من تتمة النصح فأن القوم إذا قيل لهم اتَّبِعُوا المرسلين كأنَّهُمْ قالوا هل آمنت أنت بهم فقال إني آمنتُ بربّكُمُ فاسمعوا أيماني ولو لم يكن هذا خيراً ما استأثرتُ به لنفسه وأضاف الرب إلى المخاطبين ولم يقل آمنت بربي ليكون أدعى لهم إلى الإيمان.

قال البغوي: فلمَّا قال ذلك وثب القوم وثبة رجل واحد فقتلوه قال ابن مسعود وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبة من دبره، وقال السديّ كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللّهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه، وقال الحسن خرقوا خرقاً في حلقه فعلقوه من سور المدينة وقبره بأنطاكية فأدخله الله الجنة وهو حي فيها يرزق يعني حياة الشهداء، وقيل الخطاب للرسل فإنه لمَّا رأى أنه يقتل إستشهد الرسل على ايمانه قبل أن يموت والتقدير فقال للرسل إني آمنت ﴿قِيلَ﴾ يعني قال الله تعالى لحبيب البخار رضي الله عنه لمَّا استشهد إكراماً وإذناً في دخول الجنة كسائر الشهداء ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقيل قال الله تعالى ذلك له قبل موته يعني أدخل قبرك الذي هو روضة من رياض الجنة وإنما لم يقل وقيل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم والكلام فيه والجملة مستأنفة في خير الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه والله أعلم.

ولما أفضى حبيب إلى الجنة ﴿قال﴾ ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ما موصولة أو مصدرية والباء متعلق بيعلمون أي يعلمون بالذي غفر لي ربي به أو بغفران ربي إياي أو استفهامية والباء متعلق بغفر أي بأي شيء غفر لي يريد به الإيمان والمصابرة على إيذاء الكافرين، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب الإيمان والطاعة على دأب الصالحين في كظم الغيظ والترحم على الأعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق.

قال البغوي فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة فأمر جبرئيل فصاح بهم صيحةً واحدة فماتوا عن آخرهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي قوم حبيب ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من زائدة أي بعد إهلاكه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأولى زائدة

لتأكيد النفي والثانية للإبتداء يعني ما أنزلنا إلا هلاكهم جنداً من الملائكة كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقاره هلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ما نافية أي ما كان شأننا في إهلاك قوم إنزال جند فإن الأمر أيسر من ذلك وإنما أنزلنا الأجناد لنصرك بشارةً وإكراماً لك وتسكيناً لقلبك قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾(١) وقيل ما موصولة معطوفة على جند يعني ما أنزلنا على قومه ما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة أو ريح أو أمطار شديدة ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبرئيل، قرأ الجمهور بالنصب على أنه خبر كان وأبو جعفر بالرفع جعل الكون تامة بمعنى الوقوع، قال البغوي قال المفسرون أخذ جبرئيل بعضاً وأتى باب المدينة ثم صاح صيحةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي ميتون، شبهوا بالنار لأن الحياة يتعلق بالحرارة الغريزية فإذا خمدت الحرارة الغريزية مات وجملة ما أنزلنا عطف على قوله ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ وجملة ما كنا منزلين معترضة وجملة إن كانت إلا صيحة تعليل والفاء للسببية يعني فاجئت الصيحة وقت خمودهم.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ الظرف صفة للحسرة وجعلت الحسرة منادى تنبيهاً للمخاطبين على وجوب الحسرة عليهم وتنكيرها للتعظيم كأنَّه قيل يا حسرة أي حسرة تعالى فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليه ﴿ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون﴾ إستثناء مفرغ حال من الضمير المنصوب أو من رسول أو منهما والإستثناء يعني الشرط والجزاء يعني كلما يأتيهم رسول يستهزءون به، والجملة تعليل للحسرة فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء أن يتحسروا وأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الإستعارة لتعظيم جنايتهم على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا، وقيل المنادى محذوف وحسرةً منصوب بفعل مقدر تقديره يا أيها المخاطبون تحسروا حسرةً على العباد، والحسرة شدة الحزن والندامة، قال البغوي فيه قولان أحدهما يقول الله يا حسرة وندامةً وكآبة على العباد يوم القيامة لما لم يؤمنوا بالرسل والآخر أنه من قول الهالكين، قال أبو العالية لما عاينوا العذاب قالوا يا حسرةً على العباد واللام في العباد للعهد والمراد بهم أهل أنطاكية أو كل من لم يؤمن بالرسل واستهزأ بهم فهو تعريض

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٠.

لأهل مكة ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ لأن كم لا يعمل فيما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الإستفهام فهو يستدعي صدر الكلام والضمير في لم يروا لأهل مكة ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل اشتمال من كم على المعنى أي الم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم ألم يروا أنهم غير راجعين إليهم، ولمَّا كان في قوله ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ إيهاماً إلى أن الموتى لا يرجع أبداً ندفع ذلك الوهم قال ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يوم القيامة، قرأ عاصم وحمزة لما بالتشديد هاهنا وفي الزخرف والطارق وأخفها ابن عامر إلا في الزخرف في رواية ابن ذكوان ووافق أبو جعفر في الطارق، والباقون بالتخفيف فمن قرأ بالتشديد فإن نافية ولمَّا بمعنى إلاّ ومن قرأ بالتخفيف فإن مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وما مزيدة للتأكيد وجميعٌ فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لمحضرون.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ قرأ نافع بالتشديد ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر خبر للأرض والجملة خبر آية وصفة للأرض إذ لم يرد بها معينة فهو كقوله ولقد أمر على اللئيم يسبني، والأرض مبتدأ خبرها آية أو خبر لكونها نكرة والآية مبتدأ والجملة معطوفة على قوله وإن كلٌ لما، وجاز أن يكون أحييناها استئنافاً لبيان كونها آية ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحب كالحنطة والشعير ونحو ذلك ﴿فمنه﴾ أي من الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي من أنواع النخيل والعنب ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالإختلاف

ولا كذلك وذكر النخيل دون التمر ليطابق الحب والأعناب لاختصاص النخيل بمزيد النفع وآثار الصنع ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه عند الأخفش من زائدة ﴿لِيَأْكُلُوا۟﴾ متعلق بفجرنا ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي ثمر ما ذكر وهو الجنات، وقيل الضمير لله على طريقة الإلتفات والإضافة إليه لأن الثمر بخلقه، قرأ حمزة والكسائي ثُمُرِهِ بضمتين وهو لغة فيه أو جمع ثمار ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عملت بغيرها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ عطف على ثمره وما موصولة والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمراد أن الثمر بخلق الله تعالى بفعلهم ويؤيد الأول قراءة الكوفيين بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن عن غيرها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون إنعام الله فلا يشكرون وحيث كان إنكاراً على ترك فهو أمر بالشكر ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ أي الأنواع والأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما خلق الله في البحر والبر ولم يطلع عليها أحداً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على قدرتنا ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي ننزع ونكشط وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها بطلوع الشمس فإذا غربت فكأنه مسلخ النهار من الليل وظهرت الظلمة فانسلخ هاهنا مستعار من سلخ الجلد، والكلام في إعرابه مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿آية لهم الأرض من الميتة﴾ ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ عطف على نسلخ منه النهار فغاصوا وقت كونهم داخلين في الظلمة يعني يذهب بالنهار ويجيء بالليل ﴿والشمس﴾ عطف على الليل ﴿تَجْرِى﴾ في فلكها مثل جري الحوت في الماء صفة للشمس بناء على تنكيره أو مبتدأ وخبر والجملة معترضة لبيان سبب وجود الليل والنهار ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ مصدر ميمي أو ظرف يعني تجري لاستقرار لها على نهج مخصوص أو لموضع استقرارها وهي منتهى دورها تشبهت بالمسافر إذا قطع مسيره أو مستقرها كبد السماء قبيل الزوال فإن حركتها توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هُناك وقفة أو مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء، أو لمنتهى مقدر بكل يوم من المشارق والمغارب فإن لهافي دورها ثلاث مائة وخمساً وستين مشرقاً ومغرباً تطلع كل يوم من مطلع وتغرب في مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب الدنيا، وهذه التأويلات كلها مبنية على أنها في ظاهر الحال لا تستقر في وقت من الأوقات ويدل عليه قراءة ابن مسعود ما رواه البغوي عن عمر بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿والشمس

تجري لا مستقر لها﴾ لكن ورد في الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مستقرها تحت العرش**» رواه البخاري في الصحيح، وروى البغوي عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ أنه قال **حين غربت الشمس أتدري أين تذهب هذه؟ قلتُ الله ورسوله أعلم**، قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد ولا تقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها إرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ قال: «**مستقرها تحت العرش**»[1] متفق عليه.

ومعنى الحديث والله أعلم أن الشمس بعد غروبها قبل طلوعها تسجد تحت العرش فيؤذن لها في الطلوع من جانب المشرق فتطلع ويوشك أن لا يؤذن لها بالطلوع من المشرق بل يؤذن لها بالطلوع من المغرب فحينئذ تطلع من مغربها وهي آية من آيات الساعة، لا يقال إن مقدار الليل من وقت غروبها إلى طلوعها يتفاوت بتفاوت الأقاليم حتى أن تحت القطب الشمالي من وراء بلغار إذا كانت الشمس عند رأس السرطان يكون الليل بحيث لا يكون هناك وقت العشاء بل بعد غروب الشمس إذا غاب الشفق من جانب طلع الصبح من جانب فأيُّ وقت يتصور فيه الشمس ذاهبة تحت العرش ساجدة، قلتُ: ليس المراد أن الشمس تدوم ساجدة من وقت غروبها إلى وقت طلوعها فجاز أن يكون وقت من الأوقات يكون ظلمة الليل شاملة لجميع الأقاليم وذلك عند منصفها وحينئذ يذهب الملائكة الموكلون على الشمس بها إلى تحت العرش فتخر هناك ساجدةً ثم يؤذن لها بالطلوع واختلاف مقدار الليل باختلاف الأقاليم إنما يتعلق باختلاف مبدأ الليل ومنتهاه والله أعلم، والقول بأن الحديث من المتشابهات أو أن المراد بالسجود هو الإنقياد أو نحو ذلك يأباه سياق الحديث ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للحكمة التي يكل الفطن عن إحصائها ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ أو قدرنا سيره في منازله قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والقمر بالرفع على أنه معطوف على الشمس يعني آية لهم الليل وآية لهم الشمس وآية لهم القمر والجملة الواقعة بعدها كالجملة الواقعة بعد الشمس وقرأ الباقون بالنصب بإضمار فعل فسره بقوله: ﴿قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ (٤٨٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩).

ليلة في واحدة منها لا يتخطئه ولا يتقاصر عنه فإذا كان في آخر منازله دقَّ واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ أي الشمراخ المعوج فعلون من الإنعراج بمعنى الإعوجاج ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ العتيق قيل ما هي عليه حول فصاعداً ثم يكون القمر تحت شعاع الشمس في المحاق ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ أي يصح لها ويتيسر ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ قال البيضاوي أي في سرعة سيره وهذا مبني على ما قالت الفلاسفة إن القمر أسرع سيراً من الشمس فإن دورها يتم في شهر ودور الشمس يتم في سنة وعندي الأمر بالعكس كما سنبين إن شاء الله تعالى فالأولى أن لا يقيد السير بالسرعة بل يقال الشمس لا تدرك القمر في سيره المخصوص حتى يتحد سيرهما فإن ذلك يخل بتكون النباتات وتعيش الحيوانات أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله أو سلطانه فتطمس نوره، قلتُ: وجاز أن يكون المراد بالشمس النهار وبالقمر الليل وهذا يستقيم المقابلة يعني لا ينبغي للنهار أن يدرك الليل أي يسبقها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته كذا تستفاد من كلام البغوي ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض المضاف إليه أي كل واحد منهما، وقال البيضاوي تقديره كلهم والضمير للشموس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات ولو بالإعتبار أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها ﴿فِي فَلَكٖ﴾ واحد من الأفلاك وهي السماء الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[1] ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ كما يسبح السمك في الماء.

وهذا صريح في أن الشمس والقمر والكواكب سائرة في الفلك بقسر قاسر من الملائكة أو بالإرادة لا أنها مرتكزة في السماء كالمسامير لا تتحرك إلا بتحرك السماء حركة وضعية كما يقول به الفلاسفة بناءً على أن السباحة يستلزم الخرق والالتئام وزعموا أنه محال، فاستدلوا بتعدد الحركات للكواكب على تعدد السماوات على حسب تعدد الحركات فقالوا السماوات تسعة كلها منطبقة بعضها على بعض مثل قشور البصل وقالوا السماء التاسع الذي هو حاد للجميع يتحرك من المشرق إلى المغرب على منطقة وقطبين بحيث يتم دائرة سيره في كل يوم وليلة مرةً تقريباً وسائر. . . . . السماوات تسير بسيره قسراً ولكل منها حركة بالطبع من المغرب إلى المشرق على منطقة أخرى وقطبين آخرين ويحصل التقاطع بين الأقطاب الأربعة قطبي فلك الثوابت وقطبي فلك الأفلاك والشمس يلازم لمنطقة فلك الثوابت وينقسم منطقة فلك الثوابت إلى إثني عشر حصة يسمون كل حصة منها برجاً

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

ويسمون ذلك الفلك فلك البروج، قالوا ذلك لمَّا رأوا أن الكوكب لا يتم دائرة سيرها في يوم وليلة، ولما رأوا أن الكواكب كلها غير السبعة التي يسمونها سيارات لا يختلف نسبة بعضها مع بعض قط وأن سيرها ينقص من الدائرة في اليوم والليلة قليلاً غاية القلة جداً حكموا بأن كلها مرتكزة في فلك واحد وهي السماء الثامنة فلك البروج وإن سيرها كان لا سير ولذا سموها ثوابت وفلكها فلك الثوابت، ولمَّا رأوا السبعة ينقص سيرها في اليوم والليل من الدائرة نقصاناً ظاهراً بحيث يرون القمر يسير في ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين دائرة والشمس تسير في ثلاث مائة وخمس وستين يوماً ثلاث مائة وأربعاً وستين دائرة وهكذا أن أفلاكها سبعة كلها سائرة من المغرب إلى المشرق ولأجل ذلك يرى سيرها في اليوم والليلة ناقصة من الدائرة وكلما رأوا نقصان سيرها من الدائرة أزيد حكموا بكون سيرها أسرع فقالوا فلك القمر أسرع سيراً فإن سيرها إلى المشرق يقطع الدائرة في شهر وفلك الشمس يقطع في سنة ثلاث مائة وخمس وستين يوماً وهكذا حكموا في سائر السيارات، ولمَّا رأوا خمساً من الكواكب العطارد والزهرة والمشترى والمريخ والزحل تارةً سيرها أزيد من دائرة وتارةً أنقص من دائرة وتارةً سيرها دائرة تامة لا زائد ولا ناقص سموها خمسة متحيرة وأثبتوا لها تدويرات سير أعلاها يخالف سيراً سفلها كل ذلك بُيّنَ في علم الهيئة.

ولمَّا دلَّت النصوص القطعية على أن عدد السماوات سبع لا مزيد عليها بحيث يكفر جاحدها وعلى جواز الخرق والالتئام على الأفلاك بحيث يكفر جاحدها أيضاً بل على وقوعها حيث قال الله تعالى: ﴿إذا السماء إنشقت﴾ ﴿إذا السماء انفطرت﴾ ﴿وانشق القمر﴾[1] ونحو ذلك، ودلت الأحاديث الصحيحة على أن السماوات غير منطبقة بعضها على بعضها بل بين كل منها مسافة بعيدة بحيث يفسق جاحدها روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً حديثاً طويلاً وذكر رسول الله ﷺ «**بعُد ما بين الأرض والسَّماء وبين كل سماءين خمس مائة سنة**»[2] وروى الترمذي وأبو داوود عن العباس بن عبد المطلب مرفوعاً حديثاً طويلاً ذكر فيه رسول الله ﷺ «**بعدما بين الأرض والسماء وبين كل سمائين إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة**»[3] (ولعل اختلاف ذلك باعتبار اختلاف سير السائرين

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحديد (٣٢٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الجهمية (٤٧١٠).

سرعة وبطوءاً وجب القول ببطلان علم الهيئة وبأن من اعتقدها يخاف عليه الكفر بالكتاب والسنة وإذا ظهر جواز الخرق والالتئام في السماوات لا مانع من أن يقال أن الكواكب كلها في السماء الدنيا كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾(١) وإن كلاً منها في فلك يسبحون وأن سير أكثرها على مقدار واحد قريباً من الدائرة التامة وسير سبعة فيها على مقادير مختلفة على حسب ما يرى ولا مانع من القول بأن الخمسة تارة يسير زائداً وتارة ناقصاً على حسب إرادة الله تعالى وهي الخنس الجواري الكنس والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب ذُرِّيَّاتِهِم بالجمع وكسر التاء والباقون ذُرِّيَّتَهُمْ على الإفراد بفتح التاء ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء، الظاهر أن المراد بالذرية أولادهم الذين يتبعونهم إلى تجاراتهم أو صبيانهم ونساؤهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية يطلق عليهن لأنهن ترارعها، ورد في الحديث أنه ﷺ «رأى امرأة مقتولة فقال ما كانت هذه تقاتل بالحق خالداً فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفاً»(٢) والمراد بالذرية في هذا الحديث النساء لأجل الامرأة المقتولة وفي حديث عمر «حجوا بالذرية لا تأكلوا أرزاقها وتذروا أرباقها في أعناقها» أي حجوا بالنساء كذا في النهاية، والمراد بالفلك السفائن الصغار والكبار وتخصيص الذرية بالذكر لأن إستقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب، وقال البغوي المراد به سفينة نوح عليه السلام والمراد بالذرية الآباء واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد، وقال البيضاوي وعلى تقدير أن يراد بالفلك سفينة نوح عليه السلام معنى الآية أن الله تعالى حمل آباءهم وحملهم وذريتهم في أصلابهم وتخصيص الذرية بالذكر لأنه أبلغ في الإمتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي مثل الفلك مطلقاً أو مثل ذلك نوح ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر أو من الفلك والسفن والرواق على هيئة سفينة نوح ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مع اتخاذ السفائن ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ جزاء لشرط محذوف تقديره وإن نغرقهم فلا صريخ أي لا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق أو فلا استغاثة كقولهم أتاهم الصريخ ﴿ولا هم ينقدون﴾ عطف على لا صريخ لهم أي لا ينجون من الغرق، قال ابن

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في قتل النساء (٢٦٦٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان (٢٨٤٢).

عباس ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾ استثناء مفرغ منصوب على العلية لا ينقذون لشيء إلا لرحمة منا ولتمتيع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي زمان قُدِر لآجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال ابن عباس ما بين أيديكم يعني الآخرة فاعملوا لها وما خلفكم يعني الدنيا فأحذروها ولا تغتروا، وقيل ما بين أيديكم يعني وقائع الله فيما قبلكم من الأمم وما خلفكم عذاب الآخرة وهو قول قتادة، وقيل المراد به نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله تعالى: ﴿أولم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾[1] وقيل المراد به عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقيل عكسه وقيل ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لتكونوا راجين رحمة الله وجواب إذا محذوف تقديره إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ من الأولى زائدة لتأكيد النفي والثانية للتبعيض ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ استثناء مفرغ مثل قوله: ﴿إلا كانوا به يستهزؤون﴾ هذه الآية في مقام التعليل لما سبق يعني إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوه والجملة الشرطية أعني قوله وإذا قيل لهم مع ما عطف عليه أعني وما تأتيهم من آية عطف على قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على الشرطية السابقة يعني كان المؤمنون يقولون لكفار مكة ﴿أَنفِقُوا۟﴾ على المساكين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأموال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه وضع المظهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بكفرهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ يعني أن الله لم يرزقهم

(١) سورة سبأ، الآية: ٩.

مع قدرته عليه فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعمهم (قيل قاله مشركوا قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن وعبد وبن حميد وابن المنذر عن إسماعيل بن خالد) وهذا قول باطل فإن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم إبتلاءً فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجةً إلى ما لهم ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه ولا يدرك العقول كل حكمة في أفعاله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله ويجوز أن يكون جواباً لهم من الله تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي القيامة والبعث عطف على الشرطية السابقة إستفهام إستبطاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الأخبار بإتيانه جواب الشرط محذوف يعني فأنبئونا عن وقت إتيانه خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ حال من فاعل يقولون يعني يقولون ذلك في حال ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ إستثناء مفرغ منصوب على المفعولية، قال ابن عباس يريد به النفخة الأولى فإن قيل إن الكفار لم يكونوا يعتقدون النفخة فكيف ينتظرونها؟ قلنا: هذه الآية كناية عن عدم تركهم المعاصي أبداً حتى يموتون أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون فإنهم لمّا لم ينتهوا عمّا نهوا عنه قبل ذلك فكأنّهم ينتظرون لأجل ترك المعاصي صيحة الصعق ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ صفة لصيحة واحدة والضمير راجع إلى الناس المفهوم مما سبق وكذا كل ضمير بعده ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حال من الضمير المنصوب في تأخذهم أي يختصمون في أمور الدنيا من متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من إتيانها، أصله يختصمون فسكنت التاء وأدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين على قراءة عاصم وابن ذكوان والكسائي، وقرأ ابن كثير وورش وهشام ويعقوب بفتح الخاء بنقل حركة التاء إلى الخاء والإدغام وقرأ قالون وأبو عمرو باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد وقرأ قالون أيضاً وأبو جعفر بإسكان الخاء كأنهما جوّزا التقاء الساكنين إذا كان الثاني مدغماً، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعان ولا يطويانه ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**[1]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، (٦٥٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٤).

وأخرج الفريابي عنه في هذه الآية قال تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح وفي حوائجهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على تأخذهم ورابط الموصوف محذوف تقديره فلا يستطيعون بعدها والفاء للسببية ﴿تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الزبير بن العوام قال إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب والرجل يحلب الناقة ثم قرأ: ﴿لا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ يعني لا يقدرون على أن يوصوا في شيء من أمورهم ولا أن يرجعوا إلى أهلهم فيروا حالهم بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي ينفخ، ذكر صيغة الماضي لتيقن وقوعه عطف على مضمون فلا يَسْتَطِيعُونَ يعني يموتون من ساعتهم وينفخ في الصور مرةً ثانيةً وبين النفختين أربعون سنةً كذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون عاماً؟ قال أبيت**»[(١)] الحديث، وروى ابن أبي داوود عن أبي هريرة حديثاً مرفوعاً وفيه بين النفختين أربعون عاماً ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي يخرجون والنسل في الأصل الإنفصال عن الشيء يقال نسل الوبر من البعير ومنه يقال للولد النسل لانفصاله عن والده وقيل معناه يسرعون، في القاموس الماشي ينسُلِ بضم العين وكسره نسلاً ونسيلاً ونسلاناً يسرع. ﴿قَالُوا۟﴾ يعني يقول الكفار حين يبعثهم أورد لفظ الماضي لتيقن وقوعه ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ينادون الويل يعني يا ويل احضر فإن هذا أوانك أو يقال أن المنادى محذوف تقديره لا يا أيها المخاطب ويلنا وهو مصدره فعل له من لفظ منصوب بفعل مقدر في معناه، قال في القاموس معناه حلول الشر، وقال بعض المحققين لم يرد في اللغة أن ويلاً وضع لهذا المعنى بل هو اسم لوادٍ في جهنم لما روى أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي الدنيا وهناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ويل وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قيل أن يبلغ قعره**»[(٢)] وروى سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال الويل واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار جعل للمكذبين، وأخرج ابن جبير عن عثمان بن عفان عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٤).

رسول الله ﷺ «الويل جبل في النار» وأخرج البزار بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله ﷺ: **«إن في النار حجراً يقال له ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون»** ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ سكت حفص هاهنا سكتة لطيفة والوقفة عليها عند غيره أحسن، قال ابن عباس وقتادة إنما يقولون هذا لأن الله يرفع العذاب عنهم بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الآخرة عاينوا القيامة ودعوا بالويل، وقول ابن عباس هذا دفع لما قالت المعتزلة إن هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر فإنها تدل على أنهم كانوا كالنيام، وقال أهل المعاني إن الكفار إذا عاينوا جهنم بأنواع عذابها صارت عذاب القبر في جنبها كالنوم فقالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ مبتدأ وخبر وما مصدرية بمعنى المفعول أو موصولة والرابط محذوف يعني هذا ما وعد به الرَّحمانُ وَصَدَقَ فيه المُرُسَلُونَ وجاز أن يكون صَدَقَ المرسلون جملة مستأنفة معطوفة على جملة فهذا إقرار منهم حين لا ينفعهم الإقرار، وقيل هذا قول الملائكة جواباً لهم، وقال مجاهد هذا قول المؤمنين في جوابهم وإنما عدل عن سن الجواب تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنَّهم قالوا بعثكم الرحمن الذي وعدكم بالبعث وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم وليس الأمر كما تظنون أنه بعث النائم فيهكم السؤال عن الباعث بل هو البعث الأكبر ذو الأهوال، وجاز أن يكون هذا صفة لَمُرقَدِنَا ومَا وَعَدَ خبر محذوف أو مبتدأ خبره محذوف يعني ما وَعَدَ الرَّحُمَن حق وَصَدَقَ المُرُسَلُونَ وعلى هذا التأويل لا يلائم السكتة أو الوقف على مَرُقَدِنَا ﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي ما كانت الفعلة في بعثهم ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هي النفخة الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ﴾ أي مجموعون ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ خبر بعد خبر وفي ذلك تهوين لأمر البعث والحشر واستغنائهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ حكاية لما يقال لهم تصويراً للموعود وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ

تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ
نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ
نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بسكون الغين والباقون بضمها وهما لغتان مثل السُّحُتِ وَالسُّحْتِ، واختلفوا في معنى الشغل قال ابن عباس في افتضاض الأبكار، وقال وكيع بن الجراح في السَّماع، وقال الكلبي في شغل عن أهل النار وعمَّا هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم، وقال الحسن شغلوا بما في الجنة من النعيم عمَّا فيه أهل النار من العذاب، وقال ابن كيسان في زيارة بعضهم بعضاً وفي ضيافة الله تعالى، والأولى أن يقال في شغل ما يشتهون فالصوفية العلية الذين لا مقصود لهم إلا الله تعالى شغلهم الانهماك والاستغراق في التجليات الذاتية على جهم وغيرهم كان شغلهم بالسماع والرياح والأكل والشرب والجماع على حسب شهواتهم ورغباتهم، أخرج أبو نعيم عن شيخ طريقتنا أبي يزيد البسطامي أنه قال إن لله خواصاً من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهلنا بالخروج من النار، وفي تنكير شغل وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ وتنبيه على أنه أعلى ممَّا يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر بعد خبر لإن.

قرأ أبو جعفر فكهون بغير ألف حيث كان ووافق حفص في المطففين وفيه مبالغة والباقون بألف وهما لغتان مثل الحَاذِرِ والحَذِرِ يعني ناعمون متلذذون في النعمة من الفكاهة وقال مجاهد والضحاك معجبون بما هم فيه وعن ابن عباس قال هم فرحون ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي ظلل بغير ألف جمع ظلة والباقون ظلال بالألف وكسر الظاء جمع ظل وهو موضع الذي لا يقع عليه الشمس كشعاب أو ظلة وهو ما يترك عن الشمس كقباب ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني السرد في الحجال واحدتها أريكة قال البغوي قال ثعلب لا يكون أريكة حتى يكون عليها حجلة، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال لا يكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان السرير بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كان حجلة بغير سرير لا يكون أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة وأخرج البيهقي عن مجاهد قال الأرائك من لؤلؤ وياقوت الجار والمجرور متعلق بقوله ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ هم مبتدأ

خبره في ظلال وعلى الأرائك جملة مستأنفة أو خبر ثان أو الخبر متكئون والجاران صلة له أو هم تأكيد للضمير في شغل أو فاكهون وعلى الأرائك متكئون خبر آخر لإن، وأزواجهم عطف على هم للمشاركة في الأحكام أو في ظلال حال من المعطوف والمعطوف عليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾ أي ما يطلبون لأنفسهم يقتنعون من الدعاء أو يتمنون من قولهم إدع على ما شئت بمعنى منه على أو ما يدعون في الدنيا من الجنة ودرجاتها، وما موصولة أو موصوفة مبتدأ وخبرها لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل منها ويجوز أن يكون خبراً لهم أو الخبر المحذوف أي هم سلامٌ ومبتدأ محذوف الخبر أي لهم سلامٌ ﴿قَوْلًا﴾ يعني يقول الله قولاً أو يقال لهم قولاً كائناً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ والمعنى أن الله يسلّم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومقناهم ويحتمل نصبه على الأختصاص، أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني والآجري عن جابر قال قال النبيّ ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله تعالى:** ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ فقال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»[(١)] قال السيوطي إشرافه سبحانه وإطلاعه منزه عن المكان والحلول، قال البغوي يسلم عليهم الملائكة من ربهم وقال مقاتل يدخل الملائكة على الجنة من كل باب سلامٌ عليكمُ يا أهل الجنة من ربكم الرحيم يعطيهم السلامة أسلموا السلامة الأبدية.

﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ قال مقاتل والسديُّ والزجاج يعني اعتزلوا من الصالحين يعني يُساق المؤمنون إلى الجنة والمجرمون إلى النار عطف على مضمون ما سبق، وقال الضحاك: إن لكل كافر في النار بيتاً يدخل ذلك البيت ويردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن مسعود قال إذا ألقي في النار من هو مخلد فيها جُعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره، وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن عفلة نحوه ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ألم آمركم على لسان المرسلين استفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات يعني قد

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤).

عهدتُ إليكم والجملة في مقام التعليل لتميزهم من المؤمنين ﴿يا بني آدم أن لا تعبدو الشيطان﴾ أي لا تطيعوه في معصية الله أن مفسرة للعهد فإنه في معنى القول ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة تعليل للمنع عن طاعته فيما يحملهم عليه ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِى﴾ عطف على ولا تعبدوا ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته تعالى والجملة استئناف لبيان المقتضى للعهد بشقيه أو بالشق الأخير والتنكير للمبالغة والتعظيم أو للتبعيض فأن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ﴾ الشيطان ﴿مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ويعقوب بضم الجيم والباء وتشديد اللام وابن عامر وأبو عمرو بضم الجيم وسكون الياء، والباقون بضم الجيم والباء بغير تشديد وكلها لغات ومعناها الخلق والجماعة أي خلقاً ﴿كَثِيرًا﴾ جواب قسم محذوف رجوع إلى بيان معاداة الشيطان وظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل فإنه إنما يأمر بالفحشاء والمنكر وترك عبادة الخالق الرازق الضارّ النافع إلى عبادة من لا يضر ولا ينفع وترك اتباع النبيّ الناصح المؤيد بالمعجزات إلى إتباع هوى النفس ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ عداوته مع وضوحها، الإستفهام للتوبيخ وجملة ولقد أضل معترضة للتوبيخ ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا﴾ أُدخلوها وذوقوا حرها ﴿الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بكفركم في الدنيا ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ جملة فيها التفات من الخطاب إلى الغيبة، أخرج مسلم عن أنس قال كنا مع رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون فيما أضحك**»؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا بشاهد مني، فيقول كفى بنفسِكَ اليوم عليكَ شهيْداً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فينطق بأعماله ثم يخلّى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكنَّ وسحقاً فعنكُنَّ أناضل**»[1] وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله «هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليست في سحابة؟ قالوا لا، قال فوالذي نفسي بيده لا تضارُّون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، فيأتي العبد فيقول أي فلان ألم أكرمك ألم أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأتركك تترأس وتربع، قال بلى يا رب، فيقول أظننت أنك

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

ملاقي؟ فيقول لا، فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقي الثاني فيقول له مثل ذلك، ويقول مثل ذلك ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك وصلَّيتُ وصمتُ وتصدقتُ ويثني ما استطاع فيقال أفنبعث عليك شاهداً فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي، فيختم على فيه ويقول لفخذه إنطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله ما كان ذلك قال وذلك المنافق وذلك بعذر عن نفسه وذلك الذي سخط الله عليه»(١) وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني عن عقبة بن عامر مرفوعاً «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال» وفي حديث معاوية بن حيدة عند أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي قال: «**تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الغلام فأول ما يتكلم من الأدمي فخذه وكفه**» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول أي رب عملتُ وعملتُ فيغفر الله ذنوبه ويستره فيها، قال فما على الأرض خليقة يرى من تلك الذنوب شيئاً وتبدو حسناته والناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول أي ربّ وعزتك كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل فيقول له عملتَ كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك فإذا فعل ذلك ختم علي فيه، قال أبو موسى فإني أحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية، أخرج أبو يعلى والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إذا كان يوم القيامة عير الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا، فيقال أحلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله تعالى ويشهد عليهم ألسنتهم فيدخلهم النار**».

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ يعني ولو شئنا طمس أعينهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ عطف على طمسنا أي إلى الطريق اعتادوا سلوكهم وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معنى الإبتداء أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع أو على الظرفية ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للإنكار يعني فكيف يبصرون الطريق حينئذ أي لا يبصرون بسبب الطمس، قال البغوي هذا قول الحسن والسدّي، وقال ابن عباس وقتادة ومقاتل وعطاء ولو نشاءُ لفقأنا أعين ضلالتهم فأعميناهُمُ عن غَيّهم وحولنا أبصارهم من

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

الضلالة إلى الهدى أبصروا رشدهم يعني لم نشأ ذلك فأنى يبصرون رشدهم ﴿ولو نشاء لمسنخناهم على مكانتهم﴾ قرأ أبو بكر مكاناتهم بصيغة الجمع والباقون بالإفراد يعني ولو شئنا لجعلناهم قردةً وخنازير في منازلهم، وقيل يعني لو شئنا لجعلناهم حجارة وهم قعود في منازلهم لاأرواح لهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أي ذهاباً ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً وضع الفعل موضعه للفواصل، وقيل ولا يرجعون عن تكذيبهم إلى التصديق ومعنى هذه الآية والآية السابقة على تأويل الحسن أنهم لكفرهم ونقضهم العهد أحقاء أن يفعل بهم ذلك لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم في الدنيا واقتضاء الحكمة إهمالهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي من نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف والتشديد من التنكيس، والباقون بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففاً من المجرد والتنكيس أبلغ والنكس أشهر ومعناه نقلبه ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ يعني كان في بدء الأمر لا يزال يتزايد قوةً ونجعله في الآخر بحيث لا يزال يتزايد ضعفاً حتى يموت ﴿أفلا يعقلون﴾ عطف على مضمون الشرطية السابقة والإستفهام للإنكار يعني ينبغي أن يعقلوا ويعلموا أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ فأنه مشتمل عليهما وزيادة غير أنه على تدرج قرأ نافع وابن ذكوان بالتاء على الخطاب لجري الخطاب قبله في قوله: ﴿ألم أعهد إليكم﴾ والباقون بالياء على الغيبة جرياً على قوله: ﴿لو نشاء لمسخناهم﴾.

قال البغوي قال الكلبي إن كفار مكة قالوا إن محمداً شاعر وما تقوله شعر فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ عطف على قوله إنك لمن المرسلين، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة يعني ما علمناه الشعر بتعليم القرآن فإنه غير مقفى ولا موزون وليس معناه مثل معنى الأشعار من التخيلات المرغبة والمنفرة والأقوال الكاذبة ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ما يصح له أن يضيع وقته الشريف في إنشاء الشعر ورعاية الوزن والقافية، وأما ما روى الشيخان في الصحيحين من حديث البراء بن عازب قوله ﷺ: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[1] ومن حديث جندب بن أبي سفيان «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت»[2] فاتفاقي من غير تكلف وتصنع وقعت قصد منه إلى ذلك ومثله لا يعد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر (٢٩٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٦).

شاعراً وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عدَّ المسطور من الرجز شعراً. هذا وقد روى أنه ﷺ حرك البائين من كذب وعبد المطلب وكسر التاء من دميت بلا إشباع وسكن التاء من لقيت، وقال البغوي ما كان يتزين له بيت شعر حتى إذا تمثل بيت شعر جرى على لسانه منكسرا، وروى البغوي عن الحسن أن النبيّ ﷺ كان يتمثل بهذا البيت كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً، فقال أبو بكر يا نبي الله قال الشاعر كفى الشيب والإسلام بالمرء ناهياً فأعاد كالأول فقال أبو بكر أشهد أنك رسول الله يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، وروى عن المقدام بن شريح عن أبيه قال قلتُ لعائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يتمثل شيئاً من الشعر؟ قالت كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت وربما قال: ويأتيك الأخبار من لم تزودي، وقال معمر عن قتادة بلغني أن عائشة سئلت هل كان النبيّ ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت كان الشعر أبغض الحديث إليه قالت ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس بن مطرف.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزودي

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار قال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال إني لستُ بشاعر وما ينبغي لي، وقيل الضمير للقرآن أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ للفرائض والحدود والأحكام وإخبار الغيب من الماضي والمستقبل التي لا يمكن إتيانها من الشاعر بل من أحد من البشر ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر يا محمد بالقرآن وكذلك في الاحقاف ووافق ابن كثير في الأحقاف والباقون بالياء للغيبة متعلق بمضمون ما سبق يعني أنزلنا القرآن وأرسلنا محمداً لينذر القرآن أو الرسول ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مؤمناً فإنه حي القلب يعقل الأشياء على ما هي عليه وأيضاً الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الأبدية لأنه هو المنتفع به دون الكافر فإنه كالميت لا ينتفع به ولا يدرك الحسن من القبيح يحسب عبادة الأحجار وإتباعَ الشيطان حسناً وعبادةَ الخالق واتباعَ الرسول الناصح المؤيد بالمعجزات قبيحاً فيكون في الآخرة بحيث لا يموت ولا يحيي وللإشعار بأنهم أموات في الحقيقة جعلهم في مقابلة مَنْ كَانَ حَيّاً وقال ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ عطف على لينذر أي ليجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن

دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة لاستفهام الإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكرون البعث أو أينكرون خلق الله ولم يروا يعني قد رأوا وأقروا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي تولينا إحداثه دون غيرنا لانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ إسناد العمل إلى الأيدي استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد بالأحداث ﴿أَنْعَٰمًا﴾ خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ متملكون بتمليكنا إياهم أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا﴾ أي سخرناها ﴿لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي مركوبهم يعني الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار والنسق له واستعمالها في الحرث وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من البانها جمع مشربة بمعنى الموضع أو المصدر ﴿أفلا يشكرون﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون فَلاَ يفكرون لا بل يعترفونه ويكفرون كما يدل عليه قوله ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أشركوها به في العبادة بعدما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا أنه المتفرد بها، عطف على مضمون خلقنا لهم يعني أنعمنا عليهم وهم اتخذوا آلهة غيرنا، روى البيهقي والحكيم عن أبي الدرداء أنه قال رسول الله ﷺ قال الله عزَّ وجلَّ: «**إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري**»[(١)] ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ حال من فاعل اتخذوا يعني راجين أن ينصروهم فيما يحقّهم من الأمور، والأمر بالعكس لأنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي أن يمنعوهم من العذاب ﴿وَهُمْ﴾

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي بلا سند، والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم وفيه بقية بن الوليدأورده الذهبي في الضعفاء. انظر: فيض القدير (٦٠٠٨).

أي الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا وهي لا يسوق إليهم خيراً ولا يدفعون عنهم شراً، وقيل معناه يؤتى يوم القيامة بكل معبود من دون الله ومعه أشياعه الذين عبدوهم كأنهم جند محضرون في النار، الجملة حال من فاعل لا يستطيعون ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ الفاء للسببية يعني إذا سمعت الوعيد للكافرين ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحاد وفيك بالتكذيب والتهجين ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتك والعقائد الباطلة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال والأقوال الشنيعة فيجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتلى به وجملة إنا نعلم تعليل للنهي على الإستئناف.

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حاصل محقة، فقال يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرى؟ قال نعم يبعث الله هذا يميتك ثم يحييه ثم يدخلك نار جهنم فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ يعني العاص ابن وائل ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخر السورة، وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسديُّ والبيهقيُّ في شعب الإيمان عن أبي مالك وكذا ذكر البغوي أنها نزلت في أبي بن خلف الجمحي خاصم النبيّ ﷺ في إنكار البعث وأتاه بعظم قد بلي ففتته بيده وقال أترى يحيي الله هذا بعدما؟ فقال النبيّ ﷺ: «**نعم ويبعثك فيدخلك النار**» فأنزل الله تعالى هذه الآية، الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكر الإنسان قدرتنا على الإعادة ولم ير يعني قد علم أنا خلقناه من نطفة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ الفاء للعطف وإذا للمفاجأة يعني خلقناه من نطفة ففاجأ وقت خصامه ﴿مبين﴾ ظاهر أنه مجادل بالباطل لا يريد تحقيق الحق لظهوره حيث يعلم ويعترف ببدء خلقه وينكر ما هو أهون منه وهو الإعادة، وفيه تسلية ثانية بتهوين ما يقول له بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ حيث أتى الكفر في مقابلة النعمة التي لا مزيد عليه وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفاً مكرماً، وقيل معنى فإذا هو خصيم مبين فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً مميز منطيق قادر على الخصام معرب عما في نفسه وقيل فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصدى مخاصمة ربه وينكر قدرته على إحياء الميت وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ إلى آخره بدل من قوله ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نسي القدرة على إحياء الموتى وتشبيهه بخلقه موصوفاً بالعجز عمّا عجزوا عنه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي خلقنا إياه من مني وهو أغرب من إحياء العظم ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ حال من العظام إستئناف بيان للمثل والرميم ما بلي من العظام فعيل بمعنى فاعل من إم الشيء صار إسماً بالغلبة فلذلك لم يؤنث أو بمعنى مفعول من رحمته.

قال البيضاوي فيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء يعني بذلك أن عظم الميتة نجس وبه قال الشافعي، وكذا ذكر ابن الجوزي مذهب أحمد في التحقيق وذكر صاحب رحمة الأمة أن الصحيح من مذهب أحمد طهارة السنّ والريش والعظم، احتج القائلون بنجاسة عظم الميتة بهذه الآية وبقوله ﷺ: **«لا ينتفع من الميتة بشيء»** رواه أبو بكر الشامي بإسناده عن أبي الزبير عن جابر قال صاحب المغني وصاحب تنقيح التحقيق إسناده حسن ورواه ابن وهب في مسنده عن زمعة بن صالح عن أبي الزبير عن جابر ولفظه «لا تنتفعوا من الميتة بشيء ولا تنتفعوا بالميت» قال صاحب التنقيح زمعة فيه كلام وللحديث علة ذكرها ابن معور وغيره، قال صاحب الهداية شعر الميتة وعظمها لا حياة فيهما يعني فلا يحلهما الموت فلا يشتملهما الحديث الوارد في النهي عن الإنتفاع بالميتة ويرد على هذا القول هذه الآية فإنها تدل على كون الحياة في العظم، فالأولى أن يقال أن المنجس إنما هو الدم المسفوح ولا دم في العظم والعصب والشعر وإن كانت فيها حياة ولهذا موت ما لا دم له سائلاً من الحيوانات في الماء لا يفسده عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: **«كل طعام أو شراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فيه فهو حلال أكله وشربه ووضؤه»** رواه الدارقطني، قال الدارقطني لم يروه غير بقية عن سعيد بن سعيد الزبيدي وهو ضعيف وقال ابن عدي سعيد مجهول، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء»**[1] رواه البخاري، والحجة لنا حديث ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة فقال: «ألا استمتعتم بجلدها؟ فقالوا يا رسول الله إنها ميتة، قال إنما حرم أكلها»[2] متفق عليه، وروى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال إنما حرم رسول الله ﷺ من الميتة لحمها وأما الجلد والشعر والصوف فلا بأس به، وفيه عبد الجبار بن مسلم قال الدارقطني ضعيف لكن ذكره ابن حبان في الثقات قال ابن همام لا ينزل الحديث عن الحسن والعجب من ابن الجوزي أنه احتج بهذا الحديث على طهارة صوف الميتة وشعرها ولم يحتج بها على طهارة العظم واحتج على نجاسة العظم بحديث «لا تنتفعوا من الميتة بشيء» ولم يحتج بها على نجاسة الصوف والشعر، والحق أن المراد بقوله ﷺ لا تنتفعوا من الميتة بشيء لا تنتفعوا من الميت مما يؤكل لتنجسه باختلاط الدم المسفوح وأما العظم والشعر

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: إذا وقع الذباب في الإناء (٥٧٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، باب: جلود الميتة (٥٥٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: طهارة جلود الميتة بالدباغ (٣٦٣).

والصوف مما لا يختلط بالدم فلا بأس به ولا بأس بالجلد بعد الدباغ وإزالة الرطوبة وفي الباب أحاديث أخر منها ما روى الدارقطني عن ابن عباس قال سمعتُ رسول الله ﷺ «ألاَ كل شيء من الميتة حلال إلا ما أكل منها فأما الجلد والشعر والصوف والعظم فكل هذا حلال لأنه لا يزكى» وفيه أبو بكر الهذلي قال الدارقطني متروك وقال غندر كذاب وقال يحيى وعلي ليس بشيء، وروى الدارقطني عن أم سلمة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا بأس بمسك الميتة إذا دبغ ولا بأس بصوفها وشعرها وقرونها إذا غسل بالماء**» قال الدارقطني لم يأت به غير يوسف بن السفر وهو متروك يكذب وقال أبو زرعة والنسائي هو متروك وقال دحيم ليس بشيء وقال ابن حبان لا يحل الإحتجاج به بحال، وروى ابن الجوزي من طريق أبي يعلى عن حميد الشامي عن سليمان عن ثوبان أن رسول الله ﷺ اشترى لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج، قال ابن الجوزي الحديث لا يصح حميد وسليمان مجهولان قال أحمد لا أعرف حميداً وقال يحيى بن معين لا أعرف سليمان، وأيضاً المراد بالعاج الزبل قال ابن قتيبة ليس العاج هاهنا الذي يعرفه العامة ويخرطه من العظم والناب ذلك ميتة منهي عنه فكيف يتخذ لها منه سواراً إنما العاج الزبل قال ذلك الأصمعي، قال ابن همام قول الأصمعي ليس العاج الذي يعرفه العامة، ويوهم أنه ليس من اللغة وليس كذلك قال في المحكم العاج أنياب الفيلة ولا يسمى غير الناب عاجاً، وقال الجوهري العاج عظم الفيل الواحد حاجة، فتأويل الأصمعي إنما هو لاعتقاده نجاسة عظم الفيل، قال ويظهر من القاموس أن العاج مشترك في الزبل وعظم الفيل وكذا يظهر من النهاية للجزري والزبل جلد السُلحفاة البحرية أو البرية أو عظام ظهر دابة بحرية يتخذ منها الأسورة والأمغاط كذا في القاموس، وأخرج البيهقي عن بقية عن عمرو بن خالد عن قتادة عن أنس أنه ﷺ كان يمتشط بمشط من عاج، قال البيهقي ورواية بقية عن شيوخه المجهولين ضعيفة، قال ابن همام فهذه عدة أحاديث لو كانت ضعيفة حسن المتن فكيف ومنها ما لا ينزل عن الحسن وله الشاهد الأول من الصحيحين والله أعلم.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كان لامتناع التغير فيه والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها جملة مستأنفة وقوله ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ حال من فاعل يحيي أي يعلم تفاصيل المخلوقات وكيفية خلقها فيعلم أجزاء الأشخاص المتغيبة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطرق تميزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو أحداث مثلها ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدل من ﴿الذي انشأها﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي

هو أو منصوب على المدح بتقدير أعني، قال ابن عباس شجرتان يقال لإحداهما المرخ وللأخرى العفار فمن قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضروان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار يخرج منها النار يقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار، وقال العلماء في كل شجر نار إلا العناب ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي ففاجئتم وقت إيقادكم ولا تشكون في أنها نار خرجت منه فمن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماهية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة العضاضة فيما كان عضاً فيبس وبلي ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الإستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أخلق السماوات والأرض كما تعترفون به وليس الذي خلقهما مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ قرأ يعقوب يقدر على صيغة المضارع ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما أو مثلهما في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من الله لتقرير ما بعد النفي أي هو قادر على أن يخلق مثلهم ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ يخلق خلقاً بعد خلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الممكنات عطف على مضمون بلى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أن يوجد ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون، نصبه ابن عامر والكسائي عطفاً على يقول، قال البيضاوي هو تمثيل لتأثير قدرته في مراده تعالى بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخالق.

﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ مصدر فعل محذوف والفاء للسببية يعني إذا علمتم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة وهو قادر على أن يحيى العظام وأنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون فسبحوا سبحان ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ أي الملك بمعنى القدرة زيدت الواو والتاء للمبالغة ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تنزيه له عما ضربوا وتعجيب عمَّا قالوا فيه معللاً بكونه مالكاً للملك كله قادراً على كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عطف على قوله بيده وفيه وعد للمقرين ووعيد للمنكرين.

عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «**إقرأوا على موتاكم يس**»[(١)] رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفي لفظ «يس قلب القرآن لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له إقرأوها على موتاكم» وذكره الجزري في الحصن الحصين بلفظ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: القراءة عند الميت (٣١١٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر (١٤٤٨).

«يس لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له إقرأوها على موتاكم» وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات**»[١] سنده ضعيف رواه الترمذي.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة يس (٢٨٨٧)، وفيه شيخ مجهول.

سورة الصافات

آياتها مائة وأثنان وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ① فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ② فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ④
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ⑤ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ⑥
وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ⑦ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧
دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ
أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ⑪ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫ وَإِذَا
ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ⑬ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ⑭ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑮ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⑯ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ⑰ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ⑱ فَإِنَّمَا هِىَ
زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ⑲﴾.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ①﴾ أقسم بالملائكة الذين يصفون في مقام العبودية كصفوف المصلين، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **«ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف ويتراصون في الصف»**[1] كذا قال ابن عباس والحسن وقتادة وقيل هم الملائكة تصف بأجنحتها في الهواء واقفةً حتى يأمر الله بما يريد وقيل هي الطير قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[2] ﴿فالزجرات زجرا﴾ يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقيل الملائكة تزجر الناس عن المعاصي بإلهام الخير أو الشياطين عن التعرض لهم، وقال قتادة هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبيح ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ③﴾ هم الملائكة الذين

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الأمر بالسكون في الصلاة وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع (٤٣٠).

(٢) سورة النور، الآية: ٤١.

يتلون ذكر الله أو آيات من الكتب السماوية على الأنبياء وذِكَراً منصوب على المفعولية وجاز نصبه على المصدرية من معنى التاليات، أو أقسم بنفوس العلماء الصافِيّن أقدامهم في الصلاة الزاجرين عن الكفر والسيئات بالحجاج والنصيحات التالين آيات ربهم رفيع الدرجات، أو بنفوس الغزاة المقاتلين في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص الزاجرين الخيل والعدو التالين لذكر الله لا يشغلهم مبارزة العدو عن ذكر الله، والعطف لاختلاف الدوات أو الصفات والفاء لترتيب الوجودِ فإن الصف كمال والزجر تكميل بالمنع عن الشر أو الإساقة إلى الخير والتلاوة إفاضة أو الرتبة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(١) أدغم حمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا وأبو عمرو على أصله في الإدغام الكبير، جواب القسم ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَوَٰحِدٌ﴾ رد لما قال كفار مكة ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب﴾(٢) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ خبر بعد خبر لإن أو خبر مبتدأ محذوف أي هو والمراد بالمشارق مشارق الكواكب كلها أو مشارق الشمس في السنة فإنها ثلاث مائة وخمس وستون تطلع كل يوم من واحد وبحسبها يختلف المغارب ولذلك إكتفى بذكرها مع أن الشرق أَدَلُّ على القدرة وأبلغ في النعمة.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي القربى منكم فيه التفات من الغيبة إلى التكلم ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة وهي بيانية أي بزينة هي الكواكب أو إضافة المصدر إلى المفعول أي بأن زينا الكواكب فإنها كما جاءت إسماً كالليقة جاء مصدراً كالنسبة أو إلى الفاعل أي بأن زينها الكواكبُ، وقرأ حمزة ويعقوب وحفص بتنوين زينةٍ وجر الكواكب على إبدالها منه أي بزينة هي الكواكب أو بزينة هي لها كأضوائها وأوضاعها، قال ابن عباس أي بضوء الكواكب وهذه القراءة يؤيد كون الإضافة في قراءة الجمهور بيانية وقرأ أبو بكر بتنوين زينَة ونصب الكواكب على المفعولية فيؤيد كون الإضافة إلى المفعول أو منصوب بتقدير أعني أو على البدل من محل زينة ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب على المصدرية بإضمار فعله أي وحفظناها حفظاً أو بالعطف على زينة بحسب المعنى كأنّه قال إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً أي لأجل الحفظ ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة برمي الشهب من الكواكب، وهذه الآية تفيد أن الكواكب كلها في السماء الدنيا وقول البيضاوي أن كون

(١) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

الثوابت في الكرة الثامنة وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينها وبين سماء الدنيا أن تحقق لم يقدح في ذلك فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة مبني على تجويز قول الفلاسفة، والحق أن قول الفلاسفة باطل بالكتاب والسنة والإجماع فإن كون السماوات سبعاً منصوص عليه بالكتاب فلا يجوز القول بالكرة الثامنة وتسميتها باسم غير السماء لا يفيد كتسمية الخمر بغير إسمها لا يفيد الحل، وأيضاً الدُّنيَا صفة للسماء ومفهوم الصفة يقتضي حصر زينتها في السماء الدنيا ولولا ذلك الحصر لما وجه لتقييد السماء بالدنيا وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ يرد القول بكون الكواكب في سماء غير سماء الدنيا فإن رجم الشيطان ليس إلا من السماء الدنيا ولا سبيل للشياطين فوق سماء الدنيا والقول بأن الشهاب تخرج من الكواكب الثابتة في السماء الثامنة نافذة من السماوات السبع إلى سارق السمع من الشياطين يأباه العقل والنقل والله أعلم.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي بتشديد السين والميم أصله يَتَسَمَّعُونَ فأدغمت التاء في السين والمعنى يطلبون السماع وفيه مبالغة في نفي السماع والباقون بسكون السين وتخفيف الميم من المجرد، وهذا كلام مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ السماء عنهم ولا يجوز جعله صفة لكلّ شيطان فإنه يقتضي حفظها من الشياطين الذين لا يسمعون ولا علة للحفظ على حذف اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذف أن وأدار عملها فإن اجتماع ذلك منكر ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ متعلق بلا يسمعون بتضمين معنى الإصغاء مبالغة لنفيه وتهويلاً لما يمنعهم عنه، والمراد بالمُلأ الأعلىٰ الملائكة أو أشرافهم مدبرات الأمور ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يُرمون عطف على لا يسْمَعُوْنَ ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي من آفاق سماء الدنيا بالشهب إذا قصدوا المكث والإصغاء ﴿دُحُورًا﴾ مصدر بمعنى الطرد منصوب على المصدرية لأن القذف والدحور متقاربان أو على الحال بمعنى مدحورين أو بنزع الخافض أي بدحور وهو ما يطرد به ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ آخر ﴿واصب﴾ أي دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة، وقال مقاتل لهم عذاب في الدنيا دائم إلى النفخة الأولى يحرقون ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ إستثناء من فاعل لا يسمعون وبدل منه، وقيل إستثناء منقطع والخطفة الاختلاس يعني من اختلس كلمةً من كلام الملائكة مسارقةً ولذلك عرّف الخطفة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أتبع بمعنى تبعه أي لحقه ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وهو ما يرى كأنَّ كوكباً إنقض وهو شعلة تخرج من كوكب لرجم مسترقي السمع من الشياطين.

وليس كما قالت الفلاسفة أنه بخار يصعد إلى الأثير ويشتعل فإن هذا قول باطل

مبني على الظن والتخمين وإنَّ الظَّنَّ لا يغنى من الحق شيئاً وهذا كقولهم في المطر أنه بخار يصعد من الأرض ويصل إلى الطبقة الزمهيرية من الهواء فيجمد ويكون غماماً ثم يصل إليه الحرارة من الشمس فيذوب ويقطر ماء، هذه الأقوال الباطلة التي لا دليل عليها يأباه العقل فإن الأبخرة قد يصعد كثيراً لأجل شدة الحرو لا يكون مطراً إلى سنين وقد يكون أمطاراً متوالية متكاثرة في البرد من غير أن يدرك حينئذ صعود الأبخرة وأيضاً لو كان كذلك لذاب في بعض الأحيان الغمام كله ولم ير ذلك قط وأيضاً البخارات لا تزال تتصاعد دائماً فرؤية الشهاب في بعض الأحيان لا معنى له، وهذه الأقوال باطلة بالكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء من جبال فيها من برد﴾(٢).

وهذه الآية ﴿زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ إلى قوله ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وروى البخاري عن قتادة قال «خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم».

وروى أيضاً عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض**» (وصف سفيان بكفه فحركها وبدد بين أصابعه) «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها ا لآخر إلى من تحت حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء»(٣).

وروى مسلم عن ابن عباس «ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى تبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ما قال فيستخبر بعض أهل

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٢) الآية هي: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ سورة النور، الآية: ٤٣.

(٣) البخاري في كتاب: التفسير، باب: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) (٤٧٠١).

السماوات بعضاً حتى تبلغ أهل هذه السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم تعرفون فيه ويزيدون»[١]، وروى البخاري عن عائشة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشياطين السمع فيستمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم**»[٢] قال البيضاوي واختلف في المرجوم يتأذى فيرجع أو يحترق به لكن قد يصيب الصاعدة مرةً وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولهذا لا يرتدعون.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ الضمير المنصوب لمشركي مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ ممن خلقناهم ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ هم أشد خلقاً منهم والمراد بِمَنْ خَلَقْنَا ما سبق ذكره من السماوات والأرض وما بينهما من الخلائق والمشارق والمغارب والكواكب والشهب الثواقب ومَنْ لتغليب العقلاء والإستفهام للتقرير، وقيل المعنى أمْ مَّنْ خَلَقْنَا من غير هم من الأمم السائفة كعاد وثمود قد أهلكناهم بذنوبهم فمالكم تأمنون من العذاب والتأويل الأول يوافق قوله تعالى: ﴿ءأنتم أشد خلقاً أم السماء﴾[٣] ويدل على إطلاقه قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي لاصق يتعلق باليد، وقال مجاهد والضحاك أي منتن فإنه فارق بين خلقهم وخلق السماوات والأرض فإن خلقها بلا مادة سبق وهذه الجملة متضمنة للسؤال المذكور على طريقة ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾[٤] بعد قوله ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾[٥] والغرض من هذا الكلام الرد على منكر البعث فإنه شهادة عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة فمن قدر على خلق السماوات وغيرها قادر البتة على ما لا يعتد به بالإضافة إليها واحتجاج عليهم بأن خلقهم الأول من الطين اللازب فمن أين ينكرون أن يخلقوا ثانياً من تراب حيث قالوا: ﴿ءإذا كنا تراباً ءإنا لفي خلق جديد﴾[٦] وإن الطين اللازب يحصل بضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي وهما باقيان قابلان للإنضمام والفاعل لا تغير في قدرته فعلى ما ينكرون.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).
(٣) سورة النازعات، الآية: ٢٧.
(٤) سورة النبأ، الآية: ٢.
(٥) سورة النبأ، الآية: ١.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٥.

﴿بَل﴾ ابتدائية للانتقال من غرض إلى آخر وهو الإخبار بحاله وحالهم وليست للإضراب ﴿عجبت﴾ العجب حالة يعتري للإنسان عند رؤية أمر لم يعهد مثله فيعبر عن تلك الحالة بقوله عجبت وبصيغة التعجب منه قوله ﷺ: «**عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل**»، وقوله سبحانه ما أعظم شأنه، ويطلق أيضاً على الشيء الذي لم يعهد مثله أنه عجب قال الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾[(١)] وكثيراً يستعمل العجب فيما يراه الرجل حسناً غاية الحسن يقال أعجبني كذا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾[(٢)] وقوله عليه السلام «عجب ربكم مِن شاب ليست له صبوة»[(٣)] وقوله ﷺ «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم» وقد يستعمل فيما يراه قبيحاً غاية القبح يقال عجبت من بخلك وفرهك، وقال الشاعر شيئان عجيبان هما أبرد من شيخ «شيخ يتصبى وصبي يتشيخ»، وفيما يراه كثيراً غاية الكثرة يقال ما أكرمه وما أطفاه وما أشد استخراجه وما أجهله وما أشد بياضه فالمعنى أن هذا الشيء بهذا الحسن أو بهذا القبح أو بهذا الكرام أو الجهل أو البياض لم يعهد مثله، وقيل هي حالة يعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء وبناءً على ذلك قالوا لا يصح على الله العجب لإحاطة علمه بكل شيء، وقيل هي حالة يعتري للإنسان عند استعظامه الشيء، والصحيح أن مآل هذين التفسيرين إلى ما ذكرنا لأن الإنسان يستعظم ما لم يعهد مثله، وكذا ما يجهل بسببه يراه غير معهود مثله فلا حاجة إلى الصرف عن الظاهر. في قراءة حمزة والكسائي عَجِبْتُ، بضم التاء على صيغة المتكلم، وقال البيضاوي العجب من الله إما على الفرض والتخييل أو على معنى الإستعظام اللازم وقيل أنه مقدر بالقول يعني قل يا محمد بَلُ عَجِبْتُ وقال البغوي والعجب من الله إنكاره وتعظيمه والعجب من الله قد يكون بمعنى الإنكار والذم كما في هذه الآية وقد يكون بمعنى الإستحسان كما في الحديث «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة»، وسئل جنيد عن هذه الآية فقال إن الله ما يعجب من شيء ولكن الله وافق رسوله فقال (وإن تعَجَبْ فَعجبٌ قَوْلُهُمْ) أي هو كما تقوله، وقرأ الجمهور على صيغة المخاطب بفتح التاء يعني عَجِبْتَ أنتَ يا محمد من تكذيبهم إياك مع اعترافهم بكونك

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فيمن لا صبوة له وينشأ في العبادة (١٧٩٥٤).

أميناً صدوقاً وشهادة المعجزات على صدقك وكون القرآن معجزاً أو عجبت من إنكارهم قدرة الله على البعث مع ظهور قدرته تعالى على كل شيء فإن هذا الأمر لم يعهد مثله قال قتادة عجب نبي الله ﷺ من هذا القرآن حين أنزل وضلال بني آدم بعده وذلك أن النبي ﷺ كان يظن أن من سمع لهذا القرآن يؤمن به فلمَّا سمع المشركون وسخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك رسول الله ﷺ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ حال من فاعل عَجِبْتَ بتقدير المبتدأ يعني وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي وعظوا بالقرآن ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتعظون أو المعنى إذا ذكرهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرتهم ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ معجزة تدل على صدق الرسول ﷺ، قال ابن عباس ومقاتل هو إنشقاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية أو يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها ﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ يعنون ما يرونه من المعجزة ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سحريته وقالوا ﴿ءإذا متنا﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الميم ﴿وكنا تراباً وعظاماً ءإنا لمبعوثون﴾ أصله أنُبْعَثُ إذَا مِتْنَا فبدل الفعلية بالاسمية، وقدم الظرف وكرر الهمزة مبالغة في الإنكار وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذا الحال أولى بالإنكار فهذا أبلغ من قراءة ابن عامر بطرح الهمزة الأولى وقراءة نافع والكسائي ويعقوب بطرح الثانية ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ عطف على محل اسم إن بعد مضي الخبر أو على الضمير في مبعوثون فإنه مفصول عنه بهمزة الإستفهام والإستفهام لإنكار الجمع بين بعثهم وبعث آبائهم لزيادة الإستبعاد لبعد زمانهم، وسكن نافع وابن عامر الواو على معنى الترديد وعلى هذه القراءة لا يجوز العطف ﴿قل﴾ يا محمد ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون أنتم وآباؤكم قرأ الكسائي بالكسر وهو لغة فيه ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ الدخور أشد الصغار حال من فاعل المقدر ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ﴾ جواب شرط مقدر يعني إذا كانت البعث فإنما هي أي البعثة، وقيل هي ضمير مبهم موضحها خبرها يعني زجرة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة أي نفخة الثانية والزجر الطرد والمنع بالصوت يقال زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كما أمر في الإبداء ولذلك رتب عليها ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ من مراقدهم أحياءً ﴿يَنظُرُونَ﴾ عطف على ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ﴾ يعني إنما البعثة زجرة ففاجئت وقت كونهم أحياءً ينظرون أي يبصرون أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿وقالوا يا﴾ للتنبيه ﴿ويلنا﴾ أي هلاكنا مصدره فعل له من لفظه وجملة قالوا عطف على ﴿يَنظُرُونَ﴾ ويقولون ﴿يا ويلنا﴾ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم نجازى فيه بأعمالنا ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي يوم القضاء أو الفرق بين المحسن والمسيء ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل هذا جواب الملائكة وقد تم كلامهم على يوم الدين، وقيل هذا أيضاً من كلامهم بعضهم لبعض.

فحينئذ يقول الله سبحانه للملائكة ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يعني أشركوا ﴿فإن الشرك لظلم عظيم﴾ يعني اجمعوهم إلى الموقف للحساب والجزاء ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني نظراءوهم وأشياعهم وأتباعهم، أخرج البيهقي من طريق النعمان بن بشير قال سمعتُ عمر بن الخطاب يقول ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني ضرباءهم الذين هم مثلهم يجيىء أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنى مع أصحاب الزنى وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر وأزواج في الجنة وأزواج في النار، وأخرج البيهقي عن ابن عباس يعني أشباههم، وقال البغوي قال قتادة والكلبي يعني من عمل مثل عملهم فأهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الربا مع أهل الربا وقال الضحاك قرناؤهم من الشياطين كل كافر مع شيطانه في سلسلة، وقال الحسن أزواجهم من المشركات ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا يعني الأوثان والطواغيت وقال مقاتل يعني إبليس واحتج بقوله: ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾[1] واللفظ مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2] ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس دلوهم إلى طريق النار،

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

وقال ابن كيسان قدموهم إلى النار والعرب يسمي السائق هادياً ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي احبسوهم، قال المفسرون لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط فيقول الله تعالى: ﴿قفوهم﴾ ﴿إنهم مسؤولون﴾ تعليل بقفوا، قال ابن عباس يسألون عن جميع أفعالهم وأقوالهم، وروي عنه عن لا إله إلا الله، أخرج مسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يزول قدما عبد عن الصراط حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه ما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه**»(١).

وأخرج الترمذي وابن مردويه مثله عن ابن مسعود وأخرج الطبراني مثله عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وابن عباس، وأخرج ابن المبارك في الزهد عن أبي الدرداء قال: إن أخوف ما أخاف إذا وقعت الحساب أن يقال لي قد عملت فما علمت، وأخرج أحمد في الزهد عنه قال أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة يقال ما عملت فيما علمتَ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبقع بن عبد الله الكلاعي قال إن لجهنم سبع قناطير والصراط عليها فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى فيقولون ﴿ففوهم إنهم مسؤولون﴾ فيحاسبون عن الصلاة ويسألون منها فيهلك فيها من هلك وينجو من نجا، فإذا بلغوا الثانية حوسبوا عن الأمانة كيف أدوها وكيف خانوها فيهلك من هلك وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها فيهلك من هلك وينجو من نجا قال والرحم يومئذ متدلية إلى الهواء تقول اللّهم من وصلني فصله ومن قطعني فاقطعه ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ أي يقال لهم توبيخاً مالكم لا ينصر بعضكم بعضاً تحريض على التناصر والغرض منه التهكم والتعجيز ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ قال ابن عباس أي خاضعون، وقال الحسن منقادون يقال استسلم لشيء إذا انقاده وخضع.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأتباع أو الكفرة والقرناء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حال من الفاعل والمفعول يعني يسأل بعضهم بعضاً توبيخاً ولذلك فسر بقوله يتلاَومون ويتخاصمون ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء أو الكفرة للقرناء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي عن أقوى الوجوه وأيمنها أو عن الدين أو عن الخير كذا قال الضحاك ومجاهد مستعار عن يمين الإنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما وأنفعهما ولذلك سمي يميناً، وقال بعضهم المراد باليمين الحلف يعني كنتم تحلفون إن ما تدعوننا إليه من الدين هو الحق، وقيل معناه القوة والقهر يعني كنتم تكرهوننا وتقسروننا على الضلال، هذه الجملة وما

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: في القيامة (٢٤١٩).

بعدها بيان للتساؤل ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي يقول الرؤساء أو الشياطين ما أضللناكم ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ يعني كنتم كافرين ضالين باختياركم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ من قهر وغلبة تقريرٌ لما سبق ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي مختارين الطغيان ﴿فَحَقَّ﴾ أي وجب ﴿عَلَيْنَا﴾ عطف على محذوف مفهوم مما سبق تقديره كنتم قومًا طاغين كما كنا طاغين ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[1] ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ ضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا عليه عطف على فحقَّ علينا ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ضالين يعنون إن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً علينا وإنه غاية ما فعلنا بكم إنا دعونا إلى الغيّ لأنا كنا على الغي فأحببنا أن تكونوا مثلنا.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني لمَّا كان كلهم من الرؤساء والأتباع والكفرة والقرناء على الغي فهم ﴿يومئذ في العذاب مشتركون إنا كذلك﴾ إنا مبتدأ والجملة خبر وكذلك في محل النصب على المصدرية أي فعلاً مثل ما نفعل بهؤلاء ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بكل مشرك والمجرم هو المشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على يستكبرون ﴿أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ يعنون النبي ﷺ.

قال الله تعالى رداً عليهم ﴿بَلْ جَآءَ﴾ النبيّ ﷺ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي التوحيد الذي قام عليه البرهان ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني ليس هذا دعوى مصدعاً بل إدعاه الأولون من الرسل وهذا يصدقهم ويطابق دعواه دعواهم ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المجرمون فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالاشراك وتكذيب المرسلين ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ جزاءً إلا جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الشرك.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الموحدين استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في تجزون لجميع المكلفين فيكون استثناؤهم عما سبق باعتبار المماثلة فإن ثوابهم يضاعف إلى سبع مائة ضعف إلى ما شاء الله والمنقطع أيضاً بهذا الإعتبار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

(١) سورة هود، الآية: ١١٩.

عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ خصائصه من الدوام وتمحض اللذة ولذلك فسره بقوله ﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة بدل أو بيان للرزق وهي ما يقصد به التلذذ دون التغذي والقوت ما يقصد به التغذي دون التلذذ والرزق يعمهما، وأهل الجنة لمَّا كان خلقهم محفوظة عن التحلل كان أرزاقهم فواكه خالصة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال بخلافها أرزاق الدنيا، الجملة عطف على الجملة أو حال أو خبر بعد خبر ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بالظرف المستقر يعني لهم رزق معلوم في جنات ليس فيها إلا النعيم أو متعلق بمكرمون أو حال من المستكن فيه أو خبر آخر لأولئك ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمل الحال والخبر فيكون ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في مكرمون ويحتمل أن يتعلق على سرر بمتقابلين فيكون متقابلين حالاً من ضمير مكرمون ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ أي بإناء فيه خمر أو خمر كقول الشاعر، وكأس شربت على لذة، وعن الأخفش كل كأس في القرآن فهي الخمر، والجملة حال أو خبر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾.

أي خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون أو خارج من العيون وهو صفة الماء من عان الماء إذا نبع وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بخلاف خمر الدنيا فأنها كريهة عند الشرب وبيضاء ولذَّةٍ صفتان لكأس، قال الحسن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ووصفها بلذة للمبالغة أو لأنها تأنيث لذ بمعنى لذيذ كطب ووزنه فعل.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلة من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول يعني ليس فيها شيء من أنواع الفساد كما في خمر الدنيا من المفاسد من ذهاب العقل ووجع البطن والصداع والقيء والبول ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الزاء من الإنزاف ووافقهما حفص في الواقعة والباقون بفتح الزاء فيهما ولا خلاف في ضم الياء يقال نُزِفَ

الشارب على البناء للمفعول فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله وأنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه وأصله النفاد ونزف لازم ومتعد كذا في القاموس وأنزفتُ الشيء أبلغ من نزفتُه أفرد النزف بالنفي وعطف على ما يعمه لأنه من أعظم فساده ذهاب عقله وأشد على الشارب نفاد شرابه ﴿وَعِندَهُمْ﴾ عطف أو حال ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي أزواج قصرن عيونهم على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لحسنهم عندهن ﴿عِينٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هن عينٌ أي حسان الأعين يقال رجل أعين وامرأة عيناء ورجال ونساء عين ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ للنعام، أخرج ابن جرير عن أم سلمة عنه ﷺ «العين الضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» وعنه ﷺ قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ قال رقتهن كرقة الجلدة في داخل البيضة التي على القشر ﴿مَّكْنُونٌ﴾ بريشه لا يصل إليه غبار والبيضُ جمع بيضة لعوده على لفظه، قال الحسن شبههن ببيض النعامة لأنها تكفها بريشها من الريح والغبار فلونها أبيض في صفرة ويقال هذا أحسن ألوان النساء أن يكون بيضاء بصفرة والعرب تشبهها ببيض النعامة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ أي بعض أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عما مضى عليه في الدنيا حال والجملة معطوفة على يُطافُ عليهم أي يشربون فيتحادثون على الشراب قال الشاعر:

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

فإنه ألذ تلك اللذات إلى العقل والتعبير بالماضي للتأكيد ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الجنة بيان للتساؤل ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ في الدنيا ينكر البعث، قال مجاهد كان شيطاناً، وقال الآخرون كان من الإنس، وقال مقاتل كانا أخوين، وقال الباقون كانا شريكين أحدهما كافر إسمه مطروس والآخر مؤمن اسمه يهودا وهما اللذان قص الله خبرهما في سورة الكهف ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾[1] ﴿يقول ءإنك لمن المصدقين﴾ البعث استفهام للتوبيخ ﴿ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءإنا لمدينون﴾ مجزيون بعد البعث كرر الاستفهام لغاية الاستبعاد والإنكار ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي أهل النار لأريكم ذلك القرين، وقيل القائل هو الله أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأراكم ذلك القرين ولتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم، قال ابن عباس إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى النار ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ هذا المؤمن على أهل النار ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسطه يسمى وسط الشيء سواء لاستواء الجوانب

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٢.

منه، أخرج هناد عن ابن مسعود في الآية قال فاطّلع ثم التفت إلى أصحابه فقال رأيتُ جماجم القوم تغلي ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ قرأ يعقوب بإثبات الياء في الحالين وورش وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين يعني كدت لتهلكني بالإغواء أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ يعني لسنا ممن شأنه الموت إلا التي كانت في الدنيا فالمستثنى مفرغ منصوب على المصدرية من اسم الفاعل أو المعنى فما نحن نموت أبداً إلا التي كانت في الدنيا فالإستثناء منقطع والفاء للعطف على محذوف تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين والاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على إقرار ما كان ينكره في الدنيا بقوله: (إِنَّا لَمَدِينُونُ) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ وذلك تمام كلامه لقرينه تقريعاً له وجاز أن يكون هذا معاودة إلى كلامه مع جلسائه تحدثاً بنعمة الله وتعجباً منها وتعريضاً للقرين بالتوبيخ، وقال بعضهم يقول أهل الجنة للملائكة حين تذبح الموت إستبشاراً أو تبجحاً أفما نحن بميتين فيقول الملائكة لا فيقولون ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الخلود في النعم ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ويحتمل أن يكون هذا من كلام الله كقوله تعالى ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ المنزل أو لمثل هذا النعيم لا للحظوظ الدنيوية المشوبة بالآلام سريعة الزوال ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ التي هي نزل أهل النار وهي شجرة مرة خبيثة كريهة الطعم يُكره أهل النار على تناولها يزقّمون على أشد كراهية ومنه قولهم تزقّم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة، وانتصاب نزلاً على التميز والحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ولهم ما وراء ذلك ما يقصر عنه الأفهام وكذلك الزقوم لأهل النار. أخرج الترمذي وصححه النسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ

قال: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف من يكون طعامه**»[١] وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم عن أبي عمران الخولاني في شجرة الزقوم قال بلغنا أن ابن آدم لا ينهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا﴾ أي شجرة الزقوم ﴿فِتْنَةً﴾ أي محنةً وعذاباً في الآخرة أو ابتلاءً في الدنيا ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين كانوا يقولون كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر، وقال ابن الزبيري لصناديد قريش إن محمداً يخوفنا بالزقوم والزقوم بلسان بربر الزبد والتمر فأدخله أبو جهل في بيته وقال يا جارية زقِّمينا فأتتهم بالزبد والتمر فقال تزقموا هذا ما يوعدكم به محمد، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال قال أبو جهل زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر وإنَّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي قعر النار وأخرج نحوه عن السدي قال الحسن أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركاتها ﴿طَلْعُهَا﴾ أي ثمرها سمي طلعاً لطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قال ابن عباس هم الشياطين بأعيانهم غيَّه بها لقبحه فإن الناس إذا وضعوا شيئاً بغاية القبح قالوا كأنه شيطان وإن كانت الشياطين لا ترى لأن قبح صورتها يتصور في النفس، وقال بعضهم الشياطين حيات هائلة قبيحة للنظر لها أعراف وعلها سميت بها لذلك، وقيل هي شجرة قبيحة مرة منتنة تكون في البوادي تسميها العرب رؤوس الشياطين ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجرة أو من طلعها الفاء للسببية تعليل لكونه فتنة ﴿فمالؤن منها البطون﴾ لغلبة الجوع أو الإكراه على أكلها والمَلأ حشو الإناء بما لا يحتمل المزيد عليه ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي على أكلها بعدما ملئوا بطونهم وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم ويجوز أن يكون ثم لِمَا في شرابهم من مزيد الكراهة ﴿لَشَوْبًا﴾ خلطاً ومزجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ متعلق بشوباً وحميم ماء حار شديدة الحرارة يعني يشربون الحميم فيصير في بطونهم شوباً له ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم قال البغوي وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج من الجحيم كما يورد الإبل إلى الماء ثم يردُّون إلى الجحيم يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾[٢] وقرأ ابن مسعود ﴿إن مقيلهم لإلى الجحيم﴾.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟﴾ أي وجدوا ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٤.

أي يسرعون، الجملة في مقام التعليل أي استحقوا تلك الشدائد تقليداً للآباء في الضلال مسرعين من غير نظر وبحث ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ﴾ عطف على إنهم ألفوا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿أكثر الأولين﴾ من الأمم الخالية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أنبياء أنذروهم من العواقب ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ الإستفهام للتعجب والاستعظام والجملة الاستفهامية بتأويل المفرد مفعول لانظر والغرض منه التحقيق أي كان عاقبتهم العذاب في الدنيا والآخرة ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إستثناء من مضمون الجملة السابقة أي إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله فإنهم نجوا من العذاب وقرىء بالفتح أي الذين أخلصهم لدينه، والخطاب مع الرسول ﷺ المقصود خطاب قومه فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم شرع في تفصيل القصص بعد إجمالها فقال ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام يعني ولقد ضل قبلهم قوم نوح فأرسلنا فيهم نوحاً منذراً فدعاهم إلى الإسلام فلم يؤمنوا حتى أيِسَ من إسلامهم ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾[١] فنادانا أي دعانا بإهلاك قومه فأجبناه أحسن الإجابة ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف لقيام ما يدل عليه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ عطف على فأجبناه المقدر ﴿وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من أذى قومه ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ يعني لم يبق لأحد من قومه ذرية إلا لنوح، أخرج الترمذي وغيره عن سمرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قال: حام وسام ويافث[٢] وأخرج من وجه آخر قال: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم» روى الضحاك عن ابن عباس أنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساؤهم، الظاهر من قصة نوح في القرآن أنه غرق في الطوفان كل من كان في الأرض إلا من آمن بنوح وركب السفينة ثم لم يبق لأحد ذرية

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الصافات (٣٢٣٠).

إلا لنوح متناسلين إلى يوم القيامة، قال سعيد بن المسيب كان ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والروم والفارس وحام أبو السودان ويافث أبو الترك والخوز ويأجوج ومأجوج وما هنالك يعني وما في بلاد الشرق من الهند وغير ذلك، قلتُ: وعندي أن نوحاً لم يكن مبعوثاً إلى كافة الناس فإن الإرسال إلى الناس كافةً كان من خصائصه ﷺ بل كان مبعوثاً إلى قومه خاصة فلم يؤمنوا فدعا عليهم فأهلكوا بالطوفان والمراد بالأرض في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1] أرضه المعهود فعلى هذا الحصر في هذه الآية إضافي يعني جعلنا ذريته هم الباقين من قومه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ من الأمم هذا الكلام ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ جيء به على الحكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً ويقولون هذا القول، وقيل هو سلام من الله ومفعول تركنا محذوف تقديره تركنا عليه الثناء والذكر الجميل وفي العالمين متعلق بالظرف المستقر أي عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني إنا نجزي كل محسن جزاء كذلك الجزاء أو الذي جزينا نوحاً بابقاء الذكر الجميل والسلام قولاً من رب العالمين ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني إنما جزيناه ذلك الجزاء بإيمانه وإحسانه وفيه بشارة للمحسنين من أمة محمد ﷺ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ يعني غير المحسنين من قومه عطف على نجينا.

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ عطف على قوله ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني ممن شايعه في الإيمان وأصول الدين أو في الفروع أيضاً جميعها أو أكثرها ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وست مائة وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح عليهم السلام ﴿إِذْ جَآءَ

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦.

رَبَّهُۥ﴾ يعني توجه إليه، والظرف متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة يعني تابعه وقت مجيئه أو بمحذوف وهو أذكر ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الاشتغال بغير الله تعالى خالياً عن الغير وحبه كما يدل عليه قصة ذبح ابنه لامتثال أمر به ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إذ السابقة أو ظرف لجاء أو لسليم ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ استفهام توبيخ، على عبادة الحجارة ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ هذا الاستفهام أيضاً توبيخ بعد توبيخ آلهةً مفعول به لتُرِيْدُوْنَ ودُوْنَ الله صفة لآلهة وإفكاً مفعول له قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم عليه المفعول له لأن الأهم أن يقرر أن مبنى أمرهم على الإفك والباطل، وجاز أن يكون إفكاً مفعولاً به وآلهةً بدل منه على أنها إفك في أنفسها مبالغة وأن يكون إفكاً حالاً بمعنى أفكين ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي بمن هو حقيق لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته أو أشركتم به غيره آمنتم من عذابه، والمعنى إنكار ما يوجب الظن فضلاً عن موجب القطع الذي يصد عن عبادته أو يجوز الإشراك به أو يقضي إلا من عقابه على طريقة الإكرام وهو كالحجة على ما قبله.

﴿فَنَظَرَ﴾ عطف على قال ﴿نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ أي في مواقعها واتصالاتها أو في علمها أو في كتابها وهذا يدل على أن النظر في علم النجوم وتعليمه وتعلمه كان جائزاً في شريعته لكن صار منسوخاً في شريعتنا حيث قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»[1] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عباس ورواه رزين وزاد «المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر» والمعنى أن ثلاثتهم في الكفر بمنزلة واحدة، ويمكن أن يقال إنما يحرم النظر في علم النجوم إذا أسند الحوادث إلى الكواكب وأما إذا أسندها إلى الله سبحانه وجعل اتصالات النجوم علامات بحسب جري عادة الله على خلق بعض الأشياء عند تلك الاتصالات كما أن الله تعالى يخلق الشفاء غالباً عند شرب الدواء ويخلق الموت عند شرب السم ويخلق أفعال العباد عند القصد المصمم منهم فلا بأس به، ولعل النبيّ ﷺ إنما نهى عن اقتباس علم النجوم لئلاً يسند الناس الحوادث إلى الكواكب. عن زيد بن خالد الجهني قال صلّى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأمّا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الكهانة والتطير، باب: في النجوم (٣٩٠٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦).

من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب»(١) متفق عليه، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنزل الله من السماء من بركة إلا اصبح فريق من الناس بها كافرين ينزّل الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا**»(٢) رواه مسلم، وقد ذكر الإمام محمد الغزالي رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال أن علم الطب والنجوم أنزلهما الله تعالى على بعض الأنبياء ثم بقي العلمان بأيدي الكفرة، ويدل على إفادة علم النجوم علماً ظنياً (مثل الطب) إخبار المنجمين فرعون بولادة موسى وزوال ملكه على يديه.

وروى البخاري في الصحيح بسنده عن الزهري «أنه كان ابن الناطور (صاحب إيليا وهرقل) أسقُفاً على نصارى الشام يحدث أن هرقل لما قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك (قال ابن الناطور وكان هرقل حزّاء وينظر في النجوم) فقال لهم حين سألوه إني رأيتُ الليلة حين نظرتُ في النجوم ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الأمة، قالوا ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتل من فيهم من اليهود فبينما هو على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان بخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلمّا استخبره هرقل قال إذهبوا فانظُرُوا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال هم يختتنون، فقال هرقل ملك هذه الأمة قد ظهر ثم كتب هرقل إلى صاحب له برؤيته وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يرم بحمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبيّ ﷺ وأنه نبي»(٣). قال الشيخ ابن حجر رواية الزهري موصولة لابن الناطور لا معلقة، قد بين أبو نعيم في دلائل النبوة أن الزهري قال لقيتُ ابن الناطور بدمشق في زمن عبد الملك بن مروان وأظنه لم يتحمل عند ذلك إلا بعد أن أسلم. فإن هذا الحديث وأمثاله يدل على إفادة علم النجوم نوعاً من العلم، لكن لما كان الاشتغال به موجباً لما ذكرنا من المفسدة وهو إسناد الحوادث إلى الكواكب وكان اشتغاله إضافة للأوقات لكونها غير نافعة في الدين نهى النبيّ ﷺ عن الاشتغال به والظاهر أن الإشتغال بعلم النجوم كان جائزاً في دين عيسى عليه السلام وإلالم يشتغل به علماء النصارى والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨٤٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، بيان: كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧).

ومن زعم أن علم النجوم باطل لا أصل له قال إن هذا القول من إبراهيم كان إيهاماً منه، قال ابن عباس كان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروها عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزم الحجة عليهم في أنها غير مستحقة للعبادة وكان لهم من الغد عيد ومجمع فكانوا يدخلون على أصنامهم ويفرشون لهم الفراش ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم زعموا التبرك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه وقالوا لإبراهيم تخرج غداً هنا إلى عيدنا (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ قال ابن عباس أي مطعون وكانوا يفرون من الطاعون، وقال الحسن أي مريض وقال مقاتل وجع، في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منه في ذات الله قوله إني سَقِيمٌ وقوله بل فَعَلَه كَبِيُرهُمْ هذا**»[1] الحديث وذكر الثالث قوله لسارة أختي وقد مر الحديث في سورة الأنبياء، والمراد بالكذبات التعريضات والتّورية، قال الضحاك معناه سأسقم، وقيل تأويله أن من في عنقه الموت سقيم ومنه ما قيل أن رجلاً مات فجاءةً فقالوا مات وهو صحيح فقال أعرابي أصحيح مَنِ الموت في عنقه، وقيل أراد إني سقيم النفس لكفركم وقد ذكرنا تأويلات قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾[2] في سورة الأنبياء ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها كما قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي دخل عليها خفيةً من روغه الثعلبُ أصله الميل بحيلة، وقال البغوي لا يقال راغ حتى يكون صاحبه مخفياً لذهابه ومجيئه ﴿فَقَالَ﴾ إبراهيم إستهزاءً ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ الطعام الذي بين أيديكم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بجوابي حال، والعامل فيه معنى الفعل في مالكم أي ما تصنعون حال كونكم غير ناطقين ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي مال عليهم مستخفياً والتعدية بعلى للإستعلاء ولأن المراد الميل المكروه ﴿ضَرْبًا﴾ منصوب على المصدرية لأن في راغَ معنى ضرب أو بفعل محذوف أي فضرب ضرباً ﴿باليمين﴾ أي بيد اليمنى لأنه أقوى من اليسار وقيل أراد به القسم الذي سبق منه وهو قوله ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾[3].

﴿فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ﴾، يعني أقبل قوم إبراهيم إليه بعدما رجعوا ورأوا أصنامهم مكسورة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٨).

وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٢٣٧١).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.

وسألوا عن كاسرها بقولهم ﴿من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾[١] وظنوا أنه هو حيث قالوا ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[٢] ﴿يَزِفُّونَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة بضم الياء والباقون بفتحها قيل هما لغتان والمعنى يسرعون، وقيل معنى يَزِفُّونَ بالضم يحملون على الزفيف يعني كان يحمل بعضهم بعضاً على الإسراع ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿اتعبدون ما تنحتون﴾ أي ما تنحتونه عن الأصنام استفهام للإنكار والتوبيخ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الجملة حال من فاعل تعبدون والتقيد بالحال إنكار بعد الإنكار والظاهر أن ما مصدرية يعني والحال أن الله خلقكم وخلق أعمالكم فمالكم تتركون عبادة الخالق وتؤثرون عبادة المحتاج إليكم فهذه الآية حجة لنا على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وقالت المعتزلة ما موصولة والمعنى خلقكم وما تعملونه يعني الأصنام فأن جوهرها بخلقه تعالى وشكلها وإن كان بفعلهم (ولذلك جعل من أعمالهم) في إقداره إياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه من الدواعي والعدَدِ أو مصدرية والمعنى عملكم بمعنى معمولكم ليطابق ما تنحتون، قلنا الوجه هو الأول لأن الأخيرين يقتضي الحذف والمجاز ولا شك أن معمولهم ليس إلا الشكل دون جوهر الأصنام وعلى التأويلين الأخيرين أيضاً يثبت أن الشكل مخلوق لله تعالى، ومعمول أي مكسوب للعباد وهو المقصود ﴿قَالُوا۟﴾ فيما بينهم لما عجزوا عن المحاجة ﴿ابنوا له بنياناً فالقوة في الجحيم﴾ أي في النار الشديدة التأجج كذا في القاموس، واللام بدل الإضافة والجملة معطوفة على جمل محذوفة معطوفة بعضها على بعض تقديره فاملئوه حطباً واضربوه بالنار فإذا التهب ألقوه في الجحيم قال مقاتل بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملئوه من الحطب وأوقدوا فيها ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بإبراهيم عليه السلام ﴿كَيْدًا﴾ أي شراً وهو أن يحرّقوه كيلا يظهر عجزهم للعامة فطرحوه فيها موثقاً يداه ورجلاه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً واضحاً على علو شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً ولم يحرق منه الأوثاق وكان ذلك بأرض بابل في زمن نمرود الجبار.

﴿وقال﴾ إبراهيم حين خرج من النار سالماً ولم يؤمنوا به ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ يعني أهجر دار الكفر، وأذهب إلى حيث أتجرد فيه بعبادة ربي ﴿سَيَهْدِينِ﴾ عطف على ما يفهم من قوله فجعلناهم الأسفلين يعني خرج من النار سالماً ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ إلى

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٠.

ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصد قصدته حيث أمرني ربي وهو الشام، وحينئذ فَرَّ إبراهيم هارباً مع سارة من أرض بابل من خوف نمرود وكانت سارة من أجمل نساء عصرها ومرّ بحدود مصر، وفرعونها يومئذ صادف بن صادف. وفي شرح البخاري لابن الملقن إسمه سنان بن علوان أخو الضحاك وقيل اسمه عمرو بن امرأ القيس فغصب سارة من إبراهيم فحمل صادف الجبار سارة إلى قصره وجعل الله الجدر والستور لإبراهيم كقشر البيضة ينظر إليها كيلا يقيد قلبه إليها وكان رجلاً غيوراً، فلمَّا همَّ بها زلزل القصر فلم يدر أن ذلك من أجلها فتحول إلى القصر الثاني فزلزل به فتحول إلى القصر القصر الثالث فزلزل به فقالت سارة هذا من إلى إبراهيم رد إليه امرأته، وفي رواية فلمَّا مدَّ يده إليها شلت يده فاستغاث صادف بسارة وطلب الدعاء فدعت سارة فعادت اليد كما كانت فمد يده إليها ثانية فصارت مشلولةً فطلب الدعاء منها ثانياً وعهد أن لا يفعل لهذا الفعل فدعت سارة فمد يده إليها ثالثةً فشلت يده ثالثاً وحلف إن عوفي أن لا يفعل أبداً فدعت سارة فصحت يده وروى أحمد في مسنده والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ «بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال من هذه؟ قال أختي فأتى سارة، فقال يا سارةُ ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها، فلمَّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها ثانياً فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق فدعا بعض حجبته فقال إنك لم تأتيني بإنسان إنما أتيتني بشيطان فأخدَمَها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومىء بيده مهيم قالت رد الله كيد الفاجر في نحره وأخدمني هاجر»[1] وفي المواهب اللّدنية أن في رواية صارت يد صادف مغلولةً حين مدها إلى سارة، فاستغاث صادف بإبراهيم عليه السلام فدعا إبراهيم فأطلق الله يده فأعطاه هاجر أم إسماعيل عليه السلام وقال لا سبيل لي إلى سارة بعد وكانت هاجر أمينة وخازنة وجليسة وقال حين وهبها ما أجَرك الخطاب لإبراهيم إن وهبها له أو لسارة إن وهبها لها فسميت هاجر من ذلك ثم وهبها إبراهيم لسارة طلباً لرضاها فلم تلد سارة قبل ولادة إسماعيل وظنت بها العقم وقالت لإبراهيم إن هاجر امرأة مرغوبة فقد وهبتُها لك لعله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام (٢٣٧١).

يكون لك منها ولد فرطئها فولدت إسماعيل عليه السلام.

قلتُ: وذلك حين دعا إبراهيم ربه وقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي وهب لي ولداً كائناً من الصالحين، قال مقاتل لما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ يعني ذا عقل كذا في القاموس، يعني إسماعيل عليه السلام وهو الصحيح وإليه ذهب ابن عمر، وهو قول سعيد بن المسيب والشعبي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن عطاء بن أبي رباح ويوسف بن ماهك عن ابن عباس قال المفدي إسماعيل، وأخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعيد عن أبيه أنه كانت سارة تحت إبراهيم فمكثت عنده دهراً لا يرزق ولداً فلمَّا رأت ذلك وهبت له هاجر أمة قبطية فولدت له إسماعيل فغارت من ذلك سارة وقد ذكرنا القصة في سورة إبراهيم، ثم جاء إبراهيم بها وبإسماعيل بمكة وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت كذا في البخاري وذكرنا حديث البخاري أيضاً في سورة إبراهيم، وقالت اليهود والنصارى الغلام الذي أمر إبراهيم بذبحه هو إسحاق وهذا كذب منهم. قال البغوي قال محمد بن كعب القرظي سأل عمر بن عبد العزيز رجلاً من علماء اليهود (وحسن إسلامه) أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل ثم قال يا أمير المؤمنين إن اليهود يعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله بذبحه، ويزعمون أنه إسحاق بن إبراهيم ومن الدليل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في يدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج، أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في سننه عن امرأة من بني سليم عن عثمان بن طلحة أنه كان قرنا الكبش معلقين بالكعبة وقال البغوي قال الشعبي

رأيتُ قرني الكبش منوطين بالكعبة، وقال ابن عباس والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش تعلق بقرنيه وميزاب الكعبة قد وحش يعني يبس، قال الأصمعي سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسماعيل أو إسحاق قال يا أصمع أين ذهب عقلك متى كان إسحاق بمكة إنما كان إسماعيل وهو الذي بنى البيت مع أبيه، قال البغوي وكلا القولين يروى عن رسول الله ﷺ، قلتُ وقول البغوي هذا كناية عن أنه لم يثبت عن النبيّ ﷺ في الباب شيء إذ لو صح أحدهما لم يعتد بقول آخر، وما ذكر البغوي أنه ذهب من الصحابة عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي وهو رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس إلى أنه إسحاق، وقال سعيد بن جبير أدى إبراهيم ذبح إسحاق بالشام فسار به مسيرة شهر في غدوة واحدة حتى أتى به المنحر بمنى فلمَّا أمره الله بذبح الكبش وذبحه سار به مسيرة شهر في روحة واحدة فطويت له الأودية والجبال، فلعل من قال منهم هذا القول اعتمد على أخبار اليهود والله أعلم.

والدليل على كون إسماعيل مأموراً بذبحه أنه هو المولود أولاً بعد الهجرة إلى الشام إجماعاً وقد عطف الله قوله ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ على قوله ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ بالفاء الموضوع للتعقيب بلا تراخ وأما إسحاق فقد ولد بعد ذلك بتراخ والمأمور بذبحه إنما هو ذلك المبشر به لمَّا بلغ معه السعي، ولأن البشارة بإسحاق بعد ذلك معطوفة على البشارة بهذا الغلام فهو غير، ذلك دليل واضح على أنه غيره لا يقال إن البشارة التي بعد ذلك المعطوفة إنما هي بشارة بنبوة إسحاق لا بولادته كما قيل بشر إبراهيم بإسحاق مرتين مرةً بولادته ومرة بنبوته لأنه خلاف ظاهر الآية فإن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ يعني بشرناه بنفس إسحاق حال كونه مقضياً بالنبوة والصلاح ولم يقل بشرناه بنبوة إسحاق وصلاحه والصرف عن الظاهر لا يجوز بلا ضرورة، ولأن سارة لمّا بشرت بإسحاق بشرت معه بيعقوب ولداً منه حيث قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1] فلا يتصور الأمر بذبحه مراهقاً قبل ولادة يعقوب.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ عطف على جملة محذوفة تقديره فولد له الغلام فلما بلغ معه السعي أي بلغ أن يسعى معه في أعماله ويعينه، وقال الكلبي يعني العمل لله وهو قول

---

(١) سورة هود، الآية: ٧١.

الحسن ومقاتل بن حبان وابن زيد قالوا هو العبادة، وقال ابن عباس وقتادة لما بلغ أن يسعى إلى الجبل معه وقال مجاهد عن ابن عباس يعني أنه شبَّ حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، قيل كان سنه ثلاث عشرة سنة وقيل سبع سنين، والظرف أعني معه متعلق بمحذوف دل عليه السعي لا به لأن صلة المصدر لا يتقدمه ولا يبلغ فإن بلوغهما لم يكن معاً كأنَّه قال فلمَّا بلغ السعي فقيل مع من فقيل معه كذا قيل، والأولى أن يقال إنه ظرف مستقر حال من السعي ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ قرأ حفص بفتح الياء ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك ويحتمل أنه رأى ما هو تعبيره، قال محمد بن إسحاق كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أمر في المنام أن يذبحه وذلك أنه رأى ليلة التروية كأنَّ قائلاً يقول له أن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلمَّا أصبح روى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانياً فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فمن ثم سمي عرفة كذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال ابن إسحاق وغيره فلمَّا أمر إبراهيم بذبح ابنه قال لابنه خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلمَّا خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر به، قال مقاتل رأى في المنام ثلاث ليال متتابعات فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه إني أرى في المنام أني أذبحك وقال السديُّ لمَّا دعا إبراهيم فقال ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ وبشر به قال هو إذاً لله ذبيح فلمَّا ولد وبلغ معه السعي قيل له يعني من الله أوفي بنذرك هذا هو السبب في أمر الله بذبح ابنه، وهذا القول ينافي الإبتلاء، قال البغوي إنه قال إبراهيم لإسماعيل إنطلق نقرب قرباناً لله عزَّ وجلَّ فأخذ سكيناً وحبلاً فانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال الغلام يا أبت أين قربانك قال: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء المتكلم في إني أرى وإني أذبحك والباقون بإسكانها فيهما ﴿فانظر ماذا ترى﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم التاء وكسر الراء من الإفعال من الرأي لا من الرؤية أي ماذا تشير وإنما إستشاره ليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته والباقون بفتح التاء والراء وأبو عمرو يميل فتحة الراء ﴿قَالَ﴾ إسماعيل ﴿يا أبتِ أفعل ما تؤمر﴾ أي ما تُؤْمَرُ به فحذفا دفعةً أو على الترتيب أو افعل أمرك أي مأمورك والإضافة إلى المأمور، وهذا يدل على أن رؤيا الأنبياء وحي واجب الامتثال وقد روى عبد بن حميد عن قتادة أن رؤيا الأنبياء وحي، وروى

البخاري في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ومسلم عن ابن عمر وأبي هريرة وأحمد وابن ماجه عن أبي رزين والطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[١]، ولا شك أن رؤيا الأنبياء كلها صالحة لا يحتمل الفساد وأما رؤيا غيرهم فمنها صالحة ومنها دون ذلك ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي إستسلما وانقادا وخضعا لأمر الله، وقال قتادة أي أسلم إبراهيم ابنه وأسلم ابنه نفسه ﴿وتلّه﴾ أي صرعه على الأرض ﴿لِلۡجَبِينِ﴾ قال ابن عباس أضجعه على جنبه على الأرض والجبهة بين الجنبين وكان ذلك عند الصخرة بمنى أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس، وأخرج البغوي عن عطاء بن السائب عن رجل من قريش عن أبيه عن النبيّ ﷺ أنه بالمنحر الذي ينحر فيه اليوم، قال البغوي قالوا قال له ابنه يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب واكفف عنّي ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليَّ فإن الموت شديد وإذا أتيتَ أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيتَ أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها، قال إبراهيم عليهما السلام: نِعْمَ العون أنتَ يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما قال له ابنه ثم أقبل عليه وقبله وربطه وهو يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يحك السكين وروي أنه كان يمرُّ الشفرة على حلقه ولا يقطع فشحذه مرتين أو ثلاثاً بالحجر كل ذلك لا يقطع، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السديّ أنه أمرَّ السكين بقوّته على حلقه مراراً فلم يقطع وضرب الله على حلقه صفحة من نحاس، قالوا فقال الابن عند ذلك يا أبت كبني لوجهي على جنبي فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقة تَحُولُ بينك وبين أمر الله وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضاً أن إبراهيم كبّه على وجهه.

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله لمَّا أراد إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً فتمثل الشيطان رجلاً

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٨).

فأتى أم الغلام فقال لها هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت ذهبا يحتطبان من هذا الشعب، قال لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت لا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك قال إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه فقال يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال لا والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال ولِمَ؟ قال يزعم أن ربه أمره بذلك، قال فليفعل ما أمر به ربُّه سمعاً وطاعةً فلما أمتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم، فقال له أين تريد أيها الشيخ؟ قال أريد هذا الشعب لحاجة لما فيه، قال والله إني لأرى أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا فعرفه إبراهيم، فقال إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضِيَنَّ لأمر ربي فرجع إبليس بغيظه، ولم يصب من إبراهيم وآله شيئاً ممَّا أراد وامتنعوا منه بعون الله عزَّ وجلَّ. وروى أبو الطفيل عن ابن عباس أن إبراهيم لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر سابقة فسبقه إبراهيم ثم ذهب الجمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم لأمر الله عزَّ وجلَّ وَتَلَّه للجبين.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ قال البغوي الواو زائدة وناديناه جواب لمَّا، وقال البيضاوي جواب لمَّا محذوف تقديره كان ما كان، فما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله وإظهار فضلهما به على العالمين مع إحراز الثواب الجزيل إلى غير ذلك، قلتُ: وجاز أن يكون الواو للعطف على جواب لمَّا المحذوف تقديره فلما أسلما وتله للجبين منعنا عنه الذبح وناديناه ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أن مفسرة ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ حيث أتيتَ من الفعل ما كان مقدوراً لك والمطلوب من التكليف والإبتلاء هو الإتيان بالمقدور لا غير، وقيل كان رأى في المنام معالجة الذبح ولم ير إراقة الدم وقد فعل في اليقظة ما رأى في النوم وعلى هذا ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ حقيقة في معناه وعلى الأول مجاز، فإن قيل على التقدير الثالث ألم يكن ذبح الولد عليه واجباً وإنما كان الواجب عليه معالجة أسباب الذبح فما معنى قوله ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ فإن الفداء لا يتصور إلا بعد الوجوب؟ قلنا على التقدير الثاني إذا كان معالجة الذبح واجباً أصالةً صار الذبح واجباً دلالة لكونه لازماً له عادة فصح إطلاق الفداء عليه وهذا نسخ للحكم قبل القدرة على إتيانه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

﴿٨٠﴾ تعليل لفرج تلك الشدة عنهما بإحسانهما يعني إنا نجزي المحسنين بإحسانهم جزاء مثل ما جزينا إبراهيم، وعفوناه عن ذبح الولد مع ما أعطيناه من الثواب العظيم وفضلناه به على العالمين ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الأمر بتذبيح ابنه ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي الاختيار الظاهر الذي به يتبين المخلص من غيره أو المحنة والصعوبة البينة فإنه لا أصعب منها، وقيل المراد بالبلاء هو النعمة وهي أن فدى ابنه بالكبش.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ عطف على نادينا، روي أنه لما سمع إبراهيم النداء نظر إلى السماء فإذا هو بجبرئيل ومعه كبش أملح أقرن وقال هذا فداء لابنك فاذبحه دونه فكبر جبرئيل وكبر الكبش وكبر إبراهيم وكبر ابنه فأخذ إبراهيم الكبش وأتى المنحر من منى فذبحه والفادي على الحقيقة إبراهيم، وإنما قال وَفَدَيْنَاهُ لأنه المعطى له والأمر به على التجوز في الفداء أو الإسناد ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر في الثواب، وقال الحسين بن الفضل لأنه كان من عند الله، قال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً، وقال مجاهد سماه عظيماً لأنه متقبل، قال البغوي قال أكثر المفسرين كان ذلك في الجنة أربعين خريفاً وأخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ورُوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي كان قربه ابن آدم هابيل. استدل الحنفية بهذه الآية على أنه من نذر بذبح ولده لزمه ذبح شاة، قال البيضاوي وليس فيها ما يدل عليه، قلتُ: قد ذكرنا المسألة في سورة الحج في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾[1] وذكرنا أن القياس يقتضي أن لا يلزمه شيء لأنه نذر بالمعصية وبه قال أبو يوسف لكن استحسن أبو حنيفة أنه يلزمه شاة لأن الحقيقة إذا كانت مهجورة شرعاً تعين المجاز فلما نذر بذبح الولد حملناه على التزامه بدل أعني الشاة بدليل هذه الآية حيث جعل الله تعالى كبشاً فداء لابن إبراهيم عليهما السلام وبه أفتى ابن عباس كما ذكرنا هناك ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على إبراهيم عطف على صدر القصة يعني ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وجاز أن يكون عطفاً على فَدَيْنَاهُ ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم الثناء والذكر حذف المفعول لدلالة سياق الكلام وجاز أن يكون قوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ بتقدير هذا القول مفعولاً لتركنا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للسلام ولعله طرح عنه إنا إكتفاء بذكره مرةً في هذه القصة ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ أي بأن نهب لك ولذلك سمى إسحاق ﴿نَبِيًّا﴾ أي مقضياً نبوته مقدراً ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا يقدح فيه

(١) سورى الحج، الآية: ٢٩.

عدم المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار المعنى بالحال فلا حاجة إلى تقدير المضاف يجعل عاملاً فيهما مثل وَبَشَّرْنَاه بوجود إسحاق أي بأن يوجد إسحاق نبيا من الصالحين ومع ذلك لا يصير نظير قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾(١) فإن الداخلين مقدرون خلودهم وقت الدخول وإسحاق لم يكن مقدراً نبوة نفسه وصلاحه حيث ما يوجد، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة ثناء عليه وتعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي أفضيا بركات الدين والدنيا عليه، وقيل باركنا أي على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بكون ألف نبي من نسله أولهم يعقوب وآخرهم عيسى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو على نفسه بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مبين﴾ ظاهر ظلمه وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يضرهما.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أنعمنا بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عطف على ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾(٢) وبينهما معترضات ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي من فرعون يسومهم سوء العذاب وقيل من الغرق ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ يعني موسى وقومه ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على فرعون وقومه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ البالغ في بيان أحكام الله وشرائعه ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب لمن يسلكه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ سبق مثل ذلك.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٧٥.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ قرأ ابن ذكوان برواية النقاش عن الأخفش بحذف الهمزة والباقون بتحقيقها ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عطف على ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ روى عن عبد الله بن مسعود قال الياس هو الإدريس وفي مصحفه إن إدريس لمن المرسلين وهذا قول عكرمة وقال الآخرون هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، قال ابن عباس هو ابن عم اليسع، وقال محمد بن إسحاق هو الياس بن بشر بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران عليه السلام، وقال أيضاً محمد بن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار لما قبض الله عزَّ وجلَّ قبله نبياً عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وظهر الشرك ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله فبعث الله إليهم إلياس نبيّاً وكانت الأنبياء من بني إسرائيل يبعثون بعد موسى بتجديد ما نسوا من التوراة، وبنوا إسرائيل كانوا متفرقين في أرض الشام وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح الشام بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم فاحل سبطاً منهم بعلبك ونواحيها وهم الذين كان منهم إلياس فبعثه الله إليهم نبيّاً وعليهم يومئذ ملك يقال له أجُبُ فداخل قومه وأجبرهم على عبادة الأصنام وكان يعبد صنماً يقال له بعل وكان طوله عشرون ذراعاً ولها أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ وهم لا يسمعون منه شيئاً إلا ما كان من أمر الملك فإنه صدقه وآمن به فكان إلياس يقوّم أمره ويسدّده ويرشده، وكانت لأجب امرأة يقال لها إزبيل فكان يستخلفها على رعيته إذا كان غائباً في غزاة وغيرها وكانت تبرز وتقضي للناس وكانت قتَّالة للأنبياء ويقال هي التي قتلت يحيى بن زكريا عليهما السلام ـ وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكتم إيمانه وكان قد خلص من يدها ثلاث مائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم وكانت في نفسها غير محصنة وكانت قد تزوجت سبعة من ملوك بني إسرائيل وقتلت كلهم بالاغتيال وكانت معمرة يقال أنها ولدت سبعين ولداً.

وكان لأجب هذا جار رجل صالح يقال له مزدكي وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ومرمتها وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملِك وامرأته وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويغسلان فيها وكان أجُبُ الملِك يحسن

جوار صاحبه مزدكي، ويحسن إليه وامرأته إزبيل تحسده لأجل تلك الجنينة وتحتال أن تغصبها منه لما تسمع الناس يكثرون ذكرها ويتعجبون من حسنها وتحتال أن تقتله والملك ينهاها من ذلك فلم تجد إليه سبيلاً، ثم إنه إتفق خروج الملِك إلى سفر بعيد فطالت غيبته فاغتنمت امرأته إزبيل وأمرت رجالاً يشهدوا على مزدكي أنه سبَّ زوجها أَجَبُ فأجابوها إليه وكان في حكمهم في ذلك الزمان القتل على من سب الملِك، فأقامت عليه البنية وأحضرت مزدكي وقالت بلغني أنك شتمتَ الملِك فأنكر المزدكي وأحضرت الشهود فشهدوا عليه بالزور فأمرت بقتله وأخذت جنينته فغضب الله عزَّ وجل عليهم للعبد الصالح، فلمَّا قدم الملِك من سفره أخبرته الخبر فقال ما أحسنتِ ولا أرانا نفلح بعده فقد جاورنا منذ زمان وأحسَنَّا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره بأسوء الجوار قالت إنما غضبتُ لك وحكمتُ بحكمك، فقال لها ما كان يسعه حلمكِ فتحفظين له جواره قالت قد كانت ما كانت، فبعث الله إلياس إلى أجبُ الملك وقومه فأمره أن يخبرهم أن الله قد غضب لوليه حين قتلوه ظلماً وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ولم يرد الجنينة إلى ورثة المزدكي أن يهلكهما يعني أجُب وامرأته في جوف الجنينة ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى يتعرى عظامهما من لحومهما ولا يتمتعان بهما إلا قليلاً، قال فجاء إلياس فأخبره بما أوحى الله إليه في أمره وأمر امرأته برد الجنينة فلمَّا سمع الملِك ذلك اشتد غضبه عليه ثم قال له يا إلياس ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلاً وما أرى فلاناً وفلاناً (سمى ملوكاً منهم) قد عبدو الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويتنعمون مملكين ما ينقص من دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل وما نرى لنا عليهم من فضل، قال وهَمَّ الملِك بتعذيب إلياس وقتله فلما أحَسَّ الشرَّ رفضه وخرج عنه ولحق بشواهق الجبالُ وعاد الملك إلى عبادة البعل وارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه يقال أنه بقي سبع سنين شريداً خائفاً يأوي إلى الشعاب والكهوف يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون والله يستره.

فلمَّا تم سبع سنين أذن الله في إظهاره وشفاء غيظه منهم فأمرض الله عزَّ وجلَّ ابناً لأجُب وكان ذلك أحب ولده إليُه وأشبههم به فادنف حتى يئس منه فدعا صنمه بعلاً وكانوا قد فتنوا ببعل وعظموه حتى جعلوا له أربع مائة سادن، فوكلوهم به وجعلوهم أنبياء وكان الشيطان يدخل في جوف الصنم فيتكلم والأربع مائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلال فيبينونها للناس بها ويسمونهم أنبياء، فلما اشتد مرض ابن الملِك طلب إليهم الملِك أن يتشفعوا إلى بعل ويطلبوا لابنه من قبله

الشفاء فدعوه فلم يجبهم ومنع الله الشيطان فلم يمكنه الولوج في جوفه وهم مجتهدون في التضرع إليه، فلمَّا طال عليهم ذلك قالوا لأجُب إن في ناحية الشام آلهة أخرى فابعث إليها أنبياءك فلعلها تشفع لك إلى إلهك بعل فإنه غضبان عليك ولولا غضبه عليك لأجابك، قال ومن أجل ماذا غضب عليَّ وأنا أطيعه قالوا من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرطتَّ فيه حتى نجا سليماً وهو كافر بإلهك، قال أجب وكيف لي أن أقتل إلياس وأنا مشغول عن طلبه لوجع ابني وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد فلو عوفي ابني لفرغتُ لطلبه حتى أجده فأقتله فأرضي إلهي، ثم إنه بعث أنبياءه الأربع مائة إلى الآلهة التي بالشام يسألونها أن تشفع إلى صنم الملك يشفي ابنه فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس أوحى الله إليه أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويكلمهم وقال له لا تَخَفُ فإني سأصرف عنك شرهم وألقي الرعب في قلوبهم، فنزل إلياس من الجبل فلما لقيهم استوقفهم فلما وقفوا قال لهم إن الله عزَّ وجلَّ أرسلني إليكم وإلى من ورائكم فاستمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوا صاحبكم فارجعوا إليه وقولوا إن الله يقول ألستَ تعلم يا أجب إني أنا الله لا إله إلا أنا إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم وقلة عملك حملك على أن تشرك بي وتطلب الشفاء لابنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا ما شئتُ إني حلفتُ باسمي لأغضبك في ابنك ولأميتنه في فوره غداً حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً دوني، فلمَّا قال لهم هذا رجعوا وقد ملئوا منه رعباً، فلما صاروا إلى الملك أخبروه بأن إلياس قد انحط عليهم وهو رجل نحيف طوال قد نحِل وتمعط شعره واقشعر جلده عليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا فلمَّا صار معنا قذف له في قلوبنا الهيبة والرعب وانقطعت ألسنتنا ونحن في هذا العدد الكثير فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه، حتى رجعنا إليك وقصوا عليه كلام إلياس.

فقال أجب لا ننتفع بالحياة ما كان إلياس حيّاً ولا يطاق إلا بالمكرو الخديعة فقيض له خمسين رجلاً من قومه ذوي القوة والبأس وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال له وأن يطمعوه في أنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليستنيهم إليهم ويغتربهم فيمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم فانطلقوا حتى ارتفعوا ذلك الجبل الذي يسكن فيه إلياس ثم تفرقوا ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون يا نبي الله أبرز إلينا وامتن علينا بنفسك فإنا قد آمنا بك وصدقناك وملكُنا أجُب وجميع الناس وأنت آمن على نفسك وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلتَ فآمنَّا بك وأجبناك إلى ما دعوتَنا فهلم إلينا فأقم بين أظهرنا واحكم فينا فننقاد لما أمرتَنا وننتهي عما نهيتنا

وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا بك وطاعتنا فأرجع إلينا، وكل هذا منهم مماكرةٌ وخديعةٌ فلمَّا سمع إلياس مقالتهم وقع في قلبه وطمع في إيمانهم وخاف الله إن هو لم يظهر لهم فألهمه الله التوقف والدعاء فقال اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فاحترقوا أجمعين، قال فبلغ أجب وقومه الخبر فلم يرتدع من همه بالسوء واحتال ثانياً في أمر إلياس وقيض إليه فئةً أخرى مثل عددهم أولئك أقوى منهم وأمكن في الحيلة والرأي فأقبلوا حتى توقلوا قلل الجبال متفرقين وجعلوا ينادون يا نبي الله إنَّا نعوذ بالله بك من غضب الله وسطواته أنا لسنا كالذين أتوك قبلنا وإن أولئك فرقة نافقوا فصاروا إليك ليكيدوا من غير رأينا ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم فالآن قد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم وانتقم لنا ولك منهم، فلمَّا سمع إلياس مقالتهم دعى الله بدعوته الأولى فأمطر عليهم النار فاحترقوا عن آخرهم وفي كل ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه.

فلمَّا سمع الملِك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غضباً إلى غضب وأراد أن يخرج إلى طلب بإلياس بنفسه إلا أنه شغله من ذلك مرض ابنه فلم يمكنه فوجه نحو إلياس المؤمن الذي هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس به إلياس فينزل معه وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً وإنما أظهر له لِمَا أطلع عليه من إيمانه وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مثنياً عليها هو عليه من الكفاية والأمانة وسداد الرأي، فلمَّا وجهه نحوه أرسل معه فئة وأوغر إلى الفئة دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم وإن جاء مع الكاتب وأثقابه لم يروّعوه ثم أظهر مع الكاتب الإنابة وقد قال له أنه قد آن لي وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني وقد عرفتُ أن ذلك بدعوة إلياس ولستُ آمناً أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته فانطلق إليه وأخبره أنا قد تُبنَا وأنَبنَا وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضاء ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى ربنا، وأمر قومه فاعتزلوا وقالوا له أخبر إلياس أنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبدو أرخينا أمرها حتى ينزل إلياس فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها وكان ذلك مكراً من الملك، فانطلق الكاتب والفئة حتى علا الجبل الذي فيه إلياس ثم ناداه فعرف إلياس صوته فتاقَت نفسه إليه وكان مشتاقاً إلى لقائه فأوحى الله إليه أن أبرز إلى أخيك الصالح فالقه وجدد العهد به فبرز إليه وسلم عليه وصافحه فقال له ما الخبر فقال له المؤمن أنه قد بعثني إليكَ هذا الجبار الطاغي وقومه ثم قص عليه ما قالوا، ثم

قال له وإني خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معي أن يقَتلني فمرني بما شئتَ أفعله إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه وإن شئتَ جاهدتُه معك وإن شئتَ ترسلني إليه بما تحبُّ فأبلِغه رسالتَك وإن شئتَ دعوتَ ربَّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، فأوحى الله إلى إلياس أن كل شيء جاءك منهم مكر وخديعة وكذب ليظفروا بك وإنَّ أجب الملِك إن أخبرته رسله إنك لقد لقيتَ لهذا الرجل ولم يأت بك اتهمه وعرف أنه قد واهن في أمرك فلم يؤمن أن يقتله، فانطلق معه وإني سأشغل عنكما أجب فأضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره ثم أميتُه على شر حال فإذا مات هو فارجع منه، قال فانطلقَ معهم حتى قدموا على أجُب فلما قدموا شدَّد الله الوجع على ابنه وأخذ الموت بِكَظَمه فشغل الله بذلك أجب وأصحابه عن إلياس فرجع إلياس سالماً إلى مكانه، فلمَّا مات ابن أجب وفرغوا من أمره وقلَّ جزعه انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب الذي جاء به فقال ليس لي به شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا وقد استوثقتَ منه فأضرب عنه أجُب وتركه لما فيه من الحزن على ابنه.

فلمَّا طال الأمر على إلياس ومد في الجبال واشتقاق إلى الناس نزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأةٍ من بني إسرائيل وهي أم يونس بن متى ذي النون إستخفى عندها ستة أشهر ويونس بن متى يومئذٍ مولود مرضع فكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوده فسحة الجبال فأحب اللحوق بالجبل فخرج وعاد إلى مكانه فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ثم لم تلبث إلا يسيراً حتى مات إبنها يونس حين فطمته فعظمت مصيبتها فخرجت في طلب إلياس ولم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته وقالت له إني قد فجعتُ بعدك بموت إبني فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي وليس لي ولد غيره فارحمني وادع الله جلَّ جلاله ليحيى لي ابني وإني تركته مسجىً لم أدفنه قد أخفيتُ مكانه، فقال لها إلياس ليس هذا مما أمرتُ به وإنَّما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني ربي فجزعت المرأة وتضرعت وأعطف الله قلب إلياس إليها فقال لها متى مات إبنك؟ قالت منذ سبعة أيام فأنطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى انتهى إلى منزلها فوجد ابنها ميتاً له أربعة عشر يوماً فتوضأ وصلّى ودعا فأحيى الله يونس بن متى فلمَّا عاش وجلس وثب إلياس وتركه وعاد إلى موضعه. فلمَّا طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعاً فأوحى الله إليه سبع سنين وهو خائف مجهود فنادى الله إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه ألستَ أميناً على وحيي وحجتي في أرضي وصفوتي في خلقي فاسألني أعطيك فإني ذو الرحمة

الواسعة والفضل العظيم، قال إلياس فإن تميتني فتلحقني بآبائي فقد مللتُ بني إسرائيل وملوني فأوحى الله إليه يا إلياس ما هذا باليوم الذي أعري عنك الأرض وأهلها وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك وإن كنتم قليل ولكن سلني فأعطيك، قال إلياس فإن لم تمتني فأعطني ثأري من بني إسرائيل، قال الله عزَّ وجلَّ وأيُّ شيء تريد أن أعطيك قال تمكنني من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشر عليهم سحابة إلا بدعوتي ولا تمطر عليهم قطرةً إلا بشفاعتي فإنه لا تذلهم إلا ذلك، قال الله عز وجل يا إلياس أنا أرحم بخلقي من ذلك وأن كانوا ظالمين، قال فست سنين قال أنا أرحم بخلقي من ذلك قال فخمس سنين، قال أنا أرحم بخلقي من ذلك ولكني أعطيك ثأرك ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك، قال إلياس بأيّ شيء أعيش؟ قال أسخر لك جيشاً من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط، قال إلياس قد رضيتُ، قال وأمسك الله عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً وإلياس على حالته يستخف من قومه يوضع الرزق حيث ما كان وقد عرف ذلك قومه وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت قالوا لقد دخل إلياس هذا المكان فطلبوه ولقي منهم أهل ذلك المنزل شراً قال ابن عباس أصاب بني إسرائيل ثلاث سنين القحطُ فمر إلياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام؟ قالت نعم لشيء من دقيق وزيت قليل، قال فدعا بهما ودعا فيه بالبركة ومسه حتى مَلأ جُرابها دقيقاً وملأ خوابيها زيتاً فلمَّا رأوا ذلك عندها قالوا من أين لكِ هذا قالت مرّ بي رجل من حاله كذا وكذا فوصفته بصفته فعرفوه قالوا ذلك إلياس فطلبوه فوجدوه فهرب منهم، ثم إنه أوى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال لها اليسع بن أخطوب به ضرٌّ فأوته وأخفته فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به وأتبع اليسع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه وكان يذهب حيث ما ذهب وكان إلياس قد أسنَّ وكبر واليسع غلام شابٌ.

ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق فمن لم يعص من البهائم والدواب والطير والهوام لحبس المطر، فيزعمون والله أعلم أن إلياس قال يا رب دعني أكون أنا الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج مما هو فيه من البلاء لعلهم أن يرجعوا أو ينزعوا عما هم عليه من عبادة غيرك فقيل له نعم، فجاء إلياس إلى بني إسرائيل، فقال إنكم قد هلكتم جوعاً وجهداً وهلكت البهائم والطير والدوابّ والهوام والشجر بخطاياكم وإنكم على باطل فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك فاخرجوا بأصنامكم عليَّ فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوتُ الله ففرج

عنكم ما أنتم فيه من البلاء، قالوا أنصفت فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ثم قالوا لإلياس إنا قد أهلكنا فادع الله لنا فدعا لهم إلياس ومعه اليسع بالفرج فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون فأقبلت نحوهم وطبقت الآفاق ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثهم وحييت بلادهم فلمَّا كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم فأقاموا على أخبث ما كانوا.

فَلمَّا رأى ذلك إلياس دعا ربه تعالى أن يريحه منهم فقيل له فيما يزعمون انظر يوم كذا وكذا فاخرج فيه إلى موضع كذا وكذا فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس ومعه اليسع حتى إذا كان بالموضع الذي أمر به أقبل فرس من نار وقيل لونه كلون النار حتى وقف بين يديه فوثب عليه إلياس فأنطلق به الفرس، فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرني به فقذف إليه إلياس بكسائه من الجَوِ الأعلى وكان ذلك علامة استخلافه إياه على بني إسرائيل فكان ذلك آخر العهد به، ورفع الله إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش فكان إنسياً ملكيّاً سماوياً أرضياً.

وسلط الله على أَجُب الملِك وقومه عدواً لهم فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم فقتل أجُب وامرأته أزبيل في بستان مزدكي فلم يزل جيفتاهما ملقاتين في تلك الجنينة حتى بليت لحومهما ورمَّت عظامها، ونَبَّأ الله اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل وأوحى إليه فآمنت به بنوا إسرائيل وكانوا يعظمونه وحكم فيهم قائم إلى أن فارقهم أليسع، روى السري بن يحيى عن عبد العزيز عن أبي الرواد قال إلياسُ والخضرُ يصومان شهر مضان ببيت المقدس ويوافيان الموسم في كل عام وقيل إن إلياس موكل في الفيافي والخضر موكل بالبحار هكذا ذكر البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ عذاب الله ﴿أَتَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ اسم صنم كانوا يعبدونها سميت بها مدينتهم بعلبك، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة البعل الرب بلغة أهل اليمن ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فلا تعبدونه وجملة أتدعون إلى آخره بيان أو بدل لما قبله ﴿الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب على البدل والباقون بالرفع على الاستئناف ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ في العذاب وإنما أطلق اكتفاءً بالقرينة أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ مستثنى من فاعل كَذَّبُوهُ من المُحضَرِيْنَ لفساد المعنى وقيل استثناء منقطع أو متصل من المحضرين إن كان المحضرين من قبيل توصيف الكل بوصف البعض كما في قوله

تعالى: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾[١] فحينئذ يكون شاملاً للمستثنى منه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ لغة في إلياس كسيناء وسينين وإسماعيل وسمعين وميكائيل وميكائين، وقال الفراء هو جمع أراد إلياس وأتباعه من المؤمنين فيكون بمنزلة الأشعريين والأعجبين بالتخفيف لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام، وقرأ نافع وابن عامر آل ياسين بفتح الهمزة مشبعة وكسر اللام مقطوعة لأنها في المصحف مفصولة فيكون ياسين أبا إلياس وجاز أن يكون ياسين اسماً لإلياس والمراد بآل ياسين هو وأتباعه، وما قيل إن ياسين محمد ﷺ أو القرآن أو غيره من الكتب السماوية لا يناسب نظم سائر القصص وما قبله وما بعده من قوله ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإلياس، وفي قراءة ابن مسعود سلامٌ على إدريسين يعني إدريس وأتباعه لأنه قرأ إنَّ إدريس لمن المرسلين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ من العذاب الذي نزل على قومه ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته كائنة ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أهلنا ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ من قومه ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي على منازلهم في أسفاركم إلى الشام فإن سدوم في طريقه ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أو مساءً أو المعنى نهاراً أو ليلاً ولعلها وقعت قريباً من موضع النزول فيمر المرتحل عنه صباحاً والقاصد لها مساءً إن كان السير نهاراً أو بالعكس إن كان السير ليلاً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني ألستم ذو في العقول فتعتبروا والجملة معترضة.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ﴾ أي هرب وأصله هرب العبد من السيد لكن لما

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٠.

كان هربه من قومه بلا إذن ربه حسن إطلاقه عليه ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أخرج عبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن طاووس أنه لمَّا وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم (يعني لمَّا تأخر عنهم العذاب) قبل أن يأمره الله به فركب السفينة، فوقفت فقال الملاحون هاهنا عبد أبق فاقترعوا فخرجت عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه في الماء، وذكر البغوي قول ابن عباس ووهب نحوه وذكر أنهم اقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعة على يونس، قال البغوي وروي أنه لمَّا وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب معهم فقدم امرأته ليركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ثم جاءت موجة أخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب وأخذ ابنه الأصغر فبقي فريداً فجاء مركب آخر فركبه فقعد ناحية من القوم فلمَّا مرت السفينة في البحر ركدت فاقترعوا، وقد ذكرنا القصة في سورة يونس فذلك قوله تعالى ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع والمساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر فالْتَقَمَهُ الحُوتُ أي أخذه لقمة ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه حال من مفعول التَقَمَه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ قال ابن عباس من المصلين، وقال وهب من العابدين قال الحسن ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً، قال الضحاك شكر الله له طاعته القديمة، قلتُ: ويمكن أن يكون هُو مصليّاً في بطن الحوت بالإشارة لكونه حيّاً مفيقاً والأولى أن يقال ولولا أنه كان من المسبحين في بطن الحوت يعني ذكراً له بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] كما نطق به القرآن ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ يعني لمات في بطنه وصار له قبراً فيبقى أجزاؤه مختلطاً بأجزاء الحوت حيثما كان في علم الله إلى يوم القيامة ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي المكان الخالي مما يغطيه من الشجر ونحوه ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ كالفرخ الممعط، وقيل كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم يبق له قوة. واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت؟ قال البغوي قال مقاتل بن حبان ثلاثة أيام وكذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، وقال البغوي قال عطاء سبعة أيام كذا أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وقال البغوي قال الضحاك عشرين يوماً، وقال السديُّ والكلبي ومقاتل بن سليمان أربعين يوماً كذا أخرج الحاكم عن ابن عباس

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك وعبد الرزاق وابن مردويه عن ابن جريج وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة، وأخرج عبد بن حميد في زوائد الزهد أنه بعض يوم، وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم والبغوي عن الشعبي أنه التقمه ضحىً ولفظه عشية ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي فوقه مظلة ﴿شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٖ﴾ قال البغوي قال الحسن ومقاتل كل نبت يمتد وينبسط على وجه الأرض ليس له ساق ولا يبقى على الشتاء نحو القرع والقثاء والبطيخ فهو يقطين وقال كان ذلك اليقطين بساق على خلاف العادة انتهى، وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به، قلتُ: وكان قرعاً تغط من أوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه كذا قال البغوي أنه قول جميع المفسرين وكذا أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة، وقال مقاتل بن حبان وكان يونس يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه يشرب لبنها بكرة وعشية حتى اشتد لحمه ونبت شعره وقوي فنام نومة فاستيقظ وقد يبست الشجرة فحزن حزناً شديداً إذ أصابه أذى الشمس فجعل يبكي فبعث الله إليه جبرئيل فقال أتحزن على شجرة ولا تحزن على مائة ألف من أمتك وقد أسلموا وتابوا.

مسألة:

لا يجوز ذكر زلة الأنبياء فإن زلاتهم توجب كمال الإنابة إلى الله ورفع درجاتهم ومن اعترض على أحد من الأنبياء فقد كفر قال الله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[(١)].

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى**»[(٢)] متفق عليه، وفي رواية للبخاري «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» وعن أبي هريرة قال استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال والذي اصطفى محمداً على العالمين، وقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك لطم وجه اليهودي فذهب اليهودي إلى النبيّ ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبيّ ﷺ فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبيّ ﷺ «**لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش**

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ (٣٣٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: في ذكر يونس عليه السلام (٢٣٧٧).

بجانب العرش فلا أدري كان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان فيمن استثنى الله»[(١)] وفي رواية «فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور أو بعث قبلي ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى» وفي رواية أبي سعيد قال: «لا تخيروا بين الأنبياء» متفق عليه، وفي رواية أبي هريرة لا تفضلوا بين أنبياء الله» فان قيل ما المعنى والمرادُ بالنهي عن التفضيل بين الأنبياء مع كونه ثابتاً بالنص والإجماع قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[(٢)] وقال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأوّل شافع وأول مشفع**»[(٣)] رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة وقال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر»[(٤)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد وقال عليه السلام «أنا قائد المرسلين ولا فخر وأنا خاتم النبيين ولا فخر وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر» رواه الدارمي عن جابر، قلتُ: معناه والله أعلم لا تفضلوا بين أنبياء الله بالظن والتخمين ما لم يأتكم علم من الله تعالى وأما بعدما ثبت ذلك بوحي من الله تعالى فلا بأس به، أو يقال لا تخيروا بين الأنبياء في نفس النبوة بأن تُؤمنوا ببعض وتعظموه وتوقروه ولا تؤمنوا ببعض والله أعلم.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ قال البغوي قال قتادة أرسل إلى نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه وكذا أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه وعن الحسن والمعنى وقد أرسلناه إلى مائة ألف، وقيل معناه أرسلناه إليهم ثانياً بعد خروجه من بطن الحوت، وقيل إلى قوم آخرين ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال مقاتل والكلبي معناه بل يزيدوُنَ، وقال ابن عباس معناه ويزيدوُنَ أو بمعنى الواو كقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾[(٥)] وقال الزجاج أو هاهنا على أصله معناه أو يزيدون على تقديركم وظنكم كالرجل يرى قوماً فيقول هؤلاء ألف أو يزيدون فالشك على تقدير المخلوقين. واختلفوا في مبلغ تلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره بعد (٣٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام (٢٣٧٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام (٤٦٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب باب: في فضل النبي ﷺ (٣٦٢٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٠٨).

(٥) سورة المرسلات، الآية: ٦.

الزيادة؟ فقال ابن عباس ومقاتل كانوا عشرين ألفاً رواه الترمذي عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «يزيدون عشرون ألفاً»[1] وقال الحسن بضعاً وثلاثين ألفاً، وقال سعيد بن جبير سبعين ألفاً ﴿فآمنوا﴾ يعني الذين أرسل إليهم يونس آمنوا به بعد معاينة العذاب ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقه بينهما وبين أصحاب الشرائع الكبر وأولي العزم من الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكور في آخر السورة.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ عطف على قوله ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾[2] أمر رسول الله ﷺ أولاً عن وجه إنكارهم البعث بأن يسألهم سؤال تقرير أي الخلقين أشد أخلقهم أم خلق غيرهم من السماء والأرض والملائكة أو من سبقهم من عاد وثمود فإذا هم أقرُّوا بأنَّ خلق من سبقهم أشد لزمهم الخوف ممن انتقم منهم وأهلكهم بكفرهم وهو قادر على خلق من هو أشد منهم وعلى كل خلق وقادر على البعث والتعذيب ثم جاء بما يلائمه من القصص لبعضها ببعض، ثم أمره بالسؤال عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين في قولهم الملائكة بنات الله وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخر التجسيم وتجويز البنات على الله فإن الولادة مخصوصة بالأجسام القابلة للكون والفساد سريعاً وتفضيل أنفسهم على الله حيث جعلوا أخس الصنفين لله وأشرفهم لأنفسهم واستهانتهم الملائكة باتصافهم بالأنوثة، ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً وجعله مما تكاد السماوات يتفطرن من شؤم هذا القول وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا، والإنكار هاهنا مقصود على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الصافات (٣٢٢٩).
(٢) سورة الصافات، الآية: ١١.

بنات الله ولأن فسادهما مما يدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل لاستفهام عن أنفسهم ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ فيه استهزاء وإشعار بأنهم لفرط جهلهم يحكمون به كأنهم شاهدوا خلقهم ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي كذبهم الذي هو ظاهر البطلان وينفيه البرهان ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ عند جميع العقلاء قطعاً ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ قرأ أبو جعفر بهمزة الوصل المكسورة عند الابتداء وإسقاطها في الدرج وهي رواية عن نافع إما على حذف همزة الاستفهام من اللفظ أو على الإخبار بتقدير قالوا يعني إنهم لكاذبون حيث قالوا أصطفى البنات، وقرأ العامة بهمزة مفتوحة للاستفهام داخلة على همزة الوصل إنكاراً واستبعاداً بتقدير يقال لهم اصطفى البنات على البنين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أن لله البنات ولكم البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشيء والبنات أخس الصنفين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ عطف على محذوف تقديره أفلا تتفكرون فلا تتذكَّرُونَ أنه تعالى منزه عن ذلك حذفت إحدى التائين ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من الله تعالى بأن الملائكة بناته يعني أن أسباب العلم منحصرة في ثلاثة العقل والحس والخبر الصادق والخبر لا يفيد العلم ما لم يبتنى على الحس أو على الإعلام من الله العالم للغيب، فأنكر أولاً دلالة العقل بقوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ فإنه مع قيام البرهان على امتناع الولد لله سبحانه لا يجوز درك انوثية الملائكة بالعقل الصرف ولا يجوز عاقل أن يثبت أخس الفريقين للخالق وأشرفهما للمخلوقين، وأنكر ثانياً دلالة الحس بقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ يعني لم يشهدوا ذلك، وأنكر ثالثاً الخبر الصادق إلى الحجة النازلة من الله العليم الخبير فإنه أعلم إفادة للعلم من غيره وأقوى فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ ولما كان هاهنا مظنة أن يقولوا الله علمنا بهذا كما أنهم إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قال ﴿فاتوا بكتابكم﴾ الذي منزل من الله مخبر بأن الملائكة بناته ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ حال من الضمير المنصوب في استفتهم بتقدير قد أي استفتهم وقد جعلوا ﴿بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾ أخرج جويبر عن ابن عباس أنه قال نزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء قريش سليم وخزاعة وجهينة، قال مجاهد وقتادة أراد بالجنة الملائكة سموها جنة لاجتنانهم عن الإبصار، قلتُ ذكرهم بهذا الاسم تحقيراً لشأنهم عن مرتبة البنوة لله سبحانه، وقال ابن عباس حي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس قالوا هم بنات الله، وقال الكلبي قالوا (لعنهم الله) إن الله تزوج من الجن فخرج منها الملائكة تعالى الله

عن ذلك، وقال بعض قريش إن الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن كذا أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ جملة معترضة ﴿إنهم﴾ أي قائلي هذا القول أو الإنس مطلقاً أو الجنة بمعنى يعم الملائكة وغيرهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه به من الولد والنسب جملة معترضة أخرى ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إستثناء متصل من ضمير إنهم إن أريد به ما يعم المؤمن والكافر أو منقطع إن أراد به القائلون بالولد.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة التفات من الغيبة إلى الخطاب والفاء قيل جزائية والشرط محذوف تقديره إذا جعلتم بينه وبين الجنة نسباً.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من الأصنام ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الله متعلق بقوله ﴿بفاتنين﴾ أي بمضلين للناس بالإغواء أحداً ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ في علم الله يعني من سبق لهم فما علم الله القديم الشقاوة.

﴿وَمَا مِنَّآ﴾ معشر الملائكة أحد ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذه الجملة بتقدير القول معطوف على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾[1] تقديره وقالت ما منّا إلاّ له مَقَامٌ معلومٌ في العبودية أو في السماوات يعبد الله فيه، قال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تأط والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله**»[2] رواه البغوي،

(١) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» (٢٣١٢).

أو مقام معلوم في مراتب القرب لا يتجاوز عنه وكذا قال السدي إلاَّ له مقامٌ معلومٌ في القربة والمشاهدة، وقال أبو بكر الوراق إلا له مقامٌ معلومٌ يعبد الله عليه كالخوف والرجاء والمحبة والرضاء، قلتُ: وأما الإنس فلا يزال يرتقي على معارج القرب قال رسول الله ﷺ حكايةً عن الله سبحانه «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»[١] الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة، وأما الملائكة فلا يتجاوزون عن مقاماتهم، عن زرارة بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال لجبرئيل هل رأيتَ ربَّكَ؟ فانتفض جبرئيل وقال يا محمد إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور لو دنوتُ من بعضها لاحترقتُ هكذا في المصابيح ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس إلا أنه لم يذكر فانتفض جبرئيل. عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق إسرافيل منذ يوم خلقه صافاً قدميه لا يرفع بصره بينه وبين الرب تبارك وتعالى سبعون نوراً ما منها من نور يدنو منه إلا احترق**»[٢] رواه الترمذي وصححه وهذه الآية رد على عابدي الملائكة نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[٣] ﴿وَإِنَّا﴾ معشر الملائكة ﴿لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن مالك قال كان الناس يصلون متبدين فأنزل الله وإنا لنحن الصافون فأمرهم أن يصفوا، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه، قال الكلبي صفوف الملائكة في السماء للعبادة كصفوف الناس في الأرض يعني في الصلاة، روى مسلم عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها فقلنا يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها قال: يتمون الصفوف الأولى ويتراصون في الصف**»[٤] والمعنى وإنا لنحن صافون أقدامنا في أداء الطاعة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي المنزهون عما لا يليق به كاتخاذ الولد ونحو ذلك، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص إنما هو للرد على من زعم أنهم بنات الله والحصر إضافي بالنسبة إلى الكفار يعني لسنا كهيئة الكفار مشركين مصغين في العبادة والتسبيح.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٢) رواه الطبراني وفيه محمد بن أبي ليلى وقد وثقه جماعة ولكنه سيء الحفظ وبقية رجاله ثقات.
انظر مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: في تواضعه ﷺ (١٤٢١٢).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الأمر بالسكون في الصلاة (٤٣٠).

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ وإنهم يعني كفار مكة كانوا ﴿لَيَقُولُونَ﴾ قبل مبعث النبي ﷺ ﴿لَوْ﴾ ثبت ﴿أن عندنا ذكراً من الأولين﴾ أي كتاباً من الكتب التي أنزلت عليهم ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ يعني لأخلصنا له العبادة ولم نخالف ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالذكر الذي هو أشرف الأذكار لما جاءهم ﴿فَسَوْفَ﴾ الفاء للسببية فإن الكفر سبب للوعيد ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم وما يحل بهم من الانتقام، إن مخففة للمثقلة واللام هي فارقة وفي ذلك إيماء بأنهم كانوا يقولون مؤكدين للقول جازمين فيه فكم بين أولهم وآخرهم ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ بيان للكلمة ولذلك لم يعطف عليه، قلتُ وإنما يظهر التخلف لأجل شؤم العصيان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾[(١)] وقال الله تعالى: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[(٢)] ﴿فَتَوَلَّ﴾ عنهم أي أعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن عباس يعني الموت، وقيل يوم يأتيهم العذاب في الدنيا، وقال مجاهد يوم بدر وكذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّي، وقال البغوي قال السديّ يوم يأمركم بالقتال وهو المراد بقول مقاتل نسختها آية القتال ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ مغلوباً مقتولاً معذباً، فيه دلالة على أنه كائن قريبٌ كأنَّه قدامه ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قضينا لك من التأييد والنصرة في الدنيا والثواب في الآخرة وما يحل بهم في الدارين وسوف للوعيد لا للتبعيد.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه متى نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا العذاب وأخرج جويبر عنه نحوه فنزل ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أيجهلون شأننا فبعذابنا يستعجلون ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم، قال الفراء العرب يكتفي بذكر الساحة من القوم، أو المعنى إذ نزل الرسول ﷺ مع جيشه بساحة الكفار ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي صباحهم مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت الهجوم والغارة في الصباح عادةً سموا الغارة صباحاً وأن وقعت في وقت آخر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر أتاها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغز حتى يصبح، قال فلمَّا أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها فلمَّا رأوه قالوا محمد والله والخميس فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحتهم فساء صباح**

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

المنذرين» رواه البغوي، وفي الصحيحين عن أنس أن النبيّ ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر إليهم فإن سمع أذاناً كفَّ عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلمَّا أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبتُ خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم نبي الله ﷺ، قال فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلمَّا رأوا النبيّ ﷺ قالوا محمد والله محمد والخميس فلجأوا إلى الحصن فلمَّا رآهم رسول الله ﷺ قال: «**الله أكبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»(١) ثم كرر الله سبحانه تأكيد الوعيد العذاب فقال ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ ﴿وَأَبْصِرْ﴾ العذاب إذا نزل بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فيه إطلاق بعد تقييد للإشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرَّة وأنواع المساءة أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي الغلبة والقوة أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه به إذ لا عزة إلا له أو لمن انتسب إليه رسوله والمؤمنون، وفيه إشعار بأن صفاته تعالى مقتضيات الذات، واجبات بالغير أي بذاته تعالى ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفونه به المشركون ممَّا حكى في السورة وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والثبوتية مع الإشعار بالتوحيد ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الذين وصفوه على ما هو عليه وهذا تعميم للرسل بالتسليم ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما هدى المؤمنين إلى معرفة ذاته وصفاته بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصرة الأنبياء وتدمير الأعداء، عن علي كرم الله وجهه أنه قال من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾، رواه البغوي في تفسيره وعبد بن رنجويه في ترغيبه والحمد للَّه رَبّ العالمين وصلّى الله تعالىٰ على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى أهل طاعته أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: ما يحقن بالأذان من الدماء (٦١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر (١٣٦٥).

سورة ص

آياتها ثمان وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾.

أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبيّ ﷺ فشكوه إلى أبي طالب فقال ابن أخي ما تريد من قومك؟ فقال أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم جزيةً قال كلمة واحدة قال ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» فقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب فنزل ﴿صٓ﴾ إلى قوله: ﴿بل لما يذوقوا العذاب﴾[1] قيل هو قسم وقيل هو اسم السورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجي، قال محمد بن كعب مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد، وقال الضحاك معناه صدق الله وروي عن ابن عباس صدق محمد رسول الله ﷺ وقيل هو أمر من المصاداة ولذا قرئ بالكسر على وزن ناد ومعناه عارض من الصدي فإنه تعارض الصوت الأول يعني عارض القرآن بعملك، والحق أنه من المتشابهات وقد ذكرنا تحقيقها في أوائل سورة البقرة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قال ابن عباس أي ذي البيان لما يحتاج إليه في الدين من العقائد والشرائع والمواعيد أو ذي عظة، وقال الضحاك أي ذي الشرف كما في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص (٣٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾[1] والواو للقسم إن جعل ﴿صٓۚ﴾ اسم حرف مذكور للتحدي أو الرمز لكلام صدق محمد ﷺ أو غيره أو لفظ الأمر وللعطف إن جعل مقسماً به، قال الأخفش جواب القسم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ وهذا بعيد جداً والظاهر أن الجواب محذوف دل عليه ما في ﴿صٓۚ﴾ من الدلالة على التحدي أو الأمر بالمعادلة أي أنه المعجز أو الواجب العمل به أو أن محمداً لصادق أو أن الأمر ليس كما يقول الكفار ويدل عليه قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ﴾ أي استكبار عن الحق وحمية جاهلية ﴿وَشِقَاقٖ﴾ خلاف وعداوة لمحمد ﷺ ولأجل ذلك لا يؤمنون به أو خلاف لما يقتضيه العقل والنقل، والتنكير فيهما الدلالة على شدتهما فهو إضراب عن الجواب المقدر، وقال قتادة هذا جواب القسم كما في قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا﴾ وبل ابتدائية، وقال القتيبي بل لتدارك كلام ونفي آخر ومجاز الآية أن الله أقسم بصّ والقرآن ذي الذكر إن الذين كفروا من أهل مكة في عزة وشقاق.

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ وعيد لهم على كفرهم استكباراً وشقاقاً ﴿فَنَادَواْ﴾ عند نزول العذاب إستغاثة أو توبة واستغفاراً ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ أي ليس الحين حين مناص، جملة كم أهلكنا معترضة لبيان مآلهم بعد بيان حالهم يعني أنهم يهلكون كما هلك من قبلهم ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وتغير حكمه فخصت بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين إما الاسم وإما الخبر والمحذوف هاهنا الاسم هذا مذهب الخليل وسيبويه.

وقال الأخفش هي النافية للجنس والخبر محذوف أي لا حين مناص كائن لكم، وقيل هي نافية للفعل والنصب بإضماره تقديره لا أرى حين مناص حاصلاً لهم، والوقف على لات بالتاء عند الزجاج وعند الكسائي لاه بالهاء، وذهب جماعة إلى أن التاء زيدت في حين والوقف على لاثم يبتدىء بحين وهو اختيار أبي عبيد وقال كذلك وجدتُّ في مصحف عثمان رضي الله عنه وهذا كقول الشاعر:

والعاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون زمان ما من مطعم

والمناص مصدر ميمي من ناصه ينوصه إذا فاته، وفي القاموس النوص التأخر والمناص الملجأ، قال ابن عباس كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

بعضهم لبعض مناص أي اهربوا وخذوا حذركم فلما أنزل الله بهم العذاب ببدر قالوا مناص فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحين حين هذا القول، والجملة حال من فاعل نادوا أي استغاثوا والحال أن لا ملجأ ولا مهرب ولا اعتبر بهم كفار مكة.

﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ عطف على الظرف المسقر أعني في عزةٍ وشقاقٍ أو حال من الضمير المستكن فيه بتقدير قد تقديره بل الذين كفروا كائنون في عزة وشقاقٍ وقد عجبوا من ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي بشر من أنفسهم رسولاً إليهم لينذرهم ﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمّاً لهم وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على أن قالوا ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ﴾ فيما يظهر من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقول ﴿أَجَعَلَ﴾ محمول على حذف قالوا استئناف في جواب ما قالوا حينئذ يعني قالوا اجعل ﴿ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ الاستفهام للتعجب يعني كيف جعل الألوهية التي كانت لجماعة لواحد ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العجب فإنه خلاف ما اطبق عليه آباؤنا ما نشاهد ونعاهد أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة، قال البغوي وذلك أن عمر بن الخطاب لما أسلم شق ذلك على قريش وفرح بها المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سناً الوليد بن المغيرة قال امشوا إلى أبي طالب، فأتوا أبا طالب وقالوا أنت كبيرنا وشيخنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل أبو طالب إلى النبيّ ﷺ فدعاه فقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله ﷺ ماذا تسألون؟ قالوا ارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال النبي ﷺ أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ فقال أبو جهل لله أبوك لنعطيكها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ قولوا لا إله إلا الله، فتفرقوا من ذلك وقاموا وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً كيف يسمع الخلق كلهم إله واحد إنَّ هذا لشيء عجابٌ، قيل التعجيب ما له مثل والعجاب ما لا مثل له ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف من مجلس أبي طالب الذين كانوا فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من قريش وجملة انطلق عطف على قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي قائلين أن امشوا من مجلسكم هذه ﴿وَٱصْبِرُوا۟﴾ أي اثبتوا ﴿عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِكُمْ﴾ حيث لا ينفعكم المكالمة وأن هي المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التناول يشعر بالقول، وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول وامشوا من مشيت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية أي اجتمعوا ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ المذكور من التوحيد ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ منا، هذه الجملة في مقام التعليل على قوله امشوا، قال البغوي وذلك أن عمر رضي الله عنه لما أسلم وحصل للمسلمين به قوة بمكانه

قالت الكفار إن هذا لشيء يراد، قيل معناه هذا الذي نرى من زيادة أصحاب محمد ﷺ لشيء من الله يراد بنا فلا مرد له، وقيل يراد بأهل الأرض، وقيل بمحمد ﷺ أن يملك علينا أو يقال إن هذا الذي يدعيه محمد من التوحيد أو الذي يقصد من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل احد أو أن دينكم يطلب ليؤخذ منكم ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله محمد من التوحيد وكلمة هذا للتحقير ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والكلبي ومقاتل يعنون بها النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يوحدون بل يقولون ثالث ثلاثة، وقال مجاهد يعنون ملة قريش ودينهم الذي لهم عليه أي ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليه آباءنا، ويجوز أن يكون ظرفاً مستقراً في محل الحال أي ما سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان هذا أي التوحيد كائناً في الملة المترقبة التي هي آخر الملل ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي كذب اختلقه.

﴿ءأنزل عليه الذكر﴾ أي القرآن، الاستفهام للإنكار فهو بمعنى النفي فهو تأكيد لمضمون قولهم إن هذا إلا اختلاق ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وليس بأكبرنا ولا أكثر منا في المال والجاه وفيه دليل على أن منشأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي، قال الله تعالى: ﴿بل هم في شك من ذكري﴾ أي القرآن حيث كذبوا الجائي به، إضراب للإنكار وإثبات للشك لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل يعني ليس عندهم حجة يوجب علماً يقينياً بما يقولون إنه ساحر كذاب ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ ولو ذاقوا ما قالوا ذلك وسسيذوقونها وحينئذ يزول عنهم الشك ولا ينفعهم، وبل للإضراب عن الشك وإثبات يقينهم واعتقادهم بانتفاء حقيقة القرآن فإثبات الشك إنما هو بالنظر إلى انتفاء الحجة عندهم وإثبات اليقين نظراً إلى جهلهم المركب وزعمهم الفاسد تعنتاً وعناداً، وقيل بل في الموضعين ابتدائية ليست للإضراب فالجملة الأولى جواب لكلام الكفار والثانية تأكيد للأولى ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي نعمة ربك يعني مفاتيح النبوة يعطوها من يشاءوا يعني ليس الأمر كذلك فإن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده مانع لما أعطاه فإنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا يغلبه شيء ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ الذي يهب ما يشاء لمن يشاء، أم منقطعة بمعنى بل والهمزة قيل للإضراب من دعوى إلى دعوى أخرى والهمزة لإنكار ذلك الدعوى وكذلك أم في قوله ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لما أنكر عليهم التصرف في النبوة بأن ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك

فليصمدوا في المعراج التي يتوصلون بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم فينزلوا الوحي إلى من يتصفون وهو غاية التهكم بهم والأمر للتوبيخ والتعجيز، قال قتادة ومجاهد أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ ما هذه للتقليل وجند خبر مبتدأ محذوف أي لهؤلاء الذين يقولون لهذا القول جند قليل ﴿مَهْزُومٌ﴾ عن قريب صفة لجند وكذا قوله ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي من أحزاب الكفار المتحزبين على الرسل في القرون الماضية فقهروا وأهلكوا فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية أو فلا تهتم بما يقولون، قال قتادة أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه سيهزم جند المشركين وقال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[1] فجاء تأويلها يوم بدر وهُنالك إشارة إلى بدر ومصارعهم والظاهر أنه إشارة إلى حيث وضعوا أنفسهم وأتوا بمثل هذا القول العظيم وتكذيبهم إياك.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ تأنيث قوم من حيث المعنى ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس ومحمد بن كعب ذو البناء المحكم وقيل أراد الملك السديد الثابت، قال القتيبي تقول هم في العز الثابت الأوتاد يريدون أنه الدائم الشديد، وقال الضحاك ذو القوة والبطش الشديد، وقال عطية ذو الجنود والجموع الكثيرة يعني أنهم كانوا يقوّون أمره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد الشيء وأيضاً سميت الأجناد أوتاداً لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم وهي رواية عطية عن ابن عباس، وقال الكلبي ومقاتل الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها وكان

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٥.

إذا غضب على احد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد وشد كل يد وكل رجل إلى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت، وقال مجاهد ومقاتل بن حبان كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض ثم يشد يديه ورجليه على الأرض بالأوتاد، وقال السدي كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات، وقال قتادة كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب عليها بين يديه ﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأياة﴾ أي أصحاب الغيظة وهم قوم شعيب ﴿اولئك الأحزاب﴾ اللام للعهد أي أولئك الأحزاب الذين مر ذكرهم في قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾[1] الذين تحزبوا على الرسل ومشركوا مكة حزب منها ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي ما كل حزب منهم فعل شيئاً ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الإبهام مشتملاً على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلاً على استحقاقهم أشد العذاب ولذلك رتب عليه ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي وجب عليهم وأنزل بهم عذابي الذي يستحق أن يعقب الكفر، قرأ يعقوب عقابي بالياء وصلاً ووقفاً والباقون بحذفها والاكتفاء على الكسرة، وفي قوله ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ إما مقابلة الجمع بالجمع أو جعل تكذيب واحد منهم تكذيباً لكلهم لاتحاد كلمتهم.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ أي ما ينتظر عطف على قوله وقال الكافرون أوحال ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي كفار قريش ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي نفخة الصور يعني لا يؤمنون حتى يرووا العذاب الأليم حين لا ينفعهم إيمانهم ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ صفة بعد صفة لصيحة، قرأ حمزة والكسائي بضم الفاء والباقون بفتحها وهما لغتان بالفتح لغة قريش وبالضم لغة تميم، قال ابن عباس وقتادة معناه من رجوع، وقال مجاهد نظرة وقال الضحاك أي صرف وقال الفراء وأبو عبيدة بالفتح بمعنى الراحة والإفاقة كالجواب بمعنى الإجابة وذهب إلى إفاقة المريض من غلبة المرض، وبالضم ما بين الحلبتين وهي تحلب ناقة وتترك ساعة حتى يجتمع اللبن في الضرع بين الحلبتين يعني مالها مهلة مقدار ما بين الحلبتين قيل هما مستعاران من الرجوع لأن اللبن يعود إلى الضرع بين الحلبتين وإفاقة المريض رجوعه إلى الصحة يعني لا رجوع إلى الدنيا بعد الصيحة أو إذا جاءت الصيحة لم ترد ولم تصرف أو لا نظرة قدر ما بين الحلبتين أولا إفاقة ولا راحة حينئذ. قال الكلبي لمّا نزلت في الحاقة ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ قالت كفار مكة استهزاء ربنا عجل لنا قطناً فنزلت ﴿وقالوا﴾ عطف على قال الكافرون ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ والقط هي الصحيفة التي أحصت

(١) سورة ص، الآية: ١١.

كل شيء كذا قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعني عجل لنا كتابنا في الدنيا ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ وروى عن سعيد بن جبير أنه قال يعنون عجل لنا حظنا ونصيبنا من الجنة التي يقول محمد، وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسديُّ يعنون عقوبتنا ونصيبنا من العذاب، وقال عطاء هذا ما قاله النضر بن الحارث (اللَّهم إن كان هذا هو الحق مِنۡ عِنۡدِك فَامطِرُ علينا حجارةً مِنَ السَّمَاء)[١] وعن مجاهد قال قِطَّنا حسابنا ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ استهزاء وتكذيباً جملة مستأنفة وعطف عليه قوله ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ فإن ذكر الأنبياء يقتضي الصبر على ما يكرهه الطبع وحبس النفس على الطاعة وعن المعصية ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ أي ذا القوة والبطش الشديد على الطاعة ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إلى الله عما سواه وإلى الطاعة عن المعصية، قال ابن عباس أي مطيع، وقال سعيد بن جبير المسبّح بلغة الحبش، وهو تعليل للأيد دليل على أن المراد به القوة في الدين.

روى الشيخان في الصحيحين وأحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «**أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام السدس الأخير من الليل**»[٢].

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ جملة سخرنا إلى قوله بيان لكرامة داود عليه السلام عند الله فكأنه بدل اشتمال لداود أي اذكر كرامة داود عند الله حيث سخرنا له الجبال إلى آخره ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ حال وضع موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح منه حالاً بعد حال ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ قال الكلبي غدوة وعشياً والإشراق هو أن تشرق ويتناهى ضوءها وفسره ابن عباس بصلاة الضحى، روى البغوي بسنده عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال كنت أومن بهذه الآية لا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانيء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل علينا فدعا بوضوء فتوضا ثم صلّى الضحى فقال: «يا أم هانيء هذه صلاة الإشراق» وأخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وأخرج ابن جرير والحاكم عن عبد الله بن الحرث عن ابن عباس أنه قال، ما عرفتُ صلاة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: أحب الصلاة إلى الله صلاة داود (٣٤٢٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم (١١٥٩).

الضحى إلا بهذه الآية وأخرجه سعيد بن منصور ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال يعني سخّرنا ﴿مَحْشُورَةً﴾ أي مجتمعة إليه من كل جانب تسبح معه ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجّاع إلى التسبيح بتسبيحه، والفرق بينه وبين ما قبله أنه يدل على الموافقة في التسبيح وهذا على المداومة عليها أو المعنى كل واحد من داود والجبال والطير له أي لله تعالى أواب.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، قال البغوي قال ابن عباس كان داود أشد ملوك الأرض سلطاناً يحرس محرابه كل ليلة ست وثلاثون ألف رجل، روى البغوي عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود أن هذا غصبني بقراً فسأله داود فجحد وسأله الآخر البينة ولم تكن له بينة فقال لهما داود قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله إلى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى عليه فقال هذه رؤيا ولست أعجل حتى أثبت فأوحى إليه مرةً أخرى فلم يفعل، فأوحى إليه الثالثة أن يقتله أو يأتيه العقوبة فأرسل داود إليه فقال إن الله أوحى إليّ أن أقتلك قال تقتلني بغير بينة؟ قال نعم والله لأنفذن أمر الله فيك، فلمّا عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل حتى أخبرك إني والله ما أخذتُ بهذا الذنب ولكني كنت اغتلتُ والد هذا فقتلتُه فلذلك أُخذتُ فأمر به داود فقتله فاشتدت هيبته في بني إسرائيل عند ذلك لداود واشتد به ملكه، وكذا روى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة وكمال العلم وإتقان العمل ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال البغوي قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به، قال ويروى ذلك عن أبي بن كعب قال فصل الخطاب الشهود والإيمان وهو قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح، وقال قال ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل هو البصيرة في القضاء وقال قال ابن عباس هو بيان الكلام يعني الكلام الذي يظهر به المقصود على المخاطب من غير التباس يراعى فيه الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوها على ما بين في علم البلاغة ولا يكون فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل كما جاء في حديث أم معبد الذي ذكرناه في سورة التوبة في قصة الهجرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[١] في وصف كلام رسول الله ﷺ فصل لا نزر ولا هذر أي لا قليل

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

مخلٌّ ولا كثير مملٌّ، وروي عن الشعبي أن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد إذا أراد الشروع في كلام، قال البيضاوي إنما سمي به أما بعد لأنه يفصل المقصود عمّا سبق مقدمة له من الحمد والصلاة.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وهل أتاك نبؤا الخصم﴾ إستفهام ومعناه التعجبُ والتشويق إلى استماع القصة والجملة معطوفة على اذكر، والخصم في الأصل مصدر ولذلك يصلح للإطلاق على المثني والمجموع والمراد ههنا متخاصمان وإنما أورد صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ مجازاً كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(١) وهو تفعل من السور كتسنم من السنام ومعناه إذ تصعدوا ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي القلعة سمي محراباً لأنه يحرب عليه أو المراد به المسجد لما أنه يحرب فيه من الشيطان، وجاز أن يكونا جماعة كما يدل عليه الصيغة وضمائر الجمع، وإذ متعلق بمحذوف أي نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود وأن إسناد أتى إليه على حذف المضاف أي قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الفعل لا يأتي لأن إتيانه الرسول الله ﷺ لم يكن حينئذ، وهذه امتحان داود عليه السلام. قال البغوي: اختلف العلماء في سببه؟ فقال قوم سبب

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

ذلك أنه عليه السلام تمنى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسأل ربه أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل ما أعطاهم، فروى السديّ والكلبي ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا كان داود قسَّم الدهر ثلاثة أقسام يوم يقضي بين الناس ويوم يخلو فيه لعبادة ربه ويوم لنسائه وأشغاله، قلتُ: وأخرج عبد بن حميد وابن جير وابن المنذر عن الحسن أنه جزَّ الدهر أربعة أجزاء فزاد ويوم للوعظ، قالوا وكان داود يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال يا رب أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا من قبلي فأوحى الله إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها ابتلى إبراهيم بنمرود وبذبح إبنه وابتلي إسحاق بالذبح وبذهاب بصره وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف، فقال يا رب لو ابتليتني بمثل ما ابتليتهم لصبرتُ أيضاً فأوحى الله إليه أنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس، فلمّا كان ذلك اليوم الذي وعده الله دخل داود محرابه وجعل يصلّي ويقرأ الزبور فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن وقيل جناحاه من الدر والزبرجد فوقفت بين رجليه فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها فيريها بني إسرائيل فينظروا إلى قدرة الله تعالى فلمَّا قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها، فأبصر امرأة في بستان على شط بركة لها تغتسل هذا قول الكلبي، وقال السدي رآها تغتسل على سطح لها فرأى إمرأة من أجمل النساء خَلقاً فعجب داود من حسنها وحانت منها إلتفاته فأبصرت ظُلة فنقضت شعرها فغطت بدنها فزاده ذلك عجباً فسأل عنها فقيل هي تشائع بنت شائع امرأة أوريا بن حنانا وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود عليه السلام فذكر بعضهم أنه أحب أن يقتل أوريا ويتزوج امرأته فكان ذنبه هذا القدر.

وذكر بعضهم أنه كتب داود إلى ابن أخته أيوب أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وقدِمه قبل التابوت وكان من قدَّم التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد وقدَّمه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن أبعثه إلى عدوّ كذا وكذا فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أيضاً أن إبعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً فبعثه فقتل في المرة الثالثة، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فهي أم سليمان عليهما السلام، قال البغوي وعن ابن مسعود أنه قال كان في ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل عن امرأته قال أهل التفسير كان ذلك مباحاً لهم غير أن الله لم يرض له

ذلك لأنه كان رغبةً في الدنيا وازدياد النساء وقد أغناهم الله عنها بما أعطاه من غيرها، قال البغوي وروى عن الحسن أنه كان جزأ الدهر أربعة أجزاء كما ذكر عبد بن حميد وغيره وزاد فلمَّا كان يوم وعظ بني إسرائيل يذكرهم ويذاكرونه ويبكيهم ويبكونه فقالوا هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك وقيل أنهم ذكروا فتنة النساء فأضمر داود في نفسه أنه إن ابتلي اعتصم فلمَّا كان يوم عبادته غلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وأكب على التوراة فبينا هو يقرأ إذ دخلت عليه حمامة من ذهب كما ذكرنا، قال وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا مكاناً إذا سار إليه قتل ففعل فأصيب فتزوج امرأته، قال فَلمَّا دخل داود بامرأة أوريا لم يلبس إلا يسيراً حتى بعث الله إليه ملكين في صورة رجلين يوم عبادته فطلبا أن يدخلا عليه فمنعهما الحرس فتسورا المحراب عليه فما شعر وهو يصلّي إلا وهما بين يديه جالسين يقال كانا جبرئيل وميكائيل عليهما السلام.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدل من قوله إذ تسوروا ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي خاف داود من الخصم لأنهما نزلا عليه من فوق في يوم الإحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من دخل عليه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أي نحن متخاصمان ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ هذا الكلام على الفرض وقصد التعريض كأنَّهم قالوا إن كنا خصمين بغى بعضنا على بعض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تجر يقال شط الرجل شططاً وأشط أشطاطاً إذا جار في حكمه والمعنى مجاوزة الحد، وأصل الكلمة من شطت الدار وأشطت إذا بعدت ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ سواء مصدر بمعنى الفاعل صفة للصراط أضيف إليه على طريقة أخلاق ثياب يعني إهدنا إلى طريق مستوى أي وسطه وهو العدل ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أي على ديني وطريقي ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي امرأة العرب تكنى المرأة بالنعجة، وقال الحسن بن الفضل هذا تعريض للتنبيه والتفهيم إذ لم يكن هناك نعاج، والجملة الظرفية خبر بعد خبر لأن ﴿وَلِىَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون باسكانها ﴿نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الجملة الظرفية منصوب على الحال والعامل فيه الظرف السابق ﴿فَقَالَ﴾ عطف على قوله: ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ قال ابن عباس أعطنيها، وقال مجاهد انزل لي عنها يعني طلقها لأتزوجها وحقيقته ضمها إليّ واجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل معناه إجعلها كفلي ونصيبي ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ عطف على قال معناه غلبني في المخاطبة إياي محاجة، قال الضحاك يعني إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني فالغلبة له لضعفي في يده وإن كان الحق معي، وقيل معناه غلبني في خطبة المرأة أي خطبتُ المرأة وخطبها هو على خطبتي فغلبني

حتى تزوجها ﴿قَالَ﴾ داود بعد اعتراف صاحبه بذلك ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ وقيل معناه إن كان الأمر كما تقول فلقد ظلمك، والجملة جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة أي ظلمك بسؤال أن يضيف نعجتك إلى نعاجه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط ﴿ليبغي﴾ أي ليظلم ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً جملة وإن كثيراً عطف على لقد ظلمك ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهم قليل وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم، فلمَّا قَضٰى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك وصعدا في السماء ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي علم وأيقن عطف على ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ يعني أن الله إبتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها أم لا.

قال السدي بإسناده إن أحدهما لمّا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ الآية قال داود للآخر ما تقول فقال إن لي تسع وتسعون نعجة ولأخي نعجة واحدة وأنا أريد أن آخذها منه فأكمّل نعاجي مائة وهو كاره، قال إذاً لا ندعك فإن رمت ذلك ضربتُ هذا وهذا وهذا يعني طرف الأنف وأصله والجبهة، فقال يا داود أنت أحقُّ بذلك حيث لم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ولك تسع وتسعون امرأة، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه، وقال القائلون بتنزيه الأنبياء في هذه القصة أن ذنب داود إنما كان أنه تمنى أن يكون امرأة اوريا حلالاً له فأتفق غزو أوريا وتقدمُه في الحرب فلمّا بلغ قتله داود لم يجزع عليه كما كان يجزع على غيره من جنده إذا هلك ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء ولو صغرت فهي عظيمة عند الله نظراً إلى رفعة شأنهم، وقيل كان ذنب داود أن أوريا كان خطب تلك المرأة وطن نفسه عليها فلما غاب في غزاته خطبها داود فزوجت منه لجلالته فاغتم لذلك أوريا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسع وتسعون امرأة، وذكر البغوي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن داود النبي حين نظر إلى المرأة فأهم قطع على بني إسرائيل فأوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو فقرب فلاناً بين يدي التابوت وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به من قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة فنزل الملكان يقصان عليه القصة ففطن داود فسجد فمكث أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبهته وهو يقول في سجوده رب زلّ داود زلة أبعد ممّا بين المشرق

والمغرب، رب إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلتَ ذنبه حديثاً في الخلوف من بعده، فجاءه جبرئيل من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله قد غفر لك الهم الذي هممتَ به فقال داود إن الرب قادر على أن يغفر لي الهمَّ الذي هممتُ به وقد عرفت أنّ الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال رب دمي الذي عند داود فقال جبرئيل ما سألتُ ربّك عن ذلك وإن شئت لأفعلن، قال نعم فعرج جبرئيل وسجد داود فمكث ما شاء الله ثم نزل فقال، سألتُ الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه فقال قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لي دمك الذي عند داود وَيَقول هو لك يا رب فيقول إن لك في الجنّة ما شئتَ وَما اشتهيت عوضاً عنه».

وروي عن ابن عباس وعن كعب الأحبار ووهب بن منبه قالوا جميعاً إن داود لمّا دخل عليه الملكان فقضى على نفسه فتحولا عن صورتيهما فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه، وعلم داود أنه إنما عُنِيَ به فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلاّ لحاجة ولوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً تمام أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربّه عزَّ وجلّ ويسأله التوبةَ، وكَان من دعائه في سجوده سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بمَا يشاءُ سُبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب سبحان خالِق النّور إلٰهي أنت خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي سُبحانَ خالق النور إلٰهي الويل لداود إذا كشف عنه الغَطاء فيقال هذا داود الخاطىء سبحان خالق النور إلهي بأيّ عين أنظر إليك يوم القيامة وإنّما ينظر الظالمون من طرف خفي سبحان خالق النور إلٰهي بأيّ قدم أمشي أمامك وأقوم بين يديك يوم تزول اقدام الخاطئين سبحان خالق النور إلٰهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيّده سبحان خالق النور إلٰهي أنا الذي لا أطيق حرّ فكيف أطيق حرَّ نارك، سبحان خالق النور إلٰهي أنا الذي لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم، سبحان خالِق النور إلٰهي الويل لداود من الذنب العَظيم الذي أصاب، سُبحانَ خَالق النور إلٰهي قد تعلم سرّي وعلانيتي فاقبل عذري سبحان خالِق النور، إلٰهي برحْمتكَ إغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهواي، سبحان خَالق النّور إلٰهي أعوذ بنُور وجهك الكريم من ذنوبي التي أو بقتنى سبُحان خالق النور إلٰهي فررت إليك بذنوب واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدّيْنِ سبحان خالق النور. قال مجاهد فمكث داود أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعٰى من دموع عينيه حتّى غطى رأسه فنودي يا داود أجائع فتطعم أو ظمآن فتسقى أو عَار فتكسى فأجيب في غير ما طلب قال فنحب نحبة هاج

لها العود فاحترق من حرّ جوفه ثمّ أنزل الله له التوبة والمغفرة، قال وهب إن داود أتاه نداء أني قد غفرتُ لك قال يا ربّ كيف وأنت لا تظلم أحداً قال اذهب إلى قبر أوريا فناده فأنا أسمعه نداءك فتحلل منه، قال فانطلق وقد لبس المسوح حتى جلس عند قبر أوريا ثم ناداه فقال لبّيك من هذا الَّذي قطع عنّي لذّتي وأيقظِني؟ قَال أنا داود، قال ما جاء بك يا نبي الله قال أسألك أن تجعلني في حلّ ممّا كان منّي إليك قال وما كان منك إليّ قال عرضتُك للقتل، قال قد عرضتني للجنة فأنت في حل فأوحى الله إلى داود يا داود ألم تعلم أني حكم عدل لا أقضي بالتعنت ألاَ أعلمتَه أنّك قد تزوّجت امرأته، قال فرجع إليه فناداه فأجابه فقال من هذا الذي قطع عني لذّتي قال أنا داود قال يا نبي الله أليس قد عفوتُ عنك؟ قال نعم ولكن إنما فعلتُ ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوجتُها قال فسكت ولم يجبه ودعاه فلم يجبه عاوده فلم يجبه فقام عن قبره وجعل يحثوا التراب على رأسه ثم نادى الويل لداود ثم الويل الطويل لداود، سبحان خالق النور والويل لداود إذا نصب الموازين بالقسط سبُحان خالق النور الويل لداود، ثم الويل الطويل لداود حين يُؤخذ بذقنه فيدفع إلى المظلوم سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار سبحان خالق النور، فأتاه نداء من السماء يا داود قد غفرتُ لك ذنبك ورحمتُ على بكائك واستجبت دعائك وأقلت عثرتك، قال يا رب كيف وصاحبي لم يعف عني؟ قال يا داود أعطيه من الثواب يوم القيامة ما لم ترعيناه ولم يسمع أذناه فأقول له رضيت عن عبدي داود فيقول يا رب من أين لي هذا ولم يبلغه عملي؟ فأقول هذا عوض عن عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي، قال يا رب الآن قد عرفتُ أنّك قد غفرت لي فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه، وقيل معناه خَرَّ أيْ سجد بعدما كان راكعاً كأنه أحرُم بركعتي الاستغفار فسجد في الصلاة ﴿وأناب﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة، واستدلت الحنفية لهذه الآية على أنه من قرأ آية السجدة وركع على الفور بنية سجود التلاوة أجزأه لأن الله سبحانه قال ﴿خر راكعاً﴾ أطلق الركوع على السجود فعلم منه أن المقصود هو التعظيم لا خصوصية السجود ومعنى التعظيم فيهما واحد والحاجة إلى تعظيم الله تعالى إما اقتداءً بمن عَظَّمَ أو مخالفة لمن استكبر وهذا هو الظاهر، فلهذا سمي قياساً، وقالت الأئمة الثلاثة لعدم إجزاء الركوع عن السجود وهو الاستحسان، وجه الاستحسان أن الواجب التعظيم بجهة مخصوصة وهي السجود بدليل أنه لو لم يركع على الفور حتى طاعت القراءة ثم نوى أن يقع الركوع عن السجدة لا يجوز إجماعاً وتسمية السجود بالركوع في هذه الآية غير مسلم ولو سلم فهو مجاز محض وذلك لا يقتضي قيام

أحدهما مقام الآخر، واختار أبو حنيفة رحمه الله هاهنا القياس على الاستحسان لقوة تأثيره وذلك باعتقاده بما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كانا أجاز أن يركع عن السجود في الصلاة ولم يرو من غيرهما خلاف ذلك ولا ترجيح للقياس الخفي بخفائه ولا للظاهر بظهوره بل يرجع في الترجيح إلى ما اقترن بهما من المعاني وقوة القياس الظاهر المتبادر بالنسبة إلى الخفي المعارض له في غاية العلة فلذا حصروا مواضع تقديم القياس على الاستحسان في بضع عشر موضعاً يعرف في الأصول هذا أحدها ولا حصر لمقابله.

مسألة:

ولو ركع على فور تلاوة آية السجدة ولم ينو للتلاوة ثم سجد سقط سجدة التلاوة بالسجدة الصلاتية نوى أو لم ينو وكذا لو قرأ بعد آية السجدة آيةً أو آيتين عند أبي حنيفة رحمه الله خلافاً للجمهور، وفي ثلاث آيات إختلفت الرواية عن أبي حنيفة وفيما زاد على الثلاث لا ينوبه ركوع ولا سجدة صلاتية سواء نوى أو لم ينو.

مسألة:

ويجب عليه قضاء سجدة التلاوة ما دام في الصلاة عند أبي حنيفة رحمه الله كذا قال جمهور الحنفية وظن محمد بن سلمة أن قيام السجدة الصلبية مقام سجدة التلاوة قياس، وفي الاستحسان لا يجوز، لأن السجدة الصلاتية قائم مقام نفسها فلا يقوم مقام غيرها كصوم يومٍ من رمضان لا يجوز أن يقوم عن نفسه وعن قضاء يوم آخر فالقياس فيه مقدم على الاستحسان وأما قيام الركوع مقام سجدة التلاوة فالقياس يأبى عنه وهو الظاهر وفي الاستحسان يجوز وهو الخفي فهو من باب تقديم الإستحسان على القياس.

مسألة:

يجب السجود على من تلا هذه الآية من ص عند أبي حنيفة رحمه الله وعند مالك سنة كقوله في مطلق سجود التلاوة وكذا عند أحمد في إحدى الروايتين، وقال الشافعي وأحمد في الرواية المشهور عنه أنها سجدة شكر يستحب في غير الصلاة ولا يجوز في الصلاة، احتج ابن الجوزي على أنها ليست من عزائم السجود بحديث ابن عباس قال رأيتُ رسول الله ﷺ يسجد في صّ قال ابن عباس وليست من عزائم السجود»[1] رواه ابن الجوزي من طريق الترمذي وقال قال الترمذي هذا حديث صحيح قلتُ ورواه البخاري في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السجدة (٥٧٧).

الصحيح عن ابن عباس قال سجدة صٓ ليس من عزائم السجود وقد رأيتُ النبيّ ﷺ يسجد فيها[١]، وفي رواية قال مجاهد قلتُ لابن عباس أأسجد في صٓ فقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ حتى أتى على قوله ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فقال نبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم، وهذا يقتضي الوجوب فهوحجة لنا لا علينا وقول ابن عباس ليست من عزائم السجود موقوف يعارضه قوله نبيكم ﷺ أمر أن يقتدى بهم والمرفوع فعله ﷺ، واحتج ابن الجوزي أيضاً بحديث أبي سعيد الخدري قال: «خطبنا رسول الله ﷺ يوماً قرأ صٓ فلمَّا مرَّ بالسجود نزل فسجد وسجدنا معه وقرأها أخرى فلما بلغ السجدة نشرنا للسجود فما رآنا قال إنما هي سجدة توبة نبي ولكني أراكم قد استعددتم للسجود فنزل فسجد وسجدنا».

رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وهذا أيضاً ممَّا لا حجة علينا فيه غاية ما في الباب أن يكون فيه دلالة على عدم وجوب سجود التلاوة مطلقاً كما قال به الجمهور وهو المختار عندي للفتوى وبه قال الطحاوي من الحنفية خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، ولنا أيضاً حديث أبي هريرة «أن النبيّ ﷺ سجد في صٓ» رواه ابن الجوزي من طريق الدارقطني وحديث أبي سعيد «أن رسول الله سجد في صٓ» رواه الطحاوي وأبو داود والحاكم وذكر البيهقي عن جماعة من الصحابة أنهم سجدوا في صٓ. عن السائب بن يزيد قال صليتُ خلف عمر الفجر فقرأ بنا سورة صٓ فسجد فيها فلمَّا قضى الصلاة قال له رجل يا أمير المؤمنين من عزائم السجود هذه فقال كان رسول الله ﷺ يسجد فيها، وعن أبي مريم قال لمَّا قدم عمر الشام أتى محراب داود فصلّى فيه فقرأ سورة صٓ فلمَّا انتهى إلى السجدة سجد، وحديث ابن عباس أن النبيّ ﷺ سجد في صٓ وقال: «**سجدها داود توبةً ونسجدها شكراً**»[٢] رواه النسائي من حديث حجاج بن محمد عن عمر بن ذر موصولاً ورواه الدارقطني ورواه الشافعي في الأمر عن ابن عيينة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ وروي من وجه آخر من حديث عبد الله بن بزيع عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ وأعله بابن بزيع، قال قال ابن عدي ليس ممن يحتج به وصححه ابن السكن كذا قال ابن حجر، قال ابن همام غاية ما فيه أنه ﷺ بين السبب في حق داود والسبب في حقنا كون الشكر سبباً لا ينافي الوجوب فإن الفرائض والواجبات إنما وجبت شكراً لتوالي النعم، وفي مسند أبي حنيفة روى أبو حنيفة عن سماك بن حرب عن عياض الأشعري عن أبي موسى أن النبيّ ﷺ سجد في صٓ، وأخرج

(١) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجدة صٓ (١٠٦٩).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: افتتاح القرآن، باب: سجود القرآن السجود في صٓ (٩٥١).

أحمد عن بكر بن عبد الله المزني عن أبي سعيد رضي الله عنه قال رأيتُ رؤيا وأنا أكتب سورة صّ فلَمَّا بلغتُ السجدة رأيتُ الدواة والقلم وكل شيء يحضرني انقلب ساجداً قال فقصصتُهَا على رسول الله ﷺ فلم يسجدها قال ابن همام فأفاد أن الأمر صار إلى المواظبة عليها كغيرها من غير ترك واستقر عليه بعد أن كان قد لا يعزم عليها فظهر أن ما رواه إن تمت دلالته كان قبل هذه القصة.

فصل:

عن ابن عباس قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله رأيتُني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدتُّ فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتُها تقول اللّٰهم أكتب لي بها عندك أجراً وضع عني بها وزراً وأجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فسمعتُ رسول الله ﷺ «قرأ سجدةً ثم سجد فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»[1] رواه الترمذي (وقال هذا حديث غريب) وابن حبان والحاكم وكذا روى ابن ماجه إلا أنه لم يذكر «وتقبلها مني كما تقبلتَ من عبدك داود» ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي استغفر عنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ بعد المغفرة ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ أي قرباً غير متكيف ومكانة حصلت، بكمال الندم والإستغفار بحيث لولا تلك الزلة لما حصلت وقيل معناه وإنَّ له زُلفى أي زيادة خير في الدنيا ومكانة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن مرجع ومنقلب في الآخرة.

قلتُ: والظاهر أن من روى أن داود عليه السلام بعث مرة بعد مرةٍ أوريا إلى المغازي وأراد منه أن يقتل ليتزوج بعده زوجته فهو كذب مفترىً حاشاه عن ذلك وعامة ما يدل عليه لفظ القرآن أنه عليه السلام ودَّ أن يكون له ما لغيره وكان له تسعاً وتسعين من أمثاله فنبهه الله بهذه القضية فاستغفر وأناب عنه، قال صاحب المدارك روي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته وكان لهم عادة في المواساة بذلك كما كان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها واستحيى أوريا أن يرد قوله ففعل فتزوجها، قلت ولم يفعل داود عليه السلام مثل ما فعل نبينا ﷺ حين أعجبته زينب حيث قال لزيد ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[2] فزوجها الله إياه ولأجل ذلك

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في سجود القرآن (٥٧٥).

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

عاتب الله داود عليه السلام فاستغفر ربه وأناب ولفظ القرآن يؤيد هذه الرواية حيث أدعى المدعي بقوله: ﴿قال أكفلنيها وعزني في الخطاب﴾ ولم يقل أراد قتلي وحكم داود بأنه قد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه والله أعلم.

قال البغوي قال وهب بن منبه إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة ولا يرقأ أدمعه ليلاً ولا نهاراً وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء بين بني إسرائيل ويوم لنسائه ويوم يسبح في الفيافي والجبال ويوم يخلو في داره فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه فيساعدونه على ذلك فإذا كان يوم سياحتهم يخرج في الفيافي ويرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى يسيل أودية من بكائهم، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي ويبكي معه الحيتان ودواب البحر وطير الماء، والسباع فإذا أمسى رجع فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه أن اليوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده فيدخل الدار التي فيها المحاريب فبسط ثلاث فرش من مسوح حشوها ليف فيجلس عليها ويجييء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصا فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه ويرفع الرهبان معه أصواتهم فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش من دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ ويضطرب فيجيء ابنه سليمان عليهماالسلام فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ثم يمسح وجهه، ويقول يا رب اغفر لي ما ترى فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدنيا لعدله، قال وهب ما رفع داود رأسه حتى قال له ملَك أول أمرك ذنب وآخره مغفرة ارفع رأسك فرفع رأسه فمكث حياته لا يشرب ماءً إلا مزجه بدموعه ولا يأكل الطعام إلا بله بدموعه، وذكر الأوزاعي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ «إن مثل عيني داود كالقربتين تنقطان ماءً ولقد خدت الدموع في وجهه كخديد الماء في الأرض» قال وهب لمَّا تاب الله على داود قال يا رب غفرتَ لي فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فاستغفر منها وللخاطئين إلى يوم القيامة قال فرسم الله خطيئته في يده اليمنى فما رفع فيها طعاماً ولا شراباً إلا بكى إذا رآها وما كان خطيباً للناس إلا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا رسم خطيئته وكان يبدأ إذا دعا فاستغفر للخاطئين قبل نفسه، وقال قتادة عن الحسن كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين يقول تعالوا إلى داود الخاطيء ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قطعة فلا يزال يبكي حتى يبل بدموع عينيه وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين، قال وكان

داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر فلمّا كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله، وقال ثابت كان داود إذا ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله فلا يشدها إلا الأسى وإذا ذكر رحمة الله تراجعت، وفي القصة أن الوحوش والطير كانت تستمع إلى قراءته فلمّا فعل ما فعل كانت لا تصغي إلى قراءته فروي أنها قالت يا داود ذهبت خطيئتك بحلاوة صوتك.

﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ تقديره وقلنا يا داود معطوف على قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إستخلفناك على الملك أو جعلناك حليفة ممن قبلك من الأنبياء العالمين بالحق ﴿فَٱحْكُم﴾ الفاء للسببية ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بحكم الله ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عطف على فاحكم أي لا تتبع ما يهويه نفسك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ منصوب في جواب النهي ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن دلائله التي نصبها الله على الحق، فيه دليل على أنه من اتبع هواه إختل رأيه وضل في اجتهاده كما ترى في إثنين وسبعين فرقة ممن يدعي الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي بسبب نسيانهم يوم الحساب فإن تذكر ذلك اليوم يقتضي ملازمته ومخالفة الهوى والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ لا حكمة فيه أو ذوي باطل يعني مبطلين عابثين أو للباطل الذي هو متابعة الهوى بل للحق الذي هو الإستدلال على وجود الصانع وشكر نعمته بامتثال أوامره وانتهاء مناهيه جملة معترضة وكذلك قوله ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حيث ينكرون البعث وينكرون ثواب المطيع لمن خلق وعذاب العاصي وذلك يقتضي كون خلقها عبثاً لا حكمة فيه ﴿فَوَيْلٌ﴾ التنكير للتعظيم والفاء للسببية ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع المظهر موضع الضمير للذم والتقبيح ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ من للسببية ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة لإنكار التسوية بين الفريقين التي هي من لوازم خلقها باطلاً ليدل على نفيه، وبل للإضراب عما سبق من ظن بطلان خلق السماوات والأرض وكذا التي في قوله ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أنكر أولاً التسوية بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم ويجوز أن يكون

تكريراً للإنكار الأول باعتبار الوصفين الأخيرين المانعين التسوية من الحكيم، وهذه الآية برهان عقلي تدل على وجوب القول بالحشر إذ لا تفاضل بينهما في الدنيا غالباً بل الغالب فيها عكس ما يقتضيه الحكمة، فلا بد أن يكون لهم محلاً آخر يجاوز فيها.

وقال مقاتل قال كفار قريش إنا نعطي في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت هذه الآية ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي هذا القرآن كتاب من الله ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ كثير خير ونفعة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ليتفكروا فيها يعني تتفكر أنت وعلماء أمتك فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة أو يتفكر كل من له عقل فيعلم أنه من الله ولا يتصور إتيانه من البشر، قال الحسن تدبر آياته أتباعها ﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ أي ليتعظ به ذوي العقول السليمة أو يستحضروا ما هو المركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع وإرشاد إلى ما لا يستقل به العقل ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر للثاني.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾ عطف على قوله ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ﴾ وما بينهما معترضات ﴿لِدَاوُۥدَ﴾ سليمان ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح لأنه رجاع إلى الله تعالى بالتوبة أو إلى التسبيح مرجع له ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ظرف لأواب أو لنعم والضمير لسليمان ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ أي في العشي، يعني بعد الظهر ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابع وهي من الصفات المحمودة في الخيل، والجياد جمع جواد أو جود وهو الذي يسرع في جريه وقيل جمع جيد.

قال ابن عباس يريد الخيل السوابق قيل وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا سارت كانت خفافاً سراعاً، قال الكلبي غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين وأصابَ منهم

ألف فرس، وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ويرد هذا القول ما قال رسول الله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**»(١).

أخرج عبد بن حميد والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي قال كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عوف عن الحسن قال بلغني أن الخيل التي عقر سليمان وكانت خيلاً ذوات أجنحة أخرجت له من البحر لم يكن لأحد قبله ولا بعده، وذكر البغوي عن عكرمة قال كانت عشرين ألف فرس لها أجنحة وقالوا فصلّى سليمان صلاة الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرضت عليه تسع مائة فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ولم يعْلم بذلك هيبة له فأغتم لذلك.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ﴾ عطف على جمل محذوفة تقديره إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فاشتغل بها حتى فاته العصر فقال إني احببت ﴿حب الخير عن ذكر ربي﴾ أي آثرت حب الخير أي المال الكثير والمراد به الخيل التي شغله أو أطلق الخير على الخيل لأن العرب تعاقب بين اللام والراء فيقول ختلت الرجل خترته أي خدعته وقيل سميت الخيل خيرا لأنه معقود في نواصيها الخير، قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»(٢) روى هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما عن عدة من الصحابة، وكان الأصل أن يعدى أحببتُ بمعنى أثرتُ بعلى لكن لمّا أنيب مناب أنبت عدي بمن.

وقيل أحبَبْتُ بمعنى تقاعدتُ وحُبَّ الخير منصوب على العلية والمعنى تقاعدتُ لحب الخير، في القاموس أحب البقر برك فلم يثر ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أي الشمس أضمرت من غير ذكرها لدلالة العشي عليها ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي غربت واستترت بما يحجبها عن الإبصار، قال البغوي يقال الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة والشمس تغرب من ورائه ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ بتقدير القول عطف على ﴿قال إني أحببت﴾ وقال ردوها أي الصافنات عليَّ فردوها عليه ﴿فَطَفِقَ﴾ أي أخذ عطف على قال ردوها عليّ ﴿مَسۡحَۢا﴾ أي يمسح السيف مسحاً

---

(١) عند البخاري «لا نورث ما تركنا صدقة». أخرجه في كتاب: الفرائض، باب: قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» (٢٨٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٨٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلي يوم القيامة (١٨٧٣).

﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يعني قطعها من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه.

هذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل وأكثر المفسرين أخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال عقرها بالسيف، وأخرج الطبراني في الأوسط والإسماعيلي في معجمه وابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «**قطع سوقها وأعناقها بالسيف وكان ذلك بإذن الله تعالى توبةً عما غفل من ذكره وتقرباً إليه وطلباً لمرضاته**» قال الحسن فلمّا عقر الخيل أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره، وقال بعض المفسرين أنه ذبحها وتصدق بلحومها، وكان لحوم الخيل حلالاً كما هو في شريعتنا عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة فإنه قال يكره، وقال قوم معناه أنه حبسها في سبيل الله وكوى سوقها وأعناقها بكي الصدقة، وقال البغوي حكي عن علي كرم الله وجهه في قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يقول سليمان بأمر الله تعالى للملائكة الموكلين بالشمس رُدُّوهَا أي الشمس عَلَّي فردوها عليه حتى صلى العصر في وقتها وذلك أنه كان يعرض عليه الخيل للجهاد في سبيل الله ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ وقال الزهري وابن كيسان يمسح سوقها وأعناقها بيده يكشف الغبار عنها حبّاً لها وشفقة عليها، قال البغوي هذا قول ضعيف والمشهور هو الأول، قلتُ: ويأبى عن هذا القول ما قال سليمان تأسفاً ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا وابتلينا سليمان جواب قسم محذوف عطف على وهبنا ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إنه قال لأطوفن الليلة على تسع وتسعين امرأة**» وفي رواية «بمائة امرأة كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له الملك قل إن شاء الله فلم يقل ونسي فطاف عليهن فلم تحمل منهم إلا امرأة واحدةً جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[١] متفق عليه، قيل فجاءت القابلة بذلك الشق فألقت على كرسيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً﴾ ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع عن ترك الاستثناء في المستقبل كذا قال طاووس، وهذا التأويل أولى الأقاويل لقوة حديث الصحيحين، والقول بتنزيه الأنبياء عن السوء ولأن الجسد جسم لا روح فيه فيصدق على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من طلب الولد للجهاد (٢٨١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأيمان والنذور، باب: الاستثناء (١٦٥٤).

هذا التأويل بلا تمحل، وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة أنه قال ولد لسليمان ابن فقالت الشياطين إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك سليمان فكان يقوده في السحاب خوفاً من غرة الشياطين فما شعر به إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنةً على زلته في أن لم يتوكل فيه على ربه.

وقال البغوي: ذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه قال سمع سليمان عليه السلام بمدينة في جزيرة البحر يقال لها صيدون بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيلٌ لمكانه في البحر وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر إنما يركب إليه الريح فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستفاء ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها جرادة لم يروا مثلها حسناً وجمالاً واصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وأحبها حبّاً شديداً لم يحب شيئاً من نسائه وكانت على منزلتها عنده ولا تذهب حزنها ولا يرقى دمعها، فشق ذلك على سليمان فقال لها ويحكِ ما هذا الحزن الذي لا تذهب والدمع الذي لا يرقى قالت إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصاب به فيحزنني ذلك، قال سليمان فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه وهداك الإسلام وهو خير من ذلك كله.

قالت ذلك كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في دار التي أنا فيها وأراها بكرة وعشية لرجوتُ أن يذهب ذلك حزني وأن يسلّي عني بعض ما أجد في نفسي فأمر سليمان الشياطين فقال مثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا ينكر منها شيئاً فما ثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه فاردَّته وقمصته وعمَّمته بمثل ثيابه التي كان يلبسها، ثم كانت إذا خرج سليان من دارها تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن له كما كانت تصنع في ملكه وتروح عشية بمثل ذلك، وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً فبلغ ذلك آصف بن برضيا وكان صديقاً وكان لا يُرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل حاضراً كان سليمان أو غائباً فأتاه فقال يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب فقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأثنى عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم فقال افعل.

فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه فذكر ما فضله الله حتى انتهى إلى سليمان فقال ما أحلمك في صغرك وأودعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك عن كل ما تكره في صغرك ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه من ذلك شيئاً حتى ملأه غضباً، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فقال يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم فلما ذكرتني جعلت تثني عليَّ الخير في صغري وسكتَّ عما سوى ذلك من أمري في كبرى فما الذي أحدثتُ في آخر أمري؟ فقال إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة فقال في داري فقال في دارك فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لقد عرفتُ أنك ما قلتَ الذي قلتَ إلا عن شيء بلغك ثم رجع سليمان إلى داره وكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها ثم أمر شاب الطهارة، فأتى بثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا ينسجها إلا الأبكار ولا تغسلها إلا الأبكار ولم تمسها امرأة قد رأت الدم ثم لبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده فأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللاً للّه وتضرعاً إليه يبكي ويدعو ويستغفر منها كان هو في داره فلم يزل كذلك حتى أمسى ثم رجع إلى داره.

وكانت له أم ولد يقال لها الأمينة كان إذا دخل مذهبه أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً عندها ثم دخل مذهبه، فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه صخر على صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً فقال خاتمي يا أمينة فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سلميان فأتى الأمينة وقد غيرت حاله وهيئته عند كل من رآه فقال يا أمينة خاتمي فقالت من أنت؟ فقال أنا سليمان بن داود قالت كذبت قد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته فجعل يقف على الدور من دور بني إسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون أنظروا إلى هذا المجنون أيّ شيء يقول يزعم أنه سليمان، فلمّا رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع سمكة بأرغفة وشوى الأخرى فمكث على ذلك ذلك أربعين صباحاً عدة ما كان عبد الوثن في داره، فأنكر آصف وعلماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين فقال آصف يا معشر

بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتُ؟ قالوا نعم، قال أمهلوني حتى أدخل على نسائه فاسُألهن هل أنكرتن منه في خاصة أمره ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته فدخل على نسائه فقال ويحكن هل أنكرتن من ابن داود ما أنكرنا فقلن أشده ما يدع منا امرأة في دمها ولا يغتسل من الجنابة فقال إنا لله وإنا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين ثم خرج على بني إسرائيل فقال ما في الخاصة أعظم ممَّا في العامة، فلمَّا مضى أربعون صباحاً طار الشيطان من مجلسه ثم مر بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه وأعطاه السمكة التي أخذت الخاتم وخرج سليمان بسمكتيه فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجداً وعكفت عليه الطير والجنُّ وأقبل عليه الإنس وعرف أن الذي كان قد دخل عليه لما كان أحدث في داره فرجع ملكه وظهر التوبة من ذنبه وأمر الشياطين فقال أتوني بصخر فطلبته الشياطين حتى أخذ أخذته فأتي به فحاب له صخرةً فأدخله فيها ثم شد عليه أخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف في البحر هذا حديث وهب.

وقال السدي: كان سبب قصة سليمان أنه كان له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة هي آثر نسائه وآمنهن عنده وكان يأتمنها على خاتمه إذا أتى حاجته، فقالت له يوماً إن أخي بينه وبين فلان خصمونة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال نعم ولم يفعل فابتلي بقوله فأعطاها خاتمه ودخل المخرج فجاء الشيطان في صورته فأخذه وجلس على مجلس سليمان وخرج سليمان فسألها خاتمه فقالت ألم تأخذه؟ قال لا وخرج منه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً فأنكر الناس حكمه فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم حتى دخلوا على نسائه فقالوا إنا أنكرنا هذا فإن كان سليمان فقد ذهب عقله فبكى النساء عند ذلك، فأقبلوا حتى أحدقوا به ونشروا التوراة فقرأوها فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت، وأقبل سليمان حتى انتهى إلى صياد من صياد البحر وهو جائع قد اشتد جوعه فاستطعمه من صيده وقال إني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجه فجعل يغسل دمه على شاطىء البحر فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فأعطوه سمكتين مما قد حزر عندهم فشق بطنهما وجعل يغسلهما فوجد خاتمه في بطن إحداهما فلبسه فرد الله عليه ملكه وبهاءه وحامت عليه الطير فعرف القوم أنه سليمان فقاموا يعتذرون مما

صنعوا، فقال ما أؤاخذكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم هذا أمر كان لا بد منه ثم جاء حتى أتي ملكه وأمر حتى أتى بالشيطان الذي أخذ خاتمه، وجعله في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وأقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه وأمر به فألقي في البحر وهو هي كذلك حتى الساعة.

وروي عن سعيد بن المسيب قال احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه إحتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي فابتلاه الله عزَّ وجلَّ وذكر حديثَ الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما ذكرنا، وقال الحسن ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه إنتهى كلام البغوي.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وابن جرير عن السدي والنسائي وابن مردويه عن ابن عباس فذكروا القصة نحو حديث وهب بن منبه لكن في بعض الطرق أن صخر الجني لما جلس على سرير سليمان نفذ حكمه في كل شيء إلا فيه وفي نسائه وكذا قال الحسن فيما ذكر البغوي أنه ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه، وقال بعض المفسرين حديث الخاتم والشيطان والوثن في بيت سليمان من أباطيل اليهود لعنهم الله.

وقال البغوي أن في بعض الروايات أن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه لملكه فأعاده سليمان إلى يده فسقط فأيقن سليمان بالفتنة فأتى آصف فقال لسليمان إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك في يدك أربعة عشر يوماً ففر سليمان إلى سربه وأخذ آصف الخاتم فوضعه في أصبعه فثبت فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ فأقام آصف في ملكه على سيرته أربعة عشر يوماً إلى أن رد الله على سليمان ملكه فجلس على كرسيه فأعاد الخاتم في يده فثبت. قلت: والدليل على بطلان رواية وهب أن في تلك الرواية أنه غزا جزيرة يقال لها صيدون بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر فخرج سليمان إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده، والقرآن ينطق أن تسخير الريح لسليمان إنما كان بعد تلك الفتنة والإنابة حيث قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ يعني بعد الفتنة والإنابة وقوله ﴿رب هب لي ملكاً﴾ إلى آخره، قلتُ وعلى تقدير صحة تلك القصة لا يلزم سليمان صدور معصية فإن اتخاذ التماثيل كان جائزاً وسجود الصورة بغير علمه لا يضره.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ بيان لإنابة قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين بتقديم الاستغفار على السؤال. قرأ

نافع وأبو عمرو من بعدي بفتح الياء والباقون بإسكانها، في سياق هذا الكلام دلالة على أن فتنة سليمان إنما كان ابتلاءً من الله تعالى إياه لرفع درجاته في الدنيا والآخرة كفتنة أيوب عليه السلام ولم يكن فيها زلّة ومعصية من سليمان عليه السلام وإلا لبالغ في الندم والاستغفار ولم يسأل غير المغفرة والتوبة ولقال الله سبحانه ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ﴾ ذلك كما قال في قصة داود عليه السلام، قال مقاتل وابن كيسان أي لا يكون من بعدي لأحد وقيل معنى من بعدي من سوائي كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾(١) وقال عطاء بن أبي رباح يريد هب لي ملكاً لا تسلبنه في آخر عمري وتعطيه غيري كما سلبتَه آنفاً، قيل سأل سليمان ذلك ليكون أيةً لنبوته ومعجزةً له قال مقاتل كان سليمان مِلكاً ولكنه أراد بقوله: لا ينبغي لأحد من بعدي تسخير الرياح والطير والشياطين بدليل ما بعده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذتُه فأردتُ أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى ينظر له كلكم فذكرتُ دعوة أخي سليمان رَبّ هب لي ملكاً لا ينبغي لاحدِ من بعدي فرددته خاسئاً**»(٢) متفق عليه، قلتُ: ويمكن أنه أراد به لا ينبغي لأحدِ من بعدي في المرتبة قال ذلك شفقة على الناس يعني من كان مثلي في انقطاع التعلقات عن الخلق واشتغال قلبه بحب الله ومعرفته لا يضره ولا يشغله عن الله شيء فكان له الدنيا وسيلة لكسب الحسنات ومن لم يكن كذلك كانت الدنيا له شاغلاً عن الله فكانت له سمّاً قاتلاً. فإن قيل الحديث يأبى عمّا قلتَ فإن النبيّ ﷺ كان أعلى مرتبةً من سليمان ولم يكن يعط ملكاً مثله ولذلك لم يربط العفريت بالسارية؟ قلنا نعم إنه صلّى الله عليه وسلّم كن أعلى مرتبةً من سليمان ولكن لا نسلم أنه لم يعط ملكاً مثله لأجل دعائه بل الله سبحانه خيَّره بين أن يكون نبياً مِلكاً أو يكون نبياً عبداً فاختار كونه نبيّاً عبداً لكون الفقر أفضل عنده ودلَّ هذا الحديث أيضاً على أن الله تعالى مكنه على العفريت أن يربطه بالسارية لكنه ﷺ لم يربط باختياره حياءً من سليمان عليه السلام وكان النبيّ ﷺ نافذاً حكمه على الجن والأنس:

تأتي بدعوته الأشجار ساجدة ... تمشي إليه على ساق بلا قدم

لكن كان عيش الفقراء وزيّهم مرغوباً عنده، وكذا الخلفاء الراشدون جمعوا بين

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: الأسير أو الغريم يربط في المسجد (٤٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة (٥٤١).

الخلافة والفقر وحازوا فضائل الفريقين صلّى الله تعالى عليه وعلى خلفائه وآله وأصحابه أجمعين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قرأ أبو جعفر الرياح على الجمع والباقون على الإفراد بإرادة الجنس، والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديره فاستجبنا دعاءه فسخرنا له أي ذلّلنا لطاعته الريح ﴿تجري بأمره﴾ الجملة صفة للريح على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني، أو حال منه كقوله ﴿رُخَآءً﴾ لينةً لا تزعزع أو لا تخالف إرادته ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ ظرف لتجري يعني حيث أراد يقول العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب أي أراد الصواب ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يبنون الحصون والقصور ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ يستخرجون له اللآلىء من البحر، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر كُلَّ بدل من الشياطين ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على كل ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ مشددين في القيود فصَّل الشياطين إلى عملةٍ استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغواص ومردة فرق بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر.

قلتُ: لعله لم يسلط على إبليس لما سبق له من الوعد بأنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي قلنا له، هذا الذي أعطينا من الملك والبسط والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك عطاؤنا ﴿فَٱمْنُنْ﴾ أي فأعط من شئتَ ﴿أو أمسك﴾ عمن شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر أي غير محاسب على منّه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك قال الحسن ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان فإنه إن أعطي أجر وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة، وجاز أن يكون حالاً من العطاء أو صلة له وما بينهما إعتراض يعني عطاءً كثيراً لا يمكن إحصاؤه، وقال مقاتل هذا يعني تسخير الشياطين عطاؤنا أعطيناكه فامنن، يعني خذ منهم من شئتَ وَامْسِك منهم في وثاقك من شئتَ لاتبعة عليك في إطلاقها ولا في وثاقها ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ في الآخرة مع ماله من الملك العظيم في الدنيا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهو الجنة.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ عطف بيان لعبدنا والجملة عطف على واذكر عبدنا داود ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ بدل اشتمال من عبدنا ﴿أني مسنى﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها وأنَّ مع جملته حكاية لكلامه الذي نادى به ﴿الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد ويعقوب بفتحهما والباقون بضم النون وسكون الصاد ومعنى الكل واحد أي بمشقةٍ وضُرٍ ﴿وَعَذَابٌ﴾ أي وألم، قال مقاتل وقتادة بِنُصُبٍ في الجسم وَعَذَابٍ في المال، وقد ذكرنا قصة أيوب ومدة بلائه في سورة الأنبياء عليهم السلام فلما انقضت مدة بلائه أمره الله تعالى أن ﴿أركض﴾ جملة مستأنفة بتقدير قلنا له أركض ﴿بِرِجْلِكَ﴾ أي إضرب برجلك الأرض ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾ إغتسل منه فذهب كل داء كان بظاهره ﴿وشراب﴾ إشرب منه فذهب كل ماء كان بباطنه وقيل نبعت عينان بركضتين حارة وباردة فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال ركض برجله اليمنى فنبعن عين وضرب بيده اليمنى خلف ظهره فنبعت عين فشرب من إحداهما وأغتسل من الأخرى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ عطف على مفهوم كلام سابق أي فشفيناه ووهبنا له أهله ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ﴾ عطف على اركضُ وعلى هذا وهبنا له إلى آخره جملة معترضة أو هي معطوفة على وهبنا بتقدير وقلنا له خذ ﴿بيدك ضغثاً﴾ وهو ملأ الكف من الشجر والحشيش ﴿فَاضْرِب بِّهِ﴾ امرأتك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك وكان قد حلف أن يضربها مائة سوط فأخذ مائة عود من اذخر أو غيرها وضربها ضربةً واحدةً ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال تعليل لما وهب ولا يخل شكواه إلى الله تعالى من الشيطان في كونه صابراً فإنه لا يسمى جزعاً كتمني العافية وطلب الشفاء كما ذكرنا هُناك، ولشيخنا الشيهد رضي الله عنه هاهنا كلام رفيع وهو أنه عليه السلام صبر على البلاء سنين على ما ذكر في القصة، ثم لمَّا أراد الله سبحانه أن يكشف عنه الضُرَّ ألقي في روعه أن الله سبحانه يريد منك التضرع والدعاء في كشف البلاء وإظهار عجزك وافتقارك إلى جناب الكبرياء فاختار عليه السلام التضرع والدعاء على ما اقتضى طبعه من الصبر على البلاء ابتغاءً لمرضاة الله فارتقى من مقام الصبر إلى معارج الرضاء فشكر الله سبحانه على صبره بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ وعلى ارتقائه إلى مقام الرضاء بقوله: ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إنه أواب﴾ أي مقبل بشراشره على الله تعالى.

﴿واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ الثلاثة عطف بيان لعبادنا، وقرأ ابن كثير عبدنا بناء على وضع الجنس موضع الجمع أو هو على معنى التوحيد وإبراهيم عطف بيان له وإسحاق ويعقوب معطوفان عليه ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين والمعرفة بالله كذا قال ابن عباس وقتادة ومجاهد عبَّر بالأيدي عن الأعمال في الطاعة، لأن أكثرها بمباشرتها وبالإبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها وفيه تعريض لبطلة الجهال فإنهم كألزمنا والعماة ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة فيهم هي ﴿ذكرى الدار﴾ فهو مرفوع أو هو منصوب بتقدير أعني أو مجرور على البدل من خالصة أي تذكرهم للدار الآخرة دائماً وتذكيرهم الناس كما هو دأب الأنبياء، وذلك التذكر سبب لخلوصهم في الطاعة وذلك لأن مطمح أنظارهم فيما يأتون ويذرون جوار الله والفوز بلقائه وذلك في الآخرة وجاز أن يكون المضاف محذوفاً أي ذِكْرَى صاحب الدَّارِ وهو الله سبحانه وإطلاق الدار على الآخرة للإشعار بأنها هي الدار على الحقيقة والدنيا معبرة قرار فيها وما لا قرار فيها لا يسمى داراً. قرأ نافع وهشام بإضافة خالصة إلى ذكرى للبيان أو لأنه مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله، قال مالك بن دينار ونزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها، وقال مقاتل كانوا يدعون إلى الآخرة، وإلى الله عزَّ وجلَّ وقال السديّ أخلصوا بخوف الآخرة، وقال ابن زيد معناه على الإضافة أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة وجملة إنا أخلصناهُم مع ما عطف عليه تعليل لما سبق ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير والأخيار جمع خير كشر وأشرار، وقيل جمع خَيِّر على تخفيفه كأموات جمع مَيْتٍ أو مَيِّتٍ ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه الناس على بني إسرائيل ثم استنبىء، قرأ حمزة والكسائي واليسع بلام مشددة وإسكان الياء تشبيهاً بالمنقول من ليسع والباقون بلام واحدة ساكنة وفتح الياء ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب اختلف في نبوته ولقبه فقيل فرَّ إليه مائة نبي من بني إسرائيل فآواهم وكفلهم، وقيل كفل لعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ حال من مفعول اذكر.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ

﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾.

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي شرف لهم أو هذا الذي تلي عليكم من القرآن ذكر جميل لهم، ثم شرع لما أعدَّ لهم ولأمثالهم فقال ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيان لحسن مآب أو بدل منه وهي من الأعلام الغالبة لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ﴾(١) وانتصب عنها ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ على الحال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل أي الكون والحصول وقوله ﴿لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ مرفوع على أنه أسند إليه مفتحة والعائد إلى أي الحال محذوف أي مفتحة لهم منها الأبواب أو اللام عوض عن المضاف إليها أي مفتحة لهم أبوابها أو على أنه بدل إشتمال من الضمير المستتر العائد إلى الجنات ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ أي وشراب كثير فحذف إكتفاء بالأول.

وقوله متكئين ويدعون حالان مترادفان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل والأظهر أن يدْعُون استئناف لبيان حالهم فيها ومتكئين حال من ضميره والإقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعمهم لمحض التلذذ، فإن التغذي للتحلل ولا تحلل ثمه ﴿وَعِندَهُمْ﴾ نساء ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي قاصرات أطرافهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿أتراب﴾ مستويات الأسنان بنات ثلاث وثلاثين سنة جمع ترب، وعن مجاهد متواخيات لا يتباغضن كما تتباغض الضرات في الدنيا ولا يتغايرن، الجملة الظرفية حال أو خبر لضميرهم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير هاهنا وفي قٓ بالياء التحتانية على الغيبة والضمير للمتقين، ووافقه أبو عمرو هاهنا، والباقون بالتاء الفوقانية فيهما على الخطاب للمؤمنين ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي لأجله فأن الحساب علة الوصول إلى الجزاء أو للمعنى في ﴿يوم الحساب﴾(٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي انقطاع، الجملة حال من رزقنا أو خبر بعد خبر لإنَّ (هذا) أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو خُذ هذا.

﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ أي الكافرين ﴿لشر مآب﴾ مرجع ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لشر مئاب﴾ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من جهنم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المهد والمفترش مستعار من

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦١.

(٢) سورة ص، الآية: ٤.

فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم أو مهاد هو جملة ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ عطف أو حال هذا العذاب منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي ليذوقوا هذا فليذوقوه أو مبتدأ خبره محذوف أي هذا نزلهم فليذوقوه أو خبر مبتدأ محذوف أي العذاب هذا فليذوقوه أو مبتدأ خبره ﴿حَمِيمٌ﴾ كذا قال الفراء وعلى هذا جملة فليذوقوه معترضة، وعلى التأويلات السابقة حميمٌ خبر مبتدأ محذوف أي هو حميم، والحميم هو الماء الحار الذي انتهى حره ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ عطف على حميم قرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد على وزن فَعَّالٍ كالخبَّازِ والطبَّاخِ وخففها الباقون على وزن فعَالٍ كالعذاب. واختلفوا في معناه؟ قال ابن عباس هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرّها، وقال مجاهد ومقاتل هو الذي انتهى برده وقيل هو المنتن بلغة الترك، وقال قتادة هو ما يغسق أي يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة من قولهم غسقت أي أنصبت والغساق إنصباب، أخرج البيهقي عن عطية قال الغساق الذي يسيل من صديدهم وأخرج مثله عن إبراهيم وأبي رزين، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والضياء عن كعب قال الغساق عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع يؤتى بالآدمي فيغمس غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده عن العظام وتعلق جلده ولحمه في كعبيه فيجرُّ لحمه كما يَجُرُّ الرجل ثوبه ﴿وَءَاخَرُ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بضم الهمزة على أنه جمع أخرى مثل الكبرٰى وكُبرُ واختاره أبو عبيد لأنه نعته بالجمع فقال أزواج والباقون بفتح الهمزة وألف بعدها على التوحيد أي عذاب آخر أو مذوق آخر ﴿من شكله﴾ صفة لآخر أو خبر له أي مثل الحميم والغَسَّاق وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للعذاب ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أجناس خبر لآخر أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجار والمجرور والخبر محذوف أي لهم.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا
بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ
﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ
عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس هو كلام خزنة النار للقادة من أهل النار وذلك أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل عليهم الأتباع قالت لهم الخزنة، وقيل هو كلام القادة بعضهم لبعض أي هذا يعني الأتباع فوجٌ أي جماعة مقتحم معكم النار، والاقتحام الدخول في الشيء رمياً بنفسه فيه، قال الكلبي: إنهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار خوفاً من تلك المقامع، قلتُ وجاز ان يكون معناه أن النبيّ ﷺ وخلفاءه كانوا يحجزونهم عن النار ويمنعونهم عن ارتكاب موجبات دخولها وهم اقتحموا فيها حيث فعلوا موجبات دخلوها، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفرش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنّه فيقتحمّن فيها قال فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمّ عن النار هلمّ عن النار فتغلبوني تقحمون فيها**»[1] متفق عليه، وجملة ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ الخ بتقدير القول استئناف تقديره يقول بعض الطاغين بعضاً في شأن بعض هذا فوج مقتحمٌ معكم أو يقال للرؤساء في شأن الأتباع هذا فوجٌ إلى آخره فقالت القادة ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي بالأتباع دعاءٌ من المتبوعين على أتباعهم فهذه الجملة بتقدير القول متصل بما سبق ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل بقوله لا مرحباً بهم أي داخلوها بأعمالهم مثلنا وجاز أن يكون مرحباً بهم صفة لفوج أو حال أي مقولاً فيهم لا مرحباً بهم، يقال لمن يدعى له مرحباً أي أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً والرحب السعة وفيه تعظيم للجائي ويقال لمن يدعى عليه لا مرحبًا تحقيراً له وبهم بيان للمدعو عليهم ﴿قَالُوا﴾ استئناف آخر أي قال الأتباع للقادة ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يعني بل أنتم أحق بما قلتم، أو بما قيل فينا لضلالكم وإضلالكم إيانا وعللوا ذلك بقولهم ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي العذاب أو الصلى لنا بدعائكم أيانا إلى الكفر ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي بئس المقر لنا ولكم جهنم ﴿قَالُوا﴾ استئناف آخر أي قالت الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ أي مضاعفاً على ما بهم من العذاب.

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا﴾ يعني قالت كفار قريش وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ جملة لا نرى حال من ضمير المتكلم في النار والعامل معنى الفعل والأشرار جمع شرير والشر ضد الخير والخير ما يرغب فيه الكل، والشر ما يكرهه يعني كنا نكرههم ونحقرهم في الدنيا يعنون فقراء

(١) أخرجه البخاري في كتاب، الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٣).

المؤمنين نحو عمَّار وخبيب وصهيب وبلال وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين يسترذ لونهم ويسخرون منهم ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ قرأ أهل البصرة وحمزة والكسائي بهمزة الوصل على أنه صفة أخرى لرجالاً أو حال بتقدير قد أو خبر آخر لكنَّا، وقرأ الحجازيون وابن عامر وعاصم بالقطع على الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم في الاستسخار منهم، وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين كما مرَّ في المؤمنين والباقون بكسرها ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فلا نراهم.

قال الفراء هذا من الإستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجب وأم معادلة لهمزة في جملة مقدرة مفهومة من قوله ما لنا لا نرى والتقدير ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرياً أليسوا هاهنا أم زاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم وهم هاهنا، أو الهمزة أتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أيُّ الأمر ما فعلنا بهم من الإستسخار منهم أم تحقيرهم فإن زيغ البصر كناية عنه والمعنى إنكارهما على أنفسهم أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استرذالهم والاستسخار منهم كان لزيغ البصر منَّا وقصور أنظارنا على رثاثة حالهم، وقال ابن كيسان يعني أم كانوا خيراً منا ولم نعرفهم وكانت أبصارنا تزيغ عنهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال ﴿تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ بدل من حق أو خبر محذوف، ولما شبه تقاولهم وما جرى بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سماه تخاصماً ولأن قول القادة لا مرحباً بهم وقول الأتباع بل أنتم لا مرحباً بكم تخاصم فسمى التفاول كله تخاصماً لاشتماله على ذلك.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ جملة قل مع المقولة مستأنفة وإنَّما لقصر القلب متصل بقوله تعالى: ﴿قال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾[١] يعني لست بساحر كذاب إنما أنا منذر أنذركم بعذاب الله ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عطف على أنه المتصل بقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾[٢] ﴿الوَاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركة في ذاته ولا في صفة من صفاته ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ على كل شيء فيه وعيد للكفار ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب صغائرها وكبائرها لمن يشاء وفي هذه الأوصاف تتميم وتقرير للتوحيد ووعد للموحدين ووعيد للمشركين، ودفع لتوهم إنحصار وصفه بالقهر ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة يعني

(١) سورة ص، الآية: ٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

القرآن ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ وقيل يعني القيامة لقوله تعالى: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾[١] وقيل يعني ما أنبأ تكون من أني نذير من عقوبة من هذا صفته وأنه واحد في الألوهية لا شريك له فهو متصل بقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ صفة أخرى لنبأ أي أنتم لتمادي غفلتكم معرضون عنه مع أن العاقل لا ينبغي أن يعرض عن مثله وقد قامت عليه الحجج الواضحة إما على التوحيد فما مرّو إما على النبوة فقوله ﴿مَا كَانَ لِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ أي الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإن الأخبار عن تقاول الملائكة وما جرى بينهم مطابقاً لما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يتصور إلا بالوحي.

وقيل المراد باختصامهم إختصامهم في شأن آدم عليه السلام حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٢] وفي الحديث عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي يقول قال النبيّ ﷺ: «رأيتُ ربي في أحسن صورة قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلتُ أنت أعلم أي ربّ مرتين، فقال وضع كفه بين كتفي فوجدتُ برده بين ثديي فعلمتُ ما في السماء والأرض ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ثم قال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلتُ في الكفارات، قال وما هن؟ قلتُ المشيء بالأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد خلف الصلوات وإسباغ الوضوء أماكنه في المكاره، قال من يفعل ذلك يعش بخير ويمت بخير ويكون خطيئته كيوم ولدته أمه، ومن الدرجات إطعام الطعام وبذل السلام وأن تقوم بالليل والناس نيام، قال قل اللّهم إني أسألك الطيبات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليَّ وإذا أردتَّ فتنةً في قوم فتوفني غير مفتون، فقال رسول الله ﷺ فوالذي نفس محمد بيده إنهن لحق»[٣] رواه البغوي في شرح السنة والتفسير ورواه الدارمي إلى قوله ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ وللترمذي عنه نحو ما روى البغوي وللترمذي عن ابن عباس ومعاذ بن جبل بمعناه مع تغير في العبارة، ولعل المراد باختصام الملأ الأعلى في الكفارات أن جمعاً منهم يبتدرون أن يكتبوها، يريد كل منهم أن يهيأ بها وجه الرحمن أوّلاً كما في حديث رفاعة بن رافع «كنا

(١) سورة النبأ، الآية: ١ ـ ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص (٣٢٣٥).

نصلّي وراء النبيّ ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده، فقال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه فلما انصرف قال من المتكلم آنفاً؟ قال أنا، قال رأيت بضعةً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيُّهم يكتبها أول»[1] رواه البخاري، إذ متعلق بعلم أو بمحذوف والتقدير من علم بكلام الملأ الأعلى إذ يختصمون ﴿إن يوحى إلي إلا إنما أنا نذير مبين﴾ إنما مع جملته إما في محل الرفع على أنه أسند إليه يوحى وإما في محل النصب على العلّية، ويوحى حينئذ مسند إلى المصدر المفهوم من الفعل يعني ما أوحي إلى إلاَّ الإنذار المبين أو ما أوحي إليَّ وحي إلا لأجل الإنذار فإنه هو المقصود من الإرسال، وقيل المراد بالنبأ العظيم قصة آدم وإبليس والأنباء به من غير سماع والمراد بالملأ الأعلى أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ بدل من إذ يختصمون مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس في خلق آدم واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مرَّ في البقرة، غير أنها اختصِرت اقتصاراً على ما هو المقصود هاهنا وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبيّ ﷺ بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم، هذا ومن الجائز أن يكون مقاولته إياهم بواسطة ملك أو أن يفسر الملأ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: فضل اللهم ربنا ولك الحمد (٧٩٦).

الأعلى بما يعم الله والملائكة، وجاز أن يكون إذ منصوباً باذكر ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي أتممتُ خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أضاف الروح إلى نفسه تشريفاً لآدم أو تشريفاً للروح ﴿فَقَعُواْ﴾ فخروا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ وقد مر الكلام فيه في البقرة ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطف على قال ربك ﴿كلهم أجمعون﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم تعليل للاستثناء ﴿وَكَانَ﴾ أي صار ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستكباره عن أمر الله تعالى أو استكباره عن المطاوعة أو كان منهم في علم الله تعالى ﴿قَالَ﴾ ربك ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ كلمة بيدي من المتشابهات فالسلف لا يأولونه ويؤمنون به ويكلون مراده إلى الله تعالى والخلف يأولونه ويقولون خلقتُه من غير توسط كأب وأم والتثنية لما في خلقه من مزيد القدرة وترتب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم أو بأنه الذي تشبث به في تركه وهو لا يصلح لكونه مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض سيما وله مزيد اختصاص ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ همزة الإستفهام للتربيخ والإنكار دخلت على همزة الوصل يعني أتكبرت من غير استحقاق ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي من الذين استحقوا التفوق توبيخ على الشق الأول وإنكار للشق الثاني قال إبليس ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أبدأ المانع وأستدل عليه بقوله ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ قد سبق الكلام عليه.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة وقيل من السماوات، وقال الحسن وأبو العالية من الخلقة التي أنت فيها، قال الحسن بن الفضل هذا تأويل صحيح لأن إبليس تجبَّر وافتخر بالخلقة فغيَّر الله خلقه فاسود وقبح بعد حسنه ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود لست بخير تعليل للأمر بالخروج ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا يظن بأن اللعنة منتهية بيوم الدين بل معناه أن عليه اللعنة وحدها إلى يوم الدين ثم ينضم إليها العذاب ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الفاء للسببية، فان طرده لعداوة آدم سبب لطلبه الإنظار لإغواء بني آدم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ الفاء للسببية فإن سؤاله سبب لهذا المقال والجملة الإسمية تدل على أن إنظاره كان محكوماً عليه في علم الله القديم قبل سؤاله لا إجابة لدعائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهي النفخة الأولى وقد مرَّ بيانه في الحجر ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ هذه الفاء أيضاً للسببية، فإن إنظاره تعالى إياه سبب لعزمه على إغوائهم ولو لم يكن من الله إنظاراً لم يقدر على إغوائهم أجمعين، أقسم اللعين بعزته أي بسلطانه تعالى وقهرمانه حتى يكون وسيلةً لتسلطه على ما يريد ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الضلالة أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القرائتين، فإن ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر قرأوا بكسر

اللام والباقون بفتحها ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي أنا الحق أو مبتدأ خبره محذوف، فالحق اسم من أسماء الله تقديره الحق يميني أو قسمي والباقون بالنصب بنزع الخافض، أي حرف القسم كقوله تعالى لأفعلن وجاز أن يكون تقديره فأحق الحق ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة معترضة وقيل تكرار للقسم أقسم الله بنفسه وجواب القسم قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي من جنسك ليتناول الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي لا أترك منكم ومنهم أحداً، والمراد بمن تبعك الكفار وإن كان التقدير أنا الحق أو أحق الحق فهذه الجملة جواب قسم محذوف وأجمعين تأكيد للضميرين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على الإنذار أو على القرآن ﴿من أجر﴾ جعل ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي من المتقولين القرآن من تلقاء نفسه أو المدعين لنفسه ما ليس له تكلفاً على ما عرفتم من حالي يعني لا أدعي النبوة بلا حقيقة وجملة قل ما اسألكم إلى آخره مقرى لمضامين الجمل السابقة أخرج البخاري عن عمر قال نهينا عن التكلف[(١)]، وروى البغوي عن مسروق قال دخلنا على ابن مسعود فقال يأيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ قلتُ قوله ما أنا من المتكلفين تأكيد لمضمون قوله ما أسألكم عليه من أجر فإن من لا يسأل شيئاً من الأجر لا ضرورة له في أن يتكلف في المقال ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي عظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للثقلين أوحي إليَّ وأنا أبلّغه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يا كفار مكة جواب قسم محذوف ﴿نبأه﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد أو صدقه بإتيان ذلك ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة أي بعد الموت، وقال عكرمة يوم القيامة، قال الحسن ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٧٢٩٣).

سورة الزمر

آياتها خمس وسبعون ـ وقيل اثنان وسبعون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا أو مبتدأ خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صنعه، وهو على الأول صلة التنزيل أو خبر ثان أو حال عمل فيها معنى الإشارة أو التنزيل، والظاهر أن الكتاب على الأول السورة وعلى الثاني القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله، وليس هذا اتكروا لأن الأول كالعنوان للكتاب والثاني لبيان ما فيه ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصاً له الدين من الشرك والرياء، وتقديم الخبر لتأكيد الإختصاص المستفاد من اللام كما صرح به مؤكداً أو أجراه مجرى العلوم المقرر لكثرة حججه وظهور براهينه فقال ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ جملة معترضة للتنبيه أي أنا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة فإنه المنفرد بصفات الألوهية والإطلاع على الأسرار والضمائر ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ يعني الكفرة الذين اتخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله ﴿أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي قالوا ما نعبدهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كذلك قرأ ابن مسعود وابن عباس وحينئذ قالوا المقدر بدل من الصلة أو حال بتقدير قل من فاعل إتخذوا وقوله ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر بمعنى قربى، قال البغوي اسم أقيم مقام المصدر كأنه قال ليقربونا إلى الله تقريباً أو حال

والموصول مبتدأ خبره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وبين المسلمين ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار والضمير للكفرة ومقابليهم وجاز أن يكون خبر الموصول جملة قالوا ما نَعۡبُدُهُمۡ وجملة إن الله يحكم بينهم مستأنفة، وجاز أن يكون المراد بالموصول المعبودون بالباطل على حذف الراجع يعني الذين اتخذوهم من دونه أولياء من الملائكة وعيسى والأصنام إن الله يحكم بينهم، وجملة ما نَعۡبُدُهُمۡ بتقدير القول حال، أو بدل للصلة ولا يحتمل كونه خبراً أخرج جويبر عن ابن عباس في هذه الآية قال أنزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان ويقولون الملائكة بناته فقالوا ما نَعۡبُدُهُمۡ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلۡفى، وقال البغوي إنهم كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خلقهكم ومن خلق السماوات والأرض قالوا الله فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأوثان قالوا لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلۡفى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ بنسبة الولد إلى الله وبقوله الأصنام تشفع عند الله ﴿كَفَّارٞ﴾ لإنعام الله حيث يشرك به غيره، يعني إن الله لم يريد ولا يريد أن يهديهم ولو شاء لهداهم فلم يكذبوا ولم يكفروا جملة معترضة.

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ كما زعموا ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ العائد إلى الموصول ضمير منصوب محذوف والموصول مع الصلة مفعول لاصطفى ومما يخلق حال منه والعائد إلى الموصول فيه أيضاً ضمير منصوب يعني لو أراد الله اتخاذ الولد لاصطفى ما يشاءه مما خلق إذ لا موجود إلا وهو مخلوقه لقيام الأدلة على امتناع وجود واجبين ووجوب إستناد ما عدا الواجب إليه ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقول مقام الولد له، فهذا الكلام في قوة أن يقال لو أراد الله أن يتَّخذ ولداً لا يتصور ذلك فحذف الجزاء وأقيم دليله مقامه وجاز أن يكون العائد إلى الموصول في ممَّا يخلقُ الضمير للمرفوع، والمعنى لو أراد الله أن يَتَّخِذَ وَلَداً إلاَّ أصطفى ولداً يقدر على خلق الأشياء وذا الحال لأنه يستلزم تعدد الآلهة فهو دليل على إمتناع إرادة الله أن يتخد ولداً ثم قرر ذلك بقوله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أن يكون له ولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ يعني أن الألوهية التي تتبع الوجوب مستلزم للتوحد في ذاته وصفاته وتنافي المماثلة والمشاركة فأنى يكون له ولد والولد لا يكون إلا من جنس الوالد ناشئاً من بعض أجزائه ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ القهارية المطلقة ينافي المشاركة وقبول الزوال المحوج إلى الولد ثم استدل على ذلك بقوله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق غير عابث، بل ليكون دليلاً على الصانع ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ يغشي كل واحد منهما الآخر كأنه يلف عليه لف اللباس باللابس أو يغيب به كما يغيب الملفوف باللفاف أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً

مثل أكوار العمامة، والحاصل أنه يخلق كل واحد منهما عقيب الآخر، قال الحسن والكلبي ينقص من الليل ويزيد في النهار وينقص من النهار ويزيد في الليل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي﴾ في الفلك ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ليوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كل شيء ﴿الْغَفَّارُ﴾ حيث لم يعاجل في العقوبة ولم يسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة والمنفعة.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام خلقها من غير أب وأم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ إستدلال آخر بما أوجده في العالم السفلي، وثمَّ للعطف على محذوف هو صفة نفس أعني خلقها أو على معنى واحدة أي من نفس وُحّدت ثم جعل منها زوجها فشفعها بها أو على خَلَقَكُمْ والعطف بثم لتفاوت ما بين الآيتين فإن الأول عادة مستمرة دون الثانية، وقيل معنى قوله: خلقكم من نفس إنه أخرجكم من ظهره كل ذرية ذرأها حين أخذ الميثاق ثم خلق منها حواء زوجها ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي قضى وقسّم لكم فإن قضاياه وقسمه يوصف بالنزول من السماء لما كتب في اللوح أو المعنى أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كأشعة الكواكب والأمطار، وقيل معناه خلق في الجنة مع آدم عليه السلام ثم أنزل منها لكم ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز حال من الأنعام ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ جملة مبينة لما سبق أي يخلق الإنس والأنعام فيه تغليب لذوي العقول على غيرهم ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عظاماً ثم يكسى لحماً، ثم ينفخ فيه الروح ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة أو الصلب والرحم والبطن ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي الذي فعل هذه الأفعال مبتدأ خبره ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبر ثان ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ خبر ثالث ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر رابع، أي لا يستحق العبادة أحد غيره لعدم اشتراك أحد في الخلق ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للاستبعاد والتعجب يعني كيف تصرفون عن طريق الحق بعد هذا البيان الشافي وعن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ وعن إيمانكم شرط حذف جزاؤه وأقيم دليله مقامه تقديره إن تكفروا يعود وبال كفركم إليكم لا إلى الله تعالى: فإن الله غني عنكم ومن إيمانكم وإنما أنتم تحتاجون إليه لتضرركم بالكفر وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ عطف على الشرطية يعني الكفر مبغوض غير مرضي له تعالى وإن كان بإرادته حيث قال: ﴿من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[1] وهو قول السلف، وعليه إجماع أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة، وذكر البغوي أنه قال ابن عباس والسديُّ معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[2] وهذا القول مبني على أن يكون الرضاء بمعنى الإرادة مجازاً وإلا فالحق أنه لا يستلزم الإرادة ولا يرادفه، فإن إرادته يتعلق بالخير والشر كله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ويستحيل تخلف المراد عن إرادته قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[3] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ أي تؤمنوا بربكم وتطيعوه ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ قيل في تفسيره يُثيبكم به وهذا حاصل المعنى فإن الرضاء يستلزم الإثابة أصله يرْضَاهُ سقط الألف بالجزم فقرأ نافع وعاصم وحمزة وهشام باختلاس حركة هاء الضمير إبقاءً على ما كان لأن ما قبله ساكن تقديراً وأبو عمرو وابن كثير وابن ذكوان والكسائي بإشباع الحركة لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك وهي رواية أبي حمدان وغيره عن اليزيدي وفي رواية عن أبي عمرو بإسكان الهاء وبه قرأ يعقوب ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمله فيه اشارة إلى أن وبال كفركم لا يتجاوز عنكم إلى غيركم فلا يتضرر به النبيّ ﷺ فدعوته إياكم إلى الإيمان ليس إلا لأجل أن ينفعكم ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيجازي على أعمالكم على حسب نياتكم.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٠.

ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ الكافر ﴿ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا﴾ أي راجعاً ﴿إِلَيْهِ﴾ مستغيثاً ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أي أعطاه أو جعله ذا حشم وأتباع والخول الحشم والأتباع قال رسول الله ﷺ في العبيد: «إخوانكم خولكم جعل الله تحت أيديكم»(١) أو تعهده كما في الحديث «كان عليه السلام يتخولنا»(٢) أي يتعهدنا بالموعظة من قولهم فلان خائل مال وهو الذي يصلحه ويقوم به كذا في النهاية والقاموس ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ إما مفعول ثان لخوله إن كان بمعنى أعطاه أو مفعول له ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ أي الضرّ الذي كان يدعوا الله إلى إزالته أو نسي ربه الذي كان يتضرع إليه وما حينئذ بمعنى من كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾﴾(٣) ﴿مِن قَبْلُ﴾ النعمة ﴿وجعل لله أنداداً﴾ أي شركاء ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي دين الإسلام، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ودويس بفتح الياء والباقون بضمها والضلال والإضلال لمّا ترتب على ذلك شُبّه بالعلة الغائيّة كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهذا الكافر ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا إلى أجلك أمر تهديد وفيه إقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله على سبيل الإستئناف بقوله ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ قيل نزلت في عيينة بن ربيعة، وقال مقاتل نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

﴿أمن هو قانت﴾ أي قائم بوظائف الطاعات، قال ابن عمر القنوت قراءة القرآن وطول القيام قرأ ابن كثير ونافع وحمزة بتخفيف الميم فالتقدير أمن من هو قانت لله كمن جعل له أنداداً، وقرأ الباقون بتشديد الميم فام حينئذ منقطعة والمعنى أَمَّنْ هو قانتٌ كمن جعل له أنداداً أو متصلة بمحذوف تقديره أَمَّنْ جعل لله أنداداً ولم يشكر نعمته خير أم مَّنْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأيمان والنذور، باب: إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبيﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لاينفروا (٦٨).

(٣) سورة الليل، الآية: ٣.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨.

هُوَ قَانِتٌ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاته ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ في الصلاة حالان من الضمير في قانت ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي يخاف عذاب الآخرة إستقصاراً لنفسه في العمل ﴿ويرجوا رحمة ربه﴾ غير معتمد على عمله يعني يجمع بين الخوف والرجاء ولا يجاوز في الخوف حده حتى يكون ﴿آيساً فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ ولا في الرجاء حده حتى يكون آمنًا فإنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، والجملتان واقعتان موقع الحال أو الإستئناف للتعليل، قال البغوي قال ابن عباس في رواية الضحاك نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق.

وأخرج ابن أبي سعيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال نزلت في عمار بن ياسر وأخرج جويبر عن ابن عباس أنه قال نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وأخرج جويبر عن عكرمة قال نزلت في عمار بن ياسر.

وقال البغوي قال الضحاك نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعن ابن عمر أنها نزلت في عثمان وكذا أخرج ابن أبي حاتم عنه، وعن الكلبي أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان ووجه الجمع بين الأقوال أنها نزلت في جميعهم ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ الله تعالى متصفاً بصفات الجلال والجمال فيحذر عذابه ويرجو رحمته فيعمل في طاعته ويتقي عن معاصيه ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ ذلك والإستفهام للإنكار أي لا يستوون فهذه الجملة تقرير للأول على سبيل التعليل، وقيل تقرير له على سبيل التشبيه يعني كما لا يستوي العالم والجاهل كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، وقيل نفيٌ لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيهما باعتبار القوة العملية على وجه الابلغ لمزيد الفضل قيل الذين يعلمون عمار والذين لم يعلموا أبو حذيفة المخزومي ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ بأمثال هذه البيانات.

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي آمنوا لو أحسنوا العمل يعني أتوه بالخشوع والخضوع كما قال رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ متعلق بقوله أحسنوا ﴿حَسَنَةٞۗ﴾ في الآخرة يعني الجنة مبتدأ خبره للذين أحسنوا والجملة تعليل بقوله إتقوا ربكم وقيل في الدنيا ظرف مستقر حال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠).

من حسنة، وهو فاعل للظرف المستقر أعني قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ قال السديّ في هذه الدنيا حسنة الصحة والعافية وهذا القول ليس بسديد فإن الصحة والعافية كما يعطى المؤمن يعطى الكافر أيضاً بل قد ينعكس الأمر ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فلا عذر للمقصرين في الطاعة لمزاحمة الكفار ففيه كناية عن طلب الهجرة من البلد الذي يتعسر فيه الإحسان، ومن ثم قال ابن عباس في تفسيره إرتحلوا من مكة وعن مجاهد أنه قال في هذه الآية قال الله تعالى أرضي واسعة فهاجروا واعتزلوا، وقال سعيد بن جبير يعني من أمر بالمعاصي فليهرب والجملة إما معطوفة على قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وإما على قوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ لكونها بمعنى هاجروا ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل يعني الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى من الكفار أو صبروا على مفارقة الأوطان والمعارف، قيل نزلت الآية في جعفر بن أبي طالب وأصحابه مهاجري الحبشة حيث لم يتركوا دينهم فإذا اشتد فيهم البلاء صبروا وهاجروا واللفظ عام يعمهم وكل من صبر على البلاء وعلى مشقة الطاعة وحبس النفس عن المعصية، قال البغوي قال علي رضي الله عنه كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرون فإنهم يحثى عليهم حثياً، وروى الأصبهاني عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «تنصب الموازين ويؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا تنصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبُّ عليهم الأجر صبّاً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء وذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وذكر البغوي نحوه وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند لا بأس به عن ابن عباس قال: «يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ثم يؤتى بالمصدق فينصب للحساب ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان فيصب لهم الأجر صبّاً حتى أن أهل العافية ليتمنون بالموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حيث ثواب الله لهم» وأخرج الترمذي وابن أبي الدنيا عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «**يوَدّ أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثوابَ لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض**»(١) قلتُ: لعل المراد بأهل البلاء أهل العشق بالله بدليل أن الشهيد لم يعد من أهل البلاء مع أن أشد بلاء الدنيا القتل وهو قد صبر على بذل نفسه في سبيل الله.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٤٠٢).

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ
إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم
مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ
﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ
﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ
يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾
أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ
مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قل إنى﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي موحداً له ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي أمرتُ بالإخلاص لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة لأن قصب السبق إنما هو بالإخلاص أو لكوني أول من أسلم من قريش ومن دان بدينهم والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقيده بالعلة وللإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص، وإن اقتضت لذاتها كونها مأموراً بها فهي أيضاً مقتضية لما يلزمه من السبق في الدين، وجاز أن يكون اللام زائدة كما في أردتُّ لأن أفعل فيكون أمراً بالتقدم في الإسلام والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به فإنه بُعث داعياً للناس إلى الإسلام وذلك يقتضي كونه أول المسلمين فإن دعوة غيره فرع اتصافه بنفسه وفيه إمالة لغيره إلى الإسلام يعني أني لا أدعوكم إلا إلى ما هو خيرٌ إذ لو لم يكن خيراً لما اخترتُه لنفسي وقد اخترتُه أولاً ﴿قُلۡ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك وسوء الأعمال ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فيه تحذيرٌ للمخاطبين عن العصيان، كما في الآية السابقة وإمالةٌ إلى الإسلام، قال البغوي هذه الآية نزلت حين دُعِي إلى دين آبائه ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ أمر بالأخبار عن إخلاصه في العبادة بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً عى المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم ولذلك رتب عليه قوله.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ تهديداً أو خذلاناً لهم وهذا جواب شرط محذوف تقديره إن لم توافقوني في العبادة لله خالصاً فأعبدوا ما شئتم فسترون ما يترتب عليه من العذاب والخسران ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالضلال ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ يعني أتباعهم من

الأزواج والأولاد والخدم بالإضلال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ حين أوردهم النار ظرف لخسروا من خسر التاجر إذا غبن في تجارته فإنهم بالضلال والإضلال بدلوا نصيبهم من الجنة بنصيبهم من النار وهو لازم وجاء هاهنا متعدياً، قال البغوي قال ابن عباس: وذلك (يعني خسران الأهل) أن الله جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة وأهلاً فمن عمل بطاعة الله كان ذلك المنزل والأهل له ومن عمل بمعصية كان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بالطاعة، قلتُ: فعلى هذا معنى خسر أهله أنه فوَّت أهله وقيل خسران الأهل إن كانوا من أهل النار فبالإضلال وإن كانوا من أهل الجنة فلذهابه عنهم ذهاباً لا رجوع بعده ﴿أَلَا ذَٰلِكَ﴾ أي خسران يوم القيامة ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ دون غير ذلك من أصناف الخسران، فإن خسران الدنيا سهل ويتبدل وفيه مبالغة في خسرانهم لما فيه من الإستئناف والتصدير بألا وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين ثم شرح الخسران بقوله ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إطباق سرادقات من النار ودخانها ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فرش ومهاد من الدار إلى أن ينتهي إلى القعر، سمَّى السافلة ظللاً لكونها ظللاً لمن تحتهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب هو الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي اتقوني ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي وعذابي.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ البالغ في الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت ثم وصف به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشيطان وفسره البغوي بالأوثان لأن تأنيث الضمير في قوله ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ وهو بدل اشتمال من الطاغوت يدل على أن المراد به الأوثان ﴿وَأَنَابُوٓا﴾ أي أقبلوا بشراشرهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ عمَّا سواه ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل في الدنيا وعلى ألسنة الملائكة عند حضور الموت يعني هم استحقوا أن يبشروا ولذلك فرع قوله ﴿فبشر﴾ يا محمد ﴿عِبَادِ﴾ قرأ أبو شعيب بياء مفتوحةٍ وصلاً ساكنة وقفا وأبو حمدون وغيره عن اليزيدي مفتوحةً في الوصل محذوفةً في الوقف وهو قياس قول أبي عمرو حيث يتبع الرسم في الوقف والباقون يحذفونها في الحالين، أخرج جويبر بسنده عن جابر بن عبد الله قال لمَّا نزلت ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ الآية أتى رجل من الأنصار النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله إن لي سبعة مماليك وإني قد أعتقتُ لكل باب منها مملوكاً فنزلت ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ يعني يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ويستمعون كلام الرسول، وكلام الكفار فيتبعون كلام الرسول كان حق الكلام فبشرهم فوضع الظاهر أعني عبادي الذين يستمعون الخ موضعه للدلالة على أن مبدأ اجتنابهم من الطاغوت أنهم نقادون للأقوال يميزون بين

الخبيث والطيب والقبيح والحسن وبين الحسن والأحسن، قال عطاء عن ابن عباس آمن أبو بكر رضي الله عنه بالنبيّ ﷺ فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزلت فيهم هذه الآية، والأحسن حينئذ بمعنى الحسن إذ لا حسنى في أقوال الكفار، قال ابن زيد نزلت الآيتان في ثلاثة نفر كانوا من الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد بن عمرو بن نفيل أو سعيد بن زيد وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي والأحسن قول لا إله إلا الله، وقال السديُّ يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون به قيل هو أن الله ذكر في القرآن الانتصار من الظالم والعفو والعفو أحسنُ الأمرين وذكر العزائم والرخصَ والعزائمُ أحسن ﴿أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أي ذوي العقول السليمة عن معارضة الأوهام والعادات وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بخلق الله تعالى وقبول النفس لها.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾ في علم الله القديم كذا قال ابن عباس ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني خلقتُ هؤلاء للنار ولا أبالي ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني لا تقدر عليه، قال ابن عباس يريد أبا لهب وولده، الجملة الشرطية معطوفة على جملة محذوفة دل عليه الكلام تقديره وأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه من النار كرّرت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد ووضع مَنُ في النار موضع الضمير لذلك، وللدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه وأن اجتهاد الرسول الله ﷺ في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار ويجوز أن يكون أنأنت تنقذ جملة مستأنفة للدلالة عى ذلك والإشعار بالجزاء المحذوف تقديره أفمن حق عليهم كلمة العذاب تهديد أفأنت تنقذ من في النار فأن من حق عليه كلمة العذاب كأنه في النار حالاً، ثم أستدرك لدفع توهم كون سعيه ﷺ غير مفيد مطلقاً بقوله ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ يعني لكن الذين حق لهم كلمة الرحمة وسبق في علم الله أنهم يتقون ربهم، في إيراده بصيغة الماضي أيضاً إشعار بأن من حكم بأنهم يتقون فهم كالذين وقع منهم التقوى ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة في الجنة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ منازل أرفع من الأولى ﴿مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت كل من الفوقانية والتحتانية ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعدهم الله تلك الغرف وعداً مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله لهم غُرَفٌ في معنى الوعد ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأن الخلف نقص، وهو على الله محال، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر

في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغهم غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين»(١) وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في الباب في تفسير سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾(٢).

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ مطراً، الاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وأنَّ مع جملتها قائم مقام المفعولين لألم تر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿ينابيع في الأرض﴾ الظرف متعلق بسلكه على طريقة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾(٣) وينابيع حال من الضمير المنصوب، قال الشعبي كل ماء في الأرض فمن السماء، وجاز أن يكون ينابيع مفعولاً ثانياً لسلكه على التوسع على طريقة أدخلته بيتاً في الدار والينبوع جاء للمنبع والنابع فعلى الأول للنابع وعلى الثاني للمنبع ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ أي أخرج بالماء زَرْعاً مُخْتَلِفاً ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي ييبس فتراه بعد خضرته ونضرته ﴿مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ فتاتاً منكسراً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الأحداث والتغير ﴿لَذِكۡرَىٰ﴾ أي تذكيراً على وجود الصانع القديم القادر الحكيم الذي دبّره وسوّاه وعلى أنه مثل الحياة الدنيا فلا ينبغي أن يغتربها ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إذ لا يتذكر بها غيره ومن لم يتذكر فليس من أولي الألباب بل كالأنعام بل أضل منها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: تائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٠.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ يعني أفاض في قلبه نوراً أدرك به الحق حقاً والباطل باطلاً فأذعن بكل ما جاء به النبيّ ﷺ بلا إرتياب، عبَّر عن تلك الحالة بشرح الصدر لأن الصدر محل القلب والروح القابل للإسلام فإذا كان قلبه قابلاً لأحكام الإسلام صار كظرف إنشرح وتفسح حتى حال فيه المظروف ﴿فَهُوَ﴾ أي ذلك الشخص ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي بصيرة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على ما فهم مما سبق من قوله تعالى: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار لكن الذين اتقوا ربهم﴾ فإنه يفهم منه الفرق بين المؤمن والكافر والموصول مبتدأ وخبره محذوف يدل عليه ما بعده والإنكار راجع إلى مضمون الفاء، كأنه قال لما ثبت الفرق بين المؤمن والكافر فليس مَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسْلاَمِ وترتب عليه كونه على نور من ربه فآمن واهتدى كمن طبع الله على قلبه فقسى. عن ابن مسعودٌ قال: «تلا رسول الله ﷺ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من رَّبّه» قلنا يا رسول الله كيف أنشرح صدره؟ قال إذا دخل النور القلب انشرح صدره وانفسح، قلنا يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله» رواه البغوي والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ الفاء للسببية ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بالقاسية والمعنى من أجل ذكر الله أي إذا ذكر الله عندهم أو تُليت عليهم آياتُه اشتدت قساوتُهم وهو أبلغ من أن يكون عَنْ مكان من لأن القاسية من أجل الشيء أشد تأبياً من القبول من القاسي عنه بسبب آخر وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالإمتناع ذكر شرح الصدر وأسنده إلى الله وقابله بقساوة القلب وأسنده إلى القلب، فهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[1] وقيل بحذف المضاف تقديره من ترك ذكر الله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله على قوم إلانزع منهم الرحمة.

روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: أنزل على النبيّ ﷺ القرآن فتلا عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا، وأخرج ابن جرير عن عون بن عبد الله أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا لو حدثتنا فنزلت ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ تقرير لقوله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب﴾ وما بينهما معترضات وفي الابتداء باسم الله وبناء نَزَّلَ عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه ﴿كِتَـٰبًا﴾ بدل من أحسن

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

الحديث أو حال منه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ صفة لكتاباً يعني يشبه بعضه بعضاً ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفة أخرى جمع مثناة اسم الظرف فإنه ثنى فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والأخبار والأحكام وصف به الكتاب باعتبار تفاصيله فهو كقولك القرآن سور وآيات والإنسان عروق وعظام ولحم وأعصاب أو جعل تميزاً من متشابهاً كقولك رأيتُ رجلاً جسيماً حسناً شمائل، أو جمع مثنية اسم الفاعل فإن آياته تثني على الله لصفاته الكمال ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ خوفاً لما فيه من الوعيد الجملة صفة ثالثة لكتاباً ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لذكر الله بالرحمة وعموم المغفرة، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه والتعدية بإلى لتضمين معنى السكون والإطمئنان وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها يعني إذا ذكر عذاب الله في آيات الوعيد من القرآن يخاف قلوب المؤمنين وتقشعر جلودهم، والاقشعرار إنقباض وتغير في جلد الإنسان عندالخوف وإذا ذكر الله بالرحمة في آيات الوعد من القرآن تلين جلودهم وتسكن قلوبهم، لمَّا وصف الله القرآن بكونه مَثاني ثنى فيه ذكر الوعيد والوعد وصفه بما يتأثر به المؤمنون عند الوعيد والوعد فكان تقدير الكلام يخاف منه قلوب الذين يخشون ربهم وتقشعر جلودهم ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، عن العباس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحاتت عن الشجر اليابسة ورقها**» رواه الطبراني بسند ضعيف ورواه البغوي، وفي رواية للبغوي إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله حرمه الله على النار.

فإن قيل بعض أهل العشق من الصوفية الكرام يغشى عليه عند استماع القرآن فهل هو من الأحوال الحميدة أو القبيحة وقد شنع عليهم الإمام محيي السنة البغوي رحمة الله عليه في تفسيره فقال: قال قتادة هذا يعني ما ذكر من اقشعرار الجلد من خشية الله نعت أولياء الله نعتَهم الله بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان، أخبرنا عن عبد الله بن الزبير قال قلتُ لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن قالت كانوا كما نعتهم الله عز وجل تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم قال فقلتُ لها إن ناساً إذا قرىء عليهم القرآن خرَّ أحدهم مغشيّاً عليه فقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وروى البغوي أن ابن عمر مرَّ على رجُل (من أهل العراق) ساقِط فقال ابن عمر ما بال هذا؟ قالوا إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط فقال ابن عمر إنا لنخشى الله وما نسقط وقال ابن عمر إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ما كان هكذا

صنيع أصحاب رسول الله ﷺ؟ قلتُ وجه طريان هذه الحالة كثرة نزول البركات والتجليات مع ضيق حوصلة الصوفي وضعف استعداده وإنما لم يوجد هذه الحالة في الصحابة رضي الله عنهم مع وفود بركاتهم لأجل سعة حواصلهم وقوة استعداداتهم ببركة صحبة النبيّ ﷺ وأما غير الصحابة من الصوفية فعدم طريان تلك الحالة عليهم إما لقلة نزول البركات وإما لسعة الحوصلة والعجب من الإمام الهمام محيي السنة البغوي رحمه الله كيف أنكر على أصحاب تلك الحالة وشنع عليهم ونسي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾(١) وقد روى هو في تفسير تلك الآية عن النواس بن سمعان رضي الله عنه إذا أراد الله بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفةً أو قال رعدةً شديدة خوفاً من الله فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرئيل الحديث، وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ نحوه بلفظ «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق»(٢) الحديث، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾(٣).

وقول ابن عمر إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم وكذا استعاذة أسماء محمول على أنهما زعما غشي ذلك الرجل تكلفاً ومكراً ولذا نسباه إلى الشيطان وإنما كان إنكار تلك الحالة منهما لعدم طريان الحالة عليهما وعلى أمثالهما بناءً على وسعة الحوصلة وقوة الإستعداد، ويدل على ما قلتُ أنه ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن من أوله إلى إخره فإن رمى بنفسه فهو صادق حيث علَّقَ صدقه على رمي نفسه من ظهر بنية مرتفعة فعُلم منه أنه حمل صرعه على الكذب والتكلف، إعلم أن البشر أقوى إستعداداً وأوسع حوصلة من الملائكة كما يشهد عليه قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٥) الآية، ولأجل ذلك يأتي حالة الغشي على الملائكة كلمَّا سمعوا الوحي دون

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ (٤٧٠١).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

البشر وأما البشر فإذا تم نزوله لا يتغير حاله إلا نادراً وإذا تم عروجه وقصر نزوله يتغير غالباً وإعلم أن الصوفي متى كان في السكر يتغير حاله غالباً عند ذكر المحبوب في الشعر والتغني ولذلك يستحبون السماع لكن تغير الحال عند سماع القرآن أشرف منه حالاً لأن عند استماع القرآن وتلاوته تتنزل البركات الأصلية المتعلقة بالتجليات الذاتية والصفات الحقيقية ولا سبيل إليها لأكثر الصوفية المحتبسين في مقام ولأجل ذلك تراهم يتغير حالهم عند السماع ما لا يتغير عند تلاوة القرآن وأما الذين صعدوا ذروة الأفق الأعلى ثم دنى رب العزة وتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، لا يتغير أحوالهم الإ كما كان يتغير حال أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم تدمع عيونهم، تقشعرُّ جلودهم ثم تلين جلودهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخوف والرجاء أو أحسن الحديث ﴿هدى الله يهدي به من يشاء﴾ هدايته ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخذله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجه من الضلالة.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي﴾ الإستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوي الفريقان فَمَنْ يتَّقي ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ أي يجعله وقاية لنفسه، ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيديه يتَّقي بهما وجهه لأنه أعزُّ أعضائه والكافر حين يلقى في النار تكون يداه مغلولتين إلى عنقه فلا يستطيع أن يتَّقي إلا بوجهه، قال مجاهد يجر على وجهه في النار منكوساً فأول شيء منه تمسه النار وجهه، وقال مقاتل هو أن الكافر يرمى في النار مغلولة يده إلى عنقه وفي عنقه صخرة مثل جبل عظيم من الكبريت فيشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه ويده ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كمن هو آمنٌ من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم وضع الظاهر موضع الضمير

تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بموجب ما يقال وهو ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ أي وباله وجملة ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ حال بتقدير قل من فاعل يتقون وجاز أن يكون معطوفاً على مفهوم ما سبق أعني عذب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قبل كفار مكة كذبوا الرسل في إتيان العذاب ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يخطر ببالهم إتيان الشرُّ منها ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ أي الذل ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمسخ والخسف والقتل وتسليط الريح والصيحة والرمي بالحجارة والغرق وغير ذلك ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان أهل مكة من أهل العلم والنظرة اعتبروا بمن قبلهم أو المعنى لو كان المكذّبون يعلمون وبال التكذيب ما كذبوا.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ أي لأجل إنتفاعهم وتبصرهم ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون به ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على المدح أو الحال من هذا إن قلنا أن المجرور مفعول به أو بتقدير في تنزيل هذا القرآن حتى يكون مفعولاً لتنزيل المقدر والإعتماد فيها على الصفة كقوله جاء في زيد رجلاً صالحاً ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ لا اختلال فيه بوجه ما فهو أبلغ من المستقيم واختص بالمعاني، قال ابن عباس غير مختلف، وقال مجاهد غير ذي لبس يعني لا ريب فيه، وقال السدي غير مخلوق، ويروى ذلك عن مالك بن أنس قال البغوي وحكي عن سفيان بن عيينه عن سبعين من التابعين أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق يعنون أنه صفة من صفات الله تعالى ليس عين ذاته تعالى فيكون خالقاً ولا غيره منفكاً عنه فيكون حادثاً مخلوقاً، وهذا يدل على أن الكلام اللفظي قديم صفة من صفات الله تعالى إذ الكلام النفسي الذي يدل عليه الكلام اللفظي لا يوصف بكونه عربيّاً وأما تعاقب حروف الكلام اللفظي الدال على حدوثه فإنما لضيق المحل وحدوثه وأما الكلام القائم بذاته فتوهم التعاقب فيه قياس للغائب على الشاهد كما يتوهم النافون للرؤية إشتراط الجهة والمسافة وغير ذلك في رؤية البصر ليس كمثله شيء في ذاته ولا في اتصافه بصفاته ولا في شيء من صفاته وله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي علة أخرى مرتبة على الأولى أو بدل أو بيان للأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك والموحد ﴿رَّجُلًا﴾ بدل من مثل بتقدير المضاف أي مثل رجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي مختلفون صفة لشركاء وهو فاعل للظرف المستقر أو مبتدأ خبره الظرف والجملة صفة لرجلاً يُعني مثل الشرك على زعمه حيث يدعى آلهةً متعددةً مثل

عبد مشترك في جماعة مختلفين يتجاذبونه ويتعاودونه في مهامهم المختلفة فهو في تحير وتوزع قلب ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ أي خالصاً ومسلماً ﴿لِرَجُلٍ﴾ لا منازع له فيه، قرأ ابن كثير وأبو عمر وسالماً على وزن فاعلاً والباقون من غير ألف على وزن حسن يعني مثل المؤمن الموحد مثل عبد لواحد لا شريك فيه وليس لغيره إليه سبيل ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي ذانك العبدان ﴿مَثَلًا﴾ أي صفةً وحالاً ونصبه على التميز ولذلك وحده فالإستفهام للإنكار والتقرير يعني حمل المخاطب على الإقرار بأنهما لا يستويان حالاً، فإن الموحد حسن حالاً من المشرك وجملة هل يستويان تقديره قال الله هل يستويان مثلاً بيان لمقصود قوله: ضرب الله مثلاً الحمد لله يعني الحمد كله لله لا يشاركه فيه على الحقيقة أحدٌ غيره لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيشركون به غيره من فرط جهلهم، وقيل تقدير الكلام قل الحمد لله على نعمة التوحيد والإختصاص بالمولى الواحد الحميد وبل حينئذ ليست للإضراب بل هي ابتدائية حكاية عن حال الجاهلين.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت أبرز بلفظ الصفة المشبهة الدالَّة على الثبوت حالاً لكونه متيقن الوقوع ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي كفار مكة أو جميع الناس بصدد الموت فلا شماتة بالموت، قال المحلي نزلت لمَّا استبطؤا موت النبيّ ﷺ، قال الفراء والكسائي الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت والميُت بالتخفيف من فارقه الروح ولذلك لم يخفف هاهنا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ يعني أنت وكفار مكة، أو الناس أجمعون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم وتقول: ﴿يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن محجورا﴾[1] وإنهم كذبوني وكنتُ على الحق في التوحيد وكانوا على الباطل في التشريك واجتهدتُ في الإرشاد والتبليغ ولجوا في العناد والتكذيب ويعتذرون بالأباطيل مثل قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2] وقولهم ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[3] ﴿إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾[4] ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[5] ويختصم الناس بعضهم مع بعض فأول ما يقضى فيه الدماء أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**أول ما يقضى بين الناس**

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

يوم القيامة بالدماء»[١] وأخرج الترمذي وحسنه وابن ماجه والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «**يأتي المقتول متعلق رأسه بإحدى يديه قاتله باليد الأخرى وتشخب أوداجه دماً حتى يأتي العرش فيقول المقتول لرب العالمين هذا قتلني فيقول الله للقاتل تعست ويذهب به إلى النار**»[٢] وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «**يجيىء المقتول آخذاً قاتله وأوداجه تشخب دماً فيقول رب سل هذا فلم قتلني فيقول قتلتُه ليكون العزة لفلان قال هي لله تبارك وتعالى**» وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود فذكر أنه يؤتى بالقاتل والمقتول فيقفان بين يدي الرحمن فيقال له لم قتلته فإن كان قتله لله قال قتلته ليكون العزة لله فيقال فإنها لله فإن كان قتله لخلقه من خلق الله يقول قتلتُه ليكون العزة لفلان فيقال فإنها ليست له فيقتل يومئذ كل خلق الله قتله ظالم غير أنه يذاق الموت عدة الأيام التي أذاقها الآخر في الدنيا، وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير عن أبيه لما نزلت ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير يا رسول الله أيكرر علينا ما بيننا في الدنيا مع خواص للذنوب؟ قال نعم ليكررن عليكم ذلك حتى يصل إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير والله إن الأمر لشديد[٣].

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أول من يختصم يوم القيامة الرجل والمرأة والله ما يتكلم لسانه ولكن يداها ورجلاها يشهدن عليها بما كانت تعيب لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل وخدمه مثل ذلك ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثمة دوانيق ولا قراريط ولكن حسنات هذا يدفع إلى هذا الذي ظُلم وسيئات هذا الذي ظلمه يوضع عليه ثم يؤُتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار**» وأخرج أحمد بسند حسن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: «**أول خصمين يوم القيامة الجاران**» وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه فليحلله منها في الدنيا فإنه ليس ثمة دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن حسنات أخذ من سيئات

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة (٦٥٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة، باب: المجازاة بالدماء في الآخرة وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة (١٦٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء (٣٠٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٣٦).

صاحبه فتحمل عليه»[١] وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيقتص ويقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فيطرح عليه ثم طرح في النار»[٢].

قلتُ: أراد بالحسنات التي يأخذها المظلوم من الظالم أجر حسناته ما سوى الإيمان إذ المظالم وغيرها من السيئات ما عدا الكفر جزاؤه متناهٍ على أصول أهل السنة والجماعة فإن مرتكب الكبيرة عندهم لا يخلد في النار، والإيمان جزاؤه الخلود في الجنة وهو غير متناهٍ فلا يأتي ما هو فنيت على ما ليس بمتناهٍ، فالحاصل أنه إذا فنيت حسنات الظالم قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا وبقي عنده الإيمان المجرد أخذ من خطايا المظلومين ما عدا الكفر لكونه غير متناه الجزاء فلا يوازن ما هو متناه الجزاء فيطرح على الظالم ثم طرح في النار إن لم يعف عنه حتى إذا انتهت عقوبة تلك الخطايا أدخل الجنة بإيمانه ويخلد فيها وقال البيهقي مثل ما قلتُ، وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تعاد للشاة الجماء من الشاة القرناء»**[٣] وفيه حتى للجماء من القرناء وللذرة من الذرة، وفي الباب أحاديث كثيرة لم أذكرها، وروى البيهقي عن الزبير بن العوام قال لمَّا نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ قلنا كيف نختصم وديننا وكتابنا واحد حتى رأيتُ بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفتُ أنه نزلت فينا، وعن ابن عمر نحوه وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال كنا نقول ربنا واحد ونبينا واحد وكتابنا واحد فما هذه الخصومة فلمّا كان يوم الصفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا، وعن إبراهيم قال لما نزلت ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قالوا كيف نختصم ونحن إخوان فلمَّا قتل عثمان قالوا هذا خصومتنا، ومقتضى هذه الأقوال أنهم كانوا يزعمون أن الاختصام في الدماء لا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة (٦٥٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤١٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٢).

يكون إلا بين المؤمنين والكافرين فلمّا ظهر البغي والفساد بين المسلمين اتضح لهم أنه يكون بين المؤمنين أيضاً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الفاء للسببية فإن إختصام الكفار مع النبيّ ﷺ سبب لكونهم أظلم الناس، والاستفهام للإنكار يعني لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعم أن له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي بما جاء به النبيّ ﷺ من القرآن وغيره ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ من غير لوقف وتفكر في أمره بل مع الشواهد والأدلة القاطعة على صدقه ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي منزلاً ومقاماً ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إستفهام للتقرير فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مع ما يتلوه تسلية للنبيّ ﷺ على تكذيب القوم حتى لا تهتم في الإنتقام منهم فإن جهنم يكفيهم مجازاةً لأعمالهم.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ﴾ أراد به الجنس ليتناول الرسل والمؤمنين يدل عليه قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع ويؤيده قراءة ابن مسعود الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به، قال ابن عباس يعني رسول الله ﷺ جاء بلا إله إلا الله وصدَّق به أيضاً أي بلَّغه إلى الخلق وعلى هذا جمعية الخبر بناءً على أن المراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] وقال السدي الَّذِيُ جاء بالصدق جبرئيل وصدق به محمد لله تلقاه بالقبول، وقال الكلبي وأبو العالية الَّذِي جاءَ بالصّدقِ رسول الله ﷺ وصَدَّقَ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكذا ذكر الزجاج قول علي رضي الله عنه وكذا روى عن أبي هريرة وقال عطاء وَالَّذِي جاء بالصّدُقِ الأنبياء وَصَدَّقَ به الأتباع، قال صاحب المدارك والبيضاوي والوجه في العربية أن يكون جاء صدَّق لفاعل واحد لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وذا غير جائز أو إضمار الفاعل من

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤٩.

غير تقدم ذكر بعيد، قلتُ وكيف يحكم بعدم جواز حذف الموصول وقد روى عن علماء التفسير من الكلبي وأبي العالية وقتادة ومقاتل ما ذكرنا وورد في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه فمن يهجو رسول الله منهم ويمدحه وينصره سواء فإن التقدير أمن يهجو ومن يمدحه سواء وقال صاحب البحر المواج يمكن أن يقال أنه من باب اللف والنشر الإجمالي على طريقة ﴿قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾[١] ويقال تقديره والفريق الذي جاء بالصدق وصدَّق به وهو شامل للنبيّ ﷺ وأبي بكر وضمير جاء بالصدق راجع إلى الموصول نظراً إلى النبيّ ﷺ وضمير صدق به راجع إليع نظراً إلى أبي بكر ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ في الجنة ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ يسترها عليهم بالمغفرة خص الأسوأ بالذكر للمبالغة فإنه كفَّر الأسوأ فغيره أولى فيه، ولمذهب المعتزلة حيث يدل على عفو الكبيرة الإشعار بأنهم لأستعظامهم الذنوب يحسبون كل سيئة عملوها أسوء الذنوب ويقال أفعل هاهنا للتفضيل مطلقاً لا على ما أضيف إليه ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي يعطيهم ثوابهم أي ثواب أعمالهم ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني يعدلهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم أو يقال أحسن هاهنا للزيادة المطلقة، قال مقاتل يجزيهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾ إستفهام للنفي مبالغة في الإثبات يعني الله كان ﴿عَبْدَهُۥ﴾ محمداً ﷺ وقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي عباده يعني أنبياءه أو محمداً ﷺ وأصحابه ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ عطف على معنى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾.

تقديره الله كان عبده ويخوفونك، وجاز أن يكون حالاً بتقدير وهم يُخوفُونكَ ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال البغوي وذلك أنهم خوَّفوا النبيّ ﷺ معرة الأوثان وقالوا لتكفنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنَّك منهم خبل أو جنون وكذا أخرج عبد الرزاق ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا يضر ولا ينفع ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهم إلى الرشاد ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لاراد لفضله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ الإستفهام للإنكار يعني الله غالب ينفع ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ منتقم من أعدائه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ
مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ
فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾.

﴿وَلَئِن﴾ سألتهم يعني كفار مكة ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية وبداهة عدم صلاح الأوثان لها وكان أهل مكة يعترفون بذلك ﴿قُلْ﴾ يا محمد بعد اعترافهم لذلك ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ يعني أخبروني، بعدما اعترفتم بأن الخالق هو الله لا غير ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ﴾ قرأ حمزة بسكون الياء والباقون بفتحها ﴿ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ﴾ يعني أوثانكم ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ عني ﴿أَوْ﴾ إن أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾ عني، قرأ أبو عمرو كاشفات ممسكات بالتنوين فيهما ونصب ضرَّه ورحمته على المفعولية والباقون بالإضافة إستفهام إنكار يعني يلزمهم باعترافهم السابق إنكار كون الأصنام قادرة على كشف ضر أو إمساك برحمة، قال مقاتل فسألهم النبيّ ﷺ عن ذلك فسكتوا فقال الله تعالى لرسوله ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ يكفيني في إصابة الخير ودفع الضرّ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي المؤمنون لعلمهم بأنه نافع ولا ضارَّ إلا هو، عبَّر المؤمنين بالمتوكلين لأن شأنهم التوكل على الله ﴿قل ياقوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي على حالكم اسم للمكان أستعير هنا للحال كما أن حيث وهُنا اسمان للزمان وقد يستعار أحدهما للمكان ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي على مكانتي فحذف للإختصار والمبالغة في الوعيد والإشعار بأن حاله ﷺ لا يقف على حد بل الله سبحانه سيزيده على مر الدهور قوةً ونصرةً ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين فقال ﴿فسوق تعلمون﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه دليل على غلبته وقد أخزاهم يوم بدر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأن يهتدوا به إلى مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً به هذه الجملة متصلة بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وما بينهما معترضات ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالكتاب ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ينتفع نفسه به ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ طريق مصالح ﴿فإنما يضل عليها﴾ لا يتجاوز عنها وبال ضلاله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي ما وكلت عليهم لتجبرهم على الإهتداء به إنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت فلا يضرك ضلالهم.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي يقبضها عن الأبدان إما بأن يقطع تعلقها عنها بالكلية فلا يمكن لها التصرف فيما ظاهراً ولا باطناً وذلك حين موتها ونزعها عنها وإما بأن يقبضها ظاهراً بعض القبض بأن يسلب عنها الحسن والحركة الإرادية وذلك بأن يجعله الله تعالى متوجهاً إلى مطالعة عالم المثال عاطلاً عن عالم الشهادة ليستريح وذلك في المنام، فالتوفي بالمعنى الأول حقيقة بالثاني مجاز فيحمل الكلام هاهنا إما على عموم المجاز وهو القبض مطلقاً إما ظاهراً فقط أو ظاهراً أو باطناً وإما على تقدير الفعل كأنه قال والتي لم تمت يقبضها في منامها أي يقبض حسها وحركتها وما قيل إن للإنسان نفساً وروحاً فعند النوم تخرج النفس ويبقى الروح أريد بالنفس قوتها التي بها العقل والتميز يعني يسلب عنه تلك القوة ويبقى الروح التي بها الحياة والنفس، قال البغوي عن علي كرم الله وجهه قال يخرج الروح عند نومه ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة، إن صح هذا الأثر فالمعنى عندي أن الروح يتوجه إلى مطالعة عالم المثال خارج البدن في عالم الملكوت وذلك خروجه عند نومه ويبقى شعاعه يعني تعلقه بالجسد كما كان فبذلك أي بخروجه يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عاد الروح أي توجه إلى جسده بأسرع من لحظة ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن حتى ينفخ نفخة البعث، قرأ حمزة والكسائي قضِيَ بضم القاف وكسر الضاد على البناء للمفعول والموت بالرفع والباقون على البناء للفاعل مسنداً إلى المستكن الراجع إلى الله والمَوْتُ بالنصب على المفعولية ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ أي النفس النائمة إلى الإفاقة والإحساس ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي الوقت المضروب لموته، في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: كان النبيّ ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول «اللّهم بك أموت وأحيى وإذا استيقظ قال

الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[١] عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذ أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم يقول باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[٢] وفي رواية ثم ليضطجع على شقه الأيمن ثم ليقل، وفي رواية فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات وإن أمسكت نفسي فأغفر لها ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ﴾ التوفي والإمساك والإرسال ﴿لَآيَـٰتٍ﴾ أي دلالات على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلي عند الموت وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث، وهذه الآية في مقام التعليل لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أم ابتدائية بمعنى الهمزة للإنكار أو متصلة معطوفة على جملة محذوفة تقديره أجعلوا لله شركاء أم اتخذوا من دونه شفعاء أو منقطعة بمعنى بل للإضراب، عن مضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ والهمزة للإنكار ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للإنكار والتقدير أيشفعون لكم ولو كانوا على هذه الصفة التي تشاهدونهم عليها جمادات لا تعقل ولا تقدر، ولما كان هاهنا مظنة أن يقولوا إنا نعبد أشخاصاً مقربين لله تعالى وتلك الأصنام تماثيلهم قال الله تعالى ردَّ لهذا القول وتعليلاً لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يملك أحد أن يتكلم في أمر إلا بإذنه ورضائه فهو مالك الشفاعة كلها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيكون له الملك أيضاً حينئذٍ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ﴾ أي نفرت وانقبضت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثان ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يعرجون، قال البغوي قال مجاهد ومقاتل وذلك حين قرأ النبيّ ﷺ والنجم وألقى الشيطان في أمنيته تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى ففرح به الكفار، وكذا أخرج ابن المنذر عن مجاهد، قال البيضاوي لقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فإن الإستبشار أن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا أصبح (٦٣٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: التعوذ والقراءة عند النوم (٦٣١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٢).

يمتلىء قلبه سروراً حتى ينبسط له بشرة وجهه والاشمئزاز أن يمتلىء غمّاً وغضباً حتى ينقبض أديم وجهه والعامل في إذا معنى المفاجأة ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أمر الله سبحانه ورسوله بالإلتجاء إلى الله بالدعاء لمَّا تحير في أمرهم وعجز في عنادهم وشدة شكيمتهم فإنه القادر على الأشياء كلها العالم بالأحوال جميعها ما غاب عنَّا وما شاهدناه ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ فتنصر المحق وتخذل المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ عن أبي سلمة قال سألتُ عائشة بما كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة من الليل قالت: كان يقول «اللّٰهم رب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل فَاطِرَ السَّماوات والأرض عالم الغَيْبُ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيُ مَاكَانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وعيد شديد وإقناط بليغ لهم من الخلاص ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ في مراتب التعذيب فيه مبالغة بليغة في مقابلة قوله تعالى للمؤمنين ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢] قال مقاتل ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة، وجاز أن يكون المعنى أنهم يحتسبون أن الأوثان يشفع لهم أو لا يكون لهم بعث ونشور أو يكونوا في الآخرة أحسن حالاً من المؤمنين فيظهر خلاف ذلك، وقال السدي ظنوا أنها حسنات فبدت لهم أنها سيئات يعني كانوا يزعمون التقرب إلى الله بعبادة الأوثان فلمَّا عوقبوا عليها (بَدَا لَهُمْ مّنَ الله مَا لَمْ يكونوا يَحْتَسِبُوْنَ)

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠).
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧٠.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي بدأ مساوىء أعمالهم من الشرك والظلم إلى أولياء الله حين يعرض عليهم صحائفهم ﴿وَحَاقَ﴾ أي أحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ ما موصولة والمراد به العذاب أو مصدرية والمعنى حاق بهم جزاء إستهزائهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ الكافر وقيل إخبار عن الجنس بما يغلب فيه ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعَانَا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بالفاء لبيان تناقضهم وتعكيسهم في السبب يعني يشمأزُّون عند ذكر الله وحده ويستبشرون عند ذكر الأصنام فإذا مسهم ضر دعوا مَن اشمأزوا بذكره دون مَن استبشروا به وما بنيهما إعتراض مؤكد لإنكار ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ تفضلاً فإن التخويل مختص به ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجوه كسبه أو بأني أعطيتُه لما لي من استحقاقه أو من الله بي وإستيجابي والضمير لما إن جعلتَ موصولة وإلا فلنعمة والتذكير لأن المراد شيء منها ﴿بَلْ هِيَ﴾ أي النعمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ إمتحان من الله أيشكر أم يكفر أو إستدراج لهم ليكون سبباً لتعذيبهم، وقيل بل الكلمة التي قالها فتنة له موجب للتعذيب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك قال البيضاوي: هذا دليل على أن المراد بالإنسان الجنس، قلتُ: وإن كان المراد بالإنسان الكافر فالمراد بأكثرهم كلهم أو يقال أن بعضهم كانوا يعتقدون أنهم على الباطل كأحبار اليهود وما كانوا ليؤمنوا تعنتاً وعناداً ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أي تلك الكلمة ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال مقاتل يعني قارون حيث قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[1] وصيغة الجمع بناءً على شموله لمن رضي بقوله ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (مِنَ الكُنوزِ مَآ إنَّ مَفَاتِحَهُ لتنوء بِالْعُصْبَةِ أُولي الْقُوَّةِ)[2] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي جزاؤها سمى جزاء السيئة سيئة نظراً للمقابلة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي كفروا ﴿مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي من كفار مكة ﴿سيصيبهم سيآت ما كسبوا﴾ كما أصاب أولئك فأصابهم بأن قحطوا سبع سنين وقتل ببدر صناديدهم وأدخلوا النار إلا من تاب وآمن منهم ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين ﴿أولم يعلموا أن يبسط الرزق لمن يشاء﴾ وامتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء إبتلاءً، الإستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أيقولون هذا القول يعني إنَّما أُوتِيتُه على عِلْم ولم يعلموا أن توسعة الرزق وتضيقه من الله تعالى قد يوسع الرزق لمن لا يعلم وجوه الكَسب، وليس له استحقاق الكرامة أصلاً وقد يضيقه على عكس ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادث كلها من الله تعالى والأسباب إنما هي على مجرى العادة في الظاهر.

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨. (٢) سورة القصص، الآية: ٧٦.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

روى الشيخان في الصحيحين «أن ناساً من أهل الشرك قَتَلُوا فأكثروا وزَنُوا فأكثروا ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا إن الذي تقول وتدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارة فنزلت ما في سورة الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ونزلت ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾[1] الآية. قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بسكون الياء وحذفها وصلاً لاجتماع الساكنين والباقون بفتحها، وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس أنها نزلت في مشركي مكة كذا ذكر البغوي قول عطاء عن ابن عباس وكذا أخرج الطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف أنه بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنتَ تزعم أنه من قتل أو أشرك أو زنى يلقَ أثاماً يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وأنا قد فعلتُ ذٰلك كله فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فقال وحشي هذا شرط شديد لعلي لا أقدر على ذٰلك فهل غير ذٰلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فقال وحشي أراني بعد في شبهة فلا أدري يغفر لي أمره فأنزل الله هذه الآية، زاد البغوي فقال المسلمون هذا له خاصةً أو للمسلمين عامةً؟ قال رسول الله ﷺ: «**بل**

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (٤٨١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢٢).

للمسلمين عامة» وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال كنا نقول ما للمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية، وذكر البغوي أنه روي عن ابن عمر أنه قال نزلت هذه الآية في عيّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكتبها عمر بيده، ثم بعث إلى عيّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا بالجناية عليها بالكفر والمعاصي، قال البغوي روي عن ابن عمر أنه أراد بالإسراف الكبائر ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تيئسوا من مغفرته وتفضله إذا آمنتم وتبتم عن الشرك وهذا القيد ثابت بالإجماع وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[١] وبالروايات الواردة في سبب نزول الآية فالمعنى لا تتركوا الإيمان إياساً من رحمة الله بناءً على ما أسرفتم من قبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ صغيرها وكبيرها إذا تبتم عن الشرك وآمنتم بالله وحده «فإن الإسلام يهدم ما كان قبله»[٢] رواه مسلم عن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ، ومورد هذه الآية وإن كان خاصاً فإنها نزلت في من أرتكب الكبائر في حالة الشرك ثم أسلم لكن لفظها عام يدل على أن العبد إذا آمَنَ (كما يدل عليه إضافته تعالى العبد إلى نفسه بناءً على عرف القرآن وإن كان ارتكب الكبائر بعد الإسلام) ليرجو أن يغفر الله له إن شاء وإن لم يتب كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٣] والتعليل في هذه الآية بقوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغة المبالغة وإفادة الحضر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في عبادي من الدلالة على الزلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعاً ووضع اسم الله موضع الضمير للدلالة على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجمع والأحاديث الواردة في هذا الباب وإجماع الأمة.

روى مقاتل بن حبان عن نافع عن ابن عمر قال كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[١] قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا الكبائر والفواحش، قال فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ فكففنا عن القولين فكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له، وروي عن ابن مسعود أنه دخل المسجد قاصٌّ يقصُّ وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وعن أسماء بنت زيد قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي»[٢] رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث حسن غريبُ في شرح السنة يقول بدل يقرأ، وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعاً وتسعين إنساناً ثم خرج فأتى راهباً فسأله فقال ليس لك توبة قال فقتله وجعل يسأل فقال له رجل رأيت قريةً كذا وكذا فأدركه الموت فَنَاء بصدده نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوصى إلى هذه أن تباعدي فقال قيسوا ما بينهما فوجدوا إلى هذه أقرب بشبر فغفر له**»[٣] متفق عليه، وروى مسلم بن الحجاج هذا الحديث وفيه: «فدلَّ على راهب فأتى فقال أنه قتل تسعاً وتسعين نفساً فهل لي توبة فقال لا فقتله وكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفساً فهل له توبة فقال لا فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم فلا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختَصَمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأتاهم مَلك في صورة فجعلوه حكماً فقال قيسوا بين الأرضين فإلى أيتهما أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**كان رجل لم يعمل خيراً قط فأوصى لأهله إذا مات فحرقوه ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، قال فلمّا مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما**

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٣٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦).

فيه ثم قال له لم فعلتَ هذا؟ قال من خشيتك يا ربِ وأنتَ أعلم فغفر له»[١] متفق عليه.

وروى البغوي عن ضمضم بن حوش قال دخلتُ مسجدَ المدينة فناداني شيخ فقال يا يماني (تعال ولا أعرفه) فقال لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة فقلتُ من أنتَ يرحمك الله قال أبو هريرة قال فقلت وإن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض لأهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمه قال فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر كان مذنباً فجعل يقول له إقصر عما أنت فيه، قال فيقول خلّني وربي قال حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال اقصر فقال خلني وربي أبعثت عليَّ رقيباً فقال والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الله الجنة أبداً، قال فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده قال للمذنب أدخل الجنة برحمتي وقال للآخر أتستطيع أن تحظر على عبادي رحمتي فقال لا يا رب فقال إذهبوا به إلى النار، قال أبو هريرة والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» وروى أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين**» ذكر الحديث إلى آخره بعينه، وعن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: «**لا أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية**» رواه أحمد بسند حسن وابن جرير والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وفيه «فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فنكس ساعة ثم قال والله لا يغفر الله لفلان وإن الله قال من الذي يتألى عليَّ أني لا أغفر لفلان فإني قد غفرتُ لفلان وأحبطتُّ عملك» أو كما قال[٢] رواه مسلم، وعن ابن عباس في قوله تعالى: (إلا اللمم) قال رسول الله ﷺ «**إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك لا ألماً**»[٣] رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب.

وفي حديث قدسي طويل عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ «أفعل ما أريد عطائي كلام وعذابي كلام إنما أمري شيء إذا أردتُّه أن أقول له كن فيكون»[٤] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزَّ وجلَّ ليرفع الدرجة للعبد**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٥٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٢٦٢١).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: من سورة والنجم (٣٢٨٤).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٥).

الصالح في الجنة فيقول يا رب أنّى لي هذا فيقول باستغفار ولدك لك» رواه أحمد، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**الميت في القبر كالغريق المتغوث ينتظر دعوة يلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق فإذا ألحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإن هدية الأحياء إلى الأموات الإستغفار لهم» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغفر لعبده ما لم يقع الحجاب، قالوا يا رسول الله وما الحجاب؟ قال أن تموت النفس وهي مشركة»** رواه أحمد والبيهقي في كتاب البعث والنشور، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «**من لقي الله لا يعدل به شيئاً في الدنيا ثم كان عليه مثل جبال ذنوب غفر الله له**» رواه البيهقي في كتاب البعث والنشور، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها يعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**»[1] متفق عليه، وروى مسلم عن سلمان نحوه وفي آخره «فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة» وعن عمر بن الخطاب قال قدم على النبيّ ﷺ «سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبيّ ﷺ أترون هذه طارحة ولدها في النار فقلناه وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2] متفق عليه، وعن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ ﷺ «يقص على المنبر وهو يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ قلتُ وإن زنى وإن سرقَ يا رسول الله فقال الثانية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلتُ الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله قال وإن رغم أنف أبي الدرداء» رواه أحمد.

وعن عامر الرام قال بينما نحن عنده (يعني النبيّ ﷺ) إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله مررتُ بغيضة شجر فسمعتُ فيها أصوات فراخ طائر فأخذتُهن فوضعهُن في كسائي فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي فكشفتُ لها عنهن فوقعت عليهن فلففتهن بكسائي فهن أولاء معي، قال ضعهن فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها فوالذي بعثني بالحق لله**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الرجاء مع الخوف (٦٤٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤).

أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها إرجع بهن فضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن فرجع بهن»(١) رواه أبو داود، وعن عبد الله بن عمر قال كنا مع النبيّ ﷺ في بعض غزواته فمرَّ بقوم فقال من القوم؟ قالوا نحن المسلمون وامرأة تخضب بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت به فأتت النبيّ ﷺ فقالت أنتَ رسول الله؟ قال نعم، قالت بأبي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين؟ قال بلىٰ، قالت أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها؟ قال بلى، قالت إن الأم لا تلقي ولدها في النار فأكب رسول الله ﷺ يبكي ثم رفع رأسه إليها فقال: «**إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد والمتمرد الذي يتمرد على الله وإلى أن يقول لا إله إلا الله**»(٢) رواه ابن ماجه، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلتُ وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلتُ وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلتُ وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر**»(٣) متفق عليه، وفي الباب أحاديث كثيرة تدل على أن مآل المؤمن إلى الجنة لا كما قالت المعتزلة إن مرتكب الكبيرة إن لم يتب يخلد في النار.

وأما إستدلال المرجئة بهذه الأحاديث على أن المعاصي صغائر كانت أو كبائر لا يضر مع الإيمان كما أن الطاعة لا ينفع مع الكفر فباطل مستلزم لإنكار الآيات والأحاديث الواردة في المناهي وكون الصغائر والكبائر مفضية إلى التعذيب والسخط من الله تعالى إلا أن يتداركه المغفرة، فالمذهب الحق قال أهل السنة والجماعة رضي الله عنهم أن الطاعة لا تنفع مع الكفر لأن الطاعة لا يكون طاعةً إلا إذا كانت خالصةً لله وإلا فهي معصية والإيمان شرط للطاعة كالوضوء للصلاة وأما المعصية فهي وإن كانت في نفسها مقتضية للتعذيب لكنها في مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له وإن شاء عذبه فإن غفر له غفر له إما بالتوبة وإما بشفاعة من النبيّ ﷺ أومن أحد من أتباعه وإما بمحض فضل من الله تعالى وإن عذبه لا يكون تعذيبه مؤبداً إن كان المرء مؤمناً لأن الله تعالى وعد بالثواب على كل حسنة قال الله تعالى: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾(٤) والإيمان رأس الحسنات

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٧)، وفيه إسماعيل بن يَحْيَى متفق على تضعيفه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض (٥٨٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار (٩٤).

(٤) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

والخلف في الوعد محال ومحل الثواب الجنة لا محالة لكن المؤمن يرى ذنبه كأنه قاعد تحت جبل والفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فقال به هكذا بيده فذبه عنه[1]، رواه البخاري عن النبيّ ﷺ.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة من الشرك وأسلموا أي انقادوا ﴿لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في القبر أو بعد البعث فحينئذ لا ينفع الإيمان منكم كما يدل عليه قوله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ عطف على جملة مستأنفة، وتقديره تعذبون ثم لا تنصرون ﴿وأتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني القرآن فإنه أحسن من كل كلام أو المراد به العزائم دون الرخص ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ﴿أَن تَقُولَ﴾ أي كراهة أن تقول أو لئلا تقول ﴿نَفْسٌ﴾ تنكير نفس لأن القائل به بعض الأنفس أو للتكثير وهو منصوب على العلية لقوله أنيبوا، وقال المبرد تقديره بادروا واحذروا أن تقول نفس ﴿ياحسرتى﴾الحسرة الاغتمام وأصله يا حسرتي انقلبت الياء ألفاً في الإستغاثة وربما ألحقوا به ياء المتكلم بعد ألف الاستغاثة كذلك قرأ أبو جعفر يا حسرتاي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ مامصدرية أي على تفريطي وتقصيري ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، قال الحسن أي قصرتُ في طاعة الله وقال مجاهد في أمر الله وقال سعيد بن جبير في حق الله وقيل في ذات الله على تقدير مضاف أي في طاعته أو في قربه وقيل معناه قصرت في الجانب الذي يردُّني إلى رضاء الله ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أن مخففة من الثقيلة واسمه ضمير الشأن واللام فارقة والجملة في محل النصب على الحال كأنَّه قال وأنا كنتُ ساخراً مستهزءاً بدين الله وكتابه ورسوله والمؤمنين ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ عياناً ﴿لَوْ﴾ للتمني ﴿أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ﴾ منصوب بعد الفاء في جواب التمني ﴿من المحسنين﴾ معناه أتمنى كون بي رجعةً إلى الدنيا فكوني من المحسنين في العقيدة والأعمال والعطف بأو للدلالة على أنه لا يخلو عن مثل هذه الأقوال تحيراً أو تعللاً بما لا طائل تحته.

﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ رد من الله عليه لما تضمنه قوله: ﴿أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ فإن معناه لم يهدني الله فإن كان المراد بها إراءة الطريق فالمعنى بلى قد هديتُكَ حيث أرسلتُ إليك رسولي وجاءتك كتابي فكذبتَ بها وكان قوله لَوْ أَنَّ الله هداني إنكاراً لتبليغ الرسل كما جاء في الحديث «يُدعى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التوبة (٥٩٤٩).

نوح يوم القيامة فيقال له هل بلَّغتَ فيقول نعم فيدعى أمته فيقال لهم هل بلَّغكم فيقولون لا ما جاءنا من بشير ولا نذير وقد ذكرنا الحديث في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾[٢] وإن كان المراد بها خلق الهداية والإيصال إلى المطلوب فقولهم مبني على التشبث بالجبر وإنكار قدرتهم على كسب الإيمان والطاعة فمعنى الآية بلى قد خلقتُ فيك القدرة التي يترتب عليها العذاب والثواب فكذَّبتَ باختيارك لما جاءتك آياتي وهذالا ينافي تأثير قدرة الله في أفعال العباد كما هو مذهب أهل السنة والجماعة فإن قيل فما وجه الفصل بين الرد والمردود، قلنا وجه ذلك أن تقديم هذه الآية مفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وتذكير الخطاب نظراً إلى المعنى ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتخاذ الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ الجملة حال من مفعول ترى لأنه من رؤية البصر ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والجملة تقرير لكونهم يرون ذلك ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ من جهنم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ من الشرك ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بمفازاتهم بالألف على الجمع والباقون بغير ألف على الإفراد أي بفلاحهم وتفسيرها بالنجاة تخصيص بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق للمسبب على السبب والباء للسببية صلة لينجي أو لقوله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حال أو استئناف لبيان المفازة.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الخير والشر والإيمان والكفر هذه الجملة متصلة بقوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[٣] وما بينهما معترضات ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه وهو القائم بحفظها الجملة عطف أو حال ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ جمع مقلاد أو مقليد كمفتاح ومفاتيح أو منديل ومناديل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني له مفاتيح خزائن السماوات والأرض بيده ملكوتها لا يتمكن من التصرف فيها غيره، قال قتادة ومقاتل مفاتيح السماوات والأرض بالرزق والرحمة وقال الكلبي خزائن المطر وخزائن النبات، وعن عثمان رضي الله عنه «أنه سأل النبيّ ﷺ عن المقاليد قال تفسيرها لا إله إلا هو والله

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على شيء قدير» أخرجه أبو يعلى في مسنده وابن أبي حاتم في تفسيره والعقيلي في الضعفاء والطبراني في الدعاء والبيهقي في الأسماء والصفات من حديث ابن عمر، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، قلتُ: لعل المعنى أن صفات الله تعالى المذكورة في هذه الكلمات تفسير للمقاليد يعني من كان متصفاً بتلك الصفات فهو مالك خزائن السماوات والأرض بيده ملكوتها والتصرف ومن يعتقد بها ويذكرها يتأهل أن يفتح له الخزائن إما عاجلاً أو آجلاً ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ أي بالقرآن وبكلمات تمجيده وتوحيده أو بدلائل قدرته واستبداده بأمر السماوات والأرض ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ حصر الخسائر بهم لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب فإن فات عنهم شيء من حظوظ الدنيا فهم مستبدلوها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت من الحظوظ في الآخرة وأما الكفار فإن كان لهم نصيب من خزائن الرزق والمطر في الدنيا فلا نصيب لهم في الشكر فلا نصيب لهم في خزائن الرحمة والحظوظ العاجلة تنقلب عليهم وبالاً واستدراجاً، وجاز أن يكون هه الآية متصلة بقوله ﴿وسيجي الله الذين اتقوا﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها وتغير النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله وفي خسران الكافرين كفرهم بآيات الله والتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية المكر والله أعلم.

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عاس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا هذا لك يا محمد وكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فأعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنة، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فأنزل الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة وأنزل ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصري قال قال المشركون للنبيّ ﷺ تضلل آباءك وأجدادك يا محمد فأنزل الله هذه الآية إلى قوله ﴿مِّنَ

﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقال البغوي قال مقاتل أن كفار مكة دعوه إلى دين آبائه، فنزلت قرأ أهل الشام بنونين خفيفتين وأهل المدينة بنون واحدة خفيفة على الحذف فإنها تحذف كثيراً والباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام والهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف وغَيْرَ مفعول لأعبد قدم عليه لأنه محل الإنكار وتأمروني جملة معترضة تقديره أكفر فغير الله أعهد تأمروني بذلك، وجاز أن ينتصب غير بما دلَّ عليه تأمروني أعبد، لأنه بمعنى تُعَبِّدُونِي من التفعيل على أن أصله تَأْمُرُونَنِي وأن أعبد غير الله فحذف إن ورفع الفعل كقوله أحضر الوغي، ويؤيده قراءة أعبد بالنصب بالتقدير ألم يتضح عليكم التوحيد بعد تلك الدلائل فَتُعَبِّدُونَنِي غير الله حيث تأمرونني أن أعبد غير الله ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ كلام على سبيل الفرض والمراد به إقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وبهذه الآية نحكم بأن الردة محبط لثواب جميع الحسنات كما أن الإسلام يهدم ما كان قبله من السيئات فإن أسلم بعد الردة في وقت صلاة صلاها فعليه أداؤه ثانياً وكذا يجب الحج ثانياً على من حج ثم ارتد ثم أسلم كذا قال الإمام ابن الهمام وقال البيضاوي إطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[1] وهذا القول باطل لأن القول بكونها من خصائص الأنبياء شنيع جداً تكاد السماوات يتفطرون من هذا القول إذ الكلام إنما هو على سبيل الفرض المحال وإنما المراد به الإشعار على حكم غيرهم وقوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لا يدل على نفي الحبط إذا لم يوجد الموت على الكفر بل المطلق عندنا يبقى على إطلاقه لا ضرورة في حمله على المقيد والله أعلم.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به والله منصوب باعبد والفاء إما زائدة وإما بتقدير أما وتقديم المعمول لقصد الحصر وبل للعطف على محذوف دل عليه قوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ الخ تقديره لا تعبد غير الله بل الله اعبد أو بل أمَّا الله فاعبد ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامه عليك، وفيه إشارة إلى موجب الإختصاص.

أخرج الترمذي عن ابن مسعود قال مرَّ يهوديٌّ بالنبيّ ﷺ فقال كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

ذه فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[١] يعني ما عرف الناس عظمة الله سبحانه حق عظمته حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به ولم يعبدوه حق عبادته ولم يشكروه حق شكره وأنكروا البعث بعد الموت ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ يعني الأرضين السبع بجميع أبعاضها البادية والغارية ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ القبضة المرة من القبض أطلقت على المقدار المقبوض بالكف تسمية الفعول بالمصدر، أو بتقدير ذات قبضته ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ لهذه الآية من المتشابهات المصروفة عن الظاهر لا يعلم تأويله إلا الله والغرض منه التنبيه على عظمته وكمال قدرته وحقارة الأفعال العظام التي يتخير فيها الأوهام بالإضافة على قدرته وعلى إن تخريب العالم أهون شيء عليه، وقال علماء البيان هذا الكلام وأرد على طريقة التمثيل والتخيل من غير أعتبار القبضة واليمن حقيقة ولا مجازاً كقولهم شابَّت لمة الليل، ووجه نزول الآية بعد قول اليهودي تصديق ما حكاه اليهودي عن التوراة فإن كتب الله تعالى مصدقة بعضها لبعض، وفي الصحيحين حديث ابن مسعود بلفظ جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال يا محمد إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك أنا الله فضحك النبيّ ﷺ تعجباً ممَّا قال الحبر تصديقاً له ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[٢] الآية، لعل وجه التطبيق بين رواية الترمذي ورواية الصحيحين أن الآية نزلت حينئذ فقرأها النبيّ ﷺ كما نزلت على اليهودي، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض**»[٣]، وروى مسلم عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله**»، وفي رواية يأخذهن بيده الأخرى ثم يقول أنا الله أنا الرحمٰن أنا الملك أنا القدوس أنا المؤمن أنا المهيمن أنا العزيز أنا الجبار أنا المتكبر أنا الذي بدأتُ الدنيا ولم تك شيئاً أنا الذي أعيدها أين الملوك أين الجبابرة، قال القاضي عياض القبض والطي والأخذ كلها بمعنى الجمع فإن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٣)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾ (٤٨١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧).

السماوات مبسوطة والأرض مدحوة ممدودة ثم رجع ذلك إلى معنى الرفع والإزالة والتبديل، وقال القرطبي المراد بالطي الإذهاب والإفناء، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال عدَت اليهود فنظروا في خلق السماوات والأرض والملائكة فلمَّا فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وأخرج عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا بما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ الآية، وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال لمَّا نزلت ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قالوا يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف العرش؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد وأعلا من هذه قدرته عن إشراكهم أو ما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني النفخة الأولى ﴿فَصَعِقَ﴾ أي مات ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ قد ذكرنا المراد بالمستثنى في هذه الآية في سورة النمل في تفسير قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾[1] قال الحسن إلاَّ من شاء الله يعني الله وحده ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أي نفخة أخرى يحتمل النصب والرفع ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ يقلّبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوت أو ينتظرون ما يفعل بهم وبين النفختين أربعون يوماً وقد ذكرنا ما ورد فيه من الأحاديث في سورة النازعات ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني أرض عرضات القيامة، عطف على نُفِخَ فيه أخرى ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بنور خالقها، قال البغوي وذلك حين يتجلّى الرب

(١) الآية هي: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع﴾ سورة النمل، الآية: ٨٧.

لفصل القضاء بين خلقه فما يتضارون في نوره كما لا يتضارون بالشمس في اليوم الصحو، وقال الحسن والسديُّ أي بعدل ربها قيل سماه نوراً لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمى الظلم ظلمة قال رسول الله ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»(١) متفق عليه من حديث ابن عمر ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي صحائف الأعمال في أيدي العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع، أخرج البيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال الكتب كلها تحت العرش فإذا كان الموقف بعث الله تعالى ريحاً فتطيرها بالأيمان والشمائل أول خط فيها «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود موقوفاً والديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً عنوان كتاب المؤمن يوم القيامة حسن ثناء الناس ﴿وجيء بالنبيين﴾ قال السيوطي قال العلماء يكون الحساب بمشهد من النبيين، وغيرهم، وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيّب قال وليس من يوم إلا ويعرض على النبيّ ﷺ أمته غدوةً وعشيةً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قال ابن عباس، الذين يشهدون للرسل على تبليغ الرسالة وهم أمة محمد ﷺ، وقال عطاء يعني الحفظة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾(٢) ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاؤه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ قال عطاء يعني أنه تعالى عالم بأفعالهم لا يحتاج إلى كاتب وشاهد إنما الكتاب والشهود جرياً على العادة وإلزاماً للكفرة.

ثم فصل الله التوفية وقال ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي أفواجاً متفرقة بعضها على عقب بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة، قال أبو عبيدة والأخفش: زُمَر أي جماعات في فرقة واحدتها زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه أو من قولهم شاة زمرة أي قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة وهي الجمع القليل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ ليدخلوها ﴿فُتِحَتْ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير أي فُتّحتْ ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ السبعة كلها وكانت مغلقة قبل ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي وقتكم هذا أي وقت دخولكم النار، قال البيضاوي فيه دليل على أنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٤٤٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٩).

(٢) سورة ق، الآية: ٢١.

لا تكليف قبل الشرع من حيث أنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وإنذار الكتب، قلتُ: هذه الآية لا تدل على عدم التعذيب على الإشراك بالله عند عدم الرسل بل على كمال التوبيخ بعد تمام الحجج فإن العقل وإن لم يكن مستقلاً في درك الشرائع لكن الدلائل المنصوبة على الوحدانية كافٍ لحكم العقل بالتوحيد فإذا أرسل الله سبحانه الرسل وأنزل الكتب وأوضح الطريق لم يبق العذر بوجه من الوجوه والله أعلم ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي كلمة الله بالعذاب وحكمه في الأزل أنهم من الأشقياء ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وضع المظهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك الحكم بالكفر ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف لما سبق ذكره يعني جهنم والفاء للسببية فإن الكلام السابق سبب للذم، وفيه إشعار بأن مثواهم لتكبرهم عن الحق وذا لا ينافي كون دخولهم فيها لما حقت عليهم كلمة العذاب فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: في حديث طويل: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار»[١] رواه مالك وأبو داود والترمذي.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة﴾ إسراعاً بهم إلى دار الكرامة، وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين ﴿زُمَرًا﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣١٧٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٩١).

﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ حال يعني وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم تعظيماً لهم كيلا ينتظروا ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا يعتريكم مكروه أبداً ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي وهذا أما لعدم إرتكابهم المعاصي أو لطهارتهم عنها بالمغفرة أو بالعقوبة، قال قتادة إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والناس فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة وقال لهم رضوان وأصحابه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وعن علي رضي الله عنه قال سيقوا إلى الجنة وإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرةً تخرج من تحت ساقها عينان فيغتسل المؤمن من أحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتلقته الملائكة على أبواب الجنة يقولون سَلاَمٌ عليكم طبتم فأدخلوها خالدين، وقال الزجاج معناه كنتم طيبين في الدنيا عن خبائث الشرك والمعاصي، وقال ابن عباس معناه طاب لكم المقام ﴿فادخلوها﴾ الفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم هذا على التأويلات المتقدمة وأما على قول ابن عباس فطيب مقامهم سبب لدخولهم يعني لمَّا كانت الجنة مقاماً طيّباً أستاهل أن تكون محلاً لهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي مقدرين الخلود.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على محذوف وهو جواب إذا حذف للدلالة على أن لهم مع الدخول من الكرامة ما لا يسعه المقال تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها كذا ادخلوها ووجدوا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد ولا يسعه المقال وقالوا شكراً لما أنعم عليهم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بدخول الجنة وبما أخفى لهم من قرة أعين ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة وإيراثها تحليهم إياها ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي يتبوأ كل منا في أيّ مقام أراد من جنته الواسعة وإذا أراد زيارة الأنبياء وأصحاب الدرجات العلى تيسر لهم ذلك، أخرج الطبراني وأبو نعيم والضياء وحسنه عن عائشة قالت جاء رجل إلى النبيّ ﷺ يا رسول الله إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي ومن أهلي وولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك ولا أصبر حتى آتيك فأنظر إليك فإذا ذكرت موتي وموتك عرفتُ أنك إذا دخلتَ وقفتَ مع النبيين وإني إن دخلتُ خشيتُ أن لا أراك فلم يرد عليه شيئاً حتى نزل جبرئيل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ محدقين محيطين حال ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبت لأن التكليف ساقط حينئذ وجملة يسبحون حال

من فاعل حافين ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار، قيل بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني يقول ذلك أهل الجنة شكراً حين تم وعد الله لهم، وقيل يقول ذلك الملائكة شكراً لله على إدخال أولياء الله الجنة وأعداء الله النار عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر»[١] رواه الترمذي والنسائي والحاكم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: (٢٩٢٠).

سورة المؤمن/ غافر

آياتها خمس وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾.

روى البغوي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث الأول فهذا أعجبُ وأعجبه فقيل له إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن، وقال البغوي قال ابن مسعود إذا وقعتُ في ال حَم وقعتُ في روضات أتأنق فيهن، وفي رواية إذا قرأتُ ال حَم وقعتُ في روضات دمثات، وروى أيضاً بسنده عن ابن عباس قال لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم، وقال البغوي قال إبراهيم كل آل حَم يسمين العرائس، وأخرج الحاكم عن ابن مسعود موقوفاً الحواميم ديباج القرآن ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ قد سبق الكلام في الحروف المقطعات، وقال البغوي قال السدي حم اسم الله الأعظم، وروي عن عكرمة عنه قال الرحم ن حروف الرحمٰن مقطعة، وقال سعيد بن جبير وعطاء الخراساني الحاء افتتاح أسمائه حكيم حميد حي حيان والميم افتتاح اسمائه ملك مجيد منانُ، قال الكسائي قضي ما هو كائن كأنهما أشار إلى أن معناه حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم، قرأ ابن كثير وقالون وحفص وهشام بفتح الحاء في الحواميم كلها ورش وأبو عمرو بين بين والباقون بالإمالة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل الكتاب أو مبتدأ خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه، لعل تخصيص الوصفين بالذكر لما في القرآن من الاعجاز والحكمة الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ للمؤمنين مصدر تاب يتوب توبةً، وقيل التَوبُ جمع توبة مثل دومة ودوم وحومة وحوم، قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله قابل التوب ممن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله صفتان لله تعالى والإضافة فيهما معنوية لأنه لم يرد زمان مخصوص بل الاستمرار وتوسيط الواو لإفادة الجمع بين محو الذنب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الإتحاد أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون الذنب باقياً وذلك لمن لم يتب «والتائب كمن لا ذنب له»[1] رواه ابن ماجه مرفوعاً عن ابن مسعود والحكيم عن أبي وابن النجار عن علي وابن عساكر والبيهقي عن ابن عباس فهو دليل على جواز المغفرة لمن لم يتب ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل لا إله إلا الله ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قال مجاهد أي ذي السعة والغنى، وقال قتادة ذي النعم، وقيل ذي القدرة، وقال الحسن ذي الفضل، قيل غافر الذنب وما بعدها أبدال ليست بصفات وإضافة الثلاثة منها لفظية لا تفيد التعريف فلا تصلح كونها صفات وعلى هذا ذِي الطَّوْلِ أيضاً بدل لامتناع تقدم البدل على الصفة، وقال صاحب الكشاف والبيضاوي هي كلها صفات كالأولين والإضافة فيها حقيقية لما ذكرنا أنه لم يرد زمان مخصوص وأريد بشَدِيدِ العقاب مشددة فالإضافة فيه أيضاً حقيقية إذ هو في الأصل الشديد عقابه فحذف اللام للإزدواج والأمن من اللبس فهو معرف باللام وجعله وحده بدلاً مشوش للنظم وقال الزجاج شديد العقاب بدل ليس بصفة وبه قال صاحب المدارك للقطع بكونه نكرة وحذف اللام لا يجوز وعلى هذا ذي الطول أيضاً بدل، وما قال البيضاوي أولى من حيث المعنى لأن كلها توابع تدل على معانٍ في متبوعها أوردت للمدح والترغيب والترهيب والحثّ على ما هو المقصود منه والمقصود بالنسبة إنما هو الله لا غير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلي على عبادته، قال صاحب المدارك هذا صفة أخرى كذِي الطول والظاهر أنه إستئناف ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي في دفع آيات الله بالتكذيب أو إثبات التناقض أو في الآيات المتشابهات بتأويلات مخالفة للمحكمات أو مخالفة لما تواتر عن النبيّ ﷺ ﴿إِلَّا

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتمادون في القرآن فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم فقولوه وما جهلتم فوكلوه إلى عالمه» رواه البغوي ورواه مسلم بلفظ أن عبد الله بن عمرو (يعني جد عمرو بن شعيب) قال «هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»(١) وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال «**إن جدلاً في القرآن كفر**» رواه البغوي ورواه البيهقي في شعب الإيمان والطيالسي من حديث عبد الله ابن عمر ورواه أبو داود والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «المراء في القرآن كفر» قال البيضاوي لما حقق الله سبحانه أمر التنزيل سجل بالكفر على المجادلين فيه بالطعن وإدحاض الحق كقوله ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فأما الجدال فيه لحل عقده واستنباط حقائقه وقطع تشبث أهل الزيغ وقطع مطاعنهم فيه فمن أعظم الطاعات ولذلك قال عليه السلام «إن جدالاً في القرآن كفر» بالتنكير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ يا محمد ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني إمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة.

أخرج ابن أبي حاتم عن السديّ عن أبي مالك أنه قال نزلت في الحارث بن قيس السهمي يعني أنهم مؤاخذون عن قريب بكفرهم كالذين قبلهم كما قال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح كعاد وثمود يعني كذبوا نوحاً وغيره من الرسل هذه معللة بقوله فَلاَ يَغْرُرْكَ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ منهم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ﴾ قال ابن عباس أي ليقتلوه ويهلكوه وقيل ليأسروه والعرب يسمى الأسير أخيذاً ﴿وجادلوا بالباطل﴾ أي بمثل قولهم ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾(٢) و﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾(٣) ونحو ذلك ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ أي ليزيلوا ويبطلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ﴾ بالإهلاك جزاءً لهممهم عطف على جادلوا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي فإنكم تمرون على ديارهم وترون أثره والإستفهام للتقرير والتعجيب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وجوباً مثل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٦).

(٢) سورة يس، الآية: ١٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

وجوب إهلاكهم في الدنيا ﴿حَقَّتْ﴾ أي وجبت في الآخرة ﴿كلمت ربك﴾ أو المعنى كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة السابقة كذلك حقت كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من قومك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدل من كلمت ربك بدل الكل على قراءة كلمة ربك وبدل البعض على قراءة كلمات أو بدل الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى، وقال الأخفش تقديره لأنهم وبأنهم أصحاب النار.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي الطائفون به وهم الكروبيون وهم سادة الملائكة، قال ابن عباس حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمس مائة عام، ويروى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسماوات إلى حجزتهم وهم يقولون سبحان العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت وسبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وقال ميسرة بن عبد ربه أرجلهم في أرض السفلى ورؤوسهم تحت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من التي تليها والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها، وقال مجاهد بين الملائكة والعرش سبعون حجاباً من نور وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام**»[1] رواه أبو داود والضياء بسند صحيح، وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال إن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطير المسرع ثلاثين ألف سنة والعرش يكسى كل يوم سبعون ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة، وقال مجاهد بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب حجابٌ من نور وحجاب من ظلمة وحجاب من نور وحجاب من ظلمة، وقال وهب بن منبه إن حول العرش سبعون

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الجهمية (٤٧١٤).

ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلّل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم إلى أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رافعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنتَ الله لا إله غيرك أنتَ الأكبر الخلق كلهم راجعون إليك، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنىٰ على اليسرى ليس منهم أحد إلا وهو يسبح بتحميدة لا يسبحه الآخر ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاث مائة عام وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه أربع مائة عام، واحتجب الله من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار وسبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور وسبعين حجاباً من در أبيض وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر وسبعين حجاباً من ياقوت أصفر وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر وسبعين حجاباً من ثلج وسبعين حجاباً من ماء وسبعين حجاباً من برد وما لا يعلمه إلا الله تعالى، قال ولكل واحد من حملة العرش ومن حوله أربعة وجوه وجه ثور ووجه أسد ووجه نسر ووجه إنسان ولكل واحد منهم أربعة أجنحة أما جناحان فعلى وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق وأما جناحان فيهفو بهما كما يهفو هذا الطائر بجناحيه إذا حركه ليس لهم كلام إلا التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد.

﴿يُسَبِّحُونَ﴾ الله أي يذكرونه بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام متلبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال البيضاوي جعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يصدقون بأنه تعالى موجود واجب وجوده خالق للأشياء كلها أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أخبر الله تعالى عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله وإيماءً بأن الملائكة في العبودية والعجز والإيمان بالغيب كسائر الخلائق لا كما تزعم الكفار أنهم بنات الله ورداً على المسّجمة، عن شهر بن حوشب قال: حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة منهم يقولون سبحانك اللّهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال فكأنهم يرون ذنوب بني آدم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان يوجب النصح والشفقة، وإن تخالف الأجناس لأنها أقوى المناسبات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربنا وجملة يقولون مع ما في حيزه حال من فاعل يستغفرون ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت كل شيء رحمتُك وعلمُك

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومها وقدم الرحمة لأنها المقصودة بالذات هاهنا ﴿فَٱغْفِرْ﴾ الفاء للسببية فإن سعة الرحمة سبب للمغرة ﴿لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي رجعوا عن الكفر إلى الإسلام ﴿وأتبعوا سبيلك﴾ أي دينك الذي بعثت به رسلك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي احفظهم عنه، تصريح، بعد إشعار للتأكيد، قال مطرف أنصَحُ عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق لهم الشياطين ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي إقامة ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ إياها ﴿ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم﴾ من صلح عطف على هم في أدخلهم أو لما وعدتهم يعني وعدتهم ووعدت من صلح من آبائهم، ولعل المراد بالصلاح هاهنا نفس الإيمان فإن المؤمن صالح لدخول الجنة وإن كان مرتكباً للكبائر بغفران الله تعالى فإن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء، وإنما قلنا ذلك ليتحقق التغاير بين لمعطوف والمعطوف عليه ولو كان المراد بالصلاح صلاح العقائد والأعمال والأخلاق جميعاً كان من صلح داخلاً في الذين تابوا وأتبعوا سبيل الله والله أعلم.

قال البغوي قال سعيد بن جبير يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبي أين أمي أين ولدي أين زوجي؟ فيقال إنهم لم يعملوا مثل عملك فيقول إني كنتُ أعمل لي ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وهذا موقوف في حكم المرفوع وصريح في أن المراد بالصلاح في الآية نفس الإيمان ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يقدر على كل شيء ولا يمتنع عنه ما أراد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما يقتضيه الحكمة، ومن ذلك الوفاء بالوعد ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي العقوبات أو جزاء الأعمال السيئة وهذا تعميم بعد تخصيص أو مخصوص عن من صلح أو المعنى وقهم السيئات أي عن الأعمال السيئة في الدنيا ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الجزاء أو في الدنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ دليل على جزاء الشرط المحذوف أقيم مقامه تقديره ومن تق السيئات يفلح إذ قد رحمته وذلك أي الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فإن قيل أيُّ فائدة في سؤال الملائكة للمؤمنين بإدخال الجنة بعد ما وعدهم الله تعالى به وإستحالة الخلف في وعد الله وكذا في سؤال المؤمنين للنبي ﷺ «اللّٰهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاماً محمودا الذي وعدتّه»؟[1] قلتُ الباعث على الدعاء حبهم إياهم لما ألقي الله تعالى في قلوبهم وفائدته إستجلاب مزيد رحمة الله للمدعو لهم واستجلاب رضوان الله ورحمته للداعين لأجل المحبوبين لله تعالى والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الدعاء عند النداء (٦١٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخره متصل بقوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما بينهما معترضات في مدح الملائكة الموصوفين بالإيمان المستغفرين للمؤمنين الذين هم أعداء الكافرين ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي يناديهم خزنة النار يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الأمارات بالسوء حين عرض عليهم سيئاتهم وعاينوا أجزاءها فيقال لهم ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ إياكم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقت الأول لا له لأنه مصدر وخبرة أكبر من مقتكم فلا تعمل في إذ تدعون لأن المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلق شيء يكون في صلته لأن الإخبار عنه يؤذن بتمامه وما يتعلق به يؤذن بنقصانه ولا للمقت الثاني لأنه عند حلول العذاب أو تعليل للحكم وزمان المقتين واحد ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا﴾ موتتين ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ أو مرتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي خلقتنا أمواتًا نطفًا في أصلاب الآباء ثم أحييتنا في أرحام الأمهات في الدنيا ثم أمتنا عند انقضاء الآجال ثم أحييتنا يوم القيامة كذا قال ابن عباس وقتادة والضحاك ونظيره قوله تعالى: ﴿كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[1] وقال السديُّ معناه أمتّنا في الدنيا ثم أحييتنا في القبر للسؤال ثم أمَتّنا في القبر ثم أحْيَيْتَنا يوم البعث، ومبنى هذا القول الزعم بأن الإماتة يقتضي الحياة قبل الموت، وهذا ليس سليماً لأن الإماتة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

جعل الشيء عديم الحياة ابتداء أو بالتصير كما قيل سبحان من صغر البيض وكبر الفيل وإن خص بالتصيرٌ فاختيار الفاعل أحد مفعوليه بأحد الوصفين تصيرٌ وصرف له عن الآخر والسؤال في القبر لا يستدعي حياةً مثل حياة الدنيا ولو استدعى ذلك لاستدعى عذاب القبر أيضاً مثل ذلك، ولزم انقطاع عذاب القبر عن الكفار إذا أميتوا وفي القبر بعد السؤال وليس كذلك ﴿فاعترفنا بذنبونا﴾ الفاء للسببية ولما كان سبب اعترافهم معاينتهم الحياة الثانية بعد الموت الثانية جعل مجموع الموتتين والحياتين سبباً له ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ واحد أو نوع من الخروج من النار سريع أو بطيء ورجوع إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريق فنسلكه استفهام ومعناه التمني فيُنَادَوْنَ لا سبيل لكم إلى الخروج فحذف هذه الجملة لما يدل عليه قوله ﴿ذَٰلِكُم﴾ ويعني انتفاء سبيل للخروج وما أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي بسبب أنه ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ أي متوحداً أو توحد وحده فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية ﴿كَفَرْتُمْ﴾ يعني إذا قيل لا إله إلا الله انكرتم وقلتم ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾[1] ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ غيره ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تصدقوا بالإشراك وإذا كان هذا سبباً لدخولكم في النار ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ يعني هذا الحكم لله خاصةً الذي هو المستحق للعبادة المنزه عن الشريك وهو قد حكم عليكم بالعذاب الشديد الدائم بسبب كفركم ولو كان له شريك مما عبدتموها أنجاكم من عذابه وكان لكم حينئذ سبيل إلى الخروج ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ من أن يشرك ويسوي به غيره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي مطراً يكون سبباً لرزقكم فيه رد لمعذرتهم بالجهل بعد رؤية ما كان صالحاً للاستدلال على التوحيد ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله ويرجع عن التعصب والعناد وهذه الجملة مبتدئة خطاب للنبي ﷺ بعد ما تم الجواب لأهل النار فادعوا الله يعني إذا سمعتم ما يؤل إليه أمر المشركين ﴿فأدعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي الطاعة والعبادة من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يعني وإن غاظ ذلك أعداءكم الكافرين ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ أي رفيع درجات كما له بحيث لا يظهر بجنبها كمال، وقيل الرفيع هاهنا بمعنى رافع درجات أنبيائه في مراتب القرب إليه وفي الجنة بعضها فوق بعض ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿يلقى الروح﴾ أي ينزل الوحي سماه روحاً لأنه يحيى به القلوب كما يحيى الأبدان بالأرواح ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ قال البغوي قال ابن

(١) سورة ص، الآية: ٥.

عباس يعني من فضله فمن للابتداء، وقيل من قوله فمن للبيان ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ الثلاثة كلها أخبار لهو مترادفة لموصول دالة على توحيده وعلو صمديته وتمهيد للنبوة وأخبار مبتدأ محذوف أي هو ﴿لِيُنذِرَ﴾ متعلق بيلقي والمستكن فيه لله أو للروح أو لمن وهو أظهر وأقرب، ويؤيده قراءة يعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر أنتَ يا محمد وحذف المفعول للدلالة على عموم دعوته وشمول إنذاره الثقلين ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي يوم يلتقي فيه الخلائق كلها أهل السماوات والأرض، وقال مقاتل وقتادة يوم يلتقي فيه الخالق والخلائق وقال ميمون بن مهران يلتقي فيه الظالم والمظلوم والخصوم، وقيل يلتقي العابدون والمعبودون، وقيل المرء مع عمله، أخرج الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال عن ابن عباس أنه قرأ ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾ قال يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير فتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس الحديث بطوله ذكر فيها نزول أهل السماوات السبع بعضهم عقيب بعض ونزول الله تعالى وهو من المتشابهات وذكرنا تأويلها في سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾[1] وفي سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2] ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي خارجون من قبورهم، أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء أو ظاهرة نفوسهم لا يحجبهم غواشي الأبدان أو ظاهرة أعمالهم وسرائرهم ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ﴾ أي من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم ﴿شَىْءٌ﴾ تقرير لقوله ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم وذلك بعد فناء الخلق قبل البعث وحينئذ لا يكون أحد يجيبه فيجيب نفسه ويقول ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ المتوحد في جلال الذات وكمال الصفات المنزه عن الشريك في الألوهية وفي شيء من الممكنات ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ الذي قهر الخلق بالموت وبالتصرف فيها بما أراد.

رواه يعني كون السؤال والجواب من الله بعد فناء الخلق قبل البعث أبو هريرة في حديث طويل عن النبيّ ﷺ رواه الطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وغيرهم وأخرج ابن أبي داود في البعث عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ قال: «**ينادي**

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

مناد بين الصيحة يا أيها الناس أتاكم الساعة ومدّ بها صوته يسمعها الأحياء والأموات وينزل الله إلى السماء الدنيا ثم ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» وأخرج البيهقي عن أنس رفعه في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصورة﴾ الآية فكان ممن استثنى الله ثلاثة جبرئيل وميكائيل وملك الموت فيقول الله (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرئيل وميكائيل وملك الموت، فيقول توف نفس ميكائيل، ثم يقول (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك جبرئيل وملك الموت، فيقول توف نفس جبرئيل ثم يقول (وهو أعلم) يا ملك الموت من بقي؟ فيقول بقي وجهك الباقي الكريم وعبدك ملك الموت وهو ميت، فيقول مت ثم ينادي أنا بدأتُ الخلق ثم أعيده أين الجبارون المتكبرون ثم ينادي لِمَنَ المُلْكُ اليُوْمَ، فلا يجيبه أحد فيقول هو لله الواحد القهار ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وسياق الآية يقتضي أنه حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم بعد إحياء الخلق ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وحكاية لما دل عليه ظاهر الحال في ذلك الوقت من زوال الأسباب وإرتفاع الوسائط وسلب الإضافة المجازي للملك والحُكم إلى غيره تعالى وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني حين يسلب الملك المجازي من غيره تعالى ويكون الملك خاصة له ظاهراً كما هو له خاصة دائماً على الحقيقة ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب بناءً على الوعد ولأن الحاكم حينئذ هو الله وحده ولا يتصور منه الظلم لأن الظلم ما يفعله أحد في غير ملكه بلا إذن مالكه وكل ما يفعله الله يفعله في ملكه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب الناس كلهم في قدر نصف يوم من أيام الدنيا بناءً على مشيئته وإلا فهو قادر على أن يحاسبهم دفعة في آن واحد إذ لا يشغله شأن عن شأن.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ عطف على الأخبار السابقة بتقدير يقال لك أنذرهم ﴿يوم الأزفة﴾ أي القيامة سمّيت بها لأزوَافها أي قربها إذ كل ما هو آتٍ قريب ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ إذ بدل من يوم الآزفة ﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترفع عن أماكنها من شدة الهول فتلتصق بحلوقهم فلا يعود حتى يترحوا ولا يخرج فيموتوا ﴿كَٰظِمِينَ ۚ﴾ مكروبين ممتلئين خوفاً وحزناً والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى تطيق به، الْقُلُوبُ مبتدأ ولَدَى الحَنَاجِرِ خبره والكاظمين حال من القلوب محمول على أصحابها وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصف بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين والضمائر إن كانت للكفار كان هذا وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع مشفع لا مفهوم للوصف، إذ

لا شفيع لهم أصلاً فما لهم من شافعين أوله مفهوم على زعمهم أن لهم شفعاء أي لو شفعوا فرضاً لا تقبل شفاعتهم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي النظرة الخائنة كالنظرة إلى من حرم النظر إليها وإستراق النظر إليها أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة يعني يعلم خيانة الأعين الجملة خبر آخر لهو في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ﴿وما تخفي الصدور﴾ من الضمائر، قيل يعني ما يتفكر الرجل بقلبه في جمال امرأة أجنبية بعدما ينظر إليها بشهوة مسارقة ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه المالك على الإطلاق والحكيم والعليم بما ظهر وما بطن فلا يقضي إلا بما يقتضيه علمه وحكمته ولا يقضي إلا وهو حقه والجملة عطف على يعلم ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قرأ نافع وهشام بالتاء للخطاب على الالتفات أو بإضمار قل والباقون بالياء للغيبة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والشياطين والملوك الجبابرة ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لعدم قدرتهم على القضاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه بخائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه بأنها لا تسمع ولا تبصر.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ عطف على محذوف تقديره أينكرون وبال الكفر ولم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾ أي ما آل إليه أمر ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة للرسل كعاد وثمود ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً جيء بالفصل لمشابهة أفعل من بالمعرفة في امتناع دخول اللام عليه، قرأ ابن عامر أشد منكم على الإلتفات ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من القلاع والمدائن الحصينة، وقيل المعنى أكثر آثاراً كقوله متقلداً

سيفاً ورمحاً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأهلكهم بالريح أو الصيحة أو نحو ذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنع عنهم من العذاب، حيث لم يلتجؤوا إليه، الجملة عطف أو حال ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات أو الأحكام الواضحات الصحة والصلاح ﴿فكفروا فأخذهم الله إنه قوي﴾ قادر على كل ما يريد غاية القدرة ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي شديد عقابه الجملة تعليل للأخذ القوي.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي المعجزات التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة العطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيماً لشأنه وتخصيصاً بعد تعميم ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾ يعنون موسى عليه السلام تسليةٌ للنبيّ ﷺ وبيان لعاقبة بعض من كان قبلهم من الذين كانوا أشد بطشاً وأقرب زماناً ﴿فلما جاءهم موسى بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه﴾ أي أعيدوا عليهم القتل ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟﴾ أي استبقوا ﴿نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنتم فعلتم ذلك أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وضع الظاهرة موضع المضمر للتسجيل على كفرهم ولتعميم الحكم والدلالة على العلة ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع فإنهم أرادوا إبطال أمر موسى فرد الله عليهم كيدهم وأهلكم وجعل موسى ومن تبعه ملوك الأرض ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه ﴿ذَرُونِىٓ﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وقال البغوي، إنما قال هذا لأنه كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى خوفاً من الهلاك كانوا يقولون إنه ليس الذي تخافه بل هو ساحر ولو قتلتَه لظن الناس إنك عجزتَ عن معارضته بالحجة، قال البيضاوي فيه دليل على أنه تيقن بنبوة موسى فخاف من قتله أو ظن وأنه لو حاوله لم يتيسر له ويؤيده قوله ﴿وَلْيَدْعُ﴾ موسى ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا فإنه تجلد وعدم مبالاة بدعائه، وكان قوله ذَرُونِي أَقْتُلُ مُوسَىٰ تمويهاً على قومه وإيهاماً بأنهم هم الذين يكفونه عن قتله وما كان يكفه إلا ما استقر في قلبه من هول أمر العصا ﴿إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كقير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي يغير ما أنتم عليه من عبادة الأصنام لقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[1] ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ قرأ يعقوب وأهل الكوفة أو ان والآخرون وأن وقرأ أهل المدينة والبصرة يُظهر بضم الياء وكسر الهاء من الأفعال والفساد بالنصب على المفعولية، والباقون بفتح الياء والهاء من المجرد ورفع الفساد على

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

الفاعلية وأراد بالفساد تبديل الدين وعبادة الأوثان أو ما يفسد للدنيا من التجارب والتهارج.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه لما توعده فرعون بالقتل ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ صدر الكلام بأنَّ تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية وإضافته إليه وإليهم لأن حفظ موسى متضمنٌ متكفل لحفظهم أجمعين وحثّاً لهم على موافقته في الإستعاذة لما في تظاهر الأزواج من إستجلاب الإجابة، ولم يذكر فرعونَ وذكر وصفاً يعمه وغيره لتعميم الإسعاذة ورعاية الحق والدلالة على الحامل له على الشر، وجاز أن يكون هذا خطاباً لفرعون وقومه وفي قوله رَبّكُم تنبيهٌ على التوحيد وإنكارٌ على إشراكهم.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال مقاتل والسديُّ كان قبطياً إبن عم فرعون وهو الذي حكى الله عنه في سورة القصص ﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى﴾[1] قيل كان اسمه حبيب وقال قوم كان إسرائيلياً ومجاز الآية وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون وكان اسمه حزئيل على ما روى عن ابن عباس وأكثر العلماء، وقال ابن إسحاق كان إسمه خبول ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي تقصدون قتله ﴿أَن يَقُولَ﴾ أي لأن يقول أو وقت أن يقول من غير رؤية وتأمل في أمره أو مخافة أن يقول ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وحده وهو في الدلالة على الحصر مثل صديقي زيد ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الكثيرة

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

الشاهدة على صدقه ﴿مِن رَّبِّكُمْۖ﴾ حيث لا يقدر على إتيان تلك المعجزات إلا الذي خلقكم ورباكم قادر على أن يأخذكم بالعذاب، والجملة حال من فاعل يقول. ثم أخذ الرجل القائل بالاحتجاج من باب الإحتياط فقال ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ كما زعمتم ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه حتى يحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ كما يدل عليه المعجزات والشواهد ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ﴾ فلا أقل أن يصيبكم بعضه وذلك البعض يكفي لهلاككم ففيه مبالغة في التحذير وإظهار الإنصاف وعدم التعصب ولذلك قدم كونه كاذباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج ثالث ذو وجهين: أحدهما أنه لو كان مسرفاً لما هداه الله إلى البينات ولما عضده بالمعجزات وثانيهما إنه كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ولعله أراد به المعنى الأول وخيّل إليهم الثاني ليلين شكيمتهم وتعريض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب والنجاة. عن عروة بن الزبير قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلّي بفناء الكعبة إذ أقبل عنقه بن أبي معيط فأخذ بمنكبي رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: «**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**»[1] رواه البخاري، ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين حال من كم في لكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يعني لكم الملك والغلبة في الأرض فلا تبطلوا ملككم، وغلبتكم بالتعرض لعذاب الله بقتل نبيه فإنه إن جاءنا لا يمنعنا منه أحد، أدرج نفسه في الضمير لأنه كان منهم في القرابة وليريهم إنه معهم ومساهمهم فيما ينصح لهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ﴾ من الرأي أي ما أشيركم، وقال الضحاك ما أعلمكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أراه وأعلمه صواباً يعني قتله ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ طريق الصواب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرض له ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ تقديره إني أخاف عليكم عذاباً مثل عذاب يوم الأحزاب أي أيام الأحزاب يعني الأمم الماضية المكذبة للرسل وجمع الأحزاب مع التفسير الذي بعده أغنى عن جمع اليوم أو المعنى عذاب يوم حزب من الأحزاب ﴿مِثْلَ﴾ جزاء ﴿دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ كقوم لوط

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المؤمن (٤٨١٥).

ونمرود الجبار أي مثل جزاء ما كان عادتهم من التكذيب وإيذاء الرسل، وهذه الآية تدل على أنه كان في قوم فرعون علم بالأولين ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ اللام زائدة لتقوية عمل المصدر والعِبَاد مفعول لظُلْماً يعني لا يريد أن يظلم عبداً فيعاقبهم بغير ذنب أو يترك الظالم منهم بغير إنتقام أو ينقص من أجر حسنة لأحد أو يزيد في عقوبة أحد وبعدما خوَّفهم بعذاب الدنيا خوَّفهم بعذاب الآخرة فقال ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قرأ ابن كثير التَّنَادِيُ وصلاً ووقفاً باثبات الياء وورش وصلاً فقط واختلف فيهما عن قالون والباقون بحذف الياء في الحالين ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدل من يوم التناد، قال مجاهد يعني فارّين غير معجزين، قيل المراد منه يوم ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قبل نفخة الصعق لما روى ابن جرير في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وعبد بن حميد حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ حديثاً طويلاً وذكر فيه ثلاث نفخات، قال: «فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى.

فيقول الله تعالى انفخ نفخة الفزع فينفخ فيفزع أهل السماوات والأرض إلا ما شاء الله فيأمره فيمدها فيطيلها ولا يفتر إلى أن قال فتذهل المراضع عمّا أرضعت وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربةً من الفزع حتى تأتي الأقطار فتتلقتها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وتولى الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً وهو الذي يقول الله يوم التناد» الحديث.

وقيل المراد يوم القيامة إذا دعي كل أناس بإمامهم أخرج أبو نعيم عن أبي حازم الأعرج رضي الله عنه أنه قال (يخاطب نفسه) يا أعرج ينادي يوم القيامة يا أهل خطيّات كذا كذا فتقوم معهم ثم ينادي يا أهل خطيّاتِ أخرى فتقوم معهم فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل خطيئة، وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ألا ليقم خصماء الله (وهم القدرية) وإذا يُنادي أصحاب الجنة أصحاب النار وأصحابُ النار أصحاب الجنة وينادي أصحابُ الأعراف كما حكى الله تعالى في سورة الأعراف وإذا ينادى بالسعادة والشقاوة ألا إن فلان ابن فلان سعد سعادةً لا يشقى بعدها أبداً ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً» أخرج البزار والبيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «**يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ويوكَّل به ملَك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعدَ فلان**

سعادةً لا يشقى بعدها أبداً وإن خفت موازينه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً، وإذا ينادي ألا إني جعلتُ نسباً وجعلتم نسباً» أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلتُ نسباً وجعلتم نسباً فجعلتُ أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون، وإذا ينادى حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»** أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال قال النبيّ ﷺ: **«إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي منادي يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم وأهل النار حزناً إلى حزنهم»**(١) وعن أبي سعيد نحوه وعند الحاكم وابن حبان عن أبي هريرة نحوه.

وقرأ ابن عباس والضحاك يَوْمَ التَّنَادّ بتشديد الدال أي يوم التنافر وذلك لأنهم هربوا فندوا في الأرض كما تند الإبل إذا شردت عن أربابها، أخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون الملائكة على حافتها حين يأمرهم الربُّ فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف ثم ينزل الملك الأعلى بجنبته اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض نَدُّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه، وذلك قول الله تعالى: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم﴾.

وذلك قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بحبهنم﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها﴾(٤) يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذا سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب، وقيل معنى قوله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.

تعالى يوم تولون مدبرين يوم تولون منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍۗ﴾ يعصمكم من عذابه يعني غير الله لا يقدر على دفع عذاب الله قطعاً وإنما يدفع عذاب الله رحمته ولا يكون لهم من الله رحمة تعصمهم من عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يضله عن طريق الجنة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ إليه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام على أن فرعونه فرعون موسى طال عمره أو على نسبة أحوال الأباء إلى الأولاد يعني جاء آباءكم يوسف، وقيل المراد يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام أرسل إليهم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي قبل موسى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ قال ابن عباس من عبادة الله وحده مخلصاً له الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي مات يوسف عليه السلام ﴿قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ أي أقمتم على كفركم وزعمتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إضلالاً مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ في العصيان ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ مشرك ﴿مُّرۡتَابٌ﴾ أي شاك فيما يشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الموصول الأول، لأنه بمعنى الجمع ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ حجة واضحة بل إما بتقليد أو شبهة داحضة ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾ من عند الله ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ فيه ضمير من وإفراده نظراً إلى لفظه ويجوز أن يكون الذين مبتدأ وخبره كَبُرَ على حذف مضاف تقديره وجدال الذين يجادلون في آيات الله كبر مقتاً والذين مبتدأ وخبره بغير سلطان وفاعل كبر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أن كاف اسم بمعنى مثل أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾ استئنافاً للدلالة على موجب جدالهم وجاز أن يكون المعنى كذلك مثل إضلالهم يطبع الله، أي يختم بالضلال ويوثق ﴿عَلَىٰ

كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بحيث لا يدخله نور الإيمان قرأ أبو عمرو وابن ذكوان قلب بالتنوين على وصفه بالتكبر والتجبر لأنه صنيعهما كقولهم رأت عيني وسمعت أذني، أو على حذف المضاف تقديره على قلب كل ذي قلب متكبرٍ جبار والباقون بالإضافة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لوزيره هامان ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي بناءً عالياً لا يخفى على الناظر وأن بعد، ومنه التصريح بمعنى الإظهار ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي الطرق ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي طرقها وأبوابها من سماء إلى سماء وكل ما يؤدي إلي شيء فهو سبب له كالرشاء والدلو للماء وأسباب الثاني بيان للأول وفي إيضاحها بعد إبهامها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ قرأ حفص بالنصب على جواب لعل بالفاء والباقون بالرفع عطفاً على أبلغ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الظاهر أنه أمر بالبناء كبناء نمرود وذكرناه في سورة النمل، وقال البيضاوي لعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه، أو أن يرى الناس فساد قول موسى بأن أخباره من إله السماء توقف على إطلاعه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو ممَّا لا تقوى عليه الإنسان وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعوى الرسالة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي تزييناً مثل ذلك التزين يعني تزيين بناء الصرح للإطلاع على رب السماوات ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي كل عمل سيء يأباه العقل السليم يعني أفسد الله بصيرته، فكان يرى كل عمل سيء حسناً ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الرشاد، قرأ الكوفيون ويعقوب بضم الصاد على البناء للمفعول والفاعل على الحقيقة هو الله سبحانه يُضِلُّ مَنْ يَشآء ويهدي من يشاء والباقون بفتح الصاد يعني صَدَّ فرعونُ الناسَ عن الهدى بأمثال هذه الشبهات والتمويهات، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ في إبطال أمر موسى ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في خسار وضياع.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ

مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون ﴿يا قوم اتبعون﴾ قرأ ابن كثير أتبعوني بإثبات الياء في الحالين وقالون وأبو عمرو وصلاً فقط والباقون بحذف الياء في الحالين ﴿أَهْدِكُمْ﴾ أي أدلكم ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي سبيلاً يوصل سالكه إلى المقصود وفيه تعريض إلى أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغيّ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يسير يتمتعون بها مدة يسيرة ثم ينقطع ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي لا تزول فعليكم بما ينفعكم في الآخرة ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي في حال الإيمان فإن الإيمان شرط لجزاء كل عمل صالح لأن الله تعالى هو المالك للجزاء فلا بد للإيمان به على ما يرتضيه حتى يجزي ما عمل لوجهه خالصاً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة للأعمال بل إضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمةً ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ﴾ قرأ الكوفيون وابن ذكوان بسكون الياء والباقون بفتحها، والمعنى ما لكم كما تقول مالي أراكم حزيناً يعني أخبروني كيف حالكم على خلاف ما يقتضيه العقل والعرف ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ من النار بالإيمان بالله وحده ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي إلى الشرك الذي يوجب النار، كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سِنَةِ الغفلة وإهتماماً بالمناولة ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه، لم يعطف النداء الثاني على الأول لأنه بيان لما قبله وعطفه الثالث على الثاني أو على الأول ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدل من تدعونني الأول أو بيان منه تعليل والدعاء بعدي بإلى وباللام كالهداية ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ أي بربوبيته ﴿عِلْمٌ﴾ بل عندي دليل قاطع على إمتناعه ولا بد للإيمان من برهان على وجوده وربوبيّته ولا يصح الإعتقاد إلا عن ايقان ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب القادر على الانتقام ممن كفر به ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ لذنوب من شاء ممن آمن به فهو المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والعلم والإرادة.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قيل لا في لا جرم رد لما دعوه إليه من عبادة الأصنام، وجَرَمَ فعل بمعنى حَقّ وفاعله أنَّ مع جملتها أي حَق عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً في الدارين لأنها جمادات لا دعوة لهم في الدنيا إلى العبادة وفي الآخرة تتبرّأ عن عابديها وليس لها ما يقتضي ألوهيتها أو حق عدم دعوةٍ مستجابةٍ لها أو عدم استجابة دعوة لها، قال السديُّ لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في

الآخرة، وقيل جَرَمَ فعل من الجرم بمعنى القطع ولا للنفي كما أن بُدّاً من لا بُدَّ فعل من التبديد بمعنى التفريق والمعنى لاقطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت مَّا فيكون معناهُ إستمرَّ كما في ما برَحَ وما زَالَ وحاصل معناه حقّاً، وفي القاموس لا جَرَمَ أي لاَ بُدَّ أو حَقّاً أو لا محالة أو هذا أصله ثم تحول إلى القسم فلذلك يجاب عنه باللام، يقال لاَ جَرَمَ لآتينك وقيل جَرَمَ بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه إلى كسب ذلك الدعاء إليه أن لا دعوه له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ولا على هذا أيضاً لرد ما دعوه إليه ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعد الموت فيجازي كلاًّ بما يستحقه ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة الطغيان بالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازموها ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب حين لا ينفعكم الذكر ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصمني من كل سوء، قال ذلك لما توعدوه إذا ظهر مخالفته لدينهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم المحق من المبطل.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم خرج المؤمن من بينهم فطلبوه فلم يقدروا عليه وذلك قوله عز وجل ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عطف على جمل محذوفة تقديره فأراد آل فرعون قتله ففرَّ منهم فأرسل فرعون جماعة ليأخذوه فوقاه الله ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي ما أرادوا به ﴿وحاق بآل فرعون﴾ أي بفرعون وقومه واستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك سوء العذاب أي الغرق في الدنيا والنار في الآخرة، وقيل حاق بآل فرعون يعني بالذين أرسلوا لطلب المؤمن من آل

فرعون ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي القتل فإنه لمَّا فرَّ إلى الجبل فأتبعه طائفة فوجدوه يصلّي والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم فرعون.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ جملة مستأنفة أو النار خبر محذوف ويعرضون استئناف للبيان أو النَّارُ بدل من سُوْءِ العذاب ويُعَرَضُوْنَ حال منها أو من الآل، قال ابن مسعود أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار فيقال يا آل فرعون هذه مأواكم حتى تقوم الساعة، أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم، وقال مقاتل والسديُّ والكلبي يعرض روح كل كافر على النار بكرةً وعشياً ما دامت الدنيا يعني إلى قيام الساعة، ويؤيده ما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة**»(١) وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر وقد دلت الأحاديث عليه وأنعقد عليه الإجماع ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بهمزة الوصل وضم الخاء، يعني يقال لهم (ادخلوا يا) ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وقرأ الباقون بهمزة القطع وكسر الخاء من الإدخال أي يقال للملائكة أدخلوا آل فرعون ﴿أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ قال ابن عباس يريد ألوان العذاب غير الذي كانوا يعذبون به منذ غرقوا يعني في عالم البرزخ.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ﴾ أي أهل النار ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ أي أذكر يا محمد لقومك وقت مخاصمتهم في النار وجاز أن يكون الظرف عطفاً على غدواً ﴿فيقول الضعفاء للذين أستكبروا﴾ تفصيل للحاجة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ﴾ في الدنيا ﴿تَبَعٗا﴾ والتبع يكون واحداً وجمعاً لتابع كَخَدَم جمع خادم على قول البصريين، وقيل معناه ذوي تبع بمعنى أتباع على الإضمار أوَ التجوز، وقال الكوفيون جمع لا واحد له وجمعه أتباع ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدفع استفهام بمعنى الأمر ونصيباً مفعول لما دل عليه مغنون أوله بالتضمين أو مصدر كشيئاً في قوله تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾(٢) فيكون صلة لمغنون ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا﴾ أي نحن وأنتم ﴿كُلّٞ﴾ أي كل واحد منا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه بالغداة والعشي (١٣٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٦٦).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

﴿فِيهَآ﴾ أي في النار فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بدخول أهل الجنّة الجنة وأهل النار النار ولا معقب لحِكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وضع جهنم موضع الضمير للتهويل ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ شيئاً ﴿من العذاب قالوا﴾ أي خزنة جهنم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ إستفهام للإنكار والتوبيخ على إضاعتهم أوقات الدعاء وأسباب الإجابة وعطف على محذوف تقديره أما علمتم في الدنيا ما لحقكم في الآخرة من العذاب ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ منذرين به ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ جاءتنا رسلنا مبشرين ومنذرين ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ أمر على سبيل الإستهزاء ومعناه الإقناط ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي ضياع لايجاب هذا قول من الله ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة وعلى هذا فهو حال أو معترضة.

لمَّا سبق قصة موسى وانتصاره وقومه على فرعون أعقبه ما استحقه الرسل والمؤمنون من النصر عموماً فقال ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الضحاك بالحجة، وقال ابن عباس بالغلبة، والقهر، قال البيضاوي ولا ينتقض ذلك بما كان للكافرين من الغلبة أحياناً امتحاناً إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر.

وقيل بالانتقام من الأعداء في الدنيا ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ يعني يوم القيامة يقوم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين بدلٌ من يوم يقوم ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لكونها باطلة، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر لا تنفع بالتاء الفوقانية لتأنيث الفاعل والباقون بالياء لكون التأنيث غير حقيقي وللفصل ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من الرحمة حال من الظالمين ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي الدار السوآى يعني جهنم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا

تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ متصل بقصة موسى وبين ذلك اعتراض يعني آتينا موسى ما يهتدي به في الدين أي التوراة وذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة بعد موسى ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ أي للهداية والتذكرة أو هادياً ومذكراً ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي لذوي العقول السليمة.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لك بالنصر ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الخلف واستشهد بحال موسى وفرعون ﴿واستغفر لذنبك﴾ أمر تعبدي ليزيدنه درجته ويصير سنة لما بعده ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صلّ شاكراً لربك ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ قال الحسن يعني صلاة العصر وصلاة الصبح، وقال ابن عباس يعني الصلوات الخمس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ينكرون القرآن ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي حجة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ من الله تعالى ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ﴾ كنى بالصدر القلب لكونه موضعه أي ما في قلوبهم ﴿الإكبر﴾ قال ابن عباس أي ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والعظمة يعني يتكبرون عليك ويتعظمون أنفسهم عن إتباعك ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ قال مجاهد ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأن الله عز وجل يذلهم وقال ابن قتيبة إن في صدورهم إلا تكبر على محمد وطمع في أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك الكبر ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم تعليل للإستعاذة ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فمن قدر على خلقها مع عظمها أولاً من غير أصل قدر على خلق الناس ثانياً من أصل وهو إزاحة لإشكال ما يجادلون فيه مما نطق به القرآن من أمر البعث ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم وإتباع أهوائهم وتقليد آبائهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا الدجال فقالوا أيكون منا في آخر الزمان فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا وكذا فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لَخَلْقُ السماوات والأرض أكبر من خلقِ النَّاسِ قال أي من خلق الدجال» وأخرج عن كعب الأحبار قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ قال هم اليهود فيما ينتظرونه من أمر الدجال. عن عمران بن حصين قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«ما بين خلق آدم إلى**

قيام الساعة أمر أكبر من الدجال»[١] رواه مسلم، وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يخفى عليكم أن الله ليس بأعور وأن مسيح الدجال أعور عين اليمنى كأنَّ عينه عنبة طافية**»[٢] متفق عليه، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا قد أنذر أمته الأعور الكذاب إلا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر**»[٣] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه إنه أعور وإنه يجيىء معه مثل الجنة والنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه» متفق عليه، وعن حذيفة عن النبيّ ﷺ قال: «إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء بارد طيب» متفق عليه، وزاد مسلم «وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب» وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدجال أعور العين اليسرى جعد الشعر معه جنته وناره فناره جنة وجنته نار**» رواه مسلم، وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ فقال «يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌ قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فأثبتوا، قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم، قلنا فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال لا أقدروا له قدره». الحديث بطوله رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فيتوجه قِبَلَه رجلٌ من المؤمنين فيلقاه المسالح مسالح الدجال فيقولون له أين تعمد؟ فيقول أعمد إلى هذا الذي خرج قال فيقولون له أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول ما بربنا خفاء، فيقولون اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض أليس قد نهاكم ربكم أن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع (٤٤٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال (٧١٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن، وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٣).

تقتلوا أحداً دونه فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال فيأمر الدجال به فيشبح فيقول خذوه وشجوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال فيقول أما تؤمن بي؟ فيقول المسيح الكذاب قال فيؤمر به فيوشر بالميشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، قال ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له قم فيستوي قائماً ثم يقول له أتؤمن بي؟ فيقول ما ازددتُ فيك إلا بصيرة، قال ثم يقول يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس قال فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار وإنما ألقي إلى الجنة فقال رسول الله ﷺ هذا أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين»[١] رواه مسلم، وعن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة» رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ «يأتي الدجال وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه رجل وهو خير الناس أو من خيار الناس فيقول أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ فيقول الدجال أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحييتُه هل تشكون في الأمر؟ فيقولون لا فيقتله ثم يحييه فيقول والله ما كنتُ فيك أشد بصيرة مني اليوم فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه» متفق عليه، وعن أبي بكرة عن النبيّ ﷺ «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال لها يؤمئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»[٢] متفق عليه.

وعن أبي بكر الصديق قال حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال له خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة»[٣] رواه الترمذي، وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت قال النبيّ ﷺ: «**يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار**» رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الدجال من أمتي (لعل المراد بالأمة أمة الدعوة) سبعون ألفاً عليهم التيجان**» رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، قال البغوي ويرويه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ويتبع الدجال

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه (٢٩٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال (٧١٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء من أين يخرج الدجال (٢٢٣٧).

يومئذ سبعون ألف يهودي كلهم ذو تاج وسيف محلى» وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال فقال: «إن بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء فيها ثُلث قطرها والأرض ثُلث نباتها والثانية تمسك السماء ثُلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلا هلك، وإن من أشد فتنته أن يأتي أعرابياً فيقول أرأيتَ إن أحييت لك ألست تعلم أني ربك؟ فيقول بلى فيمثل له الشياطينَ نحو إبله كأحسن ما يكون ضروعاً وأعظمه أسنمة، قال ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه، فيقول أرأيتَ إن أحييتُ لك أباك وأخاك ألستَ تعلم أني ربك؟ فيقول بلى فيمثل له الشياطينَ نحو أبيه ونحو أخيه، قالت ثم خرج رسول الله لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم ممّا حدثهم قالت فأخذ بلحمتي الباب فقال مهيم أسماء قلتُ يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال، قال إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن، فقلتُ يا رسول الله إنا لنعجن عجيناً فما نخبره حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ، قال تجزئهم ما يجزىء أهل السماء من التسبيح» رواه أحمد والبغوي في المعالم، وعن المغيرة بن شعبه قال: «ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته وإنه قال لي ما يضرك؟ قلتُ إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء، قال هو أهون على الله من ذلك»[١] متفق عليه.

ولمّا قال الله سبحانه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نبه على أن الجاهل كالأعمى والعالم كالبصير فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ والجاهل والعالم والمحسن والمسيء فلا بد أن يكون لهم محل يظهر فيه تفاوتهما ولا تفاوت لهما في الدنيا فهو ما بعد الموت والبعث وزيادة لا في المسيء لأن المقصود نفي مساواته للمحسن فيما له من الثواب والكرامة، والعاطف الثاني عطف الموصول مع ما عطف عليه على الأعمى والبصير لتغاير الوصفين في المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرون، قرأ الكوفيون بالتاء الفوقانية على تغليب المخاطب أو الإلتفات أو أمر الرسول بالمخاطبة والباقون بالتحتانية لأن أول الآيات وآخرها خبر عن قوم غيب والضمير للناس أو الكفار ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿لآتيه﴾ حتى يظهر تفاوت المحسن والمسيء ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: ذكر الدجال (٧١٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الدجال وهو أهون على الله عز وجل (٢٩٣٩).

في إتيانها بناءً على استحالة خلف ما أخبر الله به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها ولا يصدقون وعد الله لغفلتهم وشقاوتهم وقصور نظرهم على المحسوسات.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وقال ربكم ادعوني﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها قيل معناه أعبدوني دون غير ولمَّا عبر عن العبادة بالدعاء قال موضع أُثيبكم ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ والقرينة على أن المراد بالدعاء العبادة وبالإستجابة الإثابة قوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جنهم داخرين﴾ أي ذليلين، قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر سيدخلون بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء، والظاهر أن المراد بالدعاء والعبادة كليهما السؤال فإن سؤال كل ما يحتاج المرء إليه وعدم التوجه إلى غيره تعالى في شيء من الأمور كمال العبودية والإفتقار الإعتراف بصمديته تعالى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**يسأل أحدكم ربه حاجاته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع**»[(١)] رواه الترمذي، وزاد في رواية عن ثابت البناني مرسلاً «حتى يسأل الملح وحتى يسأل شسعه إذا انقطع» عن النعمان بن بشير قال رسول الله ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (أدعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)**»[(٢)] رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في مسانيدهم وقال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٦١٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٦٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (١٤٧٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء (٣٨٢٨).

ابن شيبة في المصنف والحاكم في المستدرك في صحيحه وابن حبان في صحيحه عنه أنه قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول على المنبر فذكر الحديث.

أورد النبيّ ﷺ ضمير الفصل والخبر معرفاً باللام ويقصد في أمثال ذلك حصر المسند على المسند إليه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾[١] أي لا رازق سواه وقد يقصد قصر المسند إليه على المسند كما في قوله الكرم هو التقوى والحسب هو الإيمان يعني لا كرم إلا التقوى ولا حسب إلا الإيمان، وهاهنا يحتمل المعنيين والحصر إنما هو على سبيل المبالغة ولعل المراد هاهنا أن الدعاء والعبادة متحدان بالذات مختلفان بالإعتبار والمفهوم فإن كل دعاء وسؤال فهو عبادة وطاعة لأن في السؤال ذلٌّ وافتقار والعبودية في اللغة إظهار التذلل والافتقار والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولدا لا يستحقه إلا الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٢] وكل عبادة وطاعة فهو سؤال، حيث قال رسول الله ﷺ: «**أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**» رواه ابن أبي شيبة في المصنف وقال الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] قال الجزري في النهاية إنما سمى التهليل والتحميد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر «إذ اشغل عبدي ثناءه عليَّ عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين»، وروى الترمذي ومسلم «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين»[٤] وفي رواية «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي» الحديث.

اعلم أن الدعاء منه ما هو فريضة وهو قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ في الفاتحة في الصلاة أو سنة مؤكدة كالدعاء في القعدة الأخيرة ومواقف الحج وغير ذلك ومنه ما هو حرام أو مكروه وهو قصر السؤال على لذات الدنيا وسؤال ما هو معصية وسؤال ما هو مستحيل أو ما في معناه قال الله تعالى: ﴿منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾[٥] وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢٦).
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾[١] وأما سؤال كل أمر يحتاج إليه العبد في الدنيا والآخرة والاستعاذة من كل شر فمأمور به مستحب بإجماع العلماء، وذهب طائفة من الزهاد إلى أنَّ ترك الدعاء أفضل سلاماً للقضاء، وقال طائفة إن دَعَا للمسلمين فحسن وإن خص نفسه فلا.

والحجة لنا الكتاب والسنة والإجماع عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**»[٢] رواه الترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه والحاكم، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»[٣] رواه الترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة إنتظار الفرج**»[٤] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٥] رواه الترمذي، وابن حبان والحاكم وقال الترمذي حديث غريب، والمراد من هذه الأحاديث أنه من لم يسأل الله تعالى استكباراً غضب عليه حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد**» **رواه ابن حبان والحاكم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ**: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض**» رواه الحاكم في المستدرك، وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سأل الله شيئاً أحبُّ إليه من أن يسأل العافية**» رواه الترمذي ورواه الحاكم في المستدرك «فتحت له أبواب الجنة».

فصل:

فيما وعد عن الإستجابة لمن يدعو الله منها هذا الحديث عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**من فتح له فلكم باب الدعاء فتحت له أبواب الإجابة**» رواه ابن أبي شبيبة، وعن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء (٣٨٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: (٣٣٧١)، وقد ضعف من أجل ابن لهيعة.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٧١).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٣).

أن يردهما صفرا»[١] رواه الترمذي وأبو داود والبيهقي في الدعوات الكبيرة، وعن أبي سعيد الخدري أن النبيّ ﷺ قال: «**ما من مُسلم يدعو بدعوة ليس فيها أثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إياه بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا إذاً نكثر، قال الله أكثر**» رواه أحمد، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل، قيل يا رسول الله ما الإستعجال؟ قال يقول قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»[٢] رواه مسلم، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء**» رواه الترمذي، وورواه أحمد عن معاذ بن جبل وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كفَّ عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»[٣] رواه الترمذي.

فصل:

فيمن لا ترد دعوته: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم**»[٤] رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه، وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها إليه فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الربُّ وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**» رواه الترمذي، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملِكَ مؤكل كلّما دعاه لأخيه بخير قال الملك المؤكل به آمين ولك بمثله**»[٥] رواه مسلم، وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «خمس دعوات تستجاب لهن دعوة المظلوم حتى ينتصر ودعوة الحاج حتى

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٥٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (١٤٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي (٢٧٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨١).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في دعوة الوالدين (١٩١١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء بظهر الغيب (١٥٣٥).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٣).

يُصدرو دعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب ثم قال وأسرع الدعوات إجابة دعوة الأخ بظهر الغيب» رواه البيهقي في دعوات الكبير، وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «**إن أسرع الدعاء إجابةً دعوة غائب لغائب**» رواه الترمذي وأبو داود.

فصل:

في شرائط الإستجابة للدعاء منها تجنب الحرام في المأكل والمشرب والمكسوب، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك**»[1] رواه مسلم. ومنها حضور القلب عند الدعاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاه**»[2] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، ومنها الجد في الدعاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهمّ إغفر لي إن شئتَ ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[3] رواه مسلم.

فصل:

في سنن الدعاء وآدابه: عن فضالة بن عبيد قال بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلّى فقال اللّهم اغفر لي وارحمني فقال رسول الله ﷺ «عجلتَ أيها المصلّي إذا صليتَ فقعدتَ فأحمد الله بما هو أهله وصل عليَّ ثم ادعه، قال ثم صلّى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلّى على النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «أيها المصلّي ادْعُ تجب»[4] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، وعن ابن مسعود قال كنتُ أصلّي (والنبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلمّا جلستُ بدأتُ بالثناء على الله ثم الصلاة على النبيّ ﷺ ثم دعوتُ لنفسي فقال النبيّ ﷺ: «**سل تعطه**» رواه الترمذي، وعن عمر بن الخطاب قال: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلّي على نبيك» رواه الترمذي، وعن مالك بن يسار قال قال رسول الله ﷺ «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها، وفي رواية ابن عباس «سلوا الله ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٧٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: العزم والدعاء ولا يقل إن شئت (٢٦٧٩).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٧٧).

فامسحوا بها وجوهكم»(١) رواه أبو داود، وعن عمر قال كان رسول الله ﷺ «إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه» رواه الترمذي، وعن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك، رواه أبو داود، وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه، وعن السائب بن يزيد عن أبيه أن النبيّ ﷺ كان إذا دعا رفع يديه مسح وجهه بيديه، رواه البيهقي في الدعوات الكبير، وعن عكرمة عن ابن عباس قال المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك أو نحوهما. رواه أبو داود، وعن ابن عمر أنه يقول إن رفعكم أيديكم بدعة ما زاد رسول الله ﷺ على هذا يعني إلى الصدر، رواه أحمد، وعن أبي بن كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعاه بدأ بنفسه، رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب صحيح.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي لتستريحوا فيه بالنوم ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي يبصر فيه، وإسناد الإبصار إليه مجازي مبالغةً ولذلك عدل به عن التعليل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم وعظم الفضل وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم يعني أنهم هم الذين يكفرون ولا يشكرون كقوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(٢) وجملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ متصل بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾(٣) والله مبتدأ والموصول خبره أو خبر مبتدأ محذوف والموصول صفة له ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوص بتلك الأفعال المقتضية للألوهية والربوبية، مبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ لا غيره ﴿رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الجواهر والأعراض وأفعال العباد ﴿لَّآ إِلَٰهَ﴾ أي لا تستحق العبادة أحد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ ليس أحد غيره موصوفاً بشيء من الصفات المقتضية للألوهية المستوجبة للعبادة ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكيف ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون من عبادته إلى عبادة غيره الأربعة كلها أخبار مترادفة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما أفك كفار مكة ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي مستقراً ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفاً فوقكم استدلال ثان بأفعال آخر مختصة به تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ يعني خلقكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء متهيئاً لمزاولة الصنائع وإكتساب الكمالات، قال ابن عباس خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده وغيره يتناول بفيه ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء (١٤٨٤).
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٣.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الأطعمة اللذيذة، الله مبتدأ والموصول خبره أو خبر مبتدأ محذوف يعني هو والموصول صفة والجملة مقررة للجملة السابقة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن كل ما سواه مربوب مفتقر بالذات معترض لزوال ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية الذي يقتضي ذاته وجوده الوجوب والوجود وإن كانا صفتي كمال لكنهما ظلان من ظلال ذاته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر ثان لهو أي لا يستحق العبادة إلا من كان هذا شأنه ولا شيء كذلك إلا هو ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أي فأعبدوه واسألوا منه حوائجكم، الفاء للسببية فإن ما ذكر من الصفات موجبات لعبادته ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ قيل معناه قائلين ذلك، وقال الفراء هو خبر وفيه إضمار الأمر مجازه: «فادعوه وقولوا الحمد لله رب العالمين» وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال من قال لا إله إلا الله فليقل على إثره الحمد لله رب العالين فذلك قوله عز وجل: ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ والله أعلم.

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

أخرج جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وَشَيبَة بن ربيعة قالوا يا محمد إرجع عما نقول وعليك بدين آبائك وأجدادك فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ أي من الحجج والآيات فإنها مقويّة لأدلة عقلية منهية عنها ﴿وأمرت أن اسلم لرب العالمين﴾ أي أنقاد له وأخلص له ديني ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي أطفالاً والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ اللام متعلق بمحذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وكذا في قوله ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ ويجوز عطفه على لتبلغوا قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام بضم الشين والباقون بكسرها ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ أي ويفعل ذلك لتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي وقتاً معيناً لا يجاوزونه يريد أجل الحياة إلى الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لتعقلوا ما في ذلك من الحجج والعبر ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى﴾ أي أراد ﴿أَمْرًا﴾

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج في تكوينه تجشم الفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق من حيث أنه يقتضي قدرةً ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني يقولون أنها ليست من عند الله أو يتولون خلاف سبيل الرسول والمؤمنين، الإستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات وتقرير فيه تعجيب ﴿أنى يصرفون﴾ كيف صرفوا عن الحق، استفهام للتوبيخ وتكرير ذم المجادلة للتأكيد أو لتعدد المجادل أو المجادل فيه، روى عن محمد بن سيرين أن الأولى كانت في المشركين وهذه الآية نزلت في القدرية ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الشرائع بدل من ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ فإن كان المراد به القدرية مجوس هذه الأمة فهم يكذبون ما ثبت بالكتاب والسنة من كون الله سبحانه خالقاً للأشياء كلها من الخير والشر والجواهر والأعراض قادراً على كل شيء يغفر لمن يشاء ما يشاء من الصغائر والكبائر ويعذب من يشاء يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يجب عليه شيء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1] وينكرون الصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك، وجاز أن يكون الذين كذَّبُوا مبتدأ فيه معنى الشرط وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرفع عطف على الأغلال أو مبتدأ خبره ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ والعائد محذوف أي يسحبون بها وهو على الأول حال، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قرأ والسلاسل بالنصب على المفعولية ويسحبون بفتح الياء على البناء للفاعل قال وذلك أشد عليهم وهم يَسْحَبونَ السَّلاَسِلَ ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

يحرقون من شجر التَّنُّورَ إذا ملأه بالوقود، وقال مقاتل وقد بهم النار، وقال مجاهد يصيرون وقود النار والمراد تعذيبهم بأنواع العذاب ينقلون من بعضها إلى بعض تارة بالحميم وأخرى بالنار، أخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية إلى قوله ﴿يُسْجَرُونَ﴾ فقال: «لو أن رُضافة مثل هذه (وأشار إلى جمجمة) أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمس مائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها أو قعرها»(١).

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿قَالُوا ضَلُّوا﴾ أي غابوا ﴿عَنَّا﴾ فلا نراهم وذلك قبل أن يقرن بهم آلتهم أو المعنى ضاعوا عنا فلم نجد منهم ما كنا نتوقع منهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ قيل هذا إنكار للإشراك مثل قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٢) وقيل معناه لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ينفعنا أو يدفع عنا المكروه، وقال الحسن بن الفضل أي لم نصنع من قبل شيئاً أي ضاعت عبادتنا كما يقول من ضاع عمله ما كنتُ أعمل شيئاً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إضلالاً مثل إضلال هؤلاء المشركين أو مثل إضلال القدرية ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أجمعين حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تبطرون وتتكبرون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي تتوسعون في الفرح والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ ﴿أدخلوا أبواب جهنم﴾ السبعة المقسومة لكم ﴿خَالِدِينَ﴾ مقدري الخلود فيها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق جهنم وكان مقتضى النظم فبئس مدخل المتكبرين ولما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على إيذاء المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرك وإهلاك الكافرين ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿فإما نرينك﴾ أن شرطية أدغمت في ما الزائدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ﴿بعض الذي نريهم﴾ من القتل والأسر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريهم ﴿فالينا يرجعون﴾ يوم القيامة فنجازيهم على أعمالهم وهو جواب نَتَوَفَّيَنَّكَ وجواب نُرِيَنَّكَ محذوف مثل فذلك، وجاز أن يكون هذا جواباً لهما بمعنى أن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب ويدل على شدته الاقتصار بذكر الرجوع

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

في هذا المعرض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ التنوين للتكثير والتعظيم ﴿مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أخرج أحمد وابن راهويه في مسنديهما وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك من حديث أبي لبابة أن النبيّ ﷺ سئل عن عدد الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» فقيل فكم الرسل منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً» وأخرج ابن حبان من حديث أبي ذر نحوه، والمذكور في القرآن سبعة وعشرون ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية﴾ أي معجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بأمره وإرادته ليس لهم إختيار في إتيان بعضها والإستبداد بإتيان المقترح بها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قضاؤه بين الأنبياء والأمم ﴿قضي بالحق﴾ أي بنصر الأنبياء والمؤمنين وتعذيب الكفار ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الكفار المعاندون باقتراح الآيات بغير ظهور الحق بالمعجزات.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فإن من جنسها ما يؤكل كالغنم ومنها يؤكل ويركب وهو الإبل والبقر الجملة متصلة بقوله هو الَّذِي يُحيي ويُمِيتُ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها وجلودها ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرة عليها عطف على قوله ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال على الفلك. ولم يقل في الفلك مزاوجة وتغير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة إذ يقصد به التعيش والتلذذ والركوب

والمسافرة عليها قد يكون لأغراض دينية واجبة أو مندوبة أو للفرق بين العين والمنفعة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وجوده وكمال قدرته وفرط رحمته ﴿فَأَيَّ﴾ آية من ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ إستفهام للإنكار على الإنكار، فإنها لكثرتها ولظهورها لا تقبل للإنكار وهو ناصب أيّ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ تقديره ألم يخرجوا فلم يسيروا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما بقي منهم من القصور والمصانع ونحوها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ يعني فلم ينفعهم ذلك ما الأولى نافية أو استفهامية للإنكار منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة بها ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ عطف على ما أغنى ﴿رسلهم بالبينات﴾ بالمعجزات والآيات الواضحات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ واستحقروا علم الرسل والمراد بالعلم ما يزعمون علماً نافعاً وهو في الحقيقة إما جهل مركب كقول اليونانيين وغيرهم من الكفار في الإلهيات وبعض الطبيعيات والرياضيات، وكقول كفار مكة لن نبعث ولن نعذب كذا قال مجاهد وكقول اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾[1] وإما علم متعلق بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[2] فلما جاءتهم رسلهم معلوم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبنائها على الإجمال في طلب الدنيا وترك إتباع الشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤوا بها واسهزؤوا بهم واعتقدوا أن علمهم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به، وإما علم بأشياء لا ينفعهم في الآخرة كعلم الطبيعي والرياضي والنجوم والسحر والشعبذة لأهل اليونان والهند وغيرهم. روي أن أفلاطون سأل عيسى بن مريم عليه السلام إمتحاناً لنبوته فقال إن كانت السماوات قسماً والحوادث سهاماً والإنسان هدفاً والرامي هو الله فأين المفر؟ فأجاب عيسى عليه السلام ففروا إلى الله فحينئذ أيقن أفلاطون بنبوته لكن قال إنما الأنبياء لأجل الناقصين ونحن كاملون لا حاجة لنا إلى الرسل، وعن سقراط أنه سمع موسى عليه السلام وقيل له لو هاجرت إليه فقال نحن قوم مهتدون لا حاجة لنا بمن يهدينا، وقيل معناه فَرِحُوا أي ضحكوا استهزاءً بما عندهم أي عند الأنبياء مّنَ العِلمِ ويؤيده قوله تعالى ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ وقيل ضمير فرحوا راجع إلى الرسل يعني لمَّا رأى الأنبياء تمادى جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من الله العلم وشكروا الله تعالى عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٧.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا﴾ أي الكفار ﴿بَأْسَنَا﴾ أي شدة عذابنا عند الموت ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي تبرأنا مما كنا نعبد من الأصنام ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ هذا إما من باب تنازع العاملين وأعمال أحدهما والإضمار في الثاني أو يكون اسم يك ضمير الشأن مستتراً فيه أو يكون يَكُ تامة وبنفعهم بتقدير أن فاعل له ﴿لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ أي عذابنا لامتناع قبوله حينئذٍ ولذلك قال لم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم ﴿سنت الله﴾ منصوب على المصدرية من فعل محذوف للتأكيد، أي سن الله ذلك سنة ماضيةً في العباد أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع وأن العذاب نازل على مكذبي الرسل، وقيل منصوب بنزع الخافض كسنة الله، وقيل على الإغراء أي احذروا سنة الله ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي وقت رؤيتهم الباس ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بذهاب الدارين، قال الزجاج الكافر خاسر في كل وقت ولكن يتبين لهم خسرانهم إذا العذاب.

سورة فصلت

آياتها أربع وخمسون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ إن جعلته مبتدأً فخبره ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ وإن جعلته تعديد الحروف فتنزيلٌ خبر محذوف، قال الأخفش تنزيلٌ مبتدأ لتخصيصه بالصفة وخبره ﴿كِتَٰبٌ﴾ وهو على الأولين بدل منه أو خبر آخر أو خبر محذوف، ولعل افتتاح هذه السور السبع بحم وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى» رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي عن معقل بن يسار، وإضافة التنزيل للرحمن الرحيم للدلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي بينت بالأحكام والقصص والمواعظ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح أو الحال من الضمير المجرور في آياته فإنه أضيف إليه فاعل فصلت مثل ميتاً في قوله تعالى: ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1] وفيه امتنان عليهم بسهولة قراءته وفهمه فإنه لو كان بغير لغتهم لما فهموه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نزل منزلة اللازم أي لقوم ذوي علم ونظرٍ لا لمن أعرض عنها، أو يقال مفعوله محذوف منوى أي لقوم يعلمونَ معانيه ويفهمونه أو يكون على طريقة من يسمع يخل بتقدير مفعوليه أي لقوم

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

يعلمونه حقاً، والجملة صفة أخرى لقرآناً أو صلة لتنزيل أو لفصلت والأول أولى لوقوعه بين الصفات ﴿بَشِيرًا﴾ لأولياء الله ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأعدائه ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله عطف على فصلت ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يستمعون تعنتاً وعناداً أو لا يقبلون يقال شفعت إلى فلان فلم يسمع قولي يعني لم يقبل والجملة بيان للإعراض.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني مشركي مكة عطف على إعراض ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية جمع كنان ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد فلا نفقه ما تقول ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل وصمم لا نسمع ما تقول والمعنى أنا في ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ خلاف في الدين يمنعنا عن التواصل وللدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ أصلاً.

وهذه تمثيلات لامتناع القبول والمواصلة والمعنى أنا في ترك القبول والتواصل منك بمنزلة من بينهما حاجز قوي ﴿فاعمل﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك ﴿قُلْ﴾ يا محمد في جوابهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ قال الحسن علمه الله التواضع يعني ما أنا إلا واحد منكم لولا الوحي لم يكن عندي من العلم ما ترونه ولكن أوحي إليَّ ﴿أنما إلهكم إله واحد﴾ فعليكم بإصغائه وتلقيه أو المعنى لستُ بملك ولا جني لا يمكنكم التلقي منه ولا أدعوكم إلى ما يأبى عنه العقول بل أدعوكم إلى التوحيد إلى الدليل يدل عليه العقل والنقل ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي توجهوا إلى الله بالطاعة ولا تميلوا عن طاعته ﴿واستغفروه﴾ مما أنتم عليه من الشرك وسوء الأعمال ثم هددهم على ذلك بقوله ﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب مبتدأ خبره ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس الذين لا يقولون لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم عن الشرك بالتوحيد، وقال الحسن وقتادة لا يقرون بالزكاة ولا يرونه واجباً وكان يقال الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ومن تخالف عنها هلك.

وقال مقاتل والضحاك لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم، قال البيضاوي فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع وقد ذكرنا هذه المسألة في تفسير سورة المدثر في قوله تعالى ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[1] الآية ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حال مشعر بأن امتناعهم من الزكاة مبني على إنكارهم للآخرة فإن من لم يعتقد بالآخرة وثواب الزكاة فيها اعتقد إعطاء المال للفقير إضاعة لا محالة جعل الله سبحانه منع الزكاة

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٣.

مقروناً بالإشراك والكفر بالآخرة لأن المال أحب الأشياء إلى الأنفس فبذله في سبيل الله أول دليل على إيمانه ففيه حث للمؤمنين على أيتاء الزكاوة وتهديد شديد على منعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ قال ابن عباس غير مقطوع، وقال مقاتل غير منقوص، وقيل غير ممنون لي لا يمنُّ به عليهم من المن، وقال مجاهد غير محسوب.

وقال السدي نزلت الآية في المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم الأجر على حسب ما كانوا يعملون في الصحة، عن عبد الله عمرو قال قال رسول الله ﷺ: **«إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به أكتب له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه»** رواه البغوي في شرح السنة والتفسير، وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»**(١) رواه البخاري، وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا ابتلي المسلم ببلاء في جسده قال للملك أكتب له صالح عمله الذي كان يعمل فإن شفاه غسله وطهره وإن قبضه غفر له ورحمه»** رواه البغوي في شرح السنة، وعن ابن مسعود أنه قال يكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يكتب له قبل أن يمرض فمنعه منه المرض، رواه رزين.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قل ائنكم﴾ إستفهام توبيخ، والجملة الإستفهامية مستأنفة في جواب ما أقول لهم إن لم يستقيموا ولم يستغفروا ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي في مقدار يومين سميا بيوم الأحد والاثنين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ ولا يجوز له ند ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين ﴿رب العالمين﴾ أي خالق لجميع ما وجد من الممكنات ومرب لها، جمع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦).

العالم (لاختلاف أنواعه) بالياء والنون تغليباً للعقلاء وجملة ذلك رب العالمين تعليل للتوبيخ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ أي فوق الأرض مرتفعةً ليظهر للناظرين ما فيها من وجوه الأستبصار ويكون منافعها معرضة للطلاب ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي في الأرض بما خلق فيها من البحار والأنهار والثمار والأشجار والحيوانات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ أي أقوات أهلها أو الإضافة لأدنى ملابسة أي أقوات خلق فيها، قال الحسن: قسم في الأرض أرزاق العباد والبهائم بأت عَيَّنَ لكلٍ ما يصلحه ويعيش به وقد قرأ ابن مسعود «وقسم فيها أقواتها» وقال عكرمة والضحاك قدر في كل بلد ما لم يجعل في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، قال الكلبي قدر الخبز لأهل قطر والذرة لأهل قطر والسمك لأهل قطر والتمر لأهل قطر ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي في تتمة أربعة أيام يعني في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء ومتصلين باليومين الأولين فهو كقولك سرتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة وإلى كوفة في خمسة عشر ولم يقل في يومين للإشعار باتصالهما باليومين الأولين ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب أي استوت سواءً بمعنى استواءً وقدر تقديراً سواءً والجملة صفة أيام، ويدل عليه قراءة يعقوب بالجر صفة لأربعة، وقيل حال من الضمير في أقواتها أو في فيها، وقرأ أبو جعفر سواءٌ بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلق بمحذوف أي هذا الحصر مبين للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها كذا قال قتادة والسديُّ أو بقدر أي قدر فيها الأقوات للطالبين لها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي قصد نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على غيره والظاهر أن ثم لتفاوت ما بين الخلقتين لا للتراخي في المدة لقوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[1] فإن دحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ لعله أراد مادتها والأجزاء المتصغرة التي ركبت منها وكان مادة السماء دخاناً بخاراً للماء كذا قال البغوي ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما من التأثير والتأثر وإبراز ما أودعتُكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة أو ليأت كل منكما في حدوث ما أريد توليده منكما، قال طاووس عن ابن عباس أي أعطيا ما خلقتُ فيكما من المنافع لمصالح العباد، وقال ابن عباس قال الله عزَّوجلَّ أما أنت يا سماء فاطلعي شمسك وقمرك ونجومكِ وأنتِ يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثماركِ ونباتكِ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ منصوب على الحال أي طائعتين أو كارهتين أو على الظرف، أي ائتيا وقت طوع أو كرهٍ

(۱) سورة النازعات، الآية: ۳۰.

أو على المصدر من طريق ضربتُه سوطاً أي إيتيا إتيان طوع أو كره، قال ابن عباس قال الله تعالى لهما أفعلا ما أمرتكما وإلا ألجأتُكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرهاً فأجابتا بالطوع وقالتا أتينا و﴿قالتا أتينا طائعين﴾ ولم يقل طائعتين لأنه ذهب به إلى المساوات والأرض ومن فيهن مجازه أتينا بما فينا طائعين، فيه تغليب للعقلاء أو لما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى من يعقل والأظهر أن الكلام وارد مورد التمثيل وأراد بقوله ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده وبقوله ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ سرعة تأثرهما بالذات فهو تمثيل بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[(١)].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي فخلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن والضمير للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سماوات حال على الأول وتميزٌ على الثاني في يومين يوم الخميس والجمعة، قال المحلي ففرغ منها في آخر ساعة منه وفيها(خلق آدم) ولذلك لم يقل هاهنا سواء، قلتُ: لعل قول المحلى هذا مبني على ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**»[(٢)] والظاهر أن هذا الحديث وهم فيه الراوي فإن الثابت بالقرآن خلق السماوات والأرض في ستة أيام وذكر في هذا الحديث سبعة أيام، والصحيح أن بدء الخلق من يوم الأحد وهذا الحديث يدل على أنه من يوم السبت ومنطوق هذه الآية أن الله خلق الجبال رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يوم الثالث والرابع وهذا الحديث يدل على أنه خلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين، والظاهر من سياق قصة آدم عليه السلام أن خلق آدم كان بعد زمان طويل من خلق السماوات والأرض ﴿إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[(٣)] الآيات، وفي قصة خلق آدم تعجين طينه أربعين يوماً فلو صح خلق آدم في آخر ساعة من الجمعة فذلك الجمعة بدء الخلق والله أعلم ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال عطاء عن ابن عباس خلق في كل سماء خلقها من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام (٢٧٨٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الملائكة وما فيها من البحار والجبال والبرد وما لا يعلم إلا الله، وقال قتادة والسديُّ، يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها، وقال مقاتل أوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي وقيل أوحى في كل سماء الأمر الذي أمر به من فيها من الطاعة ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي كواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً، وقيل مفعول له على المعنى كأنه قال وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينةً وحفظاً ذلك الذي ذكرت من صنعه ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عطف على قل أئنكم يعني إن أعرضوا أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ أي فحذرهم أن يصيبهم عذاب شديد مهلك والصاعقة المهلكة من كل شيء ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ﴾ يعني عاداً وثمود ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ جملة إذ جاءتهم الرسل حال من صاعقة عاد ولا يجوز جعله صفةً لصاعقة أو ظرفاً لانذرتكم لفساد المعنى ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم وابتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار عمَّا جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة وكل من اللفظين يحتملهما، أو من قبلهم ومن بعدهم إذ قد بلغهم خبر المتقدمين وأخبرهم هود وصالح عن المتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أن مخففة من الثقيلة بإضمار ضمير الشأن أو مفسرة لأنه بعد ذكر الرسالة وفيه معنى القول أو مصدرية والباء مقدرة أي بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟﴾ أي عاد وثمود ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل لأنزل ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ برسالته ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعمكم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ إنما أنتم بشر مثلنا لافضل لكم علينا.

روى البغوي عن جابر بن عبد الله قال قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فأتاه فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعتُ الشعر والكهانة والسحر وعلمتُ من ذلك علماً وما يخفى عليَّ إن كان كذلك.

فأتاه فلما خرج إليه قال أنت يا محمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنتَ خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضلّلُ آباءنا فإن كنتَ إنما تريد الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنتَ رأساً ما بقيتَ وإن كان بك الباءة زوجناك عشر سنوة تختار من أيّ بنات قريش وإن كنتَ تريد المال جمعنا لك من ما تستغني أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت فَلمَّا فرغ قرأ رسول الله ﷺ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حٰم تنزيلٌ مّنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم كتاب فصلت آياته قرآناً﴾ إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ الآية فأمسك عتبة على فيه، فناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فاحتبس عنهم.

فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وقد أعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه، فانطلقوا إليه فقال أبو جهل والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً وقال والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيتُه وقصصتُ عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسكت به وناشدتُه بالرحم أن يكف ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفتُ أن ينزل عليكم العذاب.

وقال: قال محمد بن كعب القرظي حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد قال يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضهن فنعطيه ويكف عنا (وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب محمد ﷺ يزيدون ويكثرون) قالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام عتبة إلى رسول الله ﷺ فقال يابن أخي إنك منا حيث علمتَ من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيتَ بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفهتَ أحلامهم وعبتَ آلهتهم وكفّرتَ من مضى من آبائهم فاستمع مني أعرض عليك أموراً لتنظر فيها، فقال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد، فقال يابن أخي إن كنت إنما

تريد بما جئت المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منَّا مالاً وإن كنت تريد شرفاً سَّودناك علينا وإن كان هذا الذي بك مهيأ تراه لا تستطيع رده طلبنا لك الطب أو لعل هذا الشعر جاش به صدرك فإنكم لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا يقدر عليه غيركم، حتى إذا فرغ فقال له رسول الله ﷺ أو قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم.

قال فاستمع مني قال أفعل فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً﴾ ثم مضى فيها يقرأ فلمَّا سمع عتبة أنصت وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال قد سمعتَ يا أبا الوليد فأنتَ وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلمَّا جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ بمثله قط ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة يا معشر قريش أطيعوني خلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأٌ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب به فملكه ملككم وعزّه عزُّكم فأنتم أسعد الناس به، فقالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي لكم فأصنعوا ما بدا لكم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي تعظموا على أهل الأرض بغير إستحقاق ﴿وَقَالُواْ﴾ لما خُوّفوا بالعقاب اغتراراً بقوتهم وشوكتهم ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يعني ليس أحد أشد قوة منا ندفع العذاب بقوتنا كان أحدهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل يجعلها حيث يشار فقال الله تعالى ردّاً عليهم ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الاستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أقالوا ذلك ولم يروا أي لم يعلموا ﴿أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا﴾ أي بمعجزاتنا ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ أي يعرفون أنها حق وينكرونها عطف على قالوا ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ عطف على كانوا ﴿عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ عاصفاً شديد الصوت شديد البرد من الصر بمعنى البرد أي يصر أي يجمع ويقبض أو الصرة بمعنى الصيحة ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب بسكون الحاء والباقون بكسرها أي مشؤمات ذات نحوس في حقهم، قال الضحاك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ودامت الرياح عليهم من غير مطر، قيل كان آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا يوم الأربعاء ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ أي عذاب الهوان أضاف العذاب إلى الخزي إضافة

الموصوف إلى الصفة مثل رجل الحرب وحاتم الجود بدليل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الأصل في الحياة الدنيا ولعذاب الأخرة أخرى عطف على أرسلنا وهو في الأصل صفة المعذب وصف به العذاب للمبالغة مجازاً ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي دللناهم على الخير والشر بإرسال الرسل وبيناهم سبيل الهدى كذا قال ابن عباس ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الجهل والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي صيحة من السماء مهلكة للعذاب والهوان والذل وإضافتها إلى العذاب ووصفه بالهون للمبالغة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يحشر﴾ قرأ نافع ويعقوب بفتح النون وضم الشين على صيغة المتكلم المبني للفاعل ﴿أَعْدَآءَ ٱللَّهِ﴾ بالنصب على المفعولية والباقون بضم الياء وفتح الشين على البناء للمفعول وأعداء الله بالرفع ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يساقون ويدفعون إلى النار، وقال قتادة والسديُّ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، قال البيضاوي وهي عبارة عن كثرة أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية ﴿إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضروها وما زائدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال السديُّ وجماعة المراد بالجلود الفروج وقال مقاتل ينطق جوارحهم، روى مسلم عن أنس قال: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك فقال هل تدرون مما أضحك؟.

قلنا الله ورسوله أعلم، قال من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول بلى، قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول كفى بنفسِكَ اليَوْم

عَلَيْكَ شَهِيدًا وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فينطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكُنَّ وسحقاً فَعنكنَّ أناضل»[١] وفي حديث أبي هريرة عند مسلم «فيختم على فيه ويقول لفخذه أُنطق فينطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله» ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الذين يحشرون إلى النار ﴿لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ بعداً لكن وسحقاً فعنكن أناضل وهذا السؤال سؤال توبيخ ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ ذي نطق ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ قدَّم الظرف للحصر والإهتمام ورعاية الفواصل وهذه الجملة يحتمل أن يكون من تمام كلام الجوارح وأن يكون استئنافاً مثل ما بعده.

روى الشيخان في الصحيحين والبغوي عن ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر يسمع ما جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا»[٢]، قال البغوي قيل الثقفي عبد يا ليل والقرشيان ختنا ربيعة صفوان ابن أمية فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾ أي آية، قال البغوي معناه تستخفون عند أكثر أهل العلم، وقال مجاهد تتقون، وقال قتادة تظنون يعني ما كنتم تستترون الفواحش من جوارحكم مخافة ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ كما كنتم تستترونها عن الناس مخافة الفضيحة، فالمعنى ما كنتم تظنون أن جوارحكم تشهد عليكم وفيه تنبيه ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فلذلك أجرأتم على ما فعلتم ﴿وَذَٰلِكُمۡ﴾ أي ظنكم هذا مبتدأ وقوله ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ أي أهلككم خبران له ويجوز أن يكون ظَنُّكُمُ بَدُلاً من إسم الإشارة وأرداكم خبره ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ثم أخبر عن حالهم فقال ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾ في النار ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ لا خلاص لهم عنها ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ أي إن طلبوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبون ويسترضون ربهم فما هم بمجابين إلى ذلك ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ أي بعثنا ووكلنا، وقال مقاتل هيأنا عطف على قوله في صدر السورة ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ وبينهما معترضات ﴿لَهُمۡ﴾ أي للكافرين ﴿قرناء﴾ جمع قرين ككرماء جمع كريم يعني نظراء من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر وقيل أصل

---

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ (٧٥٢١)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٥).

القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا وأتباع الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب وإنكار البعث ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب ﴿فِي أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ صفة لأمم ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم صفة أخرى لأمم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ بإيثار موجبات العذاب على موجبات الرحمة تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم أو للأمم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ قال ابن عباس كان بعضهم يوصي إلى بعض إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو، وقال مجاهد الفوافيه بالمكاء والصفير، وقال الضحاك أكثروا الكلام فتخلطوا عليه ما يقول، وقال السديُّ صيحوا في وجهه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع المظهر موضع الضمير تسجيلاً للكفر وللدلالة على شمول هذا الحكم لهم ولغيرهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي سيئات أعمالهم أو المعني لنجزينهم جزاء كفرهم الذي هو أسوأ ما كانوا يعملون في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ أي الأسوأ ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبره ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء أو خبر محذوف ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي دار الإقامة ﴿جَزَاءً﴾ منصوب على المصدرية لفعله المقدر أي يجزون والجملة تأكيد لما سبق ﴿بما كانوا بآياتنا﴾ أي القرآن ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي ينكرون الحق أو المعنى يلغون عند قراءة القرآن وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي عذبوا ذلك العذاب.

وقالوا يعني يقولون بعدما يلقون في النار ﴿ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس﴾ يعنون شيطاني النوعين الحاملين إياهما على الضلال والعصيان، وقيل هما إبليس وقابيل بن آدم لأنهما سنا الكفر والمعصية، قرأ ابن عامر وابن كثير ويعقوب وأبو بكر والسوسي أرنا بالتخفيف أي بسكون الراء هاهنا خاصة وقرأ الدوري باختلاس

كسرة الراء والباقون بإشباعها ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النار ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ أي في الدرك الأسفل من النار قال ابن عباس ليكونا أشد عذاباً منا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أي التزموا المنهج المستقيم، قال المحلي نزلت في أبي بكر الصديق وثم لتراخيه عن الإقرار في الرتبة والمراد بالإستقامة الإعتدال وعدم الزيغ والإنحراف عن الحق بوجه من الوجوه لا في الإعتقاد ولا في الأخلاق ولا في الأعمال، قال في القاموس استقام اعتدل وقومته عدلته فهو قويم ومستقيم ومنه الصراط المستقيم للطريق السوي الذي يوصل سالكه إلى المطلوب البتة، فالاستقامة لفظ مختصر شامل لجميع الشرائع من الإتيان بالمأمورات والاجتناب عن المنهيات على سبيل الدوام والثبات، ومن هاهنا أجاب رسول الله ﷺ سفيان بن عبد الله الثقفي حين قال يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك؟ وفي رواية غيرك، قال «قل آمنتُ بالله ثم استقم»[(١)] رواه مسلم، قال البغوي سئل أبو بكر الصديق عن الاستقامة فقال أن لا تشرك بالله شيئاً، وقال عمر بن الخطاب الإستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب، وقال عثمان بن عفان أخلصوا العمل لله، وقال عليٌّ أدو الفرائض، وقال ابن عباس إستقام على أداء الفرائض، وقال الحسن إستقاموا على أمر الله فاعملوا بطاعته وأجتنبوا معصيته، وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إله إلاَّ الله حتى تلحقوا بالله، وقال مقاتل استقاموا على المعرفة فلم يرتدوا، فكلها عبارات عما ذكرنا فإن قول عمر ليستقيم على الأمر

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام (٣٨).

والنهي ولا تروغ روغان الثعالب وقولَ علي وابن عباس، وكذا قول الحسن شامل لجميع ما فرض الله إتيانه أو الاجتناب عنه في العقائد والأخلاق والأعمال، وقول أبي بكر لا تشرك بالله شيئاً وقول عثمان أخلصوا لله العمل بيان لعدم الرياء والسمعة في شيء من الأعمال وهو المعنى من قول مجاهد وعكرمة، فالإستقامة لا تتصور بدون فناء القلب والنفس وحصول المعرفة بالله على ما اصطلح عليه الصوفية وذلك قول مقاتل، وقال قتادة كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال اللّهم أنتَ ربُّنا فارزقْنَا الإستقامة وكان الحسن رأس الصوفية ينتهي أكثر السلاسل إليه.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت كذا قال ابن عباس، وقال قتادة ومقاتل إذا قاموا من قبورهم، وقال وكيع بن الجراح البشرى تكون في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أن مفسرة لأن ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ يتضمن معنى الوحي الذي فيه معنى القول أو مخففة من الثقيلة اسمه ضمير الشأن أو مصدرية يعني لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة كذا قال مجاهد ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلفتم من أهلٍ وولدٍ فإنا نخلفكم في ذلك فالخوف غم يلحق لتوقع مكروه والحزن غم يلحق لوقوعه في مكروه من فوات نافع أو حصول ضار، وقال عطاء بن أبي رباح لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم يعني لاتخافوا العقاب ولا تحزنوا على صدور العصيان فإن الله يغفرها لكم ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسل، أخرج أبو نعيم عن ثابت البناني أنه قرأ حم السجدة حتى بلغ إلى قوله تتنزَّلُ عليهم الملائكة فقال بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعث من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان لا تخف ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد قال فيأمن الله خوفه ويقر عينه ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني كنا معكم في الدنيا نحفظكم من الشياطين ونلهمكم بالخيرات ﴿و﴾ نحن أولياءكم ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذات والكرامات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من الأول ﴿نُزُلًا﴾ كائناً ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ نزلاً حال من ما تَدَّعُوْنَ وفيه إشعار بأن من ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل للضيف، أخرج البزار وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ، «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخربين يديك مشوياً» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الطير في الجنة فيخر مثل البختي حتى يقع على خوانه لم تصبه دخان ولا تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير» وأخرجه الترمذي

وحسنه والبيهقي قال قال رسول الله ﷺ «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي»(١) وعند هناد في الزهد عن أبي سعيد قلنا يا رسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال إذا اشتهى إلى آخره، وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي سعيد الخدري ولم يرفعه قال إن الرجل من أهل الجنة يتمنى الولد فيكون حمله ورضاعه وفطامه وشبابه في ساعة واحدة، وأخرج البيهقي مرفوعاً بلفظ إن الرجل يشتهي الولد في الجنة فيكون إلى آخره، وأخرج في التاريخ والبيهقي نحوه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ يعني لا أحد أحسن ﴿قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى عبادة الله وتوحيده ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً أو اتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً من قولهم هذا قول فلان لمذهبه، قال محمد بن سيرين والسديُّ هو رسول الله ﷺ، وقال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته (وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين) وقالت عائشة أرى هذه الآية نزلت في المؤذّنين وقال أبو أمامة الباهلي دعا إلى الله يعني أذَّن وَعَمِلَ صالحاً صلّى ركعتين بين الأذان والإقامة، قال قيس بن حازم عمل صالحاً هو الصلاة بين الأذان والإقامة، من عبد الله بن معقل قال قال رسول الله ﷺ: **«بين كل أذانين صلاة بين كل أذانين صلاة قال في الثالثة بين كل أذانين صلاة لمن شاء»**(٢) متفق عليه، وعن أنس بن مالك قال لا أعلم وقد رفعه أنس إلى النبيّ ﷺ قال: «لا يرد الدعاء بين الأذان والإقامة»(٣) رواه أبو داود والترمذي.

فصل في فضل الأذان:

عن معاوية قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»(٤) رواه مسلم، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يسمع مدى**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: كم بين الأذان والإقامة ومن ينتظر الإقامة (٦٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: بين كل أذانين صلاة (٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الدعاء بين الأذان والإقامة (٥٢٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن الدعاء لايرد بين الأذان والإقامة (٢١٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٧).

صوت المؤذّن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»(١) رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن اللهم أرشد الأئمة وأغفر للمؤذنين»(٢).

رواه أحمد وأبو داود والترمذي والشافعي، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: **«من أذن سَبع سنين محتسباً كتب له براءة من النار»**(٣) رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة على كثبان المسك عبد أدى حق الله وحق مولاه ورجل أمّ قوماً وهم به راضون ورجل ينادي بالصلوات الخمس كل يوم وليلة»**(٤) رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس وشاهد الصلاة يكتب له خمس وعشرون صلاة ويكفر عنه ما بينهما»**(٥) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: **«ثنتان لا تردان أو قلما تردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً»** وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من أذّن ثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة وبكل إقامة ثلاثون حسنة» رواه ابن ماجه، وعنه قال كنا نؤمر بالدعاء عند أذان المغرب، رواه البيهقي في الدعوات الكبير.

فصل في جواب الأذان:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليَّ فإنه من صلّى عليَّ صلاة صلّى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجوا أن أكون أنا هو فمن**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: رفع الصوت بالنداء (٦٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء أن الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن (٢٠٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: ما يجب على المؤذن من تعاهد الوقت (٥١٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الأذان في السفر (٢٠٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأذان، باب: فضل الأذان وثواب المؤذنين (٧٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة (٢٥٦٦).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: رفع الصوت بالأذان (٥١٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأذان، باب: فضل الأذان وثواب المؤذنين (٧٢٤).

سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي»[١] رواه مسلم، وعن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر» الحديث، يعني يقول مثل ما يقول المؤذن «وحين يقول حي على الصلاة وحي على الفلاح يقول لا حول ولا قوة إلا بالله دخل الجنة» رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمر قال رجل يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا فقال رسول الله ﷺ «قل كما يقولون فإذا انتهيتَ فسل تعطه»[٢] رواه أبو داود.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفي يعني مهما أمكن للإنسان فلا بد أن يختار الخصلة الحسنة على الخصلة السيئة فليختر الصبر على الغضب والحلم على الجهل والعفو على الإنتقام والسخاء على البخل والشجاعة على الجبن والعفة على العنتِ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي﴾ أي بالخصلة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ المراد بالأحسن هاهُنا الزائد في الحسن مطلقاً إذ لا حسن في السيئة أصلاً، قال ابن عباس أمر بالصبر في مقابلة من يغضب عليه وبالحلم في مقابلة من يجهل عليه وبالعفو في مقابلة من يسيء إليه، وقيل معناه لا تستوي الحسنة في جزئياتها ولا تستوي السيّئة في جزئياتها بل بعضها فوق بعض في الحسن والسوء فإذا اعترضك من بعض أعدائك سيئة فأدفعها بأحسن الحسنات كما لو أساء إليك رجل فالحسنة أن تعفو عنه والتي أحسن أن تحسن إليه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ إذا للمفاجأة أضيف إلى الجملة والعامل فيه معنى المفاجأة والمعنى فوجيء ذلك وقت صيرورة الذي بينك وبينه عداوة ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ الذي مبتدأ وكأنّه خبر وإذا ظرف لمعنى التشبيه، وقوله إدفع إلى آخره جملة مستأنفة كأنه قيل كيف أصنع إذا أساء أحد إليَّ فقال ادفع، قال مقاتل بن حبان نزلت في أبي سفيان بن حرب وليس بسديد لأن الآية مكية وإسلام أبي سفيان كان بعد الفتح ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ جملة معترضة أي ما يؤتى هذه الخصلة وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على مخالفة النفس والهوى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من التجليات الصفاتية والذاتية فإن النفس إذا تجلت عليها الصفات الحسنى انسلخت من صفاتها السوأى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ عطف على ادفع وما زائدة اتصلت بأن الشرطية ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ شبه النخس والشيطان ينزغ كأنه ينخس ويبعث على المعصية، وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه ونزغ بينهم أفسد وأغرى ووسوس وهو فعل الشيطان أسند إلى نزغه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له بالوسيلة (٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن (٥٢٣).

مجازاً على طريقة جد جده وعلى هذا من للابتداء أو أريد بالنزغ المسند إليه الفارغ وصفاً للشيطان بالمصدر مبالغةً ومِنَ الشَّيْطَان بيان له حال منه والمعنى وإن وسوس فيك الشيطان وحملك على الإنتقام ومقابلة الإساءة بالإساءة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شره ولا تطعه هذا جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي يدفع الله عنك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيتك وصلاحك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فإن كل واحد منها تدل على وجوب وجود صانعها وصفاته الكاملة ووحدانيته ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ الضمير للأربعة المذكورة والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ويختار ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود يختص لله تعالى وهذا موضع السجود عند الشافعي رحمه الله لاقتران الأمر به وهو مروي عن ابن مسعود وابن عمر، أخرج الطحاوي بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد يذكر أن عبد الله بن مسعود كان يسجد في الآية الأولى من ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وأخرج بسنده عن نافع عن ابن عمر مثله ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإمتثال والسجود وشرط حذف جزاؤه وأقيم علته مقامه تقديره فإن استكبروا لا يضره ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ أي لأن الذين ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية غير متكيفة وهم الأنبياء والملائكة والأولياء ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون﴾ عطف أو حال أي لا يملُّون بل يتلذذون به قال رسول الله ﷺ أرحني يا بلال، قال أبو حنيفة رحمه الله هذا موضع السجود وهو المروي عن ابن عباس، أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه والطحاوي عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان يسجد في الآية الأخيرة من ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ تنزيل، وزاد في رواية رأى رجلاً يسجد عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فقال له قد عجلت، وأخرج الطحاوي عن مجاهد قال سألتُ عن ابن عباس عن السجود الذي في ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ قال اسجد بآخر الآيتين، وروى الطحاوي أيضاً بسنده عن أبي وائل

أنه كان يسجد في الآية الأخيرة من حم وروي عن ابن سيرين مثله، وعن قتادة مثله قال صاحب الهداية هذا قول عمر، قال ابن همام كونه قول عمر غريب وأخذ أبو حنيفة هذا القول للاحتياط فإنه إن كان السجود عند تَعْبُدُونَ لا يضره التأخير إلى الآية الأخيرة وإن كان عند لا يسئمون لم يكن السجود قبله مجزياً.

وقال الطحاوي ما حاصله إن السجود في الآية الأخيرة هو مقتضى النظر وذلك أنا رأينا السجود المتفق عليه هو عشر سجدات منها الأعراف وموضع السجود منها قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ومنها الرعد وموضع السجود منها ﴿ولله يسجد من في السماوات ومن في الأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ ومنها النحل وموضع السجود منها عند قوله ﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة﴾ إلى قوله ﴿يؤمرون﴾ ومنها بني إسرائيل وموضع السجود منها عند قوله و ﴿يمزون للأذقان سجداً﴾ إلى قوله ﴿خُشُوعًا﴾ ومنها مريم وموضع السجود منها عند قوله ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ ومنها الحج والمتفق عليه فيها عند قوله ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية ومنها الفرقان وموضع السجود منها عند قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الآية ومنها النمل وموضع السجود منها ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ. . .﴾ الآية ومنها ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ تنزيل وموضع السجود منها عند قوله ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ الآية ومنها ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ تنزيل وموضع السجود منها مختلف فيه فقال بعضهم ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ وبعضهم ﴿وهم لا يسئمون﴾.

وكان كل موضع من المواضع المذكورة موضع إخبار يعني من استكبار المتكبرين أو من خشوع الخاشعين ولزمنا مخالفة المتكبرين وموافقة الخاشعين وليس شيء منها بموضع أمر بالسجود وقد رأينا السجود مذكوراً في مواضع أخر بصيغة الأمر منها قوله تعالى: ﴿اقتني لربك واسجدي﴾[١] ومنها ﴿كن من الساجدين﴾[٢] وليس هناك سجود بالإجماع فالنظر يقتضي أن يكون كل موضع فيها الأمر بالسجود يحمل على الأمر بالعبادة والسجود الصلاتية وكل موضع فيها الأخبار يكون هناك سجدة التلاوة وهذا النظر يقتضي أن لا

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٨.

يكون في الحج سجدة ثانية لأنه بلفظ الأمر حيث قال الله تعالى: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾[١] ومن ثم قال أبو حنيفة هي سجدة صلاتية يدل عليها المقارنة بالركوع وأن لا يكون في هذه السورة عند الآية الأولى سجدةً لكونه بصيغة الأمر وأن يكون عند الآية الأخيرة لكونه بصيغة الإخبار، وهذا النظر يقتضي أن يكون في سورة ﴿صٓ﴾ سجدة تلاوة كما قال أبو حنيفة خلافاً لغيره لأن موضع السجود منها إخبار ليس بأمر وهو قوله ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾[٢] وكذا في سورة إذا السماء انشقت في قوله ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ فإنه موضع إخبار وليس بأمر، غير أن هذا النظر يقتضي أن لا يكون في سورة النجم واقرأ سجدة لأن موضع السجود منهما قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ﴿٦٢﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ وهما بصيغة أمر لكن أبو حنيفة رحمه الله ترك النظر هناك لاتباع ما قد ثبت عنده عن رسول الله ﷺ كما ذكرنا هُناك وقد قال مالك لا سجود في المفصل، قلتُ وقد ذكرنا في سورة الحج ما يدل على أن فيها سجدتين والله أعلم.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي دلائل قدرته ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ يابسة غبراء لا نبات فيها مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي تحركت ﴿وَرَبَتۡ﴾ أي علت وانتفخت بخروج النبات ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ أي أحيا نباتها ﴿لمحيي الموتى﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الإحياء والإماته ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٤.

﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ قال مجاهد يلحدُونَ في آياتنا بالمكاء والتصدية واللغو واللغط، وقال قتادة يكذبون آياتنا، وقال السدي يعاندون ويشاقون، قال مقاتل نزلت في أبي جهل، قلتُ: واللفظ يعم من يلحد بالتكذيبُ والإلغاء ومن يلحد بالتحريف والتأويل الباطل المخالف لتأويل السلف ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ﴾ فلا يأمنوا عن الجزاء والإنتقام ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره يفتخر هؤلاء الكفار ويعجبون بأنفسهم أفَمَنْ يُلْقى ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ أبو جهل وأمثاله ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ أخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر وقيل من يأتي آمناً هو حمزة وقيل عثمان واللفظ يعمهم وغيرهم، ذكر الله سبحانه الآيتان آمناً في مقابلة الإلقاء في النار مبالغةً وكان القياس أن يقال أفمن يلقى في النار خير أم من يدخل الجنة لأن مفاد الكلام أن الآتي آمناً خير ممن يلقى في النار فكيف من يكرم ويدخل الجنة ﴿اعملوا﴾ أيها الكفار ﴿مَا شِئْتُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم على ما تعملون فيه تهديد شديد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ أي القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْۖ﴾ أن مع جملتها بدل من قوله إن الذين يلحدون أو مستأنف وخبر إن محذوف مثل معاندون أو هالكون أو يجازيهم بكفرهم وقيل خبره قوله من بعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ حال أو إستئناف، قال الكلبي عن ابن عباس أي كريم على الله، وقال قتادة أعزَّه الله فلا يجد الباطل إليه سبيلاً ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ﴾ قال قتادة والسديُّ الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيد فيه أو ينقص منه، قلتُ: وهو يعم شياطين الإنس والجن كما أن الروافض زادوا في القرآن عشرة أجزاء فلم يستطيعوا وردّ الله كيدهم وزادوا في بعض الآيات وبعض الألفاظ كما قالوا في قوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[١] على ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢] ونحو ذلك فإنهم فعلوا ذلك وأبطل الله عملهم فلم يلتحق بالقرآن، قال الزجاج معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه وعلى هذا معنى الباطل الزيادة والنقصان، وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب يبطله أو ينسخه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ كامل الحكمة ﴿حميد﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

نعمة وهو حميد في نفسه لا يحتاج إلى أن يحمده غيره ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قيل هذا تسلية للنبي ﷺ بأنه ما يقول لك كفار مكة قد قيل مثله للأنبياء من قبلك أنه ساحر كذاب فاصبر كما صبروا ولا تغتم به، وقيل معناه ما أوحي إليك إلا مثل ما أوحي إليهم من التوحيد وأصول الدين والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين وقيل مقول القول قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكافرين والجملة على الأول مستأنفة.

ولما قال الكفار اقتراحاً وتعنتاً هل أنزل القرآن بلغة العجم يعنون كما أنزلت التوراة والإنجيل نزلت ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي لو جعلنا هذا الذكر الذي تقرأه على الناس ﴿قرآناً عجمياً﴾ أي مقروءاً بلغة العجم ﴿لَّقَالُوا۟﴾ يعني أهل مكة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بينت ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بلغة العرب حتى فهمناها هذه الجملة متصلة بجمل واردة في صدر السورة في مدح القرآن أعني كِتَابٌ آياته ﴿ءأعجمي وعربي﴾ قرأ هشام أعجمي بهمزة واحدة من غير مد على الخبر يعني كتاب أعجميٌّ ورسول عَرَبيٌّ والباقون بهمزتين على الاستفهام للإنكار فقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بهمزتين محققتين والباقون بهمزة ومدة وقالون وأبو عمرو يشبعانها لأن من قولهما إدخال الألف بين الهمزة المحققة والملينة وورش على أصله في إبدال الهمزة الثانية الفاً من غير فاصل بينهما وابن كثير أيضاً على أصله في جعل الثانية بين بين من غير فاصل وهكذا قرأ حفص وابن ذكوان في هذا المقام خاصة، قال مقاتل وذلك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على يسار غلام لعامر الحضرمي وكان يهودياً يكنى أبا فكيهة فقال المشركون إنما يعلمه يسار فضربه سيده وقال إنك تعلّم محمداً فقال يسار هو يعلّمني فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت قريش لولا أنزل هذا القرآن اعجمياً وعربياً فأنزل الله لقالوا لولا فصّلتُ آياته الآية وأنزل الله بعد هذه الآية فيه لكل لسان، قال ابن جرير والقراءة على هذا أعجمي بلا استفهام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَشِفَآءٌ﴾ التنكير للتعظيم أي هدى وشفاء عظيم لما في الصدور من الجهل ورذائل أوصاف القلب والنفس وقيل شفاء من الأمراض والأوجاع ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي ثقل لقوله ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي ظلمة وشبهة، قال قتادة عموا عن القرآن وصموا عنه فلا ينتفعون به والأخفش جوز العطف على معمولي عاملين والمجرور مقدم فالموصول عنده عطف على الموصول في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم قبولهم وعدم إستماعهم له بمن يُصاح به من مسافة بعيدة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ جواب لقسم محذوف يعني اختلف قوم موسى بالتصديق والتكذيب كما اختلف قريش في القرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين إلى يوم القيامة أو إلى أجل معلوم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي المكذبين ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من التوراة أو من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ مضرته ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يضيع عمل المحسنين ولا يزيد على جزاء المسيئين أورد صيغة المبالغة تعريضاً على الكفار بأنهم هم الظلامون المبالغون في الظلم والله سبحانه لا يتصور منه الظلم أصلاً لأن الظلم أن يتصرف أحد في ملك غيره بغير إذنه.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها يرد إليه يعني يجب على كل من سئل عنها أن يقول الله أعلم إذ لا يعلمها إلا هو ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كِم بالكسر، قرأ نافع وابن عامر وحفص ثمراتٍ على الجمع والباقون ثَمرَتٍ على التوحيد بإرادة الجنس، وما نافية ومن الأولى مزيدة للإستغراق وثَمَرَاتٍ في محل الرفع ويحتمل أن يكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن بيانية بخلاف قوله ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ فإنها نافية ومن زائدة البتة ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي أنثى ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي إلا مقروناً بعلمه حسب تعلقه به والمراد أنه كما لا يعلم بالساعة غيره كذلك لا يعلم بما يخرج من الثمرات وما تحمل أنثى إلا هو، قوله إلاّ بعلمه إستثناء مفرغ يتوجه إلى الأفعال الثلاثة على سبيل التنازع أعمل الأخير وقدر في الأولين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي يوم ينادي الله المشركين بقوله ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ قرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها يسألهم الله تهكما وتوبيخاً أين شركائي التي كنتم تزعمونها آلهة ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي المشركون ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك الآن ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي من يشهد لهم بالشرك الجملة حال يعني يتبرءون عنهم لمّا عاينوا العذاب أو المعني ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم غابوا عنّا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾

يعني لا ينفعهم أو غاب عنهم فلا يرون ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ ذلك اليوم يعني في الدنيا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مهرب، الظن معلق عنه بحرف النفي وقيل جملة النفي سدَّ مسد المفعولين.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿لا يسئم﴾ أي يمل ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ الكافر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ لا يزال يسأم الله تعالى المال والغنى والصحة ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي الشدة من الفقر والمرض ﴿فيؤس﴾ أي فهو يؤس من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته ﴿ولئن أذقناه﴾ أي الكافر جواب قسم محذوف ﴿رحمة﴾ مالاً وعافية ﴿مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ جواب للقسم لفظاً وللشرط معنىً يعني هذا حقي لما فيَّ من الفضل والعمل والعلم، أو هذا لي دائماً لا يزول ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي تقوم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع بخلاف عن قالون بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني لئن قامت القيامة على التوهم لكان لي عند الله الحالة الحسنة من الكرامة وذلك لاعتقاده أن ما له من الدنيا إنما هو لاستحقاقه الكرامة الغير المنفك عنه ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جواب قسم محذوف والفاء للسببية ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ قال ابن عباس لنفتنهم على مساوىء أعمالهم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنهم التقصي عنه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ الكافر ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿ونآبجانبه﴾ أي ثنى عطفه، وقيل الجانب كناية عن النفس كالجنب في قوله تعالى: ﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1] يعني ذهب بنفسه

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

وتباعد عنه بكليته لكمال الغلفة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير مستعار ممَّا له عرض وسيع للإشعار بكثرته والعرب يستعمل الطول والعرض في الكثرة، يقال أطال في الكلام والدعاء وأعرض أي الكثر والعريض أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الاتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله من ثم قال الله تعالى: ﴿جنة عرضها السماوات﴾[(١)] ولا منافاة بين قوله ﴿وإذا مسه الشر فيؤس قنوط﴾ وبين قوله ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ لأن الأولى في قوم آخرين ولعل الأولى في الكفار و ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[(٢)] و﴿من يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون﴾[(٣)] والثانية في الغافلين من المؤمنين، وجاز أن يكون كلا الآيتين في الكفار والمراد أنهم إذا مسَّهم شر دعوا مخلصين له الدين فإذا رأوا تأخراً في الإجابة يئسوا وقنطوا بخلاف المؤمنين الصالحين فإنهم لا يقنطون ويرون في تأخير الإجابة حكمة، قال رسول الله ﷺ: «**إما أن يعجلها لهم وإما أن يدخرها لهم**»[(٤)] أويقال يؤُسٌ قَنُوط بالقلب وذُوُ دُعَاءٍ عَرِيُضٍ باللسان أو قنوط الصنم وذو دعاء من الله تعالى.

مسألة:

من أحب أن يستجاب دعاؤه في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء كذا ورد في حديث رواه، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ هذه الجملة متصلة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ كان الأصل من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم لأنه في تأويل قوله إن كان القرآن من عند الله كان حقّاً بلا شبهة وكان الكفر به شقاقاً بعيداً من الحق وأنتم قد كفرتم به فلا أضل منكم ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ قال ابن عباس يعني منازل الأمم الخالية ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني يوم بدر وكذا قال قتادة، وقيل في أنفسهم البلايا والأمراض، وقال مجاهد والسديُّ في الأفاق ما يفتح القرى على محمد ﷺ والمسلمين ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكة، وقال عطاء وابن زيد في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٤) أخرجه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأدعية، باب: قبول دعاء المسلم (١٧٢١٠).

الآفاق يعني في أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، قال البيضاوي في الآفاق يعني ما أخبرهم النبيّ ﷺ من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حلّ بهم، أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن من عند الله والرسول مؤيد من الله أو التوحيد مؤيد من الله ودين الله حق أو الله هو الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ الباء زائدة وربك في محل الرفع على الفاعلية ولا تزاد الباء في الفاعل إلا مع كفى ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل من الفاعل والمعنى أَوَلَمْ يكْفِ أن ربك على كُلّ شيء شَهِيْدٌ، والإستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أتشك في عاقبة أمرك ولم يكف أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة أو أنه تعالى مطلع فيعلم حالك وحالهم أو المعنى ألم ينته الإنسان عن المعاصي ولم يكف له رادعاً أنه تعالى مطلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية فيجازيه عليها، وقال مقاتل أولم يكف بربك شاهداً على أن القرآن من الله شهادته على ذلك جعله معجزاً، وقال الزجاج معنى الكفاية أن الله تعالى قد بين من الدلائل ما فيه كفاية يعني أولم يكف بربِك شاهداً لأنه على كل شيء شهيد لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي من البعث والجزاء ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ علماً بإجمالها وتفصيلها مقتدر عليها لا يفوقه شيء منها أو أنه محيطٌ بكل شيء إحاطةً ذاتيةً غير متكيفة لا يفوته شيء منها.

سورة الشورى

آياتها ثلاث وخمسون وهي مكيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ قال البغوي سئل الحسن بن الفضل لم قِطع حٰمٓ عسق ولم يقطع كهيعص فقال لأنها سورة من سور أوائلها حٰمٓ فجرت مجرى نظائرها، ولأن ﴿حمٓ ۝١﴾ مبتدأ وعسق خبره ولأنهما عدا آيتين وأخواتها مثل ﴿كهياعص﴾ والمص عدت آية واحدة، وقيل أهل التأويل لم يختلف في كٓهيعٓصٓ وأخواتها أنها حروف للتهجي لا غير واختلفوا في ﴿حمٓ ۝١﴾ وأخرجها بعضهم من حيز الحروف وجعلها فعلاً معناه حُمَّ أي قضى ما هو كائن، وروى عكرمة عن ابن عباس إنه قال: ح حلمه ومجده ع علمه س سناؤه ق قدرته أقسم الله بها، وقال شهر بن حوشب وعطاء بن أبي رباح: ح حرف يعز فيها الذليل ويزل فيها العزيز من فرس م ملك يتحول من قوم إلى قوم آخر ع عدو لقريش يقصدهم س سيء بكدر فيهم ق قدرة الله النافذة في خلقه، وروى عن ابن عباس أنه قال ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحيت إليه ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ حيث قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب لقهره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المصيب في حكمه أي مثل ما في هذه السورة من المعاني أو إيحاء مثل إيحائها أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك، ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إيحاء مثله عادته تعالى، قرأ الجمهور يوحى بكسر الحاء على المضارع المبني للفاعل والله فاعله وقرأ ابن كثير بفتح الحاء على البناء للمفعول على أن كذلك مرفوع على الإبتداء أي مثل ذلك ويُوْحى خبره المسند إلى ضميره أو كذلك منصوب على المصدر

ويُوْحى مسند إلى إليك والله مرفوع على أنه فاعل لفعل محذوف دل عليه السؤال المقدر يعني من يوحي إليه فقال الله كما في قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومه ....

على البناء للمفعول، والعزيز الحكيم صفتان له مقررتان لعلو شأن الموحي به أو الله مبتدأ والعزيز وما بعد أخبار أو العزيز الحكيم صفتان وكذا قوله ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة بتقدير الذي أو حال ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على خلقه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ حال آخر أو تذييل وهو على الوجوه الأخر جملتان مستأنفتان مقررتان لعزته وحكمته.

﴿تَكَادُ﴾ قرأ نافع والكسائي بالياء التحتانية لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي والباقون بالتاء الفوقانية لتأنيث ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يتشققن من عظمة الله تعالى وعلو شأنه يدل عليه ذكره بعد قوله: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وقيل يتفطرن من قول المشركين اتخذ الله ولداً نظيره في سورة مريم ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾[1] وقيل يتشققن من كثرة الملائكة قال رسول الله ﷺ: «**أطت السماء وحقها أن تأط والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده**» رواه ابن مردويه عن أنس ورواه البغوي بلفظ «ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد» قرأ البصريان وأبو بكر يَنْفطرنَ من الإنفطار ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الأول لأنه أعظم الآيات وأدلها على علو شأنه وعلى الثاني ليدل على أن الإنفطار من تحتهن بالطريق الأولى وعلى الثالث لازدحام الملائكة على الفوق، وقيل الضمير للأرض فإن المراد بها الجنس وهذا على الثاني ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهون عما يقول الظالمون من نسبة الولد وكل ما لا يليق بشأنه خضوعاً لما يرون من عظمة الله سبحانه ملابسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أداء لشكر نعمائه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين أداء لحق المشاركة في الإيمان والجملة حال ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لأوليائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ شركاء وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم يحصى عليهم فيجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم﴾ يا محمد ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم تحصل المطلوب منهم أو موكول إليك أمرهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا

(١) سورة مريم، الآية: ٨٩ ـ ٩٠.

رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ
مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ
هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى
اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الإشارة إلى مصدر يُوحِيُ وقوله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على المفعولية أو هو إشارة إلى معنى الآية المتقدمة فإنه مكرر في القرآن في مواضع فيكون الكاف مفعولاً به وقوله قرآناً عربياً حالاً منه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أهلها وهي مكة فإن أكثر قرى العرب خرجت منها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي العرب لينصروه في إعلاء كلمة الله أو قرى الأرض كلها مشرقها ومغربها وجنوبها وشمالها قال رسول الله ﷺ: «**فضلتُ على الأنبياء بخمس بعثتُ إلى الناس كافةً وذخرتُ شفاعتي لأمتي ونصرتُ بالرعب شهراً أمامي وشهراً خلفي وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأحلت لي الغنائم ولم يحل لأحد قبلي**» رواه الطبراني بسند صحيح عن السائب بن يزيد.

وروى مسلم في الصحيح والترمذي عن أبي هريرة قوله ﷺ «فضلتُ على الأنبياء بست أعطيتُ جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً وأرسلت إلى الخُلق كافة وخُتم بي النبيون»[1] ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي لتنذرهم بيوم القيامة الذي يجمع فيه الأولون والآخرون حذف ثاني مفعولي تنذر الأول وأول مفعولي الثاني للتهويل والتعميم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إعتراض لا محل له من الإعراب ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ تقديره (فريقٌ منهم في الجنَّةِ وفريُقٌ منهم في السَّعِير) وضمير منهم للمجموعين لدلالة الجمع عليه والجملتان منصوبتان على الحال منهم أي وينذرهم يوم يجمعون كائنين متفرقين في داري الثواب والعقاب أو مستأنفتان، عن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابض على كفيه ومعه كتابان قال

---

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في الغنيمة (١٥٥٦).

أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا يا رسول الله فقال للذي في يده اليمنى هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد منهم ولا ناقص منهم من الله عليهم إلى يوم القيامة، ثم قال للذي في يساره هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وعشائرهم وعدتهم قبل أن يستقروا في الأصلاب وقبل أن يستقروا نطفاً في الأرحام إذ هم في الطينة منجدلون فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم من الله عليهم إلى يوم القيامة، فقال عبد الله بن عمرو ففيم العمل إذاً؟ فقال اعملوا وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيَّ عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل، ثم قال فريقٌ في الجُنَّةِ وفريق في السعير عدل من الله عزّ وجل»(١) رواه البغوي وكذا روى الترمذي.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عطف على مضمون فريقٌ في الجنَّةِ أي الأمة أي يفترقون فريقين قال ابن عباس على دين واحد، وقال مقاتل على دين الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾(٢) ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بالهداية إلى دين الإسلام ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي لا يدخلهم في رحمته فلا يكون لهم ولي يدفع عنهم العذاب ولا نصير يمنعهم من النار ولعل تغير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار ﴿أم اتخذوا﴾ عطف على الظالمون الآية، أم منقطعة بمعنى بل للإضراب والهمزة للإنكار يعني الكافرون لم يتخذوا الله وكيلاً ونصيراً بل إتخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ كالأصنام والشياطين ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ لا ينبغي ذلك أو المعنى ليس المتخذون أولياء ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ جواب شرط محذوف مثل إن أرادوا أولياء فالله هو الولي يعني هو الحقيق بأن يتخذ ولياً ﴿وهو يحيي الموتى﴾ يجزي كل نفس ما عملت ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذه الجملة في مقام التعليل لقوله هو الولي، وقال ابن عباس فالله وليك وولي من تبعك أي ناصرك وإياهم، والفاء حينئذ لمجرد العطف لا لجزاء الشرط.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ من أمر الدين ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ مفوض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يحكم يوم القيامة بينهم فيميز المحق من المبطل، وقيل ما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من الله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي يحكم بينكم ﴿ٱللَّهُ﴾ أي قل لهم يا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (٢١٤١).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

محمد ذلكم الله ﴿رَبِّي﴾ بدل من الله أو عطف بيان ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في رد كيد الأعداء وفي الأمور كلها ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي ارجع في المعضلات ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما، خبر آخر لذلك أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ما بعده ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساء ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي جعل للأنعام من الأنعام أزواجاً أو جعل لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً، جملة جعل على التقدير الأولين حال بتقدير قد ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يكثركم من الذرء وهو البث الضمير للمخاطبين والأنعام تغليباً ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً ليكون بينهم توالد وقيل فيه أي في الرحم وقيل في البطن، وقيل في بمعنى الباء أي يذرؤكم به، قيل معناه يكثركم بالتزويج ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ المثل زائد والمعنى ليس هو كشيء فأدخل المثل للتأكيد كقوله ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾[1] وقيل الكاف زائدة ومعناه ليس مثله شيء يزاوجه ويناسبه، قال ابن عباس ليس له نظير، وقيل هذا من باب الكناية نظيره قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المباغة في نفيه عنه فإنه إذا نفى عمَّنُ يناسبه ويسدُّ مسده كان نفيه عنه بالطريق الأولى وإذا كان كناية فلا يقتضي أن يكون له مثل فإن في الكناية لا يشترط تحقق المعنى الحقيقي كما يقال فلان طويل النجاد وإن لم يكن له نجاد أصلاً ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[2] كناية عن كونه جواداً مع استحالة الجارحة، وقيل معنى مثله صفته، أي ليس كصفته صفة شيء ﴿وهو السميع البصير﴾ لكل ما يسمع ويبصر وكل سميع وبصير فسمعه وبصره مستعار منه تعالى كأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له كما أنه لا مثل له ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خزائن الرزق في السماوات والأرض، قال الكلبي المطر والنبات ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع ويضيق على وفق مشيئته إبتلاء وامتحاناً ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعل على ما ينبغي.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني أن دين الإسلام الذي شرع الله لأمة محمد ﷺ ليس أمراً مبتدعاً بل هو دين الأنبياء كلهم فإن الحق لا يكون إلا واحداً وماذا بعد الحق إلا الضلال وما أنكر من أهل الكتاب إلا تعنتاً وعناداً، عن ابن مسعود قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه وقرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية»، رواه أحمد والنسائي والدارمي، وذلك الدين هو الإيمان بالله وحده وبصفاته وبأنبيائه وكتبه وملائكته والبعث بعد الموت وبكل ما جاء به الأنبياء والإتيان بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه؟.

وهذا أمر جامع للشرائع متفق عليها والنسخ في بعض الأحكام العملية لا يستلزم إختلاف الأديان ألا ترى أن النسخ قد يكون في دين نبي واحد فإن النبي ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم صلّى إلى الكعبة فكما أن هذا لا يقتضي إختلاف الأديان فكذلك الاختلاف في الفروع في شرائع الأنبياء لا يقتضي اختلاف الذين فإن مآل الكل الإتيان بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أن مفسرة لأوحينا ووصينا فإن فيها معنى القول أو مصدرية والمصدر منصوب بدل من ما وصى مفعول شرع أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف أي هو يعني خذوا ما آتاكم الرسول بلا زيغ وانحراف ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ باتباع الآراء والأهواء أو بالتعصب والعناد فإن افتراق أمة محمد ﷺ إلى ثلاث وسبعين فرقة إنما نشأ باتباع الآراء والأهواء وهو المراد بما ذكرنا من حديث رسول الله ﷺ أنه خط خطاً وقال هذا سبيل الله وخطوطاً وقال: «هذه سبل على كل منها شيطان» وترك اليهود والنصارى الإيمان بمحمد ﷺ إنما نشأ من العناد والتعصب وعن علي رضي الله عنه قال لا تتفرقوا فالجماعة رحمة والفرقة عذاب.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة**

الإسلام من عنقه»(١) رواه أحمد وأبو داود، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «**يد الله مع الجماعة**»(٢) رواه الترمذي بسند حسن، وعن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاذَّة والقاصية والناحية وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة**» رواه أحمد ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من الدين القويم الناطق بالتوحيد وترك الأصنام ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ أي يصطفى ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى دينه أو إلى ما تدعوهم إليه أو إلى نفسه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ سواء وجد من المجتبى سعي وإرادة أولا ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي يقبل إليه قالت الصوفية من يجتبيه ويجذبه إلى نفسه من غير اختياره فهو مراد الله وهم الأنبياء والصديقون ومن أناب إلى الله فهداه الله فهو المريد وهم أولياء الله الصالحون من عباده.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ عطف على شرع، قال ابن عباس يعني أهل الكتاب ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ من الكتب السّماوية السابقة بأن دين الأنبياء كلهم واحد وأن الذي أوحى إلى محمد ﷺ هو الذي جاء به إبراهيم وموسى وعيسى ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ قال عطاء بغياً بينهم على محمد ﷺ يعني تكبراً واستطالة، قال في القاموس بغى عليه يبغي بغياً علا وظلم وعدل واستطال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى دار الجزاء ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين من آمن ومن كفر في الدنيا باستئصال المبطلين واستيلاء المحقين ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد أنبيائهم، وقيل بعد الأمم الخالية، وقيل المراد مشركي مكة الذين أورثوا الكتاب أي القرآن من بعدهم أي بعد أهل الكتاب ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من كتابهم لا يعلمونه كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان أو من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي للتفرق من أهل الكتاب ﴿فادع﴾ الفاء في جواب أما المحذوف تقديره أما أنت فادع الناس إلى إقامة الدين وعدم التفرق وإتباع ما أوتيت ﴿واستقم﴾ أنت عليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائفة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي بجميع الكتب المنزلة لا كما قالت اليهود والنصارى ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾(٣) ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بالعدل ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الخوارج (٤٧٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٩٦).

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

والحكم بين المتخاصمين الأول إشارة إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالق الكل ومتولي أمورهم ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ كل يجزي على حسب عمله ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي لا خصومة ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لأن أعمالكم لا يضرنا وأعمالنا لا يضركم إنما ندعوكم إلى الإسلام نصحاً لكم فلا وجه للخصومة والعداوة كان نزول هذه الآية في مكة قبل الأمر بالقتال والمعاداة فنسختها آية القتال، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾(١) إلى قوله: ﴿بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾(٢) ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة فيحكم بيننا ﴿وإليه المصير﴾.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال لما نزلت ﴿إذا جاء نصرالله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ قال المشركون بمكة لمن كان بين أظهرهم من المؤمنين قد دخل الناسُ في دين الله أفواجاً فأخرجوا من بين أظهرنا، فعلى كم تقيمون بين أظهرنا فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي في دينه، وأخرج عبد الرزاق أنه قال قتادة هم اليهود والنصارى قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم فهذه خصومتهم ﴿من بعدما استجيب له﴾ أي بعدما استجاب الناس دعوته فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته وحسن دعوته ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي خصومتهم باطلة زائلة أو المعنى ما يزعمونه حجة فهو في الحقيقة شبهة باطلة ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ من الله لمعاندتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جنس الكتب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً به بعيداً من الباطل وبما يحق به إنزاله من العقائد الحقة والأحكام ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ قال قتادة ومجاهد ومقاتل بالعدل سمى العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية، وقال ابن عباس أمر الله تعالى بالإيفاء ونهى عن البخس، وقيل المراد به الشرع فإنه توازن به الحقوق وتسوى بين الناس ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ قال الكسائي أي قريب إتيانها فاتبع الكتاب وأعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن نفاجئك الساعة يوزن حينئذٍ أعمالك ويوفى جزاؤك، وقيل تذكير القريب كأنه بمعنى ذات قرب أو لأن الساعة بمعنى البعث وجملة لعل الساعة قريب سد مسد المفعولين ليدريك ولعل علق الفعل عن العمل، قال مقاتل ذكر النبيّ ﷺ الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا تكذيباً متى الساعة فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ﴾ إستهزاء وظناً أنها غير آتية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها لاحتمال العذاب ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يجادلون فيها ويشكون في إتيانها، في القاموس المرية بالكسر والضم الشك والجدل وما رآه مماراة شك، وأصل ذلك من مرنت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد إلى تجويزه مع كمال قدرة الله بعد دلالة الكتاب والسنة عليه وشهادة العقل على دار الجزاء فهو أبعد من الاهتداء إلى ما وراءه ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس حفيّ بهم، قال عكرمة باربهم، قال السديُّ رفيق، وقال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جزاء لمعاصيهم، وقيل لطيف في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه بلطف إدراكه، قيل لطيف بالغوامض علمه وعظيم عن الجرائم حلمه وينشر المناقب ويستر العيوب ويعطي العبد فوق الكفاية ويكلفه بالطاعة دون الطاقة ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ وما يشاء فيختص كلاً من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته وكل من يرزق من مؤمن وكافر وذات روح فهو ممن يشاء الله أن يرزقه، قال جعفر بن محمد عليهما السلام اللطيف في الرزق من وجهين أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات والثاني أنه لم يدفعه إليك بمرة واحدة ﴿وَهُوَ

﴿ٱلْقَوِيُّ﴾ الباهر قدرته ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب والجملة حال أو تذييل.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويقال للزرع الحاصل منه، وفي القاموس الحرث الكسب وجع المال والزرع والمراد هاهنا ثواب الآخرة شبهه بالزرع من أنه ثمرة للعمل في الدنيا ولذلك قيل الدنيا مزرعة الآخرة أو شبهه بالكسب أي ما حصل منه فإنه يحصل بما يكسب في الدنيا ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي في كسبه وزرعه فنعطيه بالواحد عشراً إلى سبع مائة ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾[١] ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يريد بعمله نصيباً من الدنيا ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ شيئاً على ما قسمنا له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ عطف على نؤته عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[٢] متفق عليه، وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «**بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب**»[٣] رواه البغوي.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار يعني بل الهم ما زعموا شركاء لله سبحانه خصص الشركاء بهم لأنهم اتخذوها شركاء ﴿شَرَعُوا۟﴾ أي تلك الشركاء ﴿لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس شرعوا ديناً غير دين الإسلام يعني الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا والجملة متصلة بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ وقيل أم متصلة معادلة لجملة محذوفة مصدرة بالهمزة تقديرها أيقبلون ما شرع الله أم يقبلون ما شرع لهم شركاؤهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة كما قال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾[٤] ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرئ ما نوى (٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (١٩٠٧).

(٣) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان وصححه السيوطي.
انظر الجامع الصغير (٣١٤٣).

(٤) سورة القمر، الآية: ٤٦.

وفرغ من تعذيب من كذبك في الدنيا والجملة معترضة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة وضع المظهر موضع المضمر لبيان استحقاقهم والتقدير أنهم لهمْ عَذَابٌ أليمٌ لما كانوا ينكرونه ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مفعول ثان لترى أوحال ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي من جزاء ما كسبوا من الشرك والمعاصي ﴿وَهُوَ﴾ أي جزاء ما كسبوا ﴿واقع بهم﴾ لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا حال مقدرة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أي أطيب بقاعها وأنزهها ﴿لهم ما يشاءون﴾ أي ما يشتهونه ثابت لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت من نعيم الجنة ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر دونه ما لهم في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الثواب ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي يبشر بالتخفيف من البشرة والباقون من التفعيل ﴿الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. ﴿قُل﴾ يا محمد لا ﴿أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما أتعاطاه من التبليغ والبشارة ﴿أَجْرًا﴾ أي نفعاً ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حال من المودة أي إلا أن تؤدوني لقرابتي منكم والجملة معترضة، روى البخاري في الصحيح بسند عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعتُ طاووساً أنه قال سئل ابن عباس عن المودة في القربى فقال سعيد بن جبير القربى آل محمد، فقال ابن عباس عجلتَ إن النبيّ ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال إلا أن تصلوا بيني وبينكم من القرابة[1]. قال البغوي وكذلك روى الشعبي عن ابن عباس قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (٤٨١٨).

المودة في القربى يعني أن تحفظوني قرابتي وتودوني وتصلوا رحمي، وإليه ذهب مجاهد وعكرمة ومقاتل والسدي والضحاك قال عكرمة لا أسألكم على ما أدعوكم أجراً إلا أن تحفظوني وقرابتي بيني وبينكم وليس كما يقول الكذابون، قال البغوي قال قوم هذه الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية فأمرهم بمودة رسول الله ﷺ وصلة رحمه فَلمَّا هاجر إلى المدينة وآواه الأنصار ونصروه أحب الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام حيث قالوا ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[1] فأنزل الله ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ فهي منسوخة بهذه الآية وبقوله ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾[2] وغيرهم من الآيات وإلى هذا ذهب الضحاك بن مزاحم والحسين بن الفضل، قال البغوي وهذا قول غير مرضي لأن مودة النبيّ ﷺ كف الأذى عنه وكذا مودة أقاربه من فرائض الدين، قلتُ: لا شك أن مودة رسول الله ﷺ وأقاربه فريضة محكمة لا يحتمل النسخ لحديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[3] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[4] روى الحديثين الشيخان في الصحيحين وعلى ذلك انعقد الاجماع، لكن يمكن أن يقال أن المنسوخ إنما هو ما أمر الله تعالى رسوله بسؤاله الأجر وروى ابن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس في معنى الآية إلا أن تودوا الله وتتقربوا إليه بطاعته، وهذا قول الحسن قال هو القربى إلى الله يقول إلا التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقال بعضهم معناه إلا أن تودوا قرابتي وعترتي وتحفظوني وهو قول سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قيل يا رسول الله من قرابتك؟ هؤلاء قال علي وفاطمة وأبناءهما.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب: وجوب حبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان (١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

وأستدل الروافض بهذه الآية مع هذا الحديث على حصر الخلافة في علي وبطلان خلافة الخلفاء الثلاثة المرضيين رضي الله عنهم أجمعين، وجه احتجاجهم أنهم قالوا وجب حب عليّ بهذه الآية مع هذا الحديث وحب غير عليّ ليس بواجب ووجوب المحبة يستلزم ووجوب الطاعة فهو الإمام لا غير، وقولهم هذا باطل بوجوهٍ: أحدها إن هذا الحديث غير صحيح في إسناده حسين الأشعري شيعي غليط وهذه الآية مكيَّة ولم يكن لفاطمة حينئذ ولد، وثانيها إنا نسلم أن حب على وفاطمة وأبناءهما واجب لكن لا نسلم أن حب غيرهم ليس بواجب كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «**حب أبي بكر وعمر إيمان وبغضهما كفر**» رواه ابن عدي عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «حب أبي بكر وعمر من الإيمان وبغضهما كفر، وحب الأنصار من الإيمان وبغُضهم كفر وحب العرب من الإيمان وبغضهم كفر ومن سب أصحاب فعليه لعنة الله ومن حفظني فيهم فأنا أحفظه يوم القيامة» رواه ابن عساكر عن جابر، وقال رسول الله ﷺ: «**حب الأنصار آية الإيمان وبغض الأنصار آية النفاق**»[1] رواه النسائي عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «**حب قريش إيمان وبغضهم كفر وحب العرب إيمان وبغضهم كفر ومن أحب العرب فقد أحبني ومن أبغض العرب فقد أبغضني**» رواه الطبراني في الأوسط عن أنس، وقولهم إن من وجب محبته يكون إماماً مفروض الطاعة باطل.

وقيل هذه الآية لوجوب محبته من حرم عليهم الصدقة وهم بنوا هاشم وبنوا المطلب الذين لم يتفرقوا في الجاهلية ولا في الإسلام، وقيل هم آل علي وعقيل وجعفر وعباس وفيهم قوله ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي» عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً بما يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي» قال البغوي قيل لزيد بن أرقم من أهل بيته؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل عباس[2] فإن قيل كيف أمر رسول الله ﷺ بسؤال مودته أو مودة

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٨).

أقربائه أجراً على تبليغ الرسالة مع أن التبليغ كان عليه فريضةً ولا يجوز طلب الأجرة على أداء الفريضة بل على العبادة النافلة أيضاً لما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾(١) قوله ﷺ «من عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يك له للآخرة نصيب»(٢) قلنا إطلاق الأجر على ما أمر النبي ﷺ بسؤاله على التبليغ إنما هو على المجاز والمشاكلة فإن الأجر للسائل على الحقيقة ليس إلا ما يكون نافعاً له مسؤولا لانتفاعه به وهاهنا ليس كذلك بل إنما سأل النبيّ ﷺ أمته مودته ومودة أقربائه وأمره الله سبحانه أن يسأل ذلك لكي ينتفع الناس بمحبته فإن محبة النبيّ ﷺ مثمرةٌ لمحبة الله تعالى وقربه وولايته وموجبة لكمال الإيمان، ومن هاهنا أقول إن الأولى أن يقال في تأويل الآية لا أسألكم أجراً إلا أن تودوا أقربائي وأهل بيتي وعترتي وذلك لأنه صلّى الله عليه وسلم كان خاتم النبيين لا نبي بعده وإنما انتصب للدعوة إلى الله بعده ﷺ علماء أمته من أهل الظاهر والباطن ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر أمته بمودة أهل بيته لأن علياً رضي الله عنه والأئمة من أولاده كانوا أقطاباً لكمالات الولاية ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**» رواه البزار والطبراني عن جابر وله شواهد من حديث ابن عمر وابن عباس وعليّ وأخيه وصححه الحاكم، ومن أجل ذلك ترى كثيراً من سلاسل المشايخ تنتهي إلى أئمة أهل البيت ومضى كثير من الأولياء في السادات العظام منهم غوث الثقلين محيى الدين عبد القادر الجيلي الحسني الحسيني وبهاء الدين النقشبندي والسيد السند مودود الجشتي وسيد معين الدين الجشتي وأبو الحسن الشاذلي وغيرهم ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي**».

وقال أكثر علماء التفسير الإستثناء منقطع والأجر مستعمل في معناه الحقيقي فالمعنى لا أسألكم أجراً قط ولكني أذكركم المودة في القربى وأذكركم قرابتي منكم كما ورد في حديث زيد بن أرقم «أذكركم الله في بيتي» ومما يدل على أن سؤال ﷺ مودة نفسه وأقربائه كان لينتفع بها أمته قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ أي من يكتب حسنةً والمراد بها حب رسول الله ﷺ ونوابه وإلا فلا مناسبة لهذه الجملة بما سبق لكن اللفظ عام يعم كل حسنة

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك. انظر الجامع الصغير (٣١٤٣).

﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ وذلك أن حب آل رسول الله ﷺ (وهم مشايخ الطريقة) مثمر للمزيد في حب النبيّ ﷺ وحبه ﷺ مثمر للمزيد في حب الله تعالى من هاهنا قالت الصوفية يحصل للصوفي أولاً الفناء في الشيخ ثم الفناء في الرسول ثم الفناء في الله تعالى، والفناء عبارة عن شدة الحب بحيث يذهل نفسه عند ذكر المحبوب حتى لا يرى من نفسه ولا من غيره عنها ولا أثراً ما عدا المحبوب وقيل هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ومودته للنبي ﷺ، وقال البخاري في الصحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «إرقبوا محمداً في أهل بيته»[١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر ذنوب من يحب رسوله وأولياءه لعل هو المراد بقوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٢] أي من ذنب أوليائك وأحبائك ﴿شكور﴾ على طاعته ومحبته.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ أم كمقطعة والجملة متصلة بقوله ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ ومعنى الهمزة الإنكار والتوبيخ وبل للإضراب عن أداء الأجر يعني أنهم لا يؤدون أجر الرسالة بل أيقولون يعني كفار مكة ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ محمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة أو القرآن ﴿فأن يشأر الله يختم على قلبك﴾ جملة معترضة أوردت إستبعاداً لله للافتراء عن مثله بالإشعار على أنه لا يجترىء عليه من كان مختوماً على قلبه جاهدةً بربّه فأمّا من كان ذا بصيرة معرفة بربه فلا وكأنه قال إن يشأ الله وضع كلمة خذلانك يختم على قلبك لتجتري بالإفتراء عليه، وقال مجاهد يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم وقولهم إنك مفتر، وقال قتادة يعني طبع على قلبك فينسيك القرآن وما أتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله لفعل به ما أخبر في هذه الآية ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ إستئناف لنفي الافتراء عما يقوله بأنه لو كان مفتر لمحاه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه أو بوعده بمحق باطلهم وإثبات حقه بالقرآن أو بقضائه الذي لا مرد له، قال الكسائي فيه تقديم وتأخير مجازه والله يمحو الباطل وهو في محل الرفع وليس بمجزوم عطفاً على يختم لأن المحو غير معلق بالشرط بل هو وعد مطلق وإنما حذفت الواو في الخط باتباع اللفظ كما حذفت في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾[٣] و ﴿سندع الربانية﴾[٤]

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٣).
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١.
(٤) سورة العلق، الآية: ١٨.

وقد فعل ذلك فمحى باطلهم وأعلى كلمة الإسلام، بما أنزل من آياته ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قال البغوي قال ابن عباس وكذا أخرج عنه الطبراني بسند ضعيف أنه قال لما نزل ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا هذا يريد أن يحثنا على أقاربه من بعده فنزل جبرئيل فأخبره أنهم اتهموه وأنزل الله هذه الآية فقال القوم يا رسول الله فإنا نشهد أنك صادق فنزل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس يريد أولياءه وأهل طاعته يقال قبلتُ منه الشيء إذا أخذته وجعلتَه مبدأ قبول وقبلتُ عنه أي عزلتُه عنه. قيل التوبة ترك المعاصي نيةً وفعلاً والإقبال على الطاعة نيةً وفعلاً، وقال سهل بن عبد الله التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة، وذكر البيضاوي عن علي كرم الله وجهه هي إسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما إذبتها في المعصية فإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلوة المعصية والبكاء بدل ضحك ضحكت، وروى البغوي في شرح السنة عن ابن مسعود موقوفاً الندم توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فصل

عن حارث بن سويد قال دخلتُ على عبد الله أعوده فقال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل (أظنه قال) في برية مهلكةٍ معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل فنام فاستيقظ وقد هلكت راحلته فطاف عليها حتى أدركه العطش قال أرجعُ إلى حيث كانت راحلتي فأموت عليه فرجع فأغفى فاستيقظ فإذا هي عنده عليها طعامه وشرابه» رواه البغوي، وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فأنقلبت وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد يئس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللّهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»(١) وروى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا اعترف ثم تاب الله عليه**»(٢) متفق عليه، وروى مسلم أيضاً عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**من**

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: باب: تعديل النساء بعضهن بعضاً (٢٦٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» وروى ابن ماجه والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1].

﴿ويعفوا عن السيئات﴾ صغيرها وكبيرها بالتوبة وبلا توبة لمن شاء، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «قال رجل (لم يعمل خيراً قط) لأهله إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه...... ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين فلما مات فعلوا ما أمرهم فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال له لم فعلتَ هذا؟ قال من خشيتك يا رب وأنتَ أعلم فغفر له»[2] وروى أحمد عن أبي الدرداء أنه سمع النبيّ ﷺ يقول على المنبر ـ لمن خافَ مَقَامَ رَبِهِ جَنَّتَانِ) قال قلتُ وإن زنى وإن سرقَ يا رسول الله؟ فقال الثانية (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّه جَنَّتَانِ) فقلتُ الثانية وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال الثالثة ولمن خَافَ مَقَامَ رَبّهِ جَنَّتَانِ، فقلتُ الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال وإن رغم أنف أبي الدرداء» ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بالتاء الفوقانية قالوا هو خطاب للمشركين والباقون بالياء التحتانية لأنه بين خبرين عن قوم غيب قبله (عن عباده وبعده ويزيدهم من فضله) ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ عطف على يقبل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يستجيب الله دعاءهم إذا دعوا فحذف اللام كما حذف في وإذا كالوهم، وقال عطاء عن ابن عباس معناه ويثبت الذين آمنوا، قال البيضاوي معنى الاستجابة الإثابة على الطاعة فإنها كدعاء وطلب ومنه قوله ﷺ «أفضل الدعاء الحمد لله»[3] أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر والله أعلم روي عن إبراهيم بن أدهم إنه قيل له ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال لأنه تعالى دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ أي يعطيهم زائداً على ما سألوه أو استحقوه ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال أبو صالح عن ابن عباس يشفعهم في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ في إخوان إخوانهم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في مقابلة ما للمؤمنين من الثواب والفضل والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٥٠٦).

وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء باب: فضل الحامدين (٣٨٠٠).

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ قال البغوي قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا نظرنا إلى بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنَّيناها فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ ﴿لَبَغَوْا۟﴾ أي لتكبروا وأفسدوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بطراً أو لبغى بعضهم على بعض إستيلاءً واستعلاء، وقال ابن عباس بغيهم طلبهم منزلةً بعد منزلةٍ ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس وأصل البغي التجاوز عن الإقتصاد فيما يتجزى كمية وكيفية ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ أرزاقهم ﴿بِقَدَرٍ﴾ يقتضيه حكمته ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ الموصول مفعول لينزل وبقدر حال منه مقدم عليه ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلم خفايا حالهم وما يؤل إليه أمرهم، أخرج الحاكم وصححه عن علي رضي الله عنه قال نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الغنى، وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث مثله روى البغوي بسنده عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ عن جبرئيل عن الله تعالى قال يقول الله عز وجل: «من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث المجرد وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضتُ عليه وما زال عبدي المؤمن يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنتُ له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيتُه وما ترددتُ في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه، وإن من عبادي المؤمن لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه لا يدخله عجب فيفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو افتقرتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححتُه لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي في قلوبهم إني عليمٌ خبير»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم الترمذي وابن مردويه وابن عساكر. انظر كنز العمال (١١٦٠).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾ عطف على قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ وما ذكر من الشرطية معترضة، قرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الأفعال ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ أي المطر النافع الذي يغيثهم من الجدب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي أيئس الناس من نزوله (وينشر رحمته) أي مطره أو رزقه في السهل والجبل من النبات والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه وينشر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد في نفسه وعلى إحسانه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي من دلائل وجوده ووحدته وقدرته وصفات كماله ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بذواتها، وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطف على السماوات أو على الخلق ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من حيّ، على إطلاق إسم المسبب للسبب فحينئذ يشتمل الملائكة والجن والشياطين والإنس وسائر الحيوانات أو المراد مما يدب على الأرض وما يكون في أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فيجمعهم يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بسبب معاصيكم وما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط وكذلك جيء بالفاء في خبره على قراءة الجمهور، وقرأ نافع وابن عامر بما كسبته بغير الفاء وكذا هو في مصاحف المدينة والشام لم يذكر الفاء استغناء بما في الباء من معنى السببية ﴿ويعفوا عن كثير﴾ عطف على الجملة الإسمية أو معترضة، قال الحسن لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا إختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر**»[1] وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «وصب المؤمن كفارة لخطاياه» رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي، وروى البغوي بسنده عن علي رضي الله عنه قال: «ألا أخبركم بأفضل آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ حدثنا بِهَا رسول الله ﷺ (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله عزَّ وجلَّ أكرم من أن يثنى عليهم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحكم أن يعود بعد عفوه»[2] رواه أحمد وغيره، قال البيضاوي الآية مخصوصة بالمجرمين فإن ما أصاب غيرهم فلأسباب أخر منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه عن البراء بن عازب. انظر: في القدير (٨٠٨١).

(٢) رواه أحمد وفيه أزهر بن راشد وهو ضعيف.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: التفسير، باب: سورة حم عسق (١١٣٢٨)، وقد روى الترمذي وابن ماجه قريباً منه.

عليه، قال البغوي قال عكرمة ما من نكبة أصاب عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها أو درجة لم يكن الله ليبلغه إلا بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب حال من مفعول أصابكم أو عطف على جملة ما أصابكم وعطف على هذا قوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحرسكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ قرأ ابن كثير الجواري بالياء وصلاً ووقفاً ونافع وأبو عمرو وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ السفن الجارية فيه ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي كالجبال صفة للجوار وكذا الجملة الشرطية التالية على طريقة وَلَقَدْ أَمرُّ على اللئيم يسبني ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ أي يبقين بعد سكونها رواكد أي ثوابت ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جملة معترضة أي آيات لكل مؤمن لأن من صفة المؤمن الصبر في الشدة والشكر في الرخاء قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر**» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطف على فَيَظْلَلْنَ أي أو إنْ يشأ يُسْكِنِ الريح فيوبقهُنَّ بدوام السكون أي يهلك أهلهن بإغراقها، وقيل عطف على يُسكن الريح والتقدير أو يرسلها عاصفة فيُوبِقْهُنَّ ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي بسبب ما كسب أهلها من المعاصي ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي وينج ناساً على العفو منهم، جملة معترضة أو معطوفة على ما سبق والتقدير إن

يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد أو يرسلها عاصفة فيوبقهن أو طيبةً فَيَعْفُ عَنْ كَثير، وإنما حذف ما حذف اقتصاراً على المقصود ﴿وَيَعْلَمُ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على الإستئناف والباقون بالنصب عطفاً على علة مقدرة لإسكان الريح والإيباق أي إن يشأ يسكن الريح لينتقم من أهل السفينة وليعلم ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والإبطال، وقيل هو معطوف على الجزاء ونصب نصب الواقع جواباً للأشياء الستة بتقدير إن عطف المصدر على المصدر يعني إن يشأ الله تعالى إسكان الريح وإهلاك قوم وإنجاء قوم وعلم من يجادل في آياتنا بأنه ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ من العذاب، الجملة سدَّت مسد المفعولين ليعلم معلق عنها يَعْلَمَ بحرف النفي أي يَعْلَمَ الذين يكذبون بالقرآن ولم يعتبروا بآيات الرحمن إذا صاروا إلى الله بعد البعث أن لا مهرب لهم من العذاب أو يعلموا حين يحيط بهم الرياح في البحر إن لا مهرب لهم من الغرق.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي فهو مَتاعُ الحياة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ أي تمتعون به مدة حياتكم القريبة الفانية ليس منها زاداً للمعاد فأجملوا في طلبها وأقتصروا على ما يكفيكم عمَّا يلهيكم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب في دار الجزاء ﴿خير﴾ منها كمّاً وكيفاً وخالص منفعةً بلا شوب مشقة ﴿وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ روي عن علي رضي الله عنه أنه تصدَّق أبو بكر بما له كله فلامه جمع فنزلت هذه الآية، ما الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، وفي الآية بيان أن المؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع لهما يتمتعان بها فإذا صاروا إلى الآخرة كان ما عند الله خيراً للمؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ عطف على قوله ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قرأ حمزة والكسائي كبير الإثم على الواحد هاهنا وفي سورة النجم والباقون كبائر بالجمع ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هي الكبائر وقال السديُّ هي الزنى، وقال مقاتل ما يوجب الحد وقد ذكرنا الكبائر، في سورة النساء ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ عطف على يجتنبون والظرف متعلق بيَغْفِرُوْنَ وبناء يغفرون على ضميرهُم خبراً للدلالة على أنهم أحقاء بالمغفرة حال الغضب والجملة معطوفة على الصلة والموصول إما مجرور عطفاً على الَّذِيْنَ آمَنُوا أو منصوب على المدح أو مرفوع ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾ مصدر كالفتيا بمعنى التشاور أي يتشاورون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولا شك أن المؤمن إذا استشار مؤمناً يشيره بما هو خير له في الدارين يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر قال رسول الله ﷺ: «**المستشار**

مؤتمن» رواه مسلم عن أبي هريرة والترمذي عن أم سلمة وابن ماجه عن ابن مسعود، وروى الطبراني في الأوسط بسند حسن عن علي رضي الله عنه «المستشار مؤتمن فإذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه» وروى الطبراني في الكبير بسند حسن عن سمرة بن جندب «المستشار مؤتمن إن شاء أضار وإن شاء لم يشر» ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير عطف أو حال.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ أي الظلم والعدوان ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن ظلمهم من غير أن يعتدوا، قال ابن زيد جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عن ظالميهم وصنفاً ينتقمون منهم وهم الذين ذكروا في هذه الآية، قال إبراهيم في هذه الآية أنهم كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا قال عطاءهم المؤمنون الذين أخرجوا من مكة بغياً عليهم يعني من غير حق إلا أن يقولوا ربنا الله وثم مكنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم، وقال البيضاوي وصفهم بسائر أمهات الفضائل منها كراهة التذلل وهو لا يخالف وصفهم بالغفران فإنه يُنبىء عن عجز المغفور والإنتصار عن مقاومة الخصم والحلم عن العاجز محمود عن المتغلب مذموم لأنه أجراء وإغراء على البغي، قلتُ: الباغي إن كان ظالماً متعدياً على حق الله تعالى على عامة المؤمنين فالأولى بل الواجب هناك الإنتقام وسدُّ باب الفتنة، وإن كان متعدياً على نفس أحد فالانتصار والإنتقام ومن غير اعتداء له من جائز لكن العفو والإصلاح ودفع السيئة بالحسنة أفضل والله أعلم.

ولمَّا ذكر الله سبحانه جواز الانتصار منعهم عن التعدي فيه فقال ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ جملة معترضة سمى الجزاء سيئة لتشابهما في الصورة أو لأنه تسوء بمن تنزل به أو لأنه أسوأ من العفو، قال مقاتل يعني القصاص في الجراحات والدماء، وقال مجاهد والسديّ هو جواب القبيح إذا قال أخزاك الله فيقول أخزاك الله وإذا شتم أحد شتمه بمثلها من غير أن يعتدي، وقال سفيان بن عيينة قلتُ لسفيان الثوري ما قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ إن كان يشتمك رجل تشتمه أو يفعل بك فتفعل به فلم أجد عنده شيئاً فسألتُ هشام بن حجيرة عن هذه الآية فقال الجارح إذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك فتشتمه ويؤيد قول هشام قوله ﷺ «المستبَّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان» رواه أحمد والبخاري في الأدب بسند صحيح عن عياض بن حمار وقوله ﷺ «لا يكون اللعَّانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»(١) رواه مسلم وأبو داود عن أبي الدرداء، لكن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٨).

قوله ﷺ «المستبَّان ما قالا فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم»[١] رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة يدل على كون البادي أظلم والمجيب له نوع رخصة ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن ظلم صاحبه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين ظالمه ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي أن الله يأجره لا محالة، قال البغوي قال الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان أجره على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدين بالسبّ والمتجاوزين على المثل في الانتقام، وقال ابن عباس الذين يبدؤون بالظلم.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول أي بعد ظلم الظالم إياه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المنتصرين ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاينة والمؤاخذة ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالعقاب في الآخرة والمعاتبة والمؤاخذة في الدنيا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبدؤونهم بالإضرار ويؤذونهم في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم بغير حق ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ في القاموس بغي يبغي بغياً عَلا وظلم وعدا عن الحق واستطال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَن صَبَرَ﴾ عطف على مَنِ انْتَصَر وبينهما اعتراض أي من صبر على ظُلْم من ظَلَمَ عليه ﴿وَغَفَرَ﴾ الظالم ولم ينتصر مبتدأ حذف خبره أي فهو أفضل الناس وأقيم علته مقامه وهي قوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والغفران ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من معزوماته بمعنى المطلوبات شرعاً، قال مقاتل يعني من الأمور التي أمر الله وقال الزجاج الصابر يؤتى بصبره الثواب فالرغبة في الثواب أتم عزم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن السباب (٢٥٦٨٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: المستبان (٤٨٨٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الشتم (١٩٨٧).

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ناصرٍ يتولاه أي يلي هدايته ويمنعه من عذاب الله ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد خذلان الله إياهم جملة معترضة ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أيها المخاطب ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي حين يرون العذاب ذكر بلفظ الماضي تحقيقاً ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ الجملة قائم مقام المفعولين لترى أي تراهم قائلين هذا القول استفهام لفظاً ومعناه السؤال يسألون الرجعة إلى الدنيا ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار يدل عليها العذاب ﴿خَاشِعِينَ﴾ أي خائفين متذللين متقاصرين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ أي مما يلحقهم من التذلل ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال بعد حال من فاعل يُعْرَضُونَ ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالصبور ينظر إلى السيف بمسارقة النظر خوفاً وذلةً في نفسه، وقيل من بمعنى الباء ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ يعني من تبعهم في الكفر بالتعريض للعذاب المخلد وقيل المراد بالأهل الحور فإنهم خسروهن بعدم وصولهم إليهن المعدة لهم في الجنة لو آمنوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف للخسران والقول في الدنيا أو للقول أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحال ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم تمام كلامهم أو تصديق من الله بهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم﴾ أي يدفعون العذاب عنهم ﴿من دون الله﴾ حال من أولياء ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الوصول إلى الحق في الدنيا وإلى الجنة في العقبى قد انسدَّ عليه طرق الخير كلها.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ أي أجيبوا داعي الله محمداً ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا يرده الله بعد ما حكم به ومن صلة لمرد وقيل صلة يأتي أي من قبل أن يأتي يوم من الله لا يمكن رده وذلك يوم الموت أو يوم القيامة ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ مفر يلجئون إليه ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائف أعمالكم ويشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم أو ما لكم من منكر بغير ما بكم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن إجابتك يا محمد ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ حذف جزاء الشرط وأقيم تعليله مقامه تقديره فلا تحزن لأن (ما أرسلناك عليهم رقيباً مؤاخذاً) على إعراضهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغت تعليل لقوله: ﴿ما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أراد به الجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي نعمة في الدنيا، قال ابن عباس يعني الغنى والصحة ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِن

﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ من القحط أو الفقر أو المرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب معاصيهم التي قدموه وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال بها ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفران لما تقدم من نعم الله عليه ينسى ويجحد بأقل شيء من الشدة جميع ما أسلف عليه من النعم ويذكر البليّة ويعظّمها ولا يتأمل في سببها، وهذا الحكم وإن اختص بالمجرمين جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه وتصدير الشرطية الأولى بإذا والثانية بأن لأن إذاقة النعمة محققة من حيث أنها عادة الله تعالى يقتضيه رحمته الذاتية بخلاف إصابة البليّة وأقيم علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع الضمير في الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله التصرف فيها كيف يشاء من إنعام وإنتقام، الجملة متصلة بقوله ومن آياته الجوار ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تعليل لما سبق وقوله ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ الآية، قيل بيان للخلق يعني يهب لبعض الناس أنثى لا يكون له ولد ذكر، قيل من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فلا يكون له أنثى ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فيجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يولد له، وقيل الجملة بدل من يخلق بدل البعض ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بما يخلق ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاء فيفعل بحكمته واختياره.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قال البغوي: قالت اليهود للنبي ﷺ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فقال لم ينظر موسى إلى الله عزَّ وجلَّ فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صح له ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ وحياً وما عطف عليه منصوب على المصدرية لأن من وراء حجاب صفة كلام محذوف والإرسال نوع من الكلام وهو ما كان بتوسط الرسول وجاز أن يكون منصوباً على الحال ويكون المصدر بمعنى المفعول تقديره إلا موحي أو مستمعا من وراء حجاب أو مرسلا والوحي في اللغة الإشارة السريعة، والمراد هاهنا كلاماً خفيا غير مركب من حروف مقطعة متعاقبة يلقيه تعالى في قلب النبي ﷺ المنام أو

اليقظة ويعبر عنه بالإلهام وهو تعم المشافهة به كما روى في حديث المعراج وما وعد به في حديث الرؤية في الآخرة والمهتف به كما أتفق لموسى على طوى والطور لكن قوله ﴿أو من وراء حجاب﴾ يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها، قلتُ: لكن ما ذكر البغوي في شأن نزول الآية يدل على نفي النظر إلى الله عند الوحي في الدنيا فالمراد بالوحي هاهنا إلقاء كلام بسيط في القلب وبقوله مِنْ ورآي حجاب كلام مسموع بلا توسط الملك بغير معاينة كما أتفق لموسى في طوى والطور كذا قال البغوي ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إما جبرئيل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ قرأ الجمهور يُرسِلَ فَيُوحِيَ بالنصب عطفاً على وحياً بتقدير أن المصدرية وقرأ نافع بضم اللام وسكون الياء رفعاً على الاستئناف فتكلم الله حينئذ ينحصر فيما كان بلا واسطة الملك ويقابله إرساله الملك بكلامه إلى الأنبياء.

عن عائشة رضي الله عنها قالت إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليّ فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً»[(١)] متفق عليه، وعن عبادة بن الصامت قال كان النبيّ ﷺ «إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه»[(٢)] رواه مسلم، وعن ابن عباس قال: «أقام رسول الله بمكة خمس عشر سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً وثمان سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشراً وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة» متفق عليه، وعن عائشة قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم» الحديث متفق عليه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما يقتضيه حكمته فتكلم تارةً بغير وسيط وتارة بوسيط.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي إيحاءً كإيحائنا إلى سائر الرسل أو كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ أي كتاباً وهو القرآن كذا قال الكلبي ومالك بن دينار، وقال السديُّ سماه روحاً لأن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: طيب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب: حد الزنى (١٦٩٠).

القلوب يحيى به كما يحيي الأبدان بالأرواح، وقال الربيع الروح جبرئيل والمعني أرسلنا إليك جبرئيل وما قال ابن عباس أنه النبوة وقال الحسن الرحمة فالمراد به أيضاً القرآن فإنه أثر النبوة والرحمة ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ الذي نوحيه إليك ظرف مستقر لروح أي روحاً كائناً من أمرنا ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ قبل الوحي حال من كاف إليك ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ سدَّ مسد المفعولين لتدري وحرف الاستفهام علقه عن العمل ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ يعني شرائعه ومعاملة التي لا طريق إليه غير السمع فقال محمد بن إسحاق المراد بالإيمان في هذه المقام الصلاة كما في قوله تعالى ﴿ما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] وهذا التفسير مبني على أن أهل العلم اتفقوا على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا ملهمين من الله تعالى بالإيمان بالصانع المتوحد بصفات الكمال المنزه عن النقص والزوال، وما قيل إن النبيّ ﷺ كان قبل الوحي يعبد الله على دين إبراهيم فشيء لا يصاعده العقل والنقل فإنه ﷺ كان أمياً لم يقرأ الكتاب ولم يكن دين إبراهيم شائعاً في قريش كانوا يعبدون الحجارة غير أنه صلى الله عليه وسلم يرغب إلى الخلوة، قلتُ: ويمكن أن يقال أنه ﷺ كان مؤمناً كاملاً محققاً بحقيقة الإيمان لكن لم يدر أنّ هذه الحالة إيمان والله أعلم.

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾ وقال ابن عباس يعني الإيمان وقال السديُّ يعني القرآن ﴿نُورٗا﴾ لظلمة الجهل ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ أي نوصل به إلى العقيدة الحقة في الدنيا وإلى الجنة وإلى مراتب القرب في الآخرة (وإنّك) يا محمد ﴿لتهدي﴾ الناس كافة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وسواه دين الإسلام الموصل إلى الجنان والمراد إلى الجنان والمراد بالهداية هاهنا إراءة الطريق ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأول ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ملكاً وخلقاً ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي أمور الخلائق كلها في الآخرة بارتفاع الوسائط والتعلقات وفيه وعد للمطيعين ووعيد للمجرمين والله أعلم.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

سورة الزخرف

آياتها تسع وثمانون وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ أي القرآن الذي هو مبين أي مظهر بإعجازه طريق الهدى من الضلالة فإنه يقتضي الإيمان به والإيمانُ به يوجب العلم بما يحتاج إليه الناس من الشرائع المثمرة للفلاح في الدنيا والآخرة، الواو للقسم أو للعطف إن كان حٰمٓ مقسما به وجواب القسم ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً وهو من البدائع لتناسب المقسم به والمقسم عليه كقول أبي تمام، وثناك أنها أعريض ولعل إقسام الله تعالى بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة عليه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أي لكي ﴿تَعْقِلُونَ﴾ أي صيرناها مقروءاً بلغتكم لتفهموا معانيه وإلا فالقرآن من صفاته تعالى غير مخلوق ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن عطف على إنا ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي اللوح المحفوظ فإنه أصل كل كتاب لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾[1] قال ابن عباس أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب بما يريد أن يخلق فالكتاب عنده ثم قرأ وإنَّه في أم الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا عنديةً وقرباً غير متكيف ولا مكاني، قيل تقديره محفوظاً لدينا من التغير ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيع شأنه من أن يدركه أحد أو رفيع شأنه في الكتب السماوية لكونه معجزاً من بينها، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه القرآن في سائر الكتب السماوية بمنزلة المركز من الدائرة يرى كذلك بنظر الكشف فالمركز أصل وإجمال للدائرة بل هو

(١) سورة البروج، الآية: ٢١ ـ ٢٢.

أفضل وأوسع من تمام الدائرة وإنما يظهر بنظر الكشف أخصر لكونه أرفع وأبعد من الناظر كما أن القمر يظهر للناظر مركزاً لدائرة الهالة مع كونه أوسع منها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره وهما خبران لأن وفي أم الكتاب متعلق بعليّ واللام لا يمنعه أو ظرف مستقر حال منه، ولدينا بدل منه أو حال من أم الكتاب أو من المستكن في قوله في أم الكتاب.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقدير أنهملكم فنضرب عنكم الذكر أي القرآن يقال ضربتُ عنه وأضربتُ عنه إذا تركتَ وأمسكتَ عنه، وصفحاً مصدر من غير لفظه يقال صفحتُ عنه إذا أعرضتَ عنه والترك والإبعاد إعراض أو مفعول له أو حال بمعنى صافحين وأصله أن توفي الشيء صفحة عنقك والإنكار راجع إلى الإهمال وترك الذكر وهو إنكاره يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه ويمكن أن يكون العطف على جملة أنه في أم الكتاب لعلي حكيم والإنكار راجع إلى معنى الفاء أي بعد كون القرآن كذلك فضرب عنكم الذكر ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي إن بكسر الهمزة على إن الجملة الشرطية مخرجة للمحق مخرج المشكوك استجهالاً لهم وإشعاراً بأن الإسراف أمر لا يجوز العقل إتيانه فكأنَّه محال مفروض والجزاء محذوف دل عليه ما قبله والمعنى إن كنتم قوماً مسرفين نهملكم فنضرب عنكم الذكر صفحاً، وقرأ الباقون بفتح الهمزة تقديره لأن كُنتُمْ مسرفين وهو في الحقيقة علة للإعراض وأورد عليها همزة الإنكار والمعنى أفنترك عنكم الوحي ونمسك من إنزال القرآن فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل إسرافكم في الكفر، قال البغوي قال قتادة والله لو كان هذا القرآن رفع حين رده أوائل لهذه الأمة لهلكوا ولكن الله عاد عليهم لعائدته ورحمته فكرره عليهم عشرين سنة أو ما شاء، وقال مجاهد والسديُّ معناه أفنعرض عنكم ونترككم فلا نعاقبكم بكفركم.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ يعني أرسلنا فيهم كثيراً من الأنبياء ﴿وما يأتيهم﴾ أي وما كان يأتيهم على حكاية الحال الماضية عطف أو حال ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من زائدة ونبي في محل الرفع ﴿إلا كانوا به يستهزؤون﴾ المستثنى المفرغ منصوب على الحال من المفعول أي الإكائنين على على صفة الإستهزاء أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي ما يأتيهم من نبي إتياناً إلا إتياناً كانوا به يستهزؤون أو على الظرف أي ما يأتيهم نبيٌّ في زمان إلاَّ كانُوا فيه يَسْتَهْزِؤُونَ به كاستهزاء قومك بك تسليّة لرسول الله ﷺ ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي من المسرفين يعني أهل مكة فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة أَشَدَّ حال من

مفعول أهلكنا المحذوف...... تقديره فأهلكنا الأولين حال كونهم أشد من مشركي مكة ﴿بَطْشًا﴾ أي قوة تميز نسبة أشد أو مفعول مطلق لأهلكنا من غير لفظه ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سبق في القرآن قصتهم العجيبة في إهلاكهم التي حقها أن يسير مسير المثل، وفيه وعد للرسول الله ﷺ ووعيد للمستهزئين بمثل ما جرى على الأولين.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي كفار مكة جواب قسم محذوف ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لعله لازم لقولهم أو ما دل عليه إجمالاً أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم فإنهم قالوا الله كما حكى عنهم في مواضع أخرى وهو الذي من صفته ما ذكر من الصفات ويجوز أن يكون هذا مقر لهم وما بعده إستئناف ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فراشاً كالمهد للصبي ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يسلكونها ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا إلى مقاصدكم أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار ينفع ولا يضر ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم أي حيينا ﴿بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي إخراجاً وإنشاءً مثل ذلك الإنشاء أي إنشاء الأرض بالمطر ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تنشرون من قبوركم أحياء أي كذلك تخرجون جملة معترضة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون عاماً؟ قال أبيتُ ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق»[1] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جرير عن سعيد بن جبير قال يسيل وادٍ من أصل العرش فتنبت منه كل دابة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

على وجه الأرض ثم يطير الارواح فيؤمر أن يدخل الأجساد فهو قوله تعالى: ﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك﴾ وأخرج أحمد وأبو يعلى عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء طش عليهم».

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي أصناف الخلائق ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي ما تركبونه على تغليب المتعدى بنفسه على المتعدي بغيره إذ يقال ركبتُ الدابة وركبتُ في السفينة أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أي ظهور ما تركبون وجمعه للمعنى ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بتمليك المركب في البر والبحر وتسخيرها ﴿وَتَقُولُوا﴾ بالسنتكم حامدين على النعمة ﴿سُبْحَانَ﴾ أي أسبح سبحان ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين من أقرن الشيء إذا أطاقه وأصله وجده قرينه إذ الصعب لا يكون قريناً للضعيف جملة ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ حال من هذه أو من ضمير لنا ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي راجعون، وجه إتصاله بما سبق أن الركوب للنقل والنقلة العظمى هو الإنقلاب إلى الله أو لأنه مخطر فينبغي أن لا يغفل عنه ويستعد للقاء الله هذه الجملة حال آخر، روى أبو داود والترمذي والنسائي والبغوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لمَّا وضع رجله في الركاب قال بسم الله فلمَّا استوى قال الحمد الله ثم قال (سبحان الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ثم حمد الله ثلاثاً وكبر ثلاثاً ثم قال لا إله إلا أنتَ ظلمتُ نفسي فأغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنتَ، ثم ضحك فقيل له ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال رأيتُ رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت وقال مثل ما قلتُ ثم ضحك، فقلنا ما يضحكك يا نبي الله؟ قال: عجبتُ لعبد إذا قال لا إله إلا الله ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1]، قوله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ مع ما عطف عليه من الموصولات ومع صلاتها صفات للعزيز العليم وعلى تقدير الاستئناف أخبار لمبتدأ محذوف أو مفعول لأعني.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء ما يقول إذا ركب الناقة (٣٤٤٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا ركب (٢٦٠٠).

وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ أي وصفوه بأن له جزءاً معطوف على قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ وجه إتصاله به أن بين الكلامين تناقض فإنهم بعدما اعترفوا أنه خالق السماوات والأرض وصفوه بأن له جزءً وما يتجزى يستحيل أن يكون واجباً ويستحيل أن يكون خالقاً، والمراد به قولهم الملائكة بنات الله إذ لا شك أن الولد ما يخلق من نطفة الوالد والنطفة جزءٌ منه ولذلك سمي الولد جزء أو بضعة قال رسول الله ﷺ: «**فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني**»(١) رواه البخاري عن المسور بن مخرمة وعند أحمد والحاكم بلفظ «فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وصهري» ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ رأي جهول ﴿مبين﴾ ظاهر الكفران ومفرط الجهل حيث لم يعرف ما ينبغي أن يسب إلى الله سبحانه وما لا ينبغي.

﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ الله سبحانه ﴿مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ عطف على يخلق أو حال من فاعله والجملة مستأنفة مقدرة بالقول تقديره قل لهم أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين، ومن ثم جاز الخطاب وأصفاكم وإلا فهو واقع بين كلامين مسندين إلى الغيب أعني ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً وإذا بشر أحدهم﴾ وأم منقطعة بمعنى الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجبُ، بل للإضراب عن قولهم إن لله ولداً يعني أنهم لم يقنعوا على إن جعلوا الله جزءاً حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاءً خسيسة مما اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم بحيث إذا بشر أحدهم بها اشتد غمهم كما قال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبة فاطمة عليها السلام (٣٧١٤).

مَثَلًا﴾ أي بالجنس الذي جعل له مثلاً إذ الولد لا بد أن يماثل الوالد أو المراد بالمثل الوصف والحال والمعنى إذا بشر أحد بالوصف الذي جعل للرحمن وصفاً أي كونه أما أنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ شديد السواد من غاية الكآبة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء قلبه من الكرب الجملة الشرطية بتقدير المبتدأ حال من ضميرهم في المقدر تقديره وقل لهم أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وهم إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴿أو من ينشؤا في الحلية﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين أي يربَّي، والباقون بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين أي يُنْبت ويكبر في الحلية، يعني النساء فإن حسنهن منحصر في الصورة فيتزين بالحلية ليزددن حسنهن بخلاف الرجال فإن حسنهم غالباً بالمعاني والأوصاف وذلك غير محتاج إلى الحلية، وفيه إشمام بأن النشأ في الزينة من المعايب فعلى الرجال أن يجتنبوا من ذلك ويتزينون بلباس التقوى ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ﴾ أي في المحاجة باللسان وبالسنان ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غير مظهر حجتهن لنقصان عقلهن وضعف أبدانهن وقلوبهن، قال قتادة ما يتكلم امرأة تريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. من ينشؤا منصوب معطوف على بَنَاتٍ والهمزة كررت لتأكيد الإنكار والتوبيخ والتعجيب والمغايرة وإنما هي لاختلاف الصفات والمعنى أم اتخذ من مخلوقاته بناتٍ مبغوضات مكروهاتٍ موجبات لسواد الوجه ناشئات في الحلية ضعيفاتٍ قلباً وقالباً وعقلاً، وجاز أن يكون مرفوعاً مبتدأ محذوف الخبر معطوف على مبتدأ محذوف تقديره أمن كان شأنه ما ذكر ومن يُنَشَّؤُ في الحلية ومن هو في الخصام غير مبين ولد الله سبحانه.

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ قرأ نافع وابن كثير عنْدَ بالنون ساكنة وفتح الدال على الظرف والباقون بالباء المفتوحة والألف، وضم الدال على أنه جمع عبد والجملة عطف على قوله وجعلوا له من عباده جزءاً يعني أنهم وصفوا الله سبحانه بما لا يليق به تعالى من أنه له ولد من خلقه، وذلك تحقير لشأنه تعالى ووصفوا الملائكة الذين هم خيار عباد الله ومقربوه قرباً غير متكيف بكونهم إناثاً وذلك تحقير لشأنهم ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ قرأ أهل المدينة أشهدوا بهمزتين الأولى للإنكار وتعليل التشنيع المذكور والثانية همزة الأفعال مضمومة مسهلة وسكون الشين على ما لم يسم فاعله وقالون من رواية أبي نشيط بخلاف عنه يدخل بين الهمزتين ألفاً والباقون بهمزة واحدة مفتوحة للإستفهام وفتح الشين، والمعنى على القراءة الأولى أحضروا خلقهم وعلى الثانية حضروا خلقهم حين خلقوا إناثاً ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ على الملائكة أنهم بنات الله

﴿ويسألون﴾ عنها يوم القيامة توبيخاً، أخرج ابن المنذر عن قتادة قال قال ناس من المنافقين إن الله صاهر الجن فخرجت بينهم الملائكة فنزلت فيهم ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ وقال البغوي قال الكلبي ومقاتل لمَّا قال أهل مكة هذا القول سألهم النبيّ ﷺ ما يدريكم أنهم بنات الله قالوا سمعنا من آبائنا ونحن نعلم أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها في الآخرة.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف قوله وجعلوا الملائكة ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن لا نعبد الملائكة ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعنون الملائكة قاله قتادة ومقاتل والكلبي، وقال مجاهد يعنون الأوثان استدلوا بنفي مشيئة عدم العبادة على إمتناع النهي أو على حسنها وذلك باطل لأن المشية يرجح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهيًّا حسناً كان أو قبيحاً ولذلك جهلهم فقال ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما يدعون من أنها بنات الله أو أنها راضٍ بعبادتها ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستند إلى حسٍ أو عقلٍ موجب للعلم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ تأكيد لما سبق أي يقولون قولاً باطلاً بالظن والتخمين، أبدى الله سبحانه وجوه فساد زعمهم وحكى شبهتهم المزيفة ثم نفي أن يكون لهم ها علم من طريق الحسن أو العقل ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل فقال ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أم متصلة معادلة بقوله ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ يعني أشهدوا وقت خلقهم أم علموا بكتاب سماوي آتيناهم ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن أو قبل إدعائهم ينطق على صحة ما قالوه ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي بذلك الكتاب ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ عطف على قول أم أتيناهم يعني ما شهدوا خلقهم وما أتيناهم كتاباً بل يتفوهون هذا القول تقليداً حيث قالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين وملة سميت أمة لأنها يؤم كالرحلة للمرحول إليه وقال مجاهد على إمام ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ يعني لا حجة لهم عقلية ولا نقلية وإنما جنحوا فيه إلى تقليد أبائهم الجهلة وسموا ذلك التقليد اهتداء ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ﴾ إستثناء مفرغ صفة لقرية أي إلا في قرية قال ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ أي منعموها ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون﴾ تسلية لرسول الله ﷺ بأن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم وأن مقدّميهم أيضاً لم يكن لهم علم مستند إلى شيء من أسباب العلم، وفي تخصيص المترفين إشعار بأن التنعم سبب للبطالة والصرف عن النظر الصحيح إلى التقليد ﴿قَٰلَ﴾ قرأ حفص قال بصيغة الماضي على أنه خبر عما قاله النذير والباقون بصيغة الأمر حكايةً لأمر ماضٍ أوحى من قبل إلى النذير أو خطاب لرسول الله ﷺ ويؤيد الأول سياق الكلام حيث قال ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بلفظ الماضي ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ قرأ أبو جعفر جئناكم على الجمع والباقون جئتكم على الإفراد والهمزة

لإستفهام الإنكار والواو للحال تقديره أتتبعون آباءكم ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ أي بدين وطريقة أهدى ﴿مما وجدتم عليه آباءكم قالوا﴾ أي قال الكافرون في جواب المنذرين ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي بما أرسلت به أنت ومن قبلك ﴿كَٰفِرُونَ﴾ وإن كان ذلك أهدى إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستئصال ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك ننتقم ممن كذبك فلا تهتم بتكذيبهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني برآء﴾ أي بريء مصدر وضع موضع النعت مبالغةً ولذا لا يثني ولا يجمع ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي من عبادتكم أو من معبودكم يعني أذكر وقت قوله ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالبرهان أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنهم يعترفون به أشرف آبائهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خلقني إستثناء منقطع أو متصل على أن يعم أولى العلم وغيرهم فإنهم كانوا يعبدون الأوثان أو صفة على أن ما موصوفة أي إنني برآء من آلهة تعبدونها غير الذي خلقني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي سيثبتني على الهداية أو يرشدني فوق ما أرشدني إليه ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي جعل إبراهيم هذه الكلمة أي كلمة التوحيد المفهومة من قوله إنني برآء إلى سيهدين ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي ذريته، قال قتادة لا يزال في ذريته من يعبد الله وحده وقال القرطبي جعل الله تعالى وصية إبراهيم باقية في نسله وذريته وقال ابن زيد يعني قوله ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وقرأ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2] ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي أذكر قول إبراهيم لعل أهل مكة يرجعوا إلى دين إبراهيم ووصيته ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ إضراب عن قوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار مكة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

المعاصرين للنبيّ ﷺ ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ الذين ماتوا على الشرك يعني لم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن، وقال الضحاك الإسلام ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الرسالة بالمعجزات أو مظهر التوحيد بالحجج والآيات أو مظهر أحكام الله سبحانه ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن قالوا هذا أي القرآن ﴿سِحْرٌ﴾ سموه سحراً لعجزهم عن معارضته ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس قال لما بَعَثَ الله محمداً ﷺ أنكرت العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وأنزل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ فلمَّا كررت الآية عليهم قالوا وإن كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة وحينئذ ﴿قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين﴾ أي من إحدى القريتين مكة والطائف ﴿عَظِيمٌ﴾ بالجاه والمال فإن الرسالة من الله منصب عظيم لا يليق إلا لعظيم ولم يعلموا أنها رتبة روحانية يستدعي عظم النفس بالتجلي بالفضائل والكمالات القدسية وكمال الإستعداد للتجليات الذاتية والصفاتية لا التزخرف بالزخارف الدنيوية، وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال قال الوليد بن المغيرة لو كان ما يقول محمد حقّاً أنزل عليّ هذا القرآن وابن مسعود الثقفي فنزلت هذه الآية، وقال البغوي قال مجاهد يعنون عتبة بن ربيعة من مكة وعبد يا ليل بالطائف وقيل الوليد من مكة ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ويرى هذا عن ابن عباس قال الله تعالى رداً عليهم ﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ يعني النبوة استفهام إنكار فيه تجهيل وتوبيخ وتعجيب من تحكمهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي ما به عيشهم من الأرزاق ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تعليل للتجهيل والتوبيخ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ تميز عن النسبة، يعني رفعنا درجات بعضهم فوق بعض بالمال والجاه فجعلنا بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً وبعضهم مالكاً وبعضم مملوكاً ﴿لِّيَتَّخِذَ﴾ متعلق برفعنا ﴿بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ مسخراً في العمل له والياء للنسبة، قال قتادة والضحاك أي يملك بعضهم بما لهم بعضاً بالعبودية والملك ولا يقدر أحدهم أن يزيد في معيشته وينقص في معيشة غيره ولا أن يعترض على الله فيما فعل من القبض ﴿ورحمت ربك﴾ يعني النبوة وما يتبعها ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإذا لم يقدر أحدهم أن يختار لنفسه الرفعة في الدنيا فأنى لهم أن يجعلوا النبوة التي هي أعلى مراتب الإنسانية حيث شاءوا والعظيم عند الله من رزق النبوة لا من رزق متاع الدنيا والجملة عطف أو حال.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولمَّا كانت العظمة عند الكفار بكثرة حطام الدنيا بين الله سبحانه كون الدنيا عند الله حقيراً مبغوضاً بقوله ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني كفاراً لحبهم الدنيا العاجلة وغفلتهم عن الأخرى الآجلة أن مع صلته مبتدأ وخبره محذوف أي حاصل وجواب لولا قوله ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ أو علة كقولك وهبتُ له ثوباً لقميصه ﴿سَقْفًا﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف على الواحد بإرادة الجنس والباقون بضم السين والقاف على الجمع للسَّقْفِ مثل رَهْنٍ ودُهُنٍ، قال أبو عبيدة ولا ثالث لهما وقيل هو جمع سقيف وقيل جمع سَقُوْفي جمع الجمع ﴿مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي مصاعد ودرج من فضة لم يذكر الصفة هاهنا إكتفاء بذكرها في المعطوف عليه أعني سقفاً ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ جمع سرير أي وجعلنا لهم سرراً من فضة ﴿عليهم يتكؤن وزخرفاً﴾ أي زينة عطف على سقف أو ذهباً كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾[1] فهو معطوف على محل من فضة، وذلك أي تخصيص الدنيا بالكفار لكونها مبغوضة عند الله والكافر مبغوضاً فيعطى المبغوض للمبغوض ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكورات من سقف الفضة ومعارجها وأبوابها وسررها وزخرفها ﴿لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحمزة وهشام بخلاف عنه لمَّا مشددةً فإن نافية ولمَّا بمعنى إلا والمعنى وما ذلك الإمتاع الحياة الدنيا لا بقاء لها ولا اعتداد لها عند الله الباقون بتخفيف لَمَا فإن مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما زائدة ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي الدار الآخرة متحققة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في علمه وقضائه ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي فيه دلالةٌ على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا وإشعاراً بما لأجله لم تجعل زخارف الدنيا كلها للمؤمنين وجعل بعضها لأعداء الله وذلك أنها مبغوضة لله تعالى حريَّة أن تجعل كلها للكافرين لولا مخافة إجتماع الناس على الكفر ولو كانت حسنة مرضية لله تعالى يعط الكافر منها شيئاً.

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة**

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

ما سقى كافراً منها شربة ماء وفي رواية قطرة من ماء»[١] رواه الترمذي والضياء، وعن المستورد بن شداد أحد بني فهر قال كنتُ في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها؟ فقالوا من هوانها ألقوها، قال رسول الله ﷺ فالدينا أهون على الله من هذه على أهلها»[٢] رواه البغوي، وأخرج أبو نعيم عن داود بن هلال الضبي قال مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم إني قد قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك ما خلقتُ أهون عليَّ منك كل شأنك صغير وإلى الغنا تصير قضيتُ عليك يوم خلقتُك أن لا تدومي لأحد ولا يدوم لك أحد وإن بخل بك صاحبك وشح عليك طوبى للأبرار الذين أطلعوني عن قلوبهم على الرضاء وأطلعوني من ضميرهم على الصدق والإستقامة طوبى لهم ما عندي من الجزاء إذا وفدوا إليَّ من قبورهم يسعى إمامهم والملائكة حافُوْنَ بهم حتى أبلغ بهم إلى ما يرجون من رحمتي، وعن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ما كان من الله عزَّ وجلّ» رواه الضياء، وروى ابن ماجه عن أبي هريرة والطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه بلفظ «إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً»[٣] والبزار عن ابن مسعود نحوه بلفظ «إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله» والطبراني في الكبير بسند صحيح عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه بلفظ «إلا ما ابتغي به وجه الله عزَّ وجل» وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له» رواه أحمد والبيهقي بسند صحيح ورواه البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً، وعن ابن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة» رواه أحمد والطبراني والحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٤] رواه أحمد ومسلم في الصحيح والترمذي وروى البيهقي والحاكم عن سلمان والبزار عن ابن عمر، يعني أن المؤمن وإن كان في نعيم فالدنيا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١١).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٢).

(٤) أخرجه مسلم في أول كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٥٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤).

بالنسبة إلى ما أعد له في الآخرة من الثواب سجن وسنة والكافر وإن كان في ضر وبلاء فالدنيا بالنسبة إلى ما أعد له في الآخرة من العذاب جنة والله أعلم.

فإن قيل روى صاحب مسند الفردوس عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا والدنيا والآخرة حرام على أهل الله» ما معنى ذلك قلتُ معناه عندي والله أعلم أن حب الدنيا حرام على أهل الآخرة يعني على المؤمنين لا الإنتفاع بمتاع الدنيا حيث قال الله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾[1] فمن ارتكب بحب الدنيا أضر بآخرته قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى» رواه أحمد والحاكم في المستدرك بسند صحيح عن أبي موسى والآخرة يعني حظوظ الآخرة حرام على أهل الدنيا يعني من همه الدنيا لا غير يعني الكفار وفيهم قال الله تعالى: ﴿منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾[2] والدنيا والآخرة يعني حبهما حرام على أهل الله وهم الذين امتلأ قلوبهم من حب الله تعالى لا تلتفت قلوبهم إلى شيء من الدنيا والآخرة غير الله سبحانه. روي أن رابعة البصرية أخذت في إحدى يديها ظرفاً من ماء وفي الأخرى قطعة من نار فقيل لها أين تريدين قالت أريد أن أطفأ نار جهنم وأحرق الجنة كيلا يعبد الناس الله تعالى طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار بل خالصاً لوجهه تعالى، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه وكان هذا مبنيّاً على السكر منها بل لا بد للمؤمن أن يطمع في الجنة لا لنفسها بل لكونها محلاً لرحمة الله تعالى ويتعوذ من النار لكونها محلاً بسخط الله تعالى ولا لحق العبد جائز لما ذكرنا وطلب المعاش جائز بل فريضة حيث قال رسول الله ﷺ: «**طلب الحلال فريضة بعد الفريضة**» رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود فما معنى الدنيا وحبها قلتُ معنى حب الدنيا إيثارها على الآخرة والإنهماك في اكتسابها ولذاتها بحيث يغفل عن إكتساب الثواب واجتناب العذاب والحرص على جمع المال وطول الأمل وزعم الأغنياء خيراً من الفقراء وتعظيم الأغنياء فوق تعظيم الفقراء لأجل غناه لا لدفع مضرة أو مكافأة إحسان أو لغير ذلك من غرض مشروع أو أن يريد عُلواً في الأرض أو فساداً، وأما طلب المعاش وكسب الأموال من ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٢) الآية هي: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾. سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[1] للإنفاق على نفسه حتى يتقوى على عبادة ربه وعلى عياله إداء لحقوقهم وللإنفاق في سبيل الله فليس بمكروه بل منها ما هو واجب ومنها ما هو مُستحب ومنها ما هو مباح، قال رسول الله ﷺ «أيما رجل كسب مالاً من حلال فأطعم نفسه أو كساها فمن دونه من خلق الله كان له به زكاةً» رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي سعيد ولكن المسنون الإجمال في طلب الدنيا قال رسول الله ﷺ: «**أجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما خلق له**»[2] رواه ابن ماجه والحاكم.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي من يعرض عن القرآن ويتعامى عنه لفرط إشتغاله باللذات وإنهماكه في الشهوات يقال عشوتُ إلى فلان عشواً إذا قصدته مهتدياً وعشوتُ عنه إذا أعرضت عنه كما يقال عدلتُ إلى فلان وعدلتُ عنه أي ملتُ إليه وعنه ورغبتُ فيه ورغبتُ عنه، قال الخليل بن أحمد أصل العشو النظر ببصر ضعيف ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قرأ يعقوب يُقَيِّضُ بالياء التحتانية على صيغه الغائب والضمير فيه راجع إلى الرحمن والباقون بالنون على التكلم والتعظيم أي نصبتُه له شيطاناً ونضمه إليه ونسلط عليه ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿له قرين﴾ لا يفارقه ويزين له السيئات ويخيل إليه أنه على الهدى ﴿وإنهم هم﴾ أي الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي يمنعونهم جمع الضمير نظراً إلى معنى من الموصولة وهم

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٢)، في الزوائد: في إسناده يزيد الرقاشي والحسن بن محمد بن عثمان وإسماعيل بن مهرام.

العاشين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الهدى جملة معترضة ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي العاشون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي على الهداية الجملة حال من الضمير المنصوب من ليصدونهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ غاية لحسبانهم، قرأ أهل العراق غير أبي بكر جائنا على الإفراد يعني إذا جاء العاشي والباقون جائنا على التثنية يعني إذا جاء العاشي وشيطانه وقد جعلا في سلسلة واحدة ﴿قَالَ﴾ أي العاشي لشيطانه ﴿يا﴾ للتنبيه أو المنادي محذوف تقديره يا قرين ﴿ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ أي بعد المشرق من المغرب فغلَّب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما أو المراد مشرق الصيف ومشرق الشتاء ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت لي، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشيطان فلا يفارقه حتى يصير إلى النار، قال الله تعالى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الآخرة ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ إذ تبين لكم أنكم أشركتم وظلمتم أنفسكم في الدنيا وإذ بدل من اليوم ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في موجبه ويجوز أن يسند الفعل إليه يعني لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في أمر صعب معاونتهم في تحمل إعيائه وتقسمهم بمكائده شدائده لأن لكل واحد منكم ومن شياطينكم الحظ الأوفي والأوفر من العذاب وجاز أن يكون جملة ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ حالاً من فاعل قال يا ليتني ويكون فيها إلتفاتاً من الغيبة إلى الخطاب.

﴿أَفَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين والإستفهام للإنكار والتعجب والفاء للعطف على محذوف تقديره أنت تريد أن تهديهم فأنت تسمع الصم يعني لست تقدر على هداية هؤلاء الكفار بعد تمرنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار ظلمة الكفر عليهم غشاوةً على أعينهم ووقراً في آذانهم كأنهم لا يسمعون كلامك ولا يبصرون طريقاً تهديهم إليه ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ إن شرطية إتصلت بما الزائدة المؤكدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة والمعنى فإن نقبضك قبل تعذيبهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدك في الدنيا وفي الآخرة علة لجزاء محذوف أقيم مقامه يعني لا تحزن ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ في الدنيا ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ نحو ما ذكر يعني لا تعجب فإنا على تعذيبهم مقتدرون لا يفوتوننا نعذبهم متى شئنا والمراد به مشركوا مكة إنتقم الله منهم يوم بدر وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن وقتادة عنى به أهل الإسلام من أمة محمد ﷺ وقد كان بعد النبيّ ﷺ نقمة شديدة فأكرم الله نبيه ﷺ وذهب به ولم يره في أمته إلا الذي يقر عينه وأبقى النقمة بعده وروي أن النبيّ ﷺ أرى ما يصيب

أمته بعده فما رُئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله، قلتُ: لعل ذلك مقتل حسين عليه السلام وما فعل بعد ذلك بنوا أمية، وعن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال قرأ علي بن أبي طالب هذه الآية فقال قد ذهب نبيه وبقيت نقمته في عدوه ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك﴾ من الوحي المتلو وغير المتلو فاحفظه وأعمل به الفاء للسببية والجملة متصلة بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[(١)] وبينهما معترضات ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له، هذه الجملة في مقام التعليل للأمر بالإستمساك.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ أي شرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ قريش الجملة حال من فاعل استمسك قال البغوي روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك لم يجب بشيء حتى نزلت هذه الآية وكان بعد ذلك إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك قال لقريش، وكذا روي عن علي رضي الله عنه وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي إثنان»[(٢)] وعن معاوية قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»[(٣)] وقال مجاهد القوم هم العرب والقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص عن العرب حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم، وقيل ذلك شرف لك بما أعطاك من الحكمة ولقومك المؤمنين بما هداهم الله ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن القرآن وعما يلزمكم من القيام بحقه جملة معترضة ﴿واسأل﴾ عطف على فاستمسك ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ قال البغوي اختلف العلماء في هذا المسؤول؟ قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لمَّا أسري بالنبيّ ﷺ بعث الله له آدم وولده من المرسلين فأذن جبرئيل قم أقام وقال يا محمد تقدم فصل بم فلمَّا فرغ من الصلاة قال جبرئيل سل يا محمد ﴿من أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ لا أسأل قد اكتفيتُ، وهذا قول الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد قالوا جمع له الرسل ليلة أسرى به أن يسألهم فلم يشك ولم يسأل وقال أكثر المفسرين معناه وأسأل أمم من أرسلنا من قبلك وعلماء دينهم يعني مؤمني

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠٠).

أهل الكتاب وهذا قول ابن عباس في سائر الروايات ومجاهد وقتادة والضحاك والسديّ والحسن والمقاتلين ويدل عليه قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب وسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعباده غير الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين﴾ يريد باقتصاص تسلية الرسول ﷺ ومناقضة قولهم: ﴿لولا نزل على رجل من القريتين عظيم﴾[(١)] والإستشهاد بدعوة موسى إلى التوحيد ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ الدالة على رسالته منها العصا واليد البيضا ﴿إذاهم منها يضحكون﴾ استهزاء بها أول ما رأوها بلا تأمل فيها لمَّا ظرف مضاف إلى جملة بعدها متعلقة بمعنى المفاجأة الذي هو عامل في إذا يعني لما جاءهم بآياتنا فوجىء وقت كونهم يضحكون وجملة فوجىء عطف على قوله ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من آيات العذاب كالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس فإنها كانت آيات على صدق موسى عليه السلام ﴿إِلَّا هِيَ﴾ أي إلا آية هي ﴿أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي من قرينه التي كانت قبلها وجملة ما نريهم حال من ضمير منها والأ ظهر أن يقال أن كل واحدة منها كانت بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر إلى كل واحدة منها أنها أكبر من غيرها والمراد وصف الكل بالكبر كقولك رأيتُ رجالاً كل واحد منهم أفضل من غيره، وكقول الشاعر:

من تلق منهم فقد لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

أو يقال بأن كل واحد منها مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الإعتبار ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾ يعني آل فرعون ﴿بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لكي يرجعوا عن كفرهم وجملة وأخذناهم عطف على﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ يعني قال فرعون وقومه لموسى ﴿يا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

أيه السحر﴾ قرأ ابن عامر بضم الهاء في آية وصلاً والباقون بفتحها على الأصل وقرأ أبو عمرو والكسائي بالألف وقفاً على الأصل والباقون آية بغير ألف، أطمعوا موسى عليه السلام في إيمانهم وعلقوا بهدايته على دعائه وكشف الضرّ عنهم ومع ذلك لم يسموه نبيّاً وسموه ساحراً كما كانوا يسمونه قبل ذلك وذلك من شدة شكيمتهم على الكفر وفرط حماقتهم، قال الزجاج دعوه بذلك الاسم لما تقدم له عندهم من التسمية، وقيل إنما قالوا هذا تعظيماً وتوقيراً له لأن السحر كان عندهم علماً عظيماً وصفةً ممدوحةً كأنَّهم قالوا يا أيها العالم الكامل الحاذق وهذا عندي غير سديد لأنهم إتهموه بالسحر أول مرة حين أنكروا نبوته و﴿قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾[1] وقيل معناه يا أيها الذي غلبنا بسحره ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أن يكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ متعلق بأدع أي بما أخبرتنا عن عهده إليك بكشف العذاب إذا دعوته ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف عنا العذاب هذه جملة مستأنفة فدعا موسى عليه السلام بكشف العذاب عنهم فكشف الله العذاب قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بدعاء موسى عليه السلام ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجئوا نقض عهدهم بالإيمان وأصروا على كفرهم حين كشفنا عنهم العذاب.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعهم وفيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافةً أن يؤمن بعضهم، ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي أنهار النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس عطف على ملك مصر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني من تحت قصوري أو تحت أمري أو بين يدي في البساتين حال وجاز أن يكون هذه مبتدأ والأنهار صفة له

(١) سورة يونس، الآية: ٧٦ ـ ٧٧.

وتجري خبره والجملة حال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ بهذه المملكة والبسطة من ﴿هَٰذَا﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرياسة من المهانة وهي القلة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يفصح كلامه للثقة التي كانت في لسانه عليه السلام بعدما زالت معظمها بدعائه عليه السلام حين قال: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾[1] وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها للتقرير إذ قدم من أسباب فضيلته، وقال البغوي أو بمعنى بل على قول أكثر المفسرين، وقال الفراء الوقف على قوله أم وفيه إضمار تقديره أفلا تبصرون أم تبصرون وبعده كلام مبتدأ فَلَمْ على هذا متصلة، وقيل أم متصلة على إقامة المسبب مقام السبب فإن قوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أم تبصرون فتعلمون أني خير ﴿فلولا ألقي عليه﴾ أي على موسى ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ الفاء للسببية فإنَّ طعن فرعون في موسى عليه السلام بالحقارة كان سبباً لتنديهم على فوات العز والجاه قرأ حفص ويعقوب اسورة جمع سوار والباقون أساورة جمع الجمع قيل أصله أساوير عوض التاء من الياء وقد قُرىء به، قال مجاهد كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سودوه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب يكون ذلك دلالةً لسيادته فقال فرعون فهلاً ألقي رب موسى على موسى أسورة من ذهب إن كان سيداً يجب علينا طاعة ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين يتابع بعضهم بعضاً يشهدون له بصدقه ويعينونه على أمره.

﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ أي فرعون عطف على نادى ﴿قَوْمِهِۦ﴾ القبط أي وجدهم جهالاً، وقيل حملهم على الخفة والجهل يقال استخف رأيه إذا حمله على الجهل وأزاله عن الصواب، وقيل أي طلب منهم الخفة في مطاوعته ﴿فأطاعوه﴾ فيما أمرهم به من نقض العهد مع موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق ﴿فلما اسفونا﴾ أي أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان يقال أسف فلان إذا اشتد غضبه الظرف متعلق بقوله ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وهو معطوف على أطاعوه وعطف عليه قوله ﴿فأغرقناهم﴾ في بحر النيل ﴿أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام قال الفراء هو جمع سليف كرُغُفٍ ورَغيُفٍ من سلُف يسلُف بضم اللام فيهما أي تقدم أو جمع سالف كصُبُرٍ جمع صابر أو جمع سلف كخُشُبٍ والباقون بفتحهما مصدر نعت به أو جمع سالف كخَدَمٍ وجمع خَادِمٍ يعني جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون ﴿وَمَثَلًا﴾ عبرةً وعظةً ﴿للآخرين﴾ وقيل سلفاً لكفار هذه الأمة إلى النار ومثلاً لمن بقي بعدهم وقيل مثلاً للآخرين أي قصة

---

(١) سورة طه، الآية: ٢٧ ـ ٢٨.

عجيبة يسير مسير الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون والله أعلم.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

أخرج أحمد بسند صحيح والطبراني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: **«إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»**، فقالوا ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً وقد عُبدَ من دون الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه قريش مثلاً، وأخرج ابن مردويه والضياء في المختار عن ابن عباس قال جاء عبد الله بن الزبعري إلى النبي ﷺ فقال يا محمد إنك تزعم أن الله قد أنزل إليك ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال نعم قال قد عُبِدَتِ الشمس والقمر والملائكة وعزير فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ونزلت ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إلى قوله ﴿خَصِمُونَ﴾ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قرأ أهل المدينة والشام والكسائي يَصُدُّونَ بضم الصاد أي يعرضون عنه ويكون لازماً ومتعدياً أي يعرضون عنه ويمتنعون أو يمنعون الناس عنه والباقون بكسر الصاد وقيل معناه مثل معنى مضموم العين، قال الكسائي هما لغتان مثل يعرشُونَ بضم الراء وكسرها أي يصيحون كذا قال سعيد بن المسيب، وقال الضحاك يتعجبون، وقال قتادة يجزعون وقال القرطبي يضجرون، قال قتادة لَمَّا ضُرِبَ ابنُ مريم مثلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ يقولون ما يريد منا محمد إلا أن نعبده ونتخذه إلهاً كما عَبَدَت النصارى عيسى ﴿وقالوا ءآلهتنا﴾ قرأ الكوفيون بتحقيق الهمزتين وألف بعدهما والباقون بتسهيل الثانية وبعدهما ألف ولم يدخل أحدهم ألفاً بين المحققة والمسهلة ﴿خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون محمداً ﷺ فنعبده ونطيعه ونترك آلهتنا، وقال ابن زيد والسديُّ أم هُوَ يعنون عيسى عليه السلام قالوا يزعم محمد أن كل مَن عبد من دون الله في النار نرضى أن يكون آلهتنا مع

عيسى وعزير والملائكة في النار ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي للجدل والخصومة بالباطل لا للتميز بين الحق والباطل لأنهم قد علموا أن محمداً ﷺ لا يريد عبادة نفسه أو قد علموا أن قوله ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ المراد منه الأصنام فإن ما لغير ذوي العقول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شداد الخصومة حراص على اللجاج إعتادوا بالخصومة، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما منك قوم بعد هدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾»(١) رواه البغوي وكذا روى أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ لله ليس ابنه ﴿أنعمنا عليه﴾ بالنبوة والزلفى ﴿وَجَعَلْنَهُ مَثَلًا﴾ أي أمراً عجيباً كالمثل السائر وآية وعبرة يعرفون به قدرة الله على ما يشاء حيث خلقه من غير أب ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إلى آخره جملة معترضة لبيان قدرة الله تعالى ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي لخلقنا منكم أي من الإنس أو المعنى لأهلكناكم وجعلنا بدلك ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلفونكم في الأرض يعمرون الأرض ويعبدونني ويطيعوني، وقيل يخلف بعضهم بعضاً يعني أن حال عيسى وإن كان عجيباً فنحن قادرون بما هو أعجب منه وإن الملائكة مثلكم من حيث أنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً فمن أين لها استحقاق الألوهية والإنتساب إلى الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها قرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة (وإنه لعلم الساعة) بفتح العين واللام أي أمارة وعلامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»**(٢) رواه الشيخان في الصحيحين، وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «اطلع النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون؟ قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدآبة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزخرف (٣٣٧٣)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: اجتناب البدع والجدل (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (٣٤٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكماً مبشراً بنبينا محمد ﷺ (١٥٥).

بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، وفي رواية وفي العاشرة وريح تلقى الناس في البحر» رواه مسلم، وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فذكر حديثاً طويلاً في قصته إلى أن قال: «إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كتفه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللؤلؤ»[1] «الحديث» رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً عدةً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتّى لا يقبل أحد حتى يكون السجدة الواحد خيراً من الدنيا وما فيها» رواه الشيخان في الصحيحين وأخرجه مسل من حديثه أيضاً «لينزلَنَّ ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرنَّ الصليب وليقتلنَّ الخنزير وليضعنّ الجزية وترك القلاص فلا يسعى عليها وليذهبنَّ الباغض وليد عنَّ إلى المال فلا يقبله أحد»، وروى مسلم من حديث جابر «فيقول أميركم تعال صل لنا فيقول إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة» وذكر البغوي «فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلّي على شريعة محمد ﷺ ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به»، وقال الحسن وجماعة الضمير راجع إلى القرآن يعني أن القرآن لعَلَم للساعة يعلّم بقيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ الفاء للسببية يعني لما كان عيسى سبباً للعلم بقيام الساعة أي فلا تشكنَّ فيها قال ابن عباس لا تكذبوا بها ﴿وأتبعون﴾ قرأ أبو عمرو بالياء وصلاً فقط والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً يعني إتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي وقيل هو قول الرسول الله ﷺ أمر أن يقوله تقديره وقل إتبعوني ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه تعليل لقوله أتبعوني ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ أي لا يمنعكم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن متابعتي، الجملة معطوفة على قوله اتَّبِعُونِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر عداوته حيث أخرجكم عن الجنة وعرضكم على البلية ويصدكم عن إتباع الحق والوصول إلى الجنة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات أو بآيات الإنجيل أو بالشرائع الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي بالعلوم الحقة الباء بمعنى مع أو للتعدية ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ متعلق بمحذوف تقديره وجئتكم لا بين لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وذلك أن اليهود صاروا بعد موسى عليه السلام إحدى وسبعين فرقة باختلاف الأهواء فلمّا جاء عيسى عليه

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

السلام صدهم عن العقائد الباطلة وهداهم إلى الحق والصواب، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إفترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح، قال الزجاج الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الفاء للسببية فإن مجيء عيسى بالحكمة سبب للتقوى ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلّغه عنه ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾ دون غيره بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو إعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى مجموع الأمرين وهذا تتمة كلام عيسى أو إستئناف من الله تعالى يدل على المقتضى للطاعة في ذلك.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة عطف على قال قد جئتكم ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي بين قوم عيسى كما مرَّ في الحديث أنهم تفرقوا إلى اثنين وسبعين فرقة أو من بين النصارى واليهود ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي هلاك عظيم ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم باتباع الهوى ورفض ما نطق به الكتاب والسنة من المتحزبين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي من نار جهنم، الفاء للسببية فإن إختلافهم سبب للويل والهلاك عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي كما أتى على نبي إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى أن من كان منهم من أتى أمه

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: شرح السنة (٤٥٨٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠).

وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: افتراق الأمم (٣٩٩١).

علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفرتق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله؟ قال ما أنا عليه وأصحابي»[١] رواه الترمذي وفي رواية أحمد وأبي داود عن معاوية «ثنتان وسبعون في النار واحدة في الجنة وهي الجماعة» ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يعني قريشاً أو الذين ظلموا يعني لا ينتظرون شيئاً ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من ا لساعة أي إتيانها يعني أنها آتية لا محالة فكأنهم ينتظرون إتيانها ﴿بَغْتَةً﴾ فجاءه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي غافلون عنها لاشتغالهم بالدنيا وإنكارهم لها والجملة حال من فاعل ينظرون أو مفعول تأتيهم ﴿الأخلاء يؤمئذ بعضهم لبعض عدو إلا﴾ المتحابين ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ روى البغوي عن علي رضي الله عنه قال في هذه الآية خليلان مؤمنان وخليلان كافران فمات أحد المؤمنين فقال يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ويخبرني إني ملاقيك يا رب فلا تضله بعدي واهده كما هديتني وأكرمه كما أكرمتني فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول ليثن أحدكما على صاحبه فيقول نعم الأخ ونعم الخليل ونعم الصاحب، قال ويموت أحد الكافرين فيقول يا رب إن فلاناً كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك فيقول بئس الأخ وبئس الخليل وبئس الصاحب»، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»[٢] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبدين تحابا في الله عزَّ وجلَّ واحد في المشرق وآخر في المغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي كنت تحبه فيَّ» رواه البيهقي في شعب الإيمان والله أعلم.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ هذه الجملة بتقدير القول مستأنفة أخرى تقديره يقول الله للمتحابين المتقين يومئذ ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ روى البخاري عن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال سمعتُ أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فزع فنادى مناد ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، فيرجوا الناس فيتبعها ﴿الذين آمنوا بآياتنا﴾ صفة للمنادى ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حال من فاعل آمنوا أي الذين آمنوا مخلصين غير أن هذه العبارة آكد فيئس الناس

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: في فضل الحب في الله (٢٥٦٦).

كلهم منها غير المسلمين ﴿أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أي تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره على وجوهكم أو تزيَّنون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً بليغاً والحبرة فيما وصف مجمل، وهذه الجملة أيضاً خطاب للمنادى أنتم مبتدأ وأزواجكم معطوف عليه وتحبرون خبره وجاز أن يكون أنتم تأكيداً للضمير المستتر في ادخلوا وأزواجكم معطوف على الضمير المستتر وجملة تحبرون حال من ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ أي يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴿بِصِحَافٖ﴾ جمع صحفة وهي القصاع الواسعة ﴿مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ جمع كوب وهو إناء مستدير مدور الرأس لا عرى به، الجملة مستأنفة وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَفِيهَا﴾ أي في الجنة عطف على يطاف ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وحفص هكذا وكذا هو في مصاحفهم والباقون تشتهي بحذف ضمير المفعول ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ أي لكل واحد منهم ما تشتهيه نفسه فالصوفي الذي مشتهاه الوصل والعريان بلا كيف ودوام رؤية الله سبحانه فله ذلك وأما غيره فله من نعماء الجنة ما يشتهيه، روى البغوي عن عبد الرحمن بن سابط قال قال رجل يا رسول الله أفي الجنة خيل فإني أحب الخيل؟ فقال «إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير في أيّ جنة شئتِ ولا فعلتَ، قال أعرابي يا رسول الله في الجنة إبل فإني أحب الإبل، فقال يا أعرابي إن يدخلك الله الجنة أصبتَ فيها ما اشتهتْ نفسك ولذت عينك»[1] وروى الترمذي والبيهقي عن بردة نحوه، وأخرج الطبراني والبيهقي بسند جيد عن عبد الرحمن بن ساعدة والترمذي عن أبي أيوب الفصل الأول أعني ذكر الخيل ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ الجنة خبر للمبتدأ والموصول صفة لها أو الجنة صفة للمبتدأ والموصول خبره والجملة حال من فاعل أدخلوا، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل من أهل النار يرى به منزلته من الجنة حسرة فيقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين وكل من أهل الجنة يرى منزلته من النار فيقول ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله يقول شكراً» قال وقال رسول الله ﷺ «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله تعالى وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون» ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الجملة الظرفية حال، أخرج البزار والطبراني عن ثوبان قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزع

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة خيل الجنة (٢٥٤٤).

رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد في مكانها مثلها» أخرج البزار عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لمَّا أخرج آدم من الجنة زوَّده من ثمار الجنة وعلمه كل شيء فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير» وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود أنه كان بالشام فذكروا الجنة فقال إن العنقود من عناقيدها من هاهنا إلى صنعاء وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال إن الثمرة من ثمار الجنة طولها إثنى عشر ذراعاً ليس لها عجم.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكاملين في الإجرام وهم الكافرون لأنهم جعلوا قسيماً للمؤمنين ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ هذه الجملة وما بعده مستأنفتان ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ أي أيسون من النجاة ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟﴾ عطف على خبر إن ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ اسم لخازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾ أي ليمتنا ربك فنستريح ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو قال مالك بعد ألف سنة ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ مقيمون في العذاب لاخلاص لكم بموت ولا غيره، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس في هذه الآية قال يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ وأخرج هناد والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال إن أهل النار ينادون مالكاً «يا مالك ليقض علينا ربك» فيذرهم أربعين عاماً لا يجيبهم ثم يرد عليهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ ثم ينادون ربهم «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» فيذرهم مثل الدنيا مرتين لا يجيبهم ثم يجيبهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال فما يتكلم القوم بعدها بكلمة وما هو إلا الزفير والشهيق، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن محمد بن كعب إنه قال لأهل النار خمس

دعوات يجيبهم الله في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) فيجيبهم ﴿ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ ثم يقولون: (ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) فيجيبهم الله ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم يقولون: (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) فيجيبهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، ثم يقولون: (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فيجيبهم الله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ثم يقولون: (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضآلين) فيجيبهم الله ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فلا يتكلمون بعدها.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزال وهذا تتمة الجواب إن كان في قال ضمير الله وإلا فجواب عنه فكأنَّه تعالى تولَّى جوابهم بعد جواب الملائكة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لما في إتباعه خلاف النفس ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أم منقطعة بمعنى الهمزة للإنكار والإضراب عن كراهة الحق والترقي فيه يعني بل أحكموا ﴿أَمْرًا﴾ مكراً برسول الله ﷺ أو أمراً في تكذيب الحق ورده ولم تقتصروا على كراهيته ﴿فإنا مبرمون﴾ محكمون أمراً في مجازاتهم.

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال الآخر إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أم منقطعة للإنكار والإضراب يعني بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾ سرهم أي حديث نفسهم بذلك ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ أي تناجيهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي الملائكة الحفظة أيضاً ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون الدال ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ منكم فإن النبي أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن يعظم الوالد يعظم ولده قال رسول الله ﷺ: «**فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها**» وفي رواية «فمن أغضبها أغضبني»[١] رواه البخاري عن مسور، ولا يلزم من ذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ي، باب: مناقب فاطمة عليها السلام (٣٧٦٧).

جواز البنوة لله سبحانه وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١) غير أن لو مشعرة بانتفاء الطرفين وإن لا يشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشرط، والمقصود أن إنكاره ﷺ للولد ليس لعناد بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به كذا قال السديُّ، وقيل معناه إن كان لله ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله الموحدين له من أهل مكة يعني لستُ قائلاً كما زعمتم، وقيل العابدين بمعنى الآنفين أي الجاحدين المنكرين لما زعمتم، وقيل معناه أنا أول من غضب للرحمن أن يقال له ولد، في القاموس عَبَدٌ بالتحريك الغضب والحرب الشديد والندامة وملامة النفس والحرص والإنكار عَبِدَ كَفَرِحَ في الكل والمناسب في المقام الغضب والإنكار، قال البغوي وروى عن ابن عباس إن كان بمعنى ما كان للرحمن ولد فأنا أولُ العابدين الشاهدين بذلك يعني أن نافية ليست بشرطية ﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ من كونه ذا ولد فإن هذه الاجسام لطول بقائها براء عما يتصف به سائر الاجسام من توليد المثل فما ظنك بمبدعها وخالقها ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم مجزوم في جواب الأمر ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ فيه العذاب يعني يوم القيامة وهو دليل على أن قولهم جهل وإتباع هوىً وإنهم مطبوع على قلوبهم يعذبون في الآخرة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ قال قتادة يعني يعبد في السماء والأرض لا إله غيره أي لا مستحق لأن يعبد فيهما غيره والظرف متعلق به لأنه بمعنى المعبود أو متضمن لمعناه كقولك هو حاتم في البلد ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم هذا بمنزلة الدليل على استحقاقه العبادة وهذه جملة معترضة مؤكدة لما سبق وكذا ما عطف عليه ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من كائنات الجو

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي العلم بوقت قيامها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يدعونه الكفار وهم الأصنام ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي دون الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاء عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ﴾ منهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي يقول لا إله إلا الله إستثناء منقطع، وجاز أن يكون متصلاً والمراد بهم الملائكة فإنهم كانوا يعبدون الملائكة أيضاً ويقولون أنها بنات الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعتقدون بقلوبهم ما يشهد ألسنتهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي الكفار العابدين لغير الله ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذر إسناد الخلق إلى الجمادات ﴿فإنى يؤفكون﴾ يعني إذا اعترفوا بأن الله خالقهم لا غير فأين يصرفون عن عبادته إلى غيره ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالجر وكسر الباء عطفاً على الساعة يعني عنده علم الساعة وعلم قوله والباقون بالنصب وضم الباء عطفاً على سرهم أو على محل الساعة أو بإضمار فعله يعني قال محمد ﷺ شاكياً إلى ربه قيله ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ويعني كفار مكة ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ يعني بيننا وبينكم متاركة تسلمون منا ونسلم منكم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاء عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم تسلّية لرسول الله ﷺ. قرأ أهل المدينة والشام بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة، قال مقاتل نسختها آية السيف.

سورة الدخان

آياتها تسع وخمسون وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾.

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ المظهر للحلال والحرام أي القرآن والواو للعطف إن كان حٰمٓ مقسماً به وإلا فللقسم والجواب قوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ويعني القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ لما فيها نزول القرآن السبب للمنافع الدينية والدنيوية وفيها نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعاء وهي ليلة القدر كذا قال قتادة وابن زيد قالا أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا ثم نزل به جبرئيل عليه السلام على النبيّ ﷺ نجوماً في عشرين سنة، وما قيل إنها ليلة النصف من شعبان فليس بشيء لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾(٢) وما روى عن القاسم بن محمد عن أبيه أو عمه عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل الله جلَّ ثناؤه ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لكل نفس إلا إنساناً في قلبه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة القدر، الآية: ١.

شحناء أو مشركاً بالله»[١] رواه البغوي لا يدل على نزول القرآن في تلك الليلة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الناس عن عذاب الله في القرآن جملة مستأنفة أو بدل إشتمال من قوله إنا أنزلناه.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي يفعل ويقضى ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي محكم أو متلبس بالحكمة أو إسناده مجازي يعني حكيم صاحبه وجملة مستأنفة أو صفة ثانية لليلة وفيه تنبيه على أن كونها مفرق الأمور المحكمة يستدعي أن ينزل فيه القرآن الذي هو من عظمائها، قال البغوي قال ابن عباس يكتب من أم الكتب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشرر الأرزاق والآجال حتى الحجاج يحج فلان ويحج فلان وقال الحسن ومجاهد وقتادة يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل وعمل وخلق ورزقٍ وما يكون في تلك السنة، وقال عكرمة هي ليلة النصف من شعبان يبرم فيه أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أحد، روى البغوي عن محمد بن الميسرة بن الأخفش أن رسول الله ﷺ قال: «يقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له ولقد أخرج اسمه في الموتى» وروى أبو الضحى عن ابن عباس أن الله يقضي إلا قضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو مزيد تفخيم الأمر ويجوز أن يكون حالا من كُلُّ أمر أو من الضمير المستكن في حكيم وجاز أن يكون مفعولاً به ليُفرقُ بدلاً من كل أمر، وجاز أن يكون المراد بالأمر طلب الفعل على سبيل الإستعلاء وقع مصدراً ليُفْرَق أو لفعله مضمراً من حيث أن الفرق به أو حالاً من إحدى ضميري أَنزَلْنَاهُ يعني أمرين أو مأموراً به ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمداً ﷺ ومن قبله من الرسل بدل اشتمال لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الإنذار وإرسال الرسل بالكتب إلى العباد ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له للإرسال ولتفريق كل أمر حكيم أو مفعول به لمرسلين، قال ابن عباس رأفة مني بخلقي ونقمة عليهم بما بعثنا عليهم من الرسل ووضع المظهر موضع الضمير للإشعار بأن الرّبوبية إقتضت ذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾أي يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم وهو وما بعده تحقيق لربوبيته فإنها لا تحق إلا لمن له هذه الصفات ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ أهل الكوفة رب بالجر على أنه بدل من قول ربك والباقون بالرفع على أنه خبر آخر لإن أو صفة للسميع العليم أو خبر

(١) رواه ابن زنجويه والبزار وحسنه، والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان.
انظر: كنز العمال (٧٤٦٢).

مبتدأ محذوف أي هو ﴿إن كنتم موقنين﴾ شرط حذفت جزاؤه يعني إن كنتم من أهل الإيقان في العلم أو ﴿إن كنتم موقنين﴾ في إقراركم إذا سئلتم من خلقها فقلتم الله علمتم أن الأمر كما قلنا أو إن كنتم مريدين اليقين فأيقنوا ذلك أو إن كنتم موقنين بأن الله رب السماوات والأرض فأيقنوا أن محمداً رسول الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يستحق العبادة غيره إذ لا خالق سواه جملة مقررة لقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو خبر آخر لإن ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدون خبر آخر لأن أو حال من هو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر آخر لإن أو بدل من هو ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ من البعث أو من القرآن إضراب من الإيقان ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالمن الضمير في الظرف أي يلهون بالقرآن ويستهزءون بك يا محمد فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿فأرتقب﴾ يا محمد، الفاء للسببية ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يوم مفعول به لارتقب. واختلفوا في هذا الدخان؟ قال ابن عباس وابن عمرو الحسن رضي الله عنهم أنه من أشراط الساعة، أخرج ابن جرير والثعلبي والبغوي من حديث حذيفة يقول قال النبيّ ﷺ أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا قال حذيفة يا رسول الله ما الدخان؟ فتلا هذه الآية يوم تأتي السماء بدخان مبين يملأها بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلةً فأمَّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر كمنزلة السكران تخرج من منخره وأذنيه ودبره.

وأخرج الطبراني بسند جيد عن أبي مالك الاشعري قال قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل سمع فيه والدابة والثالثة الدجال» له شواهد قوله ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾ مقدر بالقول وقع حالاً وقوله ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وعد منهم بالإيمان إن كشف عنهم العذاب تقديره يقول الكافرون من الناس هذا القول ﴿أنى لهم الذكرى﴾ أي من أين لهم التذكر والإتعاظ بهذه الحالة الإستفهام للإنكار والجملة مستأنفة قول من الله تعالى في جواب هل يتذكرون ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ يعني والحال أنه قد جاء أمثالهم قبل ذلك ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن ظاهر البرهان ﴿مبين﴾ يظهر لهم ما هو أعظم منها في إيجاب الإدكار من الآيات والمعجزات ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ يعني قال بعضهم هو معلم علمه بشر وهو غلام أعجمي لبعض ثقيف وقال بعضهم هو مجنون ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ﴾ بقدر أربعين يوماً جواب لقولهم ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ أي كشفاً

قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم أو ما بقي من عمر الدنيا ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر تعليل لقلة زمان الكشف.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إلى يوم القيامة ظرف لما دلَّ عليه قوله ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لمنتقمون لأن إن يحجز عنه وأنكر ابن مسعود هذا التفسير، روى البغوي عن أبي الضحى عن مسروق قال بينما رجل يحدث في كندة فقال يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ففزعنا فأتيتُ ابن مسعود وكان متكئاً فغضب فجلس فقال من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وإن قريشاً أبطؤا عن الإسلام فدعا عليهم النبيّ ﷺ فقال: «اللّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حتى أهلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد جئتَ تأمر بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ إلى قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ حتى استسقى لهم النبيّ ﷺ ثم عادوا إلى الكفر كما قال الله تعالى: ﴿إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ أي يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وأخرج البغوي عن ابن مسعود قال خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان، وروى البخاري في الصحيح عن ابن مسعود قال: «إن قريشاً لما استعصوا على النبيّ ﷺ دعا عليهم بنين كسني يوسف فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله استسق لمصر فإنها قد هلكت فاستسقى فسقوا فنزلت ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فلمَّا أصابتهم الرفاهية عادوا إلى ما كانوا فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ يعني يوم بدر[(١)].

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (٤٨٢١).

﴿مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا وبلونا جواب قسم محذوف ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ أي قبل كفار مكة ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ معه ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ عظيم الشأن عطف أو حال ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه وهو موسى عليه السلام ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أن مصدرية أي بأن أدوا إليَّ بني إسرائيل وأرسلوهم معي وأطلقوهم ولا تعذبوهم أو بأن أدوا إليَّ حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله والمراد بعباد الله فرعون وقومه، وجاز أن يكون أن مفسرة لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة ففيه معنى القول أو مخففة من الثقيلة ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٞ﴾ على وحيه أو غير متهم لدلالة المعجزات على صدقي والجملة تعليل لأدوا ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ عطف على أدُّوا أي لا ترفعوا عليَّ بالإمتهانة وترك الطاعة وأن كالأولى في وجوهها ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي برهان بين على صدقي الجملة علة للنهي ولذكر الأمين مع الأداء وتعليّ مع السلطان مناسبة بينه فلما قال ذلك توعدوه بالرجم فقال ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠﴾ أي من أن ترجموني، قرأ ورش بالياء وصلاً فقط والباقون بحذفها في الحالين، قال قتادة أن تقتلوني بالرجم، وقال ابن عباس تشتموني وتقولوا ساحر والظاهر هو الأول لأن موسى عليه السلام لو استعاذ من الشتم لما شتموه وقد قالوا ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي﴾ قرأ ورش بفتح الياء والباقون بإسكانها أي إن لم تصدقوني ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ قرأ ورش بالياء والباقون بحذفها أي فكونوا بمعزل مني لا عليَّ ولا لي ولا تتعرَّضوا إلي بسوء ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ بعدما كذبوه ولم يتركوه وأذوه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ أي مشركون تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمى دعاءً.

﴿فَأَسۡرِ﴾ الفاء جزائية والجملة مقدرة بالقول يعني فأجاب الله وقال إن كان الأمر كذلك فأسر، قرأ نافع وابن كثير يوصل الهمزة من سرى يسري والباقون بهمزة القطع من الإسراء ﴿بِعِبَادِي﴾ أي المؤمنين وهم بنوا إسرائيل ﴿لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه إذا علموا بخروجكم جملة مستأنفة ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ﴾ إذا خرجت عنه وأصحابك ﴿رَهۡوًاۖ﴾ حال من البحر أي مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته ولا تضربه بعصاك حتى يلتئم قال قتادة لمَّا قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه حتى يلتئم وخاف

أن يتبعه فرعون وجنوده فقيل له اترك البحر رهواً كما هو قيل رهواً مصدر بمعنى الفاعل ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ الجملة مستأنفة في مقام التعليل ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ أي تركوا كثيراً ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي محافل مزينة ومنازل حسنة ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي متنعمين جملة كم تركوا معترضة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الكلبي معناه كذلك فعل بمن عصاني وقيل معناه الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ عطف على المقدر تقديره سلبناها منهم وأورثناها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي بني إسرائيل أو عطف على تركوا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي أهلكوا كفاراً فما بكت وهذا مجاز عن عدم الإكتراث بهلاكهم وعدم الإعتداد بوجودهم كقولهم في نقيض ذلك ﴿بَكَتْ عَلَيْهِمُ﴾ السماء وكسفت عليهم الشمس وقيل هو على الحقيقة وذلك بخلاف المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، روى الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فإذا مات فقداه وبكيا عليه»[١] وروى ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض) قال نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء ينزل منه رزقه ويصعد فيه علمه فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء فقد بكى عليه وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلّي فيها ويذكر الله فيها بكى عليه، وأخرج البغوي وأبو يعلى وابن أبي حاتم عن أنس عن النبيّ ﷺ نحوه وحديث ابن عباس رواه الترمذي وفي آخره وتلا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أخرج ابن جرير عن شريح بن عيينة الحضرمي قال قال رسول الله ﷺ: «ما مات مؤمن غربة غابت عنه فيها مواكبه إلا بكت عليه السماء والأرض ثم قرأ رسول الله ﷺ فما بكت عليهم السماء والأرض ثم قال إنهما لا يبكيان على كافر» ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ممهلين إلى وقت أخر عطف على هلكوا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الدخان (٣٢٥٥).

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ يعني قتل الأبناء واستبقاء النساء وإستعباد الرجال وإستعمالهم في الأعمال الشاقة ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل إشتمال من العذاب أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب على المجاز أو على حذف المضاف أي من عذاب فرعون فهو بدل الكل أو حال من العذاب أي واقعاً من جهتيه أو خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ أي متكبراً ﴿من المسرفين﴾ في العتو والشرارة وهو خبر ثان أي كان متكبراً مسرفاً أو حال من الضمير في عالياً أي كان رفيع الطبقة من بينهم والجملة معترضة أو مستأنفة ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني موسى وبني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال أي عالمين بأنهم أحقاء بذلك أو اخترنا بني إسرائيل على علم منّا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ أي على عالمي زمانهم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال قتادة نعمة بينة وقال ابن زيد ابتلاؤهم بالرخاء والشدة وقرأ ﴿نبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[١].

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفار قريش إذا الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والإنذار عن مثل ما حل بهم ﴿لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ولا قصد فيه إلى إثبات موتة ثانية كما في قولك حج زيد الحجة الأولى ومات، وقيل لمّا قيل لهم أنكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا إن هي أي الموتة التي تعقبها الحياة إلا الموتة الأولى دون الثانية ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي مبعوثين بعد الموت ﴿فأتوا بآبائنا﴾ الذين ماتوا خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين جزاء شرط محذوف أي إن كان البعث بعد الموت (ممكناً فأتوا بآبائنا) ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّا نبعث بعد الموت، شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والشوكة والكثرة من قوم تبع ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ خير منهم إستفهام إنكار وتقرير يعني لستموا خيراً من قوم تبع وقوم تبع كانوا خيراً منهم، وتبع اسم رجل سمي تبع لكثرة أتباعه قيل كانت التبابعة رجالاً كل واحدٍ سمي تبعاً لأنه يتبع صاحبه، ذكر محمد بن إسحاق وغيره عن ابن عباس وغيره قالوا كان آخر التبابعة هو أسعد أبو كرب بن مليك ذكر البغوي قصته في تفسير هذه الآية وذكرتُ القصة في تفسير سورة قٓ لأني قد سبق مني تفسير تلك السورة، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه لأنه قد أسلم وكذّبه قومه وقال محمد بن إسحاق في المبتدأ وابن هشام في التيحان أن بيت أبي أيوب

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمة المدينة بناه تبع الأول إسمه تَبَان بن سعد وذكرتُ قصته في سورة الجمعة والله أعلم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم الكافرة كعاد وثمود ونحوهم عطف على قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ إستئناف أو حال بإضمار قد أو خبر للموصول إن إستؤنف به ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ أي مشركين تعليل وبيان للجامع المقتضي للإهلاك.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ أي بين الجنسين ﴿لَٰعِبِينَ﴾ أي لاهين فاعلين فعلاً عبثاً باطلاً والجملة ما خلقنا السماوات الخ حال من مضمون الكلام السابق المتضمن لإنكار البعث تقديره أنكروا البعث والحال أنه ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين بل خلقنا هما للإستدلال بهما على وجودنا وصفات كما لنا والإمتلاء ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي لإظهار الحق من التوحيد ووجوب الطاعة لنثيب المطيع ونعذب العاصي هذه الجملة تأكيد ومقرر لما سبق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنها خلقت للإستدلال والإبتلاء لقلة نظرهم وإنهماكم في الدنيا ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾أي يوم القيامة الذي يفصل فيها الحق من الباطل والمحق من المبطل بالجزاء ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾ أي ميقات حشرهم وجزائهم ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ هذه الجملة مقررة لما سبق من أن خلقها للإستدلال والإبتلاء ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي﴾ بدل من يوم الفصل أو ظرف لما دلَّ عليه الفصل لا له للفصل أي يوم لا ينفع ﴿مَوۡلًى﴾ من قرابة أو غيره ﴿عَن مَّوۡلًى﴾ أي مولى كان ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء يجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي يمنعون من العذاب والضمير لمولى الأول باعتبار المعنى لأنه عام ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالعفو وقبول الشفاعة وهم المؤمنون، فإنه يشفع بعضهم لبعض ويؤذن لهم في الشفاعة ومحل المستثنى الرفع على البدل من المسترفي يُنصَرُونَ أو النصبُ على الإستثناء ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يستطيع واحد أن ينصر من أراد تعذيبه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال ان أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد فنزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي كثير الإثم وهو الكافر هذه الجملة إلى آخرها وما بعدها وهو قوله إن المتقين إلى آخرها بيان لما سبق من ذكر الفصل، والفرق بين المحق والمبطل ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ خبر آخر لأن وهو ما يذوب في النار من المعدنيات وقيل دردى الزيت الأسود كذا في القاموس ﴿يَغْلِي﴾ خبر آخر لإن قرأ ابن كثير وحفص بالياء التحتية على أن الضمير للطعام أو الزقوم لا للمهل إذ الجملة حال من أحدهما والباقون بالتاء الفوقانية على أن الضمير للشجرة ﴿فِي ٱلْبُطُونِ﴾ أي بطون الكفار ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي غلياناً مثل غليانه، روى البغوي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس أتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامه ليس له طعام غيره»(١) وأخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي نحوه وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم عن أبي عمرو الخولاني في هذه الآية قال بلغنا أن ابن آدم لا تنهش منها نهشة إلا نهشت منه مثلها ﴿خُذُوهُ﴾ أي يقال للزبانية خذُوهُ أي الأثيم وجملة يقال خبر آخر لأن ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وأبو عمرو بكسر التاء والباقون بضمها وهما لغتان أي إدفعوه قهراً والعتل الأخذ بجامع الشيء وجرُّه بقهر ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسطه ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ فقيل صُبُّوا فوق رأسِهِ عَذَاباً هُوَ الحمِيمُ للمبالغة أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف وزيدت من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع ﴿ذُقْ﴾ تقديره قائلين ذُق هذا العذاب ﴿إِنَّكَ﴾ قرأ الكسائي بفتح الهمزة أي لأنك والباقون بكسرها على الإبتداء ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ في زعمك، قال البغوي قال مقاتل إن خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه عن دماغه فيصبُّ فيه ماءً حميماً قد انتهى حرَّة ثم يقال ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ وذلك أن أبا جهل كان يقول أنا أعزُّ أهل الوادي وأكرمهم، ويقول هذا خزنة النار على طريق الإستخفاف والتوبيخ، وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال لقي رسول الله ﷺ أبا جهل فقال إن الله أمرني أن أقول لك ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ قال فنزع ثوبه من يده وقال ما يستطيع لي أنتَ ولا صاحبك من شيء لقد علمت

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥)، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٢٥).

أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون وتمارون فيه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ قرأ أهل المدينة والشام بضم الميم على أنه مصدر ميمي أي في إقامة والباقون بفخ الميم أي موضع إقامة ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن فيه صاحبه عن الآفات والإنتقال ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من مقام جيء به للدلالة على نزاهته وإشتماله على ما يستلذ به المآكل والمشارب ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار والمجرور أو استئناف السُّنْدُسُ مارقّ من الحرير والإستَبرَقُ مَا غلظ منه، أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن كعب قال لو أن ثوباً من ثياب الجنة ليس اليوم في الدنيا لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم، وأخرج الصابوني في الماتين عن عكرمة قال إن الرجل من أهل الجنة ليلبس الحلة فتكون في ساعته سبعون لوناً ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الجملة حال بتقدير قد أو عطف على خبر إن أي ألزمناهم وقرنّاهم بهن ولذلك عدي بالياء وليس من عقد التزويج لأنه لا يقال زوجتُه بامرأة، قال أبو عبيدة جعلناهم أزواجاً بهن كما تزوج النعل بالنعل أي جعلناهم إثنين إثنين والحور النساء النقيات البياض يحار فيهن الطرف من بياضهن وصفاء لونهن جمع حوراء والعين جمع العيناء وهي العظيم العينين، أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «خلق الحور العين من الزعفران» وأخرج البيهقي مثله عن أنس مرفوعاً وعن ابن عباس موقوفاً وعن مجاهد كذلك، وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال إن الله تبارك وتعالى لا يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافورٍ وزعفرانٍ، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «لو أن حوراً بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها» وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال لو أن حوراً أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها ولو

أخرجت نصيفها لكان الشمس عند حسنه مثل الفتيلة في الشمس لا ضوء لها ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض» وأخرج هناد عن حبان بن أحيلة قال إن نساء أهل الدنيا إذا أدخلن الجنة فضلن على الحور العين بأعمالهم في الدنيا.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ إشتهوها ﴿ءَامِنِينَ﴾ من نفادها ومضرتها الجملة حال آخر، أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر في تفاسيرهما عن ابن عباس قال ما في الدنيا تمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بل يحيون دائماً حال آخر ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الاستثناء منقطع أو متصل والضمير للآخرة والموت أول أحوالها أو الجنة والميت يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكأنه فيها، أو الإستثناء للمبالغة في تعميم النفي وإمتناع الموت فكأنَّه قال لا يذقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموت الأولى في المستقبل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[1] ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الجملة حال من فاعل لا يذوقون بتقدير قد أو عطف على إخبار إن ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر لفعله المقدر أي فضلوا فضلاً منه وأعطوا كل ذلك عطاءً منه لاحقاً على الله تعالى، عن جابر قال قال رسول الله ﷺ «لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة الله»[2] رواه مسلم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ حال من الضمير المنصوب أي متلبساً بلغتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يفهموا أو يتذكروا الجملة متصلة بقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[3] وهو فذلكة للسورة ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ جزاء شرط محذوف تقديره وإن لم يتذكروا، فأرتقب أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك أو فانتظر نصرك أنهم منتظرون قهرك بزعمهم، روى الترمذي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»**[4] وروى

(١) سورة النساء، الآية: ٢٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٧).

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل حم الدخان (٢٨٨٨).

أيضاً عنه بسند ضعيف قال قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غفر له**» وروى ابن الضرير عن الحسن مرسلاً «من قرأ سورة الدخان في ليلة غفر له ما تقدم من ذنبه» وروى الطبراني بسند ضعيف عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ «من قرأ ﴿حمٓ ۝١﴾ الدخان في ليلة جمعة أو يوم جمعة بنى الله له بيتاً في الجنة».

سورة الجاثية

آياتها سبع وثلاثون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إن جعلت حٰمٓ مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وأن جعلتها تعديداً للحروف وكان تنزيل مبتدأ خبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في إنتقامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره وعلى التأويل الأول من الله صلة لتنزيل، وقيل حٰمٓ مقسم به وتنزيل الكتاب صفة وجواب القسم ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ دالة على قدرة الله ووحدانيته ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن تكون الآية على ظاهرها وأن يكون المعنى إن في خلق كما في قوله ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ أي في خلق كل منكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى أن صار إنساناً ﴿وما يبث من دابة﴾ جاز أن يكون عطفاً على الضمير المجرور والأحسن أن يقال أنه معطوف على خلقكم فإن بثه وتنوعه واستجماعه لما يتم به معاشه إلى غير ذلك ﴿ءَايَٰتٍ﴾ دلائل على وجود الصانع المختار ووحدته وكمالاته قرأ حمزة والكسائي ويعقوب آيات منصوباً بكسر التاء عطفاً على اسم إن والباقون بالرفع عطفاً على محلها، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أنه لا إله إلا الله وأن البعث حق ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ صيفاً وشتاءً وفي ذهابها ومجيئها ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي مطر سماه رزقاً لكونه سببه ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي جعلها

مخضرة بعد يبسها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بأختلاف جهاتها وأحوالها، قرأ حمزة والكسائي الريح على الأفراد باعتبار الجنس والباقون على الجمع بأعتبار جهاتها قبولاً ودبوراً وجنوباً وشمالاً ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الدلائل فيؤمنون أو المعنى لقوم أولي عقل فإن الكفار كالأنعام بل هم أضل قرأ حمزة والكسائي ويعقوب آيات منصوباً بكسر التاء والباقون بالرفع وهو عطف على معمولى عائلين مختلفين كلمة في مع معنى الإبتداء أو كلمة إنَّ والمجرور مقدم ألا يضمر في أو ينصب آياتٍ على الاختصاص أو ترفع بإضمار هي، قال البيضاوي اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور والظاهر أنه لتفنن العبارة وإلا فالإيمان والإيقان واحد وهو من ثمرات العقل فإن العقل السليم يقتضي الإيمان بمبدع السماوات والأرض وما بينهما ﴿تِلْكَ﴾ الآيات آيات الله دلائل قدرته مبتدأ وخبر ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حال عاملها معنى الإشارة أو خبر ثان ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متلبسين به أو متلبسة به ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ الفاء جزائية تقديره فإن لم تؤمنوا بآيات الله فبأي حديث بعد الله أي بعد كتاب الله ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وجوده ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي كفار مكة أي لا يؤمنون قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب بالتاء الفوقانية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والباقون بالتحتانية على الغيبة.

﴿ويل لكل أفاك﴾ كذاب ﴿أثيم﴾ كثير الإثم أريد به النضر بن الحارث هذه الجملة إلى آخرها معترضة ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفه لأثيم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من الآيات أو من الضمير المرفوع ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ عطف على يسمع وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة وحذف ضمير الشأن أي كأنه ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الجملة في موضع الحال أي يصر مشابهاً لغير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الفاء للسببية والبشارة خبر يظهر السرور على بشرته وأستعمل هاهنا تهكماً في خبر يظهر الحزن على بشرته ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ عطف على يسمع ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ يعني إذا بلغه شيء من القرآن الظرف متعلق بقوله ﴿اتخذها﴾ الضمير لشيء لأنه بمعنى الآية أو لآياتنا بمعنى آياتنا كلها هُزُواً مهزوّاً به يعني بادر إلى الإستهزاء ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ أي لكل أفاك ﴿عذاب مهين﴾ ذو إهاته في القبور، جملة مستأنفة ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ حال من هم في ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ والوراء اسم للجهة التي يوازيها الشخص من خلف أو قدام وجهنم قدام باعتبار أنهم متوجهون إليه وخلفه من حيث أنه بعد آجالهم ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ أي لا يدفع ﴿عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا﴾ يغني عنهم ﴿مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ما عبدوه من الأصنام أو الذين إتبعوهم من الرؤساء ما مصدرية أو موصولة وجملة لا يغني

إلى آخرها حال آخر من ضمير لهم في أولئك لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ حال آخر ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿هُدًى﴾ أي ما به البداية من الضلالة جملة معترضة ﴿والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز﴾ وهو أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالرفع على أنه صفة عَذَابٌ والباقون بالجر على أنه صفة رِجْزٍ وجملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على هذا هدىً.

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ مبتدأ وخبر أي جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ الأرزاق بالتجارة والغوص والصيد من فضله حال من المفعول المحذوف لتبتغوا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عطف على لتبتغوا أي لتشكروا هذه النعمة وجملة ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ متصل بما سبق من أيات قدرته تعالى وما بينهما معترضات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ عطف على سخر ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وماء وثلج وغيرهما ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوان ونبت ومعدن وعين ونهر ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد أو حال يعني جعلها مسخراتٍ لأمورٍ يعود نفعها إليكم ﴿مِّنْهُ﴾ حال من ما أي سخرها جميعاً كائنة من تعالى أو خبر لمحذوف، أي هي جميعاً منه أو خبر لما في السماوات مع ما عطف عليه سخَّرَ لكم وتكرير لتأكيد الأول أو خبر لما في الأرض قال ابن عباس جميعاً منهُ أي كل ذلك رحمة منه وقال الزجاج كل ذلك تفضل منه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عجائب صنعه تعالى فيؤمنون.

قال البغوي قال ابن عباس وقتادة أن رجلاً من بني غفار شتم عمر رضي الله عنه بمكة فهم عمر أن يبطش به فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حذف المقول لدلالة جواب الأمر عليه وهو قوله ﴿يَغْفِرُوا﴾ أي قل لهم إغفروا إن تقل لهم إغفروا يغفروا أي يعفوا ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يتوقعون ولا يخافون ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي وقائعه بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعهم يعني لا يتوقعون الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم،

وقال البغوي قال القرظي والسديُّ نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذى شديد من المشركين، قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية ثم نسختها آية القتال ﴿لِيَجْزِيَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالنون على التكلم والتعظيم والباقون بالياء التحتانية أي ليجزي الله وقرأ أبو جعفر بضم الياء التحتانية وفتح الزاء على البناء للمفعول والفعل حينئذ مسند إلى مصدره أي ليجزى الجزاء كذا، قال الكسائي والمراد بالجزاء ما يجزى به فإن الإسناد إلى المصدر سيما عند وجود المفعول به ضعيف وقال أبو عمرو وهو لحن والجار والمجرور متعلق بقوله يغفروا ﴿قَوْمًا﴾ يعني يجزي المؤمنين على صبرهم على أذية الكفار أو يجزي الكافرين جزاءً كاملاً لا ينقص منه بالإنتقام في الدنيا أو يجزي كليهما ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الخير أو الشر ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي يعمل لنفسه فإن ثوابه لها ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي يعمل عليها لأن وباله يعود عليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعدما استحققتم الثواب أو العقاب بالأعمال ترجعون إلى ربكم فيجازيكم عليها إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة والإنجيل والزبور ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ حيث جعلنا فيهم أهل الحكم من العلماء والملوك ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ خصها بالذكر لكثرة الأنبياء فيهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المن والسلوى وغيرهما من الأطعمة اللذيذة الحلال ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ بمراتب القرب إلى الله تعالى إرجاع الضمير إلى بني إسرائيل بأعتبار كون الأفضلين بعضهم وهم الأنبياء ﴿على العالمين﴾ أي على عالمي زمانهم، قال ابن عباس لم يكن من العالمين أحد في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم وهذه الآية تدل على أن

خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أدلة بينة في أمر الدين بحيث حصل لهم العلم بكل ما يجب به العلم والإعتقاد وحصل لهم العلم بمبعث محمد ﷺ وعلاماته حتى عرفوه (كما يعرفون أبنائهم) ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ في أمر الدين أو في أمر محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي عداوة وحسداً أو اتباعاً للهوى والشهوات لا بناءً على علم مستند إلى دليل وهذا يدل على أن افتراق اليهود والنصارى إلى إحدى وسبعين فرقة أو اثنان وسبعين فرقة لم يكن مبنيّاً على دليل وكذلك افتراق أمة محمد ﷺ إلى ثلاث وسبعين ليس مستنداً إلى دليل بل إنما هو باتباع الوهم في مقابلة النصوص القاطعة كالمعتزلة تشبثوا بأذيال الفلاسفة زعماً منهم بأن العقل كاف في كثير من الإدراكات والمجسمة قالوا الموجود لا يكون إلا جسماً أو باتباع الحسد والعناد كالروافض والخوارج ونحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ بالمؤاخذة والمجازاة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي طريقة حقة وصراط مستقيم بعث عليها الرسل كلها على شَرِيْعَةٍ مفعول ثان لجعلنا ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر الدين ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي يا محمد الشريعة الحقة الفاء للسببية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمراد به الخطاب لأمته يعني لا يتبع أمتك أهواء الذين ليس لهم علم من الكتاب سواء كان لهم جهل مركب كالفلاسفة أو جهل بسيط مثل رؤساء قريش كانوا يقولون للنبي ﷺ ارجع إلى دين أبائك فإنهم كانوا أفضل منك أو كان لهم علم لكنهم تركوا العمل بالكتاب عمداً أو أوّلوه بتأويلات فاسدة فكأنّهم لا يعلمون مثل أحبار اليهود وعلماء الفرق الضالّة بالأهواء من أهل الإسلام ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني إن الذين يستتبعونك إلى غير الطريق الحق إن اتبعتهم ﴿لَن يُغْنُواْ﴾ أي لن يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية ومِنَ الله حال مقدم عليه بيان له أو على المصدرية أي شيئاً من الإغناء وَمِنُ في مِنُ عَذَابِ الله للتبعيض الجملة في مقام التعليل للنهي عن اتباع أهوائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ المجانسة علة الإنضمام فلا تتخذ انتَ منهم أولياء ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فاتخذه ولياً بالتقوى وإتباع الشريعة قيل هذان الجملتان كناية عن قوله وإنهم لا يضرونك لأن الظالمين بعضهم أولياء بعضهم والله ولي المتقين وكم بين الولايتين فلا يضرنك لقوة ولاية الله ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن أو اتباع الشريعة ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ أسباب تبصر ﴿لِلنَّاسِ﴾ يظهر به وجوه فلاحهم في الدارين ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بأنه من الله تعالى.

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ عطف على ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان والتوبيخ ومعنى بل الإضراب عن إيقانهم بأن القرآن بصائر وهدى يعني أنهم لا يوقنون ذلك بل حسب ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟﴾ أي اكتسبوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي نجعلهم مثلهم وهو ثاني مفعولي نجعل نزلت في نفي من مشركي مكة قالوا للمؤمنين أن كان ما تقولون أي البعث حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فُضّلنا في الدنيا ﴿سَوَآءً﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بالنصب على البدل من قوله ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل إشتمال أو على الحال من الضمير في الكاف أو على المفعولية والكاف حال محياهم ومماتهم فاعل لسَوَاءً والضميران للموصول الأول وإن كان الضميران للثاني فسواء حال من الموصول الثاني وجاز أن يكون الضمير أن للفريقين وسَوَآء بدل من كالذين آمنوا أو حال من الموصول الثاني وضمير الأول، وقرأ الباقون سَوَآءٌ بالرفع على أنه خبر محياهم ومماتهم مبتدأ والجملة بدل من المفعول الثاني وجاز كون الجملة مفعولاً ثانياً أو استئناف يبين المقتضى للإنكار أو حال والضميران للفريقين والمعنى إنكار أن يستووا بعد الممات في الكرامة أو ترك المؤاخذة كما استووا في الرزق والصحة في الحياة الدنيا، وقيل الضميران للفريقين والجملة مستأنفة والمعنى المؤمن مؤمن محب لله تعالى في الدنيا والآخرة والكافر مبغوض لله تعالى في الدنيا والآخرة ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا بالمساواة قال البغوي قال مسروق قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري لقد والله ذات ليلة أصبح أو كرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ويبكي ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ليدل على وجوده وقدرته وصفات كماله كأنه دليل على ما سبق يعني خلق هذه الأشياء ليس على سبيل اللهو والعبث بل هو متلبس بالحق المقتضى إنتصار المظلوم من الظالم والتفاوت بين المسيء والمحسن فإذا لم يكن ذلك في المحيا لا بد أن يكون بعد الممات ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ عطف على قوله بالحق لأنه في معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليستدل الناس بها على الصانع وقدرته وعدله وليقوموا على طاعته ولتجزى ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ محسنة ومسيئة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو تضعيف عذاب وتسمية ظلماً مع أن فعل الله تعالى لا يكون ظلماً لأجل المشاكلة فإنه لو فعله غيره لكان ظلماً كالإبتلاء والاختيار.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ

غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ الفاء للعطف على محذوف تقديره أتهتم أن تهديهم فرأيت ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ومن شرطية وجملة إتَّخذَ مع ما عطف عليه شرط علقت رأيت عن العمل ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾ جزاؤه وهواه مفعول أول لاتخذ وإلهه مفعول ثان يعني جعل هواه معبوده، فإنه ترك إمتثال أو امر الله والانتهاء عن مناهيه واتبع هواه فكأنَّه يعبده، قال ابن عباس والحسن وقتادة ذلك الكافر إتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركب لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحرم ما حرم الله، وقال الآخرون معناه إتخذ معبوده هواه فيعبد ما يهواه نفسه أخرج ابن جرير وابن المنذر وكذا أذكر البغوي قول سعيد بن جبير أنه كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة فإذا وجدوا أحسن من الأول رموه وكسروه وعبدوا الآخر فنزلت هذه الآية قال الشعبي إنما سمى الهوى لأنَّه يهوي صاحبه في النار ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ أي عالماً بضلاله وفساد استعداده وقيل على ما سبق في علمه بأنه ضآل قبل أن يخلقه. روى أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي فقالوا له ما يبكيك ألم يقل لك رسول الله ﷺ «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني» قال بلى ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عزَّ وجلَّ قبض بيمينه قبضة والأخرى باليد الأخرى وقال هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي» ولا أدري في أيّ القبضتين أنا[1] ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، قرأ حمزة غشْوَةً بفتح الغين وسكون الشين والباقون غشاوةً وجاز أن يكون من موصولة وهي مع صلتها أول مفعولي رأيت وثانيهما محذوف، تقديره أرأيته تهتدى وعلى هذا قوله ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ معطوف على قوله رأيت والإستفهام للإنكار ومعناه لا تهديه أحد بعد إضلال الله إياه وجملة أفرأيت معترضة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ عطف على محذوف تقديره ألا تعقلون فلا تذكرون.

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: القدر، باب: فيما سبق من الله سبحانه في عباده وبيان أهل الجنة وأهل النار (١١٧٧٨).

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة قال كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على مضمون الكلام السابق أي ضل الكافرون باتباع الهوى وقالوا ﴿مَا هِيَ﴾ أي الحياة شيئاً ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها ﴿نَمُوتُ﴾ في بعض الأوقات ﴿وَنَحْيَا﴾ في بعضها بيان لقصر الحياة على الحياة الدنيا، وقوله نموت ونحيا لا يدل على تعاقب الحياة بعد الموت فإن الواو للجمع المطلق كذا قال الزجاج ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ عطف على نَمُوتُ وَنَحْيَا أي ما يهلكنا الأمر والزمان فإن بمرور الزمان يهرم المرء ويموت وحاصل ذلك إنكار الصانع الواجب وجوده والدهر في الأصل مدة بقاء العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ثم يعبر عنه عن كل مدة مديدة بخلاف الزمان فإنه يطلق على المدة قليلةً كانت أو كثيرةً ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فإن العلم إنما يحصل بالبداهة أو بالبرهان ولا شيء من ذلك بل البرهان قائم على وجود الصانع القديم الحكيم الجملة حال من فاعل قالوا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يحكمون بلا علم وبلا دليل تأكيد لما سبق، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[1] رواه مسلم، وروى البغوي بلفظ، «قال الله تعالى لا تقل ابن آدم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أرسل الليل والنهار وإن شئتُ قبضتها»، ومعنى الحديث أن سب الدهر منكم مبني على زعمكم أن الدهر فاعل للنوائب والحوادث، وجالب الحوادث ومُنَزّلها في الواقع هو الله تعالى لا غيره فسبّكم يرجع إلى الله تعالى، وقيل معنى قوله عليه السلام فإن الله هو الدهر إن الله داهر دهرٍ أي خالق الدهر وما فيها فسبُّكم الدهر زعماً منكم بأنه الخالق للأشياء مشرك فاجتنبوه والله أعلم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي حال كونها واضحات الدلالة على خلاف معتقدهم وعلى البعث بعد الموت أو مبينات لذلك ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ متشبث لمعارضها شيئاً ﴿إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ في دعوى البعث وهذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى سماه حجةً على حسبانهم أو على أسلوب قوله: تحيتهم بينهم ضرب وجيع، وأنه يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً وجملة إذا تتلى عليهم عطف على ﴿قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إلى أيّ وقت شاء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا أراد كما دلت الحجج ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ للجزاء إلى ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلمة إلى زائدة أو بمعنى اللام أي ليوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأن وعد الله حق ومن قدر على الإبداء قادر على

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

الإعادة، والحكمة تقتضي المجازاة والجملة تأكيد لما سبق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على ذلك لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على ما يحسبونه جملة ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إلى آخرها مستأنفة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعميم للقدرة بعد تخصيصها والجملة عطف على خلق الله السموات والأرض ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من الأول والظرف متعلق بقوله ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي يظهر خسرانهم بأن يصيروا إلى النار ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ عطف على يخسر قال البغوي جاثيةً يعني باركةً على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، قال علي رضي الله عنه أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى وقد ذكرنا في سورة الحج في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[1] قال سلمان الفارسي إن في القيامة ساعة وهي عشر سنين يخر الناس فيها جثاةً على ركبهم حتى إبراهيم ينادي نفسي لا أسألك إلا نفسي، وقيل معنى ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة، ذكر الجزري في النهاية حديث ابن عمر أن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً أي جماعة تتبع نبيها وتروى هذه اللفظة جثي بتشديد الياء جمع جاث وهو الذي يجلس على ركبتيه، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي عن عبد بن ثانية قال: قال رسول الله ﷺ: «كأني أراكم بالكرم دون جهنم جاثين ثم قرأ سفيان وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثية» قال ابن حجر المراد بالكرم المكان العالي الذي عليه أمة محمد ﷺ ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ قرأ يعقوب بالنصب على أنه يدل من كل أُمَّةٍ أو تأكيد وما بعده صفة أو مفعول ثان والجمهور بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي صحيفة أعمالها ﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[2] عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الكتب كلها تحت

(١) سورة الحج، الآية: ١٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

العرش فإذا كان الموقف بعث الله الريح فتطيرها بالأيمان والشمائل أول خط فيها إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» رواه البيهقي ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ صفة ثانية أو خبر ثان لقوله ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ بتقدير القول أي يقال لهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ إلى قوله ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ومستأنفة ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أي صحائف أعمالكم التي كتبها الكرام الكاتبون بأمرنا أضاف إلى نفسه لتلك الملابسة وكِتَابُنَا صفة لهذا والخبر ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم بما عملتم أو هما خبران لهذا أو ينطق حال والعامل معنى الإشارة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق بلا زيادة ونقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي نستكتب الحفظة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقيل معنى نستنسخ أي نأخذ نسخة وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان له ثواب أو عقاب ويطرح منه اللغو نحو قولهم هلم وأذهب وهذه الجملة في مقام التعليل لينطق.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي جملتها الجنة والجملة تفصيل لما أجمل في قوله اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الظفر الظاهر لخلوصه عن الشوائب ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الإستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف قوله، فيقال لهم، وقوله ألم يأتكم رسلي اكتفاءً بالمقصود واستغناءً للقرينة ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها هذه الجملة مع ما عطف على مضمون ما سبق يعني قد أتاكم رسلي وتُليت عليكم آياتي فاستكبرتم عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي قوماً عادتكم الكفر والإجرام وكانت المقابلة يقتضي أن يكون الكلام وأما الذين كفروا في غضبه الذي من جملتها جهنم لكن عدل إلى هذا تنبيهاً على موجب الغضب.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ عطف على قوله استكبرتم يعني وإذا قيل لكم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ يحتمل الموعود والمصدر يعني الموعود أو متعلق الوعد وهو البعث حَقٌّ لا محالة ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ قرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن والباقون بالرفع عطفاً على محله ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في إتيانها لاستحالة الخلف فيما أخبر الله به ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي أيّ شيء الساعة إستغراباً لها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصله نظن ظناً فأدخل حرف النفي والاستثناء لإثبات الظن، ونفي ما عداه كأنَّه قال ما نحن إلا نظن ظنّاً أو ننفي ظنهم فيما سوى ذلك أو يقال تنكير الظن للتحقير ومعناه أن نظن إلا ظناً ضعيفاً في مرتبة الوهم فإن الظن قد يطلق على العلم كما في قوله تعالى: ﴿الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾[1] وقد يطلق على الوهم فالمراد بالأول مطلق العلم وبالثاني الوهم وأكّد نفي الظن بقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ في الدنيا أي ظهر لهم قبحها أو جزاء ما عملوا عطف على مضمون ما سبق يعني أما الذين كفروا فيدخلهم ربهم في غضبه ويبدُلهم سيئات ما عملوا ﴿وَحَاقَ﴾ أي نزل ﴿بهم ما كانوا به يستهزون﴾ أي جزاء استهزائهم.

﴿وَقِيلَ﴾ عطف على بدالهم ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسي ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي كما تركتم عدته ولم تبالوه وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه أي يوم لقاء ربكم أو يوم لقاء جزاء أعمالكم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها هذان الجملتان إما معطوفتان على مقول قبل أو حالان من مفعول ننساكم ﴿ذَٰلِكُم﴾ للترك في العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ أي بسبب أنكم ﴿اتخذتم آيات الله هزوا﴾ أي مهزواً بها يعني استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي حسبتم أن لا حياة سواها ولا حساب جملة ذلكم إلى آخرها مستأنفة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء على البناء للفاعل والباقون بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول عطف على قوله وأمّا الذين كفروا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ العتبى بالضم الرضا هكذا في القاموس والإستعتاب الاسترضاء، أي لا يطلب منهم أن يرضوا ربهم بالتوبة لفوات أوانه قال رسول الله ﷺ لا بعد الموت من مستعتب» أي ليس بعد الموت من إسترضاء لأنها بالأعمال وقد انقضت زمانها، وفي النهاية العتبى الرجوع عن الذنب والإساءة، قال البغوي أي لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعه الله تعالى وتقديم المسند إليه مع أن الخبر فعل يدل على التخصيص فإن الكفار لا يستعتبون بخلاف المؤمنين ﴿فَلِلَّهِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥ ـ ٤٦.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أي الوصف بالجميل على وفائه الوعد في المؤمنين والمكذبين ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل من الله ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كرر لفظ الرب لأن ربوبية كل شيء نعمة مستقلة من الله تعالى دالَّة على كمال قدرته، ذكر العاطف بين الأرض والسماوات لتغايرهما وترك العاطف في رب العالمين للإتحاد معنى فإن السماوات والأرض معظم أفراد العالم فكأنَّه بمعنى العالمين ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي آثار عظمته وكبريائه ظاهرة فيهما أو يقال الظرف متعلق بمحذوف أي يحكم بهذا الحكم أهل السماوات وأهل الأرض فيهما ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغلبه أحد ولا يجوز لأحد أن يستكبر عليه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قدر وقضى، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة أزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار» وفي رواية «قذفته في النار»(١) رواه مسلم.

(١) هذه رواية أبي داود والترمذي أما رواية مسلم فهي: «العز إزاره والكبرياء رداؤه» في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر (٢٦٠٢).

سورة الأحقاف

آياتها خمس وثلاثون وهي مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ مرَّ تفسيره في سورة الجاثية ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا﴾ خلقا متلبّساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ دليلاً على وجود الصانع القديم الحكيم وعلى البعث للمجازاة على ما يقتضيه الحكمة والعدالة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى ينتهي إليه السماوات والأرض أي يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ أي عن الإنذار وعما أنذروا به في القرآن من عذاب يوم القيامة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون في جوازه عقلاً ووجوبه سمعاً بشهادة المعجزات ولا يستعدون لحلوله ويدعون من دون الله آلهة بلا دليل ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتُم﴾ الإستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ أي ما تعبدونه ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أصناماً ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾ ما استفهامية في محل النصب على أنه مفعول لخلقوا أو في محل الرفع بمعنى أيُّ شيء الذي خلقوه ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ بيان لما ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أم منقطعة أي بل ألهم مشاركة مع الله ﴿فِي﴾ خلق ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ الموصول مع صلته مفعول أول لأرأيتم وجملة أروني إلى آخرها مفعول ثان والمعنى أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل هل يتعقل أنهم خلقوا شيئاً من أجزاء العالم أو يتصور منهم أن يكونوا شركاء لله في الخلق يعني لا يتصور ذلك فكيف تحكمون باستحقاقها للعبادة وتخصيص الشرك بالسماوات إحتراز عمَّا يتوهم أن للوسائط شركة في

إيجاد الحوادث السفلية ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ﴾ من عند الله ناطق بالشرك ﴿مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ القرآن الناطق بالتوحيد ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ﴾ أخرج أحمد عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أو أثارة من علم قال الخط، قال مجاهد وعكرمة أي رواية، وقال قتادة خاصة، وقال الكلبي بقية، في القاموس الأثر البقية من الشيء ﴿مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ الأنبياء الأولين مستنداً إلى الوحي القطعي يدل على الشرك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أن الله أمر بعبادة الأوثان شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني لا دليل على استحقاقها العبادة عقلاً ولا نقلاً.

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ عطف على مقولة القول يعني لا أحد أضل ﴿ممن يدعوا﴾ أي يعبدو يطلب حاجاته ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إذا دعاه لو سمع دعاءهم فرضاً أن يعلم سرائرهم ويراعي مصالحهم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي ما دامت الدنيا ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ لأنها إما جمادات لا يسمع ولا يعقل وإما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم كعيسى وعزير والملائكة ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة عطف على لا يستجيب ﴿كَانُواْ﴾ أي كانت المعبودون ﴿لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ مكذبين قائلين تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون يعني ليسوا في الدارين على منفعة إذ لا ينفعهم في الدنيا ويضرهم في الآخرة فلا أضل ممن عبده او ترك عبادة الله المسيع البصير الخبير القادر المجيب، وقيل الضمير في قوله كانوا بعبادتهم كافرين للعابدين القائلين (والله ربنا ما كنا مشركين)(١).

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ۝١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢﴾.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أو على يدعوا في ممن يدعوا يعني ومن أضل ممن قال للحق هذا سحر مبين إذا تتلى عليه ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي لأجله وفي شأنه والمراد به الآيات ووضعه موضع ضميرها، ووضع الذين كفروا موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق وظهور الصدق وعليهم بالكفر والإنهماك في الضلالة ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي فوراً حين مجيئها إليهم من غير نظر وتأمل ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿سحر مبين﴾ ظاهر في كونه سحراً ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ محمد من قبل نفسه، أم منقطعة استفهام للإنكار والتعجيب وإضراب عن قولهم أنه سحر إلى قولهم أنه مفترى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ فرضاً لكي تتبعوني ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا تقدرون أن تردوا عني شيئاً من عذاب الله فكيف أجترأ على الله وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ولا دفع ضرر من قبلكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي الله أعلم ﴿بِمَا تُفِيضُونَ﴾ أي تخوضون ﴿فِيهِ﴾ من تكذيب آياته والقول بأنه سحر أو مفترى ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ الباء زائدة والضمير في محل الرفع على الفاعلية ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني أن الله يشهد لي بالصدق والبلاغ بخلق المعجزات وعليكم بالكذب والإنكار وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلمه عنهم وعدم استعجالهم بالتعذيب مع عظم جرمهم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي بديعاً مثل نصف ونصيف يعني لستُ بأول الرسل أدعي ما لم يدعه أحد قبلي بل قد بعث قبلي كثير من الرسل فلم تنكرون نبوتي بعد شهادة المعجزة، أولستُ أقدر علي ما لم يقدر الرسل من قبلي وهو الاتيان بالمقترحات كلها ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ ما إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة ولا لتأكيد النفي المشتمل على ما يُفعَلُ بي والتقدير ما أدري ما يفعل بي ولا ما يفعل بكم، قيل معناه ما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُمْ يوم القيامة، فلما نزلت هذه الآية فرح المشركون وقالوا واللات والعزى ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما له علينا مزيةٌ وفضلٌ ولولا أنه ابتدع ما يقول من ذات نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعل به فأنزل الله ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] فقالت الصحابة هنيئاً لك يا نبي الله قد علمنا ما يفعل بك وإذاً ما يفعل بنا فأنزل الله ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[2] الآية وأنزل ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٥.

بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾[١] فبين الله ما يفعل به وبهم، قال البغوي وهذا قول أنس وقتادة والحسن وعكرمة قالوا إنما قال هذا قبل أن يخبره بغفران ذنبه عام الحديبية فنسخ ذلك وهذا القول عندي غير مرضي إذ لا يخلو سورة من القرآن غالباً (مكيةً كان أو مدنية) من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، وكان من أول ما يوحي إلى رسول الله ﷺ أن ﴿أنذر عشيرتك الأقربين﴾[٢] يعني بعذاب الله إن لم يؤمنوا وفي هذه السورة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾. ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة﴾ الآية وكيف يكون عاقبة المسلمين والمشركين غير معلوم له ﷺ مذكور في الكتاب فإنه يقتضي اعتراض الكافرين ما أمرنا وأمر محمد عند الله إلا واحد وما نرى لك علينا من فضل فأيُّ فائدة في ترك دين الآباء وإتباع الرسل ونزول قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٣] وقوله ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[٤] بعد بضع عشر سنة تأخير للبيان عن وقت الحاجة وذلك محال، فإن قيل روى البغوي بسنده عن خارجة بن يزيد قال كانت أم العلاء الأنصارية تقول لما قدم المهاجرون اقترعت الأنصار على سكناهم فطار لنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه في السكنى فمرض فمرضناه ثم إنه توفّي فجاء رسول الله ﷺ فدخلتُ فقلتُ رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي أن قد أكرمك الله فقال النبيّ ﷺ «ما يدريك أن الله قد أكرمه» قلتُ لا والله لا أدري، فقال النبيّ ﷺ أما هو فقد أتاه اليقين من ربّه وإني لأرجوا له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم، قالت فوالله لا أزكي بعد أحداً أبداً، قالت ثم رأيتُ لعثمان بعد في النوم عيناً تجري فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: «ذاك عمله»[٥] وهذا الحديث يؤيد قول من قال معناه ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة وإلا فما معنى لهذا الحديث؟ قلنا مقتضى هذا الحديث أنه لا يجوز الحكم قطعاً على شخص معين بالنجاة أو بالهلاك لأنه إدعاء وعلم الغيب ولا علم على البواطن والسرائر إلا لله سبحانه غير أن الرجل إذا كان ظاهر حاله خيراً يرجو له الخير ومعنى قوله ﷺ «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم» أنه قد علمني

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: العين الجارية في المنام (٧٠١٨).

الله علوم الأولين والآخرين ومع ذلك ما أدري تفصيلاً ما يُفْعَلُ بي ولا بكُمُ في جزاء كل عمل مخصوص فكيف دريت أنتِ في حق رجل معين أن الله قد أكرمه، وقيل مثل هذا التأويل في الآية أيضاً قالوا معنى الآية ما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكُمُ في الدارين إذ لا علم لي بالغيب وهذا لا يقتضيه سياق الآية بل سياق الآية أن الكفار كانوا يريدون من النبيّ ﷺ أن يتبعهم في الدين ويطمعونه بجمع الأموال له وإنكاح الأزواج بلا سوق مهر ويؤذونه ويخوّفونه على ترك الإتباع فمقتضى سياق الآية أن النبيّ ﷺ أخبرهم بأنه لا يطمع منهم ولا يخافهم ويعلم أنهم غير قادرين على ما أرادوا بل الخير والشر كلاهما من الله تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد فمعنى الآية ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بِكُمُ من النصر والخذلان وأنا لا أتبعكم على شيء من التقادير.

﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ من القرآن لا أتركه أبداً، قال البيضاوي جواب عن إقتراح الكفار الإخبار عمّا لم يوح إليه من الغيوب أو عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذى المشركين وبه قال البغوي، قال جماعة قوله ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا وأما في الآخرة فقد علم أنه في الجنة ومن كذَّبه فهو في النار. ثم اختلفوا فقال ابن عباس لمَّا اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم وهو بمكة أرض سبا ونخل رفعت له يهاجر إليها فقال له أصحابه متى تهاجر إليها فسكت فأنزل الله هذه الآية ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أنزل في مكاني أو أخرج وإياكم إلى الأرض التي رفعت لي، وقال بعضهم معنى ما أدرى ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُم أي إلى ماذا يصير أمري في الدنيا إما أن أُخْرَجَ كما أخرجت الأنبياء من قبلي منهم إبراهيم عليه السلام أو أُقْتَلَ كما قتل بعض الأنبياء من قبلي منهم يحيى عليه السلام، وأنتم أيها المصدقون تخرجون معي أو تتركون أم ماذا يفعل بكم، وما أدري ما يُفْعَلُ بكم أيها المكذبون أترمون بالحجارة كما رمي قوم لوط أم يخسف بكم كما خسف بقارون أم أيُّ شيء يفعل بكم مما فعل بالأمم المكذّبة ثم أخبره الله عزَّ وجلَّ أن يظهر دينه على الأديان كلها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(١) وقال في أمته: ﴿ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾(٢) فأخبره ما يصنع به وبأمته هذا قول السديّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ للكافرين من عذاب الله ﴿مبين﴾ بين الإنذار

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة يعني لستُ مدعياً لعلم الغيب ولا مسلطاً عليكم أكرههم على الإيمان.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ماذا حالكم ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بتقدير قد أي وقد كفرتم به أيها المشركون ويجوز أن يكون الواو للعطف على فعل الشرط وكذا الواو في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال قتادة والضحاك هو عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. روى البخاري والبيهقي عن أنس ومحمد وبن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام عنه والإمام أحمد ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام والبيهقي عن موسى بن عقبة وعن ابن شهاب قال عبد الله بن سلام لَمَّا سمعتُ رسول الله ﷺ وعرفتُ صفته وأسمه وهيئته والذي كنا نتوقع له فكنتُ مسرّاً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلمَّا قدم نزل معنا في بني عمر وبن عوف فأخبر رجل بقدومه وأنا في رأس نخلة أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلمَّا سمعتُ بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ فقالت لو كُنُتَ سمعتَ بموسى بن عمران ما زدتَّ، قال قلتُ لها أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به قالت فذاك إذن، قال ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فلمَّا أن رأيتُ وجهه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب فكان أول ما سمع من النبيّ ﷺ قوله: «يا أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»، فقال يا محمد إني سائلك عن ثلاث يعلمهن إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه وما هذا السواد الذي في القمر؟ فقال أخبرني بهن جبرئيل آنفاً، قال جبرئيل، قال نعم، قال ذاك عدو اليهود من الملائكة قالك أما أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزعت وأما السواد الذي في القمر فإنهما كانا شمسين قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فالسواد الذي رأيت هو المحو فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلَموا وكتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال أرى اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم وإنهم قوم بُهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي من قبل أن تسألهم عني بهتوني ويقولون فيَّ ما ليس فيَّ فأحب أن تدخلني بعض بيوتك، فأدخلَه رسول الله ﷺ

بعض بيوته وأرسل نبي الله ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه فقال «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله وقد جئتكم بالحق فأسلموا فقالوا ما نعلمه، فقال أيُّ رجل فيكم عبد الله؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال أرأيتم إن أسلم، قالوا أعاذه الله من ذلك، قال لابن سلام: أُخرج عليهم، فخرج فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا معشر اليهود اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقّاً تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة اسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه، قالوا كذبتَ أنت شرنا وابن شرنا وانتقصوا، قال هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بُهت أهل غدر وكذب وفجور فأظهر إسلامه وإسلام أهل بيته وأسلمت عمته ابنة الحارث فحسن إسلامها(١).

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن الأشجعي قال انطلق النبيّ ﷺ وإني معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم انصرف فإذا رجل من خلفه فقال كما أنت يا محمد وأقبل، فقال أيُّ رجل تعلموني منكم يا معشر اليهود؟ قالوا والله ما نعلم فينا رجلاً كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال فإني أشهد بالله أنه لنبي الله الذي تجدونه في التوراة قالوا كذبتَ ثم ردوا عليه وقالوا شرّاً فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأخرج الشيخان عن سعيد بن أبي وقاص قال ما سمعتُ النبيّ ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٢) قال الراوي عن مالك (وهو عبد الله بن يوسف شيخ البخاري لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث، وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن سلام قال فِيَّ نزلت وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّن بَنِي إسرائيل وعلى هذا التقدير الآية مدنية لأن إسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة ولفظة مثل في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ زائدة والضمير للقرآن والمعنى شَهِدَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم (٣٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مناقب عبد الله بن سلام (٣٨١٢) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه (٢٤٨٣).

شَاهِدٌ عليه أي على كونه يعني القرآن من عند الله أو المعنى وَشَهِدَ شَاهِدٌ على مثل ما قلتُ أي على كون القرآن من عند الله ﴿فآمن﴾ عبد الله بن سلام ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان يا معشر اليهود.

وأنكر مسروق نزول الآية في عهد الله بن سلام وقال والله ما نزلت فيه لأن آل حم نزلت بمكة وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، ونزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله ﷺ لقومه، ومعنى قوله: ﴿شهد شاهد من بني إسرائيل﴾ أنه شهد موسى وشهادته ما في التوراة خبر بعثة محمد ﷺ على مِثْلِهِ أي مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن فَآمَنَ موسى عليه السلام وَاستكبرتم عن الإيمان يا معشر قريش وجواب الشرط وهو قوله (إن كان من عند الله) محذوف تقديره فمن أضل منكم أو ألستم ظالمين يدل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهي جملة مستأنفة فإن قيل أفعال الشرط أعني كَانَ مِنْ الله وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مّنْ بَنِيُ إِسْرَائِيْلَ فآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ كلها مجزوم وقوعها، فما وجه استعمال حرف إنْ فيها وهي تستعمل في موضع الشك؟ قلتُ: إن الواو في الجمل كلها للجمع وأستعمل كلمة إنْ للتوبيخ وإيراد المجزوم موقع الشك للدلالة على أنه لا يجوز عند العقل السليم الكفر مع كونه من عند الله والإستكبار مع شهادة أهل العلم وإيمانه فهو نظير قوله: ﴿أن كنتم قوماً مسرفين﴾(١) والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عطف على ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ الآية ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منهم أي في حقهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ دين محمد ﷺ ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال قال أناس من المشركين نحن أعزُّ ونحن خير فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية، وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها رنين فكان عمر يضربها على إسلامها حتى تفتن، وكان كفار قريش يقولون لَوْ كَانَ خَيراً ما سبقتنا إليه رنين فأنزل الله في شأنها هذه الآية، وأخرج ابن سعد نحوه عن الضحاك والحسن وقال البغوي بناءً على نزول الآية السابقة في عبد الله بن سلام أنه قال الذين كفروا من اليهود للذين آمنوا من اليهود لو كان دين محمد خيراً ما سبقونا إليه يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أي وهو معطوف على قوله قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وعطف على محذوف تعلق به الظرف قوله ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ الفاء للسببية فإن هذا القول مسبب لظهور عنادهم وضلالهم وهو كقولهم (أساطيرُ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥.

الأَوَّلِينَ) يعني أكاذيب الأولين يعني اختلف هذا أهل الزمان السابق ثم تلقاه منهم محمد.

﴿ومن قبله﴾ أي قبل القرآن وهو خبر لقوله ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى به حال من الضمير المستكن في قبله﴿وَرَحۡمَةً﴾ من الله على الناس ليفوزوا إلى فلاح الدارين والجملة معترضة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ من الله تعالى ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لمحمد ﷺ بإعجازه صفة لكتاب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير كتاب في مصدق أو منه لتخصيصه بالصفة وعاملها معنى الإشارة وفائدتهما الإشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً للتوراة كما دل على أنه حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله، أو مفعول به لمصدق بحذف مضاف أي مصدق ذا لسان عربي وهو محمد ﷺ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ نافع والبزي بخلاف عنه وابن عامر ويعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر يا محمد والباقون بالياء للغيبة أي لينذر الكتاب أو الله أو الرسول متعلق بمفهوم هذا كتابٌ أي أنزل لتنذر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾ مصدر لفعل محذوف أي وليُبشر بشرى أو مفعول له معطوف على محل لينذر وهذا لا يجوز إلا على قراءة لِيُنْذِرَ بصيغة الغائب ويكون الضمير لله تعالى حتى يكون فاعله وفاعل الفعل المعلل به واحداً وهو أنزل وجاز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً أي هو والجملة عطف على جملة قبلها ﴿للمحسنين﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ قد ذكرنا تفسير الإستقامة في تفسير ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ السجدة ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ بعد الموت عن لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على

فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في أصحاب والعامل فيه معنى الإشارة والجملة في مقام التعليل لنفي الخوف ﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدر لفعل دلَّ عليه الكلام أي جوزوا جزاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من إكتساب الفضائل العلمية والعملية.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ اللام للعهد والمراد به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في أبي بكر وهو المروي عن علي رضي الله عنه قال نزلت في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع من المهاجرين أبواه في الإسلام غيره، وقال السديَّ والضحاك نزلت في سعد بن أبي وقاص وقد ذكرنا قصته في تفسير سورة العنكبوت، وقيل اللام للجنس وإن كان نازلاً في أبي بكر أو سعد وذلك لا يقتضيه سياق الآية كما سنشير إليه ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ متعلق بمحذوف أي أن يحسن بوالديه وهما أبو قحافة عثمان بن عمرو أم الخير بنت الخير بن الصخر بن عمر ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾ كذا قرأ الكوفيون من الأفعال فهو منصوب على المصدرية وقرأ الباقون حُسُناً من المجرد فهو بدل اشتمال لقوله ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ منصوب على محله ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا﴾ أي ذات كره فهو حال من فاعل حملته أو حملاً ذاكره فهو مصدر وهو المشقة قرأ أهل الحجاز وهشام وأبو عمر وبفتح الكاف في الموضعين والباقون بضمها وهما لغتان، وقيل المضموم إسم والمفتوح مصدر ﴿وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ جملتان معترضتان في مقام التعليل للأمر بالإحسان وفيه إشعار بمزية إستحقاق الأم في الإحسان قال رسول الله ﷺ: «صل أمَّك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أذناك أدناك» وقد مر الحديث في سورة العنكبوت.

﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ وهو الفطام والمراد به الرضاع تسمية الملزوم باسم اللازم وقرأ يعقوب وفَصْلُه وهما بتقدير المضاف مبتدأ بعده خبره أي مدة حمله ورضاعه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ معترضة أخرى لبيان شدة المشقة في مدة طويلة يستدل بهذه الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾[1] فإنه إذا ذهب منها عامين بقي للحمل ستة أشهر وعليه أتفق الأئمة في أفل مدة الحمل. وأختلفوا في أكثرها؟ فقال أبو حنيفة سنتان وعن مالك روايات أربع سنين وخمس سنين وسبع سنين، وقال الشافعي أربع سنين وعن أحمد روايتان المشهور كمذهب الشافعي والأخرى كمذهب أبي حنيفة، وجه قول أبي حنيفة قول عائشة الولد لا يبقى في بطن أمه أكثر من سنتين ولو بقدر فلكة مغزل وفي

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

رواية ولو بقدر ظل مغزل، قال ومثله لا يقال إلا سمعاً إذ المقدرات لا تدرك بالرأي، قلتُ: يحتمل أن يكون قولها على تقدير الصحة مبنيّاً على التجربة في جريان العادة كقول مالك والشافعي، قلتُ: والإستدلال بهذه الآية على أقل مدة الحمل مبني على كون اللام في الإنسان للجنس وإن كان للعهد فلا لأنها حينئذ بيان لواقعة حال، والاستدلال بهذه الآية على مذهب أبي حنيفة أن مدة الرضاع ثلاثون شهراً لا يجوز وقد مرَّ الكلام فيه وفي غيرها من مسائل الرضاع في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾[1] روي عن عكرمة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أنه قال إذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعته أحد وعشرين شهراً وإذا حملت ستة أشهر رضعته أربعة وعشرين شهراً والله أعلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ متعلق بفعل محذوف معطوف على وضعته تقديره وربَّياه حَتَّى إذا بلغ ﴿أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ عطف على بلغ يعني وبلغ كمال عقله كان أبو بكر صحب النبيّ ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنةً وذلك بلوغ الأشد وكان النبيّ ﷺ دعا ربه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ قرأ ورش والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها والمعنى ألهمني وقيل معناه الكف أي إجعلني بحيث أزع نفسي يعني أكفه من الكفران ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ الهداية للإسلام أو ما يعمه وغيره ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ نكر صالحاً للتعظيم أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضاء الله، قال ابن عباس فأجابه الله تعالى فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه ودعا أيضاً ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ فأجابه الله فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً فأجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً كذا قال ابن عباس، وأدرك أبو قحافة صحبة النبيّ ﷺ وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمان أبو عتيق ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ عن الكفر وعن كل ما لا يرضاه الله أو يشغل عنه ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المخلصين قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ إلى آخره دليل على أن اللام في الإنسان للعهد فإنه لو كان للجنس لا يستقيم ذلك لأن تأخير النعمة القديمة إلى بلوغ أربعين سنة لا يجوز فالآية حكاية عن الواقع فإنه رضي الله عنه آمَنَ وهو ابن أربعين سنة والمعتبر من الشكر ما كان بعد الإيمان، فإن قيل المروي أن أباه أبا قحافة أسلم يوم الفتح وكان أبو بكر حينئذ ابن ستين سنة وكان نزول الآية قبل الهجرة لأن السورة مكية وحين بلغ أبو بكر أربعين سنة

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

كان أبو قحافة كافراً فكيف يوصي الله بالإحسان به وكيف يقول أبو بكر ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؟ قلنا: قد روي أن أبا بكر أسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وأسلم أبواه بعد ذلك بسنتين وكان أبو بكر حينئذ ابن أربعين سنة فلعل هذه الرواية هي الصحيحة وعلى تقدير نزول الآية بمكة وإسلام أبي قحافة بعد الفتح قلنا الوصية بالإحسان للوالدين الكافرين أيضاً جائزة قال الله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾(١) والمراد حينئذ بنعمتك أنعمت علي ما يعم نعمة الدين والدنيا والله أعلم، قلتُ: وعلى تقدير كون اللام للجنس يقال معنى الآية أنه إذا بلغ الإنسان أشده يعني بلغ مبلغ الرجال شكر الله تعالى على كمال جسده ثم إذا بلغ أربعين سنة شكر الله سبحانه على كمال عقله والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إن كان المراد بالإنسان الجنس، فالإشارة إلى عامة الموصوفين بالصفات المتقدمة ظاهر وإن كان المراد به أبو بكر أو سعد فالمشار إليه هو ومن كان مثله في الصفات المذكورة فذكر حكم أبي بكر وسعد في ضمن العموم على سبيل الكناية وهو أبلغ من الصريح فإنه كدعوى الشيء مع بينة وبرهان ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ فإن المباح حسن ولا يثاب عليها أو هي من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها يعني نتقبل عنهم ما عملوا أحسن مما عمله غيره ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فلا نعاقبهم على شيء منها، قرأ حمزة والكسائي وحفص مَقَبَّلُ ونَتَجَاوَزْ بالنون على التكلم والتعظيم وأَحْسَنَ منصوباً على المفعولية والباقون بالياء على الغيبة والبناء للمفعول وأَحْسَنُ مرفوعاً على أنه مسند إليه ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ خبر بعد خبر لأولئك أو حال من الضمير المجرور في عنهم وعن سيئاتهم أي كائنين في أعدادهم أو مثابين أو معدودين فيهم ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه فأن يتقبل ويتجاوز وَعْدٌ أي وعدتُ وعد الصدق وإضافة الوعد إلى الصدق من قبيل حاتم الجود ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا والجملة مستأنفة لبيان جزاء الإنسان المذكور.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ إذا دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار الموصول مبتدأ خبره أولئك والجملة مستأنفة أُخرى لبيان حكم من خالف المذكورين ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ وهي كلمة كراهية، قرأ نافع وحفص بالتنوين وكسر الفاء وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء بغير تنوين والباقون بكسر الفاء بغير تنوين ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ قرأ هشام بنون واحدة مشددة والباقون بنونين مكسورتين وقرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها والاستفهام للإنكار

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٨.

والتوبيخ في مقام التعليل للتأفيف ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري حياً بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ الجملة حال من فاعل اخرج وهاهنا جملة محذوفة معطوفة على هذه الجملة تقديره ولم يخرج أحد منهم ﴿وَهُمَا﴾ أي أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي يقولان الغياث بالله منك أو يسألانه تعالى أن يغيثه بالتوفيق للإيمان الجملة حال من والديه ﴿وَيْلَكَ﴾ مصدر لفعل محذوف أي هلكت هلاكان والجملة مقدرة بالقول أي ويقولان له وَيْلَكَ أَمِنُ بالله وبالبعث بعد الموت ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ لهذه الجملة في مقام التعليل للأمر بالإيمان ﴿فَيَقُولُ﴾ ذلك الولد الكافر لوالديه ﴿مَا هَٰذَا﴾ الوعد ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ﴾ أي أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾.

أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهك قال كان مروان على الحجاز استعمل معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا فقال مروان هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن أنزل عذري[1]. وروي أنه غضب عبد الرحمن بن أبي بكر بقول مروان وقال هذا سنة الهراقلة أن يرث الأبناء ملك الآباء، وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ وعن ابن عباس مثل قول مروان وقال نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ثم أسلم عبد الرحمن وحسن إسلامه، وقال البغوي قال ابن عباس والسديُّ ومجاهد نزلت في عبد الله وقيل في عبد الرحمن بن أبي بكر كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى ويقول أحيوا لي عبد الله بن جدعان وعامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون، قلتُ وقول من قال أنها نزلت في عبد الرحمٰن بن أبي بكر إنما نشأ من قول مروان وقد سمعتَ أن قول مروان إنما كان مبنيّاً على العناد. قال البغوي وأنكرت عائشة أن يكون هذا في عبد الرحمن بن أبي بكر وقالت إنما نزلت في فلان سمت رجلاً، وقال الحافظ ابن حجر ونفي عائشة أصح إسناداً وأولي بالقبول، وقال البغوي والصحيح أنها نزلت في كافر عاق لوالديه المسلمين كذا قال الحسن وقتادة، وقال الزجاج قول من قال نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، يبطله قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ﴾ أي وجب وثبت ﴿عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بأنهم أهل النار فإن عبد الرحمن كان

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: (والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج) (٢٨٢٧).

من أفاضل المسلمين ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم كافرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيان لأمم وجملة قَدْ خَلَتْ صفة لأمم وفي أمم متعلق بحقَّ وهو صلة للموصول والموصول خبر لاسم الإشارة والجملة خبر لقوله ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تذييل.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ أي من جزاء ما عملوا من الخير أو من أجل ما عملوا قال البغوي قال ابن عباس يريد من سبق إلى الإسلام فهو أفضل ممن يخلف عنه ولو بساعة وقال مقاتل ولكل فضائل بأعمالهم فيوفيهم جزاء أعمالهم، وقيل ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين درجات منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم فجازيهم عليها قال ابن زيد في هذه الآية درجات أهل النار يذهب سفالاً ودرجات أهل الجنة يذهب علوّاً ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام وعاصم بالياء على الغيبة والباقون بالنون على التكلم والتعظيم وهو معطوف على علة محذوفة لفعل محذوف تقديره فعلنا ذلك أو فعل الله ذلك لِحكَم ومصالح وليوُفّيهُم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي جزاء ما عملوا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وزيادة عقاب حال من الضمير المنصوب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي يعذبون بها أصله يعرض النار عليهم فقلب مبالغة كقولهم عرضتُ الناقة على الحوض ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ مقدر بالقول أي يقال لهم أذهبتم وهو ناصب اليوم، قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ءأذهبتم بالاستفهام فقرأ ابن ذكوان بهمزتين محققتين بغير مد وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وهشام بهمزة ومد وهشام أطول مداً على أصله وابن كثير يسهل الثانية على أصله والباقون بهمزة واحدة على الخبر،

قال البغوي كلاهما فصيحتان لأن العرب تستفهم للتوبيخ وتترك الاستفهام ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ ولذائذكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ باستيفاء ما كتب لكم حظّاً منها في الدنيا ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيء ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ الفاء للسببية عطف على استمتعتم ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي العذاب الذي فيه ذل وهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله.

قال البغوي وبّخ الله الكافرين بالتمتع في الدنيا فأثر النبيّ ﷺ وأصحابه الصالحون اجتناب اللذات للدنيا رجاءً لثواب الآخرة، روى الشيخان في الصحيحين عن عمر رضي الله عنه قال دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثّرَ الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف، قلتُ يا رسول الله أدع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فقال أو في هذا أنت يا ابن الخطّاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، وفي رواية «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»[١] وفي الصحيحين عن عائشة ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ، وروى البخاري عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال خرج النبيّ ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير[٢]، وروى عن عائشة قالت لقد كان يأتي علينا شهر ما توقد فيه نار وما هو إلا الماء والتمر غير أن جزى الله النساء من الأنصار خيراً ربما أهدين لنا شيئاً من اللبن، وروى أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير[٣]، وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «لقد أخِفْتُ في الله وما يخاف أحد ولقد أوُذَيتُ وما يؤذى أحد ولقد أتت عليَّ ثلاثين من بين ليلة ويوم ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال» قال الترمذي ومعنى الحديث حين خرج النبيّ ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال إنما كان مع بلال من الطعام ما تحمل تحت إبطه، وروى البخاري عن أبي هريرة قال رأيتُ سبعين من أصحاب الصفة ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها (٢٤٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأطعمة، باب: ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون (٥٤١٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٦٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: خبز الشعير (٣٣٤٧).

منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته[(١)]، وروى البخاري عن أنس أنه مشى إلى النبيّ ﷺ بخبز شعير وإهالة سبخة، ولقد رهن النبيّ ﷺ درعاً بالمدينة عند يهودي وأخذ منه الشعير لأهله ولقد سمعتُه يقول ما أمسى عند آل محمد صاع بر ولا صاع حب وإن عنده تسع نسوة[(٢)] وروى الترمذي عن أبي طلحة قال شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين[(٣)]، وقال الترمذي هذا حديث غريب، وروى مسلم عن عبد الرحمن قال «جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو وأنا عنده فقالوا يا أبا محمد والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان وإن شئتم صبرتم فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً، قالوا فإنا نصبر نسأل شيئاً»[(٤)] وروى أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى اليمن قال: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» وروى البيهقي في شعب الإيمان عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من رضي من الله باليسر من الرزق رضي الله عنه بالقليل من العمل» وروى البغوي عن عبد الرحمن بن عوف أنه أتي بطعام وكان صائماً فقال قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه وإن غطي رجلاه بدا رأسه قال وأراه قال وقتل حمزة وهو خير مني ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال أعطينا الدنيا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام، وروي عن جابر بن عبد الله أنه رأى عُمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يديَّ فقال ما هذا يا جابر؟ قلتُ «اشتهيتُ لحماً فاشتريتُه فقال عمر فكلما اشتهيت يا جابر اشتريت أما تخاف هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، وقد روى القصة من حديث ابن عمر، وفي رواية من حديث جابر أما يجد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه، وروى رزين عن زيد بن أسلم قال استسقى يوماً عمر فجيء بماء قد شيب بعسل فقال إنه طيب لكني أسمع الله عزَّ وجلَّ نفى على قومه شهواتهم فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: نوم الرجال في المسجد (٤٤٢).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: شراء النبي ﷺ بالنسيئة (٢٠٦٩).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ (٢٣٧١).
(٤) أخرجه مسلم في أول كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٧٩).

واستمتعتم بها فأخاف أن تكون حسناتنا عجلت لنا فلم يشربه.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ عاداً، إذ مع ما أضيف إليه بدل إشتمال من أخا عاد أي اذكر وقت إنذاره ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ أي في الأحقاف قال ابن عباس: الأحقاف بين عمان ومهرة، وقال مقاتل منازل عاد كان باليمن في حضرموت بموضع يقال لها مهرة تنسب إليها الإبل المهرية وكانوا أهل عهد سيارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة آدم، قال قتادة ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن كانوا أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال له يشجر والأحقاف جمع حقف وهو المستطيل المعوج من الرمال قال ابن زيد هي ما استطال من الرمل كهيئة الجبل ولم يبلغ أن يكون جبلاً، وقال الكسائي هي ما استدار من الرمال ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ أي مضت الرسل جملة معترضة أو حال من فاعل أنذر يعني والحال أنه أنذر ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي قبل هود نوحٌ وغيره ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي بعده صالحٌ وإبراهيم ولوط وغيرهم مثل إنذار هود ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أن مفسرة لأنذر أو مصدرية بتقدير أنباء فإن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غير الله ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي عظيم بلاؤه ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ إستفهام تقرير ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب على الشرك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعيدك شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ لوقت عذابكم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي يأتيكم في وقت مقدر له من المستقبل ولا يستلزم عدم وقوع العذاب الآن كوني كاذباً ولا مدخل لي فيه فاستعجلوا ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم من التوحيد والأحكام والأخبار بنزول العذاب أن لم تؤمنوا ﴿وَلَكِنِّي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو والبزي بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أن الله هو العليم القدير والرسل إنما بعثوا منذرين مبلغين لا معذبين ولا مقترحين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير عائد إلى ما تعدنا وهو العذاب أو مبهم تفسيره ﴿عَارِضًا﴾ أي هيئة سحاب يعرض أي يبدو في عرض السماء ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ وقد كانوا قد حبس عنهم المطر قبل ذلك سنتين (وقد مرَّ قصتهم في سُورة الأعراف وغيرها) استبشروا بها ﴿قالوا هذا﴾ الذي نراه ﴿عارض﴾ سحاب عرض ﴿مُمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر قال الله تعالى أو قال هود ليس هذا سحاباً ممطراً كما زعمتم ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي أو بدل من الموصول ﴿فِيهَا عَذَابٌ﴾ صفة لريح ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة عذاب ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مرت به من أنفسهم وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾

أي رب الريح فجاءت الريح الشديد تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة وأول ما عرفوا أنها عذاب إذا رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من رجال عاد وأموالهم تطير بهم الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففلقت أبوابهم وصرعتهم وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال وكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ﴾ عطف على قال الله أو قال هود المحذوف، قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بضم الياء للغيبة على البناء للمفعول ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالضم عندهم على أنه مفعول ما لم يسم فاعله والباقون بالتاء للخطاب يعني لا ترى يا محمد أو يا مخاطب مطلقاً وَمَسَاكِنَهُمْ عندهم بالنصب على المفعولية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي جزاء مثل جزائهم ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ روي أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح اعتزل بالمؤمنين في الخطير، عن عائشة قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه»[١] متفق عليه، وفي رواية عند البغوي فقلتُ يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء إن يكون فيها المطر وإذا رأيتَه عرف في وجهك الكراهية فقال «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا»، وعنها قالت: «كان النبيّ ﷺ إذا عصت الريح قال اللّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلتْ به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطِرت سري عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال عاد فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا، وفي رواية ويقول إذا رأى المطر رحمةً»[٢] متفق عليه، وفي رواية عند أبي داود والنسائي وابن ماجه والشافعي كان النبيّ ﷺ إذا أبصرنا شيئاً من السماء ترك عمله واستقبله وقال إني أعوذ بك من شر ما فيه»[٣] الحديث، وعن ابن عباس ما هبت الريح قط إلا جثا النبيّ ﷺ على ركبتيه وقال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم) (٤٨٢٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الغيم والريح والفرح بالمطر (٨٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله ﴿فلما رأه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح والغيم (٨٩٩).

(٣) أخرجه الشافعي في الباب السادس عشر في الدعاء (٥٠١٠).

«**اللّهم إجعلها رحمةً ولا تجعلها عذاباً**» الحديث، رواه الشافعي والبيهقي.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ يعني عاداً ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ من القوة والمال ما موصولة أو موصوفة وإن نافية وهي أحسن هاهنا من ما لئلا يلزم التكرار لفظاً أي في الذي (أو في شيء مكّنّاكم فيه)، أو شرطية والجواب محذوف والتقدير ولقد مَكَّنّاهُم في الذي أو في شيء إنْ مَكَّنّاكُم فيه كان بغيكم أكثر أو زائدة يعني مَكَّنّاهُم فيُما مَكَّنّاكُم فيه والأول أظهر لقوله تعالى ﴿أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾[1] ﴿وكانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً﴾[2] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ بمعنى إسماعاً ﴿وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ قلوباً ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانحها ويواظبوا على شكرها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من زائدة يعني لم ينفعهم شيء منها شيئاً من النفع ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ ظرف جرى مجرى التعليل من حيث أن الحكم مرتب على ما أضيف إليه فهو علة لما أغنى ﴿وَحَاقَ﴾ أي نزل ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ من العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجر ثمود وأرض سدوم قرى قوم لوط والمراد أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي كررنا الحجج والبينات ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا يعني أهل مكة عن كفرهم تعليل للصرف وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ فهلا منعهم من عذاب الله ﴿الذين اتخذوا﴾ أي الذين اتخذوهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي آلهة يتقربون بها إلى الله حيث قالوا: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[3]، أو مفعولي اتخذوا الراجع إلى الموصول محذوف وثانيهما قُرباناً وآلهة بدل أو عطف بيان أو

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٨٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.

آلهة مفعول ثان، وقرباناً حال أو مفعول له على أنه بمعنى التقرب أو مفعول مطلق أي إتخاذ تقرب إلى الله ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرهم عند نزول العذاب وأمتنع أن يستمدوا بهم امتناع الإستمداد بالضآل ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذ الذين هذا شأنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ كذبهم وصرفهم عن الحق.

وقيل ذلك إشارة إلى انتفاء نصرهم وهو به يقول أو إفكهم بحذف المضاف خبره والمعنى وذلك أي انتفاء نصرهم أثر إفكهم أي افترائهم والجملة معترضة لبيان سبب المشار إليه ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي إفتراؤهم أنها آلهة.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال إن الجن هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا أنصتوا قالوا صه وكانوا تسعة أحدهم رذبعة فأنزل الله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ أي أهلنا ﴿إِلَيْكَ﴾ هذه الجملة إلى آخرها معترضة لتسلية للنبي ﷺ نفراً وهي جماعة دون العشرة وجمعه أنفار ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال ابن عباس كانوا سبعة من جن نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم وقال الآخرون كانوا تسعة.

قال البغوي روى عاصم عن زر بن حبيش أن رذبعة من التسعة الذين إستمعوا القرآن ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ حال من نفر ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول ﴿قَالُوا أَنصِتُوا﴾ قال بعضهم لبعض اسكتوا نسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي أتم وفرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ أنصرفوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ من الجن ﴿مُّنذِرِينَ﴾ مخوّفين داعين بأمر رسول الله ﷺ وقد ذكرنا القصة بوجوهها في سورة الجن لما سبق مني تفسيرها ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، قال عطاء كان دينهم اليهودية، قلتُ: لعل معنى قولهم أنزل من بعد موسى ناسخاً للتوراة

بخلاف الإنجيل والزبور فإنهما لم يكونا ناسخين لكثير من أحكام التوراة حيث قال الله تعالى في عيسى عليه السلام ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾[1] وقال حكاية عنه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[2] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية حال من فاعل أنزل أو صفة ثانية لكِتَاباً وكذا قوله ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من الشرائع ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ محمداً ﷺ إلى الإسلام ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وما كان حقاً لله بخلاف المظالم فإنها لا يغفر بالإيمان ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأستجاب من قومهم نحو سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن فأمرهم ونهاهم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً وقد ذكرنا اختلاف العلماء في حكم مؤمن الجن في سورة الجن ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يعجز الله فيفوته إذا أراد الله تعذيبه ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونه من عذاب الله هذه الجملة حال من فاعل ليس بمعجز والجملة الشرطية أعني من لا يجب داعي الله إلخ معترضة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين لم يجيبوا داعي الله ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإن الهداية منحصرة في اتباع الرسول.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ الاستفهام للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكرون هؤلاء الكفار عن البعث بعد الموت ولم يروا أي لم يعتقدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ﴾ أي لم يتعب ولم يعجز ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾ فإن قدرته ذاتية لا ينقص ولا ينقطع بالإيجاد أبد الآبدين ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ الباء زائدة وإسم الفاعل في محل النصب على أنه مفعول ثان ووجه دخول الباء على خبر أنَّ المفتوحة إنّ إنَّ مع جملتها قائم مقام مفعولي يَرَوْا والنفي في أفعال القلوب يتوجه إلى المفعول الثاني، هذا قراءة الجمهور وفي قراءة ابن مسعود قادراً بغير الباء وقرأ يعقوب يقدر بصيغة الفعل المضارع ﴿على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوب بقول مضمر تقديره يقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى العذاب بالنار الذي ينكرونها في الدنيا ﴿بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟﴾ أي الكفار في الجواب ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ يقسمون بالله ويعترفون به حين لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالَ﴾ أي يقول الله تعالى حينئذ ﴿فذوقوا العذاب﴾ الفاء للسببية فإن كونها حقاً مع إنكارهم إياها في الدنيا سبب للذوق ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم في الدنيا ومعنى الأمر هو الإهانة والتوبيخ وجملة ويوم يعرض الخ متصلة بقوله ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾[1] وما بينهما معترضات.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى الكفار الفاء للسببية يعني إذا عملتَ أنهم يذوقون عذاب النار فاصبروه تهتم للانتقام ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ أي صبراً مثل ﴿أولوا العزم﴾ أي أولي الصبر والثبات والجد ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قبلك فإنك من جملتهم. واختلفوا فيهم؟ قال ابن زيد كل رسول كان صاحب عزم فإن الله لم يبعث نبيّاً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل ومن للتبيين، وقال بعضهم الأنبياء كلهم أولوا عزم إلا يونس بن متى لعجلة كانت منه ألا ترى أنه قيل للنبي ﷺ (ولا تكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ)[2] وقيل إلا يونس وإلا آدم لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[3] وقال قوم هم نجباء الرسل المذكورون في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً. قال الله تعالى بعد ذكرهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾[4] وقال الكلبي هم الذين أمروا بالجهاد واظهروا المكاشفة مع أعداء الله وقيل هم ستة: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء، وقال مقاتل هم ستة: نوح صبر على أذى قومه، وإبراهيم صبر على النار، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب صبر على فقد ولده وذهب بصره، ويوسف صبر في البئر والسجن، وأيوب صبر على

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

الضرّ، وقال ابن عباس وقتادة هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أصحاب الشرائع مع محمد ﷺ وعليهم أجمعين خمسة، قال الشيخ محيى السنة البغوي ذكرهم الله على التخصيص في قوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[2]، وقال الشيخ أحمد المجدد للألف الثاني رضي الله عنه هم ستة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيد الرسل محمد ﷺ أجمعين وسلم، أما الخمسة فلما ذكر من تخصيصهم للميثاق وكونهم أصحاب الشرائع ومن جاء خلفهم أيَّدَ شرائعهم وأما آدم فلا جرم يكون هو صاحب شريعة جديدة لكونخه مقدماً على غيره.

روى البغوي عن مسروق قال قالت لي عائشة قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم إلا الصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم وقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرُّسُلِ وإني والله ما بدا لي من طاعته وإني والله لأصبرنَّ كما صبروا وأجهدن كما جهدوا ولا قوة إلا بالله».

عن ابن مسعود قال: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيّاً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[3] متفق عليه، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تدع على كفار قريش بنزول العذاب عليهم فإنه نازل بهم في وقته لا محالة، كأنه ضجر وضاق قلبه بكثرة مخالفات قومه فأحب أن ينزل العذاب يمن أبى منهم فأمر بالصبر وترك الاستعجال ثم أخبر عن قرب العذاب فقال ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ في الدنيا زماناً ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ استقصروا من هوله مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة ولأن ما مضى وإن كان طويلاً فهو إذا انقضى صار كأن لم يكن وجملة كأنهم واقع موقع التعليل لعدم الاستعجال في تعذيب الكفار ثم قال ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا الذي وعظتم به أو هذه السورة أو هذا القرآن

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد (١٧٩٢).

وما به من البيان بلاغ من الله إليكم أي كفاية أو تبليغ الرسول وتنكير البلاغ للتعظيم والتفخيم، وقيل بلاغ مبتدأ خبره لهم وما بينهما إعتراض أي لهم وقتٌ يبلغون إليه كأنهم إذا بلغوه رأساً رأوا ما فيه استقصروا مدة عمرهم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ الإستفهام للإنكار أي لا يهلك بالعذاب أحد ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الإتعاظ أو الطاعة، قال الزجاج تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلاَّ القَوْمُ الفاسقون، ولهذا قال قوم ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.

سورة محمد

صلّى اللّه عليه وسلّم وهي سورة القتال

آياتها ثمان وثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي منعوا الناس عن الدخول في الإسلام إذ امتنعوا عن الدخول فيه وسلوك طريقه ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أي جعلها ضائعة محبطة حيث لم يقصدوا بها وجه الله، ولم يجعل لها ثواباً وإنما يجزون بها في الدنيا فضلاً من الله وأراد بالأعمال ما كان منها حسناً في الظاهر كإطعام الطعام وصلة الأرحام وفك الأسارى وحفظ الجوار وقال الضحاك أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ وجعل الدبرة عليهم ﴿والذين آمنوا وعملوا الصلحات وآمنوا بما نزل على محمد﴾ صلّى الله عليه وسلم تخصيص للمنزل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم بدونه وأنه الأصل منه وشامل لجميع الإيمانيات ولذلك أكده بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ إعتراضاً على طريقة الحصر وجاز أن يكون حالاً، قيل حقيقته كونه ناسخاً لا ينسخ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي غفرها وسترها بالإيمان وأعمالهم الصالحة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم في الدنيا

بالنصر على الأعداء وتوفيق الطاعة والحفظ عن المعاصي وتسلط الشيطان وفي الآخرة بالخلود في النعيم ورضوان الله تعالى، وقال ابن عباس يعني عصمهم أيام حياتهم، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» هم مشركوا مكة، «والذين آمنوا عملوا الصالحات» هم الأنصار، وقلتُ واللفظ عام ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي الشيطان ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي ضرباً مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي يبين ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ الضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب لأجل الناس حتى يعتبروا أمثال الفريقين جعل الله تعالى اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخيبتهم واتباع الحق مثلاً للمؤمنين تكفيراً لسيئات مثلاً لفوزهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه مضافاً إلى المفعول للتأكيد والإختصار عبر به عن القتل إشعاراً بأنه ينبغي أن يضرب الرقبة ما أمكن فإنه مفض إلى القتل غالباً دون غيره من الجراحات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم قتلهم واغلظتموهم من الثخين بمعنى الغليظ ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي فأمسكوا عنهم وأسروهم وشدوا وثاقهم وأحفظوهم كيلا يفروا والوثاق بالفتح والكسر ما يوثق به ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فاما تمنون عليهم بالإطلاق بعد الأسر وشد الوثاق منّا أو يفدون فداءً، قال البغوي اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قوم هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾[2] وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسديُّ وابن جريج وهو قول الأوزاعي وبه قال أبو حنيفة رحمه الله في رواية، قلتُ قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ لا يصلح ناسخاً لهذه الآية وقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ مخصوص بالبعض حيثُ جاز استرقاق الأسارى بالإجماع واستبقاؤهم ذمة لنا عند أبي حنيفة ومالك فبقي ظني الدلالة في الباقي فلا يصلح ناسخاً لهذه الآية لكونها قطيعة، وذهب الآخرون إلى أنها محكمة والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو بمن عليهم فيطلقهم بلا عوض أو

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٧.

يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين وإليه ذهب ابن عمرو به قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال ابن عباس لما كثر المسلمون وأشتد سلطانهم أنزل الله عزَّ وجلَّ في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وهذا هو الأصح والاختيار لأنه عمل به رسول الله ﷺ والخلفاء بعده قلتُ فهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[(١)] فإنها نزلت في غزوة بدر سنة اثنين وقد منَّ رسول الله ﷺ على الأسرى بعد ذلك في الحديبية سنة ست وغير ذلك، عن أنس «أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غزوة النبيّ ﷺ وأصحابه فأخذهم سلماً فاستحياهم وفي رواية فأعتقهم فأنزل الله تعالى: (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم)[(٢)] رواه مسلم وقد ذكرنا مسائل أحكام الأسارى وأختلاف العلماء وما ورد في الباب من الأحاديث في سورة الأنفال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[(٣)].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ﴾ أي أهل الحرب أي المحاربين ﴿أَوْزَارَهَا ۚ﴾ يعني أثقالها وهي الأسلحة يعني ينقطع الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم، وقيل الأوزار الآثام والمعنى يضع أهل الحرب من المشركين أثامها بأن يتوبوا من كفرهم ويؤمنوا بالله ورسوله، وقيل حتى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا والمعنى اثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يدخل أهل الملل كلها في الإسلام جعل الله سبحانه إنقطاع الحرب غاية للضرب أو الشد أو المن أو الفداء أو للمجموع يعني هذه الأحكام جارية حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم وذلك عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام. عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ: «لا يزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناولهم. حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[(٤)] رواه أبو داود، وروى البغوي عن النبيّ ﷺ بلفظ «الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال» ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر فيهم ذلك أو مبتدأ خبره محذوف أي

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (١٨٠٨).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في دوام الجهاد (٢٤٨٢).

ذلك ثابت أو مفعول لفعل محذوف أي افعلوا بهم ذلك فهو تأكيد لما سبق ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم من الكفار بأن يهلكهم من غير تعب منكم في الجهاد ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿ليبلوا بعضكم ببعض﴾ أي ليبلوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم بالعقوبة بأيديهم كي يرتدع بعضهم من الكفر ويستوجب بعضهم النار، والجملة بيان لحكمة شرعية القتال مع القدرة على استيصالهم بلا تجشم قتال من المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قرأ أهل البصرة وحفص قُتِلُوا بضم القاف وكسر التاء على البناء للمفعول من المجرد وهم الشهداء والباقون قَاتَلُوا بالألف من المقاتلة وهم المجاهدون ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خبر للمبتدأ الموصول المتضمن لمعنى الشرط أي لا يبطل أعمالهم بارتكاب المعاصي بل يكفر سيئاتهم ويثيب على حسناتهم، أخرج البزار والبيهقي والأصفهاني في الترغيب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء ثلاثة: رجل خرج بنفسه وماله محتسباً في سبيل الله يريد أن يقاتل ويقتل يكثر سواد المسلمين فإن مات أو قتل غفرت له ذنوبه كلها وأجير من عذاب القبر ويؤمن من الفزع الأكبر ويزوج من الحور العين ويحل حلة الكرامة ويوضع على رأسه تاج الوقار، والثاني رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يَقْتُلَ فإن مات أو قُتل كانت ركبتيه مع إبراهيم خليل الرحمن بين يدي الله في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ، والثالث رجل خرج بنفسه وماله محتسباً يريد أن يقتل ويقتل فإن مات أو قتل جاء يوم القيامة شاهراً سيفه واضعه على عاتقه والناس جاثون على الركب يقولون ألا افسحوا لنا فإنا بذلنا لنا دماءنا وأموالنا لله حتى يأتوا منابر من نور تحت العرش فيجلسون عليها ينظرون كيف يقضي بين الناس لا يجدون غمّ الموت ولا يفتنون في البرزخ ولا يفزعهم الصيحة ولا يهمهم الحساب ولا الميزان ولا الصراط ولا هم يسألون شيئاً إلا أعطوا ولا يشفعون في شيء إلا شفعوا ويعطون من الجنة ما أحبُّوا ويتبؤون من الجنة حيث أحبُّوا» والله أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال ذكر لنا أنه نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يوم أحد وقد نشب فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون بوعيد أعل هبل فنادى المسلمون الله أعلى وأجل، فقال المشركون إن لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا الله مولانا ولا مولى لكم**»[1].

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى الرشد وفي الآخرة إلى الدرجات العلى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة أحد (٤٠٤٣).

حالهم في الدارين أما في الدنيا فلمن لم يقتل أدرجوا في القتلى تغليباً، أو لأنهم لما خرجوا للقتال ورضوا بأن يقتلوا أعطوا ثوابهم في الدارين وأما في الأخرى فلمن قُتل ولمن لم يُقْتَلُ بأن يكفر سيئاتهم ويقبل حسناتهم ويرضى خصمائهم. أخرج أبو نعيم في الحلية عن سهل بن سعد والبزار والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قالا قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يقضي الله تعالى عنهم يعني ديونهم يوم القيامة رجل خاف العدو على بيضة المسلمين وليس عنده قوة فادَّان ديناً فابتاع به سلاحاً وتقوى به في سبيل الله فمات قبل أن يقضيه هذا يقضي الله عنه، ورجل مات عنده أخوه المسلم فلم يجد ما يكفنه منه فاستقرض فاشترى به كفناً فمات وهو لا يقدر على قضائه فهذا يقضي الله عنه يوم القيامة، ورجل خاف على نفسه العنت فتعفف بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضي عنه يوم القيامة» وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن قال قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى الخلائق يوم القيامة فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادي يا أهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم على الله تعالى ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ أي يبين لهم منازلهم في الجنة حتى يهتدوا إلى مساكنهم من غير استدلال كأنهم سكانها منذ خلقوا فيكون المؤمن أهدى إلى منزله ودرجته وزوجته وخدمه منهم إلى منزله وأهله في الدنيا هذا قول أكثر المفسرين، عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يقول: «**والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم**» رواه في حديث طويل ابنُ جرير في تفسيره والطبراني وأبو يعلى والبيهقي في البعث وغيرهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي تنصروا دينه ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ مصدر لفعل واجب إضماره وسمعاً أي فتعسوا تعساً والجملة خبر للموصول أو مفسر لناصبه، قال ابن عباس معناه بُعداً لهم، وقال أبو العالية سقوطاً لهم، وقال الضحاك خيبة لهم، وقال ابن زيد شتّاً لهم، قال الفراء نصب على المصدر على سبيل الدعاء، وقيل معناه في الدنيا العثرة وفي الآخرة التردي في النار ويقال للعاثر إذا لم يريدوا قيامه تعساً وضده، وفي القاموس التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والإنحطاط ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لأنها كانت في طاعة الشيطان عطف على ناصب تعساً ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني القرآن لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه وأشتهته أنفسهم ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كرره إشعاراً بأن ذلك من لوازم الكفر.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني أهل مكة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره ألم يخرجوا فلم يسيروا في الأرض ﴿فَيَنظُرُوا﴾ جواب للنفي أو معطوف عليه أي فلم ينظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة للرسل ﴿دَمَّرَ اللَّهُ﴾ أي إستأصل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم جملة مستأنفة ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ يعني أهل مكة وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على كفرهم ﴿أَمْثَالُهَا﴾ أي أمثال تلك العاقبة أو العقوبة أو الهلكة لأن التدمير يدل عليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر للمؤمنين والقهر على الكافرين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وليهم وناصرهم فيؤيدهم ويوفقهم ويسدد أمرهم ويدفع عنهم خطرات الشيطان حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١) ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ الذين قدر عليهم الكفر وسلطان الشيطان ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ بمتاع الدنيا أياماً قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ﴾ صفة لمصدر محذوف وما مصدرية أي أكلاً، كأل ﴿الْأَنْعَامُ﴾ حريصين غافلين عن المنعم تاركين شكره غير خائفين عن العاقبة ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى﴾ أي منزل ومقام ﴿لَّهُمْ﴾ الجملة حال من فاعل تأكلون ﴿وَكَأَيِّن﴾ أي كثير مبتدأ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي أهل قرية حذف المضاف وأجرى على المضاف إليه أحكام المضاف فقال ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ صفة أخرجك أهلها أسند الإخراج إليهم باعتبار التسبيب فإن النبيّ ﷺ إنما خرج من مكة لأجل إيذاء أهلها، أخرج أبو يعلى وذكره البغوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لمّا خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ خبر مبتدأ روعي في الضمير فإن المراد من القرية أهلها ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

حكاية حال ماضية أي فلم يكن لهم حينئذ ناصر ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أيستوي المؤمن الذي الله مولاه والكافر الذي لا مولى له أصلاً فمن كان على ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على يقين مستندٍ إلى حجة من عند ربه أي إلى القرآن أو ما يعمه والحجج العقلية كالنبي ﷺ والمؤمنين ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ أي زين لهم الشيطان ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ فعبدوا الأوثان بلا شبهة لهم فضلاً عن حجة.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ (١٦) وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ (١٨) فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ (١٩)﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المضير الراجع إلى الموصول محذوف أي وُعِد بها المتقون، مثل الجنة أي صفتها العجيبة مبتدأ محذوف الخبر تقديره يتلى عليكم فيما بعد وقيل خبره كَمَنْ هو خالدٌ في النار وتقدير الكلام أمثل أهل الجنَّة كمثل مَنْ هُوَ خالِدٌ في النار أو أمثل الجنة كمثل جزاء مَنْ هُوَ خَالِدٌ في النَّارِ فعري عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استغناءً يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار وقيل خبره ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ صفة لأنهار ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الجملة إن لم يكن خبر المثل فهو إما استئناف لشرح المثل أو حال من العائد المحذوف أي مثل الجنة التي وعد بها المتقون كائنة فيها أنهار من ماء غير آسن، قرأ ابن كثير بالقصر والباقون بالمد وهما لغتان أي غير متغير طعمه ولا ريحه كما يتغير مياه الدنيا بطول المكث ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما يتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾ أي لذيذة تأنيث لذّ أو مصدر نعت به بإضمار أي ذات لذة أو تجوز للمبالغة ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لا يكون فيها كراهة ريح ولا غائلة سكر وخمار بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل وغيرها.

عن معاوية بن حيدة قال سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم يشق الأنهار منها»(١) رواه الترمذي وصححه والبيهقي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة يفجر من جبل مسك» رواه ابن حبان والحاكم والبيهقي والطبراني وابن أبي حاتم، وعن مسروق قال أنهار الجنة تجري من غير أخدود، رواه ابن المبارك والبيهقي، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض لا والله إنها سابحة على وجه الأرض حافتاه خيام اللؤلؤ وطينها المسك الأزفر»، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة»(٢) رواه مسلم، وعن عمرو بن عوف قال قال رسول الله ﷺ «أربعة أنهار الجنة النيل والفرات وسيحان وجيحان وأربعة جبال من جبال الجنة أحد والطور ولبنان ودرقان»(٣) وعن كعب الأحبار قال نهر النيل هو نهر العسل ونهر دجلة نهر اللبن ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة ونهر سيحان نهر الماء في الجنة، رواه البيهقي وذكر البغوي قول كعب نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة ونهر الفرات نهر لبنهم ونهر مصر نهر خمرهم ونهر سيحان نهر عسلهم وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنف عطف على فيها أنهار، عن ابن عباس قال ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر في تفسيرهما، وعن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ومسدد في مسنده وهناد في الزهد والبيهقي، وعن ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد في مكانها مثلها»(٤) ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فهو راضٍ عنهم أبداً مع إحسانه إليهم بما ذكر بخلاف السيد للعبد في الدنيا فإنه قد يسخط عليه عطف على الصنف المحذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم مغفرة من ربهم ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ هذا على تقدير كون مثل الجنة مبتدأ محذوف الخبر أو كون خبره فيها أنهار خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في تلك الجنة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة أنهار الجنة (٢٥٧١).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمه وأهلها، باب: ما في الدنيا من أنهار الجنة (٢٨٣٩).
(٣) أخرجه ابن عدي وابن مردويه وابن عساكر، وأورده ابن الجوي في الموضوعات.
انظر: كنز العمال (٣٥١٢١).
(٤) رواه الطبراني والحاكم والبزار، وقال الهيثمي: رجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات.
انظر: فيض القدير (١٩٧٦).

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أو بدل من قوله كمن زيّنَ له وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من زُيّنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ممن هو على بينة من ربه في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ عطف على هو خالدٌ نظراً إلى لفظة من، وجمع سُقُوا نظراً إلى معناه ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ لشدة الحر فخرجت من أدبارهم.

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون عند النبيّ ﷺ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ويستمع المنافقون ولا يعونه فإذا خرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفاً فنزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ عطف على والذين كفروا يتمتعون وما بينهما معترضات وهم المنافقون يستمعون قول النبيّ ﷺ فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً أو لما لا يعتقدونه حقّاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟﴾ إفراد ضمير يستمع نظراً إلى لفظة من وجمع ضمير خرجوا وقالوا نظراً إلى المعنى ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا﴾ أي ما الذي ﴿قَالَ﴾ محمد ﴿ءَانِفًا﴾ الساعة من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار جارحة الأنف ومنه إستأنف وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتنفاً أو حال من الضمير في قال، قرأ ابن كثير في رواية بالقصر والباقون بالمد ومعناهما واحد قالوا ذلك استعلاماً أو استهزاءً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلذلك تهاونوا بكلام الرسول الله ﷺ ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ ولذلك استهزءوا به ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بكلام الرسول الله ﷺ وهم المؤمنون ﴿زَادَهُمْ﴾ الله بكل كلام من الرسول الله ﷺ ﴿هُدًى﴾ علماً وبصيرة وشرح صدر ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي وفقهم للعمل بما أمروا به أو بين لهم مايتقون به من النار، قال سعيد بن جبير أتاهم ثواب تقواهم.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون يعني كفار مكة ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدل اشتمال من الساعة والإستفهام للإنكار والمعنى أن الساعة آتية بغتة لا محالة فهم لا ينتظرون إلا الساعة، والجملة الاستفهامية جزاء شرط محذوف تقديره إن لم يتوبوا ولم يتسارعوا في الطاعة فلا ينتظرون للتوبة والطاعة إلا وقت إتيان الساعة وحينئذ لا ينفعهم التوبة ولا يستطيعون الطاعة، عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «ما ينتظر أحدكم إلا غنىً مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال والدجال شر غائب منتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمرّ»[1] ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل على إتيان الساعة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل (٢٣٠٦).

أي اماراتها وعلاماتها منها شق القمر قال الله تعالى: ﴿أقتربت الساعة وأنشق القمر﴾[١] ومنها الدخان ومنها مبعث النبيّ ﷺ، روى مسلم وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»[٢] وروى أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه عن أنس نحوه، وعن أنس قال لأحدثنكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنى ويكثر شرب الخمر ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد»[٣] وفي رواية «يقل العلم ويظهر الجهل» متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: «بينما النبيّ ﷺ يحدث إذ جاء إعرابي فقال متى الساعة؟ قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال كيف إضاعتها؟ قال إذا وُسّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٤] رواه البخاري، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا اتخذ الفيء دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وتعلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه وظهرت الأصوات في المساجد وساد القوم فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الأمة أولها فأرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلةً وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات تتابع كنظام قطع سلكه فتتابع»[٥] رواه الترمذي، وعن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بهم البلاء ـ وعد هذه الخصال ـ ولم يذكر ويعلم العلم لغير الدين وقال وبرَّ صديقه وجفا أباه وقال شرب الخمر ولبس الحرير» رواه الترمذي وهذه الجملة كالعلة لإتيانها بغتةً ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ الساعة ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ الفاء جزائية لشرط محذوف والمعنى أن تأتيهم الساعة بغتة فكيف يكون لهم ذكرهم أي وقت مجيئها كيف يتذكرون إذ حينئذ لا ينفعهم الذكر.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والنازعات (٤٩٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٠)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: اجتناب البدع والجدل (٤٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين» يعني السبابة والوسطى (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين، باب: إثم الزناة (٦٨٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: رفع الأمانة (٦٤٩٦).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف (٢٢١٠).

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ الفاء للسببية أي إذا علمتَ سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت أنتَ يا محمد على ما أنتَ عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها النافع يوم القيامة ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ هضماً لنفسك وإظهار للتقصير في العبادة بالنسبة إلى جلال ربك وعظمته وليستن به أمتك وقد فعله ﷺ حيث قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[١] رواه مسلم وأحمد وأبو دواد والنسائي من حديث الأغر المزني، قلتُ: لعل غين القلب كناية عمّا يرى الصوفي في نفسه من ظلمات الامكان بعدها يسند كمالاته إلى جناب الرحمن، قال المجدد للألف الثاني رضي الله عنه معرفة الله تعالى حرام على من لم ير نفسه شرّاً من الكافر الفرنجي قيل عليه كيف يتصور ذلك مع ما يرى نفسه مؤمناً حقّاً لا أقل منه ويرى الكافر كافراً لا محالة ومعرفة فضل الإيمان على الكفر من ضروريات الدين، أجاب عنه بأن كل ممكن موجود فهي لا يخلو عن ظلمة الإمكان ونور الوجود المستعار من الرحمن فالعارف بالله يرى في نفسه غالباً جانب العدم والإمكان وما يه من الوجود وأتباعه من الكمالات يجده مستعاراً من الملك المنان امتثالاً لأمره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[٢] ويرى في من سواه غالباً جانب الوجود المستفاد من الرحمن فلا جرم يرى نفسه شرّاً من كل من سواه وهذه المعرفة لا يزاحم معرفة فضل الإيمان على الكفر باختلاف الألحاظ والحيثيات وسعة العلم والإدراكات بخلاف الغافل يرى وجوده وكمالاته مستنداً إلى نفسه وينادي أنا خير منه ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي استغفر لذنوبهم بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعي لغفرانهم وفي إعادة الجار وحذف المضاف إشعار لفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنس آخر، قال البغوي هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ قال ابن عباس متقلبكم مصرفكم ومنتشركم في أعمالكم في الدنيا ومثواكم مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو النار، وقال مقاتل وابن جرير منصرفكم لاشتغالكم بالنهار ومثواكم مأواكم إلى مضاجعكم بالليل، وقال عكرمة متقلبكم من أصلاب الأباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم مقامكم في الأرض، وقال ابن كيسان متقلبكم من ظهر إلى بطن ومثواكم مقامكم في القبور والمعنى أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والإكثار منه (٢٧٠٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار (١٥١٤).

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ تأمر بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي أمر بالجهاد قيل معنى محكمة مبينة لا يحتمل وجهاً إلا وجوب القتال، وقال قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة لأن وجوب القتال نَسَخَ ما كان قبل ذلك من الصلح والمهادنة ولا يرد عليه النسخ وهو ماض إلى يوم القيامة وكل سورة ذكر فيها القتال كانت هي أشد القرآن على المنافقين ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي ضعف وجبن ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جبناً ومخافة ﴿نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم﴾ أي خير لهم ﴿طَاعَةٌ﴾ أي الله ورسوله في الجهاد ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي قول سمعنا وأطعنا ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جد الأمر أي جد أصحاب الأمر على القتال فالإسناد إليه مجاز أو المعنى لزم وفرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وجملة لو صدقوا جزاء شرط، وقيل جزاء الشرط محذوف وهذه مستأنفة تقديره فإذا عزم الأمر لم يصدقوا الله ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب أي فهل يتوقع منكم أيها أصحاب الجبن ﴿إن توليتم﴾ أي أعرضتم عن متابعة الرسول شرط مستغن عن الجزاء لوقوعه في جملة تدل على الجزاء ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾ بالكفر والمعاصي لأجل مخالفة الرسول ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ أي تخالفوا أقرباءكم المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، وأن مع جملته فاعل لعسيتم والإستفهام للإنكار، يعني لا تكونوا بحيث يتوقع منكم الفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وقطع الأرحام.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المفسدين في الأرض والقاطعين الأرحام مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن ملاحظته هذه الجملة في مقام التعليل للإنكار في قوله ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقيل المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون والمرض الشك والنفاق وقوله ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي فويل شديد لهم أفعل من الويل أو من الولي بمعنى القرب أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم

المكروه أو يؤل إليه أمرهم، وطاعة وقول معروف مبتدأ محذوف الخبر أي وطاعة وقول معروف خير لهم أو حكاية عن قولهم أي يقولون طاعة أي أمرنا طاعة وقول معروف فلو صدقوا الله فيما قالوا إن أمرنا طاعة لكان خيراً لهم لكنهم كذبوا فهل عسيتم إن توليتم أمر الناس يعني تأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض بالظلم، نزلت في بني أمية وبني هاشم يدل عليه قراءة علي بن أبي طالب إن توليتم بضم التاء والواو على البناء للمفعول أي إن وليتم ولاة جائرةً خرجتم معهم في الفتنة وعاديتموهم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، قال ابن الجوزي إنه روى القاضي أبو يعلى في كتابه المعتمد الأصول بسنده عن صالح بن أحمد بن حنبل أنه قال قلتُ لأبي يا أبت يزعم بعض الناس أنا نحب يزيد بن معاوية فقال أحمد يا بني هل يسوغ ممن يؤمن بالله أن يحب يزيد ولم لا يلعن رجل لعنه الله في كتابه، قلتُ يا أبت أين لعن الله يزيد في كتابه قال حيث قال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم وأعمى أبصارهم﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي لا يتصفحونه ما فيه من المواعظ والزواجر فيتضح لهم الحق، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أيغفلون فلا يتدبرون القرآن ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ إقفال القلوب استعارة بالكناية شبه القلوب بالخزائن وأثبت لها ما يناسب الخزائن من الأقفال على وجه التخييل وأضاف الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تجانس الأقفال المعهودة وهذا الكلام كناية عن عدم الاستعداد ونفي قابلية القلوب للاتعاظ بالكلية فلا يفهمون مواعظ القرآن وأن تدبروا فرضاً، وتنكير قلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة أو لفرط جهالتها كأنها مبهم مكنوزة، روى البغوي عن هشام بن عروة عن أبيه قال تلا رسول الله ﷺ «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» فقال شاب من أهل اليمن بل على قُلُوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها فما زال الشابُّ في نفس عمر حتى ولى فاستعان به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ

حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم﴾ أي على ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ قال عروة هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد ﷺ بعد ما عرفوه ووجدوا نعته في التوراة وقال ابن عباس والضحاك والسديُّ هم المنافقون ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي سهَّل لهم اقتراف الكبائر من السوال وهو الاسترخاء، وقيل حملهم على الشهوات من السول وهو التمني ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ قرأ أهل البصرة بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يسم فاعله من الماضي، وقرأ مجاهد بإسكان الياء على صيغة المضارع المتكلم من الافعال وروى هذه القراءة عن يعقوب والمعنى وأنا أملي لهم أي امهلهم والواو للحال أو الاستئناف والباقون بفتح الألف أي أملى الشيطان يعني مدلهم في الآمال والأماني وجملة إنَّ الذين ارتدوا مستأنفة في جواب ما سبب ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تسويل الشيطان وإمهال الله سبحانه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي قال اليهود الذين كفروا بالنبي ﷺ بعدما تبين لهم نعته من التوراة للمنافقين أو قال المنافقون لهم أو أحد الفريقين للمشركين ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي في بعض أموركم أو في بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد أو الموافقة لهم في الخروج معهم أن أخرجوا أو على التعاون على عداوة محمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ حال من فاعل قالوا، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بكسر الهمزة على المصدر والباقون بفتحها على أنه جمع السر ومن إسرارهم قولهم لهذا الذي أفشاه ﴿فَكَيْفَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للتعجيب ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ﴾ الظرف متعلق بفعل محذوف تقديره فكيف يحتالون إذا توفتهم ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ حال من الملائكة ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ بمقامع من حديد ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفي على هذا التوجه ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي بسبب أنهم ﴿أتبعوا ما اسخط الله﴾ قال ابن عباس بما كتموا من التوراة وكفروا بمحمد ﷺ ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ لذلك.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي نفاق، أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والكلام متصل بقوله الشيطان سول لهم أو بقوله أم على قلوب أقفالها ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ﴾

أي لن يظهر الله لرسوله والمؤمنين أحقادهم عليهم، أم منقطعة للإضراب عما سبق والإستفهام للإنكار على حسبانهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لأعلمناكهم وأعرفناكهم جملة معترضة أو حال بتقدير ونحن لو نشاء لأريناكهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ بإعلامنا ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بعلاماتهم التي نسمهم بها واللام لأمر الجواب كررت في المعطوف، قال البغوي قال أنس فما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جواب قسم محذوف ولحن القول إزالة الكلام عن جهته إلى تعريض وتورية والمعنى أنك تعرفهم فيما يعرضون من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم والذم بصورة المدح، قال البغوي فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبيّ ﷺ إلا عرفه بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ الحسنة من القبيحة فإن حسن الأعمال وقبحها فيما سوى ما فيه قبح ذاتي كالكفر والزنى يتعلق بالنيات ولا يعلمها إلا الله فيجازيكم على حسب قصدكم ونيتكم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بأن نأمركم بالجهاد وجواب قسم محذوف ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ علماً بعد الوجود كما كنُا نعلم قبل الوجود بأنه سيكون أو المعنى حتى نُميّز أو المعنى حتى يعلم أولياؤنا ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاق الجهاد ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها أو قبحها أو أخباركم عن إيمانكم وموالاتكم المؤمنين في صدقها وكذبها، قرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الله تعالى فيوافق قوله تعالى الله يعلم والباقون بالنون على التكلم ونبلوا بسكون الواو على تقدير ونحن نبلوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي منعوا الناس عن الإيمان وإتباع الرسول ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي خالفوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ هم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر كانوا أثنا عشر رجلاً من كفار مكة يطعمون عسكر الكفار في يوم نوبته ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم ﴿شَيْـًٔا﴾ من المضرة إنما يضرون أنفسهم ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلا يجدون عليها ثواباً في الآخرة ولا يترتب عليه منفعة في الدنيا، قال ابن عباس هم المطعمون يوم بدر نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ قال ابن عباس وعطاء: لا تبطلوها بالشك والنفاق أو العجب، وقال الكلبي بالرياء والسمعة، وقال الحسن بالمعاصي والكبائر، وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضرُّ مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا أن يبطل العمل بالذنب وكذا ذكر البغوي عنه، وقال مقاتل لا تمنوا على رسول الله بإسلامكم فتبطل أعمالكم.

مسألة:

من شرع في صلاة أو صوم أو حج أو عمرة أو غير ذلك تطوعاً يجب عليه الإتمام ولا يجوز له الإفساد في ظاهر الرواية عن أبي حنيفة إلا بعذر كذا ذكر صاحب الهداية والقدوري وغيرهما، وهل الضيافة عذر لإفطار الصوم تطوعاً قيل نعم وقيل لا وقيل عذر قبل الزوال لا بعده إلا إذا كان في عدم الفطر عقوق الوالدين، فإن أفسد الصلاة أو الصوم بعد الشروع تطوعاً يجب عليه القضاء عند أبي حنيفة وعند مالك وفي رواية المنتقى عن أبي حنيفة يباح للمتطوع بالصوم الإفطار بغير عذر ويجب عليه القضاء، وقال الشافعي وأحمد يجب في العمرة والحج الإتمام والقضاء إن أفسد بخلاف الصلاة والصوم وغيرهما من النوافل فإنه يستحب عندهما الإتمام وله قطعهما ولا قضاء عليه. لنا هذه الآية فإنها وإن كانت واردة في النهي عن إبطال العمل بالشك والنفاق أو بالمعاصي أو بالرياء والسُّمعة والعُجب لكنها بصيغتها يعم الإبطال، قبل إتمامها بالإفساد لأن القدر المؤدى قربةٌ وعملٌ وكذا بعده بفعل ما يحبطه من الكبائر أو الرياء والسمعة أو العجب، ولنا أيضاً الأحاديث منها حديث عروة عن عائشة قالت أهديت لحفصة شاة ونحن صائمتان فأفطرتني فلمَّا دخل علينا رسول الله ﷺ ذكرنا ذلك له فقال: «أبدلا مكانه» رواه أحمد من طريق سفيان بن حسين عن عروة عن عائشة والترمذي من طريق جعفر بن برقان عن عروة عنها

بلفظ قالت كنتُ وحفصة صائمتين فعرض لنا طعام اشتهيناه فأكلنا منه فجاء رسول الله ﷺ فبدرتني إليه حفصة فقالت يا رسول الله إنا كنا صائمتين فعرض طعام اشتهيناه فأكلنا منه قال «اقضيا يوماً آخر مكانه»[1] وكذا أخرج أبو دواد النسائي عن زميل عن عروة عنها وأعله البخاري بأنه لا يعرف لزميل سماع من عروة ولا ليزيد سماع من زميل، وقال الترمذي روى هذا الحديث صالح بن أبي الأخضر ومحمد بن علي بن أبي حفصة عن الزهري عن عروة عن عائشة، وروى مالك بن أنس ومعمر وعبيد الله بن عمرو وزياد بن سعد وغير واحد من الحفاظ عن الزهري عن عائشة مرسلاً ولم يذكروا فيه عروة وهذا أصح لأنه روي عن ابن جريج قال سألتُ الزهري أحدَّثك عروة عن عائشة قال لم أسمع من عروة في هذا شيئاً ولكن سمعنا في خلافة سليمان بن عبد الملك من ناس عن بعض من سأل عائشة عن هذا الحديث انتهى.

قال ابن همام قول البخاري مبني على اشتراط العلم بذلك والمختار الاكتفاء بالعلم بالمعاصرة ولو سلم إعلاله وإعلال الترمذي فهو قاصر على هذا الطريق فإنما يلزم لو لم يكن طريق آخر لكن رواه ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة قالت أصبحتُ أنا وحفصة صائمتين متطوعتين الحديث، ورواه ابن أبي شيبة من طريق آخر غيرهما عن خصيف عن سعيد بن جبير أن عائشة وحفصة الحديث ورواه الطبراني في معجمه من حديث خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أن عائشة وحفصة كانتا صائمتين الحديث، ورواه البزار من طريق آخر عن الحماد بن وليد عن عبيد الله بن عمر وعن نافع عن ابن عمر قال أصبحت عائشة وحفصة صائمتين الحديث، لكن الحماد بن الوليد ضعيف وأخرج الطبراني من غير الكل في الأوسط حدثنا موسى بن هارون حدثنا محمد بن مهرن الجمال قال ذكره محمد بن أبي سلمة المكي عن محمد بن عمروية عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال أهديت لعائشة وحفصة هدية وهما صائمتان فأكلتا منها فذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اقضيا يوماً مكانه ولا تعودا» قال ابن همام فثبت هذا الحدث ثبوتاً لا مرد له ولو كان كل طريق من هذه الطرق ضعيفاً لتعددها وكثرة مجيئها كيف وبعض طرقه مما يحتج به، قلتُ: والمرسل عندنا حجة وما قال ابن الجوزي إن الأمر بالإبدال يوماً مكانه محمول على الاستحباب خروج عن مقتضاه بغير موجب بل

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في إيجاب القضاء عليه (٧٢٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصوم، باب: من رأى عليه القضاء (٢٤٥٥).

هو محفوف مما يجب مقتضاه ويؤكده وهو قوله تعالى: ﴿لا تبطلوا أعمالكم﴾ فإن الآية تدل على منع الإفطار بعد الشروع ولا دلالة فيها على وجوب القضاء والحديث يدل على جواز الإفطار مع وجوب القضاء، قلنا دلالة الآية على منع الإفطار دلالة على وجوب القضاء فإن منع الإبطال عبارة عن وجوب الإتمام ووجوب الشيء يقتضي وجوب قضائه بالمثل المعقول عند الفوات إن كان له مثل وليس في الحديث دلالة على جواز الإفطار بل على وجوب القضاء فقط ووجوب القضاء يترتب على وجوب الإتمام وحرمة الإفطار وقوله ﷺ «لا تعودا» صريح في حرمة الإفطار وهذا هو ظاهر الرواية عن أبي حنيفة رحمه الله.

وفي الباب أحاديث أخر منها ما رواه الدارقطني عن طلحة بن يحيى عن عمته عائشة عن عائشة أم المؤمنين قالت دخل علينا رسول الله ﷺ فقال إني أريد الصوم وأهدي له حيس فقال: «إني آكل وأصوم يوماً مكانه»، قال الدارقطني لم يرد هذا اللفظ عن ابن عيينة غير محمد بن عمرو أبو العباس الباهلي ولم يتابع على قوله وأصوم يوماً مكانه ولعله شبه عليه، قال الحافظ لكن رواه النسائي عن محمد بن منصور عن ابن عيينة وكذا رواه الشافعي عن ابن عيينة وذكر أن ابن عيينة زادها قبل موته بسنة انتهى، قال الحافظ ابن حجر ابن عيينة كان في الآخر قد تغيّر ومنها. ما رواه الدارقطني بسنده عن محمد بن أبي حميد عن إبراهيم بن عبيد قال صنع أبو سعيد الخدري طعاماً فدعا النبيّ ﷺ وأصحابه فقال رجل من القوم إني صائم فقال رسول الله ﷺ «صنع لك أخوك أفطر وصم يوماً مكانه» قال الدارقطني هذا مرسل وقال ابن الجوزي محمد بن أبي حميد ليس بشيء وقال النسائي ليس بثقة وقال ابن حبان لا يحتج به. ومنها ما رواه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال صنع رجل من أصحاب رسول الله ﷺ طعاماً فدعا النبيّ ﷺ وأصحابه فلمّا أتى الطعام تنحى أحدهم فقال له النبيّ ﷺ «تكلف لك أخوك وصنع ثم تقول إني صائم كل وصم يوماً مكانه» فيه عمر بن حليف قال ابن عدي كان متهماً بوضع الحديث وكذا قال ابن حبان، ومنها ما رواه الدارقطني من حديث ثوبان قال كان رسول الله ﷺ صائماً في غير رمضان فأصابه غم أذاه فتقيأ فقاء فدعا بوضوء فتوضأ ثم أفطر فقلتُ يا رسول الله أفريضة الوضوء من القيء؟ قال لو كان فريضة لوجدته في القرآن، قال ثم صام الغد فسمعتُه يقول: «هذا مكان إفطاري أمس» فيه عتبة بن السكن قال الدارقطني متروك الحديث، ومنها ما رواه الدارقطني بسنده عن محمد بن أبي حميد عن الضحاك بن حمزة عن منصور عن أم سلمة أنها صامت يوماً تطوعاً فأفطرت فأمرها رسول الله ﷺ أن تقضي

يوماً مكانه، قال يحيى الضحاك ليس بشيء وقال أبو زرعة محمد بن حميد كذاب.

احتج الشافعي وأحمد بأحاديث الأول: حديث جويرية أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال لها أصمتِ أمس؟ قالت لا، قال «أتصومين غداً؟ قالت لا، قال: فأفطري»[١] رواه البخاري، وروى أحمد عن أبي عمر أن رسول الله ﷺ دخل على جويرية فذكر الحديث نحوه. الثاني حديث عائشة أن النبيّ ﷺ كان يأتيها فيقول أصبح عندكم شيء تطعمونيه؟ فنقول لا ما أصبح عندنا شيء فيقول إني صائم ثم جاءها بعد ذلك فقالت أهديت لنا هدية فخبأنا لك فقال ما هي؟ قالت حيس، قال: «قد أصبحتُ صائماً» فأكل[٢] رواه مسلم، ورواه الدارقطني والبيهقي بلفظ أنه دخل عليها فقال هل عندكم شيء؟ قلتُ لا، قال فإني إذاً صائم، قالت ودخل عليَّ يوماً آخر فقال أعندكم شيء» قلتُ نعم، قال: «إذن أفطر وإن كنتُ قد فرضتُ الصوم» الثالث حديث أم سليم أن النبيّ ﷺ كان يصبح صائماً؟ فيقول: بلى ولكن لا بأس أن أفطر ما لم يكن نذراً أو قضاء رمضان» رواه الدارقطني وفي سنده محمد بن عبيد الله العَرزمي ضعيف، الرابع حديث أبي جحيفة قال أخى النبيّ ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مبتذلة فقال لها ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا فجاء أبو الدرداء وصنع له طعاماً فقال كل فقال إني صائم، فقال أما إني لا آكل حتى تأكل فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال نم فنام ثم ذهب يقوم قال نم فلما كان آخر الليل قال سلمان قم الآن، فصليا فقال له سلمان إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه فأتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك فقال النبيّ ﷺ «صدق سلمان» قلتُ هذه الأحاديث لا تدل إلا على جواز الإفطار للصائم وأما على عدم وجوب القضاء فلا وحديث جويرية إنما يدل على كراهة الإفراد بصوم الجمعة كما ورد في حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «لا تصوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم»[٣] متفق عليه، وفي لفظ نهى رسول الله ﷺ أن يفرد يوم الجمعة بصوم رواه مسلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: صوم يوم الجمعة (١٩٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال وجواز فطر الصائم نفلاً من غير عذر (١١٥٤).

(٣) في الصحيحين «لا يصومن أحدكم يوم الجعة إلا يوماً قبله أو بعده» أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: صوم يوم الجمعة (١٩٨٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: كراهة صيام يوم الجمعة منفرداً (١١٤٤).

وللشافعي أحاديث أخر ضعاف: منها حديث أم هانيء وله طرق وألفاظ منها ماروواه النسائي من حديث حماد بن سلمة عن سماك بن حرب عن هارون بن أم هانيء عنها أن رسول الله ﷺ شرب شراباً فناولها لتشرب فقالت: إني صائمة لكن كرهتُ أن أرد سؤرك، فقال إن كان قضاء من رمضان فاقضي يوماً مكانه وإن كان تطوعاً فإن شئتِ تقضي وإن شئت فلا تقضي، وروى أحمد والترمذي وغيرهما من طرق عن سماك عن هارون عنها بلفظ كنتُ قاعدة عند رسول الله ﷺ فأتى بشراب فشرب منه ثم ناولني فشربتُ منه فقلتُ أذنبتُ قال ماذاك؟ قلتُ كنتُ صائمة فأفطرت، قال أمن قضاء كنتِ تقضيه؟ قلتُ لا، قال فلا تضرك، وسماك بن حرب ليس بمعتمد عليه إذا انفرد كذا قال النسائي وقال البيهقي في إسناده مقال وقال ابن القطان هارون مجهول لا يعرف، قلتُ: وهارون قيل ابن أم هانيء وقيل ابن ابنه وقيل ابن بنته ولفظ أحمد والترمذي لا يدل على عدم وجوب القضاء، وروى أبو داود والدارمي وغيرهما من حديث جرير عن يزيد بن زياد عن عبد الله بن الحارث عن أم هانيء قالت لما كان يوم الفتح فتح مكة جاءت فاطمة فجلست عن يسار رسول الله ﷺ وأم هانيء عن يمينه، قالت فجاءت وليدة بإناء فيه شراب فناولته فشربتُ منه فقالتُ يا رسول الله ﷺ أفطرتُ وكنتُ صائمة، فقال لها أكنتِ تقضين شيئاً؟ قالت لا، قال: «لا يضركِ إن كان تطوعاً» ورواه أحمد ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن حجة عن أم هانيء وهي جدته أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم الفتح فأتى بإناء فشرب ثم ناولني فقلتُ: إني صائمة فقال: «إن المتطوع أمير نفسه فإن شئتِ فصومي وإن شئتِ فأفطري» ورواه من حديث أبي داود الطيالسي ثنا شعبة عن جعدة عن أبي صالح عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها فشرب ثم ناولها فشربت وقالت يا رسول الله إني كنتُ صائمة فقال رسول الله ﷺ «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر» قال الذهبي جعدة عن أبي صالح لا يعرف وقال البخاري فيه نظر وذكر يوم الفتح علة أخرى للقدح في الحديث إذ لا شك أن يوم الفتح كان في رمضان فكيف يتصور قضاء رمضان في رمضان ولا التطوع فيه.

واختار ابن همام رواية المنتقى عن أبي حنيفة فقال يجوز للمتطوع في الصوم الإفطار بلا عذر لما احتج به الشافعي ويجب عليه القضاء بالإفساد لما احتج به أبو حنيفة جمعاً بين الأحاديث، وقال المراد بالإبطال في قوله تعالى ﴿لا تبطلوا أعمالكم﴾ إخراجها من أن يترتب عليه فائدة وجعلها كأنها لم توجد أصلاً وأما الإبطال بقصد القضاء فلا دلالة للآية على منعه، قلتُ المصدر في قوله تعالى لا تبطلوا منكر تحت النفي فيشتمل

كل إبطال ومن أفسد صلاته أو صومه بعد الشروع فلا شك أنه أبطل هذا العمل وأما القضاء فعمل آخر تدارك لهذا العمل فلا يجوز الإبطال بلا عذر بهذه الآية والأحاديث وإن دلت على جواز الإفطار لكن عند التعارض يجب تقديم الآية على أحاديث الآحاد لاسيما الآية محرمة والأحاديث مبيحة للفطر فيجب تقديم المحرم على المبيح احتياطاً، ولنا أيضاً القياس على الحج والعمرة النافلتين فإنه لا يجوز إفسادهما ويجب فيهما القضاء بالإفساد إجماعاً والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ هـذه الجملة متصلة بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية فيما سبق قبل هذه الآية نزلت في أصحاب القليب وحكمه عام في كل من مات على كفره.

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة بكسر السين والباقون بفتحها وتدعوا مجزوم بتقدير لا أي لا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء أو منصوب بتقدير أن في جواب لا تهنوا نهى الله سبحانه عن طلب الصلح ابتداءً لأنه دليل الجبن والضعف ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي الغالبون القاهرون بنصر الله تعالى الموعود للمؤمنين الصالحين حال من فاعل تدعوا ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معية بلا كيف فإن الإيمان يقتضي حب الله والمرء مع من أحب والواو للعطف فهو حال من فاعل تدعوا أو للحال من فاعل أعلون وكذا قوله ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم من وتره يتره إذا نقص حقه، قال ابن عباس ومقاتل وقتادة والضحاك لن يظلمكم أعمالكم الصالحة أي لا يبطلها.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي باطل لا يترتب عليها فائدة معتدة بها ما لم يكن فيها ذكر الله قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله» ﴿وَلَهْوٌ﴾ يشغلكم عمَّا يفيدكم في الحياة الدائمة ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ بالله ورسوله في الدنيا ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ عذاب الله بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم في الآخرة فحينئذ تكون حياتكم الدنيا مزرعة الآخرة ولا يكون لعباً ولهواً ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ فإنه غير محتاج إلى شيء إنما يأمركم بالطاعة والإيمان ليثيبكم عليها الجنة نظيره قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾[1] وقيل معناه لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها في الصدقات

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٧.

إنما يسألكم جزءاً يسيراً وهو ربع العشر أو أقل كشاة من مائة وعشرين شاة من نماء مال فطيبوا بها نفساً، وإلى هذا القول ذهب ابن عيينة ويدل عليه سياق الآية فهذه الجملة لدفع توهم نشأ ممّا ذكر من ذم الحياة الدنيا ومدح الإيمان والتقوى فإنه يوهم أن الله تعالى يأمر بصرف جميع متاع الدنيا في سبيل اللهولدفع ذلك الوهم قال ولا يسألكم أموالكم أي جميعها، ثم ذكر في مقام تعليل عدم السؤال بالكل قوله ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي جميعاً ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي يجهدكم بطلب الكل والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في الحديث «أحفوا الشوارب»[(١)] أي استأصلوها في القطع عطف على الشرط ﴿تَبْخَلُوا﴾ بها فلا تعطوها جزاء للشرط ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي يظهر بغضكم والضمير في يخرج لله تعالى ويؤيده القراءة بالنون أو للبخل فأنه سبب الأضغان، قال قتادة علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان.

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ ها حرف تنبيه وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره وهؤلاء منادى بحذف حرف النداء وخبر المبتدأ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أو هؤلاء اسم موصول وتدعون صلته والموصول مع الصلة خير لأنتم ﴿لِتُنفِقُوا﴾ ما فرض الله عليكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون بما فرض الله عليهم من الزكاة وغيرها ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإن نفع الإنفاق وضرر البخل إنما يعودان إليه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله ما منّا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»[(٢)] رواه البخاري والنسائي، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللّهم أعط ممسكاً تلفاً»[(٣)] متفق عليه، وعن أسماء قالت قال رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك ولا توعي فيوعي الله عليك فارضحي ما استطعت»[(٤)] متفق عليه، وعن أبي هريرة

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة (٢٥٩).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما قدم من ماله فهو له (٦٤٤٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الوصايا، باب: الكراهية في تأخير الوصية (٣٦٠٥).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾ (١٤٤٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: في المنفق والممسك (١٠١٠).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة فيما استطاع (١٤٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث في الإنفاق وكراهة الإحصاء (١٠٢٩).

قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى أنفق يا ابن آدم أنفقْ عليك»[١] متفقه عليه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن صدقاتكم وطاعاتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ فإنما أمركم بما أمركم لاحتياجكم في الدنيا والآخرة، جملة والله الغني وأنتم الفقراء في مقام التعليل للحصر في قوله إِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نفسه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ أي إن تعرضوا أيها العرب عن طاعة الله وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله عطف على إن تؤمنوا ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ أي يقيم مقامكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ليؤمنوا ويتقوا ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ بل يكونوا أطوع لله منكم، قال الكلبي هي كندة والنخع، وقال الحسن هي العجم، وقال عكرمة فارس والروم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب على فخذ سلمان الفارسي ثم قال: «هذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من فارس»[٢] رواه البغوي ورواه الترمذي والحاكم وصححاه وابن حبان. والحمد لله رب العالمين وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النفقات، باب: فضل النفقة على الأهل (٥٣٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة محمد ﷺ (٣٢٦١).

سورة الفتح

مدنيّة وهي تسع وعشرون آية وأربع ركوعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي
قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ، فقلت ثكلتك أمك يا عمر نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن يكون نزل في القرآن فيما لبثت أن سمعت صراخاً يصرخ بي فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[1] وأخرج الحاكم وغيره من المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، قال نزلت سورة الفتح في شأن الحديبية بين مكة والمدينة من أولها إلى آخرها. واختلفوا في

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية (٣٩٤٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الفتح (٣٣٨٢).

هذا الفتح؟

روي عن أبي جعفر الرازي عن قتادة عن أنس أنه فتح مكة فهي عدة بالفتح جيء بلفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزل الكائنة ففيه معجزة والصحيح أنه صلح الحديبية، رواه أحمد وابن سعد وأبي داود والحاكم وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجمع بن حارثة الأنصاري قال شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ فلما انصرفنا عنها إلى كراع المغميم فإذا رسول الله ﷺ عند كراع الغميم فاجتمع الناس إليه فقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أو فتح هو؟

قال: «والذي نفسه بيده إنه لفتح مبين»(١) وسنذكر قول أبي بكر الصديق ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية وكذا ذكر البغوي عن البراء. ووجه تسميته فتحاً إما أنه مقدمة الفتح وإما أن معنى الفتح فتح المنغلق وذلك ما يصلح مع المشاركين بالحديبية وقيل الفتح بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل، قال الشعبي فتح الحديبية فيه غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأطعموا نخلة خيبر وبلغ الهدي محله وظهرت الروم أي من عام قابل على فارس وخرج المؤمنون لظهور أهل الكتاب على المجوس، قال الزهري لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام، قال الضحاك فتحاً مبيناً بغير قتال وكان الصلح من الفتح، وقال البيضاوي سماه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح وتسبب بفتح مكة وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فقرأهم وفتح مواضع وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ علة غائية للفتح من حيث أنه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في دحرو إزاحة الشرك وإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدريج إختيار أو تخليص الضعفة عن أيدي الظلمة، وقيل اللام لام كي أي لكم يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة والفتح، وقال حسين بن الفضل اللام متعلق بقوله تعالى في سورة محمد ﷺ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(٢) كما قيل كذلك في تعلق ﴿لا يلاف قريش﴾ بقوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ في سورة الفيل وهذا بعيد جداً، وقيل اللام متعلق بمحذوف تقديره فاشكر ليغفر لك الله أو فاستغفر ليغفر لك الله كذا قال محمد ابن جرير

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: فيمن أسهم له سهماً (٢٧٣٤).

(٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

حيث قال هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ أي قوله ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾[١] ليغفر لك الله ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك قديماً في الجاهلية قبل الرسالة وحديثاً، بعد الرسالة أي نزول السورة مما يصح أن يعاتب عليه وهذا لا يستلزم إرتكاب المعصية قال حسنات الأبرار سيأت المقربين، وقال سفيان الثوري ما تقدم يعني ما علمت في الجاهلية وما تأخر كل شيء لم يعمله يذكر مثل ذلك على طريق التأكيد كما يقال أعط لمن رآه ومن لم يره وضرب من لقيه ومن لم يلق، وقال عطاء الخراساني ما تقدم من ذنبك يعني ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك وما تأخر ذنوب أمتك بدعوتك ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ وعد بإتمام النعمة وإكمال الدين وإظهار كلمة الإسلام وهدم منارها يتم بحيث محجو أو يقهروا مطمئنين لا يخالطهم أحد من المشركين الذي ذكر إنجازها في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[٢] وتمام النعمة هذه مسبب للفتح فتح مكة وصلح الحديبية. ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الملك والنبوة والرياسة، قيل معنى يهديك يهدي بك وقيل معنى يهديك يثبتك عليه أو المعز ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية إلى كمال الدين بحيث لا يجوز نسخه بعد ذلك.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ فإن قيل ينصرك الله معطوف على يغفر وهو مترتب على الفتح، إما لكونه مسبباً عن جهاد الكفار وبذل السعي، وإما لكونه سبباً للشكر والإستغفار؟ المقدرين فلا بد أن يكون النصر أيضاً مترتباً على الفتح وليس كذلك بل هو سبب للفتح سابق عليه قلنا: إن كان المراد بالفتح صلح الحديبية فالصلح إمتثالاً لأمر الله تعالى سبب للنصر الذي هو سبب للفتح وإن كان المراد منه فتح مكة فالآية وعد بالفتح والوعد سبب للنصر السابق على الفتح كما لا يخفى.

﴿نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ يعني معزاً يعزيه المنصور فوصفه مبالغة أو المعنى نصراً فيه عزو منيعة. روى الشيخان في الصحيحين والترمذي والحاكم عن أنس قال: قال نزلت على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ إلى آخر الآية مرجعه من الحديبية وأصحابه فخالطوا الحزن والكآبة، فقال عليه السلام، نزلت عليَّ آية هي أحبّ إليّ من الدينا فلما تلى نبيّ الله ﷺ قال رجل من القوم هنيئاً مرياً رسول الله قد بين الله لك ماذا يفعل بنا

(١) سورة النصر، الآية: ٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

فنزلت ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ إلى قوله (فوزاً عظيماً)[١] والمراد بالسكينة الثبات والطمأنية على امتثال أمر الله تعالى من صلح الحديبية ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى يثبتوا حيث تعلق النفوس وتدحض الأقدام حين جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ متعلق بأنزل، قال الضحاكم يقيناً مع يقينهم يعني برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، وقال الكلبي هذا في أمر الحديبية حين صدق الله رسوله الرويا بالحق، قال ابن عباس بعث الله رسوله بشهادة أن لا إلٰه إلا الله فلما صدقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الجهاد ثم أكمل لهم دينهم فكلما أمروا بشيء فصدقوه إزدادوا تصديقاً إلى تصديقهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني لبس الأمر بالصلح بالحديبية لضعف بالمسلمين بل لما يقتضيه علمه تعالى وحكمته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ مع ما عطف عليه من قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ أو بدل اشتمال من قوله ليزدادوا أو معطوف عيه بحذف العاطف متعلق بقوله تعالى: أنزل أو بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا﴾ وجملة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ معترضة بينهما، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع أو دفع ضرر وعند الله حال من الفوز والجملة معترضة ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ عطف على يدخل داخل في علة إنزال السكينة من حيث أن المنافقين والكفار غاظوا المؤمنين وطعنوا في دينهم حين امتثلوا أمر الله سبحانه في الصلح وغير ذلك وظنوا ظن السوء وكان ذلك سبباً لتعذيبهم وأن كان قوله ليدخل متعلقاً بفتحنا فالأمر ظاهر. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني ظانين أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين ولا يرجع النبي عليه السلام إلى المدينة سالماً أو أن له تعالى شريكاً فالمفعولان محذوفان، وقوله ظن السوء أي ظن الأمر السوء منصوب على المصدرية والسوء عبارة عن رداةِ الشيء وفساده يقال فعل سوء أي مسخوط فاسد ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ جملة دعائية يعني يجعل الله عليهم دائرة الهلاك والعذاب لا يتخطاهم أو دائرة ما يظنون ويتربصون بالمؤمنين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السوء بالضم وهما لغتان غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدران، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطف لما استحقوه في الآخرة عليها إستوجبوه في الدنيا ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم

(١) سورة الفتح، الآية: ٥.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فيدفع كيد من عادى بنبيه والمؤمنين بما شاء منه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً فلا يرد بأسه عن الكافرين ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبَّر ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿شَٰهِدًا﴾ على أمتك حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمطيعين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعصاة بالنار ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة وكذا الأفعال الثلاثة المعطوفة عليه والضمير عائدة إلى الناس أجمعين وقرأ الباقون الأفعال الأربعة بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ والأمة والخطاب بالجمع بعد الخطاب بالإفراد شبه بالإلتفات ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعدوه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي تنزهوه عما لا يليق بشأنه أو اتصلوا له، والضمائر المنصوبة راجعة إلى الله سبحانه ومعنى تقووه دينه ورسوله قلتُ جاز أن يكون معناه أن تنسبوا القوة إليه دون غيره وتقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله، وقال البغوي ضمير تعزروه وتوقروه راجعان إلى رسوله وضمير تسبحوا إلى الله تعالى واستبعده الزمخشري لكونه مستلزماً لانتشار الضمائر، قلنا لا بأس به عند قيام القرينة وعدم اللبس ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ منصوبان على الظرفية لتسبحوه يعني تصلوا غدواً وعشياً أو تنزهوه دائماً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا بل يقاتلوا حتى يظفروا أو يموتوا ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنه هو المقصود ببيعة النبيّ ﷺ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ حال أو استئناف على سبيل الاستعارة التخييلية يتمم المعنى المشاكلة فإنه إذا كان الله مبايعاً واشتهر المبايعة بصفقة اليدُ قد كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه فتخيل اليد لتأكيد المشاكلة في المبايعة، وقال ابن عباس يد الله بالوفاء لما وعدهم بالخير فوق أيديهم،

قلت يد الله نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة فضله غزوة الحديبية وبيعة الرضوان وسبب ذلك على ما رواه عبد بن حميدُ ابن جرير عن مجاهد وقتادة والبيهقي عن مجاهد أيضاً وابن جرير عن ابن يزيد ومحمد بن عمرو عن شيوخه قالوا رأى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين وأنه دخل البيت وأخذ فتاحه وعرف مع المعرفين وكان ذلك الرؤيا بالمدينة قبل خروجه إلى الحديبية كذا قال البغوي ومحمد بن يوسف الصنائجي في سبيل الرشاد، وفي بعض الروايات عن مجاهد أنه رأى النبيّ ﷺ وهو بالحديبية والصحيح هو الأول، قال ابن سعد ومحمد بن عمرو غيرهما إستنفر رسول الله ﷺ العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فابطأ عليه كثير من الأعراب، وروى أحمد والبخاري وعبد بن حميد وأبو داوود والنسائي وغيرهم عن الزهري وابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ دخل بيته فاغتسل ولبس ثوبين من نسج صحا وركب ناقته القصوٰى من عند بابه وخرج بأم سلمة معه وأم منيع أسماء بنت عمرو وأم عمارة الأشهلية، وخرج معه الهاجرون والأنصار ومن لحق به من العرب لا يشكون بالفتح للرؤيا المذكورة وليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب وساق الهدي فسار رسول الله ﷺ يوم الإثنين لهلال ذي القعدة يعني سنة ست حتى نزل ذا الحليفة فصلّى الظهر ثم دعا بالبُدن وهي سبعون فجللت ثم أشعر منها عدة وهن موجهات إلى القبلة في الشق الأيمن ثم أمر ناجية بن جندب فأشعر وأبقى وقلدهن نعلاً نعلاً وأشعر المسلمون بدُنهم وقلدوها وكان معهم مائتا فرس، وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سفيان عينا له وقدم عباد بن بشير طليعة في عشرين فارساً ويقال جعل أميرهم سعد بن زيد الأشهلي ثم صلّى ركعتين وركب من باب المسجد بذي الحليفة فلما انبعث راحلة مستقبلة القبلة أحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً بهذا البيت.

ولبى لبيك الحج فأحرم غالب أصحابه وأم المؤمنين أم سلمة بإحرامه ومنهم من لم يحرم إلا بالجحفة وسلك طريق البيداء ومر فيما بين مكة والمدينة بالأعراب من بني بكر ومزينة وجهينة فاستنفرهم فتشاغلوا بأموالهم وقالوا فيما بينهم يريد محمد يغزوا بنا إلى قوم معد من الكراع والسلاح وإنما محمد وأصحابه أكلة جزور لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً، قوة سلاح معهم ولا عدو ثم قدم رسول الله ﷺ ناجية بن جندب مع فتيان من أسلم ومعهم هدايا المسلمين، ووقع في تلك المسير ما صاد قتادة حمار الوحش

وكان غير محرم وما أهدى رسول الله ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء وقد مر حديثه في سورة المائدة ولما بلغ رسول الله ﷺ الجحفة أمر بشجرة فقم ما تحتها فخطب الناس، فقال: «إني كائن لكم فرطاً وقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وسنة نبيه» ولما أبلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إجتمعوا وتشاوروا يريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده ومعتمراً فتستمع العرب أنه دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا ثم قدموا خالد بن الوليد على مائتي فارس إلى كراع الغميم واستنفر من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم وخرجوا إلى بلدج وضرب بها القباب والأبنية ومعهم النساء والصبيان فعسكروا هنا وأجمعوا على منع رسول الله ﷺ من دخول مكة ومحاربته ووضعوا العيون على الجبال وهم عشر أنفس يوحي بعضهم إلى بعض بالصوت فعل محمد كذا وكذا حتى ينتهي إلى قريش بلده، ورجع بشر بن سفيان الذي بعثه رسول الله ﷺ عيناً له من مكة فلقي رسول الله ﷺ بغدير الأشطاط وراء عسفان فقال يا رسول الله هذه قريش سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم عوذ المطافيل قد لبسوا جلد النحور وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا يدخلها عليم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموها إلى كراع الغميم فقال رسول الله ﷺ يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا أن أظهر لي الله تعالى عليهم دخلوا وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وفيهم قوة فما تظن قريش فواللّه لا زال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة، ثم قام رسول الله ﷺ في المسلمين محمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد يا معشر المسلمين أشيروا علي أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عانوهم فنصيبهم فإن قعدوا موتورين وإن أبونا تكن عنقاً قد قطعه الله يعني أهلك الله جماعة منهم أم ترون أنا نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال أبو بكر يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حرباً فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ووافقه على ذلك أسيد بن خضير، وروى ابن أبي شيبة أن المقداد بن الأسود قال بعد كلام أبي بكر والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيه ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فقال رسول الله ﷺ فسيروا على اسم الله دونا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فصف خيله فيما بين رسول الله ﷺ وبين القبلة فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر فتقدم في خيله فقام بإزائه فصف أصحابه وحانت صلاة الظهر فأذن بلال، وأقام فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه فقال خالد بن الوليد قد كانوا على غرة

لو حملنا عليهم أصبنا منهم ولكن يأتي الساعة صلاة الأخرى هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم فنزل جبرئيل عليه السلام بين الظهر والعصر بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم﴾ الآية فحانت صلاة العصر فصلّى رسول الله ﷺ الخوف وقد مر شرحها في سورة النساء، روى البزار بسند رجاله ثقات عن أبي سعيد الخدري ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا لما أمسى رسول الله ﷺ قال أسلكوا ذات اليمين بين ظهور الحمض فإن خالد بن وليد في الغميم في خيل بقريش طليعة كره رسول الله ﷺ أن يلقاه وكان بهم رحيماً قال أيكم يعرف ثنية ذات الحنظل فقال بريدة بن الحصيب أنا، وروى مسلم عن جابر وأبو نعيم عن أبي سعيد قال أبو سعيد خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان سرنا في آخر الليل حتى أقبلنا على عقبة ذات الحنظل قال رسول الله ﷺ مثل هذه الثنية الليلة كمثل باب الذي قال الله تعالى لبني إسرائيل ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ لا يجوز هذه الثنية الليلة أحدا إلا غفر له، قالوا يا رسول الله نخشى أن ترى قريش نيراننا، فقال لن يروكم فلما أصبحنا صلّى بنا صلاة الصبح، ثم قال والذي نفسي بيده لقد غفر الراكب أجمعين إلا رديلباً واحداً على جمل أحمر فإذا هو رجل من بني ضمرة، قال جابر قلنا له تعال نستغفر لك رسول الله ﷺ فقال والله لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم فبينا هو في حيال سراوع إذ زلقت به بغله فتردى فمات فما علم حتى أكلته السباع، قال مسور بن مخرمة ومروان فلما دنا رسول الله ﷺ من الحديبية وقعت يد راحلته فقال الناس حل حل فأبت أن تبعث وألحت فقال المسلمون خلأت القصوى فقال رسول الله ﷺ ما خلأت القصوى وما ذاك لها بعادة ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، ثم قال والذي نفس محمد بيده لا يسألون قريش اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيهم إياهم ثم زجرها فوثبت قال فعدل عنهم حتى نزل أقصى الحديبية على ثمد من ثماد الحديبية ظنون قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء فانتزع سهما من كنانة فأمر به فغرز في الثمد بالرواء حتى صدروا بعطن، قال المسور فإنهم لقترفون بآنيتهم جلوساً على شفير البئر والذي نزل بالسهم ناحية بن جندب سابق بُدن رسول الله ﷺ. قال محمد بن عمر حدثني الهيثم عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه قال حدثني أربعة عشر رجلاً من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ أنه ناجية بن عجم وكان ناجية بقول دعاني رسول الله ﷺ حتى شكى إليه قلة الماء، فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إليهُ وعابد لو من اء البيء فجئته به فتوضأ فمضمض فاه ثم مج في الدلو والناس في حر

شديد وإنما هي بئر واحدة قد سبق المشركون إلى بلد ح فغلبوا على مياهه فقال أنزل الدلو فصبها في البئر وأثرها بالسهم ففعلت فوالذي بعثه بالحق ما كدت أخرج حتى تغمدني وفارت كما تفور القدر حتى طمث واستوت بشفيرها يغترفون من جانبها، وروى أحمد والبخاري وغيرهما عن البراء ومسلم عن سلمة بن أكوع وأبو نعيم عن ابن عباس والبيهقي عن عروة نحوها قصة صب الدلو وليس فيه ذكر السهم، وروى البخاري عن جابر ومسلم عن سلمة بن الأكوع قال «عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة قالوا يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا في ركوتك فأفرغنا في قدح وضع رسول الله ﷺ يديه في القدح فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا، قيل لجابركم كنتم يومئذ؟ فقال لو كنا مائة ألف كفاناكنا خمس عشر مائة. ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية جاء بديل بن ورقاء وأسلم بعد ذلك في رجال من خزاعة منهم عمرو بن سالم وحراس بن امية وخارجة بن كوز ويزيد بن أمية وكانت عيبة نصح رسول الله ﷺ بتمامه منهم المسلم ومنهم الوداع لا يخفون عنه بتمامه شيئاً فلما قدموا سلموا عليه، فقال بديل بن ورقاء جئناك من عند قومك كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعوهم قد نزلوا عداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل النساء والصبيان يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت، فقال رسول الله ﷺ إنا ما جئنا لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت فمن صدنا عنه قاتلنا وإن قريشاً قد أضرب بهم الحرب نهكتهم فإن شاؤا ماددناهم مدة يأمنون فيها ويخلون فيما بيننا وبين الناس والناس أكثر منهم فإن أصابوني فذلك الذي أرادوا وإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما يدخل فيه الناس أو يقاتلوا وقد جموا وإن هم أبو فوالله لأجهدن على أمري هذا حتى تنفرد سالفة أو لينفذنّ الله أمره قال بديل سأبلغهم ما تقول، فأتى قريشاً، وقال إنا قد جئنا من عند محمد نخبركم عنه، قال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاصُ أسلما بعد ذلك ما لنا حاجة أن تخبرنا عنه ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها عامه هذا أبداً حتى لا يبقى رجل وأشار عليهم عروة بن مسعود الثقفي بعد ذلك بأن يسمعوا كلام بديل فإن أعجبهم قبلوه وإلا تركوه، فقال صفوان بن أمية والحارث بن هشام وأسلما بعد ذلك هات ما سمعته فحدثه بما قال النبي ﷺ، فقال عروة بن مسعود الثقفي أي قوم ألستم بالولد؟ قالوا بلى، قال ألست بالوالد قالوا بلى، وكان عروة لسبعة بيت عبد الشمس القرشية قال فهل تتهموني قالوا لا، قال ألستم تعلمون إني استنفرت أهل عكاظ فلما يلجوا على جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني قالوا بلى قال فان هذا الرجل قد عرض

عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني فأتاه فجعل النبي ﷺ يكلم نحوا من قوله لبديل، فقال عروة يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب إجتاح أصله قبلك وإن يكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها أو باشا من الناس وفي رواية اشوايا من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر الصديق امصص بظر اللات أنحن نفر منه وندعه قال من ذا؟ قالوا أبو بكر، فقال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أخبرك به لأجبتك، وكان عروة قد استعان في حمل دية فأعانه الرجل بفريضتين والثلث وأعانه أبو بكر بعشر فرائض فكان هذا يد لأبي بكر عند عروة، قال فجعل عروة يكلم النبيّ ﷺ فلما كلمه أخذ لحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبيّ ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر كلما أهوى عروة يده إلى لحية النبيّ ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه فرفع عروة رأسه فقال من هذا؟ قالوا المغيرة بن شعبة، فقال يا عد والله ما غسلت عنك عذرتك بعكاظ إلا أمس لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر، وكان مغيرة صحبت قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبيّ ﷺ أما الإسلام فاقبل وأما المال فلست منه في شيء، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبيّ ﷺ بعينيه فوالله ما تخم رسول الله ﷺ فخامة إلا رفع في كف رجل منهم فدلك بها وجههُ جلده وإذا أمر ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحادون النظر إليه تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي القوم والله لقد وفدت على الملوك وفدت على قيصر وكسرىٰ والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط تعظم أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله ما تفخم فخامة إلا وقعت في كف رجل منهم يدلك بها وجههُ وجلده وإذا امرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم اخفضوا اصواتهم عنده وما يحادون النظر إليه تعظيماً له وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقالت، قريش لا ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل فقال ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف فقام الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فأتى رسول الله ﷺ فلما رأى رسول الله ﷺ قال هذا من قوم يعظمون الهدي ويتألهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراها فلما رأى الهدايا يسيل عليها من عرض الوادي في قلائدها قد أكل أوبارها من طول الحبس رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ عظاماً لما رأى فقال يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صد الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طوال الحبس عن محله فقالوا إجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك فغضب الحليس

عند ذلك وقال يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظماً والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو ليفرن الأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص دعوني آته فقالوا آته فلما أشرف عليهم قال النبيّ ﷺ هذا مكرز وهو رجل غادر أو فاجر فلما إنتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه بنحو ما كلم بديلاً وعروة فرجع إلى أصحابه فاخبرهم بما رد عليه رسول الله ﷺ. قال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما بعث النبي ﷺ إلى قريش خراش بن أمية على جمل رسول الله ﷺ يقال له الثعلب ليبلغ عنه أشرافهم بما جاء لهم، فعقر عكرمة بن أبي جهل الجمل وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبر رسول الله ﷺ بما لقي، روى البيهقي عن عروة قال لما نزل رسول الله ﷺ الحديبية فزعت قريش لنزوله فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث رجلاً من أصحابه فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه، إليهم فقال يا رسول الله إني اخاف قريشاً على نفسي قد عرفت قريش عداوتي لها وليس بها من بني عدي من يمنعه ولكني أدلك على رجل أعز بمكة منى وأمنع عثمان بن عفان فدعا عثمان فقال إذهب إلى قريش وأخبرهم إنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عماراً وادعهم إلى الإسلام وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخلهم ويبشرهم بالفتح ويخبر أن الله يظهر دينه بمكة حتى لا يستخف فيها بالإيمان فأنطلق عثمان إلى قريش يمر عليهم ببلدح فقالوا أين تريد؟ قال بعثني رسول الله ﷺ إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله جل ثناؤه وتدخلوا في الدين كافة فإن الله مظهر دينه ومعز نبيّه وأخرى تكفون الذي يلي هذا الأمر غيركم فإن ظفر رسول الله ﷺ فذلك ما أردتم وإن ظفر رسول الله ﷺ كنتم بالخيار بين أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامون إن الحرب وهنتكم وأذهبت الأماثل وأخبر أن رسول الله ﷺ يخبر أنه لم يأت القتال أحد إنما جاء معتمراً معه الهدي عليه القلائد ينحره وينصرف، فقالوا قد سمعنا ما تقول ولا كان هذا ابداً فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا ولقيه أبان بن سعيد وأسلم بعد ذلك فرحب به أبان وأجاره وقال لا تقصر عن حاجتك ثم نزل عن فرس كان عليه فحمل عثمان على السرج وردف وراءه وقال أقبل وأدبر لا تخاف أحداً وبنو سعيد اعزة بالحرم فدخل به مكة فأتى عثمان أشراف قريش رجلاً رجلا فجعلوا يردون عليه أن محمدا لا يدخلها علينا أبداً ودخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين بمكة فقال إن رسول الله ﷺ يقول قد أظلكم حتى لا يستخفى بمكة بالإيمان

ففرحوا بذلك وقال إقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، ولما فرغ عثمان من رسالة قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ وأقام عثمان بمكة ثلاثاً يدعو قريشاً وقال المسلمون وهم بالحديبية خلص عثمان من بيننا إلى البيت فطاف به فقال رسول الله ﷺ لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف وكان رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالحراسة بالليل فكانوا ثلاثة يتناوبون الحراسة أوس بن فربي وعباد بن بشر ومحمد بن مسلمة فكانمحمد بن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ ليلة من الليالي وعثمان بمكة قد كانت قريش بعثت ليلا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص وأمروهم أن يطوفوا بالنبيّ ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم غرة، فأخذهم محمد بن مسلمة فجاء بهم رسول الله ﷺ وظهر قول النبيّ ﷺ أنه رجل غادر وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ وهم كرز بن جابر الفهري وعبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد الشمس وعبد الله بن حذافة السهمي وأبو الروم بن عمير بن عمرو وعمير بن وهب الحجحي وحاطب بن أبي بلتعة وعبد الله بن أمية دخلوا مكة في أمان عثمان، وقيل سراً فعلم بهم فأخذوا وبلغ قريشا حبس أصحابهم الذين أمسكهم محمد بن مسلمة فجاء جمع من قريش إلى النبيّ ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة وأسر المسلمون أيضاً إثني عشر فارساً، وقتل من المسلمين ابن زينم وقد اطلع الثنية من الحديبية فرماه المشركون فقتلوه وبلغ رسول الله ﷺ إن عثمان ومن معه قتلوا دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن سلمة ابن الاكوع والبيهقي عن عروة وابن إسحاق عن الزهري ومحمد بن عمر عن شيوخه قال سلمة بينا نحن قايلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فأخرجوا على اسم الله. في صحيح المسلم عن سلمة قال بايعته أول الناس ثم بايع حتى إذا كان في وسط قال بايع يا سلمة قلت بايعتك قال وأيضاً فبايعته ثم بايع حتى إذا كان أخرج الناس، قال ألا تبايعني يا سلمة قلت يا رسول الله ﷺ بايعتك في أول الناس وفي وسط الناس قال وأيضاً فبايعته الثالثة. وفي صحيح البخاري عنه قيل على أي شيء كنتم تبايعونه قال على الموت، وفي صحيح مسلم عن جابر قال «بايعنا رسول الله ﷺ وعمر أخذ بيده تحت شجرة مثمرة فبايعنا غير جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره»[1] وروى الطبراني ابن عمر والبيهقي عن الشعبي وابن مندة عن زيد بن حبيش قالوا لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة (١٨٥٦).

إنتهى إليه أبو سنان الأسدي فقال إبسط بيدك أبايعك فقال النبيّ ﷺ فبايعني على ما في نفسك زاد ابن عمر قال وما في نفسي قال أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهر الله أو أقتل فبايعه وبايعه الناس على بيعة أبي سنان، روى البيهقي عن أنس وابن إسحاق عن ابن عمر قال لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان رسولُ رسول الله ﷺ إلى أهل مكة فبايع الناس فقال رسول الله ﷺ، إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك فضرب بإحدى يديه على الأخرى فقال هذا يد عثمان وكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم وبعث قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن العزى وأسلما ومكرز بن حفص إلى النبيّ ﷺ، فقال سهيل إن الذي كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأي ذي رأينا كنا له كارهين حتى بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا فأبعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة والذين أسرت آخر مرة والذي ذكر من قتل عثمان ومن معه ظهر أنه كان باطلاً، فقال رسول الله ﷺ إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابه فقالوا انفصتا فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بالشتيهم بن عبد مناف التيمي فبعثوا من كان عندهم وهم عثمان والعشرة معه وأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم الذين أسرهم المسلمون. وفي الصحيحين عن سهيل بن حنيف وعند البخاري وأصحابه السنن عن مروان بن الحكم أن عثمان لما قدم من مكة هوومعه رجع سهيل بن عمر وحويطب ومكرز إلى قريش فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب النبيّ ﷺ إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب إشتد عليهم فقال أهل الرأي منهم ليس خير من أن تصالح محمد على أن ينصرف عنا عامه هذا ولا يخلص من البيت حتى يسمع من يسمع بمسيرة من العرب أنا قد صددناه ويرجع فابلاً فيقم ثلاثاً ينحر هديه وينصرف فأجمعوا على ذلك وقالوا لسهيل أئت محمداً فصالحه وليكن في صلحك أن لا يدخل عامه هذا فوالله لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة، فأتى سهيل رسول الله ﷺ فقال عليه السلام أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا وفي لفظ قال رسول الله ﷺ سهل أمركم وجلس رسول الله ﷺ متربعاًوقام عباد بن بشر وسلمة وأسلم وهما مقنعان في الحديد فبرك سهيل على ركبتيه فكلم رسول الله ﷺ وأطال الكلام وتراجعا وارتفعت الأصوات وانخفضت، وقال عباد بن بشر لسهيل اخفض من صوتك عند رسول الله ﷺ فجرى القول حتى وقع الصلح فقال سهيل هات إكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا رسول الله ﷺ عليًا كرم الله وجهه كما في حديث البراء عن البخاري والحاكم عن عبد الله بن مغفل أنه قال رسول الله ﷺ أكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال السهيل أما الرحمٰن الرحيم فوالله لا أدري ما هو ولكن أكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا تكتبها فقال النبيّ ﷺ أكتب بإسمك اللّهم، ثم قال هذا ما ماضىٰ عليه

محمد رسول الله ﷺ فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ﷺ ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك أكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله ﷺ لعليٍّ أمحه فقال عليٌّ ماأنا بالذي أمحاه وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن حضير وسعد بن عبادة أخذ بيد عليٍّ أن لا يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم وارتفعت الأصوات فقال النبيّ ﷺ أرنيه فأراه إياه فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال أكتب محمد بن عبد الله، ووقع في بعض طرق حديث البراء أن رسول الله ﷺ أخذ الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضىٰ محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وأصلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض، فقال رسول الله ﷺ لسهيل على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف، فقال سهيل لا والله ولكن لك من العام المقبل فكتب فقال سهيل على أن لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون سبحان الله أيكتب هذا كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما فقال رسول الله ﷺ نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا فيجعل الله فرجا؟ قال البراء صالح على ثلاثة أشياء على أنه من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه إليه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها إلا يجلبان السلاح والسيف والقوس ونحوه وقع الصلح على أن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة مكفوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال وأنه من أحب دخل في عقد محمد ومن أحب دخل في عقد قريش فتواثبت خزاعة وقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر وقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم ولما تقرر الصلح ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب (رض) إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ألست نبي الله حقاً؟ قال بلى، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال بلى، قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، قال بلى، قال على م نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال رسول الله ﷺ إني عبد الله ورسوله ولست أعصيه ولن يضيعني وهو ناصري، قال أوليس كنت تحدثنا أنا نأتي البيت فنطوف حقاً، قال بلى فأخبرتك أنك نأتيه العام؟ قال لا، قال فإنك آتيه ومطوف به فذهب عمر إلى أبي بكر متغيضاً ولم يصبر فقال يا أبا بكر أليس هذا نبيُّ الله حقاً؟ قال بلى، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال بلى، قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال بلى، قال فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم، قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يصى ربه وهو ناصره فاستمسك بعزره حتى تموت فوالله إنه لعلي الحق وفي لفظ فإنه رسول الله فقال عمر وأنا أشهد أن رسول الله ﷺ قال أوليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به قال بلى، فأخبرك إنك تأتيه العام قال لا قال فإنك

آتيه وتطوف به فلقي عمر من هذه الشروط أمراً عظيماً وقال كما في الصحيح والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ وجعل يردد على رسول الله ﷺ الكلام فقال أبو عبيدة بن الجراح ألا تسمع يا ابن الخطاب تقول بالقول نعوذ بالله من الشيطان قال عمر فجعلت أتعوذ بالله من الشيطان(١)، روى ابن إسحاق وابن عَمرو الأسلمي قال عمر فما زلت أتصدق وأصوم وأعتق من الذي صنعت يومئذ، وروى أحمد والنسائي والحاكم في حديث عبد الله بن مغفل ذكر نحو ما تقدم قال فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا إلى وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأسماعهم ولفظ الحاكم بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ هل جئتم في عهد أحد وهل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ روى أحمد ومسلم وابن أبي شيبة عن أنس هبط على رسول الله ﷺ ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة من رسول الله ﷺ دعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم(٢) وفي حديث الزهري عن مروان ومسور، وروى مسلم وأحمد وعبد بن حميد عن سلمة بن الأكوع قال لما سمعت قتل ابن زنيم اخترطت سيفي على أربعة رقود من المشركين فأخذت سلاحهم وجئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية فبينما الناس كذلك إذا أبو جندل بن سهيل ابن عمر يرسف في قيوده قد خرج من أسفل حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين وكان أبوه سهيل قد أوثقه في الحديد وسجنه فقام إليه المسلمون يرحبونه ويهنونه فلما رأى أبو سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلبيبه ثم قال يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال رسول الله ﷺ إنا لم نقض الكتاب بعد، قال فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً قال فأجزه بي قال ما أنا بمجيزه قال بلى فأفعل قال ما أنا بفاعل، فقال مكرز وحويطب قد أجزناه لك فأخذاهُ ودخلاه فسطاطاً وأجاراه وكف عنه أبوه، فقال أبو جندل معاشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت وكان قد عذب عذاباً شديداً فرفع رسول الله ﷺ صوته أبا جندل اصبرو احتسب فإن الله تعالى جاعل لك بمن معك من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية (١٧٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (١٨٠٨).

المستضعفين فرجاً ومخرجاً أنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً وإنا لا نقدر فمشى عمر بن الخطاب إلى جنب أبي جندل فقال له أصبروا حتسب فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب وجعل عمر يدني قائم السيف منه قال عمر رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال فضمن الرجل بأبيه وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأو من الصلح والرجوع دخل الناس من ذلك عظيم حتى كادوا يهلكون فزادهم أمر أبي جندل، ونفذت القضية شهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عَمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن سلمة وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومكرز بن حفص وهو مشرك، فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فاشتد ذلك عليه فدخل على أم سلمة فقال هلك المسلمون أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا، فلم يفعلوا فقالت يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبيّ الله، أخرج ولا تكلم أحداً كلمة حتى نحر بدنك وتدعوا بحالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً حتى نحو بدنه رافعاً صوته بسم الله الله أكبر ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا فجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً قال ابن عمر وابن عباس حلق رجال يوم الحديبية وقصر أخرون فقال رسول الله ﷺ «يرحم الله المحلقين قالوا والمقصرين قال يرحم الله المحلقين قالوا يا رسول الله والمقصرين قال والمقصرين قالوا يا رسول الله ما بال المحلقين ظاهرت لهم الترحم؟ قال لأنهم لم يشكوا، قال ابن عمر وذلك أنه تربص قوم وقالوا لعلنا نطوف بالبيت وأقام رسول الله ﷺ بالحديبية تسعة عشر يوماً ويقال عشرين ليلة ذكره محمد بن عمرو في أيام المقام بالحديبية، قال رسول الله ﷺ لكعب بن عجرة لأرى الهوام تتساقط على وجهه وهم محصورون قبل الصلح أيوذيك هوام رأسك قال نعم وأمره بالحلق والفدية من صيام أو صدقة أو نسك ونزل حينئذ قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[1] الآية من سورة البقرة، وقد ذكر هناك مسائل للاحصار والحلق بعذر وما يتعلق به، روى مسلم عن سلمة بن الأكوع والبيهقي عن ابن عباس والبزار والطبراني والبيهقي عن أبي حبيش ومحمد بن عمر وعن شيوخه أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزل بمر الظهران ثم نزل بعسفان فأرسلوا من الزاد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

فشكى الناس الجوع وقالوا ننحر يا رسول الله الحمر فأذن لهم رسول الله ﷺ، فقال عمر يا رسول الله لا تفعل فإن يكن في الناس بقية ظهر كان أمثل كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجلاً لكن إن رأيت تدعو الناس ببقايا أزوادهم ثم تدعوا فيها بالبركة فإن الله سيبلغنا بدعوتك، فدعا رسول الله ﷺ ببقايا أزوادهم وبسط نطعاً وكان أعلاهم من جاء بصاع من تمر فاجتمع زاد القوم على النطع، قال مسلمة فتطاولت لأحرزكم محرزته كر نفسه عزة ونحن أربعة عشر مائة فقام رسول الله ﷺ فدعا بما شاء الله تعالى أن يدعوا فأكلوا حتى شبعوا ثم حشوا أوعيتهم وبقي، مثله فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله والله لا يلقى الله تعالى عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار[1]. قال الزهري في حديثه ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[2] فطلق عمر يومئذ امرأتي كانت له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية قال فنهاهم أن يردوا النساء وأمر برد الصداق.

روى أحمد والبخاري وأبو داوود والنسائي عن المسور بن مخرمة والبيهقي عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة من الحديبية أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد حارثة الثقفي حليف بني زهرة مسلماً قد خلت من قومه فكتب الأحبس بن شريف الثقفي وأزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله ﷺ كتاباً بعثهما وبعثا خنيساً بن جابر من بني عامر ابن لؤي يذكران الصلح الذي بينهم وأن يرد إليهم أبا بصير فقدم العامري ومعه مولى له يقال له كوثر بعد أبي بصير بثلاثة أيام فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهما، وقال يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتُ لا يصلح في ديننا الغدر إن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً به حتى بلغا ذا الحليفة، فصلّى أبو نصير في مسجدها ركعتين صلاة المسافر ومعه زاد له من تمر يحمله يأكل ودعا العامري وصاحبه ليأكلا معه فنزلوا يأكلون التمر وعلى العامري سيفه وتحادثاً ولفظ عروة فسل العامري سيفه ثم هذه فقال لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل فقال أبو بصير أصارم سيفك هذا؟ قال نعم، قال ناولني أنظر إليه إن شئت فناوله إياه فلما قبض عليه ضربه به حتى برد وخرج كوثر هارباً حتى أتى المدينة فدخل المسجد قال رسول الله ﷺ مالك قال قتل والله صاحبي وأُفلت منه ولم أكد وإني مقتول فاستغاث برسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٢٧).

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

فأمنه، وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامري ودخل متوحشاً بسيفه فقال يا رسول قد وفيت ذمتك وأدى الله عنك وقد أسلمتني بيد العدو وقد امتنعت بديني من أن أفتن، فقال رسول الله ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد وقدم بسلب العامري لرسول الله ﷺ ليخمسه فقال إني إذا خمسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه ولكن شأنك بسلب صاحبك وأذهب حيث شئت[1]. في الصحيح أن أبا بصير لما سمع قول رسول الله ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد عرف أنه سيرده فخرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قدموا معه مسلمين من مكة حين قدمه على رسول الله ﷺ فلم يكن طلبهم أحد حتى قدموا سيف البحر فأقام بسيف البحريين العيصَ وذي المروة من أرض جنته على طريق عيرات قريش وبلغ المسلمين الذين قد حبسوا بمكة خبر أبي بصير فتسللوا إليه قال محمد بن الخطاب هو كتب إليهم يقول رسول الله ﷺ لأبي بصير ويل أمه مسعر حرب لو كان له رجال وأخبرهم أنه بالساحل، وانفلت أبو جندل بن سهيل الذي رده عليه السلام إلى المشركين بالحديبية فخرج هو وسبعون راكباً ممن أسلموا فلحقوا بأبي بصير فلما قدم أبو جندل على أبي بصير سلم له الأمر لكونه قرشياً وكان أبو جندل يومهم وأجتمع إلى أبي جندل حين سمع بقدومه ناس من بني غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلثمائة مقاتل كما عند البيهقي عن ابن شهاب لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها وضيقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه فأرسل قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ أن يبعث إلى أبي بعير ومن معه وقالوا من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال من غير حرج أنت فيه، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير وأبي جندل يأمرهما أن يقدما عليه ويأمر من معهما فمن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد بهم من قريش وعيراتها فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي بصير وهو يموت فجعل يقرأه ومات وهو في يده فدفنه أبو جندل في مكانه وجعل قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم فلما كان من أمرهم على الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة الله ورسول الله ﷺ خير لهم فيما أحبوا أو فيما كرهوا لما دخل رسول الله ﷺ عام القضية قال هذا الذي وعدتك، ولما كان يوم الفتح أخذ المفتاح وقال لعمر بن الخطاب هذا الذي قلت لكم، ولما كان في حجة الوداع وقف بعرفة فقال أي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في صلح العدو (٢٧٦٣).

عمر هذا الذي قلت لكم قال أي رسول الله ما كان فتح أعظم من صلح الحديبية، وكان أبو بكر يقول ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله وبين ربه والعباد يعجلون والله لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أرادوا لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله ﷺ بدنه ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ودعا الحلاق فحلق رأسهُ أنظر إلى سهيل يلتقطه من شعره يضعه على عينه وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فحمد الله سبحانه أن هداه للإسلام ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي نقض البيعة أي نقش البيعة ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ﴾ أي لا يعود ضرر نكثه إلا عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي ثبت على البيعة، قرأ حفص بضم الهاء تعظيماً للجلالة والباقون بالكسر ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالنون على التكلم، والباقون بالياء على الغيبة والضمير عايد إلى الله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ يعني الجنة ورضوان الله تعالى ورؤيته ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ ابن عباس ومجاهد يعني الأعراب بني غفار ومزينه وجهينة والنخع واسلم وهم الذين أبطؤا من الخروج مع النبيّ ﷺ حين استنفرهم إذا أراد المسير إلى مكة عام الحديبية خوفاً من قتال قريش زعماً منهم قلة عن الملسلمين وضعفهم في عقيدتهم كما مر في القضية رجع النبيّ ﷺ سالماً اعتذر وأمن التخلف وقالوا ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ يعني لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى على التخلف فيه معجزة فإن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بما يقول للمخلفون بعد ذلك ثم كذبهم الله في اعتذارهم فقال ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ومن الاعتذار والاستغفار يعني أنهم لا يبالون استغفر لهم النبيّ ﷺ أو لم يستغفر الجملة بدل من قوله تعالى: سيقول ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يعني لأحد يمنعكم من مشيئة الله تعالى وقضائه فيكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الضاد والباقون بالفتح يعني ما يضركم كقتل أو هزيمة أو هلاك في المال أو الأهل أو عذاب في الآخرة على تخلفكم ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي ضد ذلك به تعرض بالرد ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ يعني ليس الأمر كما قلتم في الإعتذار بل الله يعلم أن قصدكم في التخلف إنما هو إظهار الموافقة لأهل مكة خوفا منهم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ أيها المخلفون ﴿لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ يعني يستأصلهم مشركو مكة فلا يرجعون إلى إضراب ثان عطفه على مضمون الإضراب الأول يعني بل أظهرتم موافقة أهل مكة بل ظننتم أن لن ينقلبوا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان بخلق الله تعالى ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ أن محمداً وأصحابه أكلة رأس فلا يرجعون أو غير ذلك مما

يظنون بالله ورسوله ﷺ من الأمور الباطلة ﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ منصوب على المصدرية ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هلكن عند الله لفساد عقيدتكم وسوء ظنكم بالله ورسوله ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه تعريض إلى أنهم غير مؤمنين بالله ورسوله فإن الإيمان ينافي تلك الظنون والتخلف عن الرسول ﷺ وجزاء الشرط محذوف وما بعده تعليل أقيم مقامه أي لا يضرنا، ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ۝١٣﴾ وضع المظهر موضع المضمر إيذاناً بأن من يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر متوجب للسعير بكفره وتنكير سعير للتهويل.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ لا يجب عليه شيء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ يعني أن الغفران والرحمة صفات ذاتية له تعالى والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض.

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٥ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٦ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٧﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون ﴿إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾ في القتال حتى نصيب من المغانم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ جملة يريدون بدال إشتمال من سيقولون قرأ حمزة والكسائي كلام الله على أنه جمع كلمة، قيل المراد بالمغانم خيبر خاصة، قال محمد بن عمرو أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج يعني إلى خيبر فجدوا في ذلك من حوله فمن شهد الحديبية يغزون معه وجاء المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال عليه السلام لا يخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد وأما الغنيمة فلا، والظاهر أن معنىٰ الآية سيقولون المخلفون الذين تخلفوا من الجهاد في غزوة الحديبية حين ظنوا بالمسلمين ضعفاً وقلة إذا يرون بالمسلمين قوة وانطلقتم إلى المغانم لتأخذوها في زعمهم غالباً فسيقولون ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله يعني أمر الله لنبيه أن لا يسير معه أحد منهم كما في قوله ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن

﴿تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[(١)] كذا قال ابن زيد وقتادة، قلت لعل المخلفون لما رأوا من المؤمنين شدة رغبتهم في الجهاد وسمعوا بيعة الرضوانُ أن الله أظفر المؤمنين على المشركين في بطن مكة حتى رضي المشركون على الصلح واطمأن المسلمون من أهل مكة وفرغوا الجهاد عامة العرب ندموا على التخلف وظنوا بغلبة المسلمين وأخذهم الغنائم قالوا ذلك حين عزم النبيّ ﷺ الجهاد أهل خيبر مع أن أهل خيبر كانوا أشد بأساً من أهل مكة حيث كان فيها عشر آلاف مقاتل وإنما حبس الله رسوله والمؤمنين من أهل مكة ترحماً بقريش كما حبس عنهم الفيل لما علم بعلمه القديم أن أكثرهم يؤمنون ويخرج منهم بسمات مؤمنات ولئلا يصيب المؤمنين معرة بغير علم من أن يطئوا رجالاً من مؤمنين ونساء مؤمنات كانوا بمكة لم يعلموهم ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ جملة مستأنفة إخبار من الله تعالى بعدم إتباعهم بعد عزمهم طمعاً في الغنائم ولا يبدل القول لديه وفي عجزة أخبار بالغيب مرتين مرة بالقول ومرة بعدم الإتباع وقيل هذا نفي ومعناه النهي، ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾ يعني قولاً مثل ما قلت لكم أيها المخلفون من الأخبار والنهي ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ هذا بوحي غير متلو أن غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة لا نصيب لغيرهم فيها أو أنهم لن يخرجوا معك أبداً أو لا يصاحبهم في غزوة أبداً أوليس المراد منه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾[(٢)] لأنها نزلت بعد ذلك سنة تسع في غزوة تبوك ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي المخلفون عطف على سيقولون ﴿بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ عطف على محذوف يعني لم يقل الله كذلك بل تحسدوننا يقولون ذلك حسداً أن يشرككم في الغنائم ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ عطف على سيقولون يعني ليس الأمر كما زعمت المخلفون بل كانوا لا يعلمون من الله تعالى ما لهم وما عليهم في الدين ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يعني إلا تفقها قليلاً من أمور الدنيا وقال البغوي معناه إلا قليل منهم وهو من صدق الله ورسوله، قلتُ على هذا كان المختار عند النحويين الرفع على البدلية لأن الكلام غير موجب ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذم وإشعاراً بكمال شناعة التخلف ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ قال كعب هم الروم يعني في غزوة تبوك، قلت وهذا القول يأبى عنه توصيف قوم بقوله يقاتلونهم أو يسلمون فإن غزوة تبوك مال أمره إلى القتال فإن النبيّ ﷺ سار إلى تبوك وأقام هناك بضعة عشر يوماً فلم يتحرك هرقل إلى مقابلته ولم يبعث إليه جيشاً رجع النبيّ ﷺ من غير قتال، قال سعيد بن جبير وقتادة هوازن وثقيف

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٣.

وغطفان يوم حنين، قلت ولم يصح أن النبيّ ﷺ دعا الأعراب يوم حنين وأيضاً يكونوا أولي بأس شديد بالنسبة إلى عسكر الإسلام بل كانوا قليلاً في مقابلة جم غفير، وقال الزهريُ مقاتلُ جماعة هم بنو حنيفة أهل اليمامةُ أصحاب مسيلمة الكذاب، قال رافع بن خديج كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعى أبو بكر الصديق (رض) إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم وهذا قول أكثر المفسرين ورجحه البيضاوي بقرينة قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ يعني بكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير كما يدل عليه قراءة أو يسلموا فإن أو حينئذ بمعنى إلى أن ولا شك أن مشركي العربُ المرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف وقتال غيرهم كأهل الروم ينتهي بالجزية فالآية دليل على إمامة أبي بكر فإنه دعي الناس لقتال أهل الردة، وقال ابن عباسُ عطاء ومجاهد وابن جريح هم أهل الفارس فإنهم كانوا أشد بأمن من غيرهم دعا الناس عمر بن الخطاب إلى قتالهم فالآية دليل على خلافة عمر المبنية على خلافة أبي بكر ومعنى يسلمون حينئذ ينقادون لإعطاء الجزية والجملتين المتعاطفتين بدال من ستدعون ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ لداعي ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ يعني الجنة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ توليا ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ ذلك عام الحديبية ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦﴾ لتضاعف جرمكم قال البغوي فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة كيف بنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ ضيق وشدة وعذاب في ترك الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الجهاد وغير ذلك ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي يعرض عن الطاعة بعد القلة ﴿يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾ قرأ نافع وابن عامر ندخله ونعذبه بالنون على المتكلم، والباقون بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الله سبُحانه.

﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾

﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني بالحديبية هذه الجملة متصلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[(١)] الآية تأكيد لها وما بينهما معترضاتٌ بهذه الآية سميت البيعة بيعة الرضوان والغرض من هذه الآية مدح المؤمنين والثناء عليهم ومما سبق حثهم على إيفاء ما جاؤا عليه، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد اللّٰه قال كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض»[(٢)] وروى مسلم عن أم بشر مرفوعاً: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ ويعني القى عليهم الطمأنينة بالحضور عند ذكر الله تعالى والرضا بما أمر الله تعالى فوق الرضا بما تشتهيه نفوسهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا﴾ يعني فتح خيبر ﴿قَرِيبًا﴾ قيل أقام النبيّ ﷺ بالمدينة بعد الرجوع من الحدييبية عشر ليال كذا عند ابن عائد عن ابن عباسَ وعند سليمان التيمي خمسة عشر، وذكر ابن عقبة عن ابن شهاب أقام بالمدينة عشرين ليلة في حديث المسور ومروان عند ابن إسحق أنه عليه السلام قدم المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم وكان فتح خيبر في سفر سنة سبع كذا في المغازي للواقدي، قال الحافظ أنه الراجح نقل الحاكم عن الواقدي ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ روىٰ البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر، وعن ابن عمر قال ما شبعنا من التمر حتى فتحت خيبر، قال الحافظ محمد بن يوسف الصالحي أن خيبر اسم ولاية مشتملة على حصون ومزارع ونخل كثيرة على ثلاثة أيام من الحديبية عى يسار حاج الشام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي الفتوح التي يفتح لهم إلى يوم القيامة فيه تسلية للمؤمنين إنصرافهم من مكة بصلح ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني فتح خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ قال البغوي ذلك أن النبي ﷺ لما حاصر خيبر همت قبائل من بني أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذراريهم بالمدينة فكف الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وقال ابن إسحاق كانت غطفان مظاهرين يهود خيبر على رسول الله ﷺ أن غطفان لما سمعوا بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر خرجوا ليظاهروا يهود عليه فلما ساروا سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية (٣٩٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (١٨٥٦).

فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر، وروى ابن قانع والبغوي وأبو نعيم في العرفة عن سعيد بن شتيم عن أبيه(رض) أنه كان في جيش عيينة بن حصين في خيل غطفان لما جاء يمر خيبر قال فسمعنا صوتاً في عسكر عيينة أيها الناس أهليكم خولفتم فيه قال فرجعوا لا يتناظرون فلم تر لذلك بنا وما تراه كان إلا من قبل السماء، وقيل كف الناس عنكم يعني بأهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ عطف على محذوفه لتكف أو نعجل أو لتأخذوا تقديره لتسلموا أو تغنمو لتكون أو علة لمحذوف تقديره وفعل ذلك لتكون الكفة أو الغنيمة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على صدقك فيما وعدتم من فتح مكة وغير ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة لفضل الله والتوكل عليه أو المعنى يثبتكم على الإسلام ويزيدكم بصيرة ويقيناً.

قصة غزوة خيبر إنه ﷺ استخلف على المدينة سباع بن عرفطة كذا روى أحمد وابن خزيمة والحاكم عن أبي هريرة ولما تجهز النبيّ ﷺ والناس شق على يهود المدينة ولم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، روى أحمد والطبراني عن أبي حدرد أنه كان لأبي شحم اليهودي عليه خمسة دراهم فلزمه فقال أجلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك قد وعد الله نبيه أن يغنم خيبر، فقال أبو شحم أتحسب أن قتال خيبر مثل قتال ما تلقون من الأعراب والتوراة فيها عشرة آلاف مقاتل وترافعا إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام أعطه حقه فخرجت فبعت ثوبي بثلاثة دراهم الحديث، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الصهباء وهي أدنى خيبر دعانا لا زواد فلم يؤت إلا السويق فترى فأكل وأكلنا معه ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلّى ولم يتوضأ رواه البخاري والبيهقي، قال محمد بن عمر ثم سار النبيُّ ﷺ حتى اتى إلى المنزلة التي وهي يسوق الخيبر صارت في سهم زيد بن ثابت فعرس رسول الله ﷺ بها ساعة من الليل وكانت يهود لا يظنون قبل ذلك أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وسلاحهم وعدوهم فلما أحسوا الخروج النبيّ ﷺ كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون محمد تغيرونا هيهات هيهات وكان ذلك شأنهم، فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصحح لهم ديك حتى طلعت الشمس فأصبحوا وافئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وفي الصحيحين سار رسول الله ﷺ إلى خيبر فأنتهى إليها ليلا وكان عليه السلام إذا طرق قوماً لم يغتر عليهم حتى يصبح فإذا سمع أذاناً امسك وإذا لم يسمع غار حتى يصبح فصلنا الصبح عند خيبر بغلس فلم يسمع أذاناً فلما أصبح ركب وركب المسلمون وخرج أهل قرية إلى مزارعهم بمكاتلهمُ ومساحيهم فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا محمد

والخميس فأدبروا هاربين فقال رسول الله ﷺ ورفع يديه «**الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساح صباح المنذرين**»[١] وإبتدأ بأهل نطاة وصف رسول الله ﷺ ووعظهم ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم فعمل رجل من أشجع على يهودي وحمل عليه اليهودي فقتله فقال الناس استشهد فلان فقال رسول الله ﷺ بعد ما نهيت من القتال قالوا نعم فأمر رسول الله ﷺ منادياً في الناس «**لا تحل الجنة لعاص**» وروى الطبراني عن جابر أن رسول الله ﷺ قال يومئذ «لا تتمنوا لقاء العدو واسئلوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به فإذا لقيتم فقولوا اللّهم ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ثم ألزموا الأرض جلوساً فإذا عشوكم فانهضوا وكبروا» الحديث، قال ابن إسحاق ومحمد بن عمرو بن سعيد فرق رسول الله ﷺ الرايات وأذن للناس في قتال وحثهم على الصبر وأول حصن حاصره من النطاة ناعم وقاتل أشد القتال وقاتله أهل نطاة أشد القتال فلما أمسى تحول إلى الرجيع فكان رسول الله صلعم يغدو على راياتهم حتى فتح الله الحصن عليهم، روى البيهقي وأبو نعيم ومحمد بن عمر أن المسلمين لما قدموا خيبر قدموا على ثمرة خضراء وهي ديئية وختمة فأكلوا منها فأخذهم الحمى فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال فرسوا الماء في الشنان فإذا كان بين الأذانين يعني من الصبح فآحذروا الماء واذكروا إسم الله فكأنما نشطوا من العقل وبعد فتح ناعم حاصروا حصن الصعب بن معاذ، روى محمد بن عمرو عن أبي أيسر كعب بن عمر أنهم حاصروه ثلاثة أيام وكان حصناً منيعاً، روى ابن إسحاق عن رجل من أسلم ومحمد بن عمر عن معتب الأسلمي قال أصابتنا معشر أسلم مجاعة حتى قدمنا خيبر وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة لا يفتح شيئاً فيها طعام فأرسلوا أسماء بن حارثة إلى رسول الله ﷺ فقال أن أسلم يقرأ عليك السلام ويقول أنا قد جهدنا من الجوع والضعف فادع الله لنا فقال رسول الله ﷺ ما بيدي ما أقوتهم به قد علمت حالهم ثم قال: «**اللّهم فافتح عليهم الأعظم حصناً فيها أكثره ودكا**» ودفع اللواء إلى حباب بن المنذر وندب الناس فما رجعنا حتى فتح الله حصن الصعب بن معاذ وما بخيبر حصن أكثر طعاماً وودكا منه برز لحباب يوشع اليهودي فقتله حباب ثم برز له الزيال فبادره عمارة بن عقبة الغفاري فقال الناس بطل جهاده فقال عليه الصلاة والسلام ما بأس به يؤجر ويحمد، روى محمد بن عمرو عن جابر إنهم وجدوا في حصن الصعب من الطعام ما يكونوا يظنون من الشعير والتمر والسمنُ والعسل والزيت والودك ونادى منادى رسول الله ﷺ كلوا أو امقلوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٣٩٩٩).

ولا تحملوا يعني لا تخرجوا به إلى بلادكم، روى البيهقي عن محمد بن عمرو قال لما تحولت اليهود من حصن الناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلة الزبير يعني حصن الزبير بن العوام (رض) الذي صار في سهمه بعد وهو حصن على رأس قلة فأقام محاصرهم ثلاثة أيام فجاء اليهودي، يدعي غزال فقال يا أبا قاسم تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل ونخرج إلى الشق فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله فقال اليهودي إنك لو أقمت شهراً ما بالوا لهم ذيول تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمنعون منك فإن قطعت عنهم شربهم أصحروا لك، فسار رسول الله ﷺ إلى ذيولهم فقطعها فلما قطع عليهم مشاريهم خرجوا وقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة واقتحم رسول الله ﷺ هذا اخرصون النطاة فلما فرغ من النطاة تحول إلى الشق وأول حصن بدأ به منها حصن على قلعة يقال لها سموان فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً، خرج رجل من اليهود يقال له غزول فقتله حباب ين المنذر فخرج رجل آخر من يهود فقتله أبو دجانة وأخذ درعه وسيفه جاء به إلى رسول الله ﷺ فنفله رسول الله ﷺ ذلك، وأحجم اليهود عن البراز فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه يقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً فهرب من كان فيه من المقاتلة حتى صاروا إلى حصن النزل بالشق وجعل يأتي من بقي من خل النطاة إلى حصن البنزال فغلقوه وأمتنعوا فيه أشد الإمتناع ورجف رسول الله ﷺ في أصحابه فقاتلهم وكانوا أشد أهل الشق رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ورسول الله ﷺ معهم حتى أصاب النبل ثياب النبيّ ﷺ وعلقت به فأخذ رسول الله ﷺ النبل فجمعها ثم أخذ لهم كفاً من حصى فحصب به حصنهم فرجف الحصن بهم ثم ساخ في الأرض حتى المسلمون فأخذوا أهله أخذاً، ولما فتح رسول الله ﷺ حصون النطاة والشق أنهزم من سلم منهم إلى حصون الكتيبة وأعظم حصونها القموص وكان حصناً منيعاً ذكر ابن أبي عقبة أن رسول الله ﷺ حاصره قريباً من عشرين ليلة وكانت أرضاً وخمة، روى الشيخان عن سهل بن سعد والبخاري وأبو نعيم عن سلمة بن الأكوع وأبو نعيم عن عمرو ابن عباس وسعد بن أبي وقاص الخدري وعمر بن حصين وجابر بن عبد الله ومسلم والبيهقي عن أبي هريرة وأحمد وأبو يعلى والبيهقي عن علي وأبو نعيم والبيهقي عن بريدة قال بريدة كان رسول الله ﷺ يأخذه الشقيقة فيمكث اليوم واليومين ولا يخرج فلما نزل خيبراً أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فأرسل أبا بكر فأخذ راية رسول الله ﷺ فقاتل قتالاً شديداً ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول ثم رجع ولم يكن فتح وفي حديث على أن الغلبة كانت

لليهود في اليومين فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال «**لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله عليه ليس بفرار يحب الله ورسوله ويأخذها عنوة**» وقال بريدة.

فتباطينا نفساً أن يفتح غداً وبأت الناس ليلتهم أيهم يعطي فلما أصبح غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجوا أن يعطيها تآلى أبو هريرة، قال عمر فما أحببت الإمارة قط حتى كان يومئذ فلما أصبح رسول الله ﷺ الغداة، ثم دعا باللواء وقام قائماً قال ابن شهاب فوعظ الناس ثم قال أين عليٌّ؟ قالوا تشتكي عينه فأرسلوا إليه قال سلمة فجئت به أقوده، فقال له رسول الله ﷺ مالك؟ قال رمدت حتى لا أبصر ما قدامي، قال أدن مني وفي حديث علي عند الحاكم فوضع رأسي في حجره ثم بزق في يده فدلك بها عيني قالوا فبرء كأن لم يكن به وجع قط فما وجعهما حتى مضى لسبيله ودعا له وأعطاه الراية، قال يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا قال نفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله وحق رسوله فواللّه لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم» فخرج علي حتى ركزها تحت الحصن فاطلع يهودي من رأس الحصن فقال من أنت؟ قال علي، قال اليهودي غلبتم والذي أنزل التوراة على موسىٰ فما رجع حتى فتح الله على يديه، روى محمد بن عمرو عن جابر قال أول من خرج من حصون خيبر مبارز الحارث أخو مرحب فقتله علي رضى الله عنه ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيماً فقال النبيّ ﷺ طلع عامر أترونه خمسة أذرع وهو يدعو إلى البراز فخرج إليه علي بن أبي طالب فقتله ثم برز ياسر «فبرز له علي بن أبي طالب فقال له الزبير بن العوام» أقسمت عليك إلاخلية بيني وبينه ففعل فقالت صفية لما خرج إليه الزبير قلت يا رسول الله يقتل ابني فقال رسول الله ﷺ بل ابنك يقتله إن شاء الله تعالى فقتله الزبير فقال عليه السلام فداك عم وقال «**لكل نبي حواري وحواري الزبير**»(١).

وفي حديث سلمة بن الأكوع خرج مرحب يرتجز فقتله علي، وروى أحمد عن علي قال لما قتلت مرحباً جئت برأسه إلى رسول الله ﷺ، وروى البيهقي ومحمد بن عمر عن جابر بن عبد اللّه أن محمد بن مسلمة قتل مرحباً والصحيح ما في صحيح مسلم أن عليا قاتله وروى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال خرجنا مع عليٍّ حين بعثه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٣٩٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر (١٣٦٥).

رسول الله ﷺ، فلما دنى من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فقربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول عليٌّ باباً كان عند الحصن فترّس به من نفسه فلم يزل بيده وهو يقاتل حتى فتح الله ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه.

وروى البيهقي من طريقين عن المطلب بن زياد عن ليث بن سليم عن أبي جعفر محمد ابن علي عن آبائه قال حدثني جابر بن عبد اللّه أن علياً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد عليه المسلمون فاقتحموها وأنه جرب ذلك فلم يحمله أربعون رجل ورجاله ثقات إلا ليث بن سليم هو ضعيف قال البيهقي وروي من وجه آخر ضعيف عن جابر قال إجتمع عليه سبعون رجلاً وكان جهدهم أن أعادوا الباب، وقال الصالحي قال ورواه الحاكم والله أعلم وأصاب من الغموض حصن إلى الحقيق سبايا منهم صفية بنت حيي بن أخطب جاء بلال بها وبأخرى معها فمر بهما على قتلى يهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ﷺ «قال أغربوا هذه الشيطانة» وأمر بصفية فخرجت خلفه وألقى عليها ردائه فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ إصطفاها لنفسه وقال رسول الله ﷺ لبلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى «أنزعت منك الرحمة يا بلال جئت بامرأتين على قتلى رجالهما» وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال يا هذا ألا إنك تتمنين ملك الحجاز محمداً فلطم وجهها لطمة اخضرت عينها فيها فأتى رسول الله ﷺ بها وبها أثر منها فسألها فأخبرته هذا الخبر.

وفي رواية جاء دحية فقال يا نبيّ الله اعطيني جارية من السبي فقال إذهب فخذ جارية فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا نبيّ الله أعطيت دحية بنت حيي سيدة قريظة والنضير لا تصلح إلا لك، قال أدعوه بها فجاء بها فلما نظر إليها النبيّ ﷺ قال خذ جارية من السبي غيرها قال فأعتقها النبيّ ﷺ وتزوجها حتى إذا كان الطريق جهزها له أم سلمة فأهدتها له من الليل فأصبح النبيّ ﷺ عروساً فقال من كان عنده شيء في قلبه به وبسط نطعا فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الآخر يجيء بالسمن قال وأحسبه قد ذكر السويق فحاسو حيساً وكان وليمة رسول الله ﷺ، قال ثابت يا أبا حمزة ما أصدقها قال نفسها أعتقها وتزوجها، وفي الصحيحين عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال أصابتنا مجاعة ليالي خيبر فلما كان يوم خيبر وقضا في الحمر الإنسية فانتحرناها فلما

غلت القدر ونادى منادي رسول الله ﷺ أن ألقوا القدور ولا تأكلوا لحوم الحمر شيئاً(١)، وعن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن بيع المغانم حتى تقسم وعن الحبالى أن توطأ حتى يضعن ما في بطونهن قال أتسقي زرع غيرك وعن لحوم الحمر الأهلية وعن لحم كل ذي ناب من السباع رواه الدارقطني روى محمد بن عمرو عدة الحمر التي ذبحوها كانت عشرين أو ثلاثين، قال ابن إسحاق كان رسول الله ﷺ يأخذ الأموال مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً حتى انتهوا إلى الحصنين الوطيح والسلالم وكانا آخر حصون خيبر فتحاً فجعل اليهود لا يطلعون من حصنهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق حين رأى أنه لا يبرز منهم أحد ولا أيقنوا بالهلكة، وقد حضرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً سألوا رسول الله ﷺ الصلح وأرسل كنانة بن أبي الحقيق رجلاً من اليهود يقال له شماخ فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بمن لديهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى التبر إلا ثوباً على ظهر إنسان فقال رسول الله ﷺ برأت ذمة الله وذمة رسوله أن تكتموا شيئاً فصالحوه على ذلك فقبضها رسول الله ﷺ الأول فالأول وجد من ذينك الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وخمسمائة قوس عربية بجعابها ووجد في الكثيبة خمسمائة قوس بجعابها، روى ابن سعد والبيهقي عن ابن عمر وابن سعد عن ابن عباس فذكر الصلح كما ذكرنا أن لا يكتموه شيئاً فإن فعلوا فلا ذمة لهم، قال ابن عباس فأتي بكنانة بن أبي الحقيق لزوج صفية والربيع أخوه وابن عمه قال رسول الله ﷺ ما فعل مسك حيي الذي جاء به النضير؟ وكان مسكاً مملوأً من الحلي، قالا أذهبه النفقات والحروب، فقال العهد قريب والمال أكثر من ذلك فقال بهما رسول الله ﷺ إنكما إن كتمتماني شيئاً فإن إطلعت عليه استحللت به دمائكما وذراريكما قال نعم قال عروة ومحمد بن عمر فيما روى البيهقي عنهما فأخبر الله تعالى نبيه بموضع الكنز، وقال عليه الصلاة والسلام لكنانة إنك مفتر بأمر السماء فدعا رجلاً من الأنصار وقال اذهب إلى فراخ كذا وكذا فانظر نخلة عن يمينك ونخلة عن شمالك فأتني بما فيها فجاء بالآنية والأموال فقومت بعشرة آلاف دينار فضرب أعناقهما وسبى أهلها بالنكث الذي نكثاه. روى البخاري عن ابن عمر والبيهقي عنه وعن عروة وعن موسى بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في لواء النبي ﷺ (٢٨١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٧).

عقبة أن خيبر لما فتحها رسول الله ﷺ قالوا دعنا يا محمد نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها فأعطاهم رسول الله ﷺ على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل وشحٌ ما بدأ لرسول الله ﷺ في لفظ نقركم على ذلك ما شئنا في لفظنا أقركم الله، وكان عبد اللّه بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرجها عليهم ثم يقمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ ابن رواحة وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فقال يا أعداء الله أتطعموني السحت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن أعدل عليكم فقالوا بهذا أقامت السموات والأرض فأقاموا بأرضهم على ذلك فلما كان زمن عمر غشوا المسلمين وألقوا عبد اللّه بن عمر من فوق بيت ففدعوا يديه ويقال بل سحروه بالليل وهو نائم على فراشه فكوع حين أصبح كأنه في وثاق وجاء أصحابه فأصلحوا من يديه فقام عمر خطيباً في الناس فقال أن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال نقركم ما أقركم الله وإن عبد اللّه بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدى عليه من الليل ففدعت يداه وليس لنا هناك عدو غيرهم وهم تحنا وقد رأيت إجلائهم فمن كان أن هم بخيبر فليحضر حتى يقسمها فلما أجمعها على ذلك قال رئيسهم وهو أحد بني أبي الحقيق لا تخرجنا دعنا نكون فيها كما أقرنا أبو القاسم وأبو بكر فقال عمر لرئيسهم أتراه سقط عن قول رسول الله ﷺ كيف بك إذا خرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة فقاتلك هزيلة من أبي القاسم قال كذبت وأجلاهم عمر.

روى الشيخان عن أنس وأحمد وابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس وغيرهم عن جابر وأبي سعيد وأبي هريرة والزهري أن زينب بنت الحارث امرأة لسلامة بن مشكم ابنة أخي مرحب أهدت لصفية شاة مسمومة مصلية وقد قالت أي عضو الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها الذراع، فأكثرت فيها من السم ثم سمت سائر الشاة فدخل رسول الله ﷺ على صفية ومعه بشر بن البراء بن معرور فقدمت الشاة المصلية فتناول النبيّ ﷺ الذراع فانتهس منها فلاكها وتناول بشر بن البراء عظماً فانتهس منه، قال ابن إسحاق أما بشر فساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظهما، وقال ابن شهاب فلما اشترط رسول الله ﷺ اللقمة إشترط بشر فقال رسول الله ﷺ إرفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة تخبرني أني بقيت فيها، فقال بشر بن البراء والذي أكرمك لقد وجدت كذلك في أكلتي فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمت أن طعاماً فلما سفت ما في فيك لم أكن لأرغب نفسي عن نفسك ورجوت أن لا تكون إشترطها وفيها بغي فلم يقم بشر من مقامه حتى عاد لونه كالطيلسان ومات واحتجم

رسول الله ﷺ كامله يومئذ حجمه أبو هند وبقي رسول الله ﷺ حتى كان وجعه الذي توفي فيه فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة المسمومة يوم خيبر حتى كان هذا أوان قطع أبهري» فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً فأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية أسممت هذه الشاة فقالت من أخبرك؟ قال أخبرتني هذا الذي في يدي وهي الذراع، قالت نعم، قال ماحملك على ما صنعت؟ قالت بلغت من قومي عالم يخفك عليك فقلت إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها(١)، وروى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري أنها أسلمت وتركها رسول الله ﷺ وجزم بإسلامها سليمان التيمي ولفظ بعد قولها وإن كنت كاذبا أرحت الناس منك وقد استبان بي أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرك أني على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله قال فانصرف رسول الله ﷺ عنها حين أسلمت، ووقع عند البزار من حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ بعد سؤاله للمرأة اليهودية واعترافها بسط يده إلى الشاة وقال لأصحابه كلوا بسم الله قال فأكلنا وذكرنا اسم الله فلم يضر أحداً منا، قال الحافظ حماد الدين فيه نكارة وغرابة شديدة وذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أمر بلحم الشاة فأحرق، وعن جابر أن رسول الله ﷺ لما مات بشر بن البراء أمر باليهودية فقتلت(٢)» رواه أبو داود وعن محمد بن عمر بأسانيد له فدفعها إلى أولياء بشر بن البراء فقتلوها، قال البيهقي يحتمل أنه تركها أولاً قال السهيلي تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه ثم قتلها ببشر قصاصاً قال الحافظ تركها لكونها أسلمت وإنما أخرّ قتلها حتى مات بشر لأن بموته يتحقق وجوب القصاص.

قصة قدوم جعفر؛ عن أبي موسى الأشعري قال لما بلغنا فخرج النبيّ ﷺ يعني من مكة ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه فألقتنا سفينتنا بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب (رض) فقال جعفر أن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر فأسهم لنا وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئاً إلا لمن شهد معه إلا أصحاب سفينتنا، ولما قدم جعفر قال رسول الله ﷺ «**والله لا أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**» ولما نظر جعفر إلى رسول الله ﷺ خجل وقال رسول الله ﷺ لأصحاب جعفر «لكم هجرتان» وقبل رسول الله ﷺ جعفر بين عينيه رواه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: هل يبعث الطليعة وحده (٢٦٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: ما يصيب من الطعام في أرض الحرب (٢٩٨٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبائح، باب: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية (١٩٣٧).

البيهقي **قصة قدوم أبي هريرة والأدسيين** وعن أبي هريرة قدمت المدينة ونحن ثمانون بيننا من دوس ثم جئنا خيبر وقد فتح رسول الله ﷺ النطاة وهو محاصر لكتيبة فأقمنا حتى فتح الله علينا فكلم المسلمين فأشركنا في سهماتهم رواه أحمد والبخاري في التاريخ والحاكم والبيهقي وابن خزيمة والطحاوي. **قصة فدك**، فلما سمع أهل فدك بما صنع رسول الله ﷺ بخيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه الصلح أن يسيرهم ويحقن لهم دمائهم ويخلو الأموال ففعل على أنا إذا شئنا أخرجناكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت خيبر للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب فأجلاهم عمر لما أجلى يهود خيبر.

قسمة خيبر: ولما كان فتح الوطيع والسلالم بالصلح فكان هذا لنوائب المسلمين وأعطىٰ منه رسول الله ﷺ الأشعري بين الدوسيين أصحاب السفينتين وهو المراد من قول موسى بن عقبة أن بعض خيبر كان صلحاً وكان مشاورة رسول الله ﷺ أهل الحديبية في إعطائهم ليس استنزالهم عن شيء من حقهم وإنما هي المشورة العامة ﴿وشاورهم في الأمر﴾[1] قال ابن إسحاق وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق والنطاة والكثيبة وكانت الكثيبة خمس الله سهم النبيّ ﷺ وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وطعم أزواج النبيّ ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح منهم محيصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقاً من شعير وثلاثين وسقا من تمر وكانت النطاة والشق في أسهم الغزاة جزاها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهماً قسمت على أهل الحديبية من شهد خيبر منهم ومن غاب عنها ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد اللّه بن حرام قسم له كسهم من حضر كانوا ألفاً وأربعمائة رجلاً ومائتي فرس كان لفرس سهماً ولفارسه سهم وكان لكل رجل سهم وكان سهم رسول الله ﷺ كسهم أحدهم وكان لكل سهم من سهام خيبر ثمانية عشر رأساً جمع إلى رأس مائة سهم كان علي بن أبي طالب رأساً والزبير بن العوام رأساً وسرد ذلك ابن إسحاق إلى آخره، قال ابن سعد أمر رسول الله ﷺ فجزّأ غنائم خيبر خمسة أجزاء فكتب في سهم منها للّه وسائر السهمان إغفال وقسم أربعة أخمس على ثمانية عشر سهماً كل مائة رجل وللخيل أربعة أسهم.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الديات، باب فيمن سقى رجلاً سماً فمات أو أطعمه فمات أيقاد منه (٤٥٠٢).

قصة فتح وادي القرى: لما أنصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا ففتحها رسول الله ﷺ عنوة وغنمه بعالي أموال أهلها وأصاب المسلمون منها أثاثاً ومتاعاً فخمس رسول الله ﷺ ذلك وترك الأرض في أيدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر، ﴿وأُخرى منصوب عطفاً على مغانم كثيرة يعني أو عدكم مغانم أخرى أو عطفا على هذه يعني عجل لكم مغانم أخرى بعد هذا أو بفعل محذوف يفسره قد أحاط الله بها يعني قضى لكم مغانم أخرى وعلى التقادير كلها قوله تعالى ﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ صفة أخرى وجاز أن يكون أخرى مرفوعاً على الابتداء ولم تقدروا عليها صفة له وقوله تعالى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ خبر المبتدأ أو يكون لم تقدروا عليها خبر المبتدأ وقد أحاط الله حال من الضمير في عليها والمراد بمغانم فارس والروم وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم وكان قولاً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام كذا قال ابن عباس والحسن والمقاتل وقال قتادة هي مكة وقال عكرمة حنين، وقال مجاهد كل ما فتح الله بعد ذلك وقد أحاط الله بها أي استولى فأظفركم أو أحاط الله بها علماً أن يفتحها لكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، وإن لم تقدروا عليها ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ينصرهم سنة الله منصور على المصدرية يعني سن الله سنة غلبة أوليائه وأنبيائه على أعدائه قال الله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[1] وقال ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[2] ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت تلك السنة قديماً في الأمم السابقة ﴿مِن قَبْلُۖ﴾ هذا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغيراً.

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ يعني كفار مكة ﴿عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ قد مر فيما سبق من حديث أنس أن ثمانين رجلاً من أهل مكة في رواية سبعين هبطوا من جبل التنعيم فأخذوا فعفى النبيّ ﷺ عنهم فنزلت هذه الآية، ومن حديث عبد اللّه بن مغفل وفيه إذ خرج علينا ثلاثون شابا الحديث ومن حديث مسلم بن أكوع اخترطت سيف علي أربعة الحديث ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الكفار والباقون بالتاء على الخطاب للمؤمنين ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازي كلا على حسب ما فعل ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني أهل مكة ﴿وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أن تطوفوه ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ وهي ما يهدي إلى مكة من الإبل والبقر والشاة ﴿مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ﴾ الهدى معطوف على الضمير المنصوب في صدوكم وأن يبلغ معطوف على عن المسجد الحرام فتقدير عن من قبيل العطف على معمولي عامل واحد بحرف واحد وجاز أن يكون أن يبلغ متعلقاً بمعكوفاً بتقدير من ومعكوفاً حال من الهدى ﴿مَحِلَّهُۥۚ﴾ يعني الحرام فإنه موضع حلول أجله، احتج الحنفية على أنه لا يجوز ذبح الهدايا إلا في الحرم والمحصر يرسل الهدي إلى مكة وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾[1] ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ يعني لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين أو لم تعلموهم مؤمنين ورجال مبتدأ موصوف بصفات بعد لولا الإمتناعية ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ بدل إشتمال من المبتدأ بتقدير المضاف والخبر محذوف يعني هو موجودين بمكة وجواب لولا محذوف أغنى عنه جواب لو تزيلوا يعني لولا كراهة أن تطؤ المؤمنين عند نصرنا وغلبتكم عليهم لعذبنا الذين كفروا بالقتل والأسر ﴿فَتُصِيبَكُم﴾ عطف على تطؤهم ﴿مِّنۡهُم﴾ أي من جهنم ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ قال ابن زيد أثم فإن قتل الخطأ لا يخلوا عن إثم كما يدل عليه وجوب الكفارة وقال ابن إسحاق غرم الدية وقيل الكفارة، وقيل معناه الحرب وأطلق ههنا على المضرة مطلقا تشبيها بالحرب ومن المضرة التأسف على قتل المؤمنين وتعبير الكفار بذلك ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ متعلق بأن تطؤهم أو تصيبكم عى سبيل التنازع، أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال قاتلت النبيّ ﷺ أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة وفينا نزلت ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ﴾ ومتعلق بحذوف دل عليه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

السياق أي كان ذلك المنع من دخول مكة عنوة ليدخل الله ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في دينه وجنته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من أهل مكة فقد آمن كثير من المشركين يوم الفتح وقيل ذلك أو المعنى ليدخل الله المؤمنين المستضعفين في رحمته الدنيوية من العافية وطول البقاء ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي تفرقوا وامتاز المسلمون من الكفار ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل مكة في الدينا بالقتل والأسر ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ جعل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ظرف متعلق بقوله عذبنا أو صدوكم أو مفعول لمحذوف أي اذكر ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ حيث صدوا رسول الله ﷺ عن الطواف وأنكروا بسم الله الرحمان الرحيم وأنكروا محمداً رسول الله، قال مقاتل قال أهل مكة قد قتلوا أبنائنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فتحدث العرب انهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللات والعزى لا يدخلونها فهذه ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من الحمية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث اطمئنوا وامتثلوا أمر الله تعالى في المنع عن القتال مع قدرتهم عليه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدي وابن زيد وأكثر المفسرين أنها لا إله إلا الله والله أكبر، وقال عطاء ابن أبي رباح هي لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، قال عطاء الخراساني هي لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقال الزهري هي بسم الله الرحمان الرحيم والمآل واحد وإضافة الكلمة في التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها والمراد كلمة أهل التقوى المراد بإلزامهم إياها ثباتهم عليها بترك الحمية ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ من كفار مكة ﴿وَأَهْلَهَا﴾ ما يعني كانوا أهلها في علم الله تعالى ولذلك إختارهم لتأيد دينه وصحبة نبيه ﷺ وهذه الآية وقوله تعالى: لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم﴾[1] يبطل مذهب الروافض حيث يدعون كفر الصحابة ونفاقهم دمرهم الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ حتى بما أضمره الصحابة(رض) من الإيمان وحب رسول الله ﷺ ﴿عَلِيمًا﴾ ولما وقع الصلح وتقرر الرجوع إلى المدينة بغير دخول مكة وقد كان رسول الله ﷺ رأى رؤيا أن يدخلها كما ذكرنا في القصة قال الصحابة(رض) أين رؤياك يا رسول الله ﷺ؟ فنزلت الآية:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.

فتحا قريبا ﴿٢٧﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴿٢٨﴾ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴿٢٩﴾.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ كذا ذكر البيهقي وغيره عن مجاهد والجملة جواب قسم محذوف أولا بصيغة الماضي والمراد به المستقبل ليدل على القطع في وقوعه، قال الجوهري الصدق والكذب يكونان في القول يعني الخبر إذا طابق الواقع كان صدقاً لا كذبا ويستعملان في الفعل أيضاً فالصدق بمعنى التحقيق قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾[1] يعني حققوا العهد وفي هذه الآية أيضاً صدق فعل يعني حقق الله رؤيا الرسول الله ﷺ وعلى هذا الرؤيا بدل اشتمال من رسوله وجاز أن يكون رسوله منصوباً بنزع الخافض يعني حقق لرسوله الرؤيا أيضاً، قال الجوهري الصدق قد يتعدى إلى مفعولين قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾[2] وعلى هذا رسوله المفعول الأول والرؤيا مفعوله الثاني، وقال البيضاوي معناه صدقه في رؤياه، قال في المدارك حذف الجار وأوصل الفعل ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق أي الحكمة البالغة حال من الرؤيا أو صفة لمصدر محذوف أي صدقاً متلبساً بالحق وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه وجاز أن يكون بالحق قسماً إما باسم الله تعالى وبنقيض الباطل وجوابه ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ وعلى الأولين هذا جواب وقسم محذوف، وقال ابن كيسان لتدخلن من قول رسول الله ﷺ لأصحابه حكاية عن رؤياه فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك وجاز أن يكون من قول ملك الرؤيا حكاه الله تعالى وعلى التقديرين تقييدة ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ ومع كون الرسول الله ﷺ والملك على يقين منه تأدباً بآداب الله تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[3] قال أبو عبيدة

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

أن بمعنى إذ مجازه إذ شاء الله، وقال الحسن بن الفضيل يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول لأن بين الرؤيا وتصديقها كانت سنة وقد مات في تلك السنة فمجاز الآية ليدخلن المسجد الحرام كل واحد منكم إنشاء الله ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من فاعل لتدخلن والشرط مفترض ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ لا يعني محلقين قوم منكم جميع شعور رؤسهم ومقصرين آخرين بعض شعورها حالان من الضمير في آمنين أو حال مقدرة من فاعل لتدخلن ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة لآمنين أو استئناف يعني لا تخافون بعد ذلك ﴿فَعَلِمَ﴾ الفاء للسببية عطف على محذوف تقديره آخر الدخول لحكمة فعلم من الحكمة في التأخير ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ﴾ عطف على آخر المقدر ﴿مِن دُونِ﴾ أي أقرب من ﴿ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني فتح خيبر أو صلح الحديبية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ أي متلبساً به أو السببية أو لأجله ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ لم يعني جنس الأديان كلها بنسخ ما كان حقاً وإظهار فساد ما كان باطلاً بالحجج والآيات أو بتسليط المسلمين على أهلها في وقت من الأوقات ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ الباء زائدة ﴿شَهِيدًا﴾ حال من الله أو تميز من النسبة يعني كفى الله شاهداً أو كفى شهادة الله على ما وعد من الفتح أو على رسالة الرسول بإظهار المعجزات على يديه وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من دخول المسجد الحرام وكلتاهما تأكيد أن لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ وما بينهما معترضات ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ جملة مبنية للمشهود به ويجوز أن يكون رسول الله صفة ومحمد خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي أرسله بالهدى محمداً ومبتدأ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه وما بعده خبرهما والموصول مبتدأ وما بعده خبره والجملة معطوف على الجملة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ إمتثالاً لأمر الله تعالى حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[1] وقال ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[2] وقال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[3] وأمثال ذلك كثيرة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ويعني يتراحمون فيما بينهم ويتوادون حباً لله ولرسوله فإن محب المحبوب محبوب في الحديث القدسي «**أين المتحابون في جلالي اليوم أظلهم تحت ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»[4] رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، وسيجيء قوله ﷺ «**من أحبهم فبحبه أحبهم**» **ونظير هذه الآية قوله تعالى:**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: في فضل الحب في الله (٢٥٦٦).

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١] رغم أنف الروافض الذين يزعمون أن أصحاب محمد كانوا يتباغضون بينهم ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ حمد ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يا محمد لاشتغالهم بالصلاة في كثير من الأوقات فإن الصلاة معراج المؤمنين حالان مترادفان من ضمير المنصوب في تراهم وكذلك ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الثواب بالجنة ورؤية الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ منه تعالى ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ مبتدأ وخبر والجملة خبر لما سبق ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال من الضمير المستكن في الظرف قال قوم هونورو بياض وجوهم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا وهي رواية العوفي عن ابن عباس، وقال عطار بن أبي رباح والربيع بن أنس إستنارت وجوههم في الدنيا من كثرة الصلاة، وقال شهر بن حوشب يكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر يعني في الآخرة، وقال قوم هو السمت الحسن والخشوع والتواضع وهي رواية الوالبي عن ابن عباس وهو قول مجاهد، وقال الضحاك صفرة الوجه من السهر، وقال الحسن إذا رأتهم حسبتهم مرضى وما هم مرضى، وقال عكرمة وسعيد بن جبير هو أثر التراب على الجباه، وقال أبو العالية لأنهم كانوا يسجدون على التراب دون الأثواب يعني تواضعاً ذلك المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ قال البغوي ههنا تم الكلام، ثم ذكر الله سبحانه ما في الإنجيل عن نعتهم فقال ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ الخ وجاز أن يكون مثلهم في الإنجيل معطوفاً على مثلهم في التوراة يعني ذلك مذكور في الكتابين وركون قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾ الخ تمثيلاً مستأنفاً وجاز أن يكون ذلك الإشارة مبهمة يفسرها قوله تعالى ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ الجملة مع ما عطف عليه صفات زرع قرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء والباقون بإسكانها وهما لغتان بمعنى فروع الزرع أي أول ما خرج من الحب ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي صار من الرقة إلى الغلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق قرأ ابن كثير سؤقه بالهمزة والباقون بغير الهمزة ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافة وغلظه وقوته وحسن منظره هذين المثلين مر بهما الله تعالى: لأمتحان محمد ﷺ لكن الأول منهما يصدق على غير الصحابة أيضاً من خيار الأمة والثاني منهما مختص بالصحابة لا يشارك فيه أحد غيرهم فإن الله سبحانه أرسل محمدا ﷺ وحده كالزراع بذر في الأرض فآمن به أبو بكر وعلي وبلال ورجال متعددون بعدهم منهم عثمان وطلحة والزبير والسعد وسعيد وحمزة وجعفر وغيرهم حتى كان عمر متمم أربعين رجلاً كزرع أخرج شطأه، فكان الإسلام في بدو الأمر غريباً كاد الكفار يكونون عليه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

لإمحائه لبداً لولا حماية الله تعالى فأزره الله تعالى بمجاهدات الصحابة من المهاجرين والأنصار حين سقوا زرعها الدين بدمائهم في حياة النبيّ ﷺ وبعد وفاته لا سيما في خلافة أبي بكر وعمر فاستوى الدين على سُوقه وظهر على الدين كله واستغنى عن حماية غيرهم بحيث يعجب الزراع حتى قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١) وقال عليه الصلاة والسلام **«لا تجتمع أمتي على الضلالة»**(٢) وقال **«لا تزال من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ومن خالفهم»**(٣) ولأجل هذه الخصوصية سبقوا في مضمار الفضل على كل سابق بحيث لا يمكن لأحد من الأفاضل أن يبلغ درجة أي منهم حتى قال رسول الله ﷺ **«لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»** متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري وروى أحمد نحوه من حديث أنس، وقال رسول الله ﷺ **«ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة»**(٤) رواه الترمذي عن بريدة وهذه الخصوصية هي مادة الفضل غالباً فيما بين الصحابة فمن كان أسبق إيماناً كأبي بكر أو أكثر موازرة للدين حين ضعفه كعمر كان أفضل ممن ليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٥) وقال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾(٦) وقد استوفينا فضائل الصحابة عموماً وخصوصاً ونقلاً وعقلاً في السيف ا لمسلول والله تعالى أعلم، قال البغوي هذا مثل ضربه الله عز وجل لأصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، قال قتادة مثل أصحاب محمد في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقيل الزرع محمد والشطأة أصحابه والمؤمنون، وروي عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال محمد رسول الله والذين معه أبو بكر أشداء

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: السواد الأعظم (٣٩٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في الأئمة المضلين (٢٢٦٥)، وأخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٤٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٤٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في من سبَّ أصحاب النبي ﷺ (٤٠٢٩).

(٦) سورة الحديد، الآية: ١٠.

على الكفار، عمر بن الخطاب رحماء بينهم عثمان بن عفان تراهم ركعاً سجداً علي بن أبي طالب يبتغون فضلاً من الله ورضواناً بقية العشرة المبشرة بالجنة كمثل زرع محمد ﷺ أخرج شطأه أبو بكر فأزره عمر فاستغلظ عثمان للإسلام فآستوى على سوقه علي بن أبي طالب إستقام الإسلام بسيفه يعجب الزراع، في المدارك عن عكرمة أخرج شطأه بأبي بكر الخ نحو ما ذكر والله تعالى أعلم، قال البغوي قال عمر لأهل مكة بعدما أسلم لا يعبد الله سراً بعد هذا اليوم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الضمير في بهم عائد إلى الذين معه أو إلى شطأه من حيث المعنى فإن المراد بالشطأ الذي خرج بعد الزرع الداخلون في الإسلام الجار والمجرور متعلق بحذوف دل عليه السياق يعني جعلهم الله أشداء ورحماء وكثرهم رقواهم وقوي بهم الإسلام ليغيظ بهم الكفار يعني غيظاً للكافرين، قال أنس بن مالك(رض) من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب محمد ﷺ فقد أصابته هذه الآية، وعن عبد اللّه بن مغفل المزني قال: قال رسول الله ﷺ «**الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذ وهم غرضاً من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فبغضي أبغضهم ومن أذاهم فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله ومن أذى الله فيوشك أن يأخذه**»[١] رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «**إن سرك أن تكون من أهل الجنة فإن قوماً ينتحلون حبك يقرؤون لا يجاوز تراقبهم نبزهم الرافضة فإن أدركتهم فجاهدهم فإنهم مشركون**» رواه البغوي والدارقطني وفي إسناده نظر، وقد ورد في فضائل الصحابة عموماً وخصوصاً مالا يكاد يحصى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم﴾ كلمة من للبيان والضمير يعود إلى ما يعود إليه ضميريهم ﴿مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌۢ ۝٩﴾ تنكير مغفرة وأجر للتعظيم وقد انعقد الإجماع على إن الصحابة كلهم عدول وكلهم مغفور لهم والله أعلم»

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في من سب أصحاب النبي ﷺ (٤٠٢٦).

المحتويات

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء التاسع

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 091/220493 ـ موبيل: 0300/5902280 ـ باكستان

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 11/7957 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 ـ 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

سورة الحجرات

آياتها ثماني عشرة آيةً وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

روى البخاري وغيره من طريق ابن جريج عن أبي مليكة أن عبد اللّٰه بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر أمّر القعقاع بن معبد وقال عمر بل أمّر الأقرع بن الحابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ الآية، قرأ يعقوب لا تقدموا بفتح التاء والدال من التقدم بحذف إحدى التائين والجمهور بضم التاء وكسر الدال من التقديم، قال البغوي هو أيضاً لازم بمعنى التقديم مثل بين وتبين وقيل إنه متعد والمفعول محذوف ليذهب الوهم إلى كل ما يمكن أن لا تقدموا قولاً ولا فعلاً أو متروك، ونزل الفعل منزلة اللازم يعني لا يصدر منكم التقديم ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بين يدي مستعارة مما بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله قريباً منه ففيه تمثيل للتقدم الزماني بالتقدم المكاني والمعنى لا تقولوا قولاً ولا تفعلوا شيئاً قبل أن يحكمانه، قال الضحاك يعني في القتال وشرائع الدين لا تقضوا أمراً

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي (٤٣٦٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٦٦).

دون الله ورسوله، قال أبو عبيدة يقول العرب لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي لا تعجل بالأمر والنهر والنهي دونه، قيل المراد بين يدي رسول الله وذكر الله تعظيماً له وإشعاراً بأن التقديم على رسول الله كان تقديم على الله تعالى، فإنه من الله بمكان يوجب إجلاله إجلالاً به وسوء الأدب به سوء أدب بالله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١) وأخرج ابن المنذر عن الحسن أن ناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر أمرهم أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله تعالى هذه الآية، كذا أخرج ابن الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت، وعن البراء بن عازب قال خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر قال: «إن أول ما نبدأفي يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل أن يصلّي فإنما هو لحم عجله لأهله ليس من النسك في شيء»(٢) متفق عليه، وعن جندب بن عبد اللّه بلفظ: صلّى النبي ﷺ يوم النحر ثم خطب ثم ذبح قال: «من كان ذبح قبل أن يصلّي فليذبح مكانها أخرى» متفق عليه، وبما ذكرنا من الأحاديث احتج أبو حنيفة ومالك وأحمد على أنه لا يجوز ذبح الأضحية قبل صلاة الإمام خلافاً للشافعي حيث قال يجوز ذبح الأضحية بعد طلوع الشمس من يوم النحر إذا مضى قدر صلاة العيد والخطبتين صلّى الإمام أو لم يصل، وقال عطاء يجوز بعد طلوع الشمس فقط وهما محجوجان بما روينا ولا دلالة في الحديثين على ما قال مالك أن لا يجوز الذبح إلا بعد الصلاة وبعد ذبح الإمام ولعل مالك أخذ هذا القول من قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يعني لا تذبحوا قبل ذبح الرسول والإمام نائب الرسول ﷺ، قلنا الحديث بيان للآية فلا يشترط ما لا يستفاد من الحديث.

مسألة: قال أبو حنيفة يجوز لأهل السواد حيث لا يصلّى هناك صلاة العيد ذبح الأضحية بعد طلوع الفجر الثاني خلافاً للأئمة الثلاثة فإنهم قالوا لا يجوز إلا بعد حصول اليقين بصلاة الإمام عند أحمد والصلاة وذبحه عند مالك وبعد مضي قدر صلاة العيد والخطبتين بعد طلوع الشمس عند الشافعي لإطلاق النصوص، وجه قول أبي حنيفة إن التأخير لاحتمال تشاغل به عن الصلاة ولا معنى للتأخير في حق القرىٰ ولا صلاة عليه والله أعلم، وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العيدين، باب: الخطبة بعد العيد (٩٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأضاحي، باب: وقتها (١٩٦١).

النبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾، وقد قال رسول الله ﷺ: **«لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فيصومه»**(١) رواه أصحاب الصحاح والسنن الستة، وروى أصحاب السنن الأربعة وعلقه البخاري عن عمار قال **«من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم عليه السلام»**، وقال عليه الصلاة والسلام **«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»**(٢) وهو في الصحيحين، وعند أبي داوود والترمذي وحسنه «وإن حال بينكم وبينه سحاب فكملوا العدة ثلاثين ولا تستقبلوا الشهر استقبالاً»(٣) والله أعلم.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا وكذا فأنزل الله ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تضييع حقه وحق رسوله ومخالفة أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كرر النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الألفاظ وزيادة اهتمام ما أمر به ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ إذا كلمتموه ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يعني لا ترفعوا أصواتكم عنده ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً بأن تخاطبوه باسمه أو كنيته بل يجب عليكم بتجمله وتعظيمه ومراعاة آدابه وخفض الصوت بحضرته وخطابه بالنبيّ والرسول ونحو ذلك ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي كراهة أن تحبط أو لئلا يحبط فيكون علة للنهي وجاز أن يكون تقديره لأن تحبط متعلق بالنهي واللام للعاقبة فإن رفع الصوت فوق صوت النبيّ ﷺ والجهر عليه استخفافاً يؤدي إلى الكفر فعاقبته حبط العمل إذا قصد الإهانة نعوذ بالله منها وعدم المبالاة وترك المراقبة في آدابه لا يخلو من الحرمان من بركات صحبته فبطل عمل المصاحبة إذا لم يترتب عليه فائدته ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حال من الضمير المجرور في أعمالكم، قال البغوي قال أبو هريرة وابن عباس لما نزلت هذه الآية كان أبو بكر لا يكلم النبيّ ﷺ إلا كأخي السرار، وقال ابن الزبير فيما مر من حديث رواه البخاري في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ قال فما كان عمر يسمع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: لا يتقدمن رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٩١٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين (١٠٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: قول النبي ﷺ «إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا» (١٩٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (١٠٨١).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الصيام (٢١٢٠).

رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[١]، وروى مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال لما نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ جلس ثابت بن قيس في بيته وقال أنا من أهل النار واحتبس عن النبيّ ﷺ فسأل النبيّ ﷺ سعد بن معاذ فقال يا أبا عمر ما شأن ثابت إشتكى؟ فقال سعد إنه لجاري وما علمت له شكوى فأتاه سعد فذكره قول النبيّ ﷺ قال ثابت أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم أصواتاً على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار فذكر ذلك سعد لرسول الله ﷺ فقال: «بل هو من أهل الجنة»[٢]، وأخرج ابن جرير عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس وكذا ذكر البغوي أنه لما نزلت هذه الآية قعد ثابت في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي فقال ما يبكيك يا ثابت؟ قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا رفيع الصوت أخاف أن يحبط عملي وأن أكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله ﷺ وغلب ثابت البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد اللّٰه بن أبي بن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسي فشدي عليّ الضبة بمسمار فضربته بمسمار، وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله ﷺ، فأتى عاصم رسول الله ﷺ فأخبره خبره فقال إذهب فادعه لي فجاء عاصم إلى المكان الذي رواه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس فقال إن رسول الله ﷺ يدعوك فقال إكسر الضبة، فأتيا رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ ما يبكيك يا ثابت؟ قال أنا صيّت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال رسول الله ﷺ **«أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً أو تدخل الجنة»** فقال رضيت ببشرى الله ورسوله لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾ أي يخفضونها، ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إجلالاً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ والجملة خبر إن، في القاموس امتحن الله قلوبهم أي شرحها وسعها وفيه أيضاً محنه كمنعه وضربه واختبره كامتحنه، قال البيضاوي أي جرّبها للتقوى ومرنها عليها يعني عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فإن الامتحان سبب المعرفة، واللآم صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل أو المعنى ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل ظهور التقوى فإنه لا يظهر إلا بالاصطبار عليها أو أخلصه للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه أو ميز بريزه من خبثه ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ بغضهم الأصوات تأدباً لرسول الله ولسائر طاعاتهم والتنكير للتعظيم والجملة خبرثان لإن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ (٤٨٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩).

أو استئناف لبيان ما هو جزائهم إخباراً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين والمبتدأ اسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وإن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك، قال البغوي قال أنس فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا ـ يعني ثابت بن قيس ـ الذي نزل فيه هذه الآية وقال له عليه السلام: «**تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة**» قال فلما كان يوم اليمامة من حرب مسيلمة الكذاب رأى ثابت في المسلين انكساراً وانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء وقال لسالم مولى حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ﷺ مثل ذلك ثم ثبتا وقاتلا حتى استشهد ثابت وعليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام أنه قال له اعلم أن فلاناً رجلاً من المسلمين ينزع درعي فذهب به وهي في ناحية من العسكر عند فرس يستن به في طوله وقد وضع عليّ درعي برمة فأت خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي وائتِ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ وقل له إن عليّ دين حتى يقضي وفلان من رفيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً فوجد درعه والفرس على ما وضعه فاسترد الدرع وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته قال مالك بن أنس لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه والله تعالى أعلم. وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم قال جاء ناس من العرب إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادون يا محمد ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ وما بعدها، قرأ الجمهور بضم الجيم وأبو جعفر بفتح الجيم وهما لغتان في جمع حجرة، وقال البغوي هي جمع حجر والحجر جمع حجرة فهي جمع الجمع والحجرة قطعة من الأرض إحاطتها الجدران من الحجر بمعنى المنع، والمراد حجرات نساء النبيّ ﷺ ومن ابتدائية فإن المناداة نشأت من جهة الوراء وفيه دلالة على رسول الله ﷺ كان داخل حجرة منها إذ لا بد أن يختلف المبدأ أو المنتهى وإن مناداتهم كان من ورائها فإن تعدد القصة يحمل على أن مناداتهم وقع تارة وراء بعض وتارة وراء بعض آخر منها وإن اتحد القصة فمناداتهم من ورائها، إما بأنهم أتوه حجرة حجرة فنادوه من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فإنهم كانوا أعراباً من أهل البادية أو المعنى لا يعقلون عظمتك ومراعاة الحشمة وحسن الأدب والظاهر منه أن بعضهم كانوا من العقلاء ولم يرتض بالتعجيل وإنما أسند فعل البعض إلى الكل مجازاً ويحتمل أن يراد بالنفي القلة إذ القلة تقع موقع النفي العام. أخرج الثعلبي من حديث جابر أن الذي ناداه عيينة بن حصن وأقرع ابن حابس وفدا على رسول الله ﷺ في

سبعين رجلاً وقت الظهيرة وكان النبيّ ﷺ راقداً في بعض حجرات نسائه فقالا يا محمد أخرج علينا، وأخرج ابن جرير عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبيّ ﷺ.فقال يا محمد أُخرج إلينا فنزلت، وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال يا محمد إن مدحي زين وإن شتمي شين فقال النبيّ ﷺ ذاك هو الله فنزلت هذه الآية وهذا مرسل وله شاهد مرفوع من حديث البراء دون نزول الآية، وأخرج ابن جريج نحوه عن الحسن وذكر البغوي حديث قتادة وجابر بلفظ قال قتادة نزلت يعني هذه الآية وما بعدها في ناس من أعراب بني تميم جاؤا إلى النبيّ ﷺ فنادوا على الباب، ويروى ذلك عن جابر قال جاءت بنو تميم فنادوا على الباب أخرج علينا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين فخرج النبيّ ﷺ وهو يقول: «إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين»، فقالوا نحن ناس من بني تميم جئنا وشاعرنا وخطيبنا فقال النبيّ ﷺ لثابت بن قيس ابن شماس وكان خطيب النبيّ ﷺ «قم فأجبه» فقام فأجابه فقام شاعرهم يذكر أبياتاً فقال النبيّ ﷺ لحسان بن ثابت «قمُ فأجبه» فقام فأجابه فقام الأقرع بن حابس فقال إن محمداً ليؤتىٰ له بكل خير تكلم خطيبنا فكان شاعركم أشعر وأحسن قولاً ثم دنا من النبيّ ﷺ فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ «**ما يضرك ما كان قبل هذا**» ثم أعطاهم رسول الله ﷺ وكساهم وقد كان تخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنه فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطاهم وأزرى به بعضهم وكثر اللغط عند رسول الله ﷺ فنزل فيهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآيات الأربع إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وذكر البغوي عن ابن عباس أنه قال بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني العنبر وأمّر عليهم عيينة ابن حصن الفرازي فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم فسباهم عيينة وقدمهم على رسول الله ﷺ فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله ﷺ قائلاً في أهله فلما رأتهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة، فعجلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون يا محمد أخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم فقالوا يا محمد فادنا عيالنا فنزل جبرئيل عليه السلام فقال إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً، فقال لهم رسول الله ﷺ أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم فقالوا نعم فقال سبرة أنا لا أحكم بينهم إلا وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة فرضوا به، فقال الأعور أرى أن تفادي نصفهم وتعتق نصفهم فقال ﷺ قد رضينا ففادى نصفهم وأعتق بعضهم وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ يعني لو ثبت صبرهم يعني حبس نفوسهم عما تشتهيه الأهواء من التعجيل في قضاء الحوائج بخلاف ما يقتضيه العقل من تعظيم المحتاج إليه لا سيما من هو من الله بمنزلة من لا يوازيه أحد ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يعني صبراً بالخروج إليهم، فيه إشعار إلى أن مطلق الخروج لا يصلح غاية للصبر بل ينبغي أن يصبروا حتى يتوجه إليهم ويفاتحهم بالكلام لَكَانَ الصبر خَيۡراً لَهُمۡ من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبتين للثناء والثواب وإسعاف المرام، قال مقاتل لكان خيراً لهم لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فأقتصر على النصح والتقريع للمسيئين للأدب التاركين تعظيم الرسول ﷺ بناء على جهلهم وقلة عقلهم، وذكر محمد بن يوسف الصالحي أن سرية عيينة بن حصن كان إلى بني تميم في المحرم سنة تسع بعث إليهم رسول الله ﷺ حين منعوا الزكاة وكان السبايا على ما ذكر محمد بن عمر إحدى عشر امرأة وثلاثين صبياً، وأخرج أحمد وغيره بسند جيد عن الحارث بن الضرار الخزاعي قال قدمت إلى رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فأقررت به ودخلت فيه ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فترسل إلى الأبان كذا وكذا ليأتيك فلما جمع الحارث الزكاة وبلغ الأبان احتبس الرسول فلم يأته فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة فدعى سروات قومه فقال لهم إن رسول الله ﷺ كان وقّت وقتاً يرسل رسوله ليقبض ما عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة ليقبض ما كان عنده فلما أن سار الوليد فرق فرجع فقال إن الحارث منع الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه إذا استقبل البعث، قال لهم إلى أين بعثتم قالوا إليك، قال ولِمَ؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله قال لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني فلما دخل على رسول الله ﷺ قال منعت الزكاة وأردت قتل رسولي قال لا والذي بعثك بالحق فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

وروى الطبراني نحوه من حديث جابر بن عبد اللّه وعلقمة ابن ناجية وأم سلمة وابن جرير نحوه من طريق العوفي عن ابن عباس ومن طرق أخرى وسلمة وفي حديث أم سلمة عند الطبراني، وكذا ذكر البغوي أن الآية نزلت في وليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمعه القوم تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم يرون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله لما سمعنا برسولك خرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله عز وجل فبدا له الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك بغضب غضبة علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، قال البغوي فاتهمهم رسول الله ﷺ وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم، وقال له انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما يستعمل في الكفار ففعل ذلك خالد وافاهم فسمع منهم أذان صلاة المغرب والعشاء وأخذ صدقاتهم ولم ير فيهم إلا الطاعة والخير فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ يعني الوليد ابن عقبة ﴿بِنَبَإٍ﴾ أي بخبر ارتداد القوم تنكير الفاسق ونبأ لشيوع الحكم كأنه قال أي فاسق جاءكم بأي نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي بالثاء المثلثة ثم الباء الموحدة ثم التاء المثناة من الفوق من التثبت بمعنى التوقف في الحكم ما لم يظهر الحال والباقون بالباء الموحدة ثم الياء المثناة من تحت ثم النون من التبين بمعنى طلب البيان وظهور الحال والقراءتان متقاربان معنى، وتعليق التثبت والتبين بخبر الفاسق يقتضي جواز قبول خبر الواحد العدل لعدم المانع من قبول خبره والفسق في اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها وفي اصطلاح الشرع قد يطلق على الكافر لخروجه عن الإيمان وهو الغالب في محاورة القرآن وقد يطلق على من ارتكب الكبيرة أو أصر على الصغيرة ما لم يتب وهو المراد في هذه الآية إجماعاً، قلت: والوليد ابن عقبة وكان صاحباً

لرسول الله ﷺ ولم يكن فسقه ظاهراً قبل هذا الكذب المبني على فساد ظنه واتهامه من كان له أعداء في الجاهلية فلعل المراد بالفاسق هاهنا من لم يظهر صدق وعدالته فيدخل فيه مستور الحال أيضاً، أو المراد بالفاسق من كان مخبر الشيء يدل القرينة على كذبه وإن كان المخبر ظاهر العدالة فإن ارتداد بني المصطلق بعد إيمانهم عند رسول الله ﷺ طوعاً وقبولهم أحكامه أبعد احتمالاً من كذب الوليد عمداً أو زعماً فاسداً ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أي كراهة أن تصيبوا أولئك تصيبوا بالقتل والقتال ﴿قَوْمًا﴾ براء من العصيان ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ حال من فاعل تصيبوا يعني جاهلين بحقيقة الأمر وحال القوم ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ أي تصيروا عطف على تصيبوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ وهو خبر لتصبحوا يعني تصيروا نادمين على إصابتكم قوماً براء، والندامة نوع من الغم على ما صدر منك بحيث تتمنى أنه لم يصدر الظاهر من سياق الآية أن بعض المؤمنين كانوا زينوا رسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد والنبيّ ﷺ لم يطعهم وبعث خالد بن الوليد للتثبت وتبيين الحال، قال الله سبحانه خاطبهم بهذه الآية وأمرهم بالتثبت والتبيين كما فعله رسول الله ﷺ كيلا يصبحوا نادمين وبيّنهم على أنه لا ينبغي لهم تحريض النبي ﷺ وإلجاؤه إلى ما تهوى به نفوسهم بل يجب عليهم أن يطيعوه فيما أحبوا وفيما كرهوا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي وقعتم في الإثم والهلاك، قال البيضاوي جملة لو يطيعكم حال من أحد ضميري فيكم وإن مع اسمه وخبره مقيداً بالحال المذكور ساد مسدّ مفعولي إعلموا أو المعنى أن فيكم رسول الله في حال يجب تغيرها وحي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم ولو فعل ذلك لعنتم ولما كان غضبهم على بني المصطلق إنما هو لما سمعوا من الوليد إرتدادهم بغضاً في الله لا لأنفسهم وكان ما سبق من الكلام موهماً لوقوعهم في الإثم واللوم استدرك الله سبحانه ببيان عذرهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ والظاهر من سياق الآية أن الفسوق أخف من الكفر وأقبح من العصيان فالمراد به الخروج من الجماعة وإرتكاب البدعة في العقائد بحد لا يكفر فهو دون من الكفر وأخبث من عصيان الجوارح، ومعنى الآية لكن ما صدر منكم من ترك التثبت إنما كان يحبكم الإيمان وبغضكم الكفر فلا لوم عليكم ولا إثم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ جملة معترضة وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إشعاراً بأن من كان صفته مثل صفتكم فهم الراشدون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ منصوبان على العلية من حبب وكره لا من الراشدون فإن الفضل فعل الله والراشدون كان مسبباً بفعله لكنه أسند إلى ضميرهم أو على المصدرية فإن تحبب الإيمان فضل من الله

وإنعام، وقال بعض أئمة التفسير معنى قوله ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فلا تكذبوه فإن الله يخبره فيهتك ستر الكاذب وقوله ﴿يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ كلام مستأنف يعني لو يطيعكم الرسول فيما يخبرونه كاذباً لعنتم، وهذا التأويل يقتضي أن يكون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الخ خطاباً للوليد وأمثاله وليس كذلك فإن الكاذب غير مخاطب بالتثبت بل السامع مخاطب به، وقال بعضهم واعلموا أن فيكم رسول الله معناه كما مر أن لا تكذبوا ولو يطيعكم كلام مستأنف خطاب لبعض المؤمنين الذين زينوا رسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق والاستدراك خطاب لبعض آخر من المؤمنين الذين يريدون التثبت وهم المعينون بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وهذا القول يفيد جدالاً لاستلزام انتشار الضمائر في كلام واحد من غير قرينة وأمر داع إليه والأحسن ما قال البيضاوي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾، يفضل وينعم بالتوفيق عليهم، أخرج الشيخان عن أنس أن النبيّ ﷺ ركب حماراً وانطلق إلى عبد اللّه بن أبي فقال إليك عني فواللّه لقد أذاني نتن حمارك فقال رجل من الأنصار والله لحماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد اللّه رجل من قومه فشتما وغضب لكل واحد أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فنزلت فيهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)] مرفوع بفعل مضمر أعني اقتتل يفسره قوله تعالى: ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ يعني تقاتلوا أورد صيغة الجمع حملاً على المعنى فإن كل طائفة جمع ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ شرطية جزائه إنشاء ولذا عطفت على الإنشائيات، وثنى الضمير هاهنا نظراً إلى لفظ الطائفتين والإصلاح أن يمنع المبطل منها من الظلم ويدفع شبهة ويدعوهما إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وترك التحاسد والتباغض ﴿فَإِنۢ بَغَتْ﴾ أي تعدت ﴿إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وأبت الإجابة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يمكن دفع ظلمها بالحبس والمنع بأن كان لها منعة ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي ترجع إلى أمر الله، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال الرجل يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصر ظالماً** قال: **تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه**»[(٢)] متفق عليه ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ إلى أمر الله بعد المقاتلة ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ فيه الإصلاح بالعدل هاهنا إشعاراً بأن المقاتلة الواقع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: ما جاء في الإصلاح بين الناس (٢٦٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافين (١٧٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإكراه، باب: يمين الرجل لصاحبه إنه أخذه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٩٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (٢٥٨٤).

قبل ذلك لا يجرمنكم على أن لاتعدلوا ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ في الأمور كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فيحسن جزاؤه القسط الجور والإقساط إزالة الجور بالعدل والهمزة للسلب ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ لانتسابهم إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ولما كان منشأ هذا الأصل هو النبيّ ﷺ كان أبا المؤمنين وأزواجه أمهاتهم وهذه الجملة تعليل وتقرير للأمر بالإصلاح ولذلك كرره مرتباً عليه فقال ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والفاء للسببية، قرأ يعقوب بين إخوتكم بالتاء الفوقانية على الجمع والباقون بالباء التحتانية على التثنية وخص الاثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينها الخلاف ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولا تخالفوا أمره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تقواكم فإن التقوى سبب للتواصل والائتلاف والتراحم بينكم والتراحم موجب رحمة الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»، رواه المجدد رضي الله تعالى عنه، وفي الصحيحين «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[(١)] من حديث جرير بن عبد اللّه، قال البغوي يروى أنها لما نزلت قرأها رسول الله ﷺ فاصطلحا وكف بعضهم عن بعض، وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن أبي مالك قال ثلاث رجال من المسلمين فغضب قوم هذا لهذا وقوم هذا لهذا فاقتتلوا بالأيدي والنعال فأنزل الله تعالى تلك الآية ولعل هذه القصة بعينه هي السابقة، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وكذا ذكر البغوي عن السدي قال كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها جعلها في علية له وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بهاوكان الرجل قد خرج فاستعان أهله فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم وفاؤا إلى أمر الله. وأخرج ابن جرير وذكر البغوي عن قتادة قال ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار وكانت بينهما مداراة في حق بينهما فقال أحدهما الآخر لآخذن عنوة لكثرة عشيرته والآخر دعاه للتحاكم إلى النبيّ ﷺ فأبى فلم يزل الأمر حتى تدافعوا وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف، وأخرج ابن جرير عن الحسن قال كانت الخصومة بني الحيين فيدعوهم إلى الحكم فيأبون أن يجيبوا فأنزل الله تلك الآية ولعل هذه القصة ما ذكر قتادة روى البغوي وغيره عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه ومن كان في حاجة أخيه كان**

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ (٧٣٧٦).

الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[١] وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ـ وأشار إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**[٢] وفي الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، قال البغوي ويدل عليه ما روي عن الحارث الأعور أن علي بن أبي طالب (رض) سئل عن الجمل والصفين أمشركون هم؟ فقال لا من الشرك فروا فقيل منافقين هم؟ فقال لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً فما حالهم قال إخواننا بغوا علينا، مسئلة: إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة وخرجوا عن إطاعة الإمام دعاهم إلى العود وكشف شبهتهم فإن أبدوا ما يجوز لهم القتال كان ظلمهم الإمام أو ظلم غيرهم ظلماً لا شبهة فيه يجب على الناس أن يعينوهم حتى ينصفهم الإمام ويرجع عن جوره كذا قال ابن الهمام وإن لم يبدوا ذلك وتحيزوا للقتال مجتمعين حل لنا قتالهم بدءاً، وقال الشافعي لا يجوز قتالهم حتى ابتدأو بالقتال وهو قول مالك وأحمد وأكثر أهل العلم لأن قتل المسلم لا يجوز إلا دفعاً وهم مسلمون قال الله تعالى: ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ﴾ قلنا البغي في اللغة الطلب قال الله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾[٣] والمراد هاهنا طلب ما يخل من الجور والظلم والإباء عن قبول أحكام الشرع كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾[٤] يعني لا تطلبوا عليهن ظلماً فلا يشترط في جواز قتالهم بداية القتال منهم وإنما شرطنا منعتهم لأنه إذا لم يكن لهم منعة نقدر على إلزامهم بالحبس والضرب ونحو ذلك فلا حاجة على القتال ولو شرطنا بداية القتال منهم فربما لا يمكن دفعهم لتقوى شوكتهم وتكثر جمعهم. **«مسئلة»**: يجهز على الجريح من البغاة ويتبع موليهم إن كان لهم فيئة يخاف أن يلحق بالفيئة وإن لم يكن له فئة لا يجهز ولا يتبع، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجهز ولا يتبع في الحالين لأن القتال إذا تركوه بالتولية والجراحة لم يبق قتلهم دفعاً ولا يجوز قتلهم إلا دفعاً لشرهم، روى ابن أبي شيبة عن عبد خير عن علي أنه قال يوم الجمل لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا ومن ألقى سلاحه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه (٢٥٦٤).

(٣) سورة الكهف، الآية: ٦٤. (٤) سورة النساء، الآية: ٣٤.

فهو آمن وأسند أيضاً لا يقتل أسير، قلنا احتمال شرهم باق إذا خيف لحوقهم بالفيئة وأصحاب الجمل لم يكن لهم فيئة حين قال ذلك، وما رواه الحاكم في المستدرك والبزار في مسنده من حديث كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «**هل تدري يا ابن أم عبد كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال الله تعالى ورسوله أعلم، قال لا تجهز على جريحها ولا يقتل أسيراً ولا يقسم فيئها» فأعله البزار بكوثر بن حكيم وتعقب الذهبي على الحاكم**. **مسألة**: ولا تسبى ذريتهم ولا يقسم مالهم إجماعاً بل يحبس مالهم حتى يتوبوا، روى ابن أبي شيبة أن علياً لما هزم طلحة وأصحابه أمر منادياً فنادى أن لا يقتل مقبل ولا مدبر يعني بعد الهزيمة ولا يفتح باب ولا يستحل فرج ولا مال، وروى عبد الرزاق نحوه وزاد وكان علي لا يأخذ مال المقتول ويقول من اعترف شيئاً فليأخذه وفي تاريخ واسط بإسناده عن علي أنه قال يوم الجمل لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم. **مسألة**: ولا بأس أن تقاتلوا بسلاحهم إن احتاج إليه أهل العدل وكذا الكراع يقاتلون عليه، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجوز إستعمال سلاحهم وكراعهم لنا ما روى ابن أبي شيبة في آخر مصنفه في باب وقعة الجمل أن علياً قسم الجمل في العسكر ما أجافوا عليه من كراع وسلاح، قال صاحب الهداية وكان قسمة للحاجة لا للتمليك لانعقاد الإجماع على عدم تملك أموالهم. **مسألة**: ما أتلف أهل البغي على أهل العدل في حال القتال من نفس أو مال فإن كان لهم منعة وتأويل مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية الشافعي في الجديد الراجح أنه لا يضمن وقال الشافعي في رواية الأخرى وأحمد يضمن، قال البغوي قال ابن شهاب كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول وأتلف أموال ثم صار الناس إلى أن سكت الحرب وجرى الحكم عليهم فما علمت اقتص من أحد ولا أغرم مالاً أتلفه. **مسألة**: باغ قتل عادلاً مدعياً حقيقة يرثه وإن أقرأنه على الباطل لا يرث عند أبي حنيفة وعند أبي يوسف والشافعي لا يرث الباغي العادل سواء ادعى حقيقة أو أقرأنه على باطل وعادل قتل باغياً يرث إجماعاً. **مسألة**: الخارجون عن إطاعة الإمام إذا لم يكن لهم تأويل سواء كان لهم منعة أو لا ويأخذون أموال الناس ويقتلونهم الطريق فهم قطاع الطريق وقد مر حكمهم في سورة المائدة: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1] **مسألة**: من كان خارجاً من حكم الإمام ولا منعة له يلزمه حكم الله بالحبس والضرب ونحو ذلك ولا يجوز قتله.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

قال البغوي روي أن علياً سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد لا حكم إلا الله، فقال علي كلمة حق أريد به الباطل لكم علينا ثلاث لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله عز وجل ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ولا نبدؤكم بقتال كذا قال محمد بلغنا عن علي (رض) فذكره نحوه والله أعلم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

وذكر البغوي عن ابن عباس أنه كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقوا بالمجلس وسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وفاتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاة أخذ أصحابه مجالسهم فضيق كل رجل مجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً قام قائماً كما هو فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس ويقول تفسحوا فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ بينه وبين رجل فقال له تفسح، فقال الرجل قد أصبت مجلساً فأجلس ثابت خلفه مغضباً فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال من هذا؟ قال أنا فلان فقال ثابت ابن فلانة فذكر أماً له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه واستحى فأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ في القاموس القوم الجماعة من الرجال والنساء معاً أو الرجال خاصة وتدخله النساء على التبعية وفي الصحاح القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء واستدل بهذه الآية حيث عطف النساء عليه ويقول الشاعر:

وما أدري لست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وفي عامة القرآن أريد به الرجال والنساء جميعاً وحقيقة للرجال لقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1] كذا قال صاحب المدارك وقال البيضاوي هو مصدر نعت

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

به فشاع في الجمع أو جمع لقائم كزائر وزور والقيام بالأمور وظيفة الرجال وحيث فسر بالقبيلتين كقوم هود وقوم فرعون وقوم نوح وقوم لوط فأما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال عن ذكرهن لأنهن توابع واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أي من يسخر به ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من يسخر استئناف ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ عطف النساء على الرجال ولم يكتف بما سبق مبالغة في النهي ولأن السخرية والاستهزاء يكون في النساء غالباً لضعف عقلهن وجهلهن، قال البغوي روي عن أنس أنها انزلت في نساء رسول الله ﷺ عيرّن أم سلمة بالقصر وعن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب قالت لها النساء يهودية بنت يهوديين وفي رواية فقال لها رسول الله ﷺ «**هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد**» ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز الطعن باللسان يعني لا يعب بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ التنابز التفاعل من النبز بمعنى اللقب، قال البيضاوي النبز مختص باللقب السوء، وفي القاموس التنابز التعاير والتداعي بالألقاب يعني لا تدع بعضكم بعض اللقب السوء، قال البغوي قال عكرمة هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر، قال الحسن كان اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد إسلامه يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك قال عطاء هو أن تقول لأخيك يا حمار يا خنزير، وروي عن ابن عباس (رض) قال التنابز أن يكون الرجل عمل السيآت ثم تاب عنها فنهى أن يعير بما سلف من عمله، أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاك قال كان الرجل منها يكون له اسمان أو ثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[(١)] قال الترمذي حسن وروى أحمد عنه بلفظ قال فينا نزلت بني سلمة ولا تنابزوا بالألقاب قدم رسول الله ﷺ للمدينة وليس فيها إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعاه أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي بئس الاسم أن يقال له يهودي أو يا فاسق أو يا شارب الخمر بعد ما أن تاب، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «**يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**»[(٢)] رواه البخاري عن ابن عمر قال: قال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٦٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الألقاب (٤٩٥٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: الألقاب (٣٧٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما ينهى من السباب واللعن (٦٠٤٥).

رسول الله ﷺ **«أيما رجل قال لأخيه كافر فقد باء بها أحدهما»**(١) متفق عليه وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ **«من دعىٰ رجلاً بالكفر أو قال عنه والله وليس ذلك إلا جاء عليه»** متفق عليه، وقيل معنى الآية أن السخرية واللمز والنبز فسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا شيئاً توصفوا فيه باسم الفسوق، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**(٢) متفق عليه ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة وعن سعد والطبراني عن عبد اللّه بن مغفل وعن عمر بن النعمان بن مقرن والدارقطني عن جابر وزاد الطبراني عن ابن مسعود «وحرمة ماله كحرمة دمه» ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه من السخرية واللمز والنبز ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب وحد ضمير لم يتب نظرا إلى لفظة من وجمع ضميرهم الظالمون نظراً إلى معناها نسبة المحصن إلى الزنا يوجب حد القذف إجماعاً وسنذكر مسائل حد القذف في سورة النور إن شاء الله تعالى، ونسبة غير المحصن كالعبد والكافر إلى الزنا لا يوجب الحد لانحطاط درجتها بل يوجب التعزير لإشاعة الفاحشة، ونسبة المحصن إلى غير الزنا لا يوجب حد القذف ويوجب التعزيز إن كان النسبة إلى فعل إختياري يحرم في الشرع ويعد عاراً في العرف وإلا لا إلا أن يكون تحقيراً للأشراف فمن قال لمسلم يا فاسق يا كافر يا خبيث يا سارق يا فاجر يا مخنث يا خائن يا زنديق يا لص يا ديوث يا قرطبان يا شارب الخمر يا آكل الربا يعزر، قال ابن همام روي أنه عليه السلام عزر رجلاً قال لغيره يا مخنث ولو قال يا حمار يا خنزير يا كلب يا تيس يا حجام لا يعزر وقيل يعزر وقيل لا إلا أن يقال لعالم، أو علوي أو رجل صالح ولو قال يا لاعب بالنرد ويا عشار لا يعزر لأنها لا يعد عاراً عرفاً وإن كان محرماً شرعاً **مسألة**: لا يبلغ بالتعزير أدنى الحدود عند أبي حنيفة والشافعي عفى الله عنهما وأدنى الحدود عند أبي حنيفة رح أربعون سوطاً حد الشرب في العبد وعند أبي يوسف ثمانون حد الأحرار، وعند الشافعي وأحمد عشرون، وقال مالك للإمام أن يضرب في التعزيز أي عدد أدى إليه إجتهاده، وقال أحمد يعزر في الوطء فيما دون الفرج بشبهة أكثر من أدنى الحدود ولا يبلغ أعلاها، وفي قبلة أجنبية أو شتم أو سرق دون النصاب لا يبلغها أدنى في الحدود والله تعالى أعلم، وذكر البغوي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٦١٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (٦٤)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب في الإيمان (٦٩).

أن رسول الله ﷺ إذا غزى أو سافر ضم الرجال المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما إلى المنزل فيهيء لهما وما يصلحهما من الطعام والشراب فضم سلمان الفارسي (رض) إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فلم يهيء لهما شيئاً فلما قالا له ما صنعت شيئاً قال لا غلبتني عيناي قالا له انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعاماً فجاء سلمان إلى رسول الله ﷺ وسأله طعاماً فقال رسول الله ﷺ انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحله فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما وأخبرهما فقالا كان عند أسامة ولكن بخل، فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فلما رجع قالا لو بعثنا إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ﷺ فلما جاءا إلى رسول الله قال لهما مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً قال ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ الآية قال السيوطي رواه الثعلبي بغير إسناد وروى معناه الأصبهاني في الترغيب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قالوا زعموا أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجلان أكله ورقاده والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ تعليل مستأنف للأمر والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه والهمزة بدل من الواو كأنه يثم الأعمال ويكسرها، والمراد بالظن هاهنا ما يقابل اليقين سواء كان جانب الوجود فيه راجحاً أولا وتحقيق المقام أن الظن على أقسام منها ما يجب إتباعه وهو حسن الظن بالله تعالى والمؤمنين والمؤمنات وما يحصل بدليل شرعي فيه شبهة حيث لا قاطع فيه من العمليات وكذا في العلميات إن لم يعارضه قاطع من أحوال المبدأ والمعاد، ومنها ما يحرم اتباعه كسوء الظن بالمؤمنين والمؤمنات لا سيما بالصالحين منهم والظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع ومنها ما ليس من القسمين المذكورين كالظن في الأمور المعايشة ونحوها، والإثم إنما هو بعض الظن يعني قسم الثاني منها والله سبحانه أمر بالاجتناب عن كثير من الظن احتياط ومبالغة في اجتناب الإثم فيجتنب عما هو إثم وعما هو يشبه به قال رسول الله ﷺ «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة**»[١] الحديث ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ الجس في اللغة المس باليد والتجسس تفحص الأخبار باعتبار ما فيه من معنى الطلب كاللبس والمراد هاهنا لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوا عوراتهم حتى لا يظهر عليكم ما ستره الله منها، عن أبي هريرة(رض) أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢).

رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا لا تنافروا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو ينزل**»(١) رواه ملك وأحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي وصححه وعن ابن عمران النبيّ ﷺ قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات المسلمين يتبع الله عوراته فيفضحه ولو في جوف رحله**»(٢) رواه الترمذي وحسنه وابن حبان، قال زيد بن وهب قيل لابن مسعود هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً؟ قال نهينا عن التجسس فإن يظهر لنا شيء نأخذ به ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره، قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»(٣) متفق عليه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلاً قال لا يأكل حتى يطعم ولا يرحل حتى يرحل فقال النبيّ ﷺ اغتبتموه فقالوا إنما حدثنا بما فيه قال «**حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه**» رواه البغوي ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام الذي معناه الإنكار المستلزم لتقرير النفي وإسناد الفعل إلى أحد للتعليق وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة وتمثيل الإغتياب بأكل لحم الإنسان ولم يقتصر عليه حتى جعله أخاً ولم يقتصر عليه حتى جعله ميتاً وتعقب ذلك بقوله ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، وجملة فكرهتموه جزاء شرط محذوف تقديره إن صح ذلك إذ عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته أو هي معطوف على الإستفهام المذكور فإن معناه تغير المحبة الموهوم عدم الكراهة فلدفع ذلك الوهم عطف عليه، وجاز أن تكون الفاء للسببية والماضي بمعنى المستقبل والمعنى أنه لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً إنكم تكرهونه، وقال مجاهد لما قيل لهم أيحب أحدهم أن يأكل إلخ فكأنهم قالوا لا فقيل

---

(١) أخرجه مالك في أبواب السير، باب: ما يكره من الكذب وسوء الظن والتجسس والنميمة (٨٩٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الحسد (١٩٤١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في هجرة الرجل أخاه (٤٩٠٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة (٢٥٨٩).

كرهتموه فكأنه معطوف على محذوف والحاصل أنكم كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً عَن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم قلت من هؤلاء فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**» رواه البغوي، قال ميمون بينا أنا نائم إذ أنا بجيفة زنجي وقائل يقول كل قلت يا عبد الله ولم أكل قال بما اغتبت عبد فلان قلت والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً قال لكنك استمعت ورضيت وكان ميمون لا يغتاب أحداً ولا يدع أحداً أن يغتاب عنده، عن عائشة رضي الله عنها قلت للنبيّ ﷺ «حسبك من صفية كذا وكذا يعني قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته»[١] رواه أحمد والترمذي وأبو داوود، عن أبي سعيد وجابر قالا قال رسول الله ﷺ «الغيبة أشد من الزنا، قالوا يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا؟ قال إن الرجل يزني فيتوب الله فيغفر له وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»[٢] **فائدة**: في كفارة الغيبة عن أنسَ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من كفارة الغيبة أن يستغفر لمن اغتابه تقول اللهم إغفر لنا وله**» **رواه البيهقي. فائدة: عن خالد ابن معدان عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ «من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله يعني من ذنب قد تاب منه»**[٣] رواه الترمذي وخالد لم يدرك معاذاً ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك ما نهيتم عنه والندم على ما وجد منكم منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يقبل توبتكم مبالغ في قبول التوبة حيث يجعل التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالعباد لا يرضى أن يقع بعضكم في عرض بعض، ذكر البغوي أنه قال مقاتل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى أتى على ظهر الكعبة وأذن فقال عباد بن أسيد الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو إن يرد الله شيئاً يغيره وقال أبو سفيان إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبر رسول الله ﷺ بما قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالى: هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزدراء بالفقر، وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية ولم يقل ياأيها الذين آمنوا لأنهم لم يكونوا آمنوا في ذلك الوقت، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مليكة هذه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في النية (٤٨٦٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير وفيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الغيبة والنميمة (١٣١٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٥).

القصة مختصراً وقال ابن عساكر في مبهماته وجدت بخط ابن يشكو اليّ أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسير له أنها نزلت في أي هذا أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوه امرأة منهم فقالوا يا رسول الله تزوج بناتنا موالينا فنزلت الآية، وقال البغوي قال ابن عباس نزلت في ثابت بن قيس وقومه للرجل الذي لم ينفسح له ابن فلانة فقال النبي ﷺ من الذاكر فلانة؟ فقال ثابت أنا يا رسول الله، فقال أنظر وجه القوم، فقال ما رأيت يا ثابت؟ فقال رأيت أبيض وأحمر وأسود فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والقتوى فنزلت في ثابت هذه الآية وفي الذي لم يفسح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ يعني نوع البشر من آدم وحواء أو كل واحد منكم من أب وأم فلا مزية لأحد على غيره ولا وجه للتفاخر وجاز أن يكون تقريراً للأخوة المانعة من الاغتياب ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ كانت العرب تعتبر في النسب ست طبقات أعلاها الشعب وهي الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد وهي تجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن تجمع الأفخاذ والفخذ تجمع الفصائل والفصيلة تجمع العشائر وليس بعد العشيرة حي يوصف به، وقيل الشعوب من العجم والقبائل من العرب والأسباط من بني إسرائيل، وقال أبو رواق الشعوب من الذين لا يعتزون إلى أحد بل ينتسبون إلى المدن والقرى والقبائل من العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ احذف أحد التائين أي لتعرف بعضهم بعضاً في قرب النسب وبعده لا ليتفاخروا ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ قال قتادة في هذه الآية أن أكرم الكرم التقوى وألأم اللؤم الفجور، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «**الحسب المال والكرم التقوى**»[1] رواه أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم، وقال ابن عباس كرم الدنيا الغنا وكرم الآخرة التقوى، وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلماخرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال ثم قام فخطب بهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها الناس رجلان برّتقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم تلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ الآية ثم قال أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[2] رواه الترمذي والبغوي، وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٧١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (٤٢١٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٧٠).

أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون» وعن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم على الله؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بين خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك، قال فعن معادن العرب تسألون؟ قالوا نعم، قال فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»(١) رواه البخاري وغيره، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢) رواه مسلم وابن ماجه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم وفضائلكم.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ذكر البغوي أن نفراً من بني أسد قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر فأفسدوا طرق المدينة بالقذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعمال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان يمنون على النبيّ ﷺ ويردون الصدقة ويقولون أعطنا فأنزل الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الآية، قال السدي نزلت في الأعراب الذي ذكرهم الله في سورة الفتح وهم أعراب جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا يقولون أمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ (٣٣٨٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه (٢٥٦٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: القناعة (٤١٤٣).

فلما استنفر لهم رسول الله ﷺ إلى الحديبية تخلفوا فنزلت ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ يعني صدقنا قُلْ يا محمد ﷺ ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ فإن الإيمان صفة القلب عبارة عن تصديقه والإقرار كن زائد عن الإختيار لاجراء الأحكام، قال رسول الله ﷺ **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن من بالقدر خيره وشره»**(١) كذا في الصحيحين من حديث عمر ابن الخطاب مرفوعاً في حديث سؤال جبرئيل، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ والمراد بالإسلام الانقياد الظاهري وكان مقتضى نظم الكلام أن يقال لا تقولوا أمنا لكن قولوا أسلمنا أو يقال لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدل عنه إلى هذا النظم إحترازاً عن النهي عن القول بالإيمان وعن الجزم بإسلامهم مع فقد لشرط اعتباره عند الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حال من فاعل قولوا أومعطوف على لم تؤمنوا للتأكيد على نفي الإيمان في الماضي والتوقع في المستقبل وليس في لم تؤمنوا التوقع فلا يلزم التكرار ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الإيمان بالقلوب مخلصين والإمتثال كما يدل على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي لم يشكوا فيما جاء به الرسول الله ﷺ، وكلمة ثم للإشعار باشتراط عدم الارتباط في شيء من الأزمنة المتراخية إلى آخر أجزاء الحياة كاشتراط في بداية الإيمان فهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾(٢) ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعة يجوز أن يكون مفعول جاهدوا محذوفاً منوياً يعني جاهدوا العدو المحارب أو الشيطان أو الهوىٰ وجاز أن يجعل لازماً مبالغة في الجهد وجاز أن يراد بالمجاهدة العبادات القلبية والسرية والبدنية والمالية، فهذه الآية لامتثال جميع الأوامر والإنتهاء عن جميع المناهي إما عبارة إن كان المراد مطلق المجاهدة وإما دلالة إن كان المراد به القتال مع الكفار فإن من بذل نفسه وماله لإصلام العالم وإخلائه من الفساد وإعلاء كلمة اللهوإفشاء الدين، فإنه يصلح أولاً نفسه بآيتان المأمورات وانتهاء المناهي بالطريق الأولى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفين بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في ادعاء الإيمان جملة مستأنفة وجاز أن يكون الموصول مع صلته صفة للمبتدأ وهذه الجملة خبر له، فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون بالله أنهم مؤمنون صادقون وعرف الله غير

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١٠).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الدائم عليه بقولكم أمنا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من الله تعالى في أتعلمون الله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ عطف على الله يعني أن الله يعلم حقيقة اسراركم ولا يحتاج إلى إخباركم فعليكم بإصلاح بواطنكم، أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن أبي أوفى والبزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس وابن أبي حاتم مثله عن الحسن أن ناساً من العرب قالوا يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلك بنو فلان، قال الحسن كان ذلك لما فتحت مكة ونزلت ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ منصوب بنزع الخافض أي بأن أسلموا وبتضمين الفعل معنى الاعتداد وكذا إسلامكم في قوه تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ وكذا إن هداكم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ بخلق التصديق في قلوبكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في إدعاء الإيمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله يعني إن كنتم صادقين في إدعاء الإيمان فللّه المنة عليكم وفيه إشارة إلى أن كلهم ليسوا صادقين فيما إدعوا لذلك عقبه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني ما غاب فيهما ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه ما في ضمائركم، قرأ ابن كثير بالتاء خطاباً للاعراب داخلاً في مقولة قل والباقون بالياء على الغيبة والضمير راجع إلى الأعراب فهو كلام مستأنف من الله تعالى

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي وسعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير نحوه وأنه قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ سنة تسع وفيهم طلحة بن حويلة ورسول الله ﷺ مع أصحابه فسلموا، وقال متكلمهم يا رسول الله إنا نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن لمن وراءنا سلم فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾.

سورة ق

سورة مكيَّة وهي خمس وأربعون آية وثلاث ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾.

﴿قٓ﴾ والصحيح أنه من الحروف المقطعة فقيل اسم للسورة وقيل اسم من أسماء القرآن، وقال القرطبي هو مفتاح اسم الله القدير والقادر والقاهر والقريب والقابض، وقيل إشارة إلى قضاء الأمر أو قضاء ما هو كائن والحق أنه رمز بين الله ورسوله ﷺ لا يعلم تأويله إلا الله وبعض الراسخين في العلم وقد مر الكلام في أوائل سورة البقرة، قال: قال عكرمة والضحاك هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضر من خضر السماء والسماء مقببة عليه وعليه كتفاها يقال هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ الواو للقسم، وقال ابن عباس كلمة ق قسم يعني حذف حرف القسم بإيصال الفعل إليه أو إضماره وهذا الواو للعطف ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ أي ذو المجد والشرف على سائر الكتب أو لكونه كلام المجيد أو لأنه من تعله وعلم معانيه وامتثال أحكامه بجد وجواب القسم محذوف تقديره لقد صد الرسول المنذر لتبعثن أو نحو ذلك وقيل جوابه قوله

تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾[١] وقيل قد علمنا، وقال أهل الكوفة جوابه ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ بمعنى قد عجبوا أي كفار مكة وعلى التقدير الأول هذا معطوف على محذوف تقديره والقرآن المجيد لقد صدق الرسول وقد أنكره الكفار بل عجبوا ﴿أَن جَآءَهُم﴾ منصوب بنزع الخافض يعني عجبوا من أن جاءهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لعجبهم مما ليس هو بعجب وهو أن ينذرهم أحد من جنسهم أو من قومهم ممن عرفوا عدالته واعترفوا بها ومن كان كذلك لا يكون إلا ناصحاً لقومه خائفاً عليهم أن ينالهم مكروه وإذا علم أن أمراً مخافاً أظلهم لزمه أن ينذرهم فكيف ما هو غاية المخاف وقد قال لهم رسول الله ﷺ إذا اجتمع إليه بطون قريش «أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلاً يخرج بالوادي يريد أن يغير عليكم أنكم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[٢] الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ والفاء للتفسير فهو بيان لتعجبهم وهذا إشارة إلى اختيار الله تعالى محمداً ﷺ للرسالة وإضمار ذكرهم في عجبوا أو إظهاره هاهنا للتسجيل على كفرهم بذلك وجاز أن يكون الفاء للتعقيب وهذا إشارة إلى البعث بعد الموت فهو عطف لتعجبهم مما أنذر رواية على عجبهم ببعث المنذر وللمبالغة في إنكار هذا التعجب وضع المظهر موضع المضمر، فإنهم مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق الماوات والأرض وما بينهما أول مرة وإقرارهم بالنشأة الأولى أنكر والنشأة الأخرى مع شهادة العقل بأنه لا بد من الجزاء وجاز أن يكون هنا إشارة إلى المبهم يفسره ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ الظرف متعلق بمحذوف دل عليه ما بعده تقديره أنرجع إلى الحياة إذا متنا وصرنا تراباً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرجع ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ عن الوهم والعادة أو الإمكان وإنما أورد هذا أولاً مبهماً وثانياً مفسراً لأنه أدخل في الإنكار أو الأول استبعاد لأن يتفضل عليهم مثلهم والثاني استقصاء بقدرة الله تعالى عما هو أهون عليه مما يشاهدون من صنعه ثم رد الله تعالى إنكارهم للبعث فقال ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ يعني ما يأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت يعني لا يغرب من علمنا شيء فلا يتعذر علينا جمع ما نقص منها وبعثهم بعد الموت ومن قال هذه الجملة جواب للقسم قالوا اللام بحذوف لطول الكلام ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي محفوظ من الشياطين ومن أن يندرس ويتغير وقيل معناه حافظ التفاصيل الأشياء يعلم به من عنده من الملائكة وهذ الجملة حال من فاعل

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المسد (٤٩٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (٢٠٨).

علمنا ثم رد الله تعالى إنكارهم نبوة النبيّ ﷺ فقال ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات إضراب من الإضراب الأول فإن التكذيب بالشيء الثابت بالأدلة القطعية فوق من التعجبَ والاستبعاد ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ظرف متعلق بكذبوا ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ الفاء للسببية المريج المضطرب الملتبس فإن تكذيبهم سبب لاضطرابهم في القول، قال قتادة والحسن من ترك الحق مرج عليه أمره والتبس عليه دينه، وذكر الزجاج معنى اختلاط أمرهم أنهم يقولون مرة شاعر ومرة ساحر ومرة معلم ومرة مجنون ومرة مفتر والأقوال متناقضة غالباً ثم رد تكذيبهم وأرشدهم إلى الاستدلال على قدرته على البعث بخلق العالم فقال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أكذبوا بالبعث فلم ينظروا حين كذبوا به ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ حال من السماء أو ظرف متعلق بلم ينظروا ﴿كَيْفَ﴾ حال من مفعول ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ ورفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب وجملة بنيناها وزيناها بتأويل المفرد بدل من السماء والإستفهام بكيف للتقدير والمعنى ألم ينظروا إلى بنائنا السماء فوقهم وتزييننا إياها بالكواكب متكيفة بكيفية بديعة راسخة ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي شقوق ومن زائدةٍ والجملة حال من مفعول بنيناها أي كائنة على حال ليس لها عيوب وشقوق ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوب بفعل مقدر يفسره ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها والجملة معطوفة على بنيناها فإن قيل جملة بنيناها بتأويل المفرد بدل من السماء كما ذكرنا ولا يتصور ذلك في المعطوف قلنا في الكلام حذف وإضمار تقديره إما أن يقال أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وإلى الأرض من تحتهم كيف مددناها وإما أن يقال والأرض مددناها تحتها وجاز أن يقال الجملة بتأويل المفرد معطوفة على السماء والمعنى ألم ينظروا إلى مددنا الأرض ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبال ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل صنف من النباتات ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن ذا بهجة وسرور ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ منصوبان على العلة الغائية فإن المقصود من خلق الأشياء كونها تبصرة وذكرى دالة على وجود الخالق القديم القدير العليم الواجب وجوده وصفاته الكمال المنزه عن النقص والزوال ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه بالتفكر في خلقه خص هذا العبد لكونه هو المنتفع به ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثير النفع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ إضافة العام إلى الخاص على طريقة حق اليقين وكل الدراهم وعين الشيء يعني الحب الذي يحصد كالبر والشعير ونحر ذلك مما يزرع ويقتات به وإنما خص الحب بإضافة إلى الحصيد لأن المقصود من الحبوب والمنتفع به كمال الانتفاع ما يحصد ويقتات به وقيل هذه الإضافة من قبيل مسجد الجامع وصلاة الأولى بتأويل الصلاة الجامع

وصلاة الساعة الأولى، فالمعنى حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبر والشعير ونحوهما ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ معطوف على جناب ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ طويلات أو حاملات من بسقت الشاة إذا حملت أفردها بالذكر لكثرة منافعها وفرط إرتفاعها قال رسول الله ﷺ **«إن من الشجر شجرة لا تسقط ورقها وإن مثلها كمثل المسلم فأنبئوني ما هي فوقع الناس في شجر البوادي فقال رسول الله ﷺ «هي النخلة»**[1] رواه البخاري من حديث ابن عمر وقال عليه الصلاة والسلام «أكرموا عمتكم النخل فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر» رواه ابن أبي حاتم وأبو يعلى في مسنده، وابن عدي في الكامل والعقيلي وابن السني وأبو نعيم في الطب وابن مردويه عن علي(رض) ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾ أي ثمر ومحل مسمى بذلك لأنه تطلع والطلع أول ما يظهر من قبل أن ينشق ﴿نَّضِيدٞ﴾ منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر جملة لها طلع نضيد حال ثان من النخيل ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ عليته للإنبات أو مصدر عن غير لفظ فإن الإنبات رزق ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء عطف على أنبتنا ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ أي أرضاً جدبة لانماء لها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الخروج للنبات من الأرض بعد سببها ﴿ٱلۡخُرُوجُ﴾ للأموات من القبور في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«ما بين النفخين أربعون قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيت، قالوا أربعون شهراً، قال أبيت، قالوا أربعون سنة، قال أبيت ثم ينزل الله من السماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة»**[2] وأخرج ابن أبي داود نحوه وفيه ما بين النفختين أربعون عاماً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يسيل واد من تحت العرش من ماء فيما بين الصيحتين ومقدار ما بينهما أربعون عاماً فينبت منه كل خلق بلي من إنسان أو طير أو دابة ولو مر عليهم مارٌّ قد عرفهم قبل ذلك ما عرفهم على وجه الأرض فينبتون ثم يرسل الأرواح فيزوج بالأجساد وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ وأخرج أحمد وأبو يعلى والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ **«يبعث الناس يوم القيامة والسماء طش عليهم»** ثم أورد تسلية للنبيّ ﷺ ووعيدا للكافرين بمثل ما أصاب أمثالهم بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ أي ذو بطش يعني قبل كفار مكة ﴿قَوۡمُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: قول المحدث حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا (٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ (٤٩٣٥).

نُوحٍ﴾ أنذر قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فكذبوه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون وأنجاه الله ومن أمن معه في الفلك المشحون ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ في القاموس الرس بابتداء الشيء والبئر المطوية بالحجارة وبئر كانت لبقية من ثمود كذبوا نبيهم درسوه في بئر والحفر ودفن الميت، وقال البغوي الرس البئر وكل ركية لم تطو بالحجاة والآجر فهو ريس وقيل الرس المعدن والجمع رسايس. واختلفوا في أصحاب الرس؟ فقال بعضهم كما قال صاحب القاموس هم بقية ثمود وقال البغوي روى أبو روق عن الضحاك أن بئراً كان بحضرموت في بلدة يقال لها حاصورا وإن أربعة آلاف ممن آمن لصالح نجوا من العذاب فأتوا بحضرموت معهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمي حضرموت لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حاصورا وقعدوا على هذا البئرِ وأمروا عليهم رجلاً فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا ثم عبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله إليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان وكان جهالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم وفيهم قال الله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[1] قال سعيد بن جبير كان لأصحاب الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي أذى شعيب عليه السلام فبيناهم حول البئر في منازلهم انهارت البئر فخسف الله بهم وبديارهم ورباعهم فهلكوا جميعاً، وقال قتادة والكلبي الرس بئرٍ بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله عز وجل، وقال كعب ومقاتل والسدي الرس بئر بأنطاكية قتل فيها حبيب النجار وهم الذين ذكرهم في سورة ياسين، وقيل هم أصحاب أخدود الذين حفروها وقال عكرمة هم رسوا نبيهم في البئر ﴿وَثَمُودَ﴾ كذبت المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾[2] فجاء بناقة عشراء خرجت من صخرة فولدت ولداً مثلها وكانت تشرب الماء كله يوماً وتذر يوماً فقال صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾[3] فقال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾[4] فأنجى الله صالحاً والذين آمنوا معه وأخذت الذين

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٥٥ ـ ١٥٤.

(٤) سورة هود، الآية: ٦٥.

ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وَعَادٍ﴾ كذبت المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾(١) فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فصاروا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ وقومه العمالقة بعث الله إليه موسى وهارون، وقال: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾(٢) ألقى عصاه فإذا هي حية تسع وأدخل يده في جيبه خرجت بيضاء من غير سوء آية أخرى فكذب وتولى وقال أنا ربكم الأعلى فأوحى الله إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً واضرب بعصاك البحر فكان كل فرق كالطود العَظيم فسار في البحر موسى ببني إسرائيل وأنجى الله موسى وبني إسرائيل وأتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم فلما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فقال الله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾(٣) ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾، كذبوا المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾(٤) فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطر الله عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ كذب المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾(٥) إذ كانوا في حر شديد وكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فأظلهم الله

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٧ ـ ٢٠.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩١ ـ ٩٢.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٦١ ـ ١٦٨.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٧٧ ـ ١٨٩.

سبحانه وهي الظلة، فاجتمعوا إليها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قال البغوي قال قتادة هو تبع الحميري كان من ملوك اليمن وكان سار بالجيوش حتى حير الحيرة وبنىٰ سمرقند سمي تبعاً لكثرة أتباعه وكل واحد منهم سمي تبعاً لأنه يتبع صَاحبه وكان هذا الملك يعبد النار فأسلم ودعى قومه إلى الإسلام فكذبوه، ذكر محمد بن إسحاق وغيره عن عكرمة عن ابن عباس وغيره قالوا كان تبع الآخر وهو أبو كرب أسعد بن يكرب حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره فخرجوا لقتاله فكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه باللّيل فأعجبه ذلك، وقال إن هؤلاء لكرام فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران اسمهما كعب وأسد من أحبار بني قريظة عالمان وكانا ابني عم حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه محمد ﷺ مولده مكة وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه وفي عدوهم، قال تبع من يقاتله وهو نبي؟ قالا يسير إليه فيقتتلون هاهنا فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن فأتاه في الطريق نفر من هذيل، وقالوا إنا ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة قال أي بيت قالوا بيت بمكة وإنما تريد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يرده أحد قط بسوء إلا هلك فذكر ذلك للأحبار فقالوا ما نَعْلَم لله في الأرض بيتاً غير هذا البيت فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك ما أراد القوم إلا هلاكك لأنه ما ناداه أحد قط إلا هلك فأكومه واصنع عنده ما يصنع أهله فلما قالوا له ذلك أخذ النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم، فلما قدم مكة نزل الشعب شعب البطائح وكسا البيت الوصائل وهو أول من كسى البيت ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة وأقام به ستة أيّام وطاف به وحلق وانصرف فلما دنى من اليمن ليدخلها حالت حمير بين ذلك وبينه وقالوا لا تدخل علينا وقد فارقت ديننا فدعاهم إلى دينه وقال إنه دين خير من دينكم قالوا فحاكمنا إلى النار وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم، قال تبع أنصفتم فخرج القوم بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت النار

فأقبلت حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما يتلوان التوراة تعرق جباههما لم تضرهما ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حَمِيَّةً على دينهما فمن هنالك كان أصل اليهودية في اليمن. وذكر أبو حاتم عن الرقاشي قال كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة آمن بالنبيّ ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائه سنة وذكر لنا أن كعباً كان يقول ذم الله قومه ولم يذمه، وكانت عائشة تقول لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً وقال سعيد بن جبير هو الذي كسا البيت روى البغوي بسنده عن سهل بن سعد قال سمعت النبيّ يقول «**لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم**» والبغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**ما أدري تبع أكان نبياً أو غير نبي**» انتهى كلام البغوي في سورة الدّخان ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد أو كل قوم منهم أو جميعهم ﴿كَذَّبَ﴾ أفرد الضمير للفظة كل ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ أورد صيغة الجمع لأن من كذب واحداً فقد كذب جميعهم أو لأنهم كانوا كلهم لا يؤمنون بالله وحده وكانوا ينكرون إرسال الرسل بالطريق الأولى ﴿فَحَقَّ﴾ وجب وحل ﴿وَعِيدِ﴾ أي وعيدي أي عذابي الموعود كل ذلك يحل بهؤلاء عن الكفار مكذبي الرسل أثبت الياء وصاية ورش والباقون حذفوها في الحالين ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ في القاموس عيي بالأمر لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطلق أحكامه والهمزة للإنكار والفاء للعطف والتعقيب على مضمون قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخره معترضات والمستفاد إنكار تعقب الخلق ما سبق ذكره، والمعنى بيننا السماء بلا فروج ومددنا الأرض وألقينا فيها رواسي وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا بها ما ذكر فلم نعي بخلقها أول مرة كما ترونه تعترفون بالإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ أي خلط شبهة والمراد به الشك وأصل اللبس الستر وفي حالة الشك يختلط الحق بالباطل ويستر ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي معاد وقال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون له عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله إتخذ الله ولد وأنا الله أحد الصمد الذي لم الد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»(١) رواه البخاري، عن أبي هريرة وعن ابن عباس نحوه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ﴾ أي تحدث به ﴿نَفْسُهُۥ﴾ الوسوسة الصوت الخفي والمراد ما يخطر بالبال وما فيما توسوس

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الإخلاص (٤٦٩٠).

موصولة والباء في به صلة يقال صوت بكذا والضمير عائد إلى ما أو مصدرية والباء للتعدية والضمير عائد إلى الإنسان ونعلم خبر مبتدأ محذوف والجملة الإسمية حال من فاعل خلقنا أو مفعوله أو كليهما، وتقديره ونحن نعلم ما تحدث به نفسه فإن الله تعالى خلق الإنسان وسوسة ولكل شيء عرض وجوهر والخلق بالإختيار والإرادة مسبوق بالعلم ضرورة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الإنسان ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ الحبل العرق وإضافته إلى الوريد من قبيل شجرة الأراك ويوم الجمعة للبيان والجملة حال ثان من فاعل خلقنا والوريدان عرقان مكتنفان بصفحة العنق متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، قيل سمي وريدان لأن الروح يرده. واختلف أقوال العلماء في تصوير هذه الأقربية؟ فقال علماء الظاهر المراد قرب علمه منه، قال البيضاوي معناه نحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ففيه تجوز لقرب الذات لقرب العلم لأنه موجبه وحبل الوريد مثل يضرب لكمال القرب يقال الموت أدنى لي من الوريد، قال البغوي معناه نحن أعلم به منه لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب عن علم الله شيء وعلى هذا التأويل يلزم جواز أن يقال الطبيب أقرب إلى المريض من حبل الوريد فإن المريض لا يعلم بعض أحواله وهو لا يعلم شيئاً من أحوال نفسه فيجوز أن يقال أنا أقرب من السماء من نفسه فالإقتصار في القول بأقربيته سبحانه إلى خلقه بهذا المعنى غير مرضي عندي، وقالت الصوفية العلية بل الله سبحانه أقرب إلى المخلوقات من أنفسها قرباً ذاتياً لا زمانياً ولا مكانياً ولا متكيّفاً بكيفية أصلاً يدرك ذلك القرب بنور الفراسة لا بالمشاعر أو الاستدلال وغاية ما يقال في هذا المقام أن العالم من حيث أنه محتاج في الوجود والبقاء إلى الواجب يشبه نسبته إلى الواجب بنسبة الظل إلى الأصل فإن الظل لا وجود له ولا بقاء إلا بوجود أصله فالأصل أقرب إلى الظل من نفسه والواجب أقرب إلى الممكن من نفسه بالذات ألا ترى أن الممكن ما لم ينتسب إلى الواجب لم يجب بالغير وما لم يجب لم يوجد وما لم يوجد لا يجوز حمله على نفسه حملاً أولياً فلا يقال زيد ما لم يوجد حينئذ لسلبه عن نفسه إذ يشترط وجود الموضوع للحمل الإيجابي وإن كان حملاً أولياً فوجود الممكن أقرب إلى ذات الممكن عن ذاته لجواز سلب الشيء عن نفسه ما لم يوجد، والمراد بالوجود هاهنا ما به الموجودية لا المعنى المصدرية فذات الله سبحانه أقرب إلى الممكن من ذاته فهو أبعد في الوجدان وأقرب بالذات ولما كانت الصوفية ينسبون العالم إلى دائرة الظلال والظلال إلى الصفات والصفات إلى الذات وفي الظلال مراتب كثيرة كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «إن لله سبعون ألف حجاب من نور وظلمة لو

كشفت لأحرقت سبحاب وجهه وانتهى إليه بمن خلقه»[١] كذا في الصفات قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[٢] وقال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٣] فبناء على هذا قال المجدد وقدس سره العزيز أنه سبحانه وراء الوراء ثم وراء الوراء ثم وراء الوراء في جهته القرب دون البعد يعني ظلال الصفات أقرب إلى الممكن من أمكن وصفات الله تعالى أقرب إلى الممكن من ذاته ومن الظلال والله سبحانه أقرب إلى الممكن من ذاته ومن الظلال ومن الصفات والله تعالى أعلم.

فائدة: هذا النوع من القرب المستفاد من هذه الآية يعم الخلائق كلها حتى الكافرين ولله سبحانه بخواص عباده قرب آخر لا يشارك النوع الأول من القرب إلا اشتراكاً اسمياً لا حقيقياً وذلك القرب أيضاً يدرك بالفراسة الصحيحة ويستفاد من الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[٤] وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٥] ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾[٦] ﴿عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[٧] ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٨] وفي ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٩] ونحو ذلك، وقال عليه الصلاة والسلام «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل»[١٠] ونحو ذلك وهذا القرب يسمى بالولاية ولها مراتب لا تعد ولا تحضى ولا يدل عليه كلمة لا يزال ويضاده البعد المختص بالكفار قال الله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[١١] ﴿بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[١٢] ﴿ألا بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١٣] ـ ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ أي يأخذ الملكان ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الموكلان بالإنسان ومفعول يتلقى محذوف مراد يعني يتلقى عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ الجار والمجرور متعلق بقعيد وقعيد بدل من المتلقيان والتقدير

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني وفيه موسى بن عبيدة لا يحتج به. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: في عظمة الله تعالى (٢٥٢).
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٦.
(٤) سورة العلق، الآية: ١٩.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.
(٧) سورة التكوير، الآية: ٢٠.
(٨) سورة القمر، الآية: ٥٥.
(٩) سورة النجم، الآية: ٨ ـ ٩.
(١٠) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).
(١١) سورة هود، الآية: ٦٠.
(١٢) سورة هود، الآية: ٦٨.
(١٣) سورة هود، الآية: ٤٤.

عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أي مقاعد كالجليس بمعنى المجالس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وقيل يطلق الفعيل على الواحد والكثير كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾(١) والمراد القعيد اللازم الذي لا يبرح إلا القاعد الذي هو ضد القائم، وقال مجاهد القعيد الرصيد والظرف متعلق باذكر يعني اذكر يتلقى أو متعلق بأقرب إيذاناً بأنه تعالى غني عن استحفاظ الملكين فإنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما لكنه لحكمة اقتضة وإلزام حجة يوم يقوم الأشهاد ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ الإنسان من فيه من قول من زائدة وقول مفعول به ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ ملك ﴿رَقِيبٌ﴾ يرقب عمله ليكتب ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر معه الإستثناء مفرغ والمستثنىٰ صفة لقول، قال الحسن إنما الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين عند غائطه وعند جماعه، وقال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه، وقال عكرمة لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يوزر فيه، روى البغوي بسنده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيآت فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه لسبع ساعات لعله يسبح ويستغفر**» ورواه ابن راهويه في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان، لما ذكر الله تعالى استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ببيان مبدأ خلق العالم من بناء السماء والأرض ومبدأ خلق الإنسان ومعاشه بقوله، ولقد خلقنا الإنسان إلى هاهنا عقب ذلك قرب الموت وقيام الساعة تهديداً وتوعيداً ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي غمرته شدته التي يغشى الإنسان ويزيل عقله جاء جاءت وما عطف عليه أعني نفخ وجاءت وكشفنا، وقال بصيغة الماضي ومعناه المستقبل للدلالة على قربه وتحقق وقوعه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للتعدية والمعنى أحضرت سكرات الموت الأمر المتحقق الثابت فإن الدنيا وما فيها كأنها سراب لا تحقق لها وما كان بعد الموت فهو أمر ثابت لا مردّ له والوعد الحق الذي لا يحتمل تخلفه من الموت أو الجزاء فإن الإنسان خلق له وجاز أن يكون حالاً متلبساً بالحق ومستصحباً له والحق هو الموت وما بعده، وجاز أن يكون بالحق جملة مؤكدة لما سبق يعني هذا القول متلبس بالحق ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الحق بمعنى الموت أو الجزاء ﴿ما كنت﴾ أيها الإنسان ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتفرعنه يعني تكره الموت وتنكر الجزاء وهذه الجملة بتقدير القول حال من مقدر تقديره جاءت سكرة موت الإنسان بالحق يقال له ذلك ما كنت منه تحيد فإن المراد بالموت موت الإنسان ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم يقول

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

لجهنم إن كان ظرفاً لنفخ وإلا فهو إشارة إلى مصدر نفخ والمضاف محذوف يعني وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمُ﴾ تحقق ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ والجملة مفعول يقال المحذوف يعني يقال ذلك يوم الوعيد، أخرج أبو نعيم في الحلية عن عكرمة قال إن الذين يفرقون في البحر فتقسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام فيلقها الأمواج على البر فيمكث العظام حتى تصير نخرة فتمر بها الإبل فيأكل ثم يسير الإبل فتبعرها ثم تجيء بعدهم قوم فينزلون منزلاً فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم تخمد ذلك النار فتجيء ريح فيلقي ذلك الرماد على الأرض، فإذا جاءت النفخة خرج أولئك وأهل القبور ﴿وَجَآءَتْ﴾ ذلك اليوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة وكافرة ﴿مَّعَهَا﴾ محلها النصب على الحال من كل لإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن عثمان بن عفان في ثلاثة قال سائق يسوقها إلى أمر الله تعالى وشهيد يشهد عليها بما عملت، وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي هريرة قال السائق الملك والشهيد العمل ذكر السيوطي في كتاب البرزخ من حدث جابر مرفوعاً «فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيآت فانتشطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضر معه أحدهما سائق وآخر شهيد» وأخرجه أبو نعيم وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا، وقال البغوي وقال الضحاك السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل وهو رواية العوفي عن ابن عباس ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ على إضمار القول يعني يقال له لقد كنت في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي نزل بك هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الحاجب لأمور المعاد، وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألف بها وقصور النظر عليها والران واسوداد القلب المكنى عنه بقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾(٢) ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذ تبصر ما كنت تنكره في الدنيا، قال البغوي روي عن مجاهد يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيآتك حديد ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي الملك الموكل عليه عطف على يقال المحذوف ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي حاضر، إما موصوفة والظرف صفة له وعتيد صفة بعد صفة وإما موصولة خبر مبتدأ والظرف صلتها وعتيد بدل سنها أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، والإشارة إما إلى الشخص أو إلى ديوان عمله يعني هذا شيء كائن عندي حاضراً وهذا الذي هو كائن عندي حاضراً وهذا حاضر فيقول الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو الواحد وتثنية الفاعل بمنزلة

(١) سورة البقرة، الآية: ٧. (٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

تثنية الفعل للتأكيد أو الألف بدل من نون التأكيد الخفيفة للوصل مجرى الوقف ويؤيده ما قرىء بالنون الخفيفة ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معاند للحق ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي للزكوة المفروضة وكل حق وجب في ماله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله تعالى ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في الله وفي دينه ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الموصول مبتدأ متضمن معنى الشرط وخبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وهو النار أو الموصول بدل من كف كفار فألقياه تكرير للتأكيد الموصول مفعول يفسره فألقياه ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني الملك الموكل به كذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل، قال سعيد بن جبير يقول الملك ذلك حين يقول الكافر رب إن الملك زاد عليّ في الكتابة فيقول الملك ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعني ما كسبته إلى الكفر والطغيان وما زدت عليه في الكتابة ولكون هذه الجملة جواباً بالمحذوف أعني قول الكافر هو المغاني وكذب علي استؤنفت هذه الجملة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول بخلاف الأولى أعني ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ فإنها واجبة العطف ما قبلها للدلالة على جميع مفهوماتهما في الحصول أعني مجيء كل نفس وقول قرينه بما قال ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وقال بعض المفسرين المراد بالقرين الشيطان الذي قيض لهذا الكافر يعني أن الكافر يقول أطغاني شيطاني فيقول الشيطان ربنا ما أضللته ولا أغويته ولكن كان في ضلال بعيد فأعنته فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي مائلاً إلى الفجور كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾(١) ولهذا ترى المخلصين الكرام الصوفية العلية شمروا ذيلهم وبذلوا جهدهم في مجاهدة أنفسهم وتزكيتها كيلا متطرق إليهم الشيطان والله أعلم، لكن ما ذكره علماء العربية أن المعرفة إذا أعيدت فالثاني غير الأول كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾(٢) معناه إن مع عسر واحد يسرين وإن الأصل في الإضافة العهد الخارجي يقتضي أن يكون المراد بقرينه ثانياً أيضاً الملك الموكل به كما قال سعيد بن جبير وغيره، وقال بعض المتأخرين المراد بالقرين في كلا القرينين الشيطان الذي قيض مع الكافر فهو له قرين ومعنى قوله هذا ما لدي عتيد هذا الشخص ما عندي وفي سلطاني عتيد لجهنم هيّنة لها بإغوائي ومعنى قوله ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد أن ما أطغيته كرهاً ولكن كان في ضلال بعيد فاتبعني باختياره واستجاب لي دعوتي إياه إلى الكفر والمعاصي ولم يستجب دعوة رسلك قَالَ الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي موقف الحساب بحيث لا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الشرح، الآية: ٥ ـ ٦.

فائدة فيه ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي فلم يبق لكم حجة وهو حال وفيه تعليل للنهي أي لا تختصموا عاملين بأن أوعدتكم والباء زائدة، وجاز أن يكون بالوعيد حالاً والمفعول به قوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ يعني لا يتخلف قولي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١) فلا تطمعوا غفراني، وقال الكلبي واختاره الفراء أن المعنى لا يكذب عندي ولا يغير القول عن وجهه لأني أعلم الغيب ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ليس المراد نفي مبالغة الظلم بل نفي أصل الظلم وإنما أورد صيغة المبالغة تعريضاً للمخاطبين يعني أن الكافرين في الظلم كما في قوله تعالى ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾(٢).

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ قرأ نافع وأبو بكر يقول بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الله سبحانه على نسق قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ والباقون بالنون على التكلم ولما سبق من الله تعالى أنه يملأ جهنم من الجنة والناس فهذا سؤال منه تعالى لتصديق خبره وتحقيق وعده ﴿وَتَقُولُ﴾ يعني جهنم في الجواب ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان إستفهام إنكار ومعناه قد امتلأت فلم يبق في موضع لم يمتلىء يعني لا يتصور المزيد على هذا الإمتلاء الذي حصل والصحيح أنه استفهام للاستزادة لما روى الشيخان في الصحيحين عن أنس عن النبيّ ﷺ قال: «**لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله تعالى لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة**»(٣)

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨. (٢) سورة النور، الآية: ٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٧٣٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٨).

وأخرج ابن أبي عاصم في الستة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «**جهنم تسأل المزيد حتى يضع الجبار تعالى قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط**» وقال البغوي روي عن ابن عباس(رض) إن الله تعالى سبقت كلمته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾[١] فلما سيق أعداء الله إليها لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملأها، فتقول ألست قد أقسمت لتملأني، فيضع قدمه عليها ثم يقول هل امتلأت فتقول قط قط فليس مزيد، وقال البيضاوي هذا السؤال والجواب جيء بهما للتخيل والتصوير يعني أنها مع اتساعها تطرح فيها من الجنة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلىء لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ هذا على تقدير كون الإستفهام للإنكار أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد فراغ أو إنها من شدة زفيرها وحدتها وتشبثها بالعصاة كالمستكثر لهم والطالب للزيادة وهذين التوجهين على تقدير كون الاستفهام للإستزادة ولكن لا ضرورة إلى هذا التأويل والأولى الحمل على حقيقة السؤال والجواب ولا استبعاد في إنطاقها كإنطاق الجوارح، ويوم إما منصوب بتقدير أذكر مقدراً أو ظرف لنفخ وما عطف عليه على سبيل التنازع ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي أدنيت عطف على نفخ ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، منصوب على الظرف أي مكان غير بعيد أو زماناً غير بعيد وعلى الحال وتذكيره لأنه صفة محذوف أي شيئاً غير بعيد أو لأن الجنة بمعنى البستان والغرض من هذا التقييد التوكيد كما يقال قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل ﴿هَٰذَا﴾ الثواب أو الإزلاف مبتدأ خبره ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ قرأ ابن كثير بالياء على الغيبة والضمير للمتقين والباقون بالتاء على الخطاب للمتقين بإضمار القول يعني لهم هذا ما توعدون ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من المتقين بإعادة الجار وجاز أن يكون هذا مبتدأ وما توعدون صفة ولكل أواب خبره والمعنى رجاع إلى الله عما سواه ظاهراً وباطناً وقيل رجاع من المعاصي إلى الطاعات، وقال سعيد بن المسيب الذي يذنب ثم يتوب وقال الشعبي ومجاهد الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها وقال الضحاك هو التواب وقال ابن عباس وعطاء المسبح كما في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾[٢] وقال قتادة المصلح، وعن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال «**صلاة الأوابين حين ترمض الفصال**»[٣] رواه مسلم ﴿حَفِيظٌ﴾ يعني دائم الحضور لا يغفل عن الله طرفة عين، وقال ابن عباس الحافظ لأمر الله وعدنا أيضاً أنه هو الذي يحفظ ذنوبه حتى

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٩. (٢) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الأوابين حين ترمض الفصال (٧٤٨).

يرجع ويستغفر منها يعني لا يرى ذنوبه سهلاً، وقال قتادة، حفيظ لما استودعه الله من حقه، وقال الضحاك هو المحافظ على نفسه المتعهد لها، وقال الشعبي المراقب، وقال سهيل بن عبد اللّه هو المحافظ على الطاعات ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مخلص مقبل على الطاعة ومحل من مجرور على أنه بدل بعد بدل للمتقين أو بدل من موصوف أواب أو مرفوع على الابتداء خبره ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ على تأويل يقال لهم أدخلوها فإن من معناه الجمع وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول أو صفة لمصدر أي خشية متلبسة بالغيب يعني خشي عقابه وهو غائب من الله تعالى يعني في الدنيا حين لم يره أو غائب عن عقابه أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد، قال الضحاك والسدي والحسن يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد وتخصيص الرحمن للإشعار بأنهم رجوا رحمته وخافوا عذابه أو بأنهم يخشون عذابه مع علمهم بسعة رحمته لا يغترون برحمته ولا يجترئون على معاصيه ووصف القلب بالإنابة لأن المعتبر وإنما هي الإنابة بالقلب ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي متلبسين بسلامة يعني سالمين من العذاب والهموم وزوال النعمة أو بسلام يعني مسلماً عليكم من الله وملائكته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الدخول بتقدير المضاف يعني وقت ذلك الدخول في الجنة ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ يوم تقدير الخلود كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[(١)] روى الشيخان عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما هو فيه**»[(٢)] وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: «يقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت»[(٣)] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ وهو مما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن فيتمنى ويتمنى فيقول هل تمنيت فيقول نعم فيقول لك ما تمنيت ومثله معه**»[(٤)] رواه مسلم، وأخرج نهاد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ وذكر حديثاً طويلاً قال فيه «ثم يقول الله تعالى إني عهدت إلى عبادي أني لا أدخل الجنة رجلاً إلا جعلت له

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤٥).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

فيها ما اشتهت نفسه لكم فيها ما سألتم ومثله» وقال جابر وأنس والمراد بالمزيد النظر إلى وجه الله الكريم، أخرج مسلم وابن ماجه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم**» ثم تلا هذه الآية، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1] وروى ابن خزيمة وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري وكعب بن عجرة وابن عباس وحذيفة وابن مسعود وغيرهم عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يبعث يوم القيامة منادياً ينادي الصوت يسمعه أولهم وآخرهم يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنى وزيادة الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن**» والله تعالى أعلم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾ أي من قومك بطشاً قوة كعاد وفرعون وغيرهم وجملة هم أشد صفة لقرن ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ في القاموس نقب في الأرض أي ذهب كأنقب ونقب، قلت التشديد للتكثير والمعنى إذهبوا في البلاد للتعرف فيها والتمتع وحينئذ الفاء للسببية فإن شدة بطشهم سبب للتصرف في البلاد أو المعنى جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت والفاء حينئذ لمجرد التعقيب ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ من زائدة ومحيص في محل الرفع على الفاعلية أو النصب على المفعولية بفعل محذوف، والاستفهام للإنكار تقديره بل كان لهم محيص أو هل وجدوا لهم محيصاً فكيف يغفل أهل مكة ويلههم الأمل وجاز أن يكون نقبوا معطوفاً على أهلكنا والضمير عائد إلى أهل مكة والمعنى إنهم ساروا في بلاد القرون الخالية فتشوا أخبارهم ورأو آثارهم فهل محيصا حتى يتوقعوا مثلهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ السورة وإن كان ضمير نقبوا راجعاً إلى أهل مكة فيجوز أن يكون المشار إليه مصدر لقبوا يعني في سيرهم في البلاد ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي قلب صاف عن الكامرات صالح لتجليات الصفات له لعينه غير متكفية بالذات مشتغل بالله فارغ عن غيره مصدق لحديث قدسي «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[2] ولا يكون القلب هكذا إلا بعد الفناء المصطلح للصوفية، وقال ابن عباس معناه كان له عقل تسمية الحال باسم المحل وقيل المراد قلب واع يتفكر في حقائق الأمور وكان إن كان ناقصة بمعناه أو بمعنى صار فقلب إسمه وله خبر وإن كان تامة فقلب فاعله وله حال من الفاعل والجار والمجرور أعني لمن كان الخ متعلق بذكرى أو بالظرف المستقر أعني في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٧).

(٢) قال الحافظ العراقي، لم أر له أصلاً، وفي حديث عقبة عند الطبراني «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين». انظر تخريج أحاديث الإحياء/ المجلد الثالث/ كتاب شرح عجائب القلب.

ذلك ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ عطف على صلة من ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال من فاعل ألقى يعني أن السورة موعظة لمن كان له قلب سليم أو استمع القرآن وهو شهيد حاضر قلبه ولو بتكلف لا بتغافل أو شاهد يصدقه فيتعظ بظاهرة وينزجر بزواجره قلت فالأول بيان الكاملين، والثاني بيان المريدين المخلصين نظيره قوله علي الصلاة والسلام «الإحسان أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] يعني يتصور الحضور بتكلف.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن اليهود أتت رسول الله ﷺ فسألت عن خلق السماوات والأرض فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والبحار يوم الإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من المنافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمداين والعمران والخراب وخلق الله يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في أول ساعة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية والتي الآفة على كل شيء ينتفع به الناس وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر الساعة، قالت اليهود ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا قد أصبت لو أتممت، قالوا ثم إستراح فغضب النبيّ ﷺ غضباً شديداً فنزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ من تعب وإعياء ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اليهود إن الله تعالى أعني فاستراح أو المشركون في أمر البعث فإنه من قدر على خلق العالم فهو قادر على بعثهم والانتقام منهم، وروى مسلم عن أبي هريرة من غير ذكر اليهود ولاذكر نزول الآية، ولفظه أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق**

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠).

الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر الساعة من النهار بين العصر إلى الليل»[1] قلت لعل ذكر خلق التربة يوم السبت من خلط بعض الرواية والصحيح أن بدء خلق العالم من يوم الأحد وتمامه يوم الجمعة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ والسبت اليوم السابع فإن قيل قد صحّ من الأحاديث ما يدل على أن خلق آدم بعد خلق السماوات والأرض والملائكة والجن بزمان طويل وكان قبل ذلك سلطنة الجن وكان إبليس في الملائكة وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا والجنة يعبد الله تارة في الأرض وتارة في السماء وتارة في الجنة وفسر قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝﴾[2] أنه قد أتى على آدم أربعون سنة ملقى من طين بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به، كذا قال البغوي وغيره وهذا الحديث يدل على أن آدم خلق في آخر الساعة من جمعة خلق فيها الملائكة والفلكيات فكيف التوفيق؟ قلت لعل المراد بخلق آدم تقديره في اللوح المحفوظ يدل عليه وقوله «خلق في أول ساعة الآجال حين يموت من مات وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء ينتفع به الناس» فإنه لا يتصور ذلك بمعنى التقدير ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني صل متلبساً بحمد ربك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾يعني صلاة العصر وروي عن ابن عباس قال قبل الغروب الظهر والعصر هذا لعل قول ابن عباس مبني على أن وقت الضروري للصلاتين واحد كما قال به مالك وغيره ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ ويعني صلاة المغرب والعشاء وقال مجاهد المراد منه صلاة الليل، أي وقت صلّى يعني نوافل ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة بكسر الهمزة مصدر أدبر إدباراً وقرأ الآخرون بفتحها على أنه جمع دبر، قال البغوي قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والحسن والشعبي والنخعي والأوزاعي أدبار السجود ركعتان قبل صلاة المغرب وإدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الفجر وهي رواية العوفي عن ابن عباس ورواه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً هكذا قال أكثر المفسرين، ولم يظهر لي وجه إطلاق أدبار السجود على صلاة قبل صلاة المغرب مع أن وقت الغروب قبيلها ليس وقت السجود والظن أن يكون المراد من أدبار السجود النوافل الراتبة بعد الفرائض وجاز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قل سبحان الله

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام (٢٧٨٩).

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١.

وبحمده، روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله مئة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»**[1] روى الشيخان عنه مرفوعاً «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» وهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمٰن سبحان الله وبحمده سبحان العظيم» وقال مجاهد قوله تعالى:** ﴿وَسَبِّحْ﴾ هو التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«من سبح في دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»** رواه مسلم والبخاري ونحره أخرج مالك وابن خزيمة ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ صيغة أمره ما بعده بتأويل المفرد أو بتقدير المضاف مفعول به يعني اسمع ما على عليك أو اسمع حديث ﴿ يَوْمَ يُنَادِ﴾ فائدة قوله تعالى استمع التنبيه والتهويل وتعظيم المخبريه والظرف على التأويل الأول متعلق بفعل محذوف دل عليه يوم الخروج تديره يخرج الناس كلهم من القبور يوم ينادي، قال النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وابن مجاهد عن قنبل ينادي بالياء في الوقف فقط والباقون يقفون بغيرياء ﴿ٱلْمُنَادِ﴾ اثبت الياء في الحالين ابن كثير وفي الوصل خاصة نافع وأبو عمر والباقون حذفوها في الحالين قال مقاتل ينادي إسرافيل بالحشر أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وكذا أخرج ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافع في هذه الآية قال يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فيقول يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمركم أن تجتمع لفصل الخطاب ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ متعلق بيناد يعني من صخرة بيت المقدس وهو قريب من القبور لكونها من الأرض وهما في وسط الأرض، وقال الكلبي هي أقرب الأرض إلى السماء ثمانية عشر ميلا ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ بدل من يوم يناد أي الأموات يسمعون بإذن الله تعالى فإن الأموات والجمادات في الاستماع إذا أراد الله تعالى كالأحياء فإن الموجودات لا تخلو عن نوع من الحياة كما حققناه في تفسير سورة الملك وكذا انعقد الإجماع على عذاب القبر على الروح والجسد جميعاً أخرج الشيخان عن أنس أن النبيّ ﷺ وقف على قتل بدر فقال «يا فلان بن فلان يا فلان بن فلان وهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٥) وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٢).

وعدني ربي حقاً» قال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجراماً لا أرواح فيها فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً»[١] وقال القرطبي نفخة الإحياء تمتد وتطول فيكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج من القبور فلا يسمعون ما كان للإحياء ويستمعون ما كان للإزعاج، وقال السيوطي يحتمل السماع من أول وهلة للأرواح وهي في الصور، قلت ما ذكر من كلام إسرافيل خطاب للعظام والجلود لا للأرواح فلا فائدة في سماع الأرواح والله تعالى أعلم ﴿ٱلصَّيۡحَةَ﴾ يعني صيحة إسرافيل المذكور، وقال البيضاوي ولعله في إعادة نظيركن يعني أمر تكويني لا يشرط فيه السماع، قلت: لكن قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ﴾ صريح في إثبات السماع فالأولى ما قلت بالحُقّ متعلق بالصيحة والمراد به البعث للجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ من القبور ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ في الآخرة ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ﴾ قرأ الكوفيون وأبو عمرو بتخفيف الشين بحذف أحد التائين والباقون بالتشديد بإبدال التاء شيناً والإدغام وأصله يتشقق ﴿ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾ أي عن الأموات إذا ادعوا إلى الحساب والظرف أعني يوم تتشقق متعلق بفعل دل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٌ﴾ تقديره يحشرون يوم تشقق الأرض عنهم ﴿سِرَاعٗاۚ﴾ جمع سريع حال من الضمير المرفوع في الفعل المقدر يعني يحشرون سراعاً، وقيل من الضمير المجرور في عنهم يعني تشقق الأرض عنهم حال كونهم مسرعين في الخروج ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحشر دفعة واحدة المفهوم مما سبق ﴿حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٌ﴾، الظرف متعلق بيسير قدم عليه للاختصاص فإن ذلك لا تيسير إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن كما قال: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾[٢] ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة في تكذيبه فيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ تجبرهم على الإسلام إنما بعث مذكراً وداعياً، أخرج ابن جرير من طريق عمرو بن قيس الملائي عن ابن عباس قال قالوا يا رسول الله ﷺ لو خوفتنا فنزلت ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ثم أخرج عن عمر مثله مرسلاً، قرأ ورش وعيدي وصلاً فقط والباقون يحذونها في الحالين يعني لا ينفع تذكيرك بالقرآن إلا من يخاف ما أوعدت به من عصاني من العذاب يعني المسلمين والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٩٧٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٥).

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ
عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ
(١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾ مصدر يعني الرياح تذروا التراب وغيره أو النساء والمولود فإنهن يذرين أولاد أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرها، قرأ أبو عمرو بإدغام التاء في الذال ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي ثقلاً مفعول به يعني الرياح الحاملات للسحاب أو النساء الحاملات النطف والأجنة أو السحب الحاملة للمطر أو أسباب ذلك ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)﴾ صفة مصدر محذوف يعني جرياً سهلاً وهي الرياح الجارية في مهابها والنساء الجاريات في خدمة الأزواج يسراً لكونهن حاملات أو السفن الجارية في البحر سهلاً أو الكواكب التي تجري في منازلها ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)﴾ مفعول به يعني الرياح التي تقسم الأمطار بتصرف السحاب أو الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها أو ما يعمها من أسباب القسمة فإن حملت على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة وإلا فالفاء للترتيب أفعال وجواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث ما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية، ﴿لَصَادِقٌ﴾ يعني وعد صادق كعيشة راضية أي ذات رضاء ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي الجزاء من الثواب والعقاب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لكائن لا محالة من الله سبحانه كأنه استدلال بما أقسم من الأشياء العجيبة الدالة على كمال قدرة الصانع الصانع المختار على الاقتدار على البعث الذي أوقعه جواباً للقسم ثم عطف على الحملة القسمية الأخرى فقال ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾ جمع حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثال ومثل في القاموس الحبك الشداد الأحكام

وتحسين أثر الصنعة في الثواب وحبك الرمل بضمتين حروفه الواحدة حباك ككتاب ومن الماء والشعير الجعد المنكسر منها ومن السماء طريق النجوم، قال البغوي قال ابن عباس وقتادة وعكرمة ذات الخلق الحسن المستوى يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد ما أحسن حبكه، وقال سعيد بن جبير ذات الزينة قال الحسن حبكت بالنجوم، قال مجاهد هي المتقن البنيان، وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطريق كحبك الماء إذا ضربته الريح وحبك الرمل والشعر الجعد ولكنها لا يرى لبعدها من الناس، قال البيضاوي معناه ذات الطرايق والمراد إما الطرايق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار ويتوسل بها إلى المعارف أو النجوم فإن لها طرائق أو أنها تزينها كما يزين المواشي طرايق الرشي وجواب القسم ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ في الرسول يعني قولهم تارة إنه شاعر وتارة إنه ساحر وتارة إنه مجنون أو في القرآن إنه سحر أو كهانة أو أساطير الأولين أو شعر قاله من تلقاء نفسه أو في القيامة فبعضهم شك فيه وبعضهم استحاله وأنكره، قال البيضاوي: لعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بالطريق للسماوات في تباعدها واختلاف غاياتها وجاز أن يكون خطاباً لأهل مكة يعم المؤمنين والكفار يعني منكم مصدق ومنكم مكذب ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي يصرف عن الرسول والقرآن ﴿مَنْ أُفِكَ﴾، أي صرف في علم الله تعالى يعني من حرمه الله تعالى عن الإيمان بحمد ﷺ والقرآن، وجاز أن يكون ضمير عنه راجعاً إلى القول المختلف ويكون عن بمعنى من يعني يصدر إفك عن افك عن القول المختلف سببه ذلك أن كفار مكة إذا أراد رجل الإيمان يتلقونه ويقولون إنه ساحر كاذب كاهن مجنون غيصرفونه عن الإيمان وهذا معنى قول جاهد وهذه الجملة معترضة لبيان خيبة من لم يؤمن ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي الكذابون وهم أصحاب القول المختلف من الكفار، والخرص الظن والتخمين من غير دليل موجب لليقين وكلما كان مبنياً على دليل صحيح لا يتصور فيه الإختلاف وذكرهم بعنوان الخراصين والجملة في الأصل دعاء بالقتل أجري مجرى اللعن ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي جهل وغباء يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْأَلُونَ﴾ محمد ﷺ إستعجالاً إنكاراً أو استهزاء ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء جملة يسألون في محل النصب على الحالية من الخراصين وجاز أن يكون لبيان علة لعنهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي يحرقون بالنار كما يفتن الذهب بالنار وعلى بمعنى الباء والظرف إما بدل من يوم الدين والمعنى يسألون متى يوم تعذبنا بالتاء يا محمد فحينئذ محله الرفع عى الإبتداء وفتح للإضافة إلى غير متمكن، وجاز أن يكون جواباً من الله تعالى لسؤالهم يوم

حينئذ خبر لمبتدأ محذوف أي هو يوم هم على النار يفتنون أو منصوب على الظرفية بفعل محذوف يعني يقع الدين يوم هم يفتنون فعلى تقدير كونه داخلاً في السؤال قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ مرتبط بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ يعني يقال لهم يقال لهم ذوقوا فتنتكم أي عذابكم أو جزاء كفركم وعلى التأويل الثاني حال من الضمير المرفوع في يفتنون بتقدير مقولاً لهم هذا القول هٰذا بدل من فتنتكم موصوف لقوله ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا تكذيباً وجاز أن يكون هذا مبتدأ والموصول خبر يعني هذا هو الذي كنتم تستعجلون والجملة تعليل لقوله ذوقوا.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم ذكر الله سبحانه حال المؤمنين المصدقين النبيّ ﷺ والقرآن ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ أي أنهار جارية من الخير والكرامة حال من الضمير في الظرف يعني قابلين لما أعطاهم ربهم راضين به يعني كل ما يأتيهم يكون حسناً مرضياً مقبولاً ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ عابدين لله تعالى بالحضور والإخلاص طالبين رضاه خالصة سبحانه يطلب رضاهم فهذه الجملة تعليل لما سبق ثم فسر إحسانهم وعللها بقوله ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ما زائده ويهجعون خبر لكان والهجوع النوم ليلاً وقليلاً منصوب على الظرفية ومن الليل صفة له مبينة أو على المصدرية ومن للتبعيض ومعناه كانوا ينامون زماناً قليلاً كائناً من الليل أو هجوعاً قليلاً في بعض الليل، وجاز أن يكون ما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية، وعلى التقديرين قليلاً إما منصوب على أنه خبر كان وما يهجون بدل اشتمال من الضمير المرفوع في كانوا أوما منصوب ظرف مستقر في محل النصب على الخبر وما يهجعون فاعل للظرف والمعنى كان ما يهجعون فيه أو هجوعهم قليلاً كائناً من الليل أو كانوا قليلاً من الليل هجوعهم أو ما يهجعون في ويصلون أكثر الليل، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس معناه كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها إما من أوسطها أو من آخرها يعني كان الليل الذي ينامون فيه كله قليلاً كذا قال مطرف بن عبد اللّه، وقال الضحاك ومقاتل كانوا من الناس قليلاً من الليل يهجعون يعني لا ينامون فعلى هذا قليلاً خبر كان وجملة من الليل ما

يهجعون مستأنفة وما نافية، قال البيضاوي وغيره هذا لا يجوز لأن ما بعد ما لا تعمل فيما قبلها ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ يعني في الأسحار ﴿هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ السحر السدس الآخر من الليل، وفي القاموس قبيل الصبح وطرف كل شيء، يعني أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة صلاتهم بالليل إذا سحروا أخذوا في الاستغفار هضماً لأنفسهم واستقصاراً لعملهم كأنهم أسلفوا في ليلتهم الجرائم ووقع عنهم التقصير في الطاعات وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم أحقاء بذلك لوفور علمهم بالله العظيم وخشيتهم من الله تعالى اللهم إني أسئلك خشية العالمين وعلم الخائفين منك ويقين المتوكلين عليك، قال الحسن معناه لا ينامون من الليل إلا قلة وربما نشطوا فمدوا إلى السحر ثم أخذوا في الاستغفار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول أنا الملك من الذي يدعوني فأستجيب له من الذي يسألني فأعطيه من الذي يستغفرني فأغفر له**»(١) متفق عليه وفي رواية مسلم «ثم يبسط يديه ويقول من يعترض غير عدوم ولا ظلوم حتى ينفجر الفجر» وقد صح عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا قام من الليل يتهجد يستغفر يقول «اللَّهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق وعدك الحق بقاؤك حق وقولك حق والنار حق والنبيّون حق ومحمد حق والساعة حق اللهُّم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت أنت ربنا وإليك المصير فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك»(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس، وعن عبادة بن صامت قال: قال رسول الله ﷺ «**من تعارّ من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال رب اغفر لي أو قال ثم دعا استجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته**»(٣) رواه البخاري، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الذكر والدعاء في آخر الليل (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: التهجد بالليل (١١٢٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: فضل من تعارّ الليل فصلى (١١٥٤).

من الليل قال: «**لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**»(١) رواه أبو داود ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ يعني يعطون من أموالهم السائلين الذين يسألون الناس والمحرومين يعني المتعففين عن السؤال الذين يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من التعفف فالمحسنين يعطونهم إذ يعرفونهم بسيماهم بفقد أحوالهم كذا قال قتادة والزهري وغيرهما، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب المحروم الذي ليس له سهم من الغنيمة ولا يجري عليه من الفيء شيء، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأصابوا غنماً فجاء قوم بعدما فرغوا يعني من القسمة فأعطاهم الغانمون منها فنزلت هذه الآية، وقال زيد بن أسلم المحروم هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته كذا قال محمد بن كعب القرظي وقرأ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾(٢) ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ قال أكثر المفسرين هذه الجملة ما عطف عليه متصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ وما بينهما معترضات وعندي هي معطوفة على ما سبق في تفسير المحسنين والثناء عليهم لكن فيه وضع المظهر موضع المضمر الراجع إلى المحسنين إيذاناً لتحصيل الإيقان بالاستدلال والتفكر في الآيات تقديره وفي الأرض آيات لهم فإنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يحزوا عليها صماً وعمياناً بل ينظرون بأبصارهم ويتفكرون في خلق الأرض ودحوها كالبساط وارتفاع بعضها على الماء ليسكن عليها عباد الرحمن واختلاف أجزائها في الكيفيات والمنافع وما خلق الله فيها من المعادن والنباتات والحيوانات والعيون والأنهار ويستدلون بها على وجود الصانع الواجب وعلمه وقدرته وإرادته وحده وفرط رحمته وحكمته ثم ينظرون ببصائرهم ما يترشح عليها وعلى ما فيها من الله تعالى وبركات وجودها وبقائها ورحمته ويسأل من فيها ما يحتاج إليه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾(٣) ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ عطف على في الأرض يعني وفي أنفسكم أيها الناس آيات لهم فإن في العالم الصغير أعني نفس الإنسان كائن من الآيات كما في

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول الرجل إذا تعارّ الليل (٥٠٥٣).

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٩ ـ ٣١.

العالـم الكبير من بدء خلقه إلى مماته حيث كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسيت لحماً ثم نفخ فيه الروح ثم يسر الله سبيله إلى الخروج ثم هدى إلى سبيل معاشه رضيعاً وفطاماً واكتساب أقواته والتغذي بالأكل والشرب ودفع الفضول بالبول والغائط وسبيل إبقاء نوعه بانكاح وإلى سبيل معاده بإرسال وإنزال الكتب، وأظهر فيه بدائع صنعه من اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع والعقول والأفهام واختلاف استعداداتهم في قبول الحق وسلوك سبيل الرشاد وصعود مدارج القرب ومعارج العرفان فينظر العارف بعض هذه الأمور بالإبصار ويقول تبارك الله أحسن الخالقين وبعضها بالبصائر وينظر بالبصائر ما يتجلى على السرائر من التجلبات الذاتية والصفاتية والظلالية ولا يتطرق إليه مجال القمال وعبر عنه بالحديث القدسي «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببت كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»(١) الحديث فيقول العارف الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أيها الخراصون ما يبصره المحسنون للموقنون والفاء للعطف على محذوف تقديره أتنكرون قدرة الله على البعث فلا تبصرون وهذه الجملة معترضة ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ قال ابن عباس ومقاتل يعني المطر الذي سبب رزق وهذا مبني على ما ورد في الشرع أن المطر ينزل من السماء، وقال البيضاوي قيل المراد بالسماء والسحاب وبالرزق المطر وهذا مبني على مذهب الفلاسفة وقال أيضاً أسباب رزقكم أو تقديره عندي أن رزقكم خطاب المحسنين الموقنين على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وفي السماء عطف علي في الأرض وفي أنفسكم عطف مفرد على مفرد ورزقكم بدل من الآيات، وجاز أن يكون عطف جملة على جملة والمراد بالرزق إما الحظ والنصيب كما في قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾(٢) المراد بالرزق هاهنا إما الآيات الدالة على الله سبحانه من الشمس والقمر والكواكب وحركاتها وما يترتب عليها من اختلاف الفصول والمنافع والمضار بدليل ذكر الآيات في الأرض والأنفس فإن الاستدلال بها والتفكر فيها حظ المحسنين الموقنين لا غير وكذا ما يترتب على الاستدلال بها والتفكر فيها من الرحمة والبركات وماينزل على العارف من التجليات فإن كل ذلك رزق المحسنين وحظ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

للموقنين دون من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وهم يعمهون، قال العارف الرومي قدس سره أبيات بالفارس وإما الرزق المأكول وحينئذ يراد بالآية التنبه والإشعار بأن رزقكم بيد الله مكتوب في السماء فينبغي أن لا تطلبوا الرزق من غير الله تعالى واعبدوا الله مخلصين له الدين من غير رياء وسمعة قائلين لانسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً فعلى هذا التقدير أيضاً في الآية إشارة إلى تفسير المحسنين والثناء عليهم يعني هم يتفكرون في خلق السماوات والأرض ويخلصون لله الأعمال موقنين بأن رزقهم في السماء متوكلين على الله ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ عطف على رزقكم، قال البغوي قال عطاء وما توعدون من الثواب والعقاب وقال مجاهد من الخير والشر، وقال الضحاك ومن الجنة والنار يقال مكتوب في السماء وما توعدون لأن يقال كائن في السماء وما توعدون فإن الجنة فوق سبع سماوات دون النار فإنها تحت الأرضين السبع كما نطقت به الأحاديث وعلى ما قلت من التأويل أن الخطاب مختص بالمحسنين يصح القول بأن ما توعدون من الثواب والجنة كائن في السماء، وقيل وما توعدون كلام مستأنف وما موصولة أو مصدرية مبتدأ وخبره ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضمير والمنصوب لما وعلى الأول يحتمل له ولما ذكر سابقاً من البعث والجزاء والرزق والوعد والوعيد ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي مثل بالرفع على أنه صفة لحق والباقون بالنصب على أنه حال من المستكن في الحق أو وصف لمصدر محذوف يعني أنه لحق حقا مثل نطقكم، وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء وإن مع جملتها إن كانت ما زائدة ومحله الرفع شبه الله سبحانه الرزق وغيره مما وعد وأخبر به ينطق الإنسان، قال البغوي ما أنكم تنطقون فتقولون لا إله إلا الله يعني المراد بالنطق المنطوق والخطاب إن كان للمحسنين فمنطوقه غالباً لا إله إلا الله وإن كان الخطاب عاماً فشبه تحقق ما أخبر عنه يتحقق نطق الآدمي كما يقال أنه لحق كما أنت هاهنا وأنه لحق كما أنت تتكلم والمعنى أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة، وقال بعض الحكماء يعني أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره، حكى في المدارك عن الأصمعي أنه قال أقبلت من جامع البصرة فطلع عليّ أعرابي فقال ممن الرجل قلت من بني أصمع قال من أين أقبلت قلت من موضع يتلى فيه كلام الله الرحمن قال أُتْلُ عليّ فتلوت والذّاريات فلما بلغت قوله في السماء رزقكم قال حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل

وأدبر وعمد إلى قوسه وسيفه فكسرهما وولى، فلما حججت مع أمر الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بصوت رفيق فالتفت فإذا أنا بالأعرابي فسلّم عليّ واستقرأ السؤال فلما بلغت الآية صاح قال قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال وهل غير هذا فقرأت فورب السماء والأرض إنه لحق فصاح فقال سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه يعني مقتضى البلاغة أن يؤكد الكلام على حسب إنكار المخاطب فالله سبحانه أورد الكلام بكمال المبالغة في التأكيد حيث أقسم عليه وأكد بكلمتان ولام التأكيد والإخبار بأنه حق والتشبيه بما هو أجلى البديهيات وليس هذه الإشارة إلى الناس كأنهم في غاية الإنكار في تقدير الرزق الموعود كاد حين في اكتساب ما التزم الله سبحانه على نفسه بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1] غافلين عما كلفهم الله به وعلق به الثواب والعقاب الأبدي لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ إستفهام للتقرير يعني قد أتاك والغرض منه تفخيم شأن الحديث والتنبيه على أنه أوحي إليه قبل ذلك ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ضيف في الأصل مصدر ولذا يطلق على الواحد والمتعدد، قال البغوي اختلفوا في عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، وقال محمد بن كعب كان جبرئيل ومعه سبعة، وقال الضحاك كانوا تسعة، وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكاً، وقال السدي كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الوضاء وجوههم ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم

---

(١) سورة هود، الآية: ٦.

قبل أن يعرفهم حيث خدمهم بنفسه وأهله وعجل إليهم قراهم وذلك سنة المرسلين ودأب المهتدين قال رسول الله ﷺ **«من كان يؤمن الله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»** وفي رواية «فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[(١)] رواه أحمد والشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وفي الصحيحين من حديث أبي شريح الكعبي بلفظ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه» وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[(٢)] وقيل سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً على الله تعالى قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[(٣)] ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ الظرف متعلق بالحديث أو الضيف أو المكرمين والضمير راجع إلى الضيف من حيث المعنى عَلَيْهِ أي على إبراهيم عليه السلام ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَامٌ﴾ أي عليكم سلام عدل إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى تكون تحية أحسن من تحيتهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾[(٤)] وجملة قال سلام استئناف كأنه في جواب ماذا قال إبراهيم حين سلموا عليه قرأ حمزة والكسائي سلم بكسر السين وسكون اللام بغير ألف والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها المعنى واحد ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون لا نعرفكم، قال ابن عباس قال في نفسه هؤلاء قوم منكرون لا نعرفهم قال أبو العالية أنكر سلامهم في ذلك الزمان في تلك الأرض لأن السلام علم الإسلام ﴿فَرَاغَ﴾ أي ذهب وقال عطف على قال ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ مبادرة في القرى ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي لأنه كان عامة ماله البقر ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضع بين أيديهم ليأكلوا فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الهمزة للإنكار إن كان بعدما رأى أنهم لا يأكلون وإن كان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا في الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: إطعام الطعام من الإسلام (١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٣٩).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٦.

في أول الأمر فالهمزة للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب ﴿فَأَوْجَسَ﴾ يعني أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه عن ابن عباس أنه وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ يعني إسحاق عليه السلام ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمل علمه إذا بلغ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أي صيحة، قيل لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان وإنما هو كقول القائل أقبل يشتمني أي أخذت تصيح، وعلى هذا التأويل قوله في صرة في محل النصب على المفعولية وإن كان المراد الإقبال من مكان إلى مكان فهي في محل النصب على الحال ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ قال ابن عباس لطمت وجهها يعني جمعت أصابعها فضربت وجهها كما هو عادة النساء عند التعجب إذا أنكرت شيئاً، وقيل وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ يعني أتلد عجوز عقيم وكانت سارة لم تلد قبل ذلك وكانت بنت تسعين سنة ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ يعني قال ربك قولاً مثل ذلك الذي قلنا وإنما نخبرك من الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في صنعه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما كان وما يكون فيكون قوله حقاً وفعله محكماً ولما علم إبراهيم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكم وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعني قوم لوط كانوا يعملون الخبائث التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر فأرسل الله إليهم أخاهم لوطاً فكفروا به وقالوا أتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين قال رب نجني من القوم الظالمين وانصرني على القوم المفسدين فأرسل الله إليهم الملائكة ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ متحجر وهو السجيل ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة على كل واحد منها اسم من يهلك به ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور قال ابن عباس يعني للمشركين فإن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط وإضمارها عدم سبق ذكرها لكونها معلوماً بالسياق ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلوط عليه السلام وذلك قوله تعالى قالوا يعني الملائكة ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ﴾[1] ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط ﴿غَيْرَ﴾ أهل ﴿بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

يعني لوط وبناته وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

وهو مسلم ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ علامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المعتبرين بها وهي تلك الحجارة الواقعة في تلك القرى أو صخر منضود فيها أو ماء أسود منتن.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ
﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾
مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ
﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟
مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ عطف على قوله وتركنا فيها على معنى وجعلنا في إرسال موسى آية وهذا كقوله علفتها تبناً وماء بارداً يعني وسقيتها ماء بادراً وهذا أقرب وأنسب مما قيل إنه معطوف على قوله وفي الأرض لبعده وعدم المناسبة في القصة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ هذا الظرف متعلق بما تعلق به في موسى يعني جعلنا في موسى وقت إرسالنا إياه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة ظاهرة يعني معجزاته كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين وفلق البحر ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض فرعون عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أي بجمعه وجنوده الذين كان ينضو بهم ﴿وَقَالَ﴾ فرعون هو أي موسى ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قال أبو عبيدة أو بمعنى الواو والظاهر أنها بمعناه فإنه لما رأى على يديه الخوارق قال ساحر ولما سمعه يقول مالا يدركه عقله السقيم زعم أنه مجنون وبين كلاميه منافاة، وقال البيضاوي كأنه جعل ما ظهر منه من الخوارق منسوباً إلى الجن وتردوني أنه هل حصل ذلك باختياره وسعيه أو بغيرهما يعني إن كان باختياره فهو ساحر وإلا فهو مجنون ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأغرقناهم في اليم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي آت بما يلام عليه من الكفر والعناد والتكبر والجملة حال من الضمير المنصوب في أخذناه ﴿وَفِى عَادٍ﴾ يعني تركنا في إهلاك عاد آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً وكانت دبوراً لقوله عليه الصلاة والسلام «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»(١) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ يعني جعلت الأشياء كالرماد من الروم وهي البلى والتفتت ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ يعني وتركنا في إهلاك ثمود آية ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ قال لهم صالح لما عقروا لناقة ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ في دياركم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني ثلاثة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ: «نصرت بالصبا» (١٠٣٥).

أيام ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ استكبروا عن امتثاله واتباع صالح والإيمان به ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـٰعِقَةُ﴾ قرأ الكسائي الصعقة بإسكان العين من غير ألف والباقون بالألف بعد العين والصاعقة الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب والصعق محركة شدة الصوت كذا في القاموس أخذتهم بعد مضي الأيام الثلاثة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي يرون ذلك العذاب عياناً فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿فَمَا اسْتَطَـٰعُوا مِن قِيَامٍ﴾ للهرب بعد نزول العذاب، قال قتادة لم ينهضوا من تلك الصرعة ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي ممتنعين منه أو منتقمين منا ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي قوم بالجر عطفاً على ثمود يعني تركنا في إهلاك قوم نوح آية والباقون بالنصب على أنه مفعول بفعل محذوف دل عليه السياق تقديره وأهلكنا قوم نوح ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل قوم لوط وفرعون وجنوده وعاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكثر والمعاصي.

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ الْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَالسَّمَآءَ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس أي قادرون ومطيقون من الوسع بمعنى الطاقة كما في قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١) والجملة حال من فاعل بنينا وجملة والسماء عطف على وَفي مُوسَىٰ، وقال الضحاك عنى به الأغنياء كما في قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾(٢) وفي رواية عن ابن عباس إنا لموسعون الرزق على خلقنا، وقيل معناه لموسعون

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.

السماء أو ما بنيناها وبين الأرض ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي مهدناها ليستقروا عليها والتركيب نحو ما سبق ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نحن ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين قلت ليس المراد تعين تعدد التثنية بل المراد تعدد أصناف المخلوقات يعني خلقنا من كل شيء أصناف ذات عدد فوق الواحد أدناه المثنى بل كان فرد منه ذو جهتين خير من وجه وشر من وجه معدوم بالذات واجب بالغير عاجز بالذات قادر بالغير ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكي تذكروا وتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات والواجب بالذات لا يقبل التعدد والإنقسام واجب وجوده لا يصادم وجوده العدم قادر لا عجز له ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ من كل شيء إلى الله بالتوجه والمحبة والاستغراق وامتثال الأوامر وكسب السعادات حتى تخلصوا من النقائص والشرود وتفوزوا بالخيرات وتصعدوا مصاعد القرب والكمال والفاء للسببية فإن التذكر والتدبر في شأن الممكنات والواجب تعالى يوجب الفرار منها إليه تعالى، وهذه الجملة بتقدير القول من كلام الرسول ﷺ ليرتبط بما بعده يعني قل يا محمد ففروا إلى الله ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من عذابه المترتب على غضبه وهجرانه وبعده وعصيانه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بين كونه نذيراً من الله تعالى بالمعجزات أو مبين ما يجب أن يحذر عنه ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ شريكاً له في وجوب الوجود أو في استحقاق العبودية أو في كونه مقصوداً لكم ومحبوباً مشتغلاً به ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ للتأكيد أو الأول لتحذير الخواص عن مطلق التوجه والمحبة بغيرة تعالى والثاني لتحذير العوام عن الشرك والمعاصي كما يدل عليه السياق يعني إن لم تقدروا على الفرار من كل شيء حتى من أنفسكم إلى الله تعالى فلا تجعلوا مع الله إلهاً آخر في العبادة وامتثال الأوامر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي شأنك مع قومك كذلك الشأن للرسل من قبلك مع أقوامهم ولما كان في التشبيه إبهاماً فسره بقوله ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ الضمير عائد إلى كفار مكة والمراد بالموصول كفار الأمم السابقة مفعول لآتي وفاعله ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من زائدة في النفي للاستغراق ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ استثناء مفرغ والمستثنى في محل النصب على الحالية من فاعل أتى أو مفعوله أو كليهما يعني ما أتاهم رسول في حال إلا حال قولهم ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة مقوله، قالوا يعني قالوا هذا ساحر أو مجنون كما يقول لك قومك وجاز أن يكون مشار إليه بذلك تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ساحراً مجنوناً وجملة ما أتى علة للتشبيه ﴿أَتَوَاصَوْاْ﴾ أي الآخرون من الكفار به بهذا القول يعني أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوا جميعاً والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ إضراب عن التواصي من جميعهم بهذا القول لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان

الحامل عليه وقوله كذلك إلى قوله طاغون معترضات لتسلية النبيّ ﷺ وقوله فتول عنهم أي عن الكفار عطف على قل المقدرة يعني قل ففروا الخ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن مجادلتهم بعدما كررت عليهم الدعوة فأبوا للإصرار والعناد ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ على الإعراض بعدما بذلت جهدك في البلاغ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن منيع وابن راهويه والهيثم بن كليب في مسانيدهم من طريق مجاهد عن علي عنه قال لما نزلت فتول عنهم فما أنت بملوم لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلاكة إذا أمر النبيّ ﷺ أن يتولى عنا فنزلت ﴿وَذَكِّرْ﴾ الآية فطابت أنفسنا، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال ذكر لنا أنه لما نزلت فتول عنهم الآية اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ ورأوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى وذكر الآية كذا ذكر البغوي قول المفسرين وقوله تعالى ذكر عطف على قوله تولّ يعني لا تدع التذكير والموعظة ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾، تعليل لقوله تعالى ذكر يعني أن الذكر ينفع المؤمنين ويزداد لهم البصيرة وإن لم ينتفع الكفار أو المعنى تنفع من قدر الله إيمانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي إلا لأمرهم بعبادتي وأدعوهم إليه يعني للتكليف يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾(١) كذا ذكر البغوي قول علي (رض) قال مجاهد إلا ليعرفوا والكفار أيضاً يعرفون وجوده تعالى حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢) وقيل معناه إلا ليكونوا عباداً لي أو ليخضعوا إلي ويتذللوا ومعنى العبادة في اللغة التذلل والإنقياد وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله تعالى متذلل المشيئة لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق له، وقيل إلا ليوحدون أما المؤمنون فيوحدون في ا لشدة والرخاء أما الكافرون فيوحدون في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى الْفُلْكِ دَعَوُا۟ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٣) قال صاحب المدارك الكفار كلهم يوحدون الله في الآخرة قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾(٤) وإشراكهم في الدنيا وهي بعض أحيان وجودهم لا ينافي كونهم مخلوقين للتوحيد، قلت والقول ما قال علي(رض) ما سواه أقوال ضعيفة واهية والذي حملهم على ما قالوا أن ظاهر الآية يقتضي أنهم خلقوا مراداً منهم الطاعة وتخلف مراد الله تعالى محال

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

وقد قال رسول الله ﷺ «**كلٌ ميسر لما خلق له**»[١] وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[٢] وقال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل الطاعة من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس ما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون، وعندي تأويل الآية ما خلقت الجن والإنس إلا مستعدين للعبادة صالحين لها نظيره قوله ﷺ «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول فطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**»[٣] متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهذا التأويل يناسب تأويل علي(رض) ومقتضى هذه الآية ذم الكفار لأجل إضاعتهم الفطرة السليمة هي أصل الخلقة ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ المراد أن شأنه تعالى مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم فإنهم إنما يملكونهم يستعينوا بهم في تحصيل رزقهم وكسب طعامهم والله تعالى منزه عن ذلك، وقيل معناه ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم وأن يطعموا أحداً من خلقي وينافي هذا التأويل إسناد الإطعام إلى نفسه واجب بأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه كما جاء في الحديث «**يقول الله يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**»[٤] رواه مسلم من حديث أبي هريرة في حديث ذكر فيه مرضت فلم تعدني واستسقيتك فلم تسقني قلت هذا قول بالتجوز ومع ذلك يرد عليه أن الله تعالى أراد من المؤمنين وأمر الناس أجمعين بأداء زكاة أموالهم رزقاً للفقراء وأن يطعموا أنفسهم وأهليهم ومن وجب عليهم نفقاتهم فكيف يقال ما أريد منهم أن يرزقوا اللهمَّ إلا أن يقال المقصود من إيجاب الزكاة إمتثال الأمر وفعل الأداء دون الترزيق، ومن هاهنا قال أبو حنيفة لا يجب الزكاة على الصبي والمجنون ولكن هذا الجواب لا يستقيم في العشر والخراج ونفقة الآباء والأولاد والزوجات فإن المقصود إيصال الرزق إلى العباد ولذا تجري فيها النيابة ويتأدى بأداء ولي الصبي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: القدر، باب: جف القلم على علم الله (٦٥٩٦)،

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٣٥٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل عيادة المريض (٢٥٦٩).

لجميع خلقه مستغن عنه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ على الترزيق وعلى كل ما أراد ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ شديدة المبالغ في القدرة، قيل في تأويل الآية أن قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ الخ من كلام رسول الله ﷺ مقدر بقل يعني قل يا محمد ما أريد منهم أي من الناس من رزق نظيره ﴿لا أسالكم عليه أجراً﴾[1] قال بعض المحققين قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ بتقدير قل عطف على ذكر وإلى قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ داخل في مقولة قل لا يقال كيف يصح ما خلقت الجن الخ كلاماً للرسول لأنا نقول هو على طريقة قول الملك للسفير قل إن الملك أمركم بكذا فيقول السفير بقول الملك إني آمركم بكذا أو أن الأمير يأمركم بكذا ومثل هذا متعارف ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك والمعاصي وإضاعة الفطرة السليمة ووضع الكفران موضع العبادة التي كفلوا بها وخلقوا مستعدين لها ﴿ذَنُوبًا﴾ أي نصيباً من العذاب وهو في الأصل الدلو العظيم الذي له ذنب واستعير للنصيب أخذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلاء، وقال الزجاج الذنوب في اللغة النصيب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي مثل نصيب نظرائهم من الأمم السابقة كعاد وثمود وفرعون وقوم نوح وقوم لوط والفاء للسببية تعليل لقوله فتولّ عنهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ الفاء أيضاً للسببية يعني إذا سمعت وعيدي لكفار فهو يكفيك للتسلية فلا تستعجلوني في تعذيبهم وجاز أن يكون هذا خطاباً بالكفار جواباً لقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يعني يوم القيامة، وقيل يوم بدر الفاء للسببية مسبب لتحقق الوعيد والله تعالى أعلم.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

سورة الطور

آياتها تسع وأربعون وفيها ركوعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ وهو الجبل بالسريانية والمراد به طور سينين جبل بمدين سمع موسىٰ فيها كلام الله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ السطر ترتيب الحروف المكتوب والمراد به مكتوب ﴿فِى رَقٍّ﴾ الرق الجلد الذي يكتب استعير لما كتب فيه الكتاب ﴿مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ لأجل التلاوة صفة لرق والظرف متعلق بمسطور وتقيد الكتاب بكونه مكتوباً في رق منشور يأبى كونه لوحا محفوظاً فالمراد به إما القرآن أو جنس ما كتب فيه الشرائع، وقال الكلبي هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير القلم ومقتضى هذا القول مناسبته وعطفه على الطور، وقيل المراد به دواوين الحفظة يخرج لهم يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة يقال له الصراح حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، روى مسلم عن أنس في حديث المعراج وقال عليه السلام «في السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف لا يعودون إليه»[1] قال البغوي يطوفون به

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٢).

ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه أبداً عمارته كثرة غاشيته من الملائكة، قال البيضاوي المراد به الكعبة وعمارتها بالحجاج والمجاورين أو قلب المؤمن وعمارته بالمعرفة والإخلاص ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ يعني السماء قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾(١) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾، في القاموس سجر التنور حمأه والنهر ملأه وقال محمد بن إسحاق والضحاك يعني الموقد المحمىٰ بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزداد بها في نار جهنم، وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «**لا يركبن رجل بحراً إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً فإن تحت البحر ناراً أو تحت النار بحراً**» وعن يعلى بن أمية أن النبي ﷺ قال البحر جهنم، وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي من طريق سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب (رض): قال ما رأيت يهودياً أصدق من فلان زعم أن نار الله الكبرى هي البحر فإذا كان يوم القيامة جمع الله فيه الشمس والقمر والنجوم ثم بعث عليه الدبور فسعرته، وأخرج أبو الشيخ عن كعب في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ قال: البحر يسجر فيصير نار جهنم، وأخرج البيهقي في الشعب عن وهب قال إذا قامت القيامة أمر بالفلق فيكشف عن سقر وهي غطاءها فيخرج منه نار فإذا وصلت إلى البحر المطبق على شفير جهنم وهو البحر المسجور أسرع من طرفة عين وهو حاجزبين جهنم والأرضين السبع فيدعها جمرة واحدة، وقال مجاهد والكلبي المسجور المملوء ويقال سجرت الإناء إذا ملأته، وقال الحسن وقتادة وأبو العالية هو اليابس الذي قد ذهب ماءه، وقال الربيع بن أنس المختلط العذب بالملح، وروى الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي أنه قال في البحر المسجور وهو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعون صباحاً فينبتون في قبورهم وهذا قول مقاتل أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وجواب القسم ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ بالكفار ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ يدفعه الجملة صفة لواقع، قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لأكلم رسول الله ﷺ في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ فكأنما صدع قلبي حين سمعته ولم أكن أسلم يومئذ قال فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن إلا أن أقوم من مكاني حتى يقع بي

(١) سورة الأنبيا، الآية: ٣٢.

العذاب ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ أي تدور كدوران الرحى وتنكفأ بأهلها تكفأ السفينة، وقال قتادة تتحرك، وقال عطاء الخراساني تختلف أجزاءها بعضها في بعض وقيل تضطرب وكل ذلك جاء معاني مور في اللغة الذهاب المجيء والتردد والدوران والاضطراب كذا في القاموس، وهذه الآية تدل على أن السماء غير متحرك كالأرض والجبال خلافاً للفلاسفة والظرف متعلق لواقع ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ عطف على تمور يعني تسير عن وجه الأرض فتصير هباء ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذا وقع ذلك الفاء للسببية فإن وقوع العذاب الغير المدفوع سبب للويل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالعذاب ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ غافلين لاهين ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ بدل من يوم تمور إلى ﴿نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي دفعاً بعنف وجفوة وذلك أن خزنة جهنم يغلّون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعون إلى النار دفعاً على وجوههم ويزعجون إزعاجاً حتى إذا دنوا منها يقول لهم خزنتها ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ وجاز أن يكون يوم يدعون ظرفاً ليقول مقدر هاهنا وهذه الجملة بتقدير يقول لهم حال من المكذبين ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ عطف على ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ والإستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للتعقيب والمعنى أي يتعقب مشاهدة النار كونها سحراً يعني كنتم تقولون للوحي وما يشهد من المعجزات هذا سحر وهذا مصداقه فلو كان ذلك سحراً فهذا أيضاً سحر على زعمكم وتقديم الخبر لأنه المقصر بالإنكار والتوبيخ ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه النار كما كنتم لا تبصرون ما يدل عليه في الدنيا وتقولون إنما سكرت أبصارنا وهذا الكلام تهكم بهم ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ سواء مصدر بمعنى الفاعل خبر مبتدأ محذوف الأمران مستويان عليكم والجملة تأكيد لما سبق ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء فإنه لما كان جزاء الكفر واجب الوقوع بإيجاب الله تعالى ووعيده كان الصبر وعدمه سيّان في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا

﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ وتنكيرهما للتعظيم يعني جنات عظيم ونعيم فخيم ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متلذذين حال من الضمير في الظرف ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إبهام ما أتاهم وإسناده إلى ربهم للتفخيم والتعظيم يعني ناعمين بشع وعظيم أو بالذي هو عظيم الشأن أنهم أكرم الأكرمين وأعظم العظماء ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطف على أتاهم إن جعل ما مصدرية أو على في جنات أو حال من فاعل أتى أومن مفعوله أو كليهما ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ بتقدير يقال لهم خبر بعد خبر لأن أوحال من المستكن في الظرف أو الحال ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلاً وشرباً هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً والهنيء ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقبه خامة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسببه أو مقابلته، وقيل الباء زائدة وما فاعل لهنياً والمعنى هنيئكم هنيا ما كنتم تعملون أي جزاؤه وحينئذ هنيئاً جملة معطوفة على كلوا مقولة قال المقدر ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من اللظرف أي في جنات أو في فاكهين أو من الضمير في كلو أو أشربوا على التنازع ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ متعلق بمتكئين ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ عطف على خبر إن أو على أن الماضي في معنى المستقبل ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباء للالصاق فإن التزويج معنى الوصل أو للسببية يعني صيرناهم أزواجاً بسببهن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو أتبعناهم بقطع الألف وإسكان التاء والعين من الأفعال وضمير المتكلم مع الغير تعظيماً والباقون بوصل الألف وفتح التاء والعين من الافتعال وتاء التأنيث الساكنة ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأ أبو عمر وابن عامر ويعقوب ذرياتهم للمبالغة في كثرتهم فكسر أبو عمرو التاء منصوباً على أنه مفعول ثان لأتبعناهم وضم ابن عامر ويعقوب مرفوعاً على الفاعلية وقرأ الباقون ذريتهم بالتوحيد مرفوعاً على الفاعلية والذرية يقع على الواحد والكثير ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الضمير المنصوب أو من الذرية أو منهما وتنكيره للإشعار بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان بل يكفيه الإيمان الحكم كإيمان الصغير والمجنون تبعاً لغير الأبوين ديناً ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ذرياتهم بالجمع وكسر التاء والباقون بالتوحيد وفتح التاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «**إن الله يرفع ذرية المؤمنين في درجة وإن كانوا دونه في العمل ليقربهم عينه ثم قرأ هذه الآية**» رواه الحاكم والبيهقي في سننه والبزاز وأبو نعيم في الحلية وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وعن علي(رض) قال سألت خديجة والنبيّ ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال: رسول الله ﷺ «**هما في النار فلما رأى الكراهة في وجهها، قال لو رأيت مكانها لأبغضتهما**» قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال في الجنة، ثم قال

رسول الله ﷺ «**إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار**» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وفيه مجهول وانقطاع.

فصل

هذا الحديث يدل على أن أطفال المشركين في النار والصحيح أنهم في الجنة وهذا الحديث ضعيف فيه مجهول وإنقطاع، وكذا ما روى أحمد عن عائشة أنها ذكرت لرسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «إن شئت أسمعتك تصاعدهم في النار» سنده ضعيف جداً، وقيل هذا الحديث منسوخ في حق أطفال المشركين لما روى ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «هم من آبائهم» ثم سألت بعد ذلك فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين» ثم سألته بعدما استحكم الإسلام فنزلت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ فقال: «هم على الفطرة» أو قال «في الجنة» وما روى ابن أبي شيبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**سألت ربي اللاهين من ذريات البشر فأعطانيهم**» قال ابن عبد البر هم الأطفال لأن أعمالهم كاللهو واللعب من غير عقل ولا عزم، وأخرج ابن جرير عن سمرة قال سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «**خدم أهل الجنة**» وأخرج مثله عن ابن مسعود موقوفاً وكذا روى الطيالسي عن أنس مرفوعاً معناه وقال بعض العلماء أطفال المشركين يمتحنون لأنه سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين»(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة والله أعلم ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ قرأ ابن كثير بكسر اللام من باب سمع يسمع والباقون بفتح اللام من ضرب يضرب وكلاهما لغتان في ألت يألت يعني ما نقصنا الآباء ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ من للتبغيض أي بعض ثواب أعمالهم ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ من زائدة وشيء في محل النصب على أنه مفعول ثاني لألتناد من عملهم خال عنه قدم عليه لتنكيره يعني لا ينقص ثواب الآباء بإعطاء الأبناء في إلحاقهم بهم والجملة معطوفة على ألحقنا ولما كان هاهنا مظنة سؤال السائل يسأل أن هذا شأن من آمن وأتبعه ذريته بإيمان فما شأن من كسب سيئة قال الله تعالى ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قال مقاتل كل امرىء كافر بما عمل من الشرك مرتهن محبوس في النار لا يجاوز جزاء السيئة ممن كسب إلى غيره فلا يلحق بالكافر والفاسق

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨).

ذريته من غير أن يعملوا ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ عطف على زوجناهم يعني زدناهم يعني المتقين وقتاً بعد وقت ﴿بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ من أنواع التنعم ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ من النزع يعني الأخذ من يد الغير والتفاعل هاهنا بمعنى المجرد من عاقبة اللص وترافعنا إلى القاضي وجعلنا من المزيد فيه للدلالة من الكثرة يعني ينزعون إلى أهل الجنة من يد الساقي ﴿فِيهَآ﴾ أي في الجنة ﴿كَأۡسٗا﴾ الكأس الإناء بما فيها من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس حال، ويقال شربت كأساً والمراد هاهنا كأس مملوء من شراب ﴿لَّا لَغۡوٞ﴾ وهو الباطل قال قتادة وقال مقاتل بن حبان لا فضول ﴿فِيهَآ﴾ وقال سعيد بن المسيب لا رفث فيها، وقال ابن زيد لاسباب ولا تخاصم فيها، وقال القتيبي لا يذهب عقولهم فيلغوا أو يرفثوا ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ قال الزجاج وأبو عمرو لا لغو ولا تأثيم فيها إعمالاً للا والباقون بالرفع فيهما الفاء لعمل لا لأجل لتكرير ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأجل الخدمة ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي مماليك مخصوص بهم أخرج ابن أبي الدنيا عن أنس(رض) قال: قال رسول الله ﷺ «**إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم**» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلة وليس فيها أدنى من يغدو ويروح عليه خمسة آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه» ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مستور في الصدف شبهوا باللؤلؤ في بياضهم وصفائهم وحسنهم، قال البغوي روي عن الحسن أنه تلا هذه الآية وقال قالوا يا رسول الله الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم وعن قتادة أيضاً ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله ﷺ هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال «فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وأخرج عبد الرزاق وابن جرير في تفسيرهما من مرسل قتادة نحوه ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾ يعني يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله في الدنيا، قال ابن عباس يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا وأقبل صيغة ماض بمعنى المستقبل حال بتقدير قدمن الضمير المجرور في يطوف عليهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني يقولون جملة مستأنفة كأنها في جواب ماذا يقول المسؤولون ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ أي قبل هذا في الدنيا ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالتوفيق والمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم وقال الحسن السموم اسم من أسماء جهنم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ أي قبل ذلك في الدنيا ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ نعبده أي الله تعالى ونسأله الوقاية ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ قرأ نافع والكسائي بفتح الهمزة يعني ندعوه بأنه والباقون بالكسر على الاستئناف ﴿هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ أي المحسن وقال ابن عباس

اللطيف وقال الضحاك الصادق فيما وعد ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء للسببية فإن تحقيق الوعد والوعيد من الله تعالى باعث على التذكير والموعظة ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ الفاء للتعليل يعني ذكر الناس لأنك نبي من الله ولست ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي متلبساً بنعمة ربك حال من الضمير المرفوع فإن قوله ما أنت بكاهن ولا مجنون. في معنى انتقى كونك كاهناً أو مجنوناً والمراد بنعمة ربك النبوة والعقل السليم يعني نبوتك ودينك يتلقى الكهانة وعقلك السليم البالغ ينافي الجنون والآية نزلت في الذين اقتسموا أعقاب مكة يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر، أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن قريشاً اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم احبسوه في أوثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء ما زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ صفة شاعر أو خبر بعد خبر المبتدأ محذوف أي هو منتظر به ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي ما يتعلق النفوس من حوادث الدهر أو حوادث الموت يعني الحوادث التي تفضي إلى الموت قالت الكفار: إنه يموت ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء ويتفرق أصحابه وإن أباه مات شاباً ونحن نرجو أن يكون موته موت أبيه أو المنون مفعول من منه إذا قطعه يكون بمعنى الدهر وبمعنى الموت سميا بذلك لأنهما تقطعان الأجل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ حتى يأتي أمر الله فيكم فتعذبوا بالسيف يوم بدر ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في القول فإن الكاهن يكون ذا فطانة ودقة نظر والمجنون مغطى عقله والشاعر ذا كلام موزون منتسق بليغ متخيل ولا يتأتى ذلك من المجنون وذلك أن عظماء

قريش كانوا يوصفون بأحلامهم فأزرى الله بعقولهم حتى قال إنهم لا يتميزون بين الفطان والمجنون ولا يعرفون الحق من الباطل ﴿أَمْ هُمْ﴾ يعني بل هم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد فإنهم إذاً لا يجدون سبيلاً إلى الإنكار في القرآن والنبي ﷺ بظهور الحجة وسطوع البرهان يقولون فيه قولاً آخر مناقضاً للأول ﴿أَمْ﴾ أي بل ﴿يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي القرآن تقوله محمد ﷺ يعني اختلفة من تلقاء نفسه وليس من عند الله وليس الأمر كذلك ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن عناداً أو إستكباراً فيرمون بهذه المطاعن كذبا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن في البلاغة وأخبار الغيب ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما قالوا أنه كاهن أو مجنون أو شاعر تقوله إذ فيهم كثير من الكهنة والمجانين والشعراء فهو رد للأقوال الثلاثة المذكورة بالتحدي ويجوز أن يكون رداً لتقول فقط فإن سائر الأقوال ظاهر الفساد وهذا شرط مستغن عن الجزاء ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ قال ابن عباس يعني من غير رب خلقهم وذلك محال فإن الحادث الذي لم يكن موجود قبل ذلك لا يتصور وجوده من غير موجد وقيل معناه أم خلقوا من أجل لا شيء من العبادة والمجازاة يعني خلقوا عبثاً وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون كذا قال ابن كيسان والزجاج ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لانفسهم وذلك في البطلان أظهر من أن يخلقوا من غير شيء وهذه الجملة يؤيد التأويل الأول لما قبلها ولذلك عقبه بقوله ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ بما يجب به الإيقان ويدل عليه البرهان من أن الله خلقهم وخلق السماوات والأرض ولو أيقنوا به لما أعرضوا من عبادته ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي خزائن رزقه فيرزقوا النبوة من يشاء أو خزائن علمه فيعلمون من هو أحق بالنبوة من غيره وبقضية الحكمة ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المسلطون القاهرون على الأشياء يجعلونها على حسب مشيئتهم ولا يكونوا تحت أمر ونهي، قرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمزة بخلاف عن خلاء بين الصادق والزاء والباقون بالصاد خالصة ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صاعدين ﴿فِيهِ﴾ أي كلام الملائكة وما يوحي إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن أو يعلموا ما هو حق من الله تعالى فيستمسكون به ولا يتبعوا بمحمد ﷺ فإن إدعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة يصدق إستماعه ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ أي لله تعالى بنات كما يقولون الملائكة بنات الله ﴿وَلَكُمُ﴾ أيها الناس ﴿الْبَنُونَ﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن من هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلاً ممن يرتقي بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيب ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي من التزام غرم ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ فلذلك لا يتبعونك مع ظهور الداعي إلى الإتباع ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ قال ابن عباس المراد منه اللوح

المحفوظ المثبت فيه المغيبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه وقيل معناه عندهم علم ما غاب عنهم حتى علموا أن ما جاء به محمد ﷺ من البعث وأمر القيامة والثواب والعقاب مع كونه ممكناً في نفسه واجباً ثبوته بالبرهان باطل غير واقع، وقال قتادة هذا جواب لقلوهم نتربص به ريب المنون يعني أعندهم علم الغيب بأن محمد ﷺ يموت قبلهم ولا يبقى له أثر ومعنى قوله فهم يكتبون أي يحكمون والكتاب الحكم كذا قال القعبني ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ بك ليهلكوك وهو كيدهم في دار الندوة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾(١) ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يعني يحيق بهم الكيد أو يعود إليهم وبال كيدهم وجزاؤه وهو قتلهم يوم بدر وعذابهم بالنار في الآخرة وضع الموصول موضع الضمير للتسجيل على كفرهم والدلالة على أنه هو الموجب للحكم المذكور ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يمنعهم من عذاب الله وينصرهم ويرزقهم ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. عن إشراكهم أو عن شركة ما يشركون، قال الخليل ما في هذه السورة من أم كله استفهام يعني الإنكار وليس بعطف.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ أي قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ هذا جواب لقولهم فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴿يَقُولُوا﴾ هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ تراكم بعضها على بعض كما أن عاداً لما رأوا عارضاً مستقبل قالوا هذا عارض ممطرنا يعني لو عذبناهم بإسقاط بعض من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم حتى يهلكوا لكن الحكمة لا تقتضي استئصالهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ ولا تسأل نزول العذاب عليهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ أي يوم عذابهم ﴿الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ قرأ عاصم وابن عامر بضم الياء على البناء للمفعول أي يوم يهلكهم الله تعالى من أصعق والباقون بفتح الياء على البناء للفاعل من صعق يصعق أي يوم يموتون، قال البيضاوي هو عند النفخة الأولى، قلت هذا ليس بشيء فإنه جعل غاية لقوله ذرهم وذا لا يتصور إلا أن يراد يوم يموتون ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ إغناء ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

يوم لا يغني بدل من يومهم ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يحتمل العموم والخصوص ﴿عَذَابًا﴾ في الدنيا ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قبل ذلك اليوم يوم موتهم، قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر، وقال مجاهد الجوع والقحط سبع سنين، وقال البراء بن عازب يعني عذاب القبر، قلت: هذا على تقدير أن يراد بيومهم الذي فيه يصعقون يوم نفخة الصعق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وإبقائك في عنائهم، وقيل معناه واصبر إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال الزجاج: يعني أنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إليك بمكروه، والحاصل أنك بحفظنا وجمع العين لجمع الضمير وجمع الضمير للتعظيم أو يقال جمع العين للمبالغة والدلالة على كثرة أسباب الحفظ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ عطف على واصبر ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء أي قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهمَّ وبحمدك فإن كان المجلس خيراً لازددت خيراً وإن كان غير ذلك كان كفارة له، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك كان كفارة لما بينهم**»(١) رواه البغوي ورواه الترمذي والبيهقي في الدعوات الكبير «إلا غفر له ما كان في مجلسه» وعن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بآخر عمره إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحان الله وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوء قال قلنا يا رسول الله إن هذه كلمات أحدثتهن قال أجل جاءني جبرئيل فقال يا محمد هن كفارات المجلس» رواه النسائي واللفظ له وصححه الحاكم، وأخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة مختصراً بسند جيد، وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: «كلمات لا يتكلم بها أحد في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن كما يتختم بالخاتم على الصحيفة سبحانك اللهمَّ وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»(٢) رواه أبو داوود وابن حبان في صحيحه، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**ما جلس قوم مجلساً لم يذكروالله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كانت عليهم ترة إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم**»(٣) رواه أبو داوود والترمذي وحسنه واللفظ له وابن أبي الدنيا والبيهقي، وفي رواية أبي داود «ومن قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليهم من الله ترة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا قام من المجلس (٣٤٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في كفارة المجلس (٤٨٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: في القوم يجلسون ولا يذكرون الله (٣٣٨٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٥١).

ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما مشى أحد يمشي لا يذكر الله فيه إلا كان عليه ترة» وقال ابن عباس معنى الآية صل الله حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع «إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»[١] رواه أبو داوود والترمذي ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد وقال الترمذي هذا الحديث لا نعرفه إلا من حارثة وقد تكلم فيه من قبل حفظه، وقال الكلبي المراد بالآية الذكر باللسان حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة عن عاصم بن حميد سألت عائشة بأي شيء كان يفتح رسول الله ﷺ إذا قام من الليل؟ قالت كان إذا قام كبر الله عشراً وحمد الله عشراً وسبح الله عشراً واستغفر عشراً وقال: «اللهمَّ أغفر لي واهدني وارزقني وعافني» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة، رواه البغوي ورواه أبو داود عن شريق الهذلي عن عائشة بلفظ كان إذا ذهب من الليل كبر عشراً وحمد الله عشراً وقال سبحان الله وبحمده عشراً وقال سبحان الملك القدوس عشراً واستغفر عشراً وهلل عشراً ثم قال اللهمَّ إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً»[٢] ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي صلّ له قال مقاتل يعني صلاة المغرب والعشاء، قلت والظاهر أنه صلاة التهجد خص صلاة الليل بالذكر لأن العبادة في الليل أشق على النفس وأبعد عن الرياء ولذلك قدم الظرف على الفعل ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني إذا أدبرت النجوم وغابت بطلوع الصبح، وقال الضحاك المراد به صلاة الفجر، وقال أكثر المفسرين المراد به ركعتان قبل صلاة الفجر عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**»[٣] رواه المسلم، وعنها قالت لم يكن النبيّ ﷺ أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر[٤] متفق عليه، وعن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله ﷺ قرأ في المغرب بالطور رواه البغوي.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٠)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: افتتاح الصلاة (٨٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما (٧٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: تعاهد ركعتي الفجر ومن سماهما تطوعاً (١١٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب ركعتي الفجر (٧٢٤).

سورة النجم

آياتها اثنان وستون وثلاث ركوعات وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ قال ابن عباس في رواية الوالبي والعوفي يعني الثريا إذا سقطت وهويه مغيبه والعرب تسمي الثريا نجماً وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً «ماطلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع» وأراد بالنجم الثريا ذكره البغوي ورواه أحمد بلفظ «ما طلعها النجم صباحاً قط ويقوم عاهة إلا ورفعت عنهم أو خفت» وسنده ضعيف، وقال مجاهد نجوم السماء كلها حين تغرب واللام للجنس سمى الكواكب نجماً بطلوعه وكل طالع نجم يقال نجم السن والقرآن والسنة، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه الرجوم من النجوم يعني ما يرمى به الشياطين عن استراقهم السمع، وقال أبو حمزة الثمالي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة، وقال ابن عباس في رواية عطاء المراد بالنجم القرآني نجماً لأنها نزلت نجوماً متفرقة في ثلاثة وعشرين سنة يسمى التفريق تنجيماً والمفرق منجماً، وقال الكلبي الهوي النزول من أعلى إلى أسفل، وقال الأخفش النجم هو النبت الذي لا ساق له ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾[1] وهويه سقوطه على الأرض، وقال جعفر الصادق(رض) يعني محمداً ﷺ إذا نزل من السماء ليلة

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦.

المعراج والهوي النزول، وقيل المراد بالنجم المسلم وبهويه دفنه في القبر، والظرف لا يجوز أن يكون متعلقاً بفعل قسم مقدر لأن القسم لا يتعدى بذلك الوقت ولا أن يكون الظرف صفة نجم لأنه جثة وظرف الزمان لا يكون صفة للجثة وظرف الزمان لا يكون صفة للجثة بل هو متعلق بحدث مقدر مضاف إلى النجم تقديره وتحرك النجم إذا هوى، وقيل إذا هاهنا اسم وليس بظرف وهو بدل إشتمال من النجم مقسم به وجه تعين هذا الوقت للقسم أن وقت الهوي أفضل أوقات النجم لأنه إن كان المراد بالنجم الثريا أو مطلق النجم فإن أريد بهويه سقوط شعلة منه لرجم الشياطين فلا شك أن رجم الشياطين مقصود من خلقة النجوم وإن أريد به انتشاره يوم القيامة ذلك وقت إتمام المقاصد التي قصد بالنجوم وإن أريد به غروبه فغروبه أوضح دليل على إمكانه ووجود صانعه، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأقول من الكواكب والقمر والشمس حيث قال ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾[1] وإن أريد به نجم القرآن وبهويه نزوله أو بالنجم محمد ﷺ وبهويه نزوله من السماء ليلة المعراج فلا شك أن نزول القرآن لهداية الناس ونزول محمد ﷺ بعد عروجه لهداية الخلق نعمة جليلة من الله تعالى بلا نظير لهما وإن أريد بالنجم المسلم وبهويه دفنه في القبر فلا شك أن دفن المسلم مع إيمانه سالماً عن تسويلات النفس والشيطان غانماً بنعمة الإيمان والأعمال الصالحة وقت كماله وزوال حظر زواله والله تعالى أعلم وجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ محمد ﷺ عن طريق الهدى ﴿وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ في اتباع طريق الباطل قيل الضلال ضد الهداية والغي ضد الرشد يعني هو مهتد راشد وليس كما تزعمون يا معشر قريش وتنسبونه إلى الضلال والغي ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ بالقرآن ولا بغيره عطف على ما ضل ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ صفة لمصدر محذوف يعني نطقاً ناشئاً عن الهوى يعني لم يتقول القرآن من تلقاء نفسه كما يتقول الشعراء وكذا كل ما يتكلم ليس منشاءه الهوى النفسانية بل مستند إلى الوحي جلي أو خفي وإن كان باجتهاد مأمور من الله تعالى مقرر من الله عليه فهو ليس عن الهوى البتة ﴿إِنْ هُوَ﴾ الضمير راجع إلى القرآن المعهود في الذهن والمدلول فيما سبق من الكلام ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فليس في هذه الآية ما يدل على أنه ﷺ ما كان يتكلم بالإجتهاد والجملة تعليل بقوله ما ينطق ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ يعني محمداً ﷺ الضمير المنصوب مفعول أول لعلم والقرآن أو ما يوحىٰ إليه عليه السلام مطلقاً من حيث أنه اسم لكلام تام قائم مقام مفعوليه الثاني والثالث وفاعله ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمع قوة والمراد به الله سبحانه القوي المتين ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ المرة القوة

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

الشدة والأصالة والأحكام كذا في القاموس والله سبحانه شديد البطش يحكم أصل كل شيء وجملة علمه مع ما عطف عليه حال من الضمير المستكن في يوحي أو صفة بعد صفة ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ عطف على علمه والاستواء من المتشابهات قال السلف في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1] أن الاستواء معلوم بلا كيف، وقال سهيل بن عبد الله التستري لا يحوز لمؤمن أن يقول كيف الإستواء لمن خلق الإستواء ولنا عليه الرضا والتسليم، وقال مالك بن أنس الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والسؤال عنه بدعة، وحاصل الآية أنه كان لله تعالى إذا علم محمداً ﷺ نسبته به عليه السلام مجهول الكيفية كنسبته مع العرش المجيد والكعبة الحسناء وقد تظهر تلك النسبة للصوفية الكرام وتظهر على وجه أكمل منه يوم يرونه كما يرون القمر ليلة البدر ﴿وَهُوَ﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني كان محمد ﷺ إذا يوحى إليه في كمال رفعة استعداده وعلوّ مرتبته والأفق الناحية على منتهى دائرة الإمكان حيث يكون وراء ذلك دائرة الوجوب التي لا يتصور هناك للسالك سير قدمي والجملة حال من الضمير المنصوب في علمه ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بحذف المضافين إن كان مقدار قربه قاب قوسين أو أدنى وجملة ثم دنى عطف على علمه، قال البغوي روينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد اللّه بن أنس «ودنىٰ الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه ﷺ قاب قوسين أو أدنى» قال الشيخ محمد حياة السندي في رسالته هذا حديث غريب ومثله عن ابن عباس رواه أبو سلمة عنه وأو هاهنا ليس للشك بل بمعنى بل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[2] يعني بل يزيدون، قالت الصوفية العلية المراد بقوسين قوس الوجوب وقوس الإمكان فالصوفي في مرتبة دنوه قاب قوسين يبقى في نظره مرتبتي الوجوب والإمكان كلتيهما وفي دنوه أونى من قوسين يسترُعن بصيرته قوس الإمكان مطلقاً لا يرى نفسه عيناً ولا أثراً والقاب والقيبة والقاد والقيد عبارة عن المقدار هاهنا كناية عن كمال القرب وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما وألصقا بينهما يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه ومراتب الدنو والتدلي وما كنى بقاب قوسين أو بما هو أدنى منه درجات قرب للعهد من الله تعالى في تجلياته سبحانه يدركه الصوفي ومن لم يذق لم يدر وقد ذكروا هذه الدرجات في كتب

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٧.

التصوف في كلماتهم أكثر مما تحصى، وقال الضحاك معناه دنى محمد من ربه فتدلى يعني فأهوى للسجود وهذا يستلزم انتشار الضمائر ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ من القرآن وغيره من الوحي الغير المتلو وضمائر أوحي وعبده وأوحى راجعة إلى شديد القوى وهذا التفسير مروي عن أنس وابن عباس وغيرهما من السلف ولا غبار عليه من حيث العربية وقالت عائشة واختاره أكثر المفسرين أن المراد بشديد القوى جبرئيل عليه السلام ذو مرة، قال ابن عباس في رواية أي ذو منظر حسن، وقال قتادة ذو خلق طويل حسن فاستوى جبرئيل وهو يعني محمد ﷺ عطف على الضمير المرفوع المستتر في استوى على ما أجازه الكوفيون قال البغوي استوى جبرئيل ومحمد عليهما السلام ليلة المعراج، وقيل ضمير هو راجع إلى جبرئيل كان يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورة التي خلقها فأراه مرتين في الأرض ومرة في السماء فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى والمراد بالأعلى جانب الشرق وذلك أن محمداً ﷺ بجراء فطلع له جبرئيل من المشرق في الأفق إلى المغرب فخر رسول الله ﷺ مغشياً عليه فنزل جبرئيل في صورة الآدميين وضمه ﷺ إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ليلة المعراج ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمد ﷺ قوله تعالى ثم دنى يعني جبرئيل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فتدلى فنزل إلى محمد ﷺ لما خرّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه فكان منه قاب قوسين أو أدنى يعني بل أدنى، والقوس ما يرمى به في قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس فأخبر أنه كان بين جبرئيل وبين محمد ﷺ مقدار قوسين قال معناه حيث الوتر من القوس، وقال ابن مسعود قاب قوسين قدر ذراعين وهو قول سعيد بن جبير وشفيق بن سلمة والقوس الذراع يقاس بها كل شيء كذا روى البخاري في تأويل الآية عن عائشة (رض)، وقال البغوي وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة قيل في الكلام تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى فدنى لأن التدلي سبب الدنو والظاهر أن الدنو أعم مطلقاً عن التدلي فإن الدنو لا يقتضي وصول الشيء إلى منتهى مسافة يريد قطعها إلى تحت بخلاف التدلي فإنه مأخوذ من الدلو فإن التدلي وصول الدلو إلى قعر البئر وأيضاً يعتبر في التدلي الوصول إلى المنتهى مع بقاء تعلقه بالمبدأ يقال أدلى رجله من السرير وأدلى دلوه والدوالي للثمر المعلق فأوحى جبرئيل إلى عبده يعني عبد الله ما أوحىٰ الله إليه. وهذا التأويل يأباه العربية والمعقول بوجوه: أحدها أن قصة جبرئيل هذه حكاية حال والكلام في أن القرآن ليس شيئاً منهما مما نطق محمد ﷺ من تلقاء نفسه بل كله مما أوحي إليه من

ربه وجملة شديد القوى مع ما عطف عليه من قوله فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى حال من الضمير المستكن في قوله إلا وحي يوحى وزمان الحال يتحد مع زمان صاحبه فتقتضي الكلام وقوع تلك القصة في كل مرة أوحي إليه شيء من القرآن وإلا لا يجوز وقوعه حالاً أو لا يجوز القول بأن القرآن كله كذلك، ثانيها أنه يلزم حينئذ إنتشار الضمائر في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ورجوع ضمير عبده إلى الله سبحانه قرينه لكونه ضمير أوحي راجعاً إلى الله تعالى، ثالثها أن الدنو أو التدلي من جبرئيل عليه السلام وكونه قاب قوسين أو أدنى ليس كمالاً للنبيّ ﷺ فإن النبيّ ﷺ كان أفضل من جبرئيل عليه السلام، قال رسول الله ﷺ «وزيراي في السماء جبرئيل وميكائيل»[(١)] ووجه القول بالتأويل الثاني إنما هو استبعاد لاستواء والدنو والتدلي إلى الله تعالى ولما كان القرآن ناطقاً بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فلا وجه للقول بهذا التأويل البعيد والإستواء والدنو والتدلي وكونه قاب قوسين أو أدنى بلا كيف على ما يليق بالتنزيه مشهود لأرباب القلوب كمشاهدة القمر ليلة البدر بالأوجه في القول ما قالوا والله تعالى أعلم، قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أنه أوحي إليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾[(٢)] إلى قوله و﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[(٣)] وقيل أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى الأمم حتى يدخلها أمتك والظن أن ما أوحي عام ولا وجه للتخصيص ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي فؤاد محمد ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ قال ابن مسعود رأى محمد ﷺ جبرئيل له ستمائة جناح وكذا روي عن عائشة(رض) وأنكرت عائشة رؤية النبيّ ﷺ به. روى البخاري عن مسروق قال قلت لعائشة يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حد ثكهن فقد كذب من حدثك أن محمد رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾ ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ثم قرأت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ الآية ولكن رأى جبرئيل في صورته مرتين[(٤)]، وقال ابن عباس ما

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٨٩).

(٢) سورة الضحى، الآية: ٦.

(٣) سورة الشرح، الآية: ٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والنجم (٤٨٥٥).

كذب الفؤاد ما رأى، (ولقد رآه نزلة أخرى) أن محمد ﷺ رأى ربه جل وعلا بفؤاده مرتين[١] كذا روى مسلم عنه، وفي رواية الترمذي قال ابن عباس رأى محمد ربه قال عكرمة قلت أليس الله يقول ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقال ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره وقد رأى محمد ربه مرتين، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه ﷺ سئل هل رأيت ربك؟ قال رأيت بفؤادي، وقال أنس والحسن وعكرمة رأى محمد ﷺ ربه يعني بعينه قال البغوي قال عكرمة عن ابن عباس قال إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمد ﷺ بالرؤية، وروى الترمذي عن الشعبي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسىٰ فكلم موسى مرتين ورأى محمد ﷺ مرتين، قلت: المراد بالرؤية المختلف فيها إما الرؤية بالبصر وإما الرؤية القلبية المعبر عنها بالمشاهدة فغير مختص بالنبيّ ﷺ بل يتشرف أولياء أمته ﷺ أيضاً وقد ادعى بعض الأولياء الرؤية البصرية وذلك خلاف إجماع في حق غير النبيّ ﷺ وهذا الدعوى مبني على الاشتباه، ووجه الاشتباه أن الصوفي قد يرى ربه بقلبه وهو يقظان ويتعطل حينئذ بصره لكنه يزعم في غلبة الحال أنه يراه ببصره وإنما هو يراه بقلبه وبصره معطل وقوله عليه السلام «رأيته بفؤادي» لو ثبت لا يدل على نفي الرؤية بالبصر إلا بالمفهوم، قلت وقول ابن مسعود وعائشة شهادة على النفي وشهادة الإثبات أرجح وما احتج به عائشة على نفي رؤيته ﷺ فلا يخفى ضعفه وأما قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٢] فقد ذكرنا في تفسير تلك الآية في سورة الأنعام أن الدرك أخص من الرؤية ونفي الدرك لا يستلزم نفي الرؤية قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾[٣] وأيضاً مفهوم الآية سلب عموم الدرك لا عموم سلب الدرك وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[٤] ترديد بين الوحي من وراء الحجاب والوحي بلا حجاب فلا استدلال به والله تعالى أعلم، وروى مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نورأنىٰ أراه»[٥] أنىٰ بفتح الهمزة للإستفهام يعني كيف أراه في بعض الروايات نوراني منسوب إلى

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ (١٧٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة والنجم (٣٢٧٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٦١ ـ ٦٢.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام «نور أنى أراه» وفي قوله: «رأيت نوراً» (١٧٨).

النور أراه فعلى الرواية الثانية يثبت الرؤية وعلى الرواية الأولى ليس الحديث صريحاً في نفي الرؤية مطلقاً، قلت: وبعد ثبوت رؤيته ﷺ ربه بالعين كما يدل عليه حديث ابن عباس وكعب أيضاً أن المراد بالرؤية في الآية الرؤية القلبية فإنها هي المتصورة عند كل وحي يوحى إليه دون الرؤية البصرية فإنها مختصة بليلة المعراج. قرأ أبو جعفر وهشام عن أبي عباس كذب بتشديد الذال من التذكيب يعني ما كذب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه أو بقلبه بل صدقه وأيقنه وهو حققه فإن الأمور القدسية تدرك أولاً بالقلب ثم ينتقل منه إلى البصر والبصيرة فإن ابصر مثل ما أدرك بالقلب وإن قصر بصره أو بصيرته عما أدركه القلب ورأى بخلافه كذبه وهذا هو المصداق الفارق بين العلوم الحقة الفايضة من الرحمٰن وبين الخيالات الوهمية وملتبسات الشيطانية فإن الصوفي قد يلتبس عنده العلوم والإلهامات والمكاشفات القدسية المفاضة عليه من الله سبحانه بما يتخيله الوهم والخيال وبما ألقى الشيطان في أمنيته، والفارق بينهما أن يرجع الصوفي إلى قلبه فإن صدقه قلبه واطمأن به ورأى في قلبه منه برد اليقين علم أنه من الله سبحانه وإن كذبه قلبه واضطرب عنده وأبى عرف أنه من النفس أو الشيطان، قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاءك في صدرك شيء فدعه**» رواه أحمد عن أبي أمامة وقال عليه السلام «**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»(١) وقرأ الجمهور بتخفيف الذال والكذب يجيء متعدياً بمعنى كذب له ومجازه ما كذب الفؤاد لمحمد ﷺ فيما رأى يعني أخبره على ما في نفس الأمر فان قيل هذه الآية يقتضي أن تصديق القلب يغاير رؤية القلب؟ قلنا نعم وتحقيق المقام أن قلب المؤمن يدرك الله سبحانه وصفاته بمعية ذاتية غير متكيفة مترتبة على محبة ذاتية غير متكيفة ولا يراه بل رؤية مقتصرة على مراتب الظلال بل القلب لا يرى شيئاً من ذوات الممكنات أيضاً فإن حصول الأشياء في الأذهان إنما هي بأشباهها وظلالها لا بأنفسها وما يرى ذات شيء مما يراه إلا يتوسط الباصرة فرؤية الله سبحانه تيسير للمؤمنين في الآخرة بتوسط الحاسة لا في الدنيا إلا ما ذكرنا من الخلاف في حق النبيّ ﷺ خاصة ودركه تعالى مختص بالقلوب دون الأبصار فإنه تعالى لا تدركه الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة فرؤية القلب سواء كانت بتوسط البصر أو بلا توسط قد يعتبر به الغلط بتخليط الوهم أو تلبيس الشيطان أو زيغ البصر وطغيانه عما يراه وأما دركه البسيط فلا يعتبر به شيء من ذلك ويتفرع عليه الاطمئنان بالحق وتصديقه والإباء عن الباطل وتكذيبه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾معطوف على محذوف، قرأ حمزة

(١) أخرجه البخاري في التاريخ ورواه أحمد والدارمي، وقال النووي في الرياض: إسناده حسن، وروى الطبراني قريباً منه وفي سنده مجهول. انظر فيض القدير (٩٩١).

والكسائي أفتمرونه على وزن تدعونه بمعنى تغلبونه في المرأ يقال ماريته فمريته بمعنى حادلته فغلبته وعلى هذا التقدير الكلام أتمرونه فتمرون ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عدي بعلى لأن الفعل بمعنى الغلبة، وقيل تمرون تجحدون يقال مريت الرجل حقه يعني جحدته والمعنى أتجادلون محمداً فتجحدون صدقه على ما يرى والتعدية بعلى حينئذ أيضاً لتضمن الفعل مع الغلبة فإن المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما للغلبة على الخصم وقرأ جمهور القراء أفتمارونه من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة أي استخرج لبنها فان كلا من المتجادلين يمري ما عند صاحبه يستخرجه وتقدير الكلام حينئذ تنكرون قول محمد فتمادون عن ما يرى، والاستفهام للتوبيخ والإنكار يعني لا ينبغي الإنكار والجدال فيما يدعي محمد ﷺ رؤيته وأورد صيغة المضارع استحضاراً للحال الماضي وحكاية عنه وجاز أن يراد به التوبيخ على إنكار كل ما أراه محمد ﷺ في الحال أو الإستقبال.

﴿ولقد رآه﴾ يعني والله لقد رأى محمد ﷺ ربه جل وعلا أو جبرئيل على صورته التي خلق عليها على اختلاف القولين المذكورين ﴿نَزْلَةً﴾ فعلة من النزول كجلسة من الجلوس منصوب على الظرفية من رآه تقديره وقت نزلة أخرى أو على المصدرية تقديره نازلا نزلة أخرى وفي إيراد نزلة إشعار بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بالنزول والدنو فإن رؤية البشر الممكن الواجب جل سلطانه إنما يتصور إذا كان البشر الرائي في الأفق الأعلى والدرجة الإنس من درجات الإمكان والله تعالى يتنزل من مراتب التنزيه إلى نوع من درجات التشبيه فيرى من وراء حجب الظلال أو الصفات ولا يذهب عليك من مقالتي هذا حدوث أمر في جانبه تعالى ذلك علواً كبيراً بل النزول والعروج كلها في مرتبة العلم يظهر بحدوث صفاء في مرآة قلب المتجلي له وقد مر البحث عن مثله في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[1] ﴿أُخْرَىٰ﴾ هذا يدل على تعدد الرؤية ولا يدل على الإنحصار في المرتين فما روي عن ابن عباس وكعب الأحبار أنه رأى ربه مرتين محمول على بيان أدنى ما يتصور فيه التعدد وهذه الآية حكاية عن رؤية النبيّ ﷺ أو بليلة المعراج ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ والظاهر أن ما حكي عن ابن عباس وكعب رؤيته ﷺ ربه بعينه هو هذه الرؤية وقوله عند سدرة المنتهى ظرف متعلق يراه أو إضافة السدر إلى المنتهى إضافة موصوف إلى صفة نحو جانب الغرب ومسجد الجامع أجازه الكوفيون وتأويله عند البصر بين سدرة المكان منتهى وجعل المنتهى صفة لها لأنه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ويهبط به من فوقها فيقبض منها وينتهي إليها علم الخلائق وما خلقها غيب ويدل عليه ما يورد عليك من حديث ابن مسعود وكعب.

قصة المعراج

في الصحيحين عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبيّ ﷺ قال: «**بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آتٍ فشق بين هذه وهذه يعني من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد**» وفي رواية «ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمة ثم أتيت بداية دون البغل وفوق الحمار يقال له البراق يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبرئيل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبرئيل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسلت إليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به فتعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالإبن الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فذكر نحو ما ذكر في السماء الدنيا وكذا ذكر كل السماء، قال فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال هذا يحيى وهذا عيسى فسلم فسلمت عليهما فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح وذكر في السماء الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى كل قال مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، قال عليه السلام «فلما جاوزت بكى يعني موسى قيل له ما يبكيك؟ قال أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ثم صعد بي إلى السماء السابعة فذكر الاستفتاح وغير ذلك نحو ما مر وذكر هناك إبراهيم، قال جبرئيل هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجرو إذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران قلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع بي إلى البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال هي الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم فرجعت ومررت على موسى فقال بما أمرت؟ قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فوضع

عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال بما أمرت قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فأرجع إلى ربك فاسئله التخفيف لأمتك قلت سألت ربي حتى استحييت ولكني أرضى وأسلم قال فلما جاوزت نادى منادي أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»(١) وروى مسلم عن ثابت البناني عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار دون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء**» وقال ابن جرير عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ «**انتهينا إلى بيت المقدس قال جبرئيل بأصبعه فخرق بها الحجر وشد به البراق قال رسول الله ﷺ ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبرئيل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبرئيل إخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء**» وساق مثل معنى ما ذكر من الحديث «قال فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير وقال في السماء الثالثة فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا بي بخير ولم يذكر بكاء موسى وقال في السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه وفي رواية قال جبرئيل هذا البيت المعمور يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لا يعودوا آخر ما عليهم ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشَّها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها وأوحى إلي ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال ارجع إلى ربك فسئله التخفيف فإن أمتك لا يطيق ذلك فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت حط عني خمساً، قال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فسئله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فلذلك خمسون من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عمل بها كتبت له عشراً ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب له بشيء فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات فرض الصلوات (١٦٤).

حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فسئله التخفيف فقال رسول الله ﷺ فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه. وفي الصحيحين عن ابن عباس عن أبي ذر يحدث عن النبيّ ﷺ فقال: «فرّج عني سقف بيتي وأنا بمكة فذكر شق الصدر نحو ما ذكر ولم يذكر البراق، قال ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء فلما جئت إلى السماء الدنيا فقا جبرئيل الخازن السماء افتح فذكر نحوه، فلما فتح علونا السماء الدنيا إذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قلت لجبرئيل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى، فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه قال وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السادسة، قال ابن شهاب فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حية الأنصاري كانا يقولان قال النبيّ ﷺ ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، وقال ابن حزم وأنس ففرض الله على أمتي خمسين فرجعت بذلك حتى مررت على موسى قال ما فرض الله لك قلت خمسين صلاة قال فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق فراجعه فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فقلت وضع الله شطرها فقال أرجع إلى ربك فإن أمتك لا يطيق فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لديَّ، فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك، فقلت استحييت من ربي فانطلق بي حتى انتهى بي إلى السدرة وغشيها ألوان لا أدري ما هي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذا اللؤلؤ وإذا ترابها المسك، وروى معمر عن قتادة عن أنس أن النبيّ ﷺ أتي البراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً فأصعب عليه فقال جبرئيل: أبمحمد تفعل هذا فما ركبك أحد أكرم على الله منه فارفض عرقاً. وروى مسلم عن ابن مسعود قال لما أسري برسول الله ﷺ إنتهى به إلى السدرة المنتهي وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج بها من الأرض فيفيض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، وذكر البغوي أنه قال هلال بن يسار سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهي وأنا حاضر فقال إنها سدرة في أصل العرش وإليها ينتهي علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله، قلت ومعنى قوله إليها ينتهي علم الخلائق يعني أن بعض المخلوقات يعني الملائكة يحضرون إلى سدرة المنتهي ولا يتجاوزها أحد من الخلائق فما ورائها غيب من كل وجه وأما سدرة المنتهى فهي وإن كان غيباً بالنسبة إلى البشر فليس يغيب بالنسبة إلى بعض الملائكة، وروى البغوي بسنده عن أسماء بنت أبي بكر

قالت سمعت النبيّ ﷺ يذكر سدرة المنتهى قال: «يسير الراكب في ظل الغصن مائة عام ويستظل في الغصن منها مائة ألف راكب فيها فراش من ذهب كأن ثمرها القلال»، وقال مقاتل هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار وجميع الألوان لو أن ورقة منها وضعت في الأرض أضاءت لأهل الأرض وهي طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد، ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ وإضافة جنة إلى المأوى أيضاً من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة جوزها الكوفيون ويؤله البصريون بجنة المكان المأوى، قال عطاء عن ابن عباس معناه جنة يأوى إليها جبرئيل والملائكة وقال مقاتل والكلبي تأوي إليها أرواح الشهداء وجنة المأوى مبتدأ أو فاعل للظرف والجملة صفة لسدرة إن كانت الإضافة للعهد الذهني في قوة النكرة وإلا فهي حال عنها ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ الظرف متعلق يراه الموصول مع الصلة فاعل يغشى إستعمال الموصول للتفخيم وصيغة المضارع بمعنى الماضي والمعنى غشيها ما لا يستطيع أحد أن ينعتها لحسنها أو لكثرة عددها أو لعدم درك كنهها وقد مر في حديث المعراج عن أنس فلما غشيتها من أمر الله ما غشي تغيرت في أحد من خلق يستطيع أن ينعتها من حسنها، وروى مسلم عن ابن مسعود قال: «إذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب»[(١)] وكذا ذكر البغوي قول ابن عباس قال البغوي عن الحسن قال غشيها نور رب العزة فاستنارت قلت لعل نور رب العزة كعزة كذا كنى عنها بفراش من ذهب وقال مقاتل تغشيها الملائكة أمثال الغربان.

وقال السدي من الطيور وروي عن أبي العالية عن أبي هريرة(رض) أو غيره قال غشيها نور الخلائق وغشيتها الملائكة من حب الله أمثال الغربان حتى يقعن على الشجر، قلت: ولا منافاة بين تغشية نور رب العزة وتغشية الملائكة فإن تغشية الملائكة إنما هي لأجل تغشية نور رب العزة كما يدل عليه قول غشيها من الملائكة من حب الله أمثال الغربان وتغشية النور من قبيل التجليات النورية والله تعالى أعلم قال البغوي يروى في الحديث رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ يعني ما مال بصر النبيّ ﷺ يميناً ولا شمالاً وما أخطر في النظر بل أثبته إثباتاً صحيحاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما جاوز عن المحبوب إلى غيره.

من العشق وحالاته ... أحرق قلبي بحراراته
ما نظر العين إلى غيركم ... أقسم بالله وآياته

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر سدرة المنتهى (١٧٣).

قيل معناه ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ أي لقد رأى محمد ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ مفعول لرأى ومن آيات ربه حال منه مقدم عليه ومن للتبعيض يعني والله لقد رأى محمد الكبرى من آيات ربه وجاز أن يكون من زائدة وآيات ربه مفعول به الكبرى صفة لها، وجاز أن يكون المفعول محذوفاً تقديره لقد رأى شيئاً من آيات ربه الكبرى والمراد بالآيات العجائب الملكوتية التي رآها في ليلة المعراج في مسيرة وعوده من البراق والسماوات والأنبياء والملائكة والسدرة المنتهى وجنة المأوى، روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ قال رأى جبرئيل في صورته له ستمائة جناح[١]، وروى البخاري عنه ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ قال رأى رفرفاً أخضر سد الأفق[٢]، وإنما وصف تلك الآيات بالكبرى لتجليات مخصوصة في تلك الآيات وكونها مهبط الرحمة والبركة وإلا فكل ممكن آية كبرى على وجود صانعه ودليل واضح مكتفي لا يحقر منها شيء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[٣] فإن قيل هذه الآية تؤيد قول من قال أن النبيّ ﷺ إنما رأى مرتين جبرئيل عليه السلام دون الله سبحانه لأن رؤية الآيات غير رؤية الذات؟ قلنا: رؤية الآيات لا ينافي رؤية الذات بل الآيات قد يجلى فيه الذات كما أن الشمس يتجلى في المرآة. فإن قيل قد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ يعني ما جاوز بصره عن المحبوب إلى غيره فكيف يتصور رؤية الآيات؟ قلت: المقصود من رؤية الآيات إنما هي الذات ومن ثم تكون الآيات مرآة للذات فحين رأى الآيات جاوز نظره عنها إلى الذات وحين رأى الذات لم يتجاوز عنه إلى غيره أصلاً.

مسألة:

أجمع المؤمنون من أهل السنة والجماعة أن معراجه ﷺ في اليقظة حق فقيل مسراه ﷺ من المسجد الحرام إلى الأقصى قطع ثابت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ الآية فيكفر جاحده وأما معراجه إلى السماء السابعة وما فوقها فثبت بأحاديث صحاح فينسق جاحده ولا يكفر والصحيح أن معراجه ﷺ إلى السدرة المنتهى قطع ثابت بهذه الآية يكفر جاحده. فإن قيل ما رواه الشيخان في الصحيحين عن شريك بن عبد الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر سدرة المنتهى (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ (٤٨٥٨).

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٣.

قال سمعت أني بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام وساق حديث المعراج بقصته قال فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان قال هذا النيل والفرات ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أزفر قال ما هذا يا جبرئيل؟ قال هذا الكوثر الذي هيّأ لك ربك وساق الحديث، وقال ثم عرج بي إلى السماء السابعة وقال: قال موسى رب لم أظن أن يرفع على أحد ثم علابه فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما أوحى، أوحى الله خمسين صلاة كل يوم وليلة قال فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم أجبته موسى عند الخمس، فقال يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبيّ ﷺ إلى جبرئيل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبرئيل فرفعه عند الخامسة فقال يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد فقال لبيك وسعديك، قال إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك، فقال موسى إرجع إلى ربك فسأله فليخفف عنك أيضاً قال رسول الله ﷺ قد والله استحييت من ربي مما اختلف إليه، قال فاهبط باسم الله فاستيقظ وهو في المسجد الحرام[١]. هذا لفظ البخاري، ورواه مسلم مختصراً يدل على كون المعراج في المنام؟ قلنا: طعن بعض أهل الحديث على هذا الحديث وقالوا وجدنا لمحمد بن إسماعيل ولمسلم في كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجاً إلا هذا وأحال الآفة فيه إلى شريك بن عبد الله وذلك أنه ذكر فيه أن ذلك قبل أن يوحي إليه، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثني عشر سنة قبل الهجرة بسنة، وقال بعض أهل الحديث إن هذا كان رؤيا في المنام أراه عز وجل قبل الوحي وهو في المسجد الحرام ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي قبل الهجرة تحقيقاً لرؤياه من قبل كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقه سنة ثمان ونزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[٢] والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (٧٥١٧).

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

ولما ذكر الله سبحانه رؤية النبيّ ﷺ ربه وآيات ربه وتعلمه ﷺ منه تعالى وتصديق قلبه أردفه بذلك تقبيح الكفار بقصر نظرهم على مجازه لا حقيقة لها فقال ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على محذوف تقديره أنظرتم ما تعبدونه فرأيتم ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يصدونها ويزعمون الملائكة بنات الله ويزعمون الأصنام هياكل الملائكة ويقولون الأصنام استوطنها جنيات هن بنات الله واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فاشتقوا من الله اللات ومن العزيز العزى تأنيث الأعز، وقيل اللات أصله لوية على وزن فعلة من لوى يلوي لأنهم كانوا يلوون عليها أي يطوفون حولها قلبت الواو ألفاً وحذفت الياء على خلاف قياس وضعت تاء التأنيث مكانها فكتبت طويلاً، قرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح ورويس بتشديد التاء على أنه سمي به لأنه صورة رجل كان يلت السويق بالسمن ويطعم الحاج فلما مات كانوا عكوفاً على قبره ثم كانوا يعيدونه وقال قتادة كانت اللات صنماً لثقيف بالطائف، وقال ابن زيد كانت بيت بنخلة تعبده قريش. وأما العزى قال مجاهد هي شجرة بغطفان كانوا يعبدونها وقال ابن إسحاق كانت بيتا بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان حلفاء بني هاشم كانت أعظم أصنام قريش وجميع كنانة كان عمرو بن لحي قد أخبرهم أن الرب يشتي بالطائف عند اللات ويصيف بالعزى فعظموهما وبنوا لهما بيتاً وكانوا يهدون إليه كما يهدون إلى الكعبة، وروى البيهقي عن أبي الطفيل بعث رسول الله ﷺ يوم فتح مكة خالد بن وليد فأتاها خالد فقطع السمرات وهدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال هل رأيت شيئاً قال لا قال فإنك لم تهدمها فرجع خالد وهو مستيقظ فلما رأت السدنة خالداً انبعثوا في الحيل وهم يقولون يا عزى خليه يا عزى عوديه وإلا فموتي برغم فخرجت إليه سوداء عريانة ناشرة الرأس تحثوا التراب على رأسها ووجهها فجرد سيفه وهو يقول كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك فضربها بالسيف فخبر بها باثنين ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره قال نعم تلك العزى قد يئست أن تعبد ببلدكم أبداً. وقال الضحاك هي صنم بغطفان

وضعها سعد بن ظالم الغطفاني وذلك أنه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بينهما فعاد إلى بطن نخلة وقال لقومه: إن لأهل مكة الصفا والمروة وليست لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم قالوا فما تأمرنا قال أنا أصنع لكم كذلك فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة نقلها إلى النخلة فوضع الذي أخذ من الصفا فقال هذا الصفا ثم وضع الذي أخذ من المروة فقال هذه المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة فقال هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ قرأ ابن كثير بمد وهمزة على أنه مفعلة من النوء كأنهم يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها أصله منواة قلبت الواو ألفاً بعد ثقل حركتها إلى ما قبلها والباقون بلا مد وهمزة فهي فعلة من مناة إذا قطعه فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، قال قتادة هي لخزاعة كانت بقديد وقالت عائشة(رض) في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت حذوة قديد، وقال ابن زيد بيت كان بالمشال تعبده بنو كعب وقال الضحاك صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة وقال بعضهم اللات والعزى ومناة كانت في جوف الكعبة يعبدونها. ذكر محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد أنه بعث رسول الله ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة وهو بالمشلل وهو الجبل الذي يهبط منه إلى قديد لست بقين من رمضان في فتح مكة وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان فخرج سعد في عشرين فارساً حتى إنتهى إليها وعليها سادن فقال السادن ما تريد؟ قال هدم مناة، قال وأنت ذاك فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعوا بالويل وتضرب صدرها فقال السادن مناة دونك بعض غضبانك ويضربها سعد بن زيد الأشهيلي فقتلها ويقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدموه. اختلف القراء في الوقف على اللات ومناة فوقف بعضهم عليهما بالهاء وبعضهم بالتاء، وقال بعضهم ما كتب في المصحف بالتاء يعني اللات يوقف بالتاء وما كتب بالهاء يعني مناة يوقف عليه بالهاء ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ صفة لمناة أي الثالثة للصنمين المذكورين ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صفة لمناة بعد صفة للتأكيد أو الأخرى من التأخر في الرتبة واللات والعزى ومناة منصوبان على أنها مفعول أول لرأيتم ومفعوله الثاني محذوف تقديره أنظر تم ما تعبدونه فرأيتم اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى البتة مستحقة للعبادة يعني ليس كذلك والله تعالى أعلم، قال الكلبي كان المشركون بمكة يقولون الأصنام والملائكة بنات الله وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره فقال الله تعالى منكراً عليهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ قال ابن عباس وقتادة أي قسمة جائرة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون

لأنفسكم، وقال مجاهد ومقاتل أي قسمة عرجاً، وقال الحسن غير معتدل، قرأ ابن كثير ضيزى بالهمزة من ضئزه إذا ظلمه على أنه مصدر لعت به مبالغة يعني قسمة ظالمة والباقون بالياء، قال الكسائي يقال ضاز يضيز ضاز أو ضاز يضوز ضوزاً وضاز يضاز ضازاً إذا ظلم ونقص، قلت: ليس هذا ضاز ويضوز بل هو يائي من ضاز يضير على وزن باع يبيع أو ضاز يضاز على وزن نال ينال وأصل ضيزى فُعلى بضم الفاء لأنها صفة والصفات لا تكون ألا على فعلى بضم الفاء كحبلى وأنثى أو فعلى بفتح الفاء نحو غضبى وسكرى وعطشى وليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت وإنما يكون في الأسماء كذكرى وشعرى وإنما كسر الضاد هاهنا لشلا ينقلب الياء واوفينبس بناءه كذا قالوا في جمع الأبيض بيض والأصل بضم الفاء مثل حمر وصفر ﴿إِنْ هِيَ﴾ الضمير للأصنام فإن كان المراد بالأصنام أجرام الحجارة فالمعنى ما تلك الحجارة باعتبار الألوهية شيئاً مستحقاً للألوهية ﴿ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ جملة سميتموها الخ وجملة ما أنزل الله صفتان لأسماء والضمير للأصنام مبتدأ والمستثنى المفرغ خبره والمعنى ما تلك الحجارة آلهة إلا آلهة اسمية باصطلاحكم من غير داع إليه وما جعل الله على ألوهيتها واستحقاقها للعبادة حجة، وجاز أن يكون الضمير للأصنام باعتبار ما يدعى الكفار أنها حقائق ملكيته أو غير ذلك حالة فتلك الأصنام وهي بنات الله وشفعاء فالمعنى ما هي شيئاً في الواقع إلا أسماء بلا مسمى تخيلتم وجودها وسميتموها بأسماء مثل اللات والعزى وبنات الله وشفعاء وحالة في الأصنام ما أنزل الله على وجودها برهاناً، وجاز أن يكون الضمير راجعاً إلى الأسماء المذكورة، والمعنى ليست الأسماء المذكورة من اللآت والعزى شيئاًإلا أسماء مجعولة لكم من غير استحقاق ومنشأ اتزاع فإنهم يطلقون اللات باعتبار استحقاقها الألوهية والعكوف عليها والعزى بعزتها ومناة لاستحقاقها التقرب إليها بالقرابين، وجاز أن الضمير راجعاً إلى الصفة التي يصفونها بها من كونها إلّهة وبنات الله وشفعاء يعني ليست تلك الصفات التي تصفونها بها إلا أسماء من غير حقيقة وصدق في نفس الأمر ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي الكفار في تسميتها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الحاصل بتقليد الآباء من غير دليل صحيح أو المعنى إلا توهماً بإطلاق ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم الجملة بيان أو بدل من قول ما أنزل الله بها من سلطان فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإشارة إلى ترك مخاطبة هؤلاء السفهاء كما يصرح فيما بعد بقوله فأعرض عمن تولى ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي ما يهتدى به إلى الحق القطع يعني الرسول والكتاب فلم يتبعوه وتركوه والجملة معترضة ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أم منقطعة ومعنى بل فيه للإبتداء

ومعنى الهمزة للإنكار يعني ليس للإنسان كل ما يتمناه والمراد نفي طمعهم في شفاعة الأصنام وقولهم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾(١) وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٢) ونحوها ﴿فَلِلَّهِ ٱلْأٓخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ الفاء للسببية والجملة تعليل للنفي المفهوم مما سبق يعني ليس للإنسان كل ما يتمناه بأن الدار الآخرة والدار الأولى كل واحدة منهما مملوكة لله مختص به يعطيهما من يشاء ويمنعهما ممن يشاء لا دخل في منعه وإعطائه لتمني متمنى ولا لشيء آخر غير إدارته تعالى ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ كائن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من الغناء ولا ينفع في حين من الأحيان ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من الملائكة أن يشفع أو من الناس أن يشفع له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ بشفاعة له مع كونهم عباد الله المكرمين المقربين فكيف يرجون هؤلاء شفاعة الأصنام والآية رد لقولهم هؤلاء شفعاءنا عند الله، وقال البغوي معناه كم من ملك في السماوات ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون شفاعتهم عند الله يعني شفاعتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ يعني كفار مكة والتعبير بالموصول لبيان جهلهم ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ حيث يقولون أنها بنات الله لما كان هذا القول في غاية الاستبعاد وجرياً بالإنكار أو رداً لكلام بالاستئناف والتأكيد بأن واللام جريا للسامع مجرى المنكر ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بهذا القول ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ الجملة حال من فاعل

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

يسمون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي لهؤلاء الكفار الجهال ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الحاصل بالتقليد أو التوهم الباطل من غير دليل وهذه الجملة بيان وتأكيد لقوله وما لهم به من علم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ إما منصوب على المصدرية ومن الحق ظرف لغو متعلق بلا يغني وأما منصوب على المفعولية ومن الحق حال منه والمراد بالحق العلم لأنه عبارة عن الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع والواقع هو الحق، والمعنى أن الظن لا يغني من العلم شيئاً من الغناء أو لا يفيد شيئاً من العلم يعني لا يقوم الظن الحاصل بالتقليد ونحوه مقام العلم الحاصل بدليل قطع سمعي أو عقلي فلا يجوز للعاقل اتباع الظن بل يجب طلب اليقين والجملة معترضة لتقبيح الكفار في اتباع الظن ولما كان صلابتهم في إتباع الظن والتقليد أمارة إنكارهم لهذه الجملة أو رد هذه الجملة بالتأكيد. فإن قيل جاز في الشرع اتباع الظن في العمليات وغالباً مسائل الفقه مستنبطة من الأدلة الظنية وأيضاً ثبت بأحاديث الآحاد ونحو ذلك كثير من القصص الماضية وتفاصيل نعم الجنة وعذاب جهنم وتفاصيل أخبار يوم المعاد فلو كان الظن لا يفيد شيئاً من العلم لكان تعليمها عبثاً ولا يجوز القول بها ولا العمل بالفقه والاعتقاد بها؟ قلنا معنى هذه الآية أنه لا يجوز إتباع الظن فيما يعارضه العلم الحاصل بدليل قطعي وإن الظن لا يفيد فائدة العلم إذ لا شك أن الأضعف لا يصادم الأقوى فمقتضى هذه الآية أن العقائد الحقة الثابتة بالأدلة القطعية العقلية أو الآيات المحكمات والأخبار المتواترات السمعية لا يجوز تركها باتباع الظن ويجب ما أمكن تحصيل العلم من الأدلة القطعية والعمل بها وفيها لا يوجد دليل قطعي فالعقل يحكم الجزم والإحتياط يوجب العمل بدليل ظني أي ما يفيد غلبة الظن بطريق صحيح مثلاً إذا ثبت بدليل ظني أن الوتر واجب وأن صلاة الضحى سنة وأن البنج حرام وأن البيع بشرط فاسد ممنوع وليس هاهنا دليل قطعي يعارض هذا الظن، فالعقل يحكم أن لا يترك الوتر ولا يشرب البنج، ولا يباع بالشرط الفاسد مخافة العذاب وأن يصلّي الضحى رجاء للثواب لأن احتمال جلب المنفعة عند تيقن عدم المضرة كان للإتيان وإحتمال المضرة كان للاجتناب كما أن احتمال الحية في الحجر كاف للاجتناب عن وضع الأصابع هناك وأيضاً ثبت بالأدلة القطعية من الأحاديث المتواترة بالمعنى بإجماع الأمة وبقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا يَـٰٓأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[2] وجوب اتباع أحاديث الآحاد والقياس عند عدم معارضته ما هو أقوى منه

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.

فالظن في المسائل الفقهية إنما هي في الطريق وبعد ثبوت الظن الصحيح وجوب العمل بها ثابت بدليل قطعي وأخبار المبتدأ والمعاد الثابتة بالنصوص الظنية قطعيات في القدر المشترك منها موجبة للعلم وأما تفاصيلها فغير معارضة بدليل أقوى منه فيجوز إستفادة الترغيب أو للترهيب منها والله تعالى أعلم. وقيل المراد بالحق في الآية العذاب واللام في الظن للعهد ومعنى الآيتان ظن الكفار الحاصل بتقليد الآباء أو التوهم لا يدفع شيئاً من العذاب أو لا يدفع العذاب شيئاً من الدفع ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني القرآن أو الإيمان أو عن الإشتغال بذكر الله ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ شيئا ﴿إِلَّا﴾ شهوات ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ انهمك فيها بحيث كان منتهى همته مبلغ علمه الدنيا فحسب الفاء للسببية والموصول وضع موضع المضمر لتأكيد سببية الأعراض يعني إذا حملت جهلهم وسفاهتهم وسخافات عقلهم أنهم يتبعون الظن ويتركون ما جاءهم من ربهم الهدى ويختارون عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع ويتولون عن الاشتغال بالرحمن الواحد القهار فأعرض عنهم حيث لا تفيد دعوتك فيهم فإنهم كالأنعام بل هم أضل ولما كان بعض حركاتهم وسكناتهم مفيدة في الدنيا دالة على إدراكاتهم موهمة لهم نصيباً من العقل، قال الله تعالى لدفع ذلك الوهم قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني أمر الدنيا وكونها شبهة ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ يعني لا يتجاوز علمهم وعقلهم من العلم بالأمور المعاشية والتعقل بها وذلك غير معتد به عند الله إعلم أن العلم والعقل كل منهما مخلوقة لله تعالى على حسب ما أراد وليست الأسباب إلا أسباباً عادية وليست الأسباب أسباباً حقيقة كما زعمته الفلاسفة فالله تعالى أنشأ يخلق العلم بعدما أراد الآيات وإلا فلا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كلاً على حسب الضلالة واهتدائه هذه الجملة وعدو تعليل لما سبق من الأمر بالإعراض يعني لا تهتم بهم نحن نكفيهم للجزاء ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً عطف على الجملة السابقة يعني هو الأعلم بهم وهو الهكم وخالقهم يفعل بهم ما يشاء وما يقتضيه الحكمة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ اللام متعلق بمضمون الجملتين السابقتين يعني خلق العالم وميز الضال من المهتدي وحفظ أحوالهم ليجزي الذين أساؤا بالشرك والعصيان بسبب أعمالهم من الإشراك والمعاصي ويجزي الذين أحسنوا أعمالهم بالإخلاص بالحسنى أي بالمثوبة الحسنى يعني الجنة أو بالأحسن من أعمالهم وهي الإخلاص أو لسبب الأعمال الحسنى ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ بدل من الذين أحسنوا أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين يجتنبون ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف كبير الإثم على صيغة الآخر أو على إرادة الجنس فهو إضافة صفة إلى موصوفها نحو

أخلاق ثياب والمراد بكبير الإثم الشرك فإن الشرك لظلم عظيم وقرأ الباقون كبائر بصيغة الجمع أصناف أفراد الكبائر إلى جنسه على طريقة كرام البشر وجياد الدرهم وقد ذكر تحقيق الكبائر من الذنوب في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[1] ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ إما عطف تفسيري أو المراد أفحش من الكبائر خصوصاً قيل أريد به ما شرع فيه الحد ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني ما صدر من العبد بلا إصرار ثم تاب عنه ولا يكون له عادة وإقامة عليه بل حيناً بعد حين يقال فلان يفعل كذا أي حيناً بعد حين كذا قال الجوهري، قال البغوي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عن عطاء عن ابن عباس، قال السدي قال أبو صالح سئلت عن قول الله عز وجل ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فقلت هو الرجل يلم بالذنب أي يقربه ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس فقال لقد أعانك عليها الملك الكريم، قال البغوي وروينا عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى إلا اللهمَّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن تغفر اللّهم تغفرجما وأي عبد لك لا ألما**» فالاستثناء متصل كما هو الأصل، قيل اللمم الصغار من الذنوب كذا في القاموس فهو كالنظرة والغمزة والقبلة وما كان دون الزنا، قال البغوي وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي ورواية طاووس عن ابن عباس، روى البخاري عن ابن عباس قال ما رأيت أشبه باللممَّ بما قال أبو هريرة عن النبيّ ﷺ «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تمني وتشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه**»[2] ورواه سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ وزاد «العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطأ» وقال الحسن بن الفضل اللممَّ النظرة من غير تعمل فهو مغفور فإن عاد النظرة فليس بلمم وعلى هذا اللمم أخص من صغائر الذنوب، وقال سعيد بن المسيب ما لَمّ على القلب أي خطر وهذا يناسب ما قال الجوهري من قولك ألممت بكذا أي انزلت به وقاربته من غير موافقة وعلى هذه الأقوال الاستثناء منقطع، وقال الكلبي اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلاة ما لم تبلغ الكبائر والفواحش والوجه الآخر هو الذنب العظيم الذي يلم به المسلم مرة فيتوب منه، قلت: وقول الكلبي هذا ليس قولاً مغايراً للأقوال وإلا يلزم عموم المشترك أو الجمع بين الحقيقة والمجاز بل هو اختيار للقولين الأولين على وجه الاحتمال كما روى

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: زنا الجوارح دون الفرج (٦٢٤٣).

القولين المذكورين عن أبي هريرة وابن عباس(رض) والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ يغفر لمن يشاء ما يشاء من الذنوب صغائرها وكبائرها بتوبة وبلا توبة عقب الله تعالى وعيد المسيئين وعد المحسنين بهذه الآية لئلا ييئس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى كما قال به أهل الهواء من المعتزلة، أخرج أبو نعيم عن علي (رض) قال: قال رسول الله ﷺ **«إن الله تبارك وتعالى أوحىٰ إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عند الحساب يوم القيامة ما أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصبتي من أمتك لا يلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»** والله تعالى أعلم، **ثم عقب ذلك قوله** ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي بصنيعكم وسعادتكم وشقائكم وما يصير إليه أمركم وأفعل هاهنا بمعنى الفعيل إذ لا علم لأحد غير الله تعالى بما يصدر من الإنسان قبل وجوده كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ أي أنشأ أباكم آدم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فإن علمه تعالى بالأشياء قديم وقد قال رسول الله ﷺ: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء»**(١) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر، وقال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب قال ما أكتب؟ قال أكتب القدر فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد»**(٢) رواه الترمذي من حديث عبادة بن الصامت، وقال هذا حديث غريب إسناده، وقال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»**(٣) رواه مالك والترمذي وأبو داود من حديث عمر بن الخاطب ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾ معطوف على إذ أنشأكم وكلا الظرفين متعلق بأعلم. عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣٠٧٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: في القدر (٤٦٩١).

المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الإذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١) متفق عليه ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير أو بالطهارة عن المعاصي والرذائل إذ لا علم لكم بعواقب أموركم، قال الحسن علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة فلا تزكوا أنفسكم فلا تبروها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها وكذا قال ابن عباس قال الكلبي ومقاتل كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخرج الواحدي والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثاتب بن الحارث الأنصاري قال كانت اليهود تقول إذ هلك لهم صبي صغير هو صديق فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد» فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ الآية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فإنه يعلم من يختم له منكم على التقوى وإخلاص العمل قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ
يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ
لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ
وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ
رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ
أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٌ
مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ
(٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ (٦٢)﴾

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الاستفهام للتعجب والفاء للعطف على محذوف يعني أنظرت يا محمد ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه يعني الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبيّ ﷺ على دينه فعيره بعض المشركين وقال لم تركت دين الأشياخ وضللتهم قال إني خشيت عذاب الله فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد إلى الشرك ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ الذي عيرّه بعض ذلك المال الذي ضمنه ومنعه فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ أدبر عن الإيمان وأعطى صاحبه ﴿قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي بخل بالباقي كذا قال البغوي، وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه قال إن رجلاً أسلم فلقيه بعض من يعيره فقال تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار، قال إني خشيت عذاب الله، قال أعطني شيئاً وأنا أحمل كل عذاب كان عليك، فأعطاه شيئاً فقال زدني فتفاسر حتى أعطاه شيئاً وكتب له كتاباً وأشهد له ففيه نزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآية، وقال مقاتل أعطى الوليد قليلاً من الخير بلسانه ثم أكدى قطعه وأمسك ولم يتم على العطية، قال السدي نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور وقال محمد بن كعب القرظي نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال ما يأمرنا محمد الامكارم الأخلاق فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ من الإقرار بالحق وأكدى أي لم يؤمن ومعنى أكدي قطع وأصله من الكدية وهي حجر صلب يظهر في البئر يمنع من الحفر يقول العرب أكدى الحافر والجبل إذا بلغ في الحفر الكدية والجبل ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إستفهام للإنكار ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ الفاء للسببية يعني إن كان عنده علم الغيب فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه إذا أشركه لما أخذ من ماله ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي لم يخبر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يعني أسفار التوراة ﴿و﴾ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ ما أمره الله به وأتمه حتى قام بذبح ابنه وبلغ رسالات به واحتمل من الخلق أذى حتى صبر على نار نمرود وابتلاه ربه بكلمات فأتمهن والتوفية الإتمام، وروى البغوي بسنده عن أبي إمامة عن النبيّ ﷺ قال: «**وإبراهيم الذي وفى قال صلّى أربع ركعات أول النهار**» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم لم سمي إبراهيم خليل الله الذي وفى أنه كان يقول كلما أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون حتى ختم الآية**» وروى الترمذي عن أبي الدرداء وأبي ذرعن رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى أنه قال «يا ابن أدم اركع لي أربع ركعات أول النهار أكفك آخره»[١] رواه أبو داود والدارمي عن نعيم الغطفاني وأحمد عنهم وقدم موسى لأن صحفه يعني التوراة كان

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الوتر، باب: ما جاء في صلاة الضحى (٤٧١).

أشهر، وأم قيل منقطعة لأن من شرط المتصلة أن يليه أحد المتساويين والآخر الهمزة وهاهنا ليس كذلك، قلت: جاز أن يقال في تأويل الآية أعنده علم الغيب بتوسط الأنباء أو بلا توسط بأنه يتحمل عنه غيره أم ليس عنده علم الغيب الحاصل بتوسط الأنباء والكتب أيضاً بأنه لا يتحمل أحد عن غيره والإستفهام للإنكار يعني ليس عنده علم الغيب يتحمل أحد عن غيره وعنده علم حصل بالتواتر والشهرة بما في الكتب السماوية بعدم التحمل ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ نفس حاملة ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ يعني لا يؤخذ نفس بأثم غيره أن مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن محذوف والجملة خبره وهي مع اسمها وخبرها في محل الجر بدلاً مما في صحف موسى أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو كأنه قيل ما في صحفها فأجاب به. قال البغوي روى عكرمة عن ابن عباس قال كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره وكان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده حتى جاء إبراهيم فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله أن لا تزر وازرة وزر أخرى، قلت: لم يكن ذلك حكماً شرعياً بل حكماً جاهلياً كما كان قبل مبعث النبيّ ﷺ أيضاً في الأوس والخزرج كان أحد الحيين شريفاً ذا ثروة من الأخرى فكانوا يقتلون بامرأة من الشريف رجلاً من الآخر وبعبد حر أو بواحد اثنين حتى نزلت ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾[(١)] وقد ذكرنا القصة في سورة البقرة، وهذه الآية لا يخالف قوله تعالى: **﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾**[(٢)] وقوله ﷺ «من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[(٣)] أخرجه أحمد ومسلم من حديث جرير رضي الله بن عبد الله رضي الله عنه فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزره ولذا ورد في الحديث «من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[(٤)] وقوله ﷺ **«إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»**[(٥)] متفق عليه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: إذا أنزل الله بقوم عذاباً (٧١٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٩).

من حديث ابن عمر محمول على ترك الأمر بالمعروف نحو قوله ﷺ **«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»**(١) رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبي بكر الصديق. مسئلة: اختلف أقوال السلف في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مليكة قال توفيت بنت لعثمان بن عفان بمكة فجئنا لنشهدها وحضر ابن عمر وابن عباس فقال ابن عمر لعمر بن عثمان وهو مواجهه ألا تنتهي عن البكاء فإن رسول الله ﷺ قال: **«إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»**(٢) فقال ابن عباس قد كان يقول بعض ذلك ثم حدث وقال لما أن أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول واأخاه واصاحباه فقال عمر يا صهيب أتبكي على وقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه»** فقال ابن عباس فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت يرحم الله عمر لا والله ما حدث رسول الله ﷺ إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ولكن إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه وقالت عائشة حسبكم القرآن ولا تزر وازرة وزر أخرى، قال ابن عباس عند ذلك والله أضحك وأبكىٰ قال ابن أبي مليكة فما قال ابن عمر شيئاً. قلت وتخطئة عائشة عمر(رض) ضعيف وقد كان عمر أفقه من عائشة وكان شهادته شهادة الإثبات وتأيد حديث عمر بأحاديث أخر منها حديث المغيرة بن شعبة، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه»(٣). ومنها حديث أبي بكر الصديق عن النبيّ ﷺ أخرجه أبو يعلى بلفظ: «الميت ينضج عليه الحميم ببكاء الحي»، ومنها حديث أنس وعمران بن حصين عند ابن حبان في صحيحه وحديث سمرة بن جندب عند الطبراني في الكبير وحديث أبي هريرة عند أبي يعلى فظهر أن الحديث صحيح بقي الكلام في تعارض الحديث بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال بعض العلماء إن التعذيب بالبقاء مختص بالكافر أو ممن أوصى به لا بسبب البكاء والباء للحال أي يعذب حال بكائهم عليه والقولان عن عائشة لا يصحان لأن القول باختصاص التعذيب بالكافر لا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٢٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما يرخص من البكاء من غير نوح (١٢٨٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما يكره من النياحة على الميت (١٢٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٣٣).

يدفع التعارض لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يعم المؤمن والكافر وألفاظ الحديث ببعض طرقها يأبى عن كون الباء للحال ألا ترى أن قوله «ينضج الحميم ببكاء الحي» صريح في التعذيب في الآخرة فإن الحميم إنما هو في الجحيم لا في الغير فكف يتحد زمان التعذيب زمان بكاء الحي فلا يتصور كونه حالاً، وقيل المراد بالتعذيب توبيخ الملائكة له بما يندب به أهله الحديث الترمذي والحاكم وابن ماجه مرفوعاً «ما من ميت يموت فتقوم نادبة فتقول واجبلاه واسيداه وشبه ذلك من القول إلا وكل به ملكان يلهزانه وهكذا كنت»[(١)] قلت وهذا التأويل أيضاً لا يدفع التعارض فإن التوبيخ بفعل غيره أيضاً مما يمنعه لا تزر وازرة وزر أخرى، وقيل المراد بالتعذيب تألم الميت بما يقع من أهله الحديث الطبراني وابن أبي شيبة عن قيلة بنت محترمة أنها ذكرت عند رسول الله ﷺ ولداً لها مات ثم بكت فقال رسول الله ﷺ: «**أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبة فيا عباد الله لا تعذبوا أمواتكم**» وهذا القول عليه ابن جرير واختاره الأئمة آخرهم ابن تيمية، وأخرج سعيد ابن منصور عن ابن مسعود أنه رأى نسوة في جنازة فقال ارجعن مأزورات غير مأجورات إنكن تفتن الأحياء وتؤذين الأموات، والقول الصحيح في دفع التعارض أن الحديث فيمن كان النوح من سنته أو فيمن أوصى به أو فيمن لم يوص بتركه إذا علم أن من شأن أهله أنهم يفعلون فيكون التعذيب على وزره دون وزر غيره واختار البخاري هذا القول ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي إلا سعيه يعني كما لا يؤخذ أحد بذنب غيره لا يثاب بفعل غيره أيضاً عطف على أن لا تزر كلا الحكمين كانا في صحف إبراهيم وموسى ومستدلا بهذه الآية، قال الشافعي لا يثاب أحد بعمل غيره وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد وجمهور الخلف والسلف بخلاف ذلك فقال ابن عباس الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[(٢)] وقال عكرمة أنها خاصة بقوم إبراهيم وموسى فأما هذه الأمة فلها ما سعت وما سعى لها، وقال الربيع بن أنس المراد بالإنسان هاهنا الكافر وهذا ليس بشيء فإن الكافر لا يثاب بعمل نفسه أيضاً حيث قال الله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[(٣)] وقيل اللام هاهنا بمعنى على أي ليس على الإنسان إلا ما سعى وعلى هذا يكون عطف لا تزر وازرة وزر أخرى عطفاً تفسيرياً. احتج الجمهور على وصول الثواب

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في كراهية البكاء على الميت (٩٩٧).

(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

من غيره بالأحاديث والإجماع أما الآحاديث فمنها حديث أبي سعيد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا قبض الله روح عبده المؤمن صعد ملكان إلى السماء قالا ربنا وكلتنا بعبدك المؤمن نكتب عمله وقد قبضته إليك فأذن لنا أن نسكن الأرض فيقول أرضي مملوءة من خلقي يسبحون ولكن قوما على قبر عبدي فسبحاني وهللاني وكبراني إلى يوم القيامة واكتباه لعبدي**» أخرجه أبو نعيم، وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان إنقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»(١) رواه مسلم وكذا أخرج أحمد عن أبي أمامة، وجه الاحتجاج بهذا الحديث أن الصدقة الجارية وعلم ينتفع به وإن كانا من سعيه ولكن دعاء الولد ليس من عمله وهو ينفق وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب أني لي هذه فيقول باستغفار ولدك لك**» رواه الطبراني وروى نحوه عن أبي سعيد مرفوعاً وحديث ابن عباس قال قال النبيّ ﷺ: «**ما الميت في قبره إلا شبه الغريق المتفوث ينتظر دعوة ملحقة من أب وأم أو ولد أو صديق ثقة فإذا ألحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله ليدخل على القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم**» رواه البيهقي والديلمي وحديث مرفوعاً «أمتي أمة مرحومة تدخل قبورها بذنوبها وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها يمحص عنها باستغفار المؤمنين لها».

رواه الطبراني في الأوسط، قال السيوطي وقد نقل غير واحد الإجماع على أن الدعاء ينفع الميت ودليله من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٢) قلت: والظاهر أن انتفاع الأموات والأحياء بدعاء الأحياء غير مختصة بهذه الآمة وقد قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(٣) وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾(٤) وقال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾(٥) قال أخوة يوسف لأبيهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾(٦) وقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾(٧) فانظر أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.
(٣) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(٤) سورة مريم، الآية: ٤٧.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٢.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٩٧ ـ ٩٨.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٥١.

سَعَىٰ﴾ المذكور في صحف إبراهيم وموسى أنه لا يصل لأحد ثواب حسنات غيره من الصلاة والصوم والصدقة والحج ونحو ذلك ويكون من خصوصيات هذه الأمة المرحومة نسخ ذلك الحكم بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ من الأحاديث حديث عائشة أن رجلاً قال يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها لم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها قال نعم»[1] متفق عليه، وحديث ابن عباس «أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب فأتى رسول الله ﷺفقال يا رسول الله إن أمي ماتت وأنا غائب فهل ينفعهاإن تصدقت عنها؟ قال «نعم» قال فإني أشهدك أن حائطي صدقة عنها» رواه البخاري، وأخرج أحمد وأربعة عن سعد بن عبادة أنه قال يا رسول الله إن أمي ماتت فأي صدقة أفضل قال الماء فحفر بئراً وقال هذه لأم سعد، وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أنس نحوه وحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا تصدق أحدكم بصدقة تطوعاً فليجعلها عن أبويه فيكون لهما أجرها ولا ينقص من أجره شيئاً**» وأخرج الديلمي نحوه من حديث معاوية بن جندة وحديث أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من أهل بيت يموت منهم فيتصدقون عنه بعد موته إلا أهدا له جبرئيل على طبق من نور ثم يقف على شفير القبر فيقول يا صاحب القبر العميق هذه هدية أهداها إليك أهلك فأقبلها فيدخل عليه فيفرح بها ويستبشر ويحزن جيرانه الذين لا يهدى إليهم شيء**» رواه الطبراني في الأوسط وحديث ابن عمر قال: **قال رسول الله ﷺ «من حج عن والديه بعد وفاتهما كتب الله لهما عتقا من النار وكان للمحجوج عنهما أجر حجة تامة من غير أن ينقص من أجورهما شيء»** وقال ﷺ: «**ما وصل ذو رحم رحمه بأفضل من حجة يدخلها عليه بعد موته في قبره**» رواه البيهقي والأصبهاني بسند فيه مجهولان، وعن زيد بن أرقم عن النبيّ ﷺ «من حج عن أبويه ولم يحجا فيرى عنهما وبشرت أرواحهما في السماء وكتب عند» أخرجه أبو عبد الله الثقفي وحديث عقبة بن عامر أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت أحج عن أمي وقد ماتت قال: «أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته قالت بلى فأمرها أن تحج»، رواه الطبراني وحديث أنس قال جاء إلى النبي ﷺ قال: إن أبي مات ولم يحج حجة الإسلام فقال أرأيت لو كان على أبيك دين كنت تقضيه عنه؟ قال نعم قال: «فإنه دين عليه فاقضيه» رواه البزار والطبراني بسند حسن، وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**من حج عن ميت فللذي حج عنه مثل أجره**» رواه الطبراني في اووسط وحديث عطاء وزيد ابن أسلم مرسلاً قال جاء رجل إلى النبيّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: موت الفجأة البغتة (١٣٨٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: وصول ثواب الصدقات إلى الميت (١٠٠٤).

فقال يا رسول الله أعتق عن أبي وقد مات قال نعم» رواهما ابن أبي شيبة، وحديث ابن عباس أنه ﷺ سمع رجلاً يقول لبيك عن شبرمة قال النبيّ ﷺ ومن شبرمة قال أخ لي أو قريب قال أحججت عن نفسك؟ قال لا، قال: «حج عن نفسك ثم عن شبرمة[1] رواه أبو داوود وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وقال البيهقي إسناده صحيح، وحديث عمرو بن العاص أنه قال يا رسول الله إن العاص أوصى أن يعتق عنه بأمه نسمة فأعتق هشام منها خمسين قال لا إنما يتصدق ويحج ويعتق عن المسلم وكان مسلماً بلغه» رواه أبو الشيخ، وحديث الحجاج بن دينار قال: قال رسول الله ﷺ «**إن من البر بعد البر أن تصلي عنهما مع صلواتك وتصوم عنهما مع صيامك وتصدق عنهما مع صدقتك**» رواه ابن أبي شيبة وقد مر حديث بريدة أن امرأة قالت يا رسول الله إن كان على أمي صوم شهرين أفيجزىء أن أصوم عنها قال نعم قالت فإن أمي لم تحج قط أفيجزىء أن أحج عنها؟ قال نعم» رواه مسلم، وحديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**»[2] متفق عليه وحديث علي (رض) مرفوعاً: «من مر على المقابر وقرأ قل هو الله أحد أحد عشر مرة ووهب أجره للأموات أعطى من الأجر بعدد الأموات» رواه أبو محمد السمرقندي وحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**من دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وألهكم التكاثر ثم قال إني جعلت ثواب ما قرأت من كلامك لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له إلى الله**» رواه أبو القاسم سعد بن علي، وحديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من دخل المقبر فقرأ سورة يسٓ خفف الله عنهم وكان له بعدد من فيها حسنات**» أخرجه عبد العزيز صاحب الخلال بسنده وقال السيوطي قد ورد قراءة الفاتحة عند رأس الميت وخواتيم البقر عند رجله من حديث ابن عمر مرفوعاً وقت الدفن وفواتح البقرة وخواتمها عن حديث العلاء بن اللجلاج مرفوعاً وقال القرطبي في حديث «اقرأوا على موتاكم يس» فقال الجمهور في حال موته قال ابن عبد الواحد المقدسي عند القبور وقال المحب الطبري في الحالتين وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال يتبع بعد موته العتق والحج والصدقة، وأخرج عن أبي جعفر أن الحسن والحسين كان يعتقان عن علي بعد موته وأخرج ابن سعد عن القاسم بن محمد عن عائشة أعتقت عن أخيها عبد الرحمٰن رقيقاً من تلاده

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: الرجل يحج عن غيره (١٨١٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: الحج عن الميت (٢٩٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: من مات وعليه صوم (١٩٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: قضاء الصيام عن الميت (١١٤٧).

ترجوا أن ينفعه بذلك بعد موته وقال الحافظ شمس الدين ابن عبد الواحد ما زالوا في كل مصر يجتمعون ويقرؤون لموتاهم من غير نكير فكان ذلك إجماعاً، وأخرج الخلالي عن الشعبي كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤن القرآن، وفي الإحياء عن أحمد بن حنبل قال إذا دخلتم المقابر فاقرأوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم، وقال البيضاوي في توجيه الآية إنه ما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت فلأن التأدي له كالنائب عنه، وقال بعض العلماء في توجيهها إن انتفاع المؤمن بسغي غيره مبني على إيمانه وهو سعي نفسه فكان سعي غيره تابعاً لسعي نفسه قايما بقيامه والله تعالى أعلم ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ في ميزانه يوم القيامة إن كان مؤمناً وأما الكافر فيحبط أعمالهم بفوات شرطها وهي النية الخاصة لله تعالى أو يقال الكافر يثاب عليه في الدنيا من أريتما الشيء، قلت: والأولى أن يقال السعي هاهنا بمعنى القصد، قال في القاموس سعى يسعى سعياً كرعى قصد وعمل ومشى وعدى وتم وكسب، وقال بعض المحققين السعي المشي السريع ويستعمل للجد في العمل ومعنى الآية ليس للإنسان إلا ما قصد وأراد بفعله فهذه الآية تفيد ما يفيد قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإن لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى الدنيا يصيبها أو المرأة نكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1] متفق عليه من حديث عمر ابن خطاب(رض)، فلا تدل هذه الآية على أن عمل أحد لا يفيد غيره كيف وصلاة الجنازة والصلاة على النبيّ ﷺ أمورتان واجبتان وضعتا الإنتفاع غير الفاعل والله تعالى أعلم ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي المؤمن ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ الأتم والأكمل ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ هذا وما عطف عليه كله في صحف إبراهيم وموسى والمنتهى مصدر بمعنى الإنتهاء، روى البغوي بسنده عن أبي بن كعب عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ قال لا فكرة في الرب يعني الفكرة تنتهي إلى الله ويتلاشئ هناك، قال البغوي وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة» كذا ذكر البغوي وروى أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك» قلت: يعني الفكرة لا يصل إلى كرسيه فكيف إلى ذاته

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (١٩٠٧).

وهو أجل وأرفع وفي رواية له عنه «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» وروى أبو نعيم في الحلية عنه «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» وروى أبو الشيخ عن أبي عن أبي ذر «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله» قلت: الفكر عبارة عن ترتيب مقدمات لتحصيل مطلوب فترتيب المقدمات لا يتصور إلاّ في آلاء الله وآياته وآثاره والمطلوب ذاته وهناك تنتهي الفكرة فإنه ليس وراء العباد أن قربه وذاته هو الصمد الذي لا يتعمق فيه النظر ونفي الفكرة في ذاته تعالى لا ينافي الوصول إليه بلا كيف بل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يقتضي نهاية السير إلى الذات البحت في الله في إصطلاح الصوفية إنما هو السير في الصفات والشيون والإعتبارات دون الذات البحت المعبر باللاتين لكن هاهنا سير نظري على ما حققه المجدِّد وقال أكثر المفسرين معنى الآية أن منتهى الخلق ومصيرهم إلى الله تعالى، وقيل منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال والله تعالى أعلم ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ يعني خلق كل ما يعمل العباد حتى الضحك والبكاء قال عطاء بن أبي مسلم يعني أفرح وأحزن، وقال مجاهد أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار، وقال الضحاك أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، روى البغوي بسنده عن جابر بن سمرة قال: «كان أصحاب النبيّ ﷺ يحلون فيتناشدون الشعر ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم معهم إذا ضحكوا يعني النبيّ ﷺ» ورواه مسلم بلفظ كانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ﷺ[١] وفي رواية الترمذي يتناشدون الشعر.

روى البغوي في شرح السنة عن قتادة قال سئل ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون قال نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل وقال بلال بن سعد يشتدون بين الأغراض ويضحك بعضهم إلى بعض فإذا كان الليل كانوا رهباناً، وروى البخاري عن عائشة ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم[٢]، وفي الصحيحين عن جرير قال ما حجبني النبيّ ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم وروى الترمذي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ[٣]، وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال أبو القاسم ﷺ «والذي نفسي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد (٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك (٦٠٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في بشاشة النبي ﷺ (٣٦٥٠).

بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً[١]» وكذا روى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر وزاد «وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الهدات تجأرون إلى الله»[٢] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ما لا روح فيه كالنقطة لنطفة جعله حيواناً والبذر جعله شجراً وقيل أمات الآباء وأحيا الأبناء، وقيل أمات الكافر بالنكرة وإحياء المؤمن بالمعرفة ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ من كل حيوان ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي تصب في الرحم يقال مني الرجل وأمنى قاله الضحاك وعطاء بن أبي رباح وقال آخرون إذا يقدر قال منيت الشيء إذا قدرته ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والنشادة بالمد والباقون بسكون الشين بلا مد وهما مصدران من نشأ ينشأ يعني الخلق الثاني البعث بعد الموت يوم القيامة أورد كلمة على وهي للوجوب على المجاز لتأكيد الوعد ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ الناس بالأموال وما يدخرونه بعد الكفاية، قال في القاموس تغنى اكتفى بنفقة وفضلت فضله فادخرها والظاهر أن التقدير أغنى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أفقر فحذف أفقر إستغناء منه بدلالة الحال، وقال الضحاك أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال وأقنى بالإبل والبقر والغنم، وقال قتادة والحسن أقنى أخدم وقال ابن عباس أغنى وأقنى يعني اعطى فأوصى، وقال مجاهد ومقاتل أقنى أرضى بما أعطى وقنع قال ابن زيد أغنى أكثر وأقنى أقل وقرأ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وقال الأخفش أقنى أفقر ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ وهو كوكب خلف الجوزاء وهما شعريان يقال لأحدهما العبور وللأخرى القميصا سميت بذلك لأنها أحقر من الأخرى والمختبرة بينهما، وأراد هاهنا الشعرىٰ في العبور وكانت خزاعة تعبدها وأول من سن لهم ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وخالف قريشاً في عبادة أوثان ولما خالف رسول الله العرب في الدين سموه ابن أبي كبشة لمناسبة مخالفة القوة، وتخصيصها في الذكر هاهنا للإشعار بأنها مخلوقة لله تعالى لا يستحق العبادة مثل اللات والعزى ولعل قوماً عبدوها في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً ولذلك ورد التخصيص بذكرها في صحف إبراهيم وموسى ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو قوم هود أولى الأمم هلاكاف بعد قوم نوح عليه السلام أهلكوا بريح صرصر وكان لهم عقب كانوا عاد الأخرى قرأ نافع وأبو عمر وعاد لولى بحذف الهمزة وإبقاء ضمتها على اللام وإدغام التنوين فيها وأتى قالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو والباقون يكسرون التنوين يسكنون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الكسوف، باب: الصدقة في الكسوف (١٠٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» (٢٣١٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحزن والبكاء (٤١٩٠).

اللام ويخففون الهمزة بعدها ويجوز في الابتداء بقوله عز وجل الأولى علىٰ مذهب أبي عمرو ثلاثة أوجه الأولى بإثبات همزة الوصل وضم اللام بعدها والثاني لولي بضم اللام وحذف همزة الوصل قبلها استغناء عنها بتلك الحركة وهذان وجهان جائزان في مذهب ورش في مثل هذه الكلمة والثالث الأولى كقراءة الجمهور باثبات همزة الوصل وإسكان اللام وتحقيق همزة فاء الفعل، وكذلك يجوز في الابتداء بهذه الكلمة على مذهب قالون ثلاثة أوجه أيضاً الأول بإثبات همزة الوصل وضم اللام وهمزة ساكنة عوض الواو والولى بضم اللام وحذف همزة الوصل وهمزة الواو كوجه أبي عمرو الثالث قال الداني وهو عندي أحسن الوجوه واقتبسها بمذهبنا ﴿وَثَمُودَ﴾ قرأ عاصم وحمزة بغير تنوين ويقفان بغير ألف والباقون بالتنوين ويقفون بالألف وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ منهم أحداً ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أهلكهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من الفريقين لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله المعصية والتكذيب وإيذائهم نوحاً عليه السلام يضربه حتى لا يكون به حراك ويتنفر الناس عنه ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي القرى التي ايتفكت أي انقلبت بأهلها وهي قرى قوم لوط ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي أسقط أهوائها جبرئيل عليه السلام بعد رفعها إلى السماء ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يضع الحجارة المنضودة المسومة فيه تهويل وتعظيم لما أصابهم ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي تشكك وتجادل وقال ابن عباس تكذب خطاب لكل احد يعني لا يجوز الشكل والمجادلة في آلاء ربك الباهرة والنعماء الظاهرة والقدرة القاهرة بعدما سمعت أحوال الأمم السابقة، قيل أراد بالخطاب الوليد بن مغيرة ﴿هَٰذَا﴾ يعني محمد ﷺ أو القرآن ﴿نَذِيرٌ﴾ مبين ﴿مِّنَ﴾ جنس ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي المنذرين الأولين وقال الأولى على تأويل الجماعة أي من جنس النذرات الأولى قرأ حمزة والكسائي أواخر هذه السورة من قوله تعالى إذا هوى إلى النذر الأولى بالإمالة وأمال أبو عمرو من ذلك ما كان فيه راء كأخرى وشعرى وتتمارىٰ وما عدى ذلك بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون باخلاص التفخ ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ يعني دنت الساعة الوصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الجملة حال من الآزفة ﴿كَاشِفَةٌ﴾، أي مظهرة نظيره قوله تعالى ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ إلا هو صفة لموصوف محذوف أي نفس كاشفة وجاز أن يكون التاء فيه للمبالغة ويجوز أن يكون الكاشفة مصدراً كالباقية والعافية والمعنى ليس لها من دون الله كشف لا يكشفها ولا يظهرها غيره، وقال عطاء وقتادة والضحاك ليس لها نفس قادرة على كشف أهوالها وشدائدها إذ غشيت إلا الله تعالى يكشف عمن شاء من المؤمنين ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن عطف على محذوف

تقديره أتسمعون فمن هذا الحديث ﴿تَعۡجَبُونَ﴾ إنكار أو إستفهام للتوبيخ ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾، خشوعا أو تضحكون بما تفرحون من اللذات الدنيوية ولا تبكون تحزناً على ما قصرتم في الطاعة أو أفرطتم في المعصية ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي لاهون غافلون والسمود الغفلة عن الشيء واللهو يقال دع منا سمودك أي لهوك هذا رواية الوالبي والعوفي عن ابن عباس، وقال عكرمة السمود عنه الغناء بلغة أهل اليمن كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وقال الضحاك أشرون بطرون، وقال مجاهد غضاب معرضون وقيل معناه مستكبرون من سمد البعير في مسيرة إذا رفع رأسه كذا أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال كانوا يمرون على رسول الله ﷺ وهو يصلّي شامخين فنزلت ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ قال في النهاية شمخ بأنفه أي ارتفع تكبراً ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ﴾ خضوعاً وتواضعاً لله وتصديقاً بوعده ووعيده واعتباراً ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾ أي اعبدوه دون غيره، الفاء للسببية عطف على أزفت الأزفة عن ابن عباس قال: «سجد النبيّ ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[(١)] رواه البخاري، وعن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ «قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال يكفيني هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافر»[(٢)] متفق عليه وزاد البخاري في رواية وهو أمية بن خلف، وفي لفظ البخاري أول سورة نزلت فيها سجدة النجم فسجد رسول الله ﷺ الحديث وعن زيد بن ثابت قال قرأت على رسول الله ﷺ والنجم فلم يسجد فيها»[(٣)] متفق عليه، احتج بهذا الحديث من قال إن سجود التلاوة غير واجب وأجيب بأنه ﷺ وأصحابه وسلم لعله لم يكن حينئذ على وضوء أو يكون حينئذ مانع من السجدة ولا يدل الحديث على نفي السجود مطلقاً لكن هذا تأويل بعيد ولو كان تأخير السجود لعذر لبينه النبيّ ﷺ ويدل على عدم وجوب السجدة وقول عمر بن الخطاب(رض) إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء وقد ذكرنا مسائل سجود التلاوة واختلاف الأئمة فيه في سورة الإنشقاق والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: ما جاء في سجود القرآن وسنتها (١٠٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٥٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: من قرأ السجدة ولم يسجد (١٠٧٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٥٧٧).

سورة القمر

مكيَّة وهي خمس وخمسون آية وثلاث ركوعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

روى البغوي عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأى حراء بينهما[١] وكذا أخرج الشيخان في الصحيحين، وقال البغوي قال شيبان عن قتادة فأراهم انشقاق القمر مرتين كذا أخرج الترمذي بلفظ فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إلى قوله ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[٢] وأخرج الشيخان والحاكم واللفظ له عن ابن مسعود قال رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبيّ ﷺ فقالوا سحر القمر فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وكذا أخرج البغوي من طرق البخاري بلفظ انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ إشهدوا، وقال البغوي وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله انشق القمر بمكة وقال انشق القمر ثم التأم بعد ذلك، وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال إنشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقال سحركم ابن أبي كبشة فاسألوا السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأينا فأنزل الله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ أي دنت ﴿ٱلسَّاعَةُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: انشقاق القمر (٣٨٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: انشقاق القمر (٢٨٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة القمر (٣٢٨٥).

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ يعني قد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر ﴿وَإِن يَرَوْاْ﴾ يعني الكفار ﴿ءَايَةً﴾ معجزة دالة على صدق النبيّ ﷺ ﴿يُعْرِضُواْ﴾ عن التأمل والإيمان ﴿وَيَقُولُواْ﴾ هذا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم مر الفيء واستمر بمعنى ذهب كقولهم قر واستقر كذا قال مجاهد وقتادة، وقال أبو العالية والضحاك مستمر بمعنى قوي شديد يعلو كل سحر من قولهم مر الحبل إذا صلب واشتدوا وأمررته إذا أحكمت فتله واستمر الشيء إذا قوي واستحكم، وقيل معناه سحر مطرد يوجد متتابعاً كثيراً وقيل معناه مستبشع من استمر إذا اشتد مرارته والجملة الشرطية معترضة لبيان عادة الكفار وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ عطف على انشق يعني كذبوا النبيّ ﷺ والقرآن وما عاينوا من قدرة الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ولم يتبعوا الوحي بعد ظهوره ذكرهما بلفظ الماضي للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي منتبه أي غاية من خذلان أو نصر في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة فإن الشيء إذا انتهى إلى غاية ثبت واستقر وكذا قال مقاتل لكل حديث منتهى، وقيل معناه كل أمر مقدر مستقر يعني كأين واقع لا محالة وكل أمر وعد الله واقع كأين لا محالة وقال الكلبي لكل أمر حقيقة ما كان منهم في الدنيا فسيظهر وما كان منه تعالى في الآخرة فسيعرف، وقال قتادة وكل أمر مستقر في الخير يستقر بأهل الخير وكل أمر مستقر في الشر يستقر بأهل الشر، وقيل كل أمر من خير أو شر مستقر قراره فالخير مستقر بأهله في الجنة والشر مستقر بأهله ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ يعني كفار مكة في القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، ما موصولة أو موصوفة أصله مزتجر بقلب تاء الإفتعال مع الزاء وإلا للتناسب وكذا مع الذال فإن التاء حرف مهموس والدال والذال والزاء مهجورات ومخرج التاء والذال واحد مصدر ميمي بمعنى الازدجار يعني جاءهم ما فيه نهي وعظة بحيث يقتضي الإنتهاء من المعاصي والإتعاظ فإن هلاك الأمم الطاغية الماضية المواعيد بالنار يقتضي ذلك ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ غايتها لا خلل فيها بدل من ما فاعل جاء أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي أو استفهام للإنكار أي فلم تغن النذر أو فأي غناء يغني النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر أي الرسول أو المصدر منه أو مصدر بمعنى الإنذار ﴿فَتَوَلَّ﴾ حيث لا ينفعهم إنذارك نسختها أية القتال ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ قرأ البزي الداعي بإثبات الياء وصلاً وقفاً وأبو عمر ودورش في الوصل فقط ويوم منصوب باذكر، والجملة مستأنف وجملة يخرجون حال من مفعول بدعوا المحذوف تقديره يوم بدعوهم الداعي يخرجون أو الظرف متعلق يخرجون وجملة تخرجون مستأنفة وذلك يوم القيامة، الداعي إسرافيل عليه السلام يقف على صخرة

بيت المقدس يقول يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المنقطعة إن الله يأمركن أن تجمعين لفصل الخطاب رواه ابن عساكر عن زيد بن جابر الشافعي ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ قرأ ابن كثير بإسكاف الكاف والباقون بضمة أي شيء منك فظيع لم تعهد مثله تنكره النفوس استعظاما ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب خاشعاً بفتح الخاء وألف بعد وكسر الشين على الإفراد والتذكير لأن فاعله ظاهر غير حقيق التأنيث وقرأ ابن مسعود(رض) خاشعة على الأوصل وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر خشعاً على صيغة جمع التكسير وحسن ذلك ولا يحسن مررت برجال قائمين غلمانهم لأنه ليس على صيغة يشبه الفعل يعني ذليلاً أبصارهم حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة الجملة أيضاً حال من فاعل يخرجون ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، قرأ ابن كثير الداعي بإثبات الياء في الحالين ونافع وأبو عمرو في الوصل فقط يعني مسرعين مادي اعناقهم إلى صوت الداعي أو ناظرين إليه ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب شديد جملة مستأنفة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام تنازع الفعلان في المفعولية فاعمل الثاني وحذف من الأول والمعنى كذبت قوم نوح نوحاً عليه السلام فكذبوه تكذيباً بعد تكذيب كلما معنى منهم قرن مكذب جاء قرن آخر فكذبوه وهذا إلى ألف سنة إلا خمسين عاماً، وجاز أن يقدر المحذوف غير المذكور فلا يكون من باب التنازع والمعنى كذبوه بعد ما كذبوا الرسل وجاز أن ينزل الفعل منزل واللازم ولا يقدر المفعول فلا يكون من باب التنازع والمعنى صدر التكذيب قبلهم من قوم نوح فكذبوا نوحاً والفاء حينئذ للتفصيل بعد الإجمال ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على كذبوا ﴿مَجْنُونٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿وَازْدُجِرَ﴾ إما عطف على مجنون يعني قالوا هو مجنون وازدجرته الجن فخبطته وذهب بعقله كذا قال مجاهد أو عطف علي قالوا يعني وازدجروه عن التبليغ بأنواع

الأذية وقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين، أخرج عبد بن حميد عن مجاهد وأحد امنهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه فيفيق ويقول اللّهم اغفر لي لقومي فإنهم لا يعلمون وكذا أخرج أحمد في الزهد من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير ﴿فَدَعَا﴾ نوح ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ بعدماأوحي إليه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي بأني مغلوب غلبني قومي ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي فانتقم لي منهم لعذاب تبعتهم وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾(١) ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ منصب انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوما وقيل معناه بماء طبق ما بين السماء والأرض ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ تميز من النسبة والمعنى فجرنا عيون الأرض لكن غير للمبالغة كأنه قال جعلنا الأرض كلها عيوناً منفجرة ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ويعني الإفتعال بمعنى اتفاعل وذلك يقتضي تعدد الفاعل لكن الماء اسم يطلق على الواحد والكثير وأريد هاهنا فالتقى الماءان يعني ماء السماء وماء الأرض كذا قرأ عاصم الجحدري ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي على حسب أمر قدره الله تعالى في الأزل وكتب في اللوح أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل من السماء على قدرنا أخرج من الأرض أو على أمر قدره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ يعني نوحاً ﴿عَلَىٰ﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أخشاب عريضة ﴿وَدُسُرٍ﴾ أي مسامير دسار أو سير ذكر النعت وأقيمت مقام الاسم ﴿تَجْرِى﴾ حال من ذات ألواح ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي محفوظة بحفظنا ﴿جَزَآءً﴾ أي فعلنا ذلك جزاء أو جزينا قوم نوح جزاءً ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي لأجل نوح لأنه نعمة كفروها فإن كل نبي نعمة من الله ورحمة على أمته وقيل من بمعنى ما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمة عند الكافرين أو المعنى حاجزاً لما صنع بنوح وأصحابه أو المعنى فعلنا ذلك أي أغرقنا قوم نوح وأنجينا نوحاً جزاء وثواباً لنوح عليه السلام ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي الفعلة المذكورة يعني أبقينا قصتها ﴿ءَايَةً﴾ على قدرتنا وصدق الأنبياء يعتبر بها من بعدهم وقال قتادة الضمير المنصوب عايد إلى السفينة ولقد أبقى الله السفينة بأرض الجزيرة، وقيل بالجودي دهراً طويلاً حتى نظرها أوائل هذه الأمة وهذه جملة معترضة وكذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي معتبر، الإستفهام للإغراء والتحريض على الإذكار والإتعاظ والفاء للسببية أصله مدتكر مفتعل من الدكر قلبت التاء وإلا للتناسب ثم أدغمت الدال في الدال لقرب المخرج ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ الإستفهام للتعظيم والتهويل والفاء للسببية فإن القصة السابقة سبب للتهويل ونذر جمع

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

نذير، وقال الفراء الإنذار والنذر مصدر أن كالإنفاق والنفقة والإيقان واليقين وكيف خبر كان قدمت لاقتضائها صدر الكلام قرأ ورش عذابي ونذري بإثبات الياءات في ستة مواضع من هذه السورة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ أي سهلنا ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي للإذكار والاتعاظ بأن ذكرنا فيه أنواع المواعظ والعبر والوعيد وأحوال الأمم السابقة للاعتبار والمعنى يسرنا القرآن للحفظ بالإختصار وعذوبة اللفظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ قوم هود عليه السلام هوداً وجميع الأنبياء ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي إنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله أو لمن بعدهم في تعذيبهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً شديد الهبوب وشديد الصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم على الأعداء ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾، أي استمر شؤمه أو استمر عليهم حتى أهلكهم الله أو على صغيرهم وكبيرهم فلم يبقى منهم أحداً وأشد مرارته قال البغوي قيل كان يوم الأربعاء آخر شهر ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي تقلعهم من أماكنهم ثم ترمى بهم على رؤسهم فتدق رقابهم وقال البيضاوي: روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعهم الريح منها وصرعتهم موتى، وقال البغوي روي أنها كانت تنزع الناس من قبورهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ أي أصول ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ منقلع من مكانه ساقط على الأرض ذكر الصفة حملاً على اللفظ والتأنيث في قوله: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾[1] و﴿النخل باسقات﴾[2] للمعنى قال البغوي إنما قال أعجاز نخل هي أصولها التي قطعت فروعها لأن الريح كانت تمين رؤسهم من أجسادهم فتبقى الأجسام بلا رؤس ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ كرر للتهويل وقيل الأول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصتهم لنذيقهم الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ بالإنذارات والمواعظ والرسل ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا﴾ آدمياً منصوب

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٧.
(٢) سورة ق، الآية: ١٠.

على المفعولية بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿مِّنَّا﴾ صفة لبشر أي من جنسنا أو من جملتنا لا فضل له علينا بالمال والجاه واحداً بدل من بشر أو عطف بيان له أي منفردا لا تبع له أو من آحادنا دون أشرافنا ﴿نَّتَّبِعُهُۥ﴾ الإستفهام للإنكار والإنكار على كون متبوعهم مثلهم في الجنسية ودونهم في الإنفراد لا على فعل الإتباع فإنه لو كان المتبوع من الملائكة أو ملوك البشر لم ينكروا إتباعه فلا بد تقدير الفعل مؤخراً منالمفعول في الإضمار والتفسير تأكيداً الإنكار الإتباع ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي إذا نتبعه ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي خطأ ذهاب عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ قال وهب معناه بعد من الحق، وقال الفراء جنون يقال ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هائمة على وجهها، وقال قتادة معناه عناء أو عذاب مما يكره منا من طاعة وقيل سعر جمع سعير قال ابن عباس معناه عذاب، وقال الحسن شدة عذاب وكأنهم عكسوا قول صالح عليه السلام لما قال إن تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعير ونيران فقالوا إن إتبعناك إنا إذا لفي ضلال وسعير ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ الكتاب والوحي ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحق بذلك يعنون أنه لم يلق عليه الذكر من بيننا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ يكذب على الله ﴿أَشِرٌ﴾ بطر منكر يريد أن يتعظم علينا بادعاء النبوة إضراب من نفي الفضيلة إلى إدعاء الرزيلة فيه عليه السلام ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ حين ينزل هم العذاب وقال الكلبي يعني يوم القيامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أهم أم صالح عليه السلام قرأ ابن عامر وحمزة ستعلمون عذابنا الخطاب على الإلتفات والباقون بالياء على الغيبة والجملة استئناف في جواب ما شأنهم ولما سألوا معجزة من الصالح عليه السلام على صدقه وقالوا تعنتاً أن يخرج لهم ناقة حمراء عشراء من صخرة عينوها قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها وباعثوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي لأجل امتحانهم أو حال كونها إمتحاناتهم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي فانتظر يا صالح ما يصنعوا بها ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على إذا هم أو اصبر على ارتقابهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ﴾ أي مقسوم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعني بين قومك وبين الناقة لها يوم ولهم يوم أورد ضمير الجمع المذكر العاقل تغليبا ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ أي نصيب من الماء ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره من كان نوبته فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها وإذا كان يوم نوبتهم حضروه دون الناقة واحتضر وحضر بمعنى واحد، وقال مجاهد يحتضرون الماء إذا غابت الناقة فإذا جاءت الناقة حضر واللبن ﴿فَنَادَوْا۟﴾ ثمود ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فتناول الناقة بسيفه ﴿فَعَقَرَ﴾ فعذبناهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ ثم بين عذابهم فقال ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بهم جبرئيل عليه السلام ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي صاروا ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ قال ابن عباس المحتظر الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون

السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم، وقيل هو الشجر اليابس الذي يتخذه من الحظير لأجل الحظيرة أو الحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء وقال قتادة معناه كالعظام النخرة المحترقة، وقال سعيد بن جبير هو التاب يتناثر من الحائط ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى الصغار وقيل الحصباء هي الحجر الذي دون ملأ الكف وقد يكون الحاصب الرامي فيكون على هذا إنا أرسلنا عليهم حاصباً يحصبهم أي يرمهم بالحجارة ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إستثناء من الضمير المجرور في عليهم ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾ يعني آل لوط ﴿بِسَحَرٍ﴾ أي في سحر وهي آخر الليل أو مسحرين الجهلة تعليل للإستثناء ﴿نِّعْمَةً﴾ أي إنعاماً علة لنجينا ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ صفة لنعمة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله بالإيمان والطاعة يعني من وحد الله وشكر نعمة نجزيه جزاء. . .

كما جزينا آل لوط ولم نعذبهم مع المشركين كذا قال مقاتل ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ يعني أنذر لوط قومه ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي أخذتنا إياهم بالعذاب إن لم يؤمنوا مفعول ثاني لأنذر ﴿فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ﴾ يعني كذبوا لوطاً وشكوا بالإنذار ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ﴾ أي طلبوا لوطاً أن يعرض ﴿عَن ضَيْفِهِۦ﴾ ويسلمهم إليهم حين قصدوا الفجور بهم وكانوا الملائكة فيهم جبرئيل عليه السلام على صورة الأمارد أرسلهم الله على قوم لوط ليرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة للمسرفين فلما قصد قوم لوط داره وعالجوا الباب ليدخلوا قالت الرسل للوط خلّ بينهم وبين الدخول فإنا رسل ربك لن يصلوا إليك فدخلوا الدار. وقال البغوي وأخرج ابن إسحاق وابن عساكر من طريق جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس إن لوطاً أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأى الملائكة على لوط قالوا إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فصعقهم جبرئيل بجناحه بإذن الله فتركهم عمياً يترددون

متحيرين إلى الباب فأخرجهم لوط عمياناً لا يبصرون وذلك قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي صيرناها كسائر الوجه لا يرى له شق كذا قال أكثر المفسرين، وقال الضحاك طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا فلم يروهم فرجعوا فقال الله تعالى على ألسنة الرسل ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي ما أنذرتكم به على لسان لوط من العذاب ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ أي جلاهم وقت الصبح ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ﴾ رمي الحجارة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي يستقر بهم بعد الموت عذاب القبر حتى يسلمهم إلى النار المؤبدة ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ وفائدة التكرير بعد كل قصة أن يستأنفوا تنبيهاً واتعاظاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ يعني موسى وهارون عليهما السلام ومن معهما، وقيل هي الآيات التي أنذرهم بها موسى واكتفى بذكر آل فرعون عن ذكره للعمل بأنه أولي بذلك ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني الآيات التسعة ﴿كُلِّهَا﴾ عن صفوان بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه إذهب بنا إلى هذا النبي فقال له صاحبه لا تقل نبي إنه لو سمعك لكان له أربع أعين فأتيا رسول الله ﷺ فسألا عن تسع آيات بينات فقال رسول الله ﷺ: «**لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تولوا للفرار يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت قال فقبلا يديه ورجليه، وقالا نشهد أنك نبي، قال فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا إن داود عليه السلام دعى ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود**»[(١)] رواه أبو داود والترمذي والنسائي ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب يعني أغرقناهم في اليم ثم أدخلنا في النار ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب لا يغلب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ على الانتقام لا يعجزه ما أرادو لا يمنعه شيء عما أراد.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في قبلة اليد والرجل (٢٧٣٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: السحر (٤٠٧٦).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يعني كفار قومكم أيها المؤمنون من قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ يعني من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط آل فرعون المذكورين بحلول العذاب بهم قوة وعدداً أو مكانة وديناً عند الله والإستفهام للإنكار يعني ليسوا خيراً منهم فكيف أمنوا من مثل ماحل بهم من العذاب ﴿أَمْ لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ وأمان من العذاب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في الكتب السماوية أن من كفر منكم وكذب الرسل لا يعذب حتى أمنوا من العذاب ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ أي جماعة أمرنا مجتمع ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ومنتصر من الأعداء لا تغلب أو متناصر بعضنا بعضاً، والتوحيد حملاً على لفظ الجميع وموافقة لرؤوس الآي، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قالوا يوم بدر نحن جميع منتصر فنزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ قرأ يعقوب سنهزم بالنون على صيغة المتكلم المعروف والجمع منصوباً على المفعولية والباقون على صيغة الواحد الغائب المجهول والجمع مرفوعاً على أنه مسند إليه أورد الدبر مفرداً في محل الإدبار بإرادة الجمع الجنس موافقة لرؤوس كما يقال ضربنا منهم الرأس أو لأن كل واحد منهم يولي بره.

روى البخاري عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر «**أنشدك عهدك ووعدك اللّهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم» فقال أبو بكر وأخذ بيده حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر)**[1] كنت لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبيّ ﷺ يثب في درعه ويقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ذكره البغوي، قول سعيد بن المسيب قال سمعته من عمر وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم من مرسل عكرمة ورواه الطبراني في مجمعه الأوسط بَلِ السَّاعَةُ اضراب على طريقة الإنتقال إلى الأهم ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ وجميعاً للعذاب وما يحيق بهم في الدنيا فمن طلائعه وكان ليس بعذاب بالنسبة إلى ما يحيق بهم يوم القيامة ولذلك لا يعذب بعض الكفار في الدنيا مع استحقاقهم جميعاً للعذاب ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أي أشد داهية والداهية أمر فظيع لا يهدى إلى دفعه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين تعميم بعد تخصيص لبيان حال الكفار مطلقاً بعد التخصيص بذكر كفار مكة في ﴿ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ نيران في الآخرة وقيل معنى الآية في ضلال أي ذهاب من طريق الجنة في الآخرة وسعر أي نار مسعرة كذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ (٤٨٧٧).

قال الحسن بن فضل وقال قتادة في عناء وعذاب ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي يجرون ﴿فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقال لهم ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي حر النار وألمها فإن مسها سبب لألمها ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ والجملة معترضة بين ذكر الكفار نزلت رداً لمخاصمة قريش.

روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة، قال جاءت مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[(١)] يعني خلقنا كل شيء بتقدير سابق أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه، قال الحسن قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له أي يقتضيه الحكمة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق كها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال كان عرشه على الماء**»[(٢)].

رواه مسلم، وروى البغوي بسنده عن طاووس بن مسلم اليماني قال أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، وعن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر**»[(٣)] رواه الترمذي وابن ماجه، عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون في أمتي خسف ومسخ وذلك على المكذبين بالقدر**».

رواه أبو داود وروى الترمذي نحوه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ «**القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضو إلا تعودوهم وإن ماتوا لا تشهدوهم**»[(٤)] رواه أحمد وأبو داود، وعن أبي خزامة عن أبيه قال قلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقي بها ودواء نتداوي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»[(٥)] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وفي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كل شيء بقدر (٢٦٥٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة القمر (٣٤١١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء أن الإيمان بالقدر خيره وشره (٢١٤٥).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٧٩).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقى والأدوية (٢٠٦٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧).

الباب أحاديث كثيرة وانعقد عليه إجماع الصحابة ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ في تكوين الأشياء وإعدامها وإعادتها ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي الأفعلة واحدة وهي الإيجاد والإمحاء بلا معالجة ومعناه أو إلا كلمة واحدة وهي قوله تعالى: كن في الايجاد والصيحة في الإعدام والبعث كائنة في اليسر والسرعة ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ قال الكبي عن ابن عباس وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر نظيره قوله تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ جمع شيع معناه المثل كذا في القاموس يعني أهلكنا أشباهكم في الكفر ممن قبلكم يا أهل مكة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ بالإعتبار ممن قبله الفاء للسببية، والاستفهام للحث والتحريض بمعنى الأمر يعني لقد أهلكنا يا أهل مكة أشباهكم فاذكروا واتعظوا منصل بما سبق في توبيخ أهل مكة وما بينهما معترضات ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ صفة لشيء فعله المكلفون ثابت مكتوب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي في صحائف الحفظة التي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فيجازي بها يوم القيامة أو في اللوح المحفوظ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من أعمال المكلفين أو من الخلائق وأعمالهم وآجالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي مسطور مكتوب في صحائف الحفظة أو في اللوح المحفوظة فهذه الجملة بيان وتفسير وتأكيدها لما سبق أو المراد بأحد الجملتين كونها مكتوباً في صحائف الحفظة وبالأحرى في اللوح المحفوظ والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي أنهار الجنة من الماء والخمر والعسل واللبن، أورد لفظ المفرد اكتفاء باسم الجنس موافقة لرؤوس الآي وقال الضحاك يعني في الضياء السعة ومنه النهار، قال البغوي قرأ الأعرج ونهر بالضمتين جمع نهار يعني لا ليل لهم ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان لا لغو فيه ولا تأثيم يعني الجنة أو في مكان مرضى قال الجوهري يعبر عن فعل فاضل ظاهراً وباطناً بالصدق ومنه قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[3] قال البغوي قال الصادق (رض) مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي عند الله مالك الأشياء كلها وملكها قادر لا يعجزه شيء عندية غير متكيفة لا تدركه العقول والأفهام إلا من فتق الله غشاوة بصيرته من الكرام وفائدة التكبير فيها الإيماء إلى ما من شيء إلا تحت ملكه وقدرته والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٧.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

سورة الرحمن

آياتها ثمان وسبعون آية وثلاث ركوعات وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ جواب لقول الكفار وما الرحمن فذكر الله تعالى أنه مولى النعم الدنيوية والآخروية كلها من بدء الخلق إلى أبد الآبدين على ما يقتضيه لفظ الرحمن المبني على كمال المبالغة في الرحمة وقدم في الذكر ما هو أصل النعم الدينية وأجلها وهو تنزيل القرآن وتعليم فإنه أساس الدين وفيه صلاح الدارين، ثم ذكر بعده خلق الإنسان إشارة إلى أن الإنسان إنما خلق لأجل تلقى القرآن ولذلك علمه البيان ولما كان إشراكهم وعبادتهم لغير الله تعالى وقولهم وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا دليلاً على إنكارهم آلاء الله تعالى كرر التوبيخ عليهم في السورة إحدى وثلاثين مرة بعد ذكر بعض آلاء إيقاظاً وتنبيهاً وأما بعد الوعيد على الكفران زجراً ومنعاً عما هم عليه وأما بعد الوعد لمن خاف مقام ربه وشكر نعمائه تحريضاً وتطميعاً، وقيل هذه الآية رد لقول الكفار: ﴿إنما يعلمه بشر﴾[1] والمعنى أنه لا يستطيع البشر على تعليم مثل هذا القرآن البليغ المعجز بل علمه الرحمان الذي هو المنعم بالنعم الدنيوية والأخروية كلها بمقتضى رحمه وهذا أجل النعم المفضي إلى صلاح الدارين رحمٰن مبتدأ والجملة خبرة ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ قال ابن عباس وقتادة يعني آدم عليه السلام علمه البيان يعني أسماء كل شيء علمه اللغات

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

كلها فكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية وقال أبو العالية والحسن المراد جنس الإنسان ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ باللسان والكتابة والفهم والإفهام حتى يتميز عن سائر الحيوانات وصار قابلاً للوحي وتنزيل القرآن، وقال السدي علم كل قوم لسانهم الذين يتكلمون به وجاز أن يقال خلق الإنسان يعني محمد ﷺ علمه البيان يعني القرآن فيه بيان ما كان وما يكون من الأزل إلى الأبد مطابقاً لبيان من معنى من الرسل هداية للناس وآية على نبوته، كذا قال ابن كيسان، فعلى هذا الجملتان الأخيرتان بيان وتفصيل للأولى ولهذا لم يورد العاطف بينها وكلها أخبار مترادفة للرحمٰن، قيل: ترك العاطف لكون كل منها مستقلاً بالخبرية وقيل بمجيئاً على نهج التحديد ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ الحسبان إما مصدر كغفران وسبحان وكقرآن ورجحان ونقصان من حسباناً أو جمع للحساب كالسّبان والركبان والمعنى الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر معلوم في منازلهم يتنسق بتلك أمور الكائنات السفلية ويختلف الفصول والأوقات ويعلم السنون والحساب وأوقات الصلاة والصيام والحج والزكاة وآجال الديون ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ أي ما ليس له ساق من النبات ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ ماله ساق يبقى في الشتاء ﴿يَسْجُدَانِ﴾ أي ينقادان الله طبقاً فيما يريد منهما إنقياد الساجدين المكلفين طوعاً يقال سجودها سجود ظلمهما، قال الله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾[(١)] والجملتان خبران آخران للرحمٰن وكذا ما بعدهما مما عطف عليهما وكان حق النظم في الجملتين أن يقال وأجرى الشمس والقمر بحسبان وأسجد النجم والشجر والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان له الوجوب العائد في الخبر لكن حذف العائد منهما لوضوحه وأدخل العاطف بينهما وبين ما بعدهما لاشتراكهما في الدلالة على وجود الصانع يحكم الذي يقدر ويدبرو يغير أحوال الأجرام العلوية والسفلية على نهج بديع وأسلوب حكيم ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿رَفَعَهَا﴾ أي خلقها مرفوعة ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ قال مجاهد أراد بالميزان العدل والمعنى أمر بالعدل وأثبته في الذمم حتى انتظم أمر العال واستقام، وقال الحسن وقتادة والضحاك أراد ما يوزن الأشياء ويعرف به المقادير من الميزان والمكيال والذراع ونحو ذلك فإنها سبب الإنصاف والإنتصاف وأصل الوزن التقدير ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ إما مضارع منصوب بأن في قوة المصدر متعلق بوضع بتقدير اللام يعني وضع الميزان لأن لا تجاوزوا الحق في الميزان ولا تظلموا وإما صيغة نهي وأن مفسرة تقديره أمرأن لا تطغوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ معطوف على تطفوا على تقدير كونه نهياً وعلى تقدير كونه مضارعاً

(١) سورة النحل، الآية: ٤٨.

معطوف على وضع بتقدير قال ﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي قوموا وزنكم بالعدل ولا تنقصوا أمر الله تعالى بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ومن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان ثلاث مرات ولم يكتف بالضمير تشديد للتوصية وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه فويل للمطففين. **مسألة**: من اشترى مكيلاً مكايلة أو موزوناً موازنة فاكتاله أو اتزنه ثم باعه مكايلة أو موازنة لم يجز للمشتري الثاني أن يبيعه ولا أن يأكله حتى يعيد الكيل أو الوزن لأنه يجعل بأن يزيد على المشروط وذلك للبائع والتصرف في مال الغير حرام يجب التحرز عنه «وقد نهى النبيّ ﷺ عن بيع الطعام حتى يجري فيه الصاعان صاع البائع وصاع المشتري»(١) رواه ابن ماجه وابن إسحاق من حديث جابر وأعل بعبد الرحمٰن بن أبي ليلى ورواه البزار من حديث أبي هريرة وله طريقان ضعيفان عن أنس وابن عباس وروى عبد الرزاق عن يحيى بن كثير أن عثمان بن عفان وحكيم بن حزام كانا يبتاعان الثمر ويجعلان في الغرائر ثم يبيعانه بذلك الكيل فنهاهما رسول الله ﷺ أن يبيعا حتى يكيلا لمن ابتاعه منهما، قال ابن همام هذا الحديث حجة لكثرة طرقه وقبول الأئمة إياه فإنه قد قال بقولنا هذا مالك والشافعي وأحمد.

مسألة: ولا معتبر بكيل البائع قبل البيع وإن كان بحضرة المشتري لأنه ليس صاع البائع والمشتري وهو المشروط ولا بكيله بعد البيع بغيبة المشتري لأن الكيل من باب التسليم لأنه يصير به المبيع معلوماً ولا تسليم إلا بحضرته ولو كال البائع بعد البيع بحضرة المشتري قيل لا يكتفى به بظاهر الحديث فإنه اعتبر صاعين والصحيح أنه يكتفى به لأن المبيع صار معلوما بكيل واحد ولتحقق معنى التسليم، ومحل الحديث اجتماع الصفتين كما إذا اشترى المسلم إليه من رجل كرأ وأمر رب السلم أن يقبضه فإنه لا يصلح إلا بصاعين لاجتماع الصفتين بشرط الكيل لشراء المسلم إليه لنفسه وقبض رب السلم ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾منصوب بفعل مضمرة تفسيره ﴿وَضَعَهَا﴾ أي خلقها وخفضا مدحوة ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي للخلق، في القاموس الأنام كسحاب وسباط سائر الخلق والجن والإنس أو جميع ما على وجه الأرض، قال البيضاوي وقيل الأنام كل ذي روح قلت: الظاهر أن المراد به هاهنا الجن والإنس لأن الخطاب معهما كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ بِحُسْبَانٍ﴾ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ قال ابن كيسان يعني ما يتفكهون به من النعم التي لا تجمع الجملة تعليل لمضمون قوله تعالى والأرض وضعها للأنام ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ جمع

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: النهي عن بيع الطعام قبل ما لم يقبض (٢٢٢٨).

كم بكسر الكاف وهو وعاء الثمر ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ وهو ما يؤكل من البذور كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ وهو ورق الزرع والنبات اليابس كالتبن ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي الرزق وهو اللب كذا قال أكثر المفسرين من قولهم خرجت أطلب ريحان الله، قال ابن عباس كل ريحان في القرآن فهو الرزق، وقال الحسن وابن زيد وهو ريحانكم الذي يشم وهو فعيلان من الروح فقلب الواوياء وأدغم ثم خفف، وقيل أصله روحان قلب واوها ياء للتخفيف، قرأ العامة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان برفع الاسماء الثلاثة عطفاً على الفاكهة، وجاز أن يكون الريحان معطوفاً على ذو العصف بتقديره وحذف المضاف وأعرب المضاف إليه بإعرابه وقرأ حمزة والكسائي والريحان بالجر عطفاً على العصف وما عداه بالرفع عطفا على الفاكهة وقرأ ابن عامر والحبة والنخل ذات الأكمام والحب والعصف والريحان، بنصب الثلاثة عطفاً على الأرض وضعها على تقديره وخلق النخل ذات الأكمام وخلق الحب والعصف وخلق الريحان ويجوز أن يراد ذا الريحان فحذف المضاف وأعرب المضاف إليه بإعرابه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ بِحُسْبَانٍ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى الأنام وقوله أيها الثقلان وقيل خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب يخاطبون كذلك نظيره قوله تعالى ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾[1] والفاء للسببية والإستفهام لتقرير آلآء وإنكار تكذيبهما فإن ذكر الآلاء سبب لإقرارها وشكر منعمها والرد عن تكذيبها وكذا الوعيد على الكفران والوعد سببان للإقرار والشكر، روى الحاكم عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: «مالي أراكم سكوتاً والجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة فبأيّ الآء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد».

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٤.

﴿٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢﴾

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ أي طين يابس به صلصلة أي تردد صوت وقيل الصلصال السنن من الطين ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار وهو الخذف قيل الفخر المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ومنه الفخار بمعنى الحراء لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر به، ولا اختلاف بين هذه وبين من حمأ مسنون ومن طين لازب ومن تراب لاتفاقها معنى لأنه تفيد أنه خلق من تراب ثم جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصال ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ اللام للجنس يعني جنس الجن وقيل هو علم لأبي الجن وقال الضحاك هو إبليس ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ بيان لمارج وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه وهو في الأصل للمضطرب من مرج إذا اضطرب، وقال مجاهد هو ما اختلط بعض ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي تعلو النار إذا وقدت من قولهم مرج أمر القوم إذا اختلط الجملة خبر آخر للرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاض عليكما من أطوار خلقناكما حتى صرتما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾ مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما خبر آخر للرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من الفوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك ﴿مَرَجَ﴾ أي أرسل ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والعذب من مرجت الدابة إذا أرسلتها خبر آخر للرحمٰن ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حال من البحرين، أي يتجاوزان ويتماس سطوحهما ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى حال آخر ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ حال أخرى أي لا يبغي أحدهما على الأخرى بالممازجة وإبطال الخاصية، وقال قتادة لا يطغيان على الناس بالغرق، وقال الحسن مرج البحرين يعني بحر الروم وبحر الهند وعن قتادة أيضاً بحر الفارس وبحر الروم بينهما برزخ يعني الجزائر، وقال المجاهد والضحاك بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من المنافع وظهور قدرة الله تعالى جملة معترضة وقوله تعالى ﴿يَخْرُجُ﴾حال أخرى من البحرين قرأ نافع وأبو عمر ويعقوب يخرج بضم الياء وفتح الراء على البناء للمفعول من الإخراج والباقون بفتح الياء وضم الراء من المجرد ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من البحرين العذب والملح قيل الدرر إنما يخرج من الملح دون العذب فقيل في جوابه أنه يخرج من مجتمع الملح والعذب وقيل لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحد فكان المخرج من أحدهما كالمخرج منهما وقيل: إنه جائز في كلام العرب أن

يذكر شيئين ثم يخص أحدهما بفعل كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[١] وكان الرسل من الإنس دون الجن وإن كان المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض كما قال مجاهد والضحاك فالوجه أنه إذا مطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها فحيثما وقعت وقعت قطرة كانت لؤلؤ كذا قال ابن جرير ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ قرأ أبو بكر ويزيد بلا همزة والباقون بهمزة وهي كبار الدرر ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صغارها كذا في القاموس، وقال مقاتل ومجاهد على الضد يعني اللؤلؤ صغار الدرر والمرجان كبارها وقيل المرجان الحزز الأحمر فهو نوع من الجواهر يشبه النبات والحجر وقال عطاء الخراساني هو البسد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ﴾ تعالى ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الكبار جمع جارية ﴿ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قرأ حمزة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين أي اللائي ابتدأن وأنشأن السير والباقون بفتح الشين أي المرفوعات اللاتي رفع خشبها بعض على بعض وقيل المنشئات المسخرات ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ متعلق بالمنشئات وهي صفة للجوار وقوله ﴿ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ صفة يعني كالجبال جمع علم وهو الحبل الطويل الجملة معطوفة على مرج البحرين خبر للرحمن بتبعيتها وإنما جعلها تابعة لها لكون الجواري تابعة للبحر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض من الحيوانات أو المركبات أو من كل شيء حتى الجبال والبحار والمعادن ومن للتغليب أو من الثقلين ﴿ فَانٍ﴾ يوم القيامة، أو قيل ذلك متى شاء الله تعالى أو فان في حد ذاته موجود بوجود مستعار من الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ﴾ قيل هو من المتشابهات ﴿رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾ أي ذو العظمة والسلطان والإستغناء المطلق ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الفضل العام قلت العام قلت عطف بقاء وجه ربك على فناء من الأرض وتخصيص ذكر الفناء ثم يقتضي أن المراد بالوجه هاهنا الجهة حتى يحصل المناسبة والمقارنة بين المعطوف والمعطوف عليه. فإن قيل معنى العطف هاهنا على المقابلة بين فناء الخلق وبقاء الخالق دون المقارنة؟ قلنا لو كان كذلك لم يفد تقييد الفناء بمن على الأرض فالمعنى كل من على الأرض من الثقلين فإنه في حد ذاته لا يعبأ به ويبقى من جهاته جهته إلي ربه وتوجهه إليه فإنه لا يطرء عليه فناء قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[٢] وهذه الصفة من عظيم صفات الله تعالى، روى الترمذي عن أنس وأحمد والنسائي والحاكم بسند صحيح عن ربيعة بن عامرة قال: قال رسول الله ﷺ «ألظوابيا ذا الجلال والإكرام»[٣] وفي الحصن الحصين

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٢٥).

أنه ﷺ مر برجل وهو يقول يا ذا الجلال والإكرام فقال عليه الصلاة والسلام «قد استجيب لك فسل» والإ لظاظة به من كريم صفات الإنسان الجملتان خبران آخران للرحمن والعائد في الجملة الأولى محذوف وفي الثانية وضع المظهر موضع المضمر والتقدير كل من عليها فان بإفنائه أو بقهرمانه ويبقى وجهه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ منها توفيقه للتوجيه إليه تعالى ومنها ما ذكر من بقاء الرب وإبقاء ما لا يحصى مما على صدد الفناء رحمة وفضلاً ومنها ما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن حوائجهم من المغفرة والعافية وتوفيق العبادة والتجليات والبركات والرزق وغير ذلك، وقيل المراد بمن في السماوات والأرض الموجودات كلها وأورد كلمة من تغلبا فإنها كلها مفتقرة إلى الله تعالى في ذواتها وصفاتها وسائر ما يهمها ويهمن لها والمراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء نطقاً كان أو غيره ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي وقت منصوب على الظرفية بيسأله أو بمقدر دل عليه ما بعده وما قبله يعني يعطي مسؤولهم ويحدث أمور كل يوم ﴿هُوَ﴾ يعني الله تعالى ﴿فِى شَأْنٍ﴾ دائماً ومن شأنه أن يحيى ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل آخرين ويشفي مريضاً ويمرض صحيحاً ويفك عانياً ويرهن فارغاً ويفرج مكروهاً ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً للمؤمنين، ويدخل جهنم الكافرين ويعذبهم بأنواع التعذيب ويدخل الجنة من خاف مقام ربه ويكرمهم بأنواع التكريم أي ما لا يحصى من إنعامه وإحداثه في خلقه ما يشاء قال رسول الله ﷺ «**من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين**»[١] رواه ابن ماجه وابن حبان.

في الصحيح من حديث أبي الدرداء وأخرج ابن جرير مثله من حديث عبد الله بن منيب والبزار مثله من حديث ابن عمر، وروى البغوي بسنده عن ان عباس قال إن مما خلق الله عز وجل لوحاً في درة بيضاء دفتاه ياقوته حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال الحسين ابن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت، قال أبو سليمان الداراني في هذه الآية كل يوم له إلى العبيد برّ جديد، وقال سفيان بن عيينة الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة فالشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا الإختيار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (٢٠٢).

والإعطاء والمنع وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وقيل شأنه جل ذكره أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاث عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعاً إلى الله عز وجل قال مقاتل نزلت الآية في يهود حيث قالوا إن الله لا يفضي يوم السبت شيئاً ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما يسعف سؤالكما وما يخرج لكما من مكمن العدم حيناً فحيناً ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الرب والباقون بالنون على التكلم قيل معناه سنجرد لجزائكم وذلك يوم القيامة فإنه تعالى لا يفعل فيه غيره قيل أنه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده سأفرغ لك فإن المتجرد للشيء كان أقوى عليه وليس المراد منه الفراغ من شغل فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن كذا قال ابن عباس والضحاك، وقيل معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم، وقيل: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور ثم قال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم يعني نحاسبكم ولنجز لكم ما وعدناكم فيتم ذلك ونفرغ منه وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل ﴿أَيُّهَ﴾ قرأ ابن عامر أيها بضم الهاء والباقون بفتح الهاء ووقف أبو عمرو والكسائي بالألف والباقون بغير الألف ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أحياءاً وأمواتاً، وقال جعفر الصادق بن محمد الباقر (رض) لأنهما مثقلان بالذنوب وقيل لأنهما مثقلان بالتكليف والمناسب لهذه المعاني لثقلين التأويلات المذكورة في قوله تعالى: سنفرغ لكم أعني التهديد أو إتمام الوعد والوعيد وإنجازهما، وقال أهل المعاني كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل قال النبيّ ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما فإنهما مستعدان لصعود مدارج القرب والتجليات والمناسب لهذا المعنى أن يقال في تأويل قوله تعالى: سنفرغ لكم أنا نخلوا بكم خلوة لا يكون يقره من يخلو به هناك مدخل، عن أبي ذر العقيلي قال: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة؟ قال بلى، قلت وما آية ذلك في خلقه؟ قال يا أبا ذر أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به، قال: بلى، قال فإنما هو خلق من خلق الله والله أجل وأعظم»[1] رواه أبو داود، وأحسن قول الشاعر بالفارسية.

جباني مختصر خواتم كدوري بين جاء من وجائي توباشد ﴿﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ألامر ظاهر على تأويل المتأخرين كان المراد بالفراغ التهديد ونحو ذلك فالمعنى أنه فلا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الرؤية (٤٧١٨).

تكذبان بالآء ربكما فإن التكذيب يوجب التعذيب والمراد بالآلاء كل نعمة بالإنسان وإن لم يكن شيئاً منها مذكوراً في الآية وقيل التهديد أيضاً نعمة ينزجر به المكلف وهذا تكلف.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله فارين من قضائه ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ فاخرجوا أمر تعجيز، وقيل معناه إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السماوات والأرض فاهربوا واخرجوا والمعنى حيثما كنتم يدرككم الموت وقيل يقال هذا يوم القيامة، أخرج ابن جرير وابن مبارك عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فيكون الملائكة على أرجائها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف فينزل الملك الأعلى بجنبه اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض ندوا فلا يأتوا قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا إلى المكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾[3]

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

وقوله تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾[١] يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذا سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ والخروج ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي إلا بقوة وقهر وأنّى لكم ذلك أو المعنى إلا بسلطان مني فإنه لا قدرة لأحد الإستفادة من الله تعالى لا حول ولا قوة إلا بالله كما أن النبيّ ﷺ نفذ ببدنه ليلة المعراج من السماوات السبع إلى سدرة المنتهى والصوفي ينفذ من دائرة الإمكان إلى مدارج القرب بحول الله وقوته، وقيل معناه حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني أي إلى سلطاني كقوله ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾[٢] أي إلي، وروي عن ابن عباس قال: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا ولن تعلموا إلا بسلطان أي بينة من الله عز وجل نصبها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب يوجب التعذيب وأنتم لا تقدرون على الفرار منه، وقيل من آلاء الله التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة ومنها ما نصب من المصاعد العقلية والمعارج الثقلية وأسباب الترقيات فينفذون لها إلى ما فوق السماوات، قال البغوي وفي الخبر يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا الآية فذلك قوله عز وجل ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ يعني حين بعثتم من القبور قرأ ابن كثير بكسر الشين والباقون بضمها وهما لغتان وعو اللهب الذي لا دخان فيه كذا قال أكثر المفسرين، وقال مجاهد هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالجر عطفاً على النار والباقون بالرفع عطفاً على شواظ قال سعيد بن جبير والكلبي: النحاس الدخان وهو رواية عن ابن عباس فمعنى الرفع يرسل شواظ تارة ونحاس أخرى ويجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمتزج أحدهما الأخرى، عن ابن جرير يرسل شواظ من نار وشيء من نحاس، وجاز أن يكون نحاس في محل الرفع مجروراً للجوار وحكي أن الشواظ لا يكون إلا من النار والدخان جميعاً، وقال المجاهد وقتادة النحاس هو الصفر المذاب يصب على رؤسهم وهو رواية العوفي عن ابن عباس وقال ابن مسعود النحاس المهل ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي لا تمنعان من الله فلا يكون لكم منه تعالى ناصر حين يسوقكم إلى المحشر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإن التكذيب يوجب التعذيب وقيل من آلاء التهديد على موجبات العذاب فيجتنب منها والتميز بين المطيع والعاصي بالجزاء ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ﴾ أي إنفرجت ﴿السَّمَاءُ﴾ فصارت أبواباً لنزول الملائكة الفاء تدل على أن إرسال شواظ من نار

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٥ ـ ١٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

يكون قبل انشقاق السماء فهذا الإنشقاق ليس للإفناء بل لنزول الملائكة بعد البعث من القبور كما ذكرنا في حديث الضحاك ﴿فَكَانَتْ﴾ عطف على انشقت يعني كانت السماء حينئذ ﴿وَرْدَةً﴾ أي كلون الورد الأحمر، وقيل كلون الفرس الورود وهو بين الكميت والأشقر كذا في القاموس وقال البغوي هو الأبيض الذي يضرب الحمرة أو الصفرة، قال قتادة السماء اليوم أخضر أو يكون لها يومئذ لون آخر إلى الحمرة، قيل: إنها تتلون ألواناً يومئذ كلون الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد الشتاء كان أغبر فشبه السماء في تلونها إنشقاقها لهذا فإذا اشتد الشتاء كان أغبر فشبه السماء في تلونها إنشقاقها لهذا الفرس في تلونه، أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال السماء تكون ألواناً تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتشقق فيكون حالاً بعد حال ﴿كَالدِّهَانِ﴾ جمع دهن صفة وردة شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الورد في اختلاف ألوانها بالذهن وأخلاف ألوانه كذا قال الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع، وقال عطاء بن أبي رباح كالدهان كعصر الزيت يتلون في الساعة ألواناً وقال مقاتل كدهن الورد الصافي، وقال ابن جريج يطير السماء كمدهن الزيت وذلك حين يصيبها حر جهنم وقال الكلبي كالدهان كالآدم الأحمر وجمعه أدهنته ودهن وجاز أن يكون خبراً بعد خبر لكانت يغنى كانت السماء متلونة كلون الورد الأحمر وكلون الفرس الورد وكانت مذابة كالدهن وهو اسم لما يدهن به وجواب الشرط محذوف المعنى فما أعظم الهول وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترضة بين الشرط والجزاء قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ الضمير راجع إلى قوله ﴿إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لتقدمهم رتبة يعني لا يسألون هل عملتم كذا حتى يدخلهم جهنم بعد السؤال لأن الله تعالى أعلم بهم منهم والكرام الكاتبون من الملائكة كتبوا علمهم والملائكة العذاب يعرفونهم بسيماهم كما سيجيء فيما بعد وهذا لا ينافي سؤالهم لم عملتم كذا بعدما نهتكم يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١] كذا قال مجاهد عن ابن عباس، ونحو ذلك قال الحسن وقتادة وهو المعنى لما روي عن ابن عباس في الجمع بين الآيتين حيث قال أنه لا يسألون سؤال شفعة ورحمة وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وعن عكرمة عن ابن عباس في الجمع بين الآيتين إن في القيامة ومواطن يسألون في بعضها، وقال أبو العالية معناه لا يسأل غير المجرم عن ذنب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ جملة مستأنفة كأنها في جواب سائل يقول إذا لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان فبم يعرف ملائكة

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٢ ـ ٩٣.

العذاب المجرمين فقال يعرفهم بسيماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(١) أخرج المختفي في الديباج عن ابن عباس مرفوعاً أخبرني جبرئيل أن لا إله إلا الله أنس للمسلم عند موته وفي قبره وحين يخرج من قبره يا محمد لو تراهم حين يقومون من قبورهم هم ينفضون رؤوسهم هذا يقول لا إله إلا الله والحمد لله فتبيض وجهه وهذا ينادي يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله مسودة في وجوههم.

وروى أبو يعلى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا﴾ الآية، قال يعرف يوم القيامة بذلك لا تستطيعون القيام إلا كما يقوم المتخبط، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو يعلى عن أبي هريرة مرفوعاً «يبعث الله تعالى يوم القيامة قوماً من قبورهم تأجج أفواههم ناراً فقيل من هم يا رسول الله؟ قال: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾» وأخرج البزار عن أبي هريرة نحوه عن جابر يحشر المتكبرون يوم القيامة في صورة الذر في الباب أحاديث كثيرة وأخرج الأربعة والحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً «من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش»(٢) وفي الصحيحين نحوه، وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله»(٣) وروى أبو نعيم عن عمر والبيهقي عن ابنه محوه، وأخرج ابن خزيمة وابن حبان وابن عمر يبعث ملقي النخامة في القبلة يوم القيامة وهو في وجهه وأخرج الطبراني في الأوسط عن سعد بن وقاص مرفوعاً «ذو الوجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وله وجهان من نار» والطبراني وابن أبي الدنيا عن أنس مرفوعاً: «من كان ذا اللسانين جعل الله يوم القيامة له لسانين من نار» والأربعة والحاكم وابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً «من كان عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»(٤) وفي لفظ «ساقط»، وحديث «يحشر أمتي أفواج صنف على صورة القردة» الحديث ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾(٥) في سورة عم يتساءلون وورد في الأحاديث الصحاح يحشر الناس حاملين على أعناقهم ما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: من تحل له الزكاة (٦٤٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الديات، باب: التغليظ في قتل مسلم ظلماً (٢٦٢٠)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد بالغوا في تضعيفه.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في القسم بين النساء (٢٣١٤).

(٥) سورة النبأ، الآية: ١٨.

أخذوه بغير حق وفي الصحيحين مرفوعاً في الغلول «يجيء يوم القيامة وعلى رقبته بعير»[١] الحديث ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أخرج البيهقي عن ابن عباس هذه الآية قال يجمع بين رأسه ورجله ثم يقصف كما يقصف الحطب، وأخرج هناد عن الضحاك في الآية قال يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب بآلاء يفضي إلى ما ذكر من التعذيب ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي المشركون يكذبونها في الدنيا الموصول مع الصلة صفة الجهنم والجملة مقولة ليقال المقدر وجملة يقال إما مستأنفة أو حال بمعنى أنه يؤخذ نواصيهم وأقدامهم في حال يقال لهم هذه جهنم التي كنتم تكذبونها ﴿يَطُوفُونَ﴾ أي المجرمون ﴿بَيْنَهَا﴾ أي جهنم يحرقون فيها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ بالغ إلى النهاية في الحرارة يعني يسعون بين الحميم والجحيم، أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء مرفوعاً «يلقى على أهل النار الجوع فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يغيرون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا أدنيت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت في بطونهم»[٢] الحديث، وروى أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال: «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه» الحديث، وقال كعب الأحبار إن واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق به في الأغلال فيغمسون في ذلك الوادي حتى يتخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار فذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التكذيب بآلاء الله يوجب التعذيب قيل من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ إلى هاهنا مواعظ ومزاجر وتخويف وكل ذلك نعمة من الله لأنها يزجر من المعاصي والظاهر أن هذا القول تكلف، والمراد بالآلاء كل نعمة لواحد منهم من الإيجاد والإبقاء والتزريق والهداية ونحو ذلك أورد الله سبحانه التوبيخ بهذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة ثماني مرات بعد ذكر عجائب الخلقة وبدائع الصنعة على عدد الصفات الثمانية الحقيقية لله تعالى إلى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ وتنبيهاً على أنه لا ينبغي تكذيب آلاء من هذا شأنه في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الغلول (٣٠٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: غلظ تحريم الغلول (١٨٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٦).

الخلق والقدرة وسبع مرات عدد أبواب جهنم بعد ذكر الوعيدات من قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ تنبيهاً على أنه لا ينبغي كفران آلاء قادر منتقم كذلك خوفاً من انتقامه وثماني مرات بعد ذكر نعيم الجنة عدد أبواب الجنة وكذلك ثمان أخر بعد ذكر جنته أخرى تنبيهاً على أنه لا ينبغي كفران آلاء قادر منعم كذلك طمعاً في إنعامه والله تعالى أعلم.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق(رض) فكر ذات يوم في القيامة والموازين والجنة والنار فقال وددت أني كنت خضراً من هذه الخضر يأتي علي بهيمة تأكلني وأني لم أخلق فنزلت ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال نزلت هده الآية في أبي بكر الصديق والمقام إما ظرف والمعنى خاف الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب أو موقف القايم عند ربه للحساب، وقال قتادة إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودانوا بالليل والنهار أو مصدر ميمي والمعنى خاف قيام ربه على أحواله من قام عليه إذا راقبه كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾(١) وقيامه عند ربه للحساب فالإضافة إلى الرب للتفخيم والتهويل، وقيل لفظ المقام مقحم والمعنى لمن خاف ربه جنتان مبتدأ خبره لمن خاف أو فاعل للظرف والجملة الظرفية معطوفة على قوله ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فإنها مع ما يليها بيان الجزاء للأشرار وهذه مع ما بعدها بيان الجزاء للخيار وكلتاهما بيان لقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ الذي هو خبر للرحمن، قال الضحاك هذا يعني الإنعام بالجنتين لمن راقب الله في السر والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله تعالى وما عمل من خير افضى به إلى الله تعالى لا يحب

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

أن يطلع عليه أحد والآية تحتمل المعنيين أحدهما وهو الظاهر أن لمجموعهم جنتان، قال مقاتل جنته عدن وجنة نعيم وقيل جنة للخائفين من الإنس وجنة للخائفين من الجن فإن الخطاب للفريقين وثانيهما أن لكل واحد من الخائفين جنان، قال محمد بن علي الترمذي جنة لخوفه ربه وجنة لترك شهوته وقيل جنة بعقيدته وأخرى لعمله أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه، وهذا التأويل مستبعد جداً ويلزم منه أن يكون عدد الجنات على ضعف عدد الخائفين بل على ضعف ضعفهم لأن قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ معطوف على هذه الجملة فيكون لكل واحد من خاف مقام ربه أربع جنات، وقد ورد في الأحاديث أن الجنات كلها أربعة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «**جنتان من فضة أنيتها وما فيها وجنتان من ذهب آنيتها وما فيها وما بين القوم وأن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[١] رواه الشيخان في الصحيحين، ورواه البغوي عن عبد الله بن قيس عن النبيّ ﷺ.

وروى أحمد والطيالسي والبيهقي عن أبي موسى مرفوعاً بلفظ «جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب حليهما وآنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة حليهما وآنيتهما وما فيهما وما بينهم أن ينظروا ربهم» الحديث نحوه، روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ ألا أن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة**»[٢] ورد أيضاً بسنده عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ فقلت وإن زنى وإن سرق يا رسول الله، قال: وإن رغم أنف أبي الدرداء»[٣] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ﴾ وأصله ذوو للمذكر وذات أصله ذوات للمؤنث وتشتته ذواتا على الأصل ويقال في الجمع أيضاً ذوات تخفيفاغ ولا يستعمل شيئاً منها إلا مضافاً فإنها وضعت ليتوصل بها إلى الوصف بأسماء أجناس وهاهنا صفة للجنتان ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فنن وهي الغصة التي يتشعب من فروع الشجر وتخصيصها بالذكر لأنها تورق وتثمر وتمد الظل، وهو قول مجاهد والكلبي وقال عكرمة ظل الأغصان على الحيطان،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ (٤٨٧٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٠).

(٣) رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط وإسناد أحمد أصح. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: فيمن شهد أن لا إله إلا الله (٨).

قال الحسن ذواتا ظلال أو جمع فن والمراد به أوان الفواكه وأنواع الأشجار والثمار من قولهم أفنن فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه وضروب وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والمروي عن ابن عباس ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤوا إلى الأعالي والأسافل والجملة صفة لجنتان يعني في كل واحدة من الجنة عين يعني شيء من هذا الجنس لا أن في كل واحدة منهما أدنى مجموعهما عينان فحسب لا مزيد عليهما، وكيف قد قال الله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾(١) فلا بد أن يكون من كل نوع من الأنواع الأربعة أنهاراً كثيرة وذكر البغوي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «**أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش التي ذكرها الله تعالى يفجرونها تفجيراً والأخرى الزنجبيل والأخريان نضاختان من فوق إحداهما التي ذكر سلسبيلاً والأخرى التسنيم**» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان غريب ومعروف وقيل رطب ويابس والجملة صفة أخرى لجنتان، قال البغوي قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أن حلو، كذا أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عنه، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في مسنده وهناد في الزهد والبيهقي عن ابن عباس قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ منصوب على المدح لمن خاف أو حال منه لأن في معنى الجمع ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ صفة لفرش والإستبرق ما غلظ من الديباج، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن مسعود قال أخبرتم بالبطائن فيكف بالظواهر، وذكر البغوي نحوه عنه وعن أبي هريرة، وأخرج أبو نعيم عن سعيد بن جبير قال ظواهرها من نور جامد، وذكر البغوي أنه قيل لسعيد بن جبير البطائن من إستبرق فما الظواهر قال هذا كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٢) وذكر البغوي عن ابن عباس قال وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف بالظواهر ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ حال من الضمير المستتر في لمن خاف اسم بمعنى مجني وهو ما يجتنى من الثمار يعني ثمارها دانية لا يصعب تناولها، وأخرج سعيد بن المنصور والبيهقي وهناد عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾(٣) قال أن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً أو مضطجعين على أي حال شاؤوا، وذكر البغوي عن ابن عباس

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ١٤.

قال تدنوا الشجرة حتى يجتنبها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً، وذكر عن قتادة أنه قال لا ترد أيديم عنها بعد ولا شوك ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ﴾ أي في أماكن الجنة وقصورها التي دلت عليها الجنتان أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفواكه والفرش ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساء قصرت أبصارهن على أزواجهن كذا أخرج البيهقي عن مجاهد ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يجامع الإنسيات إنس ولا الجنيات جن، وأصل الطمث الدم ومنه يقال للحيض، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طرق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ قال لم يدمهن يعني بالجماع جملة لم يطمثهن حال من قاصرات الطرف وهو فاعل للظرف المستقر والجملة الظرفية صفة للجنتان، وقال الزجاج وغيره فيه دليل على أن الجن يتغشى كما يتغشى الإنس وقال مجاهد إذا جامع الرجل فلم يسم انطوى إن الجاعل أحليله فجامع معه قال مقاتل في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهن خلقن في اجنات فعلى قوله هؤلاء... من حور الجنة، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي قال هن نساء أهل الدنيا خلقهن الله في الخلق الأخرى كما قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[1] لم يطمثهن حين عدن في الخلق الآخر إنس قبلهم ولا جان، وذكر البغوي قول الكلبي نحوه قرأ أبو عمرو عن الكسائي لم يطمثهن بضم الميم وأبو الحارث عنه في الثاني كذلك قال الداني هذه قراءتي والذي نص عليه أبو الحارث كرواية الدوري، وقال البغوي قرأ الكسائي إحداهما بالضم فإن كسر الأولى ضم الثانية وإن ضم الأولى كسر الثانية لما روى أبو إسحاق السبيعي قال: كنت أصلي خلف أصحاب علي (رض)... فأسمعهم يقرؤون لم يطمثهن بالرفع يعني بالضم وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله بن مسعود فأسمعهم يقرؤون بكسر الميم فكان الكسائي يضم إحداهما ويكسر الأخرى لئلا يخرج عن هذين الأثرين وقرأ الجمهور بكسر الميم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قال مرادف للجملة السابقة، أخرج البيهقي عن أبي صالح والسدي في هذه الآية قال بياض اللؤلؤ وصفاء الياقوت والمرجان قال صفاء لهن كصفاء الدر في الأصداف والذي لا تمسه الأيدي، وذكر البغوي عن قتادة قال صفاء الياقوت في بياض المرجان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يتفلون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون**» وفي رواية «لا يسقمون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الإلوة ورشحهم المسك

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٥ ـ ٣٧.

ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ولا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً»(١) متفق عليه، وأخرج الترمذي وصححه هو والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ **«أول زمرة تدخل الجنة كالقمر ليلة البدر والزمرة الثانية كأحسن كوكب دري في السماء لكل امرىء منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقهن من وراء الحلل»**(٢) وأخرج الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود قال إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء وذكر البغوي نحوه عن عمر بن ميمون، وأخرج أحمد وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ كأنهن الياقوت والمرجان قال: «ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ولأن أدنى لؤلؤ عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينقدها بصرة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك، وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أن المرأة من أهل الجنة ليرى ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ومخها إن الله يقول ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو دخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل في الدنيا ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب في الآخرة، روى البغوي بسنده عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ثم قال هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال عليه السلام «يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب: أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم (٢٨٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: في صفة نساء أهل الجنة (٢٥٣٥).

قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي الجنتين المذكورين ﴿جَنَّتَانِ﴾ عطف على جنتان وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ عطف المفرد على المفرد ومن دونهما حال مقدم عليه والمعنى لمن خاف مقام ربه أربع جنات ولم يفعل هكذا ليدل على أن كون الأولين أفضل من الأخريين وجاز أن يكون من دونهما جنتان جملة معطوفة على جملة تقديره ومن دونهما جنتان لأربابهما، قال ابن عباس من دونهما في الدرجة، وقال ابن زيد من دونهما في الفضل، قال أبو موسى جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين رواه الحاكم والبيهقي عنه، وأخرج البيهقي عن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين» كذا ذكر البغوي قول ابن جريج وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال كان عرش الله على الماء ثم اتخذ لنفسه جنة ثم إتخذ فيها أخرى ثم أطبقها بلؤلؤة واحدة قال ومن دونهما جنتان، قال البغوي وقال الكسائي من دونهما أي أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان من ذهب والأخريان من ياقوت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة فيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على الأرض وعلى الأولين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء وهو أيضاً أقل مما وصف به الأولين، لأنه ذكر هناك تجريان يعني من فوق من العرش وهاهنا نضاختان من تحت، أخرج ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال عينان تجريان هما خير من نضاختان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ قال بعضهم ليس النخل والرمان من الفاكهة فإن العطف يدل على المغايرة والفاكهة ما يقصد منها التفكه لا غير وثمرة النخل غذاء وثمر الرمان دواء، ولهذا قال أبو حنيفة من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رطباً ورماناً لا يحنث وقال أكثرهم هما من الفاكهة وإنما عطف تخصيصها بعد تعميم لمزيد فضلها كما عطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ورقها ذهب أحمر سعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثالها القلال أو الدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم، وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال إن التمرة من ثمر الجنة طولها اثنى عشر ذراعاً ليس لها عجم وأخرج أيضاً عنه قال الرمانة من رمان الجنة يجتمع حولها

بشر كثير يأكلون منها فإذا جرى على ذكر أحدهم شيء يريده وجده في موضع يره حيث يأكل، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال «نظرت الجنة فإذا الرمانة من رمانها مثل البعير المقتب» ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي خيرات بالتشديد فخففت لأن خير الذي بمعنى أخير لا يجمع والجملة صفة أخرى لجنتان أي في أماكنها وقصورها قال البغوي روى الحسن عن أبيه عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه» رواه الطبراني، وأخرج ابن المبارك عن الأزواعي قال خيرات بذيات اللسان ولا يعزن ولا يؤدين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ﴾ وحوراء بالتحريك أن تشتد بياض العين وسواد سوادها وتشتد سود حدقتها وبرق جفونها ويبيض ما حولها إلا شدة بياضها وسوادها في شدة بياض الجسد أو أسود أو العين كلها مثل الظباء ولا يكون في بني آدم بل يستعار لها كذا في القاموس، أخرج البيهقي عن أم سلمة قال قلت يا رسول الله «أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال بياض أضخام شعر العين بمنزلة الحوراء جناح النسر» وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عمر قال لشفرات من حور العين أطول من جناح النسر وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «**خلق الحور العين من الزعفران**» وأخرج البيهقي مثله عن أنس مرفوعاً وعن ابن عباس ومجاهد موقوفاً وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال إن الله تبارك تعالى لا يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لو أن حوراء بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها**» وأخرج عن ابن عباس قال: إن امرأة من نساء أهل الجنة لو بصقت في سبعة أبحر لكانت تلك الأبحر كلها أحلى من العسل وعن أنس عن النبيّ ﷺ «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينها ولملأت ما بينها ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(١) رواه البخاري، وأخرج ابن أبي الدنيا عن كعب لو أن يداً من الحور دليت من السماء لأضاءت بها الأرض كما يضيء الشمس لأهل الدنيا ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ يعني محبوسات مستورات في الحجال، قال البغوي قصرن طرفهن وأنفسهن على أزواجهن فلا تبغين بهم بدلاً، وروى البيهقي عن مجاهد في هذه الآية قال محبوسات لا يبرحنه والخيمة لؤلؤة وفضة وأخرج البيهقي عن أنس قال قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحور العين وصفتهن يحار فيها الطرف (٢٧٩٦).

رسول الله ﷺ: «**لما أسري بي دخلت الجنة موضعاً يسمى البيدح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأصفر والياقوت الأحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله، قلت يا جبرئيل ما هذا النداء؟ قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن الخالدات فلا نظعن أبداً وقرأ رسول الله ﷺ** ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ والخيام جمع خيمة روى البغوي بسنده عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة خيمة من لؤلؤ مجوف عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون**»[(١)] وفي الصحيحين نحوه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً، وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس قال الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مضارع من ذهب وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ الخيمة درة مجوفة وأخرج مثله عن عمر موقوفاً وابن جرير مثله عن أبي مجلز مرسلاً، وقال ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال الخيمة لؤلؤة فيها سبعون باباً من در وأخرج هناد عن عمر بن ميمون قال الخيمة درة مجوفة ومثله عن مجاهد وابن أحوص، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن ابن مسور لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب ندخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم يكن قبل ذلك لامرحات ولا طمحات ولا نجرات ولا حور عين كأنهن بيض مكنون ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ يعني قبل أصحاب الجنتين دل عليهم ذكر الجنتين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فائدة نساء الدنيا خير من الحور العين لحديث أخرج البيهقي عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم حور العين؟ قال «نساء الدنيا أفضل من حور العين كفضل الظهارة على البطانة» قلت وبم ذلك قال بصلاتهن وصيامهن ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا نحن الناعمات فلا نبأس أبداً ألا نحن المقيمات فلا نطفن أبداً ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا، قلت يا رسول الله المرأة تزوج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها منهم قال إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً في دار الدنيا فزوجته إياه فقالت أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ (٤٨٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة خيام أهل الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين (٢٨٣٨).

وأخرج هناد عن جبان بن جبلة قال إن نساء أهل الجنة إذا دخلن الجنة فضلن على الحور العين بأعمالهم في الدنيا ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من قوله ولمن خاف مقام ربه والمعنى لمن خاف مقام ربه جنتان كذا حال كونهم متكئين فيها على كذا لهم من دون هاتين الجنتين جنتان أخريان كذا حال كونهم متكئين على كذا أو حال من أربابهما المقدر يعني حال كون أربابهما متكئين ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ في القاموس الرفرف ثياب خضر يتخذ منها المجالس وبسط وفضول المجالس الفرش والوسادة، وفي الصحاح ضرب من الثياب شبه بالرياض، وقيل طرف الفسطاط والخباء الواقع على الأرض دون الأطناب والأوتاد وأخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى رفرف خضر قال المجالس، وأخرج هناد والبيهقي عن سعيد بن جبير قال رياض الجنة، قال البغوي قيل الرفرف البسط وهو قول الحسن ومقاتل والقرطبي روى العوفي عن ابن عباس قال الرفرف فضول المجالس والبسط وقال قتادة هو مجالس خضر فوق الفرش، وقال ابن كيسان هي المرافق، وقال ابن عيينة الزرابي، وقال غيره كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ عطف على خضر في القاموس عبقر موضع كثير الجن وثيابها غاية الحسن والعبقري الكامل من كل شيء والسيد والذي ليس فوقه شيء والشديد وضرب من البسط، وقال البيضاوي منسوب إلى عبقر يزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب والمراد به الجنس ولذلك جمع حسان حملاً على المعنى وكذا ذكر في الصحاح، وأخرج البيهقي عن ابن عباس عبقري حسان قال الزرابي قال القتيبي كل ثوب موشى عند العرب عبقري، وقال أبو عبيدة هو منسوب إلى الأرض يعمل بها الوشي، قال الخليل كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبقري ومنه قول النبيّ ﷺ وسلم في عمر(رض) «فلم أر عبقرياً يفري فريه»[1] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ قرأ ابن عامر ذو الجلال بالواو إجراء على الاسم والباقون بالياء والمعنى أنه تعالى اسمه من حيث أنه مطلق على ذاته فما ظنك بذاته، وقيل الاسم بمعنى الصفة أو مقحم روى البغوي بسنده عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول «اللّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام»[2] وروى مسلم أيضاً.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٦٣٣).
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول إذا سلم من الصلاة (٢٩٥).

سورة الواقعة

آياتها ست وتسعون آية وثلاث ركوعات وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ يعني إذا حدثت القيامة سماها واقعة لتحقق وقوعها متعلق بمحذوف مثل أذكر أو كان كيت وكيت ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ اللام فيه للتوقيت كما في قوله تعالى: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[1] يعني ليس وقت وقوعها ﴿كَاذِبَةٌ﴾ من نفس كاذبة تكذب على الله أو تكذب في نفيها كما تكذب الآن، وجاز أن يكون اللام للأجل أي ليس لأجل وقعتها نفس كاذبة فإن من أخبر عنها صدق أو ليس لها نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها من قولهم كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم إذا أشجعته عليه وسولت أنه يطيقه وجاز أن يكون كاذبة مصدراً كالعافية والنازلة واللاغية، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾[2] أي لغواً والمعنى ليس لمجيئها كذب يعني أنها تقع صدقاً وحقاً ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأعداء الله الذين استكبروا في الدنيا وعتوا عتواً كبيراً ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأوليائه الذين تواضعوا لله

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الغاشية، الآية: ١١.

والإسناد مجازي إلى الزمان يعني يوجد فيها خفض بأقوام ورفع آخرين صفتان للواقعة بعد توصيفها لجملة ليس لوقعتها كاذبة على طريقه ولقد أمر على اللئيم ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي حركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، والظرف متعلق بخافضة أو بدل من إذا وقعت ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها كذا قال الكلبي والحسن وابن كيسان، أو المعنى فتت فتاً حتى صارت كالسويق البسوس وهو الملتوت كذا قال عطاء ومقاتل ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبال ﴿هَبَآءً﴾ أي غباراً يرى في شعاع إذا دخل الكوة ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ متفرقا ﴿وَكُنتُمْ﴾ يا أمة محمد ﷺ لأن الخطاب معهم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً كل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج ﴿ثَلَٰثَةً﴾ الجمل الثلاث معطوف على رجت ثم فسر الأصناف الثلاثة فقال ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ يعني الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقال ابن عباس هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه وقال الله لهم هولاء في الجنة ولا أبالي، وقال الضحاك هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم فالميمنة على هذه الأقوال من اليمين ضد اليسار، وقال الربيع والحسن هم الذين كانوا ميامين مباركين على أنفسهم وكانت أعمارهم في طاعة الله فاليمين على هذا من اليمن ضد الشؤم ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ استفهام للتعجي من عظمة شأنهم عند الله وكمال يمنهم مبتدأ وخبرو الجملة خبر لما قبله العائد المظهر موضع الضمير يعني ما هم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يعني أصحاب الشمال والعرب يسمى اليد اليسرى الشؤمىٰ ومنه يسمى الشام واليمن لأن اليمن عن يمين الكعبة والشام عن يساره وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار أو كانوا على شمال آدم عند إخراج ذرية، وقال الله تعالى لهم هؤلاء للنار ولا أبالي أو الذين يعطون كتبهم بشمائلها أو الشائم على أنفسهم وكانت أعمارهم في المعاصي على اختلاف الأقوال ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ نحو ما ذكر ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ إلى الإسلام والطاعة ومراتب القرب إلى الله تعالى وهم الأنبياء عليهم السلام فإنهم مقدموا أهل الأديان إلى الإيمان والطاعات والأمم تبع لهم ومن لحقهم من الأمم بكمال متابعتهم واكتسابهم كمالات النبوة بالتبعية والوراثة وتشرفهم بالتجليات الذاتية الصرفة الداعية وهم الصحابة (رض) وبعض التابعين لهم بإحسان، ومن ثم قال ابن عباس السابقون إلى الهجرة هم السابقون في الآخرة وقال عكرمة قال السابقون الأولون إلى الإسلام يعني الصحابة، وقال ابن سيرين هم الذين صلوا إلى قبلتين من المهاجرين والأنصار، وقال الربيع بن أنس السابقون إلى إجابة الرسول في الدنيا هم السابقون إلى الجنة، وقال علي كرم الله وجهه السابقون إلى الصلوات الخمس فإن مآل

الأقوال كلها أنهم هم الصحابة قال علي (رض) سبقتكم إلى الإسلام طراً غلاماً ما بلغت أوان حلمي، قال المجدد الصحابة (رض) كلهم كانوا مستغرقين في كمالات النبوة ومن التابعين أكثرهم ومن أتباع التابعين أقلهم ثم انطمس أنوار النبوة واختفى آثارها وظهر كمالات الولاية وإستعلى أنوارها السكر والشطح وكثرة الخوارق المستفادة من التجليات الصفاتية والظلية حتى إذا مضى بعد الهجرة ألف سنة تدارك رحمة الله الواسعة أفاض كمالات النبوة بمقتضى طينة النبيّ ﷺ على بعض أتباعه حتى اشتبه آخر الأمة بأولها، فقال النبيّ ﷺ «**مثل أمتي كمثل المطر لا يدرىٰ أوله خير أم آخره**»[١] رواه الترمذي عن أنس، وروى رزين عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه الباقر عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «**أبشروا وأبشروا إنما مثل أمتي مثل الغيث لا يدرىٰ آخره خير أم أوله أو كحديقة أطعم منها فوج عاماً ثم أطعم منها فوج عاماً لعل آخرها فوجاً أن يكون أعرضها عرضاً وأعمقها عمقاً وأحسنها حسناً**» عن الدرداء عن النبيّ ﷺ قال «خير أمتي أولها وآخرها وفي أوسطها الكدر» رواه الحكيم الترمذي. السابقون خبر لما تقدم اللام فيما تقدم للجنس وهاهنا للعهد الذهني كما يقال صديقي زيد والمعنى السابقون هم الذين عرفت حالهم وكمالهم وما لهم كقول الشاعر أنا أبو النجم وشعري شعري، أو المعنى هم السابقون إلى الجنة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ إلى الله تعالى جملة مستأنفة في جواب ما شأنهم، وجاز أن يكون السابقون الأول مبتدأ والسابقون الثاني تأكيد له وهذه الجملة خبر ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بقوله المقربون وجاز أن يكون ظرفا مستقراً خبر لأولئك أو خبر بعد خبر لقوله السابقون ﴿ثُلَّةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف هم ثلة أي كثير ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني من الصدر الأول من هذه الأمة وهم القرون الثلاثة الصحابة والتابعين وأتباعهم، قال رسول الله ﷺ: «**خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم إن بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يأتمنون وينذرون ولا يفون ويظهر فيهم السمن**»[٢] متفق عليه من حديث عمران بن حصين، وكذا روى مسلم عن أبي هريرة وكذا روى النسائي عن عمر(رض)، وعند الترمذي والحاكم عن عمران بلفظ «خير الناس قرني» الحديث وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً بلفظ «خير الناس» وروى مسلم نحوه عن عائشة والطبراني والحاكم عن جعدة بن هبيرة، في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «لا تسبوا أصحابي فلو أن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال (٢٨٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥).

أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[١] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ وهم أرباب كمال النبوة الذين وجدوا بعد ألف سنة كما ذكرنا من قبل، وقال أكثر المفسرين ثلة من الأولين يعني من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد ﷺ وقليل من الآخرين يعني من أمة محمد ﷺ، قال الزجاج الذين عاينوا جميع النبيين من لدن آدم وصدقوهم أكثر ممن عاينوا النبيّ ﷺ، قلت: وهذا التأويل بعيد جداً لإستلزامه كون الأمم السابقة أقرب إلى الله تعالى وأفضل من هذه الأمة فإن فضل الأمة بكثرة الأفاضل وهذا لآيتان قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣] وقوله عليه الصلاة والسلام «**أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[٤] رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال الترمذي حديث حسن، وروى أحمد والبزار والطبراني بسند صحيح عن جابر أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «**إني لأرجو أن يكون من تبعني ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال أرجو أن يكون ثلث الناس فكبرنا ثم قال أرجو أن يكون الشطر**» وروى البخاري عن ابن مسعود مرفوعاً: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم، قال والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»[٥] وروى الترمذي وحسنه والحاكم وصححه والبيهقي، عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صفاً ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»[٦] وأخرج الطبراني من حديث أبي موسى وابن عباس ومعاوية ابن حيدة وابن مسعود نحوه ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ خبر آخر للضمير المحذوف والوضن نسج الدرع ويستعار لكل نسج محكم، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق مجاهد عن ابن عباس في هذه الآية قال موضونة بالذهب قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ. «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران (٣٠٠١).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: (وترى الناس سكارى) (٤٧٤١) وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحج (٣١٦٨).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في كم صف أهل الجنة (٢٥٤٦).

المفسرون هي موصولة منسوجة بالذهب والجواهر، وقال الضحاك موضونة مصفوفة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ حالان من الضمير في على، أخرج هناد عن مجاهد في قوله متقابلين قال لا يرى بعضهم قفا بعض وكذا قال البغوي وصفهم الله سبحانه بحسن العشيرة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ﴾ للخدمة قيل غلمان ممن ينشأ للخدمة الجملة حال آخر من الضمير ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون يبقون أبداً على شكل الولدان، قال الفراء يقول العرب لمن كبر ولمن شمط أنه مخلد، وقال ابن كيسان يعني ولداناً لا يحولون من حالة إلى حالة، وقال سعيد بن جبير مقرطون يقال خلد جارية إذا خلاها بالخلد وهو القرط، وقال الحسن هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيآت فيعاقبوا عليها فهم خدم أهل الجنة، أخرج ابن المبارك وهناد والبيهقي عن ابن عمر قال إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس مرفوعاً «إن أسفل أهل الجنة أجمعين من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم» وعن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلة وليس فيها أدنى من يغدو ويروح عليه خمس آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ الجار والمجرور مع ما عطف عليه متعلق بيطوف والأكواب جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا أذن لها ولا عرى كذا أخرج هناد عن مجاهد، وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس الأكواب الجرار من الفضة ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ ومن الأقداح ذات الخراطيم سميت أباريق لبروق لونها في الصفاء ﴿وَكَأْسٍ﴾ أي قدح فيه شراب وما لا شراب فيه فليس بكأس ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ خمر جارية من منبع لا ينقطع أبداً ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا يصدع رؤوسهم من شربها كما يصدع من شرب خمر الدنيا الجملة مع ما عطف عليه صفة كأس ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قرأ الكوفيون بكسر الزاء من الإفعال والباقون بفتحها في القاموس نزف ذهب عقله أو سكر ومنه ولا ينزفون، وفي الصحاح أنزف القوم ينزف ماء بئرهم يعني نزحه كله وأنزف الشيء أبلغ من نزفه فمعنى قراءة الكوفيين لا ينفذ شرابهم ومعنى قراءة غيرهم لا يذهب عقولهم ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ عطف على كأس ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي يختارون ما يشتهون ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ عطف على فاكهة ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ قال البغوي قال ابن عباس يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى، أخرج البزار وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فتخر بين يديك مشوياً**» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة: «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الطير في الجنة فيخر مثل البختى

حتى يقع على خوانه لم يصبه دخان ولا تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير» وأخرج البيهقي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ «**إن في الجنة طيرا أمثال البخت، قال أبو بكر إنها لناعمة يا رسول الله، قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر**» وأخرج أحمد والترمذي مثله من حديث أنس، وأخرج هناد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «**إن في الجنة طير كأمثال البخت يأتي الرجل فيأكل منها ثم يذهب كان لم ينقص منها شيء**» وأخرج هناد وابن أبي الدنيا بسند حسن عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشاً فيجيء فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون أبيض من الثلج وألين من الزبد وأحلى من العسل ليس فيه لون يشبه صاحبه ثم يطير ويذهب» وأخرج هناد عن مغيث بن سمي قال طوبى شجرة في الجنة ليس في الجنة داراً لا يظلهم غصن من أغصانها فيه ألوان الثمرة ويقع عليها طير أمثال البخت فإذا تمنى الرجل طيراً دعاه فيقع على خوانه فيأكل من أحد جانبيه شواء والآخر قديداً ثم يعود طائراً يطير فتذهب ﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء ﴿عِيْنٌ﴾ جمع عيناء، قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي بالجر عطفاً على جنات بتقدير مضاف أي هم في جنات ومضاجعة حور عين أو على أكواب لأن معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ينعمون بأكواب وبحور عين والباقون بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر أي فيها حور عين أولهم حور عين كذا قال الأخفش أو معطوف على ولدان أي يطوف عليهم حور عين، أخرج مجاهد قال الحور التي يجاور فيه الطرف باد مخ ساقها من وراء ثيابها وأخرج في حور عين قال سواد الحدقة عظم العين، وأخرج البيهقي عن أم سلمة قالت قلت أخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قال: «بيض ضخام شعر العيون بمنزلة الحور له جناح النسر» قالت أخبرني يا رسول الله عن قوله تعالى: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ﴾ قال رسول الله ﷺ صفاءهن كصفاء الدر الذي في الأصداف لم تمسه الأيدي، وقوله كأمثال اللؤلؤ صفة بعد صفة لحور ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي» قال البغوي يروى أنه سطع نور في الجنة قالوا ضوء ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها ويروى أن الحور إذا مشت سمعت تقديس الخلاخيل من ساقها وتجيد الأسورة من ساعديها وإن عقد الياقوت يضحك من نحرها وفي رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف أي يجزون جزاء أو على العلية أي يفعل ذلك بهم جزاء لأعمالهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة حال آخر من الضمير في على ﴿لَغْوًا﴾ أي باطلاً كذا أخرج البيهقي عن ابن عباس وأخرج هناد عن الضحاك أنه قال

هزلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي نسبة إلى الإثم يعني لا يقال لهم أثمتم وسيء ما صنعتم، وأخرج البيهقي عن ابن عباس وهناد عن الضحاك أنه الكذب ﴿إِلَّا﴾ إستثناء منقطع ﴿قِيلًا﴾ أي قولاً ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ ذا سلامة منصوبة على البدلية على فشوا السلام بينهم، أخرج أحمد والبزار وابن حبان عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تستربهم الثغور وتتقىٰ بهم المكاره ويموت وحاجته في صدره لا يستطيع بها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته أئتوهم فحيوهم فيقول الملائكة نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم قال إنهم كانوا عباداً يعبدونني ولا يشركون ي شيئاً وتستر بهم الثغور ويتقىٰ بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره ولا يستطيع بها قضاء قال فيأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**»[1] أخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في البعث عن العطاء ومجاهد قال لما سأل أهل الطائف الوادي يحمى لهم عسل ففعل وهو واد معجب فسمعوا الناس يقولون في الجنة كذا وكذا قالوا يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ ما أصحاب اليمين في سدر مخضود الآيات، وأخرج البيهقي من وجه آخر عن مجاهد قال كانوا يعجبون بوجّ ظلاله من طلح وسدر فأنزل الله ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وأصحاب اليمين هم أصحاب القلوب الصافية والنفوس المطمئنة أولياء الله المتقون ويلحق بهم في الآخرة عصاة المؤمنين إما بعد مغفرة ذنوبهم بفضل الله تعالى وشفاعة الأنبياء والصلحاء وإما بعد تعذيبهم بالنار وتخليصهم من الذنوب يلتحقون بالمتقين الصالحين، فإن جهنم يخلص المؤمنين وينفي عنه خبث ذنوبه ورذائله كما ينفي الكبر خبث الحديد ﴿ما أصحاب اليمين﴾ أي عظيم شأنهم عند الله الجملة خبر مبتدأ بتأويل يقال في شأنهم ما أصحاب اليمين أو جملة معترضة للتعجب والتفخيم ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ خبر المبتدأ أو خبر بعد خبر أي مقطوع شوكه أو مثني أغصانه من كثرة الحمل في القاموس خضد الشجر قطع شوكه ويقال خضد الغصن إذ ثناه وهو رطب، أخرج البيهقي عن أبي امامة قال سأل أعرابي يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة يؤذي صاحبها فقال رسول الله ﷺ وما هي؟ قال السدر فإن لها شوكاً، فقال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ ويخضد الله شوكها فيجعل مكان كل شوكة ثمرة

---

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فضل الفقراء (١٧٨٨٦).

إنها تنبت ثمراً ثم تفتق لثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر» وأخرج الطبراني مثله من حديث عتبة بن عبد وأخرج البيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: مخضود قال موفر حملاً وطلح منضود الموز المتراكم ﴿وَطَلْحٍ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة الطلح عند العرب شجر عظام لها شوك، وفي القاموس شجر عظام الموز، وفي الصحاح شجر الواحد طلحة، وفي البيضاوي موز أوأم غيلان، قال البغوي روى خالد عن الحسن قال قرأ رجل عند علي(رض) عنه وطلح منضود قال وما شأن الطلح إنما هو وطلع منضود ثم قرأ «طلعها هضيم»[1] قلت إنها في المصحف بالحاء أفلا تحولها فقال إن القرآن لا يحاج اليوم ولا يحول ﴿مَّنضُودٍ﴾ يعني متراكم بثمره بعضها على بعض، أخرج ابن المبارك وهناد والبيهقي عن مسروق قال نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها وثمرها أمثال القلال كلها نزعت ثمرة عادت مكانها آخر والعنقود إثنا عشر ذراعاً، وذكر البغوي قول مسروق بلفظ أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها ثمر كله في القاموس نضيد متاعه إن جعل بعضه فوق بعض، وفي الصحاح النضيد السرير الذي ينضد عليه المتاع ومنه أستعير طلح نضيد ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ ممتد منبسطة كظل قبل طلوع الشمس من الصبح أو دائم لا ينسخه الشمس والعرب يقول للشيء الذي لا ينقطع ممدوداً، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها اقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾**»[2] وأخرجه أحمد وزاد في آخره «وإن ورقها ليخمر الجنة» وأخرج هناد بن سري في الزهد وزاد في آخره فبلغ ذلك كعباً فقال والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلاً راكباً على حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغه حتى يسقط هرباً إن الله غرسها بيده وإن أفنانها من وراء سدر الجنة وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة، قال البغوي وروى عكرمة عن ابن عباس في وقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ وقال شجرة في الجنة على ساق العرش يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عز وجل عليها ريحاً من الجنة فتتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ أي منصب يجري دائماً من غير أخدود كأنه لما شبه حال الساقين المقربين في التنعيم بأعلى

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام (٢٨٢٦).

ما يتصور لأهل المدن تشبه حال أصحاب اليمين أكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوت بين الحالين ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ الأجناس ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ قال البغوي قال ابن عباس لا تنقطع إذا جنيت ولا تمنع من أحد أراد أخذها ويؤيده حديث ثوبان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أعيد مكانها مثلها**» رواه البزار والطبراني، وذكر البغوي الحديث بلفظه «ما قطعت من ثمار الجنة إلا أبدل الله مكانها ضعفين» وقال بعضهم لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان كما ينقطع أكثر ثمار الدنيا إذا جاء الشتاء و يتوصل إليها إلا بثمن ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال البغوي قال علي(رض) وفرش مرفوعة على أسرة وقال جماعة المفسرين مرفوعة وعالية، أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه والبيهقي وابن أبي الدنيا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية قال: «**ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض**» ولفظ الترمذي «ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمس مائة عام»[١] وذكر البغوي نحوه عن أبي هريرة وقال الترمذي قال بعض أهل العلم في تفسيره معناه أن تفاوت الفراشين في الدرجات كما بين السماء والأرض، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة في هذه الآية قال لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفاً، وأخرج الطبراني عنه مرفوعاً «لو طرح منها فراش من أعلاها لهوىٰ إلى قرارها مائة خريف» وقيل أراد بالفرش النساء والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة مرفوعة رفعن بالجمال والفضل على نساء الدنيا أو ارتفاعهن على الأرائك، يدل عليه قوله تعالى في عقبه ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ الضمير عائد إلى الفرش إن المراد به النساء وإلا فإلى غير مذكور معلوم للسامع ﴿إِنشَآءً﴾ يعني خلقناهن جديداً إما ابتداء من غير ولادة وإما إعادة، قال البغوي قال ابن عباس يعني الآدميات العجوز الشمط يقول خلقناهن بعد الهرم خلقاً آخر ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ عذارى كلما آتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي وأخرج الترمذي والبيهقي عن أنس عن النبيّ ﷺ «إنا أنشأناهن إنشاء» قال عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً»[٢] وأخرج ابن جرير والبيهقي عن مسلمة بن يزيد سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**إنا انشأناهن إنشاء قال الشيب والأبكار التي كن في الدنيا**» أخرج البيهقي وابن المنذر عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة عجوز فبكت عجوز فقال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٦).

رسول الله ﷺ أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز إنها يومئذ شابة إن شاء الله تعالى إن الله تعالى يقول إنا أنشاناهن إنشاء» وأخرج البيهقي عن عائشة قالت دخل النبيّ ﷺ علي وعندي عجوز فقال من هذه قلت إحدى خالاتي، قال أما أنه لا تدخل الجنة عجوز فدخل العجوز من ذلك ما شاء الله فقال رسول الله ﷺ قال الله تعالى إنا أنشأنا خلقاً آخر، وروى الطبراني في الأسط من وجه آخر عنها أن النبيّ ﷺ أتته عجوز فقالت يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: «إن الجنة لا يدخلها عجوز» فذهب فصلى ثم رجع فقالت عائشة لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة فقال إن ذلك كذلك إن شاء الله إذا أراد إدخالهن حولهن أبكاراً، وقال مقاتل وغيره هن الحور العين أنشأهن الله لم يقع عليهن ولادة فجعلناهن أبكاراً عذارى وليس وجع هناك ﴿عُرُبًا﴾ قرأ حمزة وإسماعيل عن نافع وأبو بكر بإسكان الراء والباقون بضمها وهي جمع عروب أي عواشق لأزواجهن متحببات إليهم، أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ عرباً قال كلامهن عربي ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن في حديث أم سلمة عند البيهقي قالت قلت يا رسول الله عرباً قال أترابا قال: هن اللواتي قبضهن الله عجائز في الدنيا رمصاء شمطاء خلقهن الله بعد الكبر فجعلن عذارى، قال عرباً معشقاً محببات أتراباً على ميلاد واحد فإن كلهن بنات ثلاث وثلاثين وكذا أزواجهن، وعن أبي هريرة(رض) عن النبيّ ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً جعداً أبناء ثلاث وثلاثين وهم على خلق آدم طوله ستون ذراعاً في عرضه سبعة أذرع**» رواه أحمد والطبراني في الأوسط وابن أبي الدنيا والبغوي بسند حسن وعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ «من مات من أهل الدنيا من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون أبداً وكذلك أهل النار»[1] رواه الترمذي وأبو يعلى وابن أبي الدنيا، وعن معاذ بن جبل، أن النبيّ ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين بني ثلاث وثلاثين سنة» وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «يدخل أهل الجنة الجنة على طول أدم ستون ذراعاً بذراع الملك وعلى حسن يوسف وعلى ميلاد عيسى وثلاث وثلاثين سنة وعلى لسان محمد جرداً مرداً مكحلين» رواه الطبراني في الأوسط بسند جيد، وعن المقداد بن الأسود مرفوعاً «محشر الناس ما بين السقط وبين الشيخ الفاني أبناء ثلاث وثلاثين وخلق آدم وحسن يوسف وقلب أيوب وذي أفانين» رواه الطبراني** ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ متعلق بأنشانا أو جعلنا أو صفة لأبكار أو خبر لمحذوف أعني هن ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة (٢٥٦٢)، وقال عنه: غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد.

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ خبر محذوف أي هم كثيرون من الأولين من هذه الأمة وكثيرون من الآخرين منهم كذا قال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك، روى البغوي بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ **«هما جميعاً من أمتي»** وأخرج مسدد في مسنده والطبراني وابن مردويه من حديث أبي بكرة عن النبيّ ﷺ في قوله «ثلة من الأولين وثلة من الآخرين» قال هما جميعاً من أمتي، لكن قال الدارقطني في علله هذا حديث أبي بكرة لم يثبت فمقتضى هذه الآية على هذا التأويل أن أمة محمد ﷺ لن يخلو عن أصحاب اليمين كما روى الشيخان في الصحيحين عن معاوية قال سمعت النبيّ ﷺ يقول «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»(١) متفق عليه، فإن قيل يعارضه ما روى البغوي بسنده عروة بن رويم مرسلاً قال لما أنزل الله على رسوله (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) بكى عمر (رض) فقال يا رسول الله آمنا بالله وبرسوله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله عز وجل: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ فدعا رسول الله ﷺ فقال قد أنزل الله فيما قلت فقال عمر رضينا عن ربنا وتصديق نبيّنا فقال رسول الله ﷺ: **«من آدم إلينا ثلة ومني إلى القيامة ثلة ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل من قال لا إله إلا الله»** وكذا أخرج ابن أبي حاتم عنه مرسلاً وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله، وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن أبي هريرة قال لما نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ شق ذلك على المؤمنين فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ فإن مقتضى هذا الحديث أن الثلة من الأولين من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وقلت لا وجه للحمل على التعارض بين الحديثين فإن قوله عليه الصلاة والسلام «من آدم إلينا ثلة ومني إلى القيامة ثلة» لا ينافي قوله عليه الصلاة والسلام «هما جميعاً من أمتي» فإنه يمكن أن يقال: إن الثلة التي من محمد ﷺ إلى القيامة ينقسم إلى الثلّتين ثلة من أولاهم وثلة من أخراهم، والمراد بالآية كلا الثلتين من أمة محمد ﷺ. فإن قيل لو كان ثلة من الأولين في أمة محمد ﷺ فما وجه لبكاء عمر بعد نزول قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ ولما شق ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب (٣٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٩٢٠).

من المسلمين قلت وجه بكائه(رض) الترحم على آخر هذه الأمة وزعم أن الناجي من أخرى هذه الأمة قليل ولذلك سلي بنزول قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني إلى المقربين في هذه الأمة وإن كانوا قليلاً لكن أصحاب اليمين منهم كثير وكلاً وعد الله الحسنى وليس قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ ناسخاً لقوله تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ كما يدل عليه ظاهر الحديث، فإن الأخبار لا يحتمل النسخ ولأن النسخ لا بد له من إتحاد المحل والآية الأولى في المقربين من أصناف الثلاثة والثانية في أصحاب اليمين فكيف يقال بالنسخ ويمكن أن يقال ثلة من الأولين يشتمل أصحاب لجميع الأنبياء وأصحاب محمد ﷺ ومن لحقهم من التابعين فإنهم السابقون إلى الإسلام الأولون فيه ممن بعدهم الذين يعتقون آثارهم في اتباع الأنبياء يؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[1] والآخريون هم المتأخر وهذه الأمة عند قرب الساعة فالمقربون منهم قليل، وأما أصحاب اليمين فكثير منهم وكذا من غيرهم كما ذكرنا قول رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» وقوله عليه السلام «ثمانون صفاً من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم» روى البخاري عن ابن عباس قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال عرضت عليّ الأمم فجعل يمر النبي معه الرجل والنبيّ معه رجلان والنبيّ معه الرهط والنبي ليس معه أحد ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عليه السلام هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فتقدم عكاشة ابن محصن فقال أمنهم أنا يا رسول الله قال نعم فقام آخر فقال أمنهم أنا؟ قال سبقك بها عكاشة»[2] قال البغوي وروي عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال عرضت عليّ الأنبياء الليلة بأتباعها حتى أتى عليّ موسى في كبكة بني إسرائيل رأيتهم أعجبوني فقلت أي من هؤلاء قيل: هذا أخوك موسى ومن معه من بني إسرائيل، قلت ربي فأين أمتي؟ قيل إنها عن يمينك فإذا ظراب مكة قد سدت بوجوه الرجال فقيل هؤلاء أمتك أرضيت، فقال رضيت ربي، فقيل انظر عن يسارك فإذا الأفق قد رصد بوجوه الرجال فقيل هؤلاء أمتك أرضيت فقلت ربي رضيت رضيت فقيل إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب عليهم، فقال النبيّ ﷺ «إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا وإن عجزتم وقصرتم فتكونوا من أهل الظراب فإن أعجزتم فكونوا من أهل

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤١).

الأفق فإني قد رأيت ثمة أناساً يتهاوشون كثيراً».

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِي سَمُومٖ﴾ نحو ما مر في التركيب والسموم الريح حارة تنفذ المسام ﴿وَحَمِيمٖ﴾ متناه في الحرارة ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾﴾ أي دخان شديد السواد يفعول من الحمة تقول العرب أسود يحموم إذا كان شديد السواد، قال الضحاك النار سوداء وأهله سود وكل شيء فيها أسود، وقال ابن كيسان اليحموم اسم من أسماء النار ﴿لَّا بَارِدٖ﴾ دكساير الظل ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي لا نافع بوجه ما أو كريم المنظر دفع بذلك ما أدلهم الظل من الاستراح ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُتۡرَفِينَ﴾ أي متنعمين منهمكين في الشهوات لا يتعبون أنفسهم في الطاعات ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ أي الذنب العظيم يعني الشرك وقال الشعبي الحنث العظيم اليمين الغموس ومعنى هذا أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب أئذا مستفهماً إنا بتركه والباقون بالإستفهام فيها وهم على أصولهم في التخفيف والتليين، وقوله إنا لمبعوثون خبراً لإذا أو كررت الهمزة على قراءة الجمهور للدلالة على إنكار البعث مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقت كما ادخلت على العاطف في قوله ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ للدلالة على أن ذلك أشد إنكاراً في حقهم لتقادم زمانهم معطوف على محل اسم أن بعد معنى الخبر أو على المستكن في مبعوثون والفصل بالهمزة حسن العطف على المستكن وقرأ نافع وابن عمرو أو بالسكون والعامل في الظرف ما دل عليه مبعوثون لا هؤلاء للفصل بأن والهمزة تقديره أنبعث إذا متنا ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي ما وقت به الدنيا من يوم معلوم، والإضافة بمعنى من كخاتم فضة والميقات ما وقت به الشيء إلى حد ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد

دخول مكة إلا محرماً كلمة إلى بمعنى اللام يعني مجموعون لميقات يوم القيامة المعلوم المتيقن مجيئه ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا﴾ أي يا أيها ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ من الأولى للإبتداء والثانية للبيان، قال ابن عباس «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف من يكون طعامه»[1] رواه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه والحاكم، وقال عمر والخولاني بلغنا أن ابن آدم لا ينهش من الزقوم نهشة إلا نهشت منه مثلها رواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو نعيم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجر نظراً إلى معناه فإن معناه الشجرة ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ من شدة الجوع ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ لغلبة العطش ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الشجر نظر إلى لفظه أو على الزقوم ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ﴾ قرأ نافع وعاصم وحمزة بضم الشين والباقون بفتحها وهما لغتان، وقال البغوي الفتح على المصدر والضم على أنه اسم بمعنى المصدر كالضعف والضعف ﴿ٱلْهِيمِ﴾ يعني الإبل العطاش كذا روى ابن أبي حاتم من طريق أبي طلحة عن ابن عباس هيمان للذكر ويهمع للأنثى كعطشان وعطشى وقيل الإبل التي بها الهيام وهو داء يصيب الإبل لا تروى معه ولا يزال يشرب حتى يهلك كذا أخرج البيهقي عن مجاهد، وذكر البغوي عن عكرمة وقتادة وقال الضحاك وابن عيينه الهيم الأرض السهلة ذات الرمل، قال البيضاوي هو جمع هيام بالفتح وهو الرمل الذي لا يتماسك جمع على هيم كسحب وسحاب ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض وكل من المعطوف والمعطوف عليه أخص من الآخر من وجه فلا اتحاد وهذا ﴿نُزُلُهُمْ﴾ فيه تهكم كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] لأن النزل ما يعد للنازل تكرمة له يعني هذا أول ما يصيبهم ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء فما ظنك بما يصيبهم بعدما استقروا في الجحيم.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٢٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ
نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾
ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ
بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بعدما لم تكونوا شيئاً وأنتم تعرفون بذلك ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي هلا تصدقون على البعث بعد الموت فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة.

أو المعنى هلا تصدقون بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقذفونه في الأرحام من النطف ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تجعلونه بشراً سوياً ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ الفاء العاطفة للعطف على محذوف والرؤية يعني العلم ومفعوله الأول الموصول مع الصلة، وهاهنا معطوف عليه ومحذوف مقدر وجملة أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون مفعول الثاني لكنه معلق بالإستفهام وتقديم المسند إليه الخبر الفعلي في انتم تخلقونه لإفادة التخصيص ولأن محل الإنكار والتقرير بالإستفهام هو المسند إليه دون النفس الخلق وتعريف الخبر في نحن الخالقون أيضاً الإفادة التخصيص تقدير الكلام أنظرتم فعلمتم ما تمنون في الأرحام فيصبر بشراً بكم مختص خلقه أم بنا، والإستفهام لإنكار نسبة الخلق إلى المخاطبين والإقرار لله سبحانه يعني تعلمون أن الخلق المختص بنا لا بكم ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وهما لغتان ﴿بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ يعني قسمنا الموت عليكم كما قسمنا أرزاقكم على حسب إرادتنا فاختلف أعماركم من قصير وطويل ومتوسط أو المعنى وقتنا موت كل بوقت معين لا يستأخرون منه ولا يستقدمون، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التخصيص يعني تقدير الموت وتويقتها مختص بنا كما أن خلق كل مختص بنا فهذه الجملة مقررة لمضمون ما سبق ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حال من فاعل قدرنا يعني حال كوننا غير مسبوقين أي لم يسبقنا أحد في تقديره أو حال كوننا غير مغلوبين من سبقته على كذا إذا غلبته عليه وأعجزته أو جملة معترضة والمعنى لا يسبقنا ولا معجزنا أحد فيهرب من الموت أو بغير دفنه ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ متعلق بحذوف حال من فاعل قدرنا تقديره قدرنا بينكم الموت قادرين على أن نبدل منكم أمثالكم مكانكم أو متعلق بقدرنا علة له وعلى بمعنى اللام يعني قدرنا الموت لأن نبدل منكم أمثالكم، وجاز أن يكون متعلقا بمسبوقين والمعنى ما نحن بمسبوقين غير قادرين على أن نبدل أمثالكم فنخلق بدلكم وجاز أن يراد أن نبدل صفاتكم

على أن أمثالكم جمع مثل بمعنى الصفة كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٢) ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ عطف على نبدل يعني قادرين على أن ننشأكم بعد الموت ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي في أحوال وصفات لا تعلمونها من الثواب والعذاب ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عطف على قوله افرءيتم ما تمنون ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني خلقه الإنسان من المني وجوده بعدما لم يكن شيئاً مذكورا ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء للسببية يعني إذا علمتم النشأة الأولى فهلا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أن منشىء النشأة الأولى قادر على أن ينشأ نشأة الأخرى فإنها أقل صنعاً لحصول المراد ولتخصيص الأجزاء وسبق المثال وفيه دليل على حجة القياس ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ تبذرون حبة ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ جعله حطاماً ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الزرع ﴿حُطَٰمًا﴾ قال عطاء تبنا لا قمح فيه وقيل هشيما لا ينتفع به في مطعم وغذاء ﴿فَظَلْتُمْ﴾أصله ظللتم حذف أحد اللامين تخفيفاً ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ أي تعجبون مما ينزل بكم في زرعكم، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل، وقيل تندمون على اجتهادكم ونفقاتكم وهو قول يمان، وقال الحسن تندمون على ما سلف منكم من المعصية التي أوجبت تلك العقوبة، وقال عكرمة تلاومون، وقال ابن كيسان تحزنون، وقال الكسائي هو التلهف على ما فات وهو من الأضداد، وقال العرب تفكهت أي فرحت وتفكهت أي حزنت، قلت: هو مستعار من أكل الفاكهة والتجنب عن الفاكهة، قال في القاموس تفكه تندم وبه تمنع وأكل الفاكهة وتجنب عن الفاكهة ضد ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم أئنا بهمزتين على الإستفهام للتقرير والباقون بهمزة واحدة على الخبر والجملة بتقدير القول حال من فاعل تفكهون تقديره فظلتم تفكهون قايلون إنا لمغرمون أي ملزمون غرامة ما أنفقنا والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض نكراً قال الضحاك وابن كيسان، وقال البغوي قال ابن عباس وقتادة لمعذبون والغرام العذاب ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قوم ﴿مَحْرُومُونَ﴾ أي حرمنا رزقنا إضراب بذكر الأهم فإن غرامة المال أسهل من حرمان الرزق المفضى إلى الهلاك ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ﴾ العذب ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ من السحاب واحدة مزنة، قيل المزن السحاب الأبيض ماءه أعذب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ لقدرتنا ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ جعلناه أجاجاً ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً مراً كذا في القاموس قيل هو مشتق من الأجيج وهو تلهب النار فإن الماء الأجاج يحرق الفم وحذف اللام الفاصل بين جواب ما يتمحض للشروط وهو أن وبين ما يتضمن معناه وهو لو فإنها ليست للشرط المحض بل سرى فيها معنى الشرط إتفاقاً من

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

حيث إفادتها في مضموني جملتها أن الثاني امتنع لامتناع الأول لعلم السامع بمكانه أو للإكتفاء لسبق ذكرها في قوله تعالى لجعلناه حطاماً ولم يحذف فيها سبق اختصاصاً لما يصدق لذاته ويكون أهم وفقده أصعب لمزيد التأكيد ﴿فَلَوْلَا﴾ هلا ﴿تَشْكُرُونَ﴾ أمثال هذه النعم الضرورية من إيجاد الإنسان وإبقائه ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي توقدون من واراى النار وريا وأوديته اتقدت يعني تخرجونها من الزناد والعرب يقدح العودين تحك أحدهما على الأخرى، يسمون الأعلى زند والأسفل زندة شبهوها بالفحل والطروقة ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد وهي المرخ والعفاد يسحق المرخ على العفاد وهما خضراوان ينقطر منهما الماء فينقدح النار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ الخالقون لها إبتداء ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا﴾ أي نار الزناد ﴿تَذْكِرَةً﴾ في أمر البعث فإن من قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفية كان أقدر على إعادة الحياة والرطوبة الغريزية فيما كان حياً رطباً من العظام فييس وبلى أو تذكرة للطرق في الظلام أو تذكرة لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش وعممنا إليها الحاجة لتكونحاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون بها نار جهنم فإنها أنموذج لها، عن أبي هريرة إن رسول الله ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزء من نار جهنم قيل يا رسول الله إن كانت لمكافئة قال فإنها فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها**»(١) متفق عليه ﴿وَمَتَـٰعًا﴾ ومنفعة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ قيل يعني للمسافرين النازلين بالقوا وهي الأرض القفر الخالية البعيدة من العمران وإنما خص ذكرهم بالإنتفاع لأن انتفاعهم بها أكثر من انتفاع المقيم فأنهم يوقدونها ليلاً ليهرب منهم السباع ويهتدي بها الضال ويستدفئون لها في البرد غير ذلك من المنافع وهذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد وعكرمة المراد بالمقوين المستمتعون بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون في البرد ويطبخون بها وقال ابن زيد معناه للجائعين يعني للذين خلت بطونهم من الطعام من أقوت الدار إذا خلت من سكانها يقول العرب أقويت منذ كذا وكذا يعني ما أكلت شيئاً منذ كذا، وقيل المراد بالمقوين الأغنياء يقال أقوى الرجل إذا قويت دابته وكثر ماله وصار إلى حالة القوة ولا شك أن فيها متاعاً للأغنياء والفقراء جميعاً لا إغناء بأحد عنها ولعل وجه تخصيص الذكر بالأغنياء لكثرة الطبخ عندهم، ومن هاهنا قيل فلان كثير الرماد أي كثير الطبخ كثير الضيافة والله تعالى أعلم ﴿فَسَبِّحْ﴾ والفاء للسببية كما تذكرت بدائع صنايعه وإنعاماته فتنزهه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة نار حر نار جهنم (٢٨٤٣).

عما يقول المنكر لوحدانيته الكافرون لنعمه أو فسبحه شكراً على نعمائه أو تعجيباً من أمر الظالمين في كفران نعمائه ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ الباء زائدة ولفظ الاسم مقحم والمعنى سبح ربك جاز أن يكون الفاء للسببية والتقدير فسبح بذكر اسمه أو بذكره فإن إطلاق اسم الشيء ذكره والله أعلم (العظيم).

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ إذ الأمر ظاهر أوضح من أن يحتاج إلى قسم والفاء للسببية أو المعنى ذا قسم ولا مزيدة للتأكيد كما في لئلا يعلم والتقدير فلأنا أقسم فحذف المبتدأ وأشبع فتحة لام الابتداء ويدل عليه قراءة عيسى بن عمر فلأ قسم، وقيل قوله لا رد لما قال الكفار في القرآن أنه سحر أو شعر أو كهانة يعني ليس الأمر كما تقولون أقسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قرأ حمزة والكسائي بموقع بإسكان الواو من غير ألف على الإفراد والباقون بفتح الواو وألف بعدها على الجمع والمراد بمواقع النجوم ساقطها وتخصيص المغارب في الذكر لما في غروبها من زوال أثرها الذي هو أول على إمكانها وحدوثها ووجود مؤثر لا يزول تأثيره، وقال عطاء بن أبي رباح أراد منازلها ومجاريها وقال الحسن أراد إنكدارها وانتشارها يوم القيامة، وقال ابن عباس النجوم نجوم القرآن وموضعها أوقات نزولها فإنه كان ينزل على النبيّ ﷺ نجوماً متفرقاً ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ جملة معترضة بين القسم وجوابه ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أخرى معترضة بين الصفة والموصوف لكمال الإستفهام ولو للتمني ومفعول تعلمون محذوف يعني ليتكم تعلمون عظمته ﴿عَظِيمٌ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة ومن مقتضيات رحمته أنه لا يترك عباده سدى إنَّهُ يعني ما يتلوه محمد ﷺ ﴿لَقُرۡءَانٞ﴾ منزّل من الله تعالى غير منقول ﴿كَرِيمٞ﴾ لا عزيز

مكرم لأنه كلام الله «وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»[١] رواه الترمذي، والمعنى كثير الخير والنفع لاشتماله على أصول العلوم المهتمة في إصلاح المعاد والمعاش قال أهل المعاني الكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير أو المعنى حسن مرضي في جنسه ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ ظرف مستقر صفة لقرآن ﴿مَّكۡنُونٍ﴾ لا وهو اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قيل الضمير في لا يمسه راجع إلى الكتاب لقربه فالمعنى لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية الباعثة غالباً على المعاصي وهم الملائكة، وهذا القول غير مرضي فإن الإنسلاخ من الكدورات الجسمانية ليس من فضائل ولا يعد تطهراً وإلا يلزم فضل الملائكة على البشر وهو خلاف الإجماع بل الكدورات الجسمانية هي الحاملة للتجليات الذاتية الصرفة ولذلك اختص النبوة بالبشر فالقول الصحيح أن الضمير راجع إلى القرآن فالمعنى لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث فيكون بمعنى النهي، والمراد بالقرآن فالمصحف سمي قرآنا على قرب الجوار مجاناً كما في الحديث أنه ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو[٢] متفق عليه من حديث ابن عمر، والمراد به المصحف وقد انعقد الإجماع على أنه لا يجوز مس المصحف للجنب والحائض ولا النفسا ولا لمحدث خلافاً لداود محتجاً بحديث أبي سفيان أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتاباً إلى هرقل وكان فيه (يا أهل الكتاب تعالوا) الآية، ولا شك أن الكافر نجس، قلنا: كتب رسول الله ﷺ تلك العبارة من قبل نفسه إمتثالاً لأمر الله تعالى لا من حيث أنه كلام الله تعالى ومن ثم حذف لفظه قل من صدر الآية ولو كان كتب من حيث أنه كلام الله لما حذف لفظة قل بل لا يجوز له حذفها كما لا يجوز حذفها في الصلاة والتلاوة، ولنا حديث عمر وبن حزم أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً وكان فيه «لا يمس القرآن إلا طاهر» رواه الدارقطني والحاكم في المعرفة والبيهقي في الخلافيات وروي الطبراني من حديث حكيم بن حزام قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر» تفرد به سويد بن حاتم وهو ضعيف وحسن الحار في إسناده وفي الباب عن ابن عمر مرفوعاً رواه الدارقطني والطبراني وإسناده لا بأس به.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: السفر بالمصاحف إلى أرض العدو (٢٩٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار (١٨٦٩).

مسألة:

يجوز مس القرآن وحمله بغلاف متجافٍ عند أبي حنيفة، وقال مالك والشافعي لا يجوز مع الغلاف أيضاً لأنه قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ وقال الله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾[١] ومن التكريم أن لا يمسه غير الطاهر ولو كان عليه غلاف، قلنا التكريم أثبت حرمة المس والمس لا يطلق إلا إذا كان بلا حجاب وستر وإنما التكريم ما ثبت بالشرع والزائد عليه تكلف.

مسألة

يكره مسه بالكم أو الذيل لأنهما تابعان لليد لا يجوز مس درهم فيه سورة الإبصرة لأن المصحف ما كتب عليه القرآن.

مسألة:

ويثبت بهذه الآية بدلالة النص أعني بالطريق الأولى عدم جواز قراءة القرآن للجنب وعليه انعقد الإجماع فإن المصحف وهو القرطاس الذي كتب عليه نقوش وضع إلا على لسان المطهرين والحائض والنفساء كالخبث عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد لما ذكرنا وعن مالك روايتان إحداهما أنها تقرأ الآيات اليسيرة والتي نقلها الأكثرون من أصحابه أنها تقرأ ما شاءت وهو مذهب داوود هو محجوج بما ذكرنا وبحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: **«لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئاً من القرآن»**[٢] رواه الدارقطني والترمذي وابن ماجه وفي إسناده إسماعيل ابن عياش وهو ضعيف، وقيل إنه قوي وتابعه مغيرة بن عبد الرحمٰن وأبو معشر بن موسى بن عقبة قال ابن الجوزي مغيرة أيضاً ضعيف وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني أخطأ ابن الجوزي أن ضعف مغيرة ابن عبد الرحمن وهو ثقة لكن في طريق مغيرة عبد الملك بن مسلم ضعيف وأما طريق أبو معشر ففيه متهم وأبو معشر ضعيف وله شاهد من حديث جابر رواه الدارقطني مرفوعاً وفيه محمد بن الفضل متروك.

مسألة:

كان القياس عدم جواز قراءة القرآن للمحدث أيضاً لما ذكر لكن الإستحسان يقتضي

(١) سورة عبس، الآية: ١٣.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في الجنب والحائض أنهما لا يقرآن القرآن (١٣١).

جواز القراءة للمحدث لأن الحدث لا يسري في الفم ولذلك لم يجب المضمضة في الوضوء بخلاف الجنابة، ويدل على جواز القراءة للمحدث حديث ابن عباس أنه بات ليلة عند ميمونة وهي خالته قال فاضطجعت في عرض الوسادة ورسول الله ﷺ وأهله في طولها فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله قليلاً أو بعده بقليل إستيقظ رسول الله ﷺ فجلس يمسح النوم عن وجهه ثم قرأ العشرة الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلق فتوضأ منها[1] الحديث متفق عليه، وحديث علي بن أبي طالب لم يكن يحجب النبيّ ﷺ شيء من القرآن سوى الجنابة رواه أحمد وابن خزيمة وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم وابن الجار وصححه الترمذي وابن السكن وعبد الحق والبغوي في شرح السنة.

مسألة:

قال البغوي وروى محمد بن الفضل عن الكلبي في تفسير الآية قال لا يقرأ إلا الموحدون، قلت الموحد في اصطلاح الصوفية من لا يكون له مقصود غير الله سبحانه، وقال المجدد ما هو مقصود لك فهو معبود لك فإن المرء يتحمل كل ذل وانكسار ومشقة لتحصيل مقصوده وذلك هو التعبد وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت**» به رواه النووي في أربعينه، وقال عكرمة كان ابن عباس(رض) ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن، وقال الفراء معنى الآية لا يجد طعم القرآن ونفعه إلا من آمن به ومن هاهنا قال المجدد الألف الثاني إن الصوفي لا يجد بركات القرآن إلا بعد فناء نفسه وتطهر من الرذائل وأما قبل الفناء فقراءة القرآن له داخل في عمل الأبرار وبعد فناء النفس وزوالها عينها وأثرها فمراتب القرب إلى الله سبحانه منوط بتلاوة القرآن وكذا في الآخرة بعد دخول الجنة يرتقي ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[2] وقال رسول الله ﷺ: «**يقال صاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها**»[3] رواه أحمد والترمذي وأبي داود، والنسائي من حديث عبد الله بن عمر ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ صفة رابعة للقرآن وهو مصدر بمعنى المفعول

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: التخفيف في الوضوء (١٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣).

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤).

كالخلق بمعنى المخلوق﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن أَنتُمْ يا أهل مكة ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ الإدهان في الأصل إستعمال الدهن المتليين ثم استعير للمدارة والملاينة في الظاهر قال الله تعالى ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(١) ثم استعمل في النفاق، وهو المراد هاهنا قال في الفارس دهن نافق والمداهنة إظهار خلاف ما في الضمير كالإدهان، وقال البغوي هو من الأدهان وهو الجري في الباطن على خلاف الظاهر ثم قيل للمكذب مدهن وإن صرح بالكفر والتكذيب وكذا قال ابن عباس يعني يكذبون، وقال مقاتل بن حبان كافرون ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي حظكم ونصيبكم من القرآن ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال الحسن في هذه الآية خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به وقال جماعة من المفسرين معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون كذا أخرج أحمد والترمذي عن علي (رض) عن النبيّ ﷺ، قال هيثم بن عدي إن من لغتة أزد شنوة لا رزق فلان بمعنى فاشكر، وقيل هذا المعنى بحذف المضاف وتقديره تجعلون شكر رزقكم والمراد بالرزق حينئذ المطر وذلك أنهم كانوا إذا أمطروا قالوا مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك من الله تعالى فقيل لهم تجعلون رزقكم أي شكر رزقكم أنكم تكذبون يعني أنكم تأتون بالكفر مكان الشكر، عن زيد بن خالد الجهني قال لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح الحديبية في أثر السماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال قال الله تعالى: «من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب» وأخرج مسلم عن ابن عباس قال مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، وقال بعضهم هذه رحمته وضعها الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٢) وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار في غزوة تبوك نزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئاً ثم ارتحل ونزل منزلاً آخر وليس معهم ماء فشكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ فصلى ركعتين ثم دعى فأرسل الله سبحانه فأمطرت عليهم حتى استقوا منها فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه متهم بالنفاق ويحك قد ترى ما دعى النبيّ ﷺ فأمطر الله علينا السماء فقال إنما مطرنا بنوء كذا وكذا فنزلت وذكر ابن إسحاق أن هذه القصة كانت بالحجر.

(١) سورة القلم، الآية: ٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفرمن قال مطرنا بالنوء (٧٣).

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا**» ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الضمير المرفوع عائدة إلى غير مذكور لفظاً بل حكماً فإنه معلوم يقيناً يعني إذا بلغت نفس أحدكم ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ عند الموت ﴿وَأَنتُمْ﴾ بها الحاضرون حول المحتضر ﴿حِينَئِذٍ﴾ متعلق بقوله ﴿تَنظُرُونَ﴾ حاله في خروج الروح وحالكم معه من العجز حيث لا يمكنكم الدفع عنه ولا تملكون شيئاً الجملة حال من فاعل بلغت والعائد المفعول المحذوف لتنظروا ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ قال البيضاوي معناه نحن أعلم ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى المحتضر ﴿مِنكُمْ﴾ عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى أسباب الإطلاع، وقال البغوي أقرب بالعلم والقدرة والرؤية، وقيل معناه ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم وهذه التأويلات مبنية على زعمهم بأن القرب منحصر في المكانيات والزمانيات وعدم دركهم قرباً غير متكيف لكنه ثابت بالشرع مدرك بفراست المؤمن لا يدركه العوام ولذلك استدرك بقوله ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ قربي وجملة ونحن أقرب حال ثان لفاعل بلغت ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا تأكيد لما سبق من حروف التحضيض ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير مجرمين غير محاسبين بالبعث يوم القيامة، يعني غير مبعوثين بزعمكم أو غير مملوكين غير متهورين من دانه إذا أذله واستبعده وأصل التركيب للذل والانقياد ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي النفس إلى مقرها حتى ينتغي عن محلها الموت كالبعث أو المعنى ترجونها لكونكم غير مقهورين وهذا عامل الظرف وما ورد به التخصيص بلولا وهي بما في حيزها ودليل على جواب الشرط ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعمتم شرط مستغن عن الجزاء بما سبق وهو في المعنى تأكيد للشرط السابق يعني إن كنتم صادقين في أنكم غير مدينين كما يدل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته، فلولا ترجعون النفس إلى مقرها إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ولما سبق ذكر المحتضر المتوفي وأنه مجزي مقهور لله سبحانه غير مقدور لأحد غيره توجه النفس إلى أنه ماذا يصنع به القاهر المالك القريب المسلط عليه فقال تفصيلاً لمجمل أحواله ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفي ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ﴾ أما حرف شرط تقديره مهما يكن من شيء فالمتوفى إن كان من المقربين يعني السابقين الذين هم أفضل الأصناف الثلاثة المذكورة في صدر السورة فله روح فروح مبتدأ خبره ظرف محذوف والجملة الظرفية جزاء للشرط والجملة الشرطية لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية جزاء لشرط حذف بعد أما وأقيم جزاء الجزاء مقامه، يعني إن كان من المقربين وحذف الفاء كراهة توالي حرفي الشرط والجزاء أو اكتفى بالفاء الجزائية التي كانت في الجزاء للشرط الثاني قرأ يعقوب

فروح بضم الراء والباقون بفتحها فمن قرأ بالضم، قال الحسن يخرج روحه في الريحان وقال قتادة الروح الرحمة لأنها كالسبب لحياة المرحوم وقيل المراد به الحياة الدائمة ومن قرأ بالفتح فمعناه الفرح والراحة، كذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقال الضحاك المغفرة والرحمة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ يعني رزق طيب كذا قال مجاهد وسعيد بن جبيرو مقاتل قال مقاتل هو بلسان حمير وقال آخرون الريحان الذي يشم، قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتي بعض من ريحان الجنة فبشم ثم يقبض روحه، وقال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ وأما إن كان المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وهو ثاني أصناف الثلاثة المذكورة ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أي عليك يا صاحب اليمين ﴿مِنْ﴾ إخوانك ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يسلمون عليك، وقال البغوي معناه سلامة لك يا محمد منهم فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله وإنك ترى فيهم ما تحب من السلامة فترضى، قال مقاتل هو أن الله يتجاوز عن سياتهم ويقبل حسناتهم وقال القراء وغيه فسلام لك يا محمد إنهم من أصحاب اليمين أو يقال لصاحب اليمين سلام لك إنك من أصحاب اليمين ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن والنبيّ ﷺ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن طريق الهدى يعني أصحاب الشمال والمشأمة الثالث من أصناف الثلاثة المذكورة وصفهم هاهنا بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً بما أوجب لهم أوعدهم به ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ فالذي يعذبهم حميم جهنم ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ إدخال نار عظيمة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور في شأن المحتضرين ﴿لَهُوَ حَقُّ﴾ الخبر ﴿ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي فصل بذكر ربك وأمره أو فنزهه بذكر اسمه عما لا يليق بعظمة شأنه أو نزه ربك وأمره أو فنزهه بذكر اسمه عما لا يليق بعظمة شأنه أو نزه ربك العظيم وسيجيء مثل هذين الآيتين آخر سورة الحاقة وقد سبق مني تفسيرها وذكرت هناك مسائل تسبيحات الركوع والسجود وما ورد فيهما من الأحاديث واختلاف الأئمة فلا نعيدها والله أعلم، عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم يصبه فاقة» أبداً رواه البغوي وأبو يعلى في مسنده والبيهقي بسند ضعيف في شعب الإيمان.**

سورة الحديد

آياتها تسعة وعشرون وأربع ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي
الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم
مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
(١٠) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ذكر هاهنا وفي الحشر والصف بلفظ الماضي وفي الجمعة والتغابن بلفظ المضارع إشعاراً بأن التسبيح لله تعالى من مخلوقاته مستغرق بجميع الأوقات لا يختلف باختلاف الحالات ومجيء المصدر مطلقاً في بني إسرائيل أبلغ في هذه الدلالة والتسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه التنزيه والتبعيد من السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد وقد يتعدى باللام مثل نصحته ونصحت له، وجاز أن يكون تعديته باللام للإشعار بأن إيقاع الفعل ثبت لأجل الله وخالصاً لوجهه الكريم ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعم ذوي العقول وغيرهم وقيل المراد منه ما يأتي منه التسبيح ويصح وقيل المراد بالتسبيح من الجمادات ونحوها التسبيح

الحالي يعني دلالتها على تنزه الصانع عن السوء والصحيح أن شيئاً من الموجودات لا يخلو عن نوع من الحياة والعلم كما حققناه في تفسير سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1] فالتسبيح منها مقالي أيضاً ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حال يشعر بما هو المبتدأ. للتسبيح ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه هو الموجد لها والمتصرف فيها والجملة إما حال من مفعول سبح أو مستأنفة ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ استئناف أو خبر لمحذوف أي هو أو حال من المجرور في له ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ تام القدرة ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء ليس قبله شيء فإنه هو الموجود للأشياء محدثها كلها ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فناء الأشياء ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها فإن وجوده تعالى أصل لا يحتمل الإنفكاك والزوال ووجود غيره مستعار في حكم الله وجود بالنظر إلى ذاته فهو الآخر بعد كل شيء ليس بعده شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾فوق كل شيء ليس فوقه في الظهور شيء فإن منشأه الظهور الوجود ولا ظهور للمعدوم ووجود كل شيء مستفاد منه وظل لوجوده فظهور كل شيء فرع لظهوره غير أنه تعالى لكمال ظهوره وشعشان وجوده اختفى عن الأبصار لقصورها كما اختفى الشمس عن عين الخفاش، واختفى الشمس أيضاً في نصف النهار لشدة الظهور وكمال النور عن أعين الناس فمن أدنى تميز يعترف بوجوده تعالى: حتى الصبيان والمجانين كما يعترف الناس لوجود الشمس في النهار ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ لكمال ظهوره وأيضاً باطن كنه ذاته دون كل شيء ليسدونه شيء حتى عجز عمن دركه بصائر أولي الأبصار من النبيين والصديقين الأخيار.

روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن أبي هريرة وأبو يعلى الموصلي عن عائشة أنه ﷺ كان يقول وهو مضطجع «**اللّهم رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته اللّهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا عن الفقر**»[3] قال البغوي وسئل عمر(رض) عن هذه الآية فقال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٠٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٤٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ (٣٨٣١).

معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر علمه بالظاهر كعلمه بالباطن ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هذا من المتشابهات والأسلم فيه تفويض تأويله إلى الله تعالى والإيمان بما أراد ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالندور والمعادن والأموات عند الحشر ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالأمطار والملائكة والأحكام والبركات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرة، والملائكة بأعمال العباد وأرواحهم ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ معية غير متكيفة ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فإن نسبة جميع الأمكنة إلى الله تعالى على السواء ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكره مع الإعادة كما ذكر مع الإبداء لأنه كالمقدمة لهما ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بأن ينقص من أحدهما ويزيد في الآخر ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بمكنوناتها، ذكر السيوطي في جمع الجوامع عن علي(رض) في الدعاء لقضاء الحوائج أن يقرأ الفواتح من سورة الحديد وثلاث آيات من آخر الحشر ثم يقول يا من كذلك وليس أحد غيره كذلك إقض حاجتي كذلك ﴿ءَامِنُوا۟﴾ أيها الناس ﴿بِٱللَّهِ﴾ الذي شأنه كما ذكرنا ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ فإن الإيمان بالله على ما ينبغي لا يمكن إلا بتوسط الرسل ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ في سبيل الله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي بعض الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها وهو مخلوق مملوك الله تعالى أو التي استخلفكم عمن قبلكم في تملكها والتصرف فيها وسيخلفكم فيها غيركم ذكرها الله سبحانه بهذا العنوان للحث على الإنفاق وتوهينه على النفس ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الفاء للتعليل وفيه مبالغات في الوعد، حيث أورد الجملة الاسمية وأعاد ذكر الإيمان والإنفاق وبني الحكم على الضمير ونكر الأجر ووصفه الكبير ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ جملة لا تؤمنون حال من ضمير المخاطبين والعامل فيه معنى الفعل في مالكم أي تصنعون غير مؤمنين به وجملة مالك معترضة للتوبيخ ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ حال من الضمير في لا تؤمنون يعني أي عذر لكم في ترك الإيمان والحال أن الرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات والبينات ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حال مرادف لما سبق أو من مفعول يدعوكم يعني والحال أنه قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان قبل ذلك حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ * شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَآ﴾[1] أو المعنى قد أخذ الله ميثاقكم على لسان من قبلكم من الأنبياء وفيما سبق من الكتب أن إذا ﴿ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١) وقيل أخذ ميثاقكم بإقامة الحجج والتمكين من المنظر، قرأ أبو عمرو أخذ بضم الهمزة وكسر الخاء على البناء للمفعول وميثاقكم بالرفع والإسناد إليه والباقون على البناء للفاعل ونصب ميثاقكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط حذف جزاءه تقديره عندي إن كنتم مؤمنين بالله على زعمكم فآمنوا بالله والرسول فإن الإيمان بالله على ما ينبغي لا يتصور إلا بتوسط الرسول وذلك أن الكفار أيضاً كانوا مقرين بالله تعالى ويزعمون الأصنام شفعاء إليه تعالى، في الصحيحين عن ابن عباس قال وفد عبد القيس لما أتوا النبيّ ﷺ أمرهم بأربع ونهاهم بأربع أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس ونهاهم عن أربع عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وقال احفظوهن وأخبروهن من وراءكم»(٢) قلت تقدير الكلام عندي أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع بعدما أمرهم بالإيمان وحده ثم فسر الإيمان بالشهادتين وفسر الأربع المأمورة بقوله وإقام الصلاة يعني أمرهم بإقام الصلاة الحديث، هذا الحديث يدل أن الإيمان بالله وحده لا يتصور إلا بعد الإيمان بالرسول، وقال البيضاوي تقدير الآية إن كنتم مؤمنين بموجب ما فإن هذا موجب له لا مزيد له، وقال البغوي إن كنتم مؤمنين يوماً تاماً فالأن أحرى الأوقات أن تؤمنوا القيام الحجج والإعلام ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن أو غير ذلك من المعجزات الباهرة ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ هو أو عبده ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي الكفر والجهل ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الإيمان أو العلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أرسل إليكم رسوله فأنزل عليه آياته ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ وأي فائدة لكم يعني لا فائدة لكم في عدم الإنفاق ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي فيما يكون قربة إليه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني والحال أن الله يرث كل شيء فيها ولا يبقى لأحد مال وإذا كان كذلك فإنفاقه بحيث أنه يستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب أولى وترك الإنفاق وجمع الأموال حتى ينتفع بها غيركم لا يفيدكم أصلاً عن عائشة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم (٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه (١٧).

أنهم ذبحوا شاة فقال النبيّ ﷺ ما بقي منها يعني بعد الإنفاق قالت ما بقي منها إلا كتفاً قال: «بقي كلها غير كتفها»[١] رواه الترمذي وصححه، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ **«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر»**[٢] رواه البخاري والنسائي ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ أي فتح مكة في قول أكثر المفسرين وقال الشعبي هو صلح الحديبية ﴿وَقَٰتَلَ﴾ قبله لا يستوي إفتعال بمعنى التفاعل وفاعله من أنفق مع ما عطف عليه المحذوف يعني لا يستوي من أنفق قبل الفتح وقاتل قبله ومن أنفق بعد التفح وقاتل بعده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا فيه ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ عند الله ثوابا وتقربا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ الفتح ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ حينئذ، قال البغوي روى محمد ابن فضل عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق (رض) فإنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله.

وروى البغوي بسند في تفسيره المعالم عن ابنعمر قال كنت عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر الصديق(رض) وعليه عباءة فدخلنا في صدرها بخلال فنزل عليه جبرئيل فقال مالي أرى أبا بكر عليه عباءة فدخلها في صدرها بخلال فقال أنفق ماله علي قبل الفتح قال فإن الله عز وجل يقول إقرأ عليه السلام وقل له أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله ﷺ يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول لك أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال أبو بكر أسخط على ربي وإني عن ربي راض، وكذا روى الواحدي في تفسيره. قلت: هذه الآية بمنطوقه تدل على أفضلية السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من آمن بعد الفتح وأنفق حينئذ وبهمومه وسياقه يدل على أفضلية الصديق على سائر الصحابة وأفضلية الصحابة على سائر الناس فإن مدار الفضل على السبقة في الإسلام والإنفاق والجهاد كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «من سن حسنة فأجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[٣]، وقد أجمع العلماء على أن أبا بكر أول من أسلم وأظهر إسلامه على يده أشراف قريش وأول من أنفق الأموال العظام

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما قدم من ماله فهو له (٦٤٤٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الوصايا، باب: الكراهية في تأخير الوصية (٣٦٠٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

في سبيل الله وأول من أحتمل الشدائد من الكفار ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبي بكر فإن له عندنا يد يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر**»(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وعن ابن الزبير عن أبيه قال أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً أنفقها كلها على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله رواه أبو عمر، وروى البخاري في حديث طويل ثم يدأ لأبي بكرفابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن، وروى البخاري أن عقبة بن معيط لما رأى النبيّ ﷺ يصلّي جعل رداءه في عنقه وخنقه فاطلع أبو بكر فدفع عنه وقال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات(٢)، وروى أبو عمر نحوه وزاد فأخذ الكفار أبا بكر فضربوه ضرباً شديداً فلما رجع أبو بكر إلى داره فكان كلما وضع يده على شعره سقط شعره مع يده ويقول تباركت يا ذا الجلال، وروى أبو عمرو في الاستيعاب إنه أعتق أبو بكر سبعة كانوا يعذبون في الله منهم بلال وعامر بن فهيرة، وقال أبو إسحاق إنه لما أسلم أبو بكر أظهر سلامه ودعى الناس إلى الله عز وجل وإلى رسوله وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه مجيباً سهلاً فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم بدعائه فيما بلغني عثمان بن عفان رئيس بني عبد الشمس وزبير بن العوام رئيس بني أسد وسعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رئيساً لبني زهرة وطلحة بن عبد الله رئيس بني تميم فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين إستجابوا له وأسلموا وصلوا وانكسر شوكة قبائل قريش بإسلامهم، قال أبو الحسن الأشعري تفضيل أبي بكر على غيره من الصحابة قطعي، قلت قد أجمع عليه السلف وما حكى عن ابن عبد البر أن السلف اختلفوا في تفضيل أبي بكر وعلي فهو شيء غريب انفرد به عن غيره ممن هو أجل منه علماً واطلاعاً منهم الشافعي، وقد ذكرنا أدلة تفضيل الشيخين نقلاً وعقلاً في السيف المسلول وله مواقف رفيعة في الإسلام كثباته على كمال تصديقه ليلة الإسراء وجوابه للكفار في ذلك وهجرته مع رسول الله ﷺ وترك عياله وأطفاله وملازمته له في الغار وسائر الطريق وكلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الإمر في تأخير دخول مكة وثباته مع كمال حزنه في وفاة رسول الله ﷺ، وخطبه الناس وتسكينهم ثم قيامه في قصة البيعة لمصالح المسلمين وإهتمامه في بعث جيش أسامة وقيامه في قتال أهل الردة وتجهيزه الجيوش إلى العراق والشام وآخر مناقبه أنه فوض الخلافة إلى عمر (رض) ﴿وَكُلًا﴾ قرأ ابن عامر بالرفع والباقون بالنصب أي كل واحد من الفريقين من الصحابة الذين أنفقوا قبل الفتح والذين

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المؤمن (غافر) (٤٨١٥).

أنفقوا بعده ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لا يحل الطعن في أحد منهم ولا بد حمل مشاجراتهم على محامل حسنة وأغراض صحيحة أو خطأ في الإجتهاد وأيضا يدل صدر الآية على أفضلية الصحابة على من بعدهم بسبقهم في الإسلام والإنفاق والجهاد، وروى الشيخان في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[١] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بالبواطن كعلمه بالظواهر فيجازي كلاً على حسبه ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي يقرض عباد الله بحذف المضاف أو المعنى ينفق ماله في سبيل الله رجاء أن يعوضه فصار كمن يقرضه فاستعير لفظ القرض لبدل على التزام الجزاء ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإخلاص وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي يعطي أجره ضعفاً فاقرأ عاصم فيضاعفه من المفاعلة منصوباً على جواب الإستفهام باعتبار المعنى فكأنه قال يقرض الله أحد فيضاعفه له، وقرأ ابن عامر ويعقوب فيضعفه من التفعيل منصوباً وقرأ ابن كثير فيضعفه من التفعيل مرفوعاً عطفاً على يقرض والباقون فيضاعفه من المفاعلة مرفوعاً ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ حال من الضمير المنصوب في فيضاعفه يعني والحال أن ذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يطلب وإن لم يضاعف فكيف وقد يضاعف أضعافاً.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ظرف لقوله، أو فيضاعفه أو متعلق بمقدر يعني أذكر ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي يضيء نور التوحيد والطاعات معهم على الصراط وأينما كانوا ويكون ذلك دليلهم إلى الجنة وجملة يسعى حال من المؤمنين والمؤمنات ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٧٣)، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٤٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

بعض المفسرين أراد جميع جوانبهم فعبر بالبعض عن الكل ويؤيد هذا التأويل الدعاء المأثورة عن النبيّ ﷺ فإنه كان يقول إذا خرج للصلاة «**اللّهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً وخلفي نوراً وإجعلني نوراً**»[١] رواه الشيخان وأبو داود والنسائي، وروى ابن ماجه عن ابن عباس وفي رواية عن مسلم وأبي داود والنسائي وزاد «في لساني نوراً وأجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً اللّهم أعطني نوراً» فإن هذا الدعاء يقتضي إحاطة النور من جميع جوانبه ولعل وجه تخصيص الجهتين بالذكر أن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، وقال الضحاك ومقاتل يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم كتبهم، وقيل يجعل الله لهم نوراً في الجهتين إشعاراً بأنهم بحسناتهم سعدوا بصحائفهم البيض أفلحوا، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من كان في إيهامه يتقد مرة ويطفىء أخرى، وقال قتادة ذكر لنا أن النبيّ ﷺ قال من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن وإلى الصنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا بين القدمين.

فصل

في موجبات النور والظلمة: أخرج أبو داود والترمذي عن بريدة وابن ماجه عن أنس كليهما عن النبيّ ﷺ قال: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[٢] وورد مثله في حديث سهل بن سعد وزيد بن الحارثة وابن عباس وابن عمر وحارثة بن وهب وأبي أمامة وأبي الدرداء وأبي سعيد وأبي موسى وأبي هريرة وعائشة(رض)، وروى أحمد والطبراني عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ «**من حافظ على الصلوات كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نوراً ولا**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه بالليل (٦٣١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٦٣ وأخرجه النسائي في كتاب: التطبيق، باب: الدعاء في السجود (١١١٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في صلاة الليل (١٣٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة (٢٢٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم (٥٦٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: المشي إلى الصلاة (٧٨١).

برهاناً ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان» وروى الطبراني عن أبي سعيد مرفوعاً «قرأ سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة» وروى ابن مردويه عن ابن عمر «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدميه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة» وروى أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً «من تلا آية كانت له نوراً يوم القيامة» وروى الديلمي عن أبي هريرة مرفوعاً «الصلاة عليّ نور على الصراط» وأخرج الطبراني في الأوسط «من ذهب بصره في الدنيا جعل الله له نوراً يوم القيامة إن كان صالحاً» وروى الطبراني عن عبادة بن صامت مرفوعاً في الحج «أما حلق رأسك فإنه ليس من شعرة يقع في الأرض إلا كانت له نوراً يوم القيامة» وروى البزار عن ابن مسعود مرفوعاً «إذا رميت الجمار كانت به نوراً يوم القيامة» وروى الطبراني بسند جيد عن أبي أمامة مرفوعاً «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة» روىٰ البزار بسند جيد عن أبي هريرة مرفوعاً «من رمى بسهم في سبيل الله كان له نوراً يوم القيامة» وروى البيهقي في شعب الإيمان بسند منقطع عن ابن عمر مرفوعاً «ذاكر لله في السوق له بكل شعرة نور يوم القيامة» وروى الطبراني عن أبي هريرة مرفوعاً «من فرج عن مسلم كربة جعل الله له يوم القيامة شعبتين من نور على الصراط يستضيء بهما عالم لا يحصيهم إلا رب العزة» وأخرج الشيخان عن ابن عمر ومسلم عن جابر والحاكم عن أبي هريرة وابن عمر والطبراني عن ابن زياد قالوا قال: رسول الله ﷺ **«إياكم والظلم فإنه هو الظلمات يوم القيامة»**[1] والله تعالى أعلم ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ يعني يقول لهم ذلك من يلقيهم من الملائكة كانت الجملة في الأصل فعلية تقديره يبشركم اليوم بجنات فعدلت إلى الاسمية للدلالة على الاستمرار بشرى مبتدأ وجنات خبره واليوم ظرف البشرى أي المبشر به جنات أو بشراكم دخول جنات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الجملة التي يفهم من الكلام السابق يعني يدخلونها خالدين فيها ولا يجوز أن يكون حالاً من جنات وإلا لزم جريانه على غير من هو له ﴿ذَٰلِكَ﴾ النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل من يوم ترى ﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرأ حمزة بهمزة القطع وفتحها في الحالين وكسر الظاء من الإفعال من النظرة بمعنى المهلة كما في قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] يعني مهلونا جعل تأنيهم في المشي حتى يلحقوا

(١) رواية الصحيحين «الظلم ظلمات يوم القيامة»، وعند مسلم «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

(٢) سورة ص، الآية: ٧٩.

بهم إمهالاً لهم مجازاً والباقون بحذف الألف في الوصل وضمها في الإبتداء بمعنى الإنتظار، في القاموس نظره وانتظره وتنظره تأنى عليه ونظرة كفرجة التأخير، قال الله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾(١) والله تعالى أعلم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي نستضيء بكم ونمشي في نوركم ولا يكون للمنافقين والكافرين نور يوم القيامة حيث لم يكن لهم نور الإيمان في الدنيا وهو المستفاد من القرآن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(٢) وبه قال الكلبي وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة الباهلي قال يبعث الله ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفة حتى يبعث الله بالنور أي المؤمن بقدر أعمالهم فيتبعه المنافقون ويقولون انظرونا نقتبس من نوركم، وأخرج عنه من وجه آخر في حديث طويل فيه فيغشى الناس ظلمة شديدة ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو مثل ضرب الله في كتابه ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(٣) فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمىٰ ببصر البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نوراً وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين قال يخدعون الله وهو خادعهم فيرجعون إلى المكان الذي قسم الله فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب الآية.

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان دليلاً لهم من الله إلى الجنة فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم فأظلم على المنافقين فقالوا حينئذ للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم فإنا كنا معكم في الدنيا قالوا ارجعوا وراءكم من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا نوراً هناك، وأخرج ابن المبارك من طريق مجاهد عن يزيد بن شجرة قال إنكم تكتبون عند الله بأسماءكم وسيماكم ونجواكم ومجالسكم فإذا كان يوم القيامة نودي يا فلان بن فلان لا نور لك، وقال البغوي إن الله يعطي المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم وهو قوله عز وجل ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾(٤) فبينما هم يمشون إذا بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأ نور المنافقين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٣) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾(١) مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين كذا أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عباس بلفظ ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفىء نوره وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق فهو يقول ربنا أتمم لنا نورنا والطبراني عنه نحوه، وأخرج مسلم وأحمد والدارقطني في الرواية من طريق ابن الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله فذكر حديثاً طويلاً وفيه «ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نوراً ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلا لبيب وحسك تأخذ ما شاء الله ثم يطفى نور المنافقين»، والمختار عندي أن المنافقين لا يكون لهم نوراً أصلاً كما يدل عليه القرآن وما تقدم من الأحاديث ولعل المراد بالمنافقين الذين يعطي لهم نوراً فيطفىء قبل بلوغهم إلى الجنة في الأحاديث المتأخرة أصحاب الهواء من المؤمنين كالروافض والخوارج والقرينة على هذا المراد قوله عليه السلام في حديث ابن عباس ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً والموحد لا يكون إلا بالشهادتين بإخلاص، كما مر في حديث وفد عبد القيس أتدري ما الإيمان بالله وحده؟ والله أعلم.

﴿قِيلَ﴾ قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون، وقال قتادة يقول لهم الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي إلى المكان الذي قسم فيه النور كما يدل عليه حديث أبي أمامة وابن عباس وذلك خديعة بهم أو المعنى ارجعوا ورائكم إلى الدنيا ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟﴾ هناك ﴿نُورًا﴾ بتحصيل الإيمان والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة وكسب الطاعات فإن هذا النور ظهور ذلك ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ يدخل فيه المؤمنون ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ أي باطن السور أو الباب ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ أي من جهة الظاهرة ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لأنه يلي النار، قال البغوي: روي عن عبد الله بن عمر قال إن السور الذي ذكر الله في القرآن بسور له باب هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم، وقال ابن شريح وكان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في البيت المقدس أنه الباب الذي قال الله تعالى عز وجل: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ الآية ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ يعني ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور حين حجب بينهم بالسور وبقوا في الظلمة ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا نصلي ونصوم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملوها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

بالمؤمنين الدوائر بمحمد ﷺ الموت وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في الدين وفيما أوعدكم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ الأباطيل وما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان أو الدنيا بأن الله كريم لا يعذبكم أو بأنه لا بعث ولا حساب، وقال قتادة ما زالوا على خدعتهم من الشيطان حتى قذفهم في النار ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالتاء لتأنيث المسند إليه والباقون بالياء لأن التأنيث غير حقيقي وقد وقع الفصل أيضاً ﴿مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ بدل وعوض ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ جهاراً ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ أي مكانكم الذي يقال فيه وهو أولىٰ بكم أو ناصركم على طريقة قولهم تحية بينهم ضرب وجيع أو متوليكم أي يتولاكم كما توليتم موجباتها في الدنيا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن رواد وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان، أن أصحاب النبيّ ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ من أنى الأمر يأني إذا جاء إناه وقته ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أي ترق وتلين وتخضع ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال البغوي قال عبد الله ابن مسعود وما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين، وقال ابن عباس إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثة عشر سنة من نزول القرآن، وأخرج ابن المبارك في الزهد عن سفيان عن

الأعمش قال لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من العيش بعدما كان بهم من الجهد، مكانهم وفتروا عن بعض ما كانوا فنزلت ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن القاسم قال ملّ أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا فنزل ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله ألم يأن للذين آمنوا الآية، وقال البغوي قال الكلبي ومقاتل نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك فنزل ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[1] فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فقالوا حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية، وعلى هذا فتأويل الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ في العلانية وباللسان تخشع سرائرهم وقلوبهم لذكر الله ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ قرأ نافع وحفص ويعقوب بتخفيف الزاء والباقون بالتشديد ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن، الموصول معطوف على ذكر الله عطف أحد الوصفين على الآخر ويجوز أن يراد بالذكر ذكر الله سوى القرآن ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾ أي الذين آمنوا منصوب بأن معطوف على تخشع وجاز أن يكون مجزوماً على أنه نهى معطوف على أمر مفهومه مما سبق فإن المقاد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ ليخشع قلوب الذين آمنوا ولا يكونوا أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿فَطَالَ﴾ معطوف على أوتوا ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي الزمان بينهم وبين أنبيائهم أو طال عليهم الزمان بطول أعمارهم في الكفر والمعاصي ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ معطوف على طال ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في كتابهم لفرط القساوة جملة اسمية معطوف على فعلية، وجاز أن يكون حالاً وجملة ألم يأن مستأنفة ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة أو لإحياء الأموات ترغيباً في الخشوع وزجراً عن القسوة ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي يكمل عقولكم ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي المؤمنين والمؤمنات والباقون بالتشديد أي المتصدقين أدغمت التاء في الصاد ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيب النفس والإخلاص عطف على معنى الفعل لأن المعنى الذين صدقوا أو تصدقوا وعطف القرض الحسن على التصدق للدلالة على أن المعتبر هو التصدق بالإخلاص، فإن قيل

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

عطف أقرضوا على الصلة في المصدقين وعطف المصدقات على الموصول ويلزم فيه العطف على الموصول قبل تمام الصلة وذلك غير جائز قلنا المصدقين والمصدقات اعتبر من حيث المعنى موصولاً واحد عطف على صلة أقرضوا والتقدير الناس تصدقوا وأقرضوا من الرجال والنساء وجاز أن يقدر للمصدقين والصدقات خبراً ثم يقدر موصولاً آخر معطوفاً عليه فيقال إن المصدقين والمصدقات يدخلون الجنة والذين أقرضوا الله الآية، وجاز أن يكون أقرضوا معطوفاً على خبر مقدر تقديره أن المصدقين والمصدقات أنفقوا أموالهم وأقرضوا الله قرضاً حسناً وعلى هذا يضاعف إما صفة لقرض أو مستأنف وجاز أن يكون التقدير أن المصدقين والمصدقات فازوا وقد أقرضوا وعلى هذا يكون وأقرضوا حالاً ولا يرد على هذه الوجوه أشكال والله تعالى أعلم. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعف لهم من التفعيل والباقون من المفاعلة ولم يجزم يضاعف لأنه خبر إن وهو مسند إلى لهم أو إلى ضمير المصدر ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ عطف على يضاعف أو حال من الضمير في لهم وقد مر مثله فيما سبق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي المبالغون في الصديق أو الصدق فإنهم صدقوا جميعها اخبار الله تعالى ورسوله ﷺ وهذه الآية تدل على جواز إطلاق الصديق على كل مؤمن ومن هاهنا قال مجاهد كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وشهيد، وكذا قال عمرو بن ميمون وللصديق إطلاق آخر أخص منه وهو من اكتسب كمالات النبوة بالوارثة والتبعية وهو المعنى من قوله تعالى ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ وللرسول أو على الأمم يوم القيامة عطف على الصديقين وقيل مبتدأ وخبره ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهو قول ابن عباس ومسروق وجماعة، فقيل هم الأنبياء لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[1] يروى ذلك عن ابن عباس وقول مقاتل ابن حبان وقال مقاتل بن سليمان هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي الأجر والنور الموعدان لهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي خالدين فيها دون غيرهم فإن الصحة تدل على الملازمة والتركيب يشعر بالإختصاص ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ مبتدأ المراد ما يرغب فيه الناس في الحياة الدنيا بما لا يتوصل به إلى المنافع الآخرة ﴿لَعِبٌ﴾ مع ما عطف عليه خبر يعني لا فائدة فيها فإنها كانت قليلة النفع نظراً إلى ما يفيد في الآخرة شريعة الزوال عد لعبا كأنه لا فائدة فيها أصلاً ﴿وَلَهْوٌ﴾ يمنع الناس عما يهم لهم من الأمور الأخروية ﴿وَزِينَةٌ﴾ يتزينون به كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب وغير

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

ذلك مما لا مزية بها عند الله تعالى: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد وجملة إنما الحياة الدني الخ قائم مقام مفعولي اعلموا ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ خبر آخر للمبتدأ. والكاف في محل الرفع ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ صفة الغيث تمثيل لأمور الدنيا في سرعة زوالها وقلة جدواها وإنما خص الإعجاب بالكفار لأن المؤمن إذا رأى شيئاً معجباً إنتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها وألان مطمح نظره إلى محاسن الأخروية فلا يمد عينه إلى زهرة الحياة الدنيا، وقيل المراد بالكفار والزراع ذكر في القاموس في معنى الكافر الزراع لأن معنى الكفر الستر والزراع يستر البذر في الأرض ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عطف على أعجب أي ثم يبس بعاهة ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ الحطام ما يكسر باليبس كذا في القاموس ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لأعداء الله لاشتغالهم عما يفيدهم في الآخرة بما هو لعب ولهو ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ لأوليائه لتجافيهم عن دار الغرور وتهيئهم لدار الخلود ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ لمن لم يستعلمها الطلب الآخرة وأما من استعملها لطلب الآخرة فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي سارعوا مسارعة السابقين في المضمار بالإيمان والخوف والرجاء والأعمال الصالحة إلى ﴿مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا﴾ أي بسطها ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وقال السدي كعرض سبع السماوات وسبع أرضين يعني لو وصل بعضاً ببعض وإذا كان العرض كذلك فطولها أكثر منه ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة وإن الإيمان وحده كاف في استحقاقها وأن الإيمان بالله لا يعتد به ما لم يؤمن برسوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ ويتفضل به على من يشاء من غير إيجاب فيه دليل على أن إدخال المؤمنين الجنة إنما هو بفضل الله تعالى ومبني على وعده غير واجب على الله تعالى كما قال به المعتزلة خذلهم الله أخرج أبو نعيم عن علي (رض) قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبداً الحساب يوم القيامة إن شاء أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديهم فإلي أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي**» في الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**أن لا ينجي أحداً منكم عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟** قال ولا أنا إلا أن يتغمدني برحمة منه وفضل»(١) وعن عائشة عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المرضى، باب: تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

النبيّ ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمته».

ولمسلم من حديث جابر نحوه وقد ورد هذا من حديث أبي سعيد أخرجه أحمد وأبي موسى وشريك بن طارق أخرجهما البزار وشريك بن طريف وأسامة بن شريك وأسد بن كدر أخرجها الطبراني واستشكل هذا مع نحو قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1] وأجيب بأن درجات الجنة متفاوتة تنال بتفاوت الأعمال وأصل دخولها والخلود فيها بفضل الله ورحمته ويؤيده ما أخرجه هناد في الزهد عن ابن مسعود قال تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقيمون المنازل بأعمالكم وأخرج أبو نعيم عن عون بن عبد الله مثله﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فإنه لا يبعد منه التفضيل بذلك وإن عظم قدره.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾ كجدب وعاهة وكائنة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ كمرض وآفة وموت الأحباب صفة لمصيبة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ في موضع الحال أي كائنة في حال من الأحوال الإحال كونها مكتوبة في اللوح مثبة في علم الله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ أي نخلقها والضمير للمصيبة أو للأرض أو للأنفس ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإثبات مع كثرتها ﴿عَلَى ٱللَّهِ

(١) سورة النحل، الآية: ٣٢.

﴿يَسِيرٌ﴾ هين ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أي كتب فيه لئلا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ منها فإن من علم أن الكل مقدر لا يجوز تغيره بأن عليه الأمر قرأ أبو عمرو بقصر الألف من الإتيان معادلاً، بقوله تعالى ما فاتكم والباقون بالمدأي بما أعطاكم الله وفي قراءة الجمهور إشعار بأن الفوات لا يستدعي علة فإنه عدم أصلي أما الوجود والبقاء فلا يتصور إلا بعلة والمراد به نفي الأسى المانع من التسليم لأمر الله والصبر والفرح الموجب للنظر والاختيال ولذلك عقبه بقوله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ الجملة منصوبة على الحال ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متكبر بنعم الدنيا ﴿فَخُورٍ﴾ بسطى الناس قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً قال جعفر الصادق يا ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يدك الموت ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ منصوب على أنه بدل من كل مختال أو مرفوع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي يعرض عن الإنفاق في سبيل الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنه عن إنفاق لا يضره الاعراض عن شكره لا ينفعه التقرب إليه لشكر نعمه، قرأ نافع وابن عامر بغير هو وكذلك في مصاحفهم والباقون بضمير الفصل ﴿الْحَمِيدُ﴾ محمود في ذاته ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ من الملائكة إلى الأنبياء ومنهم إلى الأمم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ لتبين الحق من الباطل والعمل الصالح من الفاسد والحلال من الحرام ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي العدل وقال مقاتل بن سليمان وهو ما يوزن به وإنزاله انزال الأمر بالاستعمال ليسوي به الحقوق، وقيل أن جبرئيل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال مرقومك يزنوا به ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وأن لا يظلم أحد إحداً علة لانزال الكتاب والميزان ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ روي عن ابن عمر يرفعه أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد والنار والماء والملح، وقال أهل المعاني معنى قوله تعالى أنزلنا الحديد أنشأنا وأحدثنا أي أخرج لهم الحديد من المعاد وعلمهم صنعته بوحيه، وقال قطرب هذا من النزل كما يقر إنزال الأمير على فلان نزلاً حسناً فمعنى الآية جعل ذلك نزلاً لهم ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾(١) ﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾ أي حرب ﴿شَدِيدٌ﴾ فإن آلات الحرب متخذة منه ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد آلتها ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ عطف على محذوف أي لتقاتلوا في سبيل الله أعدائه وليعلم الله ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ وجاز أن يكون اللام صلة لمحذوف أي وإنزله ليعلم الله وجاز أن يكون معطوفاً على مفهوم فيه

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

بأس شديد تقديره وأنزلنا الحديد لأن فيه بأساً شديداً وليعلم الله ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من المستكن في ينصره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد هلاكه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يحتاج إلى نصرة أحد وإنما أمر الناس بالجهاد تفضلاً على الناس ليبتغوا به مرضاة الله واستوجبوا اثواب امتثال الأمر واعزاز الدين أو الشهادة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ بيان وتفسير لما سبق من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ وخصا بالذكر بفضلهما وكثرة ذريتهما ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني فضلناهما بجعل النبوة والكتاب في ذريتهما فإن الكتب الأربعة التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، أنزلت في ذرية إبراهيم وهو من ذرية نوح عليهما السلام وذكر في المدارك عن ابن عباس أن المراد بالكتاب الخط بالقلم يقال كتبت كتاباً ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من الذرية أو من المرسل إليهم وقد دل عليهم الإرسال والفاء للسببية ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي آثار نوح وإبراهيم من أرسل إليهم ولا يجوز إرجاع الضمير إلى الذرية لأن الرسلة المقفى بهم كانوا من ذريتهما ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا﴾ الرسل أجمعين قبل محمد ﷺ ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وكان آخر أنبياء بني إسرائيل وكان بعده فترة الرسل حتى بعث الله خاتم النبيين محمد ﷺ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ مودة وليناً ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعطفاً على إخوانهم وعلى المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾(١) وكما قال في صفة أصحاب النبيّ ﷺ رحماء بينهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ وهي المبالغة في العبادة والرياضة والإنقطاع عن الناس وترك الشهوات حتى المباحة منها كالأكل بالنهار والنوم بالليل والنكاح وغيرها منسوبة إلى الرهبان فعلان من الرهب بمعنى خاف كخشيان من خشي معطوف على رأفة جعلنا في قلوبهم الميل إلى رهبانية ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ من قبل أنفسهم صفة لرهبانية وابتداعهم إياها لا ينافي جعل الله تعالى ميلها في قلوبهم وجاز أن يكون رهبانية منصوباً بالفعل يفسره قوله تعالى ابتدعوها والجملة معطوفة على جعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة وابتدعوا من قبل أنفسهم رهبانية ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا﴾ أي ما كتبنا شيئاً من خصائل الرهبانية ﴿عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فالاستثناء حيئنذ متصل وقيل الاستثناخ منقطع لعدم دخول ابتغاء مرضات الله في الرهبانية والمعنى ولكن كتبنا عليهم إبتغاء مرضات الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي الرهبانية النفي لسلب العمر، إلا لعموم السلب والمعنى فما رعوها جميعهم ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بل ضيعها بعضهم بترك ما التزموا على أنفسهم من المبالغة في الرياضة أو لفصل الرياء والسمعة والميل إلى الدنيا أو

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

بكفرهم وقولهم ثالث ثلاثة أو قولهم بالاتخاذ أو بتهودهم وكفرهم بعيسى ومحمد أو بكفرهم بحمد ﷺ بعدما استقاموا على دين عيسى قبل مبعثه فهؤلاء كلهم ما رعوها حق رعايتها ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماناً صحيحاً وحافظ حقوقها حتى آمنوا بمحمد ﷺ على ما وصى به عيسى عليه السلام ﴿مِنْهُمْ﴾ أي ممن إدعى باتباع عيسى عليه السلام ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي الأجر الموعود لهم على حسب أعمالهم فمن رعى حق رعاية الترهيب كما التزم أتاه أجر عمله ومن استقام على الدين الإيمان ولكن لم يراع الرهبانية حقها أتاه أجر عمله ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ خارجون عن اتباع عيسى وهم الذين قالوا بالتثليث وللاتخاذ والتهود أو دخلوا في دين الملوك وأثبتوا على دين عيسى لكنهم كفروا بمحمد ﷺ، روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال دخلت على رسول الله ﷺ يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم على ثنتين وسبعين فرقة نجا منهم ثلاثة وهلك سائرهن فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ فقال النبيّ ﷺ «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» وقال البغوي روي عن ابن مسعود قال كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال يا ابن أم عبد هل تدري من أين اتخذت بنو إسرائيل الرهبانية قلت الله ورسوله أعلم؟ قال: «ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسىٰ يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا قليل فقالوا إن ظهرنا هؤلاء أفتونا ولم يبق للدين أحد يدعوا إليه فقالوا تعالوا فتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الذي وعدنا عيسى يعنون محمداً ﷺ فتفرقوا في غير أن الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ الآية فآتينا الذين آمنوا منهم يعني ثبتوا عليها أجرهم ثم قال النبيّ ﷺ يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال«الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلال».

قال وروي عن أنس عن النبيّ ﷺ «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله»(١) وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت الملوك بعد عيسى عليه

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وفيه زيد العمي وثقه أحمد وضعفه أبو زرعة وبقية رجاله رجال الصحيح.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجهاد، باب: فضل الجهاد (٩٤٣١).

السلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا نحن نكفيكم أنفسا، فقالت طائفة ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم أعطونا شيئاً ترفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم، وقالت طائفة دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما تشرب الوحش فإن قدرتم علينا بأرض فاقتلونا.

وقالت طائفة ابنوا لنا دوراً في الفيافي نحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ففعلوا ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى وخلف قوم من بعدهم ممن قد غير الكتاب فجعل الرجل يقول نكون نحن في مكان فلان فنتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عز وجل: ورهبانية ابتدعوها أي ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعني الآخرين الذين جاؤا من بعدهم فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم يعني الذين إبتدعوها مرضات الله وكثير منهم فاسقون هم الذين جاؤا من بعدهم قال فلما بعث النبيّ ﷺ لم يبق منهم إلا قليل حط رجل من صومعته وجاء سياح من سياحته وصاحب الدير من ديره وآمنوا به.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه من لا يعرف عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا فشهدوا واقعة أحد فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا يا رسول الله إنا أهل ميسرة فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[1] فلما نزلت قالوا يامعشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم

(١) سورة القصص، الآية: ٥٤.

يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ هو ما عطف عليه مجزوم في جواب الأمر ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وكذا أخرج ابن أبي داوود حاتم عن مقاتل قال لما نزلت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ الآية فخرَ مؤمن أهل الكتاب على أصحاب النبيّ ﷺ فقالوا لنا أجران ولكم أجر فشق ذلك على الصحابة فأنزل الله تعالى هذه الآية فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب وعلى هذه الرواية الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأصحاب النبيّ ﷺ عامة وحينئذ قوله وآمنوا برسوله تأكيد لما سبق يعني آمنوا بجميع ما جاء به الرسول حق الإيمان، وقال البغوي وأكثر المفسرين هذا خطاب أهل الكتابين من اليهود والنصارى يقول الله تعالى: ياأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد آمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم كفلين من رحمته يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى والإنجيل وبمحمد والقرآن، وقال البيضاوي ولا يبعد أن يثابوا أي اليهود أيضاً على دين السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام، وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطأها بها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**»[(١)] ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ على الصراط كذا قال ابن عباس ومقاتل فهذه الآية نظيره قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾[(٢)] ويروى عن ابن عباس أن النور هو القرآن وقال مجاهد هو الهدى والبيان أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به إلى جناب القدس وجنات الفردوس ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وما سبق من ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال بلغنا أنه لما نزلت يؤتكم كفلين من رحمته حسد أهل الكتاب المسلمين عليها فأنزل الله تعالى ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ متعلق بأفعال واقعة في جواب الأمر على التنازع، قيل متعلق بحذوف تقديره أعلمكم بذلك لئلا يعلم ولا مزيدة المعنى ليعلم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إن هي المخففة والمعنى أن لا ينالون شيئاً من فضل الله إلا بمشيئة الله تعالى ولا يقدرون على نيله باختيارهم هذه الرواية عن قتادة يناسب ما روى الطبراني عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن مقاتل أن الخطاب

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٤).

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٢.

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ للمؤمنين عامة لا لأهل الكتاب، وذكر البغوي قول قتادة أنه حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم فأنزل الله تعالى: ﴿ يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ على خلاف ما زعموا أنهم أبناء الله وأحبائه وأهل رضوانه وأنهم لا يتمكنون من نيل شيء من الأجر والثواب لأنهم لم يؤمنوا برسله وهو مشروط بالإيمان به وعلى هذا يناسب ما ذكر المفسرون في الآية خطاب لأهل الكتابين، وقيل لا غير مزيدة والمعنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبيّ والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالون وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وكذا ذكر البغوي أن لا يقدرون على شيء من فضل الله على خلاف ما زعموا أنهم أبناء الله وأحبائه وأهل رضوانه وأنهم لا يتمكنون من نيل شيء من الأجر والثواب لأنهم لم يؤمنوا برسله وهو مشروط بالإيمان به وعلي عنه أنه قال قالت: اليهود يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا به فأنزل الله ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليعلم الذين لم يؤمنوا منهم أنه لا يقدرون على شيء من فضل الله فضلاً أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة ويؤيدة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبر بعد خبر لأن ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عملاً فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل من نصف النهار إلى العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضب اليهود والنصارى فقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء فقال الله تعالى: فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً قالوا لا قال الله تعالى فإنه فضلي أعطيه من شئت**»(١) وروى البخاري عن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون عملا يوماً إلى الليل على أجر معلوم فعلموا إلى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا فهو باطل، فقال لهم ألا تفعلوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً فأبوا وتركوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٩).

واستأجر آخرين بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت من الأجر فعملوا حتى إذا كان صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غاب الشمس فاستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»(١) والله تعالى أعلم.

قلت: حديث ابن عمر حكاية عن اليهود والنصارى الذين علموا على أمرهم الله تعالى قبل أن ينسخ دينهم فلهم أجرهم عى ما وعدهم الله تعالى وحديث أبي موسى حكاية عن اليهود الذين كفروا بعيسى والنصارى الذين كفروا بمحمد ﷺ وتركوا ما أمرهم الله تعالى وقد أخذ منهم الميثاق أنه إذا جاءكم رسول مصدقاً لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه فهؤلاء لا أجر لهم أصلاً وحبط ما كانوا يعملون، وفي الحديثين بشارة لأمة محمد ﷺ بأنهم يؤتون الأجور على أضعاف أجور الصالحين من الأمم الماضيين وبأنهم لا يزالوا على الحق إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى وعن معاوية قال سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(٢) متفق عليه اللّهم أجعلني من الأمة القائمة بأمرك المؤيدة لدينك وبحرمة نبيك وآله وأصحابه أجمعين صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين، روى أبو داود والترمذي والنسائي عن عرباض بن سارية أنه صلّى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ويقول: «إن فيهن آية خير من ألف آية»(٣) قلت لعل ذلك الآية التسبيح روى النسائي عن معاوية موقوفاً أنهن الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى، قلت ومنها على بني إسرائيل ولم يذكرها معاوية وقد روى الترمذي والنسائي والحاكم وحتى يقرأ بني إسرائيل والزمر خشيت أن النبيّ ﷺ كان يقرأ المسبحات السبع قبل أن يرقد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: الإجارة من العصر إلى الليل (٢٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب (٣٦٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٩٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢١) وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٤٩).

سورة المجادلة

آياتها اثنتان وعشرون وثلاث ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا
اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ
يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت تبارك الذي وسع سمعه كل شيء أني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى الرسول ﷺ وهي تقول يا رسول الله أكل مالي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللّهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرئيل هؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ وأدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام الدال في السين وكلمة قد لتقريب الماضي إلى الحال ويشعر بأن الرسول ﷺ أو المرأة يتوقع أن الله يسمع مجادلتها وشكواها ويفرج عنها كربها ﴿قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت والمجادلة الشدة في الخصومة والمراد هاهنا شدتها في مراجعة الكلام مثل شدة الخصمين ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ عطف على تجادلك ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للأقوال ﴿بَصِيرٌ﴾ بالأحوال، قال البغوي نزلت في خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن صامت وكانت حسنة الجسم وكان به لمم فأرادها فأبت فقال لها أنت عليّ كظهر أمي ثم ندم على ما قال كان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهلية فقال لها ما أظنك إلا قد حرمت عليّ فقالت والله ما ذاك طلاق فأتت رسول الله ﷺ وعائشة (رض) تغسل شق رأسه فقالت

يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل حتى أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبرت سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به فقال رسول الله ﷺ: **«حرمت عليه»** فقالت أشكو إلى الله فافتي ووحدتي قد طالت صحبته ونفضت له بطني فقال رسول الله ﷺ: **«ما أراك إلا حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء»** فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال ﷺ حرمت عليه امتنعت وليت ما أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغار إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى الله وتقول اللّهم إني أشكوا إليك اللّهم فأنزل على لسان نبيك وكان هذا أول ظهار في الإسلام، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبي الله، فقالت عائشة إقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه أخذه السبات فلما قضى بالوحي قال: أدعي زوجك فجاء فتلى عليه رسول الله ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآيات قالت عائشة تبارك الذي وسع سمعه الأصوات إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه إذ أنزل الله تعالى قد سمع الله الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ قرأ عاصم في الموضعين بضم الياء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء من المفاعلة وابن عامر وحمزة والكسائي بفتح الياء وتشديد الظلم وألف بعدها من الأفاعل أصله يتظاهرون أدغم التاء في الظاء والباقون من غير الألف من الأفعل أصله تفعل، والظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي كان ذلك طلاقاً في الجاهلية مثبتاً للحرمة المؤبدة فنقله الشرع إلى الحرمة المنتهية بالكفارة مشتق من الظهر وألحق به الفقهاء تشبيهاً بجزء منها لا يحل له النظر إليه كان يقول أنت علي كظهر أمي أو فخذها أو كفرجها وعند الشافعي لوشبهها بجزء لا يحرم نظره إليه كاليد والعين يكون الظهار أيضاً كذا لو شبهها بالجدة أو العمة أو الخالة أو البنت أو بامرأة أخرى محرمة عليه بالتأبيد، وشرط الشافعي أن يكون تحريمها غير طارئة فلاظهار عند الشافعي لو قال أنت علي كظهر مرضعتي وزوجة أبي وعند أبي حنيفة يكون ظهاراً لأنها في الحرمة المؤبدة كالأم وكذا لو شبه من امرأته جزءاً شائعاً أو جزأ يعبر به عن الكل كأن قال رأسك علي كظهر أمي أو فرجك أو وجهك أو رقبتك أو بدنك أو جسمك أو روحك أو نفسك أو نصفك أو ثلثك لأنها إما يعبر بها عن جميع البدن أو يثبت الحكم في الشائع فيتعدى إلىٰ الكل، وإن قال يدك أو رجلك علي كظهر أمي لا يكون ظهاراً خلافاً للشافعي في أظهر أقواله وإن قال أنت علي كأمي أو مثل أمي يرجع إلى نيته لينكشف حكمه فإن قال نويت الكرامة صدق

لأن التكريم بالتشبيه فاش في الكلام وإن قال أردت الظهار يكون ظهاراً لأنه تشبيه بجميعها، وفيه تشبيه بالعضو لكه ليس بصريح فيفتقر إلى النية، وإن قال أردت الطلاق كان طلاقاً بائناً لأنه تشبيه بالأمر في الحرمة فكأنه قال أنت علي حرام ونوى به الطلاق وإن لم ينو أصلاً فليس بشيء لاحتمال الكرامة وقال محمد ظهار والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو قال أنت علي كظهر أمي إلى شهر مثلاً لا يكون ظهاراً عند الشافعي في رواية بل لغواً وفي رواية عنه يكون ظهاراً وبه قال أبو حنيفة وأحمد ويلزم الكفارة على هذا القول بالعزم على الوطء في المدة وإن لم يعزم حتى مضت المدة فلا كفارة عليه غير أنه عند أحمد، ولو وطىء المظاهر المظاهر منها في المدة قبل الكفارة يأثم ويستقر عليه الكفارة وعند أبي حنيفة يا ثم ولا تستقر عليه الكفارة بل لو عزم الوطىء ثانياً في المدة كفّر ولو مضت المدة حلت عليه بلا كفارة ولو أبانها في المدة لا كفارة عليه وعند مالك وهو رواية عن الشافعي أنه ظهار مؤبد.

وفي الباب حديث سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر قال كنت امرءاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب وفي ليلتي شيئاً فأتتابع في ذلك حتى يدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع فبينما هي تخدمني إذ تكشف منها شيء فوثبت عليها فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري وقلت إنطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بأمري فقالوا لا والله لا تفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك فخرجت حتى أتيت النبيّ ﷺ فأخبرته خبري.

فقال لي أنت بذاك فقلت أنا بذاك فقلت أنا بذاك قال أنت بذاك قلت نعم فقال لي أنت بذاك فقلت أنا بذاك فأمضي فيّ حكم الله عز وجل فإني صابر له، قال أعتق رقبة قال فضربت صفحة رقبتي بيدي فقلت لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها، قال فصم شهرين، قلت يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال فتصدق، فقلت والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشياً ما لنا عشاء قال إذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ثم استعن سائرها عليك وعلى عيالك قال فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق

وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة قد أمرني بصدقتكم إليّ فادفعوها إلي[١].

رواه أحمد والحاكم وأصحاب السنن إلا النسائي، وأعله عبد الحق بالإنقطاع وابن سليمان لم يدرك سلمة حكى ذلك الترمذي عن البخاري ورواه الحاكم والبيهقي من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان وأبي سلمة بن عبد الرحمن بلفظ إن سلمة بن صخر جعل امرأته على نفسه كظهر أمي إن غشيها حتى يمضي رمضان فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال أعتق رقبة الحديث. إحتج ابن الجوزي بهذا الحديث على كون الظهار المؤقت مؤقتاً وعلى أن إذا وطىء المظاهر قبل التكفير أثم واستقرت الكفارة في ذمته وليس في الحديث حجة على كونها الظهار المؤقت لكنه حجة على أنه لا يلغو سواء كان في الشرع مؤقتاً أو مؤيداً، ثم احتجاج ابن الجوزي لا يخلو عن المصادرة على المطلوب فإنه لو قلنا أن الظهار المؤقت لا يكون مؤقتاً بل يكون مؤيداً فلا يكون الحديث حجة على إستقرار الكفارة بالوطىء قبل الكفارة لجواز أن النبيّ ﷺ أمره بالكفارة لتحصيل الحل بعد رمضان ولفظنا أن الكفارة لا تستقر في الذمة بالوطىء قبل التكفير بل التكفير إنما هي لرفع الحرمة الثابتة بالظهار والوطء قبل التكفير موجب للإثم فقط والحرمة باقية بعد ذلك ولا يحتاج إلى التكفير إلا من عزم على الوطء وأراد الإستباحة بعد ذلك وأما من طلقها بعد الوطىء فلا حاجة إلى الكفارة كما هو مذهب أبي حنيفة، فالحديث حجة على كون الظهار المؤقت مؤبداً لأنه ﷺ أمره بصيام شهرين أن صيام شهرين لا يتصور منه إلا بعد إنقضاء رمضان الذي ظاهر في مؤقت إلى إنسلاخه فلو كانحرمة الظهار منتهية بانتهاء رمضان لا يحتاج إلى الكفارة بعد ذلك فلا يصح قول أبي حنيفة في الظهار المؤقت أن يكون مؤقتاً والله تعالى أعلم.

مسألة:

الظهار المعلق بشرط يصح، إحتج الرافعي بحديث سلمة بن صخر المذكور على صحة تعليق الظهار وتعقبه ابن الرافعة بأن الذي في السنن لا حجة فيه على جواز التعليق وإنما هو ظهار مؤقت لا تعليق فيه لكن اللفظ المذكور عند البيهقي يشهد بما قال الرافعي.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المجادلة (٣٤٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (٢٢١٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: الظهار (٢٠٦٢).

مسألة :

لو علق الظهار بشرط ثم أبانها ثم وجد الشرط في العدة لا يصبر مظاهراً كذا قال ابن همام.

مسألة :

يصح الظهار بشرط النكاح عند أبي حنيفة فإذا قال لأجنبية إن تزوجتك فأنت علي كظهر أمي فتزوجها ولزم كفارة الظهار ولو قال أنت علي كظهر أمي في رجب ورمضان وكفر في رجب أجزاه عنها.

مسألة :

لو ظاهر فجن ثم أفاق فهو على حكم الظهار ولا يكون عائداً بالإفاقة ما لم يعزم على الوطىء خلافاً لأحد الوجهين للشافعي والله تعالى أعلم.

مسألة :

من قال لنسائه أنتن عليّ كظهر أمي كان مظاهراً منهن جميعاً إجماعاً وهل يتعدد الكفارة فعند أبي حنيفة والشافعي يتعدد بتعددهن وبه قال الحسن والطبراني والثوري وغيرهم وقال مالك وأحمد كفارة واحدة روي ذلك عن عمر رواه البيهقي من رواية سعيد بن المسيب عنه ومن رواية مجاهد عن ابن عباس عنه، وكذا روي عن علي وعروة وطاووس اعتبروه باليمين بالله في الإيلاء، قلنا الكفارة لرفع الحرمة الثابتة بالظهار وهي متعددة بتعددهن وكفارة اليمين لهتك حرمة إسم الله تعالى وهي واحدة.

مسألة :

لو كرر الظهار من امرأة واحدة في مجلس واحد أو مجالس متعددة يتكرر الكفارة عند أبي حنيفة وغيره لأن الظهار يثبت الحرمة والنكاح باق فيصح الظهار الثاني والثالث ولا منافاة في إجتماع أسباب الحرمة كالخمر يحرم على الصائم بعينها وللصوم واليمين إلا أنه إذا نوى بما بعد الأول تأكيداً فيصدق قضاء وديانة بخلاف الطلاق فإنه لو نوى تأكيداً لا يصدق قضاء لأن حكم الظهار بينه وبين الله تعالى وأوردت عليه أنه لما ثبت بالظهار الأول الحرمة فلا يثبت بالثاني وإلا يلزم تحصيل الحاصل والأسباب إذا كانت من جنس واحد لا يستدعي تعدد الحرمة فلا بد أن ترتفع حرمة الظهارات المتعددة بكفارة واحدة كما أن الحدث الثابت بأسباب متعددة ترفع بوضوء واحد والله تعالى أعلم ﴿مِنكُمْ﴾ حال

من فاعل تظاهرون وفيه تمجين لعادة العرب فإنه كان من أيمان أهل الجاهلية قبل التقييد بقوله منكم يفيد أنه لا يصح الظهار من الذمي، وبه قال أبو حنيفة ومالك خلافاً للشافعي وأحمد وهي رواية البرامكة عن أبي حنيفة لأن الكافر ليس منا وإلحاقه بالقياس متعذر لأن الظهار جناية حكمها تحريم يرتفع بالكفارة وشرك الكافر يمنع من رفع أثر الجناية عنه بالكفارة ولأنه ليس أهلاً للكفارة لأنها عبادة حتى اشترطت النية فلا يصح من الكافر فيبقى تحريماً مؤبداً وهو غير حكمه بالنص ولقائل أن يقول إن هذه الآية غير موجبة للتحريم ولا للكفارة بل تقتضي إثم المظاهر وإرتكابه منكراً من القول وزوراً وإنما يوجب التحريم والكفارة الآية التالية أعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ وليس فيه التقييد بقوله منكم ويلزم منه صحة ظهار الذمي فالأولى إن يقال أن الحرمة بالظهار لا يمكن إثباتها إلا حقاً للشرع وهم غير مخاطبين بحقوق الشرع فلا يصح ظهاره كما يجوز نكاحه بلا شهود أو في عدة كافر وإذا لم يثبت الحرمة وقت الظهار لكفره فإن أسلم بعد ذلك لا يثبت الحرمة بفقد سببه والله تعالى أعلم ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ والتقييد بالنساء المضافة إلى المظاهرين يفيد إنه لاظهار إلا بالمنكوحة دون الأمة المملوكة موطوءة كانت أو غيرها وهو مذهبنا ومذهب الشافعي وأحمد وجمع كثير من الصحابة والتابعين خلافاً لمالك والثوري في الأمة مطلقاً وسعيد بن جبير وعكرمة وطاووس وقتادة والزهري في الأمة الموطوءة لنا أن إطلاق نسائهم على الإماء وإن صح لغة لكن صحة الإطلاق لا يستلزم الحقيقة بل إضافة النساء إلى رجل أو رجال حقيقة إنما يتحقق في الزوجات لأنه المتبادر ولأنه يصح أن يقال لهؤلاء جوايه لا نساءه ولأنه قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾(١) والمراد بنساء المؤمنين الزوجات دون الإماء فإن أدلاء الجلباب على الإماء غير واجب كيف وقد قال عمر(رض) إلغي عنك الخمار يا دفار اتشبهين بالحراير ولأن الظهار كان في الجاهلية طلاقاً فنقل عنه إلى تحريم منته بالكفارة ولا طلاق في الأمة ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ على الحقيقة حق يحرمن عليكم كما تحرم الأمهات ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى﴾ قرأ قالون وقنبل هاهنا وفي الأحزاب والطلاق اللاء بالهمزة من غير ياء وورش اللائي بياء مختلفة الكسر خلفاً عن الهمزة وإذا وقف صيرها ياء ساكنة والبزي وأبو عمرو بياء ساكنة بدلاً من الهمزة في الحالين والباقون بالهمزة وياء بعدها في الحالين وحمزة إذا وقف ساكنة والبذي ساكنة بدلاً من الهمزة في الحالين والباقون جعل الهمزة بين بين على أصله ﴿وَلَدْنَهُمْ﴾ تعليل لقوله ما هن أمهاتهم ﴿وَإِنَّهُمْ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فإن الشرع انكره ﴿وَزُورًا﴾ كذباً، فإن قيل الزور الكذب إنما يطلق على الخبر والظهار إنشاء للتحريم لا يحتمل الصدق والكذب؟ قلنا الظهار وإن كان إنشاء لكنه في الأصل إخبار لزعمه حرمة مؤبدة أطلق على قوله بالزور والله تعالى أعلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف منه مطلقاً وإذا أنيب عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ الإختلاف فيه كما مر ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ اختلف أهل العلم في معنى الآية فقال أهل الظاهر معنى الآية يعودون لما قالوا من لفظ الظهار يعني كرر والفظ الظهار فلا يجب الكفارة عندهم إلا بتكرار اللفظ وهو قول أبي العالية وهذا القول يرده الإجماع والأحاديث الواردة في الباب فإنه لم يرد فيه شيء من الأحاديث تعليق الكفارة بتكرار اللفظ، وقال مجاهد إنهم كانوا في الجاهلية يظاهرون فمن ظاهر بعد الإسلام فقد عاد إلى ما قاله في الجاهلية أما حقيقة أو حكماً فإنه من اعتقد هذا القول فكأنه قاله، ويرد على هذا القول أن العطف يقتضي التغاير وكلمة ثم يوجب التراخي فكيف يقال العود هو الظهار بنفسه، وفسر ابن عباس العود بالندم يعني ندموا لما قالوا وأرادوا التحليل وإنما فسر العود بالندم لأن معنى العود الرجوع إلى الشيء بعد الإنصراف عنه كذا في الصحاح والرجل كان راضياً بالحل ثم إذا انصرف عنه إلى التحريم فإذا ندم عن التحريم فكأنه رجع إلى الحالة الأصلية من الرضاء بالحل وقال أكثر المفسرين الآية مصروفة عن الظاهر فقيل اللام بمعنى عن ومعنى يعودون لما قالوا يرجعون عما قالوا والرجوع عن هذا القول إنما هو إرادة التحصيل فالمعنى أرادوا والتحليل وقيل المضاف محذوف والتقدير يعودون لنقض ما قالوا ولتدارك ما قالوا أو لضد ما قالوا قال البيضاوي ويعودون لما قالوا أي إلى قولهم بالتدارك ومنه مثل عاد الغيث على ما أفسد ومعنى العود على هذا التقديرات الصيرورة عن حال أعني عن حال السخط إلى حالة الرضا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[1] وحاصل معنى الآية حينئذ ثم يردون التحليل، قال الفراء يقال عاد فلأن لما قال أي فيما قال وفي نقض ما قال وهذا القول يحتمل التأويلين المذكورين، وعن ثعلب معناه ثم يعودون لتحليل ما حرموا وعلى هذا التقدير أيضاً المضاف محذوف غير أنه أراد بما قالوا ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول بمنزلة المقول فيه كقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾[2] أراد المقول فيه وهو المال الولد، وقال أبو مسلم يعودون إلى المقول منها بإمساكها واستباحتها ثم العود والرجوع عن القول المذكور يحصل بالوطىء على قول

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٨٠.

الحسن وقتادة والزهري وطاووس قالوا لاكفارة عليه ما لم يطأها كما أن لا كفارة بعد اليمين ما لم يحنث وهذا القول يرده قوله تعالى من قبل أن يتماسا فإنه يوجب الكفارة قبل الوطىء، وعند الشافعي رحمه الله تعالى إذا أمسكها عقيب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها ولم يطلقها فقد عاد ورجع عن القول المذكور ووجب عليه الكفارة وإن علقها عقيب الظهار في الحال أو مات أحد في الوقت فلا كفارة عليه لأن العود للقول هو المخالفة وأنه قصد بالظهار التحريم فإذا أمسكها فقد خالف قوله ورجع عما قاله فيلزمه الكفارة حتى قال لو ظاهر عن امرأته الرجعية ينعقد ظهاره ولا كفارة عليه حتى يراجعها فإن راجعها صار عائداً ولزمه الكفارة، قلنا لا نسلم أن مقتضى الظهار التحريم بالطلاق عقيبه حتى يكون عدم إتيانه بالطلاق وإمساكها على النكاح نقضه المقتضى الظهار كما قال ومخالفته لمقتضى الظهار بل كان مقتضى الظهار في الجاهلية الحرمة المطلقة المنافية للحل الثابت بالنكاح كما هو مقتضى الطلاق ثم صار في الشرع مقتضاه حرمة الوطىء مع بقاء النكاح المنتهية بالكفارة وشرع الكفارة رفع ذلك الحرمة فالسكوت بعد الظهار أرادته استباحة المرأة والعزم على وطئها ويمكن أن يقال المراد بالعود الوطىء كما قال الحسن ومن معه لكن لما جعل الله تعالى الكفارة شرط الحل الوطىء لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ ظهر أن معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ يريدون العود لما قالوا كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾[1] المعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا يجوز القول بأنه لا كفارة عليه ما لم يطاها ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليهم تحرير رقبة شرطاً للوطىء والفاء للتعقيب المجرد دون السببية، وقال أكثر العلماء إنها للسببية.

واختلفوا في أن سبب وجوب كفارة الظهار ماذا؟ فقال الشافعي هو الظهار والعود يعني إمساكها عقب الظهار زماناً يمكنه أن يفارقها شرط لأن في الآية ترتب الحكم على الأمرين والكفارة يتكرر بتكرر الظهار فهو السبب، وقالت الحنفية الظهار لا يصلح سبباً للكفارة لأنها عبادة لو يغلب فيها العبادة والظهار منكر فمن القول وزوراً ولا يكون المحظور سبباً للعبادة والله سبحانه علق وجوبها بالأمرين الظهار والعود فالسبب مجموعهما والظهار معصية يصلح أن يكون سبباً للعقوبة والعود الذي هو إمساك بالمعروف عبادة والكفارة دائرة بين العقوبة والعبادة مجموع الأمرين يصلح أن يكون سبباً لها، وقال في المحيط سبب وجوبها العود فقط فأنه هو المستأخر من المذكورين وعليه رتب الكفارة والظهار شرط وإذا أمكن البساطة في العلة صير إليها لأنها الأصل بالنسبة إلى التركيب

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

والحكم قد يتكرر بتكرر الشرط كما يتكرر صدقة سببها رأس يمونه ويلي عليه، ويرد هاهنا أنه لو كان العزم على الوطىء فقط سبباً لوجوب الكفارة أو الظهار والعزم مجموعهما سبباً للوجوب لزم أن يجب الكفارة على من ظاهر ثم عزم على الوطىء ثم أبانها وماتت بعد العزم لوجوب السبب لكن لا يجب إذ لو وجبت لما سقطت وقد نص في المبسوط أنه لو أبانها أو ماتت بعد العزم لا كفارة عليه، والتحقيق أن إطلاق الواجب في مثل هذا المقام إنما هو مجازي وقد ذكر في أصول الفقه في تعريف الحكم أنه خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين للاقتضاء أو التخيير أو الوضع فخطاب الاقتضاء الإيجاب أو الندب وخطاب التخيير الإباحة وخطاب الوضع جعل الشيء ضرطاً لشيء أو سبباً له أو ركناً له أو مانعاً عنه وخطاب الوضع دون الإقتضاء فإن الله سبحانه جعل بهذه الكفارة سبباً لرفع الحرمة الثابتة بالظهار وشرطا لإباحة الوطىء كما جعل بقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾(١) الوضوء شرطا لإباحة الصلاة وسبباً للطهارة عن الحدث وبقوله تعالى: ﴿إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾(٢) الصدقة شرطاً لإباحة المناجاة فليس الظهار في الحقيقة سبباً لوجوب الكفارة بل هو سبب لرفع حرمة الوطىء ولا إرادة الوطىء سبب لها بل النكاح سبب لوجوب حقوق الزوجية ومنها الوطىء والحرمة الثابتة بالظهار مانع عنها وما هو مانع عن الحقوق الواجبة يجب إزالتها فالنكاح كما هو سبب لوجوب حقوق الزوجية سبب لإزالة ما هو مانع عنها والكفارة سبب لإزالة الحرمة فالنكاح السابق صار بعد الظهار سبباً لوجوب الكفارة كما أن اليمين سبب للمنع عن المحلوف عليه وبعد الحنث يكون سبباً للكفارة وبهذه العلاقة يطلق على الظهار أنه سبب للكفارة كما يطلق على الحنث أنه سبب للكفارة ولا تزوج ثان حتى لو طلقها بعد الظهار ثلاثاً فعادت عليه بعد زوج آخر أو كانت أمة فملكها بعدما ظهر منها لا يحل قربانها حتى يكفر فيها.

مسألة:

يحرم على المظاهر دواعي الموطء أيضاً كالقبلة واللمس عندنا وعند مالك والشافعي قولان الجديد إلاباحة وعن أحمد روايتان أظهرهما التحريم، لنا: أن الوطىء إذا حرم حرم بدواعيه كيلا يقع فيه كما في الإستبراء والإحرام بخلاف الحائض والصايم لأنه يكثر وجودهما ولو حرم الدواعي يفضي إلى الحرج ولا كذلك الظهار والاستبراء

(١) سورة المائدة، الآية: ٦. (٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

والإحرام ولأن الحرمة الثابتة بالظهار مشابهة بحرمة المحارم فيحرم الدواعي أيضاً كما فيهن.

مسألة:

للمرأة أن تطالبه بالوطىء وعليها أن تمنعه من الاستمتاع بها حتى يكفر وعلى القاضي أن يجبره على التكفير دفعاً للضرب عنها بحبسه، فإن أبى يضربه ولا يضرب في الدين ولو قال قد كفرت صدق ما لم يعرف بالكذب كذا في الفتح القدير.

مسألة:

يجزىء الرقبة الكافرة والمسلمة والذكر والأنثى والصغيرة والكبيرة لإطلاق الرقبة وقال مالك والشافعي وأحمد في رواية لا يجزىء إعتاق الرقبة الكافرة حملا للمطلق هاهنا على المقيد الوارد في كفارة القتل، قلنا: المطلق يجري على إطلاقه والمقيد على تقييده ولا وجه لحمل أحدهما على الأخرى وبسط هذا الكلام في أصول الفقه.

مسألة:

لا يجزىء العمياء ولا مقطوعة اليدين أو الرجلين أو يد ورجل من جهة واحدة أو مقطوعة إبهامي اليدين أو مقطوعة ثلاث أصابع سوىٰ الإبهام من كل يد ومقطوعة إحدى اليدين وإحدى الرجلين من خلاف والصماء التي تسمع إذا صيح يجزىء وإلا لا والحاصل إن فاتت جنس المنفعة لا يجزىء والمختلة تجزىء.

مسألة

لا يجوز عتق المدبر من الكفارة ولا أم الولد لكون رقهما ناقصاً وكذا المكاتب الذي أدى بعض كتابته وإن لم يؤد شيئاً جاز خلافاً فاللشافعي.

مسألة:

من اشترى أباه أو ابنه ينوي بالشراء الكفارة جاز عنها وكذا لو وهب له ونوى عند قبول الهبة خلافاً للشافعي ولو ورث ونوى عند موت مورثه لا يجوز اتفاقاً والحاصل أنه إذا دخل في ملكه بصنعه ونوى عند صنعه ذلك أنه للكفارة أجزاء وإلا لا.

مسألة:

لو قال إن دخلت الدار فأنت حر ونوى عن الكفارة فإن نوى وقت اليمين جاز وأن

نوى وقت الدخول لا يجوز ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ الضمير يرجع إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها المراد بالتماس المجامعة، وفيه دليل على أن الكفارة شرط الحل الاستمتاع وأن الظهار يوجب الحرمة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الحكم بالكفارة قبل المسيس ﴿تُوعَظُونَ﴾ ليزيل الحرمة الثابتة بالظهار أو لئلا يعود إلى الظهار مخافة الفرقة أو لأن إيجاب الكفارة دليل على ارتكاب الجناية فيتعظوا بإيجاب الكفارة عن إرتكاب الظهار ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا يقدر على اكتسابها بالشراء إما بفقد قيمتها أو بفقد رقبة يمكن تملكها بالشراء أو لكون ماله مشغولاً بالدين أو محتاجاً إليه لنفقته أو لنفقة عياله عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد خلافاً لمالك والأوزاعي فعندهما من ملك قيمة رقبة ويمكنه شراها يلزمه الإعتاق وإن كانت قيمة مشغولة بدينه أو محتاجاً إليه لنفقته ولا يجوز له الإنتقال إلى الصوم، لنا: أنه مشغول بحاجته الأصلية فكأنه ليس في ملكه مسألة ومن كانت له رقبة لكنه محتاج إلى خدمته فعند الشافعي وأحمد له أن ينتقل إلى الصوم إعتباراً بالماء المعد للعطش يجوز له التيمم والمال المشغول بالدين وعندنا يلزمه الإعتاق ولا يجوز الإنتقال إلى الصوم، والفرق لنا أن الماء مأمور بإمساكه لعطشه وإستعماله محظور عليه وكذا الدين مأمور باداائه بخلاف الخادم فإنه غير ممأمور بإمساكه لخدمته مسألة: المعتبر اليسار والعسار وقت التكفير أي الأداء وبه قال مالك وقال أحمد والظاهرية وقت الوجوب وللشافعي أقوال كالقولين والثالث يعتبر أغلظ الحالين ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ أي فعليه صيام شهرين ليس فيها رمضان ولا يوم الفطر والنحر وأيام التشريق لأن صوم رمضان لا يقع من الظهار لما فيه من إبطال ما أوجبه الله، وصوم الأيام المنهية لا ينوب عن الوجوب الكامل وقد قيد الله تعالى: ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فإن فاتت التتابع بعذرا وبلا عذر يجب الإستئناف إجماعاً وإن وطيء المظاهر في خلال الشهرين ليلاً عامداً أو نهاراً ناسياً لا يجب الاستئناف عند الشافعي وأبي يوسف رحمهما الله تعالى وهي رواية عن أحمد لعدم فوات التتابع وهو الشرط وإن كان تقديمه على المسيس شرطاً ففي عدم الاستئناف تقديم البعض وفي الاستئناف تأخير الكل عنه، وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد في أظهر رواية يستأنف لأن الشرط في الشرط في الصوم أن يكون قبل المسيس وأن يكون خالياً عن الجماع فيستأنف ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام لمرض أو كبر أو فرط شهوة لا يصبر عن الجماع أو خوف حدوث مرض ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ كل مسكين مدان عند أهل العراق وهو نصف صاع من أي جنس كان قال البغوي يروى ذلك عن عمر وعلي وعند أبي حنيفة نصف صاع من برأو صاع من شعير أو تمر وهو قول الشعبي

والنخعي وسعيد بن جهير والحاكم ومجاهد والكرخي بإسناده إلى مجاهد أنه قال كل كفارة في القرآن فهو نصف صاع من بر وقال مالك مد وهو رطلان بالبغدادي، وقال أحمد مد بغدادي من حنطة أو دقيق ومدان من شعير أو تمر ورطلان من خبز أي خبز حنطة، وقال الشافعي مد بمد النبيّ ﷺ وهو رطل وثلث رطل من غالب قوت البلد، روى ابن الجوزي في التحقيق بسنده عن سليمان بن يسار قال أدركت الناس وهم يعطون في طعام المساكين مدا مدا ويروى أن ذلك يجزىء عنهم، والحجة لأبي حنيفة ما مر من حديث سلمة بن صخر وفيه «أطعم منك وسقاً من تمر ستين مسكيناً» لكن الحديث منقطع كما ذكرنا، وقد روى الترمذي من حديث أبي سلمة أن سلمة بن صخر البياضي جعل امرأته كظهر أمه حتى يمضي رمضان الحديث، وفيه قال أطعم ستين مسكيناً» قال لا أجد قال رسول الله ﷺ لعروة بن عمرو: «أعطه الفرق[1]» وهو مكتل يأخذ خمسة عشر صاعاً ليطعم ستين مسكيناً، ويمكن أن يقال أن قوله وهو مكتل يأخذ خمسة عشر صاعاً أو ستة عشر صاعاً من كلام الراوي والمرفوع إنما هو أعطه الفرق والفرق في اللغة الزنبيل سواء كان صغيراً أو كبيراً وعند الطبراني في حديث أوس بن الصامت قال فأطعم ستين مسكيناً ثلاثين صاعاً قال لا أملك ذلك إلا أن تعينني فأعانه النبيّ ﷺ بخمسة عشر صاعاً وأعانه الناس حتى بلغ ثلاثين صاعاً، وروى أبو داود عن خولة بنت مالك قالت ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه ورسول الله ﷺ يجادلني فيه ويقول إتقي الله فإنه ابن عمك فما برحت حتى نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ الآية فقال يعتق رقبة فقلت لا يجد فقال يصوم شهرين متتابعين، قلت يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام قال فيطعم ستين مسكيناً، قلت ما عنده شيء يتصدق به قال فإني سأعينه بفرق من تمر قلت يا رسول الله وإني سأعينه بفرق من تمر قلت يا رسول الله إني سأعينه بفرق آخر قال قد أحسنت فاذهبي فأطعمي هما عنه ستين مسكيناً وارجعي إلى ابن عمك قال والفرق ستون صاعا وقيل هو مكتل يسع ثلاثين صاعاً[2] قال أبو داود وهذا أصح. قال ابن همام وجه الأصحية أنه لو كان ستين لم يحتج إلى معاونتها بفرق أخرى في الكفارة واحتج الشافعي ومن معه بحديث أبي هريرة في كفارة الصوم جاء رجل إلى النبيّ ﷺ أفطر في رمضان الحديث قال فأتى بفرق قدر خمسة عشر صاعاً قال كله أنت وأهلك وصم يوماً

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في كفارة الظهار (١٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (٢٢١٥).

واستغفر الله رواه أبو داود من طريق هشام بن سعد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عنه وهشام بن سعد ضعفه النسائي وغيره ورواه أبو داود من حديث إسماعيل قال واقعت امرأتي الحديث وفيه قال خمسة عشر صاعاً وكذا وقع في رواية ابن أبي حفصة ومؤمل قال البخاري منكر الحديث لكن قال الذهبي ومحمد بن أبي حفصة أبو سلمة ضعفه النسائي وغيره وقواه غير واحد في رواية حجاج بن أرطأة عن الزهري عند الدارقطني بخمسة عشر صاعاً فقال أطعمه ستين مسكيناً وحجاج بن أرطأة ضعيف مدلس وروى عبد الله بن أحمد عن أبيه عن يحيى أنه لم ير الزهري ويؤيد هذا الحديث حديث علي(رض) عند الدارقطني يطعم ستين مسكيناً لكل مسكين مد وفيه فإن بخمسة عشر صاعاً فقال أطعمه ستين، قلنا: قال البخاري في الحديث اضطراب ففي بعض الروايات خمسة عشر صاعا وعند ابن خزيمة من طريق مهران خمسة عشر أو عشرون في الصحيحين ذكر حديث أبي هريرة وليس فيه تقدير الصيعان بل فيه أتى بفرق فيه تمر والفرق المكتل الضخم وفي مرسل سعيد بن المسيب ما بين خمسة عشر إلى عشرين وفيه عطاء الخراساني ذكره العقيلي في الضعفاء وقال البخاري عامة أحاديثه مقلوبة، وفي بعض الروايات عشرون صاعاً بالجزم كذا عند الدارمي في مرسل سعيد بن المسيب وفي حديث عائشة عند ابن خزيمة أتى بفرق فيه عشرون صاعاً وهذه الأحاديث واردة في كفارة الصوم ما احتج به أبو حنيفة وارد فيما نحن فيه، والشافعي رحمه الله تعالى ذهب إلى أقل ما ورد في مقدار الطعام احتياطاً ولكن أصح ما ورد في تقدير طعام المسكين حديث كعب بن عجرة الذي ذكرناه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[1] رواه الشيخان في الصحيحين وفيه أمره رسول الله ﷺ أن يطعم فرقاً بين ستة مساكين أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام والفرق ثلاثة أصوع، وفي هذا الحديث عند الطبراني لكل مسكين نصف صاع تمر ولأحمد عن نهر نصف صاع ولبشر بن عمر عن شعبة نصف صاع حنطة ورواية الحكم عن ابن أبي ليلى يقتضي نصف صاع من زبيب فإنه قال يطعم فرقاً من زبيب بين ستة مساكين، قال ابن حزم لا بد من ترجيح إحدى الروايات لأنها قصة واحدة في مقام واحد، قال الحافظ: المحفوظ عن شعبة نصف صاع من طعام والإختلاف على كونه تمر أو حنطة لعله من تصرف الرواة أما الزبيب فلم أره إلا في رواية الحكم وقد أخرجها أبو داود وفي إسناده أبو إسحاق وهو في المغازي لا في الأحكام إذا خالف وقيل المحفوظ رواية التمر فقد وقع الجزم بها عند مسلم من طريق أبي قلابة ولم يختلف فيه على أبي قلابة وكذا أخرج الطبراني

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

من طريق الشعبي عن كعب، وقال الحافظ وما وقع في بعض النسخ عند مسلم لكل مسكين صاع تحريف فمن دون مسلم والصواب ما في النسخ الصحيحة لكل مسكين نصف صاع ولما كان الإطعام في الآية مجملاً في مقدار الواجب وما ورد من الأحاديث في باب الظهار والصوم مضطربة في المقدار، فالحمل على هذا الحديث الصحيح المتفق عليه أولى من الحمل على صدقة الفطر فإن الأمر فيه بالأداء دون الإطعام فعلى هذا مذهب أهل العراق أقوى ومذهب أبي حنيفة أحوط والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو غداهم وعشاهم أكلتين مشبعتين بخبز حنطة ولو بغير إدام أو بخبز شعير بإدام سواء كانت غداء وعشاء أو غدائين أو عشائين بعد اتحاد ستين جاز ولو غدا ستين وعشا آخرين لم يجز ولو كان ممن أطعم صبياً فطيماً أو رجلاً شبعان لم يجز ويشترط الإشباع قليلاً أكلوا أو كثيراً ولا يشترط التمليك خلافاً للشافعي ولو أعطى مسكيناً واحداً ستين يوماً جاز عند أبي حنيفة خلافاً للجمهور وقد مرت المسائل اختلافاً واستدلالاً في كفارة اليمين في سورة المائدة.

فائدة:

لم يذكر الله تعالى قيد من قبل أن يتماسا في الإطعام كما ذكر في أخويه ومن هاهنا قال أبو حنيفة أنه جامع المظاهر التي ظاهر منها في خلال الإطعام لا يجب عليه الاستئناف لأن الله سبحانه ما شرط في الإطعام أن يكون قبل المسيس ونظر إلى عدم تقيد الإطعام بقبلية المسيس قال مالك إنه من أراد التكفير بالإطعام جاز له الوطء، والجمهور على أنه لا يجوز له ذلك والوطء قبله الجمهور على أنه يجوز له ذلك الوطيء قبل التكفير حرام مطلقاً لأن الظهار موجب للحرمة والكفارة سبب لإزالة الحرمة فما لم توجد الكفارة لا يحل له الوطء سواء كانت بالإطعام أو غير ذلك، لعموم قوله ﷺ فاعتزلها حتى تكفر فيها، روى أصحاب السنن الأربعة عن ابن عباس(رض) أن رجلاً ظاهر من امرأته فوقع عليها قبل أن يكفر فقال عليه السلام ما حملك على هذا؟ قال رأيت خلف لها في ضوء القمر، وفي لفظ بياض ساقيها، قال «فاعتزلها حتى تكفر»[1] قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب قال المنذر رجاله ثقات مشهور سماع بعضهم عن بعض، قال البغوي

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في الظهار (٢٢٢٠).

الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام وهذا مبني على أصلهم من حمل اطلق على المقيد قلت قوله تعالى من قبل أن يتماسا في الإعتاق والصيام ليس شرطاً لجواز الكفارة وإلا لزم أن من جامع امرأته بعد الظهار قبل الكفارة ثم كفر بعد فلك لا يجوز كفارته ولا تحل له المرأة بل هو بيان لحرمة الوطء قبل الكفارة ولعله سبحانه ترك القيد بعد الإطعام حذراً من التطويل واكتفاء بما سبق في أخويه ولم يقتصر على أحدهما الدفع توهم إختصاصه بالخصلة الأولى لو اقتصر عليه معها وتوهم اختصاصه لو اقتصر معها فذكره مرتين تنبيه على إرادة تكريره مطلقاً والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو جامع المظاهر قبل التكفير إستغفر الله لوقوعه في الحرم ويكفر بعد ذلك ليحصل له الحل بعد ذلك ويرتفع الحرمة الثابتة بالظهار ولا يجب عليه بالجماع قبل التكفير كفارة أخرى وقال بعض أهل العلم، يجب عليه كفارتان، لنا ما مرّ من حديث سلمة بن صخر أن النبيّ ﷺ أمرها بكفارة واحدة بعدما جامعها قبل التكفير وحديث ابن عباس مثل ذلك، وروى الترمذي وابن ماجه حديث سلمة بن صخر عن النبيّ ﷺ في مظاهر بواقع قبل أن يكفر قال: «كفارة واحدة»[1] وقال الترمذي حديث حسن غريب وقال مالك في الموطأ فيمن يظاهر ثم يمسها قبل أن يكفر يكف عنها حتى يستغفر الله ويكفر ثم قال وذلك أحسن ما سمعت ﴿ذَٰلِكَ﴾ منصوب بفعل مقدر أى بينا ذلك الأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ذكر الله سبحانه الإيمان وأراد به شراءه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[2] أي صلاتكم يعني لتعملوا بشرائع الإسلام ترفضوا ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿وَتِلْكَ﴾ الكفارات ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ يمتنع بها المكلف عن إتيان المحرمات من الظهار ونحوه أو المعنى تلك الأحكام حدود الله لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يقبلون أحكام الله تعالى ولا يمتنعون عن المحرمات ويتجاوزون عن حدوده ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[3].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في عدة المتوفى عنها زوجها (١١٩٥).
(٢) الآية هي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ
مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا
هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا
جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ
يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما، فإن كلاً من المتعادين في حد غير حد الآخر والمعنى يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما ﴿كُبِتُواْ﴾ قال في القاموس كبته يكبته صرعه وآخزاه وصرفه وكسره ورد العدو بغيظه أذله والمكبت الممتلىء غماً ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار الأمم الماضية ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ دالة على صدق الرسول الله ﷺ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ منصوب بالظرف المستقر أعني للكافرين أو بمهين أو بإضمار أذكر تعظيماً لليوم ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد للضمير المنصوب في يبعثهم أو حال منه أي مجتمعين ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ على رؤوس الأشهاد تفضيحاً لهم وتقريراً لعذابهم ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ يعني أحاط الله ما عملوا علماً لم يغب منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرته أو لتهاونهم به عند ارتكابه وإنما يحفظ من الأمور ما يستعظم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يعزب عنه شير ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إستفهام إنكار بمعنى تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلياً وجزئياً ﴿مَا يَكُونُ﴾ من كان التامة أي ما يقع من ﴿نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ قرأ أبو جعفر تكون بتاء التأنيث نجوى والباقون بالياء لأجل الفصل بمن الزائدة والنجوى اسم مصدر كذا في القاموس مشتق من النجاة وهي ما ارتفع من الأرض فإن السرائر مرفوع إلى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه والمعنى ما يقع من تناجي من الرجال ويجوز أن يقدر مضاف أو بأول نجري بمتناجين ويجعل صفة لها ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ استثناء مفرغ حال من ثلاثة يعني في حال من الأحوال إلا حال كون الله تعالى جاعلهم أربعة من حيث أنه

معهم غير متكيفة وشريكهم في الإطلاع ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ تخصيص العددين إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين أو لأن الله وتر والله يحب الوتر والثلاثة أول الأوتار التي يمكن فيها التشاور لأن التشاور لا بد له غالباً من المتنازعين وواحد يتوسط بينهما ويرجح رأي أحدهما والمتنازعين إما يكون من كل جانب واحداً فالمجموع ثلاثة وإما يكون جماعة وأدنى الجماعات اثنان فالمجموع خمسة، فذكر العددين وأشار إلى غيرهما من الأعداد بقوله ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يعني أقل عدداً من الثلاثة كالإثنين ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من الثلاثة أو من الخمسة كالأربعة والستة وما فوقها قرأ يعقوب بالرفع عطفاً على محل نجوى قبل دخول من أو محل أدنى إن جعلت لا لنفي الجنس ﴿إِلَّا هُوَ﴾ يعني الله سبحانه ﴿مَعَهُمْ﴾ معية غير متكيفة مقتضية للإطلاع على ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ فإن عمله تعالى ليس لقرب المكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم وتقريرا لما يستحقونه من الجزاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإنه تعالى هو الخالق للذات والصفات من اعلوم وغيرها والمقلب للأحوال، أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال كان بين اليهود وبين النبيّ ﷺ موادعة فكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره، وذكر البغوي نحوه وزاد وإن المؤمنين حين يرونهم يتناجون كانوا يقولون ما نريهم إلا وقد بلغنهم من إخواننا الذين خرجوا في السرايا بقتل أو موت أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم فيحزنهم فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ فنهاهم النبيّ ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا فأنزل الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تنظرنا يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي المناجات ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ مضارع بمعنى الماضي أي عادوا عطف علي نهوا وإيراد صيغة المضارع لإستحضار صورة العود الشنيعة ﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ لم ينتهوا ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾ عطف على يعودون، قرأ حمزة يتنجون وهو يفتعلون من النجوى والباقون على وزن يتفاعلون ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي بما هو إثم عند الله وعدوان على المؤمنين وتواص بمعصية الرسول وكان نفس النجوى أيضاً معصية للرسول فإنه عليه الصلاة والسلام نهاهم عنه، أخرج أحمد والبزار بسند جيد عن ابن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليكم ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهو قولهم السام عليكم والسام الموت وهم يوهمونه أنهم يقولون السلام عليكم ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني فيما بينهم إذا أخرجوا من عند النبيّ ﷺ أو يقولون في قلوبهم ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ من التحية وأنه ليس

نبي إن كان نبيا عذبنا الله به قال الله عز وجل ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من ضمير حسبهم ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم، عن عائشة قالت إستأذن رهط من اليهود على النبيّ ﷺ فقال السام عليكم فقلت بل عليكم السام واللعنة فقال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» قلت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال قد قلت وعليكم(١)» وفي رواية عليكم ولم يذكر الواو متفق عليه، وفي رواية البخاري قالت إن اليهود أتوا النبيّ ﷺ فقالوا السام عليكم قال وعليكم فقالت عائشة السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش» قالت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمع ما قلت رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في» وفي رواية لمسلم: «لا تكوني فاحشة فإن الله لا يحب الفحش»، وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل وعليكم»(٢)، متفق عليه وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليكم**» متفق عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قال مقاتل يعني الذين آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم وهم المنافقون وقال عطاء يريد الذين آمنوا بزعمهم ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعله اليهود ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ﴾ باداء الفرائض والطاعات وما يتضمن خير المؤمنين ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي الإحتراز من معصية الرسول ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تفعلون وتتركون، فإنه مجا«يكم، أخرج ابن جرير عن قتادة قال كان المنافقون يتناجون بينهم وكان ذلك بغيظ المؤمنين ويكبر عليهم فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الذي يأتونه لغيظ المؤمنين وحزنهم ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فإنه المزين لها وحاملهم عليها ﴿لِيَحْزُنَ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره يتناجون ليحزن أو يزين الشيطان النجوى ليحزن أو متعلق بالظرف المستقر يعني كائن من الشيطان ليحزن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوهمهم لوصول مكروه ﴿وَلَيْسَ﴾ النجوى أو الشيطان ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾ أي المؤمنين ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بقضائه ومشيئته، الجملة حال من فاعل الظرف المستقر ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الفاء في فليتوكل جواب أما المحذوفة تقديره وأما على الله فليتوكل المؤمنون ولا يبالوا بنجواهم، عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الرفق في الأمر كله (٦٠٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب كيف الرد على أهل الذمة بالسلام (٦٢٥٧) وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٤).

دون الثالث إلا بإذن فإن ذلك يحزنه» رواه البغوي وروى أحمد والشيخان والترمذي وصححه وابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس فإن ذلك يحزنه»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

قال البغوي قال مقاتل بن حبان كان النبيّ ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء أناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ فرد عليهم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على النبيّ ﷺ فقال لمن حوله قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر فشق ذلك من أقيم من مجلسه وعرف النبيّ ﷺ الكراهية في وجوههم فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنها أنزلت يوم جمعة وقد جاء ناس من أهل بدر فذكر نحوه، وقال البغوي قال الكلبي نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكر في سورة الحجرات قصته، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً مجلسهم عند رسول الله ﷺ فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ﴾ ﴿تَفَسَّحُواْ﴾ توسعو أو ليقسحوا بعضكم عن بعض من قولهم أفسح عني أي تنحَ ﴿في المجالس﴾ قرأ عاصم على صيغة الجمع بالألف والباقون الممجلس بغير ألف على التوحيد والمراد بالمجلس حينئذ الجنس أو مجلس رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يتنافسون على القرب من النبي ويحرصون على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة (٦٢٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب السلام، باب: تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه (٢١٨٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: لا يتناجى اثنان دون الثالث (٣٧٧٥)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث (٢٨٢٥).

استماع كلامه ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ﴾ مجزوم في جواب الأمر أي يوسع الله لكم فيما تريدون الوسعة من المكان والرزق والصدر ويوسع لكم الجنة، روى البغوي بسنده عن عبد الله بن عمر قال: رسول الله ﷺ: «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يخلفه فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا» وروي أيضاً من طريق الشافعي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ولكن ليقل افسحوا» وقال أبو العالية والقرظي والحسن هذا في مجالس الحرب ومقاعد القتال كان الرجل يأتي القوم في الصيف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأ نافع وابن عمرو وعاصم بخلاف عن أبي بكر بضم الستين فيها ويبتدؤن بهمزة الوصل والباقون بكسر السين ويبتدؤن بكر الهمزة، والمعنى ارفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم، وقال البغوي قال عكرمة والضحاك كان رجال يتثاقلون عن الصلاة إذا نودي بها فأنزل الله هذه الآية معناه إذا نودي للصلاة فانهضوا لها، وقال مجاهد وأكثر المفسرين معناه إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة إلى الجهاد وإلى كل خير وحق فقوموا لها ولا تقصروا ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ بالنصر وحسن الذكر ومهابتهم في أعين الناس وغير ذلك في الدنيا وإيوائهم في غرف الجنان في الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ العلماء منهم خاصة ﴿درجات﴾ تميز من نسبة الرفع إلى المفعول تقديره يرفع الله درجات الذين آمنوا في الجنة بما جمعوا من العلم والعمل فإن العمل إذا صدر من أهل العلم يؤتي من الأجر ما لا يؤتي غيره لأنه يعتدىٰ به دون الجاهل فله أجره وأجر من يقتدي به من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[(١)] الحديث رواه مسلم من حديث جرير، قال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[(٢)] رواه أحمد وأصحاب السنن عن كثير بن قيس وسماه الترمذي قيس ابن كثير قال: قال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

على العابد كفضل الأعلى على أدناكم»(١) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده فقال: «كلاهما على خير وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منهم أما هؤلاء فيتعلمون الفقه أو العلم ويعلمون الجاهل منهم أفضل وإنما بعثت معلماً ثم جلس فيهم» رواه الدرامي، قال الحسن: قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال: أيها الناس افهموا هذه الآيه ولترغبكم في العلم فإن الله يقول يرفع الله المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات، وفي هذه الآية إشارة إلى أن النفر من أهل بدر مستحقون لما عوملوا من الإكرام والنبي ﷺ مصيب فيما أمر وأولئك المؤمنون مثابون فيما ائتمروا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيجازيكم عليه،فيه ترغيب لمن عمل وتهديد لم يمتثل الأمر واستكرهه أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن مسلمين أكثروا المسائل على رسول ﷺ حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾ الرسول ﴿صَدَقَةٗ﴾ وقال البغوي قال مقاتل بن حبان نزلت في الأغنياء وذلك أنهم يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، وقال ابن عباس في رواية ابن أبي حاتم أنه لما نزلت هذه الآية صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، قال البغوي: انتهوا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل اليسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت الرخصة، قال مجاهد: نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي رضي الله عنه تصدق بدينار وناجاه ثم نزلت الرخصة وكان علي يقول آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل أحد بعدي وهي آية المناجاة، وروى ابن أبي شيبه في مصنفه والحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه: إن في كتاب الله آية فما عمل بها أحد غيري كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم، وذكر في المدارك عن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم وسألت رسول الله ﷺ عشر مسائل فأجابني عنها قلت يا رسول ما الوفاء، قال: التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، قلت ما الفساد؟ قال: الكفر بالله والشرك، قلت: ما الحق؟ قال: الإسلام والقرآن والولاية وإذا اهتبت إليك، قلت ما الحيلة؟ قال ترك الحيلة، قلت ما عليّ؟ قال: طاعة الله ورسوله قلت وكيف أدعوا الله؟ قال بالصدق

(١) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥)، بلفظ «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم».

واليقين، قلت وماذا أسأل، قال: العافية قلت ما أصنع لنجاة نفسي قال كل حلالاً وقل صدقاً قلت ما السرور؟ قال الجنة، قلت ما الراحة؟ قال لقاء الله، فلما فرغت منها نزل نسخها ﴿ذَٰلِكَ﴾ التصدق ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من حب المال ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لذنوبكم ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ الصدقة لأجل الفقر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ رخص للفقراء وأجاز لهم المناجاة من غير تصدق كأن هذه الجملة مخصص لما سبق من عموم الحكم، وأخرج الترمذي وحسنه عن علي(رض) قال لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال لي النبيّ ﷺ ما ترى دينار؟ قلت لا يطيقونه، قال فنصف دينار؟ قلت لا يطيقونه، قال فكم؟ قلت: شعيرة قال «إنك لزهيد» فنزلت[1] ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ استفهام للتقرير والمعنى خفتم الفقر من ﴿أَن تُقَدِّمُوا۟﴾ أو المعنى خفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ ما جمع الصدقات لجمع المخاطبين أو لكثرة التناجي قال عليّ فيها روى الترمذي عنه فخفف الله عن هذه الآية ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ التصدق لأجل الفقر أو البخل ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ تجاوز عنكم ولم يعاقبكم أو المعنى رجع بكم عنها وخفف بنسخ الصدقة ورخص لكم أن لا تفعلوه وفيه إشعار بأن إشفاقكم ذنب تجاوز الله عنه وإذ هنا بمعناه، وقيل تقدير الكلام فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم تجاوز عنكم ونسخ الصدقة، قال مقاتل بن حبان كان ذلك عشر ليال، وقال الكلبي ما كانت إلا ساعة من النهار ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ولا تهاونوا في أدائها ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامر ودوموا عليها فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً فيجازيكم عليه.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

روى أحمد والبزار وابن جرير والطبراني والحاكم من حديث ابن عباس أنه ﷺ كان

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المجادلة (٣٣٠٠).

في حجرة من حجراته وفي رواية كان في ظل حجرة وقد كان الظل يتقلص فقال «يدخل عليكم رجل جبار» وفي رواية «قلبه قلب جبار وينظر بعيني الشيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور، فدعاه رسول الله ﷺ فقال حين رآه على ما تشتمني أنت وأصحابك فقال ذرني آتك فانطلق فدعاهم فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا فأنزل الله هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي تنظر إستفهام للإنكار وإنكار النفي تقرير للإثبات ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ والمراد بالموصول المنافقون وهم عبد الله ابن نبتل وأصحابه وبقوم غضب الله عليهم اليهود فهم والوا اليهود وناصحوهم ونقلوا أسراء النبيّ ﷺ ﴿مَّا هُم﴾ ويعني المنافقين ﴿مِّنكُمْ﴾ في الدين والولاية ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي اليهود جملة ما هم منكم حال من الموصول ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عطف على تولوا ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ وهو إدعاء الإسلام ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من فاعل يحلفون يعني يحلفون عالمين بأنهم كاذبون لا كمن يحلف خطأ زعما منه أنه صادق فيما يقول، قال السدي ومقاتل نزلت في عبد الله المنافق كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينما رسول الله ﷺ في حجرة فدائر نحو حديث ابن عباس المذكور وفيه فحلف بالله ما فعل وجاء باصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الماضي فتحزنوا على سوء العمل وأصروا عليه ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ جملة مستأنفة أو حال من فاعل يحلفون بتقدير قد ﴿أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ وقاية لدمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّواْ﴾ الناس في خلال أمنهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن طاعته والإيمان، وقيل المعنى فصدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيد ثان بوصف آخر بعذابهم أو وعيد آخر بعذابهم فوق عذابهم الأول لكفرهم والثاني لصدهم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾[1] وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء جملة لن تغنى صفة أخرى بعذاب بحذف الرابط تقديره لهم عذاب مهين لن تغنى عنهم في دفعه أموالهم أو مستأنفة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ الظرف متعلق بقوله فلهم عذاب مهين ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي الله تعالى يقولون والله ربنا ما كنا مشركين كما ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ إنهم منكم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الحيلة للنجاة ويزعمون أن الأيمان الكاذبة ترفع على الله كما تروح عليكم في الدنيا ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ الباقون الغاية في الكذب فأنهم يكذبون مع عالم الغيب

(١) سورة النحل، الآية: ٨٨.

حيث لا ينفعهم الكذب ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ غلب وإستولى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ جملة مستأنفة ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ وأغفلهم عنه تعالى بحيث لا يخافون عذاب الله ولا يزعمون أن الله مجازيهم وأنه يعلم سرهم وخفاياهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جنوده وأتباعه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم فوقوا حظهم وبدلوا نصيبهم من الجنة بالنار المؤبدة وقد ورد في الحديث الطويل عن أبي هريرة مرفوعاً «إن الكافر في القبر يفرج له فرجة، قبل الجنة فينظر إلى زينتها وما فيها فيقال له انظر إلى ما صرفه الله عنك ثم يفرج له فرجة إلى النار فينظر إليها يحطم بعضها فيقال له هذا مقعدك» رواه ابن ماجه وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾**»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي في جملة، من هو أذل خلق الله تعالى لا يرى أحد أذل منهم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح قضاء ثابتاً ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الياء والباقون بالإسكان قوله لأغلبن جواب قسم محذوف أويقر لما كان كتب لإفادة اللزوم بمعنى القسم أورد في جواب اللام، قال الزجاج غلبة الرسل على نوعين من بعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب ومن لم يؤمن بالحرب فهو غالب بالحجة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يمتنع عنه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عليه أحد ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ مفعول ثان لتجد إن كان بمعنى العلم وإن كان بمعنى المصادفة فهو حال أو صفة ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذه الآية تدل على أن إيمان المؤمن يفسد بموادة الكافرين وأن المؤمن لا يوالي الكفار وإن كان قريبه، قيل نزلت الآية في أبي حاطب بن بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وسيأتي القصة في سورة الممتحنة إن شاء

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٤١).

الله تعالى وأخرج ابن المنذر عن أبي جريج قال حدثنا أن أبا قحافة سب النبيّ ﷺ فصكه أبو بكر صكة فسقط فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال أفعلت يا أبا بكر فقال والله لو كان السيف قريباً مني لضربته به فنزلت ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال نزلت هذه الآية في أبي عبيد بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، وأخرجه الطبراني والحاكم في المستدرك بلفظ جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر وجعل أبو عبيدة تحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت، وروى مقاتل بن حبان عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ أو أبنائهم﴾ يعني أبا بكر ابنه يوم بدر إلى البراز فقال دعني يا رسول الله أكن في الرعلة الأولى فقال له رسول الله ﷺ متعناه بنفسك يا أبا بكر ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ يعني عمر قتل خاله العاص بن هشام ابن المغيرة يوم بدر وعليا وحمزة وعبيدة قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لم يوادوهم ﴿كَتَبَ﴾ أي أثبت ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي التصديق فهي موقنة لا تدخل فيها الشك ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ بروح منه أي بنور من عند الله وبنصره سمي بنصره إياهم روحاً لأن أمرهم يحيى به وقال السدي يعني بالإيمان، وقال الربيع يعني بالقرآن وحججه وقيل برحمة منه وقيل أيدهم لجبرئيل ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعة والجملة بتقدير قد حال من فاعل يدخلهم أو من مفعوله ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ﴾ بثوابه بحسبهم في الآخرة أو بما قضى الله تعالى عليهم في الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ﴾ وجنده وأنصار دينه يتبعون أمره وينهون عما نهى عنه ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخير الدنيا والآخرة الآمنون من كل مرهوب.

سورة الحشر

آياتها أربع وعشرون وثلاث ركوعات وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

في الصحيحين عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس(رض) سورة الحشر قال قل سورة النضير[١]، وأخرج البخاري عنه أن سورة أنفال نزلت في بدر وسورة الحشر نزلت في بني النضير.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بيان للموصول يعني بني النضير كانوا من أولاد هارون عليه السلام ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ التي كانت لهم بالمدينة، قال ابن إسحاق: كان إجلاء بني نضير عند مرجع النبيّ ﷺ من أحد وفتح قريظة عند مرجعه عن الأحزاب وبينهما سنتان. وسبب إخراجهم أن النبيّ ﷺ لما دخل المدينة صالح بنو النضير على أن لا تقاتلوه ولا تقاتلوهن معه فقبل ذلك رسول الله ﷺ منهم فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً أو ظهر على المشركين، قالت بنو النضير والله النبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية فلما غزا أحد وانهزم المسلمون إرتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف من بني النضير في أربعين راكباً من

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حديث بني النضير (٤٠٢٩).

اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن يكون كلمتهم واحدة على محمد ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش وكعب في أربعين من اليهود المسجد وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة فنزل جبرئيل فأخبر النبيّ ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان وأمر النبيّ ﷺ بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلم ذكرنا قصة قتله في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾[1] وكان النبيّ ﷺ اطلع منهم على خيانات منها أنهم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك كلنا فلما كان الغد غدا إليهم رسول الله ﷺ في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعضهم لبعض كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله فأرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون رجلاً أخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك فخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة من أصحابه وخرجت ثلاثة من اليهود واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته ما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك رسول الله ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، روى القصة أبو داود والبيهقي وعبد ابن حميد وعبد الرزاق بإسناد صحيح، وذكروا حديثاً طويلاً وفيه أن بني النضير فعلوا ذلك الغدر حين كتب إليهم قريش بعد وقعة بدرانكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لتفعلن كذا وذكر البغوي هذه القصة، وقال بعد ذلك فلما كان الغد غدا إليهم رسول الله ﷺ بالكتاب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ومن خياناتهم أن النبيّ ﷺ لما أتاهم يستعين في دية الرجلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضميري في منصرفه من بئر معونة فهمت اليهود أن يطرحوا على رسول الله ﷺ حجراً من فوق الحصن فعصمه الله تعالى وأخبره به ذكرنا القصة في سورة المائدة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾[2] الآية ذكر ابن حميد عن عكرمة أن الله

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١.

سبحانه لما أخبر نبيه بذلك ورجع نبي الله ﷺ إلى المدينة قال لهم كنانة بن صوريا هل تدرون لم قام محمد قالوا لا والله ماندري وما تدري أنت، قال بلى والتوراة إني لأدري قد أخبر محمد بما هممتم به من الغدر فلا تخدعوا أنفسكم والله إنه رسول الله وما قام إلا أنه أخبر بما هممتم وأنه لآخر الأنبياء وكنتم تطمعون أن يكون من بني هارون فجعله الله حيث شاء وإن كتبنا والذي درسنا في التوراة التي لم تغيرو لم تبدل أن مولده بمكة وأن دار هجرته يثرب وصفته بعينها ما يخالف حرفاهما في كتابنا ولكني أنظر إليكم طاعنين يتضاعى صبيانكم قد تركتم دوركم خلوفاً أموالكم وإنما هي شرفكم فأطيعوني في خصلتين والثلاثة لا خير فيها قال ما هما قال: تسلمون وتدخلون مع محمد فتأمنوا على أموالكم وأولادكم وتكونوا على ما عليه أصحابه ويبقى بأيديكم أموالكم ولا تخرجون من دياركم قالوا لا نفارق التوراة وعهد موسى، قال فإنه مرسل إليكم أخرجوا من بلدي فقولوا نعم دماً ولا مالاً فإنه لا يستحل لكم دمار ولا مالا ويبقى أموالكم إن شئتم بعتم وإن شئتم أمسكتم قالوا أما هذه فنعم، قال سلام بن مشكم قد كنت لما صنعتم كارهاً وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من داري فلا تعقب ما في كلامه وأنعم له بالخروج من بلده فلما دخل النبيّ ﷺ المدينة أرسل إلى محمد بن مسلمة فلما جاء قال إذهب إلى اليهود بني النضير فقل لهم إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي فلما جاءهم قال إن رسول الله ﷺ أرسله برسالة ولست أذكرها لكم حتى أعرفكم بشيء تعرفونه فقالوا ما هو فقال أنشدكم بالتوراة التي أنزل على موسى هل تعلمون أني جئتكم قبل أن يبعث محمد ﷺ وبينكم التوراة فقلتم لي في مجالسكم هنا يا بْنّ المسلم إن شئت أن نعذبك عذبناك وإن شئت نهودك هودناك فقلت بل عذبوني ولا تهودوني فإني والله ما أتهود أبداً فعذبتموني في صفحة لكم والله لكأني أنظر إليها كأنها خدعة فقلتم لي ما يمنعك من ديننا إلا أنه دين يهود كأنك تريد الحنيفة التي سمعت بها أما أن أبا عامر الراهب ليس بصاحبها بل صاحبها الضحوك القتال في عينيه حمرة ويأتي من قبل اليمن يركب البعير ويلبس الشملة وتجزى بالكسرة وسيفه على عاتقه ينطق بالحكمة كأنه وسن حَيّكم هذه والله ليكونن بقريتكم هذه سلب وقتل مثل قالوا اللّهم نعم قد قلنا وليس به فاقد، فقلت إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أنكم قد نقضتم الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي وأخبرهم بما كانوا هموا به وظهور عمرو بن جحاش على البيت ليطرح عليه الصخرة ويقول أخرجوا من بلدي وقد أجلكم عشراً فمن رأى بعد ذلك ضربت عنقه فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون وأرسلوا إلى ظهرهم بالحد فبيناهم على ذلك إذا جاءهم رسول عبد الله بن أبي بن سلول

سويد وأعسر فقالا يقول عبد الله بن أبي لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا مع حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم ويمدكم قريظة فإنهم لم يخذلوكم يمدكم حلفائكم من غطفان وأرسل ابن أبي كعب بن أسد القرظي يكلمه أن يمده أصحابه، فقال لا ينقض رجل واحد العهد فيئس ابن أبي أخطب بن قريظة وأراد أن يلحم الأمر فيما بين النضير ورسول الله ﷺ فلم يزل يرسل إلى حيي بن أخطب فقال حيي أنا أرسل إلى محمد أعلمه أن لا يخرج من ديارنا فليصنع ما بدا له وطمع حيي فيما قال ابن أبي، فقال له سلام بن مشكم لولا أن يسفه رأيك لأعتزلتك بمن أطاعني من يهود فلا تفعل يا حيي فوالله إنك لتعلم ونعلم من معك أنه لرسول الله وإن صفته عندنا وإنما لم نتبعه لأنا حسدناه حيث خرج النبوة من بني هارون فلتقبل ما أعطانا من الأمر وتخرج من بلاده وقد عرفت أنك حالفتني في الغدر به فإذا كان أوان التمر جئنا أو جائنا إلى تمرة أو صنع ما بدا له ثم انصرف إلينا فلم يقبل حيي قوله وأرسل حيي أخاه جدي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يقول: له: إنا لا نبرح من ديارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع وأمره أن يأتي ابن أبي فيخبره برسالته إلى رسول الله ﷺ ويأمره أن يتعمل ما وعده من النضير فلما سمع رسول الله ﷺ رسالة قول جدي بن أخطب أظهر التكبير وكبر المسلمون لتكبيره، وقال حاربت يهود ثم دخل جدي على ابن أبي وهو في بيته ومعه نفر من جلسائه وقد نادىٰ منادي رسول الله ﷺ يأمرهم بالسير إلى بني النضير فدخل عبد الله بن عبد الله بن أبي على ابنه وعلى النفر الذين معه وعنده جدي بن أخطب فلبس درعه وأخذ سيفه وخرج بعد فجاء جدي إلى حيى فقال ما وراءك، قال الشر ساعة أخبرت محمداً ما أرسلت به أظهر التكبير وقال حاربت يهود قال وجئت ابن أبي فلم أر عنده خبراً قال أنا أرسل إلى حلفاء من غطفان فيدخلون معكم فسار النبيّ ﷺ إلى بني النضير واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وصلّى رسول الله ﷺ العصر بفناء النضير فلما أراد رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا على جدر حصونهم يرمون بالنبل والحجارة واعتزلهم بنو قريظة فلم يعينوهم، فلما صلّى رسول الله ﷺ العشاء رجع إلى بيته في عشرة من أصحابه استعمل على العسكر علياً ويقال أبا بكر وبات المسلمون يحاصرونهم حتى أصبحوا ثم أذن بلال فغدا رسول الله ﷺ في أصحابه الذين كانوا معه فصلّى بالناس في قضاء بني حطم فأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ نحن نعطيك الذي سألت ونخرج من بلادك فقال رسول الله ﷺ لا أقبله اليوم ولكن اخرجوا منها ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة فقال سلام بن مشكم، أقبل ويحكم قبل أن تقبل شراً من ذلك قال حيي

ما يكون شرا من هذا قال يسبي الذرية ويقتل القاتل مع الأموال والأموال أهون علينا فأبى حيي أن يقبل يوماً أو يومين، فلما رأى ذلك يامين بن عمير وأبو سعيه ابن وهب قال أحدهما لصاحبه والله إنك لتعلم أنه رسول الله فما تنظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا فنزلا من الليل فأسلما وحرز أموالهما ودمائهما وحاصر رسول الله ﷺ على قول محمد بن عمر بن سعد والبلاذري وأبو معشر وابن حبان خمسة عشر يوماً وقال ابن إسحاق وأبو عمرو ست ليال وقال سليمان التيمي قريباً من عشرين ليلة، وقال ابن الطلاع ثلاث وعشرين ليلة وعن عائشة خمسة وعشرين وكانوا في حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم مما يليهم وكان المسلمون يخربون بأيديهم ويحرقون حتى وقع الصلح ونزلت اليهود على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة وجعل ما بين الرجل من قيس عشرة دنانير ويقال خمسة أوسق من تمر حتى قتل عمرو بن جحاش غيلة فسر رسول الله ﷺ فقال بنو النضير إن لنا ديوناً على الناس فقال عليه السلام تعجلوا فكان لأبي رافع على أسيد بن حضير عشرين ومائة دينار إلى سنة فصالحه على ثمانين فخرجت بنو النضير حملوا النساء والذرية وما استقلت به الإبل من الأمتعة فكان الرجل يهدم بيته عن إيجاف بابه وقبض رسول الله ﷺ الأموال والحلقة فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً، قال ابن عباس صالحهم رسول الله ﷺ على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤا من متاعهم وللنبي ﷺ ما بقي، وقال الضحاك أعطى كل ثلاثة نفر بعيراً ففعلوا ذلك فخرجوا من المدينة إلى الشام أي أذرعات وأريحا إلا أهل ستين آل حقيق وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا الخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ اللام بمعنى الوقت كما في قوله تعالى: ﴿قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[1] قال الزهري كانوا في سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى وكان الله عز وجل قدكتب عليهم الجلاء ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا، وقال ابن عباس ومن شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه فكان هذا أول حشر إلى الشام قال لهم النبيّ ﷺ أخرجوا قالوا إلى أين قال أرض المحشر ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى أرض الشام وقال الكلبي إنما قال لأول الحشر لأنهم كانوا أول من أجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أجلى آخرهم عمر بن الخطاب(رض) وقال مرة الهمداني كان أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحا من الشام في أيام عمر وقال قتادة كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا روى البخاري من حديث أنس: «أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب» من غير ذكر الآية والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم حال من فاعل أخرج ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي بنو النضير عطف على ما ظننتم ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وسلطانه حصونهم مبتدأ ومانعتهم خبر مقدم عليه والجملة خبر أن وتغير النظم وتقديم وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها وزعم أنهم في عزة ومنعة لسببها ويجوز أن يكون مانتهم مبتدأ من القسم الثاني صفة وحصونهم فاعل له والجملة خبر أن أيضاً ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمر الله وعذابه وهو الاضطرار إلى الجلاء ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ حيث ألقى الرعب في قلوبهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الفزع والخوف كذا في القاموس، أو المعنى ألقى فيها الخوف الذي يرعيها أي يملؤها كذا قال البيضاوي، وفي القاموس رعبه كمنعه ملأه عطف تفسيري على تتبعهم بيان لجهة إتيان عذابهم ﴿ يُخْرِبُونَ﴾ صفة مصارع بمعنى الماضي أورد لاستحضار صورة بديعة ﴿بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على أيديهم من حيث أن تخريب المؤمنين سبب لبغضهم ونقض عهدهم فكأنهم استعملوهم فيه والجملة حال من الموصول المفعول لأخرج في قوله تعالى هو الذي أخرج الذين كفروا أو بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ كأنه تفسير له أو مستأنفة في جواب ما صنعوا قرأ أبو عمر ويخربون بالتشديد من التفعيل وهو أبلغ لما فيه من التكثير والباقون بالتخفيف من الأفعال وقيل الإخراب التعطيل وترك الشيء خراباً والتخريب أن النبيّ ﷺ صالحهم على أن لهم ما أقلت الإبل فكانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون منها ما يحتسنونه فيحمونه على بلهم ويخرب المؤمنون باقيها، وقال ابن زيد كانوا يقلعون العمد وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب حتى الأوتاد ويخربونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً وبغضاً وقال قتادة كان المسلمون يخربون ما يليهم ويخربها اليهود من داخلها قال ابن عباس كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها ليتسع لهم المقاتل وجعلوا أعداء الله ينقبون دورهم في أدبارها فيخرجون إلى بعدها فيتحصنون فيها ويكسرن ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ فذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ الآية ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟﴾ فانظروا واتعظوا بما نزل بهم ولا تفعلوا من الكفر والفسوق مثل ما فعلوا كيلا ينزل بكم مثل ما نزل بهم من العذاب، استدلوا بهذه الآية على حجة القياس من حيث أنه تعالى أمر بالاعتبار والمجاوزة من أصل إلى فرع لمشاركة بينهما في وصف

يصلح سبباً لذلك الحكم ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يا ذوي العقول والبصائر، قال محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد أنه قال محمد بن عمر حدثني إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما خرجت بنو النضير أقبل عمرو بن سعد اليهودي فأطاف بمنازلهم فرأى خراباً ففكر ثم رجع إلى بني قريظة فقال رأيت اليوم عبراً رأيت دار إخواننا خالية بعد ذلك العز والشرف والجلد والرأي الفاضل والعقل البارع قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروج ذل وقد وقع قبل ذلك بابن الأشرف بياتاً في بيته أفتادا وقع بابن سنية سيد يهود وأجلدهم وأنجدهم ووقع ببني قينقاع وإجلاءهم وهم جد يهود كانوا أهل عدة وسلاح ونجدة فحصرهم فلم يخرج إنسان رأسه حتى سباهم فكلمهم فيهم فتركهم على أن إجلائهم من يثرب يا قوم لقد رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به علمائنا آخرهم ابن السيان أبو عمير وابن حواس هما أعلم يهود جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه ثم أمرنا باتباعه وأن نقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينه ودفنا لحبرتنا هذه فأسكت بالقوم فلم يتكلم منهم متكلم فأعاد الكلام أو نحوه وخوفهم بالحرب والسبي والجلاء، فقال الزبير بن باطا والتوراة قد قرأت صفة في كتاب باطا التوراة التي نزلت على موسى ليس في المثاني التي أحدثنا، فقال له كعب بن سعد ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه قال أنت قال فلِمَ والتوراة جعلت بينك وبينه قط؟ قال الزبير بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناك وإن أبيت أبينا، فأقبل عمرو بن سعدي على كعب فقال أما والتوراة التي نزلت على موسى يوم طور سينا إنه للعز والشرف في الدنيا إنه لعلى منهاج موسى ونزل معه أمته في منزله غداً في الجنة، قال كعب نقيم على عهدنا وعقدنا فلا يخفر محمد ذمتكم وننظر ما يصنع حيي فقد أخرج إخراج ذل وصغار لا فلا أراه يغزو محمداً فإن ظفر بمحمد فهو ما أردنا وأقمنا على ديننا وإن ظفر بحيي فما في العيش خير تحولنا من جواره قال عمرو بن سعدي ولم نؤخر الأمر وهو مقبل؟ قال كعب ما على هذا فوات متى أردت هذا من محمد أجابني إليه قال عمرو بلى والتوراة إنه عليه نعوتاً إذا سار إلينا محمد فاجأانا في حصوننا حتى ننزل على حكمه فيضرب أعناقنا قال كعب بن أسد ما عندي في أمره إلا ما قلت ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً يقول هذا لإسرائيل ولا يعرف لي فضل النبوة لا قدر الفعال، قال عمرو بن سعدي بل لعمري ليعرفن ذلك لك فبينما هم على ذلك لم يزعم إلا بمقدم النبيّ ﷺ قد حلت بساحتهم فقال هذا الذي قلت لك وذلك أنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وحاربوه في وقعة الخندق ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ أي الخروج من الوطن

﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي كما فعل بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ جملة مستأنفة يعني إن نجوا من عذاب الدنيا لا ينجون من عذاب النار في الآخرة البتة ﴿ذَٰلِكَ﴾ لحقهم في الدنيا وما كانوا بصدده وما استحقوه من عذاب الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يعذبه عذاباً شديداً لأنه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

أخرج ابن إسحاق عن يزيد بن رومان قال لما نزل رسول الله ﷺ بني النضير تحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخل والتحريق فيها، وذكر محمد بن يوسف الصالحي أنه ﷺ استعمل على قطعها أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام وكان أبو ليلى يقطع العجوة وكان عبد الله بن سلام يقطع اللون فقيل لهما ذلك فقال أبو ليلى العجوة أحرق لهم وقال عبد الله بن سلام قد عرفت أن الله سيغنم أموالهم العجوة خير أموالهم فلما قطعت العجوة شق النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بالويل، فجعل سلام بن مشكم يقول يا حيي العذق من العجوة بفرس فلا يطعم ثلاثين سنة تقطع فأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ كنت تنهى عن الفساد فلم تقطع النخل ووجد بعض المسلمين في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون فساداً فقال بعضهم لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعها فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ كما فعل أبو ليلى، ما شرطية منصوب المحل مفعول لقطعتم ومن لينة بيان له يعني أي شيء قطعتم حال كونه من لينة فعلتم من اللون ويجمع على الألوان وقيل هو من اللين كذا ذكر في الصحاح. قال البغوي اختلفوا في معنى اللينة فقال قوم النخل كلها لينة خلا العجوة وهو قول عكرمة وقتادة ورواية زاذان عن ابن عباس قال كان النبيّ ﷺ يقطع نخلهم إلا العجوة وأهل المدينة ما خلا العجوة من التمر الألوان واحدها لين ولينة وقال الزهري هو ألوان النخل كلها إلا العجوة والبرنية وقال مجاهد وعطية هي النخل كلها من غير استثناء، وقال العوفي عن ابن عباس من النخل وقال سفيان هي كرام النخل وقال مقاتل هي ضرب من

النخل يقال لتمرها اللون وهي شديد الصفرة يرى نواة من خارج يغيب في الضرس وكان من أجود تمر هي أعجب إليهم وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن رصيف وأحب إليهم رصيف ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما فعل عبد الله بن سلام ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف يعني فقطعه وتركه بإذن الله ليس في شيء من ذلك إثم، أخرج البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني نضير وقطع وهي البويرة هذه الآية كذا روى أصحاب الكتب وأخرج أبو يعلى بسند ضعيف عن جابر قال رخص قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبيّ ﷺ قالوا يا رسول الله هل علينا إثم فيها قطعنا وتركنا فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلِيُخْزِيَ﴾ الله بالإذن في القطع ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ اليهود عطف على بإذن الله وعلة لمحذوف، والجملة معطوفة على جملة تقريره وفعلتم أو إذن لكم لنخزيهم على فسقهم بما غاظهم منه.

مسألة:

من هٰهنا قال أبو حنيفة إذا حاصر الإمام حصناً للكفار جاز أن يقطع أشجارهم ويفسد زروعهم وهدم بيوتهم ويحرقها، قال ابن همام هذا إذا لم يغلب على الظن أنهم مأخوذون بغير ذلك فإن كان الظن أنهم مغلوبون وأن الفتح لا بد منه كره ذلك لأنه فساد وفي غير محل الحاجة وما أبيح إلا لها، وقال أحمد لا يجوز قطع أشجارهم إلا بأحد الشرطين أحدهما أن يفعلوا بنا مثل ذلك ثانيهما أن يكون لنا حاجة إلى قطع ذلك لنتمكن من قتالهم، وقال الشافعي يجوز إتلاف بنائهم وشجرهم لحاجة القتال والظفر بهم وكذا إن لم يرج حصولها لنا فإن رجى ندب الترك والدليل على جواز قطع الأشجار هذه الآية والحديثين المذكورين وما روى أحمد عن أسامة بن زيد قال بعثني رسول الله ﷺ إلى قرية قال ائتها صباحاً ثم حرق قال ابن الجوزي احتجاجاً لمذهبه: إنه قد روى أصحابنا أن النبيّ ﷺ كان إذا بعث جيشاً قال لا تعودوا عيناً ولا تعقروا شجراً إلا شجراً يمنعكم من القتال والحديثان يعني حديث ابن عمر وحديث أسامة بن زيد محمولان على ما ذكرنا انتهى كلامه، قلنا لا يجوز على ما ذكر ابن الجوزي لأن بني نضير لم يقطعوا أشجار المدينة قط ولا دليل على كون القطع لحاجة القتال بل الآية صريحة في أن الأمر بالقطع كان لخزي الفاسقين وكبت أعداء الله وكسر شوكتهم لا لغرض آخر لكن الظاهر أن الفتح لم يكن غالباً في الظن حين أمر النبيّ ﷺ بقطع أشجارهم يدل على قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ وما روى أصحاب أحمد حجة على عدم جواز القطع إن صح لا يمكن أن يكون معارضاً لكتاب الله المستلزم للجواز والله أعلم.

قال البغوي فلما ترك بنو النضير رباعهم وضياعهم طلب المسلمون تقسيمهما بينهم كما فعل لغنائم خيبر فبين الله تعالى حكمها وقال ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الفيء الرجوع وأفاء بمعنى عاد، وقال الجوهري الفيء الرجوع إلى حالة محمودة قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟﴾[١] ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] ولما كان الرجوع يقتضي سبق الملك قال البيضاوي أفاء بمعنى صير مجازاً وبمعنى رده عليه فإنه كان حقيقياً بأن يكون له عليه السلام لأن الله خلق الإنسان لعبادته وخلق ما خلق لهم ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ما أجريتم على تحصيله من الوجيف بمعنى سرعة السير ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ما يركب من الإبل غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه، والمعنى أنه لم يلحق المؤمنين في تحصيل ما أفاء الله من بني النضير من المشقة بالحرب وإيجاف الخيل والركاب حتى يستحقوا الغنائم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ويقذف الرعب في قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائط في الظن وتارة بلا وسائط هذه الآية والأحاديث الصحيحة تدل على أن بني نضير كان خالصاً لرسول الله ﷺ ثم صرفه عليه السلام حيث شاء، روى الشيخان الصحيحين عن مالك بن أوس ابن الحدثان النضيري أنه قال عمر بن الخطاب إن الله قد خص رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعط أحداً غيره ثم قرأ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله ﴿قَدِيرٌ﴾ فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ينفق عليه وعلى أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذه ما بقي فيجعله مجعل مال الله[٣]، وأيضاً في الصحيحين عنه أنه جاء عمر حاجبه يرفأ فقال هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال نعم فأدخلهم فلبث قليلاً ثم جاء فقال هل لك في عباس وعلي(رض) يستأذنان؟ قال نعم، فلما دخلا قال عباس يا أمير المؤمنين إقض بيني وبين هذا وهما يختصمان في التي أفاء الله على رسوله من بني النضير فقال الرهط يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، قال ائتدوا أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال لا نورث ما تركناه صدقة يريد بذلك نفسه، قالوا قد قال ذلك فأقبل عمر على عليّ وعباس فقال أنشدكما بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال ذلك قالا نعم قال فإني أحدثكم عن هذا الأمر إن الله قد خص

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس (٣٠٩٤).

رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ إلى قوله (قدير) فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ثم والله ما اختارها دونكم ولا أستأثرها عليكم فقد أعطاكموها وقسمها فيكم حتى بقي المال منها فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقه سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعل مال الله فعمل بذلك رسول الله ﷺ حياته ثم توفي رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر فأنا ولي رسول الله ﷺ فقبضه أبو بكر فعمل فيه بما عمل رسول الله ﷺ وأنتم حينئذ جميع وأقبل على علي وعباس يذكر أن أن أبا بكر فيه كما يقولان والله يعلم أنه فيها لصادق بار راشد ثم توفي الله أبا بكر فقلت أنا ولي رسول الله ﷺ وأبي بكر فقبضتها سنين من إمارتي أعمل فيه بما عمل رسول الله ﷺ وأبو بكر والله يعلم إني فيه صادق بارّو تابع للحق ثم جئتماني كلا كما وكلمتكما واحدة وأمركما جميع فقلت لكما إن رسول الله ﷺ قال لا نورث ما تركنا صدقة فلما بدا لي أن أدفعه إليكما، قلت إن شئتما دفعت إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه تعملان فيه بما عمل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وما عملت فيه منذ وليت وإلا فلا تكلماني فقلتما ادفعه إلينا بذلك فدفعته إليكما أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك فوالله الذي تقوم بإذنه السماء والأرض لا أقضي فيه بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنه فادفعا إليّ فأنا أكفيلماهما. وأيضاً في الصحيحين عن عمر قال كانت أموال بني نضير مما أفاء الله على رسوله ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ﷺ خاصة ينفق على أهله نفقه سنتهم ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي أموال أهل القرى، بيان للأول ولذلك لم يعطف لكنه يعم الأول يعني بني النضير وغيره فإن قيل لو كان هذا بياناً للأول لكان للأنصار أيضاً حقاً في فيء بني النضير مع أن النبيّ ﷺ لم يعط من فيء بني النضير شيئاً للأنصار غير ثلاثة منهم؟ قلنا كان للأنصار أيضاً فيه حقاً لكنهم آثروا المهاجرين على أنفسهم وجعل حقهم لهم كما سيأتي قال ابن عباس في تفسير أهل القرى وهي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة، وقال جلال الدين المحلي كان الصفراء ووادي القرى وينع، قلت: والصحيح أن خيبر فتحت عنوة وقسمت بين أهل الحديبية على ثمانية عشر سهماً كما مر في سورة الفتح ﴿فَلِلَّهِ﴾ إفتتاح كلام للتبرك، وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه وليس المراد منه أن سهماً منه له تعالى مفرداً فإن الدنيا والآخرة كلها الله تعالى وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبي وعامة الفقهاء وعامة المفسرين وقال بعضهم يصرف سهم الله تعالى في عمارة الكعبة والمساجد ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يعني أقرباء رسول الله ﷺ وهم بنو هاشم وبنو

المطلب لحديث جبير بن مطعم قال لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيته أنا وعثمان فقلنا يا رسول الله هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا» وشبك بين أصابعه رواه الشافعي، وفي رواية أبو داود والنسائي نحوه وفيه «أنا وبنو المطلب لا نفترق في الجاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد» وشبك بين أصابعه[1] ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ الصغار الذين لا أب لهم ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر البعيد من ماله كان المستفاد فيما مر من الآية أن الفيء مختص بالنبيّ ﷺ وضم هاهنا مع رسول الله ﷺ الأصناف المذكورة إشعاراً بما يفعل لرسول الله ﷺ في ذلك المال ولما كان مال الفيء بحيث لا نصيب فيه لرجال بعينهم كما في الغنائم للغانمين بل قسمة مفوض إلى رسول الله ﷺ وإلى خلفائه من بعده، وجاز لهم اختيار أشخاص من الأصناف المذكورة به عليه السلام نافياً لاختصاص المال به عليه السلام والله تعالى أعلم ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ متعلق بالظرف المستقر أعني فلله وللرسول قرأ هشام بخلاف عنه تكون بالتاء الفوقانية على التأنيث ودولة بالرفع على الفاعلية وكان حينئذ تامة والباقون بالياء التحتانية على التذكير على أن ضمير الفاعل راجع إلى الموصول ودولة منصوب على أنه خبر كان الناقصة ﴿بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ يعني لا يكون ما يتداوله الأغنياء بينهم ودن الفقراء كما كان في الجاهلية بل جعل الله لرسول الله ﷺ أن يقسمه على ما يراه مصلحة فيما أمر به ثم قال ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ أعطاكم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ من الفيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ ولا تطمعوا فيما زاد على ما طابت نفسه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ من الغلول وغيره ﴿فَٱنتَهُواْۚ﴾ ذكر هذه الجملة معترضة كيلا يطمع الناس من الرسول فما لا يرضاه وهذا نازل في الفيء وهو عام في كل ما أمر به النبيّ ﷺ ونهى عنه، عن عبد الله بن مسعود قال «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتنمصات للحسن المغيرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت فقالت إنه قد بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفيء والأمارة، باب: في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى (٢٩٧٦)، وأخرجه النسائي في كتاب: قسم الفيء (٤١٣٥).

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت بلى قال فإنه قد نهى عنه[١] رواه البخاري ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة رسوله ﷺ معترضة أخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالفه تعليل لما سبق.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بدل من لذي القربى وما عطف عليه فإن الرسول لا يسمى فقيراً وقد أخرج الله رسوله من الفقراء لقوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ قيل: هذا بدل الكل من الكل واللام في الفقراء للعهد والمراد منه هم المذكورون أعني ذوي القربى واليتامى والمساكين فلا يلزم أن لا يكون المذكورون سابقاً مصرفاً نظراً إلى المبدل منه لا يكون مقصوداً بالنسبة بل البدل هو المقصود بالنسبة، وعندي أن الفقراء المهاجرون وما عطف عليه أعم مطلقاً مما سبق فإنهم استوعبوا المؤمنين إلى يوم القيامة أجمعين غنيهم وفقيرهم على ما سنذكر إن شاء الله تعالى فهذا بدل الكل من البعض وهو من قبيل الاشتمال وعلى كلا التقديرين فما سبق في الذكر من ذوي القربى وما عطف عليه وإن لم يكن مقصوداً بالنسبة لفظا لكنها داخلة في المقصود أعني البدل أو عينه والله أعلم. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ التي بمكة ﴿وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم وفي الآية دليل على أن كفار مكة ملكوا أموال المهاجرين التي خلفوها وهاجروا عنها لأن الله تعالى أطلق عليهم الفقراء والفقير من لا يملك شيئاً وليس من لا يملك مالاً وهو في مكان لا يصل إليه فقيراً بل هو مخصوص باسم ابن السبيل ولذا عطفوا عليه في نص الصدقة، ومن هاهنا قال أبو حنيفة ومالك الكفار إذا استولت على أموال المسلمين ملكوها بشرط الإحراز بدارهم عند أبي حنيفة وبمجرد الإستيلاء عند مالك وقال الشافعي لا يملكونها وذكر ابن همام لأحمد فيه روايتين كقول أبي حنيفة وكقول الشافعي وذكر ابن الجوزي قول أحمد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (٤٨٨٦).

كقول الشافعي لا غير ويؤيد مذهب أبي حنيفة من الأحاديث ما رواه أبو داود في مراسيله عن تميم بن طرفة قال وجد رجل مع رجل ناقة له فارتفعا إلى النبيّ ﷺ فأقام البينة أنها له وأقام الآخر البينة أنه اشتراها من العدو فقال رسول الله ﷺ إن شئت أن تأخذ بالثمن الذي اشتراها به فأنت أحق وإلا فخلّ عنه ناقته والمرسل عندنا وعند أكثر أهل العلم حجة، وأخرج الطبراني مسنداً عن تميم بن طرفة عن جابر بن سمرة في سنده ياسين الزيات ضعف وأخرج الدارقطني ثم البيهقي في سننهما عن ابن عباس عنه ﷺ قال في ما أحرز العدو فاستنقذه المسلمون منهم إن وجده صاحبه قبل أن يقسم فهو أحق به وإن وجد قد قسم فإن شاء أخذه بالثمن فيه حسن بن عمارة قال الدارقطني متروك، وأخرج الدارقطني عن ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من وجد ماله في الفيء قبل أن يقسم فهو له وإن وجده بعدما قسم فليس له شيء» وفيه إسحاق بن عبد الله بن فروة ضعيف وفي طريقه الآخر رشدين ضعيف أيضاً أخرجه الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً: «من أدرك ماله في الفيء قبل أن يقسم فهو له فإن أدركه بعد أن يقسم فهو أحق به بالثمن» وفيه ياسين ضعيف وبه قال الشافعي واحتجوا أيضاً بأن عمر بن الخطاب قال من أدرك ما أخذ العدو قبل أن يقسم فهو له وما قسم فلا حق له فيه إلا بالقيمة وقال هذا إنما روى عن الشعبي عن عمرو عن رجاء بن حيوة عن عمر مرسلاً وكلاهما لم يدرك عمر وروى الطحاوي بسنده إلى قبيصة بن ذؤيب أن عمر بن الخطاب قال فيما أخذه المشركون فأصابه المسلمون فعرفه صاحبه أي أدرك قبل أن يقسم فهو له وإن جرت فيه السهام فلا شيء له وروى فيه أيضاً عن أبي عبيدة مثل ذلك وروى بإسناده إلى سليمان بن يسار عن زيد بن ثابت مثله، وروى أيضاً بإسناده إلى قتادة عن جلاس أن عليّ ابن أبي طالب(رض) قال من اشترى ما أحرز العدو فهو جائز وهذه الأحاديث وإن كانت بعضها ضعيفة وبعضها مرسلة لكنها اعتضد بعضها ببعض وصارت حجة وعملاً بهذه الأحاديث شرط أبو حنيفة الإحراز وقال إن ظهر عليها المسلمون فوجدها المالكون قبل أن يقسم فهي لهم بغير شيء وإن وجدوها بعد القسمة أخذوها بالقيمة إن أحبوا وكذا إن دخل دار الحرب تاجر فاشترى ذلك فأخرجه إلى دار الإسلام فمالكه الأول بالخيار إن شاء أخذه بالثمن الذي اشتراه وإن شاء تركه وكذا لو وهبوا لمسلم يأخذه المالك بقيمته واستدل بعض الحنفية بما في الصحيحين أنه ﷺ لما سئل يوم الفتح أين تنزل غداً بمكة قال هل ترك لنا عُقيل من منزل؟ وجه الاحتجاج أن عقيلاً استولى عليه وهو على كفره، وقيل إن الحديث إنما هو دليل على أن المسلم لا يرث الكافر فإن عقيلاً استولى على الرباع بإرثه إياها أبا طالب فإنه

مات وترك علياً وجعفر مسلمين وعقيلاً وطالباً كافرين فورثاه والله تعالى أعلم. احتج الشافعي بحديث رواه أحمد ومسلم في صحيحه عن عمران بن حصين قال كانت العضباء لرجل من بني عقيل وكانت من سوابق الحاج فأسر الرجل وأخذت العضباء معه فحبسها رسول الله ﷺ لرجله ثم إن المشركين أغاروا على سرح المدينة وفيه العضباء وأسروا إمرأة من المسلمين وكانوا إذا نزلوا يريحون إبلهم في أفنيتهم فلما كانت ذات ليلة قامت المرأة وقد نوموا فجعلت لا تضع يدها على بعير إلا رغا حتى أتت على العضباء فأتت على ناقة ذلول فركبتها ثم توجهت قبل المدينة ونذرت لئن الله عز وجل نجاها عليها لتخرنها فلما قدمت عرفت الناقة فأتوا بها النبيّ ﷺ فأخبرت المرأة نذرها فقال رسول الله ﷺ تبسماً خبرتها أو وفيتها إن الله أنجاها عليها لتنحرنيها ثم قال رسول الله ﷺ «لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم».

وجه الاحتجاج أنه لو ملكها المشركون ما أخذها رسول الله ﷺ وما بطل نذرها وحديث رواه داود عن ابن عمر قال ذهب فرس له فأخذها الكفار فظهر عليهم المسلمون فرد عليه في زمن رسول الله ﷺ، وأبق عبد له فلحق بالروم فظهر عليهم المسلمون فرد عليه خالد بن وليد وفاة رسول الله ﷺ، والجواب عن الحديث الأول أن ظاهر هذا الحديث يدل على أن الكفار لم يحرزوا العضباء بديارهم حيث قال وكانوا إذا نزلوا يريحون أهلهم في أفنيتهم وعن الحديث الثاني أنا نقول على حسب مقتضى هذا الحديث حيث نقول أن المشركين إذا غلبوا على أموالنا وملكوها فظهر عليهم المسلمون ووجدها ملاكها قبل القسمة ردت تلك الأموال عليها بلا شيء وبعد القسمة ردت بالقيمة وإن عبداً إذا أبق فدخل إليهم فأخذوه لم يملكوه عند أبي حنيفة ثم إذا ظهر عليهم المسلمون يأخذ المالك القديم بغير شيء موهوباً كان أو مشتري مغنوماً قبل القسمة وبعده والله تعالى أعلم، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني ثواباً زائداً على قدر أعمالهم أضعافاً كثيرة ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ جملة يبتغون حال مقيدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني دينه عطف على يبتغون ﴿وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إدعاء إيمانهم وحالهم على صدق دعواهم فمن قال من الروافض إنهم كانوا منافين وكانوا كاذبين في ادعاء الإيمان كفر لاستلزام إنكار هذه الآية، وقال قتادة هؤلاء المهاجرين الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانت فيه من شدة حتى ذكر أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه يقيم به صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ماله وثار غيرها، قلت وكانوا يحبون القتل في سبيل الله روى البغوي في

المعالم وشرح السنة عن أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد عن النبيّ ﷺ أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً**»(١) وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة»(٢) قلت لعلهم يدخلون الجنة قبل أغنياء المهاجرين بأربعين خريفاً وقبل أغنياء سائر الناس بخمسمائة سنة والله تعالى أعلم. أخرج ابن المنذر عن يزيد بن الأصم أن الأنصار قالوا يا رسول الله أقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض يعني الأرض المملوكة للأنصار نصفين قال لا ولكن تكفونهم المؤنة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم قالوا رضينا فأنزل الله تعالى يعني أنزل فيهم قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ الآية وروى البخاري عن أبي هريرة بلفظ قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخل قال لا تكفونا المؤن ونشرككم في الثمر قالوا سمعنا وأطعنا وليس ذكر نزول الآية صحيح والمعنى تبوءوا دار الهجرة وتمكنوا في الإيمان وهم أنصار شبه الإيمان بالمقر لدوام إثباتهم عليه وأثبت التبوء على الاستعادة التخييلية وجاز أن يكون الإيمان منصوباً بالفعل المقدر يعني وأخلصوا الإيمان من قبيل علفتها تبناً وماء بارداً، وقيل المعنى تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان وهي المدينة فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام سمى المدينة دار الإيمان لأنها مظهره عن جابر بن سمرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تعالى سمى المدينة طابة**»(٣) رواه مسلم وعن جابر بن عبد الله في حديث قال قال رسول الله ﷺ: «**إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها**»(٤) متفق عليه وروى مسلم عن أبي هريرة بمعناه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هجرة المهاجرين وقيل تقدير الكلام والذين تبوء الدار من قبلهم والإيمان ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ في أنفسهم ﴿حَاجَةً﴾ قيل المحتاج إليه يسمى حاجة والمعنى طلب حاجة وقيل المراد ما يحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والغيظ ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي من أجل ما أعطى المهاجرون دونهم من الفيء

---

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في القصص (٣٦٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: المدينة تنفي شرارها (١٣٨٥).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل المدينة، باب: المدينة تنفي الخبث (١٨٨٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: المدينة تنفي شرارها (١٣٨٣).

ذلك أن النبيّ ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار إلا ثلاثة منهم فطابت أنفس الأنصار بذلك، قال محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد إن رسول الله ﷺ لما تحول من بني عوف بن عمر الى المدينة تحول المهاجرون فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم، اقترعوا فيهم بالسهمان فما نزل أحد من المهاجرين على أحد من الأنصار إلا بقرعة بينهم فكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم فلما غنم رسول الله ﷺ بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس فقال أدع لي قومك قال ثابت الخزرج يا رسول الله ﷺ فقال: الأنصار كلها فدعى الأوس والخزرج فتكلم رسول الله ﷺ فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم وإيثارهم على أنفسهم ثم قال رسول الله ﷺ «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله تعالى عليّ من بني النضير» وكان المهاجرون على مالهم من السكنى ومساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (رض) وخيراهما خيراً فقالا يا رسول الله بل تقسمه بين المهاجرين ويكونوا في دورنا كما كانوا ونادت الأنصار وجزاهم الله خيراً رضينا وسلمنا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إرحم الأنصار**» فقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار من ذلك الفيء شيئاً إلا رجلين كانا محتاجين سهل بن حنيف وأبا دجانة وأعطى سعد بن معاذ (رض) عنهم سيف بن أبي الحقيق وكان سيفاً له ذكر عندهم، وذكر البلاذري في فتوح البلدان له أن رسول الله ﷺ قال للأنصار ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسم هذه فيهم خاصة قالوا بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي يقدمون المهاجرين بأموالهم ومنازلهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وحتى أن من كان عنده إمرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾فاقة وحاجة إلى ما يؤثر، قال البغوي روي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: يوم النضير للأنصار فذكر نحو ما ذكر البلاذري، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال: «ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، قالت والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت وفي رواية فهيأت طعامها ونومت صبيانها ثم قامت

كأنها تصلح سراجها فأطفأ فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد أعجب الله وأضحك من فلان وفلانة فأنزل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾»[١] وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن رجلاً من المسلمين فذكر نحوه وفيه أن الرجل الذي أضاف ثابت بن شماس فنزلت فيه هذه الآية، وأخرج الواحدي من طريق ابن دثار عن ابن عمر قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال إن أخي فلان وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليهم فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى أولئك فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وروى البخاري عن أنس بن مالك قال دعى النبيّ ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين فقالوا لا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلنا قال: «فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة بعدي»[٢] وذكر البلاذري في فتوح البلدان أنه قال أبو بكر جزاكم الله يا معشر الأنصار فواللّه ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أرتعت ... بنا تعلنا في الوطنين فنزلت

أبوا أن يحلونا ولو أن آمنا ... به تلقى الذي يلقون منا طلت.

وروى الآجري في كتاب الشريعة عن قيس بن أبي حازم نحوه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشح البخل والحرص كذا في القاموس وفي الصحاح بخل مع حرص، قال البغوي فرق العلماء بين الشح والبخل، روي أن رجلاً قال لعبد الله بن مسعود إني أخاف أن أكون قد هلكت قال وما ذاك قال: أسمع الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، قال عبد الله: ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله عز وجل ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل وقال عمر ليس الشح أن يمنع الرجل ماله إنما الشح أن تطمع عين الرجل إلى ما ليس له، وقال سعيد بن جبير الشح هو أخذ الحرام ومنع الزكاة، وقيل الشح الحرص الشديد الذي يحمله على إرتكاب المحارم، وقال ابن زيد من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه ولم يدعه الشح إلى أن يمنع شيئاً من شيء أمره الله به فقد وقى شح نفسه، عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (٤٨٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٣٣٠).

جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم أن يسفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم**»[١] رواه مسلم وأحمد وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان في جوف عبد أبداً ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً**»[٢] رواه البغوي وكذا روى النسائي ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي بعد المهاجرين والأنصار وهم الذين أسلموا من الصحابة بعد الفتح والمؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ﴾ حا من فاعل جاؤا ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ في الدين ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فإن السابقين لهم حق على اللاحقين حيث اهدوا بالإيمان والشرائع يتوسطهم كما اهتدوا أولئك بتوسط النبيّ ﷺ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلࣰّا﴾ حقداً وحسداً وبغضاً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من قبل من المهاجرين والأنصار ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفࣱ رَّحِيمٌ﴾ فكل من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية، قال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل الفقراء المهاجرين والذين تبوؤا الدار والإيمان والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فاجهد أن لا تكون خارجاً من هذه المنازل، روى البغوي بسنده عن عائشة قالت أمرتم بالإستغفار لأصحاب محمد ﷺ يسموهم سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا يذهب هذه الأمة حتى تلعن آخرها أولها»، وروى صاحب الفصول من الإمامية الإثنا عشرية إلى جعفر محمد بن علي الباقر أنه قال لجماعة خاضوا في أبي بكر وعمر وعثمان أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا اللذين سبقونا بالإيمان الآية، وفي الصحيفة الكاملة أنه كان من دعاء الإمام علي بن الحسين(رض) اللّهم وصل على أصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا النصيحة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره وكافئوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعتهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته وانتصروا به ومن كانوا منطوين في محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته وانتقت منهم القرابات أو سكنوا في ظل قرابته فلا تنس لهم اللهّم ما تركوا لك وفيك وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك وكانوا مع رسولك دعاه لك إليك واشكرهم على

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٧٨).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٠١).

هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه اللّهم وصلِ على التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان خير جزائك الحديث، قال مالك بن معول قال عامر بن شرحبيل الشعبي يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم فقالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم فقالوا حواري عيسى وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم فقالوا أصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة لا يقوم لهم راية ولا يثبت لهم أقدام ولا يجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا نار للحرب أطفأ الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض جهنم أعاذنا الله وإياكم من الهواء المضلة قال مالك بن أنس من يبغض أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أو كان في قلبه عليهم غل فليس لهم حق في فيء المسلمين ثم تلا ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى حتى أتى على هذه الآية: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أكثر المفسرين الذين تبوّؤا الدار والإيمان وللفقراء الذين جاؤا من بعدهم وعلى هذا وصف الفقر شرط لاستحقاق الفرق الثلاثة وعندي الذين تبؤوا معطوف على الفقراء ووصف الفقر ليس شرطاً لاستحقاق واحد منهم كيف وابن السبيل مصرف اتفاقاً مع أنه لا يسمى فقيراً، أو إنما ذكر وصف الفقر في المهاجرين جرياً على الغالب لأن أكثر المهاجرين حينئذ كانوا فقراء لا للإحتراز كما أن في قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾[1] كونهن في الحجور ليس للاحتراز بل خرج مخرج العادة جرياً على الغالب وإنما قلت هكذا للإجماع على أن مال الفيء هو للمسلمين كافة غنيهم وفقيرهم يصرف في مصالحهم ويعطى لقضاة المسلمين وعمالهم وعلمائهم وإن كانوا أغنياء وكذا للمقاتلة سواء كانوا غنياً وفقيراً، وكان أبو بكر(رض) يقسم المال بين الناس على السوية وكان عمر(رض) يفضل في القسمة بفضلهم. قال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني ابن أبي نجيح قال قدم علي أبي بكر الصديق(رض) مال فقال من كان له عند النبيّ ﷺ عدة فليأت فجاء جابر بن عبد الله فقال قال لي رسول الله ﷺ لو جاء ومال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا يشير بكفيه فقال له أبو بكر خذ فأخذ بكفيه ثم عدة فوجده خمسمائة فقال خذ إليها ألفاً فأخذ ألفاً ثم أعطى كل إنسان كان رسول الله ﷺ وعده شيئاً وبقي بقية من المال فقسمه بين الناس بالسوية على الصغير والكبير والحر المملوك والأنثى فخرج على تسعة دراهم وثلث لكل إنسان، فلما كان العام المقبل جال

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

أكثر من ذلك فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرون درهماً فجاء ناس من المسلمين قالوا يا خليفة رسول الله إنك قسمت هذا فسويت بين الناس وعن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم قال فقال أما ما ذكرتم من السوابق والقدم فما أعرفني بذلك وإنما ذلك شيء ثواب على الله هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة فلما كان عمر بن الخطاب(رض) وجائن الفتوح فضل وقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه ففرض أهل السوابق والقدم من المهاجرين والأنصار فمن شهد بدراً خمسة آلاف ولمن كان له إسلام كإسلام بدر دون ذلك أنزلهم على قدر منازلهم من السوابق. قال أبو يوسف وحدثني أبو معشر قال حدثني عمر مولى عفرة وغيره قال لما جاءت عمر بن الخطاب الفتوح وجائته الأموال قال أن أبا بكر رأى في هذا المال رأياً ولي فيه رأي آخر لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه ففرض للمهاجرين والأنصار فمن شهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف وفرض لأزواج النبيّ ﷺ اثني عشر ألفاً إلا صفية وجويرية، فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف فأبيا أن يقبلا فقال لهما إنما فرضت لهن للهجرة فقالتا لا إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله ﷺ وكان لنا مثله فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثني عشر ألفاً اثني عشر ألفاً وفرض للعباس عم رسول الله ﷺ اثني عشر ألفا وفرض لأسنان بن زيد أربعة آلاف وفرض لعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف فقال يا أبت لم زدته عليّ ألفاً ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي وما كان له ما لم يكن لي فقال إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك وكان أسامة أحب إلي رسول الله ﷺ وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين، فمر به عمرو بن أبي سلمة فقال زيدوه ألفاً فقال له محمد بن عبد الرحمن بن جحش ما كان لأبيه أبي سلمة ما لم يكن لآبائنا وما كان له ما لم يكن لنا؟ فقال عمر إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة ألفاً فإن كانت لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفاً وفرض لأهل والناس ثمانمائة فجاءه طلحة بن عبيد الله بأخيه ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس فقال عمر افرضوا له ألفين، فقال إن أبا هذا يعني يوم أحد فقال ما فعل رسول الله ﷺ فقلت ما أراه إلا قد قتل فسل سيفه وكسر غمده وقال إن كان رسول الله ﷺ قد قتل فإن الله حي لا يموت فقاتل حتى قتل وهذا يرعى الشاء في مكان كذا كذا فعمل عمر بهذا خلافته. قال أبو يوسف وحدثني محمد بن إسحاق عن أبي جعفر إن عمر لما أراد أن يفرض للناس وكن رأيه آخر من رأيهم قالوا له ابدأ بنفسك فقال لا فبدأ بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ ففرض للعباس ثم لعلى حتى وإلى بين

خمس. . . حتى انتهى إلى عدي بن كعب، قال حدثنا المخالد ابن سعيد عن الشعبي عمن شهد غمر بن الخطاب قال لما فتح الله عليه الفارس والروم جمع ناساً من أصحاب النبيّ ﷺ فقال ما ترون فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فإنه أعظم للبركة قالوا اضع ما رأيت فإنك إن شاء الله موفق ففرض الأعطيات فقال بمن أبدأ فقال عبد الرحمٰن بن عوف ابدأ بنفسك فقال لا والله ولكن أبدأ ببني هاشم رهط النبيَّ ﷺ فكتب من شهد بدراً من بني هاشم من مولى أو عربي لكل رجل منهم خمسة آلاف وللعباس بن عبد المطلب اثني عشر ألفاً ثم فرض لمن شهد بدراً من بني أمية بن عبد الشمس ثم الأقرب فالأقرب إلى بني هاشم ففرض للبدريين أجمعين عربيهم ومولاهم خمسة آلاف وللأنصار أربعة آلاف أربعة آلاف وكان أول أنصاري فرض له محمد بن مسلمة ولأزواج النبيّ ﷺ عشرة آلاف ولعائشة إثني عشر ألفاً ولمهاجرة حبشة أربعة آلاف أربعة آلاف ولعمر بن أبي سلمة لمكان أم سلمة أربعة آلاف فقال محمد بن عبد الله بن جحش لم تفضل علينا؟ فذكر نحو ما ذكر في الحديث السابق وللحسن والحسين خمسة آلاف لمكانهما من رسول الله ﷺ ثم فرض للناس ثلاثمائة وأربعمائة للعربي والمولى وفرض لنساء المهاجرين والأنصار ستمائة وأربعمائة وثلاثمائة ومائيتين وفرض لأناس من المهاجرين ألفين ألفين وفرض لبرقيل حين أسلم ألفين وقال له دع أرضي في يدي أعمرها وأؤدي عنها الخراج ما كانت تؤدي ففرض. قال أبو يوسف وحدثني محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة فذكر حديثاً وفيه فرض للمهاجرين خمسة خمسة آلاف وللأنصار ثلاثة آلاف ولأزواج النبيّ ﷺ إثنا عشر إثنا عشر ألفاً فلما أتى زينب بنت جحش مالها قالت يغفر الله أمير المؤمنين لقد كان في صواحباتي من هو أقوى على قسمة هذا مني فقيل أن هذا كله لك ناصرت به فغضب وغطته بثوب ثم قالت لبعض من عندها أدخلي يدك لأن فلان الفلان فلم تزل تعطي حتى قالت لها التي قلت تدخل يدها لا أراك تذكيريني ولي عليك حق قالت لك ما تحت الثوب فكشفت فإذا ثمة خمسة وثمانون درهماً ثم رفعت يدها فقالت اللّهم لا يدركني عطاء لعمر بن الخطاب بعد عامي هذا أبداً فكانت أول أزواج النبيّ ﷺ لحوقاً به زينب وذكر لنا أنها اسخى أزواج النبيّ ﷺ، وحمل عمر زيد بن ثابت عطاء الأنصار فبدأ بأهل العوالي فبدأ ببني عبد الأشهل ثم الأوس لبعد منازلهم ثم الخزرج حتى كان هو آخر السائب بن يزيد عن أبيه قال سمعت عمر ابن الخطاب(رض) يقول والله الذي لا إله هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعته وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا

كأحدكم ولكن على منازلهم لنا من كتاب الله تعالى وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وتلاده في الإسلام والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناه في الإسلام والرجل وحاجته في الإسلام والله لئن بقيت ليأتين الراعي لجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه يعني في طلبه وكان ديوان حمير على حدة وكان يفرض لأمير الجيوش والعرى في العطاء ما بين تسعة آلاف وثمانية آلاف وسبعة آلاف على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور، قال وكان يفرض للمنفوس إذا ترحته أمه فإذا ترعرع بلغه به مائتين فإذا بلغ زاده قال ولما رأى المال قد كثر قال لئن عشت إلى هذه الليلة من قابل لألحقن أخرى الناس بأولادهم حتى يكونوا في العطاء سواء قال فتوفي قبل ذلك.

مسألة:

إختلف الأئمة أن المال الذي يحصل بلا قتال كجزية وعشر تجارة وما جلوا عنه خوفاً وما صولحوا عليه ومال مرتد قتل أو مات ومال ذمي مات بلا وارث وزكاة بني تغلب وما أهداه أهل الحرب إلى الإمام وكذا أخراج الأرض هل يخمس أم لا؟ فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد في أظهر قوليه لا يخمس بل جميعه لمصالح لما صلح المسلمين كسد الثغور وبناء القناطير والجسور ويعطي قضاة المسلمين والمحتسبين وعمالهم وعلمائهم منه ما يكفيهم ويدنو منه أرزاق المقاتلة وذراريهم كذا في الهداية وفي التجنس يعطي المعلمين والمتعلمين ويدخل فيه طلبة العلم أيضاً، وقال الشافعي في القديم لا يخمس إلا ما تركوه فزعاً وهربوا وفي الجديد أنه يخمس جميع ذلك ثم يجعل الخمس خمسة أسهم سهم منها لنبي هاشم وبني المطلب يشرك فيه الغني والفقير وسهم لابن السبيل ويعم الأصناف الأربعة المذكورة، وقيل يخص بالحاصل في كل ناحية من فيها منهم وسهم لمصالح المسلمين كسد الثغور والقضاة والعلماء ويقدم الأهم وأما الأخماس الأربعة فالأظهر أنها للمرتزقة وهم أجناد المرصدون للجهاد فيضع الإمام ديواناً فيعطي كل واحد منهم كفاية ويقدم في الإعطاء قريشاً ومنهم بني هاشم والمطلب ثم عبد الشمس ثم نوفل ثم عبد العزى ثم سائر البطون الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ ثم الأنصار ثم سائر العرب ثم العجم ولا يثبت في الديوان أعمى ولا زمناً ولا من لا يصلح للقتال فإن فضلت الأخماس الأربعة عن حاجات المرتزقة وزع عليهم على قدر مؤنتهم والأصلح أنه يجوز أن يقسم غلته كذلك كذا في المنهاج ويؤيد مذهب الجمهور في عدم التخميس ما ذكره محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد في أموال بني النضير أنه قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ألا تخمس ما أصبته؟ قال رسول الله ﷺ لا أجعل شيئاً جعله الله

تعالى دون المؤمنين بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية كهيئته ما وقع فيه السهمان، قال ابن همام ذكروا أن قول الشافعي في تخميس الجزية مخالف للإجماع، قال الكرخي ما قال به أحد قبله ولا بعده ولا في عصره، ووجه قوله القياس على الغنيمة قال ابن همام إنه صلّى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر ونصارى نجران وفرض الجزية على أهل اليمن ولم ينقل منه التخميس ولو كان لنقل، وروى أبو داوود بسند فيه ضعف أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله أن ما حكم عمر بن الخطاب فرآه المؤمنين عدلاً موافقاً لقول النبيّ ﷺ والله تعالى أعلم.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ يعني عبد الله بن سلول وأصحابه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ في الكفر أو الصداقة والموالاة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جهاراً ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود من بني النضير والقريظة وقد ذكرنا قصة عبد الله بن سلول أنه أرسل إلى بني النضير رسولين وقال تخرجوا أن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال أسلم ناس من بني قريظة وكان منهم منافقون نزلت فيهم هذه الآية وعلى هذا المراد بالأخوة في النسب فكان المنافقون يقولون لبني النضير ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ وأي في قتالكم أو خذلانكم أحداً يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ ويعني إن قاتلكم الرسول ﷺ والمؤمنون ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ عليهم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ حال من فاعل يقولون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي المنافقون ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ منصوب بتقدير القول يعني والله يشهد ويقول إنهم لكاذبون أو هو متعلق بيشهد بتضمن

القول ثم بين كذبهم بقوله ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ أي اليهود ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ أي المنافقون جواب للقسم لفظاً وجزاء للشرط معنى وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ ﴿مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وفيه معجزة حيث كان الأمر في المستقبل كذلك فإن بني نضير أخرجوا ولم يخرج معهم عبد الله بن أبي بن سلول ولا منافقوا قريظة وقريظة قوتلوا وقتلوا لم ينصرهم منافقوا مدينة ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير، وقال الزجاج معناه لو قصدوا نصر اليهود ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي كفار اليهود ولا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصروهم، وجاز أن يكون ضمير لا ينصرون راجعاً إلى المنافقين ﴿لَأَنتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي مرهوبة ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ أي المنافقين ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ حيث يؤمنون باللسان دون القلب مخافة الناس دون الله تعالى العالم بما في الصدور ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخوف منكم دون الله تعالى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يعرفون الله تعالى وعظمته وأن الله تعالى: هو النافع والضار وأفعال العباد إنما هي مخلوقة له تعالى فهو الحقيق بأن يخشى دون غيره ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي الكفار والمنافقون ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين على عزم وإجتهاد ولإلقاء الله تعالى الرعب في قلوبهم ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالأروب والخناديق يعني لا يبرزون لقتالكم رهبة منكم ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو جدار بكسر الجيم وفتحالدال وألف بعدها على التوحيد، وأمال أبو عمرو فتح الدال والباقون بضم الجيم والدال على الجمع ﴿بَأْسُهُم﴾ يعني صبرهم وشجاعتهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعني في مقابلة الكفار بعضهم بعضاً ﴿شَدِيدٌ﴾ يعني ليس ذلك الرهبة منكم لضعفهم وجنبهم فإنهم أشد بأساً إن حارب بعضهم بعضا بل لقذف الله الرعب في قلوبهم معجزة لرسوله وإظهار الدين فإن الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ يا محمد ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين على حربكم ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي متشتتة بسبب إلقاء الرعب فإن في حالة شدة الخوف لا يتقرر قلبه على نهج مستقيم بل قد يريد الحرب نظراً إلى مصالح دنيوية وقد يريد الفرار لاستيلاء الرعب والخوف ﴿ذَٰلِكَ﴾ التشتت ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الحق من الباطل ولا يتدبرون ولا يفهمون أن هذا الرعب إنما استولي عليهم لكفرهم ومحاربتهم بالنبي المحق ﷺ ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني مثلهم أي بني النضير كمثل الذين من قبلهم ﴿قَرِيبًا﴾ يعني أهل بدر من مشركي مكة كذا قال مجاهد وقال ابن عباس يعني ببني قينقاع من اليهود هم قوم عبد الله بن سلام كانوا حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول أو عبادة بن الصامت وغيرهما من قومهما وكانوا أشجع يهود وكانوا صاغة ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ يعني سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ في الدنيا وذلك أنه لما قدم النبيّ ﷺ مهاجراً وادعته اليهود كلها

كتب بينه وبينهم كتاباً وألحق كل قوم بحلفائهم وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم شروطاً منهما أن لا يظاهروا عليه عدواً فلما كانت يوم بدر كانت قينقاع أول يهود ونقضوا العهد وأظهروا البغي والحسد، فبينما هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد قدمت امرأة من العرب يحلب لها فباعت بسوق بني قينقاع وجلست إلى صايغ بها لحلي فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فلم تفعل فعمد الصانع إلى طرف ثوبها من ورائها فحله بشوكة وهي لاتشعر فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ونبذوا العهد إلى النبيّ ﷺ واستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود وغضب السلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع وأنزل الله سبحانه ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ فقال ﷺ إنما أخاف من بني قينقاع فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب واستخلف على الدينة أبا لبابة فتحصنوا فحاصرهم أشد الحصار فقاموا على ذلك خمسة عشر ليلة حتى قذف الله في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ على أن للرسول ﷺ أموالهم وأن لهم النساء والذرية فكنفوا واستعمل على كنافهم المنذر بن قوامة السلمي ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وقالوا يا رسول الله أنوي الله ورسوله وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار فقام إلى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم وقال يا محمد أحسن في موالي فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه فقال له رسول الله ﷺ ويحك أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا بوجهه ظللاً قال ويحك أرسلني قال والله لا أرسلك حتى تحسن إليّ في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد صغرني من الأحمر والأسود ونحصدهم في الغداة واحدة إني والله امرىء أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ خلوهم لعنهم الله ولعن من معهم وتركهم من القتل وأمرهم أن يجلوا من المدينة فخرجوا بعد ثلاث وولي إخراجهم منها عبادة بن الصامت، وقال محمد بن مسلمة فجلعوا بأذرعات وأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاثة نِسْعٌ ودرعين وثلاثة رماح وثلاثة أسياف ووجد في منازلهم سلاحاً كثيراً وآلة الصناعة فأخذ رسول الله ﷺ صيغة والخمس وقسم أربعة أخماسه على أصحاب فكان أول خمس بعد بدر وكان هذه الواقعة يوم السبت لنصف من شوال سنة ٢هـ على رأس عشرين شهراً من مهاجرته ﷺ ونزل في عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ آيات من سورة المائدة إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1] الآية وقد ذكرنا في المائدة ﴿وَلَهُمْ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١ ـ ٥٦.

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة يعني لا ينقص عذابهم في الآخرة بما أصابهم وبال أمرهم في الدنيا ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي مثل المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه في اغترار اليهود على القتال كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ قال البغوي روى عطاء وغيره عن ابن عباس قال كان راهب في الفترة يقال له برصيصا يعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة وأن إبليس أعياه في أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال ألا أجد أحداً يكفيني أمر برصيصا، فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدى للنبيّ ﷺ وجاءه في صورة جبرئيل ليوسوس على وجه الوحي فدفعه جبرئيل إلى أقصى أرض الهند فقال الأبيض لإبليس أنا أكفيك فانطلق فتزين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه وكان لا ينفتل من صلاته إلا في عشرة أيام ولا يفطر إلا في عشرة أيام مرة، فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه حين لم يجبه فقال له إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك فما حاجتك؟ قال حاجتي أني أحببت أن أكون معك فأتاوب بك وأقتبس من علمك وعملك ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك فقال برصيصا إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض، وأقبل الأبيض يصلّي فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً بعدها فلما انفتل رآه قائماً يصلّي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده قال ما حاجتك؟ قال حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في صومعته فأقام معه حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً ولا ينفتل عن صلاته إلا في كل أربعين يوما مرة وربما مد إلى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى وكان بلغنا عنك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته للذي رأى منه شدة اجتهاده فلما ودعه قال له الأبيض إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه يشفي الله به السقيم ويعافي به المبتلي والمجنون، قال برصيصا أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً إني أخاف إن علم به الناس شغلوني عن العبادة فلم يزل به الأبيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال قد والله أهلكت الرجل قال فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال لأهله إن لصاحبكم جنوناً أفأعالجه؟ قالوا نعم فقال لهم إني لا أقوى على جنيته ولكن أرشدكم إلى من يدعو الله فيعافيه انطلقوا إلى

برصيصا قال عنده الإسم الأعظم الذي إذا دعابه أجاب فانطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان فكان الأبيض يفعل مثل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا فيعافون وانطلق الأبيض إلى جارية من بنات ملوك بني إسرائيل بين ثلاثة أخوة وكان أبوهم ملكهم فمات واستخلف أخاه فكان عمها ملك بني إسرائيل فجاء الأبيض إلى تلك الجارية فعذبها وخنقها ثم جاء إليهم في صورة متطيب فقال لهم أتريدون أن أعالجها قالوا نعم، قال إن الذي عرض لها مارد ولا يطلق ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به تدعونها عنده إذا جاء شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت وتردونها صحيحة قالوا ومن هو قال برصيصا الزاهد قالوا وكيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من هذا قال ابنوا صومعة إلى جنب صومعته حتى تشرفوا عليه فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعة ثم قولوا هي أمانة عندك فاحتسب فيها قال انطلقوا إليه فسألوه فأبى عليهم فبنوا صومعة على ما أمرهم به الأبيض فوضعوا الجارية في صومعة فقالوا هذه أختنا هذه أمانة فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا من صلاته رأى الجارية وما بها من جمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها شيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات فذهب الشيطان ثم أقبل على صلاته ثم جاءها فخنقها وكانت تكشف عن نفسها فجاء الشيطان وقال واقعها فستتوب بعد ذلك والله تعالى غفار الذنوب والخطايا فتدرك ما تريد من الأمر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت فظهر حملها، فقال له الشيطان ويحك قد افتضحت يا برصيصا فهل لك أن تقتلها وتتوب فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقدر عليه فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها فبقي طرفه خارجها من التراب ثم رجع برصيصا إلى صومعة فأقبل على صلاته إذ جاءه إخوتها يتعادون أختهم وكانوا يجيئون في فرط الأيام يسألون عنها ويوصونه بها فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه فأنصرفوا، فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال ويحك إن برصيصا قد فعل بأختك كذا وكذا وإنه دفنها في موضع كذا فقال الأخ في نفسه هذا حلم وهو من عمل الشيطان فإن برصيصا خير من ذلك قال فتتابع عليه ثلاث ليال مرات ليلاً فلم يكترث فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك فقال الأوسط مثل ما قال الأكبر فلم يخبر به أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك، فقال أصغرهم لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا وقال الأوسط وأنا والله قد رأيت مثله. . . فانطلقوا إلى برصيصا وقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم تتهموني، فقالوا والله ما نتهمك واستحيوا منه فانصرفوا فجاءهم الشيطان،

وقال ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وإن طرف إزارها خارج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم فمشوا في مواليهم وغلمانهم معهم الفؤوس والمساحي، فهدموا صومعته فأنزلوه ثم كتفوه فانطلقوا به إلى الملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فقال تقتلها ثم تكابر يجتمع عليه أمران قتل ومكابرة إعترف فلما إعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشية فلما صلب أتاه الأبيض قال يا برصيصا أتعرفني قال لا قال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك ما اتقيت الله في أمانتك خنت أهلها فإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل أما استحييت فلم يزل يعيره ثم قال في آخر ذلك ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وفضحت أشباهك من الناس فإن مت على هذه الحالة فلم يفلح أحد من نظرائك، قال فكيف أصنع؟ قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك ما أنت فيه فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك، قال وما هي؟ قال تسجد لي، قال أفعل فسجد له فقال يا برصيصا هذا الذي أردت منك صار عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك إني برىء منك ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إنما قال ذلك رياء وإلا فالخشية من الله تعالى لم يخلق في الشياطين، وقيل المراد بالإنسان الجنس ويقول الشيطان أكفر إغراءه على الكفر إغراء الأمر المأمور وقوله إني برىء بقوله في الآخرة مخافة أن يشاركه في العذاب وينفعه ذلك نظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾(١) وقيل المراد بالإنسان أبو جهل قال له إبليس يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ﴾(٢) يعني من الهلاك في الدنيا ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي الإنسان والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ أي نفس كل أحدكم ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ يعني أي شيء قدمت من عمل صالح ينجيه أو سيء يوبقه فينزع عنه ويستغفر منه ﴿لِغَدٍ﴾ أي ليوم القيامة سماه غداً لدنوه أو لأن الدنيا كيوم واحد والآخرة غد في الحديث «الدنيا يوم ولنا فيها صوم» ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تكرير للتأكيد أو الأول لأداء الواجبات والثاني لترك المحارم لاقترانه لقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ فلا يبالون بإتيان مناهيه وترك أوامره ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً وأراهم يوم القيامة من الهول وأنساهم أنفسهم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسق ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي الذين استمهنوا أنفسهم فاستحقوا النار والذين استكملوا أنفسهم فاستحقوا الجنة، استدل الشافعية بهذه الآية أن المسلم لا يقتل بالكافر قصاصاً وليس شيء فإن المراد عدم مساواتهم في الآخرة حيث قال الله تعالى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قيل هذا تمثل وتخييل يعني لو جعل في الجبل تميزاً وأنزل عليه القرآن تخشع وتشقق وتصدع من خشية الله مع صربته ورزانته حذراً من أن لا يؤدي حق الله عز وجل في تعظيم القرآن والكافر يعرض عما فيه من العبر كأن لم يسمعها، وجاز أن يقال أن الجمادات إن كانت في الظاهر عديمات الشعور لكنها بالنسبة إلى خالقها ذات شعور وخشية قا الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(١) وقال النبيّ ﷺ: «**الجبل ينادي الجبل أي فلان جبل هل مر بك أحد يذكر الله فإذا قال نعم إستبشر**»(٢) الحديث ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، في الآية توبيخ على

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: في البقاع التي يذكر الله تعالى عليها (١٦٧٨٣).

عدم تفكر الإنسان وتدبره وعدم تخشعه عند تلاوة القرآن لقساوة قلبه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ قد بسطنا الكلام في تفسير الغيب والشهادة في سورة الجن في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[1] ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ الظاهر من كل عيب البليغ في النزاهة عما لا يليق به ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ قال ابن عباس الذي آمن الناس من ظلم وآمن من آمن به من عذاب فهو من الأمان ضد التخويف، وقيل معناه المصدق لرسله باظهار المعجزات ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ الشهيد على عباده بأعمالهم يقال همن يهمن إذا كان رقيباً على الشيء كذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ومقاتل كذا قال في القاموس حيث قال همن على كذا إذا صار رقيباً عليه حافظا وكذا قال الخليل، وقيل أصله ما من من الأمن قلبت همزة الثانية ياء أو الأولى هاء ومعناه المؤمن كذا قال ابن زيدان معناه المصدق، وقال سعيد بن المسيب والضحاك وابن كيسان هو اسم من أسماء الله تعالى في الكتب السماوية الله تعالى أعلم بتأويله ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ﴾ قال ابن عباس هو العظيم وجبروت الله عظيمه فهو صفة ذات، وقيل هو من الجبر بمعنى الإصلاح يقال جبرت الأمر وجبرت العظم إذا أصلحته بعد الكسر فهو يغني الفقير ويصلح الكسر في الحديث «جابر العظم الكسير» وقال السدي ومقاتل هو الذي يقهر الناس ويجبر على أراد سُئِلَ بعضهم عن معنى الجبار قال هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعل لا يقدر أحد على أن يحجره ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ التفعل للمبالغة والكبر والكبرياء الامتناع فهو الممتنع عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً وقيل المتكبر المتعظم، وقيل ذو الكبرياء وهو الملك ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ المقدر للأشياء كما قال يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق وفي القاموس المبدأ الشيء المخترع على غير مثال سبق ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ الموجود للأشياء برياً من التفاوت في القاموس برأ الله الحق كجعل برءاً وبرؤا خلقهم ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ قال البغوي المماثل للمخلوق بالعلامات التي يتميز بها بعضها عن بعض يقال هذه صورة الأمر أي مثاله فأولاً يكون خلقاً ثم برأ ثم تصويراً وفي الصحاح ما يتنقش به الأعيان ويتميز بها عن غيرها وذلك ضربان: أحدهما محسوس يدركه الخاصة والعامة بل يدركه الإنسان وكثير

---

(١) سورة الجن، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

من الحيوانات كصورة الإنسان والفرس والجهاد بالمعاينة، قلت: ومنه ما امتاز به زيد من عمرو، الثاني معقول يدركه الخاصة دون العامة كالصورة التي اختص بها الإنسان من الفعل والمعاني التي خص بها شيء دون شيء وإلى الصورتين أشار الله تعالى بقوله: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[1] وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2] وقال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[3] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[4] وقال عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى خلق آدم على صورته»[5] فالصورة أراد بها ما خص الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة وبها فضله على كثير من الخلق وإضافة إلى الله على سبيل الملك لا على سبيل البعضية والتشبيه تعالى عن ذلك وذلك على سبيل التشريف كقوله بيت الله وناقة الله، قلت: ويمكن أن يراد به خلقه تعالى على صفاته من العلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك التي بها لبس خلقه الخلافة وأمتاز به عما عداه وأحتمل ثقل الأمانة وجاز أن يكون ضمير صورته راجعاً إلى آدم. يعني خلقه على صورة لم يعط أحداً غيره والله تعالى أعلم ﴿لَهُ﴾ تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على محاسن الصفات والمعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لتنزهه عن النقائص كلها ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات كلها فإنها راجعة إلى الكمالات في القدرة والعلم، عن المعقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً من قال حين يمسي كان بتلك المنزلة**»[6] رواه الترمذي، وقال حديث غريب، وعن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ خواتيم الحشر من ليلة أو نهار فقبض في ذلك اليوم أو ليلة فقد أوجب الجنة**» رواه ابن عدي والبيهقي وسنده ضعيف.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٣.

(٣) سورة الانفطار، الآية: ٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الاستئذان، باب: بدء السلام (٦٢٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب باب: النهي عن ضرب الوجه (٢٦١٢).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩٢٢).

سورة الممتحنة

آياتها ثلاث عشرة آية وفيها ركوعان وهي مكيَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

ذكر البغوي وغيره أن سارة مولاة أبي عمرو بن صفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول الله ﷺ أمُسلمةٌ جئت؟ قالت لا، قال أمهاجرة جئت؟ قالت لا قال فما جاء بك؟ قالت كنتم الأهل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي فاحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، فقال أين أنت من شبان مكة وكانت مغنية نائحة، قالت ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم فخرجت سارة ونزل جبرئيل فأخبر النبيّ ﷺ تعالى عليه وآله وسلم بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً والزبير وطلحة ومقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساناً فقال لهم: **«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى**

المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها وإن لم تدفع إليكم فاضربوا عنقها»[١] قال فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ فقالوا لها أين الكتاب فحلفت بالله ما معها كتاب فبحثوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل سيفه وقال أخرجي الكتاب وإلا لأجزونك ولأضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها قد خبأته في شعرها فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه فقال هل تعرف الكتاب؟ قال نعم قال فما حملك على ما صنعت؟ قال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن اتخذ عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم من الله شيئاً فصدقه رسول الله ﷺ وعذره، فقام عمر بن الخطاب فقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وفي الصحيحين عن علي قال بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من الكتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب قال فأخرجته عن عفاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبيّ ﷺ فقال ما هذا يا حاطب؟ قال لا تعجل عليّ يا رسول الله اني كنت امرأً ملصقاً من قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها اهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن نأخذ منهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاباً لكفر فقال النبيّ ﷺ صدقت وفيه أنزلت هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ قيل الباء زائدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾[٢]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم (٢٤٩٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

والمعنى تلقون إليهم بالمودة بالمكاتبة، وقال الزجاج معناه تلقون إليهم أخبار النبيّ ﷺ بالمودة التي بينكم وبينهم والجملة حال من فاعل لا تتخذوا أو صفة لأولياء جرت على غير ن هي له فلا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط في الاسم دون الفعل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ يعني القرآن والجملة حال من فاعل أحد الفعلين ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة وهو حال من فاعل كفروا استئناف لبيان ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾ أي لأن آمنتم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ فيه تغليب المخاطب والإلتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ من أوطانكم ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ علة للخروج وعمدة للتعليق أو حال من فاعل خرجتم يعني خرجتم مجاهدين أو ظرف بتقدير الوقت أي خرجتم في وقت الجهاد أو مفعول مطلق من قبيل ضربته سوطاً أي خرجتم خروج جهاد وجواب الشرط محذوف دل عليه لا تتخذوا ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ قال مقاتل بالنصيحة بدل من تلقون أو استئناف والباء زائدة صلة لتسرون أو للسببية والمعنى أنه لا طائل لكم في أسر المودة وإلقاء الأحباء إليهم سراً بسبب المودة ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ وقيل أعلم بفعل مضارع والباء زائدة وموصولة أو مصدرية ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾ أي اتخاذ المودة ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الهدى ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي يأخذوكم ويظفروا بكم في القاموس ثقفة كمنعه صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي لا ينفعكم القاء الودة إليهم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾أي بما يسوئكم كالقتل والضرب والشتم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ لو للتمني والجملة بيان الوداد والماضي في جواب أن الشرطية وإن كان يفيد معنى الاستقبال ولكن أورد صيغة الماضي للإشعار بأنهم ودوا ذلك قبل كل شيء وإن ودادهم حاصل بالفعل ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي قرباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين أشركو أو الذين توالون المشركين لاجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه رد لعذر الحاطب بن بلتعة ومن كان يعتذر بنحو ذلك ﴿يَفْصِلُ﴾ قرأ عاصم على البناء للفاعل من الثلاثي المجرد ونافع وابن كثير وأبو عمرو على البناء للفاعل من باب التفعيل وابن عامر على البناء للمفعول منه ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي ليفرق الله بينكم حين يفر بعضكم من بعض لشدة الهول ويصير الأخلاء يومئذ أعداء إلا المتقين أو المعنى يفصل بينكم أي يدخل المؤمنين الجنة والمشركين النار فما لكم تتوالونهم اليوم وترفضون حق الله ونبيه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ

وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسْوَةٌ﴾ اسم لما يؤتسى به أي اقتداء ﴿حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾.

من المؤمنين متعلق بالظرف المستقر أعني لكم الذي هو خبر أو صفة ثانية لأسوة ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ ظرف لخبر كان أو خبر لكان ﴿لِقَوْمِهِمْ﴾ الكفار ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ جمع بريء كظريف وظرفاء ﴿مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ الكفر بالحقيقة ضد الإيمان لأنه ستر الحق والنعمة لكن أطلق هاهنا للتبري كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾[1] ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فينقلب العداوة والبغضاء ألف ومحبة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ قال البيضاوي وغيره إستثناء من قوله أسوة حسنة وفيه إشكال فإن أسوة نكرة لا يتيقن دخول المستثنى فيه حتى يكون متصلاً ولا عدم دخوله حتى يكون منقطعاً نظيره قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2] فالأولى أن يقال أنه استثناء من محذوف تقديره اتبعوا أقوال إبراهيم إلا قوله لأبيه لأستغفرن لك كذا قال صاحب البحر المواج، وعندي أنه استثناء من قوله في إبراهيم بتقدير المضاف تقديره قد كانت لكم أسوة حسنة في قول إبراهيم إلا قوله لأبيه لأستغفرن لك ولعل هذا هو المراد من كلام البيضاوي فإن استغفاره لأبيه الكافر لا ينبغي فيه التأسي والإتباع وإنما كان ذلك قبل النهي لموعدة وعدها إياه ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هذا من تمام المستثنى ولا يلزم من إستثناء المجموع إستثناء كل جزء منه

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الشمس، الآية: ١٤.

وكلمة من زائدة وشيء في محل النصب على المفعولية لا ملك ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ في محل النصب بتقدير القول يعني قال إبراهيم ومن معه ربنا عليك توكلنا وهو متصل بما قبل الاستثناء إذ هو أمر من الله تعالى للمؤمنين تتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم بين الكفار تقديره قولوا ربنا عليك توكلنا وتركنا موالاة الكفار والإستنصار بهم ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع ﴿رَبَّنَا﴾ كرر النداء بربنا لتأكيد المناجاة والإستعطاف ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني لا تسلطهم علينا فيعذبونا فيؤاخدونا بذلك فتكون فتنة لهم أي سبباً لعذابهم، وقال الزجاج يعني لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق وقال مجاهد لا تعذبنا بأيدهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا فإن المعاصي قد يكون سببا لتسليط الكفار على المؤمنين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يقدر أحد على إيصال الشر بمن يجبره ويتوكل عليه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الحاكم العالم المعتذر على إجابة الدعاء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي في إبراهيم ومن معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكرير لتأكيد الحث على التأسي ولذلك صدر بأنفسهم ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ أي يرجو إلقاء الله وثوابه ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ أي يرجوا إتيان يوم القيامة وقوله لمن كان بدل من لكم وفيه إيماء إلى أن الإيمان يقتضي التأسي عليه السلام وتركه يوذن بسوء العقيدة ولذلك عقبه بقوله ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن تأسي الأنبياء ويوالي الكفار ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن عبادة وعن تأسي رسله وعن كل شيء وإنما منفعة التأسي بالأنبياء راجع إلى المتأسي ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لأولياءه ولأهل لطاعة، قال البغوي قال مقاتل فلما أمر الله تعالى بعداوة الكفار وعادى المؤمنون أقربائهم وأظهروا لهم العداوة والبراءة علم الله تعالى شدة وجد المؤمنين بذلك أنزل الله بتسليتهم قوله ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ يعني كفار مكة ﴿مَّوَدَّةً﴾ فأنجز الله وعده قريباً فإن الآية نزلت قبل الفتح كما ذكرنا وبعد الفتح أسلم كل من كان بمكة وصاروا أولياء إلا من قتل منهم يوم الفتح كالحويرث بن نفيل وغيره وسميناهم في سورة النصر. فإن قيل كلمة الذين عاديتم عام تقتضي موالاة جميعهم وقد قتل منهم كافراً قلنا قد يطلق العام ويراد به الخاص مجازاً ألم تسمع قولهم ما من عام إلا وقد خص منه البعض وقد يسند الفعل إلى الكل مجازاً لوجود المسند إليه فيهم كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾(١) ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك وعلى كل شيء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فرط من موالاتهم قبل النهي ولما بقي من قلوبهم من ميل الرحم، أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت أتتني أمي راغبة فسألت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: صلة الوالد المشرك (٥٩٧٨).

النبيّ ﷺ أأصلها قال نعم فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[١] الآية، وأخرج أحمد والبزار والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير قال قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر وكان أبو بكرطلقها في الجاهلية فقدمت بنتها بهدايا فأبت أسماء أن تقبل منها أو تدخلها منزلها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن رسول الله ﷺ فأخبرته أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها فأنزل الله لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي تكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً بدل من الذين بدل إشتمال أي لا ينهاكم الله عن مبرتهم ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي تقضوا إليهم القسط والعدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وقال ابن عباس نزلت الآية في خزاعة كانوا قد صالحوا النبيّ ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا فرخص الله تعالى في مبرهم ومن هاهنا يظهر أنه يجوز دفع الصدقة النافلة إلى الذمي وقد مرت المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[٢] ومن ثم أمر النبيّ ﷺ بإعطاء سارة مولاة أبي عمر وكما ذكرنا في أول السورة والله أعلم ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وهم الرجال المشركون من أهل مكة بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا المخرجين ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من الموصول بدل إشتمال ومن هالهنا يظهر أن المنهي عنه إنما هو موالاة أهل الحرب دون مبرتهم يشرط أن لا يضربا لمؤمنين وقد قال الله تعالى في الأسارى من أهل الحرب ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[٣] والمن نوع من البر فعلى هذا يجوز دفع الصدقة النافلة لأهل الحرب أيضاً إن لم يكن في ذلك تقويتهم على الحرب وقد قال رسول الله ﷺ «في الكبد الحارة أجر» رواه البيهقي بسند صحيح فس شعب الإيمان عن سراقة بن مالك، وروى عنه أحمد بسند صحيح وابن ماجه بلفظ «في كل ذات كبد حرى أجر»[٤] وكذا روى أحمد عن ابن عمر أما دفع الزكاة إلى الكفار فلا يجوز إجماعاً وسند الإجماع حديث معاذ وفيه «قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم»[٥] ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي أهل الحرب ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل صدقة الماء (٣٦٨٦) وفي إسناده محمد بن إسحاق وهو مدلس.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة (١٣٩٥).

(٥) سورة الممتحنة، الآية: ١.

ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولا مفهوم لهذه الآية فإنه لا يجوز موالاة أهل الذمة أيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[١] وقوله ﷺ: «**المرء مع من أحب**»[٢] والله تعالى أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

روى البخاري وكذا مسلم عن عروة بن الزبير عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا كان فيما اشترط سهيل بن عمر على النبيّ ﷺ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه فكره المؤمنون ذلك وأبىٰ سهيل إلا ذلك فكاتبه النبيّ ﷺ فردّ يومئذ أبا جندل إلى سهيل بن عمر ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق فجاء أهلها يسئلون النبيّ ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها لما أنزل الله فيهن[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي فاختبروهن بما غلب على ظنكم موافقة قلوبهن ألسنتهن في الإيمان فإن الإيمان صفة القلب ولا يعلم بما في الصدور إلا الله تعالى ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ علما يمكنكم تحصيله وهو الظن الغالب

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة (٢٧١١).

بالخلق وظهور الأمارات وسماه علماً إيذاناً بأن الظن كالعلم في وجوب العمل به ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى﴾ ازواجهن ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾ لأنه ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لحصول الفرقة بين الكافر والمسلمة وقد مر في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[1] أنه يقع الفرقة بين المهاجرة وبين زوجها الكافر لمجرد الخروج من دار الحرب عند أبي حنيفة لاختلاف الدارين وعند الأئمة الثلاثة بعد ثلاث حيض من وقت إسلامه إن دخل بها وإلا فمن وقت إسلامها ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ بتجديد النكاح لعدم جواز نكاح الكافر بالمسلمة وجاز أن يكون التكرير للتأكيد، قال عروة في الحديث السابق فأخبرتني عائشة(رض) أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله (غفور رحيم) قال عروة قالت عائشة(رض) فمن أقرت بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ قد بايعناك كلاماً يكلمها به والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ما بايعهن إلا بقوله. وقال البغوي قال ابن عباس: أقبل رسول الله ﷺ معتمرا حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركوا مكة على أن ما أتاه من أهل مكة رده إليهم ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ لم يردوه إليه وكتبوا عليه كتاباً وختموا عليه فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم وقيل صيفي بن الراهب في طلبها وكان كافراً فقال يا محمد اردد عليَّ امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذا طينة الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن، قال ابن عباس امتحانهن أن تستحلف ما خرجت لبغض زوجها ولا عشقاً لرجل من المسلمين ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا لحدث أحدثته ولا التماس للدنيا ولا خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله ولرسول الله ﷺ فاستحلفها رسول الله ﷺ على ذلك فحلفت فلم يردها وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها فتزوجها عمر وكان يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء بعد الإمتحان ويعطي أزواجهن مهورهن، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أحمد قال هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في الهدنة فخرج أخواها عمارة والوليد بن عقبة حتى قدما رسول الله ﷺ وكلماه في أم كلثوم أن يردها إليهم فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة ومنع أن يردون إلى المشركين فأنزل الله آية الإمتحان، وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب أنه بلغه أنها نزلت في أميمة بنت بشر أو امرأة أبي حسان بن الدحداح، وأخرج عن مقاتل

(١) سورة النساء، الآية: ٢٤.

أن امرأة تسمى سعيدة كان تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك جاءت زمن الهدنة فقالوا ردها علينا، وأخرج ابن جرير عن الزهري أنها نزلت عليه وهو بأسفل الحديبية كان صالحهم أنه من أتاه منهم رد إليهم فلما جاءت النساء نزلت هذه الآية ﴿وَءَاتُوهُم﴾ الضمير عائد إلى الكفار والمراد أزواجهن ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ عليهن يعني المهور التي دفعوا إليهم وذلك لأن الصلح كان جرى على ردهن فلما تعذروهن لورود النهي عنه لزم رد مهورهن فلو رأى الإمام مصلحة على صلح مثل صالح النبيّ ﷺ بالحديبية وجب رد مهر مهاجرة جاءت من الكفار، قال البغوي قال الزهري ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء لم يرد الصداق وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد والله تعالى أعلم ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي المهاجرات وإن كان لهن أزواج في دار الحرب لوقوع الفرقة بينهم وبينهن والآية تدل على عدم اشتراط مضى العدة كما هو في مذهب أبي حنيفة خلافاً لصاحبه ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن شرط إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن أعطى أزواجهن الكفار لا يقوم مقام المهر، أخرج ابن أبي منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ﴾ قرأ أبو عمر ويعقوب بالتشديد من التفعيل والباقون بالتخفيف من الإفعال ﴿بِعِصَمِ﴾ جمع عصمة وهو ما اعتصم به من عقد الموالاة والنكاح ونحو ذلك ﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾ جمع الكافرة نهى الله سبحانه عن المقام على نكاح المشركات، قال البغوي قال الزهري فلما نزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب امرأتين بمكة مشركتين قرينة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جردل الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهيم بن حذافة ابن غانم وهما على شركهما وكانت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وهي على دين قومها ففرق الإسلام بينهما فتزوجها في الإسلام خالد بن سعد بن العاص بن أمية، قال الشعبي وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن اربيع أسلمت ولحقت بالنبيّ ﷺ وأقام أبو العاص بمكة مشركا ثم أتى المدينة وأسلم فردها على رسول الله ﷺ ﴿وَسْـَٔلُواْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنفَقْتُمْ﴾ من مهر امرأة منكم لحقت بالمشركين مرتدة إذا منعوها ممن تزوجها منهم ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ﴾ أي الكفار من مهرو أزواجهم المهاجرات ﴿مَآ أَنفَقُواْ﴾ ممن تزوجها منكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي جميع ما ذكر في الآية ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ استئناف أو حال من الحكم على حذف الضمير أو جعل الحكم

حاكماً على المبالغة والضمير يحكم عائد إليه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما يعلم خيراً لكم وما تقتضيه الحكمة، وقال البغوى في قول الزهري فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله عز وجل وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم وأبي المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمروا من أداء نفقات المسلمين فأنزل الله ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أي إن سبقكم وأنفلت منكم ﴿شَيْءٌ﴾ أي أحد ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فلحقت بهم مرتدة وإيقاع شيء موقع أحد للتحقير والمبالغة في التعميم أو المعنى شيء من مهرو أزواجكم إلى الكفار فلم يؤدوها، أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال نزلت هذا الآية في أم الحكم بنت أبي سفيان إرتدت فتزوجها رجل ثقفي ولم ترتد امرأة من قريش غيرها ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ قال البغوي قال المفسرون معناه غنمتم فاصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة، وقيل معناه ظفرتم وكان العاقبة لكم، وقيل معناه اجتمعوهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ مرتدات إلى الكفار منكم من الغنايم التي صارت في أيديكم من الكفار ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي مثل ما أنفق المؤمنون الذين ذهب أزواجهم مرتدات عليهن، قال البغوي روى ابن عباس أنه قال لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة رجعن إلى الإسلام فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهورهن من الغنيمة أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزى بن فضلة وتزوجها عمر بن عبدو وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل وأم كلثوم بنت خردل كانت تحت عمر بن الخطاب، وقال البيضاوي وفي تفسير الآية فعاقبتم أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم لأداء المهر شبه الحكم بأداء هؤلاء مهور نساء اولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من المهر المهاجرة ولا توتوا زوجها الكافر، قلت والصحيح هو التفسير الأول، قال البغوي إختلف القول في أن أداء مهر من أسلمت أزواجهن هل كان واجباً أو مندوبا وأصله أن الصلح هل كان وقع على رد النساء أولا فيه قولان أحدهما أنه وقع على رد الرجال والنساء جيمعاً لما روى أنه لا يأتيك منا أحد إلا رددته ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فعلى هذا كان رد المهر واجباً عوضاً عن المرأة ثانيهما أن الصلح لم يقع على رد النساء لما روى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته ذلك لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في

الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت وأكرهت عليها لضعف قلبها وقلة هدايتها إلى المخرج فيه بإظهار كلمة الكفر تقية مع إخفاء الإيمان فعلى هذا كان الرد مندوباً، قلت والظاهر أن الصلح على رد الرجال والنساء جميعاً ومن ثم إذا هاجرت نساى مؤمنات نزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ولولا ذلك فلم يكن وجه لإرجاعهن إلى الكفار ولا لنزول الحكم وإن رد المهر كان واجباً كما يدل عليه صيغ الأمر وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إتيان ما أمر الله به فإن قيل فعلى هذا يلزم نقض العهد وهو حرام وقلنا نسخت حرمة نقض العهد في مادة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، أو تقول هذا من قبيل نبذ العهد على السؤال، قال البغوي واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في رد المهور إذا شرط رد النساء في معاقدة الكفار؟ فقال يوم لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة، قلت: لاوجه لهذا القول ما لم يثبت بهذا الحكم ناسخ مثله في القوة وقال قوم غير منسوخة ويرد إليهم ما انفقوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ حال من المؤمنات ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ متعلق بيبايعنك ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ على عادة الجاهلية فإنهم كانوا يوادون البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ أي بكذب يبهت السامع ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ أي يختلقن ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني لا يكون له مصداق تختلقه من عند أنفسها قبل قيد بهذا توبيخاً وتخويفاً بأن الأيدي والأرجل يشهدون يوم القيامة بما صدر من اللسان من المعاصي فلا تفترين بين الشهود، قيل المراد به أن تلتقط ولدا وتقول لزوجها هذا ولدي منك فهو البهتان بين الأيدي والأرجل لأن الولد تحمله أمها في بطنها بين يديها وتضعه من فرجها بين رجليها وصفه بصفة الولد الحقيقي واللفظ يعم كل بهتان ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ يعني في إتيان حسنة فأمرهن بها أو لانتهاء عن سيئة تنهاهن والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر بالمعروف تنبيهاً على أنه لا يجوز طاعة المخلوق في معصية الخالق، قال مجاهد المراد بالمعروف أن لا يخلو المرأة بالرجال، وقال سعيد بن المسيب والكلبي وعبد الرحمٰن بن زيد هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتحريق الثياب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه عند المصيبة ولا تحدث المرأة الرجال إلا ذا محرم ولا تخلوا برجل غير ذي محرم ولا تسافر إلا مع ذي محرم، وأخرج ابن الجرير والترمذي وحسنه وابن ماجه عن أم سلمة ولا يعصينك في معروف قال النوح.

روى البخاري عن أم عطية قالت بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا لا تشركن بالله شيئاً فانطلقت ورجعت وبايعها[١] وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ **«أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال قطران ودرع من جرب»**[٢] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: **«ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعى بدعاء الجاهلية»**[٣] وروى أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال «لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة»[٤] ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ بضمان الثواب على الوفاء بهذ الشروط جزاء لقوله إذا جاءك المؤمنات ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عما مضى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يحق ما سلف من العبد عصيانه ﴿رَّحِيمٌ﴾ يوفق فيما يأتي، روى البخاري عن عائشة قالت كان النبيّ ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية لا يشركن بالله شيئاً قالت وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها[٥]، وروى البغوي بسنده عن محمد بن المنكدر أنه سمع أميمة بنت رقيقة تقول بايعت رسول الله ﷺ في نسوة فقال فيما استطعتن وأطقتن فقلت رسول الله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا قلت يا رسول الله صافحنا فقال «إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة كقولي لمائة امرأة» قيل نزلت هذه الآية يوم الفتح وليس لك لما ذكرنا في تفسير آية الإمتحان حديث عائشة(رض) أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وآية الامتحان قد نزلت بعد صلح الحديبية ولكن النبيّ ﷺ يوم فتح مكة فرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا بايع النساء وعمر بن الخطاب أسفل منه وهو يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ يبلغهن عنه وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان مقنعة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكن على أن تشركن بالله شيئاً» فرفعت هند رأسها فقالت والله إنك لتأخذ أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال النبيّ ﷺ ولا يسرقن فقالت هند إن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: بيعة النساء (٧٢١٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجنائز، باب: التشديد في النياحة (٩٣٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اشروط، باب: ليس منا من شق الجيوب (١٢٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الحدود وشق الجيوب (١٠٣).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: في النوح (٣١٢٦).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: بيعة النساء (٧٢١٤).

أبا سفيان رجل شحيح وأني أصبت من ماله هناة فلا أدري أتحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ فقال لها وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك، فقال ولا تزنين، فقالت هند أو تزني الحرة؟ فقال ولا تقتلن أولادهن، فقالت هند ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله ﷺ، فقال ولا تأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، فقالت هند والله إن البهتان قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال ولا يعصينك في معروف، قالت هند ما جلسنا مجلسنا هذا ولي أنفسنا أن تعصينك في شيء فأقر النسوة بما أخذ عليهن، وإنما خصت النساء في البيعة بهذا التفصيل مع أن بيعة الرجال على الإسلام يشتمل إنقياد رسول الله ﷺ في جميع ما أمر به لضعف عقلهن وقلة تفقههن لاستنباط التفصيل من الإجمال ولكثرة وقوع الأمور المذكورة من النساء ألا ترى إلى كثير من النساء المسلمات يعتقدن ما يستلزم الشرك ويسرقن كثيراً من أموال الأزواج ويقتلن أولادهن بالواد والزنا من النساء وأقبح من الرجال غالباً لأن فيه تفويت حق الزوج مع حق الله تعالى ونسبة أولاد الغير إلى أزواجهن وإرائهن إياهم أموال الأزواج وإنهن تأتين كثيراً بالبهتان والكذب ويكثرن اللعن ويكفرن العشية ويكثرن النياحة الدعاء بالويل وضرب الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك ما لا يفعله الرجال غالباً فلذا خصهن بتفصيل هذه الشروط كما خص الرجال بشرط الجهاد الذي اختص به والله تعالى أعلم.

أخرج ابن المنذر من طريق ابن إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال كان عبد الله بن عمر وزيد بن الحارث يوادون رجالاً من يهود فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني اليهود وكما يدل علمه قول ابن عباس المذكور وكذا قال البغوي أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين يتواصلونهم فيصيبون من ثمارهم فنهاهم الله تعالى عن ذلك وقيل المراد به عامة الكفار ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إن كان المراد بهم اليهود فهم ليعلمهم يكون محمد ﷺ نبياً حقاً مؤيداً بالمعجزات مكتوباً عندهم في التوراة وكفرهم به ﷺ عناداً وحسداً بتسلط الشيطان وما كتب الله عليهم الشقاوة يئسوا من نعماء الآخرة وعلموا يقيناً أنه لا حظ لهم في الآخرة مع اعتقادهم بالآخرة ونعمائها فما أصبرهم على النار أعوذ بالله منها وإن كان المراد به عامة الكفار فهم يئسوا من الآخرة بعدم إيمانهم بالغيب والثواب والعذاب ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ أي المشركين ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أن يبعثوا ويثابوا أو ينالهم

خيراً بينهم وعلى تقدير كون المراد بقوم غضب الله عليهم عامة الكفار وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الكفر أيسهم فالجار والمجرور ظرف لغو متعلق بيئس، وقيل هو ظرف مستقر بيان للكفار حال منه والمعنى كما يئس الكفار الذين صاروا في القبور من أن يكون لهم حظ وثواب في الآخرة كذلك يئس اليهود من الآخرة حياً في الدنيا كذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والله تعالى أعلم.

سورة الصف

آياتها أربع عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن عبد الله بن سلام قال قعدنا نقرأ من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعلمناه فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ قرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، وذكر البغوي قول المفسرين أن المؤمنين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله عز وجل لعملنا وبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال قالوا لوكنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل لعلمنا فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ فكرهوا الجهاد فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن عباس نحوه وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس وابن جرير عن الضحاك قال

أنزلت ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ في الرجل في القتال ما لا يفعله من الضرب والطعن والقتل، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت في قولهم يوم أحد وقال محمد بن كعب لما أخبر الله رسوله ﷺ ثواب شهداء بدر قالت الصحابة لئن لقينا بعده قتالاً لنفرغن فيه وسعنا خفروا يوم أحد فعيرهم الله بهذه الآية، وقال ابن زيد نزلت في المنافقين كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ المقت أشد الغضب ونصبه على التميز من نسبة كبر إلى فاعله وهو أن تقولوا وفيه دلالة على أن قولهم هذا مقت خالص كبير عند الله الذي يحقر دونه كل عظيم مبالغة في المنع من أن يقولوا كذبا ما لا يفعلوه أو يعدوا شيئاً ثم لا يفوا به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ أي مصطفين مصدر بمعنى الفاعل أو وصف به مبالغة، وجاز أن يكون صفاً مصدر بفعل محذوف والجملة حال من فاعل يقاتلون تقديره يصفون في أنفسهم صفاً لا يزالون في القتال عن أماكنهم ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ في تراصهم من غير فرجة وبلا تحرك للفرار حال من المستكن في الحال الأول والرص إتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه ﴿وَ﴾ آذكر ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ بني إسرائيل ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بالعصيان والرمي بالأدرة وهي نفخة في الخصيتين ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ بما جئتكم بالمعجزات وانجيتكم من أهل فرعون يسومونكم سوء العذاب، وجاوزت بكم البحر والعلم بالنبوة يوجب التعظيم ويمنع الإيذاء ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي عدلوا عن الحق ولم يمتنعوا عن الإيذاء ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ هداية موصولة إلى معرفة الحق أو الجنة، قال الزجاج لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لعله لم يقل يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾ أي من قبل ﴿مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ أسكن الباء ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وفتحها الباقون ومصدقاً ومبشراً حالان من ضمير إني رسول الله والعامل فيهما وفي الرسول من معنى الإرسال لا الجار والمجرور فإنه ظرف لغوصلة للرسول فلا يعمل ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ وهو أحد إسمي رسول الله ﷺ أفعل من الحمد يعني أكثر حامدية لله تعالى من غيره والأنبياء كلهم حمادون وأكثر محمودية من غيره من المخلوقات والأنبياء كلهم محمودون موصوفون بالخصال الحميدة وهو ﷺ أكثر مناقباً وأجمع خصائلاً ومحاسناً بها يستحق الحمد من غيره، قال المجدد(رض) إسمه ﷺ أحمد له خصوصية بنشأ الروحانية، ولذلك سماه عيسى بذلك الاسم قبل إنشاء العنصرية بالجسمانية واسمه عليه السلام محمد له خصوصية

بنشأ الجسمانية وله ولايتان ولاية محمدية وهي المحبوبية الممتزجة بالمحبة وولاية أحمدية وهي المحبوبية الخالصة، فعلى هذا الأولى أن يقال اشتقاقه من المحمودية والله تعالى أعلم، ذكر عيسى عليه السلام تصديقه بالأنبياء حتى يكون دليلاً على صدق دعواه الرسالة فإن الحق يطابق الحق والأنبياء وشهداء بعضهم لبعض فذاك أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم المرسلين الذي بشر به الأنبياء كلهم والتوراة وغيرها من الكتب السماوية ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ عيسى أو أحمد ﷺ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الظاهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وبالقرآن المعجز الباقي بمضي الدهور والأزمان وشق القمر وغير ذلك ما لا يحصى والظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني كفار بني إسرائيل أو كفار قريش وغيرهم ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ قرأ حمزة ساحر إشارة إلى عيسى أو محمد ﷺ وقرأ الباقون سحر إشارة إلى ما جاء به المعجزات ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر ﴿وَمَنْ﴾ يعني لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ نسبة الشريك والولد إليه وبأن قالوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾(١) و﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾(٢) أو قال شريعة موسى شريعة مؤبدة إلى يوم القيامة ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الظاهر حقيقة المقتضى له خير الدارين فيضع موضع الإجابة الإفتراء على الله ويكذب رسله ويسمى آياته سحراً حال من فاعل أفترى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني من كان في علمه القديم ظالماً، فالله لا يرشده الحق وإلى ما فيه فلاحه ﴿يُرِيدُونَ﴾ حال للقوم الظالمين أو إستئناف في جواب قائل يقول ما شأنهم ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ أن يطفؤا واللام مزيدة لما فيه من معنى الإرادة كما زيدت في لا أبالك لما فيها من معنى الإضافة أو للمتعليل والمفعول به محذوف أي يريدون الإفتراء ليطفؤا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي دينه ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بمقالاتهم الكاذبة المفتراة كمن يريد أن يطفيء نور الشمس والقمر يطف ففيه إشارة إلى تمثيل لطيف ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي مبلغ غايته بنشره وإعلائه، قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بالإضافة والباقون بالتنوين والنصب ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كلمة لو متصلة للتسوية والجملة حال أي مستويا كراهة المشركين وعدمها يعني أنه تعالى لا يبالي في إعلاء دينه كراهة المشركين ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمد ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي بما يهتدي به الناس إلى الحق، من القرآن والمعجزات الباهرة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي دين الله وهو الملة

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

الحنيفة البيضاء ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ بالسيف والحجة ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي جميع الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ قد مر نظيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ قرأ ابن عامر بالتشديد من التفصيل للتكثير والباقون مخففاً من الإفعال ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كما أن تجارة الدنيا تنجي من الفقر وعذاب الجوع ونحو ذلك، أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ قال المسلمون لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين فنزل قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ بيان للتجارة يعني هي الجمع بين الإيمان وبين المجاهدة بالأموال والأنفس سمي تجارة لأن فيه مبادلة الأموال والأنفس بنعيم الآخرة ورضوان الله ومبادلة الأهواء يعني العقائد الباطلة بالعلوم الحقة المكفى عنها بالإيمان وفيه مرابحة صريحة، أورد لفظ الخبر والمراد به الأمر إيذاناً بأن هذا الشيء لا يترك، وإشعاراً بمدح الصحابة بأنهم معتادون بذاك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الجمع بين الإيمان والمجاهدة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الأهواء والأنفس والأموال ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما مضى إن كنتم تعلمون كونه خيراً فأتوا به ولا تتركوه والمعنى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان حينئذ خيراً لكم حيث تحبون الإيمان والجهاد وفوق كل شيء ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي الله سبحانه ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ للأمر المدلول عليه بقوله تؤمنون وتجاهدون تقديره إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم أو للاستفهام المدلول عليه للإستفهام المذكور تقديره هل تقبلون أن أدلكم أن تقبلوا يغفر لكم، ولا يجوز أن يكون جواباً باطل أدلكم لأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة إلا أن يقال أن الدلالة سبب للعمل والعمل يوجب المغفرة فقد رتب المسبب على سبب السبب إيذاناً بقوة سببية دلالته وإرشاده ﷺ للإهتداء بقوة تأثير نفسه الشريفة ووضوح أمره بحيث لا

يضل بعدها إلا من هو أشقى الناس في علم الله تعالى وأخبث الإستعداد ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ عطف الجزء على الكل ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي استقرار وثبات يقال عدن بمكان كذا أي استقر ومنه المعدن المستقر للجوهر، قال القرطبي قيل الجنات سبع دار الحلال ودار السلام ودار الخلد وجنة عدن وجننة المأوى وجنة نعيم وجنة الفردوس وقيل أربع فقط كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[1] ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾[2] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[3] والأربعة كلها يوصف بالمأوى والخلد والعدن والسلام، وهذا ما اختاره الحكيم أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عمر قال: خلق الله تبارك وتعالى أربعاً بيده العرش وعدن والقلم وآدم ثم قال لكل شيء كن فكان، وأخرج ابن المبارك والطبراني وأبو الشيخ والبيهقي عن عمران بن حفصين وأبي هريرة قال سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ قال قصر من اللؤلؤ في ذلك القصر داراً من ياقوت حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمرد خضراء في كل بيت سرير على كل سرير سبعون لوناً من الطعام في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ويعطي المؤمن في كل غداة من القوة ما يأتي على ذلك كله أجمع ﴿ذَٰلِكَ﴾ المغفرة وإدخال الجنة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يستحقر بالنسبة إليه كل فوز ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ مرفوع على الإبتداء والخبر محذوف أي ذلك نعمة عاجلة أو منصوب بإضمار يعطيكم أو تحبون أو مجرور عطف على تجارة، يعني هل أدلكم على تجارة تنجيكم وتجارة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ صفة الأخرى وفيه تعريض أن الناس يؤثرون العاجل على الأجل ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل يعني النصرة على قريش وفتح مكة أو فتح خيبر وقال عطاء يريد فتح فارس والروم، قلت: الظاهر أن المراد جنس النصرة والفتح فإنهما يترتبان على السعي والمجاهدة من العبد قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[4] فإن كان أخرى مرفوعاً على الإبتداء والخبر محذوف فقوله نصر وفتح بدل أو بيان وجاز أن يكون أخرى مبتدأ

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ (٤٨٧٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

(٤) سورة الحج، الآية: ٤٠.

وهذا خبره وعلى قول النصب والخبر هذا خبر مبتدأ محذوف أي هو نصر وفتح والجملة صفة الأخرى أو استئناف ﴿وَبَشِّرِ﴾ أيها الرسول ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما وعدهم عليها عاجلاً واحداً عطف على محذوف تقديره قل يا محمد ياأيها الذين آمنوا أهل أدلكم وبشرهم أو على تؤمنون فإنه في معنى الأمر كأنه قال آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم أيها الرسول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دينه قرأ الكوفيون وابنعامر بالإضافة والحجازيون وأبو عمرو بالتنوين ولام في الله على أن المعنى كونوا بعض أنصار الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ تشبيه باعتبار المعنى والمراد قل يا محمد ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى أو كونوا أنصار الله كما كان الحواريون حين قال عيسى ابن مريم ﴿للحواريين﴾ قد مر تحقيق الحواريين في سورة آل عمران ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ فتح الياء نافع وأسكنها الباقون أي جندي متوجهاً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى نصر دينه ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أول من آمن به وكانوا إثنا عشر رجلاً كما مر هناك ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ إضافة الأنصار إلى عيسى إضافة أحد المتشاركين إلى الأخرى لما بينهما من الاختصاص والإضافة إلى الله أي إلى دينه إضافة الفاعل على المفعول ﴿فَـَٔامَنَت﴾ بعيسى ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اسبقهم إلى الإيمان الحواريون ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ معهم ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالحجة أو بالحرب ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ غالبين قال البغوي قال ابن عباس لما رفع عيسى تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه الله وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال وروى المغيرة عن إبراهيم قال أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى كلمة الله وروحه، قلت لكن عطف قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت﴾ وقوله تعالى فأَيَّدْنَا وفَاصْبَحُوا على قوله قال الحواريون بكلمة الفاء التي للتعقيب بلا تراخ يدل على أن بعضهم كفر من بعض وتأيده الله تعالى للمؤمنين وظهورهم على الكافرين بعد قول الحواريين ذلك بلا مهلة والله تعالى أعلم.

سورة الجمعة

آياتها إحدى عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ المتزه عما لا يليق ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في ملكه وصنعه فإن كل شيء يدل على وجوده وينزه عما لا يليق بشأنه وأيضاً كل شيء وإن كان جماداً فله نوع من الحياة والشعور فيقر بوحدانيته ويسبحه ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ يعني العرب كان أكثرهم لا يكتبون ولا يقرأون ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي من جملتهم أمياً مثلهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ تعالى مع كونه أمياً لم يعهد منه قراءة ولا تعلماً ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك والخبائث ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ المعجز البليغ الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتون بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الشريعة المحكمة المطابقة بشرائع الأنبياء في الأصول المشهود عليها بالكتب السماوية بالقبول ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ يعني وأنهم يعني العرب كانوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بعثته ﷺ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ظاهر بطلانه حيث يعبدون الحجارة ويأكلون الجيفة ويقولون ويعتقدون ما لا يقبل العقل والنقل ﴿وَآخَرِينَ﴾ عطف على الضمير المنصوب في يعلمهم أي ويعلم أمما آخرين منهم أي كائنين من جنس الأولين حيث يدينون بدينهم ويسلكون على طريقهم، قال عكرمة ومقاتل هم التابعون، وقال ابن زيدهم جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة وهي رواية ابن نجيح عن مجاهد، وقال

عمرو بن سعيد بن جبيرو ليث عن مجاهدهم العجم لحديث أبي هريرة قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ قال رجل من هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه رسول الله ﷺ حتى سأل مرتين أو ثلاثاً قال فينا سلمان الفارسي قال فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء**»[1] متفق عليه، وفي رواية عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**لو كان الدين عند الثريا بالذهب إليه رجل أو قال رجال من أبناء فارس حتى يتناولوه**» قلت هذا الحديث يدل على فضل رجال من العجم وإنهم ممن أريد بهذه الآية ولا دليل على نفي خيرهم على ما يدل عليه عموم الآية ولعل المراد لقوله ﷺ من هؤلاء أبناء فارس أكابر النقشبندية(رض) فإنهم من آل بخارى أو سمرقند ونحو ذلك وهم منتسبون في الطريق إلى سلمان الفارسي(رض) فإنهم ينتسبون إلى جعفر الصادق عن القاسم بن محمد عن سلمان عن أبي بكر الصديق عن رسول الله ﷺ ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي لم يدركوهم ولكنهم يكونون بعدهم وقيل لما يلحقوا بهم في الفضل والثواب لأن التابعين ومن بعدهم لا يدركون فضل الصحابة حيث قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[2] متفق عليه من حديث أبي سعيد ويرد على هذا التأويل أن المراد لو كان كذلك لورد بصيغة المضارع أي لا يلحقوا بهم في المستقبل من الزمان دون الماضي فإن لما يقتضي نفي اللحوق في الماضي والتوقع في المستقبل إلا أن يقال إلا يراد بصيغة الماضي للدلالة على تحقيق وجودهم ونفي للحوق المستفاد من كلمة لا نظراً إلى الأكثر وتوقع اللحوق نظراً إلى بعض من يأتي بعدهم ولو بعد ألف سنة فكأنه إشارة إلى المجدد ألف ثاني وكمل خلفائه فإنهم بلغوا بكمال متابعة النبيّ ﷺ ووراثته تبعاً ونيل أقصى كمالاته واكتسبوا كمالات النبوة والرسالة وأولي العزم والخلة والمحبة والمحبوبية التي لم يتحقق بعد الصدر الأول فاشتبهوا بالصحابة فصار مثل لأمة المرحومة كمثل المطر لا يدرىٰ أوله خير أوآخره كما قال رسول الله ﷺ: «**مثل أمتي كمثل المطر لا يدرىٰ أوله خير أو آخره أو كحديقة أطعم فوج منها عاماً ونوج منها عاماً لعل أخرها فوجاً هي أعرضها عرضاً**

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ (٤٨٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فارس (٢٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذا خليلا» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

وأعمقها عمقاً وأحسنها حسناً» رواه رزين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم الخارق للعادة وتأييده عليه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في اختياره وإياه من بين كافة البشر وتعليمه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي بعثة محمد ﷺ وتعليمه وتزكية الضالين ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ على محمد ﷺ حيث إصطفاه وجعله هادياً وعلى من اتبعه حيث هداهم وزكاهم به عليه السلام ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ عطائه ويقتضيه حكمته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي يستحقر دونه كل نعمة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ علموها وكلفوا بالعمل بها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي لم يعملوا بما فيها ولم ينتفعوا بها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ كتباً من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها وجملة يحمل حال من الحمار والعامل فيه معنى المثل أو صفة له إذ ليس المراد الحمار المعين نظيره ولقد أمر على اللئيم يسبني وهكذا كل عالم لا يعمل بعلمه، قال رسول الله ﷺ: «**اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**»[١] رواه ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهم اليهود كذبوا بالقرآن وبآيات التوراة الدالة على نبوة محمد ﷺ، والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثل القوم المكذبين مثلهم أو هو الموصول بحذف المضاف أي بئس القوم مثل الذين كذبوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وقت اختيارهم الظلم أو لا يهدي من سبق في علمه أنه يكون ظالماً.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي تهودوا ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ فأنهم كانوا يقولون نحن أولياء الله وأحباءه ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني محمداً ﷺ وأصحابه ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي ادعوه من دون الله تعالى على أنفسكم حتى تنقلوا من دار البلية إلى دار الكرامة فإن الموت جسر توصل الحبيب إلى الحبيب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم فتمنوه وقد ذكرنا مسألة جواز تمني الموت وعدمه في صورة البقر في مثل هذه الآية ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فإنهم يعلمون علماً يقيناً أنهم استحقوا النار الكبرى بسبب ما قدموا من

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٢).

الكفر والمعاصي وتحريف آيات التوراة الناطقة ببعث محمد ﷺ فكيف يتمنون الموت الموصلة إلى النار فإنهم أحرص الناس على حياة يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وأشد خوفاً وفراراً من الموت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيجاديهم على ما قدموا ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أيها اليهود أي تخافون أشد المخافة من أن يصيبكم فتؤخذوا بأعمالكم ولا تجزون على تمنيه ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ لا حق بكم لا محالة لا ينفعكم الفرار منه، الجملة خبر أن ذكر الله سبحانه أن المؤكدة في الجملة مكرراً لكمال التأكيد نظراً إلى كمال إصرارهم على الكفر والمعاصي الذي كان هو الدليل على شدة إنكارهم الموت، والفاء لتضمن الإسم معنى الشرط باعتبار الوصف كأنه فرارهم يسرع لحوقه بهم فكأنه سبب اللحوق وذلك أن الفرار من الموت موجب للغفلة عنه وفي الغفلة لا يظهر طول البقاء في الدنيا ويظهر كأنه الموت جاء سريعاً ومن كان ذكر الموت مشتاقاً له يشق عليه البقاء في الدنيا وينتظر الموت غالباً فيظهر عليه طول الحياة وبعد الموت لشدة اشتياقه، وجاز أن يكون الخبر محذوفاً والفاء للتعليل والتقدير أن الموت الذي تفرون منه لا ينفعكم الفرار منه فإنه أي لأنه ملاقيكم البتة وحينئذ لا يلزم تكرار أن على حكم واحد وجاز أن يكون الموصول خبراً لأن الفاء عاطفة يعطف على الخبر أو على الجملة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أذن من ﴿يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيان لإذ أو قيل من هاهنا بمعنى في كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[1] أي في الأرض.

اختلف العلماء في تسمية هذا اليوم بالجمعة مع الإتفاق على أنه كان يسمى في

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٤.

الجاهلية بالعروبة معناه اليوم البين المعظم من أعرب إذا بين، قيل أول من سماه جمعة كعب بن لؤي وهو أول من قال أما بعد كانت تجمع إليه قريش في هذا اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبيّ ﷺ ويعملهم بأنه من مولده ويأمرهم باتباعه والإيمان به وينشد في ذلك أبياتاً منها قوله: يا ليتني شاهداً نجواء دعوته. إذا قريش تبتغي الحق خذلانا. وكان بنو إسماعيل يؤرخون ببناء الكعبة فلما مات كعب بن لؤي أرخ الناس من موته حتى كان عام الفيل وهو مولد النبيّ ﷺ فأرخ الناس منه إلى أن هاجر النبيّ ﷺ وكان بين موت كعب ومبعث النبيّ ﷺ خمسمائة وستون سنة كذا في شرح خلاصة السير، وقيل سمي بالجمعة لأن الخلائق يجمع فيه كذا ذكر أبو حذيفة البخاري في المبتدأ عن ابن عباس وإسناده ضعيف وقيل لأنه جمع فيه خلق آدم عليه السلام، روى أحمد والنسائي وابن خزيمة وابن حبان عن سلمان(رض) أن رسول الله ﷺ قال أتدري ما يوم الجمعة؟ قلت الله ورسوله أعلم، قالها ثلاث مرات قال في الثالثة «هو اليوم الذي جمع فيه أبوكم» الحديث، وله شاهد عن أبي هريرة رواه ابن أبي حاتم موقوفاً بإسناد قوي وأحمد موقوفاً بإسناد ضعيف قال الحافظ ابن حجر وهذا أصح ويليه ما رواه عبد الرزاق عن ابن سيرين بإسناد صحيح إليه في قصة اجتماع الأنصار مع أسد بن زرارة (رض) وكانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة صلّى بهم وذكرهم فسموه يوم الجمعة وذلك قبل قدوم النبيّ ﷺ أن يجمع فكتب إلى مصعب بن عمير (رض) أما بعد فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور لسنتهم فاجمعوا فيه نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين، قال: أول من جمع مصعب حتى قدم رسول الله ﷺ وفي سنده أحمد بن محمد بن غالب الباهلي وهو متهم بالوضع قال الزهري والمعروف في هذا المتن الإرسال، وقيل كان ذلك باجتهاد الصحابة روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن ينزل الجمعة فقالت الأنصار إن لليهود يوماً يجمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلم فلنجعل يوماً فجمع فيه فنذكر الله ونصلّي ونشكر فجعلوا يوم العروبة واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ وأنزل الله عز وجل بعد ذلك ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ قال الحافظ هذا وإن كان مرسلاً فله شاهد بإسناد حسن رواه أبو داود وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وغير واحد من حديث كعب بن مالك (رض) عنه قال كان أول أول من صلّى بن الجمعة، قبل مقدم النبيّ ﷺ المدينة أسعد بن زرارة(١) الحديث أو كان كعب إذا سمع

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فرض الجمعة (١٠٨٢).

نداء الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة قال عبد الرحمن بن كعب قلت لكعب كم كنتم يومئذ؟ قال أربعون فمرسل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالاجتهاد ولا يمنع ذلك أن يكون النبيّ ﷺ علم بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها كما في حديث ابن عباس والمرسل بعد ذلك ولذلك جمع بهم رسول الله ﷺ أول ما قدم المدينة.

قصة: مقدم النبيّ ﷺ المدينة وأول جمعة صلّى: روى البخاري عن عائشة (رض) وابن سعد عن جماعة من الصحابة أن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرون حتى تعليهم الشمس على الظلال ويؤذيهم والظهيرة وذلك في أيام حارة، حتى كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت فإذا رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فنظر رسول الله ﷺ فنادى بأعلى صوته يا بني قبيلة يعني الأنصار هذا صاحبكم الذي تنتظرون فثار المسلمون فتلقوا رسول الله ﷺ ذلك يوم الإثنين لهلال ربيع الأول أي أول ليلة، وفي رواية جرير بن حازم عن أبي إسحاق لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وفي رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق لاثني عشر ليلة خلت وعند أبي سعيد لثلاث عشرة من ربيع الأول، قال الحافظ الأكثر أنه قدم نهاراً ووقع في رواية لمسلم ليلاً ويجمع بأن القدوم كان كان آخر الليل فدخل بها نهاراً، فنزل رسول الله ﷺ بهم قباء في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم وأبو بكر حبيب بن أساف أحد بني الحارث فصاح كلثوم بغلام له يا نجيح فقال رسول الله ﷺ نجحت يا أبا بكر وكان لكلثوم بن هدم بقبا مربد يعني الموضع الذي يبسط فيه التمر ليجف فأخذه رسول الله ﷺ وبناه مسجداً في الصحيح أقام رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وفي رواية عبد الرزاق بنى المسجد بنو عمرو بن عوف، وفي الصحيح أنه ﷺ أقام فيهم بضع عشر ليلة وفيه عن أنس أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وقال ابن إسحاق خمس ليال وقال ابن حبان أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة، وقال ابن عباس وابن عقبة ثلاث ليال فكأنهم لم يعتد اليوم الخروج ولا الدخول وعن قوم من بني عمرو بن عوف أنه أقام إثنين وعشرين يوماً. روى أحمد والشيخان عن أبي بكر وسعد بن منصور عن ابن الزبير وابن إسحاق عن عويم بن ساعد وغيرهم أن رسول الله ﷺ أرسل إلى بني النجار وكانوا إخوانهم لأن أم عبد المطلب كانت منهم فجاؤا متقلدين بالسيوف فقالوا لرسول الله ﷺ وأصحابه إركبوا آمنين مطاعين وكان اليوم يوم الجمعة فركب رسول الله ﷺ ناقته القصوى والناس معه عن يمينه وشماله وخلد منهم الراكب والماشي فاجتمعت بنو عمرو بن عوف

فقالوا يا رسول الله أخرجت حلالاً أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال إني أمرت بقرية تأكل القرى فخلوها أي ناقة فإنها مأمورة فخرج رسول الله ﷺ من قباء يريد المدينة فتلقاه الناس يقولون الله أكبر جاء رسول الله ﷺ.

روى البيهقي عن عائشة جعل النساء والولائد والصبيان يقلن طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى لله داع، أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع، وروى أحمد عن أنس «أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحاً برسول الله ﷺ» روى البخاري عن البراء قال: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ(١). فلم يمر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا هلم يا رسول الله أتى للفرد المنعة والثروة فيقول لهم خيراً ويدعوا ويقول إنها مأمورة خلوا سبيلها فمر ببني سالم فقام إليه عتبان بن مالك ونوفل بن عبد الله بن مالك وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أنزل فينا العدد والعدة والحلقة ونحن أصحاب العصباء والحدائق والدرك يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البحرة خائفاً يلجأ إلينا فجعل رسول الله ﷺ يتبسم ويقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فقام إليه عبد الله بن الصامت وعباس بن فضلة فجعلا يقولان يا رسول الله ﷺ إنزل فينا فيقول بارك الله عليكم إنها مأمورة فلما أتى مسجد بني سالم وهو المسجد الذي في الوادي وادي وانونا، قال البغوي أدركت الجمعة في بني سالم بن عمرو بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ اليوم في ذلك مسجداً فصلاّها في ذلك الوادي، قيل كانت أول جمعة صلاها في المدينة وأول خطبة خطبها في الإسلام وقيل إنه كان يصلّي في مسجد قباء عند ابن سعد أنه ﷺ لما علي صلّي معه الجمعة مائة نفس ثم أخذ رسول الله ﷺ عن يمين الطريق فمر ببني ساعدة فقال سعد بن عبادة والمنذر بن عمر وأبو دجانة هلم يا رسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد، وسعد يقول يا رسول الله ليس من قومي أكثر غدقاً ولا قم بئر مني مع الثروة والجلد والعدو فيقول رسول الله ﷺ يا أبا ثابت خل سبيلها فإنها مأمورة فمضى واعترضه سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وبشر بن سعد فقالا أين يا رسول الله لا تجاوزنا واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمر يقولان نحو ذلك فقال خلوا سبيلها فإنها مأمورة، ثم مر ببني عدي البخاري وهم أخواله، فقال أبو سليط وصرفة بن أبي أنيس يا رسول الله نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة مع القرابة لا تجاوزنا إلى غيرنا يا رسول الله ليس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة (٣٩٢٥).

أحد من قومنا أولىٰ بك لقرابتنا بك فقال خلوا سبيلها فإنها مأمورة فصارت حتى وازيت دار بني عدي ابن النجار قامت إليه وجوههم ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد فبركت على باب مسجد النبيّ ﷺ فجعل جبار ابن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فلم يفعل فنزل رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب هذا المنزل إن شاء الله تعالى فنزل رسول الله ﷺ وقال: «**اللّهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين**» قال أربع مرات.

روى الطبراني عن ابن الزبير نزل رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب ونزل معه زيد بن حارثة قال ابن إسحاق في المبتدأ وابن هشام في التيجان: إن بيت أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمه المدينة بناه تبع الأول وكان معه أربعمائة أحبار فتعاقدوا على أن لا تخرجوا منها فسألهم تبع عن سر ذلك فقالوا إنا نجد في كتابنا أن نبياً اسمه محمد ﷺ هذه دار هجرته فنحن نقيم لعلنا نلقاه فأراد تبع الإقامة معهم ثم بدا له فعمر لكل واحد من أولئك داراً واشترى له جارية وزوجها منه وأعطاه مالاً جزيلاً وكتب كتاباً فيه إسلامه وفيه شهد على أحمد أنه رسول الله ﷺ بارىء النسم فلولا عمري إلى عمره لكنت وزيراً أو ابن عم، وختم بالذهب ودفعه إلى كبيرهم وسأله أن يدفعه إلى النبي ﷺ أن أدركه وإلا فمن أدركه من ولده وولد ولده وبنى للنبي ﷺ داراً لينزلها إذا قدم المدينة فدار الدار إلى إعلائك إلى أن صارت لأبي أيوب وهو من ولد ذلك العالم وأهل المدينة الذين نصروه من أولاد أولئك العلماء، ويقال: إن الكتاب الذي فيه الشعر كان عند أبي يوسف حتى دفعه إلى رسول الله ﷺ وهو غريب فيما نزل رسول الله ﷺ إلقاء في بيته والله تعالى أعلم.

مسألة:

قيل المراد بهذا النداء في الآية الأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة لحديث ابن يزيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمكام على المنير على عهد النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء(١)، وتسميته ثالثاً باعتداد الإقامة ثانياً فعلى هذا قيل السعي إلى الجمعة وترك البيع ونحوه إنما يجب بالنداء الثاني والصحيح أن السعي وترك البيع ونحوه يجب بالأذان الأول لعموم قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ وصدقه على الأذان الأول أيضاً ﴿فَٱسْعَوْا﴾ يعني فامضوا أو كان عمر بن الخطاب يقرأ فأمضوا وكذلك هي في قراءة ابن مسعود،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الأذان يوم الجمعة (٩١٢).

وقال الحسن أما والله ما هو بالسعي عن الإقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع، وعن قتادة في هذه الآية أنه قال السعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾[1] يعني فلما مشى معه، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾[3] أي عملكم لشتى وقد نهى رسول الله ﷺ السعي بمعنى العدو عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها تمشون وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا**»[4] رواه الستة في كتبهم، وروى أحمد وما فاتكم فاقضوا ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يعني الصلاة وقال سعيد بن المسيب هو موعظة الإمام يعني الخطبة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أراد ترك ما يشغل عن الصلاة والخطبة وإنما خص البيع بالذكر لاشتغالهم غالباً بعد الزوال في الأسواق بالبيع والشراء فلو عقد البيع في الطريق وهو يمشي إلى الجمعة لا بأس به ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي السعي إلى الصلاة وترك ما يشغل عنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البيع والشراء وغير ذلك ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مصالح أنفسكم شرط مستغن عن الجزاء بما مضى. مسألة: يحرم البيع عند أذان الجمعة إجماعاً حيث يوجب الإثم وهل يصح إنعقاداً؟ قال مالك وأحمد لا ينعقد، وقال أبو حنيفة والشافعي ينعقد وهذه المسألة مبنية على مسألة أصولية فإن النهي عن الأفعال التي لا وجود لها إلا باعتبار الشرع كالصلاة في الأرض المغصوبة والبيع ونحو ذلك باشرط الفاسد يوجب القبح بغيره فيقتضي صحة العقد حتى يتحقق الإبتلاء عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لا سيما في البيع وقت النداء فإن القبح هاهنا إنما هو لأمر مجاور لا في صلب العقد أصلاً فلا يكون البيع فاسداً أيضاً كما يكون فاسداً بالشروط الفاسدة وعند أكثر الأئمة يوجب القبح لذاته كما أن النهي عن الأفعال الحسية كالزنا والسرقة يوجب القبح لذاته اتفاقاً لأنه الأصل في المنهي عنه، لكن الشافعي في هذه المسألة وافق أبا حنيفة وقال صح البيع نظراً إلى أن النهي إنما هو لأمر مجاور وهو الاشتغال عن الصلاة والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

(٣) سورة الليل، الآية: ٤.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في المشي إلى المسجد (٣٢٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: السعي إلى الصلاة (٥٧١)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار (٦٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة (٦٠٢).

فصل:

إعلم أن الجمعة فريضة محكمة باالكتاب والسنة والإجماع يكفر جاحدها إما الكتاب فهذه الآية أمر في السعي ورتب الأمر بالسعي للذكر على النداء للصلاة فالظاهر أن المراد بالذكر الصلاة ويجوز أن يراد به الخطبة والأولى أن يراد به الخطبة والصلاة جميعاً لصدقه عليها معاً. وأما السنة فحديث أبي هريرة قال قال رسول الله: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا له والناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد**»[١] متفق عليه، وعن أبي عمر وأبي هريرة قالا سمعنا رسول الله ﷺ يقول على اعواد المنبر: «**لينتهين أقوام على ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين**»[٢] رواه مسلم وعن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة «**لقد هممت أن آمر رجلاً يصلّي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم**»[٣] رواه مسلم وعن طارق بن شهاب قال قال: رسول الله ﷺ «**الجمعة حق واجب على كل مسلم في الجمعة إلا على أربعة: مملوك أو إمرأة أو صبي أو مريض**»[٤] رواه أبو داود، وقال طارق رأى النبيّ ﷺ ولم يسمع منه، قلت فالحديث مرسل صحابي وهو حجة إتفاقاً، قال النووي الحديث صحيح على شرط الشيخين، وأخرج البيهقي من طريق البخاري عن تميم الداري قال الجمعة واجبة إلا على ضبي أو مملوك أو مسافر رواه الطبراني عن الحاكم وابن مردويه، وزاد فيه المرأة والمريض، وعن أبي جعد الضميري وكانت له صحبة عن النبيّ ﷺ قال: «**من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه**»[٥] رواه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وحسنه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: فرض الجمعة (٨٧٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: التغليظ في ترك الجمعة (٨٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (٦٥٢).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الجمعة للمملوك والمرأة (١٠٦٦).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر (٤٩٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشديد في ترك الجمعة (١٠٥١)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: التشديد في التخلف عن الجمعة (١٣٦٣).

وعن عبد الله بن عمر عن النبيّ ﷺ قال: «**من ترك الجمعة من غير عذر كتب منافقاً في كتاب لا يمحىٰ ولا يبدل**»[١] وفي بعض الروايات «ثلاثاً» رواه الشافعي ورواه أبو يعلى بلفظ «من ترك ثلاث جمع متواليات فقد نبذ الإسلام وراء ظهره» ورجاله ثقات وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا مريض أو مسافر أو المرأة أو صبي أو مملوك فيمن إستغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غني حميد» رواه الدارقطني، فأجمع العلماء أنه فرض على الأعيان وغلط من قال هي فرض كفاية.

مسألة:

لا يجب الجمعة على المسافر إجماعاً وحكي عن الزهري والنخعي وجوبها على المسافر إذا سمع النداء ولا عبد ولا امرأة إلا في رواية عن أحمد في العبد خاصة، وقال داود يجب واختلفوا في المكاتب والمأذون والعبد الذي حضر مع مولاه على باب المسجد لحفظ الدابة إذا لم تخل بالحفظ والحجة في عدم وجوب الجمعة على العبد مطلقاً ما مر في الأحاديث من الاستثناء للمملوك.

مسألة:

لا تجب الجمعة على الأعمى إذا لم يجد قائداً إليها بالإتفاق فإن وجده وجبت عليه عند مالحك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة لا تجب، إحتج الجمهور بما مر من الأحاديث إذ ليس فيه إستثناء الأعمى قلنا هو داخل في المريض والمريض وكل من كان له عذر أو خوف لا تجب علينا الجمعة إجماعاً وكذلك الشيخ الكبير ومن كان متعهد المريض، قالوا الأعمىٰ إذا وجد قائداً صار قادراً كالبصير، قلنا إنه غير قادر بنفسه وقدرته بغيره لا يعتبر كالزمن إذا وجد من يحمله.

مسألة:

يجوزترك الجمعة بعذر المطر والوحل، روى البخاري في الصحيح عن محمد بن سيرين قال قال ابن عباس لمؤذنه يوم المطر إذا قلت أشهد أن محمد رسول الله فلا تقل حي على الصلاة فقل صلوا في بيوتكم فكأن الناس استنكروا فقال فعله من هو خير مني أن الجمعة عزيمة وإني كرهت أن أخرجكم فتمشوا في الطين والدحض[٢]. مسألة إذا حضر

---

(١) أخرجه الشافعي في مسنده الجزء الأول/ الباب الحادي عشر في صلاة الجمعة (٣٨١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الرخصة إن لم يحضر الجمعة في المطر (٩٠١).

الجمعة عبد أو مسافر أو امرأة أو مريض صح عنه الجمعة وسقط عنه الظهر إجماعاً.

مسألة:

تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين إذا لم يكن فيهم حرا ومقيم إذا كانوا في مصر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لا بالنساء والصبيان إجماعاً وعند الثلاثة لا تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين ولا يتم بهم العدد بل لا بد للجمعة أربعين أحراراً مقيمين أو خمسين أو ثلاثة على إختلاف الأقوال وأما المعذورون بالمرض أو الخوف أو المطر والأعمى أو الزمانة فيتم بهم اعدد إتفاقاً لنا أن الجمعة واجبة على الرجال كلهم دون النساء إجماعاً ودون الصبيان لكونهم غير مكلفين لعموم قوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ ولكن رخص في تركها العبيد والمسافرين وأصحاب العذر فمن أتى منهم بالجمعة فقد أتى بالعزيمة فيصح جمعة كالمسافر إذا صام رمضان يتأدى من صومه فرضه.

مسألة: كره ظهر المعذور والمسجون في المصر بجماعة عند أبي حنيفة وقال مالك والشافعي وأحمد أنه لا يكره بل يسن وكذا من فاته الجمعة بلا عذر والله أعلم.

مسألة:

الخطبة شرط لانعقاد الجمعة إجماعاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إذ المراد به الخطبة، ومن هاهنا قال أبو حنيفة لو اقتصر في الخطبة على تسبيحة أو تحميدة لكفى لأن ذكر الله يعم الطويل والقصير ولا إجمال فيه، وهذا الاستدلال ضعيف لاحتمال كون المراد بذكر الله الصلاة فالأولى أن يقال سند الإجماع على اشتراط الخطبة مواظبة النبيّ ﷺ كما نقل إلينا متواتراً أو مواظبته يقتضي إشتراط ذكر طويل يسمى في العرب خطبة وبه قال أبو يوسف ومحمد ومالك والشافعي وأحمد على أنه لو كان المراد بذكر الله الخطبة فالإضافة للعهد والمعنى فاسعوا إلى ذكر الله الذي يفعله النبيّ ﷺ فعلى هذا أيضاً يشترط أن يكون ذكراً طويلاً، وما روي أن عثمان صعد المنبر في أول جمعة وولى الخلافة قال الحمد لله فأرتج عليه فقال أبو بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالات وأنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال وسيأتيكم الخطب بعد وأستغفر الله لي ولكم ونزل وصلّى بهم ولم ينكر عليه أحد منهم فأهل الحديث لا يعرفونه والله أعلم.

مسألة: يجب عند الشافعي ومالك الخطبة قائماً ويجب الجلسة بين الخطبتين عند الشافعي وقال أبو حنيفة وأحمد لا يجب القيام في الخطبة ولا الجلوس بينهما والدليل على الوجوب النقل المستفيض، روى مسلم عن جابر بن سمرة أنه رأى رسول الله ﷺ يخطب

قائماً على المنبر ثم يجلس ثم يخطب قائماً فقال جابر فمن أنبأك أنه كان يخطب قاعداً فقد كذب فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة[1]، وروى الشافعي عن جابر بن عبد الله كان النبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس، وروى مسلم عن جابر بن سمرة «كانت للنبيّ ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس عن ابن عمر قال كان النبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة مرتين بينهما جلسة» متفق عليه، وروى مسلم عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد يوم الجمعة وابن أم الحكم يوم الجمعة مرتين بينهما جلسة» متفق عليه، وروى مسلم عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد يوم الجمعة وابن أم الحكم يخطب قاعداً فقال انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ إحتج ابن همام بهذا الحديث إن القيام ليس بواجب حيث لم يحكم كعب ولا غيره بفساد صلاة ابن الحكم فعلم أنه ليس بشرط عندهم والله تعالى أعلم.

مسألة:

سن أن يشتمل الخطبة على خمسة أشياء: حمد الله تعالى والصلاة على رسوله ﷺ والوصية بالتقوى وقراءة القرآن والدعاء للمؤمنين والمؤمنات وكلها واجبة عند الشافعي ويشترط الطهارة في الخطبتين على الراجح من مذهب الشافعي وعندالجمهور لا يشترط.

مسألة:

يشترط في الخطبة حضور واحد عند أبي حنيفة لتحقيق معنى التخاطب وعند الشافعي وغيره لا يجوز للإمام أن يبدىء بالخطبة قبل اجتماع العدد وهو الأربعون عند الشافعي أو خمسون أو ثلاثة عند غيره فإن نفر واحد منهم قبل افتتاح الصلاة لا يجوز أن يصلّي الجمعة بل يصلّي الظهر، وإن عادوا بعد قبل طول الفصل بنى على ذلك الخطبة وبعد طوله استأنف الخطبة.

مسألة:

يحرم الكلام في حال الخطبة لمن حضر الخطبة عند أبي حنيفة يحرم إلا أن يكون أمراً لمعروف كقصة عمر مع عثمان كذا قال ابن همام وكذا قال الشافعي في القديم، وقال مالك جاز الكلام للمخاطب بما فيه مصلحة الصلاة نحو أن يزجر الداخلين عن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة (٨٦٢).

تخطي الرقاب وإن خاطب إنساناً بعينه جاز لذلك الإنسان أن يجيبه كما وقع في قصة كلام عمر وهو يخطب مع عثمان وسنذكر الحديث في مسألة غسل الجمعة، وقال أحمد يجوز للمخاطب الكلام مطلقاً وقد تعارضت الأحاديث في الباب. في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت**»(١) وروى أحمد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «**من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً**» فهذين الحديثين يدلان على الحرمة وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢) وأما ما يدل على الإباحة فما روى البيهقي من طريق عبد الرحمان بن كعب أن الرهط الذي بعثهم رسول الله ﷺ إلى ابن أبي الحقيق بخيبر ليقتلوه فقدموا على رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يوم الجمعة فقال لهم حين رآهم «أفلحت الوجوه» فقالوا أفلح وجهك يا رسول الله، قال أقتلتموه؟ قالوا نعم فدعى بالسيف الذي قتل به وهو قائم على المنبر فسأله فقال أجل هذا طعامه في ذباب سيفه» الحديث قال البيهقي مرسل جيد وروي عن عروة نحوه ثم روي من طريق ابن عبد الله بن أنس عن أبيه قال بعثني رسول الله ﷺ إلى ابن أبي الحقيق نحوه، وروى مسلم من حديث أبي رفاعة العدوي قال انتهيت إلى النبيّ ﷺ وهو يخطب فقلت يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه، قال فأقبل عليّ وترك خطبة وجعل يعلمني ثم أتم الخطبة(٣)، وروى أصحاب السنن الأربعة وابن الخزيمة والحاكم من حديث بريدة قال: «كان النبيّ ﷺ من المنبر فحملهما فوضعه بين يديه ثم قال: «**صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**»(٤) وروى أبو داود عن جابر قال لما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر قال اجلسوا فسمع ذلك ابن مسعود فجلس على باب المسجد فرآه رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب (٩٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة في الخطبة (٨٥١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: حديث التعليم في الخطبة (٨٧٦).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: صلاة العيدين، باب: نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (١٥٧٨)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين عليهما السلام (٣٧٨٣).

فقال تعالى يا عبد الله ابن مسعود، عن أنس أن رجلاً دخل والنبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال متى الساعة؟ فأومأ الناس إليه بالسكوت فلم يقبل وأعاد الكلام فقال النبيّ ﷺ ماذا أعددت لها؟ قال حب الله ورسوله، قال: «إنك مع من أحببت»[١] رواه أحمد والنسائي وابن خزيمة والبيهقي، وعن أنس بينما النبيّ ﷺ يوم الجمعة فقام أعرابي فقال يا رسول الله هلك المال فذكر حديث الإستسقاء[٢] متفق عليه، قال الشافعي تعارض الأحاديث يقتضي الكراهة في المستمع وقال أبو حنيفة أحاديث الآحاد لا يصادم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣] لاسيما إذا تعارضت فقال بالتحريم وذلك أحوط وقال أحمد الآية والأحاديث لا يدل على تحريم الكلام للمخاطب والله تعالى أعلم.

مسألة:

لا بأس بالكلام قبل الخطبة وبعد الفراغ لحديث أنس قال كان رسول الله ﷺ ينزل من المنبر يوم الجمعة فيكلم الرجل في الحاجة فيكلم ثم يقدم إلى مصلاه رواه أحمد، وقال أبو حنيفة يكره مطلقاً محتجاً بالآثار أخرج ابن أبي شيبة عن علي وابن عباس وابن عمر كانواي كرهون الصلاة والكلام بعد خروج الإمام.

مسألة:

إذا جاء رجل والإمام يخطب يصلّي ركعتين عند الجمهور ويجوز فيهما وقال أبو حنيفة، لا يصلّي لما ذكرنا أثر علي وابن عباس وابن عمر ونحو ذلك عن عروة والزهري ولقوله ﷺ «إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب فقد لغوت» قالوا هذا الحديث بدلالة النص يمنع عن الصلاة وتحية المسجد لأن المنع عن الأمر بالمعروف وهو أعلى من سنة الجمعة وتحية المسجد منع عنهما بالطريق الأعلى والأولى ويرد عليه أن الأمر بالمعروف إن كان ذلك المعروف أمراً واجباً فهو أولى من السنة وأما إذا كان المعروف مستحباً فليس أولى من السنة والسكوت حين استماع الخطبة غير واجب عند الشافعي فكيف يحتج عليه بدلالة النص وللجمهور حديث جابر بن عبد الله قال قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب في الله عز وجل (٦١٧١)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: امرء مع من أحب (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: رفع اليدين في الخطبة (٩٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

رسول الله ﷺ: «**إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما**»[١] متفق عليه، وفي لفظ مسلم جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة والنبيّ ﷺ يخطب فجلس فقال: له: «يا سليك قم فاركع ركعتين وتجوز فيهما» وفي الباب عن أبي سعيد لابن حبان وغيره، وأخرج الطبراني عن أبي ذر أنه أتى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقعد فقال رسول الله ﷺ هل ركعت؟ فقال لا قال قم فاركع ركعتين، وأجاب ابن همام بأن الدارقطني روى في سننه عن أنس قال رجل دخل المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فقال له النبيّ ﷺ «**قم فاركع ركعتين**»[٢] وأمسك عن الخطبة حتى فرغ عن صلاته، ثم قال أسنده عبيد بن محمد العبدي قولهم فيه، ثم أخرج عن أحمد بن حنبل ثنا معتمر عن أبيه قال جاء رجل الحديث وفيه ثم انتظروه حتى صلّى قال وهذا المرسل وهو الصواب، قال ابن همام والمرسل حجة، قلت: لو صح المرسل فهو واقعة حال لا يعارض إطلاق قوله ﷺ «إذا جاء أحدكم والإمام يخطب فليركع» وأيضاً لا يجوز الصلاة عند أبي حنيفة بعد خروج الإمام مطلقاً ولو بعد الفراغ عن الخطبة فعلى تقدير الصلاة حين سكت رسول الله ﷺ أيضاً لا يطابق الحديث مذهب أبي حنيفة والله تعالى أعلم.

مسألة:

اتفقوا على أنه لا يجوز الجمعة في الصحراء إلا عند أبي حنيفة في فناء المصر قال حيث له حكم المصر وعلى أن الجماعة شرط في الجمعة وذلك مأخوذ من لفظ الجمعة. واختلفوا في موضع يقام فيه الجمعة وفي عدد الجماعة الذين ينعقد بهم الجمعة؟ فقال الشافعي وأحمد وإسحاق كل قرية استوطنها أربعون رجلاً أحراراً عاقلين بالغين لا يظعنون عنها شيئاً ولا ضيفاً إلا ظعن حاجة يجب عليهم إقامة الجمعة ولا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً على هذه الصفة، وقال مالك القرية إذا كانت بيوتها متصلة وفيها مسجد وسوق يجب فيها الجمعة ويعتبر في انعقاد الجمعة عدد الغبراء بهم قرية عادة، وقال أبو حنيفة لا يصح الجمعة إلا في مصر جامع والمصر هو كل بلد فيها سكك وأسواق ولها رساتيق ووال ينصف المظلوم من الظالم أي بقيد على الإنصاف وإن كان جائراً وعالم يرجع إليه في الحوادث وقيل ما لا يسمع أكبر مساجده أهله مصر، والحجة لاشتراط

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين (٩٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: التحية والإمام يخطب (٨٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في كم تؤتى إلى الجمعة (٤٩٩).

المصر رواه ابن أبي شيبة موقوفاً عن علي لا جمعة ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة صححه ابن حزم وضعفه أحمد، ويمكن الاحتجاج لاشتراط المصر وعدم جوازه في القرى أن أهل العوالي كانوا يصلون الجمعة مع النبي ﷺ كما في الصحيح وأهل قبا كانوا يصلّون معه كذا روى ابن ماجه وابن خزيمة، وأخرج الترمذي من طريق رجل من أهل قباء عن أبيه قال أمرنا النبيّ ﷺ أن نشهد الجمعة من قباء[1]، روى البيهقي أن أهل ذي الحليفة كانوا يجمعون بالمدينة ولم ينقل عن الصحابة أنهم حين فتحوا البلاد واشتغلوا بنصب المنابر والجمع إلا في الأمصار دون القرى ولو كان لنقل وصلاته ﷺ أول جمعة في بني عمرو بن سليم يدل على جواز الجمعة في قرية قريبة من المصر كما يجوز أن يصلّي الجمعة في أي ناحية من نواحي المصر فكذا يجوز في فناء المصر والله تعالى أعلم. ومحصل الكلام أن قوله تعالى: ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ليس على إطلاقه إجماعاً حيث لا يجوز في البراري ولا في كل قرية بل في بعضها فقدره شافعي وغيره وقرية مخصوصة كما ذكرنا، وقدر أبو حنيفة بالمصر والمصر أخص فإذا صلّى الجمعة في المصر صح الجمعة وسقط الظهر فلا يجب الجمعة بالشك ولا بسقط الظهر الثابت في الذمة يقيناً بالشك والله أعلم، وما روى الطبراني وابن عدي عنه ﷺ أنه قال: «الجمعة واجبة على كل قرية فيها إمام وإن لم يكونوا إلا أربعة» وفي رواية «إلا ثلاثة» فليس مما يجوز به الاحتجاج لأنه من رواية الحكم بن عبد الله ومن رواية الوليد بن محمد كلاهما عن الزهري عن أم عبد الله الدوسية، قال الدارقطني لا يصح هذا عن الزهري وكل من رواه عنه متروك الوليد والحكم متروكان، قال أحمد أحاديث الحكم كلها موضوعة وفي سند الحكم مسلمة بن علي قال يحيي ليس بشيء، وقال النسائي متروك وكذا حديث جابر ابن عبد الله مضت السنة إن في كل أربعين فما فوق ذلك جمعة وأضحى وفطر في سنده عبد العزيز بن عبد الرحمن قال أحمد أضرب على أحاديثه فإنها كذب أو قال موضوعة. وكذا حديث أبي أمامة الجمعة على خمسين رجلاً وليس على ما دون الخمسين جمعة رواه الطبراني وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو متروك وهياج بن نظام وهو متروك أيضاً ورواه البيهقي وفي سنده النحاش وهو واهٍ أيضاً، وأما حديث ابن عباس «أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ بجواثا قرية بالبحرين» رواه البخاري فلا يدل على جواز الجمعة في كل قرية فإن اسم القرية يشتمل لمصر وغيره قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن (٨٩٢).

الله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١] يعني مكة وطائف ولا شك أن مكة مصر وفي الصحاح أن جواثا حصن بالبحرين فهي مصر إذ لا يخلو الحصن عن حاكم عليهم وعالم، وفي المبسوط أنها مدينة بالبحرين ولما لم يروا عدداً معيناً للجماعة شرطاً للجمعة في حديث صالح للإحتجاج، قال الحسن وأبو ثور تنعقد الجمعة باثنين لأن إثنين فما فوقه جماعة، وقال أبو يوسف ومحمد والأوزاعي ينعقد بثلاثة إذا كان فيهم والٍ وقال أبو حنيفة أربعة لأن قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟﴾ يقتضي ثلاثة وقوله ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يقتضي ذاكراً فذلك أربعة، قلت: وهذا الإستدلال غير صحيح فإن صيغة الجمع إنما هو لكون الخطاب عامة لا لاشتراط عدد الجماعة والإلزم إشتراط الجماعة في جميع المأمورات بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٢] ونحو ذلك ويمكن أن يقال لا بد في الجمعة فوق جماعة سائر الصلوات لاشتراط الجماعة فيها ولدلالة لفظ الجمعة عليه ولذا قيل الجمعة جامعة للجماعات وأولى الجماعات في الصلاة اثنان فلا بد أن يكون الجمعة ثلاثة كما قال أبو يوسف ولما كان عند أبي حنيفة الجماعة شرطاً والإمام آخر قال لا بد أن يكون ثلاثة سوى الإمام والله تعالى أعلم.

مسألة:

الوالي وإذنه شرط بصحة الجمعة عند أبي حنيفة خلافاً لمالك والشافعي وأحمد وليس على اشتراط السلطان أو إذنه دليلاً يعتمد عليه وقد روى مالك والشافعي عنه وابن حبان بسنده إلى أبي عبيدة مولى بني نظير قال شهدت العيد مع علي وعثمان محصور، قال الحافظ ابن حجر إن مدة الحصار كانت أربعون يوماً وكان يصلّي بهم تارة طلحة وتارة عبد الرحمن ابن عديس وتارة غيرهما، قال ابن همام هذا وقعة حال فيجوز كونه عن إذنه كما يجوز كونه بغير إذنه فلا حجة فيه لفريق فيبقى قوله ﷺ «من تركها وله إمام جائر أو عادل ألا فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره ألا ولا صلاة له»[٣] رواه ابن ماجه وغيره حيث شرط في لزومها الإمام كما يفيده قيد الجملة الواقعة حالاً. قلت: هذا حديث رواه ابن ماجه عن جابر مرفوعاً وفيه عبد الله العدوي وهو واه وأخرجه البزار من وجه آخر وفيه علي بن زيد بن الجدعان قال الدارقطني أن الطريقين كلاهما غير ثابت، وقال ابن عبد البر هذا الحديث واهي الإسناد.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١. (٢) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فرض الجمعة (١٠٨١).

مسألة:

وقت الظهر شرط لأداء الجمعة عند الجمهور لأنها تنوب عن الظهر ويسقط فريضة الظهر بأداء الجمعة فلا يجب ما لم يجب الظهر وما لم يجب لا يقع من الفرض، وقال أحمد يجوز الجمعة قبل الزوال لحديث سهل بن سعد قال ما كنا نتغدى ولا نقيل إلا بعد الجمعة وحديث سلمة بن أكوع كنا نصلّي مع رسول الله ﷺ الجمعة ثم نرجع فلا نجد للحيطان فيئاً نستظل[١] الحديثان في الصحيحين وحديث أنس بن مالك قال «كنا نصلّي مع رسول الله ﷺ الجمعة ثم نرج للقايلة» رواه البخاري، والجواب أن نفي التغدي لا يستلزم كون الجمعة قبل الزوال والإستثناء مبني على المجاز والمعنى لا نجد للحيطان فيئاً نستظل عدم طول الظل بحيث يمشي فيه الراكب والماشي وذلك لا يكون في أول الوقت. ولنا من الأحاديث ما ذكرنا سابقاً أن النبيّ ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أما بعد فانظر اليوم الذي يجهر فيه اليهود بالزبور فاجمعوا نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عن نظره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين، حديث أنس «أن النبيّ ﷺ كان يصلّي الجمعة حين تميل الشمس»[٢] رواه البخاري والترمذي وقال صحيح، وحديث جابر بن عبد الله قال «كنا نصلّي الجمعة ثم نذهب إلى رحالنا حين تزول الشمس»[٣] رواه مسلم، وحديث سلمة بن الأكوع كنا نجمع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس الحديث رواه مسلم، وعن يوسف بن مالك قال قدم معاذ بن جبل على أهل مكة وهم يصلون الجمعة والفيء في الحجر فقال لا تصلوا حتى تفيء الكعبة من وجهها رواه الشافعي.

مسألة:

لو شرع الجمعة في الوقت وحدها حتى خرج الوقت أتمها ظهراً عند الشافعي وقال أبو حنيفة يبطل صلاته ويبتدىء بالظهر لأن الجمعة غير الظهر لا يجوز بناء أحدهما على الآخر وسقوط الظهر بالجمعة يثبت على خلاف القياس فيراعي فيه جميع ما ورد منها الوقت، وقال مالك إذا لم يصل الجمعة حتى دخل وقت العصر صلّى فيه الجمعة ما لم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية (٤١٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: صلاة الجمعة حين تزول الشمس (٨٦٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: وقت الجمعة إذا زالت الشمس (٩٠٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في وقت الجمعة (٥٠٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب، الجمعة: باب: صلاة الجمعة حين تزول الشمس (٨٥٨).

تغرب الشمس وإن كان لا يفرغ إلا بعد غروبها وهو قول أحمد ومذهب مالك مبني على وقت الضروري للظهر إلى غروب الشمس كالعصر.

مسألة:

يشترط عند أبي حنيفة لأداء الجمعة الاذن العام حتى لو أن والياً أغلق باب بلد وجمع بحشمه ومنع الناس من الدخول لا يصح الجمعة عنده خلافاً لجمهور العلماء. احتج ابن همام في هذه المسألة بإشارة قوله تعالى: ﴿نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ فإن النداء يقتضي الإذن وهذا الإستدلال ضعيف فإنه تعالى جعل النداء سبباً لوجوب السعي إلى الجمعة ولا يلزم منه كون النداء شرطاً لأدائها كما أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[1] يدل على وجوب الإستماع والإنصات عند قراءة القرآن لا على كون الاستماع والإنصات شرطاً لجواز القراءة حتى لا يجوز قراءة الإمام في الصلاة والخطبة إن قرأ المقتدي والله تعالى أعلم، قلت: ويمكن الاستدلال على اشتراط الإعلان والإذن العام بما مر أن النبيّ ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير ليصلّي بالناس الجمعة في المدينة ولم يصل بنفسه الكريمة بمكة مع إمكان صلوته الجمعة بأصحابه في بيته فذلك دليل على أن الإعلانات والإذن العام شرط لأداء الجمعة ولم يكن ذلك مقدورا بمكة والله تعالى أعلم.

مسألة:

من كان مقيماً في قرية لا يقام فيها الجمعة أو في برية هل يجب عليهم حضور الجمعة بالمصر قال أبو حنيفة ومحمد لا يجب عليه الجمعة مطلقاً، وقال أبو يوسف والشافعي وأحمد وإسحاق إن كان يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت يؤذن في وقت تكون الأصوات هادئة والرياح يجب عليهم حضور الجمعة كذا قال مالك لكن حده بفرسخ وربيعة بأربعة أميال، وقال ابن همام قال بعض العلماء قدر ميل، وقيل قدر ميلين ولم يجده الشافعي وعن أحمد في التحديد نحو قولهما والحجة بهذا القول عموم قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟﴾ وقوله عليه السلام «إنما الجمعة على من سمع النداء»[2] رواه أبو داود وغيره من عبد الله بن عمرو في رواية بلفظ «الجمعة على من سمع النداء» وقال سعيد بن المسيب يجب الجمعة على من أواه الليل، وقال الزهري يجب على

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من تجب عليه الجمعة (١٠٥٥).

من كان على ستة أميال وهي رواية عن مالك وفي رواية عن أبي يوسف يجب على ثلاثة فراسخ قال في البدائع هذا حسن، ولعل هذين القولين تحديد لمن أواه الليل فإنه من كان على ستة أميال أو تسعة كان ذهابه ومجيئه إثنا عشر أو ثمانية عشر ميلاً وذلك مرحلة فإن اثني عشر ميلاً أدنى المراحل غالباً وثمانية عشر أكثرهما، والحجة لهذا القول حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ «الجمعة على من آواه الليل إلى أهله»[1] رواه الترمذي، والحديث غير قابل للإحتجاج قال أحمد لما سمع هذا الحديث استغفر ربك وفي سنده حجاج بن نصير، قال أبو حاتم الرازي تركوا حديث يروى عن معارك بن عباد، وقال أبو حاتم أحاديثه منكرة وقال أبو زرعة واهي الحديث يروي عن عبد الله بن سعيد المقبري قال يحيى بن سعيد الشيباني كذبه في مجلس وقال يحيى بن معين ليس بشيء لا يكتب حديثه، والإحتجاج على وجوب الجمعة على من سمع النداء وعلى من آواه الليل بصلاة أهل العوالي مع النبيّ ﷺ وصلاة أهل قباء معه كما ذكرنا وبما روى البيهقي أن أهل ذي الحليفة كانوا يجمعون بالمدينة لا يجوز لأنه لا يدل على وجوب الجمعة عليهم والظاهر أنهم كانوا يجمعون مع النبيّ ﷺ إحراز الفضيلة من غير وجوب وأما ما رواه الترمذي من طريق رجل من أهل قبا عن أبيه وكان من الصحابة قال أمرنا النبيّ ﷺ أن نشهد الجمعة من قباء ففيه رجل مجهول.

مسألة:

إذا وقع العيد يوم الجمعة قال أحمد أخر حضور صلاة العيد عن الجمعة ويصلون الظهر، وقال عطاء يسقط الجمعة والظهر معاً في ذلك اليوم فلا صلاة بعد العيد إلا العصر والأصح عند الشافعي أن من حضر العيد من أهل القرى جاز لهم أن ينصرفوا بعد العيد ويتركوا الجمعة وأما أهل البدو فلا يسقط عنهم الجمعة، وقال أبو حنيفة ومالك لا يسقط الجمعة بصلاة العيد عمن وجب عليه الجمعة أصلاً، واحتج أحمد بحديث زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ العيد أول النهار ثم رخص في الجمعة ثم قال من شاء أن يجمع الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع لا يجوز أن يسقط بحديث آحاد وكيف ينوب النافلة عن الفريضة، وفي الباب عن ابن عمر اجتمع عيدان على عهد رسول الله ﷺ فصلّى بالناس ثم قال: «من شاء أن يأتي الجمعة فليأتها ومن شاء أن يتخلف فليتخلف» وفيه مبدل بن علي ضعيف وبازة بن المفلس قال يحيى بن معين كذاب وحديث أبي هريرة نحوه وفيه بقية

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء من كم تؤتى الجمعة (٤٩٩).

مدلس روى الحديثين ابن الجوزي.

مسألة: من كان من أهل الجمعة وأراد السفر بعد الزوال لم يجز له الخروج إلا إذا تمكن الجمعة في طريقه أو يتضرر تخلفه عن الرفقة، وقبل الزوال جاز له السفر عند أبي حنيفة ومالك وقال الشافعي لا يجوز مطلقاً وقال أحمد لا يجوز إلا أن يكون سفر جهاد، واحتج من قال بعدم الجواز بحديث ابن عمر مرفوعاً من سافر يوم الجمعة دعت عليه الملائكة أن لا يصحب في سفره وفيه ابن لهيمة ضعيف، واحتج من جواز السفر لمن أراد الغزو بحديث ابن عباس أن ﷺ بعث عبد الله بن رواحة في سربة فوافق ذلك يوم الجمعة فغدا أصحابه وتخلف هو ليصلّي ويلحقهم فلما صلّى قال له رسول الله ﷺ ما خلفك قال أردت أن أصلّي معك وألحقهم فقال: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت فضل غدوتهم»[1] رواه أحمد والترمذي وأعله الترمذي بالإنقطاع وقال البيهقي إنفرد به الحجاج ابن أرطأة وهو ضعيف، واحتج من قال بالجواز بما روى أبو داود في المراسيل عن الزهري أنه أراد أن يسافر يوم الجمعة ضحوة فقيل له في ذلك فقال أن النبيّ ﷺ سافر يوم الجمعة، وروى الشافعي من عمر أنه رأى رجلاً عليه هيئة السفر فسمعه يقول لولا أن اليوم يوم الجمعة لخرجت فقال له عمر أخرج فإن الجمعة لا يحبس عن سفر، وروى سعيد بن منصور أن أبا عيد بن الجراح سافر يوم الجمعة ولم ينتظر الصلاة قال أبو حنيفة الجمعة يجب بعد الزوال فلا يجوز الخروج بعد الوجوب ويجوز قبله يدل على ذلك حديث الزهري وابن عمر والله تعالى أعلم.

مسألة:

لا يجوز في بلدة وإن عظم أكثر من جمعة واحدة عند أبي حنيفة وبه قال الطحاوي وهو مذهب مالك والقول القديم للشافعي وكذا روى أصحاب الإملاء عن أبي يوسف أنه لا يجوز في مصر إلا أن يكون فيه نهر كبير حتى يكون كمصرين ولذا كان يأمر بقطع الجسر تبعداً فإن لم يكن فالجمعة لمن سبق فإن صلوا معاً فسدتا وعنه أنه يجوز في موضعين إذا كان المصر عظيماً لا في ثلاثة، وقال أحمد إذا عظم البلد وكثر أهله كبغداد جاز فيه جمعتان وإن لم يكن بهم حاجة إلى أكثر من جمعة لم يجز، وقيل إن البغداد كان في الأصل قرى متفرقة في كل قرية جمعة ثم اتصلت العمارة بينها فبقيت الجمعة على

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السفر يوم الجمعة (٥٢٣).

حالها والراجح المتأخر من أقوال الشافعي أن البلد إذا كبر وعسر اجتماع أهله في موضع واحد جاز إقامة جمعة أخرى بل يجوز التعدد بحسب الحاجة وعن محمد بن الحسن أنه يجوز تعددها مطلقاً ورواه عن أبي حنيفة، قال السرخسي الصحيح من مذهب أبي حنيفة جواز إقامتها في مصر واحد في مسجدين وأكثر، قال ابن همام وبه نأخذ لإطلاق لا جمعة إلا في مصر شرط المصر فإذا تحقق تحقق في كل ناحية منها، وجه رواية المنع أنها سميت جمعة لاستدعائها استجماع الجماعات فهي جامعة لها قال الأثرم لأحمد أجمع جمعتين في مصر قال لا أعلم أحداً فعله، قال ابن المنذر لم يختلف الناس أن الجمعة لم يكن تصلّي في عهد النبيّ ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين إلا في مسجد النبيّ ﷺ وفي تعطيل الناس مساجدهم يوم الجمعة وإجتماعهم في مسجد واحد من البيان بأن الجمعة خلاف سائر الصلوات وأنه لا يصلّي إلا في مكان واحد ولا أعلم أحداً قال بتعدد الجمعة غير عطاء وذكر الخطيب في تاريخ بغداد أن أول جمعة أحدثت في الإسلام في بلد مع قيام الجمعة القديمة في أيام المعتصم في دار الخلافة من غير بناء مسجد لإقامة الجمعة وسبب ذلك خشية الخلفاء على أنفسهم في المسجد العام وذلك في سنة ثمانين ومائتين ثم بنى في أيام المكتفي مسجد فجمعوا فيه، وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أن عمر كتب إلى أبي موسى وإلى عمرو بن العاص وإلى سعد بن أبي وقاص أن يتخذوا مسجداً جامعاً ومساجد للقبائل فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى المسجد الجامع فشهد الجمعة.

فائدة:

قال ابن همام إذا اشتبه على الناس وجود شرائط الجمعة ينبغي أن يصلي أربعاً بعد الجمعة ينوي بها آخر فرض ظهر أدركت وقته ولم أؤد بعد فإن لم يصح الجمعة وقعت ظهره فرضاً وإن صحت كانت نفلاً باب ما ولارد عن الأخبار في سنن الجمعة وفي ساعة الجمعة.

مسألة: غسل يوم الجمعة سنة وحكى عن مالك وداود أنه واجب لحديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «**غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم**»[١] متفق عليه، وحديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل**» متفق عليه، والحديث مشهور بل متواتر عد أبو القاسم بن مندة من رواه عن نافع عن ابن عمر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: فضل الغسل يوم الجمعة وهل على الصبي شهود يوم الجمعة أو النساء (٨٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٦).

فبلغوا فوق ثلاثمائة وعد من رواه عن ابن عمر فبلغوا أربعة عشر صحابياً، وأجيب بأن الأمر للإستحباب ومعنى الوجوب اللزوم على وجه السنة بقرينه اقترانه بما لا يجب فيما رواه أحمد من حديث أبي سعيد مرفوعاً «إن الغسل يوم الجمعة على كل محتلم والسواك وأن يمس من الطيب ما يقدر عليه» وفي الصحيحين عن عائشة كان الناس عمال أنفسهم فكانوا يروحون كهيئتهم فقيل لهم لو اغتسلوا والدليل على عدم وجوب الغسل حديث الحسن عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: **«من توضأ فبها ونعمت ومن اغتسل فذلك أفضل»**[١] رواه أحمد وأصحاب السنن وابن خزيمة وقال الترمذي حديث حسن ورواه بعضهم عن قتادة عن الحسن عن النبيّ ﷺ مرسلاً وحديث أبي هريرة مرفوعاً: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام»[٢] رواه مسلم، ولا شك أن الأحاديث الدالة على عدم الوجوب ليست في القوة مثل أحاديث الوجوب لكن عمل الصحابة وإجماع الأمة على عدم الوجوب يثبت أن أحاديث الوجوب إما منسوخة أو مأولة، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر أن عمر بينما هو قائم في الخطبة يوم الجمعة إذ دخل رجل من المهاجرين الأولين فناداه عمر أية ساعة هذه؟ قال إني شغلت فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت التأذين فلم أزد على أن توضأت فقال والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل قال ابن الجوزي والرجل عثمان ولم ينكر عمر على عثمان في ترك الغسل ولم ينكر أحد فظهر أن الغسل سنة ليس بواجب، وأحاديث التي يحتج بها للوجوب مأولة وليست بمنسوخة ولو كانت منسوخة لم يقل عمر أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل فأن المنسوخ لا يحتج به فظهر أن الأمر للإستحباب والسنية والله تعالى أعلم.

مسألة:

سن يوم الجمعة أربع ركعات قبل الجمعة وأربع بعدها عند أبي حنيفة وقال أبو يوسف بعدها ست ركعات ومحمد قيل مع أبي يوسف ولا دليل على أربع قبل الجمعة إلا عموم أنه كان ﷺ يصلّي إذا زالت الشمس أربعاً ويقول: «هذه الساعة تفتح فيها أبواب

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في الوضوء يوم الجمعة (٤٩٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الرخصة في ترك الغسل يوم الجعة (٣٥٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: الرخصة في ترك الغسل يوم الجمعة (١٣٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: فضل من استمع وأنصت في الخطبة (٨٥٧).

السماوات فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»[١] رواه ابن ماجه عن أبي يوسف بإسناد حسن والقياس على الظهر وقد صح أنه ﷺ «كان لا يدع أربعاً قبل الظهر وركعتين، قبل الغداة»[٢] رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة وأما الصلاة بعد الجمعة فقد صح عن ابن عمر «أن النبيّ ﷺ كان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلّي ركعتين في بيته»[٣] رواه مالك والشيخان في الصحيحين وأبو داود والنسائي، وفي سنن أبي داود عن ابن عمر أنه إذا كان بمكة فصلّى الجمعة تقدم فصلّى ركعتين ثم يتقدم فيصلّي أربعاً وإذا كان بالمدينة فصلّى الجمعة ثم رجع إلى بيته فصلّى ركعتين فقيل له كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك، قال ابن همام فالظاهر أن السنة ستة غير أن ابن عمر لم يعلم كل ما كان يفعله النبيّ ﷺ بمكة فإذا كان مسافراً كان يصليها في المسجد فيعلم ابن عمرو به قال أبو يوسف وأبو حنيفة أخذاً بما روى عن ابن مسعود أنه كان يصلّي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً قال الترمذي في الجامع وإليه ذهب ابن المبارك والثوري، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إذا صلّى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربع ركعات»[٤] والله تعالى أعلم.

مسألة:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة واستن ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج حتى يأتي المسجد فلم يتخط رقاب الناس ثم ركع ما شاء الله أن يركع فأنصت إذا خرج الإمام كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة التي قبلها**»[٥] رواه أبو داود ورواه البغوي وقال قال أبو هريرة وزيادة ثلاثة أيام لأن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وروى البخاري نحوه عن سلمان بغير زيادة ثلاثة أيام وعن أوس بن أوس الثقفي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة**

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في الأربع ركعات قبل الظهر (١١٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الركعتان قبل الظهر (١١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الصلاة بعد الجمعة وقبلها (٩٣٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الصلاة بعد الجمعة (٨٨٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: صلاة الإمام بعد الجمعة (١٤٢٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تفريع أبواب التطوع وركعات السنة (١٢٥٠).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الصلاة بعد الجمعة (٨٨١).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: في الغسل يوم الجمعة (٣٤٦).

عمل سنة أجر صيامها وقيامها»[١] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على منازلهم الأول فالأول فإذا خرج الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة والمهجر إلى الصلاة كالمهدي بدنة ثم الذي يليه كالمهدي بقرة ثم الذي يليه كالمهدي كبشاً حتى ذكر الدجاجة والبيضة، رواه البغوي وفي الصحيحين نحوه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»** رواه مسلم وعنه قال قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه»**[٢] متفق عليه وزاد مسلم قال: «وهي ساعة خفيفة» وفي رواية لهما قال «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم قائم يصلي يسأل الله خيرا فيها إلا أعطاه إياه» وعن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول **في شأن ساعة الجمعة: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يقضي الصلاة»** رواه مسلم. وعن أبي هريرة قال خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله ﷺ فكان مما حدثته أن قلت قال رسول الله ﷺ: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين يصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه قال كعب ذلك في كل سنة يوم فقلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله ﷺ قال أبو هريرة فلقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته في يوم الجمعة، فقلت قال كعب ذلك في كل سنة قال عبد الله بن سلام كذب كعب، فقلت له ثم قرأ كعب التوراة فقال هي في كل جمعة فقال عبد الله بن سلام صدق كعب، ثم قال عبد الله بن سلام قد علمت أية ساعة هي؟ قال أبو هريرة فقلت أخبرني ولا تضن عليّ فقال عبد الله بن سلام هي آخر ساعة في يوم الجمعة**

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الغسل يوم الجمعة (٣٤٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الغسل يوم الجمعة (١٠٨٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في فضل الغسل يوم الجمعة (٤٩٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: فضل غسل يوم الجمعة (١٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: الساعة التي في يوم الجمعة (٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٢).

قال أبو هريرة فقلت له وكيف يكون آخر ساعة في يوم الجمعة؟ وقال رسول الله ﷺ: «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي فيها» وتلك الساعة لا يصلّى فيها فقال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول الله ﷺ «من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلي» قال أبو هريرة فقلت بلى قال فهو ذاك(١). رواه مالك وأبو داود والترمذي والنسائي، وعن أوس بن أوس قال قال رسول الله ﷺ: **«إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فإن صلاتكم معروضة عليّ قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد رمت؟ قال إن الله تعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء»**(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي والبيهقي، وعن أبي لبابة عن ابن المنذر قال قا النبيّ ﷺ: **«إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر فيه خمس خلال خلق الله آدم وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض وفيه توفىٰ الله آدم وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئاً إلا أعطاه ما لم يسأل حراماً وفيه تقوم الساعة ما من ملك مقرب ولاسماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحير إلا وهي مشفق من يوم الجمعة»**، رواه ابن ماجه، وروى أحمد عن سعد بن معاذ أن رجلاً من الأنصار أتى النبيّ ﷺ فقال أخبرنا عن يوم الجمعة ماذا فيه من الخير قال: «فيه خمس خلال» وساق إلى آخر الحديث، وعن أبي هريرة قال قيل لأي شيء سمي الجمعة؟ قال إن فيها طبقت طينة أبيك آدم وفيها الصعقة والبعثة وفيها البطشة وفي آخرها ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها استجيب له رواه أحمد، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: **«أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة فإنه مشهود يشهده الملائكة وإن أحداً لم يصل عليّ إلا عرضت عليّ صلاته حتى يفرع منها، قال قلت وبعد الموت؟ قال إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء فبني الله حي يرزق»** رواه ابن ماجه، وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»**(٣) رواه أحمد والترمذي وقال هذا حديث غريب وليس إسناده بمتصل، وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الجمعة ليلة

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجمعة، باب: ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجعة (١٤٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٦)، وأخرجه النساي في كتاب الجمعة، باب: إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (١٣٧٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: في فضل الجمعة (١٠٨٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيمن مات يوم الجمعة (١٠٦٨).

أغر ويوم الجمعة يوم أزهر» رواه البيهقي في الدعوات الكبير.

فائدة:

ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري في ساعة الجمعة بضعة وأربعين قولاً واختار الجزري صاحب الحصن منها ما رواه مسلم من حديث أبي موسى هي ما بين أن يخرج الإمام إلى أن يقضي الصلاة واختار أكثر العلماء ما ذكر من حديث أبي هريرة عن عبد الله بن سلام هي آخر ساعة من يوم الجمعة وكذا روى النسائي وغيره من حديث جابر «التمسوها آخر ساعة بعد العصر» قال البيهقي كان النبيّ ﷺ يعلم هذه الساعة بعينها ثم أنسيها كما أنسي ليلة القدر روى ذلك ابن خزيمة في صحيحه عن أبي سعيد قال سألنا عنها النبيّ ﷺ فقال إني علمتها ثم أنسيتها كما أنسيت ليلة القدر قال الأثرم لا تخلو هذه الأحاديث من أحد وجهين إما أن يكون بعضها أصح من بعض وإما أن يكون هذه الساعة منتقلة في الأوقات المذكورة كما تنتقل ليلة القدر في ليالي العشر الأخير، قلت: ويمكن الجمع بين حديثي أبي موسى وعبد الله بن سلام بأن عبد الله بن سلام كان يحكي عن التوراة ولم يكن في زمن موسى عليه السلام يصلّي صلاة الجمعة بل كانوا يعظمون السبت ويصلون فيه فإذا لم يصل صلاة الجمعة في قرية أو بادية فالساعة في حقهم آخر ساعة من الجمعة وإذا يصلّي صلاة الجمعة فالساعة في حقهم ساعة الصلاة كما يدل عليه حديث أبي موسى وليس غير هذين القولين قولاً له سند معتمد عليه والله تعالى أعلم.

فصل:

عن أبي هريرة أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم «كان يقرأ في الركعة الأولى ن صلاة الجمعة سورة الجمعة وفي الركعة الثانية سورة المنافقين» رواه مسلم، وعن النعمان بن بشير قال كان النبيّ ﷺ «يقرأ في العيدين وفي الجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل آتاك حديث الغاشية وربما اجتمعا في يوم واحد فيقرأ بها» رواه مسلم، ولأبي داود والنسائي وابن حبان من حديث سمرة أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سبح إسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية، وروى البغوي أنه سئل النعمان بن بشير ماذا كان يقرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة على أثر سورة الجمعة فقال كان يقرأ هل أتاك حديث الغاشية، وعن أبي سعيد مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» وله شاهد من حديث ابن عمر في تفسير ابن مردويه.

فصل:

عن جابر مرفوعاً «لا يقيم أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالفه في مقعده ولكن ليقل افسحوا»(١) رواه مسلم عن أرقم بن أرقم مرفوعاً «الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كالجارّ فصيه» رواه البيهقي، وعن عبد الله بن عمر «من لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهر» رواه أبو داود ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي أديت صلاة الجمعة ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي الرزق أمر إباحة بعد المنع لأجل الصلاة، قال ابن عباس إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصل إلى العصر، وقيل فانتشروا في الأرض ليس لطلب الدنيا ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله أخرجه ابن جرير من حديث أنس مرفوعاً وابن مردويه عن ابن عباس موقوفاً، وقال البغوي قال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم، فعلى هذه الأقوال الأمر للإستحباب ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مجامع أحوالكم ولا تحصوا ذكره بالصلاة، عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «**من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحى عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة**»(٢) رواه الترمذي وقال غريب رواته ثقات إلا أزهر بن سنان ففيه خلاف، وعن عصمة قال قال رسول الله ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله سبحانه الحديث وأبغض الأعمال إلى الله التحريف قلنا يا رسول الله ما سبحان؟ قال يكون القوم يتحدثون والرجل يسبح قلنا يا رسول الله وما التحريف؟ قال القوم يكونوا بخير فيسألهم الجار والصاحب فيقولون نحن بشر**» رواه الطبراني ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تفلحوا بخير الدارين، أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال كان النبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قد قدمت فخرجوا إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً(٣)، وقال ابن عباس في رواية الكلبي لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط وفي صحيح أبي عوانة أن جابراً قال كنت

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه (٢١٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا دخل السوق (٣٤٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة فصلاة الإمام ومن بقي جائزة (٩٣٦) وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً﴾ (٨٦٣).

فيمن بقي رواه الدارقطني بلفظ فلم يبق إلا أربعون رجلاً وإسناده ضعيف تفرد به علي بن عاصم وخالف أصحاب حصين فيه، وروى العقيلي من حديث جابر أيضاً وزاد كان من الباقين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وأبو عبيدة أو عمار الشك من اسد بن عمر الراوي وبلال وابن مسعود وهؤلاء أحد عشر رجلاً وجابر ثاني عشر فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا﴾ أي تفرقوا ﴿إِلَيْهَا﴾ الجملة الشرطية معطوفة على الشرطية السابقة وفيها التفات من الخطاب إلى الغيبة أفرد الضمير للتجارة برد الكناية إليها لأنها المقصود فإن المراد من اللهو الطبل الذي كانوا يستقبلون به العير والترديد للدلالة على أن منهم من انفض لمجرد سماع ورؤيته، وأخرج ابن جرير عن جابر أيضاً قال كان الجواري إذا نُكحوا يمرون بالكبر والمزامير ويتركون النبيّ ﷺ قائماً على المنبر فينفضون إليها فنزلت، قال صاحب لباب النقول فكأنها نزلت في الأمرين معاً قال ثم رأيت ابن المنذر أخرجه عن جابر بقصة النكاح وقدوم العير معاً من طريق واحد وأنها نزلت في الأمرين فللّه الحمد وعلى هذا فالوجه لإفراد الضمير راجعاً إلى التجارة للدلالة على أن الإنفضاض إلى التجارة مع الحاجة إليها والإنتفاع بها إذا كان مذموماً كان الانفضاض إلى اللهو أولى بذلك، وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه وقال الحسن وأبو مالك أصاب أهل المدينة جوع وغلا سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشوا أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبيّ ﷺ إلا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد سال بكم الوادي ناراً»، وقال مقاتل بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبل دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة فكان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق إلا أتته وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبرو غيره فنزل عند أحجار الزيت وهو مكان من سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا إثنا عشر رجلاً وامرأة فقال رسول الله ﷺ كم بقي في المسجد فقالوا اثنا عشر رجلاً وامرأة فقال النبيّ ﷺ: «لولا هؤلاء لقد سومت لهم الحجارة من السماء» فأنزل الله هذه الآية وأراد باللهو الطبل، قيل كانت العير إذا قدمت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفيق ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ تخطب كذا صرح مسلم في رواية أنهم انفضوا وهو يخطب ورجحه البيهقي على رواية من روى وهو يصلي يجمع بينهما بأن يراد من قال وهو

يصلّي يخطب مجازاً وقد مر فيما سبق حديث كعب بن عجرة وقال علقمة سئل عبد الله كان النبيّ ﷺ قائماً أو قاعداً قال أما تقرأ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ وفي قصة انفضاض الناس في حالة الخطبة وبقاء اثني عشر رجلاً دليل على جواز الجمعة بأقل من أربعين رجلاً واحتمال أنه ﷺ لم يصل بهم الجمعة وصلى الظهر، أو أنهم رجعوا إلى النبي ﷺ بعد الانفضاض أو اجتمع إليه رجال آخرون وغيرهم فصلى بهم أمر لا يقتضيه سياق القصة لا دليل عليه، ولو كان شيء من الاحتمالات المذكورة نقل والله تعالى أعلم، وليس في القصة دليل على اشتراط اثني عشر رجلاً كما قال بعضهم كما أنه لا دليل في قصة أسعد بن زرارة أنه صلى أول جمعة جمع بأربعين رجلاً على اشتراط أربعين رجلاً ولا في صلاته ﷺ في بني سالم بن عمرو بمائة رجل على اشتراط المائة والله تعالى أعلم.

مسألة:

لو شرع الإمام الصلاة بعدد ينعقد بهم الجمعة على اختلاف الأقوال فذهب منهم واحد ولم يبق ذلك العدد، قال أبو حنيفة إن ذهب قبل سجود الإمام في الركعة الأولى بطلت الجمعة ويستأنف بالظهر وإن ذهب بعد سجوده أتمها جمعة وقال مالك إن انفضوا بعد تمام الركعة، بسجدتيها أتمها جمعة وقال أحمد إن انفضوا بعد إحرام أتمها جمعة وقال الشافعي في أصح أقواله أن بقاء الأربعين إلى آخر الصلاة شرط كما إن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة ولو نقص من الأربعين واحد قبل أن يسلم الإمام يجب على الباقين أن يصلوها أربعاً ظهراً وفي قول للشافعي إن بقي معه اثنان أتمها جمعة وفي قول له إن بقي واحد أتمها جمعة وعند المزني إن انفضوا بعدما صلى بهم الإمام ركعة أتمها جمعة وإن لم يبق مع الإمام واحد وإن كان في الركعة الأولى يتمها أربعاً إن انتقص من أربعين واحد، وقال زفر إن نفروا قبل القعدة بطلت الجمعة واستأنفت ظهراً.

مسألة: إذا أدرك المسبوق مع الإمام شيئاً من الصلاة سواء أدرك قعدة أو سجدة سهو أتمها جمعة عند أبي حنيفة وعند مالك والشافعي وأحمد أدرك ركعة أدرك الجمعة وأتمها وإن أدرك دونها أتمها ظهراً وقال الطاووس لا يدرك الجمعة ما لم يدرك الخطبتين والله تعالى أعلم ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب على الصلاة والثبات مع النبيّ ﷺ ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فإن ذلك محقق قوي محلاً بخلاف ما يتوهمون من نفعها ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه يوجب الأرزاق فإياه فاسئلوا ومنه اطلبوا.

مسألة: يستحب الإجمال في طلب الرزق والاقتصاد ويكره الحرص وحب المال

عن أبي حميد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «**أجملوا في طلب الدنيا فإن كلكم ميسر لما كتب له**» رواه الحاكم وأبو الشيخ وابن ماجه نحوه، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس إن الغنى ليس عن كثرة العرض لكن الغنى غنى النفس وإن الله يؤتي عبده ما كتب له من الرزق فأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم**» رواه أبو يعلى وسنده حسن وأوله متفق عليه، وعن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الرزق ليطلب العبد كما يطلب الأجل**» رواه ابن حبان والبزار والطبراني ولفظه «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه» وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «**لو فر أحدكم من رزقه أدركه كما يدركه**» **رواه الطبراني في الأوسط والصغير بسند حسن، وعن سعد بن أبي وقاص يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي»** رواه أبو عوانة وابن حبان، وعن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله في شيء ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم ومن أعطى الذلة في نفسه ذائعاً غير مكره فليس منا**» رواه الطبراني، وعن كعب بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف**»(١) رواه الترمذي وصححه هو وابن حبان، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ يقول: «**اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع**»(٢) رواه النسائي وهو عند مسلم والترمذي من حديث زيد بن أرقم وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من قلب لا يخشع (٥٤٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل (٢٧٢٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقىٰ من فتنة المال (٦٤٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٩).

سورة المنافقون

آياتها إحدى عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أرقم قال سمعت عبد الله بن أبي يقول لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك عمي لرسول الله ﷺ، فدعاني النبيّ ﷺ فحدثته فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فكذبني وصدقه فأصابني شيء لم يصبني قط مثله، فقال عمي ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إلى رسول الله ﷺ فقرأها ثم قال إن الله صدقك[1] وذكر محمد بن إسحاق وغيره من أهل السير أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن ضرار أبو جريرية زوج النبيّ ﷺ فلما سمع بهم رسول الله ﷺ إستخلف على المدينة زيد بن الحارثة فيما قال محمد بن عمرو وابن سعد وقال ابن هشام أبا ذر الغفاري وخرج رسول الله ﷺ وقاد المسلمون ثلاثين فرساً منه عشرة للمهاجرين منهما فرسان لرسول الله ﷺ وخرج مع رسول الله ﷺ بشر كثير من المنافقين ليصيبوا من عرض الدنيا فلقى رسول الله ﷺ بني المصطلق على ماء من مياههم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (٤٩٠٠)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٢).

يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل وتهيأ الحارث للحرب فصف رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فنادىٰ في الناس قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ففعل ذلك عمر قالوا افترامو بالنبل وتزاحف الناس فاقتتلوا فهزم الله سبحانه بني المصطلق، وقتل من قتل منهم ونقل رسول الله ﷺ أبنائهم ونسائهم وأموالهم فأفاءها الله عليه فبينما الناس على ذلك الماء وإذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له خمسة فازدحم جهجاه وسنان بن وبرة الجهني حليف ابن عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا وضرب جهجاه سناناً فسال الدم، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجاه رجل من المهاجرين يقال له جعال فأقبل جمع من الحيين وشهر السلاح حتى كادت أن يكون فتنة عظيمة فخرج رسول الله ﷺ فقال ما بال دعوى الجاهلية فأخبرها بالحال فقال دعوها فإنها فتنة أي مذمومة في الشرع ولينصر الرجل أخاه ظالماً كان أو مظلوماً إن كان ظالماً فلينهه فإنه ناصر وإن كان مظلوماً فلينصره، ثم إن جماعة من المهاجرين كلموا عبادة بن الصامت وجماعة من الأنصار فكلموا سناناً فترك حقه وكان عبد الله بن أبي بن سلول جالساً وعنده عشرة من المنافقين مالك وسويد وقاعس وأوس بن قبطي وزيد بن الصلت وعبد الله بن نبيل ومعتب بن قشير وفي القوم زيد بن أرقم (رض) غلام حديث السن فقال ابن أبي أفعلوها فقد نافرونا وتكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك إنا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال هذا ما فعلتم بأنفسكم أجللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم والله لو أمسكتم من جعال ودونه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم وليتحولوا إلى غير بلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فقال زيد بن أرقم(رض) أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين فقل عبد الله بن أبي أسكت فإنما كنت ألعب فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وكره رسول الله ﷺ خبره وتغير وجهه فقال يا غلام لعلك كذبت عليه فقال لا والله يا رسول الله لقد سمعت فقال لعله أخطأ سمعك فقال لا والله يا رسول الله قال لعله شبه عليك، قال لا والله يا رسول الله، وشاع في العسكر قول ابن أبي وليس في الناس حديث إلا ما قال ابن أبي وجعلها الرهط من الأنصار يلومون الغلام ويقولون عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل وقد ظلمت وقطعت الرحم فقال زيد والله لقد سمعت ما قال والله ما كان في الخزرج رجل أحب إلى أبي من

عبد الله بن أبي ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ وأني لأرجو ان ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثي، فقال عمر بن الخطاب(رض) دعني أضرب عنقه يا رسول الله وفي رواية قال عمر مُر عباد بن بشير أو قال محمد بن مسلمة فليأتك رأسه، قال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا يحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها فإنه كان في حر شديد ولم يكن يرتحل حتى يبرد ولم يشعر العسكر إلا ورسول الله ﷺ قد طلع على ناقته القصوى فارتحل الناس وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي فأتاه فقال أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني فقال عبد الله والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً لكاذب وكان عبد الله في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر من الأنصار من أصحابه يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله فعذره النبيّ ﷺ وفشت الملامة من الأنصار لزيد(رض) وكذبوه فقال له عمه وكان زيد معه ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ والناس ومقتوك وكان زيد بسائر النبيّ ﷺ فاستحىٰ بعد ذلك أن يدنوا من النبيّ ﷺ فلما استقبل رسول الله ﷺ وسار فكان أول من لقيه سعد بن عبادة ويقال أسيد بن حضير وبه جزم بن إسحاق فقال السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته فقال عليه السلام وعليك ورحمة الله وبركاته قال يا رسول الله قد رحلت في ساعة منكرة لم تكن ترحل فيها فقال أولم يبلغك ما قال صاحبك؟ قال أي صاحب يا رسول الله قال ابن أبي زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل، فقال فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت فهو الأذل وأنت أعز والعزة لله ولك وللمؤمنين، ثم قال يا رسول الله: «أرفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز فما بقيت عليهم الإخرزة واحدة عند يوشع اليهودي فدارب بهم فيها لمعرفته بحاجتهم إليها ليتوجوه فجاء الله بك على هذا الحديث فلا يرى إلا أن قد سلبته ملكه، وبلغ عبد الله بن أبيّ مقالة عمر بن الخطاب فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل فيما بلغك عنه فمرني به فوالله لأحملنّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا والله لقد علمت الخزرج ما كان رجل فيها أبر بوالديه مني وإني لاخشى يا رسول الله أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار وعفوك أفضل منك وأعظم، فقال رسول الله ﷺ: يا عبد الله ما أردت قتله وما أمرت به ونحسن صحبة ما كان بين أظهرنا فقال عبد الله يا رسول الله إن أبي كانت أهل هذه البحيرة قد اتقوا عليه ليتوجوه عليهم فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ومعه قوم يطوفون به يذكرون أموراً قد

غلب الله تعالى عليهم ثم سار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم حتى أذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا أمس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عما كان تقوّل ابن أبي ثم راح رسول الله ﷺ حتى نزل على ماء بالحجاز فوق البقيع يقال له البقعاء.

روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال قدم رسول الله ﷺ فلما كانت قربت المدينة فهاجت الريح تكاد تدفن الراكب فقال رسول الله ﷺ: «**بعثت هذه الريح لموت منافق**» فلما قدمنا المدينة إذا هو قد مات عظيم من عظماء المنافقين(١)، قال محمد بن عمرو لما أخذتهم الريح قالوا لم تهج هذه الريح إلا لأمر قد حدث بالمدينة وإنما بالمدينة الذراري والصبيان وكان بين النبيّ ﷺ وبين عيينة بن حصين مدة وكان ذلك عند انقضائها فقال رسول الله ﷺ: «**ليس عليكم منها بأس ما بالمدينة ورب إلا ملك يحرسها وما كان يدخلها عدو حتى تأتوها ولكن قد مات الذي بالمدينة منافق عظيم النفاق ولذلك عصفت الريح**» وكان للمنافقين بموته غيظ شديد وهو زيد بن رفاعة بن التابوت مات ذلك اليوم كان كهفا للمنافقين، قال محمد بن عمر عن جابر كانت الريح أشد ما كانت قط إلى أن زالت الشمس ثم سكنت آخر النهار وذكر أهل المدينة أنهم وجدوا مثل ذلك الريح حتى دفن عدو الله ثم سكنت، قال عبادة بن الصامت يومئذ لابن أبي مات خليلك الذي من موته فتح للإسلام وأهله زيد بن رفاعة بن التابوت قال يا ويلاه كان والله كان قال من أخبرك يا أبا وليد، قال رسول الله ﷺ أخبرنا أنه مات هذه الساعة فسقط في يديه وانصرف كئيباً حزيناً. قال محمد بن عمر من حديث ابن عمر أنه فقدت ناقة رسول الله ﷺ القصوى من بين الإبل فجعل المسلمون يطلبونها من كل وجه فقال زيد بن الصلت وكان منافقاً وهو في جماعة والأنصار منهم عبادة ابن بشر بن وقس وأسيد بن خضير فقال أين يذهب هؤلاء في كل وجه قالوا يطلبون ناقة رسول الله ﷺ قد ضلت، قال أفلا يخبره الله تعالى بمكانها فأنكر عليه القوم، فقالوا قاتلك الله يا عدو اللهنافقت ثم أقبل عليه أسيد بن حضير فقال فوالله لولا أني لا أدري ما يوافق رسول الله ﷺ من ذلك لأنفذت حصك بالرمح يا عدو الله فلم خرجت معنا وهذا في نفسك، قال خرجت لأطلب عرض الدنيا ولعمري إن محمداً ليخبرنا بأعظم من شأن الناقة يخبر عن أمر السماء وتعودوا به جميعاً فقالوا والله لا يكون منك سبيل أبداً ولا يظلنا وإياك أظل أبداً ولو علمناه ما في نفسك ما صبحنا فوثب هارباً منهم أن يقعوا به

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٢).

ونبذوا متاعه فعمد إلى رسول الله ﷺ فجلس معه فراراً من أصحابه متعوداً به وقد جاء رسول الله ﷺ جبرئيل بالوحي، فقال رسول الله ﷺ والمنافق يسمع إن رجلاً من المنافقين قال ألا ضلت ناقة رسول الله ﷺ وقال لا يخبر الله بمكانها فلعمري إن محمداً يخبرنا بأعظم من شأن الناقة ولا يعلم الغيب إلا الله وإن الله سبحانه قد أخبرني بمكانها وأنها في الشعب مقابلكم قد تعلق زمامها بشجرة فاعمدوا نحوها فأتوا بها من حيث قال رسول الله ﷺ، فلما نظر إليها سقط في يده فقام سريعاً إلى رفقائه الذين كانوا معه فإذا رجله منبوذ وإذا هم جلوس لم يقم رجل منهم من مجلسه فقالوا له حين دنى لا تدن منا أكلمكم فدنى فقال أنشدكم الله هل أتى منكم أحد محمداً فأخبره بالذي قلت قالوا لا والله ولا قمنا من مجلسنا، قال إني قد وجدت عند القوم ما تكلمت به وتكلم به رسول الله ﷺ فأخبرهم عما قال رسول الله ﷺ وإني كنت في شك في شأن محمد فأشهد أن محمداً رسول الله فكأني لم أسلم إلا اليوم قالوا فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فذهب إلى رسول الله ﷺ واستغفر له واعترف بذنبه ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق تقدم عبد الله بن عبدالله بن أبي فجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به ثم وطى يد راحلته فقال أبوه ما تريد يا لكع؟ قال والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله وتعلم أيهما الأعز من الأذل أنت أو رسول الله ﷺ فمن مر به من المسلمين يسرع عبد الله ويمر غير ذلك فيقول تصنع هذا بأبيك حتى مر به رسول الله ﷺ فسأل عنه فقيل عبد الله بن أبي يأبى لأبيه حتى تأذن له فمر رسول الله ﷺ وعبد الله واطى على يد راحلة أبيه وابن أبي يقول لأنا أذل من الصبيان لأنا أذل من النساء فقال له رسول الله ﷺ خلّ عن أبيك فخلى عنه.

روى محمد بن عمر عن رافع بن خديج قال سمعت عبادة بن الصامت يقول يومئذ لابن أبي قبل أن ينزل فيه القرآن آية رسول الله ﷺ يستغفر لك قال فرأيت يلوي رأسه معرضاً يقول عبادة والله لينزلن الله تعالى في رأسك قرآناً يصلّى به قال فبينما رسول الله ﷺ يسير من يومه وزيد بن يعارض رسول الله ﷺ راحلته يريد وجهه في السير إذا نزل عليه الوحي قال زيد بن أرقم فما هو إلا رسول الله ﷺ يأخذ البرحات ويعرق جبينه ويثقل يد راحلته عرفت أن رسول الله ﷺ يوحي إليه ورجوت أن ينزل الله لصدقي، قال زيد فسري عن رسول الله ﷺ فأخذ بأذني وأنا على راحلتي حتى ارتفعت عن مقعدي ويرفعهما إلى المساء وهو يقول وفت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك ونزلت سورة المنافقين في ابن أبي من أولها إلى آخرها وحده وجعل بعد ذلك ابن أبي إذا حدث حديثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه شأنهم كيف ترى

يا عمر؟ قال إني والله لقد علمت لأمر رسول الله ﷺ بركة أعظم من بركته فهذه الراوية تدل على أن سورة المنافقين نزلت في السفر قبل حلول المدينة، وقال البغوي فلما وافى رسول الله ﷺ بالمدينة قال زيد بن أرقم جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله بن أبي فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد وقال يا زيد إن الله صدقك وأوفى بأذنك قالوا فلما نزلت الآية وبإن كذب عبد الله بن أبي، قيل له يا أبا خباب إنه قد نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه قال أمرتموني أن أؤمن فآمنت فأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فأنزل الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾، ولما دخل ابن أبي المدينة لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات.

فائدة:

كانت تلك الوقعة في شعبان سنة ست كذا قال ابن إسحاق وبه جزم خليفة بن خياط والطبري، وقال قتادة وعروة كانت في شعبان سنة خمس وفي ذلك الوقعة تزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، روى محمد بن إسحاق وأحمد وأبو داود ومحمد بن عمر عن عائشة قالت كانت جويرية امرأة حلوة ملاحة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه فبينما النبيّ ﷺ عندي على الماء إذ دخلت جويرية تسأله في كتابتها فوالله ما هو أن زينتها فكرهت دخلوها على النبيّ ﷺ وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت فقالت يا رسول الله إني امرأة مسلمة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه أصابنا من الأمر ما قد علمت ووقعت في سهم ثابت بن قيس ابن شماس وابن عمه فتخلصني من ابن عمه يتحدث بالمدينة فكاتبني على ما لا طاقة لي ولا بد أن وما اكريني إلا أني رجوتك ﷺ فأعني في مكاتبتي فقال رسول الله ﷺ أو خير من ذلك؟ فقالت ما هو يا رسول الله قال أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم يا رسول الله قد فعلت فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه فقال ثابت هي لك بأبي وأمي فأدى رسول الله ﷺ ما كان من كتابتها وأعتقها وتزوجها وخرج إلى الناس ورجال بني المصطلق قد اقتسموا وملكوا وطيء نسائهم، فقال المسلمون أصهار رسول الله ﷺ فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك الشيء، قالت عائشة فأعتق مائة أهل بيت بتزويج رسول الله ﷺ إياها فلا امرأة اعظم بركة على قومها منها، روى محمد بن عمر عن حرام بن هشام بن عروة عن أبيه قال قالت جويرية رأيت قبل قدوم

النبيّ ﷺ بثلاث ليال كان القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري فكرهت أن أخبرها أحداً من الناس حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سبينا رجوت الرؤيا فلما أعتقني وتزوجني فو الله ما كلمت في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر فحمدت الله، ثم روى الحافظ ابن عائذ أنه أقبل الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية في فدائها فلما كان بالعقيق نظر إلى إبله التي يفدي بها ابنته فرغب في بعيرين منها كانا من أفضلها تغيبهما في شعب من شعاب العقيق، ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فدائها فقال رسول الله ﷺ فأين البعيرين الذين غيبت بالعقيق بشعب كذا وكذا فقال الحارث أشهد أنك رسول الله ﷺ ولقد كان مني في البعيرين وما إطلع على ذلك إلا الله تعالى فأسلم وروى محمد بن عمر فكان أبو سعيد يقول فقدم علينا وأفدهم فافتدوا الذرية والنساء ورجعوا إلى بلادهم.

فائدة:

فيما سبق من القصة أن النبيّ ﷺ دعاهم إلى الإسلام قبل القتال، وروى الشيخان عن ابن عون «كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فكتب إلي إنما كان ذلك في أول الإسلام قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقي على الماء فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم[(١)] الحديث وفيه حدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الشهادة إخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والإطلاع ولذلك صدق الله سبحانه المشهود به وكذبهم في الشهادة لعدم صدور ذلك الأخبار عن علم يقيني فقال ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ الله ﴿لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في إخبارهم أن هذا القول صادر عن علمهم وإذعانهم حتى يصدق على هذا القول لفظ الشهادة هذا على تقدير كون كلمة تشهد إخباراً وأما لو قيل أنه إنشاء للشهادة فهولا يحتمل الصدق والكذب والمشهود به أعني قولهم إنك لرسول الله كلام صادق البتة لا ريب فيه فمعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنهم كاذبون في زعمهم والله أعلم وزعم النظام من المعتزلة أن الصدق ما طابقته الإعتقاد والكذب ولم يطابقه مستدلاً

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العتق، باب: من ملك من العرب رقيقاً فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية (٢٥٣٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام (١٧٣٠).

بهذه الآية وليس كما قال ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ يعني حلفهم الكاذب أو شهادتهم هذه فإنها من ألفاظ الحلف ﴿جُنَّةٗ﴾ وقاية عن القتل والسبي والجملة صفة لكاذبون أو مستأنفة ﴿فَصَدُّواْ﴾ صدوداً أي أعرضوا أو امتنعوا أو صدوا صداً أي صرفوا ومنعوا الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الدخول في دين الإسلام ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من نفاقهم وصدهم ذلك الحال من النفاق واتخاذ الأيمان جنة الصد ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ ظاهراً عند المؤمنين ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ إذ أخلوا إلى شياطينهم أو آمنوا إذا رأوا آية ثم كفروا إذا سمعوا من شياطينهم شبهة ﴿فَطُبِعَ﴾ عطف على كفروا يعني طبع الله ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ بحيث سلب عنها إدراك الحق ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ حقيقة الإيمان الفاء للسببية ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ﴾ عطف على اتخذوا ﴿ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ لفخامتها وصباحتها ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ لتحسب أنه صدق، قال ابن عباس كان ابن أبي جسيماً فصيحاً ذلق اللسان فإذا قال سمع النبيّ ﷺ قوله ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وقنبل بسكون الشين على التخفيف أو على أنه كبدن جمع بدنة والباقون بضمها على وزن أسد ﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ جملة التشبيه حال من الضمير المجرور في قولهم أي يسمع لقولهم حال كونهم مشبهين بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحيطان في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والعرفان والعقل السليم ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي واقعة عليهم لما في قلوبهم من الرعب، وقيل ذلك لكونهم على وجل من أن يظهر نفاقهم ويباح دمائهم فلا يسمعون صحة في العسكر بأن نادى مناد أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة إلا ظنوا أنه أمر بقتلهم وأدركوا فعلى هذا عليهم مفعول ثان ليحسبون وجاز أن يكون عليهم ظرفا لغوا متعلقاً بصيحة والمفعول الثاني ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ وعلى هذا الضمير راجع إلى الكل وجمعه بالنظر إلى الخبر لكن ترتب قوله ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ يأبى عن هذا التأويل بل هو قرينة على أن ضميرهم العدو راجع إلى المنافقين يعني هم الكاملون في العداوة أمر الله سبحانه بالحذر عنهم يعني لا تصاحبهم ولا تأمنهم لأنه من خاف على نفسه كثيراً يكون كاملاً في العداوة لا يبالي بإيصال الشر بمن يخاف منه ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾ أي لعنهم الله دعاء وطلب من ذاته أن يلعنهم وتعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق أخرج ابن جرير وقتادة وابن المنذر عن عكرمة مثله وقد ذكرنا سابقاً في القصة أنه قيل لعبد الله بن أبي لو أتيت النبيّ ﷺ فاستغفر لك فجعل يلوي رأسه فنزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ﴾ مجزوم على جواب الأمر ﴿لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ﴾ جزاء للشرط قرأ نافع ويعقوب بالتخفيف والباقون بالتشديد إشعاراً بأنهم فعلوها مرة بعد أخرى يعني أعرضوا وأعطفوا رؤوسهم استكباراً عن

ذلك ﴿ورَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الحاضر عند ذلك القول ﴿يَصُدُّونَ﴾ صدور أي يعرضون عن الإستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإعتذار حال من فاعل يصدون، أخرج ابن المنذر عن عروة ومجاهد وقتادة مثله أنه لما نزلت إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم قال النبيّ ﷺ لأزيدن على سبعين فأنزل الله تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ استغفرت مع ما عطف عليه بتأويل المصدر مبتدأه وسواء خبره والمعنى إستغفارك لهم وعدمه مستو عليهم وقوله ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بيان للاستواء، وأخرج ابن المنذر من طريق العوفي عن ابن عباس قال لما نزلت آية براءة قال النبيّ ﷺ اسمع أبي وقد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله يغفر لهم فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين من مظنة الإستصلاح لأنهماكهم في الكفر والنفاق ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار تعليل لعدم الغفران ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعني جهجاه وأمثاله من فقراء المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ يتفرقوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي نعماءالجنة والمطر وتقدير الرزق ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الأرزاق وبيده ملكوت كل شيء لا يعطي أحد احداً أشياء إلا بأذنه وتقديره ولا يمنعه إلا بمشيته والجملة حال من فاعل يقولون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم بالله وقدرته ولو فقهوا لما قالوا مثل ذلك ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من يقولون فيما سبق فإن عدم الإنفاق في زعمهم موجب لضعف النبيّ ﷺ وضعفه سبب لخروجه من المدينة فكأنه امتناعه من الإنفاق، إخراج أسند الله سبحانه هذا القول إلى جميع المنافقين وإن كان القائل منهم وأحد وهو ابن أبي لرضا الباقين بهذا القول الخبيث ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ من سفرنا هذا ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ الغلبة والقوة حقيقة حال من فاعل يقولون الثاني ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بإعزازه تعالى إياهم وإظهار دينه ونصرهم على الأعداء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لفرط جهلهم وغرورهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا يشغلكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ أي تدبيرها والاهتمام بها ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسرون يعني الصلوات الخمس واللفظ أعم من ذلك

يشمل جميع العبادات ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الإشتغال المانع من الذكر ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث باعوا الجليل الباقي بالحقير الفاني كان فيما سبق تشنيع المنافقين صريحاً وفي هذه الآية وما بعده تعريض بتشنيعهم فإن الاشتغال بالأموال والأولاد عن الصلاة وترك الزكاة وسؤال تأخير الموت وتمنيه إنما شأن المنافقين لا ينبغي للمؤمنين التشبيه بهم في شيء من ذلك ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ عطف على لا تلهكم قال ابن عباس يريد زكاة الأموال ﴿مِن قَبْلِ﴾ ظرف لانفقوا ﴿أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي يرى دلالة وحينئذ يوصي، عن أبي هريرة قال، قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا وقد كان لفلان»[1] متفق عليه ﴿فَيَقُولَ رَبِّ﴾ بعد الموت إن لم يتصدق في الحياة تحسراً ﴿لَوْلَا﴾ آي هلا ﴿أَخَّرْتَنِي﴾ وقيل لا زائدة ولو للتمني يعني لو أخرتني أي أمهلتني في الدنيا بتأخير الموت ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ أمد ﴿قَرِيبٍ﴾ غير بعيد ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾أصله فأتصدق قلبت التاء بالصاد فأدغمت منصوب على جواب التحضيض تقديره لولا كان منك تأخيري في الدنيا فتصدق مني ﴿وَأَكُن﴾ قرأ أبو عمرو أكون بالواو منصوباً عطفاً على أصدق قالوا إنما حذفت الواو في رسم خط المصحف اختصاراً والباقون بغير واو مجزوماً على الرسم لتوهم الجزم في أصدق على تقدير ترك الفاء فكأنه عطف على موضع ألفاء وما بعده ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من المؤمنين هذا قول مقاتل وجماعة قالوا نزلت الآية في المنافقين، وقيل الآية نزلت في المؤمنين والمراد بالصلاح إتيان الواجبات وترك المنهيات، قال البغوي روى الضحاك وعطية عن ابن عباس قال ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤد زكاة وأطاق الحج ولم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت وقرأ هذه الآية وقال أكن من الصالحين أحج ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ أي يمهلها وإن تمنى الجملة حال من فاعل فيقول رب لولا أخرتني والعائد وضع المظهر موضع المضمر ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ وانتهى عمرها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فجاز عليه قرأ أبو بكر بالياء على الغيبة ليوافق ما قبله والباقون بالتاء للخطاب والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح (١٤١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحسح (١٠٣٢).

سورة التغابن

آياتها ثماني عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قد مر تشريحها ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قدم الظرفان للدلالة على الحصر والجملة الظرفية حال من الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى كل ممكن على السواء ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يعني خلقكم الله تعالى ثم صار بعضكم كافراً وبعضكم مؤمناً يدل على ذلك فاء التعقيب كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾[(١)]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ﴿بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه ليس في هذه الآية دليل للمعتزلة على أن الإيمان والكفر ليسا بتقدير الله تعالى ولا مخلوقاً له بل مخلوقاً للعبد فإن الأشياء كلها مقدرة في الأزل قال الله تعالى: ﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[(٢)] وأفعال العباد التي فيه نوع اختيار للعبد حيث يسمى العبد كاسبا لها ويترتب عليها الثواب أو العذاب كلها مخلوقة لله تعالى قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] هذا هو المذهب الصحيح الذي انعقد عليه إجماع الصحابة ومن بعدهم لا يجوز تأويل الآيات على خلاف هذا المذهب فإنها مفضية إلى النار، قال الله تعالى:

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾[١] عن أنس بن مالك قال: «وكل الله بالرحم ملكاً فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال رب أذكر أم أنثي أشقي أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمه»[٢] رواه البخاري، وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً نحو ذلك وفي آخره «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيدخلها»[٣] وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء»[٤] وفي الباب أحاديث كثيرة، وروى عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثم يعيدهم كما خلقهم مؤمناً وكافراً يعني خلقهم مقدراً من بعضهم كفره موجهاً إليه ما يحمله عليه ومن بعضهم إيمان موفقاً لما يدعوه إليه، روى البغوي عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً**»[٥] وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٦] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ متلبساً بالحكمة البالغة دالة على صانع حكيم ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ من سائر الحيوانات ظاهراً وباطناً وزينكم بأحسن أوصاف الكائنات صالحا للعلم والعقل والمعرفة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا تضيعوا إستعدادكم باختيار الرذائل فتحشرون على أقبح الصور ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ رأى بالأسرار والمعتقدات التي في الصدور ولا يخفى عليه ما يصلح أن يعلم كلياً كان أو جزئياً لأن نسبته بكل شيء على السواء قدم ذكر القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرة الخالق أولى بالذات وعلى علمه بما فيها من الإتقان والإختصاص ببعض الانحاء وتكرير

(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: القدر (٦٥٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف (٣١٥٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٩٣).

(٦) سورة نوح، الآية: ٢٧.

ذكر العلم بمنزلة تكرير الوعيد على إتيان ما يخالف أمره ورضاه، وقوله يعلم مع ما عطف عليه خبر ثالث لقوله هو في ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أيها الكفار ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي قبلكم قوم لوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وغيرهم فذاقوا عطف على كفروا والفاء للسببية ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ضرر كفرهم في الدنيا وأصله أثقل ومنه الوبيل للطعام الثقيل والوابل للمطر الثقيل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب في الدنيا والآخرة بأنه أي بسبب أنه ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات والدلائل الواضحة ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ البشر إسم جنس يطلق على الواحد والكثير ولما كان المراد هاهنا الجمع قال يهدوننا ولم يقل يهدينا إستفهام للإنكار أنكروا أو تعجبوا من كون البشر رسلاً من الله هداة إليه ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ عن التدبر في المبينات ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن طاعتهم وإنما كان إرسال الرسل تفضلاً ومنة من الله تعالى عليهم والراضي بالضرر لا يستحق النظر ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ من كل شيء ﴿حَمِيدٌ﴾ في نفسه لا يحتاج إلى من يحمده ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من أهل مكة ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ تقديره أنهم لن يبعثوا إن مع جملتها قائم مقام مفعول زعم والزعم إدعاء العلم ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ بيان لقوله بلى أكد الجواب بالقسم ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ من الخير والشر يعني تحاسبون وتخبرون بأعمالكم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والحساب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لإمكان الموعود وكمال القدرة ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد تفريع على وجوب البعث ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ يعني القرآن فإنه بإعجازه ظاهر الحقيقة بنفسه مظهر لغيره من الشرائع والأحكام والأحبار ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مجاز عليكم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ الظرف لمضمون بما تعملون خبير يعني مجازيكم في ذلك اليوم أو لقوله تعالى لتنبؤن أو مقدر

باذكر قرأ يعقوب نجمعكم بصيغة المتكلم ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ يعني يوم القيامة يجمع فيه الملائكة والثقلان كلهم أولهم وآخرهم واللام للتعليل والمعنى يجمعكم لأجل ما يكون في يوم الجمع من الحساب والجزاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ذٰلِكَ اليوم يَوۡمُ التَّغَابُنِ تفاعل من الغبن يغبن فيه بعضهم بعضاً لنزول السعداء في الجنة مكان الأشقياء لو كانوا سعداء ولإعطاء المظلوم من حسنات الظالم عوض مظلمته مستعاد من تغابن التجار اللام فيه للعهد يعني يوم التغابن الحقيقي دون التغابن الدنيوي، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال يرثون أي المؤمنون مساكنهم ومساكن إخوانهم يعني الأشقياء التي أعدت لهم لو أطاعوا الله وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه البيهقي في البعث بسند صحيح، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى أولئك هُمُ الوارثون**»[1] وفي الصحيحين من حديث أنس: «إن العبد إذا وضع في قبره أتاه ملكان فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدل الله به مقعداً من الجنة»[2] الحديث، وأخرج ابن ماجه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**من فر من ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة**»[3] وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا أو أكل مال هذا أو سفك دم هذا أو ضرب هذا فيعطىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنت حسناته، قبل أن يقضي ماعليه أخذ من خطاياهم وطرحت عليه ثم طرح في النار**»[4] وروى البخاري عنه عن النبيّ ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه فليحلله منها في الدنيا فإنه ليس ثمة دينار ولا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال (١٣٣٨)، وأخرجه مسلمفي كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الوصايا، باب: الحيف في الوصية (٢٧٠٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤١٨).

درهم إن كان عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[(١)] وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً عندالطبراني: «ما يوجد ثمة دوانق ولا قراريط ولكن حسنات هذا يدفع إلى هذا الذي ظلمه وسيئات هذا الذي ظلمه يوضع عليه» ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قرأ نافع وابن عامر نكفر وندخل بالنون على التكلم والباقون بالياء التحتية على الغيبة وكذا في سورة الطلاق يدخله سورة الطلاق يدخله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي مجموع الأمرين ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه جامع لدفع المضار وجلب المنفع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، النار كان الآيتين بيان التغابن وتفصيل له أو تفصيل لغاية الجمع المفهوم من يوم الجمعة تقسيم له.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ من زائدة ومصيبة في محل الرفع فاعل أصاب يعني ما أصاب مصيبة أحدا من الناس بشيء ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بتقديره وإرادته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ويصدق إنه ما أصابه من مصيبة إلا بإذن الله ويعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطيك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ﴿يَهْدِ﴾ الله ﴿قَلْبَهُۥ﴾، أي يوفقه للصبر والرضا والتسليم، عن ابن الديلي قال أتيت أبي بن كعب فقلت له قد وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني لعل الله يذهبه من قلبي فقال إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبه وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته (٢٤٤٩).

كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطأك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار، ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك قال ثم أتيت حذيفة بن اليماني فقال مثل ذلك ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبيّ ﷺ مثل ذلك»[١].

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتى القلوب وأحوالها ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ عطف على قوله آمنوا بالله وما بينهما معترضات ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله ورسوله والفاء للسببية فإن تبلغ الأمر بالإيمان والطاعة سبب لقوله إن توليتم ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني توليكم لا يضر محمداً شيئاً إذ ليس الواجب عليه إلا التبليغ وقد بلغ وضرر التولي يعود عليكم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة في محل التعليل للأمر بالإيمان والطاعة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على آمنوا وأطيعوا أو فيه إلتفات من الخطاب إلى الغيبة تقديره آمنوا وأطيعوا الله وعليه فليتوكلوا، قدم الظرف للحصر فإن حصر الخير والشر كما كان بتقديره وجب حصر التوكل عليه دون غيره وغير الأسلوب للدلالة على أن الإيمان يقتضي التوكل لما ذكرنا هذا على تقدير كون الظرف متعلقاً بما بعده وجواز تقديم الظرف على الفاء الجزائية لتوسع في الظرف وإلا فهو متعلق بفعل مقدر يفسره ما بعده وتقديره وإن كنتم متوكلين على أحد فتوكلوا على الله فليتوكل المؤمنون عليه فحينئذ تكرير الأمر بالتوكل تأكيد أو إشعار بأن الإيمان يقتضي التوكل.

أخرج الترمذي والحاكم وصححاه عن ابن عباس أن رجالاً من أهل مكة أسلموا فأبوا أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يعني للهجرة إلى المدينة، قال البغوي منعهم أزواجهم وأولادهم وقالوا صبرنا على إسلامكم ولا نصبر على فراقكم فأطاعوهم فتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ حيث يشغلكم عن طاعة الله ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ ولا نأمنهم غوايلهم وشرهم ولا تطيعوهم حتى تدعوا الهجرة، قال ابن عباس فيما روى عنه الترمذي والحاكم ثم إنهم لما أتوا المدينة

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٨٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: في القدر (٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التغابن.

وقدموا على رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم يعني الأزواج والأولاد والذين ثبطوهم عن الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾[1] منهم إذا طلعتم على عداوة ولا تقاتلوهم بمثلهم ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ أي تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ ذنوبهم وجملة إن تعفوا مع ما عطف عليه معطوفة على جملة إن من أزواجكم وأولادكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني إن تعفوا وتغفروا يغفر الله لكم ويرحمكم، أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم نزلت في عوف بن مالك الأشجع كان ذا أهل وولد وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا إلى من تدعنا فرق ويقيم فنزلت هذه الآية وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة يعني أنهم أعداء لكم يحملك على ترك الطاعة والجهاد فأحذروهم أن تقبلوا منهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فلا تعاقبوهم على خلافهم إياكم يغفر الله إن الله غفور رحيم ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني إبتلاء من الله تعالى وإختبار لكم فمن أدى حقوق الله تعالى وحقوق الناس مع كثرة العلائق والعوائق بعثه الله تعالى على منازل الأبرار وكان أفضل ممن أذى بلا عوائق، ومن ثم راجع أهل السنة أن خواص البشر أعني الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وعوامهم أعني الأولياء والصلحاء أفضل من عوامهم إذ لا عائق للملائكة عن طاعة الله تعالى ومن شغله الأموال والأولاد عن طاعة الله تعالى وأداء الحقوق وبعثه على ارتكاب المعاصي وناول الحرام رده الله إلى أسفل السافلين ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فاطلبوه وآثروا محبته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم.

فائدة:

ذكر الله سبحانه عداوة الأزواج والأولاد وأورد هناك من التبعيضية لأن بعض الأزواج والأولاد ليسوا كذلك ولم يورد من التبعيضية في كونهم فتنة واختباراً لأنها لا يخلو عن إشتغال القلب وقد ذكرنا في سورة الجمعة في حديث بريدة نزوله ﷺ حين رأى الحسن والحسين يمشيان ويعتزان وحمله إياهما وقوله صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما نزلت إتقوا الله حق تقاته إشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً للمسلمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ عطف على آمنوا وأطيعوا والفاء للسببية فإن الإيمان سبب للتقوى يعني ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ مواعظه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أموالكم في سبيله خالصة لوجهه ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ منصوب بفعل مقدر

يعني إفعلوا ما هو خير لأنفسكم من أموال وأولاد فهو تأكيد للحث على امتثال ما سبق من الأوامر أو منصوب على المفعولية أنفقوا الخير المال كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾(١) أو هو صفة لمصدر محذوف يعني إنفاقاً أو خبر لكان المقدر جواباً بالأمر ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة الحشر ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ إما تقدير المضاف يعني إن تقرضوا عباد الله والمراد به صرف المال في طاعة الله ورجاء من الله تعالى الثواب والجزاء ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني مقروناً بالإخلاص وطيب النفس بريا من الريا والسمعة والمن والأذى منصوب على المصدرية ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي يجعله لكم عشراً إلى سبعة مئة أو أكثر، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعف من التفعيل والباقون من المفاعلة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق جملة إن تقرضوا تعليل الأمر بالإتفاق ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بالقليل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعني لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الناس وما يشاهدون أو ما هو موجودا لأن وما وجد قبل ذلك وما سيوجد ولم يوجد بعد ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب تام القدرة والعلم الأخبار الخمسة محمولة على إسم الله تعالى وجاز أن يكون عالم الغيب والشهادة خبر المبتدأ المحذوف أعني هو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

سورة الطلاق

آياتها اثنتا عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

أخرج الحاكم عن ابن عباس قال طلق عبد يزيد أبو ركانة أم ركانة ثم نكح امرأة مزينة فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله ما يغني عني إلا ما يغني هذه الشعرة فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال الذهبي الإسناد واهٍ والخبر خطأ وعبد يزيد لم يدرك الإسلام.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن أنس قال طلق رسول الله ﷺ صفية فأتت أهلها فأنزل الله تعالى هذه الآية فقيل لها راجعها فإنها صوامة قوامة، وأخرج ابن جرير عن قتادة مرسلاً وابن المنذر عن ابن سيرين مرسلاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في هذه الآية قال بلغنا أنها نزلت في عبد الله بن العاص وطفيل بن عمرو بن سعيد بن العاص والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خص النداء بالنبيّ ﷺ وعم الخطاب بالحكم لأنه أمام أمة فندائه كندائهم أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم، وقيل مجازه يا أيها النبيّ قل لأمتك إذا طلقتم النساء أي أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف له بمنزلة

الشارع كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾(١) فإنا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾(٢) ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال الشافعية اللام بمعنى الوقت أي وقت عدتهن وأيده البغوي بأنه كان ابن عباس وابن عمر على أن الطلاق في الحيض حرام لحديث ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله ﷺ فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء»(٣) متفق عليه، قال البغوي نزلت هذه الآية في هذه القصة يعني طلاق ابن عمر امرأته في الحيض فيظهر بذلك أن العدة بالأطهار دون الحيضات والمراد بالقروء في العدة الأطهار وقالت الحنفية اللام للوقت يعني في غير معهود في الإستعمال وسيلزم ذلك تقديم العدة الطلاق أو مقارنته لاقتضائه وقوعه في وقته بل اللام هاهنا للعاقبة على طريقة له وللموت وابنوا للخراب يعني طلقوهن حتىٰ تعقبه العدة أو اللام صلة لمحذوف والتقدير طلقوهن مستقبلات لعدتهن يقال في التاريخ بإجماع أهل العربية خرجت لثلاث يقين من رمضان، وفي حديث ابن عمر المذكور في رواية مسلم أنه صلّى الله تعالى عليه وسلم تلى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لقبل عدتهن ومعنى قراءة ابن عباس وابن عمر وطلقوهن في قبل عدتهن أي في استقبال عدتهن فظهران العدة بالحيضات دون الأطهار وقد مر الخلاف في مسألة العدة بالحيضات أو الإطهار ومسألة حرمة الطلاق في الحيض في سورة البقرة.

مسألة:

أجمع العلماء أيضاً على أن الطلاق في الطهر الذي جامعها فيه حرام أيضاً لقوله ﷺ: «**فيطلقها طاهراً قبل أن يمس**» وعلى أنه لا يحرم طلاق امرأة حائض لم يدخل بها ولا طلاق صغيرة لم تحض ولا أيسة بعدما جامعها لأن الحرمة لتطويل العدة ولا عدة على غير المدخول بها وعدة الصغيرة والآيسة بالأشهر وذا لا يمتد بالطلاق بعد الجماع أيضاً ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ يعني اضبطوها بالحفظ وأمكثوها ثلاثة قروء كوامل لئلا تقع الرجعة بعد العدة أو التزوج بزوج آخر قبل انقضاء العدة وكل ذلك لا يجوز ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة والإضرار بهن ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ أي المطلقات رجعيات كن أو بوائن ﴿مِنۢ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦. (٢) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في أول كتاب: الطلاق (٥٢٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها (١٤٧١).

﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكنهن في وقت الطلاق وهي بيوت الأزواج حتى تنقضي عدتهن ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باختيارهن ومن هذه الآية يثبت أنه لا يجوز للمطلقة مطلقاً رجعية كانت أو بائنة الخروج من بيت الزوج ليلا ونهاراً إلا بضرورة فإن الضرورة مستثناة في العبادات وهي تبيح المحذورات والضرورة مثل انهدام البيت أو خوف السرقة أو عدم وجدان كراء البيت أو ضيق المنزل عليهما أو كون الزوج فاسقاً والطلاق بائناً ولم يكن هناك قادر على حيلولة أو نحو ذلك وقال أحمد يجوز للمطلقة البائنة أن تخرج من بيتها في حوائجها نهاراً وعن الشافعي كالمذهبين، قال البغوي إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن أو نحو ذلك يجوز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً إجماعاً احتجوا بحديث جابر قال: طلقت خالته فأرادت أن تجد نخلاً فزجرها رجل أن تخرج فأتت النبيّ ﷺ فقال: «بلى فجدي نخلك فإنه عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفاً»[(١)] رواه مسلم، قال أبو حنيفة حديث الآحاد لا يعارض الآية القطعية غير أنها تخرج في ضرورة ملجئة إجماعاً.

مسألة:

إذا لزمت العدة في السفر في غير موضع الإقامة أن لم يكن بينها وبين مصرها الذي خرجت منه مسيرة سفر رجعت وإن كانت تلك في كل جانب خيرت بين الرجوع والتوجه إلى القصد سواء كان معها اولى أولا والرجوع أولي ليكون الإعتداء في منزل الزوج، وقيل يختار أقربها وإن كانت هاهنا وبين مصرعا مسيرة سفر وبينها وبين المقصد أقل يتوجه إلى المقصد وإن كانت في موضع الإقامة تعتد ثمة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وعند أبي يوسف ومحمد إن كان معها ولي جاز له الرجوع إلى الوطن والمسير إلى المقصد على التفصيل المذكور.

مسألة: يجوز للمتوفى عنها زوجها في العدة الخروج من بيت زوجها نهاراً ولا يجوز ليلاً، وقال الشافعي يجوز مطلقاً وقد مر المسألة في سورة البقرة، قال البغوي إن رجالاً استشهدوا بأحد فقالت نسائهم نستوحش في بيوتنا فأذن لهن النبيّ ﷺ أن يتحدثن عند إحداهن فإذا كانت وقت النوم تأوي كل امرأة إلى بيتها وذكر في سورة البقرة حديث أخت أبي سعيد الخدري قال لها النبيّ ﷺ في عدة وفاة زوجها: «**أمكثي في بيتك حتى يبلغ**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: جواز خروج المعتدة البائن والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها (١٤٨٣).

الكتاب أجله»[١] ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ إستثناء مفرغ في محل الظرف أي لا تخرجوهن في وقت من الأوقات إلا وقت أن يأتين قال ابن عمرو السدي وإبراهيم النخعي يجوز للفاحشة خروجها من بيتها قبل إنقضاء العدة وبه أخذ أبو حنيفة، قال ابن همام هذا أبدع وأغرب يقال في الخطابيات لا تزني إلا أن تكوني فاحشة ولا تشتم إنك إلا أن تكون قاطع رحم ونحوه وعلى هذا التأويل إستثناء من الثاني، وقال ابن مسعود الفاحشة الزنا فتخرج لإقامة الحد عليها ثم ترد إلى منزلها وبه أخذ أبو يوسف، قال ابن همام وهذا ظهر من جهة وضع اللفظ لأن إلا غاية والشيء لا يكون غاية لنفسه، وقال ابن عباس الفاحشة المبينة أن تبدوا على أهل زوجها فيحل إخراجها وكذا قال قتادة أن معناه أن يطلقها على نشوزها وعلى هذين التأويلين استثناء من الأول يعني لا تخرجوهن ﴿وَتِلۡكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ بأن عرضها للعقاب ﴿لَا تَدۡرِي﴾ أيها الخاطب وجملة ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، في تأويل المفرد مفعول للاتدري أي لا تدري حدوث أمر بعد ذلك تعليل لقوله أحصوا العدة ولا تخرجوهن والمعنى لعل الله يحدث بعد بغضها وإرادة فراقها والرغبة عنها في قلب زوجها محبتها والرغبة فيها فتندمون على الطلاق وتريدون الرجعة ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الضمير راجع إلى الرجعيات من المطلقات وذكر حكم خاص ببعض ما تناوله الصدر لا يبطل عموم الصدر كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٢] المعنى قربن من إنقضاء عدتهن ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ أي راجعوهن ﴿بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ فتبين منكم من غير ضرار بأن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة ﴿وَأَشۡهِدُواْ﴾ على الرجعة أو الفرقة ﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ تبرئاً عن الريبة وقطعاً للتنازع والأمر بالأشهاد أمر إستحباب ولا يشترط الشهود للرجعة عند أبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية وعند الشافعي في أصح قوليه وفي قول للشافعي، ورواية أحمد يشترط الشهود للرجعة والأمر أمر إيجاب، قلنا أيضاً الإشهاد على الطلاق ليس بواجب إجماعاً فالأمر للاستحباب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾[٣] ولا يمكن أن يكون الأمر للوجوب في حق وللإستحباب في حق الفرقة وإلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها الشهود إذا دعيتم

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: عدة المتوفى عنها زوجها من يوم يأتيها الخبر (٣٥٢٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في المتوفى عنها تنتقل (٢٢٩٨)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في اللعان (١٢٠٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨. (٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

إليها ﴿لِلَّهِ﴾ أي خالصاً لوجهه لا لغرض دنيوي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكر ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإنه هو المنتفع به والمقصود تذكيره، أخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال جاء عوف ابن مالك الأشجعي فقال يا رسول الله إن إبني أسره العدو وجزعت أمه فما تأمرني. قال آمرك وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فقالت المرأة نعم ما أمرك فجعلا يكثران فغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه، قال البغوي وهي أربعة آلاف شاه فنزلت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ قال البغوي أتى عوف بن مالك النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله أسر العدو ابني وشكى إليه أيضاً الفاقة فقال النبي ﷺ: «**اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله**» ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذا أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب إبلاً فجاء بها إلى أبيه، وأخرج ابن جرير مثله عن سالم بن أبي الجعد والسدي وأخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وأخرج أيضاً عن جابر قال نزلت في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال فذكر مثله، وأخرج الخطيب في تاريخه من طريق جرير عن الضحاك عن ابن عباس وأخرجه الثعلبي من وجه آخر ضعيف وابن أبي حاتم من وجه آخر مرسل فقد صح الحديث بكثرة الشواهد فلا بأس بما قال الذهبي في حديث جابر أنه حديث منكر ومعنى الآية ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾ ومن يتقي الله في المصيبة والبلاء فيصبر ويترك الجزع وارتكاب المحرم ﴿يَجْعَل﴾ الله ﴿لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من ذلك البلاء والمصيبة ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ بعد فقره رزقاً حلالا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ كما رزق الأشجعي عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «**من أنزل فاقة فأنزلها لم يسد فاقته ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله برزق عاجلاً أو آجلاً**»(١) رواه أبو داود والترمذي وصححه هو والحاكم إلا أنه قال أوشك الله له بالغنى إما بموت عاجل أو غنى، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**من جاء أو إحتاج فكتمه الناس وأفضى به إلى الله كان حقاً على الله أن يفتح له قوت سنة من حلال**»(٢).

فائدة:

قال البغوي قال مقاتل أصاب إبنه يعني عوف بن مالك الأشجعي غنماً ومتاعاً ثم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاءفي الهم في الدنيا وحبها (٢٣٢٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في الاستعفاف (١٦٤٤).

(٢) رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه إسماعيل بن رجاء الحصني ضعفه الدارقطني. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فيمن صبر على العيش الشديد ولم يشك إلى الناس (١٧٨٧٠).

رجع إلى أبيه فانطلق أبوه إلى النبيّ ﷺ أخبره الخبر وسأله أيحل له أن يأكل ما أتى به إبنه فقال النبيّ ﷺ نعم فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فائدة:

إختار المجدد لجلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية إكثار لا حول ولا قوة إلا بالله وعين في مقدار الإكثار أن يقرأها في كل يوم خمسمائة مرة ويصلّى على النبيّ ﷺ قبله مائة مرة وبعده مئة مرة وقد قال رسول الله ﷺ: «من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله» رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وفي الصحيحين عن أبي مولى مرفوعاً «إنها كنز من كنوز الجنة»[١] وفي رواية للنسائي «من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم»[٢].

مسألة إذا دخل المسلم دار الحرب أسيراً أو سارقاً مختفياً بلا أمان وأستولي على مال حربي بسرقة أو غصب أو غير ذلك وأحرزه بدار الإسلام ملكه ملكاً حلالاً وليس عليه إخراج الخمس وإن وضع عنده حربي ماله أمانة أو دخل دار الحرب بأمان تاجراً أو سياحا واستولى على مالهم وأحرزه بدار الإسلام ملكه بملك حرام لأجل الغدر ونقض العهد ولا خمس عليه وإن أخذ مالهم عنوة فحكمه حكم الغنيمة يجب فيه الخمس والله تعالى أعلم قال البغوي قال عكرمة والشعبي والضحاك ومعنى الآية ومن يتق الله فيطلق للسنة يجعل له مخرجاً إلى الرجعة، وقال ابن مسعود من يتق الله يجعل له مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس، وقال أبو العالية مخرجاً من شدة، وقال الحسن مخرجاً عما نهاه عنه، قلت نظم الآية يطابق قصة الأشجعي ويفيد الحكم العام بحيث يناسب سياق السورة والجملة إعتراضية مؤكدة لما سبق يعني من يتق الله من الرجال ولم يظلم على زوجة بالنشوز والعدوان إذا أراد الفراق لنشوزها أو لغرض صحيح آخر ولم يطلق في الحيض ولا قصد إضرارها بتطويل العدة وغير ذلك ولا أخرجها من المسكن ولم يتعد حدود الله يجعل له مخرجاً من المعصية ومن سوء معاشرتها ويرزقه بدلاً منها زوجة صالحة لم يخطر باله وكذا في المرأة إذا اتقت الله فلم تظلم زوجها بالنشوز وطلب الطلاق بلا إضرار منه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا علا عقبة (٦٣٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وفيه بشر بن رافع الحارثي وقد وثق وبقية رجاله رجال الصحيح.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ما جاء في لا حول ولا قوة إلا بالله (١٦٩٠١).

أو صبرت على إيذائه يجعل لها مخرجاً منه ويرزقها من الطعام ومن الرجال بعلاً صالحاً من وجه لا يخطر ببالها وتفيد حكماً عاماً لعامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما ومن ثم قال قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم»** ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[(١)] رواه أحمد وابن ماجه والدارمي من حديث أبي ذر وكذا روى ابن حبان في صحيحه والحاكم وزاد فما زال عليه السلام يقرأها ويعيدها ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ أي كافيه فيما يهمه عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**[(٢)] رواه الترمذي وابن ماجه، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: **«يدخلون الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»**[(٣)] متفق عليه وزاد في رواية ولا يكتوون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ يبلغه على ما يريده ولا يفوته مراده لا يرد قضاءه قرأ حفص بالغ بالإضافة بغير تنوين وأمره بالجر والباقون بالتنوين ونصب أمره، قال مسروق إن الله بالغ أمره توكل عليه أو، لم يتوكل غير أن المتوكل عليه يكر عنه سيآته ويعظم له أجراً ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ أي تقديراً ومقداراً وفيه تقرير لما تقدم من توقيت الطلاق بزمان والعدة والأمر بإحصائها وتمهيد لما سيأتي من مقاديرها أو المعنى جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه لا يتأتى تغييره ولا يفيد الجزع فيه فهو بيان لوجوب التوكل ويناسب هذا التأويل قول مسروق.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (٤٤٢٠)، قال في الزوائد: رجاله ثقات غير أنه منقطع.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو (٥٧٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٨).

يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

وأخرج ابن جرير وإسحاق بن راهويه والحاكم وغيرهم بسند صحيح عن أبي بن كعب قال لما نزلت الآية في سورة البقرة في عدة النساء قالوا قد بقي عدد من النساء لم يذكرن الصغار والكبار وأولات الأحمال فأنزلت ﴿وَالَّٰئِي﴾ مر اختلاف القراء في سورة المجادلة ﴿يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾ مصدر ميمي بمعنى الحيض ﴿مِن نِّسَائِكُمْ﴾ ويعني اللآتي لا يرجون الحيض لكرهن وقدرها بعض العلماء بخمس وخمسين سنة وبعضهم بستين سنة ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في عدتهن كأن في هذا الشرط إشارة إلى أن عدة اللائي يأسن واللائي لم يحضن يمكن استنباطها من قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[1] فإن ثلاثة قروء غالباً يوجد في ثلاثة أشهر فإذا لا يوجد القروء يجب رعاية زمان يوجد فيه غالباً القروء الثلاثة كما أن العلماء حكموا بالبلوغ بمضي خمسة عشر سنة أو سبعة عشر سنة أو نحو ذلك لعدم خلو هذا السن من البلوغ غالباً وكما أن الشرع أقام حولان الحول على المال في وجوب الزكاة مقام النماء لوجود النماء غالباً في الحول وله نظائر كثيرة مثل تقدير الإياس بالسنين ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أخرج مقاتل في تفسيره أن خلاد بن عمر بن الجموح سأل النبيّ ﷺ عن عدة التي لا تحيض فنزلت هذه الآية ﴿وَالَّٰئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ سواء كانت صغيرة أو مراهقة أو بالغة بالسن مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما سبق يعني كذلك عدتهن ثلاثة أشهر قوله واللائي يئسن مع ما عطف عليه معطوف على مفهوم قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ فإن الإضافة في لعدتهن ولام التعريف في العدة للعهد أي عدتهن المعهودة المعلومة من قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فدلت الإضافة واللام على أن عدة اللائي يحضن من المطلقات ثلاثة حيض فعطف عليه هذه الآية مختصة بالمطلقات الحرائر إجماعاً سواءكن رجعيات أو بائنات أو مختلعات مسلمات أو كتابيات تحت مسلم، وأما الإماء قنات أو مكاتبات أو مدبرات فعدتهن إذا لم تكن من ذوات الإقراء فنصف عدة الحرائر أعني شهر أو نصف شهر بالإجماع وقد ذكرنا في سورة البقرة طلاق الأمة طلقتان وعدتها حيضتان ولما كان الحيض والطلاق غير متجزىء كملتا والشهر متجزىء فصار شهراً ونصف شهر، روى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

الشافعي ثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن عبد الرحمٰن مولى أبي طلحة عن سلمان بن يسارعن عبد الله بن عتبة عن عمر قال ينكح العبد إمرأتين ويطلق تطليقتين وتعتد الأمة بحيضتين فإن لم تكن تحيض فشهرين أو شهراً ونصفاً.

مسألة: الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الإياس ذهب أكثر أهل العلم إلى أن عدتها لا تنقضي حتى يعاودها الدم فتعتد ثلاثة أقراء أو تبلغ سن الإيأس فتعتد بثلاثة أشهر وهو قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وابن مسعود وبه قال عطاء وإليه ذهب أبو حنيفة والشافعي ووجه هذا القول ظاهر فإنها غير داخلة في اللآئي يئسن واللآئي لم يحضن، وحكي عن عمر أنها يتربصن تسعة أشهر فإن لم تحضن في تلك المدة تعتد بثلاثة أشهر وهو قول مالك، وقال الحسن تتربصن ستة فإن لم تحضن تعتد بثلاثة أشهر مسألة إن حاضت المطلقة حيضتين ثم بلغ سن الإياس وانقطع دمها تستأنف العدة باشهور وإن اعتدت الأيسة بالأشهر ثم رأت الدم بعد إنقضائها أو في خلالها انتقض وأمضى من عدتها وظهر فساد نكاحها الكائن بعد تلك العدة هذا إذا رأت الدم على العادة بأن يكون الدم أسود أو أحمر ولو رأت أصفر أو أخضراً وتربية لا يكون حيضاً إلا إذا كانت عادتها قبل الإياس أصفر فرأته كذلك أو علقاً فرأته كذلك إن وقع الطلاق في أول شهر اعتدت بالأشهر الهلالية إتفاقاً وإن وقع في أثناء الشهر اعتبر كلها بالأيام فلا ينقضي عدتها إلا بتسعين يوماً عند أبي حنيفة وعند صاحبيه يكمل الأول ثلاثين يوماً والأخيران المتوسطان بالأهلة.

مسألة:

ليس حكم هذه الآية في المتوفى عنها زوجها فإن عدتها إذا لم تكن حاملاً أربعة أشهر وعشر سواء كانت صغيرة أو آيسة أو شابة والداعي إلى تخصيص حكم هذه الآية بالمطلقات دون المتوفىٰ عنهن أزواجهن مع كون اللفظ عاماً الإجماع وسند الإجماع ما ذكرنا في سبب النزول من حديث أبي بن كعب قالوا قد بقي عدد من النساء لم يذكرن الصغائر والكبائر وأولات الأحمال فأنزلت هذه الآية وقوله تعالى إن ارتبتم، ولا شك أن عدة النساء لم يبق إلا من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[1] بخلاف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾[2] فإنه عام شامل لجميع أقسام المتوفىٰ عنهن أزواجهن لم يشذ منها شيء وأيضاً لا يحتمل تلك الآية الارتياب فإن الارتياب إنما يتصور في ما ثبت بدليل ظني وتلك الآية لعمومه يشتمل جميع أقسام المتوفى عنها زوجها قطعاً يقيناً فإن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

قيل هذا الدليل كما يقتضي اختصاص هذه الآية بالمطلقات يقتضي أيضاً أن يختص به أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ مع أنه لم يقل به أحد فكيف ترك دليل الإختصاص هناك مع كون الجمل الثلاث في نسق واحد؟ قلنا: كان دليل التخصيص هاهنا الإجماع وإلا فحديث الآحاد ما لم يعتقد بالإجماع لا يصلح مخصصاً للقطع عندنا والإجماع هناك على خلاف ذلك يعني على شمول الأحمال أولات الأحمال المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن لابن علية وابن عباس قالا لا بد للمتوفي عنها زوجها إذا كانت حاملة من الوضع والأربعة الأشهر وعشراً جمعا بين الآيتين احتياطاً والجمهور على أنه تنقضي عدتها بالوضع كذا روى مالك في الموطأ عن ابن عمر وعن عمر بن الخطاب ولم يقل أحد أن الوضع في حقها غير معتبر أصلاً، وفي موطأ مالك عن سليمان بن يسار أن عبد الله بن عباس وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف اختلفوا في المرأة تنفس بعد زوجها بليال فقال أبو سلمة إذا وضعت ما في بطنها فقد حلت، وقال ابن عباس آخر الأجلين فقال أبو هريرة أنا مع ابن أخي يعني أبا سلمة فأرسلوا كريباً مولى ابن عباس إلى أم سلمة زوج النبيّ ﷺ يسألها عن ذلك فأخبرهم أنها قالت ولدت سبيعة الأسلمية بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك للنبيّ ﷺ فقال قد حللت فانكحي من شئت. وفي الصحيحين حديث عمر بن عبد الله بن أرقم أنه دخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فسألها عن حديثها فأخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وهو كان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بني عبد الدار فقال مالي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح والله ما أنت بناكحة حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني أني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي[1]. وإذا ثبت أن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ شاملة للمتوفىٰ عنها زوجها أيضاً كما يدل عليه حديث أبي بن كعب قلت للنبيّ ﷺ وأولات أحمال أجلهن أن يضعن حملهن للمطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها زوجها فقال هي للمطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها زوجها ولكن فيه المثنى بن صباح متروك، قال الشافعي رحمه الله تعالى بأن هذه الآية مخصصة الآية التربص أربعة أشهر وعشر أبناء على أنه يجوز التخصيص بالمتراخي عنده،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: فضل من شهد بدراً (٣٩٩١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل (١٤٨٤).

قال البيضاوي المحافظة على عموم هذه الآية أولي من المحافظة على عموم قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ لأن عموم أولات الأحمال بالذات وعموم أزواجاً بالعرض والحكم معلل هاهنا بخلاف ثمه والحديث سبيعة وقال أبو حنيفة هذه الآية ناسخة لحكم آية البقرة مقدار ما يتناول عليه وهو المروي عن ابن مسعود، وأخرج البخاري عن ابن مسعود قال أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة نزلت سورة النساء القصرىٰ بعد الطولىٰ يريد بالقصرى ههذ السورة بالطولى البقرة[١]، وفي رواية عنه أنه قال من شاء بأهلته أن سورة النساء القصرىٰ نزلت بعد سورة النساء الطولىٰ، وأخرج أبو داوود والنسائي وابن ماجه بلفظ من شاء لاعنته لأنزلت سورة النساء القصرى بعد الأربعة أشهر وعشرا[٢]، وأخرج البزار بلفظ من شاء حالفته مسألة لا فرق بين عدة الحامل بين الحرة والأمة لأن الوضع لا يحتمل التجزي.

مسألة:

أم التوأمين تنقضي عدتها بوضع آخرها لأن قوله تعالى حملهن يقضتي وضع تمام حملها ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يعني يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة يوفقه للخير ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أحكام المذكورة مبتدأ خبره ﴿أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ حال من أمر الله والعامل فيه معنى أشيء ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعى حقوقها ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيآت ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ متصل بقوله تعالى لا تخرجوهن مستأنفة كأنه في جواب من قال أين تسكنهن والضمير راجع إلى النساء المطلقات المذكورات في أول السورة فهي تعم الرجعيات والبائنات الحرائر والإماء صغيرات كن أو حائضات أو أيسات ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ من زائدة والمعنى حيث سكنتم أو للتبعيض والموصوف محذوف يعني مكانا كائناً بعض المكان الذي سكنتم فيه، وقيل من يمضي في كما في قوله تعالى من قبل أن تنزل التوراة ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي من وسعكم أي الذي تطيقونه ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ في السكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في المساكن ببعض الأسباب من إنزال لا يوافقها أو شغل مكانها وغير ذلك فتلجوهن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إعلم أن المطلقة الرجعية يستحق على زوجها

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (٤٩١٠).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الطلاق، باب: عدة الحامل المتوفى عنها زوجها (٣٥١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: في عدة الحامل (٢٣٠٥).

النفقة والسكنى إجماعاً ما دامت في العدة فإن كان الدار ملكاً للزوج يجب على الزوج أن يخرج عنها ويترك الدار مدة عدتها إن كان لا يريد الرجعة وإن كان بإجارة فعلى الزوج الأجرة وأما المعتدة البائنة بالخلع أو بالطلقات الثلاث أو باللعان أو بالكنايات على مذهب أبي حنيفة فلها السكنى حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر أهل العلم لعموم قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ من غير فصل، وروى عن ابن عباس والحسن والشعبي أنه لا سكنى لها واختلفوا في نفقتها فذهب قوم إلى أنه لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً روي ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن والشعبي وعطاء وبه قال الشافعي وأحمد، والحجة لهؤلاء مفهوم الشرط لهذه الآية وحديث فاطمة بنت قيس أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب بالشام فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته فقال والله مالك علينا من شيء فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال لها «ليس لك عليه نفقة» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك ثم قال تلك امرأة يغشها أصحابي فأعتدى عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا حللت فأذنيني قلت فلما حللت ذكرت له أن معاوية ابن سفيان وأبا جهم خطباني فقال رسول الله ﷺ أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له إنكحي أسامة بن زيد، فكرهته ثم قال إنكحي أسامة فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به[1] رواه مسلم، وروى مسلم أيضاً وقال فيه «لا نفقة لك ولا سكنى» ورواه أيضاً وقال فيه ابن المغيرة خرج مع علي بن أبي طالب فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقه كانت بقية من تطليقها وعلى هذا يحمل رواية الثلاث على أنه أوقع واحدة في تمام الثلاث وأمر لها الحارث بن هشام وعباس بن ربيعة بنفقة فسخطتها فقالا والله ليس لك نفقة إلا أن تكوني حاملاً فأتت النبيّ ﷺ فذكرت له قولهما فقال لا نفقة لك، وفي رواية لمسلم أن أبا حفص بن المغيرة طلقها ثلاثاً ثم انطلق إلى اليمن وقال لها أهله ليس لك علينا نفقة فانطلق خالد بن الوليد في نفر فأتوا رسول الله ﷺ في بيت ميمونة الحديث، وقال أبو حنيفة لها نفقة حاملة كانت أولا بهذه الآية فإن قوله تعالى من وجدكم متعلق بمحذوف والتقدير أسكتوهن من حيث سكنتم وأنفقوا عليهن من وجدكم لأن قدر السكنى اتضح بقوله من حيث سكنتم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ولولا تقدير أنفقوا عليهن فلا فائدة لقوله من وجدكم إنما هو لبيان مقدار النفقة وبه جاءت قراءة ابن مسعود وهو حجة عند أبي حنيفة والمفهوم ليس بحجة عنده وفائدة التفييد بقوله وإن كن أولات حمل التأكيد

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠).

ودفع توهم عدم النفقة على المعتدة الحامل في تمام الحمل لطولها وعدم الإقتصار على قدر ثلاث حيض أو ثلاثة أشهر، والجواب عن حديث فاطمة أنه وإن كانت مرويا بسند صحيح لكنه شاذ مردود غير مقبول رده السلف ومعارض ومضطرب أما الاضطراب فقد سمعت في بعض الروايات أنه طلقها وهو غائب وفي بعضها طلقها ثم سافر وفي بعضها أنها ذهبت إلى رسول الله ﷺ وسألته وفي بعضها أبا حفص بن المغيرة، أما الرد من السلف فقد طعن في الحديث أكابر الصحابة ممن سنذكر مع إنه ليس من عادتهم الطعن بسبب كون الراوي امرأة أو أعرابياً فقد قبلوا حديث فريعة بنت مالك أخت أبا سعيد في اعتداد المتوفي عنها زوجها في بيت زوجها مع أنها لا لا تعرف إلا بهذا الحديث بخلاف فاطمة بنت قيس، وقبل عمر خبر الضحاك بن سفيان الكلابي وحده وهو أعرابي وأسوة من رد هذا الحديث عمر بن الخطاب(رض) روى مسلم في صحيحه عن أبي إسحاق قال كنت مع أسود ابن زيد جالساً في المسجد الأعظم ومعنا الشعبي فحدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة فأخذ الأسود من حصني فحصن به فقال ويلك تحدث بمثل هذا قال عمر لا نترك كتاب ربنا ولا سنة نبينا بقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت لها السكنى والنفقة، قال الله تعالى ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فعمر رد حديث فاطمة بين أن سنة رسول الله ﷺ أن لها النفقة والسكنى وقول الصحابي من السنة كذا وقع فكيف إذا كان قائله عمر وهو أعلم بالسنن والشرائع وفيما روى الطحاوي والدارقطني زيادة قوله سمعت رسول الله ﷺ يقول مبتدأ **«للمطلقة ثلاثاً النفقة والسكنى» وهذا صريح في الرفع والمعارضة،** قال سعيد بن منصور ثنا المعاوية ثنا الأعمش عن إبراهيم قال كان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة قال ما كنا نغير في ديننا بشهادة إمرأة وهذا شاهد على أن المعروف المشهور عندهم كان وجوب النفقة والسكنى ولمن رد حديثها عائشة وكانت أعلم الناس بأحوال النساء فقد كن يأتين إلى منزلها ويستفتين من النبي ﷺ، روى الشيخان في الصحيحين عن عروة أنه قال لعائشة ألم تري إلى فلانة بنت الحكم طلقها زوجها البتة فخرجت فقالت بئس ما صنعت فقلت ألم تسمعي إلى قول فاطمة فقالت أما أنه لا خير لها في ذكر ذلك»[(١)] وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت لفاطمة ألا تتقي الله تعالى في قولها لا سكنى لها ولا نفقة وممن رد حديثها أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ روى عبد الله بن صالح قال حدثني

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: قصة فاطمة بنت قيس (٥٣٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠).

الليث بن سعد حدثني جعفر عن أبي هريرة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال كان محمد بن أسامة يقول كان أسامة إذا ذكرت فاطمة شيئاً من ذلك يعني من انتقالها في عدتها رماها بما في يده انتهىٰ، هذا مع أنه هو الذي تزوجها بأمر رسول الله ﷺ وكان أعرف بالحال وهذا لم يكن إلا لعلمه بأن ذلك غلط أو لعلم بخصوص سبب جواز إنتقالها من اللسن أو خيفة المكان قال ابن همام، وقال الليث حدثني عقيل عن ابن أشباب أنا أبو سلمة بن عبد الرحمان فذكرت حديث فاطمة فأنكر الناس عليها كانت تحدث من خروجها قبل أن تحل، وممن رد حديثها مروان روى مسلم في صحيحه أن مرت وأبعث إليها قبيصة بن أبي ذويب فسألها عن الحديث فحدثته به فقال مروان لم تسمع الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، قال ابن همام والناس إذ ذاك الصحابة فهذا في المعنى حكاية عن إجماع الصحابة وصفه بالعصمة قال ابن همام من رد حديثها زيد بن ثابت ومن التابعين ابن المسيب وشريح والشعبي والحسن والأسود بن يزيد وممن بعدهم الثوري وأحمد بن حنبل وخلق كثير ممن تبعهم فالحديث شاذ، وأما المعارضة فما ذكرنا من رفع عمرو في معجم الطبراني بسنده عن إبراهيم أن ابن مسعود وعمر قالا المطلقة ثلاثاً لها السكنى والنفقة، وأخرج الدارقطني عن حزب بن العالية عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ ﷺ قال المطلقة ثلاثاً لها السكنى والنفقة لكن ضعف رفعه ابن معين وقال الأشبه وقفه على جابر **فائدة** وقيل في توجيه حديث فاطمة بنت قيس على تقدير صحته أنها كانت تطول لسانها على أحمائها وكان للسانها ذرابة ولذا أخرجها رسول الله ﷺ من بيتها روى القاضي إسماعيل بسنده عن عائشة قالت لفاطمة بنت قيس إنما أخرجك هذا اللسان، وقال سعيد بن المسيب تلك إمرأة يعني فاطمة بنت قيس فتنت الناس كانت لسنة فوضت على يدابن أم مكتوم رواه أبو داود، وقال سليمان بن يسار خروج فاطمة إنما كان عن سوء الخلق»[١] رواه أبو داود عنه وكان هذا سبباً لخروجها من بيتها وأما سبب عدم نفقتها فلأن زوجها كان غائباً ولم يترك مالاً عند أحد سوى الشعير الذي بعث به إليها فطالبت هي من أهله على ما في مسلم من طريق أن طلقها ثلاثاً ثم انطلق إلى اليمن فقال لها أهله ليس لك علينا نفقة الحديث فكأنه لذلك قال لها عليه الصلاة والسلام لا نفقة لك ولا سكنى لأنه لم يترك مالاً عند أحد وليس يجب لك على أهله شيء فلا نفقه لك فلم تفهم فاطمة الغرض من كلام رسول الله ﷺ وجعلت تروي عدم النفقة مطلقاً فوقع إنكار الناس عليها.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من أنكر ذلك على فاطمة بنت قيس (٢٢٩٢).

مسألة: المعتدة عن وفاة الزوج لا نفقة لها إجماعاً حاملاً كانت أو حائلاً واختلفوا في سكناها للشافعي فيه قولان أحدهما أنه لا سكنى لها تعتد حيث تشاء وهو قول عائشة وابن عباس وعلي وبه قال الحسن، والجمهور على أن لها السكنى وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وبه قال مالك وسفيان والثوري وأحمد وإسحاق، قلت: وكذا قال أبو حنيفة لكنه يقول إن كان نصيبها من دار الميت لا يكفيها وأخرجها الورثة من نصيبهم انتقلت لأن هذا انتقال بعذر والعبادات توثر فيها الأعذار فصارت كما إذا خافت سقوط المنزل أو كانت فيها بأجر ولا تجد ما تؤويه ولا تخرج عما انتقلت إليه والحجة للجمهور حديث فريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد الخدري وقد ذكرناه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾[١] ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي المطلقات بعد وضع الحمل وتمام العدة أولادكم ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على رضاعهن ذكرنا في سورة البقرة أن إرضاع الولد واجب على الأمر لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[٢] فإن استأجر الرجل زوجة أو معتدة لإرضاع ولدها لا يجوز لأنه أخذ الأجرة على فعل واجب عليها فلا يجوز وهذا كان يقتضي عدم جواز استئجار المطلقة بعد انقضاء العدة أيضاً لكنا جوزنا ذلك بهذه الآية فظهر بهذه الآية أن وجوب الإرضاع على الأم مقيد بوجوب رزقها على الأب بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾[٣] ففي حالة الزوجة والعدة بعد الطلاق أبوه قائم برزقها وفيما بعد العدة ليس عليه رزق فيقوم الأجرة ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ خطاب للزوجين أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره الآخر بشيء معروف وما هو الأحسن ولا يقصد أحدهم إضرار الآخر، قال الشافعي يعني شاوروا، وقال مقاتل بتراض الأم والأب على أجر مسمى، وقال البيضاوي وليأمر بعضكم بعضا بجميل في الإرضاع والأجر ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أيها الأبوين أي لأن عسر الإرضاع على الأم فأبت أن ترضع ولدها فليس للأب إجبارها عليه وعذرت قضاء لظن عجزها حين امتنعت عن الإرضاع مع وفور شفقتها فإن كان الإرضاع غير متعسر عليها في الواقع أثمت عند الله وإن عسر على الأب إعطاء أجرتها وكانت ثمة من ترضعه بغير أجر أو بأجر أقل من أجر المثل لا يجبر على الأب في إعطاء أجر المثل للأم ويسترضع الأب من غيرها عند أبي حنيفة وهي رواية عن مالك وقول للشافعي، وقال أحمد يجبر على الأب في إعطاء أجر المثل ولا يجوز للأب الإرضاع من غيرها وإن وجد من ترضع بغير أجر وهي رواية عن مالك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

وقول للشافعي وهذه الآية حجة لأبي حنيفة حيث قال لله تعالى ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ﴾ أي للأب امرأة ﴿أُخْرَىٰ﴾ وفيه معاتبة للأم على المعاشرة.

مسألة: يشترط في الإرضاع من غيرها أن يكون الإرضاع عند الأم ما لم تنكح زوجاً آخر غير محرم من الولد لأن الحضانة لها لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت يا رسول الله ﷺ: «**إن إبني هذا كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني فقال عليه الصلاة والسلام: «أنت أحق به ما لم تنكحي**»[1] رواه أبو داود والحاكم وصححه، وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قال كانت عند عمر امرأة من الأنصار فولدت له عاصم بن عمر ثم فارقها عمر فركب يوماً إلى قباء فوجد ابنه يلعب بفناء المسجد فأخذه بعضده ووضعه بين يديه على الدابة فأدركته جدة الغلام فنازعته إياه فأقبلا حتى أتيا أبا بكر فقال خل بينه وبينها فما راجعه عمر كذا روى عبد الرزاق وروى البيهقي وزاد، ثم قال أبو بكر سمعت رسول الله ﷺ قال لأبوي والدة عن ولدها، وروى ابن أبي شيبة قال أبو بكر مسحها وحجرها وريحها خير لها منك حتى يشب الصبي فيختار لنفسه.

مسألة:

إن طلبت الأم أجر مثل ما تطلب غيرها فليس للأب أن يسترضع عن غيرها إجماعاً ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي على قدر غناه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ على قدر طاقة.

مسألة: اختلفوا في أن نفقة الزوجات والمطلقات هل هي مقدرة بالشرع أو معتبرة بحال الزوجين أو بحال الزوج فقط فقال مالك وأحمد وهي رواية عن أبي حنيفة وأختارها صاحب الهداية أنها غير مقدرة بالشرع بل مفوض إلى الإجتهاد ويعتبر بحال الزوجين فيجب على الموسر للموسرة نفقة الموسرين وعلى المعسر للمعسرة أقل الكفايات حالاً والباقي في ذمته إذ قضىٰ القاضي بنفقة المتوسط أو رضيا بقدر، وهذا القول يؤخذ من هذه الآية لا يقتضي اعتبار حال الزوجة وتقتضي أن يكون على الموسر للغفيرة نفقة اليسار بقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ويقتضي أن يكون على الفقير بقدر طاقته ولا يكون شيء في ذمته وإن كانت زوجة موسرة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فإنه تعليل لعدم وجوب الزيادة وهذا هو ظاهر الرواية من مذهب، أبي حنيفة قال ابن همام على ظاهر

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الطلاق، باب: من أحق بالولد (٢٢٧٤).

الرواية يجب في صورة إعسار الزوج ويسار الزوجة نفقة الإعسار لأنها وإن كانت موسرة لكنها لما تزوجت معسراً فقد رضيت بنفقة المعسرين وفي صورة يسار الزوج وإعسار الزوجة نفقة الموسر زوجه ومن قال إنه يجب على المعسر للموسرة نفقة متوسطة إعتبار حال الزوج ثبت بالقرآن وأعتبار حال الزوجة بحديث عائشة أن هند بنت عتبة قالت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»(١) متفق عليه، ويورد عليه أنه حديث آحاد لا يجوز به تغيير حكم ثبت بالقاطع وأفاد صاحب الهداية دفع هذا الإيراد بقوله نحن نقول بموجبه أي موجب القرآن أنه مخاطب بقدر وسعه والباقي في ذمته فإن المفاد بالنص باعتبار حاله في الإنفاق ونحن نقول أن المعسر لا ينفق فوق وسعه وهو لا ينفي إعتبار حالها في قدر ما يجب لها عليه في ذمته والحديث أفاده فلا زيادة على النص لأن موجبه تكليف بإخراج بقدر حاله والحديث أفاد إعتبار حالها في قدر الواجب إلا المخرج فيجتمعان بأن يكون الواجب عليه أكثر فيما إذا كانت موسرة وهو معسر ويخرج قدر حاله فبالضرورة يبقى الباقي في ذمته وأورد عليه أنه ﷺ كان عالماً بحال أبي سفيان لعله أنه كان موسرا فلم ينص على حاله وأطلق لها بأن أخذ كفايتها وأيضاً ليس في الحديث إعتبار حالها فإن الكفاية تختلف أيضاً وقوله عليه الصلاة والسلام «بالمعروف» إشارة إلى رعاية حاله وأخذها من مال أبي سفيان ما يكفيها وولدها لا يمكن إلا إذا كان أبو سفيان مالكاً لما يكفيها وولدها ففيه دليل واضح على أنه كان وسراً مانعاً لأجل الشح والله أعلم، وقال الشافعي هي مقدرة بالشرع لأدخل للإجتهاد فيها معتبرة بحال الزوج كما ينطق به الآية فعلى الموسر مدان وعلى المتوسط مد ونصف وعلى المعسر مد واحد ولا دليل في الآية على التقدير.

مسألة: اتفقوا على أن الزوجة إذا احتاجت إلى خادم وجب أخذ أمها بشرط يسار الزوج، وقال محمد يجب على المعسر أيضاً نفقة خادم، ثم اختلفوا فيما إذا احتاجت إلى أكثر من خادم فقال أبو حنيفة ومحمد والشافعي وأحمد لا يلزم إلا خادم واحد وقال مالك في المشهور عنه إذا احتاجت خادمين أو ثلاثة لزمه ذلك، وقال أبو يوسف عليه نفقة خادمين فقط أحدهما لمصالح الداخل والآخر لمصالح الخارج والله تعالى أعلم ثم ذكر الله تعالى لتطيب قلوب المعسرين وعد اليسر ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي عاجلاً أو آجلاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النفقات، باب: إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها من معروف (٥٣٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأقضية، باب: قضية هند (١٧١٤).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى كم الخبرية مبتدأ ﴿مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ أي عتى أهلها حذف المضاف وأسند الفعل إلى المضاف إليه وكذا في حاسبناها وعذبناها خبر كائن أو صفة له والخبر أعد الله لهم يعني كثير من أهل القرية طعنت وأعرضت إعراض العاتي المعاند ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ حاسبناها مع ما عطف عليه عطف على عتت يعني حساباً بالاستقصاء والمناقشة وعدم العفو والتجاوز يعني حاسبناها بعملها في الدنيا وجزيناها في الدنيا، أو المراد استقصاء ذنوبهم وإثباتها في صحف الحفظة ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ قرأ نافع وأبو بكر بضم الكاف والباقون بالسكون يعني منكراً فظيعاً بالجوع والقحط والسيف والأسر والإهلاك ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي عقوبة كفرها ومعاصيها في الدنيا ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا﴾ في القبر والآخرة ﴿خُسْرًا﴾ لاربح فيه أصلاً حيث يعوض لهم بالجنة النار ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كذا قال مقاتل في تأويل الآية، وقيل في الآية تقديم وتأخير ومجازها فعذبناها في الدنيا بالجوع والقحط وسائر البلاء وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً وكان عاقبة أمرها خسراً، وقال أكثر المفسرين المراد في الكل حساب الآخرة وعذابها والتعبير بلفظ الماضي للتحقيق وعلى هذين التأويلين لا يجوز إلا أن يكون عتت خبراً من كأين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني لا تطفوأ ولا تعرضوا عن أمر بكم ورسله كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم والفاء للسببية فإن الوعيد على الجفاء بسبب الإتقاء ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين آمنوا بدل أو نعت كاشفة فإن مقتضى اللب الإيمان والجملة الندائية معترضة للتنبيه ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ حال من فاعل فاتقوا أو تعليل ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني القرآن ﴿رَّسُولًا﴾ منصوب بفعل مقدر يعني وأرسل رسولاً أو هو منصوب بالمصدر على المفعولية والمعنى أنزل إليكم ذكر رسول أو على البدلية بدل الكل من ذكر على أنه بمعنى الرسالة أو على حذف المضاف يعني كتاب رسول أو بدل اشتمال من الذكر بمعنى اقرآن يعني أنزل ذكراً

رسولاً معه، وقيل المراد بالذكر جبرئيل عليه السلام لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر وهو القرآن أو لأنه مذكور في السماوات أو ذا ذكر أي شرف أو محمد ﷺ لمواظبته على الذكر وتلاوة القرآن أو تبليغه الذكر وعبر من إرساله بالإنزال ترشيحه أو لأنه مسبب عن إنزال الوحي إليه وعلى هذين التأويلين رسولاً بدل من ذكراً ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ صفة للرسول على الحقيقة أو للقرآن مجاز أو جاز أن يكون حالاً من اسم الله ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي الكفر والجهل ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الإيمان والفقه والأعمال الصالحة الموجبة للنور في الآخرة، والمراد بالموصول المؤمن بعد نزول القرآن الذين علم الله وقدر إيمانهم بعد الكفر وعلمهم بعد الجهل أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والأعمال الصالحة والعلوم الحقة وقوله ليخرج متعلق بأنزل ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ قرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون على المتكلم والباقون بالياء على الغيبة وحد ضمير ندخله وجمع خالدين حملاً على لفظ من ومعناه ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها فيه تعظيم لما رزقوا ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مبتدأ وخبر ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني سبعاً.

عن أبي هريرة قال: «بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذا أتى عليهم سحاب فقال النبي ﷺ هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا العنان هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرون ولا يدعونه، ثم قال هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف، ثم قال هل تدرون ما بينكم وبينها؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال بينكم وبينها خمسمائة عام، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال سماءان بعدما بينهما خمسمائة سنة، ثم قال كذلك حتى عد سبع سماوات ما بين السماء والأرض، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال إن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعدما بين السماءين، ثم قال هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال إنها الأرض، ثم قال هل تدرون ما تحت ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال إن تحتها أرض أخرى ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة، حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين خمسمائة سنة، ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو كل شيء عليم»[١] رواه أحمد والترمذي وقد ذكرنا هذا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحديد (٣٢٩٨).

الحديث وتحقيقه في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[1] قال قتادة في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه من خلقه وأمر من أمر وقضاء من قضاء وقد ورد في بعض الأحاديث «أن في كل أرض آدم كآدمكم ونوح كنوحكم وإبراهيم كإبراهيمكم وموسى كموسى وبني كنبيتكم يعني محمد ﷺ» والله تعالى أعلم ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وقضاءه بينهن وينفذ حكمه فيهن كلهن ولو صح حديث في كل أرض آدم كآدمكم فجاز أن يكون المعنى يتنزل بالوحي بينهن من السماء السابعة إلى الأرض السابعة السفلى.

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ فلا يخفى عليه شيء وقوله لتعلموا علة لخلق أو ليتنزل الأمر أو لمقدريها أي عمكم الخلق والتنزل لتعلموا الآية فإن كلاً منها يدل على كمال قدرته وعلمه وعلماً منصوب على التميز من نسبة أحاذ إلى فاعله أو مصدر من غير لفظه فمعنى أحاط بكل شيء علماً علم كل شيء علماً وجملة الله الذي خلق سبع سماوات الآية تعليل لما سبق من قوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

سورة التحريم

آياتها اثنتا عشرة وفيها ركوعان وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

في الصحيحين عن عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول سمعت عائشة تقول إن النبيّ ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش يشرب عندها عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل علينا النبيّ ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال لا بأس شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾(١) يعني العسل والاستفهام للإنكار يعني لا ينبغي أن تحرم الحلال، وفي رواية للبخاري عن عطاء بإسناده، قال لا ولكن كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً يعني بذلك مرضاة أزواجه وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق ابن أبي مليكة بسند صحيح عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل فيدخل على عائشة قالت إني أجد منك ريح مغافير ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك فقال أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه فنزلت الآية، قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطلاق، باب: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ (٥٢٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (١٤٧٤).

الحافظ ابن الحجر في شرح البخاري الراجح أن صاحبة العسل زينب لا سودة لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق ابن أبي مليكة بكثير، ويرجحه أيضاً ما روى البخاري عن عائشة إن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء النبيّ ﷺ فهذا يرجح أن زينب هي صاحبة العسل ولهذا عارت عائشة منها لكونها من غير حزبها.

فائدة: وقد ورد في صحيح البخاري من حديث عروة عن عائشة أن صاحبة العسل حفصة وذلك أنها قالت كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا صلىٰ العصر دخل على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت امرأة من قومها عكة عسل فسقت رسول الله ﷺ منه شربة فقلت أما والله لنحتالن له فذكرت ذلك لسودة وقلت إذا دخل عليك فإنه سيد قومك فقولي يا رسول الله أكلت مغافير فيقول لا فقولي يا هذه الريح؟ وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح فإنه سيقول سقتني حفصة شيء عسل قولي يا رسول الله جرست نحله العرفظ وسأقول ذلك وقوليه أنت يا صفية، فلما دخل على سودة قالت والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أناديه بالذي قلت لي وأنه على الباب فرقاً منك فلما دنى عنها رسول الله ﷺ قالت يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال لا، قالت فما بال هذا الريح؟ قال سقتني حفصة شربة عسل، قالت جرست نحله العرفظ، فدخل عليّ فقلت له مثل ذلك فدخل على صفية فقالت له مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت يا رسول الله ألا أسقيك منه، قال لا حاجة لي به قالت يعني عائشة تقول سودة سبحان الله لقد حرمناه قالت يعني عائشة قلت لها اسكتي.
قال الحافظ ابن حجر وطريق الجمع بين هذا الحديث الدال على أن صاحبة العسل حفصة وبين ما سبق أنها زينب الحمل على تعدد الوقعة فلا يمتنع تعدد السبب لأمر واحد فإن صح إلى الترجيح فرواية عبيد بن عمير أثبت لموافقة ابن عباس لها على أن المتظاهرتين حفصة وعائشة فلو كانت حفصة صاحبة العسل لم تقرره في المظاهر بعائشة لكن يمكن تعدد القصة في شرب العسل وتحريمه وإختصاص النزول بالقصة التي فيها أن عائشة وحفصة هما متظاهرتان ويمكن القصة التي وقع فيها شرب العسل عند حفصة كانت سابقة، ويؤيد هذا الحمل أنه لم يقع في طريق هشام بن عروة التي فيها شرب العسل كان عند حفصة تعرض الآية ولا لذكر سبب النزول، قال القرطبي الرواية التي فيها أن المتظاهرتان عائشة وصفية وسودة ليست بصحيحة لأنها مخالفة التلاوة بجيئها بخطاب الإثنين دون خطاب جمع المؤنث فالتوفيق ما ذكرنا أن قصة شرب العسل عند حفصة كانت سابقة فلما قيل له ما قيل

ترك الشرب من غير تصريح بتحريح ولن ينزل في ذلك شيء لم لما شرب في بيت زينب تظاهرت عائشة وحفصة على ذلك القول، حرم العسل فنزلت الآية، وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن رافع قال سألت أم سلمة عن هذه الآية قالت كان عندي عكة من العسل أبيض فكان النبيّ ﷺ يلعق منها وكان يحبه وقالت عائشة نحلها تجرس عرفطاً فحرمها رسول الله ﷺ فنزلت الآية كذا أخرج الطبري ورفع في تفسير السدي، قال الحافظ ابن حجر هذا مرجوح لإرساله وشذوذه، وقال أكثر المفسرين إن الآية نزلت في تحريم مارية ذكر البغوي أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فلما كانت يوم حفصة إستأذنت زيارة أبيها فأذن فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً فجلست عند الباب فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي فقال ما يبكيك؟ فقالت إنما أذنت لي من أجل هذا فدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حرمة وحقاً ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن، فقال رسول الله ﷺ أليس هي جاريتي أحلها الله لي أسكتي فهي حرام عليَّ ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بهذا امرأة منهن، فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار التي بينها وبين عائشة فقالت ألا أبشرك إن رسول الله ﷺ قد حرّم عليه أمته مارية وقد أراحنا الله منها وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبيّ ﷺ فغضبت عائشة فلم يزل بني الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وأخرج البزار بسند صحيح عن ابن عباس قال نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ الآية في سرية.

روى ابن الجوزي في التحقيق بسنده عن ابن عباس قال كانت حفصة وعائشة متحابتين فذهبت حفصة إلى أبيها تحدث عنده فأرسل النبيّ ﷺ إلى جارية فظلت معه في بيت فرجعت حفصة فوجدتها في بيتها فخرجت الجارية ودخلت حفصة وقالت قد رأيت من كان عندك والله لقد سويتني فقال النبيّ ﷺ لأرضيك وإني أسر إليك سراً فاحفظه، قالت ما هو؟ قال أشهدك أن سريتي هذه عليَّ حرام رضي لك فأنزل الله هذه الآية، وأخرج الحاكم والنسائي بسند صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطأ فلم تزل به حفصة حتى جعلها على نفسه حراماً فأنزل الله هذه الآية وأخرج في المختار من حديث ابن عمر عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ **لحفصة «لا تخبري أحداً أن أم إبراهيم علي حرام» فلم يقربها حتى أخبرت عائشة فأنزل الله قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم»** وأخرج الطبراني بسند ضعيف من حديث أبي هريرة قال دخل رسول الله ﷺ بمارية سرية بيت حفصة فجاءت فوجدتها معه فقالت يا رسول الله ﷺ في بيتي دون بيوت نسائك فقال فإنها

عليَّ حرام أن أمسها يا حفصة واكتمي هذا عليَّ فخرجت حتى أتت عائشة فأخبرتها فأنزل الله يأ أيها النبيّ لم تحرم الآيات، فهذه الأحاديث تدل على أن الآيات في تحريمه عليه الصلاة والسلام على نفسه مارية القبطية على خلاف ما سبق من الأحاديث، قال الحافظ ابن حجر يحتمل أن الآية نزلت في السببين معا ويدل على هذا التوفيق ما وقع في رواية يزيد ابن رومان عن عائشة عند ابن مردويه، وفيه أن حفصة أهديت لها عكة فيها عسل وكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها حبسته حتى يلعقه أو يستقيه منها فقالت عائشة بجارية لها حبشية يقال لها خضراء إذا دخل على حفصة فانظري ما يصنع فأخبرتها الجارية بشأن العسل فأرسلت إلى صواحبها فقالت إذا دخل عليكن فقلن أنا نجد منك ريح مغافير فقال هو عسل والله لا أطعمه أبداً فلما كان يوم حفصة استأذنته أن تأتي أباها فأذن لها فذهبت فأرسل إلى جارية فأدخل بيت حفصة قالت فرجعت حفصة فوجدت الباب مغلقاً فخرج ووجهه يقطر وحفصة تبكي وعاينته فقال أشهد أنها عليَّ حرام أنظري لا تخبري بهذا امرأة وهي عندك أمانة فلما خرج قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة فقالت أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم أمته، قلت: هذا الحديث يوجب الجمع بين قصة مارية وقصة شرب العسل عند حفصة، قبل ذلك ولعل الراوي جمع في الرواية قصة شرب العسل عند حفصة وقصة تحريم مارية وترك ما بين ذلك من قصة شرب العسل عند زينب وتحريم العسل، قال الحافظ ابن حجر والراجح من الأقوال كلها في سبب نزول الآية قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها بخلاف العسل فإنه إجتمع فيه جماعة منهن يعني سودة وصفية مع عائشة كما مروا الله تعالى أعلم ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير للتحريم أو حال من فاعله أو إستيناف ببيان الداعي إليه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لك هذه الزلة فإنه لا ينبغي تحريم ما أحل الله بالحلف ﴿رَّحِيمٌ﴾ رحمك فجعل لك مخرجاً من التحريم ولم يؤاخذك به وعاتبك محاماة لك عمالا ينبغي ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ أي شرع ﴿لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أي تحليل ما حرم باليمين أو حل عقدة اليمين أو المعنى أوجب عليكم أن تكفروا الأيمان إذا حنثتم والكفارة هي ما تحل به اليمين أي يرفع إثم نقضه فإن قيل صلة الوجوب تكون كلمة على دون اللام، قلنا لما كان وجو الكفارة جالبا المنفعة الحل ورفع الإثم أورد كلمة اللام موضع على والكفارة ما ذكرت في سورة المائدة ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي وليكم وناصركم الجملة حال من فاعل فرض أو مستأنفة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه إختلفوا في أنه ﷺ هل كفّر أم لا فقال مقاتل أعتق رقبة في تحريم مارية وقال الحسن لم يكفر لأنه مغفور له والصحيح عندي قول مقاتل فأن قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ بعد قوله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ دليل واضح على افتراض الكفارة على النبيّ ﷺ بالتحريم المذكورة وكونه مغفورا له لا ينافي وجوب الكفارة كما لا ينافي وجوب سجود السهو وغيرها وأيضاً قول مقاتل شهادة على الإثبات فتقبل بخلاف قول الحسن ويؤيد قول المقاتل قول ابن عباس «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»(١) وأخرج الحارث ابن أبي أسامه في مسنده عن عائشة «قالت لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح أنزل الله تعالى ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ متفق عليه وهذا غريب جداً في سبب نزولها.

مسألة:

من قال حرمت على نفسي أمتي هذه أو طعامي هذا أو طعاماً كذا يكون يميناً عند أبي حنيفة وأحمد والأوزاعي وهو المروي عن أبي بكر وعائشة والحجة لهذا القول هذه الآية حيث قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ حيث جعل تحريم الحلال يميناً وقال البغوي أخبرنا عن سعيد بن عباس قال في الحرام يكفر ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وقال الشافعي تحريم الحلال ليس يمين لكن في صورة الأمة عليه كفارة اليمين بنفس اللفظ لا بالحنث في صورة تحريم الطعام لا شيء عليه وإن، قال لزوجته أنت عليَّ حرام أو حرمتك فإن نوى طلاقاً فهو طلاق وإن نوى به ظهار فهو ظهار وإن نوى التحريم وأتتها أو أطلق فعليه كفارة اليمين عند الشافعي وعند أبي حنيفة هو إيلاء يكفر بعد الفيء قال البيضاوي: الاحتجاج بهذه الآية على كون التحريم مطلقاً أو تحريم المرأة يميناً ضعيف إذ لا يلزم من وجوب كفارة اليمين فيه كونه يمينا مع إحتمال أنه ﷺ أتى بلفظ اليمين، وقول البيضاوي هذا لا يخفىٰ ضعفه فإن الله سبحانه ذكر من النبيّ ﷺ التحريم مطلقاً ومن غير ذكر الحلف ومن غير تخصيص التحريم بالمرأة ثم سماه يميناً حيث قال قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم فهو دليل واضح على كون التحريم نفسه يميناً والله تعالى أعلم. ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ كما في حديث عمر متعلق بأذكر ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ يعني حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ هو تحريم العسل كما ورد في الصحيحين في حديث عبيد بن عمير عن عائشة في آخر الحديث المذكور أولاً وإذا أسر النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً لقوله بل شربت عسلاً أو تحريم أمته مارية وهو الأرجح عند أهل التفسير والله أعلم بالحكمة في الإسرار يظهر الحكمة في الإسرار فيما

---

(١) قول ابن عباس أنه في الحرام يكفر ثم قرأ الآية.
أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ (٤٩١١).

رواه ابن سعد من طريق شعبة مولي ابن عباس عنه قال خرجت حفصة من بيتها يوم عائشة فدخل رسول الله ﷺ بجارية القبطية بيت حفصة فجاءت فرقبته حتى خرجت الجارية فقالت له أما أني قد رأيت ما صنعت، قال فاكتى علي وهي حرام فانطلقت حفصة إلى عائشة فقالت أما يومي فتعرس فيه بالقبطية وتسلم لنسائك سائر ايامهن فنزلت الآية فإنه يعلم من هذا الحديث أن الإسرار كان لئلا تغضب عائشة بتعريسه ﷺ بالقبطية في يومها و قال سعيد بن جبير عن ابن عباس إسراراً الخلافة بعده فحدثت به حفصة قال الكلبي أسر إلها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي، أخرج الواحدي عن ابن عباس قال والله إن أمارة أبي بكر وعمر لفي كتاب الله تعالى قال الله تعالى وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً قال لحفصة أبوك وأبو عائشة أولياء الناس بعد فإياك أن تخبري به أحداً وله طرق وكذا روى عن علي وميمون بن مهران وحبيب بن ثابت وعن الضحاك ومجاهد وقال ميمون بن مهران أسر أن أبا بكر خليفتي من بعدي ﴿فلما نبأت به﴾ الضمير راجع إلى بعض أزواجه يعني أخبرت بذلك أسر عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلع الله نبيَّه على إفشائها سره فيه دليل على أن عائشة لما غضبت بتعريسه ﷺ بالقبطية لم يقل أن حفصة اطلقتني الفعل الذي فعلت من إفشاء السر من قول القائل لمن أساء إليه لأعرفن لك ما فعلت أي جازينك عليه وجاز إهابه عليه بأن طلقها فلما بلغ ذلك عمر قال لو كان في الخطاب خير لما طلقك رسول الله ﷺ فجاء جبرئيل وأبوه لمراجعتها واعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهر أو قعد في مشربة أم إبراهيم مارية حتى نزلت آية التخيير كذا قال البغوي وقال مقاتل بن حبان لم يطلق رسول الله ﷺ حفصة وإنما هم بطلاقها فأتاه جبرئيل فقال لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة فلم يطلقها وقرأ الجمهور عرف بالتشديد أي أخبر حفصة ببعض ما قالت بعائشة من سره ﷺ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾ يعني لم يخبرها به، قال الحسن ما استقصى كريم قط قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض وذلك أن النبيّ ﷺ لما رأى الكراهة في وجه حفصة لأجل تعريسه ﷺ بالقبطية في بيتها على فراشها أراد أن يرضيها فأسر إليها الشيئين تحريم الأمة على نفسه وبشرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر فأخبرت به حفصة عائشة وأطلع الله عليه نبيه ﷺ عرف حفصة ببعض ما أضمرت به عائشة وهي تحريم الأمة وأعرض عن بعض يعني ذكر الخلافة كره رسول الله ﷺ أن ينتشر ذلك في الناس، وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال لما دخلت حفصة على النبي ﷺ بيتها فوجدت معه مارية فقال لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة أن أباك يلي هذا الأمر بعد أبي بكر إذا أقامت فذهبت

إلى عائشة فأخبرتها فقالت له عائشة ذلك والتمست منه أن يحرم مارية فحرمها ثم جاء إلى حفصة فقال أمرتك أن لا تخبري عائشة فأخبرتها فعاتبها ولم يعاتبها على أمر الخلافة فلذا قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض، وأخرج الطبراني في الأوسط وفي عشرة النساء عن أبي هريرة نحوه بتمامها وفي كل منها ضعف ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا﴾ يعني أخبر النبيّ ﷺ حفصة ﴿بِهِۦ﴾ أي بما أظهره الله عليه من إفشائها سره هذه الآية يناسب قراءة الجمهور عرف بالتشديد فإنه بمعنى الإنباء لكنها لا ينفي قراءة الكسائي بالتخفيف لتحقيق الأخبار والمحاذاة جمعاً ولا منافاة بينهما ﴿قَالَتْ﴾ حفصة من ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي إفشائي سرك ﴿قَالَ﴾ رسول الله ﷺ ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ يعني عائشة وحفصة فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المعاتبة وروى في الصحيحين في حديث عبيد بن عمير عن عائشة في آخر الحديث المذكور في أول السورة قوله إن تتوبا إلى الله لعائشة وحفصة يعني تتوبا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ من التعاون على النبيّ ﷺ وإفشاء سره وجزاء الشرط محذوف أي أتيتما بالواجب أقيم علة مقامه حيث قال ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ أي زاغت ومالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الإستقامة على طريق الحق حيث رضيتما بما كره رسول الله ﷺ من تحريم أمة وإفشاء سره والواجب على كل واحد ان يحب ما يحبه رسول الله ﷺ ويكره ما يكرهه أطلق القلوب على لقلبين ولم يقل قلباكما استثقالا للجمع بين التثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة والفاء لتعليل الجزاء فإن زيغ القلوب سبب للمعصية والمعصية سبب لوجوب التوبة، روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال لم أزل حريصاً على أن أسال عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبيّ ﷺ التي قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج وحججت معه وعدل وعدلت معه باداوة فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه منها فقلت له يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبيّ ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قال واعجباً لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه قال كنت أنا ورجال من الأنصار من بني أمية بن زيد وهم من عد إلى المدينة وكنا نتناوب النزول على النبيّ ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت حدثته مما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الإنصار إذا قوم تغلبهم نسائهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني قالت ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبيّ ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل فأفزعني ذلك وقلت قد خلبت من فعلت ذلك فيهن ثم جمعت على ثيابي فنزلت، فدخلت عليّ حفصة

فقلت لها أي حفصة أتغاضب إحداكن النبيّ ﷺ اليوم حتى الليل قالت نعم فقلت قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله فتهلكي لا تستكثري على النبيّ ﷺ ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه وسليني ما بدا لك ولا يغيرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبيّ ﷺ يريد عائشة، قال عمر وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فنزل صاحبه الأنصار يوم نوبته فرجع إلينا عشاء فضرب بأبي ضرباً شديداً فقال أثمه هو ففزعت فخرجت إليه فقال قد حدث اليوم أمر عظيم قلت ما هو أجاء غسان قال لا بل أعظم من ذلك وأطول طلق النبيّ ﷺ نسائه فقلت خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون فجمعت على ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبيّ ﷺ فدخل النبيّ ﷺ مشربة له فاعتزل فيها ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت ما يبكيك ألم أكن حذرتك هذا طلقكن رسول الله ﷺ قالت لا أدري ها هوذا معتزل في المشربة فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي فيها النبيّ ﷺ فقلت لغلام له إستأذن لعمر، فدخل الغلام فكلم النبيّ ﷺ، ثم رجع فقال كلمت النبيّ ﷺ فذكرتك له فصمت فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذي عند المنبر ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم رجع إلي فقال ذكرت له فصمت، فلما وليت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني فقال قد أذن لك النبيّ ﷺ فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال في جنبه متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف فسلمت عليه، ثم قلت وأنا قائم يا رسول الله أطلقت نساءك فرفع إليّ بصره فقال لا الله أكبر قلتُ أنا قائم أستأنس برسول الله ﷺ لو رأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساءهم فتبسم رسول الله ﷺ ثم قلت يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها لا يغيرنك أن جارتك أوضاع منك وأحب إلى رسول الله ﷺ يريد عائشة فتبسم النبيّ ﷺ تبسمة أخرى فجلست حين رأيته يتبسم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت يا رسول الله أدع الله فليتوسع أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبيّ ﷺ وكان متكئاً فقال أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت يا رسول الله استغفر لي فاعتزل النبيّ ﷺ لنسائه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة وكان قال ما أنا بداخل عليهن شهراً من شدة موجدة عليهن حين عاتبه الله فما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة يا رسول الله إنك كنت

أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها عداً فقال: «**الشهر تسع وعشرون**» وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة قالت ثم انزل الله آية التخيير فبدأ بي أول مرة من نسائه فاخترته ثم خير نسائه كلهن فقلن ما قالت عائشة(١)، وروى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها إني فاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال إن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين فقلت أوفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. هذا الحديث يدل على أن سبب اعتزال النبيّ ﷺ نسائه الشهر كان إفشاء حفصة سرها إلى عائشة وما أخرجه مسلم عن جابر أنه دخل أبو بكر(رض) يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا بباب النبيّ ﷺ لم يؤذن لأحد منهم فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبيّ ﷺ جالساً وحوله نساءه واجماً ساكتاً قال فقال عمر لأقولن شيئاً أضحك النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله لو رأيت بيت خارجة سألتني النفقة إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «**هن حولي كما ترى تسألني النفقة**» فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقولان لا تسألين رسول الله ﷺ أبداً ما ليس عنده ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين ليلة ثم نزلت آية التخيير فبدأ بعائشة الحديث(٢). قال الحافظ ابن حجر ويحتمل أن يكون مجموع هذه الأشياء يعني قصة عسل وقصة مارية وإفشاء حفصة السر وقصة سؤال النفقة وقصة رد زينب الهدية ثلاثاً وزيادة النبيُّ ﷺ في هديتها كل مرة كما رواه ابن سعد من طريق عمرة ومن طريق عروة عن عائشة كان سبباً لأعتزالهن وهذا هو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ وسعة صدره وكثرة صفحه أن ذلك لم يقع منه حتى تكرر موجبه منهن ورضى عنهن ﷺ والله أعلم ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ قرأ الكوفيون بتخفيف الظاء فحذف أحد التائين والباقون بالتشديد وإدغام أحد التائين في الظاء وأصله تظاهرا أي تتعاونا على النبيّ ﷺ بما يسويه من الإفراط في الخيرة وإفشاء سره ولم تتوبا وهذا شرط حذف جزائه أعني لا تظفرا عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يعني لأن الله علة لعدم الظفر هُوَ ضمير فصل ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾ وناصره ﴿وَجِبۡرِيلُ﴾ رئيس الكروبين قرينه وناصره ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ صالح صيغة المفرد أريد بها لجنس ولذلك عم بالإضافة أو صيغة جمع أسقط عنه الواو لالتقاء الساكنين وخطأ أيضاً بإتباع اللفظ يعني من صلح من المؤمنين أجمعين إتباعه وأعوانه وحواليه قال الكلبي هم الذين

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٩).

هم مخلصون ليسوا بمنافقين، وروي عن ابن مسعود وأبي بن كعب أن صالحوا المؤمنين أبو بكر وعمر وكذا روى ابن مسعود وأبو أمامة عن النبيّ ﷺ وعن ابن عمر وابن عباس وسعيد بن جبير أنها نزلت في أبي بكر وعمر قوله جبرئيل وصالح المؤمنين إما معطوف على الله مرفوع حملاً على محله وإما مبتدأه خبره مع ما عطف عليه ظهير وهذا أولي لأن الله وحده كفى به ناصراً وإنما ذكر جبرئيل وصالح المؤمنين والملائكة من جملة ما ينصره إليه به تعظيماً لهؤلاء وخص جبئيل من الملائكة لتعظيمه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع كثرتهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد نصرة الله وجبرئيل وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي متظاهرون، قال البغوي هذا من الواحد الذي يؤدي من الجمع كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[(١)] وهذه الآية تدل على أن جبرئيل الذي هو من خواص الملائكة أفضل من عوام البشر وهم صالح المؤمنين أفضل من عوام الملائكة.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب قال لما اعتزل النبيّ ﷺ نسائه وذكر الحديث وقال دخلت عليه وقلت يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك والملائكة وجبئيل وميكائيل وأبو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى الذي أقول فنزلت ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾[(٢)] خيراً منكن الجملة جواب الشرط قرأ نافع وأبو عمر ويبدله بالتشديد والباقون بالتخفيف ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب فإن الخطاب مع حفصة وعائشة أو على تعميم الخطاب وليس في الآية ما يدل على أنه لم يطلق حفصة وإن في النساء خيراً منهن لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه، قال البغوي هذا إخبار عن القدرة لا عن الكون ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ خاضعات لله تعالى ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدقات للرسل ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مواظبات على الطاعة أو مصليات أو داعيات ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذنوب أو راجعات إلى الله تعالى وإلى أمر رسول الله ﷺ ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبدات لله تعالى أو متذللات لأمر رسول الله ﷺ ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات سمى الصائم سائحاً لأن السائح لاذ دمعه فلا يزال متمسكاً حتى يجد من يطعمه فشبه به الصائم في إمساكه إلى وقت إفطاره، وقال بعضهم الصوم ضربان حقيقي وهو ترك المطعم والمنكح وحكى وهو حفظ الجوارح من المسع والبصر واللسان والأيدي والأرجل وغيرها عن المعاصي فالسائح الصائم الذي

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (٤٤٨٣).

يصوم هذا الصوم أو مهاجرات في سبيل الله وقيل اللاتي يسحن مع النبيّ ﷺ حيث ساح، وقيل السائحون الذين يسيرون على ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1] ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وسط العاطف بينهما لتنافيهما ولأنهما في حكم صفة واحدة إذا المعنى مشتملات على الثيابة في بعضهن والبكارة في بعض آخر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بأداء الواجبات وترك المعاصي ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالتعليم والتأديب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ صفة للنار يعني تتقد بهما كما تتقد غيرها بالحطب ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ صفة ثانية لناراً يعني خزنتها ﴿غِلَاظٌ﴾ فظاظ على أهل النار ﴿شداد﴾ أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار وهم الزبانية، أخرج الضياء المقاسة في صفته النار عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والذي نفسي بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن يخلق جهنم بألف عام فهم في كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يفيضوا على ما فيضوا عليه بالنواصي والأقدام**» وأخرج القعبني في عيون الأخبار عن طاووس أن الله تبارك وتعالى خلق مالكا وخلق له أصابع على عدد أهل النار لا يعذب إلا ومالك يعذب به بأصبع من أصابع فوالله لو وضع أصبعاً من أصابعه على السماء لأذابها ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ بدل إشتمال من الله والتقدير فيما أمرهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي لا تمنعون من قبول الأوامر والتزامها ويوادون ما يؤمرون به ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ علة للنهي من الاعتذار يقال لهم ذلك عند دخولهم النار والنهي عن الإعتذار لهم حقيقة وما

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

يعتذرون به من قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[١] وقولهم ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[٢] لا ينفعهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من المعاصي ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ بفتح النون على قراءة العامة أي بالغة في النصح والنصح تحري قول أو فعل فيه صلاح صاحبه فهو صفة للتائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة وصف به التوبة مجازاً مبالغة أو بالغة في النصاحة بمعنى الخياطة فإن التوبة تنصح ما افترق من الدين والتقوى بالذنب أو النصح بمعنى الإخلاص يقال عسل ناصح إذا خلق والمعنى توبة خالصة من الرياء والسمعة، وقرأ أبو بكر بضم النون فهو مصدر بمعنى انصح كالشكر والشكور أو النصاحة كالثبات والثبوت تقديره ذات نصوح أو تنصح نصوحاً أو توبوا نصوحاً لأنفسكم، قال البغوي قال عمر وأبي ومعاذ التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع وقال الحسن هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود وقال الكلبي هي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن، وقال القرظي يجمع أربعة أشياء الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيء الإخوان، وقال البيضاوي سئل علي(رض) عن التوبة فقال يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندم وللفرائض الإعادة ورد المظالم واستحلال الخصوم وأن تعزم على أن تعود وأن تزكي نفسك على طاعة الله كما رأيتها في المعصية ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذكر بصيغة الإطماع إشعاراً بأنه تفضل والتوبة غير موجبة إذ لا يجب على الله شيء وأن العبد لا بد من أن يكون بين خوف ورجاء، أخرج أبو نعيم عن علي(رض) قال قال رسول الله ﷺ «إن الله تبارك وتعالى أوحىٰ إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم فإني لا أناصب عبد الحساب يوم القيامة لا أشاء أن أعذبه إلا عذبته وقل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديهم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي»، وأخرج البزار عن أنس عن النبي ﷺ «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى يقول الله لأصغر نعمة في ديوان النعم خذي منك من العمل الصالح فتستوعب له الصالح فيقول وعزتك ما استوعبت وتبقى الذنوب وقد ذهب العمل الصالح كله فإذا أراد الله أن يرحم عبدا قال يا عبدي قد ضاعفت

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٢.

لك حسناتك وتجاوزت عن سيآتك وذهبت لك نعمتي» وفي الصحيحين عن أبي هريرة(رض) قال قال رسول الله ﷺ: «**لن ينجي أحداً منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[1] وفي الباب أحاديث كثيرة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ ظرف ليدخلكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عطف على النبي إحماداً لهم وتعريضاً لمن نأواهم وعلى هذا جملة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ علة لعدم إخزائهم، وقيل الموصول مبتدأه خبره نورهم يسعى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ويكون ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ على الصراط ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنف أو خبر بعد خبر للموصول يقولون ذلك إذا الطفى نور المنافقين ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل للإتمام لتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضلاً وقد ذكرنا تفاوت الأنوار والأعمال الموجبة للنور في سورة الحديد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف والحجة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالرد والتفضيح إذا ظهر نفاقهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي إستعمل الخشونة فيما تجاهدهم ولا ترحمهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ حال مقدرة من الكفار والمنافقين ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم أو ما ولهم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ اسمها واعلة ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ اسمها واهلة امرأة نوح وامرأة لوط يدلان من مثلاً بحذف المضاف أي مثل امرأة نوح وامرأة لوط وكذا قوله امرأة فرعون في الجملة التالية مثل الله تعالى حال الكفار في أنهم يعذبون بكفرهم ولا ينفعهم ما

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابات والواصلات كما لم ينفع المرأتين وصلتهما بالنبيين حيث ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ جملة مستأنفة ﴿مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ يريد به تعظيم نوح ولوط مدحهما بالصلاح فإن كمال الصلاح بالعصمة التي هي من النبوة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالكفر والنفاق، قال ابن عباس ما بغت امرأة بني قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانت على غير دينهما فكانت امرأة نوح تقول للناس انه مجنون وإذا آمن به أحد أخبرت الجبائرة وأما امرأة لوط كانت تدل قومه على أضيافه إذا نزل به ضيف بالليل أو قدت ناراً وإذا أنزل بالنهار دخنت ليعلم قومه أنه نزل به ضيف، وقال الكلبي أسرتا النفاق وأظهرتا الإيمان ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي لم يدفعا ﴿عَنْهُمَا﴾ مع نبوتيهما ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئًا﴾ أولم يغنيا بحق الأزواج شيئاً من الأغنياء ﴿وَقِيلَ﴾ للمرأتين عند موتهما أو يوم القيامة ﴿ادْخُلَا النَّارَ﴾ مع سائر الداخلين﴾ من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو أحد من المؤمنين قطع الله تعالى بهذه الآية طمع من يكفر أن ينفعه إيمان غيره أخبر أن كفر غيره لا يضره إذا كان مؤمناً بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسية بنت مزاحم فإنها كانت تحت اعداء الله ولم يضرها كفره، قال المفسرون لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربع أوتاد وألقاها في الشمس قال سليمان امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا انصرفوا عنها أظلها الملائكة ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ الظرف متعلق بكائن وهو صفة لمثل امرأة فرعون أي مثل مثل امرأة فرعون كائن وقت قولها ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾ عندية لا كيف لها فإنه منزه من المكان ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكشف الله لها من بيتها في الجنة حتى رأته ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ يعني تعذيبه وقال مقاتل أرادت بعمله الشرك وقال أبو صالح عن ابن عباس أرادت به جماعة ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر والمعاصي على عباد الله التعذيب من القبط التابعين له في القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أتوه بالصخرة ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فأبصرت بيتها في الجنة من درة وانتزع روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً، وقال الحسن ابن كيسان رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة فهي فيها تأكل وتشرب ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على امرأة فرعون ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي نفخ جبرئيل عليه السلام بأمرنا في جيب درعها نفخاً وأصلاً إلى فرجها فحملت بعيسى عليه السلام، والضمير عائد إلى الفرج ولما كان النفخ بأمر الله تعالى وأفعال العباد كلها بخلق الله أسند الله تعالى النفخ إلى نفسه ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ أي روحا خلقناه بلا توسط أصل ومن زائدة في الإثبات على قول الأخفش وهو الظاهر،

وقال سيبويه للتبعيض يعني بعض هذا النوع كما في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[١] ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بصحفه المنزلة أو بما أوحي إلى أنبيائه والمراد شرائع الله تعالى لعباده ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ قرأ أبو عمر وحفص على الجمع والباقون بالإفراد والمراد به ما كتب في اللوح أو جنس الكتب المنزلة وقرأ بكلمة الله وكتابه يعني بعيسى وإنجيل ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي من جملة مواظبين على الطاعة والتذكير للتغليب والإشعار أن رتبتها لم تعتصر عن رتبة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم، عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[٢] رواه أحمد والشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه، ورواه الثعلبي وأبو نعيم في الحلية بلفظ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام» قلت: لعل المراد بالكمال البلوغ إلى كمالات النبوة وما فوقعها ورواية الصحيحين كأنها أخبار عن الأمم الماضية حيث كثر الأنبياء فيهم ولم يبلغ درجة كمالات النبوة من النساء إلا آسيا ومريم وعن أنس أن النبيّ ﷺ قال: **«حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وآسية امرأة فرعون»** وعن علي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[٣] متفق عليه وفي رواية قال كريب وأشار إلى السماء والأرض وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة عام الفتح فناجاها فبكت ثم حدثها فضحكت فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عن بكائها وضحكها قالت أخبرني رسول الله ﷺ أنه يموت فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت رواه الترمذي وقد

---

(١) سورة نوح، الآية: ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٣٧٦٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣١)، وأخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة، باب: ما جاء في فضل الثريد (١٨٣٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: فضل الثريد على الطعام (٣٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣٠).

ذكرنا مبحث تفاضل مريم وآسيا وخديجة وفاطمة وعائشة(رض) في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] فائدة: في هاتين التمثيلتين تعريض لحفصة وعائشة(رض) فيما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتوبيخ لهما على أغلظ الوجوه وإشارة إلى أن حقهما أن تكونا في الإيمان كهاتين المؤمنتين وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

سورة الملك

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا
وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا
وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾
قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟
لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ
﴿١١﴾﴾

﴿تَبَٰرَكَ﴾ مشتق من البركة بمعنى الزيادة المقتضي للكمال وعدم النقصان والمأخوذ من أسماء الله تعالى وصفاته من معاني الألفاظ هو الغايات دون المبادي فهو من صيغ التكبير ويستلزم التنزه عن صفات المخلوقين فإنها لا تخلو عن النقصان ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ اليد من المتشابهات لتنزهه سبحانه عن الجارحة أوله المتأخرون بالقدرة والملك وهو السلطان على كل شيء والتصرف في الأمور كلها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي على كل ما يشاء ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يمكن لأحد دفع ما أراده فلا يجوز الخوف والرجاء إلا منه تعالى، ولما كانت هذه الآية بمنزلة الدعوى على وجوده تعالى وكمال صفاته وتنزيهه مستدعياً للبرهان عقبها بما يدل على ذلك من الآيات في نفس المكلفين من خلق الموت والحياة وفي خلق السموات بلا تفاوت وفطور وخلق الأرض وجعلها ذلولاً وخلق ما فيها من الأرزاق والطير صافات وذرك فيما بين ذلك استطراداً عذاب الكفار الذي لم يسمعوا أو لم يعقلوا البراهين والآيات وثواب الذين يخشون ربهم المنتفعين بالحجج البينات فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ

﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ الموصول مرفوع إما أنه بدل من الموصول السابق وإما خبر مبتدأ محذوف أي هو أو مصوب على المدح، والحياة من الصفات الله تعالى وهي صفة يستتبع العلم والقدرة والإرادة وغيرها من صفات الكمال وقد استودعها الله تعالى في الممكنات وخلقها فيها على حسب إرادته واستعداداتها، فظهرت في الممكنات على مراتب شتى ظهرت في بعضها بحيث تستتبع المعرفة التي لا كيف لها بذات الله تعالى وصفاته وهي الأمانة التي حملها الإنسان وأشفقن منها السموات والأرض والجبال وذلك بإلقاء نور من الله تعالى وهذا القسم من الحياة وما يقابلها من الموت المستفاد من قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[(١)] وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله»[(٢)] رواه أحمد والترمذي وفي بعضها بحيث يستتبع الالحس والحركة الحيوانية المعبر عنها وعما يقابلها بقوله تعالى: ﴿كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾[(٣)] وفي بعضها لتستتبع النمو فقط المعبر عنها وعما يقابلها بقوله تعالى: ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[(٤)] أي يحيي نبات الأرض بعد يبسها وذلك القسمين من الحياة ينضح الروح الإنساني والحيوانيوالنباتي في الأجسام وليس شيء من الأقسام الثلاثة المذكورة للحياة في الجمادات ولذا قال الله تعالى في حق الأصنام ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾[(٥)] ولكن الجمادات أيضاً لا تخلو عن نوع من الحياة كما يل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[(٦)] وقد مر تفسيره في سورة البقرة وهذا النوع من الحياة لازم للوجود وقال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٧)] والموت في كل مرتبة من المراتب المذكورة عبارة عن عدم الحياة أو مطلقاً أو عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً فالتقابل بينهما إما تقابل العدم والملكة أو الإيجاب والسلب فهي صفته عدمية مقتضاه الحقيقة الممكن مقدمة على الحياة المستودعة من الله سبحانه كما يدل عليه ما تلونا من قوله تعالى: ﴿أَوَ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٧١٢)، وقال: حديث حسن.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٧.

(٥) سورة النحل، الآية: ٢١.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿كنتم أمواتا فأحياكم﴾ و﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ولأجل تقدم الموت على الحياة في كل مرتبة طبعاً قدمت ههنا على الحياة ذكراً أو لأن أفرغ فتقديمها في الذكر مع الابتداء الأليق، وقال بعض العلماء الموت صفة وجودية والتقابل بالتضاد فهي كيفية في الإجسام مانعة من العلم والقدرة والحس والحركة ونحوها مستدلين بهذه الآية فإن خلق الموت يقتضي وجوده والإدام الأصلية غير مخلوقة، قلنا بديهة العقل شاهدة أنا لا نجد في الأموات أمراً منضماً إلى ذواتها بل أمراً انتزاعياً ينتزع منها كما ينتزع العمى من الأعمى وبصيرة الكسف حاكمة بأن الصات الله تعالى نقايض متمايزة في مزنبة العلم فنقيض الحياة الموت ونقيض العلم الجهل ونقيض القدرة العجز ونقيض البصر العمى وهكذا هي أعدام أصلية تقررت في مرتبة العلم بالإضافة إلى نقائضها، وبصبغ الله سبحانه وكمال قدرته انصبغت تلك الأعدام في تلك المرتبة بصبغ نقائضها التي هي صفات الكمال وتلك مخلوطة في مرتبة العلم سميت أعياناً ثابتة وانصباغها في تلك المرتبة بصبغ الوجود هو الكون الأول أو السبب للكون في الخارج كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾(١) في سورة البقرة فالأعيان الثابتة ظلال للصفات والممكنات في الخارج الظلي ظلال لها ومعنى كون الممكنات ظلال لها أن إفاضة الوجود وتوابعه من المبدأ الفياض على الممكنات الموجودة في الخارج ليست إلا بتوسط تلك الأعيان الثابتة كما أن نور المصباح الذي في الزجاجة ينبسط على الأشياء بتوسط الزجاجة وأشير إلى ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾(٢) ثم اعلم أن توسط الأعيان الثابتة بين الصفات والممكنات إنما هو في دار الدنيا وأما في الآخرة فسيكون إفاضة الوجود وتوابعه من الصفات بلا توسط الأعيان وهذا هو الوجه لطويان الفناء على الممكنات في الدنيا في الآخرة آيات القرآن أعني قوله تعالى: ﴿كنتم أمواتا فأحياكم﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾(٤) وأمثالها ناطقة بأن الموت صفة للممكن مقدمة على الإيجاد فتأويل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي أظهره بإيجاد الحياة أو أظهره بإزالة الحياة أو خلق الأموات بحيث ينتزع منها عداء الحياة والخلق بمعنى التقدير أي قدر الموت والحياة، قال

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

البغوي قال عطاء عن ابن عباس يريد خلق الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، قلت لعله أراد أنه تعالى عبر الحياة الدنيوية بالموت والحياة الأخروية بالحياة، قلت وذلك لما قلنا من كون الأعيان الثابتة مربيات لها في الدنيا وكون الأعدام داخلة في ماهياتها فكان الحياة الدنيا لا يخلو من شائبة الموت ويصدق أن يقع ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[(١)] أي في الحال وكذا ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾[(٢)] و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾[(٣)] فإن الحقيقة في المشتق هو المعنى الحال وما كان أو ما يؤل فهو مجازي والله تعالى أعلم وذهب جماعة إلى أن الموت جسم ليس بعرض وأنه مخلوق في صورة كبش أملح والحياة في صورة فرس أنثى واختاره السيوطي في بدور السافرة ومبنى هذا القول ما ذكر البغوي أثر ابن عباس في تفسير هذه الآية قال خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء أنثى وهي التي كان جبرائيل والأنبياء يركبونها لا يمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي هي التي أخذ السامري قبضة من أثرها فألقاها في العجل فحيي، قلت: وهذا الأثر لا يدل على أن الموت جسم وليس بعرض وكذا الحياة بل يدل على أن من المخلوقات جسم على صورة كبش أملح يقال لها الموت وجسم على صورة فرس يقال لها الحياة لا يمران بشيء ولا يجد ريحها إلا مات بالأولى وحيي بالثانية فالموت والحياة في الحيوان ليس نفس ذلك الجسم بل أثر يترتب على مرورها ووجدان ريحها كما يترتب على اقتراب السموم، ونحو ذلك وما ورد في الصحيحين عن ابن عمر قال قال النبي ﷺ: إذا صار أهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي منادي يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار ولا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»[(٤)] وفيهما عن ابن سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار» الحديث إلى قوله: «فيؤمر به فيذبح» الخ وأخرج الحاكم وصححه وابن حبان عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «يؤتي بالموت في صورة كبش أملح» الخ نحوه فمذهب السلف الوقوف عن الخوض في معناه والإيمان به وتفويض علمه إلى الله

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦١٨٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

تعالى كما في سائر المتشابهات كذا نقل السيوطي عن الحكيم الترمذي والصوفية العلية لما ظهر لهم من العوالم عالم المثال وفيه مثال لكل جوهر وعرض بل للمجردات أيضاً بل لله سبحانه أيشاً مع كونه متعال عن الشبه والمثال ذلك هو المحل لحديث «رأيت أبي على صورة أمر شاب قطط في رجله نعلا الذهب»(١).

وقد ينتقل الصورة المثالية من عالم المثال إلى عالم الشهادة بكمال قدرته تعالى وقد اشتهر ذلك كرامة عن كثير من الأولياء ولعل الله تعالى يحضر الصورة المثالية للموت من عالم المثال في الآخرة إلى عالم الشهادة فيؤمر بذبحه حتى يظهر أهل الجنة والنار أنه خلود ولا موت، وهكذا التأويل في حشر الإسلام والإيمان والقرآن والأعمال والأمانة والرحم وأيام الدنيا كما نطق به الأحاديث الصحيحة التي لا يسع ذكرها المقام، قال السيوطي في البدور السافرة: الأعمال والمعاني كلها مخلوقة ولها صورة عند الله تعالى وإن كنا لا نشاهدها وقد نص أرباب الحقيقة على أن من أنواع الكشف الوقوف على حقائق المعاني وإدراك صورها بصور الأجسام والأحاديث شاهدة لذلك وهي كثيرة انتهى وهذا القول من السيوطي حكاية عن عالم المثال والله تعالى أعلم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة مختبر بالتكليف أيها المكلفون ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الجملة مفعول ثان ليبلوكم يتضمن معنى يعلم وليس هذا من التعليق لتقدم المفعول الأولى على الاستفهام ولو كان تعليقاً لتقدم الاستهفام عليه، وقال الفراء لم يوقع البلوى على أي ويليها إضمار كما يقول بلوتكم لأنظر أيكم أطوع، قال البغوي روي عن ابن عمر مرفوعاً أحسن عملاً أحسن عقلاً وأودع من محارم الله وأسرع في طاعة الله وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلق بخلق الموت والحياة يعني الحكمة في خلق الموت والحياة ظهور المطيع من العاصي فإن الحياة مدار التلكيف به تحصيل القدرة الممكنة والموت واعظ به يتعظ الزكي ومغتنم الفرصة لكسب الزاد للمعاد وانقلاب الأحوال من الحياة والممات دليل على وجود الصانع الحكيم المختار، وعن عمار بن ياسر مرفوعاً «كفى بالموت واعظاً وكفى باليقين غنى» رواه الطبراني ورواه الشافعي وأحمد عن الربيع بنأنس مرسلاً» كفى بالموت وهذا في الدنيا مرغباً في الآخرة ون أبي هريرة بادروا بالأعمال سبعاً تنظرون إلا نقراً منسياً أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفتداً أو موتاً مجهزاً والدجال فإنه شر منتظر والساعة أدهى وأمر»(٢) رواه الترمذي والحاكم وصححه، وروى أحمد ومسلم عنه مرفوعاً «بادروا

(١) قال القاري موضوع لا أصل له، وقال السبكي: موضوع مفتري انظر كشف الخفاء (١٤٠٩).

قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان ودابة الأرض والدجال وخويصة أحدكم وأمر العامة»[١] والمراد بخويصة أحدكم الموت وبأمر العامة القيامة وعن أبي أمامة عند البيهقي نحوه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصا ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن شاء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ خبر أخو لهو أو صفة من الغفور أو بدل من الموصول السابق ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي ذات طباق جمع طبق كحبل وحبال أو طبقة كرحبة ورحاب أو مصدر فعل محذوف أي طوبقت طباقاً من طابق النعل إذا خصفها طبقاً على طبق وصف للسبع أو حال وقد ذكرنا في سورة البقرة وما ورد في السموات السبع وبعدما بينهن ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ يا محمد ﷺ أو أي مخاطب كان وما نافية أو استفهامية لزنكار مفعول ترى ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الإضافة للعهد والمراد به ما ذكر من السموات السبع والإضافة إلى الرحمن للتعظيم ولا يجوز أن يكون الإضافة لتعريف الجنس فإن في جنس الخلق تفاوتاً فاحشاً كما لا يخفي إلا أن يقال المراد بالتفاوت فوت شيء مما ينبغي فيه وعدم التناسب فمقتضى العبارة أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان يعني باعتبار النظام الجملي ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ من زائدة أو تبعيضية على تقدير كون ما نافية وبيانية على تقدير كونها استفهامية والجملة صفة للسبع أو حال من فاعل خلق أو مفعوله، وضع المظهر يعني لفظ الرحمن أو لفظ خلق الرحمن موضع الضمير الرابط للتصريح على سبب عدم نقصانه فإنه مستند إلى من هو متنزه عن النقص متصف بالرحمة أو مستأنفة في جواب كيف خلقت، قرأ حمزة والكسائي تفوت من التفعيل والباقون من التفاعل ومعناهما واحد كالتعهد والمتعاهد من الفتوت فإن كلاً من المتفاوتين يفوت عند بعض ما في الآخر يعني ليس اعوجاج ونقصان كما ترى في أبنية البشر ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ جواب شرط محذوف أي إن زعمت أن يظهر التفاوت بتكرار البصر فارجع البصر ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي شقوق من فطرة إذا شتمه ومن زائدة أو تبعيضية والاستفهام للتقرير ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ عطف على فارجع والتثنية المتكثير أي كرة بعد كرة كما في لبيك ﴿يَنقَلِبْ﴾ مجزوم على جواب الأمر ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾أي بعيداً طريداً عن إصابة المطلوب مع الذل والصغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة حال بعد حال من فاعل ينقلب، قال البغوي روي عن كعب السماء الدنيا موج مكفوف والثانية من درة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفراء نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء ومن السماء السابعة إلى الحجب السبعة صحارى من نور ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي السفلى وهي

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل (٢٣٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٧).

القريبة من الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي الكواكب فإنها مصابيح الظلم يهتدي بها الطرق وظاهر الآية تدل على أن الكواكب كلها مرتكزة في السماء الدنيا وما زعمت الفلاسفة خذلهم الله أمر لا دليل عليه واستدلالهم بتعدد حركاتها على تعدد أفلاكها لا يتم إلا بعد ثبوت امتناع الخرق والالتئام على السموات وذلك جائز عقلاً واجب شرعاً ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي المصابيح ﴿رُجُومًا﴾ لا يزولها من مكانها بل بانتقاض الشهب فيها ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار الموقدة ولما تضمن ما سبق من الكلام ذكر الشياطين عقبهم ذكر عذاب الكفار لكون الشياطين من زمرة الكفار وكونهم إخوان الشياطين فقال ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أي الذي كفروا في جهنم ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً كصوت الحمار خارجاً من النار نفسها أو من الذين دخلوا فيها قبلهم أو من أنفسهم لها حال من شهيقاً قدم عليه لكونه نكرة ﴿وَهِىَ﴾ أي جهنم ﴿تَفُورُ﴾ تغلي كغليان المرجل أخرج هناد عن مجاهد تفور بهم كما تفور الجب القليل الماء كثيراً وهذا على سبيل الاستعارة ﴿تَكَادُ﴾ جهنم ﴿تَمَيَّزُ﴾ أي تنشق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ﴾ متعلق بتميز والجملة حال من فاعل تفور وجملة وهي تفور حال من ضمير لها، والمراد بالغيظ إما غيظ الله سبحانه أو غيظ ملائكة العذاب أو غيظ النار نفسها على أعداء الله تعالى ونسبة الغيظ إلى النار إما بالمجاز على سبيل الاستعادة أو بالحقيقة بعد إبثات الشعور لها كما أثبتناه في الجمادات ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ توبيخاً وتبكيتاً ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يخوفكم من عذاب الله جملة مستأنفة في جواب ما يقال لهم حين يلقون وكلها ظرف متعلق بسألهم والاستفهام للتقرير ﴿قَالُوا۟﴾ حكاية عن الحال للمستقبل وهي مستأنفة أيضاً كأنه في جواب ما يقولون حين يسألون كذلك ﴿بَلَىٰ﴾ مفعول قالوا ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ فعيل صفة بمعنى الجمع أو مصدر مقدر بمضاف أي أهل إنذارأو منعوت به للمبالغة أو صفة بمعنى الواحد والمعنى قالوا قد جاء إلى كل منا نذير والجملة مقررة أعني بلى ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ النذير وفرطنا في التكذيب حتى ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فيه نفي للإنزال والإرسال ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ الظاهر أنه من كلام الكفار مبالغة في تكذيبهم بالنسبة إلى الضلال الكبير ويحتمل أن يكون من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول والنذير إن كان بمعنى الواحد فالخطاب له ولأمثاله على التغليب أو إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على قالوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام النذير سماع قبول من غير عناد فنؤمن بما ثبت بالأدلة السمعية ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ ويتفكر في الآيات والدلائل العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى والرسول وما جاء به وتقديم السمع على العقل لكون

الأدلة السمعية أولى بالاتباع وأحرى بإصابة الحق من الأدلة العقلية العقل غير كاف بالاستقلال، والآية تدل على أن العقل السليم مطابق للوحي المنزل ويحتمل أن يكون كلمة أو بمعنى الواو يعني لو كنا نسمع كلام النذير ونعقل معناه فيتفكر فيه تفكر المستبصرين ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في عددهم من جملتهم ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟﴾ معطوف على قالوا عطف تفسير ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ حين لا ينفعهم الاعتراف وهو إقرار عن معرفة والمراد بالذنب الكفر ولم يجمع لأنه في الأصل مصدر ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ منصوب على المصدر أي فأسحقهم الله سحقاً أي أبعدهم من رحمته والتغير للإيجاز، والمبالغة قرأ الكسائي بضم الحاء والباقون بالسكون وهما لغتان مثل الرعب والرعب والجملة الدعائية معترضة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاقبوه بعد أو غائبين عنه أو عن أعين الناس لا كالمنافقين أو بالمخفي منهم وهو قلوبهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يصغر بالنسبة إليه كل ما يخطر بالبال من اللذة والجملة معترضة ذكر الله سبحانه وعد المؤمنين في مقابلة وعيد الكفار وجعل عنوانهم خشية الله إشعاراً بأن الخشية هي المقصود من الإيمان قال رسول الله ﷺ: «رأس الحكمة مخافته»[1] رواه الحكيم الترمذي عن ابن مسعود، قال ابن عباس كان المشركون ينالون من رسول الله ﷺ

(١) رواه البيهقي في الدلائل والعسكري في الأمثال والديلمي ورواه القضاعي في مسنده، انظر: كشف الخفاء (١٣٥٠).

فيما بينهم فيخبره جبرائيل عليه السلام لو أسروا قلولكم كيلا يسمع الله أمر محمد فنزلت ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ أمر بمعنى الخبر يعني هما سواء في علم الله خطاب إلى الكفار على الالتفات من الغيبة وفيه تهديد ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بالضمار قبل أن يتكلم لها سراً أو جهراً فهو تعليل للتسوية ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ ما في الصدور ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ الصدور وما فيها وكل شيء أو المعنى ألا يعلم الله من خلقه الاستفهام للإنكار وإنكا النفي إثبات للعلم فهو تأكيد بما سبق ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ المتوصل علمه إلى ما ظهر ما بطن حال من فاعل خلق ثم نبه الله تعالى على جهلهم ببيان بدائع صنعته الدالة على اتساع علمه وقدرته وعلى قبح صنعهم حيث كفروا في مقابلة الإنعام للشكر ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ سهلاً لا يمنع المشي فيها كالناقة الذلول المنقادة ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها ومنه منكب الرجل وقيل المراد بالمناكب الجبال وهذا مثل لفرط التذلل فإن منكب البعير لا يطأ الراكب ولا يتذلل له فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يمكن المشي في مناكبها لم يبق شيء لم يتذلل ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ والتمسوا من نعمة عطف على فامشوا ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ المرجع فيسألكم عن شكر ما أنعم الله عليكم ﴿ءَأَمِنتُم﴾ قرأ قنبل النشور وآمنتم بقلب النشور وآمنتم بقلب همزة الاستفهام واواً في الوصل ويمد بعد الواو مدة في تقدير ألف ولو وقف على النشور حقق الهمزة، والكوفيون وابن ذكوان بتحقيق الهمزتين والباقون بتليين الثانية وهم على أصولهم في إدخال الألف وعدمه ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس أي عذابه من في السماء إن عصوا والمراد بمن في السماء هو الله سبحانه، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفر فأغفر له»[1] متفق عليه وفي رواية لمسلم ثم يبسط يديه ويقول من يعرض غير عدوم ولا ظلوم حتى يتفجر فالآية من المتشابهات لكونه تعالى منزهاً عن التمكين في السماء فمذهب السلف السكوتُ قول الصوفية كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[2] وللمتأخرين تأويلات بأن في السماء أمره وقضاء أو هو فيها على زعم العرب أو المراد بالسماء الرفعة والعلو من حيث التربة دون المكان والاستفهام للإنكار وقيل المراد بمن في السماء الموكلين على تدبير الأمور الذين هم بمنزلة الآلة الكاسبة لخسف الأرض وإرسال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١٠٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل (٧٥٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

الحاصب ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فيغيبكم فيها كم افعل بقارون وهو بدل من بدل اشتمال ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي الأرض ﴿تَمُورُ﴾ تتحرك الجملة معطوفة على يخسف وإذا للمفاجآت مضافة إلى الجملة أي ففاجأه وقت كونها تضطرب وتتحرك ﴿أَمْ أَمِنتُم﴾ أم منقطع بمعنى هل وهمزة الاستفهام للإنكار ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ أي ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ معطوف على مضمون ما سبق أي أنذركم فستعلمون ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري إذا شاهدتموه ولا ينفعكم العلم به، قرأ ورش نذيري وكذا نكيري بإثبات الياء فيهما وصلاً وحذفها فيهما وقفا والباقون بالحذف الحالين ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ جواب قسم محذوف ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم بإنزال العذاب فيهم تسلية للرسول وتهديد للكفار والاستفهام للتعجب والتقرير والجملة الاستفهامية بتأويل الخبرية معطوفة على كذب يعني كذبوا فعظم إنكاري عليهم وفي هذه الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الهمزة للاستفهام والواو للعطف على محذوف تقديره ألم ينظروا ما خلقنا من السماء والأرض وغيرهما ولم يرو ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ الظرف متعلق بصافات وهي حال من الطير والمراد بالرؤية رؤية البصر بقرينة تعدية بإلى يعني باسطات أجنحة من في الجو عند طيرانها فإنهن إذا بسطن ضعفن قوادمها ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ أجنحتها إلى جنوبهن عطف على صافات وإنما عدل من الاسم إلى الفعل ليدل على الحدوث والتجدد فإن الأصل في الطيران إنما هو بسط الأجنحة والقبض يحدث في وقت بعد وقت الاستظهار به على التحرك ويحتمل العطف على محذوف أي يبسطن تارة ويقبضن أخرى ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو على خلاف الطبع ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ والجملة حال من فاعل صافات ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ أم متصلة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ على معنى ألم ينظروا في أمثال هذه الصنائع فلم يعلموا قدرنا على تعذيبهم بنحو الخسف وإرسال الحاصب أم لكم جند ينصركم من دون الرحمن ويدفع عنكم العذاب إن أرسل إليكم عذابه، وقيل أم ابتدائية ليست بمتصلة ولا منقطعة بمعنى الهمزة وهل لئلا يلزم تكرار الاستفهام ومن استفهامية مبتدأ وهذا خبره والموصول مع الصلة صفة أو بدل منه وينصركم وصف لجند محمول على لفظه وإنما ذكر اسم الإشارة والموصول مع أنه يستفاد ذلك المعنى مع تركها من قوله أمن هو جند لكم الخ لأن في ذكر المفصل بعد المبهم وقع عظيم في القلب ويحتمل أن يكون هذا مبتدأه والموصول مع الصلة خبره والجملة مفعول يقال محذوف تقديره أمن يقال هذا الذي هو جند لكم، والمراد بالجند المشار إليه بهذا

في الآية وفيما بعدها الأصنام التي عموها آلهة يعن تلك الأصنام لا يتصور منهم أن ينصروا ويرزقوا أو المراد أعوانهم بعضهم لبعض ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ من الشيطان فإنه يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم من غير ما يعتمد عليه فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر ومنع الأسباب المحصلة والموصولة إليكم أو إبطال تأثيراتها والكلام فيه كالكلام في أمن هذا الذي فيما سبق ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ يعني الكفار ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إضلال ﴿وَنُفُورٍ﴾ تباعد عن الحق بفرط جهلهم وتنفر طباعهم عنه ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ الهمزة للاستفهام للتقرير أي حمل المخاطب على الإقرار بالحق والفاء زائدة ومن موصولة مبتدأ وأهدى خبره ومكبات حال من فاعل يمشي، والإكباب من الكب يقال كببته فاكب وهو من الغرائب كقشع الله السحاب فأقشع أو المعنى مكباً نفسه على وجهه، قال في القاموس كبه قلبه وصرعه كأكبه وكببته فأكب وهو لازم ومتعدي وقيل مضاه صار ذا كب أي يمشي ويعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعور طريقه واختلاف أعوانه ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ قائماً مائلاً من العناد ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوى الأجزاء أو خبر من ههنا محذوف اكتفاء على ما سبق في المعطوف عليه فالواجب ههنا الإقرار بأن الماضي سوياً على صراط مستقيم أهدى فكذلك المؤمن الذي يمشي علي بصيرة على مسلك العقل والنقل أهدى من الكافر الذي لا يسمع ولا يعقل وكلمة أهدى لا يقتضي وجود أصل الهداية في المفضل عليه تحقيقاً بل يكفي وجوده فرضاً وتقديراً، قال قتادة من أكب على معاصي في الدنيا يمشي مكباً على وجهه يوم القيامة والمؤمن من يمشي يوم القيامة سوياً، أخرج الشيخان عن أنس أن رسول الله ﷺ سأل كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»(١) وروى أبو داود عن أبي هريرة نحوه، وفي هذه الجملة تشنيع آخر على الكفار ولما كان قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ لإنكار النصر والرزق من جندهم اقتضى السؤال بأن يقال فمن ينصرنا ويرزقنا أجيب بقوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦١٥٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦).

ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

﴿قُلْ﴾ إنما ينصركم ويرزقكم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ لتعرفوا ربك وتبعدوه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾تسمعوا المواعظ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا صنائعه ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا وتعتبروا ولما كان السمع في الأصل مصدراً والمصدر لا يجمع ذكره بصيغة الإفراد بخلاف البصر والفؤاد وأيضاً العلم الحاصل بالسمع نوع واحد وهو الصوت والحاصل بالبصر والفؤاد أنواع مختلفة ﴿قَلِيلًا﴾ أي شكراً قليلاً وزماناً قليلاً ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ والمراد بالقلة النفي رأساً مجازاً ﴿قُلْ﴾ كلمة قل زائدة أعيدت للتأكيد ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدل من هو الذي أنشأكم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء حال مقدرة من فاعل ذرأكم فهذين الجملتين على طريقة جاء زيد وهو راكب ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني الكفار إتنكار الوعد واستبطائه ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي وعد الحشر ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها النبي والمؤمنون ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم بالحشر فبينوا وقته ﴿قُلْ﴾ مستأنفة في جواب ما أقول لهم في الجواب ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي العلم بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلم غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والإنذار يكفي له العلم بوقوع المحذر منه ولا يتوقف على العلم بوقته والجملتين بالعطف مقولة قل ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الوعد بمعنى الموعود، قال أكثر المفسرين المراد به العذاب في الآخرة، وقال مجاهد العذاب ببدر ﴿زُلْفَةً﴾ أي ذا زلفة وقرب منهم حال من ضمير المفعول ولما ظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي اسودت قبحت ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ برؤية العذاب ﴿وَقِيلَ هَٰذَا﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تطلبون وتستعجلون من الدعاء أو من الدعوى أي تدعون أن لا بعث ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﷺ لمشركي مكة الذين يتمنون هلاككم ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ﴾ قرأ حمزة بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا الاستفهام في أرأيتم للتقرير والرؤية بمعنى العلم معناه أخبروني والجملة الشرطية بعد.أفعال القلوب كالنفي والاستفهام يوجب التعليق ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الاستفهام للإنكار والجملة جزاء للشرط يعني لا أحد يجيرهم، والحاصل أنه لا فائدة لكم في هلاكنا حتى تطلبونه إنما يفيدكم أن تتبعوا من يجيركم من عذاب الله ولا يتصور ذلك من الأصنام،

وقيل معناه إن أهلكني ومن معي يعني المؤمنين يعذبهم الله بذنوبهم أو رحمنا ويغفر لنا فنحن مع إيماننا خائفون عذاب الله لأجل ذنوبنا فإن حكمه نافذ فينا فمن يجيركم من عذابه وأنتم كفار ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني الذي ذكر فيما سبق دلائل وجوده وقدرته وسلطانه هو الرحمان الذي أعبده وأدعوكم إليه وهو مولى النعم كلها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ للعلم بذلك فيه تقرير بمضمون جملة هو الرحمان ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لوثوق عليه المبني على الإيمان به وتقديم الظرف تفيد الحصر المستفاد من هو الرحمن فهذه الجملة يقرر مضمون الجملتين السابقتين وهذه الآية بمنزلة النتيجة للبراهين السابقة ويترتب عليه الحكم بحال الفريقين المؤمنين والكافرين ولذا جاء بفاء السببية في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ يوم الجزاء قرأ الكسائي بالياء والباقون بالتاء وتعلمون معلق بالجملة الاستفهامية الواقعة بعده أعني ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نحن وأنتم وفيه تهديد وترهيب وكذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ وزانه وزان قل أرأيتم إن أهلكني الله الآية ﴿غَوْرًا﴾ غايراً في الأرض بحيث لا يناله الدلاء مصدر وصف به ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ مشتق من العين الجارية أي ماء جار أو من العين الباصرة أي مرئي ظاهر سهلاً لمأخذ فإن بديهة العقل شاهد على أن هذه الأصنام لا تقدر على إتيانه بل لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، ويستحب للقارىء أن يقول حين ختم هذه السورة الله رب العالمين قال الشيخ جلال الدين المحلي رحمه الله كذا ورد في الحديث.

فصل:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي تبارك الذي بيده الملك»[1] رواه أحمد وأبو داود واترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه ورواه البغوي بلفظ «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة وهي سورة تبارك» وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية من عذاب الله رواه الترمذي وعن جابر أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ لم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك رواه أحمد والترمذي والدارمي وقال الترمذي هذا حديث صحيح، وعن خالد بن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك (٢٩٦٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في عدد الآي (٣١٩٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: ثواب القرآن (٣٧٨٦).

معدان قال بلغني في الم تنزيل ومثله في تبارك الذي أن رجلاً كان يقرأهما ما يقرأ شيئاً غيرهما وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه قالت رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتي فشفعها الرب تعالى فيه وقال له اكتبوا له بكل خطيئته حسنة وارفعوا له درجة، وقال أيضاً إنها تجادل عن صاحبها في القبر تقول اللهم إن كنت من كتابك فشفعني فهي وإن لم أكن في كتابك فامحني عنه وإنها تكون كالطير يجعل جناحها عليه فيشفع له فيمنعه من عذاب القبر وقال طاووس فضلتا على كل سورة في القرآن بستين حسنة رواه الدارمي.

سورة القلم

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

﴿نٓ﴾ من الحروف المقطعة وقد مر البحث عنها في أوائل سورة البقرة، وقيل اسم للحوت والمراد به الجنس أو البهموت وهو الذي عليه الأرض أو الدواة فإن بعض الحيتان يستخرج منه أشد سواداً من النفس يكتب به لكن كتابته بصورة الحروف قراءته بالسكون وصلاً وقفاً يؤيد القول الأول ويأبى عن غيره من الأقوال، قرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بإخفاء النون إجاء للواو المنفصل كالمتصل والباقون بالإظهار ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الواو للقسم والقلم ه والذي خط اللوح، عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال ما أكتب؟ قال اكتب القدر فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[(١)] رواه الترمذي، وقال هذا حديث غريب، وعن عبد الله بن عمر وقال قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء»[(٢)] رواه مسلم، قال البغوي هو قلم من نور طوله ما بين السماء والأرض ويحتمل أن يراد جنس القلم أقسم به لكثرة

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٨٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

فرائده ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ والضمير للقلم بالمعنى الأول على التعظيم أو بالمعنى الثاني بإرادة الجنس وأسند الفعل إلى الآلة وأجريت مجرى أولى العلم بإقامتها مقامهم أو لأصحابه على المعنى الثاني أو بغير المذكور أي الحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم أو العلماء الذين يكتبون علوم الدين ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي ملتبساً بنعمة ربك من البنوة والمروة وكمال العقل والفهم وجلال الفضل وأنواع المكارم والعلوم والعامل في الحال معنى النفي وقيل مجنون والباء لا يمنع كونه عاملاً فيما قبله لكونه زائدة لكنه ضعيف من حيث المعنى ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ قال البغوي هذا جواب لقول الكفار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[1] وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج وإنما قالوا ذلك استبعاداً منهم ما ادعاه النبي ﷺ من الرسالة من الله وما ارتكبه النبي ﷺ من مخالفة جميع الناس في أيام العسرة واستيلاء ظلمة الكفر ولما كان هذا الاستبعاد منهم مستقراً قوياً في زعمهم أكدوا قولهم إنك لمجنون بأن ولام القسم وبناء على شدة إنكارهم أكد الله سبحانه الجواب بالقسم وزيادة الباء في خبر بالتأكيد النفي، وفيه نفي المجنون عنه ﷺ بحال تلبسه بنعمة الله ليكون هذا القيد بمنزلة البينة والبرهان على النفي فإنه من كان بهذه المثابة من العلم والعقل والفهم والكمال فالقول فيه بأنه مجنون سفسطة لا يقول به إلا من هو أبلد من الحمار وأحمق من ابن حنيفة ألم تسمع أن الأتان سجدت إلى الكعبة ثلاثاً حين ركبت حليمة مع النبي ﷺ عليها وقالت الأتان على ظهره خير النبيين وسيد المرسلين وخير الأولين والآخرين وحبيب رب العالمين ﷺ كذا ذكر في المواهب اللدنية في حديث طويل فالكفار أبلد من الحمار ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على احتمال الأذى وتبليغ الرسالة والتنكير للتعظيم ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فإن الله يعطيك وعلى الناس منة منك والجملة معطوفة على جواب القسم أو حال من أنت وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ فإنك تحتمل عن قولك ما لا يحتمل أمثالك قال رسول الله ﷺ: «وما أوذي أحد أوذيت في الله» رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس وابن عساكر عن جابر نحوه، وعن أبي هريرة قال يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة»[2] رواه مسلم، والكفار لما رموه ﷺ بالجنون والمجنون لا يستحق أجراً ولا يكون له حق حسن فإيراد هذين الجملتين على العطف والحال تأكيد لما سبق من نفي الجنون

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩).

ورد لقول الكفار على أبلغ الوجوه، قال ابن عباس ومجاهد خلق عظيم دين عظيم ولا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه وهو دين الإسلام، قال الحسن هو آداب القرآن سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن ألست تقرأ القرآن قد أفلح المؤمنون الخ[١] رواه مسلم وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، وقال قتادة هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من ما نهى الله عنه يعني إنك على الخلق الذي أمرك اللهبه في القرآن، وقال جند الخق العظيم أن لا يكون همته غيره تعالى.

فصل: في أخلاقه ﷺ عن البراء قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً أحسنه خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير[٢]، عن أنس قال خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أن قط وما قال لشيء صنعته لم صنعت ولا لشيء تركته لم تركت وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ[٣] متفق عليه، وعن أنس أن امرأة كانت في عقلها شيئاً قالت يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال يا أم فلان أجلسني في أي سلك المدينة شئت أجلس إليك فقعد إليها رسول الله ﷺ حتى قضت حاجتها رواه مسلم، وعنه قال كانت الأمة من إماء المدينة ليأخذ بيد رسول الله ﷺ فينطلق به حيث شاءت رواه البخاري، وعنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي نزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه ولم ير مقدماً ركبتين بين يدي جليس[٤] رواه الترمذي وعن عائشة قالت ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادماً ولا امرأة ولا ينسل شيئاً منه قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينهتك لشيء من محارم الله فينتقم لله[٥] رواه مسلم، وعن أنس

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٣٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: في صفة النبي ﷺ وأنه كان أحسن الناس وجهاً (٢٣٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٣٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه (٢٣٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٣٩).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (٢٣٢٨).

قال كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ببرد نجراني غليظ الحاشية فأدركه إعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبه ثم قال يا محمد ﷺ مر لي من ال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء[١] متفق عليه، وعنه قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس الحديث متفق عليه وعن جابر قال ما سأل رسول الله ﷺ شيئاً فقال لا متفق عليه، وعن جبير بن مطعم بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ مقفلة من حنين فعلقت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت ردائه فوقف رسول الله ﷺ فقال أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذا العصاة نعم لقسمته بينكم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً[٢] رواه البخاري، وعن عائشة قالت لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً في الأسواق ولا يجيز بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح[٣]، وفي الباب أحاديث لا تكاد تحصى في فضل حسن الخلق عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «بعثت لأتمم حسن الخلق» رواه أحمد وفي الموطأ بلاغاً، وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن أثقل شيء يوضع في الميزان للمؤمن يوم القيامة خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذي»[٤] رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وروى أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لأصحابه أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[٥] وعن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار»[٦] رواه أبو داود وعن عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً» رواه البخاري وفي الصحيحين بلفظ «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»[٧]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: التبسم والضحك (٥٧٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء من يسأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الشجاعة في الحرب والجبن (٢٦٦٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في خلق النبي ﷺ (٢٠٨٥).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق (٢٠١٠).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق (٢٠١٢).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق (٤٧٩٠).

(٧) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٣٦٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢١).

وعن رجل من مزنة وعند البيهقي في شعب الإيمان، وعن أسامة بن شريك في شرح السنة قالوا يا رسول الله ما خير ما أعطي الإنسان قال الخلق الحسن، وعن معاذ قال كان آخر ما وصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الفرزان قال: «يا معاذ أحسن خلقك للناس» رواه مالك.

﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا محمد والسين للتحقيق ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ أي الكفار يوم القيامة ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ أيكم مبتدأ والباء زائدة والمفتون بمعنى المجنون خبره أو المفتون مصدر بمعنى الجنون كالمعقول والمجلود مبتدأ والخبر مقدم أو المعنى بأي الفريقين منكم الجنون بفريق المؤمنين أو بفريق الكافرين في أيهما من يستحق هذا الاسم والجملة الاستفهامية بتأويل المفرد مفعول للفعلين السابقين على سبيل التنازع، والحاصل أن الجنون ليس بالكفار فإنه لا شك أن مقتضى العقل أنه من خبر بين الخبرين اختار أخيرهما ومن ابتلى ببليتين اختار أهونهما والمؤمنون اختاروا الاشتغال بالله سبحانه الجميل المتصف بجميع الكمالات المنزه عن جميع النقائص أنصار النافع وبذلوا همتهم في ابتغاء مرضاته واجتنبوا موجبات سخطه واختراوا نعم الأخروية القوية الأبدية على النعم الدنيوية الدنية الزائلة الكائنة كأن لم تكن والكفار اختاروا الممكنات التي لا تضر ولا تنفع إلا بإذن الله بل اختروا للعبادة الحجارة وتركوا الله الواحد القهار القيام واختاروا الخطوط العاجلة لا تدرك منها إلا ما شاء الله على النعم الأبدية واختاروا النار على الجنة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ متعلق بأعلم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فهم المجانين على الحقيقة فإن مقتضى الجنون الضلال عن سبيل الحق ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الفائرين بكمال العقل الواصلين إلى الجميل المطلق ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ الفاء للسببية يعني إذا ظهر أنك على الهدى والمكذبين على الضلال فلا تطعهم ﴿وَدُّوا۟﴾ حال بتقدير قد من المكذبين ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ لو للتمني بيا للوداد والإدهان اللين المشتق من الدهن ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ الفاء للعطف والتعقيب هي ودوا المداهنة من الجانبين لكن يحبون أن يكون إدهانهم بعد إدهانك، أو للسببية أي ودوا لو تدهن فهم يدهنون ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون طمعاً فيه يعنء لو تلني لهم بترك نهيهم عن الشرك أو توافقهم في بعض الأمور أحياناً فينالونك بترك الطعن والموافقة في بعض الأمور.

مسألة: وهذه الآية تدل على أن المداهنة في أمر الدين حرام ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ تخصيص بعد تعميم، قال قتادة نزلت في الوليد بن المغيرة، وأخرج المنذر عن الكلبي وابن أبي حاتم عن السدي نزلت في الأخنس بن شريف وكذا اذكر البغوي قول عطاء وقال ابن أبي

حاتم عن مجاهد نزلت في الأسود بن عبد يغوث ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ لفظه كل ورد لتأكيد شمول النهي كل فرد بقرينة المقام فلا يدل على جواز طاعة البعض والمراد بالحلاف كثير الحلف بالباطل وقد مر في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾[(١)].

مسألة:

إن الإكثار بالحلف مكروه ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير فعيل من المهانة بمعنى الحقارة وهي قلة الرأي والتميز ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب مغتاب وقيل من يشير بعينه حاجبه إلى عيوب الناس ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ فعال للحديث على وجه السعاية ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن الحدفي الظلم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم ﴿عُتُلٍّۭ﴾ قال في القاموس الأكول المنيع الجافي الغليظ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الظرف متعلق بزنيم وكلمة بعد بمعنى مع أو المعنى بعد ما عدت من رزائله ﴿زَنِيمٍ﴾ قال في القاموس الزنيم المستلحق في قوم ليس منهم والدعي وفيه أيضاً الدعي كغني من تبنيته والمتهم في النسبة، قال البيضاوي الزنيم مأخوذ من زنمتي الشاة وهما المتدليتان من أذنها وحلفها وكان الوليد بن مغيرة ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة مولده والأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده في زهرة، قال البغوي في الدنيا معصماً فكان الناس ظلوماً قال فذلك العقل الزنيم مرسل له شواهد، روي عن عكرمة عن ابن عباس قال في هذه الآية لعنت الله فلم يعرف حتى قيل زنيم فعرف وكان له زنمة في عنقه يعرف بها، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال نزل على النبي ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ فلم نعرفه حتى نزل عليه بعد ذلك زنيم فعرفناه كان له زنمة كزنمة الشاة، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال يعرف بالشر كما يعرف الشاة بزنمتها، قلت ولعله لما كأن هذه الصفة أعني كونه زنيماً أدنى في القبح من الرزائل المقدمة ذكره بقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ والله تعالى أعلم، عن الحارث بن وهب الخزاعي قال قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف لو يقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ متكبر»[(٢)] رواه البغوي وروى أبو داود والطبراني عن الدرداء نحوه ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب أن كان بهمزتين أحدهما للاستفهام ثم حمزة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الكبر (٥٧٢٣).

وأبو بكر يخففان الهمزتين بلا مد وبمد الهمزتين الأولى أبو جعفر وابن عامر ويعقوب ويلينون الثانية وقرأ الآخرون بهمزة واحدة بلا استفهام وتقديره لأن كان متعلق بالنهي في لا تطع فالمعنى على تقدير عدم الاستفهام لا يكن منك إطاعة من كان هذا شأنه لكونه ذا مال وبنين كما أن عادة الناس إطاعة أصحاب المال والثروة وعلى تقدير الاستفهام أتطيعه لكونه ذا مال وبنين فالاستفهام للإنكار أو متعلق بمدلول جملة بعده أي كفر وكذب القرآن لأجل الغنى تكبراً وبطراً والمعنى كان الغنى موجباً للشكر فكفر على عكس ما ينبغي ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي شيء كتبوه كذباً من قصص الأولين في القاموس الأساطير الأحاديث لا نظام لها إذا متعلق بقال أي قال ذلك ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ على الألف كأنه شبهه بالفيل والخنزير وأنفه بالخرطوم جملة مستأنفة بالوعيد والتهديد، قال الفراء المراد به الوجه فإن بعض الشيء يعبر به عن الكل، وقال أبو العالية ومجاهد يسود وجهه فيجعل له علماً في الآخرة يعرف به وهو سواد الوجه، قوال ابن عباس سنحطمه بالسيف وفعل ذلك يوم البدر.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعني أهل مكة بالقحط والجوع لما دعي رسول الله ﷺ عليهم وقال: «اللهم اجعل عليهم سينين كسني يوسف» حتى أكلوا العظام والجيف[1]. جملة مستأنفة في جواب سؤال مقدر أي ما فعل لهم حين كذبوا النبي ﷺ وقالوا مجنون ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ صفة مصدر محذوف والإضافة واللام للعتهد. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جرير أن أبا جهل قال يوم بدر خذوهم أخذاً فاربطوهم في الجبال ولا تقتلوا منهم أحداً فنزلت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (٤٥٤٤).

إنا بلوناهم في قدرتهم عليهم كما بلونا أصحاب الجنة في اقتدارهم عليهم، روى محمد بن مروان عن الكلبي عن ابن صالح عن ابن عباس قال كان بستان اليمن يقال، له الصروان دون صنعاء بفر سخين غرسه رجل صالح وكان يترك للمساكين إذا صرموا تخلهم كل شيء تعداه المنجل فإذا طرح من فوق النخل إلى البساط فكل شيء يسقط عن البساط يترك ذلك أيضاً للمساكين وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين وإذا داسوه كان لهم كل شيء ينتثره أيضاً فلما مات الرجل ورثه ثلاثة بنيه فقالوا والله إن المال لقليل وإن العيال كثير وإنما كان هذا الأمر يفعل إذا كان المال كثيراً والعيال قليلاً فإذا قل المال وكثل العيال فإنا لا نستطيع أن نفعل هذا فتحالفوا بينهم ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ أي حلفوا متعلق ببلونا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ جواب قسم أي ليقطعن ثمرها أي الجنة ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح قبل أن يعلم المساكين حال من فاعل ليصرمنها ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ حال من فاعل أقسموا أي أقسموا غبر مستثنين أي قائلين إن شاء الله وإنما سماه استثناء لما فيه من الإخراج غير أن المخرج به خلاف المذكور والمخرج بالاستثناء عينه أو لأن أفعل إن شاء الله ولا أفعل إلا أن شاء الله واحد ويحتمل أن يكون جملة لا يستثنون معطوفة على ليصرمنها داخلة في جواب القسم، والمعنى ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يخرج أبوهم أو يكون جملة مستأنفة أي كان شأنهم ذلك ﴿فَطَافَ﴾ معطوف على أقسموا ﴿عَلَيْهَا﴾ على جنتهم ﴿طَآئِفٌ﴾ بلاء نازل بالليل وهو نار نزلت من السماء فأحرقتها ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ من ابتدائية ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ قال ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الجنة ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي كالبستان الذي صرم ثمارها بحيث لم يبق فيها شيء فعيل بمعنى المفعول أو كالليل باحتراقها واسودادها أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليبس سمي بالصريم لأن كلاً منهما ينصرم عن صاحبه أي ينقطع، وقال الحسن أي صرم منها الخير فليس فيها شيء، وقال ابن عباس كالرماد الأسود بلغة خزيمة، والجملة معطوفة على فطاف ﴿فَتَنَادَوْا﴾ أصحاب الجنة ﴿مُصْبِحِينَ﴾ الجمية معطوفة على على أصبحت ﴿أَنِ ٱغْدُوا﴾ أن مفسرة الفعل معناه القول أعني تنادوا ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ متعلق باغدوا أي اخرجوا إلى حرثكم وتعديته بعلى إما لتضمنه بمعنى الإقبال أو لتشبيه الغدو للصرام الغدو الغدو المتضمن بمعنى الاستيلاء ويحتمل أن اغدو إنا قصة وعلى حرثكم خبره ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ قاطعين شرط استغنى عن الجزاء بما مضى ﴿فَٱنطَلَقُوا﴾ أي أصحاب الجنة ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي يقولون بينهم سراً وخفي وخفت وخفه بمعنى كتم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي الجنة وأن مفسرة لقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فإنه في معنى القول ﴿ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ نهي للمسكين عن الدخول مؤكد أو المراد به المبالغة في النهي عن تمكينه عن الدخول كقوله لا أثنيك ههنا

﴿وَغَدَوْاْ﴾ عطف على انطلقوا ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ على حرد متعلق بقادرين وهو خبر لغدوا أو الجملة معطوفة على انطلقوا أو الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب، فقال الحسن والقتادة وأبو العالية على جد وجهد، وقال القرطبي ومجاهد وعكرمة على أمر مجمع قد أسسوه بينهم وكل ذلك راجع إلى المقصد، وقال أبو عبيدة على منع المساكين وقول الشعبي وسفيان على غضب في المساكين، وقال ابن عباس على قدرة عند على جنتهم وثمارها ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي الجنة محترقة ﴿قَالُوٓاْ﴾ لما ظرف متعلق بقالوا ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ الطريق فليس هذا جنتنا وإنا لمخطئون حيث منعنا المساكين وتركنا الاستثناء ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قد حرمنا خير الجنة ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ سناً أو أعد لهم وأعقلهم والجملة مستأنفة ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ استفهام تقرير ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي تستثنون سمي الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم الله تعالى وإقرار بأنه لا يقدر أحدكم على شيء إلا بمشيئته، وقال أبو صالح كان استثناؤهم سبحان الله تعالى أو هلا تسبحون الله وتشكروه على ما أعطاكم ولا تمنعوا المساكين فإن الشكر صرف النعمة في رضاء وقيل هلا تستغفرون من فعلكم ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ جملة مستأنفة نزهوا الله سبحانه من أن يكون ظالماً في ما فعل وإقرار على أنفسهم بالظلم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بمنع المساكين عن حقهم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ عطف على قالوا ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ حال من فاعل أقبل ومفعوله على طريقة لقيه راكبين أي يلوم بعضهم بعضاً في منع المساكين حقوقهم ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ جملة مستأنفة أي أعطينا نعم الله فلم نشكرها كما شكر أبونا ولما ندموا على ما فعلوا وتابوا عنه وعزموا على الشكر والإنفاق رجعوا على أنفسهم وقالوا رجاءً ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ جنة ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ من ذلك الجنة التي أحرقت ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ إلى الانتهاء الرغبة أو لتضمنها معنى الرجوع والجملة في مقام التعليل للرجاء فإن الرغبة إلى الله تعالى يوجب الإنعام، قال البغوي قال ابن مسعود بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم جنة يقال لها الجبوان فيها عنب يخمل البغل منها عنقوداً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر ما بعده مبتدأ أي كما فعلنا بأهل مكة وأصحاب الجنة ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا على ترك الشكر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ على الكفر والمعاصي وترك الشكر ومنع الزكاة ﴿أَكْبَرُ﴾ أشد وأبقى من عذا الدنيا ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ شرط استغنى عن الجزاء بما مضى أي لو كانوا يعلمون العذاب ما فعلوا فعلهم.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ
كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ
ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ
أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن
يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿٥٢﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في جوار القدس ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي ليس فيها إلا التنعيم الخالص، جملة مستأنفة سبقت الوعد للمتقين بعد وعيد المجرمين ولما قال المشركون من أهل مكة إنا نعطي في الآخرة على تقدير ثبوتها أفضل مما تعطون أو مثله كما أعطينا في الدنيا قال الله تعالى تكذيباً لهم ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الاستفهام لإنكار مساواة المجرمين بالمسلمين ويوجب إنكار تفضيل المجرمين بالطريق الأولى والجملة معطوفة محذوف ألا نفضل المسلمين المطيعين على المجرمين فنجعل المسلمين كالمجرمين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ كيف حال من فاعل تحكمون قدم عليه لاقتضائه صدر الكلام وتحكمون حال من معنى ما لكم تقديره ما تصنعون حال كونكم حاكمين كائنين على كيفية عجيبة مستبعدة جداً على خلاف العقل فإن العقل يحكم أن المطيع يكون أحسن حالاً من العاصي وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ نزل عند اللئام أم منقطعة بمعنى بل للإضراب من الحكم على وفق العقل والهمزة للإنكار عن الدليل السمعي المنزل من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي الكاب ﴿تَدْرُسُونَ﴾ تقرأون ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ أي في ذلك الكتاب ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ ما تختارون لأنفسكم وتشتهونه حذف أحد التائين من تخيرون والجملة مفعول لتدرسون إما بتأويل القول أي تدرسون هذا القول أو لأنه كان في الأصل أن مفتوحة فلما جيئت باللام على ما تخيرون كسرت وتحتمل أن يكون استئنافاً على سبيل الإنكار ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾ فاعل لكم ﴿عَلَيْنَا﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ متناهية في التوكيد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بمقدر في لكم أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا يخرج عن عهدتها حتى تحكم بحكمكم في ذلك اليوم أو متعلق ببالغة أي أيمان تبلغ ذلك اليوم ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا

﴿تَحْكُمُونَ﴾ جواب للقسم المفهوم من ذكر الأيمان يعني أم أقسمنا لكم أن لكم ما تحكمون ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ قائم يدعيه ويصححه فليقدرونه فقد نبه سبحانه في هذه الآيات على نفيكل ما يمكن أن يثبت به من عقل أو نقل يدل عليه لاستحقاق أو وعد أو تقليل لمن يقدر على إثبات ما يدعيه، ثم لما نفى تسوية الكفار بالمؤمنين من الله تعالى نفى أن يكون هذا من الشركاء الذين يشركونها مع الله تعالى بنفع الشركاء فقال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ تجعلهم مثل المؤمنين في الآخرة ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ ويثبتوا كونهم شركاء الله تعالى مماثلاً له في العلم والقدرة والإرادة والتكوين الفاء للسببية والأمر للتعجيز ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعوتهم شرط مستغني عن الجزاء بما معنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الظرف متعلق باذكر وكشف الساق عبارة عن نوع من تجلياته سبحانه وتعالى في الموقف. روى الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري أن ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحابٌ هل تضارون رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب قالوا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤية الله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد يعبد بغير الله من الأصنام، والأنصاب أن يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر» وفي رواية «غير أهل الكتاب فيدعي اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزير ابن فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال ماذا تبغون؟ فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا ترون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم لبعضها بعضاً فيتساقطون في النار، ثم يدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم فذكر كما ذكر في اليهود وفي رواية مسعود عند الحاكم وصححه الدارقطني وغيرهما أنه يمثل لكل من يعبد غير الله ما كانوا يعبدون من الشمس والقمر والأوثان ويمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير وإن كان يعبد المسيح شيطان المشيح فينطلقون معه إلى جهنم، وفي رواية عن أبي هريرة عند الطبراني وأبي يعلى والبيهقي وغيرهم أن يجعل ملكاً من الملائكة على صورة عزير وملكاً من الملائكة على صورة عيسى بن مريم ويتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى ثم تقودهم آلهتهم إلى النار وهم الذين يقولون لو كان هؤلاء آلة ما وردوها وكل فيها خالدون» رجعنا إلى رواية الصحيحين «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين قال فماذا تنظرون يتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا

أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقول نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى أن بعضهم يكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية لتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يضرب الجسر على جهنم وفي رواية قيل يا رسول الله ما الجسر قال وحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحكمة تكون بنجد فيها شويكة يقال له السعدان وتحل الشفاعة ويقول الإنبياء اللهم سلم سلم فيمر المصوفون كطرف العين وكالريح وكالطير وكجلود الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش في نار جهنم حتى إذا أخلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين لله لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فيحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ليخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم ندر فيها خيراً فيقول شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر من أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما يخرج الحبة في حميل السيل فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم خواتم فيقول أهل الجنة عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه فيقال لهم لكم ما رأيتم ومثله معه»[1] وقد وقع كشف الساق في حديث ابن مسعود عند الحاكم وغيره وفي رواية عن أبي هيرة في الصحيحين» فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها، وقال اللالكائي في السنة والآجري في كتاب الروية عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في دار الدنيا فيذهب كل قوم إلى كل ما يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقذال لهم وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا رباً كنا نعبده في الدنيا لم نره قال وتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال لهم كيف تعرفونه ولم تروه قالوا إنه لا شبه له فيكشف لهم عن الحجاب فينظرون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (٤٣٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

إلى الله تعالى فيخرجون له سجداً ويبقى أقوام في ظهورهم مثل صياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون فيقول الله تبارك وتعالى ارفعوا رؤسكم قد جعلت بدل كل رجل منكم بدلاً من اليهود والنصارى»(١). وهذه الأحاديث تدل على أن لله سبحانه تجليات على أنواع شتى منها تجليات صورته وذلك في عالم المثال وليس هي رؤية في الحقيقة كما رأى النبي ﷺ ربه في المنام على صورة أمرد شاب شطط في رجليه نعلاً الذهب وعند ذلك التجلي يقول القائلون في الموقف نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً ومنها ما يكون على غير شبه ومثال في الموقف وفيه شائبة من الظلية ولعل من هذا النوع ما أراد الله تعالى بقوله: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الخ رآه المؤمنون الأبرار والفجار بلا حجاب كما ترون الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب والقمر ليلة البدر كما روينا من قبل ولا نصيب للكفار من هذا التجلي لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾(٢) وقوله عليه السلام: «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين» الحديث إلى قوله: «فيكشف عن ساق» والساق من المتشابهات كاليد والوجه لا يعلم تأويلهإلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ومنها ما يكون في الجنة بلا شائبة الظلية المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٣) ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أي المؤمنون الأبرار والفجار إلى السجود وهذه الدعوة ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ ليس من باب التكليف إذ ليس الآخرة أو تكليف بل هي دعوة طبيعية تقتضيه افتقار الحقيقة الإمكانية عند كشف سرادقات العظمة والجلال ما لم يمنع مانع ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي العصاة منهم لصيرورة ظهرهم طبقة واحدة لما يحملون أوزارهم فالضمير راجع إلى بعض المدعوين إلى السجود دون الكل كما في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾(٤) ويدل على هذا الأحاديث المذكورة فالذين لا يستطيعون السجود هم المؤمنون الذين لم يكونوا مصلين أصلاً أو لم يكونوا مصلين بجماعة إلا اتقاءاً كأهل الهواء من الروافض وغيرهم أو كانوا يسجدون رياءاً للناس من غير إخلاص في العمل. فإن قيل قد ورد في بعض طرق حديث أبي هريرة وغيره فإذا لم يبق إلا المؤمنون وفيهم المنافقون جاءهم الله الحديث إلى قوله فيكشف لهم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

(٢) سورة المصطففين، الآية: ١٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

عن ساق ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم فيخرون ساجدين على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه ويجعل الله أصلاً بهم كصياصي البقر؟ قلنا: الظن بالمنافق ههنا المنافق في الأعمال وفروع العقائد دون المنافق في أصول الاعتقادات إذ المنافق في أصول الاعتقادات أولئك هم الكافرون حقاً بل أشد كفراً وهم في الدرك الأسفل من النار وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون فكيف يكون لهم ذلك الكرامة من رؤية الله تعالى وقد ورد في الأحاديث لفظ المنافق في حق العصاة حيث قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[1] متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً «آية المنافق ثلاث» رواه مسلم «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ثم اتفقا إذا حدث كذب وإذا وعد خلف وإذا ائتمن خان» ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ الخشوع صفة للذوات أسند إلى الأبصار تجوزاً لظهوره فيها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي يلحقهم ذلة ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا فلم يسجدوا كما أمرهم الله بالإخلاص ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ عن كون ظهورهم طبقة واحدة حال من فاعل يدعون الثاني وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ﴾ كلها أحوال من فاعل يدعون الأول وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ تعليل لعدم استطاعتهم على السجود في الآخرة ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾ معطوف على الضمير المنصوب في ذرني أو مفعول ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ القرآن جملة فذرني معترضة لوعيد الكفارو تسلية النبي ﷺ أي لا تغتم وكله إلي فإني أكفيك ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ الضمير المنصوب راجع إلى من اعتبار بمعناه الدرج طي الكتاب والثوب يقال للمطوي درجي استعير الدرج للموت كما استعير الطي له كذا قال الجوهري وقال قوله تعالى: سنستدرجهم قيل معناه سنطويهم طي الكتاب عبارة عن إغفالهم وقيل معناه نأخذهم درجة فدرجة وذلك إدنائهم من أمسى شيئاً فشيئاً كالمرائي والمنان والحاصل سنأخذهم بالعذاب بتدريج وإمهال ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كيف يجبى العذاب بهم ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قوي لا يطاق دفعه جملة مستأنفة والكيل المكر والحيلة وإظهار خلاف ما أضمر من السوء فالكيد من الله الانتقام بصورة الإنعام، قال الجوهري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قال بعضهم أراد بالكيد العذاب والصحيح هو الإملاء والإمهال يعني ليس ما نعطيهم في الدنيا من النعم تفضلاً لهم على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٨).

المؤمنين كما زعموا بل كيدو استدراج لهم.

فائدة: من ارتكب المعصية فعوقب عليها بمصيبة في الدنيا يُرجى مغفرة ذنبه ومن ارتكب المعصية ثم يرى عليه ازدياد النعمة يخشى عليه المكر والاستدراج نعوذ بالله منه ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ وما بينهما معترضات ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ فيعرضون عنك بلا حجة دفعاً للغرامة، الجملة الاسمية معطوفة بالفاء السببية على العقيلة أي تستلهم ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ أو المغيبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكون جملة أم عندهم معطوفة على تسألهم ذكر الله سبحانه فيما سبق نفي الدليل التحقيقي العقلي والسمعي والتقليد الذي يستدلون به العوام وذكر ههنا نفي الكشف عن المغيبات والإلهام الذي هو سبب لحصول العلم للخواص من الأنبياء والملائكة وبعض الأولياء فإن الله تعالى يكشف عليهم اللوح المحفوظ والمغيبات إذا شاء يعني ليس شيء مما ذكرنا عندهم فما يحكمون به ليس إلا باطلاً لغواً ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﷺ على أذاهم فإنهم لا يقولون ما يقولون إلا بلا حجة ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ لقضائه بأخذ الكفار بالإمهال والاستدراج ولا تفجر ولا تعجل ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ في الضجر والاستعجال معطوف على فاصبر، قال وهبإن يونس بن متى عليه السلام كان عبداً صالحاً وكان في خلق ضيق فلما حمل عليه أثقال النبوة تضح تحتها تفسح الربع تح الحمل الثقيل يقذفها بين يديه ويخرج هارباً منها فلذلك أخرجه الله من أولي العزم وقال للنبي عليه السلام فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تكن كصاحب الحوت، وقصته على ما ذكره ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب أن الله تعالى أرسله إلى أهل نينوى من أرض الموصل وهم مائة ألف أو يزيدون فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا فأخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فقالوا لم يحزب عليه كذباً فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب معبحكم فخرج يونس عليه السلام في جوف تلك الليل من بينهم فلما أصبحوا لفشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم على قدر ميل وغامت السماء غيماً أسودها بل يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم فلما رأوا ذلك تيقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه فقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى اصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والإنعام فحسن بعضهم إلى بعض وعلت أصواتها وتضرعوا إلى الله عز وجل وقالوا أمنا بما جاء به

يونس فرحمهم ربهم واستجاب دعائهم فكشف عنهم العذاب بعدما أظلم وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس قد خرج ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئاً وكان من كذب ولم يكن له بينة قبل فقال يونس عليه السلام كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتم فانطلق فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجر فوقعت السفينة لا ترجعُ لا يتقدم فقالوا إن لسفينتا لشأناً قال يونس عليه السلام قد عرفت شأنها ركبها رجلٍ ذو خطيئة قالوا ومن هو قال أنا أقذفوني في البحر قالوا ما كنا نطرحك من ههنا حتى نفداك في شأنها فاستهموا فاعترفوا ثلاث مرات فأدحض سهمه والحوت عند رجل السفينة فأغرقاه منتظراً أمر ربه فيه فقال يونس عليه السلام إنكم والله لتهلكن جميعاً أو لتطرحوني فيها فقذفون فيه فانطلقوا وأخذته الحوت، وفي رواية ابن عباس أنه قال الملاحون حين احتبست السفينة ههنا رجل عاص أو عبد آبق هذا رسم السفينة ومن رسمنا أن نقرع فاقترعوا ثلاثاً ووقعت القرعة على يونس فألقى نفسه في الماء فابتلعه الحوت وابتلع هذا الحوت حوت آخر أكبر منه أوحى الله تعالى إلى الحوت إنا لم نجعل يونس لك قوتاً إنما جعلنا بطنك حرزاً ومسجداً وفي رواية سجناً وروي أنه أقام قبل القرعة وقال أنا العبد العاصي الآبق فقالوا لا نلقينك يا رسول الله حتى نستاهم فوجب القرعة عليه فألقى نفسه في الماء، وروي في القصة أنه لما وصل إلى البحر كانت معه امرأته وابنان له فجاء مركب وأراد أن يركب فقدم امرأته لتركب بعدها فحال الموج بينه وبين المركب ثم جاءت موجة أخرى وأخذت ابنه الأكبر وجاء ذئب وأخذ الابن الأصغر فريداً فجاء مركب آخر فركبه فاحتسبت السفينة الخ، قال ابن مسعود وابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابقة وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي حملوا غيظاً وغماً لإجل الوقوع في المعضية والتعب والظرف متعلق بمحذوف أي اذكر لا بالنهي لأن ندائه سبحانه أمر حسن لا يمكن أن يكون منهياً عنه وتقدير الكلام لا تكن كصاحب الحوت مستعجلاً في عقوبة الكفار واذكر إذ نادى بالتوبة وهو مكظوم حيث لم يكظم الغيظ إلا لاستعجاله وعدم صبره ﴿لَّوْلَا﴾ امتناعية ﴿أَن تَدَارَكَهُۥ﴾ فعل ماض بمعنى أدركه وحسن تذكير القول للفصل أو مضارع منصوب بحذف تاء التفاعل حكاية عن الحال الماضي مبتدأ بتأويل المصدر ﴿نِعْمَةٌ﴾ فاعل للفعل ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ صفة له أي رحمته وتوفيق التوبة وقبولها وخبر المبتدأ محذوف تقديره لولا تدارك ونعمة ربه إياه موجود ﴿لَنُبِذَ﴾ جواب لولا ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي الأرض الخالية عن

الشجر والبناء ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ حال من فاعل نبذ يعتمد عليه الجواب ويتوجه النفي إلى ذلك أي لولا الرحمة لنبذ مذموماً على عدم التثبت والخروج من أظهر القوم بغير إذن من الله وترك الأولى يعد ذنباً بالنسبة إلى الأنبياء لعظمة شأنهم وإن لم يكن ذنباً في الحقيقة منافياً للعصمة لكن تداركه الرحمة لما نادى الله تعالى وتاب فنبذ بالعراء وهو سقيم كما في سورة الصافات محموداً مرحوماً، وقع في رواية العوفي وغيره عن ابن عباس قال كان يونس وقومه يسكنون فسلطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة ونصفاً من الأسباط وبقي سبطان ونصف فأوحى الله تعالى إلى شعيا النبي أن أسر إلى إلى حزقيا الملك وقل له حتى يوجهه متيناً قوياً فإني ألى في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل وكان في مملكته خمسة من الأنبياء فدعى الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس أهل أمرك الله بإخراجي قال لا قال فهل سماني قال لا قال فههنا غيري أنبياء أقوياء فألحوا عليه فخرج من بينهم مغاضباً فأتى بحر الروم فركبها إلى آخر القصة ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ورد الوحي إليه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطف على اجتباه أي جعله من الكاملين في الصلاح بالعصمة من أن يقول ما تركه أولى لا بد للصوفي العبر على إيذاء الخلق ولا يجوز له أن يدعو على من أنكره فإن الله سبحانه وتعالى لم يأذن بالدعاء على الكفار وأمر بالصبر فكيف على منكر الولي من المؤمنين والله أعلم، قال البغوي أراد الكفار أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين فنظر إليه قوم من قريش قالوا ما رأينا مثله ومثل حججه وقيل كانت العين من بني أسد حتى كانت الناقة والبقرة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول يا جارية خذ المكتل والدرهم نايتنا بشيء من لحم هذه فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر، وقال الكلبي كان رجل من العرب يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ثم يرجع خبائه فتمر به الإبل والغنم فيقول لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فما يذهب قليلاً إلا يسقط منها طائفة وعدة فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ويفعل مثل ذلك فعصم الله نبيه وأنزل ﴿وَإِن﴾ مخففة من المثقلة يدل عليه اللام في الخبر ﴿يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ خبر يكاد قرأ نافع بفتح الياء من المجرد والباقون بالضم من الإفعال وهما لغتان يقال زلق يزلقه إزلاقاً ومعناه ينفذ ذلك يقال ينفذ ذلك يقال زلق ألسنتهم إذا نفذ، قال السدي يصيبونك بعيونهم وقيل يزلقونك وقال الكلبي يصرعونك ﴿بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ متعلق بيزلقون وكذا قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ عن جابر عن النبي ﷺ: «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر» أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن عدي عن أبي ذر نحوه رواه ابن عدي وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة

«العين حق» وعند أحمد ومسلم عن ابن عباس «العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا» وفي رواية عن أبي هريرة: «العين حق يحضرها الشيطان وحسد ابن آدم» وعن عبيد بن رفاعة أن أسماء بنت عريس قالت يا رسول الله إن بني جعفر يصيبهم العين فاسترق لهم قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القضاء يسبقه العين» رواه البغوي والله تعالى أعلم، وقال ابن قتيبة ليس الله يريد أنهم يصيبونك بأعينهم كما نصيب العائن بعينه أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يقسطك يقال نظر إلى نظراً يكاد يصرعني ونظيراً يكاد يأكلني كناية عن العداوة ويدل على صحة هذا المعنى تقييده بسماع القرآن فإنهم كانوا عند ذلك كارهين أشد الكراهة ويجدون إليه النظر بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذ يسمعونه يقرأ القرآن ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ جملة يقولون معطوفة على معنى إن يكاد الذين كفروا ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني ما هو بمجنون والقرآن ليس مما يتكلم به المجانين بل القرآن ذكر عام لا يدركه ولا يناطاه إلا من كان من أكمل الناس وأمتنهم رأياً قال شيخي وإمامي مولانا يعقوب الكرخي يحتمل أن يكون الضمير هو راجعاً إلى النبي ﷺ أي ما هو أي النبي إلا ذكراً أي مذكر للعالمين على طريق زيد عدل، عن حنظلة قال لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول؟ قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، قال أبو بكر إنا لنلقي مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت نافق حنظلة يا رسول الله قال رسول الله ﷺ وما ذاك؟ قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأن رأي عين فإذا أخرجنا من عندك عافسناء الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث[1] مرات رواه مسلم.

فائدة: وهذه علامة أولياء الله تعاى أن الله يذكر برؤيتهم وذكرهم وقد ورد في بعض

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: العين حق (٥٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقى (٢١٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا (٢٧٥٠).

الأخبار المرفوعة أن النبي ﷺ سئل من أولياء الله تعالى قال الذين إذا رأوا ذكر الله، ويروى عن النبي ﷺ قال الله تعالى: إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم»[١] والله تعالى أعلم.

فائدة: قال الحسن دواء إصابة العين أن يقرأ الإنسان ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ الآية والله تعالى أعلم بالصواب.

(١) رواه أحمد والطبراني وفيه رشدين بن سعد وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد في كتاب: الإيمان، باب: الحب لله والبغض لله (٣٠٣).

المحتويات

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي

تفسير المظهري

تأليف

القاضي محمد ثناء الله العثماني الحنفي المظهري
النقشبندي
١١٤٣ - ١٢٢٥

تحقيق

أحمد عزو عناية

الجزء العاشر

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

جلال الدين حقاني

بشاور بازار كتبخانه

تلفون: 220493/091 ـ موبيل: 5902280/0300 ـ باكستان

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 7957/11 الرمز البريدي: 2250 1107

هاتف: 540000 ـ 544440 فاكس: 850717

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

سورة الحاقة

مكية وهي اثنام وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ (١) مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ
تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ
وَٰعِيَةٌ (١٢)﴾

﴿ٱلْحَآقَّةُ (١)﴾ أي القيامة لأنها حق وثابت وقوعها لا ريب فيه أو لأنها يحق فيها الأمور أي يعرف حقيقتها أو لأنها يحق الجزاء على الأعمال يقال: حق عليه الشيء إذا وجب قال الله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1] والإسناد مجازي مبتدأ وخبره ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢)﴾ والرابط المظهر في مقام المضمر والاستفهام لتفخم شأنها والتهويل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ مبتدأ وأدراك خبره والاستفهام للإنكار ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ (٣)﴾ جملة الاستفهامية للتهويل مفعول لأدراك معنى الآية الحاقة ما هي أي شيء عظيم الهول إنك لا تعلم كنهها فإنها أعظم من أن يبلغها إدراك أحد ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿وَعَادٌ﴾ هود عليه السلام ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي بالساعة التي تقرع الناس بالإقراع والإحرام بالانفطار والانتثار وهي القيامة التي مر ذكرها بلفظ الحاقة فههنا وضع المظهر موضع المضمر بلفظ مرادف لما سبق مع زيادة فيوصف شدتها بياناً لذلك الزيادة والجملة خبر للحاقة الأولى بعد خبر، أو الجملتان السابقتان معترضتان للتهويل أو هذه الجملة مستأنفة مؤكدة بعنوان المبتدأ الأولى أي تحققها وثبوتها فإن مضمون هذه الجملة مع ما عطف عليها أن إنكارها وتكذيبها يوجب

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

الهلاك والاستئصال ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ أما تفصيل لما أجمل والجملة معطوفة على كذبت الفاء للسببية تقديره كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأهلكوا بسبب تكذيبها أما ثمود فأهلكوا بالطاغية أي بالصيحة التي جاوزت مقادير الصياح فأهلكتهم كذا قال قتادة وهو الصحيح، وذلك أن جبرئيل عليه السلام صاح صيحة واحدة فهلكوا وقيل: أتتهم صيحة من السماء وفيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطفت قلوبهم في صدورهم وقيل الطاغية مصدر كالعافية بمعنى الطغيان أي أهلكوا لطغيانهم من التكذيب وقتل الناقة وغير ذلك، وقيل: المراد بالطاغية قدار بن سالف عاقر ناقة صالح والتاء للمبالغة أو الجماعة التي اتفقت على عقر الناقة وبعثت قذاراً لعقرها فإنها كانت سبب هلاكهم وذلك أن الله تعالى بعث صالحاً إلى ثمود فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا وطلبوا منه أن يخرج ناقة عشراء من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة آية حتى يؤمنوا به فدعا صالح ربه فخرجت منها ناقة عظمة مسافة ما بين جنبيها مائة وعشرون ذراعاً عشراء وولدت في الحال ولداً مثلها فلم يؤمنوا وقالوا هذا من سحره فجعل الله تعالى تلك الناقة نقمة لهم حيث كانوا قليل الماء فكانت الناقة تشرب ماءهم يوماً وتترك الماء لهم يوماً وكذا الكلاء فأجمع جماعة منهم على قتلها فبعثوا أشقى الناس وهو قدار بن سالف ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾[1] فقال صالح تمتعوا في داركم بعد قتلها ثلاثة أيام تصفر وجوهكم في اليوم الأول وتحمر في اليوم الثاني وتسود في الثالث ويصبحكم العذاب في الرابع فكان كذلك وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها لكن هذه التأويلات أي القول بأن المراد طاغة المصدر أو عاقر الناقة لا يصاعده العطف بأما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ فإن فيه الباء للاستعانة فلا بد أن يكون فيما قبله أيضاً كذلك حتى يكون الجملتان تفصيلاً لمجمل ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديد البرد أو شديد الصوت كذا في القاموس ﴿عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا﴾ أي سلطها الله سبحانه بقدرته، استئناف أو صفة جيء به لنفي ما يتوهم من أنها كانت من اتصالات فلكية ونحو ذلك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على عاد ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الشمس من الأربعاء الآخر قال وهب في الأيام التي تسميها العرب الأيام العجوز ذات برد ورياح شديد سميت عجوزاً لأنها عجز الشتاء إلى آخره، وقيل: سميت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعها الريح فقتلها في اليوم الثامن نزول العذاب وانقطع العذاب ﴿حُسُومًا﴾ حال من مفعول

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

سحر بمعنى متتابعات جمع حاسم من حسام الكي وهو أن يتتابع على موضع الداء بالمكواة حتى يبرأ كذا قال مجاهد وقتادة أو نحسات كما في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[1] أي حسمت كل خير واستأصله من أصله كذا قال عطية أو قاطعات قطعن دابرهم كذا قال الزجاج والنضر بن شميل ويجوز أن يكون مصدراً منصوباً على العلية أو على المصدرية من فعل مقدر أي يحسمهم حسوماً ﴿فَتَرَى﴾ أي المخاطب الغير المعين حكاية عن الحال الماضية ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ أي عاداً ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الليالي والأيام أو في بينهما ﴿صَرْعَىٰ﴾ جمع صريع بمعنى مصروع مفعول ثان لترى إن كان من رؤية القلب وإلا فهو حال من المفعول ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ أصول ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ متآكلة الأجواف جملة كأنهم حال بعد حال مفرد ولذلك وأيضاً لكونها مصدرة بكان ترك الواو ﴿فَهَلْ تَرَىٰ﴾ استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار ﴿لَهُم﴾ أي لعاد ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٍ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ قرأ أبو عمر والكسائي بكسر القاف وفتح الباء بمعنى الجانب أي من معه من جنوده وأتباعه والباقون بفتح القاف وسكون الباء أي من تقدمه من الأمم الكافرة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي قرى قوم لوط قلبت عليهم من إفك بمعنى قلب والمراد بها أهلها أو المعنى الأمم الذين أيتفكوا يعني قوم لوط ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ والمعصية يعني الشرك أو بفعلة أو أفعال خاطئة ذات خطأ ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يعني عصى فرعون موسى عليه السلام وكل أمته كافرة نبيها عطف تفسيري على جاء ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ معطوف على ما سبق والفاء للسببية ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشدة على كل أخذة مفعول مطلق لبيان النوع ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي جاوز حده حتى على كل شيء وارتفع فوقه في زمن نوح عليه السلام لما ظرف متعلق بما بعده ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي حملنا آبائكم وأنتم في أصلابكم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوح عليه السلام جارية في الماء ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ السفينة أوالفعلة وهي إنجاء المؤمنين الذين في السفينة مع طغيان الماء وتجاوزه عن حده ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عبرة وعظة لدلاتها على قدرة الصانع وحكمته وكما قهره ورحمته ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ أي تحفظها وتعقلها وتتفكر فيها قرأ الجمهور بكسر العين وفتح الياء وروي عن ابن كثير باختلاس العين قال صاحب التيسير لا يصح ذلك ﴿أُذُنٌ﴾ قرأ نافع أذن بالتخفيف والجمهور بالضمتين ﴿وَٰعِيَةٌ﴾ الوعي صفة القلب والنفس وإنما أسند إلى الأذن مجاز للتسبب أو المراد أصحاب أذن واع حذف المضاف وأجرى على المضاف إليه ما كان يجري على المضاف، والتنكير في واعية للدلالة على قلتها وإن من هذا شأنه فهو مع قلته سبب الإنجاء الجم الغفير وإدامة نسلهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٦.

القلوب أوعية فخيرها أوعاها[١]» رواه الطبراني لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها عاد إلى شرحها فقال:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «الصور قرن ينفخ فيه»[٢] رواه الترمذي وأبو داود والدارمي ﴿نَفْخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أحسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقييده حسن تذكيره للفصل والمراد بها نفخة الصعق. واختلفوا في عدد النفخات؟ فقيل: ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾[٣] ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾[٤] واختار هذا القول ابن العربي وكذا ورد صريحاً في حديث طويل عن أبي هريرة بلفظة «فينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين» رواه ابن جرير في تفسيره والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وغيرهم. وقيل: بل نفختان فقط ونفخة الفزع نفخة الصعق لأن الأمرين متلازمان أي فزعوا فزعاً ماتوا عنه وهذا القول صححه القرطبي واستدل بأنه استثنى في نفخة الفزع كما استثنى في نفخة الصعق فدل على أنهما واحد في أكثر الأحاديث ذكر اثنتين فقط وما بينهما أربعون عاماً والحديث الطويل في إسناده من تكلم

(١) رواه الطبراني وفيه بشير بن ميمون الواسطي وهو مجمع على ضعفه.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأدعية، باب: «ادعوا وأنتم موقنون بالإجابة» (١٧٢٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: ذكر البعث والصور (٤٧٢٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠).

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

فيه واختلف الناس في تصحيحه فصححه ابن العربي والقرطبي وضعفه البيهقي وعبد الحق ومدار هذا الحديث على إسماعيل بن رافع قاضي المدينة وقد تكلم فيه قال السيوطي في بعض سياقه نكارة وقد قيل إنه جمعه من طرق وأماكن متفرقة مسلمة سياقاً واحداً والله تعالى أعلم. والمراد بالظرف أعني قوله تعالى: إذا نفخ الزمان الطويل الذي سماه الله تعالى في كتابه بالحاقة والقارعة والقيامة والواقعة وغيرها من الأسماء الكثيرة وابتداء ذلك الزمان النفخة الأولى وانتهائه دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أخرج ابن عساكر عن زياد ابن مخراق قال: سأل الحجاج عكرمة مولى ابن عباس عن يوم القيامة أمن الدنيا هو أو من الآخرة قال صدر ذلك من الدنيا وآخرة من الآخرة فعلى هذا جاز إضافة ذلك الزمان إلى النفخ في الصور النفخة الأولى وإلى كل ما وقع في ذلك اليوم من الصعق والنشور والحسنات والشقاق السماوات وانتشار الكواكب ودخول الجنة والنار وغير ذلك فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ بيان لابتداء ذلك الوقت وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ إلى آخره وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ إلى آخره كلاهما بيان للانتهاء به ﴿وَحُمِلَتِ﴾ أي رفعت ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا﴾ أي الأرض والجبال ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ الدك الدق والهدم كذا في القاموس وقال الجوهري أصله الكسر كذا ذكر البغوي، وقال الجوهري أيضاً الدك الأرض اللينة السهلة قوله تعالى: ﴿دكت الجبال دكا أي جعلت بمنزلة الأرض اللينة، والحاصل أن الأرض جعلتا مستوية دفعة واحدة لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وأخرج البيهقي عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ قال: يصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين وذلك وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة وجزاء الشرط محذوف أي إذا نفخ في الصور وحملت الأرض انقضت الدنيا وحقت الحاقة ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده بدل من إذا نفخ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي الساعة المنتظرة التي وجب وقوعها بالكتاب والسنة أو المعنى وقعت الأمور الواقعة الواجبة الوقوع من الحسنات والجزاء ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ عطف على وقعت ﴿فَهِىَ﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة مسترخية ليست على الشدة والقوة التي كانت عليها قال الفراء وهيها تشققها وفي القاموس الوهي الشق في الشيء يقال وهي إذا انشق واسترخى رباطها ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي الجنس المتعارف بالملك ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي جوانب السماء وأطرافها التي بقيت بعد الانشقاق ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إضافة العرش إلى الله تعالى لتعظيمه ولاختصاصه بتجلي مخصوصة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ الضمير يعود إلى الثمانية لتقدمها في المرتبة أو إلى الملائكة الذين هم على أرجاء السماء ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي ثمانية أفلاك.

روى أبو داود والترمذي عن العباس بن عبد المطلب زعم أنه كان جالساً في البطحاء في عصابة ورسول الله ﷺ جالس فيهم فمرت سحابة فنظروا إليها فقال رسول الله ﷺ ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب، قال: والمزن؟ قالوا: والمزن، قال: والعنان؟ قالوا: والعنان، قال: هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري، قال: إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنان أو ثلاث وسبعون سنة والسماء التي فوقها كذلك حتى عد سبع سماوات ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه ما بين سماء إلى سماء ثم الله فوق ذلك»[1] وروى البغوي هذا الحديث نحوه غير أنه ذكر «ما بين السماء والأرض وكذا ما بين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكذا ما بين أعلى البحر وأسفله» وإطلاق الأوعال وركهن واختلاف المسافة باختلاف اعتبار السائرين والله تعالى أعلم، قال البغوي جاء في الحديث أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرون على صورة أوعال ما بين أظلافهم وركهم كما بين سماء إلى سماء، وجاء في الحديث أن الواحد منهم وجه رجل والآخر وجه أسد والآخر وجه ثور والآخر وجه نسر وروي عن ابن عباس أنه قال: يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية أي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الناس كافة على الله تعالى للحساب وهذا بعد نفخة البعث والجملة مستأنفة كأنها في جواب ما يفعل بنا ذلك اليوم ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ قرأ الجمهور بالتاء نظراً إلى تأنيث الفاعل وحمزة والكسائي بالياء للفصل ﴿مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي فعله سريرة وجملة لا يخفى إما بدل اشتمال من تعرضون أو حال من فاعله قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات أما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تتطاهر الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه بشماله»[2] رواه الترمذي عن أبي هريرة وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري والبيهقي عن ابن مسعود، قال الحكيم الترمذي الجدال للأعداء يجادلون لأنهم لا يعرفون ربهم فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا وقامت حجتهم والمعاذير لله تعالى يعتذر إلى آدم وأنبيائه ويقيم حجة عندهم على الأعداء

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: الجهمية (٤٧١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في العرض (٢٤٢٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر البعث (٤١٧٧).

ثم يبعثهم إلى النار وأما العرضة الثالثة للمؤمنين وهو العرض إلا أن يخلو بهم فيعاتب مزيد عتابه في تلك الخلوة حتى يذوق الحياء والخجل ثم يغفر لهم ويرضى منهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وذلك هو المؤمن والجملة معطوفة على تعرضون تفصيل للعرض أي العرضة الثالثة ﴿فَيَقُولُ﴾ ذلك المؤمن تحجا بحجج خبر لمن ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم لخذ يقال هاء يا رجل ويا رجلان ويا امرأة ويا امرأتان وهاؤم يا رجال وهاؤن يا نساء ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ تنازع الفعلان هاؤم واقرأوا في مفعولية كتابيه فأعمل الثاني لقربه وحذف المفعول الأول ولو كان الأمر على العكس لقيل اقرأوه والهاء فيه وفي حسابيه وماليه وسلطانيه للسكت تثبت في الوقف وتسقط في الوصل واستحب الوقف لثباتها في الأيام الخالية ولذلك قرىء بإثباتها في الوصل أيضاً ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ أي علمت وأيقنت ولما كان اليقين بالحساب مستلزماً للإتيان بأعمال الصالحة كني به عنه كأنه قال إني عملت صالحاً وإنما لم يقل كذلك هضماً لنفسه ولأجل ذلك عبر عن العلم بالظن استحقاراً لنفسه عن دعوى العلم بحضرت ذي الجلال علام الغيوب، قال البيضاوي لعله عبر عنه بالظن إشعاراً بأنه لا يقدح في الاعتقاد الهجس في النفس من الخطرات التي لا ينفك عنها العلوم النظرية ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ مفعول لظننت قائم مقام المفعولين، أخرج ابن المبارك عن أبي عثمان النهدي قال: إن المؤمن ليعطى كتابه في ستر من الله تعالى فيقرأ سيئاته فيتغير لونه ثم يقرأ حسناته فرجع عليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات فعند ذلك يقول هاؤم اقرأوا كتابيه ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ قال في القاموس أي مرضية يقال رضيت لعيشة بالبناء للمفعول ولا يقال رضيت بالفتح على البناء الفاعل قال البيضاوي أي ذات رضاء على النسبة بالصيغة أو جعل الفعل لها مجازاً ﴿فِى جَنَّةٍ﴾ متعلق بظرف مستقر قبله ﴿عَالِيَةٍ﴾ رفيعة الرتبة عند الله تعالى من حيث القرب الذي كيف له أو رفيعة المكان فإنها في السماء أو رفيعة الدرجات والأبنية والأشجار ولما كان رفعة الأشجار موهماً لبعد الثمار وكونها غير سهل للأخذ عقبة الله تعالى بصفة أخرى بعد صفة فقال ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قطف ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة بحيث يدون منا تناولها قائماً وقاعداً وراقداً ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلاً هنيئاً وشرباً هنيئاً والهنيء كل ما لا يلحق به مشقة ولا تعب أو المعنى يهنئهم هنيئاً وهذه الجملة بتقدير القول خبر بعد خبر بهو وجمع الضمير نظراً إلى المعنى أي هو في جنة وهم يقال لهم كلوا واشربوا أو مستأنفة في جواب ما يقال لهم فيها ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ متعلق بكلوا واشربوا على التنازع أي بما قدمتم من الأعمال الصالحة والسلف المتقدم من الشيء ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ الماضية من الأيام الدنيا فإن الخالي في الزمان والمكان ما لا يكون لهم شاغل

فهو من الزمان ما لم يبق أهله ويلزمه المضي والذهاب فيعبر عن الماضي بالخالي قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ وهو الكافر يجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه كذا أخرج البيهقي عن مجاهد، قال ابن السائب يلوي يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطي كتابه وقيل ينزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿فَيَقُولُ﴾ لقبيح ما يرى فيه من الأعمال وسوء العاقبة ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾ المنادى محذوف أي يا قوم ليتني ﴿لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ جملة استفهامية في محل المفعول للم أدر وجملة لم أوت مع ما عطف عليه خبر ليت ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ الضمير عائد إلى النفخة أو إلى غير مذكور أي يا قوم ليت الموتة التي في الدنيا أو الحالة التي كنت عليها من العدم بعد الوجود ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة للحياة مطلقاً بحيث لم أحيى بعدها، قال قتادة يتمنى الموت ولم يكن عذره في الدنيا شيء أكره من الموت ولما كانت جملة يا ليتني متمني عدم الحساب وإيتاء الكتاب وهو من حيث المعنى كناية عن تمني عدم البعث وجملة يا ليتها كانت القاضية تمني لعدم البعث صريحاً فلأجل كون الجملتين متحدي المعنى معنى لم يعطف إحداهما على الأخرى وجعلت الثانية تأكيداً للأولى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار مفعول لأغنى ﴿مَالِيَهْ ۜ﴾ أي مالي من المال والتبع ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ ملكي وتسلطي عن الناس أو حجة التي كنت

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

أحج بها في الدنيا، قرأ حمزة عني مالي وعني سلطاني بحذف الهائين في الوصل والباقون بإثباتهما في الحالين فيقول الله عز وجل لخزنة جهنم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ أي أجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ وكلمة ثم لتفاوت ما بينهما في الشدة وكذا فيما بعده وقدم المفعول للحصر أي لا تصلوه إلا الجحيم هي النار العظمى وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ الفاء في فاسلكوه زائدة لتحسين النظم وليست عاطفة حتى يلزم اجتماع العاطفتين ومعنى فاسلكوه أي أدخلوه فيها، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق العوفي عن ابن عباس قال يسلك في دبره حتى يخرج من منخربه حتى لا يقوم على رجليه، وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق ابن جرير عنه قال: السلسلة تدخل من أسته ثم يخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى، قال نوف البكائي الشامي سبعون ذراعاً كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة وكان في رحبة الكوفة أخرجه هناد وابن المبارك قال سفيان كل ذراع سبعون ذراعاً قال الحسن الله أعلم أي ذراع هو، قلت: لعله أراد ذراع الملك من خزنة النار أو ذراع الكافر في النار وقد ورد في الحديث: «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث»[١] رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رضاضة هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها أو قعرها»[٢] وأخرج ابن المبارك عن كعب قال: إن حلقة من السلسلة مثل جميع حديد الدنيا وأخرج أبو نعيم عن محمد بن المنكدر قال: لو جمع حديد الدنيا كله ما خلى وما بقي ما عدل حلقة من حلق جهنم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾ استئناف لبيان سبب ذلك العذاب وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة فمن تعظم غيره استوجب العذاب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار»[٣] رواه مسلم ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ أي لا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٨٥).

أما رواية مسلم فهي «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته» أخرجه في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر (٢٦٠٣).

يحث على إطعامه فضلاً أن يبذل من ماله ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف تارك الفعل، وفيه دليل على أن الكفار يعذبون على فروع الأعمال أيضاف، ولعل تخصيص الأمرين بالذكر لأن أقبح القبائح الكفر بالله وأشنع الشنائع البخل وقسوة القلب ﴿فَلَيْسَ لَهُ﴾ الفاء للسببية ﴿ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا﴾ ظرفان للظرف المستقر ﴿حَمِيمٌ﴾ قريب يحمه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ مستثنى مفرغ صفة للطعام ولا زائدة والقصر إضافي والغسلين غسالة أهل النار صديدهم فعلين من الغسل كذا أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: الغسلين صديد أهل النار وقال الضحاك والربيع شجر يأكله أهل النار وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن طريق مجاهد عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ مستثنى مفرغ في محل الفاعل والجملة صفة لغسلين أي أصحاب الخطايا من خطى الرجل إذا تعمد الذنب لا من الخطأ ضد الصواب ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم أو يقال لا زائدة ومعناه أقسم أو المعنى فلا أي فليس كما يقول الكفار من أن محمداً ﷺ تقول القرآن على الله تعالى من نفسه وهو شاعر أو كاهن ولا بعث ولا نشور أقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ بالبصر أو البصيرة من المظاهر والمعالي لصفات الله تعالى سبحانه ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ما لا يدركه الأبصار والبصائر من مراتب الصفات والشيونات وذات الله سبحانه، وقيل: ما تبصرون الدنيا وما لا تبصرون الآخرة، وقيل: ما تبصرون وما لا تبصرون الأجسام والأرواح أو الإنس والجن والملائكة أو النعم الظاهرة والباطنة وقيل: ما تبصرون ما أظهره الله من العلم على خلقه من الملائكة والجن والإنس وما لا تبصرون ما استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحد ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلغه من الله سبحانه لا يقول عن نفسه ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمد ﷺ أو جبرئيل عليه السلام ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمونه تارة ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ منصوب على المصدرية أو الظرفية وما زائدة لتأكيد القلة متعلق بما بعده ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أي تؤمنون إيماناً قليلاً أو زماناً قليلاً لما يظهر لكم صدقة وقلة إيمانهم المستدعي نفي الإيمان كثيراً مبني على العناد والتعنت فإنهم لا يؤمنون إيماناً كاملاً تعنتاً وعناداً لا غير، وقيل: أراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمن لا يزورك فلما تأتينا أصلاً والجملة معترضة لمذمة الكفار ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ لا زائدة وما بعده معطوف على خبر ما هو ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع عدم الكاهنية لأن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بيّن لا ينكرها إلا معاند وإما مباينته لكهانة فهو

يظهر عند تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لأحوال الكهنة ومعاني أقوالهم، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يؤمنون ويذكرون بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب ﴿تَنزِيلٌ﴾ مصدر يعني المفعول خبر مبتدى محذوف أي هو منزل ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على لسان جبرائيل جملة مستأنفة في جواب ما يقال فما هو ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي لو افترى وتكلف وتصنع في القول ﴿عَلَيْنَا﴾ من غير وحي منا ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ جمع أقولة من القول كالأضاحيك سمي بها الأقوال المفتراة ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ أي من المفتري ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ متعلق بأخذنا أي بيمينه لا ذلالة أو بيميناً وعلى التقدير الثاني من زائدة واليمين من المتشابهات وقد يأول بالقوة والقدرة لأن قوة كل شيء في يمينه قال ابن عباس لأخذناه بالقوة والقدرة ويحتمل أن يكون من في قوله تعالى: لأخذنا منه هو للسببية والضمير عائد إلى التقول أي لأخذنا من أجل التقول بيمينه أو يميناً ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهو عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه ﴿فَمَا مِنكُم﴾ من بيانية لأخذ ظرف مستقر حال منه ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ اسم ما ومن زائدة ﴿عَنْهُ﴾ أي عن القتل أو المقتول المفتري متعلق لما بعده ﴿حَٰجِزِينَ﴾ جزءاً وحمله على أحد لعمومه معنى وجملة فما منكم معطوف على جزاء الشرط أي لأخذنا والشرطية معترضة بين المعطوف عليه وهو إنه لقول رسول كريم والمعطوف أعني ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم المنتفعون.

فائدة: ومقتضى هذه الآية قال المجدد إن تلاوة القرآن سبب للترقي بعد فناء النفس وزوال العين والأثر فإن التقوى لا يتصور إلا بعد الفناء وكون القرآن تذكرة مختص بالمتقي يدل عليه لام التخصيص وأما قبل الفناء فالتلاوة داخل في عملاً لأبرار دون المقربين المتقين عن رذائل النفس ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فنجازيهم على تكذيبهم وعدم تذكرهم به ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ﴾ أي سبب للحسرة ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حين يرون ثواب المؤمنين المتذكرين به ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ اليقين إزاحة الشك كذا في القاموس وفي الصحاح اليقين من صفة العلم فوق المعرفة وحمله على القرآن من قبيل زيد عدل أي متيقن كمال اليقين كأنه نفس اليقين يعني أن القرآن لوضوحه وسطوع برهان بحيث يتيقن به العاقل ولا يرتاب فيه والحق ضد الباطل، قال صاحب البحر يعني أنه اليقين الحق لا اليقين الباطل الذي هو الجهل لمركب فهو إضافة صفة إلى موصوفه بالتجريد على طريقة جرد قطيفة. فإن قيل المراد باليقين ها هنا ما يجب أن يكون متيقناً للعاقل لوضوح أمره وسطوع برهانه فاليقين بهذا المعنى هو الحق لا ما يعم اليقين الباطل الذي هو الجهل المركب فلا فائدة في إضافة

الحق إليه؟ قلنا: نعم لكن أضيف الحق إليه للتأكيد وزيادة التوضيح، وقال البغوي إلى نفسه لاختلاف اللفظين ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ أي فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وعن كل ما لا يليق به وشكراً له على ما أوحي إليك قيل: معناه فصل بذكر ربك وأمره وقيل: الباء زائدة ولفظ الاسم مقحم ومعناه فسبح ربك العظيم، عن عقبة بن عامر الجهني قال لما نزلت على رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»(١) رواه أبو داود وابن ماجه والدارمي، وعن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى وما أتى آية رحمة إلا وقف وسأل وما أتى على آية العذاب إلا وقف وتعوذ(٢) رواه الترمذي وأبو داود والدارمي قال الترمذي حديث حسن صحيح ورواه النسائي وابن ماجه إلى قوله الأعلى، وعن عون بن عبد الله عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ركع أحدكم فقال في ركوعه سبحان ربي العظيم ثلاث مرات فقد تم ركوعه وذلك أدناه وإذا سجد فقال في سجوده سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات فقد تم سجوده وذلك أدناه»(٣) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وقال الترمذي ليس إسناده بمتصل لأن عوناً لم يلق ابن مسعود، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(٤) متفق عليه وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»(٥) رواه الترمذي.

مسألة:

تسبيحات الركوع والسجود سنة عند الجمهور وأدنى الكمال ثلاث تسبيحات وقال

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود (٢٥٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في التسبيح في الركوع والسجود (٢٥٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسبيح في اركوع والسجود (٨٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٤).

أحمد واجب وكذا الخلاف في تكبيرات انتقالات والتسميع والتحميد في القومة دون رب اغفر لي في الجلسة فلم يقل أحد بوجوبه احتج أحمد بقوله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» قال: الأمر للوجوب وفي حديث ابن مسعود علق تمام الركوع به والجمهور يحملون الأمر على الندب والله تعالى أعلم بالصواب.

تمت سورة الحاقة

سورة المعارج

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾

﴿سَأَلَ﴾ قرأ نافع وابن عامر سال بالألف ساكنة بدلاً من الهمزة والباقون بهمزة وحمزة يجعلها في الوقف بين بين ﴿سَآئِلٌ﴾ أخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: هو النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذا أليم، وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: وكان عذابه يوم بدر فالمراد بالسؤال على هذا الدعاء وبدل على ذلك تعديته بالباء ويحتمل أن يكون سأل على قراءة نافع من السيلان والمعنى سأل واد بعذاب معنى الفعل لتحقق وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار قال البغوي سائل وأدٍ من أودية جهنم يروى ذلك عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال: نزلت ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ فقال الناس على من يقع العذاب؟ فأنزل الله عز وجل ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ الخ يكون السؤال للاستفهام فالباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن أو يكون تعديته بالباء لتضمن سأل معنى أهم ﴿وَاقِعٍ﴾ صفة لعذاب ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أو صلة الواقع وإن كان السؤال عمن يقع به العذاب كان جواباً ليس له دافع صفة أخرى للعذاب أو هو في حيز الجواب أي واقع للكافرين ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من جهة الله لتعلق إرادته ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ صفة لله تعالى أي ذي المصاعد قال سعيد بن

جبير ذي الدرجات، قلت: وهي درجات القرب التي لا كيف لها التي تبلغ إليها الأنبياء والملائكة والأولياء ودرجات القبول يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو المصاعد في دار الثواب ودرجات الجنة، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله تعالى فسألوه الفردوس»(١) رواه الترمذي، وعن أبي هريرة نحوه وفيه «ما بين الدرجتين مائة عام» وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من بينهم كما تراءون الكواكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله ﷺ «تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»(٢) متفق عليه، وقال ابن مسعود في السموات سماها معارج لأن الملائكة يعرج فيها وقال قتادة ذي الفواضل ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ قرأ الكسائي يعرج بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث والجملة صفة للمعارج على طريقة ولقد أمر على اللئيم يسبني والرابط محذوف أي تعرج فيها الملائكة والروح إليه والروح جبرائيل عليه السلام وأفرده لفضله أو أعظم خلق من الملائكة، قلت: ويحتمل أن يكون المراد بالروح روح البشر الذي هو من عالم الأمر فإن أرواح البشر من الأولياء والأنبياء تعرج من خفض البعد والغفلة إلى معارج القرب والحضرة ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله سبحانه أو إلى عرشه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الظرف متعلق بمحذوف دل عليه واقع أي يقع العذاب بهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة يعني يوم القيامة كذا أخرج البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس وقال يمان يوم القيامة فيه خمسين موطناً كل موطن ألف سنة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاة الكنز إلا أحي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت تستن عليه لا يفقد منها فصيلاً واحداً يطأ بأخفافها وتعض بأفواهها كلما مرعليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة درجات الجنة (٢٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاءفي صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف (٢٨٣١).

فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح له بقاع فرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولاغضباء تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حين يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(١) وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي بسند حسن عن أبي سعيد قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا» قلت: فعلى هذا التأويل لا تصادم بين هذه الآية وبين قوله تعالى في تنزيل السجدة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢) إذ معناه يحكم الله تعالى بالأمر وينزل به جبرئيل من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه جبرئيل في يوم من أيام الدنيا وكان قدر سيره ألف سنة خمسمائة سنة نزوله وخمسمائة عروجه لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام يعنى لو سار تلك المسافة واحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة لكن الملائكة يقطعون في يوم واحد بل في أدنى زمان. أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة وفي قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هذا يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: المراد من الآيتين يوم القيامة يكون على بعضهم أقول وعلى بعضهم أقصر حتى يكون على المؤمنين أهون من الصلاة المكتوبة كما مر، وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً يكون على المؤمنين كمقدار ما بين الظهر والعصر، ومعنى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مدة أيام الدنيا ثم يعرج أي يرجع الأمر والتدبير إليه بعد فناء الدنيا وانقطاع أمر الأمراء وحكم الحكام في يوم كان مقداره ألف سنة، وقيل: الظرف في هذه الآية أعني قوله تعالى في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة متعلق بيعرج كما هو متعلق في سورة التنزيل ووجه الجمع بين الآيتين أن المراد في آية سورة التنزيل أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه من الأرض إلى السماء في يوم وقدر مسيره ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام فصار نزوله وعروجه ألف سنة والمراد في هذه السورة مدة المسافة من منتهى الأرض السابعة إلى منتهى أعلى السموات فوق

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (٩٨٧).

(٢) سورة السجدة، الآية: ٥.

السماء السابعة، قال البغوي روى ليث عن مجاهد أن مقدار هذا خمسين ألف سنة وقال محمد بن إسحاق لو سار ابن آدم من الدنيا إلى موض العرش سيراً طبيعياً له سار خمسين ألف سنة ومن ها هنا قالت الصوفية العلية: إن فناء القلب الذي يحصل للصوفي بالجذب من الله تعالى بتوسط النبي ﷺ والمشايخ لو أراد واحد أن يحصله بالعبادات والرياضات من غير جذب من الشيخ فإنما يحصل له في زمان كان مقداره خمسين ألف سنة وإذا لم يتصور بقاء أحد بل بقاء الدنيا إلى هذه المدة ظهر أن الوصول إلى الله تعالى من غير جذب منه تعالى بتوسط أحد من المشايخ كما هو المعتاد وبلا توسط روح رجل كما يكون لبعض الآيسين من الأفراد محال والله المستعان ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على تكذيبهم ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا يشعر به استعجال واضطراب وجزع والفاء للسببية متعلق بسأل فإن السؤال عن تعنت واستهزاء وذلك مما نضجر به فالمعنى فاصبر ولا تضجر عن سؤالهم ولا تستعجل في عقوبتهم أو متعلق بسأل على قراءة نافع أو بمحذوف متعلق به في يوم على معنى فاصبر فقد سأل بهم العذاب وقرب وقوعه يقع ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ أي العذاب ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان أو مستبعداً في العقل محتملاً احتمالاً ضعيفاً ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ في الوقوع فإن كل ما هو آت قريب والقرب في الوقوع يستلزم على تقدير كونه متعلقاً بمحذوف وإن كان هو متعلقاً بيعرج فهذا متعلق بمضمر دل عليه واقع ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ المذاب من النحاس وغيره من الفلزات أو دردي الزيت، أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: السماء يكون ألواناً تكون كالمهل وتكون ورداً كالدهان وتكون واهية تشقق فيكون حالاً بعد حال ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ أي كالصوف المصبوغ ألواناً لأن الجبال مختلفة الألوان فإذا بسطت وطيرت في الهواء اشتبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ لا يسأل قريب لشدة ما يقع على نفسه معطوف على تكون أضيف إليه يوم بواسطة حرف العطف، قرأ البراء عن ابن كثير لا يسأل بضم الياء على بناء المفعول أي لا يطلب حميم من حميم أو لا يسأل منه حاله وهذا لاختلاف ليس في المشهور ولم يذكره في التيسير ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يرونهم صفة لحميم أو استئناف يدل على أن المانع من السؤال ليس الخفاء بل إما تشاغل كل عن السؤال عن غيره لشدة على نفسه أو الغيبة عن السؤال بمشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده ونحو ذلك وجمع الضميرين لعموم الحميم لوقوعه نكرة في حيز النفي، قال البغوي ليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس فيكون للرجل أباه وأخاه وقرابته ويبصر حميمه فلا يكلمه لاشتغاله بنفسه، وقيل: معنى يبصرونهم يعترفونهم أما المؤمن فبياض

الوجه وأما الكافر فبسواد الوجه ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾ المشرك الجملة حال من فاعل يبصرونهم أو من مفعوله والعائد وضع المظهر موضع الضمير أو مستأنفة في جواب ما يصنع المجرم يعني أن المجرم يشتغل بنفسه عن غيره بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس وأحبهم إليه في الدنيا فضلاً أن يهتم بحاله ويسأله وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ مختص بالكفار وأما المؤمنون فيسألون أحمامهم ويشفعون لهم وقد تواتر في ذلك الأحاديث بالمعنى قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد منا شدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا»(١) الحديث متفق عليه، وفي حديث طويل عن أبي سعيد الخدري ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي المجرم أو المتمني والجملة بيان للوداد ﴿مِنْ عَذَابِ﴾ متعلق بيفتدي مضاف إلى ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ قرأه الجمهور مجروراً بالإضافة وقرأ نافع والكسائي بفتح الميم لاكتسابه البناء من المضاف إليه ﴿بِبَنِيهِ﴾ مع ما عطف عليه متعلق بيفتدي ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته ﴿وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي عشيرته الذين فصل عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ عند الشدائد ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ذلك الافتداء معطوف على يفتدي عطف بثم للاستبعاد ﴿كَلَّآ﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء ردع المجرم عن الوداد ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير لغير مذكور وهي النار يدل عليه العذاب أو ضمير مبهم ﴿لَظَىٰ﴾ وهو خبر أو بدل أو الضمير للقصة ولظى مبتدأ وخبره ما بعده على تقدير كونه مرفوعاً واللظى اللهب الخالص، قال البغوي هو اسم من أسماء الجهنم، وقيل: هي الدركة الثانية سميت بذلك لأنها تتلظى أي تتلهب، أمال الهمزة والكسائي لظى وللشوى وتولى وفأوعى وورش وأبو عمر بين بين والباقون بالفتح ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي الأطراف اليدان والرجلان أو جمع شواة وهي لجلدة الرأس كذا قال مجاهد وروى إبراهيم بن مهاجر عنه اللحم دون العظام، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس العصب والعقب وقال الكلبي يأكل الدماغ ثم يعود كما كان، قرأ حفص عن عاصم نزاعة بالنصب على الاختصاص أو الحال المؤكدة مرادف أو المنتقلة على أن لظى بمعنى ملتظية والباقون بالرفع ﴿تَدْعُوا۟﴾ أي النار خبر بعد خبر لأن أو للظى ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة فيقول النار إلي يا مشرك إليّ يا منافق إل إلي، قال ابن عباس يدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ثم يلتقطهم كما يلتقط الطير

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣)، وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (٧٤٣٩).

الحب ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي جعله في وعاء وأمسكه ولم يؤد حق الله تعالى عنه:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ حال مقدرة إن أريد اتصافه بالهلع بالفعل ومحققة إن أريد اشتماله على مبدأ تلك الصفة فإنها من أمور الجبلية التي هي من رذائل النفس المقتضى للاتصاف به بالقوة، وجملة إن الإنسان في محل التعليل لقوله أدبر الخ، والهلوع الحريص على ما لا يحل له رواه السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وقال سعيد بن جبير الشحيح، وقال عكرمة الضجور وقال قتادة الجزوع، وقال مقاتل ضيق القلب والهلع شدة الحرص وقلة الصبر، وقال عطية عن ابن عباس تفسيره ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ لا يصبر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ المال ﴿مَنُوعًا﴾ لا ينفق في سبيل الله ولا يشكر، عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[١] متفق عليه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر»[٢] متفق عليه ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي المؤمنين الكاملين عبر بالمصلي عن المؤمن أي المؤمن الكامل كما عبر بالإيمان عن الصلاة في قوله تعالى: »وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] فإن الصلاة أعلى مقامات المؤمن وهي معراج المؤمن وعماد الدين قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: مايتقى من فتنة المال (٦٤٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٧).

(٣) الآية هي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

المجدد حقيقة الصلاة فوق سائر المقامات التي يمكن حصولها للبشر والاستثناء متصل إن كان اللام في الإنسان للجنس أو للاستغراق فهو مفرد في معنى الجمع أو المعنى أن المجرم أدبر وتولى الخ لأن جنس الإنسان أو كل فرد من خلق مقدراً منه الهلع إلا المؤمنين الكاملين الموصوفين بالصفات المذكورة الدالة على الاستغراق في طاعة الله تعالى والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وعدم إيثار العاجل على الآجل فإنهم لم يخلقوا هلوعاً بل خلقوا مقدراً منهم الصبر على الضراء والشرك على السراء الموجبين للإكرام في الجنات، روى مسلم عن حبيب قال قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن إن أصابته السراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً»(١) فعلى هذا التأويل وزان هذه الآية وزان قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٢) الخ ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً إن كان اللام في الإنسان للعهد والمعنى المجرم الذي أدبر وتولى الخ خلق هلوعاً لكن المؤمن الموصوف بتلك الصفات لم يخلق كذلك بل خلق مستعداً للإكرام في الجنات وعلى كلا التأويلين تدل هذه الآية على أن استعدادات الإنسان مختلفة في أصل الخلقة كما قال به المجدد أن مبادي تعينات المؤمن جزئيات للاسم الهادي ومبادىء تعينات الكفار جزئيات لاسم المضل وقال رسول الله ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام»(٣) وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»(٤) رواه مسلم في الباب أحاديث كثيرة جداً ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ أي مقبلون في الصلاة بقلوبهم إلى الله تعالى وبأبصارهم إلى موضع السجود دائماً ما داموا في الصلاة فهل بمعنى أورد في سورة المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾(٥) فلا يلزم التكرار بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٢) سورة العصر، الآية: ٢ ـ ٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: قول الله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾** (٣٤٩٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: خيار الناس (٢٥٢٦).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٦٢).

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٢١.

يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ إذ المراد بالدوام دوام الحضور بالمحافظة التحرز عن فواتها وفوات شرائطها وأركانها وآدابها روى البغوي بسنده عن أبي الخير أنه قال: سألنا عقبة بن عامر عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الذين يصلون أبداً؟ قال: لا ولكنه إذا صلى لا يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه، وروى أحمد وأبو داود والنسائي والدارمي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله عز وجل مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه»[1] وروى البيهقي في السنن الكبير عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يا أنس اجعل بصرك حيث تسجد»، وروى الترمذي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الالتفات في الصلاة هلكة»[2].

فائدة: في جعل البصر حيث يسجد تأثير عظيم لدفع الخطرات وحضور القلب ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ كالزكاة والصدقات الموظفة ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل فيحرم عن العطاء غالباً قوله للسائل الخ صفة لحق بعد صفة ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ فإن التصديق بيوم الدين لوكان على حقيقة لا يكون الإنسان جزوعاً في الشربل صابراً تحسباً ولا منوعاً في الخير فتقف طالباً للثواب ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ خائفون على أنفسهم فإن متقضى التصديق والإيمان الخوف والرجاء ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ لا يقدر على منعه أحد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ قدم المفعول لرعاية الفواصل وزيدت اللام لتقوية عمل المشتق والفرج اسم سوأة الرجلُ والمرأة وحفظ الفرج عدم استعماله فيما يشتهيه ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ استثناء مفرغ وءنما صح في الإثبات لتضمن الحفظ معنى النفي وعلى صلة للحافظين من قولك احفظ على عنان فرسي أي يحفظون فروجهم على النساء إلا على أزواجهم فهي حينئذ بمعنى من أو حال أي حفظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري، ويحتمل أن يكون الاستثناء من فعل منفي مقدر دل عليه الحفظ أي يحفظون فروجهم لا يبذلونها على امرأة إلا على أزواجهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي سرياتهم وإنما قال ما بإجراء المماليك مجرى غير العقلاء فإن الشرع ألحقهم بها عقاباً على كفرهم فأجاز بيعهم واستخدامهم، والمراد بما ملكت أيمانهم السرايا دون العبيد فإنه لا يجوز للرجال إتيان العبد في دبره لما بيّنا حرمته

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة (٩٠٨)، وأخرجه النسائي في كتاب: السهو» باب: التشديد في الالتفات في الصلاة (١١٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما ذكر في الالتفات في الصلاة (٥٨٥).

في سورة البقرة بالسنة والقياس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(١) فإن قيل: كيف يقدم السنة والقياس على نص الكتاب الوارد ها هنا لعموم قوله تعالى ما ملكت أيمانهم العبيد والإماء؟ قلنا: ليس على هذه إجماعاً فإنه لا يجوز وطىء امرأة في حالة الحيض والظهار ولا وطىء أمة محرمة عليه بالرضاع فيجوز تخصيص هذا النص بخبر الآحاد والقياس ولا يجوز للمرأة الاستمتاع بفرج عبده فإن كلمة على في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وكلمة ما التي هي لغير العقلاء تدلان على جواز استعمال المماليك استعمال المفترش لا على عكس ذلك في وطىء الأمة دون تمكين العبد ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لمضمون الاستثناء فإن عدم حفظ الفرج عن الزوجة والسرية وإتيانهن على وجه مشروع لا يلام عليه فإنه مباح ضرورة إبقاء النسل، وسياق الكلام يدل على أن الأصل في الجماع الحرمة كما ذكرنا في سورة البقرة وإنما صح بشرائط من النكاح أو ملك اليمين وعدم الجزئية والطهارة من الحيض والنفاس والإتيان في محل الولد دون الدبر ﴿فَمَنِ﴾ الفاء للسببية ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ أي طلب الإتيان ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي وراء الزوجات والسرايا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المبتغين وراء ذلك ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان حيث أتى بفعل حرام مع الكفاية بما أحل الله تعالى قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل رأى امرأة تعجبه فليقم إلى أهله فإن معها مثل الذي معها» رواه الدارمي عن ابن مسعود.

مسألة: وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز متعة النكاح فإن المرأة لا تدخل بالمتعة في الزوجات حتى أن القائلين بإباحتها لا يقولون بجريان التوارث بالمتعة، وقال البغوي وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام وهو قول العلماء، قال ابن جريج سألت عطاء عنه فقال مكروه سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى فأظن أنهم هؤلاء، وعن سعيد بن جبير قال عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم، قلت: وفي الباب حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ملعون من نكح يده» رواه الأزدي في الضعفاء وابن الجوزي من طريق الحسن بن عرفة في جزئية المشهور بلفظ «سبعة لا ينظر الله إليهم فذكر الناكح يده» وإسناده ضعيف ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ قرأ ابن كثير لأماناتهم ها هنا وفي المؤمنين بغير ألف على التوحيد والباقون على الجمع ﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ حافظون أي يحفظون الأمانات ويؤدونها إلى أهلها فمنها ما هي بينه وبين الله تعالى كالصلاة والصوم والغسل من الجنابة وغير ذلك والفرائض الواجبة حقاً لله تعالى، ومن هذا الباب إضافة الكمالات من الوجود وتوابعها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

والنعماء الظاهرة والباطنة كله إلى الله تعالى فيجب العلم والإقرار بأنها كلها من عواري الله المستودعة حتى يجد نفسه فقراً خالياً عنها حين وجودها كلابس ثوب العارية عاري في الحقيقة فيعلم أن الكبرياء والعظمة رداء الله تعالى وإزاره لا يجوز لأحد التنازع فيه ويشكر عند وجود النعم ويصبر عند سلبها ولا يجزع، ومنها ما هي بين العباد كالودائع والبضائع والعواري فعلى العبد الوفاء لجميعها ويحفظون العهود التي عاهدوا الله تعالى يوم الميثاق وغير ذلك كما أن الله تعالى أخذ العهد من أهل الكتاب إن بينوا نعت النبي ﷺ ولا يكتمونه والعهود التي عاهدوا فيما بينهم في المعاملات والمعاشرات فإبقاء كلها واجب، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث ـ زاد مسلم ـ وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» ثم اتفقا «إذا حدث كذب وإذا وعد خلف وإذا ائتمن خان»[1] وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عهد غدر وإذا خاصم فجر» وروى أبو داود عن عبد الله بن أبي الحسماء قال: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت فذكرت بعد ثلاث فإذا هو في مكانه فقال: «لقد شققت علي أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك»[2] ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بشهادات على الجمع والباقون بالإفراد ﴿قَآئِمُونَ﴾ أي يقومون فيها بالحق فلا يكتمونها ولا يغيرونها ولا يخافون لومة لائم سواء كانت الشهادة قط خالصاً لله تعالى كالشهادة على التوحيد والرسالة وشهادة أهل الكتاب على ما في التوراة من نعت النبي ﷺ والشهادة بهلال رمضان وبالحدود ونحو ذلك أو كانت الشهادة حقاً للعباد بالمداينات ونحوها على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي يراعون أوقاتها وأركانها وسننها وآدابها ويحترزون عن فواتها وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً بوجيهن مختلفتين للدلالة على فضلها على غيرها من أركان الإسلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ خبر لأولئك وفي جنات ظرف متعلق به قدم عليه لرعاية الفواصل.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في العدة (٤٩٨٨).

﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الفاء للسببية وما استفهامية للتوبيخ مبتدأ خبره ما بعده، قال البغوي نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه ويستهزئون به ويكذبونه فقال الله تعالى توبيخاً ما لهم ينظرون إليك ويجلسون عندك ولا ينتفعون بما يستمعون من ﴿قِبَلَكَ﴾ ظرف متعلق بما بعده ﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال من الذين كفروا وعامله معنى الفعل أي ما يصنع الكافرون مهطعين قبلك أي مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم ومدِ النظر إليك متطلعين إليك كذا قال البغوي، وفي القاموس هطع كمنع هطؤها وهطعاً أسرع مقبلاً خائفاً وأقبل يبصره على الشيء لا يقلع عنه وأهطع مد عنقه وصوب رأسه ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ متعلق بمهطعين ﴿عِزِينَ﴾ جماعات في تفرقة واحدتها عزة كذا في الصحاح وفي القاموس عزة كعدة العصبة من الناس ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ بلا إيمان وعمل صالح استفهام إنكار رداً لقولهم مع زعمهم كون البعث مستحيلاً لو كان كما يقول محمد لنكون فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا ﴿كَلَّآ﴾ ردع من ذلك الطمع الباطل ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية وبطلان دعوى استحالة البعث وتعليل لبطلان طمعهم في دخول الجنة بلا إيمان والمعنى إنا خلقناهم من نطفة مستقذرة ثم من علقة كذلك ثم من مضغة لا يقتضي شيء منها للإكرام ولا يناسب عالم القدس فمن لم يستكمل نفسه بالإيمان والطاعة ولم يتخلق بالأخلاق المرضية لله سبحانه لم يستعد دخولها، روى البغوي بسنده عن بُسر بن جحاش قال: قال رسول الله ﷺ: وبصق يوماً في كفه ووضع عليها أصبعه فقال: «يقول الله ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت الصدق فإني أوان الصدق» أو المعنى إنا خلقناهم من أجل ما تعملون حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1] أي ليعرفون فمن لم يستكمل نفسه بالعلم والعمل كيف يطمع منازل الكاملين ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ يعني مشارق الكواكب ومغاربها ومشرق

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الشمس والقمر كل يوم من أيام السنة ومغربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم أو نعطي محمداً ﷺ بدلكم من هو خير منكم وهم المؤمنون الأنصار لله ولرسوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا أن نهلكهم معطوف على إنا لقادرون وفي ذكره بوب المشارق والمغارب الاستدلال بقدرته تعالى على خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والكواكب واختلاف مشارق كل منها كل يوم ومغاربها على قدرته تعالى وعدم عجزه من تبديلهم عمن هم خير منهم ﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء للسببية يعني إذا علمت قدرتنا على إهلاكهم فلا تهتم بهم فإنما أردنا استدراجهم وتعذيبهم أشد العذاب ﴿يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم الفعلان مجزومان على جواب الأمر ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ متعلق بقوله ذرهم يعني ذرهم كي يلاقوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ العذاب فيه ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور بدل من يومهم ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع ككراماً جمع كريم حال بما أسند إليه يخرجون ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ متعلق بما بعده أي ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون حال بعد حال، قرأ ابن عامر وحفص بضم النون والباقون بفتح النون وءسكان الصاد، قال مقاتل والكسائي يعني إلى أوثانهم الذي كانوا يعبدونها من دون الله يعني أنهم كما كانوا يسرعون إلى أوثانهم أيهم يستلمها أولاً كذلك يسرعون من الأجداث إلى المحشر ليروا جزاء أعمالهم وقال الكلب إلى علم وإرادته يعني كما أن أهل العسكر يسرعون إلى أعلامهم ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال أيضاً ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ القليل للخشوع أو بيان له ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا وينكرونها تأكيد لما سبق أو استئناف والله أعلم.

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي
لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا
وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ
ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ
أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا
تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥
وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ
فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا
٢٠﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ جيء بأن في ابتداء الكلام لإظهار الاهتمام وتقييد إرساله إلى قومه على أنه عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الناس كافة كما يدل عليه حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[١] متفق عليه، وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التيمم (٣٢٨)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

الأنبياء بست» فذكر نحوه غير أنه لم يذكر «وأعطيت الشفاعة» وذكر فيه «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبوة» رواه مسلم ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أن مفسره لتضمن الإرسال معنى القول ويحتمل أن يكون مصدرية بمعنى بأن قلنا أنذر لا بمعنى بأن أنذر قومك فإنه يختبط الكلام بضمير الغيبة والخطاب ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والطوفان إن لم يؤمنوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ أنذركم وأبين لكم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ فلا تشركوا به شيئاً ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ مجزوم على جواب الأمر فإن الإيمان والطاعة سبب للمغفرة، عن عمرو بن العاص قال: أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه فقبضت يديه فقال: مالك يا عمر؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي، قال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله»(١) رواه مسلم، وعن ومعاذ قال كنت ردف رسول الله ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»(٢) متفق عليه، وعن أنس هذه القصة نحوه وفيه فأخبر بها معاذ عند موته تاثماً متفق عليه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ من زائدة أو للتعبيض أي بعض ذنوبكم يعني ما هو حق الله تعالى ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ أي يعافيكم فلا يعاقبكم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قدر لكم بشرط الإيمان والطاعة.

مسألة:

اعلم أن القضاء على نوعين قضاء مبرم ومعلق فالمعلق ما كتب في اللوح المحفوظ أن فلاناً إن أطاع الله تعالى عوفي إلى مدة كذا مثلاً وإن عصى الله يرسل عليه الطوفان مثلاً أو غير ذلك وهذا النوع من القضاء يجوز تبديله بفقدان الشرط وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾(٣) وعن سلمان الفارسي قال: قال

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣٠).

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

رسول الله ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»(١) رواه الترمذي، والمبرم وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾(٢). ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي الأجل الذي قدره الله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ﴾ على الوجه المقدر به ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فأما المبرم فلا يؤخر قط أما المعلق فلا يؤخر إن جاء على ما علق به فبادروا بالطاعات في أوقات الإمهال والتأخير قبل الأجل المبرم ولا ترتكبوا المعاصي الموجبة للتعذيب المفضية إلى الأجل المعلق. فإن قيل مذهب أهل السنة أن الأجل واحد لا يزيد ولا ينقص حتى قالوا المقتول ميت بأجله وما ورد في الحديث «لا يزيد في العمر إلا البر» تأويله عندهم أن البر يزيد بركات العمر بكثرة الثواب وما ذكرت يشبه مذهب المعتزلة؟ قلنا: ليس كذلك بل المعتزلة ينكرون القدر ويجعلون القاتلون خالقاً لموت المقتول ما ذكرت هو مذهب أهل السنة فإن معنى قولهم الأجل واحد لا يزيد ولا ينقص هو الأجل الثابت بالقضاء المبرم لا تبديل فيه لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون والمقتول ميت بأجله المبرم وإن كان التعليق في اللوح المحفوظ أنه إن قتله فلان مات وإلا لم يمت لكنه المبرم في القضاء أنه يقتله فلان البتة وأنه يموت في ذلك الوقت بقتله البتة ولا يوجد شرط بقاءه بعد ذلك الوقت البتة لا حاجة إلى تأويل الحديث، عن أبي خزامة عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله ﷺ أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه يعني أن الله تعالى قدر أنه يتداوى فيحصل له الشفاء بالدواء ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني لو كنتم من أهل العلم والنظر لمصلحتهم وفيه أنهم لانهماكهم في الشهوات كأنهم كانوا شاكين في الموت، قال ابن عباس بعث نوح وهو ابن أربعين وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة وقيل: ابن خمسين سنة وقيل: مائتين وخمسين سنة وكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة ولا شك في أنه لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وروى الضحاك عن ابن عباس أن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلقونه في بلد ويلقونه في بيت أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وحكى محمد بن إسحاق عن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٢١٣٩).

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٤.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقى والأدوية (٢٠٦٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧).

عبيد بن عمر الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون بنوح عليه السلام فيخنقونه حتى تغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. حتى إذا عادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء انتظر النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذين قبلهم حتى كان الآخرون منهم ليقولن قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً فشكى إلى الله عز وجل ﴿وَقَالَ﴾ وفي الكلام حذف اختصاراً تقديره قال نوح كذا فكذبوه فلم يزل نوح على دعوتهم والقوم على إنكاره حتى قال نوح ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ﴾ قرأ الكوفيون دعائي بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمان والطاعة وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[(١)] ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾[(٢)] ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسبب الإيمان ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ يغطوا بها لئلا يرو ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ عظيماً ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾ منصوب على المصدرية لأنه أحد نوعي الدعاء أو صفة مصدر محذوف أي دعاء جهاراً أي مجاهراً به أو عن الحال بمعنى مجاهراً ﴿ثُمَّ إِنِّي﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بإسكان الياء والباقون بالفتح ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ وكلمة ثم لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الإفراد والتراخي بعضها عن بعض ﴿فَقُلْتُ﴾ بيان لقوله دعوتهم، وقال البغوي إن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فهلكت أولادهم وأموالهم ومواشيهم فحينئذ قال لهم نوح عليه السلام ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والندم عن المعاصي وتركها فيما يستقبل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين تعليل لقوله استغفروا ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ أي المطر تسمية الحال باسم المحل ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ حال من السماء أي كثير دره ويستوي في هذا البيان المذكر والمؤنث ويرسل مع ما عطف عليه مجزوم في جواب الأمر بالاستغفار فدل على أن الاستغفار سبب للمطر وغير ذلك من النعم الدنيوية ودفع البلاء إما عموماً أو في مادة مخصوصة حيث كان نزول البلاء نقمة الشؤم المعاصي كما كان في قوم نوح عليه السلام وكمايدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[(٣)] أما إذا كان ذلك نعمة لرفع الدرجات فلا كما كان بأيوب عليه السلام وغيره من

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٤،

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الأنبياء، وعن سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاؤه الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلائه وإن كان في دينه دقة ابتلي حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(١) رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه، ورواه البخاري في التاريخ عن بعض أزواج النبي ﷺ بلفظ «أشد الناس بلاء في الدنيا نبي أو صفي» روى الحاكم في المستدرك وابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي سعيد نحوه وفيه «ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء» ويمكن أن يقال: قحط المطر بلاء عام لا يتصور إلا بشؤم المعاصي من العوام فالاستغفار سبب للمطر عموماً ومن ثم شرع الاستغفار في الاستسقاء، روى مطرف عن الشعبي أن عمر خرج يستسقي بالناس فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فقيل له سمعناك استسقيت فقال: طلبت الغيث مجاري السماء الذي يستنزل بها القطر ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ قال عطاء يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ يعني كما كانت قبل تكذيب نوح عليه السلام ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ ما استفهامية مبتدأ ولكم خبره وجملة لا ترجون حال من ضمير المخاطب والعامل معنى الفعل أي ما تصنعون لا ترجون ولله حال من وقاراً قدم على ذي الحال لنكارته والوقار بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، قال ابن عباس ومجاهد لا ترون لله عظمة في الرجاء بمعنى الاعتقاد عبّر عن الاعتقاد بالرجاء الذي يتبع أدنى الظن مبالغة، وقال الكلبي معناه لا تخافون لله عظمة فالرجاء على هذا بمعنى الخوف وقال الحسن لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة، وقال ابن كيسان ما لكم لا ترجون في عبادة أن يثيبكم على توقيركم إياه جزاء ويحتمل أن يكون المعنى ما لكم لا ترجون في عبادة الله تعظيم إياكم ولله بيان للموقر ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ أي تارات حالاً بعد حال خلقكم عناصر ثم مركبات أغذية للإنسان ثم أخلاطاً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخر أي خلقاً إنساناً بنفخ الروح فتبارك الله أحسن الخالقين ثم يميتكم ويقبركم ثم يعيدكم أحياء تارة أخرى فيعظم المطيع منكم بالثواب ويعاقب العاصي، والجملة حال من فاعل ترجون أو من الله ثم أتبع ذكر آيات في الأنفس بآيات في الآفاق فقال ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ﴾ مجاز عن التعجيب ﴿كَيْفَ﴾ استفهام للاستعظام حال عن الفاعل أو المفعول من الجملة التالية قدم لاقتضاء

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء (٤٠٢٣).

صدر الكلام ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ بعضهن فوق بعض وبين كل من السافل والعالي مسيرة خمسمائة سنة كما دل عليه الأحاديث وذكر فيما قبل ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ أي في بعضهن وهي السماء الدنيا كما ياقل نزل رسول الله ﷺ في دور بني النجار، قال البغوي قال عبد الله بن عمرو إن الشمس والقمر وجوههما إلى السموات وضوء الشمس والقمر فيهن يعني كليهن وأشعتهما إلى الأرض ويروى هذا عن ابن عباس ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ مثلها به لأنها تزيل الظلمة عما تقابله كما يريلها السراج عما حوله وإنما مثل الشمس بالسراج مع كون السراج أدنى منها ضياءً لظهور أمر السراج في أذهان السامعين وفقد ما يمثل به غيره ولعله في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ إشعار بأن نور القمر مستفاد من الشمس فإن النور إنما يستفاد من السراج ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم﴾ كرر اسم الله تعالى ولم يكتف بالضمير التذاذاً باسم المحبوب وإظهاراً لمقصوده أي أنشأكم فاستعير الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بأن خلق أباكم آدم منها أو بأنه خلقكم من النطف والنطف من الغذاء المنبت من الأرض ﴿نَبَاتٗا﴾ مصدر من غير ما به نحو ﴿تبتل إليه﴾[1] وقيل اسم جعل موضع المصدر أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره والله أنبتكم فنبتم نباتاً فاقتصر اكتفاء بالدلالة الالتزامية ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ مقبورين بعد الموت ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ﴾ بالحشر ﴿إِخۡرَاجٗا﴾ أكده بالمصدر كما أكد به الأول للدلالة على تحقيق البعث كالبدأ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾ تنقلبون عليها ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ واسعة جمع فج ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ.

﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾

﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ فيما أمرتهم وهذه الجملة بمنزلة التأكيد لما سبق من قوله

(١) سورة المزمل، الآية: ٨٠.

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝﴾[1] الخ قال مآل الجملتين واحد إذ الفرار عن الدعاء وسد المسامع وتغطية الأبصار هو عين العصيان أو من موجباته ولذا لم يذكر العاطف بين قال وقال وإنما كرر القول بالعصيان مع ذكره فيما سبق لأن سوق الكلام الأول لبيان أدائه فريضة التبليغ على أبلغ الوجوه وسوق هذا الكلام ليكون تمهيداً للدعاء عليهم ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي السفلة منهم ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي رؤساؤهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، قرأ نافع وعاصم وابن عامر ولده بفتح الواو واللام والباقون بضم الواو وسكون اللام على أنه لغة كالحزن أو جمع كالأسد ﴿وَمَكَرُوا﴾ عطف على من لم يزده والضمير لمن وجمعه المعنى أو على اتبعوا ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ هو أشد مبالغة في الكبر من الكبار بلا تشديد وهو من الكبير يعني مكروا مكراً كبيراً في غاية الكبر وذلك احتيالهم في الدين، والمكر من الرؤساء تحريش الناس على أذى نوح والكفر بالله ومن السفلة القيام على أنواع إيذائه ﴿وَقَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض عطف على مكروا على الوجهين ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ قرأ نافع وداً بضم الواو والباقون بفتحها ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ تخصيص بعد التعمم لزيادة الاهتمام، قال البغوي قال محمد بن كعب هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون لهم ويأخذون بعدهم مأخذهم في العبادة فجاءهم إبليس وقال لهم لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوه ثم نشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فعبدوهم فابتدأ عبادة الأوثان كان من ذلك وسميت تلك الصور بهذه الأسماء. وقال عطاء عن ابن عباس صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب بعد أما وُد فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمرو ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع فهذه أسماء رجال صالحين من إسلام قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك عبدت، وروي عن ابن عباس أن تلك الأوثان رفنها الطوفان وطمها التراب فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي مكة ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾

(١) سورة نوح، الآية: ٥-٦.

أي الأوثان أو رؤساء قوم نوح ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس والإسناد إلى الأوثان مجاز كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾(١) حيث أضلهم الشيطان بسببها والجملة إما حال من فاعل قالوا أو من مفعول لا تذرن وإما معترضة ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي هلاكاً وضياعاً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾(٢) أو المراد بالضلال عدم اهتدائهم إلى ما أرادوا بمكرهم أو إلى مصالح دنياهم والجملة معطوفة على مقولة ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ يعني قال نوح هذا القول فهو في المعنى من قبيل عطف المفرد على المفرد لا عطف إلا نشاء على الخير ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ على قراءة الجمهور وقرأ أبو عمر وخطاياهم ما مزيدة للتأكيد والتفخيم ومن للسببية متعلق بأغرقوا أي من أجل خطاياهم ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في عالم البرزخ المسمى بالقبر فإنه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرات النيران فهذه الآية دليل على إثبات عذاب القبر لأن الفاء للتعقيب وصيغة أدخلوا للماضي خلافاً للمعتزلة وغيرهم من أهل الهواء قالوا في تأويل هذه الآية أنه أورد بفاء التعقيب لعدم اعتداد لما بين الإغراق والإدخال أو لأن المسبب كالمتعقب للسبب وصيغة الماضي لأن المتيقن كالواقع، قلنا: الأصل في الكلام الحقيقة وهذه التأويلات على المجاز فلا يجوز بلا دليل كيف وقد دلت من الأحاديث ما لا يحصى على عذاب القبر وانعقد عليه إجماع السلف. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النارقدأبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً، وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال: لادريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»(٣) متفق عليه، وعن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ إلا تعوذ بالله من عذاب القبر متفق عليه، وعن عثمان أنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له تذكر الجنة فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال إن

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٠).

رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منزلة من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه» وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه»[1] رواه الترمذي وابن ماجه، وعن أبي سعيد قال قال: رسول الله ﷺ: «يسلط على الكافر في قبره تسع وتسعين تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تنيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراء» رواه الدارمي، وروى الترمذي نحوه وقال: «سبعون» بدل تسعة وتسعون، وتنكير ناراً للتعظيم أو لأن المراد نوع من النيران غير نار جهنم وجملة أغرقوا مع ما عطف عليه استئناف كأنه في جواب ما فعل لهم إذ اشتكى نوح إلى الله عصيانهم ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لا يجد أحد منهم أحداً ينصرهم فإن مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد واحد نكرة في حيز النفي يعم والجملة تعريض لهم باتخاذ آلهة من دون الله لا يقدر على نصرهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ عطف على قال نوح رب إنهم عصوني ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي أرض قومه واللام للعهد ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أحداً يسكن داراً وهو نكرة في حيز النفي فيعم فيقال أصله ديوار أدغم الياء بالواو بعد قلبه ياء على طريقة سيد لإفعال وإلا فكان دواراً ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ تعليل للدعاء عليهم ﴿يُضِلُّوا﴾ أي يريدوا إضلال ﴿عِبَادَكَ﴾ المؤمنين ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال محمد بن كعب ومقاتل والربيع إنما قال نوح هذا الدعاء على قومه حين أخرج كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ويأس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة وقيل: تسعين سنة فأخبر الله نوحاً أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمناً ولم يكن فيهم صبر وقت العذاب لأن الله تعالى قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾[2] ولا يوجد التكذيب من الأطفال وبهذا يستدل على أن الطوفان لم يستغرق الأرض كلها بل قومه فقط كيلا يلزم التعذيب من غير تكذيب ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ كان اسم أبيه ملك بن متوشخ واسم أمه سمجار بنت أتوش وكانا مؤمنين ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ قرأ بفتح الياء حفص وهشام والباقون بالإسكان أي منزلي وقال الضحاك مسجدي وقيل: سفينتي ﴿مؤمناً﴾ قبل خرج بهذا إبليس فإنه كان دخل في سفينة ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكاً واستجاب الله تعالى دعاءه.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٠٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٧.

سورة الجن

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ
فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ
كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾
وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن
يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ النفر من الثلاثة إلى العشرة فقيل: كانوا تسعة من جن نصيبين وقيل: كانوا سبعة، والجن أجسام ذات أرواح كالحيوان عاقلة كالإنسان خفية عن أعين الناس ولذا سميت جناً خلقت من النار كما خلق آدم من طين، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[1] تتصف بالذكورة والأنوثة، ووجود الجن والشياطين والملائكة ثابت بالشرع وأنكره الفلاسفة وليست العقول العشرة التي اخترعها الفلاسفة من الملائكة من شيء حيث يزعمونها مجردات بخلاف الملائكة فإنها أجسام ذات أرواح والله تعالى أعلم. وسوق هذا الكلام يقتضي أن النبي ﷺ لم ير الجن وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فاستمعوها فقص الله ذلك على رسوله فيما أوحي إليه. أخرج الشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ولكنه انطلق مع طائفة من أصحابه عائدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فقالوا ما هذا إلا بشيء قد حدث

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذي حدث فانطلقوا فانصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً الخ فأنزل الله تعالى على نبيه قل أوحي[1] إلى قول الجن. وقال أكثر المفسرين لما مات أبو طالب خرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد القرظي أنه قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف وهم يومئذ سادات ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة عبد يا ليل ومسعود وحبيب بنو عمير وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان أرسلك الله وقال الآخر أما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث والله ما أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله فلا ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيزيد ذلك في تجرئهم عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهائهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه فرجع عند سفهاء ثقيف ومن كان تبعه فعمدا إلى ظل جنة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف وقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة من بني جمح فقال لها ماذا لقينا من أحمائك فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس وأنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين فأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك» فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس فقالا له خذ قطفاً من هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الجهر بالقراءة صلاة الفجر (٧٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٤٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الجن (٣٣٢٣).

العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فلما وضع ومد رسول الله ﷺ يده قال: باسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه فقال: والله إن هذا الكلام ما يقول أهل هذه البلدة قال: رسول الله ﷺ من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال: وما يدريك يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ فقبل رأسه ويديه وقدميه قال: فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما على الأرض خير من هذا الرجل فقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، فقال: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف حتى إذا قام بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من جن نصيبين اليمن فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا فقصّ الله سبحانه وتعالى خبرهم عليه. وأخرج ابن الجوزي في كتاب الصفوة بسنده عن سهل بن عبد الله قال: كنت في ناحية وزاعا وإذا رأيت مدينة من حجر منقور في وسطها قصر من حجارة تأويه الجن فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق يصلي إلى الكعبة وعليه جبة صوف فيها طراوة فلم أتعجب من عظم خلقته كتعجبي من طراوة جبته فسلمت عليه فرد علي السلام وقال: يا سهل إن الأبدان لا يخلق الثياب وإنما يخلقها روائح الذنوب ومطاعم السحت وإن هذه الجبة عليّ منذ سبع مائة سنة لقيت بها عيسى ومحمداً عليهما السلام فآمنت بهما فقلت له ومن أنت؟ قال: من الذين نزلت فيهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ نفر من الجن وقال جماعة بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله يقرأ عليهم القرآن فصرفوا إليه نفر من الجن من نينون وجمعهم له فقال رسول الله ﷺ: «إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فأيكم يتبعني» فأطرقوا ثم استتبعهم فاتبعه عبد الله بن مسعود قال عبد الله ولم يحضر معنا غيري فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل نبي الله ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون وخط لي خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه قال: لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فجعلت أرى مثل النسور تهوي وسمعت لفطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم طفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب الذاهبين ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر فانطلق إلي فقال: أنمت؟ قلت: لا والله

يا رسول الله ولقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرع بعصاك تقول اجلسوا، قال: لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم، ثم قال: رأيت شيئاً؟ قلت: نعم رأيت رجلاً أسود مشتفري ثياب بيض قال: أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - والمتاع الزاد - فمنعهم لكل عظم عابل وروث وبعرة، فقال: يا رسول الله يقذرها الناس فنهى رسول الله ﷺ أن يستنجي بالعظم والروث قال: فقلت: يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ قال: إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم يؤكل ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فقلت: يا رسول الله سمعت لغطاً شديداً، فقال: إن الجن تدارت في قتيل قتل منهم فتحاكموا إلي فقضيت بينهم بالحق قال: ثم تبرز رسول الله ﷺ ثم أتاني فقال: هل معك ماء؟ قلت: يا رسول الله معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر فاستدعاه فصببت على يديه فتوضأ فقال: تمرة طيبة وماء طهور» وروى مسلم عن علي بن محمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن داود عن عامر قال: سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود عنه فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة تفقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا استطير أو اغتيل، قال بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليه القرآن، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال الشعبي وسألوه الزاد وكانوا من جن جزيرة، فقال رسول الله ﷺ لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أو ما يكون فيه لحم وذلك بعرة علف دوابكم فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم من الجن»[١] وروى عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من الزط فقال: هؤلاء أشبه ما رأيت من الجن ليلة الجن، قلت: والظاهر عندي أن استماع الجن القرآن من النبي ﷺ عامداً إلى سوق عكاظ وقافلاً من الطائف كان أولاً وهو المحكي عنه بقوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وأما ليلة الجن التي رواها ابن مسعود فكانت بعد ذلك، قال البغوي في تفسير سورة الأحقاف أنه قال ابن عباس فاستجاب لهم أي نفر من الجن بعد ما استمعوا القرآن من النبي ﷺ بنخلة ورجعوا إلى قومهم منذرين من قومهم سبعين رجلاً من الجن فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافقوه في البطحاء فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم، وذكر الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ستة مرات وهذا يدل على أنه ﷺكان مبعوثاً إلى الجن والإنس جميعاً، وقال مقاتل لم يبعث قبله نبي إلى الإنس والجن والله تعالى أعلم. ﴿فَقَالُوٓاْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٥٠).

هؤلاء النفر من الجن حين رجعوا إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ بديعاً مبايناً لكلام المخلوق مصدر وصف به للمبالغة ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ إلى الحق والصواب من التوحيد والإحسان الذي يقتضيه العقل والبرهان صفة أخرى للقرآن ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾ في العبادة ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ من خلقه حيث نهى الله سبحانه عنه ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الضمير عائد إلى ربنا أو للشأن قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بكسر الهمزة عطفاً على مقولة قالوا يعني إنا سمعنا وهكذا في أحد عشر موضعاً غيره إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ وهذا ظاهر غير أن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية التفات من المتكلم إلى الغيبة وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وقرأ أبو جعفر وأنه وأنهم في ثلاث مواضع بالفتح على أنه استمع نفر بمعنى أوحي إلى أنه تعالى جد ربنا وأوحي إلي أنه كان وأوحي إلي أنهم كانوا وفي تسعة مواضع الباقية بالكسر ولما ذكرنا وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بفتح الهمزة في المواضع كلها، قال المفسرون في توجيه هذه القراءات أنه معطوف على أنه استمع يعني أوحي إلي أنه تعالى جد ربنا وهذا لا يستقيم إلا إلى الثلاثة الذي قرأها أبو جعفر بالفتح دون البواقي وقيل: إنه معطوف على حمل الجار والمجرور في آمنا به يعني صدقنا أنه تعالى جد ربنا وهذا أيضاً لا يستقيم إلا في بعض المواضع كما هو الظاهر ولولا هذه القراءة في المتواترات لما احتجنا إلى تكلفات في توجيهها لكنها من المتواترات فوجب ارتكاب التكلفات والله تعالى أعلم ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ الجملة خبر لأن والعائد وضع المظهر موضع المضمر على تقدير كون الضمير عائداً إلى تقديره أنه تعالى جده فوضع المظهر موضع الضمير للتصريح على الربوبية فإن الربوبية تقتضي أن يكون عظمته وشأنه أعلى وأرفع عن شأن المربوبين، ومعنى جد ربنا جلاله وعظمته كذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة ومنه قول أنس كان الرجل إذا قرأ بقرة وآل عمران جد فينا أي عظم قدره، وقال السدي جد ربنا أمر ربنا، وقال الحسن غنا ربنا وقال ابن عباس قدرة ربنا، وقال الضحاك فعل، وقال القرطبي آلاؤه ونعمائه على خلقه وقال الأخفش ملك ربنا ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ خبر بعد خبر لأن كأنه تأكيد وبيان للجزاء الأول يعني تعالى جلاله عن اتخاذ الصاحبة والولد كما هو شأن المربوبين كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك في العبادة ونسبة الصاحبة والولد إليه تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، قال قتادة ومجاهد هو إبليس وقيل: المراد به مردة الجن ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولاً ذا شطط وهو أبعد أي قولاً بعيداً عن شأنه والجور في الحكم أو التجاوز عن الحد، في القاموس

شط عليه في حكم جار في سلعته جاوز القدر والحد وتباعد عن الحق أي كان يقول على الله تعالى ويحكم بالجور والتباعد عن الحق وهو نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ اعتذار عن اتباع بعضهم السفيه في ذلك بظنهم أنه لا يكذب على الله أحد وكذباً منصوب على المصدرية لأنه نوع من القول أو على المفعولية على أنه مقولة تقول أو على أنه وصف لمحذوف أي قولاً مكذوباً، وقرأ أبو جعفر تقول بفتح الواو والتشديد وعلى هذا المصدر البتة لأن التقول لا يكون إلا كذباً وأن بعد الظن مصدرية أو مخففة، ومعنى الآيتان على تقدير فتح همزة أن وكونها معطوفة على به في آمنا به أنه تيقنا أنه كان قول سفيهنا بعيداً عن الحق جوراً في الحكم وإن زعمنا بعدم كذب الجن كان باطلاً. فإن قيل: كان الجن قبل مبعث النبي ﷺ يقعدون من السماء مقاعد السمع فيستمعون كلام الملائكة من التسبيح وغير ذلك فما الوجه في اتباعهم سيفههم وظنهم أنهم لا يقولون كذباً وعدم إيمانهم مع استماعهم كلام الملائكة كثيراً وإيمانهم لما سمعوا القرآن من النبي ﷺ واحدة؟ قلت: الإيمان أمر وهبي لا يتصور وجوده فهذه تلقى الهداية من الله الهادي على الإطلاق وذلك التلقي لا يكون إلا بواسطة يأخذ الفيض من الله تعالى لمناسبة المعنوية به تعالى بعلو استعداده ويفيض على العالمين لمناسبة بهم صورية وذلك بالواسطة هي من الأنبياء عليهم السلام فإن لهم مع الله مناسبة معنوية لأجل كون مبادي تعيناتهم ومربياتهم الصفات العاليات ولهم على قدر كما لهم في مراتب النزول مناسبة صورية بالأسفلين وأما الملأ الأعلى من الملائكة فلهم مناسبة مع الله كهيئة الأنبياء ولا مناسبة لهم بالأسفلين لكونهم متصاعدين مراتب غير محصلين كمالات النزول وكذلك لم يتأثر الجن منهم هداية ولا إيماناً وإن سمعوا منهم كلمات الهداية وتأثروا من سفهاء الجن والشياطين لكمال المناسبة وكذا لم يتأثر من المكلفين من نوح عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين لم يبلغوا في مراتب النزول غاية وتأثروا عن سيد الأنبياء فإنه كان هادياً لكمالات الفروع والأصول محدد الدرجات العروج والنزول لأجل ذلك بعثه الله تعالى إلى الناس كافة بل إلى الجن والإنس عامة فاستنار بنور هداية العالمين واستضاء بضوء إرشاده جماهير المكلفين إلا من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله حيث لم يخلق فيه استعداد قبول الحق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وهذا معنى قول الشيخ الأكبر أنكروا دعوة نوح لما كان من الفرقان وأجابوا دعوة محمد لما كان من القرآن ﷺ وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين وبارك وسلم ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الضمير الشأن ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم

وابن أبي الشيخ عن كروم بن السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ فأوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي جارك فنادى منادي لا نراه يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم ولم تصبه كدمته فأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية، وأخرج ابن سعد عن أبي رجاء العطاردي قال: بعث رسول الله ﷺ وقد رعيت على أهلي وكفيت فبهتهم فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هراباً فأتينا على فلاة من الأرض وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا إنا نعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة فقال ذلك فقيل لنا: إنما السبيل لهذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من أقربها أمن على دمه وماله فرجعنا في الإسلام، قال أبو رجاء إني لأرى هذه الآية نزلت في أصحابي ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية، وأخرج الجزائفي في كتاب هواتف الجن بسنده عن سعيد بن جبير أن رجلاً من بني تميم يقال له رافع بن عمير يحدث عن بدأ إسلامه قال: إني لأسير برمل عالج ذات ليلة إذ غلبني النوم فنزلت على راحلتي وأنختها ونمت وقد تعوذت قبل نومي فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي من الجن فرأيت في منامي رجلاً بيده حربة يريد أن يضعها في نحرنا فانتبهت فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً، فقلت: هذا حلمهم ثم عدت، فغفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فدرت حول ناقتي فلم أر شيئاً فإذا ناقتي ترعد ثم غفوت فرأيت مثل ذلك فانتبهت فرأيت ناقتي تضطرب والتفت فإذا أنا برجل شاب رأيت في المنام بيده حربة ورجل شيخ ممسك بيده يرد عنها فبينما هما يتنازعان إذا طلعت ثلاثة أثوار من الوحش فقال الشيخ للفتى قم فخذ أيها شئت فداء ناقة الإنسي، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً عظيماً وانصرف ثم التفت إلى الشيخ فقال: يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل: أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها، قال: فقلت له من محمد هذا؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الإثنين قلت: فأين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل، فركبت راحلتي حين برق الصبح وجددت السير حتى أتيت المدينة فرآني رسول الله ﷺ فحدثني بحديثي قبل أن أذكر له شيئاً ودعاني إلى الإسلام فأسلمت، قال سعيد بن جبير وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي زاد الإنس الجن باستعاذتهم بقادتهم ﴿رَهَقًا﴾ قال ابن عباس إثماً وقال المجاهد طغياناً وقال مقاتل غياً وقال الحسن شراً وقال إبراهيم عظمة، وذلك أن الجن كانوا يقولون سدنا الجن والإنس أو المعنى فزاد الجن الإنس غيابان

أضلوهم حتى استعاذوا بهم والرهق غشيان الشيء والمراد ها هنا غشيان المحارم والإثم وفي هذه الجملة أيضاً اعتراف بسوء عقيدتهم فيما قيل ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الإنس ﴿ظَنُّوا﴾ ظناً ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يا معشر الجن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد موته أن لن يبعث قائم مقام المفعولين يعني نزل القرآن آمنوا بالغيب بعد فساد ظنهم فأنتم أيضاً أيها الجن آمنوا بالبعث كإيمانهم قال ذلك بعضهم لبعض هذا على قراءة كسر إن، وأما على تقدير فتحها فهذه الجملة وما قبلها أعني كان رجال الخ معترضات من كلام الله تعالى معطوفتان على أنه استمع يعني أوحي إلى هذين الأمرين وتأويل الآية على هذا التقدير أنهم أي الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكافر من قريش مكة عدم البعث فلما نزل القرآن واستمع الجن آمنوا بالبعث فعليكم أيها الكفار أن تؤمنوا كما آمنوا ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾ أردنا المس ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بعد مبعث النبي ﷺ والظاهر أن المراد بالسماء السحاب فإن السماء يطلق على ما هو فوقك، ويدل على هذا التأويل حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتتوجه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»(١) رواه البخاري. فإن قيل: قد وقع في بعض الأخبار بلفظ يدل على حقيقة السماء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فرغ عن قولهم قالوا: ماذا قال ربكم: قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فسمعها مسترقوا السمع هكذا بعضه فوق بعض ووضع سفيان بكفه ليستمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقاها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقاها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معه مائة كذبة»(٢) الحديث رواه البخاري وفي حديث ابن عباس «ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ثم قال الذين يحملون العرش ماذا قال ربكم: فيخبرونهم ما قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ هذا السماء الدنيا فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يغرقون فيه ويزيدون»(٣) رواه مسلم، قلنا: ليس في هذين الحديثين وما في معناهما أن الجن يخطف

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: **﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾** (٤٧٠١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩).

من السماء الدنيا ولعل معناه حتى يبلغ الخبر هذا السماء الدنيا ثم أهل السماء الدنيا ينزلون إلى العنان فتذكر الأمر الذي قضى في السماء فيخطف الجن مسترقوا السمع وهم بعض فوق بعض إلى العنان فحينئذ يدركه الشهاب الثاقب من نجوم السماء والله تعالى أعلم ﴿فَوَجَدْنَـٰهَا﴾ أي السماء ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ حراساً اسم الجمع كالخدم ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء من الملائكة الذين يمنعون هم عنها ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب وهو شعلة نار انتشرت من النجوم ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ قبل ذلك ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء أي من السحاب حال من ﴿مَقَـٰعِدَ﴾ خالية عن الحرس والشهب صالحة للترصد والاستماع ظرف لتقعد ﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلق بنقعد أو صفة لمقاعد ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ يعني بعد مبعث النبي ﷺ ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي رصداً له ولأجله يمنعه من الاستماع بالرجم أو ذوي شهاب راصدين على أنه جمع للراصد فصار هذا معجزة للنبي ﷺ لأجل الجن آمنوا به ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾ يعني أنا كنا لا ندري قبل ذلك ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فأما الآن إذا سمعنا القرآن أن الذي حال بينكم وبين خلو السماء هو بعث هذا النبي حتى يكون معجزة له يعجزه الكهنة عن إتيان خبر السماء مثله فظهر أن الله سبحانه وتعالى إنما أراد للعالمين هداية ورشداً، ففي هذه الجمل الثلاث احتجاج على حقيقة القرآن ورسول الله ﷺ والشر والخير وإن كانا جميعاً بخلقه تعالى وإرادته لكنهم أسندوا إرادة الخير إليه تعالى صريحاً وإرادة الشر كناية بذكره على صيغة المجهول رعاية الأدب.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ عنوا بهم الذين كانوا منهم مؤمنين بالتوراة وغيره من الكتب السماوية والأنبياء السابقين عليهم السلام ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ أي ذوي طرائق أي مذاهب أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت طرائق ﴿قِدَدًا﴾ متفرقة مختلفة وهذه الجملة أعني قولهم كنا طرائق قدداً تأكيد لمضمون ما سبق من قولهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الخ وقدداً جمع قدة بمعنى القطعة من الشيء، قال الحسن والسدي الجن أمثالكم فمنهم

قدرية ومرجئة ورافضية وغير ذلك وقولهم فيما بينهم أنا منا الصالحون الخ تمهيد لما سيأتي من قولهم ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ الآية، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الآية يعني أن الإيمان والتصديق ليس أمراً مبدعاً منا بل كان الجن قبل ذلك طرائق قدداً بعضهم كانوا صالحين وبعضهم دون ذلك وأنا إن اتبعنا السفيه في القول في الشطط لكنا لما سمعنا قرآناً ظننا أن لن نعجز الله وسمعنا الهدى وآمنا به كما كان بعض أسلافنا مؤمنين ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي علمنا وتيقنا بتعليم الله تعالى في القرآن وهدايته والمعنى كنا نظن ذلك قبل هذا أو المعنى كنا نتيقن ذلك بعلمنا ما في التوراة ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ أي لن تفوته إن أراد بنا سوءاً كائناً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي هاربين من الأرض إلى السماء إن طلبنا مهرباً وهذا على كونه حالاً من فاعل نعجز ويحتمل أن يكون مفعولاً مطلقاً بمعنى تهرب هرباً ومفعولاً له أي نعجزه للهرب أو ظرفاً أي نعجزه في المهرب أو تميزاً من نسبة الفاعل أي نعجزه هربها ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآن فإنه موجب للهدى ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فآمنوا به أنتم أيضاً يا قومنا شر الجن ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ شرط والفاء للنسببية والجزاء ما بعده ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ نقصاً في الثواب ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي ولا أن ترهقه تغشاه ذلة أو المعنى لا يخاف جزاء نقص في الطاعات ولا جزاء له رهوق ظلم أي غشيان ظلم لأن من حق الإيمان بالقرآن أن يحبب ذلك ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ الأبرار ﴿وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن الحق يقال أقسط الرجل إذا عدل وقسط إذا جار فهو قاسط، إنما ذكر هذه الجمل ومع ذكر مضمون فيما سبق بقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ليكون تمهيداً لتفصيل حال الفريقين والمقصود ها هنا تفصيل الحال وفيما سبق التفرق فحسب لدفع كون الإسلام أمراً مبدعاً ويحتمل أن يكون الذين يستمعون القرآن بعضهم أسلموا وبعضهم لم يسلموا وهذا مقولة المسلمين منهم لما رجعوا إلى قومهم ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ بالله ورسله ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ قصدوا طريقاً موصلاً إلى الفلاح ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ توقد بهم جهنم كما توقد النار بالحطب وهذه الجمل السبعة من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ الخ لاشك أنها من كلام الجن فلا غبار على قراءة إنا بالكسر وأما على قراءة الفتح فلا بد ارتكاب تكلف بأن يقال إنها معطوفة بهاء به في آمنا به والمعنى آمنا بالقرآن ويتبعنا بمعجزاته في الآفاق من أن لمسنا السماء الآية وأنا كنا نقعد منها مقاعد الآية وأنا لا ندري ما أراد الله بالشهب حتى سمعناه وبمعجزاته تأثيراته في الأنفس وأنا كنا منا الصالحون ومنادون ذلك ولأن تيقنا أن لن نعجز الله وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به وتيقنا

أن المسلمين منا تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً والله تعالى أعلم بمراده ولا يتصور عطف هذه الجمل السبعة على أنه استمع نفر من الجن كما لا يخفى.

مسألة: اتفقت الأئمة على أن الكفار من الجن يعذبون بالنار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ واختلفوا في ثواب المؤمنين منهم؟ فقال قوم: ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار وتأولوا قوله تعالى: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1] قال البغوي وإليه ذهب أبو حنيفة وحكى سفيان عن ليث قال: الجن ثوابهم أن يجاروا من النار ثم يقال لهم كونوا تراباً مثل بهائم، وعن أبي الزياد قال: إذا قضى بين الناس قيل لمؤمنين الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً وعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وقيل: مذهب أبي حنيفة فيه التوقف لقوله ﷺ: «أبهموا ما أبهم الله»[2] وقد ذكر الله تعالى عذاب الكفار منهم ولم يذكر ثواب المطيعين منهم إلا المقر والجوار من النار، وقال الآخرون يكون لهم ثواب في الإحسان كما يكون لهم عذا في الإساءة كالإنس وإليه ذهب مالك وابن أبي ليلى وقال جرير عن الضحاك الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، أخرج أبو الشيخ وذكر النقاش في تفسيره حديثاً أنهم يدخلون الجنة فقيل له هل يصيبون من نعمها؟ قال: يلهمهم الله تسبيحه وذكره فيصيبون من لذته ما يصيبون بنو آدم من نعيم الجنة، قلت: كأنه ألحق المؤمنين من الجن بالملائكة وقال الطاءة ابن المنذر سألت حمزة بن حبيب هل للجن ثواب قال نعم وقرأ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[3] قال: فالأنسيات للإنس والجنيات للجن، أخرجه أبو الشيخ من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: الخلق باركة فخلق في الجنة كلهم وهم الملائكة وخلق في النار كلهم وهم الشيطان وخلقان في الجنة والنار وهم الجن والإنس لهم العذاب والثواب، وأخرجه عن ابن وهب أنه سئل هل للجن ثواب وعقاب؟ قال: نعم قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[4] وقال عمرو بن عبد العزيز إن مؤمن الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها. احتج القائلون

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٢) ذكر ابن الأثير أنه قول لابن عباس.
انظر: النهاية في غريب الحديث حرف الباء/ باب الباء مع الهاء.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٨ ـ ١٩.

بثواب الجن بالعمومات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾(١) ونحو ذلك بالخطابات الواردة في سورة الرحمن حيث قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾(٢) ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾(٣) قالت الحنفية في الجواب إن العمومات محولة على الإنس بدلالة العرف فإن أهل العرف لا يفهمون منه إلا الإنس وأما الخطابات في سورة الرحمن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ توبيخ للجن وللإنس على مطلق التكذيب بآلاء الله سبحانه لإيما ذكر قبل تلك الآية خاصة كيف وذلك لا يتصور في مثل قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾(٤) ونحو ذلك وقد ذكر من الآلاء ما هي مختصة بالإنس دون الجن حيث قال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾(٥) فيحتمل أن يكون نعيم الجنة مختصة بالإنس خوطب الثقلين بها توبيخاً على تكذيب الطائفتين مطلق الآلاء، والصحيح عندي ما قاله الجمهور وبه قال أبو يوسف محمد رحمهما الله تعالى قال: من أثبت الثواب فقوله مبني على دليل وشهادة على الإثبات فيقبل بخلاف قول أبي حنيفة فإنه متوقف بناء على عدم بدليل فلا شك أن قول ابن عباس وأقوال عمر بن عبد العزيز ونحوه من ثقات الصحابة والتابعين لها حكم الرفع، وقد أخرج البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ مرفوعاً «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألنا عن ثوابهم وعن مؤمنهم فقال: على الأعراف وليسوا في الجنة فسألنا وما الأعراف؟ قال: خارج الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيها الأشجار والأثمار» والله تعالى أعلم ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أن مفتوحة بإجماع القراء مخففة من المثقلة واسمها ضمير الشأن محذوف وجملة الشرطية خبرها والجملة معطوفة على أنه استمع نفر من الجن والمعنى أنه أوحي إلي أنه لو استقاموا أي الجن والإنس ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المرضية لله تعالى وهي دين الإسلام والفطرة التي فطرالناس عليها ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي كثيراً، قال مقاتل نزلت هذه الآية بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين، وقيل المراد من الماء الغدق الرزق الواسع على

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦ ـ ٤٧.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٧٢ ـ ٧٥.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤١ ـ ٤٢.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ٢٤ ـ ٢٥.

التجوز لأن الماء سبب للرزق كما أريد من الرزق المطر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾(١) والمعنى لأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً وهذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(٣) ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلق بأسقيناهم أي لنختبرهم كيف شكرهم وهذا التأويل قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل والحسن، وقيل: معناه أن لو استقاموا على طريقة الكفر لأعطيناهم مالاً كثيراً لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجاً حتى يفتنوا بها فتذهب بهم نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾(٤) وهذا قول الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان وهذا القول ليس بسديد وإلا يلزم أن يكون الكفر موجباً لسعة الرزق وحسن المعيشة ويأبى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾(٥) الآية وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟﴾(٦) الآية وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾(٧) الآية فإن كلمة لولا لامتناع الثاني لا لأجل امتناع الأولى وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾(٨) واقعة حال ماضي لا يدل على العموم وإلا يلزم التعارض فيما لا يحتمل النسخ وأيضاً وقائع أهل مكة حالة على صحة التأويل الأول دون الثاني فإن أبا جهل وغيره من كفار مكة الذين لم يؤمنوا ابتلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا الروث لم قتلوا ببدر في أقبح حال والذين آمنوا مع النبي ﷺ واستقاموا على الطريق أعطاهم الله ملك كسرى وقيصر وغيرهما وأيضاً يدل على صحة التأويل الأول مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ حيث حكم بلزوم العذاب بالإعراض عن الذكر وذلك يقتضي الحكم بضد ذلك أي بحسن العيش على هذا

(١) سورة الجاثية، الآية: ٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٧) سورة الزخرف، الآية: ٣٣.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

الإعراض وهو المراد بالاستقامة على الشريعة كما هو عادة الله سبحانه في كتابه والله تعالى أعلم ﴿يَسْلُكْهُ﴾ قرأ أهل كوفة ويعقوب بالياء على الغيبة أي يدخله ربه وآخرون بالنون على التكلم ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه صعد وصف به والمراد بالعذاب منها إما عذاب الدنيا أو عذاب القبر أو عذاب الآخرة وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾[1] والظاهر أن المراد ها هنا عذاب الدنيا بدليل المقابلة وكذلك من ضنك المعيشة هنالك لعطف قوله ونحشره كما أن المراد بالحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] روي عن ابن عباس أنه قال: كل مال قل أو كثر فلم معايشهم فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة وإن قوماً أعرضوا عن الحق وكانوا أول سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم ضنكاً وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف عليهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله، وقال سعيد بن جبير تسلبه القناعة حتى لا يشبع، قلت: وهذا الأمر ظاهر فإن أهل الدنيا لما سلب منهم القناعة فهم دائمون في جد واجتهاد لأجل اكتساب المال وحفظ خائفون على فواته متحاسدون متباغضون فيما بينهم لأجله غير آمنين على أنفسهم لكثرة الأعداء والحساد ولا شك أن هذا عذاب صعد ومعيشة ضنك ولو يعلمون ما للصوفية من الحياة الطيبة وطمأنينة القلب بذكر الله وشرح الصدور ورفع الحاجة بالقليل والاستغناء عن الخلق والشفقة على خلق الله تعالى كلهم أجمعين والشكر والسرور في الضراء رجاء لكفارة المعاصي وحسن الجزاء فضلاً عن الرخاء والسراء ليتحاسدوهم على ذلك والله يؤتي من يشاء من الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

﴿رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ عطف على أن لو استقاموا على الوحي به قيل: المراد بالمساجد المواضع التي بنيت للصلاة ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ قال قتادة كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا بيتهم وكنائسهم أشركوا بالله فأمر الله تعالى المؤمنين أن يخلصوا لله الدعوات إذا دخلوا المساجد وأراد به المساجد كلها وأمر بتطهيرها فقال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾(١) الآية، وأمر رسول الله ﷺ فقال: «جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشركائكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع»(٢) رواه ابن ماجه عن واصلة مرفوعاً، ونهى عن تناشد الأشعار في المسجد وعن البيع والشراء فيه وأن يتحلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة في المسجد(٣) رواه أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وقال: «البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»(٤) متفق عليه عن أنس قال: «عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»(٥) رواه أبو داود والترمذي عنه، وقال: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا»(٦) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ، وروى الترمذي والدارمي وزاد «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك» والله تعالى أعلم. وقال الحسن أراد بها البقاع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المساجد والجماعات، باب: ما يكره في المساجد (٧٥٠).
في الزوائد: إسناده ضعيف فإن الحارث بن نبهان متفق على تضعيفه.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاء الضالة والشعر في المسجد (٣١٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: كفارة البزاق في المسجد (٤٠٥)، وأخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن البصاق في المسجد (٥٥٢).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كنس المساجد (٤٦٠).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٨).

كلها لأن الأرض جعلت كلها سجداً لهذه الأمة يعني لا تدعوا مع الله أحداً في شيء من البقاع، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت الجن أتأذن لنا فنشهد معك الصلاة في مسجدك فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ وأخرج ابن جرير عن جبير قال: قالت الجن للنبي ﷺ كيف لنا أن نأتي المسجد ونحن عنك أو كيف نشهد الصلاة ونحن ما دون عنك فنزلت، وقيل: المراد بالمسجد أعضاء السجود يعني أنها مخلوقة لله تعالى فلا تسجدوا عليها غيره، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا يكفت الثياب ولا الشعر»[1] ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة على الاستئناف والباقون بالفتح عطفاً على الموحى به ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ محمد ﷺ إن ذكر لفظ العبد دون الرسول أو النبي أو غير ذلك للتواضع فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه والإشعار بما هو المقتضى لقيامه، وقال المجدد العبودية أقصى مراتب الكمال ﴿يَدْعُوهُ﴾ حال من عبد الله أي يعبده ويذكره ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قرأ هشام لبد بضم اللام والباقون بالكسر وهو جمع لبدة وأصل اللبد الجماعات بعضها فوق بعض ومعناه على ما قال الحسن وقتادة وابن زيد أنه لما قام عبد الله بالدعوة إلى التوحيد كاد الجن والإنس يكونوا مجتمعين لإبطال أمره يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره وينصره على من عاداه، ويحتمل أن يكون معناه أنه لما قام عبد الله يدعوه ويقرأ القرآن بنخلة كان الجن يكون عليه لبداً متراكبي من ازدحامهم عليه شوقاً لا سقماً عن القرآن ﴿قُلْ﴾ كذا قرأ عاصم وحمزة وأبو جعفر بصيغة الأمر موافقاً لما بعده والباقون بصيغة الماضي أي قال عبد الله ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فما لكم تجتمعون على إبطال أمري أو المعنى قال عبد الله حين اشتاق الجن إلى كلامه إنما أدعوا ربي فادعوا أنتم أيضاً كدعائي ولا تشركوا به أحداً، وقال مقاتل قال كفار مكة للنبي ﷺ لقد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن بخيرك فنزلت هذه الآية وما بعدها ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ يعني ضراً ولا نفعاً أو غياً ولا رشداً عبر عن أحدهما باسم وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعاراً بالمعنيين ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ متلجأ أميل إليه إن أراد في سوء وهذين الجملتين المستأنفتين كأنهما في جواب ما أقول حين يقول الكفار الذين اجتمعوا لإبطال أمري إنك إن كنت نبياً فائتنا بعذاب من عند

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة (٤٩٠).

الله أويقول الكفار ارجع عن دينك فنحن بخيرك، ويحتمل أن يكون الجملة الأولى في جواب ما أقول في وقت اشتياق الجن إلى رؤيتي ولقائي فإن ازدحامهم علي دل على زعمهم بأن النبي ﷺ يملك لهم ضراً ورشداً أو الجملة الثانية تأكيد لمضمون السابقة على عجز النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر له أن جنياً من الجن من أشرافهم إذ اتبع قال: إنما يريد محمد أن نجيره وأنا أجيره فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ الآية ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ كائناً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطف على بلاغاً والاستثناء إما من قوله لا أملك فإن التبليغ إراشد وإنفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة فلا يلزم الفصل بأجنبي يعني لا أملك لكم من رفع الضر أو إيصال الرشد إلا التبليغ والرسالة فإن أملكه وإما من قوله أحداً وملتحداً على سبيل التنازع وإعمال الثاني يعنيلا يجيرني من الله أحد من دونه ملتحداً إلا التبليغ والرسالة فإن التبليغ والرسالة فريضة من الله تعالى يجيرني من عذاب الله ويعذبني الله إن لم أفعل كذلك، قال الحسن ومقاتل قيل المعنى لا أملك لكم خيراً ولا شراً ولا رشداً ولكن بلاغاً من الله ورسالة ثابت وقيل: إلا مركب من أن الشرطية ولا النافية وجزاء الشرط المحذوف اكتفاء بما مضى يعني أن لا أبلغكم بلاغاً كائناً من الله ورسالاته لن يجيرني من الله أحد ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيد ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أفرد ضمير يعص الله وضمير له نظراً إلى لفظة من وجمع ضمير خالدين نظراً إلى معناه وجملة ومن يعص الله معطوفة على مقدر يعني أبلغ لك بلاغاً من الله ورسالاته فمن يطع الله ورسوله فأولئك تحروا رشداً ومن يعص الله ورسوله الآية حتى إذا رأوا أي الكفار غاية لقوله تعالى: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ إن كان المراد به اجتماع الكفار لإبطال أمر النبي ﷺ وإلا فهو غاية لمحذوف دل عليه الحال من استضعاف الكفار له وعصيانهم له كأنه قيل لا يزالون يعصونه ويستعضفونه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا﴾ إما العذاب في الدنيا كوقعة بدر وإما الساعة ساعة الموت فإن من مات فقد قامت له القيامة المشتملة على جهنم والساعة أدهى وأمر ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حين حلوله بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم النبي ﷺ جملة استفهامية قائمة مقام المفعولين لقوله تعالى فسيعلمون قال بعض الكفار متى هذا الوعد فنزل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ أَدْرِيٓ﴾ لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبر مبتدأ بعده أو مبتدأ من القسم الثاني وما بعده فاعله ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب أو الساعة ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ﴿أَمَدًا﴾ غاية وأجلاً لتطول مدتها لا يعلمه إلا الله والجملة الاستفهامية قائم مقام مفعولي إن أدري ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾صفة ربي أو خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب لا

غيره فكأنه تعليل لقوله لا أدري، والمراد بالغيب ما لم يوجد بعد كأخبار المعاد أو انعدام بعد الوجود كأخبار المبدأ والقصص الماضية التي انقطعت الرواية عنها وإما ما غاب عن العباد من أسماء الله تعالى وصفاته التوقيفية التي لا يدل عليه البرهان، وأما ما قام عليه الدليل والبرهان كوجوده تعالى وجوبه وتوحده وكونه متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن سمات النقص والزوال فليس من الغيب من الشهادة لشهود ما يدل عليه من العالم وكذا مسألة حدوث العالم مثلاً ليس من الغيب بل من الشهادة لمشاهدة قابلية التغير الدال على الحدوث وهذه الأقسام من الغيب لا يمكن العلم بها إلا بتوفيق من الله تعالى، ومن الغيب ما هو غيب بالنسبة إلى بعض دون بعض كأحوال الجن وأحوال بعض أشياء البعيدة غيب بالنسبة إلى الإنس دون الجن ومن ثم زعم الإنس أن الجن يعلمون الغيب وهم لا يعلمون إلا ما يشهدونه قال الله تعالى في قصة سليمان ﷺ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[١] وكأحوال السماوات بالنسبة إلى أهل الأرض دون أهل السماء وأحوال المشرق بالنسبة إلى أهل المغرب وهذا القسم من علم الغيب قد يحصل بالوحي والإلهام وقد يحصل برفع الحجب وجعلها مثل الحجب الزجاجة، روى مسلم عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لقد رأيتني في الحجر وقريش سألتني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله فرفعه الله إلي لأنظر إليه ما يسألني عن شيء إلا أنبأتهم»[٢] وروى البيهقي عن عمر أن عمر بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح يا سارية الجبل، وروى أبو داود عن عائشة قالت: لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور[٣]، وعند رفع الحجب لا يكون هذا من علم الغيب بل من علم الشهادة وإن كان من قبيل المعجزة أو الكرامة ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من الخلق ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ العائد إلى الموصول محذوف فإنه يطلع من ارتضاه أحياناً ليكون معجزة ويبشر المطيعين ومنذر العاصين ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أعم من البشر والملائكة ويشتمل لفظة الرسول الأنبياء أيضاً قال الله تعالى أرسلهم إلى الناس لتبليغ الأحكام وتخصيص لفظ الرسول بمن أرسله الله بشريعة جديدة وكتاب اصطلاح وقيل: بل يشتمل الأولياء أيضاً بعموم المجاز، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النور يرى عند قبر الشهيد (٢٥٢١).

«العلماء ورثة الأنبياء»(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي في حديث عن كثير بن قيس وابن البخاري عن أنس وابن عدي عن علي بلفظ «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء أو ورثتي وورثة الأنبياء» وابن عقيل عن أنس بلفظ «العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا» الحديث وقال أهل السنة والجماعة كرامات الأولياء معجزة لنبيهم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾(٢) وقد بعث الله تعالى خاتم النبيين إلى كافة فاعتبر أهل السنة أتباعه ﷺ من العلماء والأولياء لساناً له ﷺ حتى يستقيم الحصر واستغراق الإضافة في لسان قومه فعلى تقدير شمول لفظ الرسول للأولياء لا يلزم نقص بحصول علم الغيب لهم على وجه الكرامة وعلى تقدير عدم شموله نقول المراد بالعلم العلم القطعي والعلم الحاصل للأولياء بالإلهام وغيره ظني ليس بقطع، ومن ثم قالت الصوفية العلية إنه لا بد من عرض العلوم الحاصلة للصوفية على الكتاب والسنة فإن طابقت قبلت إذ المطابق للقطع قطعي وإن خالفت ردت قالوا: كل حقيقة ردته الشرع فهو زندقة وإن كانت الشريعة عنها ساكتة قبلت مع احتمال الخطأ فاندفع ما قال صاحب الكشاف بناء على اعتزاله إن في هذه الآية إبطال لكرامات لأن الذين يضاف إليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا الرسل الخ، وكفى التكذيب أهل الهواء قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾(٥) فإن أم موسى وأم عيسى والحواريين لم يكونوا أنبياء واعلم أن ما ذكرت لك أن العلم الحاصل للأولياء ظني، المراد به العلم الحاصل علماً حصولياً وذلك قد يكون بالإلهام

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٢٦.

بتوسط الملك وبغير توسطه وقد يكون بكشف الحجب كما ذكرنا في حديث عمر يا سارية الجبل ومن هذا القبيل ما قيل: إنه قد ينكشف على بعض الأولياء في بعض الأحيان اللوح المحفوظ فينظرون فيه القضاء المبرم والمعلق وقد يكون بمطالعة عالم المثال في المنام أو المعاملة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة»[١] متفق عليه، وعن أبي هريرة قال قال: رسول الله ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة» رواه البخاري، وهذه الأنواع من العلم قد يقع فيه الخطأ بغير الأنبياء لوقوع الغلط وتخليط الشيطان في الإلهام فإن في قلب بني آدم بيتان في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فأحياناً يلتبس لمة الملك بلمة الشيطان وقوع تخليط الوهم وتلبيس الشيطان في الكشف ورؤية عالم المثال، عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان»[٢] متفق عليه، وقال محمد بن سيرين قال: «الرؤيا ثلاث حديث النفس وتخويف الشيطان وبشرى من الله» متفق عليه ووقوع الغلط في تأويل الرؤيا لكن ووقع الخطايا في علوم الأولياء نادر لتشبههم بالأنبياء فالأنبياء معصومون والأولياء محفوظون غالباً وأما العلم الحاصل للأولياء علماً حضورياً بل فوق الحضوري وهو العلم المتعلق بذات الله تعالى وصفاته المسمى بالعلم اللدني فهو لا يحتمل الخطأ وهو قطع وجداني بل فوق القطعي لأن علم المرء بنفسه علم حضوري وجداني فإنه بحضور نفس المعلوم عند العالم من غير حصول صورة فيه وعلم الصوفي بالله فوق هذا العلم لأن الله تعالى قرب من نفسه بنفسه قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾[٣] أيها العوام ويبصره من أبصره الله تعالى وهذا العلم اللدني يحصل للأولياء بتوسط الرسول ﷺ ولو بوسائط. فإن قيل: نحن أقرب إليكم منكم خطاب لسائر الناس ويلزم منه أن يكون لسائر الناس علماً بالله تعالى حضورياً فوق علمه بنفسه؟ قلنا: نعم لكن العلم تابع للحياة لا يتصور بدونها وقد ذكر في تفسير سورة الملك أن الحياة على أربعة أقسام منها ما يستتبع المعرفة وتلك الحياة بالتجليات الذاتية والصفاتية ولأجل حصول هذه الحياة الاكتساب والتصوف. فإن قيل لو

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا من الله (٦٩٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦١).

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٨٥.

كان هذا العلم الثاني قطعياً لما أخطأه فيه ولما تعارض أقوالهم وقد يخطئون كما يدل عليه تعارض أقوالهم المقتضى خطأ أحد المتنافيين فإنه يقول بعضهم بالتوحيد الوجودي وبعضهم بالتوحيد الشهودي ونحو ذلك؟ قلت: هذا الخطأ إنما يقع في علم العلم الذي من قبيل العلم الحصولي دون نفسه وقد يقع في بيانه وتصويره حيث لم يوضع لهذه المعاني ألفاظ في اللغات قال الشاعر:

المراد بالكفر في هذا الشعر كفر الطريقة المسمى بالتوحيد الوجودي وبالدين الشريعة، وفذلكة الكلام في هذا المقام أن بين الخالق والخلق نسبة ليست بين أي الشيئين فرضتا من الأشياء إذ لا خالق إلا هو فلا يمكن أن يشتبه تلك النسبة بما عداها من النسب لا يقال: ليس نسبة الخالق مع المخلوق كنسبة النقش مع النقاش أو نسبة القدح مع الفجار لأنه ليس كذلك فإن القدح مادته الخشب والنقش مادته اللون ونحو ذلك مخلوقة لله تعالى والصورة الخاصة بعد فعل النجار أيضاً مخلوقة لله تعالى وفعل النجار أيضاً مخلوق لله تعالى رغم أنف المعتزلة، والنجار إنما هو كاسب لبعض من المعاملات فما لكم لا تعقلون ولما كانت النسب التي تدرك في العقل بين أي الشيئين الموجودين في الخارج أو الذهن من العينية والغيرية والظلية وغيرها مسلوبة من تلك النسبة وهي وراء النسب ولم يوضع لها لفظ يدل عليها فقد يعبر عنها بأنه تعالى ليس عين خلقه فيوهم أنه غيره أو أن الخلق ظله وقد يعبر بأنه ليس غير الخلق وليس هناك نسبة الظلية فيوهم أنه عين الأشياء ثم قد يطلق بالمجاز باعتبار الملازمة بين العينية وسلب الغيرية في الأذهان بأنه تعالى عين الأشياء كلها كذا قد يقال بأنه غيرها، وقد يقال إنها ظل وليس ذلك الاختلاف والتعارض إلا في مراتب العلم الحضوري في تعبيراتهم لضيق العبارات وأحسن التعبيرات في هذا المقام قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(١)] والمقصود من التصورات هو هذا العلم اللدني دون العلوم الحاصلة في الظنون فإنه لا اعتداد بها وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً والله تعالى أعلم. فإن قيل: سلمنا أن علوم الأولياء داخلة في المستثنى أو خارجة من المستثنى منه لكونها ظنية فما قولكم في علوم الكهنة والمنجمين وعلم الأطباء بالأمراض وبما فيه شفاء المريض وبخواص النباتات ونحوها فإن الأخبار والتجربة تشهد على صدق بعض أخبارهم. روى البخاري عن ابن الناطور حديث صاحب إيليا وقد أسلم يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

النفس فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك، وقال ابن الناطور وكان هرقل ينظر في النجوم فقال لهم حين سألوه إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر الحديث[١]، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برؤيته وكان نظيره في العلم فأتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي وقد صح أن الكهنة والمنجمون أخبروه الخروج بموسى لفرعون وبزوال ملكه على يد غلام من بني إسرائيل حتى كان فرعون يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم قلنا: أما علم الكهنة فما كان منها مطابقاً للواقع فذلك استراق السمع من الملائكة والملائكة رسل الله لكن الكهنة والشياطين يختلطون فيه أكاذيب ولذلك نهى الشرع عن تصديقهم ثم قد منع الجن بعد مبعث النبي ﷺ عن الاستراق إما مطلقاً أو غالباً فبطل الكهانة، عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهان وقيل: إنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة»[٢] متفق عليه، وأما علم الطب والنجوم فمبناهما إما التجارب وذلك من علم الشهادة دون الغيب والأظهر أن ذينك العلمين أعني العلم بخواص الأدوية والطبائع وكذا بخواص النجوم من السعادة والنحوسة وغيرها مقتبسان من علوم الأنبياء فبقي العلمان في الكتب ونسجت عناكب النسيان على سلاسل المرواة واكتفوا بشهادة التجارب في معرفتها قال الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾[٣] أي ساقم، وذكر البغوي في تفسير سورة سبأ أن سليمان عليه السلام ما يأتي عليه يوم إلا تثبت في محراب بيت المقدس شجرة فيسألها من اسمك؟ فتقول: اسمي كذا فيقول: لأي شيء أنت؟ فيقول: لكذا وكذا فأمر بها فينقطع فإن كانت بنت الغرس غرس لها: وإن كانت الدواء كتب حتى تنبت الخروبة فقال لها ما أنت؟ قالت: الخروبة، قال: لأي شيء أنبتت؟ قالت: لخراب مسجدك، كذا ذكر الإمام حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله في رسالة المنقذ من الضلال ثم إن علم الطب والنجوم ليسا بوجبان للقطع فإن التأثيرات المودعة في الأدوية والكواكب أمر عادي جرت العادة الإلهية على خلق تلك الآثاربعد استعمال تلك الأدوية وبعد طلوع تلك النجوم ويتخلف تلك الآثار عنها كثيراً إن شاء الله

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوي أنه ليس بحق (٦٢١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٨).

(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٨.

ومن ههنا يعلم أن من استدل بالنجوم على شيء وزعم أن الله تعالى يفعل كذلك بعد طلوع ذلك النجم جرياً على عادته فلا يكفر كمن زعم أن الله تعالى يخلق الشفاء بعد شرب الدواء ويخلق الموت بعد شرب السم وأما من زعم أن حدوث ذلك الشيء بذلك النجم فيكفر كما زعم أن الدواء علة تامة على الشفاء. عن زيد بن خالد الجهني قال صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قد أصبح قوم من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي والكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرين ومؤمن بالكواكب»[(١)] متفق عليه، فهذا الحديث إنما يدل على كفر الثاني دون الأول غير أن الاشتغال بالنجوم مطلقاً مكروه لكونه مما لا يعنيه قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد وما زاد»[(٢)] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس، وكذلك علم النقاط والخطوط الذين يسمونها إملاء فهو أيضاً مقتبس من الأنبياء ويفيد ظناً لا قطعاً وأما الطيرة فليس بشيء، عن معاوية بن الحكم قال قلت يا رسول الله أمور كما نصنعه في الجاهلية كنا نأتي الكهان، قال فلا تأتوا الكهان، قال قلت كنا نتطير قال ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم، قال قلت ومنا يخطون قال: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن كان وافق خطه فذاك»[(٣)] رواه مسلم، وكذلك علم السحرمنزل من السماء لكنه كفر قال الله تعالى: ﴿ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا﴾[(٤)] وقد مر في سورة البقرة. فإن قيل قد يظهر علم الغيب على أهل الجوع والرياضة من الكفار استدراجاً؟ قلنا: منشأ ذلك العلم الكشف أو مطالعة عالم المثال والكشف ومطالعة عالم المثال يكون إذا تجلى للوصفي مشارعة الظاهرة والباطنة إما باتباع الريعة ونور السن ويسمى بفراسة المؤمن وإما بالجوع والرياضة ومخالفة النفس فحينئذ تنكشف الحجب عن بعض المغيبات في بعض الأحيان أو عن الصور المثالية فيرى ذلك عياناً فهو من العلم بالشهادة وليس من الغيب في شيء على أنه لما كان

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الكهانة والتطير، باب: في النجوم (٣٩٠٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

العلم الحاصل لأولياء الله تعالى بالكشف والمثال كشفاً ظنياً محتملاً للخطأ فكيف العلوم الحاصلة للكفار فإنهم تلامذة للشياطين ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾(١) ولكن الله يفعل ما يريد ومما يدل على أن المراد بظهور الغيب في تلك الآية هو العلم القطعي الذي لا يكون للشيطان إليه سبيل قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُ﴾ الفاس للسببية لأن الله تعالى ﴿يَسْلُكُ﴾ أي يجعل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ذكر بعض الجهات وأراد جميعها ﴿رَصَدًا﴾ جمع راصد أي حفظة من الملائكة يحفظونه من الشيطان أن يسترق السمع ويخلطوا في الوحي بما ليس منه، قال مقاتل وغيره كان إذا بعث الله رسولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره فبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردوا الشياطين فإذا جاء الشيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان فاحذره وإذا جاء ملك قال له هذا رسول ربك ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(٢) ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الله، أي ليتعلق علمه به موجوداً نظيره قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾(٣) متعلق بقوله تعالى يسلك علة للحفظ من الشياطين ﴿أَن﴾ مخففة من المثقلة اسمها ضمير الشأن محذوف ﴿قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي الرسل ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كما هي والمعنى ليوجد من الرسل تبليغ رسالات بهم بلا تغيير وتخليط، وقيل: ضمير ليعلم عائد إلى الرسول أي ليعلم الرسول قطعاً ولا شك أنه قد أبلغ هو وإخوانه من الرسل رسالات ربهم ولم يقع فيه تغيير وتخليط من الشيطان أو ليعلم الرسول أنه قد أبلغ الملائكة رسالات ربهم ولم يتطرق فيه شيطان، وقرأ يعقوب ليعلم بضم الياء على البناء للمجهول أي ليعلم الناس قطعاً أن الرسل قد بلغوا ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي ما علم الله عند الرسل لا يخفي عليه شيء ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ عدد مثاقيل الجبال وميكائيل البحار وعدد قطرات الأمطار وعدد ورق الأشجار وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليها النهار ونصب عدداً على الحال أو على المصدر أي عدد عدداً أو التميز أي أحصى عدد كل شيء والله أعلم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) الآية هي: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ سورة الحديد، الآية: ٢٥.
وربما كان يقصد الآية في سورة المائدة ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ رقم ٩٤.

سورة المزمل

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ التزمل من تزمل ثيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاء ومثله المدثر تدثر بثوبه إما القطع كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة ثم خوطب بعده بالنبي والرسول وقد تزمل رسول الله ﷺ ثيابه في بد، والوحي خوفاً منه لهيبته، عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي «فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت السماء بصري فإذا الملك الذي جاء في حراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه رعباً حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى قوله ﴿فَٱهْجُرْ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع»[١] متفق عليه، وفي حديث عائشة في الصحيحين في حديث طويل أنه ﷺ دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع وسنذكر هذا الحديث إن شاء الله تعالى في سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وأخرج البزار والطبراني بسند ضعيف عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سموا هذا الرجل اسماً يصدر الناس عنه، قالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس مجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، فبلغ النبي ﷺ فتزمل ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ (٤٩٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦١).

﴿قُمِ﴾ أي صلّ، عبر عنها بالقيام تسمية بالشيء باسم جزئه وركنه وهذا يقتضي كون القيام ركناً للصلاة وعليه انعقد الإجماع ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ ظرف زمنا وحذف حرف الجر يدل على الاستيعاب كما يقال: صمت شهر الخلاف صمت في الشهر ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بهذا الاستثناء بقي الحكم بقيام بعض الليل ولما كان الاستثناء مبهماً طرق الإبهام في المستثنى منه فصار المحكوم به محمداً لا بد من بيان نبيه الله تعالى بقوله ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ فهو بدل من الليل المستثنى منه القليل بدل الكل فإن الاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا فتقدير الكلام قم بعض الليل أي نصفه، وقيل: هو بدل من القليل وبيان له وببيان المستثنى تبين الباقي ويزول الإبهام وحينئذ تقدير الكلام قم الليل إلا نصفه والمعنى واحد وإطلاق القليل على النصف بالنسبة إلى الكل ولأن عدم القيام أي النوم في نصف الليل قليل من النوم المعتاد فإن الله تعالى جعل الليل لتسكنوا فيه ولأنه إذا قام نصف الليل للتهجد بقي نصف الآخر وفيه صلاة المغرب والعشاء وحوائج البشر من الأكل والشرب والخلاء فلم يبق لأجل النوم إلا قليل من النصف، وقيل: نصفه بدل من الليل والاستثناء منه أي من النصف وتقديره قم نصف الليل إلا قليلاً فحينئذ يلزم الاستثناء من النصف قبل ذكره مع أن كلمة نصفه حينئذ بدل البعض من الليل وحكم بدل البعض في القصر حكم الاستثناء فمقتضى الكلام تقديم القصر بالاستثناء على القصر بالبدل وأيضاً يلزم حينئذ كون الكلام مجملاً بعد البيان ﴿أَوِ ٱنقُصۡ﴾ عطف على قم الليل ﴿مِنۡهُ﴾ أي من النصف الباقي بعد الاستثناء ﴿قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً أو نقصاناً قليلاً وذلك أن يكون القيام أكثر من نصف النصف أي الربع ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على النصف ما شئت فالمأمور به في هذه الآية القيام أكثر من الربع لو ساعة والظاهر أن الأمر بالقيام في هذه الآية للوجوب كما هو مقتضى الأمر في الأصل فمقتضى الكلام البغوي وهو المستفاد من قول عائشة وغيرها أن قيام الليل بهذه الآية كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته ثم نسخ، قال البغوي كان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير فكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب واشتد ذلك عليهم حتى انتفخت أقدامهم فرحمهم الله تعالى وخفف عنهم ونسخها بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾[(١)] وكان بين أول السورة وآخرها سنة. عن سعيد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خُلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قالت: فإن خلق نبي الله كان القرآن، قلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين قالت: ألست تقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٤﴾ قلت: بلى قالت: فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله تعالى فأتمتها اثني عشر شهراً في السماء ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة[(١)] رواه أبو داود والنسائي والبغوي وكذا أخرج الحاكم وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس وغيره قال مقاتل وابن كيسان كان هذا بمكة قبل أن يفرض الصلوات الخمس ثم نسخ ذلك بالصلاة والخمس والظاهر عندي أن الوجوب كان مختصاً بالنبي ﷺ بدليل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾[(٢)] فإن كلمة من للتبعيض صريح في أن الصحابة بعضهم كانوا يقومون دون بعض. فإن قيل: لو كان وجوبه مختصاً بالنبي ﷺ فكيف يصح تعليل التخفيف لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٣)] فإن هذه الآية يقتضي رعاية حال الأمة وضعفهم؟ قلنا: خفف الله سبحانه عن النبي ﷺ لرعاية ضعف الأمة وأعذارهم لأن الناس بما واظب عليه النبي ﷺ مسنون للأمة مطلوب الإتيان منهم من غير إيجاب بحيث يلام تاركه قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾[(٤)] وما قيل: إن المسنون ما واظب عليه النبي ﷺ على سبيل التطوع احترازاً عن صوم الوصال ونحوه فليس بشيء لأن الأصل التأسي والاقتداء مطلقاً فلا يترك إلا إذا كان ذلك الأمر ممنوعاً محرماً أو مكروهاً في حق الأمة كصوم الوصال ووصل النكاح فوق الأربعة وغير ذلك ولا وجه لتخصيص التأسي بما واظب النبي ﷺ على سبيل التطوع ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ عطف على قم الليل وما قيل الترتيل مندوب إجماعاً فعطفه على القيام يقتضي كون الأمر بالقيام أيضاً للندب فليس بشيء. عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[(٥)] رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي، والترتيل عبارة عن إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة كذا في الصراح وفي القاموس نحوه، وعن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في صلاة الليل (١٣٤٠).

(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٣).

ابن عباس معناه بينه بياناً وعن الحسن نحوه، وقال مجاهد ترتيل فيه ترسلاً عن قتادة قال: سئل عن أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم[١] رواه البخاري، قلت: معنى قوله يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم أنه يظهر فيه الألف من الله بعد اللام ومن الرحمن بعد الميم بقدر حركة وأما مد الرحيم فيجوز فيه المد بقدر الحركتين وأربع وست عند الوقف وفي الوصل لا يجوز إلا بقدر حركة أجمع عليه القراء. وعن أم سلمة أنها سئل عن قراءة النبي ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً[٢] رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وعنهما قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول الحمد لله رب العالمين ثم يقول الرحمن الرحيم ثم يقف رواه الترمذي، قلت: ويتضمن الترتيل تحسين الصوت بالقرآن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»[٣] متفق عليه، وفي رواية عنه «ما أذن الله ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به» متفق عليه وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» رواه البخاري، وليس المراد إلا تحسين الصوت كما خرج به في بعض الروايات دون إخراجه على وجه الغناء فإنه حرام ممنوع عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه البيهقي في شعب الإيمان.

فائدة:

والحكمة في الترتيل التدبر في معاني القرآن والألفاظ بموعظة والخوف عند آية الوعيد والرجاء عند آية الوعد ونحو ذلك، روى البغوي عن ابن مسعود قال: لا تنتثروه نثر الدقل ولا تهزوه هز الشعر قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة، وعن حذيفة قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الليل فما مر بآية فيها ذكر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: مد القراءة (٥٠٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء كيف كان قراءة النبي ﷺ (٢٩٢٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (١٠١٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن (٥٠٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢).

الجنة إلا وقف وسأل الله الجنة وما مر بآية فيها ذكر النار إلا وقف وتعوذ من النار، وعن عبيد المليكي ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار وافشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون ولا تعجلوا هرابه فإن له ثواباً» رواه البيهقي في الشعب، وعن سهل بن سعد الساعدي قال: بينا نحن نقرأ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأخيار وفيكم الأحمر والأسود والأبيض اقرؤوا القرآن قبل أن يأتي أقوام يقرأونه يقيمون حروفه كما يقام السهم ولا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأجلونه»[1] ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ قيل: المراد بالقول الثقيل الأمر بقيام الليل فإنه ثقيل شاق على النفس فهذه الجملة على هذا التأويل تذييل وتأكيد لما سبق والسين حينئذ للتأكيد دون الاستقبال وقيل: المراد به القرآن قال محمد بن كعب القرآن ثقيل على المنافقين، قلت: فهو نظير قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ﴾[2] وقال الحسن بن الفضل ثقيل في الميزان قلت: نظير قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحانه الله وبحمده سبحان الله العظيم»[3] متفق عليه عن أبي هريرة، وقال مقاتل ثقيل لما فيه من الأمر والنهي والحدود كذا قال قتادة وقال أبو العالية ثقيل بالوعد والوعيد وحاصل هذه الأقوال أنه لما فيه من التكاليف الشاقة والوعد والوعيد وذكر القيامة ثقيل على المكلفين لاسيما على الرسول الله ﷺ إذ كان عليه أن يتحملها ويحملها أمته ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «شيبتني سورة هود وأخواتها» رواه الطبراني عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة، يعني لما فيه من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[4] أو لما فيه من ذكر القيامة وعذاب الأمم الماضية يدل عليه ما رواه الحاكم عن أبي بكر بلفظ «شيبتني سورة هود والواقعة والمرسلات وعم يساءلون وإذا الشمس كورت»[5] رواه الترمذي عن ابن عباس والحاكم عن أبي بكر وابن مردويه عن سعد ونحوه عن أنس رواه عبد الله بن أحمد بلفظ «شيبتني هود وأخواتها» لما فيها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم، وقيل: ثقيل

(١) رواه أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان. انظر: كنز العمال (٢٩٠٨١).

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح (٦٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

(٤) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٧).

على التأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفيته للسر وتجريد للنظر لرزانته ومتانة معناه وهذا أوفق لما سبق وما لحق فإن الترتيل لأجل التدبر والتفهم وناشئة الليل أشد لمواطأة القلب اللسان، وقيل: ثقيل على باطن الصوفي وعظيمة فإن الخالق العظيم المتعالي يتجلى على قلب المخلوق يحقر السافل كذا قال الفراء حيث قال: ثقيل ليس بالخفيف ولا بالسفساف لأنه كلام ربنا، قال الشيخ الأجل الأكرم الهادي سبيل اليقين محبوب رب العالمين سيف الملة والدين أبد الآبدين إن علامة انكشاف حقيقة القرآن وورود ثقل عظيم على باطن السالك ومن ثم قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1] قلت: ويؤيده هذا المعرفة قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[2] وهذا معنى ما قيل ثقيل تلقيه رواه مسلم عن عبادة بن الصامت قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه[3] وفي رواية نكس رأسه وكس أصحابه رؤوسهم فلما أتلى عنه رفع رأسه، وفي الصحيحين عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً تأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[4] متفق عليه. ويحتمل أن يقال: إنه ثقيل لما فيه من الأمر بالتوجه إلى الخلق لأجل الدعوة والتبليغ والإرشاد والتكميل بقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾[5] وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[6] بعدما كان متوجهاً إلى الله تعالى مشتغلاً به تعالى حيث كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو تعبد الليالي ذوات العدد وقبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها كذا في الصحيحين في حديث عائشة، ودرجة الإرشاد والتكميل وإن كان أفضل من درجة الاستكمال والخلوة لكنه قد

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الحدود، باب حد الزنى (١٦٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: طيب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

(٥) سورة المدثر، الآية: ٢.

(٦) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

يكون عند الصوفي على خلاف الطبع فيثقل عليه ويزعمها الصوفي في بادىء الرأي أن هذا أحط مرتبة من التوجه إلى الله تعالى والخلوة به ولهذا قيل: الولاية به أفضل من النبوة يعني ولاية النبي أفضل من نبوة ذلك النبي زعماً من القائل أن في الولاية التوجه إلى الله سبحانه وفي النبوة التوجه إلى الخلق، وقال المجدد ألف ثاني ﵁ ليس هذا القول مبنياً على التحقيق بل النبوة مطلقاً أفضل من الولاية وهي عبارة عند الصوفية عن السير في الذات والولاية عن السير في الصفات وشتان ما بينهما والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى يسمى في الاصطلاح بالعروج وإلى الخلق يسمى بالنزول وكلاهما يعترضان للصوفي في كلا السيرين غير أن النازل في مقام الولاية وإن كان له توجهاً إلى الخلق لكنه لم يبلغ في العروج غاية فهو ملتفت إلى الأعالي طمعاً لغاية الكمال والنازل في مقام النبوة لا يكون نازلاً إلا بعد ما يبلغ الكتاب في الكمال أجله فهو بكلية يتوجهه إلى الخلق للتكميل على مراد الله سبحانه وتعالى وإن كانت على خلاف مراده وطبعه فهو أفضل وأكمل وهذا الجهاد باق ما دامت هذه النشأة الثانية الباقية وبعد فراغ منها يتأدى بأملهم إلى الرفيق الأعلى فحينئذ يتوجه بكليته إلى الدرجات العلى وأجر من اهتدى به على سبيل الأكمل وبالأوفى والله تعالى أعلم. وجملة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي﴾ إما تذييل وتأكيد لماسبق كما ذكرنا أو معترضة لبيان الحكمة في الأمر بقيام الليل فإن في القيام تمرين النفس على المشقة ومشق مخالفات الطبع أو لأن الصلاة كانت قرة للنبي ﷺ حيث قال: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[(١)] رواه أحمد والنسائي والبيهقي عن أنس، وقال: «أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها»[(٢)] رواه أبو داود عن رجل صحابي من خزاعة فحينئذ يكون في التهجد تحصيل ما يعالج به ثقل التوجه إلى الخلق أو لأن لقيام الليل تأثير التأثر نفسه لشريعة في نفوس الأمة كي يجيبوا دعوته حين يستمعوا قوله كما أجاب الجن دعوته حين يستمعوا القرآن أو لأن لقيام الليل مدخل في قيامه مقام الشفاعة لأنه حيث قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[(٣)] ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي مقام الليل مصدر جاء على فاعلة كعافية بمعنى العفو كذا قال الأزهري وقالت عائشة الناشئة قيام الليل بعد النوم فهو بمعنى التهجد، وقال ابن كيسان هي القيام من آخر الليل، وقال سعيد بن جبير وابن زيد أي ساعة قام من الليل فقد نشأ وهو بلسان الحبش نشأ فلان أي قام، وقال

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في صلاة العتمة (٤٩٧٧).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

عكرمة هي القيام من أول الليل، قال البغوي روي عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء الآخرة يقول: هذا ناشئة الليل والظاهر أن هذين القولين لا يلائمان هذا المقام فإنه ﷺ كان مأمور القيام آخر الليل، وقال الحسن كل الصلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة وقيل: صفة الفاعل بمعناه والمراد النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض ساعات الليل كلها وكل ساعة منه ناشئة لأنها منشىء أي مبتدأ ومن نشأت السحابة وأبدت فكل ما حدث بالليل وبدأ فقد نشأ وهو ناشيء والجمع ناشئة، وقال ابن أبي ملكية سألت عن ابن عباس وابن الزبير عنها فقالا: الليل كلهما ناشئة فالإضافة حينئذ بيانية ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمر وبكسر الواو وفتح الطاء والمد بمعنى الموافقة أي هي أشد موافقة للقلب مع اللسان فإن ذلك يكون بالليل أكث منه بالنهار وقرأ الجمهور بفتح الواو وسكون الطاء أي أشد ثقلاً من صلاة النهار لأن الليل للنوم والراحة منه قوله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضر»[1] وإذا اعتاد المرء بأشد العبادات ثقلاً هان عليه مشقة سائر التكاليف وكلما هو أشد وأثقل على النفس مع مراعاة السنة كان أكثر ثواباً وأثقل في الميزان وأشد تأثيراً في النفوس، وقال ابن عباس كانت صلواتهم أول الليل هي أشد وطأ بمعنى أجدر أن يحصوا ما فرض الله عليكم من القيام لأن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ، وقال قتادة أثبت في الخير وأحفظ للقراءة، وقال الفراء أثبت وطأ للقيام وأسهل للمضي من ساعات النهار لأن النهار خلق لتصرف العباد والليل للخلوة والعبادة، وقيل: أشد نشاطاً فإن من كان أشد على النفس ثقلاً كان ألذ للصوفي وقال ابن زيد أفرغ له قلباً من النهار لأنه لا تعرض له بالليل حوائج وموانع وقال الحسن أشد وطأ في الخير وأمنع من الشيطان ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أثبت قراءة وأصح قولاً لهدأة وسكون الأصوات ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ والسبح سرعة الذهاب ومنه السباحة في الماء يعني إن لك بالنهار ذهاباً في مهامك ولدعوة الخلق وتبليغ الأحكام واشتغالاً بها فعليك بالتهجد فإن الليل أفرغ لها فهذا بمنزلة التعليل لما سبق.

فصل في فضائل صلاة الليل

عن أبي هريرة قال: رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤).

له»[١] متفق عليه، وفي رواية لمسلم «ثم يبسط يديه ويقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم» وعن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ذلك كل ليلة»[٢] رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثة وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً»[٣] متفق عليه، وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة لكم إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهيات للإثم»[٤] رواه الترمذي، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة يضحك الله إليهم الرجل إذا قام بالليل يصلي والقوم إذا صفوا في الصلاة وإذا صفوا في قتال العدو»[٥] رواه البغوي في شرح السنة، وعن عمرو بن عيينة قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون الرب إلى العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»[٦] رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل» رواه البغوي في الشعب ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ عطف على قم الليل والمراد به دوام الذكر ليلاً ونهاراً بحيث يطرق إليه الفتور ولا يلحقه الذهول وذا لا يتصور بالسلان فإن كل ما كان باللسان والجوارح من التسبيح والتحميد والصلاة والقراءة ونحو ذلك يتطرق إليه فتور النية فليس هو إلا ذكر القلب وهو حقيقة الذكر فإن الذكر عبارة عن طرد الغفلة كما يقتضيه المقابلة في قوله ﷺ: «ذاكر الله في الغافلين بمنزلة الصابر في الغازين»[٧] فكل صلاة وتسبيح وقراءة كان عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب والذكر في آخر الليل (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: من نام عند السحر (١١٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٤٩).

(٥) رواه أحمد وأبو يعلى، وقال عنه السيوطي. صحيح انظر الجامع الصغير (٣٥٥٥).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٧٩).

(٧) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار ورجال الأوسط وثقوا.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الأذكار، باب: ذكر الله تعالى في الغافلين (١٦٧٩٣).

قلب لاه فلا يعتد به ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾[1] وإنما قلنا إن المراد عوام الذكر لأن العطف يقتضي المغايرة ومطلق الذكر يتضمنه قيام الليل وترتيل القرآن وحمل الكلام عليه أولى منه على التأكيد وقيل: معناه أن قل بسم الله الرحمن الرحيم عند ابتداء تلاوة القرآن.

مسألة:

أجمعوا على قراءة البسملة في أول الفاتحة وأول كل سورة ابتداء القارىء القراءة بها ولم يصلها بما قبلها سنة، واختلفوا في التسمية بين السورتين فكان ابن كثير وقالون وعاصم يبسملون بين كل سورتين في جميع القرآن ما خلا الأنفال وبراءة فإنه لا خلاف في ترك البسملة هناك والباقون لا يبسملون بين السور فأصحاب حمزة يصلون آخر كل سورة بأول الأخرى والمختار من مذهب ورش وعن أبي عمرو وابن عامر السكتة من غير قطع، وأما عند الابتداء بما بين السورة فالقارىء فيه مخير بين التسمية وتركها في مذهب الجميع هذا في القراءة خارج الصلاة وأما إذا قرأه في الصلاة فقال الشافعي هي آية من الفاتحة ومن كل سورة فيجب قراءتها مع الفاتحة ويسن قراءتها مع غيرها ويبسمل جهراً وقال الأئمة الثلاثة ليست هي جزءاً من شيء من السور، قال أبو حنيفة هي آية من القرآن نزلت للفصل فلا يقرأ البسملة وعند مالك في الصلاة أصلاً ولا مع الفاتحة ولا مع غيرها، وعند أبي حنيفة وأحمد يسن قراءتها مع الفاتحة سراً ولا يقرأ مع غيرها من السور وفي رواية عن محمد يستحب أن يقرأ سراً مع كل سورة وقد ذكرنا في تفسير سورة الفاتحة الحجة على أنها ليست من الفاتحة ولا من شيء من السور وأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين لم يجهروا بها في الصلاة، وقد ذكر الشافعية في الجهر بالتسمية تسعة أحاديث رواه دارقطني والخطيب أورد كلها ابن الجوزي، وقال ابن الجوزي قال الدارقطني كل ما روي عن النبي ﷺ في الجهر بالتسمية فليس بصحيح فأما عن الصحابة فمنه صحيح ومنه ضعيف، وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وكان مسيلمة يدعى رحمن اليمامة فقال أهل مكة إنما يدعوا محمد الله يمامة فأمر الله رسوله فأخفاها حتى مات. وهذا يدل على أن يجهر بها، وقدم الجهر بالبسملة مروي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعمار بن ياسر وعبد الله بن مغفل وابن الزبير وابن عباس ومن كبار التابعين منهم الحسن والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وعمر وبن عبد العزيز والأعمش والثوري وإنما يرون خلاف هذا عن معاوية وعطاء وطاوس ومجاهد

---

(١) سورة الماعون، الآية: ٤ ـ ٥.

كذا قال ابن الجوزي ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي انقطع عما سواه ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿تَبْتِيلًا﴾ مصدر من غير بابه وضع موضع تبتلاً لرعاية الفواصل والإشارة إلى أن التبتل في الغالب أمر كسبي يحتاج إلى تعمق واجتهاد فالتبتيل مقدم على التبتل ومن ثم قال الحسن في تفسيرها اجتهد، وقال ابن زيد التبتل رخص الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله فكأنه قال: تبتل قلبك عما سوى ربك تبتيلاً فتبتل لله تعالى وليس المراد بالتبتل ترك الملاقاة بالناس أو التقصير في أداء حقوق العباد أو قطع نحوذلك مما أمر الله به أن يوصل إذ لا رهبانية في الدين وإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولضيفك عليك حقاً بل المراد به قطع العلاقة الحسية والعلمية عن القلب وهو معنى القلب، قالت الصوفية العلية الطريق الذي نحن بصدده قطعه خطوتان الخطوة الأولى الانقطاع عن الخلق والثانية الوصول إلى الحق وأحدهما لازم للآخر ومن ثم ذكر الله سبحانه كلا الخطوتين بالعطف بالواو الذي هي للجمع وقدم قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ الذي هو عبارة عن الوصول إلى الحق على التبتل لأنه هو المقصود بالتبتل وإنما قلنا إنه عبارة عن الوصول لأن الذكر الذي لا يتطرق إليه الفتور ولا يستعقبه الذهول هو العلم الحضوري إذ لا يتصور ذلك في العلم الحصولي بداهة والعلم الحضوري عبارة عن حضور نفس المعلوم عند العالم وذلك يعبر بدوام الحضور والوصول والاتصال والاتحاد والبقاء ونحو ذلك بألفاظ شتى وكانت الأوائل يعبرون عنها بالإخلاص قال ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية أخلص الله إخلاصاً وإنما قال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ولم يقل واذكر ربك لأن الملازم للتبتل الذي هو المعبر بالفناء وإنما هو علم الأسماء والصفات دون العلم المتعلق بالذات فإنه بعد وراء الوراء، ويحتمل أن يكون المراد بالذكر الذكر باللسان بموافقة القلب وبدوام الذكر الدوام العرفي بمعنى الإكثار بقدر الطاقة البشرية وذلك يفضي إلى التبتل ووسيلة إليه بشرط الاجتباء عن الله تعالى كما يكون للأنبياء والأفراد من الأولياء أو جذب من الشيخ وعلى هذا وجه التقديم على التبتل أظهر تقدم طبعاً، واعلم أن على هذا التأويل في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى تكرير اسم الذات وفي قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على قراءة الجر إشارة إلى التصور إحاطته تعالى بالممكنات ذكر النفي والإثبات وكلا التكريرين أساسان بطريقة أرباب كمالات الولايات وعلى هذا التأويل يثبت المغايرة بين المعطوف عليه أعني قم الليل ورتل القرآن واذكر اسم ربك ويظهر أن كلاً من الأمور الأربعة الصلاة وتلاوة القرآن وذكر اسم الذات والنفي والإثبات مدار لحصول مراتب القرب والدرجات غير أن الأولين لأهل الانتهاء والآخرين لأهل الابتداء وإنما قدم الأولين على الآخرين لأن المخاطب أولاً هو النبي ﷺ وهو أكمل أهل الانتهاء والله تعالى أعلم ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو رب المشرق

والمغرب أو مبتدأ وخبره ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ الباقون بالجر على البدل من ربك وقيل بإضمار حرف القسم وجوابه لا إله إلا هو ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ الفاء للسببية فإن كونه رباً لجميع المخلوقات وتوحده بالألوهية يقتضي أن يوكل إليه الأمور كلها، وفي هذه الآية دفع توهم أن التبتل عن الخلق يوشك أن يخل في أموره المعايشة فإن الإنسان مدني الطبع لا يستغني بعضهم عن بعض فأبطل هذا الوهم بأنه تعالى رب المشرق والمغرب وما بينهما من العباد والبلاد وأفعالهم ومنافعهم والقلوب كلها بيده يصرفها كيف يشاء لا إله إلا هو لا يتصور النفع ولا الضرر من أحد إلا بإذنه وإرادته فاتخذه وكيلاً حسبك عن غيره ونعم الوكيل.

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لم تمت حتى تستكمل رزقها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» رواه البغوي في شرح السنة والبيهقي في الشعب، وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليس بتحريم الحلال وإضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا يكون بما في يديك أوثق مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك»(٢) رواه الترمذي، قال الشيخ الأجل إمامنا وقبلتنا يعقوب الكرخي إن من أول السورة إلى هذه الآية إشارة إلى مقامات السلوك من الخلوة بالليل والاشغال بالقرآن وذكر الرحمن ونفي ما سواه والتوكل به ثم أشار إلى أعلى مقامات السلوك وهو أبصر على جفاء الأعداء فقال:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي الكفار من الخرافات فإنهم كانوا يقولون كاهن شاعر

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله (٢٣٤٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوكل واليقين (٤١٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الزهادة في الدنيا (٢٣٤٠).

مجنون ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ بأن تجانبهم ولا تكافئهم وتكل أمرهم إلى الله هذه الآية نسختها آية القتال ﴿وَذَرۡنِي﴾ أي دعني ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أي مع المكذبين فإن الواو بمعنى مع ولا يجوز أن يكون للعطف والمعنى كِل أمرهم إلى فإن لي غنية عنك في مجازاتهم ولا يحزنك أقوالهم ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أرباب النعمة يريد صناديد قريش ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً أو إمهالاً قليلاً إلى أن يموتوا أو يأتي أمر الله بالقتال فيعذبهم الله بأيديكم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم، قال مقاتل بن حبان: نزلت فيمن هلكوا ببدر فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى قتلوا ببدر ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ﴾ تعليل للأمر ﴿أَنكَالٗا﴾ النكل القيد الثقيل، أخرج البيهقي عن الحسن قال: الأنكال قيود من النار ﴿وَجَحِيمٗا وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ غير مبالغة تأخذ بالحلق لا تنزل ولا تخرج، أخرج ابن جرير وابن أبي الدنيا في صفة النار والحاكم والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ قال: شجرة الزقوم، وأخرج عبد الله بن أحمد عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الضريع شيء يكون في النار شبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار إذا أطعم صاحبه لا يدخل البطن ولا يرفع إلى الفم فيبقى بين ذلك لا يسمن ولا يغني من جوع» ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أخرج ابن أبي الدنيا عن حذيفة مرفوعاً «إنها لتسقط عليهم أي على أهل النار وحيات من النار وعقارب من نار ولو أن حية منها نفخت بالمشرق أحرق من في المغرب ولو أن عقرباً منها ضربت أهل الدنيا أحرقوا من آخرهم وإنها لتسقط عليهم فيكون بين لحومهم وجلودهم» وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب هو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»(١) وأخرج مسلم عن النعمان بن بشير: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً» وأخرج الحاكم عن أبي هريرة نحوه ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ ظرف لما في لدينا أنكالاً من معنى الفعل والظاهر أن رجفة الأرض والجبال يكون قبل النفخة الأولى وعذاب الكفار بالأنكال والجحيم بعد البعث فوجه الظرفية أن يوم القيامة زمان ممتد مما قبل النفخة الأولى أن يدخل أهل الجنة وأهل النار النار ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ عطف على ترجف، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أي رملاً سائلاً قال الكلبي هو الرمل الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك ما بعده ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولٗا﴾ في الكلام التفات فإن فيما سبق من الكلام كان الخطاب مع النبي ﷺ وذكر الكفار في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخ إلى الغيبة وهذا خطاب مع الكفار وذكر

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أهون أهل النار عذاباً (٢١٢).

النبي ﷺ على الغيبة وفي هذا الكلام تأكيد لما سبق قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ ومضمون هذه الآية إنا أرسلناك فمضمون الآيتين واحد.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ بالإجابة أو الامتناع ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾ صفة لمصدر محذوف أي إرسالاً كإرسالنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعن موسى ﷺ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ موسى ﷺ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديداً ثقيلاً بعد طعام وبيل أي ثقيل لا يستمرىء ومنه الوابل المطر العظيم أغرقه الله تعالى في البحر ثم أدخله في النار فكذا يفعل بكم إن تعصوا رسولكم ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ يا أهل مكة برسولكم ﴿يَوْمًا﴾ أي عذاب يوم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه وظرف متعلق بتتقون أي كيف تتقون العذاب في يوم ويحتمل أن يكون مفعولاً لكفرتم أي كيف تتقون العذاب إن كفرتم يوماً أي بيوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ من شدة هوله وطول زمانه فإنه هذا على الغرض أو التمثيل وأصله إن بالهموم يضعف القوي يسرع الشيب وشيباً جمع أشيب كما أن بيضاً جمع أبيض عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله تعالى يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك قال: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف، ثم قال: والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[1] متفق عليه، وهذه الجملة صفة ليوم والعائد ضمير الفاعل على المجاز كما في قولهم صام نهاره والعائد محذوف لقديره يوماً يجعل الله فيه الولدان شيباً ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ عظمتها وإحكامها ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ منشق والتذكير على تأويل الشفق أو إضمار كلمة شيءأي شيء منفطر ﴿بِهِۦ﴾ أي بذلك اليوم أي بشدته فكيف غير السماء الجملة صفة ثاينة ليوماً ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ هذه الجملة صفة ثالثة ليوماً والوعد مصدر مضاف إلى ضمير المفعول العائد لى اليوم أو العائد محذوف والمصدر مضاف إلى الفاعل أي كان وعد الله بالعذاب فيه مفعولاً أو رد الجملتين معطوفتين بغير العطف على طريقة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون هذه الأة نصف أهل الجة (٢٢١).

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآيات نلقيه عليك ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تذكر العباد المبدأ والمعاد وتوضيح السبيل الموصل إلى الله تعالى إلى جوده وإلى إنعامه ورضوانه والرشاد ﴿فَمَن شَآءَ﴾ التذكر وسلوك السبيل إلى ربه ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ الفاء للسببية أي ليس السبيل إلى الله تعالى إلا التذكرة فإنه سبحانه أقرب إلينا من أنفسنا وليس الحجاب بيننا إلا حجاب الغفلة وحجاب العظمة والكبرياء منه تعالى، وإلى تلك الحجب أشار النبي ﷺ: «إن الله تعالى سبعون ألف حجاباً من نور» وظلمة فحجب العظمة والكبرياء حجب نورانية قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»[١] وحجب الغفلة العباد حجب ظلمانية لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وكشف تلك الحجب يتيسر بالتذكير فإن التذكير يذيل الغفلة ويستوجب المحبة للمعية كما قال رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب»[٢] فالمحبة يفضي المحب إلى المحبوب بحيث الأقنعة سرادقات العظمة والكبرياء وإحراق سبحات الوجه كناية عن الفناء والبقاء وإن كان ذلك في مرتبة العلم، قيل: الجملة مضمونها التحير وهو مجاز عن التهديد.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝٢٠﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أي أقرب ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ قرأ هشام بسكون اللام والباقون بضمها ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون بنصبهما عطفاً على أدنى يعني تقوم أقرب من الثلثين وتقوم النصف وتقوم الثلث والباقون بجرهما يعني أقرب من النصف ومن الثلث وهذه القراءة تدل على القيام أقل من الثلث فوق الربع وإنما قلنا فوق الربع لما ذكرنا فيما قبل إن قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾[٣] يقتضي أن يكون القيام فوق الربع ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ عطف على فاعل تقوم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي جماعة أصحابك يقومون على ذلك

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٨٥).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨).
(٣) سورة المزمل، الآية: ٣.

المقدار اقتداء لسنتك كذا قال البيضاوي، قال البغوي في تفسيره يعني المؤمنين كانوا يقومون معه وهذا التأويل بعيد جداً فإن الذين معه هم المؤمنون دون الكفار وكما في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾(١) فكلمة من للتبعيض يدل على أن القائمين كانوا بعض الصحابة دون كلهم ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾ عطف على أن ربك فيه وضع المظهر موضع المضمر تقديره وهو مقدر الليل والنهار أي يعلم مقاديرهما كما هي وأنتم لا تعلمون كما هي، قال البيضاوي تقديم اسم الله مبتدأ مبنياً عليه يقدر يشعر بالاختصاص وهي مذهب عبد القاهر والزمخشري دون السكاكي ﴿عَلِمَ أَن﴾ مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ومن ثم ربط وجوب الصلاة الخمس بأمور ظاهرة كطلوع الصبح والشمس وزوالها وغروبها وقدر الظل وغروب الشفق ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ ۖ﴾ أي رجع عليكم من التشديد إلى التخفيف فأسقط عنك ذلك القدر كيلا يشق على أمتك التأسي به ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ۚ﴾ الفاء للسببية ومعناه صلوا ما تيسر من الصلاة بالليل عبر الصلاة بالقرآن ها هنا كما عبر بالقيام فيما سبق تسمية الكل باسم الجزء، فهذه الآية يقتضي كون القراءة ركناً للصلاة كما يقتضي تلك الآية بركنية القيام وعلى هذا العقد الإجماع أيضاً فهذه الآية نسخ قيام الليل ذلك المقدار وبقي مطلق القيام بالليل واجباً ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس فصار تطوعاً بعد فريضة يدل على ذلك ما ذكر من قول عائشة وابن عباس ومقاتل وابن كيسان قلت: على تقدير كون القيام بالليل واجباً في الابتداء على النبي ﷺ وعلى أمته فكون ذلك منسوخاً في حق أمته أمر مجمع عليه، وأما كونه منسوخاً في حق النبي ﷺ سواء كان في الابتداء واجباً عليه خاصة أو عليه وعلى أمته عامة فقد اختلف فيه فقيل لم ينسخ في حق النبي ﷺ بل كان قيام الليل واجباً عليه ﷺ خاصة إلى آخر عمره وقيل: بل نسخ عنه ﷺ أيضاً وكان عليه الصلاة نافلة وهو الصحيح المختار عندي ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾(٢) فإنه صريح في كونه نافلة. فإن قيل: معنى النافلة الزائدة يعني زائدة في الوجوب عليك لا على أمتك؟ قلت: لو كان كذلك يقال عليك فإن صلة الوجوب تكون على دون اللام.

فإن قيل: في وجه تخصيصه به عليه الصلاة والسلام فإنها نافلة لجميع الناس غير ممنوعة عن أحد؟ قلنا: وجه التخصيص على ما روي عن مجاهد والحسن وأبي أمامة أن تسميتها نافلة في حقه ﷺ خاصة باعتبار كونها عامة في رفع الدرجات بخلاف غيره فإنها في حق

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

غيره نافلة في تكفير السيئات غالباً ويدل أيضاً على كون قيام الليل تطوعاً في حق النبي ﷺ حديث المغيرة قال قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه فقيل له لم تصنع هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١) ولم يقل إنها فريضة علي خاصة وحديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي في السفر على راحلته حيث توجهت به يومىء إيماءً صلاة الليل إلا الفرائض ويوتر على راحلته متفق عليه.

مسألة:

اختلفوا في أن صلاة الليل في حق الأمة من سنن الهدى المؤكدات أو من المستحبات؟ فقيل: هي مندوب في حقنا وهذا قول من قال هي كانت فريضة على النبي ﷺ حتى مات قالوا: الأدلة القولية تفيد الندب والمواظبة الفعلية لم يكن على سبيل التطوع والسنة ما واظب عليه النبي ﷺ من التطوع والمختار عندي أنها من سنن الهدى كما ذكرنا أن مواظبته ﷺ كان على وجه التطوع وعلى تقدير تسليم كون المواظبة على سبيل الوجوب فمواظبته ﷺ أي وجه كان يقتضي كون الفعل مسنوناً ما لم يكن ممنوعاً في حق غيره كصوم الوصال مثلاً، ومما دل على كونه سنة مؤكدة حديث ابن مسعود قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل فقيل له ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة قال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه أو قال: في أذنيه»(٢) متفق عليه، فإن ترك المندوب لا يستحق عليه اللوم والعتاب والله تعالى أعلم. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ القرآن في الصلوات الخمس، وقال الحسن يعني في صلاة المغرب والعشاء، قال البغوي قال قيس بن حازم صليت خلف ابن عباس بالبصرة فقرأ في أول ركعة بالحمد وأول آية من البقرة ثم قام في الثانية فقرأ بالحمد والآية الثانية من البقرة ثم ركع فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال: «إن الله عز وجل يقول فاقرؤوا ما تيسر منه» ويحتمل أن يكون المراد منه فاقرؤوا القرآن بعينه كيف ما تيسر لكم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿لِيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (٤٨٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه (١١٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (٧٧٤).

مسألة:

اختلفوا في مقدار القراءة التي لا يجوز الصلاة إلا بها ومقدار الواجب منها في الصلاة؟ فقال أبو حنيفة في إحدى الروايات عنه إن ما هو ركن للصلاة ولا يصح الصلاة إلا به هو أدنى ما يطلق عليه اسم القرآن ولم يشبه قصد الخطاب واحداً ونحوه وتقتضي هذه الروايات الجواز بدون الآية وبه جزم القدوري وفي رواية عنه وعن أحمد هو آية تامة لا يجوز الصلاة بما دون ذلك واختاره صاحب الهداية وفي رواية عنه وبه قال أبو يوسف ومحمد أنه ثلاث آيات قصار مثل سورة الكوثر أوية طويلة تساوي الثلاث لكن يجب عند أبي حنيفة وصاحبيه قراءة الفاتحة وقدر سورة معه فإن ترك شيئاً منها يجب سجدة السهو إن كان ترك سهواً فإن لم يسجد وترك عمداً يأثم ويجب عليه الإعادة من غير افتراض، وقال مالك والشافعي وأحمد لا تصح الصلاة إلا بفاتحة الكتاب وسن عندهم ضم السورة ولا يجب احتجوا بقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[1] متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت ورواه الدارقطني بلفظ «لا تجوز صلاة من لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وقال: إسناده صحيح رواه ابن خزيمة وابن حبان بهذه اللفظ من حديث أبي هريرة وفيه قال الراوي قلت: إن كنت خلف الإمام؟ قال: فأخذ بيدي وقال: اقرأ بها في نفسك، وروى مسلم وأحمد عن أبي هريرة بلفظ «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج هي خداج غير تمام» فقلت: يا أبا هريرة أحياناً أكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي، وروى الحاكم من طريق أشهب عن أبي عتبة عن أبي هريرة عن محمد بن الربيع عن عبادة مرفوعاً «أم القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها عوضاً عنها» وبما ذكرنا من اختلاف ألفاظ الحديث ظهر لك اندفاع ما قيل إن معنى قوله: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» صلاة كاملة كما في قوله عليه السلام: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[2] لأن هذا التأويل لا يجري في أكثر ما ذكرنا من الألفاظ على أن متعلق الجار والمجرور الواقع خبراً لا يقدر إلا عاماً أي لا صلاة كائنة وعدم الوجود شرعاً هو عدم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٢) رواه الدارقطني والحاكم والطبراني بأسانيد ضعيفة. وقال الصنعاني: موضوع، ورواه الشافعي وابن أبي شيبة موقوفاً.
انظر: كشف الخفاء (٣٠٧٣).

الصحة غير أن في حديث لا صلاة إلا في المسجد لما قام الدليل عليه وهو الإجماع، قلنا: المراد هناك كون خاص أي كاملة فهو من باب حذف الخبر لا من باب وقوع الجار والمجرور خبراً وما مرفي تفسير سورة الفاتحة حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»(١) الحديث يدل على أن الصلاة لا يكون إلا بفاتحة الكتاب وأبو حنيفة أخذ بهذا الحديث قال: بوجوب الفاتحة في الصلاة ووجوب ضم السورة أيضاً لما روي في بعض الروايات «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فصاعداً»(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن حبان وروى ابن ماجة عن أبي سعيد بلفظ «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها» وإسناده ضعيف ولأبي داود من طريق همام عن قتادة عن أبي بصر عن أبي سعيد قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر(٣) وإسناده صحيح ولم يقل أبو حنيفة بكون الفاتحة ركناً للصلاة بحيث لا يجوز الصلاة إلا بها عملاً بهذه الآية: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ قال صاحب الهداية الزيادة على الكتاب القطعي غير الواحد لا يجوز لكنه يوجب العمل فقلنا بوجوبها والصحيح عندي أن الفاتحة وكذا ضم السورة ركن للصلاة لا يجوز الصلاة إلا بهما الاستدلال بهذه الآية على نفي الركنية لا يصح لأن الظاهر في تأويل الآية كما ذكرنا أن المراد بالقراءة نفس الصلاة بالليل ومعنى قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ﴾ أنه خفف عنكم في قيام الليل فصلوا ما تيسر لكم الصلاة فلا دلالة بهذه الآية على قدر القراءة وما لا بد منه، وما قيل في تأويله أنه ما تيسر من القرآن في الصلوات الخمس فتأويل بعيد واحتمال ضعيف والاحتمال لا يتصور كونه حجة للوجوب فكيف يحكم عليه بكونه قطعياً لا يجوز الزيادة عليه بخبر الواحد كيف والحديث تلقته الأمة بالقبول وانعقد الإجماع على العمل به وتوارث النقل وتواتر المعنى أن النبي ﷺ واحد من السلف والخلف لم يصل بغير الفاتحة وبمثل هذا الخبر والنقل المتوارث يزاد على الكتاب إجماعاً على أن الصلاة مجمل وأحاديث الآحاد يحتمل أن يكون بياناً للمجمل ويبين أركاناً لها ولقد قالت الحنفية القعدة الآخرة واستدلوا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في تحريم الصلاة وتحليلها (٢٣٦).
أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب (٨١٦).

عليه بحديث ابن مسعود رضي الله عنه في التشهد «إذا قلت هذا أو فعلت هذا فقد تمت صلاتك إن شئت أن تقوم فقم وإن شئت أن تقعد فاقعد»(١) قالوا: علق التمام بأحد الأمرين فهو فرض مع أن الحديث من الآحاد أيضاً والله تعالى أعلم. وقد يستدل الحنفية على عدم ركنية الفاتحة بحديث أبي هريرة في قصة المسيء صلاته أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر من القرآن»(٢) الحديث متفق عليه، والجواب أن هذا الحديث وجوب القراءة مطلقاً وما مر من قوله ﷺ: «إلا بفاتحة الكتاب» يدل التعيين فالعمل بالحديثين بحمل المطلق على المقيد قلنا بركنية الفاتحة وقد ورد في بعض طرق حديث المسيء صلاته بلفظ «فكبر ثم اقرأ بأم القرآن ثم اقرأ بما شئت به» الحديث رواه أحمد من حديث رفاعة بن رافع ورواه الدارقطني من حديثه بلفظ «ثم يكبر الله ويثني عليه ثم يقرأ بأم القرآن وما أذن له فيه وما تيسر» الحديث.

مسألة:

هل يجب القراءة على المقتدي أم لا؟ فقال الشافعي يجب عليه قراءة الفاتحة كالإمام والمنفرد قال كذا روي عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد لا يجب، ثم اختلفوا فقال أبو حنيفة يكره مطلقاً وقال مالك وأحمد يكره في الجهرية فقط وقال أحمد يستحب في السرية وكذا في الجهرية عند سكتات الإمام إن سكت لا مع قراءته وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك ويروى ذلك عن ابن عمر وعروة بن الزبير وأبو القاسم بن محمد، وجه القول بسقوط القراءة عن المقتدي حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له» رواه أحمد والدارقطني من طريق جابر الجعفي وضعفه الدارقطني وقال ابن الجوزي وثقه الثوري وشعبة ورواه الدارقطني من طريق آخر وفيه ليث وقال: ضعفه ابن علية وقال أحمد حدث عن الناس ومن طريق آخر يحيى بن سلام بلفظة «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج إلا أن يكون وراء الإمام» قال الدارقطني يحيى بن سلام ضعيف وقال ابن الجوزي لم تر أحداً ضعفه قال الدارقطني والبيهقي وابن عدي الصحيح أنه مرسل فإن الحفاظ كسفيانين وأبي الأحوص وشعبة وإسرائيل وشريك وابن خلد الدالاني وجرير وعبد الحميد وزائدة وزهير

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٨٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: صفة الصلاة، باب: حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧).

رووه عن موسى عن عائشة عن عبد الله بن شداد عن النبي ﷺ مرسلاً، قلنا: المرسل عندنا حجة وما ذكر في الطرق المتصلة قد سمعت أن ابن الجوزي أنكر تضعيفه على أنه قد رواه أبو حنيفة بسند صحيح على شرط الشيخين روى محمد في موطأه أنا أبو حنيفة ثنا أبو الحسن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر عن النبي ﷺ وروى أحمد بن منيع في مسنده بسند صحيح على شرط مسلم قال: أنا إسحاق الأرزق ثنا سفيان وشريك عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر وفي الباب أحاديث أخر ضعيفة لم نذكرها كراهة الإطناب. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ عام في المصلين فلا يجوز تخصيصه بخبر الآحاد على أصل أبي حنيفة؟ قلنا: هي عام خص منه البعض وهو المدرك في الركوع إجماعاً فجاز تخصيصها بعده في المقتدي ووجه القول بالاستحباب في السرية حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقرأن أحد منكم شيئاً من القرآن إذا جهرت بالقراءة إلا أم القرآن» رواه الدارقطني وقال: رجاله كلهم ثقات فتخصيص المنع بالجهرية يقتضي الاستحباب في السرية واستثناء أم القرآن يقتضي قراءتها عند السكتات جمعاً بين الأحاديث وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾(١) والله تعالى أعلم. وروي عن جماعة من الصحابة ترك القرآن خلف الإمام رواه مالك في الموطأ عن نافع عن ابن عمر أنه كان لا يقرأ خلف الإمام وروى الطحاوي عن زيد بن ثابت وجابر قالوا: لا تقرأ خلف الإمام في شيء من الصلاة، وروى محمد في الموطأ أنه سئل ابن مسعود عن القراءة خلف الإمام قال أنصت فإن في الصلاة شغلاً ويكفيك الإمام، وروى محمد بن سعد قال: وددت الذي يقرأ خلف الإمام في فيه جمرة وروى نحو عبد الرزاق إلا أنه قال: في فيه حجر، وروى محمد عن داود بن قيس عن عجلان أن عمر بن الخطاب قال: ليت في فم الذي يقرأ خلف الإمام حجراً وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن جابر قال: لا يقرأ خلف الإمام إن جهر ولا إن خفت وهذه الأقوال وجه الكراهة في الجهرية بل في السرية أيضاً بإطلاقها وأيضاً ترك القراءة في الجهرية مقتضى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾(٢) وقوله ﷺ: «إذا قرأ فانصتوا»(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وسنذكر تفسير تلك الآية إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشهد (٩٧٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تأويل قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ (٩١٥)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٦).

مسألة:

هل يجب القراءة في كل ركعة من فرض ونفل؟ فقال الشافعي وأحمد ومالك يجب في كل ركعة مطلقاً لأن الأمر بالقراءة كالأمر بالركوع والسجود وغير أنه في رواية عن مالك إن ترك القراءة في ركعة واحدة من الفرض الثلاثي والرباعي ينجبر بسجود السهو، وقال أبو حنيفة في الوتر والنفل يجب في كل ركعة ولا يجبر بالسجود فإن كل شفعة من صلاة وأما في الفرض فلا يجب إلا في الركعتين وكان القياس وجوبها في ركعة واحدة لأن الأمر لا يقتضي التكرار ولكن قلنا القراءة وقدرها فلا يلتحقان بهما وهذا الكلام يتوقف على كون المراد بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ في القراءة في الصلاة وذلك ممنوع. وللجمهور حديث أبي هريرة قال: دخل رجل المسجد فصلى والنبي ﷺ في المسجد ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه فرد عليه السلام وقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» ففعل ذلك ثلاث مرات فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما أحسن غير هذا فعلمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تطمئن جالساً» وفي رواية «ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»(١) متفق عليه، حديث رفاعة نحوه رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وحديث أبي قتادة أن النبي ﷺ كان يصلي فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأولیين بفاتحة الكتاب وسورتين وفي الركعتان الآخريين بأم القرآن وكان يطيل أول ركعة من صلاة الفجر وأول ركعة من صلاة الظهر متفق عليه، وهذا الحديث مع قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(٢) التحق بياناً بمجمل الكتاب وحديث أبي الدرداء أن رجلاً قال: يا رسول الله أفي كل صلاة قرآن؟ قال: نعم، فقال رجل من الأنصار وجبت هذه(٣) فإن قيل: هذه الأحاديث من الآحاد ولا يجوز به الزيادة على الكتاب؟ أجيب: بأنه على تقدير تسليم هذه المسألة الأصولية نقول بأن هذا الحكم إنما هو إذا كان الكتاب قطعي الدلالة وقوله تعالى فاقرؤوا ليس بل يحتمل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة (٧٩٣)، باب: حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة (٦٠٥).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: اكتفاء المأموم بقراءة الإمام (٩١٧).

وجوه التأويل وإن القراءة المأمور بها في الصلاة مجمل يجوز أن يلتحق أحاديث الآحاد بها بياناً والله تعالى أعلم ﴿عَلِمَ﴾ الله ﴿أَن﴾ مخففة من المثقلة وضمير الشأن محذوف ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وتكرار فاقرؤوا للتأكيد وقيل: استئناف لبيان حكمة أخرى مقتضية للتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتباً عليه ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على اسم يكون ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أي يسافرون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة أو لتحصيل العلم والحج ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير يضربون ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الربح في التجارة أو العلم والثواب ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا يطيقون هؤلاء الأصناف سنة قيام الليل، ذكر البغوي عن إبراهيم عن ابن مسعود قال: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله بمنزلة الشهداء ثم قرأ عبد الله ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي من القرآن. فإن قيل: كلمة ما عام شامل يشتمل جميع ما تيسر فيلزم أن يكون المأمور به ذلك؟ قلنا: سوق الكلام يقتضي تخير المكلفين في جميع أفراد ما تيسر فأي فرد منها أتى به فقد أتى بالمأمور به.

مسألة:

ويستحب القصد في العمل والتوسط دون الإفراط والتفريط ويستحب المواظبة على المتوسط دون الإفراط تارة وترك أخرى وأدنى المتوسط يقرأ خمسين آية ومائة وأكثره ألف آية حتى يكون الختم في الأسبوع أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ فاقرؤوا ما تيسر منه قال: مائة آية قال ابن كثير غريب جداً، وروى البغوي بسنده عن أنس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ خمسين آية في يوم وليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين ومن قرأ مائتي آية لم يحاجه القرآن يوم القيامة ومن قرأ خمسمائة آية كتب له قنطار من الأجر»[1] وروى الدارمي عن الحسن مرسلاً أن النبي ﷺ قال: «من قرأ في ليلة مائة آية لم يحاجه القرآن تلك الليلة ومن قرأ في ليلة مائتي آية كتب له قنوت ليلة من قرأ خمسمائة آية إلى ألف له صحيح فله قنطار من الأجر، قالوا: وما القنطار؟ قال: اثني عشر ألف درجة» وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في كل شهر قال: قلت إني أجد قوة قال فاقرأه في عشرين ليلة قال: قلت: إني

---

(١) رواه محمد بن نصر وابن السني في عمل اليوم والليلة. انظر كنز العمال (٢١٤٦٥).

أجد قوة قال: فاقرأ في سبع ولا تزد على ذلك»[١] وفي الصحيحن عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[٢] وفيهما عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا» وفيهما عن أنس قال رسول الله ﷺ: «ليصل أحدكم نشاطه وإذا فتر فليقعد» وفيهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه»[٣] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة الجملة مع ما عطف عليه معطوفة على فاقرؤوا وكلمة الواو للجمعية فهذا العطف يقتضي أن قيام الليل بما تيسر من القرآن لم ينسخ بالصلوات الخمس كما قيل فثبت أن الأمر كان للندب دون الوجوب والله تعالى أعلم ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾قال ابن عباس المراد به الإنفاق سوى الزكاة من صلة الرحم وقرى الضيف، قلت: ويحتمل أن يكون المراد به مطلق الطاعات لله تعالى وأن يكون المراد به الزكاة على أحسن الوجه يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَرْضًا﴾ مفعول مطلق من قبيل أنبته الله نباتاً ﴿حَسَنًا﴾ صفة للصمدر وفيه ترغيب لوعد العوض ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ عبادة بدنية أو ما فيه شرط جزاءه ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت ومن متاع الدنيا وخيراً ثاني مفعولي تجدوه وهو الضمير الفصل لا محل له من الإعراب لأن أفعل من حكمه حكم المعرفة فلذلك يمتنع من حرف التعريف، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ قالوا: ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: اعلموا ما تقولون قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله قال: ما منكم رجل إلا مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر[٤] رواه البغوي ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لذنوبكم، الجملة معطوفة على أقيموا الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً (١١٥٩)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في كم يقرأ القرآن (١٣٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (٧٨٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً (٢٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك (٧٨٦).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب: الوصايا، باب: الكراهة في تأخير الوصية (٣٦٠٥).

الخ، وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا يعتبر بأعمال البر ولا يتكل عليه بل لا بد مع ذلك من الاستغفار فإن ما صدر منه من الطاعات قلما يخلو من التقصيرات، ثم كلها صدر من العبد وإن جل فهو بالنسبة إلى جناب قدسه وجلالته وعظمته لا يليق به تعالى ما لم ينضم معه الاعتراف بالعجز والقصور والذل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ عن تقصيراتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل.

سورة المدثر

مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

روى الشيخان في الصحيحين عن يحيى بن كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحم عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قلت يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قال أبو سلمة سألت جابراً عن ذلك وقلت: له مثل الذي قلت لي، فقال لي: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً فلما قضيت هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت عن خلف فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا علي ماءً بارداً فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ وذلك قبل أن تفرض الصلاة[1]. قلت: والمرفوع من الحديث لا يدل على نزول هذه السورة قبل اقرأ والصحيح أن نزول اقرأ قبل ذلك كما سنذكر في شأن نزوله في تلك السورة إن شاء الله تعالى، ويدل على هذا ما رواه الشيخان عن جابر أيضاً أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي نبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاء في بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت فيه رعباً حتى هويت الأرض فجئت أهلي فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ ثم حمي الوحي وتتابع. فإن هذه الرواية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المدثر (٤٩٢٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦١).

صريحة في أن نزول سورة المدثر بعد فترة الوحي وكان رؤية الملك بحراء قبل ذلك، وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا قالوا: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم ساحر وقال بعضهم ليس بساحر وقال بعضهم كاهن وقال بعضهم ليس بكاهن وقال بضهم شاعر وقال بعضهم ليس بشاعر وقال بعضهم سحر يوثر فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن ورفع رأسه وتدثر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ﴾ من مضجعك أو قم قيام عزم وجد ﴿فَأَنذِرْ﴾ حذف المفعول ليدل على التعميم يعني أنذر الناس أجمعين بعذاب العالمين لمن أشرك به ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ الفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط تقديره أما ربك فكبر يعني مهما يمكن من شيء وكنت على أي حال فكبر ربك، قلت: ويحتمل أن يكون تقديره وكبر ربك فكبره والغرض بالتكرار استمرار نفسه عليه ومعنى كبر عظمه عن الحديث وعن سمات النقص والزوال وعن التشريك في وجوب الوجود والألوهية والتشريك في العبادة والتشبيه بشيء من الممكنات في شيء من الذات والصفات والأفعال وصفه بأوصاف الكمال ما لا يتصف به غيره وهذا أول ما يجب على الإنسان وأهم من جميع الواجبات ولا يختص العفو والسقوط ويحكم به العقل قبل النقل لكن العقل غير كاف في دركه كما ينبغي.

مسألة:

احتج الفقهاء لهذه الآية على فرضية التكبير لتحريمة الصلاة لكن قال أبو حنيفة ومحمد إنها تنعقد بكل لفظ يوجب التعظيم نحو الله أجل والله أعظم ولا إله إلا الله والرحمن أكبر وغير ذلك لا بلفظة الله أكبر وحدها لأن المأمور به التكبير وهو التعظيم، وقال أبو يوسف إن كان يحسن أن يقول الله أكبر فلا يجزئه إلا ذاك أو الله الأكبر أو الله الكبير لأن الألف واللام أبلغ في الثناء وأفعل وفعيل في أوصافه سواء، وقال الشافعي لا يجوز إلا الله أكبر والله الأكبر وقال مالك وأحمد لا يجوز إلا الله أكبر فقط، والصحيح أن هذه الآية ليست في تكبير التحريم كما في الصحيحين أن أول القرآن نزولاً وذلك قبل أن تفرض الصلاة والقول بأن التكبير لم يجب خارج الصلاة وأصل الأمر للوجوب بالثابت بهذه الآية وجوبها في الصلاة ممنوع بل التحقيق أن التبكير هو التوحيد أول ما يجب على الإنسان ولا يحتمل السقوط والتحقيق في باب التحريمة أن الصلاة مجمل الحق بها فعل النبي ﷺ بياناً وقد تواتر صيغة الله أكبر للتحريم ولم ينقل عنه ﷺ ولا عن أحد من الصحابة شروع الصلاة بغير ذلك ولو كان الشروع بغير ذلك جائزاً لفعل ذلك للجواز فظهر

أنه بعينه هو الفريضة لا غير وقد ورد في بعض طرق حديث رفاعة عن النبي ﷺ قال: «لا يقبل الله صلاة أمرىء حتى يسبغ الوضوء ثم يستقبل ويقول الله أكبر» ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قال قتادة ومجاهد نفسك فطهرها من الذنب كنى عن النفس بالثوب وهو قول إبراهيم والضحاك والشعبي والزهري وقال عكرمة سأل عن ابن عباس عن قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قال: لا تلبسها على معصية وعلى عذرة ثم قال: سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من عذرة أتقنع وكذا قال أبي بن كعب، وروي عن الضحاك معناه عملك فأصلح، وقال السدي يقال للرجل إذا كان صالحاً إنه طاهر الثياب وإذا كان فاجراً إنه لخبيث الثياب، وقال سعيد بن جبير وقلبك وبيتك فطهر، وقال الحسن وخلقك فحسن، وقال ابن سيرين وابن زيد أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا يجوز الصلاة معها وذلك أن المشركين لا يتطهرون ثيابهم، وقال طاووس وثيابك فقصر لأن تقصير الثوب طهارة لها، قلت: والظاهر عندي أنه أمر بتطير الثياب فالواجب بالمنطوق وعبارة النص إنما هو تطهير الثوب وبدلالة النص يجب تطهير البدن بالطريق الأولى فإن الله سبحانه القدوس المطهر الطاهر لما لم يرض بنجاسة الثوب فكيف يرضى بنجاسة البدن وهو فوق ذلك وأقرب منه وبنجاسة النفس أو القلب فإنه أقرب من البدن إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

مسألة:

احتج الفقهاء بهذه الآية لاشتراط طهارة الثوب والمكان والبدن عن النجاسة الحقيقية للصلاة والصحيح عندي أنه لا دلالة على اشتراطها للصلاة بل على وجوب الطهارة الثلاث في جميع الأحوال لكن انعقد الإجماع على اشتراطها للصلاة، والسند للإجماع أنه ثبت بحكم التنزيل الطهارة من الأحداث فيجب الطهارة عن الأخباث بالطريق الأولى قال الله تعالى في آية الوضوء ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٢) والله تعالى أعلم، عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنما يعذبان وما يعذبان في كبيرة أما أحدهما فكان لا يستتر من البول» وفي رواية لمسلم «لا يستنزه من البول وأما

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

الآخر فكان يمشي بالنميمة»[١] الحديث متفق عليه ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قرأ أبو جعفر وحفص عن عاصم ويعقوب الرجز بضم الراء والباقون بكسرها وهما لغتان ومعناهما واحد، قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد وأبو سلمة المراد بالرجز الأوثان قال فاهجرها ولا تقربها، وروي عن ابن عباس أن معناه اترك إلاثم، وقال أبو العالية والربيع الرجز بضم الراء الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية، وقال الضحاك يعني الشرك، وقال الكلبي يعني العذاب يعني اهجر ما يوجب العذاب من العقائد والأعمال ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ أي لا تعط مالك لتعطي أكثر منه هذا قول أكثر المفسرين قال قتادة لا تعط شيئاً طمعاً لمجازاة الدنيا بل لوجه الله خالصاً وجملة تستكثر حال من فاعل لا تمنن قيل هذا نهي تنزيهي، وقال الضحاك ومجاهد كان هذا الحكم في حق النبي ﷺ عليه خاصة قال الضحاك بهما ربوان حلال وحرام أما الحلال فالهدايا أما الحرام فالربا، وقال الحسن معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثريني مستكثراً عملك وقال لا تستكثرون عملك في عينك فإنه فيما أنعم الله عليك قليل، وروى خصيف عن مجاهد ولا تضعف أن تستكثر من الخير عن قولهم جهل منين أي ضعيف، وقال ابن زيد معناه لا تمنن بالنبوة على الناس فتأخذ عليها عوضاً وأجراً من الدنيا وقيل: معناه لا تمنن على الفقير إذا أعطيته مستكثراً إعطائك ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ تقديره وأما لربك فاصبر على طاعاته وأوامره ونواهيه والمصائب لأجل ثواب الله تعالى وابتغاء مرضاته والتقدير واصبر لربك فاصبر كرر للتأكيد أو لتنوع أنواع الصبر، وقال مجاهد فاصبر إليه على ما أوذيت، وقال ابن زيد معناه حملت أمراً عظيماً محاربة العرب والعجم فاصبر عليه لله عز وجل وقيل فاصبر تحت موارد القضاء لأجل الله ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ أي نفخ ﴿فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ في الصور فاعول من النقر بمعنى التصويت وأصله قرع الشيء المفضي إلى النقب ومنه المنقار للطائر كذا في الصحاح، قال أبو الشيخ بن حيان في كتاب العظيمة عن وهب بن منبه قال: خلق الله الصور من اللؤلؤ البيضاء في صفاء الزجاجة ثم قال للعرش خذ الصور فتعلق به ثم قال: كن فكان إسرافيل فأمره أن يأخذ الصور فأخذه وبه نقب بعد وكل روح مخلوقة ونفس منفوسة لا يخرج روحان من نقب واحد وفي وسط الصور كوة كاستدارة السماء والأرض وإسرافيل واضع فيه على تلك الكوة ثم قال له الرب تبارك وتعالى قد وكلتك فأنت بالنفخة والصيحة فدخل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول (٢١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

في مقدم العرش أدخل رجله اليمنى تحت العرش وقدم اليسرى ولم يطرف قد خلقه الله ينتظر متى يوم يؤمر أخرج أحمد والترمذي والطبراني بسند جيد عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى بالسمع متى يؤمر فشق ذلك على الصحابة فقال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»(١) وأخرج أحمد والحاكم عن ابن عباس نحوه بزيادة على الله توكلنا، والفاء في فإذا نقر لسببية كأنه قال اصبر على أذاهم فبين أيديهم زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وإذا ظرف لما دل عليه قوله ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ معناه يعسر الأمر على الكافرين يومئذ لتضمن إذا معنى الشرط دخل الفاء في قوله فذلك وذلك إشارة إلى وقت النقر مبتدأ وخبره يوم عسير ويومئذ بدله فهو في محل الرفع مبني الإضافة إلى غير متمكن ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيد بمنع أن يكون عسيراً من وجه ويسيراً من وجه وفيه إشارة إلى كونه يسيراً على المؤمنين، ذكر البغوي أن الله تعالى أنزل على النبي ﷺ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ قام النبي ﷺ بالمسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه قراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا هو من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد والله ليصبأن قريش كلهم، وكان يقال للوليد ريحانة قريش فقال أبو جهل أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنبه حزيناً فقال: مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: ما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك بقية يعينونك على كبر سنك يزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن كثير وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم فغضب الوليد فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه ينطق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط يكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه فقالت قريش للوليد فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر من رأيتموه تفرق بين الرجل

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٤٣).

وأهله وولده ومواليه فهو ساحر بقوله سحر يؤثر، وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس نحوه وقال: فحينئذ نزلت:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق آخر نحوه والواو بمعنى مع كما مر في قوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾[1] أي ذرني معه ﴿وَحِيدًا﴾ حال من مفعول ذرني يعني لا تهتم به وذرني وحدي معه فإني أكفيكم أو من فاعل خلقت أي خلقته وحيداً لم يشاركني في خلقه غيره رد من ضمير مفعول العائد المحذوف أي من خلقته وحيداً فريداً لا مال ولا ولداً والمعنى خلقته وحيداً في الشرارة ووحيداً غير منسوب إلى أب لأنه كان زنيماً، قال البغوي إنه كان يسمى في قومه وحيداً فسماه الله به تهكماً واستهزاء وما على تسمية نفسه وحيداً ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ مبسوطاً كثيراً أي ممدوداً بالنماء كالزرع والضرع والتجارة، قال مجاهد وسعيد بن جبير ألف دينار، وقال قتادة أربعة آلاف دينار، وقال سفيان ألف ألف، وقال ابن عباس تسعة آلاف مثقال فضة، وقال مقاتل كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره شتاء وصيفاً، وقال عطاء عن ابن عباس كان له بين مكة والطائف إبل وخيل وغنم وكان له عين كثيرة وعبيد وجواري ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ حضوراً بمكة بلقائهم لا يحتاجون إلى السفر بطلب المعاش وكاوا عشرة، وقال مقاتل كانوا سبعة وهم الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص وقيس وعبد الشمس أسلم منهم خالد وهشام وعمارة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ﴾ أي بسطت له الرياسة والجاه العريض حتى يقال ريحانة قريش والتوحد باستحقاق الرياسة والتقدم أو مهدت له في طوال العمر ﴿تَمْهِيدًا﴾ بسطاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ يرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ له مالاً وولداً وتمهيداً ﴿كَلَّا﴾ ردع أي لا أفعل ذلك لكفرانه قال البغوي قالوا فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله وولده حتى هلك

(١) سورة المزمل، الآية: ١١.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ معانداً حيث أنكر وقال سحر يؤثر تعليل للردع فإن الكفران ومعاندة آيات النعم زوال النعمة ويمنع الزيادة ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عذاباً شاقاً يغلبه ويعلو كل عذاب عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ قال: «هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت فإذا رفعها عادت فإذا وضع رجليه ذابت فإذا رفعها عادت» رواه البغوي عنه، وعن عمر بن الخطاب ورواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «إنه جبل في النار يتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي وهو كذلك فيه أبداً»[1] وقال الكلبي الصعود صخرة ملساء في النار يكلف أن يصعدها لا يترك نفس في صعوده بجذب سلاسل الحديد ويضرب من خلفه بمقامع من حديد فيصعدها في أربعين عاماً فإذا بلغ ذروتها أحد إلى أسفلها ثم يكلف أن يصعدها يجذب من أمامه ويضرب من خلفه فذلك دأبه أبداً ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ فيما تخيل طعناً في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في تفسير ما يقول هذه الجملة بيان لعناده وتعليل لما يستحقه من العذاب ﴿فَقُتِلَ﴾ لعن وقال الزهري عذب ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقدير استهزاء به وفيه إنكار وتوبيخ وكيف حال من فاعل قدر والجملة تعليل لقوله قتل وجملة فقتل معترضة دعائية والفاء فيه للاعتراض ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ كرر للتأكيد وكلمة ثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ عطف فكر وقدرأي فكر وقدر ثم نظر في أم القرآن متراخياً مرة بعد أخرى ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ وجهه لما لم يجد فيه طعناً ولم يدر ما يقول أو نظر إلى رسول الله ﷺ وعبس وجهه عداوة ﴿وَبَسَرَ﴾ بمعنى عبس وقهر تأكيد له ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق والإيمان به أو الرسول ﷺ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه ﴿فَقَالَ﴾ الفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله تقولها من غير تلبث وتفكر ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروي عن غيره ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ تأكيد للجملة الأولى ولذا لم يعطف ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ بدل اشتمال من سأرهقه صعوداً وسقر اسم من أسماء جهنم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ تفخيم لشأنها وجملة ما سقر بتأويل المفرد مفول لأدراك ﴿لَا تُبْقِي﴾ شيئاً يلقى فيها ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تدع حتى تهلكه، قال مجاهد معناه لا تبقي حياً ولا تذر من فيها ميتاً كلما احترقوا جددوا، قال الضحاك لكل شيء ملال وفترة إلا سقر، هذه الجملة والجملتين بعدها مستأنفات لبيان تفخيم شأن سقر وأحوال من سقر ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ أي هي لواحة ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ جمع بشرة مغيرة للجلد من البياض إلى السواد فقال ابن عباس وزيد بن أسلم محترقة للجلد وقيل: معناه لائحة للناس قال الحسن وابن كيسان يلوح لهم حتى يردها

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاءفي صفة قعر جهنم (٢٥٧٦).

عياناً نظيره ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾[1] ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على النار ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة وهم خزنتها مالك مع ثمانية عشر، أخرج ابن المبارك والبيهقي أحدهم عن أبي العوام قال: هم تسعة عشر ملكاً بين منكبي كل منهم مسيرة كذا وكذا وأخرج ابن وهب عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة نزعت عنهم الرحمة يرفع أحد منهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم» قال البغوي قال ابن عباس وقتادة والضحاك وكذا أخرج البيهقي عن ابن إسحاق أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم الشجعان أفيعجز كل عشر منكم أن تبطشوا الواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأسد بن كلده الجهني أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري وسبعة على بطني واكفوني أنتم اثنين، وأخرج البيهقي عن السدي لما نزلت: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ قال رجل من قريش يدعى أبا الأسدين يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ يعني خزنتها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ لا رجالاً آدميين حتى يمكن من الكفار تدافعهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي عددهم في القلة ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ عدد الذي اقتضى فتنتهم أي ضلالتهم وكفرهم لاستقلالهم والاستهزاء بهم واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب جميع الكفار ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حتى قالوا ما قالوا ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ متعلق بفعل محذوف دل عليه السياق أي نبأناك بعددهم ليستيقن ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نبوتك وصدق القرآن حين يوافق ذلك في التوراة والإنجيل ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالإيمان أو بتصديق أهل الكتاب له ﴿إِيمَٰنًا﴾ مصدراً وتميز من النسبة ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في عددهم تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان فعطف لا يرتاب عطف تفسير، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في

(١) سورة الشعراء، الآية: ٩١.

البعث عن البراء بن عازب أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم فجاؤوا النبي ﷺ فنزلت عليه ساعتئذ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ فصار هذا سبباً لاستيقان الذين أوتوا الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك أو نفاق عطف على ليستيقن وهذا إخبار بمكة بما سيكون في المدينة بعد الهجرة من المنافقين ولم يكن بمكة منافق ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ المستغرب استغراب المثل وقيل لما استبعدوه حسوا أنه مثل مضروب فكلمة مثلاً إما حال من هذا وعامل فيه معنى الإشارة أو تنبيه أو تميز وهذا اسم تام بتنوين مقدر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلق بما بعده أي كما أضل الله تعالى إضلاله ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الله هدايته ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يعني كنههم وكيفية قوتهم وأما عددهم فقد ذكر أنهم تسعة عشر لا يحتمل الزيادة والنقصان ﴿إِلَّا هُوَ﴾ قال مقاتل هذا جواب أبي جهل حين قال ما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر، قال عطاء وما يعلم جنود ربك إلا هو يعني الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله يعني أن تسعة عشر خزنة النار ولهم من الأعوان والجنود ما لايعلم إلا الله، أخرج هناد عن كعب قال يؤمر بالرجل إلى النار فيبتدر مائة ألف ملك قال القرطبي المراد بقوله تسعة عشر رؤوسائهم أما جملة خزنة فلا يعلم عددهم إلا الله ﴿وَمَا هِىَ﴾ وما سقرأ وعدة الخزية أو السورة ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي تذكرة ﴿لِلْبَشَرِ كَلَّا﴾ ردع لمن أنكرها أو إنكار لأن يتذكر بها وإن كان في نفسه ذكرى ﴿وَٱلْقَمَرِ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ قرأ نافع وحفص وحمزة ويعقوب بإسكان الذال وأدبر على وزن أفعل والباقون إذا بالألف بعد الذال دبر على وزن فعل ومعنى دبر وأدبر واحد كقبل بمعنى أقبل يقال دبر الليل وأدبر ءذا ولى ذاهباً، وقال أبو عمر وبلغة قريش وقال قطرب دبر بمعنى أقبل تقول العرب دبرني فلان أي جاء خلفي والليل يأتي خلف النهار ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي أضاء ﴿إِنَّهَا﴾ أي سقر ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أي أحدالبلايا الكبرى فإنها كثيرة والسقر واحد منها أو المعنى أنها أي إحدى البلايا الكبر جهنم وجهنم ولظى والحطمة والسعير والجحيم والهاوية وإنما جمع كبرى على كبر إلحاقاً لها بفعله تنزيلاً للألف منزلة التاء كما ألحقت قاصعاً بقاصعة فجمعت على قواصع والجملة جواب القسم أو تعليل لكلا والقسم معترض للتأكيد ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ تميز عن إحدى الكبر إنذاراً أو حال عما دلت عليها الجملة أي كبرت منذرة، قال الحسن والله ما أنذر بشيء أدهى منها، وقال الخليل النذير مصدر كالنكير والمذكر وصف به المؤنث يعني جعل حالاً للمؤنث، وقيل: نذيراً حال من فاعل وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة منذراً للبشر وقيل: معناه يا أيها المدثر قم نذير البشر فأنذر ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل من قوله للبشرى أي

نذيراً للفريقين وحينئذ قوله ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ مفعول لشاء أي من شاء أن يتقدم في الخير والطاعة ومن شاء أن يتأخر في الشعر والمعصية ويحتمل أن يتقدم أو يتأخر مبتدأ ومن شاء منكم خبراً مقدماً عليه والمعنى لأن يتقدم من شاء منكم ويتأخر من شاء نظيره قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١) فهو توبيخ وإنذار.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من السيئات ﴿رَهِينَةٌ﴾ مصدر كالشتيمة بمعنى رهن لا بمعنى المفعول أي مرهون ولو كان صفة لقيل رهين لأن الفعيل بمعنى المفعول يستوي فيه المؤنث والمذكور والمعنى كل نفس بما كسبت من السيئات بكفرها محبوسة في النار أبداً ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي الذين يعطون كتبهم بأيمانهم كذا روي عن ابن عباس، أخرج ابن المبارك عن رجل من بني أسد قال: قال عمر لكعب قل من حديث الآخرة قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة وضع اللوح المخطوط فلم يبق أحد من الخلائق إلا هو ينظر إلى عمله ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنشر من حول العرش ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه، وقال مقاتل هم أهل الجنة الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق قال لهم الله هؤلاء للجنة ولا أبالي، وعن ابن عباس أنهم الذين كانوا ميامين على أنفسهم ومآل هؤلاء الأقوال واحد يعني إلا المؤمنين فإنهم غير محبوسين في النار أبداً بل ينجون إما بالمغفرة بعد العذاب بقدر ذنوبهم أو بلا تعذيب بالشفاعة أو بمحض الفضل، وقال الحسن هم المسلمون المخلصون، وقال القاسم كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من اعتمد على الفضل فإن كل من اعتمد على

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

الكسب رهين ومن اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ وعلى هذين القولين معنى الآية كل نفس مرهونة أي مأخوذة بأعمالها وأوفي الجملة إلا المسلمين الكاملين فإنهم غير مأخوذين أصلاً لكن إطلاق أصحاب اليمين على هؤلاء المخلصين لا دليل عليه، وكذا روى سعد بن منصور وابن أبي حاتم والحكيم في نوادر الأصول عن علي أنهم أطفال المسلمين وزاد الحكيم لم يكسبوا فيرتهنوا بكسبهم وما روى أبو ظبيان عن ابن عباس أنهم الملائكة فما لم يصح الأثر به لا يمكن حمل أصحاب اليمين عليه ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هم في جنات والجملة في مقام التعليل للاستثناء ويحتمل أن يكون حالاً من أصحاب اليمين أو من ضميرهم في قوله ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً أي يسأل غيرهم والتفاعل لأجل تشاركهم في السؤال ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١﴾ أي عن حال المجرمين الكفار ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢﴾ هذا الاستفهام مع جوابه حكاية لما جرى بين المسؤولين والمجرمين وما أجاب المجرمون به السائلين المسؤولين، وأيضاً إن في الكلام حذف للاختصار تقديره يتساءلون عن المجرمين فيقولون المسؤولون ما سلككم في سقر الخ، وقيل كلمة عن زائدة تقديره يتساءلون المجرمين بقولهم ما سلككم في سقر ﴿قَالُوا۟﴾ أي المجرمين في جوابهم ﴿لَمْ نَكُ﴾ سقطت النون بالجزم لمشابهته بحرف العلة في امتداد الصوت فإن النون غنة في الخيشوم كما أن حرف العلة مدة في الحلق ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الصلاة الواجبة ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾ ما يجب إعطائهم فيه دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الأعمال لأجل المؤاخذة في الآخرة وإنما سقط عنهم الخطاب في الدنيا لفقد شرط أدائه وهو الإيمان ولا وجه بسقوط التكليف فإن الكفر موجب للتشديد دون التخفيف لكن حقوق الله تعالى من العبادات والعقوبات تسقط بالإسلام فلا يؤخذ من أسلم على ما فات عنه في حالته الكفر قال رسول الله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله»[١] وقد مر هذا الحديث فيما قبل ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ في اللهو والباطل ما نهى الله تعالى عنه ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ فيه ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾ آخرة لتعظيمه أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين يوم الجزاء ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾ يعني الموت ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ ولو شفعوا جميعاً، هذه الجملة إما متصلة بقوله كل نفس رهينة أو بقوله قالوا لم نك من المصلين، ومفهوم هذه الآية تقتضي أن المؤمنين وإن كانوا فساقاً تنفعهم شفاعة الشافعين. أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده عن أم حبيبة أو أم سلمة قالت كنا فيبيت عائشة فدخل رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد أطفال لم يبلغوا الحلم إلا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

جيء بهم حتى يوقفوا على باب الجنة فيقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون إن دخل أبونا فيقال في الثانية والثالثة ادخلوا الجنة وآباءكم فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وقال ابن مسعود ويشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلى ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وقال عمر أن بن حصين الشفاعة نافعة دون هؤلاء الذين تسمعون فقول ابن مسعود وعمران هذا مشعر بأن الشفاعة لا تنال لتاركي الصلاة وما نعي الزكاة والخائضين في اللهو والباطل وإن كانوا مؤمنين ومبنى قولهما هذه الآية فإن تعقبها بالفاء للسببية وترتبها على الأربعة المذكورة يدل على كونها سبباً لعدم نيل الشفاعة والصحيح أنها معقب على مجموع الأمور الأربعة فيها التكذيب بيوم الدين لا على كل واحد منها فلا تمنع الشفاعة إلا المجموع دون كل واحد منها وقد انعقد الإجماع على جواز الشفاعة لكل مؤمن فبعض من يستحق النار من المؤمنين لا يدخلها بالشفاعة وبعض من يدخلها يخرج منها بالشفاعة، وأنكر الشفاعة أهل الهواء من المعتزلة والخوارج وغيرهم قبحهم الله تعالى وقد تواترت في ذلك الأحاديث تواتراً معنوياً ولو ذكرنا الأحاديث كلها لطال الكلام ولنذكر منها طائفة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «أشفع لأمتي حتى ينادي ربي أرضيت يا محمد؟ فأقول: أي ربي رضيت» رواه البزار والطبراني وأبو نعيم، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[1] رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو داود وعن جابر نحوه رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وابن ماجه وعن ابن عباس نحوه رواه الطبراني، وعن ابن عمر وكعب بن عجرة نحوه رواه الخطيب. عن عثمان بن عفان عن النبي ﷺ: «يجاء بالعالم والعائد فيقال للعائد أدخل الجنة ويقال للعالم قف حتى تشفع» رواه الأصبهاني، وعنه عن النبي ﷺ: «نعم الرجل الأشرار أمتي قيل: كيف يا رسول الله؟ قال: أما أشرار أمتي فيدخلهم الله الجنة بشفاعتي وأما خيارهم فيدخلهم الله الجنة بأعمالهم» رواه الطبراني وأبو نعيم وعن ابن عمر موقوفاً يقال للعالم اشفع في تلامذتك ولو بلغت عدد النجوم السماء رواه الديلمي وعن أبي الدرداء مرفوعاً «الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته»[2] رواه أبو داود، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يصف الناس يوم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: ذكر الشفاعة (٤٧٢٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: الشهيد يشفع (٢٥٢٠).

القيامة صفوفاً ثم يمر الرجل من أهل الجنة على الرجل من أهل النار فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيتني فأسقيتك شربة فيشفع له فيمر الرجل على الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهوراً فيشفع له ويمر الرجل على الرجل فيقول يا فلان أما تذكر يوم يمشي لحاجة كذا وكذا فذهبت لك فيشفع له»[١].

مسألة: لا تنال الشفاعة لحديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب بالشفاعة فلا نصيب له ومن كذب بالحوض فليس له فيه نصيب» رواه سعيد بن منصور وعن زيد بن أرقم وبضعة عشر من الصحابة قوله ﷺ: «شفاعتي يوم القيامة حق فمن لم يؤمن بها لم يكن من أهلها» رواه ابن منيع وعن عبد الرحمن قوله ﷺ: «شفاعتي مباحة إلا لمن سب أصحاب» رواه أبو نعيم في الحلية، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة المرجئة والقدرية» رواه أبو نعيم.

مسألة: وقد ورد في بعض المعاصي أنها مانعة للشفاعة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من غش العرب لم ينله شفاعتي» رواه البيهقي بسند جيد، وعن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: «رجلان لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة إما ظلوم غشوم عسوف وآخر غال في الدنيا مارق منه» رواه البيهقي والطبراني بسند جيد، وعن الدرداء وغيره قال رسول الله ﷺ: «ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة» رواه الطبراني ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ يعني عن القرآن أو ما يعمه من المذكرات ﴿مُعْرِضِينَ﴾ الفاء للسببية وما استفهامية مبتدأ ولهم خبره وعن التذكرة استفهام للإنكار عن شفاعة حالهم في الدنيا المفضي إلى العذاب في الآخرة فإن عذاب الآخرة سبب للإنكار ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء والباقون بكسرها فمن قرأ بالكسر فمعناها نفرة يقال نفروا استنفر كما يقال عجب واستعجب ومن قرأ بالفتح فمعناها منفرة مذعورة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ الجملة صفة لحمر وجملة كأنهم بعد حال وضمير لهم في مالهم وكلمة كأنهم أغنى عن واو الحال شبههم في إعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر بحمر نافرة من قسورة فعولة من القمر بمعنى القهر، قال أبو هريرة هي الأسود وهو قول العطاء والكلبي، وقال مجاهد وقتادة والضحاك القسورة الرماة ولا واحد لها من لفظها وهي رواية عن عطاء عن ابن عباس، وقال زيد بن أسلم عن رجال أقوياء وكل ضخم شديد عند العرب قسورة وعن أبي المتوكل لغط القوم وأصواتهم، وروى عكرمة عن ابن عباس

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل صدقة الماء (٣٦٨٥).

قال: هي حبال الصيادين قال سعيد بن جبير هي القناص يعني الصياد، أخرج ابن المنذر عن السدي قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار فنزلت ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ بل ابتدائية وليست للإعراض عن التوبيخ بل هو انتقال من شيء أي أمر أهم منه، وقال المفسرون إن كفار قريش قالا لرسول الله ﷺ ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من أنك لرسوله تؤمر فيه باتباعك والمنتشرة جمع منشورة ﴿كَلَّا﴾ ردع عن اقتراح الآيات بعد وضوح الأمر ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة واقترحوا الآيات قيل ابتدائية كما سبق وليس إضراباً عن الردع ويحتمل أن يكون إضراباً دل عليه السياق وتقديره أنه لو أوتوا صحفاً منشرة لايؤمنون فإن طلبهم ذلك ليس لأن يتضح الأمر عندهم بل الأمر عندهم واضح وليس إلا ذلك الاقتراح إلا لأنهم لا يخافون الآخرة ووضوح الأمر لا يستلزم الخوف والخشية بل هو أمر وهبي ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار على عدم الخوف وتأكيد للردع السابق أو هو بمعنى حقاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى بصفاته الجمالية والجلالية والرحمة والعذاب ﴿فَمَن شَآءَ﴾ التذكر ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ الفاء للسببية وتعليق الذكر بالمشيئة تخيير لفظاً وتوبيخ معنى ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ قرأ نافع بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة في وقت من الأوقات ﴿إِلَّآ﴾ وقت ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مشيئتهم وذكرهم فيه تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله وإرادته ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيق بأن يتقي عقابه بالتقوى عما نهى عنه ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حقيق بأن يغفر عباده المؤمنين عن أنس أن رسول الله قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال ربكم عز وجل أنا أهل أن أتقى الشرك ولا يشرك بي غيري وأنا أهل لمن اتقى ولا يشرك بي أن أغفر له»[١] رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم نحوه. والله تعالى أعلم تمت سورة المدثر.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المدثر (٣٣٢٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٩).

سورة القيامة

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾﴾ قرأ قنبل لأقسم بغير الألف بعد اللام تأكيد القسم وكذا روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي والباقون بالألف بما بعد اللام فقيل لا زائدة كما في قوله ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ والمعنى فيهما القسم وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده أي لتبعثن ولتحاسبن وليجزين كل نفس بما كسبت إن خير فخير وإن شر فشر، وقال أبو بكر بن عياش هو تأكيد للقسم، قال البيضاوي إدخال لا النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلام العرب، قلت: وفيه إشعار بأن هذا الأمر ظاهر مستغن عن التأكيد بالقسم وذلك لأن من له عقل وفهم لو تأمل بعد ما يرى من الناس من هو كافر للنعم ظالم على الخلق قاطع للرحم مرتكب الأمور بجزم العقل بقبحها وهو في نعمة ورغد من العيش ومن هو شاكر لله تعالى راض عنه الخلق في محبته وبلاء يحكم أن للجزاء داراً غير هذه الدار وإلا يلزم من الله تعالى ترجيح الشنيع على المليح وذلك شنيع يستحيل إنصاف الصانع به تعالى عن ذلك علواً كبيراً. والنفس اللوامة المراد بها إما الجنس قال الفراء ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها يعني في الآخرة إن كانت عملت خيراً قالت هلا زدت وإن عملت سوءاً قالت ليتني لم أفعل، وقال الحسن هي النفس المؤمنة قال إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه يعني في الدنيا ما أردت بكلامي وما أردت بأكلي وإن الفاجر لا يحاسب نفسه ولا يعاتبها، وقال مقاتل النفس الكافرة تلوم نفسها في

الآخرة على ما فرط في أمر الله تعالى في الدنيا وقيل: المراد به الذي يقول لو فعلت كذا ولو لم أفعل كذا لكان كذا ولا يرضى بالقضاء قائلاً ما شاء الله ويقدر الله، وقالت الصوفية النفس أمارة بالسوء ثم إذا اجتهد في الذكر وتداركه الجذب من الله تعالى يظهر له قبائح نفسه ويرى مشتغلاً لغير الله سبحانه ولا يقدر على القطع عنه بالكلية فحينئذ تلوم نفسها ويقال لها النفس اللوامة ثم إذا حصل له الفناء والبقاء وانخلع عما سوى الله واطمئن بذكره فحينئذ يقال له النفس المطمئنة ﴿أَيَحْسَبُ﴾ استفهام إنكار على التوبيخ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ المراد به الجنس لأن فيهم من يحسب والمراد الذي نزل فيه واللام للعهد، قال البغوي نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأخنس بن شريق الثقفي وكان النبي ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون وكيف أمرها وحالها فأخبره النبي ﷺ لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك لم أؤمن بك أو يجمع الله العظام فأنزل الله تعالى أيحسب الإنسان ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد التفريق والبلى ونكر جمع العظام والغرض منه إنكار البعث فإن العظام قلب الروح وإعادة الروح متفرع على جمعها وأن مخففة أو مصدرية مفعول يحسب قائم مقام مفعوليه ﴿بَلَىٰ﴾ يجمعها فينجيه ﴿قَـٰدِرِينَ﴾ حال من فاعل الفاعل المقدر ذكرها للترقي على ما أنكر كما يقال أيحسب أن لن نقدر عليك بلى نقدر عليك قادرين على أقوى منك والمعنى بل نجمعها ونقدر على جمعها قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي أنامله أو أطراف أنامله لجمع سلامياته وضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ عطف على يحسب فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون إيجاباً بالجواز أن يكون الإضراب عن المستفهم أو عن الاستفهام ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ يفجر منصوب بأن مقدرة واللام زائدة، قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي معناه لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على جمع عظامه لكنه يزيد أن يفجر أن يكفر أمامه أي ما يأتي عليه من الزمان المستقبل فيدوم على الكفر لا ينزع عنه ولا يتوب، وقال سعيد بن جبير معناه يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول سوف أتقرب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على شر حاله، وقال الضحاك هو الأمل يقول أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت، وقال ابن عباس وابن زيد يكذب بما أمامه من القيامة والبعث والحساب والفجور الميل سمي فاجراً لميله عن الحق ﴿يَسْـَٔلُ﴾ حال من فاعل يفجر أي سائلاً واستبعاداً واستهزاءً ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي لا يكون ذلك ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ قرأ نافع بَرَقَ بفتح الراء والباقون بكسرها وهما لغتان قال في القاموس برق كفرح ونصر برقاً وبروقاً تحير حتى لا يطرف أو دهش فلم يبصر، وقال الفراء والخليل برق بالكسر أي

تحير وفزع لا يرى من العجائب التي كان يكذبها في الدنيا قيل ذلك عند الموت والصحيح أنه يوم القيامة بقرينة ما عطف عليه ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ أي أظلم وذهب ضوءه ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ أسودين مكورين قيل: معناه إنهما يطلعان معاً من المغرب آية للقيامة والخسوف مستعار للمحاق، وقال عطاء بن يسار يجمعان يوم اليامة ثم يقذفان في البحر فتكون ناراً له الكبرى وقيل: يجمع بينهما في ذهاب الضوء وعن جمل برق البصر الخ على ما قيل الموت لقسر الخسوف بذهاب ضوء البصر والجميع باستتباع الروح الخاصة في الذهاب أو لوصوله إلى مكان يقتبس منه نور العقل من سكان القدس وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف وإذا مضاف إلى البرق والخسف والجمع ظرف لقوله ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ والجملة الكاملة معطوفة على مضمون قوله بلى قادرين أي بلى نجمع العظام فيقول الإنسان الكافر أين المفر يقول ذلك إذا برق البصر الخ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا برق الخ ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ مقول ليقول ﴿كَلَّا﴾ ردع من طلب المفر بيانه ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي لا مجلأ ولا حصن مستعار من الجبل فإنهم كانوا يلجؤون بالجبل واستقامة من أنوار بمعنى الثقل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ المصير والمرجع وإلى مشيئته وحكمه موضع قرارهم ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن مسعود وابن عباس بما قدم قبل موته من عمل صالح أو شيء وما أخر بعد موته من سنته حسنة أو سيئة بعمل، وقال قتادة بما قدم من طاعة الله وما أخر منه فضيعه، وقال مجاهد بأول عمله وآخره، وقال زيد بن أسلم بما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته وقيل: بما قدم وأخر بمعنى بل قدم أمور الدنيا على أمور الآخرة أو بالعكس ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أي يبصر بتذكير ما عمل في الدنيا لا يحتاج إلى الأنباء والهاء للمبالغة نظيره قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(١) كذا قال أبو العالية وعطاء ورواه البغوي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون بصيرة صفة لمحذوف تقديره بل الإنسان عين بصيرة على نفسه وعلى التقديرين على نفسه متعلق ببصيرة وهو خبر الإنسان، والبصيرة بمعنى الحجة كما قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾(٢) أي الإنسان هو حجة بينة على نفسه شاهد عليها وحينئذ على نفسه ظرف مستقر خبره بصيرة والجملة خبر للإنسان ويحتمل أن يراد بالبصيرة ذا الحجة الملك الموكل، وقال مقاتل والكلبي معناه بل الإنسان على نفسه بصيرة رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله وهو سمعه وبصره وجوارحه وحينئذ دخول الهاء في البصيرة لأن المراد الإنسان جوارحه ويحتمل أن يكون معناه بل

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

الإنسان على نفسه بصيرة يعني جوارحه فحذف حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾[١] أي لأولادكم ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ﴾ الإنسان ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ قال الضحاك والسدي معناه ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب عند فعل المعصية ليخفي ما يعمل فلا ينفع فإن نفسه عليه شاهد وكذا الموكل به والله على كل شيء شهيدوأهل اليمن يسمون الستر معذاراً وجمعه معاذيره، وقال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير معناه يشهد عليه الشاهد من الجوارح والملائكة ولو اعتذر وجادل عن نفسه كما قال لا ينفع الظالمين معذرتهم قال: الفراء ولو اعتذر فعليه من نفسه من يكذبه ومعنى القاء القول كما قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٢] وعلى هذا معاذير جمع معذار بمعنى العذر وجمع معذرة على غير قياس كمناكير في المنكر، والظاهر أنه اسم جمع وجمعها معاذر وكذا المناكير والله تعالى أعلم.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

أخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبرائيل بالوحي يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف عنه يريد أن يحفظ ما أنزل الله فأنزل الله تعالى[٣] ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا محمد ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل أن يتم وحيه ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي لتأخذه على عجلة، في الصحيحين عن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه إذا نزل يخشى أن ينفلت ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ إثبات قراءته على لسانك تعليل للنهي ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي القرآن بلسان جبرائيل أضاف قراءة جبريل إلى نفسه مجازاً لأنه بأمره ورسالته ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قراءته يعني فاقرأ بعد قراءة جبريل حتى يرسخ في ذهنك كذلك لا بد للتلميذ أن يقرأ بعد قراءة الشيخ ولا يقرأ معه كيلا يقع المزاحمة والتشويش في القراءة والحفظ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي القرآن أي إظهار المراد منه إذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: الاستماع للقراءة (٤٤٨)

أشكل شيء من معانيه، قلت: الآية على أن بيان القرآن محكمه ومتشابهه من الله تعالى للنبي ﷺ لا يجوز أن يكون شيء منها غير مبين له عليه الصلاة والسلام وإلا يخلو الخطاب من الفائدة ويلزم الخلف في الوعد كما ذكرنا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١) وكلمة ثم تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب لكن لا يجوز عن وقت الحاجة، وجملة لا تحرك به لسانك معترضة على طريقة من يتكلم فطفق المخاطب يتكلم ويقعط كلامه فقال اسكت ولا تقطع الحديث إنما لك حق التكلم بعد تمام الاستماع ثم عاد إلى ما كان يتكلم فيه فقال ﴿كَلَّا﴾ ردع على إنكار البعث أو الفجور أمامهم أو على إلغاء المعاذير الباطلة ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ الضمير راجع إلى الإنسان المذكور سابقاً وجمع الضمير نظراً إلى المعنى لأن المراد به الجنس أو الذي الكلام فيه ومن في معناه ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا وشهواتها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي الإنسان على ما مر هذا على قراءة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالياء للغيبة فيهما وقرأ الكوفيون ونافع بالتاء على الخطاب فيهما على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ وتعميها يعني أنهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يقدر على البعث والإعادة أو أن معاذيره ينفعهم بل يحبون العاجلة ويتبعون الشهوات الدنيا فأعمى الشهوات بأبصارهم وأعمه قلوبهم ويذرون الآخرة ثم ذكر أحوال الآخرة فقال ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ إما معترضة بتقدير الإضافة أي وجوه المؤمنين المقربين وإما نكرة مخصصة بصفة مقدرة أي وجوه كثيراً وجوه منهم أي من جنس الإنسان الذي مر ذكره ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده يعني يوم إذا كان ما سبق من برق البصر وغيره أو يوم إذا كانت الآخرة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ خبر ناعمة حسنة متهللة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلق بما بعده ﴿نَاظِرَةٌ﴾ برؤية البصر بلا كيف ولا جهة ولا ثبوت مسافة ولا بقياس الغائب على الشاهد خبر ثان لوجوه، وأخرج الآجري والبيهقي في كتاب الرؤية من طريقين عن ابن عباس قال وجوه يومئذ ناضرة قال: حسنة إلى ربها ناظرة نظرة إلى الخالق وأخرجوا عن الحسن نحوه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجه غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾(٢) رواه أحمد والترمذي والدارقطني واللالكائي والآجري نحوه وفي لفظ الآجري «أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام يرى أقصاه» كما يرى أدناه وفي الباب حديث أنس رواه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى (٢٥٥٣).

البزار والطبراني والبيهقي وأبو يعلى بطوله وفيه «يوم الجمعة يزداد فيها نظراً إلى وجهه تعالى ولذلك دعي يوم المزيد» رواه البزار والأصفهاني عن نحوه، وأخرج الآجري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يرون ربهم كل جمعة» وعن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم كل جمعة» الحديث أخرجه يحيى بن سلام وعن أنس مرفوعاً «قال الله تعالى من سلبت كريمتيه جزائه الحلول في داري والنظر إلى وجهي» رواه الطبراني وغيره، وحديث جرير البجلي قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»(١) متفق عليه وكذا روى اللالكائي عن حذيفة وفي الصحيحين عن أبي هريرة نحوه، وعن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يدعو «اللهم إني أسئلك برد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضرار مضرة ولا فتنة مضلة» رواه اللالكائي، وعن عبادة بن صامت «لن تروا ربكم حتى تموتوا». رواه الدارقطني وكذا رواه اللالكائي عن أبي هريرة وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ قال: قال الله تعالى يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تغرق وإنما يراني أهل الجنة لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم» وعن علي في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ قال: من أراد أن ينظر إلى خالقه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك به أحداً رواه البيهقي. وبالجملة صح تفسير هذه الآية وتفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾(٣) وغيره من الآيات برؤية الله تعالى مسنده عن النبي ﷺ وأصحابه التابعين بحيث بلغت مبلغ التواتر عند أهل الحديث كذا ذكر السيوطي وغيره وبما ذكرنا في هذا المقام كفاية ونذكر في تفسير كل رية منها ما يتعلق به إن شاء الله تعالى، وعلى رؤية الله تعالى انعقد إجماع أهل السنة والجماعة وخالفهم أهل الهواء من المعتزلة والخوارج وغيرهم بامتناعها زعماً منهم بأنها تتوقف على كون المرئي حسماً كثيفاً بلا حجاب وكون المسافة بين الرائي والمرئي متوسطة لا في غاية القرب ولا في غاية البعد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر (٥٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٣).

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٥.

وخروج شعاع البصر من الرائي ووصوله إلى المرئي المقتضى ثبوت الجهة له تعالى، واستدلوا على امتناع الرؤية من المنقول بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[1] وقالوا: تأويل هذه الآية أن ناظرة بمعنى منتظرة أمر ربها وإنعامه ويأبى عنه العربية فإن الانتظار يتعدى باللام دون إلى والنظر بالبصر يعدى بإلى، وقال أهل السنة الرؤية لا تتوقف إلا على كون المرئي موجوداً وكذلك في جانب الرائي لا يشترط إلا الوجود والحياة والعلم والإبصار وأما توقف الرؤية على غير ذلك من الشرائط فأمر عادي في خصوص المادة ولا يجوز قياس الغائب على الشاهد ولا شك أن الله سبحانه وتعالى يرى خلقه من الماديات والمجردات من غير مسافة بينهما ولا خروج شعاع وهو السميع البصير كيف ينكر كونه مرئياً بعدما نطق به البشير النذير وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ وإنما ينفي الدرك وهو يقتضي الإحاطة وحصول العلم بكنهه وذلك محال وأما العلم الحضوري بالكنه بمعنى حضوركنه المعلوم عنه العالم فليس بمحال لكنه متعال عن درك الأبصار والله تعالى أعلم.

فائدة: هذه الآية تدل على أنهم يرون الله تعالى دائماً مستمراً لا ينقطع رؤيتهم كما يدل على دوام النضرة لهم أبداً فإن الجملة الاسمية للدوام والاستمرار ولا منافاة بينها وبين ما ثبت بالأحاديث أن من الناس من يرى الله تعالى كل جمعة منهم من يرى الله تعالى في كل جمعة أي أسبوع مرتين كذا أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة، ومنهم من يرى ربه في مقدار كل عيد لهم في الدنيا يعني في كل سنة مرتين كذا روى يحيى بن سلام عن أبي بكر بن عبد الله المزني، ومنهم من يرى في كل يوم مرتين غدوة وعشية كما مر من حديث ابن عمر لأن ثبوت دوام الرؤية إنما هو لجمع منكر وهي لا تدل على العموم أو بقدر ما هو خص من المؤمنين فيقدر المقربين فتقديره وجوه المقربين يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة دائماً أبداً، أخرج أبو نعيم عن أبي يزيد البسطامي قال: إن الله تعالى خواص من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤية لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار فظهر أن الناس في الرؤية على درجات لا تكاد تجمع، وليس المقصود من الأحاديث استيفاء رجائهم ومعنى قوله ﷺ: «أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية» أنهم من أكرمهم وهذا لا يقتضي أن لا يكون أحد أكرم منهم وإذا تقرر هذا فاعلم أن الذين يدومون النظر إلى الله تعالى أعلم بهم هم الأنبياء والمقربون من العباد الواصلين إلى الذات المجرد عن الشيون

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

والاعتبارات الذين كان حظهم في دار الدنيا من الذات التجلي الدائمي لا كالبرق الخاطف لأن من كان حظه في دار الدنيا دوام التجلي ولم يكن له الرؤية في الدنيا لعدم صلاحيته تعين هذه النشأة الرؤية كما أشير إليه في حديث ابن عباس عند أبي نعيم في الحلية فإذا زال المانع فلا جرم ينظر ذلك الرجل إلى الله دائماً وإلا لزم انعكاس الأمور ورجوعه القهقرى ومن لم يكن في الدنيا دوام التجلي والحضوري فيكون الرؤية لهم على تفاوت الدرجات فمن كان حظه تجلياً برقياً يرى في كل يوم مرتين أو مراراً من لم يكن كذلك ففي كل جمعة أو شهر أو سنة على ما شاء الله.

فائدة: قال المجدد رضي الله عنه في المكتوب المائة من المجلد الثالث في تحقيق سر اشتغال قلب يعقوب عليه السلام بمحبة يوسف عليه السلام: مع أن قلوب الخواص من الناس تكون فارغة عن حب غير الله تعالى أن جنة كل رجل عبارة عن ظهور اسم من أسماء الله تعالى الذي هو مبدأ التعين ذلك الرجل وأن ذلك الاسم يتجلى بصورة الأشجار والأنهار والقصور والحور والغلمان واستحكم هذا المكشوف بقوله ﷺ: «إن الجنة طيبة التربة عذبة ـ أي أنهارها ـ قيعان وإن غراسها هذه يعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»(١) ثم قال المجدد رضي الله عنه إن تلك الأشجار والأنهار قد تصير في حين من الأحيان على هيئة الأجرام الزجاجة فتصير وسيلة إلى رؤية الله سبحانه غير متكيفة ثم تعود إلى حالها الذي كانت عليه فيشتغل المؤمن بنفسها وهكذا إلى أبد الآبدين، وقال: كما أن التجلي الذاتي للصوفي في الدار الدنيا تكون من وراء حجب الأسماء أو الصفات وقد يرتفع تلك الحجب فيحصل له التجلي الذاتي كالبرق الخاطف كذلك حال الرؤية في الآخرة لكل رجل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى باعتبار اسم هو مبدأ الجنة وتجلى وتمثل لجنة وتلك الرؤية تكون كالبرق الخاطف في زمان يسير ثم تحجب عنه ويبقى نوره وبركته من واء نعيم الجنة وأشجارها، قلت: هذا تحقيق رؤية العوام من أهل الجنة وأما الخواص منهم فلما كان التجلي لهم في الدنيا دائماً فكذلك الؤية تكون لهم دائماً. فإن قيل: قال المفسرون تقديم الجار المجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ يقتضي الحصر ويفيد أنهم إذا أراد ربهم يستغرقون في رؤيته تعالى لا ينظرون حينئذ إلى غيره ويؤيده حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٢).

تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ قال: «فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم وما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»(١) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني فحينئذ لو كان لبعض الناس دوام الرؤية فكيف يتصور الحصر وعدم الالتفات إلى النعيم دائماً؟ قلنا: إفادة الحصر ممنوع وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل ولعل الالتفات إلى النعيم في حق ذلك البعض لا يزاحم الرؤية بل تكون نعيم الجنة في حقه مثل الأجرام الزجاجية أبداً مؤبدة للرؤية وذلك الصوفي يجمع له الرؤيتان رؤية حجاب ورؤية بتوسط النعيم ومع ذلك يرى النعيم ويلتذ به أيضاً وإن من هذا شأنه فلن يشغله شأن عن شأن وأما غيره من أهل الجنة فالالتفات إلى نعيم الجنة يشغلهم عن الرؤية وبالعكس لضيق استعدادهم، أو نقول معنى الحصر في حق من له الرؤية وأما ما روي من حديث جابر فهو حكاية عن حال عامة أهل الجنة، لا يقال: سلمنا أن التفاتهم النعيم لا يشغله عن الرؤية فكيف يجوز له التوجه إلى النعيم مع حصول شرف الرؤية لما ذكرنا أن نعيم الجنة أسماء الله تعالى فلا محذور في الالتفات إليها مع الرؤية.

فائدة: وقع في بعض كلام الأئمة أن رؤية الله خاصة لمؤمن البشر وأن الملائكة لا يرونه ونص البيهقي على خلافه محتجاً بحديث عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: خلق الله تعالى الملائكة بعبادته أصنافاً وإن منهم الملائكة قياماً صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة تجلى لها تبارك وتعالى فنظروا إلى وجه الكريم وقالوا: ما عبدناك حق عبادتك، وأخرج نحوه من وجه آخر عن عدي بن أرطان عن رجل من الصحابة وبما ذكرنا رؤية كل رجل على حسب مبدأ تعينه يظهر فضل الملائكة على عوام مؤمني البشر لكون مبادي تعيناتهم فوق مبادي تعينات البشر كما حققه المجدد رضي الله عنه وبما ذكرنا أن رؤية الخواص لبشر دائمة غير منقطعة يظهر فقيل: خواص البشر أفضل على خواص الملائكة كما بين في كتب العقائد ﴿وَوُجُوهٌ﴾ أي وجوه الكافرين أو وجوه كثيرة ﴿يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ كالحة عابسة شديد العبوس ﴿تَظُنُّ﴾ تستيقن أربابها خبر ثاني ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ واهية عظيمة فقار الظهر، قال ابن زيد هي دخول النار، وقال الكلبي هي أن يحجب عن رؤية الرب عز وجل.

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤)، وفيه رجل يغلب عليه الوهم.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل ارتدعوا عن ذلك واذكروا الموت الذي عنده ينقطع الدنيا وتقبل الآخرة مخلدة ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس كناية عن غير مذكور دل عليه الكلام وإذا شرطية جزاءه إلى ربك يومئذ المساق أو ظرف متعلق بفعل دل عليه المساق أي يساقون إلى ربكم إذا بلغت ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشراف على الموت ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ يسكت حفص على من ويدغم غيره أي قال حاضر والمحتضر من يرقيه مما به من الترقية كذا قال قتادة، أو قالت الملائكة الموت أيكم يرقي بورجه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب من الرق كذا قال سليمان التيمي ومقاتل بن سليمان ﴿وَظَنَّ﴾ المحتضر ﴿أَنَّهُ﴾ أي الذي نزل به ﴿ٱلْفِرَاقُ﴾ أي سبب للفراق من الدنيا ومما يحبه ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي إلتوت ساقه بساقه فلا يقدر تحريكهما كذا قال الشعبي والحسن ونحوه، وقال ابن عباس التوت أمر الدنيا بأمر الآخرة فكان آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فيجتمع عليه شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، وقال الضحاك معناه أن الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي سوق ومرجعه يحكم فيه ما يشاء ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الرسول والقرآن أو لا صدق ماله أي لم يزك ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لله ما فرض عليه قوله فلا صدق عطف على مضمون أيحسب الإنسان فإن التوبيخ يستلزم الوقوع تقديره حسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ولا نبعثه فلا صدق ولا صلى والضمير فيهما راجع إلى الإنسان فالسياق يقتضي أن يكون ذلك حكاية عن عدي بن ربيعة المذكور، وقال البغوي المراد أبو جهل ولو حمل الإنسان على الجنس لكان شاملاً لهما ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ النبي ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان به ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ أي يسرع في سيره، في القاموس مطى جد في السير والسرع، في الصحاح معناه يمد مطاه أي ظهره ومنه يقال لا يركب ظهره مطيه كالبعير، وقيل: أصله يتمطط أبدلت الطاء ياء اجتماع ثلاثة أحرف مماثلة والطاءه هو المد، وحاصل المعنى يتبختر لأن المتبختر يمد عنقه ويمد

خطاياه ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ جملة دعائية بمعنى ويل لك أو تهديد ووعيد وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ كرره للتأكيد ويحتمل أن يراد به ويل لك في الدنيا بالقتل واللعن وذكر السوء والتعذيب وويل لك يوم الموت وويل لك إذ بعثت ويل لك إذا دخلت النار فهو نقيض ما قيل في يحيى عليه السلام ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾[(١)] فهو أفعل من الويل بعد القلب كأدنى من دون وقيل: أصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في قوله﴿رَدِفَ لَكُم﴾[(٢)] أي ردفكم وقيل: أصله أولى لك الهلاك وقيل هو فعل من آل يؤل أمرك إلى الشرك، وقيل هو اسم فعل بمعنى وليك ما تكرهه في القاموس أولى لك تهدد ووعيد أي قاربك الهلاك فهو من الولي بمعنى القرب، قال قتادة ذكر لنا أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فقال أبو جهل أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئاً وإني أعز من مشى بين جبلها فلما كان يوم بدر صرعه الله أشد مصرع وقتله سوء قتل، وقال النبي ﷺ «إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه أبو جهل»[(٣)] وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل لقريش ثلكتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فأوحى الله تعالى إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قبل نفسه، ثم أنزل الله ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أمال حمزة والكسائي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يجازي حيث ينكر البعث فإن إنكار البعث يقتضي كونه مهملاً مع أن الحكمة في خلقه ليس إلا التكليف قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[(٤)] وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[(٥)] وكيف ينكر الإنسان البعث ويستحيله ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ يصب في الرحم قرأ حفص بالياء على التذكير راجعاً إلى المني والباقون بالتاء رداً إلى النطفة ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ الإنسان بعد كونه نطفة ﴿عَلَقَةً﴾ بعد أربعين يوماً ثم مضغة كذلك ثم عظاماً

(١) سورة مريم، الآية: ١٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

فكسيت لحماً ﴿فَخَلَقَ﴾ الله تعالى إياه وإيانا بنفح روحه فيه ﴿فَسَوَّىٰ﴾ وعدل خلقه بلا نقصان ﴿فَجَعَلَ﴾ الله سبحانه ﴿مِنْهُ﴾ أي من المني الذي صار علقة ثم مضغة ثم عظاماً ولحماً ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين يجتمعان في الرحم تارة وينفرد كل منهما عن الآخر أخرى ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الله الذي يفعل ذلك ويوجد بلا سبق وجود ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إنكار جواز البعث مع مشاهدة ما هو أعجب منه يقتضي كمال الحمق أو العناد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ومن قرأ والمرسلات فبلغ فبأي حديث بعده يؤمنون فليقل: آمنا بالله»[١] وعن موسى بن عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال: سبحانك بلى فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ روى الحديثين أبو داود.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٥).

سورة الدهر

مكية وهي إحدى وثلاثون آية

قال قتادة ومجاهد مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ① إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ② إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ④ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ⑤ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ⑥ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ⑦ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ⑨ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ⑩﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ استفهام تقرير ومعناه قد أتى ومضى ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾ المراد به الجنس أو آدم عليه السلام ﴿حِينٌ﴾ قال البيضاوي أي طائفة محدودة من الزمان، وفي القاموس الحين وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طال أو قصر وقيل يختص بأربعين سنة أو ستين سنة أو شهر أو شهرين ﴿مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي من الممتد الغير المحدود، وفي القاموس الدهر الزمان الطويل أو ألف سنة، قلت: هو مدة عمر آدم عليه السلام وفي الصحاح الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبتدأ وجوده إلى انقضائه وعلى ذلك قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ الآية ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة دهر فلان مدة حياته ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ حال من الإنسان أي حال كونه لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد أو صفة لحين والعائد محذوف أي لم يكن فيه شيئاً مذكوراً أو هذا الكلام يقتضي كونه شيئاً وإلا لم يوصف بأنه قد أتى عليه ويقتضي كونه غير مذكور بل منسياً فيه فقال المفسرون وذلك إن أريد به آدم عليه السلام فذلك الحين حين صوره الله تعالى من الطين فكان ملقى بين مكة والطائف أربعين سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وقال ابن عباس ثم خلقه الله تعالى بعد عشرين ومائة سنة وإن أريد به الجنس فذلك الحين أربعة أشهر حين كان نطفة أو علقة أو

مضغة إلى نفخ الروح وستة أشهر أقل مدة الحمل وسنتين أكثرها وقيل: أكثر مدة الحمل سبع سنين، وعلى التقديرين لا يخلو الكلام عن التسامح لأن ذلك الحين لم يأت على الإنسان بل على الطين المصور النطفة ونحوها والظاهر أن الكلام يقتضي كونه إنساناً لأن عقد الوضع قبل عقد الحمل فالأولى أن يحتمل ذلك الكون على كونه في مرتبة الأعيان الثابتة التي اهتدى إليها الصوفية ويدل على هذا التأويل تنكير حين فإنه للتكثير روي عن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فقال: ليتها تمت يريد ليته بقي ـ على ما كان غير مذكور أبداً وهذا القول أولى بالتأويل الأخير دون ما سبق، وللصوفية ههنا تأويل آخر هل أتى على الإنسان أي على الصوفي حين من الدهر لم يكن لا شيئاً مذكوراً بعدما كان مذكوراً بالإنسانية وغيرها من الصفات وذلك حين الاستهلاك والفناء الأتم بحيث لا يبقى في علمه شيئاً مذكوراً، قال المجدد نعم ربّ قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً لا عيناً ولا أثراً ولا شهوداً ولا وجوداً ثم يصير بعد ذلك إن شئت حياً بحياتك وباقياً ببقائك ومتخلقاً بأخلاقك بل صار باقياً بك وبفضلك في عين الفناء وما ينافيك في عين البقاء، قلت: وقول المجدد ثم يصير بعدذلك الخ كأنه تفسير لقوله تعالى، فمن ابتدائية والدهر يعد من أسماء الله تعالى الحسنى كذا في القاموس، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[1] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي ذريته إن كان المراد بالإنسان الأول آدم عليه السلام وإلا فالمراد فيهما الجنس ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ جمع شيئج أو شيج من الشجب الشيء إذا خلطته وصف النطفة بالجمع لأن المراد به مجموع مني الرجل والمرأة وكل منها مختلفة الأجزاء والأوصاف في الرقة والقوام والخواص، وقيل: أمشاج مفرد بمعنى مختلطة يختلط فيه مني الرجل والمرأة فهو حينئذ على وزن أعشار يقال برمة أعشار بمعنى يحمله عشرة، يقال يمان كل يومين اختلطا فهو أمشاج وقال قتادة معناه أطوار أي ذات أطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة أي تمام الخلق ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال من الإنسان ذكر الابتلاء وأراد به نقله من حال إلى حال مجازاً أو حال مقدرة أي مقدرين ابتلائه ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لتمكن من استماع الدلائل ومشاهدة الآيات فهو كالمسبب للابتلاء ولذا عطف على ما قيد به ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾ أي بيناه أي الإنسان ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ إلى الله وإلى مرضياته وجنته بنصب الدلائل وبعث الرسل وإنزال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (٤٨٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

الكتب والمراد بالهداية ههنا إراءة الطريق دون إيصال بخلاف قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من الهاء أي هديناه السبيل مقدرين منه أحد الأمرين أمر الشكر على الهداية وقبولها أو الكفر والإنكار، وقيل حال من السبيل يعني هديناه السبيل حال كون السبيل سبيل الشكر أو الكفران وصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً، والترديد إنما هو حالتي السبيل من الشكر والكفران دون الإراءة تعلقت يقسمي السبيل وحاليته معاً فلا يجوز يقال إن هذا التأويل غير مستحسن فإن إراءة طريق الحق حقاً وطريق الباطل باطلاً مستلزم أحدهما الآخر فلا يتصور هناك الترديد فالترديد يقتضي أن يكون معناه أريناه أحد الطريقين دون الآخر أرينه الحق أو الباطل حقاً فسلك تلك الطريق وحنيئذ يلزم كون الإنسان مقدوراً على سلوك طريق الباطل وقيل معنى الكلام الشرط والجزاء فإما مركباً أن الشرطية وما الزائدة فمعناه إن كان شاكراً أو كفوراً فقد هديناه السبيل ولم نترك عذراً. وقال كفوراً ولم يقل كافراً حتى طابقت قسميه لرعاية الفواصل ولأن الشاكر قلما يخلو عن نوع من الكفران فقسمه هو المبالغ في الكفران، وجملة إنا هديناه السبيل مستأنفة فكأنه في جواب من قال فما فعل بالإنسان وما فعل هو بعد ما خلق وجعل له السمع والبصر ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في جهنم ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ قرأ نافع والكسائي وأبو بكر وهشام سلاسلاً بالتنوين للمناسبة وصلاً وقفوا بالألف عوضاً منه وقرأ الباقون بغير تنوين وصلاً وقف حمزة وقنبل وحفص بغير ألف وكذا روى عن البزي وابن ذكوان وقف الباقون بالألف صلة للفتحة ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ في أيديهم تغل إلى عنقهم ﴿وَسَعِيرًا﴾ وقوداً شديد أو هذه الجملة والتي بعدها مستأنفين كأنهما في جواب ما نصيب الشاكرين وما نصيب الكافرين وقدم وعيد الكافرين مع تأخر ذكرهم لأن إنذارهم أنفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بر بفتح الباء كأرباب أو بار كالشهادة يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم والمطيعين لربهم ومصدره البر كسر الباء بمعنى الصلة والخير والاتساع في الإحسان والصدق في الطاعة كذا في القاموس وكل ذلك صفات المؤمنين ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ قال في الصحاح الكاس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس خال ويقال شربت كأساً وكاساً طيبة، وفي القاموس الكأس الإناء يشرب فيه أو ما دام الشراب فيه ولا تخصيص في الشراب بخمر أو لبن أو عسل أو ماء وههنا يحتمل أن يكون الإنار أو من للابتداء والمعنى يشربون مشروباً خمراً ولبناً وماء وعسلاً من كأس أي من ظرفه، ويحتمل أن يكون بمعنى المشروب إما حقيقة أو مجازاً تسمية الحال باسم المحل نحو جرى النهر

ومن حينئذ إما زائدة أو للتبعيض أو للبيان ويحتمل أن يكون الإناء بما فيه ويكون من للابتداء ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج الضمير عائد إلى كأس حقيقة إن كان بمعنى الشرب ومجازاً على طريقة إذا نزل السماء بأرض قوم وعيناً إن كان بمعنى الإناء يعني كان مزاج ما فيها ﴿كَافُورًا﴾ قال قتادة يمزج بهم بالكافور ويختم بالمسك، وقال عكرمة مزاجها طعمها كافوراً ككافور في طيب الطعم والريح كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾(١) أي كنار، وقال عطاء والكلبي الكافور اسم لعين الماء في الجنة ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾(٢) ﴿عَيْنًا﴾ بدل من كافور إن جعل اسم ماء أو بدل من محل من كأس على تقدير مضاف أي ماء عين أو منصوب على الاختصاص أو المدح أو بفعل يفسره ما بعده ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء زائدة أي يشربها أو صلة على تضمين يعني ملتذاً بها أو ممزوجاً بها أو بمعنى من الابتداء ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الذين عبدوا الله وحده مخلصين له الدين ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يقودون تلك العين ويجرونها إجراء سهلاً حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم، أخرج عبد الله بن أحمد في رواية الزهد عن ابن شوذب قال فهم قضيان من ذهب يفجرونها بها بتبع قضائها ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ جملة مستأنفة في جواب ما بالهم يثابون كذلك أو في جواب الأبرار ما هم فهو تعريف للأبرار بأنهم يؤدون الواجبات ويخافون الله فيجتنبون المكروهات ويرحمون العباد ويفعلون الحسنات خالصاً لله تعالى ابتغاء مرضاته هذا شأن الأبرار ويحصل ذلك المراتب بعد فناء النفس وزوال رذائله وأما المقربون فشأنهم أرفع من ذلك أو تعليل لما سبق يعني أن الأبرار يشربون الخ لأنهم يوفون النذر في الدنيا والنذر في اللغة أن توجب على نفسك ما ليس بواجب كذا في الصحاح وإيفائهم ما يوجبوا على أنفسهم ما ليس بواجب عليه يدل بالطريق الأولى على إيفائهم ما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد وغيرها، فلعله هو المراد بما قال قتادة يوفون بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وغيرها من الواجبات للإيجاب.

فصل: ولما كان النذر عبارة عن إيجابه على نفس ما ليس بواجب ظهر أنه لا بد لانعقاده من شرطين أحدهما أن يكون طاعة فإن ما ليس بطاعة لا يصلح للإيجاب قال رسول الله ﷺ: «إنما النذر ما ابتغي به وجه الله»(٣) رواه أحمد من حديث عبد الله بن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٧.

(٣) رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد ضعفه بعضهم ووثقه آخرون. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الأيمان والنذور، باب: لا نذر في معصية الله إنما النذر ما ابتغي به وجه الله (٦٩٥٣).

عمرو بن العاص والثاني أن لا يكون واجباً بإيجاب الله تعالى وقال أبو حنيفة ولا بد أيضاً أن يكون العبادة مقصودة بنفسها وأن يكون من جنسها واجب بإيجاب الله وعند الجمهور لا يشترط ذينك الشرطين والإجماع على وجوب الاعتكاف بالنذر يقتضي انتفاء هذين الشرطين فإنه عبادة لأجل انتظار الصلاة لا بنفسه وليس منه عينه واجب ومن ثم قال الشافعي يجب بالنذر كل قربة لا تجب ابتداء كعيادة المريض وتشييع الجنازة والسلام ويدل على التعميم حديث عائشة «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»(١) رواه البخاري، وزاد الطحاوي وفي هذه الوجه وليكفر عنه عن يمينه قال ابن العطاء عند الشك في رفع هذه الزيادة.

مسألة:

من نذر بطاعة وقيده بقيود للطاعة فيها يلغو تلك القيود وينعقد النذر بالطاعة كمن نذر بالصلاة في مكان معين وبالصوم قائماً ونحو ذلك فيجب الصلاة والصوم ويتأدى بكل مكان وعلى كل حال إجماعاً، إلا أن أبا يوسف والشافعي وغيرهما قالوا لو نذر أن يصلي في المسجد الحرام لم يجزه في غيره ولو نذر في المسجد الأقصى أو مسجد النبي ﷺ يجوز له الأداء في المسجد الحرام ولم يجزه فيما هو أقل منه فضلاً وقال أبو حنيفة في جميع الصور يجوز الأداء في كل مكان، وفي حديث جابر أن رجلاً قال يوم الفتح يا رسول الله ﷺ إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في البيت المقدس فقال له رسول الله ﷺ: «صل ههنا» فأعادها على النبي ﷺ مرتين أو ثلاثاً فقال النبي ﷺ: «شأنك إذاً»(٢) رواه أبو داود والدارمي فبهذا الحديث ألغى أبو حنيفة تقييده بالمسجد الأقصى، قال أبو يوسف والشافعي تقييده الصلاة بمسجد من هذا المساجد الثلاثة كثرة الثواب والمعنى الطاعة فلا يلغى عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيها سواه إلا المسجد الحرام»(٣) متفق عليه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمسمائة صلاة وصلاته في المسجد الأقصى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في الطاعة (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر أن يصلي في بيت المقدس (٣٢٩٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: فضل الصلاة، بمسجدي مكة والمدينة (١٣٩٤).

بألف صلاة وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة وصلاته في المسجد الحرام مائة ألف صلاة»[١] رواه ابن ماجه، وقال: إنما ذلك على الصلاة المكتوبات لا على النوافل عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله ﷺ: «صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة»[٢] رواه أبو داود والترمذي، وما يدل على إلغاءقيود لا طاعة وفيها حديث ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه فقال: أبو إسرائيل نذر أن يكون ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ولا يصوم فقال: مروه فليتكم وليستظل وليقعد وليتم صومه»[٣] رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان ورواه البخاري وليس فيه في الشمس ورواه مالك في الموطأ مرسلاً وفيه فأمره بإتمام ما كان لله طاعة وتترك ما كان معصية قال مالك ولم يبلغني أنه أمر بكفارة وأخرجه الشافعي وفي آخره ولم يأمره بكفارة ورواه البيهقي من حديث محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس وفيه الأمر بالكفارة، ومحمد بن كريب ضعيف.

مسألة: من فاته ما وجب عليه بالنذر يجب قضاءه بمثله حقيقة أو حكماً فيقتضي الصلاة بالصلاة والصوم بالصوم والشيخ الفاني يطعم بكل صوم مسكيناً ومن نذر الحج ماشياً فركب بعذر يهدي هدياً وبه، قال الجمهور وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة وفي رواية الأصل عن أبي حنيفة لا يجب عليه المشي في الحج بالنذر فلا يجب عليه الهدي لحديث عقبة بن عامر الجهني قال: نذرت أختي أن تمشي إلى الكعبة حافية حاسرة فأتى عليها رسول الله ﷺ فقال: ما بال هذه؟ قالوا: نذرت أن تمشي إلى الكعبة حافية حاسرة قال «مروها فلتركب ولتخمر» متفق عليه، وحديث أنس أن رسول الله ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنين له فسأل عنه فقال: نذر أن يمشي فقال إن الله لغني عن تعذيب هذا وأمره بأن يركب»[٤] متفق عليه، قلنا: أما حديث عقبة بن عامر فقد رواه أبو داود بسند جيد نذرت

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الصلاة في المسجد الجامع (١٤١٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة، باب: ما جاءفي فضل صلاة التطوع في البيت (٤٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الرجل المتطوع في بيته (١٠٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في المعصية (٣٢٨٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من خلط في نذره طاعة بمعصية (٢١٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: جزاء الصيد، باب: من نذر المشي إلى الكعبة (١٨٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٢).

أختي أن تمش إلى البيت فأمر النبي ﷺ أن تركب وتهدي هدياً وروى داود من حديث زيد بن عباس بلفظ أن أخت عقبة بن عامر نذرت إن تحج ماشية وأن لا تطيق ذلك فقال النبي ﷺ: «إن الله غني عن مشي أختك فلتركب ولتهد بدنة»، وروى الطحاوي من حديث عقبة بن عامر نحوه بسند حسن فظهر أن ما في الصحيحين فيه اختصار على ذكر بعض المروي وما ذكرنا من الروايات يقتضي تخصيص البدنة بالهدي وروى عبد الرزاق عن علي بسند صحيح فيمن نذر أن يمشي إلى البيت قال: يمشي فإن عيي ركب وأهدى جزوراً وأخرج نحوه عن ابن عمر وابن عباس وقتادة والحسن.

مسألة:

ومن نذر بمعصية أو بأمر مباح لا يصلح للطاعة لا يجب ولا ينعقد النذر إجماعاً فيلغو عند أبي حنيفة وعند الجمهور يتعقد يميناً للتحرز عن إلغاء كلام العاقل وصيغته أكيد يصلح لكونه يميناً لفظاً لاشتماله على ذكر اسم الله تعالى ومعنى لأن فيه تحريم ضد المنذور فعندهم يجب أن يحنث ويكفر في المعصية وفي المباح يخير بين أن يفعل أو يكفر والحجة لهم أحاديث، حديث عقبة بن عامر «كفارة النذر كفارة اليمين»[1] رواه مسلم وحديث عمران بن حصين مرفوعاً «لا نذر في معصية الله وكفارة اليمين»[2] رواه النسائي والحاكم والبيهقي ومداره على محمد بن زبير الحنظلي، وهو ليس بالقوي وقال الحافظ ابن حجر له طريق أخر إسنادها صحيح إلا أنه معلول ورواه أحمد وأصحاب السنن والبيهقي من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهو منقطع لم يسمع أبو سلمة عن أبي هريرة ورواه أصحاب السنن عن عائشة وفيه سليمان بن أرقم متروك، ورواه الدارقطني عن عائشة مرفوعاً: «من جعل عليه نذراً في معصية الله فكفارته كفارة اليمين» وفيه غالب بن عبد الله متروك وروى أبو داود من حديث كريب عن ابن عباس وإسناده حسن قال النووي حديث لا نذر في معصية الله فكفارته كفارة يمين ضعيف باتفاق المحدثين، وقال الحافظ قد صححه الطحاوث وأبو علي بن السكن وحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذراً أطاقه فليف به»[3] رواه أبو داود وابن ماجه،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٥).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: كفارة النذر (٣٨٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من نذر نذراً لا يطيقه (٣٣٢٣)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من نذر نذراً ولم يسمه (٢١٢٨).

وحديث ثابت بن الضحاك أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً في موضع وفي رواية ببوانة فقال له رسول الله ﷺ هل كان فيه وثن من الأوثان الجاهلية تعبد؟ قالوا: لا، قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك»[١] رواه أبو داود وسنده صحيح وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ونحوه روى ابن ماجه عن ابن عباس، وهذا الحديث يدل على جواز وفاء النذر بما ليس بطاعة ولا معصية وكذا حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة قالت يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف تعني عند قدومك قال: أوفي بنذرك رواه أبو داود، ولعل ذلك قبل تحريم الضرب بالدف والنذر المعلق عند وجود الشرط حكمه حكم المنجز مطلقاً عند أبي حنيفة في ظاهر الرواية وعند أبي يوسف وهي رواية عن الشافعي، وبه قال مالك غير أنه قال في صدقة جميع المال يلزمه التصدق بالثلث وفيما سوى ذلك فعنده يجب عليه الوفاء بما أوجب لا غير وروي عن أبي حنيفة أنه رجع عن هذا القول وقال: أجزأه عن المعلق كفارة يمين ويخرج عن العهدة بفعله وبه قال محمد واختار صاحب الهداية والمحققون عن علماء الحنفية أن المراد بالشرط الذي يجزء عنه الكفارة عند أبي حنيفة الشرط الذي لا يريد وجوده نحو إن دخلت الدار وكلمت فلاناً أو فعلت كذا فعلي حج أو صوم سنة ويسمى هذا النذر الحاج وأما الشرط الذي يريد وجوده نحو إن شعبت أو قدم غائبي أو مات عدوي أو ولدت امرأتي ابناً فعلي كذا، قالوا وجب عليه الوفاء لا غير ويسمى هذا النذر نذر تبرر ولهذا التفصيل قال أحمد وهي الأظهر من الروايات عن الشافعي والرواية الثالث عن الشافعي أن الواجب في النذر الحاج الكفارة لا غير وهي رواية عن أحمد عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحب القسمة، فقال: إن عدت بشأنهما القسمة فكل ما لي في رباح الكعبة فقال له عمر إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب ولا في قطعة الرحم ولا فيما لا يملك» رواه أبو داود.

مسألة:

ومن نذر بعبادة لا يطيقها جاز له أن يكفر عنه وقال أبو حنيفة يستغفر الله ولا كفارة عليه لنا ما مر من حديث ابن عباس «من نذر نذر لا يطيقه فكفارته كفارة يمين» وحديث

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من وفاء النذر (٣٣٠٣).

في قصة أخت عقبة قال النبي ﷺ: «إن الله لا يصنع بشقاء أختك مشياً فلتركب ولتحج راكبة وتكفر يمينها» رواه أبو داود، وعن عبد الله بن مالك عن عقبة بن عامر قال: نذرت أختي أن أحج لله ماشية غير مختمرة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ قال: قل لأختك فلتخمر ولتركب ولتصم ثلاثة»[1] رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وروى الطحاوي نحوه، ووجه الجمع أن النبي ﷺ لعله أمره الكفارة بعد ما علم عجزها عن هذا والله تعالى أعلم ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ أي مكروه في الصحاح الشر الذي يرغب عنه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ تنتشر غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر، قال مقاتل كان شره فاشياً في السموات فانشقت وتناثر كواكبها وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة وفي الأرض فنسفت الجبال وغار المياه فكسر كل شيء على الأرض من جبال وبناء فيه إشعار إلى حسن عقيدتهم واجتابهم بهم عن المعاصي كما أن في يوفون بالنذر دلالة على إتيانهم الواجبات وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إلى آخره إشارة إلى ترحمهم على عباد الله وإتيانهم الحسنات النافلات خالصاً لله تعالى ابتغاء مرضاته ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب الله تعالى أو على حبهم الإطعام وحاجتهم إليه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لم يكن النبي ﷺ يأسر أهل الإسلام ولكنها نزلت في أهل الشرك كانوا يأسرونهم في الله فنزلت فيهم فكان النبي ﷺ يأمر بالإحسان إليهم كذا قال قتادة وقال مجاهد وسعيد بن جبير هو المسجون من أهل القبلة والأول أظهر، وقيل: الأسير المملوك وقيل: المرأة قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله سبحانه في الضعيفين المملوك والمرأة»، رواه ابن عساكر عن أبي عمر وعن أم سلمة «اتقوا الله في الصلاة وما ملكت» رواه الخطيب وروى البخاري في الأدب عن علي مرفوعاً «اتقوا الله في ما ملكت إيمانكم» وروى البغوي «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان» قال البغوي اختلفوا في سبب نزول هذه الآية؟ قال مقاتل نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وروى مجاهد وعطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب وذلك أنه عمل لليهودي بشيء من شعير فقبض الشعير فطحن منه ثلاثة، فأصلحوا منه شيئاً ليأكلوه

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير ملة الإسلام (١٥٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأيمان والنذور، باب: من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية (٣٢٨٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: الأيمان والنذور، باب: إذا حلفت المرأة لتمشي حافرة غير مختمرة (٣٨١٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الكفارات، باب: من نذر أن يحج ماشياً (٢١٣٤).

فلما تم انضاجه أتى مسكين فسأله فأخرجوا إليه الطعام ثم عمل الثلث الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه وطووا ليومهم ذلك وروى الثعلبي عن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر علي وفاطمة وفضة جاريته لهما أن يصوموا ثلاثة أيام إن برأ فشفيا وما معهم طعام فاستقرض على من سمعون الخيبري ثلاث أصوع من الشعير فطحنت فاطمة ﵄ صاعاً وخبزت خمسة أقراص فوضعوا بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم فوقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك، فنزل جبرائيل بهذه السورة وقال: خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك. قال: الحكيم الترمذي هذا حديث معضل لايروح إلا على أحمق وجاهل وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال هذا لا يشك في وضعه قال السيوطي لأن السورة مكية ودخول علي على فاطمة بعد الهجرة بسنتين، قلت: وهذا الاعتراض ملحق بما قال مقاتل وما قال مجاهد وعطاء أيضاً فإن نزول الآية في رجل من الأنصار يقتضي كون الآية مدنية وكذا عمل علي لليهودي بشيء من الشعير أيضاً لا يتصور إلا في المدينة لأن اليهود لم يكونوا بمكة بل نفس الآية يقتضي كونها مدنية لأن الأسارى لم تكن إلا بالمدينة لم يكن بمكة جهاد ولا أسر فالظاهر أن بعض هذه السورة مدنية وإن كانت بعضها مكية وعلى كون كلها مكية ففي الآية إخبار بالغيب عن حال المسلمين بعد الهجرة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ حال من يطعمون بتقدير القول أي قائلين نطعم لهم هذا القول إما تحقيقاً أو تقدير القول بلسان الحال، قال مجاهد وسعيد بن جبير أنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله ذلك من قلوبهم فأثنى عليهم ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ لفظ الوجه مقحم أي لله وطلب مرضاته ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ عوضاً بدنيا ولا مالياً ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ مصدر كالدخول والجروح والقبول روى عن عائشة أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث، قالوا فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى صواب الصدقة لها خالصاً عند الله ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ تعليل للإطعام بعد تعليل كأنه معطوف على لوجه الله بحذف العاطفة وحذف حرف الجر يعني نطعمكم طمعاً وخوفاً من الله المطلوب مرضاته وثوابه للخوف من غضبه وعذابه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع عنه السوء»[1] رواه الترمذي ﴿يَوْمًا﴾ ظرف لمقدر أي نخاف من عذاب ربنا ﴿عَبُوسًا﴾ العبوس الذي يجمع ما بين عينيه

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في فضل الصدقة (٦٥٧).

حزناً وصف اليوم به مجازاً على طريقة نهارك صايم ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس كذا قال الكلبي وقال أخفش قمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في بلاء وفي القاموس القمطرير الشديد وأقمطر اشتد نفسه ترقي من الأدنى إلى الأعلى.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ذكر المستقبل بلفظ الماضي إشعاراً لقطع وقوعه الفاء للسببية أي لأجل خوفهم واجتناباً بموجب العذاب في ذلك اليوم وقاهم الله ﴿شَرَّ﴾ أي مكاره ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أعطاهم بدل العبوسة ﴿نَضْرَةً﴾ حسناً في الوجه ﴿وَسُرُورًا﴾ في القلب ﴿وَجَزَىٰهُم﴾ الله حيث لم يطلب الجزاء عن غيره ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على طاعات الله عن معاصية وعلى الجوع عند الطعام المسكين، وعلى القتل في الجهاد وعلى المعصية عند الصدقة ﴿جَنَّةً﴾ دخولها ﴿وَحَرِيرًا﴾ ألبسوه ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المنصوب في جزاء أو من المرفوع في أدخلوا المقدر ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي السرر في الحجال، أخرج البيهقي عن ابن عباس قال: لا يكون الأرائك حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سرير بغير حجلة لا يكون أرائكة وإن كان حجلته بغير سرير لا يكون أرائكة فإذا اجتمعا كان أرائكة ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ حال من فاعل متكئين أو من ذي حاله ﴿فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ قال في القاموس الزمهرير شدة البرد القمر وازمهرت الكواكب أي لمعت فالمراد بالزمهرير إما شدة البرد وبالشمس لازمه أي الحر فالمعنى لا حر فيها ولا برد ليدوم فيها هواء معتدل، أخرج ابن المبارك وعبد الله بن أحمد في زوائده وابن مسعود قال: الجنة سجيج لا حر فيها ولا قرأو المراد بالزمهرير القمر أو لامع من الكواكب فالمعنى الجنة مضيئة بنفسها ومشرقة بنور ربها لا يحتاج إلى شمس ولا إلى قمر أخرج البيهقي عن شعيب بن الجيحان قال: خرجت أنا وأبو عالية الرباحي قبل طلوع الشمس فقال: ينسب أن الجنة هكذا ثم تلا ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ

﴿٣٠﴾ قلت: ليس معنى قول أبي العالية الجنة هكذا تشبيه بنور الصبح فإنه نور ضعيف متلط بالظلمة كما لا يخفى بل تشبيه في انبساط نوره بل انقطاع ﴿وَدَانِيَةً﴾ أي قريبة عطف على متكئين أو على محل لا يرون ويرون دانية أو على جنة بتقدير الموصوف أي وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها فيكون نظيراً لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[1] لكن لهذا التأويل ضعف لاقتضائه أن لا يكون الجنة الأولى دانية الظلال إذا القسمة تنافي الشركة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي منهم ﴿ظِلَٰلُهَا﴾ فاعل دانية ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ حال من ظلالها بتقدير قد أو عطف على دانية على طريقة ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[2] أو حال من ذي حال دانية والعائد محذوف أي ذللت لهم ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثماراً ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي جعلت سهل التناول لا يمتنع على قطوفها كيف شاؤوا، أخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن البراء بن عازب أن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً مضطجعين على أي حال شاؤوا ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي أباريق بلا عرى، كذا أخرج هناد عن مجاهد ﴿كَانَتْ﴾ أي الكواكب الجملة صفة بها ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ حال من فاعل كانت على تقدير كونها تامة أي تكونت أكواب حال كونها قوارير أي مثل قوارير وخبرها على تقدير كونها ناقصة أي تكون مثلها في الصفاء، أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: آنية من فضة صفائها كصفاء القوارير وأخرج سعيد بن مسعود بن عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عباس لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم يرى الماء من ورائها لكن من أواني الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ بدل من الأول، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبه القوارير من فضة قال الكلبي إن الله جعل قواير كل قوم من تراب أرضهم وإن أرض الجنة من فضة فعل منها قوارير يشربون فيها قرأ ابن كثير قوارير الأول بالتنوين لتناسب رؤوس الآي والثاني بلا تنوين بعدم الانصراف، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر كلاهما بالألف تبعاً للخط لا حمراة فيغير الألف من نون الثاني أيضاً بالألف عوضاً من التنوين ومن لم ينون وقف بغير ألف على القياس إلا هشام فبالألف صلة للفتحة على الرواية ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة ثانية لأكواب أو حال بتقدير قد والمعنى قدرها لهم لاسقاة والخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ربهم لا يزيد ولا ينقص، كذا أخرج الفريابي في نفسه عن ابن عباس قال: الشيخ الأجل يعقوب الكرخي ﷺ: لعل هذا إشارة إلى أن مقادير الأكواب يكون

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

على حسب مقادير استعدادات الأرواح في المعارف الإلهية وأخرج هنا عن مجاهد تقديرها أنها ليست بالملآن التي تفيضه لا ناقصة بقدر أو المعنى قدرها أهل الجنة في أنفسهم فجاءت مقاديرها وأشكالها لما تمنوه أو قدروه بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ معطوف على يطاف عليهم ﴿كَأْسًا﴾ المراد بالكأس ههنا المشروب إما حقيقة أو على طريق جرى النهر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ صفة لكأس كانت العرب يستلذون الشراب الممزوج بالزنجبيل فواعد الله بذلك قال ابن عباس ما ذكر الله في القرآن بما في الجنة وسماه ليس له في الدنيا مثل، وقيل عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل وقال قتادة: يشربها المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة قلت ذكر الله تعالى في الجنة كأساً كان مزاجها كافوراً وكأساً مزاجها زنجبيلاً ذلك على اختلاف رغبة الشاربين فإن محرور الطبيعة يعجبه التبريد فيرغب إلى كأس كان مزاجها كافوراً والمبرود يعجبه التسخين فيرغب إلى كأس كان مزاجها زنجبيلاً ولكل يرغب فيه ﴿عَيْنًا﴾ بدل من زنجبيلاً إن كان الزنجبيل اسماً لعين وإلا فهو بدل من كأس على حذف المضاف أي كأس عين ﴿فِيهَا تُسَمَّىٰ﴾ تلك العين ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ أخرج سعيد بن منصور وهناد والبيهقي عن مجاهد قال: هي حديدة الحربة انتهى، ويقال شراب سهل الانحدار في الحلق والمساغ سلسل سلسالاً وسلسبيلاً فقيل الباء زائدة، وقال الزجاج سميت بذلك لأنها منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا، وقال مقاتل وأبو العالية سميت به لأنها تسيل عليهم في الطريق.... وفي منازلهم ينبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان وشراب الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على الجملة السابقة ﴿وِلْدَانٌ﴾ ينشئهم الله لخدمة المؤمنين وولدان الكفرة يجعلهم الله خدماً لأهل الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي لا يموتون ولا يهرمون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لا يموتون ولا يهرمون إذا رأيتهم لانتثارهم في الخدمة ولو كانوا صفاً شبهوا بالمنظوم والجملة الشرطية صفة ثانية للولدان. أخرج ابن المبارك وهناد والبيهقي عن ابن عمر قال: إن أدنى أهل الجنة من يسعى عليه ألف خادم على عمل ليس معه صاحبه وتلى هذه الآية وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم» وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يغدوا ويروح عليه خمسة آلاف خادم ليس منهم خادم إلا ومعه ظرف ليس مع صاحبه والله تعالى أعلم. أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد فأثر في جنبه فبكى عمر فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت كسرى

وملكه وهرمز وملكه وصاحب الحبشة وملكه وأنت رسول الله على حصير من جريد فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة» فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ حذف مفعوله ونزل منزلة اللازم ﴿ثَمَّ﴾ ظرف لرأيت أي في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ الجملة الشرطية معترضة في الجنة وقد مر فيما سبق عن ابن عمر مرفوعاً «أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة» وفي رواية «مسيرة ألفي عام يرى أقصاه كما يرى أدناه» وقيل: ملك لا يزول ويسلم عليهم الملائكة ويستأذنهم في الدخول ولهم فيها ما يشاؤون ويرون الرب الجليل ﴿عَلِيَهُمْ﴾ قرأ نافع وحمزة بإسكان الياء على أنه مبتدأ وما بعده خبره من جملته حال من ضمير عليهم في يطوف عليهم أو من المنصوب في حسبتهم أو من ملكاً كبيراً بحذف المضاف أي أهل ملك كبير والباقون بالنصب على أنه ظرف مستقر بمعنى فوقهم خبر لما بعده أو حال مما ذكرنا وما بعده فاعل الظرف ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ بالإضافة مبتدأ أو خبر أو فاعل لما قبله والسندس معرب ضرب من رقيق الديباج كذا في القاموس ﴿خُضْرٌ﴾ أخضر قرأ نافع وحفص وأبو عمرو وابن عامر بالرفع على أنه صفة ثياب والباقون بالجر على أنه صفة سندس ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي الديباج الغلظ معرب استبره أو ديباج يعمل بالذهب أو ثياب حرير صفاق نحو الديباج كذا في القاموس قرأ نافع وابن كثير وعاصم بالرفع عطفاً على ثياب والباقون بالجر عطفاً على سندس. عن ابن عمر قال: قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق يخلق أم نسج ينسج؟ فقال: «بل ينشق عنها ثمر الجنة» رواه النسائي والبزار والبيهقي بسند جيد وعن جابر قال «في الجنة شجرة ينبت السندس يكون ثياب أهل الجنة» رواه البزار والطبراني وأبو يعلى بسند صحيح وعن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»(١) متفق عليه وروى النسائي والحاكم وعن أبي هريرة نحوه وزاد «ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ومن شرب من آنية الذهب والفضة في الدنيا لم يشرب بهما في الآخرة» وفي الصحيحين عن أنس والزبير نحو حديث عمر وعن أبي سعيد الخدري أيضاً نحو حديث عمر وزاد «وإن دخل الجنة لم يلبسه» رواه الطيالسي بسند صحيح والنسائي وابن حبان والحاكم ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ عطف على

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: لبس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه (٥٨٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء (٢٠٦٦)، وأخرجه النسائي في كتاب الزينة، باب: التشديد في لبس الحرير وأن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة (٥٣٠٢).

ويطوف عليهم أو حال من الضمير في عاليهم بإضمار قد ﴿أَسَاوِرَ﴾ منصوب بنزع الخافض ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ من بيانية وهذا لا يخالف قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[1] لإمكان الجمع والعاقبة والتبعيض وعلى تقدير كون الجملة حالاً من ضمير للخدم فيجوز أن يكون أساور من فضة للخدم ومن ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن كعب الأحبار قال: إن الله تعالى ملكاً يصوغ على أهل الجنة من أول خلقه إلى أن تقوم الساعة ولو أن حلياً يخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[2] وأخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر قوله ﷺ: «إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا» ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ معطوف على الجمل السابقة ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ من الأقذار لم تمسه الأيدي كخمر الدنيا، قال أبو قلابة وإبراهيم: إنه لا يصير بولا نجساً ولكن يصير رشحاً في أبدانهم كريح المسك وذلك أنهم يؤتون بالطعام وإذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر بذلك بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر تعود شهوتهم، وقال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل أو حسد، قال البيضاوي ولنعم ما قال هو أن الله سبحانه يريد نوعاً آخر من الشراب يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند إلى نفسه ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى الذات الحسنة والركون إلى ما سوى الحق فتجرد لمعاينة جماله متلذذاً بلقائه وهي منتهى درجة الصديقين ذلك ختم به ثواب الأبرار وختم ثوابهم ومبدأ ثواب الصدقين وأدنى درجتهم، قال في المدارك: قيل إن الملائكة تعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منه ويقولون لقد طال أخذنا من الوسائط فإذا هم بكأسات تلاقي أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد ويؤيد هذا القول ما أخرج ابن أبي الدنيا بسند جيد عن أبي أمامة قال: إن الرجل من أهل الجنة يشتهي الشراب من شراب الجنة فيقع في يده فيشرب ثم يعود إلى مكانه، قال الشيخ الأجل يعقوب الكرخي إن السابقين المقربين يعطون الكاسات من تحت العرش بلا واسطة والمقتصدين يعني الأبرار يعطيهم الملائكة وغيرهم من أهل الجنة يعني الذين دخلوها بعد المغفرة أو العذاب يعطيهم الولدان انتهى، قلت: وهذه الآيات إخبار عن شأن الأبرار فلعلهم يعطون الكاسات تارة بتوسط الولدان وتارة بتوسط الملائكة وتارة بلا توسط وأما

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥٠).

المقربون لعلهم يعطون بلا توسط غالباً ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ محموداً مقبولاً مرضياً عندنا مجازاً فقال: فهذا قول لهم من الله تعالى كأنهم شكر لهم من الله تعالى حيث لم يريدوا مشكوراً من غيره تعالى من المسكين واليتيم، قلت: جعل الله سبحانه نعيم الجنة جزاء لأعمالهم تفضلاً لهم وإلا فأي عمل يتصور أن يكون جزاءه كذلك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس يعني متفرقاً آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة وتأكيد الجملة بتقديم المسند إليه على الجزاء الفعلي وتصديرها بأن وتكرير الضمير لإشعار بأن الحكمة والصواب منحصرفي هذا النوع من التنزيل كأنه كرر الإسناد إلى نفسه وجعله مختصاً به والحكيم لا يفعل إلا ما هو حكمته ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الفاء للسببية، يعني إذا عرفت حال الأبرار والفجار وتأخير جزاء الفريقين أي دار القرار فاصبر على أذى الكفار ولا تعجل في عقوبتهم ولا تحزن بتأخير نصرك عليهم وإذا علمت أن تنزيل القرآن مختص به تعالى فاصبر نفسك على ما أمر به وعما نهى عنه ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي من الكفار للضجر من تأخيرالظفر ﴿ءَاثِمًا﴾ أي مرتكباً لإثم داعياً لك إليه وإن لم يكن ذلك كفراً ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ مرتكباً للكفر داعياً لك إن الكفر فأولاً حد الأمرين منكر وقعت في حيز النفي فأفادت العموم أي لا تطع أحداً دعاك إلى إثم أو دعاك إلى كفر أو إليهما جميعاً فإنه داع إلى كل واحد منهما ولو وقعت هناك الواو لكان المعنى لا تطع من دعاك إلى الكفر والإثم جميعاً ولا يستفاد منه عدم إطاعة الداعي إلى الإثم فقط، ومقتضى هذه الآية أنه لا بأس في إطاعة كافر فيما ليس بإثم ولا كفر وقيل: أو ها هنا بمعنى الواو والمراد بالآثم الكفور أبو جهل لعنه الله تعالى وذلك أنه لما فرضت الصلاة نهى أبو جهل النبي ﷺ عنها، وقال لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه فأنزل الله هذه الآية كذا روى عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير عن قتادة، وقال مقاتل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور وليد بن المغيرة قالا للنبي ﷺ: إن صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذه الأمر وقال عتبة فأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر، وقال الوليد أنا أعطيك من المال ما ترضى فأرجع من هذه الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صلّ شبه عن الصلاة بذكر اسم الله تعالى تسمية الشيء باسم جزئه فإن التحريمة ركن من أركان الصلاة أو يقال أفعال الصلاة وأقوالها كلها ذكر قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الصلاة ليس فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[1] رواه المسلم من حديث معاوية بن حكم ﴿بُكْرَةً﴾ أي أول النهار

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧).

عني به صلاة الفجر منصوب على الظرفية وكذا ﴿وَأَصِيلًا﴾ أي آخر النهار عنى به صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ عبر ههنا عن الصلاة بالسجود وأراد به صلاة المغرب والعشاء ولما كان في صلاة الليل زيادة كلفة أكده بتقديم الظرف وزيادة الفاء في فاسجد على تقدير أما أي وأما من الليل فاسجد ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا﴾ عبر ها هنا عن صلاة بالتسبيح والمراد به قيام الليل ﴿طَوِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف أي تسبيحاً طويلاً نصف الليل أو أقل أو أكثر منه ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الكفار مكة ﴿يُحِبُّونَ﴾ الدار ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ في الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي قدامهم وخلف ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً مستعار من الشغل البالغ في المشقة على الحال وجمله إن هؤلاء تعليل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ يعني أنهم آثمون لا يعملون ما يعلمون في الدنيا ولا يعبأون بالآخرة فلا تطعهم ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أحكمنا أسرهم خلقهم وأرحالهم وربط مفاصلهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ في الخلق وشدة الأسر ﴿تَبْدِيلًا﴾ مصدر للتأكيد وجملة الشرطية معطوفة على شددنا، وجملة نحن خلقناهم مع ما عطف عليه لبيان تشنيع الكفار على كفرهم في مقابلة النعم وذكر نعمة إيجادهم وتمكينهم لأنها أصل النعمة كلها وفي جملة إذا شئنا تسلية للنبي ﷺ في احتمال الأذية منهم ووعد لهم بإهلاكهم وتبديلهم بقوم مطيع في الخلق وقد أهلكهم يوم بدر وقيل إذا هاهنا بمعنى أن يعني أن يشاء الله لكن لم يشاء إ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ السورة أو الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وموعظة وتذكرة توضح السبيل إلى الله سبحانه وإلى مرضاته ﴿فَمَن شَآءَ﴾ التقرب إلى الله وسلوك السبيل ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالطاعة ودوام الذكر والإخلاص، وتقليد النبي ﷺ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لا توجد مشيئتكم أيها الناس أو مشيئة الكفار باتخاذ السبيل إلى الله وبشيء من الأشياء في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تلك المشيئة عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «مصرف اقلوب صرف قلبي على طاعتك»(١) رواه مسلم فلما وجد مشيئة الله بهداية المؤمنين شاء اتخذ السبيل إلى الله ولما لم وجد مشيئة الله بهداية الكفار لم يشاء ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهل كل أحد فيفعل به ما هو أهل له وذلك يستدعي سبق استعدادهم الخير والشر، وإنما هو يكون المبادي تعينات المؤمنين ماشية من اسم الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف نشاء (٢٦٥٤).

الهادي ومبادي تعينات الكفار من اسم المضل ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقضيه الحكمة ﴿يُدْخِلُ﴾ الله سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ورحمته ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في جنته فإنها محل الرحمة يقذف الإيمان والتصديق في قلبه ومحبة الله في سره وتوفيقه للطاعة وحفظه وتنفيره عن الكفر والمعصية ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ منصوب بفعل محذوف تفسيره بعده ويعذب الظالمين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جملة والظالمين معطوف على يدخل والجملتين يقرران مضمون ما يشاؤون إلا أن يشاء الله، والله تعالى أعلم، تمت سورة الدهر.

سورة المرسلات

مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ⑦ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ⑩ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ⑪ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ⑬ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ⑭ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ⑯ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ⑰ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ⑱ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑲﴾

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ⑤﴾ أدغم عمرو عمر والخلاد التاء في الذال وأظهر الجمهور، قال مقاتل معنى الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه وهي رواية عن مسروق عن ابن مسعود فعرفاً حينئذ مفعول له ويحتمل أن يكون عرفاً حالاً بمعنى متتابعات من عرف الفرس يعني أرسلت للأحكام متتابعات فعصفن إلى عصر من عصف الرياح في امتثال ما أمروا به ونشرن الشرائع في الأرض بنشر الكتب وإنزالها ونشرن أن أحين النفوس الموتى بالجهل بما أوتين من العلم ففرقن بين الحق والباطل فألقينا إلى الأنبياء ذكر أي وحياً أو اليقين في قلوب المؤمنين ذكر الله سبحانه، وقال مجاهد وقتادة هي الرياح المرسلات أرسلت متتابعة وقيل عرفاً كثير العاصفات شديدة الهبوب عصفاً الناشرات السحاب في الجو نشر الفارقات بين السحاب بالقصر فرقاً أو فارقات السحاب بعد المطر فالملقيات ذكر أي تستبين لذلك فإن العاقل إذا شاهد هبوبها ورثارها ذكر الله تعالى وكمال قدرته وشكره على نعمة المطر بعد ما قنطوا، ويحتمل أن يكون المراد به آيات القرآن المرسلات إلى محمد ﷺ بكل عرف أي معروف فعم من الكتاب والأديان بالنسخ ونشرن آثار الهدى والأحكام في الشرق والغرب وفرقن بين الحق والباطل فأيقين ذكر الله بين العالمين أو المراد بها نفوس الأنبياء المرسلات إلى الخلق للهداية والإرشاد وتبليغ الأحكام فعصفن

وأسرعن امتثال الأوامر والانتهاء عن المناهي ونشرن الهداية وفرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكر الله تعالى في قلوب الأمة وألسنتهم ﴿عُذْرًا﴾ روي عن أبي بكر عن عاصم ضم الذال وهي قراءة الحسن والمشهور عنه وعن سائر القراء السكون ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر بضم الذال والباقون بإسكانها وهما بسكون الذال مصدران العذر أو أمحى إساءة وأنذر إذا خوف وبالضم جمعان للعذير بمعنى المعذرة ونذير بمعنى الإنذار أو المعنى العاذر والمنذر ونصبهما على أولين بالعلية أي عذر المؤمنين إمحاء لإساتهم ونذر للكفار تخويفاً لهم والرياح سبب بوعيد الكفار بالعذاب إذا أسند والمطر إلى الأنواء مثلاً، أو هما منصوبان بالبدلية من ذكر على أن المراد به الوحي وعلى الثالث بالحالية ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من القيامة والجزاء ﴿لَوَاقِعٌ﴾ كائن لا محالة الجملة جواب للقسم ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ محقت وذهبت بنورها جواب إذا محذوف وهو العامل فيها أي يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ أي شقت فصارت لها فرجاً ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ قلعت من أماكنها وإذا مليت ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ قرأ أبو عمرو وقتت بالواو وعن أبي جعفر رواية بالواو بالهمزة كالجمهور عوضاً عن الواو أي أظهرت وقت جمعهم وشهادتهم على الأمم ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾ متعلق بما بعده وقدم عليه لاقتضاء صدر الكلام ﴿أُجِّلَتْ﴾ أخرت وضرب الأجل لذلك الوقت استفهام استعير للتعجب والتهويل ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ بدل من لأي يوم وبيان له وجملة لأي يوم معترضة، ويحتمل أن يكون ثاني مفعولي أقتت لتضمينه معنى أعلمت ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ تعجيب آخر وتعظيم أمره يعني أنه شيء أعظم لا تعلم كنهه ولم تر مثله ﴿وَيْلٌ﴾ مصدر بمعنى حلول الشر والهلاك في الأصل منصوب على المصدرية بإضمار فعله عدل به إلى الرفع يجعله مبتدأ لدلالته على ثبت الهلاك والشر والجملة دعائية، أخرج أحمد والترمذي وابن جرير ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي الدنيا وهناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يهوي إليه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»(١) وأخرج البيهقي وابن المنذر عن مسعود قال: الويل واد في جهنم يسيل صديد أهل النار جعل الله للمكذبين وأخرج ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير نحوه، وأخرج البيهقي وابن جرير وابن المبارك عن عطاء بن يسار قال: الويل واد من صديد جهنم لو سيرت فيه الجبال لانذابت من حره، وأخرجه ابن جرير عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ قال: «الويل جبل في النار» وأخرج البزار بسند ضعيف عن سعيد بن أبي وقاص قال: قال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٤).

رسول الله ﷺ: «إن في النار حجراً يقال له ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون» ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا النجوم طمست إلى آخره ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ليوم الفصل ظرف مستقر خبر لويل يومئذ متعلق به ويحتمل أن يكون يومئذ ظرفاً مستقراً صفة لويل.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾ بالعذاب المكذبين أو ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نحو قوم نوح وعاد وثمود، استفهام تقرير ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ يعني كفار مكة السالكين سبيل الأولين في تكذيب الرسل عطف على مضمون ألم نهلك يعني أهلكنا أولين ثم نتبعهم الآخرين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفة مصدر محذوف أي فعلاً مثل ذلك الفعل ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي نجس المجرمين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ بما أوعدنا ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ استفهام تقرير أي خلقناكم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ حقير قدراً وهي النطفة ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ما يتمكن فيه وهو الرحم ظرف مستقر مفعول ثان لجعلناه إن كان ناقصاً بمعنى صيرناه وإلا فظرف لغو متعلق به وجملة جعلناه معطوفة على مضمون ألم نخلقكم الفاء للتفسير لا للتعقيب أو محمول على القلب في التركيب ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ متعلق بقوله في قرار مكين إن كان ظرفاً مستقراً وإلا فبفعل محذوف أي مؤخراً أي مقادر من الوقت المعلوم عرفاً أدناه ستة أشهر وأكثره سنتين أو معلوم عند الله مدة لبثه ﴿فَقَدَرْنَا﴾ قرأ نافع والكسائي بالتشديد من التقدير أي فقدرنا مدة لبثه في بطن أمه وقت ولادته وعمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً النطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب

فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[١] متفق عليه والباقون من القراء قرؤوا بالتخفيف من القدرة يعني فقدرنا يعني إيجاده وأعد أمه وإعادته ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ فنحن أي على كل شيء، ويحتمل أن يكون القادر بمعنى المقدر قراءة نافع ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بقدرتنا وهم الكفار أو بتقديرنا وهم القدرية مجوس هذه الامة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ استفهام تقرير ﴿كِفَاتًا﴾ اسم لما يكفت فيه بضم أو مصدر نعت به مبالغة أو جمع كافت كصيام وصائم أو جمع كفت بمعنى الوفاء أجرى الجمع على الأرض باعتبار أقطاعها ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ حال عن المفعول المحذوف لكفاتاً إن كان مشتقاً وإلا فالفعل محذوف دل عليه كفاتاً يعني نكفت الناس أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وأمواتاً في بطنها بخروجهم كذا قال الفراء وإنما حذف المفعول للعمل به، ويحتمل أن يكون مفعولين لكذلكأي نكفِتُ الأحياء والأموات وتنكيرهما للتفخيم أو لأن أحياء الناس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات ويحتمل أن يكونا ثاني مفعول نجعل وكفاتاً حال منهما قدم عليهما لتنكيرهما ويحتمل أن يكونا حالين عن مفعول نجعل يعني الأرض أو كفاتاً والمراد بالأحياء والأموات ما ينبت من الأرض وما لا ينبت ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على مضمون لم نجعل ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبال ﴿شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عاليات والتنكير للتعظيم نابعات من الأرض ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ بأمثال هذه النعم قال مقاتل وهذه الأمور المذكورة كلها أعجب من البعث ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ جملة مستأنفة كأن في جواب ما يصنع بالمكذبين يومئذ وتقديره، يقال لهم يومئذ انطلقوا أي سيروا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا نار جهنم ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ بدل من الأول تأكيد وفيه بيان لما يسيرون إليه ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾ قال المفسرون أريد به دخان جهنم قال البيضاوي وغيره الدخان العظيم إذ يرتفع يتفرق ذوائب وفي خصوصية شعب دخان جهنم بالثلاث ذكر البيضاوي وغيره وجوهاً لا ترضيه، وعندي وجه الخصوصية بالثلاث أن أسباب الدخول في نار جهنم منحصرة في ثلاث أحدها الكفر بالله وتكذيب الرسل صريحاً وعبارة كقول الكفار افترى على الله كذباً ثانيها اتباع الهوى وتكذيب الرسل وآيات الله اقتضاء كقول أهل الهواء عن المجسمة والقدرية والروافض والخوارج والمرجئة على خلاف ظواهر النصوص القطعية بتأويلات فاسدة على خلاف الإجماع كما أن المجسمة يكذبون، قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾[٢] وما دلت من الآيات على وزن الأعمال والصراط ونحو ذلك والروافض والخوارج يكذبون ما تواتر عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

الرسول ﷺ في مدح أبي بكر وعمر وعثمان وعلي تواتراً معنوياً ثالثها اتباع الشهوات في ارتكاب الكبائر والصغائر وترك الواجبات فهذه الأمور الثلاثة تصلح أن تكونا أسباباً لانشعاب دخان جهنم إلى ثلاث شعب قال البغوي قيل يخرج عنق من النار فيشعب ثلاث شعب أما النور فتقف على رؤوس المؤمنين والدخان تقف على رؤوس المنافقين واللهب تقف على رؤوس الكافرين، قلت: وأيضاً يكون هذا القول مرفوعاً لكونه لا يدرك بالرأي فتأويله أن عبر عن شعبة من شعب الثلاث الدخان جهنم بالنور لخفته في الظلمة بالنسبة إلى أختيه وإلا فما معنى النور في نار جهنم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أوقد على نار جهنم ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»[١] أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة فهذه الشعبة الخفيفة الظلمة بالنسبة إلى أختيها تقف على رؤوس عصاة المؤمنين من أهل النار وعن الشعبة. . . الثانية بالدخان لكثرة أجزاء النار فيها وشدة ظلمتها فهي تقف عى رؤوس المنافقين والمراد بالمنافقين ههنا هم أهل الهواء الذين يدعون الإيمان ويلزمهم الكفر وتكذيب الرسول ﷺ وليس المراد بالمنافقين ها هنا الذين قالوا آمنا بأفواههم في العلانية دون السر ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ فإنهم أشد من الكفر من الجاهرين وهم في الدرك الأسفل من النار، وقد ذكرنا في تفسير سورة البقرة وجه إطلاق المنافقين على أهل الهواء وتطبيق ما ضرب الله تعالى به مثل المنافقين عليهم وعن الشعبة الثالثة باللهب لكمال احتراقها وشدة التهابها فهي تقف على رؤوس الكافرين.

قلت: ويمكن أن يقال المراد بالظل نار جهنم نفسها عبر عنها بالظل مجازاً لظلمته واسوداده فإن الظل لا يخلو من الظلمة وفيه استهزاء وتهكم بالكفار كما في ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[٢] وفي ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] فمعنى قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ انطلقوا إلى نار جهنم التي هي ذي ثلاث طرق موصلة إليها أحدها تكذيب الرسل صريحاً ثانيها تكذيبهم اقتضاء ثالثها ارتكاب المعاصي لما ذكرنا ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ كظل العرش وظل الجنة للمؤمنين صفة الظل بعد صفة ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي لا يرد لهب جهنم صفة لموصوف محذوف أي ولا ظل يغني من اللهب ويحتمل أن يكون معطوفاً على ظليل على طريقة فالق الإصباح وجعل الليل فيكون صفة ثالثة لظل مذكورة في هاتين الصفتين، تهكم بهم وروي أوهم لفظ الظل من وقاية الحر

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم (٢٥٩١).

(٢) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٧.

والإغناء من اللهب ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير راجع إلى ظل من حيث المعنى إن كان المراد به النار كما ذكرت وإلا فهو راجع إلى غير مذكور دل عليه الكلام أي جهنم ﴿تَرْمِى﴾ تعليل لعدم الإغناء ﴿بِشَرَرٍ﴾ جمع شررة وهي ما تطاير من النار ﴿كَالْقَصْرِ﴾ أي كل شررة في عظمها كالقصر أي كبيت من حجر أو قرية أو حصن كذا في القاموس فهو مفرد، وقيل هو جمع قصرة بمعنى أصل النخل أو الشجر الغليظ ﴿كَأَنَّهُ﴾ أي انقصرا فرد الضمير نظراً إلى لفظه ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جملة كأنه صفة ثانية لشرر، قرأ حفص وحمزة والكسائي جملة بغير ألف وهو جمع جمل والباقون جمالات بالألف على أنه جمع جمال فهو جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر فإن الشرر لما فيه من النار به يكون أصفر وقيل: معناه أسود كما جاء في الحديث «إن شرر نار جهنم سود كالقير» والعرب تسمي سواد الإبل صفر الضر به إلى الصفرة والأول تشبيه في العظمة وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بالنار والعذاب ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي الكفار نطقاً يفيدهم أو لا ينطقون شيئاً من فرط الدهشة والحيرة وهذا في بعض المواقف وينطقون في بعضها ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار عطف على لا ينطقون ﴿فَيَعْتَذِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عطف على لا يؤذن فيدل على نفي الإذن والاعتذار مطلقاً ولعله لم يجعل جواباً عن النفي كيلا يدل على أن عدم اعتذارهم بعد الإذن فيوهم أن لهم عذراً، لقال حينئذ أي عذراً لمن أعرض عن منعم وكفر بأياديه ونعمه ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين أهل الجنة وأهل النار ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ خبر ثان لهذا وحال عن يوم الفصل والعامل معنى الإشارة والعائد محذوف أي جمعناكم فيه تعليل يعني هذا يوم الفصل لأنا جمعناكم فيه للفصل بين المؤمن والمكذب وتقرير وبيان للفصل ﴿وَالْأَوَّلِينَ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة لدفع العذاب كما كنتم تكيدون بالمؤمنين في الدنيا كما كنتم تقولون أيعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد من تسعة عشر خزنة ﴿فَكِيدُونِ﴾ الياء محذوفة أي فكيدوني الآن توبيخ وتعجيز جملة الشرطية بتقدير. فيقال لكم معطوفة على جمعناكم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بالعذاب إذا لا حيلة لهم يومئذ في تخليص أنفسهم من العذاب ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشركة ومن المعاصي مطلقاً على تفاوت درجاتهم ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ كناية عن تكاثف أشجار الجنة كقوله زيد طويل النجاد بمعنى طويل القامة وإن لم يكن له نجاد وإلا فلا شمس حتى يتصور الظل ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من ماء غير آسن ولبن لم يتغير طعمه وخمر لذة للشاربين وعسل ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي لذيذة مشتهاة وفيه إشعار بأن المآكل والمشارب في الجنة بحسب شهواتهم بخلاف الدنيا فإن فيها يحسب ما يجد

الناس ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ حال من ضمير المرفوع في الظرف أي مستقرون في ظلل حال كونهم مقولاً لهم ذلك أو جملة معترضة بتأويل يقال لهم ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ صفة المصدر المحذوف أي أكلاً هنيئاً أو حال أي مهنئين والهنأ ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقبه خامة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من عقد القلب بالإيمانيات ومعالجته الطاعات، وجملة إن المتقين مستأنفة كأنه في جواب سائل يسأل عن حال غير المكذبين بعد ما سمع حال المكذبين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ كذلك في محل النصب على المصدرية لما بعده والجملة الفعلية خبر إن والاسمية تأكيد لما سبق فإن المراد بالمحسنين هم المتقون لا ما هو أخص منه وإلا يلزم تشبيه إلا على بالأدنى وفيه حث على الإنسان يعني فأحسنوا أيها الناس يجزينكم كما ذكرنا والإحسان بالمعنى الأخص «أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١] كذا قال رسول الله ﷺ في جواب جبرائيل سأل عنه رواه الشيخان في الصحيحن عن عمر بن الخطاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ بالجنة حيث يحرمون من النعيم ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذبين في الدنيا على وجه التهديد ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية وعلى الظرفية أي أكلاً قليلاً أو زماناً قليلاً ما دمتم في الدنيا ثم ينقطع ذلك عنكم ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ تعليل للتهديد ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ حيث عرضوا أنفسهم على العذاب الأليم لأجل التمتع القليل، أخرج ابن المنذر عن مجاهد أن النبي ﷺ أمر وفد ثقيف بالإيمان والصلاة فقالوا ولكن لا نحبي فإنها مسبة، في القاموس التجبية وضع يديه على ركبة أو على الأرض أو الإكباب على وجهه قولهم فإنها مسبة إلى عار فنزلت ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فهذه جملة معترضة لذم الكفار ويحتمل أن يكون معطوفة على المجرمون على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة يعني أنكم مجرمون وأنهم لا تركعون إذا دعيتم إلى الصلاة ويحتمل أن يكون معطوفة على مضمون المكذبين، يعني ويل الذين كذبوا ولم يصلوا عند الدعاء إليها ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بالأوامر والنواهي ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ استهفام إنكاري أي لا يؤمنون بشيء من الحجج إذ لم يؤمنوا بالقرآن الذي هو مشتمل على وجوه من الإعجاز نظماً ومعنى وعلى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١٠).

الحجج الواضحة والبراهين الساطعة ولما كان سياق هذه السورة على التخويف والتهديد غالباً كما إن كان سياق سورة الإنسان على اللطف لتطيع غالباً قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس وابن مردويه عن سعيد.

سورة النبأ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾
وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا
﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

﴿عَمَّ﴾ أصله عن ما بحذف الألف من ما الاستفهامية إذا وقعت بعد حرف الجر نحو لم وفيم وعم ومم تخفيفاً لكثرة الاستعمال وفرقاً بينهما وبين الموصولة وضم الميم بعن في الخط لبقائه على حرف واحد بعد الحذف والاستفهام في كلامه تعالى مستعار عن التفخيم والتهويل في شأن ما وقع فيه الاستفهام فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ والضمير لأهل مكة وذلك أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى التوحيد وأخبرهم عن البعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون ماذا جاء بهم محمد ﷺ كذا ذكر البغوي وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن نحوه عن المعنى يتساءلون الرسول ﷺ عنه استهزاء كقوله يتداعون لهم أي يدعون لهم ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ متعلق بيتساءلون المذكور وعلى هذا النبأ متعلق بفعل مضمر يفسره ما بعده ومتعلق بيتساءلون مضمر وهذه الجملة جواب للسؤال لفظاً بيان لشأن المفخم معنى، ويحتمل أن يكون عن النبأ العظيم ويحتمل أن يكون هذه الجملة استفهامية بتقدير حرف الاستفهام فتكون تأكيد للجملة السابقة وتفخيم بعد تفخيم تقديره عم يستاءلون عن النبأ العظيم ويحتمل أن يكون الاستفهام الثاني للإنكار يعني لا ينبغي السؤال عن النبأ العظيم بل الواجب الإيمان به فإنه واضح عظيم شأنه وشديد وضوحه عن أن يسأل والمراد بالنبأ

العظيم على قول مجاهد والأكثرين القرآن بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾(١)، وقال قتادة هو البعث ويحتمل أن يكون خبر بعث النبي ﷺ ﴿ٱلَّذِى﴾ الموصول مع صلة صفة للنباء ﴿هُمْ﴾ الضمير راجع إلى ما رجع إليه المرفوع في يتساءلون وهم كفار مكة على تقدير كون السؤال استهزاء أو إنكار أو على هذا فمعنى قوله ﴿فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أن منهم من يقطع بإنكاره ومنهم من يشك ويحتمل أن يكون ضمير يتساءلون راجعاً إلى أهل مكة مؤمنهم وكافرهم أجمعين وعلى هذا فالمعنى أن منهم من يصدق ويسأل عنه لكشف الحال وازدياد اليقين ومنهم من ينكر ويسأل عنه استهزاء وإنكاراً ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف في المبني على إنكار بعضهم أو كلهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أي الكافرون المنكرون كونه حقاً عند الشرع وفي القبر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ يوم القيامة والتكرير للمبالغة والدلالة على لحوق الوعيد مرتين، أحدهما في القبر وثانيهما بعدالبعث وكلمة ثم يشعر بأن الوعيد الثاني أبلغ من الأول ثم ذكر الله سبحانه صنائعه ما يستدل به على التوحيد والقدرة على البعث بعد الموت ووجوب شكر النعم باتباع من يدعو إلى التوحيد والعبادة فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ فراشاً لكم استفهام تقرير أي حمل المخاطب على الإقرار والعبادة أخرى استفهام إنكار وإنكار النفي إثبات فمضمون جعلنا الأرض مهاداً ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ للأرض كيلا تميد بكم ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ أصنافاً ذكوراً وإناثاً ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾ قطعاً لأعمالكم حتى تستريح أبدانكم والسبت القطع ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على خلقنا ﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ لبسه كل شيء بظلمة فيمنع الأبصار ويسكن الأصوات فيستريح النائم فيه ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ أي سبباً للمعاش من فضل الله ما قسم لكم من رزقه حيث ينقلبون فيه في حوائجكم وفيما لا بد منه في الحياة ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ أي سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ محكمات لا يؤثر فيه مر الدهور ﴿وَجَعَلْنَا﴾أي خلقنا، ويحتمل أن يكون المفعول الأول محذوفاً أي جعلنا الشمس ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ متلألئاً وقاداً قال مقاتل جعل فيه نوراً وحرارة والوهج يجمع النور والحرارة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ قال مجاهد ومقاتل والكلبي هي الرياح التي تعصر السحاب وهي رواية العوفي عن ابن عباس فعلى هذا من للنسبة، وقال أبو العالية والضحاك المعصرات هي السحائب وهي رواية الوالبي عن ابن عباس قال الفراء: المعصرات السحاب ينجلب بالمطر ولم يمطر كالمرأة المعصرة هي التي دنا

---

(١) سورة ص، الآية: ٦٧.

حيضها ولم تحض بعد وقال ابن كيسان هي المغيثات من قوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾[١]، وقال الحسن وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حبان من المعصرات من السماوات فمن على هذه التأويلات للابتداء ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ قال مجاهد صباباً مدراراً قال قتادة متتابعاً وقال ابن زيد كثيراً ومرجع الكل واحد ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ أي بذلك ﴿حَبًّا﴾ يأكله الناس كالبر والشعير ﴿وَنَبَاتًا﴾ تأكله الدواب ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفة بالأشجار بعضها ببعض واحدها لف كجذع وجذاع أو لفيف كشريف وأشراف أو لا واحد له كأوضاع، وهي جمع الجمع فهي جمع لف واللف جمع لفافة وهي شجرة مجتمعة يقال جنة لفاف ولما ثبت أن من هو قادر على اختراع تلك الأمور قادر على إعادتها وإن تلك الأمور العظام لا يتصور وجودها إلا من فاعل الحكيم ولا يتصور أن يكون عبثاً أو منافياً للحكمة فكان السامع اشتاق إلى معرفة صفات وقت الفصل فاستأنف، وقال:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بين الحق والباطل ﴿كَانَ﴾ في علم الله أو حكمه ﴿مِيقَٰتًا﴾ ميعاداً للثواب والعقاب وقتاً معيناً لهما أو المعنى حداً يؤقت في الدنيا وينتهي عنده أو حداً للخلائق ينتهون إليه ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم الفصل أو عطف بيان له أو بدل من ميقاتاً أو خبر ثان لكان ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ أخرج مسدد بسند صحيح عن ابن مسعود قال: الصور كهيئة القرآن ينفخ فيه وعن ابن عمر نحوه وقد مر في الحاقة، وعن وهب أنها من لؤلؤ بيضاء في صفاء الزجاجة وبه ثقب بعدد كل زوج وقد مر في المدثر ﴿فَتَأْتُونَ﴾ عطف على ينفخ ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل تأتون يعني جماعات مختلفة من القبور إلى مكان الحساب، عن أبي ذر قال: «حدثنا الصادق المصدوق ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاث أفواج فوج طاعمين كاسبين راكبين وفوج يمشون ويسعون وفوج يسحبون عى وجوههم»[٢]

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٩.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: البعث (٢٠٧٧).

رواه النسائي والحاكم والبيهقي وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ قال يحضر أمتي عشرة أفواج صف على صورة القردة وهم القدرية وصف على صورة الخنازير وهم المرجئة وصف على صورة القردة والكلاب وهم الحرورية وصف على صورة الحمر وهم الروافضة وصف على صورة الذر وهم المتكبرون وصف على صورة البهائم وهم أكلة الربى وصف على صورة السباع وهم الزنادقة وصف يحشرون على وجوههم وهم المصورون والهمازون واللمازون وصف دكيان وهم المقربون وصف مشبعاة وهم أهل اليمين» رواه ابن عساكر وقال: هذا حديث منكر في إسناده مجاهيل ورواه الخطيب بلفظ يحشر عشر أصناف من أمتي أسباتاً فمنهم على صورة القردة وهم النامون وبعضهم على صورة الخنازير وهم أهل السحت والحرام وبعضهم منكبين أرجلهم فوق أعينهم ووجوهم أسفل يسحبون عليهم وهم أكلة الربا وبعضهم عمى يترددون وهم من يجور في الحكم، وبعضهم صم بكم لا يعقلون وهم الذين يعجبون بأعمالهم وبعضهم يمضغون ألسنتهم مدلاة على صدورهم لسيل ألقيح من أفواههم يقذرون أهل الجمع وهم العلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وهم الذين يؤذون الجيران، وبعضهم مصلبين على جذوع من النار وهم السعاة بالناس إلى السلطان وبعضهم أشد نتناً من الجيف وهم الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم وبعضهم يلبسون جلابيبت سابغة من القطران وهم أهل الكبر والفخر والخيلاء وكذا روى الثعلبي من حديث البراء بن عازب عن معاذ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي شقت قرأ أهل الكوفة بالتخفيف والباقون بالتشديد للمبالغة والتكثير عطف على تأتون ومعناه الاستقبال أو حال بتقدير قد وكذا سيرت ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء ﴿أَبْوَٰبًا﴾ أي ذات أبواب أو حمل على المبالغة يعني صارت من كثرة الشقوق كأنها كلها أبواب ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض في الهواء كالبهاء ﴿فَكَانَتْ﴾ الجبار ﴿سَرَابًا﴾ السرب في الأصل الذهاب كذا في الصحاح، ويقال اللامع في المفازة كالماء سراباً ما لا سرابه في رأي العين والمراد ها هنا صارت الجبال شيئاً لا حقيقة لها لتفتت أجزائها ولما ذكر الله سبحانه ميجىء الناس أجمعين للحساب بقوله فتأتون أفواجاً فكان السامع اشتقاق إلى تفصيل أحوالهم فذكر أهل الطاغين أولاً لأن الترهيب أهم من يرصد عند أذهان الناس فقال ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ الرصد الاستعداد للترقيب وموضع يرصد فيه والمعنى ملائكة العذاب وملائكة الرحمة يرصدون الناس جسر جهنم فأما ملائكة العذاب فيرصدون الكفار ليأخذوهم ويلقونهم في النار ويعذبونهم وأما ملائكة الرحمة فيرصدون المؤمنين

ليحرسونهم في مجاوزتهم عليها من فيح جهنم وكلاليب الصراط فهذه الآية بهذا التأويل تدل على كون جهنم طريقاً وممراً للناس أجمعين كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[١] فمن فسر المرصاد بالطريق أو المعنى الالتزامي، وقيل: مرصاد أي معدة للكفار يقال أرصدت الشيء إذا أعددته ويحتمل أن يكون المرصاد صيغة مبالغة أي مجدة مجتهد في ترصد الكفار كيلا يشذ منها واحد، أخرج البيهقي عن أنس قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الصراط أحد كحد السيف وإن الملائكة يحفظون للمؤمنين والمؤمنات وإن جبرئيل لآخذ بحجزتي وإني لأقول يا رب سلم سلم والزالون والزالات كثير» وأخرج ابن المبارك والبيهقي وابن أبي الدنيا عن عبيد بن عمير عن النبي ﷺ قال: «الصراط على جهنم مثل حد السيف بجهة الكلاليب والجسك في ركبه الناس فيخطفون والذي نفسي بيده وإنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضر والملائكة على جهة يقولون رب سلم سلم» وأخرج البيهقي عنه قال: «إن الصراط مثل حد السيف دحض مزلة تنكفأ الملائكة والأنبياء قياماً ما يقولون رب سلم سلم والملائكة يخطفون بكلاليب» قال البيهقي روى مقسم عن ابن عباس أن على جسر بجهنم سبع محابس يسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز بها إلى الرابع فيسأل عن الصوم فإن جاء بها تامة جاز إلى الخامس فيسأل عن الحج فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فيسأل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال أنظروا فإن كان له تطوع أكمل به أعماله فإذا فرغ به انطلق به إلى الجنة» ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ يجوز بخمسة أوجه أن يكون خبر ثانياً لكانت أو صفة لمرصاد أو لمآب قدم عليه ما انتصب حالاً أو ظرف مرصاد أو لمآب، والطاغي الذي جاوز الحد في العصيان ولا يكون ذلك حتى يقطع في الكفر والتكذيب إما صريحاً فحينئذ يسمى كافراً وإما التزاماً واقتضاء فيسمى رافضياً أو قدرياً أو مرجئاً أو نحو ذلك من أهل الهواء ﴿مَـَٔابًا﴾ خبر آخر لكانت ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب لبثين بغير الألف والباقون بألف حال مقدرة من الضمير في الطاغين ﴿فِيهَآ﴾ في جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب والحقب الواحد ثمانون سنة كل سنة اثني شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة، قال البغوي روي ذلك عن علي بن أبي طالب وكذا أخرج هناد عن أبي هريرة، وقال مجاهد الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً كل حقب سبعون خريفاً كل خريف سبعمائة سنة كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم ألف سنة، وقال

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

مقاتل بن حبان الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة لما كانت هذا المدة متناهية وقد دلت الآيات المحكمات على خلود الكفار في النار والعذاب حيث قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[1] وعليه العقد الإجماع، وروى السدي عن مرة بن عبد الله قال: لو علم أهل النارأنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا ذهب المفسرون إلى تأويل هذه الآيات فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[2] قالوا: فالعدد قد ارتفع والخلود قد حصل، قلت: هنا خبر والخبر لا يحتمل النسخ، وقال الحسن في تأويلها إن الله لم يجعل لأهل النار مدة بل قال: لا بثين فيها أحقاباً فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر ثم أخرى إلى الأبد فليس للأحقاب مدة إلا الخلود ومن ها هنا قال البيضاوي والمراد وهو ممتابعة وليس فيه دلالة على خروجهم منها وإن كان فمن قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على الخلود الكفار، قلنا: نعم المنطوق لا يزاحمه المفهوم ومن ثم قلنا بخلود الكفار في النار وعليه انعقد الإجماع ووجب تأويل هذه الآية وتأويله بالأحقاب الغير المتناهية والدهور المتتابعة ضعيف إذ لا يظهر حينئذ فائدة لتقييد بالأحقاب الموهم خلاف المراد كيف والأحقاب بالنسبة إلى غير المتناهي من الزمان كالأيام بالنسبة إليها ولا شك أنه لو قيل لابثين فيها أياماً لا يتبادر الذهن منه إلى الخلود بل إلى الخروج فكذا هنا، وقيل أحقاباً جمع حقب من حقب الرجل إذا أخطأ الرزق وحقب العالم إذا قل مطره وخيره فيكون حالاً بمعنى لابثين فيها حقبين أي ممنوعين عنهم الرزق كله وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ﴾ تفسير له، قلت وهذا التأويل يأبى عنه الآثار المروية عن علي وغيره المذكورة مع أنها في حكم المرفوع لعدم مساغ الرأي فيه وقول أن قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ حالاً من المستكن في لابثين أو صفة لأحقاباً أو أحقاباً ظرف بلا يذوقون فالمعنى أنهم يلبثون أحقاباً على هذه الصفة غير ذائقين إلا حميماً وغساقاً لأحقاف زمان بعدم الذوق لا المطلق اللبث فلعلهم يبدلون بعد ذلك جنساً آخر من العذاب أشد من ذلك والظاهر أنه حال مرادف بقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ﴾، والتأويل عندي أن لفظ الطاغين ليس على عموم اتفاقاً فأنتم تحملونه على الكفار دون أهل الهواء، فيلزمكم التكلفات في هذا الآية لينادفع المعارضة بينها وبين المحكمات ونحن نحمل الطاغين ها هنا على أهل الهواء دون الكفار فلا يلزمنا ما يلزمكم ويؤيد ما قلت ما أخرج البزار عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «والله لا يخرج أحد من

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٠.
(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٠.

النار حتى يمكث فيه أحقاباً والحقب بضع وثمانون سنة وكل سنة ثلاثمائة وستون يوماً مما تعدون» فإن هذا الحديث يدل على الخروج بعد تلك المدة والله تعالى أعلم، قرأ الحمزة والكسائي وحفص غساقاً بالتشديد كالخباز والباقون بالتخفيف كالعذاب أما الحميم فماء في غاية الحرارة في الحديث: «يرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم»[1] الحديث رواه الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء وأما الغساق فأخرج هناد عن مجاهد قال الغساق الذي لا يستطيعون أن يذوقه لشدة برده، قال البغوي قال ابن عباس يحرقهم ببرده كما يحرق النار بحرها، قال مقاتل هو الذي انتهى برده، وأخرج هناد عن أبي العالية في هذه الآية أنه استثنى من الشراب الحميم ومن البرد الغساق، قال البيضاوي أخر الغساق ليوافق رؤوس الآي، وأخرج هناد عن عطية قال: الغساق الذي يسيل من صديدهم وأخرجه مثله عن إبراهيم وأبي زرين فهو مشتق من قولهم غسقت وانصبت والغساق الأنصاب وأخرج ابن حاتم وابن أبي الدنيا وأيضاً عن كعب قال: الغساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع يؤتى بالآدمي فينغمس غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده عن العظام وتعلق جلده ولحمه في كعبيه فتجر لحمه كما يجر الرجل ثوبه فعلى هذه الأقوال إن كان الغساق بارداً كان المستثنى من البرد إلا فهو والحميم كلاهما مستثنى من الشراب والمراد بالبرد حينئذ برد جهنم ويستثنى عن حر النار والمراد بالبرد النوم، وقيل: الاستثناء منقطع والمراد بالشراب ما يسكن عطشهم ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المصدرية من فعل المحذوف أي يجزون جزاء ﴿وِفَاقًا﴾ أي وافقاً أو موافقاً أو يوافق وفاقاً لأعمالهم وأباطيلهم، قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك هذا على تفسير القوم بأن المراد بالطاغين الكفار فعلى هذا جزاء مصدر وقع بعد جملة لا محتمل لها غيره من قبيل له على ألف درهم اعترافاً إذ لا محتمل من جملة إن جهنم الخ إلا الجزاء فهو تأكيد لنفسه وأما على ما ذكرت من أن المراد بالطاغين أهل الهواء فمعناه يجزون لجنس ما ذكر من العذاب موافقاً لبعدهم عن الحق في عقائدهم فيكون لبث بعضهم في جهنم أكثر من بعض وعذابهم أشد منهم غير أنه يبلغ هذا اللبث وما هم فيه إلى الأحقاب وأذاه حقب وعلى هذا التأويل فالمصدر تأكيد لغيره إذا الجملة السابقة عليه يحتمل غير ذلك والحمل على كونه تأكيداً لغيره أولى من الحمل على كونه تأكيداً لنفسه فإن التأسيس أولى من التأكيد ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يخافون ولا يعتقدون

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٦).

﴿حِسَابًا﴾ تعليل لما سبق من الجزاء فالكافرون لا يعتقدون البعث والحساب والجزاء مطلقاً وأما أهل الهواء فإن هذه الصفة موجودة في بعضهم فإن المرجئة لا يعتقدون الحساب والجزاء وكذا الروافض يقولون شيعة علي ومحبه لا يعذب بشيء من الذنوب كبيرة كانت وصغيرة ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ عطف على كانوا وهذه الصفة عامة في جميع أهل الهواء كما ذكرنا في المرسلات ألا ترى إلى الروافض أنهم ينكرون مناقب جميع الصحابة ويدعون ارتدادهم أو نفاقهم أجميعن إلا ثلاثة منهم أو نحو ذلك، ويزعمون إن عمر بن الخطاب وغيره من الخلفاء حين مكنهم الله تعالى في الأرض أفسدوا في الأرض ويزعمون أن الصحابة شر الأمم وأسوأ القرون وقد قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾[2] إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3] الآية وقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[4] وقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[5] الآية إلى غير ذلك من آيات لا تكاد تحصى، وكذاباً المصدر بمعنى التكذيب مطرد شائع أو بمعنى المكاذبة فإنهم كاذبون عند المسلمين والمسلمون كاذبون عندهم أو المعنى أنهم مبالغون في الكذب مبالغة المبالغين فيه وعلى المعنيين يجوز أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي تكذيباً مفرطاً كذبه.

مسألة:

هذه الآية على ما ذكرت من التأويل تدل على عذاب أهل الهواء وأما عذاب أهل الكبائر من المؤمنين فأطول مدة مكثهم بقدر الدنيا سبعة آلاف سنة ولا يجرعون الحميم ونحو ذلك، أخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها الذين ماتوا على الكبائر غير تائبين من دخل منهم جهنم لا يزرق أعينهم ولا تسود وجوههم ولا يقرنون بالشياطين ولا يغلون بالسلاسل لا يجرعون الحميم ولا يلبسون القطران حرم الله أجسادهم على الخلود

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤١.
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

وصورهم على النار من أجل السجود فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه النار إلى عقبيه ومنهم من تأخذه النار إلى حنجرته ومنهم من تأخذه إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ومنهم من يمكث فيها سنة، ثم يخرج وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ خلقت إلى أن تفنى» الحديث وأخرج الحاكم في نوادر الأصول عن أبي هريرة نحوه فهم في الباب الأول من جهنم ولا يضربون بالمقامع ولا يطرحون في الدرك فمنهم من يمكث فيها ساعة ثم يخرج منها ومنهم من يمكث وفيها يوماً ثم يخرج ومنهم من يمكث فهيا سنة وأطولهم فيها مكثاً منذ خلقت الدنيا إلى يوم فنيت وذلك سبعة آلاف، قلت والمراد بالسنة ها هنا السنة الدنيوية حتى يتحقق مساواتهم فيها بمدة الدنيا وورد في بعض الروايات عن ابن سعيد مرفوعاً «أن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم يميتهم الله في النار فإذا كانوا أذن بالشفاعة يحيون بخلاف الكفار فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون» ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر على شريطة التفسير أي أحسينا كل شيء من أعمال الطاغين وأباطيلهم ﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ منصوب على التميز أو على الحال بمعنى مكتوباً أو على المصدرية من قبيل ضربتهم سوطاً أي أحصيناه إحصاء كتاب أو بفعل محذوف أي أحصيناه كتبناه كتاباً في اللوح المحفوظ أو في صحف الحفظة، قيل: هذه الجملة معترضة والظاهر عندي أنها تعلل لقوله تعالى: ﴿وِفَاقًا﴾ كما أن قوله أنهم كانوا لا يرجون الخ تعليل لقوله جزاء يعني جزيناهم كذلك لأجل إنكارهم للحساب وتكذيبهم بالآيات ويوافق الجزاء أعمالهم وفاقاً حيث كتبنا أعمالهم وأباطيلهم لا يغادر فيها شيء فيجزيهم وفاق ذلك ﴿فَذُوقُوا۟﴾ الفاء للسببية بمعنى ذوقوا العذاب بسبب إحساء أعمالهم خطاب مع الطاغين على طريقة التفات للمبالغة ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ أيها الطاغون ما دمتم في النار ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن أبي هريرة الأسلمي مرفوعاً إن هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار ورواه الطبراني والبيهقي في البعث موقوفاً والله أعلم. ولما ذكر الطاغين ذكر الله سبحانه حال المتقين فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ فوزاً ونجاة من النار أو موضع فوز ﴿حَدَآئِقَ﴾ بدل بعد من مفاز إن كان بمعنى الموضع وإلا فبدل اشتمال ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ هذا وما بعده بدل اشتمال من مفازاً ويجوز عطف على بدل البعض تقول أعجبني زيد وجهه وعلمه ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جواري نواهد قد تكعبت ثديهن واحدتها كاعب ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات السن ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة مملوءة وقال سعيد بن جبير متابعة وقال عكرمة صافية ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ حال من الضمير في للمتقين اراجع إلى مفاز أو هو الحدائق والجنات أو صفة لكأساً وعلى هذا فالضمير ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى كأس لا يسمعون في شربها كما كانوا يسمعون في شرب كاسات الدنيا ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً من الكلام ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ قرأه الكسائي بالتخفيف على أنه مصدر الكاذبة، وقيل هو الكذب وقيل: هو كالمشدد في المعنى والباقون بالتشديد بمعنى التكذيب يعني لا يكذب بعضهم بعضاً ولا يوجد في الجنة الكذب ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر فعل محذوف مؤكد بجملة وقعت قبله كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[1] ﴿عَطَآءً﴾ مصدر كذلك أي يجزون جزاء أو يعطون عطاء ﴿حِسَابًا﴾ صفة لعطاء بمعنى كافياً وافياً من أحسبت فلاناً أي أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي قال ابن عتبة عطاء حساباً أي كثيراً فعلى هذا يكون تأكيداً لنفسه من قبيل الله أكبر دعوة الحق وله علي ألف اعترافاً، وقيل حساباً معناه على حسب الأعمال وقدرها في القاموس هذا بحسبه أي بعدده على هذا يستقيم المقابلة بما سبق جزاء وفاقاً يعني الطاغون يجزون جزاء موافقاً لأعمالهم وأباطيلهم والمتقون يجزون جزاء على حسب أعمالهم وقدرها قلت بل على حسب مشيئة الله تعالى وفضله لقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] وعلى حسب إخلاص العالمين ومراتب قربهم، فإن المقربين يعطون الآجر على القليل من العمل لا يعطي الأبرار على الكثير لما روى الشيخان في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[3] وهذا التفاوت فيما بين المقربين على تفاوت درجات قربهم قال المجدد ﷺ: الصحابة كانوا

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).

كلهم مستغرقين في التجليات الذاتية الدائمة بكمالات النبوة وكثيراً من التابعين وقليل من أتباعهم كانوا كذلك وهم المقربون وبعد القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير انطفت أنوار تلك الدولة العظمى ودرست آثارها ثم بعد مضي ألف سنة من الهجرة خلق الله سبحانه بعض الكرام وأعطاهم كمالات مثل كمالات الأولين كما نطق به الصادق المصدوق ﷺ: «مثل أمتي كمثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»[1] رواه الترمذي عن أنس شبه رسول الله ﷺ آخر هذه الأمة بأوله بحيث لا يدري أيها خير من الآخر وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أبشروا بشروا إن مثل أمتي مثل الغيث لا يدرى آخره خير أم أوله أو كحديقة أطعم منها فوج عاماً وفوج عاماً لعل آخرها أفواجاً يكون أعرضهم عرضاً وعمقهم عمقاً وأحسنهم حسنات» الحديث رواه البيهقي ورواه رزين وعن صحابي بهم سمع النبي ﷺ أنه يقول: «سيكون في آخر هذه الأمة قوم لهم أجر مثل أجر أولهم»، رواه البيهقي في دلائل النبوة وعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ تأكيداً الغيرة كما ذكرت في جزاء وفاقاً والله تعالى أعلم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ الكوفيون بالجر والباقون بالرفع ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ عاصم وابن عامر بالجر والباقون بالرفع فعلى قراءة عاصم بالجر فيهما كلا الاسمين صفتان لربك في قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أو بدل منه وعلى قراءة أهل الحجاز والبصرة بالرفع فيهما رب السماوات مبتدأ والرحمن صفة له وما بعده خبره ويحتمل أن يكون رب السماوات خبر مبتدأ المحذوف أي هو رب السماوات الرحمن صفة له أو خبر ثان وما بعده خبر ثالث، ويحتمل أن يكون الرحمان مبتدأ وما بعده خبره وعلى قراءة حمزة والكسائي بالجر في الأول والجر في الثاني رب السماوات خبر مبتدأ محذوف فهو جملة معترضة والرحمان بدل من ربك وما بعده استئناف ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أي أهل السماوات والأرض ﴿مِنْهُ﴾ أي من الرحمان ﴿خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحد أن يخاطبه منه وقال الكلبي معناه لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه ويحتمل أن يكون معناه لا يمكن لأحد الاعتراض عليه سبحانه في إعطاء الأجر بعضهم أكثر من بعضهم لأنهم مملوكون على الإطلاق ولا يستحق أحد عليه شيئاً والأجر تفضل منه فعلى هذا لا اعتراض، عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم من أجل ما خلا من الأمم من العصر إلى مغرب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عملاً فقال من يعمل إلى النصف النهار على قيراط فعملت اليهود إلى النصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال (٢٨٦٩).

على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى فقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل إعطاء قال الله تعالى فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا قال الله تعالى فإنه فضلي أعطيته من شئت»[١] رواه البخاري، قلت: معناه قوله ﷺ «إنما أجلكم من أجل ما خلاف من الأمم ما بين العصر إلى مغرب الشمس «أن أعمار هذه الأمة قصيرة وأعمالهم قليلة والمراد بالقيراطين الكثرة مطلقاً كما في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾[٢] لا تعيين الكثرة بقدر الضعيف والله أعلم وبتأويلنا هذا يرتبط هذه الآية بما سبق أي جزاء من ربك عطاء حساباً والله تعالى أعلم ﴿يَوۡمَ يَقُومُ﴾ ظرف للا يملكون أو للا يتكلمون والأول أظهر ﴿ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في ذلك اليوم واختلفوا في الروح، فأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: الروح في السماء الرابعة وهو أعظم من السماوات والجبال ومن الملائكة وزاد البغوي أنه يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيح يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً واحداً، وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في هذه الآية قال الروح صاحب الله يقوم بين يدي الله وهو أعظم ملائكة لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة ما يخلق ينظرون إليه فمن مخافته لا يرفعون طرفهم إلى من فوقهم، وأخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال الروح ملك له سبعون ألف وجهة لكل وجهة سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون لغة يسبح الله بتلك اللغات كلها وأخرج من طريق عطاء عن ابن عباس قال الروح ملك واحد له عشرة وآلاف جناح ومن طريق أبي طلحة عنه أنه من أعظم الملائكة خلقاً وزاد البغوي في قول عطاء عنه أنه قال إذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفاً والملائكة صفاً واحداً فيكون أعظم خلقه مثلهم، وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل بن حبان قال: الروح أشرف الملائكة وأقربم إلى الله وهو صاحب الوحي وأخرج من وجه آخر عن الضحاك في هذه الآية فالروح جبرائيل عليه السلام وأخرج عن ابن عباس أن جبرائيل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله يقول سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك وإن ما بين المشرق والمغرب وذلك قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ وأخرج أبو نعيم عن مجاهد وابن المبارك عن أبي صالح مولى أم هاني قال: الروح خلق على صورة بن آدم وليسوا بالإنسان زاد البغوي يقومون صفاً والملائكة صفاً هؤلاء جند وهؤلاء جند وكذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإجارة، باب: الإجارة إلى نصف النهار (٢٢٦٨).

(٢) سورة الملك، الآية: ٤.

ذكر البغوي عن قتادة، وأخرج أبو الشيخ من طريق مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً قال: «الروح جند من جنود الله ليسوا بالملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل ثم قرأ (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) قال هؤلاء جنده وهؤلاء جنده» وذكر البغوي عن مجاهد عنه قال: خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا معه واحد منهم أخرج ابن المبارك وأبو الشيخ في العظمة عن البيهقي قوله تعالى: (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) قال يقوم سماطين لرب العالمين يوم القيامة سماط من الملائكة وسماط من الروح وذكر البغوي أنه قال الحسن هم بنوا آدم ورواه قتادة عن ابن عباس وقال: هذا مما كان يكتمه ابن عباس ﴿صَفًّا﴾ حال مفرد من فاعل يقومون أو مصدر بفعل محذوف أي يصفون صفا والجملة حالان يتكلمون يعني الروح والملائكة وهذه الجملة حال من فاعل يقوم وجملة يوم الروح والملائكة صفا ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تقرير وتوكيد لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فإن هؤلاء الذين أفضل الخلائق وأقربهم إلى الله إذا لم يقدروا على التكلم فكيف من عداهم ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام والشفاعة استثناء من فاعل لا يتكلمون أو من فاعل لا يملكون والأول أظهر لفظاً لاتصاله والثاني معنى فإن الإذن في الشفاعة والكلام غير مختص بالروح والملائكة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي حقاً وصدقاً واعتقد به فالقول ها هنا كان كناية عن الاعتقاد والاعتقاد لا يظهر إلا بالقول عطف على أذن له الرحمن يعني من قال صواباً في الدنيا يعني لم يقل باطلاً من الكلام كاذباً وأكذب الكذب الكفر بالله العظيم لعدم إمكان صدقه ثم قول أهل الهواء لأن القرآن يكذبهم، وقيل معنى قال صواباً قال لا إله إلا الله فالكفار لا يؤذن لهم أن يتكلموا أو يعتذروا وأهل الهواء وأنى لهم درجة الشفاعة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ إشارة إلى ما سبق من اليوم المذكور بالصفات المذكورة مبتدأ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره عرف للقصر على كونه حقاً ثابتاً لا شبهة فيه ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ مرجعاً وسبيلاً مقرباً إليه بطاعاته واتباع رسله والهادين إلى سبيله بالجذب والتسليك فليتخذ الفاء السببية فإن كون ذلك اليوم حقاً موجب الاتخاذ السبيل إلى الله وإلى ربه متعلق بمآباً أو ظرف مستقر حال منه ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ وأيها الكفار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذاب الآخرة فإن كل ما هو آت قريب أو عذاب القبر والموت أقرب من شراك النعل ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ الظرف متعلق بعذاباً فإنه بمعنى التعذيب ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ما استفهامية منصوبة بقدمت أو موصولة منصوبة بينظر والعائد من الصلة محذوف المعنى لتعذيب أنه يرى كل امرئ يوم القيامة ما قدم من العمل شيئاً في صحيفة أو يرى جزائه في الآخرة أو في القبر إنما أسند تقديم

الأعمال إلى اليد لأن عامة الأعمال الجوارح منها أو لأن اليد كناية عن القدرة والقوة، عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القبر أول منزلة من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»(١) والأحاديث في العذاب القبر كثيرة وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول» وفي رواية لمسلم «لا يستنزه من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»(٢) الحديث، ويدل على رؤية العمل في القبر حديث البراء بن عازب بطوله وفيه في ذكر المؤمن «فيفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك كنت توعد فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه تجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح» الحديث وفيه في ذكر الكافر «ويضيق عليه قبره حتى يختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه وقبيح الثياب نتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤوك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه تجيء بالشر فيقول: أنا عملك الخبيث» الحديث رواه أحمد ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مدا لادبم وحشر الله تعالى الخلائق الإنس والجن والدواب والوحش فإذا كان ذلك اليوم جعل الله القصاص بين الدواب حتى يقضي للشاة العجماء من القرناء فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها كوني تراباً فيراها الكافر فيقول يا ليتني كنت تراباً، وأخرج الدينذري عن يحيى بن جعدة نحوه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي هريرة نحوه، وذكر البغوي قول مقاتل نحوه وفيه يقول الكافر يا ليتني كنت في الدنيا في صورة خنزير وكنت اليوم تراباً وذكر البغوي عن الزياد وعبد الله بن ذكوان قال: إذا قضى بين الناس وأمر أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجن عودوا تراباً فيعودون تراباً فحينئذ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وبه قال ابن أبي سليم مؤمنوا الجن يعودون تراباً، وقيل المراد بالكافر ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم أنه خلق من التراب وافتخر بأنه خلق من النار فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والرحمة وما هو فيه من الشدة والعقاب قال يا ليتني كنت تراباً قال أبو هريرة فيقول التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد (٢٣٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله (٢١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة باب: الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

سورة النزاعات

مكية وهي ست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ الواو للقسم وجواب القسم محذوف أي لتبعثن ولتحاسبن يدل على ما بعده، والمراد بالنازعات غرقاً الملائكة التي تنزع أرواح الكفار غرقاً في النزع فغرقاً اسم أقيم مقام المصدر فهو مفعول مطلق من غير لفظ العامل نحو قعدت جلوساً، يقال أغرق النازع في القوس أي استوفى مدها بقوة وشدة وبالناشطات نشطاً الملائكة التي يخرجون أرواح المؤمنين برفق من نشط الدلو إذا أخرج بلا كره أو من نشط الحبل أو أمده حتى انحل فإن المؤمن كان في مصائب الدنيا كأنه معقود محسوس فالملائكة الناشطات أخلصته وحلت حلاً رقيقاً كما ينشط العقال من يد البعير كذا حكى القراء، وفي الحديث في حال أرواح المؤمن «كأنما أنشط من عقال»، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة تنزل إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج كأطيب نفحة مسك» الحديث «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا تنزل إليه من السماء ملائكة سوداء الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى

يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله قال: فتفرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوت المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسموح ويخرج منها كنتن ريح جيفة» وفي رواية «وينزع نفسه ـ يعني الكافر ـ مع العروق»[(١)] رواه أحمد قال البغوي، قال ابن مسعود وينزعها يعني نفس الكافر ملك الموت من تحت كل شعرة ومن الأظافير وأصول القدمين ويرددها في جسده بعدما ينزعها حتى إذا كادت تخرج ردها جسده فهذا عمله بالكافر، وقال مقاتل ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافركما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل.

فائدة: ومن ها هنا يظهر أن النفس جسم لطيف على حسب الجسم الكثيف سارٍ في البدن ناشيء من العناصر الأربعة الروح والقلب وغيرهما من لطائف عالم الأمر الجواهر المجردة الإمكانية التي تظهر في النظر الكشف للطافتها وتجردها في عالم المثال فوق العرش، قالت الصوفية إنه بكمال قدرته تعالى جعلت النفس في معاملتها بمنزلة المرآة في مقابلة الشمس في النفس وامتلأت النفس بها كما تمتلىء المرآة بالشمس إذا قوبلت بها وانضاءت كالقمر إذا اتسق بأنوار الشمس على رأي الفلاسفة فحياة البدن بالنفس وحياة النفس بالأرواح المجردة وتنزع النفس من البدن عند أجل مسمى ولا يحل انتزاع الأرواح المجردة بالنفس أبدا كذا ما ورد في الحديث أن النفس ينزع من البدن ويجعل في الأكفان والحنوط والمسوح يسعد بها فيفتح أبواب السماء لنفس المؤمنة إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى أكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلفتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ولا يفتح أبواب السماء للكافر بل يطرح روحه إلى الأرض صريح على كونه جسماً مخلوقاً من الأرض، وعلى هذا التحقيق لا مجال لإنكار عذاب القبر على ما ذهب إليه أهل الهواء مع قطع النظر من البدن الكثيف وعند أهل الحق عذاب القبر يمكن على البدن الكثيف أيضاً ولا يمنعه الموت كما مر تحقيقه في سورة البقرة والله تعالى أعلم ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣﴾ قال مجاهد هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ قال مجاهد هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقال مقاتل هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة يعني إلى

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجنائز، باب: السؤال في القبر (٤٢٦٦).

الثواب، قلت: وأرواح الكفار إلى العذاب، قلت: وهم الذين ورد ذكرهم في حديث البراء المذكور أن ملك الموت إذا أخذ نفساً لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذها، وعن ابن مسعود السابقات هي أنفس المؤمنين تستبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله وكرامة غاية السرور ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾ أخرج ابن أبي الدنيا ابن عباس في المدبرات أمراً قال: ملائكة مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم فمنهم من يعرج بالروح ومنهم من يؤمن على الدعاء ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلي عليه ويدلى في حفرته، وقال البغوي قال ابن عباس هم الملائكة الذين وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها قال عبد الرحمن بن سابط يدبر الأمر في الدنيا أربعة جبرائيل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل أما جبرائيل فوكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فوكل بالمطر والنبات وأما ملك الموت فوكل بقبض الأنفس وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، قال قتادة بجمعيتها غير المدبرات بالنجوم فإنها تنزع من أفق إلى أفق ثم تغيب وتنشط من أفق إلى أفق أي تذهب وقال الله تعالى فيها: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] وتسبق بعضها على بعض في السير وهذا القول ضعيف فإنه لا فرق حينئذ بين النزع والنشط والسبح ولا وجه لذكر شيء واحد أربع مرات والفرق بين النزع والنشط بأن حركتها من المشرق إلى المغرب قسرية فتغرب بالنزع غرقاً وحركاتها من برج إلى برج طبيعة ملائمة فسمت بالنشط مبني على مذهب الفلاسفة قائلين بانطباق السماوات بعضها على بعض حتى يتصور القسر والثابت من الشرع أن مسافة ما بين السماء إلى السماء خمسمائة عام، وذكر في تأويل هذه الآية وجوه أخر بناء على احتمال العقل من غير نقل من السلف قال البيضاوي صفات للنفوس الفاضلة حال المفارقة فإنها تنزع من الأبدان نزعاً شديداً من أغراق النازع في القوس فتنشط إلى عالم الملكوت وتسبح فيه وتستبق في حظائر القدس حتى يصير لشرفها وقوتها من المدبرات أو حال سلوكها فإنها تنزع عن الشهوات وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من الكمالات أو صفات أنفس الغزاة أي أيديهم بنزع القسي بإغراق السهم وينشطون بالسهم للرحى ويسبحون في البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها أو صفات خيلهم فإنها تنزع في أعنتها وتغرق في عرقها والأعنة أطول أعناقها ويخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر وتسبح في جريها وتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر والله تعالى أعلم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ متعلق بجواب القسم المحذوف يعني لتبعثن ولتحاسبن يوم ترجف

(١) سورة يس، الآية: ٤٠.

الراجفة وظرفية ذلك اليوم باعتبار أجزائها فإن مقدار ذلك اليوم خمسين ألف سنة من النفخة الأولى إلى دخول الجنة أو النار، أخرج البيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ فقال: ترجف الأرض والجبال وهي الزلزلة تتبعها الرادفة قال: دكتا دكة واحدة ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ في موضع الحال من فاعل ترجف والمراد بالراجفة النفخة الأولى بالراجفة لأنها توقع الزلزلة فيحرك بها كل شيء ويموت منها الخلائق والثانية بالرادفة لأنها رديفة الأولى، أخرج ابن المبارك من مرسل الحسن بين النخفتين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل ميت، قال الحليمي اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعون سنة وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[1] وأخرج ابن أبي داود في البعث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه وفيه بين النخفتين أربعون عاماً والأول أصح، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس يسيل واد من ماء فيما بين النفختين ومقدار ما بينهما أربعون فينبت كل خلق بلى من إنسان أو حيوان ودابة ولو مر عليهم مار قد عرفهم، قيل ذلك على وجه الأرض لعرفهم فتنبتون ثم يرسل الأرواح فيزوج بالأجساد فذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بفعل يدل عليه ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خبر أي مضطرب اضطراباً شديداً مستعار من الواجف بمعنى سريع السير ﴿أَبْصَـٰرُهَا﴾ أي أبصار أصحابها ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذليلة من الخوف، الجملة خبر بعد خبر لقلوب أو صفة لواجفة ﴿يَقُولُونَ﴾ تعليل لواجف قلوبهم وخشوع أبصارهم يعني يلحقهم الاضطراب والزلزلة أنهم ينكرون البعث ويقولون في الدنيا هذا القول ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ الاستفهام للإنكار يعني كنا مردودين قرأ أبو جعفر أنا بحذف همزة الاستفهام لفظاً وإرادته معنى ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي في الحياة الأولى يعني حياة بعد الموت يقال رجع فلان في الحافرة يعني طريقة التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيئته كقولهم عيشة راضية أو على تشبيه القابل ما يقابل وقال ابن زيد الحافرة النار ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا﴾ قرأ نافع والكسائي ويعقوب والحمزة وعامر إذا كنا بغير همزة الاستفهام والباقون بالهمزة للإنكار بعد الإنكار للتأكيد والظرف متعلق بمحذوف تقديره انبعث إذا كنا ويحتمل أن يكون متعلقا بمردودون ﴿نَّخِرَةً﴾ يابسة قرأ أبو بكر وحمزة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

والكسائي بالألف ناخرة والباقون بغير ألف، أخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال لما نزل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ قال كفار قريش لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن فنزل ﴿قَالُوا﴾ عطف على يقولون وحال بتقدير قد من فاعل يقولون لكن نزول تلك الآية كما يدل عليه رواية سعيد بن منصور عن محمد بن كعب يأبى على كونه حالاً ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الرجعة المفهوم من قوله إنا لمردودون في الحافرة مبتدأ ﴿إِذًا﴾ أي كان كذلك أي كما يقول محمد شرط مستغني عن الجزاء لوقوعه في وسط جملة تدل على الجزاء تقديره إذا كان كذلك فتلك الرجعة ﴿كَرَّةٌ﴾ رجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي ذات خسران وخاسر أصحابها والمعنى أنها إن صحت فنحن خاسرون لتكذيبنا وهذا استهزاء منهم ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي النفخة الثانية ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ في الصحاح الزجر الطرد بالصوت يقال زجرته فانزجرو منه هذه الآية فإن الناس يطردون في الأرض بصوت ينفخ في الصور ثم يستعمل تارة في الصوت كما في قوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾[1] يعني الملائكة التي زجرن السحاب بالصوت وتارة بالطرد كما في قوله تعالى: ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[2] يعني طرد ومنع ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ الفاء للعطف وإذا للمفاجأة أضيفت إلى جملة اسمية جعلها في قوة الفعلية معطوفاً على فعلية تقديره يقولون في الدنيا كذا فيفاجؤون وقت كونهم بالساهرة وجملة فإنما هي زجرة واحدة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لبيان كون الرجفة التي أنكروها سهلة بينه عند الله تعالى استفهام أي قد آتيك إلى غير مستصعبة والساهرة وجه الأرض يعني إذا هم أحياء بوجه الأرض، وقيل: هي أرض القيامة وقال قتادة هي جهنم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ استفهام تقرير أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ جملة معترضية تسلية النبي ﷺ على تكذيب قومه وتهديدهم بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أعظم منهم ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾

(١) سورة الصافات، الآية: ٢.
(٢) سورة القمر، الآية: ٩.

الظرف متعلق مفهوم حديث موسى أي هل أتاك الحديث المتعلق بموسى وقت نداء ربه إياه ﴿بِٱلْوَادِ﴾ والباء بمعنى في ﴿ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قرأ الكوفيون بالتنوين ويكسرون نونها لالتقاء الساكنين بتأويل كونه علماً للمكان، وقيل: هي مثنى من الطي مصدر لنودي أو المقدس أي نودي ندائين أو قدس مرتين وقرأ الباقون بغير تنوين لأنه معدول تقديري أي عن طاواسم لواد فعدل عن الصرف أو لأنه علم لمؤنث بتأويل البقعة فهو عطف بيان للوادي واذهب بيان لنادى بتقدير القول أي قال ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾ قبيل الذهاب ﴿فَقُلْ﴾ عطف على اذهب ﴿هَل لَّكَ﴾ ميل ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ قرأ أهل الحجاز ويعقوب بتشديد الزاء والباقون بالتخفيف بحذف إحدى التائين أي تسمل وتطهر من الشرك قال ابن عباس تشهد أن لا إله إلا الله ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أراك السبيل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي معرفته وعبادته وتوحيده ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ عقابه فتؤدي الواجبات وتترك المحرمات على أن أهديك الفاء للسببية فإن الخشية مسبب للمعرفة والمعرفة مسبب لهداية ﴿فَأَرَىٰهُ﴾ معطوف على محذوف يعني ذهب وبلغ فأراه ﴿ٱلْءَايَةَ﴾ على صدقه ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي المعجزات الباهرة العظيمة في الدلالة على صدقه وإفرادها لأن كلها من حيث الدلالة كالآية الواحدة أو المراد بها قلب العصى حية ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله ورسوله بعد ظهور صدقه بالمعجزات ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ من ذلك المكان حين رأى الثعبان مسرعاً في مشيه إليه ﴿يَسْعَىٰ﴾ حال من فاعل أدبر أو المعنى عن الإيمان والطاعة حال كونه يسعى في الفساد في الأرض ﴿فَحَشَرَ﴾ جمع جنود أو السحرة ﴿فَنَادَىٰ﴾ في مجمعه ﴿فَقَالَ﴾ بيان لنادي والفاء للتفسير ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني لا رب لكم فوقي أو أن أعلى من كل من يلي أمركم وقيل أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربها وربكم ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾ النكل في اللغة الضعف والعجز ويقال لا يمنع الشيء عن الشيء ويعجزه عنه فيطلق على قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين والنكال اسم من التنكيل، يقال: نكلت به إذا فعلت به من عقاب الشديد ما يمنع غيره من ارتكاب مثله فالنكال ها هنا إما صفة لمصدر محذوف مؤكد لماقبله أي أخذه الله أخذاً نكالاً مانعاً لمن أراه أو سمعه أن يفعل مثله أو أخذه الله نكله نكالاً وإضافته إما بمعنى في يعني نكالاً في الآخرة بالإحراق وفي الدنيا بالإغراق كذا قال الحسن وقتادة أو بمعنى اللام يعني نكله نكالاً للكلمة الأخسرة وهي هذه، قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[1] وكان بينهما أربعون سنة كذا قال مجاهد وجماعة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الأخذ والنكال ﴿لَعِبْرَةً﴾ موعظة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ لمن كان من شأنه الشية صفة لعبرة، ثم خاطب منكري البعث

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٨.

على سبيل الالتفات واحتج عليهم على البعث وكونه تعالى قادراً عليه بما ظهر من قدرته في إيجاد العالم فقال:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ مبتدأ محذوف الخبر تقديره أنتم أشد خلقاً أم السماء أشد خلقاً منكم والاستفهام للتقرير والمراد بالسماء هي وما فيها بقرينة ذكر الأرض والجبال في مقام التفصيل والحاصل أن السماء وما فيها أشد خلقاً منكم البتة لأنكم بعض ما فيها والكل أعظم وأشد من الجزء بالبداية والإعادة أهون من الله ﴿بَنَىٰهَا﴾ صفة للسماء إما على أن اللام زائدة على طريقة لقد أمرّ على اللئيم يسبني أو على حذف الموصول أي التي بناها أو جملة ثانية معطوفة على الأول بحرف مقدر ويحصل من القضيتين مادة البرهان تقديره أن الله بنى السماء التي هي أشد خلقاً منكم وكل من هو قادر على بناءها قادر على إعادة ما هو أضعف منها ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ السمك الارتفاع والمعنى جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو جعل تحتها الذاهب في العلو رفيعها والجملة بيان لجملة بناها أو بدل اشتمال منه ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ عمد لها وجعلها مستوية بلا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعلها ذا ظلمة يقال غطش الليل إذا أظلم أضاف الليل إلى السماء لحدوثها بحركة الشمس المستقر فيها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أبرز ضوء شمسها وجعل النهار موجوداً منها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوب بفعل محذوف على شريطة التفسير يعني ووحي الأرض ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد خلق السماء ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بسطها للسكنى قال ابن عباس خلق الله الأرض بأقواتها في يومين من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين بعد ذلك، ثم دحى الأرض في يومين بعد ذلك فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وقيل معناه الأرض مع ذلك دحاها كقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾(١) في التفسير البيضاوي حمل كلمة بعد ها هنا على الحقيقة، وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾(٢) أن ثم لتفاوت

(١) سورة القلم، الآية: ٨٣ (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

ما بين خلقتي السماء والأرض من الفصل كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(١) والتأويل الأول لكونه مستفاداً من كلام السلف أولى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿مَآءَهَا﴾ ينفجر العيون فيها ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ كلائها تسمية الحال باسم المحل أو مصدر بمعنى المفعول وجملة أخرج معطوفة على الأرض نظيره له.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا﴾ أي تمتيعاً منصوب على العلية من دحى وأرسى على سبيل التنازع ﴿لَّكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ الفاء للسببية يعني إذا ثبت البعث بأخبار الله تعالى بعد إمكانه وظهور قدرته سبحانه وتعالى عليه بما ظهر من قدرته في إيجاد العالم فاعلموا صفته وقت مجيئه وغيرها بالطامة الكبرى ليعلم بعض صفاته من عنوانه، والطم في اللغة الغلبة ويقال للبحر لأنه يغلب كل شيء والطامة عند العرب الداهية التي لا يستطاع من ذلك سميت القيامة طامة لأنها تطم الدواهي كلها وتغلبها ثم وصفها بالكبرى لمزيد تأكيدها في الطم وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بدل منه ﴿مَا سَعَىٰ﴾ ما مصدرية أو موصولة يعني يرى أعماله عدد ما في صحيفته وكان قد نسيها من قبل لفرط الغفلة أو طول المدة ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ عطف على يتذكر أي يوم يبرز يظهر ﴿ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ لكل من يرى، قال مقاتل يكشف عنها الغطاء فيظهر إليها الخلق أما الكفار فيدخلها وأما المؤمن فيمرون من الصراط على ظهرها أو المراد لمن يرى الكفار وجواب إذا قيل محذوف دل عليه يوم يتذكر والظاهر أن جوابه ما بعده من التفضل ولا ضرورة في التقدير ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي جاوز الحد في العصيان حتى كفر ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ على الآخرة باتباع الشهوات وهواء النفس ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ هي فصل أو مبتدأ واللام في المأوى يدل على المضاف إليه عند الكوفيين أي مأواه وعند السيبويه والبصريين تقديره هي المأوى له عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب دنياه أضر آخرته من أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»(٢) رواه أحمد والبيهقي في الشعب وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره»(٣) متفق عليه وعند مسلم حفت مكان حجبت وعنه «إن

(١) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٢) رواه أحمد والطبراني والبزار ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فيمن أحب الدنيا (١٧٨٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧)، وأخرجه مسلم في أول كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٢).

الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم»(١) رواه الترمذي وابن ماجه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي مقامه يوم القيامة لحساب ربه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ الأمارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ في الصحاح الهوى ميل النفس مما يشتهيه قيل: سمي به لأنه يهوي صاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية والهوى الانهدار والسقوط عن علو. اعلم أن الهوى رأس المنهيات وأساس المحرمات قال أبو بكر الوراق إن الله لم يخلق خلقاً أخبث من الهوى، قلت وهو قبيح عقلاً وشرعاً أما عقلاً فلأن حقائق الأشياء كما هي في نفس الأمر لاسيما حقائق المبدأ والمعاد وعواقب الأمور من الأخلاق والأفعال وغيرها المستدعية لحسنها وقبحها مما لا يدرك غالباً بالرأي وإن أدرك بعضها بالرأي فلا يليق بالوثوق ما لم يستفاد من علام الغيوب يتوسط الرسل عليهم السلام وإلا لما احتيج إلى الرسل، فتحصيل العقائد الصحيحة والعلم بالأعمال الحسنة والقبيحة والعمل بها وبالأخلاق الشريفة والرذيلة لا يتصور إلا باتباع الرسل على خلاف الهوى واتباع الهوى يضاده، وأما شرعاً فلأن الله سبحانه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾(٢) وفي الصحاح العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها وهي ضربان عبادة بالتسخير كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾(٣) وعبادة بالاختيار وهو مطلوبة من الثقلين فكما أن الأشياء كلها بالتخسير والاضطرار لا يتصور منه إلا ما شاء الله وأراد فلا بد أن يكون كذلك بالاختيار لا يصدر منه شيء من أفعال القلوب والجوارح وصفات النفس إلا ما أراد الله وأمر به بلا مدخل للهواء فيه وضده واتباع الهوى فهو ينافي العبودية فكل باطل قبيح من شعب من الهوى ومنبعث من الآراء الكاسدة قالت الكفار بناء على فساد رأيهم ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٤) ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾(٥) قالت المجسمة: الباري موجود وكل موجود جسم متحيز وقلت المعتزلة وغيرهم لا يتصور عذاب القبر ووزن الأعمال والصراط ونحو ذلك والفساق مع اعترافهم بوجوب امتثال الرسول والقرآن وعلمهم بعذاب الآخرة وعلى مساوىء الأخلاق والأعمال لم يثبتوا على الشرائع باتباع الهوى والشهوات فتركوا

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٢).

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧.
(٥) سورة القمر، الآية: ٢٤.

الواجبات وارتكبوا المحرمات والمكروهات فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات هوى» إلى «بئس العبد عبد الهوى يضله» رواه الترمذي والبيهقي عن أسماء بنت عميس، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه وهي أشدهن» رواه البيهقي عن أبي هريرة، قلت: والثلاث كلها راجعة إلى الهوى وإن كان المراد في الحديث بالهوى بعض أفرادها.

فائدة: ترك الهوى على مراتب أدناه اجتناب ما هو يخالف ظاهر النصوص وإجماع السلف في العقائد وبه يصير مسلماً سنياً وأوسطه ما قال مقاتل أن يهم الرجل المعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ومن تمام هذه المرتبة ترك المشتبهات واجتناب عما لا بأس به حذراً عما به بأس قال رسول الله ﷺ: «من اتقى المشتبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في المشتبهات وقع في المحرمات كراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقع»[1] متفق عليه عن النعمان بن بشير وأيضاً من تمامه قصر دائرة المباح على ما لابد منه وترك الهوى في الفضول منها، قال رسول الله ﷺ: «من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت»[2] رواه ابن ماجه والبيهقي عن أنس، قال المجدد قال سيدنا قبلتنا الشيخ الأجل الشيخ بهاء الدين النقشبندي وجدت طريقاً أمرب الطرق إلى الله سبحانه وهي المخالفة مع النفس يعني مع زيادة الرعاية الشريعة والله تعالى أعلم وها هنا تدقيق وهي أن المعصية منها ما هو ظاهر يمكن التحرز عنها مخالفة المقام لجانب ربه العلام ومنها ما هو أدق من دبيب النمل وذلك ما كان منها في لباس الحسنات كالرياء أو العجب وتزكية النفس المنهي عنها في كثرة النوافل والطاعات وهذا من مزال الأقدام، قال بعض الأكابرة لمريده يا بني لا أخاف طرق الشيطان إليك من سبيل السيئات ولكن أخاف أن يطرق إليك من طريق الحسنات والتحفظ في هذا المقام إتهام نفسه في كل مأتى به والتضرع والاستغفار.

أبيات:

خالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدنيه (٥٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الأطعمة، باب: من الإسراف أن تأكل ما اشتهيت (٣٣٥٢)، وإسناده ضعيف.

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
استغفر الله من قول بلا عمل لقد نسبت به نسلاً لذي عقم

والحصين في كل الحصين في هذه المقام التشبث بذيل شيخ فات في الله باق به وأن لا يفعل شيئاً إلا بأمره وإجازته، ذكر الشيخ الإمام يقعوب الكرخي ح عن بدء حاله أنه قال: كنت نجاراً فأدركت في نفسي تكاسلاً وفي باطني شيئاً من الظلمة فأردت أن أصوم أياماً ليذهب ذلك فعمت وأصبحت عند الشيخ الإمام الأجل بهاء الملة والدين النقشبذر فأمر الشيخ بإحضار الطعام وقال لي كل فإنه بئس العبد عبد هوى تضاله وقال: إن الأكل أفضل من الصوم إن كان بهوى النفس ففهمت أنه لا بد في العبادة النافلة أيضاً من إذن من الشيخ الفاني في الله المستخلص عن الهوى، قال قلت للشيخ بهاء الدين إن لم يوجد شيخ كذلك فماذا يفعل المرء قال: فقال الشيخ ليستغفر الله كثيراً أو يستغفر بعد كل صلاة عشرين مرة فإنه قال رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»[1] وأعلى المراتب الانتهاء عن الهوى سلب الهوى عن نفسه بالكلية بحيث يكون لكون له مراد ومطلب غير الله سبحانه وغير مراده ولتحصيل هذه المرتبة تكثر الصوفية تكرار لا إله إلا الله بملاحظة لا مقود إلا الله، قال المجدد رضي الله عنه إن العبد ما دام في هوى نفسه فهو عبد نفسه مطيع الشيطان وهذه الدولة العظمى يعني سلب الهوى بالكلية منوط بالولاية الخالصة ومربوط بالفناء والبقاء الأكملين، قلت: وفي هذه المرتبة يحصل للصوفي الرضاء بما قدر الله له وإن كان خلاف طبعه وإنه يدعو لدفع ضرر نزل به بناء على أنه مأمور بالدعاء أو طلب العافية لا لأجل ضيق صدره من فقدان مراده وفي هذه المرتبة يكون عبد الله تعالى بالاختيار كما هو عبد الله بالتسخير والاضطرار لا يجد الشيطان إليه سبيلاً إلا نادراً لأن سبيله إلى الإنسان غالباً يكون بتوسط الهوى ألا ترى أن من هو محرور المزاج مغلوب الغضب يزين له الشطان نم أعماله القتل والظلم ونحو ذلك ومن هو مبرود المزاج ضعيف القلب يزين له الشيطان القرار من الزحف وترك الغيرة في الحق والنفاق ونحو ذلك وقس على هذا فإذا أزال الهوى منه انسد طرق الشيطان إليه كلها وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾[2] ومن هذا المقام قال شيخ

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

الأجل يعقوب الكرخي إن الرجل لا يبلغ مبلغ الرجال حتى يخلص من الهوى وفي هذا المقام يطلق على العبد أنه مؤمن حقيقي وهو المراد من قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه البغوي في الشرح السنة، وقال النووي في أربعين حديث صحيح ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ ليس له مأوى سواها أخرج ابن حاتم من طريق جبير عن الضحاك عن ابن عباس أن مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا متى تقوم الساعة استهزاء منهم فأنزل الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي كفار قريش ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى قيامها مصدر من الرأس بمعنى القيام والثبوت، وأخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله عليه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الخ فانتهى، وأخرج الطبراني وابن جرير عن طارق بن سهاب قال كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أخرج ابن حاتم عن عروة مثله والحاصل أن النبي ﷺ بشدة حرص على جواب السائلين عن وقت قيامها كان يسأل الله سبحانه عنها نزلت هذه الآية ظهر أن في إخفائها حكمة وأنه لا يرجى علمها فانتهى عن السؤال عنها وما في فيم استفهامية للإنكار ومن ذكراها بيان لما أي في شيء أنت في ذكر الساعة وبيان وقتها لا يجوز كذلك ولا يتصور لأنك لا تعلمها ولا يجوز أن يعلم الحكمة في إخفائها والمعنى في أي شيء أنت حال كون ذلك الشيء من ذكر الساعة وبيا وقتها يعني لست في شيء من ذكرها وعلمها يعني ليس شيء من عملها عندك يقال ليس فلان في العلم من شيء يعني ليس شيء من العلم عنده ويحتمل أن يكون فيم خبر مبتدأ محذوف يعني فيم هذا السؤال وأي فائدة فيه ثم استأنف وقال أنت من ذكراها أي من علاقاتها وموجب تذكرها فإنك ختم الأنبياء، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»(١) متفق عليه، وعن المستورد بن شداد عن النبي ﷺ: «بعثت في نفس الساعة سبقتها كما سبقت هذه هذه» بأصبعيه السبابة والوسطى(٢) رواه الترمذي. وقيل فيم أنت من ذكراها متصل بالسؤال يعني يسألونك عن الساعة أيان مرساها ويقولون وأين أنت من ذكرانها وبيان وقتها فتذكر وقتها على التعيين ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ يعني مدة تقوم الساعة عند انقضائها مفوض إلى ربك لا يعلمها غيره فهذا التعليل للإنكار السابق جواباً للسؤال وإن كان من تتمة السؤال فهذا جواب

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والنازعات (٤٩٣٦)،.وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في قول النبي ﷺ «بعثت أناء الساعة كهاتين» يعني السبابة والوسطى (٢٢١٣).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ يعني لم تبعث لبيان وقت الساعة إنما بعثت لتنذر منها من يخشى شدائدها حتى تجتنب من موجباتها من يخشى لأنه هو المنتفع الشدائد والعلم بوقوع الساعة قطعاً يكفي للإنذار ولا حاجة فيه إلى بيان وقت وقوعها وتخصيص من يخشى لأنه هو المنتفع بالإنذار وهذه الجملة تأكيد لما سبق من التعليل لإنكار السؤال ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي الناس ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي الساعة والظرف متعلق بمعنى التشبيه المفهوم من كان ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ خبر كان أي لم يلبثوا في الدنيا والقبور زماناً ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي عشية يوم واحد ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أمال حمزة والكسائي أو آخر هذه السورة من قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾[1] إلى آخرها إلا دحاها فإن حمزة فتحاه وورش ما ليس فيه هاء ألف بين بين وغيرها بالفتح إلا ذكراها فبين بين وأبو عمرو ما فيه راء أمال وغيرها بين بين والباقون بالفتح كلها أي ضحى تلك العشية أضيف الضحى إلى العشية لملابسة اجتماعها في يوم واحد يعني أنهم يزعمون مدة لبثهم في الدنيا والقبور لكونها متناهية ولانقضائها وانعدامها كأن لم يكن ولعدم تناهي زمان للعذاب ولشدة ذلك العذاب زمان قصير جداً نظيره قوله تعالى ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[2] وهذه الآية كان جواب لسؤالهم عن وقت مجيئها يعني أن قيام الساعة قريب جداً.

---

(١) سورة النازعات، الآية: ١٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٣.

سورة عبس

مكية وهي اثنتان وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

ذكر البغوي أن ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر ابن لؤي أتى رسول الله ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبي وأمية ابني خلف يدعوهم إلى الله يرجوا إسلامهم، فقال ابن أم مكتوم يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مقبل علي غيره حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطع كلامه، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد أما أتباعه العميان والعبيد والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ محمد أي كلح ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض وجهه ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ ومحله النصب على أنه مفعول لأحد الفعلين على التنزاع أو لأن جاءه الأعمى وهو ابن أم مكتوم المذكور كذا أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة وفيه قال ابن أم مكتوم أترى عما أقوله بأساً؟ قال رسول الله ﷺ لا، وأخرج مثله عن أنس وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وفيه فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا رآه يكرمه ويقول: «مرحباً بمن عاتبتي فيه ربي ويقول له هل لك من حاجة» وفيما روى الترمذي والحاكم عن عائشة أن النبي ﷺ استخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما، وذكر الأعمى في الآية إشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام النبي ﷺ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار ومعناه النفي يعني أنت ما أدريت بحاله وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وفيه إيماء إلى العذر في حق النبي ﷺ يعني أنك لو كنت عالماً بحال الأعمى لم تعرض

عنه مقبلاً على غيره. وفي الآية إجلال للنبي ﷺ بوجوه أحدها أنه ذكر موجب الإنكار والإعراض عنه في بدأ الكلام بلفظ الغيبة، ولم يسند ذلك الفعل إليه بالتخاطب إيهاماً بأن من صدر ذلك الفعل كأنه غيره وليس من شأنه أن يصدر منه مثله وتوجيه ذلك أن الأعمال إنم هي بالنيات وما كانت في نية النبي ﷺ الإعراض عنه مطلقاً بل كان غرضه أن هذا الرجل مؤمن لا يضره التأخير في تعليمه ولا يخاف منه التولي والانحراف وأن صناديد قريش عند الإعراض عنهم يذهبون ولا ينظرون ولو أنهم آمنوا لآمن معهم خلق كثير وتساع كلمة الله فبهذا الغرض كأن لم يصدر عن النبي ﷺ التولي عن الأعمى وإن وجد منه صورة التولي، وثانيها أن ذكر الإيماء إلى الاعتذار منه ﷺ بأنك لم تكن تعلم وإلا لما صدر عنك ذلك، وثالثها الالتفات إليه من الغيبة إلى التخاطب إيناساً له دفعاً للإيحاش وإقبالاً عليه دفعاً لتوهم الإعراض ورابعها إسناد موجب العذر إليه ﷺ بالتخاطب تصريحاً بكونه معذوراً فيما صدر عنه ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أصله يتزكى أي يتطهر بكماله من الشرك الجلي والخفي ورذائل النفس وهوائها وتعلق القلب بغير الله سبحانه وذهاب الغفلة عن سائر لطائف عالم الأمر وزوال صولة كل عنصر من عناصر عالم الخلق بفيض صحبة النبي ﷺ وبركة أنفساسه الشريفة واقتباس أنواره الظاهرة والباطنة ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أصله يتذكر أي يشتغل بما يذكر الله سبحانه ويزيد حضوره ويفيد خشيته من عذابه ورجاء ثوابه ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ قرأ عاصم بالنصب على جواب لعل والباقون بالرفع عطفاً على يذكر ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ في الصحاح الذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إشعار إلى غاية منازل الإبرار وقوله أو يذكر إشارة إلى بداية حال الأخيار ولم يذكر ها هنا حال المقربين الصديقين لأن المقام مقام الأنانية وأما المقربون فملاك أمرهم على الاجتباء وذلك بالأصافة مختص بالأنبياء وبالوراثة والطفيل لمن شاء الله تعالى من الأصفياء وكلمة أو بين لمنع الخلو دون الجمع كما في قوله جانس الحسن أو ابن سيرين والجملة معترضة لما ذكرنا من الفوائد والبيان صلوح الأعلى للخطاب وفيه تعريض بأن صناديد قريش ليسوا بأهل للخطاب وفيه تعريض لا يرجى ما يقصد منهم كمن يقرأ مسألة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها فيقال بل هذا يفهم ما تقول، وقيل: ضمير لعله راجع إلى الكافر يعني أنك تطمع منه تزكى وتذكر وما يدريك أن ما تطمع فيه كأين وعلى هذا جملة لعله يزكى مفعول ثان ليدريك والله تعالى أعلم ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ قال ابن عباس اسغنى عن الله وعن الإيمان بماله من المال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ قرأ نافع وابن كثير بتشديد الصاد بإدغام التاء التفعل في الصاد والباقون بالتخفيف بحذف إحدى التائين وأصله يتصدى أي تعرض له وتقبل

عليه كيلا يفوت منه التزكي والتطهر ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ بأس في ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ حتى يبعثان الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم إنما عليك البلاغ ويحتمل أن يكون لا زائدة وألا يزكى اسم ما عليك خبره والمعنى أنه ليس الواجب عليك تزكيته إنما عليك البلاغ والجملة فاعل تصدى أو معترضة ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ حال أي ساعياً طالما لما عندك من الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ الله عز وجل حال مرادف سعى أو متداخل ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أمال حمزة والكسائي أو آخر الآيات من أول السورة إلى ها هنا وورش بين بين إلا ذكرى فأما لها والباقون بالفتح أي تتشاغل إلى غيره الجملتين تفصيل لما أجل في عبس وتولى وبيان لما عليه العتاب وهو إهمال الطالب وبذل الجهد في الغافل مع أن الأولى عكس ذلك ﴿كَلَّآ﴾ ردع عما فعل أي لا تفعل مثل ذلك أبداً ﴿إِنَّهَا﴾ أي القرآن أنث الضمير لتأنيث خبره أو بتأويل الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة وموجب لذكر الله سبحانه ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الإتعاظ وذكره تعالى ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ حفظه أي القآرن والجملة متعرضة تعليق الذكر بالمشيئة تخيير صيغة وتوبيخ للمعرضين عنه وثناء للمشتغلين به معنى في ﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي مثبتة مكتوبة فيها صفة لتذكرة أو خبر ثان لأن أو خبر مبتدأ محذوف أي هي في صحف والمراد بالصحف اللوح المحفوظ أو صحف ينسخها الملائكة من اللوح أو صحف الأنبياء بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾[1] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾[2] أو المصاحف التي كتبها الصحابة عن النبي ﷺ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر عند الله سبحانه وقبل مرفوعة في السماء السابعة ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ منزهة عن مس الجنب والحائض والنفساء والمحدث ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ جمع سافر بمعنى كاتب ومنه يقال الكتاب سفر وجمعه أسفار كذا قال ابن عباس ومجاهد فالمراد بهم الملائكة الكرام الكاتبون أو الأنبياء أو كتبة الوحي، وقال الآخرون هم الرسل جمع سفير بمعنى الرسل يقال سفير القوم للذي يسعى بينهم للصلح فالمراد هم الرسل من الملائكة ومن البشر قلت: وكذا كتبة الوحي وعلماء الأمة فإن كل منهم سفير بين الرسول وبين الأمة قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام الأبرار والذي يقرأه وينتفع فيه وهو عليه شاق له أجران»[3] رواه الشيخان، عن عائشة رضي الله عنها يعني له أجران أجر

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٨ ـ ١٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة عبس (٤٩٣٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الماهر بالقرآن والذي يتعتع به (٧٩٨).

القراءة وأجرالمشقة وبهذا يظهر أن للماهر أجور غير متناهية ﴿كِرَامٍ﴾على الله منعطفين على المؤمنين يكملونهم ويستغفرون لهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء صفة بعد صفة لسفرة هكذا ينبغي شأن العلماء.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي لعن ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفر بعد هجوم الدواعي على التشكر والإيمان وهذا الكلام مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ، أخرج ابن المنذر عن عكرمة وكذا قال مقاتل أنها نزلت في عتبة بن أبي لهب قال: كفرت برب النجم قلت: وقصة ذلك على ما في السير أنه كان النبي ﷺ زوجه ابنته أم كلثوم وزوج أخيه عتبة أختها ﷺ فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ قال أبو لهب رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد فطلقا لهما ولم يبنيا بهما وجاء عتبة حين فارق أم كلثوم عند النبي ﷺ وقال: كفرت بدينك وفارقتك ابنتك وسطا عليه وشق قميص النبي ﷺ قال النبي ﷺ: إني أسأل الله أن يسلط عليك كلباً من كلابه وكان خارجاً إلى الشام تاجراً مع نفر من قريش حتى نزلوا مكاناً من الشام يقال له الزوراء ليلاً فطاف بهم الأسد تلك الليلة عتبة يقول يا ويل فإني أخاف دعوة محمد فجمعوا حمالهم فعرشوا لعتبة في أعلاها وناموا حوله فقيل: إن الأسد انصرف عنهم حتى ناموا وعتبة في وسطهم، ثم أقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتبة قلت وأما عتبة ومعتب ابني أبي لهب فقد أسلم بعد ذلك وكان من التائبين مع النبي ﷺ يوم حنين ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ بيان لموجبات الإيمان والشكر وذكر مبدأ خلقه لكونها أسبق النعم وضمير الفاعل راجعاً إلى مذكور تقديراً يعني من أي شيء خلقه الله الاستفهام للتقرير إلى حمل المخاطب على الإقرار بأنه خلقه الله من نطفة بيان لما وهذا الوجه أوقع في الذهن وفيه تحقير ينافي التكبر ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ متعلق بمحذوف أي خلق الله من نطفة بيان لما أبهم ثم بين ما اعترض عليه من الأحوال من مبدأ خلقه إلى منتهاه فقال ﴿خَلَقَهُۥ﴾ أوجده في الرحم من نطفة تاماً ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي كتب بإذنه ملك الموكل أربع كلمات مقدرة مقادير عمله وأجله ورزقه وسعادته أو شقاوته كما ذكرنا في سورة المرسلات حديث ابن مسعود المتفق عليه وهذا التأويل أولى

مما ذكره المفسرون بأن معناه ها هنا لا يصلح من الأعضاء والأشكال أو قدره أطواراً من نطفة إلى أن تم خلقه ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ إضمار على شريطة التفسير معطوف على قدر يعني سهل طريق خروجه من بطن أمه كذا قال السدي ومقاتل أو المعنى سهل له طريق الحق وسبيل الوصول إلى الله تعالى ببعث الرسل وإنزال الكتاب ليتم عليه الحجة نظيره قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[1] أو المعنى سهل له الحياة الدنيا وما يتوقف عليه، فإن الدنيا سبيل أما إى الجنة وإما إلى النار وليست بدار القرار قال رسول الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2] رواه البخاري من حديث ابن عمر، ورواه أحمد والترمذي وابن ماجه وزاد «واعدد نفسك من أصحاب القبور» ويناسب هذا التأويل قوله ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ عدا الإماتة من النعم لكونها موصلة إلى دار القرار قال رسول الله ﷺ: «تحفة المؤمن الموت» رواه الطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وأما كونه سبيلاً إلى النار فلفساد اختياره ولا جبر بالكلية، قال رسول الله ﷺ: «قيل لي سيد بني داراً ووضع مآدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة وسخط عليه السيد فقال: فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمأدبة الجنة» رواه الدارمي من حديث ربيعة الجرسي والبخاري عن جابر نحوه ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي أمر الناس بجعل الميت في القبر صيانة عن السباع وهذا نعمة أخرى صبت أكرم الإنسان ولم يجعله كسائر الحيوانات جيفة ملقاة ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ الله بعثه من القبر ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ أحياه بعد الموتة فإن من هو قادر على خلقه قادر على نشره من القبر وقد أخبر بذلك على لسان رسله ولولا البعث والجزاء لصار الشاكر كالكافر وذلك قبيح ﴿كَلَّا﴾ ردع عما عليه الكافر من الإنكار والكفران مع تلك الدلائل الموجبة للإيمان والنعماء المستوجبة للشكر ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ أي بعده ما علم تلك النعم الجليلة والدلائل الواضحة لم يقض إلى الآن ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ الله من الإيمان والنعماء المستوجبة لشكر المنعم ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على مفهوم ما سبق أي لينظر أولاً إلى نفسه من مبدأ خلقه إلى منتها وما أنعم عليه وفيه فينظر ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كيف خلقناه ومتعناه به ﴿أَنَّا

(١) سورة الليل، الآية: ٥ ـ ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٦٤١٦)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٤)، أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٣).

صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر من السماء، قرأ الكوفيون بفتح همزة إنا على أنه بدل اشتمال للطعام لبيان كيفية خلقه والباقون بالكسر على الاستئناف ﴿صَبًّا﴾ مفعول مطلق للتأكيد ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ بإخراج شطأ الزرع من الأرض أو بالكراب وحينئذ إسناد الفعل إلى الله إسناد إلى السبب ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني الرطبة سميت بمصدر قضبه أو أقطعه لأنها يقضب مرة بعد أخرى وفي الصحاح القضب يستعمل في البقل وفي القاموس القضب كل شجرة طالت وبسطت أغصانها ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ وهي الحديقة المتكاثفة أشجارها كذا في القاموس ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ ما يراد بها التفكه فقط من الثمار، ومن ثم قال الفقهاء من حلف لا يأكل فاكهة لا يحنث بأكل التمر والعنب والزيتون ولأن العطف دليل المغايرة وكذا أكل ما يراد به الغذاء والدواء كالرمان ﴿وَأَبًّا﴾ أي كلأ ومرعى كذا في القاموس ﴿مَّتَٰعًا﴾ مفعول له لأنبتنا ﴿لَّكُمْ﴾ كالحب من الحنطة وغيرها ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ كالأب.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ في القاموس الصاخة صيحة بضم شدتها والمراد بها نفخة الصور، وفي الصحاح الصاخة الشدة الصوت ذي نطق وعلى هذا وصفت نفخة الصوربها مجازاً لأن الناس يصيحون بها وهذا لاشرط محذوف الجزاء والجملة متصل لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أو بقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ فعلى الأول تقديره إنها تذكرة وعظة فإذا جاءت الصاخة يختلف حال المتعظين بها وغير المتعظين وبيانه وجوه يومئذ الخ ويحتمل حينئذ أن يكون جزاءه وجوه يومئذ الخ وعلى الثاني تقديره قتل الإنسان ما أكفره فإذا جاءت الصاخة يرى جزاء كفرانه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ لاشتغاله بشأن نفسه وعلمه بأنهم لا ينفعونهم أو لبغضهم وكراهتهم لأجل كفرهم وسوء حالهم عن علي رضي الله عنه قال: «سألت خديجة ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ في النار فلما رأى الكراهة في وجهها قال لو رأيت مكانهما لأبغضتهما»[1]

(١) فيه محمد بن عثمان لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيحين. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: القدر، باب: ما جاء في الأطفال (١١٩٤٠).

الحديث رواه أحمد وتأخير الأحب للمبالغة كأنه قيل يفر المرء من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه والظرف أعني يوم يفر بدل من إذا ﴿لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ﴾ من الناس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بالظرف المستقر ﴿شَأْنٌ﴾ فاعل للظرف المستقر أو مبتدأ والظرف خبره ﴿يُغْنِيهِ﴾ أي يشغله عن شأن غيره صفة لشأن وهذا التعليل للفراء عن سودة زوج النبي ﷺ قالت قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله الناس حفاة عراة غرلاً لقد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان، فقلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض فقال قد شغل الناس لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» رواه الطبراني والبيهقي والبعوث وفي الصحيحين عن عائشة نحوه وفيه قال لعائشة: «الأمر منهم يومئذ أشدّ من ذلك»[1] يعني من أن ينظر بعضهم أي بعض وأخرج البيهقي عن ابن عباس نحوه ﴿وُجُوهٌ﴾ المؤمنين أو وجوه كثيرة أو وجوه منهم أي من الناس المفهوم من كل امرىء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بما بعده ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ أي مضية من أسفار الصبح ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ وصفت الوجوه بصفة أصحابها مجازاً ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بظرف مستقر بعده ﴿عَلَيْهَا﴾ ظرف مستقر ﴿غَبَرَةٌ﴾ فاعل الظرف أو مبتدأ أي استقر عليها غبار أو كدورة والجملة خبر لوجوه ﴿تَرْهَقُهَا﴾ تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي سواد وظلمة قال ابن عباس تغشاها ذلة قال ابن زيد فرق بين الغبرة والقترة أن القترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالماء والغبرة ما كان أسفل في الأرض وجملة ترهقها صفة بغبرة أو خبر بعد خبر بوجوه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ يعني الذين وجوهم عليها غبرة ﴿هُمُ﴾ ضمير الفصل ﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾ جمع كفر خبر ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ جمع فاجر صفة لكفرة أو خبر والجملة مستأنفة كأنها جواب من أصحاب تلك الوجوه والفجور شق شر الدين والديانة وكماله في الكفر، والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر (٦٥٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

سورة التكوير

مكية هي تسع وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت»[1] رواه أحمد والترمذي وحسنه، ورواه البغوي من غير ذكر إذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ﴾ إذا شرطية والشمس مرفوعة بفعل شرط محذوف يفسره ﴿كُوِّرَتْ﴾ وكذا كل ما عطفع ليه أي لغت فذهب ضوءه وأظلمت، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قال: أظلمت وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب في البحر والأحوال وأبو الشيخ في كتاب العظمة عنه في تلك الآيات قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فينفخه حتى يرجع ناراً قال بعضهم إذا ألقيت الشمس في البحر فيه انحمى وتنقلب ناراً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مريم أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ قال: انكدرت في جهنم وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه قلت: لعل التطبيق بين تكويرها في البحر وفي جهنم أن البحر يصير ناراً حميماً لأهل النار، وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا الشمس كورت (٣٣٣٣).

مكوران يوم القيامة»[1] وأخرج البزارفي مسنده وزاد في النار ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي اقنضت وتناثرت من السماء وتساقطت إلى الأرض يقال انكدر الطير أي أسقط، قال الكلبي يمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ عن وجه الأرض فصارت هباء منبثاً ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ أي التوق اللاتي مر على حملها عشرة أشهر جمع عشراء ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة وهي النفيس أموال العرب يكونون ملازمي أذنابهن ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت بلا راع أهملها أهلها لما جاء أهوال يوم القيامة أو المراد بالعشار السحايب عطلت عن المطر ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ قال أبي بن كعب معناه اجتلت وماجت بعضها في بعضها وقيل: معناه جمعت بعد البعث للقصاص بين الدواب كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[2] وروى عكرمة عن ابن عباس حشرها موتها قال حشر كل شيء الموت غير الجن والإنس ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد، قال ابن عباس أوقدت فصارت ناراً تضطرم وهو قول أبي، وقال الكلبي ملئت يقال المسجود المملوء، وقال مجاهد مقاتل يعني قحم بعضها في بعض العذب والملح فصارت البحور كلها بحراً واحداً من الحميم لأهل النار، وقال الحسن وقتادة يبست وذهب ماءها فلم يبق من الماء قطرة، قلت والجمع بين الأقوال أنه يجمع البحار كلها وملئت بحراً واحد أو كورت الشمس فيها فحينئذ تحمي البحر وتصير ناراً ولم يبق من الماء قطرة بصيرورتها ناراً وماء حميماً لأهل النار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن أبي بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذا وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت وفزعت الإنسان والجن فتقول الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج فبينما هم كذلك إذا جاءتبهم ريح فأماتتهم، وقال البغوي روى أبو العالية عنه فذكر نحوه غير أن في رواية فانطلقوا الجن إلى البحر فإذا هي نار تأجج فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة أي الأرض السابعة السفلى إلى السماء العليا فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم، وعن ابن عباس أيضاً قال: هي اثني عشر خصلة ست في الدنيا ستة في الآخرة وهي ما ذكر بعدها ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال: قال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر بحسبان (٣٢٠٠).

(٢) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

رسول الله ﷺ في هذه الآية «الضرباء كل رجل مع قومه كانوا يعملون عمله وذلك بإذن الله ويقول وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون»، وأخرج البيهقي من النعمان بن بشير قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: وإذا النفوس زوجت قال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة أو النار وسمعته يقول احشروا الذين ظلموا وأزواجهم قال ضربائهم وأخرج سعيد بن منصور بلفظ يقرن الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ويقرن الرجل السوء مع السوء في النار، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم قال: أشياعهم، وقيل: تزوجت النفوس بأعمالها وقال عطاء ومقاتل زوجت النفوس المؤمنين بالحورالعين وقرنت نفوس الكفار بالشياطين وروى عن عكرمة قال إذا النفوس زوجت أي ردت الأزواج في الأجساد ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ وهي الجارية المدفونة حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيودها أي يثقلها حتى تموت وكانت العرب تدفن البنات مخافة العار والفقر تبكيتاً للوائدة كتبكيت النصارى بقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾[1] أو يقال أسند الفعل إلى المؤودة مجازاً والمعنى ﴿سُئِلَتْ﴾ عنها كما في قوله: ﴿ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[2] أي مسؤولاً عنه أو المراد بالمؤودة الوائدة وقد يطلق المفعول بمعنى الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[3] والمراد بالمؤدة المؤودة لهما كما في قوله ﷺ: «الوائدة والموؤدة في النار»[4] رواه أبو داود بسند حسن عن ابن مسعود قال الوائدة هي القابلة والموؤدة لها هي الأم ولا يمكن في الحديث إلا هذا التأويل.

فائدة: الوأد كبيرة لأنه قتل النفس بغير حق وفي حكمه إسقاط الحمل بعد أربعة أشهر لتمام خلقة الجنين ونفخ الروح في تلك المدة وأقل منه وزراً إسقاط الحمل قبل أربعة أشهر لكنه حرام ولذلك تجب الغرة إجماعاً فيما ضرب بطن امرأة حبلى فسقط جنيناً كامل الخلقة أو ناقصاً إذ تصور فيها خلق آدمي هذا إذا انفصل ميتاً وأما إذا انفصل حياً فمات ففيه كمال دية الكبير، عن أبي هريرة قال: «قضى رسول الله ﷺ في جنين امرأة من بني لحيان سقط بغرة عبد أو أمة»[5] متفق عليه.

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦١.
(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين (٤٧٩٤).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: ميراث المرأة والزوج مع الولد وغيره (٦٧٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: دية الجنين (١٦٨١).

مسألة:

يجوز العزل عن الأمة ولا يجوز عن الحرة إلا بإذنها لكنه يكره ملقاً لما روى مسلم عن خذامة بنت وهب أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن العزل فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي وهي وإذا المؤودة سئلت»(١) ووجه الجواز حديث جابر كنا نعزل والقرآن ينزل»(٢) متفق عليه وزاد مسلم فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينهنا وفي رواية عنه ﷺ قال في الأمة «اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها» وفي روايتها «ما عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة»(٣) متفق عليه ووجه الاحتياج إلى الإذن في الحرة حديث عمر بن الخطاب قال؛ «نهى رسول الله ﷺ أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها»(٤) رواه ابن ماجه ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ أي المؤودة قرأ أبو جعفر بالتشديد المبالغة والجمهور بالتخفيف فيا لتاء ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ صحف الأعمال ﴿نُشِرَتۡ﴾ للحساب أو فرقت بين أصحابها قراءة نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين والباقون بالتشديد للمبالغة في النشر أو لكثرة الصحف أو شدة الطائر ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾ قلعت وأزيلت كما تكشط الأهاب عن الذبيحة، قلت والظاهر أن يكون هذا قبل نفخة الصعف حين كورت الشمس وانتشرت الكواكب أو عند تلك النفخة ويحتمل أن يكون بين النفختين فتطوى السماء والأرض وتبدل السماء سماء آخر وتبدل الأرض غير الأرض، قال القرطي جمع صاحب الأفصاح بين الأخبار فقال تبديل السماوات والأرض تقع مرتين إحداهما تبديل صفاتها فقط وذلك قبل نفخة الصعف فتنشر الكواكب وتخسف الشمس والقمر وتصير السماء كالمهل وتكشط عن الروس وتسير الجبال ويصير البحر ناراً وعوج الأرض وينشق إلى أن تصير الهيئة غير الهيئة ثم بين النفختين تطوى السماء والأرض وتبدل السماء بسماء أخرى ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢﴾ قرى نافع وحفص وابن زكوان بتشديد العين والباقون بالتخفيف أي أوقدت إيقاداً شديداً لأعداء الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣﴾ أدنيت للمتقين قال الله

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: جواز الفعيلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل (١٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: النكاح، باب: العزل (٥٢٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (١٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: العزل (٥٢١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (١٤٣٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب: العزل (١٩٢٨) وإسناده ضعيف.

تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾[١] ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ مكرمة عامة في الأسباط بمعاونة المقام أي كل نفس ﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ أي ما فعلت من خير أو شر وهذا جواب لإذا الشرطية في إذا الشمس كورت وفيما عطف عليه والمراد بذلك الزمان الزمان المتسع الشامل لجميع ما ذكرهما قبل النفخة الأولى إلى دخول الجنة.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ الكلام ها هنا كالكلام في المفتتح سورة القيامة والفاء يعني لما أنزلنا عليكم الآيات في شأن الساعة فاعلموا أنه كلام الله غير مقتول أقسم ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ الخنوس الرجوع من منتهى السير إلى مكان ابتدأ منه والمراد بها الكواكب الخمسة المسمات بالمتحيرة وهي عطارد والزهرة والمشتري والمريخ والزحل فإنها ترى سيارة من المغرب إلى المشرق ثم ترجع إلى المغرب وقد ترى ساكنة ولذلك سميت متحيرة والسبب في ذلك عند الهيئة أنها مرتكزة في أفلاك جزئية غير مجوفة تسمى تدويرات وللتدويرات حركات برأسها وحركات أعاليها على نسق أفلاكها من المغرب إلى المشرق وحركات أسافلها على عكس ذلك فالكواكب إذا كان في أعلى التدوير فتساعد الحركتين حركة التدوير وحركة الفلك الكلي يرى متحركاً إلى المشرق بسرعته وإذا كان في أسفلها فلتزاحم الحركتين أو عدم التساعد قد يرى متحركاً نحو المغرب وهو الرجوع والخنوس وقد يرى ساكناً، وأما عندنا فالكواكب كل منها في ذلك يسبحون على ما أراد الله سبحانه ولا امتناع لخرق السماوات والتئامها فحركات الخمسة المتحيرة قد تكون نحو المشرق وقد تكون نحو المغرب وقد تكون بطيئة وقد تكون سريعة كما أراد الله تعالى وجرى به عادته وحركات سائر الكواكب جرت العادة بكونها دائماً على نسق واحد، وقال قتادة الخنس هي النجوم كلها تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتخفى فالمراد بالخنوس حينئذ الخفاء وهو

(١) سورة ق، الآية: ٣١.

لازم يعني الرجوع، وقيل: خنوسها أن يغيب قلت وعلى هذا يكون الخنس والكنس مترادفين فلا وجه للتكرار ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ في الفلك ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ والكنوس أن تأوى الأرنب والظبي في مكانها والمراد ها هنا بالكنس اختفائها عند غروبها أو عند المحاق قلت: ويحتمل أن يقال المراد بمكانها مستقرها تحت العرش، عن أبي ذر قال: قال: رسول الله ﷺ: حين غربت الشمس «أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش»[1] الحديث ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ قال الحسن أقبل بظلامه وقال أدبر وهو من الأضداد ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي بدأ أوله، وقيل امتد ضوئه وارتفع جواب القسم ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ من حيث إنه رسول يعني ليس بمقول محمد عليه السلام بل هو قول مرسل وهو الله سبحانه والمراد بالرسول جبرائيل أو محمد ﷺ ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله صفة رسول ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أن المراد جبرائيل فمن قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط ومن الماء الأسود حملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وأنه يخبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف وأن المراد به محمد ﷺ فهو ذو قوة في الجذب إلى الله من الإرشاد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن قوم إلا قليل ولبث محمد ﷺ في أمته ثلاثاً وعشرين سنة وانتشر دينه في الآفاق كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وكان معه حجة الوداع مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً وأربعة وعشرين ألفاً من الصحابة وأنه صعد من السماء السابعة وإلى ما لم يستطع جبرائيل الصعود إليه، ثم هبط الأرض في أقل من ساعة وأنه رأى ربه ولم يستطع أحد غيره فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صَعِقاً ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي الله سبحانه الظرف متعلق بما بعده ﴿مَكِينٍ﴾ ذي مكانة وجاه ومنزلة ﴿مُّطَاعٍ﴾ للعالمين قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2] ﴿ثَمَّ﴾ أي عند ذي العرش ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي والظرف أعني ثم الظاهر أنه متعلق بأمين ويجوز أن يكون متعلق بمطاع يعني في الملأ إلا علي قال البغوي من إطاعة الملائكة إياه يعني جبرائيل أنهم فتحوا أبواب السماوات ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ وفتح خزنة الجنة أبوابها، قلت: وهذا بعينه إطاعة لمحمد ﷺ ويحتمل أن يراد بالإطاعة أن الأحكام الإلهية تنزل أولاً عليه ثم بواسطته تصل تلك الأحكام لى غيره من الملائكة، عن النواس بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: صفة الشمس والقمر بحسبان (٣١٩٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله وحيه بما أراد ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرائيل فيقول جبرائيل قال: الحق وهو العلي الكبير، قال فيقول كلهم مثل ما قال: جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»[(١)] وهذا يدل على كون جبرائيل مطاعاً وأما كون محمد ﷺ مطاعاً في الملائكة فوجه ذلك أن الحقيقة المحمدية عند أهل التحقيق هو التعين الأولى بفيوض الوجود ومراتب القرب ومنها مرتبة كونه يوحي إليه كليم الله لا يصل في أحد إلا بتوسط الحقيقة المحمدية وهذا أمر كشفي ويشهد من النصوص قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[(٢)] وقوله ﷺ: «أما وزيراي في السماء فجبرائيل وميكائيل ووزيراي في الأرض أبو بكر وعمر»[(٣)] فبجرائيل مطاع بالطريق الأولى ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني محمد ﷺ عطف على أنه فهو أيضاً جواب للقسم فإن كان المراد بالرسل فيما سبق محمد ﷺ فوضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنه صاحبكم منذ أربعين سنة قبل ذلك لم يظهر منه إلا وفور العقل وكماله فالحكم فيه ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ مكابرة أو جنون ففي هذا الكلام رد لقول الكفار افترى على الله كذباً أم به جنة ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ الضمير المرفوع راجع إلى صاحبكم محمد ﷺ بالاتفاق والضمير المنصوب إما راجع إلى ذي العرش فعلى هذا قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ ظرف مستقر حال من الضمير المرفوع والمعنى أنه رأى محمد ذا العرش ليلة المعراج حال كون محمد بالأفق للعالم على منتهى السماوات السبع، قال البغوي روينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد الله عن أنس قال دنى جبار رب العزة فتدلى كان حتى قاب قوسين أو أدنى وهو رواية أبي سلمة عن ابن عباس وكذا قال الضحاك، والقائلون بهذا القول اختلفوا فقال بعضهم جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده استنباطاً من قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾[(٤)] وهذا قول ابن

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه في الأسماء والصفات والطبراني.
انظر: كنز العمال (٣٠٢٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٨٩).

(٤) سورة النجم، الآية: ١١.

عباس، روى مسلم عن أبي العالية عنه ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى قال رآه بفؤاده مرتين وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة قالوا: رأى محمد ربه وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة واصطفى موسى بالكلام واصطفى محمد بالرؤية وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»[1] رواه مسلم، قلت: ويحتمل أن يراد بالأفق المبين والأفق الأعلى منتهى درجات سير السالكين إن أقصى حقائق العابدين وهي الحقيقة الأحمدية المعبر فيها بالمحبوبية الصرفة وراء ذلك مرتبة اللاتعين ولا مساغ للسير والسلوك في مرتبة اللاتعين والسير في تلك المرتبة العليا السير النظري فحسب كذا قال المجدد، وقال جمهور المفسرين الضمير المنصوب راجع إلى رسول كريم والمراد بالرسول جبرائيل، قال قتادة ومجاهد الأفق المبين هو الأفق الأعلى من ناحية المشرق، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ لجبرائيل: «إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء قال: لن تقوى على ذلك قال بلى قال: فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالأبطح قال: لا يسعني قال في منى قال لا يسعني قال فبعرفات قال لا يسعني ذلك قال بحراء قال: يسعني فواعده فخرج النبي ﷺ للوقت فإذا هو بجبرائيل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض فلما رآه النبي ﷺ كبر وخر مغشياً عليه قال فتحول جبرائيل في صورته فضمه إلى صدره، وقال: يا محمد لا تخف فكيف لك لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابع وإن العرش لعال كأهله وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله عز وجل حتى يصير مثل يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلاعظمة» ومن القائلين بهذا القول عائشة رضي الله عنها. روى البخاري في صحيحه وغيره أنها كذبت من قال: رأى محمد ربه مستدلة بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[2] الآية، والفقه في الباب أن المثبتين للرؤية أولي من قولها وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3] لا ينفي الرؤية في الآخرة إجماعاً فكذا في ليلة المعراج حين خرج النبي ﷺ ورأى الجنة والنار وما ذكر ابن عباس وعائشة قصة رؤية النبي ﷺ جبرائيل على صورته حق لكن لا يستلزم أن يكون

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام نور أنى أراه» (١٧٨).

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

المراد بالآية تلك القصة كيف وسوق الكلام لبيانفضل رسول الله ﷺ وبيان كماله ورؤية جبرائيل وهو مفضول من النبي ﷺ بالإجماع ليست من الفضائل كيف وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ يدل على كمال قربه والترقي منه إثبات رؤية الله دون رؤية الجبرائيل ولو كان عند ذي العرش صفة جبرائيل ورؤية جبرائيل صفة محمد عليه السلام يلزم الانعكاس الأمر في الفضل والله تعالى أعلم ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي على ما يخبره من ما يوحى إليه ﴿بِضَنِينٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي بظنين بالظاء أي ليس هو بمتهم يعني لا يجوز أن يتهم والباقون بالضاد أي ليس هو يخيل عن تبليغ ما يوحى إليه وتعليمه ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ﴾ أي القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ استرق سمعه فألقاه على وليه الكاهن رد لقول الكفار أنه كاهن، هذه الجملة وما عطف عليه من الجمل السابقة جواب للقسم معطوفات على أنه لقول رسول كريم ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الفاء المسببة والاستفهام للإنكار على ذهابهم إلى الباطل فيما قالوا إنه شاعر تقوله أو مجنون أو كاهن، قال الزجاج أي طريق يسلكون أبين من هذه الطريقة التي بنيت لكم، ثم بين ما هو كأنه في جواب سائل يقوله فما هو ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ في القاموس الذكر بالكسر الحفظ الشيء كالتذكار والشيء الذي يجري على اللسان والصيت والثناء والشرف والصلاة والدعاء وكتاب فيه تفصيل الذين ووضع الملة والمعنى الأخير ظاهر ها هنا لا غبار عليه ويمكن الحمل على معان أخر أيضاً فإن القرآن ذكر الله وحفظ ما يجب حفظه وشيء ينبغي أن يكون جارياً على اللسان دائماً أو غالباً وثناء لله تعالى وصلاة له وشرف للإنسان ودعاء له ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عموماً فإن النبي ﷺ مبعوث إلى كافة الأنام الإنس والجن بل هو رحمة للعالمين وفيوض القرآن شامل للملائكة أيضاً يدل عليه قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾[1] وروى الحاكم في المستدرك عن جابر أنه قال: لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ قال: لقد سبح هذه من الملائكة فسدوا الأفق ثم خصه وقال ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي القرآن لمن يتبع الحق ويستقيم عليه خصوصاً من حيث أنهم هم المنتفعون به بدل بعض من العالمين والاستقامة لفظ جامع لجميع الأحكام، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك وفي رواية غيرك قال عليه السلام: «قل آمنت بالله فاستقم»[2] رواه مسلم، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن

(١) سورة عبس، الآية: ١٥ ـ ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في جامع أوصاف الإيمان (٣٨).

سليمان بن يسار قال: لما نزلت لمن شاء منكم أن يستقيم قال أبو جهل جعل الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم تستقم فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة على الحق ﴿إِلَّآ﴾ وقتل ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ شئكم واستقامتكم ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه رب كل شيء وخالق كل شيء من الأعيان والأعراض وأفعال العباد وغير ذلك حتى مشيتكم فمن شاء الاستقامة واستقام فذلك من فضل الله ونعمه وأخرج ابن أبي حاتم من طريق بقية عن عمر بن محمد عن زيد بن مسلم عن أبي هريرة مثل ما روى عن سليمان وأخرج ابن المنذر من طريق سليمان عن القاسم بن مخيمرة نحوه والله أعلم بالصواب.

سورة الانفطار

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ انشقت ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ تساقطت متفرقة ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ فتح بعضها في بعض واختلط العذب بالملح فصار الكل بحراً واحداً ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ قلب ترابها وأخرج موتاها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ جواب إذا وهذا نظير ما مر في إذا الشمس كورت إلى قوله علمت، قيل: معناه ما قدمت من عمل صالح وسيء ما أخرت من سنة حسنة أو سيئة والمعنى ما قدمت أي ضيعت وما أخرت أي تركت من العمل وقيل: ما قدمت من الصدقات وأخرت من الزكاة، وقيل: معناه بل قدمت الدنيا على الآخرة أو بالعكس وقد مر نظيره قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾ أي ما خدعك وسوّل لك الباطل غروراً ملصقاً ﴿بِرَبِّكَ﴾ موجباً للجرأة على عصيانه وترك ما أمر به ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ الصفوح جملة يا أيها الإنسان معترضة ذكر توبيخاً على الإساءة في أعمالهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ قال نزلت في الوليد بن مغيرة كذا قال البغوي، وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنها نزلت في أبي بن خلف، وقال الكلبي نزلت في الأسيد بن كلدة ضرب النبي ﷺ فلم يعاقب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية يقول ما الذي غرك بربك الكريم التجاوز عنك أو لم يعاقبك عاجلاً بكفرك وصفه بالكريم لأنه منشأ غروره

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.

وبه يغره الشيطان فإنه يقول له إن شئت فربك لايعذب أحداً ولا يعاجل في العقوبة وهو المعنى من قول مقاتل غره عفو الله حين لم يعاقبه في أمره، وقال السدي غره رفق الله به والاستفهام للإنكار ولا يجوز ذلك الغرور بكرمه وعدم تعجيله بالعقوبة إن لا يقتضى إهمال الظالم مطلقاً وتسوية الموالي والمعادي فكيف قد انضم معه صفات أخر من القهر والانتقام وغيره وفيه مبالغة في الإنكار على الكفر فإن كثرة كرمه يقتضي أن يشكر ولا يكفر ويستدعي الجد في الطاعة لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه، وقال بعض أهل البشارة إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه تفه لإجابته معنى بقول غر في الكريم وهو المعنى مما قال يحيى بن معاذ لو أقامني بين يديه فقال يا يحيى ما غرك بي قلت: غرني برك بي سابقاً وآنفاً، وقال أبو بكر الوراق لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت غرني كرم الكريم، قال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا يسخر الله به يوم القيامة فقال: يا ابن آدم ما غرك بي أي ابن آدم ماذا عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين قال عطاء تأويل الآية ما غرك بربك وقطعك وأشغلك عنه إلى نفس بئس للظالمين بدلاً. حكي أن امرأة رفعت إلى قاض أن زوجها نكح عليها امرأة أخرى فقال القاضي لا سبيل لك بالاعتراض عليه فإن الله تعالى أباح للرجال ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فقالت الضعيفة أيها القاضي لولا منعني الحجاب والحياء لبرزت حسني لك وسألتك بأن من كان له في الجمال والحسن مصاحباً مثلي هل يجوز له أن يشتغل عنه بغيره فسمع قولها رجل من أهل القلوب فصاح وخر مغشياً عليه فلما أفاق قال سمعت الهاتف يقول ألم تسمع قول الضعيفة ولولا حجاب الكبرياء والعظمة لأبرزت لكم من الجلال والجمال الذي لا يسعه المقابل وسألتكم أنه من استطاع الاشتغال بمثلي فهل يجوز الاشتغال بغيري ومن مثلي وأين يكون مثلي فليس يكون فاطلبني تجدني عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله عز وجل بوجهه فإذا التفت قال يا ابن آدم إلى من تلتفت إلى من هو خير مني أقبل إليّ فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى عنه وجهه» رواه البزار ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ من تراب ثم من نطفة بعد ما لم يكن شيئاً ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي فجعلك بشراً سوياً مستوى الخلق وتسويته جعل أعضائه سليمة معدة لمنافعها ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قرأ الكوفيون بالتخفيف أي فصرفك وأمالك إلى أي صورة شاء أو صرفك عن خلقه غيرك حتى تميزت وفارقت عن سائر الحيوانات أو صرف طبعة بعض أجزائك إلى بعض فكسر حرارة الصفراء ويبوستها ببرودة البلغم ورطوبته وبالعكس ويبوسة السوداء وبرودتها برطوبة الدم وحرارته حتى اعتدلت وصرت أعدل

الحيوانات مزاجاً وقرأ الباقون بالتشديد أي جعل بنيتك متناسبة الأعضاء لعدلته معدة لا يستعدها من القوي ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ ما مزيدة لتأكيد التنكير والتنكير للتكثير ﴿مَّا شَآءَ﴾ صفة لصورة ركبك، قال مجاهد والكلبي ومقاتل في أي شبيه من أب أو أم أو خال أو عم وجاء في الحديث أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر بينه وبين آدم ثم قرأ في أي صورة ما شاء ﴿رَكَّبَكَ﴾ رواه ابن جرير والطبراني بسند ضعيف من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن جده عنه ﷺ. قوله: في أي صورة إما متعلق بركبك أو ظرف مستقر حال من مفعول ركبك وفيه معنى الشرط والجزاء والجملة بيان لعدلك ومن ثم لم يعطف الموصول مع صلاته صفة أخرى لربك مقررة للربوبية مبينة للكرم منه على أن من قدر على ذلك أولى أن يقدر عليه ثانياً مؤكدة للإنكار والتوبيخ على الغرور والكفر فإن من هذا شأنه لا يجوز كفرانه ﴿كَلَّا﴾ ردع على الاغترار بكرم الله تعالى ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بالإسلام أو بالجزاء إضراب عن الاغترار بكرم الكريم يعني ليس أمركم أيها الناس مقتصراً على الإقرار بل مع ذلك تكذبون بالدين ويحتمل أن يكون إضراباً عن مفهوم علمت نفس ما قدمت وأخرت أي ما قدمت من العصيان وأخرت من الطاعة فإن حاصل المعنى أنكم تعصون بل تكذبون ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي والحال أن عليكم ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ لأعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامٗا﴾ على الله ﴿كَٰتِبِينَ﴾ صحف الأعمال للجزاء ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من خير وشر عقب الحافظين بتلك الصفات تعظيماً لهم وتنبيهاً على أنه لا يفوت من علمهم شيء من الأعمال والأقوال فيه توبيخ على تكذيبهم وتحقيق لما يكذبون به وروى يتوقعون من التسامح والإهمال.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ الذين بروا وصدقوا بإيمانهم باجتنابهم عما نهى الله عنه من العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة والأعمال القبيحة وامتثالهم أوامره، وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ﴿لَفِي نَعِيمٖ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ﴾ الذين شقوا ستر الدين والديانة بالكفر والمعاصي والفجر الشقي ﴿لَفِي جَحِيمٖ﴾ جملة إن الأبرار إلى آخر السورة متصل بقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾﴾ فإن في هذا الكلام بيان لا يعلم كل نفس من خير أو شر علمه بإدراك جزائه،

روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك إلى كتاب الله فإنك تعلم مالك عند الله قال: فأين أجد في كتاب الله؟ فقال؟ عند قوله إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من المحسنين انتهى ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يدخلونها ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمۡ﴾ الضمير إلى بعض الفجار أعني الكفار أو المراد بالفجار الكفار ﴿عَنۡهَا﴾ أي عن الجحيم ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ لخلودهم فيها أو المعنى ما هم كانوا عنها غائبين قبل ذلك أو كانوا يجدون سمومها في القبور عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[١] متفق عليه، وفي حديث البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ ذكر حال الكافر في القبر «يسأل عن دينه فيقول هاه هاه لا أدري فقال فينادي من السماء أن كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار» ثم عظم ذلك اليوم فقال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ يعني أنه يوم عظيم البلاد شديد غاية الشدة لا تدري عظمته وشدته حيث لا يدرك كنه أمره دراية دار ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ تأكيد للتفخيم ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وبالرفع على أنه بدل من اليوم في ما يوم الدين أو خبر مبتدأ محذوف أي هو والباقون بالنصب على أنه بدل من اليوم في يصلونها يوم الدين أو متعلق بمحذوف أي يجزى كذلك في يوم لا تملك نفس أو اذكر يوم لا تملك أو هو مبني على الفتح لإضافة إلى غير التمكن ومحله الرفع ﴿نَفۡسٌ﴾ أي أحد ﴿لِّنَفۡسٍ﴾ يعني كافرة كذا قال مقاتل ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من المنفعة ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ وحده لا يملك الله في ذلك اليوم أحداً شيئاً من الأمر كما ملكهم في الدنيا وأما الإذن في الشفاعة للمؤمنين فليس بتمليك أويقال الأمر يومئذ عياناً وفي زعم كل أحدكما كان الأمركله لله في الحقيقة وفي زعم أهل البصيرة والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت (٦٥١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٦٦).

سورة المطففين

مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

عن ابن عباس قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى ويل للمطففين فأحسنوا الكيل بعد ذلك[١] روا الحاكم والنسائي وابن ماجه بسند صحيح، وقال السدي قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ والطف الحقير والمراد بالمطففين ما بين بقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا﴾أي أخذوا الكيل أو اتزنوا ولم يذكره اكتفاء بذكر الوزن في القرنية الثانية ولعل الكيل كان هو الغالب في الاستعمال ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ متعلق بقوله اكتالوا أو بقوله ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ وقع على موضع من تقديره إذا اكتالوا من الناس يستوفون منهم للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس أو أن اكتيالهم بتحامل فيهم عليهم، قال الفراء من يتعاقبان في هذه الموضع فإذا اكتلت عليك كأنه قال أخذت ما عليك وإذا قال اكتلت منك فكأنه قال استوفيت منك ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ الضمير المنصوب راجع إلى الناس أي كالوهم أو وزنوهم حذف الجار وأوصل الفعل روى التقدير كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم مضاف إليه مقامه وليس تأكيد المتصل

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: التوقي في الكيل والوزن (٢٢٢٣).

بالمنفصل إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والإعطاء لا في المباشرة وعدمها وأيضاً يأبى يأبي عنه الخط فإنه يستدعي عن إثبات ألف بعد الواو ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون الكيل والوزن يقال خسر الميزان وأخسره وسمى هذا العمل بالتطفيف لأن ما يبخس في الكيل والوزن لا يكون إلا حقيراً وفيه إيماء إلى أن بخس الحقير موجب للويل والعذاب فبخس الكثير بالطريق الأولى قال رسول الله ﷺ: «خمس بخمس ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغيره ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيم الموت ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»[(١)] رواه الحاكم من حديث بريدة، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رواه الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ولا فشا الربا في قوم إلا كثر فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو» رواه مالك موقوفاً والختر الغدر، قلت: وقطع الرزق بالتطفيف قد يكون بجعله فقيراً لا يقدر على شيء، يكون بمنع الرزق عنه مع قدرته عليه فلا يقدر الأكل منه في حقه كما في البقالين من ديارنا، قال البغوي كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول اتق الله أوف الكيل والوزن فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى أن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ ذكر الظن مكان اليقين إيماء إلى أن من كان يظن ذلك ينبغي أن لا يرتكب موجبات تلك الشدائد فكيف من يستقين والاستفهام للإنكار وفيه تعجيب من مآلهم وتوبيخ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطففين فاعل ليظن ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ قام مقام المفعولين ليظن ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ متعلق بمعوثون وللتعليل أي لحساب يوم عظيم أو بمعنى في يوم عظيم وهو يوم القيامة عظمه لعظم ما يكون فيه، أخرج ابن المبارك عن الحسن قال لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي أن لا ينجو من عظمة ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ من القبور منصوب يبعوثون على الظرفية أو بدل من يوم عظيم وفتحه على البناء لإضافته إلى غير متمكن ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لحسابه وجزائه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حين يغيب

(١) رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي، لينه الحاكم وبقية رجاله موثوقون وفيهم كلام.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الزكاة، باب: فرض الزكاة (٤٣٤٦).

أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[١] متفق عليه وأخرج الحاكم مثله عن أبي سعيد الخدري، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى آذانهم»[٢] وأخرج الطبراني وأبو يعلى وابن حبان عن ابن عباس إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة حتى يقول يا رب ارحمني ولو إلى النار، وأخرج الحاكم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العرق ليلجم الرجل في الموقف حتى يقول: يا رب إرسالك لي إلى النار أهون عليّ مما أجد وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب» أخرج البيهقي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ قال بلغني أن كعباً كان يقول يقومون مقدار ثلاثمائة عام، وأخرج مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى يكون منهم مقدار ميل» قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعني بالميل الأرض أم الميل الذي يكحل به العين؟ فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبته ومنهم من يكون إلى حقونه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه» وأخرج أحمد والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبة بن عامر نحوه، وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة الباهلي عنه ﷺ وفيه ويزاد في حرها كذا وكذا تغلى منها الهوام كما تغلى القدور، وأخرج أحمد والطبراني بسند جيد عن أنس رفعه قال لم يلق ابن آدم شيئاً منذ خلق الله أشد عليه من الموت وهو أهون مما بعده وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شدة حتى يلجمهم حتى أن السفن لو أجريت لجرت، وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجمهم الكافر العرق قبل الحساب قيل له: فأين المؤمنين؟ قال: على كراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام وأخرج هناد عن ابن مسعود نحو هذا كله وفيه «ما طول ذلك اليوم عليهم أي على المؤمنين إلا كساعة من نهار» وأخرج هناد وابن المبارك عن سلمان قال: تدني الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة قاب قوسين أو قوسين ويعطى حر عشر سنين وليس أحد من الناس عليه يومئذ إلى خرقة ولا يرى عورة مؤمن ولا مؤمنة ولا يجد حرها مؤمن ولا مؤمنة، وأما الكافر فيطبخهم طبخاً حتى يسمع لأجوافهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المطففين (٤٩٣٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ (٦٥٣٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في صفة يوم القيامة (٢٨٦٣).

عق عق ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التطفيف وتم الكلام، وقال الحسن: كلا ابتداء يتصل بما بعده بمعنى ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ يعني صحف أعمالهم التي كتبتها الحفظة الكرام والمراد بالفجار الكفار ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ مشتق من السجن بمعنى الحبس في القاموس السجين كالسكين الحبس الدائم الشديد قال الأخفش فعيل من السجن كما يقال فسيق وشريب معناه لفي حبس شديد، وقال عكرمة لفي سجين أي في خسأ وضلال لما كان كتاب الفجار في أي ما في الكتاب من الأعمال موجباً لكونهم في الحبس والخساء والضلال أسند ذلك إلى الكفار مجازاً والظاهر من الأحاديث والآثار أن السجين اسم موضع في كتاب الفجار كذا في القاموس، وكون الكتاب في ذلك الموضع بأن يوضع صحف أعمالهم هناك أو يكتب هناك تاب جامع الصحف أعمال الفجار من الثقلين ووجه تسمية ذلك الموضع بالسجين أن هناك يحبس أرواح الكفار أجمعين وذلك الموضع هو الأرض السابعة أو تحت الأرض السابعة، أخرج ابن مندة والطبراني وأبو الشيخ عن حمزة بن حبيب مرسلاً قال: «يسئل رسول الله ﷺ عن أرواح المؤمنين؟ فقال: في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا: يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال: محبوسة في سجين» وروى ابن المبارك والحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وابن مندة عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال: نفس الكافر في سجين، قال البغوي قال عبد الله بن عمر وقتادة ومجاهد والضحاك سجين هي الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار قلت: كذا أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر روى البغوي بسنده عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «سجين أسفل سبع أرضين وعليّون في السماء السابعة تحت العرش» وقد ورد في حديث طويل عن البراء بن عازب مرفوعاً في ذكر موت المؤمنين وموت الكفار فذكر في الكفار «أنه لا يفتح لهم أبواب السماء فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روح طرحاً» الحديث أخرج أحمد وغيره، وذكر البغوي قول شبرمة بن عطاء جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: أخبرني عن قول الله عز وجل (إن كتاب الفجار لفي سجين)فقال: إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثم تهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين وهي موضع جند إبليس فيخرج لها من سجين من تحت جند إبليس رق فيرقم ويختم ويوضع تحت جند إبليس لمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة، وقال الكلبي هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السماء منها يجعل كتاب الفجار تحتها وروى عن ابن نجيح عن مجاهد قال سجين صخرة تحت الأرض السفلى تقلب فيجعل كتاب الفجار فيها وقال

البغوي جاء في الحديث الفلق جب في جهنم مغطى والسجين جب في جهنم مفتوح، قلت: ويمكن الجمع بينهما أعني بين كون السجين تحت الأرض السابعة وكونه في جهنم أن جهنم تحت الأرض السابعة السفلى أخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي من طريق أبي عن عبد الله قال: الجنة في السماء السابعة والنار في الأرض السابعة السفلى، وأخرج البيهقي في الدلائل عن عبد الله بن سلام الجنة في السماء والنار في الأرض، وأخرج ابن جرير في تفسيره عن معاذ قال: سئل رسول الله ﷺ من أين يجاء بجهنم يوم القيامة؟ قال: بجاء بها من الأرض السابعة بها ألف زمام لكل زمام سبعون ألف ملك فإذا كان من العباد على مسيرة ألف سنة زفرت زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول رب نفسي نفسي ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ تفخيم وتهويل قال الزجاج ليس ذلك مما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ۝٩﴾ أي مكتوب فيه أعمالهم ثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازوا به أو المعنى معلم يعلمه من رآه أنه عرف لا خير فيه، وقيل: معناه مختوم بلغة حمير قال البغوي ليس هذا تفسير للسجين بل هو بيان الكتاب المذكور أنه كتاب الفجار وقال البيضاوي هذا تفسير للسجين لقب به الكتاب لأنه سبب للحبس فقال: هذا ظرفية السجين الكتاب لكونه كتاباً جامعاً لكتب الفجار من الثقلين والظاهر أن السجين فيه مقر أرواح الكفار ومقر صحف أعمالهم وفي الكلام حذف مضاف أي في السجين أي ما كتاب سجين أو في كتاب مرقوم أي محل كتاب مرقوم بالشر ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾ بالحق ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾ صفة موضحة أو ذامة أو مخصصة أو بدل من المكذبين وجملة ويل يومئذ الخ معترضة للذم، قلت: ويحتمل أن يكون في محل الرفع من مرقوم بمعنى رقم فيه ويل يومئذ الخ أو صفة الكتاب أي كتاب موجب للويل والتأويل الأول أظهر من حيث اللفظ وللأخيرين من حيث المعنى لأن كونه كتاباً مرقوماً ليس من خصائص كتاب الفجار بل قيل مثل ذلك في كتاب الأبرار أيضاً يتصور كونه جواباً لقوله ما سجين ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ أبي بيوم الدين ﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ مجاوز عن الحد في الجهل وتقليد الآباء الجهلة حتى أنكر قدرة الله على الإعادة ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في الشهوات اشتغل بها عما ورائها وحمله على الإنكار لما عداها ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآن شرط جزائه ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله وغفلته عن كونه معجزاً أو من غباوته وإعراضه عن الحق تعنتاً ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي والأساطير جمع أسطوراً أو أسطاراً أو أسطر بمعنى الأحاديث التي لا نظام بها في القاموس وفي الصحاح أساطير الأولين أي شيء كتبوه كذباً، والجملة الشرطية صفة بعد صفة لمعتد لبيان أنه لا

ينفعه من الأدلة العقلية والنقلية شيء والجملة ما يكذب به معترضة ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التكذيب وعما قالوا، وقال مقاتل معناه أي لا يؤمنون ﴿بَلْ﴾ إضراب عن الردع ينفي قابلية قلوبهم عن درك الحق وتميزه من الباطل يسكت حفص ها هنا سكتة ويدغم غيره ﴿رَانَ﴾ قال أبو بكر وحمزة والكسائي فتح الراء والباقون بتفخيمها ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والرين الغلبة يقال ران الخمر على قلبه إذا غلبه عليه سكره والمعنى غلب على قلوبهم ظلمات ما كانوا يكسبون من المعاصي حتى عمى قلوبهم عن التميز بين الحق والباطل، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب وفزع واستغفر صقل قلبه منها وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذا لكم الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»[1] رواه البغوي وكذا أخرج أحمد والترمذي وصححه وأحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفي بعض الروايات «أن العبد كلما أذنب ذنباً» الحديث ولفظ المؤمن يدل على شدة السوداء قلب الكافر بطريق الأولى ﴿كَلَّا﴾ ردع عن كسب المعاصي الموجبة للرين أو هو بمعنى حقاً لتحقيق الرين قال يريد أنهم لا يصدقون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الدين يوم يرى الله سبحانه المؤمنون ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ لحجب ظلماتهم الناسبة عنهم فلا يرون الله سبحانه كما كانوا لا يرون الحق من الباطل في الدنيا، قال الحسن لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم لزهقت أنفسهم في الدنيا سئل مالك عن هذه الآية فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأولياءه حتى رأوه، قال الشافعي في الآية دلالة على أن أولياء الله يرون الله ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد كونهم محجوبين عن رؤية الله ﴿إِنَّهُمْ لَصَالُوا﴾ أي لداخلوا ﴿الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ﴾ يقول لهم خزنة جهنم ﴿هَٰذَا﴾ هذا العذاب.

﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أن التطفيف تكرير للأول ليعقب وعد الأبرار كما عقب وعيد الفجار إشعاراً بأن التطفيف فجور كما أن الإيفاء بر أو ردع عن تكذيب العذاب أو هو بمعنى حقاً وقال مقاتل معناه لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ويل للمطففين (٣٣٣٤)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٤).

﴿ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال بعض أهل المعاني هو علو وشرف بعد شرف ولذلك جمع بالواو والنون وقال الفراء اسم موضع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظ كعشرين، وقال بعض المحققين هو منقول من جمع على وزن فعيل من العلو وقد مر حديث البراء المرفوع عليين في السماء السابعة تحت العرش وفي الحديث البراء الطويل في ذكر الموت المؤمنين والكفار ذكر في نفس المؤمن «إنه يصعد بها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوا الأرض»(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم من طرق صحيحة، وقال ابن عباس هو يعني عليين لوح زبرجد خضراء معلق تحت العرض أعمالهم مكتوبة فيها ومن ها هنا قالوا: هو كتاب جامع الأعمال الخير من الملائكة ومؤمني الثقلين، وقال كعب وقتادة هو قائمة العرش اليمنى، وقال عطاء عن ابن عباس هو الجنة وقال عطاء والضحاك هو سدرة المنتهى ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ الكلام فيه كما مر في نظيره ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ صفة لكتاب كما كان ويل للمكذبين صفة هناك والمقربون، قال البغوي يعني الملائكة قلت وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء أيضاً فإن هناك لعزها كما أخرج مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أرواح الشهداء عند الله في حواصل طير خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت تأوي إلى قناديل تحت العرش»(٢) وكذا روى سعيد بن منصور عن ابن عباس وتقي بن مخلد عن ابن أبي سعيد الخدري وروى أبو الشيخ عن أنس قال: يبعث الله شهداء من حواصل طير بيض كانوا في قناديل معلقة بالعرش، وأخرج ابن مندة عن ابن شهاب بلاغاً بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر المعلقة بالعرش تغدوا ثم ترجع إلى رياض الجنة يأتي ربها سبحانه وتعالى كل يوم يسلم عليه وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال هي يعني أرواح الشهداء طائر خضر في قناديل الحديث، وأخرج البخاري عن أنس أنه قال لما قتل حارثة قال رسول الله ﷺ: «إنها جنان وإنه في

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: الجنائز، باب: السؤال في القبر (٤٢٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧).

الفردوس الأعلى»[١] وقال الله تعالى في حبيب نجار ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾[٢] الآية ولا منافاة بين كونهم في الجنة وكونهم تحت العرش في قناديل لأن العرش بمنزلة السماء للجنة، قلت: وهذا الحكم غير مختص بالشهداء فإن الأنبياء والصديقين أعلى منهم منزلة وقد ورد في الحديث بلفظ المؤمنين مطلقاً، أخرج مالك والنسائي بسند صحيح عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر المتعلقة في شجرة الجنة حتى ترجع إلى جسده يوم القيامة»[٣] وكذا أخرج أحمد والطبراني عن أم هانيء عنه ﷺ قال: يكون النسم طيراً لتعلقه بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسده، وأخرج ابن عساكر عن أم بشر امرأة أبي معروف نحوه والمراد في تلك الأحاديث الكاملين منهم كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ وقد ورد في بعض الأحاديث أن مقر أرواح المؤمنين في السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم في الجنة أخرجه أبو نعيم بسند ضعيف عن أبي هريرة وأخرج أيضاً عن وهب بن منبه أن الله تعالى في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين وفي بعض الأحاديث إذا أخرج من الجسد كان بين السماء والأرض رواه سعيد بن منصور عن سلمان وروى ابن المبارك والحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وابن مندة عن سعيد بن المسيب عن سلمان أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ونفس الكافر في سجين وفي هذا الحديث حكاية عن حال المؤمنين على تفاوت درجاتهم، قال الشعبي في بحر الكلام الأرواح على أربعة أوجه أرواح الأنبياء تخرج من جسدها وتصير مثل صورتها المسك والكافور وتكون في الجنة تأكل وتشرب وتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة بالعرش، وأرواح الشهداء تخرج من جسدها ويكون في أجواف طير خضر في الجنة تأكل وتشرب وتنعم وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة بالعرش وأرواح المطيعين من المؤمنين يربص بالجنة لا تأكل ولا تتمتع ولكن تنظر في الجنة وأرواح العصاة من المؤمنين تكون بين السماء والأرض في الهواء، وأما أرواح الكفار فهي في السجين في جوف طير سود تحت الأرض السابعة قلت: وما ذكر في أرواح الأنبياء أنها تصير في مثل صورتها المسك والكافر يعني أن لها أجساداً كالأجساد الإنسان وعبرها بالمسك لتطيب ريحها وعبر المجدد عن تلك الأجساد بالجسم الموهب ويكون ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من أتاه سهم غرب فقتله (٢٨٠٩).

(٢) سورة يس، الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٧٧).

للأنبياء ولكمل أتباعهم الصديقين قبل الموت. فإن قيل: بعض الأحاديث الصحاح تدل على أن أرواح المؤمنين حتى الأنبياء وأرواح الكفار كلها في القبور كما ورد في حديث البراء الطويل يقول الله تعالى في حق المؤمنين «اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيعاد روحه في جسده، وكذا قال في الكافر فيعاد روحه في قبره» قال ابن عبد البر هذا أصح فأقيل وقد رأى النبي ﷺ موسى عليه السلام في قبره يصلي ليلة أسري به وأنه ﷺ قال: «من صلى علي عند قبري سمعته ومن صلى علي غائباً بلغته»[1] فكيف تطبيق؟ قلنا: وجه التطبيق أن مقر أرواح المؤمنين في عليين أو في السماء السابعة ونحو ذلك كما مر ومقر أرواح الكفار في سجين ومع ذلك لكل روح منها اتصال لجسده في قبره لا يدرك كنهه إلا الله تعالى وبذلك الاتصال يصح أن يعرض على الإنسان المجموع المركب من الجسد والروح مقعده من الجنة أو النار ويحس اللذة أو الألم ويسمع سلام الزائر ويجيب المنكر والنكير ونحو ذلك بما ثبت بالكتاب والسنة كما أن جبرائيل مع كون مستقره من السماوات كان يدنوا من النبي ﷺ حتى يضع يديه على فخذيه قال الشعبي في بحر الكلام هي متصلة بأجسادها فتعذب الأرواح ويتألم الأجساد منها كالشمس في السماء ونورها في الأرض والله تعالى أعلم ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ مستأنفة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي على الأسرة في الحجال حال من المستكن في ظرف المستقر ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال بعد حال مترادف لما سبق أو متداخل، قال أكثر المفسرين يعني ينظرون إلى ما أعطاهم الله تعالى من الكرامة والنعمة، وقال قتادة ينظرون إلى أعدائهم كيف يعذبون في النار، قلت: ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى كما أن الكفار عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها المخاطب كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو جعفر ويعقوب على المبني للمفعول ﴿فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ﴾ بالرفع عند جعفر ويعقوب وبالنصب عند الجمهور ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ أي بجنة النعيم قال الحسن النضرة في الوجه والسرور في القلب ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ أي جنة صافية طيبة بيضاء ﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختامه الأبرار ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قرأ الكسائي خاتمه بتقديم الألف على التاء على وزن عالم والباقون على وزن كتاب في القاموس ختام ككتاب الطين يختم على الشيء والخاتم ما يوضع على الطينة، والمراد بالقراءتين واحد أي مختوم أو آنية بالمسك مكان الطين

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال العقيلي: حديث لا أصل له، وأورده ابن الجوزي في الموضوع.
انظر: فيض القدير (٨٨١٢).

وكذا قال ابن زيد، وقال ابن مسعود مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه وعاقبته مسك في القاموس والختام، من كل شيء آخره ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ الرحيق والنعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ التنافس مشتق من النفس أو من النفيس ومعناه اختيار الشيء النفيس لنفسه بحيث ينفسه به أي يضن به على غيره وحاصل المعنى فليرغب الراغبون يعني أن التنافس لا يليق على الأمتعة الدنيوية لخستها وقلتها ونفادها بل على النعم الأخروية، فإن قيل التنافس من الرذائل فكيف يكون مرغوباً فيه؟ قلت: إنما هو من الرذائل إذا كان متعلقاً بالأمور الدنيوية لأنها غير مرضية لله تعالى ولأنها يستلزم الإضرار بغيره إذ الأمتعة الدنيوية نافدة قليلة إذا اختار لنفسه فات عن غيره بخلاف النعم الأخروية فإنها مرضية لله تعالى ولا ينفد فإيثارها لنفسه لا يضر بغيره ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي يمزج به الرحيق ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال البغوي شراب ينصب عليهم من علو في غرفهم ومنازلهم قلت: الظاهر أنها تنصب من فوق العرش فإن العرش بمنزلة السقف للجنة، وقيل: يجري في الهواء متسنماً فينصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلئت أمسك وهذا معنى قول قتادة وأصل الكلمة من العلو يقال للشيء المرتفع سنام ومنه سنام البعير، قال الضحاك هو شراب اسمه تسنيم وهو من أشرف أشربة الجنة قال ابن مسعود وابن عباس هو خالص للمقربين يشربونها صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة ثم فسره بقوله: ﴿عَيْنًا﴾ منصوب على المدح أو بتقدير أعني أو حال من تسنيم ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها أو بتضمين يلتذ صفة لعينا ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي أصحاب كمالات النبوة بالأصالة أو بالوراثة وهم الصديقون قال البغوي روى يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه سأل عن قوله من تسنيم، قال: هذا فيما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ يعني كفار قريش أبو جهل والوليد بن مغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مشركي مكة ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عمار وصهيب وخباب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ أي المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

أي بالكفار ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي الكفار يشيرون إليهم بالجفن والحواجب استهزاء والجملة الشرطية معطوفة على يضحكون خبر لكانوا وكذا الشرطيتين الأخريين ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ﴾ أي الكفار ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ معجبين ملتذين بالسخرية منهم قرأ حفص فكهين بغير ألف والباقون بالألف فاكهين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ يعني الكفار المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي خدعهم محمد فضلوا عن دين آبائهم وتركوا اللذات، لما يرجون في الآخرة من الكرامات فقد تركوا الحقيقة بالخيال ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ﴾ أي الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ لأعمالهم ويشهدون برشدهم وصلاحهم جملة وما أرسلوا حال من فاعل قالوا ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي يوم كون المؤمنين على الأرائك ينظرون إلى الله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في السلاسل والأغلال في النار، قال البغوي قال أبو صالح وذلك أنه يفتح للكفار في النار أبوابها ويقال لهم أخرجوا فإذا رأوها مفتوحة قبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم يفعل بهم ذلك مراراً والمؤمنين يضحكون من الكفار كما كان الكفار يضحكون منهم في الدنيا وقال كعب بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو له في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال الله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[1] فإذا اطلعوا من الجنة إلى أعدائهم وهم يعذبون في النار فضحكوا فذلك قوله تعالى هذه الآية، وأخرج البيهقي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لأحدهم هلم فجيىء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه فما زال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له هلم فما يأتيه من الإياس» ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾ حال من فاعل يضحكون ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي الكفار في النار حال مترادف أو متداخل لما قبله ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ أي جوزي ﴿الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي جزاء ما كانوا يعملون من الاستهزاء والاستفهام للتقرير أي نعم والله أعلم بالصواب.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٥.

سورة الإنشقاق

مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ السماء مرفوع بفعل مقدر يفسره ما بعده ﴿وَأَذِنَتْ﴾ أي استمعت وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾ لأمره بالانشقاق ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي حق لها الانقياد وإذ المملكن لا يمكن منه إلا الانقياد لما أراده الواجب جل شأنه إذ هو في نفسه لا يقتضي شيئاً ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ وزيدت في سعتها، قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى فيها جبل ولا بناء، أخرج الحاكم عن ابن عمرو قال: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض كالأديم وحشر الخلائق، وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ﷺ: «تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه ثم أدعى أول الناس فأخر ساجداً فيؤذن لي فأقول: يا رب يا رب أخبرني هذا جبرائيل وهو عن يمين الرحمن والله ما رآه جبرائيل قبلها قط إنك أرسلته إلي قال: وجبرائيل ساكت لا يتكلم حتى يقول الله صدق ثم يأذن الله لي في الشفاعة فأقول يا رب عبادك أطراف الأرض فذلك المقام المحمود» ﴿وَأَلْقَتْ﴾ الأرض ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي تكلفت في خلوها عما فيها حتى لم يبق شيء في بطنها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلية ﴿وَحُقَّتْ﴾ جواب إذا محذوف يدل عليه ما بعده أي يلاقي الإنسان ما كدح ويؤتى كتابه إما بيمينه فينقلب مسروراً أو بشماله فيدعوا ثبوراً وتكرراً إذ الاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة، أخرج أبو القاسم الختلي في الديباج بسند حسن عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله تعالى: إذا السماء

انشقت الآية قال: أنا أول من ينشق عنه الأرض فأجلس جالساً في قبري فيفتح باب إلى السماء بحيال رأسي حتى انظر إلى العرش ثم يفتح لي باب من تحتي حتى أنظر إلى الأرض السابعة حتى أنظر إلى الثرى ثم يفتح باب عن يميني حتى أنظر إلى الجنة ومنازل أصحابي وإن الأرض تحركت بي فقلت لها مالك أيتها الأرض فقالت إن ربي أمرني أن ألقي ما في جوفي وأن أتخلى فأكون كما كنت أن لا شيء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ وأخرج ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ قال: سواري الذهب وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن عطية يعني ما فيها من الكنوز وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس والفريابي عن مجاهد أخرجت الأرض أثقالها قال الموتى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي كدح عمل الإنسان وجهده في الأمر من خير أو شر حتى يكدح ذلك فيه أي يؤثر من كدحه إذا أخدشه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى لقاء ربك يعني الموت وما بعده يعني أنك جاهد في العمل إلى الموت ﴿كَدْحًا﴾ سعياً بلغياً مصدر للتأكيد ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ عطف على كادح والضمير إما راجع إلى الكدح يعني فملاقي كدحه يعني جزاء ما عمل أو إلى الرب أي فملاقي ربك بعد الموت يوم يقوم الناس لرب العالمين أو بحذف المضاف أي فملاقي حساب ربك وجملة يا أيها الإنسان مستأنفة للوعد والوعيد ولما بين الله سبحانه أولاً بعض الناس ولقاء كل منهم كدحه إجمالاً فصل ذلك بقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ ديوان عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ وهم المؤمنون ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ روى البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب قالت عائشة أو ليس الله يقول فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟ قالت: فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش في الحساب يهلك»(١) وأخرج أحمد عن عائشة قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: أي ينظر في كتابه فيتجاوز عنه أنه من نوقشه في الحساب يهلك، وأخرج أحمد يومئذ هلك ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ أخرج البيهقي عن مجاهد في هذه الآية قال: يجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه قال ابن تلوى يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ والثبور الهلاك أي يتمنى الهلاك ويقول واثبوراه ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام والباقون بضمن الباء وفتح الصاد وتشديد

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه (١٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إثبات الحساب (٢٨٧٦).

اللام من التصلية على البناء للمفعول، أي يدخل ﴿سَعِيرًا إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ بالمال والجاه غافلاً عن الآخرة غير خائف وهذا تعليل لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ⑭﴾ أي لن يرجع إلى ربه للحساب والجزاء تكذيباً بالبعث تعليل للسرور ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب للنفي أي بلى ليحورن ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ في موضع التعليل لإثبات الرجوع أي ليحورن وليعذبن لأن الله بصير بما يعمل فلا يهمله بل ينتقم منه.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ⑯ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ⑰ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ⑱ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ⑲ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑳ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ㉑ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ㉒ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ㉓ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ㉔ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ㉕﴾

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ⑯﴾ البيضاء بعد الحمرة ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ⑰﴾ أي جمعه الليل بعدما كان منتشراً بالنهار من الدواب وروى منصور عن المجاهد حالف وأظلم عليه، وقال سعيد بن جبير وما عمل فيه ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ⑱﴾ أي اجتمع وتم نوره في الليالي البيض افتعال من الوسق بمعنى الجمع ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ⑲﴾ إما صفة بطبقاً أو حال من الضمير المرفوع في لتركبن بمعنى مجاوز عن طبق أو بمجاوزين له على اختلاف القراءتين قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح التاء إما على صيغة المخاطب الواحد المذكر خطاباً للنبي ﷺ، قال الشعبي ومجاهد يعني لتركبن يا محمد سماء بعد سماء وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ② ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾(١) ففي هذه الآية بشارة للنبي ﷺ بالمعراج والأحاديث الواردة في قصة المعراج ذكرت في سورة الإسراء وسورة النجم ويجوز أن يكون المراد أنه يصعد درجة بعد درجة تتبع بعد رتبه في القرب من الله والرفعة روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: لتركبن طبقاً عن طبق حال بعد حال قال هذا نبيكم ﷺ، وأما على صيغة الواحد المؤنث والضميرحينئذ عائد إلى السماء يعني لتركبن السماء حالاً بعد حال، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في هذه الآية قال: يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر، وأخرج البيهقي عنه قال: السماء تكون ألواناً تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتشق فيكون

(١) سورة الملك، الآية: ٢ ـ ٣.

حالاً بعد حال وقرأ الآخرون بضم الباء على صيغة جمع المخاطبين يعني لتركبن أيها الناس حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر في مواقف القيامة وقال مقاتل يعني الموت ثم الحياة وقال عطاء حالاً في الدنيا فقيراً ومرة غنياً، وقال عمرو بن دينار عن ابن عباس يعني الشدائد والأهوال والموت ثم البعث ثم العرض وقال عكرمة حالاًبعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ، وقال أبو عبيدة لتركبن سنن من كان قبلكم روى الحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتم وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري نحوه ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ استفهام للإنكار والتعجب متصل بما مرمن الوعد والوعيد وجملة فلا أقسم معترضة، قلت: ويحتمل أن يكون هذه الجملة متصلة لقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ يعني انقلابهم عن حال إلى حال دليل على محول الأحوال فما لهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير المجرور والعامل فيه معنى الفعل أي ما يصنعون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ إذا متعلق بلا يسجدون والجملة الشرطية معطوفة على لا يؤمنون حال مرادف له وهذه الآية تدل على وجوب السجود حين استماع القرآن فإنه ذم لمن سمع القرآن ولم يسجد فإما أن يكون المراد بالسجود الخضوع مجازاً وهوا لظاهر لإطلاق القرآن على كل آية وإن لم يكن آية السجدة مع الاجتماع على عدم وجوب السجود عند استماع القرآن مطلقاً وإما يكون المراد بالسجود سجود التلاوة واللام في القرآن للعهد والمراد آية السجدة فحينئذ يكون حجة لأبي حنيفة في القول بوجوب التلاوة ولم يقل بالافتراض للشك في التأويل ووقع الخلاف في المسألة والظاهر أن الوجوب لا يثبت بالشك بل بدليل ظني يفيد الوجوب واحتج أبو حنيفة وصاحبيه بحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»(١) رواه مسلم ووجه الاحتجاج أن الحكيم إذا حكى عن غير الحكيم كلاماً ولم يعقبه بالإنكار كان دليلاً على صحته، وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عمر أنه قال السجدة على من سمعها وعند جمهور الفقهاء والمحدثين سجود التلاوة سنة، واحتجوا بحديث زيد بن ثابت قرأت على النبي ﷺ فلم يسجد أخرجاه في الصحيحين وأخرجه أصحاب السنن والدارقطني وزاد ولم يسجد منا أحد، قالت الحنفية هذا لا يدل على عدم وجوب السجدة لأنه واقعة حال ويجوز أن يكون ترك السجود لكون

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨١).

القراءة في وقت مكروه أو على غير وضوء أو لتبين أنه غير واجب على الفور، قلنا: لوكان الترك لأجد هذه الأمور لبين ذلك ولئلا يلزم ترك بيان المجمل في وقت الحاجة وبحديث عمر بن الخطاب: «أنه قرأ سجدة وهو على المنبر يوم الجمعة فنزل فسجد وسجد الناس معه ثم قرأها يوم الجمعة الأخرى فتهيأ الناس السجود فقال على المنبر رسلكم، الله لم يكتبها إلا أن يشاء» رواه البخاري ومالك في الموطأ، قال الشيخ ابن حجر زعم المزني أنه من تعليقات البخاري ووهم رواه البيهقي وأبو نعيم، قلت في هذه الحديث حكاية عن الإجماع حيث لم ينكر أحد على قول عمر مع حضورهم لصلاة الجمعة وما ورد فيقول الشيطان أمر ابن آدم بالسجود والظاهر أن المراد بالسجود هناك الجنس دون السجود المخصوص عند التلاوة كيف وإنما الشيطان بالسجود لله تعالى متوجهاً إلى آدم من غير سبق تلاوة آية.

مسألة:

اختلف العلماء في سجود المفصّل؟ فقال الجمهور بالسجود في النجم وإذا السماء انشقت واقرأ فعندهم سجود القرآن أربعة عشر أو خمسة عشرب بناء على خلافهم في الثاني سجدتي الحج وسجدة ص ويذكر هناك إن شاء الله تعالى وقال مالك في رواية لا سجود في المفصل محتجاً بحديث ابن عباس أنه ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة[1] رواه أبو داود وأبو علي بن السكن من طريق أبي قدامة الحارث بن عبيد عن مطر عن عكرمة وأبو قادمة ومطر، قال الشيخ ابن حجر هما من رجال مسلم لكنهما مضعفان، وقال ابن الجوزي قال أحمد أبو قدامة مضطرب الحديث وقال يحيى ليس بشيء ولا يكتب حديثه وروى الطحاوي وغيره سأل أبي بن كعب هل في المفصل سجدة قال لا لنا حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ لم يسجد في إذا السماء انشقت واقرأ انفرد بإخراجه مسلم وفي الصحيحين من طريق آخر عن أبي نافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ إذا السماء انشقت فسجد فقلت ما هذا؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد هنا حتى ألقاه وإسلام أبي هريرة كان سنة ست من الهجرة وحديث ابن عباس قال: سجد رسول الله ﷺ فيها يعني النجم والمشركون[2]، رواه

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من لم ير السجود في المفصل (١٤٠٢).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: سجود القرآن، باب: سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في السجدة في النجم (٥٧١).

البخاري ورواه الترمذي وصححه، وحديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قرأ خمس عشر سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم وحسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وقال ابن الجوزي لا يعتمد عليه فيه محمد بن راشد كذبوه وحديث عبد الرحمن بن عوف قال: رأيت رسول الله ﷺ سجد في إذا السماء انشقت عشر مرات رواه البزار.

مسألة:

قال أبو حنيفة يجب السجدة على التالي والسامع سواء قصد سماع القرآن أو لم يقصد لإطلاق الموجب أعني الذم على ترك السجود في هذه الآية، وعند الجمهور لا يتأكد السجود على السامع ما لم يقصد السماع لحديث عثمان أنه مر بعاص فقرأ آية السجدة يسجد معه عثمان فقال عثمان إنما السجود على من استمع ثم مضى ولم يسجد رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عنه وذكره البخاري تعليقاً وفي مصنف ابن أبي شيبة عن عثمان إنما السجدة على من جلس لها وحديث ابن عباس أنه قال إنما السجدة لمن جلس لها، رواه البيهقي وابن أبي شيبة.

مسألة:

يجب السجود على السامع وإن لم يسجد القارىء عند أبي حنيفة لإطلاق الأمر وعند الجمهور لا يتأكد على السامع ما لم يسجد القارىء لحديث زيد بن أسلم أن رجلاً قرأ عند رسول الله ﷺ فسجد النبي ﷺ ثم قرأ آخر عنده السجدة فلم يجد النبي ﷺ فقال سجدت لقراءة فلان ولم تسجد لقراءتي، قال: كنت إماماً فلو سجدت سجدنا رواه أبو داود، في المراسيل عن زيد بن أسلم ورواه أيضاً زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار بلاغاً وكذا روى الشافعي وقال البيهقي رواه قرة عن الزهري عن أبي هريرة وقرة ضعيف وعند البخاري معلقاً عن ابن مسعود.

مسألة:

قال أبو حنيفة يكره قراءة آية السجدة فيما يسر فيها القراءة من الصلاة إن كان إماماً لا فيما يجهر بها ولا إن كان مفرداً به قال أحمد حتى قال إن أسر بها لا يسجد وعند الشافعي لا يكره مطلقاً لحديث ابن عمر سجد رسول الله ﷺ في الظهر فرأى أصحابه أنه قرأ آية السجدة فسجدوا رواه أبو داود والطحاوي والحاكم.

مسألة:

إذا سجد الإمام سجدوا كذا عند الشافعي مع قوله أنها سنة وكذا قوله في القنوت ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ القرآن، إضراب عن السجود عند استماع القرآن ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بما يجمعون في الصدور من الكفر والعداوة، قال مجاهد: بما يكتمون، والجملة حال من فاعل يكذبون ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ الفاء للسببية فإن التكذيب سبب للتبشير وذكر التبشير مقام التنذير تهكم واستهزاء ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منهم وتابوا عن الكفر فالاستثناء متصل أو منقطع بمعنى لكن الذين آمنوا غير مبشرين بالعذاب ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ غير مقطوع ولا منقوص أو ممنون عليهم تعليل الاستثناء.

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ البرج الحصن سمي الحصن بها لظهوره يقال تبرجت المرأة أي ظهرت والظاهر أن للسماء بيوتاً سميت بالبروج، قال عطية العوفي البروج أي القصور فيها الحرس ورد في الصحيحين في حديث المعراج «ثم رفع إلى البيت المعمور يعني في السماء السابعة بحذاء الكعبة» وقد مر في سورة المطففين قول وهب بن منبه أن لله في السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين أو المراد بالبروج أبواب السماء فإن النوازل يخرج منها وتظهر وزعم العوام باتباع الفلاسفة أن السماء منقسم بالقسمة الوهمية إلى اثني عشر حصة سميت كل حصة منها ببرج يكون فيها الثوابت وينزلها السيارات وسموا البروج بالحمل والثور والجوزاء ونحوها نظراً إلى هيئة الكواكب الثوابت على صورة الحمل والثور ونحو ذلك وهذا ليس بشيء لأن مبنى ذلك على كون السموات متحركة دائماً وكون الكواكب مرتكزة فيها وكل ذلك باطل والثابت من الكتاب والسنة أن الكواكب كل منها في فلك يسبحون فليس في السموات كواكب ثوابت حتى يسمع حصة من السماء برجاً بحسب تلك الثوابت ولا يجوز أن يكون المراد في كلام الله تعالى مصطلح الفلاسفة الكفرة فكيف الحصص الموهومة بالبروج التي أصل تركيبها الظهور والله تعالى أعلم، وقيل: المراد بالبروج عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها كذا قال

الحسن ومجاهد وقتادة ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ أي يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ﴾ أي يوم الجمعة أو جنس شاهد يشهد بالحق ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ أي يوم عرفة أو جنس فاشهد عليه شاهد صدق أقسم الله تعالى بهذه الأمور لتعظيمها روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة والمشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها بخير إلا استجاب له ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه منه»(١) قال الترمذي هذا حديث غريب لا يعرف إلا من حديث موسى بن عبيدة وهو يضعف وروى الطبراني بسند ضعيف عن أبي مالك الأشعري نحوه وفيه «يوم الجمعة خصه الله لنا والصلاة الوسطى صلاة العصر» وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس الشاهد محمد ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾(٢) والمشهود يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(٣) ولكن هذا يلزم التكرار في اليوم الموعود والمشهود، وقيل: الشاهد الحفظة والمشهود ابن آدم، وقال الحسين بن الفضل الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾(٤) وقال سالم بن عبد الله سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ قال: الشاهد هو الله تعالى والمشهود ونحن بيانه وكفى بالله شهيداً، وقيل: الشاهد أعضاء بني آدم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾(٥) وقيل: الشاهد الأنبياء والمشهود محمد ﷺ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(٦) قلت: وعندي أنه لو صح الحديث في تأويل الآية فذاك وإلا فلا وجه للتخصيص بل المقسم جنس شاهد يشهد بالحق وجنس الحق المشهود به، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾(٧) فالشاهد هو الله تعالى والملائكة والحفظة منهم والأنبياء ومحمد ﷺ والمؤمنون خصوصاً أمة محمد ﷺ خصوصاً أولوا العلم منهم ومن يشهد بالحق الخصومات وإقامة الحدود ومشهود هو كلمة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البروج (٣٣٣٩).
(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٣) سورة هود، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٥) سورة النور، الآية: ٢٤.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

التوحيد وصدق الأنبياء وتبليغهم وأعمال بني آدم وكل كلمة حق أشهد به شاهد صدق قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الشهود فإن الله يستخرج بهم الحقوق ويدفع بهم الظلم» رواه الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس بسند ضعيف والله تعالى أعلم وجواب القسم قيل قوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾ أي لعن لكن هذا القول ضعيف لشذوذ جواب القسم بدون اللام والأولى أن يقال جواب القسم محذوف يدل عليه ما بعده يعني أسم أن كفار قريش ملعونون كما قيل وقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ﴾ عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك باليمن فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر فبعث له غلاماً يعلمه وكان في طريقه راهب إذا سلك إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب فقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه وإذا رجع من عند الساحر فقعد إلى الراهب وسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربوه فشكى إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي فإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى عليه دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم أن الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها فمضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما ترى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي الناس بسائر الأدواء فسمع جليس للملك وكان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: إنها لك إن أنت شفيتني، قال: لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: ومن رد عليك بصرك؟ قال: ربي قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيىء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما يبرىء الأكمه والأبرص وتفعل ما تفعل قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له إرجع عن دينك فأبى فدعى موضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: إرجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوا فذهبوا به الجبل فقال: اللهم اكفينهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا فجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإفلا

فاقذفوه فذهبوا به فقال: اللهم اكفينهم بماشئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله فقال للملك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ بهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل بسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إذ فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد قوسه ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فمات فقال الناس آمنا برب الغلام ثلاثاً فأتى الملك فقيل له رأيت بما كنت تحذر قد نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدّت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها لاقتحم قال فافعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق»[(١)] رواه مسلم في صحيحه. وروى عطاء عن ابن عباس نحو هذه القصة وذكر أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل في الفترة قبل مولد النبي ﷺ بسبعين سنة وذكر اسم الغلام عبد الله بن تامر وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه القصة وذكر أنه أحرق اثني عشر ألفاً ثم غلب أرباط على اليمين فخرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق، فقال الكلبي ذو نواس قتل عبد الله بن تامر وقال محمد بن عبد الله بن أبي بكران جارية اختفرت في زمن عمر بن الخطاب فوجد عبد الله بن تامر واضعاً يده على ضربة في رأسه إذا بسطت يده عنها انبعث دماً وإذا تركت ارتدت مكانها في يده خاتم من حديد فيه ربي الله فبلغ ذلك عمر فكتب إن العبد والخاتم على أي على الذي وجدتم عليه وقد روي في أصحاب الأخدود روايات أخرى لا يوازي رواية المسلم في القوة فلا يلتفت إليها ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصف أي النار بالعظمة لكثرة الالتهاب واللام للجنس، قال الربيع بن أنس نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ أي على حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ قال مجاهد كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود والظرف متعلق بقعود ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من التعذيب ﴿شُهُودٌ﴾ أي حضور لم يكن هذا التعذيب منهم على غفلة أو المعنى كان يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به أو يشهدون على أنفسهم يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٣٠٠٥).

حين يشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم والجملة إما معطوفة على هم عليها قعود أو حال من فاعل تعود ﴿وَمَا نَقَمُواْ﴾ أي ما كره الكفار وما أنكروا ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من المؤمنين ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ﴾ أي لإيمانهم فعلى هذا مفعول له وصيغة المضارع بمعنى الماضي بقرينة نقموا أي لأن آمنوا ﴿بِاللَّهِ﴾ يعني ما كان منهم حسناً لذاته وكمالاً وشرفاً زعموه لفرط جهلهم وشقاوتهم عيباً منكراً موجباً للعذاب ﴿الْعَزِيزِ﴾ في ملكه الغالب على كل شيء يخشى عذابه ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود المنعم الذي يرجى ثوابه ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهن لا إله غيره تقرير لحصر الخوف والرجاء عليه سبحانه وصف الله سبحانه نفسه بهذه الأوصاف لدلالة على كون المؤمنين محقين في إيمانهم مستحقين للثواب، وكون الكفار مبطلين ظالمين فيما فعلوا مستحقين اللعن والعذاب ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يجازي كلاً على حسب ما عمل من خير أو شر والجملة تذييل أو حال من مفعول يؤمنوا وجملة ما نقموا معترضة أو حال من شهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ أي عذبوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الموصول شامل لأصحاب الأخدود وغيرهم سواء كانوا مؤمنين أو كفاراً والمؤمنون يعم المطروحين في الأخدود وغيرهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ من تلك المعصية ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة، يعني هم مستحقون العذاب بتعذيبهم وذلك لا ينافي المغفرة إن كانوا مؤمنين ويحتمل أن يكون المراد بالموصول الكفار فقط للملاحظة الحيثية في المؤمنين يعني الذين فتنوا المؤمنين لأجل إيمانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ تأكيد لما سبق أو المراد لهم عذاب الحريف في الدنيا فإن من الغالب أنه من حفر بيراً لأخيه فقد وقع فيه وقد مر في ما سبق أنها خرجت النار إلى من على شفر الأخدود ومن الكفار فأحرقتهم وأن ذو نواس غرق في البحر وجملة إن الذين فتنوا مستأنفة، كأنه قيل ما يفعل بأصحاب الأخدود وأمثالهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّلِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ يصغر بالنسبة إليها الدنيا وما فيها.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي أخذه بعنف ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لا يمكن مداعفته هذه الجملة متصلة بجملة إن الذين فتنوا كأنها تعليل لها، وجملة إن الذين آمنوا معترضة بينهما لذكر جزاء المؤمنين رديف الجزاء الكفار كما هو عادة الله تعالى في المثال ﴿إِنَّهُ﴾ أي ربك ﴿هُوَ

يُبْدِئُ﴾ الخلق ﴿وَيُعِيدُ﴾ لا إله غيره حتى يمكنه دفع بطشه أو المعنى يبدء البطش بالكفار في الدنيا ويعيده في الآخرة ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاعه والمحبوب إليهم ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ قال العرش مالكه القاهر على كل شيء ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالجر صفة للعرش ومجده وعظمته وكونه مطرحاً لتجليات رحمانية مختصة به والباقون بالرفع على أنه خبر بعد خبر لهو ومجده تعالى كونه عظيماً في ذاته وصفاته واجباً وجودة تاماً قدرته وحكمته ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ لا يعجزه شيء ولا يمنع عليه ما أراد خبر بعد خبر لهو أو خبر مبتدأ محذوف أي هوفعال لما يريد وجملة أنه هو يبدء ويعيد الخ معترضة مادحة لله تعالى يوضح ما يفعل بالمؤمنين من المغفرة والمودة وبالكافرين من أنواع التعذيب ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ استفهام للتقرير بمعنى قد أتاك ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الكافرة الذين يجندوا على الأنبياء ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الجنود ويحذف المضاف أي جنود فرعون ﴿وَثَمُودَ﴾ أمثالها أنهم أهلكوا بالغرق أو الصيحة أو نحو ذلك ثم أدخلوا ناراً واصبر على تكذيب قومك وحذرهم بمثل ما أصاب من كان من قبلهم أمثالهم في الكفر ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قومك أولى بنزول العذاب من الجنود الماضية والأمم الخالية، فإنهم سمعوا قصة السابقة ورأوا آثار هلاكهم ومع ذلك هم ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ عظيم للقرآن أضد من تكذيبهم مع أنه معجز نظمه دون الكتب السابقة والتنكير للتعظيم، وقيل: بل هنا ليس للإضراب بل ابتدائية بمعنى لكن والجملة للاستدراك متصلة بجواب القسم وما بينهما معترضات وجه الاتصال أنه لما اتضح جواب القسم بالقسم نشأ تصديق السامعين من الكفار فلدفع هذا الوهم استدرك وقال بل الذين كفروا أي لكن الذين كفروا في تكذيب وقوله في تكذيب ظرف اعتباري فإن الصفة يعتبر محيطاً بالموصوف بناء على المبالغة ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ إحاطة ذاتية بلا كيف مستكرماً لقربه وقهرمانه فهو عالم بأحوالهم قادر على الانتقام منهم لا يمكن أن يفوتوا والجملة معترضة للوعيد أو حال من فاعل الظرف المستقر في تكذيب ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ كريم شريف عالي الطبقة في الكتب وحيد معجز نظمة ومعناه والجملة معناه متصل بقوله بل الذين كفروا في تكذيب، يعني ليس تكذيبهم على شايبة من الحق بل هو يعني فاكذبوا أن لا ينبغي أن يكذب به من له أدنى شعور في النظم والمعنى ﴿فِى لَوْحٍ﴾ أخرج الطبراني عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء وصفحاتها من ياقوت حمراء قلمه نور وكتابته نور، الله في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء» روى البغوي بسند عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام

ومحمد عبده وسوله فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة قال: واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق إلى المغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوته حمراء وقلمه نور وكتابه نور وكل شيء فيه مسطور وقيل: أعلاه معقود بالعرش وأصله في حجر ملك، قال مقاتل اللوح المحفوظ عن يمين العرش ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾ قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لوح فإنه محفوظ من الشياطين ومن الزيادة والنقصان ولذلك سمي باللوح المحفوظ وهو أم الكتاب ومنه نسخ الكتاب وقرأ نافع بالرفع على أنه صفة القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1] فلا يجوز أي لا يمكن فيه الإلحاق لحفظه تعالى وأيضاً لإعجاز نظمه ولا التحريف ولا الحذف وقالت الروافض ألحق بالقرآن ما ليس منه وحذف منه بقدر عشرة أجزاء من أربعين جزء فبقيت ثلاثون جزء مغيرة محرفة فعليهم قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾ لما بين دفتي المصحف والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

سورة الطارق

مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾

قال الكلبي أتى أبو طالب النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلأ ما، ثم ناراً ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال رسول الله ﷺ «هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله عز وجل» فعجب أبو طالب فأنزل الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١)﴾ وهو في الأصل لسالك الطريق واختص عرفاً بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي وفيه الإجمال ها هنا فسره فيما بعد ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢)﴾ فإنه مجمل ويحتمل أن يكون الاستفهام لتعظيم أمره فإن فيه منافع كثيرة من طرق الشياطين وزينة السماء وتخويف العباد وغير ذلك وجملة ما الطارق في محل المفعول الثاني لإدراك ثم فسر الجمل، فقال ﴿النَّجْمُ﴾ اللام للجنس والمراد به جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها أو للعهد والمراد به الثريا كذا قال ابن زيد والعرب تسميه النجم، وقيل: هو الزحل ﴿الثَّاقِبُ﴾ فمن قال المراد بالنجم الزعل قال إنم سمى به لارتفاعه قال العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً قد ثقب وهذا لا يستقيم إلا على قول الحكماء القائلين بكون الزحل في السماء السابعة والظاهر أن المراد بالثاقب المعنى المتوهج كذا قال مجاهد كأنه يثقب الظلام لضوئه فينفذ فيه ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما بتشديد الميم بمعنى إلا على لغة هذيل استثناء مفرغ فعلى هذا أن نافية والمعنى ما كل نفس كائناً على حال إلا على حال ثبوت حافظ عليها والباقون بالتخفيف فعلى هذا أن

مخففة من المثقلة واسمها ضمير الشأن محذوف فاصلة وما مزيدة يعني أنه كل نفس من البشر ثابت أو ثبت عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصى عليها ما يكتب من خير أو شر، قال ابن عباس هم الحفظة من الملائكة وقيل حافظ يحفظها من الآفات فإذا استوفى رزقها وأجلها ماتت والمراد بحافظ الجنس حتى يصدق على الواحد الكثير فلا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾[1] بصيغة الجمع أو المراد لحافظ ها هنا هو الله سبحانه والحفظة أن يحفظوا بأمره فيضاف فعلهم إليه تعالى والجملة على القراءتين جواب للقسم أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أن أبا أسد كان يقوم على الأديم فيقول يا معشر قريش من أذى النبي ﷺ عنه فله كذا ويقول إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر فأنا كفيكموهم وحدي عشرة واكفوني تسعت فنزلت ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ الفاء للسببية، فإن وجود الحفظة سبب لوجوب المراقبة على أعماله حتى يستدل به على صحة إعادة فيستوجب الإيمان بالله ورسوله والإتيان بما أمر به من الأعمال والانتهاء عما نهى عنه ومن ابتدائية وما استفهامية والجار والمجرور متعلق بخلق نائب مناب فاعله والجملة في محل النصب بالمفعولية من النظر أي في جواب هذا السؤال الحاصل بالنظر فقال ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ﴾ أي مني والمراد به الممزوج من المائين ماء الرجل وماء المرأة ﴿دَافِقٍ﴾ صفة لماء أسند الدفق إلى الماء مجازاً وكما في عيشة الراضية أي مرضية فهو فعلبمعنى المفعول أي مدفوق والدفق هو الصب بمرة فالإسناد على الحقيقة ﴿يَخْرُجُ﴾ صفة أخرى لماء﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ صلب الرجل أي ظهره، قال في الصراح الصلب الشديد باعتبار الشدة سمى الظهر صلباً ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي ترائب المرأة في القاموس الترائب عظام الصدر وما وليَ الترقوتين أو مابين الثديين والترقوتين أو أربع أضلاع من يمين الصدر وأربع من يسرته أو لليدان والرجلان والعينان أو موضع القلادة، في البيضاوي أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد بأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها عند البيضتين والدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها لذلك تشيع وتسرع الفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع وهو في الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب هما أقرب إلى أوعية المني فذلك خصاً بالذكر ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير راجع إلى الخالق المفهوم، من قوله خلق من ماء ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي إعادته بعد الموت كذا قال قتادة ﴿لَقَادِرٌ﴾ لإمكان الإعادة فمن خلق أولاً فلا يجوز إنكاره بعد ما أخبر به مخبر صادق شهد المعجزة على صدقة والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٠.

متعلق برجعه أو بمضمر دل عليه رجعه أي يبعث الإنسان يوم يظهر الخفايا من الأعمال والعقائد والنيات والضمائر يعني يوم القيامة، قال ابن عمر يبدىء الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في وجوه ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي للإنسان المنكر للبعث والفاء جزاء لشرط مقدر تقديره فإذا ارجع فماله ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ منعة في نفسه يمتنع بها من العذاب ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعنيه ويدفع عنه العذاب ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ قسم آخر معطوف على القسم السابقة ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي المطر سمي لأنه يرجع كل عام ويتكرر الكواكب فيها إلى موضع من السماء الذي يتحرك منها بعدم يوم وليلة أو بعد شهر أو بعد سنة ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ أي الشق بالنبات والعيون ونحو ذلك وجواب القسم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فأصل بين الحق والباطل ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ باللعب والباطل بل هو جد كله فمن حقه يرتفع قارئه وسامعه من أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح وأن يخشع له القلب ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي أهل مكة ﴿يَكِيدُونَ﴾ النبي ﷺ ﴿كَيْدًا﴾ ويظهرون ما هم على خلافه أو المعنى أنهم يحيلون في إبطال أمر النبي ﷺ وإطفاء نور الحق حيلة ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ كيد الله استدراجه إياهم من حيث لا يعملون أو المعنى أجزيهم في الآخرة جزاء كيدهم وجملة ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ مستأنفة كأنه في جواب سائل فما شأن منكري البعث ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولا تشتغل بالانتقام منهم أو لا تستعجل بإهلاكهم بالدعاء عليهم، وهذا منسوخ بآية القتال على تقدير النهي عن الانتقام منهم ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ تأكيد لمهل والتأكيد مع تغير البناء لزيادة التسكين أو التحسين في اللفظ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ أي أرواداً أي إمهالاً يسيراً أو رويداً تصغير أي الأرواد بحذف الزوائد ويسمى تصغير ترخيم مشتق من راودت الريح ترود روداً إذا تحركت حركة ضعيفة ولا يستعمل بها إلا مصغرة، قال ابن عباس هذا وعيد من الله عز وجل قد أخذهم الله يوم بدر، والله أعلم.

سورة الأعلى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ أي نزه اسم ربك عن إلحاد فيه وإطلاقه على غيره أو المعنى نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له معظم ولذكره محترم وأن لا تسميه باسم من قبل نفسك بل سمي به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه، وقيل: أريد بالاسم الذات المسماة كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾(١) أي مسميات وقيل: لفظ الاسم مقحم والمعنى سبح ربك الأعلى ونزهه عما يصفه الملحدون وهذا أمر بالتسبيح قولاً قال البغوي يعني قل سبحان ربي الأعلى وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين واحتج عليه البغوي بما رواه بسند عن ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال: سبحان ربي الأعلى وقال قوم أمر بالتنزيه مطلقاً قولاً واعتقاداً وعملاً ولا وجه للتخصيص بالقول والحديث المذكور لا يصلح حجة للتخصيص بالقول بل التسبيح باللسان بمواطأة القلب أحد محتملاته وقول من غير مواطأة القلب لا يعتاد به، قال البغوي قال ابن عباس سبح أي صل بأمر ربك الأعلى فهو أمر بالصلاة ويحتمل أن يكون أمراً بالتسبيح باللسان في الصلاة يدل عليه ما ذكرنا في سورة

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

الحاقة من حديث عقبة بن عامر «اجعلوها في سجودكم»[1] وحديث حذيفة كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده سبحان ربي الأعلى وحديث ابن مسعود وقد ذكرنا.

مسألة:

تسبيحات الركوع والسجود هناك فلا نعيدها وتوصيفه بالأعلى إشارة إلى موجب التسبيح فإن علو شأنه عن إدراك العقول وكما قال قهرمانه واقتداره بمنع عن تسميته بشيء إلا بما وصف به نفسه ويوجب تنزيهه عما وصف به الملحدون سبحانه ما أعظم شأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حذف المفعول للدلالة على العموم أي خلق كل شيء من الجواهر والأعراض وأفعال العباد ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي جعل كل شيء متناسب الأجزاء غير متفاوت أو المعنى سوى ما شاء تسويه بحيث لا يتطرق إليه تصور مما خلق لأجله من منفعة ومصلحة أو المعنى سوى مجموع الخلق على ما يقتضيه النظام الجملي ومن ثم قالوا ليس في الإمكان أبدع مما قد كان يعني بحسب النظام ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي بتجفيف الدال يعني هو قادر على كل ممكن والباقون بالتشديد وقال البغوي هما بمعنى واحد أي قل أجناس الأشياء وأتراعها وأشخاصها ومقاديرها صفاتها وأفعالها وأرزاقهاوآجالها على ما يشاء عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وكان عرشه على الماء»[2] رواه مسلم وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[3] رواه مسلم ﴿فَهَدَىٰ﴾ إلى ما خلق لأجله من خير أو شر، قال مجاهد هدى الإنسان سبيل الخير والشر والسعادة وهدى الحيوان لمراتعها وقال مقاتل والكلبي عرف الذكر كيف يأتي ذكر الأنثى، وقيل: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان بوجه استخراجها منها، وقال السدي قدر مدة الجنين في الرحم ثم هدى للخروج من الرحم أو المعنى فهدى من شاء هدايته وأضل من شاء ضلالته والتقدير فهدى وأضل لكن حذف وأضل اكتفاء لقوله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[4] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَآءً﴾ يابساً متفتتاً ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود صفة لغثاء، وقيل: حال من مرعى أي

---

(١) أخرجه أبو داود في كاب: الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كل شيء بقدر (٢٦٥٥).

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٣.

أخرجه أحوى من شدة حضرته، كان النبي إذا نزل عليه جبرائيل يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله ﷺ بأولها مخافة أن ينساها فأنزل الله ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ وفي إسناده جويبر ضعيف جداً وكذا قال مجاهد والكلبي وقال: فلم ينس رسول الله ﷺ بعد ذلك شيئاً يعني سنجعلك قارياً بإلهام القراءة كما أنزلنا عليك بلسان جبرائيل، وقيل: لا تنس والألف مزيد الفاصلة عن أبي موس الأشعر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها»[١] متفق عليه، وفي الصحيحين عن ابن مسعود نحوه وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهدها أمسكها وإن أطلقها ذهبت» متفق عليه وعن سعد بن مسعد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم»[٢] رواه أبو داود والدارمي ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن ينساه والاستثناء مفرغ في محل النصب والمراد على تأويل الجمهور كما هو الظاهر ما نسخ الله تلاوته وحكمه معاً كماقال: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾[٣] والإنساء نوع من النسخ وعلى هذا التأويل في الآية المعجزة بوجهين فإن عدم النسيان مطلقاً مع أن النسيان مجبول في الإنسان معجزة وفي الأخبار فيما يستقبل ووقعه كذلك معجزة أخرى وأما على ما قيل أن لا ينسى نهي فمعنى الاستثناء أن معاهدة القرآن بقدر الطاقة البشرية واجب فإن شاء الله نسيانه مع معاهدته فهو معذور له ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ من القول والفعل ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ منهما أي يعلم السر والعلانية ويعلم جهرك بالقراءة مع جبرائيل وما دعاك إليه من مخافة النسيان ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ أي نوفقك ونهون عليك عمل الجنة ومنه القراءة على حسب ما أنزل عليك وحفظه والعمل بمضمونه، وفي الكلام قلب تقديره نيسر اليسرى لك وفيه مبالغة فإن اليسرى كان مطلوباً للنبي ﷺ فجعل طالباً له ﷺ، قلت: وهذا هو شأن المحبوبية الصرفة قال ابن عباس اليسرى عمل الخير وقيل: معناه نوفقك للشريعة السمحة الحنيفية والجملة معطوفة على سنقرءك وجملة أن يعلم يعلم الجهر وما يخفى معترضة مادحة فذكر الفاء للسببية يعني لما يسرنا لك القرآن والشريعة السمحة ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ شرط مستغن عن الجزاء بما سبق قيل: إنما جاءت الشرطية بعد تكرير التذكير وحصول اليأس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: استذكار القرآن وتعاهده (٥٠٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضائل القرآن وما يتعلق به (٧٩١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: التشديد فيمن حفظ القرآن ثم نسيه (١٤٧٣).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

عن البعض لئلا يتعب نفسه ويتلهف عليهم كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾(١) وقيل: ظاهره شرط ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم وذم لهم، وقيل: بالتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يجب إذا ظن نفعه ولذلك أمر بالإعراض عمن تولى وقيل: شرط الجملة محذوف والمراد أنه ذكر أن نفعت الذكرى أو لم ينفع كما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾(٢) وأراد الحر والبرد جميعاً ثم بعد ذلك من ينفعه فقال ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ يتعظ وينفع بها ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله تعالى فإنه يتأمل فيها ويعمل بمضمونها مخافة عذاب الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي الذكر ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي الكافر فإنه أشقى من الفاسق أو الأشقى من الكفرة لتوغله في الكفر واللام حينئذ للعهد قيل هو الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى﴾ أي يدخل ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي نار جهنم أو ما في الدرك الأسفل منها أنه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة طيبة عطف على يصلي بثم لأن التأبيد في العذاب أفزع من التصلي فهو متراخ عنه في مراتب الشدة وفي الوجود أيضاً ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي فاز ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهر باطنه عن الشرك وظاهره عن النجاسة للصلاة وماله عن الخبث بالزكاة وقلبه من الاشتغال بذكر الله سبحانه ونفسه عن الرزائل وجوارحه عن خبث المعاصي من الزكاة كتصدق من الصدقة وجملة قد أفلح مستأنفة كأنه في جواب من نجا منها ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ أخرج البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «قد أفلح من تزكى قا:ل من شهدأن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله وذكر اسم ربه فصلى قال: هي الصلاة الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها» قالت الحنفية كبر لافتتاح الصلاة فصلى ومن ثم قالوا إن تكبيرة الافتتاح ليست ركناً من الصلاة بل هو شرط عملاً بمقتضى الفاء العاطفة الدالة على المغايرة والتعقيب لايقال عطف العام على الخاص جائز إجماعاً مع كون العام مشتملاً على الخاص فكذا عطف الكل على الجزء لأنا نقول جواز عطف العام على الخاص لنكتة بلاغية وهي منعدمة في عطف الكل على الجزء ولا نظير له في الاستعمال فعلى هذا جوزوا وبناء النافلة على الفريضة وعلى النافلة وروي عن أبي اليسير جواز بناء الفرضة على النافلة أيضاً وجمهور الحنفية على منعه وكذا على منع بناء الفرض على الفرض، قلت: وكونه شرطاً لا يقتضي البناء ألا ترى أن الية شرط ولا يجوز الصلاتان بنية واحدة والوضوء شرط وكان في صدر الإسلام واجباً لكل صلاة غير أن بناء النفل على الفرض يجوز تبعاً كمن صلى الظهر خمساً ناسياً وقعد

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨١.

للأخيرة ضم إليها السادسة وسجد للسهو والركعتان نافلة، وقال الشافعي وغيره تكبيرة الإحرام ركن لأنه يشترك له كسائر الأركان وهذا آية الركنية قال الحنفية مراعاة الشرائط لما يتصل بها من القيام لا لنفسه ولذا قالوا: لو تحرم حامل النجاسة أو مكشوف العورة أو قبل ظهور الزوال أو متحرفاً عن القبلة وألقاها واستتر لعمل يسير وظهر الزوال واستقبل مع آخر الجزء من التحريمة جاز وذكر في الكافي أنها عند بعض أصحابنا ركن انتهى وهو ظاهر كلام الطحاوي فيجب على قول هؤلاء أن لا يصح هذا الفروع والله تعالى أعلم، قلت: ويحتمل أن يكون المراد بذكر اسم ربه الأذان والإقامة يعني أذن وأقام فصلى وحينئذ لا دليل على نفي ركنية تكبيرة الافتتاح وقيل: تزكى أي تصدق للفطر وذكر اسم أي كبر يوم العيد فصلى صلاته كذا قال عطاء، وقال ابن مسعود رَحِمَهُ اللهُ إمرأ تصدق ثم صلى ثم قرأ هذه الآية وقال نافع كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني يوم العيد قال: يا نافع أخرجت الصدقة فإن قلت نعم مضى إلى المصلى وإن قلت لا قال فالآن نخرج فإنما نزلت هذه الآية وفي هذا قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وهو قول أبو العالية وابن سيرين وقال بعضهم لا أدري ما وجه هذا التأويل فإن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا فطر، قال البغوي يجوز أن يكون النزول سابقاً عن الحكم قال الله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾[(١)] فإن السورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح وكذا نزل بمكة ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾[(٢)] قال عمر بن الخطاب لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر قلت سيهزم الجمع صيغة الاستقبال فلا محذور في نزوله سابقاً وأما هنا فقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ صيغة لا يتصور الحكاية عن شيء من قبل وجوده، وقيل المراد بالصلاة ها هنا الدعاء فإن من سنة الدعاء الثناء على الله أولاً وآخراً عن فضالة قال: بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل وصلى فقال: اللهم اغفر لي وارحمني قال رسول الله ﷺ: «عجلت أيها المصلي إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصل علي ثم ادعه قال: ثم صلى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلى على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أيها المصلي ادع تجب»[(٣)] رواه الترمذي وروى أبو داود والنسائي نحوه، عن عبد الله بن مسعود قال: كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلما

(١) سورة البلد، الآية: ٢.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات.

جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصلاة على النبي ﷺ ثم دعوت لنفسي فقال النبي ﷺ: «سل تعط» رواه الترمذي، قال الشيخ الأجل يعقوب الكرخي ﷺ إن في الآية إشارة إلى منازل السلوك الأول التوبة والتزكية بقوله قد أفحلح من تزكى والثاني المداومة بالذكر اللساني والقلبي والروحي والسري بقوله وذكر اسم ربه والثالث بالمشاهدات بقوله فصلى فإن الصلاة معراج المؤمنين قال رسول الله ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»[1] رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي، قلت: وأيضاً في عطف الذكر على التزكي بالواو وعطف الصلاة عليه بالفاء إشارة إلى ما ذكر المجدد من الترتيب في أذكار الطريقة حيث عين للمبتدي الذكر باسم الذات أو النفي والإثبات في أثناء تزكية النفس وقال: إن الصلاة لا تقيد فائدة تامة إلا بعد تزكية النفس وفي التجليات الذاتية والترقي هناك بالصلاة والله تعالى أعلم ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الأشقياء والباقون بالتاء على الخطاب لهم على سبيل الالتفات أو على إضمار قل جملة بل تؤثرون على محذوف أي وهم يعني الأشقياء لا يزكون وأنتم أيها الأشقياء لا تزكون ولا تذكرون اسم ربكم ولا يصلون بل توترون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الحياة الأخرى ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ فإن نعمها ذات بالذات خال عن الغوائل وأجل نعمها الروية والوصال ورضوان الله ذي الجلال ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي الانقطاع لها بخلاف الدنيا، وهذه الجملة حال من فاعل تؤثرون ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني ما ذكر من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ إلى آخر أربع آيات ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي الكتب السماوية على الأنبياء والماضيين فإنه جامع أمور الديانة وخلاصة الكتب كلها ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بدل بعض تخصيص بعد التعميم أمال حمزة والكسائي أواخر السورة وورش وأمال أبو عمرو الذكرى واليسرى وما عداها بين بين والباقون بالفتح، أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ قال النبي ﷺ كان هذا وكل هذا في صحف إبراهيم وموسى وقيل: هذا في إن هذا إشارة إلى ما في السورة كلها واستدل بعض الحنفية بهذه الآية على جواز قراءة القرآن في الصلاة بالفارسية لأن الله سبحانه أمر بقراءة ما تيسر من القرآن ثم قال: إن هذا لفي الصحف الأولى وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] ولم يكن في الصحف الأولى بهذا

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

النظم بل بالمعنى، قلت: هذا ليس بشيء فإن القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾(٢) يعني في النظم فإنه هو المعجز في كل سورة غالباً ولذا جاز مس المحدث والجنب وقراءة الجنب والحائض ترجمة القرآن بالفارسية والإشارة إلى المعنى في هذه الآية وكذا إرجاع الضمير إلى القرآن من حيث المعنى مجازاً لايستلزم كون القرآن اسماً للمعنى فقط والله تعالى أعلم. عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة سبح اسم ربك الأعلى» رواه أحمد، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين يوتر بعدهما سبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وفي الوتر بقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس»(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وفي حديث أبي بن كعب عند أبي داود والترمذي وحديث ابن عباس عند أبي داود والنسائي وأحمد وابن ماجه وقال: إذا صلى الوتر ثلاثاً يقرأ في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد، وعن النعمان بن بشير قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين والجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية»(٤) رواه مسلم وروى أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث سمرة أنه ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية.

فائدة: في هذه السورة تأثير عظيم في العروج كما أن في سورة ألم نشرح تأثير قوي في النزول كذا قال المجدد رضي الله عنه، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الوتر، باب: ما جاء فيما يقرأ في الوتر (٤٥٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: قيام الليل وتطوع النهار، باب: نوع آخر من القراءة في الوتر (١٧٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: ما يقرأ في الوتر (١٤٢٢).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: ما يقرأ في صلاة الجمعة (٨٧٨).

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ استفهام تقرير أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ أي الساعة التي تغشى كل شيء بالشدائد والأهوال، وقيل: المراد بالغاشية النار قال الله تعالى ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1] لكن تعقيبها بذكر الكفار والمؤمنين بقوله وجوه يومئذ يدل على صحة التأويل الأول ﴿وُجُوهٌ﴾ تنوينه للتكثير أو عوض عن المضاف إليه أي وجوه كثيرة أو وجوه الكفار فصح جعلها مبتدأ لأنه مخصصة أو في قوة المعرفة والمراد بها أصحاب وجوه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه وأجري عليه من الأخبار ما كانت جارية على المضاف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق بغاشية أي يوم إذا كانت الغاشية وجوه ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلة من الحزن والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ يعني في النار والنصب التعب، قال الحسن لم تعمل لله في الدنيا فاعملها وانصبها في النار بمعالجة السلاسل والأغلال وبه قال قتادة وهو رواية العوفي عن ابن عباس قال ابن مسعود يخوض في النار كما يخوض الإبل في الوحل وقال الكلبي يجرون على وجوههم في النار، وقال الضحاك يرتقي جبلاً من حديد في النار، وقيل: معناه الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين حق من عبده الأوثان وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلالته يدخلون

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٠.

النار يوم القيامة وهو قول سعيد بن جبير وزيد بن أسلم رواه عطاء عن ابن عباس وقال عكرمة والسدي عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في الآخرة في النار ﴿تَصْلَىٰ﴾ قرأ أبو عمر وأبو بكر تصلى بضم التاء والباقون بفتح التاء ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ قال ابن عباس قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال يعني ما انتهى حرها فلا يكون فوقه حر، وأخرج البيهقي عن الحسن أنه قال كانت العرب يقول للشيء إذا انتهى حره حتى لا يكون شيئاً أحر منه قد أتى حره فقال الله سبحانه من عين آنية، يقال قد أوقدت عليها في جهنم منذ خلقت يأتي حرها، قال المفسرون وردوا إلى جهنم وردوا عطاشاً فسقوا من عين آنية لو وقعت منها قطرة على الجبال الدنيا لذابت ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ أخرج عبد الله بن أحمد من طريق نهشل عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الضريع شيء يكون في النار شبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار إذا أطعم صاحبه لا يدخل البطن ولا يرتفع إلى الفم فسقى بين ذلك لا يسمن ولا يغني من جوع» وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: هو الزقوم، وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب» وقد مر فيما قبل، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة نبت ذو شوكة لا بالأرض تسميه قريش الشبرق فإذا هاج العود تسميه الشريع هوا خبث طعام، قال الكلبي لا يقربه دابة إذا يبس وقال ابن أبي زيد أما في الدنيا فإن الضريع الشوك اليابس الذي ليس له ورق وهو في الآخرة شوك من نار، قال المفسرون لما نزلت هذه الآية قال المشركون إن إبلنا يسمن من الضريع وكذا في ذلك فإن الإبل إنما يرعاه ما دام رطباً وسيماً شدقاً فإذا يبس لا يأكله شيء فأنزل الله تعالى ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ صفة ضريع والمقصود من الطعام أحد الأمرين والمراد أيضاً في ليس لهم طعام إلا من ضريع أو شبه لا يسمن أو يغني من جوع كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[1] يعني ليس كاهناً أو شاعراً ونحو ذلك مما ينافي الرسالة، والمراد ههنا بعض من الكفار لا يكون طعامهم إلا من ضريع ويكون الضريع والزقوم طعام غيرهم من الكفار ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ كثيرة أو وجوه المؤمنين يعني أصحابها مبتدأ وما بعد أخبار ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ منتعمة ذات بهجة ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا في طاعة الله متعلق بقوله ﴿رَاضِيَةٌ﴾ فيالآخرة لما رأت ثوابها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ المحل والقدر ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر وبالياء المضمومة على البناء للمفعول الواحد المذكر ﴿فِيهَا لَاغِيَةً﴾ بالرفع على أنه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

مسند إليه والتأنيث غير حقيقي وقرأ نافع ذلك إلا أنه قرأ لا تسمع بالتاء التأنيث المسند إليه والباقون بالتاء المفتوحة على البناء للفاعل والضمير للمؤنث راجع إلى وجهه أو للخطاب مع النبي ﷺ والمخاطب غير معين وقرأ لاغية بالنصب على المفعولية يعني لا تسمع لغواً وباطلاً وكلمة ذات لغو المراد نفساً تلغوا فإن كلام أهل الجنة للذكر والحكمة، أخرج البيهقي في هذه الآية قال: لا تسمع صفة لجنة بعد صفة وكذا الجملة بعدها ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ لا يقطع جريانها والتنكير للتعظيم أخرج ابن حبان والحاكم والبيهقي والطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من جبل مسك» ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ رفيعة السمك والقدر، أخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «في قوله تعالى (وفرش مرفوعة) قال: «ما بين الفراشين كمابين السماء والأرض» ولفظ الترمذي «ارتفاعها كما بين السماء الأرض مسيرة خمسمائة»[1] قال الترمذي قال بعض أهل العلم في تفسيره معناه أن الفرش في الدرجات كما بين السماء والأرض، أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال: لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفاً وأخرج الطبراني عنه مرفوعاً «لو طرح منها فراش من أعلاها لهوى إلى قرارها مائة خريف» قال البغوي قال ابن عباس ألواح السرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم يرتفع لى مواضعها ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب أخرج هناد عن مجاهد قال: التي ليست لها أذن يعني لا عروة له ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ على حافة العيون معدة للشرب ﴿وَنَمَارِقُ﴾ جمع نمرقة بالفتح والضم ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بضعها إلى جنب بعضها أيما أراد أن يجلس جلس واستند ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بسط عريضة فاخرة جمع زربية ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطة أو متفرقة في المجالس أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فكذبوه فأنزل الله تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة (٢٥٤٠).

﴿إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ قال صاحب المدارك لما أنزل الله فيها سرر مرفوعة الخ وفسره النبي ﷺ بأن ارتفاع السرائر كذا والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها وطول النمارق كذا وعرض الزرابي كذا أنكر الكفار، وقالوا كيف يصعد على تلك السرر وكيف يكثر الأكواب هذه الكثرة وطول النمارق هذا الطول وبسط الزرابي هذا الانبساط ولم تشاهد ذلك في الدنيا قال الله تعالى: (أفلا ينظرون) نظر اعتبار استفهام للتوبيخ والفاء للعطف والمعطوف عليه محذوف تقديره تعجبون ويغفلون أفلا ينظرون ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ طويلة ثم يبرك لركوب لم تقوم فكذا سرر يطأطأ للمؤمنين كما يطأطأ الإبل ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ رفعاً بعيداً ونجومها تكثير هذه الكثيرة فلا يدخل في حساب الخلق فكذا الأكواب ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾ راسخة لا تميل مع طولها فكذا النمارق ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ سطحاً مستوياً واحداً فكذا الزرابي ويجوز أن يكون المعنى أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات الشاهد على كمال قدرة الخالق فيستدلوا به على اقتداره على البعث فيسمعوا إلى إخبار مخبر الصادق الصدوق بشهادة المعجزات وليؤمنوا به ويستعدوا للغاية وتخصيص الإبل من المركبات والثلاثة من البسائط لأن الخطاب للعرب والمراد إنما يستدل به بما يكثر مشاهدته والعرب تكون في البوادي ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل كان الإبل أعز أموالهم وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر الحيوانات وهي تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان من النسل والدر والحمل والركب والأكل بخلاف غيرها فقال أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث جعلها مع عظمها باركة للحمل ناهضة بالحمل منقادةً من أقوادها طويلة الأعناق ليتناول الأوراق من الأشجار ولترعى كل نابت ويحتمل العطش إلى عشرة فصاعداً ليتأتي بها قطع البوادي، وقيل: المراد بالإبل السحاب قال في القاموس الإبل بكسرتين ويسكن بالمعروف السحاب الذي يحمل ماء المطر والله تعالى أعلم عن ابن عباس قال: هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل وليرفع مثل السماء وينصب مثل الجبال ويسطح مثل الأرض غبرى ﴿فَذَكِّرْ﴾ لهم بالأدلة ليتفكروا فيها ولتهتم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للتذكير أي ليس عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا إنما أنت عليك البلاغ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ تأكيد لمضمون إنماأنتَ مذكر قرأ هشام

بمسيطر بالسين وحمزة بخلاف عنه والباقون بالصاد خالصة أي لست بمسلط عليهم قائم وحافظ عليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[1] ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان وكفر بالله استثناء منقطع معنى لكن والخبر محذوف يعني لكن من تولى منهم ﴿وَكَفَرَ﴾ فالله مسلط قاهر عليه ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ بالنار في الآخرة وقيل: استثناء متصل كأنه أوعد بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقيل: استثناء متصل من الضمير المنصوب المحذوف في قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني فذكرهم إلا من تولى منهم وكفر وآخر طلبه بحيث انقطع طمعك في إيمانه وما بينهما إعراض ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾رجوعهم وتقديم الظرف لتشديد الوعيد يعني ليس إيابهم إلا إلى جبارقها متعذر على الانتقام ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ فنحاسبهم ونجازيهم على حسب غلوهم في الكفر وعلى في الأصل للوجوب واستعير ها هنا لتأكيد الوعيد إذ لا يجب على الله شيء فإن الوجوب ينافي الألوهية، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة ق، الآية: ٤٥.

سورة الفجر

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ أقسم الله تعالى بالفجر أي انفجار صبح كل يوم كذا روى أبو صالح عن ابن عباس وهو قول عكرمة وقال عطية هو صلاة الفجر، وقال قتادة هو أول فجر المحرم ينفجر منه السنة وقال الضحاك فجر أول يوم من ذي الحجة لأنه قرن به الليالي العشرة ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ تنكير للتعظيم روى عن ابن عباس أنها العشر الأول من ذي الحجة وهو قول قتادة ومجاهد والضحاك والسدي والكلبي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد فيها من عشر ذي الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر»[(١)] رواه الترمذي وابن ماجه بسند ضعيف وقال أبو روق عن الضحاك هي العشر الأول من شهر رمضان وروى أبو ظبيان هي العشر الآخر من شهر رمضان وقد ذكرنا فضائل رمضان في سورة البقرة وأيضاً في العشر الأخير ليلة القدر وسنذكرها في سورة ليلة القدر إن شاء الله تعالى، وقال يمان بن رباب هي العشر الأول من المحرم التي عاشرها يوم عاشوراء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٢).

الفريضة صلاة الليل»(١) رواه مسلم ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الواو والباقون بالفتح قيل: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾(٢) والوتر الواحد روى ذلك عن أبي سعيد الخدري وهو قول عطية والعوفي وقال مجاهد ومسروق نحوه فقال: الخلق كله شفع يعني يقابل بعضها بعضاً قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾(٣) الكفر والإيمان والهدى والضلال والسعادة والشقاوة والليل والنهار والسماء والأرض والبر والبحر والشمس والقمر والجن والإنس والذكر والأنثى والوتر هو الله أحد.

سئل أبو بكر عن الشفع والوتر؟ قال: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين الحياة والموت والعز والذل والعجز والقدرة والقروة والضعف والعلم والجهل والبصر والعمى والسمع والبكم والكلام والسكوت والغنى والفقر والوتر انفراد صفات الله تعالى حياة بلا موت وعز بلا ذل وقدرة بلا عجز وقوة بلا ضعف وعلم بلا جهل وكلام بلا سكوت وغنا بلا فقر وقال الحسن وابن زيد الشفع والوتر الخلق كله شفع ومنه وتر، وروى قتادة عن الحسن قال: هو العدد منه شفع ومنه وتر قال: هي الصلاة منها شفع ومنها وتر مالك عن ابن حصين مرفوعاً رواه أحمد والترمذي وعن عبد الله بن زبير الشفع النفر الأول من الحج والوتر النفر الثاني قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(٤) وقال مقاتل بن حبان الشفع الأيام والليالي والوتر يوم القيامة لا ليلة لها وقال الحسن الشفع درجات الجنة الثمان والوتر درجات النار لأنها سبع كأنه أقسم بالجنة والنار ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ إذا سار وذهب كما قال والليل إذا أدبر وقال قتادة إذا جاء وأقبل وإنما قيد بذلك لما في التعاقب من قوة الدالة على كمال القدرة ووفور النعمة الماد يسري فيه من قولهم صلى المقام بمعنى صلى فيه وأراد بالليل كل ليلة، وقال مجاهد وعكرمة هي ليلة مزدلفة. قرأ ابن كثير يسري بإثبات الياء وصلاً ووقفاً لأنها لام الفعل فلا يحذف منه وقرأ نافع وأبو عمرو بالياء وصلاً وبالحذف وقفاً والباقون بالحذف في الحالين لوفاق رؤوس الآي، سئل الأخفش عن العلة في سقوط الياء فقال: الليل ما يسري ولكن يسرى فيه فهو مصروف فلما صرف بحسبه صفة من الإعراب كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(٥) ولم يقل بغية لأنه صرف عنه باغية

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم (١٦٣).
(٢) سورة النبأ، الآية: ٨. (٣) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣. (٥) سورة مريم، الآية: ٢٨.

﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكرت ﴿قَسَمٌ﴾ التنكير للتعظيم مقنع ويكتفى في القسم والاستفهام للتقرير والجملة الاستفهامية معترضة لتفخيم شأن المقسم به فإنه من عجائب قدرة الله تعالى وبدائع حكمته ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي لذي عقل سمى العقل بذلك لأنه يحجر صاحبه عن القبائح وجواب القسم إن ربك لبالمرصاد وما بينهما اعتراض جيء لتأكيد الجواب أو الجواب محذوف وهو هؤلاء الكفار إن لم يؤمنوا كما أهلكنا عاد أو ثمود يدل عليه ما بعده ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استهفام لإنكار النفي فهو للتقرير للإثبات وللتعجب والرؤية هنا لمعنى اليقين والجملة الاستفهامية بعده في محل النصب بالمفعولية ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ كانوا أطول أعمار أو أشد قوى من هؤلاء الكفار يعني أهلكهم وسلط عليهم ريحاً دمرهم فكيف هؤلاء ﴿إِرَمَ﴾ بدل أو عطف بيان ومنع الصرف للعلمية والعجمية والتأنيث وإنها اسم قبيلة من عاد كان فيهم الملك وكانوا وكان في الأصل اسماً لأبي قبيلة وهو إرم بن عاد بن سام بن نوح عليه السلام وقال محمد بن إسحاق هو جد عاد وهو عاد بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام وعلى هذا التقرير عاد سبط إرم، وقال الكلبي إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة كان يقال عاد أرم وثمود أرم فأهلك الله عاداً ثم ثمود وبقي أهل السواد والجزيرة فعلى هذا الأقوال أرم اسم أمة، قال مجاهد ثم وصف تلك الأمة بقوله ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي ذات العدد والطوال كذا قال ابن عباس يعني كان طولهم مثل عماد قال مقاتل كان طولهم اثني عشر ذراعاً يعني من ذراع النبي ﷺ وقيل: أكثر من ذلك، وقيل سمى تلك الأمة بذلك لأنهم كانوا أهل أعمدة وخيام سيارة في الربيع فإذا أباح العود رجعوا إلى منازلهم وكان أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى وقيل: سموا ذات عماد لبناء بعضهم نشداً عمدة ورف بنائه يقال بنا شداد بن عاد على صفة لم يخلق في الدنيا مثله وسار إليه في قومه فلما كان منه على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً، وقال سعيد بن المسيب أرم ذات العماد بلدة يقال لها دمشق وقال القرطبي هي الاسكندرية فتقدير الكلام عاد أهل أرم ذات العماد أي ذات البناء الرفع وأساطين ﴿ٱلَّتِى﴾ صفة أخرى لأرم سواء كانت بلدة أو قبيلة ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي مثل ذلك الأمة في القامة والقوة أو مثل تلك البلدة في رفعة البناء والاستحكام والحسن إليها ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ وَثَمُودَ﴾ عطف على عاد ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟﴾ أي قطعوا ﴿ٱلصَّخْرَ﴾ واحدتها صخرة وهي الحجر كانوا ينحتون بيوتاً ﴿بِٱلْوَادِ﴾ أي بواد القرى أثبت ياء الوادي في الحالين البذي وكذا روى عن قنبل وفي الوصل فقط ورش وقنبل وحذف الباقون في الحالين لموافقة رؤوس الآي ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ عطف على ثمود ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ قال ابن عباس

ومحمد بن كعب القرطبي أي ذي البناء المحكم، وقيل: المراد بأوتاد الملك الشديد الثابت يقول العرب هم في العز ثابت الأوتاد ويريدون الدائم وقال عطية ذي الجنود والجموع الكثيرة وسميت الجنود الأوتاد لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويرتدونها في أسفارهم وهي رواية عطية عن ابن عباس، وقال مقاتل والكلبي الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها فكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد وشد كل يد وكل رجل إلى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت وقال مجاهد ومقاتل بن حبان كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض ثم يمد يديه ورجليه على الأرض بالأوتاد، وقال السدي كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحياة، وقال قتادة وعطاء كانت له أوتاد وملاعب يلعب عليها بين يديهس، روى البغوي بسنده عن ابن عباس أن فرعون سمي بذي الأوتاد لأنه كانت له امرأة وهي امرأة خازنة حزقيل وكان مؤمناً وكتم إيمانه مائة سنة وكانت أمرأته ماشطة بنت فرعون فبيما هي ذات يوم يمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك من إله غير أبي فقالت إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ فقالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهها وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فأرسل إليها فسألها عن ذلك فقالت: سبعين شهراً ما كفرت بالله وكانت لها ابنتان فجاء ابنتها الكبرى فذبحهاعلى فيها وقال لها أكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت من علي الأرض علي في ما كفرت بالله عز وجل فأتى فلما اضجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً فقالت: يا أماه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة، قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون إنه قد رأي في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فلما انتهيا إليه وهو يصلي وثلاثة صفوف من الوحوش خلفه يصلون فلما رأى ذلك انصرفا قال حزقيل اللهم كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار فانصرف رجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ فقال: وهل كان معك غيرك؟ قال: نعم فلان فدعا به، فقال: أحق ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل

وأما الآخر فقتله ثم صلبه وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها: آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت: كيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها فقالت: يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثه عمدت إلى الماشطة فقتلتها فقال: فلعل بك الجنون الذي كان بها؟ قالت: ما بي جنون وإن إلهي وإلهها وإلهك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فمزق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما ألا تريان أن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربي وربك رب السماوات والأرض واحد لا شريك له فقال أبوها يا آسية ألست من خير نساء عماليق وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك إن كان ما تقول حقاً فقولا لأن يتوجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله فقال لهما فرعون أخرجا عن أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله فقبض الله روحها وأسكنها في الجنة انتهى، وامرأة فرعون هذه هي التي منعت فرعون عن قتل موسى عليه السلام حين التقطه آل فرعون من اليم وقد ألقاها بإذن ربها حين خافت القتل على موسى وذكر القصة في سورة القصص ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾(١) وقد نفعهما الله به حيث آمنت ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مجرور صفة للمذكورين أو منصوب على الذم أو مرفوع خبر مبتدأ ومحذوف أي هم الذين ﴿طَغَوۡاْ﴾ أي جاوزوا في الحد والعصيان ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ متعلق بطغوا، ﴿فَأَكۡثَرُواْ﴾ عطف على طغوا ﴿فِيهَا﴾ أي في البلاد ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ بالكفر والظلم ﴿فَصَبَّ﴾ عطف على طغوا والفاء للسببية ﴿عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي عذاباً مختلطاً بعضها ببعض فهي إضافة صفة إلى موصوفها كأخلاق ثياب وأصل السوط الخلط ومنه يقال السوط للحد لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض وشبه بالسوط ما حل بهم في الدنيا من العذاب إشعاراً بأنه بالقياس إلى ما أعدلهم في الآخرة من العذاب كالسوط إذا قبس بالسيف وقال قتادة يعني سوطاً من العذاب صبه عليهم، وقال أهل المعاني هذا على الاستعارة لأن السوط عندهم غاية العذاب فالمعنى أنه دفع العذاب بهم على أبلغ الوجوه دفعة واحدة كما يشير به الصب ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ جواب للقسم أو بجواب محذوف والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد وكونه بالمرصاد كناية من أنه تعالى يريد من العباد الطاعة والسمع لأجل الآخرة فيترصد أعمالهم

(١) سورة القصص، الآية: ٩٠.

ويحيط بحث لا يفوته شيء منها كما لا يفوت ممن يرصد في المرصاد من يمر بها يجازيهم عليها والإنسان غافل عن ذلك لا يهم إلا لدنيا ولذاتها ولذلك عطف عليه قوله:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا
ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ
عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا
﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ
بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ
لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي امتحنه بالغنى واليسرى حتى يظهر أنه يشكر المنعم أو يكفر والظرف متعلق بيقول ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ في الدنيا بالجاه ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالأموال والأزواج والأولاد وغير ذلك بيان للابتلاء ﴿فَيَقُولُ﴾ أخبر للإنسان والفاء بمعنى الشرط في إفادته معلولية القول ﴿رَبِّىٓ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بسكون الياء والباقون بالفتح، وكذا في ربي أهانن ﴿أَكْرَمَنِ﴾ أي فضلني بما أعطاني أثبت الياء في أكرمني وأهانني يعقوب والبزي وصلاً ووقفاً ونافع في الوصل فقط وجر فيها أبو عمرو قياس قوله في رؤوس الآي يوجب حذفها في الحالين قال أبو عمر الدالاني بذلك قرأت وبه أخذوا والباقون حذفها في الحالين ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي امتحنه بالفقر حتى يظهر أنه يصبر ويرجع إلى الله تعالى أو يجزع ويكفر متى غير رجوع إليه تعالى ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر قدر بالتشديد والباقون بالتخفيف فقيل أولى بمعنى قتر والثاني بمعنى أعطاه ما يكفيه، وقيل: معناهما واحد أي ضيق ولم يقل ها هنا أهانه وقدر عليه رزقه كما قال: هناك فأكرمه ونعمه لأن توسعته المال في الدنيا تفضل يوجب الشكر وقد يكون موجباً للإكرام في الآخرة أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا على اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»[1] متفق عليه، وأما التقتير فلا يكون إهانة فقط ﴿فَيَقُولُ﴾ الإنسان ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: من يقوم بالقرآن يعلمه (٨١٦).

ويقول ذلك لقصور نظره على الدنيا وانهماكه فيها، قال الكلبي ومقاتل نزلت في أمية ابن خلف الجمحي الكافر والله تعال أعلم ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كما يقول فإن الغنى والنعام الدنيوية قد يكون استدراجاً من الله إذا لم يقترن بالشكر بل مع الشكر أيضاً لا تقبل عند الله للغني الشاكر على الفقير الصابر، عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه فقال رسول الله ﷺ: «هل تُنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[١] رواه البخاري، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأبعين خريفاً»[٢] رواه مسلم، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم»[٣] رواه الترمذي والفقر والضعف إذا اقترن بالصبر والرضا يكون نعمة لا إهانة عن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء»[٤] رواه أحمد والترمذي وفي الباب أحاديث كثيرة ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ بالنفقة ولا تحبون إليه مع أن الله تعالى أكرمكم بالغنى، وقيل: لا تعطونه حقه عطف على يقولون يعني بل قولهم دال على انهماكهم في الدنيا حيث لا يكرمون اليتيم قال مقاتل: كان قدامة بن بظعن يتيماً في حجر أمية بن خلف فكان يدفعه عنه حقه، قرأ أبو عمرو لا يكرمون ولا يحضون ويأكلون ويحبون بالياء عى الغيبة والضمير راجع إلى الإنسان نظراً إلى معناه الجمعي من حيث كونه جنساً وما سبق من الضمائر المفردة راجع إليه نظر إلى لفظه والباقون الأفعال الأربعة بالتاء الخطاب إليهم على سبيل الالتفات ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ قرأ الكوفيون بالألف بعد الحاء من التفاعل بحذف أحد التائين أي لا يحض بعضكم بعضاً والباقون بغير الألف أي لا تحضون غيركم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فضلاً أن تطعموا من أموالكم ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي الميراث أصله الوارث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام كانوا يأكلون مع أبضاعهم أبضاع ضعفاء من النساء والصبيان، قال ابن زيد الأكل اللم الذي يأكل شيئاً يجده لا يسأل عنه أحلال أم حرام، وقيل: يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي كثيراً مع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٢٨٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الطب، باب: ما جاء في الحمية (٢٠٣٧).

حرص وشره ﴿كَلَّآ﴾ ردع عما يفعلون وقال مقاتل أي لا يفعلون ماأمروا به أو هو بمعنى حقاً تحقيقاً لما يذكر بعده من الوعيد ويخبر عنه تحسرهم حين لا ينفعهم الحسرة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي زلزالاً بعد زلزال حتى تنكسر ما عليها من الجبال والأشجار والأبنية وصارت هباء منبثاً ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ عطف على دكت وهي من المتشابهات وقد ذكرنا ما فيها من قول السلف والخلف وأصحاب القلوب في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[1] ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ اللام للجنس أي وجاءت الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ حال من الملك، أي جاؤوايصفون صفاً بعد صف، أخرج ابن جرير وابن المبارك عن الضحاك قال: إذا كان يوم القيامة أمر الله سبحانه السماء الدنيا فنشقتت بأهلها فتكون الملائكة على حافاتها حين يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ثم الثانية ثم الرابعة والخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف ثم ينزل الملك الأعلى بجنبه اليسرى جهنم فإذا أراها أهل الأرض فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فرجعوا لى مكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[2] الآية وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] الآية، قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾[4] يعني ما تشقق منها فبينما كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ عطف على جاء، أخرج مسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[5] وأخرج ابن وهب في كتاب الأهوال عن زيد بن أسلم قال: «أتى جبرائيل إلى النبي ﷺ لتكسر الطرف فسأله علي عليه السلام فقال: أتاني جبرائيل فقال: أتاني جبرائيل فقال: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ بما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٦ ـ ١٧.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة النار (٢٥٧٣).

تقاد سبعين ألف زمام تقاد سبعين ألف ملك فبينما هم إذا خردت انفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من في الجمع فأخذوها قال القرطبي يجاء بها من المحل الذي خلقها الله فيه فيدار بأرض الحشر لا يبقى للجنة طريق إلا الصراط، وأخرج أبو نعيم عن كعب قال: إذا كان يوم القيامة فنزلت الملائكة فصاروا صفوفاً فيقول الله لجبرائيل ائت بجهنم فيأتي بها تقاد سبعين زماماً حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرت طارت بها أفئدة الخلائق ثم زفرت الثانية فلا يبقى ملك مقرب ولا بني مسر إلا جثى الركبة ثم تزفر الثالثة فبلغ القلوب الحناجر وتزيل العقول فيفزع كل امرء عمله حتى إبراهيم يقول: بخلتي لا أسألك إلا نفسي ويقول موسى بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي، وقال عيسى بما أكرمني لا أسألك إلا نفسي ولا أسألك مريم التي ولدتني ومحمد ﷺ يقول: أمتي أمتي لا أسألك اليوم نفسي فيجيب جل جلاله إن الأولياء من أمتك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فوعزتي لأقرن عينيك في أمتك فقم تقف الملائكة بين يدي الله ينتظرون ما يؤمرون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا دكت أي يوم إذا دكت الأرض، وجيء بجهنم والعامل ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر الذي قال ربي أكرمني ربي أهانن على سراء الدنيا وضرائها جزاء بمعنى الشرط في الظرف أي يتذكر معاصيه يتعظ ويتوب ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ استفهام للإنكار أي ليس له منفعة الذكر فإن من شرط قبول التوبة الإيمان بالغيب ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الإنسان تحسراً جملة مستأنفة كأنه في جواب فما يصنع حين يتذكر ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ يعني يقول يا ليتني ﴿قَدَّمْتُ﴾ في الدنيا أعمالاً صالحاً ﴿لِحَيَاتِى﴾ التي لا ينطلق إليها الموت أو اللام بمعنى الوقت والمعنى يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة وقت حياتي في الدنيا ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ عطف على يمئذ السابق والظرف متعلق بما بعده ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي كعذابه وكذا وثاقه أحد ﴿أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ قرأ الكسائي ويعقوب لا يعذب ولا يوثق بفتح العين على البناء للمفعول أي لا يعذب أحد من الناس يعني عصاة المؤمنين كعذاب ذلك الإنسان أي الكافر إن كان المراد باللام الجنس أو المعنى لا يعذب أحد كعذاب ذلك الإنسان المعهود وهو أمية بن خلف ولا يوثق أحد في السلاسل والأغلال كوثاقه والباقون بكسر العين فيهما على البناء للفاعل وحينئذ الضمير المجرور في عذابه، ووثاقه إما راجع إلى الله سبحانه والإضافة إلى الفاعل أي لا يتولى عذاب الله ووثاقه يوم القيامة أحد سواه والأمر يومئذ كله لله أي والإنسان الكافر والإضافة إلى المفعول أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه أحداً وعلى هذا التأويلات يومئذ متعلق بلا يعذب ولا يوثق على سبيل التنازع والمعنى لا يعذب أحد أحداً من الأزل إلى الأبد كعذاب الله

يومئذ ولا يوثق أحد أحداً من الأزل إلى الأبد كوثاق الله يومئذ فيومئذ وحينئذ متعلق بالمصدر أي عذابه وثاقه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا﴾ بتقدير يقال جملة مستأنفة كأنه في جواب السائل إنما ذكر شأن الكفر فما شأن المؤمن فقال وتقديره يقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ في ذكر الله تعالى وطاعته كما تطمئن السمكة في الماء وذلك الاطمئنان لا يتصور إلا بعد زوال صفاتها الرذائل الموجبة لكونه أمارة بالسوء وزوال تلك الصفات لا يمكن إلا بتجليات صفات الله الحميدة الحسناء وفنائها فيها وبقائها فتصير حينئذ مؤمنة إيماناً حقيقياً كما أن الكلب لا يمكن طهارته إلا بوقوعه في الملح وفنائه فيها وبقائه بصفات الملح حتى يصير حلالاً طيباً ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي إلى ذات البحث بلا حجب الأسماء والصفات ﴿رَاضِيَةً﴾ بالله وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وبما قدر الله لها حال من فاعل ارجعي، قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»[(١)] متفق عليه، وذاق طعم الإيمان المراد به هو الإيمان الحقيق ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ فإن رضا العبد بالله موجب لرضاء الله سبحانه عنه بل رضاء العبد أثر لرضائه تعالى ودليل عليه، قال الحسن إذا أراد الله قبضها اطمئنت ورضيت عن الله ورضي الله عنها، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقائه ومن كره لقاء الله كره الله لقائه فقالت عائشة أو بعض أزواجه إنا نكره الموت فقال ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت يبشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وأما الكافر إذا حضره الموت يبشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه ممأمامه فكره لقاء الله وكره الله لقائه»[(٢)] متفق عليه، وفي رواية عائشة والموت قبل لقاء الله، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضر المؤمن الموت أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: أخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحانه ورب غير غضبان فيخرج كأطيب ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضه بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائب يقدم عليه فيسألواماذا فعل فلان؟ فيقول: دعوه فإنه كان في غم الدنيا فيقول: قد مات أما أتاكم فيقولون قد ذهب به إلى أمه وإن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً فهو مؤمن (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من أحسب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٢٦٨٦).

الكافر إذا احتضر أتته الملائكة العذاب بمسح فيقولون أخرجي ساخطة مسخوطاً إليك أي عذاب الله عز وجل فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتون به إلى باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار»[1] رواه أحمد والنسائي وفي رواية ابن ماجه نحوه وفيه «ثم يعرج بها لى السماء فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لا يفتح لك أبواب السماء ثم ترسل من السماء ثم يصير القبور» وفي الباب أحاديث كثيرة واختلفوا في وقت هذه المقالة؟ فقال قوم يقال لها ذلك عند الموت كما دلت عليه الأحاديث وقال أبو صالح في قوله ارجعي إلى ربك راضية مرضية، قال: هذا عند خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل فادخلي في عبادي وادخلي جنتي، وقال آخرون إنها يقال لها ذلك عند البعث ارجعي إلى ربك وادخلي في أجساد عبادي يعني جسدك فيأمر الله تعالى الأرواح أن ترجعي إلى الأجساد وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس، وقال الحسن معناه ارجعي إلى ثواب ربك وكرامة راضية من الله تعالى بما أعد الله مرضية رضي عنها ربها فادخلي في عبادي أي مع عبادي جنتي، قلت سياق الآية يؤيد هذا القول يعني أنها يقال عند البعث لأن الله ذكر حال الكفار عند البعث بقوله فيومئذ لا يعذب عذابه الخ فكذلك ذكر ما يقال للمؤمنين يومئذ والأحاديث المذكورة يؤيد القول الأول والجمع بينهما أنه يقال في الوقتين جميعاً عند الموت وعند البعث، بل التحقيق أن استحقاق هذا الخطاب يحصل للنفس في الدنيا حصول الاطمئنان فيقال لها ارجعي إلى ربك مدارج قربه وتجلياته الذاتية راضية مرضية ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ أي في جملة عبادي الصالحين الذين سأل سليمان عليه السلام الدخول فيهم فقال: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] وسأل يوسف عليه السلام اللحوق بهم حيث قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3] وقال الله تعالى فيهم لإبليس ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾[4] والقاء في فادخلي للسببية فإن اطمئنان النفس وكونهاراضية مرضية سبب لخلوص العبودية لله سبحانه وذلك عن رقبة الإلهية الباطلة الهوائية ووساوس الخناسية قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[5] وقال رسول الله ﷺ: «تعس عبد

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (١٨٢٤).

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

الدينار والدراهم والقطيفة والخميصة»[١] الحديث ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ إضافة الجنة إلى الله سبحانه يقتضي خصوصاً تلك الجنة من بين الجنات كما لا يخفى، قال البغوي قال سعيد بن جبير مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته فجاءطائر لم ير على خلقه فدخل نعشه ثم لم نر خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لم يدر من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ الخ قالت: نزلت في حمزة ﷺ وأخرج من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من اشترى هذه الأمة يستعذب بها غفر الله له فاشتراها عثمان ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ الآية.

فائدة: قال بعض الصوفية: تأويل هذه الآية ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ إلى الدنيا ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ بترك الدنيا والسلوك إليه في الطريق الصوفية، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦).

سورة البلد

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

﴿لَآ﴾ زائد لتأكيد القسم إشارة إلى وضوح المقسم بحيث استغنى عن القسم ﴿أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يعني مكة ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ الجملة حال من المقسم به أقسم الله سبحانه بمكة مقيداً بحلوله ﷺ إظهاراً لمزيد فضائلها بشرف المتمكن على فضل لها في نفسها قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك من بلد وأحبك إلى الله ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»(١) رواه الترمذي عن ابن عباس، وقال: حديث حسن صحيح غريب إسناداً وكذا روى الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عدي بلفظه «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت» وقيل: معنى مستحل إخراجك فيه كما يستحل تعرض الصيد في غيرها والجملة معترضة لذم الكفار بهذا البلد فيستحلون إخراجك وقتلك فإن الله سبحانه أقسم بمكة إظهار التحريم ما وشرفها ثم قال وأنت مستحل في زعم الكفار بهذا البلد فيستحلون إخراجك وقتلك مع أنهم يحرمون قتل الصيد فيها، وقيل: معناه وأنت حلال إن تصنع فيه ما تريد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة (٣٩٣٥).

من قتل وأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم فهو وعد بما أحل الله له مكة يوم الفتح حتى قاتل فيه وأمر بقتل عبد الله بن حنظل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن خبابة وغيرهما قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السماوات الأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لن يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلا خلاها»[١] الحديث متفق عليه ﴿وَوَالِدٍ﴾ عطف على بلد والمراد آدم وإبراهيم عليه السلام أو أي والد كان ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذرية آدم عليه السلام أو الأنبياء من أولاد إبراهيم عليه السلام، أو محمد ﷺ والتنكير للتعظيم وإيثار ما على من لمعنى التعجب كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[٢] وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ اللام للجنس أو للعهد على ما قيل أنها نزلت في أبي الأشد اسمه أسيد بن كلدة بن حجر، وكان شديداً قوياً يصنع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول: من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه ﴿فِي كَبَدٍ﴾ على تقدير كون المراد من الإنسان الجنس فالمراد من كبد النصب والمشقة كذا روى عن ابن عباس وقتادة قال عطاء عن ابن عباس في شدة حمله وولايته ورضاعته وفطامه ومعاشه وحياته وموته، وقال عمرو بن دينار منه نبات أسنانه قلت: وما ذكر من المكابد يشارك فيها الإنسان وغيره من الحيوانات فتخصيصه بالذكر لأجل عقله وشعوره فإن مشقة تحمل المكائد مع كمال الشعور أشد منها ما كان وعندي أن المراد بالمكائد حمل ميثاق الأمانة التي أبى عن تحملها السماوات والأرض والجبال وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً فإن أدى ما وجب فاز ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وإن تردى في مكائد الآخرة ليعذب الله المنافقين والمنافقات والكافرين والكافرات فعلى هذا النظير الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٣] وفيه تسلية للنبي ﷺ على تحمل المكائد من قومه فيما وجد عليه من التبليغ وقال مقاتل بناء على نزول الآية في أبي الأشد أن معنى في كبد في قوة وشدة ﴿أَيَحْسَبُ﴾ الضمير راجع إلى الإنسان والاستفهام للإنكار والتوبيخ فإن كان المراد بإنسان المعهود يعني أبي الأشد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: من شهد الفتح (٤٢٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

فظاهر أن الله سبحانه أنكر على اغترار وبقوله وإن كان المراد به الجنس فالضمير راجع إليه باعتبار بعض أفراده وهو الذي كان النبي ﷺ في كبد منه أكثر من غيره وهو أبو الأشد، وقيل: الوليد بن مغيرة ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ﴾ أن مخففة من المثقلة اسمها ضمير الشأن محذوف والجملة قائمة مقام المفعولين ليحسب ﴿عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ نكرة موضع النفي للعموم كان أبو الأشد يزعم أن لا يقدر عليه ملائكة العذاب أو المراد به الأحد الصمد يعني أيحسب أبو الأشد أنه لا يقد عليه الله تعالى خلقه بهذه القوة فلا ينتقم منه ﴿يَقُولُ﴾ ذلك الإنسان حال من فاعل يحسب ومقولة القول ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي كثر جمع لبدة وهي ما تلبد وكثر واجتمع لعله كان يذكر كثرة إنفاقه مفاخرة ورياء أو بعدما أنفق في معاداة النبي ﷺ حتى يعترف بفضله كفار قريش أعدائه ﷺ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ بل الله سبانه يراه حين أنفق رياء وفي معاداة النبي ﷺ فيسأل من أين اكتسبه وأين أنفقه رياء رياء في معاداة النبي ﷺ فيسأل من أين اكتسبه وأين أنفقه فيجازيه وينتقم منه، كذا قال سعيد بن جبير وقتادة وقال الكلبي إنه كان كاذباً في افتخاره، وقوله أنفقت كذا وكذا لم يكن أنفق جميع ما قال وهذه الجملة بعد قوله أيحسب أن لن يقدر عليه أحد تأكيد التوبيخ والإنكار بمنزل النكير ثم عد الله سبحانه نعمه ليقره وليكون دليلاً وتقريراً على كون الله سبحانه مقتدراً على انتقامه فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ يبصر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يتكلم به ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ ليستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب النفخ، قال البغوي جاء في الحديث أن الله عز وجل يقول: ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك بصرك على ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك فرجك على ما حرمت عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ يعني الثديين كذا روى محمد بن كعب عن ابن عباس وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، وقال أكثر المفسرين طريقي الخير والشر والحق والباطل والهدى والضلال يعني أظهرنا له الخير من الشر بإيجاد العقل فيه وإرسال الرسل فمن ضل واختار طريق الشر بعد ذلك فلا عذر له ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ قيل لا ها هنا ليس على معناها فإنها لا تدخل على الماضي إلا مكرراً فهي بمعنى هلا والمعنى فهلا اقتحم العقبة بإنفاق ماله فيما يجوز به العقبة من الطاعات فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة النبي ﷺ والجملة معطوف يقال أهلكت مالاً لبداً، وقيل: ها هنا تكرار تقدير التعدد معنى العقبة فكان تقديره فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ولا كان من الذين آمنوا فلا ها هنا بمعناها، والجملة معطوف على جواب القسم يعني لقد خلقنا الإنسان في كبد التكليفات فلا اقتحم ما كلف به وكان عليه

الاقتحام وإتيان ما خلق لأجله أو معطوفة على مضمون ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة بإتيان الطاعات حتى يكون شكر النعم وصرفاً للنعمة فيما ينبغي. والعقبة في الأصل الطريق في الجبل استعير ها هنا المشاق التكاليف واقتحامها الدخول فيها وهذا معنى قول قتادة، وقيل: اقتحامها التجاوز عنها والخروج من عهدة ما وجب عليه فإنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها واشتغال الذمة بالواجبات بالغفلة فإذا أعتق رقبة أو أطعم مسكيناً بزكاة ماله كان كمن اقتحمها وجاوز عنها وروي عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل في جهنم، وقال الحسن وقتادة عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله وقال مجاهد بطاعة الله وقال المجاهد والضحاك والكلبي هي الصراط على جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً وهبوطاً وإن لجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في النار منكوس فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالريح العاصف ومنهم من يمر كالفارس ومنهم من يمر كالراجل ومنهم من يزحف ومنهم كالزالون ومنهم من يكردس في النار فقال: ابن زيد يقول فهلا يسلك الطريق التي فيه النجاة ثم بين ما هي فقال ما أدراك ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ فإنك لم تدر صعوبتها على النفس وكثرة ثوابها، وقال سفيان ابن عيينة كل شيء قال وما أدراك فإنه أخبر به وما قال وما يدريك فإنه لم يخبر به انتهى، فإن كان المراد بالعقبة الطاعات فلا حاجة إلى التقدير وإن كان المراد به ثقل الذنوب فالتقدير ما أدراك ما اقتحام العقبة والخروج عنها ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي فك بفتح الكاف على الماضي ورقبة بالنصب على المفعولية وأطعم بفتح الهمزة علي الماضي بناء على أن بدل من اقتحم أو بيان له وما أدراك ما العقبة اعتراض والباقون بضم الكاف ورقبة بالجر على الإضافة وإطعام بالتنوين على المصدر بناء على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي فك رقبة والمراد بفك الرقبة أعم من الإعتاق ومن أن يعين في ثمنها يريد عتقها أو يعين المكاتب أو معتق البعض في فك رقبتها. عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: علمني عملاً يدخلني الجنة؟ قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة، قال أوليسا واحداً قال: «لا عتق النسمة أن تفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها والمنحة الوكوف والفيء على ذي الرحم الظالم فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمأن وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير» رواه البيهقي في شعب الإيمان، عن

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مسلم أعتق الله بدل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه»(١) متفق عليه، وقال عكرمة قوله فك رقبة يعني من الذنوب بالتوبة ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ المسغبة والمتربة والمقربة مفعلات من مسغب إذا جاع وقرب في النسب والترب إذا أفقر أي التصق بالتراب بشدة الحاجة ووصف اليوم المسغبة مجازي والظرف متعلق بإطعام وانتصب على المفعولية يتيماً ومسيكناً ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطفع لى اقتحم أوفك وعطفيه بثم لتباعد الإيمان عن العتق والإطعام بالرتبة واستقلاله واشتراط الطاعات به ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعة والمصائب ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ عباد الله أو بموجبات رحمة الله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة الموصوفين بتلك الأوصاف ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي أصحاب اليمين والبركة في أنفسهم والجملة مستأنفة كأنه في جواب ما شأن من اقتحم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الذي نصبنا دلائل على الحق من كتاب وحجة بالقرآن ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي أصحاب الشمال أو الشؤم والتكرير ذكر المؤمنين بالإشارة والكفار بالضمير الشأن لايخفى ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا طبق أو أغلق، قرأ حفص وأبو عمرو حمزة وهناد في سورة الهمزة بالهمزة وهمزة إذا وقف أبدلها واواً والباقون بغير وحمزة وهما لغتان، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: كفارات الأيمان، باب: قول الله تعالى ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وأي الرقاب أزكى (٦٧١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: العتق، باب: فضل العتق (١٥٠٩).

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ قال مجاهد والكلبي يعني ضوءها حين تطلع الشمس فيصفو ضوئها وقال قتادة هو النهار كله، وقال مقاتل حرها في القاموس الضحية كالعشية ارتفاع النهار والضحى ويذكر ويصفر ضحاها بلا هاء والضحاء بالمد إذا قرب انتصاب النهار ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾ أي تبع طلوعه طلوع الشمس وذلك في النصف الأول من الشهر أو تبع طلوعه غروب الشمس وتبع في الاستدارة وكمال النور كذا قال الزجاج وكلا الأمرين في الليالي البيض ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾ أساد التجلية إلى النهار مجازي كما في صام نهاره والضمير المنصوب إما عائد إلى الشمس فإنها تتجلى إذا انبسط النهار وأما إلى غير مذكور يعني جلية الظلمة أو الأرض والدنيا ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾ يعني يغشى الشمس أو الآفاق أو الأرض والظروف أعني إذا تلاها وإذا جلاها وإذا يغشاها متعلقة بفعل القسم عن الجمهور، وقال في البحر المواج لا يجوز ذلك فإن الأقسام ليس في تلك الأوقات وأيضاً لا يجوز أن يكون صفة للقمر والنهار والليل فإن ظرف الزمان لا يكون صفة لأمر حسي فتأويله أن يقال بحذف المضاف وتقديره وانجلاء القمر إذا تلاها أي وقت تبيعتها للشمس وحصول النهار إذا جلاها أي وقت تجلية الشمس وحدوث الليل إذا يغشاها أي وقت غشيانها فالظرف إما صفة للمضاف فإنه اسم معنى أو متعلق به، ويحتمل أن يقال إذا ها هنا بمعنى الوقت من غير الظرفية على طريقة إذا يقوم زيد إذا يعقد عمرو فيكون

حينئذ بدل اشتمال مما قبله فيكون مقسماً به ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ومن بناها وهو الله سبحانه كذا قال عطاء والكلبي لا يقال يلزم حينئذ إساءة الأدب بتقديم القسم لغير الله تعالى على القسم بدلاً نقول فيه ترق من الأدنى إلى الأعلى وذلك هو الأدب وأوثرت ما على الإرادة معنى الوصفية كأنه قيل والشيء القادر الذي بناها ول على وجوده كما قدرته بناءها، وقال الزجاج والفراء ما مصدرية أي وبناها وكذا الكلام في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ أي بسطها وكذا الكلام في ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ أي عدل خلقها وسوى بقضائها على ما يقتضيها الحكمة، قال البيضاوي تبعاً لصاحب الكشاف جعل ما مصدرية تجرد الفعل عن الفاعل ويخيل بنظم قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ بقوله وما سواها حيث يلزم عطف الفعل على المصدر إلا أن الضمير فيها اسم الله المعلم به وقال في بحر الأمواج ألهمها معطوفة على سواها والمعنى ونفس وتسويه فألهمها فجورها وتقواها فلا يلزم ما ذكر انتهى وتنكير نفس للتكثير والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾[(١)] وللتعظيم والإفراد والمراد به نفس آدم عليه السلام، وقال عطاء يريد جميع ما خلق الله من الإنس والجن والمراد بإلهام الفجور والتقوى أن بيّن لها الخير والشر والطاعة والمعصية حتى يأتي بالخير والطاعة ويتقي عن الشر والمعصية كذا روى عن ابن عباس والمراد به إلزامها الفجور أو التقوى وخلق الميل في قلبه إلى أيهما شاء وتوفيقه إياها بالتقوى وخلق بالتقوى على يد المؤمن وخذلانه إياها للفجور وخلق الفجور يد الكافر كذا قال سعيد بن جبير وابن زيد واختاره الزجاج عن عمران بن حصين أن رجلين من مزينة قالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم؟ فقال: لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها»[(٢)] رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ «مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعاتك»[(٣)] رواه

---

(١) سورة التكوير، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب، البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

مسلم، قدم الفجور على التقوى لأن الأصل كونها أمارة بالسوء أيضاً فيه رعاية رؤوس الآي والواو الأول للقسم بالاتفاق وكذا الثانية والثالثة وما بعدها عند البعض وليست للعطف لزم العطف على معمول عاملين مختلفين في مثل قوله والليل إذا يغشاها فإن قوله الليل مجرور بواو القسم وإذا يغشى منصوب بفعل القسم المقدر فلو جعلت الواو في والنهار إذا جلاها للعطف كانت الواو قائمة مقام الفعل وحرف الجر معاً والصحيح أن كلها للعطف سوى الأولى منها فإن إدخال القسم في القسم قبل تمام الأول لا يجوز وواو العطف قائمة مقام واو القسم فقط لكن واو القسم نزلت منزلة الباء والفعل حتى لم يجز إبراز الفعل معها فصارت كأنها هي العاملة نصباً وجراً فصارت كعامل واحد له عملان فيجوز العطف على معموليه وذلك جائز بالاتفاق ونحو ضرب زيد عمرواً وبكر خالداً هذا إذا كانت الظروف متعلقة بفعل القسم، وأما على تأويل صاحب البحر فلا حاجة إلى هذا التوجيه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ الضمير المرفوع راجع إلى الله سبحانه والمنصوب إلى من باعتبار أنه عبارة عن النفس يعني فازت وسمعت نفس طهر الله تعالى عن الرذائل بتجليات أصنافه الكاملة عليها حتى صارت راضية بالله تعالى وأحكامه مطمئنة بذكره رب العالمين أي لحسابه وجزائه عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال يوم يقوم الناس ذره وطاعته محترزة عما نهى عنه وما يشغلها عنه لما أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[1] «أفلحت نفس زكاها الله كذا قال عكرمة، روى مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي شيبة عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكاها أنت خير من زكاها أنت وليها وهو مولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يستجاب لها»[2] وقال الحسن معناه قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على الطاعة الله يعني أن الضمير المرفوع راجع إلى من معنى الإنسان والمنسوب إلى نفسه فعلى التأويل الأول بيان لحال المرادين وعلى الثاني لحال المريدين فإن الله يجتبى إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب، والجملة جواب للقسم قال الزجاج صار قول الكلام عوضاً عن اللام وكأنه لما أراد من الحث على تزكية النفس والمبالغة والمجاهدة فيه أقسم عليه

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: التعوذ من شر ما عمل وشر ما لم يعمل (٢٧٢٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من دعاء لا يستجاب (٥٥٣٦).

مجاهد الهم على وجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته فيستفاد منها أقصى درجات القوة النظرية ويذكرهم عظائم الآية لحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمال القوة العملية فيترتب على العلم والعمل الجذب من الله سبحانه بفضله ومن قبلهم التقوى ويحصل التزكية، وقيل هذه الجملة معترضة جيئت بعد قوله فألهمها فجورها وتقواها استراد البيان افرق بين الفريقين وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ حين كذبت بطغواها وهو أنه يدمدم الله تعالى على الكفار بمكة بتكذيبهم محمداً ﷺ كما دمدم على ثمود حين كذبت صالحاً عليه السلام ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ والكلام في هذه الجملة كما في قبلها وأصل دساس أبدلت حرف التضعيف بحرف العلة كتقضي وتقضض ومعنى التدس الإخفاء قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[1] والمراد ها هنا الإهلاك فإنه يستلزم الإخفاء يعني خابت وخسرت نفس أهلكها الله تعالى بالإضلال أو أهلك هو نفسه بكسب الضلالة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ هذه الجملة إلى آخر السورة تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أو للمعفول ما وقع فيه التكذيب محذوف والباء في قوله: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ للسببية وتقديره كذبت ثمود بطغواها بسبب طغيانها في الكفر صالحاً علم بالتوحيد والنبوة حين قال: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2] وطلبوا منه آية على صدقه أن يخرج ناقة عشراء من صخرة عينوه فدعا صالحاً فخرجت من تلك الصخرة ناقة وولدت في الحال ولداً مثلها وكانت الناقة تشرب الماء كله فجعل صالحاً نصيباً من الماء وقال: هذه ناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم فأرادوا قتل الناقة ليسلم لهم الماء كله ذلك قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أي قام لعقر الناقة بالإسراع حين أمروها كما قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ﴾[3] والانبعاث هو الإسراع بالطاعة للباعث والظرف متعلق بكذبت ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أي أشقى ثمود وهو قدار بن سالف كان رجلاً أشقر أزرق قصيراً فضلت شقاوته غيره لتولية العقر، روى البخاري عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب ذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ «إذ انبعث أشقاها انبعث لها عزيز عارم في أهله مثل أبي زمعة»[4] وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أشقى الناس

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة القمر، الآية: ٢٩.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة والشمس وضحاها (٤٩٤٢)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة والشمس وضحاها (٣٣٤٣).

عاقر ناقة ثمود وابن آدم الذي قتل أخاه ما سفك على الأرض من دم إلا لحقه منه لأنه أول من سن القتل» رواه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية بسند صحيح ﴿فَقَالَ﴾ فقال عطفع لي انبعث ﴿لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ذروا ناقة الله واحذروا عقرها الله والإضافة إلى الله لتعظيم الناقة وكمال التحذير ﴿وَسُقْيَنَهَا﴾ عطف على الناقة أي ذروا سقياها فلا ترددوها علينا ولا تمسوها بسوء أي يعقر فيأخذكم عذاب عظيم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي صالحاً فيها أوعدهم من نزول العذاب إن عقروها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي الناقة عطف على كذبوا أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً منهم لأمرهم به، وقال مقاتل الذين عقروا الناقة كانوا تسعة ويجوز التعبير عن التسعة بقوله تعالى: ﴿أَشْقَنهَا﴾ لأن أفعل التفضيل إذا أضيف صلح للواحد والجمع فقال صالح تمتعوا في ثلاثة أيام فتصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني وجوهكم محمرة وفي اليوم الثالث وجوهكم مسودة ثم تهلكون بعد ثلاثة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ بعد ثلاثة أيام، قال في المواج الدمدمة الإهلاك باستئصال، قال عطاء ومقاتل أي دمر عليهم ربهم أي هلكهم وقيل: الدمدمة حكاية صوت لا مده وفي القاموس الدمدمة الغضب ودمدم عليه كلمته مغضباً، وقيل: دمدم عليهم أطبق عليهم ﴿بِذَنبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنبهم وهو تكذيب الرسول وعقر الناقة ﴿فَسَوَّنهَا﴾ أي سوى الدمدمة عليهم جميعاً وعمهم لها ولم يفلت فيها صغير منهم ولا كبير ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ قرأ نافع وابن عامر فلا يخاف بالفاء وكذلك هو في مصاحفهم والباقون بالواو والضمير راجع إلى الله يعني لا يخاف الله ﴿عُقْبَهَا﴾ أمال حمزة والكسائي أواخر هذا السورة إلا تلاها وضحاها فإن حمزة فتحها وأبو عمر وكلها بين بين والباقون بالفتح أي عاقبته الدمدمة أو عاقبته إهلاك ثمود فيبقى بعض الإبقاء كذا قال الحسن وهي رواية علي بن طلحة عن ابن عباس، قال الضحاك والسدي والكلبي الضمير راجع إلى العاقر وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها والجملة حال من فاعل دمدم، أو من فاعل انبعث على ما قيل والواو للحال وعلى قراءة الفاء عطف على فسواها، والله تعالى أعلم.

سورة الليل

مكية وهي إحدى وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ الشمس أو النهار كما في قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ﴾[(١)] أو كل شيء يواري بظلامه والكلام في إذا يغشى كما مر في والليل إذا يغشاها من كونه متعلقاً بفعل القسم أو بمضاف محذوف أي حصول الليل وكونه صفة له أو بمعنى الوقت فينسلخا عن الظرفية ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ أي ظهر بزوال ظلمة الليل أو بطلوع الشمس ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ أي القادر الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد أو آدم، وحواء ويجوز أن يكون مصدرية وجواب القسم ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ يعني إن عملكم لمختلف منكم سائغ فكاك رقبة من النار وصعود درجات القرب ومدارج الجنة ومنكم ساع في عطبها، قال البغوي عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(٢)] ثم فصل الله سبحانه فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ماله في سبيل الله أو أدى كل من وجب عليه ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ عذاب ربه فاجتنب مجاريه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء (٢٢٣).

وفي الحديث «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[١] رواه الشيخان عن عدي بن حاتم وأحمد عن عائشة والبزار والطبراني عن أنس في الأوسط وعن ابن عباس وأبي أمامة في الكبير والبراء عن النعمان بن بشير وأبي هريرة ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾ قال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك وصدق بلا إله إلا الله وهي رواية عطية عن ابن عباس وقال مجاهد بالجنة قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[٢] يعني الجنة وقيل: أيقن أن الله سيخلفه وهو رواية عكرمة عن ابن عباس وقال قتادة ومقاتل والكلبي بموعود الله تعالى أن يفي به ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ أي نسهله ونهيئه ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي للخلقت اليسرى التي يؤدي إلى يسر وراحة وهي العمل وما يرضى الله ودخول الجنة من يسر الفرس أو هبته المركوب باليسر بالسرج واللجام ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بالنفقة بالخير وبما أمر به الله تعالى وفي الحديث «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»[٣] رواه الترمذي والنسائي عن علي وابن حبان والحاكم عن أنس ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ بشهوات الدنيا عن الثواب في الآخرة وعن القادر به ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾ بالكلمة الحسنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ أي لخصلة التي يؤدي إلى العسر والشدة وهي العمل بما يكرهه الله تعالى ودخول النار، قال مقاتل يعسر عليه أن يأتي خيراً عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسنيسره بعمل أهل السعادة وإما من كان من أهل الشقاوة فسنيسره بعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[٤] متفق عليه قال البغوي قيل: نزلت في أبي بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشر أواق فأنزل الله تعالى سورة الليل إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ سعي أبو بكر وسعي أمية، كذا روى عن ابن مسعود وأخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق الحاكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد (١٤١٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة (١٠١٦).

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: قول رسول الله ﷺ «رغم أنف رجل» (٣٥٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ (٤٦٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعاته (٢٦٤٧).

فكان الرجل إذا جاء فدخل الدار فصعد إلى النخلة، ليأخذ منها الثمرة وبما يقع التمرة في أخذها صبيان الفقير فينزل من نخلة فيأخذ الثمرة من أيديهم وإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعيه يخرج التمرة من فيه فشكى ذلك الرجل يعني الفقير إلى النبي ﷺ فقال: اذهب ولقي النبي ﷺ صاحب النخلة، فقال له أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان لك نخلة في الجنة، فقال الرجل لقدأعطيت وإن لي نخلاً كثيراً وما فيه نخلة أعجب إليّ تمرة منها ثم ذهب الرجل ولقي رجلاً كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة، فأتى إلى رسول الله ﷺ فقال أتعطني يا رسول الله ما أعطيت الرجل يعني صاحب النخلة وإن أنا أخذتها قال: نعم فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة ولكليهما نخل فقال له أشعرت أن محمد ﷺ أعطاني بنخلتك التي في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له لقد أعطيت ولكن يعجبني تمرها ولي نخل كثير ما فيه نخل أعجب إليّ تمرة منها، فقال له الآخر أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا إن إعطيتني بها ما أريد ولا أظنك تعطي، وقال فكم فيها؟ قال: أربعين نخلة قال: لقد جئت بأمر عظيم ثم سكت عنه فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة قال فاشهد لي إن كنت صادقاً فدعا قومه فأشهد له ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن النخلة قد صارت لي فهي لك فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار فقال: النخلة لك فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ قال ابن كثير غريب جداً وذكر البغوي عن علي بن حجر عن إسحاق بن نجيح عن عطاء نحوه وفيه أن صاحب النخلة شكى إلى النبي ﷺ تناول صبيان الجار من نخلة فقال له النبي ﷺ بعينها بنخلة في الجنة فأبى فخرج فلقيه أبو الدحداح إلى آخر القصة قال فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ والصحيح هي الرواية الأولى يعني نزلت في أبي بكر الصديق وأمية بن خلف لأن السورة مكية وقصة صاحب النخلة وأبي الدحداح يقتضي كونها مدنية وعلى تقدير صحة الرواية الثانية فنقول نزول الآية بمدح أبي الدحداح رضي الله عنه قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ كأبي الدحداح ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾ أي بما وعد النبي ﷺ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ يعني الجنة ولما كان حكم الآية عاماً وءن كان موردها خاصاً عقبه بما يقيده من الوعيد فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾ الآية وليست هذه الجملة للوعيد فيحق صاحب النخلة فإنه كان رجلاً من الأنصار لم يكن ممن استغنى من ثواب الله تعالى ونعيم الجنة وكذب بالحسنى بل كان مصدقاً بها والبخل المستوجب للنار إنما هو بمنع الزكاة المفروضة كما لا يخفى والله تعالى أعلم ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾ الذي بخل فيه نفي أو استفهام إنكار ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ الظرف متعلق بيفني وتردى تفعل من الردي بمعنى الهلاك،

قال مجاهد أي بات إذا المراد بالهلاك استيجاب العذاب أو بمعنى السقوط يعني تردى في حفرة القبر أو قعر جهنم قال قتادة وأبو صالح هوى في جهنم ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ كلمة على للتأكيد يعني التزمنا الهداية بموحب قضائنا السابق أو بمقتضى كلمتنا ﴿لَلْهُدَىٰ﴾ أي الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وبيان الشرائع، كذا قال الزجاج وقتادة، وقال الفراء معناه من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد يعني من سلك على طريق الهدى يصل إلى الله سبحانه ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾ ملكاً وخلقاً وتقديم الخير للحصر فمن طلبها من غيره لكنهما فقد أخطأ الطريق أو فنعطي ثواب الهداية للمهتدين أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي خوفتكم والفاء للسببية فإن كون الآخرة والأولى كلاهما خالصاً لله تعالى سبب للتخويف ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ إحدى التائين محذوف أي تتلظى تتوقد وتتلهب صفة للنار ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ صفة أخرى ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ قيل الأشقى ها هنا بمعنى الشقي فهو يعم الكافر والفاسق الغير المغفور وصفه تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ الرسول ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان باعتبار بعض أفراده، وليس الاحتراز بل لأن العادة مقتضى الإيمان أن لا يكون المؤمن شقياً إذ الإيمان يقتضي التقوى والسعادة والكافر المكذب هو الذي يكون شقياً عاصياً غالباً فبقيد الشقى بوصف التكذيب والتولي خرج مخرج العادة كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾[2] أو المراد بالتكذيب أعم من التكذيب صريحاً وهو الكفر أودلالة وهو ارتكاب المحرمات مع الإيمان بتحريمها أو أعم مما هو صادر عن اللسان والقلب فيكون كفراً نفاقاً ومما هو صادر عن النفس الأمارة بالسوء حال كون قلبه مطمئنة بالإيمان ولسانه ما خلقنا به فيكون إيماناً مجازياً عاماً، وقيل: الأشقى بمعناه للتفضيل والمراد به الكافر فإني أشقى من الفاسق لكي يصلى ههنا ليس على إطلاقه بل المراد سنة المقيد اللزوم والشدة قال البيضاوي لا يصلاها لا يلزمها مقاسياً شدتهما إلا الأشقى أي الكافر فإن الفاسق وإن دخلها إن لم يغفره لا يلؤها فلا نقض في الحصر، وقيل لا حاجة إلى هذه التكليف بل الضمير في لا يصلاها عائد إلى ناراً تلظى ولا يصلى ناراً تتلظى وتتلهب إلا الكافر وأما الفاسق فأدخل جهنم لا يصلى ناراً تتلهب بل ناراً ضعيفة بالنسبة إلى الكافر وهي الطبقة العليا من النار وعندي أن المراد بالأشقى هو الكافر كما هو الظاهر النار أيضاً على عمومها فإن التلهب توصف بها نار الدنيا أيضاً ونار جهنم وإن كانت ضعيفة فهي أشد من

(١) سورة النحل، الآية: ٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

نار الدنيا البتة لكن الحصر في الآية إضافي بالنسبة إلى المؤمنين الموجودين في زمان النبي ﷺ، فالآية تدل على عدم دخول أحد من الصحابة في النار كيف وقد انعقد الإجماع على أن الصحابة كلهم عدول وقد قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(١) وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢) وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾(٣) الآية وقال رسول الله ﷺ: «لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني»(٤) رواه الترمذي عن جابر وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم واهتديتم» رواه رزين عن عمر بن الخطاب فمن صدر منه معصية فهم على سبيل الندرة وفق غالباً للتوبة فإن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٥) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً، أو أدكرته الرحمة ببركة صحبة النبي ﷺ كيف وقد قال رسول الله ﷺ في حق الصلحاء من أمته «هم قوم لا يشقى جليسهم»(٦) ولا يخاب أنيسهم في حديث في الصحيحين والترمذي عن أبي هريرة فما ظنك فيمن جالس سيد المرسلين في حين من الدهر والله تعالى أعلم. ولما كان الناس في زمن النبي ﷺ منحصرين في فريقين إما مؤمن تقي أتقى الناس ممن سواهم أو كافر فلذلك ترى كلام الله مشحوناً من ذكر هذين الفريقين وقلما يستفاد حال عصاة المؤمنين من القرآن لأن الكلام غالباً يبحث عن أحوال الموجودين والله تعالى أعلم فلا يجوز بهذه الآية استدلال المرجئة على أن المؤمن إن كان فاسقاً لا يدخل النار وأن السيئات من الكبائر والصغائر مطلقاً لا يضر مع الإيمان، لأن الحسنات مطلقاً لا تنفع مع الكفر وبه قال الروافض شيعة علي ولا استدلال المعتزلة على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وليس بمؤمن وجه استدلالهم أن ارتكاب الكبيرة موجب لدخول النار بالإجماع وإن خالف المرجئة فلو كان مرتكب الكبيرة مؤمناً لم يكن أشقى الناس فلا يصلاها بهذه الآية وأهل السنة يؤولون هذه الآية بما ذكرنا من التأويلات جمعاً بين النصوص وجرياً على ما انعقد عليه الإجماع من أن الله تعالى لا يغفر

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه (٣٨٦٧).

(٥) أخرجه، ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل (٦٤٠٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن لله ملائكة سياحين في الأرض (٣٦٠٠).

أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء سواء تاب أولم يتب وقال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١] وقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[٢] وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾[٣] فلا يجوز في حق المؤمن الخلود في النار وإن كان فاسقاً غير مغفور وقد تواتر قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»[٤] وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٥] يعني إن شاء الله أن يعذبه ولم يغفره يرى جزاء السيئة في النار ولولا مقتضى إتيان المحرمات وترك الواجبات دخول النار كما قالت المرجئة لصارت الشريعة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر كلها سفسطة ولايقولها إلا كاهن أو مجنون ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ عطف على لا يصلاها والسين للتحقيق ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ أي الذي اتقى الشرك الجلي والخفي والمعاصي القلبية والقالبية والنفسانية وذلك بعد تزكية النفس واطمئنانها ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ الفقراء وفي فك الرقاب ووجوه الخير ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بدل من يؤتي ولا محل له من الإعراب أو منصوب على الحالية من فاعله أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة والمفهوم عندنا غير معتبر فلا تدل تلك الآية على دخول تقي في النار وكذا عند الشافعي إذ الكلام خارج مخرج الجواب في حادثة لاتفاق المفسرين على أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق، فالغرض منه توصيف الصديق بكونه أتقى الناس أجمعين غير الأنبياء وإنما خصصنا بغير الأنبياء دلالة العقل والإجماع والنصوص وليس الغرض منه الاحتراز والحكم بدخول التقي دون أتقى في النار ولو سلمنا المفهوم فالمراد بالتقى الذي جاز دخوله في النار التقي عن الشرك فقط دون المعاصي والله تعالى أعلم. أخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله فنزلت ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة قلت: فحينئذ اللام للعهد وأخرج حاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو قحافة لأبي بكر أراك تعتق رقاباً ضعفاً فلو أنك أعتقت رجالاً أجلد يمنعونك ويقومون دونك فقال: يا أبت إنما أريد ما عند الله فنزلت هذه الآية (فأما من أعطى واتقى) إلى آخر السورة وذكر محمد بن

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣. (٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

(٣) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٦).

(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٨.

إسحاق قال: بلال لبعض بني جمع وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامه وكان صادق الإسلام طاهر القلب وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لا يزال على هذا حتى يموت أو تكفر لمحمد فيقول وهو في ذلك البلاء أحد أحد، قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك وكانت دار أبي بكر في جمح فقال لأمية ألا تتقي في هذا المسكين قال: أنت أخذته فأنقذه مما ترى، قال: أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على ذلك أعطيتك قال: قد فعلت، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر رقاب بلال سابعهم عامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة شهيداً وأم عميس وزبير فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش ما أذهب بصرها وأعتق ابنتها الهدنة وكانتا لامرأة من عبد الدار بمنزلهما وقد بعثتها سيدتها يطحنان وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً فقال أبو بكر فلان فقالت: حلا أنت أفسدتهما فأعتقهما قال: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا قال: فأخذتهما وهما حرتان. ومر بجارية بني مؤمل وهي تعذب فاتباعها فأعتقها وقال سعيد بن المسيب بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال ابتعنيه قال نعم أبيعه بنسطاش عبد لأبي بكر صاحب عشر آلاف دينار وغلمان وجواري ومواش وكان حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله له فأبى فأبغضه أبو بكر فلما قال له أمية أبيعه بغلامك نسطاش اغتنمه أبو بكر وباعه منه فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال إلا ليدٍ كان له عنده فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ بلال ولا لغيره من الغلمان ﴿عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ وكذا أخرج البزار عن ابن الزبير أنها نزلت في أبي بكر والجملة حال من فاعل يؤتي ماله أو مستأنفة كأنه في جواب بل كان لأحد ممن يؤتيه ماله عنده يجزي أن يكافيه عليهما ويقصد بإعطائه أو إعتاقه مجازاً بها ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع أي لكن يفعل ذلك أبو بكر ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ طلباً لرضاه ويجوز أن يكون متصلاً عن محذوف تقديره لا يؤتى ماله لغرض من الأغراض ومكافاته لنعمة إلا لغرض ابتغاء وجه الله وطلب رضائه ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ الله عنه بما يفعل أو يرضى عن الله تعالى بما يعطيه من الجزاء في الآخرة من الجنة والكرامة عطف على وسيجنبها وهذه الآية لأبي بكر كقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ وكون أبي بكر اتقى الناس بعد الأنبياء دليل على كونه أفضلهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1] وعليه انعقد الإجماع، عن ابن عمر قال:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

كنا في زمن النبي ﷺ لانعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لاتفاضل بينهم[١] رواه البخاري، وسأل محمد بن الحنفية عن علي أي الناس خير بعد النبي ﷺ؟ قال: أبو بكر قال: ثم من؟ قال: عمر رواه البخاري، وقد بسطنا الكلام في هذه المسألة وذكرنا فيها الأحاديث والآثار وروايات الإجماع والمنقول في كتابنا السيف المسلول انصراماً على الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أمال حمزة والكسائي أواخر هاتين السورتين والليل والضحى إلا قوله تعالى سجى فإن حمزة فتحها وأمال أبو عمرو للعسرى ولليسرى وما سواهما بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بإخلاص الفتح في الكل، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب ﷺ المناقب، باب: مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي الله عنه (٣٦٩٧).

سورة الضحى

مكية وهي إحدى عشر آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

أخرج الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن جندب بن عبد الله قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة وليلتين فقالت امرأة يا محمد ما أرى لشيطانك إلا قد تركك فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ وقال البغوي قال يعني جندب أن امرأة التي قالت ذلك أم جميل امرأة أبي لهب، وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي فقالت أم جميل امرأة أبي لهب ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله والضحى الآيات، وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن جندب قال: أبطأ جبرائيل على النبي ﷺ فقال المشركون قد ودع محمد فنزلت وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد أن خديجة قالت للنبي ﷺ: ما أرى ربك إلا قد قلاك مما ترى من جزعك فنزلت وكلاهما مرسل ورجالهما ثقات قال الحافظ ابن حجر والذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك لكن أم جميل قالت شماتة وخديجة قالت توجعاً، وأخرج ابن شيبة والطبراني بسند فيه من لا يعرف عن حفص بن ميسرة القرشي عن أمه عن أمها وكانت خادمة رسول الله ﷺ أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات فكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ؟ جبرائيل لايأتيني فقلت في نفسي لو نقيت البيت وكنسته فأهويت بالكناسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه أخذته الرعد فأنزل الله والضحى إلى قوله ترضى، قال الحافظ ابن حجر قصة إبطاء

جبرائيل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب بل شاذ مردود كما في الصحيح، قال البغوي في مدة احتباس الوحي عنه اختلاف فقال ابن جريج اثني عشر يوماً وقال مقاتل أربعون يوماً فقال المشركون إن محمد أودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى هذه السورة كذا أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فقال النبي ﷺ يا جبرائيل ما جئت اشتقت إليك، فقال جبرائيل إني كنت أشد شوقاً إليك ولكني عبد مأمور بما أنزل الله وما نتنزل إلا بأمر ربك قوله تعالى: والضحى قيل: أريد به النهار كله بدليل مقابلة الليل نظيره قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾[1] يعني نهاراً وقال قتادة ومقاتل يعني وقت الضحى وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس قيل: خص ذلك الوقت لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقي فيها السحرة سجداً وهي الساعة يعدل فيها النهارفي الحر والبرد في الصيف والشتاء والليل إذا سجى الظرف إما متعلق بفعل القسم أو بمضاف مقدر على الليل أي وحصول الليل إذا سجى أوصفة الليل بتقدير المضاف وإذا بمعنى الوقت منسلخاً عن معنى الظرفية بدل من الليل مقسم به، قال الحسن أقبل بظلام وهي رواية العوفي عن ابن عباس وقال الوالبي إذا ذهب وقال عطاء والضحاك غطى كل شيء بالظلمة وقال مجاهد استوى وقال قتادة وابن سكن استقر ظلامه فلا يزداد بعد ذلك أو المراد سكن الناس فيه والأصوات يقال ليل ساج وبحر ساج إذا كان ساكناً وتقديم الليل في السورة السابقة باعتبار الأصل وتقديم الضحى ههنا الشرف وجواب القسم قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي ما تركك وقطع عنك قطع مودع ﴿رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ وما أبغضك حذف الضمير المنصوب اكتفاء بما سبق اختصار أو رعاية للفواصل أخرج الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ عرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ يجوز أن يكون هذه الآية متصلاً بما سبق ووجه اتصاله أن قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ يتضمن أن الله مواصلك بالوحي إليك وإنك حبيب الله ولا يكون كرامته أعظم ذلك فأخبره بأن حاله في الدار الآخرة خير له وأعظم من ذلك لتقدمه على الأنبياء واختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه الأولون والآخرون وشهادة أمته على الأمم وقد ذكرنا بعد ما يختص به النبي ﷺ في الآخرة من الفضائل في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2] الآية، وروى البغوي بسنده من طريق ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

رسول الله ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا» أو المعنى وللآخرة أي الحالة الآخرة خير لك من الأولى ونهاية أمرك خير من بداية يعني لا تزال تتصاعد في الرفعة والكمال، قالت الصوفية من استوى يوماه فهو مغبون، وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته فسرته فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ حذف المفعول الثاني ليعطيك ليدل على العموم والشمول أي يعطيك عطاء جزيلاً من النصر والتمكين وكثرة المؤمنين وشيوع دينك في الأرضين في الدنيا ومن الشفاعة وكثرة الثواب وغير ذلك لا يخفى وما لا يعلمه إلا الله تعالى في الآخرة وأفضل العطيات رؤية الله سبحانه على حسب كمال النبي ﷺ وأعلى درجات القرب قال رسول الله ﷺ إذن لا أرضى من واحد من أمتي في «النار وعن علي أن رسول الله ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى ينادي ربي أرضيت يا محمد؟ فأقول: أي ربي رضيت»[١] وقال عطاء عن ابن عباس المراد يعطيك ربك الشفاعة في أمتك حتى ترضى وهو قول علي والحسن عليهما السلام وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله: يا جبرائيل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوئك به»[٢] وراه مسلم، وروى حرب بن شريح سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقول: إنكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وإنا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ واللام قيل: للابتداء دخل على الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير ولأنت سوف يعطيك لاللقسم فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة على أن اللام لام القسم لا لام للابتداء، وقد علم أنها ليس لبتداء لدخولها على سوف ولام الابتداء لا تدخل على سوف ثم عد الله سبحانه ما أنعم عليه من أول حاله ليقيس ما يترقب من فضل الله على ما سلف منه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ إن كان من وجدت بمعنى علمت يتيماً مفعول الثاني وإن كان بمعنى المصادفة فمنصوب على الحال والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والغرض منه التقرير أي إقرار المخاطب به والمعنى وجدك يتيماً يعني صغيراً فقيراً حين مات أبوك ولم يخلف لك مالاً ولا مأوى وفي هذه الجملة تأكيد لقوله ما ودعك ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ يعني دلك إلى عمك أبي

---

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أحمد بن زيد المداري ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم. انظر: مجمع الزوائدفي كتاب: البعث، باب: في الشفاعة (١٨٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢).

طالب وضمك إليه حتى كفلك روى البغوي من طريق الترمذي عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت: يا رب إنك آتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً وآتيت فلاناً كذا قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قلت: بلى أي رب قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى أي رب قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى أي رب»[1] وزاد في بعض الروايات ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك بلى أي رب، زعم أكثر الناس أن النبي ﷺ سأل ربه هذه المسألة المال والغنى حيث قالوا إن النبي ﷺ كان مفلساً وكانت قريش تعير بذلك حتى قالوا إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبي ﷺ وظن أن قومه إنما كذبوه بفقره فسأل ربه هذه المسألة فعدد الله عليه نعمه ووعده الغنى ليسليه، وهذا ليس بشيء بوجوه: أحدها أن رفعة شأن النبي ﷺ لا يقتضي أن يسأل ربه الدنيا:

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم

وأكدت وهذه فيها ضرورته أن الضرورة لا تعدوا على العصم

وثانيها: أن قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ يأبى عنه فإن صيغة الماضي تدل على الحصول وسؤال الغنى بعد حصوله محال، وثالثها: أنه لو سأل ربه لأعطاه وقد صح أنه ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين حتى قبض رسول الله ﷺ[2] كذا في الصحيحين من حديث عائشة، وقالت الصوفية العلية: فيتحقيق مثل هذا المقام أن الصوفي قد يعرضه حالة الانقطاع من الخلق بالكلية وخلوص التوجه إلى الله سبحانه ويسمونها العروج والسير إلى الله أو السير في الله وقد يعترضه حالة التوجه إلى الخلق لأجل الإرشاد والدعوة إلى الله فيسرى نفسه في هذه الحالة في بادىء النظر منقطعاً عن الله متوجهاً إلى الخلق وهو في الحقيقة وعند التعمق غير منقطع كمال الانقطاع وأيضاً لما كان هذا الانقطاع مأموراً به مرضياً للمحبوب فهو في حكم الوصل والاتصال بل أولى منه ويسمونه بالنزول والبر من الله بالله فيغتم الصوفي في هذه الحالة غاية يكون في الشدة والبلاء مثله كمثل سمكة ألقيت من البحر إلى الصحراء وقد ذكر مراراً أن من كان نزوله أتم كان

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عظم قدره ﷺ (١٣٩٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا (٦٤٥٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

إرشاده أشمل وأعم قالوا: إن نوحاً عليه السلام لم يبلغ في النزول غاية ولذلك ما آمن معه إلا قليل وهم أصحاب السفينة مع لبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وأن محمداً ﷺ كان نزوله أتم وأوفى ولم يبلغ تلك المنزلة أحد من الأنبياء، ولذلك شاع دينه في الورى مع لبثه فيهم ثلاثة وعشرين عاماً كما كان عروجه أعلى وأسنى فكان قاب قوسين أو أدنى قال الشيخ الأكبر أنكروا دعوة نوح بما كان من الفرقان وأجابوا دعوة محمد ﷺ بما كان من القرآن ولأجل كمال نزول كان رسول الله ﷺ دائم الهم واصل الحزن وهذا معنى قوله ﷺ: «ما أوذي أحد مثل ما أوذيت» رواه ابن عدي وابن عساكر عن جابر وأبو نعيم في الحلية عن أنس ولولا هذا التأويل فلا يظهر المعنى لهذا القول وقد أوذي نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاماً وأوذي عيسى حتى ارتقى إلى السماء ويحيى وغيرهم حتى قتلوا في البلاء فلعل نزول هاتين السورتين أعني والضحى وألم نشرح كان لتسلية النبي ﷺ في حالة النزول في بدء أمره حين رأى نفسه في بادىء النظر منقطعاً عن الله متوجهاً إلى الخلق ووافق ذلك فترة الوحي وحزن حزناً شديداً حتى قال في صحيح البخاري بلغنا أنه غدا مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبل وكلما أوفى بذروة الجبل لكي يلقي نفسه منه ينادي جبرائيل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه تقر نفسه وقالت خديجة إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك وكان سؤال النبي ﷺ لسلب تلك الحالة الموجبة للانقطاع عن الخالق والتوبة إلى الخلق التي عمها وداعاً وقلياً وحزن عليها والوصل بلا انقطاع ولا حجاب دائماً فعلى هذا معنى قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ أنه ليسى الفراق الذي اعترضك وداعاً وقلياً حتى تغتم به بل هو كمال عروج ووصل معنى وإن كان هبوطاً وفراقاً صورة ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ يعني كل حالة آخرة تأتي عليك خير من الحالة الأولى لا يتطرق في أحوالك قصور وفتور قط حتى تكون في الدار الآخرة رؤية ووصالاً بالكلية ولا يكون هاك تكليف التبليغ، والتوجه إلى الخلق ومشقة الفراق أصلاً ولسوف يعطيك ربك عاجلاً وآجلاً ما تحب وترضى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ ﴿وَوَجَدَكَ﴾ عطف على معنى ألم يجدك يتيماً فإن معناه وجدك فهو عطف الخبر على الخبر دون الإنشاء ﴿ضَالًّا﴾ عن معالم النبوة وأحكام الشريعة غافلاً عن كل ما لا طريق إلى دركه إلا السمع نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1] وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[2] كذا قال الحسن والضحاك وابن كيسان وقيل: ووجدك ضالاً في شعاب مكة صبياً صغيراً حين فطمتك حليمة وجاءت بك لترد إلى جدك عبد

(١) سورة يوسف، الآية: ٣. (٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

المطلب كذا روى أبو الضحى عن ابن عباس وقال السعيد بن المسيب خرج رسول الله ﷺ عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة فبينما هو راكب بذات ليلة ظلماء ناقة جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق فجاء جبرائيل فنفخ إبليسى نفخت وقع منها إلى ورده إلى القافلة، وقيل: وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت وقال بعض الصوفية معناه وجدك محباً عاشقاً مفرطاً في الحب والعشق يكنى باتصال لاستلزام السكر غالباً والسكران يغالط الطريق غالباً وفي الحديث «حبك الشيء يعمي ويصم» فهي تسمية السبب باسم المسبب كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾[1] يعني من مطر قال الله تعالى عن إخوة يوسف ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2] ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[3] ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4] ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي فهداك إلى معالم الدين أو إلى جدك عبد المطلب أو إلى القافلة أو عرفك نفسه وحالك ومن عرف نفسه فقد عرف ربه أو هداك إلى وصل محبوبك حتى كنت قاب قوسين أو أدنى ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي أعطاك بمال خديجة أو بما حصل لك ربح في التجارة بالغنائم والمراد بالغناء على هذا التقادير دفع الحاجة وإن كان بالقليل لابمالكية النصاب، وقال مقاتل يعني أغنى قلبك فأرخاك بما أعطاك من الرزق واختاره الفراء وقال «ولم يكن النبي ﷺ غنياً بكثرة المال والعرض «لكن الغنى غنى النفس»[5] متفق عليه، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً فقنعه الله بما آتاه»[6] رواه مسلم ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨﴾ هذه الجملة وما بعدها إلى آخر السورة معترضات أوردت استطراداً بين قوله ألم يجدك إلى آخره ألم نشرح لك أو هي تذييل بما سبق ذكر اليتيم والعائل الفقير السائل غالباً واتصال السائل للإرشاد غالباً، وذكر نعمة الإيواء والهداية والغناء فصّل ما أجمل ذكره بأما وأورد بالفاء للسببية في فأما اليتيم فلا تقهر لأن كونه ﷺ يتيماً، وقال الفراء والزجاج لا تقهر على ماله فتذهب بحقه

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٥.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة (١٠٥٤).

بضعفه كما كانت العرب تفعل كذلك نهى لأمته وإن كان خطاب إليه بشرفه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا يشير بأصبعيه»[1] رواه البغوي، وكذا روى البخاري في الأدب وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ قال المفسرون السائل على البا لا تنهره وتزجره فقد كنت فقيراً عائلاً فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً برفق، وروى عن الحسن في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ قال: طالب العلم إذا سأل عن مسألة فلا تنهره، وعن ابن مسعود: من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجام من نار وهذه الجملة على التأويل الثاني يتصل بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ ويكون النشر على ترتيب اللف وأما على التأويل الأول فيتصل بقوله ووجدك عائلاً ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ يعني أشكر على ما أنعم ربك عليك وهذه الجملة على تقدير اللف والنشر المرتب متصل بقوله تعالى: ووجدك عائلاً فأغنى عن سنان بن سنية عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر»[2] رواه أحمد وابن ماجه والدارمي بإسناد صحيح، ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وعن أشعث بن قيس قال قال رسول الله ﷺ: «إن أشكرالناس لله أشكرهم للناس» وفي رواية «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» رواه أحمد ورواته ثقات، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال من صنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجز فليثن عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكر وإن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبين من زور» رواه البغوي، وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير من لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة الله والفرقة عذاب الله» رواه البغوي هذه الأحاديث يقتضي شكر المشايخ والأساتذة وحسن الثناء عليهم ورضوان الله عليهم أجمعين، قال المجاهد المراد بالنعمة في الآية النبوة روى عنه بشير واختاره الزجاج والمعنى بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أتاك، وقال الليث عن مجاهد يعني القرآن وهو قول الكلبي أمره أن يقرأه فعلى هذا هذه الآية متصل بقوله ووجدك ضالاً فهدى قال مقاتل: اشكرما ذكر في هذه الآية مما أنعمنا عليك من الإيواء والهداية والأغنياء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: فضل من يعول يتيماً (٦٠٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الصيام، باب: فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر (١٧٦٤).

والتحدث بنعمة الله شكر وهذا أظهر فإن النعمة المذكورة مطلق لا وجه للتخصيص والشكر على كل نعمة دينية كانت أو دنيوية واجب فعلى هذا هذه الآية متصل بالجمل الثلث المذكورات وقد ذرك ما في هذه الآية من اختلاف القراءة في الإمالة والفتح في آخر سورة الليل.

مسألة: يجب الشكر على كل نعمة والشكر صرف النعمة في رضاء المنعم فشكر نعمة المال صرفها بالإخلاص في سبيل الحق وشكر نعمة البدن أداء الواجبات والاجتناب عن المعاصي وشكر نعمة العلم والعرفان التعليم والإرشاد.

مسألة: تحديث النعمة شكر ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[١] ونحو ذلك وقد ذكرنا في سورة البقرة ومن هذا القبيل ما قال الشيخ محي الدين عبد القادر رضي الله عنه وكلولي له قدم وإني على قدم النبي بدر الكمال: وقوله قدمي هذه على رقبة كل ولي لله ومنه ما ذكر المجدد مما أعطاه الله سبحانه مدارج القرب من الولايات الثلاث وكمالات النبوة والرسالة وأولي العزم أيضاًبالتبعية والوراثة وحقائق الأنبياء كذلك وغير ذلك وكونه مخلوقاً في طينة النبي ﷺ وكونه مجدداً وقيوماً فمن أنكر على ما هؤلاء الرجال في مثل هذه المقال فكأنه أنكر هذه الآية الكريمة من الله ذي الجلال غير أنه لا بد للتحديث بمثل هذه الأقوال تنزه القائل عن صفات النفس بالكلية فلا يجوز لكل أحد الأجتراء على مثل هذه الأقوال كيلا يتردى في ورطة ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[٢].

فصل: قال البغوي السنة في قراءة أهل مكة أن يكبروا من أول السورة والضحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن فيقول الله أكبر قال البغوي كذلك قراءته على الإمام المقري أبي نصر محمد وذكر سلسلة إسناد قراءة أبي كثير، وقال ابن كثير إنه قرأ على مجاهد وهو على بن عباس وهو على بن كعب ثم ذكر سلسلة أخرى لإسناد قراءة أبي إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد قال: فلما بلغت والضحى قال لي كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك وأخبره أنه قرأ على النبي ﷺ فأمره بذلك وكان سبب التكبير أن الوحي لما احتبس قال المشركون هجره شيطانه وودعه فاغتم النبي ﷺ لذلك فلما نزل والضحى كبر رسول الله ﷺ فرحاً بنزول الوحي فأخذوه سنة وما ذكره البغوي آخراً ذكره أبو عمر

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٦٢٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

والداني في اميسير أولاً وما ذكره أولاً ذكره الداني آخراً فإنه قال: إن البزي روى عن ابن كثير بإسناده أنه كان يكبر آخر والضحى مع فراغته ومن كل سورة إلى آخر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ يصل التكبير فإن كان آخر السورة متحركاً نحو إذا حسد والناس والأبتر وصل التكبير وأسقط همزة الوصل منه وإن كان ساكناً نحو فحدث وفارغب أو منوناً نحو تواباً ولخبير ومن مسد حرك الساكن نون التنوين بالكسر ووصل بالتكبير فإن شاء القارىء قطع عليه أي على التكبير وابتداء بالبسملة موصولة بأول السورة ولا يجوز القطع على بسملة إذا وصلت التبكير بها يعني إذا وصلت التبكير بآخر السورة فالاحتمالات أربعة القطع على التكبير والبسملة أو الوصل فيها أو القطع على الأول دون الثاني أو بالعكس فيجوز الثلاثة الأول ولا يجوز الرابع قال الداني وقد كان بعض أهل الأداء يقطع على أو آخر السورة ثم يبتدىء بالتكبير موصولاً بالبسملة، قال أبو عمرو كذلك روى النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وبذلك قرأه على الفارسي عنه وهذا ما ذكره البغوي أولاً، قلت: وبكلا الوجهين قرأت على الشيخ المقري صالح المصري وهو على شيخ القراء قدوة المتأخرين الشيخ عبد الخالق المتوفى وذكر الشيخ الصالح المصري وهو على شيخ القراء قدوة المتأخرين الشيخ عبد الخالق المتوفى وذكر الشيخ الصالح المصري صفة التكبير على رواية البزي لا إله إلا الله والله أكبر فإن قرأ التكبير أول سورة والضحى لا يقرأ بعد سورة والناس ولا يقطع على التكبير بين السورتين موصولة للتبكير بالأولى منها فإن وصل التكبير بآخرالسورة الأولى وجب الوصل بين التكبير والبسملة وأول السورة جميعاً وإن قطع التكبير عن آخر السورة فله الخيار في الوصل والقطع بين التكبير والبسملة وبينها وبين السورة والله تعالى أعلم.

سورة الشرح

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ هذه الجملة وما بعدها على ما روى البغوي عن ابن عباس متصل بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فأغني﴾ فإن صح تلك الرواية فذلك وإلا فالظاهر أن هذه السورة أيضاً نازلة في مثل تلك الحالة بعد سؤال من النبي ﷺ محققاً أو مقدراً ومعنى الآية على مثل ما سبق شرحنا لك صدرك حتى اتسع في صدرك من العلوم الحقة والمعارف الدينية المبصرة بنور الله تعالى ما لا سبيل إليها لعقل العقلاء واجمع فيه التوجه إلى الله تعالى والحضور التام مع التوجه إلى الخلق لأجل الدعوة في مرتبة النزول فليس لك في حالة النزول انقطاعاً عن الله تعالى في الحقيقة حتى تغتم به وشرح الصدر قد وقع للنبي ﷺ في مرتبة العيان مرتين مرة في صباه كما روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبرائيل وهو يلعب في الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ماء الزمزم ثم لأمه وأعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه أي ظئره فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس فكنت أرى أثر المخيط في صدره[1]. ومرة ثانية ليلة المعراج كما في الصحيحين عن أنس قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال ذكر أيضاً قصة المعراج وفيه «فنزل جبرائيل ففرج صدري ثم غسله بماء الزمزم ثم جاء

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦١).

بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه، وفي رواية في الصحيحين عن أنس عن مالك بن صعصعة أن نبي الله «حدثهم فشق ما بين هذه إلى هذه يعني من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءاً إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد» «وفي رواية ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملىء إيماناً وحكمة» الحديث، قلت: والعلقة التي أخرجت من قلب النبي ﷺ هي رذائل العناصر والنفس والقلب الداعية للنفس على كونهاأمارة بالسوء وباعثة للجوارح على المعاصي ثم عطف على شرحنا لك صدرك المفهوم من ألم نشرح قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ الوزر في الأرض الجبل قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾(١) يعني جبل هناك يلتجي إليه والمراد ها هنا الثقل على سبيل الاستعارة وذلك الثقل إماأن يراد به غم الفراق وتوهم الوداع الذي أحزن النبي ﷺ وأنفض ظهره فزال الله سبحانه ذلك الغم والحزن بإنزال الآيات من سورة الضحى وألم نشرح حتى سكن للنبي ﷺ جأشه واستقر نفسه وعلم أن ذلك الفراق ليس على سبيل الوداع والقلى بل لحكمة ومنفعة فعد الله سبحانه إزالة هذا النعم من النعم وإما أن يراد به ثقل التكاليف الشرعية من دعوة الحق وتبليغ الأحكام وإتيان ما أمر بالله به وانتهاء كل ما نهى فإن التكاليف الشرعية شاق إتيانها لم تر أن السماوات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وأشفقن منها، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(٢) فلما شرح الله صدره ﷺ للإيمان والحكمة وأزال عنه حظ الشيطان ورذائل النفس التي جبلت عليها النفوس صارت التكاليف الشرعية له ﷺ طبيعة ومرغوبة ومحبوبة حتى قال عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»(٣) وهذه المرتبة التي عبر الله سبحانه عنها بوضع الوزر يسمونها الصوفية بالإيمان الحقيقي وهذا هو المعنى من قولهم بسقوط التكليف عن الصوفي وهذه المرتبة العليا أعني شرح الصدر ووضع الوزر حصلت للنبي ﷺ ظاهراً وعياناً كما روينا وتحصل لأولياء أمته بوراثته باطناً بحيث يظهر في المثال وذلك بعد فناء النفس وزوال العين والأثر وهناك يحكم الصوفية العلية ويبشرون بشرح الصدر والإيمان الحقيق كذا قال المجدد واستعدنا من المشايخ الكرام عليهم الرحمة والرضوان وما قال عبد الله بن يحيى وأبو عبيدة يعني حققنا عنك

(١) سورة القيامة، الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب: عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩).

أعباء النبوة والقيام بأمرها يناسب التأويل الثاني مما قلنا وما ذكرنا من التأويلين أولى مما قيل: إن معناه خططنا عنك ما سلف منك في الجاهلية من الزلات لأن النبي ﷺ أرفع شأناً من أن يصدر عنه زلة وما قيل: المراد بالوزر ترك الأفضل مع إتيان الفاضل وغيرها من التكلفات ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أي أثقله فأوهنه حتى سمع له نقيض أي صوت مثل صوت الرجل عند ثقل الحمل صفة الوزرفإن كان المراد من الوزر رغم الفراق كما ذكرنا أولاً فلا حاجة إلى التكلف والتأويل إنه كان أنقض ظهره وإن كان المراد به كلفة التكليف كما ذكرنا ثانياً فمعناه لولا شرحنا صدرك ووضعنا وزرك أنقض كلفة التكليف ظهرك ولم تستطيع إذا ما وجب عليه حق أدائه قال رسول الله ﷺ: «لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا»[١] يعني لولا فضل الله ولما كان كلفة التكليف موجباً لنقض الظهر في الدنيا مانعاً عن إتيان الواجبات أورد النقض بصيغة الماضي كما قيل مع كون النبي ﷺ معصوماً كان المناسب حينئذ إيراد صيغة المستقبل فإن المعاصي لا تنقض الظهر إلا في الآخرة حين يجازى عليها ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه سأل جبرائيل عن هذه الآية: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ قال الله تعالى: «إذا ذكرت ذكرت معي»[٢] قلت: هذه الآية والحديث يقتضي أن الملأ الأعلى إذا يذكرون الله تعالى يذكرون معه محمداً ﷺ وقد سبق أنه مكتوب على ساق العرش وقد مر في سورة البروج ما روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله الحديث، قال عطاء عن ابن عباس يريد الأذان والإقامة والتشهد والخطبة على المنابر ولو أن عبد الله صدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله ﷺ لم ينفع بشيء وكان كافراً قال الحسان بن ثابت رضي الله عنه:

أغر عليه بالنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي باسمه ... إذا قال في الخمس الأذان أشهد

فشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقيل: رفعه بأخذ ميثاقه على النبيين وألزمهم الإيمان به والإقرار بفضله ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ الذي أنت فيه ﴿يُسْرًا﴾ عظيماً فإن تنكيره للتعظيم وهذه الجملة واقع موقع التعليل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٤).

(٢) رواه أبو يعلى وإسناده حسن.

انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عظم قدره ﷺ (١٣٩٢٢).

المحذوف تقديره لاتحزن على ما أصابك من العسر فإن مع العسر يسرا ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ قيل: التنكير لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء والصحيح أنه استئناف وعده بأن العسر مشفوع بيسر آخر لما روى عبد الرزاق في تفسيره والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان مرسلاً أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «أبشروا قد جاءكم اليسر إنه لن يغلب عسر يسرين» رواه ابن مردويه بإسناده ضعيف عن جابر وله شاهد موقوف على رواه مالك الموطأ والحاكم وقال: هذا أصح طرقه، وقال البغوي: قال: ابن مسعود لو كان في جحر لطلبه اليسر حتى يدخله إنه لن يغلب عسر يسرين. قال أهل العربية: إن الكلمة إذا أعيدت معرفة فالثانية عين الأولى سواء كانت أولى معرفة أو نكرة لأن الأصل في اللام العهد وإذا أعيدت نكرة فالثانية غير الأولى سواء كانت أولى معرفة أو نكرة لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التكرير والتأكيد، قال في تنقيح الأصول: إن أقر بألف مقيداً بصك مرتين يجب الألف وإن أقر به منكراً يجب ألفان عند أبي حنيفة رحمه الله إلا أن يتحد المجلس، قلت: معنى إذا قامت القرينة أن المراد بالثاني هو الأول. فإن قيل: هذا قول مدخول فيه فإنه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفاً أن مع الفارس سيفاً لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنان؟ قلنا: نعم إذا قامت القرينة أن الثانية هي الأولى يحمل على الاتحاد ومثال الفارس والسيف من هذا القبيل وأما الآية فإنه تصلح التأويلين لكن ما فسر به النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم هو التأويل الصحيح، وقال البغوي ما حاصله إن المراد بالآية أن مع العسر الواحد يسران لكن لا لتكرير النكرة بل لأجل أن قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ متصل بما سبق ليسليه ووعده النبي ﷺ خاصة باليسر والغنى في الدنيا عاجلاً بعد الفقر الذي كان فيه ثم أنجز ما وعد وفتح عليه القرى ووسع ذات يده حتى كان يعطي من الإبل ويهب الهبات المسنية وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ كلام مبتدأ يدل عليه بقرينة عن الفاء والواو وهذا وعد لجميع المؤمنين ومجازة أن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسر في الآخرة فصار للنبي ﷺ مع عسر واحد يسران يسر في الدين ويسر في الآخرة، وقوله «لن يغلب عسر يسرين» فإنه وإن غلب يسراً واحداً وهو اليسر في الدنيا فلن يغلب يسر الآخرة البتة وهو قوي أبدي، قال البغوي رحمه الله جعل اللام في العسر للعهد وفي الثاني للجنس والله تعالى أعلم فبعض المفسرين قالوا: المراد بالعسر الفقر والشدة والبلاد من المشركين الذين كان النبي ﷺ فيه واشتكى منه إلى ربه والمراد باليسر الأول زوال تلك الحالة بنصر الله تعالى والغنى بعد الفقر، وقال البيضاوي المراد بالعسر ضيق الصدر والوزر المتقض للظهر وضلال القوم

وإيذائهم وباليسر الأول شرح الصدر ووضع الوزر والتوفيق للاهتداء والطاعة وأما اليسر الثاني فالمراد به عند كلهم ثواب الآخرة قالوا معنى الكلام أن بعد العسر يسرا وإنما أورد مع موضع بعد مبالغة في معاقبة اليسر للعسر واتصاله به اتصال المتقاربين، وعندي المراد بالعسر التوج إلى الخلق في مقام النزول الموجب للحزن والغم والمراد باليسر الأول التوجه إلى الخالق في عين مقام النول فإن الصوفي في تلك الحالة وإن كان في بادي النظر معرضاً من الله تعالى متوجهاً إلى الخلق لكنه في الحقيقة ليس بمعرض عنه تعالى بل مقبل إليه أيضاً واتسع صدره للتوجهين جميعاً بل التوجه إلى الخلق لما كان بإذن الله وعلى حسب أمره ومرضاته فهو أيضاً في الحقيقة توجه إلى الله سبحانه ومن ثم سمى هذا ايسر السير من الله بالله فعلى هذا كلمة مع في قوله تعالى: فإن مع العسر يسرا بمعناه الحقيقي بمعنى المقارنة وأما كلمة مع في الجملة الثانية فلا شك أنه على المجاز كما قالوا ومعنى الكلام على هذا التأويل لا تحزن فإن مع العسر والتوجه إلى الخلق الموجب لحزنك سراً وتوجهاً إلى الخالق ليست محجوب عنه الآخرة وخلوص التوجه إلى الله تعالى في الآخرة من غير شائبة حجاب وغيبة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ قال المفسرون النصب التعب والمعنى فإذا فرغت من دعوة الخلق فانصب وأتعب بالعبادة شكراً لما عددنا عليك من النعم السابقة ووعدناك بالنعم الآتية أو المعنى إذا فرغت من عبادة فانصب في عبادة أخرى، ولا تجعل وقتاً من أوقاتك ضائعاً خالياً قال رسول الله ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله فيها»[1] وقال ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل والكلبي إذا فرغت من الصلاة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعني قبل السلام بعد الشتهد أو بعد السلام، وقال الشعبي إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك وقال ابن مسعود إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وقال الحسن وزيد بن أسلم إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك وهذا معنى قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2] وقال منصور عن مجاهد إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وقال حبان عن الكلبي إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب أي استغفر لذنبك وللمؤمنين فوجه اتصال هذه الآية بما سبق أن عند النعماء سبب

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وفي أحد رواته خلاف.
انظر: فيض القدير (٧٧٠١).

(٢) قال ابن حجر: هو من كلام إبراهيم بن عيلة، ورواه الخطيب في تاريخه، وقال العراقي: سنده ضعيف. انظر: كشف الخفاء (١٣٦٢).

للشكر وأما على تأويلنا فمعنى الآية إذا فرغت من دعوة الخلق المقصود من النزول الأتم فانصب أي انتصب وارتفع إلى مدارج العروج ومقام الشهود في الصحاح: نصب الشيء وضعه وضعاً ثانياً كنصب الزرع والبناء والحجر، وفي القاموس نصب كفرج أعني وهم ناصب أي منصب ونصب الشيء وضعه ورفعه ضد كنصبه فانتصب وتنصب وناقة نصباء مرتفعة الصدر وتنصب الغراب ارتفع فعلى هذا التأويل هذه الآية في مقام التسلية مرادف بقوله تعالى: إن مع العسر يسراً الآية ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ عطف تفسيري بقوله فانصب يعني أرغب بالسؤال إلى ربك ولا تسأل غيره، قال عطاء تضرع إليه راهباً من النار راغباً في الجنة وقيل: فارغب إليه في جميع أحوالك، قال الزجاج اجعل رغبتك إلى الله وحده والجار والمجرور متعلق بمحذوف دل عليه ما بعده يعني فانصب وأرغب إلى ربك فارغب، قلت: تكرار الأمر بالرغبة لأن الرغبة الأولى إلى آلاء الله وصفاته والثانية إلى ذاته المجردة الرفيعة عن الشيون والاعتبارات قراءة سورة ألم نشرح لك صدرك يؤيد في مقام النزول كما أن سبح اسم ربك الأعلى يؤيد في مقام العروج وقد ذكرنا هناك والله تعالى أعلم.

سورة التين

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ قال ابن عباس والمجاهد والحسن وإبراهيم وعطاء ومقاتل والكلبي تينكم الذي تأكلون وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت، قيل: خص التين بالقسم لأنه فاكهة مخلقة لا عجم لها شبيهة بفاكهة الجنة قيل في الحديث: «إنه يقطع البواسير وينفع من النقرس» رواه الثعلبي وأبو نعيم في الطب من حديث أبي ذر بإسناد مجهول والزيتون شجرة مباركة وهو ثمر دهن يصلح للاصطباغ وقال عكرمة هما جبلان، وقال قتادة التين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وقال أبو محمد بن كعب التين مسجد أصحاب كهف والزيتون إيليا ﴿وَطُورِ﴾ يعني الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام بين مصر وأيلة ﴿سِينِينَ﴾ قال الضحاك هو لغة نبطية ومعناه الحسن، وقال مقاتل كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سنين وسينا بلغة نبط، وقال عكرمة اسم للمكان الذي به هذا الجبل وكذا سيناء، وقيل: سريانية معناه الملتف بالأشجار وقيل: لغة حبشية، وقال مجاهد معناه البركة أي جبل مبارك وقال قتادة معناه الحسن أي جبل حسن، وقال الكلبي معناه الشجر أي جبل ذو شجر وقيل: اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها بوجودها عنده ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ أي ذا أمانة يحفظ من دخل فيه كما يحفظ أمين ما ائتمن عليه أو بمعنى فاعل أو مفعول يعني أمن من دخل فيه أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به مكة يأمن الناس فيه في الجاهلية والإسلام أقسم الله سبحانه بهذه الأشياء لأن منبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومقر الأنبياء ومهبط ألوحي وطور المكان الذي نودي به موسى ومكة بيت الله الحرام ومولد النبي ﷺ ومهبط الوحي إليه جواب القسم

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي الجنس ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ تفعيل من القيام والقوام، قال في الصحاح القيام والقوام اسم لما يقوم بالشيء أي تثبت، قلت وهو ما يتحقق به الشيء يعني أحسن حقيقته وماهيته وذلك لاستجماعه ما في عالم الكبير من لطائف عالم الأمر وعناصر عالم الخلق والنفس الناطقة المنشأة عن العناصر ولذلك الاستجماع يظهر فيه خصائص الكائنات كلها من الصفات الملكية والسبعية والبهيمية والشيطانية ويتصف بالصفات الكاملة المنعكسة من الصفات الإلهية من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والمحبو التي سميت بناء العشق يتزين بنور العقل ويستعد للتجليات الظلية والصفاتية والذاتية ومن ثم أعطى خلعة الخلافة إني جاعل في الأرض خليفة، وقيل معنى أحسن تقويم أي أحسن صورة فإن التقويم مصدر بمعنى التعديل في القاموس قومته عدلته فهو قويم مستقيم والمصدر ها هنا بمعنى المفعول أو بمعنى الفعيل أي أحسن صورة ومعدل قويم وذلك لأن كل حيوان خلق مكباً على وجهه إلا الإنسان خلق مستقيم القامة بأدى البشرة يتناول ما كونه بيده ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ﴾ أي صيرناه ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ قال البغوي نكرة تعم الجنس يعني بمعونة المقام كما يقال كريم قائم ويؤيده ما في مصحف ابن مسعود أسفل سافلين وإن لم تعم فهو هُملة في قوة الجزئية فيجوز أن يكون بعض السافلين أسفل عنه ويوافق هذه الآية أعني خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين قوله ﷺ: «ما من مولد إلا يولد على الفطرة أو ينصرانه أو يمجسانه»[١] متفق عليه من حديث أبي هريرة، غير أن في الآية أسند الرد إلى الله تعالى نظراً إلى أنه خالق لأفعال العباد وفي الحديث إلى الأبوين، نظراً إلى الكسب ولعل المراد بالسافلين ما جعله الله سبحانه سافل الاستعداد بحيث لا يمكنه تحصيل كمال من الكمالات الإنسانية والصعود إلى مصاعد القرب والتجليات الرحمانية من السباع والبهائم والشياطين الأجنة وجمعه سالماً تغليباً للعقلاء منهم على غيرهم وهم الشياطين ومردة الجن فالإنسان لما ضيع استعداده وترك شكر المنعم وإتيان موجبات الفوز رضوان الله تعالى وأتى بموجبات سخطه من الكفر ومقتضيات جعل أخبث من كل خبيث وأحط مرتبة من كل دنيء وأسوأ حالاً وأبتر مالاً من الكلاب والخنازير بل من الشياطين أيضاً لما ورد في حديث أنس قال «ويعرج له أي للكافر فرجة قبل الجنة فينظر إلى زمرتها وما فيها فيقال انظر إلى ما صرف الله عنك ثم يعرج له فرجة إلى النار» الحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وذلك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفيسر، باب: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ (٤٧٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

ليفرح المؤمن كمال الفرح ويتحسر الكافر كمال الحسرة، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»(١) وأما الشياطين فليس كذلك ولم يكن لهم مقعد في الجنة لعدم استعدادهم دخولها، وقال الحسن ومجاهد وقتادة معنى الآية ثم رددناه أسفل سافلين يعني إلى النار لأن جهنم بعضها أسفل من بعض وقال أبو العالية إلى النار في شر صورة في صورة خنزير ونحوه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء متصل من الإنسان لإخراجهم من حكم الرد فإنهم لا يرددون إلى النار ولا يصيرون إلى أخبث الأحوال ﴿فَلَهُمْ﴾ أي للمؤمنين الصالحين ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع أو لا يمن به عليهم الفاء للسببية والجملة في مقام التعليل للاستثناء مقرر له، وقيل: معنى الآية خلقنا الإنسان في أحسن تقويم أي أعدل صورة أو أقوم حالة بحيث تيسر له كل ما أراد به وبتسخير له الحيوانات كلها والبر والبحر بل الجن والشياطين أيضاً ثم رددناه في بعض الأفراد أي صيرناه بالهرم وأرذل العمر أسفل السافلين والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال فإن الشيخ الكبير إذا زال عقله وضعف بدنه وغلب عليه العوارض والأمراض يصير أضعف من الضعفاء فعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن للاستدراك ودفع توهم نشأ وهو أن المؤمنين أيضاً بعد الهرم وسوء الكبر يكونون أسوء حالاً من الضعفاء ووجودهم في هذه الحالة وبال عليهم فقال الله لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قبل الهرم في حالة القوة والشباب فأجورهم غير مقطوعة لا يزال يكتب حسناتهم على حسب ما كانوا يعملون قال الضحاك أجراً بغير عمل. أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه الآية قال: هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ فسأل حين أسفت عقولهم فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم قال البغوي قال عكرمة لا يضر هذا الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل، وروى العاصم الأحول عن عكرمة عن ابن عباس قال: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال: إلا الذين قرؤوا القرآن لم يردوا إلى أرذل العمر، وقال جلال الدين المحلى رحمه الله إذا بلغ المؤمن من الكبر بالعجز عن العمل كتب له ما كان يعمل وروى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتلى المسلم ببلاء في جسده قال للملك كتب له صالح عمله الذي كان يعمل»

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة والتين (٣٣٤٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: مقدار الركوع والسجود (٨٨٥).

وعن عبد الله بن عمرو نحوه رواهما البغوي في شرح السنة وروى البخاري عن أبي موسى نحوه في المريض والمسافر فإن قيل: مقتضى البلاغة تأكيد الكلام على قدر إنكار المخاطب وكون الإنسان مخلوقاً على أحسن صورة ثم رده بالهرم إلى ضعف أمر بديهي لا ينكره أحد فكيف أورد الكلام بالقسم ولام التأكيد وكلمة قد على هذا التأويل؟ قلنا: لما كان تحول الأحوال على الإنسان دليلاً واضحاً على جواز الإعادة والجزاء والكفار كانوا ينكرون الإعادة والجزاء كأنهم أنكروا التحول لأنه من أنكر المدلول فكأنه أنكر الدليل الواضح لاستلزام أحدهما الآخر ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ المخاطب به الإنسان على سبيل الالتفات يعني فأي شيء يحملك أيها الإنسان على التكذيب بالجزاء عاد أي شيء جعلك كاذباً حيث تقول خلاف الحق أن لا بعث ولا جزاء بعد تلك الدلائل الواضحة من نفسك أن خلقك فقواك ثم ضعف فأماتك قادر على إعادتك وجزاء أعمالك، والاستفهام للتوبيخ والإنكار يعني لا نيبغي لك التكذيب بالجزاء ضعفك أو المخاطب به النبي ﷺ وما للنفي وللاستفهام الإنكاري والمعنى لا شيء يكذبك أو فأي شيء يكذبك أي يدل على كذبك في قولك بالجزاء بالدلائل الواضحة على صدقك فنظير هذه الآية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١)، وقيل ما بمعنى من والاستفهام للتعجب يعني من ينسبك إلى الكذب بعد تلك الشواهد على الصدق عجباً منه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ استفهام إنكار للنفي ونفي النفي إثبات فهو تحقيق وتقرير لما سبق والمعنى أليس الذي فعل ذلك من الخلق الرد بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء والجملة لتسلية النبي ﷺ تكذيب الكفار إياه مكابرة وعناداً أو وعيد للكفار والمعنى أليس الله بأقصى القاضين فهو يحكم بينك وبين من كذبك يا محمد كذا قال مقاتل أو هي في مقام التعليل بقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ لا ينبغي لك أيها الإنسان التكذيب، قال الله أحكم الحاكمين عليك بالعذاب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالتين فانتهى إلى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»(٢) رواه أبو داود وعن البراء أن رسول الله ﷺ: «كان من سفر فقرأ في العشاء في أحد الركعتين بالتين والزيتون»(٣) رواه البخاري، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: الجهر في العشاء (٧٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: القراءة في العشاء (٤٦٤).

سورة العلق

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

روى البغوي بسنده عن عائشة قالت: أول سورة نزلت إقرأ باسم ربك وعليه أكثر المفسرين وأول ما نزل خمس الآيات من أولها إلى قوله تعالى: ما لم يعلم. عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو تعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارىء قال: فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤداه فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي فقالت: كلا والله ما يحزنك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسيد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان أمرأ تنصر بالجاهلية وكان يكتب الكتاب العبري فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم إسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس أنزل الله على موسى يا ليتني فيها

جذعاً يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك قال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أوذي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي[١] متفق عليه. وقيل: المدثر أول القرآن نزولاً وقد ذكرنا هناك، وقيل أول ما أنزل سورة الفاتحة لما روى البيهقي في الدلائل أن خديجة قالت لأبي بكر يا عتيق اذهب به إلى ورقة فأخذه أبو بكر فقص عليه ما رأى فقال: عليه عليه السلام إذا خلوت وحدي سمعت نداء يقول يا محمد يا محمد فانطلق هارباً فقال لا تفعل إذا قال فاثبت حتى تسمع ثم انتهى فأخبرني فلما خلا فناداه محمد فثبت فقال قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ إلى آخرها، ثم قال: قل لا إله إلا الله الحديث، والصحيح هو الأول قال البغوي وهو الصواب الذي عليه جماهير الخلف والسلف وما قيل إنه أول ما أنزل فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ فمحمول على أنه أول ما نزل بعد فترة الوحي وأول سورة نزلت بكمالها الفاتحة أو يقال أوليتها إضافية أول أكثر القرآن بعد اقرأ والمدثر. واختلفوا في مدة الخلو بغار حراء؟ وفي الصحيحين جاورت بحراء شهراً وهو شهر رمضان كما رواه ابن إسحاق في السيرة وأفاد الزرقاني أنه لم يصح أكثر منه وروى مسوار بن مصعب أربعون يوماً لكنه متروك الحديث قاله الحاكم وغيره ورجح بعد العلماء هذا قياماً على ميقات موسى عليه السلام واستدلالاً بقوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين يوماً ظهر ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه» رواه أبو نعيم في الحلية عن أيوب لكن الحديث ضعيف وكذا القياس لأن موسى كان ثلاثين ليلة فأتمها الله أربعين بعارضة قال الله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[٢] واختلفوا في كيفية تعبده؟ فقيل بشرع نوح وإبراهيم وعيسى وليس بشيء لكونه أمياً والصحيح أنه كان يتعبد بالانقطاع عن الخلق والنيل إلى الحق والتفكر، قال القسطلاني ولم تكن الرجفة المذكورة في الحديث خوفاً من جبرئيل عليه السلام فإنه ﷺ أجل من ذلك وأثبت جناناً بل خشية أن يشتغل بغير الله عنه تعالى قيل: خاف من ثقل أعباء النبوة، وروى أبو نعيم أن جبرائيل وميكائيل شقا صدره هنا وغسلاه ثم قالا: اقرأ باسم ربك الآيات.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

مسألة:

وهذه القصة تدل على أن التسمية ليست جزء من كل سورة لكن روى بن جرير عن ابن عباس قال: أول ما نزل جبرائيل على محمد ﷺ قال: يا محمد استعذ قال: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال قال: بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، وهذه الرواية شاذة في مقابلة الصحاح.

فائدة: ومدة فترة الوحي ذكر السهيلي أن الفترة كانت سنتين ونصفاً ووقع في التاريخ الإمام أحمد عن الشعبي أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين فقرن نبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن نبوته جبرائيل فينزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة وقد ذكرنا حزن النبي ﷺ في أيام الفترة في سورة والضحى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾ أمر بالقراءة والمفعول محذوف أي اقرأ القرآن مفتحاً أو متبركاً باسم ربك فهو منصوب على الحال يعني قل باسم الله ثم إقرأ القرآن، ويحتمل أن يكون باسم ربك في محل النصب على المفعولية والباء زائدة يعني اقرأ اسم ربك ولم يقل اسم الله لأن الله علم لذات الواجب ولا سبيل إلى معرفة الذات إلا بالتفكر في الآثار والصفات وأظهر الصفات بالنسبة إلينا صفة الخلق والتربية التي تنبه على التحول أحوال الممكنات الدال على حدوث العالم الموصل إلى العلم بالمحدث القديم المنزه عن شوائب النقص والزوال واحتمال التحول عن حال إلى حال وفيه إشارة إلى أن الصوفي يلتزم أولاً على ذكر الاسم لكي يهتدي به إلى المسمى لكن الصوفية اختاروا من الأسماء اسم الذات لأن سلوك الطريقة يكون بعد الإيمان المجازي بذات الواجب فالأول في حقه اسم الذات لاستجماعه في الدلالة على الصفات كلها ولو إجمالاً ولكونه أقرب من الذات والمقصود هو الذات، وقال الطيبي هذا أمر بإيجاد القراءة مطلقاً وهو لا يختص بمفرد دون مفرد فهو بمنزلة اللام والباء للاستعانة والجملة في جواب قوله ﷺ: ما أنا بقارىء والمعنى قارياً لا بقوتك ومعرفتك بل بإعانة ربك وقوته لفظة اسم على هذا مقحم كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ صفة موضحة للرب فإن الربوبية يقتضي الخلق والتربية من النقصان إلى الكمال وحذف مفعول خلق للدلالة على التعميم أي خلق كل شيء ومن جملة خلق القدرة على القراءة ونزل خلق منزلة اللازم يعني الذي له صفة الخلق والتكوين ولا يمكن اتصاف أحد غيره بتلك الصفة ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ الظاهر أنه جملة مستأنفة كأنه في جواب سؤال ما خلق وإنما خص الإنسان بالذكر بوجوه أحدها أنه أشمل المخلوقات أجزاء فإن كل ما هو في العالم

الكبير فهو ثابت فيه ولذا سمي عالماً صغيراً فالحكم بأنه خلق الإنسان حكم بخلق كل شيء من عوامل الخلق والأمر ثانيها أنه أشرف المخلوقات مستعد لتجليات الصفات والذات أولي بالمعرفة التي هي المقصود بخلق الكائنات قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] أي ليعرفون وفي الحديث القدسي «لولاك لما خلقت الأفلاك»[2] ولما أظهرت الربوبية خص النبي ﷺ ههنا بالذكر لكونه أكمل أفراد الناس معرفة وفي الحديث «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» فخص الإنسان في هذه الآية بالذكر إظهاراً لشرفه وبياناً لأن المقصود بالخلق، وثالثها أنه هو المخاطب بالشرائع والمكلف بالتكليفات الشرعية أولاً وأنه أعرف بحاله من حال غيره فاستدلاله على الصانع بانقلابات أحواله أولى وأقرب لحصول المعرفة ويجوز أن يكون المحذوف من الجملة الأولى كاف الخطاب أي الذي خلقك الجملة الثانية مستأنفة في جواب سؤال مقدر وهو من أي شيء خلقه، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ بلفظ الجنس لاشتراك أفراد الإنسان فيه اختصاص ما منه الخلق بالمخاطب ويحتمل أن يكون المفعول المحذوف من الجملة الأولى هو الإنسان والجملة الثانية تأكيد لها فسر بعد الإبهام تفخيماً لخلقه وليكون أوقع في النفس، ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان هو النبي ﷺ خص بالذكر إظهارا لشرفه ولأنه هو المخاطب به ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمع علقة أو رد صيغة جمع لأن الإنسان جنس في معنى الجمع ولعل العدول من قوله خلق الإنسان من نطفة أو من تراب لمراعاة الفواصل والإشارة إلى جميع أطوار خلقه حيث أشار إلى ما توسط منها فإن هذا خلقه من الطين ثم من الأغذية التي تصير بعد تحويلات منياً ثم تصير المني علقة ثم العلقة مضغة ثم المضغة عظاماً ثم تكسير العظام لحماً ثم ينفخ فيه الروح فذكر المتوسط يشعر بما سبقه وما لحقه من الأطوار ﴿ٱقْرَأْ﴾ تكرير للتأكيد وللمبالغة والأول مطلق والثاني للتبليغ أو في الصلاة وجاز أن يكون باسم ربك متعلقاً بهذا ويكون الأول نازلاً منزلة اللازم والثاني مستأنفة تقديره اقرأ أي صر قارئاً فكأنه قال ما أقرأ وكيف أقرأ فقال الله تعالى: اسم ربك إقرأ وباسم ربك إقرأ القرآن وعلى هذا يحتمل أن يكون ما في قوله ﷺ أنا بقارىء في جواب قول جبرائيل إقرأ استفهامية والباء في الخبر زائدة على لغة أهل المصر، ويمكن أن يقال مافي المرتبة الأولى نافية وبعد ما غطه جبرائيل كانت استفهامية

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) قال الصنعاني: موضوع، وأقول لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثاً. انظر كشف الخفاء (٢١٢٣).

﴿وَرَبُّكَ﴾ مبتدأ والواو للحال ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ صفة للمبتدأ أو خبر له الزائد في الكرم على كل كريم فرض وجوده حيث ينعم بلا غرض ما لا يمكن إحصاءه كماً وكيفاً ومورداً وبحلم عن جهل العباد فإما أن يعفو أو لا يعجل في العقوبة مع العلم وكمال القدرة على الانتقام فوراً فالأفضلية على سبيل الفرض ولو كان المفروض محالاً أو في الحقيقة هو الكريم وحده لا شريك له في الذات ولا في صفة من الصفات ولذا قالوا: أفعل وفعيل في صفات الله تعالى بمعنى واحد فإطلاق لفظ الكريم أو الرحيم أو السميع أو البصير ونحو ذلك على غيره تعالى كأنه بالمجاز لكونه مرآة لصفة كرمه ورحمته وغير ذلك ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ قيل: بالقلم متعلق بمفعول محذوف بعلم تقديره علم الخط بالقلم ليفيد به العلوم والكتب المنزلة فيبقى بعد مضي الدهور ويعلم به البعيد وإنما خص علم الخط أولاً بذكر إظهاراً لشرفه فإن الغرض من التعلم الحفظ وتبقية العلوم وحفظها غالباً لكتابة عادة، قيل أول من خط إدريس عليه السلام، قلت: والظاهر أن قوله بالقلم متعلق بعلم معنى العلوم بتوسط القلم وإنما قدمه في الذكر لكون التعليم بالقلم أسبق التعليمات، قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم»[(١)] الحديث وقد مر في سورة ن والقلم والموصول مع الصلة خبر للمبتدأ، أولاً أو بعد خبر أو صفة بعد صفة كاشفة للتكريم فإن من كمال كرمه تعليم العلوم وتعليم ما يفيد به العلوم ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ بخلق العقل والقوى ونصب الدلائل والوحي والإلهام وخلق العلم الضروري في الأذهان وإنزال الكتب وإرسال الرسل وتواتر الأخبار وغير ذلك هذه الجملة خبر للمبتدأ إن كان ما سبق صفات وبدل اشتمال من علم بالقلم إن كان الموصول خبر المبتدأ تقييد العلم أولاً بالقلم مع حذف المفعول الأول على التعميم وعدم تقييده به ثانياً مع تقييده بالإنسان دليل على أن علوم العالمين بعض علم الإنسان وأخص ولو من وجه فإن علوم الملائكة مثلاً بتوسط القلم وقد أحاط بها اللوح المحفوظ الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ولا رطب ولا يابس إلا فيه، وأما علم الإنسان فمنها ما هو في اللوح مكتوب بالقلم ومنها ما لا يحيط به الكتاب ولا يتصد به القلم يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[(٢)] الآية وذلك لأن العلم بكنه ذات الله تعالى ليس من قبيل العلم الحصولي حتى يتسعه اللوح ويكتبه القلم بل هو من قبيل العلم الحضوري بل وراء العالمين يحصل للإنسان بعد ماهية الله تعالى ذاتاً موهوماً ومن ها هنا قائل فإن من جودك الدنيا وخرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر (٢١٥٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

وجملة وربك الأكرم حال من فاعل اقرأ فإنه لما قيل للنبي ﷺ اقرأ فقال ما أنا بقارىء قيل له اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان يعني آدم عليه السلام أو جنس الإنسان الشامل لجميع الأنبياء ما لم يعلم فيعلمك القرآن وإن لم يكن قارئاً، ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان محمد ﷺ فلعله قال النبي ﷺ ما أنا بقارىء فأخذه جبرائيل فغطه ثلاثاً حتى بلغ منه الجهد وأفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى فالله سبحانه علم نبيه ﷺ بتلك اللفظات الثلاث علوم الأولين والآخرين ثم عد نعمة عليه فقال علم الإنسان ما لم يعلم وقال في موضع آخر ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾(١) فإن قيل: أي فائدة في إيراد قوله ما لم يعلم مع أن التعليم لا يتصور إلا فيما لا يعلم؟ قلنا: فائدته التصريح بعجز الإنسان التعرف بجهله من قبل العلم ويشكر على تلك النعمة العظمى وذكر في مواهب اللدنية روي أن جبرئيل بدا له ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أنت رسول إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ثم ضرب برجله الأرض فنبعث عين ماء فتوضأ منها جبرائيل ثم أمره أن يتوضأ وقام جبرائيل يصلي وأمره أن يصلي معه فعلمه الوضوء والصلاة ثم عرج إلى السماء ورجع رسول الله ﷺ لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر وهو يقول السلام عليكم يا رسول الله حتى أتى خديجة فأخبرها فغشي عليها من الفرح، ثم أمرها فتوضأ وصلى بها كما صلى له جبرائيل فكان ذلك أول فرضها ركعتين ثم إن الله أمرها في السفر كذلك وأتمها في الحضر، وقال ابن حجر في فتح الباري كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً وكذلك أصحابه ولكن اختلف هل فرض قبل الخمس شيء من الصلاة؟ فقيل إن الفرض كان صلاة قبل طلوع الشمس وغروبها انتهى وقال أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد ثم فرض من قيام الليل ما ذكره في أول سورة المزمل ثم نسخه بما في آخرها ثم نسخه بإيجاب الصلاة الخمس ليلة الإسراء بمكة وأما ذكره في هذه الروية من أن جبرائيل علمه الوضوء وأمره فيدل على فرضية الوضوء قبل الإسراء والله تعالى أعلم، وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل نعم فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب فأنزل الله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لمن كفر بالله لطغيانه ونهى عن الصلاة وإن لم يذكر في الكلام لدلالة الكلام أو الحال عليه أو هي بمعنى حقاً تحقيقاً لما بعده ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أطلق لفظ الجنس باعتبار بعض أفراده يعني أبا جهل ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ ليجاوز حده في الكفر والتكبر على ربه ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ قرأ قنبل بقصر الهمزة والباقون بالد ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ إنرأى نفسه منصوب على العلية أو على الظرفة بتقدير المضاف أي لأن رأى أو وقت أن رأى نفسه غيناً استغنى مفعول ثانٍ للروية فإنها من أفعال القلوب ولو كان بمعنى الإبصار لامتنع كون الشيء الواحد مرجعاً للضميرين المرفوع والمنصوب، كان أبو جهل إذا أصاب مالاً ارتفع في طعامه وثيابه ومركبه ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ الرجع مصدر كالبشرى اسم أن والظرف خبره والجملة مستأنفة للتهديد والتحذير كأنه في جواب ما عاقبة الطاغي والخطاب للإنسان على سبيل الالتفات أي رجوعك إلى ربك فيجازيك على طغيانك، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ فجاءه أبو جهل فنهاه فأنزل الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد استفهام عن الروية للتقرير فهو بمعنى قد رأيت فأقر به أو يقال الغرض من الاستفهام الرؤية أن يخبر المخاطب عما رأى فحاصل المعنى أخبرني ويستعمل في مقام التعجب والرؤية من الأفعال القلوب يتعدى إلى المفعولين وهما مبتدأ أو خبر في المعنى والغرض ها ها هنا تقرير نسبة بينهما والاستخبار عنها ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ الظرف متعلق بينهى والمراد بالموصول أبو جهل وبالعبد محمد ﷺ على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أورد الله سبحانه لفظ العبد موقع كاف الخطاب للدلالة على كمال عبوديته وكونه على الحق المبين فإن المقتضى العبودية العبادة وعلى كمال طغيان الناهي وتقبيحه والموصول مع الصلة أحد مفعولي رأيت ومفعول الثاني محذوف في حكم المذكور حملاً على ذكره في قوله تعالى: ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ تقديره أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى كيف يطغى ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ﴾ العبد ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حين يصلي ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ حين يدعون الناس إلى التوحيد والصلاة، والظاهر النهي كان عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى معاً فاقتصر في الجملة الأولى على أحدهما اكتفاء بذكرهما في الثانية ولأنه دعوة بالفعل ولأن نهى العبد إذا صلى يحتمل يكون لها ولغيرها وعامة أحواله محصورة في تكميل نفسه بالعبادة وتكميل غيره بالدعوة وهذا شرط حذف جزاءه بدلالة السياق وهو كيف ينهاه أو فيهلك الناهي ويفوز العبد والشرطية قائم مقام مفعولين لرأيت

وكذا في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِن كَذَّبَ﴾ الناهي ما هو الحق ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الإيمان كيف ينجو من عذاب الله بل يهلك والدليل على المحذوف في الجملتين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ والوعيد فإن إنكار النفي إثبات تقديره وقد علم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ متعلق بيعلم قائم مقام مفعوليه، ويرى بمعنى يعلم حذف مفعولية بدلالة ما سبق أي يرى الله الناهي ناهياً عن الهدى الأمر بالقوى مكذباً بالحق متولياً عن الإيمان والعبد على الهدى والأمر بالتقوى، وعلم الله يستلزم الجزاء على حسب ما علم فأطلق الرؤية وأريد به الجزاء تسمية اللازم باسم الملزوم فتقدير الكلام وقد علم الناهي أن الله يجزي كلا من الناهي والعبد المصلي على حسب ما علم فهذه جمل أربع، وقال صاحب البحر المواج مثل ما قلت غير أنه قال ألم يعلم جزاء الشرطية الثانية وجزاء الشرطية أولى محذوف يقدر مثل الثانية تقديره أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى، وقيل: الخطاب في أرأيت الأولى والثالثة إلى النبي ﷺ وفي الثانية إلى الكافر تقديره أرأيت يا محمد الذي ينهى إذا صليت غطى أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على الهدى أو أمر بالتقوى كيف نهاه أرأيت يا محمد إن كذب أبو جهل وتولى فكيف ينجو ألم يعلم بأن الله يرى كما أن الحاكم بين الخصمين يخاطب تارة هذا وتارة ذاك، وقال الشيخ الجلال الدين المحلي معناه وعجب منه يا مخاطب من حيث نهيه عن الصلاة ومن حيث أن النهي على الهدى أمر بالتقوى ومن حيث أن الناهي مكذب متول عن الإيمان فعلى هذا أيضاً الجمل أربع وقيل: معناه أرأيت يا محمد الذي ينهى عبداً إذا صلى كيف صددناه عنك أرأيت يا محمد إن كان أبو جهل على الهدى أو أمر بالتقوى لكان خيراً له أرأيت يا محمد إن كذب أبو جهل وتولى لأعذبنه ألم يعلم بأن الله يرى فيجازى على حسب ما عمل وكرر لفظ أرأيت ثلاثاً ولم يكتف على الأول ولم يعطف الشرطيتين على الذي ينهى لغاية التعجب، وقال البيضاوي الذي ينهى أول مفعولي أرأيت والشرطتين مفعوله الثاني على التوزيع وجزاء الشرطية الثانية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ وجزاء الأولى محذوف اكتفاء بذكره في الثانية وكلمة أرأيت فيي الآخريين لتكرير الأولى غير عاملة في ما بعدها والمعنى أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلواته إن كان ذلك الناهي على الهدى فيما ينهى عنه أو أمر بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده أو أن كان على التكذيب بالحق والتولي عن الصواب كما تقول ألم يعلم ذلك الناهي بأن الله يرى ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فالكل على هذا جملة واحدة، قال البغوي تقدير النظم أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى أمر بالتقوى الناهي مكذب متولي

عن الإيمان فما أعجب من هذا فالشرطتين في محل نصب على الحالية أولى عن مفعول ينهى والثانية عن فاعله وألم يعلم جملة مستأنفة للوعيد وضمير الفاعل راجع إلى الذي ينهى ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي الذي كذب وتولى ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ الذي ينهى عما هو فيه من النهي عن المعروف وتكذيب الحق والتولي عن الإيمان ﴿لَنَسْفَعًا﴾ جواب للقسم لفظاً وللشرط معنى، ويكتب النون الخفيفة كتنوين المنصوب على صورة الألف والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة أي لنا جذبة فلنجذبنه إلى النار ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ وهي مقدم الرأس أي ناصية والاكتفاء باللام عن الإضافة للعلم بأن المراد ناصية المذكور ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ وصف الناصية بالكذب والخطا وهما لصاحبها على الإسناد المجازي للمبالغة وناصية بدل من الناصية وإنما جاز لوصفها وجملة لئن لم ينته مستأنفة كأنها من جواب ما يفعل الله بالطاغي أخرج الترمذي وصححه وابن جرير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ فزجره النبي ﷺ فقال أبو جهل إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني ذكر البغوي بلفظ أشهره رسول الله ﷺ فقال أبو جهل أشهرني فوالله لأملأن عليك هذا الوادي خيلاً جرداً ورجالاً مرداً فأنزل الله تعالى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾[1] النادي المكان الذي يجتمع فيه القوم والمراد أهل النادي أي قومه وعشيرته بحذف المضاف في اللفظ أو بالمجاز بالإسناد ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ قال ابن عباس يريد زبانية جهنم قال الزجاج هم الملائكة الغلاظ الشداد والزبانية جمع أو زبينة كعفرية وفي الأصل الشرط مأخوذ من الزبن بمعنى الدفع قال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله عياناً وذكر المحلي هذا الحديث مرفوعاً ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً ما ذكر من السفع بالناصية ودعاء الزبانية إن دعانا به أو المعنى لا يستطيع أن يدعونا به ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في ترك الصلاة جملة مستأنفة كأنه في جواب إذا أصنع حين ينهى، ﴿وَاسْجُدْ﴾ عطف على لا تطعه لفظاً وتأكيد معنى ﴿وَاقْتَرِب﴾ من الله بالصلاة روى أبو داود وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[2] أمال حمزة والكسائي أواخر هذه السورة من قوله عز وجل ليطغى إلى قوله بأن الله يرى وأمال أبو عمرو يرى وحده وما عداه بين بين وورش جميع ذلك بين بين والباقون بالفتح وقد ذكرنا بحث سجدة التلاوة في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إقرأ باسم ربك (٣٣٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: التطبيق، باب: أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل (١١٣١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٣).

سورة انشقت فعند أب حنيفة رحمه الله اسجد أمر بسجدة التلاوة بدلالة فعله عليه الصلاة والسلام «أنه ﷺ سجد في إذا السماء انشقت واقرأ»[١] رواه مسلم من حديث أبي هريرة والجمهور على أنه أمر بالصلاة تسمية الكل باسم الجزء فإنه معطوف على لا تطعه عطفاً تفسيرياً بسنية السجود واقتداء بفعله ﷺ وذا لا يقضتي الوجوب، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة (٥٧٨).

سورة القدر

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤﴾

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي عليه السلام قال: إن النبي ﷺ أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ①﴾ ونزلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ يملكها بني أمية، قال القاسم بن الفضل الهمداني فعددنا فإذا هي ألف شهر لا يزيد ولا ينقص[1] قال الترمذي غريب وقال المزني وابن كثير منكر جداً، وأخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن المجاهد أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس من السلاح في سبيل الله ألف شهر فحجب المسلمون من ذلك فنزلت ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله فيها، وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجلاً يقوم حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي فعمل ذلك ألف شهر فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ عملها ذلك الرجل، وروى مالك في الموطأ أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله ﷺ تقاصر في أعمار أمته لا يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر، قلت: هذا مرسل لكنه أصح ما ورد في الباب وهذا يدل على أن ليلة القدر من خصائص هذه الأمة وبه جزم بن حبيب من المالكية ونقله عن الجمهور صاحب العدة من الشافعية

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة القدر (٣٣٥٠).

ويرد عليه حديث أبي ذر عند النسائي حيث قال: قلت: يا رسول الله أيكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رفعت؟ قال: بل هي باقية. ورجح الحافظ ابن حجر كونها في الأمم الماضية، وقال ما رواه المالك بلاغاً يحتمل التأويل فلا يدفع الصريح، قلت: ما رواه مالك أصرح في الدلالة من المرفوع في حديث أبي ذر فإن لفظ المرفوع بل هي باقية يحتمل أن يكون معناه بل هي باقية بعد نبينا ﷺ لكن حديث أبي ذر يدفع قول من قال إنها لم تكن إلا في سنة واحدة في حضور النبي ﷺ وما قيل إنها رفعت بعده ﷺ وكذا يدل على تأييده ما روي عن أبي هريرة قيل: زعموا أن ليلة القدر رفعت قال كذب من قال ذلك رواه عبد الرزاق قال الراوي قلت: هي في كل شهر رمضان استقبله قال: نعم قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن كناية عن غير مذكور تفخيماً وشهادة له بالعظمة المغنية عن تصريح في انتقال الذهن إليه كما عظمه بأن أسند إنزاله إلى نفسه وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لزيادة التأكيد والتقوى أو للتخصيص ثم عظمه باعتبار وقت نزوله فقال: ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يقدر الله تعالى فيها أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المستقبلة، قيل: للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: نعم قيل: فما معنى ليلة القدر؟ قال: سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر يعني إطلاع الملائكة الموكلة على الأمور في تلك الليلة على ما قدر الله أمر السنة في عباده وبلاده إلى السنة المقبلة، وقال عكرمة تقدير المقادير وإبرام الأمور في ليلة النصف من الشعبان فيها ينسخ الأحياء من الأموات فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم ويؤيده ما رواه البغوي أن رسول الله ﷺ: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له ولقد خرج اسمه في الموتى» قلت: لعل تقدير المقادير بنحو من الإنجاء أو بعضها في ليلة النصف من شعبان وتقديرها كلها وتسليمها إلى أربابها إنما هو في ليلة القدر قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾[1] قال ابن عباس يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق والآجال حتى الحاج يقال يحج فلان وفلان، وروى أبو الضحى عن ابن عباس أن الله يقضي الأقضية ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر كذا ذكر البغوي، وقال الزهري سميت بها للعظمة والشرف قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[2] أي ما عظموه وقيل: لأن العمل الصالح فيه يكون ذا قدر عند الله وأجر جزيل ومعنى نزول القرآن في

(١) سورة الدخان الآية: ٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

ليلة القدر على ما روى مفهم عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ لليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل به جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوماً نجوماً في عشرين سنة فذلك قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾(١) وروي عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث مضين من رمضان ويروى في أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من رمضان وإنزال الإنجيل في ثلاث عشرة مضت من رمضان وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة من رمضان وإنزال القرآن على النبي ﷺ في أربعة وعشرين لست بقين بعدها» وأخرج أحمد والطبراني من حديث وائلة بن الأسقع «نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزل التوراة لست مضين والإنجيل لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين(٢) وبناء على تلك الأحاديث قال بعض العلماء إن ليلة القدر ليلة أربع وعشرين من رمضان وروي هذا القول عن ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة ويؤيد قولهم ما روى أحمد عن بلال مرفوعاً التمسوا ليلة القدر ليلة أربع وعشرين وفيه ابن لهيعة قال الحافظ ابن حجر أخطأ ابن لهيعة في رفعه، قلت: وتلك الأحاديث لو صحت لا تدل على أن يكون ليلة القدر في كل عام ليلة أربع وعشرين بل كونها كذلك سنة نزول القرآن إلى بيت العزة أو في سنة حكى عنه بلال.

فائدة: اختلف العلماء في تعيين ليلة القدر على نحو من أربعين قولاً والصحيح أنها ليلة منتقلة في العشر الأواخر من كل رمضان جمعاً بين الأحاديث الصحاح وإعراضاً عما يخالفها منها حديث سلمان الفارسي قال خطب رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك شهر فيه ليلة خير من ألف شهر»(٣) وقد مر هذا الحديث في سورة البقرة وفضائل رمضان وهذا الحديث يدفع ما قيل أنها يكون في رمضان وغيره كذا ذكر قاضيخان مذهب أبي حنيفة لا يقال لعلها كانت في سنة نزول

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عمران بن داود القطان ضعفه يحيى ووثقه ابن حبان وبقية رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد في كتاب: العلم، باب: التاريخ (٩٥٩).

(٣) رواه ابن خزيمة والبيهقي في شعب الإيمان والأصبهاني في الترغيب، قال الحافظ ابن حجر، مداره على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.
انظر: كنز العمال (٢٣٧١٤).

القرآن أو عما حكى عنه سلمان خاصة في رمضان، فلا يدفع بهذا الحديث ولا بالآية لأنا نقول ورد في حديث سليمان نعوت شهر رمضان مطلقاً حيث قال: «جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوع ومن توطع فيه كان كمن أدى فريضة في غيره ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة وإنه شهر الصبر وشهر المواساة» وغير ذلك وليس شيء من تلك النعوت مختصاً برمضان تلك السنة فكذا هذا أو منها حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره»[١] رواه مسلم، وقالت «كان إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[٢] متفق عليه وقالت: «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه بعده» متفق عليه وقالت: «كان يجاور العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحروا الليلة القدرة في العشر الأواخر من رمضان» رواه البخاري، ومنها حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية ثم أطلع رأسه فقال إني أعتكف العشر الأول التمس هذه الليلة ثم اعتكف العشر الأوسط ثم أتيت فقيل لي إنها في العشر الأواخر فمن اعتكف معي فليعتكف العشر الأوامر فإني أريت هذه الليلة ثم أتيتها وقد رأيتني أسجد في الماء والطين من صبيحتها فالتمسوها في كل وتر قال: فمطر السماء تلك الليلة وكان المسجد على عريش فوكف المسجد فيضرب عيني رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين»[٣] متفق عليه في المعنى، وروى مسلم من حديث أبي سعيد قال اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأوسط من رمضان يلتمس ليلة القدر فلما انقضين أمر بالبناء فوقض ثم أنسيت وإنها في العشر الأواخر فأمر بالبناء فأعيد، ثم خرج على الناس فقال: «يا أيها الناس إنها كانت أريت لي ليلة القدر وإني خرجت لأخبركم فجاء رجلان معهما شيطان فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان والتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» قال: قلت: يا أبا سعيد إنكم أعلم بالعدد منا، قال: أجل نحن أحق بذلك منكم قال: التاسعة والسابعة والخامسة قال: إذا مضت واحدة وعشرون فالتي تليها

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: الاجتهاد في العشر الأوخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: فضل ليلة القدر، باب: العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان (١١٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: من خرج من اعتكافه عند الصبح (٢٠٤٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الاعتكاف، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٨).

اثنتان وعشرون فهي التاسعة وإذا مضى ثلاث وعشرون فالتي تليها السابعة وإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة وروى الطيالسي عن أبي سعيد مرفوعاً ليلة القدر «ليلة أربع وعشرين» ومنها حديث عبد الله بن أنيس مرفوعاً «أريت ليلة القدر ثم أنسيتها وأراني صبيحتها أسجد في الماء والطين قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله ﷺ يعني الفجر فانصرف وأثر الماء والطين على جبهته وأنفه»(١) رواه مسلم وأبو داود عنه قال: قلت: يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها فمرني بليلة أنزل فقال: إنزل ليلة ثلاث وعشرين وفي رواية عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر صبيحة إحدى وعشرين فقال: كم الليلة؟ قلت: ليل اثنين وعشرين قال: هي الليلة أو القابلة» ومنها حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان متحرياً فليتحرها ليلة سبع وعشرين» رواه أحمد وابن المنذر معناه وحديث جابر بن سمرة نحوه أخرجه الطبراني، وحديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي ﷺ في ليلة القدر قال: «ليلة الدرة سبع وعشرين» رواه أبو داود، بأحاديث ليلة سبع وعشرين أخذ أحمد وهي رواية عن أبي حنيفة وبه جزم أبي بن كعب وحلف عليه فقيل لأبي بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة التي أخبرنا رسول الله ﷺ: «إنها يعني الشمس تطلع يومئذ لاشعاع لها»(٢) رواه مسلم وروى هذا القول ابن أبي شيبة عن عمر وحذيفة وأناس من الصحابة ويستدل بهذه المقالة بما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: تذاكرنا ليلة القدر فقال رسول الله ﷺ «يذكركم حين طلع القمر كأنه شق جفنه» قال أبو الحسن الفارسي: أي ليلة سابع وعشرين فإن القمر يطلع فيها بتلك الصفة قال المراد به كما وقته وذا بالسابع والعشرين، وهذا الاستدلال ضعيف لأن الظاهر من الحديث أنه كما أن الشمس من صبيحتها تطلع بلا شعاع كذلك القمر في تلك الليلة يطلع بلا شعاع لا لأجل كمال وقته بل لمعنى آخر فهذه الأحاديث لا تدل إلا على كون ليلة القدر تارة ليلة سابع وعشرين لا على أنها لا تكون إلا تلك الليلة ومنها حديث ابن عمر رأى رجل ليلة القدر ليلة السابعة وعشرين فقال النبي ﷺ «أرى رؤياكم في العشرة الأواخر فاطلبوها في الوتر فيها» رواه مسلم، ومنها حديث ابن عمر مرفوعاً «فليتحرها ليلة السابعة» رواه عبد الرزاق وروى أحمد عن ابن عباس نحوه يعني السابعة بعد العشرين أوا لسابعة من الليالي الباقية ومنها حديث النعمان بن بشير مرفوعاً سابعة تمضي أو سابعة تبقى رواه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً هي

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فيمن قال ليلة إحدى وعشرين (١٣٨١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٢).

في العشرة الأواخر في تسع يمضين أو سبع يبقين وفي لفظ تسع يمضين رواه البخاري وفي لفظ للبخاري التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خاصة تبقى ومنها حديث عبادة بن الصامت قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت عسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة أوسبع يبقين» ومنها حديث أبي بكر فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها يعني ليلة القدر في تسع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة»[1] رواه الترمذي وروى أحمد من حديث عبادة بن الصامت نحوه منها حديث ابن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رأى ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال ﷺ : «أرى رؤياكم قد تواطئت في السبع الأواخر فمن كان متحرياً فليتحرها في السبع الأواخر» متفق عليه وفي رواية أن ناساً أروا ليلة القدرة في السبع الأواخر وأن ناساً أروا في العشر الأواخر فقال النبي ﷺ: «التمسوها في السبع الأواخر» ومنها عن علي مرفوعاً «إن غلبتم فلا تغلبوا في السبع البواقي» رواه أحمد، وحديث ابن عمر مرفوعاً «التمسوها في العشر الأواخر فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي» رواه مسلم ويظهر من هذه الأحاديث كلها أن ليلة القدرة تكون في العشرة الأواخر من رمضان فتارة تكون ليلة إحدى وعشرين كما ثبت من حديث أبي سعيد نحوه وتارة تكون ليلة ثلاث وعشرين كما ثبت بحديث عبد الله بن أنيس وتارة ليلة أربع وعشرين التي أنزل فيها القرآن وتارة ليلة سبع وعشرين كما ظهر على أبي بن كعب بالعلامة وتارة ليلة تاسع تبقى يعني الثانية والعشرين أو خاسة تبقى وهي السادسة والعشرين أو ثلاث تبقين وهي الثامنة والعشرين أو تسع تمضين وهي التاسعة والعشرين أو آخر ليلة وهي الثلاثين فلا تعارض في الأحاديث على هذا التأويل والله تعالى أعلم، وقيل: معنى الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ ما في قوله أدراك استفهامية للإنكار والغرض منه التعظيم والتعجب وكذا في ما ليلة القدر وجملة ما ليلة القدر بتأويل المفرد مفعول ثان لأدراك والمعنى أي شيء أدراك عظمته ليلة القدر وفضلها فإن عظمتها وفضلها أكثر من أن يدرك، والجملة معترضة ثم بين الله فضلها وعظمها بجملة متسأنفة فقال ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ ليس فيها ليلة القدر يعني أن من أحياها بالعبادة كان له أجل كثيراً كمن عمر ألف شهر بالعبادة، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في ليلة القدر (٤٩٧).

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1] رواه البخاري عند مسلم بلفظ «من يقم ليلة القدر فيوافقها»[2] وعند أحمد من حديث عبادة بن الصامت من قامها ثم وافقت له يعني قائماً بطن ليلة القدر فوافقها في نفس الأمر غفر له» ﴿تَنَزَّلُ﴾ وحذف أحد التائين من تنزل ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ وتحقيق الروح فيما سبق ﴿فِيهَا﴾ في تلك الليلة من السماء إلى الأرض عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ليلة القدر ينزل جبرئيل في كوكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل» ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ متعلق بتنزل وجملة تنزل خبر بعد خبر الليلة القدر بين فضله أخرى لها أو واقع مواقع التعليل للخبرية ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قدر فيها ﴿سَلَٰمٌ﴾ إما خبر مبتدأ محذوف أي هو سلام والجملة صفة الأمر والمعنى تنزل الملائكة والروح من أجل كل أمر هو سلام، والحمل على المبالغة نحو زيد عدل أو بحذف المضاف أي أمر هو موجب للسلامة عن كل مكروه والظاهر أن هذا الأمر هو الرحمة والبركة في أجور الأعمال والسكينة النازلة على المؤمنين الذاكرين الله تعالى وعلى هذا قوله ﴿هِىَ﴾ مبتدأ خبره ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ والضمير هي راجع إلى الليل لا مطلقاً فإنه حمل غير مفيد فإن ثبوت الليل إلى مطلع الفجر أمر معلوم بديهي بل مقيد بصفة الخبرية ونزول الملائكة أو يقال: هي مبتدأ وسلام خبر مقدم عليه والجملة خبر بعد خبر ليلة القدر وتقديم الخبر على المبتدأ لقصد الحصر أي ما هي الإسلام وخير كلها ليس فيها شر، قال الضحاك لا يقدر الله في تلك الليلة الشر ولا يقتضي الإسلام، وقال مجاهد ليلة شاملة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوء أو لا أن يحدث فيها أذى، وقيل: ما هي الإسلام لكثرة ما يسلم الملائكة على المؤمنين وعلى هذا الظرف أعني حتى مطلع الفجر إما متعلق بمفهوم سلام بمعنى تسليم يعني ما تلك الليلة إلا مقصورة على التسليم حتى مطلع الفجر أو هو ظرف مستقر خبر مبتدأ محذوف أي تلك حتى مطلع الفجر وهذه الجملة خبر آخر لليلة القدر أو متعلق يتنزل وعلى هذين التقديرين سلام هي جملة معترضة، قرأ الكسائي مطلع الفجر بكسر اللام والباقون بفتح اللام وهو إما مصدراً بمعنى الطلوع أو ظرف زمان وقت طلوعه.

فائدة: قيل: يرى في ليلة القدر كل شيء ساجداً والأنوار في كل مكان ساطعة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قيام ليلة القدر من الإيمان (٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

ويسمع سلام وخطاب من الملائكة، قلت: وهذا أمر قد يظهر بنظر الكشف على بعض الأكابر لا على كل منهم ولا يشترط الحصول الثواب ظهور شيء فيها ولو كان ظهور تلك الأشياء أمراً كلياً أو أكثرياً لم يتصور خفاءها وإبهامها على الأمة لا سيما على الصحابة والتابعين ومن يليهم وأكابرة الأولياء ولكن يشترط لحصول ثواب ليلة القدر عبادة الله تعالى كما يدل عليه قوله ﷺ : «من قام ليلة القدر إيماناً» وقوله ﷺ : «يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله».

مسألة: من أدى صلاة العشاء والفجر في تلك الليلة بالجماعة فقد أدرك ثواب تلك الليلة ومن زاد زاده الله، عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»[١] رواه مسلم، يعني من صلى الصبح في جماعة بعدما صلى العشاء فكأنما صلى الليل كله فكل صلاة قائم مقام نصف الليل فإنهما فريضتي الليل وأما المغرب فإنها وتر النهار يستحب أن يكثر في ليلة القدر اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني لحديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله: «أرأيت إن علمت أي ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو الخ»[٢] رواه أحمد وابن ماجه والترمذي، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (٦٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٥٠).

سورة البينة

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في زمان الماضي قبل مبعث النبي ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من لبيان الموصول وكفرهم بالإلحاد في صفات الله تعالى وقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني عبدة الأوثان عطف عل أهل الكتاب ﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائلين متعضلين عن كفرهم الذي كانوا عليه، حذف صلة منفكين لدلالة صلة الذين عليه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ لفظه مستقبل أريد به الماضي أي حتى أتتهم ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ يعني ما يبين الحق من الباطل وهو ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمد ﷺ بدل من البينة ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا﴾ الجملة صفة لرسول الله ﷺ وأنه ﷺ وإن كان أمياً لكنه لما كان متلوه مما يكتب في الصحف كان كمن يتلو صحفاً أي مصاحف ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل وتصرف الشياطين أو ممنوعة من مس المحدث والجنب والحائض، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(١) وقال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾(٢) ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ مكتوب ﴿قَيِّمَةٌ﴾ عادلة مستقيمة لا عوج فيها فإذا أتاهم الرسول بين لهم ضلالتهم وأزال عنهم جهلهم ودعاهم إلى الإيمان فانفك عن كفره من وفقه الله للإيمان وقدر له السعادة ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الإيمان بالنبي ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ما مصدرية والاستثناء

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

مفرغ منصوب المحل على الظرفية متعلق بتفرق أي ما تفرقوا من أمر النبي ﷺ في وقت من الأوقات إلا بعد مجيئه وكانوا قبل ذلك مجتمعين على تصديقه منتظرين لمجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[1] حسداً وعناداً وجملة ما تفرق عطف على لم يكن والحاصل أن أهل الكتاب وإن كان بعضهم لمحمداً في صفات الله ونسبه الولد ليه لكنهم كانوا مجتمعين في أمر النبي ﷺ لوضوح بيان أمره في كتبهم، ولما كان صفة اجتماعهم على تصديق النبي ﷺ مختصاً بأهل الكتاب دون المشركين أفرد في هذه الآية ذكرهم لإظهار زيادة شناعة من بقي منهم على الكفر والآية الأولى لبيان حال المؤمنين من أهل الكتاب ومن المشركين والآية الثانية لبيان من بقي على الكفر من أهل الكتاب، قال البغوي وقال بعض أئمة اللغة معنى قوله منفكين هالكين من قولهم انفك صدر المرأة عند الولادة وهو أن ينفصل فلا يلتئم حتى تهلك ومعنى الآية لم يكونوا هالكين معذبين إلا بعد قيام الحجة عليهم من إرسال الرسول وإنزال الكتاب نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني هؤلاء الكفار كلهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قيل اللام زائدة والفعل منصوب بأن مقدرة حذفت إن وزيدت اللام والجملة في محل النصب على أنه مفعول به لأمروا أي ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله، وقيل المفعول به محذوف واللام لام كي والجملة في محل النصب على العلية والمعنى ما أمروا بما أمروا به بشيء إلا ليعبدوا، والحاصل أنهم ما أمروا على لسان محمد ﷺ إلا بشيء حين ذاته تدل الأدلة العقلية على حسنه وقد أمروا بذلك فيماسبق من الكتب املنزلة فعجباً من المنكرين كيف أنكروا وكيف يفرقوا فيه ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من فاعل يعبدوا ﴿لَهُ﴾ أي الله ﴿الدِّينَ﴾ أي الاعتقاد عن الشرك بغيره ﴿حُنَفَاءَ﴾ حال مرادف أو متداخل لمخلصين أي مائلين عن الأديان الباطلة كلها، قال ابن عباس معناه وما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بإخلاص العبادة لله موحدين ﴿وَيُقِيمُوا﴾ عطف على يعبدوا ﴿الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند محلها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي أمروا به على لسان محمد ﷺ ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الأمة القائمة الراسخة على الحق من الأنبياء والماضيين وأتباعهم الصالحين، قال البغوي قال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ فقال: القيمة والقيم والقائم واحد مجازاً الآية وذلك دين القيمة لله بالتوحيد، أو المعنى وذلك دين الكتب القيمة التي لا عوج فيها التي جرى ذكرها في ضمن الذين أوتوا الكتاب،

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

وقيل: معناه ذلك طريق الملة والشريعة القيمة المستقيمة، قال البغوي أضاف الدين إلى القيمة وهي لغة لاختلاف اللظين وأنت القيمة بتأويلها إلى الملة، ولما ورد ذكر المؤمنين والكافرين استأنف الله سبحانه بالوعد والوعيد للفريقين فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ اسم وخبره ما بعده ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال مقدرة من فاعل الظرف ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي شر الخلائق أجمعين حتى الكلاب والخنازير والجملة إما تذييل أو خبر لأن بعد خبر وهم ضمير الفصل، قرأ نافع وابن ذكروانالبرية في الموضعين بالهمزة والباقون بتشديد الياء بغير همزة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ﴾ أجمعين حتى ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الملائكة المعصومين ومن ها هنا قالوا إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة وعوام البشر أعني المؤمنين الصالحين أرباب القلوب الصافية النفوس الزاكية أفضل من عوام الملائكة وأما غير الصالحين من المؤمنين فيلتحقون بالصالحين بعدما يتمحضون من الذنوب إما بالمغفرة أو بالعقاب ويدخلون الجنة ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف لجزاءهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة خبر لجزائهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل تجري على المجاز والجملة صفة لجنات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ في جنات حال منهم في جزاءهم ﴿أَبَدًا﴾ ظرف لخالدين، قال البيضاوي فيه مبالغات تقديم المدح وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به والحكم عليه بأنه من عند ربهم وجمع جنات وتقيدها إضافة ووصفها بما يزداد بها نعيماً وتأكيداً الخلود بالتأييد ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هذا نعمة زاد من الجنات وما فيها فضل الله، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم يعط أحد من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب أي شيء أفضل من ذلك فيقول:

أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[١] متفق عليه، قلت: لعل المراد من قوله ما لم يعط أحد من خلقك ما لم يعط الملائكة وإلا فليس غير أهل الجنة إلا أهل النار ولا يجوز القول بالتفضيل عليهم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ قال البغوي قيل: الرضا ينقسم قسمين رضي الله به ورضي عنه رضي به رباً ومدبراً ورضي عنه فيها يقضي ويقدر، وقلت: والرضى عنه على أقسام قسم منه معناه ترك الاعتراض عليه والاعتقاد بأن كل ما فعل هو الحسن في نفس الأمر وإن خفي علينا وجه حسنه وهذا القسم من الرضا واجب على العباد في كل ما قضي الله عليه من مرغوب ومكروه عنده غير أنه إن صدر عنه المعصية أو عن غيره لا يرضى عن الكفر والمعصية من حيث صدوره عن العبد وكسبه فإن صدور الكفر والمعصية عن العبد وكسبه به غير مرضي الله وإن كان صادراًبإرادة الله وخلقه ومناط التكليف في وجوب هذا القسم من الرضاء العقل والاستدلال فإن العاقل إذا لاحظ أن الله تعالى مالك للأشياء كلها والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء والاعتراض إنما يتوجه على من يتصرف في ملك بغير إذنه ولاحظ أنه تعالى حكيم لا يفعل إلاعلى ما اقتضاه الحكمة رضي الله به وإن اختلج شيء في صدره فذلك لأجل نقصان في عقله ودينه وبقية كفر في نفسه الأمارة بالسوء وإلى هذا القسم من الرضاء أشار السري السقطي ﷺ إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضى عنك وقسم منه معناه كون مقتضيات الله محبوباً له مرغوباً عنده وإن كان على خلاف هواه ومنشأه العشق والمحبة بالله سبحانه فإن فعل المحبوب ومراده أحب عند المحب من مراد نفسه ومن ها هنا، قال الشاعر فإن فرحت بهجري رضيت بالضروري وقسم منه معناه بلوغ المراد أقصى ما يتمناه ويشتهيه وهو المراد ها هنا ومن قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[٢] قال رسول الله ﷺ: «إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار» وقد مر في سورة والضحى ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الجزاء والرضوان ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير والناهي عن كل معصية وشر وجملة ذلك لمن خشي ربه في مقام التعليل بقوله تعالى: جزاءهم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن وفي رواية أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا قال: الله سماني لك؟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٢) سورة الضحى، الآية: ٥.

قال: نعم قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم فذرفت عينه»[١] متفق عليه، قلت: وما ذكر في الحديث من حال أبي هواية عشاق، والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة البينة (٤٩٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه (٧٩٩).

سورة الزلزلة

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أي حركت حركة واضطراباً مناسباً بشأنها في العظمة ولا بقاء بها في الحكمة أو حركة ممكناً لها أو مقدراً لها، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تحركت من أسفلها واختلفوا في تلك الزلزلة هل هي بعد النفخة الثانية وقيام الناس من قبورهم أو قبل النفخة الأولى في الدنيا من أشراط الساعة؟ فاختار الحليمي وغيره الأول وابن العربي ومن معه الثاني محتجين بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾[1] وأجاب أهل المقالة الأولى أن خرج مخرج المجاز والتمثيل لشدة الهول لا على حقيقة مستدلين بما أخرج الترمذي وصححه عن عمران ابن حصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ: فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ الآية فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟ يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار»[2] الحديث وله طرق في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله يوم القيامة لآدم «قم فابعث بعث النار من

(١) سورة الحج، الآية: ٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٥٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار» (٢٢٢).

ذريتك؟ فيقول: أي رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى واحد فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ فقال من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد وهل أنتم في امم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود» وقال أهل المقالة الثانية هذا الحديث لا يدل على أن الزلزلة يكون حين الأمر ببعث النار بل في ذلك اليوم والأمر متأخر عنها فكأنه ﷺ لما أخبر عن الزلزلة التي يكون متقدمة على النفخة الأولى ذكر ما يكون في ذلك اليوم من الأهوال العظام، قلت: وعبارة حديث الصحيحين يأبى عن هذا التأويل فإنه فيه فعند ذلك أي عند بعث النار يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها والله تعالى أعلم قلت: جاز أن يتكرر الزلزلة مرة في أشراط الساعة ومرة بعد البعث ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ إسناد الإخراج إلى الأرض مجازي ﴿أَثْقَالَهَا﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال يعني الموتى من القبور كذا أخرج الفريابي عن ابن مجاهد وعلى هذا فهي حكاية عما بعد النفخة الثانية، وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال: يعني ما فيها من الكنوز، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى الأرض فلاذ كبدها أمثال أسطوان من الذهب والفضة ويجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي ويجيء السارق يقول: في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[(١)] رواه مسلم وفي الصحيحن عنه مرفوعاً «يوشك الفرات أن يحسر عن أكثر من ذهب فمن حضر فلا يأخذ منه شيئاً»[(٢)] وفي رواية لمسلم عنه «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب فتقتل الناس عليه فتقتل من مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو» قلت: لعل القتال يكون في بادىء الأمر ثم يؤل الأمر إلى أن لا يأخذ أحد منهم شيئاً ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تعجباً ﴿مَا لَهَا﴾ أي ما للأرض تزلزل هذه الزلزلة الشديدة وتلفظ ما في بطنها، قيل: المراد بالإنسان الكافر يقول ذلك حين يبعث ولم يكن يرجو البعث، وأما المؤمن فيقول هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، قال البغوي في الآية تقديم وتأخير تقديره ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فيقول الإنسان

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٠١٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في أشراط الساعة (٢٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن، باب: خروج النار (٧١١٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٨٩٤).

ما لها تخبر وتتكلم بما عمل عليها يومئذ بدل من إذا زلزلت والعامل فيه تحدث ويحتمل أن يكون يومئذ أصلاً وإذا اقتضى بمحذوف أي لتحاسبن إذا زلزلت يومئذ تحدث أخبارها عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول عمل كذا وكذا فذاك أخبارها»[١] رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن حبان والبيهقي، وأخرج الطبراني عن ربيعة الحرثي أن رسول الله ﷺ قال: «تحفظوا من الأرض فإنهاأمكم وإنه ليس من أحد عمل عليها خيراً وشراً إلا وهي مخبرة»، وكذا أخرج الطبراني عن مجاهد ﴿بِأَنَّ﴾ أي بسبب أن ﴿رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ اللام بمعنى إلى يعني أوحي ربك إليها أن تخبروا بمعناها أذن لها في ذلك تشقى في العصاة، وجاز أن يكون بأن ربك بدلاً من أخبارها يقول أخبرته كذا وأخبرته هكذا أو حينئذ يكون جواباً لقول الإنسان ما لها يعني تقول أوحي ربك إلي وحكم بالزلة، وإخرج الأثقال ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ظرف لما بعده ﴿يَصۡدُرُ﴾ أي يرجع ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عن موقع الحساب بعد عرض ﴿أَشۡتَاتًا﴾ متفرقين فأخذ ذات المين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[٢] ﴿لِّيُرَوۡاْ﴾ متعلق بيصدر أي لكن يروا أعمالهم قال ابن عباس أي ليروا جزاء ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يعني يرجعون عن الموقف لينزلوا منازلهم من الجنة أو النار وجملة يومئذ يصدر مستأنفة وقول ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ إلى آخر السورة تفصيل ليروا، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ كان المسلمون يرون أنهم يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوا وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير الكذبة والنظرة وأشباه ذلك وإنما وعد الله على الكبائر فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية أي وزن نملة صغيرة أو أصغر من نملة ﴿خَيۡرًا﴾ تميز المثقال ذرة ﴿يَرَهُۥ﴾ قرأ هشام بإسكان الهاء في الموضعين والباقون بالإشباع فيهما أي يرى جزاءه، قال مقاتل يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكبر قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»[٣] متفق عليه،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا زلزلت (٣٣٥٣).

(٢) سورة الروم، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب (١٤١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربتها (١٠١٤).

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[١] رواه مسلم وهذه الآية حجة لأهل السنة على المعتزلة أن المؤمن وإن كان مرتكباً للكبائر لا يخلد في النار بل يصير عاقبته إلى الجنة فإن الله وعد بإيفاء الجزاء على مثقال ذرة من الخير والخلف عن وعد الله محال والإيمان نفسه رأس الخيرات وأساس العبادات كلها فكيف يتلاش بارتكاب المعاصي ومحل رؤية الجزاء إنما هو الجنة فالمؤمن وإن كان فاسقاً ومات من غير توبة يصير لا محالة إلى الجنة وعليه انعقد الإجماع وبه تواترت الروايات عن النبي ﷺ قال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار من قالها وفي قلبه وزن ذرة من خير ومن إيمان»[٢] متفق عليه من حديث أنس، وعند مسلم عن عثمان بلفظ «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة» وعنده عن جابر بلفظ» من مات يشرك بالله دخل النار ومن مات لا يشرك بالله دخل الجنة» وعنده عن عبادة بن الصامت بلفظ «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ حرم الله عليه النار» وكذا عن أنس وعن عتبان بن مالك في الصحيحين وعن عمر عند الحاكم وعن معاذ عند مسلم وعنده عن ابن مسعود بلفظ «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» يعني حرم الله عليه النار المؤيد ولا يدخل ناراً مقدر الخلود فيه، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك دخل الجنة، قلت وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق؟ قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق؟ قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر»[٣] متفق عليه، وعند أحمد والبزار والطبراني مثله قال السيوطي الأحاديث في ذلك كثيرة زائدة على التواتر. فإن قيل هذه الآية يشتمل من عمل صالحاً كإنفاق وصلة الرحم ونحو ذلك من الكفار مع دلالة النصوص والإجماع على خلودهم في النار؟ قلنا: الآية لا يشملهم لأن شرط إتيان الحسنات الإيمان بالله وإخلاص العمل له تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب طلاقه الوجه عند القاء (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: زيادة الإيمان ونقصانه (٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: الثياب البيض (٥٨٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار (٩٤).

الأعمال بالنيات»(١) فإذا فات منهم شرط فات المشروط فمثل حسناتهم كمثل صلاة بلا وضوء فإنها ليست بصلاة حقيقة بل يعد استهزاء ومعصية، ومن ثم قال العلماء: إنه من نذر بالصلاة أوبالصوم أو بالاعتكاف في حالة الكفر ثم أسلم لا يجب عليه الوفاء لأن الصلاة والصلام والاعتكاف من الكافر ليس لله خالصاً فهي كفر معصية ليس من الطاعة في شيء ولا نذر بالمعصية و﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٢) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ أي يرى جزاءه إن لم يتداركه المغفرة والدليل على هذا التقييد الآياتت والأحاديث الدالة على جواز مغفرة المعاصي من غير توبة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٣) وقال الله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾(٤) وقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(٥) وقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾(٦) ونحو ذلك وعن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليغفر الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس وجاء أن يصيبه» رواه البيهقي وفي الباب أحاديث كثيرة بالغة حد التواتر، وهذه الآية حجة لأهل السنة على المرجئة في قولهم إن الله لا يعذب المؤمن وإن كان فاسقاً وإن المؤمن لا يضره سيئة كما أن الكافر لا ينفعه حسنة وقد ورد في تعذيب المؤمنين على الصغائر والكبائر آيات وأحاديث كثيرة لا يحصى يطول الكلام بذكرها فثبت أن الحق ما قال أهل السنة أن الله سبحانه إن شاء يعذب على صغيرة عدلاً وإن شاء يغفر الكبائر فضلاً، قال مقاتل الإثم الصغير في عين صاحبه أعظم من الجبال يوم القيامة، عن سعيد بن حبان قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيها شيء فقال النبي ﷺ: إجمعوا من وجد شيئاً ليأت به قال: فما كان إلا ساعة حتى أجمعوا ركاباً فقال النبي ﷺ: «ترون هذا فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله عز وجل فلا يذهب صغير ولا كبيرة فإنها محصاة عليه»

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١).

(٢) سورة النور، الآية: ٣٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٩.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

رواه الطبراني، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً»[١] رواه النسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان، وعن أنس «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[٢] رواه البخاري ولأحمد مثله من حديث أبي سعيد بسند صحيح، قال ابن مسعود أحكم آية في كتاب الله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ وورد في الحديث الطويل، عن أنس عند مسلم أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ وقال الربيع بن خيثم مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال: حسبي قد انتهيت الموعظة، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: أقرأني يا رسول الله قال: اقرأ ثلاثاً من ذوات آلر قال: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني قال: فاقرأ ثلاثاً من ذات حم فقال مثل مقاله فقال: الرجل يا رسول الله اقرأني سورة الجامعة فاقرأ رسول الله ﷺ إذا زلزلت الأرض حتى فرغ منها فقال الرجل والذي بعثك بالحق لا أزيد عليه أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل مرتين»[٣] رواه أحمد وأبو داود، وعن أنس وابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل هو الله أحمد يعدل ثلث القرآن وقل يا أيها الكافرون ربع القرآن»[٤] رواه الترمذي والبغوي وفي رواية عند الترمذي وابن أبي شيبة عن أنس «إذا زلزلت الأرض ربع القرآن» قال الجزري: كونها ربع القرآن لأنها مشتملة على الحسنات وهو بالنسبة إلى الحياة والموت والبعث والحساب ربع وكونها نصف القرآن لأنها مشتملة على أحوال الآخرة وأحوال الآخرة بالنسبة إلى أحوال الدنيا والآخرة نصف فهي ربع من وجه ونصف من وجه، وروي من حديث علي بسند ضعيف جداً قوله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله» والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب (٤٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من محقرات الذنوب (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: تحزيب القرآن (١٣٩٨).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣).

سورة العاديات

مكية هي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

أخرج البزار والدارقطني والحاكم وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً فلبث شهراً إلا يأتيه فيها خيراً فنزلت ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ قرأ أبو عمرو بالإدغام الكبير بين التاء والضاد أقسم بخيل الغزاة التي تعدو في سبيل الله كذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والكلبي وقتادة ومقاتل وأبو العالية وغيره ولهذا التأويل وبما ذكرنا من سبب النزول يظهر أن السورة مدينة لأنه لم يكن قبل الهجرة جهاد، وجاز أن يكون القسم بها بمنزلة الإخبار لوجودها في الاستقبال على تقدير كونها مكية ﴿ضَبْحًا﴾ أي تضبح ضبحاً مصدر موقع الجملة التي وقعت حالاً من فاعل العاديات وهي صوت أنفاس الخيل إذا عدون، قال ابن عباس لا يضبح من الحيوانات غير الفرس والكلب والثعلب وما يضبحن إلا إذا تغير حالهم من التعب، وقال علي العاديات هي الإبل في الحج تعو من عرفة إلى مزدلفة ومن مزدلفة إلى منى وقال كانت أول غزوة في الإسلام بدر أو ما كان معنا إلا فرسان الزبير وفرس المقداد بن الأسود فكيف تكون العاديات وإليه ذهب ابن مسعود ومحمد بن كعب والسدي وعلى هذا معنى قوله ضبحاً يعني تمد أعناقها في السير مداً ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ الخيل التي توري النار إذا سارت ليلاً في أرض ذات حجارة ﴿قَدْحًا﴾ يعني تقدح أي تفك الحجارة بحوافرها قدحاً ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ قرأ أبو عمرو وخلاد بالإدغام بين التاء والصاد أي الخيل التي تغير بفرسانها على عدو والإغارة سرعة سير ﴿صُبْحًا﴾ ظرف للمغيرات أي التي تغير في وقت الصبح هذا قول أكثر المفسرين، وقال

القرظي هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع بمنى وقت الصبح وهو السنة بل الواجب أن لا يدفع حتى يصبح وقد رخص رسول الله ﷺ للنساء والضعفاء بالدفع بعد طلوع الفجر من ليلة النحر ﴿فَأَثَرْنَ﴾ عطف على مضمون صلة اللام الموصول يعني اللاتي عدون قادرين فأغرن فأثرن أي هيجن ﴿بِهِۦ﴾ الباء بمعنى في والضمير عائد إلى الزمان المفهوم تضمناً من مضمون الصلة أي أثرن في ذلك الوقت أي وقت الإغارة على العدو أو إلى المكان المفهوم منه اقتضاء أي أثرن في مكان العدو ﴿نَقْعًا﴾ غباراً مفعول لأثرن ﴿فَوَسَطْنَ﴾ أي فوسطن تلك الخيل ﴿بِهِۦ﴾ الضمير عائد إلى النقع أي متلبساً بالنقع أو إلى الوقت أو المكان كمامر في ذلك الوقت أو المكان ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء وجواب القسم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أريد به الجنس نظراً إلى أكثر أفراده حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾(١) ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ متعلق بما يبعده قدم لرعاية الفواصل ﴿لَكَنُودٌ﴾ أي لكنود لنعمة ربه بلسان مضر كذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة أو العاصي بلغة كنده أو البخيل بلغة بني مالك، قال أبو عبيدة هو قليل الخير والأرض الكنود ما لا ينبت شيئاً ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ قال ابن كيسان الضمير للإنسان أي وإن الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي على كونه كفوراً عاصياً بخيلاً ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد به على نفسه عند أدنى تأمل بظهور أثره أو يشهد على نفسه ويترف بذنبه في الآخرة يقول لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وقال أكثر المفسرين ضمير إنه راجع إلى ربه يعني وإن ربه على كونه كنود الشهيد لا يعزب عنه شيء فيؤاخذ به فهو وعيد ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي المال كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾(٢) ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لقوي مبالغ فيه فلا ينفقه في سبيل المنعم شكراً للنعمة أو المعنى البخيل شديد وعلى هذا فاللام في لحب الخير للتعليل أي لأجل حب المال لبخيل وعلى الأول لام الصلاة ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ همزة الاستفهام للتعجب والفاء للعطف على محذوف تقديره ألا ينظر الإنسان فلا يعلم ومعناه لينظر وليعلم الآن ما سيعلم غداً أن ربهم خبير لهم يجازيهم على ما يفعلون يوم نبعث من في القبور ويبرز ما في الصدور ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي بعث وأثير ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى أو رد لفظ ما بمعنى من لمشاكلة ما في الصدور أو لأنه في هذه الحالة مما لا يعقل لكونه موتى ملحقاً بالجمادات ﴿وَحُصِّلَ﴾ أي جمع محصلاً في الصحف أوميز وأبرز في ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي ما في صدورهم يعني صدور جنس الإنسان من الخير والشر وتخصيص ما في الصدور بالذكر دون أعمال الجوارح لأنه

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

الأصل إذا بعثر شرط حذف جزاءه لتوسط في جملة تدل على جزائه تقديره إذا بعثر ما في القبور يعلم والجملة الشرطية معترضة للتهديد والفظاعة ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ هذه الجملة قائم مقام المفعولين ليعلم لدخول اللام على الخبر أو يقال مفعولاه محذوفان يدل عليهما هذه الجملة يعني أنا نجازيه وقت ما ذكروا بهم، ويومئذ متعلق بمضمون خبير خص ذلك اليوم بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان لأن الجزاء يقع يومئذ فيظهر كونه خبيراً يومئذ، أو يقال الخبير مجاز عن المجازي والمعنى أن ربهم يجازي بهم يومئذ كذا قال الزجاج والله تعالى أعلم.

سورة القارعة

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ سبق بيانه في الحاقة والتاء إما لتأنيث الساعة أو للمبالغة في القرع ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ الظرف إما متصف بفعل مضمر دلت عليه القارعة أي تقرع الناس يوم يكون الناس أو مبني على الفتح لإضافته إلى الجملة في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي يوم يكون بيان للقارعة ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾ الطير التي يتهافت في النار ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المفرق وجه الشبه كثرتهم وهو أنهم وتموج بعضهم في بعض وركوب بعهضم على بعض بشدة الهول ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾ عطف على يكون ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ الصوف ذي الألوان لأجل اختلاف ألوان الجبال ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطائرها في الجو ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل لما أجمل حاله من الناس عطف على يكون ذكر الناس فريقين﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون يعني أعماله التي توزن معه والمراد بها الأعمال الصالحة فإنها المقصر بوجودها أو هو جمع ميزان وعلى هذا أيضاً المراد به كفة الحسنات من ميزانه وقد صح أن الميزان له لسان وكفتان أخرجه ابن المبارك في الزهد والآجري وأبو الشيخ في تفسير عن ابن عباس، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله عز وجل كفتي الميزان مثل السماء والأرض» وأورد الموازين بلفظ الجمع لأن من ثقلت جمع معنى وإفراد الضمير الراجع إليه نظراً إلى إفراد لفظه فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد على الآحاد لكن على هذا التأويل تدل الآية على كون الميزان كل رجل على حدة وجاز أن يعتبر تعدد

الموازين من حيث تعدد من يوزن أعمالهم ﴿فَهُوَ﴾ هذا أيضاً باعتبار لفظة من ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أسند الرضى إلى العيشة مجازاً وهي صفة لصاحبها كما في ناصية كاذبة، وقيل: الفاعل ها هنا بمعنى المفعول أي عيشة مرضية كعكسه في وعداً مأتياً أو بمعنى ذات رضى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ أي أعماله الحسنة أو كفة حسناته وهذا يعم الكافر الذي لا حسنة له لفقد الإيمان الذي هو شرط إتيان الحسنات والمؤمن الفاسق الذي ترجحت سيئاته على حسناته بخلاف الأول يعني من ثقلت موازينه فإنه لا يكون إلا مؤمناً معصوماً أو مغفوراً أو ترجحت حسناته على سيئاته، قال القرطبي قال علماؤنا الناس في الآخرة على ثلاث طبقات فرقة متقون لا كبائر لهم توضع حسناته في الكلفة النيرة فلا ترتفع وترتفع المظلمة ارتفاع الفارغ الخالي وفرقة كفار توضع كفرهم وأوزارهم في الكفة المظلمة وإن كان له عمل بر كصلة الرحم ونحوها وضعت في الكفة الأخرى فلا يقاومها ويرتفع كفة الحسنات ارتفاع الفارغ الخالي، قال رسول الله ﷺ: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا تزن عند الله جناح بعوضة ثم قرأ ﴿لا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة وفرقة فساق المؤمنين يوضع حسناتهم في كفة النيرة وسيئاتهم في كفة المظلمة إن كانت كفة الحسنات أثقل دخل الجنة أو السيئات أثقل ففي مشيئة الله يعني إن شاء أدخل النار وإن شاء غفر وأدخل الجنة وإن كان مساوياً كان من أصحاب الأعراف هذا إذا كانت الكبائر بينه وبين الله وإن كان عليه تبعات اقتص من ثواب حسناته بقدرها فإن لم يوف زيد عليه من أوزار من ظلمته ثم يعذب على الجميع قال أحمد بن حرث يبعث الناس يوم القيامة ثلاث فرق فرقة أغنياء بالأعمال الصالحة وفرقة الفقراء وفرقة أغنياء ثم يصيرون فقراء مفاليس بالتبعات، وقال سفيان الثوري إنك إن تلقى الله تبارك وتعالى بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته دخل النار قال وإن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط يعني حتى يوفوا جزاء بعض سيئاته ويرجح حسناته فيدخل الجنة، قال السيوطي وإنما يوزن أعمال المتقي من لا سيئة عليه إظهاراً لفضله وأعمال الكافر إظهار الذلة، قلت: والمذكور في القرآن غالباً جزاء الكفار في مقابلة جزاء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ (٤٧٢٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥).

الصلحاء المؤمنين وأما حال الذين خلطوا صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين فمسكوت عنه غالباً في القرآن فالظاهر أن المراد ها هنا بمن خفت موازينه هم الكفار فهم المحكوم عليهم بقوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ يعني مسكنه النار يسمى المسكن أماً لأن الأصل سكون الأولاد إلى الأمهات والهاوية اسم من أسماء جهنم وهو المهواه لا يدرك إلا الله، وقال قتادة كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال هو أمه، وقيل أراد رأسه يعني أنهم يهوون في النار على رؤسهم قال البغوي وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح، قلت: وكذا الكفار هم المرادون في مقابلة المتقين في حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «يوفي ابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان به ملك فإن ثقلت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعده أبداً وإن خفت ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعده أبداً»(١) وحال المخلط مسكوت في الحديث والظاهر أن الملك لا ينادي عليه شيء من الصوتين ولذلك لم يذكر.

فائدة: قال القرطبي الميزان لا يكون في حق كل أحد وإن الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا ينصب لهم ميزان وكذلك من يعجل به إلى النار بغيرحسابو هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾(٢) وقال السيوطي يحتمل تخصيص الكفار الذين يوزن أعمالهم ولا يجدون ثقلاً بالمنافقين فإنهم يبقون في المسملين بعد لحوق كل مسلم أمة بما يعيدوهم يصلون ويصومون مع المؤمنين في الدنيا رياء وسمعة ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(٣) الميزان، وقال الغزالي السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يوضع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً إنما هي براءة مكتوبة هذه براءة فلان بن فلان، أخرج الأصبهاني عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تنصب الموازين ويؤتون بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتون بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتون بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب لهم أجرهم بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية إنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل وذلك إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير

(١) رواه البزار وفيه صالح المري وهو مجمع على ضعفه. انظر: مجمع الزوائد في كتاب: البعث، باب: ما جاء في الحساب (١٨٣٩٤).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

حساب» وأخرج الطبراني وأبو يعلى بسند لا بأس به عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ثم يوفى بالمتصدق فينصب للحساب ثم يؤتي بأهل البلاء فلا ينصب لهم الميزان ولا ينشر لهم ديون فيصب عليهم الأجر صباً حتى أن أهل العافية ليتمنون بالموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حيث ثواب الله لهم» وقد ذكر فيما سبق أن الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الصوفية العلية لعل المراد بأهل البلاء ها هنا أيضاً بلاء العشاق المحبين لله لرضائهم بالبلاء كرضائهم بالعطاء وكذا المراد بالبكاء في قوله ﷺ: «ما من شيء إلا وله مقدار وميزان إلا الدمعة فإنها يطفىء بها بحار من نار» رواه البيهقي من حديث معقل بن يسار، بكار أهل العشق وإلا فقد صح في الأحاديث وزن أعمال أهل البلاء كما في قوله ﷺ: «بخ بخ بخمس ما أثقلهن في الميزان لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه» رواه النسائي وابن حبان والحاكم والبزار وأحمد والطبراني من حديث ثوبان وأبو سلمى ولا شك أن وفاة الولد من البلاء والشهادة التي ذكرت في حديث ابن عباس أيضاً من البلاء والله تعالى أعلم، فإن قيل روى أحمد بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فتمايل به الميزان فيبعث به إلى النار فإذا أدبر إذ صائح يصيح من عند الرحمن لا تعجلوا فإنه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فيوضع مع الرجل حتى يميل به الميزان» وروى الحاكم وصححه وابن حبان والترمذي عنه نحوه وعن أبي سعيد وابن عباس وغيرهما ما يؤيده في عمره فكيف يخف ميزان المؤمن فإنه لا يخلو مؤمن من قول لا إله إلا الله ولو مرة واحدة في عمره؟ قلنا أحكام الآخرة كلها يعني أكثرها من القضايا المهملة في قوة الجزئية قلما تكون منها كلية والأمر منوط بفضل الله ومدار الأعمال على الإخلاص ومقداره والله أعلم ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾﴾ قرأ حمزة ما هي بغير الهاء وصلا فقط والباقون بالهاء للسكت في الحالين والضمير راجع إلى الهاوية والاستفهام للتهويل وجملة ما أدراك معترضة لاستعظام أمرها وقوله تعالى نار بدل من هاوية أو بيان لها أو خبر مبتدأ المحذوف أي هي ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾﴾ ذات حمى بلغت النهاية في الحرارة.

سورة التكاثر

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي ألهكم في اللهو وهو الباطل من الأمور وما لا يعد فائدة معتبرة وشغلكم عن طاعة الله وما ينجيكم من سخطه ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي والتفاخر بكثرة المال والجاه والعدد ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ يعني حتى متم ودفنتم بالمقابر، أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «ألهاكم التكاثر عن الطاعة حتى زرتم المقابر حتى يأتيكم الموت» قال قتادة كانت اليهود يتفاخرون بكثرتهم ويقولون نحن أكثر من بني فلان شغلهم ذلك حتى ماتوا فنزلن هذه الآية فيهم فعلى هذا حتى للغاية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت الآية في قبيلتين من قبائل الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما فيكم مثل فلان وفلان وقال آخرون مثل ذلك تفاخروا ثم قال: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين يقول فيكم مثل فلان ومثل فلان ويشيرون إلى القبور، وقال الكلبي نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني قصي وبني سهم قالت كل واحد نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأكثر عدداً فكثرهم بنو عبد مناف ثم قالوا: نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوهم فقالوا هذا القبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً فأنزل الله هذه الآية وعلى هاتين الروايتين معنى قوله: حتى زرتم المقابر حتى عددتم الأموات لأجل التكاثر بالأموات بعد ما استوعبتم عدد الأحياء فعبر عن انتقالهم إلى ذكر الأموات بزيارة القبور مجازاً أو يحمل على زيارة القبور حقيقة حيث انطلقوا إلى المقابر بعد القبور حتى هذا للسببية، عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية

ألهاكم التكاثر قال يقول ابن آدم ما لي ما لي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»(١) رواه البغوي وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وما له وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»(٢) رواه البخاري، وعن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفتخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»(٣) رواه مسلم وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لينتهين أقوام يفخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم محم من جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب»(٤) رواه الترمذي وأبو داود، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع بالصاع لم تملوه ليس لأحد على أحد فضل الأبدين وتقوى كفى بالرجل أن يكون بذياً فاحشاً بخيلاً» رواه أحمد والبيهقي، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون» رواه الطبراني في الأوسط ﴿كَلَّا﴾ ردع عن التكاثر ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حذف مفعوله لدلالة السياق أي سوف تعلمون سوأ عاقبة تفاخركم وتكاثركم حين تعذبون عليه ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ تكرير لتأكيد الوعيد أو تنصيص بوعيد آخر وفي ثم دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول قيل الأول عند الموت أو في القبر والثاني بعد البعث، أخرج ابن جرير عن علي قال كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهكم التكاثر إلى كلا سوف تعلمون في عذاب القبر ﴿كَلَّا﴾ تأكيد للردع بعد تأكيد ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي علماً كعلم الأمر المتقين الموجود عندكم وجواب لو محذوف لتفخيمه يعني لشغلكم ذلك عن غيره أو لما تكاثر تم قال قتادة كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت (٦٥١٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن (٣٩٦٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (٥١٠٧).

أن اللهباعث بعد الموت، قلت: يعني علماً بالغيب حاصلاً بالاستدلال ولا يجوز أن يكون ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ جواباً للشرط لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوعد ما أنذرهم به بعد إبهامه تفخيماً لشأنه، قلت: وجاز أن يكون لو مجازاً عن إذا تعلمون علم اليقين وذلك عند الموت لترون الجحيم ولا ينفعكم علمكم حينئذ لفوت وقت التدارك، قرأ ابن عامر والكسائي لترون بضم التاء على البناء للمجهول من أريت الشيء والباقون بفتح التاء والمراد بالرؤية ها هنا المعرفة والعلم وجاز أن يكون الرؤية بالأبصار في القبور فإن الكافرين يعرضون على النار في القبور غدواً وعشياً كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾[1] ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ بفتح التاء بلا خلاف يعني ثم لترون الجحيم بعد النشور ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ منصوب على المصدرية عن غير لفظ الفعل فإن رأى وعاين بمعنى واحد وبه اندفع احتمال أن يكون الرؤية ها هنا بمعنى العلم والمعنى لترون رويته موجبة لليقين ومن ها هنا سمى عين اليقين علماً حاصلاً بالروية والمشاهدة ولا شك أن الرؤية أقوى من أسباب العلم، قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة» أخرجه الخطيب عن أبي هريرة والطبراني عن أنس بسند حسن وروى أحمد والطبراني بسند صحيح والحاكم عن ابن عباس هذا وصى زيادة أن الله تعالى أخبر موسى بماصنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت، وقيل: عين اليقين صفة لمصدر محذوف أي رؤية هي نفس اليقين مبالغة ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ يعني لم تركتم شكر النعم وكفرتم بها قال البغوي فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، قال مقاتل كان كفار مكة في الدنيا في الخير والنعمة ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره ثم يعذبون على ترك الشكر هذا قول الحسن، وعن ابن مسعود رفعه انتهى والخطاب في الآية مخصوص بالكفار الذين ألهاكم التكاثر وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ إلى آخر السورة خطاباً عاماً للناس أجمعين كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾[2] الآية وقد مر في الحديث أن المؤمن يرى في القبر أولاً مقعداً من النار الذي أبدل منها مقعداً في الحنة ليزداد شكراً.

فائدة: السؤال عن النعيم وإن كان بدلالة سياق الآية وأحد تأويلها مختصاً بأهل التكاثر لكن ثبت بما تواتر من الأحاديث أن السؤال عام يسأل الكفار والمؤمنون، أخرج ابن

---

(١) سورة الإنفطار، الآية: ١٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.

أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «الأمن والصحة» وكذا عن ابن عباس في الآية قال: صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها، وأخرج الفريابي وأبو نعيم عن مجاهد في هذه الآية قال كل شيء من لذة الدنيا وعبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية أنه قال: إن الله سائل كل نعمة فيما أنعم عليه، وأخرج أحمد في الزهد عن أبي قلابة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «ناس من أمتي يعقدون الثمن العسل بالنفي فيأكلونه» وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال لما نزلت هذه الآية قال الناس يا رسول الله عن أي النعيم نسأل وإنما هي الأسودن والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا قال: «أما إن ذلك سيكون»(١) وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله وأي نعيم نحن فيه وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير فأوحى إليهم أليس تتخذون النعال وتشربون الماء البارد، فهذا من النعيم وعن علي رضي الله عنه قال من أكل خبز البرو كان له ظل وشرب الماء الفرات فذلك من النعيم الذي يسأل عنه، وروى الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة في حديث مسيره ﷺ وأبي بكر وعمر إلى بيت أبي الهيثم وأكلهم الرطب واللحم وشربهم الماء قوله ﷺ: «إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة» فلما كبر أصحابه قال: إذا أصبتم مثل هذا وخبزتم بأيديكم فقولوا بسم الله وعلى بركة الله وإذا شبعتم فقولوا: الحمد لله الذي هو أشبعنا وأروانا أنعم علينا وأفضل فإن هذا وعن ابن عباس هذه القصة ونحوه، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تناصحوا في العلم ولا يكتم بعضكم بعضاً فإنه خيانة الرجل، في علمه أشد من خيانة في ماله وإن الله يسألكم عنه» رواه الطبراني والأصبهاني، وعن أبي الدرداء أول ما يسأل عنه العبد ما علمت فيما علمت رواه أحمد وابن المبارك وعن ابن عمر مرفوعاً «يسأل العبد عن جاهه كما يسأل عن ماله» رواه الطبراني، وعن ابن عباس ما من عبد يخطو خطوة ألا يسأل الله عنها ما أراد بها رواه أبو نعيم وعن معاذ مرفوعاً «إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه» رواه أبو نعيم وابن أبي حاتم عن الحسن مرفوعاً ما «من عبد يخطب إلا الله سائله منها ماذا أراد بها» مرسل جيد الإيناد رواه البيهقي وكلمة ثم في الآية تدل على أن السؤال بعد رؤية الجحيم، قلت وذلك لأجل أن السؤال يكون على الصراط قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾(٢) وعن أبي هريرة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ألهاكم التكاثر (٣٣٥٦).

(٢) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

«لا تزول قدما عبد عن الصراط حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفتاه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه»[١] رواه مسلم وروى الترمذي وابن مردويه ابن مسعود مثله، قال القرطبي هذه العمومات مخصوصاً بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم ألهاكم التكاثر» رواه الحاكم والبيهقي والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع.

سورة العصر

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ قال ابن عباس والدهر قيل: أقسم به لأن فيه عبرة للناظرين، وقال ابن كيسان أراد بالعصر الليل والنهار وقال الحسن بعد زوال الشمس إلى غروبها، وقال قتادة آخر ساعة من نهار، وقال مقاتل صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى كما ذكرنا في سورة البقرة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي جنسه ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ التنكير للتعظيم أي في خسر عظيم، فإن الخسر ذهاب رأس المال والإنسان في هلاك نفسه وعمره وماله فيما لا يفيد له في حياة الأبدية.

ومن يبع آجلاً منه بعاجله بين له الغبن في بيع وفي سلم

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة القوية الباقية بالدنيا الفانية فربحت تجارتهم ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ بينهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالمعروف قال الحسن وقتادة بالقرآن وقال مقاتل بالإيمان والتوحيد ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ بينهم ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ وكف النفس عن المنكرات فالشهوات الغير المرضية لله تعالى أو بالصبر مطلقاً على الطاعات والمصائب وترك المنكرات فالمراد بالأعمال الصالحة إما مطلقاً فهو عطف الخاص على العام للمبالغة وإما مقصوراً على موجبات الكمال، فالمراد بالمواصاة موجبات التكميل وما عدا ذلك موجبات خسر، وروي عن إبراهيم أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم فهو لفي نقص وتراجع إلا المؤمنين فإنهم يكتب لهم أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم فهو نظير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[١].

---

(١) سورة التين، الآية: ٤ ـ ٦.

مسألة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب من ترك كان من الخاسرين، عن أبي سعيد الخذري عن رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١] رواه مسلم، وروى البغوي في شرح السنة عن النبي ﷺ قال: «لا يعذب الله العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة» وروى أبو داود وابن ماجه عن جرير بن عبد الله مرفوعاً نحوه وأبو داود عن أبي بكر الصديق «ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم بعقاب»[٢] وفي الباب أحاديث كثيرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٢٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

سورة الهُمَزَةِ

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ قال ابن عباس هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب ومعناهما واحد وهو عياب، وقال مقاتل الهمزة الذي يعيبك في الوجه واللمزة الذي يعيبك في الغيبة، وقال أبو العالية والحسن على ضده، وقال سعيد بن جبير وقتادة الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم واللمزة الطعام فيهم، وقال ابن زيد الهمزة من يهمز الناس بيده ويضرهم واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم، وقال سفيان الثوري يهمزه بلسانه ويلمز بعينه ومثله وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جليسه باللفظ واللمزة الذي يومض بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه، قلت: الهمزة في الأصل الكسر والنخس في الحديث «اللهم إني أعوذ بك من همزات الشياطين»[١] واللمز الطعن ثم شاعا فيما ذكره هو الكسر في أعراض الناس والطعن فيهم وبناء فعله للاعتياد فلا يقال ضحكة وشجرة ولعهة وهمزة ولمزة إلا للمكثر المتعود، وأخرج ابن أبي حاتم عن عثمان بن عمر قال: ما زلنا نسمع أن ويل لكل همزة نزلت في أبي بن خلف وأخرج عن السدي قال: نزلت في أخنس بن شريق بن وهب الثقفي، وأخرج ابن جرير عن رجل من أهل الرقة قال: نزلت في جميل بن عامر وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق كان أمية بن خلف الجمحي إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولمزة فأنزل الله تعالى ويل لكل همزة السورة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات وأخرجه أبو داود في كتاب: الطب، باب: كيف الرقئ (٣٨٨٨).

كلها، وقال مقاتل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ويطعن عليه في وجهه والآية عامة بصيغتها لكل من هذه صفة وإن كانت نازلة في واحد منهم ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾ قرأ جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد الميم على التكفير والباقون بالتخفيف والموصول إما مجرور بدل من كال أو منصوب على الذم أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي جمع ﴿مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي أحصاه وجعله عدة للنوازل وعدة مرة بعد أخرى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ أن مع الجملة قائم مقام المفعولين ليحسب أي يجعله خالداً في الدنيا لا يموت مع يساره كأنه يزعم أن من لا مال له يموت بالجوع ومن كان له مال لا يموت أبداً وهذا كناية عن طول أمله وغفلته عن الموت وحبه للمال وليس على الحقيقة فإن أحداً لا يزعم أنه لا يموت أبداً وفيه تعريض بأن المخلد هو الإيمان والأعمال الصالحة دون المال، عن عبد الله بن مسعود قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً وخط خطاً في الوسط خارجاً منه وخطه خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانب الذي في الوسط فقال: «هذا إنسان وهذا أجله محيط به وهذا الذي هو خارج أمله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطاه نهشه هذا»[١] وعن أنس قال خط النبي ﷺ خطوطاً فقال: «هذا الأمل وهذا أجله فبينما هو كذلك إذ جاءه الخطا لأقرب» روى من المحدثين البخاري ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الخصال المذكورة من الهمزة واللمزة، وحب المال وطوال الأمل ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ جواب قسم محذوف وجاز أن يكون كلاً بمعنى حقاً مفيد المعنى القسم فعلى هذا قوله لينبذن جواب قسم مذكور ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهي اسم من أسماء جهنم وإنما سميم به لأنها تحطم وتكسر كل ما يطرح فيها ثم بين شدة أمرها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ استفهام للتفخيم والتهويل والجملة معترضة لاستعظام شأنها يعني أنت لا تدري شدة أمرها فإنها أعظم من أن يدرك أو يخيل ثم فسرها بعد الإبهام بقوله ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي نار الله أضاف إلى نفسه للتعظيم فـإنها مظهر قهر الله نعوذ بالله منها وصفات الله تعالى كلها جلالية كانت أو جمالية بالغة في الكمال إلى مرتبة لا يمكن فوقها ولا يدرك قدرها ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ صفة للنار على البناء للمجهول يعني أوقدها الله تعالى وما أوقده الله تعالى لا يقدر غيره أن يطفئه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»[٢] رواه الترمذي ﴿ٱلَّتِى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: في الأمل وطوله (٦٤١٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم (٢٥٩١).

تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ أي تبلغ إلى الأفئدة والاطلاع والبلوغ، بمعنى واحد يحكى عن العرب من اطلعت أرضنا أي بلغت، أخرج ابن المبارك عن خالد بن عمر أن بسنده إلى النبي ﷺ قال: إن النار تأكل أهلها حتى إذا طلعت إلى أفئدتهم انتهت ثم يعود كما كان ثم تستقبله فتطلع على فؤاده فهو كذلك فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ وكذا قال القرطبي والكلبي، قلت: فذكر الفؤاد ها هنا للدلالة على تأبيد العذاب فإن نار الدنيا إذا أحرقت أحداً تميته قبل أن تطلع على فؤاده بخلاف نار جهنم أو لأن الفؤاد ألطف ما في البدن وأشد تألماً أو لأنه محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة فكأنه هو منبع نار جهنم ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم﴾ جمع الضمير رعاية لمعنى كل والظرف متعلق بما بعده ﴿مُّؤۡصَدَةٌ﴾ جملة مستأنفة كأنها في جواب ما بالهم لا يخرجون ولا يفرون فقال إنها عليهم مؤصدة أي مطبقة، كذا أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يعني مغلقة من أوصدت الباب إذا أطبقه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: إذا ابتلى في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحداً بعذاب غيره وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن غفلة نحوه ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾﴾ الظرف متعلق بمحذوف في محل النصب على الحالية أي موثقين في عمد وجاز أن يكون متعلقاً بمؤصدة فيكون النار داخل العمد، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عمد بضم العين والميم والآخرون بفتحها وهما جمع عمود مثل أديم وآدم قاله الفراء، وقال أبو عبيد جمع عماد مثل أهاب وأهب، قال ابن عباس أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل وسدت عليهم بعماد لهماالأبواب، وقال قتادة بلغنا أنها عمد يعذبون بها في النار، وقيل هي أوتاد الأطباق الذي يطبق على أهل النار أي أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة وهي في قراءة عبد الله بعمد بالباء، وقال مقاتل أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم باب ولا يدخل عليهم ممددة صفة لعمد أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة، والله تعالى أعلم.

سورة الفيل

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والاستفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات والغرض منه التقرير يعني قد رأيت يا محمد وهو ﷺ وإن لم يشهد تلك الوقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، وجاز أن يكون الرؤية بمعنى العلم والجملة الاستفهامية التي بعدها سدت مسدت مفعولي ترو، فيه إشارة إلى نظرة ﷺ وأن يفعل بأعدائه مثل ما فعل بأصحاب الفيل ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ استفهام للتعجب ولذا لم يقل ما فعل لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته وشرف نبيه ﷺ فإنها من الإرهاصات وكانت قصة الفيل توطئة للنبوته ومقدمة لظهوره وبعثته وإلا فأصحاب الفيل كما قال ابن نعيم كانوا نصارى أهل التكاب وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذلك لأنهم كانوا عبدة الأوثان، وكان قدوم الفيل يوم الأحد لثلاث عشر ليلة بقيت من المحرم وبه قال ابن عباس ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه، وقال كل قوم يخالفه وهم وفي ذلك العام ولد النبي ﷺ بعد نحو من الشهرين في شهر ربيع الأول من تلك السنة كذا قال الأكثرون وهو الأصح وقيل: بعده بثلاثين عاماً، وقال مقاتل بأربعين عاماً وقيل: بسبعين عاماً وقال الكلبي بثلاث وعشرين سنة، والأول أصح كذا في خلاصة السير ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ وهم أبرهة ملك اليمن وأصحابه، قال الضحاك وكانت الفيلة ثمانية، وقيل: اثني عشر سوى الفيل الأعظم والذي يقال له المحمود وإنما وحد لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم وقيل: لو فاق رؤوس الآي، وقصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي أن النجاشي

ملك الحبشة كان قد بعث أرياطاً إلى الأرض اليمن فغلب عليها فقام رجل يقال له أبرهة بن الصباح من رجال الحبشة فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين فكانت طائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة فتزاحفا فقتل أبرهة أرياطاً واجتمعت الحبشة لأبرهة وغلب على اليمن وأفرد النجاشي، ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله فبنى كنيسة بصنعاء وكتب لى النجاشي إني صنعت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها بيت منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها ليلاً فقعد فيها ليلاً ولطخ بالعذرة قبلتها فبلغ ذلك أبرهة فحلف أبرهة ليسيرن إلى كعبة حتى يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث ليه بفيلة يقال له محمود ولم ير مثله عظيماً وقوة فبعث إليه فخرج أبرهة سائر إلى مكة فسمعت العرب بذلك فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر مقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر ولم يقتله وواثقه ثم سار حتاى إذا دنى من بلاد خثعم خرج نقيل بن حبيب الخثعمي في خثعم واجتمع إليه قبائل اليمن فقاتلوه وأخذ نفيلاً فقال نفيل أيها الملك إني دليل بأرض العرب فاستبقاه وخرج معه يدله على الطريق، حتى إذا مر بالطائف خرج مسعود بن مغيث الثقفي في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك ليس لك عندنا خلاف إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا أبا رغال مولى لهم فخرج حتى إذا ان بالمقمس يأت أبو رغال وهو الذي يرجم قبره فبعث أبرهة من المغمس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود يسوق إليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطلب مائتى بعير ثم إن أبرهة بعث بحناطة الحميري إلى أهل مكة فقال اسأل عن شريفها ثم أخبره أني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت فانطلق، حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب وقال له ما قال أبرهة فقال عبد المطلب ماله عندنا قتال فتخلى به وبين ما جاء به فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليل عليه السلام فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وأن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة فقدم عبد المطلب العسكر لطلب إبله وكان ذو نفر صديقاً فأتاه فقال له ذو نفر إلى رجل أسير ولكن سأبعثك إلى أنيس سائس الفيل فإنه لي صديق قال ذو نفر لأنيس هذا سيد القريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل الوحوش في الجبال ليستأذن عليك، وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه وقال لترجمانه قل له ما حاجتك إلى الملك؟ فقال عبد المطلب: حاجتي مائتي بعير فقال أبرهة

لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ولقد زهدت فيك جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه لم لا تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصابتها؟ فقال عبد المطلب أنا رب هذه الإبل وإن لهذا البيت رباً سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني فأمر بإبله فردت عليه وجاء عبد المطلب وأخبر قريشاً الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرفة الحبش ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواك ... يا رب فامنع منهم حماك

إن عدو البيت من عداك ... امنعهم أن يخربوا قراك

وقال أيضاً:

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك ... وانصر على آل الصليب وعابد له اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم وعدو محالك ... جروا هموع بلادهم

والفيل كي يسبو عيالك ... جهلاً وما رقبوا جلالك

إن كنت تراكهم وكبتنا ... فأمر ما بدا لك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه وهيأ فيلة وكان فيلاً لم ير مثله في العظمة والقوة، ويقال كانت معه إثني عشر فيلاً فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بإذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبى فضربوه بالمعول رأسه فأبى فأدخلوا محاجنهم تحت مواثقه ففزعوه ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرام فأبى أن يقوم، وخرج نفيل يشتد حتى صعد إلى الجبل وأرسل الله عز وجل طيراً من البحر مثل الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره مثل الحمص والعدس فلما غشين القوم أرسلناها عليهم فلم يصب تلك الحجارة أحد إلا هلك وليس كل القوم أصاب وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذين جاؤوا يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم إلى الطريق إلى اليمن ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال وصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون كل طريق ويهلكون على كل منهل ما كان على الطريق وبعث الله إلى أبرهة داء في جسده فجعل

يتساقط أنامله كلما سقطت أنملة اتبعتها مدة من قيح ودم فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه وما مات حتى انصدع صدره من قبله ثم هلك، قال الواقدي وأما محمود فيل النجاشي فركض ولم يشجع على الحرم فنجا والفيل الآخر شجع يضرب أي رمى بالحصاء، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرى أصحاب الفيل أن فئة من قريش خرجوا تجاراً إلى الأرض النجاشي فدنوا من ساحل البحر ثم بيعة النصارى تسمياً قريش الهيلك فنزلوا فأحجوا ناراً فاشتروا فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف فهبت الريح فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصريح إلى النجاشي فأسف غضباً للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة وقال إنه كان بمكة يومئذ سعيد الثقفي وكان مكفوف البصر بصيف بالطائف ويشتوا بمكة وكان رجلاً نبيهاً ونبيلاً يستقيم الأمور برأيه وكان خليل عبد المطلب فقال له عبد المطلب ماذا عندك هذا يوم يستغني فيه من رأيك، فقال أبو مسعود اصعد بنا إلى حراء وصعد الجبل فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد إلى مائة إبل فاجعلها لله وقلدها نعلاً ثم ابعثها في الحرم لعل بعض هذا السودان يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود إن لهذا البيت رباً يمنعه وقد نزل تبع ملك من اليمن صحن هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض وعظمه ونحر له الجزور فنظر أبو مسعود إلى البحر فرأى شيئاً، فقال لعبد المطلب فنظر نحو البحر فنظر عبد المطلب فقال: أرى طيراً بيضاً نشأت من شاطىء البحر فقال: ارفعها ببصرك أين قرارها فدارت على رؤسنا قال: هل تعرفها؟ قال: والله ما أعرفها ما هي نجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية، قال: ما قدرها؟ قال: أشباه اليعاسيب في منقارها حصى كأنها حصى الخذف قد أقبلت كالليل يتبع أمام كل فرقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق فجاءت حتى حاذت بعسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم فلما توافقت الرجال كلها أهالت الطير ما في مناقيرها على ما تحتها مكتوب في كل حجر اسم صاحبه ثم انها انضاغت راجعة من حيث جاءت فلما أصبحا تحطا من ذروة الجبل فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحداً ثم أتوا ربوة فلم يسمع لاحساً فقال بات القوم خامدين فأسبحوا نياماً فلما دنوا عن عسكر القوم فإذا هم خامدون فكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى يقع في دماغه ويخرق الفيل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقة فعمد عبد المطلب فأخذ فأساً من قوسهم فنحفر حتى أعمق من الأرض فملأه من الذهب الأحمر والجوهر وحفر لصاحبه فملأه ثم قال

لأبي مسعود هات فاختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك وإن شئت فهما لك معاً، قال أبو مسعود اختر على نفسك قال عبد المطلب إني لم آل أن أجعل أجود المتاع في حفرتي فهو لك وجلس كل منهما على حفرته ونادى عبد المطلب في الناس فراجعوا وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به ذرعاً وساد عبد المطلب وأبو مسعود في أهلها في غناء من ذلك المال ودفع الله عن كعبة ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ استفهام للإنكار مثل ألم تر ﴿كَيْدَهُمْ﴾ مكرهم وسعيهم في تخريب البيت ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ تضيع وإبطال ﴿وَأَرْسَلَ﴾ عطف على مضمون ألم يجعل أي جعل ﴿عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ صفة طيرأي كثيرة متغرفة تبع بعض جماعة جماعة أخرى يقال جاءت الخيل أبابيلاً من ها هنا ومن ها هنا جمع آبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت الجماعة من الطير في تضامها كذا قال أبو عبيد، وقال الفراء لا واحد لها من لفظها، وقال الكسائي جمع أبول مثل مجهول وعجاجيل وقيل: جمع إبل ﴿تَرْمِيهِم﴾ أي أصحاب الفيل صفة أخرى للطير ﴿بِحِجَارَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر معرب وقيل مشتق من السجل وهو الدلو الكبير أو الأسجال وهو إرسال أو من السجل ومعناه من الجملة العذاب المكتوب لأجلهم، قال ابن عباس طيراً لها خراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب، قال عكرمة لها رؤوس كرؤس السباع، وقال الربيع لها أنياب كأنياب السبع، وقال سعيد بن جبير طير خضر لها مناقير صفر، وقال قتادة طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، قال ابن مسعود صاحب الطير ورقهم بالحجارة وبعث الله له بها فضربت الحجارة فزادته شدة فما وقع منها حجر على رجل إلا خرج من الجانب الآخر وإن وقع في رأسه خرج من دبره ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ عطف على أرسل ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ مفعول ثان لجعل أي جعلهم كزرع وتبن أكلته الدواب فراثه وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث وقال مجاهد العصف ورق الحنطة، وقال قتادة هو التبن، وقال ابن عباس هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف، ومعنى مأكول يعني أكلته الدواب، والله تعالى أعلم.

سورة القريش

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ قرأ ابن عامر لالآف بغير ياء بعد الهمزة وأبو جعفر ليلاف بغير همزة والباقون بهمزة وياء بعدها واللام للتعجب عند الكسائي والأخفش متعلق بمحذوف أي اعجبوا لإيلاف قريش، وقال الزجاج هي مردودة إلى ما بعدها تقديره فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش، والفاء للجزاء لأن الكلام معنى الشرط إذ المعنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوا لسائر نعمته فليعبدوا لإيلاف قريش لكن يرد عليه أن ما في حيز الجزاء لا يعمل قبله فالأولى أن يقال حينئذ الفاء زائدة، وجاز أن يكون متعلقاً بما قبله في السورة السابقة كالنظمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت التالي بالذي قبله تعلقاً لا يصلح إلا به والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل وجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش رحلة التشاء والصيف أي ليتسامع الناس ذلك الإهلاك لأجلهم فيحرموهم فضل إحرام حتى ينتظم لهم إلا من في رحيلتهم فلا يجترىء عليهم أحد، ولأجل هذا التعلق المعنوي عد بعض الناس سورة الفيل وهذه السورة سورة واحدة منهم أبي بن كعب لافصل بينهما في مصحفه فاللام على هذا متعلق بجعل. وقريش هم ولد النضر بن كنانة فمن ولده النضر فهو قريش ومن لم يلده فليس بقريش سموا قريشاً من القوش والتقرش وهو الكتسب، والجمع يقال فلان يقرش لعياله ويتقرش أي يكتسب وهم كانوا تجاراً حراصاً على جمع المال والإفضال، وسأل معاوية عن عبد الله بن عباس لم سميت قريشاً قال: الدابة في البحر من أعظم الدواب يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته وهي تأكل ولا توكل تعلو ولا تعلى، وفي القاموس قرشه أي قطعه وجمعه من ها هنا وها هنا وضم بعضه إلى بعض ومنه قريش لتجمعهم إلى الحرم

ولأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها ولأن نضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا: اتقرش أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل قريش أي شديداً أو لأنهم كانوا يقرشون الحاج فيسدون خلتها أو سميت القرش وهي دابة بحرية يخافها دواب البحر كلها.

فائدة: عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»[(١)] رواه البغوي وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الناس تبع بقريش في هذا الشأن مسلمهم وكافرهم»[(٢)] متفق عليه وعن جابر مرفوعاً «الناس تبع لقريش في الخير والشر» رواه مسلم، قلت: لعل المراد من الحديث الأول قوة استعداد قريش ومن ثم ترى أفضل الصحابة وأكثر أولياء منهم وبالآخرين أنه تعالى لما بعث خاتم النبين منهم فكأنهم هم المخاطبون أولاً بالشرائع والإيمان وسائر الناس تبع لهم قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[(٣)] وقال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(٤)] فمن آمن منهم سن سنة حسنة باتباع الرسول فلهم أجرهم وأجر من تبعهم ولذا صاروا أفضل الناس بعد الأنبياء ومن كفر منهم وسلك طريق مخالفة النبي ﷺ في بدء الأمر ثم مات على ذلك فعليه إثم من كفر بعدهم كما أن قابيل أول من قتل يقسم أهل النار بضعف عذاب جهنم قسمه صحاباً أخرجه البيهقي عن ابن عمر وقد مر فيسورة والشمس في حديث أنه أشقى الناس، وعن ابن عمر مرفوعاً قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[(٥)] متفق عليه، وعن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين» رواه البخاري، قلت: المراد بالأمر الخلافة والغرض من حديث ابن عمر وجواب استخلاف قريش وليس الغرض منه الإخبار والغرض من حديث معاوية الدعاء بالسوء على من بنى من خليفة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦)، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل النبي ﷺ (٣٦١٤).

(٢) أخرجه البخاري في أول كتاب: المناقب (٣٤٩٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨١٨).

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٠).

قريش عادل وعن سعد عن النبي ﷺ قال: «من يرد هوان قريش أهانه الله»[١] رواه الترمذي، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ولا يعطها أحداً بعدهم فضل الله قريشاً أني منهم وأن النبوة فيهم وأن الحجامة فيهم وأن السقاية فيهم ونصرهم على الفيل وعبدوا الله عشر سنين لم يعبده غيرهم وأنزل الله فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحداً غيرهم لئلاف قريش» رواه الحاكم والطبراني والبخاري في التاريخ، وعن زبير بن العوام مثله غير أنه لم يذكر أني منهم بل ذكر أن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية والثلاثة النصر على الفيل وعبدوا الله عشر سنين ونزلت فيهم لئلاف قريش رواه الطبراني في الأوسط ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ بدل من الإيلاف الأول اتفق غير أبي جعفر على أنها بياء بعد الهمزة في اللفظ دون الخط إلا عبد الوهاب بن فليح عن ابن كثير فإنه قرأ إلفهم ساكنة اللام وإطلاق الإيلاف أولاً ثم إبدال المقيد عنه بقوله ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ للتفخيم فإنه كان من أعظم نعم الله عليهم وذاك لأن الحرم كان وادياً جدياً لا زرع فيه ولا ضرع فلولا الرحلتان لهم بالتجارة لم يكن لهم مقام ولا معاش، ولولا أن جعل الله مكة حرماً محترماً بحيث يكون الناس ويتقرضون لهم بالسوء قائلين قريش سكان حرم الله ولاة بيته لم يقدروا على الرحلتين فكانوايرتحلون رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ وفي الصيف إلى الشام لأنها برد فيتمارون ويتجرون ويربحون، قال عطاء عن ابن عباس إنهم كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني حتى كان فقيرهم كغنيهم، قال الكلبي كان أول من حل السمراء من الشام ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف، قال البغوي فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت بتبالة وحرش من اليمن فحملوا الطعام إلى مكة أهل الساحل من البحر على السفن وأهل البر على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة وأهل البر بالمحصب وأخصبت أهل الشام فحملا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤونة الرحلتين وأمرهم بعبادة رب هذا البيت فقال: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾ إن كان لام لإيلاف متعلقاً بما قبله أو للتعجب فالفاء للعطف والسببية وإن كان متعلقاً بما بعده فهي زائدة أو في جواب شرط مقدر كما مر ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي الكعبة يعني الله سبحانه ذكر الله تعالى بصفة ربوبية البيت ولكون البيت باعثاً لأمنهم ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾﴾ خوف أصحاب الفيل أو التخطف ببلدهم أو في السفر بجعلهم من أصحاب الحرم، وقال الضحاك والربيع والسفيان أمنهم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل الأنصار وقريش (٣٩١٤).

من خوف انهدام فلا يصيب ببلدهم ذلك كله بدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[1] عن أبي الحسن القزويني موقوفاً إن خاف من عدو أو غيره فقراءة لإيلاف قريش أمان عن كل سوء ذكره الجزري في الحصن الحصين وقال مجرب، قلت وقد أمرني شيخي وإمامي قدس الله سره السامي بقراءته في المخاوف لدفع كل سوء وبلاء وقال مجرب، قلت: وقد جربته كثيراً والله تعالى أعلم.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

سورة الماعون

مكية وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١﴾ الاستفهام للتعجب والرؤية بمعنى الإبصار والمعرفة فاقتصر على مفعول واحد وهو الموصول مع الصلة، وقال في البحر المواج الاستفهام للتقرير والرؤية بمعنى العلم والموصول خبر محذوف يعني ذلك تقديره أرأيت ذلك الذي يكذب بالدين، قال مقاتل نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقال السدي ومقاتل وابن كيسان هو الوليد بن مغيرة، وقال الضحاك نزلت في عمرو بن عائذ المخزومي فصدر السورة على هذا الأقوال مكية وآخر السورة مدنية كذا قيل، وقال عطاء عن ابن عباس أرأيت الذي يكذب بالدين نزلت في رجل من المنافقين فالموصول للعهد وقيل للجنس ﴿بِالدِّينِ﴾ أي بالإسلام وبالجزاء ﴿فَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ذلك والفاء للسببية والجملة في مقام التعليل للجملة السابقة، وقيل: الفاء جزائية والفرط محذوف تقديره أرأيت وعرفت الذي يكذب بالدين فإن لم تعرفه فهو ذلك ﴿الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي يقهره ويدفعه عن حقه الدع والدفع بالعنف ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣﴾ أي لا يأمر نفسه وأهله وغيره بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ الفاء جزائية يعن إذا كان عدم المبالاة باليتيم من ضعف الدين والموجب للذم والتوبيخ فالسهو عن الصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة الكفر ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام أولى بذلك ولذلك رتب عليه الويل أو للسببية على معنى فويل لهم، وإنما وضع المصلين موضع الضمير للدلالة على معاملتهم مع الخالق وساهون أي غافلون غير مبالين به، روى البغوي بسنده عن مصعب بن سعد بن

أبي وقاص عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ هم عن صلاتهم ساهون؟ قال: إضاعة الوقت وفي رواية ابن جرير وأبي يعلى قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، قال أبو العالية يصلونها لمواقيتها ولا يتمون ركوعها وسجودها، وقال قتادة ساه عنها لا يبالي صلى أو لم يصل قيل لا يرجون ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، وقال مجاهد غافلون فيها متهاونون بها وقال الحسن وهو الذي عليها إن صلاها رياء وإن فاتته لم يندم ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ مفاعلة من الرؤية أي يراؤون الناس أعمالهم ليردوا الثناء عليها قال ﷺ: «من صلى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك» رواه أحمد عن شداد بن أوس ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ قال قطرب الماعون في الأصل الشيء القليل والمراد ها هنا الزكاة كذا روي عن علي وابن عمر والحسن وقتادة والضحاك وإنما سمى الزكاة ماعوناً لكونها قليلاً من الكثير، وقال ابن مسعود الماعون الفاس والدلو والقدر وأشباه ذلك وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس وقال مجاهد الماعون العارية، وقال عكرمة أعلاها الزكاة المفروضة وأدناها عارية المتاع، وقال محمد بن كعب والكلبي الماعون المعروف الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم، وقيل: الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار، قال قلت يا رسول الله هذا الماء فما بال الملح والنار؟ قال: «يا حميراء من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار من أعطى ملحاً فكأنم تصدقت بجميع ما طيب فلك الملح ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أحياها»[1] رواه ابن ماجه، وأخرج ابن المنذر من طريق أبي طلحة عن ابن عباس قال قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤﴾ الخ نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلواتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعون العارية، قال في المدارك روي عن أنس والحصن قالا الحمد لله الذي قا عن صلاتهم ساهون ولم يفل في صلاتهم لأن معنى عن سهو ترك وإعراض عنها وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين ومعنى فيما يقع في الصلاة من حديث النفس ووسوسة الشيطان والحكم في ذلك التعوذ ودفع الوسوسة ما استطاع والعفو فيما لم يستطع عن عثمان بن أبي العاص قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بين صلاتي وبين قراءتي يلبسها

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الرهون، باب: المسلمون شركاء في ثلاث (٢٤٧٤)، وهو ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

علي؟ فقال رسول الله ﷺ ذاك شيطان يقال لها خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»[١] رواه مسلم، وعن القاسم بن محمد أن رجلاً سأله فقال: إني آهِمُ في صلاتي فيكثر ذلك علي فقال: «امض في صلاتك فإنه لم يذهب ذلك عنك حتى تنصرف وتقول ما أتممت صلاتي» والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٢٢٠٣).

سورة الكوثر

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

روى مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بينأظهرنا إذا أغفا إغفاءه ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال: أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير هو حوض يرد عليه أمتي يوم القيامة أنيته عدو النجوم فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه أمتي فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»[(١)] وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي أيوب قال لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا إن هذا الصابيء قد بتر الليلة فأنزل الله تعالى إنا أعطيناك الكوثر وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج، وأخرج ابن جرير عن شهر بن عطية قال: كان عقبة بن أبي معيط يقول لا يبقى لمحمد ولد وهو أبتر فأنزل الله فيه إن شانئك هو الأبتر وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله فصل لربك وانحر قال أنزلت يوم الحديبية أتاه جبرئيل فقال انحر وارجع فقام فخطب خطبة القصر والنحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها وفيه غرابة شديدة، وأخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش أنت سيد أهل المدينة ألا ترى إلى هذا المتصبر المنتبز من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة قال: أنتم خير منه فنزلت إن شانئك هو الأبتر، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: حجة من قال البسملة آية من كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

أوحي إلى النبي ﷺ قالت قريش بتر محمد منا فنزلت إن شانئك هو الأبتر، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل بتر فلان فلما مات ولد النبي ﷺ قال العاص بن وائل: بتر محمد فنزلت، وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي بن الحسين وسمى الولد القاسم، وأخرج البيهقي في الدلائل عن مجاهد قال فنزلت في العاص ابن وائل قال أنا شأني محمد، وذكر البغوي أن العاص بن وائل السهيمي رأى النبي ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا: من الذي تحدث معه قال ذلك الأبتر يعني النبي ﷺ وكان قد توفي ابن رسول الله ﷺ من خديجة، وذكر محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله هذه السورة، قلت: والصحيح عندي أن نزول إنا أعطيناك الكوثر لم ين عند وفاة ابن النبي ﷺ فإن القاسم مات بمكة، قبل الهجرة وفي رواية قبل البعثة وما روى عن محمد بن علي فهو من رواية جابر الجعفي وهو كذاب وإبراهيم مات سنة عشر جزم به الواقدي وقال يوم الثلاثاء بعشر خلون من ربيع الأول كذا في سبيل الرشاد والصحيح في نزول هذه السورة رواية مسلم عن أنس ورواية البزار عن ابن عباس حين قدم كعب بن الأشرف مكة والله أعلم قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قال أهل اللغة الكوثر فوعل من الكثرة كنوفل من النفل والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر كوثر ومن ها هنا ما روى البخاري ومن طريق أبي بشر وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ قال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه إياه فعلى هذا حمل ابن عباس اللام في الكوثر للجنس وزعم أن الحوض فرد من أفراده وكذا من قال هو النبوة والقرآن والأولى حمل اللام على العهد تفسيره بما فسر به النبي ﷺ كما ذكرنا حديث مسلم عن أنس وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت يدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أزفر قلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله»[1] وعند أحمد والترمذي عنه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: في الحوض (٦٥٧٨).

مرفوعاً قال: «هو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وفيه طيور أعناقها كأعناق الجزر قال عمر رضي الله عنه يا رسول الله إنها لناعمة قال: آكلها أنعم منها يا عمر[١] وأخرج الطبراني عن أسامة بن زيد أن امرأة حمزة بن عبد المطلب قالت يا رسول الله إنك أعطيت نهراً في الجنة تدعى الكوثر قال: «أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ هو ما بين أيلة وصنعاء فيه أباريق مثل عدد النجوم» وأخرج الطبراني عن حذيفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قال: نهر في الجنة أجوف فيه آنية من الذهب والفضة لا يعلمها إلا الله تعالى، وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب والماء يجري على اللؤلؤ» الحديث[٢] وأخرج البخاري عن عائشة أنها سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قالت: نهر أعطاه الله تعالى نبيكم ﷺ ذكر الحوض في رواية بضع وخمسين صحابياً الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس والحسن بن علي وحمزة بن عبد المطلب وعائشة وأم سلمة وأبو هريرة وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف وجابر بن عبد الله وغيرهم، وسرد السيوطي في البدور السافرة الأحاديث الواردة فيه نحواً من سبعين ﴿فَصَلِّ﴾ الفاء للسببية يعني فصل شكر الله تعالى على أما أعطاك فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر باللسان والقلب والجوارح، وقيل معناه دم على الصلاة ﴿لِرَبِّكَ﴾ خالصاً بوجهه خلافاً لمن يصلون وينحرون بغيرالله وخلافاً لمن يراؤون فيها ﴿وَٱنْحَرْ﴾ البدن التي هي خيار أموال العرب وتصدق على اليتامى والمساكين خلافاً لمن يدعوني اليتامى والمساكين ويمنعون الماعون فهذه السورة كالمقابلة لسورة المقدمة، قال عكرمة وعطاء وقتادة فصل لربك صلاة العيد يوم النحر ونحر نسكك فعلى هذا يثبت به وجوب صلاة العيد والأضحية، وقال سعيد بن جبير فصل الصلاة المفروضة بجمع وانحر البدن بمنى، وروي عن ابن الجوزاء عن ابن عباس قال فصل لربك وانحر وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ عدوك ومبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي لا عقب له بمعنى أنه لا يعقبه ذكر حسن ويعقبه اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين فلا يرد ما قيل أن العاص بن وائل كان له عقب وهو عمرو وهشام فكيف يثبت له البتر وانقطاع الولد وأن عمرو وهشام أسلما فقد انقطعت بينه وبينهما حتى لا يرثان فهم من أبناء رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة طير الجنة (٢٥٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكوثر (٣٣٦١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب: صفة الجنة (٤٣٣٤).

وأزواجه أمهاتهم، وذكر خبر أن معرفاً باللام وإيراد ضمير الفصل للدلالة على الحصر يعني لست بأبتر فإنه يبقى ذكرك مع ذكر الله تعالى أبداً ويدوم حسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة والآخرة خير لك من الأولى ويبقى ذكر المؤمنين من أمتك على ألسنة الملائكة والمؤمنين في قولهم اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والله تعالى أعلم.

سورة الكافرون

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء فقالوا: هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهك سنة قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي، وأخرج عبد الرزاق عن وهب بلفظ قالت قريش: إن سرك أن يعقبك عاماً وترجع في ديننا عاماً وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء لقي الوليد بن مغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ خطاب لجماعة مخصوصة سالوا المسالمة قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ أبداً ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ غير الله تعالى من الأوثان نفي لموافقتهم في العبادة في المستقبل من الزمان حتى يطابق السؤال لأن سؤالهم كان من المسالمة والمصالحة في الاستقبال مع ظهور مباينة النبي ﷺ الكفار في الحال وكما قال البيضاوي أن لا لا يدخل على المضارع بمعنى الاستقبال كما أن ما لا يدخل إلا على المضارع بمعنى الحال ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ فيما يستقبل لأنه في مقابلة لا أعبد ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ أورد ما موضع من للمطابقة أو لأن المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا أنتم عابدون الحق، وقيل ما مصدرية ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ قرأ هشام عابدون في الموضعين وعابد بالإمالة والباقون بالفتح قال أكثر أهل المعاني إن القرآن نزلت بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم وعلى هذا مذاهبهم التكرار لإرادة

التوكيد والإفهام كما أن من مذاهب الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز فهذا تكرير للتأكيد، وقال القيبي تكرار الكلام لتكرار الوقت وذلك أنهم قالوا إن سرك أن تدخل دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً فنزلت السورة كأنه نفي المشاركة في الوقتين، وقيل: كلمتان الأوليان بمعنى الذي والآخريان مصدريتان فالمقصود نفي المشاركة من حيث المعبودون حيث كيفية العبادة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه أبداً فهو أخبار كقوله تعالى ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أي ديني الذي أنا عليه لا أرفضه أبداً إن شاء الله تعالى فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد بل تذييل وتأكيد لما سبق وتقديم الخبر للحصر فلا يحكم بكون الآية منسوخة بآية القتال ولا يجوز تفسيره بالمشاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه لأن النبي ﷺ لم يزل يدعوهم إلى الإسلام ما زال الكفار على إيذائه وإيذاء أصحابه وجاز أن يكون المعنى لكم جزاء أعمالكم ولي جزاء أعمالي، قرأ نافع وحفص وهشام لي دين والباقون بإسكانها وهي رواية مشهورة عن البزي، وقال الدالاني وبه أخذ وقد مر في حديث أنس وابن عباس في تفسير إذا زلزلت قوله عليه السلام قال: «يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «نعم لسورتان هما تقرآن في الركعتين، قبل الفجر الكافرون والأخلاص» رواه ابن هشام، وعن فروة بن نوفل بن معاوية عن أبيه أنه قال يا رسول الله علمي شيئاً أقوله إذا أويت إلى فراشي قال: اقرأ قل يا أيها الكافرون فإنها براءة من الشرك»[1] رواه الترمذي وأبو داود والدارمي وعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «أتحب يا جبير إذا خرجت في سفر تكون أمثل أصحابك هيئة وأكثر زاداً؟ فقلت: نعم بأبي أنت وأمي قال: فاقرأ هذه السورة الخمس قل يا أيها الكافرون وإذا جاء نصرالله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وافتح كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم واختم قراءتك بها» قال جبير: وكنت غنياً وكثيرا لمال فكنت أخرج في سفر فأكون أبذلهم هيئة وأقلهم زاداً فما نزلت منذ علمتهن من رسول الله ﷺ وقرأت بهن أكون أحسنهم هيئة وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفري» رواه أبو يعلى، وعن علي قال: لدغت النبي ﷺ عقرب فدعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ قل يا أيها الكافرون وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول عند النوم (٥٠٤٧).

سورة النصر

مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن الزهري قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح بعث خالد بن وليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله ثم أمر بالسلاح فرفع عنهم فدخلوا في الدين فأنزل الله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي إظهاره إياك على أعدائك وعلى تقدير نزولهذا السورة بعد فتح مكة يعني يوم الفتح فإذا ها هنا بمعنى إذ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾[2] ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ يعني فتح مكة، روى الطبراني، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح هذا ما وعدني ربي ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح. وكانت قصة الفتح على ما ذكر أصحاب الأخبار أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشاً عام الحديبية على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيه الناس وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه فدخلت بنو بكر في عقد قريش وخزاعة في عقد رسول الله ﷺ وكان بينهما شر قديم، ثم إن بني نفاثة من بني بكر عدت على خزاعة فخرج نوفل بن معاوية الديلمي منهم حتى بيت خزاعة موضع أسفل مكة وقاتلوهم حتى دخلوا الحرم وما تركوا القتال وأمدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل بعضهم معهم ليلاً مستخفياً منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وشيبة بن عثمان وخويطب بن عبد العزى مع عبيدهم ثم ندمت قريش

(١) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

على نقض العهد ولام بعضهم بعضهم بعضاً وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً بعد القتال إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه أخبر رسول الله ﷺ يوقفه بني نفاثة وخزاعة قبل بلوغ الخبر، وقال ينقضون العهد لأمر يريد الله قالت عائشة خير قال: خير روى محمد بن عمرو عنها والطبراني عن ميمونة نحوها ولما قدم عمرو بن سالم قام رسول الله ﷺ يجر رداءه ويقول: «لا نصرت إن لم أنصرك يا عمرو وبما أنصر به نفسي» وذلك في شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية فأرسل رسول الله ﷺ حمزة إلى قريش يخبرهم بين أمور ثلاثة أن أدوا دية قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً أو من خلف من نقض الصلح وهم بنو نفاثة أو ينبذ إليكم على سواء فاختلف قول قريش ثم آل أمرهم إن نبذ الصلح ورجع حمزة بالنبذ، وشاور النبي ﷺ أبا بكر وعمرو فأشار أبو بكر بالصلح واللين وقال هم قومك حتى رأى أنه سيتبعني وأشار عمر بالحرب وقال هم رأس الكفر زعموا أنك ساحر كاهن كذاب ولم يدع شيئاً مما كان يقولونه وقال لا تذل العرب حتى يذل أهل مكة فاختار النبي ﷺ رأي عمر فخير رسول الله ﷺ مخفياً أمره وحرض العرب فجاء أسلم وغفار ومزنية وحرفية وأشجع وسليم فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه في الطريق والمسلمون عشرة آلاف، وقيل: اثنا عشر ألفاً ويجمع بأن العشرة حين الخروج من المدينة وتلاحق به ألفان ثم ندم قريش على نبذ الصلح فبعث أبا سفيان ودخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه وقالت: هو فراش رسول الله ﷺ لقد أصابك يا بنية بعدي شر قالت: هداني الله للإسلام وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام وتعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟ فقام من عندها، فدخل على رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه وأن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكلمه فقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به فدخل على عليّ وعنده فاطمة والحسن فقال: يا علي إنك أمس القوم مني رحيماً أشفع لنا إلى رسول الله ﷺ فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله ﷺ ما يستطيع أحد أن يكلمه، فالتفت إلى فاطمة فقال هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فأبت فقال: يا أبا الحسن اشتد الأمر علي فانصحني فقال: والله لا أعلم شيئاً يغنيك لكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال وترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال لا ولكن لا أجد غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ثم ركب بيره فانطلق وقدم على قريش وقضى القصة قالوا والله إن أراد على إلا أن

لعب لك فاستخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وقيل أبا ذر الغفاري وهو الصحيح رواه الطبراني. خرج رسول الله ﷺ الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة ثمان من الهجرة وقيل غير ذلك وقال رسول الله ﷺ: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش» روى البخاري عن علي يقول بعثني رسول الله ﷺ أنا وزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها قال فانطلقنا بنا خيلنا حتى أتينا روضة فإذا نحن بالظعينة قلنا أخرجي الكتاب قالت ما معي كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن بلتعة إلى الناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعضِ أمر رسول الله ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ إني كنت امرأ ملصقاً في قريش وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذا فاتني ذلك من أنسب فيهم أن اتخذوا عندهم هذا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه قد شهد بدراً وما يدريك يا عمر أن الله تعالى عز وجل اطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فرقت عينا عمر فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى قوله ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] وصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه فلما بلغ الكديد أفطر وأفطروا فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر، وخرج العباس بن عبد المطلب مهاجراً فلقيه بالجحفة وكان قبل مقيماً بمكة على سقاية برضاه ولقيه بالأبواء أبو سفيان بن الحارث ابن عمه وابنه جعفر بن أبي سفيان وأسلما قبل دخول مكة، قيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أمية بن عمته عاتكة فأعرض رسول الله ﷺ عنهما وقال: لا حاجة لي بهما فقد هتكا عرضي وقالا لي ما قالا فألجؤوا وكلمت أم سلمة فيهما فأذن لهما فلما كان بالقدير عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل وراية النبي ﷺ مع الزبير، ثم نزل بمر الظهران عشاء وقد عميت الأخبار عن قريش فخرج تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقة يتجسسون الأخبار وأمر النبي ﷺ أصحابه فأوقدوا عشر آلاف ناراً وقال العباس بن عبد المطلب ليلتئذ واصباح قريش والله لئن دخل النبي ﷺ مكة عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر فخرج عباس على بغلة رسول الله ﷺ ليرى حطاباً أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة فسمع عباس صوت

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح (٤٢٧٤).

أبي سفيان يقول والله ما رأيت كالليل نيراناً، فقال عباس ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ قد جاء بما لا قبل لكم به فقال: ما الحيلة؟ فقال عباس يا أبا سفيان لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى أتى بك رسول الله ﷺ فتستأمنه فرجع فكلما مرا بنا نظروا إليه وقالوا هذا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ حتى مرا بنار عمر فلما رأى عمر أبا سفيان قام عمر فقال: هذا أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منه بغير عهد ولا عقد فاشتد نحر رسول الله ﷺ فدخل عباس مع أبي سفيان على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف ولو كان من بني كعب ما قلت هذا قال: مهلاً يا عباس لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك فلما أصبح عذابه عباس إلى رسول الله ﷺ قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن أن تعلم أني رسول اللهد قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففي نفسي منها شيء، قال عباس ويلك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله قبل أن يضرب عنقك فشهد شهادة الحق وأسلم وأسلم حكيم وبديل قبل أبي سفيان هذا رواية إسحاق بن راهويه بسند صحيح. وعند الطبراني أن رسول الله ﷺ قال يعني يا عباد الله إن أبا سفيان بالأراك فخذوه وعند ابن أبي شيبة إن أبا سفيان وأصحابه أخذهم حرس رسول الله ﷺ من الأنصار وكان الحرس تلك الليلة عمر فقال احبسوه فحبسوه حتى أصبح وعند ابن أبي شيبة قال أبو سفيان دلوني على العباس وفي رواية فيهم عباس فذهب به إلى رسول الله ﷺ إلى آخر القصة وقال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن» فصرخ أبو سفيان في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به وأخبر بما أتى به من الأمان فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ولما أسلم حكيم بن حزام وبديل بن ورقا وبايعاه بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش يدعوهم إلى الإسلام وبعث رسول الله ﷺ الزبير وأعطاه الراية وأمره على خيل المهاجرين والأنصار وأمره أن يركز راية بأعلى مكة بالحجون، وقال لا تبرح حتى أمرتك ومن ثم دخل رسول الله ﷺ وضربت هناك قبة وأمر خالد بن وليد فيمن أسلم من قضاعته وبني سليم أن يدخل من أسفل مكة وبها بنو بكر قد استغفرتهم قريش وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة وقال النبي ﷺ لخالد

والزبير حين بعثهما لا تقاتلا إلا من قاتلكم وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء وأعطاه رسول الله ﷺ راية فقال سعد حين توجه داخلاً اليوم يوم الملحمة اليوم يستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله أسمع ما قال سعد بن عبادة من أين يكون له في قريش صولة؟ فقال رسول الله ﷺ لعلي أدركه فخذ الراية فكن أنت تدخل بها فذهب علي بالراية حتى غرزها عند الركن، وروى أبو يعلى عن الزبير أن النبي ﷺ دفع الراية إليه فدخل مكة بلوائين فلم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير فقال: وأما خالد بن الوليد فلما دخل من أسفل مة منعه من كان هناك من المشركين قريش وغيرهم أن تستهروا له السلاح ورموه بالنبل وقالوا لا تدخلها ما عنوة فصاح خالد في أصحابه فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون رجلاً من قريش وأربعة من هذيل. وقال ابن إسحاق أصيب من المشركين اثني أو ثلاثة عشر وانهزموا أقبح الانهزام حتى قتلوا بالحروة وهم مولون من كل وجه وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ورجلان يقال لهما كرز بن جابر الفهري وجيش بن خالد بن ربيعة كانا في خيل خالد بن الوليد فشذا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا بمكة أن لا تقتلوا أحد إلا من قاتلهم إلا نفر أسمائهم فأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة عبد الله بن أبي سرح كان أسلم ثم ارتد فشفع فيه عثمان يوم الفتح فحقن دمه وأسلم بعد ذلك وعكرمة بن أبي جهل فقيل إسلامه وحويرث بن كان يؤذي رسول الله ﷺ ونحن نرهب حين هاجرت إلى المدينة فقتله علي ومقيس بن صبابة كان أسلم، ثم أتى على رجل من الأنصار فقتله وكان الأنصاري قتل أخاه هشاماً خطاء في غزوة ذي قردة ظنه من العدو فجاء مقيس فأخذ الدية ثم ارتد فقتله غيلة بن عبد الله رجل من قومه وهبار بن الأسود كان شديد الأذى للمسلمين وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ فتحس بها فاسقطت ولم يزل ذلك المرض بها حتى ماتت أسلم يوم الفتح فعفا عنه رسول الله ﷺ والحارث بن الطلاطل الخزاعي قتله على ذكره. . . أو معشر وكعب بن الزبير الشاعر كان يهجو فأسلم ومدح رسول الله ﷺ ذكره الحاكم ووحش ابن حرب قاتل بن حمزة فهرب إلى الطائف ثم جاء فأسلم وعبد الله بن حنظل كان اسمه عبد الحرث كان قد أسلم وسماه رسول الله ﷺ عبد الله وبعثه ساعياً وبعث معه رجلاً من خزاعة وكان يصنع له طعاماً ويخدمه فنزلا منزلاً وأمره أن يذبح له ويصنع طعاماً وقام نصف النهار فاستيقظ ولم يضع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد وهرب إلى مكة وكانت له

فتيتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه فقتلت يوم الفتح إحداهما وهربت الأخرى فقتله سعيد بن حري المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه وأسلمت التي هربت وسارة مولاة عمر بن هاشم كانت مغنية نواحة بمكة وهي التي وجد معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة أسلمت وهند بنت ابن عتبة امرأة أبي سفيان عن كبد حمزة عم رسول الله ﷺ أسلمت فعفى عنها وهرب صفوان بن أمية إلى جدة ليركب منها إلى اليمن فاستأمن له عمير بن وهب فأتى رسول الله ﷺ اجعلني في أمري بالخيار إل شهرين فخيره رسول الله ﷺ إلى أربعة أشهر ثم أسلم بعد ذلك ودخل رسول الله ﷺ مكة وعلى رأسه سواء، رواه أحمد ومسلم وأربعة في الصحيحين على رأسه المغفر وجمع بأنه كان على رأسه المغفر ثم نزع المغفر ولبس العمامة وكان يقرأ سورة الفتح يرجع صوته بالقراءة كذا في الصحيحين فنزل رسول الله ﷺ ومعه أم سلمة وميمونة زوجتيه في قبة من آدم بالحجون لخيف بني كنانة حيث تقاسم قريش وكنانة على بني هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ فقيل: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال: هل ترك لنا عقيل منزلاً؟ وقد باع عقيل منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة فقيل فأنزل في بعض بيوت مكة غير مازلك فأبى وقال: لا أدخل البيوت وكان يأتي في المسجد لكل صلاة من الحجون فمكث في منزله ساعة من النهار فاغتسل وسترته فاطمة وصلى ثمان ركعات سبحة الضحى[(١)]، رواه مسلم. وعند البخاري عن أم هانيء أنه ﷺ اغتسل في بيتها وصلى ثم ركب راحلة وأتى الكعبة واستلم الركن بمحجنه وكبر وكبر المسلمون حتى ارتجت مكة تكبيراً وجعل رسول الله ﷺ يسير إليهم أن أسكنوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ثم طاف بالبيت على راحلته سبعاً يستلم الركن بمحجنه وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص وكان هبل أعظمها وهو وجاه الكعبة على بابها وأساف ونائله حيث ينحرون ويذبحون فجعل رسول الله ﷺ كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن في عينه ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) فما يشير بصنم إلا سقط بوجهه أو بقضاه من غير أن يمسه، وأراد فضالة بن عمر الليثي قتل رسول الله ﷺ وهو يطوف فلما دنى منه قال يا فضالة قال نعم قال ماذا كنت تحدث به نفسك قال لا شيء كنت أذكر الله فضحك رسول الله ﷺ وقال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صري حتى لم يكن شيء أحب إلي منه فلما فرغ من طوافه نزل عن راحلته على أيدي الرجال لم يجد مناخاً في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: تستر المغتسل بثوب ونحوه (٢٧٨٣).

المسجد وأناخ البعير خارج المسجد ثم انتهى إلى مقام وهو لاحق بالكعبة والدرع عليه والمغفر وعمامة بين كتفيه فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها، وقال لولا أن يغلب بنو عبد المطلب فنزعت منها دلواً فنزعه عباس ويقال الحارث بن عبد المطلب دلواً فشرب منه وتوضأ المسلمون يبتدرون بوضوئه يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون ما رأينا ملكاً قط أبلغ منه فلا سمعنا به أمر بهبل فسر وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد رسول الله ﷺ ثم قال يا علي اصعد على منكبي ففعلت فلما نهض بي خيل إلي لو شئت نلت أفق السماء فصعدت فوق الكعبة فقال أنقض صنمهم الأكبر وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض فقال عالجه ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً فرميت به، فأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتي بمفتاح الكعبة فقال عثمان هو عند أمي فأرسل إليها فقالت لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبداً فقال لها عثمان لا لات ولا عزى إن لم تفعلي قتلت أنا وأخي فأبطأ وعثمان ورسول الله ﷺ ينتظره فبعث أبا بكر وعمر فلما سمعت صوت أبي بكر وعمر قالت يا بني خذ المفتاح فإن تأخذ أنت أحب إلي من أن يأخذونه هم عدوي، فأخذه عثمان فجاء به رسول الله ﷺ فتناول رسول الله ﷺ منه المفتاح، ففتح الكعبة بيده وكان هو طلحة يقولون لا يفتح الكعبة إلا هم فأمر رسول الله ﷺ عمر بإزالة الصور عن البيت قبل دخوله فتجرد المسلمون في الأزر وأخذ الولاء وارتجزوا على زمزم ويغسلون الكعبة ظهرها وبطنها فلم يدعوا أثراً من المشركين إلا محوه وغسلوه فدخل رسول الله ﷺ الكعبة هو وأسامة بن زيد وطلحة وأغلقوا عليهم الباب فجعل رسول الله ﷺ عموداً عن يميه وعمودين عن يساره وثلاثة أعمدة نحو باب البيت ورائه بينه وبين الجدار ثلاثة أزرع وذراعين فصلى ركعتين، ثم خرج وصلى ركعتين قبل القبلة وقال: «هذه القبلة» ثم قام على باب البيت قال: «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثرة ودم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين وأول دم أضعه دم ربيعة بن الرحاث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا في قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية المغلظة مائة ناقة منها أربعون في بطونها أولادها ولا وصية لوارث وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر ولا يحل لامرأة أن تعطي من مال زوجها إلا بإذنه والمسلمون يد واحد على من سواهم ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين ولا جلب ولا جنب ولا يؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وأفنيتهم ولا تنكح امرأة على عمتها ولا على خالتها والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ولا تسافر امرأة

إلا مع ذي محرم ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح وأنهاكم عن صوم يومين يوم الفطر ويوم الأضحى وعن اللبستين لا يحتبى في ثوب واحد ولا يشتمل الصماء، يا معشر قريش إن الله قد ذهب عنكم الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس ابن آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الآية يا أهل مكة ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خير أخ كريم وابن أخر كريم قال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء» فأعتقهم رسول الله ﷺ فخرجوا كما نشروا من القبور، وروى البخاري عن أبي هريرة إن عام الفتح قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية فقام رسول الله ﷺ فقال: إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسوله والمؤمنين إلا وأنها لم تحل لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي وإنما حلت لي ساعة من نهار ألا وإنها ساعتي هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرتها ولا يلتقط ساقطها إلا من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما يؤدي وإما يقاد فقال له رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاة اكتب لي يا رسول الله فقال: اكتبوا له، وقام رجل من قريش فقال يا رسول الله الآذخر قال ألا إلا ذخر وفي رواية قام رجل فقال: يا رسول الله إني قد عاهرت في الجاهلية، فقال ﷺ من عاهر بامرأة لا يملكها أو أمة قوم آخرين ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له ولا يرث ولا يورث ولاء خالكم إلا قد عرفتموها أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» ونادى منادي رسول الله ﷺ بمكة من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يدع ما في بيته صنماً إلا كسره فلما حانت الظهر أمر بلالاً أن يؤذن بالظهر يومئذ فوق الكعبة يغبط بذلك المشركون وقريش فوق رؤوس الجبال وقد فسر وجوههم وتعيبوا وأبو سفيان وخالد بن أسيد وحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال خالد بن أسيد لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا وقال الحارث أما والله لو أعلم، أنه محق لأتبعه وقال بعض بني سعيد بن العاص لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة وقال أبو سفيان لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا، فأتى جبرائيل بما قالوا فأخبرهم رسول الله ﷺ بما قالوا فقالوا: نشهد أنك رسول الله ﷺ فأسلم أهل مكة ورمى بعض امسلمين أبا قحافة فشجه فأخذت قلادة أسماء بنت أبي بكر فأدركه أبو بكر وهو يستدمي فمسح الدم على وجهه وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال هلا تركت الشيخ حتى آتيه فمسح صدره فأسلم وكان رأس أبي قحافة ولحيته كالثقامة فقال ﷺ: «غيروا هذا الشيء وجنبوه السواد» فجلس رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه يأخذ عن الناس البيعة على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً عبده

ورسوله فجاء الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم ولما فرغ عن بيعة الرجال بايع النساء قالت عائشة والله ما مست يد رسول الله ﷺ امرأة قط ما كان يبايعهن إلا كلاماً[١].

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا منه حتى يرى البيت فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعوه والأنصار تحته فقال بعهضم لبعض أما الرجل فأدكرته رغبة في قربته ورأفة في عشيرته فجاء الوحي فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله قال: قلتم كذا قالوا: نعم، قال: «فحاشا وكلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم المحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا للضنين بالله وبرسوله فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله بعد ردتكم بصدقاتكم» واستقرض رسول الله من ثلاثة نفر من قريش خمسين ألف درهم من صفوان بن أمية وأربعين ألف درهم من عبد الله بن ربيعة وأربعين ألف من حويطب بن عبد العزى فقسمها بين أهل الضعف من أصحابه فلما فتح الله هوازن ردها، وقال إنما جزاء السلف الحمد والأداء وقال رسول الله ﷺ: «لا تغزى مكة بعد اليوم»[٢] وقال: «لا هجرة بعد الفتح»[٣] وروى أبو يعلى وأبو نعيم عن ابن عباس قال: لما فتح مكة إن إبليس أن أنة فاجتمعت ذريته فقال أيئسوا أن ترد أمة محمد إلى الشرك وروى بن أبي شيبة عن مكحول لما دخل رسول الله ﷺ مكة تلقته الجن يرمونه بالشرر فقال جبرائيل عليه السلام: «تعوذ يا محمد بهؤلاء الكلمات أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما نزلا من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما بث في الأرض وما يخرج منها ومن شر الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارق يطرق بخير يا رحمن»، وروى البيهقي عن ابن أبي بزي قال: لما فتح مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهاً وتدعو بالويل فقيل يا رسول الله: «رأينا عجوزاً شمطاء حبشية تخمش وجهها وتدعو بالويل فقال تلك قائلة أيئست أن تعبد ببلدكم هذا أبداً ونزلت يوم الفتح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ الآية فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: كيفية بيته النساء (٤٣٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء قال النبي ﷺ يوم فتح مكة «إن هذه لا تغزى بعد اليوم» (١٦١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٦٣٠٧).

وروي أنه جاء جبرائيل فقال: ما دام هذا البيت أوليته من لبناته قائمة فإن المفتاح والسدانة في آل عثمان فكان المفتاح معه فلما مات دفعه إلى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة»، رواه البخاري وفي رواية أبي داود سبع عشرة وعند الترمذي والبخاري ثمان عشر، وجه الجمع أنه تسع عشر مع يوم الدخول والخروج وسبع عشر بإسقاطهما وثمان عشر من حيث الساعات وما روي خمس عشرة فضعفها النووي في الخلاصة ولما فتح الله مكة قالت العرب بعضهم لبعض إذا ظفر محمد يا أهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين وهو قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ جملة يدخلون حال من مفعول رأيت أن كان بمعنى روية البصر وإلا فمفعوله الثاني ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من فاعل يدخلون قال مقاتل وعكرمة أراد بالناس أهل اليمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أمتكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً للإيمان والحكمة يمانية والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم»(١) متفق عليه وجواب إذا جاء قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي ملتبساً بحمد ربك يعني قل سبحان الله وبحمده، متعجباً حامداً لما تيسر الله لك ما لم يخطر ببال أحد أن يفتح عنوة وقد منعها الله من أصحاب الفيل عن أنس قال: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة استشرفه الناس فوضع رأسه ﷺ على رحله متخشعاً» رواه الحاكم بسند جيد، وعن أبي هريرة نحوه بلفظ ليمس وسط رحلة ويقرب منها تواضعاً حتى رأى من فتح الله وكثرة المسلمين، ثم قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة» رواه أبو يعلى ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً وهضماً لنفسك واستغفاراً لعملك واستدراكاً لما فات منك الأفضل باختيار الفاضل شفقة على الأمة أو المعنى استغفر لأمتك قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» وفي رواية «أكثر من سبعين مرة» وفي رواية «مائة مرة»(٢) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه والطبراني وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وأنس وشداد بن أوس وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق وهذا من سنة الدعاء ولا بد لغير النبي ﷺ تقديم الصلاة على النبي ﷺ أيضاً على استغفار ﴿إِنَّهُۥ﴾ لم يزل ﴿كَانَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قدوم الأشعريين وأهل اليمن (٢٨٩٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه (٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧).

﴿تَوَّابًا﴾ للمستغفرين منذ خلق المكلفين، روى الثعلبي أن رسول الله ﷺ لما قرأها بكى عباس فقال عليه السلام ما يبكيك؟ فقال نعيت نفسك إليك، فقال إنه لكما تقول. قال البيضاوي وجه الاستدلال بالسورة على نعي رسول الله ﷺ دلالتها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] الآية أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه له على دنو الأجل، وروى البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم لم يدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني فقال: ما تقول إذا جاء نصر الله والفتح حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وقال بعضهم لا ندري ولم يقل بعضهم شيئاً قال لي ابن عباس كذلك تقول قلت لا قال فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة فذاك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً قال عمر ما أعلم إلا مات[2]. أخرج أحمد عن ابن عباس قال لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال: رسول الله ﷺ نعت إلي نفسي أخرج الترمذي من حديث أنس «إذا جاء نصر الله والفتح ربع القرآن»[3] وروى البخاري عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر بتأول[4]، وروى مسلم عنها قالت: كان يكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه قال أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا[5]. قال الحسن أعلمه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له بالزيادة في العمل الصالح، قال قتادة ومقاتل عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، والله أعلم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٢٨٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود (٨١٧).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

سورة اللهب

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾

روى الشيخان في الصحيحين أنه لما نزلت قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ جمع رسول الله ﷺ أقاربه فأنذرهم وفي رواية عند البخاري وغيره صعد على الصفا فنادى فاجتمعت إليه قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو ومصبحكم أو ممسيكم أما كنتم مصدقي؟ قالوا: بلى قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تباً لك ألهذا جمعتنا وأخذ حجراً ليرميه فنزلت: ﴿تَبَّتْ﴾[1] التبا بخسران يؤدي إلى الهلاك أي هلكت ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي نفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2] وقيل إنما خصتا بالذكر لما أخذ حجر الرمي وقيل أراد بها دنياه وآخرته، وقيل: أراد ماله وملكه يقال فلان قليل ذات يد. قرأ ابن كثير أبي لهب بإسكان الهاء والباقون بفتحها واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، قال مقاتل كنى باللهب لحسنه وإشراق وجهه وإنما ذكر ها هنا بالكنية لاستكراه ذكر اسمه ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله ومجانسة قوله ذات لهب ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار بعد إخبار للتأكيد أو الأولى دعائية والثاني إخبارية والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه، قال ابن مسعود لما دعا رسول الله ﷺ أقر باءه إلى الله عز وجل قال أبو لهب إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإنني أفتدي نفسي بمالي وولدي فأنزل الله تعالى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ ما نافية أو استفهامية للإنكار يعني ما يدفع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة المسد (٤٩٧٢).

وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (٢٠٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

عنه عذاب ما جمع من المال أو أي شيء يغني عنه ماله وكان صاحب ما ومواش ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من المال والولد عن عائشة مرفوعاً «أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم كسبكم»[1] رواه البخاري في التاريخ والترمذي، وقد افترس ولده عتبة أسد في طريق الشام كما ذكرنا في سورة عبس ومات أبو لهب بالعدس بعد وقعة بدر بأيام معدودة وترك ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودا حتى دفنوه أوعده الله تعالى بالنار فقال ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ أي تلتهب جملة مستأنفة أو في مقام التعليل لقوله ما أغنى اتفق القراءة على فتحة هاء لهب ها هنا لرعاية القوافي ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ عطف على المستكن في سيصلي سوغه الفصل أو مبتدأه بعده خبره وهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قرأ عاصم بالنصب على الذم والشتم والباقون بالرفع على أنه خير مبتدأ، أخرج ابن جرير عن ابن إسحاق عن رجل من همدان يقال له يزيد أن امرأة أبي لهب كانت تلقى في طريق النبي ﷺ الشوك والعضاة لتعقرهم فنزلت وكذا روي عن الضحاك، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله وهي رواية عطية عن ابن عباس وقال قتادة ومجاهد والسدي كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث فتلقي العداوة بين الناس وتوقد ناراً كما توقد الحطب ناراً وقال سعيد بن جبير حماله الخطايا قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[2] ﴿فِي جِيدِهَا﴾ عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ خبر لامرأته بعد خبر على تقدير كونه مبتدأ أو حال منه على تقدير كونه فاعلاً سيصلى، قال ابن عباس وعروة بن الزبير المراد به سلسلة قتلت من حديد قتلاً محكماً ذرعها سبعون ذراعاً يدخل في فمها ويخرج من دبرها ويكون سائرها في عنقها والمسد ما قتل وأحكم من أي شيء كان وروى الأعمش عن مجاهد من مسد أي من حديد، وقال الشعبي ومقاتل من ليف مقتول وذلك الليف هو الحبل الذي كانت تحتطب به فبينما هي ذات يوم حاملة حزمة فأعيت فقعدت على حجر تستريح فأتاها ملك فجذبها من خلفها فأهلكها، وقال ابن زيد حبل من شجر ينبت باليمن يقال له مسد وقال قتادة هي قلادة قال الحسن كانت خوزات في عنقها، وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة في عنقها فاخرة فقالت لا نفقها في عداوة محمد ﷺ، قلت: فإن كان المراد بثبوت حبل كائناً من مسد أي حديد في جيدها في الآخرة فهي إما خبر لامرأته بعد خبر إن كان مبتدأ أو حال منه إن كان فاعلاً سيصلي وحمالة الحطب على تقدير النصب يكون معترضة للذم ولا يجوز أن يكون في جيدها حبل من مسد حالاً من

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الأحكام، باب: ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده (١٣٥٦).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

الضمير المستكن في حمالة الحطب لعدم اتحاد زمان الحال حينئذ لأن حمل الحطب كان في الدنيا إلا أن يقال معنى حمالة الحطب أنها تحمل حطب جهنم كالزقوم والضريع أو ما يوقد به جهنم جزاء لما كانت تحمل الحطب في الدنيا بعداوة النبي ﷺ وأصحابه كذا ذكر البيضاوي، لكن لم ينقل هذا التأويل من السلف وأن المراد به ثبوت حبل في عنقها في الدنيا فحينئذ إما خبر مبتدأ محذوف أي هي أو خبر بعد خبر لا مرأته أو حال من الضمير المستكن في حمالة الحطب بلا إشكال والظاهر على هذا التأويل أن يكون في الكلام على الحقيقة وما قال الشعبي فهو مستبعد جداً لكونها وزوجها في بيت عز وثروة وجدة، والله تعالى أعلم...

سورة الإخلاص

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

أخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية، عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ انسب لنا ربك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخر السورة[1]، وأخرج الطبراني وابن جير مثله من حديث جابر بن عبد الله فبناء على هذين الروايتين قيل السورة مكية، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف وحيىء بن أخطب فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخرها، وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله، وذكر البغوي قول الضحاك وقتادة ومقاتل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فإن الله أنزل نعتهفي التوراة فأخبرنا من أي شيء هو وهل يأكل ويشرب ممن ورث ومن يرثه فأنزل الله هذه السورة، وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وإبليس من لهب النار والسماء من دخان والأرض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك فلم يجبهم، فأتاه جبرائيل بهذه السورة وبناء على هذا الروايات قيل السورة مدنية، وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال قادة الأحزاب أنسب لنا ربك فأتاه جبرائيل بهذه السورة وعلى هذا الرواية يرتفع التعارض ويظهر أن السورة مدنية والماد بالمشركين من حديث أبي بن كعب هم قادة الأحزاب ولعل اليهود وقادة الأحزاب من المشركين كلا الفريقين

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤).

سألوا عن الله تعالى حين نزلت السورة، وذكر البغوي عن أبي الظبيان وأبي صالح عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر إلى ما تدعونا يا محمد قال إلى الله قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة فأهلك الله إربد بالصاعقة وعامراً بالطاعون قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ الضمير إما للشأن والجملة الواقعة بعدها خبر له ولا حاجة إلى العائد لأنه هي هو وأما عائد إلى ما سأل عنه يعني الذي سألتموني هو ﴿اللَّهُ﴾ خبر لهو ﴿أَحَدٌ﴾ بدل من الله أو خبر ثان لهو أصله وحد بمعنى واحد أبدلت الواو همزة وفي قراءة ابن مسعود قل هو الله لواحد وكذا قرأ عمرو بن الخطاب وعلى تقدير كون الضمير للشأن، وكون الله أحد مبتدأ وخبر فالكلام ليس على ظاهره لأن الله علم للجزء الحقيق لا يكون إلا واحداً يمتنع فرض صدقه على كثيرين كزيد فيلزم الاستدراك ولا يفيد الكلام فالواجب أن يراد بلفظ الله معنى كلياً يعني مستحقاً للعبادة لكل من سواه وذلك الاستحقاق لا يتصور إلا بإفاضة الوجود وتوابعه على ما عداه وذلك الإفاضة لا يتصور إلا من الذات الواجب وجوده وصفات كما له الممتنع عليه صفات النقص والزوال المباين للمكنات في حقيقة ذاته وصفاته لأن اقتضاء وجود غيره فرع اقتضاء وجوده في نفسه وما لا يقتضي وجوده في نفسه كيف يقتضي وجود غيره سواء كان ذلك الغير جوهراً أو عرضاً أو فعلاً من أفعال العباد وذلك معنى الوجوب والنقص والزوال ومشابهة الممكنات ينافي الوجود واستحقاق العابدة، فمعنى الجملة المستحق للعبادة على الإطلاق الواجب لذاته وجوده وصفاته الكاملة الممتنع عليه صفات النقص والزوال واحد لا شريك له وحينئذ أفاد الكلام فائدة تامة غير أنه على هذا التأويل لا يطابق الجواب السؤال لأنهم لم يسألوا النبي ﷺ عن كونه تعالى واحداً أو متكثراً فإن النبي ﷺ كان يدعوهم بأعلى صوته إلى التوحيد وقول لا إله إلا الله بل سألوه، عن حقيقة الذاتية وقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك أمن الذهب هو أم من فضة أو نحو ذلك، وكذا إن كان الضمير عائداً إلى المسؤول عنه لا جائز أن يقال معنى الجملة أنه واحد غير متكثر فإنه لا يطابق السؤال فالواجب على كلا التأويلين أن يكون المراد بأحد ما يكون منزهاً عن أنحاء التركيب والتعد وما يستلزم أحدهما من الجسمية والتمحيز والمشاركة لشيء من الأشياء في الحقيقة والمشابهة لشيء من الأشياء في صفة من صفات الكمال وإذا لم يشابهه أحد في الذات ولا في صفة من الصفات لا يكون له ند ولا ضد ولا مثل ومن ها هنا قالت الصوفية العلية أحديته تعالى وعدم مشابهة أحد له تعالى في صفة من الصفات يقتضي أن لا يشاركه أحد في الوجود فإنه أصل

الصفات والحياة التي هي أم الصفات وأمامها من العلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والتكوين فرع للوجود بالمعنى المصدري فهو أمر انتزاعي مترتب عليه، ومن ثم قالوا: يعني لا إله إلا الله موجود إلا الله فالموجود الحقيق في الخارج لي إلا الله تعالى وما عداه من الممكنات الموجودة متصفة بوجوده كالظل لوجوده في الخارج أو هو كالظل للخارج الحقيقي وكذا الحال في العلم والقدرة وسائر الصفات، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[١] يعني الثابت المتحقق المتأصل في وجوده وصفاته وأن ما يدعون من دونه هو الباطل يعني اللا شيء في نفسه وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٢] فصفات الممكنات إنما يشارك صفات الواجب تعالى اشتراكاً اسمياً لا اشتراكاً حقيقياً ومن لا يفهم كلام الصوفية فعليه التشبث بأذيالهم ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[٣] ففي جملة واحدة تم الإشارة إلى مباحث الذات والصفات كلها في كلمة قل إشارة إلى النبوة والتبليغ وإعجاز الآية شاهد على النبوة فكفى بقل هو الله أحد عن المجلدات وإن بقي الكلام في مثل أن صفاته تعالى عين ذاته أو زائدة عليها فلا محذور فيه ولا يتعلق به غرض بل البحث عن مثل هذه الأبحاث الفلسفة يقضي إلى المهلكة، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[٤] فإذا لم يؤت البشر العلم بحقيقة الروح وهو من الخلائق فأني له العلم بذات الخالق وصفاته إلا أعجز عن درك إدراكه... والبحث عنه إشراك والسبيل إليه المعية الحبيبة لا غير، عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن متنازع في القدر فغضب حتى أحمر وجهه حتى كأنما فقيء في وجنتيه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أبهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[٥] رواه الترمذي وروى ابن ماجه نحوه، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ قال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير الصمد الذي لا خوف له كذا أخرج ابن جرير عن بريدة ألا أعلمه إلا قد رفعه، قلت لعله مجاز مما لا ينفذ إليه العقول والأوهام ولا يدركه الإفهام

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣ ـ ٥٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (٢١٣٣).

وقال الشعبي الذي لا يأكل ولا يشرب وقيل تفسيره وما بعده ولذا روى أبو العالية عن أبي بن كعب وقال أبو الوائل شقيق بن سلمة هو السيد الذي قد انتهى سؤدده وهي رواية عن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الذي قد كمل في جميع أنواع السؤدد وعن سعيد بن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وقيل هو السيد المقصود في الحوائج، قال السدي هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب يقال صمدته إذا قصدته، قال قتادة الصمد الباقي بعد فناء خلقه وقال عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد وهو قول علي رضي الله عنه وقال الربيع الصمد الذي لا يعتريه الآفات، قال مقاتل بن حبان الذي لا عيب فيه، قلت: وعندي معناه الحقيقي المقصود قال في القاموس الصمد القصد بالتحريك السيد لأنه يقصد وإدخال اللام عليه لإفادة كونه في أجل درجات الصمدية وأعلاها وأكملها فإن الناس قد يقصدون غير اللهسبحانه من الدنيا ومافيها لفساد رأيهم وعدم اهتدائهم إلى مرتبة حق اليقين فكل ما ذكر في أقوال السلف من المعاني فهي تعبيرات عن لوازمه لأن المقصود على الإطلاق من يحتاج كل ما عداه إليه ولا يحتاج هو إلى غيره في شيء من الأشياء فيكون البتة جامعاً لجميع الكمالات وأنواع السؤدد ومنزهاً عن العيوب وأن تعتريه الآفات غير محتاج إلى الأكل والشرب قديماً بما لم يولد غير مجانس لأحد حتى يلد مثله لا يكون فوقه بل ليس مثله أحد فيكون البتة بحيث لا ينفذ إليه فهم وإدراك ولما كانت الجملة السابقة تغنيه عن هذه الجملة وعن الجمل الثلاث اللاحقة، وهذه الجملة وما بعدها كالتأكيد للأولى أوردت لزيادة الاهتمام من قبيل إيراد الخاص بعد العام للمبالغة في التنزيه والتصريح بالرد على المخاطبين المنكرين المشركين في القصد والعبادة غيره تعالى القائلين باتخاذ الله تعالى البنات والبنين بغيرهم لم يذكر العاطفعلى هذه الجملة ولا على ما بعدها وكرر اسم الله تعالى للإشعار بأن لم يتصف به لم يستحق الألوهية وأن المقصديجب كأن لا يكون غيره تعالى، ومن ثم قالت الصوفية معنى لا إله إلا الله لا مقصود إلا الله وقالوا ما هو مقصد لك فهو معبود لك فإن المرء لا يزال يلقي نفسه في كمال التذلل التحصيل مقصوده والعبادة عبارة عن كمال التذلل فالصوفية العلية يذكرون النفي والإثبات مع ملاحظة نفي مقصودية ما عدا الله ويجتهدون فيه غاية الاجتهاد حتى يزول عن صدورهم كون غيره تعالى مقصود بوجه من الوجوه والله المسير لكل عسير ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ كما زعمت المشركون أن الملائكة بنات الله واليهود بأن عزير ابن الله والنصارى بأن المسيح ابن الله لاستحالة المجانسة وعدم الاقتضاء إلى من يعينه أو يخلف عنه لاستحالة الاحتياج والفناء عليه تعالى، أورد بلفظ الماضي وإن كان عدم توالده أبداً رداً

على ما قالوا ولمطابقة قوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن الحديث ينافي الألوهية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي مكافياً ومماثلاً، قرأ حفص كفوا بضم الفاء وفتح الواو وحمزة بإسكان الفاء مع الهمزة في الوصل فإذا وقف إبدال الهمزة واواً مفتوحة اتباعاً للخط والقياس أن يلقى حركتها على الفاء والباقون بضم الفاء مع الهمزة أحد اسم يكن وكفوا خبره والظرف متعلق بكفوا قدم الخبرعلى الاسم والظرف التعلق بالخبر عليه للاهتمام لأن المقصد تنزيه الله تعالى ونفي المكافاة عنه تعالى الدعاية الفواصل ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكن في كفوا وأن يكون خبراً أو كفواً حال من أحد أورد الجمل الثلاث منتسقات بالعطف لأن المقصد منها نفي أقسام الأمثال وتنزيهه عن كل ما يتصف به فهي كجملة واحدة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[١].

فصل: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»[٢] رواه مسلم، ورواه البخاري عن أبي سعيد ومثله في حديث ابن عباس وأنس وذكرناه في تفسير سورة الزلزال، وعن عائشة أن النبي ﷺ: «بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلواتهم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال سلوه لأي شيء تصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأها فقال النبي ﷺ أخبروه أن الله يحبه»[٣] متفق عليه، وعن أنس قال رجل يا رسول الله إني أحب هذه السورة قل هو الله أحد قال: «إن حبك إياها أدخلك الجنة»[٤] رواه الترمذي وروى البخاري معناه، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ (٤٩٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (٢٨٩٦).

وجبت قلت: ما وجبت؟ قال: «الجنة»[١] رواه مالك والترمذي والنسائي، وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ مائة مرة قل هو الله أحد إذا كان يوم القيامة يقول له الرب يا عبدي ادخل على يمينك الجنة»، رواه الترمذي، وقال: حسن غريب، وعنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائة مرة قل هو الله أحد محي عنه ذنوب خمسين إلا أن يكون عليه دين» رواه الترمذي والدارمي، وفي رواية خمسين مرة ولم يذكر إلا أن يكون عليه دين وعن سعيد بن المسيب مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بني له قصر في الجنة ومن قرأ عشرين مرة بني له قصران في الجنة ومن قرأها ثلاثين مرة بني له بها ثلاثة قصور في الجنة» فقال عمر بن الخطاب والله يا رسول الله إذا لتكثرن قصورنا فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك» والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الإخلاص (٢٨٩٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: الفضل في قراءة قل هو الله أحد (٩٨٨).

سورة الفلق

مدنية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

أخرج البيهقي في دلائل النبوة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: مرض رسول الله ﷺ مرضاً شديداً فأتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه ما ترى؟ قال: طب قال: ما طبه؟ قال: سحر قال: من سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي قال: أين هو؟ قال: في شراك فلان تحت صخرة في ركية فأتوا الركية فانزحوا وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكدية وأحرقها، فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث عمار بن ياسر في نفر فأتوا الركية فإذا ماءها مثل ماء الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الكدية وأحرقوها فإذا فيها وتد فيه أحد عشرة عقدة وأنزلت عليه هاتان السورتان فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة قل أعوذ برب الفلق قل أعوذ برب الناس. وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق أبي جعفر الرازي عن أنس قال صنعت اليهود لرسول الله ﷺ شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد فدخل عليه أصحابه فظنوا أنه ألما به فأتاه جبرائيل بالمعوذتين فعوذ بهما فخرج إلى الصحابة صحيحاً وله شاهد في الصحيحين بدون نزول السورة، وذكر البغوي قول ابن عباس وعائشة كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذوا مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان مشطة فأعطاها اليهود فسحروا فيها وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت السورتان، وروى البغوي بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ طب حتى أنه ليخيل أنه قد صنع شيئاً وما صنعه وأنه دعا ربه، ثم قال: إن الله أفتاني فيما استفتيته فيه فقالت عائشة وما ذاك يا رسول الله قال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وقع؟ فقال أحدهمالصاحبه ما وجع الرجل؟ قال الآخر

مطبوب قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو؟ قال: في ذروان بير بني زريق قالت عائشة فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال واا لكان ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين فقلت: يا رسول الله فلا أخرجته قال: أما أنا قد شفاني الله كرهت أن أثير على الناس شراً قال البغوي وروي أنه كان تحت صخرة في البير فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطة، وروى البغوي بسنده عن يزيد بن أرقم قال سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك إياها قال فأتاه جبرائيل فقال: «إن رجلاً من اليهود سحرك فعقد لك عقداً فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها كلما حل عقد وجد لذلك خفة فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط عن عقال فما ذكر ذلك اليهودي ولأراه في وجهه، وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة أن يهودياً سحر النبي ﷺ في أحد عشر عقدة في وتر دسه في بير فمرض النبي ﷺ ونزلت معوذتان وأخبره جبرائيل بموضع السحر فأسل علياً فجاء به فقرأهما عليه فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة وروي أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال ونزلت المعوذتين، وروى مسلم عن أبي سعيد أن جبرائيل أتى النبي ﷺ فقال يا محمد اشتكيت فقال نعم قال بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك(١) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ أي فلق الصبح وهو قول جابر الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة من قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾(٢) وقيل: فالق الحب والنوى بالشطا والسحاب بالماء والأرض بالعيون والأرحام بالأولاد، وقال الضحاك يعني الفلق وهي رواية الوالبي عن ابن عباس والمشهور هو الأول وقال أكثر المفسرين وهي رواية عن ابن عباس أنه سجن في جهنم رواه ابن جرير وقال الكلبي واد في جهنم وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفلق جب في جهنم مغطى» وأخرج ابن جرير والبيهقي عند عبد الجبار الخولاني قال قدم علينا رجل من أصحاب رسول الله ﷺ في دمشق فرأى ما فيه الناس من الدنيا قال وما يغنى عنهم أليس ورائهم الفلق قالوا: وما الفلق؟ قال: جب في النار إذا فتح هرب منه أهل النار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا وأيضاً عن عمرو بن عتبة قال: الفلق بير في جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعر جهنم لتتأذى منه كما يتأذى بنو آدم من جهنم عليها الغطاء فإذا اكشفت عنه خرجت منه نار

(١) أخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقى (٢١٨٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه، وأخرج ابن أبي حاتم وابن جير عن كعب قال الفلق بيت في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من شدة حره، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن علي عن آبائه الكرام الفلق جب في قعر جهنم، وإنما خص ذكر الله سبحانه في الاستعاذة بهذه الصفة لأن جهنم والفلق الذي هو أشد من أجزائه لما كان أدهى الأداهي وأعظم الأشياء شر مخالقة وربه أقدر على دفع كل شر وإن كان المراد بالفلق الصبح فالصبح واقع ومظهر الشرور غسق الليل فربه قادر على دفع كل شر فذكره تعالى بهذه الصفة داع إلى دفع الشرور والله أعلم ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي من شرك كل مخلوق فإن الممكن لا يخلو من شر لأن العدم داخل في ماهيته غير أنه كلما استضاء بالتجليات الذاتية والصفاتية زال شره وتبدل بالخير أولئك يبدل الله سيآتهم حسنات، وقال عليه السلام: «أسلم شيطاني فلا يأمرني إلا بخير»[1] قال البيضاوي خص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه فإن عالم الأمر خير كله وشر عالم الخلق إما اختياري لازم كالكفر متعد كالظلم وإما طبيعي كإحراق النار وإهلاك السموم ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ الغسق معناه الامتلاء قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾[2] أي امتلاؤها ظلمة ويقال غسق العين إذا متلئت دمعاً وغسق القمر إذا امتلأ نوراً، وفي القاموس الغاسق القمر والليل إذا غاب الشفق والفسوق والإغساق الإظلام، وقيل: معناه السيلان غسق الليل الضباب ظلامه وغسق العين سيلان دمعه وغسق القمر سرعة سيره وقيل الغسق البرد سمي الليل غاسقاً لأنها أبرد من النهار والقمر غاسقاً لكونه أبرد من الشمس ولهذا يقال للقمر الزمهير، والمراد بالغاسق ها هنا القمر لحديث عائشة قالت أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر غاسق إذا وقب[3]، رواه البغوي بسنده فعلى هذا التقدير معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذا دخل في الخسوف وأخذ في الغيبوبة فإن القمر لا يتخسف إلا عند امتلاء نور الليلة البدر، قال ابن عباس والحسن ومجاهد المراد به الليل إذا أقبل ودخل سواده في ضوء النهار، وقال ابن زيد المراد به الثريا إذا أسقطت يقال الانتظام تكثر عند وقوعها وترفع عند طلوعها ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ يعني النفوس السواحر والنساء الساحرات اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين ويسحرن

(١) روى بمعناه البزار وفيه من ضعف.
انظر: مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: عصمته ﷺ من القرين (١٣٨٥٨).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦).

النبي ﷺ، قال أبو عبيد بناته بأمره ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ أي إذا أظهر حسده وعمل في الإضرار بمقتضى حسده وإنما قيد به لأن ضرر الحسد قبل ذلك يعود إلى نفس الحاسد لاغتمامه لسرور غيره ولا يتجاوز إلى المحسود إنما خص هذه الأشياء بالذكر بعد التعميم بقوله من شر ما خلق لكون دخل هذه الأشياء الثلاثة في هذا الشر المخصوص أعين سحر النبي ﷺ ووسوسة شيطان الجن أعني إبليس وشيطان الإنس أعني إبليس وشيطان الإنس أعني لبيد بن الأعصم، أورد النفاثات بصيغة الجمع ولام العهد بخلاف غاسق وحاسد حيث أوردهما منكراً إذا الغرض في الاستعاذة ملاحظة بنات لبيد بالتخصيص والتعين بخلاف غاسق وحاسد فإن الغرض هناك استعاذة من شر أي غاسق وحاسد كان لأن حساد النبي ﷺ كانوا أكثر من أن يحصى وكانوا دائمين في السحد فاستعاذ منهم على وجه يامن من شرهم في المستقبل أيضاً، عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله اقرأ سورة هود وسورة يوسف قال: «لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من قل أعوذ برب الفلق» رواه أحمد والنسائي والدارمي والله تعالى أعلم.

سورة الناس

مدنية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ خالقهم ومربيهم ومصلح أمورهم ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢﴾ مالكهم ومدبر أمورهم ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾ معبودهم هما عطف بيان لرب الناس فإن المربي قد يطلق على الوالد ورب الدار ويطلق على المالك وهو لا يكون ملكاً ولا معبوداً والملك قد يطلق على السلطان وهو لا يكون معبوداً مستحقاً للعبادة، واللام في الناس للعهد والمراد به النبي ﷺ وأتباعه وتخصيصهم بالذكر مع كونه تعالى رباً وملكاً وإلهاً بكل شيء لإظهار شرفهم ولأن المقصود بإنزال السورتين دفع شر السحر وغيره، عن النبي ﷺ وعن اتباعه لأن من حق الرب والملك والإله حفظ المربوب والمملوك والعائذ عن الشر قال غوث الثقلين:

أيدركني ضيم وأنت ظهري أأظلم في الدنيا وأنت نصري

فعار على حامي الحمى وهو قادر إذا ضاع في البيداء عقال بعيري

والكفار وإن كانوا مربوبين مملوكين لكن لعدم اعترافهم به غير مستحقين للحماية ولذا قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب الله مولانا ولا مولى لكم وتكرير الناس بالإظهار من غير إضمار لأن عطف البيان موضوع للبيان وفي الإظهار زيادة البيان وللإشعار بشرف النبي ﷺ وأتباعه، وقال البيضاوي ولما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار البدنية هي تعم الإنسان وغيره والاستعاذة في هذه السورة من الإضرار التي تعرض النفوس البشرية وتخصها عمم الإضافة ثمة وخصصها بالناس ها هنا فكأنه قال أعوذ من شر

الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم، وقيل وجه التكرير لفظ الناس أن المراد بالناس الأول الأطفال ومعنى الربوبية يدل عليه وبالثاني الشاب المجاهدين في سبيل الله ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه وبالثالث الشيوخ المنقطعين إلى الله تعالى ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه وبالرابع الصالحون إذ الشيطان حريص على عداوتهم وبالخامس المفسدون لعطفه على معوذ منه وفي ذكر أطفال المؤمنين والرجال الصالحين استجلاب للرحمة واستدفاع للعذاب، قال رسول الله ﷺ: «لولا رجال ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لَصُبَّ عليكم العذاب صَبّاً» رواه أبو يعطى والبزار والبيهقي من حديث أبي هريرة وله شاهد مرسل أخرجه أبو نعيم عن الزهري، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾[1] الآية، قال البيضاوي في هذا النظم دلالة على أنه تعالى حقيق بالإعادة قادر عليها غيرممنوع عنها وإشعار على مراتب الناظر في العارف فإنه يعلم أو لاً بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً ثم بعد النظر يتحقق أنه غني عن الكل ذوات كل شيء ملكه ومصارف أمورهم منه فهو الملك الحق ثم يستدل على أنه هو المستحق للعبادة ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة وهو الصوت الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع كالزلزال والمراد ها هنا الموسوس يعني الشيطان على طريقة المبالغة أو بتقدير المضاف أي ذي الوسواس كذا قال الزجاج ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ صفة للوسواس يعني الشيطان لأن عادته أن يخنس أي تأخر عند ذكر الله تعالى، عن عبد الله بن شقيق قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من آدمي إلا بقلبه بيتان في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فإذا ذكر الله خنس وإذا لم يذكر الله وضع الشيطان منقاره في قلبه ووسوس له» رواه أبو يعلى وروى أبو يعلى عن أنس عنه ﷺ نحوه ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ إذا لم يذكر الله والموصول في محل الجر عل أنه صفة بعد صفة للوسواس وجاز أن يكون منصوباً على الذم أو مرفوعاً على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ بيان للوسواس أو الذي فالوسوسة فعل من الجنة والناس جميعاً قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[2] الآية أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستعيذ من شر الجن والإنس جميعاً. فإن قيل: الناس لا يوسوسون في صدور الناس إنما هي فعل الجن؟ قلنا: الناس أيضاً يوسوسون بمعنى يليق بهم يقولون أقوالاً يرتكز في صدور الناس منها الوسوسة أو

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

هو متعلق بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة والناس، قال الكلبي هو بيان للناس من قوله في صدور الناس وأراد بالناس هناك ما يعم القبيلتين الجن ناساً كما سموا رجالاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(١) قال البغوي فقد ذكر من بعض العرب أنه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل من أنتم قالوا أناس من الجن وهذا معنى قول الفراء، وجاز أن يكون من الجنة بياناً للوسواس ويكون الناس ها هنا معطوفاً على الوسواس والمعنى أعوذ برب الناس من شر الشيطان الموسوس من الجنة ومن شر الناس، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس»(٢) رواه مسلم ورواه أحمد بلفظ قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك سوراً ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في القرآن بمثلها؟ قلت: بلى قال: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس» وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات(٣) متفق عليه، وعن عقبة بن عامر بينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين الجحفة والأبواء إذا غشينا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بأعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس ويقول يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما»(٤) رواه أبو داود، وعن عبد الله بن حبيب قال: خرجنا في ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ما دركناه فقال: قل قلت ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تصبح وحين تمسي ثلاث مرات يكفيك من كل شيء»(٥) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وامسح عنه بيده رجاء بركتها رواه البغوي.

---

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة المعوذتين (٨١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات (٥٠١٦).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في المعوذتين (١٤٦٢).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: أحاديث شتى من أبواب الدعوات، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤).

فصل في فضائل القرآن العظيم

عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١] رواه البخاري ومسلم وزاد البيهقي في الأسماء «وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله القرآن يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»[٢] متفق عليه، وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ثلاث تحت العرش يوم القيامة القرآن يحاج العباد له ظهر وبطن والأمانة والرحم ينادي إلا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله» رواه البغوي في شرح السنة، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر الآية تقرأها»[٣] رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يقول الرب تبارك وتعالى: «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»[٤] رواه الترمذي والدارمي والبيهقي، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[٥] رواه الترمذي والدارمي وقال الترمذي حسن صحيح غريب إسناد، وعن الحارث الأعور قال: مررت بالمسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي ﷺ فأخبرته قال أو قد فعلوها قلت نعم قال وإما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ألا إنها ستكون فتنة قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيب في القراءة (١٤٦٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٣٠٠٣).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في من قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر (٢٩١٠).

غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا يزيغ الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا ينقضي عجائبه هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم» رواه الترمذي والدارمي، وعن معاذ الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن وعمل به بما فيه ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذي عمل بهذا»(١) رواه أحمد وأبو داود، وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو جعل القرآن في أهاب ثم ألقي في النار ما احترق» رواه الدارمي وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره وأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشعفه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار»(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والدارمي، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير والتسبيح أفضل من الصدقة والصدقة أفضل من الصوم والصوم جنة من النار» وعن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «قراءة الرجل القرآن في غير المصحف ألف درجة وقراءته في المصحف المضعف ذلك ألفي درجة» وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء قيل: يا رسول الله ما جلاء ذلك؟ قال كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن» روى الأحاديث الثلاثة البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»(٣) متفق عليه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء يعني الصوت بالقرآن، يجهر به» متفق عليه، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(٤) رواه البخاري، وعن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والعجمي فقال: «اقرؤا فكل حسن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في ثواب قراءة القرآن (١٤٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل قارئ القرآن (٢٩٠٤)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن (٥٠٢٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ (٧٥٢٧).

وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه رواه أبو داود والبيهقي يعني يتعجلون» ثوابه في الدنيا، وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابيين وسيجيء بعدي قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» رواه البيهقي وابن رزين وعن عبيدة المليكي ﷺ وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته من آناء الليل والنهار وأفشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون ولا تعجلوا ثوابه فإن له ثواباً» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «خير الدواء القرآن»[1] رواه ابن ماجه وفي اللفظ «القرآن هو الدواء» وروي عن ابن مسعود «عليكم بالشفائين العسل والقرآن» وعن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رجلاً شكى النبي ﷺ وجع حلقه قال عليك بقراءة القرآن» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إني أشتكي صدري قال: اقرأ القرآن بقول الله تعالى (شفاء لما في الصدور)، وعن طلحة بن مطرف ﷺ قال كان يقال: إذ اقرأ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة رواه أبو عبيدة والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: الاستشفاء بالقرآن (٣٥٠١)، وإسناده ضعيف لأن في إسناده الحارث الأعور.

المحتويات

طبع على مطابع
دار إحياء التراث العربي